

أنور الجندي
أخطاء المنهج الغربي الوافد
الإسلام
أنور الجندي
الثقافة العربية

الموسوعة الإسلامية العربية

١

# الإسلام والعالم المعاصر

بحث تاريخي حضاري

بقلم
أنور الجندي

دار الكتاب اللبناني - بيروت

دار الكتاب اللبناني
برقيا: كتالبان - بيروت
ص.ب: ٣١٧٦
بيروت - لبنان

الطبعة الثانية ١٩٨٠

الاســــلام والعالم المعاصر

# آفاق البحث

صفحة

بسم الله الرحمن الرحيم

« كان الناس أمة واحـــدة فاختلفوا فبعث الله النبيين مبشرين ومنذرين وأنزل معهم الكتاب بالحق ليحكم بين الناس فيما اختلفوا فيـــه وما اختلف فيه إلا الذين أوتوه من بعد ما جاءتهم البينات بغياً بينهم فهدى الله الذين آمنوا لمـا اختلفوا فيه من الحق بإذنه » .

«قرآن كريم»

بسم الله الرحمن الرحيم

# ١

# مدخل الى البحث

علم مقارنة الأديان علم قديم : كان المسلمون اول من تناولوه في انصاف ووضعوا قواعده في أمانة ، وكشفوا به حقائق الأمور في سماحة بالغة . فقد تناول ابو الريحان البيروني . وابن حزم . والشهرستاني وغيرهم مقارنات الأديان وفق منهج علمي قائم على العدل والانصاف ، وعرض أقوال المخالفين بكل حرية ، وعرضوا للنحل على نحو متميز من الوضوح والسماحة ، دون تجاوز الحق . وان أي مراجعة لكتاب الأطباء لابن ابي أصيبعة ـ وطبقات الحكماء لابن القفطي . وطبقات الأدباء لياقوت ـ والوافي بالوفيات للصفدي ـ وتاريخ حكماء الاسلام للبيهقي . تجد نماذج لهذا التسامح . فقد ترجم المؤلفون المسلمون للنصارى . واليهود والمجوس . وكأنهم ابناء ملة واحدة ـ وكتب البيروني عن أديان الهند في القرن الخامس من الهجرة . فلم يمس عاطفة أحد من أهلها .

## (٢)

وليس ذلك موضع غرابة من أحد ، إنما الغريب هو أن يحدث عكس ذلك ، ذلك ان الاسلام قد أقام عقيدته على اساس الإيمان بالله وكتبه ورسله جميعاً ، وأعطى مضمون التسامح والإنصاف لكل النحل والاجناس والاديان. بل وللمخالفين عن الاديان ما لم يحدثوا في الامة شبهة او شكوكاً . ولقد كانت نزعة التدين من طبائع البشرية ، ومن فطرتها الاصيلة التي لا تخلف إلا في طائفة قليلة من الذين انحرفت فيهم الفطرة ، او أصول العقل والإدراك . غير أن السنوات الاخيرة حملت دراسات جديدة في مقارنات الاديان ، كتب بعضها من وجهة نظر تقوم على التعصب لدين الباحث . او من وجهة نظر مادية بحتة تقوم على النظر الى الاديان نظرة الانتقاص ، وتحاول ان تفسرها تفسيراً يقوم على الهوى والازدراء .

وقد ألبس بعض هذه الأبحاث طوابع زائفة من العلم لتخفي ما وراءها من أهداف وغايات . وهي في الأغلب تخضع لاتجاه الصهيونية التلمودية . التي تحاول ان تهاجم المسيحية والإسلام معاً باعتبارهما متأخرين عنها تاريخياً . ولو كانت اليهودية التي تحاول ان تعرض لتحل محل الاديان التالية لها . هي ما أنزل على موسى عليه السلام لكان الخلاف قليلاً ، او ربما لم يكن هناك خلاف قط ، ذلك أن مصدر الاديان واحد وهو الله ، وأصولها الكبرى واحدة وهي التوحيد والعدل والاخلاق . غير ان الأبحاث العلمية كلها ، وخاصة ما قام بها أصحاب الاديان أنفسهم تؤكد ان هناك تفسيرات قد أولت حقائق ، وأن هناك تفسيرات اخرى قد غيرت حقائق بالإضافة والحذف . وأن النصوص الاولى المنزلة من السماء للتوراة والإنجيل . ليست موجودة قطعاً . ذلك ما يقرره البحث العلمي قبل ان يقرره القرآن الكريم الذي سجل ذلك. والذي جاء خاتماً للكتب . ومهيمناً عليها .

هذا فضلاً عن ان اصحاب البحث المقارن للأديان . انما يصادمون معتقداتهم ، ويختلفون معها حين يبحثون الاسلام فيجدونه إما مشابهاً لما جاء في اليهودية والمسيحية . فعندئذ يقولون ان الاسلام ليس الا تكراراً لها ، او يجدونه مخالفاً لما عندهم من تفسيرات اليهودية والمسيحية . فيرون ان الاسلام قد صادم مفاهيمهم ومعتقداتهم .

ولقد عجز الباحثون في مقارنات الاديان ان يتخلصوا من مفاهيمهم او أهوائهم . لأنهم يقفون في الجانب الجزئي بينما كتاب مقارنات الأديان المسلمون يقفون في الجانب المتكامل .

ولقد يكون «التوحيد» وهو أس الأساس في الاسلام مجافياً لمفاهيم بعض الباحثين في مقارنات الاديان . ولقد يبدو تكامل الاسلام بين الدين والمجتمع . والعقل القلب . والعلم والدين معارضاً لمفاهيمهم الاساسية التي قامت على أساس الفصل بين القيم والاتجاه بها وجهة واحدة . شاطرة او جزئية . ومن هنا يبدو تكامل الاسلام في نظر الانشطارية نقصاً او تجاوزاً ، فاذا كانت مقارنات الاديان قائمة على اساس الهوى او الغرض . او محاولة اقرار مفهوم خاطىء ، او محاربة دين ، او إثارة الشبهات في أمة من الأمم . فان هذه المقارنات لا تساوي الحبر الذي كتبت به لأنها لن تثبت طويلاً أمام الحقائق . وأمام المناهج العلمية الأصيلة .

والاسلام في مقارنات الاديان يختلف عن الاديان جميعاً : الأرضية والمنزلة بأنه الدين الاخير . والدين الكامل . والدين الذي ظلت أصوله ومصادره ثابتة موثقة لم يتطرق اليها تحريف . او زيف . او تغيير ، وما تزال تهدي البشرية . وستظل تهديها أبد الآبدين .

## (٣)

ومفهوم الدين كما يقرره الاسلام انه دين واحد منذ آدم الى محمد ، واحد المصدر ، لأنه من عند الله . وواحد الاصل لأنه قائم على التوحيد . وكل ما اختلفت فيه الاديان . انما كان نتيجة ان هذه الاديان كانت مرتبطة بأمم بعينها. فلم يكن الدين عاماً كما جاء في الاسلام خاتم الأديان، ولأنها كانت تتوخى ارتقاء البشرية حلقة بعد حلقة حتى جاءت الموسوية لبني اسرائيل . وتبع موسى عدد من الرسل أرسلوا لبني اسرائيل ايضاً . كان خاتمهم عيسى عليه السلام . ثم بعث محمد ﷺ في العرب . وأرسل الى العالمين . وكان العرب هم حملة لوائه الى البشرية كلها . وكان بذلك ديناً عاماً خاتماً . ولقد بقيت في الساحة من الاديان السماوية : اليهودية . والمسيحية . والاسلام ، وما تزال الى اليوم . وكلها في الاصل تبدأ من ابراهيم عليه السلام ، وتنتهي الى محمد عليه السلام . وقد بدأت في آل ابراهيم وابنيه اسماعيل واسحاق ، فامتدت بالتوحيد فيهما . ثم تحولت بتفسيرات الاحبار من الحنيفية الى العنصرية ، فلما جاءت رسالة عيسى عليه السلام تحولت من دين معدل لشريعة موسى ، ومكمل لرسالته الى دين عالمي يقوم على مفهوم التثليث والخطيئة والصلب . وجاء الاسلام ليرد البشرية الى التوحيد الحق . وإلى الإله الواحد الاحد ، الذي لا شريك له .

## (٤)

ولقد تعددت مذاهب تفسير الاديان . بين تفسير سيكولوجي، وفلسفي، وتاريخي ، وتعددت النظريات والمناهج بتعدد الاهواء والغايات . وأصدق تفسير للاسلام ، وفهم له في مجال المقارنة هو أنه من عنــــد الله ، وهو دين التوحيد الذي ثبتت نصوصه ؛ ولم تتطور في اصولها لأنها من منطلق الفطرة .

«فطرة الله التي فطر الناس عليها ولن تجد لسنة الله تبديلاً» ولن تجد لسنة الله تغييراً .

جاء الاسلام مطابقاً للاديان السماوية في أصولها . ومكملاً لهـــا ومتمماً « ارتقاءً او تقدماً على ما سبقه من رسالات إلهية . وإن اتفق معها في جوهر الرسالة » .

وأبرز ما أضافه الاسلام الاخوة العالمية وإتمام الاخلاق . وجعل اخوته العالمية قائمة على اساس القانون الاخلاقي العام الواحد .

واذا كانت هناك مقارنة واضحة بين الاسلام والاديان . فانهناك مقارنة بين الاسلام والفكر البشري ، وقد كشف الاسلام عنذاتيته الخاصة المستمدة من القرآن والتي تحمل طابع التوحيد في مواجهة الاديان والفكر البشري . وأكد انه من الصعب العسير انصهار الإسلام وذوبانه في بوتقة أيفكر مستمد من مفاهيم وقيم تختلف اختلافاً واضحاً وعميقاً عن اصوله ومصادره .

وان الاسلام عمد الى بناء شخصيةجديدة مختلفة تمام الاختلاف عنالشخصية التي عرفها العالم قبله من خلال مفهوم التفســـيرات المنحرفة الى العنصرية . او التعدد او عزل الاخلاق عن الشريعة او العقيدة عن الاخلاق . وأبرز ما يتسم به الاسلام هو إلغاء الوساطة بين الله والانسان . واحكام الفوارق بين الالوهية والنبوة . وتكريم الانسان في وجه العبودية والوثنية والتبعية . ومن هنا يبدو الاسلام والفكر البشري كله عاجز عن تلقيحه او اخضاعه ، وتنكشف اصالة الاسلام في انه يرفض كل عنصر غريب عليه .

## (٥)

ومن الحق ان يقال ان نقطة الالتقاء والاختلاف بين الاسلام والاديان

الاخرى ، انه دين كامل جامع بين شطري الحياة ، وأنه ليس ديناً لاهوتياً خالصاً او تعبدياً فحسب بل هو دين ومنهج حياة ، وعبادة وشريعة وأخلاق.

من خلال هذه النقطة بالذات ينحرف موقف كتاب الغرب عن وجهة النظر الصحيحة في فهم الاديان ، ويختلف موقفنا عن موقف كتاب الغرب .

ذلك أن هذه النظرة المتكاملة للكون والحياة والمجتمع تؤثر تأثيراً بعيداً في مفاهيم الحضارة والنظم والمناهج . وتفترق افتراقاً بعيداً عن نظرة الاديان.

ولكن ما هو الاسلام الذي هو موضع المقارنة مع الاديان الاخرى، وهي موضع التحدي والخطر في كل أوجه الصراع الذي تقوم به الثقافات الغربية، ودعوات التغريب والغزو الثقافي في محاولة قصر الاسلام على أن يكون ديناً لاهوتياً تعبدياً منفصلاً عن جانبه التشريعي والاخلاقي الذي يحتضن نظام المجتمع كله . ويضبطه بقواعد أساسية كاملة .

ولقد تشكل مزاج المسلمين وتشكلت وحدتهم منذ اربعة عشر قرناً على هذا المفهوم وهذه القيم ، وإن اختلفت قومياتهم ووطنياتهم وارتباطاتهم بالارض والامم . ومن العسير إخراجهم من هـــذا المفهوم المتكامل ، وكل المحاولات التي تجري لذلك هي بمثابة تأويل باطل يريد ان يضرب الاسلام بما ضربت به الاديان الاخرى التي انحرفت عن أصولها الربانية المنزلة بالوحي بغية إرضاء هوى النفس البشرية المتطلعة الى التحـــريف بالزيادة او النقص لتحقيق مطامعها ولذاتها . وللخروج عن الضوابط التي قررها الاسلام استكمالاً للشخصية , ورفعاً لها عن الهبوط والانحدار في مهواة التحطم والانهيار .

وهذا الفارق الواضح هو سرّ ما يحاول بعض المتصلين بدراسات مقارنات الاديان إبرازه على أنه من مغامز الأسلام ، والواقع أن الاسلام ، هو صاحب الأفق الرحيب الذي يضم المادة والروح والدنيا والآخرة والدين والعلم والقلب

والعقل . فكيف يوصف بالنقص . بينما تلك الاديان والمذاهب هي التي تقوم على أساس الانشطار .

كذلك يمكن ان يوصف الاسلام في نفس دعاة التجزئة والانشطار القائمين على مفهوم المادة والدين والعلم والعقل في كيان واحد منفصل عن جذور الطبيعة البشرية ، وفطرة الوجود الانساني المتكامل، يمكن أن يوصف الاسلام على اختلافهم بالازدواجية ومن الحق أنها ليست ازدواجية ، لأن شرط الازدواجية هو التعارض والتصادم ولكن هـــذا المفهوم المتكامل ، انما يمثل التداخل الطبيعي بين شطري الانسان والالتقاء الصريح بين عنصري التكوين البشري الذي أعطى الغرب أزمة التمزق والقلق والصراع النفسي الاجتماعي الذي يجتاح هذه المجتمعات اليوم ويسحقها بقوة .

ولقد حاولت بعض النظريات الوافدة انتضرب فيجدار الفكر الاسلامي القوي بغية إحداث صدع فيـــه تحقيق لأهدافها في تمزيق الوحدة . وإقامة مفهوم الانشطارية الذي يحقق للاستعمار والتغريب والغزو الثقافي غايته من احتواء الاسلام وإذابته في بريق المادية الوثنية العالمية . غير أن الاسلام بطبيعة تركيبه وعمق تجربته ومواجهته للأخطار . والفكر البشري كان قادراً للمقاومة فلم يستسلم أبداً في الماضي . ولن يستسلم أبداً في مستقبله الطويل للنظريات الدخيلة . او الفلسفات الوافدة . وهو قادر على ان يأخذ ويعطي ويرد ما لا يتناسب مع طبيعته وتركيبه ومزاجه .

وقد ظل الفكر الاسلامي انطلاقاً منطبيعته ومضمونه القائم على التوحيد الخالص يواجـــه النظريات . ويدلي برأيه فيها ، ولا يتوقف عن النظر المنصف ولا يتقبل كل شيء وهو بسماحه وانفتاحه على الثقافات والفكر العالمي قادر على عملية الأخذ والعطاء على قاعدته ، ودون ان يخرج عن مقوماته .

فالاسلام يلتقي مع الاديان في المعاني العليا الانسانية المشتركة . ويختلف في انفصالية نظام المجتمع عن العبادة ، وفي انفصال الشريعة عن العقيدة ، وفي انفصال الاخلاق عن المنهج الاجتماعي كله ، وهو مع أنه دين الفطرة . فهو دين العقل ، وهو بطبيعته دين واقعي ، يساير تطور الأزمنة ، ويهدف الى تقدم الانسان .

وأبرز معطيات الاسلام هي قدرته على علاج القضايا الكبرى ، والمعضلات البشرية في يسر وبساطة . جامعاً بين الجوانب الروحية والمادية في حياة الانسان ، رابطاً بين العلم والعقيدة في حياة الفكر ، واصلاً بين المجتمع والاخلاق في مجال السلوك .

## (٦)

إن كلمة الدين نفسها في الفهم الغربي . لا تعني نفس المعنى في الفهم الاسلامي . فإن كلمة ( Religon ) تعني: نظام كهنوتي فيه الراهب والاعتراف . وسيطرة الانسان على أخيه . وتحكمه في غفران ذنبه ، وقبول توبته و(رليجوزنتي) تعني استسلاماً كاملاً بهذا النوع من العبودية ، واشتراكاً في العبادة نفسها بالله عن طريق الامتثال لكل ما يأمر به رئيس الديانة أو ينهى[١] .

وان هذا الفهم الغربي لمدلول الدين . انما جاء طبقاً للمحتويات التي كذبتها الظروف المسيحية الاولى . والتي كان الاسلام ثورة عليها ، وإصلاحاً لها . وقد كان لهذا المفهوم أثر متناقض في نفوس الغربيين . منذ بداية الاصلاح الديني البروتستانتي. ثم أثر خطير منذ أن طغى رجال الدين على أهل الدين،

---

(١) علال الفاسي : دعوة الحق . يونيه سنة ١٩٦٨ .

وأصبحوا يمنعونهم من الدراسة ومن المعرفة . ونشأ عن ذلك أن أحس المجتمع بضرورة التحرر من الدين بالمعنى الغربي . أي بالثورة على الكنيسة وتحكم الرهبان ، والتحرر من الارستقراطية الاقطاعية .

أما عندنا فقد نسبنا مدلول الدين بالمعنى الاسلامي هو مجـــرد تشريـع . وملأنا الكلمة بما تدل عليه الرحمة الغربية . فأصبحنا بطبيعة الحال نفهم معنى الدين بما تحتويه كلمة رليجون . وأصبحنا نفكر في أمر الدين بما يفكر به الغرب . وما نقرأه من آدابه الموجهة قبل كل شيء لنقد مجتمع مبني على تحكم الكنيسة . وصعوبة الطلاق ولو في حالات تلبس أحد الزوجين بالزنا . وقيام ارستقراطية اقطاعية يحميها رجال الكنيسة وتستعبد بها الشعوب . ونشأت من هذا مشكلة فصل الدين عن الدولة .

فالدين بالمعنى الغربي لا وجود له في بلادنا ولا فكرنا ، فالدولة والدين شيء واحد . ولا بد للدولة ان تقوم على عقيدة او خلق ، ولا بد أن تكون حامية لقانون . وهي المسؤولة عن إيجاده ان لم يكن موجوداً .

« والدولة الاسلامية ليست دولة اكليريلكية كهنوتية بالمعنى الذي يفهمه الغرب » ولا ريب أن عدم إدراك هذا الفرق بين مدلول الدين عند المسيحية وعند المسلمين كان عظيم الخطر في تضليل الكثيرين من العرب الذين تعلموا تعليماً غربياً دون أن يحصلوا بجانبه على دراسة صحيحة تمكنهم من معرفة الاسلام على حقيقته ، ولما كانت الكلمات اللغوية التي تلبس في المعاني الحية التي يلبسها الناس لها بالاستعمال كل يوم . فان كلمة الدين لم تعش في ذهن هذه الطبقة من المثقفين إلا بمدلولها الغربي ، وقد ضل الكماليون في فهم الاسلام فسلكوه مسلك الدين المسيحي ، وأصدروا حكماً واحداً عليهما . وان الحملة التي يواجهها الاسلام من أعدائه . انما هي أثر من آثار الهجوم العنيف الذي وجه

ضد الأديان من طرف الماديين . ولقد كانت المسيحية هي السيف المباشر . والهدف الأصيل الذي وجه اليه الهجوم .

ومن هنا وتأسيساً على ذلك يبدو واضحاً خطر الاتجاه الغربي الذي يحاول إخضاع نصوص القرآن والشريعة لانماط الغرب . وتحويل كلمات اللغة العربية ومصطلحاتها من ملابساتها الفكرية التي ترمي اليها أصلاً الى غيرها .

# ٢

# تعريف بالإسلام

الإسلام منهج وليس نظرية : منهج متكامل يستهدف تحقيق بناء المجتمع الرباني في الأرض . ولذلك عني الاسلام بوضع تعاليم جامعـــة في السياسة والاقتصاد والاجتماع والتربية . أفرغت في صيغة كليـــة . وأصول عامة . وبذلك أتيح لها صفة الخلود والبقاء . وهي تعاليم لها صفة التكامل والشمول والترابط .

وقد عني الاسلام بأن يكون منهج حياة ونظام مجتمع ، ولذلك عمد الى:

أولاً : تحرير الفكر من الوثنيات والمادة .

ثانياً : تحرير الانسان من العبودية .

ثالثاً : تحرير البشرية من قيود العنصرية والمادية والاباحية .

والقيم الأساسية للاسلام واسعة الأفق ، مرنة الأبعاد ، قابلة لكل تجديد في سبيل الرقي والتقدم والبناء ، فضلاً عن ذلك . فان الجمود والتعصب ليس من مظاهرها . أو شاراتها . والاسلام نظام يشبع النفس البشرية ، ويعطيها

حاجاتها الروحية والمادية . يلتقي فيه عالم الشهادة بعالم الغيب . وليس الاسلام نظرية فلسفية ، ولا مذهباً صوفياً ، ولكنه نهج في الحياة يلتقي مع نواميس الطبيعة ، وأصول الفطـــرة التي فطر الله الناس عليها . ويلتقي الى ذلك الوجدان والعقل والعلم .

وقد طبع الاسلام حياة معتنقيه . والعرب الذين حملوا لواءه . وما يزال يطبعها . وسيظل يطبعها ، ولذلك فان أي حركة فكرية . أو نهضة اجتماعية لا تستطيع ان تتجاهل هذه الحقيقة ، ولا تخرج عن هذا الواقع . ولا ريب أن الاسلام نهج اجتماعي يشمل الانسانية كلها ، وحركة اجتماعية كان الدين جانباً من جوانبها ، وقد صنع الاسلام المجتمع الاسلامي منذ اللبنة الأولى ، وأقام الحضارة الاسلامية منذ نقطة البداية .

والاسلام ليس عقيدة مادية تنطبق عليها المقاييس المادية ، وليس عقيدة روحية تتصل بالرؤيا والمعجزات والخوارق ، ولا صلة لها بالمادة والحياة . وإنما الاسلام عقيدة ترتكز على الروح والمادة معاً .

وقد أكد الباحثون أن الاسلام لا يسقط أمام الغزو التبشيري الغربي . لأن المسلم لا يمكن ان يكون نصرانياً او يهودياً ، والاسلام نصرانية وزيادة ، وإذا كانت المسيحية ديناً . فالاسلام دين وشرع ، واذا كانت المسيحية تعطي ما لقيصر لقيصر . وما لله لله فان الاسلام يجعل الأمر كله لله . وفي الاسلام قدرة الامتصاص ومرونة التشكل لتلقي كل منجزات العصر الحديث . ولا يقف عقبة في سبيل حرية الفكر . كما أثبت صلاحيته منذ نشأته لجميع الشعوب والأجناس . فهو صالح كذلك لكل أنواع العقليات ودرجات المدنية ، وهو دين فطرة استطاع أن يمنح أهله تلك القوة التي هزمت كل القوى ، والتي حاولت تحطيمه فصهرها في بوتقة أو سحقها وأفناها . وقد حل الاسلام المشكلتين اللتين تشغلان الفكر الغربي : الاخوة الانسانية والعدل الاجتماعي .

وقد حفظ الاسلام من الانهيار والتفكك ، بقاء القرآن الكريم بعيداً عن كل الأخطار سليماً لم يمسه سوء ، ولقد طبع الاسلام حياة العرب ، وسيظل يطبعها . وان العربي مسلماً كان أو مسيحياً تربطه بالاسلام والعروبة . اللغة والفكر المشترك الجامع والأخلاق ، فقد وحّد الاسلام الثقافة التي تربط العناصر المختلفة التي استظلت بظله ، ولو كانوا غير مسلمين ديناً . والاسلام جعل من المسلم ذاتية لها كرامتها وعزتها ، فالمسلم لا يندفع مع التيار ، ولا يساير الركب . بل خلق متميزاً بالربانية في الوحي والانسانية في الهدف وقد اتسم الاسلام بالبساطة والوضوح . وأعطى حلولاً لكل مشاكل الانسان والمجتمع وهي حلول ثابتة الجوهر والهدف متغيرة الصورة والوسيلة . والاسلام لم يفرض الحلول والقواعد مسبقاً ولم يطبقها بالقسر والإكراه .

وقد اكتملت أصول الاسلام في حياة الرسول . ولم تجر إضافة أي شيء اليها بعد، وليس في الاسلام سرّ ولا تناقض ولا ما يصدم الفكر أو يتعارض مع العقل .

ومن أبرز مظاهر الاسلام قدرته على التجدد من الداخل ومرونته في إعادة صياغة نفسه . وكشف الأغشية التي تحاول إخفاء جوهره .

●

وكان الاسلام وسيظل حركة تحرر في مواجهة الاستعمار . وحركة عدل اجتماعي في مواجهة الاقطاع، وحركة شورى في مواجهة الاستبداد، وحركة أخوة في مواجهة التفرقة العنصرية ، وجعل من أسسه مرونة التطور بتطور العصور والأزمنة . ومراعاة الملابسات . وظروف الجماعات المتغيرة . وذلك دون أن يخرج على أسسه الثابتة ، ويرد ذلك الى سعة أطره ، ومرونة ابعاده القادرة على الاستيعاب .

وقد فرق الاسلام بين المعرفة والعقيدة ، وفرق بين العلم والفلسفة .

وجمع بين العقل والقلب ، كما جمع بين الدين والعلم ، واعتبر أن المعرفة الانسانية عامة، والعقائد خاصة لكل أمة عقيدتها ، كما فرق بين العلم النافع، والعلم الذي لا ينفع، والعقيدة الاسلامية القائمة على التوحيد . جنبت المعارف الاسلامية الانقسام الى دينية وعقلية . وليس الاسلام خادماً للمجتمعات والدعوات والمذاهب . بل هو حاكم له مقوماته المستقلة التي لا تخضع ، وهو ليس مبرراً للحضارات وله ذاتيته الخاصة ، ومقاييسه الذاتية ، وهو لا يقر التأويل في الأصول العامة . كالربا والزنا والخمر والقتل .

والاسلام عقيدة تقدمية لا بوصفه مؤيداً للنظريات والأيديولوجيات . بل لأنه أول من دفع الانسان الى الأمام ، وحرره من العبودية والرق والوثنية والمادية والشرك بالله .

ولا ريب أن رابطة المسلمين اليوم هي القرآن . فالمصحف وحده هو الدلالة الوحيدة الجامعة لوحدة المسلمين ، وأن مرشد المسلمين اليوم وإمامهم هو القرآن وحده .

وصدق ( بارتلمي سانهلير ) حيث يقول : ما تزال تعاليم القرآن التي رقت عقول الملايين من الناس ترقي كل يوم شعوباً متأخرة باشرابها الحقائق الضرورية للذات البشرية من الوجهة الدينية والاجتماعية والخلقية .

●

ولقد كان الاسلام هو الدين الوحيد ـ على حد تعبير برناردشو الذي لديه ملكة الهضم لأطوار الحياة المختلفة . والذي يستطيع لذلك أن يجذب اليه كل جيل من الناس .

ويتنبأ رينان بعودة الاسلام فيقول : ما يدرينا أن يعود العقل الاسلامي الولود والكثير المواهب الى إبداع مدنية أرقى من زميلتها المندثرة .

ولا ريب أن في عمق جذور الاسلام في البيئة والحضارة ما يجعله قادراً على التحرك في مجال التقدم دون أن يفقد الصلة بأصوله . ودون ان يفقد أصحابه أصول عقيدتهم .

وقد أعطى الاسلام حقاً مزية «الوسطية» حتى أن باحثاً مثل (جب) يؤمن بأن الاسلام ما تزال له رسالة يؤديها الى الانسانية جمعاء حيث يقف وسطاً بين الشرق والغرب . وأنه أثبت اكثر من أي نظام سواه مقدرة على التوفيق والتأليف بين الأجناس المختلفة ، فاذا لم يكن بد من وسيط يسوي بين الشرق والغرب من نزاع وخصام . فهذا الوسيط هو الإسلام .

ولا ريب أن الدين عند المسلمين عنصر جذري لا سبيل لانفصاله عن حياتهم ومجتمعاتهم . وهو حقيقة واقعة ، وجزء متمم لحياتهم اليومية ، وهو على حد تعبير العلامة (تريتون) ليس رداء يرتديه العلماء . ومن ثم فهو يجعل المسلمين اذا وقعت الواقعةوادلهم ليل الخطوب يجعلهم ثابتي الايمان لا تزعزعهم العواصف والأنواء .

ولقد أكد الباحثون أن الفكر الاسلامي أشد إيغالاً في الواقع من الفكر الغربي . وأن الشريعة الاسلامية تتناول شؤون الحياة اليومية ، ولا تقتصر على مسائل العبادات والأخلاق كما في الشرائع الاخرى .

ومن هنا فإن علمية « علم الأديان » لا تستطيع أن تعالج الإسلام كبقية الأديان دون اعتبار أن هذا الدين هو دين الله ، أي فوق الحقائق الطبيعية والاجتماعية والعلمية ، فهو ليس من صنع البشر ، ولا شك أن الإسلام دين الله ، ولكنه ايضاً دين الفطرة والنظر يتوصل الانسان اليه ارتقاء اذا حكم عقله لا اذا أغفله[١].

●

---

(١) من بحث للدكتور الفاروقي .

ولا ريب أن الاسلام كما وصفه المنصفون يصنع الرجل المثالي الذي لا يقهر ولا يغلب وسرّ قوة هذا الرجل هو أنه يؤمن بالله واحداً لا شريك له ، وأن الأمر كله بيده، ومن شأن هذا الإيمان أن هذا الرجل إذا نودي للقتال لا يهاب الموت لأنه يعتقد أنه يقاتل في سبيل الله . والحق أن الإسلام يربأ بكرامة الانسان من أن تخضع لسلطان غير الخالق ويأنف من أن يكون عبداً لإنسان.

ولقد حرص الاسلام على دعوة المسلم الى التمرد على كل عبودية لغير الله ، وأن يبدأ من الاحساس بأنه أقل مما سواه ، وأن يرتفع عن الخضوع لغير الله حيث لا فرق بين الغني والفقير . والكبير والصغـــير . والأسود والأبيض إلا بالتقوى .

# الباب الأول

# العالم والإسلام

# الفصل الأول

## اليهــودية

عندما نزل الاسلام على محمد بن عبد الله في مكة كان ذلك إيذاناً بختام رسالات السماء التي اتصلت منذ خلق « آدم » والتي كانت أرض الشرق مهبطاً لوحيها . وعندما نزل الاسلام كانت رسالة موسى ، ورسالة عيسى . وهما اللتان سبقتا الاسلام لا تزالان قائمتين ولها أتباعها المبثوثون في أجزاء كبيرة من الأرض . ولم يكد شعاع الإسلام أن ينطلق حتى بدأ حوار واسع بينه وبين اتباع الأديان القائمة . ومنها ما هو وضعي أرضي . ومنها ما هو سماوي منزل . وإن كان قد أصاب تفسيره شيئاً من التحريف .

وكانت رسالة موسى قد أطلق أتباعها عليها اسم اليهودية، كما أطلق اتباع رسالة عيسى عليها اسم المسيحية . أما اليهودية فقد كانت ديناً خاصاً مغلقاً على أصحابه . وأما المسيحية فقد انطلقت من موطنها في بيت المقدس فعبرت الى أوروبا واستطاعت ان تغزو عالم الغرب وترتبط بالدولة الرومانية ( الغربية والشرقية ) وأن تصبغ المجتمع بصبغتها . وتقيم إطاراً دينياً للفكر اليوناني

والقانون الروماني . وكانت الامبراطورية الرومانية قد أقامت خلال ألف عام تلك الدولة الواسعة الضخمة . وسيطرت على الشام ومصر والمغرب كله. وفي الشرق كانت دولة الأكاسرة في فارس تقيم دولتها التي تدين بالمجوسية من بقايا دين زرادشت .

وقد كان الصراع العسكري والفكري بين الامبراطوريتين الرومانيـــة والفارسية كبيراً . وقد اضطرمت الحروب والمنافسات بين الدولة الوثنية في الشرق . والدولة ذات الطابع المسيحي في الغرب . أما الجزيرة العربية . فقد عاشت منطوية على نفسها . لا تتصل بها الأحـــداث إلا قليلاً ، حيث غمرتها وثنية غير عميقة الجذور ، وعايشت في إطارها من اعتنقوا المسيحية واليهودية . بعد أن بعد بها العهد برسالة ابراهيم وإسماعيل من خلال تاريخ طويل بدأ منذ أكثر من ألفي عام حين مستها رسالة التوحيد وانطلقت فيها صيحة الحنيفية السمحاء حتى جاءت رسالة محمد بن عبد الله مجددة لدين ابراهيم . وخاتمة لكلمة السماء في الارض .

●

التوحيد هو دعوة الدين الحق المنزل من لدن الله سبحانه وتعالى الى جميع أنبيائه ورسله . وهو دعوة ابراهيم الى الأنبياء . وأمانته الى اسماعيـــل وإسحاق جدي المسلمين والنصارى واليهود أما اسماعيل فقد شارك أباه ابراهيم في إقامة القواعد من البيت في مكة . وبها أقام ومن ذريته العرب العاربة . ومن نسله محمد بن عبد الله خاتم الانبياء والمرسلين . وأما اسحاق فهو جد بني اسرائيل .

وقد أشار القرآن الى أبوة ابراهيم للعرب : « **ما جعل عليكم في الدين من حرج ملة أبيكم ابراهيم هو سماكم المسلمين من قبل وفي هذا** » (سورة الحج) .

كما سجل القرآن أبوة ابراهيم للأنبياء الذين جاءوا بعده : « **ووهبنا له اسحاق ويعقوب وكلاً هدينا ونوحاً هدينا من قبل ومن ذريته داود وسليمان وأيوب ويوسف وموسى وهارون وكذلك نجزي المحسنين . وزكريا ويحيى وعيسى وإلياس كل من الصالحين . واسماعيل واليسع ويونس ولوطاً وكلاً فضلنا على العالمين** » .

ومن هذا النص القرآني يتبين أن ابراهيم هو جدّ اليهـــود والنصارى والمسلمين . وأن أنبياء الله الثلاثة يلتقون في النسب . فهم من أرومة واحدة، ويسعون الى غاية واحدة . وأنهم جميعاً ومن آمن معهم هم الذين أورثوا هذه الأرض من بابل الى كنعان الى مصر الى الحجاز . وليس هذا الملك قاصراً على شعب معين له امتياز خاص . وإن وعد الله لابراهيم قد تحقق بتمام رسالة الانبياء ( من ابراهيم الى محمد ) وتجمع المصادر الصحيحة ويؤيدها مقدمتها القرآن الى أن ابراهيم نشأ في أرض بابل ( بلدة أور الكلدانية ) بين نهري دجلة والفرات . حيث كانت الهياكل والتماثيل . وعبادة الاصنام والآلهـــة المتعددة . وأنه دعا قومه الى التحرر من الوثنية والاساطير وعبـــادة الله الواحد . ثم لم يلبث أن تحرك في إطار الدعوة الى حران حيث تزوج ابنة عمه سارة . ثم توجه الى الشام التي كان يطلق عليها أرض كنعان . ثم نزح الى مصر، فتزوج هاجر الجارية، ثم عاد الى فلسطين . ومنها رزق بإسماعيل، ولم يلبث أن هاجر بإسماعيل وزوجه هاجر الى وادي مكة « **ربنا إني أسكنت من ذريتي بواد غير ذي زرع عند بيتك المحرم . ربنا ليقيموا الصلاة فاجعل أفئدة من الناس تهوي إليهم وارزقهم من الثمرات لعلهم يشكرون** » .

ولم يقم ابراهيم في مكة ، وإنما ظل يتردد عليها حتى كبر ابنه اسماعيل، فأقاما معاً قواعد البيت الحرام الذي جعله الله مثابة للناس وأمناً « **وإذ يرفع ابراهيم القواعد من البيت واسماعيل ربنا تقبل منا** » .

وهكذا جمع ابراهيم عليه السلام بين فرعين :

فرع اسحاق في الشام ، ومنه ابنه يعقوب الذي يلقب بإسرائيل ، وإليه ينتسب سائر أسباط بني إسرائيل ، وقد أنزل الله فيهم التوراة على موسى ، وكان منهم أنبياء كثيرون . وكان آخر أنبياء بني اسرائيل السيد المسيح عيسى ابن مريم، وآخر الرسالات الموجهة اليهم هي دينه وكتابه الإنجيل .

وفرع اسماعيل في مكة حيث أقام مع أمه ، وأقام الى جوارهم قوم من قبيلة جرهم ، ويرجع نسب عرب الحجاز الى ولدي اسماعيل: نابت، وقيذار[1] وإسماعيل هو جد النبي محمد صلى الله عليه وسلم وهو الذبيح الذي قص القرآن قصته .

ويظهر الترابط واضحاً بين ابراهيم عليه السلام ومحمد عليه الصلاة والسلام في أن الاسلام هو تجديد دعوة ابراهيم الحنيفية السمحاء ، وأن محمداً عليه الصلاة والسلام هو دعوة ابراهيم وبشارة عيسى ، بنصّ قول النبي . كما رواه أحمد في مسنده : أنا دعوة ابراهيم ، وبشارة عيسى . وقد أكد القرآن هـــذا الترابط بين أبي الأنبياء وخاتم الأنبياء فيما رواه عن دعوة ابراهيم ، وهو يقيم قواعد الكعبة « **ربنا واجعلنا مسلمين لك ومن ذريتنا أمة مسلمة لك وأرنا مناسكنا وتب علينا إنك أنت التواب الرحيم . ربنا وابعث فيهم رسولاً منهم يتلو عليهم آياتك ويعلمهم الكتاب والحكمة ويزكيهم** » وقد وقع في هذه الحقائق تغيير كثير ، وخلاف كثير بين نصوص القرآن الذي لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه ، وبين نصوص العهد القديم الذي ليس هو التوراة المنزلة بإجماع آراء الباحثين والمؤرخين من اليهود والغربيين أنفسهم .

وقد وقع الاختلاف في موقف ابراهيم عليه السلام بالذات ، وما يتصل بفرع اسماعيل كله، وما يتصل برحلته الى مكة، ووجود اسماعيل، وبناء الكعبة،

---

(١) البداية والنهاية جزء ١ ، وتاريخ الطبري جزء ١ .

ويستهدف الاختلاف التركيز على فرع إسحاق وحده ، ومحاولة ربط وعد الله لذرية ابراهيم بالاستخلاف في الارض بعنصر معين، وإعلاء هذا العنصر وحده من دون ذرية ابراهيم في تحريف شديد ، وتجاوز خطير لوقائع التاريخ ، والنصوص الثابتة من رسالات السماء .

وهذا هو أخطر ما أصاب رسالة موسى بإقامة ديانة عنصرية ، زيفت الأصول الاصيلة المنزلة للدين ، والمرتبطة بمفهوم التوحيد الجامع المتصل بين الناس جميعاً ، والقائم على الايمان بالله وحده ، وليس على تمييز جنس معين من الأمم ، والذي يقرر أن وراثة الارض إنما تكون للمتقين . هذا التحريف اقتضى تغييراً كبيراً في مفهوم العقيدة ، فأقام الإله يهوه بدلاً من الله الواحد، وزيف التوراة بالنسبة لإبراهيم وأبنائه وبالنسبة لميراث الانبياء من نسل ابراهيم ، كما أنكر الآخرة والبعث ، وعارض كل القيم الاساسية للدين فيما يتعلق بالعدل والإخاء ، وأحل كثيراً مما حرمت رسالة عيسى . كالربا ، والزنا ، وقتل النفس بغير الحق .

وقد أشار القرآن الى أن الله أنزل الى موسى التوراة فيها هدىً ونور، وفيها عقيدة وشريعة ، وفيها البشارة بمحمد ورسالته « **الذين يتبعون النبي الأميّ الذي يجدونه مكتوباً عندهم في التوراة والانجيل** » سورة الأعراف .

وقد انطوت التوراة على الاقرار بوحدانية الله، والاعتراف باليوم الآخر، وما فيه من حساب وثواب وعقاب . وكذلك أشار القرآن الى أن التوراة المتداولة ليست هي التوراة المنزلة ، وأنه قد أصابها التحريف والتعديل .

وترتبط في مفهوم القرآن رسالات الانبياء الى البشرية توصف بأنها رسالة واحدة . هي الاسلام، وتتميز الحلقة الاخيرة فيها من ابراهيم الى محمد بطابع خاص ، وتكامل واضح فقد ألقت على هذه الارض العربية أمانة كبرى ،

وشكلت منهجاً متميزاً يمكن أن يطلق عليه اسم «الحنيفية» التي هي العامل الجامع لكل ما عرف قبل الاسلام من خلق كريم وأريحية ومروءة وصفت حيناً بأنها العروبة ، وليست هي في الحقيقة إلا عصارة دين التوحيد الذي جاء به كل الانبياء منذ ابراهيم الى محمد . والذي وصفه النبي عليه السلام في قوله: « انما بعثت لأتمم مكارم الاخلاق » . فكان النبي بالإسلام تماماً لها ، وتحريراً لقيمها من الانحراف الذي طرأ عليها خلال العصور المختلفة .

ولا ريب أن أي مراجعة سريعة للوثنية العربية قبل بعثة خاتم الانبياء تكشف عن أنها كانت وثنية ساذجة ليست عميقة الجذور ، وأنها لم تكن كمثيلاتها من وثنيات اليونان والفرس والهند ، ذات فلسفة وطقوس عميقة ، وإنما كانت انحرافاً لدعوة التوحيد التي جاء بها ابراهيم واسماعيل ، والتي ظلت ترفع لواءها على يد جميع الانبياء من أبنائه حتى جاء القرآن : مصدقاً لما بين يديه من الكتاب ومهيمناً عليه .

( ٢ )

عجزت اليهودية بالصورة التي تحولت اليها عن أن تعطي البشرية هداها ، وقد توالى الأنبياء لتحريرها وتصحيحها خلال عصـــور طويلة ، حتى كانت رسالة السيد المسيح هي خاتم حلقات الرسالات الموجهة الى بني اسرائيل .

وواجه اليهود خلال ذلك التاريخ الطويل من موسى الى عيسى أهوالاً وأحداثاً ضخاماً وأصاب عنصرهم تغيير كبير ، ودخلت اليهم دماء غريبة حتى أصبحوا لا علاقة لهم بنسب إسحاق، أو دين موسى . وانحرفت اليهودية الى المادية الطاغية ، وكان لاتصالهم بالأمم أثر كبير في تغير أصول الدين ، فقد تأثر اليهود في المنفى في بابل بعـــد عام ٥٨٦ ق - م « بالتفكير البابلي القديم، وعلى الأخص في التخطيط لجوانب الدين اليهودي الاجتماعية والسياسية والاقتصادية » وتحول الدين العبري الى الدين اليهودي ، وأدخـــل السحر والتنجيم والأساطير الغريبة في كتب العبادة ( الكابالا ) فأصبحوا ينكرون كل ما هو روحي ومعنوي في الحيـــاة ، وغلبت على مفاهيمهم روح الغلو والتحدي والخيلاء .

ومن هنا فقد عجزت اليهودية لمعارضتها للفطرة أن تجد قبولها عند أحد من الأمم التي اتصلت بها ، وقد حاولت أن تبث دعوتها في أوروبا وآسيا وحتى في إفريقيا . ولكنها وجدت رفضاً كاملاً لما حوته مفاهيمها من أنانية

واستعلاء بالجنس،واتخاذ إله الحرب والجنود لها إلهاً . وإنكار الحياة الآخرة، وتفضيل بني اسرائيل على جميع الخلق ، وأن بينهم وبين الله عقداً مبرماً ، وأن الله خلق لهم هذا الكون وحدهم ، أما بقية الشعوب فهم لهم عبيد يضاف الى ذلك اتجاههم الخطير الى الربا . وإسرافهم في السيطرة علىالشعوب بالمال ، وتحويل مختلف مناهج الحياة لتكون في خدمة هذا الهدف ومن هنا عجزت اليهودية أن تعطي البشرية شيئاً يدفعها في طريق الحق والإيمان، وإن أعطتها تلك المفاهيم القائمة على الأساطير والخرافات والسحر ، والتي هي تراثها المتصل على الأجيال .

ومن خلال هذه المفاهيم العنصرية التي عارضت اتجاه الحنيفية الذيجاءت به رسالة ابراهيم ومن جاء بعده من الأنبياء ، لم تستطع اليهودية أن تستقر في مكان أو تقيم حضارة ، فقد أصابها الاضطهاد في حملات متوالية ، حيث غزاهم بختنصر (٥٨٨) ق.م ودمرهمتدميراً،وساقأهلها أسارى الىبابل . حيث أقاموا في الأسر زهاء خمسين سنة ، وغزاها سرجون ملك أشور (٣٢٢) ق.م وتغلب عليهم وطردهم من سوريا ، وجاء الرومان بقيادة تيطس ( ٧٠ م ) فأحرق معبدهم وأقام هيكلا وثنياً بديلاً عنه الى أن سيطرت المسيحية بعد ذلك .

وكان إحراق معبد اليهود على يد تيطس وتدميره تحقيقاً لنبوءة السيد المسيح ، ومنذ نكل بهم الرومان ، لم تقم لهم من بعد قائمة .

ولقد ظهر عدد من الأنبياء في بني إسرائيل من بعد موسى ، وكان آخر أنبياء بني اسرائيل : المسيح عيسى بن مريم .

وقد حاول هؤلاء الأنبياء جاهدين تخليص اليهودية من انحرافها وإعادتها الىسيرتها الأولى ، وفق مفاهيم التوراة المنزلة على موسى ، وكان من أبرز أنبيائهم : داود وسليمان .

ولكن أنبياء الله عجزوا عن تحريرهم من الانحراف ، كما لم تلن هـــذه الحادثات الضخام قلوبهم حتى جاء السيد المسيح يحمل آخر رسالات السماء اليهم.

وقد أكد جوستاف لوبون في كتابه عن ( اليهود والحضارات الأولى ) أن اليهود لم يكن لهم علوم أو فنون ، ولا حق لهم في الأرض التي يحتلونها . فقد كانوا غرباء عن هـــذه الأرض وقد كانت تقاليدهم وعاداتهم ودياناتهم مستعارة ومقتبسة ومسروقة من الدول المجاورة وكانوا الى ذلك وحوشاً قساة . وقد انعكس ذلك على توراتهم حيث تجد فيها جميع أنواع الوحشية والبدائية : وفي سفر يشوع مثال لهم : [ أهلكوا جميع ما في المدينة من رجل وامرأة وطفل وشيخ حتى الغنم والحمير بحد السيف ، وأحرقوا المدينة وجميع ما فيها بالنار ] بينما نجد العرب كانوا ينفذون وصيـــة أبي بكر : لا تقتلوا طفلاً صغيراً ولا شيخاً كبيراً ولا امرأة . ولا تذبحوا شاة ولا بقرة ولا تعقروا نخلاً ولا تحرقوه .

وقد راجع كثير من الباحثين تلك الانحرافات التي جعلتها اليهودية أساساً لها وكشفوا عن زيفها : ( يقول الكاتبان الفرنسيان جاك دومال وماري لوروا ) بشأن وعد الرب لبني اسرائيل وحدهم بالأرض الموعودة ما يأتي : أنها لو صحت فان هذا الموعد ينصب إذن على ابن ابراهيم الى العرب .

وقد وقف الباحثون في مجال علم الأجناس . فسفهوا أسطورة الشعب المختار . وكشفوا عن هزالها وزيفها في مقياس العلم ، وقالوا ان الشعب الذي ورد ذكره في التوراة على أنه شعب الله المختار لا يمثل الشعب اليهودي ، لا من قريب ولا من بعيد ، وإن وقائع التوراة من سفر الخروج ومروراً بالمزامير والنبوءات تؤكد ذلك ، فالشعب الذي خرج على أنبيائه وكذبهم وتمرد على إلهه ، وجعل من ذلك الإله انساناً يحارب دونه ويكون له ترساً ومحجناً غير خليق أن يكون الشعب المختار .

# الفصل الثاني

# المجوسية

وبينما كانت اليهودية تضطرب، كانت المجوسية والبوذية والبرهمية في الشرق، وهي ليست من أديان السماء تذهب بعيداً في الخضوع لتراث الوثنية القديم القائم على التعدد والسحر والأساطير والتنجيم والأرقام وعبادة ظواهر الطبيعة ، وفي الامبراطورية الفارسية المواجهة للامبراطورية الرومانية . كان يقوم بعد ذلك المجتمع الحافل بالتناقضات القائم على عديد من مذاهب عبادة الشمس والنار والماء ، فالشمس هي الإله الأعلى يهبون له الخلع ويقدمون القرابين ، والمحافظة على الماء من النجاسة ، « فالفرس يقدسون الماء قبل كل شيء الى حدّ أنهم لا يغسلون به وجوههم ، ولا يلمسونه إلا أن يكون ذلك للشرب أو ري الزرع » [١] .

أما مكانة النار فهي شيء لا حد له ، فهي النار المقدسة التي أقيمت لها

---

(١) ايران في عهد الساسانيين : أرثر كريستنس .

المعابد في كل مكان حيث توقد فيها النار ، وتقدم الخدمة المقدسة في الهيكل الذي فيه النار المقدسة ، ولبيوت النار أبواب وعدة أبهاء من ثمانية أركان[١] .

وفي مفهوم المجوسية : في المزدية دين الأزديين القديم ، أو في الزردشية المتجددة من المزدية تقوم على عبادة قوى الطبيعة والعناصر والاجرام السماوية. وقد أضيف الى آلهة الطبيعة آلهة أخرى كمثل قوى أخلاقية وآراء معنوية مجسمة .

وهناك إله الخير وإله الشر ، وبينهما صراع وتنازع « فهي دين ازدواج تسلم بوجود إلهين ، وبوجود خير وشر ، وطهارة ونجاسة ، والإلهان في تنازع مع بعضهما ، والعناصر يناقض بعضها البعض : «مزدا له الحكم ، ويرمز اليه بالشمس . أما الإله اهريمان غريمه فهو أمير الظلام وموجه الشر[٢]» .

« ولما بين الفريقين من الآلهة من تفاوت نمت فكرة الصراع بين الروحين اللذين وجدا منذ خلق العالم الا وهما روح الخير ، وروح الشر ، وهناك ستة آلهة من بين مساعدي مزدا[٣]» .

وهناك عبادة ميترا وهي مختلفة عن المزدية ، ومتأثرة كثيراً بعلم النجوم الكلداني الذي ترعرع عند مجوس آسيا الصغرى . وقد حرمت هذه العناصر تلويث العناصر بالدفن وحرق الميت ، هذا من ناحية العقيدة : أما من ناحية نظام المجتمع فهم يبيحون التزوج من أمهاتهم وأخواتهم .

وهناك نظام العبودية وروح القبيلة والهوة التي تفصل بين الطبقات ،

---

(١) نفس المصدر .

(٢) العقائد ـ عمر عنايت .

(٣) ارثر كريستنس : ايران في عهد الساسانيين .

فالقوي يظلم الضعيف ، وهم يرتكبون كثيراً من القسوة والوحشية فيما بينهم بالاضافة الى تسلط القواد والحكام .

وقد وصفهم المؤرخون بأنهم « قساة عتاة ، متكبرون بغاة ، يمشون الهوينى بخطى متحيزة ، يدعون لأنفسهم حق الموت والحياة على عبيدهم » هذا بالإضافة الى ترف الولائم ، وإطالة ساعات اللهو ، وقضاء الليالي الطوال في قرع الكؤوس والرقص الفاجر ، هذا بالإضافة الى الصيد واللذات[1] .

وأبرز مظاهر المجتمع الفارسي قبل الاسلام : النظام العبودي ، حيث تقف طبقة الفلاحين والصناع موقف الاحتقار ، وتقوم الارستقراطية الاقطاعية مقصورة على افراد الأسر السبع العظيمة وحيث يورث الأشراف وتورث العبودية .

وقد تطورت المجوسية بعد زرادشت مرتين : بظهور ماني ٢١٦ بعد الميلاد . ومزدك٤٨٧ بعد الميلاد أيضاً . أما المانوية فقد خلطت بين الزرادشتية والنظرية في مذهب جديد ، وتدعو المانوية الى ترك العمل والزهد والرغبة في ملاذ الحياة ، واستعجال الفناء . أما المزدكية فقد احلت النساء والأموال ، وجعلت الناس شركاء فيهما . وأخطر ما في عقائد الفرس أنهم « ينظرون الى ملوكهم ، وكأنهم آلهة اصطفاهم الله للحكم بين الناس ، وليس للناس معهم حقوق[2] ، ويرى (برون) مؤرخ الأدب الفارسي : أن نظرية الحق الإلهي لم تعتنق بقوة كما اعتنقت في فارس في عهد الملوك الساسانيين . فقد كان الأكاسرة

---

(١) ص ٤٩٠ نفس المصدر .

(٢) فجر الاسلام .

يزعمون أن لهم الحق وحدهم. أن يلبسوا تاج الملك بما يجري في عروقهم من دم إلهي . وقد حطم الإسلام حين أقبل نظرية الحق الإلهي ، وحطم نظرية العبودية ، وأطفأ بيوت النار ودمر الدولة الساسانية ، وأزالها من الوجود .

وقد كان لاكتساح الاسكندر الأكبر فارس عام ٣٣١ قبل الميلاد أبعد الأثر في ذلك التزاوج الذي وقع بين الزرادشتية والفلسفة الإغريقية .

وكان لإقامة اليهود في بابل والجزيرة بعد أن طردهم بختنصر أثره البعيد في استشراء علوم التنجيم والسحر والأساطير ، وفي هذه الفترة بدأ اليهود في جمع أحاديثهم وتعاليمهم تحت اسم التلمود .

وقد أشار المؤرخون الى ذلك التزاوج الذي حدث بين الفلسفة الاغريقية والأديان الشرقية حيث التقت آلهة البابلية والإغريق ، وبدأ طابع إغريقي للزرادشتية ، وأقيمت في الشرق تماثيل للآلهة زيوس وأبولون ومترا وهرمس ، وفي نفس الوقت أضيف الى الفلسفة اليونانية عديد من النظريات حول الكيمياء والسحر ، وامتزجت الأساطير الإغريقية والبابلية والإيرانية ، واختفت الصور الأسطورية الشرقية تحت أسماء آلهة يونانية [١] .

---

(١) ارثر كريستنس : ايران في عهد الساسانية .

# الفصل الثالث

## البرهمية والبوذية

فاذا ذهبنا نلقي نظرة الى الشرق وجدنا البرهمية والبوذية والجينية قائمة في ذلك المنظور المتصل بين الهند وشرق آسيا ، فماذا نجد :

نجد صورة عجيبة مضطربة من الاعتقادات القائمة على تناسخ الأرواح ، ووحدة الوجود والتثليث والتجسد ، نجد البرهمية قديمة تضاهي اليهودية كتبت تعاليمها (الفيدا) قبل المسيح بنحو ألف وخمسمائة سنة ، ونجد البوذية قد ظهرت في الهند مجددة للبرهمية ، فإذا بها تنتشر في سيلان وتصل الى الصين وبورما ، وقد زالت تماماً من الهند .

أما البرهمية : فتقول بثالوث الهنود ( برهما ، فشنو ، سيفا ) ويعتقد معتنقوها بالتناسخ الذي لا تطهر النفس من آثامها إلا به ،ومن شعارهم الانتحار أي قتل النفس . والخلاف بين البرهمية والبوذية أن الأولى تقوم على اختلاف الطبقات ، وللكهان فيها من الامتيازات ما يعلو بهم عن مرتبة البشر . فجاءت البوذية كاسرة لهذا القيد .

يقول العلامة أبو الحسن الندوي : « أما البرهمية فقد انحرفت انحرافاً شديداً عن جادتها الأولى ، وفقدت بساطتها والاتصال الروحي المباشر بفاطر الكون ، وفقدت قوتها الخلقية ، وتعقدت تعقيداً أفقدها على مر الأيام التوحيد الخالص في العقيدة والعدل في الاجتماع وهما الدعامتان اللتان يقوم عليهما بناء ديانة في الباطن وفي واقع الحياة » . وبقيت الديانة البرهمية تفقد قوتها ونفوذها ، وبقي التذمر منها وعدم الثقة بها يزداد ويقوى على مر الأيام ، وتجسم هذا التذمر وهذا القلق المتفشي في المجتمع الهندي والتماس العوض عن الديانة الهرمة في شخص (بوذا) ولم يكن ذلك الا في القرن السادس قبل الميلاد . ظهر بوذا بفكرة جديدة أو ديانة جديدة تقوم على تجريد النفس وتهذيبها ، وقمع الشهوات والعطف والمساواة واللهج بالعمل ، وعلى رفض التقليد ، والطقوس ، والتفاوت الطبيعي الذي أصيب به المجتمع الهندي في العهد الأخير ، وانتشرت هذه الفكرة أو الديانة بسرعة ، وشملت الجزء الجنوبي والشرقي من آسيا .

والبوذية ليست ديانة بالمعنى الحرفي لأنها لا تحمل فكرة أو عقيدة عن وجود خالق الكون وعن المبدأ والمعاد . ولكن مالبثت هذه الحركة الدينية العظيمة أن انحرفت وهجمت عليها الأوثان والتماثيل والطقوس التي حاربتها البوذية وثارت عليها حتى أصبحت في الزمن القصير ديانة وثنية ، لا تمتاز عن الديانة البرهمية إلا بأسماء الأوثان والتماثيل وعددها ، وأصيبت بالانحطاط في الاخلاق والتعدد في الأخطار والكثرة في المذاهب والفرق .

يقول : ابشورا توبا : لقد قامت في البوذية دولة تعنى بمظاهر الآلهة وعبادة التماثيل وتغير محيط الرباطات الأخوية البوذية ، وظهرت فيها البدع . وتقول ( رياس ريفدس ) المؤلفة الاوروبية « لقد أظلت الافكار العليلة تعليم بوذا الخلقي حتى توارى وراء هذه التخيلات السقيمة ـ لقد نشأ مذهب جديد في الديانة ، وازدهر وملك على الناس القلوب . ثم اضمحل ، وخلفه مذهب

آخر وهلم جرّاً . حتى تراكمت هذه الأوهام الخلابة ، وحجبت الجو ، وساد الظلام . وقد اضمحلت دروس مؤسس الديانة الغالبة البسيطة بسبب التدقيقات الكلامية والتنطعات » « ولم يظهر في العالم البوذي الواسع ، وفي المدة الطويلة التي حكمت فيها البوذية وسادت ، مصلح كبير ينتصر للبوذية الأصليـــة ، ويحارب البوذية الدخيلة بكل قوته وقدرته ، ويجدد لهذه الديانة العظيمة شبابها الاول ، وبساطتها الضائعة ونقاءها المفقود» .

وهكذا بقيت الديانة البرهمية منكسرة أمام البوذية التي تغلبت عليها حتى جاء ( شنكر اجاريه ) في القرن المسيحي ، وقام بنشـــاط عظيم في محاربة البوذية ، ونشر البرهمية حتى تمكن من إجلاء الديانة البوذية عن الهند وتضييق دائرتها ، وإضعاف سلطانها ، حتى ضعفت جداً وبقيت ديانة من الديانات الهندية القديمة الدارسة . استطاع شنكر أن يقصي البوذية عن الحياة ولكنه لم يستطع ، ولعل الأصح انه لم يرد أن يعيد البرهمية الى وضعها الاول ، ويعيد عقيدة التوحيد والاتصال المباشر بفاطر الكون ، ورفض الوسائط بين العبد وربه والعدالة الاجتماعية والمساواة بين الطبقات .

( ٢ )

وقد صنعت الهندوسية المتجددة من بعد في البرهمية مجتمعاً عجيباً ، يقوم على مفاهيم « الزهادة المفرطة بالصوم ، وأرق الليل وتعذيب النفس » حيث « يعيش الانسان أسير الحرمان ، يحمل نفسه ألواناً من البلاء . ويتجنب كثيراً من متاع الحياة » فاذا ارتفع به السن أقام في الغابات لا يقص شعره ، ولا يقلم أظافره[١] ويجلس تحت الشمس المحرقة .

وفي مجمل حياته يقدس البقرة ، ويخضع للنظام الطبقي وسيادة البراهمة ، فالطبقات في الهندوسية ركن أساسي من أركان العقيدة . فالبراهما سادة ، والباقي عبيد ، ولا يصح لطبقات العبيد ان تترقى ليصبح احد فيها برهمياً ، ذلك « أن الطبقة مصدرها العرق وسيادة الجنس أكثر من أي شيء آخر » بل ان البرهمية لم تقنع بأن تضع الجنس والعنصر ركيزة في نظام الطبقات بل أمدته بالنصوص المقدسة التي تقول بأن الله قد خلق الطبقات على هذا الوضع « ومن ثم يصبح هذا التقسيم أبدياً لا سبيل الى إزالته ولا سبيل لأن يرتفع أي شخص من أي قسم الى قسم أعلى[٢] » .

والبرهمي في الفقه الهندوسي اذا ولد وضع في الصف الأول من صفوف

---

(١) برفسور اتربا : ثقافة الهند وحياتها الروحية .
(٢) دكتور احمد شلبي : اديان الهند الكبرى .

الدنيا[١] وكل ما في العـــالم ملك البرهمي ، وللبرهمي حق في كل موجود ، وللبرهمي اذا افتقر أن يملك مال الشورى الذي هو عبد له من غير ان يجازى على ما فعل ، فالعبد وما يملك لسيده ولا يدنس البرهمي بذنب ولو قتل ، ولا يجبى خراج من برهمي . كذلك لا يجوز للشورى أن يجمع ثروات زائدة ، ويجب ان يبقى ابن الطبقة الدنيا ، وتقطع يده اذا علا من هو أعلى منه ، وهي مفاهيم شبيهة بما تقول به اليهودية التلمودية من إعلاء شعب الله المختار . وقد حطم الاسلام حين جاء نظام الطبقات هذا وكان عاملاً من عوامل تغييره في البيئات التي بقي فيها ، وتنكر الهندوسية وربيبتها البرهمية : أي ضوء لسعادة أو لخير في الحياة الدنيا ، وتواجه الحياة في تشاؤم وقلق واحتقار كامل ، يقول الكتاب المقدس ( يوجا واستسها ) : السعادة لا سبيل لها في هذا العالم ومسرات الحياة ليست إلا خداعاً وأوهاماً ، لا خير في الجسد لأنه محل العاهات ، ولا قيمة للأفراح والثروة والجاه والمُلْك .

وقد جاءت البرهمية منبثقة من الهندوسية في القرن الثامن[٢] قبل الميلاد ، وفي نفس إطارها القديم جامعة لعقائد الهند القديمة وعباداتها ، وفي مقدمتها: عبادة الحيوانات وبخاصة البقرة وعبادة قوى الطبيعة ، وعبادة عضو التلقيح معتقدين أنه سبب الخلق ، ومن الظواهر المقدسة التي يعبدها الهنود ، إله السماء وإله الرعد وإله النار وإله العواصف وإله المطر وإله الرياح .

وتحظى البقرة في الهندوسية والبرهمية بأسمى مكانة « وهي من المعبودات الهندية التي لم تضعف قداستها على كَرّ السنين وتوالي القرون » والتي توصف بأنها أم للانسان .

---

(١) نفس المصدر .

(٢) شلبي : اديان الهند الكبرى .

وأهم عقائد البرهمية نظام الطبقات : تناسخ الأرواح والتجسد والتثليث ووحدة الوجود . أما التناسخ فيقوم على أساس مجيء النفس الواحدة الى الحياة مرات متعددة حتى تتاح لها الفرصة للتهذيب . أما التجسد فهو إنكار وجود الله والآخرة لأنهما غير محسوسين .

والمعروف أن البراهمة هم الذين وضعوا نظام الطبقات[1] وخصوا أنفسهم بكثير من الامتيازات وفي ظل هذا النظام استبد البراهمة ، وظهر عسفهم وطغيانهم ، وضج الناس من استبــداد البراهمة وجورهم . ومن ثم ظهرت دعوات تخفف من قيود البرهمية الهندوسية : وكان ذلك في القرن السادس قبل الميلاد ، منها الجينية والبوذية ، وإن كانتا تدوران في فلك الهندوسية ولا تخرجان عنها .

أما الجينية فهي طريقة لتعذيب النفس ( وقد انتقلت الى المسيحية من بعد ) ويعتبر الانتحار في الجينية غاية كبرى لا تتاح إلا لخاصة الرهبان . والانتحار « معناه قطع الاعمال التي هي مظنة إلحاق الضرر بأي كائن ذي روح » والحياة في نظر الجينية « تعاسة مستمرة وشقاء متصل فظلها زائل والعيش فيها باطل » .

---

(١) نفس المصدر .

( ٣ )

أما البوذية فقد قامت على تحرير النفس وتهذيبها وقمع الشهوات، ولكنها سرعان ما انحرفت ودخلتها الوثنية والطقوس والتماثيل .

والبوذية نحلة أخلاقية لا تحمل فكرة أو عقيدة عن وجود خالق الكون، ولكنها تحمل طابع الزهد ورفض متاع الحياة ، وغاية الحياة فيها ما يسمونه الزفانا ، وهي الغاية التي ينتهي اليها الانسان بعد خلاصه من كل ألم . وفوزه بالنجاة الحقيقية[1] وتنكر البوذية النفس إنكاراً تاماً كما تنكر كل ما وراء الطبيعـة .

ولكن البوذية لم تلبث أن تحولت في القرن الاول بعد المسيح . وأخذت شكلاً جديداً « فقد تحول[2] بوذا نفسه في المذهب الجديد الى إله خفي ذي أسرار عجيبة . منها أن الإله تجسد لينقذ البشرية بأن يحمـــل عنها عبء خطاياها القديمة ، ويحول بينها وبين ارتكاب أخرى جديدة .

وأصبح بوذا نتيجة لهذا رمزاً للإله المنقذ الذي جعل يجيء الى هذا العالم الأرضي من حين الى آخر متقمصاً جسداً من بني الانسان لينقذ البشرية في

---

(١) غلاب : الفلسفة الشرقية .

(٢) غلاب : الفلسفة الشرقية .

شخصه الذي يسمى في كل مرة بوذا » وتصــــل البوذية الى أعلى درجات الايمان الى مرحلة الزفانا ، والزفانا كلمة غامضة معناها ( الإمحاء والسكون والانعدام والانتعاش والراحة ) والمقصود الروحي منها أنها حال من فقدان الشعور تتخلص النفس في أثنائه من الاحساس بالألم الذي يسببه لها اتصالها بالأجسام .

ويقول الدكتور شلبي : ان أبرز مفاهيم البوذية : الزفانا . وهي تعني وصول الفرد بقتل الشهوات والرغبات الى أعلى درجات الصفاء الروحاني بتطهير نفسه ، والقضاء على جميع رغباته .

## ( ٤ )

وتكشف ديانات الهند ، وفي مقدمتها الهندوكية عن ظـــلم كبير للنفس الانسانية في علاقتها بالحياة ، وفي علاقتها بالمجتمع من حيث الانحراف عن مفهوم الدين الحق . فهذه السلبية الخطيرة في مجال الحياة والعزلة عن الحياة ، والزهد ، والحرمان الذي يدعو الى الصـــوم الدائم ، والجلوس تحت الشمس المحرقة ، ومجافاة سائر الرغائب واللذات ، ومحاربة الملاذ ، وتعذيب النفس . كل هذا بعيد الأثر في بناء المجتمع ، وإقامة عمران الكون على النحو الذي كلفت الاديان به الانسان وحملته أمانته .

ومن الناحية الاخرى ترى ذلك الإذلال البشع والعبودية الشديدة ، حيث نرى طبقة العبيد ، وهي غالبية المجتمع تعمل في خدمة البراهمية السادة ، حيث لا أمل لها في ان تصبح يوماً موضع كرامة او سيـــادة « ليس للفرد أهمية تذكر في الهندوكية ، ويكاد يكون كماً مهملاً[1]» بالاضافة الى حرمان الزوجة من الزواج اذا مات زوجها ، وحرق جثمان الميت ، والتسامح الذي يصل الى الرضا بالضيم والذلة . بالاضافة الى الخرافات والسحر والاساطير . وتقديم القرابين للآلهة ، مما واجهه الاسلام عهد ظهوره وحرر منه الملايين .

---

(١) أديان الهند الكبرى .

## الفصل الرّابع

# الهلينيـــة

خير صورة يتمثل فيها المجتمع اليوناني الهليني الى ان اجتاحته الامبراطورية الرومانية (١٤٦ ق.م) وهو ما يرسم افلاطون في جمهوريته: مشاعية النساء ـ وسيادة السادة على العبيد . وإقرار المجتمع العبودي القائم على الرق. وإقرار سيادة الطبقة . والدعوة الحارة الى الاباحة . حيث يدعو البنات والبنين ان يتخففوا من ملابسهم . ويجب ألا يشعروا بالخجل الكاذب والسخرية حين يرون الجسم البشري عارياً في مجتمع يعبد الاجساد ، ويقيم تماثيل الآلهة عارية ضخمة من الرخام الناصع البياض في الميادين . ثم هو يترضى هذه الآلهـــة بالخمر والرقص .

ومن رأي افلاطون ان يخلو المجتمع من الزواج الفردي والاسر الخاصة . ويجب ألا يعرف الآباء ابناءهم ، ولا الابناء آباءهم . وعلى المرضى والضعفاء ان يتاح لهم سبيل الموت .

ولقد حرم افلاطون . وأكد ارسطو من بعده على الرقيق حقوق المواطنة

والمساواة . وأن العبد مهما وصل الى مركز السيادة فهو العبد ، ومهما وصل السيد الى موضع الضعف فهو سيد . فالسادة هم السادة ، طائفة مختارة من الناس يتصاهرون فيما بينهم ، ويلدون اطفالهم ليكونوا سادة من بعدهم ، ولم يكن ذلك هو حلم افلاطون ، وإنما كان هو واقع المجتمع اليوناني الهليني نفسه ، المحافظة على سيادة الجنس المختـــار وسلامته ، وحق السيد في استغلال العبيد .

وكان اليونانيون يجعلون من العري شيئاً مثالياً ، ولازماً للجمال ، ولذلك فانهم عروا أبطالهم وعظماءهم وآلهتهم . وهناك أيضاً تأثير الرقص والموسيقى ، فقد كان الاغريقيون يعدون الرقص من إلهياتهم الكبرى . وكانوا يرقصون رجالاً ونساءاً في مجتمعاتهم العامة والخاصة . والمثل الأعلى ـ عندهم ـ هو تمجيد الجسم وإعلاء شأن صاحبه الانسان .

وقد انتشرت فيهم عادة تقديس الابطال ، فكانت كل مدينة ترفع بطلها الخاص . حتى تخلق منه إلهاً او نصف إله ، وتقيم له الاعيـــاد الدينية التي تحوطها القداسة . وتروي القصص التي تجسم المفاخر وتشكلها في طقوس وتحوطها بشيء غير قليل من الاسرار الخفية والمآسي الفاجعة ويقرر الباحثون ان الكهانة ظاهرة غربية لا شرقية وانها تعد مهنة مقدسة . إلا في عهود الوثنية اليونانية . فقد كانت لها معابد ، وكان لمعابدها سدنة وامناء ، وكان المصير لكل معضلة فردية او قومية رهيناً برأي الصوت المتنكر في زوايا الظلام المنشور فوق معابد اليونان[١] .

وصورة المجتمع الهليني الاغريقي كله واضحة في القصة الاغريقية : حتى يقول مفيد الشوباشي ان الشر في تلك الملاحم شر محض لا تلطف حدته

---

(١) زكي مبارك ـ الرسالة سنة ١٩٤٢ .

خلجة من خلجات الخير ، وحرب طروادة الضروس التي طالت عشر سنوات ، اشتعلت نارها دون مبرر معقول . لقد اصبحت كلمة زعماء الاغريق بعد تفرق على شنّ تلك الحرب الشعواء ، لأن هلينة زوجة منيلاس ، وهو من سادة القوم عشقت باريس أمير طرواده ، وهربت معه الى بلده دون أن تحفظ لزوجها عهداً . وهكذا دارت الحرب المدمرة في سبيل امرأة غادرة لا تستحق غير الازدراء والاهمال . واختلطت الشعوب بسعيرها دون ان يكون لها فيها مصلحة ، او يحفز اليها حافز .

والمرأة الاغريقية تتصف بالغدر في اغلب مآسي الاغريق وتستسلم للرذيلة دون اية مقاومة ، وترتكب ابشع الجرائم مدفوعة بأخطر النزوات .

وهناك قصة الكترا التي تعبث فيها ( كليتمنسترا ) بقدسية الروابط الزوجية وتتخذ لها عشيقاً في غيبة زوجها (اخمنين) الذي رحل على رأس الجيوش الاغريقية ليغزو (طرواده) وينتقم من اميرها . ولم تكتف ( كليتمنسترا ) بارتكاب هذه المعصية ، ولكنها أقدمت على جريرة اشد نكراً مدفوعة بشهواتها البهيمية ، فقتلت زوجها البطل غدراً بالاشتراك مع عشيقها (ايجست) وهكذا تصور القصة الاغريقية « حياة شعب طمست المعتقدات الوثنية عقله ، وحجبت عنه الحقائق الواقعية ، وأضعفت فيه العواطف الانسانية النبيلة واستثارت فيه الغلظة والميل الى الشر ، وله العذر في ذلك فآلهة الاغريق على الاغلب قاسية تميل الى الانتقام . فاذا عن لها أن تنصف مظلوماً أو ترحم ملهوفاً اشترطت في ذلك شروطاً تجرد رحمتها وإنصافها من أي سمة انسانية ، وتحول دون تحقيق الغاية وهي لا تنكل بعبادها فحسب ، ولكن بعضها ينكل ببعض ويفتك به . وليست المقادير الرهيبة التي يقع الناس في حبائلها ، ولا يستطيعون منها فكاكاً الا من تدبير هذه الآلهة . وقد قيل ان الوثنيين الاغريق فطروا على صورة آلهتهم ، او على

الاصح انهم ابتدعوا آلهتهم على صورتهم[1]».

ومن هنا فقد كانت اخلاق اليونان اخلاق سعادة : مطلبهم الأسمى هو السعادة الحسية فهي الغاية القصوى للحياة . وأرسطو يحـــدد للفرد فرديته وحريته لا يجعلها من حق الناس جميعاً بل يقصرها على السادة ، فالسادة وحدهم هم الذين لا يجوز استرقاقهم لأنهم جمعوا بين الروح الغالية والشجاعة ، وعنده ان للأعلى ان يبسط نفوذه على الادنى كما ان على الادنى ان يخضع للأعلى ويطيعه ، وعنده ان الحرّ حرّ رغم ما ينزل به من عسف وعبودية ، والعبد عبد رغم ما يحققه من نصر .

أما افلاطون فانه يجرد الفرد من قيمته الفردية ليجعله أداة سخرة لخدمة الدولة ويصهر كيانه في جهازها العظيم .

ومن أخطاء فلاسفة اليونان قولهم ان المادة أزلية ، وان الله يحيط بالكليات وحدها قولهم بالدهرية وقدم العالم ، ووقفوا عن المنطق القياسي ، ولم يتجاوزوه . فقد كان المنطق القياسي ممثلاً لمجتمع تقف فيه السادة في القمة يفكرون ويتأملون ، ويقف فيه الناس جميعاً في مجال العبودية يقومون بالخدمة دون ان يطمعوا يوماً في الانتقال الى السعادة .

(١) مفيد الشوباشي – رحلة الادب العربي الى اوربا .

# (٢)

وكان دين الاغريق[١] ديناً طبيعياً يقول بتعدد الآلهة فكان كل إله يمثل قوة طبيعية خاصة يديرها ويتولى امرها (زيوس) كبير الآلهة . ويمثل الرعد والبرق ( ديميتير ) : يمثل الارض والخصوبة ( افروديت ) الجمـــال ( ابولو ) الشمس (نبتون) البحر .

وكان شعب اليونان يعبد إلهه مثله تماماً : أي بشراً يجوز عليه ما يجوز على البشر فيغتصب زوجة آخر ، ويتصف بالاخلاق الشريرة ، ويكون شرها طماعاً جباناً محباً للانتقام .

وكان مجتمع اليونان ذلك المجتمع الوثني القائم على الخوف من مظاهر الطبيعة : فقد كان التوتونيون القدماء يرون في الشتاء قوة تسعى حثيثاً للقضاء على الانسان، وكان الشتاء وليله الطويل ملعب الارواح الشريرة المخيفة الخارجة من المغاور في قلب الارض ، ومن اعماق البحار الهائجة تفتش عن فريسة بشرية . فكأن الاعياد ترضية لهذه الارواح الشريرة .

يقول أنيس فريحه[١]: كان اليونان ينظرون الى آلهتهم نظرتهم الى البشر، فهم يتصرفون تصرف البشر ، كانوا يحيون ويقتلون ويسرقون ويخطفون

---

(١) دكتور محمد عبد الحليم كراره — المعتقدات اليونانية .

(٢) مجلة الأبحاث ١٩٥٣ .

نساء بعضهم بعضاً . وبعبارة اخرى كانت آلهة اليونان أناساً ولكنهم جبابرة ذوي بأس متصفون بكل ما هو جميل ، وبكل ما هو بشع ذميم . لذلك لم يستول على خاصة الاغريق خوف ولا جحود أمام هذه الآلهة . لم يشعر اليوناني أمام ربه انه عبد ذليل بحاجة الى الرحمة والشفقة ، بل ظل سيد نفسه متغطرساً موقناً انه سيد الارض ، وان الحياة توهب له .

« فالاغريقي قدس الجسد وجماله ، وكان انصرافه في الدرجة الاولى الى الحياة الدنيا ، والى ما يؤول الى ابهاجها واغنائها ، فكان عنده الغناء والرقص والشعر والتمثيل والتصوير والنحت » . وقد أحصت كتب التاريخ فصولاً كثيرة عن فساد اخلاق اليونانيين وتهتكهم في الخلاعة والفسق ، وانغماسهم في الترف والملاذ ، وفساد اخلاقهم الشخصية .

ولقد جرى الحديث كثيراً عن الديمقراطية اليونانية ، ولكن هـــذه الديمقراطية كانت للأسياد ، أما العبيـــد فلم يكن لهم أي حق في الحياة قبل الاسلام .

## (٣)

والعقائد الدينية في بيئة اليونان مضطربة متعارضة يقوم بعضها على مفهوم الرواقيين وان كل ما في الكون من معبودات ومخلوقات ، انما وجد بعلة واحدة ، هو اتحاد الجواهر الفردة ، وان ليس لهذا الكون إله يدير اموره ، وان العالم كله من عمل الصدفة ، وان الانسان وجد اتفاقاً ، وان النواميس الطبيعة والاديان ليست من عند الله، وانكار الخلود، او الوجود بعد الموت.

يقول أنيس فريحه : ان الديانات كلها كانت تدور حول عبادة الآلهة . وان من مراسيم العبادة اقامة وليمة مقدسة يذبحون فيها حيواناً يشتركون بأكل لحمه . وفي القديم يشرب دمه رمزاً لاتحادهم بالإله . وكان يرافق اعيادهم نوع من الزواج المقدس ، او البغاء المقدس الذي يبدو لنا انه اباحية وعربدة يشمئز ذوقنا منها .

هذه العلاقات الجنسية بين كاهن وكاهنة ، او بين رجل القبيلة ونسائها في اوقات معينة ، او في احوال خاصة يجب ان تفسر بأنها رموز سحرية لها علاقة بالخصب والانتاج .

ومن آلهتهم ديونيوس : إله الخمر ، وتصوره الاسطورة ، وهو يجوب العالم المتمدن ليعلمهم تربية الكرمة ـ وشرب الخمرة ـ أما عبادته فكانت تقوم حوله هوثة وتمزيق جسده الى اشلاء ، ثم قيامته من الموت .

والوثنية اليونانية ـ كما يقول زكي مبارك ـ تقوم على عبادة المرح والبهجة والإيناس فأهواء الآلهة عندهم أهواء حادة من الوجهة الحسية بحيث يمثلون ما في الطبيعة الحسية من غضب وبطش وجبروت ، والذي ينظر الوثنية اليونانية ، يواجه اصطحاب الاهواء والاذواق والاحاسيس .

ولقد ارتبطت الفلسفة اليونانية بإنكار النبوات ، وانكار المعاد ، والميل الى الاباحة والتعطيل والفلسفة اليونانية اساساً تنافي النبوة وتعارضها في النقطة الاولى .

والوثنية هي[1] عبادة المحسوس المشخص ، وتنطوي على تعدد المعبود ايضاً . والوثنية وتعدد المعبود متلازمان . لأن المعبود يتغير ، كما ان الوثنية وتشخيص المعبود متلازمان ومع تعدد المعبود وتشخيصه ، عبادة إله وراء ما اتخذته من آلهة غير مشخص ، وغير محدود وقد تلقبه برب الارباب ، او خالق السموات والارض ، وهي بهذا أشركت مع الإله الذي يجب ان يعبد وحده آلهة اخرى .

وقد هاجم الاسلام الوثنية ، وهاجم تعدد الآلهة ، ودعا الى عبادة إله واحد لا تعرف شخصيته ، ولا تحد شخصيته ، ولا تحد حقيقته لانه فوق الطبيعة وفوق ما فيها من اشخاص وجزئيات محددة ، وأراد ان يكون خضوع الانسان وطاعته لغير من يجوز عليه التعدد والفناء .

---

(١) دكتور محمد البهي – الرسالة ١٩٤٥ .

# الفصل الخامس

## الامبراطورية الرومانية

أما الامبراطورية الرومانية ، فكانت مثلاً للنظام العسكري الوحشي ، واهدار الدماء والافراط في عبادة القوة ، وتحكم الطغاة المستبدين ، وقيام عبادة الامبراطور والعبودية الكاملة للقطيع المجند للخدمة تحت القيود والاثقال ، الى فساد اخلاق السادة وإغراقهم في الخلاعة والفسق وانغماسهم في الترف والملاذ .

وقد ورث الرومان عن الاغريق النظام الطبقي في المجتمع والتفاوت في الاعتبار البشري بين الافراد فيه « وكانت[1] الفكرة التي تقوم عليها الامبراطورية الرومانية هي الاجتياح بالقوة واستغلال الاقوام الآخرين لفائدة الوطن الام وحده ، وفي سبيل الترفيه عن فئة ممتازة . لم ير الرومانيون في عنفهم سوءاً ، ولا في ظلمهم انحطاطاً ، وان العدل الروماني الشهير كان عدلاً للرومانيين وحدهم » .

---

(١) محمد اسد — الاسلام على مفترق الطرق .

واذا كان اعظم مفكري اليونان ( سقراط ، وأفلاطون . وأرسطو ) برروا العبودية اليونانية فان أعظم مفكري الرومان (سيشرون — تاسيناس — سنكا ) لم يستنكروا النظام العبودي ولم يعارضوا هذه العادة المزرية الحاطمة للاخلاق الهادمة للشعور الكريم ، ولم يكن ذلك غريباً[1] فقد كانت النزعة السادية متمكنة من نفوس الرومانيين اصيلة في اخلاقهم ، وكان الرومانيون يستمرؤون السرور من هذه العادة السيئة لا بحكم التقاليد وحدها ، وانما بحكم الدوافع السادية التي ترقد في كل قلب ، والتي اذا استنطقت تتلهف عليها دوافع أقوى واقتناع أتم ، وكان دافع حب القـــوة في نفس الرومان يزيدها حدة وسطوة .

نعم ، كانت هذه الظاهرة الواضحة : ظاهرة القسوة في معاملة العبد ، وكان الاعدام بالالقاء الى الوحوش عقوبة عادية . « كانت معاملة الرومان للعبيد من القسوة بحيث تقشعر لها الابدان ، كان العبد الذي يعتدي على سيده يقتل ويقتل معه عبيد المنزل جميعهم » وكانوا الى ذلك يبيعون العبيد بيع السلع ، ويعتدونهم اشياء مثل الجمادات[2] وكانوا يبلغون بهم غاية القسوة بانتزاع اللسان ، وصب القصدير المغلي المذاب في أفواه المجرمين ، أما مسارح المصارعة فهي من أسوأ مظاهر القسوة ، كانوا يذهبون الى المسارح ليستمتعوا بمنظر سيل الدماء وتمزق الاشلاء ، ويستمعوا الى الانات الصاعدة ، والتأوهات والآلام . ولم تكن هذه المشاهدة قاصرة على الرجال . بل كانت تحفـــل بالعذارى الناعمات الرقيقات . وقد ظهر بما لا يحتمل الشك ان حضارة الرومان « كحضارة الاغريق » — نهضت على أكتاف العبيد وبسببهم انهارت .

(١) الثقافة — م ١٩٤٧ .

(٢) نفس المصدر .

## (٢)

قامت الامبراطورية الرومانية بعد ان مرت الدولة الرومانية بمراحل متعددة من ملكية وجمهورية فمن ( ٧٥٤ قبل الميلاد الى ٥٠٨ ) النظام الملكي ومن (٥٠٨ الى ٤٨ ق.م) النظام الجمهوري المرتكز على طبيعة الاشراف ومن (٤٨ ق.م) بدأ النظام الامبراطوري باستيلاء قيصر على السلطة. وقد استغرق تحويل حوض البحر المتوسط الى الامبراطورية الرومانية نحواً من قرنين ونصف قرن . وكانت مصر آخر ما سقط في أيدي الرومان من أقطار هذا البحر عقب موقعة اكيتوم ودخول أغسطس مصر (٣٠ ق.م) . وأصبح هذا العام حداً فاصلاً في تاريخ الرومان : نهاية العصر الجمهوري ، وبداية عصر الامبراطورية وقد ضمت الولايات الواقعة في بلاد الغال . وآسيا ـ وسوريا ـ وبلاد اليونان. كما ضمت المغرب في بناء سياسي وحضاري . استمر فترة من الزمن تربو على السبعمائة سنة حتى سقطت ٤٧٦ م والمعروف ان الامبراطورية الرومانية دخلت المسيحية ٣٣٠ م .

وقد اتسمت الحضارة الرومانية بالترف والانحلال . وقد وصفها (درابر) في كتابه (تاريخ اوربا الاخلاقي) فقال : لما بلغت الدولة الرومية من القوة الحربية والنفوذ السياسي أوجها ، ووصلت في الحضارة الى أقصى الدرجات هبطت في فساد الاخلاق ، وفي الانحطاط في الدين والتهذيب الى اسفل الدركات . بطر الرومان معيشتهم، وأخلدوا الى الارض واستهتروا استهتاراً .

وكان مبدؤهم ان الحياة انما هي فرصة للتمتع ينتقل فيها الانسان من نعيم الى ترف ، ومن لهو الى لذة . ولم يكن زهدهم وصومهم في بعض الاحيان الا ليبعث على شهوة الطعام ، ولم يكن اعتدالهم الا ليطول به عمر اللذة، وكانت موائدهم تزهو بأواني الذهب والفضة مرصعة بالجواهر ، وتحف بهم خدام في ملابس جديدة جميلة خلابة ، وعادات رومية حسناء ، وغوان عاريات كاسيات غير متعففات تدل دلالاً ، ويزيد في نعيمهم حمامات باذخة وميادين بهو واسعة ، ومصارع يتصارع فيها الابطال مع الابطال او مع السباع ، ولا يزالون يصارعون حتى يخر الواحد صريعاً يتشخط في دمه وقد ادرك هؤلاء الفاتحون الذين دوخوا العالم انه ان كان هناك شيء يستحق العبادة فهو القوة، لأنه بها يقدر الانسان ان ينال الثروة التي يجمعها اصحابها بعرق الجبين وكد اليمين ، واذا غلب الانسان في ساحة القتال بقوة ساعده ، فحينئذ يمكن له ان يصادر الاموال والاملاك ، ويعين ايرادات الاقطاع ، وان رأس الدولة الرومنية هو رمز لهذه القوة القاهرة . فكان نظام رومة المدني يشف عن أبهة الملك ، ولكنه كان طلاء خداعاً كالذي نراه في حضارة اليونان في عهد انحطاطها .

## (٣)

أما في مجال الدين فقد كان الرومان وثنيين[١] ، لم يكن لهم إيمان راسخ في دينهم ، فقد كان النظام الديني الوثني الخرافي الذي كان سائداً في رومية يقتضي بطبيعته الشك والاضطراب ، وضعف الايمان . فكلما تقدموا في العلم وتنورت افكارهم ازدادوا استخفافاً به . وقد قضوا من اول يوم ان الآلهة لا دخل لها في السياسة وامور الدنيا .

يقول الراهب أغسطين عن عقيـــدة الرومان : ان الروم الوثنيين كانوا يعبدون آلهتهم في المعابد ، ويهزأون بهم في دور التمثيل . وقد فقد الدين الرومي سلطانه الروحي على معتنقيه وبردت العاطفة الدينية في قلوب الناس حتى تجرأ الناس على الآلهة ، وأهانوها في بعض الاحيان ، فلم يكن للدين تأثير في اخلاق الامة وسياستها ومجتمعها .

يقول ليكي : في كتابه ( تاريخ اوربا ) ان الدين الرومي كان اساسه على الأثرة ، ولم يكن يرمي الا الى رفاهية الافـــراد وسلامتهم من المصائب والمتاعب ، والشاهد على ذلك انه ظهر في رومه مئات من الابطال والعظماء . ولكن لم ينهض فيها زاهد في الدنيا ، عزوف عن ملذات الحياة ، ولا تسمع

---

(١) ابو الحسن الندوي – ماذا خسر العالم .

مثلاً في تاريخ الروم للتضحية والإيثار إلا تجده لا تأثير فيه للدين ، ولكن مبنياً على الوطنية . والظاهرة التي يتميز بها الروم هي روح الاستعمار والنظر المادي البحث الى الحياة ، وهو ما ورثته اوربا المعاصرة عن سلفها الروميين وخلفتهم فيه .

يقول محمد أسد[1]: ان الرومانيين في الحقيقة لم يعرفوا الدين، وان آلهتهم التقليدية لم تكن سوى محاكاة شاحبة للخرافات اليونانية . لقد كانت أشباحاً سكت عن وجودها حفظاً للعرف الاجتماعي ، ولم يكن يسمح لها بالتدخل قط في امور الحياة الحقيقية . بل كان عليها ان تنطق بالرجز على ألسنة عرافيها اذا سئلت مثل ذلك ، ولم يكن ينتظر منها ان تمنح البشرية شرائع خلقية .

---

(١) الاسلام على مفترق الطرق .

# الفصل السادس

## المسيحية والغرب

استكملت الامبراطورية الرومانية اتساعها ونفوذها عام ٣٠ قبل الميلاد ، وتمسحت ٣٣٠ ميلادية وسقطت ٤٧٦ ميلادية . وقد ورثت امبراطورية الاسكندر التي قامت ٣٣٢ قبل الميلاد .

ضمت الامبراطورية الرومانية بين حدودها جميع مراكز الحضارات القديمة باستثناء فارس والهند عندما بلغت اقصى اتساعها على عهد الامبراطور تراجان ١١٧ م . وقد امتدت الامبراطورية الرومانية عندئذ من المحيط الاطلسي غرباً حتى الفرات شرقاً . فشملت في الغرب بلاد بريطانيا وغاليا واسبريا وايطاليا فضلاً عن شمال افريقيا حتى طرابلس ، وشمل الجزء الشرقي من الامبراطورية البلقان وآسيا الصغرى وأعالي بلاد النهرين ، فضلاً عن الشام ومصر وبرقة . وقد انقسمت الامبراطورية الرومانية ٣٩٥ الى قسمين : الامبراطورية الشرقية والامبراطورية البيزنطية . فلما سقطت الامبراطورية الرومانية ٤٧٦ ورثتها الامبراطورية البيزنطية التي استمرت الى السلطان محمد الفاتح الى أن ازال منها الاسلام اجزاءها في افريقيا وآسيا ، وأسقطها .

في ابان تكامل الامبراطورية الرومانية وتألقها ، ظهرت المسيحية في الشرق ، وسرعان ما عبرت الى اوربا، واشتبكت في صراع مرير مع الوثنية اليونانية الرومانية زمناً طويلاً حتى استطاعت ان تحقق وجودها ، وتمكن للاعتراف بها واحداً من أديان الامبراطورية عام ٣٣٠ م .

جاءت رسالة السيد المسيح خاتمة لأنبياء بني اسرائيل لوضع حد لاستشراء انحراف اليهودية الى الطابع المادي والعنصري الذي استعلى على اليهودية . فأقام لها منهجاً مغايراً لمنهجها الرباني الاصيل الذي جاء به موسى ، ويقدر المؤرخون هذه الفترة بين رسالة موسى ورسالة عيسى بـ (١٢٨٠ عاماً) .

جاء السيد المسيح مصححاً للتحريفات التي أوقعها اليهود برسالة موسى في عدة مواقف ، منها الالوهية وابتداع إله خاص لهم ، وفي الايمان بالبعث والجزاء ، وفي التبشير بمحمد خاتم الانبياء ، وفي تحليل الربا ، وادخال السحر والتنجيم ، وإعلاء شأن المادية والوثنية .

ومن هنا كانت رسالة السيد المسيح عيسى بن مريم محدودة وواضحة :

● انها رسالة الى بني اسرائيل وحدهم .

● انها مكملة للشريعة الموسوية متصلة بها . ولذلك فان رسالة عيسى لم تحتو نظاماً تشريعياً خاصاً **«لا تظنوا أني جئت لأنقض الناموس والأنبياء، ما جئت لأنقض بل لأكمل »** (متى ٦:١٧) فالمسيح « **أرسل لتعديل ما اعوج من أمر بني اسرائيل ، وتصحيح ما انحرف من اصولهم** » فاليهودية بعد ان تأثرت بالفكر البابلي القديم،وفي خروجها عن مفهوم الحنيفية الى العنصرية ومن التوحيد الى الوثنية . فقد جاءت رسالة مصححة مكملة ، وقد وصفها القرآن على هذا النحو من الدقة في قوله : « **ومصدقاً لما بين يدي من التوراة ولأحل لكم بعض الذي حرم عليكم** » ومعنى هذا ان المسيحية من اليهودية مكملة ، والسيد المسيح آخر انبياء بني اسرائيل .

وان أبرز مفاهيم رسالة عيسى هي تحرير العقيــدة ، وتزكية الجانب الاخلاقي والتركيز عليه . وقد جاءت ولادة عيسى على نحو خارق لتلقي في النفوس قدرة الله على خرق النواميس ، واقامة المعجزات بعد ان كانت قد غلبت مفاهيم الفلسفة اليونانية التي تحاول ان تربط السبب بالمسبب وتنكر ماسواه .

وقد أشار القرآن الى مهمة عيسى « **ورسولاً الى بني اسرائيل أني قد جئتكم بآية من ربكم أني أخلق لكم من الطين كهيئة الطير فيكون طيراً باذن الله وأبرىء الأكمه والأبرص وأحيي الموتى باذن الله وأنبئكم بما تأكلون وما تدخرون في بيوتكم إن في ذلك لآية لكم إن كنتم مؤمنين** » وكذلك كانت حياة عيسى كولادته آية من آيات الله ، فقد جاء قومه بما يفوق ما يعرفون من علم بالطب الطبيعي الذي كانوا يمارسونه . وكان ذلك حجة كبرى على وجود الروح بعد ان انكرها اليهود . وعلى وجود المعجزة بعد ان أنكرتها الفلسفات وكانت دعوة عيسى اساساً هي إقامة الروح وتربيتها ، والايمان بالبعث والنشور بعد ان استشرت المادية على الصورة التي عرفت في مجتمعات الشرق والغرب .

## (٢)

غير ان المسيحية لم تلبث بعد السيد المسيح بقليل ان انتقلت من مفهومها المحدود ، من أنها جاءت الى بني اسرائيل مكملة لرسالة موسى ، ومن انها دعوة الى التوحيد والاخلاق ، لم تلبث أن انتقلت الى مجال آخر وأصابها تغيير كثير ، حتى لقد وصفها المؤرخ الأشهر أرنولد توينبي في كتابه (المسيحية بين أديان العالم ) على هذا النحو فقال : كانت المسيحية تركيباً متألفاً جسور اللاهوت اليهودي والفلسفة الاغ يقية .

لقد ظهرت المسيحية في بادىء الامر في احضان البيئة الاسرائيلية مخالفة الايديولوجية التلمودية التي أدخلت الى التوراة واليهودية، والتي ارتكزت على الماديات،بينما ترتكز المسيحية على المعنويات . وفي مقدمتها العبادة والزهد .

وقد دعت الى الاعراض عن الدنيا والاعتراف بالآخرة والجزاء . ( حيث ينكر اليهود البعث والجزاء ) ودعت الى الترفق بالانسان والانسانية ( حيث يدعو اليهود الى سحق كل من ليس يهودياً ) ودعت الى التواضع والمحاسنة للمجتمع البشري ( حيث يؤمن اليهود بالخير لأنفسهم وحدهم) ودعت الى ان الله هو رب العالمين لا رب المسيحيين فقط ( واليهود يعتقدون بأن الله (ياهو)

هو إلهم وحدهم وليس له علاقة بباقي المخلوقات ) ودعت المسيحية الى العفو عند المقدرة ( واليهود لا يعرفون الا المقايضة والربا ) ودعت الى احترام الحق العام بترك ما لقيصر لقيصر ، وما لله لله (واليهود لا يحرمون الا حقوق طائفتهم فقط ) .

غير ان مفاهيم المسيحية على النحو الذي جاءت به رسالة السيد المسيح والانجيل المنزل عليه من السماء لم تلبث ان اصابها تغيير كثير ، وقد جاء هذا التغيير على يدي داعية من أكبر دعاتها هو (بولس) .

وحتى لا نقع في تجاوز الحقيقة . فاننا نترك لكتاب المسيحية الغربيين المنصفين إلقاء الضوء على هذا التحول . يقول أرنست دي بنسين في كتابه : ( Aslam or true Christanity ) « ان العقيدة والنظام الديني الذي جاء في الانجيل ليس الذي دعا اليه السيد المسيح بقوله وعمله . وان مرد النزاع القائم بين المسيحية اليهود، وبين اليهود والمسلمين ليس الى المسيح بل الى دهاء بولس : ذلك المأزق اليهودي والمسيحي . وشرحه للصحف المقدسة على طريقة التجسيم ( Essenie ) والتمثيل وملئه هذه الصحف بالنبوءات والامثلة. ان بولس في تقليده لاسطفانوس داعي المذهب الانساني . قد ألصق بالمسيح التقاليد البوذية ، انه واضع ذلك المزيج من الاحاديث والقصص المتعارضة التي يحتوي عليها الانجيل اليوم والتي تعرض المسيح في صورة لا تتفق مع التاريخ اصلاً ، ليس المسيح بل بولس ، والذين جاءوا بعده من الاحبار والرهبان هم الذين وضعوا تلك العقيدة والنظام الديني الذي تلقاه العالم المسيحي كأساس للعقيدة المسيحية الارثوذكسية خلال ثمانية عشر قرناً .

أما الاستاذ جارذر ( كلية حيرتون بكامبردج ) ففي محاضرة له تحت عنوان : هل المسيح هو المؤسس للدين المسيحي ؟ قال : ان يسوع ظهــــر لمعاصريه بصفة نبي تابع للكنيسة اليهودية لا مضاد لها . وأيده بعض القسوس. وعزا مستر برنحل الدين الى بولس الرسول . وقال: ان مسيح الانجيل ومسيح بولس شخصيتان لا تتفقان .

## (٣)

تجمع المصادر التاريخية على ان رسالة السيد المسيح استمرت الى العام الثامن بعد المسيح ، « وفي ذلك العام ظهر بولس . وكان من اكبر احبار اليهود ، المشهود لهم بالعلم والذكاء . وكان في اول امره من ألد اعداء المسيح وأشد المنكرين على تعاليمه . مع انه لم يجتمع به قط . وكان يحث الناس على احتقار الحواريين وإيذائهم . ثم عاد . فادعى ان المسيح هبط عليه وعلمه الحقائق وأمره باعلانها . فظهر للناس في ثوبه الجديد » .

كان التقاء بولس بالمسيحية بدء المرحلة الفلسفية فيها . والتحول الذي نقلها من وضعها التاريخي المرتبط باليهودية مكملة للناموس . وليست ناقضة إياه الى وضعية اخرى تختلف اختلافاً كبيراً .

ومن هنا فان ما وصل الى اوربا لم تكن المسيحية المنزلة ، وانما كانت تفسيرات بولس لها . ومن ثم ، وفي ظل هذه التفسيرات انقسمت المسيحية . وكان ذلك نتيجة ما طرأ عليها من عقيدة التثليث والبحوث المتصلة بقضايا الناسوت واللاهوت والمادة والقدرة .

وقد ظلت المسيحية وقتاً طويلاً تصارع الوثنية الرومانية . ولم تستطع ان تفرض نفسها على اوربا ولكن قبل الاوربيون منها ما يلائم اخلاقهم وعاداتهم في إطار حياتهم الوثنية اليونانية القديمة ويمكن القـــول ان اوربا

اعتنقت المسيحية . ولكنها ظلت دائماً ترى انها وافدة من الشرق وانها غريبة عليها . وان الروح الاوربية كانت دائماً روحاً وثنية قاسية تنفر من طابع الرحمة والإخاء . وعندما اعتنق قسطنطين المسيحية ، واعترف بها من اديان الامبراطورية الرومانية كانت قد انقسمت الى فريقين . وكان العهد قد بعد بينها وبين العصر الاول للمسيح حتى عقد مؤتمر نيقة ٣٢٥ م . وصدر قرار اعلان ألوهية المسيح . وانه من جوهر الله وانه قديم بقدمه .

لقد غلب العقل الاوربي نظرته الوثنية على الدين الإلهي . وجرى مع مفاهيمه القديمة المتصلة بالاساطير . وديانة مثرا [إله الخلاص] . فالمسيحية الغربية هي عبارة (مثرا) في ثوب جديد . والمثراوية تحوي المعمودية والعشاء الرباني ، وقد كان المثريون يمارسون العبادة في المغاور والكهوف .

وهكذا اصبحت المسيحية إطاراً للمجتمع الوثني بعباداته ورجاله وطقوسه . وقد شغلت قضية تجديد العلاقة بين (الله والرسول) العالم الروماني قرنين من الزمان . وتغلب فريق أثناسيوس صاحب فكرة الثالوث المقدس . وانهزم أريوس وأنصاره اصحاب فكرة القول بأن المسيح انسان ورسول من عند الله. فقد أنكر أريوس لاهوت المسيح . وقال انه مخلوق ليس مولوداً من الأب ولذلك لا يساويه في الجوهر . وأصرت المجامع الكنيسية التي عقدت على الانتصـــار لفكرة الثالوث المقدس ، واعتبرت الاريوسين خارجين عن الدين والكنيسة .

( ٤ )

أبرز مفاهيم المسيحية الدعوة الى :

أولاً : الزهد في الدنيا . والتسامي عن اعادة التطلع الى الآخر ، فقد جعلت المسيحية الحياة قاصرة على العمل للحياة الآخرة ، وقررت ان حياة الانسان ليست في هذه الدنيا وانما في العالم الآخر . وتبـــع ذلك ظهور الرهبانية . وقد اعتمدت هذه الدعوة على قول السيد المسيح : ان مملكتي في العالم الآخر . وقد كانت دعوتها هذه مصدر معارضة شديدة من الاباطرة ، فهم اصحاب السلطان الرسمي ،ومن الفلسفة اليونانية القائمة على عبادة الحياة . فكانت مهمة المسيحية شاقة في اوربا .

ثانياً : القول بأن المسيح جاء لأجل خلاص العالم وتطهيره من خطيئة آدم وافتدائه بنفسه .

ثالثاً : نقل المسيحية من اطارها الطبيعي كآخر أديان بني اسرائيل مكملاً لشريعة موسى الى دين عالمي .

رابعاً : القول بالتثليث .

وقد كان لهذه المفاهيم أثرها في التحديات التي واجهتها من بعد لأنها انساقت بها الى غير طريقها الصحيح . وقد وجدت هذه المفاهيم استجابات مضادة ،

فكانت معارضة اوربا للزهادة من اخطر ما واجه المسيحية . وكانت فكرتا الخطيئة والتثليث من اخطر ما واجه العقل ، وكان نقل المسيحية من اطارها الاخلاقي المكمل الى دين عالمي مصـــدراً لكثير من اوجه النقد لقصورها في ميدان الشريعة ونظام المجتمع .

ولقد أكد الباحثون ان تفسيرات المسيحية انما استمدت مصادرها من الاديان والفلسفات المعاصرة لها . أما فكرة الثالوث فقد كانت موجودة في الديانة الفرعونية . وكذلك فكرة العشاء الرباني . وكانت فكرة الخلاص واردة في الديانة المثرية ، بل ان بعض الباحثين ليصل الى ما هو ابعد من ذلك :

يقول عمر عنايت في كتابه العقائد : ان تعاليم المسيحية موجودة كلها في الاديان المجوسية والزرادشتية والبرهمية والهندستانية والبوذية . فالديانات الهندية والمصرية والبابلية وغيرها التي تتكلم عن شخصيات مثل المسيح هي اقدم من المسيحية بلا شك . وهي في الغالب صدرت في الكتب قبل ان تحرر الاناجيل في القرن الثاني للميلاد .

ويؤكد الباحثون الغربيون انحـــراف تفسيرات المسيحية عن اصولها السماوية :

يقول العلامة درابر في كتابه ( تاريخ اخلاق اوربا ) : دخلت الوثنية والشرك في النصرانية بتأثير الذين تقلدوا وظائف ومناصب عالية في الدولة الرومانية . وقد اختلطت مبادىء الوثنية بالمسيحية . ونشأ عن ذلك « دين جديد » يتجلى فيه النصرانية والوثنية سواء بسواء . هنالك يختلف الاسلام عن النصرانية اذ قضى الاسلام على منافسة الوثنية قضاءاً باتاً . ونشر عقائده خالصة .

أما النصرانية الملقحة بالوثنية المشوهة . فقد ابتدعت رهبانية تعذيب الجسم مثلاً كاملاً في الدين والاخلاق ، وكان من نتائج الرهبانية ان خلال الفتوة والمروءة التي كانت تعد فضائل عادت فاستحالت عيوباً ورذائل . وزهد الناس في البشاشة . وخفـــة الروح والصراحة والسماحة والشجاعة والجرأة وهجروها .

وتصور لورد ماكولي تحول المسيحية الى ديانة وثنية على هذا النحو : لم يسلم تابعو المسيح من النصارى ان يصيبهم في ايمانهم مثل ما اصاب اليونان والفرس وغيرهم من قبلهم . فتمثل الإله لهم في صورة آدمي مشى بينهم وشاركهم في اغراضهم . وما يعتريهم من الانحلال والاضمحلال . كما كان يبكي على القبور ، وينام في الحظائر . فظهروا بذلك للعالم كله في لباس جديد من الوثنية . ثم كان لهم من القسسين والرهبان بعد ذلك يضف من الآلهة على مثال ما كان لليونان . فكان القديس جورج لديهم إله الحرب ، كما كان المريخ عند اليونان . وكذلك اتخذوا العذراء وسسليا وغيرهما آلهة للجمال وفنون الادب كما كانت الزهرة وسبـع كواكب اخرى آلهـــات لدى اليونان .

ويرى الكثيرون ان المسيحية ( من حيث هي منهج مكمل الموسوية ) فانها لم تتضمن نظاماً وتشريعاً . ومن ثم اضطرت ان تأخذ نظاماً لها من الوثنية الفرعونية وطقوسها وتقاليدها التي كانت في الاصل مستوردة من اليونان . ومن هنا بدأت روح الوثنية اليونانية تربط بين الفرعونية والمسيحية ففي الفرعونية ثالوث فرعوني (اوزريس وايزيس وحورس) وفيها الاكليروس (رجال الدين والمعابد والكهنة) وفيها صكوك الغفران، والقربان والموسيقى والاناشيد والخمر والخنزير وتوابيت الموتى والعلامات والرموز .

ومن ناحية اخرى تغلبت الفلسفة اليونانية بعد ان دخل الكثير من

اليونانيين ، وهم حملة العلم،في الدين المسيحي ، ولما لم يكن للنصارى الاولين من العلم ما يمكنهم من مقاومة الفلسفة اليونانية تغلب العنصر المسيحي اليوناني . وتغلبت مسائل الفلسفة اليونانية . فلما تغلب مذهب ألوهية المسيح بعد جدل امتد قرنين كاملين ، طرد الموحدون الاريوسيون . وشتت شملهم . ونزعت الحقوق المدنية منهم .

## (٥)

تمسحت أوربا رسمياً عام ٣٣٠ وسقطت الامبراطورية الرومانية عام ٤٧٦ وقد أثار ذلك في التاريخ جدلاً شديداً . أتكون المسيحية هي التي قضت على الحضارة الرومانية ، ومن الحق أن يقال إن المسيحية حررت أوربا من أشياء كثيرة . وأهم ما حررتها منه عبادة الأباطرة . والشعوذة والسحر والأساطير والأصنام . وحررتها من طوابع اليهودية التلمودية القائمة على المادية المسرفـة في العنصرية ، وانهـا نقلت أوربا مـن الوثنيـة إلى الدين . ومـن القسـوة إلى الرحمة .

ويشير توينبي إلى هذا المعنى ، فيقول إن المسيحية حطمت قيـد خنوع الفرد للدولة على النحو الذي عرفه المجتمع اليوناني الروماني . ودفعت أتباعها إلى التحرر من الخدمة العامة . والعزوف عن السلطان الظالم بمـا ألقت إليهم من فكرة ( احتقار الحيـاة ) [1] وأن مركز الثقل انتقل من الحياة المعاصرة إلى الحيـاة المستقبلة . ثم يصور توينبي أثر هـذا الاتجـاه في بنـاء الحضـارة فيقول :

[ ولا شك أن الحياة الدنيا قد خسرت بهذا التطور خسرانا مبيناً . فقد

(١) مختصر دراسة التاريخ م ٣ .

يبدأ تفتت عام في الكيان السياسي . وانحلت عرى الدولة والأسرة . وقال بناة المجتمع إلى تحليله إلى عناصره الفردية . وقاده ذلك إلى الارتداد الى البربرية . لأن الحضارة لا تقوم إلا بفضل تعاون المواطنين الفعال . وحرصهم على إخضاع مصلحتهم الخاصة للصالح العام — ترك العالم الدنيوي يهلك من حولهم . وقد قرنوه بالشر . واستمرت هذه الفكرة تسيطر على عقول الناس ألف سنة ] .

ويصور توينبي التحول الذي حققته المسيحية حين نقلت الناس من نظرية الإله اليهودي القاسي الجبار إله الحرب إلى نظرية الأبوة . يقول : ( كانت المسيحية التي استأثرت بنصف العالم الهليني تعد صورة معدلة للديانة اليهودية . وقد تم هذا التغيير عن طريق تطعيم الديانة اليهودية بفكرة هيلينية تعد في نظر اليهود على النقيض تماماً من كل ما تمثله الديانة اليهودية : ألا وهي فكرة « التجسيد » ويرى توينبي أن المسيحية حين نقلت العالم الهليني من تعدد الآلهة إلي فكرة التجسيد . لم تستطع أن تتحرر من الوثنية الهلينية : « لما كانت الديانة الهلينية تؤمن بتعدد الآلهة . إذا بالمسيحية التي اكتسبت لدى الهلينية سحراً طاغياً كان كفيلاً بأسر النفوس الهلينية . ومع ذلك فلم يكن في وسع الديانة المسيحية ذاتها أن تشق طريقها في العالم الهليني ، لو لم تتخذ لنفسها ثياباً هلينية مثلما فعلت الديانات التي تصدت لمنافسيها ، والعقيدة الهلينية التي كان من صورها عبادة الإنسان »

●

هذا رأي المؤرخ توينبي المعروف بعقيدته المسيحية المسيطرة على اتجاهات فكره . أما المؤرخ جيبون وهو صاحب نزعة هلينية صريحة . فإنه يرى نفس الرأي . ولكنه يفسره على نحو آخر يقول : إن إدخال المسيحية . أو على الأقل إساءة استعمالها كان له بعض التأثير في انحطاط الدولة الرومانية

وسقوطها . فقد نجح رجال الاكليروس في التبشير بآراء تدعو إلى الصبر وإيثار الجبن . ولم تشجع الفضائل التي تبعث على النشاط في المجتمع . ودفنت آخر بقايا الروح الحربية في الأديرة . وجانب كبير من الثروة العامة والخاصة صار وقفاً لمطالب البر والورع المموهة ، ورواتب الجند التي كانت توزع في إسراف على جماهير من الرجال والنساء لا خير فيهم . وليس في استطاعتهم سوى أن يبشروا بمزايا الزهد والتقشف . وفضائل العفة والطهارة والإيمان والحماسة والفضول . ويرى جيبون : أنه إن كان سقوط الدولة الرومانية قد يحمّل به دخول قسطنطين في المسيحية فإن ديانته المنتصرة كسرت حدة السقوط ورفعت طبيعة الغزاة الوحشية .

وقد أدرك جيبون[1] أن روح المسيحية كانت معادية لبناء المجتمع الروماني . ولذلك أثبت أنها كانت عاملاً من عوامل اضعافه حينما أصبحت ديانة الدولة ، ولكن المسيحية استطاعت حماية عالم العصر الوسيط من التصدع من خلال عصر الانحطاط . وبذلك أنقذت الإنسان من أسوأ أنواع الشر حينما انهار البناء ووقعت الكارثة .

•

غير أن جيبون لا يرى أن ظهور المسيحية في الدولة الرومانية هو المصدر الوحيد لسقوطها وإنما يرى أن الانحلال والترف والإباحية والعبودية كلها من العوامل التي أودت بهذه الامبراطورية ، فهو يؤكد أن الترف والتخنث هما سبب سقوط الامبراطورية . ويقول : ان الفساد الذي نشأ في البلاط . وشاع في المدن نفث السموم في معسكرات الفيالق ، وان عدم القدرة على الثبات في مواجهة الشدائد التي أصابت الفيالق الرومانية . والتي كان

---

(١) على حد تغيير أحد الباحثين الذين ترجموا كتاب سقوط الامبراطورية الرومانية .

منشؤها الترف كانت السبب المباشر في تدهور الامبراطورية وسقوطها . وهو يؤكد أن الترف والتخنث كانا نتيجة لا سبباً . ويقول إن الإسراف الجنوني الذي يسود في حالات الحرب أو الحضارة يمكن أن يفسر تقدم الترف خلال الكوارث والاحداث المفزعة في الامم المشرفة على السقوط . ويشير جيبون إلى عامل آخر هام ، هو فقدان العدالة في توزيع الضرائب ، ومدى الضيق الذي يعانيه الشعب من جراء قسوة الاغنياء والمياسير الذين ألقوا الاعباء على كاهل الشعب الفقير في جعل أفراد الامة الرومانية يرفضون القيام بواجبات المواطن الروماني .

ويشير جيبون الى نظام العبودية القاسي ، ويعده من أبرز عوامل انهيار الامبراطورية الرومانية .

●

ثم يقـــول ان سقوط روما نتيجة طبيعية للعظمة المفرطة التي تجاوزت الحدود ، فقد اتضحت أسباب التحلل والفناء . وضاعف امتداد الامبراطورية من بواعث الهـدم والتـدمير وقـال جيبـون : ان الرخـاء أنضج أسبـاب التحلل والفناء .

●

واذا كان جيبـون يرى أن المسيحيـة مرتبطـة بسقـوط الامبراطـورية الرومانية . ويعدها من طبيعة أسباب سقوطها . فان معظم المفكرين في القرن الثامن عشر يقفون [1] مثل هذا الموقف من الدين عامة ، ومن المسيحية خاصة ، وذلك لاعتقادهم أن الدين يقوم على خرافات نمت وتجمعت في عصر

---

(١) من بحث : عن كتاب جيبون وسقوط الامبراطورية ( تراث الانسانية – مجلة ) .

الهمجة . وأنتجت التعصب الأعمى ، وعدم التسامح . وكانت هذه الآراء مما عرضه (مونتسكيو) في كتابه : عظمة الرومان وانحطاطهم .

●

ويرى المؤرخ زوربيموس ان المسيحية من الاسباب الهامة في تردي الاحوال في الامبراطورية ويحمل الامبراطور قسطنطين الكبير المسؤولية الاولى . وان سقوط الامبراطورية في الغرب انما جاء نتيجة لنقمة الآلهة الوثنية .

أما القديس أوغسطين فيرى ان سقوط روما (ويسميها بابل الثانية) فهو عبارة عن مرحلة تمهيدية لانتصار مملكة الله الخالدة يقول في كتابه : مدينة الله انها يد الله المرشدة للحوادث الكونية وتوجيهها . ولا مفر للبشرية من اتباع الارادة الإلهية والانصياع لها . وما التاريخ الا مسيرة للبشرية نحو دار الخلود .

●

يقول الدكتور ابراهيم علي طرخان : سقطت روما بعد سبعة قرون من تاريخها الجمهوري . وبعد خمسة قرون من امبراطوريتها وفقــــدت أملاكها ومجدها ٤٧٦ فعلاً واسمياً ٤٨٠ م وهكذا تغيرت خريطة اوربا السياسية ، وكان من تاريخ سقوط الامبراطورية في الغرب قيام الممالك الجرمانية التي شكلت دول اوربا الغربية الحديثة . ومن النتائج الخطرة انتقال مركز أهمية التوجيه والقيادة من قصور الأباطرة السياسيين الى أروقة ( اللاتران ) أي الى الكنيسة في روما ، اذ غدا أسقفها البابا أهم شخصية رومانية باقية في ايطاليا. ومعنى هذا تطور خطير للكنيسة وسلطتها واختصاصاتها . يضاف الى ذلك أثر السيطرة الدينية في نواحي الثقافة المختلفة مما أثر اعمق الأثر في حيــــاة المجتمع الاوربي في العصـــــور الوسطى وباستيلاء ( ادواكر ) على روما

٤٧٦ م[١] بدأ ما اصطلح المؤرخون على تسميته العصور المظلمة في غربي اوربا .

ويقول : في مطلع القرن الخامس الميلادي اقتحم الأريك القوطي مدينة روما ونهبها فاضطرب العالم المسيحي بوقوع تلك الكارثة بمدينة خالتها القرون والأجيال مركز الهيبة والسلطان منذ قديم الأزل . هل كانت الطامة انتقاماً للوثنية ومعابدها القديمة . أم كان ما حدث هو الجزاء لاعتناق المسيحية . وقد رَدّ القديس أوغسطين في كتابه مدينة الله . فقال : ان روما مدينة أرضية من صنع البشر وهي لا تقاس في شيء الى مدينة الله التي لا تنال فيها الظواهر المادية ، ولا تحدها الحدود . بل تَسَعُ كافة المؤمنين حيث يكونون.

وأوضح ان الآلهة اليونانية لا تملك لنفسها نفعاً ولا ضراً ، ولا دخل لها في الخير والشر او العدالة . **« وكذلك أخذ ربك إذا أخذ القرى وهي ظالمة إن أخذه أليم شديد »** .

---

(١) م ٢٠ / ١٩٥٨ مجلة كلية الآداب .

## ( ٦ )

جاءت المسيحية والعالم في أشد الحاجة اليها : في مواجهة النظام العبودي في روما . ومادية اليهود واستعلائهم العنصري : وانتشرت لأنها ديانة البر والتسامح والغفران وكان اكبر انتشارها بين الفقراء المحرومين من بهاء وزهو الحياة الرومانية .

وواجهت المسيحية سطوة الفكر اليوناني ومفاهيم الرومان عليها . وكان لزعامة بولس ( اليهودي الميلاد الروماني الجنسية الاغريقي الثقافة ) أثر كبير في الصورة التي تبلورت بعد عليها . وفي التفسيرات التي جاء بها .

فقد انفصلت المسيحية عن اليهودية واتجهت الى العالمية . وهي ليست مستقلة عنها الا من حيث تحريرها من الانحراف المادي . وظهرت نظرية تأليه المسيح ، وليس المسيح الا بشر . وهو آخر انبياء بني اسرائيل، وكانت المسيحية ثورة اصلاحية لتنقية الديانة اليهودية ، مما علق عليها من شوائب ، فأصبحت ديانة مستقلة تضارع اليهودية وتصارعها الوثنية الرومانية . وقد واجهت المسيحية في الامبراطورية الرومانية محنة كبرى ، كانت قمتها مظالم (قلديانوس ٣٠٣) في القتل والاضطهاد ، وهدم الكنائس ، وإحراق الكتب المقدسة . وكان من آثاره تفشي نظام الرهبنة ونشـــوء الأديرة . وعزلة المسيحيين عن المجتمع والحياة . وقد امتد اضطهاد المسيحية حتى جاء قسطنطين

فأطلقها فأصبحت دين الفكرة . فلما سقطت الامبراطورية سادت الكنيسة وسيطرت على المجتمع الاوربي منذ عام ٤٧٦ تقريباً الى القرن الخامس عشر : أي قرابة ألف عام . وهكذا سيطرت المسيحية ألف عام على اوربا . ومن قبل سيطرت الحضارة الإغريقية الرومانية الف عام على العالم ( ٧٠٠ قبل الميلاد الى ٧٠٠ م ) كذلك ليرضي المثقفين اليونان . فاستعار من فلاسفة اليونان فكرة اتصال الإله بالأرض عن طريق الكلمة او الابن الإله او الروح القدس .

ولا ريب ان المسيحية ألقت في اوربا كلها مفهوماً جديداً من الرحمة والسماحة خفف كثيراً من آثار الأعوام الالف التي قضتها الحضارة اليونانية الرومانية في نظامها العبودي وقسوتها الوحشية ، وعبادة الجسد ، وتأليه الانسان والصراع والترف والانحلال . فلما جاءت المسيحية دعت الى الحب والرحمة والزهد في متاع الحياة . ولكنها لم تستطع ان تتحرر من قيود الوثنية ، ومن عقائد الوثنيين فداخلها من ذلك كثير :

داخلها في عقيدة التوحيد وفي الفوارق العميقة بين الألوهية والنبوة والانسانية .

وداخلها في المفهوم الارتباط بالحياة بالترف او الزهد .

وداخلها في مفهوم المسؤولية الفردية والخطيئة .

وقد كان ذلك واضحاً للمؤرخين والباحثين . واليه اشار اكثرهم انصافاً ، وعللوا ذلك بأن المسيحية أرادت ان تكسب قلوب الوثنيين الرومانيين ، فأعطتهم إطاراً مشابهاً لأديانهم السابقة يقول بيري : كان عيسى يهودياً . وقد ظل كذلك ابداً ، ولكن شاؤول كون المسيحية على حساب عيسى ، فشاؤول الذي سمي فيما بعد بولس . هو في الحقيقة مؤسس المسيحية ، وهو يمتاز بأنه صاحب دراية في السياسة والابتكار . وقد أدخل بولس على ديانته

بعض تعاليم اليهود ليجذب له العامة من اليهود . وأدخل صوراً من فلسفة الاغريق ليجذب له أتباعاً من اليونان . فبدأ يذيع ان عيسى منقذ ومخلص وكانت تعده الاصطلاحات شهيدة عن كثير من الفرق اليهودية ، وقال آخرون ان المسيحية دخلت الى مجتمع متشكل في طوابعه وقوانينه وتقاليده . فان تأثيرها في تغييره دقيق . ومنها أخذت وأعطت ، ولكنها لم تستطع ان تحرر المجتمع الروماني من وثنيته . وان أعطته روحاً من الرحمة والسماحة لم يلبث ان ثار عليها . وعاود طابعه القائم على القسوة ، أما فيما يتعلق بالعقائد فانالنهضة العقلية كشفت له عن انهناك خوارق ومعميات وأسراراً وأساطير ليست مقبولة عقلاً . ولذلك جاءت تلك المعارضة العميقة للدين بعامة والمسيحية بخاصة .

واذا كان بولس قد اضاف الى المسيحية افكاراً من الديانات القديمة كفكرة الانقاذ ، وتقديم النذور والهياكل والشموع والترتيل والتماثيل وغيرها من الطقوس الوثنية . فانه لذلك كله قد فصل أولاً دعوة عيسى عن منطلقها الحقيقي مع اليهودية مكملة للناموس ، وليست ناقضة اياه ، ثم انه وضع لها من الافكار ما يتنافى مع الفطرة والعقل والوحي السماوي الصافي ، وكان هذا هو أخطر التحديات التي واجهت المسيحية في عصر النهضة بعد استعلاء مفاهيم العقل ، ومقايسات العلم والمنطق ، وكان اخطر ما ابتدعت مسيحية بولس : الكنيسة والرهبانية :

أما الكنيسة فقد سيطرت وحكمت ، وأقامت نفوذاً خطيراً في وجه الامراء والناس كافة . وأنشأت المحاكم القاسية ، وفجرت المذابح والخلافات. وأعطت نفسها حق معرفة الأسرار . وتفسير الكتب المقدسة .

أما الرهبانية فقد عارضت الحياة البشرية بمنطق العزلة . وتعذيب الجسم. وكانت خطراً كبيراً في مواجهة حظر الاباحية الرومانية القديمة ومعارضة الفطرة .

وكانت هاتان المنظمتان بالاضافة الى عسر العقيدة من اكبر العوامل التي واجهت المسيحية من بعد .

وبدأ كأنما قد اتخذت المسيحية خطاً واضحاً هو الزهد والرهبنة والعزلة عن الحياة في مواجهة الخط الذي اتخذته اليهودية بالاسراف في متاع الحياة والربا والإباحة ، وكان كلاهما قد بعد بعداً شديداً عن الفطرة والوحي . واسلوب الدين الحق ، فغلبت على اليهودية العنصرية ، وغلبت على المسيحية الرهبانية .

ولم يلبث ان غلب طابع الاغـــريق على المسيحية وعلى اوربا والدولة الرومانية .

## الفصل السابع

# الفرعونيـــة

كان المجتمع الفرعوني في مصر شطر مجتمعات فارس واليونان والرومان : وثنية قائمة على التعدد ، وعبودية قاسية تسود فيها عبادة الفرد ، وعبادة الامبراطور وكانت في مصر عبادة الفرعون . وفي الديانة الفرعونية القديمة الثالوث المقدس : ايزيس وأوزريس وجورس . وقد اختلفت الآلهة في طيبة فهي : أمون وجوت وسخت واختلفت في منف فهيفتاح وسخت وأموزيس ولكنها بقيت محتفظة بالتعدد . كما عرفت الحضارة الفرعونية قداسة الحيوان: العجول والكباش والأوز وعبد العجل أبيس . ووضع موضع القداسة . وبنى له الملك أحمس معبداً فخماً في منف كما تعددت أسماء الآلهة وانواع الطقوس . وعبد النيل وأهدي اليه وألـّه فرعون حياً ميتاً .

« ولما احتك المصريون بغيرهم في مدرسة عين شمس . ثم في مدرسة الاسكندرية ، أثر الفكر الوثني المصري في الفكر الاغريقي . ثم في الفكر المسيحي ، حتى ليقال ان قصة مريم العذراء والمسيح كما تصورها المسيحية

لتشبه في بعض الوجود قصة ايزيس وابنها الإله حورس في مصر القديمة . وان خروج المسيحية من التوحيد الخالص . وأخـــذها بفكرة الثالوث الى جانب فكرة التوحيد ليذكرنا بما كان في مصر القديمة من ثواليث بين الآلهة رغم إله معين على غيره من الآلهة »[1].

وكان المصريون شأن الفرس والشرقيين يألهون القوى الطبيعية ويألهون حكامهم ، وكانت الشمس في نظرهم أكبر الآلهة . كان تعبير كبرى الظواهر الطبيعية ـ ولها قوة روحية تدير الكائنات ـ وكان هناك آلهة اركان العالم الاربعة .

وقد عرفت عبادة الفراعنة الثالوث والاكليروس وحلول الغفران والقربان وتوابيت الموتى والعلامات والرموز والمعابد والكهنة . ونقلتها كلهـــا الى المسيحية .

وكانت الهياكل الفرعونية مرتبطة بحسابات النجوم والافلاك . وكانت الهياكل موجودة في عبادات اليونان والبابليين والمجوس .

---

(١) من بحث نشرته مجلة الانصار ( ١٣٦١ هـ ) .

( ٢ )

اتصلت مصر الفرعونية بالمجوسية الفارسية ، كما اتصلت بالوثنية اليونانية والرومانية . وقد كانت هذه الصلات سياسية وتجارية ، منها دخول قمبيز عاهل الفرس والاسكندر قائد اليونان .

ومن ثم اصبح لمصر تاريخ مرتبط بالفرس واليونان والرومان . وقد اتسعت علاقات الإغريق تجارياً بالشواطىء الشرقيـــة ، واتسعت مع مصر خلال القرنين السابع والسادس قبل الميلاد .

وعندما ثبت الفرس أقدامهم في مصر ٥٢٥ قبل الميلاد تحولت الى ولاية فارسية . ولم يمنــع ذلك من تدفق افواج الإغريق على مصر حتى فتحها الاسكندر ٣٣٢ ق.م .

ولما جاء الاسكندر رحب به كهنة آمون ورسموه ابناً لكبير آلهتهم . ومنحوه سائر الالقاب الفرعونية . ويرجع السر في ذلك انهم اعتــبروا الاسكندر منقذاً لهم من حكم الفرس بعد ان هزمهم في أغلب ما يملكون من البلاد . ويعد فتح الاسكندر لمصر في نظر المؤرخين بمثابة نقطة تحول كبرى، اذ ينتهي عندها تاريخ مصر الفرعونية . ويبدأ تاريخ جديد استمر الف عام بين اليونانية والرومانية .

فلما توفي الاسكندر ورثه البطالسة . فأخذت الصلة بين مصر واليونان تقوى حتى صارت اللغة اليونانية هي اللغة الرسمية . وقد بقيت كذلك حتى دخول العرب ، وكان لذلك أثره في العقائد والثقافات والفكر كله .

وفي هذه الفترة تحولت الكتابة من المصرية القديمة ممثلة في الهيروغليفية الى الأبجدية اليونانية . أما بطليموس فقد اقام في مصر ملكاً متوارثاً لأبنائه وأحفاده طيلة ثلاثة قرون من الزمان . وفي هذه الفترة أنشأ اليونان المعابد في مصر لآلهتهم الإغريقية . « وحاول بطليموس ان يوحد بين المصريين والإغريق عن طريق الدين ، فانتهى الى ديانة الثالوث المقدس، وكان على رأس هذا الثالوث إله مصري قديم هو (أوزوريس ابيس) فوضعوا له اسماً اغريقياً هو (اسرابيس) وقدموه للاغريق في صورة اغريقية خالصة كي يرتضوه إلهاً ويقبلوا على عبادته[1] » .

وكان الاغريق يعتبرون أنفسهم أصحاب حضارة رفيعة تسمو كثيراً على حضارة المصريين ، وأبناء جنس هو أسمى الأجناس البشرية بلا استثناء .

« أما المصريين فقد (تأغرقوا) فقد تعلموا اللغة الاغريقية وأتقنوها قراءة وكتابة . واتخذوا لأنفسهم أسماء اغريقية ، وأقبل الإغريق على عبادة الآلهة الفرعونية التي خلعت عليها مسيحية اغريقية طفيفة » .

ثم لم تلبث مصر ان انتقلت الى النفوذ السياسي والثقافي للامبراطورية الرومانية . وقد استغرق تحويل حوض البحر المتوسط الى امبراطورية رومانية نحواً من قرنين ونصف قرن . وكانت مصر آخر ما سقط في أيدي الرومان من اقطار هذا البحر عقب موقعة (اكتيوم) ودخول اغسطس مصر في اول اغسطس (٣٠ ق.م) وأصبح هذا العام حداً فاصلاً في تاريخ روما

---

(١) محمد عواد حسن ـ حوليات كلية الآداب م / ٣ / ١٩٥٥ .

بين نهاية العصر الجمهوري وبداية العصـــر الامبراطوري . وقد قامت الامبراطورية الرومانية او تكاملت .

وبعد ان كانت مصر دولة مستقلة تحت حكم البطالمة بالاسكندرية أصبحت ولاية تتبع سلطان روما . وفرضت روما على مصر خزينة مالية هي قمح مصر .

والمعروف ان كليوباترة ابنة بطليموس الزمار اعتلت عرش ابيها مشتركة مع اخيها بطليموس الثالث عشر ، وتزوج الأخوان وفقاً للتقاليد الموروثة ، وانتهى دور كليوباترة بزوال دولة البطالمة وتحويل مصر الى ولاية رومانية .

وجاءت المسيحية ودخلت مصر على يد القديس مرقص عام ٥٤ ميلادية . يبدأ صراع عنيف بين المسيحية والوثنية . وكان للدولة الرومانية الحاكمة موقف غاية في الظلم والقسوة والفتك في مواجهة الديانة الجديدة . وكان كلما تقدم العهد نجد المسيحية تثبت أقدامها في مصر بينما تنهزم الوثنية الرومانية منها حتى اعترف الامبراطور قسطنطين بها ديناً رسمياً له وللدولة عام ٣٢٥ وتحول كثير من المعابد المصرية الى كنائس . ثم اغلق الباقي حتى جاء الامبراطور جوستنيان فأرسل قائده نرسيس الى جزيرة (فيلة) حيث قضى على البقية الباقية من عبادة ايزيس وأوزوريس[١] وقد قدمت المسيحية في مرحلة الاضطهاد الكثير من ابنائها الشهداء، وخاصة ايام حكم (روفلستان) حوالي ٢٨٤ م .

وفي مصر بدأت الرهبانية ، وأقيمت أديرتها في كل مكان وبدأ تقارب واضح في الفكر والعقائد والثقافة بين القبطية من ناحيـــة ، والفرعونية واليونانية من ناحية اخرى ، وظهرت اللغة القبطية جامعة بين الهيلوغريفية

---

(١) المقتطف م ١٩٤٤ .

والابجدية اليونانية . وقد انقسمت الى خمس لهجات ، واستمدت الحروف الصائتة الى جواب الحروف الصامتة .

وكانت لمدرسة الاسكندرية الفلسفة أثرها البعيد المدى في الطابع الذي عرفته المسيحية . وكان من اكبر اعلامها . ميلون وأفلوطين .

وقد كان دخول المصريين في المسيحية بمثابة احتجاج صامت ازاء ظلم الرومان الذين اقاموا نظام العبودية الصارخ الذي استنزف المصريين وجعلهم حطاماً لعبادة الفرعون . فقد وجدوا فيها تحررهم من ظلم الحاكم ومن الوثنية المغرقة .

يقول العلامة الأثري ماسبيرو في محاضرة له : لو كان عامة الشعب من المصريين هم الذين اعتنقوا النصرانية لتغيرت مداركهم . ولكن الذي حدث ان رجال الطبقات العالية من الوثنيين من سلالة روساء الكهنة واصحاب الاقطاعات والعظماء استسلموا لتيار هذا الدين بعد ان قاوموه مدة من الزمن . غير انه بقي طيّ ظاهرهم النصراني كثير من الروح المصرية القديمة وقد قيل كما تعلمون انالكنيسة الاولىللعهد الاول المسيح استمدت تعاليمها منمصدرين: انطاكيه والاسكندرية[١] .

ويرى كثير من الباحثين والمؤرخين تأسيساً على هذا الرأي ان الفرعونية لم تضمحل ، بل اتخذت من ظهور المسيحية ذريعة لتجديد حياتها بضع مئات من السنين قبل ظهور الاسلام وان هنـــاك تشابهاً واضحاً بين الفرعونية والنصرانية . وان هناك اواصر تجمـــع بين قواعد العقيدتين وقد اشار جوستاف لوبون الى ان اغلب آلهة المصريين تظهر بشكل الثالوث من الأب والأم والابن . وكل مدينة تعبد خاصة احد هذه الآلهة الثلاثة . ولكن هناك

---

(١) محاضرة ماسبيرو في ١٩ نوفمبر ١٩٠٨ (المقطم) .

ثالوثاً واحداً بينها هو (أوزوريس ، وإيزيس ، وحورس) .

وكان نظام الاكليروس ، او توظيف رجال الدين قائماً في الفرعونية كما هو في النصرانية ـ وكان للمعابد الكبيرة ولرؤساء الكهنة في وادي النيل حرس خاص على نظام الميليشيا لتنفيذ الاوامر كما كان موجوداً عنده بأبواب القرون الوسطى كما لا يزال موجوداً في الفاتيكان .

وفي الديانة الفرعونية كان تنظيم الاستبداد او تبرير الظلم ونظام الطبقات القائم على سيادة الكهنة وعبادة الفرعون ـ وهناك العبوديين المنبوذين الذين لا يرقون ابداً الى مصاف الطوائف المتحررة . وهو شبيه بالنظام العبودي في فارس وفي اليونان وفي الامبراطورية الرومانية . وهناك من التشابه بين المسيحية والفرعونية مسائل القربان وقداسيه والموسيقى والأناشيد والخمر والخنزير وتوابيت الموتى ، والعلامات والرموز . والرباط الذي لا ينفصم بين الديانة القديمة وبين النصرانية في مصر هو اللغة الهيروغليفية العامة[١] وكما التقت المسيحية في الغرب بالوثنية الاغريقية وتشكلت في اطارها فاقتربت من نفوس الوثنيين فاعتنقوها . كذلك تشكلت المسيحية في البيئة الفرعونية بالمعتقدات القديمة . لذلك امكن ان يتقبلها الفكر المصري ويعتنقها .

---

(١) احمد صبري ـ قناع الفرعونية .

# الفصل الثامن

# الوثنية العربية

كانت الجزيرة العربية قد عرفت التوحيد منذ دعوة ابراهيم واسماعيل . ولكنها لم تلبث مع مرور الزمن ان داخلتها الوثنية . فانحرفت عن عقيدتها الخالصة .

والمؤرخون على « ان الوثنية في الحجاز وجزيرة العرب كانت مرضاً أجنبياً طارئا عليها من شرق الأردن . وبلاد كنعان حمله منها عمرو بن لُحى في بعض الوقت الذي تولت فيه خزاعة الحكم في الحجاز قبل الهجرة بنحو أربعمائة سنة ، فهي أقصر وثنيات العالم عمراً » ولأنها قصيرة العمر لم تقم لها في بلاد العرب هياكل ولا تهاويل او أنظمة وأساطير كالتي كانت للوثنية العريقة في الهند والصين ومعابد أثينا وروما .

« ولقد كان لحنيفية ابراهيم بقايا امتدت الى زمن البعثة المحمدية ، بل كان في العرب بقية من شريعة نبي الله شعيب » .

وقد تركزت الوثنية العربية في الشرك بالله ، وعبادة الأوثان ، وعبادة قوى الطبيعة ( الشمس والقمر والنجوم ) وعبادة الحيوان وعبدوا تمثال الانسان ( أساف ونائلة وعبدوا اللات والعزى ) .

يقول هشام بن الكلبي في كتابه «الأصنام» ان الذي سنح بالعرب الى عبادة الأوثان انه كان لا يظعن من مكة ظاعن الا احتمل معه حجراً من حجارة الحرم، تعظيماً للحرم وصبابة بمكة . فحيثما حلوا وضعوه، وطافوا كطوافهم بالكعبة . ثم سنح بهم ذلك الى ان عبدوا ما نحتوا ، ونسوا ما كانوا عليه . واستبدلوا بدين ابراهيم واسماعيل غيره ، فعبدوا الأوثان، وصاروا الى ما كانت عليه الامم من قبلهم . وانتجثوا ( أي استخرجوا ) الاصنام الخمسة التي عبدها قوم نوح عليه السلام فعبدوها . وفيهم على ذلك بقايا من عهد ابراهيم واسماعيل يتنكسون بها . وهي أصنام ود ( على صورة رَجُل ) وسواع ( على صورة امرأة ) ويغوث ( على صورة أسد ) ويعوق ( على صورة فرس ) ونسر ( على صورة نسر ) .

وعرف العرب الكهانة والعرافة وزجر الطير وضرب الحصى وخط الرمل والاستقسام بالأزلام والميسر والسحر . وهي مما نقل اليهم من عقائد الأمم المجاورة ، وهو ما أطلق عليه اسم الجاهلية . والجاهلية تعني نبذ التوحيد الصرف الذي جاء به ابراهيم واسماعيل .

---

(١) الرعيل الاول – السيد محب الدين الخطيب .

## ( ٢ )

يقسم الباحثون الجاهلية الى جاهليتين : جاهلية الفطرة وجاهلية الفترة ( وهي أن يكون للأمة حضـــارة فقدتها وتدهورت حياتها ) وجاهلية العرب : جاهلية فترة موقوتة تحمل آثاراً قوية من حضارة او حضارات سابقة .

والقرآن يشهد للعرب بحضارات سابقة فهم على دين ابراهيم . وأرسل الى العرب رسل منهم هود وصالح وشعيب ، ولكل رسالة دين ولكل دين حضارة[١] والجاهلية لا ينصرف معناها الى الجهل الذي هو ضد العلم . وانما الى ما كان سائداً بينهم من وثنية من ناحية والى معنى الجهل الذي هو ضد الحلم وليس ضد العلم[٢] وأبرز معالم الوثنية العربية :

اولاً : (الربا) وقد جاء اليهم من اليهود . فقد كانت اليهودية والنصرانية في جزيرة العرب وكانت التجارة بين الشمال والجنـــوب ، وكان في الجزيرة العربية نقد الفرس ونقد الروم، وهو يعلو ويهبط تبعاً لانتصارهم او هزيمتهم[٣] .

---

(١) ابراهيم مصطفى من بحث له عن العصر الجاهلي .

(٢) الدكتور يحيى الجبوري : الجاهلية .

(٣) نفس المصدر .

وقد قام في الجزيرة العربية المجتمع الربوي بكل فساده وترفه وآثاره .

ثانياً : ( وأد البنات ) وقتل الأولاد ، وكانت بعض القبائل تئد مولودها اذا ظهر انه أنثى عقب ولادته مباشرة حيث تقذف به في حفرة وتهيل عليه التراب . وكانوا يعتقدون ان البنات رجس من عمل الشيطان ، وكانت هناك عادة الإماء متخذات أخدان ، وهناك الجمع بين الاختين .

ثالثاً : ( عبادة الأصنام ) وهناك الأوثان والحجارة والأشجار . وقد ذكر ابن الكلبي ان من بين الاصنام التي كانت العرب تعبدها ما يتمثل على صورة الانسان مثل هبل ( وكان من عقيق احمر على صورة الانسان مكسور اليد اليمنى ادركته قريش كذلك فجعلوا له يداً من ذهب ) ومنها أساف ونائلة. وقد وجد في الكعبة يوم فتح مكة ثلاثمائة وستين صنماً . وهناك (المقه) إله سبأ الكبير الذي لمع فيمملكة سبأ زهاء الف عام . وبنيت له المعابد الضخمة ، وكانوا يتخذون من هياكل هذه الأصنام والأوثان أنصاباً من حجارة يصبون عليها دماء الذبائح التي يتقربون بها الى آلهتهم . وقد عرف الصنم بأنه ما كان مصنوعاً من ذهب او فضة او خشب على صورة الانسان . أما الوثن فهو ما كان مصنوعاً من حجارة ، وهناك عبادة أبائل القبائل .

وقد عرف الشرك بأنه اتخاذ آلهة اخرى مع الله ، او اولياء من دون الله **«الذين اتخذوا من دون الله أولياء ما نعبدهم إلا ليقربونا إلى الله زلفى»**

ولعل لليهودية والنصرانية أثر فيشيوع هذه الفكرة : فكرة وجود وسيط يتقرب اليه ، وهو ما ينكره التوحيد انكاراً تاماً .

رابعاً : عالم السحر والارواح والاساطير والعرافة والجن والكهانة وعبادة النجوم والكواكب وهذه جاءتهم من الصابئة كما جاءتهم عبادة النار من المجوسية المتفشية في تميم وعُمَان والبحرين . وكان السحر والكهانة من أعمال رجال الدين . وأكثر السحرة كانوا من اليهود . والسحر طور من اطوار عقل الجاهلية . وكان هناك من ابرز السحرة اليهود لبيد بن عاصم .

خامساً : شرب الخمر واستباحة النساء والقمار : وكانت الخمر تجري على كل لسان . وكانت دنانها في الأديرة ، ويتجر بها اليهود والنصارى ، وكان هناك ارتباط بين شرب الخمـــر واستباحة النساء والقمار والميسر ، وكانوا يضربون خيامهم في بعض القرى ويَضَعُونَ فوقها راية تعلن عنهم فيشربون ويسمعون بعض القيان .

سادساً : الثأر وأكل مال اليتيم وظلم السادة المتجبرين وعبودية الفقراء .

●

وكان المجتمع الجاهلي في الجزيرة العربية يغص بالخرافات والأوهام والأساطير والسحر والتطير والتشاؤم . ومن هنا نشأت العرافة ، وهي باب من الكهانة التي تختص بالتنبؤ بالغيب بينما العرافة تكشف الماضي . وكانت تضطرب في جو هذه الحياة أعمال السحر المتصلة بالزجر والقيافة والعيافة والفراسة . وكانت صورة الساحر الى جنب صورة الكاهن . وكان الناس يلجأون الى هؤلاء وأولئك يبحثون عن الغيب .

وكان للكهانة والسحر شأن أي شأن وأثر كبير في اذهانهم ومشكلاتهم النفسية والروحية ، وكانوا يرون في الكهان اطباءهم الروحانيين . فاذا رأى أحدهم رؤيا رهيبة فزع الى الكاهن ليعبرها له . وكان السحرة متصلين بالجن والسحر عرف به اليهود ، وهناك صلات بين الشياطين والسحرة هي صلات المعلم والمعلم وكان السحرة قادرون على التفريق بين المرء وزوجه . وكانوا يتطيرون ويستقسمون بالأزلام . والطيرة هي إفزاع الطائر بحصاة ، فاذا تيامن تفاءل . وكذلك الاستقسام بالأزلام وهي أسهم مكتوب عليها كلمتا الفعل والنهي عن الفعل .

وقد ظل الناس على اعتقادهم بالكهنة والعرافين حتى أبطل الاسلام ذلك كله . وكشف عن زيفه ، ونهى عن السحر والكهانة وعدهما من الموبقات ، وحرر النفس الانسانية من الأساطير .

# البَابُ الثَاني

# الإسْلامُ والعَالَمُ

# الفصل الأول

## الفتح الاسلامي

يقول أرنولد توينبي: «حمل الاسلام شعلة التوحيد بين المسيحية والهندوس. إن عقيدة التوحيد التي جاء بها الاسلام هي أروع الأمثلة على فكرة توحيد العالم. وإن في بقاء الاسلام امل العالم كله».

نعم: لقد جاء الاسلام والبشرية غارقة في الاساطير والمظالم والأخطاء، جاء ليخرجها الى النور. ويردها عما ارتكست فيه من انحراف في العقيدة وعبودية في المجتمع، وفساد في الخُلُق، جاء مجدداً دعوة الله الحق الواحد التي ارسل بها انبياءه ورسله منذ آدم عليه السلام. دعوة بعد دعوة ورسالة بعد رسالة، حتى كانت دعوة محمد بن عبد الله خاتم الرسالات مجددة الدعوة الى الدين الحق، للناس جميعاً.

جاء بالتوحيد في مواجهة الوثنية والإلحاد. وجاء بالاخوة العالمية في مواجهة العبودية والظلم. وجاء بتمام مكارم الأخلاق في مواجهة الإباحية والشر.

وبذلك كان الاسلام ديناً متكاملاً: عقيدة وشريعة وأخلاقاً. لا يعرف

التجزئة ولا الانشطارية ديناً ومنهج حياة ونظام ومجتمع تلتقي عناصره كلها في كيان واحد هو ذلك الانسان الذي استخلفه الله في الارض ، ومن ذريته تكوّن المجتمع البشري .

وقد واجه الاسلام مفاهيم الفكر البشري ، القائمة على نزوله مواجهة صريحة ، وكشف عن زيفها وصحيحها ، وأقام لها ميزاناً من الحق ، وعرض لمختلف الأخطاء والشبهات والتفسيرات التي انحرف بها البشر عن مفهوم الدين الحق ، ورد القضايا كلها الى اصولها الاصيلة التي جاء بها الانبياء للناس ، وكشف ان دين الله واحد ، وان ما وقع من خلاف انما كان من تحريفات البشر وتعبيراتهم ، وان رسالة الله للانسان واحدة منذ آدم عليه السلام الى البشر الى محمد صلى الله عليه وسلم خاتم الانبياء .

ومنذ نزلت رسالة الاسلام للبشرية الى اليوم ، وهي ذات أثر واضح في الحضارات والشرائع ، والمجتمعات وأحداث التاريخ . فقد أنشأت البشرية خلقاً جديداً . وصاغت الفكر الانساني صياغة ربانية ، ووضعت حداً فاصلا بين عهدين في التاريخ ، وبين فكرين في العقول والنفوس : وأقامت مجتمعاً جديداً على أساس فكرة الاسلام ، لم يلبث ان ثبّت أقدامه ووسع نطاقه حتى شمل ثلاث قارات : فوصل الى حدود الصين من الشرق والى حدود فرنسا من الغرب ، في أقل من سبعين عاماً ، نقل خلالها الى البشرية روحه ومفهومه وعقيدته ، وحرر هذه الامم جميعاً من نظام العبودية المرهق الذي قاسى منه البشر أهوالاً فيعبادة الفرعون والامبراطور والقيصر . ثم لم تلبث هذه الامم ان دخلت في دين الله الحق .

لقد قطع الاسلام الامتداد الفكري والنفسي والاجتماعي بين الامم التي اتصل بها قبل الاسلام وبعده ، قطع الامتداد مع عبادة الاوثان في الجزيرة العربية ، ولم يلبث ان قطع امتداد الوثنية في العالم كله ، وحطم الاصنام ،

وأطفأ بيوت النار ، واكتسح الديانات الأرضية كالديانة الزرادشية والهندوكية والبوذية اكتساحاً ملموساً ، ولم يدع لها من معتنقيها الا قلة قليلة .

•

لا ريب ان دين ابراهيم والانبياء من أبنائه جميعاً . قد حمل أصول الفكر الرباني الطابع الانساني ، الهدف المنزل من السماء ، والموحى به من عند الله ، والقائم على الحق والعدل ، غير انه لم يلبث ان انحرف بتفسيرات المتصدرين بأهوائهم .

ولم يكن بوذا ولا زردشت ولا المسيح يظنون انهم بعد موتهم سيرفعون الى مرتبة الآلهة . ومن هنا كان حرص الاسلام على تأكيد الفوارق العميقة بين الالوهية والنبوة ، وبين الله سبحانه وتعالى ، وبين علاقاته بالعالم والكون والبشر ، وكذلك كان واضحاً من القرآن تأكيده لبشرية محمد ﷺ « قل إنما أنا بشر مثلكم يوحى إلي أنما إلهكم إله واحد » . لقـــد انحرفت اليهودية الى المادية الطاغية ، وتأسيس الحياة على العنصرية والربا . ثم جاءت المسيحية فانحرفت الى الروحية الصرفة ، والنفرة من الحياة الدنيا بالزهادة والرهبانية . ثم جاء الاسلام ليقرر الحقيقة الأصلية المرتبطة بالفطرة والعقل والعلم ، لينشىء امة وسطاً الفرد فيه يتفاعل مع المجتمع . والمجتمع يتفاعل مع الفرد بغير زهادة مسرفة وبغير مادية طاغية .

( ٢ )

جاء الاسلام والدولة الرومانية تسيطر على الشام ومصر والمغرب من افريقيا منذ ألف سنة تقريباً ، ومنذ غزو الاسكندر لها . فأزال هـــذه السيطرة ، وحرر هذه الأجزاء وأعادها الى اصولها العربية الأصيلة ، وواجه المجوسية الفارسية فأدال منها وأسقط سلطانها السياسي . وقضى على الوثنية والغنوصية ، وأزال عشرات من الديانات الضالة ، والعبادات المنحرفة .

عبادات الحيوانات في مصر والهند (البقرة والعجل والكباش والأوز) .

وعبادة قوى الطبيعة والعناصر والاجرام السماوية .

وعبادة النيل وعبادة الفرعون وعبادة الشياطين وعبادة الملائكة وعبادة إلهي النور والظلمة وتعدد الآلهة عند اليونان والهنود والمصريين، وعبادة النار في فارس وعبادة عضو التلقيح ، عشـــرات الهياكل ومئات الأوثان والأصنام .

سقطت هذه العبادات جميعاً واكتسح الاســـلام هذه الدعوات الضالة وطاردها، ولم يدع لها من معتنقيها الا جماعات ضئيلة . وانطفأت بيوت النار وسقطت ، وحرر العقل البشري والنفس الانسانية من الفكر البشري الزائف من قول الدهرية ، ان العالم بلا إله ولا صانع ، ومن قول الطبيعين : ان

التراب والماء والنار والهواء اصول كل شيء . ومن قول الفلاسفة واليهود بانكار بعث الاجساد .

●

لقد ظلت الزرادشتية مسيطرة طول حكم الدولة الساسانية في فارس . لم لم تحن الرأس إلا حين هاجمها الاسلام ، فذابت أمام سطوته ذوبان السكر في الماء على حد تعبير أحد المؤلفين الفرنسيين[١].

وحين تحولت البوذية الى دين خفي ذي أسرار عجيبة منها ان الإله يتجسد في بوذا لينقذ البشرية بأن يحمل عبء خطاياها القديمة ، ويحول بينها وبين ارتكاب خطايا جديدة ، لقد تحولت البوذية نتيجة لهذا رمزاً للإله المنقذ الذي جعل يجيء الى هذا العالم الأرضي من حين الى حين متمقصاً جسد أحد بني الانسان لينقذ البشرية في شخصيته .

لقد دحض الاسلام هذه الأوهام الضالة : أوهام الحلول والاتحاد وتناسخ الأرواح ، وكشف للبشرية عن زيفها كما حطم عبادة الفرعون والامبراطور والقيصر . لقد أجهز الاسلام حين جاء على البقية الباقية من (البوذية والبرهمانية) « فتفرقت[٢] البوذية شمالاً وجنوباً ، وظلت هناك حيث التقت بالاسلام ، وخصوصاً في جاوة وسومطرة . فصدمها صدمة قاسية لم تقو بعدها على النهوض ، وان كانت قد تبدلت وخضعت لأهواء الشعوب التي اعتنقتها وانهزمت أمام عاداتها وتقاليدها انهزاماً جعلها أثراً بعد عين » .

وكذلك اكتسح[٣] الاسلام الديانة الزرادشتية في فارس اكتساحاً ملموساً.

---

(١) دكتور محمد غلاب — الفلسفة الشرقية .
(٢) نفس المصدر .
(٣) نفس المصدر .

ولم يدع لها من معتنقيها الا نحو عشرة آلاف نسمة في بلاد فارس ، ونحو مائة الف في بلاد الهند وهم الذين لا يزالون يعرضون جثث موتاهم للوحوش .

ولا ريب ان الاسـلام حين قضى على الزرادشتية : قضى على زواج الأمهات ، والجمع بين الأختين . فقد روى اليعقوبي في تاريخه ان المجوس يستبيحون زواج المحارم من البنات والأمهات . ويرون جواز الجمـع بين الاختين . وقال ان الفرس تنكح الامهات والبنات وتذهب الى انها صلة لهن، وبرّ بهن وتقرب الى الله فيهن ، حتى جاء الاسلام فأعلن انه لا يحل للانسان ان يتزوجهن .

وكذلك حطم الاسلام عادات الوثنية واغراضها الضالة . فقد عرف العرب في الجاهلية زواج الأم وزواج امرأة الأب ، وعرفوا ما يسمى بنكاح القهار حيث يجتمع جماعة دون العشرة ويتزوجوا امرأة واحدة .

وهاجم الاسلام سلبية البرهميةورضاءها بالضيم وقتلها الشهوات والرغبات، وإنكار ما في الحياة من مسرات . ودحض قولها انه لا خير في الجسد لأنه محل العاهات ، وكذب قولها انه لا قيمة للافراح والثروة والجاه والملك ودعوتها الى انكار متع الحياة ، والاقامة في الغابات ، وتحت الشمس المحرقة، والإيمان بأن الحياة تعاسة مستمرة ، وشقاء متصل . « لقد نكب الفكر الهندي منذ البداية بمذهب وحدة الوجود وأتلفته اوهام الكشف والذوق . واذا ترجمنا الفلسفة الهندية الى لغة لقلنا انها تنكر الوجود والواقع والشخصية الانسانية والخلاصة ان التفكير الهندي قد حطم الانسان . وهو يدعي تأليه الانسان[1] كما كذب دعوة ماني الى ترك العمل والزهد والرغبة عن ملاذ الحياة واستعجالالفناء . فقد قرر ان يعمل الانسان الى دنياه كأنه يعيش ابداً

(١) الدكتور زكي مبارك في بحث عن الجاهلية .

ولآخرته كأنه يموت غداً . وتساءل القرآن « **قل من حرم زينة الله التي أخرج لعباده والطيبات من الرزق** » وأجاب « **قل هي خالصة للذين آمنوا الى يوم القيامة** » .

وكما هاجم الاسلام دعوات قمع الشهوات وتجـــريد النفس وتهذيبها دون الارتباط بعقيدة في الإله . كذلك عارض الاباحية ، وهي الوجه الثاني للرهبانية . وزيف دعوة المزدكية ومفاهيم استباحة المحرمات ، والدعوة الى مشاعية النساء والأموال والاغتسال بالبول ورفض الذبائح ، ورفض إراقة الدماء .

وحطم الاسلام المجتمعات التي قامت على الإفراط في اللذات واللهو الحثيث في فارس واليونان والرومان .

( ٣ )

ماتت حضارة الفراعنة واليونان والرومان قبل ظهور الاسلام ، أما الاسلام فقد أحيا بقايا العلوم وجددها وصححها وصقلها ، وبدأ منها امتداده الى المنهج التجريبي .

لقد استطاع الاسلام ان يحرر مناطق عربية واسعة سيطرت عليها الامبراطورية الرومانية حوالي ألف سنة بفكرها وعقائدها ولغتها ، فأزال سلطانها وحررها تماماً وأدخلها بوسقه :

يقول احد الباحثين المغاربة : قبل الميلاد دخلت روما بلاد العرب فاتحة ، واستقرت في مشرقها وفي مغربها قروناً كثيرة متعاقبة . واحتلت من الارض أكثر مما احتل الفرنسيون وبنت من القلاع والحصون أكثر مما بنى الفرنسيون ، واستوطنت مدناً عربية وغيرت أسماءها بأسماء رومانية على غرار ما فعلت فرنسا ، وبسطت سلطانها ولغتها وقانونها ، وآدابها مثلما فعل الفرنسيون . ثم عصفت العاصفة بروما وهبت عليها الرياح الشرقية فغدت أثراً بعد عين .

لقد قضى الاسلام على نفوذ الأباطرة والقياصرة والفراعنة . ثم امتد الى الامبراطورية الفارسية ، فحررها من عبادة الفرد والوثنية . ونظام العبودية الذي تذل فيه الجماعات الكبرى للقِلّة القليلة من الأكاسرة والامراء ، وبذلك

حرر عالماً واسعاً من عقائد زائفـــة ونظام اجتماعي ظالم . وهذا هو سر استقبال الاهلين له ، وتقبلهم إياه . ذلك انه لم يفرض عليهم عقائده ، وانما أباح لهم حريتهم الكاملة ، وحماها في حدود قاعدته الأصلية « لا إكراه في الدين » فاذا دخلوا في دين الله أفواجاً بعد ذلك فبإرادتهم، بعد ان تحققوا من عدالته وسماحته .

لقد اندفع[1] المسلمون في الآفاق ليحققوا أمانة«عموم الرسالة» التي حملوها عن الرسول ، وكسر الحواجز المادية التي أقامها الحكام والأباطرة والأمراء رغبة في تحقيق اللقاء والتفاهم بين هذه الشعوب المغلوبة وبين كلمة الله ، والقضاء على الظلم الاجماعي والوثنية .

وقد استقبلت هذه الشعوب «الاسلام» بترحيب كبير وتقدير لا حَدَّ له. لأنه لم يفرض عقيدته عليها ، بل أتاح لها القدرة علىالنظر والحرية فيالعقيدة تحت لوائه وحَفِظَ لها أنظمتها وأديرتها وكنائسها وحقوقها دون ان يفرض عليها شيئاً ، وأتاح لها الفرصة للتأكد بمزيد من الممارسة كيف يحقق الاسلام : العدل والمساواة .

هنالك اندفعت هذه الجموع بإرادتها الحرة الى راية الاسلام وباقتناعها العقلي والنفسي الكامل . لقد كان الايمان العميق بالله ، والثقـــة في نصره ، وطلب الموت في سبيل تحقيق «عموم الرسالة» وإبلاغها للعالمين . هو العامل الأول والأكبر . وكان المسلمون حين يصلون الى الأقطار يحررون أهلها من الظلم . ويقيمون بينهم العدل ، ولا يفرضون عليهم الاسلام . بل يؤمنونهم على أموالهم وأملاكهم ، ويتركون لهم حرية دينهم ، بل لقد تركوا الأرض

---

(١) الاسلام وحركة التاريخ .

لأصحابها على ان يدفعوا خراجها . بينما كان الأكاسرة والقياصرة يعتبرون أنفسهم ملاكاً للأرض وملاكاً للعاملين فيها .

ومن آيات العدالة التي لم تعرفها البشرية قبل الاسلام تلك الصورة : « عندما شعر الفاتحون المسلمون بأن الروم تجهزوا في الشمال بحملة لا تقوى على صدها الحامية العربية المقيمة بحمص ، قرروا الانسحاب . وقبل ان ينسحبوا دعي أعيان الأهالي ورجال دينهم وعرض عليهم قائدها ان يأخذوا ما كان جُبِيَ منهم من أموال الجزية .

قال الأعيان : والله ان الروم لو أنهم جبوا من الأموال الاميرية . واضطروا الى مثل ما اضطررتم اليه ، لما أعادوا الينا ديناراً واحداً مع ما بيننا من وحدة الدين ، وان حكومة يكون فيها مثل هذه الرحمة ، وهذا الانصاف لا نرضى بها بديلا . ونحن مستعدون لأن ننضمَّ الى جندكم ، وان ندفع حملة الروم بكل من يستطيع منا حمل السلاح .

●

يقول الامام محمد عبده : الاسلام الحربي كان يكتفي بإدخال الارض المفتوحة تحت سلطانه . ثم يترك الناس وما كانوا عليه من الدين يؤدون ما يجب عليهم في اعتقادهم كما شاء ذلك الاعتقاد ، وإنما يكلفهم بجزية يدفعونها ليكون عوناً على صيانتهم ، والمحافظة على أمْنِهم في ديارهم وهم في عقائدهم ومعابدهم وعاداتهم بعد ذلك أحرار لا يضايقون في العمل . وكانوا يُوَصُّون قوادهم باحترام العباد الذين انقطعوا في الصوامع والأديار لمجرد العبادة . كما يوصونهم باحترام دماء النساء والاطفال . وكل من لم يعن على القتال . وجاءت السنة المتواترة بالنهي عن ايذاء اهل الذمة . وبتقرير ما لَهُم من الحقوق على

المسلمين . لهم ما لنا وعليهم ما علينا . ومن آذى ذمياً فليس منا . فأنت ترى الاسلام من جهة يكتفي من الامم والطوائف التي تغلب على أرضها بشيء من المال أقل مما كانوا يؤدونه قبل تغلبه عليهم . وبأن يعيشوا في هدوء لا يعكرون معه صفو الدولة . ومن جهة اخرى ينهى أفراد المؤمنين عن مقاطعة ذوي قرباهم من المشركين ، ويطالبهم بحسن معاملتهم .

( ٤ )

كان التوسع الاسلامي معجزة بحق أدهَشَتْ كل الباحثين . يقول ثور استروب : كلما ازددنا استقصاء باحثين عن سر تقدم الاسلام . زادنا ذلك العجب العجاب بهراً فارْقَدَدْنا عنه بأطراف حاسرة ، عرفنا ان سائر الأديان العظمى انما نشأت تسير في سبيلها بطيئة متلافية كل صعب حتى ان قيض الله لكل دين ما أراده له من ملك ناصر وسلطان قاهر انتحل ذلك الدين ثم أخذ في تأييده والذبّ عنه حتى رسخت أركانه ، ومنعت جوانبها فبطل النصرانية (قسطنطين) وبطل البوذية (اسوكا) وكل منهم ملك جبار . أيد دينه الذي انتحله بما استطاع من القوة والأيد ، انما ليس الامر كذلك بالنسبة للاسلام .

الاسلام الذى نشأ في بلاد صحراوية يموت فيها كل شيء حيث القبائل الرحل التي لم تكن من قبل رفيعة المكانة والمنزلة في التاريخ ، فلسرعان ما شرع يتدفق وينتشر وتتسع رقعته منجهات الأرض مجتازاً أفدح الخطوب ، وأصعب العقبات ، دون ان يكون له من الامم الاخرى عون يذكر ، ولا أزرٌ مشدود . وعلى شدة المكابرة . فقد نصر الاسلام نصراً مبيناً عميقاً اذ لم يكن يمضي على ظهوره أكثر من قرنين حتى باتت راية الاسلام خفّاقة في البرانس حتى هملايا . وفي صحارى أواسط آسيا حتى صحارى أواسط افريقيا.

يقول لوبون : ترك المسلمون الناس أحراراً في امور دينهم وأظلوا بحمايتهم أساقفة الروم ، ومطارنة اللاتين ، فنال هؤلاء ما لم يعرفوه سابقاً من الدعة والطمأنينة ، وأمن عمر بعد ان دخل القدس الناس على أموالهم ودينهم .

ويقول لوبون: كان يمكن ان تعمي فتوح العرب الاولى أبصارهم، فيقترفوا من المظالم ما يقترفه الفاتحون عادة ، ويسيئوا معاملة المغلوبين ، ويكرهوهم على اعتناق دينهم ، ولو فعلوا ذلك لتألبت عليهم جميع الامم ، ولكن الخلفاء الأولين الذين كان عندهم من العبقرية ما ندر وجوده في دعاة الديانات الجديدة أدركوا ان النظم والأديان مما لا يفرض قسراً . فعاملوا أهل الشام ومصر وأسبانيا وكل قطر بلطف عظيم تاركين لهم عاداتهم ونظمهم ومعتقداتهم. والحق ان الامم لم تعرف فاتحين راحمين متسامحين مثل العرب . وكانت هذه الرحمة سبباً في اعتناق كثير من الأمم لدينهم ونظمهم ولغتهم التي رسخت وقاومت جميع الغارات عليها وبقيت قائمة ، بعد ان توارى السلطان السياسي على مسرح العالم .

ويقول لوبون : ان تسامح المسلمين والعرب مما لم تصل اليه اووبا بعد . مع ما قامت به في اكثر من ألفي سنة من الحروب الطاحنة ، وما عانته من الأحقاد المتأصلة ، وما منيت به من المذابح الدامية .

لقد اكرهت مصر على اعتناق النصرانية . ولكنها هبطت بذلك الى حضيض الانحطاط التي لم ينتشلها منه سوى الفتح العربي . ولا تزال مصر ملأى بأنقاض ما هدمه تيودور سنة ٣٨٩ م ذلك القيصر النصراني المخرب المتعصب . كان العرب يحترمون اهل البلاد المفتوحة ويتركون لهم حريتهم الدينية . فقد عامل عمرو بن العاص المصريين بما لم يعرفوه من العدل والانصاف

واحترم نظم المصريين وعاداتهم ومعتقداتهم ، وشمل الديانة النصرانية بعطفه وحمايته . وسمح للاقباط ان يستمروا في اختيار بطريرك لهم ، ولم يمنع النصارى من إنشاء الكنائس في المدينة الاسلامية التي أسسها المسلمون . ولم تكن التعاليم الاسلامية لتفرض على اتباع الديانات الاخرى بالقوة وبحد السيف لقوله تعالى : « **لا إكراه في الدين** » ولذلك كان الانسجام بين العرب وبين الأمم قوياً جداً ، وكان حب الأمم للعرب خالصاً وأكيداً . بل وصل الى حد التقديس .

وللاسلام وحده كل الفخار بأنه أول دين قال بالتوحيد الخالص المخلص . وبأنه أول دين نشر أتباعه ذلك التوحيد في العالم ، والذي حدث أن انتحل بعض الشعوب النصرانية الاسلام واتخذ العربية لغة له وذلك لما كان يتصف به العرب الغالبون من ضروب العدل الذي لم يكن للناس عهد بمثله . ولما كان عليه الاسلام من السهولة التي لم تعرفها الأديان الأخرى .

●

وفي الحق ان الاسلام قد جعل السلم قاعدة والحروب ضرورة . ولم يكن يقاتل غير المسلمين لإنكار عقيدة او فرض عقيدة ، ولكنه كان يقاتلهم اذا وقفوا في وجه دعوته . وقاوموا فكرته . وعمدوا إلى ايذاء أهله ، وهو لذلك لا يمتنع عن إقامة العلاقة بينه وبينهم اذا هم لم يحاربوا الاسلام والمسلمين ولذلك حرم الاسلام قتل الاطفال والشيوخ والنساء والنساك والرهبان الا من اشترك فعلاً في الحرب وأضر بالمسلمين .

وقد وجه الاسلام دعوته الى جميع الشعوب دون اعتداد فيه بالجنسيات والأصول . يقول أرنولد توينبي : « حرر الاسلام ساحل البحر الأبيض

المتوسط من سلطان اغريقي روماني مسيحي من سوريا الى أسبانيا . عبر شمال افريقيا . وكانت تلك البلدان تحت الحكم الإغريقي الروماني نحـــو ألف من السنين منـــذ فتـــح الاسكندر الأكبر للامبراطورية الفارسية . وإسقاط الرومانيين لقرطاجنة . وذلك بين القرن الحادي عشر والسادس عشر قبل الميلاد » .

## ( ٥ )

لم يكن مصدر النصر الاول ضعف الدول او التطلع الى الثروة ، وإنما كان مصدر النصر الأكبر هو عمق مفهوم الاسلام وسلامته وقربه من الفطرة الانسانية ومطابقته للواقع ، من أجل بناء حضارة جديدة في إطار التوحيد، كانت القوة الدافعة هي إيمان عميق لهذه الجماعة لا يتزعزع بالاستشهاد في سبيل رفع لواء الاسلام الى كل أرض ، أما السلطان والثروة والغنيمة . فلم يكن في المرتبة الاولى ، ولم تكن وسائل المسلمين الحربية هي مصدر نصر في مقاييس الحروب وتعبئة الجيوش ، فقد كانوا في كل معاركهم أقل من عدوهم مراراً . وكانت هناك فوارق بعيدة في العدد والعدد، وإنما كان مصدر النصر الحقيقي هو الحرص على الموت .

ان معجزة الفتح الاسلامي لا يمكن تفسيرها في ضوء مقاييس الغرب المادية . يقول أحد المؤرخين الأجانب : ان التاريخ لم يشهد قط ظاهرة مثل هذه الظاهرة من قبل . ومن العسير على المرء أن يقدر السرعة التي حقق بها الاسلام فتوحه، والتي تحول بها من دين يعتنقه بضع نفر من المجتمعين حول النبي الى دين يدين به ملايين الناس . ولا يزال العقل البشري يقف ذاهلاً دون اكتشاف القوى السرية التي مكنت جماعة من المحاربين الحفاة من الانتصار على شعوب متفوقة عليها تفوقاً كبيراً في الحضارة والثروة والخبرة والقدرة

على شنّ الحرب . ومن ادعى الامور الى الدهش ان نلاحظ كيف استطاع أولئك الناس ان يحتلوا تلك المناطق كلها . وأن يثبتوا بعد ذلك فتوحهم على نحو جعل حتى القرون المتعاقبة قرناً بعد قرن عاجزة عن إخراجهم منها . وكيف استطاعوا أن يلهبوا نفوس أتباعهم بتلك الحماسة الفائقة لمثلهم العليا . وأن يحتفظوا بحيوية فائقة لم تعرفها الأديان الاخرى حتى بعد انقضاء عشرة قرون على وفاة محمد . « كانت ستة عشر سنة قد انقضت على الهجرة عندما انهارت الامبراطورية الفارسية نهائياً . وهي التي ظلت الحرب سجالاً بينها وبين الامبراطورية البيزنطية » . « لقد قوضت حضارتان وزعزع دينان فاذا بفيض جديد من حياة عارمة تتدفق في عروق تلك الشعوب الخائرة القوى . لقد تجلى أمام عيون العالم المندهش دين جديد بسيط سهل يخاطب العقل والقلب جميعاً . وبدأ الذهب الذي كان مخبوءاً في صناديق السراة ينتقل الى أيدي الفقراء مستهلاً نظاماً من التداول السليم كرة اخرى » .

●

ان هناك محاولة لتفسير الفتح الاسلامي تقوم على القول بأن الامبراطوريتين الفارسية والرومانية كانتا قد وصلتا الى حالة من الضعف والانحلال . والحقيقة ان هذه شبهة أريد بها التقليل من أهمية الفتح :

يقول الدكتور شكري فيصل[1] : ان القول بأن الامبراطورية الساسانية كانت هرمة ، ما من شيء أقرب الى المغالطة ، وأبعد عن الصواب من هذا. فالامبراطورية الساسانية لم تكن عاجزة بدليل من هذه المقاومة العنيفة التي استطاعت ان تجبه بها الجيوش الاسلامية ، ولم تكن هرمة . لأن أنوشروان كان قبل عقود قليلة من السنين قد جدد فتوتها ، وصقل عزمها . ونفخ فيه

---

(١) كتاب حركة الفتح الاسلامي .

من روح الحياة والشباب ، وكان هناك هذا التوافق العجيب من مولد الرسول صلوات الله عليه ، وحكم أنوشروان ، كأنما هو الرائد على ان رسالة النبي لن تمضي في الارض سهلة . وان المقاومة قد جندت لها منذ فتح صاحبها عليه السلام عينيه للضياء والنور . غير ان موقف فئة قليلة من الفرس الذين استجابوا للدعوة : أسلموا وأسهموا في حركة الفتح في القادسية ، وكان لهم فضل في إنقاذ الجيش من شر الفيلة . فقد سألهم سعد عن مقاتلها فدلوه منها على المشافر والعيون ، وانه لا ينتفع بها بعدها .

وموقف الفرس كان موقف مقاومة عنيدة . والغلبة التي استطاع المسلمون أن يحققوها لم تستمد عناصرها من حياة الفرس الداخلية ، ولا من هموم الامبراطورية ، وإنما استمدت عناصرها من حياة المسلمين الداخلية من قوة اندفاعهم وإيمانهم بالذي يحاربون من أجله ، وحرصهم على أن يشاركهم الناس نعمة هذا الايمان الجديد . واستيراثهم الارض على أنهم عباد الله الصالحون» .

والأمر بالنسبة للروم كان كذلك جد خطير ، ولم يكن نصراً سهلاً : والروم لم ينزلوا عن الشام في يسر وبساطة[١] بل جهزوا كل ما قدروا عليه من جيوش . وخاضوا كل ما ملكوا أن يخوضوا من معارك واستنفروا كل ما كان في وسعهم ان يستنفروه : العرب وأهل أرمينية والبيزنطيين وسكان المقاطعات . واستطاع الروم أن يجندوا مائة ألف او خمسين ألفاً على الأقل في (اليرموك) بكل ما يحتاج اليه هذا العدد الضخم من عدد ، ولم يكن لدى العرب أساليب حربية قط غير إيمانهم وشجاعتهم . وتحريم تولية الظهر إلا تحرفاً لقتال . « وحاربوهم على أرض عرفوها معرفة تجربة وخبرة وممارسة خلال القرون الطويلة . والحق ان الروم كانوا يهملون هذه النقلة النفسية العميقة التي أصابها العرب في الدين الجديد ، وكانوا على غير وعي

(١) نفس المصدر ـ حركة الفتح الاسلامي : دكتور رشدي فيصل .

واضح بحقيقتها البعيدة ، وانها نظام جديد آمن به العرب ، فوهبهم حياة داخلية تغاير كل ما كانوا عليه وانهم دعوا الى هذا النظام وأرادوا غيرهم على الايمان به . وخرجوا من أجل هذه الغاية التي كانت تتيح لهم خير الدنيا والآخرة .

أعمت هذه الجهالة الروم عن تقدير قوة العرب . وعن تقويم هذه العقيدة التي تكمن وراءها ، فلم يستطيعوا أن يضعوا الهجرة في غير موضع الهجرات السابقة، ظناً انها الغارات . ثم لا يلبثن ان ينجلين،ولذلك أطالوا فيالقتال. ومدوا في أيامه مؤملين ان يمل العرب . ولكن العرب في هذه المرة لم يكونوا عرباً مرتادين ، ولكنهم كانوا عرباً مسلمين ودعاة مهاجرين ، ولم يكونوا من هذه القبائل الشمالية التيتنشد النفع، ثم ترتد فحسب، ولكنهم كانوا من كل أطراف الجزيرة لا يردهم عن غايتهم شيء ، لأنهم ليس لهم الا احدى الحُسْنيين ، وليس لأعدائهم الا اختيار واحدة من ثلاثة ( الاسلام ، او الحرية ، او الجزية ) لقد غاب عن فطنة الروم ان نبياً قضى ثلاثة وعشرين عاماً يعد هؤلاء الناس لهذه الدعوة . وان هذا الاعداد هو العدة التي كانت تنقص الروم وتزخر بها جيوش المسلمين » .

## (٦)

وهناك محاولة أخرى لتفسير الفتح الاسلامي قال بها بعض المستشرقين . وتابعهم بعض الأدباء : هو ان العرب كانوا قد وصلوا الى درجة من الرقي تؤهلهم لنهضة أدبية . فلما جاء النبي نهض بهم فنهضوا[١] .

وتلك فرية مضللة وشبهة كاذبة : وقد دحضها العلامة محمد فريد وجدي حين قال : ان بعض المستشرقين لما هالهم نجاح النبي في المهمة التي ندبه الله لها في بيئة من أعصى البيئات على مثلها ، زعموا ان قريشاً كانت قبل رسالة النبي في دور نهضة اجتماعية وأدبية ، وان دعوة النبي صادفت هذا العهد فنجحت نجاحاً لا يحدثنا التاريخ عن مثله . وهناك دليل محسوس يدل على فساد ذلك : الهجرة هي الدليل المحسوس فإن قوماً يلبث فيهم مصلحهم الاجتماعي ثلاثة عشر عاماً يدعوهم الى القيام على سنن الحق فما يعملون وما يعتبرون . ان قوماً على هذا النحو من الجمود على القديم الرث ، والباطل المحض لجديرون بأن لا يعتبروا في دور نهضة أدبية او اجتماعية . ان المجتمع الذي يقابل الداعي بهذا النفور العظيم ، وينتهي أمره الى الخضوع له كرهاً بعد تطاحن طال أمده عشرين عاماً لا يعتبر انه استعد لإقامة دولة ، فلو

---

(١) دكتور زكي مبارك : النثر الفني .

ترك وشأنه لبقي على ما كان عليه ، ولو كانت قريش أقرب العـــرب الى الحضارة لقابلت دعوة محمد بصدر رحب ، واحتلت المكان اللائق بها ، ونهضت تحت قيادته لجمع كلمة القبائل وإبطال دينهم ولساغ ان يقال انمحمداً لم يعمل اكبر مما يعمله البناء : وجد أحجاراً منحوتة ومواد مجهزة ، فأقام بها قصراً فخماً .

أما وقد أراد الله أن يجعل محمد مركز دعوته يثرب التي يسكنها الأوس والخزرج وهما من مهاجري اليمن ، وليس لهم أقل ميزة على العرب ، ولم تكن لهجتهم بالقويمة المتنخلة ، ولا جبهتهم بذات القوة والمنعة ، بل كانوا أسوأ ما تكون عليه قبيلتان من التناحر ، وتنازع البقاء . أما وقد أراد الله أن يتخذ من هاتين القبيلتين أنصاراً لدينه ، ومدينتهم عاصمة لدولته بعد أن خذله أقوم العرب لهجة . وأقربهم للنهوض مطية ، فقد أمكن كل ناظر ان يقدر عظمة روحه العلوية اذ تولى أبعد القبائل عن مظنة التأهل للنهوض، وأعطاها وسائل لتقويم أودها ، فصاغ منها نواة تصلح ان تبنى عليها مواد النماء والاكتمال ، وأن يحييها ويخرجها من جمودها القديم ، وأن يؤلف منها مجتمعاً مملوءاً حياة وقوة يصلح للقيام بنفسه ولاحداث أكبر حدث في العالمين » .

وليس أدلّ على عظمة المعجزة ، وأنها من صنع العقيدة الصادقة : « ان قريشاً وهي أرقى القبائل لغة وفهماً ومكانة لم يقبل دعوة منها النبي إلا رجال ونساء لا يربو عددهم عن بضع عشرات ، ان اتباع النبي الاولين اضطهدوا اضطهاداً شديداً حتى هاجروا الى بلاد الحبشة ، وان الجاهلين كانوا يهزأون بالدعوة للدين وبالداعي اليه ، وان النبي لبث على هذه الحال من الاضطهاد ثلاث عشرة سنة ، ولما أنست قريش من النبي الهجرة قررت قتله وأرصدت له . ولما علم أهل مكة بإفلاته اقتفوا أثره ، كل هذا ينطق بلسان فصيح ان

قريشاً وهي مظنة النجابة والفهم من العرب في ذلك العهـــد ، لم تكن قد استعدت للملك بعد تطورات عديدة . فإن المجتمـــع الذي يقابل الداعي للتجديد والنهوض بهذا النفور ، ويصرّ عليه ثلاثاً وعشرين سنة لا يزداد بعدها إلا عناداً وتشدداً هو مجتمع متخلف[1]» .

إذن : فما هو سرّ المعجزة . ان التفسير المادي للتاريخ غير صالح لتفسير الاسلام .

(١) فريد وجدي : البلاغ سنة ١٩٣١ .

# (٧)

أجمع المؤرخون والباحثون على أن البشرية[١] لم تعرف من عهد الاسكندر الى عهد نابليون فتحا أوسع ولا أسرع من الفتح الاسلامي الذي امتد في أقل من ثمانين عاماً من الصين الىفرنسا ، وميزة أخرى بالإضافة الىالسعة والسرعة انه فتحٌ أبدِيٌّ . فلم يعرف ان المسلمين دخلوا بلاداً وخرجوا منها إلا الاندلس . وقد بقيت روح العرب والمسلمين في الاندلس برغم نصرانيتها وأسبانيتها ، ذلك لأنهم لا يفتحون البلاد بسيوفهم . ولكن يفتحون القلوب والعقول بعدلهم وعلمهم .

« كانت القاعدة العامة في كل الفتوح ضمالبلاد المفتوحة الى أملاك الفاتحين. ولم يخرج عن هذا الا الفتح الاسلامي الذي كانت غايته نشر الاسلام، والسعي لإعلاء كلمة الله كلها ولم يكرهوا أحداً على الاسلام » .

« ان أعظم الفتوح الاسلامية ما أورثت الانسانية من حضارة وعمران ، وما خدمت العقل البشري وأمدّته بأسباب القوة والحياة ، بالإضافة الى ما انطوى عليه الحادث التاريخي نفسه من بطولة نادرة » .

« لقد كان الفتح الاسلامي في مجال العلم والثقافة أكبر حدث علمي ،

---

(١) عن مجلة الرسالة : عدة أبحاث سنوات ١٩٣٦ - ١٩٣٨ - ١٩٤٦ .

لأنه حمل الى البلاد التي فتحها علم السماء والارض فحرر عقولها بالتوحيد . وأعتقها من عبودية الاحجار والاسحار والقسس والاشراف ووضع في يدها القرآن الذي يأمر بالتفكر في خلق السموات والارض ، ويحفز الى البحث والاستدلال والنظر ويجعل طلب العلم فريضة على كل مسلم ، ولولا الفتح لم يكن عقل القرن العشرين ، وهو أعظم حادث في البطولة والفكر والعمران» وهو فتح لم يلزم أحداً او يفرض عليه العقيدة ، او يسوقه الى ذلك الا بالاقناع « **ادع إلى سبيل ربك بالحكمة والموعظة الحسنة وجادلهم بالتي هي أحسن** » في حدود قاعدة كبرى « **لا إكراه في الدين** » أين هذا مما يذكره توماس أرنولد عن أسلوب الغربيين في التبشير بالدير والدعوة اليـــه يقول : « في بعض تواريخ البعثات المسيحية يؤثر المرء بطبيعة الحال الإصغاء الى ما فعله القديس ليودجر والقديس ويلهادين السكونيين الوثنيين أكثر مما يصغي الى أخبار التعميدات المسيحية التي كان (شارلمان) يفرضها بحد السيف ، ومن ثم أخضع الامم المغلوبة على أمرها للقانون المسيحي بعد أن اشتبك مع الممالك المتبربرة في حرب طاحنة مدفوعاً بما كان يضطرم في نفسه من شوق الى نشر العقيدة ، وعلى الرغم مما صادفه القسيس جوتفريد والاسقف كريستان من نجاح في تنصير البروسيين الوثنيين . وكان نجاحهما أقل مما صادفه من سبقهما كانوا بحق اكثر تمثيلاً لنشر الدعوة من جماعة إخوان السيف وغيرهم من الصليبيين ، الذين أدوا رسالتهم بالسيف والنار، ولقد فرض فرسان المسيحية على شعب ليفونيا فرضاً » .

وأشار أرنولد الى الملك أولاف تراتجنسون الذي كان يقوم بذبح هؤلاء الذين أبَوْا الدخول في المسيحية ، او تقطيع أيديهم وأرجلهم[١] .

وقد أشار كثير من الباحثين الى أن المسيحية فاقت الاديان كلها في إكراه

---

(١) الدعوة الى الاسلام – توماس أرنولد صفحات ٣٠ الى ٣٢ .

الناس على اعتناقها ، وقد ارتكبت فظائعها باسم السيد المسيح الذي قال في خطبة الجبل «أحبوا أعداءكم باركوا لاعنيكم[1]» .

●

أما الاسلام فانه في نفس الوقت الذي دعا الى عقيدته بالحسنى ، فانه حفظ الاديان الاخرى وحماها وكرم أنبياءها . يقول توماس أرنولد : « ان الكنيسة المسيحية قويت وتقدمت في رعاية المسلمين وحكمهم . وان جميع المذاهب المسيحية كانت تتمتع بالرعاية والتسامح من الحكام المسلمين على حد سواء ، بل ان هؤلاء الحكام من المسلمين هم الذين يمنعون اضطهاد بعض المسيحيين لبعض ، ويكفلون الحرية الدينية للجميع » أين هذا من موقف أوربا المسيحية إزاء المسلمين في الاندلس والبلقان وغيرها .

ولقد سجل الاب متشون في مثل هذه المقارنات قوله : انه لمن المحزن ان تكون الامم المسيحية مضطرة ان تتعلم التسامح الديني من الاسلام ، ويقول أرنست رينان في كتابه : حياة يسوع : ان النصرانية لم تعرف التسامح الديني.

ويقول بييرو روندو معلقاً على هذا الخلاف العميق بين موقف الغرب من الاسلام ، وموقف الاسلام من المغرب : كان في وسع الاسلام حل مشكلة النصارى في الشرق بالقضاء عليهم دفعة واحدة ، ولكنه لم يفعل لأن دعوته لم تقم على الفتح في الاساس ، ولم يكن ثمة (إكراه في الدين) لهذا لم يتعرض الاسلام للنصارى واليهود ، ولم يخيرهم بين الموت او اعتناق الدين الجديد بل تركهم يمارسون طقوسهم دون أن يخضعهم لشريعته .

---

(١) توفيق الطويل — قصة الاضطهاد الديني .

## الفصل الثاني

# القرون الوسطى المضيئة

ان أثر الاسلام في تاريخ البشرية كلها ، وفي تاريخ أوربا والعالم الغربي والمسيحية . لا سبيل الى تجاوزه أو انكاره ، ذلك ان معطيات الاسلام كانت بحق مصدر التحول الخطير الذي عرفه العالم بعد الاسلام ليس فقط في الاجزاء التي سيطر عليها الاسلام، بل وفي كل مكان وصل اليه ضوء من فكره وثقافته.

وقد ظل الاوربيون وقتاً طويلاً ينكرون هذا الأثر ويتجاهلونه حتى جاءت أقلام منصفة في السنوات المائة الاخيرة . فكشفت كثيراً من هذه الحقائق . منها أقلام جوستاف لوبون وتوماس كارليل وآخرين .

ويعتبر الاستاذ هنري بيرون مؤلف كتاب ( محمد وشارلمان ) ان نقطة التحول الخطيرة التي حولت مجرى التاريخ الاوربي هي الاسلام . ويترتب على هذا ان العصر الوسيط والنهضة الحديثة هما ثمرتان من ثمرات ظهور الاسلام . وهو بهذا يرد الزيف الذي ظل مسيطراً وقتاً طويلاً على التاريخ

الغربي من ان حادثة اجتياح الشعوب الجرمانية لدولة روما الغربية هي الفاصل بين العصور القديمة والعصور المتوسطة . ويقول ان الاوربيين قد منعهم تعصبهم القومي في صـــدر نهضتهم ان يعترفوا بأن ظهور الاسلام هو الحادث الانساني الكبير الذي غيّر مجرى التاريخ ، وانه هو الحد الفاصل بين القرون الاولى والقرون المتوسطة . ويرى هذا بيريه (ويتابعه في هذا الرأي كثيرون) انه ليس اجتياح الشعوب الجرمانية حدود الرومان هي نقطة التحول في التاريخ الاوربي ، وان هذه الشعوب كانت من هوان الشأن وضيق الحياة بحيث كانت تنظر الى الرومان نظرة العبد الى السادة . فما كان يخطر لها ، بل ما كانت ترغب أبداً ان تناوىء روما وتقضي عليها .

أما المسلمون فكانوا يعتقدون انهم أرقى وأسمى من الرومان في جميع أسباب الحياة . ولا سيما من الناحية الدينية التي كانت مبعث قوتهم ومصدر تشريعهم . فلم يتوقفوا عن منازلة الرومان ليقضوا على سطوتهم وسيادتهم . وكانت القبائل الجرمانية ترى نفسها سليبة من أسباب الحضارة ، ومن العقيدة الدينية الراقية . فكانت تتخذ حضارة الرومان ودينهم تشبها وتقليداً .

أما الشعوب الاسلامية فكانت ترى نفسها جديرة بأن تمنح الرومانيين ديناً جديداً وترشدهم الى مدنية اخرى .

ولهذا فقد ظلت الدولة الرومانية قائمة وظلت حضارتها باقية بعد أن اجتاز الجرمان حدودها واستقروا في نواحيها . وكل ما حدث ان انتقل مركزها من روما الى بيزنطية . وأصاب حالتها المادية والعقلية شيء من الركود والفساد .

ولكن لم تكد تهب ثورة الاسلام وتسير كتائبه الى أراضي الرومان حتى تلاشى كل ما كان لهم من المعالم والآثار . وكأنها كانت رماداً ذرّته الرياح . وقامت دولة جديدة ، وظهرت حضارة جديدة ، حاصرت أوربا من الشرق

والجنوب ، فاضطر ملوكها لأن يوجهوا أنظارهم الى الجزء الشمالي من أوربا حيث قامت المعارك وحدثت الوقائع التي كيفت تاريخ أوربا في العصر الوسيط .

أما الجزء الجنوبي في أوربا فلم يقع فيه في تلك العهود سوى موقعة بواتيه التي انتصر فيها شارل مارتل على جيش الاندلس . فلولا ظهور الاسلام لظلت الامبراطورية الرومانية قائمة وان انتقل مركزها من الغرب الى الشرق . ولظل البحر الابيض بحراً رومانياً . ولما قامت الثورات القومية التي خلقت دول أوربا الحديثة . ولا الثورات الفكرية التي تمخضت عنها الحضارة الراهنة[1].

---

(١) الهلال م ١٩٤٠ والفتح .

## ( ٢ )

امتد الزحف الاسلامي حتى قرب بواتيه في جنوب فرنسا عام ١١٤ هـ ٧٣٢ م ثم توقف الزحف بصورته العسكرية الحربية عند حدود أسبانيا التي استقر فيها الاسلام ثمانمائة عام ، وانتشر العرب في حوض البحر المتوسط ، فسيطروا على كثير من جزائره ودخلوا جنوب ايطاليا ، توقف الزحف العسكري وبقي الزحف الفكري الذي دخل الى أوربا كلها من خلال العلم والجامعة الاسلامية في أسبانيا ولم يكن التوقف عند بواتيه نصراً لأوربا ، بل على العكس من ذلك كان هزيمة بشهادة مفكريها أنفسهم .

يقول جيمس بريستد : ان العصر الاسلامي في أسبانيا كان أكبر عامل من عوامل المدنية في أوربا . وان انخذال المسلمين في أسبانيا ، كان بمثابة انهزام المدنية أمام الهمجية .

ويصل كلود فارير الى أعماق الحقيقة حين يقول : لقـــد أناخت على الانسانية سنة ٧٣٢ كارثة لعلها أسوأ ما شهدته القرون الوسطى . انها فاجعة ربما كانت من أشأم الفواجع التي انقضت على الانسانية في القرون الوسطى ، وكان ان غمرت العالم الغربي مدة سبعة قرون او ثمانية : هذه هي معركة

بواتيه : برابرة المحاربين من الافرنج بقيادة ( شارل مارتل ) . هذه الكارثة هي النصر الذي أحرزته جماعات الهركاس المتوحشة على فريق من العرب ، في مثل هـــذا اليوم المشؤوم ، تقهقرت أوربا ثماني مائة سنة ، وكان يمكن ان تصل اليه فرنسا ، لو أن الاســـلام النشيط الحكم الحاذق الرحب المتسامح ـ إذ الإسلام هو هذا كله ـ استطاع ان ينتزع وطننا فرنسا من فظائع لا يخذلها اسمها . ان هزيمة العرب قد أخرت المدنية . ولو انتصر العرب لحملوا مدنيتهم الى الغرب ، ولما طالت أيامه في الجهل المطبق .

ويقول هنري دي شامبون : لولا انتصار شارل مارتل الهمجي على تقدم العرب في فرنسا لمـــا وقعت فرنسا في ظلمات القرون الوسطى ، ولما أصيبت بفظائعها . ولولا ذلك الانتصار البربري على العرب لنجت أسبانيا من وصمة محاكم التفتيش . ولولا ذلك لما تأخرت المدنيـــة الانسانية ثمانية قرون .

ولا ريب ان شهادة ثلاثة من العلماء والمؤرخين الغربيين تكفي في تصور أثر الإســـلام في أوربا ، ومدى ما قدمه للبشرية كلها من قيم جـــديدة .

لقد أراد الإســلام أن يهدي أوربا هدية الايمان والعلم معاً . ولكن أوربا قبلت هدية العلم ورفضت الإيمان . وكان هذا هو مصدر شقائها ومتاعبها .

لقد تأخرت أوربا بتقدير علمائها ٨٠٠ سنة أي من عام ٧٣٢ الى عام ١٥٠٠ م وهو ما يطلق عليه اسم عصر النهضة ، لم تتوقف خلالها أوربا

عن مصارعة الإســـلام عن طريق بيزنطة . حتى كانت الحملات الصليبية التي بدأت عام ١٠٩٩ م أي بعد مرور ثلاثة قرون ونصف القرن . لم تتوقف أوربا خلالها عن مصارعة الإسـلام . ثم شاءت أن ترسل حملاتها الدامية التي أقامت المملكة الصليبية في الشـام واستمرت قرنين كاملين .

## (٣)

يطلق الاوربيون على الفترة الواقعة بين سقوط روما ٤٥٠ وبين عصر النهضة : اسم القرون الوسطى ، وهي بحق القرون الوسطى المظلمة الاوربية. وقد كانت مظلمة في أوربا وحدها . بينما كانت مضيئة في مختلف أنحاء العالم الإسلامي الى حدود فرنسا نفسها ، وكانت أسبانيا في هذه الفترة مضيئة أيضاً بأضواء الاسلام .

لقد سقطت أوربا في ظلمات القرون الوسطى ألف سنة كاملة فيما بين القرن الخامس والقرن الخامس عشر الميلادي هي فترة ازدهار المدنية والحضارة الاسلامية واتساع آفاقها ، وامتداد ضوئها الى أضخم منطقة في العالم كله من حدود الصين الى حدود فرنسا .

لقد سقطت أوربا بعد ان اعتنقت المسيحية بأكثر من قرنين من الزمان. ودخلت في مرحلة النهضة بعد أن اتصلت بالفكر الاسلامي اتصالاً مباشراً في الحروب الصليبية بثلاثة قرون . وتمثل القرون الوسطى في أوربا أمرين : سيطرة الكنيسة ورجال الدين : « سيطرة تجاوزت مجال الحيـاة الخاصة . والمشاعر العاطفية للأفراد الى مجال الحياة العامة بمظاهرها الكبرى من سياسية واقتصادية واجتماعية بحيث أصبـح رجل الدين هو الإطار الذي تتحرك في داخله الحياة في القرون الوسطى » .

والأمر الثاني : الاستبداد السياسي ودكتاتورية الحاكم التي لم تقم لإرادة الجماهير وزناً فما يتصل بالأحداث الكبرى خاصة وداخلية استناداً الى حق شرعي للأباطرة والملوك وأمراء الاقطاع لا يجوز لأحد أن ينازعهم فيه .

يقول المؤرخ روبي في كتابه تاريخ الحضارة الفرنسية : كانت المسيحية وقتذاك بالنسبة للجميع ديناً ليس فيه بهجة ، ولا حب أخوي . وإنما هي الخطايا وخوف العذاب ، وكان عند الغالبية مجموعة من المراسيم وتقاليد من العبادة تدور حول عقائد بدائية ، وخدمات تقدم للأرواح الطيبة لكي تحمى من القوى الشيطانية . ويتصل هذا بمدى انتشار السحر والقوى الخارقة التي تصدر عن آثار القديسين وبقاياهم ومنزلة الصور وقواها الخفية في اعتقاد الناس .

وكان هناك افتراض شيخوخة الدنيا وتوقع انتهائها في العام الالف ، والإيمان بقوة السحر وإحاطة كل شيء بمراسم وطقوس مقدسة وعبادة الموتى ، وتأكيد التشاؤم . وغلظة الحياة ووحشيتها . لقد كانت الصورة مظلمة وقاتمة حقاً في أوربا خلال هذه الفترة .

لقد مدّ الاسلام يده الى أوربا فامتنعت عنه ، واعتبرت بتعصبها ان موقعة بواتيه عام ١١٤ هجرية - ٧٣٢ ميلادية علامة على الوقوف في وجه الإسلام من أن يخترق أوربا ، وتحقق لأوربا ان تغلق الباب في وجه الإسلام ثمانية قرون على حد تقدير المؤرخين والباحثين .

كانت الصورة مختلفة غاية الاختلاف متباينة غاية التباين ، حتى في اوربا نفسها ، فان المناطق التي وصل اليها الإسلام من أوربا : وهي الاندلس (أسبانيا) وجزيرة صقلية أضاءت وبقيت أوربا كلها مظلمة .

يقول (لونجي رينالد) : بينما كان كل واحد في الاندلس يعرف القراءة والكتابة ، كان في أوربا جميع المسيحيين حتى نبلاءهم وأشرافهم لا يفكرون

في التعليم . ويشير الى عدد المكتبات التي كانت في الاندلس حيث كان بها سبعون مكتبة . وكان في مكتبة قرطبة وحدها زهاء الستمائة ألف مجلد ، بينما لا يوجد في أوربا كتاب واحد خارج الكتب المقدسة في الكنائس .

ويقول رينالدي : في أيام سقوطنا . نجا العلم الى ظل الأديرة الهادي حيث كان الرهبان المساكين قد انزووا في مقصوراتهم ، وأخذوا يمسحون رخامتهم القديمة ليكتبوا عليها أصول دنياهم .

وكانت مدنية العرب في القرنين التاسع والعاشر في الاندلس وصقلية قد بلغت أوج الكمال . « فلما شعرنا بالحاجة الى دفع ذلك الجهل الذي كان يثقل كاهلنا تقدمنا الى العرب ، ومددنا اليهم أيدينا لأنهم كانوا الأساتذة الوحيدين في العالم » . ومن ثم تسرب العلم من أسبانيا وصقلية الى بلاد اوربا « لقد اجتاح العالم المسيحي حوالي سنة ١٠٠٠ م غزو اسلامي جديد كان كالسيل الجارف . ولم يكن أي حاجز يقوى على صده ، ولكنه كان في هذه المرة مخالفاً لسابقه ، اذ لم يكن ضغطه على الأجساد بل على العقول . ذلك الغزو ، كان التهذيب العربي والمدنية العربية ، فان شعب الصحراء العظيم ظهر على وجه الارض بعد سقوط المدنيتين : الرومانية واليونانية . واندثار معالمها . وبذلك قام العرب بازالة ظلمات بربرية القرون الوسطى بإعادة نور الحضارة والمدنية الذي كان قد انطفأ في جميع بلاد الغرب والشرق حتى القسطنطينية » .

●

وهكذا رفضت أوربا الفتح الاسلامي عام ١١٤ هـ - ٧٣٢ م . ولكنها عادت فتقدمت الى المسلمين بعد ذلك بأكثر من قرن تطلب علمهم .

يقول رينالدي : « ان جلبرت الذي كان بابا عام ٩٩٩ ميلادية تحت اسم سلفستر الثاني تلقى دروسه كلها في مدارس العرب بالأندلس . ولما رجع

الى أوربا وأراد نشر ما أخذه من العلوم بين مواطنيه ظهر لهم ما نشره غريباً جداً ، حتى اتهموه بأنه باع روحه للجن » . ومنذ عام ١١٣٠ بمدينة طليطلة بدأت ترجمة الفكر الاسلامي .

يقول رينالدي : « كان العالم المسيحي في ذلك الوقت في صراع مع العالم العربي فبينما كان رسل الصليبيين بعددهم وعُدَدهم يعملون لانتزاع الأماكن المقدسة من أيدي العرب في الشرق ، كانوا هنا في الغرب ينتزعون منهم ملك العلم والعرفان » ونقول نعم : وانهم بعد ان انتزعوا العلم الاسلامي والمنهج العلمي التجريبي من المسلمين في الأندلس ، قطعوا تلك الرابطة ، وأخرجوا كل عربي ومسلم واستعادوا أوربا حتى جبل طارق . ثم أعلنوا انهم لم يأخذوا من المسلمين شيئاً وأن المسلمين لم يكن لهم علم ، وإنما كانوا نقلة فقط لتراث اليونان القديم .

●

تلك هي الصورة من الجانبين : المسلمون يحملون لواء الحضارة والضياء العلمي وأوربا التي ردت يدها عن الاسلام تريد ان تأخذ نتاج المسلمين الذي أعطاهم إياه دينهم ثم تحطمهم . وهؤلاء الذين ظهروا لأول مرة في تاريخ العالم في أوربا يعلنون انهم تعلموا على المسلمين ، وأنهم يأخذون أطراف منهجهم العلمي التجريبي . وليس أصدق في هذا من شهادة روجر بيكون : الذي يشهد بأنه تعلم على خلفاء معلمين من الاندلس في جامعة اكسفورد . والذي يقرر حسبما أورده العلامة بريفولت في كتابه ( بناء الانسانية ) . «ان ما يدين به علمنا لعلم العرب ليس فيما قدموه الينا من كشوف مدهشـــة لنظريات فننكره ، بل يدين هذا العلم الى الثقافة العربية بأكثر من هذا : انه يدين لها بوجوده نفسه » ويعلق بريفولت فيقول : «ان ما ندعوه العلم قد ظهر

في أوربا نتيجة لروح من البحث جديدة . وبطرق من مستحدث فن التجربة والملاحظة والمقاييس . ولتطور الرياضيات الى صـــور لم يعرفها اليونان . وهذه الروح وتلك المناهج : انما أدخلها العرب الى العالم الاوربي » هذا عطاء الإســـلام لأوربا وهو مصدر نهضتها الحـديثة في القرن الخامس عشر .

## ( ٤ )

زحف الغربيون الى العالم الاسلامي في الحروب الصليبية تحت لواء الخصومة والحقد والتعصب وباسم استعادة بيت المقدس . وفي خلال فترة مائة وخمسين عاماً على الاقل ( ١٠٩٩ – ١٢٤٩ ) لم تتوقف الحملات الصليبية الزاحفة من أوربا على قلب العالم الاسلامي في فلسطين والشام وساحل البحر الابيض ( بين حيفا ويافا وتونس ودمياط ) وجاء بعض هذه الحملات تحت زعامة ملوك أوربا . وكانت القوة الدافعة لها عنيفة في الدعوة ، والتحريض كان يحمل طابع الغزو والتعصب والكراهية .

« لقد كان للكنيسة طموحها السياسي الواسع وسلطانها القوي على الحياة العامة » ، « وكان للبابا جريجوار السابع والبابا أوربان الثاني أثرهما الخطير في الحملة على الاسلام .

الأول : في دوره الخطير في تحويل القتال بين المسلمين والمسيحيين في أسبانيا الى حرب صليبية شاملة شاركت فيها أوربا على اختلاف أقطارها . وكان لها آثارها البعيدة في حياة أسبانيا الاسلامية .

والثاني : هو الذي حمل لواء الحروب الصليبية وحملة التحريض على قتال المسلمين في ديارهم » .

وقد أوقعت الحملة الصليبية الاولى بالمسلمين أبشع مجزرة بشرية في التاريخ بقتلها سبعين ألفاً هم سكان مدينة القدس المسلمين ، أفنوهم في ثمانية أيام ولم يستثنوا امرأة ولا ولداً ولا شيخاً .

يقول أورين أ. كالفبرالي : لا شك ان القرون التي اشتعلت فيها الحروب الصليبية تعتبر أعظم فترة يندى لها جبين المسيحية في كل عصورها . وقد مر على نهاية هذه الحروب خمسمائة سنة من الزمان ولكن هذا العهد الطويل لم يمح الخزي والأكاذيب التي خلفها الصليبيون في بلاد المشرق . ولكن كيف قابل المسلمون هذا الموقف بعد أن استردوا إرادتهم وحرروا القدس . لقد رفض صلاح الدين المعاملة بالمثل ، وقال ان الاسلام ينهاه عن ذلك . ومن هنا فان صلاح الدين لما دخل بيت المقــــدس ظافراً منتصراً لم يسفك دماً . ولم تنهب جيوشه بيتاً وأمن الجميع على أموالهم وأمتعتهم . قالوا له : أما وقد كتب لك الظفر على أعدائك . فلِمَ لم تنتقم منهم وأنت تعـــلم ما فعلوا من الفظائع .

قال صلاح الدين : هذا ما يمنعني منه ديني وضميري . قالوا : هل دينك يمنعك من الانتقام من قوم بدأوك بالعدوان وساموا قومك الخسف والعذاب. قال نعم : ان ديننا يمنعنا من أن نجازي خصومنا في عنادهم ، ويأمرنا أن نكون أوفياء لعهودنا ، وأن نصفح عمن أساء .

ولما قسمت غنائم الحرب تنازل صلاح الدين عن نصيبه للفقراء وأعتق أسراه . وعندما بدأ الفرنجة يرحلون ، ترك للصليبيين المدينة حتى لا يجرح شعورهم ، ووقف مناديه من مطلع الشمس الى غروبها ينادي : هل من فقير فنؤويه ، أو عاجز عن دفع الجرية فنعطيه . وعفا عن سبعة آلاف من العجزة عن الضريبة . ودفع بعضها من جيبه الخاص ، ورفض أن يصادر اموال بطريرك بيت المقدس عند خروجه منها . وسمح للفرنج المدنيين اذا شاؤوا أن

يعيشوا ، أما المحاربون فعليهم أن يخرجوا بنسائهم وأطفالهم . وحمل الكهنة ذخائرهم الذهبية ، وخرجوا بها . ولم يتعرض لهم أحد بأذى ، بل قدمت الدواب لكثير من الذين لا يجدون ما يركبونه .

وقد شهد المؤرخون الغربيون ـ وربما لم يجتمعوا على حق كما اجتمعوا على صفة صلاح الدين ـ شهدوا بكرم أخلاقه وسماحته وبأنه عامَلَ نساء الصليبيين معاملة حميدة ، وسمح لهن بالخروج من بيت المقـــدس معززات مكرمات ، ومعهن أموالهن وأتباعهن وحَشَمهنّ ، وعامل الاميرات الأسيرات بكل تكريم ، وسمح لهن بإطلاق سراحهن . وبدا الفرق واضحاً بين سلوك الاسلام ممثلاً في صلاح الدين عندما اســترد القدس عام ١١٨٧ . وبين ما فعله الصليبيون عندما سقطت في أيديهم عام ١٠٩٩، فقد قتلوا سبعين ألفاً من المسلمين .

•

كان المسلمون في جميع أدوار الحروب الصليبية[١] يتصرفون في حدود مفهوم الاسلام رفقاً وعدلاً في دار الحرب والسلام . كان الصليبيون في الحملة الاولى قد سفكوا دماء المسلمين في المسجد الاقصى بحيث كان الفارس منهم يخوض الى رجليه في دماء المسلمين على حد ما سجله للافيس ورامبو في كتاب التاريخ العام . وذهبوا الى أبعد من ذلك حتى يقول العلامة ميشو في كتابه تاريخ الحروب الصليبية : انهم قتلوا في معركة النعمان وحدها جميع من كان فيها من المسلمين اللاجئين الى المساجد ، والمختفين في السراديب وأهلكوا صبراً (دون قتال) ما يزيد على ألف ومائة مسلم .

يقول ميشو : لقد تعصب الصليبيون في القدس التعصب الأعمى الذي لم

---

(١) راجع الاسلام وحركة التاريخ للمؤلف .

يسبق له نظير حتى شكا من ذلك المنصفون من مؤرخيهم . فكانوا يكرهون العرب على إلقاء أنفسهم من أعالي البروج والبيوت ويجعلونهم طعاماً للنار ويخرجونهم من الأقبيـة وأعماق الارض الى الساحات حيث يقتلونهم فوق جثث الآدميين . وقد دام الذبح في المسلمين اسبوعاً حتى قتل منهم على ما اتفق في رواية مؤرخي الشرق والغرب سبعون ألف نسمة . كما أحرقوا دار الحكمة في طرابلس ، وكان فيها نحو مائة ألف مجلد من الفكر الاسلامي، فاذا راجعنا ما فعله صلاح الدين بعد سيطرته علىالقدس . وكان بها مائةألف من الفرنجة والصليبيين (منهم ستونألف راجل وفارس) غير النساء والاطفال لعرفنا كيف كانت سماحة الاسلام .

وكان موقف صلاح الدين من ملوك الفرنجة آية فيسماحة الاسلام . فعندما فقد ريكاردوس ملك انجلترا جواده أرسل له صلاح الدين جوادين عوضاً عنه ، ولما مرض ووقذته الحمى أرسل اليه هدية من الثلج والفاكهة .

يقول الاستاذ ابوركا المؤرخ : لا يتأتى برهان على سمو أخلاق صلاح الدين بأكثر مما عامل به الصليبيين حتىلقد هدد أصحاب السفن منرعاية الجمهوريات الايطالية ليعيدوا هؤلاء اليائسين من الصليبيين ، وقال المؤرخ مثرو : كان صلاح الدين محبوباً في الغرب لشهامته وكرمه بعد استيلائه على أورشليم ولسلوكه سلوكاً آخر غير سلوك الصليبيين أثار دهشهم وعجبهم ، وكان كما هي العادة عند المسلمين شديد التسامح مشهوراً به .

وقد كان للحروب الصليبية آثارها البعيدة المدى . وأخطر هذه الآثار أن العائدين كشفوا لأهليهم ولأوطانهم فســـاد الادعاء بتعصب المسلمين . وتحدثوا في نبرة الإعجاب والتقدير لسماحة المسلمين مما كان له أبعد الأثر في إيقاع الكنيسة العقاب بهم وقتـــل كثير منهم . والامر الأشد خطورة

هو ان الغرب نقـل معه الفروسية والعلوم ، وتحول الى مدنية الاسـلام وإنسانيته .

وهنا يأتي السؤال الخطير الذي ألقاه المؤرخون : هل الحضارة الغربية هي نتاج المسيحية الغربية التي كان قد مضى عليها في عصر النهضة ألف وخمسمائة سنة . أم ان هذه الحضارة من معطيات الاسلام ؟

## ( ٥ )

لماذا لم تكن المسيحية مصدر الحضارة الغربية ؟ يقول [ليوبولدفلبس] : ليس المفروض في النصرانية أنتكون الهيكل الروحي للمدنية الغربية عقيدة مبنية على الاخلاق المطلقة . كما هي الحال في الاسلام . لا شك أنها كذلك . ولكن حينئذ لا يمكن أنيخطىء خطأ أفدح من ان يعتقد ان المدنية الغربية الحديثة نتاج النصرانية .

لقد بقى الروح الاوربي قروناً طويلة يرزح تحت عبء نظام ديني يطوي في نفسه احتقار الحياة ، واحتقار الطبيعة . ومن الجلي ان مثل هذا النظام لا يحث على نشاط الجهود المتعلقة بالمعارف الدنيوية ولا يتحسس احوال الحياة على الارض .

وخلاصة القول ان المدنية الاوربية قائمة على اساس المدنيـــة الرومانية الوثنية . وهي لم تأخـــذ من النصرانية التي اعتنقتها لأسباب سياسية قاهرة سوى الطلاء فحسب . ثم ان المدنية الاوربية لا تزال في واقعها وثنية مادية لا تؤمن بغير القوة . ومن هنا نجد فارقاً عظيماً بينها وبين الاسلام .

ويقول العلامة مسمر : ان الدين النصراني ظهر في عصر الامبراطور أغسطوس وقت ما كان التمدن الروماني في درجته العليا . وكان منشؤه في بيئة اليهود ، وما استطاع ان ينتشر منها في بلاد الاغريق الرومانيين

التي كانت أعظم بلاد متمدنة في ذلك الوقت . ومنها كان عليه أن يحفظ ما وجده فيها من المعارف والتقدم ويستمر عليه . أما دين الاسلام فقد كان ظهوره في زمن لم يبق فيه أثر لهذا التمدن الروماني . ومهده كان فيجزيرة العرب ، وهي بلاد مقفرة في ذلك العهد . أهل خرافات وأوهام وعبدة أصنام جهلة ليس لعقلهم أي استعداد لهذا التمدن الاغريقيالروماني ولا براعة لهم إلا في قول الشعر . ومع ذلك فترى ان الدين النصراني أطفأ المصباح الذي كان استلمه عبّاد الاصنام ، فلما جاء دين الاسلام أضاءه واستنارت الدنيا ، وكان ذلك تحقيقاً لقانون التمدن الذي مقتضاه منع الطبيعة من التقاعد والتقهقر . ان أساس الدين الاسلامي بمقتضى قواعد العلم أرفع من أساس الدين النصراني بالمسافة التي تفصل الاعتقاد بإله واحد مخالف للحوادث والاعتقاد بإله مركب من ثلاثة آلهة ظهروا على الارض في هيئة انسان ، كما ان مبدأه كان أنفع وأجدى لمن اتخذه ديناً . فدين الاسلام جاء ليوفق بين جمع عظيم من بني آدم كان يقاتل بعضهم بعضاً بسبب الأديان السابقة . وينشر العلوم بين أمم كانت قبل مجيئه غارقة في الجهل .

ان الدنيا كانت في هذا الوقت : أي وقت ظهور محمد ﷺ محتاجة لمن ينقذها من الاهوال التي كانت فيها ، ومن شذّ وقال ان محمداً كذاب ، فقد بتّ في المسألة بدون ان يحلّها ويبين اسباب نجاح محمد . أما نحن معاشر الفلاسفة المحققين . فنقول ان الرجال العظماء الذين تبقى أعمالهم خالدة مدى الأزمنة هم من اهل النباهة الفائقة يجيئون لإصلاح العالم ولشفاء عصرهم من مرضه .

ومن تأمل كلام القرآن رأى ان محور الاسلام الوحدانية وقطبيه المؤاخاة وتحسين شؤون العالم بالتدريج بواسطة العلم . فهذه هي حقيقة اسباب نصرة الاسلام . ومن سنة ٧٤٣ من الميلاد أي بعد مائة واحدى عشرة سنة من وفاة محمد . كانت دولة الاسلام اكبر من دولة الاسكندر المقدوني وقدر مملكة

قيصر تقريباً . وفي عام ١٥٦٦ عنــد وفاة السلطان سليم كانت أكبر من مملكة الرومانيين فبذلك يتضح أن عظمة الاسلام مكثت ألف سنة وان التاريخ يفيدنا حقيقتين :

الاولى : أن تقدم العلوم في وقتنا هذا حصل رغماً عن الدين النصراني . أما دين الاسلام فعلى العكس من ذلك، أي لا يمكن ان يبقى على قيد الحياة إلا بانتشار العلوم وتقدمها . فان بين الاسلام والعلوم رابطة كلية .

الثانية : أن النصراني اذا صار عالماً ترك دينه بخلاف المسلم فانه لا يترك الا اذا صار جاهلاً ، فبأي وجه يمكن نسبة التمدن الحالي الى الدين النصراني. والحال أنه ما جاء الا بعد خمسة عشر قرناً من ظهوره .

ولقد عالج هذه النقطة كثيرون غير العلامة (مسمر) وكشفوا عن الفرق الزمني بين حضارة الغرب وبين ظهور المسيحية، واستندوا الى وقائع التاريخ التي تثبت ان العصور الوسطى الاوربية هي فترة ما قبل ظهور الاسلام . وان الحضارة الاسلامية ظهرت وأضاءت العالم منذ القرن السابع الميلادي . وان اوربا لم تبدأ حضارتها الا في القرن الخامس عشر ، بعد ان صادرت كل منتجات الحضارة الاسلاميــة والعالم الاسلامي في اسبانيا . وطردت العرب كما طردت الاسلام نفسه .

ومن هنا فلا صلة مطلقاً بين النصرانية وبين الترقي الاوربي . وان الصلة كل الصلة بين الترقي الاوربي والاسلام . وان بين نشأة الحضارة الغربية وبين نشأة المسيحية مسافة ألف وخمسمائة سنة . وان المسيحيــة قدمت لأوربا الرهبانية ، وان الاسلام هو الذي قدم العلم على حد تعبير ليوبولد فلبس . وان هناك إجماعاً على ان أوربا لم تتقدم فكراً ولا ثقافة ولا علماً الا بعد أن ثارت على سلطان الكنيسة . وتحررت تحرراً تاماً منه . وان للاسلام ايضاً دوره في حركة الاصلاح المسيحي .

ولا ريب ان حركة الاصلاح الدينى التي كانت تقوم على إعطاء الانسان حق الحكم الشخصي في قراءة الانجيل وفي الاتصال بالله دون واسطة ، «وتحرير العقول من العبودية التي وضع نيرها رجال اللاهوت » انما ترجع الى مفاهيم الاسلام التي طرحها في اوربا .

فالاسلام لا ريب أهدى أوربا حركة الاصلاح الديني التي حمل لواءها لوثر وكالفن . ثم أعطاها المنهج العلمي التجريبي الذي حمل لواءه فرنسيس بيكون. بل ان الاسلام هو الذي أهدى أوربا الانسية المدنية في مقابل الهمجية .

يقول بارتلمي سانهيلر : أسفرت تجارة العرب وتقليدهم عن تهذيب طبائع سراتنا الاقطاعيين الغليظة في القرون الوسطى . وتعلم فرساننا أرق العواطف وأنبلها وأرحمها من غير ان يفقدوا شيئاً من شجاعتهم . وأشك في ان تكون النصرانية وحدها قد أوحت اليهم بذلك مهما بولغ في كرمها .

وكان للحضارة الاسلامية تأثير عظيم في العالم . وان هذا التأثير خاص بالعرب وحدهم . فلا تشاركهم فيه الشعوب الكثيرة التي اعتنقت دينهم ، فالعرب هم الذين هذبوا البرابرة الذين قضوا على دولة الرومان بتأثيرهم الخلقي. والعرب هم الذين فتحوا لأوربا ما كانت تجهله من عالم المعارف العلمية والأدبية والفلسفية بتأثيرهم الثقافي فكانوا ممدنين لأوربا » .

ولقد كانت الكنيسة تنادي بأنها الصلة الوحيدة بين الله والإنسان ، وبأنه لا يصل الى الله دعاء او صلاة ، او استغفار إلا عن طريق الكنيسة ورجالها ، فأخذ لوثر وكلفن من الاسلام ذلك المفهوم القائل بأن العلاقة بين الله والانسان مباشرة . وانه ليس لرأي بشري حرمة التقديس وبنظرة واحـــدة الى منشور لوثر تجد مفهوم الاسلام فيه واضحاً وصريحاً . ولا ريب ان تعاليم الاسلام التي ذاعت في اوربا هي التي أمدت لوثر بهذا الضوء الذي ضمنه دعوته من القول بأن اتخاذ الصور والتماثيل والسجود لها أقرب الى الوثنية . وان الكتاب

المقدس هو المصدر الوحيد للدين ، ومن حق كل انسان قادر ان يقرأ الكتاب المقدس ويفهمه من دعوته الى فك عقـــد زواج الكهنة ، وإلغاء صكوك الغفران . وقوله ان البابا لا يستطيع ان يرفع عن الانسان قصاص الخطيئة ، ولا ريب ان الاسلام حفظ المسيحية ورسمها في أنقى صوره حين اعترف بعيسى الرسول ومعجزة ولادته . وكرم جميع الانبياء والكتب .

# الفصل الثالث

## المسلمون والمتوسط

جاء الاسلام فاصلاً بين عهدين في تاريخ البشرية . وجاءت معطيات الاسلام متميزة عن كل ما سبقها ، وصحح كل مفاهيم التوحيد والاخلاق والاجتماع ، ووضعها في الصورة النهائية انطلاقاً من مفهوم أصيل هو ان ثمار المعرفة الانسانية الحقة ، انما جاءت بها الأديان السماوية المنزلة ، وهي وإن اختلطت بالفلسفات والتفسيرات البشرية ، ومفاهيم الوثنية ، والتعدد والعنصرية وعبادة الاجساد والابطال . فان الاسلام قد أعادها مرة اخرى الى وضعها الصحيح ، فلقد جاء الاسلام راسماً المنهج الرباني الذي يهدي البشرية الى الانسانية والتوحيد الحق . ويحرر العالم من زيف نظريات الفكر البشري . ومن اضطرابها وفسادها .

ومنذ جاء الاسلام . فقد وقف التاريخ وقفة حاسمة ، ووضع حداً فاصلا بين كل ما سبقه . وبين هذا العصر الجديد ، فقد حددت ولادة الاسلام الفاصل العميق بين حضارتين : حضارة الوثنية وحضارة التوحيد . ومن ثم انشطر البحر المتوسط الى شطرين . فقد برزت حضارة لها طابعها وذاتيتها

وتشكيلها الروحي والفكري والاجتماعي والنفسي . ومن خلال الإسلام قامت حضارة لها مضمونها الاجتماعي ولها نظريتها الخاصة . ولها اسلوبها في المعرفة ولها منهجها العلمي التجريبي الذي قدمتـــه الى البشرية كلها وقامت عليه الحضارة الحديثة .

وأعظم معطيات حضارة الاسلام : تمدين الانسان وتحرير البشر من عبودية الفكر والجسد وأغلال الظلم والاستعباد التي كبلته بها حضارات أربع هي : الفرعونية والرومانية والفارسية والهندية .

لقد قامت حضارة الاسلام[1] على وحدانية القيم التي هي من وحدانية الله التي أعطت البشرية وحدة المعيار الخلقي . وأعني به وحدة المعيار بين مختلف الناس بغضّ النظر عن أجناسهم وألوانهم .

« ولب هذه الرسالة أن الله موجود وأنه واحد . أما وجوده فمعناه عند العقل العربي . فهو وجود القيم وجوداً مستقلاً عن الانسان ووجوده ، أعني انها ليست من صنع الانسان يصنعها كما تقتضي ظروف عيشه ، ومعناه كذلك عند العقل العربي . ان حياة الانسان على هذه الارض لم تكن عبثاً .

أما كون الله واحداً فمعناه عند العقل العربي ان القيم تحمل معياراً واحداً لا يتأثر باختلاف الزمان والمكان . «فالمعيار واحد بكل انسان . أنـّى كان وحيثما كان ، فليس لكل مجموعة من الناس معيارها الخلقي ، ومعيارها الذي تعيش به . الحق بل الخير خير بالنسبة لكل البشر . والحق حق بالنسبة للناس أجمعين » .

فالقول بوجود الله ووحدانيته . إذن هو في صميم الاعتراف بموضوعية

---

(١) عن بحث الدكتور اسماعيل راجي الفارقي .

القيم وتخليصها من قيود ( النسبية ) التي تقر اختـــلاف المعايير باختلاف الظروف .

فالإنسان أمام الله هو الإنسان ، لا اختلاف بين فرد وفرد اذا ما قيس الاقرار بمقاييس الأخلاق الذي هو مقياس الحق . وهذا ما غير العروبة عن سائر أهل الأرض جميعاً ، ذلك باعتقاد ان القيم الأخلاقية حقيقة مبعوثة اليه من السماء هداية له في سيره ، على ان تلك القيم لم ترسل اليه دفعة واحدة ، بل أرسلت على دفعات بواسطة الأنبياء من آدم الى محمد . وكانت الرسالة الخلقية تزداد على مَرّ الأيام قوة وجلاءاً كلما زاد الوعي العربي بها .

●

هذا التمييز الواضح بين الفكر الذي قدمه الإسلام والفكر البشري الذي كان يصر على الوثنية والعنصرية والهوى .

ومعنى هذا ان الحضارة الإسلامية لم تكن جزءاً من حضارة سابقة . ولم تكن مجرد ناقلة علوم اليونان فقد جاء ذلك بعد أن قدمت قيمها الأساسية . وأقامت بها منهجاً وذاتية وكياناً . وانها في كل ما قدمت كانت مختلفة كل الاختلاف عما طرحه الفكر البشري السابق عليها . بل ان بعض الباحثين يذهب الى أبعد من ذلك ، فيقرر العلامة علال الفاسي ان العمليات التاريخية التي سبقت بعثة الرسول لم تكن إلا تمهيداً لإبلاغ الإنسان رشده عن طريق إكمال الدين .

ولم يكن محمد بدعاً من الرسل فقد سبقته نبوّات ورسالات كما سبقته دعوات اصلاحية تشمل كل بقاع العالم . ولكنها لم توفق الى البقاء وأصابها الانحراف الذي يستوجب أن تجدد او تصلح لتفتح آفاق التقدم الإنساني . فكان لا بد من بعث الرسول الخاتم الذي يضع الإنسان في جوّ الرشد المبني

على العقل والروح والقلب والجسم . فكل ما سبق من عمليات التاريخ . كان يهدف لغاية واحدة : هي وجود الرسول نفسه . وبذلك يصبح ماضي الأمة، وكأنه ما قبل التاريخ . أما التاريخ الصحيح فيبدأ بالمجتمع الاسلامي .

●

ومن هنا نستطيع أن نقول بزيف دعوى وحـــدة الحضارة في حوض المتوسط التي يحاول بعض الكتاب اعتبار الإسلام جزءاً منها . كما نستطيع ان نقرر خطأ القول بأن الحضارة الاسلامية امتـداد للمجتمع السرياني كما حاول المؤرخ توينبي ان يقول بذلك . وان الإسلام كان اضافةجديدة واضحة ومنهجاً له ذاتيته الخاصة . وأنه قد غير كل شيء بعد ذلك . وأثر أثراً كبيراً فيمجرى التاريخ والحضارة . وبلغت آثاره الى قلب أوربا ، وإلى قلب الفكر الغربي المسيحي . وانه كان بعيد الاثر فيحضارات الهند وفيالاديان والمذاهب القائمة ، وكان أثره واضحاً حتى في الأقطار التي لم تعتنقه . فقد عدل كثيراً من اتجاهاتها . وأدخل اليها الكثير .

وليس أدل من الأثر العميق الذي أحدثه في اسبانيا وفي جنوب فرنسا وجنوبي إيطاليا . وهذا الأثر الذي ما زال باقياً في اللغـــات والمفاهيم والمجتمعات .

●

وقد اعترف كثير من المؤرخين الاوربيين بهذا الأثر . ومنهم هنري بيرين (المؤرخ البلجيكي) الذي يقول : ان البحر الابيض المتوسط كان حلقة اتصال مستمر بين الحضارات التي نشأت حول شواطئه منـذ العصور القديمة حتى اكتسبت تلك الحضارة طابعاً جاز ان نسميه طابع البحر المتوسط . ولكن الحدث الكبير الذي قلب الاوضاع رأساً على عقب هو ظهور الاسلام الفجائي

في القرن السابع الميلادي على مسرح الأحداث . وما كان من استيلائه على الموانى الشرقية الجنوبية والغربية من (البحيرة الاوربية) !

ومنذ ذلك الوقت أصبح البحر المتوسط سداً وحاجزاً بين الغرب والشرق بعد أن كان معبراً وأداة اتصال على الرغم من أن الدولة البيزنطية بفضل أسطولها استطاعت أن ترد المسلمين عن بحر إيجه والأدرياتيك والشاطىء الجنوبي من ايطاليا . إلا أن البحر المتوسط لم يلبث ان سقط كاملاً في أيدي العرب فطوقوه من الجنوب ومن الغرب بفتحهم المغرب وأسبانيا وباستيلائهم على جزر البليارو كورسيكا وسردينيا وصيقيلية . وتبعاً لذلك فانه منذ القرن الثامن الميلادي حكم على التجارة الاوربية بالموت في تلك المنطقة . وانتقلت حركة النشاط التجارية كلها نحو بغداد عاصمة الامبراطورية الاسلامية .

ومن ثم فان هـــذه الشواطىء التي قامت عليها في يوم من الأيام علائق ترتكز على وحدة العادات والحاجات والافكار ، قامت فيها حضارتان : بل عالمان يواجه أحدهما الآخر .

ان التوازن الاقتصادي الذي قام منذ العصور القديمة . واستمر حياً بعد الغزوات الجرمانية قد انتهى أيام الغزو الاسلامي .

ومن هذه الحقيقة ظهر بالضرورة نظام اقتصادي جديد . ولعل هذا هو السر في تلك الصيحات المليئة بالحقد التي تنبعث من الغرب ، والتي كانت مصدر الحملات الصليبية على فلسطين وبيت المقدس ومصر في نفس الوقت الذي اتجهت فيه حملات الفرنجة على الاندلس والمغرب تحت دعوى باطلة . هي إعادة المسلمين الى الجزيرة العربية واستعادة الاجزاء الى ما كانت عليه أولاً في المغرب وسوريا ومصر .

ولا ريب ان المراجعة الصحيحة للتاريخ تكشف عن ان هذه الاجزاء

كانت عربية قبل الاحتلال الروماني بأكثر من ألفي عام . وأن أوربا لم تكن تملكها وإن كانت قد احتلتها بالغصب تحت ظـــلم الامبراطورية الرومانية المستبدة . بل ان هناك ما هو أبعد من هذا . فان هذا الاحتلال الذي دام طويلاً لم يستطع ان يفرض لغة الرومان ولا فكرهم ، ولم تلبث هذه الاجزاء ان عادت الى أصولها التي تربطها بالإسلام لغة وديناً وفكراً .

ولتكن مصر عاشت ألف سنة ـ منذ دخول الاسكندر لمصر الى دخول العرب ـ تحت نفوذ الرومان . او على اتصال بثقافة الإغريق ، فان ذلك كله لم يلبث ان تبخر في الهواء وذاب كالثلج ، فقد كان الاسلام ليس ثقافة متغلبة كاسحة ، ولكنه كان الفطرة وكان تجديداً للحنيفية السمحاء ( دين ابراهيم ) الذي كان قد عايشه منذ ثلاثة آلاف سنة .

ولا ريب إن التوحيد الخالص هو الضوء الكاشف الذي تزول أمامه غواشي الثقافات والفلسفات . وهو الفطرة التي فطر الله الناس عليها .

أما تلك الثقافات . فقد كانت مضادة للفطرة وللتوحيد ، وكانت مفروضة فرضاً مع النظام العبودي القاسي ، وكانت النفس العربية رافضة لها رفضاً واضحاً ، وما زالت تلتمس أي كوة من كوى الضوء في دين سماوي حق . فلما وجدت ذلك في الاسلام تبخرت تلك السنوات الألف بتراثها وضاعت وكأنها لم تكن .

لقد انطوت تلك الصفحة نهائياً: صفحة الوثنية والعبودية والتعدد وعبادة النار ، وعبادة الفرعون والمجوسية ، وذابت تماماً وانطوت امبراطوريات أربع وتقوضت تحت ضربات التوحيد ، واكتسحت اللغة العربية كل اللغات ، كما اكتسح الفكر الاسلامي كل فكر سواه ، وخلصت المنطقة مرة اخرى لكلمة الله . ولا عبرة بما يقال من اقتباسات المسلمين من البيزنطيين والنصارى واليهود وصائبة حران . فان ذلك كله لم يكن الا في إطار الصورة القائمة

على التوحيد والعدل والايمان بالغيب ، والتي هدت الى المنهج التجريبي . فماذا أعطت حضارة المتوسط القديمة شيئاً إلا إضافات ، ولكنها أخذت كثيراً وتجددت وعدلت عن مناهجها .

ولم يكن بالحق دور المسلمين كدور الأيجيين والفينقيين واليونان والرومان. ولكنه كان كبيراً جداً . وكان عطاء الإسلام عظيم الأثر . فقد زلزل كل قواعد الفكر والحضارة وجدد العقيدة . وحرر النفس الانسانية ، وأقام الأمة الوسطى : عالم العرب والاسلام ليحمل كلمة الله الحق .

•

ولقد كشف جوستاف فون جرونيام كيف أثر الاسلام في أوربا[1] : « ظل الإسلام يؤثر في الوضع الاوربي في معظم الأمر بظهوره في ثوب الخطر الدائم . واتخاذه صورة محيرة تمثل عالماً مختلفاً قربة يجعل منها حقيقة ماثلة ، ولما كانت أوربا لم تكف تماماً عن التطلع جنوباً وشرقاً . فان وجود الاسلام ومثوله بقوة في الأذهان ظل يبدو لأعين الاوربيين أضخم حقيقة على الدوام تقريباً ، ولم يحدث البتة على مرّ العصور أن حقيقة مفردة لعبت في صوغ العلاقات الدولية في العصور الوسطى دوراً أكبر من الذي لعبه وجود دولة قوية غامضة لا يمكن التكهن بحقيقتها على الجانب الآخر من ذلك البحر الذي كان العرب كلفين بتسميته البحر الاوسط .

ثم يشير جرونيام الى السر في عظمة الاسلام: ويرجعها الى مصدرها وهو شعور المسلم بأنه دين هو خاتم الأديان ، وأنه هو الحق الذي لا حق سواه ، وأنه يسير في طريق الخلاص والشعادة السرمدية .

---

(١) حضارة الاسلام لجوستاف فون .

ويصل جرونيام الى القول بأن العالم المسيحي يخص الاسلام باهتمام يفوق كل ما تلقاه منه .

●

هذا الاهتمام الذي كان صوراً متعددة من عدوان الغرب الدائم للقضاء على الإسلام واستئصاله في نفس الوقت الذي لم يكن الإسلام عدواناً بأي صورة من الصور .

ويؤكد هذا المعنى الكثيرون : ويقول توينبي في كتابه الحضارة في فترة اختبار . الاسلام لم يدخل فيمعركة مع رسالة عيسى . ولكن مع الكنيسة المسيحية التي استولت على عقول الروم واستسلمت الى ما دعت اليه الوثنية الإغريقية من الشرك وعبادة الاصنام . وان الاسلام قد استنكر هذا الشرك واسترد عبادة الإله الواحد ، الذي دعا ابراهيم الى عبادته من قبل ، وهكذا حمل الإسلام شعلة التوحيد بين المسيحيين المشركين من جهة ، والهندوس المشركين من جهة اخرى ولا ريب ان الاسلام قد قضى على النزعة العنصرية ، والصراع الطبقي بتقرير مبدأ الإخاء الاسلامي والمساواة المطلقة بين المسلمين .

●

وليس شك ان الاسلام هو الذي أدخل العرب التاريخ العالمي حينما حملوا لواءه . وذهبوا به الى أقصى الأرض ، ولكنهم مع ذلك ظلوا يتجهون خمس مرات في اليوم الى قبلتهم في البيت الحرام . ولا ينسون أبداً ان هناك رابطة تربطهم بكل من يردد لا إله إلا الله في أقصى الارض . وأنهم

يستحثون المطايا الى الطواف بالبيت . ولا يرون أي غضاضة في ان يولوا وجههم شطر المسجد الحرام . ويربطوا أنفسهم بذلك التاريخ الذي بدأ في قلب الصحراء .

وليس صحيحاً ما يردده البعض من أن المسلمين قد ولـّوا وجوههم نحو البحر المتوسط . ولم يولـّوا وجوههم شطر الصحراء البتة .

## الفصل الرابع

# التاريخ الاسلامي

لا ريب أن الاسلام له منهجه الخاص في فهم التاريخ وتفسيره : هـذا المنهج المستمد من جوهر الاسلام نفسه . وان كل محاولة لتفسيره وفق منهج غير منهجه ، إنما تخرج به عن أصوله وحقيقته « فالتاريخ الإسلامي جزء من الاسلام ككل وغير منفصل عنه[1] وان التاريخ الاسلامي قبل أن يكون تاريخ حوادث وفكر هو تاريخ عقيدة شاملة لها سماتها وخصائصها المميزة » .

ومن أجل هذا فان دراسته تقتضي النظر فيه نظرة متكاملة ، دون ان يمزق الى مقاطع ، وان محاولة تمزيقه تقضي بخطأ النظرة وقصورها ، وان النظر فيه يجب ان يجري وفق مفاهيم الإسلام نفسه، دون الاعتماد على المناهج الوافدة ، ذلك ان هناك ضرورة كبرى لفهم اصول الإسلام ومدى تطبيقها على التاريخ وخاصة في أسس ثلاثة :

---

(١) دكتور عبد الرحمن الحجي ( دراسة التاريخ الاسلامي ) .

(اولاً) ان الدعوة الاسلامية هي رسالة ربانية سماوية ، وليست سلطاناً أرضياً تنطبق عليه مفاهيم الدول والملوك وقيمهم .

(ثانياً) ان مفهوم الجهاد هو أساس دراسة المعارك والفتوح . ومن هنا يتحتم فهم الإيمان بالشهادة في سبيل تعليل انتصارات المسلمين ، ووضع مسألة الغنائم وغيرها في الدرجة التالية لذلك .

(ثالثاً) الايمان بأن المسلم يرى انه مكلف برسالة الدعوة الى الله وتحقيق المجتمع الرباني في الأرض . وانه تطبيق لغاية استخلاف الانسان في الأرض .

ولقد استطاع غير قليل من الباحثين الغربيين فهمهذه الخطوط الاساسية. ومن هؤلاء : ولفرد كانتول سميث الذي يقول : « ان المسلم يحس إحساساً جاداً بالتاريخ : انه يؤمن بتحقيق ملكوت الله في الأرض ، يؤمن بأن الله قد وضع نظاماً عملياً واقعياً يسير البشر في الأرض على مقتضاه . ويحاولون دائماً أن يصوغوا واقع الارض في إطاره ، ومن ثم فهو دائماً يعيش كل عمل فردي او اجتماعي . وكل شعور فردي او اجتماعي بمقدار قُربه او بُعدِه من ذلك النظام الذي وضعه الله ، والذي ينبغي تحقيقـــه في واقع الارض لأنه قابل للتحقيق ، والتاريخ في نظر المسلم هو سجل المحاولة البشرية الدائمة لتحقيق ملكوت الله في الارض ، ومن ثم فكل عمل وكل شعور فردياً كان او اجتماعياً ذو أهمية بالغة ، لأن الحاضر هو نتيجة الماضي والمستقبل متوقف على الحاضر » .

ويجري ولفرد كابتول سميث مقارنة فيفهم التاريخ بين الإسلام والهندوسية والمسيحية والماركسية فيقول : ان الرجل الهندي لا يأبه بالتاريخ ولا يحس بوجوده لأن التاريخ هو ما سجله البشر من أعمال في عالم المادة وعالم الحس. والهندي مشغول دائماً بعالم الروح : عالم اللانهائية ومن ثم فكل شيء في

عالم الفناء المحدود لا قيمة له عنده ولا وزن . والتاريخ بالنسبة اليه شيء ساقط من الحساب .

●

أما المسيحي فيعيش بشخصية مزدوجة ، او في عالمين منفصلين لا يربط بينهما رباط ، فالمثل الأعلى عنده غير قابل للتطبيق ، والواقع البشري المطبق في واقع الارض منقطع عن المثل الأعلى المنشود . ويسير هذان الخطان في نفسه متجاورين او متباعدين ولكن بغير اتصال . والتاريخ في نظره هو نقطة ضعف البشر وهبوطه وانحرافه .

●

أما التاريخ في نظر الماركسي : فهو الإيمان بحتمية التاريخ بمعنى ان كل خطوة تؤدي الى الخطوة التالية بطريقة حتمية . ولكن لا يؤمن الا بهذا العالم المحسوس ، بل لا يؤمن في هذا العالم إلا بالمذهب الماركسي وحده ، وكل شيء عداه باطل . والماركسي يتبع عجلة التاريخ . ولكنه لا يوجهها ، ولا يقيسها بأية مقاييس خارجية عنها .

أما المسلم فانه غير ذلك تماماً .

●

ولا ريب ان نظرة واحدة الى القرآن في مجال تفسير التاريخ تجد المنهج الإسلامي واضحاً مقرراً ذلك أن هناك[1] قوانين معينة ترتقي بمقتضاها الامم

---

(١) عبد الحميد صديقي : تفسير التاريخ .

وتنهار . وان تدهور الامم انما يجيء نتيجة الفساد والبغي والانحطاط ، وقد رسم القرآن هذا القانون منذ أربعة عشر قرناً، ووضع نماذج التجربة كاملة أمام الناس في حضارات عاد وثمود وقوم تبع وامبراطورية فرعون وكشف عن صدق هذا القانون : « **سنة الله في الذين خلوا من قبل ولن تجد لسنة الله تبديلا** » « **ذلك بأن الله لم يك مغيراً نعمة أنعمها على قوم حتى يغيروا ما بأنفسهم** » .

ولقد قرر القرآن ان الحياة البشرية ذات معنى . وان الانسان هو محور فلسفة التاريخ . والقرآن لا يعتبر الارض مكاناً للعذاب او سجناً سجن فيه البشر الآثمون في أصل تكوينهم لسبب خطيئة اصلية . ذلك انه لا توجد أصلاً خطيئة للبشر ، وان خطيئة آدم قد غفرها الله له ، وأن لا تزر وازرة وزر اخرى .

وان فترة الحياة القصيرة على هذه الارض هي فترة اختبار للانسان . وانه هو الذي حمل الامانة . وواجه التحدي ، فعليه ان يثبت مقدرته على اختيار الطريق الصحيح : « **وهديناه النجدين** » والحياة اختبار وامتحان للناس حول هذه الامانة وهذا الاستخلاف « **وهو الذي جعلكم خلائف في الارض ورفع بعضكم فوق بعض درجات ليبلوكم فيما آتاكم** » وتلك عبرة التاريخ كله وقضية الانسان .

وقد فهم روزنتال[1] وجهة الاسلام في تفسير التاريخ وعبر عنها في وضوح: « ان الميزة التي امتاز بها الفكر الديني في هذا الاتجاه هو الوعي بأن للتاريخ

---

(١) علم التاريخ عند المسلمين .

نهاية هي يوم الساعة حين يسأل كل واحد عما عمله في الدنيا ويوم الساعة بداية تاريخ آخر يصفه القرآن وصفاً دقيقاً حتى كأنه وقع في الماضي » .

ويؤكد العلامة علال الفاسي هذا المعنى حين يقول : « ان الجبرية غير موجودة في الإسلام لأن الانسان ليس خارج التاريخ ، بل هو من عوامله الداخلية الفاعلة والمفتعلة ، وليست عمليات التاريخ دون غاية » .

ويقول ان الرسول قد ادرك الوجود التاريخي إدراكاً كلياً . ولكنه لم يكلف نفسه بأن يكون المؤرخ او المدون للتاريخ . وانما وضع لنا الإطار الذي علينا ان نملأه بما نكتشفه من احداث وما نصنعه من عمليات . « ولم تذكر كلمة التاريخ في القرآن ولا في السنة ، وان قص علينا القرآن قصصاً للاولين ، لا لنعتبرها تاريخاً بأوقاتها وظروفها . ولكن لنتعظ بما فيها من عبرة لأولي الالباب » .

وللتاريخ في نظر الاسلام مرحلتان لا بد من التوقف عندهما :

(اولاً) مرحلة العمليات التاريخية التي سبقت بعثة الرسول . وهذه لم تكن الا تمهيداً لإبلاغ الإنسانية رشدها عن طريق إكمال الدين بوجود محمد خاتم الرسل . ولم يكن محمد بدعاً من الرسل فقد سبقته نبوات ورسالات كما سبقته دعوات اصلاحية تشمل كل بقاع العالم . ولكنها لم توفق الى البقاء . وأصابها الانحراف الذي يستوجب ان تجدد وتصلح لتفتح آفاق التقدم الانساني فكان لا بد ان يبعث الله الرسول الخاتم الذي يضع الانسان في جو الرشد المبني على العقل والروح والقلب والجسم .

وكل ما سبق من عمليات التاريخ كان يهدف لغاية واحدة : هي وجود

الرسول نفسه . وبذلك يصبح ماضي الامة وكأنه ما قبل التاريخ .

(ثانياً) هي نهاية التاريخ الدنيوي والوصول الى عالم يحاسب فيه المرء على ما قدمه من خير او شر . وبهذا الامتداد التاريخي الى ما بعد الموت يزول كل تناقض ممكن بين غاية التاريخ وبين اسباب عملياته .

●

ولاريب ان هذا المفهوم للتاريخ ، وهذا المنهج لتفسيره يختلف اختلافاً جذرياً مع مفاهيم الاديان والفلسفات .

وهناك ناحية اخرى لا بد من الإشارة اليها وهي ان نظرية التفسير المادي للتاريخ لا تكون صالحة في تعليل بعض الاحداث والظواهر التاريخية الكبرى او بيان اسباب قيام الدول وسقوطها . وان هـــذا المنهج كما يقول العلامة تريتون : يفشل فشلاً ذريعاً في تعليل وحدة العرب وغلبتهم على غيرهم ، وقيام حضارتهم واتساع رقعتهم وثبات أقدامهم . فلم يبق أمام المؤرخين الا انينظروا في العلة الصحيحة لهذه الظاهرة الفريدة ، وقد رأوا انها لا تقع في هذا الشيء الجديد ألا وهو «الاسلام» رأوا ان الإسلام قوة هائلة فيه حيوية دافعة وميكانيكية حية . وهو علة العمران وسبيل الحضارة وهو الطريق الى جمع الكلمة ونشر السلام وتحقيق العدل بما يؤلف بين القلوب ويربط بين الشعوب » .

●

ولا ريب كانت روح الاسلام من القوة بحيث صرفت الناس عن ماضيهم

صرفاً تاماً[1] وساعد على ذلك ان الاسلام ليس ديناً فقط ، بل نظاماً اجتماعياً . فكان اسلامهم دخولاً في نظام جديد يقطع الصلة التي تربطهم بالماضي .

ولقد شهد المؤرخون المنصفون بأن فرداً او أمة دخلت الاسلام لم ترتد عنه أبداً . ذلك ان الاسلام دين وزيادة .

---

(١) حسين مؤنس الشرق الاسلامي .

# الفصل الخامس

## القرآن والأديان

جاء القرآن خاتماً لرسالات السماء ومكملاً للكتب المنزلة من قبله ومهيمناً عليها . وقد تميز الى ذلك بميزة كبرى هي أن الله سبحانه وتعالى تعهد بحفظه بينما وكلت الكتب الاخرى الى من أنزلت اليهم للاحتفاظ بها .

ومن هنا فان القرآن هو الكتاب الوحيد في العالم كله الذي حفظ من التحريف. وهو النص الموثوق الثابت الذي لم يتغير «والقرآن الذي في المصاحف بأيدي المسلمين شرقاً وغرباً فيما بين ذلك من أول أم القرآن الى آخر المعوذتين: كلام الله عز وجل . ووحيه أنزله على قلب نبيه محمد بن عبد الله » .

ولقد كان نزول القرآن على محمد ﷺ : في تقدير الباحثين والمؤرخين ، « أعظم حادث في تاريخ البشرية[١] » .

فلأول مرة ـ من بين الكتب السماوية الاخرى يظهر على الارض كتاب

---

(١) من بحث للدكتور سامي النشار .

ذو كلمات وحروف إلهيـــة ، لم يكتب سطراً من سطوره بشر ، ولم يخط حرفاً من حروفه انسان ، وقد أعلن الكتاب الإلهي إعلاناً لا محيص عنه انه آخر وحيٍ من السماء ، وان رسالة السماء اكتملت به اكتمالها الأخير ، وان الدائرة الإلهية التي هبطت منها الألواح والصحف والكتب الإلهية الاخرى قد أقفلت نهائياً .

والقرآن هو أصل الشريعة الإسلامية وعمادها . وهو النموذج الأعلى لبلاغتها .

قال عبد الله بن عمر بن الخطاب : القرآن هو سياج اللغة العربية وحاميها الذي حفظ هذه اللغة ، وشغل المفكرين من العرب والمسلمين ببلاغته وبيانه، ذلك انه أنزل بلغة قريش وكان طبيعياً ان يكون القرآن بلغة قريش أفصح لغات العرب . لأن رسول الله قرشيّ ، وليكون هـــذا الكلام زعيم اللغات كلها .

ويقول الإمام الشافعي : ان الله أقام حجته بأن كتابه عربي في كل آية ، ثم أكد ذلك بأن نفى عنه ـ جل ثناؤه ـ كل لسان غير لسان العرب في آيتين من كتابه . فقال تبارك وتعالى : « **ولقد نعلم أنهم يقولون إنما يعلمه لسان بشر . لسان الذين يلحدون اليه أعجمي وهذا لسان عربي مبين** » « **ولو جعلناه قرآناً أعجمياً لقالوا لولا فصلت آياته أأعجمي وعربي** » .

ولو لم يكن القرآن لما اتفق للعربية الفصحى هذه الوحدة التي نجدها ولولاه لتعددت لغات العرب تعدد لهجاتهم ، وقد حال القرآن دون تفكك اللغة العربية ، ووقف حائلاً دون تغلب العامية . وحافظ على اللغة من الدثور والضياع .

يقول الباقلاني : ان كل كلمة مستعملة في القرآن هي عربية والأعاجم هم الذين أخذوها من العرب وحرفوها .

وقد كشف القرآن عن إعجازه وتحدى الله به الخلق جميعاً : وقد حاولوا تقليده فأعجزهم ، وقد أفحم من طولب بمعارضته من العرب حتى يئسوا واستسلموا .

وقد أعطى القرآن للعربية مكانة جـــديدة يعلو أصحابها على التبعية . يقول الشافعي : ( ومن أولى الناس بالفضل في اللسان من لسان النبي ﷺ . ولا يجوز أن يكون أهل لسانه ( أي العرب ) أتباعاً لأهل لسان غير لسانه في حرف واحد ، بل كل لسان تبع لسانه ، وكل أهل دين قبله ، فعليهم اتباع دينه ) .

وإعجاز القرآن لا ينحصر في دقته وإعجازه البلاغي ، ولكنه يتعداه الى المجال العلمي والاجتماعي وتلك آيته الكبرى، وما يزال إعجازه ينكشف يوماً بعد يوم .

## ( ٢ )

ميزة القرآن انه منهج اجتماعي متكامل يشمل الأسس العقائدية والتشريعية والأخلاقية للنظام الإسلامي ، ويقدمها بمختلف طرائق الإقناع والتدليل العقلي والوجداني والتاريخي . وهو في هـــذا كله يخاطب العالمين جميعاً لا العرب وحدهم .

ولأن القرآن جاء مصدقاً لما بين يديه من الكتب ومهيمناً عليها . فقد حقق الاصول الآتية :

(اولاً) استصفى كل ما جاء في الكتب السالفة وخاصة اصول العقيدة .

(ثانياً) ناقش مختلف التفسيرات الباطلة التي أضافها اصحاب الأديان وخرجوا بها بالحذف والإضافة عن اصولها وعن الميثاق الذي يؤكد ظهور محمد ﷺ بالرسالة الخاتمة . وهو ما جاء في التوراة والانجيل .

(ثالثاً) فصل أحوال الأمم خلال فترة ما بعد رسالة عيسى الى أن جاء الاسلام فقص قصة أهل الكهف وأصحاب الأخدود وغزوة أبرهة لمكة .

(رابعاً) أخبر عن أشياء لم ترد في التوراة او الانجيل .

(خامساً) أجاب عن أسئلة ظنها أصحابها تحدياً . ومنها قصة ذي القرنين وغيرها .

(سادساً) أزال اللبس حول كثير من المسائل والامور . وحددها تحديداً واضحاً .

## (٣)

أعلن القرآن وحدة الله مقابلاً لكل تفكير يوناني غير فكرة الله . سواء أكان صانعاً او محركاً ، كما أعلن فكرة الخلق ( ان الله خالق وانه خلق من لا شيء وانه أوجد العالم من العدم ) .

وبهذا هدم فكرة قدم المادة . وكما أعلن بدء الزمان ، فقد أعلن نهايته ، وبهذا أنكر سرمدية المادة وعدم فنائها .

« واذا كان القرآن ينكر قدم المادة . فقد أعلن حدوثها وحدوث العالم » . وكذلك وضع القرآن ميتافيزيقا كاملة لما وراء الطبيعة . وصور الكون في صورته النهائية . ولذلك وضع منهج المجتمع «الشريعة» ومنهج السلوك الإنساني «الأخلاق» ولم يترك جانباً من جوانب الفكر والعمل .

وبالجملة فقد وضع الخطوط الرئيسية للوجود كله : فهو كتاب الكون من نشأته الى فنائه .

وقد أعلن القرآن حقائق الكون وحقائق الانسان . ودعا الى السيطرة على الحياة ، ووضع المسؤولية الفردية . ورفع الانسان الى اكتناه الآفاق

الكونية وعده مسؤولاً عن كل فعل من أفعاله « **من يعمل مثقال ذرة خيراً يره ومن يعمل مثقال ذرة شرّاً يره** » وان الانسان لا يفتديه إلا عمله وحده وليس التضحية من نبيٍّ او رسول . ولذلك أنكر القرآن صلب المسيح كفداء للمجموع ، وبهذا أقام ميزان الحياة وترك الإنسان يختار بمحض إرادته بين الخير والشر[1].

(١) استخلصنا هذا من بحث للدكتور سامي النشار .

## (٤)

جمع القرآن في حياة النبي وحفظه الحفظة . ثم كتب بأيدي طائفة من كتاب الوحي الذين اختارهم النبي وحفظت منه نسخ متعددة . ثم جمعه المسلمون في مصحف واحد « والقرآن قد كتب في زمان نزوله من عند الله مباشرة ، آية آية . وكلمة كلمة في نفس الوقت الذي كانت تنزل فيه الآية او الكلمة . وكتب بطريقة تذهل العلماء ، فهي وحدها الطريقة العلمية المأمونة للتوثيق . ولم يوجد أي كتاب والعالم يشهد انه ليس على ظهر الأرض الآن كتاب غير القرآن ، بلغ فيه التوثيق هذا الحد ، والعلماء جميعاً في أنحاء الارض يشهدون انه لم يدوّن كتاب كما دوّن القرآن . فكان هناك في زمن الرسول اربعة تخصصوا لأن يكتبوا كل آية تنزل من القرآن بأمر الرسول مبلغاً عن الله في مكانها كما هي في المصحف الآن . وكانوا يسمون كتاب الوحي ومن حولهم عشرات ومئات من الصحابة يكتب كل منهم ما يريد » .

والقرآن المنقول بالتواتر لم يكن الاعتماد في نقله على نسخ المصاحف ، بل الاعتماد على حفظ اهل التواتر له في صدورهم[1] وبذلك[2] وصل الينا النص القرآني كاملاً خالياً من التحريف والتغيير سالماً من التناقض الذي أصاب

---

(١) الاديان في القرآن .

(٢) عبد الصبور شاهين .

ما سبقه من الكتب المقدسة ( التوراة والانجيل ) بحيث اختلط في هـــذه الكتب ما كان من كلام الله بما هو من حكايات البشر ووضع الكهان وتخيلات أصحاب الأهواء ، على صورة تجعل نسبتها الى رسالات الانبياء ازدراء بمقام الألوهية والنبوة معاً[١] .

وقد كان املاء القرآن بمثابة حفاظ ضخم يحول دون تغيره بتغير المفاهيم والثقافة . وهو في نظر الباحثين عامل ضخم قدس التاريخ وقدس حروفه «فبحفر القرآن باللغة العربية حفرت مبادىء التفهم بلا خوف من تمزيق او ترويم اوتفريس او تهنيد او تأنكلز او تألمن او تفرنس الدين[٢] وقد أدى ذلك بـ (لورد سالزبوري) ان يقول : ان المصحف اليوم هو الدلالة الوحيدة على وحدة المسلمين والمرجع الوحيد لجميع أمم الاسلام . وكان هذا من الدعامة التي جعلت القرآن ثابت الرواية والإعجاز ، كما جعلته صامداً أمام النقـــد والتمحيص . » وقد وجدت في العهد القديم والعهد الجديد أشياء كثيرة لا يسيغها العقل . وهي أدنى الى الوثنية ، وكثير منها وجد في ديانات سابقة وقد خلا القرآن من كل هذا ، فضلاً عن فقدان الكتب المقدسة التي جاء بها الأنبياء وعدم تلقيها ورواياتها بطريقة متواترة تقطع الشك . ومن هنا فان القرآن المدون الآن هو القرآن الذي قرأه محمد ﷺ وأصحابه ، لم ينقص منه حرف . ولم يزد عليه حرف ، وقد وضع له علم يحفظ طريقة أدائه والنطق به على ما كانت في عهد الرسول . وليس الأمر كذلك في التوراة والانجيل[٣].

ومسألة اللغة من أهم مقومات حفظ النص القرآني . فقد اشتمل القرآن على انه عربي اللغة والبيان أما الانجيل فانه لم يتعرض للغة . وقد كتب بألف

---

(١) عبد الصبور شاهين .
(٢) دكتور اسماعيل راجي الفاروقي .
(٣) عبد الجليل شلبي .

لهجة . وقد عمدت الكنيسة الكاثوليكية الى استبدال لغة الانجيل الاصلية بلغة ثانية مقدسة : هي اللغة اللاتينية . وبينما دعا القرآن العلم والنظر في آفاق السموات والارض ، قال رجال الأديان : ان الكتب المقدسة حاوية على كل ما يحتاج اليه البشر في المعاش والمعاد: وأشاروا الى أن أساس كل علم هو الكتاب المقدس وتقاليد الكنيسة « فالكتاب المقدس يحوي من العرفان على المقدار الذي قدر للبشر ان يبلوه ، فضلاً عن التسليم بما جاء في الكتب من وصف السماء والأرض وما فيها وتاريخ الأمم مهما خالف العقل . او خالف شاهد الحس[1] » .

فاذا قدرنا كيف جمع القرآن في دقة ويقظة منذ وقت نزوله اولاً بأول . رأينا (نولدكه) في كتاب اللغة السامية يقول : ان التوراة جمعت بعد موسى بسبعمائة عام . وبالنظر لاستغراق تأليفها وجمعها زمناً متطاولاً تعرضت حياله للزيادة والنقص ، وانه من العسير ان نجد جملة متكاملة في التوراة مما جاء عن موسى لأن التوراة لم تدون في عهده ولا في الجيل الذي تلاه .

وتقول دائرة المعارف الفرنسية : تحت مادة (توراة) « ان العلم العصري. ولا سيما النقد الألماني قد أثبت بعد أبحاث مستفيضة في الآثار القديمة والتاريخ وعلم اللغات ان التوراة لم يكتبها موسى . وإنما هي من عمل أحبار لم يذكروا اسمهم عليها ، ألفوها على التعاقب ، معتمدين في تأليفها على روايات سماعية سمعوها قبل أسر بابل » .

ويؤكد الدكتور اسماعيل راجي الفاروقي في كتابه ( أصول الصهيونية في الدين اليهودي ) ان التوراة التي بين أيدينا الآن هي هذا الكتاب الذي جمعه عزرا حوالي ٤٢٥ قبل الميلاد وان التوراة كانت كتاباً إلهياً عزيزاً الا

---

(١) الشيخ محمد عبده .

ان اليهود حرفوها وزاغوا بها عن أهدافها الإلهية ومراميها الاخلاقية العالمية. فجعلوا منها كتاباً تعصبياً عنصرياً حتى اسم الإله بدل ، فبدلاً من أن يدعي باسم الحق وهو إله العالمين ورب البشر جعلته العنصرية اليهودية ( إله ابراهيم ويعقوب وإسرائيل فحسب ) .

وقد أدخل عزرا الحقد والتشفي والكراهية والانتقام فأخذ يتغنى بأعمال العنف والقتل والتخريب ، بل ويختلق القصص اختلاقاً لتمجيد العنصرية اليهودية . ليس الله ، بل عزرا هو القائل : لأنكم عابرون الاردن الى ارض كنعان ، فتطردون كل سكان الارض من أمامكم وتمحون جميع تصاويرهم وتحرقون جميع مرتفعاتهم وتملكون الارض وتسكنون فيها لأني أعطيتكم الأرض لكي تملكوها » .

ويصل الدكتور الفاروقي الى القول بأن عزرا هو بكل حق مؤسس الدين اليهودى كما نعرفه الآن . ولا عجب ان اعتبره اليهود ابناً لله . وهو الذي اكتملت التوراة بعملية مسحه الوثيقة ، لأنه بعمله هذا بعث الهوية اليهودية».

وقد أشار جان ملز الكاثوليكي ص ١١٥ من كتابه المطبوع ١٨٤٣ على أن أهل العلم اتفقوا على ان نسخ التوراة الأصلية ، وكذا كل كتب العهد القديم ضاعت بأيدي عسكر بختنصر ويقول المشـــير عزت باشا في كتابه ( الدين والعلم) « ان الموسويين يعترفون بأن التوراة قد ضاعت » .

ويقول الفاروقي : ان التوراة الموسوية كانت قد فقدت من المجتمع اليهودي لعدة قرون بحيث صار من المحتمل أن يكون نصها الذي كتبه عزرا ـ (عزير عند العرب) مختلفاً عما أنزل على موسى ، فبين الرجلين ما يقرب من ألف سنة من الزمان » .

●

والأمر بالنسبة للانجيل كالأمر بالنسبة للتوراة . وهناك إجماع لا اختلاف فيه على ان الانجيل هو ما كتبه الرسل . وليس هو الكتاب المنزل من عند الله على السيد المسيح . والانجيل كلمة يونانية معربة بمعنى (البشارة) وهو اسم يطلق على الكتب التي «وضعت» بعــد زمن المسيح وتقصّي أحواله وأعماله وأقواله التي وعظ بها ، ومعجزاته وخوارق العادات التي أجراها الله على يده ، ويعرف الانجيل بالعهد الجديد تمييزاً له عن التوراة او العهد القديم ، قام بكتابة هذه الأناجيل بعض تلاميذ المسيح وتلاميذهم وتلاميذ تلاميذهم حتى قيل ان الأناجيل بلغت نيفاً ومائة إنجيل . الا ان الكنيسة المسيحية لا تعترف الا بأربعة من هذه الأناجيل . واعتبرت الاخرى منحولة وهي : (متى – مرقس – لوقا – يوحنا) . وانجيل متى هو أقدم هذه الاناجيل . وقد كتب بعد عيسى بثلاثين سنة في أورشليم باللغة العبرية ، أما انجيل مرقص فكتب باللغة اليونانية في روما بعد انجيل متى ونشر عام ٦٦ . أما انجيل يوحنا فكتب بعد موت المسيح بستين سنة[١].

ومادة الاناجيل الاربعة لا تخرج عن ان تكون تاريخاً لحياة المسيح ، ويذهب ابن‌حزم في كتابه‌الفصل: الى ان أهل الاناجيل يجمعون دون استثناء على انها ليست من عند الله . ولا من عند المسيح . وانه لا خلاف بين أهل الانجيل الاوائل وبين غيرهم على انه لم يؤمن بالمسيح في حياته الا مائة وعشرون رجلاً فقط ونسمعه يقول ....!

ذهب انجيل عيسى وحفظت أناجيل الرسل جانباً من أقواله ، ولكنها لم تحفظها كلها . والرسل لم ينقلوا كلامهم سماعاً منه لأنهم لم يروه . وانما رددوا عن آخرين ليسوا معروفين ، ولا معروف درجة حفظهم ، فهي رواية آحاد ، والاناجيل كتب سيرة ، وليست كتباً من السماء . ولقد كان القرآن

---

(١) دائرة معارف القرن ١٩ الفرنسية .

بإعجازه وصحة روايته حفيظ على ما جاء في التوراة والانجيل ، وأبر" باليهودية والنصرانية من أتباعهما . وصدق منهما ما كذبه الدارسون المحدثون». وقد قرر القرآن ان الانجيل قد تناوله التحريف والتبديل . وان انجيل المسيح الذي ذكره القرآن الكريم ، وسلم الى تلاميذه ، وأمرهم ان يبشروا به لا يوجد الآن، وانما توجد قصص ألفها التلاميذ وغير التلاميذ . أما التوراة الاصلي والانجيل الاصلي فقد فقدا قبل بعثة محمد ﷺ والموجود الآن بمنزلة كتابين من السير مجموعين من الروايات الصحيحة والكاذبة . والروايات الموجودة ان صدقها القرآن فهي مقبولة عند المسلمين وان كذبها القرآن فهي مردودة يقيناً »[1].

•

ومن هنا نصل الى ان النص القرآني قد وصل الينا كاملا . وان الكتب المنزلة الاخرى قد أصابها التحريف . وان ما يوجد منها الآن ليس هو الاصل المنزل من عند الله .

وقد تناول كثير من الابحاث ودوائر المعارف قضية التحريف التي هي الاساس الاول للخلاف بين القرآن وبين تفسيرات الاديان في القضايا الحاسمة من دين الله الواحد الحق .

ولا ريب ان اتهام القرآن لليهود بتعدد ما أنزل اليهم من كتبها . وبخاصة التوراة : قد أكدته عشرات الابحاث العلمية العصرية . وأشارت اليه ، وأيدت موقف القرآن . ولم يكن الرسول عليه الصلاة والسلام حين اتصل باليهود والنصارى في مكة والمدينة ـ في استطاعته ان يغير دين الله ليرضيهم. ولكنه كان قادراً على ان يقول الحقيقة كلها .

---

(١) الاديان في القرآن ـ للدكتور محمود بن الشريف .

ولقد كان اليهود والنصارى يعلمون برسالة محمـــد قبل بعثته . وكانت البشارة به واردة في التوراة والانجيل، ولكنهم أخفوها إلا قليلاً منهم . ولم يكن محمد في الحقيقة مناقضاً لما أنزل في الكتب المقدسة القديمة . ولكن أهل هذه الكتب هم الذين حرفوها . وان ما كان بين أيديهم في ذلك الوقت لم يكن هو الكتاب المنزل . ولكنه كان «التحريف» بالاضافة والحذف . وان ما كان يقوله محمد مما نزل في القرآن من عند الله هو الحق ، وما كان بين أيدي أهل الكتاب لم يكن الا هو التحريف ، ولم يكن قول الرسول ان اليهود حرفوا الكتاب محض ادعاء . ولكنه كان هو الحق الذي لا سرية فيه ، وأبلغ ما في هذا التحريف إنكارهم مبعثه ودعوته مع ان ذلك موجود لديهم . وقد كانوا قبـــل مبعثه يعلنونه للناس ويترقبونه[1] ( الرسول النبي الأمي الذي يجدونه مكتوباً عندهم في التوراة والانجيل ) وقد جاءت الآيات متعددة تشير الى هذا التحريف : « **فويل للذين يكتبون الكتاب بأيديهم ثم يقولون هذا من عند الله** » « **وان منهم لفريقاً يلوون ألسنتهم بالكتاب لتحسبوه من الكتاب وما هو من الكتاب ويقولون هو من عند الله وما هو من عند الله** » . «**قل ما أنزل الكتاب الذي جاء به موسى نوراً وهدى للناس تجعلونه قراطيس تبدونها وتخفون كثيراً** » .

●

وهكذا قرر القرآن في وضوح . ان التوراة المتداولة قد أصابها التحريف والتعديل والنسيان والاخفاء . فهي ليست التوراة الإلهيـــة الأصلية ذات التعاليم المقدسة والشريعة الربانية : « **فبما نقضهم ميثاقهم لعناهم وجعلنا قلوبهم قاسية يحرفون الكلم عن مواضعه ونسوا حظاً مما ذكروا به** » .

●

---

(١) هذا رد على ما جاء في مادة تحريف في دائرة المعارف الاسلامية .

وقد أكد الدكتور هريري لوي اليهودي : صاحب كتاب أديان العالم الكبرى : ان هنـــاك عقائد دخيلة انسابت الى اليهودية عن فارس وبابل والإغريق لا سند لها في اليهودية بالذات ويصدق هذا على ما أورده كثير من الباحثين[١] من انه عام ٨٥٠ قبل الميلاد . حاول كاتب او راوٍ او محدثٍ عبري ان يجمع من الفلـكلون الكنعاني ما كان شائعاً بين الناس من قصص وأساطير . وروايات عن الآلهة ( ابل ومرووك والبعل ) وطبيعي ان يعزو هذه القصص والاخبار الى يهوه ، ثم انه حاول أن يجمـــع تاريخ قومه بادئاً بقصة الخليفة كما كانت عند البابليين هذا الكاتب سبق الاغريق في محاولة كتابة التاريخ بشكل ملحمة رائعة وأفشت عناصر هلينية .

---

(١) انيس فريحه – مجلة الابحاث .

## (٥)

يقول الدكتور[١] يعقوب صروف : لا يعلم من كتب التوراة اول مرة ، ولا الزمن الذي كتبت فيه اولاً .

أما الانجيل فالظاهر مما قاله الأسقف (بابياس) الذي كان في النصف الأول من القرن الثاني المسيحي ان مرقص كان يكتب ما رواه بطرس ، فكتب بالتدقيق كل ما تذكره مما قاله المسيح ، او فعله من غير ان يراعي في ذلك الترتيب التاريخي . وكان ذلك باللغة الأرامية ثم ترجم ما كتبه الى اللغة اليونانية . ونشأت من ذلك الاناجيل الاربعة . والظاهر انها كتبت في عهد الرسل . وكان استعمال البردى قد شاع حينئذ . وكتب عليه اليونان بلغتهم» وأبرز ما يكشف عنه الإنجيل : ذلك التناقض والاختلاف في مولد المسيح ونسبه ، وصفاته ومماته . والاختلاف قائم بين التوراة السبعينية . والتوراة السامرية ، وكذلك الاختلاف بين الاناجيل الاربعة « هذا[٢] فضلاً عن التوراة والاناجيل ترجمت من لغات كثيرة الى لغات اخرى ، وانها كتبت بعد زمان نزولها والرسالة بها، فليست نص كلام الله، وليست كلام المرسلين .

---

(١) المقتطف مجلد ١٩٢٤ .

(٢) الاديان في القرآن .

وانما كتبها أتباع المرسلين بعد فترات طويلة من رسالتهم » والاناجيل في هذا تختلف عن القرآن في عدة اصول :

اولاً : القرآن واحد ، والاناجيل متعددة .

ثانياً : الاناجيل نسبت الى واضعيها من البشر ( لوقا ويوحنا ومرقص ومتى ) وهؤلاء الاربعة لم يكونوا من الحواريين ، بينما ينسب القرآن الى الله سبحانه .

ثالثاً : الاختلاطات والاختلافات الكثيرة بين طبعات التوراة والانجيل وترجماتها . ومنها الاخطاء الناتجة عن عدم الدقة في الترجمة او الطباعة ومنها الاخطاء والتعبيرات المتعمدة بالتحريف والتأويل ، وفيها الاختلافات الناشئة عن طريق النطق بالأحرف المكتوبة . ( وقد حكم ابن تيمية وغـــيره بأن ترجمة القرآن من العبرية الى اللاتينية . وهو ما عبر عنه بالنسخ قد أحدث اختلافاً بينما لا يوجد فيالقرآن أي اختلاط او اختلاف او خطأ) . ( ولو كان من عند غير الله لوجدوا فيه اختلافاً كثيراً ) .

رابعاً : الاناجيل لم تكن كلام الله بإجماع العالم أجمع . أما القرآن فهو كلام الله ، بل ان الاناجيل ليست من كلام سيدنا عيسى . وعلى هذا فلا يمكن مقارنتها بالقرآن ولا بكتب الحديث[١] .

خامساً : ان كتبة الانجيل لم يكونوا في مستوى الرسالة المنزلة : يقول ارنست رينان في كتابه تاريخ المسيح : ان كتبة الإنجيل أنفسهم الذين رسموا لنا صورة يسوع ، كانوا دون صاحب الترجمة بمراحل حتى انهم لعدم وصولهم الى علوه كانوا كثيراً ما لا يحسنون التعبير عن أفكاره . ففي كتاباتهم كثير

---

( ١ ) هذه المقارنات استقيناها من كتاب الاديان في القرآن .

من الاخطاء والمتناقضات . وفي كل سطر منها ما يشعر القارىء بأن هناك جمالاً إلهياً ، ولكن الكاتب لا يحسن ترجمته وإيراده لأنه لا يفهمه . ولذلك يبدله بفكره الخاص ، وجملة الكلام ان تلامذة يسوع قد أضعفوا جمال صورته بدل ان يزيدوها زينة . وكثيراً ما راموا هذه الزينة فتحولت بين أيديهم ضعفاً » .

وقال لاردنر في بحثه عن الاناجيل : لقد حكم على الاناجيل المقدسة ( من أجل جهالة معتنقيها ) بأنها ليست حسنة بأمر السلطان أغسيطينوس في في الايام التي كان حاكماً فيها على القسطيطنة فضحضحت مرة اخرى . ( وفي هذا دليل على ان النصارى لا يعتقدون كون هذه الاناجيل عن المسيح ، وكونها من تصنيف الحواريين اذ لو كانت من المسيح لما جاز تصحيحها ) .

وقال الكهوف : نقلاً عن لسان ساليسوس الذي كان في القرن الثاني للميلاد : لقد بدل المسيحيون أناجيلهم ثلاث او أربع مرات، بل أزيد تبديلاً غيَّر جميع مضامينها . وأشار كثير من المؤرخين الى ان نسـخ الاناجيل الاصلية في القرن الرابع كانت مفقودة لا أثر لها لأنها كانت قد أحرقت مع كتب النصارى في عهد القيصر ديوقلديانوس .

●

ويمكن هنا ان نشير الى ظاهرة التناقض الواضحة بين العهد القديم والعهد الجديد من ناحية دين الاناجيل الاربعة ذاتها في كثير من المسائل والقضايا الاساسية .

وأبرز الخلافات بين العهد القديم والعهد الجديد ان إله اليهود غير إله النصارى .

## (٦)

من أكبر ما أشار اليه القرآن . الخلاف بين مفهوم الاســـلام عن الله سبحانه وتعالى إله العالمين ، ومفهوم اليهودية عن الإله الخاص : إله الحرب وإله بني اسرائيل وحدهم . والإله يهوه كما وصفته التوراة متوحش شرير شغوف بالخراب والفساد وإراقة الدماء ( يهوه رب الجنـــود ) . يقول ول ديورانت : عمد اليهود الى أحد آلهة كنعان فصاغوه في الصورة التي كانوا هم عليها ، وجعلوا منه إلهاً صارماً ذا نزعة حربية صعب المراس ، وهذا الإله لا يطلب من الناس ان يعتقدوا انه عالم بكل شيء ، كذلك لا يعتبر نفسه معصوماً من الخطأ . وقد استتبع هذا التحريف : تحريف آخر ، بل ان هذا التحريف قد قصد به الى تزييف الرابطة القائمة بين ابراهيم ومحمد . ومحاولة قصر ابراهيم على اليهود وحدهم ، وتحويل التوراه من الحنيفية الى العنصرية . وتحريف الاحداث التاريخية بحيث تحذف العرب واسماعيل ورحلة ابراهيم الى مكة وبناء البيت الحرام . وبالتالي البشارة بمحمد ﷺ ، وقصر ميراث ابراهيم على فرع واحد هو اسحاق ويعقوب . ومحاولة تفسير الملك العظيم الذي أعطاه الله لإبراهيم وأبنائه انه لليهود وحـــدهم دون أبنائه وأحفاده جميعاً .

ويصور الدكتور اسماعيل راجي الفاروقي هذا التحريف في مقارنة واضحة

بين التوراة والإنجيل فيقول : أظهرت التوراة الحقائق التاريخية في قالب يؤكد (العنصرية) ، أما القرآن الكريم فقد قدمها في قالب يوكد (الحنيفية) ولكن المسألة ليست مسألة مجرد اختلاف في وجهة نظر الحنيفية الا أنها غيرت نفسها على مرور الزمن ، وهذا دليل على ان الحنيفية هي الحق كما قال القرآن ، فوجود الحنيفية في التوراة بشكل محرف دليل خارجي على صدق خبر القرآن الكريم . « العنصرية تمثل حزباً او قبيلة من المهاجرين أنفسهم كنوع أفضل من المخلوقات . واتباع نظام أخلاقي يقضي بالحفاظ على سلالة عنصرهم . وعدم الانصهار في أي قبيلة او شعب او أمة أخرى .

أما الحنيفية فهي تمثل المهاجرين أنفسهم كذوي رسالة يحملونها الى البشر أجمع ويحققونها بالانصهار في جسم البشرية التي كانوا وبإهداء الذين ينصهرون معهم عن طريق المصاهرة والمؤاخاة ـ لغتهم وثقافتهم ورسالتهم . لذلك جاءت التوراة بعد بلورتها العنصرية تقول : بأن ابراهيم هاجر لأن يهوه أمره بذلك ، ولكنها تتعمد السكوت على أمر يهوه . فهي تقول انه أمر تلقائي عرفي ، أي لا سبب له ، فالله في نظرها فضله لأنه هو ، وقد فضل ذريته لأنها ذريته ، بل قطع عهداً ( لا ميثاقاً ) [ والفرق بين العهد والميثاق ان الأول ذو اتجاه واحد . أي يلزم جهة واحدة] على نفسه بتفضيلها مهما حدث الى الابد حتى الإله تمثلته كإله هذا العصر من دون الناس .

«أما القرآن الكريم فجاء يعلن ان الله: إله الجميع ، لا قدرة وقهراً . بل حباً ورحمة . وجاء يؤكد ان هجرة ابراهيم لسبب وجيه ، هو «التوحيد» وأن الله أعطى له ميثاقاً بأنه تعالى سيجازيه أحسن الجزاء اذا قام وقومه بتحقيق أمانة السموات . وأن الله تعالى سيعاقبه أشد العقاب ، بل سيتبدله

---

(١) دكتور اسماعيل الفاروقي : مجلة كلية الآداب م ٢١/١٩٥٩ .

وقومه اذا لم يحققوا هذه الأمانة» وفي ضوء هذا المفهوم العنصري أعاد اليهود كتابة التوراة وجعلوها منطلقاً لهدفهم .

●

ويقول ان الاحداث التاريخية من هجرة ابراهيم وأولاده من العراق الى الشام الى مكة ، واختباراتهم في مصر ، واضطهاد فرعون لهم .

ان الأسفار الخمسة قدمت لنا هذا التاريخ من حيث رأته العنصرية . فجعلت لنفسها مركز الثقل . أما القرآن الكريم وهو صوت الحق . فقد رأى هذه الأحداث من حيث رأتها الحنيفية .

ويشير الكاتبان الفرنسيان ( جاك دوماك وماري لورا ) الى وعد ابراهيم فيقولان : انه لو صحت آية التوراة في هذا الوعد ، فانه ينصب اذاً على ابراهيم البكر : « اسماعيل الى العرب » وأشارت الأبحاث الى ان كل ما ذكرته التوراة من تهجير ونقل واستئصال السكان في فلسطين كذب فهو انعكاس لروح العنصرية .. المتعالة في العصور المتلاحقة . ولا ريب ان اخطاء اليهودية في الالوهية متعددة ، وتحريف التوراة عميق وخاصة فيما يتعلق بتجسيد الله سبحانه وتعالى . والتطاول على مقام الانبياء . وتصوير الذات الإلهية في صورة بشرية ضعيفة .

وقد دحض القرآن زيفهم في قولهم ان الله بعد ان خلق الكون في ستة أيام استراح في اليوم السابع . وقد أشار القرآن الى كذب ذلك في أكثر من موضع « **ولقد خلقنا السموات والأرض وما بينهما في ستة أيام وما مسنا من لغوب** » وكانوا قد وصفوا إلههم بأن التعب قد هدّه . والنصب والجهد قد حطه . وكذلك زيف دعواهم في القول بأن لهم إلهاً خاصاً بهم، وللشعوب

الاخرى آلهة آخرى ، وان إله شعب اسرائيل ليس كبقية آلهـــة البشر الاخرى . وانهم أولاد إلههم وأحباؤه .

●

كما كشف القرآن عن زيفهم في اتخاذ رهبانهم وأحبارهم أرباباً تعبد من دون الله وتشارك في العبادة . « **اتخذوا أحبارهم ورهبانهم أرباباً من دون الله والمسيح بن مريم وما أمروا إلا ليعبدوا إلهاً واحداً لا إله إلا هو سبحانه عما يشركون** ) .

●

هذا بالاضافة الى ما نسبوه الى ابراهيم ويعقوب ولوط والمسيح وداود من أكاذيب وما حرفوا به تاريخهم ، وان ما أوردوه عن الانبياء صلوات الله عليهم يتنافى مع عصمتهم التي حفظها الله سبحانه وتعالى لهم . فالانبياء معصومون من كل ما أوردته التوراة في حقهم من فساد واتهام . وخاصة قصة لوط وبناته . وقصة سليمان والنساء وقصة داود وقصة ابراهيم وزوجته سارة[١] .

---

(١) الاديان في القرآن : محمود بن الشريف .

## (٧)

ومما أثار القرآن : دعوى ألوهية عيسى وناقش فرق النصارى المختلفة[١] التي اعتنقت وجهات نظر متباينة ، بخصوص طبيعة السيد المسيح . وأبان بأن التثليث انحراف طرأ على دعوة المسيح الحق . وان دعوته الحقة هي الإقرار بالربوبية والألوهية والتوحيد الكامل المطلق « **لقد كفر الذين قالوا ان الله هو المسيح بن مريم** » . « **لقد كفر الذين قالوا إن الله ثالث ثلاثة وما من إله إلا إله واحد** » .

وقد كشف القرآن عن أن عيسى رسول من عند الله ، أنزل الله عليه الإنجيل مصدقاً لما بين يديه من التوراة ورسولاً الى بني اسرائيل . « **وآتيناه الانجيل فيه هدى ونور ومصدقاً لما بين يديه من التوراة** » . وانه حمل لواء الدعوة الى عبادة الله الواحد ، والتبشير بالرسول النبي الأمّيّ ، وليحل لليهود بعض الذي حرم عليهم .

وقد قرر القرآن ان الإنجيل قد تناوله التحريف والتبديل في مسائل التثليث والخلاص والصلب وألوهية عيسى . فالمسيح لم يصلب ولكنه شُبّه لهم ، وخطيئة آدم ليست خطيئة البشرية . وقد تلقى من ربه كلمات فتاب عليه وهدى .

---

(١) راجع بحث الدكتور عرفان عبد الحميد « مجلة كلية آداب بغداد سنة ١٩٧٠ » .

وان المسيحية ليست ديناً عالمياً . ولكنه أخر رسالات السماء الى بني اسرائيل ، وان الذبيح الذي تقـــدم به الخليل ابراهيم عليه السلام للفداء هو اسماعيل وليس اسحاق كما هو مذكور في التوراة وكما يعتقـــد المسيحيون . وان المسيح هو عبد الله ورسوله وأمه صديقة وانه ليس إلهاً . وانه يأكل الطعام ويمشي في الاسواق . وأبان عن ان خلق آدم أشد عجباً من خلق عيسى . وقد بيّن الاسلام خطأ عقيدة التثليث « **لقد كفر الذين قالوا ان الله ثالث ثلاثة** » .

وأنكر القرآن عقيدة الصلب : وقال ان عيسى لم يصلب ولم يقتل .

## (٨)

كشف القرآن عن أكبر زيف في التوراة . وهو إنكار البعث والجزاء . واعتبار ان الدنيا هي كل شيء . وان السعي لهـــا هو غاية الغايات . وانها لا تشير الى حياة اخرى بعد الموت ولم يرد في دينهم شيء عن الخلود . ومجال اليهودية هذا العالم وحده دون نظر الى ما وراء ذلك ، بينما تجعل المسيحية من العالم الآخر وحده عالمها ( ان مملكتي ليست في هذا العالم ) . وهي لا تتحدث عن خلود الروح بعد الموت او القول بالبعث والحساب والعقاب ، وان البعث والجزاء في الدنيا .

ويقول سفر الجامعة : ( ليس للانسان مزية على البهيمة لأن كليهما باطل ، يذهب كلاهما الى مكان واحد ، كان كلاهما من التراب ، والى التراب يعود كلاهما ) .

## ( ٩ )

أثار القرآن مسائل مختلفة مع النحل المختلفة : وناقش أصحاب الديانات الثنوية من المجوس كالزرادشية والمانوية . وعارض دعواهم بوجـــود إلهين خالقين : أحدهما يخلق الخير ويختفي به . والآخر يخلق الشر ويختفي به **« لو كان فيهما آلهة إلا الله لفسدتا فسبحان الله رب العرش عما يصفون »** **« وما اتخذ الله من ولد وما كان معه من إله إذاً لذهب كل إله بما خلق ولعلا بعضهم على بعض سبحان الله عما يصفون »** .

●

كما بين القرآن حقيقة ديانة قدماء المصريين . وان فرعون كان إلهاً يعبد في نظر المصريين : « **فحشر فنادى أنا ربكم الأعلى** » . وهذا هو عين ما قاله التاريخ بعد ان أزيح الستار عنه وكشف غوامضه في القرنين الأخيرين، اذ كان المصريون يقدسون الملك ويعتبرونه كبير آلهتهم . وكانوا يسمونه (حورس الحي) .

وقد أشار القرآن في سورة الشعراء الى خطاب فرعون الى موسى :

« **لئن اتخذت إلهاً غيري لأجعلنك من المسجونين** » وفي سورة القصص في خطاب فرعون الى شعبه : « **وقال فرعون يا أيها الملأ ما لكم من إله غيري** » . كما وصف ديانة المصريين على لسان يوسف . « **يا صَاحِبَيَ السجن أأرباب متفرقون خير أم الله الواحد القهار** » وكانوا يعبدون أرباباً متفرقة حتى ان لكل بلد إلهها الخاص .

## (١٠)

أثار القرآن مسألة النسخ التي أنكرها اليهود ، إذ زعموا[١] ان الشريعة لا تكون الا واحدة ، وهي ابتدأت بموسى وتمت به فلم تكن قبله شريعة . وقالوا فلا يكون بعده شريعة . وقد ناقشهم القرآن بقوله : « ما ننسخ من آية أو ننسها نأت بخير منها أو مثلها » . « واذا بدلنا آية مكان آية والله أعلم بما ينزل قالوا انما أنت مفتر بل أكثرهم لا يعلمون » .

---

(١) من بحث للدكتور عرفان عبد الحميد ( كلية آداب بغداد ) ١٩٧٠ .

# (١١)

كيف زيف القرآن ما أوردته الفلسفة اليونانية . فعارض الفكرة التي تقول بأن الله يعلم الكليات دون الجزئيات . ومن ذلك قول أرسطو في نفي الارادة والتدبير والعلم الجزئي عن الله . وقد نبه القرآن الى ان الله تعالى لم يصنع ما صنع ثم تركه دون عناية او رعاية . او دون علم تام بما يكون به ، بل انه قد أحاط بكل شيء علماً .

**« ألا له الخلق والأمر تبارك الله رب العالمين » . « يدبر الأمر يفصل الآيات » . « يدبر الأمر من السماء الى الأرض ثم يعرج اليه » . « وعنده مفاتح الغيب لا يعلمها إلا هو ويعلم ما في البر والبحر » .**

يقول باركلي : لقد تراءى لبعض الفلاسفة مع اقتناعهم بحكمة الخالق وقدرته مما يتجلى في خلق هذه الاشياء المتناسقة وتدبيرها وإيجاد نظام يحكم العالم انه قد تخلى عن هذا العالم بعد ان ضمن نظامه وبعث الحركة فيه كما يتخلى الصانع عن الساعة التي صنعها . غير ان هذه اللغة التي يتحدث بها الله الينا تبرهن ليس فقط على وجود خالق لهذا الكون ، بل على وجود مدبر له يولي عنايته به وحاضر حضوراً مباشراً وباطناً فيه ، لا يعزب عنه أية رغبة من رغباتنا او أي حركة من حركاتنا ، دائب العناية لأقل فعل من أفعالنا ولأتفه مشروع من مشروعاتنا طوال حياتنا كلها[١].

---

(١) عن نص للدكتور يحيى هويدي .

## (١٢)

ان أخطر ما يتسم به القرآن في مجال النظر الى الكتب السماوية الاخرى هو ما عبر عنه القرآن نفسه بأنه هيمنة القرآن التاريخية والعلمية . « **وأنزلنا اليك الكتاب بالحق مصدقاً لما بين يديه من الكتاب ومهيمناً عليه** » والقرآن له طابعه الخاص في التاريخ حيث يتناول الحوادث تناولاً يدل على استقلاله العلمي ، وله في وسطها أسلوبه الخاص الذي يدل على هذا الاستقلال[١] فقد ذكر أشياء لم تذكرها التوراة ولم يذكرها الانجيل .

أولاً : ان توحيد ابراهيم وتحطيم الاوثان التي كان يقدسها أبوه وأهله لم تذكر في أي أثر وصل الينا قبل القرآن الكريم .

ثانياً : التوراة لم تتناول حياة ابراهيم بين الكلدانيين ومجهوداته لإقناعهم بوجود إله واحد ومحاولة نشر دعوته وتحطيم أصنامهم وقذفهم في النار ونجاته منها . ولم تتناول علاقته بوالده وما دار بينهما . كما لم تتكلم عن إعادة بناء ابراهيم واسماعيل للبيت الحرام بينما تناول القرآن هذه الموضوعات .

(١) الأديان في القرآن : محمود بن الشريف .

ثالثاً : التوراة لم تعرض لكيفية براءة يوسف مما نسب اليه بشأن امرأة العزيز ، بينما شرحها القرآن شرحاً وافياً . وان واحداً من أهلها شهد بالحق، وقد ألقى الله الشهادة على لسان من هو من أهلها ليكون أوجب للحجة وأوثق لبراءة يوسف .

رابعاً : فسر القرآن ما حار فيه الناس عن الاسلوب الذي حفظ به يوسف القمح سبع سنين من التلف والسوس .

خامساً : انفرد القرآن دون التوراة في مسائل كثيرة . ومنها مسألة موسى :

(١) الشرط الذي اشترطه شعيب على موسى لتزويجه احدى ابنتيه وقضاء موسى الاجل .

(٢) ايمان السحرة الذين اتخذوا موسى وسحورهم لله وصلب فرعون لهم وتعذيبهم .

(٣) امرأة فرعون وإيمانها خفية . وأمر فرعون لِهَامانَ ان يبني له صرحاً ليطلع إلى إله موسى .

(٤) انتشال جثة فرعون بعد غرقه .

(٥) مؤمن آل فرعون الذي أخذ يهدي الشعب .

●

وليست هيمنة القرآن هي هيمنة تاريخية فحسب ، ولكنها هيمنة في مختلف النواحي التشريعية والاخلاقية والتربوية والاجتماعية . فضلاً عن الحقائق العلمية والفلكية والطبية التي ما زالت تتكشف أسرارها الباهرة يوماً بعد يوم . ومن ذلك ما أورده القرآن عن جلود الكافرين « إن الذين

**كفروا بآياتنا سوف نصليهم ناراً كلما نضجت جلودهم بدلناهم جلوداً غيرها ليذوقوا العذاب » .**

يقول الدكتور عبد العزيز اسماعيل في كتابه (الاسلام والطب والحديث): الحكمة في تبديل جلود الكفار ان أعصاب الألم هي في الطبقة الجلدية . أما الأنسجة والعضلات والاعضاء الداخلية . فالاحساس فيها ضعيف ، لذلك فان الحرق البسيط الذي يتجاوز الجلد يحدث ألماً شديداً بخلاف الحرق الشديد الذي يتجاوز الجلد الى الانسجة لأنه مع شدته وخطره لا يحدث ألماً كبيراً[1] .

●

(١) استعنا في هذا الفصل بنصوص من كتاب (الأديان في القرآن) .

## (١٣)

حرص الاسلام على الحيلولة دون رفع محمد الى مرتبة الآلهة « فقد أعلن الاسلام صراحة ان محمداً بشر عادي ، وانه عبد الله ورسوله ، ولا سيطرة له على الناس « **لست عليهم بمسيطر** » وانه لا يعلم الغيب ولا يملك لنفسه ضرّاً ولا نفعاً ، بل كثيراً ما عوتب النبي في القرآن عتاباً شديداً »[١].

أما المسيحيون فقد خلطوا بين الخالق والمخلوق فصادموا العقل والفطرة، « ولقد كانت[٢] ولادة عيسى منغير أب مثار خلاف واسع بين اليهود الذين تطرفوا الى الجهة السفلى فزعموا انه لقيط . وان امه بغي وبين المسيحيين الذين تطرفوا الى الجانب الآخر فزعموا انه إله في صورة بشر .

أما المسلمون فقد توسطوا فنفوا عن أمه الزنا . وبذلك خالفوا اليهود . كما نفوا عنه الالوهية . وبذلك خالفوا النصارى . وفرق المسلمون بين الخالق والمخلوق ، وبين الالوهية والنبوة .

●

أما الاسلام فقد اعترف بالأديان المنزلة كلها ، واعترف بالرســـل . أما

---

( ١ و ٢ ) من بحث للاستاذ عبد الحي الغمراوي عن الفكر الإسلامي .

اليهودية والمسيحية فلم يعترفا بالإسلام ، وبينما وضع الاسلام نظاماً للتعايش مع الاديان . ورفض رفضاً باتاً اكراه أحد على الخروج من دينه . فقد جاء في الانجيل « **اجبروهم على اعتناق دينكم** » وحرص المسلمون على حماية كنائس المسيحيين وبيع اليهود ، ونهى من قتل رهبانهم وصبيانهم ونسائهم . وحفظ لهم أداء طقوسهم ، أما اليهود والنصارى فعاملوا المسلمين أقسى معاملة في مثل هذه المجالات .

# الباب الثالث

# الاسلام والأديان

## الفصل الأول

# معالم الاسلام

**التوحيد :**

(١) الإيمان بالله وحده دون اشراك او تثنية او تعدد .

(٢) الإيمان برسالة جميع الانبياء والرسل والكتب المنزلة .

(٣) الاقرار بوحدة البشرية ووحدة الدين ، ووحدة الاخلاق وثباتها . انكار مفاهيم الحلول والاتحاد ، وإقرار وحدانية الله ، وتفرده بأنه سبحانه الاول الذي ليس قبله شيء ، والآخر الذي ليس بعده شيء ، وان هذا الكون كله من صنعه . وهو ليس متحداً به .

وقد جعل الاسلام العلاقة بين الانسان وربه علاقة مباشرة بدون وساطة. والتوحيد هو العامل الاول الذي يعطي المسلم شعور العزة والكرامة ، والارتفاع على الاحداث والاخطار .

( ٢ )

الجمع بين العقيدة والتشريع والاخلاق في كل متكامل والربط بينها بحيث لا يجوز تجعل تجزئة هذه العناصر الثلاثة . ولذلك لم يفرق الاسلام بين العقيدة كعبادة ـ والشريعة كقانون ـ والأخلاق كسياج كامل تتحرك فيه كل القيم ـ وفرائض الإسلام لا تزيد عن الطاقة ـ ولا يقر الاســـلام الإسراف ولا البخل .

( ٣ )

حـــرية الفكر :

بروز قاعدة حرية الفكر : « لا إكراه في الدين » وأكبر تحرير للفكر في الاسلام هو تحريره من الوثنية والمادية ، والإسلام أول من علـّم العالم كيف تتفق حرية الفكر مع استقامة الدين فيكون المسلم صحيح الاسلام . وفي نفس الوقت حر الفكر .

( ٤ )

لا تزر وازرة وزر أخرى :

ليس الانسان مسؤولاً عن خطيئة أحد ، وليس هناك خطيئة لأحد مهما كان ، تنسحب على الناس جميعاً ، او البشرية كلها ، بل ناط الاسلام بكل انسان تبعة أعماله وتصرفاته .

وقد أقام الاسلام حرية الاختيار . وتبعة الأعمال ، وقرر ان الاصل في الانسان الخير على خلاف ما تقول به أديان أخرى ، من أن الانسان خلق خاطئاً ، او كان في اول أمره إنساً بينما يقرر القرآن ان الانسان خلقظاهراً وخلق تاماً . وليس في الاسلام ان الخطيئة موروثة في الانسان قبل ولادته . ولا انه يحتاج الى التوبة عنها الى كفارة من غيره .

يقول جوستاف غرونباوم : ان الانسان الاسلامي علىخلاف غيره لا ينوء تحت وطأة الخطيئة الاصلية التي تحكم عليه وعلى نفسه بالسوء والفساد .

( ٥ )

في الاسلام ترابط بين العقيدة والاخلاق . فلا تنفصل الاخلاق عن العقيدة ، ولا تقرر الاخلاق الا من داخل إطار الايمان بالله .

( ٦ )

**الجهـــاد :**

الجهاد : ذروة سنام الاســـلام وأعلى مقرراته وفرائضه . والحرب في الاسلام جهاد مقدس في سبيل الدين والحق، ودعوة الى احترام العهود والوفاء بالمواثيق ، ولا تستخدم القوة الا لرفع ظلم او اصلاح معوج .

والسلم فيالاسلام قاعدة،والحرب لا تكون الا لضرورة،والاسلام لا يقاتل غير المسلمين الا اذا حاربوا دعوته . وقاوموا فكرته ، واعتدوا على أرضه ، وعمدوا الى إيذاء أهله . ولا يمنع من إقامة العلاقة معهم اذا لم يحاربوا الاسلام والمسلمين .

( ٧ )

**الايمان بالآخرة :**

الإيمان بالآخرة والبعث والجزاء . وان الدنيا هي دار التجربة والعمل والايمان بارتباط الدنيا والآخرة .

( ٨ )

**المسؤولية الفردية والالتزام الاخلاقي :**

اقرار المسؤولية الفردية ، والالتزام الاخلاقي وهما موضع الحساب . كما قرر الاسلام المسؤولية الكاملة للطبقة المستضعفة في ان تأخذ وترد : والرقابة في الاسلام لا تأتي من شخص على شخص ولا من هيئة على هيئة . وانما هي رقابة المسلم لربه .

( ٩ )

الجمع بين الثبات والتطور : فهناك الثوابت التي لا تتغير ، وهي الاصول التي تقوم عليها حركة الاجزاء .

( ١٠ )

الشريعة الاسلامية : شريعة عالمية صالحة لكل زمان ومكان وهي إطار

ثابت القوائم مرنة وأصول عامة . وقواعد كلية لا تقبل التطور او التغيير . وهي تبيح حرية الحركة ، وتسمح بالتشكل من الداخل على النحو الذي يوافق ، ويجوز فيها الاجتهاد بين عصر وعصر وبيئة وبيئة أخرى . وقد فتح الاسلام للناس باب الاجتهاد في تفهم الحقائق . والشريعة الاسلامية جعلت الجزاء مقتصراً على صاحب الذنب وحده ، ولم تشدد كاليهود، ولم تتساهل كالنصارى ، بل وقفت موقف التوسط فأباحت المنفعة وحرمت الضارّ .

(١١)

للمعرفة جناحان : روح وعقل ، او وحي وفكر . الوحي أساس : والعقل في حدود مهمته وقدرته خادم للوحي . أساس منهج المعرفة : المفهوم القرآني . وليس منهج الفلسفة . وقد دعا الاسلام الى المطالبة بالبرهان والدليل ، ونهى عن تحكيم الهوى او العصبية في الكشف عن الحقيقة . وقد فتح الاسلام باب الاجتهاد في فهم الحقائق . فلم يقصرها على طائفة خاصة من الناس .

وقرر دستور العلم فدعا الى عدم الانخداع بالأوهام ، ولا يغتروا بالظن . وأن يسألوا أهل الذكر ، ولا يقولوا بغير دليل . وان يعملوا عقولهم فلا يقلدوا أحداً ، وان يكونوا أحراراً في النظر لا يصدهم عن ذلك شيء . وقرر الاسلام ان لا كتمان للعلم : بل دعوة الى اذاعتـــه وبثه في الناس . وعقاب من يكتمه . ولم يبطل حرية البحث بل أطلقها ، وجعل السلطان للحجة والبرهان ، ودعا الى التحرر من التبعية والتقليد .

(١٢)

العالم ليس سرمدياً ولا أزلياً ، بل هو حادث ، وكل شيء فيـــه له أجل مقرر .

(١٣)

فصل الاسلام بين الالوهية والبشرية ، كما فصل بين الله والعالم . ولا يقر الاسلام : الاشراك والتناسخ او الحلول والاتحاد . وليس هناك من يسقط عنه التكليف ، ولو بلغ أعلى درجات العبادة .

(١٤)

أقام الاسلام : أصول الاخوة العالمية ، أساسه الترابط والمساواة ، هادماً للعبودية ولنظام استعلاء الطبقة الخاصة ، لاغياً للرق والسخرة ، ومحرراً للعبيد ، ومدخلاً اياهم بشتى الأساليب في نطاق الإخاء الانساني .

والاسلام لا يقر أي فروق في الجماعة على أساس اللون او الجنس او اللغة. وقد سوّى بين الأجناس . فلا يرى لأبيض على أسود فضلاً الا بالتقوى . وأقام وحدة عالمية تجمع مختلف العناصر والاقوام، بصرف النظر عن الفوارق في اللون او الدين او اللغة .

ويعارض الاسلام نظرية ان يكون هناك جماعة معينة بينها دين الله عقداً خاصاً ليكون مسودة على العالم ، ويقرر ان عقد الله مع الناس هو التقوى . وبذلك شجب الإسلام الدعوة العنصرية القائمة على الدم والانساب . ومنع

التفاضل بها . ولم يجعل الانساب والدماء ميزاناً لتقدير الناس والناس في الاسلام تتكافأ دماؤهم وأموالهم .

## (١٥)

اعترف الاسلام بالرغائب البشرية وأباحها في إطار الضوابط الشرعية والاخلاقية ، والاعتراف بالخطأ ، وتقدير مدى الطاقة ، فلا يكلف الله نفساً إلا وسعها . وهناك المغفرة والعفو . « **فمن اضطر غير باغ ولا عاد فلا إثم عليه** » وفي نفس الوقت الذي اعترف الاسلام فيه بالرغائب البشرية . حرر الانسان من عبادة الشهوة ، او عبادة الاجساد ، او عبادة الفرد ، او عبادة ما سوى الله الواحد الأحد الحق . فقد دعا الاسلام الى تهذيب مداخل هذه الشهوات ومخارجها فوقف بها عند الحد الذي لا يؤذي الفرد ولا المجتمع . ويبيح قسطاً معتدلاً من المتاع داخل ضوابط تحول دون تحطم الشخصية الانسانية .

## (١٦)

الدعوة الى الانفاق .

## (١٧)

تفرقة واضحة بين البيع والربا ، تحريم تام للربا ، « **وأحل الله البيع وحرم الربا** » .

(١٨)

قرر الاسلام ان للمجتمعات نواميس ثابتة ، وان للوجود الانساني سنناً : هي سنن الله في الكون . هذه السنن التي لا تبديل فيها ولا تغيير ، وهي التي تحكم الحضارات والمدنيات وقد جاء في القرآن قبل أن يتخيلها أهل الارض تخيلاً : « **سنة الله في الذين خلوا من قبل ولن تجد لسنة الله تبديلا** » .

(١٩)

إقرار مفهوم «التقدم» على انه تقدم جامع ، مادي ومعنوي معاً . وليس تقدماً مادياً خالصاً وانه خالص لله . « **تلك الدار الآخـــرة نجعلها للذين لا يريدون علوّاً في الأرض ولا فساداً** » .

والنجاح المادي يقره الاسلام ويرتضيه . ولكنه لا يراه غاية في ذاته ، بل هو مرتبط بالتبعية الادبية والغاية من مختلف أنواع النجاح ان يكون خلقياً .

الاسلام لا يعارض التقدم ، بل يدفع اليه دفعاً . فهو يدفع الى التمييز العلمي والعقلي ، والنظر في ملكوت السموات . وقد حمل على الجهل والخرافة والكهانة والسحر .

(٢٠)

ليس هناك أثيوبيا خيالية : بل هناك واقع متصل بطبيعة الانسان ، لا يدفعه إلى الزهادة والاعتزال ، ولا يدفعه الى التحلل والترف . وليس في

الاسلام تناقض بين المثل الأعلى . والواقع العملي للناس . ولا ما يصادم العقل البشري ، او الذوق او الفطرة ، او العلم .

(٢١)

هناك ترابط واضح بين العروبة والإسلام ، وبين الارض والأمة . وهناك وحدة الفكر التي تضم المسلمين جميعاً وتوجههم في اتجاه واحد ، قائم على التكامل والعدل والحق .

(٢٢)

لا يقر الإسلام الزهادة والرهبانية بمعنى اعتزال الحياة . وليست الزهادة في الدنيا بتحريم الحلال ولكن الزهادة هي أن تكون بما في يد الله أوثق منك بما في يدك .

وأقوى صور الزهد هو التضحية بالنفس في سبيل الجماعة . وقد دعا الاسلام جميع أبنائه الى الاندماج في المجتمع ، وقهرهم قهراً على الاخذ من منافع الدنيا بنصيب . وكل إيقافٍ للحياة على العبادة والزهد والنسك مخالفة صريحة لمفهوم الاسلام لأنه ابتعاد عن الحياة العملية التي هي المحك الرئيسي الدقيق لمعرفة مدى إيمان الانسان بالإسلام . ويدعو الإسلام الانسان الى الزهد في وسط مغريات الحياة وليس بالعزلة عنها . وقد دعا الاسـلام الى حفظ الدنيا وتنميتها في إطار التقوى وتوجيهها الى الله .

(٢٣)

ربط الاسلام بين المادي والمعنوي ، ولم يهمل الجانب المادي في سبيل

الجانب المعنوي ، ولم يحتقر الامور الدنيوية في سبيل إعلاء الروحيات . والاسلام لا يحتقر الامور الدنيوية . ولكنه يرمي الى منهج جامع بين الدين والدنيا بعيد عن النفعية والرهبانية . ( اعمل لدنياك كأنك تعيش أبداً ، واعمل لآخرتك كأنك تموت غداً ) .

(٢٤)

الفرد جزء من المجتمع . والمجتمع هو كل الأفراد : فالمجتمع للفرد والفرد للمجتمع . لم يضح الإسلام بالفرد من أجل المجتمع ، ولا بالمجتمع من أجل الفرد ، وإنما أقام منهما معاً نظاماً متسقاً متكاملاً فيه التقاء كامل وتوازن واضح .

وقرر الاسلام تضامن المجتمـــع في المسئولية عن كل أفراده . وتحمل الضعفاء والفقراء ، وأقام العدل الاجتماعي على أساس التضامن والمساواة والأخوة .

الاسلام يفرض كفالة مشتركة بين أهله . ويجعـل العجزة والضعفاء والمحرومين موضع تقدير كبير ، ولا يطالب بإسقاطهم او قتلهم ، بل على العكس يطلب لهم حمايات وضمانات كاملة . ويعتبرهم موضع الرزق « **إنما ترزقون بضعفائكم** » .

(٢٥)

في الاسلام يلتقي الدين بالعلم . والاســـلام هو الذي دفع المسلمين الى الخروج من دائرة المنهج اليوناني القياسي الى انشاء منهج التجريب . فأنشأ

المسلمون : المنهج العلمي التجريبي . وقد دعا الاسلام الى النظر في الكون ، والتأمل في الكائنات ومعرفة أسرار الوجود .

وقد جعل الاسلام طلب العلم فريضة على كل مسلم ومسلمة وفرض على الامة ان ترتب أقواماً لتعليم الناس . وحث الإسلام على العناية بتنمية العقل الانساني . وقد فضل الله العلم على العبادة وفضل العلم على إطلاقه ( علم الدنيا وعلم الدين ) . ومن هنا كشف الاسلام عن حقيقة هامة هي : انه لا يعارض بين حرية الفكر وبين ان يكون المفكر متديناً .

وقد وصل المسلمون الى غاية الغايات في العلم والثقافة . وظل مجرى عقولهم قائماً على الإيمان بالله . والعلم في الإسلام يزكو بالإنفاق . وقد أخذ الله الميثاق على من يعلم أن يبين ما يعلم للناس . وقد أطلق الإسلام حرية البحث، وحث على الاجتهاد، وقرر ان للمخطىء أجرين اذا أصاب وأجرين اذا أخطأ وحرم التقليد .

ويحرر الاسلام دستور العلم فدعا الى عدم الانخداع بالأوهام او قبول الظن ، او اعتبار أي قول بغير دليل ، ودعا الى استعمال العقل وسؤال أهل الذكر . فلا يقلد أحد أحداً . وان يكونوا أحراراً فيالنظر لا يصدهم عن ذلك شيء .

## (٢٦)

اعترف الاسلام بناموس الترقي: طالب الاسلام بترقية الشخصية الانسانية بالضرب في الأرض وتعرف أحوال الامم وطبائعها . ودراسة ما هي عليه. واعتبر ان الانسان مسوق الى غايات من المدنية بعيدة لم ينلها اليوم . وجعل للعاملين المخلصين ثواباً وأجراً : من سَنّ سنّةً حسنة فله أجرها وأجر من

عمل بها . كما دعا الإسلام الى تعمير الأرض واستخراج كنوزها وذخائرها . والتنافس في الصنائع والعلوم النافعة .

(٢٧)

أقام الاسلام الفطرة . ودعا الى نقائها . وشــــدد بالنهي عن إفسادها بالتعاليم الضارة . ونبّهَ الى ضرر التقليد الأعمى للآباء والقادة ، وأمر بطلب الدليل المقنع على كل عقيدة يتقدم بها داعٍ لنحله .

(٢٨)

دعا الاسلام المسلمين الى التحري عن الحق ، ودعاهم الى ان يغيروا رأيهم اذا ظهر لهم وجه الصواب ولا يأنف المسلم ان يأخذ الحقيقة من أي واحد يأتيه بها ولو كان مخالفاً له في دينه ولغته . وألا يتعصب لرأي ولا مذهب تعصباً يعميه عن نظر ما عسى أن يكون فيه من خطأ .

(٢٩)

جعل الاسلام ضوابطه في الاساس مستهدفة عدم استهلاك الانسان لطاقاته الجسدية والمادية بالدعوة الى القصد لا الإسراف .

(٣٠)

أكد الاسلام قيام الصلة بين الانسان وخالقه دون وساطة أحد من الناس .

(٣١)

أكد الاسلام انه ليس فيه سرّ ولا تناقض ولا أمر يعرفه أحد من دون المسلمين جميعاً .

(٣٢)

ليس في الاسلام رجل دين له حق يزيد عن حق الانسان العادي ، ولا يخول الاسلام لطائفة من الأمة حق السيطرة عليها في الاعتقادات والمعاملات.

(٣٣)

تكريم الانسان وتحريره من الرق والعبودية ، ورفعه الى درجة تليق به بوصفه مستخلفاً في الارض .

(٣٤)

قرر الاسلام ان المال وسيلة لا غاية ، وطريق لا هدف، وان المال وحده والإنسان مستخلف فيه استخلفه للانتفاع به وتوجيهه في سبيل الله ومصلحة المجتمع . وقد كرم الإسلام العمل والانفاق والمال تطهره الصدقة ، والزكاة ركن وهو نظام للتضامن الاجتماعي . ويرمي الاسـلام الى تداول المال بين الناس دون تداوله بينطائفة خاصة . وقد قيد الشرع حق التصرف بالانفاق. بمنع السرف والتقتير . وقيد تنمية الثروة بمنع الغش والربا والقمار والاحتكار .

كما تضمن الدولة من لا مال عنده ولا عمل ، وتتولى إيواء العجزة وذوي العاهات . وأنكر الإسلام احتكار الثروة في طبقة واحدة . وانكر احتكار التجارة في الأسواق العامة . ويمنع كنز الذهب والفضة ، ويحرم أكل أموال الناس بالباطل .

## (٣٥)

أبرز معطيات الاسلام : الايجابية المتفائلة برحمة الله ، وليس في الاسلام طابع الانهزام او اليأس او التشاؤم الذي نراه في الفكر الغربي .

## (٣٦)

دعا الإسلام الى المطابقة بين الكلمة والسلوك . والإيمان والعمل ، وربط بين العقيدة والعلم وجعل العلم متطلعاً الى معرفة الله .

وقد اتصل ذكر الإيمان في القرآن بذكر العمل الصالح أكثر من خمسين مرة « **الذين آمنوا وعملوا الصالحات** » ولا ريب ان أخطر الأخطار هو انفصال العلم عن العمل . وبقاء العلم دون ممارسة في العبادة او المعاملات او تحول الإيمان الى ايمان زهادة وليس الى إيمان اجتماعي .

والاسلام لا يريد المفاهيم والأفكار بمعزل عن العمل والتطبيق وإنما يريدها قوى دافعة لبناء حياة كاملة في إطارها وضمن حدودها .

## (٣٧)

أعطى الاسلام المرأة مكانتها الاسلامية وحقها في أن تملك وتزاول التجارة

وتعقد العقود وتملك كل أنواع الملك ، ولها ان تنمي أموالها . ولا تحرم المرأة حقها الا اذا ثبت انه يلحق ضرراً بالمجتمع . وقد رد عنها الاسلام كثيراً من الاخطار . فقرر عدم كفاءة الفاسق للزواج بالمرأة العفيفة ولقد حرص الاسلام بمقرراته للمرأة ان يجعل منها حصناً للاسلام لا ينال . ولما كانت المرأة تضمن استمرار النوع فانها من أقوى الحواجز التي تحمي قواعد الاسلام من التحلل والانهيار .

(٣٨)

سيادة الإنسان في الاسلام : ليس في سيادته جسماً ومادة ، بل في سيادة القيم الانسانية فيه .

(٣٩)

جعل الإسلام الجزاء مقتصراً على الذنب وحده ورفع أساليب الظلم القديمة ، وحرم في الحرب قتل الشيوخ والأطفال والنساء والزهاد .

(٤٠)

دعا الاسلام الى الأخذ بالأسباب ، فان الله ربط الاسباب بالمسببات .

(٤١)

ليس في الاسلام طبقة تدعي رجال الدين لهم في علاقتهم بالاسلام حقوقاً ليست لغيرهم وإنما يوجد علماء متخصصون في الدين .

(٤٢)

يقوم الاسلام على فكرة التضحية والتقوى بينما يقـــوم الفكر الوثني على فكرة الرفاهية ويعدها المثل الأعلى له مما يتعارض مع البذل والفداء .

(٤٣)

التكوين الفردي في الاسلام أساس التقدم وليس التقدم العلمي .

(٤٤)

قدرة الاسلام على اعطاء مفهوم الحركة والتقدم والنماء والتوليد ، والأخذ والعطاء . وعلى امتصاص كل ما يزيده قوة ، وطرد كل ما لا يتفق مع طابعه.

(٤٥)

أقام الانسان الوحدة الانسانية على أسس جديدة . قوامها الأخوة العالمية والتسوية بين الناس على اختلاف ألسنتهم وألوانهم في الحقوق والواجبات ومحو العصبية الوطنية وقتل النّعْرة الجنسية . وتعد سفرة الحج عاملاً قوياً في تطبيق مبدأ الوحدة الانسانية .

(٤٦)

أقام الاسلام نِسباً محددة لكل ناحية من نواحي الحيـــاة ومطلباً من مطالبها . وقرر ترتيبها بحسب أهميتها فجعل لكل من العبادة والجهاد والزكاة

والكسب حصة ونسبة . وجعل للجسم والعقل والمال واللذة واللهو والعمل وضعاً ومقداراً .

(٤٧)

دعا الاسلام الى الانصاف من النفس : وإقرار الحق بالنسبة للقريب والبعيد وجعل شرعته تتساوى أمامها الأمير والاجير . « **ولا يجرمنكم شنآن قوم على ألا تعدلوا اعدلوا هو أقرب للتقوى** » وهو في هذا يواجه خطأ الحضارات التي تنصف أهلها ولا تنصف الغير ، وعبر الرسول عن هذا عندما جاءه من يلتمس تخفيف العقوبة عن المخزومية التي سرقت وحكم الرسول بقطع يدها حين قال: (إنما أهلك الذين من قبلكم انهم كانوا اذا سرق الشريف تركوه وإذا سرق الضعيف أقاموا عليه الحد ، وايم الله لو ان فاطمة بنت محمد سرقت لقطع محمد يدها .

# الفصل الثاني

# التوحيد

جاء الاسلام مجدداً دعوة التوحيد التي هي الكلمة الاولى في كل أديان السماء ، والاساس الثابت لكل الاديان ، والحقيقة الخالدة التي انحرفت بها تفسيرات الدين في بعض الأديان فخرجت عن أصلها الاصيل .

ولقد كانت البشرية منذ أقدم عهودها على التوحيد الخالص ، وان الوثنية كانت عرضاً ملازماً لها . وليس كما تحاول بعض النظريات المطروحة الآن في مقارنات الاديان والتي تقول بالتطور من الوثنية الى التوحيد .

وقد أثبتت الابحاث التاريخية والعلمية والانثربولوجية نظرية التوحيد ، وأكد هذا أكبر باحثيها من أمثال الدكتور ماكس مولر فتكشف اللغة السنسكريتية في قوله : « ان الناس كانوا في أقدم عهودهم على التوحيد الخالص . وان الوثنية عرضت عليهم بفعل رؤسائهم الدينيين بغياً بينهم ،

وفي ذلك دحض لفكرة النشوء والارتقاء التي تدعي ان الناس عبدوا الاصنام أولاً ، ولم يصلوا الى التوحيد الا أخيراً .

ولا ريب ان عقيدة الوحدانية هي أرقى ما وصلت اليه الانسانية . وقد أكد هذا المعنى العلامة «لانج» الذي اعتمد في رأيه عن التوحيد بما كشفه «هويت» عن الموجود الأسمى في قبائل استراليا الجنوبية الشرقية واستراليا والإله الأسمى لدى قبائل افريقيا وذلك في قوله : « ان كل انسان يحمل في نفسه فكرة العلية . وان هذه للفكرة كافية لتكوين العقيدة ان ثمة آلهة صانعة وخالقة للكون . وان كل انسان لديه فكرة عن صنع الاشياء ، انه يعتقد في وجود صانع يفعلها ، ولا يستطيع هو ان يفعلها نجد لدى الاهالي القدماء الاعتقاد في خالقه » .

●

وحقيقة التوحيد التي جاء بها الاديان المنزلة ، وأكدها الاسلام ، أسقطت النظرة كانت موجودة حول الإله : الإله المخيف الجبار الذي يشعر أمامه بالضعف والذل والخوف من غضبه ، وأقام المفهوم الحقيقي لله سبحانه وتعالى الرحمن الرحيم الذي يقبل التوبة ويدعو الى المغفرة ولا يحمل التكليف إلا على قدر الاستطاعة حيث لا يكلف الله نفساً إلا وسعها .

وكما حرر الاسلام البشرية من فكرة الإله الغيور : إله الحرب كذلك حررها من تعدد الآلهة ، وأحل الله الواحد الأحد الذي لم يلد ولم يولد ولم يكن له كفواً أحد ، وقد أشار المؤرخ توينبي الى هذا المعنى حين أشار الى إله المسيحية: الذي يوصف بأنه إله مخلص يضحي بنفسه فداءً للبشر وقال: ان الاسلام أعاد توكيد وحدانية الله في مقابل الضعف البادىء في تمسك المسيحية بهذه الحقيقة الجوهرية . وأشار الى ان المسيحية لم تلبث ان تغلبت

فكرة اليهودية عن الإله الغيور ، وهي فكرة قادت المسيحية الى التعصب الأعمى عوضاً عن فكرة المسيحية ويقول : ان هـــذه الردة قد كبّدَتْ المسيحية خسارة روحية وجسمية ، ويعني هـــذا ان المسيحية الجديدة قد واءمت بين فكرتين متناقضتين: (الاولى) فكرة البطش وعدم التسامح وهي صفة إله اليهود (يهوه) ومن سماتِه الغضب والقســـوة والغيرة . و(الثانية) فكرة المحبة والتسامح التي تقوم عليها دعائم المسيحية .

●

ويشير الباحثون الى أن الانحراف الذي أصيبت به البشرية قد أدخلها في تعدد الآلهة « حتى[1] أصبح هـــذا التعدد عاماً في جميع الثقافات القديمة : قال به القدماء المصريون وقال به الآشوريون والبابليون والفرس والهنود والصين واليونان على اختلاف في عدد الآلهة ومكانهم واختلاف في تصور صلة الآلهة بعضهم ببعض ، او صلتهم بالبشر » .

●

ولقد كانت الفلسفة اليونانية وثنية متعددة ، وكان مفهومها عن الله مضطرباً غاية الاضطراب : « ليس في اسلوبها صفة مثبتة من صفات القدرة والربوبية والإعطاء والمنح والرحمة . لم تثبت له الا الخلق الاول . ونفت عنه الاختيار والعلم والإرادة ونَعَتت الصفات . وقررت كليات كلها حطّ من قدر الخالق وقياس على الخلق ، ومفهوم أرسطو يخرج الإله عن دائرة تدبير العالم ، بل حتى عن مجرد العلم .

●

---

(١) دكتور ابراهيم بيومي مدكور في بحث عن الفلسفة الاسلامية .

ولقد انحرفت اليهودية عن مفهوم التوحيد الذي جاء به موسى، واصطنعت مفهوماً مغايراً[1] فاليهودية تعد الله فكرة مجردة ، وقوة خارقة مخوفة ، حتى انها لا تنطق ذكر اسم (يهوا) حين يرد في النص رهبة ورعباً وتنطقه باسم آخر هو (أدوناي) حين تقول المسيحية بأن الله تجسد في السيد المسيح . وان الله نزل الى الارض بصورة انسان ، وبذلك خرجت اليهودية الى التجريد ، وخرجت المسيحية الى التجسيد . وهناك أديان أله رسلها ودعاتها بعد موتهم وعبدوا : فأله بوذا وزرادشت والمسيح . ومن هنا كان حرص الاسلام على ان لا ينحرف الى التجريد او التجسيد . وان يؤكد الفوارق بين الالوهية والنبوة ، وكان تأكيد محمد ﷺ الدائم وتأكيد القرآن على انه بشر يوحى اليه .

---

(١) دكتور اسحاق موسى الحسيني .

## (٢)

الوثنية « هي[١] أحط أنواع الشرك . وقد ذكرها القرآن أكثر من غيرها، لأنها كانت منتشرة في العالم قبل الاسلام ، طقوسها تحكم الخضوع المشين والعبودية الضالة للأصنام على انها تنفع وتضر وعلى انها يقصد اليها في قضاء الحاجات » .

وأهم ما تمثله الوثنية[٢] « ان المعبود فيها مجوس ومن طبيعة المجوس ان يكون متعدداً ومتغيراً وغير مستمر النفع والضرر » .

ومن هنا توصف الشعوب الوثنية بأنها ضعيفة الإدراك وبدائية . وقد كانت آلهة الوثنية متعددة ، ومن هنا هاجم الإسلام تعـــدد الآلهة ، ودعا الانسان الى عبادة إله واحد لا يعرف شخصه ولا تحد حقيقته لأنه فوق الطبيعة ، وجعل الطاعة لغير من يجوز عليه التغير والفناء ، ولا ريب ان تشخيص المعبود يؤدي الى تقليل قداسته، وارتفع بالبشرية عن عبادة الشخص المحدود المتغير الفاني ، وفي هذا إشعار الانسان بكرامته . وتأليه البشر انما يعني التبعية للشخص دون المبدأ . وقد ارتبط تعدد الآلهة بعبادة الابطال

---

(١) مولاي محمد علي (الدين الاسلامي) حـ ١ .

(٢) دكتور محمد البهي .

منذ وقت بعيد ، وقد تراوحت الوثنية بينالتعدد والتثليث . ويرجع ارتباط عبادة الابطال بالتثليث الى ان الجماهير كانت تعبد البطل الذي يقوم بعمل ما ثم يتخذ البطل له روحه فتحتل معه مكان الالوهية . ثم تصل البطولة الى أكبر أبنائه . فيتم الثالوث ، والبابليون هم أول من قال بالثالوث في الألف الرابع قبل المسيح . وكان البابليون يدينون بتعدد الآلهة .

ولقد ظلت البشرية تتراوح في الوثنية بين التعـــدد والتثليث حتى ردها الاسلام الى التوحيد ، ومن هنا يمثل الاسلام أعلى مراحل ارتقاء البشرية الى الرشد والنضوج ، وقد جاء القرآن واضحاً في موقفه مع الوثنية المتعددة بكل أنواعها وجاء بالحقيقة الكبرى الناصعة ، فقرر ان الاله واحد . ونفى كل أنواع التعدد ، وقرر انه لا يشبهه شيء من خلقه، وانه متصف بالكمالات كلها منزه عن النقائص كلها . وقرر انه غير مستطاع للعقل البشري ان يدرك كنه ذاته وحقيقة صفاته . كذلك تناول القرآن مختلف الشبهات التي لصقت بمعنى الالوهية من أدران الامم السابقة . فكشف عن زيفها ونقضها ، ودعم ذلك بالحجج الدامغة ، وأكد الحقيقة التي تقررها الفطرة عن صلة الانسان بالله . وكيف انه مربوب الله . وان الله مع الناس أينما كانوا وانه هو الذي يرحمهم ويهديهم .

●

وتنحصر العقائد الوثنية في أمرين[1] : الاول تأليه الطبيعة او جزء من أجزائها كالشمس او القمر او بعض انواع الحيوان . والثاني : تأليه البشر ( فرداً او اسرة او جماعة ) . وذلك كعبادة الملوك والقادة ، والانبياء والابطال والقديسين والأولياء . « **اتخذوا أحبارهم ورهبانهم أرباباً من دون الله والمسيح بن مريم** » وقد عبـــد الرومان واليونان والمصريون والفرس

---

(١) محمد المبارك .

والهنود أبطالهم وملوكهم : عبدوا الفرعون والقيصر والامبراطور والبرهمي، وهناك تأليه بعض الكائنات الخفيـــة كالملائكة والارواح والجن . وهناك أيديولوجيات حديثة تعبد الدولة ، او تؤله العقل .

●

والشرك من انحرافات الوثنية « ومدلول[1] الشرك هو إشراك غير الله مع الله في الألوهية والربوبية والاتجاه والطقوس مع الاعتراف بالله كما يمكن ان يفهم من معنى الكلمة ، او الجمع بين الاعتراف بالله كإله أعظم وبين عبادة الملائكة شفعاء مع جعل الاوثان رموزاً مادية لهؤلاء . وقد ارتبطت الوثنية بالأصنام وبناء الهياكل التي عرفت في مصر وأثيوبيا والشـــام وبابل وعرفها الفراعنة والآشوريون واليونان والرومان . وكان للآشورين صنم لكل كوكب ولم يترك المصريون شيئاً إلا ألهوه .

●

(١) دروزة عصر النبي .

## (٣)

يقـول الفريد مز في كتابه : El, Yahve, et Jessus ( ايل - يهوه يسوع ) ان يسوع ألغى الاعتبار اليهودي وأعاد اعتبار ( ايل الكنعاني ) الفينيقي الذي عرفه العبرانيون بعد مجيئهم الى أرض كنعان .

وان يهوه هو الإله الصحراوي الضيق الآفاق : الإله الذي كان يتميز بقسوة وعصبية قبيلته وان ( ايل الكنعاني الفينيقي ) كان حياً زمن يسوع ، وان تعاليمه التي كان قد طمس اليهود معالمها عادت مرة اخرى الى الظهور على يد يسوع . ومعنى هذا ان رسالة يسوع وتعاليمه وفكرته عن الله وعن الانسان لم تكن تَمُتُّ بصلة الى الدين اليهودي » .

ومهما يكن مفهوم الفريد مز فانه يتفق مع تاريخ الأديان في ان اليهودية حرفت مفهوم الإله وان السيد المسيح جاء مصححاً لمفهوم الله سبحانه وتعالى الذي جاء به ابراهيم وموسى : الله الواحد ، غير ان تفسيرات المسيحية للإله الواحد وللتوحيد لم تلبث ان انحرفت فأقامت اليهودية الإله القومي الخاص . وأقامت المسيحية الإله المجسد . ومن هنا فقد جاء الاسلام مصححاً للانحرافين .

جاء الاسلام مصححاً ما انحرف ( من أصول الدين الحق . وقد قضى الاسلام على الوثنية التي كانت سائدة في بيئته ) وتصدى لليهودية والنصرانية فرد أصولها الى حقائقها . وقوم نظر الآخذين بها ونسخ ما بطلت الحاجة

اليه منها . ودعا العالم كله الى وحدة الدين ووحدة الوجهة والغاية مؤسساً دعوته على أصل ثابت : هو ان الله واحد ودينه لجميع خلقه واحد . « وهذا يعني ان الاديان متحالفة . فانما حدث ذلك من فعل قادتها والقائمين بشرحها وتأويلها فطالب كل آخذ بها بالرجوع الى أصلها . وأصلها هو الاسلام الذي أوحي الى كل الرسل السابقين والى خاتمهم محمد على فترة منهم وشفع هذا البيان الحاسم بنظام اجتماعي محكم أقامه على الفطرة والعقل وأودع ذلك كتاباً لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه » .

●

وقد أثبت القرآن ان السيد المسيح عيسى بن مريم « بشر » وانه رسول مؤيد بوحي إلهي وانه نادى بعقيدة التوحيد . فدعا الى عبادة الإله الواحد الأحد الفرد الصمد الذي لم يلد ولم يولد ولم يكن له كفواً أحد . وقرر انه لم يقتل ولم يصلب بل وقاه الله .

وقد عرض القرآن زيف عقيدة التثليث على أي نحو من أنحائها : وأنكر دعوى ألوهية المسيح او بنوة المسيح . وأعلن مفهـــوم العبودية : عبودية الناس والانبياء لله سبحانه وتعالى ، مزيفاً نظرية الأبوة المدعاة **« لقد كفر الذين قالوا إن الله هو المسيح بن مريم » « لقد كفر الذين قالوا إن الله ثالث ثلاثة وما من إله إلا إله واحد » « ما المسيح بن مريم إلا رسول قد خلت من قبله الرسل وأمه صديقة كانا يأكلان الطعام » « لقد كفر الذين قالوا إن الله هو المسيح بن مريم قل فمن يملك من الله شيئاً إن أراد أن يهلك المسيح ابن مريم وأمه ومن في الأرض جميعا » .**

●

وقد أثبت عشرات الباحثين ممن راجعوا هذه العقائد انه ليس[1] في كتب

---

(١) الأديان في القرآن .

النصارى ما يدل على ان المسيح قال بهذه الأقانيم الثلاثة بل فيها ما يدل على انسانيته وبشريته وعبوديته ووحدانيته لله وان المتصفح للانجيل ليرى في عبارات صريحة واضحة ان الله واحد وان عيسى مرسل وانه ابن الانسان لا ابن الله .

●

وقد أوردت دائرة معارف القرن التاسع عشر الفرنسية تحت مادة (ثالوث) : ان عقيدة الثالوث وإن لم تكن موجودة فيالعهد الجديد (الانجيل) ولا في أعمال الآباء الرسوليين ، ولا في تلاميذهم الأقربين . الا ان الكنيسة الكاثوليكية والمذهب البروتستنتي الواقف مع التقليد يزعمون ان عقيدة التثليث كانت مقبولة عند المسيحية في كل زمان رغماً من أدلة التاريخ التي ترينا كيف ظهرت هذه العقيدة . وكيف تمت وكيف علقت بالكنيسة بعد ذلك ، نعم ان العادة في التعميد كانت ان يذكر اسم الأب والابن والروح القدس ، ولكن هذه الكلمات الثلاث كانت لها مدلولات غير ما يفهمه الآن نصارى اليوم .

وان تلاميذ المسيح الاولين الذين عرفوا شخصيته وسمعوا قوله كانوا أبعد الناس عن اعتقاد انه أحد الاركان الثلاثة المكونة لذات الخالق . وما كان بطرس أحد حوارييه يعتبره الا رجلا موحى اليه من عند الله .

وكان الشأن في تلك العصور ان عقيدة انسانية عيسى كانت غالبة مدة تكون الكنيسة الاولى من اليهود المتنصرين،فان الناصريين والاثيوبيين وجميع الفرق النصرانية التي تكونت من اليهودية ، اعتقدت ان عيسى انسان محض مؤيد بالروح. القدس ، وما كان أحد اذ ذاك يتهمهم بأنهم مبتدعون او ملحدون » .

●

والتثليث[1] في العقيدة المسيحية هو لون من ألوان العبادة الوثنية والشرك، فهو ليس بطارىء على العقيدة المسيحية، ولكنه يمتد بجذور عميقة في أرض العقيدة الى الوثنية العالمية القديمة ويتصل بها بأقوى الوشائج والصلات.

فالعقيدة المسيحية التي زعمت ان الله ثلاثة أقانيم: ( أب وابن وروح قدس ) هي نفس العقيدة التي كان يدين بها قدماء المصريين في ثالوثهم (ايزيس وأوزوريس وحورس ) وهي نفس الثالوث الجاهلي العربي ( اللات والعزى ومناة ) وهي نفس الثالوث البرهمي في الديانة الهندية (براهما وسيفا وفشنو) وهي نفس الثالوث الإلهي لقبائل البانتو الافريقية: (ميزيمو وبيبو ومولنجو).

ويقول سير أرثر فندلاي: ان نفس العبارات التي قيلت لأوزوريس نسبت الى السيد المسيح ولما أضيف اسم عيسى الى قائمة الآلهة المخلصين أصبحت كل القصص التي قيلت عن الآلهة الوثنية تقال بالمثل تماماً عن عيسى المسيح: ومنها قصة الولادة من العذراء، قصة المحاكمة قبل الموت، طريقة الاعدام، طريقة القيامة، طريقة الصعود، قصة القيامة بالجسد.

---

(١) الأديان في القرآن: محمود بن الشريف.

( ٤ )

والاسلام يبرىء السيد المسيح من الصلب ، ويقرر في وضوح وتأكيد ان المسيح لم يقتل ولم يصلب : « **وقولهم إنا قتلنا المسيح بن مريم رسول الله وما قتلوه وما صلبوه ولكن شبه لهم وإن الذين اختلفوا فيه لفي شك منه ما لهم به من علم إلا اتباع الظن وما قتلوه يقيناً بل رفعه الله اليه** » .

وقد شكلت نهاية المسيح على هذه الصورة لتتفق مع فكرة الفداء والخطيئة ، والاسلام يقرر انكار هذا المفهوم من أساسه : مفهوم انه نزل ليفتدي البشر ورضي بأن يصلب ويعذب ليكون فداء عن أخطاء البشرية .

وكثير من العقـــول المسيحية المتحررة أنكرت فكرة صلب المسيح من أمثال مرقبون وستروس ورنيان وقالوا: ان سمعان القيرواني رضي ان يصلب بدلاً من المسيح ولذلك جعل الله هيئته مثل هيئة المسيح .

ويقرر الباحثون : ان[١] عقيدة الفـــداء والصلب في المسيحية مردها الى العقيدة الوثنية في الديانة البرهمية التي سبقت المسيحية بأجيال، وأوضحت المقارنات ان الهنود يعتقدون ان كرشنا صلب ومات على الصليب كما يقول

---

(١) الأديان في القـــرآن لمحمود بن الشريف ، وراجع محاضرات النصرانية لأبي زهرة ، واظهار الحق لرحمة الله الهندي ، والأسفار المقدسة للدكتور وافي .

المسيحيون . وان الهنود الوثنيين قالوا عن بوذا انه ابن الله وانه تجسد بواسطة حلول روح القدس في العذراء ماريا . كما ان النصارى قالوا ان المسيح ابن الله وانه تجسد بواسطة حلول الروح القدس في العذراء مريم .

وتمتد عقيدة الحلول المسيحية الى عقائد الصابئين الذين يقولون بالحلولية . وهم الذين يزعمون وحدة الإله ، وانه يحل في الكواكب السبعة ويتشخص بأشخاصها ويتشكل بأشكالها .

ولا يقر الاسلام ما يسمى بـ «الخطيئة الاصلية» التي ارتكبها آدم وورثها عنه البشر وينكر وجودها كلية ويحرر العقل البشري من شرورها التي توالت مدى القرون ونشأت من أجلها الحروب والمعارك .

فالقرآن يشير الى ان آدم عصا ربه فغوى ، وان الله قبل توبته ، ثم اجتباه فتاب عليه وهدى . والإسلام يقرر انه ليس هناك خطيئة موروثة . وان أعمال الآباء لا يؤخذ بجريرتها الابناء . وان كل امرىء بما كسب رهين . وذلك يتعارض مع التفسيرات التي ليست من أصول رسالة المسيح ، والتي تدور حول خطيئة آدم حينما عصى ربه فعوقب بالنزول الى الارض، وتعرض لغضب الله فعوقب بالامراض والموت . ثم شمل الغضب ذرية الانسان، وهكذا أصبحت خطيئة آدم متوارثة في نسله هذا وان كافة الانبياء والرسل الذين جاؤوا قبل المسيح كانت مهمتهم الإعداد لإنقاذ البشرية من الخطيئة والتمهيد لظهور المسيح .

ومن هنا فان الانسان يولد مذنباً خاطئاً حاملاً لما يسمى بخطيئة آدم وان صلب المسيح انما وقع للتكفير عن خطيئة البشر ، وان الله كان على ان يعاقب ذرية آدم بسبب هذه الخطيئة لولا توسط ابن الله ووحيده وقبوله ان يظهر في شكل انسان ثم يصلب ليكفر عن خطيئة البشر . وتعتمد الكنيسة في عملية الإنقاذ على رموز دينية تعرف بالاسرار السبعة . وعن طريق ممارسة تلك

الاسرار تحتضن الكنيسة المسيحي من المهد الى اللحد . وان التعميد هو السر الذي قصد به الى إزالة الخطيئة الاولى ونهج الولادة الروحية الثانية. وتذهب تفسيرات المسيحية الى أن الطفل شرير بطبعه وانه يولد محملاً بكثير من الشرور والآثام فيجب ان يقمع ذلك بالشدة والعنف وان يسلك به سبيل التعذيب والإيلام .

وقد نسف الاسلام هذه المفاهيم وزيفها و كشف عن انها ليست من اصول الدين الحق ، وانما من أوهام البشرية التي حملها بعض الدعاة وانها تتعارض مع الفطرة والعقل .

وقد كشف الاسلام عن الحقيقة في ان كل مولود يولد على الفطرة فأبواه يهودانه او ينصرانه او يمجسانه . وقد استمد جان جاك روسو وجون لوك هذا المعنى من مفهوم الاسلام فقال روسو معارضاً تفسيرات المسيحية ان الطفل خير بطبيعته وان عقليته كالصفحة البيضاء يسطر عليها المرء ما يشاء .

وقد كان لمفاهيم الخطيئة أثرها البعيد في الأدب والفكر الغربي مما لا يزال قائماً وممتداً الى الآن،وأبرز هذه الآثار خلق مذهب التشاؤم الذي كان مصدر روح السلبية واحتقار الانسان .

ويرسم الدكتور محمد مندور الصورة المسيحية للمثل الأعلى فيقول : ان مفهومهم يقوم على أساس ان الطبيعة البشرية فاسدة : أفسدتها الخطيئة منذ نشأتها . ومن ثم فواجبنا ليس إصلاحها بل القضاء عليها ، لإعادة خلقها ، يجب ان يقبل في أنفسنا الرجل القديم بتعذيب الجسم ، أعني ان نموت لنحيا من جديد حياة أخلاقية . وان تربية الفرد ليست في تعهد ميوله بالنماء ، بل في اقتلاع ميله الاساسي الى الاثرة وتطعيمه بميل جديد مضاد للطبيعة ويقول في الحق ان النظرية تكلف الطبيعة البشرية فوق ما تستطيع بحيث لا يمكن

إملاؤها على الاغلبية من البشر[1] .

ومن هنا تبرز للخطيئة آثار بعيدة المدى في الفكر الغربي كله وفي الفلسفات والمذاهب والايديولوجيات الحديثة جميعاً . ذلك ان التعاليم الاخلاقية المسيحية في ضوء مفهوم الخطيئة تنص على بغض الجسد وعلى الغلو في كبح شهوات البدن الطبيعية . وهذه من شأنها ان تؤدي الى افساد أخلاق الافراد وتعلمهم النفاق والكذب وإرغامهم على مخادعة المجتمع والظهور بمظهر الفضيلة . ومن هنا كانت الرهبانية وأخطارها البعيدة المدى . ومن هنا فان هذا التحول الخطير في تفسيرات المسيحية المعارض للفطرة والعقل قد أحدث آثاراً بعيدة المدى .

أما الاسلام فيرد المسائل كلها الى طبائعها الأصيلة . فالخطيئة في لغة العرب الجاهليين . ثم في لغة المسلمين لا تحمل شيئاً من معانيها ولوازمها في لغة النصارى ، وان كان اللفظ واحداً ومعصية آدم عند المسلمين كسائر المعاصي تمحوها التوبة ، وخطيئته كسائر الخطايا تغسلها المغفرة . والمغفرة يملكها الله تعالى . وقد تلقى آدم من ربه كلمات فتاب عليه وهدى ، فكانت توبة آدم ماحية لمعصيته في الدنيا والآخرة لا تستتبع عقوبة باقية . وان الله سبحانه كتب في صحف ابراهيم وموسى : **« أن لا تزر وازرة وزر أخرى »** فلا يرث مولود خطيئة والد (وان ليس للانسان الا ما سعى) وان هذا الضرب من الخطيئة لا أصل له في عقيدة المسلم ، بل هو منهي عن ان يعتقد توارث الخطيئة[2] .

والمعروف ان فكرة الخطيئة قال بها (بولس) ولم تلبث بعض المجامع ان

---

(١) الدكتور مندور : من المواطن القديم .

(٢) محمود محمد شاكر : الرسالة ١٩٦٤ .

اعتبرتها جوهر الايمان المسيحي وقد ارتبطت في التفسيرات المسيحية فكرة الخطيئة بفكرة الخلاص .

وهنا يبدو الفارق الواضح بين نظرة الاسلام ونظرة المسيحية الى الانسان: فالمسيحية ترى ان الانسان مخطىء بطبيعته ومحتاج الى غفران الخطيئة بالفداء. أما الاسلام فيرى ان الانسان حر الارادة، وان ارادته تلزمه التبعة والمسؤولية أمام ربه والالتزام الاخلاقي أمام الناس . وان ذلك كله يرتبط بالبعث والجزاء الأخروي .

(٥)

فرق الإسلام بين الالوهية والنبوة تفريقاً واضحاً ، فالله هو خالق كل شيء والنبي بشر من خلق الله ، منحه الله هبة ميزته عن الناس ، حيث اختصه الله بالوحي اليه ليحمل رسالته الى الناس . وقد أشار القرآن ( وهو كلام الله المنزل ) وخاتم كتبه والنص الموثق الذي لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه أن الأنبياء والرسل جميعاً هم من خلق الله . وأنهم لا يملكون أن يدعوا الألوهية ( وما كان لنبي أن يقول للناس كونوا عباداً لي من دون الله ) وقد أرسل الله لكل أمة رسولاً من أنفسهم ، وأيدهم بالبينات والمعجزات الباهرة ، وقد اختارهم الله من صفوة خلقه وأعدهم اعداداً خاصاً يؤهلهم لحمل الرسالة الخطيرة . وهي دعوة الناس الى التوحيد ، وما من رسول أرسل إلا وقد أوحى الله اليه . وأنزل معه صحفاً أو رسالة أو كتاباً . وغاية إرسال الرسل من الله هي اقامة الحجة على العباد .

والوحي مصدره الوحيد هو الله . ومن هنا فليست النبوة كالبطولة ، وليس الوحي كالإلهام الذي يكون لغير الأنبياء . وليست الرسالة او النبوة مما يكتسب بالرياضات او المجاهدات وليس النبي او الرسول زعيماً أو مصلحاً او عبقرياً استطاع أن يستوعب فكر عصره . وحمل لواء الدعوة لإصلاح المجتمع ، كما يتردد في مفاهيم الفلسفة المادية المنكرة للغيبيات ، والأنبياء معصومون عن ارتكاب الذنوب وعن التحريف وإن كانوا كبشر يتعرضون

للمرض والضعف والموت . ويجوز في حقهم الصدق والأمانة والتبليغ والفطانة ويستحيل في حقهم : الكذب والخيانة والكتمان والبلادة .

وقد أوضح الاسلام مفهوم النبوة على نحو بعيد كل البعد عن الشبهات والريب . وأكد القرآن صفة النبي بما يجعله (بشراً يوحى اليه ) وذلك لتحرر العقل البشري من أي تداخل بين الألوهية والنبوة. وإفساحاً للمسافة الشاسعة بينهما . فهو يوحى اليه بإذن الله ويعطى المعجزات بإذن الله . وما جعل الله لبشر من قبله الخلد، ويجوز في حقه ما يجوز في حق البشر من الأكل والشرب والنوم واليقظة والزواج والتوالد. فهو بشر من حيث يستحيل عليه أن يكون إلهاً ، ثم هو يتميز عن البشر بهذه الأمانة التي حمله الله إياها . وله مظهران أساسيان: الوحي والمعجزة والوحي شرعاً معرفة يجدها النبي في نفسه مع اليقين أنها من قبل الله تعالى بواسطة سمع أو غيره أو بلا واسطة. والمعجزة أمر خارق للعادة، مقرون بالتحدي على يد مدعي النبوة موافقاً لدعواه على وجه يعجز المنكر عن الإتيان بمثله. وأن الله تعالى هو الذي يخلق المعجزة مباشرة وبدون واسطة ليبين للناس صدق رسله ، ويفتح لهم باب النظر فيما جاؤوا به . والعصمة من شأن الأنبياء والرسل الذين اختارهم الله لرسالته ونزههم عن الشبهات وعصمهم من المعاصي[1] .

والفرق واضح بين النبوة والعبقرية ، ذلك أن العبقرية هي أمر دون النبوة وهي من الذكاء والبراعة والقدرة على اكتساب الزعامة والتصدر في مجال الفكر أو العمل وهي تختلف عن النبوة وتقل عنها وهي أقرب الى الإلهام والقدرة على الابتكار وحل الأمور في براعة ومرونة . والعبقرية أطلقها العرب على الإلهام بغير نبوة ، وأثر عن الرسول قوله : لقد كان فيما قبلكم محدثون ( أي ملهمون في إصابة الحق والصواب وفي حل المعضلات وفي ابتداع ما لم

---

(١) رسالة في التوحيد : كمال الدين الطائي .

يسبقوا اليه ) . فإن يكن في أمتي أحد فإنه عمر بن الخطاب .

وفي صحيح مسلم : ملهمون : وهي الإصابة بغير نبوة . وقد وصف الرسول عمر في بعض المناسبات بالعبقرية « ثم جاء عمر بن الخطاب فاستحالت غرباً . فلم أر عبقرياً يفري فريه » ومن هنا فإن العبقرية التي يوصف بها عمر لا يجوز أن يوصف بها النبي المؤيد بالوحي ، وسيدنا عمر قمة القمم في باب العبقرية . ولكن أين العبقرية من النبوة .

والفرق كذلك بين الوحي والإلهام واضح . فالوحي مصدره الوحيد هو الله ، والإلهام اكتساب وهو لغير الأنبياء . وقد وصف الإلهام بأنه وجدان يملأ النفس وينساق الى ما يطلب من غير شعور منها من أين أتى ، أما الوحي فإنه يكون مصحوباً بيقين النبي بأنه من قبل الله تعالى . ولقدخفي على بعض الناس الفارق العميق بين النبوة وبين الملك . ومن ذلك انه لما أسلم ابو سفيان ابن حرب ليلة الفتح . قال النبي للعباس خذ أبا سفيان وقف به عند خطم الجبل وذلك ليرى جيش الفتح . فمرت كتائب الله وفيها الكتيبة الخضراء ، فلم يتمالك أبو سفيان أن قال : لقد أصبح ملك ابن أخيك الغداة عظيما . وقال له العباس : إنها النبوة يا أبا سفيان ، نعم والله إنها النبوة ، وهكذا تليق البطولة بعلي والزعامة بمعاوية والقيادة بخالد والعبقرية بعمر . ولكن النبي يصبح أكبر من ذلك بكثير وأسمى من أي مصلح او زعيم او قائد او عبقري(١) .

---

(١) راجع بحث الدكتور محمد احمد الغمراوي ( مجلة الشبان المسلمين ١٩٦٧ ) .

## (٦)

والسيد المسيح عيسى بن مريم انسان ورسول ، قدر الله سبحانه ولادته على نحو خاص ليكون نبراساً على قدرة الله التي تضع السنن والقوانين وتستطيع أن تخرقها حين تشاء . وليعلم الناس ان الله على كل شيء قدير ، وان ما كانت تذيعه الفلسفة اليونانية من ان الدنيا تتحرك في حدود قوانين صارمة ومنطق محدد . هو زيف من شأن الله تبارك وتعالى ان يتجاوزه .

وان المراجعة الواضحة لهذه التفرقة بين الالوهية والنبوة والانفصال بينهما تكشف عن مكانة السيد المسيح الحقيقية . وتكشف عن ان مسيح الاناجيل ومسيح بولس شخصان لا يتفقان .

وقد أشار الى هذا المعنى كثيرون في مقدمتهم الدكتور راشد شماس كارليل الذي قال : ان قراءته للكتاب المقدس أثبتت ان المسيح ليس إلهاً ولم يدع الالوهية . والحق ان ترجمة السيد المسيح الموجودة في الاناجيل كتبت بعد وفاته بوقت طويل ، هو مائة سنة على الاقل ، وان تاريخ ولادة المسيح قد غيرت مراراً الى ان استقر الامر على انها وقعت يوم ٢٥ ديسمبر وهو أحد الاعياد الدينية المماثلة في الدولة الرومانية . وانه ليس هناك من المادة التاريخية ما يعين على رسم صورة كاملة لحياة السيد المسيح . وان جوانب كثيرة ما زالت غامضة وغير معروفة . أين هذا من تلك الدقة العجيبة في

مقررات ووقائع سيدنا محمد ﷺ حتى ليمكن القول انه ما من حدث صغير او كبير في حياته الا استوعبته السنة . ويدهش لهذا كتّاب الغرب أنفسهم ويجعلونه موضع مقارنتهم وتعليقهم فيقول ( رلور ندياسورت سميث ) في كتابه محمد والمحمدية : قد لا نعلم من سير الأنبياء الا شذرات، الا نبي الاسلام فأمره واضح ليس فيه سرّ مكتوم عن أحد ، ولا غمة ينبهم أمرها على التاريخ ، ففي أيدي الناس تاريخه الصحيح ، والأمر كله واضح وضوح النهار كأنه الشمس عند الضحى يتبين تحت نورها كل شيء .

•

أما حياة السيد المسيح فان هناك ثلاثة آراء يرويها المؤرخون حولها .

(١) رأي يقوم على التفريط في حق المسيح عليه السلام فيذهب الى حد القول بأنه شخص غير تاريخي . وان صورة المسيح التي تريد الكنيسة ان تنقشها في عقول الناس وقلوبهم . انما هي صورة مزوّرة ورثها الناس عن الوثنيات القديمة وان كل ما في المسيحية له أصل في ديانات الوثنيين التي جاءت قبل المسيحية بألوف السنين . ويقول بهذا الرأي : ج.م. روبرلشون ، وجان هارنكتون ، والدكتور فريزر و ج.د. بارسونا وادورد كانيتر .

(٢) والرأي الثاني : قائم على الإفراط في حق المسيح عليه السلام ورفعه الى منزلة الألوهية .

(٣) والرأي الثالث : قائم على أساس الاعتدال فيعترف المسيح بالوجود التاريخي وينزهه وأمه عليهما السلام عن الصفات المريبة ويحفظ له المكانة التي وضعه بها الله عز وجل .

•

ويضع الاسلام مفهوم العبودية لله مصححاً لمفهوم الابوة ، فالآب الكبير لا وجود له في الإسلام ولا وجود للإله الخاص ولا للإله المضحي بالفداء من أجل الخطيئة . ويؤمن المسلمون بأنه لا ( إله ) إلا الله وحده الرحمن الرحيم . وان التثليث والأبوة والخطيئة والفداء تتعارض مع التوحيد الخالص .

( ٧ )

يقرر الاسلام حقيقة أساسية ينفرد بها في مقارنات الاديان . تلك هي انه ليست هناك وساطة بين الله وعباده فليس الاسلام هيئة لاهوتية او رجال دين يكون بيدهم الشفاعة او الوصاية او الولاية او التخليص بين الله وعباده ، ويقرر الاسلام ان الصلة بين الله والانسان لا فجوة فيها ولا حلقة مفقودة على حد تعبير بعض التفسيرات ، ومن هنا فلا يعترف الاسلام بهيئة كهنوتية . ولا مؤسسة ولا حكومة ثيوقراطية على النحو الذي عرفته أوربا في القرون الوسطى .

وفي بعض الاديان « ادعى رجال الدين ان الله اختصهم من بين عباده ليكونوا وسطاء بينه وبين الناس ، وقد طلبوا من الناس الخضوع والطاعة العمياء ، وحالوا بينهم وبين الكتاب المقدس وحرموا عليهم النظر في الكائنات وفهم أحداث العالم ، وتعصبوا للنصوص الدينية وفسروا كل شيء على مقتضاها » .

ومن هنا وضعت هذه المؤسسات أصول العلم وفروعه وفصلت في جميع المسائل الجوهرية كخلق الانسان وطبيعته . والغاية من حياته . ونتج عن

هذا اعراض عن الدنيا وكراهية لها . وعمّت الخرافات والكهانة . وكانت أخطر النظريات التي قدمتها هذه الفلسفات والتفسيرات :

ان الانسان مؤلف من عنصرين : هما النفس والجسم ، وان هناك نزاعاً مستمراً بينهما . وان الكمال الروحي الذي ينشده الإنسان لا يتم له الا اذا فارقت الروح الجسد . وان هذه النظرية المرتبطة بنظرية الخطيئة ما تزال تلاحق الفكر الغربي وتؤثر فيه آثاراً بعيدة المدى .

وقد ارتبط وجود المؤسسة بالفـــداء والاسرار السبعة وعظمة الرئيس الأعلى . وقد قيل ان كنيسة روما أسست بتفويض من المسيح نفسه ، وقد أصدر الامبراطور عام ٤٤٥ قراراً يجعل رئيس أساقفة روما رئيساً عاماً للكنائس المسيحية : وقد استولى جريجوري رئيس أساقفة روما على السلطة السياسية (٤٤٠ – ٤٦١) في روما ، ومنذ ذلك الوقت ظل السلطان في يد البابوات اثني عشر قرناً « ومن ثم استولت كنيسة روما على السلطة السياسية للامبراطورية الى جوار السلطة الروحية . وكونت الكنيسة بذلك دولة ، وادعت الحق في أن يمتد حكمها فيشمل جميع المسيحية في كل البقاع . وان مكانتها أسمى من مكانة الملوك والأباطرة ، وان البابا له السيادة العليا في القضاء والادارة . وانه المشرّع والمفسر النهائي للكتاب المقدس ، ومن ثم سيطرت الكنيسة على القضاء . واستعملت حق الحرمان كأكبر عقوبة تنزلها بمخالفيها . واجتمعت في يد الكنيسة جميع شؤون الاسرة كالزواج والطلاق . وعدّ رجال الكنيسة أنفسهم ممثلين لله . فأخذوا حق قيادة أفكار الناس وأعمالهم » .

وتعتقد الكنيسة الكاثوليكية منذ القرون الاولى ان البابا معصوم من

الخطأ في أمور الإيمان وآداب الدين . وفي ظل هذا النظام حملت الكنيسة لواء حدثين من أخطر أحداث التاريخ . الحروب الصليبية ومحاكم التفتيش .

●

ولقد اتجهت الكنيسة منـــذ ان بلغت ذروتها الى اضطهاد مخالفيها . وقامت بتعميد ألوف الناس قسراً ودفعة واحدة . كما انها دست في الكتب الدينية معلومات بشرية ومسلمات عصرية عن التاريخ والجغرافيا والعلوم الطبيعية ، كما دسوا كل ما تناقلته الألسن واشتهر بين الناس . وذكره بعض شراح التوراة والانجيل ومفسريها من معلومات جغرافية وتاريخية وطبيعية . وصاغوها صيغة دينية وعدّوها من تعاليم الدين وأصوله التي يجب الاعتقاد بها . وأبين كل ما يعارضها[1]. وكان من نتيجة ذلك انه حين أعلنت الكشوف العلمية « قامت قيامة الكنيسة وكفروا العلماء واستحلوا دماءهم وأموالهم . وأنشأوا محاكم التفتيش التي تعاقب – كما يقـــول البابا – أولئك الملحدين والزنادقة . فجدت واجتهدت ان لا تدع في العالم النصراني عرقاً نابضاً ضد الكنيسة . وأثبتت عيوبها في طول البـــلاد وعرضها وأحصت على الناس الأنفاس ويقدر ان من عاقبته هذه المحاكم يبلغ عددهم ثلثمائة ألف أحرق منهم اثنان وثلاثون ألفاً أحياء كان منهم العالم الطبيعي برونو . وعوقب العالم الطبيعي الشهير ( غاليلو ) بالقتل لأنه كان يعتقد بدوران الارض حول الشمس »[2].

●

---

(١) الندوي : ماذا خسر العالم بانحطاط المسلمين .

(٢) نفس المصدر .

وهكذا يبدو طابع الاسلام الذي قام وانتشر من غير هيئة لاهوتية ولا رجال دين . والذي قرر أساساً « انه لا وساطة بين الله وعباده » يبدو هذا الطابع واضحاً جلياً فيما رفع به الاسلام البشرية الى الأمام خطوات وحررها من قيود . وان إلقاء نظرة واحـــدة على الصراع الذي قام في أوربا بين الكاثوليكية والبروتستانتية ليكشف عن صورة مريرة مظلمة أشد قساوة وعنفاً ، وتمثل معركة سانت بارتلمي صورة واحدة من صور هذه الحركة التي امتدت عامين متواليين .

وقعت معركة سانت بارتلمي في القرن السادس عشر وفي عام ١٥٧٢ على التحقيق . وفقدت فرنسا بها زهرة رجالها من أهل العقل والفطنة والحرية والعلم والصناعة .

وقد جاءت نتيجة ظهور المذهب البروتستانتي الذي ظهر في ألمانيا في أوائل القرن السادس عشر وامتد الى سائر ممالك أوربا . وقد حدث أن انحاز في فرنســـا الى البروتستانت كل من كان ناقماً على سلوك الكنيسة الكاثوليكية اذ ذاك . هنالك جرت مقتلة عامة على يد الكنيسة الكاثوليكية ، فلما دقت الكنائس أجراسها ليلة ٢٤ أغسطس ١٥٧١ كان ذلك إثارة للجنود والمتطوعين بالبدء في الفتك بالبروتستانت . فدهمـــوا بيوتهم وفي أيديهم المشاعل تضيء الطريق في الليل الدامي ، وأخذوا يفتكون بالأبرياء مرتكبين من القسوة والوحشية ما يندر مثله في تاريخ البشر ، حيث بقروا بطون الحوامل وأخرجوا الأجنة ثم ألقوها للكلاب والخنازير . وكانوا يسلمون الاطفال الذين في المهد للصغار الذين في سن العشر سنين من أولاد الكاثوليك ويأمرونهم بقتلهم جزءاً من أعناقهم في أسواق باريس . ولم يزالوا كذلك حتى سالت شوارع المدينة بالدماء . وعجت الاصوات الى السماء ، وتكرر حدوث ذلك في كثير من مدائن فرنسا ومن أعجب ما وقع ان الكنائس دقت مرة أخرى في اليوم التالي . فظن اتباع الحقد الديني بأن ذلك كان أمراً مجدداً

باستئناف القتال فأنحوا على إخوانهم قتلاً ونهباً وتمثيلاً بأشد مما فعلوا بالأمس. واستمرت المجزرة الى اليـــوم الثالث ، ثم استحالت الى مذابح فردية طوال شهري سبتمبر واكتوبر في باريس وغيرها .

هذه الصورة القاسية مضافة الى الصور الاخرى تكشف عن مدى ما قدمه الاسلام بالتوحيد الى البشرية .

( ٨ )

وموقف الاسلام من عقيدة البعث متسق مع طبيعته ومنهجه وتكامله ، وحيث تحاول التفسيرات اليهودية ان تنكر البعث والجزاء الأخروي لتلغي المسؤولية الفردية والالتزام الاخلاقي . وتطرح مفاهيم التحلل والترف والعبء من الحياة دون تقدير لمهمة الانسان في الحياة . ومسؤوليته في المجتمع وارتباط عمله في الدنيا بالمرحلة الأخيرة من حياته وهي مرحلة الجزاء الأخروي .

وعقيدة البعث انما تمثل واحداً من المفاهيم الاساسية لترابط الدين والمجتمع ولتكامل الشخصية الانسانية في رسالتها وغايتها ، وانها عميقة الجذور في هذا التركيب بحيث لا يمكن فصلها عن الدين الحق . وهي علامة واضحة على واقعية الاسلام ونظرته الى حياة الانسان ككل متكامل وفهم عميق لحقائق الحياة الانسانية التي تجمع بين الجوانب المادية والروحية معاً .

فالاسلام لا يقر «الرهبانية» التي تعزل الانسان عن طيبات الرزق ، ولا يقر في نفس الوقت الإباحة والتحلل الذي يحطم كيان الانسان ، وهو حين يفعل ذلك انما يضع الانسان في مكانه الحق من حيث هو بشر له أمانته ومسؤوليته وإرادته الحرة وحسابه وجزاؤه على أعماله .

ولا ريب ان محاولة التشكيك في عقيدة البعث انما تهـــدف الدعوة الى التحلل ، ودفع الناس الى الشهوات ، وتدمير الضوابط التي تحول بينهم وبين

الفساد والإباحة « فلا يرى المرء ان له حياة الا هذه الحياة ، وانه اذا لم يمتع نفسه بكل الشهوات خسر خسراناً مبيناً فاندفع يقترف هذه الشهوات من كل سبيل » ومن حيث يفقد الانسان الايمان بجزاء الاعمـــال فانه لا ريب تستوي عنده الحسنة والسيئة ، واذا سقطت عنده عقيدة البعث . وآمن أن الحياة تمضي بلا جزاء فان غرائزه تتفتح الى التهام كل شيء .

ولا ريب ان الايمان بعقيدة البعث والجزاء الأخروي هو باعث الحيوية والعامل في استمرار حركة الحياة نحو هدفها وغايتها . والانسان مع هذه العقيدة يذكر دوماً ان الجزاء واقع لا محالة . ومن هنا شدد الاسلام كثيراً على قضية البعث واليوم الآخر وما يقع فيه من جزاء ، ووضعها دائماً نصب الأعين والعقول والافهام . بحيث تجري من خلالها كل أعمال الدنيا . وقد قرر الاسلام ان البعث ليس الا خلقاً جديداً ، ليس بينه وبين الخلق الاول أدنى فرق ، والقادر على الخلق الاول قادر على إعادة الخلق والبعث بالروح والجسد وحياة الآخرة بالروح والجسد وان الله يجمع الاولين والآخرين في يوم مقداره ألف سنة .

●

وان الدين الحق يلتقي في عقيدة البعث واليوم الآخر مع الفطرة والعقل. ذلك ان النفس الانسانية تشعر شعوراً عميقاً بأن وراء هـــذه الحياة حياة أخرى « تتحقق فيها العدالة التي فقدت في الدنيا ، وينال فيها الانسان جزاء عمله ، وان الله سبحانه وتعالى اذا أراد ان يقنع البشر بأمر ما فانه يغرس فكرة الاقتناع به في غرائزهم . وان الشوق الى الخلود إحساس شائع في نفوس البشر .

ولا يمكن ان تكون غاية الانسان الذي وهبـــه الله العقل والعلم ، وكشف أسرار الكائنات وحمله الأمانة ، كغاية سائر الحيـوان ، بل

تقتضي حكمة الله ان يجعل وراء هـــذه الحياة : حياة أخرى يستثمر فيها أعماله . ويوفي فيها أجره وجزاءه[1] .

ويقول أمير علي : عقيدة الحياة بعد الموت تقوم على أساس ان كل انسان سيكون ملزماً بأن يقدم حساباً بعمله وافياً ، وسعادة او شقاء الأفراد تعتمد على الطريقة التي أنجزوا بها فرائض خالقهم . وان نهاية العالم متفق عليها في كافة الديانات والمذاهب ، وان الحياة الاخرى بعد فناء العالم قد اتفقت عليها جميع الكتب السماوية المنزلة .

---

(١) التصوير الاسلامي .

( ٩ )

لا يقر الاسلام وحدة الوجود ، ولا الاتحاد او الحلول والتناسخ . ذلك ان القول بوحدة الوجود نفي للألوهية ، وإثبات للكائنات وحدها ، وان وحدة الوجود تعبير عن نظرية مادية الكون التي تقول بأنه مادام لا يوجد شيء وراء هذا العالم فان القول بأن الله داخله هو صورة أخرى للقول بنكرانه .

والقول بوحدة الوجود تفكير هندي قديم ، وأصحابه يتصورون ان العالم أزليّ أبديّ ، وان الارواح تخرج من أجسادها لتعود في أجساد أخرى وقد تكون أجساد حيوانات، وان قصة الحياة تدور في هذا النطاق المحصور. وتبدأ من حيث تنتهي ، بل ان الباحثين المسلمين يرون ان القــول بوحدة الوجود هو مذهب يأتي على الاخلاق من قواعدها ، اذ لا معنى المسؤولية الاخلاقية التي هي مناط الثواب والعقاب وكيف يكون أخلاقياً من يقول : ما دام الله قد اتخذني مظهراً له وهو الذي فعل حقيقة ما يظن انه فعل لي . فكيف يستقيم ان أكون أنا المسؤول[١]. وان المسلمين يؤمنون بأن هناك

---

(١) الدكتور محمد يوسف موسى : كتابه : « فلسفة الاخلاق في الاسلام » .

واجب الوجود وممكن الوجود : أما واجب الوجود فهو الله سبحانه وتعالى الذي لا يسبقه شيء وهو واحـــد سرمدٌ لا يحدّه زمان ولا مكان .

أما ممكن الوجود فهو كل ما يصدر عن شيء يسبقه .

•

ويرى المسلمون ان فكرة الحلول تنقض رسالة الاسلام في وحدة الله وتنزيهه عن الخلق وهي لكونها تستتبع فكرة التناسخ تجعل من الله موجوداً منتقلاً . وذلك يتنافى مع بعض صفاته : كالبقاء والقيام بالنفس . ومن هنا فان نظرة الغربيين الى التصوف تنبعث من معنى جزئية المسيحية في مقابل تكامل الاسلام . وان الوقوف عنـــد الصفاء الروحي للفرد ينقص مفهوم الاسلام الكامل المترابط . وان فكرة الحلول انما تزكي فكرة تأليه عيسى المسيح لأنها لا تفصل بين الله والكون ، او بين الألوهية والنبوة ، او بين الله الخالق والإنسان المخلوق .

•

كذلك يرفض الاسلام مفهوم الاتحاد : الذي يعني اتحاد المخلوق بالخالق ، او حلول الخالق في المخلوق ، او تجســـد الخالق وهي من المعتقدات التي تناقض مبدأ التوحيد . وفي الإسلام توحيد الالوهية وتوحيد الربوبية . أما توحيد الربوبية فهو من عمل الإله : كالخلق والاماتة والرزق وقد أقرّ به المشركون في عصر النبي فلم ينفعهم ذلك .

أما توحيد الالوهية فهو من عمل الانسان كالعبادة بجميع أقسامها .

ويدخل فيها الاستعانة والاستغاثة والعبادات التي لا توجه إلا لله تعالى . وهو ما لم يقر به المشركون في الجاهلية . فأخذوا يوجهون العبادة الى أصنامهم فلم ينفعهم إيمانهم بتوحيد الربوبية وبقي كثير منهم على الشرك ومات عليه .

ولا ريب ان الاقرار بتوحيد الربوبية أمر فطري . وان الشرك أمر طارىء .

( ١٠ )

ويقف الاسلام موقفاً واضحاً متميزاً من مفهوم المثل الأعلى في مواجهة مختلف المفاهيم التي تقدمها العقائد في هذا المجال . فالله تعالى « هو[١] المثل الاعلى لكل من آمن بالإسلام . فمن اهتدى بهدي الاسلام حق عليه الاقتداء بالله ومحاولة التحلي بصفاته الحسنى » .

أما المسيحية فهي تصور المثل الأعلى « في القديس المتبتل الذي يقضي حياته كلها في التأهب للآخرة ، فيعيش زاهداً في طلب الدنيا . او راهباً يعتزل الناس في دير متجلبباً بصفات الدعة والمسكنة والحلم والصبر ولين الجانب ونحو هذا من فضائل سلبية ، بل يتقبل ظلم الناس ويتحمل إهانتهم راضياً مسروراً ، بل لا يقنع بهذا وانما يرغم نفسه على حب ظالميه وأعدائه والمعتدين عليه ويستغفر ربه من أجلهم[٢] » .

أما الاسلام فلم يصور المثل الأعلى في انسان ، بل صوره متمثلاً في الله سبحانه وتعالى وفيه يجتمع من الكمالات المطلقة أقصى ما يستطيع عقل بشري ان يتصوره ، ومن يتطلع الى مثل أعلى يهتدي بهديه كان عليه ان

---

(١) دكتور توفيق الطويل – مبحث مطول عن المثل الأعلى في فلسفة الاخلاق .

(٢) نفس المصدر .

يقتدي بالله تعالى في صفاته الحسنى ، « **ولله المثـــل الأعلى** » النمل « **ولله المثل الأعلى في السموات والأرض وهو العزيز الحكيم** » الروم .

●

أما الفلسفات فقد أخذ فريق بفكرة الواجب عن طريق العقل وهو ( فريق المثاليين ) وقد أخذ فريق الواقعيين بفكرة المنفعة وهي المنفعة النسبية المتغيرة بتغير الزمان والمكان .

ولم تلبث الفلسفة الاوربية ان ثارت على المثل الأعلى المسيحي ودعت الى مثل أعلى قاس عنيف مستمد من مفهوم الإله اليهودي : فأعلن نيتشه صورة السوبرمان التي تمثل (الانسان[1] الطاغية المستبد الأناني الجبار الذي يعتصم بالظلم والقسوة والجبروت ويحتقر الصبر والحلم والدعة . ويطالب بالقضاء على الضعفاء والمرضى والمحتاجين ) حتى لا يبقى الا الأقوياء كما يحدث في عالم الحيوان . وقد قسم الاخلاق الى أخلاق عبيد وأخلاق سادة . أما أخلاق العبيد فهي أخلاق المسيحية من صبر وحلم ودعة . أما أخلاق السادة فهي ارادة القوة والعزم واحترام الظلم والقسوة . وأقام الاخـــلاق أساساً على الاثرة والأنانية ، وكان هذا هو نقطة التحول في الفكر الغربي من المفهوم المسيحي الى المفهوم اليهودي التلمودي الوثني الذي نزلت الاديان لمحاربته والقضاء عليه وإرساء مفهوم تكافل المجتمع وترابطه بكل عناصره الضعيفة والقوية والغنية والفقيرة .

وهكذا طرح الاسلام مرة أخرى على البشرية مفهوم المثل الأعلى القائم

---

( ١ ) دكتور توفيق الطويل – نفس المصدر .

على الرحمة والتكافل واحتمال المجتمع لكل طبقاته . واذا كانت الرحمة في المسيحية رأس الكمالات . واذا كانت القوة عند نيتشة قمة الفضائل ، فقد جمع الله تعالى بين الرحمة والقوة في تعادل وتوازن ، فالله تعالى رحمن رحيم ، ودود غفور ، وهو تعـــالى في نفس الوقت قوي قادر منتقم قهار جبـــار ، وصفات الرحمة والمحبة فيه تعالى لا تطغى على صفات القوة والجبروت .

كما أن صفات القوة والجبروت لا تطغى على صفات الرحمة والمحبة والغفران والله تعالى يأمر عباده بمزاولة حياة القوة والبطش ، حين يدعو الداعي الى الى القوة والبطش ومباشرة الرحمة والحنان حين تمس الحاجة الى الرحمـــة والحنان . قال : « **عذابي أصيب به من أشاء ورحمتي وسعت كل شيء** » وهو يصف عباده برد العدوان وان حرم عليهم الا يبدأوا بالاعتداء . « **فمن اعتدى عليكم فاعتدوا عليه بمثل مااعتدى عليكم** » « **وقاتلوا في سبيل الله الذين يقاتلونكم ولا تعتدوا** » . وقد دعا الى المصابرة والمرابطة والاعداد والثبات .

المصابرة : هي مغالبة الاعداء بالصبر على المكاره في الحرب .

المرابطة : هي الإقامة في الثغور مترصدين للعدو متأهبين للغزو .

**الإعداد** : وأعدوا لهم ما استطعتم من قوة .

**الثبات** : اذا لقيتم فئة فاثبتوا .

وبهذا رفض الاسلام الاستكانة والخنوع والذلة والمسكنة . وأكد سبحانه وتعالى فكرة القصاص : « **كتب عليكم القصـــاص في القتلى** :

**الحر بالحر والعبد بالعبد والأنثى بالأنثى » « ولكم في القصاص حياة » .**

وهكذا « جمع الاسلام بين الرحمة والمحبة والحنان ، ودعا الى القوة . وحذر المؤمن من استخدام قوته في الاعتـداء على غيره . وان أوجب عليه ان ينهض لرد العدوان[١]» .

(١) نفس المصدر .

# خاتمة

قدم الاسلام «التوحيد» الى البشرية من جديد بعد ان انحرفت في طريق الوثنية والشرك والتعدد ولا ريب ان البشرية بالتوحيد قد تحررت من آصار قيود العبودية الفكرية والاجتماعية . وبالرغم من ان الاديان السماوية جميعاً قد دعت الى التوحيد الخالص . فان الاسلام قد بدأ مجدداً لهذه الدعوة بعد ان بعد بها العهد حتى يقول جوستاف لوبون : انه يمكن للاسلام ان يدعي شرف كونه اول من أدخل التوحيد الى العالم ، ويرى بارتلمي سانهلير : ان دعوة التوحيد التي حمل لواءها الاسلام قد أطلقت العقل البشري من قيوده التي كانت تأسره حول المعابد وبين أيدي الكهنة فارتفع الى مستوى الاعتقاد بحياة وراء هـــذه الحياة وانه خلـّص الفكر البشري من وثنية القرون الاولى . واضطر العالم الى ان يرجع الى نفسه ، وأن يبحث عن خالقه . ويرى العلامة مسمر : ان التوحيد الذي هو أساس الدين الاسلامي ، كان السبب الأول في نجاح دعوة محمد . وان إعلان محمد هذا التوحيد في عصر ملـّت فيه الأمم خرافات علم اللاهوت كان أفضل ما جاء به وأفعله بالعقول حتى انه ما يكاد يفوه بالدعوة الى توحيد الله حتى استثار بدعوته تلك : العالم كله . وفضل الإسلام يظهر بما فاه به «محمد» وهو يسقط الاصنام التي كانت حول الكعبة

(جاء الحق وزهق الباطل) وقوله : (لا فضل لعربي على أعجمي إلا بالتقوى او لعمل صالح كلكم لآدم وآدم من تراب .

ويرى هاملتون جب : ان عقيدة التوحيد التي جاء بها الاسلام هي أروع الأمثلة على فكرة توحيد العالم ، وان في بقاء الاسلام أمل العالم كله . وان شعيرة الحج تعد عاملاً قوياً في تطبيق مبـــدأ توحيد العالم فهي رمز للإخاء الذي يربط المسلمين بعضهم ببعض دون تفرقة لونية او عنصرية .

•

ومفهوم التوحيد في الاسلام آية من آيات النقاء والنصاعة . فالله سبحانه وتعالى هو خالق الانسان وخالق الكون والموجودات «والله وراء الموجودات جميعاً وفوق العالم كله ، والإدراك الانساني يخطو في تصوره خطوات . ومع ذلك لم يكشف عن ذاته وحقيقته كما هي . والله واحد : والوحدة هنا دليل على الاطلاق . وعدم القابلية للتجديد ، كما ان التشخيص هناك في الوثنية آية على التعدد والكثرة » والله سبحانه هو واضع نواميس الكون وهو القادر وحده على خرق هذه النواميس وهو الذي يحيط بالعوامل التي لا تخفى على البشر . وأبلغ مثل لتصور الله سبحانه وتعالى هو : « **ليس كمثله شيء** » وهو يمسك هذا النظام المترابط في كل لحظة . وانه لو تخلى عنـــه لتلاشى وانتهى والعالم كله من خلقه ولكنه لا يدور بنفسه . « **ان الله يمسك السموات والأرض أن تزولا** » المسلمون يعتقدون ان الله يعمل في العالم دائماً . فكل ما يصير وكل ما يتجدد من عمله مستمر « **وعنده مفاتح الغيب لا يعلمها إلا هو ويعلم ما في البر والبحر وما تسقط من ورقة إلا يعلمها . ولا حبة في ظلمات الأرض ولا رطب ولا يابس إلا في كتاب مبين** » وفي ذلك دحض لشبهة القول بأن الله يعلم الكليات فحسب « والله في الاسلام : هو الواحد

الأحد الفرد الصمد ، لا نعبد إلا إياه ولا نشرك به شيئاً . والله هو العدل والحق ، وهو الأول والآخر » .

وتستلزم فكرة التوحيد الخالص الى جانب الاعتراف بأن الله هو خالق السموات والأرض الايمان بالوحدانية . وهو ان يكون الحكم لله وحده في حياتهم ومجتمعاتهم . وان يتلقوا منه الحلال والحرام ، وان يكون هو وحده مرد أمورهم كلها في الدنيا والآخرة ، وان يتحاكموا الى شريعته[1] وان على المسلمين إفراد الله بالألوهية والإقرار له بالعبودية، وان الاسلام وحدة لا تنفصم، عبادة ( سواء أكان عبادات أم معاملات ) فالعبادة تتناول حياة الانسان العملية .

وقد قرر الاسلام « ان هناك ألوهية[2] وعبودية . «ألوهية» ينفرد بها الله سبحانه وعبودية يشترك فيها كل حيّ وكل شيء ، كما قـــرر تفرد الله سبحانه بخصائص العبودية وتجرد العبيد من هذه الخصائص . ان من مقتضيات توحيد الألوهية إفراد الله سبحانه وتعالى بخصائص الألوهية في تصريف حياة البشر كإفراده سبحانه بخصائص الالوهية في اعتقادهم وتصورهم وفي ضمائرهم وشعائرهم على السواء .

●

ولقد كان الانسان ـ في محاولة الفكر البشري خارج مفهوم الدين الحق، غير قادر على تصور الألوهية على حقيقتها ، ويحول بينه وبين التصور الحقيقي عجزه عن التخلص من الهوى . والمطامع والشهوات . وتلك من طبائعه التي لا مفر منها ، ولذلك فقد جاءت الفلسفات والمذاهب كلها قاصرة عن بلوغ

---

(١) دكتور محمد البهي ،

(٢) راجع كتاب التصور الاسلامي .

حقيقة الالوهية عجزاً مصدره قصور العقل البشري نفسه . والهوى الذي هو أخطر تحديات مناهج المعرفة ، ذلك ان هوى الانسان من شأنه ان يحول دون التصور الصحيح لله تبارك وتعالى ، ومن هنا جاء الفارق بين الله الحق ، وبين الإله او الآلهة . ومن هنا كانت الحاجة الدائمة السرمدية الى الأديان ، للتعرف الى الله سبحانه تعرفاً صحيحاً . ولما كان البشر عاجزين عن التخلص من الاهواء ، وكانت عقولهم غير قادرة على التفكير في ذات الله . فقد أمرنا الاسلام بأن نفكر في خلق الله .

ولا ريب ان كل الاديان السابقة للاسلام جاءت بالتوحيد الحق بالله إله العالمين . والإيمان باليوم الآخر ، وما فيه من جزاء . ولكن التفسيرات التي وضعت قد حرفت هذا المفهوم .

ولا ريب ان التوحيد الذي جاء به الاسلام قد لقي معارضة شديدة من كثير من العقائد التي سبقت الاسلام لأنه جاء فاصلاً في قضايا كبرى قامت عليها أعمدة تلك التفسيرات المذهبية أهمها :

(أولاً) إنكار الوساطة بين الله والعباد .

(ثانياً) إنكار فكرة تعذيب النفس والزهد في متاع الحياة الدنيا .

(ثالثاً) إقامة الفاصل الواضح بين الالوهية والنبوة وبين الله سبحانه الخالق وبين العالم المخلوق .

ولا ريب ان التوحيد هو المصدر الاول للقضاء على العبودية والعنصرية والوثنية جميعاً فهو الذي حمل لواء المساواة بين الناس وجعلهم من درجة واحدة . وهو الذي أقر حرية الفكر وفتح لها الآفاق ودعا الى التخلص من عبادة الاصنام وتأليه الفرعون والقيصر والامبراطور والبرهمي وعبادة الاحبار والرهبان ، والتحرر من الاساطير والسحر . كما أنكر التوحيد : جزئية

الدين كرسالة أخلاقية ، او كعبادة فحسب ، وهو الذي حمل لواء التكامل بين العقيدة والشريعة والاخلاق وجمع بين الدين والدولة ، وألغى فكرة الأبوة ، وفكرة الصراع بين الجسد والروح . وربط بين الفرد والمجتمع والعقل والقلب والدنيا والآخرة وقرر انه ليست هناك خطيئة أصلية . ولا جزاء للبشرية من أجل خطيئة آدم التي تاب الله عليه منها . وكما فصل الاسلام بين الله والعالم ، فصل بين الالوهية والبشرية . فلا يمكن ان يرقى الانسان الى مرتبة الالوهية . وكذلك ألغى الوساطة بين الله والعبد ، وهو لا يقر الوسائط سواء عن طريق الصالحين او الوسائل الروحية وفضلاً عن ذلك فان الاسلام لا يقر مظهراً إنسانياً لطبيعة إلهية . كذلك أنكر ان يسقط التكليف عن أي مسلم مهما بلغ درجة من الإيمان والتكليف لم يسقط أبداً ، بل لم يسقط عن النبي الذي هو أرقى المسلمين إيماناً .

●

والله خالق الانسان هو صانع المنهج للانسان وللبشرية . ومن هنا يشجب الاسلام خطأ الادعاء بأن الانسان يستطيع ان يعرف طريقه دون معين خارجي من وحي ودين ، والادعاء بأنه قادر على أن يكون راشداً بغير مرشد .

●

ولا ريب ان الايمان بوحدانية الله يحرر الانسان من العبودية للبشر ، او العبودية لشيء من الاشياء . « وقد علم الاسلام البشر أصول السعادة الحقيقية التي لم تكن معروفة عند المصريين او اليونان او الرومان وأهمها صقال العقول بصقال التوحيد الخالص وتطهيرها من صدأ الخرافات والاوهام ليكون الفكر مستقلاً فيما يعتقد يرفض التقليد ويعتمد على البرهان » .

وقد بين ان للكون سنناً ونواميس ثابتة ينبغي ان يهتدي بها الانسان في سيره العلمي والعملي دون ان تنسيه هـــذه السنن والنواميس موجدها الحق ، وقدرته بالمعجزة على خرقها متى شاء .

والاسلام في مجموعه متكامل متوازن قوامه التوحيد ، وهو بذلك ليس مزجاً ولا تركيباً على النحو الذي عرفته العقائد حيث يقال : ان عقيدة الغربي ما هي إلا مزاج الفلسفة اليونانية والقانون الروماني والدين المسيحي .

ومن هنا يبدو ان الدين ليس ظاهرة من الظواهر الاجتماعية التي خرجت من الارض ولكنه حقيقة من الحقائق الكبرى التي يعجـــز الانسان عن تشكيلها . والذي هو في حاجة الى هداها : والتي هي عطاء الله سبحانه وتعالى للانسان : « **لقد جاءكم من الله نور وكتاب مبين** » ومن الحق ان يقال ان الاسلام جاء بما يعد تصحيحاً للتفســيرات التي وقعت فيها الاديان والعقائد ، ورداً حاسماً لكل ما أثير من شبهات وانحرافات وأخطاء مما كان قبل الاسلام وما وجد بعـــده كذلك . وصدق ربعي بن عامر الذي قال للفرس : « إنما جئنا لنخرج الناس من عبادة العباد الى عبادة الله . ومن جور الاديان الى عدل الاسلام ومن ضيق الدنيا الى سعتها » .

# الفصل الثالث

## تمدين البشرية وتحرير الانسان من العبودية

لا ريب ان التوحيد هو الذي حرر العقل من الوثنية ، وحرر البشرية من العبودية لغير الله ، والاسلام هو الذي فتح الطريق الى تمدين الانسان وتحريره عقلياً وجسدياً ، وكسر ذلك الحاجز العبودي الذي أقامته الحضارات الفرعونية ، والفارسية ، والهندية ، والرومانية ، واليونانية . وبررته الفلسفات والأديان والعقائد التي قامت على نظام الطبقات .

فالإسلام هو الذي أعطى البشرية المدنية . وحرر الحضـــارة من قيود الوثنية والعبودية ، وحرر العلم من المادية . وردّ المناهج الاجتماعية والفكرية جميعاً الى ان تكون خالصة لله .

ولقد جاء الإسلام والبشرية تقاسي أشد ألوان الظلم والاستبداد والعبودية . وتهين الكرامة الانسانية فيها امتهاناً مذلاً لا مثيل له .

- البراهما سادة والباقي عبيد .
- في فارس عبادة الامبراطور .
- في اليونان والرومان عبادة القيصر .
- في مصر عبادة الفرعون .

وفي كل مكان لا يصح للعبيد ان يصبحوا براهمة او سادة او قياصرة . ذلك ان الطبقة مصدرها العرق وسيادة الجنس . وقيام الطبقات مرتبط بنصوص مقدسة لا يصح إزالتها ولا تغييرها ، والطبقات العليا لا تعمل لأن العمل لا يليق بمكانتها السامية . واذا وضع العبد في موضع السيادة فهو عبد. واذا وضع السيد في موضع العبد فهو سيد . والبرهمي اذا ولد وضع في الصف الاول من صفوف الدنيا ، وكل ما في الدنيا ملك للبرهمي وللبرهمي اذا افتقر ان يملك مال العبد الذي هو عبد له . وفي فارس كان الناس ينظرون الى ملوكهم على انهم آلهة اصطفاهم الله للحكم بين الناس . وليس للناس قبلهم حقوق ، ومنها ولدت نظرية الحق الإلهي في عهد الملوك الساسانيين ، وكان الأكاسرة يزعمون ان لهم الحق وحدهم في ان يلبسوا تاج الملك بما يجري في عروقهم من دم إلهي .

أما عبودية الرومان فهي شيء مرير ، وهي امتداد لعبودية اليونان التي دافع عنها سقراط وأفلاطون وأرسطو .

وفي الامبراطورية الرومانية دافع عن النظام العبودي شيشرون وتاسنياس وسنكا . وقد عرف عن الرومان القسوة التي لا تعرف الحدود والظلم الذي يصل الى أبعد الدرجات في معاملة العبيد وبيعهم بيع السلع ، وكان الرومان[1] يعتبرون أنفسهم سادة العالم بالحق المقدس ، وكان هدفهم غزو العالم ،

---

(١) علي ادهم : بحث عن قسوة الرومان .

والاستيلاء على كل خيرات الأرض . ولم يحجموا في سبيل ذلك عن أي عمل ، واستباحوا كل خطة واستحلوا كل منكر . وكثيراً ما كانوا يذبحون سكان المدن التي يستولون عليها ويقتحمونها كما تذبح الشاة بعد جلدهم وضربهم ضرباً مبرحاً . ولما كثرت المصارعات واتسع مجالها : كان الأسرى لا يقتلون وانما يسلمون للمدن المختلفة لاستخدامهم في الالعاب .

وفي المدن المحصورة كانوا يجمعون ما بالمدينة من المؤن والعتاد ، ويحرم العبيد من الطعام ويضطرون الى أن يعيشوا على الحشائش والاعشاب ، وكانوا يعمدون الى رمي العبيد الى الوحوش الضارية . والاستمتاع بمرآها . وهي تفترس الآدميين ، وكان الإعدام بالالقاء الى الوحوش في عهـــد الامبراطور أغسطس قيصر : عقوبة قانونية ، ولما صدرت القوانين بتخفيف الأحكام عن العبيد . كان ذلك عملاً اقتصادياً ، فقد قلت المصادر التي يجتلب منها الرقيق بعد استقرار الامبراطورية. وفي نفس الوقت الذي بدأت تتحسن فيه أحوال العبيد تزايدت صرامة العقوبات وطرائق تنفيذها ,وأساليب الاعدام كانتزاع اللسان وصب القصدير المغلي المذاب فيأفواه المجرمين . هذا فيما يتعلقبالعبيد. أما للرقيق فقد كان أشد قسوة .

يقول سيد أمير علي : العادة السائدة قبل الاســـلام ان أسرى الحرب يقطعون بالسيوف ثم يصير نساؤهم وأولادهم عبيداً أرقاء . ولكن محمد (ص) نهى عن ذبحهم والتمثيل بهم ، وأمر بأن لا يبقى في الأسر الا من أخذ في حرب نظامية حتى تدفع له الفدية ، وتعد الفدية وتحرير الاسرى في الاسلام من الاعمال الصالحة . ولم يسمح بحال من الأحوال بفصل الوالدين عن أولادهم، واذا حملت امرأة أسيرة في طفل من سيدها تصير حرة ، ويصـــير للطفل حقوقه الشرعية على الوالد . وعليهم ان يقارنوا بذلك ما كانت عليه أوربا في القرن الخامس عشر .

●

وفي الامبراطورية الرومانية قبل الاسلام : كان الامبراطور ليس أي مخلوق على وجه الارض مساوياً له، لم يكن في نظر الوثنيين فارق واضح بين الآلهة والناس ، والامبراطور كان يعد في الحقيقة إلهاً : الإله قيصر .

وقد أقيمت العبادة للقيصر على انه ضرورة لإدامة الدولة التي كانت هي العالم .

أما الأديان فقالت ان الامبراطور انسان ، وان الحكومة ليست أزلية او مطلقة التصرف . غير ان العالم الغربي لم يلبث ان انتقل من نفوذ القيصرية الى نفوذ البابوية التي يجمع فيها شخص واحد سلطتي الحاكم والبابا .

●

أما الرق فقد أباحه كتاب العهد القديم ، وقد انتشرت تجارة الرقيق في العالم كله على أيدي اليهود . ولما جاءت المسيحية أقرت ما كان موجوداً في القانون الروماني : ولم يكن القانون الروماني يعتبر الرقيق انساناً له شخصية ذات حقوق على الانسانية ، بل يعتبره شيئاً من الاشياء كسائر السلع التي يباح الاتجار بها .

يقول الدكتور جورج بوست في كتابه ( قاموس الكتاب المقدس[١] ) « ان المسيحية لم تعترض على العبودية من وجهها السياسي ولا من وجهها الاقتصادي . ولم تحرض المؤمنين على منابذة جيلهم في آدابهم من جهة العبودية حتى ولا على المباحثة فيها . ولم تقل شيئاً ضد حقوق أصحاب العبيد . ولا حركت العبيد الى طلب الاستقلال ، ولا بحثت عن مصادر العبودية ولا عن قساوتها ، ولم تأمر بإطلاق العبيد حالاً ، وبالإجمال لم تغير النسبة الشرعية

---

(١) ص ٦٠ و ٦١ طبعة بيروت سنة ١٩٠١ .

بين المولى والعبد بشيء ، بل بعكس ذلك أثبتت حقوق كل من الفريقين وواجباتهما » .

ولا ريب ان الرسالة التي جاء بها السيد المسيح كانت تحمـــل كل معاني مقاومة العبودية . ولكن تفسيراتها التي عبرت أوربا كانت خلواً من ذلك المفهوم ، وتقول موسوعة ( بيير لاروس ) أكبر موسوعة في القرن التاسع عشر ( ١٨٧٠ م ) .

لا يعجب الانسان من بقاء الاسترقاق واستمراره بين المسيحية الى اليوم فان نواب المسيحية يقرون على صحته ويسلمون بمشروعيته .

وقال القديس توماس : ان الطبيعة خصت بعض الناس ليكونوا أرقاء . ونادى (بالي) من كبار الفلاسفة بصحة الاسترقاق ومشروعيته واستنـــد في مشروعيته الى الاصحاح الحادي عشر .

وقال الاسقف الالماني بوفييه : بعدالة الاسترقاق في فتاواه اللاهوتية . ووافق على وسائل النخاسة . وكانت اليهودية تعتبر الرق من أصول الثروة .

وكان المصريون يستحلون ظلم غير المصريين ، وكانوا يعاملون الرقيق معاملة سيئة . ومن ذلك تسخير الألوف المؤلفة في بناء الاهرام . وهكذا لا تجد شريعة وضعية او تفسيراً محرفاً لدين ، قبل الاسلام يساوي بين الناس ، او يرفع الإصر والأغلال عن الطبقات الفقيرة والعاملة والمستفيدة .

ويؤكد الباحثون استفحال ظاهرة الرق في العالم قبيل الاسلام بصوره شاملة ، وفي المجتمعات الحضارية الاربعة الكبرى الفرس والروم والفراعنة والهنود ، حيث كان العبيد يشكون ظلم الأمراء واستعباد السادة .

ويقول ناجي معروف في كتابه «اصالة الحضارة العربية» ان الاغريق لم

يكن الرق محرماً عنـــدهم ولم يكن مستنكراً ، وكان فيلسوفهم أرسطو يقول : خلق العبد للخضوع والطاعة وعلى الأحرار ان يستكثروا منهم ، وكان يرى ان الرقيق هو الآلة الحية التي لا ينبغي المواطن الحر ان يتأولها . والرقيق في رأيه من وسائل الانتاج الضرورية التي لا غنى عنها للمدنية . أما أفلاطون فكان رأيه ان يكون الرقيق من غير اليونان . ولم تنكر اليهودية ولا المسيحية ذلك الاسترقاق ، ولا تلك العبودية ، بل كانت اليهودية تشجع المتاجرة بالرقيق . ولا سيما اولئك الذين تعمل على إخضاعهم من الاوربيين وتصدرهم الى بلاد المشرق ليباعوا في أسواق النخاسين ، وكان النخاسون من اليهود في اوربا يسرقون النساء والاطفال لبيعهم في الاسواق .

وقد ازدهرت تجارة الاوربيين بالرقيق الابيض والاســود على أيدي المسيحية قروناً عدة ولا سيما في عهد الفتوحات والاستكشافات في افريقيا وآسيا وامريكا من القرن السادس عشر الى القرن التاسع عشر .

وكان مونتسكيو القانوني الفرنسي الكبير يرى انه من المستحيل انيرثي الانسان للافريقيين ذوي البشرة السوداء ، وانه لا يمكن المرء ان يتصور ان الله سبحانه وتعالى وهو ذو الحكمة السامية قد وضع روحاً طيبة داخل جسم حالك السّواد . وقد تابع الغربيون بعـــد المسيحية سياسة روما وأثينا العبودية . وسخر الغربيون الرقيق وأذلوهم . وكانوا يقتنصون الناس لتشغيلهم في مستعمراتهم . ويسنون القوانين التي تعين موقفهم من أسيادهم وتحـــرم عليهم الوظائف والزواج والتعليم . اه .

أين هذا من مفهوم الاسلام لتحرير الرقيق والانسان عامة حيث يقول عمر : ( لا تضربوا وجوههم وأبشارهم ولا تجلدوا العـــرب فتذلوها ) او قول ابن خلكان : ( ان البشرة السوداء لا تقلل من شرف النفس الطاهرة ولا تنقص من علم العالم ولا من سمو المفكر ) ومن قلب الانسان انطلقت

صيحة الحرية والكرامة التي غيرت وجه أوربا والفكر الغربي كله والإسلام هو الذي حرر العبيد في كل مكان وألغى ما بين الأسود والأبيض . وألغى أوضاع البشرية التي تجعل للجنس او للمال او العرق والعنصر المقام الاول .

وقد عرفت البشرية قبل الاسلام ضروباً من الرذائل وامتهان حرية الانسان وكرامته ، وكان الناس على اختلاف عناصرهم يجعلون الحق للقوة . فكان القوي يتحكم في الضعيف فيسخره لمنفعته او يبيده . وكانت الشعوب الضعيفة تخدم الشعوب القوية تحت تأثير الأسر المكتسب بحق الفتح ، وكان الناس يعتبرون عبيداً لحكوماتهم . وكان الناس يسرق بعضهم بعضاً فيؤخذ الأبناء والبنات من أحضان آبائهم كرهاً ليباعوا في الأسواق . وكان الناس لا يعتبرون للمرأة حقاً فلا يعلمونها ولا يورّثونها . وكان الناس يستحلون دماء بعضهم لمجرد اختلافهم في العقائد[١] .

---

(١) بتصرف عن بحث لفريد وجدي .

( ٢ )

جاء الاسلام فألقى الضوء الكاشف في أعماق هذا الظلام . وكانت دعوته في صميمها الى توحيد الله وتحرير الانسان ، فألغى العبودية وقاوم الرق ، ودحر الظلم وأعلن الأخوة العالمية ورفع راية الوحدة البشرية فوق الألوان والدماء والأجناس ، ووضع قاعدة العتق وتحـــرير الرقيق والقضاء على السخرة .

وقد صور هذا المعنى العلامة فيشر في كتابه « تاريخ أوربا » وفي بيان حسن قال : « أفاق العالم الغربي على نور الاسلام وكان يغط في نوم الجهالة والظلام » .

وقد كان الاسلام العامل الاول في القضاء على الرق بوضعه في مجال التصفية . وأول عوامل التصفية انه جعل له مدخلاً واحداً هو الجهاد . وألغى مداخله الاخرى المتعددة . ومنها البيع والمقامرة والنهب والسطو ووفاء الديون والقرصنة ، فألغى الإسلام كل هذه المداخل ما عدا مدخل الجهاد . ثم وضع تنظيماً لأسرى الحرب . كما اعتبر الاسلام الرق عارضاً وعمل على إزالته . وفي نفس الوقت الذي دعا فيه الى حسن معاملة الرقيق ، دعا الى مكاتبة العبد لتحريره بدفع مال يقدمه لسيده . ولم يكن من اليسر ان يبطل الاسلام الاسترقاق لأنه كان ظاهرة قائمـــة في المجتمع البشري ، ولكنه وضع

خطة[1] للقضاء عليه بالتدريج وبعد تربية النفوس على احترام الانسان وتحديد ما له من حقوق وما عليه من واجبات . وقد وضع الاسلام قواعد عامة في هذا السبيل :

أولاً : حسن معاملة من تحت أيديهم من الرقيق : فعلى المسلمين ان يمسكوهم بمعروف ويعاملوهم بالحسنى .

ثانياً : الترغيب في تحرير الرقيق : فقد نص القرآن على إيجاب تحرير الرقيق ( سورة التوبة ـ سورة النور ) وجعـــل من مصارف الزكاة تحرير الرقاب ، وجعل الاسلام تحرير الرقيق فدية عن أمور كثيرة ، وبذلك عجل بإخراجهم من دائرة الأسرى . وكان الأسرى قبل الاســـلام يلبثون آماداً طويلة وقد يسترقون الى الابد . وقد جعل[2] الاسلام من مكارم الأخلاق : فكاك العاني وهو الاسـير وإطلاق سراحه ، وحرص على فك الرقاب بأن جعله من أبواب الزكاة وجعل عتق العبد كفارة عن الذنوب والآثام . وكفارة عن عقوبات القتل الخطأ ، وكفارة عن الحلف بالأيمان . كما جعل العتق كفارة عن الظهار وعن الإفطار في رمضان .

ومن تشريعات الاسلام لتحرير الرقيق : شراء جميع العبيد الذين هم بيد غير المسلمين من أموال الزكاة وعتقهم في سبيل الله . كما قرر الاسلام تكافؤ الحر والعبد (من لطم مملوكاً له أو ضربه فكفارته عتقه ) ومنع الاسلام التفريق بين العبد وعائله ، وألزم السيد إكساء عبده وإطعامه . ومنع عُمَر بيع أمهات الاولاد . ونهى الرسول عن مخاطبة العبد بكلمة عَبْدٍ أو أمة . ونهى العبيد ان يخاطبوا سادتهم بكلمة رب .

---

(١) اصالة الحضارة العربية : ناجي معروف .

(٢) نفس المصدر .

ثالثاً : وضع قاعدة المعاملة بالمثل في الحروب الدولية فيما يتعلق بالأسرى، ومبدأ الاسترقاق . وجعل الاسترقاق الشرعي ما يقع في حروب يراد بها إعلاء كلمة الله .

رابعاً : ليس في التشريعات الاسلامية نص واحد يأمر باسترقاق الناس او اتخاذهم عبيداً او الاتجار بهم في أسواق النخاسين .

خامساً : أعلن الاسلام إطلاق سراح أعدائه اذا أسلموا حالاً .

فعل المسلمون هذا بينما لم يفكر الغرب في تحرير الرق إلا في القرن السابع عشر . أي ان الاسلام سبقهم في ذلك بنحو ألف سنة . ومع ذلك فقد ارتدت أوربا في العصر الحديث الى الدعوة لسيادة الأجناس، وغالت في ذلك غلواً شديداً . وكانت عملية تهجير الزنوج السود من افريقيا الى العالم الجديد التي شملت عشرات الملايين من أكبر المآسي التي تدخل تحت أسلوب النخاسة . وما يزال ملايين الزنوج يعاملون حتى الآن بمنتهى القسوة في العالم الجديد . وقد أشار المؤرخ الزنجي دوير الى أن عدد الزنوج الذين اختطفتهم النخاسة لحساب المستعمرين بلغ مائة مليون زنجي . وقد استمرت هذه التجارة أربعة قرون وارتكبت فيها من الفظائع ما لا يمكن تصوره .

وتقول السيدة بنالكدرين تروبه في كتابها ( تاريخ الزنوج ) ان قصة تجارة الرقيق الإفريقي تمثل سجلاً من أحلك السجلات في تاريخ العالم الغربي . فقد كان النخاسة الذين يعملون لحساب المستعمرين يقومون باصطياد الاطفال والشباب من حقول الذرة . وذلك بمطاردتهم جماعات حتى يسقطوا في الشباك . ثم يحملونهم الى الموانىء حيث تنتظرهم السفن الانجليزية ويحشرون فيها بالآلاف . وقد ربطوا بالحبال حتى لا يلقوا بأنفسهم الى الماء[١] .

---

(١) نقلاً عن حسن دوح : مجلة الكويت ١٩٧٢ .

يقول ويستر مارك : ان المؤرخين الغربيين بالغوا في زعمهم ان الكنيسة عاملت الرقيق برفق ، فقد جاء القرن الثالث عشر ، وللسيد على عبده الحق المطلق في إحيائه وإهلاكه ،وكان يباع في جميع بلاد النصارى كما تباع السلع ، وكانوا يمنعونه من تعلم القراءة والكتابة ،ويعاقب من خالف ذلك عقاباً شديداً.

ويشير سامي داود الى فشل الكنيسة في القضاء على التفرقة العنصرية في أوربا في ضوء نظام الاقطاع الذي عانى في ظله سواد الشعب قساوة كبيرة من الحكام . وحيث كانت أوربا تقيم الأبراج لأمراء الاقطاع الذين كانوا يفاخرون بأنهم أميّون لا يقرأون ولا يكتبون .

يقول : عندما نادى الاسلام الى المساواة بين الشعوب والاجناس أمام الدولة وأمام الله ، نادى بتحرير العبيد بمجرد قيام الدولة الاسلامية . وكان نفس النداء قد ظل يقرع أسمـــاع أوربا قروناً طويلة عن طريق دعاة المسيحية والمبشرين بها . والرجل المسيحي الابيض يعيش بنفس عقليته الوثنية وتفكيره العنصري : وكانت الكنيسة في أوربا هي التي تحمي الحق المقدس للملوك والأشراف فتقر بذلك التفرقة العنصرية وتعترف بشرعية السبي والاستعباد وإغلاق السجون والمطابق على العبيد والمستضعفين » .

( ٣ )

ويتصل بعبودية الرجل في مجال الحضارات الخمس الكبرى : ( اليونان ، والرومان ، والفرس ، والفراعنة ، والهنود ) عبودية المرأة في مجال البغاء . فقد كانت المرأة تقدم الى المعابد . وكانت الديانة البابلية توجب على بعض الفتيات ممارسة البغاء إكراماً للآلهة . وكانت الديانة توجب بأبغض أدوارها على كل امرأة على الأقل نظرياً أن تمارس البغاء باعتبار انه من الشعائر الدينية ، وفي بعض أنحاء الهند كانوا ينظرون الى البغاء هذه النظرة ويعتبرونه من الفروض الدينيــة .

واليهود كانوا يمارسون البغاء ويقدسونه . وكانت مصر وفينيقية وآشور وبلاد الكلدان وفارس وغيرها تقيم الشعائر الدينية الممزوجة بجميع ضروب الخلاعة والفســاد ، وكانت عبادة إيزيس وسولك وعشـتروت ومليته وغير هذه من أحط ضروب الخلاعة وأقبحها بل ان المعابد الخاصة بتلك الآلهة لم تكن سوى مسارح لأحط ضروب الشعائر الشهوانية التي كان القوم يمارسونها باسم الدين .

وقد أنشىء معبد خاص باسم أفروديت . وهي من أساطير القوم . وهي إلهة الشهوات وزخر المعبد بكاهنات يمارسن البغاء باسم الدين .

وفي العصر الروماني أنشىء نظام الكاهنات العذارى لخدمة المعابد . ولما

جاءت المسيحية وقفت موقف الرأفة بمحترفات البغاء ، وعملت الامبراطورية الرومانية على إعادة الحقوق المدنيـــة والاجتماعية لمحترفات البغاء . وتزوج الامبراطور يوستنانوس بالبغية (بثودورا) .

وقد اعترف آباء الكنيسة وفي مقدمتهم القديس أغسطينوس بأن البغاء شرّ لا بد منه وبأن إزالته بتاتاً قد يفضي الى انتشار الرذيلة على وجه أشد ضرراً بالمجتمع .

•

أين هذا من موقف الاسلام من المرأة ومن إكراهها على البغاء ومن تحريرها ن قيود الإذلال والعبودية .

يقول سيد أمير علي : ليست المرأة أتعس حظاً مما هي فيه عند الأمم المسيحية . وما هو مركز المرأة الشرعي حسب الدين حتى في أول البلاد النصرانية تقدماً .

ان المرأة المتزوجة لم تكن لها حقوق مستقلة عن زوجها الى زمن قريب حتى في انجلترا ، على أن الرسول الذي ظهر في بلاد كانت تُوأد فيها البنت حية . وفي عصر لم يعرف في أي بلد آخر أي نظام وأي طائفة تحول المرأة الى حق ، فسواء كانت فتاة او عذراء او زوجة او أم ، هذا النبي أكسب المرأة حقوقاً لم يعترف بها الا بضغط شديد لدى الأمم المتمدنة في القرن التاسع عشر وكفى محمداً فخراً حتى لو لم يفعل أكثر من ذلك في سبيل الانسانية ، بيد ان المرأة المسلمة يعتبرها المتفقهون في الدين أحسن حالاً من المرأة الاوربية .

ولقد لبث ملوك النصارى وزعماؤهم يرغمون المرأة على التزوج بمن يشاؤون من رعاياهم عدة قرون بعد ظهور الاسلام . بينما كان الاسلام قد أعطى المرأة

البالغة الحق في أن تتزوج بإرادتها ، وان لا يتدخل الزوج في ثروتها . كما انه لا يسوغ له ان يسيء معاملتها بالطرق الوحشية . فهي متى كانت بالغة سن الرشد تتصرف في جميع شؤونها وثروتها كما تشاء بدون تدخل زوجها او ابنها . فاذا ذهبنا ننظر الى صورة المرأة على الإجمال قبل الاسلام وجدنا صورة قاتمة مهينة « كانت المرأة من أهل أثينا ، وهم اكثر الأمم القديمة مدنية وعلماً تعتبر من سقط المتاع حيث كانت تباع وتشرى في السوق ، كما كانت منزلتها في الدرك الأسفل ، انما كانت تعتبر رجساً من عمل الشيطان لا شأن لها ، وكان مصرحاً للواحد من أهـــل أثينا ان يتزوج بأي عدد يشاؤه من النساء وكان ( ديموشينتس ) يفاخر بأنه توجد في أمته ثلاث طبقات من النساء ، كانت طبقتان منهما تعتـــبران الزوجات الشرعيات والشبيهة بالشرعيات .

أما في (اسبارطة) فقد كان مصرحاً للمرأة ان تتزوج بأكثر من رجل ، وكانت جميع النساء تقريباً يمارسن هذه العادة . وكانت عادة تعدد الزوجات موجودة في البلدان المجاورة لدولة الرومان وكان من أثر الفتوحات التي قام بها الرومان مضافاً اليها الرفاهية التي تمسكوا بأذيالها ، اذ نالوا ذلك المجد الباذخ ـ كل هذه الاسباب جعلت عقدة الزواج المقدسة مجرد كلمة من قبيل لغو الكلام عند الرومان ، غـــير ان كبراء روما أرادوا ان يتمتعوا بمزايا الحرية وترفها فانغمسوا في شهوات الحب والهوى ، فأفضى ذلك الى ان أصبح الزواج أشبه بالفسق العادي . ثم ان الحكومة اعترفت بالزنا في قوانينها فصار هذا نظاماً مرعي الجانب ، وقد أفضت حرية النســاء وانفصام عرى الرابطة التي كانت تربطهن بالرجل تنقل المرأة بين أحضان الرجال ، كل ذلك أفضى الى عادة تعدد الزوجات ، ثم ان اتخاذ الخليلات لم يكن قاصراً على الطبقات الارستقراطية ، حتى ان رجال الاكليروس أنفسهم كانوا يتخذون

لهم أكثر من زوجة شرعية او غير شرعية بالرغم مما تقضي به قداستهم .

●

جاء الاسلام والبشرية على هذا النحو من عبودية الرجل وعبودية المرأة ، فلم يلبث ان فرض للمرأة حقاً وحرية وكرامة ومكانة لم تكن تحـلم بها ، حيث أعلن الاسلام حقها في الحياة وحريتها في الزواج والتملك ، وإدارة عملها ، وجعل للرجل عليها درجة واحدة ، فهو قد نقلها من حيث كانت لا تحتسب عادة إلا من متاع الرجل الى حيث جعلها شخصية كاملة ، ورفعها من حيث كانت مستعبـدة في البغاء والرقيق الى حيث جعلها تستطيع ان تختار لنفسها زوجها . ثم وضع لها الحدود التي تحول بين الناس وبين استعبادها وامتهانها. فنهى عن ان تستغل او تسترق او تقدم للبغاء « **ولا تكرهوا فتياتكم على البغاء إن أردن تحصناً** » ونهى عن وأدها « **إذا الموءودة سئلت بأي ذنب قتلت** » وكرمها وحصنها وجعل هناك قانوناً للدخول عليها : ثلاث عورات ، يستأذن فيها عليها ، ودعا الى تعليمها وفرض لها في الميراث وجعل لها نصف شهادة الرجل، ووضع حداً للتعدد حيث كان لا حد هناك للتعدد . وحرم زواج الأخت او الأم او زوجة الأب والأخت في الرضاعة . وأقام لها نبراساً من الكرامة والخلق والحفاظ على العرض لا يرقى اليه نظام ولم تصل اليه مدنية ما .

لقد رفع الاسلام شأن المرأة الى مرتبة عالية بعـد ان انحط مقامها الى الدرك الأسفل عند اليهود ، وعرب الحاضرة . اذ كانت الآنسة بمثابة الخادمة حتى في دار أبيها عنـد الموسويين ، وكان لأبيها الحق في بيعها . اذا كانت قاصرة ، فاذا توفي يحق لأخوتها الصبيان ان يفعلوا بها ما يشاؤون . ولم تكن

لترث شيئاً الا اذا لم يكن للوالد ذرية من البنين . أما عرب الجاهلية فقد كانت المرأة تعتبر عندهم من سقط المتاع، وكانت جزءاً لا يتجزأ من ثروة أبيها او زوجها ، وكانت أرامل الرجل يصرن إرثاً لابنه او بناته كأي جزء آخر من التركة ، لذلك حرم الاسلام بتاتاً نكاح المقت ، وهو اقتران المرأة بابن بعلها ونحو ذلك . وقد وصل شأن انحطاط المرأة عند عرب الجاهلية الى وأدهم بناتهم وهن على قيد الحياة ، فحرم الاسلام هذه العادة ، وكانت منتشرة بين عرب قريش وقبائل كندة . واعتبرها من قبل الظلم والاعتساف، وكان العرب يعملون بها ، اذ يقدمون بناتهم قرباناً للآلهة اقتداء ببعض الأمم. وكان مقام المرأة منحطاً في الهيئة الاجتماعية في دولتي الفرس والبيزنطيين ، وقد حمل المتعصبون المتحمسون على المرأة حملة شعواء ، وهم الذين صاروا القديسين فيما بعد لدى العالم المسيحي فقالوا : انها مثار الشرور ، ونسوا ان الشرور التي نسبوها الى المرأة ليست إلا نتيجة تضليل أفكارهم . في ذلك الحين حين سقطت الهيئة الاجتماعية في حمأة الرذائل من جميع الجهات وارتفعت الأصوات مستغيثة بأن التجارب برهنت على فساد كل النظم والشرائع القديمة ثم ظهر محمد صلى الله عليه وسلم بتعاليمه للملأ الأعلى داعياً للخير وهو يقول : ( ولهن مثل الذي عليهن بالمعروف وللرجال عليهن درجة ) .

كرم الله مقام المرأة بصفتها طاهرة نقية وزوجة صالحة ، وقد حرمت القوانين الاسلامية بتاتاً عادة الزواج المشروط ، وخول الاسلام المرأة حقوقاً لم تكن لها من قبل ، وأكسبها مزايا لا تعرف قيمتها حق المعرفة إلا بعد زمن طويل ، فقد ساوت الشريعة بين الرجل والمرأة في جميع الحقوق المدنية والأعمال . ونهت عن تعدد الزوجات ، اذ حددت عددهن ، وقضت على

على الرجال بالمساواة التامة بينهن « **فان خفتم ألا تعدلوا فواحدة** » « **ولن تستطيعوا أن تعدلوا بين النساء ولو حرصتم** » .

فالعدل هنا هو العدل التام ، وما ورد في القرآن في هذا الصدد انما يقصد به النهي عن هذه العادة[1].

●

أما بالنسبة لتعدد الزوجات فقد كانت عادة تعدد الزوجات منتشرة في جميع الأمم الشرقية القديمة . فان ممارستها بواسطة الملوك والأمراء الذين يقدسهم الناس جعلها أمراً مقدساً في نظر الشعوب ، وقد ظلت هذه العادة منتشرة بين الهندوس منذ العصور الخالية . وكان للرجل مطلق الحرية في أن يتزوج بأي عدد من النساء، وكان تعدد الزوجات شائعاً عند الاسرائيليين قبل عصر موسى . وان محمداً قد جاء وتعدد الزوجات منتشر ليس بين قومه فقط بل كان منتشراً أيضاً بين الأمم المجاورة لهم حيث كانت هـــذه العادة شر آفات الهيئة الاجتماعية .

نعم ان قوانين الدولة المسيحية حاولت ملاشاة ذلك الشر ، ولكنها لم تنجح في ذلك . وظل تعدد الزوجات معمولاً به بدون واق منه . وكانت النساء التعسات اللاتي كان ذلك من سوء حظهن ، وفي إيران لم توجد قاعدة مرعية في قوانينهم المقدسة تحدد تعدد الزوجات اللاتي يحق للرجل التمتع بهن . فقد كانوا ينغمسون في حمأة اتخاذ الخليلات . وعلاوة على شيوع عادة تعدد

---

(١) سيد أمير علي : المرأة في الاسلام .

الزوجات عند العرب واليهود الأقدمين . فقد جرت عليهم عادة أخرى : هي الزواج المؤقت فأفضت الى الفوضى الاخلاقية وانتشار الفساد[1] .

نعم لقد جاء الاسلام ولا حدّ لتعدد الزوجات فحدد هذا التعدد وجعله في أربع ، ثم وضع له قاعدة صعبة تحول دون التعدد جملة . «**ولن تستطيعوا أن تعدلوا بين النساء ولو حرصتم**» .

(١) المصدر السابق .

( ٤ )

ان أعظم معطيات الاسلام في مقارنات الاديان هو القضاء على الاباحية والرهبانية جميعاً فقد كانت استباحة المحرمات والدعوة الى شيوعية النساء والاموال وإباحة نكاح البنات وغيرها مما يدعو اليه كثير من الملل والنحل وتفسيرات الاديان . وأحل مزدك شيوعية النساء والمال ، فاعتنق مذهبه آلاف النســـاء إرضاء لشهواتهن ، وقامت مجتمعات على الإفراط في اللذات واللهو الخبيث وخاصة حضارات فارس واليونان والهند والرومان .

وفي نفس الوقت قامت تفسيرات لبعض الاديان على قمع الشهوات وتجريد النفس وزجرها عن كل رغبة من الرغبات الطبيعية القائمة في الكيان البشري، ومنها أديان لم تكن لها عقيدة في الإله . كالبوذية والبرهمية . ومنها أديان سماوية انحرفت عن غايتها ، وقد اتسمت هذه الدعوات بالسلبية وحطمت المجتمعات التي عاشت فيها حين دعت الى قتل الرغبات الطبيعية في الكيان الانساني ، وأنكرت ما في الحياة من زينة ومسرة ، وقالت بأنه لا خير في الجسد لأنه محل العاهات وانه لا قيمة للأفراح والثروة والجاه والملك، ودعت الى قضاء الايام في استعجال الموت تحت الشمس المحرقة ، وفي الزهد عن ملاذ الدنيا . وترك العمل رغبة في استعجال الفناء .

وقام في أثينا وأوربا والهند والصين وافريقيا واستراليا قبل الاســـلام

ما يسمى بالبغاء المقدس حيث كان مفروضاً على الفتاة ان تقدم عذارتها الى الإله ، وان تبغي مرة في الهيكل لتجمع مبلغاً من المال فتقدمه الى الهيكل وتخرج ، ويحدث هيروديت ان الجميلات لم يكن يُطِلْنَ الإقامة ، ولكن الفتاة الكئيبة المنظر كانت مضطرة للبقاء سنوات لجمع المال . وكان هناك بغاء الضيافة : فاذا جاء ضيف كان على صاحب الدار ان يقـــدم له أخته و زوجته او ابنته او خادمته ، هكذا كانت الصورة مظلمة قاسية الظلمة ، حافلة بالشر والإثم ، وثمة مقارنات تعتمدها بعض المراجع الغربية يمكن ان نلقي الضوء .

يقول معجم الفلسفة : ان القرآن يختلف عن التوراة في انه لا يجعل ضعف المرأة عقاباً إلهياً . كما ورد في سفر التكوين ( ٣ – ١٦ ) ومن الخلط ان ننسب الى شارع عظيم كمحمد ، مثل تلك المعاملة المنكرة للنساء .

والحقيقة هي ان القرآن يقول « **فان كرهتموهن فعسى أن تكرهوا شيئاً ويجعل الله فيه خيراً كثيراً** »

ويقول بول دي ركلا : الإسلام هو الدين الوحيد ( بين جميع الأديان ) الذي أوجد بتعاليمه السامية عقبات كثيرة تجاه ميل الشعوب الى الفسق والفجور ، ويكفيه فخراً انه قدس الانسال وعظمها ليرغب الرجل في الزواج ويغرض عن الزنا المجرم شرعاً وتشريعاً ، وان الاسلام قد حلّ بعقلية عادلة عالية أغلب المسائل الاجتماعية التي لم تزل للآن تشغـــل مشترعي الغرب بتعقيداتها .

ويقول واصف غالي : ان كثيراً من رجال الاديان الاخرى ، وكان أحدهم (سان بونا فنتيور) يقول لتلاميذه : اذا رأيتم امرأة فلا تحسبوا أنكم ترون كائناً بشرياً . بل ولا كائناً وحشياً . انما الذي ترون هو الشيطان بذاته ، والذي تسمعون هو صفير الثعبان .

« أما محمد » فهو يعدّ بحق من أكبر أنصار المرأة العمليين ، ان لم يكن اكبرهم فقد كان بهن رحيماً وعليهن حليماً ، وكان ليّن الجانب كثير العطف عليهن ، عظيم الاحترام والتكريم لهن . ولم يكن ذلك خاصاً بزوجاته ، بل وذلك كان شأنه مع جميع النساء على السواء .

والحق ان نظرة واحدة الى الامم في اختيار المرأة تكشف عن مدى عمق مفهوم الاسلام وأصالته فقد كان كسرى اذا تزوج اختار المال وكان قيصر اذا تزوج اختار الجمال ، وكانت الجاهلية تختار النسب . أما الاسلام فقد اختار الدين : ( تنكح المرأة لمالها او جمالها او جسمها ، فاظفر بذات الدين تربت يداك » .

واذا كان الاسلام قد أعطى كلاً من الرجل والمرأة هذا المنهج الكريم ، وأباح للرجل الحرية في الطلاق والتعدد وعقد الزواج فان ذلك يفسر – على حد قول العلامة محمد أسد – السبب الذي من أجله تعتبر الشريعة الاسلامية « الزنا » من أقبح الآثام ، ذلك ان تجاه هذا التسامح وهذه الحرية لا يمكن ان يكون هناك إطلاقاً أي عذر للوقوع في حبائل العاطفة او الشهوة » .

●

وكان للاسلام في تكريم الانسان : الرجل والمرأة على حد سواء موقف آخر غاية في السماحة والحسم ذلك موقفه من الخمر .

يقول محمد أسد : ان انفراد الاسلام بتحريم الخمور : مزية لا تجدها في كتب الديانات الاخرى ، بل ربما تجد في بعضها تشجيعاً على الخمر ، كقول القديس بولس لتلميذ له : خذ قليلاً من الخمر لإصلاح معدتك ، كما تجد فيها حادثة تحويل الأواني المملوءة ماء الى خمر ، فلم يكن يبلغ المسلمين تحريم الله للخمر حتى أريقت أدنانها وأكوابها فسالت بها الشوارع أنهاراً .

ويقول هنري دي كاستري : ان أحدّ سلاح يستأصل به المسلمون ، وأمضى سيف يُقتلون به هو الخمر ، وقد جردنا هذا السلاح على أهل الجزائر فأبوا ان يتجرعوه فتضاعف نسلهم ، ولو قبلوه لأصبحوا أذلاء لنا ، كتلك القبيلة التي شربت خمرنا وتحملت اذلالنا . وان الواجب على المسلمين أن يحتفظوا بما حظرتهم الشريعة عليهم من تعاطي المسكرات . فان في هذا المنع قوتهم ، وان هذه القوى كانت فيما مضى عظمة الاسلام لم تندثر ، بل ان بقاياها آخذة بالمحافظة على المدنية الاسلامية .

•

ولقد عرفت أوربا من بعد كيف كرم الاسلام المرأة ورفع شأنها في الأدب العربي . وكيف عرف الناس في جميع الأجناس لأول مرة بعد الاسلام الحب الطاهر ، ولم يكونوا يعرفونه قبلا[1] والشعر الجاهلي لم يصور لنا الحب إلا لهفة على تلك المرأة والاستمتاع الحسي بها ، فلما ظهرت العقيدة الاسلامية ، نزهوا المرأة عن ان تكون مجرد وسيلة لمتعة رخيصة . وظهر الحب العذري وتخطى الحدود ، وانتقل الى أوربا ، وكان كما قص بعض نقاد الغرب الشرفاء : أهم عامل في تهذيب النفوس وتهيئة السبل للانتقال بالبشرية من العصر الوسيط الى العصر الحديث . والعرب منذ فجر الاسلام لم يعرفوا نظام الحريم ، ولم تحجب المرأة وجهها بالنقاب إلا نادراً ولم تتوار خلف جدران منزلها ، كانت تحصل على ما يحصل عليه الرجال من علم ،وعرفت قبل المرأة الاوربية كيف تتميز بميزات معنوية .

يقول بيرونكس في كتابه (القصة في سبعة قرون) لقد غفلت المرأة الاوربية عن حقيقة لو فطنت اليها لَنَهْنَهَتْ من كبريائها ، فهي لم تبتدع

---

(١) محمد مفيد الشوباشي : رحلة الادب العربي الى اوربا .

أسباب رقتها ولكنها ورثتها عن المرأة العربية . ومن الأخطاء الشائعة نسبة الحب الطاهر المنزه عن النزوات الجسدية الى أفلاطون . ومصدر الخلط هو استهتار أفلاطون بازدراء ماديات الحياة . وقد يخطر بالبال في بعث الحب الطاهر الذي عبر عنه شعراء (التروبادور) انه يرجـــع الى المسيحية ولكن تعاليم الدين المسيحي لم تغير في واقع الأمر شيئاً من التقاليد الهمجية والأخلاق البربرية الوثنية التي سيطرت على أمراء أوربا وسراتها قبل اتصالهم بالعرب ، فقد اضطرت الكنيسة الى التغاضي عن ذلك ، والكنيسة كانت واقعة تحت سيطرة الفكر الإغريقي ، ومن المعروف أن فريقاً من قساوستها كان يتعصب لأفلاطون . وفريقاً آخر كان يتعصب لأرسطو فطغت معتقـــدات هذين الفيلسوفين وتعاليمهما على معتقدات الكنيسة وتعاليمها ، وكان أغلب المشتغلين بالأدب من رجال الكنيسة . ولكنهم ظلوا متأثرين بالفكر الإغريقي مقتصرين على الكتابة باللغة اللاتينية .

ويقول روبير بريفو : ان فلسفة الفضيلة : فلسفة الحب التي طال ارتباطها بالشعر العاطفي المقتبس من الاندلس ، والتي سادت دوائر الحب في بروفانس قد استمدت من الاسلام أصولها . والشعراء التروبادور المتتلمذون على الشعراء العرب لم يحيدوا عن استغلال الفلسفة الصوفية التي لم يكن في وسعهم الا ان يستعينوا بمذاهب الطهر والعفة . وكذلك حرضوا على ان يستمدوا العواطف التي طبعها العرب بالطهر من الشعر الأندلسي القادر على تزويد فنهم بأناقة خاصة واذا سقطت شوائب شعر المديح المتصل بخلق الممدوح ، كشفنا عن عالم من نواحي الخير في النفس البشرية يسلط الضوء على سجاياها ، ويحلل نوازعها الطيبة ، وان قصة عنترة هي أول صيحة يطلقها الفن الانساني ضد العبودية والتفرقة العنصرية .

والمرأة العربية تتصف في أغلب القصص العربية بالوفاء وتتولد محنتها

عادة من رقة إحساسها ، وينشب الصراع في نفسها بين عاطفتين كلتاهما نبيلة فان المرأة الإغريقية تتصف بالغدر في أغلب مآسي الإغريق وتستسلم للرذيلة دون أية مقاومة ، وترتكب أبشع الجرائم مدفوعة بأحط النزوات . فها هي ذي (هلينية) تخون زوجها في قصة (طروادة) وتبيد شعوباً بأسرها وتدمر بلاداً عن آخرها .

( ٥ )

ان انكار الاسلام للرهبانية هو جزء من رسالته الى تحـــرير الانسان من العبودية وتمدين البشرية بعد ان ظلت محجوزة طويلاً وراء أســـوار الظلم والقسوة والحرمان ، متأرجحة بين (الاباحية) التي فرضتها اليهودية التلمودية وبين (الرهبانية) التي جاءت بعــدها . والرهبانية (Monastieism) نظام خاص اتبعته جماعات دينية مراعية فيه شرائط الفقر والعزوبة والطاعة العمياء . والانقطاع عن الدنيا والأخذ بقواعد النسك . وقد عرفت الرهبانية قبل المسيحية في الهند وفي أقاليم آسيوية أخرى . وقد عرف اليهود هــذا النظام قبل العهد المسيحي . ثم ظهر ثانية في المسيحية عندما امتنع الرجال والنساء عن الزواج وأكل اللحوم ، ووقفوا أعمارهم على ضروب من العبادات وقد بدأت دعوتهم في مصر في منتصف القرن الثالث . وانتشرت في غربي أوربا في عهد القديس (أسناثيوس) ثم القديس (بندكتوس) الذي وطد دعائم هذا النظام في الغرب .

وقد أورد المؤرخون انه في عام ٣٥٦ للميلاد كان في أحد الأديرة عشرة آلاف راهب وعشرة آلاف راهبة . وقد أشار ( جوليزليروي ) في بحث له عن الرهبانية في الشرق : ان الكنيسة القبطية تأثرت بعقائد قدماء المصريين، ولما عرف المسيحيون ان الجسد زائل ، والروح باقٍ ، احتقروا متاع الدنيا

واعتبروه عيباً يجب الخلاص منه حتى لا يقف حجر عثرة في طريقهم للخلود، وهذا يفسر ترك الكثيرين لعالمنا هذا ورحيلهم الى الصحراء حيث بدأوا حياة جديدة في مقابر قدماء المصريين وحولوها الى خلايا للرهبنة .

ويقول الأستاذ ليكي : مؤلف كتاب « تاريخ أخلاق أوربا » لقد زاد الرهبان زيادة عظيمة وعظم شأنهم واستفحل أمرهم ، واسترعوا الأنظار وشغلوا الناس حتى روى المؤرخون انه كان يجتمع أيام عيد الفصح خمسون ألفاً من الرهبان ، وفي القرن الرابع المسيحي كان راهب واحد يشرف على خمسة آلاف راهب .

ولقد كان تعذيب الجسد أخطر أعمال الرهبانية . فمنهم من يقف على قدم واحد ثلاث سنين . ومنهم من يحمل نحو قنطار من حديد ، وكانوا لا يلبسون وإنما ينشرون شعرهم الطويل ، ويمشون على أيديهم وأرجلهم كالأنعام ، ويسكنون في مغارات السباع ، والآبار النازحة والمقابر ، ويأكلون الكلأ والخنافس ، ويعدون طهارة الجسم منافية لبقاء الروح ، ويتأثمون من غسل الأعضاء ، وكان أتقاهم هو أوغلهم في النجاسات والدنس ، ومنهم من لم يمس الماء جلده طوال عمره . ومنهم من لم يمس وجهه ولا رجله الماء خمسين سنة . وكانت نتيجة الرهبانية انخلال الفتوة والمروءة التي كانت تعد فضائل عادت فاستحالت عيوباً ورذائل ، وزهد الناس في البشاشة وخفة الروح والصراحة والسماحة والشجاعة والجرأة وهجروها ، وكان من نتائجها ان تزلزلت دعائم الحياة ، ويقول السيد أبو الحسن الندوي معلقاً : وقد عجزت هذه الرهبانية الغالية ان تعدل شرَه المادية الاوربية او تكبح جماحها وغلواءها : لقد حاولت النصرانية الرومية تغيير الفطرة وإزالتها . وحملت النفوس ما لا طاقة لها به ، فرغبت فيه كردّ فعل ضد المادية الطاغية واحتملته كارهة ثم تخلصت

منه وثارت عليه ، ولم تقدر النصرانية بإسرافها في الرهبانية والزهد ومكابرتها للفطرة والواقع ان تصلح ما فسد من أخلاق الناس وعوائدهم . فكانت حركة الفجور والإباحة وحركة الغلو في الزهد والرهبانية تسيران في البلاد النصرانية جنباً الى جنب بل الأصح ان الرهبانية كانت معتزلة في الصحارى والفلوات لا سلطان لها على الحياة ، وكانت حركة الخلاعة والإباحة زاخرة طامة في المدن والحواضر » .

وقد كان للرهبانية أثر خطير على المجتمع نفسه . فقد هجرت هذه الجموع الضخمة زوجاتها وأولادها وتركتهم في شظف من العيش فخلفوا « الأمهات ثكالى والأزواج أيامى ، والأولاد يتامى ، عالة يتكففون الناس ويتوجهون قاصدين الصحراء ، وكانوا يفرون من ظل النساء، ويتأثمون من قربهن والاجتماع بهن ، وكانوا يعتقدون ان مصادفتهن ، في الطريق والتحدث اليهن ولو كن أمهات وأزواجاً ، أو شقيقات تحبط أعمالهم وجهودهم الروحية[١] . ومن ناحية أخرى كانت الأديرة مثلاً غاية في السوء لكل خلق كريم . تقول دائرة معارف لاروس ص ٨٩٨ ج ٣ : ان الرهبان لم يراعوا الرهبنة حق الرعاية .

وفي القرن الحادي عشر كان الرهبان الشرقيون الذين أخذوا على أنفسهم أن يعيشوا بلا زواج لا يجسرون ان يدخلوا الى أديرتهم الإناث من الحيوانات بسبب ما يحتمل ان ينتج من ذلك من الخطر على أرواحهم ، ومع ذلك فلا يخفى اليوم انهم لم يقوموا بما تعهدوا به من العفاف بين رجال الدين من الجنسين .

---

(١) ليكي نقلاً عن ابي الحسن الندوي ( ماذا خسر العالم ) .

فقد قال (دوبرتو) بعد ان زار الأديرة في النمسا وفي الممالك الاخرى التابعة للملك فردنان الأول : انه رأى مائة وعشرين ديراً تحتوي على ٤٣٠ راهباً و ١٦٠ راهبة و ١٩٩ سرية و ٥٥ امرأة متزوجة و٤٤٣ طفلا . وقال انه يخشى ان يتكلم عن راهبات زمانه تفادياً من ان يظن انه يتكلم بإسهاب ومجون . ونددد بالأديرة ، وحمل حملة شديدة الطعن جداً على أديرة زمانه ، وتاريخ دير (دورياك) الذي تكلم عنه المسيو رولوز في تاريخ باريس ١٨٢٣ يعطي فكرة عن الأديرة الفرنسية في القرن السادس عشر .

ثم قالت دائرة المعارف : « ليست هذه الأمور من الشؤون المنعزلة ولا الخاصة بزمن دون زمن . ففي الأزمنة القديمة لام القديس (سريايين) والقديس (بازيل) عذارى زمانهما اللاتي وقفن حياتهن على الله على ما يظهر من عدم عفافهن .

ورأى ( جان كريزستوم) : انه لا يكفي قتل الراهبة التي تخون عفافها. بل رأى ان تقطع الى نصفين ، او تدفن حية مع شريكها في الإثم .

ولقد أحسنت بعض الطوائف المسيحية كالبروتستانت وغيرها بإبطال عادة الرهبنة بتاتاً والسماح لرجال الدين بالزواج ، فان الزواج لا يعتبر مبعداً عن الله بعد ما ثبت ان أكثر المرسلين كانوا ذوي حاجات . ولم يمنعهم زواجهم من طاعة الله[١] .

•

---

(١) من بحث في السياسة الاسبوعية (نوفمبر سنة ١٩٢٨) .

أما الاسلام فقط ربط بين الحياة الدنيا وبين الآخرة ، وأباح للانسان طيبات الدنيا من زواج وزينة ومتاع وطعام من مصادر الحل ووفق ضوابطه التي أريد بها تكريم الانسان وحمايته ودعم بنائه النفسي والاجتماعي. ولم يجعل الحياة الدنيا قاصرة على العمل للآخرة .

**« قل من حرم زينة الله التي أخرج لعباده والطيبات من الرزق »**
**« وابتغ فيما آتاك الله الدار الآخرة ولا تنس نصيبك من الدنيا »**
**« يا أيها الذين أمنوا لا تحرموا طيبات ما أحل الله لكم ولا تعتدوا » .**

وفي هذا المعنى يقول الإمام العامري في الإعلام في مناقب الأعلام . لو أراد الله تعالى لعباده حملهم على إهلاك أنفسهم لما علمهم صنعة لبوس لتحصنهم من بأسهم . ولما جعل لهم سرابيل تقيهم الحر . ولما هداهم لصنوف العقاقير النباتية ليستشفوا بها من الآلام المعترية » ان أحق الأديان بطول البقاء ما وجدت أحواله متوسطة بين الشدة واللين ليجد كل من ذوي الطبائع المختلفة ما يصلح به حاله في معاده ومعاشه ، ويستجمع له فيه خير دنياه وآخرته . « وكل دين لم يوجد على هذه الصفة ، بل أسس على مثال يعود بهلاك الحرث والنسل فمن المحال ان يسمى ديناً فاضلاً . ذلك مثل ما تمسك به رهبانية النصارى من هجران المناكح والانفراد في الصوامع ، وترك طيبات الرزق ، وما يتعاطاه الصديقون من الثنوية من حمل الأنفس على الوجاء والخصاء وملازمة المسكن والراحة دون غيرها من حركات العمارة وما انتهجه نساك الهند من إحراق الأجساد والتردي من الجبال وترك عمارة الارض » .

وهكذا وقف الاسلام من البشرية موقف الكرامة والعزة والسماحة .

فاذا تحدث عن الرهبانية كانت كلمته مثلاً من أمثلة القوة وبناء الشخصية . « رهبانية أمتي الجهاد » ولقد يحاول بعض المتعصبين ان يرسموا للرهبانية هالة مضللة في محاولة لإعلائهـا . وهي محاولة ضـــد الفطرة والعقل والعـلم .

يقول عمر الامري : لم ينقض رفض الاســلام الرهبانية شيئاً من سمو معتنقيه لأن إيجابيته تنزه الله عن أن يخلق شيئاً ويأمر بخنقه وإزهاقه . إنما يرسم له المسالك المشروعة التي يلبيها تلبية سليمة كريمة . حيث يشعر الانسان في ظل الإسلام بانفتاحه الحضاري على الكون وتعايشه معه في كل مرافق حياته الخاصة والعامـــة . والحق ان يقال ان المسيحية أدخلت الى أوربا الاديرة . وان الوثنية اليونانيــة أخرجتهم من مفاهيم الإســـلام .

واذا كانت رهبانية الاسلام الجهاد فقد حفظ التاريخ للمسلمين صفحة باهرة في بنـــاء الفروسية ودفعها الى العالم كله منهجاً من أعظم مناهج النبل والوفاء .

يقول سان هيلد : ان العرب هم الذين يرجع اليهم الفضل على سادات أوربا وفرسانها في القرون الوسطى في تعديل عاداتهم الخشنة وتلطيفها ، ثم تعليمهم رقة العاطفة وتهذيب نفوسهم . والرفعة بها الى حيث الانسانية والنبـالة ، وكل ذلك دون أن يصيبهم ضعف يفقـــد من فروسيتهم وشجاعتهم شيئاً .

ويقول ( اتيان دينيه ) هـــذه الظاهرة على نحو آخر فيقول : لقد حفظ لنا التاريخ في سجلاته عن فروسية العرب وروحها العالية جميع

الأدلة العظيمة الموشاة بالرقة والتهذيب . لقد هذب الاســـلام فروسية العرب وطهّرَها وأدخل مبادئها الى اوربا . ولم يوحِ الاسلام بالرهبنة بل حرمها .

ان الفروسية ونبل قصدها لم يكن يعرفها الأقدمون من اليونان والرومان. ولكنها كانت معروفة عند العرب وهذبها الاسلام وطهرها .

## (٦)

من أعظم ما دعا اليه الاسلام من أجل تمدين البشرية وتحرير الانسان : « الإخاء الإنساني » وليس هناك أدنى مبالغة في ان أوربا والعالم كله لم يعرف الاخوة الانسانية الا بعد أن حملها له الإسلام .

يقول عبد الكريم جرمانوس : ان أوربا لم تعرف فكرة الإخاء بين الناس إلا بعد الثورة الفرنسية بينما دعا الاسلام اليها وطبقها المسلمون قبل ثورة فرنسا بنحو ألف عام : لقد كانت فكرة المساواة والشورى من ابتكار القرآن ، عرفتها أوربا في القرن السابع عشر بينما هي من حقائق الاسلام وأصوله منذ نشأته . ولم يعرف حكام أوربا الاشتراكية الا في السنوات الحديثة . بينما سبقهم الاسلام الى المساواة بين المسلمين وأهل الكتاب ( يهوداً ومسيحيين وغيرهم ) فأقام بذلك نظام العدل الاجتماعي واستمتع في ظله كافة الناس بكل الحقوق السياسية . ومن الحق ان دعوة الاسلام : « كرمت الانسان وحققت انسانيته وأوجدت له طريقاً جديدة عرف بها النور الذي أضاء الحياة »[1]. وما تزال فكرة الاخوة الاسلامية الى اليوم أملاً يشغل قلوب المصلحين ويأخذ بالبابهم ، وبعد كل المحاولات التي يجريها العالم اليوم ،

---

(١) دكتور عبد الرحمن علي الحجي : الحضارة الاسلامية .

وتفشل في إقامة الاخوة العالمية ما زال الاسلام هو المرجى لتحقيق ذلك .

يقول هاملتون جب في كتابه : (وجهة الاسلام) ولكن الاسلام ما زال في قدرته ان يقدم للانسانية خدمة جليلة ، فليس هناك أي هيئة سواه يمكن أن تنجح مثله نجاحاً باهراً في تأليف هذه الأجناس البشرية المتنافرة في جبهة واحدة أساسها المساواة . فالجامعة الاسلامية العظمى في افريقيا والهند وأندونسيا ، بل وتلك الجامعة الاسلامية الصغيرة في الصين او في اليابان لتبين كلها ان «الاسلام» ما زال له القدرة على أن يسيطر كلية على أمثال هذه العناصر المختلفة الأجناس والطبقات ، فاذا ما وضعت منازعات دول الشرق والغرب العظمى موضع الدرس ، فلا بد من الالتجاء الى الاسلام لحسم النزاع .

ولا ريب ان الاخوة الاسلامية العالمية انما تقوم تحت القانون الاخلاقي العام[1] فهي اخوة عالمية ليست مبنية على الثقافات ، بل على القانون الاسلامي الموحد .

●

والحق ان «الاسلام» حين جاء بالإخاء الانساني انما كان ذلك رداً حاسماً على «المنصرية» التي كانت طابع البشرية كلها ومنطق حياتها خلال ذلك العصر الطويل الذي انحرفت فيه مفاهيم التوراة وتحولت من سماحة الإخاء الى إعلاء العرق والجنس والدم والشعب المختار . فهي رسالتهم الى البشر أجمع . والمعروف ان التوراة صهرت الحقائق التاريخية في قالب يؤكد العنصرية

---

(١) كما وصفها الدكتور الفاروقي — بحثه عن الحنيفية .

اما القرآن فقدمها في قالب الإخاء الانساني ومنها أصبحت التـــوراة دعوة عنصرية أما الاسلام فهو دعوة الى الإخاء الانساني .

وقد جاء الاسلام ماحياً التفاخر بالأنساب ، داعياً الى العودة الى وحدة الجنس البشري الأولى : « كلكم لآدم وآدم من تراب لا فضل لأبيض على أسود ولا لعربي على عجمي إلا بالتقوى » أما الغرب فقد عجز تماماً عن فهم الإخاء الانساني لأنه استمد مفاهيمه من التلمود وفلسفة اليونان . فقد وجد اليهودية تقول بإعلاء الدم والجنس . ووجد أرسطو يبرر طموح الإغريق لسيادة العالم وينادي بأن جماعات معينة تولد حرة بالطبيعة وأخرى تولد لكي تكون عبيداً وكان الفرس يعتقدون هذا الاعتقاد . أما في العصر الحديث فان صوت العنصرية قد ارتفع وساد ، وجاء الاستعمار فحوّل نظام العبودية الى نظام مقدس . وفي تأييد هذا النظام والدفاع عنـه ابتكر المفكرون وعلماء الاجتماع اسطورة شبه علمية لتبرير العنصرية ثم تبين انه ليس هناك أساس علمي لتصنيف الأجناس تصنيفاً عاماً على أساس من العنصرية .

وهبّت ريح التعصب الجنسي على أوربا بكراهية لكل الاجناس الملونة وارتفعت الدعوة الى عظمة الجنس الجرماني وتفوق الآرية والنوع الانجلوسكوني والجنس اليهودي .

وبقي الاسلام وحده صاحب الدعوة الحقة الى الإخاء الانساني . يقول أرنولد توينبي : لقد اتصل المسلمون البيض مع الزنوج الأفارقة ومع الشعوب الداكنة اللون في الهند منذ البداية . واستمروا في تعزيز ذلك الاتصال وحتى اليوم فان البيض والسود يندمجون تحت راية الاسلام عبر القارة الافريقية والهندية طولاً وعرضاً . وقد برهن المسلمون البيض عن تحررهم من أي

شعور عنصري بأقوى البراهين والحجج حيث انهم قد زوجوا بناتهم بالمسلمين السود .

ويقول برنارد لويس : كل المسلمين البيض كانوا متحررين من عقدة التحدي اللوني ضد الأجناس غير البيضاء لا يقسمون الناس الى أبيض وأسود بل الى مؤمنين وكفار ، كانوا متحررين كل التحرر من أي شعور بالتحيز في اللون موجه ضد جيرانهم الأكثر سمرة في الجنوب .

ولقد وضع الاسلام التقوى كقاعدة أساسية بديلة للون والجنس، والقرآن كان ضد القبلية والعنصرية وأحل العقيدة بديلاً من العنصرية ، ولقد قال المقوقس لبعض المسلمين : كيف ترضون ان يتزعمكم رجل أسود . قالوا له رغم انه أسود فهو أفضلنا منزلة وذكاء وحكمة « لأن السواد غير مزدرى بيننا » . وما يزال هذا المعنى واضحاً في مجتمع الاسلام حتى ان ماكوم اكس الزنجي الافريقي المقيم في الولايات المتحدة يقول في مذكراته : لقد كان هناك عشرات الآلاف من الحجاج من كل أقطار الدنيا ، كانوا من كل الألوان، من الشقر زرق العيون ، الى الأفارقة سود البشرة ، ولكنا جميعاً كنا نشارك في نفس الطقوس مبدين روح الوحدة والاخوة التي ساقتني تجاربي في أمريكا الى اعتقاد انها لن يمكن ان توجد بين البيض وغير البيض .

« وفي مجتمع الاسلام في الحج : حيث لا يشعر أي أحد بأي تمييز ، لا توجد عقدة الاستعلاء ولا عقدة النقص . فان الذين هم من جنس واحد يتجاذبون الى بعضهم إرادياً وطبيعياً » .

●

ولم يقف الاسلام عند حد طرح فكرة الاخوة العالمية الانسانية كمذهب فكر . ولكنه طبقها كمنهج حياة فان الفاتحين المسلمين ما لبثوا ان اندمجوا في الأمم التي فتحوها وربطوا بينهم وبين جميع العناصر والأجناس برباط المصاهرة والاندماج ، وجعلوا وحدة الفكر والعقيدة والدين ومنهج الحياة أساس الوحدة الحقيقية .

( ٧ )

منح الاسلام البشرية المنهج العلمي التجريبي ومنهج المعرفة المتكامل القائم على الترابط بين الروح والجسد ، ولقد نزل الاسلام محرراً للعقل مكرماً للانسان وسرعان ما انتقلت مفاهيمه شرقاً وغرباً حتى وصلت الى أوربا التي لم تعتنقه ديناً ولكنها تأثرت به فكراً وعلماً وثقافة ومنهجاً غيّر كثيراً من مفاهيمها وطبيعة حياتها ونظام مجتمعها .

لقد حرر الاسلام الفكر الاوربي من وثنية الفكر الاغريقي ومن عبودية المجتمع الروماني ومن تفسيرات الأديان التي لا يقبلها العقل او تقرها الفطرة . وهو الذي حرر العقل الاوربي وأخرجه من نفوذ الكنيسة وأسرارها . ومن كل ما يتصل بالأساطير والسحر والخرافة .

وهو الذي أعطى البشرية «التجزئة» وكان الفكر اليوناني قاصراً على «القياس» وأول من علم العالم كيف تتفق حرية الفكر مع استقامة الدين .

ولا ريب ان نظريات الحرية والتقدم والعدل الاجتماعي تبلورت من بعد أن استمدت أسسها من الاسلام. ثم تشكلت من بعد وفق طوابع ومجتمعات الغرب . وأبرز ما قدمه الاسلام : أخلاقية الحياة والاجتماع والسياسة ، ومفهوم الرحمة والتسامح والعطف مع أهل الكتاب والعدالة مع المسلمين .

ولقد كانت دعوة الاســـلام الى تمدين البشرية بتكريم الانسان وإلغاء العبودية . وتحرير الفكر وفي نفس الوقت كانت دعوته الى العلم مصدراً لبناء الحضارة . ولقد جعل الاسلام القيم الخلقية عماد بناء الحضارات ، فاذا ما انهارت هذه القيم انهارت الحضارة . وقد جعل الصدق والمساواة والتواصي بالحق وتطبيق العدل على المسلم وغير المسلم والصديق والعدو عماد الحضارة . وأي حضارة بغير مدنية مستمدة من الإيمان بالله والعدل الاجتماعي والإخاء الانساني هي حضارة مادية معرضة للسقوط والانهيار ، وان سقوط الاخلاق هو أول أسباب سقوط الحضارات . «**وإذا أردنا أن نهلك قرية أمرنا مترفيها ففسقوا فيها فحق عليها القـــول فدمرناها تدميراً**» وبذلك فان أعظم ما أعطاه الاسلام لأوربا وللبشرية :

= المدنية في تحرير الانسان وتمدين البشرية = الحضارة في بناء المنهج التجريبي

ولا ريب ان ثورة اوربا على الكنيسة انما كان مصدرها هو اتصالها بالحضارة الاسلامية في الأندلس وتأثرها بمظاهر الحرية الفكرية والاجتماعية التي يتمتع بها المسلمون «ولقد لبثت أوربا ثلاثمائة سنة تقتبس من الإسلام : اللغة والعلوم[(١)]» . ويبدو أثر الاسلام واضحاً في خروج كثير من الغربيين على تعاليم الكنيسة وتمسكهم بمبدأ حرية الفكر ، وتحكيم العقل على أساس المشاهدة والتجربة . والمعروف ان رجال الدين قد[(٢)] دسّوا في كتبهم الدينية المقدسة تعليقات بشرية ومسلمات عصرية عن التاريخ والجغرافيا والعلوم الطبيعية ، لم تلبث ان تعارضت مع ترقي العلم . فقد جعلوا الدين في وجه العلم الحديث بمعانيه الجديدة المعارضة لما دوّنوه . ومن ثم نشأت أزمة الخلاف بين الدين والعلم . ولم يلبث الدين ان انهزم في هذه القضية .

---

(١) من بحث لاتيان دينيه .

(٢) ماذا خسر المسلمون للندوي .

لقد اضطهدت الكنيسة العلم في وقت بدأ علماء الطبيعة والعلم بزيلون سلاسل التقليد الديني فزيفوا هذه النظريات الجغرافية وانتقدوها ، في صراحة تامة . وأعلنـــوا اكتشافاتهم العلمية ، فقامت قيامة الكنيسة وقام رجالها المتصرفون فاستحلوا دماءهم وأموالهم وأنشأوا محاكم التفتيش التي تعاقب أولئك الملحدين والزنادقة الذين هم منتشرون في المدن وفي البيوت فاجتهدت ان لا تدع في العالم النصراني عِرقاً ينبض ضد الكنيسة وبثت عيونها في طول البلاد وأحصت على الناس الانفاس . وقد عاقبت هذه المحاكم ٣٠٠ ألف أحرق منهم اثنان وثلاثون ألفاً أحياء ، منهم العالم الطبيعي برونو وعوقب العالم الطبيعي جاليلو بالقتل لأنه كان يعتقد بدوران الارض حول الشمس . وليس أدل على مقاومة النصرانية للعـــلم من انها أحرقت كتب البطالسة والمصريين بالاسكندرية على عهـــد جول قيصر ، ثم ان نيوفيل بطريرك الاسكندرية أحرق باقي المكتبة ، وما من عقيدة ظهرت في المسيحية وأريد تقريرها من فريق دون فريق ونازع فيها فريق إلا سالت الدماء ، ولا يوجد في التاريخ ذكر للعلم بعد ظهور المسيحية . وبدأ النزاع بين العلم والدين في أوربا بعد ظهور الاسلام واستقرار سلطانه في الاندلس واحتكاك الاوربيين بالمسلمين في الحروب الصليبية . وأنشئت محاكم التفتيش وحرق الكودينال اكسمينس في غرناطة ثمانيـــة آلاف كتاب عربي بخط القلم . وقد رأت النصرانية ان علوم الأوائل خطر عليها فأحرقتها في كل مكـان : مكتبة الاسكندرية عام ٣٩٠ الميلاد ، مكتبة القسطنطينية عام ٤٧٦ للميـــلاد . وعمل ( لاون اللوزرياني ) على إحراق ما بقي من الكتب ٧٤٠ ميلادية .

وكان في هيكل أبولون بمدينة روما مكتبة من أنفس الكتب في عهد أوغسطوس فأحرقت وحرم الناس منها وبقي نزر قليل من الكتب هي التي أحياها العرب والتي اعتصروا ما فيها من علوم اليونان فحرروها وصححوا أخطاءها وانطلقوا منها الى بناء المنهج التجريبي الذي أهداه الاســـلام

للحضارة العالمية . » وكان الاتجاه الى المنهج التجريبي الذي يصطنع الملاحظة والتجربة في دراسة الظواهر الجزئية ، توطئة لوضع القوانين العامة التي تفسر الوقائع الكونية[١] .

ومن رواد هذا المنهج : جابر بن حيان والحسن بن الهيثم . وقد اهتم علماء المسلمين بنقد المصادر وتحليلها والإبانة عن أخطائها ومغالطاتها . وتحدثوا عن الملاحظة الحية وأنكروا دورها في دراســة الظواهر الطبيعية . وأوصوا بإجراء التجارب العلمية متى تيسر ذلك ، والصعود من الدراسة التجريبية للظواهر الجزئية الى وضع قوانين عامة تفسر هذه الظواهر . ومع تمكن المسلمين من وضع القوانين العامة التي تفسر الظواهر . فقد كانوا يديرون ذلك في إطار الإيمان بالله . ذلك ان حضارة الاســلام لم تقم على العلم وحده ، ولكنه العلم في إطار العقيدة ، وان قيم الاسلام لم تكن حائلة دون التقدم العلمي ، بل كانت على العكس من ذلك مصدراً من مصادرها . فقد جمع الاسلام بين حرية الفكر واستقامة الدين .

ولقد بلغ المسلمون في خطواتهم العلمية مدىً واسعاً . فقد استطاعوا تصحيح أخطاء ابقراط وجالينوس ، خطأ ( ابن النفيس ) جالينوس وقال ان التشريح يكذبه ، وصححوا أخطاء طب ابقراط وفلك بطليموس وصيدلية ديسفوريدس ، وفلسفة أرسطو نقدوا آثارها وفحصوا حقائقها في ضوء الملاحظة الحسية والتجربة العلمية .

وقد فطن[٢] المسلمون قبل أن يفطن المحدثون الاوربيون الى عـــدة أمور :

---

(١) توفيق الطويل — العرب والعلم .

(٢) بتصرف عن بحث الدكتور توفيق الطويل .

أولا : الى قصور الحواس عن إدراك بعض الظواهر لفرط صغرها ، او بعدها . فعوضوا قصور الحواس باختراع أجهزة وآلات تمد في قدرتها على الإدراك . ( وكان ابن الهيثم يستعين في دراسة انتشار الضوء وانعكاساته بآلات يقوم بصنعها او يشرف على صنعها ) .

كما خلف ابو القاسم الزهراوي مئات الرسوم لآلات تستخدم في الجراحة والتخثير وترك علماء المسلمين في الفلك مراصد مزودة بعشرات الرسوم لآلات وأجهزة .

ثانياً : الاهتداء الى التجربة العلمية ومعرفة دورها في البحث العلمي . فلم يكتفوا بمراقبة الظاهرة وتسجيل حالها ، بل تدخلوا في سيرها ليلاحظوا في ظروف هيؤوها بأنفسهم وأعدوها بإرادتهم . وسماها (جابر) : التدريب وسماها (ابن الهيثم) : الاعتبار .

ثالثاً : فطنوا فوق ذلك الى ان الغرض من الدراسات التجريبية هو وضع القوانين العامة التي تفسر الظواهر تفسيراً علمياً[1]. وبالجملة فقد قرر الاسلام دستور العلم : دعا الى عدم الانخداع بالأوهام او قبول الظن ، ودعا الى اعمال العقل وسؤال أهل الذكر وإنكار التقليد وحرية النظر . وقد أطلقت الدولة الاسلامية الحرية للعلم ، وكفلت لأهله الأمان بينما أدخلت أوربا العلماء في زمرة المارقين من الدين ، وقدمتهم لمحاكم التفتيش، وخاصة بالنسبة لنظرية دوران الارض التي كانت موضع أخذ وردّ بين علماء العرب ، ولا يعرف ان أحدهم أصابه ضير بسبب تأييده او معارضته لها[2] .

---

(١) نفس المصدر .

(٢) نفس المصدر .

ولقد كان العلماء في العالم الاسلامي موضع التقدير والتكريم . وكانت حرية الفكر تسمح بأن يقول كل باحث ما يشاء دون ان يتعرض لأي خطر ، ولقد ظل الحلاج ( وهو رجل مجوسي الأصل اشتغل بالمخاريق والحيل وادعى العلم بالأسرار ) دون ان يتعرض له حتى ضبط بينـــه وبين الجبائي رئيس القرامطة اتفاق سري على قلب الدولة فكان هو السبب الحقيقي في محاكمته .

وقد بلغ الخلفاء بالعلم والعلماء منزلة التقديس ، وسار الملوك المسلمون على سنن واحدة في نشر العلم والحث عليه وإعزاز أهله ، والبذل لهم ، وبناء المدارس وخزائن الكتب . وبلغـــوا في ذلك غاية ليس وراءها غاية [٣] .

ولا ريب أن العلم لم يرتق في أوربا إلا بفصل الدين عنه بينما العكس في الاسلام . فان رقي العلم كان مصدره الاسلام نفسه الذي دعا الى النظر في آفاق السماء والارض . واعتماد البرهان والدليل ، وقد سمي دستوره الكتاب وكانت أول آياته اقرأ وأقسم الله في إحدى سوره بالقلم وانه هو سبحانه الذي علم بالقلم .

•

لقد كانت أوربا خالية تماماً من العلم في فترة العصور الوسطى . يقول الدكتور توفيق الطويل : لا يعدو الحق من يقـــول ان العلوم الطبيعية

---

(١) عبد الوهاب عزام – (الرسالة ١٩٤٤) .

والفلسفية لا وجود لها في حياة اليهود منذ مطالع القرن الثاني حتى أواخر القرن الثالث عشر لميلاد المسيح إلا في بلاد الاسلام ، ففي ظل سماحة ورعاية خلفائه نبغ اليهود حتى بلغوا الذروة[١]. وان الحضارة في الأندلس قدمت للبشرية منجزات رائعة ، كان بالربض الشرقي من قرطبة ( ١٧٠ امرأة ) كلهن يكتبن المصاحف بالخط الكوفي . وكان في الأندلس أيام الحكم الثاني المستنصر سبعون مكتبة عامة[٢] . وان في كل الاندلس لم يكن يوجد رجل أمي بينما لم يكن يعرف الكتابة والقراءة في أوربا كلها إلا الطبقة العليا من القسس[٣] . كانت أوربا تذخر بالجهـــل بينما كانت الأندلس تحمل أمانة العلم . وكان شارلمـان وغــيره يحاولون ان يتعلمـوا كتابة أسمائهم[٤] .

•

وعلى هذه الحقيقة يشهد كثيرون يقول فون كريمر : ان العقل العربي يبدو في ذروة نشاطه حين يكون في حقل المعرفة التجريبية ، يباشر دراسة في ضوء الملاحظة والاختبار ، فالعرب يبدون نشاطاً واجتهاداً يثيران الدهشـــة حين يقومون بملاحظات الظواهر وتمحيصهـا وجمعها وترتيب ما هدتهم اليه التجربة . ولما كانوا أصحاب ملاحظة دقيقة ،

---

(١) بحث الدكتور توفيق الطويل .

(٢) المعجب في تلخيص أخبار المغرب .

(٣) دوزي .

(٤) هونكي : شمس الله .

وأهل تفكير مبدع أصيل ، حققوا في مجال الرياضيات والفلك نجاحات رائعـة .

●

ويقول سيديو : الحركة العلمية عند العرب تتميز بالانتقال من المعلوم الى المجهول والتحقيق الدقيق في ظواهر السماء . ورفض كل حقيقـة كونية لم تثبت إلا عن طريق الملاحظة الحسية .

ويصل بريفولت في كتابه : ( Making of Hwnanitiy ) الى الذروة حين يقرر : ليس ثمة ناحيـة واحدة من نواحي الازدهار الاوربي يمكن إرجاع أصلها الى مؤثرات الثقافة الاسـلامية بصورة قاطعة . فان هذه المؤثرات توجـد أوضح ما تكون وأهم ما تكون في تلك الطاقة التي تكون ما للعلم الحديث من قوة متميزة ثابتة . ان ما يدين به علمنا لعلم العرب ليس فيما قدموه لنا من كشوف مدهشة لنظريات مبتكرة فحسب ، بل مدين هذا العلم الى الثقافة العربية بأكثر من هذا : « انه مدين لهـا بوجوده نفسه » . وهو نفس القول الذي يردده سيديو ويفصله جوستاف لوبون في قوله : كلما أمعنا في دراسة حضـارة العرب وكتبهم العلمية واختراعاتهم وفنونهم ظهر لنا ان العرب هم الذين فتحوا أوربا الحديثة مادة وعقلاً وأخلاقاً . وان التاريخ لم يعرف أمة أنتجت ما أنتجوه في وقت قصير .

ومن هنا تقرر حقيقتان متشابكتان :

الأولى : انه لا علاقة مطلقاً بين حضارة اوربا الحديثة والمسيحية .

الثانية : ان التمدن الاسلامي هو في الحقيقة « التمدن الانساني » .

ويصدق في هذا قول العلامة مسمر : ان الغربي اذا صار عالماً ترك دينه بخلاف المسلم فانه لا يترك دينه الا اذا صار جاهلاً .

●

# الفصل الرابع

## بناء المجتمع والانسان

لا ريب ان معظم معطيات الاسلام هي بناء الانسان وتكريمه وإعزازه بتحرر عقله بالتوحيد ، وتحرير كيانه من العبودية ، ثم وضعه في مكانه الذي يجعله قوة قادرة على البناء والتعمير والمقاومة ، رابطاً بين واجب الانسان تجاه الله وواجبه تجاه نفسه وواجبه تجاه أخيه الانسان .

والاسلام لا يعتبر الانسان مجرد كائن حيّ ، بل يضعه في منزلة رفيعة هي : الاستخلاف في الأرض .

يقول إقبال : «ان التوراة تلعن الارض بسبب معصية آدم بينما يبين القرآن ان الارض دار سكن للانسان ومصدر ربح له » فاذا انحط الانسان فليس بسبب خطيئة آدم ، وإنما بسبب الأعمال السيئة التي ارتكبها هو نفسه ، وكل طفل يولد على الطهر والحق ،وكل زيغ يزيغه بعد ذلك عن طريق الحق والاستقامة يرجع الى خطأ في تربيته . قال النبي ﷺ : كل مولود يولد على الفطرة . ثم أبواه يهودانه او ينصرانه او يمجسانه ، ومصير الانسان حسب ما تقرره

أعماله . لأن كل فرد مسؤول عن مصيره ، فالاسلام يمنح البشر الحرية في ان يختار بين السير في طريق الاخــلاق او التراجع او النكوص . والانسان هو المخلوق الوحيد الذي وضع موضع الابتلاء بالأمانة : وهي حرية الإرادة او الاختيار ، والانسان هو الذي انفرد دون الكائنات بخاصيــة التفكير والجدل والمسؤولية الفردية والمسؤولية الاخلاقية ، ومواجهة الصراع بين الخير والشر ، والحق والباطل . وهي معركة متصلة طول حياته كلها .

وكانت دعوة الاسلام أساساً انما ترمي الى تحرير الانســان من شهوات النفس ومن عبودية الناس .

وقد بلغ الاسلام في تكريم الانسان حداً لم تعرفه من قبله المذاهب والدعوات ، فحرم [illegible] النفس ، وحرم التمثيل بالانسان عند قتله ، وجعل عقوبة الانسان بالقتل في جريمة واحدة هي : جريمة القتل العمد ، ومع ذلك فقد جعل لوليّ المقتول سلطاناً . فلا يسرف في القتــل ، بينما كانت عقوبة الاعدام في اوربا عند نزول الاســلام لأسباب كثيرة منها : الزنا والسرقة والكذب . وأعلن انه لا يجوز المثلة ولو بالكلب العقور . وجعــل نظرة التقدير للانسان من حيث هو انسان لا من حيث لونه او ثروته او جنسه فجعل الاسلام للانسان حرية اختيار عمله ، وحرية ارادته ، ومسؤوليته عن هذه الأعمال وما يترتب على الحرية والمسؤولية من جزاء . وجعل من حق كل انسان إبداء رأيه ومع حرص الاسلام على تحقيق المصلحة العامة للمجتمع فقد احتفظ لكل فرد بفرديته . ودعا الى المحافظة والتوازن بين مصلحة الجماعة ومصلحة الفرد . ومعنىهذا ان الفرد ليس حراً في ان يفعل ما يشاء ، ولكن حريته تنتهي عندما تبدأ حرية الآخرين .

وأعظم ما أعطى الاسلام : التوازن بين المادة والروح . وحق الانسان في الحياة ونعيمها وفي تحقيق رغباته في الطعام والشراب والمرأة والمال ، فقد منحه هذا الحق وأحاطه بضوابط هيلمصلحة الانسان وكيانه وعقله وروحه .

وبذلك حرر الانسان من الاحساس بالحرمان او الصراع بين الرغبات والموانع. يقول محمد أسد : (ليوبولد فابس) في هذا المعنى : « تجد الاسلام وحده من بين الاديان يتيح للانسان ان يتمتع بحياة الدنيا الى أقصى حد من غير تضييع اتجاهه الروحي دقيقة واحدة ، ليس في الاسلام خطيئة أصلية موروثة وليس من أجل ذلك ثمة غفران شامل للانسانية . ان كل مسلم رهين بما كسب . والاسلام ينظر الى الحياة في هدوء واحترام . ولكنه لا يعبدها ، ان النجاح المادي مرغوب فيه ، ولكنه ليس غاية في نفسه ، بل يقود الانسان نحو الشعور بالتبعية الأدبية في كل ما يعمل ،والغاية من جميع نشاطنا العملي يجب ان تكون خلقية » .

وقد كان هذا التركيز من الاسلام على النفس الانسانية هو ما أهمل أشد الاهمال وكان موضع الازدراء بتأثير الكنيسة في العصور الوسطى « التي ذهبت في تضليل العقول مذهباً بعيداً فزعمت ان الانسان شرير خاطىء بالطبع ، وعلمت الانسان ان فيه نزعة من الشيطان . لقد عكست الكنيسة غاية الدين الذي لم يأت إلا لتوطيد ثقة الانسان بنفسه وتمكين اعتقاده بحاضره ومستقبله[1] والاسلام في نفس الوقت هو الذي كشف للانسان عن الإجابة عن تساؤله الخطير : لماذا جئنا ، وإلى أين نذهب ، وما هي مهمتنا في الحياة . وأعطى في ذلك منهجاً كاملاً واضحاً لا يستطيع العقل البشري بوسائله المحدودة مهما تعددت محاولته ان يجد القدرة على ان يصل اليها .

ثم هو قد حرر الانسان من ذلك الاحساس الذي يستفيض في الفلسفات القديمة بالعراك بين النفس الانسانية وبين القدر . وكشف عن ان هذا العراك شيء وهمي ، وحرر الانسان من الخوف من الموت والمجهول ، وحرر الانسان من الدعوة الى كبت النوازع الجسدية ومقاومة رغائب الجسد والنفس ،

---

(١) من بحث في الرسالة سنة ١٩٣٧ .

وذلك بالانصراف عن الدنيا واعتزالها ، والعكوف على الزهادة والرهبانية ، وكشف عن ان ذلك معارض لطبيعة الحياة وللفطرة الانسانية ، ودعا الى ممارسة الحياة لا للانصراف عنها في إطار الضوابط والحدود الطبيعية . وأعلن ان الغرائز الجنسية ركبت في الانسان . ولا بد من ممارستها بعيداً عن الإفراط والتفريط . فالافراط يقهر العقل حتى يصرف همة الرجل الى الاستمتاع بالنساء والجواري فيحرمه ذلك من ان يكون مقاتلاً في مواجهة خصومه او عاملاً في سبيل سلوك الآخرة . والتفريط يدفع الانسان الى اقتحام الفواحش ، وتحقيق الغاية عن غير طريقها الطبيعي . وبذلك حرر الاسلام مجتمعه من طابع الانهزامية او اليأس او الضعف او التمزق او التشاؤم الذي نراه في الفكر الاوربي نتيجة تلك الآثار . كما حرر مجتمعه في نفس الوقت من عبادة الشهوة وعبادة الأجسام وعبادة اللذات .

( ٢ )

ان تكريم الاسلام للانسان قد وضع في إطار غاية كبرى هي بناء المجتمع ، وإذا كان الاسلام قد ركز على بناء الفرد فانما استهدف من ذلك بناء مجتمع متكامل قوامه "لبنات" قوية تمثل كل منها فرداً مؤمناً .

ولقد رسم القرآن للفرد المسلم المؤمن صورة الانسان الممتاز بتربيته وتكوينه على طاعة الله والصلاة والصوم والزكاة، وفي منطلق الأمانة ورعاية العهد وقوة الخلق وسلامة التفكير ولقد انفرد الاسلام بأنه رعى الفرد وكرمه في إطار المجموعة فيما ركز على ضمير الفرد المسلم وحمله منفرداً مسؤولية عمله: **« ولا تزر وازرة وزر أخرى » « كل امرىء بما كسب رهين »** .

ثم وضع ذلك النموذج في إطار المجتمع : **« والمؤمنون والمؤمنات بعضهم من بعض »** ولم يذهب الاسلام مذهب من أعطوا الفرد الاهتمام بلا حدود ، كما انه لم يذهب مذهب من أفنوا صورة الفرد في المجتمع ، ولما كان أفراد المجتمع هم نتاجه في نفس الوقت ، وكلهم تجمعهم دعوة الله . فان وحدة الهدف أمر يأتي بلا اجتهادات داخلية في المجتمع ، ويتم الترابط بين المؤمنين وينصرفون الى أعمالهم تلقائياً بتصرف رجل واحد **« إنما المؤمنون**

الذين آمنوا بالله ورسوله وإذا كانوا معه على أمرٍ جامع لم يذهبوا حتى يستأذنوه » .

•

ويصور العامري[1] هذا المفهوم فيقول : يعطي الاسلام أهميـة كبرى للانسان كفرد في مجتمع ، ويؤكد حاجته الى التقدم المستمر . وبذلك يحرر طاقاته الخلاقة كلها (فكرية وعقلية وعملية) لتنطلق في خدمة تقدمه كإنسان، وفي خدمة المجتمع ككل بدون السماح لعائق ما ان يقف في وجهها ولا سيما العائق الطبقي الذي يحكم على الانسان باعتبار الطبقة الاجتماعية التي ينتمي اليها ، لا على أساس مواهبه وقدراته ، ومدى ما يمكن ان يقدم للمجتمع من خدمات .

« وهنا يتميز الاسلام عن المجوسية والزرادشتية ، فقد كان ملوك الفرس بتأثير دينهم يقسمون الناس الى طبقات ويحكمون عليهم بالانساب لا بالأعمال ويحرمون عليهم الترقي ، من طبقة الى طبقة ، وبذلك حجروا على كثير من المواهب والطاقات وعاقوها عن ان تعمل وتبتدع ، لأنهم جردوها من حوافز العلم والابداع » .

واعتبر الاسلام ان الشرف والضعة أمران نسبيان . وان كل أفراد المجتمع الاسلامي تستحق الطاعة والاحترام بقدر ما تحمل من المسؤولية على أساس هدف واضح هو : إقامة مجتمع متماسك تسوده المحبة والولاء ، وتحرم فيه أسباب القطيعة والعداء .

لذلك يوجب الاسلام المحافظة على ولاء النسب ـ ولاء العقد ـ ولاء الدين. كما حمى المجتمع الضعفاء من جهة التركيب (النساء) ومن جهة السن (اليتامى)

---

(١) عن ملخص لسراية من كتاب (الاعلام بمناقب الاسلام) للدكتور عبـــد القادر محمود .

ومن جهة المعاش (الفقراء) ومن جهة الرقبة (العبيد) ومن جهـــة الوطن (الغرباء وأبناء السبيل) وحث الاسلام على رعايتهم ومعاملتهم كأعضاء في مجتمع متكامل .

●

ولا ريب ان من أعظم معطيات الاسلام قاعدة ان المجتمع الاسـلامي يكفل أبناءه من العجزة والضعاف والفقراء تكافلاً متكاملاً ، وانه لا يطالب كما طالبت مجتمعات أخرى باستئصال الضعفاء والمرضى وبناء السوبرمان .

## (٣)

قدم الاسلام للبشرية مجموعة من القيم : الحق ، العدل ، الرحمة ، العفو ، التقوى ، البر ، الإحسان ، الصدق ، الصبر ، الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر ، التكافل . وأعطى الانسان حقوقاً متعددة منها : الحياة الحرة ، المساواة ، العمل ، الإخاء ، العلم ، الملكية .

ووضع الاسلام حدوداً : الربا ، الزنا ، قتل النفس ، شرب الخمر ، السرقة . ووضع الاسلام نظماً ثابتة هي : نظام الأسرة ، نظام الميراث ، نظام الجرائم ، نظام السلم والحرب ، نظام البيع .

وقد وضع كل هذه النظم في إطار الاخلاق ، فالاسلام عقيدة وشريعة وأخلاق هي متكاملة لا تنفصل ، متوائمة لا تتجزأ ، ومن أجل ذلك جعل المجتمع الاسلامي بمثابة عقد مشاركة وتضامن بين أفراده ، الأقوياء والضعفاء والأغنياء والفقراء ، وقد حث على رعايتهم جميعاً . وبذلك عارض نظريات الجنس الممتاز ، وقتل المرضى والضعفاء . ولعل أروع صورة لوصف علاقة المجتمع بالفرد والفرد بالمجتمع ، تلك الصورة التي رسمها النبي : جماعة ركبوا سفينة في عرض البحر ، ثم عمد واحد من أهل الطابق الأدنى الى خرقها لإدخال الماء ، فان تركوه يعبث بالسفينة غرقوا ، وان وقفوا في وجهه أنقذوا السفينة ونجوا جميعاً .

ويقدم الاسلام فكرة التقوى في مقابل فكرة السعادة كما يقدم فكرة التضحية في مقابل فكرة الرفاهية .

ومهمة الانسان في الحياة = العمل وهدف العمل = عمارة الأرض، وحدود العمل تقوى الله على أن يكون عمل المستخلف لا المالك ، والعمل كله لحساب الله تعالى أعطى الاسلام البشرية فكرة الحق .

( ٤ )

وفكرة الحق قاعدة أساسية جاء بها الاسلام في مواجهة الهوى والجمود والتقليد ومواريث الآباء والأجداد الباطلة . وفي مواجهة الرأي القائم على الظن . فالاسلام يطالب بالدليل والبرهان ويدعو الى النقد والتمحيص . وبذلك كانت دعوة الاسلام الى تحرير الانسان من كل عقدة سوى التوحيد والارتفاع فوق الباطل او التوسل الى الاشخاص والاصنام والأوثان لما في ذلك من الشرك والإهانة للانسانية .

●

وأعطى[١] الاسلام البشرية حق الحياة : فالله هو واهب الحياة للانسان فمن حق كل فرد أن يعيش ويستمتع بحياته بعد خطر يهدده ، ومن هنا فان انهاء الحياة يجب ألا يكون إلا الله « **ولا تقتلوا النفس التي حرم الله إلا بالحق** » .

وقد زيف الاسلام ما كان يجري من محاولات لإنهاء الحياة قبل الاسلام بالانتحار ، او قتل الأبناء خشية الفقر ، او وأد البنات خوفاً من العار .

---

(١) راجع مقال في الانسان — للدكتورة بنت الشاطىء .

وقد أكد الاسلام حق الانسان في الحياة منذ أكثر من أربعة عشر قرناً ، وقبل ان يقول روسو وجون لوك وهوبز وكوندرسيه وجيفرسون ان الناس خلقوا متساوين ، بل ان كل ما قاله هؤلاء مستمد من القرآن أساساً . كما أعطى[1] الاسلام البشرية حق الحرية : فكان الاسلام دين الحرية وليس دين الجبر . وحيث لا تناقض بين القول بحرية الانسان في الاختيار والعقل ، وبين القدرة الإلهية .

والحرية هي حريات : حرية الاعتقاد ، الحرية العلمية ، الحرية السياسية ، الحرية المدنية ، الحرية الاجتماعية ، كما أعطاها حق المساواة : والمساواة في الاسلام مبدأ أساسي وحق طبيعي للانسان . فالله هو الذي خلق الناس جميعاً ، ومن ثم فهم جميعاً سواء بالنسبة لله ، لا فرق بين هذا وذاك الا بالعمل الصالح والتقوى . « **إن أكرمكم عند الله أتقاكم** » [ ان ربكم واحد ، وان أباكم واحد ، كلكم لآدم وآدم من تراب ، ان أكرمكم عند الله أتقاكم ، ليس لعربي على عجمي او عجمي على عربي ولا لأحمر على أبيض ولا لأبيض على أحمر من فضل إلا بالتقوى ] وقال إقبال : لقد حطم الاسلام أصنام الدم واللون والجنس .

ويقول لويس ماسينون : ان لدى الاسلام من الكفاية ما يجعله يتشدد في تحقيق فكرة المساواة ، وليس في مجتمع آخر له مثل ما للاسلام من ماض كله النجاح في جمع كلمة مثل هذه الشعوب الكثيرة المتباينة على بساط المساواة والحقوق والواجبات .

ويقول رين انج : استطاع الاسلام التغلب على التعصب الجنسي بدرجة لم يبلغها أي دين آخر او عقيدة أخرى .

---

(١) نفس المصدر .

ويقول توينبي : ان إخماد جذوة التعصب الجنسي والنعرة العنصرية بين المسلمين هي من أهم منجزات الاسلام الحضارية .

●

وأهدى الاسلام البشرية : العدل ، فالناس جميعاً أمام الله والقانون سواء، لا فرق بين حاكم ومحكوم ، وغني وفقير ، قريب او عدو « **فاحكم بين الناس بالحق ولا تتبع الهوى** » « **ولا يجرمنكم شنآن قوم على ألا تعدلوا اعدلوا هو أقرب للتقوى** » .

ويبدو ذلك واضحاً في عبارة النبي ( انما هلك من كان قبلكم انهم كانوا اذا سرق فيهم الشريف تركوه ، واذا سرق فيهم الضعيف أقاموا عليه الحد. وايم الله لو ان فاطمة بنت محمد سرقت لقطع محمد يدها ) .

والشريعة عدل الله بين عباده ورحمته بين خلقه .

( ٥ )

من أعظم معطيات الاسلام في مقارنات الأديان : الاخلاق من حيث هي عملية لا نظرية . ومن حيث انها قاسم مشترك على كل القيم والتصرفات ، وهي بمفهوم الاسلام متممة لمكارم الاخلاق التي عرفتها البشرية من قبل ( انما بعثت لأتمم مكارم الاخلاق ) أخرجه البيهقي في السنن .

ومن هنا كان منهج الأخلاق في الإسلام مختلفاً عن منهـــج اليونان وعن الاخلاق المسيحية . فالاسلام يقرر ثبات الاخلاق وارتباطها بالفرد . ويجعل من الدين والاخلاق حقيقتين لا تنفصلان ، فليس هناك انفصال بين النظرية والسلوك العملي ، ولا يمكن ان تتحرك الاخلاق إلا في إطار عقائدي أصيل لا تنفصل عنه ، وقد رفض الاسلام فكرة القول بأن الانسان ابن غرائزه ، وقال انه ابن عقيدته . فقد بدل الإسلام الناس وطبائعها تغييراً جذرياً ، وأثبت قدرة العقيدة الصحيحة على تغيير النفوس . وفي الاسلام تنبعث الاخلاق من عنصر ثابت هو الكيان الانساني ذاته وليس من متغيرات المجتمع او تطورات الحضارات .

والانسان في الاسلام منفرد متميز عن الحيوان ، ومن ثم فله مقاييسه المختلفــة .

●

وطابع الثبات في الشريعة والاخلاق أساس مكين لقدرة الانســان على مواجهة التغيرات، والقاعدة انقوانين الله لا يمكن تغييرها ، فهي ليست ناتجة من ظروف المناخ ولا من البيئة الاقتصادية . ولا تختلف من زمن الى زمن ، او من مكان الى مكان **«فلن تجد لسنة الله تبديلاً ولن تجد لسنة الله تحويلا»** .

ويرجع هذا الى طبيعة الانسان التي لا تتغير . فالحوافز الانسانية لم تزل هي نفسها اليوم كما كانت منذ فجر الحياة البشرية ، وكذلك الغرائز التي هي محور عمل الانسان لم تزل باقية كما هي . وكذلك صفات الإيثار والشرف والصدق والشجاعة لا تزال .

•

ويختلف الاسلام في هذا عن الاديان الاخلاقية ( البوذية والبرهمية ) هذه الأديان التي قامت على الضمير والأخلاق وعلى فعل الخير . هذه الأديان[1] « لم تحل مشكلة الكون الكبير ولم تشبع الجانب الأعلى من النفوس البشرية . وهو جانب التطلع الى السر الأكبر الذي يخبئه هــذا الكون ، وقد ترك بعضها الناس يعكفون على عبادة الأوثان والأصنام والحشرات ، ويهيمون في عبادة القوى المادية والروحية ، ويعيشون في ضياع بين الرموز والغموض وتهويمات الخيال وشطحات الأوهام ، ويهـدمون بذلك عقولهم وإنسانياتهم أمام معبوداتهم من الحجارة والخشب والبقر والثعابين والجعلان » .

أما الاسلام فقد ربط العقيدة بالأخلاق ، وجعل حركة الاخلاق في إطار العقيدة . وقد عرف[2] الإســلام ( وهو من أديان العبادات والشعارات والفروض المرسومة ) . عرف الضعف البشري في الأكثرية الساحقة من

---

(١) عن دراسة للاستاذ محمد عبد المنعم خلاف .

(٢) نفس المصدر .

الناس ، فلم يجعل مناط الخلاص من تبعة الدين في نقاوة الخلق او استقامة السلوك ، بل جعل مناطه الإقرار بالخالق الواحد والاعتراف بحكومته في الكون وبشريعته في الحياة : لقد أقر الإسلام العقيدة، ولم يغتفر أي انحراف عنها ، لأنها الأساس في الدين ، وجعل كفارات كثيرة للسقوط في الذنوب والآثام . وقرر ان الحسنات يذهبن السيئات ، وفتح باب التوبة بالندم على الذنب . وجعل مناط العمل والجزاء هو الاقرار والاعتراف بالخالق وتفرده بالربوبية وبلقائه يوم الجزاء . وأخلاق الإسلام : أخلاق تقوى لا أخلاق سعادة . والتقوى من الوقاية : وهي بحسب المصطلح الشرعي لها جعل النفس في وقاية مما يخاف ، وشرعا امتثال الأوامر واجتناب النواهي .

ولا ريب ان الاخلاق فطرة من فطرة الانسان التي صاغه الله سبحانه وتعالى عليها « والانسان هو الكائن الوحيد الذي ينزع بمحض إرادته الى مجاهدة ميوله ورغباته ، وضبط دوافعه ونزواته والتحكم في أهوائه ، والانصراف في كثير من الحالات عما يشتهيه . والنفور من واقعه والتطلع الى ما ينبغي أن يكون في ظل المثل الأعلى الذي يميز الانسان عن سائر الكائنات[1] » .

●

والسعادة في مفهوم الاسلام تختلف عنها في مفاهيم الأديان ، ذلك ان الاسلام جعل السعادة في الدنيا والآخرة معاً ولم يقصرها على الحياة الاخرى وحدها كما ترى المسيحية .

« والاسلام مع حرصه على الدعوة للآخرة وتزيينها للناس لم يهمل أمر الدنيا ، ولم يهمل النص على ضرورة التمتع بالمباح من مباهجها وطيباتها ، ولم

---

(١) من بحث لتوفيق الطويل عن المثل الأعلى .

يقل ان السعادة تقتضي محاربة الجسم واستئصال شهواته كما زعم المتزمتون من الكلبية والرواقيين . ولم يجعل السعادة تمتعاً بلذات الحياة وتحقيق المنافع كما ذهب أمثال الفورينائية قديماً ودعاة المنفعة حديثاً . وانما أقر الاسلام الجمع بين الدنيا والآخرة فاحترم مطالب الروح ، وقدر مطالب الجسم اذا لم تجاوز حد الاعتدال . « **وابتغ فيما آتاك الله الدار الآخرة ولا تنس نصيبك من الدنيا** » .

ويروي الدكتور توفيق الطويل الصراع الطويل بين الفلاسفة والأديان حول السعادة . فريق يتصورها في حياة يسيطر فيها العقل على نداء الحس ، ويغلو في نزعته ، حتى يرى ان كمال السعادة انما يكون بإثارة حرب ضروس بين العقل والجسم تنتهي باستئصال الميول . ووأد الرغبات وقمع الشهوات ومحاربة العواطف والمشاعر والوجدانات حتى يبدو الانسان وكأنه روح بغير جسم او عقل بغير مادة ، وتتهيأ له حياة تقوم على الزهد والتقشف والحرمان ( ومن هؤلاء الكلبية والرواقية وكانط ) . وفريق آخر يصور السعادة في حياة تشرق بالمتع والملذات ويحقق مصالح الفرد كأنه جسم من غير روح ، ويجاهر بأن نداء الجسم هو صوت الطبيعة ، فمن الضلال أن يستحي الانسان من رغبته (ارستيوس) ، ومنهم من سخر بالمثل العليا التي دعا اليها المثاليون من الاخلاقيين ، وجاهر بأن الغيرية أنانية مقنعة ، وان الاخلاق تستهدف اسعاد المجتمع ، ولا يستقيم هذا بغير الاثرة . وتوكيد الذات وإغفال مزاعم المثاليين مما سموه بالواجب (بنتام ثم فرويد وسارتر) وهي بهذا تبدو محاولة جسم من غير روح او روح من غير جسم : حياة روحية خالصة او مادية خالصة . ولقد جاء الاسلام يؤكد خطأ الاتجاهين : لأن الطبيعة البشرية لا تبدأ من الانحراف الذي يعد مرضاً في حين تبدو كلاً متكاملاً يجمع بين العقل والجسم في سمط واحد ، بحيث لا يقضي سلطان العقل على نداء الجسم ، ولا يغلب نداء الجسم على سلطان العقل . وان محاربة الجسم وقمع الرغبات واستئصال

الميول ينتهي في العادة بعقد نفسية واضطرابات عصبية .

فالأدنى الى الصواب ان ينظم الانسان مطالب جسمه بهداية العقل دون ان يعمل على قتل جانبه الحسي الذي يكون جزءاً من طبيعته .

ولذلك دعا الاسلام الى التكامل بين الروح والمادة والعقل والجسم، ودعا الى المجاهدة في سبيل التمسك بمبادىء الإيمان والاخلاق وتحقيق رغبات النفس في نفس الوقت في حدود الاعتدال وفي إطار الضوابط التي رسمها الدين .

وقد اعتبر الاسلام إعلاء أحـــد الجانبين نقصاً وخطأ . وقد رفض الإعلائين : إعلاء اللذات والشهوات ، وإعلاء الرهبانية والزهادة . ودعا الى جامع بينهما كريم معتدل .

## (٦)

ولقد جاءت الشريعة الإسلامية مستمدة من الفطرة ملتقية مع العقل والطبيعة البشرية بما حرصت عليه من التوازن في الحقوق بين الفرد والجماعة، وموضوعية الأحكام والتجرد من العصبية والعاطفة والهوى والقرابة واصرارها على فكرة العدل والحق المطلق، مع مرونتها بالنسبة للأزمان والبيئات المتغيرة.

وقد جمع تشريع الاسلام بين مصالح الدنيا والآخرة، واعتبر ذلك أصلاً من أصول الإسلام كما جمع بين الدين والدولة، حيث لا عزلة بين الدين والدنيا.

وتلك قاعدة من أرسخ قواعد الإسلام ومقوم من أعظم مقوماته، وعامل من عوامل التمييز بينه وبين الأديان الأخرى التي قامت على العقيدة وحدها. او الاخلاق وحدها.

ولما كان الاسلام قد جاء بشريعة ( قوانين وأحكام تنظم شؤون الحياة ) فقد كان طبيعياً ان يعنى بإقامة دولة وحكومة تقوم على تنفيذ هذه الشريعة «**أفحكم الجاهلية يبغون ومن أحسن من الله حكماً لقوم يوقنون**». ومن شأن وجود الشريعة أن تكون هناك قوة تنفذها، وفي القرآن آيات واضحة الدلالة ان الإسلام دولة الى جانب كونه عقيدة او ديناً «**إنا أنزلنا اليك**

**الكتاب بالحق لتحكم بين الناس بما أراك الله » « فلا وربك لا يؤمنون حتى يحكموك فيما شجر بينهم »** .

وقد أقام الرسول دولة في المدينة استوفت شرائط الدولة وأركانها [١] . وقد وضع الرسول الخطوط العريضة لدولة إسلامية كاملة ( أنظمة إدارية وقانونية وعسكرية ) .

وقد وضع الاسلام مبادىء عامة تتعلق بنظم الحكم هي : الشورى والمساواة والحرية والعدالة . وقد أقام الإسلام الحياة في مجتمعه على أساس طلب الغلب والشوكة .

يقول الإمام محمد عبده : ان الناظر في أصول هذه الديانة (الاسلام) ومن يقرأ سورة من كتابها المنزل يحكم حكماً لا ريبة فيه بأن المعتقدين بها لا بد أن يكونوا أول أمة حربية في العالم وان يسبقوا جميع الملل الى اختراع الآلات الحربية وإتقان العلوم العسكرية ، والتبحر فيما يلزمها من الفنون ( كالطبيعة والكيميا والهندسة ) **« وأعدوا لهم ما استطعتم من قوة»** .

أما الديانة المسيحية فقد بنيت على المسالمة والمياسرة في كل شيء، وجاءت برفع القصاص واطراح الملك والسلطة ونبذ الدنيا وبهرجها ووعظت بوجوب الخضوع لكل سلطان يحكم المتدينين بها . وترك أموال السلاطين للسلاطين ، والابتعاد عن المنازعات الشخصية والجنسية بل والدينية. ومن وصايا الإنجيل من ضربك على خدك ...

وان الدين المسيحي جاء الممالك الاوربية مسالماً لعوائدهم ومذاهب عقولهم.

---

(١) دكتور عبد الحميد متولي : أزمة الفكر الاسلامي .

وداخلهم عن طريق الإقناع ومسارقة الخواطر ، لا من مطارق البأس والقوة فكان كالطراز على مطارفهم ولم يسلبهم ما ورثوه من أسلافهم[١] .

ومن أجل هذا المفهوم كان الإسلام ديناً ودولة ومنهج حياة ، ولكن الإسلام حرص على ان لا تكون له مؤسسة تتحدث باسمه ، او وصاية ، او وكالة من رجل دين او من غيره . فلا يوجد في الاسلام ما يماثل سلطان الكنيسة والبابوية في المسيحية . فالاسلام لا كهانة ولا وساطة فيه بين الخلق والخالق وليس في الإسلام ما يسمى عند قوم بالسلطة الدينية بوجه من الوجوه ، فان لكل مسلم ان يفهم عن الله من كتاب الله ، وعن رسوله من كلام رسوله بدون توسيط أحد من سلف ولا خلف ، وانما عليه قبل ذلك ان يحصل من وسائله ما يؤهله للفهم[٢] .

ولم يكن المسلمون يسمون حكم الرسول ملكاً ، وإنما يسمونه إمامة . والخلافة عرفوها بأنها نيابة عن الرسول في حراسة الدين وسياسة الدنيا . ويذكر التاريخ الى أي حد بلغ سلطان الاستبداد بالبابوات وغيرهم من رجال الكنيسة . فقد بلغ البابوات من القوة والسلطان بحيث لم يكن هناك الى جانبهم سلطة أخرى تبلغ من القوة حداً يستطيع معه ان يوقف سلطة البابوات عند حدها .

يقول فيشر في كتابه « تاريخ اوربا في العصور الوسطى (جـ ١) » : ان رجال الدين لم يكن لهم فلسفة في الدولة وأصول الحكم ، بحيث تحدث في السياسة الرومانية او المجتمع الروماني شيئاً من التعديل . « ذلك انهم أيقنوا ان الدنيا متاع الغرور والشرور وتعلموا ان الانسان طريد جنة الخلد . وحق عليه العذاب المقيم ، وتعلموا ان هذه الدنيا لا تلبث ان تزول . واذا كان

---

(١) الاسلام والنصرانية : للشيخ محمد عبده .
(٢) دكتور عبد الحميد متولي : أزمة الفكر الاسلامي .

الأمر كذلك ، فما الذي يحمل المسيحي على إلغاء الرق او الحرب او الربا او استعمال القوة الغاشمة التي ساعدت الدولة الرومانية على النهوض ما دام كل ذلك مقضياً عليه بالزوال » .

ويرجع ذلك الى ان المسيحية قد فصلت بين الدين والدولة . ولذلك فانها عجزت عن ان تعمل على شيء من الاصلاح في المجتمع الروماني ، وهذا هو مصدر الانشطارية العامة في الفكر الغربي .

أما الاسلام فلا يوجد فيه آية او كلمة تدل دلالة تنبه على الفصل فيما بين الحياة الدنيا والحياة الآخرة ، ولا ما بين الدين والدولة ، والاسلام بعكس ذلك . قد شرع مبدأ القصاص كما شرع مبدأ الجهاد[1] .

---

(١) عبد الحميد متولي : حملة القانون والاقتصاد سنة ١٩٦٤ .

# (٧)

كذلك أقام الإسلام المجتمع على أساس التجارة والانفاق بدلاً من الربا والاكتناز ، وجعل التقوى أساس أخلاقية التجارة والتعامل ووضع نظامي الزكاة والميراث لتصفية تضخمات الثروة وللحيلولة دون قيام دولة من الاغنياء وبذلك حفظ المجتمع من أخطار الاحتكار والمضاربة ، وحفظ التوازن الاقتصادي . كما دعا الى التضامن الاجتماعي ، وجعل الزكاة مؤسسة التكافل ، وأقر الملكية الخاصة وحماها ، وحرم الربا والاحتكار ، وأقام الحرية الاقتصادية ذات الضوابط الاخلاقية ، وجعل العمل هو أساس الثروة والغنى ، حيث لا يسمح الإسلام بالتفاوت الكبير في الثروة والدخول، وحيث لا يقر الإسلام الطبقية .

وقد جمع منهج الاقتصاد الاسلامي بين المصلحتين الخاصة والعامة، وجعل مناط الحركة حكماً هو المصلحة ووفق بين مصلحة الفرد ومصلحة الجماعة ، وقدم المصلحة العامة على مصلحة الفرد ، وجمع بين المصالح المادية والحاجات الروحية ، وخاصة الإحساس بالله تعالى ومراقبته في كل تصرف . ودعا الى الارتباط بين ما هو مادي وما هو روحي ، وجمع بين عناصر الثبات والتطور .

ومن هنا كان المذهب الاقتصادي الاسلامي عاماً شاملاً ، لا يرتبط بمرحلة

تاريخية معينة كالمذاهب الوصفية ، ولا يقتصر على صورة تطبيقية معينة ، وعالج المنهج الإسلامي للاقتصاد مشكلة الفقر وقرر بأن ليس للتاريخ مفتاح واحد هو العامل المادي ، بل له عوامل كثيرة . ولكن الاسلام يعنى بالعامل المادي ولا يهجره ، وجعل الاسلام أساس العبادة تأمين الناس في حياتهم المعيشية .

وقرر الاسلام ان الانسان من حيث الانتاج مستخلف في الأرض ، وان العمل والانتاج عبادة وان المال مال الله ، والبشر مستخلفون فيه ، ولكل حد الكفاية أولاً . ثم لكل تبعاً لعمله ، والاسلام لا يسمح بالغنى إلا بعد كفالة حد الكفاية ، كما لا يسمح بالتفاوت الفاحش في الثروة او الترف[١] وان الزكاة بحسبانها الضمان الاجتماعي هي الركن الثاني في العقيدة بعد الصلاة. وان في المال حق آخر سوى الزكاة . وفي حديث الترمذي : ان في المال حقاً سوى الزكاة . فالزكاة هي الحد الأدنى في المال .

ويشجب الاسلام جميع الأرباح التي تنجم عن إلحاق الضرر بالمجتمع كالسرقة والقمار وبيع الخمور ، والأمور التي تحصل من الربا والحظ بلا تعب ولا سعي تعد محرمة . ولا يجوز القيام بها او ممارستها باسم الحرية الاقتصادية، لأن هذه الحرية في الإسلام ليست مطلقة بل إنها موجهة في حدود مصلحة الإنسان والمجتمع في آن واحد ، هذا الى جانب تحريم الاستغلال والاحتكار والاكتناز في الإسلام .

---

(١) ملخص عن بحث الدكتور الفنجري ( مدخل الى الاقتصاد الاسلامي ) .

( ٨ )

ان تحريم الربا قاعدة أساسية صلبة في الإسلام . وليس هناك من منطلق بالتفسير ، او التأويل يستطيع ان يقول بغير التحريم ، ولا عبرة مطلقاً بما يقال من أن تحريم الربا يحول دون التصنيع او ازدهار الصناعة . فان هذه الأمور كلها يمكن ان تتم دون المساس بهذا الركن الركين .

ولا ريب ان الربا نظام معارض لرسالات السماء ، وهو بالطبع معارض لسلام البشرية وتقدمها . وقد حملت لواءه اليهودية التلمودية ، وسيطرت به على المال العام ومصارفه . وما زال الربا هو العامل الخطير في استنزاف ثروات المسلمين باسم القروض والفوائد .

وقد جاء الاسلام ليحارب طغيان الربا في معركة مقدسة « **يا أيها الذين آمنوا اتقوا الله وذروا ما بقي من الربا إن كنتم مؤمنين . فان لم تفعلوا فأذنوا بحرب من الله ورسوله فان تبتم فلكم رؤوس أموالكم لا تظلمون ولا تظلمون . وإن كان ذو عسرة فنظرة إلى ميسرة وأن تصدقوا خير لكم إن كنتم تعلمون** » .

ولقد أقر بأثر الربا الخطير في المجتمعات الغربية غير قليل من الباحثين ، بل ان لوردكبتس وصل الى حد ان نسب اليه كل المخاطر فقال : من الممكن أن تنسب جميع الآفات الاجتماعية الى الربا .

( ٩ )

من أعظم معطيات الاسلام . عقيدة القدر الاسلامية ، هذه العقيدة التي جعلت المسلمين يتقدمون ويتغلبون على المخاطر مؤمنين بأنه « **لن يصيبنا إلا ما كتب الله لنا** » .

« فقد آمن المسلمون[١] بأن كل شيء يخلقه الله ويعلمه ، ولكن الله لم يضطر أحداً الى الخير اضطراراً . ولم يجبره على الشر إجباراً ، وإنما أعطاه العقل المميز ودلـّه على الطريقين المختلفين ، وانه قدر الأرزاق بلا زيادة ولا نقصان ، وحدد الآجال فلا تقديم ولا تأخير . فما كان لك سوف يأتيك على ضعفك ، وما كان لغيرك لن تناله بقوتك . فاذا جاء أجلك فلا تستقدم لحظة ولا تتأخر ،فمضوا لا يهابون الموت في سبيل الله ولا يخافونه لأنهم آمنوا إيماناً باتاً بأن المرء ليس أدنى الى الموت ، وهو في غمار المعركة الحمراء منه في كسر بيته وبين أهله » .

---

(١) من بحث قدساد علي الطنطاوي .

(١٠)

وقد أقام الاسلام التوازن بين الروح والمادة : « وأعطى[١] الاسلام أهمية كبيرة للقوة المادية التي أهملتها بعض الأديان . او قللت من شأنها ، وطالب بضرورة توفيرها لتقدم المجتمع وحريته ، وكذلك يعطي الاسلام أهمية كبيرة للقيم الروحية .

واذا كانت اليهودية قد غالت في تقدير القوة المادية وغالت المسيحية في الناحية الروحية ، فان الاسلام هو دين التوازن الحق بين الناحيتين على أساس ان كليهما عنصر أساسي في الطبيعة البشرية ، وأن كليهما لا غنى عنه لتقدم الانسان .

والأديان التي تحرم على أهلها اقتناء المال ، وتحثهم على اعتزال الناس تسلبهم في الواقع وسائل القوة وتعوقهم عن مكارم الاخلاق : القوة مادية او روحية ليست شراً او خيراً في ذاتها ، بل تعتمد على طريقة استعمال الانسان لها وتأثيرها يتجدد بالهدف الذي تستخدم له لإسعاد الناس وتقدمهم او لاستعباد الناس وإشقائهم » .

●

---

(١) العامري : الإعلام بمناقب الاسلام .

وميزة الإسلام أنه ليس فكرة تجريدية . ولكنه منهج إصلاح جامع بين الروح والمادة حيث «لا يتملق الإسلام النفس الانسانية ، ولا يترضى الجوانب الوضيعة فيها ، وانما يحاول ان يجعل قوتها على احتمال الألم والتضحية بوقوفه على الغايات الكبيرة والمطالب العالية » .

وقد فصلت بعض الأديان بين الروح والمادة . وغالت بعضها في المادة ، وغالت الاخرى في الجانب الروحي . « واليهودية بلغت فيها الذروة في الاتجاه المادي، والمسيحية محاولة مباشرة الى حل مشكلة الحياة عن طريق إنكار الحياة ، وبوذا على ما في نظرياته الاخلاقية من سمو ونبل يرينا ان الوجود شقاء ، وان نشدان الخلاص انما يكون عن طريق ( الزافانا ) حيث تخمد الرغبات وتفنى المطالب وتموت الأهواء ، هذه النظرية التشاؤمية التي تغري بنبذ الحياة والاعراض العام عن الدنيا تميز الكثير من الاديان القديمة » .

●

ومن أهم مآثر الإسلام التي تميزه عن سائر النظم : « التوفيق[1] التام بين الناحية الخلقية والناحية المادية من الحياة الانسانية » .

يقول العلامة محمد أسد : « وهذا سبب من الاسباب التي عملت على ظفر الإسلام في ابان قوته أينما حل، لقد جاء الاسلام بالرسالة الجديدة التي لا تجعل احتكار الدنيا شرطاً للنجاة في الآخرة ، هذه الخاصة الظاهرة في الاسلام تخلد الحقيقة الدالة على ان نبينا كان شديد الاهتمام بالحياة الانسانية في كلا اتجاهيها : في المظهر الروحي والمظهر المادي . ونحن نجد الاسلام أسمى من سائر الأنظمة الحديثة . لأنه يشمل الحياة بأسرها ، انه يهتم اهتماماً واحداً بالدنيا والآخرة ، والنفس والجسد والفرد والمجتمع .

---

(١) الاسلام على مفترق الطرق .

« ونجد الاسلام وحده من بين سائر الأديان يبيح للانسان ان يتمتع بحياته الدنيا الى أقصى حدّ من غير تضييع اتجاهه الروحي دقيقة واحدة . ليس في الإسـلام خطيئة أصيلة موروثة ، وليس من أجل ذلك ثمة غفران شامل للانسانية . ان كل مسلم رهين بما كسب ، والاسلام ينظر الى الحياة بهدوء واحترام ، ولكنه لا يعبدها . ان النجاح المادي مرغوب فيه ، ولكنه ليس غاية في ذاته ، بل يقود الانسان نحو الشعور بالتبعة الادبيــة في كل ما يعمل والغاية من جميع نشاطنا العملي يجب ان يكون خلقياً » .

# الفصل الخامس

## الاسلام والأديان

أطلق الاسلام العقل الإنساني من قيوده التي كانت تأسره حول المعابد وبين أيدي الكهنة ، من ذوي الاديان المختلفة ، فارتفع الى مستوى الاعتقاد بالله الواحد الأحد ، وبحياة وراء هذه الحياة .

فقد حرر الاسلام البشرية من عبادة قوى الطبيعة وعبادة التعدد وعبادة النار والحيوانات المقدسة . وأعلن البعث والجزاء ، وفرق بين الله والطبيعة ، ورفض سقوط التكليف ونظريات الفيض والإشراق والاتحـــاد والحلول ، وأحل صيد الحيوان وما أحله الله من لحم الطير . كما نقل البشرية من الوحشية والهمجية والعبودية والظلم الاجتماعي والاستعلاء بالعنصر والعرق الى كرامة الانسان والتفاضل بالتقوى والعمل . وأثبت وحدة الجنس البشري ، وان الناس لآدم وان آدم من تراب .

وأعطى البشرية المنهج الاجتماعي القائم على العدل والكرامة والرحمة ، وأخلاقية الحياة وتكامل العبادة والشريعة في إطار الأخلاق .

وقد رفض الاسلام الخرافات الوثنية والاساطير وتعدد الآلهة وطابع الإباحة كما حرر الفكر الاوربي من وثنية الإغريق .

كما أنكر الاسلام التناسخ . وقرر ان الروح كائن مستقل بجسم فهو يحاسب على ما ارتكب هذا الجسم ويتم الحساب بعد ان يعترف الإنسان بأخطائه .

●

أقام الاسلام الإخاء البشري والوحدة الانسانية : ودعا الى المساواة بين الناس على اختلاف ألسنتهم وألوانهم في الحقوق والواجبات . وبذلك محا العصبية البغيضة ، وقضى على النعرة العرقية ووسع الاسلام دائرة الجنسية بشريعته الى التساوي بين الأمم والملل اذا قبلوا حكمها . وقد كانت جنسية المصريين مصر ، واليونانيين أثينا ، والرومانيين روما . ودعا الى الترابط بين واجب الانسان تجاه الله وواجبه نحو أخيه الانسان .

●

خلص الاسلام المجتمعات الفارسية والفرعونية والوثنية والرومانية والهندية من رجال الدين الذين حجروا على العقول ، واستعبدوا الفكر ، ومن الملوك الذين قسموا المجتمعات الى طبقات ووضعوا أنفسهم في القمة .

●

قرر الإسلام أحكاماً ثابتة وركائز عامة هي بمثابة قوانين دعم الشخصية الانسانية وحمايتها ووضع الضوابط التي تحول دون انهيارها . وخاصة بالنسبة الى الربا والزنا والخمر والوثنية . وسمح فيما عدا ذلك بالاجتهاد والتطور ومجاراة العصور والبيئات .

●

( ٢ )

قد أجرى الدكتور حسين نصر هذه المقارنة بين الاسلام والأديان قال : « ان أقدم الاديان السامية هو الدين اليهودي . وأحدثها الاسلام » الموسوية شريعة والعيسوية طريقة . والاسلام جمع الشريعة والطريقة معاً ، ولذلك يسمى الاسلام الدين الحنيف : جمع بين الظاهر والباطن . ومحا ذلك التحديد الذي بدأ مع ظهور الدين اليهودي والمسيحي ، وأعطى الدين من جديد شمولاً ، وكشف الحقيقة التي نزلت منـــذ أول لحظات الخلق الأولى وهي ( حقيقة التوحيد ) . أصل كل المذاهب والاديان الحقيقية وأساسها في جميع العصور الخاليــة .

والاسلام ظل فيه التعادل بين الظاهرية والباطنية بخلاف المسيحية التي فقدت التوازن ، وتمكنت الشريعة والطريقة في الاسلام أن تحافظا على تقاربهما . ولم تستطع أية قوة القضاء على هذا التعادل الذي وجد منذ مطلع ظهور الاسلام والذي هو رمز بقائه ، وقد نبه جميع علماء المسلمين على هذه الملاحظة وأقروا ان الطريق الوحيد الى الحقيقة هو حفظ التعادل بين الشريعـة والطريقة ، والظاهر والباطن .

«وبذلك اكتسب الاسلام قدرة وشيوعاً لا مثيل لهما وحاز شخصية عالمية عرف بها بين الأديان فكان الوحي المحمدي الذي هو آخر هذا العهـــد

التاريخي للبشر – جامعاً للديانات السابقة من جهة رجوعها الى أصل الوحي ومبدئه من جهة أخرى، ففي الأديان الهندية الحقيقة الباطنية مخيفة ومكتومة عن أنظار العامة . ومن أركان الدين الهندي (البرهمي) أن ينقسم المجتمع الى أصناف او صفات ، وأحكام الدين الهندي تعم بجوانبها المختلفة كل الطبقات. ولكن البراهما وحدهم توصلوا الى معرفة كل الحقائق والرموز » .

●

( ٣ )

وقعت اليهودية تحت سلطان الفكر البابلي القديم . ووقعت المسيحية تحت سلطان الفكر الإغريقي (مثالية أفلاطون ومنطق أرسطو) .

أما الاسلام فقد استطاع ان يشكل منهجه كاملاً من القرآن قبل الاتصال بالفلسفات والنحل المختلفة .

●

ويقول درابر : يختلف الاسلام عن النصرانية اذ أنه ( أي الإسلام ) قضى على منافسة الوثنية قضاءً تاماً . ونشر عقائد خالقه ، أما المسيحية فقد دخلت على مجتمع مشكل فعلاً ، وشاركت فيه من غير أن تتمكن من قطع دابر الوثنية . وكان البعض يرى ان الديانة الجديدة ستزدهر اذا حطمت ، ولصقت بالعقائد الوثنية القديمة . وكان نتيجة ذلك ان اختلطت مبادئها ، ونشأ من ذلك دين جديد تتجلى فيه النصرانية والوثنية سواء بسواء .

●

وكذلك قاومت المسيحية هجوم الفلسفة الغنوصية الشرقية مقاومة

عنيفة[١] ولكن الغنوص استطاع أن يغزوها غزواً شديداً . فسيطر على طائفة من أعظم المفكرين منهم القديس كليانس والقديس أوريجـــان . وللغنوصية تأثير على فيلسوف المسيحية او لاهوتيها القديس أوغطنوس . أما الإسلام فقد قابل الغنوص في فتوحاته وأغلق أبوابها .

●

(١) من بحث للدكتور علي سامي النشار .

( ٤ )

يقول العلامة صلاح الدين السلجوقي في المقارنة بين الأديان : اليهودية تدعو الى توحيد ينطلق من فكرة الله الواحد الأحـــد ، ولكنها انحرفت فعبدت الإله : إله إسرائيل .

والنصرانية منذ كانت دين التوحيد قبل أن تعد دين التثليث . وجاء الاسلام وسطاً فطرياً : يخاطب العقل واللب والعاطفة والإحساس ، يقف موقفاً وسطاً يؤلف بين القومية والانسانية .

رسالة الاسلام ترى ان دين الله في جميع الأزمان وعلى ألسنة جميع الانبياء واحد بجوهره . الديانات كلها واحدة بالأصل ، وأصبحت بالإسلام لأنه يضم شتاتها ويقوم ما اعوج من أصولها لدى اتباع اليهودية والنصرانية . يقف موقف التوسط بين غلو الطرفين المتناقضين فيدعو الى قومية انسانية ليست مغلقة عنصرية كاليهودية . ولا مثالية زاهدة أقرب الى الخيال منها الى التزام الانسان بظروف وجوده ومعاشه كالديانة المسيحية . وبدأ حمل العرب لرسالة خير الأمم : الأمة الوسط .

فالديانة الاسلامية لم تلح على الجانب الدنيوي وحده كما فعلت الديانة اليهودية بوجه الإجمال ولم تلح على الجانب السماوي وحـده كما فعلت الديانة

المسيحية . بل سعى الاسلام سعياً ذاتياً الى الجمع بين الدين والدنيا ، والتأليف بين السلطة الروحية والسلطة الزمنية معاً .

« لم يعط الاسلام ما لقيصر لقيصر ، وما لله لله » بل نظر الى الوجود المرئي واللامرئي نظرة شاملة جامعة موحدة ، وأقام على مبدأ التوحيد نظام فكروسياسة .

## (٥)

ان أوربا حين تتحـدث عن فكرها تذكر اليونان والرومان ثم تقول : وجاءت المسيحية ، فهي حلقة من حلقات تاريخها . أما العرب فانهم يعتبرون ان تاريخهم الحقيقي بدأ من الاسلام ، أمة وفكراً وحضارة .

والمسيحية ككل دين منزل: عقيدة وشريعة، وان كانت لم تأت بتفصيلات تشريعية . فذلك لأن شريعتها الاساسية كانت التوراة مع التعديلات التي نزلت على عيسى ، ولكن الذي حدث بالفعل وعلى الرغم من النفوذ الذي زاولته الكنيسة في أوربا الوسطى : كان لا يحـكم الا القانون الروماني . فالمسيحية في الاساس ليست ديناً عالمياً وانما هي رسالة متممة لرسالة موسى .

يقول بول فاليري : ان المسيحية التي انتشرت في أوربا هي مسيحية القديس بولس . وقد جاءت المسيحية بأخلاقية ذاتية ، وعملت على توحيد هذه الاخلاقية جنباً الى جنب مع الوحـدة القانونية التي أنشأها القانون الروماني .

ويقول : لعل ما ندين به لليونان هو ما يميزنا عن بقية البشرية . نحن مدينون لليونان بما في عقلنا من ضبط ونظام ، نحن مدينون لليونان بأسلوب في التفكير يميل لربط جميع الاشياء بالانسان وهكذا تبدو المسيحية في أوربا

جزءاً من حياتهم بينما الاسلام في العرب هو كل حياتهم ، ولا حياة اجتماعية ولا فكرية لهم بدونه .

يقول ول ديورانت : ان المسيحية لم تقض على الوثنية بل ثبتتها ، ذلك ان العقل اليوناني المحتضر عاد الى الحياة في صور جديدة من لاهوت الكنيسة وطقوسها . وأصبحت اللغة اليونانية التي ظلت قروناً عدة ، صاحبة السلطان على السياسة والأدب ، والطقوس المسيحية ، وانتقلت الطقوس اليونانية الخفية الى طقوس القداس الخفية الرهيبة ، وساعدت هذه مظاهر أخرى من الثقافة اليونانية على احداث هذه النتيجة المتناقضة الاطراف ، فجاءت من مصر آراء الثالوث المقدس ويوم الحساب وأبديّة الثـــواب والعقاب وخلود الإنسان . ومنها جاءت عبادة أم الطفل ، والاتصال الصوفي بالله ، ذلك الاتصال الذي أوجد الافلاطونية الحديثـــة والأردية وطمس معالم العقيدة المسيحية[١] .

وفي الأصل جاءت المسيحية لبني اسرائيل لتصحيح أوضاع شاذة ذاعت عندهم . فقد تكالب اليهود على المال وحاولوا جمعه بمختلف الطرق فجاءت المسيحية تدعو الى الزهد لتكسر حدة هذا الجشع . وكان التحدي والانتقام طابع العلاقة بين طوائف اليهود . فجاءت المسيحية تقول بالتسامح ، ولو بقيت المسيحية على وضعها هذا ديناً لبني اسرائيل يدعوهم للزهد لكسر حدة التحدي عندهم . انها ديانة جاءت في ظروف خاصة ولجماعة خاصة ، ولكن بولس نقلها الى العالمية . فقد قرر بولس ان المسيحية ليست مذهباً يهودياً ، بل هي دين جديد ، وان عليها ان تجعل دعوتها مفتوحة لغير اليهود من جميع الامم ، ولو أدى ذلك الى التساهل في بعض التشريعات والطقوس التي تضايق

---

(١) قيصر والمسيح ص ٢٧٦ .

الوثنيين كالختان والسبت وتحريم الخنزير[1] وان نظرة واحدة الى موقف بولس من نظام الامبراطورية الرومانية ليدهش لمحاولة إخراج المسيحية عن هدفها الاصيل . فقد طلب بولس من العبيد ( بعد أن دخلوا في النصرانية ) ان يطيعوا سادتهم ، وأن يخدموهم بأمانة وإخلاص مهما عذبوهم او قسوا عليهم ، وان يخضع الكل للسلاطين والحكام من غير تذمر او احتجاج . ومن هذا التحول بدأ ذلك التناقض بين دعوة المسيحية الى القصر والزهد ، وما عرفته أوربا من تكالب على الثروة والاستعمار . وهذا التباين الواضح بين ما تدعو اليه المسيحية. وما أصبح اليه معتنقوها في أوربا وأمريكا .

ويصور هذا المعنى دائرة المعارف البريطانية حين تقول : « ان تاريخ المسيحية وتعدد الكنائس وشيع المسيحيين وفرقهم ولد الشعور لدى الباحثين انه ليس للمسيحيين شيء يشتركون فيه سوى الأمم » ويبدو هذا التناقض في وقائع كثيرة من تاريخ المسيحية . محاكم التفتيش ، وسلطة البابوات ، ومعركة سانت بارتلمي بين الكاثوليك والبروتستانت ، وروح التعصب في الدعوة الى الحروب الصليبية . وذلك كله نتيجـــة تأثرها بالتلمودية . فقد انتقلت المسيحية من حركة اجتماعية قوامها الرحمة والبر والحب الى سطوة أباطرة روما عن طريق الكنيسة .

وبالرغم من محاولة لوثر نتيجة لتأثر أوربا كلها بمفاهيم الإســلام ، فان البروتستانية لم تستطع ان تفعل شيئاً . فقد بقيت الكاثولوكية والبروتستانية كلاهما يعتقد بالتثليث وألوهية عيسى والخطيئة فلم تستطع البروتستانية ان تتحرر منها .

فلما جاء المنهج العلمي التجريبي الاسلامي وغزا أوربا أيقظها من غيبيات

---

(١) عبده فراج : معالم الفكر الفلسفي .

المسيحية . وكشف أن الديانة المسيحية بحسب ما صورها الكهنة لا تتفق مع العقل المستنير الذي يحدب ويحلل ويستنبط . فقد بدأت حملة ضخمة في الهجوم على فكرة التثليث ووصفها بالتعقيد ، وكذلك فكرة الانصراف عن الدنيا . واهتزت المسيحية في نفوس الغربيين نتيجة تحكم الكنيسة ، هـــذه الغيبيات المسيحية التي هاجمها الفكر الغربي ليست بالقطع موجودة في الفكر الاسلامي .

ومضت العقلية الغربية تتحرر بتأثير مفاهيم الإســلام ومنهجه العلمي التجريبي من سلطان اللاهوت الكنسي الذي قام رقيباً على النفوس والعقل .

وكانت فلسفة نيتشه ورينان بمثابة رد فعل عنيف ضد الاخلاق المسيحية. وكانت الدعوة الى تحرير الانسان من التقيد بالأخلاق المسيحية لأنها أخلاق الأذلاء .

يقول أنيس فريحة : لم تتقــدم أوربا فكراً او ثقافة او علماً أو اقتصاداً الا بعد أن ثارت على سلطان الكنيسة وتحررت منه تحرراً تاماً .

( ٦ )

أما الاسلام فقد رفض فكرة الرهبانية والهروب من الحيـــاة والسلبية والانطوائية ، وكان أول من دعا الى التحرر من قيد الجهل والخرافة والتقليد.

جاء الاسلام حاكماً على المدنيات ولم يجيء محكوماً بها ، وكانت له قدرته على مواجهة الأزمات والتحديات وقدرته على إعادة تشكيل نفسه وتحرير أصوله من أي اضطراب في حيوية وتفتح ومحافظة على الاصول وقدرة على الحركة من خلال المتغيرات .

أعطى الاسلام البشرية اجابات واضحة كاملة عن كل ما تتعرض له من معضلات ، وأقام ذلك التوازن الواضح بين القيم المختلفة : الجهاد والعبادة والانفاق والمباحات والممنوعات .

كان الاســـلام حركة اجتماعية واسعة تشمل الاعتقاد والدولة والنظم الاجتماعية والاخلاق ، وكانت اصالة الاسلام واضحة في انه رفض ويرفض كل عنصر غريب عليه . وقد أثبت الاسلام انه أكثر قدرة على علاج مشاكل البشرية الكبرى . وفي كل هذا كان للاسلام ذاتيته الخاصة ومقاييسه الخاصة.

ولقد أعطي الاسلام بمفاهيمه الربانية القائمة على الفطرة والعقـــل شحنة ضخمة من القوة والإيمـان والتضحية ، دفعت المسلمين رفعاً الى الآفاق .

وما تزال قدرة الاسلام على تجديد نفسه وإعادة صياغة فكره كلما انحرف هذا الفكر او اصابته دخائل حولته عن جوهره ، وكان دائماً كياناً حياً قادراً على التمدد والعطاء . وآية ذلك قدرة الاسـلام الرائعة على التوسع والتكيف مع المجتمعات المختلفة والعصور المتوالية .

ومنذ ظهر الاسلام لم يتغلب عليه متغلب من الأديان ، وان تغلبت الأمم على أهله . ولا ريب ان أبرز الدلائل على اصالة الاسلام وعالميته واستحقاقه للبقاء والانتشار هو تطابقه مع الفطرة الانسانية وقدرته على العطاء لكل العصور والأزمنة والبيئات . وبروز طابعه الانساني في الإخاء والمساواة .

# البَابُ الرَّابِعُ

# الإسْلامُ والعالَمُ المُعَاصِر

# الفصل الأول

## الاسلام والعالم المعاصر

عندما جاء الاسلام واجهته الأديان بخصومة عاتية ، وبدأ صراع عنيف ، تمثل في حركات الانتقاص التي أثارتها المجوسية الفارسية باسم الشعوبية والباطنية ، وحركات الغزو الذي لم يتوقف من جانب الدولة البيزنطية باسم أوربا المسيحية على أطراف عالم الاسلام . ثم لم يلبث هذا الغزو ان تبلور في الحروب الصليبية على ساحل الشام ومصر . وحروب الفرنجة على ساحل المغرب ، ثم كانت الحملة الاستعمارية التي تدافعت من أوربا الى العالم الاسلامي كله والتي وصلت الى جزائر الملايو والهند وخليج العرب حتى سيطرت على بيت المقدس . وأعلنت أوربا بعد ثمانمائة عام من هزيمة الحروب الصليبية ان هذه الحروب قد انتهت بانتصار أوربا المسيحية على عالم الاسلام والسيطرة عليه سياسياً واقتصادياً وعسكرياً .

ومن ثم بدأ الاسلام مواجهة التحدي الخطير من خلال محاولة السيطرة عليه وتزييف مفاهيمه واثارة الشكوك حول حقائقه ، وإعلاء التبشير

بالمسيحية في بلاده ، ثم زحفت اليهودية الصهيونية الى فلسطين . وأخذت تتدافع من خلال الفكر الأوربي الى عالم الاسلام من أجل إعلاء مفاهيم الوثنية والإغريقية والمادية في محاولة انقضاض كامل وصفه بعض قادته ، انه محاولة لفتح العالم الاسلامي عقائدياً وفكرياً ، واعادته مرة أخرى الى ما كان عليه قبل الاسلام .

تلك هي المحاولة الخطيرة التي يواجهها الاسلام اليوم من خلال التحديات المتسربلة بثوب الاستعمار ومذاهب الاقتصاد والاجتماع وهي في أعمق أعماقها تستهدف استعادة العالم الاسلامي وسحب الارض من تحت الاسلام والجهر بمطالبته بالعودة الى الجزيرة العربية .

ولا ريب ان محاولات العنصرية المبثوثة على نحو واسع جداً في العالم الاسلامي تحت أسماء تخفي حقيقتها من وطنية وقومية وغيرها . انما هي واحدة من هذه المحاولات التي ترمي الى إقامة كيانات أقلية ممزقة تعود في جذورها الى دعوات ما قبل الاسلام من فينيقية وفرعونية وبابلية وآشورية وبربرية وزنجية وذلك حتى تكون يسيرة في القضاء عليها والتهامها .

واذا كانت تجربة بني اسرائيل في النبوة والحكم والملك قد سقطت تماماً بعد ان فشلوا في إقامة الحق والعدل ، وانتهى الأمر بنقل النبوة والقيادة والرسالة والملك والحكم الى بني اسماعيل ، الذين حملوا لواء دعوة الدين الحق ممثلاً في الاسلام ، متكاملاً مع رسالة ابراهيم الحنيفية الاولى وختاماً لها . اذا كانت تجربة بني اسرائيل قد سقطت ، فانها تحاول ان تعود بعد أربعة عشر قرناً من ظهور رسالة الإسلام لتحاول استعادة نفوذ قد عجزت عن إقامة الحق فيه . وقد أعطيت قيادة العالم لأمة أخرى أكثر قدرة على حمل اللواء ، هي الأمة العربية الاسلامية .

ومن هنا تكون المعركة الآن في ذروتها من أجل إظهار الله للاسلام على

الدين كله حيث لا خوف على الاسلام من أي صدام مع أوضاع لا تقوم على الحق ، وإنما تقوم على تفسيرات زائفة ومناهج مصطنعة ، ومذاهب منطلقة من الأهواء والاحقاد على البشرية كلها .

أما الإسلام فانه منذ اكتمل منهجه ، وقبل أن يختار الرسول الرفيق الأعلى ، فانه قد أقا القاعدة التي لا خوف بعدها عليه « **اليوم يئس الذين كفروا من دينكم فلا تخشوهم واخشون اليوم أكملت لكم دينكم وأتممت عليكم نعمتي ورضيت لكم الاسلام ديناً** » .

ولقد ولد الاسلام في أتون الأحداث وفي مجال الصراع وفي مواجهة التحديات ، ولذلك فان محاولات تكذيبه والانتقاص منه وتزييفه وإثارة الشكوك والشبهات حوله ما تزال منذ ذلك اليوم على ألسنة خصومه لم تتوقف ولن تتوقف .

وبالرغم من تلك المواجهة الخطيرة التي يقود العالم كله قيادها ويذكي نارها بين محاورة ومجادلة بالفكر او مقارعة بالسنان . فان الاسلام كان قادراً على أن يثبت بالحق . وفي الساعات العصيبة التي كان وجود الاسلام ينتقص من أطرافه في الاندلس ، او يرغم على مجاورة البلقان في أوربا الى أرضه مرة أخرى ، كان يفتتح أعظم فتوحاته ، ويقتحم أرضاً جديدة في جنوب شرق آسيا وفي قلب افريقيا . وما يزال الاسلام قادراً على النفاذ في آماد الارض لا يتوقف . واذا كان الاسلام قد حول مجرى التاريخ في أوربا وآسيا في العصر الوسيط وعصر النهضة فانه سيستطيع أن يفعل ذلك في افريقيا وان يشكل دوائر جديدة يبث منها كلمة الله كلما تجمعت الأحداث ، وتواترت الخطوب حتى ينصهر في صورته المثلى « **كذلك يضرب الله الحق والباطل فأما الزبد فيذهب جفاء وأما ما ينفع الناس فيمكث في الأرض** » .

واليوم حيث تصل الحضارة الغربية الى أعلى ذراها ، تتطلع البشرية كلها

الى الاسلام ، وترى فيه الترياق الذي يزيل أزمتها ويقدم لها الحل الأمثـل لمعضلاتها المعقدة وقضاياها المثيرة وأزماتها العنيفة . ما زال الاسلام قادراً حقاً على أن يهدي البشرية الى الحـــق ، واذا كانت التساؤلات تتردد في كل مكان . ماذا يستطيع الاسلام أن يعطي البشرية اليوم ، وقد ادلهم الخطب وتعقدت الامور ، ووصلت الحضارة الغربية المادية الى طريق مسدود .

فاننا نقول ان الاسلام قادر على أن يعطيها الكثير لو انها استجابت له ، يستطيع ان يعطيها منهج الحياة الأمثل الذي يحقق الأمن النفسي واليقين ، وان يقدم لها الضوء الصادق الكاشف الذي يبعث السكينة في القلوب والعقول ويقضي على القلق والتمزق .

وفي أحلك ساعات الأزمة التي يواجهها عالم الاسلام من تحديات الاستعمار والتغريب والتبشير . يقول هاملتون جب : ما زال الاسلام في قدرته أن يقدم للانسانية خدمة سامية جليلة . فليس هناك أية هيئة سواه يمكن أن تنجح مثله نجاحاً باهراً في تأليف هذه الاجناس البشرية المتنافرة في جبهة واحدة أساسها المساواة ، فالجامعة الاسلامية العظمى في افريقيا والهند وأندونسيا ، بل وتلك الجامعة الاسلامية الصغيرة في الصين ، او في اليابان لتبين كلها ان الاسلام ما زال له القدرة على أن يسيطر كلية على أمثال هـــذه العناصر المختلفة الاجناس والطبقات ، فاذا وضعت منازعات دول الشرق والغرب العظمى موضع الدرس ، فلا بد من الالتجاء الى الاسلام في حسم النزاع .

●

لقد سقطت كل الدعوات المتعصبـــة التي كانت تدعو الى قرب سقوط الاسلام او تلك التي كانت تقول لا بد ان يعيد الاسلام ما اغتصبه من أوربا

على مدى ألف سنة من سلطان الدولة الرومانية .

لقد تنبأ مستر غلادستون رئيس وزراء بريطانيا في أوائل هذا القرن ان الاسلام لا يطول عمره أكثر من مائتيعام ثم يتلاشى ولو بعث غلادستون حياً اليوم لرأى وهم ما تخيل وكذب ما ادعى .

لقد كان غلادستون يعرف ان المسلمين يقومون على أساس كلمة القرآن وحدها . ولذلك فقد أعلن انه ما دام ذلك الكتاب باقياً في الارض فلن يمكن السيطرة على المسلمين . ومن ثم بدأت تلك الحملات التبشيرية لتنصير المسلمين وحملات الاستشراق لإثارة الشبهات وحملات التغريب لنقل المسلمين الى تابعين وموالين للفكر الغربي . ومع ذلك فقد قاوم الاسلام حملات ابادته وتغييره وتزييفه بقوة ، واستطاع ان يجدد نفسه من داخله فيلتمس منابعه الاصيلة ويستمد منها ويقيم نهضة جديدة ، أما الألف عام التي عاشها العالم الاسلامي في أحضان الامبراطورية الرومانية فانها عجزت عن أن ترده مرة أخرى الى دينها او لغتها .

وتقول مجلة المشرق : لسان المبشرين في لبنان[١]: لقد تركت روما القديمة في بلاد المغرب العربي آثاراً لا تمحى . وكانت من تلك البلاد الافريقية الشمالية فتكلمت اللاتينية مدة ستة قرون ، وأنشأت الكنيسة آباءً عظاماً من أمثال القديس أغسطينوس . ومع ذلك فقد اضمحلت فيها جميع تلك الآثار الرومانية والمسيحية . وبسط الاسلام نفوذه فغطى كل شيء فكيف حدث هذا التغيير الغريب ، البعيد الأثر في تاريخ شواطىء البحر المتوسط ، وهذا سر مبهم غامض لم يجرب أحد فيما سلف أن يكشف القناع عنه ، ولهذا دعيت تلك القرون بالقرون المظلمة .

---

(١) المشرق م ٢٦ .

نعم بعد ألف سنة امّحى كل شيء، وجرت المحاولات في العصر الحديث بعد احتلال الجزائر منذ ١٨٣٠ حتى تحررها عام ١٩٦٢ ( ومثلها المغرب وتونس وليبيا ) على إعادة ذلك الفكر ، والدين واللغة . ولكن ما بذل في سبيل ذلك ، ما بذله الآباء البيض وغيرهم قد انتهى تماماً الى نفس ما انتهت اليه الحروب الصليبية بعد مائتي عام .

لقد جرت المحاولات الكثيرة لنقل المسلمين من وجهتهم الى وجهة أخرى. وفشلت الخطة فقد كان للمسلمين قِبلة واحدة منذ عرفوا الاسـلام لم يحيدوا عنها ، تهوي اليها قلوبهم وعقولهم ، قلوبهم بالإيمان ، وعقولهم بالفكر ، ولم يكن البحر الابيض في يوم من الايام قبلتهم ، وما تزال الكعبة هي مركز الدائرة في أرض الاسلام ، ومنذ أزالت اللغة العربية لغة القرآن السريانية من سوريا ، والقبطية من مصر . فلا سبيل مرة أخرى الى تقدم لغة أخرى، بل ولا اللهجة العامية مقامها .

●

ولقد جرت المحاولات لنقل المسلمين الى مفاهيم الفكر الغربي المسيحي التلمودي بكل وسائل الإغراء او القسر او الخداع . ولكن المحاولات كلها ذهبت هباء ، وكانت دعوتهم الى انشاء نهضة لا صلة لها بالدين والاخلاق . ولكن المسلمين ما لبثوا ان أصبحـــوا يلتمسون لنهضتهم منهجاً أصيلاً من أصدق نص موثق وهو القرآن الكريم ، وكانوا بذلك أشد إيماناً بدينهم من العصور التي سبقت والتي استعلى فيها مفهوم جبرية الصوفية او عقلانية المعتزلة.

ولقد رمي المسلمون بالدعوات والمذاهب والايديولوجيات ففشلت . ثم طرحت عليهم أديان وعقائد فلم تجد لها صدى .

يقول العلامة فريد وجدي : « اذا كانت أمة لا تنجح فيها دعوة دينية

فهي الامة الاسلامية لأن دينها أجمع الاديان لمعتقدات البشر منقحة مهذبة تتفق مع العقل والعلم معاً ، فهم يؤمنون بجميع رسل الله وأمروا ان لا يفرقوا بين أحـــد منهم ، ويؤمنون بالكتب كلها ، ويحترمونها وهم مع احترامهم لجميع الكتب فان أكبر قوة في الارض تعجز عن ان تحولهم عن دينهم .

●

يقول أنيس فريحة : [ ان أوربا قد حاولت عن طريق الكلمة تحقيق ما عجز عنه أجدادها الصليبيون عن طريق السيف في شأن إخضاع العالم كله للمسيح ] .

ولكن الاسلام لم يفعل ذلك ولكنه دعا الناس بغير إكراهٍ ، وعندما سيطر على الممالك ترك للناس حرية العقيدة . وقد شب أغلب الغربيين (على حد تعبير م. رح. كويت) على كراهية الاسلام وارتضعوا ذلك في لبان أمهاتهم ، بينما شب المسلمون على حب السيد المسيح والايمان بالمسيحية المنزلة وكتابها المنزل الانجيل ، وبسائر الكتب والاديان والانبياء لا يفرقون بين أحد منهم .

والمسلمون على حـــد تعبير ( هاملتون جب ) اول من ألف في مقارنات الاديان ، وكانوا واسعي الصدر تجاه العقائد الاخرى « حاولوا أن يفهموها ويدحضوها بالحجة والبرهان . أما الاوربيون ورجال الاديان الاخرى فقد هاجموا الاسلام بعنف وابتكروا أساليب التشكيك فيه وإثارة الشبهات حوله.

والمسلمون يؤمنون بأن المسيحية دين ، وأن الاسلام دين وزيادة . وقد أكد الباحثون ان الاسلام لم يدخل بلداً ثم خرج منه . يقول ألين برودريك : ان الاسلام هو المذهب الوحيد بين المذاهب التبشيرية الذي لم يضعف في الارض التي نبت فيها . ويلاحظ انه عندما يفتح الدين الاسلامي بلداً ما يسيطر عليها

كلية فلم يحدث ليومنا هذا ان خرج منها . هذا فضلاً عن قدرة الاسلام على تحويل خصومه الى أنصار وبراعته في اذابتهم ، وموقف الاسلام من التتار يكشف عن هذه الحقيقة التاريخية على نحو غاية في الإثارة والإعجاب .

واقد شهد الغربيون على أوربا المسيحية ومـدى تعصبها وخصومتها للاسلام . قال هربرت سبنسر للشيخ محمد عبده في لقائه به : لقد محيَ الحق من عقول أهل أوربا واستحوذت عليها الأفكار المادية . فذهبت الفضيلة ، وهذه الأفكار المادية ظهرت في اللاتين أولاً فأفسدت الاخـلاق وأضعفت الفضيلة ، ثم سرت عدواها منهم الى الانجليز فهم الآن يرجعون القهقرى .

وصدق جمال الدين الأفغاني حين قال : ان الثقافة الاوربية لم تتخل قط عن نصرانيتها وتعصبها .

( ٣ )

صور أحد الباحثين الأجانب موقف الأمم من الاسلام فقال : لما كان الاسلام داعياً الى نفسه انتشر في قسم كبير من الدنيا . وفاق النصرانية في النجاح . وليس تفوق الاسلام منحصراً في ان الداخلين فيه أكثر عدداً من الداخلين في غيره من الوثنيين ، ان التجارب التي أجريت لتحويل المسلمين عن دينهم قد أخفقت تماماً . وقد امتد دين الإسلام من المغرب الى جاوه ، ومن زنجبار الى الصين ، ثم هو ينتشر بخطوات العباقرة في افريقيا .

وقد استولى على جسم كبير من الكونغو ووازامبيس في حين ان أوغنده هي أقوى دول الزنوج قد صارت محمدية من عهـد قريب . والتمدن الغربي الذي هو جاد في هدم الوثنية الهندية ، انما هو يمهد السبيل للاسلام .

ليس الأهم ان نوضح انتشار الدعاية الاسلامية ، بل أهم منه ان الاسلام متى وقع في كفه أحد قبض عليه بقبضة من حديد فلا يفلته ، وقد عمل الاسلام في التمدن أكثر مما عمل غيره . فأمر بتوحيـد الله وتعظيمه ، وأبدل التبتل والرهبانية بالرجولة ، وفتح باب الأمل للرقيق وباب الاخوة للنوع الانساني ، واعترف بالحقائق الجوهرية للطبيعة البشرية . والفضائل التي يعلمها الاسلام هي التي يمكن للشعوب المنحطة ان تفهمها : الاعتدال في التمتع باللذات ، والنظافة ، والعدل، والصبر ، والشجاعة ، والاحسان ، والضيافة،

والرضا بالقضاء فأمكنهم ان يعلموا أصول الفضائل ، وان يجتنبوا السيئات المهلكات .

ان الاسلام يعلم الأخوة العملية والمساواة الاجتماعية التامة بين جميع المسلمين .

لقد أثار الاستعمار الاوربي في وجهه العقبات حتى يتوقف عن الانتشار ، ومنع لغته العربية ـ لغة القرآن ـ من الانتشار بإحلال لغات غربية ، وإحياء لهجات إقليمية . وترك للارساليات ومؤسسات التعليم التبشيري العمل لإيقاف نمو الاسلام وتجميد الاسلام في بيئاته وذلك بإدخال القوانين الوضعية ومناهج التعليم الغربية ، وإحلال مناهج ونظم سياسية معارضة للاسلام ومفاهيم في الوطنية والقومية الاقليمية معارضة للاخوة الانسانية ، ومع هذا التحريف في التطبيق والحيلولة دون انتشار منهج الاسلام دين العمل. فقد حمل الاسلام نتيجة أخطاء الضعف والتخلف وأزمات الصراع والنكبات والنكسات التي حلت بالمسلمين . وحاول الغربيون من مسيحيين ويهود أن يقنعوا المسلمين بأن الاسلام هو مصدر تأخرهم وتخلفهم وضعفهم ، وانهم لو انطلقوا من قيده لاستطاعوا ان يلحقوا بالامم الناهضة . وقد كذبوا في ذلك وزيفوا . فقد عرف المسلمون النهضة بفضل الاسلام وسادوا العالم بمنهجه ، ولم يتخلفوا الا يوم انصرفوا عنه وتخلفوا عن تطبيقه .

ومن الحق ان التاريخ ليس مصدراً لمنهج الاسلام . وان أخطاء التطبيق في المجتمعات الاسلامية لا يمثل حقيقة الاسلام ولا يعتبر الاسلام مسؤولاً عنها، وليست فترة ضعف المسلمين أساساً للحكم على الاسلام من خلال مبادئه .

غير أن تركيز المسيحية الغربية على الاسلام كان شديداً وقاسياً . وقد تمثل في مواقف متعددة الى ما يكتبه الرحالون من الانجليز سـواء منهم الرسميون وغيرهم ، نعرف حقيقة نتائج الاسلام .

متى دخلت قبيلة من السودان في الاسلام اختفت عنها في الحين « الوثنية » عبادة الشيطان وعبادة البشر وأكل لحم الإنسان وتقـــديم الضحايا البشرية وقتل الأولاد والسحر وصاروا يرتدون الثياب وحلت فيهم النظافة، وشعروا بالعظمة واحترام النفس ، وصار قرى الضيوف عندهم من الواجبات الدينية ، وندر شرب المسكرات وحرم القمار والرقص المنافي للعفة وفوضى اختلاط الجنسين ، وصارت طهارة العرض من اعظم الفرائض ، وذهبت البطالة والكسل ، وحل العمل والكد محلهما ، وتغلب النظام والرزانة على الشقاق ، وحرمت القسوة على الحيوان والعبيد ، وتعلموا الشعور بالإنسانية واللطف والأخوة ، ودخل الرق وتعدد الزوجات تحت قانون يحدد شرهما ويخففه . وفوق ذلك كله ، فالإسلام اقوى وأكمل دين اجتماعي في القناعة والاعتدال في تناول اللذات وكلما امتدت واتسعت الحضارة الأوربية امتدت معها الرذيلة واحتقار الناس ، أما الاسلام فإن تمدنه خال من غمط النـاس واحتقارهم ، وحاض على تعليم الكتابة والقراءة ، ولبس الثياب اللائقة والنظافة البدنية والصدق وعزة النفس . وان تمدين الإسلام وتقويمه للنفوس لعجيب ، يجب أن نأخذ في الاعتراف بالحقيقة ، وهي أن الإسلام ليس عدواً للنصرانية، الاسلام نسخة طبق الأصل من دين إبراهيم وموسى على اصول النصرانية ، واليهودية دين خاص .

أما الاسلام فهو دين عام لجميع الأقوام ، ليس منحصراً مثل اليهودية في شعب واحد ، بل عام شامل لجميع اهل الأرض ، والمسلمون يؤمنون بأربعة معلمين عظام : إبراهيم وموسى وعيسى ومحمد . وليس في تعاليم محمد شيء يعادي النصرانية او يضادها ، بل تعاليم محمد وسط بين اليهودية والنصرانية . « لقد جاء الاسلام فجرف الخرافات الفاسدة. وأقام ثورة وتمرداً على المسائل اللاهوتية الفارغة وكان خصماً للتبتل المزعوم . إنه تاج التقوى وقد جاء بعقيدة الدين وقطاعات مختلفة .

لقد استغل الاستعمار المسيحية في سبيل محاربة عالم الاسلام ، كما استغلت المسيحية الاستعمار في فرض نفوذها وإقامة قواعــد مؤسساتها التبشيرية في قلب افريقيا وآسيا واحكام حملة ضخمة على المسلمين بغية زعزعة عقائدهم وإخراجهم من الاسلام وإحالتهم الى جماعات ملحدة مضطربة الفكر . وفي حضانة الاستعمار شن المبشرون والمستشرقون على الإسلام رسوله وكتابه حملة ضخمة ، وهي حملة قامت على التعصب والحقد . ولم تقم على النقد والحوار . ولم تأخذ طريق الاقناع بل طريق المسلمات التي تفترض أساساً ثم تلتمس لها الأسانيد من هنا وهناك .

وبينما يشن كتاب الغرب المسيحيون ومستشرقوهم ومبشروهم هــذه الافتراءات والاتهامات والشبهات يقف كتاب المسلمين موقف الدفاع ويتناولون المسيحية والسيد المسيح بأسلوب عف كريم ، فهم يؤمنون بنبوته عليه السلام إيمانهم بنبوة محمد ﷺ ويعتقدون أن التوراة والإنجيل كتابان منزلان كالقرآن تماماً . ولا تختلف وجهات النظر إلا في شأن مبلغ صحة الكتاب المقدس في صورته الحالية .

وفضلاً عن ذلك فإن البعثات المسيحية والمبشرين المسيحيين لم يقتصروا على التبشير فعلاً بل جاوزوا هذا الحد واختاروا الوسائل الأخرى التي ليست من وسائل التبشير . بل هي وسائل الضغط السياسي والإطماع الاقتصادي والهدم الخلقي والعقائدي « إنهم في معظم الأقطار الافريقية حرموا المسلمين من التعليم بمعاونة القوة الاستعمارية وأغلقوا أبواب دور التعليم في وجه كل من لا يعتنق الديانة المسيحية او لا يختار لنفسه الاسم المسيحي بدلاً من الاسم الاسلامي على الأقل . وان الأقلية المسيحية ذات النفوذ التي خلقت بهــذه الطريقة هي التي تسيطر اليوم من النواحي السياسية والعسكرية والاقتصادية

على كثير من الدول الافريقية التي معظم سكانها من المسلمين[1] . يضاف الى هذا مؤازرة المسيحية الغربية في تسليم فلسطين لليهود . فإن القرار الذي اتخذ باسم وعد بلفور وقعته المسيحية في انجلترا ، والعالم المسيحي هو المسؤول عن قيام هذه المؤامرة ، وهو الذي ساعد على جعل هذا الوطن الاصطناعي دولة مستقلة . وهو الذي أمدها بالعون المالي والسلاح الحربي .

---

(١) المودودي من رسالته الى قداسة البابا .

( ٤ )

منذ ظهور الاسلام وإلى يومنا هذا تعرض «الاسلام» لمواجهات خطيرة من القوى العالمية المختلفة : الكنيسة والصهيونية والماركسية والغـــرب المسيحي الاستعماري ، كانت المحاولات تجري للسيطرة عليه والإدالة منه وتحريفه وصرف أهله عنه والتبشير فيهم لإخراجهم منهوالقضاء على أجنحته وأطرافه ولقد قامت الكنيسة بأقسى الحملات في معركتين فاصلتين : معركة الحروب الصليبية ، وإخراج المسلمين من الاندلس ، فقد ظلت البابوية في مدى قرنين كاملين تحرض أهل أوربا على خوض المعارك مع المسلمين في القدس . ولما عاد المسيحيون وقد بهرتهم أخلاق المسلمين وسماحتهم قطعت الكنيسة رقابهم وحرمتهم من ان يعلنوا ذلك حتى لا تذهب الحجة التي دفعت البابوات الى إعلان الحرب على المسلمين .

وقد كان البابا أوريان الثاني مؤجج هذه الحملات في خطابه الشهري الذي ألقاه في شهر تشرين الثاني عام ١٩٠٥ آمراً المسيحيين ان يشنوا الحرب على الجنس الشرير الذي كان يمتلك الارض المقدسة .

وكان ذلك مقدمة حملة جبارة طاغية لعلها استمرت بعد ذلك وما تزال مستمرة ، تدعو كما وصفها محمد أسد الى تسميم العقل الغربي ضد العالم الاسلامي عن طريق تفسير التعاليم والمثل العليا الاسلامية تفسيراً خاطئاً متعمداً لأنه

اذا كان للدعوة الى حملة صليبية ان تحتفظ بصحتها كان من الواجب ان يوسم نبي المسلمين بأنه عدو المسيح . وأن يصور دينه بأكلح العبارات، وهكذا قادت الكنيسة أضخم حملة على الاسلام والمسلمين ، وهي أقسى ما وصل اليه الاستعمار من بعد .

وفي الاندلس كانت الحملة الاخرى الأشد عنفاً فقد عومل المسلمون أسوأ معاملة وحوصروا واضطهدوا وأرغموا على ترك دينهم وعلى الهجرة . وكانت صفحة محاكم التفتيش من أقسى صفحات الكنيسة قسوة على المسلمين .

وتاريخ الأب جريجوار السابع وموقفه من الحروب في أسبانيا الاسلامية يعطي صورة مريرة قاسية فقد وجه الدعوة الصريحة الى أمراء المسيحية يحضهم على المشاركة في هذه الحرب المقدسة . ويعلن مقدماً سيادتهم على الاراضي التي ينزعونها من المسلمين .

ولكن الاسلام الذي حاربته أوربا بمثل هذا العنف استطاع ان ينفذ الى أعماقها . وأن يكتسب الكثيرين من المثقفين ويحررهم من إطار التقليد والتبعية ، ومنهم من أسلم صراحة ومنهم من عرف للاسلام قدره ، بل ان المسيحية نفسها على تلك الصورة قد وجدت من الغربيين الذين لم يؤمنوا بالاسلام من يستطيع ان يكشف عن زيف التناقض والازدواجية .

فالمسيحية التي تدعو الى الرحمة والحنان والشفقة لم تكن بحال هي المسيحية التي تدعو الى القتل والحرق بالنار وإزهاق الارواح . وهي التي تقبل اقتحام بيت المقدس ، وقتل سبعين ألفاً من المسلمين كانت الخيول تغوص براكبيها في دمائهم .

تلك هي الصورة التي أزعجت الكثيرين من المفكرين وكانت مصدر نقدهم . وفي مقدمتهم نيتشه ورينان .

ويرى نيتشه ان المسيحية خدمت اليهود في أوربا ويقول : ان اليهود ثأروا من أوربا المسيحية اذ المسيحية من بنات أفكارهم ، وقد حمتهم من ظلم الحكام وجور الاحكام حتى انتشروا في جميع البلدان المسيحية وتسودوا عليها وملكوا ناصيتها وقبضوا أموالها ، فالمسيحية أفادت اليهود ، ولكنها أضرت بالاوربيين . وقال ان القيم التي سنتها المسيحية هي السبب في وقف التقدم وجمود الحضارة .

أما أرنست رينان فانه انكر ألوهية المسيح . وقال ان المسيح لا يزيد على ان يكون انساناً عظيماً .

ومن منطلق نيتشه ورينان بدأت حملة ضخمة تصدرتها الفلسفة الحديثة على الدين بعامة والمسيحية والكنيسة بصفة خاصة .

ولقد كانت مفاهيم الاسلام التي هزت جمـــود الكنيسة وأشعلت دعوة الإصلاح التي حمل لواءها لوثر وكلفن قد فتحت الباب واسعاً أمام حرية العقل والرأي حتى لنرى العشرات من المثقفين يواجهون تفسيرات المسيحية بالنقد والمعارضة .

ومن ثم يمكن القول ان ظاهرة جديدة بدأت تشق طريقها الى التاريخ المعاصر : تلك ظاهرة تحرر العقل من تفســيرات المسيحية ، والنظر فيها نظرة أكثر عمقاً ، والبحث والتنقيب عن الدين الحق . ثم وجوده في الإسلام .

ولقد وجد الكثيرون في الاســـلام ما تحتاج اليه البشرية . وكشف الكثيرون عن تعقيدات التفسيرات المسيحية التي ليست هي المنزلة من عند الله ، بل المسيحية الاوربية التي أنشأها بولس : هــذه الحركة الجديدة قد

شكلت تياراً قوياً في مواجهة المبشرين والمستشرقين ومتعصبي الفكر الغربي.
وأبرز مظاهر هذه الحركة هي :

أولاً : تبين ان الشخصية التي يدعيها المسيحيون للمسيح عليه السلام ليست تاريخية قطعاً والباحث عن ذلك بالأساليب العلمية لا بد أن يخرج من بحثه صفر اليدين . والاختلاف بين المسيحيين شديد جداً في أصول المسيحية وفي تكوين العقيدة عند المسيح . وان أكثر الذين ينتمون الى النصرانية لا يعتقدون بصحتها .

ثانياً : معرفة الكثيرين من المسيحيين بأن الانجيل الذي فيأيديهم أحدث عهداً من المسيحية ، ووقوفهم على الاختلاف الواقع بين كتبهم الدينية له تأثير كبير في اعراضهم عن بعض ما فيها من نصوص ، بينما المسلمون لا يرتابون قط بأن القرآن الذي بين أيديهم هو الكتاب المنزل على نبيهم لا ريب فيه ولا يأتيه الباطل . (خالد شلدريك)

ثالثاً : ان الكتب الموجودة في المكتبات العامة في أوربا مملوءة بالتحامل والمطاعن حيث تزعم ان الاسلام ليس ديناً مستقلاً .

وقد تساءل الكثيرون: اذا كان الاسلام لا أهمية له الى هذا الحد ، فلماذا يبذلون كل هذه الجهود للتحامل عليه ومقاومته وتوجيه المطاعن اليه . وقد تأكد بعضهم ( ومنهم الدكتور خالد شلدريك ) انه لولا ان الاسلام دين يخشاه هؤلاء الناس ، ويحسبون له حساباً كبيراً لما فيه من القوة والحيوية لما بذلوا كل هذا لمقاومته والطعن فيه وتشويه سمعته .

رابعاً : كذب الذين عرفوا الاسلام من الاوربيين فرية انتشار الاسلام بالسيف . وقالوا ان المسيحيين الاوربيين يعلمون هم بأنفسهم انها كاذبة وغير

معقولة ، وانها تخالف وقائع التاريخ كما تخالف حقائق الاسلام ، ولو انتشر الاسلام بالسيف كما زعموا لما بقيت هذه الكنائس والبطريركيات والأوضاع غير الاسلامية المنتشرة في العالم الاسلامي والمتسلسلة من أقدم أزمانه الى الآن، وان تسليط السيف على العقائد منشأنهم هم بدليل ما فعلوه في الاندلس وعلى كل حال فاذا كان هناك دين انتشر بالسيف فليس هو الاســـلام بل غيره . (خالد شلدريك)

**خامساً :** الإعجاب بابطال المسلمين الذين خرجوا من الصحـــراء حفاة الأقدام فاستطاعوا ان يكونوا أعظم قوة في التاريخ وأعدل قضاة الأرض ، وأشهر المشرعين على الإطلاق . (لورد هدلي)

**سادساً :** بساطة الاسلام التي تأسر النفس لخلوه من كل مغالطة او اتهام وهو الدين الذي ليس فيه أثر للاحتمالات والخيالات التي لا يسع العقل التسليم بها ، بل هو الدين الذي يدعو الانسانية الى الثقة الكاملة بعدل الله ورحمته .

**سابعاً :** لم يجتهد المسلمون فيحين من الأحيان فيحشر أفكارهم ومعتقداتهم الدينية في حلوق الناس وصدورهم بالقوة والفظاعة والتعذيب ، ولم يشهروا السلاح الا حين الضرورة القصوى لحماية الحياة البشرية ، هذا فضلاً عن مسلك المبشر الاسلامي الحقيقي الذي كان له الفضل في انتقال الكثيرين الى الاسلام، وهو انه لا يحاول ارغام سامعيه او التأثير فيهم ، بل إيماناً بأن الدخول في الاسلام يجب ان يكون بإرادة الانسان الحرة وبرأيه الذاتي .

**ثامناً :** اهتمام المسلمين بدينهم والإخلاص له في كل يوم وساعة مما لا يرى مثله في النصرانية فان النصراني يحترم دينه عادة يوم الأحد حتى اذا مضى

الأحد نسي دينه طول الاسبوع ، أما المسلم فبعكس ذلك يحب دينه دائماً وسواء عنده أكان الجمعة أم غيرها .

**تاسعاً** : الاعتقاد بأنه توجـــد ألوف من الرجال والنساء الذين يدينون بالاسلام في قلوبهم ، ولكن مخالفة الإجماع وخوف الانتقاد ، والرغبة في اجتناب كل ضيق او تغيير يحملهم على عدم الجهر بما في قلوبهم .

**عاشراً** : ان الدافع الأكبر للانسلاخ عن المسيحية هو ما يلمس من عدم التسامح الديني بين الطوائف المسيحية بسبب الخلافات المذهبية .

**حادي عشر** : ان الاسلام أرجع الدين الى حالته الطبيعية ولم يأت بشيء من تلك العقائد الفلسفية بل قال بوضوح لا إله إلا الله وبذلك خلا الإسلام من ذلك الاعتقاد الذي قسم الدول الاوربية والذي جعـــل أهل مصر وآسيا الصغرى في حالة استياء من تسلط الدولة البيزنطية . وكيف لا تميل هذه الشعوب الساخطة الى أهل الاسلام وهم يعلنون انهم أهل التسامح مع مخالفيهم في الدين .

**ثاني عشر** : لم يقرر الاسلام شيئاً من وساطة رجال الدين بين الإله والشعب يرجع اليهم الحل والعقد في كل الامور ولم يرض بنظام الصوامع وقضى على عادة العزوبة التي كانت متبعة ومستفيضة ، وعلى عادة التنسك والخروج من الدنيا . فقد قرر الاشتغال بالدنيا والآخرة[١] .

**ثالث عشر** : انفراد الاسلام بتحريم الخمور ، وهي مزية لا تجدها في

---

(١) استخلصت هذه النصوص من اعترافات رجال أسلموا هم : خالد شلدريك ، اللورد هدلي ، عبد الكريم جرمانوس ، وبعض الكتاب المنصفين أمثال : رينيه ميليه .

كتب الديانات الاخرى ، بل ربما تجـــد في بعضها تشجيعاً على الخمر كقول القديس بولس لتلميذ له : خذ قليلاً من الخمر لإصلاح معدتك . كما تجد فيها حادثة تحويل الأواني المملوءة ماء الى خمر : أين هذا مما جاء في الاســلام . فلم يكد يبلغ المسلمين تحريم الله للخمر ، حتى أريقت دنانها وأكوابها فسالت بها الشوارع أنهاراً .

( ٥ )

ان الكثيرين[١] من مفكري أوربا الذين عالجوا أزمة الحضارة وأزمة الانسان المعاصر . لم يجدوا غير الاسلام ترياقاً وعلاجاً للبشرية . فبرناردشو يقول : (انا على يقين من أن دين محمد سيكون دين اوربا من غير شك. انه قد أخذ الاوربيون يقبلونه اليوم . وفي القرن التالي سيكون أهل اوربا أكثر معرفة بفائدة اعتقاد محمـــد في حل مشاكلهم ) : ويقول ولسن روسن في كتابه ثلاثون عاماً في الاسلام : ( ولقد وجدت في الاســلام حل المسألتين الاجتماعيتين اللتين تشغلان العالم طراً ) :

الأولى : في قول القرآن « **إنما المؤمنون إخوة** » فهذا أجمـل مبادىء الاشتراكية .

الثانية : فرض الزكاة على كل ذي مال . وتخويل الفقراء حق أخـذها غصباً اذا امتنع الاغنياء عن دفعها طوعاً .

ويقول أرنولد توينبي : ان الاسلام قد قضى على النزعة العنصرية والصراع الطبقي بتقرير مبدأ الإخاء الاسلامي والمساواة المطلقة بين المسلمين ، وعلى

---

(١) الاسلام في غزوة جديدة للفكر الانساني للمؤلف .

الغرب ان يأخذ بهذا المبدأ الاسلامي لتنجو المدنية الحالية مما يدب فيها اليوم من عناصر الفناء .

ويقول اللورد هنري : لو ندبت لجنة من الانجليز الأكفاء لفحص الدين الصالح لأن يتدين به العالم كله لأجمعوا على اختيار الاسلام .

ويقول رينان : وما يدرينا ان يعود العقل الإسـلامي الولود والكثير المواهب الى إبداع مدنية أرقى من زميلتها المندثرة . ان فترات الازدهار والانحطاط مرت على رأس جميع الأمم بما فيها أوربا المتعجرفة .

ويقول هورتن الألماني : ان العرب أول من علم العالم كيف تتفق حرية الفكر مع استقامة الدين .

•

وإذا كان الاسلام قد واجه حملة الكنيسة والفكر الغـربي المسيحي والتبشير من ناحية . فانه واجه حملة جديدة من ناحية اليهودية الصهيونية ، فقد عمد دعاة تدمير البشرية في العقود الأخيرة من هذا القرن الى اذاعة الكثير من الأفكار والمفاهيم المنحرفة التي ترمي الى مواجهة الاسـلام كمنهج حياة بالخصومة ، فضلاً عن دعوات التفرقة العنصرية . ومع ذلك فما زال الاسلام مؤملاً على ان يقدم للانسانية الترياق ، وكما خاض الاسلام معركة مع الفلسفة اليونانية في الماضي وما دسّ عليه من إسرائيليات ومفاهيم وثنيـة ومجوسية ، فانه يخوض اليوم معركة مع الإلحاد والماركسية ، بالإضافة الى اليهودية التلمودية حتى يخيل للباحث والمراقب ان هناك إطباق على الاسلام من كل الجهات ، وان حالة تاريخية شبيهة بإطباق الصليبيين والتتار على الاسلام في القرن الخامس الهجري .

ولقد دفع الباحثون المنصفون موقف العداء والعدوان الذي تقوم به أوربا المسيحية للاسلام حتى يقول الكونت كايتاني في كتابه عن تاريخ الاسلام الذي أمضى ثلاثين عاماً في إعداده في عشرة مجلدات ضخمة مبيناً العوامل التي دفعته الى وضع هذا التاريخ (عام ١٩٢٧) .

ان الديانة الاسلامية هي أقوى دين في العالم بعد المسيحية ، والمسلمون يعملون بقوة إيمانهم على صد تيار المسيحية ، فوقع من جراء ذلك تشادٌ بين هاتين الديانتين . وما زالت آثاره باقية الى عصرنا الحاضر ، وستبقى كذلك قروناً عديدة ما دامت أوربا المسيحية تعجز عن نشر ثقافتها بين المسلمين رغم الوسائل الفعالة التي تمتلكها .

ومن المؤسف أن تذهب الكنيسة الى أن ظهور الاسلام كان ضربة قاضية على المسيحية بسبب اعتناق كثير من أتباعها هذه الديانة الجديدة على حين ان الأمر بعكس ذلك . فقد أدت الديانة الاسلامية عن طريق غير مباشر خدمات جلىّ الى المسيحية ، اذ لو لم تظهر الديانة الاسلامية وقدر للمسيحية الارثوذكسية الجامعة التي يعتنقها الأروام والروس والتي لم يقم أي دليل على نهضتها ـ أن تبقى مهيمنة منذ ذلك التاريخ الى اليوم ، وحالت دون سطوع مدنية العرب ، فماذا يكون مصير غربي آسيا وأوربا في القرون الوسطى المظلمة ، أو لم تحل النهضة البروتستانية ( وهي من نتاج الاسلام ) التي ظهرت على الأثر دون تدهور الأرثوذكسية في هوة الانحطاط . بَيْدَ ان هذه الخدمات التي قام بها الاسلام نحو المسيحية قد كادت ان تطمس معالمها من جراء النضال المستمر بين أتباع هاتين الديانتين . فحجب وجه الحقيقة عنهم . وورث الأبناء والأحفاد الحقد الشديد .

ثم يشير المؤلف الى الدقة المتناهية في التاريخ المتحدث عن نبي الاسلام

فيقول : ان الوثائق الحقيقية التي بين أيدينا عن مؤسس هذا الدين (الاسلام) ندر أن نجد أمثالها في الديانات الاخرى . فتاريخ عيسى وما ورد في شأنه في الانجيل ناقص لا يشفي الغليل . أما حياة محمد فان لدينا منها قسماً مهماً حقيقياً بحيث يحمل المؤرخين المعاصرين على الاعتقاد بأن لمحمد شخصية بارزة في تاريخ البشرية ، وانه مشرع كبير ، أحدث أعظم انقلاب في الأخلاق والسياسة بعد المسيحية .

( ٦ )

ولم يقف أثر الاسلام عند المسيحية وحدها ، ولكنه تعداها الى اليهودية . وأمامنا تجربة ليونولدفابس تلقي الظل الواضح وتكشف الحقيقة: في السنوات السابقة عندما أصبحت قانطاً من دين آبائي وأجدادي ، فكرت في المسيحية بعض الشيء . لقد كان مفهوم المسيحية عن الله في نظري أسمى وأفضل الى حد لا نهاية له من مفهوم العهد القديم، ذلك أنه لم يقصر اهتمام الله ومحبته على أي جماعة من الناس بل افترض أبوته للانسانية جمعاء ، بيد انه كان هناك عنصر واحد من النظرة الدينية المسيحية كان ينتقص من عالميته : هي تمييزه وتفريقه بين الروح والجسد ، بين عالم المعتقد وعالم الشؤون العملية . وبسبب من افتراق المسيحية الباكر هذا عن جميع النزعات والميول التي تهدف الى توكيد الحياة والمساعي الدنيوية ، فقد شعرت انها كانت قد انقطعت منذ زمن طويل عن أن تقدم قوة أدبية أخلاقية دافعة الى المدنية الغربية . فقد ألف أتباعها الفكرة القائلة بأنه لم يكن من شأن الدين أن يتدخل في الحياة العملية. لقد اكتفوا بأن ينظروا الى المعتقد الديني نظرتهم الى تقليد مسكن لم يقصد به ان يغـــذي أكثر من معنى غامض للفضيلة الشخصية ، وخاصة الفضيلة الجنسية في الرجال والنساء افرادياً ، وكان يساعدهم على هذا اتجاه قديم جداً اصطنعته الكنيسة ـ اتباعاً لمبدأ الفصل بين ما لله وما لقيصر في حقل النشاطات الاجتماعية والاقتصادية ـ فلم تحدث أيما تغيير يذكر ، فقد كان نتيجة ذلك

ان السياسة والتجارة المسيحيتين قد تطورتا في اتجاه مختلف كل الاختلاف عن ذلك الذي كان المسيح قد دعا اليه . لقد فشل الدين الذي اعتنقه الغرب بسبب من عدم تزويده أتباعه بإرشاد ثابت مستقر في شؤونهم الدنيوية فيما كان في رأيي يبدو انه رسالة المسيح الحقيقية . وانه في الحق المهمة الرئيسية لكل دين : ان يبين للانسان : لا كيف يحس ويشعر إحساساً وشعوراً صالحين فقط ، بل كيف يحيا حياة صالحة أيضاً ، وبشعور غرزي . فان دينه قد خيب أمله ، وبطريقة ما . فقد الانســان الغربي خلال القرون كل إيمانه الحقيقي بالمسيحية ، وبفقده هذا الإيمان َفقـَدَ الاقتناع بأن الكون انما كان تعبيراً لقوة واحدة منظمة وانه لذلك كان يشكل كلاً عضوياً واحداً وبسبب انه فقد هذا الاقتناع كان يعيش في فراغ روحي وخلقي .

لقد رأيت في ترك الغرب التدريجي للمسيحية وانصرافه عنها ثورة ضد ازدراء الحياة التي بشر بها بولس والتي أبهمت قديماً جداً وتماماً جداً تعاليم المسيح ، فكيف إذن يستطيع المجتمع الغربي ان يستمر في ادعائه انه مجتمع مسيحي ، وكيف يستطيع أن يرجو دونما إيمان ثابت ان يتغلب على فوضاه الأدبية والأخلاقية الحاضرة .

●

أما بالنسبة لفهم الغربي للاسلام فان ليوبولد فايس يصور ذلك على النحو الذي شاهده بنفسه في أوربا المسيحية : « كانت ملاحظاتي الخاصة قد أقنعتني الآن بأن رأس الغربي العادي ، كان يحمل صورة مشوهة بالكلية عن الاسلام وأن ما رأيته من صفحات القرآن لم يكن نظرة عالمية مادية غير ناضجة ، بل على العكس وعياً كثيفاً يعــبر عن نفسه ، لقد كان واضحاً عندي ان تأخر المسلمين لم يكن ناجماً عن أي نقص في الاسلام ، بل من عدم عملهم هم أنفسهم بتعاليمه . ذلك ان الاسلام في الحق هو الذي حمل المسلمين الأولين

الى اعالي الدروات الثقافية بتوجيه طاقاتهم كلها نحو التفكير الواعي كوسيلة وحيدة لفهم طبيعة خلق الله ، وبالتالي لفهم إرادته . ان الاسلام لم يطلب اليهم أن يؤمنوا بعقائد يعسر او يتعذر فهمها ، والحق انه ما من عقيدة كهذه يمكن أن توجد في رسالة النبي ، وهكذا فان التعطش الى المعرفة التي تميز به التاريخ الاسلامي الأول لم يحمل كما حمل في سائر أنحاء العالم على انه يؤكد ذاته في صراع مؤلم ضد الايمان ، وبالعكس لقد انبثق من ذلك الايمان وحده » .

وهكذا انكشف الاسلام عن حقيقته للعقول المضيئة التي تبينته والتي درست الأديان المختلفة وقارنت واهتدت الى الحق .

# الفصل الثاني

## أزمة الغرب الدينية

ان الفكر الغربي المسيحي الذي يحاول أن يوجه الضربات للاسلام عن طريق التبشير والاستشراق والاستعمار رغبة في القضاء عليه او تحريفه او إثارة الشبهات حوله يواجه تحدياً خطيراً . فقد وجهت اليه في العصر الحديث ضربتان لا ضربة واحدة ، تلك هما الصهيونية والماركسية اللتان ما زالتا تقتلعانه من جذوره وتحويانه على نحو يدمر كل مقوماته ويفسد كل مقدراته .

يقول أحد الباحثين[1]: ان التعاليم الماركسية والماسونية التي سيطرت على التعليم في البلاد الأوربية وفرقت بين الدين المسيحي والتربية قد أحدثت آثاراً بعيدة المدى . فقد أصبحوا يعتبرون الكنيسة الكاثوليكية كتحفة أثرية وعقيدة عتيقة دخلت في حكم التاريخ . وقد أخذت فرنسا تبتعد عن

(١) الرسالة : بحث المسيحية وأوربا م ١٩٥٢ .

المسيحية منذ القرن الثامن عشر . وقد أصبح إغراقها في الإلحاد في الوقت الحاضر في أقصى درجة ممكنة . ويشمل ذلك عدداً كبيراً من الفرنسيين وخصوصاً أفاضلهم ممن ينعتون بكونهم محافظين وممن عرفوا بانتمائهم على النظريات القديمـة .

وقد أشار الراهب ميتوكلار في بحث صادرته الكنيسة الكاثوليكية بعد ظهوره الى أن من بواعث الإلحاد والكفر والابتعاد عن تعاليم المسيحية كون من سبقوهم فيها كانوا من صنوف الرأسماليين يباركون تصرفاتهم في استغلال المال والعملة . فاذا قام فيها من يندد بأعمال الرأسماليين مثل الأب لكولدير والأب لامني فان الكنيسة تقاومه وتحرم النظر في كتبه .

وتشير المصادر الى ان الصراع بين اليهودية والمسيحية لم يتوقف منذ بدأ عند ظهور الأخيرة وتتحدث عن تطويق اليهودية للمسيحية مرتين : مرة على يد بولس ومرة في العصر الحديث .

يقول الأب الف كونجار : لقد كان اضطهاد المسيحيين والتنكيل بالشهداء في العصور الأولى راجعين الى وشايات يهودية في عالم كانت فيه تلك اليهودية تبسط أجنحتها وتنعم بالسطوة والنفوذ .

وأوضح مارسيل سيمون في كتابه (اسرائيل الجرثومة) ان نزعة مناهضة السامية في أسفار الكهنة المسيحيين القدامى كانت تقابل تعاليم العـــداء للمسيحية في التلمود .

والمعروف ( ان اليهود رفضوا رسالة السيد المسيح رفضاً تاماً وأوغلوا في ذمه والطعن في رسالته حتى نبذوه بما لم ينبذ به رسول في تاريخ الديانات قاطبة ) .

وبينما تكشف المصادر على كراهية اليهودية للمسيح ومعارضتها له ،

يشير الباحثون الى احتواء اليهودية للمسيحية وتغييرها تغييراً جذرياً .

وقد أشار أرنولد توينبي وهو المؤرخ العالمي المسيحي الاتجاه في كتابه مختصر دراسة التاريخ[1]. الى [ تحول المسيحية الى فكرة الإله الغيــور ] ويحاول ان يبحث هذا التحول فيقول : ما هو السبب في تقبل المسيحية مرة أخرى : الفكرة العقيمة اليهودية الأصل عن الإله الغيور ، ويقول ان هذه الردة قد كبدت المسيحية خسارة روحية جسيمة منذ ذلك الحين . كان الثمن الذي دفعته المسيحية في كفاحها المرير : كفاح الحياة او الموت مع عبادة قيصر .

ويقول : ان يهوه إله اليهود من سماته الغضب والقسوة والبطش ، وعدم التسامح . ويعني المؤلف ان المسيحية الجـــديدة قد واءمت بين فكرتين متناقضتين .

الأولى : فكرة البطش وعدم التسامح .

الثانية : فكرة المحبة والتسامح التي تقوم عليها دعائم المسيحية الأصلية . وهذا التعليل صحيح والتاريخ يؤكده والوقائع تثبت صحته .

فالمسيحية تدعو الى الأخلاق ، واليهود يدعون الى إزالة كل قيــــد على الحرية البشرية وأوربا الآن تأخذ بمفهوم اليهود وتدع مفهوم المسيحية ، والمسيحية تحرم الربا ، واليهود يقومون على تجارة المال . وأوربا الآن تأخذ بمفهوم اليهود وترفض مفهوم المسيحية ، والمسيحية تدعو الى الزهد ، ويقول المسيح ان مملكتي ليست في هذا العالم ، واليهود يدعون الى احتلال مطامع الدنيا ، والغرب الآن يأخذ بأسلوب اليهود ويدع مفهوم المسيحية .

---

(١) ج ٣ ص ١٦٧ ( مختصر دراسة التاريخ ) توينبي .

ومعنى هــذا ان الفكر اليهودي التلمودي قد سيطر سيطرة كاملة على الفكر الغربي واحتواه ، وأن قبول الغرب للدعوات الليبرالية والاشتراكية هو بمثابة تحول عن طابعه المسيحي وقضاء على الذاتية الغربية التي شكلتها المسيحية .

ولا ريب ان ما حققته اليهودية منذ الثورة الفرنسية الى اليوم يمثل أخطر تحول في التاريخ البشري كله فقد كانت أوربا قد ضيقت الخناق على اليهود وحصرتهم في الجيتو ، وفرضت عليهم أزياء وأوضاعاً معينة . وأصدرت عشرات القوانين التي تحول دون اندماجهم في المجتمع المسيحي ، وأصبح اليهود علماً على تلك الفئة المنبوذة التي تقوم على الاقراض بالربا . غير ان اليهود استطاعوا أن يحطموا قيود الكنيسة والمسيحية . وأنشأوا عشرات الجمعيات السرية تحت اسم الماسونية ، وجعلوا هدفهم تدمير البابوية ونفوذ الكنيسة . وقد استطاعوا أن يحققوا ذلك بإسالة الدماء أنهاراً في الثورة الفرنسية وثورات أخرى في أنحاء أوربا باسم عصر التنوير واستطاعوا بعدها تدمير وحدة الكنيسة المسيحية ، وإقامة القوميات ، وإنشاء مبدأ حرية المواطن دون النظر الى دينه . وبذلك تمزقت الوحدة الاوربية المسيحية. واندلع صراع القوميات ، ومذاهب العنصرية ، وانقسمت أوربا الى دعوة الدم الابيض والجنس التوتوني وألمانيا فوق الجميع . وبذلك خلق اليهود القوميات وجعلوها تتصارع على نحو يحول دون تجمعات كبرى ، وهدموا الامبراطوريات الكبرى ، وسيطروا على كل شيء ، وحولوا اقراض الربا الذي كان موضع كراهيتهم والحقد عليهم الى نظام المصارف الشرعية الحرة. واختفوا هم وراء الأسهم والسندات ، وسيطروا بذلك ليس على المال والاقتصاد وحده فهم الذين وضعوا العالم كله في إطار النظام الربوي ، وإنما سيطروا على الثقافة والأدب والطب والصحافة والإعلام ، وأصبح إنشاء

دوائر المعارف وطبع الكتب والمؤلفات في أيديهم يمنعون منه ما يشاؤون مما لا يتفق مع أهدافهم وغاياتهم .

ومن ثم استوعب اليهود الفكر الأوربي وسيطروا عليه ، وطرحوا عليه نظريات فرويد وماركس وليفي بريل ودوركايم وسارتر وغيرها مما غيرت أصول الفلسفات المثالية التي وضعها المسيحيون بديلاً للدين بعد أن تخلوا عنه. وهكذا خطا الغرب خطوات واسعة: كانت أولاها محاربة المسيحية والتحرر منها الى نظام فيه طابع الاخلاق والقيم قائمة على أساس العقل وتحت عنوان الفلسفة المثالية ، غير ان اليهودية استطاعت ان تسيطر على الفكر الغربي ، وتدفع اليه مفاهيم التلمود ومناهج الصهيونية مصوغة في أسلوب علمي تحت اسم الفلسفة المادية . وكانت أخطر ثمار اليهودية التلمودية :النظرية الماركسية وبذلك سقطت المسيحية الأوربية في أنياب اليهودية التلمودية حتى وصلت سيطرتها الى النخاع ، على نحو حمـــل البابوية والكنيسة الكاثوليكية على تبرئة اليهود من محاولة صلب المسيح ، وهذا أخطر ما وصلت اليه اليهودية في السيطرة على المسيحية والفكر الغربي كله .

●

وقد أفاضت الأبحاث عن صراع اليهودية والمسيحية في الغرب ، ومحاولة اليهودية التلمودية في السيطرة على المسيحية والفكر الغربي ، وكانت فكرة الربا هي كبرى قضايا هذا التحدي .

يقول الدكتور سعيد عبد الفتاح عاشور : احتكر اليهود في العالم المسيحي النشاط المالي طوال القرون الوسطى وسيطروا سيطرة شبه تامة على التجارة المحلية والعالمية ، وقد بلغ من سيطرة اليهود على التجارة الأوربية ان لفظ يهودي ( Judaas ) في الغرب الأوربي أصبح مرادفاً للفظ تاجر (merctor) .

والمعروف ان الكنيسة في العصور الوسطى حرمت أكل الربا الذي نهى عنه الانجيل والمسيح . ولذلك لم يجرؤ مسيحي في تلك العصور على المجاهرة بأقراض المال بفائدة . فاستغل اليهود هذه الظاهرة التي تتفق وأخلاقهم وحبهم للمال . واحتكروا النشاط المالي في غرب أوربا على أوسع نطاق فأقرضوا الفرسان والأمراء ، بل أقرضوا الكنيسة نفسها لتتمكن من إتمام منشآتها الضخمة الباهظة التكاليف .

وبذلك وقع الاوربيون فريسة للديون وأرباحها الفاحشة وفوائدها ، وهكذا تلفت ملوك أوربا وأمراؤها وفرسانها وأساقفتها وعامة الناس فيها فوجدوا أنفسهم أمام شراذم من اليهود تعيش بينهم ولا ترعى فيهم إلاً ولا ذمة يزدادون غنىً ويزدادون هُمْ فقراً يمتصون دماءهم وينتزعون ممتلكاتهم .

وكان هذا هو السبب الرئيسي لما تعرض له اليهود على أيدي المسيحيين في غرب اوربا من كراهية تحولت أحياناً الى اضطهاد .

ويمكن القول تأسيساً على ذلك بأن ما حدث نتيجة هذا هو تغير مفاهيم المسيحية وتحولها الى تطبيق منهج اليهود في إباحة الربا .

ولقد كانت مأساة اليهود على يد المسيحية في هذا الوقت أزمة كبرى . فقد كان الحكام المسيحيون بعد زوال دولة المسلمين بالأندلس يحرقون اليهود بالجملة ، بل قد أصدر فرناند وإيزابلا قراراً عام ١٤٩٢ م بطرد جميع يهود أسبانيا في مدى أربعة شهور دون أن يسمح لهم بنقل أموالهم وثرواتهم ، فنزح معظمهم الى المغرب وشمال افريقيا . ولا أدل على تسامح المسلمين مع اليهود من السماح لهم بالاحتفاظ بهياكلهم ومعابدهم في مختلف أنحاء العالم الاسلامي في الوقت الذي أمرت الكنيسة في غرب أوربا بتحطيم هياكل اليهود .

أما في المشرق فقد أكرم صلاح الدين اليهود ، إلا أنه اكتشف مؤامرة للقضاء على حكمه في مصر عن طريق الاتصال بالصليبيين وتولى كتابة الرسائل لهم أحد اليهود في مصر .

وإذا كانت اليهودية قد حاولت حـــرف المسيحية عن أهم أهدافها ، وهو الرحمة فلا ريب ان الكنيسة قد استجابت لذلك مرة أخرى،او أرغمت عليه حتى يقول برتواندرسل انه لم يعتنق المسيحية منـــذ نشأتها سوى فرد واحد هو المسيح . ويقول الدكتور أمير بقطر ، لقـــد ضاعت من نفوس الكثيرين الثقة بما يسمونه في أوربا وأمريكا بالخلق المسيحي ، فقد انهار هذا الخلق في كثير من البلدان .

ومن هنا استشرت الأزمة الدينية في الغرب وجرت المحاولات لتصحيح الموقف ، فقد كان العلم الحديث بدعوته الى حرية النظر واطلاق العقل من قيوده خطراً كبيراً على المسلمات القديمة كالتجسيد والثالوث .

ويقول أحد الباحثين في ذلك : ان كثيراً من المعتقدات التي لم تعد اليوم « حقائق إيمانية لا يمكن أن تنتقد » لأنها فوق العقل كانت في القديم مقبولة من العقل بل مستوحاة منه . ففكرتا التجسيد والثالوث وغيرهما كانت قريبة الى التأملات الافلاطونية ومنسجمة مع الآراء الميتافيزيقية في القرن الثالث والقرون الوسطى . فكان الذي دفع الأقدمين الى الاعتقاد بها هو نفسه الذي يدفعنا اليوم الى عدم الاعتقاد . وقد تجلى ذلك في مواقف كثيرة نشهدها في العصر الحديث، منهاوقوف كثيرين من عمالقة الدين المسيحي في المجامع العامة لمعارضة بعض المسلمات . فقد نشرت مجلة « لايف » الامريكية في نوفمبر سنة ١٩٦٧ ان عميد كلية اللاهوت في نيويورك قام بنوع من الثورة . وقد ترتب على ذلك ان حكم رجال الكنيسة ان اليهودية تهدم المسيحية وان الاسلام يهدم اليهودية والمسيحية معاً بتهمة التكتيك في الأناجيل . وان الرجل لا يعتقد بالمعجزات التي وردت في الانجيل .

وقال الرجل أمام الجميع: أولاً أنتم تتكلمون عن الانجيل ولا يوجد انجيل، إنما توجد عدة أناجيل . وان أي حادثة واحدة من المنسوب الى السيد المسيح نجد كل إنجيل يذكرها بطريقة مختلفة . ويبدو ان الحقيقة حاجة أخرى غير ما في الأناجيل ، وان أول إنجيل كتب بعد وفاة المسيح بمائتي سنة . وذلك الوقت الذي كتب فيه الانجيل لم يكن أحد ممن شهدوا المسيح موجوداً شاهد عين . ثم بأي حق تفرض الكنيسة إيماناً معيناً على الناس ، او تفرض عقيدة معينة على الناس .

ولقد عمدت اليهودية التلمودية الى طرح الاغريقية مرة أخرى ( وهي من اليهودية ) على المجتمع الغربي بمختلف مفاهيمها السياسية والاجتماعية .

أما مفهومها السياسي ( كل ما عدا الاغريق برابرة ) فهـــو واضح في التطبيق السياسي الذي تقوم به اوربا المسيحية في المستعمرات حيث تعامل الملوّنين على أنهم جنس أقل من حيث المكانة البشرية من الجنس الابيض ، ثم تدعو الى التحضر عن طريق التبشير المسيحي .

فهذه النظرية الاغريقية الرومانية الوثنية قد اعتنقها الغـــرب المسيحي اليوم ، وكانت عاملاً هاماً في تأييـــده قسوة الاستعمار على الشعوب غير المسيحية .

أما مفهومها الاجتماعي في الايمان بالمادة وأصولها محل الايمان الديني، وبناء هيكل الحضارة الربوية والإباحية القائمة على لذات الجسد وتضخيم عالم الحس وإراقة الدم والقتل والتمثيل والتعذيب . فقد ذهبت فيه الحضارة الغربية الى أقصى حدّ .

ولا ريب ان الحربين العالميتين كانتا من أخطر مؤامرات اليهود على الغرب المسيحي، ومع ذلك فان أحداً لم يتنبه لذلك التنبه الكافي حتى يقول ملك بريطانيا

الملك جورج يوم ٢٥ ديسمبر ١٩٣٩ : إني أؤمن من أعماق قلبي بأن القضية التي تربط شعوبي معاً وتربطنا بحلفائنا المخلصين الأمجاد ( هي قضية المدنية المسيحية ) وليست ثمة قاعدة أخرى يمكن ان تبنى عليها مدنية صحيحة .

وبينما كان يقول الملك جورج هذا في أوائل الحرب العالمة الثلنية كانت الكتابات اليهودية تقول : العمل على بنـــاء حضارة مسيحيه يهودية ، ثم لم تلبث ان قالت : انتظروا الأمل الذي سيحقق للبشرية كل سعادتها: الحضارة اليهودية الصهيونية التلمودية .

وقد أشـــار أندريه سجفريه في كتابه أزمة اوربا ( La Crise de L'Europe) الى انهيار اوربا بعد أن سادت العـالم مدى ثلاثة قرون لأنها أخضعت فيه الاخلاق المسيحية لسلطة الفتح واعتـبرت ذلك من الأمور المشروعة .

وأشار سلامة موسى : الى ان الأزمة الاوربية هي أزمة دينية : وقال ان العقائد القديمة تزعزعت بحملات العلم المتوالية عليها ، ولم يقم مقامها شيء لأن العلم لا يمكن ان يكون عقيدة ، وان هناك اليوم ملحدين يدعون الى الدين ، ولكنهم يطلقون عليه أسماء مختلفة مثـل الروحانية او البشرية . او قداسة الحياة ، ومنهم برتراندرسل الذي لا يفتأ يهدم العقائد الدينية بين المسيحيين . وقد تزايد اعتراف المسيحيين بخطر اليهودية الجديدة عليهم .

يقول الدكتور وليم سليمان في كتابه عن المسيحية واليهود : لقد استطاع اليهود في الغرب ان يحرفوا المسيحية . وانتشر تيار فكري يجعـــل نقطة بدايته ( موت الإله ) وينادي بمسيحية لا دين فيها ، وينادي بهـذه الأفكار (بتهوفن وبليثان والأسقف الانجليزي جون رونيسيون) .

« وان الدين لدى الغربيين لم يعد له في نظرهم قيمة في ذاته وانه شيء

يمكن الاستفادة منه لتحقيق الاهداف الدنيوية التي ينشـدها الغرب في شتى أنحاء العالم ، وان المسيحية انتحرت في اوربا بانضواء رجال الكهنوت تحت راية الصهيونية ، وتسابق شتى الكنائس لإرضاء اسرائيل وتملق اليهود . وأشار الى قرار مؤتمر الكنائس العالمي ١٩٦٤ في جنيف الذي يقول : ان الكنيسة لا تستطيع ان تتجاهل ثقل مسؤوليتها العظيمة عن آلام اليهود وضياع طول تاريخهم » أي ان الكنيسة تطلب المغفرة من اليهود . ويصل الكثيرون الى القول بأن النظريات العلمية التي تهز أركان العالم قد استطاعت ان تؤثر في النظم الموروثة الاوربية ، وان تحدث فيها شرخاً كبيراً ، وان اليهودية العالمية تستغل المنهج العلمي لتحطيم كل القيم الانسانية المسيحية في الاخلاق والنفس والعقائد والاجتماع ، وان كل النظريات الحديثة التي قاومت مفهوم الدين الغربي هي من صنع اليهود ، وهم الذين ينشرونها على أوسع نطاق ويدعون لها ويحرضون القصاصين والمسرحيين على إدخالها في كل مجـــالات الاعلام ، ولا أدل على ذلك من استشراء الفرويدية والوجودية والهيبية .

ومع الأسف فقد استسلمت الشعوب المسيحية لسلطان الفكر اليهودي الذي احتوى الفكر الغربي وصادر مفهوم المسيحية السمحاء وسلمت نفسها الى الايديولوجيات ، لأن الدين المسيحي لم يستطع ان يمـــدها بالبناء الفكري الكامل الذي يستطيع ان يفسر الاوضاع الاجتماعية في المجتمع ، وان يمنحها الأمل والمثل العليا في مستقبلها ، ولكن الاسلام غير ذلك[١].

وفي هذا يقول فيلكس فارس : بالرغم من أن الغرب قد بدل فلسفته المسيحية ، فانه لم يتمكن من إيصال الاسلام الى ضميره . كما انه امتنع عليه

---

(١) محمد يحيى الهاشمي في التعليق على كتاب العادة والتعبير .

ان يبلغ بالمسيحية الى فطرته ، وبقي النزاع مستحكماً فيه بين الفطرة والضمير ، لأن ثقافة المسيحية لم تزل متأثرة بالأحاجي والمعميات » .

ويرد أرنولد توينبي[1] الأزمة كلها « الى اهتمام المسيحية بالانسان نفسه مفصولاً عن المجتمع» ولا أدل على صدق توينبي من ان ألوف المسيحيين اليوم قد تحولوا عن المسيحية الى الماركسية وإلى الإلحاد .

---

(١) كتاب العادة والتعبير .

( ٢ )

ويحمـــل المؤرخون المسيحية مسؤولية فظائع سانت بارتلمي وهي المذبحة التي قامت بين البروتستانت والكاثوليك ، وأمر بها شارل التاسع ( ليلة ٢٤ أغسطس ١٥٧٢ ) ومذبحة (ألاليجواه) وهي طائفةدينية انتشرت في القرن الحادي عشر بجنوب فرنسا . وقد أمر البابا انوسان الثالث بإبادتها عن آخرها ، وقتل في حرب الكاثوليك مع البروتستانت ١٦٠ ألف ، وقتل ( توركارا الدومنيكي الاسباني فى ١٩٤٨ م ) ستة آلاف إنسان بالنار .

ويعد البابا كوبلوري التاسع (المتوفى في ١٢٤١ م) هو المسؤول عن إيجاد محاكم التفتيش التي ملأت قلوب الناس رعباً في العصر الوسيط . وقد اعتمدت البابوية في محاكم التفتيش على الدومنيكان الذين شبهوا أنفسهم بكلاب الله في اصطياد الهراطقة للمحافظة على الكنيسة . وقد اعتمدت محاكم التفتيش على التعذيب لإجبار المتهمين على الاعتراف وتذرعت بالقوانين اليونانية ، وقد ظلت محاكم التفتيش تعمل ثلاثة قرون ، وكانت في تقدير المؤرخين المنصفين مصدراً لانفراط عقد الوحدة المسيحية الغربية ،وقتل ديوان التحقيق في أسبانيا وحدها على حد قول رنياخ نحو مائة ألف نسمة .

●

وقد تعرض كثير من الباحثين للتساؤل عن تصرف المسيحية هذا ، وقالوا ان روح المسيحية تنكر القتال على إطلاقه .

وقال المؤرخون « ان تاريخ[1] المسيحية أمامنا شاهد عـــدل ، وتاريخ الاسلام أمامنا شاهد عدل ، فمنذ فجر المسيحية الى يومنا هذا خضبت أقطار الأرض جميعاً بالدماء باسم السيد المسيح ، خضبتها روما وخضبتها أمم أوربا كلها والحروب الصليبية انمـــا أذكى المسيحيون ولم يزالوا يذكون أوارها في مواجهة المسلمين والاسلام .

وظلت الجيوش باسم الصليب تنحدر من اوربا خلال مئات السنين قاصدة أقطار العـــالم الاسلامي تقاتل وتحارب وتهرق الدماء « وفي كل مرة كان البابوات خلفاء المسيح يباركون هذه الجيوش الزاحفة للاستيلاء على بيت المقدس وعلى الأماكن النصرانية المقدسة .

أفكان هؤلاء البابوات جميعاً هراطقة ، وكانت مسيحيتهم زائفة أم كانوا أدعياء جهالا لا يعرفون ان المسيحية تنكر القتال على إطلاقه ، أم يقولون : تلك كانت العصور الوسطى عصور الظلام ، فلا يحتـــج على المسيحية بها » ولكن الامر تجدد من بعد على صورة أشد فتكاً وتعرض المسلمون في آسيا وأفريقيا الى محنة قاسية تحت سلطان الاستعمار الغربي ونفوذ الحضارة الغربية المسيحية .

لقد رأى العصر الحديث ما رأت تلك العصور الوسطى وأشد حين وقف اللورد اللنبي ممثل الحلفاء يقول في بيت المقدس في سنة ١٩١٨ حين استيلائه عليه أثناء الحرب الكبرى : « اليوم انتهت الحروب الصليبية » يحدث هذا بينما يقول السيد المسيح : « ان مملكتي ليست في هـــذا العالم » ، ويحرص المسلمون على أحكام غاية في العدل والسماحة في كل أرض يصلون اليها ، مع ان الاسلام هو إقامة مملكة الله في الارض .

---

(١) عن بحث الاستاذ خليل .

ويقول المؤرخ هرتشو : لقد خرج الصليبيون من ديارهم لقتال المسلمين ، فاذا هم جلوس عند أقدامهم يأخذون عنهم أفانين العلم والمعرفة . لقد بهت أشباه الهمج من مقاتلة الصليبيين عندما رأوا «الكفار» الذين كانوا ينكرون من الناحية اللاهوتية ديانتهم على حضارة دنيوية ترجح حضارتهم رجحاناً لا تصح معه المقارنة بينهما . واذا كان لنا ان نضيف شيئاً الى ما قاله المؤرخ هرتشو فهو ان المسلمين قدموا الى الصليبيين : السماحة والخلق والعفو، وقدموا لهم صورة الاسلام في السلوك والحياة ايضاً الى جانب ما قدموا من علم وحضارة .

لقد ارتكب النصارى بالمسلمين في الحــروب الصليبية من المنكرات والتمثيل ما يعجز عنه الوصف وحيث تحطمت آمال المسيحيين الاوربيين في العالم الاسلامي إزاء بأس صلاح الدين باسم الاسلام فانه عاملهم معاملة كريمة فما رجعوا ، بل أرسلوا جيوشهم فوراً لاكتشاف موانىء البــلاد الاسلامية وجزر الهند الشرقية ليحتلوها ويطوقوا عالم الاسلام مرة أخرى .

( ٣ )

ومع ذلك كله فما تزال الصيحات تتعالى حول الســؤال التاريخي : هل المسيحية في ازدهار ، وهل تستطيع أن تنقذ الحضارة .

يقول الاستاذ عبد الكريم الفارسي : اذا كانت المسيحية كثيرة الافراد فان المسيحيين قليلو المسيحية لا تسيطر المسيحية على أكثريتهم الا بقدر ما تسيطر عليهم التقاليد والعوائد ، فقد أصبحت في أكثر الأقطار ظاهرة اجتماعية أكثر منها معتقدات فلسفية وتعاليم وأخلاقاً ، وان أهل المــدن أصبحوا يعتبرون الكاثوليكية كتحفة أثرية وعقيدة عتيقة دخلت في حكم التاريخ لا حاجة بالناس لإضاعة الوقت لمناقشتها ، لقد أخذت فرنسا تبتعد عن المسيحية منذ القرن الثامن عشر ، وقد أصبح اغراقها في الالحاد فيالوقت الحاضر في أقصى درجة ممكنة .

من أخطر الكتب التي ظهرت في أوربا كتاب الحوادث والايمان للراهب منتوركلار . وقد صادرته الكنيسة الكاثوليكية ، وليس هذا هو الكتاب الأول الذي صادرته الكنيسة فان عدد الكتب المحظور قراءتها على الكاثوليك هي أكثر من خمسة آلاف كتاب . منها : مؤلفات مستيرليك ، واميل زولا ورينان ، وجان جاك روسو ، وديماس الأب ، وديماس الابن ، وديكارت ، ولامنييه ، وفكتور هيجو .

ويرى أوناموني في كتابه : « اختصار المسيحية » ان المسيحية لا صلة لها بالأنظمة السياسية (ديمقراطية او دكتاتورية) او بالأنظمة الاقتصادية: اشتراكية او رأسمالية .

فالمسيحية عاجزة عن أن تحل مشاكل الفقر والغنى ، او توزيع الثروات. فقد أتى المسيح الى الأغنياء والفقراء ، الى العبيد والطغاة .

ويعادي أوناموني جميع الأنظمة السياسية والاقتصادية للعصر ، يعادي الفلسفة ، ويناصر أعداء الثورة الروسية ، ويرى ان البلشفية قد استبدلت ماركس بالمسيح ، وسنوفسكي ببولس ، والإخوة كرامازوف بأعمال الرسل. وهو يرفض فلسفة الاشتراكية لأنها علميـــة ، والاشتراكية في رأيه دعوة خلقية باسم العدالة الاجتماعية وباسم الدين ، بل يرفض كل محاولة للتقريب بين الكاثوليكية والاتجاهات العلمية كالوضعية مثلاً ، لأن الوضعية كالبلشفية : اتجاه مادي نحو العالم . فالدين صراع ، أما الوضعية فلا حياة فيها .

ويرفض أونامانو : الاستشهاد في سبيل المبادىء السياسية ، لأن ذلك إيمان بالأصنام ولا يريد ان تختلط الروح الدينية بمادية العالم . والمسيحية شيء فردي محض ، يستحيل ان يدخل الدين في سياسة الحـــزب او في المعرفة الانسانية . والمسيحية أقرب الى التجربة الصوفية والأسطورة الشعبية ، بل ان الدين ليستحيل ان يتحول الى قانون او تشريع . وبذلك يصبح أوغسطين من عبدة الحرف باعتباره مشرعاً . فالواجب والقانون عاطفتان دينيتان لا يدخلان في نطاق التشريع او القانون .

ويقصر أوناموني : الدين على العبادات ويفصل عنه المعاملات ويراه علاقة بين الانسان والله ، لا بين الانسان والانسان ، فما لقيصر لقيصر ، وما لله لله . وينتهي الى ان الديمقراطية المسيحية خرافة ، والاشتراكية المسيحية خرافة ، وان المسيح لم يتحـــدث عن الملكية الفردية نفياً او إثباتاً ، وهو

ليس ديمقراطياً او جمهورياً او ثورياً ، بل كان إنساناً ، كان يهودياً ضد الاتجاهات الوطنية لبني قومه ، وضد الكهنة والفارسيين .

وأخيراً يرفض أوناموتو ان يتحول الدين الى حضارة . ويقول : فقد احتضرت المسيحية يوم ان تحولت الى رومانية ، او مدنية غربية . لقد طغت الوثنية على الدين الجديد ، وعلى الدين ان يرجع للمسيح . فالمسيحية مجرد تجربة صوفية لا صلة لها بالأرض ولا بالسماء ، ولذلك فان المثل الأعلى هو الراهب ، وهذه وجهة نظر اخرى في شأن المسيحية يقدمها الفكر الغربي .

●

وهناك كولن ولسن وتساؤله : هل تستطيع المسيحية ان تنقذ الحضارة «حضارتنا» فان لم يكن في وسعها ان تفعل ذلك فلماذا ؟

هكذا يتساءل كولن ولسن في كتابه سقوط الحضارة ، وكولن ولسن من مدرسة التلمود ، ومعنى هذا ان اليهودية هي التي تحكم الآن على مصير المسيحية .

يقول : كان هناك عامل أشد أهمية في نمو المسيحية هو تنصر يهودي سابق كان يضطهد المسيحية هو القديس بولس ، كان بولس مختلفاً كل الاختلاف عن المسيح ، كان المسيح عملياً خالياً من كل معنى للخطيئة ومن كل قلق عصبي آخر وكان (بولس) مفكراً أكبر من المسيح ، ولعله كان يشبه (كيركنجارد) مشوهاً مضطرب الصحة ذكياً تشغل باله مسائل كئيبة كالموت والعنف والألم وتهيمن عليه فكرة الخطيئة ويعذبه النقد الذاتي الذي لم يكن يحرض ارادته على صنع نفسه .

أجل ، لقد كان بولس مختلفاً جداً عن المسيح ، كما ان الدين المسيحي الذي اخترعه بولس وسماه المسيحية لم تكن له علاقة بتعاليم المؤسس .

أكد بولس على فكرة نهاية العالم . والنموذج الحديث من طراز بولس ومزاجه هو ( ت.س.اليوت ) بكل ما في قصصه : الأرض ، الفقــر ، الفارغون ، موجود في رسائل بولس . وكان بولس مثل اليوت يعتبر الماضي وسيلة للتعويض عن الحاضر .

ركز بولس اهتمامه على فكرة الألم والموت والتفاهة ، وقد دعاها بولس الخطيئة الى ان شعر بأنه أقوى منها . واستطاع بولس بهذا أن يتمخض عن فكرته التي جعلت من المسيحية ديناً عالمياً ، وهذه الفكرة هي ان المسيح مات ليخلص البشر من خطاياهم ، وبعد كل هذا نجد ان فكرة صلب المسيح قد ساعدت بولس على السيطرة على نفسه . فانه من الواضح ان موت المسيح ساعد بولس على الحصول على حياة أشد تركيزاً وعلى تعميق إدراكه لمعنى الحياة وعلى توسع مفهومه للهدف .

واذا كان موت المسيح قد أنقذ بولس من تفاهته . فلماذا لا يحدث ذلك بالنسبة للبشر الآخرين أيضاً . من هنا نشأت فكرة تخليص البشرية بعذابه . ان المسيح مات لينقذ البشر ، ولما كان بولس قد قرأ العهد القديم فقد استطاع ان يحول هذه الفكرة الى عقيدة قوية . أما في أعماقه فقد كانت هناك رؤياه التي كانت تشعره بأن جميع البشر يولدون مخطئين ، وأعطاه العهد القديم سبباً لذلك : عصيان آدم ( رغم ان الهـــدف من وجود الاسطورة في الإصحاح هو تفسير وجود الألم والشقاء في العالم ، وليس تفسير عدم كمال البشر أنفسهم ) .

وأعلن بولس : انها خطيئـــة آدم ان يولد البشر خاطئين ، ولكنهم

يستطيعون الآن إلقاء الخطايا على المسيح ، وبهذا يصبحون كاملين . » شعر بولس ان البشر جميعاً مخطئون ، وقبـــل اعتناقه المسيحية كان هو نفسه نموذجاً حقيراً .

أما تعاليم المسيح وموته فقد أعطيا بولس مفهوماً للهـــدف ، وبالتالي احتراماً للنفس . وهنا كف بولس عن كونه إنساناً صرصاراً ، ودخل في مرحلة الرجل العملي ، وصارت المشكلة لبولس كما كانت بالنسبة للمسيح وفق رؤياه عن البشر ، لماذا لا يكون البشر كالله ، وكان جوابه بسبب عصيان آدم ، ولكن هل كان هذا يعني ان آدم كان كالله .

ان سفر التكوين لا يقرر ان آدم كان يساعد الله في خلق حياة جديدة ، وان السقطة كانت فردية . وهكذا فان عقيدة بولس في المسيح تتهاوى كلما أوغلنا في الاختبار .

أما بالنسبة لوضع الانسان في العالم ، فان هذه العقيدة تفرض ان الانسان في أساسه غير كامل وان هدفه النهائي هو أن يصبح مثـــل الله ، ولكنه لا يدرك كما فعل المسيح ان الانسان لا يستطيع ان يصبح مثل الله بجهوده نفسها. وعلى أية حال فان عقيدة بولس هذه قد صارت أساس المسيحية والعمود الفقري للكنيسة . ولكن هذه العقيدة نفسها عرضت الكنيسة الى النقـــد أيضاً الذي وجهه نيتشه ـ اذ قال : ان المسيحية هي دين الكلاب .

لقد كانت دعوة المسيح في جوهرها دعوة الى النظام والقوة ، أما بولس فقد حولها الى دين صار ملاذاً للمذعورين والخائفين، أما الاقوياء الذين انتموا الى الكنيسة كالقديس أوغسطين وجورج فوكس فقد فعلوا ذلك للسبب المعاكس ، وهذا أساس النجاح الذي صادفته المسيحية واتساع دعوتها وشمولها

القوي والضعيف . وقد عبر نيتشه عن احترامه لمؤسس المسيحية واحتقاره للقديس بولس الذي سماه ( بسكال اليهودي ) وقال عنـــه انه ميال الى الخرافات والمكر ، وانه رجل مصاب بشعوره بعذابه الشديد الى درجة ان المرء ليرثي له .

ويقول كولن ولسن : ان قول المسيح : كن سيد نفسك قد تلاشى وحل محله مسيح آخر من اختراع بولس ، مسيح يقول : اعتبروني سيدكم وبذلك تحصلون على شفاعتي في يوم الدينونة ( لأني تفاهمت مع أبي الذي في السموات واتفقنا أن أموت بشرط ان أكون حاكمكم ومخلصكم ) .

وهكذا فان مسيح بولس يستميل قلوب الناس أكثر من المسيح الاصلي . وكانت النتيجة انتشار المسيحية الهائل ، ولم تعد المسيحية بعد بولس فكرة (خلص نفسك) وإنما صارت (دعني أخلصك) ولهذا السبب نجد برناردشو يسميها الصليبية بدلاً من المسيحية ، وبعد موت المسيح بزمن طويل انتظر الناس يوم الدينونة بفارغ الصبر ، ولما لم يحدث ذلك فسروه برحمة الله وصبره ، واعتبروا أنفسهم محظوظين .

وهنا لم يعد يوم الدينونة ركيزة المسيحية ، وحلت محـل ذلك فكرة بولس القائلة بأن المسيح هو مخلص البشر لأن اليوم امتـــد الى المستقبل البعيــد .

ان اللامنتمي الذي يقف ضد العالم يجد في الكنيسة الملاذ الكامل بالنسبة اليه ، لأنها تعلن : ان ملكوتي ليس في هذا العالم .

ولكن الامور سارت في غير طريقها الصحيح ، فصارت الكنيسة قوية ،

واشتدت بذلك صلفاً وغروراً ، كما قال توينبي ، واشتد ميلها الى السلطة ولم يعد اللامنتمون يحتملونها . ثم ظهرت قوى منذ القرن الحادي عشر اعترضت على بيع وشراء ترقيات الكنيسة ومناصبها وبقية المخازي ، وخاصم جون وتكليف الكنيسة ، وأعلن ان البابا ضد المسيح ، ثم ظهـــر لوثر فهاجم الكنيسة وبدأ بمهاجمة قبول المـال مقابل غفران الخطايا وأكد كالفن وهو مريض أيضاً على فكرة المسيح المخلص ولهذا فان نتيجـة الاصلاح البروتستانتي لم تكن إصلاحاً للمسيحية وانمـــا كانت إصلاحاً لمسيحية بولس .

واتفق زعماء الاصلاح لوثر وكالفن وغيرهما من الكنيســة الكاثوليكية على شجب كونرنيكوس وسجن جبوراونو بروتو لأنه قس أيد نظـــرية لكوبرنيكوس وأحرق ، ونظرية كوبرنيكوس تقول : ان الارض تدور حول الشمس ، لا الشمس تدور حول الارض .

وقد رجع البروتستانت والكاثوليك معاً الى الانجيل ليثبتوا ان الارض هي مصدر الكون وان الشمس والقمر والنجوم خلقت لتهب الارض الضياء ، ثم يصل كولن ولسن الى نهاية المطاف الطويل ليقول : « حاولت ان أبين ان المسيحية لم ترتكز على تعاليم المسيح ، وإنما ارتكزت على عقيـــدة ميتافيزيقية اخترعها بولس ، وصارت أساساً للكنيسة الكاثوليكية التي حملت بذرة فنائها معها ( لأنه لم تكن هناك الا خطوة صغيرة بين القول بأن المسيح يستطيع ان يخلص البشـــر من خطاياهم وبأن الكنيسة تستطيع ان تفعل ذلك مقابل المال ) .

ولما ثار لوثر ضد الفساد استخدم فكرة المسيح المخلص أيضاً لتأسيس

كنيسته الجديدة ، ولكن العصر العلمي كان يطبق على الدين شيئاً فشيئاً ، وهو الموقف الذي يواجهنا اليوم فالكنيسة لا تزال تستخدم فكرة المسيح المخلص باعتبارها حجر الزاوية . هذا موقف يمثل تياراً آخر من تيارات الفكر الغربي .

ويشير فيسرتهوفت في كتابه : الكنيسة المعاصرة التي تفتت وحدة العالم المسيحي الى مجتمعات مسيحية متعددة وكنائس مختلفة ، وخاصة بعد حركة الاصلاح التي قام بها لوثر ، وكان من نتائج التجزئة والتفتيت ذلك الصراع الدامي بين المسيحية ممثلة في كنائسها من ناحية وبين العلوم الطبيعية والحركات الداعية للنزعة الفردية والانسانية .

وأشار الكاتب الى خصوم المسيحية : نيتشه وكارل ماركس وكانت وقال ان ممثلي الكنائس المسيحية في الغرب يشعرون بأنهم في موقف الدفاع عن النفس في وجه القوى العلمانية التي اجتاحت مجتمعهم بقوة وعنف . ويرى ان تنازل المؤسسات المسيحية لقيصر تنازلاً شبه تام عن كل ما يمت لقيصر بصلة ، والاحتفاظ لنفسها بما تبقى . ويرى ان هـــذه التسوية نجاح كبير أحرزته الكنيسة لأنه خلصها من ارتباطات تقليدية لا تمت في حقيقتها الى الكنيسة بصلة ، وأعلن الكاتب أسفه لضياع هذا العالم المسيحي الموحد حيث لا تمايز بين الكنيسة والمجتمع والدولة .

●

ولا ريب ان هذه الابحاث والدراسات تكشف عن موقف الاسلام في العالم المعاصر ، وتشير الى دوره الخطير إزاء انحسار الاديان في الغرب نتيجة التفسيرات الخطيرة التي وضعها بعض رؤساء الاديان والتي سارت البشرية

عليها طويلاً ، ثم جاء العلم الحديث فكشف عن زيفها وعجز العقل البشري عن قبولها . هذا في نفس الوقت الذي يواجه الاسلام العلم والعقل البشري والفطرة بمنهج سمح متكامل يسير ، تقبله النفس ويرضي العقل ويملأ القلب بالإيمان ويجد فيه المثقفون هدياً ونوراً ، ويرى فيه المصلحون أملاً مرتقباً لحياة البشرية في القرن القادم .

# الفصل الثالث

## اليهودية في محاولة احتواء الاسلام

تحاول اليهودية إعادة السيطرة على البشرية من جديد ، وعلى المسيحية والاسلام ، عن طريق صياغة مفاهيمها في نظريات ومذاهب حديثة تضرب بها مقررات الاديان ، ولقد استطاعت ان تقطع في ذلك شوطاً طويلاً حيث أتيح لها السيطرة على مقدرات الفكر الغربي المسيحي وتحريفه واحتوائه ، وتغليب مفاهيمها عليه ، ومن حيث ان العالم الاسلامي متأثر منذ أكثر من قرن من الزمان بالفكر الغربي المسيحي نتيجة احتلاله والسيطرة عليه فان التغييرات المستحدثة فيه بفعل الماسونية والتلمودية والصهيونية فانها تبرز ، وكأنها تحديات جديدة ، ومن هنا فان الفكر الاسلامي الآن يواجه تحديات أربعة: تحديات الفكر الغربي المسيحي ، والفكر التلمودي الصهيوني، والفكر المادي الماركسي ، والفكر الالحادي .

فالفكر الغربي المسيحي يتحدى الاسلام بتعدد الزوجات ، وتحـــديد

الطلاق ، وفصل الدين عن المجتمع والدولة ، وإعلاء شأن مفهوم البطولة في القصة والمسرح المستمدة من نظرية الخطيئة والفداء .

وان الفكر اليهودي التلمودي يتحدى الاسلام بالربا والدعوة الى الاباحية والقول بنسبية الاخلاق وبالتطور المطلق وبإعلاء شأن العصرية والتقدم المادي وإنكار التراث والتاريخ .

واذا كان الفكر المسيحي قد حاول ان يدعي بأن الشريعة الاسـلامية متصلة بالقانون الروماني او متأثرة به ، فان الفكر اليهودي التلمودي يحاول طرح مفاهيم العنصرية والاستعلاء بالدم والعرق ، ومادية الحياة ، وإنكار اسماعيل ، ووجود العرب في ذرية ابراهيم ، وإدخال مفاهيم السحر والتنجيم والاساطير وإعلاء شأن الجنس واللذات ولقمة العيش ، وإنكار الاسرة ، وأسطورة الشعب المختار . ولا ريب ان كل ما تطرحه التلمودية الصهيونية الحديثة ليس جديداً ولكنه وليد الفكر القديم والتحريف الواسع الذي وقع للتوراة . ومن هنا فان هناك فكرة مريبة خبيثة يدعو اليها بعض المخدوعين والمضللين واتباع الماسونية والتلمودية وهي محاولة التفرقة بين اليهودية العالمية وبين الصهيونية . وعندنا ان التفرقة الوحيدة انما تقع بين دين موسى كما أنزله الله وبين اليهودية كما وضعها عزرا في نفي بابل . وان فلسفة الصهيونية مستمدة أصلاً من هذه اليهودية التي حرفت أصولها في التوراة وفسرت تفسيراً كاملاً في التلمود والمشنا ، والقائمة على القول بأسطورة الشعب المختار الذي أعطي ميراث ابراهيم عليه السلام من دون أبناء ابراهيم جميعاً . ولا بد عند النظر الى خطر الصهيونية التلمودية من تقدير أمر واحد هو أخطر من كل الاهداف ، هو إقامة امبراطورية الربا العالمية ، وتلك هي « الايديولوجية اليهودية » .

« يجب علينا نحن اليهود ان نسيطر على ثروة العالم عن طريق انشـاء

احتكارات يهودية عالمية ضخمة تستوعب كل ثروات العالم وتكون بمثابة خزائن لكل كنوز العالم ، لم يبق الا أصحاب العقارات وملاكو الارض ولا سبيل للقضاء على هذه القوة الا بتنشيط أعمال المضاربة حتى يتحول ميدان الربح الى البورصة ، حيث يتجه أولئك الملاك في استغلال ثرواتهم في الاسهم والسندات بدلاً من الأراضي والعقارات التي تصبح غير جزيلة الربح ، بل توضع كرهونات للقروض التي تدفعها عن طريق بنوكنا ، ثم لا يلبث الملاكون ان يعجزوا عن الوفاء بها فتقع الشعوب في قبضتنا : وذلك هو مخطط الاستيلاء على ثروات العالم عن طريق الأسهم والسندات ، وان تضطر الحكومات الى طلب العون المالي من مصارفنا وخزائننا فتقع الحكومات في قبضة الرأسمالية وهكذا نجرد الحكومات والشعوب من أسباب القوة ، لهذا علينا ان نعمل على إغراق حكومات العالم بالديون عن طريق تشجيعها على الاقتراض منا عن طريق عقد قروض داخلية لسد حاجاتها ، وتتم تغطية هذه القروض من جيوبنا بطريق مباشر او غير مباشر ، فيكون بوسعنا إفلاسها بعد فترة من الزمن عندما نطالب بديوننا فجأة .

أما الصحافة والادب فهما أعظم أداة للسيطرة الفكرية ، ولذلك ينبغي علينا نحن اليهود ان نشتري العدد الاكبر من دور الصحافة والنشر ووكالات الاخبار العالمية ، حتى لا يرى الناس أي خبر او مقال او توجيه إلا من زاويتنا . ومن خلال نظارتنا الملونة ، ويجب ان تكون لنا جرائد شتى تؤيد الطوائف والأحزاب المختلفة من أرستقراطية الى شعبية ، ومن ثورية الى فوضوية ، وستكون هذه الجرائد مثل الإله الهندي (فشنو) لها مئات الأذرع ، وحتى يمضي الثرثارون المغفلون في ترديد ما يتوهمون انه رأيهم ، او رأي جرائدهم وأحزابهم ، سنكون نحن قد حققنا ما نبغي فلن يروُوا إلا ما نضعه نحن في أفواههم من وراء الستار .

كلما وجدنا أنظار الرأي العالمي تتجه نحو الحقيقة يجب ان نعمل على تحويله

الى اتجاه آخر . ان واجبنا أن نشغله عن أي طريق او تفكير جدي سليم بإثارة موضوعات لها طابعها الصحفي وبتلهيتهم وملء فراغهم بمختلف أنواع الملاهي والمباريات الترفيهية ، والفن والرياضة شعارنا القوة والرياء وفي سبيلها وللوصول الى غايتنا ينبغي ألا نحجم عن اللجوء الى الرشوة والخداع .

علينا أن نقدم دون تردد على اغتصاب ملكية الغير .

( ٢ )

قال بن جوريون : لقد قاومت اليهودية الحضارة اليونانية والامبراطورية الرومانية والمسيحية ، وأخيراً الاسلام .

قال دستيوفسكي : لا تقل بسمارك ، او الجمهورية الفرنسية ، ليس كل ذلك إلا مجرد أوهام . فاليهودي وحده وماله هو سيد العـــالم ، فاليهودي وماله يسيطران على كل شيء ، على أوربا ، على التعليم ، على الحضارة ، على الاشتراكية .

وهناك عشرات المصادر التي تؤكد ان الماسونية كانت مصدر احتواء الفكر الغربي وتحوله عن الآداب المسيحية والاخلاق المسيحية ، وكان اول منطلقها هو الثورة الفرنسية .

يقول مؤلف كتاب التاريخ النقدي للشعر الانجليزي[١]: ان قادة الثورة الاوربية في عصر النهضة الاوربية أخذوا بمبدأ خاطىء وجه النهضة الادبية في اوربا الغربية نحو المغالاة في الاعتداد بالانسان والزعم بأنه هو ، وليس الله تعالى مقياس كل شيء ، وأدى بهم هذا المبدأ آخر الأمر الى ضلال بعيد

(١) ص ٤٧٣ : التاريخ النقدي للشعر الانجليزي .

عندما أخذت الثورة الفرنسية بمذهب روسو الذي قطع الرابطة بين الانسانية وبين عقائد الايمان السابق (النابع من المسيحية) .

ومعنى هذا ان فلسفة النهضة الاوربية عدلت عن المبادىء المسيحية وادعت لنفسها ان أفعال الانسان مهما تكن فهي كاملة في نفسها ، وهذه الفلسفة المستمدة من عصر النهضة كان من شأنها ان تبرر أعمال الانسان مهما كانت بقطع النظر عما تراه العقيدة المسيحية فيها .

ويشير باحث آخر الى هذا التحول الخطير فيقول : « أزال اليهود مفهوم الدين الحقيقي في الغرب لفرض مفهومهم الذي يحقق لهم قيام دولتهم ـ لقد ورثوا الحضارة الغربية وتسلموها ، ولم يكونوا قد شاركوا فيها أساساً ـ بل فرضوا أنفسهم على الفكر الغربي وسيطروا عليه سيطرة كاملة ، وأباحوه مطلقاً الى اللادينية واللاأخلاقية والإلحاد والإباحية وفق مناهج فلسفية ذات طابع علمي براق . واليهودية بعد ان هدمت الفكر الغربي سربت هذا الحطام الى العالم الاسلامي مستهدفة تحقيق غاياتها في إقامة الامبراطورية اليهودية في فلسطين .

لقد حطمت المسيحية الاوربية لتجعلها محتواة داخل فكرها وأهدافها ، وكان هدفها هو إقرار معنى خطير يقول ان إقامة كيان اسرائيل معناه الرجوع بالحياة البشرية وبالعالم الانساني وبالتاريخ الى ما قبل المسيحية بعشرة قرون من وجهة أخلاقه وفكره وروحه .

وهذا هو السر في ذلك الاصرار العجيب على إحياء تراث بابل وآشور والمجوسية والبوذية وغيرها ، وعلى ذلك الاهتمام البالغ بالفلسفة الهلينية اليونانية .

فقد تبين في السنوات الأخيرة ان المعارف اليونانية تمثل في أعماقها

شخصية يهودية بحتة ، فكان اليهود على أمل إحراز السيادة على الشعوب بواسطة تلك المعارف ، حتى لقد نشر قسيس يدعى أوزيب في أحد كتبه فصولاً من كتاب (نومي نوسي) الذي يقول بأن الفيلسوف اليوناني (أفلاطون) أخذ كثيراً من أفكاره عن موسى عليه السلام ، بل ان هناك من زعم ان أفلاطون هو نفس موسى عليه السلام ويدعي كثير من الحاخامين بأن الفلسفة اليونانية مقتبسة من عقائد يهودية ، وان فيلسوفاً يهودياً يسمى (توراة ارستوبول) قد ادعى مطابقة بعض أفكار فلاسفة يونانيين أمثال أفلاطون وسقراط مطابقة تامة لقواعد اليهودية وأوامرها ، وان حاخام اليهود وفيلسوفهم المشهور ( فيلون ) يقول : ان النظريات اليونانية هي نفس ما جاء في دين اليهود تماماً .

وان حقيقة الفلسفة العلمانية التي سادت على مدنية الغرب ، والتي تغذي الحركات المعادية للقومية والدين والتاريخ هي من ( اليهوا ) أي من اليهود وشريعة التوراة ، وان الحاخامين بريائهم المستور كانوا يضعون خيوطهم لجر المدنية الغربية النصرانية نحو اليهودية .

ولا شك ان هذا كله يضع وثائق جديدة في أيدي الذين يرون ان اليهودية والصهيونية من أصل واحد ، وان الصهيونية ما هي الا واجهة سياسية للتلمودية القديمة .

وقد ثبت ذلك فعلاً مما كتبه علماء الصهيونية وفلاسفتها من ان الصهيونية السياسية لا تستطيع التخلص من جذورها الدينية . وإلا فهل يستطيع يهودي واحد ممن يعارضون الصهيونية ان يكذب ما تدعيه التوراة والتلمود عن

شعب الله المختار والوعد المدعى له بأرض الميعاد .

ولتحقيق هذه الغاية تعمدت اليهودية الى تحـــريف التاريخ الانساني ، وتحريف الاديان . ولا ريب ان أخطر ما تقوم به اليهودية في الوقت الحاضر هو محاولة السيطرة على علم مقارنة الاديان وعلم الاجناس ومفاهيم النفس والاخلاق والاجتماع .

( ٣ )

قالت « بربارة توخمان » الكاتبة اليهودية في كتابها (التوراة والسيف) : «وهكذا دخل الجنرال اللنبي الى القدس عام ١٩١٨ فنجح حيث كان ريتشرد (ريكاردوس قلب الأسد) قد أخفق ، ولولا ذلك الانتصار لما كانت إعادة اسرائيل الى ارض الميعاد قد أصبحت حقيقة واقعة، وكذلك لم يكن بإمكان اللنبي ان ينجح لولا محاولة ريتشارد ، أي لو لم تكن النصرانية قد أقامت في الاصل الأساس الذي يحمل النصارى على التعلق بالأرض المقدسة، ان من غريب التهكم ان يكون اليهود قد استعادوا موطنهم إلى حد ما ، بفعل الدين الذي أعطوه للأميين » .

وهكذا تنكشف أوجه الصراع بين المسيحية واليهودية في محاولة السيطرة على الاسلام ، وتبدو براعة اليهودية في نقـــل الكرة من قدم الى قدم حتى تصبح في حوزتها .

لقد كان هدف الماسونية الأساسي هو هدم البابوية ، ولكن الهدف أيضاً قد امتد الى القضاء على أكبر مركز ديني في أوربا وهو الكنيسة الروسية ، ثم امتد مرة أخرى الى القضاء على الخلافة الاسلامية في تركيا ، وقد تحقق ذلك في سنوات قليلة متوالية في أعقاب الحرب العالمية الاولى .

ومعنى هذا ان أكبر مكاسب هذه الحرب قد حصلت عليها اليهودية .

فان اليهودية الماسونية التي أشعلت الثورة الفرنسية في أوربا كلها لتحقيق وجود اليهودي وسيطرته على المجتمع الاوربي ، هي نفسها التي استطاعت عن طريق اليهود الدونمة في سالونيك اسقاط السلطان عبد الحميد عام ١٩٠٩ وإسقاط الخلافة عام ١٩٢٤ .

فقد كان اليهود يرون في السلطة العثمانية شبحاً مخيفاً للخلافة الاسلامية خطراً على مستقبلهم ، وقد حاولوا احتواء السلطان عبد الحميد والدولة العثمانية وبذل هرتزل في سبيل ذلك جهد الطاقة فلم يستطع الوصول الى شيء[1] .

كان ذلك عام ١٩٠٢ عندئذ قرر المحفل الماسوني خلع السلطان عبد الحميد وكلف قادة تركيا الفتاة والاتحاد والترقي تنفيذ القرار ، وكان اليهود قد نجحوا في السيطرة على هذه الجمعية حيث سيطر عليها جماعة الدونما (المتظاهرون بالاسلام من يهود أسبانيا الذين اتخذوا سالونيك مقاماً لهم بعد فرارهم من محاكم التفتيش) حتى حققوا ذلك عام ١٩٠٩ .

وكان انقلاب تركيا قد أسلم زمام تركيا لليهود[2] الماسون الدونمة (طلعت ، وجاويد ، وجمال ، وأنور ، ونيازي ) ثم جاء كمال بعد الحرب العالمية الأولى وتمزق تركيا وسقوطها ليقيم الدولة التركية العلمانية التي ألغت الخلافة واللغة العربية والشريعة الاسلامية والأذان ، وأغلقت المساجد . وفي انقلاب مصطفى كمال أتاتورك وهو من اليهود الدونمة جرت المجازر للمسلمين وسلمت البلاد الاسلامية التي كانت تابعة للدولة العثمانية الى الاستعمار والصهيونية بعد ان سلم الاتحاديون طرابلس الغرب .

---

(١) راجع كتابنا «العروبة والاسلام» تصحيح اضخم خطأ في التاريخ الاسلامي المعاصر .

(٢) راجع الدكتور محمد علي الزعبي : الماسونية في العراء .

لقد كان خلع عبد الحميد مقدمة لإلغاء الخلافة ، وكان إلغاء الخلافة هو الذي فتح الباب واسعاً خلال حكم الاتحاديين منذ (١٩٠٩ - ١٩١٦) للسيطرة على فلسطين ، وتحقيق هدف اليهود باستيلاء المسيحية ممثلة في بريطانيا على القدس ١٩١٧ كمقدمة لاستيلاء اليهود عليها بعد خمسين عاماً ١٩٦٧ . وكان ذلك من أخطر أهداف اليهودية والمسيحية : تمزيق الدولة الاسلامية الكبرى، وفصل العرب عن الترك ، وهدم الجامعة الاسلامية ، وإلغاء الخلافة .

وفي فلسطين قتلت المسيحية واليهودية المسلمين في صورة وحشية ( مرة أخرى ) تفوق كل ما يروى عن الطغاة . ولا ريب ان الخلافة الاسلامية خلال التحديات التي واجهت السلطان عبد الحميد قد كشفت عن قدرة ضخمة في مواجهة الاخطار دفعت هـــذا السلطان السياسي البارع الى رفع راية الجامعة الاسلامية لجمع المسلمين من مختلف أنحاء العالم تحت لواء الخلافة لمواجهة خطر الاستعمار الفرنسي المسيحي والغزو الصهيوني اليهودي وكان موقفه من عروض اليهودية العالمية شريفـــاً . قال في خطابه : « أنصح الدكتور هريزل ألا يتخذ خطوات أخرى في هذا الطريق فاني لا أستطيع ان أتنازل عن قدم مربعة واحدة من هذه الارض (أرض فلسطين) لأنها ليست أرضي وإنما هي أرض شعبي ، شعبي الذي حارب في سبيل هذه الارض ورواها بدمه ، دع اليهود يحتفظون بملايينهم . فاذا تفككت امبراطوريتي ، فان اليهود قد يحصـلون على فلسطين بدون مقابل ، ولكنهم لن يصلوا اليها إلا على أشلاء أجسامنا بعـد تمزيق أوصالها : انني لا أستطيع ان أوافق على اجراء التجارب الجراحية على أجسام أبناء شعبي الأحياء[١] .

•

---

(١) النص عن يوميات هريزل .

ولا ريب ان سيطرة اليهودية الصهيونية على فلسطين قد جاء عن طريق انجلترا ، ثم أمريكا وهما دولتان بروتستنتيتان باضت الماسونية العالميـة فيهما وأفرخت وأدخلت في عقول المسيحيين أسطورة الارض الموعودة حتى آمنوا بها ، وكان ذلك أيضاً هو المدخل الىقرار المجمع المسكوني الثالث عام ١٩٦٤ بتبرئة اليهود مما سمي تهمة قتل المسيح . وقد غاب عن المسيحيين مخططات اليهود إزاء دينهم وما كتبـوه في بروتوكولات صهيون من خطط للسيطرة عليهم وما صرح به كثير من حاخاماتهم من أمثـــال ما يقوله الحاخام بينا موريخ : اليهودي لا يقنع بهزيمة المسيحية ، بل يريد تهويد أتباعها انه يحطم العقيدة المسيحية ، انه يثير الخلاف ويفرض ارادته علىالعالم منوجهة الاخلاق والحياة .

ويقول أحد الحاخامات : أمامنا الآن بعض سنوات قليلة لتحل اللحظة التي يتم فيها تحطيم الدين المسيحي تحطيماً كاملاً ، فالمسيحية تتلوى وتعاني النزع الأخير . وقد أصاب الذبول صنم العالم المعبود الذي مضى الى الفناء والمسيحيون الخوارج الكفرة الذين يدعون أحقية الحق الأقدس قد وجهوا الى الطريق الخاطىء ، فاننا جاهدنا طويلاً لنفهمهم ان المسيح لم يوجد على سطح الارض إطلاقاً .

.. أين هذا من مفهوم الاسلام وسماحته وتكريمه للسيد المسيح واعترافه به نبياً مرسلاً .

●

ولا ريب ان هدف اليهودية التلمودية الجـديدة الممثلة في الصهيونية هو ما أشاروا إليـه مرات وخاصة في البروتوكولات [ يتعين علينا ان نكتسح جميع العقائد.والأديان الاخرى . واذا كان ذلك سيؤدي الى وجود ملحدين ينكرون الخالق ] .

ومن موقف اليهودية الصارم ضد المسيحية فان القاصـــد الرسولي الأب ماركولي يتحدث عن علاقة البابا بالصهيونية فيقول : لقد حدثت تغييرات شتى في الوقت الاخير من العلاقات بين اليهود والحكومة الانجليزية ، وكان من شأن هذه التغييرات ان بعثت اهتمام الدول عامة بمسألة الشعب اليهودي من جديد . وبالتالي بدأ الفاتيكان يهتم بالمسألة .

والبابا ينظر بعين الرضا والارتياح الى مشروعات الصهيونية في فلسطين وهو يراها مصدر بركاته للسلام العالمي .

ويعتقد البابا نيوس التاسع انه يحق للصهاينة ان يحملوا كافة الكنائس الدينية على الاهتمام بأمانيهم ويقول «على أني أؤكد ان الكنيسة الكاثوليكية وهي أكبر كنيسة في العالم تؤيد الصهيونية وأمانيها»: ولا ريب ان مثل هذه الوثيقة تكشف أمرين :

أولاً : مدى ما استطاعت اليهودية العالمية ان تصل اليـــه من احتواء المسيحية .

ثانياً : مدى ما وصلت اليه الكنيسة من الضعف والانحدار .

●

نعم ، لقد استطاعت اليهودية ان تستقطب عدداً ضخماً من المسيحيين ذوي المناصب الثقافية والسياسية وأن تجعلهم مسيحيين صهيونيين .

وهذا الفريد لينتال في كتابه « اسرائيل ذلك الدولار الزائف » يقول : غزا اليهود المجتمع المسيحي ، ولعب المسيحيون الصهيونيون دوراً حساساً في هذه الحركة المحبوكة تماماً والحسنة التمويل، انمشاعر العطف على الصهيونية ليست مقصورة على اليهود فحسب فالصهيونية في الولايات المتحدة قد سبقها

المثال الذي ضربه حاييم وايزمان حين استفاد من مزج العناصر المسيحية والاخرى اليهودية في انتزاع وعد بلفور ، فاعتمدت هي بدورها على المسيحيين الامريكيين كي يقدموا لها خدمات لا تحصى وقد استخدمت أسس علم النفس للحصول على تأييد مزدوج ، عن طريق ضمير العالم المسيحي المضطرب الذي يتوق الى التكفير عن الدور الذي قام به من الاضطهاد المتواصل لليهود ، ثم العاطفة الليبرالية المعتمدة على الضعف والشفقة الموجودة لدى الأغنياء والمشاعر الدينية عند المثقفين التوراتيين الذين نظروا الى ان انشاء اسرائيل هو في الحقيقة بشارة ضرورية لقدوم المسيح . وقد قبل بعض المسيحيين الادعاء بأن التوراة تطالب بعودة يهود اليوم الموجودين في منفاهم الى وطنهم القومي في فلسطين بدعوى ان دولة اسرائيل الحديثة هي دولة ورد ذكرها في الكتب المنزلة .

غير ان الكثيرين من المسيحيين اندفعوا أيضاً لأن الديانة الاسلامية تعتبر في نظرهم ديانة وثنية متطرفة فكان تأييدهم لإسرائيل وسيلة من وسائل مقاومة خلق وحدة عربية مسلمة وتعود هذه المحاباة والتعرض للمسلمين الى العصور السالفة أيام حـــدث الصراع بين المسلمين والمسيحيين ، وانتشرت القصص الخيالية حول الحروب الصليبية .

ويعني هذا بأن اليهودية التلمودية استطاعت أن تخدع المسيحية الاوربية والامريكية ، ففي نفس الوقت الذي تعمل فيه على تدميرها ، وتكتب ذلك صراحة في كتبها ، فهي تستغلها عن طريق تحريف النصوص على ان تؤازرها في دعواها الباطلة ، بل انها هي التي تذهب في ذلك كل مذهب حين تزيف وقائع التاريخ وتكشف عن جانب واحد منـه هو جانب التحريض على المسلمين بإعادة اذاعة موقف المتعصبين من المسيحيين في الحروب الصليبية ، بل ان جريدة التيمس التي عرفت بمحاباتها لليهود واليهودية كانت تذكر اليهود دائماً بالدور الذي يلعبونه دوماً في تهييج الخـلاف بين المسلمين والنصارى والمعروف ان اليهود قاموا بمؤامرات ضخمة في سبيل إيقاع المسيحيين في

الامبراطورية العثمانية في خلاف مع الدولة ، واستفادوا من ذلك الاستيلاء على الاراضي .

وقد أشار الفريد ليلنتال الى هذا المعنى كله بقوله : مقدرة الصهيونية في استغلال المسيحي العادي والمنظمات المسيحية ، والانفتاح الجديد على المسيحية ، بتزوج عدد كبير من اليهود من المسيحيين .

يقول ليلنتال : ان اليهودي عندما يتزوج من مسيحية يظل يتزعم قضية اسرائيل بقوة بينما الشريك المسيحي للزواج لا يستطيع الا أن يبدي تسامحاً كاملاً مع رفيقه .

( ٤ )

يقول عازار وايزمان : لا عطف ولا رثاء حتى ننتهي مما يسمى بالحضارة العربية التي تبنى على أنقاضها حضارتنا .

وتكشف هذه النصوص الأهداف البعيدة في محاولة القضاء على العرب باعتبارهم أصحاب القيادة في الاسلام، وحيث ان البلاد العربية هي نقطة البدء للاسلام وركيزته الحقيقية ، وتوضح هذه النصوص عمق الخلاف بين اليهودية التلمودية وبين العربية ، وهو الخلاف التاريخي بين أبناء اسرائيل وأبناء اسماعيل ، والذي كان موضع التحريف لنصوص التوراة ، وتحويل ملك ابراهيم الى اسرائيل وحده دون أبناء ابراهيم وذريته جميعاً . وكيف حطم الاسلام هذه الفرية ، وأزال الله ملك اسرائيل ، ونقل الأمانة الى أبناء اسماعيل بعد أن فشل اليهود في إقامة الحق .

وكان هذا هو أخطر تحول في انتقال النبوة والحكم والرسالة الى أجدر الأمم بها وانتزاعها نهائياً من الأمة التي فرطت في الأمانة .

ومن هنا فان هذه المحاولة الخطيرة التي تقوم بها التلمودية اليوم انما تستهدف تحطيم القوة التي قامت منذ أربعة عشر قرناً باسم الاسلام : دين الله الحق وكلمته الخالصة . ومن هنا فهي تركز على الحضارة العربية أساساً باعتبارها

الجدار الضخم في قلب العالم الاسلامي كله ، والذي اذا انهار سقط بنـــاء الأمة كلها .

ومن هنا فان اليهودية انما تركز على القضـــاء على العروبة وتدميرها ، وفصلها عن الاسلام وإيجاد الصراع بين القوميات والدين ، وتحاول ان تطرح في الأمة العربية مفهوم الغرب عن القوميات كما تعمل في الوقت نفسه على تفريغ الأمة العربية من مفهوم الشريعة الاسلامية والاخلاق وفصـل الدين عن المجتمع .

وتحرص أكثر ما تحرص على ان تجعل الصراع بينها وبين الأمة العربية صراعاً محدوداً في دائرة قومية وتحول بينه وبين المفهوم الاسلامي الجامع بين العروبة والاسلام ، وتفصل بين الامة العربية والعالم الاسلامي .

ولا ريب ان اليهودية العالمية هي التي أثارت في العالم الاســلامي تمزيق وحدة العروبة والاسلام للحيلولة دون الوحـــدة وعملاً على تعميق التجزئة والاقليمية . ولما كانت وحدة العرب والمسلمين لها جذورها الضخمة البعيدة المدى في الفكر الاسلامي وفي القرآن نفسه ، فقد طرحت عشرات المذاهب والقضايا والدعوات والأنظمة والنماذج التي طرحت في أوربا لإفساد المفهوم الاسلامي الجامع للعروبة والاسلام ، ولدوام تحريك هذه القضية وإثارتها فترة بعد أخرى وإذاعتها وتحويلها الى عقائد مستحدثة وافدة عن طريق معاهد الارساليات والجماعات والصحف التي قام عليها خريجو هذه المعاهد .

ولذلك فان هدف اليهودية الأساسي هو تحطيم المعتقدات الاسلامية وسحق القيم المعنوية والانسانية وإثارة الشكوك حول المعتقدات وطرح فلسفات الشك والالحاد والإباحة في المجتمع الاسلامي ، وإشاعة روح الرذيلة في العالم ، والتي يعتبرها اليهود وسيلة مع المال لتحقيق أغراضهم ، وانبعاث الفكر الوثني الهليني المجوسي البابلي القديم وتحويله الى نظريات ومناهج مستحدثة .

وأخطر ما استطاعت اليهودية تحقيقه في العالم الاسلامي هو إقامة الاقتصاد على أساس نظام الربا وقد دلت التجارب الاقتصادية والاجتماعية على ان البلاد التي ازدهر فيها الربا فقدت التعاطف والتراحم وحلت القسوة فيها محل الحنان والعدل ، وان الحضارة الغربية قد صنعت بألوانه النفسية اليهودية ففشت فيها الأطماع المادية حتى صاروا ولا هَمّ لهم الا جمع المال ، وهذا هو دور اليهودية في الحضارات ، فهم لم يكونوا منشأ حضارة ولكنهم كانوا دافعين لها الى مجالات تفكيك الاخلاق وتسهيل سبل الشهوات والحث على الجرائم واختراع الرقص الخليع ومسابقات الجمال وعبادة المادة في كل شيء ونشر صحف المجون والفسق ونشر أشد الكتب المحظورة على أذهان الشبيبة ونشر الصحف الكاشفة القناع عن أسرار الجرائم تحت ستار التحقيق الجنائي ، ذلك لأن هذا الانحلال الاجتماعي هو أساس الربا ، ولا يمكن ان ينمو الربا في مجتمع متحرر من الانحلال الاجتماعي .

●

ومن هنا جاء هذا التركيز على إثارة موجة الانحلال في العالم الاسلامي متمشياً مع مخطط اليهود في إغراق الأمم والحضارات في الرذيلة .

وقد ثبت فعلاً[1] ان تصدر اليهود للفلسفات والمذاهب الاجتماعية والسياسة الفكرية انما يهدف أساساً الى هدم الاديان ، وان نشرهم الماركسية والوجودية والسريالية ومذاهب التطور والهيبية انما هو وسيلتهم الى نشر الإلحاد ونسف الإيمان في النفوس ، وقد استطاعوا ان يستقطبوا طائفة من التلاميذ ، للإيقاع بالمسلمين والمسيحيين في كل الأقطار العربية والاسلامية يروجون لآرائهم الهدامة بين الناس .

---

(١) راجع مقدمة بروتوكولات حكماء صهيون : خليفه التونسي .

وقد برع اليهود في إعطاء هذه المفاهيم التلمودية القديمـــة صيغة علمية لا يفطن الى زيفها الا أهل العقول الراجحة ، ويجتهـد اليهود في تشكيك الناس في الديانات عن طريق النقد الحر ، وعلم دراســة الأديان المقارنة ، والحط من كرامة رجال الدين .

وقد أفلحت اليهودية في طبع كثير من العقائد والنحل بما يحقق مصلحتها ، فترى روح الولاء والتهليل لبني اسرائيل ومعتقداتهم تهيمن على بعض المقدسات المسيحية ، وما ظهر مذهب فكان مؤدياً الى مسهم بالأذى من قريب او بعيد الا قتلوه ، وما كان مؤدياً الى خير لهم روّجوه في كل أنحاء العالم كذلك يروجون لكل قلم ما دامت آثاره عن قصد او غير قصد تساعد على إفساد الناس ، ورفع شأن اليهود ، كما فعلوا مع نيتشه الذي تهجم على المسيحية وأخلاقها . وقسم الاخلاق قسمين : أخـــلاق سادة كالعنف والاستخفاف بالمبادىء ، وأخلاق عبيد كالرحمة والبر ، مما يتفق والروح اليهودية وتاريخها ، ويمهد لها في الأذهان ويجعلها سابقة على نيتشه . كذلك روجوا مذهب التطور ، وأوّلوه تأويلات ما خطرت لداروين ، واستخدموه في القضاء على الاديان والقوميات والفنون باعتبار ان كل شيء بدأ في أول الامر يثير السخرية والاحتقار ثم تطور . فلا قداسة اذن لدين ولا وطنية ولا قانون ولا فن ولا لمقدس من المقدسات ، وهم يعبثون بعلم الاقتصاد والاجتماع ، وعلم مقارنة الأديان ويسخرونها لمصلحتهم ، وإفساد الأدب والنظم والثقافات والعقول في كل أنحـاء العالم ، ويدسون فيها نظريات مبهرجة لا يفطن الى زيفها الا الموهوبون » .

# الفصل الرابع

## الماركسية في مواجهة الاسلام

لقد طرحت الماركسية نفسها في مواجهة المسيحية والفكر الغربي كله واستطاعت في أقل من خمسين عاماً ان تستقطب ما يزيد على ألف مليون مسيحي في العالم كله بين من اعتنقوا الماركسية وبين من خرجوا على المسيحية باسم الفكر الحر وغيره .

ويمكن القول ان الفكر الغربي قد وقع منذ نشوء الماسونية التي مهدت للثورة الفرنسية تحت سيطرة فكر جديد منوع موزع من شأنه ان لا يجمع الناس على شيء فضلاً عن الصراع بين الكاثوليكية والبروتستانتية . وقد أخذت الماسونية جانب البروتستانتية وأيدتها وفتحت لها محافلها ، ثم احتوتها من بعد ذلك ، وكان لها الأثر الخطير في خلق جبهة من التأييد للدعوى الصهيونية بما أطلق عليه العودة الى أرض الميعاد ، فان الصهيونية استطاعت أن تضرب اللبرالية والرأسمالية الغربية في الصميم بطرح نظرية جديدة لتمزيق العالم الى جبهتين وذلك باستقطاب العمال في مواجهة جشع أصحاب رؤوس

الأموال لإيجـــاد صراع عنيف بين الماركسية والرأسمالية . وقد أشارت بروتوكلات صهيون الى هذا المخطط منذ صدورها ١٨٩٧ وقبل قيام اول دولة على أساس ذلك النظام ١٩١٧ . وقد احتدت التجربة الاولى في روسيا حيث كانت الكنيسة الأرثوذكسية تمثل أضخم تحد في وجه الصهيونية العالمية ، ومن هنا حفظ اليهود للثورة الشيوعية الروسية وأمدوها بالمال وتواطؤوا مع اعـــداء الدولة الروسية حتى قاموا بثورة شيوعية حمراء أذاقوا بها الشعب الروسي ، ولا سيما المسلمين الخسف والتقتيل .

ولقد أشار كثير من الكتاب الى الرابطة العميقة رابطة الأمومة والبنوة بين الصهيونية والماركسية كمنهج والشيوعية كنظام . وتنبه كثيرون الى مدى امتداد الخطر الى العالم الاسلامي ، وبعد أن تحققت ثلاث خطوات كبرى للصهيونية في أوربا ، وهي قيام الثورة الفرنسية على يدي الماسونية وسيطرة اليهودية العالمية على الجماعة الامريكية الجـــديدة ، وقيام الدولة البلشفية في روسيا وكانت الخطوة الاولى في الشرق موازية تماماً لهـذه الخطوة الاخيرة بضرب الخلافة الاسلامية في الدولة العثمانية وإسقاطها .

وقد أشارت وثائق الصهيونية الى هذا في صراحة تامة : « ان الأفعى اليهودية في طريقها الى أورشليم قد مرت على القسطنطينية فدمرت الخلافة الاسلامية ، ولم يكن مفر لها من تدميرها قبل الوصول الى أورشليم وإقامة دولة اسرائيل » والمتتبعون لأحوال تركيا قبل سقوط الخلافة وبعـــد قيام مصطفى كمال بالحكم التركي اللاديني وانحياز تركيا الى اسرائيل يلمسون اليد اليهودية في توجيه سياسة تركيا ، وهذه نبوءة من نبوءات الاستاذ نيلوس .

ويتصل بهذا ما أذاعه السر ادور سبيرز (جريدة التيمس ١٩ مايو عام ١٩٤٨ ) حيث قال : لقد أثبتت الصهيونية انها كارثة تهدد البشرية ، وقد فتحت الابواب لتغلغل الشيوعية في الشرق الاوسط مما قد ينتج عنه حلول

كارثة لا يعلم مدى نتائجها فيما يتعلق بحضارة الغرب .

●

ومن آيات هذه الرابطة ان بروتوكولات صهيون التي نشرها في العالم لأول مرة سرجي نيلوس قبل خمسين عاماً باللغة الروسية كان يطلق عليها «الانجيل البلشفي » .

ويقول ( فرانك بريتون ) في كتابه الصهيونيـــة والشيوعية : تختلف الصهيونية عن الشيوعية ظاهراً في ثلاثة أمور :

أولاً ـ التسمية : ففي الصهيونية تخصيص وفي الشيوعية تعميم .

ثانياً ـ مركز النشاط : مركز نشاط الصهيونية فيما اصطلح على تسميته بالغرب وتتزعمه أمريكا ومركز نشاط الشيوعية في الشرق وتتزعمه روسيا .

ثالثاً ـ الاسلوب في العمل : فالصهيونية تتاجر بالمال وتدعمه عند اللزوم، والشيوعية تتاجر بالدعاية يدعمها المال عند الاقتضاء .

أما الحقيقة الراهنة فهي ان الصهيونية والشيوعية صنوان منبعهما واحد وغايتهما واحدة وجوهرهما واحد ، والفئة التي تقوم عليهما من وراء الستار واحدة ، وما اختلافهما الظاهري سوى ترتيب موقف اقتضاه تأمين النجاح في السعي الى الغاية الواحدة . حتى اذا تحققت الثقة بالنجاح الكامل سارتا معاً للسيطرة على العالم « ولا مجال للانكار ان العالم اليوم منقسم الى شطرين، وان أحدهما ويسمى الشرق تسيطر عليه الشيوعية، ولكن حصافة الصهيونية حالت دون انتظهر سيطرة الصهيونية رسمياً علىما يسمى الغرب،وذلك لأنها لم تتملك بعد منه كما تملكت الشيوعية من الشرق فاستعيض عنها بالرأسمالية

لتسيطر على الشطر الآخر حيال الشيوعية ولا يخفى ان الصهيونية التي ظهرت تحت اسم (اسرائيل) لها سيطرة بعيدة المدى على دول الغرب جمعاء .

وكل من الرأسمالية والشيوعية يدعي اعتناق الديمقراطية الحقة ، وكل واحدة تتهم الاخرى بالتشويش على السلام العالمي وكلتاهما صادقتان ومتفقتان على تشويش الأذهان .

على الشعوب أن تفهم ان الخطر داهم ، وانها اذا لم تتنبه ولم تجمع أمرها شملها الذل والهوان ، وحرمت حتى من حرية التفكير ، لأن الفئة القائمة وراء كلتا الحركتين ، ليس بينها وبين غيرها من الشعوب ود مفقود . فقد جربت البشرية جهدها على مر العصور ان تهضمها فلم تفلح . فقد هضمت البشرية الفينيقيين والقوط والعمالقة على أساس ان البشر اخوة لا يضيرهم ان يندمج بعضهم في بعض ، الا هـذه الفئة التي تشبه بعض الطير الذي يوزع بيضه في عشوش غيره من الطير ، فاذا فقست فراخه الغريبة في العش زاحمت الفراخ الأصلية واضطرتها الى الخروج من العش او الخضوع لها .

هناك قوتان تصطرعان من أجل السيادة العالميـــة : المسيح . والمسيح الدجال ، انها معركة حياة او موت أزلية .

ان اليهودية والتلمودية لهي نواة الشيوعية والصهيونية اللتين تناهضان المسيحية والملايين من اتباع المسيح قد أزعجوا وعذبوا ونفوا وقتلوا منذ تخطر الوحوش الحمر على البسيطة عام ١٩٧١ .

●

ويشير فرنك لي بريتون الى نقطة البدء وهي : « يهود الخزر » وكانت

الخزر امبراطورية قائمة في جنوب روسيا في القرن التاسع للميلاد ، وتسرب اليها عدد ضخم من يهود بيزنطة . وقد تحطمت امبراطورية الخزر في القرن العاشر ، واستوطن عدد كبير من اليهود الدول التي ظهرت من بعد وأهمها بولونيا ، وتوجه آخرون الى غربي أوربا وأسبانيا ، وكان لليهود نفوذ ضخم في بولونيا حتى عام ١٢٠٠ . وأحرزت روسيا بسبب تقسيم بولونيا الثالث أكبر نسبة من يهود العالم ، فاتصل تاريخها بالقضية اليهودية اتصالاً مستعصياً . وسبب اليهود في النهاية انهيار الامبراطورية .

ويقول : ان اليهودي الحديث بثقافته اليهودية يختلف عن يهود التوراة ، فهو لا يؤمن حقيقة بالتوراة بل بالتلمود ، وهو لا يتكلم العبرية بل اليهودية الدارجة ، وهو ليس من نســـل اسرائيل ، بل من حثالة شرقي البحر المتوسط .

وقد صور ذلك ه.ج. ولز[١] فقال : ان الفكرة اليهودية كانت وما تزال مزيجاً غريباً من التسامح الديني والعنصرية العنيفة فقد بحث اليهود عن مخلص خاص ، مسيح ليصلح بني البشر بإعادة أمجاد داود وسليمان الخرافية ، وجعل العالم في النهاية تحت نير اليهود .

ويشير فرانك لي بريتون الى ان الأحياء اليهودية الخاصة كانت تمتد من القرم الى بحر البلطيق ( القرم على البحر الأسود الى بحر البلطيق في الشمال ) وهو ما يعادل من الارض نصف مساحة أوربا الغربية . وقد بلغوا حتى عام ١٨٨١ من الازدهار والنجاح ما يفوق حد التصور . فقد حل اليهود على الاقتصاد الروسي مثل أرجال الجراد التي تسطو على حقل ذرة حديث الدرس ،

---

(١) خلاصة التاريخ ص ٤٩٣ / ٤٩٣ ط ٣ .

وبلغ الذين أقاموا فيها عام ١٩١٧ سبعة ملايين يهودي يضمون زهاء نصف سكان العالم اليهودي .

في هذه المستعمرة ازدهرت الفلسفتان التوأمان : الشيوعية والصهيونية ، وكلتا الحركتين نمتا من كره اليهود للحضارة المسيحية مضطهدة الشعب المختار، وكلتاهما انتشرتا حيث هاجر اليهود .

وحتى عام ١٨٨٢ استطاع اليهود ان يرسخوا أقدامهم في الاقتصاد الروسي بحيث أشرفت الدولة على الافلاس وعندما حاولت زحزحتهم من مكانهم في هذا الجو بدأت الحركتان التوأمان : الماركسية والصهيونية تتحكمان بجمهرة اليهود الروس وتسيطران عليها وقد حكمتا ( الصهيونية والماركسية ) اول ما أعلنتا يهود الألمان الصهيونية هرتزل ، ودخلت روسيا ١٨٨٠ فكانت منافسة للماركسية ولكاهنها الاكبر : كارل ماركس حفيد أحد الحاخامين ، وكان لا بد في النهاية لكل يهودي روسي ان يلتحق بإحدى هاتين الحركتين .

وفي هذا الضوء تجد التحليل النفسي لخدمة الهدف، وتجد المادية التاريخية لخدمة الهدف ، وتجد الفصل بين الكنيسة والدولة لخدمة الهدف ، وجاءت الوجودية والهيبية لخدمة الهدف أيضاً .

●

وتقول مجلة فرنسا القديمة : ان مديري رقي أعمال الامة اليهودية هم الذين أثاروا الحرب الكبرى ودبروها بالدسائس بغيـــة جمع المليارات وتقسيم الممالك ، ثم محق ماليتها وقتل النبوغ في غيرهم وتعبيد الطريق الى شعب الله المختار للاستيلاء على الكون كله، هؤلاء الزعماء اليهود هم الذين دبروا للبلشفية الدسائس ومهدوا لها ببذل المال وأثاروها انتقاماً للشعب الروسي واستكمالاً

لأعمال الحرب الجهنمية ، وإفناء العناصر البشرية وتحطيم المبادىء الاقتصادية.

والشيوعية دسيسة يهودية صهيونية لقلب النظم السائدة ، ولقد أدركت الأمم الأخرى ما يرمي اليه العنصر اليهودي من تخريب وإتلاف وإفساد عقائد ، وقد نشرت مجلة المشرق عام ١٩٢١ نقلاً عن جريدة موزنيخ بوست خلاصة كتاب طبع في نيويورك يؤخذ منه ان الحركة البولشفية في أيدي العنصر اليهودي .

( ٢ )

ما هي الماركسية : الماركسية نظرية كلية شاملة (Totalism) فهي طريقة لتفسير السياسة والاقتصاد والحياة والنزعات البشرية ، وهي نظرية ودعوة لعمل ما ، وفلسفة تتناول جميع نواحي النشاط الانساني ومحاولة لجعل التاريخ بماضيه وحاضره ومستقبله نظاماً منطقياً يحمـــل في طياته مصائر محتومة كالقدر وتؤمن الماركسية بأن المادية هي أصل كل شيء ، وترى ان الدين هو مظهر لعجز الانسان أمام القوى الاجتماعية والنظم الاقطاعية .

وعقيدة الماركسية انه ليس في الكون خالق بل الكون مادة، وان الدين مخدر للعقول يجب التحرر منه وان الدعامة الأساسية هي الالحاد وإنكار الله وإنكار البعث ونبـــذ الحقوق والالتزامات التي تقيمها الاسرة ، ولما كانت الاسرة هي دعامة النظام البرجوازي فيجب تحطيم هذه الدعامة والقضاء عليها وان الفرد وسيلة وليس غاية ، وان الفرد ذرّة تفنى في جسم الدولة ، وإلغاء حق ملكية الفرد وحق التوريث وحق ثمار الكسب . ومن هنا فان الشيوعية والدين ضدان لا يأتلفان ، ومن هنا كراهية المسيحية لأنها تحض على الرحمة .

والشيوعية نظام مادي يستمد فكرته من نظرية ماركس التي تزعم ان كل ما يقع في التاريخ من حركات فانما مرجعه الى الاسباب الاقتصادية ، وما دامت الأسباب الاقتصادية دون غيرها هي التي تملي على التاريخ حركته

وتسيره حيث تشاء فلا مجال للاعتراف بإله خالق او قوة وراء الغيب توجه البشر الى مصائرهم . وليس الدين عندهم الا تفسيراً خاطئاً للظواهر الاجتماعية وبقية من بقايا النظم الاستغلالية البائدة .

ولا ريب ان الماركسية الشيوعية بهذا المفهوم هي دين جـــديد يحتقر الأديان القديمة ، دين مادي ينكر الله ورسالات السماء ، وهو محاولة لتسخير الطبقة العاملة لطبقة جديدة حاكمة بالقضاء المطلق على الحرية الشخصية وحرية الكتابة وفق حكم دكتاتوري استبدادي .

وعندما حاولت الشيوعية تطبيق مفهوم ماركس ، تبين مدى الهوة السحيقة بين النظرية في مفهومها الفكري وبين التطبيق في عناصره المادية المحسوسة ، وليست نظرية التفسير المادي للتاريخ من أفكار ماركس فان مبتدعها هو الفيلسوف الألماني هجل : ولا تنفرد الشيوعية باعتناقها ، ولكن يشاركهم الماديون والدهريون . وليس التفسير المادي للتاريخ هو التفسير الأوحد ، ولكن هناك عدداً من التفسيرات التي قدمها مونتسكو وبوكل . وقد تعددت التعليلات بالمناخ والطعام والارض ، وجاء التفسير بالمال والحالة الاقتصادية الذي قال به ماركس واحداً منها ، ولكن اعتبر في الماركسية أساساً أولياً .

وبالجملة فان المادة في الماركسية هي التي تفسر كل شيء في الكون وفي المجتمع الانساني ، وحيث يؤمن أصحاب الأديان بالروح والمـــادة لا تؤمن الماركسية الا بالمادة وحدها ، وحيث يؤمن الانسان بالنفس التي تخرج بالموت، تؤمن الماركسية بأن الجسم آلة تعمل فيها مختلف الأجهزة ، وان الموت هو توقف هذه الآلة عن العمل . وبينما يؤمن المسلمون بأن الدين عامل هام في

تحريك المجتمع ودفعه الى التطور تؤمن الماركسية بأن العوامل الاقتصادية من فقر وغنى هي التي تسبب حوادث التاريخ .

والخطأ الاساسي في نظرية ماركس انه أقامها في ضوء حالة عرضية لم تلبث ان تغيرت . وقد قامت قبل الماركسية نظم سياسية واقتصادية واجتماعية عديدة تحدت العقيدة الدينية واتهمتها بأنها عائق في وجه الاصلاح، ثم اندثرت تلك النظم او تطورت الى نظم أخرى وبقيت العقيدة الدينية قائمة كالطود الشامخ لا سبيل الى تجاوزها في النفس الانسانية ، او تجاهل أثرها في الحياة الاجتماعية .

ولقد طرحت الماركسية نفسها في العالم الاسلامي وفي الفكر العربي الاسلامي ، ووجدت عوناً من النفوذ الاستعماري الذي استهدف الاستعانة بها على تحطيم الشخصية وبلبلة الفكر وتمزيق مفهوم الاسلام ودفع العرب والمسلمين الى متاهات خطيرة . غير ان مفاهيم الاسلام ما لبثت ان واجهت هذه المخططات وعارضتها ووقفت إزاءها موقف الوضوح ، اذ ما في الاسلام من دعوة الى العدل الاجتماعي يكفي المسلمين ، ولا يحتاجون بعده الى مناهج وافدة ، وهو يحقق لهم المساواة والعزة دون ان يسلب الفرد حريته او يضعهم تحت الوصاية القاهرة . وان التجربة الماركسية الشيوعية نفسها لتكشف بوضوح عن عجزها في تحقيق الغايات التي فرضت انها أساسية في منهجها ، ولم تنجح الشيوعية في إلغاء نظام الطبقات ، بل محت طبقات وأقامت بديلاً منها طبقات جديدة .

ولا ريب ان الماركسية لم تلق من الفشل قدر ما لقيت في العالم الاسلامي، وان كانت تستهدف بدعوتها تحطيم النظم الاجتماعية التي دعا اليها الاسلام .

ولا ريب ان أبرز ما تدعيه الماركسية من القضاء على التفاوت الطبقي

وتحرير الانسان من استعباد الانسان هو أكبر أهداف الاسلام وأعظم معطياته، فليس المسلمون في حاجة الى التماسه في مناهج أخرى ولكن الاسلام يحقق هذا الهدف في إطاره بالإيمان بالله والتوحيد .

وتاريخ الانسانية كله ( سياسياً واقتصادياً واجتماعياً ) يقرر مدى الدور الهام الذي لعبه الدين في تشكيل الأحداث والوقائع ، ويكشف عن الحاجة الضرورية الماسة للبشرية كلها في التماسه ، وما تزال المجتمعات الغربية التي سقطت في براثن المادية تتطلع الى منهج يحقق تكافلها الاجتماعي ويعطيها الإيمان وطمأنينة النفس ويذهب عنها القلق والتمزق ، ولن تجد ذلك كله إلا في الاسلام .

ولقد اتجه الاسلام منذ اليوم الأول الى الفقراء والمستعبدين والمظلومين ، فقرر حقهم وأنشأ مجتمعاً يطبق ذلك وينفذه ، ونشر دعوته تلك في العالم كله، ولن يستطيع أي منهج او أيديولوجية بشرية ان تصل الى ما وصل اليه الاسلام . وقد أقام الاسلام ذلك كله داخل نطاق التوحيد ، وفي إطار الاخلاق ، ووفق مناهج الكرامة الانسانية والعدل الاجتماعي ، فهو لم يجعل أنظمة الزكاة والميراث وغيرها صدقات ، وإنما جعلها أصولاً ثابتة واقعية ، وقد حقق ذلك كله دون أن يريق قطرة دم او يوقع العالم في صراع دموي ويبقى بعد ذلك ان الاسلام مستمر على التاريخ البشري كله ، بينما تظل النظرية الماركسية علامة على مرحلة من مراحل التاريخ البشري ، وان العالم كله الآن يتجاوز الماركسية كأي فكر بشري يصعد الى قمة من القمم ، ثم تأتي المتغيرات فتتجاوزه . ولقد حاولت الماركسية ان تصحح نفسها مرة بعد مرة ، وان تضيف وتحذف في محاولة للمواءمة مع التطور والحياة ، وليس كذلك الدين ، وليس كذلك الاسلام الذي يضع الاطار الثابت العميق

المستمد من الفطرة والذي يتلاقى مع كل العصور والبيئات .

ومن هنا نجد ان إسلامنا يعطي أكثر مما تعطي الماركسية ومختلف المذاهب والايديولوجيات لأنه يقوم على التكامل والارتباط بين القيم ، وعلى أساس الفهم العميق للانسان نفسه ، وعلى أساس كفالة التنفيذ عن طريق الطابع الاخلاقي والإيمان بالله، والإيمان بالجزاء الاخروي الذي يثبت قواعد المسؤولية الفردية وضوابط الالتزام الاخلاقي .

ويرى أرنولد توينبي ان الماركسية هي من نتاج الحضارة الغربية وهي تمثل أزمة من أزماتها وانحرافاً في طريقها ويصدق هذا القول اذن ان ماركس لم يكن في الحقيقة يحمل رسالة ولا يدعو لحضارة جديدة بل هو ابن بار للحضارة الغربية صنع نظريته من ( الفلسفة الالمانية والاشتراكية الفرنسية والاقتصاد السياسي الانجليزي ) أي عصارة الحضارة الغربية في قمة نموها .

« ماركس يؤمن بالحضارة الغربية بكل قيمها وتاريخها ويعتز بهذا التاريخ ويعتبره تقدماً للبشرية في طريقها نحو النصر الأكبر ويسمي جرائم هذه الحضارة حتمية تاريخية لا يرجعها الى فلسفتها بقدر ما يرجعها الى الضرورات الاقتصادية، وكل ما يتقدم به ماركس هو حل لإنقاذ هذه الحضارة وإخراجها من ورطتها » .

أما نحن فندعو لحضارتنا . يقول عمر : كنا نعد المعترض بخيلا ، والله لئن بقيت ليأتين الراعي بجبل صنعاء حظه من هذا المال وهو في مكانه .

ان التصميم الرباني الذي ينظم به الاسلام المجتمع والاقتصاد لا يستطيع

أي منهج بشري ان يصل اليــه ، لأنه من عند مبــدع الانسان وخالقه .

ان ثمة طريق آخر غير الرأسمالية والماركسية هو طريق الاسلام الذي يملك تشريعاً مفصلاً في أمور الحكم والاقتصاد والاجتماع يقــوم على تكريم الانسان وأخلاقية الحياة ، ولن تستطيع هذه المذاهب ان تعطي الانسان ما يعطيه الاسلام لأنها لا تؤمن به مستخلفاً في الارض ولكنها تؤمن به ترساً في آلة ، والعناية بالطبقات الكادحة لا تتم الا في إطار الإيمان بالله ووضع الانسان في مكانه الطبيعي : له إرادته ومسؤوليته والتزامه الأخلاقي ، وله إيمانه بالله والتحرك في إطار الرسالة التي أنزلها الله على أنبيائه ورسله ، ولن يستطيع أي منهــج اجتماعي ان يعطي البشرية شيئاً خارج إطار الدين والاخلاق ، ولقد حل الاسلام مشكلة العيش ولم يجعلها الا واحدة من قضايا الانسان والمجتمع ، الى جوار قضايا الاعتقاد والتشريع والاخلاق ولن يتأتى تحقيق العدالة الاجتماعية بإعلان الحرب على الدين او بمنطلق من المادية الخالصة. ولا بد ان ترتبط قضية العدل الاجتماعي بالاعتقاد القائم على توحيد الله في نطاق ميتافيزيقيا واضحة المعالم ، رسمها الاســلام في القرآن ، وشفى بها النفس البشرية من القلق والتطلع والبحث عن طريق العقل والفلسفات ، وهي التي تستطيع هداية الانسان لأنها تبحث فيما لا يستطيع الخوض فيــه .

والعقيدة الدينية الصحيحة لا تنتهي الا بعد تغيير المفاهيم الاساسية عن أسباب الغنى والفقر ، فالبشر هم المسؤولون عن الإخلال بالأوضاع الطبيعية التي يعيشون بها ، وهم الذي أقاموا هذا الظلم الواقع على المحرومين والكادحين. فلنرجع هذا الاخلال من مستوى الحياة التي نحياها ، وعندئذ يسلم لنا الاعتقاد

في الله ، ذلك ان الله يبسط الرزق لمن يشاء ويقدر ، وليس المال وحده هو الرزق ، بل هو كل مواهب الله وكل نعم الله على الانسان ( الصحة ، القوة ، الجاه ، الغنى ، المال ، الحيلة ، الذكاء ) .

نعم ، ليس الاسلام هو المسؤول عن تخلف المسلمين وضعفهم ، ولا عن فقرهم وإسرافهم ، وانما هم المسؤولون لأنهم خالفوا شريعة الله التي وضعها للناس .

( ٣ )

لا ريب ان كل الدراسات العلمية والوقائع التاريخية تقرر الصلة الواضحة والأكيدة بين الماركسية والصهيونية ، فان زعيم الماركسية هو كارل ماركس اليهودي ومفاهيمه عصارة نفوس مليئة بالحقـد على مختلف طوائف البشر راغبة في الانتقام منها . وقد اعترف الصهيونيون بأنهم أول من نادى بالشيوعية ، وقد كانت الثورة البلشفية من تصميمهم ، وقد اشترك أثرياؤهم في تمويلها .

ولا شك أيضاً ان النظام الرأسمالي الليبرالي هو أيضاً من منبع اليهود ويستهدف تعاون اليهود والشيوعية للوصول الى السيطرة على العالم ، وتسخير المواد العالمية وفق أهوائهم .

وقد عرض أحد الباحثين الى وجوه المقارنة بين الصهيونية والشيوعية ، فأشار الى ما يأتي :

**أولاً** : نظرتها للحرية . وأكد ان الحرية عندهما لا تعني ما اصطلح عليه الأحرار في كل مكان من مفاهيم الحرية ، وانما تعني شيئاً واحداً هو السلطة ، والسلطة هي حق حرية الاستعباد والظلم ، والسلطة الحاكمة المستبدة تملك كل شيء بما في ذلك عقول الناس وضمائرهم .

**ثانياً** : تنادي الشيوعية والصهيونية بضرورة تحطيم نظام الاسرة والقضاء على الروابط العائلية وجعل الولاء مقصوراً على السلطة الحاكمة ذاتها والنظام الأمثل للاسرة في نظرهما هو النظام المفكك الذي يجعل الاسرة أفراداً متطرفين يرتابون في بعضهم البعض .

**ثالثاً** : الصهيونية تطالب بالقضاء على كل الاديان غير اليهودية، وتعمل على نشر الإلحاد في فترة معينة من فترات الكفاح من أجل السلطة ، وهو ما تطالب به الشيوعية ، ذلك ان الشيوعية تقضي على كل الاديان ، وتجعل من عقائدها ديناً جديداً ، فهي تخلع على هذه العقائد قداسة أشبه بقداسة الدين ، وتخفي وراء هذا الدين المادي كل مظاهر سطوتها وسلطتها واستبدادها . وهدف الصهيونية إتاحة التفوق لدين واحد هو اليهودية مماثلاً تماماً لهدف الشيوعية من إتاحة التفوق لعقائد معينة ترفعها الى مرتبة عقائد الدين .

**رابعاً** : مثلما ينادي حكماء صهيون بضرورة إشعال نيران ثورة عالمية بغية إخضاع العالم كله للسيطرة الصهيونية ينادي حكماء الشيوعية بإشعال ثورة من هذا الطراز بغية اخضاع العالم كله للسيطرة الشيوعية . وفي سبيل إشعال نيران هذه الثورة لا يتورع حكماء « الشيوعية والصهيونية » من المطالبة بالالتجاء الى التآمر والخداع والتضليل والتجسس والتسلل في صفوف الجماعات المناهضة للشيوعية والصهيونية .

●

وبالجملة فان الاسلام يواجه منهجه الاصيل الشامل المتكامل هذه الاخطار التي تنطوي عليها الماركسية والصهيونية ، وما تطرحانه من نظريات حول

المواءمة والانصهار في دعوات القومية او الوطنية او تفسير الاسلام بأنه يقترب من الماركسية او غير ذلك من أوهام على أساس إيمان لا ريب فيه بأن الاسلام نظام متكامل قائم بنفسه ، غير مجزأ او مصبوب في أي قوالب أخرى ، وهو نظام الثبات الذي لا يتغير ولا ينطوي بينما تتغير المذاهب وتتعثر وتتقلص وتموت .

# الفصل الخامس

## الاسلام والبشرية

واجه الاسلام تحديات المسيحية والصهيونية والماركسية والإلحاد والمذاهب الهدامة ، كما واجه محاولة تمسيحه وتهويده وصمد أمام كل التحديات ، ووقف موقف الاستجابة الحقيقية حينما تساءلت البشرية : هل يستطيع الدين أن ينقذ البشرية او ينقـذ الحضارة ، واستطاع ان يجيب بالإيجاب بينما عجز كثير من الاديان ان يقدم شيئاً في هذا السبيل .

لقد وقعت اليهودية تحت سلطان الفكر البابلي القديم وشكلت منه تراثها كله ، ووقعت المسيحية تحت سلطان الفكر الإغـريقي ( مثالية أفلاطون ومنطق أرسطو ) . واستطاع الإسلام ان ينجو من الجاهلية العربية واليونانية والمجوسية والهندية والفرعونية ، وتمكن من ان يقـدم منهجه كاملاً للبشرية دون ان يصاب بالتحريف او التأويل .

ولقد انتشر الاسلام على مساحة واسعة من الارض أكبر من المساحة التي انتشرت عليها المسيحية او اليهودية ، وفي فترة أقل كثيراً .

ولقد أعلت اليهودية العنصر ، بني اسرائيل شعب الله المختار ، وغفلت المسيحية عن مكان الانسان في المجتمع واهتمت بإعلاء الفرد ، ومنها قامت الفردية قاعدة الفكر الغربي .

وكانت تفسيرات المسيحية للتثليث والزهد من التحديات التي صدمت العقل الحديث ، ولقد تنصرت الأمم الاوربية في القرن الثالث والسادس من ميلاد المسيح وبقيت كذلك في غفوتها عشرة قرون ( ألف عام ) ثم تيقظت نحو أربعة قرون فقط بينما نهض الاسلام بمعتنقيه وأقام حضارته الباهرة منذ القرن الاول للهجرة ، فلم يكن الإسلام سبب تأخر المسلمين ولم تكن المسيحية سبب تقدم أوربا ، فقد كانت الأمم الاوربية قبل اعتناق المسيحية أرقى منها فيا بعد ذلك . يقول ليسنج في كتابه فلسفة التاريخ: لقد اعتبرت اليهودية الإله مصدر خوف وطمع ، وأزالت المسيحية الفوارق العميقة بين الألوهية والبنوة ، ونحن نقول ان الاسلام قرر ان الله هو الرحمن الرحيم ، وهو المنتقم الجبار ، وان رحمته سبقت غضبه ، وان الألوهية مستقلة عن النبوة وقضى باستحالة الالتقاء بينهما او تحول أحدهما الى الآخر . وفي الغرب لم يكن العلم خالصاً للعلم ولكنه محاولة لنفع الاستعمار ، ولم يكن العدل خالصاً للبشرية ، ولكنه قاصر على الجنس الابيض . وتبدو روح الغرب واعرافه واضحة في القوانين والنظم والتشريعات المجافية للاخلاق والمنقطعة عن الايمان بالجزاء الأخروي ، ومنها إباحة الربا وإباحة الزنا في فراش الزوجية .

( ٢ )

قدم الاسلام فتوحات جديدة في الدين والاخلاق تقدمه على ما سبقه من رسالات ، بعد ان اتفق مع هذه الرسالات في جوهر الدين وأصول التوحيد.

وقد أعلن الاسلام انه انما جاء ليحل للناس كل الطيبات ، ويحرم عليهم كل الخبائث ويضع عنهم إصرهم والأغلال التي كانت عليهم ، وليس ذلك نقضاً للمتقدم ، وانما وقوفاً بالحكمة عند وقتها المناسب وأجلها المقدر[١] وجاء القرآن مصدقاً لما بين يديه من الكتاب ومهيمناً عليه .

كذلك قطع الاسلام الامتداد الفكري والاجتماعي والثقافي بين ما قبل الاسلام وما بعده عند العرب أولاً ، ثم في كل مكان حل فيه . وقد ذهب الاسلام الى كل مكان وأثر في جميع النحل والأقطار ، وكذلك قطع الاسلام امتداد الوثنية في العالم كله ، وقطع امتداد العبودية وإذلال الانسان في العالم أجمع .

وبالاسلام تجاوز العالم تاريخه القديم ونسيت مصر وسوريا والمغرب طوابعها الفرعونية والإغريقية والرومانية والمسيحية ، وكذلك جاء الاسلام فيصلاً قاطعاً بين عهد وعهد ، وفكر وفكر ، وحضارة وحضارة . وحرر العقائد

---

(١) من بحث للدكتور محمد عبد الله دراز .

من عبادة الابطال ، وحرر الشرائع من عبادة القوة ، وحرر الدين من الشرك والتعدد ، كما رفض الاسلام فكرة الرهبانية ، والهروب من الحياة والسلبية والانطوائية ، ورفض التفسيرات الدينية القديمة للرهبانية والمرأة والغريزة ، وألغى فكرة الكظم العام والرغبة الجسدية ، وأباحها في إطارها ، وأقام الاسلام طابع الاخلاقية بالالتزام ، وجعله المظلة الواقية التي جنبت القيم من التمزق والتجزئة .

وبنى الاسلام منهجاً متكاملاً لا يفصل الدين عن الدولة ، ولا الدين عن العلم ، ولا الاخلاق عن المجتمع ، ولا يعرف حكومة إلهية ،ولا يرفع الانسان عن مستواه البشري ، ويجعل الفرد للمجتمع ، والمجتمع للفرد ، ولا يفرق بين الناس على أساس العنصر والعرق او الدين او اللون ، ويرفض الرهبانية والترف معاً ، ويجعل المال ملكية خاصة ووظيفة عامة ، ومنفعة للناس جميعاً .

( ٣ )

عارض الاسلام مفاهيم الفكر البشري وانحرافات العقائد والتفسيرات الباطلة للأديان ، وذلك بعد ان حدث ذلك التلاقح العجيب بين الأديان المنزلة والفكر البشري الوثني حتى جاء الاسلام قاطعاً فاصلاً مقرراً أصول الدين الحق .

وقد وضحت معارضة الاسلام لعبادة قوى الطبيعة وما يتصل بإعلاء شأن الشمس او النور والظلام او آلهة الخير والشر ، او عبادة الناس او التناسخ . كما عارض تحريم صيد الحيوان بدعوى قتل النفس او رحمة العصفور وعارض إباحة الاموال والنساء ، وأكد البعث والجزاء ، والجنة والنار التي عارضها اليهود والدهريون ، وأعلن وحدة الخلق البشري نفساً وجسداً ، وعارض تقسيم الانسان الى عنصرين ، او صراع العنصرين داخل الانسان ، وأكد الفوارق الاساسية ما بين الطبيعة الإلهية والطبيعة الانسانية ، وكشف ما بينهما من تمايز واستحالة امتزاج او اتحاد ، وهدم الاسلام سقوط التكليف والقول بأن من وصل الى معرفة الله سقطت عنه الفرائض ، وعارض نظريات الفيض والاشراق ووحدة الوجود والحلول والاتحاد ، كما أعلن الآيات المحكمات التي هي أم الكتاب ، وكشف عن استحالة التأويل فيها بما يخرج

النصوص عن مدلولاتها الأصلية الى مفاهيم محرفة بالهوى على النحو الذي أحدثه بعض أئمة الأديان في تفسير الأديان الاخرى .

●

وأوضح الاسلام الغاية من خلق الله للناس ، وأعطى المسلمين سبيل هذه الغاية وأسلوبها والعمل لها على نحو شامل واضح بحيث لا يعـــرف المسلمون التساؤل الشاك القلق الذي يلف النفوس البشرية غير المؤمنة من السؤال عن سر الوجود والحياة في هذه الارض ، ولقد عجز غير المسلمين عن فهم هذه الغايات فاضطربت حياتهم .

كذلك وجه الاسلام المسلمين الى الاستدلال بالخلق على الخالق ، فعرفوا ان وراء هـذا العالم خالقاً عظيماً ورباً كريماً يحيط به ويصرفه ساعة بعد ساعة ، ويمسكه لحظة بعد لحظة .

ولقد أعلن الاسلام ديناً عالمياً للانسانية جمعاء ، فلم يستمد تسميته من جنس كاليهودية ولا من نبي كالمسيحية ، ولكن استمد اسمه من جوهر فكرته الاصيلة ألا وهي إسلام الوجه لله .

وقد شجب الاســـلام نظام الرهبنة والوساطة بين الله وخلقه ، وأعلن حرية العقيــدة « لا إكراه في الدين » ، وأقام قاعدة أساسية تحول دون الانحراف ، وتعطي القدرة على تنقية الاســـلام من الشوائب التي تتجمع لتفسد جوهره .

وأعلن ان الدين من عند الله ، وانه من أعماق ا‌ر رة الانسانية ، فهو ليس ظاهرة من الظواهر الاجتماعية او من نتاج الارض كما يقول الملاحدة ،

وليس هو أفيون كما يقول الماركسيون .

وقد حرص الاسلام على توجيه الانسان الى الجانب العملي الاجتماعي الذي يدور على نفع الناس والتأكيد على إطلاقية المجتمع ، ورفع عن المسلمين إصر البحث عن الوجود والخلق والغيبيات بعد ان فصّلها لهم تفصيلاً لا زيادة بعده لمستزيد .

( ٤ )

ان آفة الفكر الغربي ( وخاصة أصحاب مناهج مقارنة الأديان ) انهم لا يضعون الاسلام موضع النظرة المجردة في منهج علمي خالص ، غير مبطن بالأهواء ، وغير متصل بالمطامع وغير مجرد من الأحقاد، وذلك موقف الفكر الغربي مع الإسلام منذ القديم، منذ طالب الغرب بأن يتخلى الاسلام عن أرضه التي سيطر عليها ألف عام عائداً الى الجزيرة العربية ، ومنذ أعلن الغرب انه لا يقبل مزاحمة الاسلام فيأوربا، وعمل على تهجير المسلمين او تنصيرهم، وكانت صيحة غلادستون عن موقفه من القرآن أوضح من الوضوح ذاته .

ويصور هذا كثيرون ، ويكشف برناردشو موقف المسيحية الغربيـة من الاسلام فيقول : لقد عمد رجال الاكليروس في العصور الوسطى الى تصوير الاسلام في أحلك الألوان والواقع انهم يسرفون في كراهية محمد و كراهية دينه ، ويعدونه خصماً للمسيح ، أما أنا فأرى واجباً ان يدعى محمد منقذ الانسانية ، وأعتقد ان رجلاً مثله اذا تولى زعامة العالم الحديث نجح في حل مشكلاته .

ومن هذا المنطلق كان هدف الفلسفات المادية كلها تقويض دعائم الاعتقاد

بوجود إله واحد ، بغض النظر عن البديل المقترح ، وكان البديل هو ألوهية المادة او ألوهية الانسان او اتخاذ الغريزة محوراً لتفسير الوجود ، ولا ريب ان الهجوم على التوحيد انما هو موجه للاسلام أساساً ، فالاسلام هو الدين الوحيد الذي صفت فيه عقيدة الوحدانيـة من شوائب الشرك ، فالإله في في عرف اليهود إله قومي لهم وحدهم دون غيرهم من الأميين ، وفي عرف النصارى هو واحد من ثلاثة .

ولقد جاءت الماركسية تدميراً[1] لفكرة الألوهية وربطاً للانسان ومصيره بمصير المادية المجسد وتفسيراً لحركة التاريخ بعوامل ليس فيها إرادة الله فضلاً عن عدائها الصريح الذي لم يتوجه في الحقيقة إلا الى الاسـلام باعتباره معقل الفكر الديني ، ورمزاً يجسد العلاقة بين الله الواحد ، وبين المخلوق الموحد ، وهي تعد أصرح حملة وجهها الفكر الحديث الى معقل الوحدانية وان بدت عاجزة عن تحقيق أهدافها بعـــد ان شاهت وبارت في نظر كثير من المفكرين .

ولقد جرت محاولات كثيرة لاعتبار الدين مسألة تاريخية وقضية مرحلة ، وكانت الفلسفة الوضعية هي التي ركزت على القول باعتبـار الدين مرحلة تاريخية في تاريخ البشرية والتهوين من أثر الاسـلام في حركة التاريخ . وقد تبين زيف القول بأن الاسلام كان ضرورة مرحلية لحلقـــة من سلسلة تطور البشرية ، اذ أثبتت الوقائع التاريخية وما تزال تثبت الى اليوم ان الاسلام دعامة أساسية للجغرافيا والتاريخ والاستراتيجية والحرب والسـلام ، وانه

---

(١) من بحث للدكتور عبد الصبور شاهين .

الجدار القوي الذي يصد كل ما تطرحه الوثنية والمادية ، وما تأتمر به الشيوعية والصهيونية والاستعمار الغربي ، بالرغم من ضعف الاقتدار المادي الذي تملكه هذه القوى ، وان الاسلام ما زال صامداً أمام التحديات ، وما زال مؤثراً في تطور الأحداث ووقائع التاريخ يوماً بعد يوم ، وانه يكسب كل يوم أنصاراً جـــدداً ويحرر أمماً ويدفع الفكر الانساني الى الطريق الحـق .

واذا كان الاسلام قد قضى على الشرائع الفاسدة التي كانت سائدة قبل ظهوره في الفرس والفراعنة واليونان والرومان والهند بما تعلي من شأن الطبقة الواحدة ، وتقيم العبودية وتركز العنصرية ، فان الاسلام في هذا العصر لن يتأخر عن دحر هذه الانظمة وادالتها متى استمسك به أهله وفهموه ديناً متكاملاً جامعاً وطبقوا شريعته ، وأقاموا أخلاقه وعقيدته . ولعل من أبرز الظواهر القائمة اليوم ذلك التحدي الواضح الذي يشرق في آفاق عالم الغرب بالتماس منهج جـــديد وذلك الصراع القائم بين الايديولوجيات والاديان ( الايديولوجية هي النظام الفكري الذي يحاول ان يكون منهجاً للحياة من صنع البشر ، وهو يختلف من مجتمع الى مجتمع ، ومن عصر الى عصر ، ويحتاج في العصر الواحد الى تعديلات مستمرة ، وفي المجتمـع الواحد الى تغييرات متوالية حيث لم تثبت أيديولوجية ما حتى الآن أكثر من عشر سنوات دون أن يجري عليها تعديل وتغيير ) .

أما الدين فهو المنهج القـائم بالحق . ويقول توينبي : ان الأديان السماوية تراجعت لتشغل خيراً فردياً في حياة القلة من أفراد المجتمع بحيث لا تدخل في مجال حياتهم وتعاملهم ، ومن الحق ان يقـــال في الرد على

ذلك : ان هذه الاديان نفسها قد تشكلت على انها أديان عبادة . وقد أشار توينبي الى ذلك حين قال ان الدين المسيحي أصبح يخص الانسان فقط مفصولاً عما يخص المجتمع ، وليس كذلك الاسلام فهو الدين الوحيد الذي دعا الى إقامة منهج حياة ونظام مجتمع مستمد من الأصل الرباني : القرآن . ولكن السؤال : هل تستطيع هذه الايديولوجيات والمذاهب ، وهي جميعاً من نتاج الغرب وحضارته ان تنهي علاقة الاديان بالبشر، او ان تحل مشاكل المجتمعات وتحديات البشرية ، ذلك ما تتقرر فيه الإجابة بالنفي القاطع .

ولقد قاست هذه المجتمعات التي حاولت أن تقيم أيديولوجيات من صنع العقل البشري ، وما تزال تقاسي والمؤكد ان عودة البشرية الى الاديان ( والدين الحق ) هو سبيل خلاصها من التحلل والانهيار والدمار الروحي والمادي .

وقد تبين للانسان ان ما وصل اليه علم لا يمثل إلا قدراً قليلاً بالنسبة لتفسير الكون والحياة وان الكلمة الاخيرة في مصيره ليست في متناوله[١] .

ومن الحق أن يقال ان المجتمعات الغربية لتتعطش اليوم الى الدين ، وترى فيه ترياقها في هذا العصر القلق المتفكك ، وتجربة الانسان في هذا الصدد فريدة فقد صهر المجتمعات التي اعتنقته في وحدة عاطفية واجتماعية وسياسية واقتصادية ، وان دراسة الاسلام وفهمه على أصوله سوف تكون في المستقبل القريب عاملاً هاماً في هداية البشرية ، بعد ان كشف العلم الحديث آفاق العالم

---

(١) الاستاذ يحيى الهاشمي في تعليقه عن كتاب العادة والتغيير لتوينبي .

وقدم للناس زيادة عما مضى دلائل جديدة على عظمة الخالق في كونه الواسع العجيب ، وكان لتحطيم الذرة أثرها في تحطيم مفهوم الفلسفة المادية القائم على إنكار عالم الغيب . فقد بدا هذا العالم واضحاً من خلال العلم .

•

وليطبق المسلمون الاسلام أولاً : وليكونوا مسلمين حتى يضعوا التجربة أمام البشرية ، وليدافع المسلمون عن روح الاسلام في مجتمعاتهم ، فهم لن يستطيعوا ان يقوموا برسالتهم في هداية البشرية المتطلعة الى ضياء جديد لن يأتي لها الا من قبل الاسلام ، الا اذا أقاموا أنفسهم على الاسلام عقيدة ومنهج حياة .

وليس في المدنية الغربية شيء يحتاجه المسلمون الا هذا العلم الطبيعي التجريبي الذي هو ملك للعقل البشري عامة ، والذي ساهم المسلمون في بناء لبناته الاولى ، حين أقاموا المنهج العلمي التجريبي . أما اجتماعيات الغرب ، فليس المسلمون في حاجة اليها وعندهم منهجهم الاصيل . أما ميتافيزيقيا الغرب فهي من نتاج العقل البشري القاصر ، وقد أعطى المسلمون منهجاً ميتافيزيقياً كاملاً ليسوا بعده في حاجة الى مناهج في هذا الباب .

ومن الحق ان يقال ان الاسلام لم يبن أهراماً ولا هيكلاً ولا تمثالاً ، ولكنه بنى النفوس والعقول فقد أقامت هذه الهياكل أمم كانت خاضعة للعبودية والظلم ، ولكن جاء الاسلام ليقيم دولة الفكر ويجعل الامر كله لله .

ونحن اذا بحثنا في الثورات الكبرى التي قامت في مختلف أنحاء العالم ، والتي هدمت المعابد واعتقلت رجال الدين لم نجد أصولها ولا بواعثها الا الثورة على تلك القيود التي فرضها الاكليروس والكهنوت بغير الحق .

ان الاسلام هو الذي حرر الروح الاوربية الغربية بعـــد ألف سنة من الاستعباد والإذلال اللذين كبلتها بهما قوى باسم الدين، وكان الاسلام في الاندلس هو منطلق النور والضـــوء الى أوربا . يقول جيمس بريستد : ان العصر الاسلامي في أسبانيا كان أكبر عامل من عوامل المدنية في اوربا ، وان اعتزال المسلمين في أسبانيا كان بمثابة انهزام المدنية أمام الهمجية .

ومن الحق ان يقال ان الاسلام هو الذي أقام عقيدة التوحيد في مواجهة الوثنية والتعدد ، وأقام فكرة إباحة زينة الحياة في مواجهة الرهبان ، وأقام الصلة المباشرة مع الله في مواجهة وصاية رجال الدين وأقام منهج التكامل في مواجهة الانشطارية ، وأقام مسؤولية المجتمع ازاء فقرائه وضعفائه في مواجهة قتل الفقراء والضعفاء ، وأقام الإخاء الانساني في مواجهة العنصرية ، وجعل الفرد للمجتمع والمجتمع للفرد في مواجهة الفردية المتعصبة والجماعة الظالمة ، وأحل الله البيع في مواجهة الربا ، وأعلن ان الله رب العالمين في مواجهة الإله الخاص ، وأكد اليوم الآخر والجزاء في مواجهـــة الدهرية ، وأعلن منهج الثبات والحركة معاً في مواجهة نظرية التطور المطلق ، وأعلن ثبات الاخلاق في مواجهة نسبية الأخلاق الباطلة ، وقدم ديناً لا يصدم العقل في مواجهة الأسرار والأساطير والخوارق ، وألغى عبودية الانسان ، وحرره من عبودية الحضــارات ، وأعلن حقوق المرأة إزاء ظلمها الفادح ، وألغى العصبية القبلية وأحل بديلاً منها أخوة العقيدة، وأعلن التكامل والترابط بين عالمي الإنسان الداخلي والخارجي وبين عالم الغيب والشهادة .

وأوحى الى معتنقيه شعور العزة وخلصهم من كل تكلف او اصطناع ، ودعا الى الفطرة وأنكر التقليد ، ودعا الى العودة الى الحق متى استبان وجه

الصواب ، ودعا الى ثبات الهدف وتعدد الوسائل ، وأعلن ثبات الجوهر وتغير الصورة .

ومن أبرز معالم قوته قدرته على إعادة صياغة نفسه ، وكشف الأغشية التي تحاول إخفاء جوهره ، ورد المذاهب والنظريات التي تتعارض مع منهجـه .

والاسلام يشق طريقه في العجز منذ أكثر من مائة عام ، فهو ليس متطلعاً بالقدرة التي تدفعه اليه حوافزه وقواه ، وان القوى الخارجية تحول دون انطلاقه الى غايته واحتلال ارادته لتحقيق قيام مجتمعه . وقد طبـع الاسلام حياة المسلمين وسيظل يطبعها، وهو لن يسقط أمام التبشير الأدبي ، لأنه متجدد النظرة ، ثابت الدعائم ، وما يزال القرآن قائماً بالحق .

وانه ليعطي البشرية اليوم ، ولسوف يعطيها في الغـد ، وكل الدلائل تكشف عن انه ينطلق الى غايتـــه لتحقيق رسالته بأقرب مما يظن المراقبون .

وفي المقارنة التي عقدتها موسوعة تاريخ البشرية عن دراسة الاديان في القرن العشرين تقول الموسوعة عن الاسلام : كان الاسلام في القرن العشرين متشابكاً تشابكاً لا فكاك فيه مع التطورات الاجتماعية والسياسية لهذا العصر ، ولما كان الاسلام ديناً يشمل عند اتباعه القانون وأسلوب الحياة ، فقد كان عليه ان يكون عنصراً من عناصر حركات تحرر الشعوب الاسلامية من حكم غير المسلمين ، ونشر التغييرات الكبرى في القرن العشرين في المجال السياسي ، فالإحياء الاسلامي جزء لا يتجزأ من الثورة السياسية

والاقتصادية بين الشعوب الاسلامية ، وقدم الاسلام مصدراً روحياً للقومية ثقافياً وسياسياً ، فمنح الجهاد ضد السيطرة الغربية بعض خصائص الحرب المقدسة ، وفي الاسلام من حيث هو مرشد للسلوك السياسي نجـــد ان اصراره التام على المساواة بين المؤمنين تتمشى مع الاتجاهات الديمقراطية الحـــديثة .

## (٥)

ان الاسلام منذ صيغته قد شكل نفســـه تشكيلاً مستقلاً واضحاً ، وسرعان ما برز لونه المميز على خريطة العالم : عالم مستقل له طابعه المفرد ومنهجه المتكامل المتجدد بالتوحيد والإيمان والاخلاق .

ومنذ ذلك اليوم أصبح للمسلمين قبلتهم الواحدة التي لم يحيدوا عنها أبداً، تهوي اليها قلوبهم وعقولهم بالإيمان والفكر ، ولم يكن لهم بعدها وإلى اليوم وإلى الأبد قبلة أخرى ، وما تزال الكعبـــة وستظل مركز الدائرة في أرض الاسلام .

وقد ألهب تطبيق الاسلام مشاعر الناس حتى من كان لهم منهج مخالف . يقول أوجست كونت : لا يسعني عندما أنظر الى فريق من المسلمين وهم يؤدون مناسكهم وفروض صلاتهم بشكل جماعة متكاثفة والسكون والإيمان العذب يخيمان فوق رؤوسهم إلا ان أكبر عظمة هذا الدين الذي عرف كيف يصقل الأذهان ويهذب النفوس ويشرق القلوب ويقوم الاخلاق ويقضي على تمرد الروح ويحوله الى خشوع عميق وتواضع ملؤه الخضوع .

ولا ريب ان هذا المعنى يتصل بالدور الضخم الذي قام به محمد صلى الله عليه وسلم في بناء هذه الأمة على القرآن . فهو ما زال وسيظل القدوة المثلى والأســـوة الحسنة التي انتزعت من أكثر الناس تعصباً تقـديراً واعترافاً .

يقول فيليب حتي : لم يسجل التاريخ ان رجلاً واحـــداً سوى النبي محمد كان صاحب رسالة وباني أمة ومؤسس دولة ـ هذه الثلاثة التي قام بها محمد كانت في نشأتها وحدة متلاحمة ، لا يمكن ان تنفصم الواحدة منها عن الاخرى ، وكانت الى حد ما متوافقة يشد بعضها ازر بعض ، وكان الدين من بينها على مدى التاريخ القوة الموحدة ، وكان أبقاها زمناً حتى اذا ذهبت تعد الناس في العالم اليوم وجدت ان السابع او الثامن منهم يدعو نفسه مسلماً[١] .

وهكذا يصدق القول بأن محمداً صلى الله عليه وسلم هو في تقدير المنصفين القائد الاول للفكر الانساني الذي وقف ينادي بأن الشمس والقمر آيتان من آيات الله ، وانهما لا تنخسفان لأحد .

وقد سيطر الاسلام على الانسانية أكثر مما سيطر الفكر الفلسفي العقلي ، سيطر على الفكر والعقل والروح ، وقدم الهداية للبشرية كلها ، وأقام دعائم حضارة الغد .

---

(١) الواقع ان في هذا التقدير انتقاص كبير ذلك ان تعداد المسلمين اليـــوم بلغ أكثر من سبعمائة مليون مسلم ، وهو ما يوازي ان كل خمسة من الناس بينهم مسلم .

وقد عجز الباحثون عن تعليـــل سر ذلك الانتشار العظيم الساحق للاسلام في مطالعه ، وسرّ هذا الثبات العظيم للاسلام أينما حل ، وسر هذه الوحدة التي أقامها معتنقوه والتي ما تزال القوى الغاضبة تضربها بشدة منذ قرن من الزمان دون ان تفل وحدتها .

وصدق تويتون اذ يقول : ان التفسير المادي يفشل فشلاً ذريعاً في ان يعلل وحدة العرب وغلبهم على غيرهم واستقامة حضارتهم واتساع رقعتهم وثبات أقدامهم ، فلم يبق أمام المؤرخين الا أن ينظروا الى العلة الصحيحة لهـــذه الظاهرة الفريدة فيروا انها تقع في هذا الشيء الجديد : ألا وهو الاســـلام .

رأوا ان الاسلام قوة هائلة فيه حيوية دافعة الى العمران وسبيل الحضارة وهو الطريق الى جمع الكلمة ، ونشر الاسلام وتحقيق العدل بما يؤلف بين القلوب ويربط بين الشعوب .

ومن هنا تعرف أيضاً ما هي القوة التي كانت ولا تزال تحول دون انحراف عقيدة الاسلام ، والسقوط في هوّة التقليد او التأويل او التبعة او الخروج عن المنابع الاولى .

وقد صدق عمر بن الخطاب حين دعانا الى النظر في التاريخ القـــديم السابق للاسلام لنعرف الفوارق والخلافات حين قال : « انما تنقضي عرى الاسلام عروة عروة اذا نشأ في الاسلام من لم يعرف الجاهلية » .

نعم : ان مفتاح ذلك كله هو ان الاسلام لا يزال يعد مهمة الوحي قائمة بما قدمت من كتاب ودين ، وما تزال أسوة الرسول قائمة أمام المسلمين

تطبيقاً لهذا الدين ، ولا يقر الاسلام مطلقاً ان العقل البشري أصبح قادراً وحده على فهم الحياة او ان الانسانية قد أصبحت قادرة على ان تتجاوز رسالة السماء المنزلة بالحق في أصولها الاصيلة .

**أنور الجنـــــدي**
عضو المجلس الاعلى للشؤون الاسلامية
القاهرة

# المراجع

محمد عبد الله دراز : الدين : بحوث محمد عبده لدراسة تاريخ الاديان .

أحمد شلبي : مقارنة الاديان .

أبو الحسن الندوي : ماذا خسر العالم بانحطاط المسلمين .

محمد عبده : الاسلام والنصرانية مع العلم والمدنية .

محمد المبارك : الفكر الاسلامي الحديث .

عبد العزيز جاويش : الاسلام دين الفطرة .

محمد ابو زهرة : محاضرات في النصرانية .

علي سامي النشار : نشأة الدين والنظريات التطورية والمؤلهة .

**وذلك بالاضافة الى المراجع الواردة في هوامش الكتاب .**

الموسوعة الإسلامية العربية

٢

# سقوط العلمانية

بقلم
أنور الجندي

دار الكتاب اللبناني - بيروت

دار الكتاب اللبناني
برقيا : كتالبان - بيروت
ص - ب : ٣١٧٦
بيروت - لبنان

الطبعة الثانية ١٩٨٠

سقوط العلمانية

# وقائع البحث

صفحة

بسم الله الرحمن الرحيم

# مدخل

« العلمانية » كلمة ذات أكثر من مدلول . وذات تاريخ طويل . وقد انتقلت مع الزمن معنى الى معنى آخر . وقد حاول مترجموها عن اللغات الغربية إخفاء حقيقتها ، حتى لا تصدم الحس العربي وتبقى في نطاق العلم ، وهو نطاق يرد عنها عادية الاتهام . ويبقى هدفها الحقيقي مختفياً وراء اللفظ المشتق من أقرب الأسماء الى نفوس العرب والمسلمين .

والواقع ان لفظ « علمانية » هو ترجمة للكلمة اللاتينية (Secular) ومعناها في اللغات الاوروبية « لا ديني » وقد صدق « جان ريفرو » حين قال : ان العلمانية كلمة لها رائحة البارود ، لما تثير من استجابات متضاربة متناقضة .

وقد نشأت كلمة « علمانية » وهي تتصل أساساً بالقول بالفصل بين الدين والدولة ، ومن هنا فهي كلمة تاريخية لها ارتباط بالبيئة التي استحدثتها

وفرضتها، حيث نشأت ونمت في ظل أحداث تاريخية معينة، اتصلت بأوروبا وبالدين ، وعلماء الدين ، وبموقف الدين ، والكنيسة من المجتمعات الغربية ، ومن العلم .

ثم انتقلت هذه الكلمة الى اللغة العربية، وإلى العالم الاسلامي، مع انتقال مترجمات الفلسفة المادية ، ومـا فرضه النفوذ الاستعماري من أنظمة تتصل بالقانون ، والتربية ، والتعليم أساساً . وكانت الضغوط القاسية لإحلال القانون الوضعي محل الشريعة الإسلامية . والتعليم على النظام الغربي بديـلاً للمناهج التعليمية العربية الاسلامية .

ولقد ظلت كلمة العلمانية تظهر وتختفي . وإن كانت قـد وضعت موضع الأساس لكل أهداف التقريب والغزو الثقافي فترة طويلة . ظهرت آثارها في مختلف الدعوات التي حمـل لواءها دعاة الاستشراق والتبشير ومن تابعهم من قادة الفكر التغريبي ، وبرزت واضحة في الدعوة الى مذهب ديكارت ، وإلى القول بأن الاسلام دين روحي . وإلى إدخال المذاهب الوافدة ذات الطابع المادي الى الأدب والاجتماع . وتفسير التاريخ . ولقـد استقبل الفكر العربي الاسلامي هـذه المذاهب والدعوات المختلفة في أول الأمر في ظروف القسر والأمر المفروض . وبدا ان هذه الدعوات قد نمت وترعرعت . وشكلت فكر جماعات من الناس، أتيح لهم بفضل النفوذ الاستعماري أمر الصدارة في مجالات الثقافة ، والتعليم ، والصحافة . واستطاعت حركة اليقظة ان تحاصر هـذه الدعوات . وأن تضع قاعـدتها العريضة التي اجملها في ان المسلمين والعرب ، ليسوا في حاجة من الحضارة الغربية إلا الى شيء واحد هو العلم التجريبي . أما نظريات النفس والاجتماع والاخلاق والدين . فإن لديهم منهجهم الاصيل الذي تشكلت عقلياتهم ونفسياتهم عليه منذ أربعة عشر قرنـاً . والذي ليس من العسير إخراجهم منه . ومن هنا فقـد تقبل المسلمون والعرب من المناهج الاوروبية أطرها وأساليبها ، وما وجدوه مشابهاً لما عندهم ، او متفقاً معه ،

او جارياً على طريقه ، او دافعاً لهم الى توسيع آفاق الفهم والعلم والثقافة ، دون أن يخرجوا عـــن إطارهم الأصيل وفكرهم المستمد من القرآن الكريم وأصول الإسلام . غير ان دعوة التقريب والغزو ، إنما كانت ترى ان ذلـك كله ليس إلا مرحلة وثبت منها الى مرحلة أخرى . وربمـا كانت في تقديرهم نهائية ، وهي مرحلة الانتقال كليـــة الى إطارات الفكر الغربي ومنهجه في مجال الفكر .

وقد جاءت نكسة ١٩٦٧ توقيتا لهذه الصيحة التي أطلقوا عليها « علمنة الذات العربية بإخراجها من إطار الدين » وكانت الصيحة تنطوي على تعليل واضح يكشف عن المخطط المرسوم الذي بدأ ببعض الاقتباسات من الحضارة الغربية في بعض العناصر ، والذي يرى الآن انه قد جاء الوقت لإتمام الجولة باتخـــاذ قواعد الفكر الغربي وإطاراته الفكرية والعقلية والنفسية موضع التنفيذ . وأن أي توقف عن تحقيق ذلـــك سوف يصيب الذات العربية بالتمزق . ذلك ان الذات العربية لا تستطيـع ان تسترجع ما اخذته، ولا أن تجد وحدتها الممزقة إلا بإتمام الصفقة التي بدأها التغريب منذ أكثر من ثمانين عاماً حينما أدخل النظرية المـادية ، والقانون الوضعي ، ومنهج التربية والتعليم الأجنبي ، وفصل بين الدين والدولة . وكانت هذه هي أول مراحل العلمانية، وقد جاء الوقت لإتمام المرحلة النهائية من العلمنة ، وذلك بما يسمونه « تحرير الذات العربية من إطاراتها الغيبية . والإطارات الغيبية هنـــا تعني الاسلام بالذات . وليس الدين بعامة » .

وان العلمنة الأولى تعـد اعترافاً ضمنياً بقبول العلمنة النهائية . ولا ريب ان هـــذه الصيحة الخطيرة في عشية نكسة حزيران ١٩٦٧ تعني ان مصدر النكسة هو تلك العقلية الغيبية ( الاسلامية ) . وأن تجـاوز النكسة يقتضي القضاء علىهذه الثنائية بين مفاهيم الاسلام التي كانت ارضية فكر هذه الأمة. وبين العلمنة الجزئية التي تداخلت الى فكرها ومجتمعها خلال هذه المرحلة .

ولا بدّ إذن من أن يلقي الفكر العربي بنفسه إلقاء كاملاً في احضان العلمانية وبغير ذلك. فإنه لن يتجاوز النكسة، ولن يستطيع أن يحقق للذات العربية وجودها . حيث إنهـــا ستظل ممزقة الى وقت طويل . وبالجملة فإن حتمية الموقف كله تتطلب من الذات العربية أن تستسلم امام العلمانية ، وأن تتخلى نهائياً عن العقلية العربية الإسلامية ، التي توصف بأنها العقلية الغيبية .

(٣)

ومن هنا تبين لنا ان العلمانية لم تكن قاصرة على أنها دعوة الى فصل الدين عن الدولة ، وإنما ذلك في تقدير أصحاب الدعوة . هي المرحلة الأولى ، التي تهيىء الفكر والمجتمع جميعاً لخطوة حاسمة هي : «علمنة الذات العربية نفسها» على أساس ان تسقط نهائياً وإلى الأبد ، كل ما يتصل بفكرها وتراثها ودينها وقيمها ( القديمة كلهـــا ) وأن تعتنق المنهج العلمي ، او وجهة النظر العلمية ( في تعبير البعض الآخر ) وهو المنهج الذي يقوم على أساس قياس النظر الى المجتمع والنفس والأخلاق والإنسان جميعاً على النحو الذي تقاس بـــه العلوم الطبيعية على أساس الملاحظة والتجربة .

ومعنى هذا ان العلمانية (او العلمنة كما يطلقون عليها أخيراً) هي الفكرة القائلة بأنه من الممكن دراسة الانسان والمجتمع ، كما تدرس الاشياء على أساس تطبيق وسائل الدرس والملاحظة التي تمارسها العـــلوم الطبيعية في دراسة الظواهر الاجتماعية .

ومن الحق ان يقال إن هذه الصيحة بعيدة كل البعد عن الحقيقة ، وغريبة كل الغرابـــة عن فهم الذات العربية ، ومتعدية كل التعدي في الكشف عن أسباب النكسة او علاجها . وإنما هي المطامع والأهواء ، والظن بأن جدار

الفكر العربي الاسلامي قـد اصبح وشيك السقوط : تلك أمانيهم الخادعة ، التي يدحضها التاريخ والواقع تماماً .

ذلك ان الذات العربية تعرف أن طريقها الحق هو طريق الاسلام والقرآن من خلال ذلك المنهج الاصيل المتكامل الجامع الذي هدى الانسانية الى الحق والعدل . والذي ليس هو منهج غيبي ، فضلاً عن انه لم يخلق عقلية غيبية على النحو الذي ينقل نقـــلا من مفاهم الأديان في بيئات أخرى ، تجري محاولة تطبيقها عن طريق الخطأ في الفهم بأن الاسلام شبيه بهـــا ، او عن طريق المغالطة والهوى والادعاء . ومن الحق أن يقال ان العقلية الاسلامية العربية ليست عقلية غيبية بالصورة التي يراد وصفها بها انتقاصاً لها ، ولكنها عقلية متكاملة تؤمن بالترابط بين القيم بالتجريب والغيب ، والعلم والوحي والروح والمادة ، الدنيا والآخرة . والغيب جزء من مفهوم الاسلام والعقلية العربية . لأنه حقيقة واقعة ، ولكن القول بأن العقلية العربية عقلية غيبية. هو تجاوز كبير ، لأن مفهوم العقلية الغيبية هو تلك التي تعتمد على السحر والخرافة والأساطير ، وهو ما وصفت به عقلية أمم أخرى لم تعرف القرآن الذي دعا الى البرهـان والحجة ، وطالب بالنظر في الكون ، ونعى على الناس التقليد والتبعية .

ولا ريب ان وصف العقلية العربية لأنها عقلية تستمد مفاهيمها من الاسلام ، بأنها عقلية غيبية ، فيه خطأ كبير ، وتجاوز كبير . فالاسلام قد أقام منهجه في المعرفة على أساس الوحي والعقل ، والايمـان بالله ورسالته وكتبه وباليوم الآخر . وجعل العقل هادياً ومرشداً ، ودعـا الى عمارة الارض والسعي في الدنيا ، وبناء الحياة بالعمل . فـــلا يوصف بأنه منهج غيبي . ولكنه منهج متكامل لم يقف عند حدود المحسوس ، والمادة وحدها . ولم يؤله المادة ، او العقل ، او الانسان ، او التاريخ . ولم تضطرب به السبل حول المعرفة دون أن يهدي الى الحق . وما يزال يضرب في تيه لا ينتهي .

## (٣)

ومن عجب ان يظن التلموديون ودعاة التغريب ان هـذه الأمة تخرج عن الاسلام . وتعتنق فكراً آخر غيره ، وما هو هذا الفكر الذي تعتنقه بديلا للإسلام . إنـه ذلك الفكر المضطرب الذي أنشأ أزمة الانسان الحديث . وخلق تلك الصراعات الحادة ، والقلق ، والتمزق ، والضياع . وذوّب قلب البشرية فيدوامة الألم والمرارة والخوف والجزع التي أفضت الى الجريمة والمخدر والانتحار .

وهل يمكن أن يتجاوز العرب والمسلمون فكرهم ومنهجهم وعقائدهم بعد أن أمضوا أربعة عشر قرناً يشكلهم هذا الفكر وهذا الدين ، عقولاً ونفوساً وأمزجة وأذواقاً وأحاسيس . ويصنع منهم ذلك الطابع المميز للانسان المسلم في العالم كله . هل من البساطة الى هذا الحد أن يستطيع الفكر الغربي وهو الذي نعرفه ممزقـاً مضطرباً يقاسي الصراع والأزمة ، ان يسيطر على الفكر الاسلامي او يستوعبه او يحتويه ، مهما كان لظروف الاستعمار من آثار في ان تغل إرادة هذا الفكر ، او تفرض عليه فكراً وافـداً ، او غزواً فكرياً . والدنيا كلهـا تعرف كيف ان فكر الاسلام : هو عطاء البشرية في العدل والحق والتوحيد والمساواة والحرية والإخاء . ولن ينخدع بأن هزيمـة ١٩٦٧ ترجع الى الاسلام ، او الى العقلية الغيبية التي يدعون انها عقلية الاسلام. ولن ينخدع احد بـأن وسيلة النصر او التحرر من الغزو . هي ان يلقي العرب والمسلمون أنفسهم في أحضان فكر عدوهم، ذلك ان العرب والمسلمين يعلمون ان هذا الفكر الذي يوصف بالفكر العلمي ، والذي يسمى بالعلمانية . والذي يدعو الى تطبيق مناهج التجريب في علوم الطبيعة على الدراسات الانسانية ، وعلى الإجماع والاخلاق والنفس . هـذا الفكر الذي احتوى الفكر الغربي المسيحي، ليس إلا فكر المخططات التلمودية التي رسمتها بروتوكولات صهيون،

والمسلمون والعرب يعرفون الرابطة بين هذا الفكر المستمد من هذه المخططات، وبين الغزو الصهيوني الذي أحدث هزيمة ١٩٦٧ .

ومن هنا فـإن الدعوة الى علمنة الذات العربية بإخراجها من إطار الدين دعوة معروفة المصدر ، والهـدف ، والتوقيت ، وهي دعوة مردودة على أصحابها. لأن العرب والمسلمين يعلمون ان مصدر تحررهم هو فكرهم الاصيل. ومفهوم الاسلام الذي نشأهم وكوّنهم وعلّمهم على مدى التاريخ. وأن جوهر النصر مرتبط بالتماسهم مفـاهيم الاسلام ، وتحرير أنفسهم من التبعية للفكر الوافـد على أي صورة من صوره وإحياء فريضة الجهاد ، والتماس مصادر الشريعة الاسلامية ، وبناء التربية على النهج القرآني .

يعرف المسلمون والعرب هذا ، ويعرفون انـه هو مصدر تحرر الذات العربية ، وان الاسلام الذي يعتمدونه مصدراً لهم، هو مصدر تحررهم، وأنه هو وحده المصدر . وأن هـذه المناهج الوافدة كلها لن تستطيع ان تحرر العرب والمسلمين فضلاً عن المسلمين العرب . قـد شبوا عن الطوق . وكأن هزيمـة ١٩٦٧ هي نقطة يقظة جديدة تقول بأنهم قد بلغوا رشدهم ، ولم تعد المذاهب الوافدة تقبلهم . وقـد اصبحوا قادرين على النظر فيها دون ان تحتويهم ، او يكونوا تبعية لها .

ومن خلال هـذا المنطق يبين لنا ان العلمانية لم تكن دعوة علمية خالصة لوجه الحق ، ولم تكن تستهدف تحرير الانسان العربي ، وإنما كانت تستهدف إخراجه من ذاتيته وقيمه ومزاجه النفسي ، وتركيبه الإجماعي كـله لتقذف به في أتون العالمية والأممية .

# ١

# العلمانية في الفكر والمجتمع الغربي

كانت العلمانية خطوة طبيعية في الفكر الغربي نتيجة قصور المفاهيم الدينية التي كان يحملها رجاله عن مجاراة النهضة . فكان هذا القصور مع تلك الحملة الضخمة التي شنتها الكنيسة الغربية على العلم مصدراً من المصادر الهامة في زيادة التحدي الذي ردّ به رجال النهضة بإقصاء الدين كلية عن محيط الفكر والمجتمع في الغرب .

وتلك قضية معروفة لها جذور وامتدادات واسعة ، ولها تاريخ طويل له مراحل متعددة ، تحول به الفكر الغربي من مرحلة الى مرحلة ، حتى وصل الى المرحلة الحاضرة ، التي غلبت فيها العلمانية والمادية ، والأممية الى مختلف ميادين الفكر والمجتمع خلال اكثر من اربعمائة عام .

ولا ريب، لكل فكر ، ولكل أمة طوابعها ، وتحدياتها ، وظروفها الخاصة . فالمعروف ان اوروبا كانت وثنية تعيش على تراث اليونان ، في ظل الحضارة الرومانية ، حتى عرفت المسيحية التي استطاعت ان تصارع الوثنية

طويلاً حتى استقرت على الصورة التي جاءت بهـا تشكيلاً حواراً بين الفلسفة اليونانية ، والقانون الروماني ، وإطار من مفاهيم الدين الوافـد على اوروبا ، آنذاك بتفسير غربي يختلف عن طبيعة الدين الذي أنزل الى المسيح عيسى بن مريم . فقـد كانت رسالة السيد المسيح واحـدة من رسالات السماء الى بني اسرائيل في إطار الدين الذي جاء به عيسى ، مكملة له، وليست ناقضة إياه. وكما وصفها القرآن الكريم **«ومصدقاً لما بين يدي من التوراة ولأحلّ لكم بعض الذي حرم عليكم»** غـير ان رسالة عيسى فسرت بعد ذلـك تفسيراً مغايراً لأصولها وحقيقتها فوضعت في إطار جديد على أنها دين عام للبشرية. وحرف مفهوم العلاقة بين الله . مالك الملك دين الرسول البشري الذي أنزل الله عليه الرسالة . ولـما كانت رسالة عيسى مجموعة من الوصايا والاخلاقيات . فإنها لم تكن بالطبع منهم ديناً كاملاً ، حيث لم تكن لها شريعة مستقلة . كل هذه العوامل كانت بعيدة المدى في احداث مـا أحدثت من اضطراب في المجتمع الروماني الذي كان يعيش حضارة لها طابعها الوثني الخاص . وقد جاءت هذه المفاهيم باسم المسيحية تغزوه وتتشكل معه في إطار واحـد . ومن هنا كان موقف الغرب منها . ثم موقفها هي من العلم والنهضة التي كانت قد بدأت في إطار الدفعة القوية التي قدمها الاسلام للبشرية . والتي وصلت في نهاية جولتها الى اوروبا عن طريق الاندلس .

ومضى الفكر الغربي يشكل نفسه من جديد من خـلال مفاهيم العلم التجريبي الذي قدمه الاسلام . ومن خلال المفاهيم التي كانت قد امتزجت به باسم المسيحية بالاضافـة الى جذور الوثنية اليونانية ، ممـا اختلط جميعه ، وحاول الانصهار في بوتقة واحدة، ومما كان بعيد الأثر في النموذج الذي تقوم عليه الحضارة الغربية اليوم ، وهي تعاني صراعاً حاداً وأزمة عميقة تتقاسمها وتتمزقها بين العلم والوثنية من ناحية ، وبين مفاهيم الرهبانية والاباحية من ناحية أخرى .

غير ان هناك عاملاً حاسماً ، كان بعيد الأثر في الموقف كله ، ذلـك هو تيقظ الحركة اليهودية في اوروبا وانبعاث مفاهيمها من التلمود والتوراة المحرفة، وتشكل ذلك التحدي الخطير باسم الماسونية ، وما اتصل بهـا من حركات تغيير . كانت الثورة الفرنسية في مقدمتها . هذا العامل الذي شاء أن يسيطر على الفكر الاوروبي بعد عصر النهضة باسم عصر التنوير، والذي جاء معارضاً معارضة كاملة للفكر الغربي المسيحي عاملاً على هـدم الحكومات الاوروبية المسيحية ، وإقامـة أنظمة جديدة يتاح في ظلها لليهود الخروج من الجيتو ، والحصول على حق المواطن ، كمقدمـة للوثوب الى الحياة الفكرية والإجماعية والسيطرة عليها .

ومن هنا كان هدف الماسونية ، ومخططات التلمود، والثورة الفرنسية . هي تحطيم القوائم التي شكلتها المسيحية والكنيسة للوقوف في وجـه اليهود ، وحجزهم وراء معاقلهم التي اختاروها، وأقاموا فيها، منفصلين عن المجتمعات الاوروبية يزاولون مهمتهم الأساسية في صناعة الربا والاقراض ، والسيطرة على الذهب وأعمال المال . ولم يكن في إمكان اليهودية العالمية تحطيم هـذه الحواجز الضخمة التي تقف في وجـه اندماجهم في المجتمعات . ثم سيطرتهم عليها بعد ذلـك . إلا عن طريق الدعوة الى العلمانية . أي فصل الدين عن الدولة ، وإعطاء كل مواطن نفس الحق الذي يحصل عليه الآخرون دون نظر الى دينه . وبذلك وحـده يستطيع اليهود أن يبثوا في المجتمعات الاوروبية ويأخذوا مكانتهم . وقد يحقق لهم هذا بالفعل عن طريق الثورة الفرنسية ، وثورات مماثلة عمت اوروبا كلها ، وسرعان ما سيطروا على ميادين الفكر ، والثقافـة ، والطب ، والعلم ، والصحافة ، وتركوا لغيرهم مراكز السيطرة السياسية . وإن كانوا يحركونها من خلال محافلهم الماسونية . وقد وجدوا ان سيطرتهم على الفكر والثقافة والصحافة ، بالإضافة الى سيطرتهم على المـال . عاملٌ كبير في فرض مخططهم الذي عرف من بعد . حـين انكشفت أسرار ( بروتوكولات حكماء صهيون ) وهي السيطرة على العالم. ومن الحق ان يقال:

إن الثورة الفرنسية كانت خطوتهم الأولى . ( وان الخطوتين التاليتين كانتـا في إسقاط الدولة العثمانية وإقامة النظام الشيوعي في روسيا ) .

ومن خلال هـذه الخلفية يتبين تماماً ان الدعوة العلمانية هي نتاج يهودي تلمودي أصيل كان له أبعد الأثر في الفكر الغربي ، فقد سادته عوامل أربعة هامـة : (١) نظام الاقتصاد القائم على الربا . (٢) القانون الوضعي المنفصل عـــن شرائع الله . (٣) التعليم اللاديني المتحرر من نفوذ الكنيسة . (٤) الديمقراطية التي تحل الايمان بالدولة محل الايمان بالعقيدة .

وهـــذه هي العوامل الأربعة التي فرضها النفوذ الاستعماري على العالم الاسلامي بعد احتلاله والسيطرة عليه . وذلك لتوجيهه الى العلمانية كخطوة أولى لتحقيق الهـدف الكبير ، وهو علمنة المسلمين وإخراجهم كلية من إطار الاسلام . وقد قدروا النجاح في هـــذه الخطة على النحو الذي تحقق لهم في اوروبا بإخراج الفكر العربي والمجتمع العربي كله من إطار الدين واحتوائـــه داخل المخططات التلمودية التي تستهدف إقامة امبراطورية الربا في العالم كله .

(٢)

تـكاد تجمع المصادر التاريخية والعلمية جميعاً على هذه الحقيقة : حقيقة هدف المخططات التلمودية من إقامــة العلمانية كمنهج أساسي في العالم كله ، وتجربته الناجحة في اوروبا على النحو الذي حقق غايته على أوفى ما يكون ، ويصور هذا الدكتور اسماعيل الفاروقي في كتابه الملل المعاصرة في الدين اليهودي (١) فيقول : علينا أن نذكر أن تحرر اليهود لم يـأتِ إلا نتيجة لنمو العلمانية في

(١) ص – ٤١ ، ٤٢ (الملل المعاصرة في الدين اليهودي) .

التنظيم السياسي والاجتماعي . إذ إن إقصاء الدين عن السياسة والاجتماع والاقتصاد أدى الى اعتبار المنفعة العامة والانتاج والخبرة الأهلية كأساس لجميع المعاملات والتنظيمات ، ومن هنا جاء قبول اليهود على أساس كفايتهم الشخصية لا على أساس الدين ، بل على أساس وجودهم في الوطن . فالجغرافيا والاقتصاد حلتا محل الدين في تكوين الدولة .

ويذهب الدكتور الفاروقي الى أن (العلمانية) نظرية مسيحية أصلاً ، لأنها ثمرة دين يجعل ما لقيصر لقيصر ، وما لله لله ، ويرى أن مملكته ليست في هذا العالم. يقول : إن العلمانية نظرية نبعت من الخبرة المسيحية، لا من الخبرة اليهودية . فالدين اليهودي لا يفهم أن يكون العمل الاقتصادي عملاً لا يمسه الدين بصلة ، ولا يفهم أيضاً أن يكون العمل السياسي عملاً لا يمسه الدين .

أما المسيحي الاوروبي فقد قسم حياته الى دوائر ، وجعل بينها سدوداً تمنع أي اتصال . وتجري الحياة في كل من هذه الدوائر بموجب قوانين خاصة لا علاقة البتة للدائرة الواحدة بما يجري في الدوائر الأخرى ، فالعائلة والاخلاق الشخصية ، والدين والاقتصاد والاجتماع كل واحدة منها تؤلف ملكوتاً مستقلاً ، فالويل كل الويل إذا سمح الغربي لمبادىء الدين أن تتعدى حدودها للتأثير في الاقتصاد .

( والواقع أن العلمانية ليست سوى الاعتراف بأن ليس هناك مبدأ عام يشمل حياة الانسان بكاملها كما هو الحال في النظرة الدينية ، فأصبح لكل دائرة من دوائر الحياة مبدأها الخاص ) ولا ريب أن هذا النص يثبت عدة حقائق هامة :

الأولى : أن الفكر الاوروبي المسيحي قام أساساً على فكرة الفصل بين القيم وعدم السماح بالتقائها .

الثانية : أنه اعتبر أن الدين علاقة شخصية بين الله والانسان ، وليس له نفوذ على عالم الاجتماع .

الثالثة : أن العلمانية بالنسبة للفكر المسيحي الاوروبي مسألة طبيعية لا تجد معارضة ولا تصطدم بحقائق ثابتة .

وهذه الحقائق الأساسية في الفكر الاوروبي المسيحي، المستمدة من المفاهيم التي ركزها التصور المسيحي الغربي تخالف مفهوم علاقـــة الاسلام بالفكر العربي الاسلامي مخالفة جذرية . فالاسلام لا يؤمن بالفصل بين القيم . بـــل يؤكد وحدتها في نظرة متكافلة مستوعبة ، ولذلك فإن الدين عامل خاضع، والاخلاق قاسم مشترك. وإن الاسلام كدين هو جماع بين علاقة الله بالانسان، وعلاقة الانسان بمجتمعه ، وإن أي فصل بين هذه القيم يعرضها للاضطراب ، ويعرض الانسان للتمزّق .

ومن هنا فإن الاسلام لا يقر مبدأ ( العلمانية ) الذي هو ثمرة من ثمـــار الفكر الاوروبي المسيحي الذي كان تركيباً جسوراً على حدّ تعبير توبيني آين من المسيحية ، والفلسفة اليونانية ، والقانون الروماني .

وإذا كان لنا أن نستدرك على الدكتور الفاروقي في أمر هذا الفصل بـــين القيم وتقسيم الحياة الى دوائر منفصلة ، لا علاقة البتة للدائرة الواحدة ، بمـــا يجري في الدائرة الأخرى (كالعائلة والاخلاق الشخصية، والدين، والاقتصاد، والسياسة ، والاجتماع ) فإننا نقول : إن مـــا عرفه الغرب من الدين لم يكن إلا مجموعـــة من الوصايا الاخلاقية والروحية ، التي جاءت في مواجهة استعلاء المادية في المجتمع اليهودي . وإنهـــا لذلك لم تكن تحمل منهجاً متكاملاً ، ثم كانت محاولة اليهود التلمودية في عزلها المجتمع ، وقصرها على العلاقة بـــين الله والانسان ، وعلى الجوانب الاخلاقية التي انحرفت الى الزهـــادة ، واعتزال

الحياة، كل ذلك كان له أبعد الأثر في ذلك الدور الذي جرى بين العلم الحديث، وهو يقتحم فتوحاته ، وبين الأساطير والغيبيات التي لا يقرها العقل ، وهي تقف في وجه النهضة ، وتحاول أن تحطم التقدم العلمي .

وهذا في الحق هو مفهوم ذلك الانفصال بين الدوائر في الفكر الاوروبي، الذي جاء نتيجة لقصور الدين عن التكامل ، وهو أمر نجا منه الفكر العربي الاسلامي من حيث قام على أساس متين من مفهوم جامع بين الروح والمادة ، والقلب ، والعقل، والدنيا ، والآخرة . وكان الاسلام نفسه بوصفه ديناً يجمع بين علاقة الانسان بالله ، وعلاقته بالمجتمع ، ويفتح الطريق أمام معتنقيه للكشف والعمران ، ولاكتناه أسرار الكون ، ومن ثم كان هذا المنهج العلمي التجريبي منوطاً بالاسلام كما كان منهج المعرفة المتكامل الجامع بين العقل والوحي ، هو ثمرة من ثماره .

(٣)

وإذا كانت فكرة العلمانية تعالج لأول مرة في بحث مستقل متكامل في اللغة العربية، فإن المصادر التي تناولتها تجمع على أنها تستهدف الغايات الآتية :

أولاً : عزل الدين عزلاً تاماً عن المجتمع ، وإتاحة الفرصة لقيام تربية لا دينية ، وقيام نظام سياسي لا يستهدي بالشريعة ، وتأسيس الاقتصاد على أساس الربا .

ثانياً : ابعاد قطاع أصيل من الفكر الانساني، هو جانب الروح والوحي، وعالم الغيب ، وكل ما يتصل بالدين من اخلاق وعقائد وإيمان بالله ، وعزله عزلاً تاماً عن الفكر والحياة .

ثالثاً : إعلاء كلمة العقل والمادية ، والإلحاد ، وإقامة منهج علماني يقايس المسائل المختلفة ، سواء ما يتصل بالانسان والمجتمع او الحياة بمقاييس الحس والعقل والتجربة وحدها .

ولقد ناقش فكرة العلمانية وقيامها في الغرب كثيرون . وعزوا سيطرة هذه الفكرة الى واقع المجتمع الغربي يقول الدكتور محمد رضوان : هذه الفكرة لم تنشأ في اوروبا إلا كردٍّ فعل على الاخطاء التي ارتكبت من رجال الدين باسم الدين ، كاضطهاد الأقليات الطائفية مثلاً ، فالتاريخ يحدثنا عن الحروب بين الطوائف الدينية إذ كانت الاكثرية الساحقة تحاول فرض معتقدها على الاقليات . فمن هنا كان اضطهاد الكاثوليك والبروتستانت . وكذلك كان اضطهاد اليهود من قبل الدول المسيحية عامة ، بروتستانية وكاثوليكية . هذا الاضطهاد لم يكن ليحدث، لو أن التسامح الديني وحرية المعتقد، كانا قاعدتين من قواعد الدولة الحاكمة في ذلك الوقت .

والأمر الذي ساعد على نجاح فكرة العلمانية في اوروبا هو عجز السلطات الدينية عن مسايرة حضارة العصر ، بشكل أن بعض المفكرين لم يترددوا بنعت الدين عندهم نعتاً محتقراً ، فاوغست كونت ، وليفي بريل اعتبراه لا يصلح إلا لتنظيم الشعوب البدائية . وأنه ليس سوى خطوة من خطوات الانسانية نحو المبدأ العلمي الحديث .

كذلك فإن فكرة كارل ماركس : بأن الدين أفيون الشعوب . لم تكن لتكون ، لو أن رجال الدين كانوا على المقدرة الكافية لمواجهة الحضارة الحديثة بمشكلاتها العديدة المختلفة ، فالدين برجاله في اوروبا وقف وقفة المتفرج خلال الفترة الأولى من نشوء وانتشار الأفكار والتيارات الفلسفية المعاصرة .

فالذي ساعد على نشوء العلمانية في اوروبا ، جاء نتيجة الاخطاء التي

ارتكبت باسم الدين . فـأثارت بعض المفكرين عليه وسمحت لهم باغتنام الفرصة لمحاربته ، والسعي لهدمه اه .

والواقع أن الدين في الغرب كان يستطيع ان يصحح موقفـه إزاء نهضة العلم ، ولكن القوى التلمودية كانت أسبق وأجرأ . وقـد انتهزت الفرصة لتحقيق هدفها [1] ذلك أن المنظمات الماسونية كانت تهـدف الى إسقاط الحكومات المسيحية الاوروبية التيتسيطر عليها الكنيسة ، وإنشاء حكومات أخرى متحررة من هذا النفوذ .

لذلك فقد كان الفصل بين الدين والدولة ، هو أول الركائز التي تحول بين نفوذ الكنيسة وبين الحكم . ومنه جاء الفصل بـين الكنيسة والتعليم . وكان التعليم يجري في أحضانها . وكان الهدف من وراء ذلك إسقاط كل القيود التي فرضتها الكنيسة على اليهود ، والتي حالت دون اضطرابهم في المجتمع ، ومنها قيود تتعلق بالزواج والملبس والعبادات . وقد كان مفهوم عصر التنوير — او حملة التنوير على حد قول كانت — هي الإفراج عن الانسان من الوصايا ، وأن الوصايا الدينية في نظره هي أرذل الوصايا وأشدها ضرراً . ومن هنا ركز عصر التنوير على فصل الدين عن الدولة ، وإقامة حكومات في كل أنحـاء اوروبا بعد الثورة الفرنسية بثورات مشابهة ، وهكذا تداخل اليهود فيالمجتمع المسيحي بعد ان انقطعوا عنه .

ولقـــد كان أول قرار لأول حكومة علمانية في اوروبا ، وهي الجمعية الوطنية الفرنسية (١٧ / ٩ / ١٧٧١) اعتبار اليهود المقيمين في فرنسا مواطنين لهم حقوق المواطن وعليهم جميع واجباته. وربما كان الحرص على كشف هذه الخلقية ، وعدم الانسياق وراء ذلك المفهوم التقليدي الذي كان للصهيونية يد

---

(١) دكتور الفاروقي — راجع الملل المعاصرة في الدين اليهودي .

في رسمه، والذي عممته كل كتب التاريخ من قصور الدين في اوروبا عن مجاراة العلم — ربما أردت الاستدلال على أن الصهيونية العالمية كانت وراء هـذا المخطط كله من أجل تدعيم وإقرار مبدأ « العلمانية » . وقد استطاعت فعلاً ذلك ، وحققت نتائج هامة ، كان أخطرها ، أنها استطاعت أن تنقل نفس الحركة الى عـالم الاسلام مع الاختلاف الكبير ، والتباين الكبير . وأنها أرادت بذلك أن تحقق في عـالم الاسلام نفس الهدف ، وهو إزالة عناصر التميز والذاتية، وخصائص النفس والعقل والمزاج النفسي المستمد من الاسلام، وقتل هذه الذاتية وتمييعها واحتواؤها . حتى يتحقق لهـا نفس السيطرة على الفكر الاسلامي على النحو الذي حققت به احتواء الفكر الغربي المسيحي، وتذويبه في الايديولوجية التلمودية من أجل إقامة امبراطورية الربا العالمية .

وأعتقد أن الفكر الاسلامي سيظل صلباً صامداً، وأنه سيكون الصخرة التي توهي ناطحها : ليس لأن المسلمين ميتقظون لما يحاط بهم فحسب . بـل لأنه من عند الله ، وأنه منطلق الفكر الإنساني الرباني المصدر **«إنا نحن نزلنا الذكر وإنا له لحافظون»** .

( ٤ )

في مراجعة واسعة للجذور التاريخية للعلمانية في اوروبا تبدو عدة حقائق:

( الحقيقة الأولى ) أن اوروبا فصلت بـين السلطة الزمنية ، والسلطة الروحية منذ وقت بعيد ، وقبل الثورة الفرنسية نفسها .

فلما قامت الثورة الفرنسية ، والمعروف أنها من عمل الماسونية التلمودية، ووضع إعلان حقوق الانسان : أعلنت المساواة والحرية بين كل الناس بصرف النظر عن أديانهم . وتقرر مصادرة أملاك الإكليروس ، وإغـلاق المعاهد

والجامعات الدينية، وإنشاء مدارس وكليات وجامعات علمانية أي لا دينية.

وفي عام ١٩٠٥ أقرّت فرنسا قانوناً حاسماً في هذا المجال: بفصل علاقات الدين بالدولة . ويقوم على أساس التفريق بينهما ، وإعلان حياد الدولة تجاه الأديان او علمانيتها .

وقد أشارت المصادر التاريخية الى أن ذلك كان في مواجهة النظرية التيوقراطية المسيحية القائلة بأولوية السلطة الدينية على السلطة المدنية ، وخضوع الأخيرة للأولى واستمدادها منها . هذه السلطة التي كانت تثبت الملوك على عروشهم . ويعقد المجتمع المدني بالتعاليم والمعتقدات الدينية . وقد وصل ذلك الى غايته بتولي رجال الدين بأنفسهم سلطات الحكم .

( الحقيقة الثانية ) : أنه ساد فرنسا في ذلك الوقت بعد الثورة الفرنسية المذهب اللاديني وغايته محاربة رجال الدين وإقصاؤهم عن الحياة العامة، والحد من تأثيرهم بإقفال الرهبانيات والمعاهد الدينية ، ومنع التعليم الديني في المدارس ، ومصادرة أملاك الكنيسة ، وسيطرة غير المؤمنين على المدارس والحكم (١) .

ومن هذه الحقائق تبين لنا أن العلمانية ليست قاصرة على فصل الدين عن الدولة . بل انها مخطط كامل يستهدف إقصاء الدين عن كل ميادين الفكر والحياة ، ويتخذ منطلقاً لذلك من خلال الأنظمة السياسية الأساسية في مجال القوانين والتعليم والاقتصاد .

ويقتضي ذلك أن تخلو دساتير هذه الأمة من أي انتماء ديني ، او اتخاذ شريعة الدين مصدراً لقوانينها .

---

(١) جوزيف مغيزل : راجع بحثه في مجلة العلوم . م ١٩٥٩ .

فالغاية من وراء العلمانية ضخمة ومسيطرة على مختلف آفاق الفكر والحياة، ولكنها حينما تعرض يتحاشى الكشف عـــن خطرها ، او مدلولها العميق ، فيكتفى بـــأن يقال : العلمانية هي حياد الدولة تجاه الدين ، وانها ليست عقيدة إيجابية او فلسفة تعتمدها الدولة، وتبشر بها، بل هي موقف سلبي[1]. ولا ريب أن هـذه العبارات المقنعة خطيرة المدلول . وإن حاولت أن تنفي أن العلمانية مذهب او فلسفة . ولا ريب أن العلمانية تيار خطير مسيطر أقوى من كل مذهب وفلسفة . ويمكن القول بأنـــه هو القيد الذي فرضته الايديولوجية التلمودية على الفكر الغربي الليبرالي ومنه انطلقت الى مختلف المخططات المطروحة. والتي يقوم عليها المذهب المادي في مجال الفكر والإجتماع والاقتصاد والسياسة والتربية ، فهي القاسم المشترك على كل هـــذه المذاهب والدعوات . وهي في عبارة موجزة : شطب الدين وإلغاؤه كلياً من مختلف طوابع الحياة والمجتمع والفكر .

---

(١) مناقشات المجلس الفرنسي لدستور ٢٧ تشرين اول ١٩٤٦.

# ٢

## العلمانية في الفكر والمجتمع الاسلامي

منذ أن فرض الاستعمار سلطاتــه على المجتمع الاسلامي . وجرت محاولاتــه الواسعة في إقصاء المنهج الاسلامي في الشريعة والاقتصاد والتعلم ، وإحلال منهج علماني بديلاً منه ، بدا ذلك واضحاً في محاولاته لفرض القانون الوضعي بديــلاً للشريعة الاسلامية ، وإنشاء معاهد الإرساليات التبشيرية والسيطرة على مناهج المدارس الوطنية وإخلائها من دراسات القرآن والاسلام والعروبة ، وإقامة هذه المناهج بلغة المحتل . وأمامنا تجربة كامــلة لذلك في المنهج الذي رسمه كرومر في هــذا المجال كله ، ونفذه دنلوب في أمر التربية والتعليم .

وكانت الدعوة في أول أمرها تنطلق من خلال النظام السياسي ، ويركز رجالهــا على النظم الليبرالية الديمقراطية كأساس للمنهج السياسي الذي تطبقه البلاد العربية بعد أن تنال استقالها . وهو المنهج الذي يقوم على أساس إنشاء برلمان ودستور وأحزاب .

وقــد حرصت هذه الدعوات على أن تحطم كثيراً من العقبات التي تقف أمام العلمانية إذ ركزت على الاقليمية. والفصل بين الوطنية وبين مفهوم الأمة العربية من ناحية ، وبينها وبـين وحدة العالم الاسلامي من ناحية أخرى ، كما عملت على الفصل بين هذه الأقطار ثقافياً ، وبين الفكر العربي الاسلامي .

وطرحت في هـــذه المرحلة عشرات من المناهج الغربية في مفاهيم الحرية والديمقراطية ، وإعلاء شأن التاريخ القديم السابق للإسلام، وإجراء الحفريات التي تؤكد الرابطة القديمـة ، كالفرعونية والفينيقية ، والبابلية والأشورية . وحاولت أن تشكل من هذا كله منهجاً فكريـاً يعزل العرب والمسلمين عن جوهر فكرهم الأصيل ، فلم يبق من هذا الفكر إلا كلمة ( الدين ) وهي هنا تعني ذلـــك الجانب اللاهوتي العبادي القاصر على الصلاة والصيام والأعياد والمساجد. وفي ضوء هذا المنهج تشكلت مناهج التعليم الجديدة خالية تماماً من كل ما يفيد بأن الاسلام دين قائم على منهج حياة كامل، او أنه رابطة أخوة مع المسلمين ، فضلاً عن الدعوة الحارة الى أقلمة كل مناهج الحياة .

فهناك الدعوة الى تمصير اللغـــة وتمصير الأدب وتمصير القانون وتمصير التربية وتمصير التاريخ ، وكلها محاولات للقضاء عـلى مفهوم الرابطة العربية القائمة على أسس وطيدة عميقة الجذور من اللغة والتاريخ ، كما جرت الدعوة الى الاقليمية التاريخية ، جرت الدعوة الى العامية في اللغـة ، وإلى اقتباس الأساليب الغربية في التعليم . وإعلاء اللغات الأجنبية والتاريخ الأوروبي ، ودراسة أبطال الغرب ، كما جرت الدعوة الى تحرير المرأة .

أما السياسة فقد جرت من خلال الجيل الذي شكله الاستعمار من تلامذته وأوليائه ، أما الصحافة فقد تولاها خريجو معاهد الإرساليات الذين قدموا من الشام .

ولا ريب أن هـذه التجربة قد كانت شبيهة بكل التجارب مثيلاتها في

العالم الاسلامي كله . فقد كانت النخبة التي برزت في مجال السياسة والفكر والتعليم والصحافة كلها من ذلك الرعيل الذي تشكل حول مناهج التغريب. وفي معاهد التبشير . وقد قام فكره على هذا الطابع من الفصل الكامل بين الدين والمجتمع .

(١)

في مجال القانون ، سيطر القانون الفرنسي في أواخر عهد اسماعيل بنفوذ الدول الأجنبية، ثم وضع تقنين آخر أشد إيغالاً في تركيز النفوذ الأجنبي عام ١٨٨٣ هو القانون المدني . ثم زادت السيطرة التي استهدفت التمهيد لإلغاء المحاكم الشرعية. وكانت الدراسات في مدرسة الحقوق تقدم على أساس القانون الوضعي مع بعض شرائح من دراسات الشريعة الاسلامية .

وكان القانون الوضعي مخالفاً للشريعة الاسلامية في جوانب أساسية كبرى هامة :

أولاً : مخالفة الشريعة الاسلامية في أمور الأسرة ، وعلاقات الزوجين ، وخاصة في حالة الانحراف ، وإلغاء جريمة الزنا والسرقة ، وهتك العرض .

ثانياً : مخالفة الشريعة الإسلامية في أمور المعاملات ، وإباحة التعامل بالربا . وقد خالفت القوانين الوضعية في ذلك أبسط الأسس التي ترعاها القوانين، وهي أن تستمد مادتها من تقاليد الشعوب وأعرافها الخلقية ومقاييسها الدينية للفضيلة والرذيلة ، ومن ثم لم تكن هذه القوانين تعبيراً صادقاً عن تقاليد العرب والمسلمين ، وعرفهم الخلقي ، وكانت معارضة بذلك لشريعتهم الأساسية التي عرفوها وعملوا بها منذ أربعة عشر قرناً . غير أن المسلمين لم يقبلوا بهذا التغيير الذي فرض عليهم فرضاً تحت نفوذ استعماري مسيطر ،

امتدّ بعد ذلك في إطار نظام سياسي تابع . وسرعان ما انكشفت حقائق، وانبلجت أضواء، وكان المسلمون في خلال ذلك كله لا يقرون ولا يستسلمون لهذا التحول الذي كان يعد في نظر النفوذ الأجنبي أولى خطوات العلمانية . وهو فصل الدين عن الدولة ، وإقامة نظام لا ديني خالص في مجال المعاملات للقضاء على منهج الشريعة الاسلامية ، هو مقدمة لإقرار العلمانية في مرحلتها الأولى ، كمقدمة لتحقيق هدفها الأخير في عزل النظام الاسلامي كلية عن المجتمع والفكر .

وكانت أولى بوارق المقاومة فشل هذه القوانين في تحقيق الأمن والطمأنينة للمجتمع نفسه ، فقد أدت الى مضاعفات خطيرة، وتبين للساسة من بعد عجز هذه الأنظمة وقصورها في مجالات مختلفة فجرت محاولات عديدة للتعديل والإضافة .

ثم جاءت بعد ذلك دراسات المسلمين للشريعة الاسلامية ، وأهميتها . ثم في جامعات اوروبا فكشفت عن جوهر هذه الشريعة وعظمتها، حتى تراجعت أمامها بعض التشريعات القانونية ، واعترف أصحابها في الغرب بأن الاسلام سبق إليها .

من ذلك أبحاث عمر لطفي — ومن ذلك رسالة الدكتور نجيب الأرمنازي عن الشرع الدولي في الاسلام .

ثم جاءت المرحلة التالية بعد ذلك في الاعتراف الكامل بالشريعة الاسلامية في عدد من المؤتمرات الدولية ١٩٣٣ — ١٩٣٧ — وما بعدها حيث انكشفت حقائق كثيرة إزاء ما كان يطرحه الاستعمار والتغريب من شبهات . وأهمها استقلالة الشريعة الاسلامية عن القانون الروماني .

ثم جاء قرار مؤتمر القانون الدولي في لاهاي ١٩٣٧ بأن الشريعة الاسلامية.

(١) مصدر من مصادر التشريع العام . (٢) أنها صالحة للتطور . (٣) أنها تشريع قائم بذاته ليس مأخوذاً من غيره .

فإذا أضفنا الى هــذا أن الشريعة الاسلامية وردت في كثير من دساتير البلاد العربية بوصفها مصدراً أساسياً للقانون . عرفنا الى أي مـدى سقطت هذه المحاولة الخطيرة التي أرادت أن تجعل من إحلال القانون الوضعي محل الشريعة الاسلامية عامــلاً ، او ركيزة لإقرار فكرة ( العلمانية ) في الفكر الاسلامي والمجتمع العربي .

ولقد كشف كثير من الباحثين عن عظمة هذه الشريعة . وجرى اتخاذها أساساً للقوانين المدنية في كثير من البلاد العربية . وجرت مناقشات متعددة حول هذه القوانين الوضعية القائمة . وكيف أنهـا وضعت في ظروف لم تكن فيها الإرادة الحرة قادرة على تشكيلها بحرية. ولم تكن اليد مطلقة في وضعها.

وكان الاستعمار يرمي من وراء هذه القوانين الى هدم شخصية هذه الأمة، وإخراجها عن أطرها وقيمها . واستغلال البلاد لفائدة الأغيار وإسباغ الحماية القانونية على الحانات وبيوت الدعارة على نحو مغاير تماماً لكل القيم .

وهذه القوانين هي إحدى المعطيات التي يمنّ بها على المسلمين والعرب دعاة العلمانية . ويرونها مقدمة لخطوة تالية : هي تغيير جلد هذه الأمة ، والإلقاء بها في أتون الأممية ، وتحطيم ذاتيتها ومعنويتها. وقد فشلت كل هذه المحاولات وبدأ الآن الاتجاه الواضح في مختلف دساتير البلاد العربية ، الى أن تكون الشريعة الاسلامية مصدراً أساسياً للتشريع .

كذلك واجهت مختلف الأنظمة الديمقراطية الليبرالية اضطرابــاً كبيراً . وكشفت في كثير من البلاد عن فساد كبير ، ومعارضة تامــة لطابع العرب وتراثهم النفسي وروحهم التي تستمد مفهومها من الشورى والعدل الاجتماعي

على النحو الذي عرف بـه الاسلام ، وكشف عنه القرآن فيما هو أقرب الى الفطرة .

(٢)

وفي مجـال التربية والتعليم ركز النفوذ الاستعماري قواه الضخمة مستهدفاً تحقيق مفهوم العلمانية بتشكيل نماذج من النخبة والمثقفين بتجاوز الدين أساساً. ولا تقف عند اللغة العربية او تاريخ الاسلام، او قيم القرآن ومنهجه الشامل.

وقـد كانت مهمة التغريب مركزة أساساً على إنشاء مدارس الإرساليات والمدارس الأجنبية ومسابقة المدرسة الوطنية الاسلامية والقضاء عليها، وإنشاء منهج تعليمي تغريبي خالص . وقد اتسع نطاق المدرسة الأجنبية والتبشيرية ، ونقلت مناهجها إدارات التعليم الخاضعة في معظم أجزاء العالم الاسلامي للنفوذ الأجنبي . وبذلـك حققت المحاولة الأولى للعلمانية خطوة ضخمة في السيطرة على العقول وتربية النشء وتحويل النفس العربية الاسلامية عـن مزاجها الأصيل ودفعها الى إعـلاء مفهوم الغرب واتجاهه واستنقاص التراث والقيم العربية الاسلامية. وقد كان إلغاء تدريس الاسلام أساسياً، وتدريس فلسفات الأديان البائدة منهجاً. واستتبع ذلك نفوذ ثقافي واسع عمد الى تسوية التاريخ وإثارة الشبهات حول الاسلام والقضاء على اللغة العربية . وامتد هـذا النفوذ عن طريق الاستشراق الى الصحف ، وعن طريق التبشير الى المدرسة .

وأشارت مؤتمرات التبشير وتقارير المبشرين الى هدف واضح من وراء السيطرة على التعليم والتربية ، وهو استقطاب النشء الصغير من المسلمين ، وإخراجهم من قوالب الاسلام ، وأن تعليم اللغة الانجليزية قد زعزع اعتقادات كثير من المسلمين ، وأنهـا الوسيلة الأساسية لِبَثّ الأفكار الإلحادية والمادية كما ركزت

على إخراج الشاب والفتاة من الوسائط التي تخلق فيهم العقيدة والوطنية والدفاع عن الحق .

وأشارت تقاريرهم الى أنهم استطاعوا إخراج القرآن والدين من مناهج التعليم ليفسحوا المجال النفسي والفراغ العقلي للشباب أمام مذاهب الإلحاد والتغريب والغزو الثقافي ، وتركزت الحرب على اللغة العربية والقرآن . وهرجما هجوماً شديداً وانتثرت المطاعن حولهما .

ولكن هذه الخطة قد ووجهت من حركة اليقظة العربية الاسلامية بشدة وتصاعدت الصيحات في كل مكان لإنشاء المدرسة الاسلامية . واعترض الكتاب المسلمون على قصر التعليم على اللغة الانجليزية . وواجهت حملات التبشير مقاومة ضخمة ويقظة كبرى امتدت الى معظم الصحف واستقطبت كثيراً من الكتاب حتى الذين كانوا من قبل في نطاق حركة التغريب .

وحرص كثير من العلماء والباحثين على الإلحاح في دعوة الى إدخال الدين في مناهج التعليم ، وأنشئت مدارس كثيرة لتعليم أبناء الفقراء حتى لا تقتنصهم مدارس الإرساليات ، وجرت الدعوة الى تعليم العلوم والطب والقانون باللغة العربية . ولم يتوقف مفكرو الاسلام عن الدعوة الى تصحيح مناهج التربية والتعليم وتحريرها من النفوذ الأجنبي ، ومحاولات تدمير القيم الاسلامية في العقل والنفس العربيين . وامتدت المقاومة الى الثقافة عن طريق الصحافة فهوجمت حركتا التبشير والاستشراق ، وما طرحتاه من شبهات زائفة حول الاسلام ورسوله ، والقرآن والتاريخ الاسلامي واللغة العربية [1].

---

(١) راجع هذا بتوسع : كتاب الاسلام والثقافة العربية ، ويقظة الفكر العربي في مواجهة التغريب .

## (٣)

وفي مجـال الاقتصاد ركز النفوذ الاستعماري على المصرف ونظام الربا . فقد سيطر الاستعمار على الحياة الاقتصادية بواسطة أعوانـه من الأجانب ، وخفض أسعار المحاصيل الرئيسية للبلاد ، وباعها بأبخس الأثمان ، وعمـد الى تأسيس البنوك الأجنبية وشركات الرهون . واستطاع أن يسقط نصف ثروة البلاد في أيدي الأجانب في عشر سنوات . وقد بلغت أرباح هـذه الشركات أكثر من ميزانيات الدول نفسها ، وأدخلوا الى البلاد المحتلة ألوفـاً من المستوطنين استطاعوا بسلطان الاستعمار الاستيلاء على آلاف الأفدنة الجيدة ، والقضاء على الصناعات الوطنية والسيطرة على ماليـة الدولة ووضعها تحت وصاية النفوذ الأجنبي بفضل سلطات الامتيازات الأجنبية ونفوذ المحـاكم المختلطة ، كما فرض الاستعمار على البلاد الاسلامية غزواً غريباً مدمراً يتمثل في المخدرات والحانات والبغاء العلني المصرح بـه بأمر القانون . وخلق جوّاً عاصفاً من الانحلال والفساد .

وقد امتدالنفوذ الاستعماري حتى سيطر الأجانب على الاقتصاد كله عن طريق الخمارات فقد أسسوا في كل قرية حانوتاً او حوانيت يبيعون فيها الخمور ، ويتاجرون بالربا ، وبذلك انتقلت الثروات إليهم. وتحول عدد كبير من الأثرياء الى فقراء ، واتجهت الأموال الطائلة الى الملاهي والملذات وأنواع الترف. وقد أحصي عدد البيوت التي خربها الإسراف خلال السنوات ١٨٩٤-١٨٩٩ فوجدت (٣١٣) بيتاً . وكانت الظروف القاسية التي فرضها الاستعمار عاملاً هامـاً لسيطرة الأروام واليونانيين واليهود الذين كانوا يتعاملون بالربا قبل توسع إنشاء المصارف . وقـد أحصي في مصر ١٨٩٨ خمسون بيتاً لتسليف النقود بالربا . وظهرت في سجلات المحاكم المختلطة أن الدين المسجل على الفلاحين بلـغ سبعة ملايين من الجنيهات بالإضافة الى الخسارة التي لحقت بهـم نتيجة مضاربات البورصة .

وهـذا النموذج يتكرر ، وبصورة أكثر وأوسع وأعمق في كل بلاد العالم الاسلامي . ولا ريب ان فرض نظام الربا على معاملات النـاس واقتصاديات العالم الاسلامي كان عاملاً خطيراً لا حدّ لخطورته. لأنه جاء من وراء الإرادة الحرة ، ونتيجة لسيطرة النفوذ الاستعماري على مقدرات العالم الاسلامي كله، والتصرف فيها ، وانتزاعها ونقلها الى الغرب، حتى لقد أثرت عبارة عن أحد زعماء أندونيسيا تقول : إن ما اعتصرته هولندا من أموال أندونيسيا كفيل بأن يقيم معبراً من الذهب الخالص بين هولندا وأندونيسيا . وفي ذلـك معنى ضخامة حجم الثروات المنهوبة . ولم يكن للمسلمين بالطبع من القدرة مـا يمكنهم من وقف تيـار النظام الربوي الاقتصادي . ولكنهم كانوا معارضين له تماماً .

وقـد كتب عشرات من علمائهم أبحاثاً واسعة في تحريم التعامل بالربا في الاسلام ، وعجز الاستعماريون عن الحصول على أثارة من رأي تـبرر التعامل بالربا. وانتفض المسلمون على نظام الربا في عشرات من المواقف. وفي السنوات الأخيرة تقدم كثير من الباحثين بمناهج تكشف عن إمـكان تحقيق نظام اقتصادي في العالم الاسلامي ، ونظام مصرفي أيضاً على غير أساس الربا .

ومن هذا الاستعراض السريع تستطيع أن تكشف بوضوح أن المحاولات الثلاث الكبرى في سبيل غرس العلمانية في العالم الاسلامي في مجـالات التعليم والقانون والاقتصاد . قد وجدت معارضة كاملة . وأنها ما استمرت هـذه السنوات الطويلة إلا بفضل النفوذ الأجنبي . وأن إرادة المسلمين والعرب الحرة قد حققت في هـذه الفترة السابقة انتقاضاً كاملا ودائما ومستمراً على تقبل هذه الأنظمة ، او الإقرار بها فضلاً عن أن الفكر الاسلامي كان دائماً بالمرصاد لمواجهة هـذه الدعوة وتدمير دعائمها . وهذا يعني أن المقدرات التي يتعزز بهـا بعض أولياء التغريب . ويرون أن المسلمين والعرب قد أحرزوها من الغرب في هذه المجالات، هذه المقدرات قد فشلت فشلاً ذريعاً في التطبيق

وكشفت الذاتية العربية الاسلامية عن تميزهـا الواضح واصالتها الكفيلة بردّ كل ما من شأنه أن يحول بينها وبين خطها الواضح وأصولها الاصيلة ولا أجد في هذا المجال أقوى من عبارة لكاتب مسيحي منصف حيث يقول :

إن ممـا يهيء في الاسلام لقبول مثل هذه الفكرة ويتيح قيام تعاون بين الدين والحكومة . هو أن الاسلام في جوهره أكثر من مجرد إيمان ديني ، انه نظام حياة ، يشمل جميع المؤسسات الاجتماعية الدينية منها والزمنية . فكما يجد الانسان في الاسلام مـــا يشبع شوقه الروحي عن طريق الايمان بالله ، والتعبد له بالصوم والصلاة والزكاة والحج . كذلك يجد فيه نظاماً من القيم الاخلاقية ، والشرائع المدنية ، التي تعطيه أجوبة مفصلة لمـــا يعترضه من مشكلات في المعاملات اليومية. ان الاسلام نظام كامل يدعو الى (بثوقراطية) تلتقي فيها الحياة الروحية بالحياة الدنيوية. وبهذا المعنى فالاسلام نظام روحي، ونظام زمني ، كل منهما متصل بالآخر ، مكمل له ، فلا مجال للفصل بينهما .

ومن مبادىء الاسلام أن المسلم أخو المسلم ، وأن المسلمين أمـة واحدة ، ذات رابطة روحية تستمد جذورها من التسليم بالله ، والاعتراف بأحـــكام الشريعة . ومـــا تنص عليه من واجبات على المسلم نحو المسلم ، ومن حقوق للمسلم على المسلم .

فالشريعة هي القاعدة التي يجب أن تتم على أساسها التعاملات بين المسلمين، وتبنى عليها حياتهم المدنية بكاملها ، كما أن الجمع بين الحياة الروحية ، والحياة السياسية واجب ديني ، لأن وحدة الأمـة روحياً منوطة بوحدتها سياسياً . ولذلك فالأمة في الاسلام لا تكتمل مـا لم تتجسد في دولة تتيح للمسلمين أن يعيشوا بحسب فرائض دينهم. ولذلك ينبغي أن يكون على رأسها قائد يحوز السلطة السياسية ليسهر على تطبيق القوانين وحفظ الشريعة وحمـــاية مصالح المسلمين ونشر الاسلام والمدافعة عنه ضد أعدائه. ويجمع بين السلطتين الزمنية

والروحية في خلافة تولى له على العموم بالمبايعة والخليفة ليس سوى والٍ يتمثل إرادة الله بدراسة الشريعة وفهمه لها ، يعاونه في ذلك علماء الدين وأعيان الأمة بالنصح والشورى . وما عدا ذلك فالخليفة مسؤول تجاه الله وضميره في الدرجة الأولى .

ولا ريب أن في هــذه العبارة خير إجابة عن مدى قدرة مفهوم العلمانية في العالم الاسلامي على الحياة والبقاء .

# الفصل الأول

# العِلمانية وَالعِلمُ

## ما هي العلاقة بين العلمانية والعلم ؟

لقد ذهب دعاة العلمانية الى القول بأن العلمانية هي [1] : « الدعوة الى الاعتماد على الواقع الذي تدركه الحواس ، ونبذ كل ما لا تؤيده التجربة ، والتحرر من العقائد الغيبية التي هي عندهم ضرب من الأوهام ومن العواطف بكل ضروبها وطنية كانت او دينية . بزعم أنها تضلل صاحبها وتحول بينه وبين الوصول الى أحكام موضوعية محايدة » .

ويبدو هذا المفهوم واضحاً في ظل الظرف والبيئة والعصر الذي ظهر فيه، ولكنه لا يستطيع أن يقوم بنفسه منهجاً عالمياً ، او إنسانياً ، او مذهباً صالحاً للتطبيق في مختلف البيئات والثقافات . وأكثر ما يكون هذا المفهوم اضطراباً وخطأ حينما يعرض على مفاهيم الفكر العربي الاسلامي . ذلك أن الاسلام في بيئته الفكرية الواسعة ، قد حدد منهجاً للمعرفة تختلف كل

---

(١) دكتور محمد محمد حسين : اتجاهات هدامة في الفكر المعاصر .

الاختلاف . ويبدو معـــه مفهوم العلمانية غريباً وقاصراً وبعيداً عن الحاجة والضرورة .

ومنهج المعرفة في مفهوم الاسلام لا يقوم على الأوهام والعواطف والأهواء المضللة . ولا يعترف بالانحياز ، او الميل الى جانب معين ، ولكنه يستقيم على الحق في ضوء البرهان والدليل، ويعتمد على الوحي والعقل ، ويجري في إطار الفطرة . ( فطرة الله التي فطر الناس عليها ) .

ومنهج الاسلام في المعرفـة منهج متكامل ، ليس عقلياً خالصاً ، وليس روحياً خالصاً ، ولكنه منهج جامع فريـد متكامل ، يعطي للعقل طريقه ومنطلقه في الآفاق التي يستطيع الجري فيها والتحرك داخلها ، وخاصة في مجال العلم والتجربة والانطلاق في آفاق الارض بالبحث والكشف . ثم يغطي المناطق الأخرى التي لا تستطيع التجربة ، او العقـــل او الحس اقتحامها والوصول اليها. وخاصةفيما يتعلق بالكون والحياة والوجود والنفس الإنسانية. فيطبق فيها منهج الوحي الذي قدمته الاديان الى البشرية . واستكمل نموذجه الأوفى في القرآن ، عقيدة وشريعة وأخلاقاً .

والاسلام في هذا لا يقر الاعتماد على الواقع الذي تدركه الحواس وحده ، لأنه بذلك يكون قـد تجاهل عالماً واسعاً كبيراً من الحقائق ، لا تصل إليه الحواس ، ولا يدركه العقل ، ولا تصل إليه التجربة ، ذلك هو عالم الغيب.

ومن هنا فإن نظرة العلمانية الى العلم على هذا النحو ، هي نظرة قاصرة ، لأنها تقف عند المحسوس وحده، وهو جانب قليل من العلم الذي أتيح للبشرية أن تفهمه وتعقله وتؤمن به .

وان اقتصار النظرة على هذا الجزء الصغير من العالم، يجعل الانسان عاجزاً

عن تحقيق ذاته، او فهم موقعه، او التحرك في حرية لمعرفة الغاية من وجوده، او أداء دوره الطبيعي في هـذا العالم ، وهو دور بناء وعمل يتسم بالمسؤولية الفردية والالتزام الاخلاقي ، ويستكمل بالبعث والجزاء في الدار الآخرة .

ولا ريب أن النظرة العلمانية حين تقف في حدود المنهج التجريبي ، إنما تكون غـير قادرة تماماً على استيعاب المعرفة الحقيقية ، او إعطاء البشرية المنهج القادر على النظرة الشاملة الكاملة في مختلف أبعاد مهمة الانسان ودوره الحقيقي ، وارتباطاته بالعوالم والحياة والموت والبعث والجزاء .

ولذلك فإن النظرة العلمانية هي في حقيقتها نظرة جزئية قاصرة ، لأنها توقفت عند التجربة او المحسوس وحده، وليس هذا كل شيء في الحياة . وقد يقال إن هـذا المذهب جاء نتيجة سيادة الدراسات التجريبية الغربية التي اتصلت بالعلوم الطبيعية . ولكن المفروض أن المنهج العلمي التجريبي له مجاله وميدانه ، وأنه قد اختص بجانب واحد من العلم ، ولكنه ليس صالحاً ، لأن يكون منهجاً كاملاً للمعرفة ، لأن المعرفة لا تكون عقلية محضة ولا تجريبية فحسب ، ولا قائمة على المحسوسات وحدها .

والواقع أن الاعتماد على منهج واحد هو المنهج التجريبي الذي سارت عليه العلمانية ناقص غير كامل . فهي إنما تتجاهل قطاعاً كبيراً أساسياً من المعرفة الانسانية .

(٢)

الحق أن اشتقاق العلمانية من العلم خطأ محض ، بـــل هو تمويه خطير ، وزيف كبير ، ذلــك ان العلم في حقيقته لا يقر منهجاً ناقصاً ، ولا يرى أن العلم التجريبي القائم على المحسوس والتجربة هو وحده العلم . ولا يرى أن عالم الغيب نفسه مما يستبعد تماماً ، او ينظر اليه على أنه غير قائم وغاية ما يقول العلم التجريبي في عالم الغيب (الميتافيزيقيا) أنها مما لا تستطيع وسائله وأدواته أن تقول فيها الكلمة الفاصلة ، وكلمة عـلم في معناها الحقيقي هي جماع العلم كله ، علم الحياة ومـا بعد الحياة فيما يتصل بالله والكون والانسان والبعث والجزاء ، ثم تغير مفهوم العلم في العصر الحديث، فأصبح قاصراً على نوع معين من المعارف فيما يتصل بعلوم الطبيعة والرياضيات ، وكل مـا يقع تحت الحس والتجربة والمشاهدة والاختبار .

وبذلك قصر مفهوم العلم عن حقيقته، واختصر مجاله ، فتحدد في حدود ضيقة. ومنهنا فقد أصبح هناك مفهوم آخر أوسع نطاقاً. هو مفهوم المعرفة، والمعرفـة أعم من العلم التجريبي ، ويدخل فيها كل مـا ليس علماً تجريبياً خالصاً مما يتصل بعالم ما فوق الطبيعة من ناحية ، وبعالم الانسان، وما يتصل به من اخلاق ونفس ومجتمع .

ومن هنا فـإن العلم التجريبي وحده الذي أصبح يطلق عليه اسم العلم .

لم يعد في الإمكان أن يقتصر على مجـــال ضيق يتصل بالتجربة والحس والمشاهدة . ذلك أن المعرفة أوسع مجالاً ، ولهـا أدوات ووسائل أخرى : منها الوحي ، والقلب ، والبصيرة ، والوجدان ، والإرادة ، والحس ، وكل ما ليس مادياً ، ولا يدخل في دائرة التعامل والتجريب .

ولما كانت وسائل المعرفة فيما عدا العلم التجريبي قاصرة ، لأنهــا تتصل بقيم وعناصر ، لهـا طابع مختلف . فقد كان لا بدّ لها من منهج آخر يرسم قواعد التعامل معها . ولا بدّ أن يكون هذا المنهج غير منهج العلم التجريبي. وقد هدي الإنسان منذ نشأته الاولى الى هـذا المنهج عن طريق الفطرة التي فطر عليها . وفي ضوء رسالات السماء ، وعن طريق الانبياء الهـداة الذين جاءوا بالحق من عند ربهم .

ولما كان مجال المعرفة الإنسانية أكبر من مجال العلم التجريبي. فقد سبقت الاديان الى إضاءة الطريق فيه . ورسم منهج واضح له ، لأنــه يتصل بعالم الغيب الذي لم يستطع العقـــل او العلم في خطواته بعدُ اكتناه سره والوصول الى حقيقته . ولأنه متصل بالتعامل بين الجماعات ، ومرتبط بالسعي في الحياة . فقد أضاءت رسالات السماء الطريق اليه ، وحتى لا يشغل الإنسان نفسه بالبحث عنه ، وليكون مهيئاً لأداء رسالته الحقة في مجال اكتناه أسرار الحياة ، والكشف عن كنوز الارض وثمراتها .

ومن هنا فـإن العلم على النحو الذي حددته المفاهيم المستحدثة ، لا يمثل إلا جانباً صغيراً من العلم الاوسع الذي أطلقنا عليه «منهج المعرفة» تمييزاً له.

ومن هنـا كان العلم طاقة من طاقات الإنسان بينما كانت المعرفـة الذي جاءت بهـا الاديان منهجاً كاملاً للحياة البشرية ، يسعى الى تنظيم علاقـات الانسان بكل ما يتصل به بالنفس والاسرة والمجتمع والامم والشعوب والاشياء

والعالم والدنيا والآخرة . وكان مـا يتصل فيها بالطبيعة هو مـا أطلق عليه العلم . « فالعلم علاقـة واحدة من مجموع علاقات جاء الاسلام لينظمها ضمن نظام قوامه تصور كامل لوضع الانسان في الكون» فكيف يمكن أن تنسحب علاقة جزئية من منهج متكامل فتصبح هي المنهج الذي تخضع له العناصر كلها. ويتخذ أسلوبه في العمل أسلوباً لها كلها . بينما هـــذا المنهج يتصل بالمحسوس والتجريب ، وبينما تتعدد الجوانب التي لا يمكن أن تخضع للتجريب .

هـذا المفهوم الخطير الذي جرى عليه الفكر الغربي للعلم ، وحاول أن يشتق منه مذهبه « العلمانية » إنما كان يطمع أساساً في تحقيق غاية واحدة . هي: القضاء على منهج المعرفة الذي جاء به الدين الحق، ليحطم هذه الجوانب كلها . ويقيم الحياة على أسلوب هذا الجزء القليل المتمثل في جانب علاقـة الانسان بالطبيعة وحدها . وكيف يمكن أن يسيطر الجزء على الكل، ويلغي العلم الدين، وهو جناح منه. هذا هو التمويه الخطير الذي حملته الايديولوجية التلمودية لتطرحه على البشرية لتسحق صلتها بالدين والوحي. وبرسالة السماء، وبالمنهج المتكامل الذي قدمه الاسلام . ولكن هل استطاع العلم حقاً أن يقتنع الناس بأنه في ميدانه المحدود قد وصل الى الحقيقة حتى يستطيع أن يستشرف منهج المعرفة كله ، ويسيطر عليه ، الحق أن العلم ما زال رغم انتصاراته المتعددة قاصراً عند غاية واحدة هي معرفة ظواهر الاشياء ، فضلاً عن « أن العلم لم يستطع حتى الآن أن يضع منهجاً للتعامل مع الطبيعة نفسها . وأنه لم يستطع السيطرة على معطياتها ، وإلزامها بإسعاد النـاس فحسب » . ومن ثم فليس للعلم أن يكون منهجاً او ديناً للانسان. لأن الجزء لا يستشرف الكل، ولا يمكن لعلاقة واحدة أن تحدد شكل ومصير كل علاقات الانسان .

هذا فضلاً عن أن العلم ليس هو كل مناهج المعرفة ، ولكنه واحد منها، فهناك مناهج عقلية ومناهج روحية ، ومناهج تقوم على التجربـة الباطنة ، ومناهج تقوم على الحدس .

ويستطيع العلم أن يضع منهجاً في التعامل مع الطبيعة والأشياء ، ولكن ليس في استطاعته أن يجعل منهجه شاملاً للتعامل مع الناس والغيب .

إن العلم لم يستطع حتى الآن أن يكشف حقائق الاشياء برغم تقدمه الهائل . فقد أقرّ بأنه يقتصر على معرفة ظواهر الاشياء . وليست عنده القدرة على تفسير كنهها . وما يزال يجهل عالم الغيب وما وراء الظواهر . وهذا الذي ما زال يجهله العلم . يعرفه الانسان عن طريق آخر ، عن طريق منهج المعرفة الذي جاء به الوحي والدين .

لقد وقف العلم عند الغيب والمجهول ، فلما لم يستطع فهمه جاءت الفلسفة فأعلنت عدم وجوده كما أنه لما عجز عن فهم الخلود، جاءت الفلسفة فأنكرته، فالعلم في حدود أداته ومنهجه ، ليس قادراً إلا في إطار محدود ، ولكن الفلسفة تخطىء حين تنكر ما لا يستطيع العلم الوصول اليه . وحين ترى أن الحياة هي نهاية كل شيء .

لقد عجز العلم عن أن يعطي بديلاً عن الدين ومهمته الكشف عن الغيب والخلود ، وعجز منهجه المحدود أن يكون منهجاً كاملاً المعرفة الانسانية كلها . وتبين للعلماء والناس جميعاً تلك الحقيقة الواضحة ، وهي أن العلم سلاح من أسلحة المعرفة ، ولكنه ليس سلاحها الوحيد كما تبين خطأ القول بأنه الوسيلة الوحيدة للمعرفة ، وأن ما عداه ليس شيئاً .

## (٣)

ما هو العلم :

العلم في تعريف أساطين العلم هو مجموعـــة فروض ، تحولت بالتجربة الى قوانين قابـــلة للتغيير الدائم فليس في العلم شيء ثابت ، وهو في مجموعه محاولة لتعليل الظواهر بعلل مادية غير إرادة الله .

يقول برتراند رسل : إن العلم يقرر أحكاماً على سبيل التقريب ، لا على سبيل اليقين .

وقد أجمع العلماء على أن مهمة العلم مـــا تزال قاصرة على وصف ظواهر الاشياء ، وتقريرها لا تعليلها . وقد كان مفهوم العلم في أذهـان العلماء أنه أمر ، يراد بـه تفسير الوجود . وكان العلماء في أول النهضة يهتمون بمعرفة (لماذا) ولكنهم أخذوا يتخلون عن هذا الاهتمام بعد أن تبين لهم عبث هـذه المحاولات ، وعقم نتائجها . ومن هنـا ترك العلم للفلسفة مهمة بحث العلل النهائية للوجود ، بعد أن عجز في هذا المضمار ، ولم يسفر بحثه عن شيء .

والعلم بإقرار جميع الباحثين: لا يقر شيئاً ، وإنما يربط وينسق ويلاحظ

ملاحظة منهجية . وبالتالي يصف ويقرر ، وليس هذا فهماً للأشياء ، ولكنه تعرف عليها ، ويقرر العلماء بأن المعرفة العلمية تقتصر على ظواهر الطبيعة وأعمال البشر وعلاقاتهم التي يمكن استخدام المشاهدة والتجربة لاكتشاف قوانينها ، والعلم يعترف بأن العقل البشري لا يستطيع أن يدرك شيئاً إلا عن طريق الحواس ، ولذلك فكل ما يقع وراء الحس والعقل لا يمكن للعلم أن يبحث فيه او يعرف عنه شيئاً . ويقرر العلم بأن حقائقه ليست مطلقة ولا أبدية ، بل هي حقائق نسبية . وأن البحث العلمي في صراع لا ينتهي ، ما يقرره اليوم ، ينقض ما قرره بالأمس ، وما يزال العلماء يتساءلون هل يستطيع العقل أن يدرك الحقيقة . ويقولون لقد قطع العقل أشواطاً بعيدة ، خلال ثلاثمائة سنة ، فهل استطاع التوصل الى الحقيقة ؟ فالعلم رغم تقدمه ما يزال عاجزاً عن حل المشاكل الكبرى ، وما يزال خاضعاً للقوى السياسية التي تحول منجزاته الى أفظع وسائل الفتك والتدمير .

يقول مارتين ستانلي كونجرن : إن نتائج العلوم تبدأ بالاحتمالات، وتنتهي بالاحتمالات وليس باليقين . ونتائج العلوم بذلك تقريبية ، عرضة للأخطاء في القياس والمقارنات ونتائجها اجتهادية ، وقابلة للتعديل والحذف ، وليست نهائية . وقد اضطر العلم منذ أجيال أن يترك البحث في كنه الأشياء بعد أن تبين أنه لا سبيل الى معرفة الكنه المغيب عن الحواس ، واكتفى بدراسة ظواهرها .

ويقول رسل تشالر أرنست : ان كل الجهود التي بذلت للحصول على المادة الحية من غير الحية . قد باءت بفشل وخذلان ذريعين ، ومع ذلك فإن من ينكر وجود الله لا يستطيع أن يقيم الدليل المباشر المتطلع ، على أن مجرد تجمع الذرات والجزئيات عنطريق المصادفة، يمكن أن يؤدي الى ظهور الحياة وصيانتها وتوجيهها بالصورة التي شاهدناها في الخلايا الحية .

وبعد فهذا هو ما استطاع العلماء أن يصلوا إليه بعد جهد طويل . وقد خيب ظنهم ما حاول أن يزدهي به رينان وغيره حين كانوا يقولون : إن العلم وحده سينقذ الانسانية . وان العصر الذي يسود فيه العقل . يصل الانسان فيه الى الكمال ، تلك كانت دعواهم التي كذبتها التجربة نفسها ، وأصارتها الى وهم . ولكن لماذا كان العلم مادياً خالصاً ؟

# النظرية المادية

لماذا اعتنق العلم النظرية المادية :

لقد بدأ العلم الحديث من خلال (التجريب) الاسلامي، فقد احتقر اليونان التجربة والتجريب ، واقتصروا على التأمـل . ثم أصبح التجريب رمزاً على روح الحضارة الاسلامية ، مستمداً من القرآن ، جامعاً لقوانين الفطرة في الانسان ، وقوانين العلم في الطبيعة . ولكن النهضة الأوروبية فصلت بينهما ، وقبلت أحدهما ، وأنكرت ما سوى المادة ، وما وراء الطبيعة. وقام مفهوم خطير على هـــذا الأساس ، اتصل بالأخلاق والنفس والمادة الجدلية والمادة التاريخية وهكذا .

لقد فصل المفهوم الاسلامي بـــين العلوم الطبيعية ، والعلوم الانسانية ، وجعل لكل منهما منهجاً خاصاً يتفق مع طبيعته وماهيته .

وأبرز مفاهيم الاسلام أن منهج العـلوم الطبيعية مستمر التطور ، بينما منهج العلوم الانسانية قائم على ثبات المعرفة ، لأنه يتصل بالفطرة والانسان، ولا يخضع لمقدرات التجريب وأنابيب الاختبار ، غير أن المفهوم المادي الذي عجز عن الفصل بين الطبيعيات والانسانيات . ولم يقدر عمق الفوارق بينهما

حاول محاكمتها معاً الى منهج واحد ، او حاول محاكمة الانسانيات الى منهج الطبيعيات . ومن هنا كانت نقطة الاختلاف ، ونقطة الخطر التي جرى فيها الفكر الغربي شوطاً طويلاً .

لقد اكتشف الانسان عن طريق العقل ( الذي لا يعرف العلم ماهيته ) قوانين الطبيعة . ولكن الانسان كان أعجز عن طريق هـــذا العقل ، أن يكشف قوانـين الانسان وروابطه بالله والوجود والحياة والموت ، فكان انحرافه بالفهم الى إقرار المـادية أساساً واحداً للعلم والحياة عاملاً خطيراً في عجزه عن فهم قوانين الانسان والكون والاجتماع التي لم يكن العقل وحده قادراً على كشفها .

ومن هنا كان خطأ المادية في أنها تدرس الانسان وتحلله كما تدرس الاشياء. وكان خطأ الماديين حـــين يقولون : « نحن ندرس الانسان ونحلله كما ندرس أي شيء آخر . نقول إن الانسان كائن مادي كيماوي . ومن حيث إنه جزء من النظام المـادي للطبيعة ، فهو يجب أن يخضع للقوانين الطبيعية والكيماوية مثل الكائنات الحية الأخرى » . كان هذا خطأ ، وكان هـذا نقصاً في منهج العلم والمعرفة ، حيث يجري محاكمة الانسان المكون من روح وجسد الى مـا تحاكم اليه الحشرات ، او الظواهر الماديـــة الصرفة . ومن هنا كان عجز النظرية المادية عن فهم الانسان الذي يجب أن يعامل على نحو مختلف عن موضوعات العلم الطبيعي .

ومن هنا كانت الحاجة الى منهج آخر لدراسة الانسانيات وعلوم الاجتماع، وعلاقة الانسان بالكون والحياة والموت ، هـــذا المنهج ليس في استطاعة الانسان نفسه أن ينشئه، وهو أعجز من أن يستوعبه بأدواته القاصرة التي لها وظيفتها وحدودها . ولذلك فقد سبقت الأديان فقدمت هذا المنهج للإنسان

لتغنيه عن أن يجهد في سبيل معرفة لا يستطيع بغير عون من الوحي والفطرة أن يصل اليها ، فكفته مؤونة ذلك، وفتحت له الطريق الى العمل الميسر له، والمكلف به ، والمنتدب له، بوصفه مستخلفاً في الأرض ، وهو العلم التجريبي وما يتصل بالبحث في الأرض ، واستثبات نتائجها وكشف كنوزها . ومن هنا كانت هناك حقيقة أساسية هي : أن العلم يقدم فروضاً لتفسير الطبيعة ، وهي فروض متغيرة متطورة ، بينما يقدم الدين حقائق لتفسير الحياة العامة .

(٢)

ذهب غلاة الماديين الى القول بأن المادة هي كل شيء، وأن الأنواع توالدت من بعضها عن طريق الصدفة ، وأنه لا يوجد شيء حقيقي إلا المادة والقوة ، وأن القوة من قوى المادة .

وأنكرت المادية ما وراء الطبيعة إنكاراً كاملاً ، كما أنكرت وجود الروح ، وكل ما لا يدرك بالحواس ، وقالت بأن المادة جوهر ومبدأ أول ، وأن المادة هي الكل الموجود، وأن مظاهر الوجود على اختلافها نتيجة تطور متصل للقوى المادية .

ولقد اتسع نطاق مذهب المادية ، حتى عَمَّ الفكر الغربي كله ، وخلق ذلك الطابع المادي لحضارة الغرب. وقد جاء هذا الاتجاه نتيجة عدة مقررات توصل اليها بعض العلماء والفلاسفة . ولم تكن في واقع الأمر خالصة لوجه العلم ، ولكنها كانت مشوبة بطوابع الخلاف العميق الذي نشب بين الدين والعلم . وكانت له آثاره البعيدة في الفكر الغربي كله . فلقد كانت النزعة المادية في حقيقتها رد فعل عنيف لمقاومة رجال الدين لمقررات العلم مما حدا بالعلمانيين الى الوصول لآخر الشوط في التحدي ، وإنكار الغيب والروح

والوحي ، وكل ما يتصل بالدين جملة غير أن هذه النزعة لم تلبث أن خفت من ناحية ، وتضاعفت من ناحية أخرى ، فهي قد خفت من ناحية مقررات العلم نفسه ، فقد عدل العلم موقفه ، وصحح كثيراً من مفاهيمه ، وآب الى شيء من الاعتدال في الرأي .

أما التضاعف فقد جاء من الفلسفة التي أخذت مقررات العلم ، فتصرفت فيها تصرفاً خطيراً حيث أعلت من شأن المادية ، ونقلتها من ميدان العلم الطبيعي الى مجال الفكر كله ، وإلى مجال الاجتماع والنفس والأخلاق . وكان هذا هو أخطر التطورات التي تحركت باسم العلمانية .

ومن هنا انفصل المذهب العلمي التجريبي، الذي يقتصر مجاله على الطبيعة، ويتحرك في حدود المحسوسات والتجربة ، عمّا اطلق عليه من بعد المنهج العلمي في المعرفة ، او وجهة النظر العلمية، وهي في مجموعها من نتائج الفلسفة المادية ، وهي أخطر ما سيطرت عليه الايديولوجية التلمودية ، ووجهته وجعلته أساساً لما أطلق عليه العلمانية ، او علمنة الإنسان ، أي إخراجه إخراجاً كاملاً من إطار الدين تحت اسم إخراجه من إطار الأساطير والغيبيات والخرافات والأوهام .

ولقد يكون من حق أصحاب هذا المنهج أن يصوروا مفهوم الدين الذي عرفوه على هذا النحو . ولكنهم يخطئون خطأ كبيراً ، ويتجاوزون الحقيقة، حين يعممون هذا الرأي على مفهوم الاسلام ، الذي يختلف اختلافاً كبيراً عن المفاهيم الدينية التي عرفتها اوروبا ، فضلاً عن أنهم لم يستطيعوا بإنصاف أن يفهموا مقرراته .

(٣)

أما العلم نفسه فقد رجع عن النظرية المادية ، لأن الحقائق التي تكشفت له دفعته الى أن يصحح موقفه . أمـــا الفلسفة فإنها كلما زاد العلم اعتصاماً بالحق ، زادت هي إمعاناً ، في دعم النظرية المادية ، وتوسيع آفاقها . وكان أخطر تجاوزاتها في ذلك ما اطلق عليه العلوم الاجتماعية التي وقعت جميعها تحت سيطرة الفلاسفة اليهود: دوركايم وماركس وليفي بريل وسارتر وغيرهم ولقد حذر كثير من العلماء من خطورة هذه النظرة المادية الى الحياة، وأشاروا الى خطورة ما قد يكون لها من الآثار السيئة على سعادة الانسان وحريته[١].

ولقد وقف كثير من الفلاسفة في صف النظرة العلمية ، وأنكروا تجاوز الفلسفة. بل ان هناك من ربط بين المادية وبين الفلسفة، وليس بينها وبين العلم، إذ تجاوز العلم هذه المرحلة منذ وقت بعيد ، ولكنها ظلت قائمة مع الفلسفة. وان علاقة المادية بالفلسفة قامت في مواجهة المثالية والروحية ، وأن هناك رباطاً وثيقاً بين الفلسفة والمادية . وليس كذلك بين العلم والمادية. ومن أكبر هؤلاء الباحثين ( البرت لانجه ) والحق أن العلم قد ارتبط بالمادية في مرحلة من تجاربه ، لم يكن قــد انكشف له وجه الحق . ولكنه لم يلبث أن تجاوز هذه المرحلة حين تبين له أن هناك عالماً مجهولاً ، هو عالم الغيب، وأن طرقات خفيفة اليوم على باب الغيب تكشف عن علامة واضحة بين العالمين .

يقول العلامــة الطبيعي : كرسي موريسون ( رئيس أكاديمية العلوم في نيويورك) ان تحطيم ذرة النون التي كانت تعد أصغر قالب في بناء الكون الى مجموعة نجوم مكونة من جرم مذنب والكترونات طائرة قـــد فتح مجالاً

---

(١) دكتور زكي نجيب محمود في تلخيص كتاب النظرة العلمية لبرتراند رسل .

لتبديل فكرتنا في الكون والحقيقة تبديلا جوهرياً . ولم يعد التناسق الميت للذرات الجامدة يربط تصورنا بما هو مادي، وان المعارف الجديدة التي كشف عنها العلم لتدع مجالاً لوجود مدبر جبار وراء ظواهر الطبيعة ، وان الاكتشافات الحديثة قد بعثت النتائج التي وصل إليها الفلاسفة . والتي كانت قد حجبتها تماماً نظريات دارون .

إن وجود الخالق لتدل عليه تنظيمات لا نهاية لها . تكون الحياة بدونها مستحيلة . إن وجود الانسان على ظهر الأرض والمظاهر الفاخرة لذكائه ، إنما هي جزء من برنامج ينفذه بارىء الكون . اه .

تلك هي الحقيقة الجديدة التي كشف عنها الحجاب للعلم . لقد استطاع العلم أن يصل الى نقطة خطيرة ، بل وعميقة الخطر والأثر في تاريخ العلم كله – تلك هي تدمير العلم للنظرية المادية نفسها .

وقد كان أولى بهذا الكشف العلمي أن يدك قوائم الفلسفة المادية أيضاً . لولا ثقة القائمين وراء الايديولوجية التلمودية وشعورهم بالأمن إزاء عجز الفكر الغربي عن التكامل . وأن انشطاريته لها أبعد الأثر في تمزقه على النحو الذي لا يحمل لكشف هذه الحقيقة الضخمة أثرها في مجال الفلسفة المادية .

نعم : إن هناك حقيقة كبرى يضعها العلم بين أيدينا اليوم، لطالما التمسها الباحثون الذين عارضوا المادية ، وواجهوها بالنظرة الفاحصة . وفي مقدمتهم « فريد وجدي » صاحب كتاب « على أطلال المذهب المادي » تلك هي « المادة نفسها التي يرتكز عليها القانون الطبيعي ، قد حطمها اليوم العلم نفسه ، لم تعد العينة الصلبة من المادة ، هي أساس الطبيعة ، لقد كشف العلم الحديث عن جانب خطير من القانون الطبيعي . هو أن أساس الطبيعة هي الحركة ، وليست المادة ، الذرات بأشكالها المتناهية في الصغر تتحرك ،

فتضفي الشكل المادي للأشياء . وهـذه الذرات هي الأخرى تتشكل وفق حركة معجزة في كيانها الداخلي ». وهو إيماء عجيب للانسان المعاصر بزيف هـذه الثنائية التي قسمت خلق الله الى قسمين ، وأقامت بينهما جداراً من التباعد والصمت . « إن الحركة – هذا المعنى الكبير – هي أساس الوجود المادي تماماً ، كما هي أساس الوجود المعنوي »[1] .

( ٤ )

يقول الدكتور علي توفيق شوشه : ان السنوات الأخيرة جاءت بتطور في العلم ، قضى على ثلاثة مذاهب : النظرية المادية – النظرية الميكانيكية – النظرية الحتمية .

لقد اتسع التحقيق العلمي اليوم للمجهول ، وأخذ العلماء يعترفون بأن الحقيقة منه وراء المظاهر . وأن الكون ليس حقيقة في ذاته ، وليس هو المظهر الوحيد للتعبير عن الحقيقة ، وليس هناك من شك في أن قوة مدبرة مفكرة ، هي التي ابتدعت الكون ، وإلى هـذا توحي الاكتشافات العلمية الأخيرة .

هـذا القول هدم نظرية المادة ، وهو الذي أثبت أن الذرة تتكون من الكترونات « كهارب » تدور حول بروتونات على نظام .

ويقول الدكتور محمد عبد الخالق : ان الأساس الذي قامت عليه المذاهب العلمية في القرن التاسع عشر ، قد انهار ، وأصبح العلماء الآن يتكلمون عن

---

(١) دكتور عماد الدين خليل .

الكون ، وعن الإنسان ، وعن الحياة بعبارات جديدة ، الآن يكشف العلم عن ميادين جديدة تبحث عن الأرواح وأصل الحياة وغاية الوجود . ان مذهب دارون فرض ، وليس حقيقة غير قابلة للنقض .

وقد أكد الباحثون أنه في ضوء ما تثبته التجربة ويؤيده الاختبار ، أنه ليس بين الدين والعلم خصومة بحال، فليس من مباحث العلم إثبات وجود الله، ولا إثبات نبوة الأنبياء، لأنها ليسا مما ينال بالتجربة، او يقع تحت الاختبار. وان للمعرفة طرائق معدودة : منها التجربة ، وقد اختصت بها العلوم الطبيعية ، ومنها البرهان والقياس .

إذن ليس بين الدين والعلم خلاف ، ولكن الخلاف بين الدين والفلسفة ، وفرق بين العلم الثابت بالتجربة والفلسفة التي هي فروض ذهن ما . وان الخطأ الحقيقي هو في التوسع في إطلاق لفظ العلم على آراء الفلاسفة .

وترددت آراء أخرى في هذا المجال تقول : إذا كان العلم أداة للمعرفة ، فالايمان أيضاً أداة للمعرفة ، وهو أسلوب آخر يصلح لبحث او استكشاف حقائق أخرى لا يسع العلم إلا الإقرار بعجزه حيالها .

فالعلم موقت وعارض يجري عليه قانون التبدل والتحول، فكم من حقائق علمية ظنها الجميع ثابتة ، أنكرها العلم نفسه بين عشية وضحاها ، والحقيقة أن كل شيء في العلم قابل للمراجعة والهدم . وأن الحقائق العلمية افتراضات نسبية مقيدة ومؤقتة ، وما عمل العلم غير مخاطبة الطبيعة جهده دون ابداء أية حقيقة مطلقة ، فليس له ما يخوله حق ابتكار او إثبات النبوات والمعجزات . فالعلم على هذا غير كفيل بحل المشكل الإنساني برمته ، وان طرائقه العلمية لا تصلح إلا مطبقة على الظواهر فقط ، وانه لا يملك حق التدخل القاطع في عالم الروح الذي يفوق حدود تخصصه ، ولا يمكنه مهما

علل ، او اكتشف أن يرضي جميع خوالج النفس ، وما يخفق بهـا من عواطف [1] .

(٥)

يقول الدكتور أحمد فؤاد الأهواني : كان الظن الى عهد قريب . أن المادة لا تنقسم الى مـا لا نهاية له . بل تقف عند جزء لا يتجزأ ، هو الذي سموه « الذرة » او الجوهر الفرد ثم أثبت العلماء أن الذرة قابـلة للتجزئة ، فبعض الذرات تنفجر من تلقاء ذاتهـا كذرات الراديوم واليورانيوم وغيرهما من العناصر ذات النشاط الاشعاعي ، وبذلك انطلقت المـادة الذرية وأصبحت طاقة يمكن استخدامها في أغراض الحرب والسلم ، وتغير مفهوم المادة القديم فأصبحت المادة طاقة . وأمكن تحول المادة الى طاقة ، والطاقة الى مادة ، وأصبحت المادة والطاقة مظهرين لشيء واحد .

وكانت معارضة المادية القديمة للأديان من جهة قولهم : إن المادة هي كل شيء ، هي أصل العقل والشعور ، وليس العقل إلا إفرازاً من إفرازات المخ. أما الخلاف الفلسفي بـين مادية اليوم ومادية الأمس ؛ فإنه يقع في الاتجاه الحديث الذي يسلم بالقيم . اهـ .

وقـد جاء نتيجة لهذا الكشف الخطير تحول واضح في آراء العلماء ، يقول ( بوترو ) : إن العلم والدين هما أساس الحياة الإنسانية ، وهمـا في

---

(١) من بحث للاستاذ ابراهيم المصري عن العلم والدين .

تصارعهما يخلقان قوة وحيوية وخصباً ، ولن يصلا الى اتحاد [1] ، لأن كليهما متميز عن الآخر ، ولن يستطيع أحدهما القضاء على الآخر . وان المفكرين يرون عجز العلم عن حل المشاكل، والعلم مهما تقدم فهو محدود. وبذلك لا بدّ من الرجوع الى ما يسد الفراغ وذلك عن طريق تمسك العالم بالروحانية، واعتماده على القلب والعاطفة . اه .

وكذلك يصل العلماء اليوم الى إقرار حقيقة تدحض تطاول العلم ذلك .

إن العلم عاجز عن أن يضيف شيئاً او يقدم شيئاً ما في عالم الطبيعة .

يقول سير جيمس خيتز عالم الطبيعيات والرياضيات : إن كل الجهود التي بذلت للحصول على المادة الحية من غير الحية ، قد باءت بفشل وخذلان ذريعين . ومع ذلك فإن من ينكر وجود الله لا يستطيع أن يقيم الدليل المباشر للعالم المتطلع على أن مجرد تجمع الذرات والجزئيات عن طريق المصادفة ، يمكن أن يؤدي الى ظهور الحياة وصيانتها وتوجيهها بالصورة التي شاهدناها في الخلايا الحية . وجملة القول ان العلم قد وصل الى حقيقة أساسية تحتم عليه نقض مفهوم المذهب المادي نهائياً ، والانفتاح الى عالم الغيب . تلك هي التي أكدها العلماء حين كشفوا أخيراً ان المادة والطاقة شيء واحد .

يقول تجايمس تجينز ( في كتابه العالم من حولنا ) : كان حجر الزاوية في علم الطبيعيات في القرن التاسع عشر هو بقاء المادة او خلودها من جهة ،

---

(١) يختلف الاسلام مع رأي العالم الغربي في ان العلم عنصر من عناصر الاسلام ، وأن المنهج العلمي التجريبي من معطيات الاسلام أصلاً . وليس في الاسلام انفصال بين الدين والعلم . ولكن هناك تكامل وترابط .

وبقاء الطاقة من جهة أخرى، قد بطل بطلاناً تاماً ، وأقيم مقامه ناموس آخر هو بقـاء ذاتية واحدة هي المادة والطاقة ، بطل أن يكون كل من المـادة والطاقة على حدة خالدتي البقاء او متغيرتين. بل هما متغيرتان معاً من حال الى حال ، لأنهما شيء واحد ، المادة تصير شكلاً من أشكال الطاقة ، هذه الطاقة التي تنشىء الحياة على الارض .

## الفصل الثاني

# العلمانية والفلسفة

إن كل الدلائل تدل على أن النهج الذي اتخذته العلمانية ، هو نهج الفلسفة ، وليس نهج العلم التجريبي . ذلك من ناحيتين : من ناحية أن العلم التجريبي قصر مجـاله على علوم الطبيعة والرياضة ، وأنه لم يتجاوزهما ليتصدى لميادين أخرى تتعلق بالإنسان والمجتمع . والآخر أنه آب في الزمن الأخير فخفف من غلوائه واعترف بأنه قـد قصر مهمته على تفسير ظواهر الاشياء ، وأنه حطم من بعد النظرية المادية ووصل الى حقيقة تكشف عن صلة بين عـالم المحسوس وعالم الغيب .

إذن فالعلمانية ليست من نتاج العلم ، ولكنها من نتـاج الفلسفة ، ولكي نفهم تيارات الفكر الغربي على وجه صحيح ، فـإن علينا أن نكشف عن الفوارق العميقة بـين العلم والفلسفة . فالعلم هو ما يجري داخل المعامل ، أمـا الفلسفة فهي ما يقوله أصحاب الايديولوجيات ، العلم واقع قائم على حساب وتجربة ، أما الفلسفة فهي نظرة عقل نافـذ ، وفرضية رأي يخطىء ويصيب .

والعلم حقائق قابـلة للنقض والتغيير .. أما الفلسفات فهي نظرات تخضع

لظروف ومواصفات وتحديات في العصر والبيئة ، فهي بذلك معرضة للخطأ والصواب ، وصالحة لعصر دون عصر ، وبيئة دون أخرى ، وهي من هـذه الناحية خاصة وذاتية بخلاف العلم الذي هو تراث إنساني مشترك بـين سائر البشر. أما الفلسفات فهي ليست كذلك تماماً ، فلكل فكر فلاسفة، ولكل أمـــة نظرياتها المنبثقة من قيمها الأساسية ، ودينها وتاريخها وتشكلها النفسي وذاتيتها الخاصة وروحها ووجدانها ومزاجها ، وهي من أجل هذا غير قابلة للتصدير او الاستيراد . ولمـا كانت تتصل بالنفس الإنسانية ، فإنها لا تخضع للمنهج الذي تخضع له الأحجار ، او الحيوان ، ولما كانت تتصل بالاجتماع او الاخلاق والعلاقات الإنسانية ، فهي تنبع أساساً من منابع الامة ، فللعرب والمسلمين منابعهم ومفاهيمهم التي تترجم نظرتهم الى الحياة ، وأسلوبهم فيها ، وللغرب مثل ذلك مما يختلف ويتفاوت . وهكذا تختلف مناهج الفلسفة عن العلم اختلافاً كبيراً . ومن هنا كان خطأ القائلين حين يتكلمون عن نظريــة مــا في النفس او الاقتصاد او الاجتماع ان العلم يقول كذا : فليس ما تورده نظريات النفس والاجتماع والاقتصاد على عمومها ، علماً بمفهوم العلم التجريبي ، لأنها أمور لا تخضع للتجربة والمحسوس . وإنمـــا هي تخضع لمنهج من مناهج المعرفـــة له طابع علمي . ثم هي بعد ذلك وجهة نظر فلسفية قامت على الفرضية ، ثم يجيء التطبيق بعد ذلـك ليكشف هل هي حقاً صالحة متسقة مع الفطرة الإنسانية أم معارضة لها .

والفلسفة الغربية في مجموعها هي محاولة لتفسير العالم والحياة والمجتمع عن طريق العقل مع التجاوز التام عن منهج الدين ، وإنكار العالم الآخر ، وكل ما يتصل بما وراء الطبيعة، او ما وراء المادة. والمعروف أن الفكر الاوروبي قد تجاوز النظرة الدينية على أثر خلافات واسعة كبيرة ، وقــد مرت هذه الخلافات بمراحل متعددة : منها مرحلة المثالية الفلسفية ، ثم مرحلة الماديـة

الفلسفية . وقــد انتقلت الفلسفة الغربية بــين عديد من النزعات العقلية والتجريبية والوضعية . وكانت في أول أمرها تجمع بــين وثنيات اليونان ، وعقائد الرومان . ثم تأرجحت بــين قيم المسيحية وقيم المادية . وجرت في مصارعة هائلة بــين قيم الروح والضمير والاخلاق والبصيرة من ناحية ، وبين المادية والإلحاد والإباحة من ناحية أخرى .

وجاء ذلك الترابط بين النظريات العلمية وبين الفلسفة في داروِن ونيتشه ، واتخذت نظرية التطور البيولوجي منطلقاً الى نظرية عامة في التطور الاجتماعي. وجرى الصراع في الفلسفة الغربية بين المثالية والمادية طويلاً ، وانتهى بالغلبة لجانب المادية .

ولقد كان ذلك الانحراف الى المادية الغالية القائمــة على التحرر والانطلاق والإباحة نتيجة لانحراف سابق وصل الى أقصى مداه في الزهادة والرهبانية ، واعتزال الدنيا وإنكار متاعها .

فليست الفلسفة الغربية في مرحلتها المادية القائمـــة إلا نتيجة من نتائج الصراع الهائل بين المادة والروح ، والعقل والقلب ، والدين والمادية .

فقد قامت الفلسفة المادية على أساس واضح هو معارضة الدين والاخلاق ، ونقد المسيحية ، واتهام الدين بأنه مخدر . ولذلك فقد أنكرت هذه الفلسفة الغيب والروح ، وهاجمت مختلف مفاهيمه ، وعارضتها معارضة تامة ، فأعلنت أن الجنس هو أبرز دوافع الإنسان . وان الإنسان حيوان ، وأن الدين ليس فطرة ، وأنه ليست هناك اخلاق مثلى دائمة ، وأن الحق للقوة ، وأن الدين والزواج والأسرة ليست نزعات فطرية في الانسان ، وأن القواعد الخلقية لا وجود لها في ذاتها وأن الجريمة ظاهرة سوية .

وقد واجهت الفلسفة الغربية نظريات متعددة متعارضة دارت حول إعلاء

الفردية ، او الجماعية . والمعروف أن الفكر الاوروبي قد انحرف نحو جانب الفلسفة المادية على أثر انتصارات العلم المتوالية التي بلغت الى حد إنكار ما سوى المحسوس ، وقد ظل الخلاف بين الدين والفلسفة يتسع ويعمق حتى وصل الى حملة كاملة على كل مقررات الدين وكتبه ، وكانت الكنيسة هي الهدف الأكبر لهذه الحملة، غير أن الاتهام الذي وجهته الفلسفة للدين في الغرب لا يمكن أن ينسحب على الدين كصيغة عامة . وإنما هو متصل بالمفاهيم الدينية التي عرفتها اوروبا ، والتي وصفها أحد كبار فلاسفتهم بول فاليري « مسيحية القديس بولس » .

( ٢ )

يقرر اتبــاع الفكرة العلمانية ، أن عقيدتهم العلمانية ترفض اعتبار الدين أساساً لحياة الجماعات البشرية ، او أساساً من أسس القومية [١] وأنهــا تدعو الى الاعتماد على الواقع الذي تدركه الحواس ، ونبذ كل ما لا تؤيده التجربة والتحرر من العقائـد الغيبية ؛ ومن العواطف بكل ضروبها وطنية كانت او دينية [٢] وأن العلمنة هي دراسة الانسان والمجتمع ، كما تدرس الاشياء بشكل موضوعي ، وأن الكون مستقل في ذاته تفسره القوى والقوانين التي يتشكل منها دستوره ، فلا يحتاج الى أية قوة خارجة يستعين بها في تفسير ما يحدث فيه . وأن هـــذا المبدأ « الحسي الزماني الدنيوي العلماني » هو الذي يسود العقل الحديث [٣] .

ومن خلاصة هـــذه المفاهيم يتبين أن العلمانية تعتمد منهجاً خاصاً لتفسير الحياة والمجتمع يقوم على أساس النظرية الماديـــة ، والمنهج التجريبي والعقل

---

(١) جوزيف مغيزل مجلة العلوم ١٩٥٩ من بحث مطول عن العروبة والعلمانية .

(٢) دكتور محمد محمد حسين : اتجاهات هدامة في الفكر العربي المعاصر .

(٣) مجلة مواقف م ٣ .

الخالص، هذا المنهج هو ما أطلق عليه بعض العلمانيين « النظرة العلمية [1] ، او وجهة النظر العلمية » على النحو الآتي :

اولاً : النظرة العلمية هي مفهوم فلسفي ( لأن العلم الذي يدرس ويقيم النتائج الأساسية للعلوم المختلفة ، هذا العلم الذي يدرس أشمل وأعمّ قوانين الحركة في الطبيعة والمجتمع والفكر يمثل وجهة نظر الفلسفة المادية ) .

ثانياً : إن التخصص العلمي رغم أهميته وضرورته المستمرّة الدائمة : ليس هو وجهة النظر العلمية . كما أن العلم لا يقاس بمنجزاته فحسب ، بـــل بأثر هـــذه المنجزات المادية على الحياة الاجتماعية والعقلية والنفسية ، وأن وجهة النظر العلمية لا يمكن أن تستخلص او تعمم فقط بناءً على نتائج أحد العلوم الجزئية : أنها لا تقوم إلا على أساس تعميم نتائج العلوم الجزئية المختلفة بمـا فيها علم الاجتماع في شتى المجالات .

ثالثاً : تقوم النظرة العلمية على أساس أن الطبيعة والمجتمع في حركة وتغيير لا ينقطعان . والنشاط البشري يتطور دومـاً الى الامام ، ولا يعرف الغائية ولا الاستقرار. ويشدد الباحث في التحذير من الخلط بين العلم بالمعنى التخصصي الضيق ، وبين وجهة النظر العامة .

ومعنى هذا أن الفلسفة المادية قد وصلت بعد أن طرحت مذاهبها المختلفة في النفس والاخلاق والاجتماع والاقتصاد الى إقامة منهج شامل هو ما أطلق عليه وجهة النظر العلمية ، وقد اعتبرته منطلقاً لمواجهة ما أسمته وجهة النظر الدينية من حيث إن الدين منهج كامل تجـــاه الانسان والمجتمع ، فهي أيضاً تقوم بنفس ذلك .

---

(١) م ١٩٦٧ مجلة الفكر المعاصر .

أمـا أساس الاختلاف بينهما في تقدير النظرية العلمية المادية فهو « إن وجهة النظر الدينية تعتبر العالم الذي نعيش فيه محطة انتقال الى عالم أخروي أفضل بحيث يتحتم على السلوك الإنساني في هـذه الحالة أن يتجه بكليته نحو العالم الآخر » ثم إن الأديان « تضع حدوداً للمعرفة البشرية لا يمكن لهـا ان تتخطاها، بينما النظرة العلمية لا تضع حدوداً البتة، إلا فيما لا يستطيع العقل والعلم ان يصل فيه ، ثم إن النظرة العلمية تعتمد على العقل اعتماداً كلياً بينما لا يفعل الدين الذي يفرض ( الغائية ) وتقرر النظرية ، ( أنه مهما اختلفت الأديان فهي في نظرتهـا الى الكون والمجتمع والإنسان واحدة ) وأنـه مهما اختلفت الأديان فهي فى مجموعها ضد النظرة العلمية .

هـذه خلاصة مفهوم « النظرة العلمية » التي يراد طرحها كمنهج في مقابل منهج الأديان وتحدياً له، ومن هذه « النظرة العلمية » تتشكل الحلقة الأخيرة للعلمانية التي يراد فرضها على العـالم الاسلامي ، والفكر الاسلامي ، والذات العربية لكي تكون قادرة على الخروج من وجودها ، وبذلك تتحقق حركة التحديث العربية والعقلانية العربية والعصرنة العربية .

( ٣ )

أكبر مخالفات المنهج العلمي ، او النظرة العلمية لطبائـع الاشياء هو قصورها على الجانب المادي وحـده ، وتجاهـل الجوانب الأخرى للانسان وللفطرة ولمنهج المعرفة ، ذلك أن في الحياة والفكر جوانب متعددة ، كما أن في مناهج المعرفة نظرات متعددة ، وأساليب مختلفة ومن هذا فإن الاقتصار على جانب واحد ، منها يحول دون الوصول الى الحقيقة ، التي هي هـدف المناهج العلمية .

إن مصادر المعرفة في مفهوم الاسلام متعددة : منها الوحي ، وهو أسمى المصادر ، ومنها التاريخ يعـده الاسلام مصدراً من مصادر المعرفـة بكشف سنن الله في الكون ، وقوانين الحركة للحضارات والأمم ، ومنهـا النفس الانسانية ، وكل مـا يرتبط بالإنسان في تكامله ، ومنها الكون والآفـاق . (سنريهم آياتنا في الآفاق وفي أنفسهم حتى يتبين لهم أنه الحق) ثم هناك المنهج العلمي التجريبي القائم على الاختبار والتجربة ، فالمعرفة الانسانية لا تتكامل إلا إذا استطاعت أن تشمل كل الآفاق ، وأن تصل الى مختلف الأبعاد وهي لا تتكامل ولا تستوعب كل الجوانب إلا اذا التمست منهجاً كمنهج الاسلام . أما منهج العلمانية فإنه قاصر قصوراً شديداً ، لأنه يقف عند المادية . وهي ليست كل ما في الحياة ، فضلاً عن أنها أعلنت عن قصورها على ألسنة علمائها

أنفسهم ، ولأنــه يقف عند العقل وحــده ، والعقل أداة عظيمة لا شك في مكانتها ، ولكنها محدودة العطاء ، لأنها ذات وظيفة محدودة ككل وظائف الاعضاء وهي لا تستطيع ان تدعي القداسة، او تكون موضع العبادة، لأنها أعجز ما تكون خارج ميدان وظيفتها . وكما ان العلم طاقة واحدة من مجموع طاقات وهبها الله للانسان . فــإن العقل كذلك مجموعة معطيات لهــا مجالها المحدود ، فإذا خرجت عنه عجزت عن ان تحقق شيئاً .

ومجال المادة هو المحسوس ، ووظيفة العقل هي فتح آفاق الحياة للانسان، والمادية لن تكون بأي حال أساساً للمجتمع البشري، لأن في المجتمع عشرات القوى غير المادة .

وحيث لا يستطيع العلم ان يكون منهجاً للحياة ، لأنــه بذلك يتجاوز مهمته ، فــإن العقل كذلك لا يستطيع ان يكون الوسيلة الوحيدة للمعرفة الانسانية .

فالعلمانية هنا ، القائمة على (المادة والعلم والعقل) إنما تريد ان تمثل الحياة من وجهة جزئية صرفة ، ثم تتجاوز جوانب كثيرة تعتبرها في حكم العدم ، بينما هي حية موجودة قائمة لهــا دورها وأثرها . وذلك هو قصور الفلسفة المادية بعد ان نزل العلم التجريبي عن اعتداده واستطاعته، ورجع الى موقف الاعتدال ، وأعلن أن هناك عالماً غير العالم المحسوس ، وأن العلم يحاول اليوم ان يطرق بابه .

( ٤ )

تريد العلمانية أن تحاكم المفاهيم الانسانية في مجال النفس والاخلاق والاجتماع الى المنهج العلمي (القائم في حدود ما تدركه الحواس ، وما تؤيده التجربة) في حدود العلم والعقل والمادة وحدها .

فهل في استطاعة هـــذا المنهج حقيقة ان يكون قادراً على استيعاب الانسان في جوانبه المختلفة ، عواطفه وأهوائـه ومشاعره وأشواقه وغرائزه وطواياه الخفية . هل يستطيع منهج العلوم الذي يقوم على تجربـة المعمل أن يستوعب الحياة الانسانية ، وهو ليس قائماً أساساً من أجلها .

لقد كان من المقرر أساساً لدى الباحثين والعلماء ، أن هناك ثلاثة مجموعات من العلوم لكل منها منهجه الخاص المستقل المختلف .

أولاً : العلوم الرياضية ، ويتبّع في بحثها المنهج الرياضي .

ثانياً : العلوم الطبيعية والبيولوجية ، ويتبّع في بحثها المنهج التجريبي .

ثالثاً : العلوم الانسانية والاجتماعية ، وهي لا تخضع للمنهج الرياضي ، ولا المنهج التجريبي . وإنما تخضع لمنهج خاص يتلاءم مع طابعها النفسي والوجداني ذلك لأن موضوع العلوم الرياضية والطبيعية ، هو المادة والطاقة ، بينما منهج

العلوم الانسانية والاجتماعية فـإن مادته هو الانسان سواء أكان فرداً او جماعة .

وإذا كانت العلوم الطبيعية تحتكم الى التجربة العلمية في فحص مقرراتها . فإن العلوم الانسانية لا تملك ما يملك العلم الطبيعي من التجربة العلمية ، ذلك أن هذه العلوم الانسانية ، إنما تتصل بالنفس والروح والعقل ، وكلها لا تخضع للقوانين التي خضعت لها المادة ولا القوانين التي أمكن استخلاصها مندراسات الحيوانات. فالإنسان حيوان وزيادة ، لأنه يتميز عن الحيوان بشيء او أشياء. فتطبيق التجارب التي تجرى على الحيوان إذا اجريت على الانسان ، لا تكون محققة للنتائج تماماً لأنه سيظل هناك ذلك الجانب الذي يتميز الانسان به على الحيوان .

ولا ريب أن كل القوانين التي تطبق على الحيوان لا تصلح له لأنه أكبر منها . وأبلغ أخطار هـذه النظرة التي تحاول أن تخضع العلوم الانسانية والاجتماعية لتجارب العلوم الرياضية ، او تجارب الحيوان ، أنها تحاول اعتبار الانسان قيمة مادية خالصة ، بينما يزيد الانسان على الحيوان شيئاً كبيراً ، هو الذي يتميز به حتى أنه أصبح سيد المخلوقات وصاحب الأمانة ، ومن هـذا التميز العقل الذي هو مناط التكليف والإرادة الحرة التي هي معقد المسؤولية الأدبية ، والتبعة الاخلاقية . فـإذا اعتبرنا الانسان مادياً صرفاً كما تعتبره الفلسفة المادية ، سقط امتيازه على الكائنات . وسقطت في نفس الوقت مسؤوليته المرتبطة بالبعث والجزاء .

وهـذا هو أخطر خلاف جذري بـين مفهوم منهج المعرفة الاسلامي ، ومفهوم العلمانية . ومن هنا كان إقرار الاسلام لمنهج خاص لدراسة العلوم الانسانية والاجتماعية ، يستمد مفاهيمه من الانسان نفسه ، ومن سنن الله في الكون ، وهو علم منفصل عن العلوم المادية والبيولوجية والرياضية له مقوماته

وقوانينه، وهو أول معطيات الوحي ورسالات السماء ، وهو العلم الذي يطلق عليه الباحثون المسلمون ، علم الفطرة .

يقول الدكتور محمد أحمد الغمراوي : إذا قدر للانسان في علومه المختلفة أن يحيط بالفطرة فسوف يستطيع أن يهتدي الى فلسفة غير فلسفة الحاضر ، عندئذ يرى الانسان أن سنن الله في الكون واحدة في اطرادها وتناسقها ، وفي دقتها وصرامتها ، لا سبيل الى تغييرها ، او الإفلات من عواقب مخالفتها سواء ذلك من ناحية المادة ، او الطاقة الكامنة فيها ، وناحية النفس والروح في الأفراد والجماعات .

فإذا كان العلم قد اكتشف سنن الله الفطرية ، فإن عليه أن يهتدي الى سنن الله في الانسان والمجتمع . لقد تحقق الكشف عن سنن الفطرة في المادة ، وبقي أن نكتشف سنن الفطرة في الروح ، روح الفرد ، وروح الجماعة ، إن كتاب الله فاطر الفطرة يخبر بما جهلته الفلسفة ، ولم يدركه العلم . فإن لله سنناً لا تتخلف جرت في الأولين بالإهلاك حين عصوا ، واتبعوا أهواءهم ، وهي جارية ولا شك في الآخرين . **«فكأين من قرية أهلكناها وهي ظالمة فهي خاوية على عروشها»** ومعنى هذا كله أن هناك منهجاً للمعرفة خاصاً بالإنسان، ومنهجاً خاصاً بالكون . أما منهج المعرفة الخاص بالكون فقد هدى الله إليه الانسان بالتجربة ، أما منهج المعرفة الخاص بالانسان نفسه ، فإنه لما كان من العسير على الانسان ان يعرف نفسه بنفسه، فقد هداه الله إليه بالوحي في رسالات السماء، ووضع له ذلك المنهج الذي اعترف فيه برغباته، ووضع له من الضوابط ما يحقق له السعي في الأرض وعمرانها والاستمتاع بها دون أن يسقط في حمأة الفساد ، او الانحلال ، او الاباحية ، وكشف له عن التكليف والمسؤولية الفردية ، والالتزام الاخلاقي وهي جميعاً مناط الحساب والجزاء في يوم البعث. فإذا جاءت العلمانية اليوم لتضع منهجاً بشرياً في المعرفة الانسانية فإنها سوف تعجز عن أن تحقق رسالة الانسان على النحو الصحيح .

ولسوف تتدخل الأهواء الذاتية والفروض والمطامع لتجعل الانسان متجاوزاً لغاياته ، منكراً لمسؤولياته، مندفعاً الى رغباته، دون تقدير لمقدرة جهازه الجسمي، فضلاً عن فساد غايته التي قامت عليها الحياة في هذه الارض.

ولقد تجاوزت العلمانية الغاية في نظرتها الى الانسان على أنه مادة، وتطبيق تجارب الحيوان والحشرات عليه ، ومحاكمته الى القوانين التجريبية ، وكان من نتيجة هذا التجاوز تلك المذاهب في علم النفس والاجتماع والاخلاق والوجودية وغيرها من فلسفات تريد أن تحاكم الانسان الذي هو مادة وروح الى ما تحاكم به الظواهر المادية .

( ٥ )

من أخطر ما تعتمد عليه ( العلمانية ) في إقرار منهجها ( العقل ) . وقد أعلت المادية من شأن العقل حتى وصفته بالقداسة ، والعقل في حقيقته واحد من معطيات كثيرة للانسان، منها الإرادة والعاطفة والروح والنفس والقلب، وبالعقل يتميز الانسان عن الحيوان والنبات ، وبالعقل تدرك قوانين الاشياء والعلاقة الثانية التي تربط أحدهما بالآخر ، وهو مناط التكاليف الشرعية في الاسلام . ولكن نظرة الاسلام له تكشف عن أنه جزء من شيء أكبر .

فعلماء المسلمين يصفون العقل بأنه « جوهر مضيء خلقه الله في الدماغ ، وجعل نوره في القلب » وهذا الوصف من أعمق ما عُبّرَ به عن العقل وحقيقته ودوره . ويقول الباحثون ان العقل ملكة سلبية [١] وإنه أداة الوعي والإدراك فقط ، ولكنه لا يملك طاقة الفعل وإدارة التصرف ، حيث ان الفعل والتصرف من خصائص الإرادة الانسانية .

والعقل شرطه ان تتم الخطوات منه مرتبة على نحو يجعل السابق فيه مرتبط باللاحق .

---

(١) من بحث لعالم كبير .

وفي مفهوم الاسلام [١] ان العقل يهتدي بالوحي ، وأن الدين يقود العقل الى الصواب . والاسلام يرمي الى تحرير العقل من كل سلطان إلا سلطان الله ، فهو لا يتقيد إلا بما جاء من عند الله ، ولا يقيم وزنـاً للسحر او الكهانة او الأساطير او ما يوصف بأنه من تأثير القوى الخفية .

وفي مفهوم الاسلام أن العقل من خلق الله ، فهو يخضع له ، فـلا يشترك معه في الألوهية ، وقد أودعه في الانسان ليعرف الكون ويكتشف ما يلزمه منه ويهتدي بـه في الظلمات التي ليس للدين أن يكشفها له وليس لكي يعبد الانسان العقل من دون الله .

فللعقل أن يجول في الكون ويتأمل ويدرك ويستخرج ما يهدى إليه .

وعلى العقل أن يسلم بالأمور التي بينها الله في قرآنـه ، ولا يشتط فيدعي أنها غير صحيحة ، فهو خلق من خلق الله .

« والعقل واسطة لا غاية ، وهو آلة تنكسر على ما يتعدى ميدانها ، ولا تستطيع أن تتحدى مـا يقوله الله » . « فالعقل ليس له صفة القداسة ، او القدرة الكاملة ، وإنما هو نور مصباح يكشف في الظلمات ، ولكنه ينكشف أمام نور الله » .

« والعقل لا يستطيع أن يكشف سر الخلق والكون ، او أن يضع مبادىء المعرفة ، والعلماء المسلمون يرون أنه ما دام نور العقل أضأل من نور الله، فلماذا لا يتخذ نور الله كاشفاً في ميدان الفلسفة يسير نور العقل وراءه» .

والعقل الاسلامي يتفق في نتائجه وطريقه مع الاخلاق ، فهو الذي يدل

---

(١) الدكتورة بنت الشاطىء : مقالة في الإنسان .

على الخير ويهدي إليه. أما المكر والخديعة والدهاء المؤدية الى السوء، فليست من صنع العقل ، وإنما هي من صنع النفس الأمارة بالسوء، ولو رجع الانسان الى عقله رجوعاً سليماً لأباها .

والعقل الاسلامي نور محرر من الشعوذة والسحر والقوى الخفية، والخضوع لغير الله ، وليس العقل البشري نـداً للوحي ، ولكنه مهتد بالوحي ، وهو جهاز يتلقى الوحي ويفسره ، وليس له قدرة على معارضة الوحي، او تقديم تفسير آخر . اه .

وهكذا نجد موقف الاسلام واضحاً ، هو تحرير العقل من كل سلطان [1] إلا سلطان الله، وهو جزء من دعوة الاسلام الى تحرير النفس الانسانية والعقل الانساني من الوثنية والشرك والوساطة والمفاهيم الزائفة ، وتخليصها من عبادة مـــا سوى الله ، ومن كل عبودية لغير الله ، سواء أكانت بطلاً أم لا ، أم رغبة .

والعقل لا يستطيع أن يكشف سر الخلق ، او ان يضع مبادىء المعرفة فضلاً عن أنه ليس هناك عقل مطلق مجرد من البغض والشهوة .

وقـد تأكد أن طبيعة تكوين عقلنا ترتبط بوظيفة الانسان في الارض ، وهو القدرة على التقدم في إدراك قوانين المادة وتسخيرها وعجزه عن استكناه أسرار التكوين الانساني، وسيظل سر الروح الانساني بعيداً عن مجال إدراكه كي يظل عاجزاً عن وضع التفسير الكامل للكون .

وقد أكد العلماء أن العقل لا يستطيع أن يحكم على الاشياء إلا إذا حصرها

---

(١) من بحث مستفيض لمؤلف كتاب « خصائص التصور الاسلامي »

بين جناحي الزمان والمكان . أمـا ما عدا ذلك فليس عليه للعقل سلطان ، والعقل محدود فلا يستطيع أن يتصور غير المحدود، ولا يحكم على غير المتناهي، والعقل لا يتصور الخلود ، ولا يستطيع أن يحكم على الله او صفاته او قضائه وقدره ، ذلـك أن الله عز وجل غير محدود . فالعقل لا يستطيع أن يحـكم عليـه ، ويختل ميزان العقل إذا حاول الحكم على غـير المحدود ، ويقع في التناقض هذا فضلاً عن أن العقل لا يستطيع أن يحكم ولا يصح حكمه إلا في الأمور المادية ، أما وراء المادة وعالم الغيب فلا يستطيع تجاوزه [1] .

وفي تقـدير مفهوم الاسلام أن العقل أحـد وسائل المعرفة ، وجناح من جناحيها ، وللمعرفة جناحان ، عقل وإيمان ، ولكنهما لا ينفصلان ، والإيمان أساس وطريقه الوحي ، وهو فـيما يقرره لا يلتمس رأي العقل ، لأن ذلك أكبر من ميدانه .

ومن هنا يكون الخطأ الجسيم الذي تقول به العلمانية والمادية من أنـه لا توجد حقيقة غـير خاضعة للعقل ، ذلك أن هناك حقائق كبرى لا يستطيع العقل أن ينظر فيها . وأن العقل في حدود وظيفته وقدرته ليس مكلفاً بهذه الحقائق ، وليست له القدرة او الأجهزة التي تمكنه من النظر فيها .

وللعقل بداهة ترى أن الكون مصنوع ، ولا بـدّ له من صانع . ولذلك فـإن الإلحاد هو عصيان بداهة العقل والاسلام لم يهدنا الى شيء يعارض العقل والفطرة . فالشريعة تطابق العقل والفطرة وعوالم الغيب من وجود الملائكة، ودار الثواب والعقاب كلها أمور ممكنة يدركها العقل ولا تجـافي أحكامه ،

---

(١) راجع المقصد الأسنى في أسماء الله الحسنى للغزالي .

ولا يستطيع العقل أن يقيم الدليل على عدم وجودها [١] . ومن هنا وفي ضوء هذه الحقائق يبدو اعتساف النظرة العلمانية القائلة بسيادة العقل كمصدر وحيد للمعرفة منكرة كل وسائل المعرفة الأخرى من وحي وقلب وتاريخ وفطرة ، وهو قول لا يراد به إلا إبعاد الدين عن مجال التوجيه وإحلال العقل محله ، او إحلال المعرفة بديلاً عن الايمان . ولن تستطيع البشرية أن تجد طريقها الحق إذا أبدلت بالدين العقل ، او جعلت المعرفة بديلاً للايمان ، فالعقل والمعرفة قيمتان معرضتان للأهواء والأخطار والعجز الذي تحيز منهما من كل مكان . وليس في الإمكان أيضاً إخضاع الدين للعقل ، وستبقى العقلانية والتجريبية في مكان العجز والقصور . وفي منطقة واحدة من مناطق المعرفة الواسعة الكثيرة الأبعاد ، وسيظل نتاجها قاصراً في حدود المادة وحدها . وإلا فهل في وسع العقل أن يتجاهل العاطفة والوجدان والروح والتدين والحب والبغض والقيم الجمالية ، وكلها مما لا يدخل تحت نفوذه ، ولا يمكن إخضاعه له .

ومن هنا يجيء منهج المعرفة الاسلامي في القرآن الكريم شاملاً يخاطب العقل والروح والعاطفة ويخاطب بالبرهان والحس وبالتاريخ والعبرة، ويخاطب الانسان من كل جوانبه ونواحيه .

وخلاصة القول أن العقل وحده عاجز عن أن يصل الى الصواب والعقل ليس مستقلاً بالإحاطة بجميع المطالب ، ولا كاشفاً للغطاء في جميع المعضلات وتمجيد العقل واعتباره سبيلاً وحيداً للمعرفة ليس نظرية إسلامية . وقد وصل الى ذلك بعض الفلاسفة الغربيين وقال برجسون إن الذهن البشري وحده لا يستطيع فهم حقائق الحياة .

---

(١) محمد فريد وجدي .

وقد ظهرت أحاديث زائفة منسوبة الى الرسول وضعها دعاة الأفلاطونية المحدثة عن خلق العقل وغيره . وقد هاجم الإمام ابن تيمية هـذه الأحاديث وأثبت وضعها .

مهمة العقل هي البحث عن العلاقة بين الاشياء ، والبحث عن هـذه القوانين . فـإذا تجاوز مهمته تلك عجز أن يحقق شيئاً ، شأنه في ذلك شأن العلم الذي هو محاولة لتفسير ظواهر الوجود . فإذا تجاوز ذلك لم يحقق شيئاً.

( ٦ )

من أخطر الخلافات بين مفهوم العلمانية ومنهج المعرفة الاسلامي – القيم الثابتة – والقيم المتطورة او المتغيرة .

ذلك ان من أخطر ما تهدف إليه الفلسفة المادية وربيبتها العلمانية القول بالتطور المطلق الذي لا ثبات معه على نحو يعرض للدين والقيم الروحية والخلقية بالتشكيك والاضطراب . إن التطور والحركة ظاهرة طبيعية ، ولكن أين تجري الحركة او التطور، هل تجري في الفراغ المطلق ، أم تجري داخل إطار ثابت . ذلك هو التجاوز الخطير الذي تجنح إليه الفلسفة المادية جرياً وراء خطها الواضح خط التجزئة والانشطارية .

لقد نشأت فكرة التطور في مجال البيولوجيا ، كنظرية علمية محضة ، ثم نقلها الفلاسفة الى مجال المجتمعات والفكر. وجاءت قوى ذات أهداف معينة، فركزت على فكرة التطور ، وأعلتها إعلاءً خطيراً حتى جعلتها أشبه بالعقائد الثابتة في إقرارها بالسلطان على كل القيم والمقدرات الاخلاقية والاجتماعية . وكان ذلك جرياً مع الاتجاه المادي الخالص الذي يحاول أن ينكر كل ما سوى الحس والمادة من قيم .

ومن الحق ان أي تطور او حركة في الكون او المجتمع لا يمكن أن

تنطلق من فراغ ، او تجري الى غير غاية ، ولا بد لكل متحرك من إطار او فلك معلوم، وأن هناك استحالة عقلية في أن تجري حركة التطور عشوائياً من غير نظام ثابت ، او قانون حاكم .

وهنا ينكشف تجاوز الفلسفة المادية لمنهج العلم حيث تسيطر القوى التي تتخذ من النظريات العلمية والفلسفية أسلحة لتحقيق غايات بعيدة المدى ، ثم تصيب هذه النظريات بالتمويه وتغلف الأهواء ببريق كاذب ، له طابع العلم ومظهره .

والمفهوم العلمي الصحيح هو أن هناك عناصر ثابتة ، وعناصر متغيرة ، يجري عليها التطور ، وأن تناسقاً يجري بين عناصر الثبات وعناصر التطور. وهذا المفهوم العلمي نفسه يطابق مفهوم الاسلام ، فالاسلام يؤمن بثبات الأصول العامة والقواعد العليا مع تطور الجزئيات والتفاصيل والفروع .

ويستمد الفكر الاسلامي مفهومه في التطور والثبات من قانون التوازن الذي يحكم الموجودات جميعاً ، ومن هنا فلا سبيل الى القول بالتطور المطلق ، وإنكار عنصر الثبات ، ولا بد من الارتباط بين القاعدة والحركة ، ومن المستحيل عقلاً ، ومن المناقضة لقوانين الوجود والحياة أن ينفصل التطور عن قاعدته ، وأن يجري في إطلاق ، والحياة تتحرك وتتغير في كل جزئياتها ، ولكنها لا تخرج عن قواعدها الثابتة ، والفكر بعامة يتطور ، ولكنه يظل ثابت الأصول والمقومات ، والقاعدة العلمية الأصيلة هي: « الحركة حول محور ثابت » . وفي الحياة قيم ثابتة لا سبيل الى تطورها فيما يتعلق بوحدانية الله ، وحقيقة الانسان ، وأصول الدين ، ووحدة الجنس البشري ، وحدود الله ، والبعث والجزاء . فلا تستطيع نظرية التطور بالغة ما بلغت أن تتحدث عن تطور في هذه القيم منذ قامت الارض ، وأنزلت الأديان ، وسعى الانسان في الارض .

ولا ريب أن ثبات هذه القيم هو الذي يفسح المجال للحركة والتطور في مختلف المجالات ، وتبقى هـــذه الرواسي قائمة كعلامات أصيلة تهدي الى كل طريق .

وقد جاءت هذه الثوابت بمثابة ضوابط للحركة ، فهي لا تتناقض معها . ولكنها تعين عليها ، فهي ليست قواعد معوقة بقدر ما هي أدوات منظمة .

ذلك أنه لا بدّ لكل مجتمع من إطار يتحرك داخله ، ويرتكز عليه ، ثم تأتي بعـــد ذلك التفاصيل والجزئيات لتتطور طبقاً للظروف والبيئات والعصور .

وإذا كان هـــذا كله هو حصيلة المنهج العلمي الاسلامي في مفهوم التطور والثبات ، وهو مطابق للمنهج العلمي العام الجامع بـــين جناحي المعرفة ، والذي لا يقتصر على مفهوم ( المادة والعقل والعلم التجريبي ) فحسب ، فـلا شك أن محاولة فرض مفهوم للتطور المطلق ، إنما هو هدف من أكبر أهداف الفلسفة المادية التي تحاول أن تسيطر بقوة على الفكر البشري كله ، وتفرغه من مفاهيم الايمان بالله ، والأديان ، والبعث ، والجزاء ، وتدفع به بعيداً الى نهايـــة خطيرة تجدها واضحة وضوحاً لا مرية فيه ، لكل من راجع ( بروتوكولات صهيون ) او نصوص التلمود ، او اتصل بالمحاولات التي جرت في الغرب خلال عصر التنوير في سبيل إخراج الفكر الغربي المسيحي الأصل من كل القيم . ودفعه الى مجال المادية المفرقة ، وتشكل هـذه المحاولة فلسفة واضحة متكاملة تهـدف الى تدمير قوى الأديان والتوحيد والأخلاق والإيمان بالله . ودفع الانسانية كلها الى الدمار بتحطيم قيمها ومعنوياتها .

ولقد كانت نظرية التطور هي المنطلق الخطير للقول بأن كل شيء يتحول ويتغير ، ولا يبقى شيء ثابت ، وإن كل أمر يبدو ضعيفاً ، ثم ينمو ويكون في المراحل الأخـيرة أقوى وأعظم منه في مراحله الأولى ، ولا ريب أن في

ذلك زيفاً كثيراً، لأنه يراد بذلك أن يقال ان الحضارة اليوم بعد أن تجاوزت الأديان أصبحت أكثر قوة وأعظم من مراحل الحياة التي عرفت فيها الأديان. ومعنى هذا أيضاً القول بتطور الأديان ، وتطور الشرائع ، وتطور اللغات ، وكل هـــذا سم زعاف يراد به تدمير كل القيم والمقومات الأساسية ، وإلغاء عنصر الثبات الذي تقوم عليه الحياة والفكر البشري جميعاً .

ولقد كان الترويج لمذهب التطور على هذا النحو خروجاً بـــه من المجال العلمي التجريبي الصارم الى المجال الفلسفي الذي لا يخضع لأي سند او قاعدة من القواعـــد الثابتة ، ومن مذهب التطور انطلقت كل المذاهب والدعوات والفلسفات المادية . فقد اعتبره المتشبثون بـــه قاعدة لعلوم جديدة هي : مقارنات الأديان ، وتفسير التاريخ ، وتحليل النفس ، وعـــلوم الأجناس ، والاقتصاد ، والاجتماع .

ومن هنا أخذت هـــذه العلوم تخضع للمذهب المادي ، وتحاول أن تشكل مـــا أطلق عليه المنهج العلمي القائم على المـــادة وحدها . والذي يتناقض مع أبسط قواعد وأصول منهج المعرفة الانساني . ولقد كان القول بالتطور المطلق سبيلاً الى نزع القداسة عن الأديان، والشرائع ، والقيم ، والأخلاق؛ والسخرية منها ، والدعوة الى التحلل والاباحية ، وإنكار مقومات المجتمعات، والعقائد على النحو الذي كشفت عنه نظريات فرويد — ودوكايم — وليفي بريـــل — وسارتر .

ولقـــد هوجمت نظرية التطور المطلق في محيط البحث العلمي الأصيل هجوماً علمياً ، ودحضت بمنطق العقل، ومنهج الفطرة جميعاً. ولكن أصوات دعاتها المسرفين في استغلالها علا على كل الأصوات .

وفي البروتوكولات نص صريح في هـــذا المجال يقول : إن دارون ليس

يهوديـــاً ، ولكننا عرفنا كيف ننشر آراءه على أوسع نطاق ونستغلها في تحطيم الدين .

ومن أبرز من دحضوا نظريـــة التطور المطلق الدكتور كرلسي موريسون الذي أجاب بعد بحث مستفيض على السؤال المطروح فقال : إن حقائق الأشياء ثابتة لا تتغير . وإنمـا الذي يتغير هو الصورة فقط . ذلك ان نزعة الطعام لم تتطور . وإنمـــا الذي تطور هو صورة الطعام . وإن نزعة اتخاذ المساكن لم تتطور . وإنما الذي تغير هو صور البيوت . وإن نزعــــة اللباس وستر العورة لم تتطور . وإنما الذي تطور هو صورة الناس. وإن نزعة القتال والصراع فطرة بشرية ، وإنما الذي تغير هو صورة القتال .

وقال : إن التطور إنما هو فيالصور والهيئات لا في الحقائق، لأن الحقائق ثابتة لا تتغير. وإن القول بأنه ( لا شيء ثابت على الاطلاق ) نظرية زائفة.

والمعروف ان الذين حملوا لواء الدعوة الى التطور المطلق لم يكونوا علماء، وإنما هم أناس موصومون لهم صلة التبعية بالمحافل الماسونية، وان هذه الفكرة أساساً هي من نتاج الايديولوجية التلمودية الطامحة الى السيطرة على العـــالم وتدميره .

وتقول البروتوكولات : لاحظوا ان نجاح داروين وماركس ونيتشه قد رتبناه من قبل. وان الأثر غير الاخلاقي لاتجاهات هذه العلوم فيالفكر الامي ( غير اليهودي ) سيكون واضحاً لنا على التأكيد .

ولقد نقلت العلمانية نظرية التطور بمختلف أخطارها وأبعادها الى الفكر العربي الاسلامي وجرى كثير وراء بريقها دون تقـدير لمفهوم الاسلام الجامع دائماً بين التطور والثبات وهو جمع يقوم على أساس علمي صحيح .

ولقد فرق الباحثون المسلمون بين التطور والتطوير ، وعارضوا القول بأن التطور معناه تفضيل الطور الأخير على الطور السابق له .

فالتطور يشمل أي تغيير يحدث في أوضاع الجماعة، سواء في اتجاه تقدمي تصاعدي ، او في اتجاه عكسي تنازلي، ثم هو فوق ذلك ينبني على أن دوافع هذا التغيير وعوامله إنمـــا يكون منشؤها ذات الشيء ، ومردها الى ما فيه من طاقات طبيعية .

أما التطوير فهو على عكس ذلك ، يختص أولاً بالتغيير التصاعدي الذي يهدف دائمـــاً الى طلب الكمال والحياة الأفضل ، ويتأثر بدوافع خارجة عن طبيعته .

والقوة الخارجة هي : القيادات الاصلاحية والدعوات التقدمية [١] اه .

وفي هذا ما يعني المواءمة بين أصول الفكر الاسلامي ، بما يقوم عليه من تشريعات وقيم . وبين مـــا يتجدد في المجتمع تحت إلحاح من عوامل التطوير الفردي في مختلف النواحي السياسية والاقتصادية والاجتماعية. ومن هنا أصبح واضحاً . ان التطور لا يمكن أن يكون قانونـــاً تقدمياً بمعنى أن كل طور أفضل من الطور الذي سبقه .

ومن ناحية أخرى فـإن الفكر الاسلامي قد واجه أخطاء نظرية التطور التي جعلهـــا أصحابها منطلقاً الى الفكرة العلمانية . والتي ارتبطت أساساً بالنظرية المادية ، وخاصة فيما يتعلق بإنكار الخالق ، والقول بنشأة الكائنات الحية نشأة طبيعية .

---

(١) من بحث للدكتور محمد بيصار في كتابه العقائد والاخلاق .

والفكر الاسلامي يثبت الخلق لله لا للطبيعة ، ويقرر وقوع البعث في الآخرة، كما يقرر الايمان الكامل بعالم الغيب ، بل إن ما يتصل بنظرية التطور من آراء تتصل بالارتقاء والانتخاب الطبيعي كلها قد دحضها العلماء الذين جاءوا على طريق دارون من بعده ، وانكشف زيف هذه الآراء وانكشف هدف تزييف النظرية وسوقها الى الغاية التي يريدها الماديون خروجاً من نطاق العلم التجريبي الذي زيف كل دعاوى الفلاسفة ، وهو هدف واضح محدد ، يرمي الى القضاء على فكرة الدين وما يتصل بها من إيمان بالله وباليوم الآخر .

( ٧ )

من أخطر ما وصلت الى تقريره فكرة العلمانية انطلاقاً من مبدأ التطور المطلق . القول بنسبية الاخلاق ، والقول بتطور الاخلاق تبعاً لعامل الزمان او عامل المكان ، واختلاف ظروف الحياة ، وهو منطلق يرمي الى التحرر من الضوابط الاخلاقية ، والمثل العليا جملة ، وينسجم هذا الاتجاه في الفلسفة المادية مع القول بأن الحياة نهاية كل شيء . وان حقيقة البعث والجزاء هي في نظرها من الغيبيات التي لا تقع تحت طائلة الحس او مجال التجربة .

والواقع أنه لما كانت إرادة الانسان أساساً هي منطلق المسؤولية الفردية في الحياة . فقد كان لا بدّ لهذه المسؤولية من محاسبة وجزاء . ولم يكن أن توجد الحياة عبثاً . وان رسالة الإقامة في هذا الكون ترتبط مسؤولية وأمانة ورسالة لها قواعدها وأصولها ، ثم هي مقدمة لبعث وحساب وجزاء . وإلى جانب المسؤولية الفردية التي هي مناط التكليف ، هناك الالتزام الخلقي في التفرقة بين الخير والشر ، والتماس الخير ، ومفهوم الالتزام يقتضي أن يكون الانسان قادراً على تجاوز الرذيلة والتماس الفضيلة. وقد دعا القرآن الى الالتزام الخلقي وكشف عن أن النفس الانسانية قادرة على تجاوز الشر . وان إرادة الانسان لكفيلة بردهـا ، وان في النفس قوة كامنة تهيء التوجيه والإرشاد ،

وتحدد للانسان ما يجب عمله ، وما يجب تحاشيه ، والنفس الانسانية في تقدير القرآن ليست شريرة في أصلها ، والأمر في الالتزام الخلقي متوقف على مدى استخدامنا للقوى العليا التي أودعها الله فينا .

فالاخلاق في مفهوم الاسلام ثابتة لأنها مرتبطة بالانسان نفسه الذي تشكلت قواه على النحو الذي يجعله قادراً على تبين طريقه في أي عصر وفي أي بيئة .

وقوام الاخلاق في الاسلام : الحرية والاختيار ، فلا اخلاق بغير حرية ، كما لا تكليف بغير اختيار . والإرادة حركة داخلية نفسية صرفة ، ولذلك يقرر الاسلام أن المكره إذا فعل ما يكره عليه ، كان له عذره ، ومن حرية الاختيار : أن يكون العمل الخلقي متصفاً بالطواعية والانبعاث من أعماق النفس .

ويقوم مفهوم الاخلاق في القرآن على أساس الاستطاعة والتوفيق بين أوامر الله ومقتضيات الواقع ، ويجمع بين الاتجاهين ، لا تحديد صارم ، ولا ترك كامل .

وقد رسم الاسلام للأخلاق منهجاً واسعاً مرناً يسير التطبيق في مختلف العصور والبيئات ، وجعل إطار القيم الاخلاقية واسعاً رحباً يحقق الحرية الشخصية ، ويتقبل الجهود الفردية . أما الضوابط التي أقرها كقواعد اخلاقية، فقد أقام بها حواجز متينة ضدّ الظلم والشر والفوضى. وقد أتاحت هذه الضوابط مع رحابة الإطار فرصة للناس في مختلف العصور للقدرة على الحركة والتشكل ، واختيار الصور والأوضاع التي توفق بين القيم القرآنية الاساسية للأخلاق ، وبين التجارب والاحداث التي يقدمها تطور المجتمع ، بما يحقق التقدم والحركة في جو من الحرية الفكرية مع التعبير عنها بما يلائم

العصر . وفي حدود هـذه المرونة جعل الاسلام من القيم الاخلاقية قيماً ثابتة في كل عصر وبيئة ، وربطها بالانسان نفسه. أما محاولة القول بنسبية الاخلاق في مفهوم العلمانية والفلسفة المادية ، فإنـه مرتبط بإنكار البعث يستهدف القضاء على فكرة الإلزام التي هي أساس تطبيق الاخلاق ، ذلك انـه إذا انعدم الإلزام ، انعدمت المسؤولية ، وفقدان المسؤولية يؤدي الى ضياع الحق نفسه ، واستحالة إقامة أسس العدالة .

## الفصل الثالث

# العلمانية والدين

إن أخطر ما تعارضه العلمانية : هو الدين، وان ما وصلت إليه من إقرار نظرة علمية فلسفية تختلف عن منهج العلوم التجريبية ، ويتميز بالتحرر من العقائد الغيبية ، والعواطف تحت إسم العلمانية ، إنما هو في تقدير أصحابه بديل عن الدين ، وان هذا المنهج يستهدف تفسير الحياة والمجتمع : تفسيراً حسياً ، زمانياً ، دنيوياً ، ليحرر البشرية من الاديان التي تتسم بأشياء ثلاثة خطيرة :

الغيبيات — والاساطير — الغائية والحياة الآخرة ، وان هذا المنهج يستهدف :

أولاً : التحرر من قيود الاديان التي تضعها للمعرفة البشرية ، والتي لا يمكن تخطيها .

ثانياً : رفض اعتبار الدين أساساً لحياة الجماعات البشرية .

ثم تقدم العلمانية في منهجها الخطير مجموعة فروض :

الفرض الاول : أن الكون مستقل في ذاته تفسره القوى والقوانين التي

تشكل منها وتسوده فلا يحتاج الى أية قوة خارجية يستعين بها في تفسير ما يحدث فيه .

الفرض الثاني : ان الطبيعة والمجتمع في حركة وتغير لا ينقطعان، والنشاط البشري في تطور دوماً الى الامام لا يعرف الغائية ولا الاستقرار .

الفرض الثالث : هو أن الاديان مهما اختلفت فهماً في نظرتها الى الكون والمجتمع والانسان واحدة، وأنها تعتبر العالم الذي نعيش فيه محطة انتقال الى عالم أخروي أفضل . ولذلك فإن السلوك يجب أن يتجه بكليته الى العالم الآخر . هذا في اختصار هو موقف العلمانية من الدين .

والحق ان العلمانية هي النتاج الاخير المحاولات الخطيرة الدائبة منذ عصر التنوير في اوروبا من أجل هدف خطير تستهدفه الايديولوجية التلمودية وتعمل دائبة له عن طريق الفلسفة المادية ونظرياتها المتعددة التي انتقلت خلال مراحل عديدة . واستهدفت معارضة وجود الله والاديان والرسل ، والكتب السماوية من ناحية ، ومعارضة الشرائع والاخلاق من ناحية أخرى . وإقامة دين جديد يحل محل الدين الحق المنزل بالوحي من عند الله ، هو دين البشرية المتحرر بالإلحاد من الالوهية، والمستعبد بالعلمانية للربا ، والجنس ، والوثنية ، والإباحة ، والذهب .

ولقد نجحت التجربة في الغرب نجاحاً منقطع النظير ، مما أغرى دعاة العلمانية الى مسابقة الزمن في حمل المسلمين عليها ، غير ناظرين الى مدى الفوارق البعيدة في العقائد والملل والنحل بين الغرب والشرق .

وكان الاسلام هو الصخرة الصماء العاتية التي تعجز العلمانية عن مناطحتها مهما بدا لها خلال نصف قرن، او يزيد ان الاساليب المفروضة من خلال التعليم

والثقافة . والقانون الوضعي، والمصرف ، والصحافة . والتربية قد استطاعت أن تركز للعلمانية قاعدة سوف تنطلق منها الى استيعاب الفكر الاسلامي ، واحتواء المجتمع الاسلامي ، وتحقيق الغـــاية الكبرى على النحو الذي توقعه توهمـاً بعض اتباع العلمانية بعد نكسة ١٩٦٧ حين تعالت الصيحات بالدعوة الى قطع آخر خيط يصل المسلمين بدينهم وفكرهم . كثمن لتحررهم من الصهيونية الغازية ، أي بمعنى أشد وضوحاً . الدعوة الى الاستسلام الكامـل للأيديولوجية التلمودية ثمناً لجـــلاء اسرائيل بعد أن يصبح العرب والمسلمون تلموديين صهيونيين بالعقيدة والفكر . وتلك غاية العلمانية .

والواقع ان ركائز الدين في عالم العرب والاسلام أعمق ممـــا يتصور دعاة العلمانية ، وان المقارنة بين عالمين في مجال الدين يكشف عن خطأ في التقدير. او تجاوز في الأهواء .

ولو ان العلمانيين كانوا علميين حقاً يصدرون عن فهم للتجربة بمـا تحتويه من مقارنة ومقايسة لكان عليهم أن يقارنوا بين مفهوم الدين من حيث يطلق على عموميته، وبـــين مفهوم الاسلام كدين له طابعه المتميز من حيث هو دين ونظام مجتمع .

لقد كان الخطأ الكبير الذي وقعت فيه العلمانية، وهي تنعى الدين وتشهر بـه أنها اعتمدت على تفسيرات زائفة ، ولم تعتمد على أصول أصيلة لدين الله الحق، وانها نظرت من خلال مرحلة محدودة لها ظروفها وطبيعتها . وعجزت أن تنظر نظرة كلية لتحيط بالقضية من مختلف أبعادها . وأن العلمانية حين تصف الدين بأنـه مجموعة من الغيبيات والأساطير ، والخرافات ، والأوهام . إنما كانت تصف واقعاً أمامها ، غير أنه لم يكن في الحقيقة كل الدين ، وأنهـا حين تصف اتباع الدين بأنهم أصحاب عقلية غيبية . فــإن ذلك لا يزعج أصحاب بيئة معينة ، او أنهم حين يقول قائلهم : أفيون الشعوب، او مصدر

الاستبداد ، او خداع الضعفاء وتعليقهم بالجنة في الآخرة . كل هـذا وارد في حدود النموذج الذي كان موضع التحدي وردّ الفعل .

وإذا ذهب بعض رجال علـم النفس او الاجتماع او الاخلاق الى إقرار نظريات تتصل بالكتب او مقاومة الغرائز ، او معارضة طبيعة الانسان في معطياته ورغائبه . فإن ذلك إنما يمثل واقعاً عرفه الغرب باسم الدين، ولكنه لم يكن هو الدين في مفهومه الحق المنزل من عند الله وإنمـا كان ذلك كله تفسيراً بشرياً .

ومن الحق أن تردد العلمانية كلمات الاساطير والاوهام والخرافات ، لأن ذلك اتصل بذلك الفكر المعروض باسم الدين، والذي يعطي حق فهم الاسرار لطائفة من الناس من دون الناس جميعاً . غـير ان العلمانية كانت عاجزة عن أن تفهم ان تحدياتها قاصرة على بيئة معينة، وان ما تواجهه ليس هو «المنهج» الأصيل الذي قدمته رسالات الانبياء . بل ربمـا لم تكن العلمانية عاجزة ، ولكنها كانت مفرضة ، وكانت على أهواء تريد أن يجتاح الدين بالحق او بالباطل، وأنها استفادت من بعض وقائع في التاريخ من جراء تطبيق تفسيرات فاسدة . ولو أنها كانت علمانية بالمعنى العلمي الحقيقي لوقفت عند حدود الحق. ولا نصفت كلمة الدين ، ولنظرت نظرة واسعة في الدين الخاتم ، وفي الكتاب المهيمن على الكتب ، ولم تشط في البحث ولم تتعسف النظرة ولآبت الى شيء من الانصاف بديلاً لهذا التعصب والظلم والإفتئات .

( ٢ )

ليس الاسلام في الحقيقة كما تصورت العلمانية الأديان، فقد حفظت نصوصه ومصادره ، وفصل بين الأصل فيه، وبين تفسيرات المفسرين والفقهاء ، وبقي النص الأصيل ثابتاً ، ( لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه ) . ولا ريب أن المراجعة المنصفة له تكشف بوضوح عن اصالته في ارتباطه بالفطرة، وفي مسايرته للعلم ، وفي إنشائه للمنهج العلمي الأعلى الذي تجرد من الاهواء ، وسلم من الغايات والمطامع ، ولا ريب أن إلقاء نظرة على مصدر الاسلام ، وهو القرآن الموحى به من الله ، يكشف للنفس المتطلعة الى معرفة الحق ، عن الضوء الساطع الذي يقنع القلب والعقل معاً ، وقد هدى العشرات ، بل المئات في العصر الحديث ممن التمسوا عنده أصول المعرفة .

ففي مجال الصلة بين الانسان والله ، وبين الانسان والكون، وبين الانسان والحياة ، وبين الانسان والمجتمع . قدم القرآن نهجاً غاية في السلامة والحكمة خالياً من الاساطير والأوهام والخرافات التي لابست بعض تفسيرات الأديان . فجمع له بين الإيمان والمعرفة ، والروح والمادة ، والقلب والعقل ، والدنيا والآخرة . وكشف عن حقيقة الانسان ومهمته في الحياة ، وأجاب عن كل الأسئلة المحيرة التي ما تزال الفلسفات تبحث عنها . أجاب عليها منذ أربعة عشر قرناً بما يقنع ذوي الألباب . لماذا جاء وما هي رسالته ومسؤوليته ،

وكيف يبعث بعد موته ليشهد يوم الجزاء والحساب، ويعيش الحياة الأخرى، والقرآن يهدي الى هـذا الفهم في أسلوب يخاطب العقل والقلب ، بالإقناع والبرهان ، وبالموعظة والحكمة ، وبالتجربة والتاريخ ، وذلك منهجه الجامع المعرفة الذي لا يقتصر على أسلوب واحد منها ، او طريق واحد إليه .

ولقد حرص الاسلام عن طريق منهجه القرآني أن يحـذر الإنسان من انشطارية المعرفة ، وانشطارية الحياة ، والتفرقة بين جوانبها المختلفة ، كما قدم له منهجاً كاملاً عن « عالم الغيب » حتى يكون على بينة منه ، فلا يحتاج الى البحث عنه ، وليمضي في طريقه الى كشف أبعاد الحياة ، والتماس ذخائرها وكنوزها ، وبناء المجتمع ، وإنشاء الحضارة ، وإقامة أسباب العمران . وقد أقام الاسلام منهجه على قاعدة واحدة كلية هي : التوحيد .

فالإيمان بالله وإقراره بالعبادة، والإقرار له بالخلق والأمر هو دعامة الأمر كله . ومنه تنطلق كل أسباب الحياة .

وقد أكدت الأبحاث والدراسات العلمية ضرورة الدين ، ووجود نزعة التدين في كل بني البشر ، وحاجة النفس الإنسانية اليه ، ولا توجد أمارة واحدة تدل على أن ظاهرة التدين ستزول من الارض قبل أن يزول الانسان[١].

والدين هو الاعتقاد بوجود ذات غيبية علوية لها شعور واختيار ، ولها تصرف وتدبير للشؤون التي تعني الإنسان ، وهو الإيمان بذات إلهية جديرة بالطاعة والعبادة .

ومطلب الألوهية مطلب توافرت عليه الفلسفات والنبوات ، وأن دلائله

---

(١) دكتور محمد عبد الله دراز : الدين .

البرهانية ماثلة في الانفس ، وفي الآفاق ، وان بواعثه النفسية مركوزة في العقول وفي الوجدانات .

وان آيات الألوهية مبثوثة في كل مكان ، وان وسائل الناس الى معرفتها مختلفة. وقد أقام القرآن منهجاً علمياً في المعرفة يعز نظيره في شموله وتكامله. فقد اعتمد على أعمدة متعددة بتعدد معطيات الانسان :

أولاً : المنهج الطبيعي بالحديث عن السماء والارض والحياة والموت .

ثانياً : المنهج الروحي ، بالحديث عن الجسم والروح ، وانفصال الروح بعد الموت .

ثالثاً : المنهج النفسي ، بالإشارة الى قصور الإرادات الانسانية عن بلوغ أهدافها ، وإلى عجز الإنسان أمام المقادير العليا ، وتحول الإرادات الانسانية عن أهدافها .

رابعاً : المنهج النفسي ، بالحديث عن النفس في مراحلها المختلفة : النفس الامارة ، النفس اللوامة ، النفس المطمئنة .

خامساً : المنهج الاجتماعي بتقرير ما للبيئة والوراثة من سلطان بليغ على النفوس والافراد .

سادساً : المنهج التعليمي ، وهو منهج واضح في آيات القرآن .

( ٣ )

لا ريب في وجود ظاهرة الدين في البشرية كلها ، يؤيد ذلك مـــا قاله بلوتارك (في القرن الاول للميلاد) : من الممكن أن تجد مدناً بلا أسوار، وبلا ملوك ، وبــلا ثروة ، وبــلا آداب ، وبلا مسارح . ولكن لم ير إنسان قط مدينة بلا معبد ، او لا تمارس العبادة .

ويقول ماكس مولر : إن الدين قوة من قوى النفس ، وخاصية من خواصها ، وان البشر بتأثير هــذه القوة ، وبأسماء ورموز مختلفة متعددة ، تــأهب لإدراك الاسرار الغامضة ، وان فكرة التعبد من الغرائز البشرية التي فطر عليها الانسان منذ نشأته الاولى .

ويعتبر علماء الاجتماع، الدين من أهم القواعد التي قـــام عليها بناء المجتمع البشري ، ولم يذكر التاريخ قوماً او جماعة عاشت دون أن تؤمن بدين .

ويقول سنوندر بلوم في كتابه ( مختصر تاريخ الاديان ) : لم يغير في أي مكان على قبيلة ، او شعب ليس له طقوس مقدسة ، او أنه لم يؤمن بكائنات عليا ، وان الذين أدعوا بوجود شعوب وقبائل لا تدين بدين ، إنما استندوا في دعواهم الى ملاحظات غير صحيحة .

ويقول أرنست رينان : من الممكن أن يضمحل ويتلاشى كل شيء نحبه وكل شيء نعده من ملاذ الحياة ونعيمها . ومن الممكن أن تبطل حرية استعمال العقل والعلم والصناعة . ولكن يستحيل أن ينتهي « التدين » اويتلا شى ، بل سيبقى الى الابد حجة ناطقة على بطلان المذهب المادي الذي يود أن يحصر الفكر الانساني في المضايق .

ويرى فريد وجدي ان الدين ليس فلسفة ، ولا فقهاً ، ولا علماً ، وإنما هو ميل روحاني في النفس للخلاص من أسر المادة الارضية والاتجـاه الى الانسانية ، وان هذا الميل فطرة ممـا فطر الله عليها كل نفس إنسانية ، وما يزال يزيدها العلم قوة وظهورا ، ولا يعقل أن دوراً من أدوار الاجتماع ، ولا حـالاً من أحوال التقدم الصناعي يلاشي هذه الفكرة . ويرى علماء الاجتماع المحدثين ، عدم جواز نجاح مؤسسة تستند الى الكذب ، والزيف واستمرارها ودوامها وقتاً طويلاً بحيث تظل في حيوية عظمى ، وعندهم ان الاديان ظاهرة طبيعية ، ولولا ذلك لاعترضت سبيلها مقاومة قاهرة يتعذر التغلب عليها ، وان في العقل ميلاً الى التوحيد ، فهو يطلب دائماً الوحدة وراء التنوع .

والحقيقة الاولى في الدين هي التوحيد ، وليس الوثنية ، فقد بـدأت البشرية موحدة ، ثم اضطربت بهـا السبل فانحرف الانسان عـن عبادة الله الحق ، وعن الاصنام ، وقد تأكدت هذه الحقيقة في القرآن فضلاً عما كشفت عنه الحفريات والابحاث الانتروبولوجية. وليس صحيحاً ما يحاول بعض دعاة مقارنة الاديان من ان هناك تدرج او تطور من السحر والكهنة ، والتنجيم ، والتمائم ، والطقوس الى عقيدة التوحيد .

ذلك أن الانسان بدأ موحداً ، وآدم عليه السلام اول من حمل رسالة التوحيد أما السحر والكهانة والتنجيم والتمائم ، فتلك إنمـا تمثل تحولات الانسان من التوحيد الى الوثنية ، ومن الفطرة الى أهواء النفس ، وتتمثل صورة الدين

الحق في الاسلام الذي نجا من التحريف في النص ، او التزييف في التفسير ، وأبرز معالمـه هي تطابقه مع الفطرة الإنسانية ، وقدرته على العطاء لكل العصور والازمنة والبيئات واكتمال هدفـه في منهج شامل عبادة وشريعة وأخلاقاً .

ويقوم مفهوم الدين الحق كما نراه في الاسلام على أساس تحرير الانسان من العبودية الإجماعية والتبعية الفكرية. ومن الرهبانية والزهادة ، في نفس الوقت الذي يحرره فيه من الترف والأباحية . وقـــد لمح هذه الظاهرة كثير من الباحثين . يقول بارتلمي سانهلير : « إن الاسلام قد أحدث رقياً عظيماً » . فقد أطلق العقل الانساني من قيوده التي كانت تأسره حول المعابد ، وبـــين أيـدي الكهنة من ذوي الأديان المختلفة . فارتفع الى مستوى الاعتقاد بحياة وراء هذه الحياة ، وان الاسلام بتحريمه الصور في المساجد وكل ما يمثل الله ، قد خلص الفكر الانساني من وثنية القرون السابقة . واضطر العالم الى أن يرجع الى نفسه وأن يبحث عن الله خالقه .

نعم : لقد فتح التوحيد للبشرية آفاقـاً من المعرفة حققت للقلب والعقل الانساني التماس الحقيقة التي ظلت مضطربة بـــين أهواء المفسرين ، ومطامع الظالمين . فانكشفت عن النفس الانسانية غياهب الأوهام والكهانة والسحر ، والعرافة ، والوثنية التي قيدتها بهـــا مفاهيم العقلية الغيبية . وبالإسلام أزيح ذلك الخطر الذي فتح أبواب الإلحاد ، والشك ، والارتياب ، والزيـغ الذي سقطت فيه العقول والنفوس . وبرز طابـع الفطرة الانسانية القادرة على عطاء الإيمان واليقين ، وحل بالبشرية عصر جديد .

فلا ريب ان كلما يتصل بالعقلية الغيبية ، والاوهام والاساطير ، والكهانة والسحر. إنما هو متصل بعصور ، جاء الاسلام ليضع نهايتها في تاريخ البشرية ، وليفتح الباب واسعاً من جديد أمام البشرية لتتخلص من أوهامها وآثامها .

يقول العلامة مسمر : إن التوحيد الذي هو أساس الدين الاسلامي . كان السبب الاول في نجاح دعوة محمد ، وان إعلان محمد هـــذا التوحيد في عصر حلّت فيه الأمم خرافات علم اللاهوت. كان أفضل ما جاء به وأفعله بالعقول حتى أنه مـا كاد يفوه بالدعوة الى توحيد الله حتى استنار العالم كله بدعوته . وفضلاً عن ذلك فـــإن الإيمان بالله جنب المعارف الانسانية من الانقسام الى دينية وعقلية . ولقد كان مفهوم التوحيد هو أساس منهج المعرفة الاسلامي ، وهو الفيصل الواضح الدقيق بينه وبين عشرات من النحل والمذاهب والعقائد. وعلى أساسه رفض الاسلام التعدد والوثنية والأثنينية . ورفض بـه المسلمون رأي أرسطو في الله ، ورأي الفلسفات الهلينية في تجاوزهـــا ، والفلسفات الغنوصية في قولها بالاتحاد والحلول ووحدة الوجود .

والاسلام هو الذي أعلن رب العالمين للبشرية كلها ، والذي تشمل رعايته التي لا حد لها ، ورحمته الواسعة جميع الأمم والاقوام .

وليس الإله الذي يفضل شعبه على الشعوب الاخرى ، ولا حيث يختلط الألوهية والبشرية كما رفض الاسلام مفهوم الفلسفات اليونانية ، ورفع الابطال الى مصاف الآلهة ، وانصاف الآلهة ، وحرر العلاقة بـــين الله والانسان على النحو الذي يحقق مكانة الانسان عبداً لله، ومكانة الله سيداً للعالمين مع الايمان برحمة الله وبره وعطائه ، ألوهية ينفرد بها الله سبحانه ، وعبودية يشترك فيها كل حي وكل شيء .

وألوهية الله ليست موضع ريب او شك . وليست في حاجة الى دليل ، فكل مصنوع له صانع . وان الحوادث كلها لا بدّ لها من محدث صانع ، هو قديم لم يزل ، ليس له صورة ولا أعضاء ، ولا يحويه مكان بعينه ، ولا يجري عليه زمان . وقد أثبت العلم الحديث مفهوم الله سبحانه حيث يقول : (واين أولت ) أحد العلماء المتخصصين في الكيمياء .

إن الله كما نعرفه ليس مادة او طاقة، كما أنه ليس محدوداً ، حتى نستطيع أن نخضعه لحكم التجربة . والعقل المحدود . بل على نقيض ذلك ، نجد التصديق بوجود الله ، يقوم على أساس الايمان ، وهو إيمان يشهد تأييداً علمياً من الدلائل غــير المباشرة التي تشير الى وجود ( سبب أول ) او إلى دافع مستمر منذ القدم . إن الايمان بالله يعد لازماً لاكتمال وجود الانسان ، وتمام فلسفته في الحياة ، ولا شك أن الاعتقاد بوجود إله خالق لكل الأشياء ، يعطينا تفسيراً بسيطاً سليماً واضحاً في النشأة والابداع ، والفرض والحكمة ، ويساعدنا على تفسير كل ما يحدث من الظواهر . أما النظريات التي ترمي الى تفسير الكون تفسيراً آلياً . فإنهــا تعجز عن تفسير كيف بدأ الكون ، ثم ترجع ما حدث من الظواهر التالية للنشأة الأولى الى محض المصادفة، فالمصادفة فكرة يستعاض بها عن وجود الله ، بقصد إكمال الصورة والبعد عن التشويه، ولكن فكرة وجود الله أقرب الى المنطق والعقل من فكرة الصدفــة . ولا شك ان ذلك النظام البديع الذي يسود الكون . يــدل دلالة حتمية على وجود إله منظم ، وليس على وجود مصادفة عمياء تخبط خبط عشواء . وعلى ذلـك فالمشتغل بالعلوم هو أول من يجب عليه التسليم تسليماً منطقياً بوجود عقل مبدع ، لا حدود لعلمه، ولا لقدرته موجود في كل مكان يحيط بمخلوقاته برعايته سواء في ذلـك الكون المتسع ، او كل ذرة ، او جزئية من جزئيات هذا الكون اللانهائية في تفاصيلها الدقيقة . اهـ

ويقول (كرسي مورلسون) : ان وجود الخالق تدل عليه تنظيمات لا نهاية لهـــا تكون الحياة بدونها مستحيلة وأن وجود الانسان على ظهر الارض والمظاهر الفاخرة لذكائه ، إنما هي جزء من برنامج ينفذه بارىء الكون .

( ٤ )

ما هي صلة الدين بالاساطير : إن النظرية العلمانية تكثر من ترديد عبارة الاساطير ، فما هي علاقة الأديان بالأساطير . لقد جاءت الأديان لتحرر الناس من الأساطير التي يصنعها الفكر البشري حين يتحول عن عقيدة التوحيد ، ويندفع وراء أهوائه ليرسم لنفسه طريقاً مغايراً ، رغبة في الانفلات من الضوابط والحدود التي رسمها الدين للانسان رحمة به وحماية له من أمرين : من الضياع والقلق والتمزق النفسي من ناحية انفصاله عن العقيدة. ومن التحلل والفساد والتدمير الخلقي والجسماني من ناحية انفصاله عن الشريعة والاخلاق . ولكن الانسان دائب على الانفصال عن ضوابط الأديان وحدودها ، سواء بالإلحاد الصريح ، او بالتأويل الباطل . ومن وراء الانسان قوى تعمل لدفع البشرية عن طريق الحق ، وهي قوى ضخمة تملك إمكانيات متعددة ، ولها مطامع وأهداف في إزالة الأديان والاخلاق . وبناء امبراطورية الربا الوثنية. وقد اتخذت في العصر الحديث منطلقها الى العمل عن طريق الفلسفات المادية، وفي ستار له بريق تحت اسم العلم والعقل ، واستطاعت أن تحول الأهواء والأوهام والاساطير والسحر والوثنيات كلها الى علوم لها منهج العلم وصورته. وقد استطاعت أن تعيد احياء الفكر البشري القديم كله في غنوصية ووثنية،

وتشكيله في صورة جديدة ليكون سلاحاً من أسلحة الايديولوجية التلمودية. وهي في أول دعواهـا تتهم الدين بالغيبية وبالاسطورية ، وبأنـه أوهام وخرافات. ومن الحق المقرر أن الدين الحق المنزل عند الله بالوحي الى النبي، قد جاء دائماً ليحرر البشرية من الاساطير المتراكمة.

وليست الأساطير إلا تفسير الحياة تفسيراً بشريـاً بعيداً عن التفسير الانساني الذي جاء بـه الدين الحق ، ولقد كان للفرس واليونان والهنود والفراعنة والجاهلية العربية أساطير مشتركة الاصل وثنية الطابع ، تـدور كلهـا حول التعدد والشرك والسحر والكهانـة ، وعبادة الابطال ، وعبادة الاجساد ، وعبـادة الاصنام ، والشمس والقمر ، والكواكب ، وعبادة النار.

وقد قامت في ظل هذه الاساطير الوثنية مفاهيم ضالة مضللة تدفع الانسان الى التماس الاهواء. وكان لليهود دور كبير في احياء مفاهيم السحر، والاتصال بالجن، وما يتصل بذلك من العرافة والكهانة (وهما التنبؤ بالمستقبل والكشف عن الماضي) فلما جاء الاسلام زيف كل هذه المفاهيم ، وقضى عليها ، وأحل محلها الايمان بالله الواحد. ودعا المسلمين الى مجانبة السحر والعرافة ، والاعتماد على الله وحده ، والثقة بـه ، وأنكر الاصنام والاوثان والتماثيل والانصاب جميعاً ، ما كان منها مصنوعاً على أشكال او صور المخلوقات الحية ، وحارب الطقوس الزائفة ، وألغى الوساطة بـين الخلق والله ، وأنكر مهمة الوسطاء والشفعاء من كهنة وغـيرهم ، كما أنكر الاستقسام بالازلام ، والتطير والطيرة والرقى، وتقريب القرابين للآلهة ، او للنيل وتقتيل الاولاد ، كما ألغى عادات وأد البنات خشية العار ، او الاولاد خشية الفقر ، وأنكر التطير ، ووضع للمسلمين مناهج لمواجهة الامور كلهـا ، كالاستخارة والصلاة والدعاء لمواجهة

فزع الاحلام ، وقلق الاحداث ، ورد الامور كلها الى الله، فليس هناك قوى غيبية تهيم في الارض ، وتخرج من البحار في الليل ، وتقتل الناس ، ولكن هناك قوة واحدة ، هي الله وحده الذي يلتمس ويقصد وإن كل ما يقصد من دونه هباءً .

ولقد كان اليونان والفراعنة والفرس والهنود، يقيمون الاعياد والمهرجانات لآلهة الخمر والحصاد وغيرها ، ويقدمون لهـا القرابين ، فأعلن الاسلام بطلان ذلك كله (قد خسر الذين قتلوا أولادهم سفهاً بغير علم وحرموا ما رزقهم الله افتراء على الله ) وأعلن أن الاستقسام بالازلام لمعرفة الغيب رجس من عمـل الشيطان ، ونهى عن التطير والتشاؤم وعده من الشرك كما عــدّ السحر من الشرك . وبذلك حرر الاسلام البشرية كلهـا من أوهام خطيرة عاشت زمناً طويلاً، وكأنها قيم وحقائق ومقررات كما كشف عن الصلة بين اليهود والسحر، وبـين السحرة والشياطين ، وكيف أنهم يعلمونهم ما يفرقون بـه بين المرء وزوجه ، ولكنه حسم ذلك حسماً كاملاً حين قال : ( وما هم بضارين بـه من أحد إلا بإذن الله ) . ولقد حدد الاسلام الموقف حاسماً بـين الألوهية والبطولة الانسانية . وكيف ان البطولة مهما كانت في أعلى صورها المتمثلة في النبوة لا ترقى الى الألوهية . والبطولة في الاسلام ليست بطولة الاحجار ، ولكنها بطولة العمل والكلمة ، ويقطع الاسلام قطعاً ببشرية الرسول وبانعدام عبادة الابطال ، او ترقيتهم الى آلهة ، وانصاف آلهة .

وجـاء القرآن فكشف عن جوانب من التاريخ البشري ، وحرر البشرية من الاساطير التي كانت تدور حولها . ثم جاء المسلمون فحرروا سيرة الرسول من الأسطورية ، ووضعوا أول منهج في تاريخ الفكر البشري للتحقيق العلمي ولتحرير النصوص . ولقـد استشرت الأسطورة في الأمم ، وقصر العرب في

جاهليتهم حتى وصفوا بضيق الخيال ، ومرجع هـــذا الى أن الوثنية العربية كانت وثنية تقليدية ، وأنهـــا قامت على انحراف عن دين ابرهم دين التوحيد .

وإذا كان هذا صحيحاً ، وهو صحيح فهل يمكن أن يوصف الاسلام بأنه دين الأساطير والخرافات . وهو الذي حرر البشرية منها .

## ( ٥ )

هل العقلية الاسلامية عقلية غيبية : تحاول العلمانية أن تصف العقلية الاسلامية بأنها عقلية غيبية ، وربما وصفت العقلية العربية في العصر الحديث بأنها غيبية . ومرد ذلك في الاتهام يؤمن بالغيب ، ويقرر وجود عالم الغيب . ولكن هل هذا التكامل في النظرة الجامعة بين التجريب والغيب ، او عالم المحسوس ، وعالم الغيب ، هل هـذا التكامل يمكن أن يصم العقلية الاسلامية بأنهـا غيبية ، او لا يحق لمفهوم في المعرفة يتجاوز الواقع والحس الى الآفاق البعيدة في اتساع النظرة أن يوصف بأنه فكر قائم على التكامل والشمول .

هـل إذا قصرت نظرة فكر عند المادة والعقل المحسوس تحت اسم وجهة النظر العلمية يكون ذلـك أقدر على استكناه الحياة والوجود من فكر تتسع آفاقه ، فتشمل الى جانب المـادة ، والعقل المحسوس أفقاً آخر هو جانب الروح والقلب ، وعوالم البصيرة والايمان والفطرة ، وهل إذا اتسع الأفق على هـذا النحو . فشمل كل مناهج المعرفة التي تعطي الانسان اكبر العطاء ، أطلق على هـذا الفكر صفة الفكر الغيبي ، ووصفت العقلية الاسلامية بأنها عقلية غيبية .

لقـد حرر الاسلام البشرية من العقلية الغيبية التي تقوم على الوهم ومتابعة الآباء دون برهان ، والتقليد الأعمى ، والايمان بالخرافات والأساطير والأوهام

ومـا اقامه الفكر البشري من وثنية وإلحاد ومادية فكيف توصف العقلية الاسلامية بأنها عقلية غيبية .

لربما كان وصف العقلية العربية في العصر الحاضر بأنهـا عقلية غيبية من حيث أنها خرجت عن مفاهيم الاسلام ، وانحرفت تحت تأثير النفوذ الأجنبي، والغزو الثقافي عن المفاهيم الأصلية التي قدمها لها الاسلام بعد أن خضعت لتعاليم الماسونية ، ومناهج الإرساليات ، والقانون الوضعي ، والوثنيات التي تسوقها سوقاً الى عالم الأساطير .

هـذا هو مدلول الغيبية : مدلول الانحراف عن النهج العلمي الأصيل ، وعن الدليل والبرهان ، وعن سلامـة النفس في إصدارها للأمور وحكمها في القضايا . ولقد جاء الاسلام بأكمل منهج لإقرار الحق :

**« يا أيها الذين آمنوا لا يجرمنكم شنآن قوم على ألا تعدلوا أعدلوا هو أقرب للتقوى » . « يا أيها الذين آمنوا كونوا قوامين بالقسط شهداء لله ولو على أنفسكم او الوالدين والأقربين ان يكن غنياً او فقيراً فالله أولى بهما فلا تتبعوا الهوى ان تعدلوا وان تلوا او تعرضوا فان الله كان بمـا تعملون خبيراً »** . أي منهج لإقرار الحـق والانصاف من النفس كمنهج الاسلام الذي دعـا الى البرهان **« قل هاتوا برهانكم »** وأمر بالقسط ، ونهى عن الهوى ، ودعا الى التجربة – هذا المنهج لا يوصف بأنه منهج غيبي ، لأنه اكثر اكتمالاً من وجهة النظر العلمية التي تقصر النظرة على المـادة والمحسوس والعقل ، وبذلك تفوتها حقائق كثيرة .

( ٦ )

أما عالم الغيب نفسه ، فذلك جزء من منهج المعرفة الاسلامي ، وحقيقة ساطعة قبل أن تقول بها العلوم الحديثة ، وقبل أن يصل إليها التجريبيون بعد تحطيم الذرة . والمسلم يؤمن بأن هناك عالمين متكاملين او هما عالم واحد على مرحلتين . عالم الشهادة المكشوف الواضح الذي نراه بالعين وندرسه بالعقل ، والتجربة من خلال الأنابيق والمعايير العلمية ، وهو ما يسمونه المحسوس .

وعالم الغيب الذي لا تصل إليه أبصارنا وأسماعنا القاصرة المحدودة ، والذي عرفناه عن طريق الوحي والايمان وهدتنا إليه أديان السماء ، والذي يتسق مع للعقل كل الاتساق . ويكون نتيجة طبيعية لرحلة الحياة كلها فلو أنه تخلف لأصبحت هذه الحياة مسرحية باطلة .

ولقد تشك الفلسفة المادية بعالم الغيب، وما يتصل به من ألوهية ونبوة ووحي وأديان ، وكتب وبعث ونشور وجزاء ، فإن لها ذلك ، وهي نحلة قديمة مستمرة تجاوز الأديان ، ثم تتخطاها الى الحقائق والوقائع ، ولكنها لا تنفك تنفث سمومها .

ولقد جرى العلم التجريبي ثمة وراء مفهوم المادية ، ثم استطاع أن يتحرر

منها بعد أن تحطمت الذرة. وتبين أن كل مفاهيم الذرة يتصل بالضوء والنور وهما من عالم الغيب . فآب العلم او أوشك الى اليقين . وبقيت الفلسفة المادية تثير الشكوك والشبهات من أجل إقرار مفاهيم هدامة ترمي بها الى تدمير الاديان والاخلاق ، كمقدمة لتدمير المجتمعات والحضارة . وإذا كان الانسان ( روحاً ومادة ) فلا بدّ أن يكون جامعاً للغيب والشهادة في تركيبه وكيانه ولما كان الانسان هو سيد المخلوقات والمستخلف في الارض فقد أوتي العقل ، وعلى أساسه تقوم المسؤولية الفردية والتبعة الاخلاقية .

ومن هنا يتبين أن الحياة الدنيا ليست إلا مرحلة من رحلة كبرى ، وأن الموت ليس هو نهاية الحياة . ولما كان عمل الانسان في هذه الحياة من أجل عمرانها مرتبط بمنهج الله وطريقه . وفي حدوده ، وضوابطه ، فإن هذه الأمانة تحتاج الى محاسبة وجزاء .

وهنا تجيء التبعة والمسؤولية ومن ورائها البعث والجزاء . هذا الغيب لا يختلف فيه العلم ، وإنما تعارضه الفلسفة المادية التي تقصر التجربة كلها على أساس الحياة وحدها .

وليس معنى ترابط الدنيا والآخرة ، هو أن تكون الحياة موجهة الى العمل للآخرة ، بل إن العمل في الدنيا ضرورة . وقد دعا الاسلام الانسان أن لا ينسى نصيبه من الدنيا ، وأن يأخذ زينته ويستمتع بكل ما في الدنيا من طيبات . « **قل من حرم زينة الله التي أخرج لعباده والطيبات من الرزق . قل هي للذين آمنوا خالصة يوم القيامة** » .

ولقد جاء الانسان الى الدنيا وله رسالة هي التعمير والبناء والبحث عن كنوز الدنيا واستخراجها فكيف يكون عمله في الدنيا بمفهوم الزهادة فيها واعتزالها وإنكارها . إن مفهوم الاسلام هو العمل ومتاع الحياة على أن

تكون الوجهة فيها محررة بالحق خالصة لله ، طيبة بالبذل والانفاق والعمل الصالح، وأن يتجافى مطامعها بالباطل والظلم والإفساد في الارض، والطغيان، واستعمال قواها للإهلاك والتدمير ، وإذلال الناس ، وإقامة الفوارق ، والاستعلاء بغير الحق ، وإبادة الضعفاء ، والتسلط على الأمم ، واصطناع فوارق اللون والجنس والدين أداة للسيطرة – تلك هي وجهة الاسلام في إخلاص الدنيا للآخرة . أما من حيث بناء الحياة وعمرانها ، فتلك رسالة يقررها الرسول في عبارة وجيزة : [ إذا قامت القيامة وفي يد أحدهم فسيلة فليغرسها ] . وهذا هو منطق الاسلام في فهم العلاقة بين الدنيا والآخرة .

# الفصل الرابع

# العلمانية والإنسان

إن أكبر تجاوزات العلمانية قولها : إن الانسانية قد أصبحت راشدة ، وهي ليست في حاجة الى وصاية الدين. وقد رتبت هذا الرأي على القول بأن الانسانية بدأت ضالة واهمة ، ثم تقدمت حتى أصبحت في درجة الرشد الذي يحق لها معه أن تتحرر من وصاية الدين ، ونريد أن نعرف مـا هو العطاء الجديد الذي قدمته لها الحضارة او العلم الحديث بحيث يهديها الى طريق الحق فتكون راشدة بذاتها ، ما هو البديل الذي تستحق معه البشرية أن تتحرر من الدين بعد أن أغناها عنه وقدم لها طمأنينة النفس وسعادة الحياة .

هل هو العلم الذي أصبح الانسان معه مسخراً وتابعاً للآلة ، ومطحوناً في هذه الميكانيكية الضخمة التي تجتاح عواطفه ومشاعره وكيانه ، أم هي الفلسفة التي هدت الانسان الى أن الغريزة هي مصدر كيانه ، وأن الجنس واللذة هي غاية حياته ، وأن الجريمة هي الفطرة ، وأن الأسرة نظام خادع ، وأن الدين أفيون الشعوب ، وأن الحياة مادة ، وأن الإله قد مات ، او أن الانسان هو الذي خلق آلهته ، او أن الموت نهـاية الحياة . فعلى الانسان أن يركض فيها ركضاً لتحقيق لذاته وشهواته قبل أن يدركه الموت او أن الاخلاق نسبية ، وأن التطور مطلق « **وإن هي إلا حياتنا الدنيا نموت ونحيا ومـا يهلكنا إلا الدهر** » .

ذلك هو ما هدت إليه الفلسفة المادية ، وجعلته ديناً بديلاً للدين ، ولعله هو الذي أصبحت به الانسانية راشدة ، وليست في حاجة الى وصاية الدين ، تلك هي البدائل التي قدمتها الايديولوجية التلمودية على قاعـدة تقديم البديل قبل إلغاء الأصيل .

ولكن متى كانت هـــذه الفلسفة البديلة ، او الدين التلمودي جديداً على البشرية ، لقد كان ذلك قائماً منذ قرون وقرون عرفته الوثنية اليونانية والغنوصية الهندية والمجوسية الفارسية، وعرفته كل المذاهب المضلة التي حاولت أن تهدم الدين الحق ، وتدفع البشرية الى تيه مظلم لا ضياء فيه .

إن البشرية دائمـاً في حاجة الى هدى من خارجها ، وتوجيه من صانعها ، ولن تستطيـع أبداً أن تلتمس طريقها إلا في ضوء منهج المعرفة الذي هداها إليه الله خالقها وفاطرها ، وأنها كلما تجاوزت هذا المنهج ضلت وتخبطت في دياجير الظلمات حتى تعود إليه .

إن أزمة الانسان الحديث هي أنه فقد نصف الحقيقة ، ووقف عند شطرها المادي الجاف ، فأحست نفسه بالقلق والتمزق ، أنـــه اكتفى بالعلم والعقل والمادة ، وهي جناح واحد لطائر مهيض في الجناح الآخر .

يقول احد علماء العصر الحديث : إن الانسان الحديث يعيش أزمة روحية وحضارية . فالحياة الإلهية قـد ضيقت نطاق عالم المعاني الذي يعيش فيه ، وأفقدته الاحساس بتلك الحيوية التي تحفل بها الطبيعة، ذلك لأن مجمع المدنية الصناعية قد فصل الانسان عن الطبيعة فصلاً ، كاد أن يكون تاماً . فلم تعد تجربته تتضمن الاحساس بالقوى الطبيعية المباشرة . وبمـــا تنطوي عليه من معان تثري حياته الروحية ، إنـــه يعيش في عالم صنعه هو بكل تفاصيله ،

وبالتالي فقد كل مـاله دلالة معنوية ، لأن ما يصنعه الانسان ينكشف كله له ولا يعود فيه سرّ .

إن حياة الانسان المعاصر قـد قصرت على جانب المحسوسات والماديات ، فإذاً في أعماقه منطقة فراغ موحش يحتاج الى عطاء لا تقدمه هـذه الحضارة المادية ، ولا ينقطع نـداؤه من الداخل ، ولا سبيل الى حلّ هذه الأزمة إلا عن طريق الدين ، الدين الحق الذي يعطي الاجـابات الصحيحة عن المسائل الحائرة: عن الموت، عن البعث ، عن مهمة الانسان . لماذا جاء وأين يذهب. لقد جرب تفسيرات غير الاديان،فلم تقدم له شيئاً يشفي الغليل،ثم تجرع الفلسفة كأساً بعد كأس ، فلم تصل بـه الى شيء إلا أن زادته حرجاً وشقوة ، فلم يعد له إلا طريق واحد يلتمس فيه الحقيقة ، هو الدين .

إن حياة الأنسان على هـذا النحو الذي يعيشه الانسان الحديث ، توقف بالقسر والاعنات والجبرية ، عند جانب واحد ، حين تؤكد له الفلسفات أن الموت نهائي .

إن حياة الانسان خالدة ولها بقية بعد الموت ، ولا انفصال بين الحياتين، فهي تجربة متكاملة ، هذا الذي تعيشه في الدنيا جزء منها ، وله بقية محتومة ولا قيمة للحياة اذا كان الموت نهاية الأنسان فيها ، فأي هدف ، وأي رسالة لهذا النظام الضخم الدقيق كله .

هل يمكن أن يكون مشروع هذه الحياة الدنيا بكل هذه الصورة البارعة الدقيقة عملاً ينتهي بموت الانسان ، الحق أنه لا قيمة للحياة في نظر الفطرة والعقل جميعاً ، اذا لم تكن رسالة لها التزاماتها ومسؤوليتها ، ثم لها جزاؤها من بعد. ليست الحياة عبثاً، وكفاح الانسان ان يكون فيها مضيعاً. إن حياة

الانسان القصيرة في الدنيا « المؤقتة » ليست إلا امتحاناً لطاقته على احتمال تكاليف وجوده وأمانته وإنسانيته .

هذا المفهوم الأصيل الذي جاء به الدين الحق ، هو الذي يحمي الانسان من فكرة العدم والغربة المدمرة لوجوده وإرادته .

إن أخطر ما واجهت الفلسفة المادية الانسان به ، انها وضعته في قائمة الأشياء ، ثم أخذت تعمل فيه مبضع الحيوان . وقد كانت الفلسفة المثالية غالية حين جعلت الانسان في مقام السيادة للكون ، ثم جاءت الفلسفة المادية أشد غلواً حين وضعت الانسان في قائمة الحيوان والأحجار ، وحاولت أن تحكم عليه بمقاييس العلم المادي من خلال التجربة والمحسوس . فليس الانسان سيداً للكون إلا تحت حكم الله ، فهو مستخلف في الارض بعقد الأمانة ، وميثاق التقوى ، ولكنه ليس السيد المطلق كما حاول الفكر الغربي أن يصوره ، لقد كانت عقيدة الأوروبي أن لا شيء في الكون إلا الانسان ، وأن الانسان قد حل محل الإله كما قال نيتشه .

ومنذ قال ذلك أتباع الأيديولوجية التلمودية ، فقدت أوروبا إيمانها بالله ، وتصدعت العقيدة الدينية في النفوس . ولم تقف الايديولوجية عند هذا الرأي الآثم ، ثم تجاوزته بفلسفة فرويد الى أنه حيوان يعتمد على غرائزه ، ويصدر عن شهواته ، وأن الجنس هو دافعه الأول والأخير ، إن الفلسفة المادية هي التي قتلت الانسان وأخرجته عن إهابه ووضعه الحقيقي فجعلته إلهاً ، ثم جعلته مادة تنطبق عليه مقاييس الحشرات . ومن هنا نشأت تلك الأزمة الصاعقة . لقد كرم الدين الحق الانسان ، ووضعه موضعاً كريماً مستخلفاً في الأرض ، وكشف له عن النجدين طريق الحق ، وطريق الباطل ، ودفعه دفعاً الى أن يحمل أمانته بقوة ، ويؤدي دوره في بناء الحياة ،

واستكشاف أسرارها ، واستخراج كنوزها ، عامـلا ناهضاً بالتبعة ، مخلصاً وجهه لله ، ليس زاهداً ولا مترفاً ، ولكن أصحاب الأهواء لم يدعوه ، بل زينوا له الإلحاد والإباحة والترف ، فأخرجوه عن إهابه ، فأنكر جانباً هاماً من كيانه ووجوده، واندفع مع الجانب الآخر فأصابته الأزمة القاتلة ، حياة غايـــة في الترف والرخاء ، ولكنها تمـلأ القلب بلواعج الشكوك والتمزق والغربة « ومن يرد الله أن يهديـه يشرح صدره للإسلام ، ومن يرد أن يضله يجعل صدره ضيقاً حرجاً كأنما يصعد في السماء » .

إن نظرة الاسلام الى الانسان غـــير نظرة العلمانية ، إنها نظرة إنسانية شاملة قائمة على ما يقوم بـه الانسان نفسه ( روحه وجسمه وعقله ) « **والله أخرجكم من بطون امهاتكم لا تعلمون شيئاً وجعل لـــكم السمع والأبصار والأفئدة لعلكم تشكرون** » . وبذلـك أعطاه المنهج المتكامل الجامع ، منهج للعلم ( إدراك العقل عن طريق الحواس ، السمع والبصر ) ومنهج للمعرفـة ( عن طريق الايمان بالقلب ) .

لقد ربط القرآن المعرفة بـين العقل والقلب برباط وثيق بحيث لا يمكن أن يفصل ، ولم يركز على العقل وحده كما فعلت الفلسفة اليونانية ، ولم يركز على القلب وحده كما فعلته الفلسفة الغنوصية ، بل جعل العقل والقلب سواء .

وكان هـــذا التكامل في مفهوم المعرفة مقدمة للتكامل في كل جوانب الحياة ، وفي التكامل والترابط بين الحياة والموت .

أما العلمانية فقد شطرت المعرفة شطرين، وأخذت بالعقل وحده، فقضت على كيان الانسان النفسي والوجداني والروحي .

ان مفهوم القيم في الاسلام هو ان الانسان يعيش عالمين متصلين لا انفصال

بينهما : عالم خارجي ، وعالم داخلي ، عالم مع النفس وعالم مع الغير ، عالم الشهادة وعالم الغيب .

ان أقسى ما يواجه البشرية اليوم، ويصيبها بالأزمة القاسية، هو خروجها على الفطرة ، واندفاعها مع التيار المعاكس لاتجاهها وهداها ، وهو سبب ما نراه من غربة ومن تمزق للفطرة والعقل « فأقم وجهك للدين حنيفاً فطرة الله التي فطر الناس عليها لا تبديل لخلق الله » .

(٣)

إن الانسان حين يواجه النظريات التي تحاول أن تفهمه يجد عجباً ، يجد مفهوماً يعتبره مذنباً خاطئاً يولد حاملاً لما يسميه الخطيئة الأصلية التي ورثها عن أبيه آدم ، ثم هو في رأي نحلة أخرى مجبور التناسخ ، ثم لا يلبث أن يجد نفسه سيداً للكون مؤلهاً ومعبوداً ، ثم لا يلبث أن يرى نفسه حيواناً مجرد حيوان . فهذه نظريات متعارضة تتجاوز الحقيقة ، لأنها تنظر إليه من خلال منهج للمعرفة منحرف او ناقص .

أما في الاسلام ، فالانسان غير قابل للخضوع للقوالب العلمية المادية ، وليس محكوماً عليه بخطيئة أحد « **وأن لا تزر وازرة وزر أخرى ، وأن ليس للانسان إلا ما سعى** » ولا تكسب كل نفس إلا عليها ، وهو ليس عبداً للأهواء والشهوات ، وقد أعطته الأديان الضياء الذي يكشف أمامه الطريق إلى القدرة على مغالبة الأخطار التي يواجهها خلال رحلة الحياة بين الشر والخير والحق والباطل . أعطاه الله المنهج المتكامل ، ووضع له الضوابط والحدود ، وأعلن المسؤولية الفردية ، والجزاء الأخروي. فأصبح الانسان واضح الطريق متكامل المفاهيم ، منطلقاً الى غايته في الحياة ، لا تخذله العزلة ولا الغربة ، لأنه منطلق تحت عين الله التي ترعاه .

ولكن العلمانية لا تريد للانسان أن يعرف طريقه ، وأن يكون قادراً على أداء مهمته ، وعلى اجتياز امتحانه . ولذلك فهي تحرف وتزيف، وتفسد الفكر الانساني بأن تعزله بالمادية ومفهوم العقل المحدود ، ودعوى التطور المطلق ، ونسبية الاخلاق .

ولقد كشف الله للمسلمين هذا الخطر ، وتحدث القرآن عن الذين يصدون عن سبيل الله ويبغونها عوجاً ، وعن الذين يقعدون بكل صراط يوعدون ويصدون عن سبيل الله . ودعا المسلمين الى اليقظة والحذر ، وكشف لهم منهج المعرفة الرباني الخالص «**قل هل عندكم من علم فتخرجوه لنا ان تتبعون إلا الظن وان أنتم إلا تخرصون** » فلله الحجة البالغة .

ونعى على أصحاب التبعية الذين غرتهم الأهواء والأضواء وزخرف القول فوصف قلوبهم بأنها لا تفقه ، وعيونهم بأنها لا تبصر ، وآذانهم بأنها لا تسمع « **لهم قلوب لا يفقهون بها** ، **ولهم أعين لا يبصرون بها** ، **ولهم آذان لا يسمعون بها** ، **اولئك كالأنعام بل هم أضل اولئك هم الغافلون** » ذلك هو الخطر الذي كان على المسلمين الحذر منه . خطر الانشطارية ، وخطر فهم الحياة بمقياس ناقص الأدوات ، وخطر بقبول هذا المقياس ، والاستغناء عن المقياس الأصيل، المقياس الجامع المتكامل في منهج للعلم، له أصوله وضوابطه، وفهم للمعرفة له أسسه ومقرراته . أساس الأمر وملاكه ، ان الانسان جسد وروح ، وعقل وقلب ، ولذلك فإن منهج دراسته يجب أن يكون متكاملاً . إن النظرة الى الانسان على أنه جسد ومادة ، وتطبيق مناهج العلوم المادية او التجريبية التي طبقت على الأحجار او على الحيوان عليه تأتي بنتائج ناقصة وتحول دون الوصول الى الحقيقة .

إن العقل البشري أداة فاحصة ، تهدي الى الحق في نطاق مهمتها . وفي إطار رسالتها ، فالعقل البشري ليس قادراً قدرة كاملة على معرفة كل شيء ، إنه لا يستطيع أن يتخطى عالم المحسوس ، أما عالم الغيب وعالم النفس جزء منه ، فإن له علماً آخر . وفهماً آخر لم تتوفر للانسان وسائل الحصول عليه ولذلك فقد منحته إياه الأديان وجاء به الوحي.

(٣)

إن فطرة الانسان هي خـــير مصباح له في طريق المعرفة . لقد قامت الفطرة على التوازن. فالإنسان يقبل الاعتدال بين الصعود الى الزهادة والهبوط الى الإباحة، ويكره فقدان التوازن، ويحس بأنه ليس سليماً تماماً إذا انحرف به الميزان ، وما يزال الدين هو الضوء الكاشف ، فإذا تجاوز هذا الضوء وقع في الظلام ، والاسلام دين الفطرة ، أقر بالنوازع البشرية ، واعترف بواقـع الانسان وفتح له الطريق الى تحقيق رغباته في نطاق واضح ، وفي إطار سليم يحمي الشخصية الفردية من التدمير او الفساد « بالانحراف والجمود » بالإباحـة والترف ، او بالزهادة والعزلة .

لقد أعطت الحضارة المادية الانسان معطيات جعلت حياته خيراً ممـــا كانت . ولكن هـــل استطاعت أن تملأ قلبه بالطمأنينة والأمن والسكينة والمحبة . لقد عجزت الحضارة عن ذلك ، بـل لعلنا لا نعدو الحق إذا قلنا إن الخطوات التي خطتها البشرية في ظل نعماء الحضارة ، قد دفعت الانسان الى مزيد من الشقوة النفسية والغربة والتمزق ، لأنهـــا عزلته تماماً عن نداء روحه ، وصوت قلبه ، عزلته عن شطره الدافق ، وجمدته وأصابته بالفساد، فماذا أعطى التقدم المادي الانسان حتى يصبح قادراً على الحياة بغير ضوء الدين الكاشف ، ومصباح الفطرة المضيء .

إن طبيعة الانسان ثابتة لا تختلف ، انه بغريزة التدين القائمة في أعماقه ، لا يستطيع أن ينصرف عن التوجيه الإلهي . إن طبيعة الانسان قد شكلت على نحو يجعل صاحبها متطلعاً الى القوة العليا في أوقات الشدة والكرب ، راغباً الى الايمان القادر على إيجاد التوازن الدائم في أعماقه بين المادة والروح.

ولما كانت هذه الطبيعة البشرية عاجزة بنفسها ، فإنها في حاجة دائمة الى نذير ، الى صوت مذكر ، الى كلمة الله .

ولقد جرت محاولات « العلمانية » عن طريق الفلسفة المادية الى إحلال « المعرفة » مكان « الايمان » وجاءت مذاهب كثيرة لتجعل الاخلاق واجباً، ولتحل الايديولوجيات مكان الأديان، ولكنها عجزت عن أن تصل الى أعماق النفس الانسانية ، عجزت عن أن تلتقي بالفطرة ، وتأكد للفلاسفة الماديين والمثاليين جميعاً أنه لا المعرفة ولا الثقافة ، ولا تجارب الحياة تستطيع أن تغني النفس الانسانية عن الدين او تزوده بالقوة التي يحس في جوارها بالأمن والطمأنينة .

ولقد جرت دعوات الى فصل الدين عن الاخلاق ، وإعلان الاخلاق مجردة عن رابطتها بالعقيدة ، وتبين ان الاخلاق لا تستقيم إلا في ظل الايمان بالله ، ومن داخل إطار التوحيد . وإن أدياناً ونحلاً كثيرة قامت على الاخلاق وحدها ، ولكنها عجزت عن أن تعطي الانسان ثقته بنفسه ، او تنحي عنه التمزق والقلق والغربة . وجاءت فكرة « الأبوة » محاولة أخرى في سبيل الطمأنينة واليقين ، ولكنها كانت عاجزة عن أن تقدم شيئاً . فإن الصلة الحقيقية التي تعطي اليقين ، إنما تلك التي تقوم بين العبد وربه بين الانسان بمفهوم العبودية لله وحده .

إن محاولة تفسير الانسان تفسيراً عقلياً او علمياً او مادياً ، قد فشلت

فشلاً لا حد له ، شأنها شأن محاولة تفسير العالم والكون تفسيراً عقلياً او علمياً او مادياً ، فقد ثبت أن منهج المعرفة منهج كلي جامع ، وأنه لا يقتصر على منهج العلوم والتجربة .

وإن الفلسفة لم تعد قادرة على أن تحقق شيئاً . فقد خضعت للمادية ، وعزلت نفسها عن الرؤيا الكاملة . ولم يعد غير الدين الحق ، ومنهجه في المعرفة ، ذلك المنهج المتكامل الشامل .

(٤)

ولقد جرت محاولات كثيرة للقول بالتعارض بين الروح والجسد، واستحالة التوفيق بينهما ، والقول بأن الجسد هو سجن للروح . والواقع ان التعارض في المناهج لا في طبيعة الانسان ، فالمناهج القائمة على التجزئة والانشطارية ، والتي تقول بأن الانسان روح لا جسد شأنها شأن المناهج التي تقول بأن الانسان جسد لا روح ، كلاهما متجاوز لمنهج المعرفة الجامع الكامل .

لقد قدم الاسلام ـ بوصفه الدين الخاتم ـ منهجاً متوازناً جامعاً بين المادة والنفس ، والعقل والقلب ، والروح والجسد ، بعيداً عن المثالية المجردة والمادية الخالصة قائماً على الواقع والفطرة ، لم يهمل مطالب الجسد، ولم يجعلها غاية الانسان، ولم يهمل الروح، ولم يطالب الانسان بالزهد في معطيات الدنيا ومعطيات الانسان من حيث هو بشر له غرائزه ومطامحه وأشواقه .

ولكنه نظم هذا في إطار التكامل والحكمة ، وفي حدود الضوابط والحدود التي هي في نفسها ممكنات البناء السليم للانسان وللمجتمع ، فليس الانسان مطلوباً للاعتكاف والزهادة ، وليس منطلقاً للترف والانحلال . ولكنه مطلوب لأداء رسالة عمل وبناء وكشف وجهاد من اجل تحقيق غاية الكون واستمراره ، وفي طريق الانسان اهوال وأخطار ، ومعه

حصانة وحماية لتخطي الحواجز وأمامه أمانة لها تكاليف ومعه عقل يهديه .

فليس هناك تعارض بين الروح والجسد ، إذ منهما معاً تشكل بناء الانسان ، وهما ليسا عنصرين متعارضين ، ولكنهما متكاملان ، ليس بينهما تضاد ، بل بينهما توافق .

فالقول بتعارضهما يصدر عن قصور النظرة والعجز عن فهم منهج المعرفة المتكامل الجامع .

# الفصل الخامس

# موقفنا وموقف الغرب

العلمانية نتاج بيئة الغرب بكل تحدياتها ومفاهيمها . وهي مرحلة تالية لمراحل كثيرة قطعها المجتمع الغربي ، والفكر الغربي في سبيل تحقيق وجود اجتماعي منفصل عن الكنيسة والدين ، ولذلك فإن محاولة نقله الى دائرة أخرى تختلف من حيث المفاهيم والتحديات يبدو عسيراً ، فإذا كانت البيئة التي نشأ فيها، وجرت المحاولات لتسويده فيها قد عارضته وقاومته، وما تزال تقاومه الى الآن . فكيف يمكن فرضه في بيئة أخرى ، ليس لها مثل تلك الأوضاع .

والبيئة العربية الاسلامية اليوم تقف من التجربة الغربية كلها في مجال الايديولوجيات موقف الحذر والشك والمعارضة لأمرين كبيرين، لا لأمر واحد.

(الأول) انها شبت عن طوق التقليد ، وخرجت من إطار التبعية ، وأصبحت قادرة الآن على ان تملك إرادتها ، وتحقق رشدها في مواجهة كل فكر وافد .

(الثاني) لأن التجربة العلمانية، وكثيراً مما يطرحه الغرب اليوم، قد فشل فشلاً ذريعاً في تحقيق غايته في بيئته – وهو نبت بيئته ونتاجها – فكيف

يكون صالحاً في بيئة أخرى تختلف اختلافاً بعيداً من حيث العقائد والقيم والمثل العليا ، ومناهج الحياة ومقومات الفكر .

إن تجربة الغرب كله الآن معروضة على الدنيا كلها بعد أن تبلورت في ( أزمة الانسان الحديث ) (وأزمة الحضارة) وفي ذلك التمزق والاضطراب والفساد والتدمير النفسي والاجتماعي الذي يعانيه مجتمع الغرب، بالرغم من كل معطيات العلم ــ فكيف يستطيع الغرب أن يغري الشرق بتجربته في مثل هذه المراحل المنهوكة منها والمضطربة. كان يستطيع الغرب أن يحقق بالإرادة الحرة لمختلف البيئات قبولاً لو تحقق له ظفر او نصر او استطاع ان يكون المجتمع الطوبائي الذي كان يحكم بـه حين انسلخ عن المعطيات الدينية كلها ، ومضى يشق طريقه ليكون « ايديولوجية » مستقلة منفصلة معارضة لكل معطيات الدين الحق .

لقد تجاوز الغرب كل ما قدم له من معطيات عن طريق الأديان . وإن كان لتفسيرات الدين أثرها في أزمته وتحوله، غير أنه عجز أن يلتمس مفاهيم الدين الحق . ووقف من الاسلام موقف العداء الشديد والخصومة المتعصبة قبل أن يقف على الحقائق ، فقد كانت هناك قوى كبيرة تصده عن أن يفهم التجربة الاسلامية ، وظل قاصراً في حدود التفسيرات الدينية التي عارضت انطلاقته في مجال العلم والتجريب ، فلما اشتدت أزمته الروحية ، وتفاقمت وجهه ناصحوه الخبثاء الى الفلسفات الشرقية الغنوصية التي هي من نفس نبع الوثنية الهيلينية الاغريقية .

إن الغربيين يفهمون اليوم أزمتهم تماماً . ولكنهم غير قادرين على التماس الطريق .

يقول الاستاذ جود في كتابه ( Philosophys for our times ) : ان دين

اوروبا اليوم هو المادية لا النصرانية . لم يزل سائداً على عقلية انجلترا منذ قرون شره المال والتملك ، ويسميها جون جينتز « تلك الحضارة التي تعوزها الروح ». ويقول: «ان الانجليز إنما يعبدون بنك انجلترا ستة أيام في الاسبوع، ويتوجهون في اليوم السابع الى الكنيسة . إن الفلسفة الحقة التي ازدهرت في جو من الانحلال الديني، وراجت في حياة أهل الغرب ، فعلاً إنما كانت فلسفة النفعية ( Utilarism ) وعلى هذه الفلسفة أسس بناء المدنية والحضارة في الغرب » .

لقد بدأت الحضارة الغربية على أسس الاخلاق المسيحية ، ومنجزات المنهج العلمي التجريبي الاسلامي . ولكن حركة التنوير التي قادتها التلمودية من خلال محافل الماسونية ، استطاعت أن تدفعها دفعاً الى مجال الوثنية الاغريقية ، وغلبة المادية ، والقضاء على كل ما يتصل بالأديان والاخلاق . وبذلك استطاعت الايديولوجية التلمودية أن تستوعب الفكر الغربي كله ، وأن تحتويه ، وأن توجهه وجهتها الخالصة .

يقول جود : إن العلوم الطبيعية قد منحتنا القوة الجديرة بالآلهة، ولكننا نستعملها بعقل الاطفال والوحوش .

لقد استطاع الطابع المادي أن يسيطر على الحضارة الغربية والفكر الغربي، وأن ينقلها من تسامح الروح المسيحية الى عنف مفاهيم اليهود التلمودية ومن روحانية الدين الى مادية الربا وسلطان المصرف .

إن الحضارة الاوروبية قد استطاعت عن طريق الاستعمار ان تكشف الوجه الحقيقي لأهدافها في إعلاء الجنس ، وإذلال الملونين ، وإشاعة روح الفساد ، وتعطي قصة حرب الأفيون التي أعلنتها بريطانيا على الصين عام ١٨٤٠ دليلاً من أدلة كثيرة على هذا الاتجاه الخطير ، فقد قصدت بالحرب

إجبارها على العدول عن قرارها بمنع دخول الأفيون الى بلادهـا من الهند ، لأن الأفيون يدر على تجار بريطانيا ثروة كبرى .

هذه الحضارة الغربية التي قامت على أساس المادية . والتي جاءت العلمانية لتمثل حلقة خطيرة من حلقاتها ، لا يمكن أن تكون المثل الأعلى الذي تتقبله الذات العربية الاسلامية، وترضى به، لأنها تعرف أنه يقوم على أساس امتهان الدين والأخلاق .

# ( ٢ )

أمـــا العلمانية ، فنحن نرى اليوم كيف تواجه اوروبا العلمانية وتعارضها بعنف . فقد رأى رجال الدين [١] أن الوثنية في اوروبا قـــد غيرت شكلها الخارجي . واتخـــذت شكلاً يقوم على الانفتاح والتسامح المبنيين على القواعد العقلية ، وعلى الثقة بالذات . فأسرعوا قبـــل أن يسبقهم الزمن ، وتغلبهم التيارات الدهرية ليلبسوا الدين وتقاليده ثوباً عصرياً يفوق بـأناقته وجاذبيته ثوب التيارات الدهرية ، والمجمع الكنسي الأخير لم تكن له غاية غير هـــذه الغاية بالذات .

وهناك حقيقة لا تقل أهمية : هي أنـــه يوجد في اوروبا المعاصرة يقظة دينية جعلت ( العلمانية ) تقف موقف العاجز عن متابعة السير ، هي نقطة الشعور الديني على الصعيد الفردي والاجتماعي والسياسي .

وهـــذا يعني أن العلمانية لم تستطع أن تحصر الدين في الفرد فقط ، ولم تستطع أن تجعل أبناء الطوائف المختلفة الذين يعيشون في بلد وآخر يشعرون أنهم اخوة في الوطن بصرف النظر عن أنهم اخوة في الدين . ولا يمكن الجزم

---

( ١ ) بتصرف من بحث للدكتور محمود رضوان – مجلة الوعي الاسلامي ١٩٦٩ .

بأن العلمانية قد نجحت في تحقيق غايتها ، وهي إقامة دولة ينحصر فيها الدين على الصعيد الفردي فقط، ذلك ان الصعيدين الاجتماعي والسياسي ليسا سوى نتيجة حتمية للصعيد الفردي .

والعلمانية يشق عليها أن تنجح في بلد يكون الشعور الديني فيه يقظاً ، والواضح اليوم أن القضاء على الشعور الديني لم ينجح حتى في البلاد التي تدين بالإلحاد رسمياً .

وتظهر العلمانية كل يوم وجهاً جديداً من أوجه عجزها ، وتقف مكتوفة الأيدي إزاء المشكلات التي يعانيها المجتمع الذي ولدت فيه .

ولا ريب أن الكنيسة قد أخذت في السنوات الأخيرة خطة المواجهة للعلمانية على نحو واسع . فقد اقتحمت الكنيسة [1] دائرة الدولة . وبالأخص جانبها السياسي . وذلك بإنشاء الاحزاب الديمقراطية المسيحية كي تمارس سياسة الدولة من غير غضبة من المسيحية ، او من غير تطرف ضدها ، بل في عطف عليها، وتمكين لجميع النظم الدينية في حياة المجتمع. وبذلك لا تكون الدولة في عداوة مع الكنيسة ، بل في خدمتها . وبذلك لم يصبح الاتجاه العلماني في المجتمعات الغربية ذا خطر على الدين وهو المسيحية إلا يوم احتضنته الماركسية اللادينية ، وطبقته الشيوعية اللينينية ، فأصبح ذا خطر على الدين وعلى المؤسسات الدينية .

ومعنى هذا كله ان المجتمع الغربي الذي ولدت فيه العلمانية ونشأت وترعرعت، يواجهها الآن بعنف ويعارضها بشدة باعتبارها نبتاً غريباً معارضاً للفطرة مغايراً لطبائع الانسان .

---

(١) من بحث للدكتور محمد البهي – مجلة القبس الجزائرية ١٩٦٩ .

ونحن نرى اليوم كثيراً من الكتاب في الغرب يعيدون عرض مفاهيم الدين وتفسيراته ، ويحاولون إيجاد صياغة جديدة تناسب العصر ، وتبرز في هـذا الكتاب طوابع الاخلاق المسيحية والتقاليد الدينية .

ويكشف هذا الاتجاه جانباً آخر. ان مذهب العلمانية فيالقومية قد أصابه في اوروبا صدع كبير، وان محاولة تقديم الوطنية والقومية على الدين ما تزال تجد في اوروبا معارضة كبيرة ، وما زال الاوروبي المسيحي يرى ان اليهودي غريب عن المجتمع ، ويقف منه موقف الكراهية .

## (٣)

إن العلمانية بحق كما أشار كثير من الباحثين، لا تستطيع أن تشق طريقها في بلد يكون فيه الشعور الديني يقظاً ، فكيف بها في بلاد يعد الدين جزءاً عضوياً من تكوينها الأساسي .

ذلك ان العلمانية ما كانت تستطيع أن تقتحم عالم الاسلام والعرب ، لو كان هـذا العالم يملك إرادته الحقة ، ويمـارس منهجه الفكري وايديولوجيته الاجتماعية كما جاء بها القرآن ، ولكن العلمانية استطاعت أن تدخل مع النفوذ الأجنبي ، وتتخذ لها موقفاً من خلال الاقتصاد والتعليم والقانون . غير أنهـا عاشت العمر كله كالشيء الغريب ، فإنهـا لم تجد من العوامل مـا يمكنها من التأقلم ، فلم يكن قد ارتكب الدين في عالم الاسلام ما يدعو الى الصراع او الانقسام ، ولم يكن علماء الدين يوماً ممن يفرضون نفوذاً او حكماً . ولم يكن الدين الذي عرفوه معارضاً للعلم ، بـل كان مصدراً لمناهج العلم والمعرفـة جميعاً . وما زال الاسلام بمرونته قادراً على العطاء في مختلف جوانب الحياة .

أما الغيب الذي عرفه الاسلام للمسلمين ، فهو حقيقة أصيلة ، قالت بها الأديان ، وأكدتها الفطرة وأيدها العقل . وإن عجز العلم عن اقتحام أفقها فإنه اعترف بهـا أخيراً ، وهو غيب مستنير في مفهوم أصيل لا يرتبط

بالأسطورة ، ولا بالخرافة ، ولا يوصف أهـله بالعقلية الغيبية التي هي جمود وتخلف ، وإنما هو أفق لا تستكمل المعرفة الأصيلة إلا به ، وهو جماع العقل والقلب ووحدة الروح والمادة، وترابط الدنيا والآخرة ، وهو أساس متصل بالوحي والإيمان بالله ، يؤكد المسؤولية الفردية ، والالتزام الاخلاقي ويربطها بالبعث والجزاء واليوم الآخر ، دون أن يتعارض ذلك مع العلم او التقدم او التطور المنضبط في قاعدة الثبات .

ولقد واجه هذه القصة عدد من الباحثين (١) في العالم الاسلامي ، وكان من رأيهم أنه من التجاوزات الخطرة الظن بأن أمـة تشكلت ، والدين جزء من تكوينها الاجتماعي والعضوي ، تستطيع أن تتخلى عنه . والمسلمون يؤمنون بأن الحياة الدينية الصحيحة ، هي أساس مظهر الحياة الانسانية .

فالإنسان المتدين يؤمن بوجود خطة كونية تسير بموجبها الانسانية، وتخضع لإرادة إلهية موحدة ، ومحررة للإنسانية جمعاء . أما الانسان المجرد من الدين ومن الحياة الروحية ، فقد يهبط روحياً وخلقياً الى مستوى العجماوات .

ومن شأن هـذا الترابط العضوي بين الدين وحياة الانسان . فإنـه من العسير فصل الدين عن الدولة . ذلـك ان عزل الدين عن الدولة ، بدأ في ظروف تاريخية خاصة في اوروبا حين كان الصراع بين الكنيسة وبعض ملوك اوروبا صراعاً عنيفاً ، وحـين كان الصراع بين الطوائف المسيحية الواحدة بعد الأخرى يسبب حروباً دموية تدوم عشرات السنين . وحين كان رجال الكنيسة يقاومون النظريات العلمية الحديثة . أما اليوم فقد انتشرت الثقافة العامة في الشعوب ، وأصبحت الحكومات المدنية غير خاضعة لرجال الدين وأصبح الباحث حراً طليقاً في أبحاثه . وفي الاعلان عن نظرياته ، فلا يعيقه

---

(١) من بحث للدكتور محمد فاضل الجمالي .

أحد . فلم يبقَ مبرر لفصل الدين عن الدولة أي العلمانية . بل يمكن القول بـأن العلمانية اليوم حركة رجعية ، رجعية من حيث تاريخها . فقد زالت الظروف التاريخية التي كانت تتطلبها ، رجعية من حيث الدولة ، حين تهمل واجباً من أهم واجباتها .

وإن من الضروريات الحتمية اليوم في عالم العرب والاسلام . قيام دولة مدنية متدينة تعنى بحياة الانسان مادياً وروحياً عناية غير مجزأة ، ولا منشطرة ، فوحدة حياة الانسان مادياً وروحياً ، هو ما يجب أن تعنى بـه الدولة ، فالدولة يجب أن تكون متدينة تـدين أكثرية السكان ، ولكنها في الوقت نفسه يجب أن ترعى شعور أبناء الأديان الأخرى ومصالحهم الدينية على قدم المساواة ، فتعنى بتهيئة ظروف التعلم الديني لهم على اختلاف أديانهم، وأن تكافح التعصب الديني والجمود الفكري، أما عن التجربة نفسها في العالم الاسلامي ، فهل حققت أهدافها ؟

يقول الدكتور فاضل الجمالي : لا نعتقد أن العلمانية حققت أهدافها في البلاد التي طبقت فيها ، بـل وقعت في تناقضات واضحة . ولا سيا في حقل التعليم ، ولا شك أن الهدف الأول من العلمانية في العلم ، هو ضمان وحـدة أبناء المذاهب المختلفة في الأمة الواحدة ، ولأجل هذا أبعدت الثقافة الدينية عن المدارس العامة في كل من فرنسا ، والولايات المتحدة. ولكن أبناء الشعب الذين يؤمنون بأهمية الثقافـة الدينية اضطروا الى إرسال أبنائهم الى مدارس دينية خاصة ، بدل إرسالهم الى المدارس العامة .

أمـا في تركيا فقد أسس مصطفى كال العلمانية كردّ فعل ضد الخلافة العثمانية ، ولكن الشعب المسلم لم يقبل العلمانية ولم يهضمها ، ولذلك جـاء الحزب الديمقراطي معبراً عنمشاعر الشعب التركي حين قام «عدنان مندريس» بتشييد ما يقرب من ألفي مسجد في القرى التركية ، وقـام بتجديد المواقع

العظيمة الجميلة في استانبول . وقد اعتبر عدنان مندريس رجعياً من أجل سياسته هذه . والحقيقة أنه قام بتلبيته رغبة ملحة من رغائب الشعب التركي وهو رجل مجدّد ، وليس رجعياً ، ولكنه كان يؤمن بالله وبالاسلام كما يوقن بأهمية الدين الصحيح في حياة الشعب وتوجيهه نحو الخير .

وقد يكون تطبيق العلمانية في البلاد المسيحية أسهل منه في البلاد الاسلامية ، وذلك لما جاء في إنجيل متّى من أن « ما لقيصر لقيصر ، وما لله لله » وقد يكون الأهم من ذلك ان المسيحية لم تشمل على تشريعات واسعة تؤثر على الحياة الاجتماعية والمعاملات اليومية للفرد والجماعة . أما الدين الاسلامي فبالإضافة الى احتوائه على العقائد والعبادات والأخلاق ، فإنه جاء بنظام شامل يمس حياة الانسان في شتى نواحيها من المهد الى اللحد، وهو نظام يتفق مع صميم طبيعة الحياة الانسانية . وقد أكد غير واحد من أساطين علماء الشريعة في العالم. أهمية الشريعة الاسلامية وما تحويه من ثروة ذاخرة، واستعداد لمجابهة الظروف والأحوال المتطورة ، وما تشريع القانون المدني الحديث في مصر وسوريا والعراق على أسس إسلامية إلا دليل على ذلك .

فعلمانية الدولة في البلاد الاسلامية ، معناه تنصل الدولة من الشريعة الاسلامية التي هي أهم عامل من عوامل توجيه حياة الشعب اليومية .

ولئن كانت العلمانية لا تلائم الشعوب الاسلامية بصورة عامة ، فإنها لا تلائم الأمة العربية بصورة خاصة . لأن الأمة العربية مدينة للاسلام في تكوينها الحاضر، ويجب أن تكون حاملة رسالة الاسلام الى الانسانية جمعاء، فالفصل بين الدين والدولة معناه تجرد الحكومة العربية من أهم مقوماتها .

فالأمة العربية منفصلة عن الاسلام وعن رسالته ، تصبح كجسم منفصل عن حياته وعن روحه، وهذا الفصل يجعل من الجسم قشراً فارغاً لا لب فيه، وما أسهل دخول المبادىء الوافدة على اختلاف أنواعها لتملأ الفراغ في القشر الفارغ ا.هـ.

( ٤ )

ويؤكد غير واحد من الباحثين « أن هناك أسباباً خاصة بالغرب وحده، جعلت أهله على غير وفاق مع الدين – دينهم هم – ومثل هذا الخلاف تنعكس آثاره على الاضطراب الاخلاقي والاجتماعي والسياسي الذي يسود اليوم أجزاء واسعة من العالم ، بدلاً من أن يخضع الغربيون سلوكهم وأفعالهم لمعايير القانون الاخلاقي الذي هو الغاية القصوى لجميع الأديان . لقد أصبحت المصلحة هي القانون الوحيد المهيمن الذي يجب أن تعالج في ضوئه كافة الشؤون العامة » .

ومن ناحية أخرى فإنه لا يوجد في الدولة العلمانية مفهوم ثابت يمكن به التمييز بين الخير والشر ، والعدل والظلم . وفي حالة عدم وجود ميزان ثابت للقيم الخلقية . فإن الأفراد حتى في حدود الأمة الواحدة ، ستصبح لديهم وجهات نظر متباينة كل التباين ، ومن هنا تبني كل جماعة قوانينها الخلقية على أساس نظرياتها الاقتصادية ، وهناك أيضاً القول بأن مطالب الجماعة في تغيير دائم . ومن هنا فإن قيم الخير والشر والعدل والظلم متغيرة . ومن هنا تصبح هناك حقيقة ملزمة في ذاتها . ولا توجد أية التزامات اخلاقية تضبط العلاقات البشرية .

وأخطر ما في مفاهيم العلمانية في هذا الاتجاه هو القول بأن مقاييس العدل والظلم ، والخير والشر ، هي من صنع البشر ، وأنهـــا مفاهيم تتغير بتغير البيئات والعصور [1] .

وليس أخطر من هـــذه الدعوة الى نسبية الاخلاق ، وتذبذب ميزان القيم بين عصر وعصر . ذلك لأن ثبات القيم الاخلاقية أساس أكيد للبشرية ، وأن أي محاولة لتحطيمه . إنما يستهدف تحطيم قاعدة البناء الانساني كله .

---

(١) هذه المفاهيم بتصرف من دراسة الدكتور محمد البهي .

( ٥ )

وفي مجال الشريعة الاسلامية نرى بوضوح ان للاسلام نظاماً اجتماعياً متميزاً خاصاً ، يختلف عن الأنظمة السائدة في الغرب . وفي خلال تاريخ الاسلام كله لم يعرف المسلمون الحكومة الثيوقراطية التي تدعى العلمانية أنها حاربت للقضاء عليها .

لم يعرف المسلمون ذلك النظام الذي نقله التاريخ عن اوروبا في القرون الوسطى ، عندما حاولت طائفة رجال الدين أن تمسك بيدها بأزمة السلطة السياسية العليا ، وذلك لسبب بسيط هو أنه لا وجود في الاسلام الكهانة ، ولا لطائفة ممتازة تدعى رجال الدين ، لهذا يستحيل أن توجد في الاسلام مؤسسة تشبه الكنيسة المسيحية التي تختص بأسرار الدين وطقوسه . ولما كان كل مسلم بالغ له الحق المطلق في أن يمارس بنفسه شعائر الدين ، فليس هناك شخص او جماعة تستطيع أن تزعم لنفسها نوعاً من القداسة اكتسبتها عن طريق شعيرة دينية او طبقة كهنوتية اختصت بها من دون الناس .

والحق أن تعبير (الثيوقراطية) كما يفهمه الغرب ، لا معنى له على الاطلاق في المجتمع الاسلامي ، ويصدق بأنه لو كانت العلمانية من أجل استغلال الدين وحده ، ولم تكن وراءها أهداف أخرى ، لكان الاسلام هو آخر الأديان التي يمكن أن تفكر في العلمانية او تتجه إليها .

فإن الاسلام لم يعرف استغلال الدين ، ولم يعرف تاريخه ، ما شهده تاريخ اليهودية والمسيحية من حركات عنصرية عدوانية ، لها صيغة دينية ، كادعاء الملوك استمداد سلطتهم المطلقة [١] .

إن الاسلام لم يعرف وساطة ولا كهانة بين الله والخلق ، ونظرية الحق الإلهي ، او التفويض الإلهي ليست معروفة في الاسلام .

(١) أزمة الفكر الاسلامي : دكتور عبد الحميد متولي .

# الفصل السادس

# منهج الإسلام في المعرفة

لا ريب أن للاسلام والفكر الاسلامي منهجاً أصيلاً لا يحتاج المسلمون معه الى مناهج وافدة لعدة أسباب :

أولاً : تكامله وشموله وجمعه بين العقل والقلب والروح والمادة والدنيا والآخرة .

ثانياً : طابعه الانساني الخالص من حيث اشتماله على مفاهيم العدل والرحمة والأخوة .

ثالثاً : مرونته وقدرته على الحركة والتقبل والانفتاح للبشرية في كل عصورها وبيئاتها .

وهو ليس منهجاً علمياً من حيث اعتماده على التجربة وحدها ، ولكنه علماني بمعنى مطابقته للفطرة والعقل وارتقائه عن جزئية مناهج العلم التجريبي المنشطر ، وعن ما يوصف بالعقلية الغيبية القائمة على الأساطير ، والخرافات ، وتفسيرات الدين بالأسرار ، وما يتصل بالسحر وغيره ، مما ينكره العقل الاسلامي ، هذا مع تكامله الصريح في الايمان بالله والوحي ، وعالم الغيب والآخرة والجزاء . فالاسلام يرسم منهجاً عاماً للمعرفة ، ويكون المنهج العلمي

التجريبي جزء منه، وهو منهج رسمه الاسلام من خلال القرآن مصدره الأول. وقبل أن تعرف اوروبا مناهج العلم والتجريب بسبعة قرون على الأقل ، ولم يعد هناك ريب في ان الاسلام هو الذي أنشأ المنهج العلمي التجريبي ، وأن المسلمون أول من نادوا بالاستقراء والقياس والتمثيل، ويصور العلامة بريفولت هـــذا المعنى في كتابه ( بناء الانسانية ) على نحو واضح . « ليس ثمة ناحية واحدة من نواحي الازدهار الاوروبي . إلا ويمكن إرجاع أصلها الى مؤثرات الثقافة الاسلامية بصورة قاطعة . فإن هذه المؤثرات توجد أوضح ما تكون، وأهم مــا تكون في تلك الطاقة التي تكون ما للعلم الحديث من قوة متميزة ثابتة ، إن ما يدين بـــه علمنا لعلم العرب ليس ما قدموه إلينا من كشوف مدهشة لنظريات مبتكرة فحسب ، بل يدين هــذا العلم الى الثقافة العربية بأكبر من هذا « إنه يدين لها بوجود نفسه » .

إن أول من قال : إن الملاحظة والتجربة هما أساس العلم وأصله : ليس « بيكون » بــل المسلمون وبيكون أخذ هذا من العرب ، واستقى هذا من الاسلام ، وتلقى علومه في الجامعات الاسلامية في الأندلس ، وذلك باعتراف بيكون نفسه (١) .

ويؤكد الباحثون الغربيون اليوم : ان أتعس يوم في تاريخ اوروبا هو عام ٧٢٣ م ، العام الذي نشبت فيه معركة (بواتيه) ففي هـــذا العام تراجعت الحضارة العربية أمام البربرية الفرنسية . هذا ما كتبه أناتول فرانس في كتابه فوق الحجر الأبيض .

وقد أجمع علماء الغرب المنصفين ، على أنه مــا من ناحية من نواحي تقدم

---

(١) د. عبد الحميد متولي : أزمة الفكر الاسلامي ، نقلاً عن اقبال .

اوروبا ، إلا وللحضارة الاسلامية منها فضل كبير ، وآثار حاسمة [1] ، وأنها أجمل الحضارات وأغناها في العصور الوسطى [2] وأنه لا يقتصر فضلها على الناحية العلمية ، بل يمتد الى الناحية الروحية والاخلاقية وإلى المثل العليا النادرة في تاريخ البشرية [3] .

ويقول جاروري: «ان روائع الاكتشافات العلمية والفنية للحقبة الهلينية ( اليونانية ) بعد القرنين ٢/٣ قبل الميلاد لم تنجح في تغيير العالم . وذلك لأسباب اقتصادية واجتماعية ، إذ أن انتشار الرق كان عقبة أمام التكنيك العلمي في أحداث تغيير جذري للحياة الاقتصادية ، فاستغلال قطعان العبيد ( الأرقاء ) الذين كانوا يحصلون عليهم بسعر خيالي ، كان يحقق مزايا أكثر من تلك التي يحققها تشغيل الآلات ، وهكذا فشلت الثقافة الهلينية في خلق حضارة جديدة » وأن هذا نفسه هو ما تخطاه المسلمون حين أعطاهم الاسلام مفهوماً شاملاً متكاملاً من المعرفة ، استطاع أن ينقل البشرية الى عصر العلم بمفهوم المسلمين القائم في نطاق الدين الحق ، او على حد تعبير العلامة درابر « العرب اول من علم العالم كيف تتفق حرية الفكر مع استقامة الدين » . وفي مختلف العلوم قدم المسلمون إضافات جديدة ، التاريخ ، والاجتماع ، والجغرافيا ، والطب ، والفلك ، والرياضيات ، والكيمياء ، فضلاً عن الآداب والفنون . وشهد العلماء الغربيون : لرحالهم ، البيروني . والخوارزمي ، والحسن بن الهيثم ، والخليل بن احمد ، وابن خلدون ، والغزالي ، وابن تيمية ، والمفكرون الغربيون المنصفون . هم على ان المسلمين هم الذين أيقظوا اوروبا

---

(١) روبرت بريفولت : بناء الانسانية .

(٢) بلاسكو أبانيز .

(٣) أزمة الفكر الاسلامي .

والغرب في القرن الحادي عشر الميلادي من القبر الذي دفنتهم فيه تفسيرات العلوم اللاهوتية .

ومن هنا فقد أنشأ المسلمون منهجاً للمعرفة ، فيه مفهوم الإصالة الاسلامية كما أنشأوا المنهج العلمي التجريبي .

ولقد قام منهج المعرفة الاسلامي على دعامتين : الوحي والتجريب ، وكلاهما مستمد من القرآن ، وتمثلت النزعة الاسلامية في مجال المعرفة والعلم معاً في التكامل والاخلاص للعلم ، والميل الى التجدد ، والتطور ، والحركة ، وإنصاف كل من سبق على الطريق مهما كان مختلفاً في الدين .

ولقد كانت نزعة المعرفة الاسلامية قائمة على الموضوعية ، ومعاداة الأمور الشخصية والخاصة . « **لا يجرمنكم شنآن قوم على ألا تعدلوا . أعدلوا هو أقرب للتقوى** » .

فالمعرفة قائمة على الانصاف ، بعيداً عن الانفعال الشخصي ، والتعصب ، والنظرة الخاصة ، وهي جزئية في أسلوبها ، لا يمنعها قضاء قضته اليوم ان تغيره في الغد ، متى استبان لها وجه الحق [١] .

وقد أقام منهج المعرفة الاسلامي قواعده على أساس: البرهان، والتجربة، والتحرر من الظن والمتابعة بغير دليل، واتباع مذاهب السابقين تقليداً ومتابعة بغير حق . « ولا تقف ما ليس لك به علم . إن السمع والبصر والفؤاد كل اولئك كان عنه مسؤولاً » . وعدم تبني أي فكرة حتى الدين نفسه إلا عن طريق ما يثبته العقل الصافي من أدلة يقينية ، وإجراء البحث عن الحقيقة في

---

(١) راجع خطاب عمر الى القاضي ابي موسى الأشعري .

ضوء الهدى الرباني الوحي والقرآن ، والنبي ، وإقامة القضايا على أساس ، الوحي، الحق ، البرهان ، الدليل ، التقوى في النقل ، الانصاف من النفس ، سلسلة السند « قل هاتوا برهانكم » « وما يتبع أكثرهم إلا ظناً ، إن الظن لا يغني من الحق شيئاً » .

والمنهج الاسلامي للمعرفة لا يتنكر للعقل ومنطقه ، ولا يحمله أكثر من مقدرته ووظيفته ، ويدفع العقل الى الحركة في نطاق الوحي انطلاقاً الى اكتشاف القوانين في مجال الطبيعة ، ولا يؤمن المنهج الاسلامي للمعرفة بعقلية الجزئيات ، فإنها تحجب الصورة التامة الناضجة ، وهو ليس منهجاً عقلياً خالصاً ، ولا وجدانياً حدسياً، ولكنه منهج متكامل تكامل الانسان نفسه. فالاسلام ليس عقلاً ، ولا جسماً ، ولكنه يجمع بينهما .

(٢)

إن أصدق ما يمكن أن يوصف به منهج المعرفة الاسلامي ، إنـــه منهج الفطرة ، وقـــد جمع الله فيه للانسان مناهج العلم ، ومناهج الانسانيات في حدود الهدف الواضح الذي فطر الله عليه الكون . وفي حـدود المهمة التي وكلها الله الى الانسان في الحياة .

وقد أتاح الله سبحانه وتعالى للانسان عن طريق العقل البشري ، وجعل من مهمته في الحياة أن يكشف سنن الله في الكون والطبيعة ، وأن يجعلها مصدراً للعلم والعمران ، وكشف ما في الأرض من كنوز ومعطيات ، وذلك هو منهج العلم .

أما منهج الانسانيات ( الاخلاق، والنفس، والمجتمع ) فهو الحاكم الأصيل على العلم ومنجزاته ، والموجّه لكل أعمـــال الانسان في الحياة ، والمقرر لمسؤوليته الفردية ، والتزامه الاخلاقي . ومن هنا فلم يكن في مقدور الانسان نفسه أن يضع منهج حياته . وهذه هي أخطر التجاوزات التي حاول الفكر الغربي أن يتصدى لهـا ، وبناؤها على أساس خاطىء ، هو إخضاعها لمنهج العلمي التجريبي ( الذي هو جزء من منهج المعرفة ) .

ومن هنا قام منهج المعرفة الاسلامي على أساسين :

(١) سنن الله في الكون والطبيعة. (٢) سنن الله في الانسان والمجتمعات.

وهما أساسان متكاملان ، وليسا منفصلين : أحدهما جزئي وقاصر على مجال التعليم ، والآخر كامل وممهد لطرائق العلم ، وحافظ لاتجاهاته من أن تنحرف الى الشر ، او الظلم ، او التدمير . ومفهوم الفطرة في الانسان حقيقة ثابتة لا تستطيع أي قوة أن تغير مجراها . ومن هنا كان ثبات القيم والأخلاق التي يقوم عليها كيان الانسان على اختلاف الزمان والمكان ، هذا الثبات هو الذي أعطى الأديان تلك القوة في إقرار منهج الانسانيات ، وإقامته دون تحول او تغير .

ولقد أكد القرآن حقيقة لا سبيل الى تجاوزها في الاسلام هي : استقلال الفطرة عن الزمان . وقد قرر الله سبحانه، أن لا تبديل لسنن الله في الخلق، ولا تحويل ( فطرة الله التي فطر الناس عليها لا تبديل لخلق الله ) .

ومن هنا نجد أن القول بأن الأخلاق نسبيّة تتصل بمجتمع او عصر ما ، دون مجتمع او عصر آخر ، هي من تجاوزات الفلسفة المادية . والدعوة العلمانية تحقيقاً لهدف ثابت من أصول الايديولوجية التلمودية القائمة على إنكار البعث والجزاء ، وما يتصل بها من مسؤولية الانسان، والتي تستهدف بتحطيم هذه القاعدة ، دفع البشرية الى تجاوز الفطرة ، وتجاوز أصول الدين .

ولعل مبدأ ثبوت الفطرة من غير تبديل ( الذي أعلنه الله للناس في القرآن ) من أخطر المبادىء التي قررتها الأديان ، وركيزة أساسية من ركائز منهج المعرفة الاسلامي ، ومناهج العلوم والحضارات جميعاً ، وهو مبدأ عام يشمل جميع ميادين الفطرة ، وهنا يبدو خطر المنهج العلمي او وجهة النظر

العلمية التي تحاول أن تطبق منهج التجريب الخاص بالعلوم المادية على ميدان الاجتماع والانسانيات [1] .

ومن هنا يمكن القول بأن منهج سنن الله في الانسان والمجتمع « هو الدين الحق المنزل ، والذي يمثله الاسلام على أصفى ما يكون » .

ويمكن القول أيضاً بأن منهج « سنن الله في الكون والطبيعة » وهو العلم التجريبي يقوم أساساً في نطاق الدين باعتباره جزءاً منه .

يقول الدكتور الغمراوي : فإذا تم للانسان الجمع بين العلم والدين. تم ما يصح أن يسمي بعلمه سنن الله الكونية واستطاع الانسان أن يدرس العلم بروح الدين من غير أن يضحي بشيء من دقة العلم ، وأن يدرس الدين ويطبقه بروح العلم من غير أن يضحي بشيء من عبادة الدين ، هنالك يتم للانسان الاتحاد بين عقله وقلبه ، بين علمه ودينه، وهذا شيء ممكن تماماً في الاسلام.

ويقول : وإن تجاوز الغرب لهذا التكامل ، وقيام الانشطارية بأخذ علم سنن الله في الكون والطبيعة منفصلاً عن سنن الله في الانسان والمجتمع ، هو مصدر ذلك التمزق النفسي الخطير. وتلك الأزمة العاصفة التي تواجه الانسان والحضارة الغربية ، وهو مصدر ذلك الخطر الجاثم على صدر البشرية نتيجة للذرة ، وما يتصل بها من مخاطر إفناء البشرية .

---

(١) من مجموعة أبحاث المغفور له الدكتور محمد احمد الغمراوي ، أجزل الله مثوبته .

(٣)

ربط الاسلام بـــين العلم والدين ، وجعل منهج العلم في نطاق منهج الدين ، بحكم ان الدين ( الاسلام ) هو الذي هدى الى العلم ، وأتاح للمسلمين إنتاج ( المنهج العلمي التجريبي ) . ولكن هـــذا المنهج حين خرج من أيدي المسلمين ، ووصل الى أيدي الغربيين ، انفصل عن قاعدته الأساسية ، وهي منهج المعرفة المتكامل الذي يربط بـين الحق والقوة . ومن هنا مضى العلم في طريقه حتى أصبح قوة خطيرة تهدد المجتمعات بالتدمير .

يقول الدكتور الغمراوي : لقد علم الله ان هذه المدنية المعقدة ستكون . وان الانسانية ستتقلب في أطوارها التي تقلبت فيها ، وانها ستفتح لها أبواب العلم . وان هذا العلم سيفتح لها فنوناً من القوة . وان هذه القوة ستسلمها الى صنوف من المشكلات لا تحـل حلاً مرضياً إلا إذا طبق ما سنّ الله للفطرة من سنن ، وللنفس البشرية من قوانين عرفت الانسانية بعضها ، وجهلت منها أكثر مما عرفت فأراد الله سبحانه وتعالى أن يتم نعمته على الانسان بأن يجمع له بين القوة وبـــين الهدى في استعمال القوة ، فآتاه العلم ، قبل أن يؤتيه العلم . أنزل عليه الكتاب والحكمة ليريــه كيف يتقي شر العلم بالوقوف في استعماله عند الحدود التي حدها الله، فاطر الانسان وفاطر القوى التي سخرها بالعلم للانسان .

وإذا كان من عجيب صنع الله للانسان ان وهبه العقل الذي استفتح بـه كنوز العلم ، فأعجب من ذلك أن تفضل سبحانه ، فأنزل له الدين ليقيه ما لا يمكن للعقل ولا للعلم أن يكفياه إياه من الشرور والأخطار .

« إن أساس المدنيات ليس القوة ، بـل إحسان استعمال القوة في سبيل الحق . وإن اعتماد الحضارة على هذه القوة المادية التي فتن بهـا الناس ناقصة ، لأنهـا تغفل جانب الفطرة التي فطر الله الناس عليها ، من حيث أن المدنية نظام كامل ، الدين وجزء منه الاخلاق ، حجر الرحى فيه » .

( ٤ )

ومنهج الاسلام في المعرفة والعلم، الجمع بين شطري العلم والدين، او شطري القوانين الطبيعية وقيم الايمان . ولا يفضلون بين مجال القوانين الطبيعية وقيم الايمان في مجال الحياة ، ومنهج الاسلام ينكر ما يظنه الغربيون من أن للقوانين الطبيعية مجالاً، ولقيم الايمان مجال آخر. وان قوانين الطبيعة قد تمضي في طريقها غير متأثرة بقيم الايمان ، وتعطي نتائجها سواء آمن الناس أم كفروا ، سواء اتبعوا منهج الله أم خالفوه ، ينكر منهج الاسلام ذلك ، ويرى أنه فصل بين نوعين من السنن الإلهية ، هي في حقيقتها غير منفصلة « فقيم الايمان في بعض سنن الله في الكون كالقوانين الطبيعية سواء بسواء ، ونتائجها مرتبطة ومتداخلة ، لا مبرر للفصل بينهما، لا مبرر للفصل بينهما في حس المؤمن وفي تصوره ، وهذا هو التصور الصحيح الذي ينشئه القرآن في النفس » . فالقرآن يربط الواقع النفسي للناس، والواقع الخارجي الذي يفعله الله لهم . « إن الله لا يغير ما بقوم حتى يغيروا ما بأنفسهم » وحين نرى أن اتباع للقوانين الطبيعية قد يؤدي الى النجاح مع مخالفة قيم الايمان . فإن ذلك ليس إلا أمراً مرحلياً ، ولكنه سيؤدي في النهاية الى انقاذ قوانين الفطرة وسننها في الانسان والمجتمعات .

وها نحن نرى المدنية الغربية لمخالفتها لقوانين الفطرة قد انفجرت في

حربين عالميتين ، وما تزال تعيش في تهديد ينوشها كل لحظة ( وكذلك أخذ ربك إذ أخذ القرى وهي ظالمة ، إن أخذه أليم شديد) . والحضارة الغربية اليوم ترتقي في مجال المادة ، والعلم التجريبي في نفس الوقت الذي يتخلف في مجال البناء الانساني ، وتعانى أزمة من أشد أزمات الحضارة ، قوامها الحيرة والقلق ، والامراض النفسية والعصبية ذلك لأنها أخذت بطرف من قانون الفطرة ، وتركت الطرف الآخر ، وانهـا أخذت شطراً من منهج المعرفة في مجـــال العلم ، ثم تركت الجانب الأهم في مجال الانسانيات والمجتمع والنفس والأخلاق .

إن التوازن والتكامل والمواءمة التي هي أساس الحضارات والمجتمعات تتطلب الجمع بين الطرفين في كل متكامل ، وهذا ما يحققه الاسلام .

إن شريعة الله للناس هي طرف من قانونه الكلي في الكون . فإنقاذ هذه الشريعة لا بدّ أن يكون له أثر إيجابي في التنسيق بـــين سيرة الناس وسيرة الكون .

( ٥ )

والانسان في مفهوم منهج الفكر الاسلامي متكامل بين الروح والمادة والعقل والقلب ، بل هو مصدر التكامل في الحضارات والمجتمعات .

والنفس الانسانية تنزع الى السيطرة والتفوق وإشباع الرغبات الجنسية والمادية . وهي بذلك الطابع الذي طبعت به في حاجة الى ضوء نافذ يهديها الطريق ، حتى لا يقودها الهوى . ولما كانت خصائص النفس الانسانية ثابتة على طول الزمان ، ومختلف البيئات ، لا يطرأ عليها تغيير . فقد كانت قيم الايمان في أصولها ثابتة ، لتواجه ثبات طبيعة النفس الانسانية التي لا تتغير مهما اختلفت الظروف .

ومن هنا فقد كان منهج الفطرة للانسان والمجتمع والنفس والاخلاق الذي يختلف عن منهج الفطرة للكون والطبيعة ، فللعالم منهجه ، وللانسان منهج آخر ، ولا يصلح أحدهما للتطبيق على الجانب الآخر .

هناك قوانين للعلم التجريبي وقوانين للمعرفة ، وهناك قيم ثابتة لا يطرأ عليها تغيير . وهناك متحولات تتغير وتتبدل . والعلم المادي يعترف بأن هناك ثوابت لا تتغير . وان هناك قوانين ثابتة لا تتأثر بظروف الزمان والمكان .

هـذه هي نقطة الخلاف الكبرى في محاولة تطبيق قوانين العلم التجريبي على الانسان هناك الطبيعة وهناك الانسان .

وقد كشف الله للانسان قوانين الطبيعة ، وعجز الانسان أن يفهم أن مصدر علمه هو الله ، ولكن خطأه الأكبر هو ظنه أن في استطاعته تطبيق هذه القوانين على الانسان . نقطة الخطأ هي القول بأن القوانين التي طبقت في مجال الطبيعة تصلح للتطبيق في مجال النفس والاخلاق والمجتمع ، وكل مـــا يتصل بالانسان .

لا ريب أن الطبيعة هي قوة تختلف عن الانسان . ولذلك فـإن القوانين التي تطبق على الانسان لا بـــدّ أن تختلف من عدة نواحي ، من ناحية أن الطبيعة مادة ، وان الانسان كائن ، وتختلف من ناحية ان الانسان كائن فيه مادة وروح ، أي أنه بـه عنصر زائد عن المادة . وتختلف في أن الانسان يختلف أيضاً عن الحيوان بأن له بالإضافة الى أنـه مادة وروح ، عقلاً ونفساً ومشاعر وإرادة . هذه هي نقطة الخلاف الكبرى .

والواقـــع ان مفهوم الاسلام هو أن المنهج العلمي للانسان ، والمجتمع ، والنفس ، والاخلاق يختلف اختلافاً كبيراً ، وأنه ليس خاضعاً للتجريب ، او قائماً على النظرة المادية الصرفة ، ولذلك فقد جاء ( العقل ) بمهمة أساسية هي أن ينطلق لبناء المنهج التجريبي الذي يقوم على استخلاص قوانين الطبيعة ونواميسها ، بينما استأثرت الأديان ، ورسالات السماء بوضع المنهج الذي تقدم على أساسه قوانين النفس والاخلاق .

أمـــا المنهج التجريبي المتصل بالطبيعة فإنه متغير منظور حسبما تختلف نظريات العلم ، وما تكشف كل يوم . أما المنهج الاجتماعي النفسي فإنه قائم على عناصر من الثبات، وأساليب من الحركة، الجوهر ثابت والظروف متغيرة.

ومن هنا كانت محاولة العلمانية هدم منطق رسالات السماء لتصل الى هدم الثوابت ، وإلغاء قاعدة الثبات ، ومنها تستطيع أن تصل الى إلغاء الفردية الانسانية ، والأسرة ، وإلغاء المنهج الجامع الذي يجمع الناس في وحدة فكر لدفع كل إنسان ليتخذ له أسلوباً ومنهجاً . وبذلك تتمزق وحـــدة الفكر الجامعة .

ومن هنا فإن العلمانية هي مذهب ضد الفطرة، وضد تيار الحياة الأصيل. إن الدين الاسلام حين قدم سنن الفطرة في النفس البشرية ، قد رفع عن كاهل الانسان مشقة كبرى ، ودفـع عنه أزمة ضخمة . لقد أراد أن لا يشغل الانسان عـــن مهمته الأصلية ، هو الوصول بالعقل سنن الفطرة في الكون والطبيعة لبناء الحياة ، وكشف أسرارها وكنوزها .

وقد أنزل الله كتابه ونبيه ، ليحسم هـــذا المنهج أساساً ، وذلك حتى يكون العلم في أحضان الانسان بالحق ، ولا يكون الانسان خاضعاً للعلم ، وحتى يكون العلم خيراً للبشرية . ويمكن اتقاء شره ، والوقوف في استعماله عند حدود الخير للبشرية ، أنزل الله الدين بقانون الفطرة في النفس البشرية ، ليحمي الانسان من مخاطر العلم وتطبيقاته .

ومن هنا فـإن العلمانية ترفض اعتبار الدين أساس لحياة الجماعة البشرية ، وربمـا كانت ترفض تفسيرات الدين في الغرب ، ولكن هـل رأت الاسلام . ولما وجدوا ان العلم يخالف هدفهم دفعوا الى الفلسفة أهواءهم تحت اسم المنهج العلمي ، او وجهة النظر العلمية في ضوء إله جديد هو المـادية ، بالإضافة الى آلهة أخرى ، هي الحضارة والذهب .

## (٦)

إن خــــلاف منهج الاسلام الشامل في العلم والمعرفة ، ليس مع العلم التجريبي ، ولكن مع العلمانية بمفهوم النظرية المادية التي تستوعب الاجتماع ، والنفس ، والاخلاق . في منهج تجريبي مادي ، ذلـــك ان منهج الاسلام في المعرفة والعلم جميعاً يقوم على أساس الترابط بين العقل والقلب . وإن أخطر ما في التقدم العلمي الصناعي ، هو انفصاله عن الخلق والدين ، انفصال العلم عن الاخـلاق وانفصال الحضارة عن الدين . والانفصال في مجـال التطبيق لمنجزات العلم ، هو الذي أحدث آثاره الخطيرة في نظرة الانسان ومفاهيمه في الاخلاق والنفس والاجتماع ، نتج عن هذا :

أولاً : ذلك الذعر القاتل الذي تواجهه النفوس الآن نتيجة الخطر الذري، فقد أصبحت منتجات العلم مادة قاتلة تستطيع أن تنهي الحياة . وقـد جاء هذا الخطر نتيجة انفصال العلم عن الاخلاق .

ثانياً : ذلك التمزق والقلق والاضطراب النفسي الذي فصل عن الانسان عن الدين ، ولو تعرف الذين حملوا منجزات العلم الى الله ، لمضت الحياة الى الهدف الصحيح .

وفي الحق ان العلم لم يسقط لأنـــه في خطواته يدل على الله ، ويلتمس طريق التجربة ، ويعترف الآن بأن مهمته هي تفسير ظواهر الاشياء .

ولكن الفلسفة العلمانية هي التي حملت منتجات العلم الى مجـال الخطر ، ودفعت البشرية بمفاهيم المادية الى الأزمة ، وأكبر المخاطر هو محاولة العلمانية، إقامة منهج المعرفة الانساني ، ومنهج الحياة البشرية على أساس المادية ، وعزله عن الدين والخلق .

أمـا المنهج الاسلامي فقد جعل المنهج المتصل بالنفس والاجتماع والاخلاق إنسانياً طبقـاً للظاهرة التي يدرسونها ، وهي الانسان نفسه الذي ليس هو قادة ، خالصاً ، ولا تنطبق عليه التجارب التي تجري على الحيوان .

ومن هنا كانت ضرورة التفرقة بـين العلم وفلسفة العلم ، ذلك ان فلسفة العلم هي حجر لطاقات الانسان في أضيق نطاق ، وقصر اليقين على الملموس الملاصق ، وانها تصور خاطىء لمدارك الانسان .

ومنهج الاسلام يعمل على ايجـاد تصور صحيح لمدارس الانسان ، وتحديد كامل لعلاقة الانسان بالكون والعالم على أساس الفطرة .

ووجهة النظر الاسلامية هي ان العـلوم الانسانية من اجتماعية وأخلاقية ونفسية . لا يمكن أن تخضع لمنهج مادي عقلي ، لأن الانسان ليس عقـــلا ومـــادة فقط . والانسان تجريد وتجسيد ، والعلم المادي تجسيد فحسب ، والتجريد هو الانتقال الى الآ فـــاق الرجعية التي سمت الأديان الى أن ترفع الناس إليها .

أمـــا التجسيد فهو قسر الانسان على النظر الدائم الى الارض والمادة . والاتجاه الى عبادة المصرف والذهب والحضارة ، إنه هيكل جديد من هياكل الوثنية . ويمكن القول بأن التقدم العلمي مـا زال حتى الآن تقدماً خارجياً مادياً . وانـــه لم يتجاوز ذلك الى أي تطور بيولوجي يمس عقل الانسان او روحه .

## (٧)

والعلم يقرر أن نظرياته ليست حقائق أزلية، وان التصور المادي للكون متغير غير ثابت ، والعلم نفسه لا يقر الفلسفة في القول بأن حقيقة العالم مادة لا روح فيها .

ولكن الايديولوجية التلمودية من أجل تحقيق هدفها الماكر ، تعمل عملا آخر، هو فصل المناهج ، وإقامة حائط كبير دون تلاقي العلوم والمتحصلات العلمية في إطار واحد ، هو حائط التخصص ، فكل علم معه شيء ، وكل مجموعة معها خيط رفيع ، ولكن لا سبيل الى التقاء هذه الخيوط ، لتكون نظرة شاملة ذلك ما تحول دونه الايديولوجية التلمودية ، حتى تبقى في يدها جميع الخيوط .

ولذلك فإن ما يقرره العلم التجريبي اليوم يعارض مفهوم الفلسفة والمادية والنظرة العلمانية ويهدمها من أساسها ، ومع ذلك فإن العلمانية تجري في طريق الايغال في المادية ، مع ان العلم نفسه قد تحرر من هذا القيد ، وأخذ الطريق للدخول في عالم يعترف فيه بالغيب ، ويطرق أبوابه .

هناك أكثر من حلقة لا تلتقي مع غيرها ، وهناك مذاهب في النفس

والاجتماع والأخلاق قد سقطت ، وأعلن العلماء فسادها ، ولكن آراء هؤلاء العلماء ما زالت خافتة ، بينما يتزايد صياح الآراء التي سقطت .

ثم هناك ذلك التضارب الذي يراد به خلق الصراع وإدامته ، بين الماركسية والليبرالية ، وبين الوجودية والعلمانية ، وهدف هذا تمزيق النفس البشرية ، والحيلولة دون وصولها الى حقيقة ، او التقاط أنفاسها ، بل هو سوق شديد الى الصراع . والهاب الفرسان الدائرة في الحلقة بالسوط حتى لا تتوقف .

ولو أمكن مراجعة هذه المذاهب وتضاربها، لأمكن الوصول الى شاطىء المعرفة المتكاملة ، ولسقطت المادية سقوطاً شنيعاً .

## (٨)

إن التقدم العلمي التكنولوجي الذي أحرزته البشرية فى المجال الخارجي . ولم يتصل بنفس الانسان ولا عقله ، ولا تكوينه الروحي . بل إن النظريات التي وصفت بها في مجال الأخلاق والنفس والاجتماع . قد أقيمت على أساطير اليونان ، وإن فكر فرويد وسارتر ودوركايم وليفي بريل مشهد من الرموز الاصلية لأساطير قديمة لا تتصل بالنفس الانسان في نظرتها .

وقد قامت فى أصولها على النظرة الخاصة ، والتحدي الذاتي ، فلم يستطع أحد من هؤلاء ولا غيرهم التخلص من عواطفه وأهوائه ، بل إن نماذج فرويد كلهـا كانت من مرضى منحرفين ليستخلص منها قوانين نفسية تطبق على الاسوياء .

بل إن الفكر الغربي نفسه ينقسم على نفسه ، حتى فيما يتعلق بنظريات النفس ، والاجتماع . وإن كثيراً من نظريات الوجودية تعارض العلمانية القائمة على العقل والعلم . وإن مذهب فرويد ومذهب سارتر كلاهما يفسران الحياة تفسيراً بيولوجياً ، ويوجهان السلوك الانساني ، لا على سبيل العقل ، ولكن على أساس الغريزة ، ودفع السلوك الانساني الى البدائية القائمة على تمجيد الغريزة ومناقضة العقل .

يقول وليم جيمس: إن الخوف والبلبلة النفسية ومشكلة السلوك السكوباتي ليست إلا وليدة إنكار الفرد على غريزته الدينية حقهـــا ووظيفتها وتجاهله لأهميتها في الدور الذي تلعبه في السلوك الانساني ونفوره من إنمائها ورعايتها. وخطأ النظرية المادية في اقتحام ما ليس من مجالها، انها حين حاولت السيطرة على مفاهيم النفس والأخلاق والاجتماع واجهت الانسان، وليس الطبيعة الذي ليس هو نموذجاً مادياً، ولا تنطبق عليه تجارب الحيوان.

ومن هنا فقد كان عجزها وفشلها ومضادتها للفطرة.

إن مسائل النفس والأخلاق والاجتماع لا تدخل في دائرة العـــلم في نطاق الدين.

(٩)

وقــد جاءت نظرية التطور المطلق معارضة للفطرة ، ولمنهج الفكر الاسلامي الذي يقرر ان في الكون ثابت ومتطور « وإن في الوجود حقائق كثيرة ثابتة . وفي الكون قوانين ثابتة ، وظواهر مستمرة متعاقبة ، وإن في الحياة اتجاهات اخلاقية ومثلاً عليــا لا تتبدل . وإن هناك تطور وحركة ، وكل حركة تقوم على أساس من قاعدة ثابتة ، التطور مــع الاتجاه الصحيح ، التطور مع إقرار الثوابت . وإذا كان الوقوف في وجه التطور أمراً تــأباه طبيعة الحياة كما يقولون. فإن التطور لا بدّ أن يدور في إطار، وعلى قاعدة ، ووفق قــانون ، وليس كل تطور حسناً ، وليس كل طور أفضل من الطور الذي سبقه . وليس كل حاضر أفضل من الماضي، والتطور من الناحية العقلية والصناعية أحسن ، ولكنه من الناحية الاجتماعية والأخلاقية أقل . وقــد تكون [١] الأمم مريضة كالأفراد بعد ان كانت قوية . فالرجوع الى الماضي يكون سيئاً ، إذا كان الماضي سيئاً ، وحسناً إذا كان الماضي حسناً ، فليس كل رجوع الى المــاضي مذموماً ، فالمريض يتمنى الرجوع الى عهــد صحته وقوته . وإن من المخالفة لسنن الكون في التطور اعتبار كل رجوع الى الماضي

---

(١) بتصرف عن الدكتور محمد المبارك من بحث له عن التطور .

رجعية مذمومة ، وهو لا يقل خطأ عن اعتبار كل تمسك بالقديم ، او رجوع الى الماضي ، مهما كان أمر حسناً » .

يقول الدكتور محمد المبارك : إن الدعوة الى التغيير المستمر دعوة يهودية ماكرة يراد بها قلب المجتمعات ، وأحداث القلق ، ومنع الاستقرار ، وقد استغلت فكرة التطور أقبح استغلال لمحاربة الاخلاق، وباسم التقدم والتطور لمحاربة الاسلام وتشريعه ونظمه ، ومثله العليا .

وإن محاولة نشر فكرة التطور في مجال الحياة الاجتماعية لتحطيمها . والعقائد الدينية لتهديمها ، عمل من أعمال اليهود ، وكتابهم في اوروبا ، وأمريكا ، وهدفهم ألا يبقى شيء ثابت في الحياة مطلقاً . وبذلك تتعوض الفضائل والحقائق الدينية الكبرى . وأهمها الايمان بالله والنبوات وتعاليمها الأساسية ليبقى اليهود وحدهم مسيطرين على العالم ، وليكون غيرهم في قلق دائم وثورة عارمة ، وهي دعوة منافية للحقيقة ومناقضة للفضيلة ، والمثل الأعلى ، وعائقة عن التقدم، وهي كالدعوة الى الثبات في كل شيء ، فالحياة أقامها الله على سنتي الثبات والتغيير معاً ، ثبات في نواح وتغير في نواح .

« وقد راعى الاسلام هذه السنة، فثبت ما يجب تثبيته من أفكار وعقائد وأخلاق ونظم . وأفسح المجال لتغيير الكثير من العادات ، وتفاضل النظم ، وإشكال الحياة والأفكار المتعلقة بحقائق الكون » اهـ.

ولا ريب ان الحركة قانون من قوانين هذا الكون ، ولكنها ليست حركة مطلقة من كل قيد او بغير ضابط . ولكل حركة فلك ومدار ومحور

تدور عليه. وكذلك الحياة البشرية لا بدّ لها من محور ثابت وفلك تدور فيه.

والمنهج الاسلامي يقرر ثبات أشياء كثيرة في مقدمتها ، الاخوة البشرية والعدل الاجتماعي، وفريضة الجهاد، والمسؤولية الفردية ، والالتزام الاخلاقي، ويقرر ثبات الأخلاق كما يقرر ثبات حدود الله في الربا ، والخمر ، والقتل ، والزنا ، والميسر .

## ( ١٠ )

ومن أكبر الأخطار التي يتعرض لها المنهج العلماني ، نظرية التقاء العناصر ذلك ان المنهج العلماني بالرغم من معارضته للدين بالتفسير الغربي ، فإنـه يقر أكبر قواعد التفسير الغربي للدين ، وهو فصل القيم والعجز عن الربط بينها . وقد عمقت الايديولوجية التلمودية هـذا الحاجز ، ودعمته على نحو أصبح من العسير على العقلية الغربية تجاوزه او النظر فيه .

أمـا المنهج الاسلامي فإنـه يؤمن إيماناً شديداً بالتقاء العناصر وتكامل القيم وترابط الأجزاء . ويرى في انشطارها او انفصالها او تمزقهـا نقصاً في النظرة المتكاملة ، وعجزاً عن التام وقصوراً عن الاكتمال .

إن العناصر في التقائها لا تحدث الصراع كما يتصور ، المنهج العلماني وإنمـا تحدث التكامل ، ولا يحدث الصراع إلا التمزق لا التقاء المتشابهات .

فالدين والعلم والعقل والقلب والمادة والروح والدنيا والآخرة، كلها عناصر تتكامل بالتقائها ولا تتعارض . وإنمـا يظهر التمزق والانفصام والانشطار في أعماق النفس الانسانية نتيجة الوقوف عند عنصر واحد منها ، وإعلائـه واعتباره أساساً واحداً . فالذين آمنوا بالمـادة وحدها ، او العقل وحده ، إنمـا هم أشبه بالذين آمنوا بالقلب وحده ، او بالحدس وحده . وفي الاسلام

تجربة استعلاء المعتزلة واستعلاء الجبرية الصوفية . وقـد كان كلاهما خطراً لا حدّ له إزاء مفهوم الاسلام الجامع المتكامل .

وليس هناك تعارض حقيقي بـين الروح والمادة . وإنما هناك تكامل ، وليس في اجتماع الروح والجسم في الانسان صراع ، ولكنه اكتمال .

ويظهر الاضطراب في حياة الانسان ، إذا مـا تجاوز بالروح او المادة موقف التكامل والتوازن والمواءمة .

وفي منهج المعرفة الاسلامي عالمان : عـالم الغيب ، وعالم الشهادة ، وهما متكاملان . بل إن حياة الانسان تمر بمرحلتين : مرحلة الحياة الدنيا دار العمل ، ومرحلة الحياة الآخرة دار الجزاء .

ولقد خلق التفسير الديني للمسيحية هذا الانفصال بـين القيم ، ثم عمقته الأحداث والقوى التي عمـدت الى اضواء الفكر الغربي المسيحي ، والسيطرة عليه ، حتى أصبح من العسير على الفكر الغربي أن يقبل مبدأ التكامل ، ولكننا في الفكر الاسلامي حيث نصدر عن الفطرة ، نؤمن بـأن العناصر تتكامل ولا تتعارض . وان الأزمة تحدث من انشطارها . وليس من تكاملها والتقائهـا .

إن أصل انسجام الفطرة فعلية استحالة التناقض بين الحقائق . فلا يمكن أن ينقض حق حقاً أينما كان ، وما يناقض حقاً إذاً فهو باطل ، يجب أن ينتهي ولا ينظر إليه. إن العلمانية قـد جعلت من التخصص عاملاً في تقاتل القيم وصراعها ، ذلـك ان أخطر ما رمت إليه الايديولوجية التلمودية هي : « فصل العناصر » وضرب بعضها ببعض ، ومن ثم نشأت ظاهرة الانفصام والصراع والانشطارية . وجرى العمل على تأكيدها ، وتعميقها بمـا يعارض الفطرة ، ويتجاوز العقل والعلم ، ومنهج المعرفة الاسلامي .

وليس أخطر في هـذا الاتجاه من محاولة تقديس الجنس ، وإعلاء العقل ، وعبادة البطولة ، وفصل الضمير عن العلم ، وجعل الترف والرفاهية هدفـاً أساسياً بينما يضم المنهج الاسلامي الأجزاء ويربطها بالأصل .

فالجنس جزء من طبيعة الانسان ، ولكنه يجري في نطاقه مع ضوابطه ، والرفاهية لا يردهـا الاسلام إلا إذا بلغت مرحلة التحلل ومجاوزة الحق ، والعقل له مكانه في منهج المعرفة ، ولكنه يأتي بعد الوحي ، والاخلاق قاسم مشترك على الحضارة والعلم والسياسة والاجتماع والتربية جميعاً .

## (١١)

إن قول العلمانية بـأن العلم سدد الى الدين ضربات متلاحقة ، وجعله يتراجع أمامه ، هذا قول غير صحيح على إطلاقه . ذلـك أن العلم لم يواجه الدين ، وإنما واجه تفسيرات الدين . وما كان دين الله المنزل من السماء الموحى بـه الى أنبيائه ليعارض العلم ، او يعارض قيم الحياة ، ومـا كان له أن يكون مرتبطاً بالأسطورة ، او الخرافة ، او السحر ، بما يطلق عليه العقلية الغيبية . ومـا كان لدين الله أن يكون فيه سرّ محجب عن الناس مكشوف لبعض الناس وحدهم ، إن الدين الحق ليس مناقضاً للعلم . ذلك ان العلم منهج من مناهج الفطرة ، وهو شطر المعرفة في مجـال الطبيعة والكون ، وشطرها الآخر في مجـال الانسان والنفس ، فضلاً عن أن العلم أسلوب من أساليب معرفة الله ولسوف يصبح العلم سلاحاً من أسلحة الدين ، بل إن العلم سوف يؤكد الدين الحق ، ان مـا قالته تفسيرات الأديان عن الأرض والكون ليس منزلاً من السماء . إن الدين لا يقرر غير الأصول الثابتة التي لا تتغير . « لقد نشأ التعارض بـين الدين والعلم في بيئة معينة [١] هي البيئة الأوروبية ابتداء من معطيات معينة هي الديانة المسيحية ، فالتعارض بـين الدين والعلم تعارض نشأ في بيئة حضارية معينة . كان الدين فيها أقرب الى

---

(١) من بحث للدكتور حسن حنفي .

الأسطورة والغيبيات والأسرار التي تنـدّ عن العقل ، وتصور الباحثون ان هذا لا بدّ أن يحدث بالضرورة في الحضارات والأديان الأخرى والواقع أنـه في الحضارة الاسلامية لم يكن هناك تعارض بين الدين والعلم بأن كان الدين هو أساس العلم ، وكان الدين باعثاً على البحث العلمي » .

ومن ناحية أخرى ، فإن العلم قد نسب إليه زيف كثير ، حتى المذاهب الفلسفية المادية ، والنظريات الاجتماعية نسبت الى العلم ، وهو منها براء .

وقـــد حدد العلماء موقف الاسلام من كل مــــا ينسب إليه خطأ او زوراً .

يقول محمد أحمد الغمراوي : ليس كل مــا ينسب الى العلم ينتمي إليه ، ولا كل ما ينتمي الى العلم مفروغ من إثباته ، بل كما ان في العلم الحقائق التي لا شك فيها ، فإن فيه أيضاً القضايا المفتقرة الى الإثبات .

وهناك فرض باطل مسلم به ضمناً ، هو ان العلم الحديث مبني على البرهان الحسي ، فما يقال باسمه لا بــدّ أن يكون قد ثبت ، وقام عليه لدى العلم البرهان، فهم يتقبلون كل ما ينسب الى العلم لأنهم يسلمون بقيام البرهان عليه.

●

ومن الخطأ والتجاوز معاً ان تقول العلمانية ان العلم يلغي الدين ، او ما يقوله خصومهم من أن الدين يلغي العلم، ومنهج الاسلام في المعرفة يؤمن بأن الدين والعقل من عند الله ، فـلا يرفض الدين استخدام العقل ، وهو من أدوات النظر والمعرفة .

ولا يرفض الدين العلم، وهو حصيلة قدرات عقلية وحسية يملكها الانسان مع الطبيعة والأشياء .

فالعلم طاقة ، والدين منهج ، ولذلك فليس هناك بينهما تعارض ، بل تكامل ، والدين منهج كامل للحياة البشرية ، تسعى الى تنظيم علاقات الانسان بالحياة ، وبالعلم نفسه والعلم بهذا الوضع لا يستطيع أن يدعي انه منهج ، او دين ، او يصلح نظاماً كاملاً للإنسان ، ذلك أنه لا يمكن للجزء ان يستشرف الكل [١] .

---

(١) من بحث للدكتور عماد الدين خليل .

## (١٢)

ومنهج المعرفة في الاسلام يؤمن بأن روح العلم هو التجرد للحق والصدق فيه والاستمساك بــه ، وان العلم شيء وتطبيقه من غــير خطأ ، او خلل شيء آخر .

ومفهوم الاسلام ان المدنية شطران متكاملان : العلم ، والعــدل ، ومن وراء ذلك مخافة الله ومحبته ، ووجهة المسلمين في العلم ابتغاء الحقيقة لا ابتغاء المنفعة .

وهناك حقيقة لا ريب فيها . ان قوانين العلم والفطرة والنفس والمجتمع. قد قررها الاسلام لأول مرة في حياة البشرية كلها ، حين قرر « سنن الله » « **سنة الله في الذين خلوا من قبل ولن تجد لسنة الله تبديلا** » ولن تجد لسنة الله تحويلا .

وأبرز هذه السنن هو هلاك الحضارات والأمم، إذا لم تلتمس منهج الدين في النفس والاخلاق والمجتمع ، ويجعل العلم والحضارة في نطاق الايمــان بالله واليوم الآخر ، وقد كشف القرآن عن سنن الله في الأمم ، وسننه في إنزال

الهلاك بالجماعات التي تخرج عن قانون الفطرة المتكامل ، عن الانسان والكون معاً .

وآثار هذه السنة المضطردة باق في الارض ، مما نرى من بقايا الحضارات ، ومما دمرت به الحضارة الغربية مرتين في قوتها المادية ، وما قضي عليه من ملايين أهلها ، وما يقاسيه المسلمون اليوم من أزمات ، إنما يرجع الى هذا التخلف عن قانون الفطرة حين يلجأون الى منهج وافد مخالف لقيمهم وعقائدهم ، وذلك في اتباع المدرسة الاجتماعية في النفس والاخلاق والاجتماع بديلاً لمنهج المعرفة الاسلامي ، الذي قدمه القرآن للبشرية وللمسلمين .

ومن عجب أن يلجأ الانسان الى إنشاء منهج لحياته ومجتمعه واخلاقه متجاوزاً المنهج الذي ألقي إليه . وإذا كانت بعض الأمم قد عجزت عن تفهم الفوارق بين الدين الحق ، وتفسيرات الدين ، فاضطرت الى تجاوز الدين جملة لما وجدته من انحراف واضطراب ، وأسرار وشبهات وأساطير ، مما لا يقره العقل ، ومما ليس هو من الدين ، ولكنه من تفسيراته الزائفة ، إذا كان لبعض الأمم العذر في أن تلتمس لها أيديولوجيات مادية ما زالت حياتها تضطرب بالأزمة تحت وطئها. فأي عذر للمسلمين الذين هدوا الى الحق وأتيح لهم المنهج الذي يلتقي مع الفطرة والعلم والعقل .

وأي عذر للمسلمين والعلم الحديث يصدق اتساق الفطرة الذي جاء به القرآن ، وتأكيد اضطرادها الثابت لديه في ميادينه المختلفة بالمشاهدات

الدقيقة ، والتجارب المضبوطة ( ما ترى في خلق الرحمن من تفاوت ) .

ولا ريب أن اتساق الفطرة ، واضطراد السنن فيها ، واستحالة التناقض بينها أصل ديني في الاسلام قرره القرآن قبل أن يولد العلم الحديث بعشرة قرون « **فطرة الله التي فطر الناس عليها لا تبديل لخلق الله** » « **ولن تجد لسنة الله تبديلا** » .

## (١٣)

إن المنهج الاسلامي في المعرفة يؤمن بالغيب ، ويسلم بحدود الله ، ويؤمن بأن العقل البشري جهاز من أجهزة كثيرة للمعرفة ، وأنـــه جهاز سليم في موضعه الصحيح .

فالعقل البشري لا يستطيع أن يتصور حدوداً للعالم بدءاً او نهاية ، ولا يستطيع أن يتصور شيئاً لا حدود له ، ولا أول له ولا آخر .

وتلك سمة العقل البشري التي تحول بينه وبـــين القداسة ، او الانفراد بالمعرفة ، انه يفهم في حدود الزمان والمكان ، ويعجز خارج ذلك النطاق .

ولذلــك فالإسلام يقرر أن للإنسان من أدوات المعرفـة أشياء أخرى الى جانب العقل لكي يستكمل الفهم ويستوعب النظرة الشاملة للكون والحيـاة والانسان . ومن تلك الوسائل : الوحي والنبوة والقرآن .

وقد وصف النبي بأنه رحمة للعالمين ، لأن الله أرسله ليرشد الانسان فيما هو خارج عن حدود العقل ، وليدل الانسان على الأبعاد المختلفة لعالمه ، عالم الشهادة ، وعالم الغيب ، والانسان وحده لا يعرف من حوله إلا جانباً محدوداً

الى آخر ما يرى نظره ، وتسمع أذنه ، ولا ريب أن الطعن في الايمان بالغيب هو هدم لنظرية المعرفة الانسانية .

وان كشف قوانين الطبيعة ، وما يقتحم فيه العلم من مجاهل الكون ، إنما هو بمثابة دليل جديد على وجود عالم الغيب، وكشف لجانب من عظمة الخالق التي لا حدّ لها ، ولكن كشف قوانين الطبيعة، لا يغني عن الاعتراف بوجود صاحب القوانين ، فإن الله سبحانه هو صانع القوانين ، وهو وحده القادر على أن يخرقها بالمعجزات .

ومن هنا فإن العلم لا يستطيع أن يتجاوز الدين ، وهو ان لم يلتمس الحدود والضوابط الاخلاقية ، فإنما يغدو طريقاً الى بربرية عاصفة ، وفي مفهوم الاسلام ، ان الحركة نحو كشف أسرار العلم يجب أن تكون محاطة بقوانين التقوى .

# (١٤)

ويقوم منهج المعرفة الاسلامي على أساس الاخلاق والتقوى ، ولا ينفصل عنها إيماناً بـأن العلم يصبح أداة شر إذا لم تحطه حصانة الإيمان بالله ، وهـذا أخطر مـا يواجه العلم والحضارة في الغرب اليوم ، وقـد دق العلماء ناقوس الخطر الى مـا يتهدد البشرية نتيجة تجـاوز العلم والحضارة اليوم ضوابط الاخلاق والتقوى ، ولم يعد العلم موجهاً الى الحق او الخير .

يقول الدكتور قدري حافظ طوقان : ان العلم إذا دخل مجال الاخلاق اتجه نحو الخير والبناء والنمو ، وإذا خرق نظامها ، ولم يتقيد بها أصبح أداة شر ، وهدم ، وتدمير .

ولقـــد تقدم العلم تقدماً نتج عنه انقلاب خطير بعيد الأثر في الحياة والعمران مكن العلم من السيطرة على مصادر الطاقـة في أشكالها المختلفة ، فنمت الثروة العامة نمواً لم يحلم به أحد من قبل .

ولكن هل هذا التقدم قضى على المشاكل الاجتماعية التي يعانيها المجتمع . ان هذا التقدم زاد المشاكل الاجتماعية تعقيداً ، وسلب راحة البال، وطمأنينة

النفس ووضع الحضارة في مركز خطر ، لمــاذا : لأن الانسان في تقدمه لم يحسب حساباً للخلق ومعاني الحق والواجب والمثل العليا .

إن الحكمة البشرية إذا فشلت في النهوض بعبء إدماج العلم وقواه العظيمة في أغراض الروح والخلق اتجهت هذه القوى الى التدمير والتخريب بدلاً من الاتجاه الى البناء والإنتاج والاثمار والخير .

لقد أصبح شعار هذا العصر : «المادية فوق كل شيء» وطغى هذا الشعار وتضاءلت أمامه قوة الناس المعنوية ، وتلاشت به الروابط الأدبية ، وانكمشت الرحمــة والعطف والشفقة في صحف الأديان ، وأشاحت الفضيلة بمزاياها عن النفس ، فإذا الانسان في غمار من الزهو والغرور يهزأ من العفة والاستقامة ، ولا ينظر الى الحياة إلا من خلال المتع والمسرات .

إن رجوعنا الى عناصر الخلق ، وإلى الفضائل الاجتماعية الـتي نبتت في أصول الأديان مــا يضع حداً للمتاعب التي تواجه الانسان ، وتجعل من العلم أداة إصلاح وخير ، فالعلم قد وضع في أيدينا قوة إذا لم نحطها بسياج من الخلق والفضائل انقلبت الى قوة هدامة مخربــة ، لا يستطيع الانسان أن يرد عن الحياة آثامها وشرورها ومفاسدها إذا سار فيها على العلم وحــده منصرفاً عن معاني الخير .

لن يخلص الانسان من ويلات العلم إذا لم ينزع الى الروحية ، ويسير على هدى الخلق ، فإن بلاء العالم في طغيان المادة وأهلها .

إن العالم إذا لم يتجه نحو الروحية والاحتفاظ بمقــام الروح فوق المادة ،

وسمح للمادة أن تسيطر عليه، فلن تقوم للحضارة قائمة ، وسيبقى السلم مهدداً والمثل العليا في خطر .

والعلم وحده لا يكفي لوضع حد لشرور العالم وآثامه ، ولا يكفي وحده للخلاص من المصاعب والمتاعب .

والعلم يجب أن يقوم على عناصر روحية ومعنوية تعلي شأن المثل العليا والاخلاق كما يجب أن تقوم الحضارة على المعنويات ، وتوفق بين المادية والروحانيات [1] . ذلك مفهوم الاسلام في منهج المعرفة ، وذلك هو تجاوز منهج العلم الحديث .

يقوم منهج المعرفة في الاسلام على أصول أصيلة :

أولاً : أنه لا مكان في الوجود للمصادفة العمياء ، « **إنا كل شيء خلقناه بقدر** » .

ثانياً : الأخذ في الاعتبار ، فطرة الانسان وطاقاته ، واستعداداته ، وقوته وضعفه ، « **فطرة الله التي فطر الناس عليها** » .

ثالثاً : ليس الوجود متروكاً لقوانين آلية صماء ، وان وراء السنن إرادة الله المطلقة .

رابعاً : قانون الطبيعة وقانون الدين يلتقيان ويتكاملان .

---

(١) مجلة الرسالة ١٩٤٠ .

# ملحق
# رأي العلماء الغربيين في ترابط الدين والدولة
# والدين والعلم في منهج الإسلام

(١)

(جورج روبير)

ان الاسلام ليس ديناً فحسب ، إنه آخر الأديان التي ظهرت في التاريخ ، وانه أيضاً وبصفة خاصة مجتمع روحي واجتماعي ، ونظام سياسي ، وأسلوب للعيش . ولقد أعطى الاسلام للدنيا حقها ، وللآخرة حقها ، فلا تزهق الروح على حساب البدن ، ولا يزهق البدن على حساب الروح ، فالازدواج كامل بين الروحية والمادية في شخصية المسلم .

(٢)

(ريتشارد هارتمان)

قلما تجد بين الأديان الكثيرة ديناً ينفذ الى حياة معتنقيه كلها فردية كانت أم جماعية مثل الاسلام ، ذلك انه جمع السلطة الدينية في شكل الدولة السياسي ، ووقي خطر التفرقة بين أمور الدين وأمور الدولة . وقد ألبس الدين ثوب التشريع والفقه .

## (٣)

### (اميل درمنجم)

الاسلام ليس عقيدة مادية تنطبق عليها المقاييس المادية ، وليس عقيدة روحية ، لا صلة لها بالمادة ، ولا بالحياة ، وإنما الاسلام عقيدة ترتكز على المادة والروح ، والدنيا والآخرة ، جسم ، وروح ، ودولة ، ودين ، وحياة، وغيب . والاسلام عقيدة تقدمية لا بوصفه مؤيداً لنظريات الاجتماع الحديثة ، بل لأنه يدفع الإنسان دوماً الى الامام .

## ( ٤ )

### (ليوبولدفابس)

إن أهم مآتي الاسلام تلك المآتي التي تميزه عن سائر النظم المطلقة ، هي التوفيق التام بين الناحية الخلقية ، والناحية المادية من الانسانية ، هذا سبب من الأسباب التي عملت على ظفر الاسلام في ابان قوته أينما حل . لقد أتى الاسلام بالرسالة الجديدة التي لا تجعل احتكار الدنيا شرطاً للنجاة في الآخرة. هذه الخاصة الظاهرة في الاسلام تجلو الحقيقة الدالة على أن نبينا كان شديد الاهتمام بالحياة الانسانية في كلا اتجاهيها في المظهر الروحي والمظهر المادي .

( ٥ )

**(هورتن)**

نجـد في الاسلام اتحاد الدين والعلم ، وهو الدين الوحيد الذي يوحد بينهما ونجد فيه كيف أن الدين موضوع بدائرة العـلم ، ونرى وجهة الفيلسوف ، ووجهة الفقيه سائرتين معاً باتحاد ، ومتجاورتين كتفاً الى كتف

( ٦ )

**(بول دي ركلا)**

الاسلام هو الدين الوحيد بين جميـع الأديان الذي أوجد بتعاليمه السامية عقبات كثيرة تجاه ميل الشعوب الى الفسق والفجور ، ويكفيه فخراً أنـه قدس الانسال وعظمها ليرغب الرجل بالزواج، ويعرض عن الزنا المحرم شرعاً وتشريعاً وان الاسلام قد حلّ بعقلية عالية عادلة ، أغلب المسائل الاجتماعية التي لم تزل للآن تشغل مشترعي الغرب بتعقيداتها .

( ٧ )

(مريسون)

إن الحق الذي لا يماري فيه أحـد ، أن الاسلام أكثر من معتقد ودين ، إنما هو نظام اجتماعي تام الجهاز ، هو حضارة كاملة النسيج ، لهـا فلسفتها وتهذيبها وفنونها .

( ٨ )

(الزي لستنشتاتر)

الاسلام ليس ديناً فحسب ، بل هو أسلوب في الحياة ، وجد دون غيره طريقة الى نفوس الأميين والفقراء ، وإلى نفوس المثقفين ، وإلى نفوس القادة والساسة ، وإنك لتجد علماء الذرة والحيوان والرياضة رغم بلوغهم هـذه الدرجة العليا ظلوا مخلصين لدينهم الاسلامي .

# المراجع


| | |
|---|---|
| الاسلام في عصر العلم وأبحاثه الأخرى | محمد فريد وجدي |
| الدين والعلم وأبحاثه الأخرى | دكتور محمد احمد الغمراوي |
| الملل المعاصرة في الدين اليهودي | دكتور اسماعيل الفاروقي |
| اتجاهات هدامة في الفكر المعاصر | دكتور محمد محمد حسين |
| مقالة في الإنسان | دكتورة بنت الشاطىء |
| الدين | دكتور محمد عبدالله دراز |
| الفكر الاسلامي الحديث وأبحاثه الأخرى | دكتور محمد البهي |
| أزمة الفكر الاسلامي | دكتور عبد الحميد متولي |
| الفكر الاسلامي الحديث في مواجهة الأفكار الغربية | دكتور محمد المبارك |
| القيم الاساسية للفكر الاسلامي | انور الجندي |

الموسوعة الإسلامية العربية

٣

# الإسلام
# والدعوات الهدامة

بقلم
أنور الجندي

دار الكتاب اللبناني - بيروت

دار الكتاب اللبناني
بيروت - لبنان
ص.ب ٣١٧٦ - برقيا (كتالبنان)
هاتف - ٢٥٧٤٧٠ - ٢٣٧٥٣٧
TELEX No 22865 K.T.L
LE BEIRUT

١٩٨٢

الاسلام
والدعوات الهدامة

# مَصَادِرُ المذاهِبِ الهدّامة

(١) الغنوصية : الفلسفة الشرقية القديمة

(٢) تحريف العقيدة السبئية

(٣) المذاهب الهدامة والالحاد

(٤) الله في مفهوم الاسلام

(٥) عقيدة البعث

# مدخل

بسم الله الرحمن الرحيم

لفت القرآن الكريم انظار المسلمين إلى الدعوات الضارة ، والمذاهب الهدامة ، ووضع الأسس الثابتة لمواجهة الشبهات ، وكشف عن مخططات الاحتواء والتبعية . وتحريف الأصول الثابتة . ونبه المسلمين إلى الحذر عن متابعة غير المسلمين والتماس ما عندهم :

« وَدَّ كثيرٌ من أهل الكتابِ لو يَرُدّونَكُمْ من بعدِ إيمانِكُمْ كُفّاراً حَسَداً من عندِ أنفُسِهِمْ من بعدِ ما تَبَيَّنَ لَهُمُ الحَقّ » .

« يَا أيها الذين آمنوا إنْ تُطيعُوا فَرِيقاً من الذين أُوتُوا الكتابَ يَرُدّوكُمْ بعد إيمانكم كافرينَ » .

« ألمْ تَرَ إلى الذينَ أوتُوا نَصيباً من الكِتابِ يَشْتَرُونَ الضلالَةَ ويُريدونَ أن تَضِلّوا السبيلَ » .

كذلك كشف الله حقيقة موقف البشرية من العلم . وكيف خالف فيه قوم ، والتمسوا منهجاً غير منهج الله :

« كانَ النّاسُ أُمّةً واحِدَةً فبعثَ اللهُ النّبِيين مُبَشّرِينَ وَمُنْذِرِينَ . وأنزلَ مَعَهُمُ الكتابَ بالحَقِّ لِيَحْكُمَ بَيْنَ الناسِ فيمَا اختلَفُوا فيه .

وَما اختَلَفَ فيهِ إلا الَذينَ أوتُوهُ مِنْ بعدِ ما جَاءَتْهُمُ البَيِّنَاتُ بَغْياً بينهم.فَهَدَى اللهُ الذين آمنوا لِمَا اختَلَفُوا فيهِ منالحقِّ بإذنِه واللهُ يَهْدِي مَنْ يَشَاءُ إلى صِراطٍ مُسْتَقِيم » .

ولقد كانت محاولات الدعوات الهدامة منذ قديم جارية إلى هدفها المرسوم لإثارة الشبهات ، وتزييف الحقائق ، والهدم عن طريق مذاهب ، لها بريق العلوم وأسماؤها . وهي في مجموعها تقوم على أساس إدخال السموم والزيوف إلى الفكر البشري لنقله من ربانيته ، وطابعه الإنساني ، ومصادره التي جاء بها الأنبياء ، وكتب السماء إلى تلك المخططات التي رسمتها التلمودية ، منذ قديم ، وأقامتها على أساس الوثنية والمادية جميعاً .

وفي العصر الحديث ظهرت علوم تحمل هذه الشبهات ، وتحاول أن تفرضها كمقررات علمية . فقد استطاعت هذه القوى أن تدس عن طريق علم مقارنة الأديان ما يراد به تزييف حقيقة الدين وتاريخه ، كالقول بأن البشرية كانت وثنية ، ثم تطورت إلى التوحيد . كما استطاعت أن تدس عن طريق علم الأجناس البشرية مفهوماً يقضي بإعلاء العنصرية والدماء . ويحطم قاعدة الاسلام الأصيلة القائمة على وحدة الجنس البشري .

وهناك نظريات متعددة تطرح لمعارضة الدين أصلاً ، وهدم التوحيد ، ومذاهب تستهدف هدم الأخلاق والأسرة عن طريق مناهج المدارس الاجتماعية، وهناك التفسير المادي للتاريخ . وهناك نظريات فرويد في الجنس ، ونظريات ليفي بريل في نسبية الأخلاق .

وبالجملة . فهناك محاولة ضخمة إلى نقل الفكر البشري من مجال أصالة الفطرة ، ومنطق العقل ، وطريق التوحيد ، وطابع الإيمان إلى مجال الإلحاد والإباحة والوثنية والمادية.وهي دعوات تستمد أصولها من مخططات بروتوكولات حكماء صهيون . التي هي الصورة المستحدثة لمخططات التلمود .

من عجب أن القرآن قدكشف عن هذه المحاولة الخطيرة بأكملها،وأبان عن تلك الجماعة التي فرضت على البشرية فكراً مضاداً للفكر الرباني المصدر ،

الانساني الطالع ، وشكلت محتوى ، ومفهوماً ، وفلسفة كاملة . وقد جاءت الرسالات تترى لتصحيح هذا المفهوم . وكان الاسلام هو خاتم الرسالات في تحطيم هذه المفاهيم . والكشف عن زيفها على نحو صريح قائم على البرهان الحق . وهو هدى صحيح وضوء كاشف لكل من يلتمسه .

وتجري الآن محاولة ( اليهودية التلمودية ) في نطاق النهج الذي حملت الدعوة إليه على مدى العصور في معارضة الفطرة ودعوة السماء . وفي محاولة إخضاع العالم كله للنهج الربوي : ( عالمية الربا ) .

وهو الآن يأخذ طريقه إلى النفوس التي جهلت الحق وعشيت عن نوره الكاشف .

ولقد اختار الله المسلمين ليحملوا الكلمة المؤمنة الربانية في وجه هذا الباطل . وعليهم مسؤولية دحض هذه الشبهات ، وإليهم أمانة الدفاع عن الحق ، وكشف الزيف ، جيلاً بعد جيل ، وعصراً بعد عصر . ولا ريب أن هذه الدعوات الهدامة قد سيطرت على الفكر الغربي . وأوشكت أن تحتويه ، وهي اليوم تواجه الإسلام . طمعاً في أن تسيطر عليه ، ولكن الاسلام بمفهومه الصحيح . وكتابه الموثق ، وصموده أمام الأحداث ، ومواجهته الصلبة لكل فكر وافد . أو مذهب زائف ، سيظل قادراً على أن يرد الخطر ، ويكشف وجه الحق ، ويبطل الباطل . ولا ريب أن الفكر التلمودي المادي الوثني فكرٌ مراوغ براق ، يحاول أن يضع أكاذيبه وأضاليله داخل مناهج علمية ، ولكنه مهما خدع بعض البسطاء . فإنه لن يستطيع أن يثبت أمام صولة الحق !

وإن نظرة واحدة إلى هذه المذاهب لتكشف عن أنها مفاهيم قديمة وثنية من ركام الفلسفات الهلينية والغنوصية والمجوسية ، وما يتصل بها من السحر والأساطير . تحاول أن تصاغ في أسلوب براق ، وأن هذه الدعوات وجدت طريقها حين عجز الدين في بيئات الغرب عن العطاء . وحين انفصلت الأخلاق عن الدين ، وضاعت مفاهيم الالتزام الأخلاقي والمسؤولية الفردية . هذه النظريات التي كشفت السنوات الأخيرة عن بطلانها . فقد كان لتحول

الأحداث أبعد الأثر في جمودها ، واضطرابها مما دفع أصحابها إلى إعادة النظر فيها ، وتجديدها . فقد تصدعت الفرويدية والماركسية والوجودية والهلينية لأنها قامت على أصول غير صحيحة . ومضت مضادة للتيار ، ومعارضة للفطرة . وقد فات الذين طرحوا هذه المذاهب في البيئات الاسلامية أن يعلموا أن هذه الدعوات إنما نشأت في بيئات خاصة بها ، ومن خلال تحديات مختلفة . ومن هنا فإنها لا تصلح لبيئات أخرى . وأن العقيدة الإسلامية لها قيمها الأصيلة التي تعارض فصل الدين عن الأخلاق . والتي تنكر أن الانسان مادة فقط ، والتي تفرق بين قوانين البشر وقوانين الله . وتفصل بين الله وبين البشرية والعالم وتنكر الوساطة بين الله والناس . ولا تقر إسقاط التكليف عن أي مسلم مهما بلغ من درجات الإيمان، ولا تقبل الدعوة إلى صراع الأجيال ، أو إطلاق الحرية من جميع ضوابطها ، أو معارضة عالم الغيب والبعث والجزاء . وترى أن هذا كله انما يراد بالبشرية لتحطم الجدار القوي الذي تستند إليه في علاقتها بالله والدين الحق بما يسلمها جيلا بعد جيل إلى السقوط في أحضان استعباد خطير . وعبودية للمخططات التلمودية المتطلعة إلى السيطرة على العالم بعد تحطيم قيمه وأخلاقه ومقدراته . وتلك أخطر المخططات التي تجتاح البشرية والتي طرحت في السنوات الأخيرة عشرات الدعوات والمذاهب والفلسفات المضللة الهدامة . وكلها تقصد الاسلام اليوم . فهو القوة الوحيدة التي تستطيع أن تصمد في وجه الإلحاد والمادية، والوثنية، والاباحية ، والمسلمون مطالبون دائماً باليقظة والمواجهة . والتصدي لكل القوى التي تحاول أن تفتّ في عضدهم ، أو تفسد مقوماتهم ، أو تحطم معنوياتهم .

وأول علامات اليقظة هو فهم هذه الدعوات، ومعرفة موقف الاسلام منها . وهذا ما نرجو أن نحاوله في هذه الدراسة المتواضعة .

# فهرس

# ١

# الغنوصيّة

## الفلسفة الشرقيّة القديمة

الغنوصية : مصطلح للفلسفة الشرقية التي كانت ذائعة قبل نزول الاسلام ، وتقوم في مجموعها على فهم بشري ، يشكل نظرية مختلطة من عدة مذاهب وعقائد . ومعارضة كل المعارضة لمفهوم الإسلام والتوحيد القائم على أساس الفطرة . وتتألف الغنوصية — التي هي اسم على المعرفة « Gneso » من مذاهب متعددة . منها المجوسية والمانوية والزرادشتية والديصانية والمزدكية . والمندائية ، والمرقوية ، وتجمع في مقاصدها :

١ — عبادة النار وتقديسها .

٢ — افتراض وجود إلهين إله خير وإله شر . أو نور وظلام .

٣ — استباحة المحرمات ، والدعوة إلى شيوعية النساء والأموال . وإباحة نكاح الأخوات ، والاغتسال بالبول .

٤ — رفض الذبائح . ورفض إراقة الدماء . والزهد في أكل اللحوم . وفي مس الماء الطهور .

ولا ريب أن الفكر الشرقي القديم الذي ظهر عن المصريين والفرس الآشوريين والبابليين والهنود والصينيين ، والذي قام على مفاهيم وثنية وثنائية ومثلثة إنما هو حصيلة التضارب الذي وقع بين الفكر الانساني الرباني المصدر الذي جاءت به الرسالات والأديان السماوية ، وبين محاولات الفكر البشري

للخروج عن الضوابط والحدود والقيم الأخلاقية والشرائع التي شرعها الحق تبارك وتعالى لعباده .

ولذلك فإن من أخطر ما يقوله باحث من الباحثين : ان البشرية بدأت وثنية ، ثم عرفت التوحيد بنزول الأديان الثلاثة . اليهودية ، والمسيحية ، والإسلام . وقد سجل القرآن ذلك في قوله تعالى : « وما كانَ النّاسُ إلا أُمةً وَاحِدَةً فاختَلَفُوا » وقال تعالى « وَمَا تَفَرَّقُوا إلاَ مِنْ بَعْدِ مَا جَاءَهُمُ العِلْمُ بَغْياً بَيْنَهُمْ » .

وتمثل الغنوصية في الفكر الشرقي القديم مكانة الهلينية في الفكر الغربي القديم . وقد قامت الغنوصية على مفهوم الإشراق والمعرفة عن طريق الروح والبصيرة ، بينما قامت الهلينية على مفهوم العقل والمعرفة عن طريق المنطق . وإن من يقرأ عصارة الفكر البشري وحصيلة التراث القديم ير كيف تراكمت آراء ونزعات متضاربة فاسدة غاية التضارب والفساد ، تقوم على الإباحة والشك ، والضلال والاضطراب .

فالدهرية : تقول بقدم العالم ، وإن العالم بلا إله ولا صانع .

والطبيعية : تقول بأن التراب والماء والنار والهواء هي أصول كل شيء .

والثنوية : تقول إن صانع العالم اثنان : الخير والشر . أو النور والظلام وهما قديمان .

والبرهمية : تقول بتعظيم النار ، والنهي عن قتل الذبائح ، وإباحة الزنا . وتقول بالتناسخ (١) والتثليث والتجسد (٢) .

والفلاسفة تقول بإنكار بعث الأجساد ، ورد الأرواح إلى الأبد .
والصابئة تقول بعبادة الملائكة واعتبارها آلهة .

---

١ — التناسخ : انتقال الروح من جسد إلى جسد .
٢ — التجسد : إنكار وجود الله والآخرة لأنهما غير محسوسين .

والمجوس تقول بعبادة النار ، والصلاة إلى الشمس ، ومنع الاغتسال بالماء تعظيماً له ، واستعمال بول البقر بدلاً منه .

وقد أخذت الدعوات الهدامة من المذاهب الضالة . فأخذ القرامطة مشاعية النساء والأموال التي دعا إليها مزدك . وأخذ الباطنية إنكار البعث والجزاء . وأخذت السبئية الوصاية والرجعة وهكذا .

وإن أخطر ما تحمل هذا المذاهب من معارضة للإسلام : هو إلغاء التكليف . وإلغاء الالتزام الأخلاقي . والدعوة إلى إسقاط فرائض الإسلام . وإباحة ارتكاب المحرمات . والإغراق في اللذات ، والقضاء على الفوارق الواضحة بين الخير والشر ، والتقوى والإباحة ، والفضيلة والرذيلة .

وقد استعرض الدكتور علي سامي النشار مفهوم الغنوصية وتاريخها . فأشار إلى أن كلمة Gneso (غنوص) إنما تعني المعرفة . غير أن الكلمة لم تلبث أن اتخذت معنى اصطلاحياً خاصاً هو : الاتجاه نحو التوصل إلى المعارف العليا بنوع من الكشف . أو محاولة تذوق المعارف الإلهية تذوقاً مباشراً بأن تلقى في النفس إلقاء . وأشار إلى أن الغنوص هو عصارة مذاهب فارسية وسريانية . وأفلاطونية . وفيثاغورثية . ولها اتصال بالمسيحية . واليهودية . والزرادشتية . والمانوية . يقول الدكتور النشار :

وقد قاومت المسيحية هجوم الغنوص مقاومة عنيفة ، ولكن الغنوص استطاع أن يغزوها غزواً فظيعاً ، فسيطر على طائفة من أعظم المفكرين في مقدمتهم القديس أوغسطينوس .

أما الإسلام فقد واجه غنوص الزرادشتية والمانوية والثنوية. وقد ظهرت هذه العقائد في شكل طوائف خاصة . دعيت باسم الباطنية أو الغلاة أو القرامطة .

ويشير الدكتور النشار إلى أن الغنوص استطاع أن يلقي بظله على الفلسفة ، وخاصة الفلسفة الصوفية فيما يتصل بنظرية الفيض . أو العقل الأول . أو النور .

ويعد الحلاّج والسهروردي المقتول من ضحايا الغنوصية وتجاوز مفاهيم الإسلام في البحث عن مثل أعلى للحياة الانسانية يستند على التعامل الباطني بعيداً عن منهج الاسلام في المعرفة المستمدة من القرآن .

# إحياء الباطنيّة القـديمة

كان لا بد من إحياء الباطنية القديمة لأداء نفس الدور الذي قامت به ، وقد أخذت الدهرية من الباطنية القديمة تمردها على الاسلام ، وأضافت إليه ما توصلت اليه أساليب البحث من قدرة على تزييف الوقائع وطلائها بالبريق الذي يخطف الأبصار . بما يحقق نشر الإلحاد والاباحية تحت ستار العلمانية .

والمعروف أن الباطنية القديمة ، قد وضع جذورها يهودي قديم مشهور . هو عبد الله بن سبأ . الملقب بابن السوداء . الذي قال بحلول الإله في بعض عباده ، ورجعتهم بعد موتهم الظاهري . ومن ابن سبأ تشعبت فرق الغلاة(١)، ثم تبلورت الأفكار الباطنية في القرن الرابع على أيدي فلول المجوسية المنهزمة ، وتشعبت إلى فرق متعددة تربطها غاية واحدة هي القضاء على الإسلام . وشريعته الخالدة .

وإن أخطر ما طرحته الباطنية — وما تزال تطرحه المذاهب الهدامة ، هو التأويل الذي يؤدي إلى تعدد وجهات النظر ، وتباين الآراء دون الاستناد إلى قاعدة معلومة وهذه تتبع الأهواء والرغبات التي يضيع معها الحق ، أو تشوه معالمه . وكان ضرر الباطنية على الاسلام أكبر من ضرر أعدائه الصرحاء . وذلك

---

١ – الفرق بين الفرق للبغدادي .

أن الباطنيين أباحوا لأتباعهم جملة الملذات والشهوات، وأسقطوا عنهم فرائض العبادات كما أباحوا لهم ، تأويل أركان الشريعة (١) .

* * *

قبل علماء المسلمين من مترجمات اليونان علوم الطبيعيات والرياضيات ، وعارضوا الإلهيات والميتافيزيقا اليونانية . وقالوا : إن لنا علمنا في هذا المجال. ولسنا في حاجة إليها .

وقد ثبت أن هذه الإلهيات ليست سوى علم الأصنام عند اليونان، وأنها عصارة مفاهيم الوثنية القومية . وقد ترجموها إلى لغة الفلسفة ، وأضافوا عليها صيغة من الفن .

وما العقول والأفلاك إلا رموز للوثنية الإغريقية القديمة . وما أفعالها وحركاتها وتصرفاتها ، إلا عقلية توارثتها الأجيال عندهم ، ووثنية تعارض التوحيد ، وتحل محل عقيدة الصفات الإلهية .

ومن خلال هذه المفاهيم عن الإلهيات اليونانية . جاءت معارضة التوحيد والنبوة ، والوحي ، والبعث ، والجزاء . وهي الأصول الأصيلة للإسلام والتي يعد من يجحدها خارجاً عن الدين .

وقد اتخذ خصوم الاسلام والعرب والدولة الإسلامية من إذاعة الإلهيات اليونانية وسيلة إلى هدم الدين على طريقة ( الهدم من الداخل ) المعروفة . ذلك أن إسقاط التكليف ، وإنكار المسؤولية الفردية والالتزام الأخلاقي والجزاء الأخروي من شأنه أن يفتح الباب واسعاً أمام حرية الشهوات واللذات ، والدعوة إلى الإباحية ، وعبادة الجسد . وقد كانت هذه هي

---

١ – الاسفراييني : في كتابه « التبصر بالدين » .

الأعلام التي رفعتها « الدعوة الباطنية » بكل عناصرها ، وتحت أسمائها المختلفة المتعددة . وقد اتخذوا لهدفهم مدخلاً زائفاً حين قالوا : إن الشريعة قد دنست بالجهالات ، واختلطت بالضلالات ، ولا سبيل إلى غسلها أو تطهيرها إلا بالفلسفة !

يقول العلامة : أبو الحسن الندوي (١) :

« شعروا بأن الإسلام لا ينهزم في ميدان الحرب ، وأن المسلمين لا تصح دعوتهم إلى الإلحاد السافر ، فإن هذا يلهب غيرتهم الدينية . لذلك اختاروا للوصول إلى هدفهم أسلوباً لا يزعج المسلمين . ولا يثيرهم . هو الفرق بين الظاهر والباطن . عن طريق الصلة القائمة بين الكلمات والمصطلحات الدينية ومعانيها .

فعن طريق هذه المصطلحات تقوم الصلة بين المسلمين بماضيهم ومنابعهم الصافية . فإذا انقطعت هذه الصلة بين الكلمات والمعاني وأصبحت الكلمات لا تدل على معنى خاص ، ومفهوم معين ، تسرب الشك والاختلاف إليها ، وأصبحت هذه الأمة فريسة لكل دعوة وفلسفة » .

قالوا (٢) إن لظواهر القرآن والأحاديث بواطن تجري مع الظواهر مجرى اللب من القشر ، وان تصوراتها توهم الجهال صوراً جلية ، وهي عند العقلاء رموز وإشارات إلى حقائق خفية ، وان من تقاعد عقله عن الغوص على الخفايا والأسرار والبواطن والأغوار ، وقنع بظواهرها كان تحت الأغلال التي هي تكليفات الشرع . ومن ارتقى إلى علم الباطن انحط عنه التكليف ، واستراح من أعبائه » .

ولما تقرر أن لكل لفظ ومعنى شرعي ظاهراً وباطناً . وأن الباطن هو اللب .

---

١ – في كتابه : « رجال الدعوة والفكر » .

٢ – « تبليس ابليس » لابن الجوزي .

استرسلوا في تقرير بواطن المصطلحات الشرعية المتواترة المعنى حسب أهوائهم . يقولون : للشرائع باطن لا يعرف إلا للإمام ، أو من ينوب منابه ، وكذلك كل ما ورد في الحشر والنشر وغيرهما ، فكلها أمثلة ورموز إلى بواطن . فمعنى الغسل : تجديد العهد عليه — ومعنى الطهور : التبرؤ من كل مذهب خالف الباطنية — ومعنى التيمم : الأخذ للعلم من المأذون . ومعنى الصلاة — الدعاء إلى الامام : ومعنى الزكاة — بث العلم لمن يتزكى — ومعنى الحج — طلب العلم الذي تشد رحائل العقل إليه .

وتقوم الدعوة الباطنية على قاعدتين : القاعدة الأولى : التمييز بين الظاهر والباطن . القاعدة الثانية : تفضيل الباطن .

لقد تدرجوا في الاستخفاف بالظاهر حتى جعلوه موضع سخرية واستهزاء ، فقد كان الأئمة يفهمون تلاميذهم من الطبقة العليا : أن الظاهر متناقض ومعوجّ . وأنه علم كثيف . وأنه تقليد محض لا دليل عليه ، وأنه لا حياة فيه ، وأن أهل الظاهر ، هم أهل الكفر بل أهل الشرك .

وقد تأسست الباطنية على الفلسفة اللاهوتية اليونانية . وعلى الطبيعيات . وقد استخدموا مصطلحات الفلسفة اليونانية وأفكارها . وعقائدها في أدبهم وشرح عقيدتهم .

وقد أشار الدكتور زاهد علي (١) إلى هذا المعنى حين قال : لقد اعتقدنا أن جميع النظريات التي جاءت في علم الهيئة القديم ، وفي علم الطبيعيات ، وفي علم الإلهيات صحيحة . لا يتطرق إليها الشك ، فاستعنّا بها في إثبات دعوتنا . وقد حرص دعاة الباطنية على إغراء الناس بما يحبونه ، والتحدث إليهم عن طريق رغباتهم ومطامعهم . وقد أورد المؤرخون خطاب زعيم

---

١ — نقلنا هذا عن أبي الحسن الندوي عن كتاب : ( ديانة الاسماعيلية ونظامها ) .

القرامطة الذي جاء فيه : « ادع الناس بأن تقرب إليهم بما يميلون إليه وأفهم كل واحد منهم بأنك منهم ، فمن أنِسْت منه رشداً فاكشف له الغطاء . وإذا ظفرت بالفلسفي فاحتفظ به ، فعلى الفلاسفة معولنا » .

* * *

حاولت الباطنية أن تفسد مفاهيم المصطلحات الإسلامية التي جاء بها القرآن والتي يتفق المسلمون على معانيها : كالنبوة ، والرسالة ، والملائكة ، والميعاد والجنة ، والنار ، والشريعة ، والفرض ، والواجب ، والحلال ، والحرام ، والصلاة ، والصوم ، والزكاة ، والحج . فقد ابتدعوا لكل مصطلح منها مفهوماً مخالفاً للحقائق الأساسية التي تعبر عنها هذه الكلمات . وقد وصف الأستاذ الندوي الدعوة الباطنية بأنها ثورة على النبوة المحمدية ، ذلك لإنكارها المفاهيم الدينية التي توارثتها الأمة ، وتفسير الكلمات الشرعية ، والمصطلحات الدينية . حسب الأغراض والأهواء . والفصل بين الظاهر والباطن . حتى إنهم يقولون : التنزيل هو الجسم . والتأويل هو الروح . والهدف كما أورده المؤرخون والباحثون واضح وصريح هو الانتقاض على الشريعة الإسلامية ممثلة في دولتها ، وإنشاء مجتمع آخر أشارت إليه الاشارات والرموز في رسائل إخوان الصفا وغيرها : ذلك قولهم : فإن سلطة تتصل بأهل الزمان جميعاً ، ويصير العالم بأسره له جسماً وآلة وجنوداً وأبداناً ، ويكون هو بمنزلة الرأس : أي العقل .

وقد جمعت هذه الدعوات المنافقين والملحدين . وطلاب المغانم والملذات . ومن هذه الدعوة القديمة انطلقت الدعوات الجديدة :

( البهائية — والثيوصوفية — والدهرية — والروحية الحديثة . والنرفانا — واليوجا . ) وكلها تعمل على تأويل الكلمات الشرعية المتواترة تأويلاً لا يقوم على اللغة والقياس والمنطق ، وتتجه إلى انكار الحقائق الغيبية . وغاية الدعوة

الباطنية : الالحاد في العقيدة ، وإلغاء الالتزام الأخلاقي والمسؤولية الفردية المؤدية إلى الجزاء في الآخرة .

ولا تزال الدعوة إلى التأويل ، أو علم الباطن من أخطر الدعوات الهدامة . التي تواجه المسلمين في العصر الحديث ، وغايتها رفع التكليف والضوابط ومعارضة حدود الله ، ودفع الناس إلى الشهوات واللذات في صيحة خطيرة على حد تعبير أحد فلاسفة العصر : « بول هازار » الذي يقول : « هل نترك السعادة وديعة بين يدي العالم الآخر ، ان علينا أن نقتنصها على الأرض ، أسرعوا فنحن في عجلة ، لا ضمان للغد . ولا عبرة إلا في الحاضر ، غافل من يقامر على المستقبل ، فلنضمن أولاً رفاهية بشرية صرفة » . وعبارة الباطنية : تعني الثمرة النهائية التي وصلت إليها المحاولات الماكرة في إنشاء صورة خادعة مغرية . ذات بريق زائف . هي القول بأن لكل معنى من معاني الاسلام والقرآن ظاهراً وباطنا . وهم يجعلون لكل تنزيل تأويلا . يقول الدكتور أبو العلا عفيفي :

« أما تأويل إخوان الصفا لآيات القرآن والحديث ، ولا سيما ما يتعلق منها بأمور الآخرة من جنة ونار ، وبعث وحشر . . الخ فقد اتخذوه وسيلة لتحقيق مآربهم . وهو قلب الإسلام ، وهدم عقائده . ومبادئه من أساسها . »

# ٢

# تحريف العقيدة السبئية

إن أخطر الدعوات إلى تحريف العقيدة وإخراجها من أصولها القرآنية . بدأت مع صيحة عبد الله بن سبأ . فقد كان يقول لطائفة من الناس : ( أليس قد ثبت أن عيسى بن مريم سيعود إلى هذه الدنيا ؟ بلى : فرسول الله أفضل منه . فلمَ تنكر أن يعود إلى هذه الدنيا وهو أشرف من عيسى ؟ . وقال : إن لكل نبي وصياً وعلي وصي محمد ومحمد هو خاتم الأنبياء ، وعلي هو خاتم الأوصياء ) (١) .

ومعنى هذا أن عبد الله بن سبأ نادى بمبدأين ليسا من دين الله الحق في شيء وهما من تحريف اليهودية . مبدأ الرجعة ، ومبدأ الوصاية . وفي صميم الاسلام وجوهره لا يعرف المسلمون ذلك ، ولا يقرونه .

وقد أضاف ابن سبأ . قداسة خاصة إلى الإمام علي ، فسماه وصيّاً ووليّاً ، ومهدياً ، وإماماً ، ونبياً ، وإلهياً .

وقد روى الطبري أخبار عبد الله بن سبأ ، وكيف كانت دعوته خطراً من أكبر الأخطار التي واجهت الاسلام في هذه الفترة الدقيقة من خلافة سيدنا عثمان رضي الله عنه . وليس في الاسلام وصية ولا تناسخ . وهي

---

١ – تاريخ الطبري . ج ٣ – ص ٣٧٨ .

كلها من الأفكار المجوسية القديمة ، وقد كانت هذه الدعوة — دعوة تحريف العقيدة — من أول الصدع الذي واجه الاسلام .

وان الباحث المتعمق لأثر عبد الله بن سبأ وحركته في مصر والكوفة ، والشام والحجاز ، ليعرف بوضوح أن هذه الآراء ، وما وراءها من دعوة إلى الانتقاض على الدولة في عهد سيدنا عثمان، ومن ظلم لسيدنا علي، هي مصدر تلك الفتنة التي أصابت الإسلام في تلك المرحلة من حياته ، والتي اتصلت بعد ذلك بأمور كثيرة .

يقول الأستاذ محمد سعيد الأفغاني : إن ما يذكره المؤرخون من التبعات على بعض الصحابة : كعلي ، وطلحة ، والزبير ، وعائشة هو بعد التمحيص من التبعات الثانوية . أما أقوى الأسباب التي أرّثت الشغب وهاجت الاضطراب فهي مؤامرة واسعة محكمة . سهر عليها أبالسة خبيرون وتعهدوها في جميع الأقطار حتى آتت ثمرها ، ولم تلق هذه المؤامرة من عامة المؤرخين ما تستحقه من التوضيح والاهتمام . ورأس هذه المؤامرة . « عبد الله بن سبأ » المعروف بابن السوداء . إني أؤمن أشد الإيمان بأنه لو لم يكن شيء قط من هذه المساعي التي يذكرونها لكان عمل ابن السوداء وحده كافياً في بلوغ الغاية المشؤومة (١) ويجمع الباحثون على أن عبد الله بن سبأ . كان على رأس جمعية سرية مختصة غايتها تقويض الدولة الإسلامية ، والقضاء على الاسلام . وان هذه الجمعية كانت تعمل لحساب دولة أجنبية . هي الدولة الرومانية التي انتزع منها المسلمون لسنوات قليلة قطرين كبيرين هما مصر ، والشام .

وان ابن سبأ كان مؤسساً لعمل خطير . امتد من بعد في الحركة الباطنية . وفي دعوات التغريب والغزو الثقافي في العصر الحديث .

---

١ — من بحث عن الصهيوني الأول : عبد الله بن سبأ .

ذلك هو العمل الذي حاول نسف العقيدة الإسلامية من أساسها . بإدخال ما ليس منها . فهو الذي اختلق للمسلمين ما يسمى : بالرجعة والوصاية . ويؤكد الباحثون على أن ابن السوداء ضرب المسلمين بعضهم ببعض وكان عاملاً من عوامل التفرقة . والتمزق بين أتباع الدين الواحد . وكانت دعوته لأصحابه : انهضوا في هذا الأمر فحركوه ، وابدأوا بالطعن في أمرائكم . وأظهروا الأمر بالمعروف ، والنهي عن المنكر . تستميلوا الناس ، وادعوهم إلى هذا الأمر . (١)

ولا ريب كانت دعوة عبد الله بن سبأ في تحريف العقيدة دسّاً في الدين ، وتفرقة في الكلمة ، واستهانة بالتاريخ ، واستخفافاً بالمقومات ، ووضعاً من شأن الله ، وإفساداً للأخلاق . والإشادة بكل مذهب أجنبي (٢) ومن هذه النقطة بدأت حركات الهدم في الاسلام ، وبدأت مؤامرات القرامطة والزنج والراوندية والمقنع الخراساني . وبابك الخرّمي . والمازيار والإفشين . ويضيف بعض المؤرخين إلى عبد الله بن سبأ كعب الأحبار ، ووهب بن منبه وعبد الله بن سلام . أما كعب الأحبار ؛ فهو ذلك الكاهن الذي أسلم في عهد عمر نفاقاً . وبلغ من دهائه أن جعل بعض الصحابة يروون عنه أحاديث معزوّة إلى رسول الله . ومما رواه كعب : الارضون السبع على صخرة . والصّخرة في كف ملك ، والملك على جناح الحوت ، والحوت في الماء ، والماء على الريح . والريح على الهواء !

* * *

وفي مرحلة تالية : جاء عبد الله بن المقفع . الفارسي المجوسي . الذي ادعى الاسلام وكان اسمه « روزبة » وكان من أكبر أعداء الإسلام ومن أشدهم مكراً . فهو الذي نقل إلى اللغة العربية الفكر المجوسي ، ريونظات

١ – راجع الطبري ج ٣ .ص ٥٠٧ – ٥٠٨ عن حديث هذه المؤامرة .
٢ – م – ١٩٤٦ – الرسالة .

مزدك وماني وغيرهما، وكان مقدمة لترجمة تراث الإلهيات الوثنية والإغريقية، والفارسية .

ومن أبرز كتبه التي ترجمها كتاب « ديستاو » وهو كتاب مزدك الذي يضم عقائده ، كما أنه ترجم كتاب « الدرة اليتيمة » في معارضة القرآن ، ومن أهم الكتب التي ترجمها كتاب « كليلة ودمنة » وقد ضمن هذا الكتاب باباً أسماه « برزويه » (١) وهذا الباب من أخطر الأبواب في نقد الدين عامة يتكلم عن تعارض الأديان ، وعن عدم التوصل إلى اليقين فيها مما يعتبر العقل وحده أعظم وسيلة وأفضلها للمعرفة .

وليس ما يقوله خصوم الأديان اليوم ، وأعداء الاسلام إلا هذا الكلام نفسه مكرراً ومعاداً بعد أكثر من ألف ومائتي سنة .

وكان ابن المقفع يرمي إلى نشر الإلحاد . والتحلل من الاسلام بالذات (٢) وقد تبين للبيروني هذا ، فقال في كتابه « تحقيق ما للهند من مقولة » : وهو مصدر الكلام عن كتاب كليلة ودمنة .

وبودي لو كنت أتمكن من ترجمة كتاب ( سنج سنتر ) وهو المعروف بكتاب « كليلة ودمنة » فإنه تردد بين الفارسية والهندية ، ثم بين الفارسية والعربية على ألسنة قوم لا يؤمن تعبيرهم إياه كعبدالله بن المقفع في زيادته باب « برزويه » فيه قاصداً تشكيك ضعيفي العقائد في الدين ، وكسرهم للدعوة إلى مذهب المانية ( أي المانوية ) وإذا كان متهماً فيما زاد لم يخل عنه فيما نقل ) وهكذا تنبه العالم الكبير : البيروني إلى مانوية ابن المقفع . وقد تبين الخليفة المهدي من قبل هذا فقال :

( ما وجدت كتاب زندقة قط إلا وأصله ابن المقفع (٣) كما قام

---

١ – ٢ دكتور علي سامي النشار في كتابه ( مناهج البحث عند مفكري الإسلام ) .
٣ – ابن خلكان – وفيات الأعيان – جـ ١ – ص ١٨٧ .

القاسم بن ابراهيم الزيدي . المتوفى عام ٢٤٦ بوضع كتاب « الرد على الزنديق اللعين ابن المقفع » .

ومع هذا كله فما زالت آثار ابن المقفع تدرس في معاهد العالم الاسلامي كنصوص ونماذج للأدب العربي دون أن تبين للشباب هذه الجوانب الخطيرة حتى يضعوها في ميزان الحكم على هذا الرجل .

* * *

جاءت ترجمة الفلسفة اليونانية ، وكان المسلمون قد رغبوا إلى ترجمة العلوم الطبيعية والرياضية ، ثم انحرف الاتجاه إلى ترجمة الفلسفة الإلهية . تحت تأثير عوامل ضاغطة (١) .

وكان ابن المقفع وحنين بن اسحق وأضرابهما . من الذين حملوا لواء هذا العمل ، قد استهدفوا غاية خطيرة : هي نقل مذاهبهم وأديانهم إلى الفكر الإسلامي ، وقصة فساد عملية النقل والترجمة هذه ما تزال من القضايا الكبرى التي تناولها الباحثون . وانتهوا فيها إلى رأي واضح صريح ، والمعروف أنه قد حدث خلط كثير بين المؤلفين . ونقلت كتب إلى العربية باسم افلاطون ، وهي لأرسطو أو لغيره مما أحدث خلطاً كبيراً ، واضطراباً شديداً .

أما الأمر الأشد خطورة . فهو أن القسم الأكبر من النقلة كانوا من السريان والأقل القليل من اليهود . وقد نقلوا ما نقلوه وفق أهواء خاصة . وأكثر النقلة لم تكن غايتهم البحث عن الحقيقة ، فهم إذ كان جلهم من النصارى النساطرة واليعاقبة ، فقد كان أكبر همهم الدعوة إلى شيعتهم وتزيين أهوائهم الدينية . لذلك كانوا يغيّرون ويبدلون في النصوص التي بين أيديهم . خدمة لأغراضهم الدينية وعقائدهم بالزيادة والحذف تبعاً لأهوائهم (٢) .

---

١ – راجع كتابنا – التفسير الاسلامي للفكر البشري .

٢ – راجع عبد الرحمن مرحبا في كتابه عن الفلسفة الاسلامية .

ولقد كان للترجمة آثارها الخطيرة ، وكانت تبعة « المأمون » في ذلك كبيرة وبعيدة المدى فقد كان هدف المسلمين الأول هو الانتفاع بعلوم الفلك — والطب — والرياضيات — من حساب وجبر وهندسة وكيمياء . وهم في طريقهم إلى وضع منهجهم الذي دعاهم إليه القرآن حين قال : « قُلِ انْظُرُوا مَاذَا فِي السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ » فكان عليهم أن يراجعوا ما سبقهم من فكر في هذا المجال ، وان يحرروه حتى ينطلقوا على ضوء صحيح من مفاهيمهم الأصيلة . وقد جروا في ذلك شوطاً . غير أن عصر المأمون لم يلبث أن فتح الباب واسعاً لترجمة الفلسفة الإلهية : التي هي علم الأصنام عند اليونان .

ومن هنا فقد جاء شر كثير . وهبت رياح سود . وكان ذلك نذير سوء ومقدمة للأخطار الكبيرة التي ألمت بالمسلمين من بعد .

ولندع الأستاذ خليل هنداوي يحدثنا في إجابته عن سؤال : أكان خيراً للعرب تناولهم الفلسفة اليونانية ؟ وما هي الفوائد التي اجتنوها ؟ يقول : لم يكن من خير في تناول العرب للفلسفة اليونانية وغير اليونانية . بل كان تناولهم الفلسفة طالع شؤم ، وإيذاناً لهم بزوال سلطانهم .

لم يأخذ العرب الفلسفة جدياً إلا حين انتهى إلى المأمون زمام الخلافة العباسية . فشجع الفلسفة ، وعمل على ترويجها .

وقد عمل المأمون على ترجمة مختلف المذاهب والنحل الدخيلة ، وإباحة الجهر بمختلف الآراء . فشاع في زمنه الشك ، وراج الباطل ، وهبت الرياح الصفراء من وراء هذه الإباحة . تحمل في طياتها جراثيم المذاهب المختلفة ، والنحل المتعارضة ، وظهرت الفرق التي كادت تؤلف بإرادتها وعقائدها أدياناً جديدة ، فكانت كل واحدة تزاحم الأخرى . فلم تلبث الدولة إلا قليلا ، حتى انحطت عليها جحافل المغيرين من التتر والمغول ، فقوضت دعائمها . وكان الكثير من اتباع هذه الفرق أعواناً للمغير على تحقيق تلك الغاية التي

اندك بها بناء العروبة ، وسقط صرح الحضارة الإسلامية . ماذا استفاد العرب من هذه الفلسفة ؟

استفادوا الخبرة لفن قتل الوقت وقتل العقل ، واستطابوا الإدمان على تعاطي هذه الكأس التي يقدمها السفسطائيون للإجهاز على الأمم القوية عندما تبلغ القوة مداها ، مقابل ما خسره العرب من الإيمان الفطري ، والاعتقاد النقي . فأهملوا واجبهم ، وتهاونوا في دينهم ، وفرطوا في لغتهم ، والذي أفادوه من تلك الدروب التي هلك فيها اليونانيون ، ومن جرى مجراهم من الأمم القديمة والحديثة .

* * *

كان اخوان الصفا : ثمرة الفلسفة الالهية اليونانية ، والهندية ، والفارسية القديمة . فقد خلطوا عناصرها ، وأضافوا إليها شيئاً من مفاهيم الإسلام ، وأقاموا منهجاً مختلفاً حاولوا به أن يهدموا الإسلام بإخراجه من مفاهيمه وإدخال مفاهيم غريبة عليه ، وجماع الرأي في رسائل اخوان الصفا :

أولا : آراء مفككة ، فيها عَوْد وتكرار غريب اختلطت فيه الفلسفة التقليدية ، والعلوم الرياضية والطبيعية . بخرافات السحر والتنجيم ، وأسمار ألف ليلة وليلة ، وحكايات كليلة ودمنة . وصفها أبو حيان التوحيدي بأنها خرافات ، وتلفيقات وتلزيقات . . وقد ردّ الباحثون آراءهم إلى تراث الكهان كأسرار النجوم والأعداد والفأل والزجر والسحر والعزائم والإيمان بطوالع النجوم وتأثيرها وموسيقى الأفلاك ونغماتها .

ثانياً : مزجوا الاسلام بمختلف الأديان والآراء والعقائد زاعمين أن مذهبهم يستغرق المذاهب كلها ، فكأنهم أرادوا أن يضعوا ديناً عقلياً يعلو

الأديان جميعاً .مغايرة لأصول الاسلام . وقد تبين أن مفهومهم لله سبحانه وتعالى مفهوم فاسد ، وخاصة في رحمة الله . وهم ينكرون البعث بالأجساد ويفسرون الجنة والنار ، والآخرة خلافاً لما تواتر عند المسلمين وفهم من النصوص القاطعة ، وينكرون الشياطين على الصورة التي يفهمها معظم المسلمين ، ويفسرون الكفر والعذاب تفسيراً باطنياً فلسفياً .

ثالثاً : أكبر مقاتلهم التي تدل على سوء قصدهم أنهم طمسوا أسماءهم ، وجبنوا عن إعلانها . ولو كانوا صادقين مخلصين لواجهوا الرأي العام في جرأة .

رابعاً : استهدفت هذه الرسائل إقامة نظام جديد ، يحل محل الشريعة الإسلامية . وهي تشتمل على عقائد الباطنية ، وإعداد النفوس والعقول لدولة جديدة .

خامساً : الدعوة إلى التأويل. ومحاولة تفسير القرآن والكتب المنزلة تفسيراً باطنياً يخالف ظاهر اللفظ ، والقول بأن للآيات تأويلات خفية باطنة .

* * *

هذه الدعوة إلى تحريف العقيدة أثمرت تلك الحركات الهدامة ، وفي مقدمتها القرامطة ، وحركة الزنج التي حاولت إسقاط الدولة الاسلامية وإقامة نظم أخرى تحت اسم « العدل الاجتماعي » .

أما محاولة إقامة نظام على النحو الذي دعت إليه رسائل اخوان الصفا فقد فشل فشلا ذريعاً . وقد تبيّن أن عمل هذه الفتنة كان لحساب دعاة الحركة الباطنية الذين حاولوا قلب النظام السياسي بتغيير التفكير العقلي وإيجاد ثقافة

جديدة يعتنقها شباب عصرهم(١) . وقد سقطت هذه الحركة ، وما يماثلها ، مما قام ويقوم في تاريخ الإسلام كله لمعارضته لروح الاسلام وطابعه وذاتيته الخاصة . وقد اعترف جولد زيهر وكازونوفا من المستشرقين بأن آراء إخوان الصفا هي آراء الباطنية ومعتقداتهم . وقد قامت هذه الحركات على أساس التأويل ، ومبادىء الحلول . وتبنت آراء مزدك في شيوعية الأموال وإباحة النساء . وحاولت أن تجعل من الأديان والفلسفات كلها عقيدة واحدة ، وكان ذلك كله من عوامل فشلها وتأكيد فسادها .

وكانت حركة القرامطة خليطاً من المجوسية واليهودية . وقد أباحت زواج البنات والأخوات ، وشرب الخمر ، وجميع الملذات . ورفعت قيود الأخلاق والشرع . واعتبرت ان جميع القوانين والحدود والآداب التي

---

١ - أكدت الوثائق ، والأبحاث العلمية الدقيقة أن من وراء هذه المذاهب ( المانوية - والمزدكية والخرمية ، والقرامطة ، واخوان الصفا ، ودعاة الالحاد والحلول ووحدة الوجود ) غاية سياسية ، هي محاولة تغيير النظام السياسي الاسلامي للدولة الإسلامية ، والسعي إلى إقامة نظام آخر تصوره مجموعة من المستضعفين على الإسلام ، وجماعة من المجوسية ، وقدامى الحكام المعزولين والشعوبيين ، والطامعين ، ولذلك فقد صيغت مفاهيم هذه المذاهب من أمشاج متفرقة ، وشظايا متعددة من المجوسية ، والأفلاطونية ، وأفكار دعاة تناسخ الأرواح ، وعبدة النيران . والأثينية والوثنيين اليونان ، وأصحاب الفكر التلمودي . مع إبراز طابع خادع من الولاء لآل البيت ، وأسلوب من الرمزية ، وأنظمة سرية يجمعون فيها الناس بخداع الدعوة البراقة ثم ينشئونهم على الحقد والخصومة والانتقام .

وقد اعتمدت « رسائل اخوان الصفا » منهجاً لدعوتهم . وهي تضم فقرات مموهة تشير إلى الوثنية . وتجمع فيها بين مصطلحات متعددة من اغريقية ، وبابلية ، وأشورية وغيرها فهم يضعون آلهتهم الوثنية . كالزردان . واهرمن وغازيمون إلى جانب إبراهيم وموسى وعيسى ومحمد (١) وفي الرسائل فقرات تشير إلى عبادة الكوكب وآلهة المجوس ، وإباحية مزدك في الأموال والنساء . والانهماك في تناوُل الملذات . وإلحاد ماني . وقوله بالتناسخ . وزيف زرادشت في القول بالنور والظلمة . وتبدو من خلال هذه الملامح الفلسفية تلك الغاية السياسية التي تخفيها اليهودية التلمودية . ومطامعها ، وأهواؤها .

---

١ - عمر الدسوقي : رسالة عن إخوان الصفا .

وضعت للناس قاضية بالجور . مقررة للظلم . وادعت القرامطة أن الجنة هي الدنيا ونعيمها ، واتخذت في نظامها أساليب غاية في العنف . وقام الدعاة لها بما قام به أصحاب حركة الزنج من فظائع لا حد لها .

وقد قاومت السنة هذه الحركة مقاومة حاسمة ، وواجهت مفاهيمها وردت عليها ، ونقضت شبهاتها ، وتأكد للباحثين والمؤرخين أنها حركة معادية للإسلام ، ناشئة من دين أجنبي ، وأنها وثيقة الصلة بالحركات الفارسية كالراوندية والخرمية والبابكية وانها امتداد لها .

# ٣

# المذاهبُ الهدّامة والإلحاد

ان المصدر الأم للإلحاد هو المذهب المادي ، والنزعة المادية التي تقوم على تصور خاطىء للإنسان وهو أنه خلق من العدم ، وصائر إلى العدم . وأن للإنسان حياته المحدودة ولا سلطان عليه إلا نفسه وأهواؤه . فعليه أن يسارع قبل انتهاء الأجل إلى الانغماس في الشهوات . فإذا وجد من الفلسفات ما يرضي هذه النزعات في نفسه ويبررها فهو يعتنقها . وتلك طبيعة الانسان منذ قديم . وما تزال .

والناظر إلى الدهرية . والمذاهب الهدامة جميعاً يجدها لا تفصل بين الالحاد والإباحية : أي بين الفكر والمجتمع . وقد نشأ الإلحاد في بيئات غير إسلامية ، نتيجة تزمت الديانات والمذاهب التي انحرفت عن أصولها الأصيلة . فضيقت واسعاً ، وحرمت الانسان من تطلعاته ، وإجابة نداء غرائزه الطبيعية . ودعته إلى قمع هذه الرغبات ، أو فرضت عليه معتقداً يحار العقل في قبوله ، ويتعارض مع الفطرة . ولا ريب في أن العقل البشري في العصر الحديث بعد أن حررته الطاقة الضخمة التي ألقاها القرآن إلى البشرية ، وأثرت في كل الأديان والعقائد . وأفكار الأمم ، وحررتها من عبودية الجسم والعقل جميعاً . هذا العقل ما زال يقف موقف الريبة إزاء كل ما يتنافى مع الفطرة. من حيث أن الدين المنزل من عند الله لا ينافي الفطرة . ولا يعارض العقل . ومن هنا كان ذلك التشابه بين موقف الغرب في هذا العصر وموقف البشرية قبل نزول الاسلام .

وهنا نرى الاسلام في بساطته ويسره ، وسلامة مقاصده . فقد أطلق الدين من كل ما ألصقه به المجسمة والمشبهة ، وحرر محيط العبادة من التماثيل والصور والرموز والطقوس والشارات ، وجعل الأرض كلها مكاناً للعبادة . وأعاد إلى الطبيعة قيمتها كمحراب للصلاة ، وجعل روح الدين في الشارع والسوق كالمسجد ، ولم يجعل طبقة معينة تحتكر شؤون الدين ، وحتم على جميع معتنقيه ان يكونوا علماء به . ولم يجعل بين العبد وربه وساطة ما (١) .

ولا ريب أن نزعة الإلحاد قديمة . وقد ظهرت في القرن السابع للميلاد في بلاد اليونان ، ثم ما زال ظهورها يتجدد على العصور، ويدخل في معارك مع رسالة السماء ، ومع الفكر الرباني المصدر ، ويجد من أصحاب الأهواء والمطامع أولياء له وتابعين .

ولما كشف العلم الطبيعي عن أسراره نزع العقل البشري نزعة الاستعلاء . واتخذ من مهاجمة العقيدة التي عارضت طريقه إلى البحث سبيلا إلى معارضة الأديان بعامة دون أن يقدر مدى الفوارق البعيدة الواسعة بين العقائد . وبين التفسيرات المنحرفة لبعض الأديان وبين الأديان التي حفظت مصادرها من كل زيف .

ولو خلصت النيات . ولم يجد التعصب سبيلا إلى النفوس ، ولم تكن وراء الدعوات أهواء أصحاب المطامع من دعاة الأيديولوجية التلمودية . لاستطاعت البشرية أن تعرف أن في الاسلام غاية ما ترجوه النفس البشرية وتتطلع إليه : سعة ورحمة وإيماناً بالعلم والتقدم ، ودفعا للانسان الى تحقيق ذاته ، وممارسة رغباته. فقد اعترف بها الاسلام، وأجاز تحقيقها في اطار من الضوابط الكريمة. ولكن البشرية ما زالت منذ خمسة قرون (٢) تبحث وتتخذ من العقل — وهو اداة لها — عن وجهتها الخاصة . وهي في حاجة الى نور الايمان ، أو على حد

١ — محمد فريد وجدي

٢ — اي منذ ظهور بوادر الحضارة الحديثة .

تعبير علماء المسلمين عنه: إن العقل « جوهر مضيء خلقه الله في الدماغ ، وجعل نوره في القلب » .

ما زالت البشرية تبحث دون أن تهتدي إلى الحق . وهو قائم أمامها وهي مشرقة نحو الفلسفة الغنوصية ، أو مغربة نحو الفلسفة اليونانية .

ومصطلح الالحاد ( Atheisme ) يعني نفي وجود المبدع الأول لهذه الكائنات . والإلحاد ككل النظريات يتغير ويتطور ويتحرك في كل بيئة وفق أسلوب جديد. ومن هنا فقد عرف العصر الجديد إلحاداً مرتبطاً بعدد من الدعوات . كالوجودية والماركسية والفرويدية . بل يمكن القول بأن الإلحاد وإنكار ذات الإله هما قاعدة كل هذه المذاهب والدعوات مهما اختلفت حول قضايا العصر . وهذه الدعوات جميعاً تعارض الأديان ، وتعارض النبوة ، والكتب المنزلة . وهي تقف موقف الانكار الشديد للبعث والجزاء .

وقد أخذ الإلحاد يلبس في العصر الحديث طابعاً فلسفياً . ويستمد من بعض نتائج النظريات العلمية أسلحة له . ومن العجب أن معظم أسلحة الإلحاد عن طريق العلم التجريبي قد سقطت ، وكان أخطرها انكار الغيب . وما وراء المادة ، إذ عاد العلم التجريبي أخيراً فاعترف بما وراء المادة نتيجة ظهور قوانين الذرة وانشطارها . ولكن الفلسفة ما تزال تبحث عن أسلحة جديدة تدعم بها موقفها إزاء هذه المعارضة الباطلة .

والالحاد الحديث هو بمثابة رفض للقوة الأساسية الواضحة القائمة والصانعة والمدبرة في هذا الكون ، وقد طرح هذا الشعار بعد أن كذبت العلوم التجريبية نظرة دعاة الإلحاد القديمة . ان الظاهرة الجديدة هي التمرد على وجود الله في محاولة لتأليه الإنسان ، أو هي محاولة لانتزاع الألوهية من الله (سبحانه وتعالى عما يقولون علوا كبيراً) لوضعها في الانسان .

ومن يقرأ ما كتبه فورباخ وماركس وسارتر وفرويد ، يجد هذا المعنى واضحاً جلياً . قال ماركس : إن الإلحاد هو إنكار الله، وبهذا الإنكار نؤكد

وجود الإنسان . ويربط فرويد بين التمرد على الله والتمرد على سلطة الأب[1] . ولا ريب أن هذا الخلط بين الله والإنسان من جهة ، وإضفاء الألوهية على الإنسان من جهة ثانية لهما مصدرهما في الفكر الغربي المسيحي .

ومن خلال هذا المفهوم تقوم الحملة على ( الاله ) . فالإله محدد بالصورة التي عرفها الفكر الغربي . وليس بالصورة الحقيقية لله سبحانه وتعالى . وهي صورة حدث فيها خلط كثير بين الله والطبيعة ، وبين الله والإنسان ، ومن هنا جرت عبارات نيتشه المعروفة عن موت الإله . وعبارات ماركس عن أفيون الشعوب ، ذلك لأن الفروض التي قدمت كانت فروضاً بعيدة عن العقل ، ولا تقبلها الفطرة ، ولا تطمئن إليها النفس المتطلعة إلى تقبل كل ما هو منطقي ومعقول .

---

١ – كوستي بندلي في كتابه : إله الالحاد المعاصر .

# ٤

# الله في مفهوم الإسلام

إن نظرة واحدة إلى مفهوم ( الله ) سبحانه وتعالى في الإسلام تستطيع أن تزيح من النفس الإنسانية ذات الفطرة الصافية كل ريب ، وكل شك ، وكل شبهة من تلك الشبهات التي جاء أكثرها من قبيل التحدي .

فالله هو الخالق . البارىء . المصور . القهار . الذي ليس كمثله شيء ، لا تدركه الأبصار وهو يدرك الأبصار . وهو الصانع المدبر ، التي تتمثل صفاته في أسمائه الحسنى . فلا يتعداها المسلم . ولا يصف الله ، أو يسميه إلا بما سمى به نفسه .

والاعتقاد في وحدانية الله هو الركن الأول من أركان الاسلام ، وهو مرجع كل قول ومنتهى كل قصد . وذات الله لا يدركها العقل ، ولا ينالها الحس . وكل ما يدركه العقل الانساني هو آثارها التي ترشد إلى وجودها .

والعقيدة بوجوده تعالى لازمة من لوازم المعنى الإنساني ، فإن الانسان ما دام صاحب نظر وفكر واستدلال . فلا يستطيع أن ينفك عن تلك العقيدة مطلقاً . ولما كان أول أصل من أصول المحسوسات ، هو علمه بأنه ( لا مصنوع إلا وله صانع ) فتراه لا يتمالك نفسه من الحكم بأن هذا الكون لا بد له من صانع . وقد ظل الإنسان على هذه العقيدة ألوفاً من السنين لا يعتريه منها

شك ، حتى جاءت الفلسفة قبل المسيح بنحو ستة قرون . فجاءت معها الشكوك والشبه والسفسطة (١) .

وقد أشار القرآن إلى هذه الشكوك في أكثر من موضع « أفي الله شك فاطر السموات والأرض » . وكشف عن عجز المادية في تعليل وجود الكون بدون خالق . حكيم . مدبر .

ومفهوم الله في الاسلام يتميز بمعالم واضحة : فهو المبدع بالمعنى الحقيقي . وهو الصانع والمدبر المتميز عن الأشياء الحادثة المتغيرة التي نراها وسبحانه وتعالى علواً كبيراً عن تشبيهات المشبهين . وتجسيد المجسدين .

ويرفض مفهوم الإسلام في الله سبحانه كل ما قالته الفلسفة ويعتبر مفهومها عن الله قاصراً . فالله سبحانه وتعالى : هو غاية ما يتصوره العقل البشري من الكمال والتنزيه . فهو سبحانه لم يلد . ولم يولد . ولم يكن له كفواً أحد . وهو الأول والآخر . فلا أول قبله . ولا آخر بعده وهو الظاهر والباطن . وهو الذي وسع كل شيء علماً . فهو يعلم الجزئيات والكليات . وهو رب المشرقين ورب المغربين . وهو الذي خلق العوالم كلها . الانس والجن . والملائكة والسموات والأرض خلقها من غير شيء . وهو الذي خلق الإنسان علمه البيان . وهو الذي علم بالقلم ، علم الإنسان ما لم يعلم . وصورة الله في القرآن تختلف اختلافاً واضحاً عما جاء في الفلسفات وفي بعض العقائد . فهو ليس إله الحرب والجنود . وليس هو إله أمة دون أخرى. بل هو إله العالمين، الرحمن الذي وسعت رحمته كل شيء .

* * *

---

١ – محمد فريد وجدي . دائرة المعارف .

ونحن نؤمن بأن الله خالق (١) . وأن هذا الوجود مخلوق له . ولكن لا فراغ بين الله الخالق وبين هذا الوجود المخلوق له .

إن في الوجود ثنائية . ولكن ليس بين طرفي الثنائية انفصالية.ان الإنسان جسم وروح ولكن الانفصال بينهما في حياة الانسان نفسه— وقد اضطرب الانسان في سلوكه عندما اعتقد بوجود فراغ بين الله والإنسان . أو اعتقد أن الإنسان جسم وبدن فقط — الايمان بالله أساس المعرفة — ووحدة الله هي الأساس — والانسجام بين طرفي الثنائية في هذا الوجود قائم وبالأخص في طبيعة الانسان بين روحه وجسمه . وبين الفرد والفرد — فالروح ضرورة — والدين ضرورة — والإنسان بلا روحه هيكل أجوف — ومعرفة بدون دين قلما يصاحبها يقين ، والوجود كله يقوم على مبدأ الثنائية . أو مبدأ التقابل. الله سبحانه وتعالى مجرد عن الحسية والمادية — وطبائع الكائنات خليط بين الروحية والمادية — الله روح خالصة تقابله هذه الطبيعة المادية التي تجلت عنه . والتي شاءها سبحانه وتعالى لمخلوقاته وكائناته .

هذه الكائنات بدورها فيها المادة وفيها الروح ، مزيج مما يرى ويدرك بالبصر ، ومن شيء آخر لا يرى ولا يدرك ، إلا بالعقل والتصور — الثنائية في الذكر والأنثى . في الحياة والموت ، في القوة والضعف — هذا التقابل : أو الثنائية سنة الوجود كله ، فهو مخلوق. وله خالق — ورسالة الله للإنسان في هذا الوجود هي إيجاد الانسجام بن طرفي هذه الثنائية في حياة الانسان. الملاءمة في طبيعة الإنسان بين جسمه وروحه . وغايتها في الوجود كله أن تلائم بين الخالق والمخلوق ، ليس من الطبيعي أن يكون هناك كفر بالله الخالق وايمان بالانسان المخلوق . إن الإيمان بالله نتيجة لازمة لقانون طبيعة الوجود . ولقد كانت دعوة الإسلام إلى الانسجام بين الروح والجسم ، بحيث لا يتخلف أحدهما ، أو يجمد في نفس الوقت الذي يسير فيه الآخر في طريق النمو . كما كشف الاسلام

١ — بتصرف عن نص — للدكتور محمد البهي

عن خطأ إعلاء الروح على حساب الجسم — وخطأ إعلاء الجسم على حساب الروح . ذلك أن الإيمان بمادية الانسان وحدها ، كالايمان بروحانيته وحدها . أمر يتنافى مع هذا القانون . ويصطدم مع نتائجه . إن الوجود كله له خالق وما عداه مخلوق له . وليس الإيمان بالله الخالق فقط « بل الايمان بوحدانيته . »

* * *

وفكرة التوحيد هي أبرز أفكار الاسلام عن الله سبحانه وتعالى .

فالإسلام يدعو إلى التوحيد الخالص من كل شائبة ، وهو ما يختلف مع الوثنية والتعدد والشرك والإلحاد .

فالوثني يعبد الأصنام ، والملحد لا يؤمن بالله ، والمشرك يؤمن بالله ، ولكنه يشرك معه غيره ، ويتخذ آلهة أخرى شفعاء له ووسطاء .

ولقد كان العرب (١) في جاهليتهم يؤمنون بوجود الله تعالى ، وكانوا موحدين له في أفعاله من خلق ورزق . وإحياء وإماتة . وهذا ما يسمى ( توحيد الربوبية ) وإنما كان شركهم ناتجاً عن عجزهم عن الايمان بـ(توحيد الألوهية) أي توحيد العبادة ، وهو أنهم لم يتصروا عبادتهم بأنواعها على مستحقها . وهو الله وحده . كالدعاء . والخوف . والرجاء . والاستعانة والاستغاثة . قال تعالى فيهم (ألا لله الدين الخالص ، والذين اتخذوا من دونه أولياء ما نعبدهم الا ليقربونا إلى الله زلفى ) (ويعبدون من دون الله ما لا يضرهم ولا ينفعهم ) ، وقد رد عليهم الزعم الباطل بهذه الآيات في توحيد الربوبية (قل من يرزقكم) ، وأقام عليهم الحجة بما أقروه من انفراده تعالى بأفعال الربوبية على ما أنكروه من وجوب إفراده تعالى بالعبادة .

---

١ — من كتاب التصور الإسلامي

لقد كانت (١) فكرة التوحيد الخالص هي أشد الأفكار غرابة عندهم ، هي والبعث سواء ، وذلك مع اعترافهم بوجود الله سبحانه ، وأنه الخالق للسموات والأرض وما بينهما . ولكنهم ما كانوا يريدون أن يعترفوا بمقتضى الوحدانية هذه . وهو أن يكون الحكم لله وحده في حياتهم وشؤونهم ، وان يتلقوا عنه وحده الحلال والحرام ، وأن يكون إليه وحده مردّ أمرهم كله في الدنيا والآخرة .

ولقد كان التوحيد في مفهوم الإسلام متميزاً بالوضوح والشمول . وهو يختلف كثيراً عما قيل من توحيد عند الفراعنة أو اليهود أو غيرهم . فقد جاء الإسلام بالتوحيد الخالص . فانطفأت بيوت النار ومعابد المجوسية ، وبطلت عبادة الشمس .

* * *

ومن الحقائق الواضحة في هذا المجال أن الإنسان بدأ موحداً . ثم أصابته لوثة الشرك . وأن النظرية التي طرحها (علم مقارنة الأديان) والتي تقول بأن البشرية بدأت طفولتها بالوثنيات . ثم ارتفعت إلى التوحيد نظرية باطلة بحكم التاريخ وبحكم المنطق الواعي .

فإن آدم أبا البشر وأول إنسان كان على علم ، وكان يعرف التوحيد ، ويؤمن بالإله الواحد . ومعنى هذا أن البشرية بدأت موحدة ثم انحرفت . وكلما انحرفت جاءت الأديان ترد البشرية إلى التوحيد ، إلى أن جاء الاسلام دعوة عالمية ، وخاتماً للأديان . ولقد واجه الاسلام قضية التوحيد والوثنية على نحو مستفيض . وعالجها بمنهج جامع بين القلب والعقل وعبرة التاريخ . ومن هنا فقد أصبح القرآن هو حافظ البشرية عن الارتداد إلى الوثنية وعصور الأساطير .

---

١ – العلامة محمد بهجت البيطار في دراسته عن التوحيد .

ومن أهم ما دعا إليه التوحيد الخالص في مفهوم الاسلام إنكارُ نظرية اندماج الله والعالم (١) .

* * *

وقد أفاض علماء المسلمين في تصوير عقيدة التوحيد الإسلامية . ورسموا لها صورة كاملة واضحة المعالم . فالله سبحانه وتعالى هو صانع العالم . وله صفات ثابتة . استخصها لذاته ، وان الحوادث كلها لا بد لها من محدث صانع . وهو سبحانه قديم لم يزل وليس له صورة ، ولا أعضاء ، ولا يحويه مكان ، ولا يجري عليه زمان ، ولا تلحقه الآلام واللذات . وهو غني عن خلقه ، وانه واحد . والله سبحانه وتعالى قادر على كل شيء بالاختراع من العدم ، وعلمه واحد ، يعلم الموجودات بتفاصيلها من غير حس ، ولا بديهة ، ولا استدلال ، وسمعه وبصره محيطان بجميع المسموعات والمرئيات ،وهو لم يزل رائياً لنفسه . سامعاً لكلام نفسه .

وأسماء الله وصفاته معروفة من القرآن ، والحديث الصحيح ، وإجماع الأمة . ولا يجوز إطلاق اسم عليه من طريق القياس . وأسماء الله تسعة وتسعون . وهي ثلاثة أقسام : صفات أزلية ( نحو : واحد وأول ) وصفات أزلية قائمة بذاته نحو (حيّ . قادر . عالم ) وصفات مشتقة من أفعاله نحو ( خالق . رازق . عادل ) والعبد مكتسب لعمله . والله خالق لكسبه والله يراه المؤمنون في الآخرة . ولا يحدث شيء في العالم إلا بإرادته . ما شاء كان ، وما لم يشأ لم يكن . والله حي بلا روح ، ولا اغتذاء ، وكلام الله صفة أزلية وهو : ( أي كلام الله ) غير مخلوق ولا محدث . ولا حادث (٢) .

---

١ – انظر فصل وحدة الوجود .

٢ – عبد القادر البغدادي : الفرق بين الفرق .

# ٥
# عَقِيدَةُ البَعْث

ومن قواعد الإسلام الأساسية : عقيدة البعث والايمان بالجزاء الأخروي . وقد اتفقت الأديان السماوية على وجود حياة بعد الموت يحاسب فيها الإنسان عن عمله في الحياة الدنيا . وهي حقيقة جوهرية . لا يسقطها الاسلام أبداً ، ويضعها دوماً نصب الأعين ، والعقول والأفهام ، وتجري من خلالها كل أعمال الدنيا. ولا ريب أن الإيمان بالجزاء والبعث عامل قوة وإيجابية، ودافع بناء وحركة ، وليس عامل جمود وتخلف ، وإذا لم يكن للأعمال الكبرى في الحياة الإنسانية وجهة ربانية تعطي ثمرتها في الدنيا ، وتعطي جزاءها في الآخرة ؛ فإن رسالة الانسان في الحياة تكون عبثاً ، ولا يمكن أن تكون الحياة بغير غاية ، أو أن يكون وجود الإنسان في هذه الأرض بغير رسالة . وتلك الحقيقة هي أعظم معطيات رسالات السماء، فليس من المعقول أن يخلق الله هذا الكون كله عبثاً . ( أفحسبتم أنما خلقناكم عبثاً وأنكم إلينا لا ترجعون ) .

إن الحياة مسؤولية ورسالة ، وهي حقيقة وتبعة ، ثم هي بعد ذلك بعث وجزاء ، وحين يتأكد للنفس الإنسانية هذا الملحظ تنزاح تلك الأزمة التي تحاول أن تغرقها في تيه مضلل . ومن حسن الحظ أن هذه الأرض قد عرفت أصالة التدين وعلى ثراها نزلت الأديان . ومن هنا فهي حرية ألا تقع في تلك الأزمة التي اجتاحت المجتمعات الأخرى . ولا ريب أن الفطرة الإنسانية في أعماقها تستطيع أن تلتمس طريقها إلى الدين الحق ، وتتصل بخالقها الأوحد ، ولا شك أن الإلحاد أمر طارىء على النفس البشرية ، وليس في الأصل من

طبيعتها . ولا شك أن التدين طبيعة عميقة في الكيان الإنساني ، وهو أصدق الطرق إلى بناء الفرد وبناء المجتمع ، وبناء الانسانية المتحررة من الخوف والشك والانحلال .

* * *

إن قول الفلسفة المادية ان العالم مادة فقط . هو ما لا تستسيغه الفطرة ولا يقبله العقل ، ولا ريب أن عقيدة البعث والدار الآخرة عامل بعيد الأثر في حياة الإنسان ، وفي أعماله وسلوكه . ومن أجل هذا أولى القرآن أمر البعث والدار الآخرة اهتماماً عظيماً ، وقرن البعث بالتوحيد في مواضع كثيرة ، وأشار إلى تلك الجائحة التي استطالت على العصور في إنكاره ، ومحاولة الإفلات من أثره في الدنيا ، ومن المسؤولية الفردية المترتبة على الجزاء الأخروي . وأبرز المكذبين لفكرة البعث والجزاء هم الدهريون الماديون ، ذلك لأنهم يدعون إلى الإباحة ، واطلاق الغرائز والشهوات في الدنيا ، وهو إطلاق تخشاه النفس الإنسانية وتنفر منه إلا حين يزيف لها هذا الأمر مزيف فيحجب عنها هذه الحقيقة ، ولا ريب أن الإيمان بيوم الجزاء هو أقوى باعث للمرء ، يدفعه سعياً وراء الكمال والتقدم ، ولا ريب أن يوم القيامة هو يوم نهاية الإنسان ، وهدف الله من خلق الإنسان ( وأن ليس للإنسان إلا ما سعى . وأن سعيه سوف يرى . ثم يجزاه الجزاء الأوفى ) . وفي مختلف الأديان ، حتى أديان قدماء المصريين : عقيدة البعث بعد الموت . ولم يزيف هذه الحقيقة غير التلموديين . والوثنيين ، والدهريين . ويرتبط هذا الفكر الزائف بمحاولة رفع التكاليف . والفروض . وإلغاء مسؤولية الفرد عن عمله .

# الباب الأول

# دعوات هدامة للعقائد والقيم

الفصل الاول : الدهرية

الفصل الثاني : الثيوصوفية

الفصل الثالث : البهائية

الفصل الرابع : تحضير الارواح ( الروحية الحديثة )

# الفصل الأول

# الدُّهْرِيّة

الدهرية واحدة من الدعوات الهدامة التي أذاعها النفوذ الأجنبي في البلاد الإسلامية كوسيلة من وسائل تدمير مقومات الإسلام، وقيمه الأساسية. فقد كان من أبرز أهداف الاستعمار : القضاء على القوة الأصيلة التي قام عليها الاسلام ، وهي ( التوحيد ) . فنشر في كل مكان حل فيه مفاهيم « المادية » والدعوة إلى القول بمعارضة وجود الخالق . وأن الكون طبيعي وجد اعتباطاً . وقد عرف هذا المذهب بالنيشرية نسبة إلى ( Nature ) وقد برزت هذه الدعوة بصورة خطيرة في الهند . نشرها الاستعمار البريطاني بين المسلمين . وتنبه لها السيد جمال الدين الأفغاني . فوضع رسالته المعروفة « الرد على الدهريين » (١) .

وقد صور هدف هذه الدعوة حين قال : النيشر اسم للطبيعة . وطريقة النيشر هي تلك الطريقة الدهرية التي ظهرت ببلاد اليونان في القرن الرابع والثالث قبل ميلاد المسيح . ومقصد أرباب هذه الطريقة محو الأديان ، ووضع

(١) ص — ٤ من كتاب « الرد على الدهريين » تأليف جمال الدين الأفغاني ، وترجمة الشيخ محمد عبده ألفه عام ١٨٨٥ .

أساس الإباحة والاشتراك في الأموال والايضاع بين الناس عامة . وقد كدحوا لإجراء مقصدهم هذا ، وبالغوا في السعي إليه . وتلونوا لذلك في ألوان مختلفة ، وتقلبوا في مظاهر متعددة ، وكيفما وجدوا في أمة أفسدوا أخلاقها ، وعاد عليهم سعيهم بالزوال .

« وأيما ذاهب ذهب في غور مقاصد الآخذين بهذه الطريقة . تجلى له أن لا نتيجة لمقدماتهم سوى فساد المدنية ، وانتقاض بناء الهيئة الاجتماعية الانسانية . إذ لا ريب في أن الدين مطلقاً هو سلك النظام الاجتماعي . ولن يستحكم أساس للتمدن بدون الدين البتة . وأول تعليم لهذه الطائفة إعدام الأديان ، وطرح كل عقد ديني . اما عدم شيوع هذه الطريقة ، وقلة سلاكها مع طول الزمن على نشأتها. فسببه أن نظام الألفة الانسانية – وهو من آثار الحكمة الإلهية السامية – كانت له الغلبة على أصولها الواهية. وشريعتها الفاسدة. وبهذا السر الإلهي انبعثت نفوس البشر لمحو ما ظهر منها . ومن هذا لم يسبق لهم ثبات قدم ، ولم تقم لهم قائمة أمر ، ولا في وقت من الأوقات » اهـ

وقد أشار العلامة صلاح الدين السلجوقي . في كتابه « أضواء على ميادين الفلسفة والعلم . واللغة . والفن . والأدب » إلى صلاحية إطلاق اسم « الدهريين » على هذه الجماعات المختلفة ، من منكري البعث في الآخرة، كما جاءت به الأديان السماوية . وان هؤلاء الدهريين . هم عشرة مذاهب: الأبيقورية . الارتقائية . المزدكية . الباطنية . أتباع فولتير . وجان جاك روسو . المورمون . النفعيون . المدلسون . الماديون .

يقول : ولما كان الهنود يطلقون كلمة « نيتشري » على جميع المنحرفين عن طريق الحق، فليس بعيداً أن نترجمها بلفظ « الدهري » .

وقال : إن الدهرية عبارة عن حكومة الغرائز، والعقد النفسية . وتشاء « أي الدهرية » أن يعم الذل ، والهوان ، والخوف ، والإرهاب ، والتفرقة ، والكراهية . وقد أشار السيد جمال الدين الأفغاني . في رسالته ، إلى أن الدهرية

هي مركز الرذائل والذل . والهوان ، ومصدر الفوضى والفساد ، والهمجية ، وموجب لسقوط الفرد والمجتمع . وبعد أن سرد تاريخ نهوض الأمم بإيمانها وبمبادئها . وكيانها الذاتي . وسقوطها بنفوذ الدهريين . غير المؤمنين بالله وبأنفسهم — قال : إن طائفة النيشريين « الدهريين » كلما نجمت في أمة أفسدت أخلاقها وأوقعت الخلل في عقولها ، وتخطفت قلوب آحادها بأنواع من الحيل ، وألوان من التلبيس . حتى تصبح تلك الأمة . وقد وهى أساسها ، وتفطر بناؤها ، واغتالتها رذائل الأخلاق من الاثرة . وعبادة الشهوات ، والجرأة على ارتكاب الخيانات . ولا يزال الفساد يتغلغل في أحشائها حتى تضمحل ويمحي اسمها من صفحة الوجود ، أو تضرب عليها الذلة . أو يخلد أبناؤها في الفقر والعبودية .

وقال : إن قبيلاً من هذه الطائفة عملوا على إخفاء مقصدهم الأصلي . وهو الإباحة والاشتراك ، واكتفوا في ظاهر الأمر بإنكار الألوهية ، وجحود يوم الدين ، يوم العرض والجزاء .

إن هذه النزعة وحدها كافية في إفساد الهيئة الاجتماعية ، وتزعزع أركان المدنية ، وليس من ضروب الباطل ، ما هو أشد منها تأثيراً في محو الفضائل وإثارة الخبائث والرذائل . وليس من الممكن أن يجتمع بشخص واحد وهم الدهرية ، وفضيلة الأمانة والصدق ، وشرف الهمة ، وكمال الرجولة . » . ا. ه

أبرز مفاهيم الدهرية هي :

أولاً : إنكار وجود الخالق ، وأن الكون بلا إله ولا صانع .

ثانياً : قولهم إن الدهر قديم .

ثالثاً : انكار البعث والإعادة .

قامت هذه الطائفة في القرن الرابع الهجري . وتحطمت تحت ضربات

معاول التصحيح الذي قام به الأئمة . ثم تجددت في العصر الحديث ، جددها الاستعمار البريطاني في الهند .

ولكي نفهم أبعاد الدهرية علينا أن نستعرض بعض المصطلحات ، وننظر من خلال التاريخ ، لنرى كيف مضت الدعوة الباطنية تشق طريقها . وكيف أن ما نراه اليوم ، ليس إلا إعادة للماضي ؛ أو صياغة جديدة للفكر القديم الهدام .

# الفصل الثاني

# الثيوصوفية

مذهب من المذاهب التي ابتدعها الفكر الحديث في مجال معارضته للدين واتخاذه بدائل فلسفية لتحل محله . والثيوصوفية ( Theosophie ) كلمة يونانية معناها ( الحكمة الإلهية ) ثيوس ( إله ) صوفيا ( حكمة ) أطلق هذا المصطلح في القرن الثالث للميلاد ، ثم عادت إلى الظهور في القرن السادس عشر للميلاد . واستمدت الثيوصوفية مفاهيمها من الفلسفة الهندية القديمة . وبرزت في ضوء الدعوة التي أعلنها بعض كتاب الغرب بالتوجه إلى الفلسفات الشرقية، للبحث فيها عن مفاهيم ومذاهب تحل محل الأديان . وكان شوبنهور الفيلسوف الألماني : هو أول من نبه الأذهان إلى دراسة الصوفية الهندية . وخاصة مذهب بوذا الذي يقول بإماتة الشهوات حتى تصل النفس بعد مجاهدتها إلى حال لا تشتهي معه شيئاً ، وهي الحالة التي أطلق عليها ( النرفانا ) (١) وهي حالة إذا وصل اليها الإنسان انطلق العقل حراً . لا تقيده الشهوات أو العواطف . ومن ثم يرى ما لا يراه ، وهو مقيد بها ، ويشعر عندئذ بحقيقة الكون ، أو عنصره الأول . وقد برز هذا الاتجاه في الفكر الغربي على أثر الخلاف الذي قام منذ عصر النهضة بين العلم والدين . وظهور الفلسفة كبديل للدين ، ثم جاءت

١ – ( النرفانا ) : هي حالة التشبع الروحي بالانصراف عن الدنيا كلها

الفلسفة المادية ، ثم حاولت الفلسفة أن تجد من الثيوصوفية سبيلاً للبحث عن ما وراء المادة ، وذلك ما يسمى بالانتقال من المذهب العقلي المادي إلى المذهب الباطني الحدسي القائم على البصيرة والإلهام . وقد اعتمد مذهب الثيوصوفية على كتب البراهمة والبوذيين وقدماء المصريين . والكبالا اليهودية (١) وما يقوله المعتقدون بمناجاة الأرواح (٢) . وقد ترعرعت هذه الظاهرة ، وامتدت حتى أطلق عليها بعض الكتاب . ( الصوفية الجديدة ) ، واعتمدت على نفس الأصول القديمة . التي تقول بها الصوفية الهندية وهي : ( الحلول ) . وقد وجد هذا المنطق تقبلاً في النفس الأوروبية . لأنه يتصل بمعنى قريب من مفهوم الدين في الغرب .

فالأوروبيون يقولون : « إن كان المسيح قد أسمى نفسه إلهاً . فذلك لأنه يعتقد أن ملكوت الله ليس خارجاً عنّا . إذ هو حالّ بنا . ونحن آلهة مثله . وما أرواحنا (٣) إلا قبس . أو شرارة من تلك الروح العامة الشاملة للكون (٤) .

وقد شاع هذا المفهوم في الفكر الأوروبي ، وهو أحد مفاهيم وحدة الوجود والحلول المجوسية القديمة ، واستطاع أن يجد في مفهوم العقائد الغربية : أرضية خصبة لتقبله ، ولكنه يختلف اختلافاً كبيراً عن مفاهيم الإسلام .

ولا ريب أن مفهوم الثيوصوفية يتعارض مع الإسلام في أكثر من موضع :

أولا : في الصلة بين الخالق سبحانه وتعالى ، وبين العالم والكون .

ثانياً : في اهدار المسؤولية الفردية التي تجعل الإنسان مسؤولا عن عمله مسؤولية كاملة يوم القيامة .

---

١ – الكبالا اليهودية : مفهوم للتصوف اليهودي .

٢ – مناجاة الأرواح : ( راجع فصل الروحية الحديثة )

٣ – مفهوم الألوهية في الإسلام يختلف عن هذا المفهوم . كما يختلف مفهوم النبوة . فالله تبارك وتعالى في مفهوم الإسلام : ليس حالاً في الكون . ولا متحداً به ، ولكنه قائم بذاته سبحانه ، وكذلك في مفهوم الإسلام أن النبي هو عبد الله ورسوله .

٤ – المجلة الجديدة : ١٩٣٣ . سلامه موسى .

ثالثاً : في إنكار البعث والجزاء . والجنة والنار ، وذلك في القول بأن الإنسان خالد ، وأن لمستقبله من المجد والبهاء ما لا حدّ له . وأن الجزاء هو دنيوي وليس أخروياً .

* * *

ومن الناحية التاريخية : نقول ان الجمعية الثيوصوفية : أنشأتها : مدام هيلانة بتروفنا بلاخابسكي الروسية المولودة عام ١٨٧٥ في الولايات المتحدة. ثم انتقلت إلى (مدراس) في الهند . فاتخذت قاعدة اعمالها في (اديار) . ثم انتهت رئاستها إلى مسز بيزانت (١) . الانجليزية الحاصلة على دكتوراه في الحقوق فأمضت في رئاستها حتى عام ١٩٣٠ . وما زالت تتنقل من الهند إلى أوروبا وأمريكا . تلقي المحاضرات والخطب . ولها مؤلفات متعددة في الفلسفة ، وعلم النفس والاجتماع ، والسياسة وخاصة في الثيوصوفية .

وقد أحصى بولس مصوبغ (٢) فروع الجمعية في العالم في الثلاثينات فبلغ المنتمون إليها ستين ألفاً. ويقول انها هيئة طائفية من طلاب الحقيقة تسعى لخدمة الانسان على قواعد روحية ، كما أشار إلى أن أهم أهدافها هي : (إيجاد فكرة أخوة إنسانية عامة بدون تمييز بين العناصر . والمذاهب . والطبقات . والأجناس والألوان ولا يسأل أحد عن آرائه الدينية عند الانضمام إليها ، ولا يسمح بالتعرض لتلك الآراء ، والجمعية ليست لها عقائد » .

ويرى بعض الباحثين أن الثيوصوفية تنظر إلى جميع الأديان نظرة تكاد تكون ديمقراطية من حيث مساواتها جميعاً (٣) وأنها وليدة الصوفية الهندية

---

١ — مسز بيزانت . هي أكبر دعاة الثيوصوفية . وقد كانت زوجة قسيس انجليزي . دب الشك في قلبها نحو المسيحية . فأخذت تدعو مع صديق لها يدعى ( برادلف ) إلى التعطيل .وأخيراً اهتدت إلى الصوفية . فاعتنقتها بحماسة وهمة . وسافرت إلى الهند حيث تعلمت اللغة الهندية . ودرست الصوفية الهندية . وقد ألفت في الحلول والتجسد .

٢ — الهلال — ١٩٣٠ — ٣ — الهلال م ٣٤ — ص ٢٣٨ .

والفارسية القديمة التي كانت موجودة في الشرق قبل الاسلام .

نشر هذه الأفكار في بلادنا خريجو الإرساليات الذين سيطروا على الصحافة العربية في أواخر القرن الماضي ، وحملوا لواء كثير من هذه الدعوات . ويقول الدكتور يعقوب صروف. محرر المقتطف عام ١٩١٠ في عرض لهذا المذهب : إن الثيوصوفية نوع من التصوف المسيحي ، والتأمل ، والاتصال بالله ، دون حاجة إلى كتاب ولا لوح . وان الثيوصوفية : قد اختلطت بالتصوف الهندي الآن . ولأصحابها دعاوى طويلة عريضة .

وقد وصفها ( مكس ملر ) اليهودي بأنها الديانة السرية . وأنها جاءت نتيجة التقاء البوذية والفكر المسيحي الغربي . ويرد الكثيرون هذه المفاهيم التي حددتها الثيوصوفية إلى الغنوصية القديمة . وما كان يسمى في المشرق بالعلم الروحي ( اتمافزيا ) والعلم السري ( غيتامزيا ) . مما كان يقول به : ماني . وبوذا . وكنفوشيوس . وفيثاغورس وأفلاطون . وأهل هذه المذاهب يعتقدون بالحلول أو التجسد والتقمص .

# وَحْـدَةُ الوُجُـود

إن أخطر ما تحمله فكرة وحدة الوجود من مخالفة للعقيدة الإسلامية . عقيدة التوحيد الخالص الذي أنزل الله بها رسله وكتبه ، هو أنها تقول بتأليه المخلوقات واعتبار الكون هو الله . بينما يفرق الإسلام بين الله : الخالق الذي ليس كمثله شيء . وبين الكون المخلوق . فالاسلام يقرر أن الموجود اثنان : واجب الوجود ، وممكن الوجود . فواجب الوجود هو صانعه الواحد الفرد الصمد . وممكن الموجود هو هذه الكائنات التي ندركها بحواسنا الخمس مباشرة .

أما أصحاب مذهب الوجود : فيقولون إن كليهما واحد ، ومعنى هذا أن الكون هو الله . وهو مفهوم غير أصيل في الفكر الإسلامي ، ومستمد من فلسفات أخرى . خرجت على مفهوم التوحيد الخالص الذي أنزل الله به الأديان والرسل جميعاً . والذي استبان على أكمل وجه في الإسلام وكتابه القرآن .

فقد أنكر الإسلام عقيدة الاتحاد والحلول . وأنكر حلول الخالق في المخلوق ، أو استغراق المخلوق في الخالق . وهو يميز طبيعة كل منهما . ولا يقبل الاسلام وحدة الوجود . لأن فيها انتقالا من عقيدته الأصلية . (لا إله إلا الله) إلى ما يقوله بعض الفلاسفة (لا موجود في الحقيقة إلا الله ) . وسياق كل منهما ينتهي إلى نتائج مختلفة أشد الاختلاف عن النتائج الاخرى .

* * *

والمعروف : أن نظرية وحدة الوجود هي فكرة ترددت أول الأمر في الفلسفة اليونانية . وهي تتعارض مع الفطرة التي جاء بها الإسلام حاثاً أتباعه على التفكير في خلق الله ، ناهياً عن التفكير في ذات الله ، مقرراً أن الوجود أو الكون لا يمكن أن يكون موجوداً بنفسه . ولا ريب أن كثيراً من الباحثين ، دون هدي من معطيات الوحي والرسالات المنزلة ، قد جروا أشواطاً طويلة ، وراء الحقائق الكونية ، فلم يهتدوا ، وكانت غايتهم في إدراك الله تبارك وتعالى . وإدراك ما وراء الطبيعة بالحواس القاصرة ، وبالعقل البشري المحدود غير مقدرين أن هذه الأدوات من حس وعقل هي في ذاتها قاصرة عن الوصول بهم إلى هذه الغاية الكبرى،التي لا تتحقق إلا عن طريق الإيمان برسالة الله ووحيه . الذي أنزله إلى أنبيائه ، والتي تكفل للانسان الطمأنينة التامة في هذا المجال ، وتغنيه عن هذه المحاولات التي لا تنتهي إلى شيء ما .

والقول بأن الله هو الكون : إنما يمثل فهماً مادياً خالصاً لذات الله تبارك وتعالى . يتعارض مع العقل ، ومع الفطرة . ومع ما أودعه الله في رسالة الدين الحق الموحي به الذي أراد به سبحانه أن يطامن النفس الانسانية في هذا المجال حتى لا تكون في حاجة إلى البحث الذي لن تصل به إلى شيء وان يفسح لها طريق التأمل والفكر في المجال الآخر . مجال العمران ، واكتشاف أسرار المادة ، وما أودعه في الأرض . والماء والجبال من معطيات وكنوز وهبها للإنسان ، وحرضه على البحث عنها واستخلاصها . وذلك حسبما صوره الرسول الكريم : تفكروا في خلق الله ولا تفكروا في ذات الله فتهلكوا .

* * *

إن أخطر ما تصل إليه نظرية وحدة الوجود من أن دعوى القول بأن الكون هو الله : هو إسقاط التكليف وتدمير المسؤولية الفردية والالتزام الأخلاقي .

فحيث إن مذهب وحدة الوجود في ذاته لا يتفق مع الدين الحق المنزل

الذي يقول بالتفرقة التامة بين الله والعالم . ولا يتفق مع العقل السليم الذي لا يقبل أن يكون الله هو العالم . بما فيه من حيوان وجماد فإن القول بوحدة الوجود يهدد قيمة كبرى من قيم الاسلام : هي الأخلاق .

فالقول بوحدة الوجود يتعارض مع قاعدة أخلاقية الحياة التي تقوم على أساس مكين فما دام الله ( تعالى الله عما يقولون علواً كبيراً ) قد اتخذ الإنسان مظهراً له . فكيف يستقيم أن يكون هذا الإنسان نفسه هو المسؤول عن نتائج عمله ؟ ومن هنا تظهر تلك الدعوة الخطيرة التي تستهدف معارضة الإسلام في صميم أصوله . وهي إسقاط التكليف ، أو إباحة ما حرم الله ، أو تجاوز حدود الله . ولا شك أن أقوال القائلين بوحدة الوجود تخالف مخالفة أكيدة ، عقائد الإسلام القطعية المعلومة من الدين بالضرورة .

ونحن في حاجة إلى ان ننبه إلى أخطاء المصطلحات التي تقول ( الكل في واحد . والواحد في الكل ) أو القول ( لا موجود إلا الله . وأن جميع الممكنات مظاهر له ) فهذا كله يتعارض تعارضاً كاملا مع التوحيد . كما جاء به القرآن وفهمه المسلمون .

* * *

وإذا كانت فكرة وحدة الوجود . تعارض الوحي والعقل والفطرة جميعاً فإن عدداً من الفلاسفة اعتبروها كذلك حتى قال شوبنهور ان وحدة الوجود : ليست إلا صورة مهذبة لمذهب الإلحاد، لأن حقيقة مذهب الوجود تنحصر في أنه يهدم التعارض الثنائي الموجود بين الله والكون . وأنه يقرر أن الكون موجود بفضل قواه الباطنة الخاصة به . فالمبدأ الذي يقول به أصحاب وحدة الوجود من أن الله والكون شيء واحد ، إنما هو وسيلة مهذبة للاستغناء عن الله أو تعطيل عمله . والمعروف أن الفلاسفة اليونان من لدن طاليس أول فلاسفتهم إلى

أرسطو . يقولون باندماج الله في العالم . أو العالم في الله (١) .

ويقول الأستاذ عبد المنعم خلاف : ان انفصال الله عن الكون ، هو النظرة البديهية التي تحل أكبر مشكلات الوجود ، وبها يضبط تقدمنا البشري ، وتحدد المسؤوليات والتبعات ، ولا تختلط الحدود ، ولا تسقط التكليفات ، ولا تهدر قيم الأشياء . ويقول نقولا حداد : ان الأديان السماوية الثلاثة ترفض هذه النظرية الفلسفية رفضاً تاماً،وهي مجمعةعلى أن اللهوالوجود المادي شيئان مختلفان . وأن لكل منهما ذاتية قائمة بذاتها ، منفصلة عن الأخرى . وأن الله : واجب الوجود . هو خالق الوجود ومسيره .

ويقول الدكتور محمد يوسف موسى : « الله والعالم » متباينان في كل شيء . ومنفصلان تمام الانفصال . أحدهما وجوده رهن بإرادة الآخر .

ويقول الأستاذ البشبيشي : ان وحدة الوجود مذهب خلاصته أن الله تعالى هو الوجود المطلق ، وأن غيره لا يتصف بالوجود أصلاً . فلو قيل ان الإنسان موجود . فمعنى ذلك عندهم . أن له تعلقاً بالوجود ، وهو الله تعالى . وأن جميع العوالم سواء اختلفت أنواعها ، وتباينت أجناسها وشخوصها ، موجودة من العدم ، وأن وجودها هذا محفوظ عليها بوجود الله تعالى ، وليس بنفسها . لأنها معدومة من جهة نفسها ، بعدمها الأصلي ، ومن ثم بوجودها الذي هي به موجودة في كله . هو وجود الله تعالى . وهو واحد لا ينقسم ولا ينتقض . ولا يتجزأ ، ولا ينتقل ولا يتغير . ولا يتعدد أصلاً . ثم هو مطلق عن الكيفيات . والأماكن والأزمان « إننا لا ننكر كون العالم موجوداً لقدرة الله وإرادته . ولكن يجب أن نفرق بين وجود الله . وهو وجود أزلي ، لا بداية له ولا نهاية . ووجود العوالم ، وهو وجود حادث له بداية ونهاية . ثم اننا أيضا نسلم بأن وجود العوالم مسبب من الله تعالى . ولكن لنا أن نقرر : أن هناك فرقاً كبيراً بين السبب والمسبب . والعلة والمعلول » .

---

١ – دريني خشبة : الرسالة . م ١٩٤٤ .

# الحُلول

ويختلف مفهوم الحلول عن مفهوم وحدة الوجود . فحيث يقول مذهب وحدة الوجود بالوحدة الذاتية لجميع الأشياء مع تعدد صورها في الظاهر . (وهو زيف لا يقره الإسلام) فإن مذهب الحلول يقول بوجود حقيقتين مختلفتين : الإلهية ، والبشرية . وقيام الأولى بالثانية تحت ظروف خاصة .

ويرى لويس ماسينيون أن الحلول له طابع مسيحي ، وله أصول يونانية وهندية . وأنه مهدم لوحدة الله حسب رأي القرآن .

ويقول الأستاذ الإمام الغزالي (١) ان الحلول لا يمكن تصوره بين عبدين . فكيف يمكن تصوره بين الرب والعبد . ولئن سلم أحد بإمكان ذلك إلى نفس واحدة . فكيف يسلم به لجميع النفوس . وعندئذ يصبح العالم كله آلهة . ويقول : فمن المحال إذن أن يحل الله في النفس . وأن ينطبع فيها انطباع الخمر في اللبن . فإن ذلك من صفات الاجسام .

ويقول الأستاذ محمود البشبيشي : ان الله واجب الوجود، منزه عن صفات الحلول . وان الحلول محال على الله تعالى لأسباب كثيرة . ذلك لأن القديم يختلف عن الحادث لاختلاف الماهية في كل منهما . وهذا الاختلاف يوجب استحالة حلول القديم في الحادث .

---

١ – في كتابه مدارج السالكين أورده الدكتور محمود قاسم في بحثه .

ثم ان الله واجب الوجود . وهذا الوصف ينفي الحلول . لأنه في حالة حدوثه يصبح الحالّ تابعاً لما حل فيه ، كما يصبح معلولا لهذا المحل ومتأثرا به ، بل إنه ليصبح في غير الامكان تصور الحال إلا بتصور المحل . إذن ينتفي الحلول في هذه المرة . كما استحال في الأولى ، ثم إن الله واجب الوجود . والواجب ليس عرضاً . وليس جوهراً ، فإذا كان الحلول حلول عرض في جوهر . فلا يمكن بالنسبة لله تعالى ، لأنه ليس بعرض ، وإذا كان حلول جوهر . فلا يمكن أيضاً . لأن الله تعالى ليس بجوهر . »

* * *

كتابات الحلول ، ووحدة الوجود وغيرهما هي من كتابات عصور الضعف والتخلف. وقد كانت من أهم ما التفت إليه المستشرقون. وحاولوا إحياءه وإذاعته . وذلك لخلق منطلق لدعوات الإباحة المستحدثة . وخاصة الوجودية والفرويدية . وغيرها . ومحاولة لتحطيم قانون أصيل هو « البعث ، والجزاء » . وكذلك لترديد الدعوة إلى إسقاط التكاليف والالتزام الأخلاقي . وذلك كله مقدمة من مقدمات الانحلال الذي يستهدف التأثير في فريضة الجهاد في سبيل الله . والمعروف أن الاعتقاد بالحلول يسقط التكاليف والالتزامات وحدود الله . ويدفع المسلمين خارج نطاق قيمهم الأساسية . ويدمر مقوماتهم النفسية في الاندفاع نحو الترف والانحلال والفساد والشهوات ، عن طريق إعلاء الغرائز . أو الاندفاع نحو الانسحاب من الحياة كالرهبانية . ومعارضة مبدأ الزواج وتكوين الأسرة . والزهادة عن بناء الحياة . ومجاهدة أهواء المجتمعات .

---

٢ – مجلة الرسالة م ١٩٤٤ .

# الاتِّحاد

وليست فكرة الاتحاد بأكثر من فكرتي وحدة الوجود والحلول اضطراباً وفساداً ، ذلك لأن قول القائل : ان العبد صار هو الرب . كلام يتناقض مع نفسه، بل ينبغي أن ينزه الرب سبحانه أن يجري اللسان في حقه بأمثال هذه المحاولات . وطريق البرهنة على فساد ذلك يورده الغزالي في ثلاثة احتمالات :

أولاً : إما أن تظل كل ذات من الذاتين موجودة .

ثانياً : إما أن تفنى إحداهما . وتبقى الأخرى .

ثالثاً : إما أن يفنيا معاً .

وفي الحالة الأولى : لا يكون هناك اتحاد ، وفي الثانية : كيف يمكن الزعم بأن هناك اتحاداً بين موجود ومعدوم ؟ وفي الثالثة : لا يكون هناك محل للحديث عن الاتحاد بل الأولى أن نتكلم عن الانعدام . فالتناقض واضح في جميع هذه الاحتمالات (١) ويقول الاستاذ البشبيشي : وكما تنزه الله سبحانه وتعالى عن الحلول ، فهو يتنزه عن الاتحاد . لأنه لو حدث أن اتحد واجب الوجود بغيره ، نتج عن ذلك حالتان : إما أن يبقيا موجودين معاً ، وإما أن يدركهما العدم معاً ، ويخرج منهما ثالث . أو يدرك العدم أحدهما ، ويبقى

---

١ — نقلا عن الدكتور محمود قاسم في بحثه عن الحلول والاتحاد .

الآخر . ففي بقائهما موجودين فهما إذاً في هذه الحالة اثنان متمايزان متباينان . وهذا التمايز ينافي الاتحاد ، لأن الاتحاد يلزم أن يصبحا واحداً . وفي عدمهما معاً يبطل الاتحاد ، لأن المعدوم لا يتحد بمعدوم . وفي حالة عدم أحدهما فقط . فإن الاتحاد لم يتحقق أصلا .

# التناسخ

لا ريب أن هناك عناصر وافدة دخلت إلى الفكر الاسلامي . وحاولت أن تؤثر في المفاهيم الاسلامية القرآنية الأساسية ، ومنهاالتناسخ.إن نظرية التناسخ . تتعارض مع مفهوم الفطرة والعقل والدين . وهي لا تطابق الحقيقة الثابتة عن مسؤولية الإنسان والتزامه الأخلاقي . فضلاً عن سذاجة النظرة التي تقول بها ، وتحاول أن تبررها ، وهي أن انتقالها من بدن إلى بدن ، إنما هو وسيلة لمنح الروح فرصة بعد فرصة ، لكي تتطهر من أدرانها . وتوحي المذاهب الفلسفية القائلة بالتناسخ بأن الحياة ما دامت قصيرة ، فلا بد من إيجاد فرصة ، وثانية ، وثالثة ، للروح حتى تتحرر من أخطائها . وفي الهندوسية أن الروح لا تحاسب بعد حياتها الأولى مباشرة .

ونظرية التناسخ تعارض المسؤولية الفردية التي تناط بكل إنسان بحسب عمله في الدنيا ، فكيف بالروح التي تتعاورها نفوس كثيرة ؟ كيف يمكن تحديد جزاء كل إنسان منهم ؟ فإذا كانت الأرواح تتناسخ مع الحيوان أيضاً . فإن الأمر يصبح أكثر اضطراباً .

ومما يورده الدارسون : أن فيثاغورس : يرى تناسخ الأرواح بين الإنسان والحيوان . بمعنى أن روح الإنسان . قد تصبح روحاً لكلب . أو ثعلب مثلا وهو تصور غريب .

وفي هذا المعنى يقول الدكتور يحيى هويدي : كيف تستطيع النفس

أن تنتقل من جسم إلى جسم ، ومن كائن إلى كائن . إن هذا الانتقال يفرض أولا احتفاظ النفس بفردانيتها ، وأنها هي التي تنتقل من هذا الكائن إلى الآخر ، ويفترض ثانياً عدم تعلق النفس بجسم معين ، وهذا تناقض . لأننا نعلم أن مصدر وحدة الإنسان . هو النفس ، فالنفس هي التي تبقي الإنسان على شخصيته ووحدته وهويته . وتجعله هو هذا الإنسان باعتباره مكوناً من هذه النفس المعينة، وذلك الجسم المعين. فكيف يعترف القائلون بالتناسخ بفردانية النفس وبهويتها ، ولا يؤدي ذلك إلى اعترافهم بهوية الأجسام باعتبارها مكونة من نفس وجسم .

هذا من ناحية . ومن ناحية أخرى ، فإن فكرة التناسخ تقوم على قياس زمني خاطىء ، فهي تقول إن الفرصة التي تعطى للإنسان في حياته الأولى فرصة ضيقة جداً . إذا قسناها بالزمن اللانهائي للأبدية التي ستعيش فيها النفس بعد ذلك. من أجل ذلك، فعلينا أن نطيل هذه الفرصة في فترات متعاقبة ، لكي تكون متناسبة مع الزمن اللانهائي للأبدية ، التي ستعيش فيها النفس بعد مفارقتها جسدها الأول . وتلك فكرة قائمة على وهم خاطىء ، إذ مهما أطلت في المدة السابقة على فناء النفس فناءها الأخير . ومهما تراكمت في ذلك السنون ، وتعاقبت الأدوار ، فإن هذا كله لن يكون شيئاً بالقياس إلى الأبدية التي تكون فيها النفس بعد الموت . فأولى أن نجعل لتلك النفس حياة واحدة من أن نجعل لها حيوات متعاقبة تقاسي في كل منها الأهوال . وقد رفض الاسلام فكرة التناسخ، وذهب إلى خلود النفس خلوداً نهائياً بعد حياتها الأولى المرتبطة بجسم معين . ولا شك أن موقف الاسلام من خلود النفس ، وبعث الأجساد ، هو أظهر منطق للمسؤولية الفردية . والالتزام الأخلاقي بالحساب والجزاء في اليوم الآخر .

ويمكن أن نلاحظ هنا . أن أول من قال بتناسخ الأرواح بعد الإسلام السبئية (أصحاب عبد الله بن سبأ) . وذلك في محاولة ترمي إلى تزييف المفاهيم الأساسية القائمة في حدود العلاقات بين الله تبارك وتعالى والنبي ﷺ. وعلي بن أبي طالب . ولا ريب أن نظرية التناسخ تسلم إلى مذهب الحلول .

# النرفانا

النرفانا : كلمة غامضة معناها الامحاء، والسكون ، والانعدام ، والانتعاش والراحة . والمقصود الروحي منها : أنها حال من فقدان الشعور تتخلص النفس في اثنائه من الإحساس بالألم . الذي يسببه لها اتصالها بالأجسام .

فالنرفانا : ليست وجوداً إيجابياً ، ولكنها تخلص من الوجود المؤلم يقوم لها مقام السعادة والتنعم . أما المتصوفة المسلمون . فقد أخذوا ( النرفانا ) بمعناها اللغوي . وسموها الفناء والمعروف أن الفناء الصوفي ليس نوعاً من النرفانا . ولا ريب أن النرفانا ظاهرة سلبية وفكرة متفرعة عن مذهب تشاؤمي . وهي تأمل خالٍ من كل مضمون تصل بصاحبها إلى حالة يفنى فيها عن نفسه . وتغيب عن ذكره وفكره كل الصور والرسوم . وقد استمدوها من قول بوذا : كل شيء فارغ والكل لا جوهر له ، لا شيء موجود ، الكل يصير ، الكل في صيرورة بغير جوهر . وعندهم أنه حتى لا يتعرض الإنسان للتناسخ . أو دورة الأرواح أن يصل إلى النرفانا . وقد صدق الدكتور عبد الرحمن مرحبا حين قال : إن التفكير الهندي قد حطم الإنسان ، وهو يدعي تأليه الإنسان .

# الإشـــراق

يتشكل مذهب الإشراق من عناصر إغريقية وفارسية ، وهو فرع من الفلسفة اليونانية والأفلاطونية الجديدة ، وجماع بين مفهوم الرواقيين . والعناصر الإغريقية منه مأخوذة من فلسفة أفلوطين وفيلون اليهودي، أما العناصر الفارسية فهي مأخوذة من ماني ومزدك . وهو جماع آراء وتيارات . راجت في الديانات القديمة . ويقوم في جملته على القول : بأن مصدر الكون هو : النور . فهو يعبر عن الله سبحانه وتعالى بالنور الأعلى ، ويصف العوالم بأنها أنوار مستمدة من النور الأول . والمعرفة الإنسانية في مفهوم الاشراقيين « إلهام » من العالم الأعلى يصل بواسطة عقول الأفلاك ، وهو ما يسمى بالكشف أو الإشراق . أي ظهور الأنوار العقلية للنفوس بعد تجردها ، ولا ريب أن مذهب الاشراق في جملته وتفصيله خارج عن مفهوم الاسلام وبعيد عن جوهره ، ومتعارض مع التوحيد الخالص وقد تجددت الدعوة إلى هذا المذهب في الإسلام أيام الحروب الصليبية ، وفي نفس اللحظات الحرجة التي كان المسلمون يعملون لمقاومة العدو الزاحف .

وقد كانت فكرة النور والظلام من مذاهب المانوية والمزدكية، والباطنية. وقد مضى دعاة الاشراق . متأثرين بمفاهيم المجوسية، والزرادشتية ، وما يتصل بالكواكب والنجوم والأفلاك .

---

عمر فروخ – تاريخ الفكر العربي .

ومعرفة الله في الإسلام لها أصولها ومصادرها . وهي بعيدة كل البعد عن أساليب الغنوصية . وليست قائمة على الإلهام وحده ، أو العقل وحده ، ولكنها منهج متكامل . له خصائصه وأبعاده الكاملة . وليس في الإسلام ترقٍ للإنسان إلى مرتبة الآلهة . أو اتحاد للناسوت واللاهوت . وقد ثبت أن الحركة الداعية إلى ذلك في مجموعها متصلة بالقرامطة الباطنية ، وبحركات الزنج وغيرها . التي كانت تحاول إسقاط الدولة الاسلامية عن طريق الدعوة الفكرية . وهدم التوحيد بالنظرية الفلسفية .

ولقد أقام المسلمون فكرهم على أصول ثابتة من القرآن والسنة الصحيحة ، واتخذوا من حياة الرسول نموذجاً تطبيقياً . لا يتعدونه ، ولا يطمعون في زيادة عنه ، مؤمنين بأن كل ما لم يتحدث به القرآن، أو رسول الله، فإنه ليس من دين الله ، وأن رسول الله لم يكتم عن أمته شيئاً ، وأنه جاء ليتمم مكارم الأخلاق .

# الفصل الثالث

## البهائيّة

الدعوة البهائية هي : دعوة قديمة مجددة . شكلتها أصول متعددة من الفكر الوثني الهليني ، والفكر التلمودي اليهودي ، والفكر الغنوصي المجوسي. وهي واحدة من الدعوات التي ظهرت في إبان الاستعمار البريطاني بهدف إسقاط فريضة الجهاد . أو تعطيلها .

وقد دخل يهود إيران هذه الحركة . وحولوها وجهة متصلة بالماسونية وتحاول البهائية نشر دعوة وحدة الأديان بالخروج عن أصولها للدخول في دين جديد ، يقول بالسلام العام، وتوحيد لغات العالم ، ومساواة الرجل بالمرأة ، واعتبار العبادة هي العمل .

وحيث تدعو البهائية إلى وحدة الأديان . تدعو إلى وحدة الأجناس والشعوب. ومن خلال هذه الدعوة العالمية تتكشف روح المخططات التلمودية التي تحاول أن تنشر هذه الدعوة من وراء الروحية الحديثة ، والثيوصوفية . وانها جميعاً تحاول التبشير بعصر جديد يشرق على البشرية ، وهذا هو جماع ما حملته بروتوكولات صهيون .

ولا ريب أن كل دعوة تدعو إلى وحدة الأديان ، والأجناس . إنما تحاول

هدم الإسلام . لأنه الدين الوحيد الذي يراد له أن يندمج ، وأن ينصهر . وعالمية الأديان لا تستهدف إلا القضاء على عالمية الإسلام . وهذه المعاني كلها مستمدة أساساً من التلمود . وأبرز معاني البهائية إسقاط فريضة الجهاد . وهي دعوة حين تنشر بين المسلمين . لا تفيد منها إلا الصهيونية العالمية التي تحرص على كلمات السلام . وقد ايدت البهائية الربا بإيعاز من اليهود . فقد أحصت للبهاء تصريحات عن أرباحه الربوية ، ولا ريب أن هذا مما يكشف عن مطابقة تامة مع الأيديولوجية التلمودية البهائية حتى وصف البهائيون بأنهم مجوس القرن العشرين . وهي في أنظمتها أقرب إلى الماسونية . وقد وجدت مناخها في كل المناطق التي ضعفت فيها يقظة الإسلام . فقد استوطن البهائيون تركيا ، وعكا ، وحيفا قبيل الحرب العالمية الأولى . وكان لذلك أثره البعيد في إنشاء الوطن القومي اليهودي في فلسطين ، والقيام بدور هام في عملية تهريب المهاجرين . وقد أعطى عباس البهاء بسلوكه وتصرفاته نموذجاً للزعامة البهائية . فقد كان ماجناً مفرطاً في مجونه ، وأحصيت له في زياراته لسويسرا . وفرنسا ، وانجلترا ، مواقف قوامها التحرر من كل القيم والأخلاق . وكشفت تصريحاته عن إشادة واضحة بالأفكار المجوسية واحتقار دعوات الأنبياء . وقد وصف الرسل بأنهم أصحاب أوهام وخرافات أفسدت عقائد الشرق .

* * *

كشفت مخططات البهائية عن منهج كامل في هدم الإسلام .

أولا : ان أبرز مفاهيمها هو تأويل آيات القرآن . بما يخرج عن مفهومها ومدلولها اللغوي والشرعي حيث تقوم البهائية في أصولها الأولى على التأويل شأن الفرق الباطنية القديمة ، بعيداً عن أصول اللغة والمتعارف من النواميس والسنن ، والتحايل على آيات القرآن الكريم ، وصرفها عما يراد بها من حكمة وهداية ، وتوجيهها إلى غايات تتعارض أساساً مع القرآن وتأويل نصوص الشريعة بما يحقق الدعوة إلى إسقاط التكاليف . والتأويل فن ابتكره اليهود .

ثانياً : تقول البهائية بتطور الشريعة ، وتبدلها تبعاً لتطور الأزمان ، وهي نفس الدعوى التي ترددها اليوم دعوات الفرويدية والوجودية ، والتي هي من الأسس الأصيلة للمخططات التلمودية . وهم يذهبون إلى القول زوراً وبهتاناً ، بأن الشريعة الاسلامية لا تصلح لهذا الزمان . وفي هذا إقرار بالقوانين الوضعية وإقرار بنظام الغرب ، وفصل الدين عن المجتمع .

ثالثاً : معارضة الجهاد ومقاومته . حتى ليقول أحدهم : إن البشارة الأولى لجميع أهل العالم هي محو حكم الجهاد من الكتاب « أي القرآن » (١) . وقد علا صوت هذه الدعوة في مواجهة احتلال اليهود لفلسطين ، دفعاً للمسلمين إلى الاستسلام والتخاذل . وكذلك ارتفع صوت هذه الدعوة الأولى إلى هذا المعنى ، في مواجهة صيحة السلطان عبد الحميد بإعلان الجهاد الاسلامي في مواجهة زحف الاستعمار على الدولة العثمانية .

رابعاً : محاربة اللغة العربية ، والدعوة إلى تبديل اللغة الفصحى بما أسموه « اللغة النوراء » وذلك بهدف محاربة لغة الإسلام العالمية . وهي لغة القرآن العربية ، وإثارة الشكوك حول عالمية اللغة العربية ، وكونها اللغة المشتركة بين العرب والمسلمين ، لغة الفكر ، والثقافة ، والصلاة ، والهدف هو تمزيق الصلة بين حاضر المسلمين ، وبين ميراثهم الخالد . .

خامساً : ادعاء نبوة جديدة ، ودين جديد ناسخ للاسلام وللأديان جميعاً . والدعوة إلى الخروج من الأديان القائمة ، والدخول في دين جديد ، وفي ذلك متابعة لدعوة الماسونية ، ومنهج اليهود ، والأيديولوجية التلمودية في محاولتها فرض نظام عالمي من خلال منطلق « الربا » وتحقيق هذه الغايات عن طريق مذهب يحتوي جميع رغائب المطامع والشهوات .

سادساً : دعوة السلام العام ، وهي دعوة اسرائيل التي تستهدف بقاء وجودها في الأرض العربية ، ودعوة الصهيونية العالمية ، بالسيطرة على العالم .

---

١ – كتاب : نبذة من اشراقات بهاء الله . ص ١٠٩ .

سابعاً : إبطال شريعة الإسلام وأحكامها في شأن المرأة ، والدعوة إلى الاختلاط بين النساء والرجال ، والمساواة على النحو الذي تصبح فيه المرأة متحررة من قوامة الرجل ، واتخاذ المرأة متعة وأداة . وذلك في ضوء فلسفة اللذة ، ومشاركة المرأة الرجل ، في صالات الرقص والنوادي الليلية ، وإقامة الحرية الجنسية المطلقة . ومن نتائجه انهيار الأسرة وانحلالها .

ثامناً : الترابط الواضح بين اليهودية التلمودية ، والبهائية ، ومتابعة اليهود في منهجهم ، والاستمداد من التراث اليهودي — وهذا التعانق بين البهائية ، والصهيونية في الحديث شبيه بتعانق اليهودية والمجوسية في القديم — وهدفه القضاء على الإسلام وزلزلة أعمدته . وقد ثبت عن البهاء قوله : انه يدعو إلى جمع المسلمين والنصارى واليهود على نواميس موسى عليه السلام . أي أنه يريد (تهويد) المسلمين والنصارى . وأنه يجعل اليهودية الدين السائد في الأرض ، وبذلك يكون السلطان في العالم كله لليهود وحدهم (١) .

واجه كثير من الباحثين الدعوة البهائية ، وكشفوا عن زيفها . وفي مقدمة هؤلاء العلامة محمد فريد وجدي . الذي قال : إن طموح البهائية إلى أن تكون ديناً عاماً يدخل فيه الناس على اختلاف جنسياتهم ونحلهم . هو مما يقضي بالعجب ، لأنها ليست بدين سماوي ، وليس فيها من الأصول والمبادىء ما يلفت العقول إليها . بعد أن بالغت في عرض نفسها على الأمم . فأين هي من الاسلام الذي بنَى أمماً قوية ، ومدنيات فاضلة في خلال عصور متعاقبة ، ولا يزال مثل حيويته الأولى حتى ليتوقع فلاسفة كثيرون . منهم برنارد شو ، ان مبادىء الإسلام توشك أن تعم العالم أجمع . يقوم الاسلام على أصلين . ضمنا له التعميم والخلود : موافقته للفطرة . واعتماده على العقل والعلم . فأين البهائية من هذا الموقف العلمي الحق . وهي تقوم على أصلين : أحدهما عتيق غامض ، قال به أفراد من محبي السبح في الخيالات . فهي تصور ذات الله بصور المخلوقين . وثانيهما : وهو صرف الألفاظ عن ظواهرها وفيه مجال

---

١ — محسن عبد الحميد : حقيقة البابية والبهائية .

فسيح للظنون والأوهام والخبط .

« تدعي البهائية أنها أتت العالم بجديد من الأصول ، لم يدر في خلد المصلحين قبلها . كاتحاد الأديان ، وترك العصبيات ، واتحاد الأجناس ، والسلام العام ، ومساواة المرأة بالرجل . أما ما سموه باتحاد الأديان : فقد سبق إليه الإسلام وأسسه على أقوى الأصول . وحاطه بأحكم الدلائل . فقرر أن أصل الأديان كلها واحد ، وأن الخلافات التي بينها ما حدثت إلا بسبب ما أدخله قادتها عليها من الأوهام .

فالاسلام يفرض على أهله القول بوحدة الدين فرضاً ، ويأمرهم بالاعتقاد بجميع الرسل من غير تفريق بينهم .

إن البشرية ليست في حاجة إلى دين جديد بعد الاسلام ، فانه استكمل جميع شرائط الدين العام . ا هـ

هذا ومع أن البهائية قد انقضى على دعوتها نصف قرن ، أو يزيد . فما نرى أنها استطاعت ان تحقق هدفاً واحداً من أهدافها في اتحاد المشرق أو المغرب . أو اتحاد الأديان ، أو الأجناس ، أو زوال الحروب . وكل ما كشفت عنه أنها موجة زائفة من موجات الإباحة والإلحاد ، التي حملت كل سخائم الباطنية القديمة . وأعادت طرحها على البشرية مرة أخرى .

وأبرز ما يكشف عن نحلتهم وهدفهم أنهم يشاركون الدعوات الهدامة الأخرى في أبرز المفاهيم المشتركة بين هذه الفرق جميعاً .

أولاً : إنكار البعث ، والجنة ، والنار . وهم يؤولونها .( وهم في هذا يقلدون طائفة الدهريين ) .

ثانياً : دعوى النبوة لبعض زعماء المذهب .

ثالثاً : نزع السلاح، وإنكار الجهاد ، ونشر السلام العام ، ونبذ العصبيات الدينية .

رابعاً : إنكار اعجاز القرآن وأنه من عند الله .

خامساً : فساد عقيدتهم في الأنبياء . والدعوى عليهم بأنهم ستروا الحقائق . وإنكار معجزات الأنبياء .

# مفهوم التأويل

لا يقرّ الإسلام التأويل بمفهوم تخفيف الضوابط الأخلاقية ، أو التهوين من شأنها . وليست هذه الضوابط أغلالا باطلة . أو قيوداً مفروضة على الانسان .

والاسلام في جوهره . يقوم على الثبات،وعلى المفاهيم الواضحة . « آياتٌ مُحْكَمَاتٌ هُنَّ أمّ الكِتاب » « فأمّا الذينَ في قلُوبِهِم زَيْغٌ فيَتّبعونَ ما تشَابَهَ منْهُ ابتِغَاءَ الفِتْنةِ وَابْتِغاءَ تأويله . ومَا يَعْلَمُ تأويلَهُ إلاّ اللهُ والرّاسِخُونَ في العِلْمِ يَقُولُون آمنّا بِهِ كُلٌ منْ عِنْدِ ربّنَا[1].

وتجري محاولة التأويل المستحدثة الآن لتجعل الاسلام متقبلا للحضارة في مختلف فروعها ، وأعمالها . ( ومنها الإباحية ، والربا ، والسرقة ) .

والحق ان للإسلام قيماً ثابتة لا تتغير ، وإنما يجري التطور في الفروع لا في الأسس . فلا يقال مطلقاً إن الاسلام يتطور ، ليتناسب مع الزمن والتقدم المادي ، بل إن على المجتمعات أن توائم بينها وبين الأصول الثابتة في العقيدة والبعث والالتزام الأخلاقي . انما تتطور الأديان البشرية والأيديولوجيات والمذاهب ، لتستطيع أن توائم نفسها مع التغير الحادث ومع البيئات والعصور ، ذلك لأن هذه المذاهب ليست عالمية وإنما الإسلام وحده هو الذي يمتلك الطابع العالمي الخالد . ومن شأن الوضعيات أن تواجه التغيير .

---

١ – سورة آل عمران آية – ٧ .

أما الإسلام، فانه في أصوله الأصيلة الثابتة،قد أقام قواعد عامة لا تتعارض مع تغير الأزمنة ، أو تطور البيئات . أما أن يصبح الاسلام مبرراً لأوضاع الحضارة ، والمجتمعات ، فإن ذلك ليس من رسالة الإسلام وأهدافه .

يقول العلامة النيسابوري : واعلم أن مقتضى الديانة أن لا يؤول المسلم شيئاً من القرآن والحديث بالمعاني . بحيث تبطل له الأعيان التي فسرها النبي صلى الله عليه وسلم والسلف الصالح .

* * *

وأبرز أخطاء التأويل يتمثل في محاولة القول بأن عذاب جهنم ، هو عذاب معنوي . والهدف من ذلك هو إشاعة (١) الاباحة والجريمة في الناس بانتزاع فكرة العذاب الأخروي من نفوسهم ، بينما هو عنصر هام من عناصر إحياء الضمير وردع أهواء النفس من الشرور والمآثم . وقد أصبحت الدعوة للإباحة المطلقة ، والتحلل من ضوابط الفضائل النفسية والجنسية،هدفاً أيديولوجياً لبعض الفلسفات المعاصرة . كالوجودية وغيرها .

فالقائلون بعدم كون العذاب الأخروي حقيقة ، إنما يعملون بدهائهم الخاص لتسريب هذه الفلسفات الهدامة للقضاء على روح الأمم . وإفساد مقوماتها النفسية والعقائدية.وهي أشد ما تكون حاجة اليها،وهي تصارع فيمعركة المصير إلى الاحتفاظ بهذه المقومات التي هي منابع طاقتها المناضلة . وإن هذا الاتجاه يؤدي إلى ابطال قضية ( الثواب والعقاب ) على الاطلاق ، وتبطل تبعاً لها مفعولية التكاليف الشرعية ، والتزام العمل بها لأنه أي ( الثواب والعقاب ) مناط التكاليف الشرعية ، والتزام العمل بها ، فاذا بطلت حقيقة الجزاء بالثواب والعقاب على فعل التكاليف وتركها ، فقد بطلت حقيقة التكاليف الشرعية ذاتها ، وهل الاسلام ، إلا هذه التكاليف من الأمر والنهي ، فإذا بطلت بطل الاسلام كلــــه .

---

١ – قرآن وسنة : الدكتور محمد سعاد جلال .

# الفصل الرّابع

# الرُّوحيَّة الحَدِيثة

## تحضير الأرواح

من الدعوات التي روجت لها الصهيونية والاستعمار : دعوة تحضير الأرواح . وجمعياتها تتخذ أسلوب الماسونية . إذ تقوم على الأسرار والرموز ، ولها درجات يترقى فيها العضو ، حتى يصل إلى أعلى مكان . ولا ريب أن القول بأن أرواح المتوفين يمكن أن تعود إلى عالمنا ، وأن تتكلم . هو ادعاء ليس له أي دليل علمي أو عقلي .

ذلك أن عالم الروح : عالم غيبيّ . من المستحيل أن يستطيع البشر اختراقه . وأن كل ما عرف عنه لا يعدو ما جاء في الكتب المنزلة . وفي مقدمتها القرآن .

ولقد كشف كثير من المنتمين إلى هذه الجمعيات مدى فساد الطريقة التي يحاول بها محترفو هذه الصناعة ، خداع الناس ، والدخول إلى نفوسهم بألوان من الأساليب القائمة على الأضواء ، والإيماءات . ومدى الزيف الذي تنطوي عليه هذه الوسائل التي لا تخدع إلا البسطاء . والسذج .

وأمامنا تجربة كاملة لرجل على درجة عالية من الثقافة : هو الدكتور محمد محمد حسين . الذي كشف في كتابه (الروحية المدنية — حقيقتها وأهدافها ) عن مدى الزيف الذي اتضح له بعد أن مر بهذه التجارب ، وأنار

الله بصيرته إلى الحقيقة . وقد نقد جوانب كثيرة من حلقات تحضير الأرواح . سواء منها ما يتصل بأسلوب الفنجان أو السلة أو وسيط التنويم المغناطيسي . وذلك كله يتم في ظلام ، وتحت ضوء أحمر خافت لا يكاد يميز فيه الناظر أشباح الجالسين ، بالاضافة إلى رنين أجراس ، وما إلى ذلك من أساليب الخداع التي تثير الرهبة في نفوس البسطاء .

وقد تبين أن المقبلين على هذه الحلقات هم ممن فقدوا أعزاء لديهم ، فهم يريدون أن يشبعوا شوقهم إليهم بالاتصال بهم . أو ممن وقعوا في أزمات يطمعون في استقصاء أرواح أقارب، أو شخصيات بارزة، وسماع نصائحهم. أو طلاب العلاج من الأمراض . وقد انتشرت في السنوات الأخيرة أضاليل كثيرة . منها أن أرواح الموتى تقدم للأحياء أشياء مكتوبة تملى عليهم ، وقالوا إن أحمد شوقي ما زال يرسل بشعره من عالم الأرواح . ويدعم دعاة الروحية الحديثة ومروجوها دعاواهم بنصوص من الكتب السماوية . يجازفون بتأويلها حسب أهوائهم ، أو يخرجونها عن مدلولها ، وكذلك بنصوص من المأثور عن السابقين الأولين .

يؤكد المتصلون بالأبحاث الروحية . والذين اندمجوا فيها ، ان هذه التجارب على الطريقة التي تجري بها في أوربا وأمريكا باسم (Spiritualism) والتي نقلها عنهم المروجون لها ، هي تحت تأثير أيدٍ هدامة ، تحاول أن تجعلها « ديناً جديداً » يهدم أسس المجتمع ، وينشر فيه الفوضى بالتشكيك في كل المقررات الدينية والخلقية . وأنها شعبة من الدعوات المريبة التي تأخذ الناس من كل جانب والتي تلبس مختلف الأثواب، وتخفي حقيقتها تحت شتى الأسماء ، وهي تتخذ اسم العلم ، أو السلام ، أو الرحمة ، أو محاربة الإلحاد والمادية (١) . بل إن مراجعة يسيرة للعقائد والمفاهيم التي يعتنقها دعاتها وأتباعها ، تكشف عن خطورتها وآثارها البعيدة في تهديم الاسلام والتوحيد .

---

١ – دكتور محمد حسين : الروحية الحديثة .

أولاً : تقوم تعاليم الروحية الحديثة على وحدة الوجود (فالله والعالم شيء واحد) ، وعلى تناسخ الأرواح ، وخلود الحياة المأنوسة لنا الآن . فلا فناء للدنيا ، وأنه ليس هناك يوم للبعث والحساب العام . والعبادات المقررة لا وزن لها عندهم ، وكذلك إنكار خلق الله للكون ، ومحاولة الترويج لقدم العالم ، وإنكار نهاية الخليقة . ومن عجب أن جميع هذه الدعوات قديمها وحديثها . إنما تقوم على هذه القاعدة العجيبة ، سواء أكانت البهائية أم الثيوصوفية أم الدهرية . بل إن دعوات الفرويدية والوجودية والهيبية ، تبلغ في ذلك مبلغاً لا حدّ له من التزيد وتصل دعواها إلى أبعد الغايات في استغلال مظاهر العلم ، وأساليب البحث الفلسفي رغبة في تحقيق أكبر قدر من الإغراء والخداع ، والمعروف أن فكرة تناسخ الأرواح وخلود الدنيا ، وإنكار الجزاء هي نفس مبادىء الماسونية مصوغة في اسلوب جديد . (١) والواضح أن فكرة التبشير بنبيّ أو إمام أو مهدي هي عنصر أصيل في مثل هذه الدعوات . ذلك أن أصحابها إنما يمهدون بها لتحقيق غاية يتطلعون إلى أنها ستكون في المرحلة التالية . ومن ثم فهم يشدون الأبصار إليها .

كذلك فإن هذه الدعوات تبشر بفكرة العالمية ، أو الكونية . وتلك غاية أخرى من غايات الدعوات الهدامة ، وهدف أصيل من أهداف الماسونية في خدمة الصهيونية العالمية .

ثانياً : تقوم الروحية الحديثة على معاداة الأديان . وخاصة الإسلام ، والمسيحية . وتكشف في كثير من إيماءاتها عن صلتها باليهودية التلمودية . ولذلك فإن دعاة الروحية يهاجمون رجال الدين عامة . كمدخل إلى مهاجمة الأديان نفسها . ويركزون على السخرية منهم ، واتهامهم بالتقصير والتأخر والجمود، إلى غير ذلك مما يراد إلصاقه بالدين نفسه، فضلا عن إنكار علماء الدين ، لما يدعونه من اتصال بالأرواح أو ما يسمونه بالعلاج الروحي . وهم

---

١ – الشيخ محمد الغزالي : مجلة الوعي الإسلامي .

في نفس الوقت يمجدون الوثنية والنحل القديمة ، ويعلون من شأن الفرعونية ، ويتخذون من أسمائها رموزاً لهم ولمحافلهم — وهم يشيدون ببعض الأرواح الفرعونية . مثل روح (رع أمون رع ) و( همبوت ) ويطلقون اسم جمعية الأهرام على محفلهم ، ويركزون على الآثار والكشف عنها ، ويولون هذه الكشوف عناية كبيرة .

ثالثاً : تركز الروحية الحديثة : على هدم الأخلاق . ونفي الاختيار ، والقول بالجبر . وهم في دراساتهم الروحية ، يتخذون نفس الأسلوب الذي اتخذته الدراسات النفسية في تبرير الجريمة ، والاعتذار عن المجرم ، ووصفه بأنه مريض ، ومحاولة إرجاع دوافعه إلى عقد نفسية . أو إلى اضطراب في تركيب جسمه . على نحو ما تشير نظرية ( لمبروزو ) التي أثبت كثير من العلماء فسادها واضطرابها . وهم يحاولون بهذا أن يصلوا إلى تبرئة المجرم ، ورفع القصاص عنه . كما يدعون المجتمع إلى عدم مطاردته .

فالروحيون يذهبون هذا المذهب نفسه عن طريق آخر. فهم يبررون الجريمة بإرجاعها إلى ما يسمونه ( المس الروحي ) والمجرم في كلتا الحالتين مكره على الجريمة . يرتكبها تحت عامل داخلي عند الفرويديين ، أو تحت عامل خارجي عند الروحيين ، وكل منهما يهدم التقنين الخلقي من أساسه . لأنه يمحو المسؤولية الفردية التي هي مناط الثواب والعقاب في الدنيا والآخرة، ومن الواضح أنه يمحو في الوقت نفسه الشرائع السماوية كلها ، بل القوانين الوضعية أيضاً . فهو عود إلى الحيرة الضالة المفسدة للدين والدنيا جميعاً (١) .

رابعاً : من أخطر دعواتهم وأكذبها : قولهم إن الجنة والنار فكرة عقلية ، أو حالة نفسية. وإن الناس على اختلاف أديانهم، وعلى اختلاف نحلهم وطبائعهم يعيشون فيما وراء الموت حياة هي نفسها حياتهم على الأرض ، وإن فرص

---

١ – دكتور محمد حسين – الروحية الحديثة .

التكفير عن الذنوب لا تنقطع بموتهم . وهم بذلك يهدمون أكبر رادع للناس عن الظلم والفساد . وهم يدعون أن القيامة هي قيامة « آدم » الجديد الذي يقوم على وجه الأرض في عالم لا يحكمه إلا السلام . وتسوده الروحية ، وتلك إحدى دعاواهم التي يمهدون لها .

خامساً : إنكار القرآن والإنجيل أساساً ، ثم محاولة الاستشهاد بهما مع التحريف الشديد في سبيل خداع البسطاء ، وضعاف النفوس .

وحيث أن الدعوات الهدامة . تقوم على المادية ، فقد كان من الضروري خلق منطلق آخر له مدخل ناعم الملمس . يحاول استقطاب المتدينين ، والذين يكرهون الدعوات المادية ، ومن هنا كانت الروحية أسلوباً للهدم. فهم يدعون الناس ممن تجتويه أساليب الخوارق والمعجزات ، ويتدرجون بهم حتى يصلوا معهم إلى نفس الغاية التي تصل إليها المذاهب المادية من انكار الوحي ورسالات السماء ، ومن أن الأديان كلها تهدف إلى غاية واحدة. فليس بينها خلاف . وأن الرسل والأنبياء ليسوا إلا وسطاء بين الله وخلقه ، وأن هذه الرسالة قائمة لا تنقطع ، وأن هناك من يقومون بها على الدوام ، وفي الوقت الحاضر أيضاً . ويصلون من هذا إلى الحديث عن نبيهم ( سلفر بيرش ) الذي يسمونه الروح الرائد أو ( آدم الجديد ) وهو الذي سيكون خليفة الله على الأرض . وينقلون عنه كتابات وأحاديث ، تستهدف التركيز على الغايات الكبرى للمذهب الروحي . وهو إخراج الناس من الإيمان بالله على الوجه الذي جاءت به أديان الله ، والتي نزل بها الإسلام خاتماً . وفي هذه الدعوة حديث عن إسقاط التكاليف ، وتجاوز حدود الله، وإباحة المتعة والشهوات ، والتشكيك في الجزاء والعقاب والثواب ، وفي الجنة والنار ، وفي الحياة الأخرى جملة — وتقوم هذه المفاهيم على أساس «التأويل » على نفس المنهج الذي عرفته الدعوات القديمة كلها ، وتهدف إلى الترويج للإلحاد ، والإباحة تحت ستار التنويه بمكارم الأخلاق .

سادساً : محاولة التفريق بين العبادات والأخلاق . والادعاء بأن العمل الصالح وحده كاف لأن يقرب الانسان من ملكوت الله . ويشير ( سلفربيرش ) إلى هذا المعنى حين يقول : أعطني الرجل الذي لا يعتنق أي دين . والذي لا يركع لذكر اسم الله . ولكنه ( أمين ) ، ويحاول أن يخدم ويمد يده للضعيف ، ذلكم أكثر تديناً ممن ينسب إلى أي دين (١) .

لا ريب أن هذه الحقائق تصل بنا إلى غاية واضحة : هي أن الصهيونية العالمية قد استطاعت أن تحتضن فكرة الروحية الحديثة ، وأن توجهها إلى أهدافها . كما احتضنت كثيراً من الحركات الفكرية والسياسية والاجتماعية في العصر الحديث .

ولقد كانت حركة الروحية . أو ( الاسبرتزم ) في أول أمرها سلاحا جباراً ، أريد به معارضة المادية — ومقاومة نفوذها . وشغل به كثير من أرباب الأديان ، ومن أعداء الدعوات الهدامة ، وكان لأمثال : فريد وجدي وغيره اهتمام كبير به ، بحسبانه ، باباً للإدالة من الدعوة المادية وإسقاطها . غير أن القوى الهدامة ، استطاعت أن تستوعب الحركة الروحية ، وأن توجهها إلى غايات أبعد ما تكون من أهدافها الصحيحة . فأصبحت الروحية بمثابة دين جديد يبشر به المبشرون ويدعو إليه الداعون ويتنبؤون بعالم جديد يسوده السلام والمحبة ، وهو نفس الطريق الذي سارت فيه دعوة ( الثيوصوفية ) ثم البهائية .

وقد أكد هذا المعنى ( هوايت هوك ) فيما نقلته عنه مجلة عالم الروح حين قال : إن الروحية اليوم تلقنها يد الحراس من الأرواح . والسادة مصلحو البشر ، أولئك هم الذين خلقوا الحركات المتعددة منذ مائة سنة . فهم الذين وضعوا أساس الثيوصوفية ، والفكر الحديث ، والعلم المسيحي الحديث ، ولذلك

---

١ — يكشف لنا النص مصادر الدعوة التي ثارت وترددت حول الفصل بين الايمان بالله . وبين الأخلاق أو بتعبيرهم بين « الدين والضمير » .

فالروحية ستكون أقدر على تأسيس دين جديد واسع للعالم كله . (١) .

ويقول أحد دعاة الروحية الحديثة : إن هذه المنظمة ستكون لكل البشرية . وعن طريقها سوف يوضح لنا سكان العالم الروحي : طريقة جديدة للحياة ، ويعطوننا فكرة جديدة عن الله ومشيئته . انهم سوف يأتون لنا بالسلام والطمأنينة الروحية وسعادة النفس والقلب . سوف يحطمون الحواجز ، بين الشعوب والأفراد ، بين العقائد والاديان (٢) . ومعنى هذا كله . كما يقول الدكتور عبده الراجحي (٣) : ان الروحية الحديثة هي صورة أخرى من صور العالمية . تتخذ أسلوب الماسونية ذاته . فهي تقوم على رموز وأسرار . ولها درجات . ولم تنشأ للتسلية ، ولكن أنشئت لأهداف خاصة . وهي مخطط إسرائيلي واضح الهدف والأسلوب . يرمي إلى انتزاع الشخص من دينه وقوميته وصبّه في قالب جديد من العالمية ، أو الكونية ، مستخدمة لذلك مختلف الوسائل ، حتى أنها تستخدم الدين في هدم الدين. فهم يؤولون آيات القرآن تأويلا عجيباً . ليصلوا إلى منهجهم . ويحاولون أن يجعلوا من الوسيط الروحي في العصر الحديث رسولا يفوق الرسل . وهدف الروحية الحديثة « لا بد أن يتحطم الدين بيد أتباعه ، ولا بد من تحقيق القومية على أيدي أبنائها ، وهذا هو السبيل أمام الاسرائيليين كَيْ يركبوا أكتاف العالم من جديد » .

أما نحن المسلمين ، فاننا نقف إزاء ذلك كله على قاعدة صلبة . فقد كشف لنا القرآن عن الموقف الصحيح من كل هذه الدعاوى الباطلة التي كشفها القرآن نفسه في حديثه عن أصحاب المذاهب الهدامة ، والنحل الضارة التي سبقت الإسلام . ونحن المسلمين نؤمن بالمادة ، وما وراء المادة ، وبالحياة والموت والنشور . ونؤمن بالبعث والجزاء وبأن النار حق ، والجنة حق . وأنها ليست من باب التصورات والأحاسيس . والمسلمون لا يؤمنون بأن

---

١ – العدد ١٢٧ – مجلة من عالم الروح .
٢ – العدد ١٢٦ – من مجلة عالم الروح .
٣ – في كتابه الشخصية الاسرائيلية .

الأرواح التي ذهبت تستطيع أن تتصل بعالمنا هذا أو أن يكون لأحد في عالمنا سلطان لاستحضارها . ولا يقر الإسلام الاتجاه إلى الروحية وحدها ، وليس الإنسان روحاً بلا جسد . ولا ينصر الإسلام إحدى الكفتين. الروحية،أو المادية . ولكنه يجمعهما معاً ويوازن بينهما . وهذه الدعوة إلى الروحية ليست إلا نموذجاً للدعوة إلى المادية . وكلاهما يتعارض مع الفطرة وطبيعة الإنسان ومع مفهوم العقل المؤمن بالوحي . ويبقى الاسلام متميزاً بنظامه ودعوته إلى الإيمان بالله ومقاومته لطغيان المادية أو الروحية على السواء ، ونحن نعرف أن هذه الفلسفات جميعاً نشأت في غير محيط الإسلام. كرد فعل لمفاهيم سبقت بالكبت والحجر على العقول والأبدان ، والدعوة إلى الرهبانية وتأليه الإنسان وما يتصل بذلك من دعوات التعدد وغيرها مما دفع الفكر الغربي إلى الصراع بين المثالية والمادية. وبين الأديان والفلسفات ، وهذا ما دفع بعض الفلاسفة إلى إعلاء الإنسان ، وإلى عبادة الأجساد، وما دفع الآخرين إلى وصف الدين بأنه أفيون الشعوب، ودفع بعض الفلاسفة إلى القول بأن الإله الذي عرفوه عن طريق دينهم قد مات وهكذا . ومن هنا كان رد فعل المادية المطلقة الغالية في إنكار عالم الغيب والوحي والأديان وانكار الله إلى دعوة غالية في الاتجاه الآخر . إلى الروحية والعوالم والأفلاك. وكلاهما مسرف شديد الإسراف، وكلاهما يصدر عن العقل الذي تحكمه الأهواء ، والذي تقوده دعوة « الفكر الحر » فلا يستطيع أن يصل إلى شيء . لأنه يخرج عن نطاقه ووظيفته وأفقه المحدود .

وقد نقلت الجمعيات الروحية ، ودعوات تحضير الأرواح إلى بلادنا بغية انتزاع المسلمين من دينهم وقوميتهم ، وإخراجهم من عقائدهم وقيمهم . فهم بين شرين ، كلاهما مر . إما روحية تنكر الجسد والمادة « الانسان روح لا مادة » كما يقولون أو مادية تنكر كل شيء ، وتعتبر الروح نفسها مادة خالصة . وكل هذا يستهدف إخراج المسلمين من عقائدهم وشريعتهم وأخلاقهم،ويلتمس لذلك ما حملته الدعوات الهدامة قديماً من باطنية وغنوصية وإشراق وتناسخ وحلول ، فالعبارات هي العبارات، والأهداف هي الأهداف ، ولا جديد إلا أن تتشكل من جديد تحت اسم جديد .

ولا ريب أن الروحية الحديثة بدأت حركة في مواجهة المادية ، ولكن مخططات التلمودية لم تلبث أن احتضنتها ، وسارت بها خطوة في طريقها إلى غايتها . ولا ريب أن القول بأن العلم الروحي قد أصبح علماً تجريبياً ، هو من أكبر التجاوزات الخاطئة التي ليس هناك دليل على صحتها . ولا ريب أن التواصل بين الأحياء والموتى أمر مشكوك فيه إلى درجة الاستحالة المطلقة . ومن الخطأ في هذا المجال ، الربط بين هذه المفاهيم الوافدة . وبين القرآن الكريم عن طريق التعسف في تأمل الآيات والنصوص .

# الباب الثاني

# دعوات هدامة للمجتمعات والأمم

الفصل الاول : أيدلوجية التلمود

الفصل الثاني : العنصرية

الفصل الثالث : المادية

الفصل الرابع : العلمانية

الفصل الخامس: العالمية

# الفصل الأوّل

# أيدُولوجِيّة التَلْمُود

ما تزال البشرية تواجه أيدلوجيات مناهضة للفطرة الإنسانية والتوحيد والعدل . ومتحركة داخل نظريات ومذاهب ، وطارحة نفسها خلال العصور المختلفة بأساليب متجددة . وفي هذا العصر نجد هذه الدعوات الهدامة للأمم والمجتمعات ، وقد صاغت أفكارها القديمة . التي سبقت الإسلام . والتي جاء الاسلام، ومن قبله كل أديان السماء، للكشف عن زيفها، وللتحذير من أخطارها . صاغت هذه الأفكار في أسلوب براق ، وفي منهج علمي ، واتخذت أساليب مستحدثة ، وقدمت فكرها في أجواء زاهية ، ومن خلال مطبوعات لامعة فاخرة ، وتحت أسماء مغرية . ولما كانت دعوات الهدم تعارض الأديان والأخلاق والقيم . وتناهض الضوابط والفرائض والحدود، وهي تغري بالتحرر في الفكر والسلوك . فإنها قد تجد من بعض الجماعات البشرية ، والأفراد تقبلا بالإغراء ، وموأزرة بالرغبة . ومن هنا تتعرض الأمم للأخطار ، جيلا بعد جيل . وتتعمق الأزمة ، وتبرز الآثار المروعة التي لا يدفعها ، إلا أن تعود الأمم مرة أخرى ، إلى التماس مناهج الله وأساليب الرسل والأنبياء . ومن أخطر ما تواجهه البشرية اليوم ، مخططات التلمود التي صيغت في دعوات هدامة كالماسونية ، وحركات خطيرة كالصهيونية ، وأساليب

عمل كبروتوكولات صهيون . وهدفها هدم الدين والأخلاق والحضارة . واستعمال كل الوسائط والأساليب ، لفرض سيطرة الصهيونية على العالم .

إن هدف أيدلوجية التلمود ، هو إقامة امبراطورية الربا العالمية . وقد رسم اليهود أهدافهم بدقة خلال منفاهم في بابل منذ ألف عام تقريباً . حيث أعدوا مخططاً كاملا للسيطرة على العالم ، والانتقام من الأميين . ومن أجل هذا أجرى اليهود تحريفات كثيرة في كتبهم المقدسة ، ومنها برزت نقمتهم وأحقادهم . فقد حشوها بأفحش القول ، وأبشع الحقد على الأديان والأمم ، وضمنوها عديداً من التعاليم الضالة ، والمبادىء الحاقدة ، والقيم الفاسدة .

يقول جاك رومان ، وماري لورا ، في كتابهما ( التحدي الصهيوني ) : إن أبرز ما تحمله تعليمات اليهود هي نصوص تفيض وحشية وعنصرية وحقداً على العالم كله ، وقد غذيت العقول بهذه الأحقاد على مدار الأجيال ، فأصبحت قوام النفسية اليهودية التي نشأت نتيجة لها الدعوة لاعادة التركيب الاجتماعي . ومنها نشأت تلك الأيدلوجية القائمة على العنصرية ، والسيطرة والظلم والربا . ولا ريب أن هدف الأيدلوجية التلمودية هي طبع العالم كله بذلك الطابع . واحتوائه داخل منهج ربوي مادي . يتحرك من خلال مفاهيمهم وقيمهم . وقد وصلوا في ذلك إلى حد كبير بتطعيم الفكر الغربي بمذاهب جديدة في النفس والاجتماع والأخلاق والاقتصاد . ويمكن القول ان الأيدلوجية التلمودية . قد استطاعت فعلاً بعد صراع كبير مع الفكر الغربي المسيحي من السيطرة على الحضارة الأوروبية والفكر الغربي وطبعه بطابع المثل الأعلى التلمودي .

## ٢

من أجل إقامة منهج وأيدلوجية ، لا بد من تذليل القوى لتحقيق هذا الهدف . فإذا كان المثل الأعلى التلمودي هو الربا والسيطرة الاقتصادية العالمية . فلا بد من تذليل كل العقبات في سبيل إخضاع البشرية لهذا الهدف . ومن هنا تكون الأديان والأخلاق هي عقبة العقبات ولذلك ، فلا بد من تذليل الأديان

والأخلاق لأنها قوى المعارضة الحقيقية . ومن هنا تركز التلمودية اليهودية على تفكيك الأخلاق . وتسهيل سبل الشهوات ، وتزيين ذلك للناس بوسائل العرض،وصياغة المناهج والفلسفات ،ومن هنا كانت سيطرة اليهودية التلمودية على الصحافة، والسينما، والجامعات ، والمناهج الثقافية والتربوية . ومن ثم أصبح في أيديهم كل وسائل التأثير العقلي ، والاقناع الفكري ، عن طريق الكلمة المكتوبة . والكلمة المسموعة ، والصورة المرئية . فالأزياء وأشرطة الصور المتحركة ، والرقص . ومسابقات الجمال ، والمودات ، وكتب الجنس، والصور العارية. كل ذلك في أيدي اليهود . وقد نشروا في العالم كله مجلات متخصصة للدعوة إلى عبادة الجسد ، ونشر المجون والفسق ، وإذاعة القصص الكاشفة عن الأسرار ، وإعلان الفضائح والجرائم تحت ستار التحقيق الجنائي . وليست كل هذه الأساليب والمناهج ، والمذاهب ، من سياسية واجتماعية ، إلا محاولات لتقريب العقل البشري كله من الأيدلوجية التلمودية وصهره فيها وتشكيله من جديد .

## ٣

حيث اقتضى مخطط الأيدلوجية التلمودية الطموح إلى السيطرة على البشرية . فقد كانت الماسونية هي الجهاز الذي يمهد لهذا العمل . والماسونية هي عصارة الفكر التلمودي مصوغة في فلسفة موجهة إلى مختلف الأديان والأجناس على النحو الذي يضع هذه المجموعات البشرية في خدمة الهدف على نحو تدريجي . ووفق مغريات . وأساليب ومطامح تتفق مع مختلف العقليات . والأذواق . والرغبات . ومن هنا قامت الماسونية على هدم طودين كبيرين هما : الدين والأخلاق ، وقد جعلت شعارها ( البناؤون الأحرار ) ، هادفة من وراء ذلك إلى غاية واضحة هي بناء هيكل سليمان في القدس. فالماسونية،وجميع الجمعيات السرية المماثلة، ليست غايات . وإنما هي وسائل تستخدمها القوى الخفية لتهديم القيم التي تقف حائلا دون مطامع اليهودية التلمودية . وقد أجمعت مصادر كثيرة على أن الماسونية تعمل على : تقويض الحضارة ومحو الأديان

وهدم القوميات وإسقاط الدول والامبراطوريات والقضاء على الآداب والأخلاق . إن الهدف هو السيطرة على العالم عن طريق حصر المال ، والقوة السياسية والصحافة في أيدي حفنة من اليهود ، وجعل هذه القوى الخاصة ببني البشر وسائل تتحكم فيها . وان هذه المخططات والدعوات الهدامة ، هي محاولة مستمرة لتغيير تركيب العالم السياسي ، والاقتصادي ، والفكري بما يتفق مع المخططات اليهودية .

## ٤

الربا . هو أس الأساس في بناء الأيدلوجية التلمودية . يقول اليهودي لازار : إن أصحاب المصارف اليهودية ، ورجال الصناعة، والشعراء، والكتاب، والخطباء اليهود ، متحدون بأفكار مختلفة ، ينشدون غاية واحدة . ويعتقد اليهود أن اتحادهم فيما بينهم ، يظل قائماً ما داموا يبثون روح الهدم . ومتى تضعضعت ثروة أوربا فإن مصرف اليهود يبقى راسخاً لا يتزعزع .

إن الهدف هو طغيان رأس المال ، واستنزاف جميع الثروات . وفي سبيل ذلك يحتم ضرب كل العوامل التي تحول دون هذه السيطرة .

والمال كما يقول كارل ماركس في كتابه «المسألة اليهودية» : هو إله اسرائيل المطاع وأمامه لا ينبغي لأي إله أن يعيش . ومحاولة إسرائيل والصهيونية هي أن يصبح إله اليهود إلهاً للناس أجمعين . ومن الحقائق الاجتماعية التاريخية : ان اليهود همالذين وضعوا النظام المالي،الذي هو القطب الروحي للمدنية الغربية في العالمين : القديم ، والجديد . وأن لهم به النفوذ الأعلى في جميع الدول والأمم الرأسمالية — وأنهم أخفوا أنفسهم بصفتهم المالية . أن تظهر في مملكة المال ظهوراً يمكن به لغيرهم أن يسلبوا ثرواتهم . وهم من أجل تحقيق هذا الهدف يضعون الاقتصاد العالمي على أساس الذهب الذي يحتكره اليهود لا على أساس قوة العمل والثروات الأخرى . وهم يجعلون من الذهب أقوى الأسلحة لإثارة الرأي العام ، وإفساد الشباب ، والقضاء على الضمائر والأديان

والقوميات ونظام الأسرة . ومن شأنهم إحداث الأزمات الاقتصادية العالمية على الدوام . حتى لا يستريح العالم أبداً . فيضطر إلى الاستعانة باليهود . وقد أجاب الدكتور خالد شلدريك على سؤال : لماذا تقف الصهيونية واليهودية التلمودية موقفاً معارضاً للإسلام خاصة والأديان المنزلة بصفة عامة فقال : إن السر الحقيقي يختفي دائماً وراء المال ، فالدين الإسلامي بتحريمه الربا أقفل بلاد المسلمين دون الفوائد الفاحشة الكامن حبها في نفوس ناشئة بني اسرائيل . وقد وجدوا أن الحراب الأوربية تستطيع حمايتهم فتدفقوا للاستيلاء على أملاك المسلمين . فالمالية اليهودية إذن ترمي إلى غزو كل بلاد إسلامية . ووضع الأغلال لا في أعناق المسلمين الأسيويين فقط . بل والإفريقيين أيضاً . فالمال إذن هو الذي جعل اليهود اليوم خصوماً للمسلمين .

هذا ، وتختلف وجهة نظر المسلمين عن وجهة نظر الأيدلوجية التلمودية . التي فرضت مفهومها على الحضارة الغربية ، وجعلتها خاضعة لحب الملذات . وتوفير اللذات ، والذهاب بالانتاج الصناعي غايته في سبيل تحقيق الترف والرفاهية ، ومن هذا المنطلق نشأت المزاحمات والمضاربات ،وأعمال البورصات. أما الحضارة الإسلامية ، فلا تستمد روحها من مثل هذه البواعث. وإنما تستهدف أن تكون أمة أخلاقية تنصر الحق، وتخذل الباطل. ومن هنا فليست الحضارة الإسلامية في حاجة كبيرة إلى ما يسمونه الرفاهية والترف على حساب القيم الخلقية والدينية .

ولقد كان اليهود هم الذين حملوا لواء الربا على طول العصور . وكان المرابون اليهود وراء اقراض الأمم والملوك . وقد قامت الرأسمالية على الربا الفاحش ، وارتبط الاقتصاد العالمي بالربا . وارتبطت بالربا صناعة السينما وتجارة الرقيق ، والخمر والمخدرات . وكان للربا أثره في التركيز على بضائع معينة هي أدوات الترف والزينة وما وراءها . حتى قامت مئات الصناعات في العالم من أجل الانحلال ، وكان لا بد أن تخلق من ورائه فلسفة ونظريات تدعم الدعوة إليها . وتحبب فيها . وتغري بها السذج ليستمر نمو نفوذ الربا .

وبذلك فرض الربا نفوذه وتأثيره على كل القيم الدينية والأخلاقية والانسانية .

## ٥

يقول أحد الباحثين إنه من خلال الأيدلوجية التلمودية نسقت نظم الغرب . ان جميع أنظمة الغرب التي كان لليهود اصبع في وضعها أو تعديلها ، أو في تفسيرها ونشرها . قد صنعت إما لمصلحة أصحاب رؤوس الأموال ، أو لمصلحة طائفة أخرى من أهل القوة والتأثير ، أو للترويج لنزعة من النزعات التي يرتاح لها فريق ، ويسخط لها فريق . والنظام اليهودي قائم على تبادل المنفعة . وافق هذا التبادل الفضيلة أم خالفها ، والحق عندهم . هو ما يتمشى مع القانون ، ولا تعاقب عليه المحاكم : أما مفهوم الإسلام فيختلف عن ذلك اختلافاً عميقاً . ومن خلال الأيدلوجية التلمودية التي نسقت نظم الغرب أشرف اليهود على مراكز القوى العالمية .

أشرف اليهود على الصحافة ، ودور النشر ، ووكالات الأنباء .

أشرف اليهود على أبحاث الجامعات ، والثقافة ، ومذاهب العلم ، والفلسفة ، والفن ،والمسرح ، والسينما ، ونظم التعليم .

أشرف اليهود على البنوك ، والشركات . والبورصات — أشرف اليهود على الأزياء ، وهم من وراء كل الظواهر المستحدثة الخطيرة . الهبية ، والخنافس ، وتجارة علب الليل ، وتركيب حقن الهلوسة ، والمارجوانا .

وقد عملوا على السيطرة على معامل الملابس ، والمساحيق ، والعطور ، وما سواها ، وبذلك توصلوا إلى تحقيق غرضين : السيطرة على المال ، وافساد الأخلاق وهدم الأديان . وعملية الزينة والأزياء ، تتغير حيناً بعد حين . ويزداد النساء انفاقاً ، وتتسرب الأموال إلى جيوبهم ، وفي نفس الوقت ينشرون عن طريق الأنماط ، والمودات ، أسباب التفسخ والهدم بما ينشر الرذيلة ، ويشيع الاختلاط ، ويزيل الفوارق بين الرجل والمرأة . وينشر الأمراض الجنسية ، ويضيع الطهارة ، ويهدم الأسرة .

# ٦

حملت الأيدلوجية التلمودية لواء دعوات مختلفة في العصر الحديث ، بعد أن سيطرت عليها ورفعتها في العالم كله من أجل تحقيق أهداف تتفق مع غايتها الكلية . في مقدمة هذه الدعوات، الثيوصوفية،والروحية الحديثة ، والبهائية، كما قدمت مذاهب تهدف من ورائها إلى فرض مفاهيم معارضة للحقائق التي استقرت في الأذهان . منذ نزل الإسلام إلى اليوم . والتي وضعت حداً فاصلا بين عصر وعصر . من هذه المذاهب علم مقارنة الأديان ، والدعوة إلى العنصرية ، وإعلاء جنس على جنس ، والدعوة إلى المذهب المادي ، وإلى العلمانية ، وإلى فصل الدين عن المجتمع .

كذلك طرحت نظريات عديدة متضادة في ميدان الاقتصاد ، والسياسة ، والتفسير المادي للتاريخ ، وعلوم النفس والأخلاق والاجتماع ، تستهدف وضع أصول التلمود وأهدافه موضع التطبيق العملي في المجتمعات .

وما من مبدأ أو مذهب علمي ، أو فلسفي يظهر في العالم حتى يَهُبّ (١) اليهود ليكونوا من ورائه ، ويتصرفوا معه بما ينفعهم ، وقد أفلحت الدعاية اليهودية في طبع كثير من العقائد والنحل بما يحقق مصلحتها ، فترى روح الولاء والتهلل لبني اسرائيل ومعتقداتهم تهيمن على بعض المقدسات المسيحية . وما ظهر مذهب فكان مؤديا إلى مسّهم بالأذى إلا قتلوه ، وما كان مؤدياً إلى خير لهم إلاّ روجوه في أنحاء العالم . وكذلك يروجون كل قلم ما دامت آثاره — عن قصد . أو غير قصد — تساعد على إفساد الناس . ورفع شأن اليهود ، كما فعلوا مع « نيتشه » الذي يتهجم على المسيحية وأخلاقها ، ويقسم الأخلاق إلى قسمين : أخلاق سادة كالعنف — وأخلاق عبيد كالرحمة والبر ، مما يتفق وروح اليهودية وتاريخها ، ويمهد لها في الأذهان ، ويجعلها سابقة على نيتشه ، وكذلك روجوا مذهب التطور ، وأولوه تأويلات ما خطرت

---

١ — الأستاذ محمد خليفة التونسي — مقدمة كتابه « الخطر اليهودي »

لدارون ، واستخدموه في القضاء على الأديان والقوميات والفنون .

## ٧

وهم يستخدمون المذاهب المتناقضة لخدمة مصالحهم ما دامت تؤدي أخيراً إلى انحلال العالم ، والقضاء على أخلاقه ونظمه وأديانه وقومياته . فهم يدعون إلى العالمية ، والوطنية المتطرفة ، والتسامح الديني ، والتطرف الديني . وقد كونوا جماعات دولية ذات نفوذ عالمي لإثارة الخلاف بين الدول الديمقراطية والشيوعية في الشرق والغرب وإثارة مخاوف كلا الفريقين من الآخر كلما خفتت حدتها .

## ٨

محاربة الأديان والخشية منها ، والحيلولة دون ظهورها في سائر الأمم الحديثة في الغرب ، ذلك لأن النص على الدين سيحول بين اليهود ، وبين المناصب القيادية في الأمم المختلفة . ولذلك : فقد وجهوا إلى الدين حملة ضخمة . وعارضوه بالفلسفات حتى كادت تسقط قيمة الدين كلية في نظر الغربيين . وقد أثاروا في وجه الفكر الديني في الغرب شبهات كثيرة منها أنه لا يفي بحاجة النفس الانسانية ، ولا يحقق غاياتها .

ولكن هذه الحملة تجد مواجهة صحيحة . وتختلف اختلافاً بيناً إذا وجهت مثل هذه الحملة إلى الاسلام . ذلك أن موقف الإسلام من الانسان ومن العلم ومن العمل والتقدم وزينة الله التي أخرج لعباده موقف مختلف في أصوله وفروعه ــ وتحرص الأيدلوجية اليهودية على تطبيق شبهات الفكر الديني الغربي على الاسلام . وذلك يفرض ضرب أكبر مقررات الاسلام ، وهو أنه دين ونظام مجتمع . فهي تستهدف ابعاد الاسلام عن المجتمع ، وإيقاع الخلاف بينه وبين العروبة ، وعزله عن الاقتصاد ، والقانون ، والتربية .

## ٩

تقف التلمودية اليهودية موقف المعارضة للمنهج القرآني الإسلامي الرباني الذي يتمثل في الأخوة الإنسانية ، والحنيفية السمحة البعيدة عن العنصرية ، وإعلاء الجنس . وتقف من الأنبياء والرسل والكتب السماوية موقفاً معارضاً لموقف القرآن والإسلام، فالإسلام يؤمن بالله،وكتبه،ورسله.لا يفرق بين أحد من رسله . بينما تفرق التلمودية اليهودية ، وتصور بعض الانبياء بصورة تغض من أقدارهم . وهم المؤهلون لقيادة الإنسانية المعصومون عن الخطأ — ذلك أن صور أبطال اليهود في القرآن صور إسلامية . وصورهم في العهد القديم صور يهودية — والخلاف بين صورتي كل بطل منهم خلاف واسع . قد يصل إلى التناكر. وأهم مظاهره، هو عصمة هؤلاء الأبطال في القرآن عما لا يليق بهم . وعدم عصمتهم في العهد القديم من ذلك (١) .

## ١٠

أبرز مفاهيمهم المعارضة للأديان عامة ، والإسلام خاصة إنكار البعث . وهو أخطر مفاهيمهم التي يقيمون عليها منطلق النهج الربوي المادي الخالص.

## ١١

رفض(١) لحركة التاريخ الانساني منذ ما قبل المسيح حتى الآن على مدى ألفي سنة ، وللتطورات الهائلة التي حدثت في العقليات ، والنفسيات ، والعلوم ، والحضارات . وقربت ما بين الأجناس والألوان والأفكار حتى وصلت بالناس إلى عهد الإيمان بالإنسانية الواحدة المتعاونة على تحقيق السلام . بعد ما سلحتها

---

١ — محمد خليفة التونسي في بحثه عن الابطال بين القرآن والعهد القديم .

علومها ، وفنونها بأسلحة تجعل الحرب بينها كحروب آلهة الخرافة تدميراً وإبادة للجميع . وارتداداً بالمدنية إلى عهود الكهوف والجبال .

## ١٢

محاولة علم مقارنة الأديان . رد ما في الأديان الأخيرة إلى الأديان السابقة : ورد كل القيم التي تمثلها الأديان المنزلة . إلى عادات وتقاليد قديمة بدائية ( والمعروف أن هذه القيم نزلت بها الأديان الأولى ، ثم توالت ، وأن البشرية لم تعرفها إلا من هذا الطريق ) وهذه محاولة ترمي إلى تشكيك المسلمين في دينهم . فالعالم اذا تمكن من تفتيت الدين ، واعادة كل أفكاره إلى مصدر قبله ، ولو لم يكن المصدر يهودياً ، استطاع أن يمحق قداسة الدين في القلوب والعقول ، وبخاصة المسلمين الذين يعتقدون أن القرآن وحي من الله أنزله على محمد ، فبلغه من غير أن يكون له مشاركة فيه . وهذا يخالف ما يعتقد المسيحيون في الوحي ، إذ يرون أن كتاب الأناجيل هم كاتبوها . بإلهام من الله .

## ١٣

تقسيم البشر إلى يهود ، وهم الشعب المختار و «جوييم» وهم من عداهم من البشر ، ومعنى الجوييم : الكفرة ، والوثنيون ، والأنجاس ، والحيوانات . وتترجم أحياناً إلى العربية بكلمة الأميين Gentiles وقد صور القرآن هذه التفرقة « ذلك بأنهم قالوا ليس علينا في الأميين سبيل » أي أنهم غير ملزمين بأية شريعة في معاملة غيرهم ، فلهم قتل غير اليهودي وسرقة ماله وانتهاك عرضه (١) .

## ١٤

روجوا لمذهب التطور . وأولوه تأويلات ما خطرت لدارون . واستخدموه

١ – الرسالة . ١٩٤٨ – من بحث عن أبطال اليهود بين القرآن والعهد القديم .

في القضاء على الأديان، والقوميات، والقوانين ، والفنون . باعتبار أن كل شيء بدأ ناقصاً شأنها يثير السخرية والاحتقار ، ثم تطور . فلا قداسة إذن لدين ، ولا لوطنية ، ولا قانون ، ولا فن، ولا لمقدس من المقدسات. وهم يعبثون بعلم الاقتصاد والاجتماع ،وعلم مقارنة الأديان ، ويسخرونها لمصلحتهم. وإفساد الآداب والنظم والعقول في كل انحـاء العـالم . ويدسون فيها نظريات مبهرجة لا يفطن إلى زيفها إلا الموهوبون من ذوي العقول . وهم وراء كل زيّ من أزياء الفكر والعقيدة والملبس والسلوك إذا ما نفعهم ، لا سيما إذا كان يفسد غيرهم (١) .

ويقول الاستاذ عباس العقاد : لقد تفهم المدارس العصرية في أوربا ما لم تفهم هذه الحقيقة التي لا شك فيها . هي أن أصبعاً من الأصابع اليهودية كان وراء كل دعوة تستخف بالقيم الأخلاقية . وترمي إلى هدم القواعد التي يقوم عليها مجتمع الإنسان في جميع الأزمان . فاليهودي كارل ماركس وراء الشيوعية التي تهدم قواعد الأخلاق والأديان ، واليهودي دوركيم وراء علم الاجتماع الذي يلحق نظام الأسرة بالأوضاع المصطنعة ، ويحاول أن يبطل آثارها في تطور الفضائل والآداب واليهودي أو نصف اليهودي سارتر وراء الوجودية التي نشأت معززة لاكرام الفرد ، فنحا بها إلى حيوانية تصيب الفرد والجماعة بآفات القنوط والانحلال —ومن الخير أن تدرس المذاهب الفكرية . بل الأزياء الفكرية كلما شاع في أوربا منها مذهب جديد . ولكن من الشر أن تدرس بعناوينها ، وظواهرها ، دون ما وراءها من عوامل المصادفة العارضة . والتدبير المقصود ، وقل مثل ذلك في فرويد اليهودي الذي هو وراء علم النفس الذي يرجع كل الميول والآداب الدينية ، والخلقية ، والفنية . والصوفية ، والأسرية إلى الغريزة الجنسية كي تبطل قداستها . ويخجل الانسان منها . ويزهده فيها . ويسلب الإنسان الإيمان بسموها ما دامت راجعة إلى أدنى ما يرى في نفسه . وبهذا تنحط في نظره صلاته بأسرته ومجتمعه . والكون

---

١ — كتاب الخطر اليهودي للتونسي .

وما وراءه . وقل مثل ذلك في علم مقارنة الأديان التي يحاول اليهود بدراسة تطورها ، ومقارنة بعض أطوارها ببعض ، ومقارنتها بمثلها أن يمحوا قداستها . ويظهروا الأنبياء بمظهر الدجالين. وكذلك حركة الاستشراق التي تقوم على بعث الكتب القديمة . فهي في العربية تزحم مكاتبنا بأتفه الكتب التي لا تفيد علماً ، ولا تورث خلقاً ، ولا تهذب عقلاً ، فكأنما تؤسس المكاتب لتكون متاحف لحفظ الموميات الخالية من الحياة . والتي تغري الإنسان لتفاهة محتوياتها وكثرتها ، وتفككها بالنفور منها . إذا كان سليم الطبع والعقل . أو التمسك بتفاهتها ، فتورثه الغرور والعناد والكبرياء . وكذلك يروج اليهود لكل المعارف التافهة التي تمثل في المجلات والقصص والكتب التي تثير الشهوات ، وتهيج الجوانب السيئة من الغرائز ، وتحبب الرذائل ، وتنشر الانحلال .

## ١٥

هناك نظرية تحتاج إلى مراجعة واسعة . وإن كانت لها دلائل ترجح صدقها . هي أن الأصابع التلمودية الصهيونية ، وراء كل دعوة تستخف بالقيم الأخلاقية ، وأنها وراء كل الثورات والانقلابات ، بل إن بعض الباحثين ، يرد حركات ابن سبأ وابن الصبان وابن ميمون القداح ومهران قرمط ، وبابك والحشاشين إلى اليهودية ، والأثر اليهودي .

## ١٦

يقول بوكهارت : ان الأدب العالمي ، قد يكون مديناً لبعض كتاب اليهود . ولكن شرهم أكثر من نفعهم ، وإثمهم أكبر من خيرهم . فإن (هينه) أفسد أخلاق باريس . وأزوفالد : أنذرنا بقرب زوال الحضارة ، أما فرويد فقد خلق الاباحة الحديثة على نمط الوثنية الاغريقية ، ومجد الغريزة. وأطلق عنان الشهوات البشرية ورخص للرجل والمرأة ، أن يفعلا بجسديهما ما

شاء لهما الشبق الكامن في حنايا ضلوعهما . فالتهتك الجنسي لا حد له في رأيه، والولد يغار على أمه من أبيه ، ويود لو يموت الوالد ليحل محله (مركب أوديب) . أما الأحلام فلا تفسير لها إلا الاغتلام وعلاقة الجنس . وتوماس مان : برر عشق الذكور ( قصة الموت في البندقية ) ووصف مرضى الصدر بحيوانات مفترسة . تتخذ من يأس الشفاء عذراً للتساند . فمصحات الجبال مواخير للمرضى تحت مراقبة الأطباء ( قصة الجبل المسحور ) .

## ١٧

يقول أحد الباحثين : كان من المستطاع أن تشق الفلسفة الأوربية طريقها حتى تصل إلى العلم من ناحية ، وإلى الدين من ناحية أخرى . ولكن تداخلات الصهيونية واليهود منذ سبينوزا ، قد حالت دون ذلك ، وحولت دفة الفلسفة إلى المادية والإلحاد .

وقد وصف مكسيم جوركي أمة اليهود بأنها سيف ذهبي شهر على رأس أوربا منذ مهد المسيحية . وقد حاولت الفلسفات التي حمل لواءها اليهود تغيير مفاهيم الحياة ، وإفساد الفطرة . إذ حاولت أن تصف الانسان بأنه حيوان ، وابن المصادفة ، وأنه لا غاية لوجوده . ولا هدف ، ورتبت على ذلك أنه لا معنى للحياة الانسانية ، ولا للمثل العليا . وأن الحياة تخبط، ليس فيها إلا الطعام والجنس . وبذلك طغى طابع المادية على علوم النفس والأخلاق . والتربية والفن.وهاجم ماركس وفرويد ودوركايم (وهم جميعاً من اليهود) الدين، فقال ماركس : انه أفيون الشعوب ، ومجموعة الأساطير . وقال فرويد : انه ناشىء من الكبت . وقال دروكايم : انه ليس فطرة .

## ١٨

محاولة الادعاء بأن اليهود منبع الأديان ، ورأس الحضارات والثقافات . والقول بأن بناء الأهرامات واختراع الآلات إنما كان بفضلهم . والتاريخ

يؤكد أنه لا دور لهم في الحضارات إلا دور التخريب وأنهم لم يخلقوا حركة اجتماعية واحدة . ولا قدرة لهم على خلقها . ولكنهم يحتوون أي حركة تنبع ويستغلونها ويحولونها إلى غاياتهم . ويمكن القول بأن الفلسفات الحديثة كلها : ليست إلا تراث الفلسفات الهدامة القديمة . وقد حملوها إلى العصر الحديث. وابتعثوها وفق ترتيب محدد لهدم مقومات الأمم الدينية والخلقية ، وقد وصفوها بالتراث القديم . والتعاليم السرية من كتب البراهمة . والبوذيين . والمصريين . ومما يتصل بالسحر والخرافة والأرواح . والهياكل . والأوثان . وذلك هدف أساسي من أهدافهم . وهو إغراق العالم بأفكار غريبة وآراء شاذة . وكلمات تهدف إلى تدمير الأديان . وإنكار التوحيد والتشكيك في البعث والجزاء . وترضي الرغبات والأهواء في نفوس البسطاء وتحملهم بها إلى غاياتها البعيدة .

## ١٩

يقول هنري فورد في كتابه اليهودي العالمي : الموسيقى الشعبية الرخيصة هي احتكار اليهود ، وليست موسيقى الجاز . إلا احتكاراً يهوديا ، وليست هذه الحركات المثيرة بما فيها من قذارة ، والتي تتسق مع النغمات التي تبعث الغرائز إلا من عمل اليهود . ولعل من الغريب أنك حيث التفت للتحري عن الخيوط المؤذية للنفوس ، التي تسري في المجتمع . تجد جماعة من اليهود خلفها. فوراء الفساد في لعبة الكرة جماعة من اليهود . هم وراء الاستغلال المالي ، ووراء الدعاية للمشروعات الروحية ، والسيطرة على السياسات القومية الحزبية. والسيطرة على الصحافة عن طريق الضغط المالي والتجاري ، وثمانون في المائة من مستغلي الحروب هم من اليهود .

## ٢٠

إن مفهوم التنوير الذي أدخلته المخططات التلمودية إلى الفكر الغربي المسيحي . هو نقله إلى التعبد للرقي المادي « أي الاعتقاد بأن ليس في الحياة

هدف آخر سوى هذه الحياة نفسها » . ويقول محمد أسد (١) : ان هياكل هــذه الديانة هي المصانع العظيمة ، ودور السينما ، والمختبرات الكيماوية ، وإباحات الرقص ، وكهنة هذه الديانة هم : الصيارفة والمهندسون وكواكب السينما . ويتسع هذا المفهوم ، حتى يصل إلى أنه ليس للاعتبارات الخلقية أي أثر مباشر محسوس في الرفاهية المادية . وأن كل الفضائل تتعلق برفاهية المجتمع المادي ، مع إزاحة الحب الأبوي والعفاف لأنها لا تهب المجتمع فائدة مادية محسوسة .

ومن ثم فقد أخذت القيم الوثنية اليونانية تحل محل القيم الدينية والأخلاقية . وتحمل الدعوة إلى حرية فردية للجسد البشري غير مقيدة تقودها قاعدة ( الفكر الحر ) التي تشرف عليها الصهيونية العالمية ، وتقوم على تعاليم التلمود . وقد أشار إلى هذا المعنى « ديستوفسكي » حين قال : اليهودي وحده وماله هما سيد العالم . فاليهودي وماله يسيطران على كل شيء في أوربا : على التعليم ، وعلى الحضارة ، وعلى الاشتراكية .

## ٢١

تجمع المصادر على أن الفكر الصهيوني التلمودي فكر مراوغ . يحاول أن يضع أكاذيبه وأضاليله داخل مناهج علمية براقة ، تخدع البسطاء . ولكنها تتكشف عن زيف كبير حين توضع تحت أضواء الحق ومصادره من القرآن ورسالات السماء .

وخير دليل ونموذج على هذا الاتجاه : مذكرات هرتزل وايزمان . فهي مليئة بأساليب الخداع ، والمغالطة ، والمطامع .

١ — الاسلام على مفترق الطرق .

# المخطَّطاتُ التّلمُودِيّة

تقوم مخططات أيدلوجية التلمود التي تقوم الماسونية بواجهة أساسية في تنفيذها على أهداف واضحة هي :

أولاً : محاربة الأديان بصورة عامة ، وبث روح الإلحاد والاباحة بين الشعوب . تقول المصطلحات : يجب ألا تقتصر الماسونية على شعب دون غيره . ولتحقيق الماسونية العالمية : يجب سحق عدونا الأزلي . الذي هو : الدين : بإزالة رجاله ، إن غايتنا قبل كل شيء هي إبادة الأديان جميعاً . وتطرح الماسونية شعاراً خطيراً : هو أنه لا فرق بين دين ودين ، حتى ولو كان في نظرها باطلا . وتستهدف القضاء على عاطفة الجمعية للدين المعتنق ، والقضاء على اعتزاز كل انسان بدينه ، أو التمسك به . كما ترعى الماسونية أدياناً باطلة : كالمجوسية . والبرهمية ، والزرادشتية .

ثانياً : تدمير القوى البشرية ، ومعنويات الأمم . واستذلالها واستعبادها .

ثالثاً : السيطرة على الشباب من أولي الغايات . تقول المصطلحات : دعوا الكهول والشيوخ جانباً ، وتفرغوا للشباب . بل تفرغوا حتى للأطفال . لا بد من تربية الأطفال بعيداً عن الدين . إن الماسونية تستعين بالفرق والأندية الرياضية ، والجمعيات الموسيقية لاستدامة نفوذها على أوساط الشبيبة . إن حرية الآباء : لا تتفق مع مصالحنا وغاياتنا أبداً . يجب تربية الأطفال وفق

منهاج مقرر . إن الجمعيات الرياضية، والفرق الموسيقية وغيرها من المؤسسات التي تربي الناشئة عقلياً وجسمانياً هي المرتع الخصيب لنمو الماسونية فيها . إن غاية الماسونية هي تطعيم أكبر مجموعة من الكتل البشرية بأفكارها . تقول البروتوكلات : لقد خدعنا شبيبة الخوارج ، وأفسدنا آدابها . وجعلناها شبيهة بالبهائم . وأفقدناها نشاطها ، بما علمناها وألقينا في ذهنها من المبادىء والنظريات الكاذبة ويقول ماكس نوردو : ادعوا إلى تنشئة الجيل الصاعد على الكذب والتمويه ، والمخادعة ، وعلى الأنانية ، وحب المنفعة ، والسعي وراءها بكل الطرق .

رابعاً : اشعال الثورات والفتن والاضطرابات . وإنفاق الأموال الطائلة في سبيل الأغراض الهدامة . وقد اعترف كثير من المصادر اليهودية بأن البناء الحر : أي الماسونية كان لها أعظم الشأن في تدبير الانقلابات والثورات . وخاصة ، الثورة الفرنسية . وثورات البرتغال ، وإيطاليا ، وبلاد البلقان .

خامساً : خلق جيل العلمانيين في العالم لمعالجة القضايا على أساس مادي ، وإبعاد الآثار العقائدية ، والروحية ، والدينية عن مخططات السياسة والاجتماع .

سادساً : التركيز على المذاهب والفلسفات ؛ تقول المخططات ان من أهم العوامل التي ساعدت على انتشار الماسونية طوال القرن الماضي : هي المذاهب الحرة التي تعتبر من نتاج الفكر البشري . إن الأفكار المستقلة التي لا تساير الأفكار الماسونية كانت تتعرض للنقد اللاذع ، والعداء المر ، والأراجيف من قبل الماسونية . والمعروف أن هذه الأفكار المستقلة هي : كل فكر يتصل بالوحي والقيم العليا . التي جاءت بها الأديان .

سابعاً : الاختفاء وراء المسرح السياسي : يقول بنيامن اسرائيل السياسي الانجليزي عام ١٨٤٤ . إن الذين يديرون دفة السياسة في العالم ليسوا هم الذين في دست الحكم ظاهراً . وإنما هم أولئك الذين يكمنون وراء الكواليس —

وقال نابليون الثالث ملك فرنسا عام ١٨٥٩ : يجب ألا نخدع أنفسنا. إن الدنيا تدار من قبل المنظمات السرية . وقال والترتينا الوزير الألماني اليهودي : إن ثلاثمائة رجل من رجال السياسة المتعارفين فيما بينهم ، يديرون الأمور في أوربا ، والآن في العالم كله .

ثامناً : بث الدعاية الخبيثة للمبادىء القاتلة للدين والأخلاق باسم المذاهب السياسية والاجتماعية والاقتصادية بحيث تسود هذه المبادىء على روح الأديان. والدعوة إلى الأدب الشخصي الخالي من الإيمان بالبعث . يقول ( الن ) إن الكتاب الذين يجري في عروقهم دم يهودي . كانوا في طليعة الداعين إلى المذاهب المنافية للدين والأدب والمجتمع . تقول البروتوكلات : انظروا إلى نجاح مذهب داروين ، وماركس ، وجميع المذاهب . هي من صنع دسائسنا . فإنكم لاتجهلون تأثير سموم هذه التعاليم في عقول الخوارج .

تاسعاً : التركيز على المرأة ، والدعوة إلى تحريرها ونزعها من الدين والأسرة ، واجتذابها إلى المراقص والمحافل . تقول المخططات : لسنا بمسيطرين على الخرافات —ويقصدون الأديان— إلا يوم تشاركنا المرأة العمل.المرأة رسول لمبادئنا الحرة تخلصها من نفوذ الكهنوت . إن خطتنا هي دفع الأبناء إلى نبذ السلطة الوالدية ( دريدو ) وإلقاء الكراهية بين الأولاد ووالديهم ( دالمير ) (١) . إن الاعتراف بالجميل ليس واجباً لازماً على البنين اوالديهم . وليست السلطة الأبوية تدوم . والنساء من أقوى العوامل للفوز بنسف الدين ، ونشر الفساد .

وتقول المخططات إن العفة المطلقة مرذولة عند الماسونية . لأنها ضد ميل الطبيعة . ويقول الدكتور أحمد أبو شادي في كتابه عن الماسونية : المرأة لا تستطيع الحياة الكريمة إلا إذا حاربت رجل الدين .

عاشراً : تدمير الأسرة : والدعوة إلى الزواج المدني العقيم . لاستنزاف

---

١ – الاسكوليديا .

قوة الإله . والدعوة إلى الاباحة المطلقة ، وإشاعة الأغلاط في الفرد والمجتمع والأمة ، تقول المخططات : إن الهجوم على رب العائلة هو الأمر الجوهري في استمالة الناس إلى جماعتنا . من الضروري إفراد الرجل عن عائلته وإفساد أخلاقه وترغيبه في المعيشة الحرة . إن الخلاعة باب واسع لسن الزواج المدني ، إن الزنا ليس بمحظور إذا تسامح الرجل بامرأته لغيره — يقول دالمار : إن الماسونية بنشرها أسباب الفساد ، والخلاعة ، قد أضرت بفرنسا أكثر من الحرب السبعينية . وأخسرتها عدداً وافراً من الرجال .

حادي عشر : مهاجمة الدعوات الوطنية والنضال من أجل تحرير الأوطان ، ومهاجمة نظام الجندية . تقول المخططات : الوطن خيال باطل . وكذب محض . إن الوطن هو كل يغتصبنا . أما الرايات الوطنية فهي آية الظالم والاستبداد . فيجب أن تلقى في المزابل .

ثاني عشر : الدعوة إلى التعليم العلماني اللاديني ، الذي يفسد قلوب الشباب ، ويفرض مقومات الرذيلة . تقول المخططات : إن الدعوة إلى أن تكون المدارس علمانية إلزامية . هو إخراج للأبناء من رعاية الآباء . إن تهذيب الأحداث ، هو حجر الزاوية في بنائنا الحر . ينبغي أن ننفي التعليم المسيحي . التعليم لا يهتم بالديانة ، ونفي كل تعليم ديني . المدارس الجديدة تعمل على نشر الفساد والخلاعة واقتلاع العفة من عقول الفتيات .

ثالث عشر : توفير أسباب الفساد : عن طريق الثقافة ، والصحافة ، وذلك بنشر الروايات المباحة ، والصور الخليعة ، والأغاني البذيئة ، ونشر الخرافات .

رابع عشر : جحود الخالق الأعظم . وإطلاق اسم له من غير أسمائه الحسنى التي اختارها سبحانه لنفسه . فجعلوه بمنزل مهندس الكون . كأنه لم يخلق الكائنات من العدم . وإنما هو مهندسها فقط ،ومنظمها . وزادوا على ذلك الاسم ابهاماً بقولهم ( المهندس الأعظم ) كأن الله (جل وعلا عما يقولون علواً

---

١ – نشرة الماسونية عام ١٨٦٦ م . ١٣ ص ٧٥٨ مجلة الشرق .

كبيراً) قد استعان في هندسته هذه بغيره من المهندسين . فكان هو الأعظم بينهم .

الرابع عشر : إحيـاء النحل والوثنيات القديمة . يقول رينان وهو أحد كبار دعاة الماسونية : ليس في العالم عبادة موافقة للعقل السليم ، ولمبادىء العالم كعبادة الشمس . فهي إله كرتنا الأرضية . ويقول أحد فلاسفة الماسونية : إن (أدونيرام) في مذهب الماسونية هو أوزيريس إله المصريين . أو ميترا إله الفرس ، أو باخوس إله الرومان ، أو أحد الآلهة المتعددين الذين كانوا في سالف الزمان . ويقول فرنندمور : كل اعتقاد ديني أساسه ما وراء الطبيعة -كالإله غير المنظور - فهو ضعف في عقل الانسان . ويقول فلاسفة الماسونية : علينا أن نرقى فوق طبقات كل الأديان . نتحرر أيضاً من كل اعتقاد بوجود إله أيا كان . ويقول آخر : لم يوجد أحد يؤمن بالله ، وبخلود النفس غير البله والحمقى . ومن هنا كانت محاولة الماسونية الخطيرة التي نفذتها في التعليم الغربي . وهي نفي اسم الله من كتب التعليم في المدارس المتوسطة (١) .

الخامس عشر : القول بأن المادة انما ترقى من تلقاء نفسها بكرور الدهور . إلى أن يتمخض جمادها . فيلد النبات ، ويتحول النبات إلى حيوان ، وينسل الحيوان إنساناً همجياً ذا عقل ضعيف . والهدف من هذا ، هو إقناع أتباعهم بأنه لا شيء يلزمهم من الفرائض والواجبات ، نحو العمران البشري ، وأنه ليست هناك شرائع وتعاليم مفروضة على جميع البشر (٢) .

السادس عشر : اعلان حرية العقل ضد السلطة الدينية ، واستقلال الإنسان ضد استبداد رجال الدين . واستقلال المدارس الحرة المجردة من تعليم الدين . ويعلنون أن العلم هو الأساس الوحيد لكل معتقد . فهم يرفضون كل عقيدة بنيت على أساس الوحي(٣) ويرون أن من حرية البحث انتقاد عقائد الدين.

---

١ - مجلة الشرق م ١٢ - ٢ - لويس سنحو اليسوعي . م ١٣ المشرق ص ٦٧٨ ، ص ٥٤٣ .

٣ - السر المصون في شيعة الفرمسون .

السابع عشر : تأليه المال أو عبادته ، واستعمال كل الوسائل في سبيل الحصول عليه كالرشوة ، والكذب ، والعنف ، والانتهازية .

الثامن عشر : احتقار كل الشعوب ، وكل الأديان . ووصف الشعوب بالأمية . (يقول التلمود إن الاميين . هم الحمير الذين خلقهم الله ليركبهم شعبه المختار . )

التاسع عشر : إشاعة الأدب المكشوف الاباحي يقول « البروتوكول ١٣ » سننشر بين الشعوب أدباً مريضاً قذراً تغثى له النفوس ، ويساعد على هدم الأسرة ، وتدمير المقومات الأخلاقية للمجتمعات المعادية لنا ، وسنستمر في الترويج لهذا الأدب وتشجيعه . من هذا الأدب المريض القذر تنطلق الدعوة إلى الإباحة المطلقة لهدم الأسرة ، وتدمير الأخلاق في المجتمع .

العشرون : تحطيم المعتقدات الإسلامية والمسيحية ، وسحق القيم الروحية والمعنوية ، وإثارة الشكوك حول المعتقدات ، وطرح فلسفات الشك .

الحادي والعشرون : الدعوة إلى العالمية . وتذويب القوميات والعصبيات الدينية والعنصرية والوطنية . ومن هنا كان تركيزهم على نبذ التعصب القومي والديني ، واعتبار الإنسان مواطناً في العالم كله . وخلق أسباب الصراع بين الدين والقومية ، وإيجاد التناقضات بين الاسلام والعروبة ، وطرح فلسفة الأجناس والعناصر والدماء والأقليات .

الثاني والعشرون : تمجيد الغريزة ، وإعادة نمط الوثنية الاغريقية . والدعوة إلى اطلاق عنان الشهوات البشرية ، والترخيص للرجل والمرأة . أن يفعلا ما يشاءان من التهتك الجنسي ، وعشق الذكور . وتكشف هذه الصفحة موضع كتابات فرويد ، وقصة توماس مان « الموت في البندقية » . تقول البروتوكولات : للتوصل إلى حكم العالم يجب أن نقوم بتكثير النقائص ، والشهوات ، ونشوه الشرائع المصطلح عليها . بحيث يضيع الجميع ويتبلبلون بهذا الخواء .

الثالث والعشرون : السيطرة على الصحافة ، والمسرح ، والعلم ، تقول البروتوكولات : الصحافة والمسرح . والمضاربة . والشريعة . كل ذلك يجب أن يكون تحت تصرف من في قبضتهم كل ذهب الأرض ، وهي أقوى سلاح لإثارة الرأي العام ، وإفساد أخلاق الشبيبة ، ولتهييج عمومي إلى الرذيلة لملاشاة كل ميل إلى التهذيب المسيحي ، لتشييد عبادة المال والمادة والشهوة الكلية للملاذ — يقول البروتوكول : يجب أن تكون الصحافة تافهة كاذبة بعيدة عن الحق ، إنها تعمل للتحريض ، وإثارة المشاعر التي نحن في حاجة إليها من أجل أهدافنا .

الرابع والعشرون : خلق دائرة مغلقة متكاملة من مناهج التفكير والعمل والحياة ، يحول بين البشر ، وبين التخطيط لأنفسهم — تقول المخططات : لقد فقد الخوارج عادة التفكير خارجاً عن آرائنا العلمية. ويقول: وجب علينا أن نقوض أركان كل إيمان . . وننزع من عقل الخوارج الاعتقاد بالله وبالنفس وذلك بشغلهم بقوانين رياضية وضروريات مادية .

الخامس والعشرون : نشر الرذائل والخمر . تقول البروتوكولات : يفقد الخوارج رشدهم بتناولهم المشروبات الكحولية وتسير شبيبتهم إلى الجنون بفرط ما تلقنته من المبادىء المدرسية . وبانهماكها بالرذائل التي تتسرب إليها من عمالنا وموظفينا كالمعلمين والخدم والحاضنات . وبنوع أخص من نسائنا اللواتي يترددن إلى محلات الملاهي عند الخوارج وانني أعني بهؤلاء الأخيرات بنات الهوى اللواتي يتزاحمن على الرذيلة والدعارة .

السادس والعشرون : الغض من قدرة العلماء والمتخصصين في العقائد والأديان — يقول البروتوكول ١٧ : وقد عنينا عناية كبيرة بالحط من كرامة رجال الدين عند الأميين في أعين الناس . وبذلك نجحنا في الإضرار برسالتهم التي يمكن أن تكون عقبة كؤودا في طريقنا. وان نفوذ رجال الدين ليتضاءل يوماً فيوماً .

السابع والعشرون : الدعوة إلى الإلحاد عن طريق حرية العقيدة — يقول

البروتوكول : لقد خدعنا الجيل الناشيء . وجعلناه فاسداً متعفناً بما علمناه من مبادىء ونظريات . يجب أن نحطم كل ايمــان . وتكون النتيجة المألوفة لهذا هي اثمار ملحدين . يجب أن نكتسح كل الأديان والعقائد الأخرى . ويقول : إن لفظ الحرية يجعل المجتمع في صراع مع جميع القوى بل مع قوة الطبيعة ، وقوة الله نفسها .

الثامن والعشرون : الدعوة إلى الانحلال — تقول البروتوكولات : علينا أن نشجع الانحلال في المجتمعات غير اليهودية . فيعم الفساد والكفر ، وتضعف الروابط المنيعة التي تعتبر أهم مقومات الشعوب . فيسهل علينا السيطرة عليها ، وتوجيهها كما نريد .

# الفصل الثاني

# دعوة العنصرية

كانت الدعوة إلى العنصرية على النحو الذي استطارت به في التاريخ الحديث من أبرز الأعمال التي قصد بها إلى تحطيم الوحدة الفكرية التي تقيمها العقائد والأديان ، والعوامل النفسية والروحية التي تجمع بين بني البشر ، ولذلك فقد بدت منذ اليوم الأول لها في صورة استعلاء الدم والعرق ومن ورائه استعلاء الجنس الأبيض على الأجناس الملونة . ثم جرت من خلال ذلك الدعوة إلى إثارة الأساطير التي تحاول أن تفرض تميزاً خاصاً للإسرائيليين ، وتفوقاً خاصاً يحاول أن يشكل دعوة إلى السيطرة العالمية على النحو الذي تكشف عنه بروتوكولات صهيون من عداء للجوييم أو الأميين الذين هم في نظر اليهود ( العالم كله ) .

ولقد كانت مخططات التلمود من وراء دعوة العنصرية في مختلف صورها . وقد أحرز اليهود كل ما كسبته هذه الدعوة من آثار ونتائج. ففضلا عن أن هذه الدعوة قد أيقظت العنصرية الصهيونية التي تحاول أن تستعلي بامتياز خاص على البشرية كلها . فإنها قد أقامت صراعاً لما ينتهي بعد بين الأجناس السامية . والآرية – وبين أجناس أوربا ذاتها . وخلقت قضية كبرى كتب فيها الباحثون عشرات الألوف من الصفحات ، ومئات من الكتب دون أن يصلوا إلى شيء

نهائي. وكانت هذه الدعوة قد بلغت ذروتها فترة ما بين الحربين. حين اعتنقت الدول الجرمانية عقيدة الاستعلاء العنصري ، ونشأت عنها الفلسفة النازية .

ولقد انسلخت من الدعوة العنصرية مذاهب عديدة . منها الدعوة القومية . والنزعة الاقليمية ، والفكرة اللاسامية . وظهرت علوم متخصصة في مقدمتها علم الأجناس البشرية « الأنتروبولوجيا » أو الاثنولوجيا الجديدة . وهو علم تولى السيطرة عليه موجهون يستهدفون منه إبقاء نيران الخصومات والأحقاد بين الأمم وإيقاعها في الحروب والصراع . وقد استغل الاستعمار نتائج هذه الدراسات في دعم مركزه ، وتبرير وجوده في المناطق المحتلة . وفي ضوء هذه الدراسات تكثفت مخططات التفرقة العنصرية ، والتمييز العنصري الذي تحمل لواءه الدول المستعمرة في محاولة التشكيك في وحدة الجنس البشري ، وتعميق التمييز بين الأجناس ، وإقامته على أساس فوارق طبيعية تعطي بعض الأجناس مكان السيادة والسيطرة ، وتعطي أجناساً أخرى مكان التبعية . ولا ريب أن نظرية التفوق العنصري باطلة أصلاً ، وأن جميع الأبحاث والدراسات التي قام بها العلماء المنصفون ، قد زيفت مثل هذه الدعوى وأبطلتها ، وأبانت بأن فوارق الهياكل ، ولون البشرة . وفصائل الدم لا قيمة لها في تركيب الإنسان عقلياً ونفسياً . ومن المعروف أن الاستعمار لم يحقق ما ادعاه من رسالة في ترقية الشعوب، وتمدينها، بل على العكس من ذلك عمد إلى تدمير مقدرات هذه الشعوب ، وأثار فيها البلبلة بطرحه عشرات من النظريات والدعوات المدمرة .

## ٢

ولا ريب أن فكرة التفوق العنصري التي رفعت لواءها الحضارة الغربية في العصر الحديث ، هي فكرة قديمة ظهرت قبل الاسلام ، وحملت لواءها الحضارة اليونانية الرومانية . ثم جاء الإسلام لدحضها ومعارضتها . فقد كانت نظرية التفوق العنصري والسيادة هي أبرز مميزات الحضارة اليونانية

الرومانية . إذ قام المجتمع الاغريقي ، ثم المجتمع الروماني على نظام طبقي : قوامه طبقة الأحرار وهم السادة . وطبقة العبيد الذين يعملون ويكدحون . وقد كانوا ينظرون إلى كل الأجناس المخالفة على أنهم من البرابرة ، ونفس النظرة كانت في مجتمع مصر القديمة ، ومجتمع الفرس . وهي المجتمعات الكبرى الثلاثة التي سبقت الاسلام . ولقد ذكر هيردوت أن الفرس كانوا يرون أنفسهم أسمى مرتبة من بقية البشر . ولقد برر فلاسفة الإغريق هذا النظام العبودي . وأقره أكبر فلاسفتهم : أرسطو وأفلاطون .

أما أرسطو (١) . فقد برر طموح الإغريق لسيادة العالم . فنادى بنظرية أكد فيها أن جماعات معينة تولد حرة بالطبيعة . وأخرى تولد لكي تكون عبيداً.

أما أفلاطون فقد أقام جمهوريته على أساس سيادة السادة ، وعبودية العبيد . ولقد كشفت الأبحاث العلمية ، والدراسات التاريخية . أن واحداً من أبرز عوامل سقوط الامبراطورية الرومانية . إنما يرجع أساساً إلى هذه النزعة العنصرية . فقد بلغ تعداد العبيد أو الرقيق في الامبراطورية الرومانية نحواً من خمسين مليوناً .

ويقول الدكتور ابراهيم علي طرخان : ان الامبراطورية الرومانية عرفت بدولة العبيد الأذلاء بصرف النظر عن الأرقام ، ولا سيما أن من المؤرخين من قدر عدد الأحرار من المواطنين بنحو عشرة آلاف ، أو عشرين ألف مواطن ، وسرى في عرف الرومان . أن المواطن الحر العادي . هو الذي يمتلك بين خمسة وعشرة آلاف عبد. ويقال ان أحد المحررين – أي كان عبداً ثم اعتق – مات زمن الامبراطور اغسطس عن ٤١١٦ عبد ، لذا فان الروماني الذي لم تزد ملكيته للعبيد عن ٢٠٠ عبد كان يعتبر دون المألوف .

ولقد كان لهذا النظام العبودي أثره البالغ في القضاء على الطبقة الوسطى

---

١ – كتاب عن الأجناس . تأليف جون توماس عن ملخص له في مجلة الثقافة .

عماد كل تقدم وتطور . كذلك كان له أثره في إضعاف الدفاع عن الامبراطورية الرومانية خلال الأزمات الكثيرة التي تعرضت لها .

مثال ذلك أنه عندما جاء الاريك القوطي . وهدد إيطاليا في مطلع القرن الخامس الميلادي هرب الرقيق من استبداد سادتهم ، وأقبلوا جماعات على معسكر الأريك . إذ كانوا يتطلعون إلى منقذ من الخارج . وتجمع لدى الأريك نحو ٤٠ ألف عبد خلال فترة قليلة ، وقد أدوا له أعظم الخدمات في تعريفه بالطرق والمسالك ، وإرشاده إلى مواطن الغنيمة ولا سيما في غزوته الأخيرة ، واقتحامه مدينة روما عام ٤١٠ م .

ويقول الدكتور طرخان : أما الطبقة الوسطى . وهي عماد الإدارة ومجالس الولايات . بل عصب الحياة في الامبراطورية الرومانية . فقد كان إضعافها وتدميرها من بين الأسباب الكبرى في سقوط الامبراطورية — ويبدو أثر هذه التجربة التي مرت بها الامبراطورية الرومانية من العبودية والتي مرت بها امبراطوريات الفرس ، والفراعنة ، واضحة وضوحاً قوياً في منهج القرآن ، ودعوة الإسلام إلى محاربة النظام العبودي . ووضع النظام الأمثل للتعايش الكريم بين الأجناس فقد دعا الإسلام إلى القضاء على مفهوم التفرقة العنصرية كلية . وأقام نظاماً لتصفية الرق ، كما دعا إلى الوحدة البشرية بين مختلف الأجناس . وكشف بوضوح عن أن بني الانسان جميعاً من أصل واحد — وأن الفوارق بينهم لا تتصل باللون ، أو العنصر ، أو الوطن ، وإنما تتمثل في التفاضل .

وقد طرح مفهوم الإسلام أمام البشرية اتجاهاً جديداً قضى على مجتمعات العبودية . وفتح الطريق أمام الأخوة الإنسانية ، ورسم أروع صورة لمفاهيمه في مجال التطبيق — غير أن نزعات الأيدلوجية التلمودية القائمة أساساً على العنصرية . والتي حملت لواء الدعوة إلى جنس مميز ، وشعب مختار . لم تلبث أن عاودت دعوتها من جديد بأسلوب جديد . فنفثت في الحضارة الغربية . والفكر الغربي هذه المذاهب من أجل تحقيق غايات بعيدة المدى أهمها :

١ — تركيز النفوذ الاستعماري في العالم ، وهو نظام يقوم على الأسس

الربوية والرأسمالية . وسيادة القروض والمغامرات الاقتصادية .

٢ – إثارة الصراع بين الأجناس، بين آرية وسامية، وبين الألوان. وإيقاع التضارب بينها .

٣ – اعلاء الدعوة العنصرية التي تقوم عليها الصهيونية . وتحاول أن تفرض نفسها بالاستيطان في فلسطين .

ولهذا فقد كانت المخططات التلمودية من وراء هذه المعركة الضخمة التي سيطرت على أوربا ثم انتقلت منها إلى العالم كله تحت أسماء متعددة ؛ منها العنصرية والأجناس والقوميات والأقليات والاقليمية وغيرها .

## ٣

لا ريب أن الأديان السماوية المنزلة قد طرحت مفهوماً أساسياً لوحدة البشرية وللإخاء الإنساني . وهو من الأصول التي حملتها رسالة موسى عليه السلام إلى بني اسرائيل .

غير أن اليهود لم يلبثوا أن غيروا المنهج الأصيل الذي جاءت به التوراة . وتبنوا فكرة الاستعلاء العنصري المتميز باسم الشعب المختار ، وغيروا من أجل إقرار هذه الفكرة أبرز مفاهيم الدين المنزل . فأقاموا عنصرية خاصة لها طابع الاستقلال والتمييز عن المجتمعات العامة . وقد حملت هذه العنصرية فكرة الامتياز والاستعلاء لجنسهم . كما حملت فكرة الاحتقار والانتقاص لبني البشر جميعاً حتى أنهم أطلقوا عليهم اسم « الجوييم » أو الأميين – ثم جاءت تعاليم السيد المسيح . ومن أبرز مفاهيمها تحطيم العنصرية ، والعودة إلى المفهوم الرباني الأصيل القائم على وحدة البشرية ووحدة الدين .

وقد جاءت عنصرية الحضارة اليونانية والرومانية تتجه لمفاهيم التلمود . التي فرضت نفسها على المجتمعات بإقامة عنصرية طاغية . غير أن أوربا

بعد المسيحية لم تلبث أن اعتنقت الدعوة العنصرية ، وذهبت في ذلك إلى أبعد مدى .

ويشير توماس في كتابه عن الأجناس إلى هذه الظاهرة التي تبدو واضحة في العهد القديم فيقول : « في العهد القديم نجد اعتقاداً بأن الاختلافات الجسمانية والعقلية بين الأفراد وبين المجموعات على السواء . هي اختلافات ترجع إلى المولد . وأنها اختلافات موروثة لا تتغير . ويشتمل سفر التكوين على عبارات تفترض وجود هذه الاختلافات ، وانحطاط جماعات معينة بالنسبة لغيرها . مثال ذلك « ملعون كنعان : عبد العبيد يكون لإخوته » هذا إلى جانب أن نوعاً من التفوق . قد تضمنه التأكيد بأن يهوه . قد عقد عقداً مع ابراهيم ونسله » .

ومن هنا نفهم أن نظرية التفوق المنسوب إلى الجنس أو العنصر هي واحدة من النظريات التي ركزت عليها الأيدلوجية التلمودية ، ودفعتها المطامح الاستعمارية ، لتواجه النظرية الأصيلة – نظرية وحدة الجنس البشري – ولقد كانت نظرية السلالات البيضاء وتفوقها التي وقع باسمها الاستعمار على السلالات الملونة محاولة خداعة لتبرير حقوق جديدة في الغزو والسيطرة والسيادة يخصون بها الجنس الأبيض .

ومن هذا أن الحضارة الغربية المرتبطة بالاستعمار . قد اتخذت نفس الأسلوب الذي سبقت به الحضارة اليونانية الرومانية ، واتجه كتابها وساستها إلى تبرير العبودية والرق على أساس نظرية أرسطو . ولا يمنع هذا من القول بأن عدداً من المفكرين قد كشفوا عن فساد هذه النظريات . ودافعوا عن وحدة البشرية ، وتساوي شعوب العالم في الموروثات الطبيعية . غير أن رجال الفكر التلمودي كانوا من وراء معارضة فكرة تساوي الأجناس . ومناهضة وحدة الجنس البشري كلما كشف زيف هذه النظريات . وكذلك . فقد كانوا حريصين على أن يؤججوا هذه الحرب كلما خمدت . ويثيروا هذه الدعوة من جديد . وقد استطاع هؤلاء الباحثون المنصفون من أمثال دي لاس كازاس وجوان

كومتش القول بأنه ليس ثمة أساس علمي على الاطلاق لتصنيف الأجناس تصنيفاً قائماً على أساس الرقي النسبي . وأن التمييز الجنسي وخرافاته وأساطيره ليست إلا وسائل لإيجاد كبش فداء حين تتهدد الأخطار مركز بعض الأفراد . أو تماسك بعض الجماعات (١) وجملة القول ان اليهود والإغريق هما أول دعاة العنصرية — فاليهود يعتبرون أنفسهم شعباً مختاراً . والإغريق كانوا يقولون : روما سادة وما حولها عبيد . وقد جرت الحضارة الغربية على هذه المفاهيم .

## ٤

استخدمت العنصرية في مجال الاستعمار استعمالاً خطيراً . فقد حيل بها بين العرب والمسلمين أولا باسم الأجناس ، ثم بين العرب وبعضهم باسم الاقليمية والوطنية .

ولا ريب أن هذه الهزة التي أحدثتها موجة السلالات والدماء قد أشاعت الاضطراب في العلاقة بين العروبة والإسلام — فقد طرحت نظرية العنصرية في العالم الإسلامي من أجل : فك الرابطة وحل العروة — وكان لأساليب التعليم — وللأنظمة السياسية أثرها في إعلاء الاقليمية ، والقومية الضيقة . فقد وضعت الوطنية المجردة ، والإقليمية الضيقة في مواجهة الوحدة ، فكانت عاملا هاماً في تمزيق الحزام الرابط .

وقد برزت في خلال ذلك دعوات عنصرية وإقليمية متعددة . منها الفينيقية في لبنان ، والأشورية والكلدانية في العراق ، والفرعونية في مصر . والبربرية في المغرب ، والزنجية في افريقيا . غير أن الدعوة العنصرية في العالم الاسلامي ، لم تستطع أن تحقق تقدما كبيراً . ذلك لأنها كانت تواجه مفهوم الإسلام في الأخوة الإنسانية ، ووحدة الجنس البشري .

---

١ – خرافات عن الأجناس ( جوان كوماس )

ومفهوم العنصرية في مجال العالم الإسلامي . هو العودة التاريخية إلى ما قبل الاسلام ، ونحن نعرف أثر الدعوة العنصرية في تمزيق الدولة العثمانية .

ويقول أرنولد توينبي : ان انطفاء جذوة النزعات العنصرية بين المسلمين تعد ظاهرة من أعظم المنجزات الأخلاقية في الإسلام . وفي العالم المعاصر تبدو الحاجة صارخة إلى نشر هذه الفضيلة الإسلامية ، ومع أن التاريخ يظهر عموماً أن الشعور بالعنصرية لم يكن قاعدة عامة . بل حالة شاذة في طبيعة العلاقات المتبادلة بين الأجناس البشرية المختلفة ، فإن من سيئات الحالة الحاضرة . أن يكون هذا الشعور بارزاً بشدة لدى الشعوب القوية التي استطاعت أن تقتطع لنفسها، ولو مؤقتاً على الأقل، حصة الأسد من ميراث الأرض خلال التنافس الذي قام بين الدول الغربية في القرون الأربعة الأخيرة .

إن دعاة التعصب العنصري في تزايد . وإذا قدر لحركتهم هذه أن تطغى ، فإن ذلك سيؤدي إلى وقوع كارثة عامة ، والمعقول أن تكون روح الإسلام هي ملك القوة المدخرة التي تقرر مصير تلك المشكلة لصالح التسامح والسلام .

## ٥

جاء الاسلام محدداً قاطعاً في أمر البشرية . فأكد وحدة الجنس البشري ، وحرم التفاخر بالنسب . وأكد هذا المعنى رسول الإسلام ( محمد صلى الله عليه وسلم ) في عبارة قاطعة : إن الله قد أذهب عنكم نخوة الجاهلية ، وفخرها بالآباء — كلكم لآدم ، وآدم من تراب . ليس لعربي على عجمي فضل إلا بالتقوى . ولقد قامت الأمة الاسلامية ، على نظام بديل لنظام القبيلة ، فقد أعلى رابطة الفكر والعقيدة والوحدة القرآنية الجامعة . وقام المجتمع الإسلامي على عناصر مختلفة . الفارسي ، والرومي ، والحبشي ، والعربي « أمة واحدة من دون الناس » وكشف الرسول عن العروة الوثقى الجامعة ، ليست العربية لأحدكم بأب . أو أم . إنما العربية اللسان . فأيما مسلم تكلم العربية فهو عربي . وقد نفى الإسلام العنصرية نفياً صريحاً ، وأقر كفاية العربي للأعجمي . لم

يدع نسبة علم أو فضل . إلى مصادره في الأنساب ، بل جعلها مرتبطة بوحدة الفكر . ولم يعرف الإسلام ما يتردد الآن من قول ، بأن الفارابي تركي . والغزالي فارسي ، فذلك مما لا يقره مفهوم الإسلام لوحدة الأجناس وللرابطة الإسلامية الجامعة ، التي ألغت فوارق الدماء والعروق ، وتشكلت منذ اليوم الأول على مفاهيم الإسلام نفسه ، ومن خلال أيداوجيته الصريحة . فالمؤمنون إخوة ، ومن خرج عن الإيمان فهو ليس من أهلك .

وقد تصاهر المسلمون في الأقطار المفتوحة ، واختلطوا بأهلها ، وامتزجوا بهم امتزاجاً كلياً . فتشكلت وحدة تامة .

وقد أكد القرآن وحدة الإنسانية . وأكد أنه لا تفاضل بين الناس إلا بالتقوى والعمل ، والإسلام لا يعرف أي تفرقة بين الناس بسبب أجناسهم وألوانهم وأنسابهم . وإذا كان هذا موقف الإسلام من العنصرية ، فما هي النتائج التاريخية لمفهوم الإسلام ؟

يقول الاستاذ عبد الحميد العبادي (١) لا ريب أن تقارب الأجناس الإسلامية وتداخلها بالزواج المختلط . أو التوليد ، واختلاط العناصر العربية بالفارسيات ، والروميات ، والصقليات ، والصينيات ، والهنديات، قد نشأ عنه جيل جديد من المولدين ، يحوي عن طريق الوراثة خصائص الأجناس المختلفة التي ولدته من جسمية وعقلية . وأصبحت الدولة الإسلامية . وكأنها وطن لأمة واحدة ، لا لشعوب مختلفة ، تدين بدين واحد ، وتتكلم لغة واحدة .

ولا ريب أن هذا الاتحاد هو السر في تلك النهضة العلمية التي شملت كل نواحي التفكير الإنساني من فقه وحديث ، ولغة وأدب ، وفلسفة وطب ، ورياضيات وتاريخ وجغرافيا . وهي إحدى النهضات العلمية الكبرى المعدودة في تاريخ الحضارة على الإطلاق . وإنما صارت الحضارة والعلوم الإسلامية

---

١ – الاسلام والمشكلة العنصرية .

إلى هذا المستوى الرفيع بتلك الوحدة التي شملت الشعوب الإسلامية، وإخلاص العناصر غير العربية للدين الاسلامي واللغة العربية ، ولا سيما بالنسبة للعقائد التي كانوا ينتحلونها من قبل من صابئة ومجوسية وهندية وغير ذلك ، كما بهرتهم الثانية بغزارة مادتها ، وروعة أدبها ، وأنها قبل كل شيء ، لغة القرآن الكريم ، والسنة المطهرة . وقد جرهم في النهاية هذا الإعجاب بالدين الإسلامي واللغة العربية إلى الاعجاب بالعرب أنفسهم ، فهم الذين حملوا إليهم هذين المصدرين لأعظم مادة تغذي قلوبهم وأذهانهم ، فتغيرت الحال عما كانت عليه من قبل ، فلم يعد الأمر أمر سياسة عنصرية ضيقة متحزبة للعرب على غير العرب ، ولا كراهية من الموالي لنفوذ العرب السياسي ، بل لقد جر هذا الإعجاب كثيراً من الموالي والأعاجم إلى انتحال النسب العربي تشرفاً به وتعظيماً . بل إن بعض الشعوب غير العربية . أخذت تمد أصولها إلى العرب كما قيل في البربر . إذ نسبوهم إلى قيس عيلان .

## ٦

ولقد وجدت نظرية العنصرية من يكشف عن زيفها ، ويدفع خطأها ، وينبه إلى أهدافها الهدامة. وإلى من وراءها من قوى وغايات بعيدة المدى. فقد تأكد أنه لا يمكن القول بأنه توجد سلالات بشرية نقية . وثبت أن سكان أوربا متعددو الأصول ، لدرجة أن محاولة تصنيفهم مستحيلة استحالة تامة .

وأكد العلماء أن الحاجز « الوهمي » بين الرجل الأبيض ، والرجل غير الأبيض لا يستند إلى أساس علمي . كما ثبت خطأ دراسة الظواهر الاجتماعية عن طريق أحجام الرؤوس والجماجم والألوان وفصائل الدم ، وشكل الشعر .

وتبين (١) أن القول بأن اختلاط الأجناس يهدد الإنسانية بالتقهقر

١ – راجع دكتور يسري عبد الرزاق الجوهري . في كتابه السلالات البشرية .

والتدهور — وهي الدعوى التي يدعيها أصحاب الاستعلاء العنصري — لا تستند إلى أقل دليل علمي ، فإن عملية الاختلاط بين الأجناس عملية مستمرة منذ بداية الحياة البشرية على سطح الكرة الأرضية ، وعمليات الهجرة قديمة قدم السلالة البشرية . ولا ريب أن الهجرة تعمل على اختلاط الجماعات اختلاطاً طبيعياً . ذلك أن (١) التزاوج والاختلاط والانتشار عوامل ساهمت في تحطيم العزلة بين الأجناس ، وإيجاد جماعات مولدة . أو جماعات وسطى تحمل صفات سلالتين أو أكثر . وقد أعلن الباحثون المنصفون ، أن فكرة النقاء الجنسي التي تحدث عنها بعض العنصريين الأوربيين في أعقاب الحرب العالمية الثانية أصبح قبولها أمراً صعباً . لأن الاختلاط والزواج لم يمكن من وجود جماعة تحمل دماء نقية غير مختلطة . واتضح أن عدم المساواة فيما للأجناس المختلفة من حقوق لا يمكن أن يرجع إلى لون البشرة كما أكد الباحثون . ان الفروق العقلية والنفسية ، ما هي إلا نتيجة لظروف بيئية ، وقد تأتي نتيجة أن أفراد جماعة من الجماعات ، قد سنحت لها فرصة التعلم عن طريق الاحتكاك الحضاري أو استغلال المواد الطبيعية. وقد تبين أخيراً أن فكرة الأجناس تقوم على أهواء وعواطف دعاة التميز والاستعلاء الفردي . ولقد ذهب دعاة العنصرية مذاهب شتى في محاولة التفريق بين المستوى العقلي للأجناس .

غير أن التجارب التي اجريت على طلبة المدارس بالولايات المتحدة أثبتت أن المستوى العقلي لتلاميذ زنوج الولايات المتحدة ، يفوق مستوى نظائرهم في الولايات الجنوبية . وقد تأكد أن المسألة ليست مسألة جنس ، بل مسألة بيئة وفرص مختلفة ومستوى ثقافي . وقـد تأكد خطأ القول بأن الوراثة البيولوجية هي الفاصل الوحيد المهم ، بل هناك الوراثة العقلية ، ولا ريب أن الفاشلين في الحياة هم من العناصر المنحطة في كل شعب وجنس . كما كشفت

---

١ — الدكتور يسري عبد الرزاق الجوهري .

الأبحاث عن أنه ليس هناك ثمة ارتباط بين حضارة معينة ، والتكوين الجنسي لسلالة من السلالات . وأنه ليس هناك ارتباط بين ما يسمى بالسلالة الآرية ، أو الجنس النوردي وبين الحضارات الغربية . كما تأكد كذب الدعوى التي تقول بأن الجرمان هم صانعو الحضارة .

فالحضارات القديمة التي ازدهرت في حوض البحر المتوسط في حوالي الألف الثالثة قبل الميلاد ، تمت في بلاد تميز سكانها بالاختلاط . لا بالنقاء الجنسي . وذلك بالإضافة إلى أن الشعوب تختلف في تطورها الحضاري باختلاف السلالة والدماء ، وأن الحضارة في الوقت الحاضر ليست قاصرة على المجموعة البيضاء . فقد دخلتها اليابان والصين . وكل هذا يؤكد أمرين :

الأول : أنه ليس هناك صلاحية لجنس ما للقيام بأنواع معينة من الأعمال والحرف .

الثاني : أن جميع الأجناس بل جميع الأفراد في إمكانهم القيام بنفس العمل إذا سنحت لهم فرص متكافئة . في التعليم والمران (١)

---

هناك دعوى ترددها الصهيونية العالمية عن نقاوة السلالة اليهودية وعزلتها بما يؤدي إلى القول بأن الجنس اليهودي يمثل جنساً متميزاً عن بقية السلالات .

والواقع التاريخي . والدراسات الأنثرولوجية ، تؤكد أن اليهود لم يستقروا في أي مكان على نحو يمكنهم من أن يكونوا أمة . فضلا عن أنهم في القديم تزاوجوا واختلطوا بجيرانهم من الشعوب التي تسكن آسيا الغربية ، مثل الكنعانيين . والعرب ، والحبشيين . وهناك أعداد كبيرة تعيش في مناطق متفرقة من آسيا ، وفي منطقة القوقاز . وسوريا ، والعراق ، واليمن ، وسمرقند ، وبخارى ، وإيران ، وان هذه المجموعات قد اختلطت بغيرها .

يقول العلامة سالمان : إن نقاوة السلالة اليهودية ، ما هي إلا أوهام . فإن أكثر التغيرات والاختلافات بين السلالات توجد بين اليهود .

ويقول فيشبرج : ان مزاعم اليهود وادعاءاتهم عن نقاوة سلالتهم عبث مجرد عن كل أساس . واليهود الذين هاجروا من موطنهم الأصلي . كانوا عبارة عن خليط من السلالات . وتتفاوت درجة الاختلاط حسب تاريخ الهجرة . وفي أوربا اختلط اليهود بالمسيحية اختلاطاً كبيراً . لفت نظر

---

١ – اعتمدنا في هذا الفصل على نصوص من كتابات . جوان كوماس « خرافات عن الأجناس » ، يسري عبد الرزاق « السلالات البشرية » ، محمد السيد بدوي « التطور » .

الكنيسة بشدة ، فصدرت قوانين متعددة ، وعلى فترات متوالية . تحرم على المسيحيين الأرثوذكس التزاوج من اليهود .

وهناك قوانين ثيودوسيس الثاني الصادرة في القرن السادس الميلادي ، وقوانين مجلس أورليان ٥٣٨ ميلادية . والقوانين الكنسية التي أصدرتها سلطات الكنيسة في توليدوا (طليطلة) عام ٥٨٧ وقوانين روما ٧٤٢ ميلادية .

ولا ريب أن توالي صدور هذه القوانين وتعددها . يؤكد كثرة الزواج بين المسيحية واليهود . ولقد عمد اليهود إلى الدخول في الأديان الأخرى . والتستر خلفها ، رغبة في العمل على تدميرها من الداخل وتحقيق غايات أخرى . ويؤكد تصنيف اليهود في العالم أن أكبر نسبة من اليهود في العالم هم يهود بالديانة فقط . وأن هناك يهود من سلالات يهودية مختلطة من عدة عناصر آسيوية . وأوربية . أما بقايا سلالة المهاجرين القدماء ، فهم نسبة قليلة جداً . وأبرز ما تكون جماعات اليهود الآن هي مجموعات الخزر (١) التي اعتنقت اليهودية عام ٧٤٠ ميلادية ، وهي ليست يهودية بالجنس . وإنما دخلت اليهودية على أثر اعتناق ملك الخزر بولان لها ، والأعداد الكبيرة لليهود في بولندا وجنوب روسيا تنتمي إلى سلالة الخزر هذه .

---

١ – راجع مادة خزر . في دوائر المعارف . وما كتبه يسري عبد الرزاق في كتابه السلالات البشرية .

# الفصل الثالث

## المادّيّة

لم تقتصر النظرية المادية على أن تكون فرضاً من فروض العلم قابلا للخطأ مع توالي البحث وانكشاف حقائق أخرى أمام العلماء في المعامل على النحو الذي حدث من بعد . ولكن النظرية لم تلبث أن نقلت إلى مجال الدراسات الفلسفية والاجتماعية ، على أنها حقيقة ثابتة . وأقيمت على ظنيتها أبنية وقواعد ونظم استهدفت معارضة القيم الأساسية للأمم والمجتمعات، هذه القيم النابعة من جوهر الأديان ، وحقائق الوحي ، والتي تتفق مع الفطرة والعقل . ومن ثم طرح على البشرية منهج معارض كل المعارضة لطبائع الأشياء ، وظواهر الكون ، ولكل الحقائق والمعطيات التي كسبتها الانسانية في بحثها الطويل عن الله ، وعن حقائق الكون ، ونظم الحياة .

كانت الأديان المنزلة قد أمدت الإنسان بحقيقة الكون والوجود ، هذه الحقائق التي لم تكن البشرية لتستطيع أن تصل إليها عن طريق العقل والبحث مهما جاهدت في سبيل ذلك . لأنها تتصل بعوالم الغيب الخفية عن طريق التجربة والحس ، والتي يعجز العقل وحده عن البحث عنها . غير أن الإنسان بطبيعته المتطلعة إلى البحث وراء المادة ، وجرياً وراء مطامعه وأهوائه واعتماداً على العقل ، أراد أن يستكشف هذا الطريق الخطر ، دون أن يحصل

على الأدوات التي تعينه على مشاق البحث، فلم يستطع أن يصل إلى الحقيقة، وقصر به البحث إلى « فرضية » تقول ان هذا الكون مادي ، لا صانع له ، وأنه وجد صدفة ، وأنه قديم بدون بدء . وأنه ممتد بدون نهاية ، وأن الموت هو نهاية كل حي — هذا هو النتاج الذي أمكن أن يصل إليه العقل البشري في رحلته للكشف عن الحقيقة ، حين رفض العون من معطيات الأديان والوحي ورسالات السماء . ومن هنا جاءت النتائج معارضة تمام المعارضة للحقائق الكلية، منكرة لوجود الخالق ، وقاصرة عن فهم حقيقة الحياة ، وغاية الوجود، ومهمة الإنسان في هذا الكون — ولقد أمضى الإنسان من عمر البشرية ردحاً طويلاً في هذا البحث . دون أن يهتدي إلى شيء تقر به نفسه وتستريح له فطرته ، وكانت أخطر مراحل البحث تلك التي وقعت قبل رسالة المسيح وبعدها فيما أطلق عليه مفاهيم الهلينية الغربية ، والغنوصية الشرقية .

اعتمدت الأولى على العقل وحده — واعتمدت الأخرى على الوجدان وحده ، وتلاقتا على نتائج مضطربة غاية الاضطراب بين شك ، وثنائية ، وتثليث على النحو الذي سجله تاريخ الفلسفة القديمة . ولا ريب أن هذا هو جوهر الخلاف بين الناس وبين الأديان التي أنزلت لتقدم للبشرية مقدمة من الحقائق ما تعجز عن الوصول إليه بقدراتها الخاصة، وكاشفة عن وظائف المعطيات التي أعطيت للإنسان من قلب ، وسمع ، وبصر ، وموجهة عملها .

ولما كانت قضية الخلق ، والكون مما تعجز هذه القوى المحدودة القدرة ذات الوظيفة الخاصة عن كشفها . فان الوحي ممثلا في الكتب المنزلة على الرسل والأنبياء ، قد تكفل بإظهار هذه الحقائق وتقديمها للإنسان حتى لا يشغل بها قواه المحدودة عن وظيفتها الحقيقية ، وهي الكشف عن كنوز الأرض ، والبحار ، والجبال ، في سبيل دفع الحياة إلى طريقها من العمران ، وترقيتها وتقدمها ، وبناء الحضارة على المنهج الأصيل ، الجامع بين العلم والايمان .

ولقد برز مذهب المادية في العصر الهليني (١) . ووجد من يدعو إليه ،

١ — يعزى نشوء أول مذهب فلسفي مادي إلى ديمقريطس — ٣٧٠ قبل الميلا د .

ويدافع عنه . وقد كان العصر الهليني سابقاً لرسالة السيد المسيح ، وقد ظهر في بيئة لم تكن ديانتها إلا مجموعة من الأساطير والشعائر والطقوس .

يقول إميل بوترو في كتابه العلم والدين : نشأت الفلسفة اليونانية نفسها من الدين ، ولكنها ما ان استقلت عنه — حتى راحت تحاربه ، وتسخر منه . وتذهب إلى أن البشر هم الذين خلقوا الآلهة ، وكان الدين عندهم يؤمن بالضرورة العمياء ، فجاءت الفلسفة فآمنت بالعقل البشري ، وحل العقل محل الآلهة . وقد ذهب اليونان في الإعلاء من شأن العقل حداً بالغ الخطر والأثر ، حتى قالوا بسلطان العقل ، وتقديس العقل . وفي مجال هذا الاتجاه ظهرت مذاهب الإباحة ، ومفاهيم الحس ، وانكار البعث بعد الموت والدينونة . واندفعوا وراء الترف والشهوات والرذيلة . وقالوا إن العالم كله من عمل الصدفة ، وان اللذة هي الغاية من الحياة . وقال عميدهم سقراط : إن العقل هو سبيل المعرفة . وليس الحس ، ومن أخطائهم قولهم بأن المادة أزلية ، وأن الكون غير متناه .

ولقد جاء الإسلام فكشف عن وجه الحق في هذه القضية . وحدد القرآن مسائل ما بعد الطبيعة تحديداً خاصاً ، وأغنى المسلم عن البحث فيها . ودعاه إلى التفكر في خلق الله من الكون ، واقامه دون البحث في ذات الله ، التي ليس من اليسير الوصول إلى حقيقتها ، وهو ما أسماه العلماء « البحث في الخصائص دون البحث عن الماهية » . وقد أمد الإسلام المسلمين بصورة كاملة عن عالم الغيب كله ، وعن الله سبحانه وتعالى ، واليوم الآخر ، والجنة ، والنار ، ويوم القيامة والحساب والجزاء . وحدد هذه المعالم تحديداً كاملا . وقرر في نفس الوقت قصور العقل الإنساني عن التوصل إلى شيء في هذا المجال ، ونهى أشد النهي عن تجاوز هذه المعالم .

ولقد استطاع المسلمون ، وقد أتاح لهم الإسلام بهذه العقيدة فرصة العمل في المجال العملي ، أن ينشئوا المنهج العلمي التجريبي ، وأن يجعلوه نبراساً للمنطلق

الذي سنه الله لهم من العمل على الانشاء والعمران والتقدم ، وليس هناك اليوم ريب في هذه الحقيقة . حقيقة ما قدمه المسلمون إلى العلم والحضارة فقد شهد لهم كثير من غيرهم ، في مقدمتهم العلامة بريفولت في كتابه « بناء الإنسانية » فضلا عما أورده جوستاف لوبون في كتابه « حضارة العرب » وما أوردته الدكتورة سجريه هونكه في كتابها « شمس الله تشرق على الغرب » .

## ٢

وفي العصر الحديث . انتقلت حركة العلم والحضارة إلى الغرب نتيجة للاصول التي أقامها المسلمون غير أن الاتجاه لم يلبث أن انحرف عن غايته ، فلم تلبث أن استغلت مرة أخرى النزعة العقلية واستفاقت مرة أخرى النظرية المادية ، ولكنها كانت هذه المرة أشد بأساً ، وأبعد أثراً في الفكر البشري كله . ذلك أن انتقال معطيات العلم والمنهج التجريبي إلى الغرب ( وهو المنهج الذي صاغته مفاهيم الحضارة الاسلامية مدفوعة بدعوة القرآن نفسه إلى النظر في السموات والأرض فهو ثمرة الدين . )

هذا الانتقال واجه بيئة مختلفة في الغرب ، لم تكن لتتقبله في يسر ، أو تمضي لتنميته في هوادة . ومن هنا نشأ ذلك النزاع التاريخي المعروف بين العلم والدين ، واستمر طويلا . وكانت غلبة العلم مؤذنة باعلان الخصومة للدين والقطيعة له ، ومواجهته بفلسفات وأيدلوجيات لتحل محله . وتزيحه عن مكانه في النفوس والعقول . لقد قصرت مفاهيم الدين في الغرب عن معطيات العلم فأحدث هذا التقصير تلك الشقة التي دعت أمثال ديكارت إلى القول ان ميدانالعلم غير ميدان الدين . وانه لا مطابقة بين العلم والدين ، ولا سلطان لأحد منهم على الآخر .

غير أن العلم لم يقف عند هذا الحد . فقد أخذ يتقدم تقدماً كبيراً . وحقق من النتائج ما جعله يتنكر تنكراً تاماً لكل ما سوى العقل والمحسوس والمشاهد . وبذلك أنكر العلم عالم الغيب والروح إنكاراً تاماً ، وحاربه حرباً

عنيفة . ومن ثم استعلت نظرية المادية استعلاء شديداً وكان هذا الاستعلاء نتيجة أمرين :

أولا : نتيجة توقف رجال العلم عند ظواهر الأشياء .

ثانياً : تحول نظرية دارون من مجال النظريات الطبيعية إلى مجال الفلسفة الاجتماعية . فقد كان العلم في أذهان واضعيه الأوائل ، يراد به تفسير الوجود . وكان العلماء في أول عهدهم بالعلم يهتمون بمعرفة : لماذا . ولكنهم أخذوا يتخلون عن هذا الاهتمام . بعد أن تبين لهم عبث هذه المحاولات وعقم نتائجها ، ومن هنا لم يعد العلم يفسر الاشياء ويعللها ، وإنما هو يربط وينسق ويلاحظ ويصف ويقرر .

ثم لم يلبث العلم أن اكتشف خطأ نظرته المادية التي جاءت نتيجة تصوره عن اكتناه المجهول ومعرفة ما وراء الطبيعة . وسقط أكبر حجر في بناء المادية عندما اكتشفت نظرية النسبية التي قالت ان المادة تتحول إلى طاقة ، والطاقة تتحول إلى مادة .

يقول العلامة : نجايمس تجينر في كتابه العالم من حولنا : كان حجر الزاوية في بناء علم الطبيعيات في القرن التاسع عشر . هو بقاء المادة . وخلودها من جهة ، وبقاء الطاقة من جهة أخرى . وقد بطل هذا الرأي بطلاناً تاماً ، وأقيم مقامه ناموس آخر . هو بقاء ذاتية واحدة ، هي المادة والطاقة ، بطل أن يكون كل من المادة والطاقة على حدة خالدة البقاء ، أو متغيرة . بل هما متغيران معاً من حال إلى حال ، لأنهما شيء واحد ، المادة تصير شكلا من أشكال الطاقة . وبذلك تكون النظرية المادية من وجهة نظر العلم . قد سقطت ، فقد تبين أن هناك قوة أخرى مجهولة وراء المادة ، لها أثرها الواضح . وبذلك أصبح عالم الغيب داخلا في نطاق العلم . غير أن ما وصل إليه العلم في مجال التجريب كان شيئاً مختلفاً عما سعت إليه الفلسفة المادية ، وقطعت إليه مراحل كثيرة .

ذلك ان هربرت سبنسر ، وعدداً من الفلاسفة اتخذوا من نظرية دارون وسيلة إلى إعلاء شأن المادية ، وقطع الصلة مع كل ما يسمى : الروح ، الغيب ، ما وراء

المادة ، الوحي ، البصيرة. وكانت كبرى نتائج المادية ، إنكار الخالق والبعث، والنظر إلى الانسان من حيث إنه كائن تنطبق عليه تجارب الحيوان .

وكان هذا الفصل بين المادة والروح في الإنسان والحياة . هو نقطة الضعف ، ومنطلق الخطر ، وقمة الأزمة التي عرفتها الحضارة المعاصرة . وقد غلب منهج المادية على كل أبحاث النفس والأخلاق والاجتماع. وفي هذا المعنى يقول العلامة جود : إن العلوم الطبيعية قد منحتنا القوة الجديرة بالآلهة ، ولكنا نستعملها بعقل الأطفال .

## ٣

صور العلامة الدكتور كارل في كتابه « تحديد الانسان » هذه الأزمة الخطيرة حين قال : فرقت الحضارة منذ اليوم الأول بين المادة والروح . واعتمدت على المادة حين فرق جاليلو بين خواص الأجسام الأولية . كالأبعاد والوزن ، وهما مما يسهل قياسه، والخواص الثانوية كاللون والرائحة. وهما مما لا يقاس . لقد فرق جاليلو بين الكم والنوع ، وعني بالأول وحده ، ثم حصر أتباع جاليلو همهم في الكم ، وأهملوا النوع . وكان من شأن حماستهم في سبيل الوزن والقياس . أن حولت الانسان إلى عوالم الطبيعة والرياضة والكيمياء . هذا التفكير يجب إصلاحه ليتمكن العالم من إنقاذ الحضارة ، لأن في الإنسان شيئا أكبر من الطبيعة والكيمياء ونواميسها . وكانت أخطاء ديكارت : الأشياء المادية ، وبعد كتاباته ، فصلت الأشياء الروحية ، فأصبحت مظاهر العقل بعد هذا التفريق مما لا يمكن حصْرُهُ . وبدا بناء الجسم وطريقة قيامه بوظائفه المختلفة في نظرهم أشد ثبوتاً من الفكرة والنشوة والحزن والجمال . وهذا الخطأ هو الذي حول الحضارة إلى الطريق التي أفضت إلى انتصار العلم ، وانحطاط الانسان .

ذلك ان تقدم العلم في كل ما له صلة بالغذاء والرياضة ، قد تم على حساب النمو العقلي وهذا هو مصدر الأزمة .

## ٤

إن أخطر تحول في النظرية المادية هو ذلك المفهوم الذي وجهتها إليه الفلسفة، ونقلتها به من مفهوم العلم إلى مفهوم الاجتماع . وهو الاتجاه الذي قصد به ضرب القيم الروحية والنفسية والدينية ومحاولة بناء نظام اجتماعي كامل على أساس المادة .

وقد حاولت النظرية المادية . السيطرة على كل مفاهيم الفكر والحياة والمجتمع والثقافة في محاولة للقضاء على كل مقررات الأديان . وخلع الإنسان من كل مقررات التوحيد والأخلاق .

ومن الواضح أن الأيدلوجية التلمودية كانت من وراء النظرية ، تغذيها وتدفعها . وتتخذ من واقع الدين في الغرب وسيلتها إلى معارضته . ولكن المنطلق نفسه كان قسرياً . ولم يكن طبيعياً ، وكان متعارضاً مع الفطرة والعقل وكل المقررات التي يفكر بها الانسان . وكان أشبه بإخراج الانسان من جلده ووجدانه — فقد حسب دعاة المادية أنه من اليسر إخراج الإنسان — أي إنسان — من نطاق التدين والايمان بالله . وبالرغم مما أكده العلم التجريبي من محدودية العقل ، ومن عجز العلم عن معرفة جوهر الأشياء ، فإن دعاة المادية كانوا يجددون دعوتهم ، ويحاولون إدخال وسائل أخرى ، لإخفاء زيفهم ، وإبراز دعواهم في صور علمية براقة .

## ٥

تمثل النظرية المادية طابع الفكر الغربي المعاصر . وهو « الانشطارية » . فهي تعتقد بوجود عنصر واحد ، هو قوام هذا العالم ، وهو المادة . ولا وجود لعنصر غيرها (١) . بينما يقف الفكر الاسلامي موقف التكامل ، ويقترب من

١ — من بحث للدكتور أحمد حسن الرحيم عن الفلسفة المادية ( الأقلام )

جوهر الحياة ، وحقيقة الإنسان حين يجمع بين الروح والمادة . ولا ريب أن الاعتماد على المادة وحدها في بناء منهج فكر ، ومنهج حياة ، ومنهج معرفة . من شأنه أن يواجه أخطاراً ومزالق ومحاذير كثيرة لا سبيل إلى التغلب عليها إلا بالتعليلات المضطربة ، والتأويلات الملتوية التي لا يقبلها العقل ، ولا تستريح لها الفطرة . ومن ذلك أن الماديين يذهبون إلى اعتبار الروح مادية ، والعقل مادي . والنفس مادية وهكذا .

وتقف النظرية المادية موقفاً عصبياً من تعليل الخلق ، ونظام الكون على نحو لا يقنع ولا يرضي ولا يشفي غلة . وتنكر الفلسفة المادية غائية الكون . أي أنه خلق لغاية مقصودة ، وتنكر بدايته ونهايته ، كما تنكر النشأة الأخيرة والجزاء . ومن هذا المنطلق ظهرت فلسفات النفس والأخلاق والاجتماع ، التي غايرت مفاهيم الغائية البشرية ومسؤولية الإنسان في هذا الكون ، وما يتقبل بالبعث والجزاء في الآخرة . ومن المقطوع به أن أخطر مقررات المادية . هو تفسيرها النشاط الإنساني كله على أنه نابع من الجسد ، وأنه لا مجال للجوانب الخلقية والروحية ، ومن هذا ينظر إلى مقررات المجتمع والدين والأخلاق على أنها مسائل نسبية متغيرة . وأخطر ما في هذا المفهوم : هو معاملة الانسان معاملة المادة الجامدة ، أو تطبيق تجارب الحيوان عليه . ومصدر هذا هو افتراض أن الإنسان مادة . وأن النفس مادة . وفي هذا الاتجاه تحاول الفلسفة المادية ، أن تسخر من كل القيم ، والمثل العليا . إذ الحقيقة الوحيدة عندها هي الحقيقة المادية ، والنوازع الأساسية عندها هي نوازع الجسد .

ومن هنا فإن النظرية المادية إنما تستهدف أساساً — وقد ضربها العلم ضربات قاتلة ، وكشف عن زيفها — أن تحطم القيم التي قدمتها الأديان للأمم والبشرية . وخاصة في مجال العقائد والأخلاق فهي داعية الىالتحرر الكامل من كل قيد ، وإسقاط كل تكليف ، وضرب الحدود التي وضعتها الأديان للبشرية . حتى تستطيع أن تؤمن مسيرتها . وخاصة الإباحة في أمور الجنس والغرائز ، والتحرر

من المسؤولية الفردية ، والالتزام الأخلاقي كمنطلق إلى اللذات والشهوات العاجلة بدعوى أن الموت هو نهاية الأحياء . وهذه هي الخلقية التي أقامتها الأيدلوجية التلمودية لتدمير البشرية ، وتحطيم معنويات الإنسان ، وعلى أساسها نشأت كل مذاهب الإلحاد والإباحة .

# العقل: مكانته ومهمّته

إن للعقل في الاسلام مفهوماً قد يختلف عن مفهومه في الفلسفات المختلفة ، وأبرز مميزات هذا المفهوم أن العقل ليس مقدساً ، وليس له طابع الاستعلاء ، أو التفرد ، أو السيطرة على الفكر الانساني كله . وإنما هو عامل هام من عوامل المعرفة . ولكن هناك معه ، وتسبقه وتلحقه عوامل أخرى ، منها الوحي ، ويعمل معه عامل القلب .

ولا ريب أن العقل والإيمان معاً هما صمام الأمن في المعرفة الانسانية . وقد وصفهما الباحثون بأنهما عينان يبصر بهما الانسان سبيل الهدى . فإذا طمست عدسة الإيمان ، كان معها الحيرة . وإذا طمست العدستان كان بذلك العمى (١) . فالمذاهب التي اعتمدت على العقل وحده كانت حائرة ، ولم تزل . والمذاهب التي أنكرت العقل والإيمان ، جاءت غاية في الظلام ( كالوجودية ، والفرويدية ، والهيبية ) . وهما سبيلان لا ينفصلان ، يهدي أحدهما إلى الحياة وأمورها ، ويهدي الأخرى إلى ما بعد الحياة وما وراءها . فإذا وقفت المعرفة عند الحياة وحدها كانت ناقصة مبتورة . لأنها لم تستكمل حلقة الاستمرار ، ولم تتم بها التجربة فصولا . وكأنما أخذت التجربة ، وغيبت النتيجة والعبرة . وهذا هو النقص الذي يؤدي إلى الحيرة والقلق والتمزق ، والعلم وإن كان من شأن العقل . إلا أن الايمان هو الذي دفع إليه ، وهو أيضا الذي يقوده في الطريق حتى لا يكون شراً على البشرية ووبالاً .

---

١ – مجلة العربي – نوفمبر سنة ١٩٦٨ .

ولقد حرص الاسلام على أن يجعل العقل في مكانه الطبيعي . وفي حدود وظيفته ، وعمل على تحريره من كل سلطان إلا سلطان الله ، فدعا إلى تحريره من الوثنية والمفاهيم الزائفة ، كما حرره من الخضوع للقوى الخفية والشعوذة والسحر .

وقد أكد القرآن في مجموعه أن طبيعة تكوين العقل مرتبطة بجهة الانسان في الأرض في سبيل التقدم ، والقدرة على إدراك قوانين المادة وتسخيرها . وليس من مهمته الكشف عن أسرار التكوين الإنساني ، ومن هنا كان عجزه عن ذلك بعد هذه المحاولات الطويلة . ذلك أن سر الكون والحياة ، وسر الموت هو من الغيب الذي استأثر الله سبحانه به والذي قدم للبشرية فيه بياناً شافياً كافياً عن طريق الوحي . ولما كان سر الروح الإنساني بعيداً عن مجال الإدراك عن طريق العقل . فقد شفى القرآن النفس البشرية في مطمحها وتطلعها إلى الفهم . فقدم لها منهجاً كاملاً . أما العقل فلم يكن من وظيفته الأساسية ، أن يخرض في هذا العباب ومن هنا كان عجز البشرية حتى الآن عن أن تضع لها منهج حياة أو أيدلوجية نظام وشريعة وقوانين صالحة للعمل ، أو محققة لمطامح الإنسان . ومن ذلك أيضاً عجزها عن وضع التفسير الكامل للكون .

يقول الاستاذ يوسف العش (١) : إن العقل من خلق الله فهو يخضع له . فلا يشترك معه في الألوهية . وقد أودعه في الإنسان . لا ليعبده من دون الله ، بل ليعرف الكون ويكتشف ما يلزمه منه . ويهتدي به في الظلمات التي ليس للدين أن يكشفها له . فللعقل أن يجول فيها ويتأمل ويدرك ، ويستخرج ما يهدي إليه .

أما الأمور التي بينها الله في قرآنه وبسطها . فعليه أن يسلم بها . ولا يشتط فيدعي أنها غير صحيحة ، فهو من خلق الله . وهو واسطة لا غاية ، وهو آلة تنكسر على ما يتعدى ميدانها . ولا تستطيع أن تتحدى ما يقوله الله . والعقل ليس إلهاً لا يخطىء . وإنما هو نور مصباح يكشف في الظلمات . ولكنه ينكشف

---

١ — في بحث مستفيض عن الحضارة الإسلامية .

أمام نور الله . وهذا التحديد إيقاف للصراع . فالعقل لا يستطيع أن يكشف سر الخلق والكون . وأن يضع مبادىء المعرفة . بل الله يفعل ذلك — والعلماء المسلمون يرون أنه ما دام نور العقل أضأل من نور الله ، فلماذا لا يتخذ نور الله كاشفاً في ميدان الفلسفة . يسير نور العقل وراءه — والعقل الإسلامي يتفق في نتائجه وطريقه مع الأخلاق فهو الذي يدل على الخير ويهدي اليه .

أما المكر والخديعة والدهاء المؤدية إلى السوء . فليست من صنع العقل . وإنما هي من صنع النفس الأمارة بالسوء . ولو رجع الإنسان إلى عقله رجوعاً سليماً لأباها . وليس العقل البشري نداً للوحي ، ولكنه مهتد بالوحي . وهو جهاز يتلقى الوحي ويفسره ، وليس له قدرة على معارضة الوحي ، أو تقديم تفسير آخر . والعقل الاسلامي نور محرر من الشعوذة والسحر ، والقوى الخفية ، والخضوع لغير الله .

ويقول الاستاذ حسن البنا : ان قصارى ما يصل إليه — أي العقل — هو معرفة بعض المزايا والخصائص والصفات . أما الحقائق المجردة والماهيات البسيطة فلم تقع في دائرة إدراكه بعد . والذي يقوله الراسخون في العلم . انها لن تقع في إدراكه ، وانه كلما حاول بحكم طبيعته الوصول إليها والحصول عليها أفلتت منه وتركت بين يديه بعض خصائصها وصفاتها .

والعقل الإنساني لم يدرك بعد شيئاً من حقائق العناصر المبسطة . وكلما أوغل في الجري وراء حقيقتها ، انقلبت أمامه إلى مركبات تضاعف جهله بها ، وبعد أن يكون أمام عنصر واحد، يجد في البحث عن حقيقته يصبح أمام عنصرين أو أكثر عليه أن يبحث عن حقائقها من جديد . وقل مثل ذلك في ماهية القوى الكونية التي تبدو في الحياة واضحة كل الوضوح بآثارها، مجهولة كل الجهالة بحقيقتها كالكهرباء والمغناطيسية والأثير والجاذبية إلى غير ذلك من الأسماء والألفاظ والفروض والمصطلحات التي اخترعها الفكر الإنساني. والعقلاء جميعاً متفقون على أن قصور العقل عن إدراك كنه حقيقة من الحقائق أو جهله بها ليس معناه عدمها، أو خفاؤها. فهي واضحة كل الوضوح بآثارها وخصائصها،

خفية كل الخفاء بأسرارها، ودقائق ماهيتها. ان الفطرة الإنسانية السليمة تهتف بالإنسان دائماً وأبداً أن يتعرف إلى الله . وكل مظاهر هذا الكون وموجوداته بما فيها نفس الإنسان لا توجد أمام الفكر الإنساني أي مجال لإنكار «وجود الله وعظمة الله. والدلالة الواضحة على الله ». وان القلب الإنساني إذا صفا وأشرق تذوق حقيقة لذة الإيمان بالله .

وقد سئل أحد العارفين عن الأدلة التي أقنعته بالإيمان بالله ، فابتسم وقال : أغنى الصباح عن المصباح حتى احتاج النهار إلى دليل .

فقصور العقل الإنساني عن إدراك حقيقة ذات الخالق وصفاته وقصور الحواس الإنسانية الكليلة عن الوصول إلى شيء من ذلك ، ليس معناه الجحود والإنكار . وكما سلم العقل الإنساني ، والحس الإنساني بما لم يدركه من هذه القوى المحيطة به. فإن لزاماً عليه أن يسلم برب هذه القوى، ويسلم وجهه إليه « وَأُمِرْنا لِنُسْلِمَ لِرَبِّ العالَمِين » (١) .

## ٢

ومن جملة ما ذكره العلماء والباحثون : أن العقل لا يستطيع أن يحكم على شيء حتى يَحْصُرَهُ في اثنين: الزمان — والمكان — فيقول: متى وأين ، فما لم ينحصر بينهما لم يكن للعقل عليه سلطان، فالعقل لا يستطيع أن يحكم على الله ولا على صفاته . ولا على قضائه وقدره . وكل عمله فيها فهم «نصوص الوحي» الذي جاء من خارج العقل . والعقل محدود لا يستطيع أن يتصور غير المحدود ، ولا يحكم على غير المتناهي . والعقل لا يتصور الخلود ، والله عز وجل غير محدود . فالعقل لا يستطيع أن يحكم عليه .

والعقل يختل ميزانه إن حاول الحكم على غير المحدود ، ويقع في التناقض المستحيل . والعقل لا يستطيع أن يحكم ، ولا يصح حكمه إلا في الأمور المادية ،

---

١ — الشهاب يناير ١٩٤٨

أما ما وراء المادة أي عالم الغيب ( الميتافيزيقيا ) فلا حكم للعقل عليه (١) .

ولقد صدق علماؤنا القدامى . حين فهموا العقل حق الفهم . فقالوا : إن في ابن آدم عقلاً وشهوة ، وان العقل هو مناط التكاليف الشرعية . والعقل جوهر مضيء خلقه الله في الدماغ ، وجعل نوره في القلب ، يعرف الحق من الباطل . والخير من الشر ، والحسن من القبيح (٢) .

## ٣

قال جاكوتي : إن العقل غير المعان لا بد أن يقود الإنسان إلى الإلحاد ، وذلك لأنه بطبيعته الخاصة . لا يستطيع أن يعالج سوى الأشياء ذات الحدود ؛ وأجزاء الأشياء . وهو يضع هذه الأجزاء معاً ، لتكشف ما بينها من روابط ، ولكنه يعجز عن الحصول على مادة الحقيقة الخام . إن الله الذي يمكن اثباته بالمنطق ، لا يمكن أن يكون الله . لأن الحصول عليه بالمعرفة عن طريق العقل يتضمن معنى سيطرة العقل ، والخالق الأعظم لا يمكن أن يسيطر عليه ، أو يحتويه عقل . إن الحقيقة فيما وراء الطبيعة ليس سبيلها الفكرة المنطقية . بل سبيلها الإيمان .

ويقول الأستاذ عبد الهادي أبو ريدة : العقل قاصر عن إدراك الماهيات . وفي هذا المجال تكون أداة المعرفة ، هي الحس والروح . والقلب في القرآن أداة الفهم والنظر والوظيفة الأساسية للقلب هي المعرفة .

## ٤

ومن هنا فان تقديس العقل واعتباره السبيل الوحيد في المعرفة والأسلوب الوحيد في البحث ليس منهجاً إسلامياً أصيلا — وقد ثبت في منهج البحث الحديث أن العقل البشري لا يستطيع أن يرى الحقائق الخارجة رؤية صحيحة

---

١ — راجع المقصود الأسنى للغزالي .

٢ — كشاف مصطلحات الفنون .

تامة . فهو محدود وله مجال معين لا يستطيع أن يتعداه مثله كمثل البصر، يقدر أن يرى . ولكنه لا يرى كل شيء . فالبصر يرى ، ولكنه لا يتجاوز حدود قدرته البصرية . ولا يستطيع العقل أن يأخذ مكان السيادة في المعرفة . إلا في المناهج المادية وحدها التي تنكر الوحي . ومن العسير أن يتحقق ما يريده الماديون من إخضاع الدين للعقل . فالدين وحي سماوي . والعقل أداة لرؤية محدودة .

وقد جرى هذا في أوربا من أجل معارضة العقيدة والمعرفة اللتين قدمتهما الكنيسة . ولا ريب أن ما نراه من هذا الاضطراب الفكري العاصف الذي يجتاح البشرية . وهذا الصراع بين المذاهب دون القدرة على وضعها في إطار ضابط ، أو مرجع له سلطان ، إنما يعود إلى هذه النظرية التي طرحتها المخططات التلمودية في القول بحكم العقل وحده ، وطلب سيادته على أحداث الحياة واتجاهاتها .

# الإسلام والنظرية المادية

## ١

إن موقف الإسلام من النظرية المادية واضح صريح . فالاسلام منهج متكامل ، يقوم على جناحي المادة والروح . ومنهجه في المعرفة ، يقوم على أساس ترابط العقل والقلب ، والإسلام يقوم على أساس إيمان راسخ بالخالق الذي خلق الإنسان والكون من العدم . والذي تدل على وجوده صنعته . والذي خلق عالم الغيب ، وعالم الشهادة . وأعطى الإنسان الوحي والعقل : الوحي الذي أبان عن عالم الغيب . وكفى الإنسان مؤونة النظر فيه . والعقل الذي فتح للإنسان آفاق النظر في معطيات الحياة .

ولقد وصفت المادة بأنها عمياء . فكيف يتاح لها أن تتكون في هذا الكون البديع ، وتتشكل في هذا الوجود الضخم على تنوع كائناته ، وتباين موجوداته بغير صانع ؟

إن مفهوم الإسلام للمادة أنها ليست قديمة ولا باقية . خلقها الله وهي تبقى إلى أجل مسمى عنده . ولا يقر الإسلام نظرية الصدفة ، ولا نظرية الضرورة ، ولا نظرية الوجود بغير غاية . والعلم الذي حاول اكتناه سر الحياة ، قد عجز عن أن يحقق شيئاً . واكتفى بمهمة متواضعة هي : البحث عن الظواهر — ظواهر الأشياء — ونظريات العلم هي فرضيات معرضة للتحوير

والتغيير . وما من نظرية قال بها العلم إلا وقد أصابها تعديل . فليس في قدرة العلم أن يقول الحقيقة . لأنه بوسائله المحدودة يعجز عنها .

وقد صدق العلامة اجست سبانيه في كتابه فلسفة الدين حين قال : إن ما عرفه العلماء من العلم هو جزء محدود . وهو ليس إلا عدماً بالنسبة لما يجهلونه .

ويقول كاميل فلامريون . لقد عجز العلماء عن حل مسألة استمرار الوجود ودوامه ، ولذلك فهم مقرون بضرورة وجود الخالق . وبتأثيره الدائم المستمر ليمكنهم تفسير تعاقب الكائنات ، وإدراك سر أصول الأشياء .

والواقع أن الإلحاد لا ينسب إلى العلم أو العقل ، ولكنه ينسب إلى النفوس المريضة . وقد ارتبط ظهور الإلحاد ، وشاع نطاقه مع الاضطراب النفسي والأخلاقي . ولقد استشرت نظرية المادية في القرنين الثامن عشر ، والتاسع عشر. ثم جاء العلم فحطم غرورها وزيفها . وكشف عن أن هناك جوانب « غيبية » تدل على أن هناك عالماً آخر . واعترف علماء المجاهر والمعامل صراحة بوجود الله الخالق في عشرات من الأبحاث ، بل مئاتها . غير أن الفلسفة المادية هي التي تحاول اليوم أن تحمل لواء المادية وليس العلم ؛ والفلسفة المادية مناقضة للدين ، معترضة عليه .

والإلحاد كما عرفه العلامة محمد فريد وجدي « هو عصيان بداهة العقل ». وبداهة العقل تشعرنا بوجود قوة عليا . هي مصدر كل كمال ، وكل قوة في الأرض والسماء . وقد جاءت نزعة الالحاد من الجحود . والجحود هو إنكار الشيء مع العلم به (١) . ولا ريب أن الشك هو نقص في المعرفة أساساً . وهو تردد في تقبل الحقائق ، والإلحاد وليد الغرور بنوع من العلم ، يظن صاحبه أنه قد أحاط بكل شيء علماً « فَلَمَّا جَاءَتْهُمْ رُسُلُهُمْ بِالبَيِّنَاتِ فَرِحُوا بِمَا عِنْدَهُمْ مِنَ العِلْمِ » .

ولقد كان أصحاب الدعوات الهدامة في كل عصر وبيئة وزمان يتخذون

---

١ — كشاف مصطلح الفنون .

من الإلحاد والتشكيك والارتياب سلاحاً في مواجهة الضعف والغفلة والقصور والفراغ النفسي الذي يحيط بالأمم حين تنصرف عن قيمها وأصول فكرها ، عندئذ تستطيع هذه المفاهيم الضارة أن تنفذ إلى النفوس ، وتجد لها مجالا تعشش فيه .

يقول جيمس خيتر ، بعد دراسة علمية استمرت خمسين عاماً : إن مشاكل العلم الكبرى لا يحلها إلا وجود الله . ويقول : ان أوربا قد نبذت اليوم إلهها وآمنت بإله جديد هو العلم . ولكن العلم كائن متقلب . فهو ينفي اليوم ما أثبته بالأمس ، ويثبت غداً ما نفاه اليوم . لذلك تجد عباده في قلق دائم لا يستقرون .

## ٢

والاسلام يرى أن العلم سلاح من أسلحة المعرفة . ولكنه ليس السلاح الوحيد . ومن هنا يجيء خطأ القائلين بأن العلم هو الوسيلة الوحيدة للمعرفة . وأن ما عداه ليس شيئاً .

كذلك يقرر الاسلام أن العلم لا بد له من إطار : هو الخلُقُ . وأن العلم إذا لم تحده أخلاقيات ومثل يغدو وبالاً على البشرية . ومن هنا فإن العلم المادي لا يمكن أن يكون منهجاً للإنسان يحل محل الدين . ولكنه جزء . والدين كل . والجزء لا يحتوي الكل .

وهنا لا بد من ضرورة التفريق بين العلم وفلسفة العلم . بين الحقائق العلمية المقدرة بالأنابيق في المعامل . وبين النظريات المنسوجة في أسلوب علمي باسم الفلسفة . فالأولى حقائق عامة للبشرية كلها — أما الأخرى فهي نظريات خاصة من نتاج عقول . وفي ظل تحديات عصورها وبيئاتها . وأمر آخر ، أهم من هذا كله هو أن المادة نفسها التي كان يرتكز عليها القانون الطبيعي . والتي استعلت في غرور . فصنعت المذهب المادي قد حطمها اليوم العلم نفسه . لم تعد العينة الصلبة من المادة هي أساس الطبيعة . لقد كشف لهم العلم الحديث عن جانب خطير من القانون الطبيعي . وعلمهم أن أساس الطبيعة هو الحركة . وليست

المادة . الذرات بأشكالها المتناهية في الصغر تتحرك فتضفي الشكل المادي للأشياء . وهذه الذرات هي الأخرى تتشكل وفق حركة معجزة في كيانها الداخلي وهو إيماء عجيب للانسان المعاصر بزيف هذه الثنائية التي قسمت خلق الله إلى قسمين . وأقامت بينهما جداراً من التباعد والصمت (١) .

وهذا المعنى فسره العلامة موريسون : رئيس أكاديمية العلوم حين قال : إن تحطيم ذرة التون التي كانت تعد أصغر قالب في بناء الكون إلى مجموعة نجوم مكونة من جرم مذنب والكترونات طائرة ، قد فتح مجالاً لتبديل فكرتنا في الكون والحقيقة ، تبديلا جوهرياً . ولم يعد التناسق الميت للذرات الجامدة يربط تصورنا بما هو مادي . وان المعارف الجديدة التي كشف عنها العلم ، تثبت بشكل أكيد وجود « مدبر جبار » . وراء ظواهر الطبيعة .

« إن وجود الخالق تدل عليه تنظيمات لا نهاية لها ، تكون الحياة بدونها مستحيلة . إن وجود الإنسان على ظهر الأرض ،والمظاهر الفاخرة لذكائه . إنما هي جزء من برنامج ينفذه بارىء الكون . ويقول العلامة واين اولت: إن الإيمان بالله يعد لازماً لاكتمال وجود الانسان،وتمام فلسفة في الحياة — أما النظريات التي ترمي إلى تفسير الكون تفسيراً آلياً فإنها تعجز عن تفسير كيف بدأ الكون . ثم ترجع ما حدث من الظواهر التالية للنشأة الأولى إلى محض المصادفة . فالمصادفة هنا فكرة يستعاض بها عن فكرة وجود الله ، بقصد إكمال الصورة ، ولكن فكرة وجود الله أقرب إلى العقل والمنطق ، من فكرة الصدفة ولا شك . بل إن هذا النظام البديع الذي يسود الكون ، يدل دلالة حتمية على وجود إله منظم ، وليس على وجود مصادفة عمياء تخبط خبط عشواء » ا.ه

ولا ريب أن هذه الحقائق العلمية تظاهر مفهوم الإسلام ، وتطابقه ، وتقضي بأن البشرية تسير في طريق معرفة الله عن طريق العلم.

---

١ – من بحث للدكتور عماد الدين خليل .

# ٣

هناك حقائق أساسية في فهم العلم والإنسان :

أولا : إن العلم قد اتخذ طريقه الصحيح حينما بحث في ميدان المادة ، ولكنه قد ضل الطريق حينما بحث في ميدان الاجتماع والنفس . ولذلك فإن ما يتصل بالمادة هو وحده الذي يطلق عليه اسم العلم ،أما ما يتصل بميدان الاجتماع والنفس فهو فلسفة. ومصدر الخطأ: هو ان المادة تستطيع أن تخضع للمقاييس والموازين المادية العلمية . أما النفس الإنسانية ، فإنها تخضع لمقاييس أخرى . فالإنسان ليس مادة وليس حيواناً .

ثانياً : ليس كل ما ينسب إلى العلم ينتمي إليه — ولا كل ما ينتمي إلى العلم مفروغ من ثباته، فكما أن في العلم الحقائق التي لا شك فيها ، فإن فيه أيضاً القضايا المفتقرة إلى الإثبات . إن هناك فرضاً باطلاً مسلماً به ضمناً، وهو أن العلم الحديث يبنى على البرهان الحسي . فما يقال باسمه لا بد أن يكون قد ثبت وقام عليه لدى العلم البرهان . فهم يتقبلون كل ما ينسب إلى العلم . لأنهم يسلمون بقيام البرهان عليه . كذلك فإن العلم شيء ، وتطبيقه من غير خلل أو خطأ شيء آخر .

ثالثاً : إن العلم قد عجز عن فهم حقيقة قائمة موازية له هي الفطرة — فالفطرة في الإنسان حقيقة ثابتة ، لا تستطيع أي قوة أن تغير مجراها ، وهي مستقلة عن الزمان . وقد قرر الله سبحانه وتعالى أن لا تبديل لسنن الله في الخلق ، ولا تحويل لـ « فطرة الله » التي فطر الناس عليها « لا تبديل لخلق الله ». ولقد عجزت الحضارة عن أن تفهم الفطرة ، وغفلت عنها ، ومن هناك كان اضطرابها ونقصها . فإذا تطاول العلم إلى بحث ما قررته الفطرة كان ذلك هو مصدر خطئه وفشله ؛ ذلك أنه لا سبيل إلى إخضاع الانسان للتجربة والاختبار عن طريق العلم (١) .

---

١ — الحقائق الثلاث . عن الدكتور محمد أحمد الغمراوي .

# الفصل الرّابع

## العِلْمانيَّة

ظهرت الدعوة إلى العلمانية في الغرب نتيجة للاتجاه الذي حملت لواءه حركة التنوير الأوربية في الفصل بين سلطة الكنيسة وسلطة الحكومة ، أو إقامة أنظمة سياسية جديدة غير خاضعة لسلطة الكنيسة .

فالعلمانيةفي جوهرها : إنما تمثل القضاء على نظام قائم في الغرب ابان دعوتها . حيث كانت الكنيسة تباشر السلطة السياسية ، وتفرض نفوذها على الحكومات والدول .

والمعروف أن الدعوة نمت في أوربا قبيل الثورة الفرنسية في مجال التحرر من سلطان الدين والكنيسة . وإقامة منهج جديد . أساسه الدولة الحديثة . من شأنه أن ينقل الولاء من الكنيسة إلى الدولة . وقد ارجعوا الفكرة في المسيحية الغربية إلى نظرة أساسية مستمدة من أقوال السيد المسيح « دعْ ما لقيصر لقيصر . وما لله لله . ليست مملكتي في هذا العالم » والتمسوا مفهوماً يقوم على أساس أن المسيحية إنما جاءت بوصايا في مجال الأخلاق . وأن المسيحية حين عبرت إلى أوربا ، وجدت نظاماً سياسياً قائماً هو الامبراطورية الرومانية بقوانينها ودولتها المشكّلة فعلا ، والتي تطبع مجتمعها بطابع له صورته المكتملة .

أما الاسلام فإنه يختلف عن ذلك اختلافاً كبيراً ؛ ذلك أنه إنما يمثل عناصر ثلاثة

متكاملة هي : ( العقيدة ، والشريعة ، والأخلاق ) . وأنه قد شكل مجتمعه منذ اللبنة الأولى على ذلك النمط المتكامل . وأن رسوله كان نبياً وفي نفس الوقت هو رئيس الدولة وقائدها وقاضيها .

ومن هنا . فإن مجال المقارنة مختلف ، فضلا عن أن مجال التطبيق للنظام الغربي القائم على العلمانية والفصل بين الدين والدولة جد مختلف ومتباين . ونحن إذا ألقينا نظرة إلى تاريخ أوربا ، وجدنا أنه بالرغم من أن المسيحية جاءت بمبدأ جديد لم يكن معروفاً في الأزمنة القديمة ، وهو فصل الدين عن الدولة . فإن هذا المبدأ لم يطبق في الحقيقة . ذلك أنه بعد أن اتسع نطاق المسيحية في الغرب — لم تلبث أن أصبح لها نفوذها على الدول والحكومات — يقول الدكتور عبد الحميد متولي : لم يكن أمر فصل السلطة هيناً ميسوراً . فقد ظلت الامبراطوريتان الرومانيتان « الشرقية والغربية » زمناً طويلا تقاومان انهيار سلطان الدولة الديني وذلك خشية انتقاص نفوذهما وسلطانهما، بل إن كثيراً من البابوات . عملوا على الجمع بين السلطتين الدينية والسياسية (١) .

وكانت الأباطرة في الدولة الرومانية يتولون العرش الامبراطوري بعد إجراء طقوس دينية يقوم بها الرهبان ، ويجري فيها البابا تتويج الامبراطور .

ويقول : ومن هنا كان اتجاه الملوك والأباطرة إلى التخلص من سلطان رجال الدين ، وذلك بالمناداة بنظرية ( التفويض الإلهي ) إلى المناداة بأنهم انما يستمدون ملكهم وسلطانهم من الله مباشرة ، وليس من البابوات .

ثم جاءت الثورة الفرنسية ، وعملت على نقل هذا التفويض من الحق الإلهي للملوك ، إلى الحق الإلهي للشعوب (٢) .

والمعروف أن هذه الأنظمة لم يعرفها الاسلام ، ولم يتأثر بها . ذلك أن

---

١ — هذا ما أطلق عليه ( الدولة الثيوقراطية ) التي عرفها الغرب . ولم يعرفها الإسلام .

٢ — نقل مع التصرف من كتاب أزمة الفكر الاسلامي للدكتور عبد الحميد متولي .

الإسلام قام منذ اليوم الأول على مبدأ الجمع بين الدين والدولة . دون التفريق بينهما .

ولا ريب ان أثر التكامل في الإسلام والانشطارية في الغرب . كانت له نتائجه البعيدة في المجتمع والتاريخ في كل منهما . والمعروف أن الإسلام ليس فيه نظام خاص يتولاه رجال الدين . بل إنه لا يقر هذا المصطلح . وليس في الاسلام وساطة بين الله والخلق . ولذلك فإن استغلال الدين في تاريخ الإسلام ، لم يكن معروفاً على هذه الصورة التي عرفتها أوربا . إذ ينكر الإسلام كل ما يطلق عليه الحق الإلهي ، أو التفويض الإلهي .

## ٢

يكشف تاريخ أوربا في العصر الحديث عن حقيقة تاريخية ، ترد إليها أمور كثيرة من وقائع هذا التاريخ : تلك هي محاولة اليهود الملحة لإسقاط الحواجز التي فرضتها الكنيسة . والدول المسيحية الحاكمة في أوربا . وإلغاء القيود التي كانت تتعلق بالزواج والملبس والعبادات . والتي حالت وقتا طويلا بين اليهود وبين حق المواطنة في المجتمعات الأوربية .

ومن أجل هذا عمدت المنظمات الماسونية إلى التحضير لعملية كبرى تستهدف إسقاط الحكومات المسيحية الغربية التي تسيطر عليها الكنيسة ، وإنشاء حكومات أخرى متحررة من هذه القيود . وقد كانت الثورة الفرنسية أولى الخطوات في هذا السبيل . وقد تلتها ثورات متعددة في مختلف الأقطار الأوروبية ، استطاعت أن تحقق الفصل بين الدين والدولة ، باعتباره أول الركائز التي تحول بين نفوذ الكنيسة وبين الحكم . ومن ثم جاء تحويل التعليم الغربي كله إلى تعليم علماني ، وعزله عن نفوذ الكنائس التي كانت تتولى أمور التربية والتعليم . وقد تحقق نتيجة لهذا إسقاط كل القيود التي فرضتها الكنيسة على اليهود ، والتي حالت دون التماسهم حق المواطنة — وقد كان هذا هو مفهوم عصر التنوير ، أو حملة التنوير التي هي على حد قول الفيلسوف كانْت « الافراج عن الإنسان

من الوصاية الدينية » ومن هنا ركز عصر التنوير على فصل الدين عن الدولة ، وإقامة حكومات في كل أنحاء أوربا بعد الثورة الفرنسية ، وهكذا تداخل اليهود في المجتمع الأوربي بعد أن انقطعوا عنه . ولقد كان أول قرار لأول حكومة علمانية في أوربا، وهي الجمعية الوطنية الفرنسية في ١٧-٩-١٧٧١، وقد اعتبر اليهود المقيمين في فرنسا مواطنين لهم كل حقوق المواطن وعليهم جميع واجباته (١) .

فالعلمانية هي السيف المصلت الذي حطم به اليهود القيد الذي يفصلهم في كل مجتمع . ويحول بينهم وبين السيطرة التلمودية . ويبدو هذا المعنى واضحاً من وراء صفحات كثيرة من التاريخ الاسلامي العربي المعاصر ، وخاصة فيما يتعلق بأنظمة الدولة العثمانية ، والدول العربية الحديثة .

إن الفصل بين الدين والدولة في الفكر الغربي المسيحي مفهوم لا غرابة فيه ، ومنه أمكن إقامة « العلمانية » التي كانت أكبر ركيزة في تأكيد النفوذ التلمودي في المجتمع الغربي .

يقول الدكتور الفاروقي : علينا أن نتذكر أن تحرر اليهود لم يأت إلا نتيجة لنمو العلمانية في التنظيم السياسي و الاجتماعي ،أي إن اقصاء الدين عن السياسة والاقتصاد والاجتماع أدى إلى اعتبار المنفعة العامة والإنتاج والخبرة والأهلية كأساس لجميع المعاملات والتنظيمات . ومن هنا جاء قبول اليهود على أساس كفاءتهم الشخصية .

ويقول : إن العلمانية نظرية تنبعث من الخبرة المسيحية ، لا من الخبرة اليهودية . إن المسيح الأوربي قد قسم حياته إلى دوائر ، وجعل بينها سدودا تمنع أي اتصال . وتجري الحياة في كل هذه الدوائر بموجب قوانين خاصة . لا علاقة البتة للدائرة الواحدة ، بما يجري في الدوائر الأخرى .

فالعائلة والأخلاق الشخصية ، والدين ، والاقتصاد ، والسياسة ،

---

١ – راجع ( الملل المعاصرة في الدين اليهودي ) للدكتور الفاروقي .

والاجتماع . كل منها يؤلف ملكوتاً مستقلاً . فالويل كل الويل ، إذا سمح الغربي لمبادىء الدين أن تتعدى حدودها للتأثير في الاقتصاد .

والواقع ان العلمانية ليست سوى الاعتراف بأنه ليس هناك مبدأ عام يشمل حياة الناس بأكملها ، كما هو الحال في النظرة الدينية . فأصبح لكل من دوائر الحياة مبدأه الخاص . ا هـ

ولا ريب أن هذا الفهم الاوربي يختلف اختلافاً واضحاً عن الفهم الإسلامي الجامع المتكامل الذي يضع الحياة كلها في إطار موحد . ولا يقر الفصل بين القيم أو المفاهيم بل يراها متلاقية متكاملة يؤثر كل منها في الآخر .

## ٣

ويرجع بعض الباحثين نجاح فكرة العلمانية في أوربا إلى قصور النظرة الدينية القائمة عن مسايرة حضارة العصر . فالمفاهيم الدينية التي واجهت الفكر الغربي المعاصر القائم على العلم والعقل ،عجزت عن أن تصمد له ،مما دفع بعض المفكرين والفلاسفة إلى وصف الدين بأنه أفيون الشعوب ، أو أنه لا يصلح إلا لتنظيم الشعوب البدائية . والمعروف أن رجال الدين في الغرب عارضوا المناهج العلمية ، وقاوموا ثمارها ونتائجها .

غير أن هذه النظرة التي حققت للعلمانية السيطرة في أوربا . تختلف اختلافاً عميقاً بالنسبة للفكر الإسلامي ، والعالم الإسلامي . ذلك أن تكامل مفهوم الإسلام ، قد حال دون ذلك . فقد كان الإسلام في حقيقته أكبر دافع للعلم والتقدم ، وكانت إطاراته الواسعة المرنة قادرة على استيعاب كل عوامل العصر والحضارة .

ومن هنا ؛ فمن المستحيل أن يقع المسلمون في نفس المحاذير التي وقع فيها الفكر الغربي ، أما مرحلة الاضطراب التي جاءت نتيجة لنفوذ الاستعمار والتي فرضت مفهوم العلمانية في الفصل بين الدين والدولة — فهي مرحلة

مؤقتة ستزول بزوال أسبابها . وقد وضح الآن في الغرب أن محاولات فصل الدين عن الدولة : هي محاولات مصطنعة :

يقول الدكتور محمد رضوان : لم تقم الدولة العلمانية والمجتمع العلماني في الغرب إلا بشكل صوري ، والدول لم تتخل عن دينها . وان الدين لا يزال له نفوذه ، وان تعاليم الدين الدينية والأخلاقية قد غيرت من شكلها الخارجي واتخذت شكلا يقوم على الافصاح والتسامح ، وان رجال الدين في أوربا أدركوا أن عليهم أن يلبسوا الدين وتقاليده ثوباً عصرياً . وهذا يعني أن العلمانية لم تستطع أن تحصر الدين في الفرد فقط ،ولم تستطع أن تجعل أبناء الطوائف المختلفة الذين يعيشون في بلد واحد يشعرون أنهم اخوة في الوطن بصرف النظر عن أنهم إخوة في الدين . وانه لا يمكن الجزم بأن العلمانية قد نجحت في تحقيق غاياتها ؛وهي إقامة دول ومجتمعات ينحصر فيها الدين على الصعيد الفردي فقط ؛ذلك أن الصعيدين الاجتماعي والسياسي ليسا سوى حتمية للصعيد الفردي – والعلمانية يشق عليها أن تنجح في بلد يكون فيه الشعور الديني يقظاً ، والواضح اليوم أن الشعور الديني لم ينحطم تماماً حتى في البلاد التي تدين بالإلحاد رسمياً .

يقول الدكتور فاضل الجمالي : إن العلمانية اليوم حركة رجعية ، رجعية من حيث تاريخها – فقد زالت الظروف التاريخية التي كانت تتطلبها – ورجعية من حيث جعلها الدولة تهمل واجباً من أهم واجباتها . ونحن نؤمن بضرورة قيام دولة مدنية ، تقوم في البلاد العربية والإسلامية ، تعنى بحياة الانسان مادياً وروحياً ، عناية غير مجزأة ولا منشطرة . فوحدة حياة الانسان مادياً وروحاً معاً ، هو ما يجب أن تعنى به الدولة .

ويقول : لا نعتقد أن العلمانية حققت أهدافها في البلاد التي طبقت فيها . بل وقعت في تناقضات واضحة ، لا سيما في حقل التعليم .

ويكشف الدكتور فاضل الجمالي، وجه المقارنة بين البلاد الإسلامية والغرب في مجال العلمانية فيقول : قد يكون تطبيق العلمانية في البلاد الغربية أسهل

منه في البلاد الإسلامية . ذلك أن المسيحية لم تشتمل على تشريعات واسعة تؤثر على الحياة الاجتماعية والمعاملات اليومية للفرد والجماعة . أما الدين الإسلامي ، فبالإضافة إلى احتوائه على العقائد والعبادات والأخلاق قد جاء بنظام شامل يمس حياة الانسان في شتّى نواحيها من المهد إلى اللحد . وهو نظام يتفق مع صميم طبيعة الحياة الإنسانية .

وقد أكد غير واحد من أساطين علماء الشريعة في العالم أهمية الشريعة الاسلامية ، وما تحويه من ثروة زاخرة ، واستعداد لمجابهة الظروف والأحوال ، وما تشريع القانون المدني الحديث في مصر وسوريا والعراق على أسس إسلامية سوى دليل على ذلك. فعلمانية الدولة في البلاد الاسلامية معناها تنصل الدولة من الشريعة الإسلامية .

ولئن كانت العلمانية لا تلائم الشعوب الإسلامية (١) بصورة عامة . فإنها لا تلائم الأمة العربية ، بصورة خاصة ، لأن الأمة العربية مدينة للإسلام في تكوينها الحاضر ، وحاملة رسالة الإسلام إلى الإنسانية جمعاء ، فالفصل بين الدين والدولة ، معناه تجريد الدولة العربية من أهم مقوماتها .

فالأمة العربية اذا انفصلت عن الإسلام وعن رسالته ، تصبح كجسم منفصل عن حياته وعن روحه . والفصل هذا يجعل من الجسم قشراً فارغاً لا لُب فيه ، وما أسهل دخول المبادىء الوافدة على اختلاف أنواعها لتملأ الفراغ في القشر الفارغ (٢) .

---

١ – يشير هنا إلى التجربة التي حدثت في تركيا . وكيف عارض الشعب مبدأ العلمانية ولم يقبلها وأمكن إنشاء ما يقرب من ألف مسجد في القرى التركية تلبية لرغبة الشعب التركي .

٢ – دعوة الى الإسلام : محمد فاضل الجمالي .

## ٤

يفسر دعاة المادية ( المذهب العلماني ) بأنه النظر إلى الأديان نظرة واحدة ، وإلى الثقافات نظرة واحدة ، وإلى الأمم نظرة واحدة . ويحمل هذا التفسير في أطوائه مفهومي الأممية ، والعالمية . ويهدف إلى القضاء على روح الدين والوطنية ومفاهيم الأمم التي تقوم على أساس فكرها الخالص وثقافتها .

ومن المستحيل أن تنظر أمة هذه النظرة إلى الأديان والثقافات . خاصة إذا كانت في موقف صراع مع الاستعمار ، وفي مواجهة مع العدو ، وهو موقف يلتمس العدو كل الوسائل في سبيل انتقاص ثقافة المسلمين والعرب ، والغض من قيمهم ، وإثارة الشبهات حول مقوماتهم . ولا ريب أن مثل هذا الموقف معارض لكل الركائز الأساسية التي تقوم عليها الأمم ، وخاصة بالنسبة للمسلمين والعرب الذين يشكل الإسلام بالنسبة لهم مفهوماً أكبر من مفهوم العقيدة أو اللاهوت . فالإسلام بالنسبة للمسلمين والعرب منهج حياة ، ونظام حضارة ، وأسلوب ثقافة ، وهو إلى ذلك لغة وتاريخ وتراث . ومن هنا فإن هناك استحالة في تقبل مثل هذا المفهوم الذي طرحته الارساليات والمعاهد التبشيرية والمحافل الماسونية والاستشراقية من أجل تدمير مقومات الأمم ، وإذابتها في كيان القوى الكبرى ، واحتوائها للقضاء على ذاتيتها ومقوماتها .

والمعروف أن أخطر المجالات التي اقتحمها الاتجاه العلماني في ظل النفوذ الاستعماري في المجتمعات الاسلامية. إنما تتركز حول المصارف، والقوانين الوضعية ومجالات التعليم والصحافة ومناهج الثقافة والتربية . وقد كان للإرساليات ، ومدارس التبشير وجامعاته أبعد الأثر في الدعوة إلى هذا الاتجاه . وهو هدف أساسي لتحطيم القيم الإسلامية، وابعاد النفوس والقلوب عنها، وخلق التبعية الفكرية ، والسياسية ، والتشريعية ، والإدارية ، والتعليمية للغرب .

ويقول الدكتور محمد البهي (١) في تصوير هذا الهدف من أهداف

---

١ – دكتور محمد البهي

الاستعمار والتغريب : لم يكن أمامهم لكي يبقى المسلمون أتباعاً لهم ، إلا أن يمكنوا لاتجاه العلمانية من السيطرة ، فهو كفيل بإبعاد الإسلام أولا عن مجال التوجيه والحياة العامة ، وفي الوقت نفسه كفيل بجذب المسلمين إلى الحضارة الغربية والتبعية إلى القيادة السياسية للغرب . وعنده أن الاتجاه العلماني هو الأساس (وليس الاستعمار المباشر) في هز قيم المجتمعات الاسلامية وهو كما يعبر عنه Secalarism جملة من المبادىء والتطبيقات ترفض أي صورة من صور الايمان بالله والعبادة له وتقوم على وجوب تنحية الدين وابعاده عن الدخول في أي شأن من شؤون الدولة ، وعلى وجه الأخص في التربية العامة . هذا الاتجاه لم يستطع أن يمارس نشاطه في حرية وانطلاق في الحياة الغربية بفعل السلطة المقابلة . وهي سلطة الكنيسة الكاثوليكية . أو دولة الفاتيكان . ذلك أن الكنيسة اقتحمت دائرة الدولة . وبالأخص في جانبها السياسي . وذلك بإنشاء الأحزاب الديمقراطية المسيحية كي تمارس سياسة الدولة . وبذلك أيضاً لم يصبح الاتجاه العلماني في المجتمعات الغربية ذا خطر على الدين . وبعد فإن جملة القول : ان العلمانية هدف صهيوني ، يفسح المجال أمام القوى التلمودية للسيطرة ، ولفرض أهدافها ومطامعها .

ويمكن القول بأن ما يطرح الآن على الفكر البشري . من مذاهب ودعوات ليس في حقيقته علماً . وإنما هو فلسفة . فالعلم يعرف بالمختبرات داخل المعامل . أما هذه النظريات ، فهي فلسفات ؛ والفلسفات فروض .

وللفيلسوف أن يفترض ما يشاء من النظريات ، مستمداً ذلك من واقع مجتمعه ، أو من رؤياه النفسية ، أو من أهوائه وأغراضه « ولطالما كشفت هذه النظريات عن مطامح ومخططات » . وليست العبرة بالنظرية ، وإنما العبرة بالتطبيق .

ولقد طرح أفلاطون نظرية الجمهورية ، وأتيحت لها الفرصة الكاملة للتطبيق . فهل استطاعت أن تحقق شيئاً ؟ أم حققت الفشل في كلتا المرتين اللتين عرضت فيهما للتطبيق ؟

وكذلك دعوات كثيرة قديمة وحديثة ، مضى عليها أربعون أو خمسون

من الأعوام . فهل استطاعت أن تحقق المجتمع الذي تصورته أيداوجيا كأنه حلم الأجيال ( أو طوبيا ) السعادة ؟

هذه هي العبرة ، من النظريات إلى الفروض الفلسفية . وهنا نرى الفارق البعيد بينها وبين معطيات الأديان . التي حققت قيام مجتمعات ناضجة في سنوات قليلة استطاعت أن تنشر في العالم كله السلام والعدل. هذا فضلا عن أن مناهج الفلسفة التي طرحت للتطبيق لم تلبث ان احتاجت بعد سنوات قليلة إلى تعديل بعد تعديل ، وإلى اضافة بعد حذف .

## ٥

ومن هنا يتقرر ان النظر الفلسفي الخالص لا يمكن أن يكون أساساً للفكر الإسلامي .و لا يمكن الوصول إلى الحقائق الأولية إلا عن طريق الوحي . والفلسفة ليست قرينة الوحي . ولا مناظرة له .

ولا ريب أن أغلب الفلسفات التي نادى بها مفكرو العصر : هي مادية الأساس ، ولذلك فهي لا تقوم على أساس الاعتقاد بالله الواحد الذي عرفه الدين الحق . وهي حين تحاول الكلام في الألوهية . تؤله المادة ، أو تؤله الإنسان ، أو تؤله المال . ومنها من يجعل الغريزة الجنسية محور تفسير الوجود .

وهناك عقائد ومذاهب تترجح بين الشرك والتثنية والتعدد . والدين الوحيد الذي صفت فيه عقيدة التوحيد من شوائب الاضطراب : هو الاسلام .

ولا ريب أن هذه المذاهب والفلسفات جميعاً تعارض الاسلام وتعاديه باعتباره صاحب رسالة التوحيد الخالص .

وقد وجهت إليه حملة مركزة عاصفة في محاولة لاقتلاع جذوره، والقضاء على وجوده . ومن أخطائها قولها : ان الدين ليس إلا مرحلة من مراحل حياة البشرية ، أو ان الإسلام حلقة من حلقات التاريخ . ولا ريب أن التدين فطرة ، وأن الإسلام واقع صلب ثابت مؤثر في البشرية كل أثر ، منذ ظهوره ، وإلى

اليوم ، وإلى الآماد البعيدة ، وانه هو العقبة اليوم في وجه الوثنية ، والإلحاد ، والمادية .

## ٦

إن مصدر الأخطاء في دراسة قضايا الإنسان كلها ، أنها تقوم على أساس تصور ناقص هو ان الإنسان جسد ومادة . ومن ثم فإن كل الحلول التي توضع لمشاكله لا تحقق شيئاً . ولا تستطيع أن تحقق مطامحه النفسية . إنها تتجاهل السنن الطبيعية في خلق الإنسان من روح ومادة ولا ريب إن العناية بجسد الإنسان وحده في الحضارة الحديثة ، قد ضرب الإنسان في صميم روحه ونفسه. ولا ريب إن المعرفة الربانية التي جاءت بها رسالات السماء هي أعمق فهماً للإنسان ، وأوسع أفقاً ، وأكثر شمولاً ، وهي التي كشفت أمام الإنسان حقيقة الإنسان . وهدته إلى الأسلوب الصحيح لحل قضاياه .

وما تزال البشرية متمردة على المنهج الرباني ، ذاهبة وراء أهوائها . فلا تصل إلى الحقيقة . فهي ترى الإنسان . إما روحاً كله ، وإما مادة كله . وفي كليهما فساد . وما تزال البشرية تنتقل خارج الله بين المنهجين دون أن تصل إلى شيء إلا إذا عادت إلى مفهوم الاصالة المتكامل الجامع بين المادة والروح . وهو وحده الذي يعصمها ويهديها إلى الحق .

# الفصل الخامس

## العَالميّة

يعزو الأميرال وليام غاي كار في كتابه الخطير : « أحجار على رقعة الشطرنج » فكرة الدعوة العالمية إلى مخططات التلمود والصهيونية العالمية . وقد تشكلت هذه الدعوة في صور متعددة . في محاولة لإخفاء هدفها الحقيقي . فأطلق عليها حيناً وحدة البشرية ، أو وحدة الحضارة ، أو وحدة الثقافة العالمية ، أو الحكومة العالمية ، وكلها تعني أمراً واحداً وغاية واحدة .

وعبارة ( وحدة الثقافة العالمية ) عبارة خلابة المظهر ، براقة الصورة ، ولكنها تخفي في أعماقها التعصب والاحتقار للثقافات الإنسانية . ومعناها في الواقع هو سيادة الثقافة الغربية ، وحضارتها ، وتسيدها على ثقافات الأمم وحضاراتها ، ولا سيما الثقافة العربية والفكر الإسلامي .

وقد استمدت هذه الدعوة وجودها من منطق مغلوط ، ومن منطلق استعماري في الأساس هو ما أطلق عليه اسم « رسالة الرجل الأبيض إلى العالم الملون ». والهدف الكامن من وراء هذه الدعوة هو سوق الناس جميعاً إلى الولاء والعبودية للسيادة الغربية الحاضرة ، وتذويب الفكر الإسلامي في أتون العالمية ، أو احتواء مقدراته ودمجها في مفاهيم وقيم ، تختلف في جوهرها عن قيم الاسلامي ومصادره الأصيلة .

ويتساءل هنريك رالف في كتابه ( الإنسانية والوطنية ) عما إذا كان يجدر بالأمم الضعيفة المهضومة الحقوق . أن تأخذ بالنزعة الإنسانية ، وتضحي

النزعة الوطنية . ويرى هنريك رالف : أن النزعة الإنسانية يجب ألا يعتنقها إلا الأمم القوية . أما الأمم الضعيفة ، فإن لم تستمسك بمقوماتها الخاصة ، سحقتها الأمم القوية . ويعتقد هنريك رالف : أن أنصار السياسة العالمية هم أصحاب رؤوس الأموال والطامحون الذين يروجون لها دفاعاً عن مصالحهم الخاصة . ورغبة في بسط سلطانهم ونفوذهم على الأمم المهضومة الحقوق .

ولقد علا صوت الدعوة إلى العالمية في مصر والعالم الإسلامي في الثلاثينات . وحمل لواء الدعوة إليها . أمثال سلامة موسى وغيره ، ولم تكن قد تكشفت بعد تلك الغايات البعيدة التي تحمل لواءها المخططات التلمودية في السيطرة على العالم .

ويرى كثير من الباحثين أن محاولة الغرب في توحيد البشرية ، إنما يعني صبغها بالصبغة الأوربية ، وطبعها بطابعها . والقضاء على مقوماتها وقيمها الخاصة ، وشخصيتها الذاتية ، ومثلها الأعلى التي تختلف اختلافاً بيناً عن مقومات وفكر الغرب . وليس صحيحاً ما يردده البعض من أنهم يلتمسون ما دعت إليه الأديان من وحدة بشرية . فإن الفارق كبير بين غايات الأديان ، وغايات الصهيونية العالمية . وإذا كان حملة لواء هذه الدعوة هم الذين يقولون بالعنصرية والتميز الذي يتميز به الإنسان الأبيض ، أو من يدعون إلى شعب مختار . فإنه من العسير ، أن تستجيب البشرية لمثل هذه الدعوات . وإنما تكون الاستجابة لدعوة أخرى ، يحمل لواءها ، الدين الحق ، فتجمع الناس بغير ظلم ولا عدوان .

وان المُراجع للدعوات الهدامة جميعاً من البهائية والروحية الحديثة وغيرهما يجد هذه الدعوة إلى العالمية، أو الاممية « Cosmopolitism » وهي من نتائج المخططات التلمودية والدعوات الضارة التي سيطرت عليها اليهودية العالمية . وهي محاولة لاحتواء العالم تحت فكر معين ، ومذهب معين . ولا ريب

أن هناك خطراً كبيراً في الدعوة إلى العالمية ، على الأمم التي لم تستكمل وجودها الوطني ووحدتها القومية ، والتي تعاني احتلالا ، أو غزواً ، أو سيطرة خارجية ، أو ما تزال دعائم فكرها لما يكتمل نضوجها لمواجهة الفكر البشري . والوقوف معه موقف الندّ للندّ .

# الباب الثالث

# دعوات هدامة للنفس والأخلاق

الفصل الاول : الفرويدية : الجنس – الأخلاق .

الفصل الثاني : الوجودية .

الفصل الثالث : الهيبية .

# الفصل الأوّل

# الفرويديّة

## « نظرية الجنس »

## ١

إن نظرية فرويد في التحليل النفسي ، هي مرحلة من مراحل المحاولات . التي يقوم بها الفلاسفة في مجال استكشاف النفس الانسانية. وهي محاولات دائبة طويلة على التاريخ . وفيها الخطأ والصواب . ونظرية فرويد : كغيرها من النظريات التي تتصل بالعلوم الإنسانية عبارة عن افتراضات ، توضع موضع الاختبار . ولما كانت العلوم الإنسانية بطبيعتها تختلف عن العلوم الرياضية ، والطبيعية . فإن خضوعها لمقررات التجربة العلمية المادية ، هو إنكار لإنسانية الانسان ، وإهدار للجانب الروحي والفكري والنفسي فيه ، هذا الجانب الذي لا تصلح للتطبيق عليه النتائج التي عرفها العلم عن المادة أو الحيوان . غير أن أخطر ما في الفرويدية . هو نقلتها العجيبة ، والخطيرة للإنسان من النظرة التي كانت مقررة لدى الفلسفة الأوربية نفسها ، بأنه سيد الكون ، إلى القول بأنه حيوان تحكمه غرائزه أو أن الغريزة الجنسية هي المصدر الأول للدوافع

الإنسان وتصرفاته . هذا التحول الخطير ، إنما جاء من خلال تطورات مختلفة بدأت حين انحرفت النظرة إلى الكون ، متجاوزة الدين ، ومنكرة إياه ، ومتخلية عن مفهومه في الخالق ، والتزامه في الأخلاق .

ومن شأن النظرة المادية الخالصة أن تنكر أكبر مقررات الدين ، وهي المسؤولية الفردية والالتزام الأخلاقي ، وما يتبعهما من جزاء أخروي . فإذا أسقطت هذا القيد ، أصبح من اليسير . تقبل نظرة الانطلاق في مجال الرغبات والغرائز .

وهذا هو أخطر ما في النظرية المادية التي أقام عليها فرويد فكرته في الجنس ، ودعوته إلى إطلاق الغرائز ، وتحريرها من قيود الأخلاق ، وضوابط الدين .

## ٢

لم تكن نظرية فرويد في أصلها ومصدرها إلا « فرضية » طرحها هذا الطبيب الذي عاش عمره كله بين المرضى من الشواذ والمصابين بالاضطرابات النفسية . وهم الرصيد الذي شكل من خلاله نظرياته ، وكون مذهبه .

وقد كانت هذه الفرضية تقول : إن دوافع الإنسان جميعاً مصدرها الجنس . غير أن الطبيبين اللذين اشتركا معه في نظرية التحليل النفسي وهما « أدلر ولونج » اختلفا معه . وعارضا وجهة نظره . ومع ذلك فقد توارت آراء ادلر ولونج وبخست ، واستعلت آراء فرويد ، وأذيعت ، ودُفعت دفعاً شديداً إلى مجالات الدراسة في الجامعات والبحوث. وأصبحت مصدراً للفن والقصة.ولا شك أن هذا التركيز على نظرية لم تثبت علمياً، وقد قررها ( واحد من ثلاثة ) هو تركيز مريب . وهو يكشف في وضوح أن وراءه غرضاً من أغراض السياسة ، وهوى من أهواء المطامع العالمية .

فإذا أضفنا إلى هذا هوية فرويد اليهودي المقيم في (النمسا) في مجتمع يكره

اليهود ، ويحقد عليهم . وما ثبت من صلته بهرتزل ، وانتسابه إلى الدعوة الصهيونية عرفنا إلى أي حد أمكن أن يُدفع رأي كهذا ، حتى يسيطر سيطرة واسعة في دوائر العلم والأدب والثقافة ، وهي دوائر تسيطر عليها الصهيونية العالمية ، ومنها نشأت السريالية ثم الوجودية . غير أن الأمر لم يلبث أن كشف عن أبعاد أخرى أشد عمقاً وخطراً ، فقد تبين بالمقابلة العلمية الدقيقة ، والمقارنة المنهجية أن كل أصول فكر فرويد مصدرها التلمود ، وقد أبان ذلك بوضوح الدكتور صبري جرجس في كتابه « التراث الفرويدي وصلته باليهودية الصهيونية » .

ولا ريب أن المراجع مراجعة دقيقة لأهداف التلمودية، ومخططات الصهيونية – كما كشفت عنها البروتوكولات – يستطيع أن يرى أن تدمير الإنسان وتحطيم معنوياته ، وتصويره على أنه حيوان تقوم كل تصرفاته من خلال الجنس . هو هدف حقيقي ، قد أمكن أن يوضع موضع التنفيذ ، وأن يعتنق كأنه عقيدة صحيحة بين أمم وأجيال كثيرة .

## ٣

عارض العلماء المتخصصون نظرية فرويد . وهاجموها من مواقع كثيرة :

أولا : لاحظ العلماء ، ومنهم ( ردين فاين ) (١) أن التحليل النفسي بنية متحجرة لا تتغير . مما جعل فرويد يقلب النظر أكثر من مرة في أفكاره الرئيسية على ضوء الملاحظات . وان تعميمات فرويد ، قد طرأ على صفاتها تغير كبير . وكان فرويد يعتقد أن نظرياته صالحة للتطبيق ، غير أن التحليل النفسي ، قد أوقعه في تحجر أفقده خصوبته وسيطرته. وليس من دليل يؤكد أن علم النفس في المستقبل سوف يتم على الأسس الفرويدية .

ثانياً : إن نقطة الضعف في فرويد كعالم أنه اتخذ من دراسة نفسه وطفولته

---

١ – من أحدث المؤلفات عن نظرية فرويد .

قاعدة للتعميم والوصول إلى قوانين عامة . وقد ترك فرويد في كتاباته عن نفسه وعن حياته ما يثبت أنه كان يتخذ من تحليل أحلامه وهواجسه ومشاكل صباه ، كيهودي في النمسا المتعصبة ضد اليهود، قاعدة كل تصميماته. ان فرويد ليس خلقه تماماً خلق العلماء . انه أشبه بمتنبىء منه بعالم .

ثالثاً : ذلك أنه يرمي بنظرياته وآرائه دون أن يقدم البرهان العلمي ، والسند الواقعي . انه يفترض، ثم يصدق ما يفترض ، ويبني عليه . وكأنه حقيقة علمية لا يأتيها الباطل . وانه من غير شك مخترع للفرضيات أكثر منه مجرباً لها .

رابعاً : اعتمد فرويد على الأساطير اليونانية القديمة . وأقام منها قوانين علمية كاعتماده على عقدة أوديب وعقدة الكترا . وقد أثبت العلماء أن عقدة أوديب ، والعقد الأخرى ، ليست طبيعية المنشأ . وقد أثبت العلماء أنها ظاهرة اجتماعية ، قد توجد في مجتمع ، وتنعدم في مجتمع آخر . وقال مالينوفسكي الباحث النفسي : ان عقدة أوديب ليس لها أثر في أماكن كثيرة . وقال كلاباريد : ان فرويد وأتباعه كالبوم ، لا يرون إلا ما تشتمل عليه كهوف اللاشعور .

خامساً : سجل الباحثون أن فرويد نفسه كان يمر بأزمات نفسية ، وهو يعالج مرضاه . فقد اكتشف فرويد ، وهو يعالج الفتاة سيسيلي المصابة بعقدة أوديب ، أنه هو نفسه مصاب بعقدة أوديب ، وأنه كان يتجه إلى أمه ، ويغار من أبيه .

سادساً : أشار كثير من الباحثين إلى أن ( يهودية فرويد ) كان لها دخل كبير في صياغة الكثير من نظرياته وفرضياته وتعليلاته . ذلك لأنه كان ينتمي إلى أقلية مكروهة بحكم صفاتها المعروفة ، التي أقل ما ينسب إليها حب المال والانغلاق والتعصب (١) .

---

١ – دكتور فاخر عاقل : بحث عن علم النفس الحديث .

سابعاً : فلسفة فرويد ميكانيكية جبرية تنظر إلى الإنسان كأنه آلة عديمة الحرية خاضعة كل الخضوع لقوى خفية لا يمكن التغلب عليها إلا بالحيلة (١) .

ثامناً : عارض يونج آراء فرويد وقال : إنها ذات جانب واحد ، وغير ناضجة تمام النضوج ، وأن الدافع الجنسي ليست له هذه الأهمية الشاملة التي ينسبها فرويد إليه في حياة الطفل ، وأنه توكيد الذات وليس الدافع الجنسي هو القوة السائدة الإيجابية في الحياة . وأشار ادلر إلى خطأ إرهابية الكبت ومعارضته له . ونبذ أهمية الغريزة الجنسية وأرجع تكوين الشخصية . ونشأة الأمراض العصبية إلى مجرد الرغبة في القوة . واتجاه الإنسان إلى التعويض عن نقص في كيانه .

تاسعاً : أشار الباحثون إلى أن فرويد . اعترف في مناسبات عديدة . أنه لم يكمل البحث ، وأن نظريته ليست مكتفية بذاتها .

## ٤

إن من أخطر أهداف فرويد هو : تصوير الكبت كسيف مشهر على الأعناق . فقد صوره تصويراً خطيراً ، داعياً إلى إطلاق الطفل من كل توجيه ، وإلغاء كل الضوابط التي تحفظ منطلقاته من العثور والسقوط .

وقد جرت المحاولات من وراء فرويد لإذاعة هذه الآراء ، وإدخالها في مناهج التربية الحديثة ، بالرغم من أن هذه النظرية لم تثبت علميا .

وقد عارض زملاء فرويد ما ذهب إليه من إرهاب في هذا الصدد ، وما حاول أن يصوره من مرض نفسي أو جنون نتيجة العقاب أو الكبت . وقد أثبتت التجارب الإحصائية المتعددة ، أن ضرب الطفل أو إرهاقه لا يؤدي إلى النتائج التي افترضها فرويد .

---

١ — دكتور يوسف مراد في كتابه شفاء النفس .

واعلن الدكتور اسكندر توماس : أن عدداً من البحوث قد أجري بمعرفة فريق من الأطباء النفسيين ، انتهى إلى أن نظرية فرويد لم تكن مطلقة . وأن إقبال رجال التربية على لوم الآباء ، كان هو المسلك المدمر في تربية الأبناء . ويقول العلماء انهم درسوا أحوال ١٥٨ طفلاً غير منحرفين ، بينهم الفقراء والأغنياء ، وتبين أن الأولاد نشأوا أصحاء مستقيمين بالرغم من قيود النظم القاسية التي عاملهم بها الآباء .

وأشار الدكتور توماس : أن مسلك الطفل يتأثر بعدد كبير من العوامل وليس بالبيئة والوسط والحالة الاجتماعية وحدها .

## ٥

وقد استعرض كثير من الباحثين نشأة علم النفس الحديث ، فقالوا إن علم النفس نجح حين تواضع ، وأخفق حين حاول أن يحل محل فلسفة الأخلاق .

يقول الأستاذ أحمد خاكي : حين أبديت للعالم أصول علم النفس بما تحمله من مباحث التحليل النفسي ، وبما تتضمنه من وصف نفسية الجماعة ، حينما أبدي كل ذلك . تطرق الشك في قيمة الفكرة ، وأصبح الناس لا يرون للعقيدة نفس السلطان الذي كان لها في الماضي .

ويرجع الشك في قيمة الفكرة ، أن علم النفس الحديث ، يرى أن الإنسان مسير أمام جملة من العوامل التي لا يحكمها العقل . وعلم النفس لا يستطيع أن يخلق لنا مثلا أعلى ، لأنه غير قادر على تثبيت قيم الأشياء . ذلك لأنه علم وصفي ، يسير في نطاق ضيق من التجارب ولأنه علم تجريبي . فقد عالج حالات « شاذة وغير شاذة » من غير أن يقيم معايير يستطيع المرء أن يتخذها لنفسه غاية أو سبيلا . فحينما طغى علم النفس على فلسفة الأخلاق ، فقد العالم كثيراً من الغايات التي كان قد استقر على الإيمان بها . واستشرف

قادة الفكر على حالة من الشك ، طافت بنفوسهم ، حتى أصبحوا يشكون في مبلغ عقائدهم هم أنفسهم .

## ٦

كشف كثير من الباحثين الصلات العميقة بين الفرويدية والأيداوجية التلمودية . وإذا رجعنا إلى البروتوكولات وجدنا هذا النص : « يجب أن نعمل لتنهار الأخلاق في كل مكان، فتسهل سيطرتنا » «إن فرويد منا، وسيظل يعرض العلاقات الجنسية في ضوء الشمس . لكي لا يبقى في نظر الشباب شيء مقدس ، ويصبح همه الأكبر هو إرواء غرائزه الجنسية . وعندئذ تنهار أخلاقه » .

في ضوء هذا كان عمل فرويد فكانت نظريته : ان الأخلاق تعوق التطور ، وان الكبت ضار بكيان الإنسان ، وان التسامح نوع من الشذوذ ، وان الأخلاق تتسم بالقسوة وانه من أجل تجنيب أخطار العقد والاضطرابات يترك الشباب بدون توجيه أو ضوابط . والهدف هو تحطيم الأخلاق . والقضاء على المسؤولية الفردية .

والمعروف أن فكر فرويد لا سند علمي له ، وأنه أحقاد وضعت في قالب براق ، وأنها وجدت وقودها في تطلع النفس البشرية إلى الإباحة ، وقد وجدت من الفلسفة سندها ومبررها ، وأنها وضعت لمجتمع معين ، وأنها استمدت كل مفاهيمها من وثنيات الفكر اليوناني ، واتصلت ببيئات وأديان غير الاسلام . وأن القوى الخفية ، قد حملتها إلى الأدب ،والقصة، والمسرح ، والسينما ، والإذاعة ، وبيوت الأزياء ، وأدوات الزينة .

## ٧

ولا ريب أن فرويد هو ثمرة الأيدلوجية التلمودية في أدق مراحلها . وقد أشار إلى هذا المعنى عدد من الباحثين : ( سيجموند فرويد ) هذا الرجل

أراد أن يحطم احترام الإنسان لنفسه تحطيماً كاملا . ومن يقرأ فرويد : يدرك تماماً أنه ينفذ مخططاً يهودياً جباراً . أراد أن يصم الجنس البشري بأنه جنس متحلل . ينطوي على أسوأ النوايا ، وأخس الرغبات ، حتى أنه اتهم الجنس بأن الطفل يعشق أمه ، ويريد أن يقتل أباه ، وبنى فلسفته ومذهبه على هذا ، حتى جعل الناس جميعاً يشكون في كل فضيلة ، وكل عاطفة رقيقة (١) . وإذا نحن رجعنا إلى الهدف . رأينا كيف مهدت الصهيونية لاستيعاب الرأي العام المسيحي في الغرب . ووقفت وراء الزعامات العلمية ، ووراء عالم الطبيعيات ( دارون ) ونقلت مذهبه إلى تشكيك المجتمع الإنساني في طبيعة الخلق ، ووراء نيتشه وهو ينادي بسياسة القوة وألا رحمة ، ثم السيطرة على العلوم والفكر . وبالسيطرة على الفكر العالمي عن طريق التعليم والثقافة ، يمكن القضاء على كل فكر . وزرع الشك والريبة في كل أفق للوصول بالفكر البشري إلى مرحلة الحيرة . ومن يتابع تاريخ الفلسفة ير دور اليهود في ذلك . وكيف قام رجالهم ( فرويد ، ماركس ، دوركايم ، ليفي بريل ، سارتر ) على بناء الفلسفات المدمرة للقيم الإنسانية .

وقد أشارت مخططات الصهيونية العالمية إلى ضرورة تخريب العالم ، قبل السيطرة عليه . وإن أهم الأهداف التي يمكن القول دون تردد بأنها حققت نجاحاً ، هو احتواء الفكر الغربي ، والسيطرة عليه ، وتهويده ، ودفعه إلى الغايات التلمودية ، وذلك بإسقاط الإيمان بالله ، وإسقاط الأخلاق ، وإسقاط الجزاء الأخروي .

## ٨

نقل الاستاذ عباس العقاد عن عدد كبير ممن ترجموا لفرويد (٢) . وخاصة ما كتبه الدكتور : أرنست جونس . أكبر تلاميذ فرويد الأحياء في الجزء

---

١ — محمد خليفة التونسي

٢ — نقلا عن الأستاذ عباس محمود العقاد : الأخبار ( مايو ١٩٥٦ ) .

الثاني من ترجمة فرويد . قال : إن فرويد كان يحرق أوراقه قبل أن يتمكن أحد من الاطلاع عليها . وانه كان يحيط نفسه بأعوان من اليهود . وان الأطباء النفسانيين الذين اجتمعوا لإحياء ذكرى فرويد في مدينة شيكاغو ، وعدتهم نحو أربعة آلاف ، قد فوجئوا بحملة عنيفة على فرويد ومذهبه، يتولاها رجل مسؤول عن مركزه العلمي والرسمي هو : الدكتور « برسيفال سيلي » مدير معهد النفسيات بولاية النيواز .

وخلاصة حملته أن البقية الباقية من طب فرويد قليلة لا يؤبه بها ، وأن آراءه لا تضيف شيئاً إلى القيم الإنسانية . لأنه يرتد بالإنسانية إلى أغوار الباطن . ويهمل جانبها المنطقي الشاعر ، وأنه لم يكن يفهم المرأة ، ولم يكن يتذوق الموسيقى، ولا يحس جلال العقيدة. وقال : إن العالم استطاع أن يضع فرويد على المشرحة بعد أقل من عشرين عاماً من وفاته .

ونقل الأستاذ العقاد عن مترجم حياته : الدكتور أرنست جونز : إن فرويد كان عرضة للإغماء على أثر بعض المفاجآت . وكانت مرارة الطبع خلة ملازمة له في علاقاته بغيره . وكانت لأحلامه وجوه خفية ، ترمز إلى دلائلها سريرته الباطنة ، وكانت له ضروب من القلق تنم عن باعث من بواعث الحيرة المكتومة ، وكان أظهر حالاته الخاصة أنه يحارب في سبيل التشبث بالتفسير الجنسي للعقائد والعادات ، تشبثاً يربو في إصراره وشدته ، على تعصب المتعصب اللدود لمذهبه ودينه .

ومن قوله ليونج : عدني أنك لن تتخلى يوماً عن الإيمان بالتفسيرات الجنسية . إلا أن يونج لم يلبث أن تزحزح بتفكيره شيئاً فشيئاً عن ذلك الاغراق في العصبية الجنسية التي تحيط بكل علة ، وتتغلغل وراء الأسرار في أعماق كل طوية . وقد خالفه تلميذه الفرد أدلر كما خالفه يونج .

وفرويد : كان مجموعة من العقد النفسية والعادات الغريبة . ولم يستطع أن يشفي عقله الباطن من هذه العقد النفسية إلى آخر حياته . كان ينسى الأسماء، ومنها أسماء معارفه . وكان يتتبع أوراقه التي تدخل في ترجمة

حياته فيحرقها ، وكان يؤمن بأنه سيموت في نهاية الحرب العالمية الأولى . فمات في بداية الحرب العالمية الثانية . وكان يدخن عشرين سيجاراً في النهار ليهدىء من ثوراته العصبية . وكان في طفولته ينسى نفسه ليلا في فراشه . وكان يخشى من السفر بالقطار ، ويحضر إلى المحطة قبل موعد السفر بنحو ساعة . وكان دائم العزلة ، لا يسمح لأحد أن يصارحه طويلا .

## ٩

وفي السنوات الأخيرة جرت أبحاث عديدة عن سقوط الفرويدية ، بعد أن تعرضت في العقدين الأخيرين إلى هجمات متوالية وحملات عنيفة تستهدف تجريدها من « العلمية » . وقد أشار الباحثون إلى أن المؤتمر الذي عقد في انجلترا ١٩٧٠ للأطباء النفسانيين ، قد كان نقطة تاريخية خطيرة . فقد ألقى العالم النفسي ( ايليوت سلتير ) كلمة أعلن فيها أن نظرية فرويد : ليست علماً ، بل هي أسطورة (ميثولوجيا) ولدت في رحم خصب من اللاعلمية. وقال سلتير ان نظرية فرويد سوف لا يكون لها مستقبل . وأشار إلى ما صرح به ( كارل بوير ) من أن التحليل النفسي فشل في إيجاد نظرية لا يمكن دحضها .

وجاءت ضربة أخرى على الفرويدية ، في حلقة دراسية ، نظمتها أكاديمية العلوم في نيويورك . وضمت ١٨ فيلسوفاً . حيث استثنوا علم التحليل النفسي لفرويد من ميدان العلوم (١) . وكانت وجهة النظر أن نظرية خلابة ، كنظرية فرويد برزت قبل نصف قرن ، كان يجب أن تكون الآن علماً له مكانته وأسسه . ولكنها لا تزال تدعو للخجل والرثاء ، لأنها لم تتعد حدود النظرية .

ويقول العلامة سلتير : ان نظرية فرويد ، فرقت علماء النفس . وان علم الأمراض النفسية يعاني من جرح عميق أحدثه جسم غريب ، هو نظرية فرويد . وهو جسم غريب لسببين الأول : أنه لا يمت للعلم بصلة ، والثاني

---

١ – أشار إلى هذا : فخري الدباغ في بحث له ، بحث عنوانه : الفرويدية ، وهل قاربت الزوال .

لأن ما يقدمه ويحققه للمريض يختلف عما يحققه العلم الطبي في أي فرع من فروعه .

ثم قال : إن إزالة هذا الجسم الغريب لكفيل باندمال جرح العلوم النفسية. ويقول فخري الدباغ بعد أن استعرض عشرات المواقف التي وقفها العلماء في مواجهة نظرية فرويد : من كل ما تقدم ، نرى أن ما يؤخذ على نظرية فرويد ، هو أنها غير علمية ولم تخضع نفسها بما فيه الكفاية للتحليل والإحصاء والمقارنة ، وأنها أحدثت الفرقة والنزاع بين علماء النفس ، وأنها أشبه بأسطورة وعقيدة ذات تقاليد صارمة ينصاع لها المؤمنون والأتباع والمعالجون على طريقتها . ومن الطبيعي ألا يتوقع بقاء نظرية أسطورية خرافية ، طيلة هذه السنين دون تصدع ، أو انحدار ، أو تدهور » .

## ١٠

أشار الباحثون الذين يحملون فكرة الفرويدية الجديدة إلى أن هناك تناقضاً كبيراً قد ظهر خاصة في غريزتي الجنس والموت ، وعقدة أوديب والجنس عند الأطفال . وهذه هي النقط الأربع التي خالف فيها فرويد الفطرة الانسانية ، والأديان ، وعارض الأخلاق .

يقول جوزيف ريتولدز : توصل علم الأجناس إلى نتائج وشواهد هائلة ، تدحض بعض الافتراضات المبدئية لفرويد . مثل غريزتي الجنس والموت ، ومراحل الجنسية الطفلية الفرويدية وعقدة أوديب .

وان التجارب التي أجريت لاختبار بعض هذه المفاهيم ، أكدت زيفها . وأثبت ذلك « روبرت سيرز » في كتابه : نظرة على الدراسات الموضوعية في مفاهيم التحليل النفسي . فقد انتهى إلى القول : بأنه قياساً على معايير العلوم الطبيعية ، يتضح لنا أن التحليل النفسي ليس علماً حقيقياً ، فالتحليل النفسي يرتكز على تكنيك لا يسمح بتكرار الملاحظة ولا يملك بنية واضحة تؤكد صوابه ، ثم إنه مصبوغ بصبغة غير معلومة بالايحاءات الذاتية للملاحظ .

ثم يصل إلى المحز حين يقول : إن نظرية التحليل النفسي القائمة على غريزة الجنس الثابتة ، والموجهة للسلوك . عجزت عن تقديم تفسير شاف عن هذه الحركات الواعية التي تولدت كرد فعل لظواهر اجتماعية محددة . وان التجارب التي أجريت بين طوائف العمال، والشباب والفلاحين ، والزنوج ، أثبتت عدم صحة ما ذهب إليه فرويد .

## ١١

ومن ناحية أخرى . فإن العالم النفسي ( إيفان بافلوف ) ، أعلن أن نظرية فرويد ، وهي النظرية التي ترجع جميع الاضطرابات إلى أسس جنسية بحته ، هي معول هادم لنفوس الشباب ، ومخدر مميت لنفوس أبناء الشعب .

ويرد بافلوف مصدر الانحراف إلى البيئة . كما ردها أدلر إلى تأكيد الذات وتعويض الشعور بالنقص . كما يردها يونج إلى النزوع نحو التفوق .

# الأخلاق

## ١

كان أخطر ما طرح في مجال الأخلاق : نظرية ليفي بريل القائلة بمعارضة ثبات الطبيعة البشرية ، وافتراض أن كل عصر ، وكل جنس له أخلاقه . وهذه هي أصرح دعوة لهدم الالتزام الأخلاقي ، والتحلل منه . وهي حلقة في نطاق الحلقات المتوالية التي طرحتها الفلسفة المادية . في مختلف مجالات الاقتصاد والاجتماع والنفس ، لاستكمال حلقة السيطرة على البشرية ، وتوجيهها وجهة مغايرة للفطرة وللمفاهيم الانسانية الصامدة الثابتة، التي جاءت بها الأديان ، وجاء بها الإسلام خاتماً لها .

ولا ريب أن محاولة صدع حقيقة وحدة الطبيعة البشرية ، هي محاولة جريئة . ذلك أن أفراد الجنس البشري توحد بينهم صفات نفسية وخلقية عامة ، تتصل بوحدة التركيب البيولوجي ، والعقلي ، والاجتماعي للإنسان من حيث هو إنسان . وإن آثار البيئة أو الجنس أو العصر هي مسائل محسوبة في نطاق النظرة الكلية الجامعة ، وان الاختلاف فيها بالزيادة أو النقص ، لا يغير من القاعدة الأساسية ومن الصفات الجوهرية الثابتة . ولا ريب أن النظريات الفلسفية . التي ظهرت في نطاق الفلسفة المادية ، قد حاولت في المرحلة الأولى ، إخراج الأخلاق من نطاق الدين ، وعزلها عن تبعته ، وخلق منهج أخلاقي منفصل يقوم على فكرة الواجب. ثم جاءت المرحلة الثانية، وهي العدول

نهائياً عن مهمة علم الأخلاق في تحديد قواعد السلوك . وقصره على دراسة الأخلاق على أنها ظواهر اجتماعية ،ومعارضة الحقيقة القائلة بأن الطبيعة البشرية ثابتة لا تتغير بتغير الزمان أو المكان .

## ٢

قامت هذه المذاهب الفلسفية في اتجاه الأخلاق على « الاباحة » ، ومعارضة الضوابط ووصفها بأنها حرمان وكبت .

وقد استمدت مفهومها هذا من الفلسفة اليونانية الوثنية ، التي عرفت بالأبيقورية والتي ترى أن اللذة الجسمية هي الغرض الأسمى من الحياة .

وبذلك أخرجت الفلسفة الحديثة الأخلاق عن مفهومها الطبيعي بوصفها الجدار القوي، الذي تقف عنده مطامع الإنسان وأهواؤه، والحائل دون تدمير الفرد لنفسه ، وإقامة الضوابط الكفيلة . بسلامته ولا ريب أن الأديان والأخلاق جزء منها ، ومرتبطة بها ، ولا سبيل إلى أن تنفصل عنها ، تعمل إلى إقامة بناء الإنسان على قواعد من الثبات والصمود في مواجهة أحداث الحياة ، وحماية كيانه من الانهيار تحت صدمات المواقف ، أو أخطاء التصرفات ، ولذلك فقد كان هدفها هو إجراء عملية ضبط يقظة دائمة ، تحمي الانسان من أخطارشهواته ورغباته ومطامعه ، والحد من قواه المدفوعة إلى الشر والرذيلة .

وقد ظلت ضوابط الأخلاق مرتبطة بالعقيدة ، حتى يكون لها التزامها الحتميقي ، وهو الالتزام المرتبط بالجزاء الأخروي . ولا ريب أن الإيمان بهذا الجزاء بعد البعث والحساب هو العامل الأكبر في إعطاء المسؤولية الأخلاقية مكانها الحتميقي . وان الانسان إذا تجاوز هذه الحقيقة عجز عن أن يجد الرادع الذي يرده ، فإذا ما جاءت الفلسفة المادية ، وحطمت أمامه كل جدار ، وأنكرت كل مسؤولية وجزاء وبعث . فإن الأمر قد أصبح بالنسبة له خطيراً . وقد أصبح أشد خطورة بتحريضه على الاندفاع نحو مطالب الغريزة وأهوائها ، وإطلاق يده نحو عمل كل ما يريد على النحو الذي تدعو إليه الوجودية .

وبذلك فقد سقط الإنسان في هوة خطيرة ، وأزمة كبرى هي أزمة القلق والضياع التي تمر بها البشرية في الغرب في هذا العصر . ونحن نعرف الهدف مقدماً ، ونعرف أن الأيدلوجية اليهودية خططت له ، وأن بروتوكولات صهيون قد أشارت إليه في صراحة تامة . وفي ضوء هذا كله ، فإن أي نظرة إلى مفهوم الأخلاق داخل نطاق الفلسفة المادية ، فإنها لن تستطيع أن تصل إلى شيء ما . ذلك لأن منطلق البحث أساساً هو : ما هو هدف الإنسان في هذه الحياة ، وما هي مسؤوليته الفردية ، والتزامه الأخلاقي .

إن النظرية المادية لا تستطيع الإجابة عن هذا السؤال ، والذين يؤمنون بالعلم وحده لا يصلون إلى شيء . وقد قال ليونارد دارون : إن العلم لا يمكن أن يتخذ مرشداً للسلوك . وانه إذا كانت هناك إرادة حرة . فلا بد أن يكون هناك شيء خارج العلم . ولا تقف الفلسفة المادية عند عجزها عن تحديد هدف الإنسان في الحياة ، بل إنها ترفض فكرة هذا الهدف . ويقول الفلاسفة : إن ظهور الإنسان على هذه الأرض كان عارضاً ، وليس مقصوداً . وقد وصل علماء الأنثربولوجيا . وجلهم من اليهود . إلى أن المجتمع البشري ليس له هدف. أما المؤمنون بالدين الحق ، والذين ينظرون إلى الحياة وقضاياها في ضوء الحقائق الكبرى التي ألقاها الإسلام ، وكشف عنها القرآن ، فإنهم يرون أن للحياة غاية ، وغاية كبرى، وأنها مسؤولية وأمانة للإنسان . وامتحان لمقدرته على حمل مهمة الاستخلاف في الأرض، وأداء دوره في العمران والبناء في ظل حدود الله والضوابط التي حددها من الوجهة الأخلاقية والاجتماعية .

وأن هذا الكون لا يمكن أن يكون قد خلقه الله باطلاً ، وأن له غاية «أفَحَسِبْتُمْ أنمَا خَلَقْنَاكُمْ عَبَثاً وأنّكُمْ إلَيْنَا لاتُرْجَعُونَ» . ومن منطلق الفهم الرباني الشامل غير المادي المنحصر ، تتكشف أهمية الأخلاق في بناء الأفراد والمجتمعات . ومن الواضح ، أن الحضارة المعاصرة قد نحت الدين والأخلاق جانبا . وأغفلت تماماً الجانب الروحي والنفسي من الحياة، وركزت على

الجانب المادي وحده . وأعطته مداه ومنطلقه الى ابعد الغايات . وبذلك أحدثت خللا خطيراً ، هو مصدر الأزمة التي يعانيها الإنسان المعاصر اليوم .

يقول العلامة جود في كتابه « سخافات المدنية الحديثة » : إن هذه المدنية ليس لها توازن بين القوة والأخلاق . فالأخلاق متأخرة جداً عن العلم ، ومنذ عصر النهضة ظل العلم في الارتقاء ، والأخلاق في انحطاط حتى بعدت المسافات بينهما . وقد تقدمت العلوم خلال القرون الأخيرة في جميع الميادين بلا استثناء في حين أن الأخلاق لم ترتق ارتقاء متناسباً مع تقدم العلوم . بل إن تقدم العلوم قد أحدث هذه الفجوة الخطيرة حين اتخذ من بعض أساليب العلم وسيلة لهدم الأخلاق ، وتمزيق ثباتها ، والدعوة إلى ربطها بالمجتمعات وعزلها عن مصدرها الأصيل : الإنسان .

## ٣

إن الأخلاق في مفهوم الإسلام ليست نظرية ، ولكنها تطبيقية . وليست مثالية ، ولكنها واقعية ، ومن ثم فقد تجاوز الإسلام بها خطر الطوبيات الخيالية ، التي تعجز أمام الواقع وتبدو مستحيلة أمام طبيعة الإنسان نفسه .

ولقد بدأ الإسلام من نقطة أساسية : تلك هي الاعتراف بالرغبات والمطامح البشرية على أنها حقيقة واقعة ، ثم تحقيق هذه الرغبات مع وضع الضوابط والحدود التنظيمية التي تحول دون الصدام أو الفساد . وبذلك تجاوز الإسلام الخطرين القائمين :

خطر دفع الإنسان إلى الصعود على النحو الذي يخالف به الفطرة ، أو يحول بينه وبين التوازن . مما تدعو إليه بعض العقائد من زهادة وانفصال عن المجتمع .

أو خطر دفع الإنسان إلى الهبوط على النحو الذي يخالف الفطرة أيضاً مما تدعو إليه بعض الفلسفات من إباحية وإسراف على النفس والمجتمع .

فالإسلام حين يضع الإنسان في الموضع الطبيعي المتصل بفطرته وطبيعته ، ويمكنه من ممارسة كل رغباته . إنما يحول بينه وبين الخطر المترتب على الإطلاق الكامل ، أو الانغلاق التام . وهو في نفس الوقت يجعله قادراً على تحمل المسؤولية الفردية ، والالتزام الأخلاقي . اللذين يصدران عن حرية الانسان في الاختيار ، وإرادته الكاملة ، مما يؤهله لتحمل المسؤولية .

هذه المسؤولية هي الجزاء الذي يتم في اليوم الآخر . يوم البعث ، وهو الحقيقة التي قررها الدين الحق ، والتي تضع الاجابة الحقيقية على السؤال الحائر عن وجود الإنسان في هذه الحياة ، وعن الحكمة من الحياة الأرضية . ولا ريب أن كل محاولة لخلق منهج أخلاقي للإنسان ( بعيداً عن هذا المفهوم ) على النحو الذي قال به الإغريق القدامى ، أو الغربيون خلال فترة اتصال الثقافة الأوربية بالمسيحية . من ان الإنسان يستطيع أن يبني الاتجاه الأخلاقي على العقل والإدراك ، أو الواجب ، أو الوازع الداخلي ، أو الارتفاع بالنفس عن الدنايا . كل ذلك زيف لا يستطيع أن يحقق الالتزام الأخلاقي ، أو يجعله في نطاق الفطرة ، كما تفعل الحقيقة التي جاءت بها الأديان . والتي تتجلى في الإسلام على أروع صورة .

فقد أقام الإسلام الأخلاق على أساس الإيمان بالله ، وفي نطاق العقيدة ، ومن خلالها وأنكر إمكان قيام أخلاق من خارج الدين .

ذلك أن منطلق المسؤولية الأخلاقية ، إنما يرتبط أساساً بالاعتقاد بالله والإيمان بالبعث والجزاء ، والدار الآخرة ، وبأن الله يعلم ويحاسب على كل تصرف .

وقد أشار الرسول محمد صلى الله عليه وسلم . إلى أنه إنما جاء ليتمم مكارم الأخلاق . فالمفهوم الأخلاقي الرباني ، قد استمر في الحياة البشرية ،متصلا بالأديان إلى أن استوفى صورته الحقة في الإسلام .

وقد أقام الإسلام مفهومه الأخلاقي على التقوى (وليس على الرهبنة والسعادة ) وأقر تحقيق الرغبات في حدود الضوابط التي تحفظ النفس والمجتمع .

والأخلاق في حقيقتها : تزكية للنفس وتصعيد لها ، وإعلاء بها عن الشر والإباحة والانهيار ، وفطم لها عن الشهوات . ولا ريب أن الدعوة إلى التسامي من خلال الواقع . قد جاء الإسلام فيها بأصدق قاعدة. « وَنَفْسٍ وَمَا سَوَّاهَا، فَأَلْهَمَهَا فُجُورَهَا وَتَقْوَاهَا. قَدْ أَفْلَحَ مَنْ زَكَّاهَا. وَقَدْ خَابَ مَنْ دَسَّاهَا».

ومفهوم الحرية في الأخلاق الإسلامية : هو تحرير الإنسان من كل قيود العبودية ، وفي مقدمتها تحريره من شهواته وعبوديته لأهوائه ، وتحديد معنى الحرية بأنها ستنتهي عندما تصبح عدوانا على حرية الآخرين .

## ٤

إن نظرة الفلسفات الغربية إلى النفس على أنها شريرة بطبعها ، وأن الانسان محكوم عليه بالخطيئة هي نظرة لا يقرها الإسلام . وإليها ترجع كل التحديات التي اتصلت بالمفاهيم العقائدية والأخلاقية .

فقد انطلقت المفاهيم الغربية من فرضية — كانت ولا تزال عرضة للشك والارتياب — ولم تنطلق من أصل ثابت عندما قامت على فكرة الخطيئة . وفكرة الخطيئة فكرة فلسفية قديمة ، تجددت في الفكر الغربي المسيحي بصورة جديدة ، ولم تكن في واقع الأمر حقيقة تاريخية أو علمية . ولقد حاولت فكرة الخطيئة ، السيطرة على الفلسفة الغربية ، وعلى الأدب والقصة . كما كانت بعيدة الأثر في مفاهيم الأخلاق . وفي تفسير غاية الحياة . ووجود الإنسان على الأرض ، وهي تنظر إلى الإنسان نظرة متشائمة مظلمة ، وتقرر أنه شرير ، ومن هذا المنطلق تفسر استعداده للانتقام والعدوان ، والثأر ، والسيطرة ، وترد ذلك كله إلى الخطيئة الأولى ؛ التي كانت مصدر خروج آدم من الجنة ، وترى أن هذه الخطيئة سيف مصلت على رقاب البشرية منذ اليوم الأول إلى نهاية الحياة ولقد كشف الإسلام عن حقيقة آدم ، وعرف كيف أنه حين أخطأ تاب الله عليه . وأن خطأه كان خاصاً به وحده ، وأنه ليس مرتبطاً بأي فرد آخر من أفراد الجنس البشري .

ومن خلال نظرية (الخطيئة) المسيطرة على الفكر الغربي . تبدو تلك النظرة القائمة إلى الإنسان ، وتصور النفس الإنسانية على أنها شريرة في أصلها . والحق هو ما قرره القرآن في تأهب النفس للشر والخير ، وأن الأمر متوقف على مدى قدرة الإنسان على تزكية النفس وتحريرها من الشر . ودفعها إلى الخير . وأن مهمة الدين بعباداته وفروضه المتجددة على مدى ساعات اليوم ، هي إيقاظ النفس ، وتجديد ايقاظها ، وتذكيرها ، ودفعها إلى العمل الصالح . ومن قدرة الإنسان وإرادته ، وفي ظل إيمانه بالله ، وخوفه من مسؤوليته وعقوبته يكون قادراً على أن يتحرك داخل إطار الضوابط الاجتماعية. التي تحميه من الخطأ .

ولقد حرر الإسلام بذلك الإنسانية من نظرية ليست إلا قيداً شديداً ، على وجود الإنسان .

## ٥

اختلفت غاية الإسلام في الأخلاق عن غاية الفلسفات التي دعت إلى السعادة كما اختلفت غاية الإسلام في الأخلاق عن غاية العقائد التي دعت إلى الزهد .

أما الاسلام فقد ربط الأخلاق بالدين ، وجعلها سداً منيعاً في وجه الانحلال والفساد للفرد ، والانهيار للمجتمعات . وأقام العلاقة الصحيحة بين الانسان ونفسه ، وبين الانسان والمجتمع . وجعلها وسيلة إلى إصلاح الحياة الدنيا ، وإلى الجزاء في الآخرة . « وابتغ فيما آتاكَ اللهُ الدارَ الآخرَةَ . ولا تنسَ نصيبكَ منَ الدّنيا . وأحْسِنْ كمَا أحْسَنَ اللهُ إليكَ . ولاَ تبغِ الفسادَ في الأرضِ . إنّ اللهَ لا يُحب المفسدين » .

ويقف الإسلام بقوة عند القاعدة الأساسية القائلة بارتباط الأخلاق بالجزاء في الآخرة . وتلك نقطة من أهم النقاط التي تحاول الفلسفات

إفسادها عن طريق مذاهب الحلول ، أو الاتحاد ، أو وحدة الوجود ، بالقول بأن الإنسان جزء من ذات الله تعالى ، وأن عمله كذلك ، وهي محاولة باطلة لإسقاط الفرائض والالتزامات والمسؤوليات ، وإسقاط قاعدة أساسية . تلك هي قاعدة البعث بعد الموت والجزاء بالحساب ( ثواباً وعقاباً ) . وقد أكد الاسلام على مسؤولية الإنسان عن أعماله ، تأكيده على حرية إرادته ، في الضوء الكاشف الذي دل بوضوح على الطريقين المفتوحين أمام الإنسان ليختار أحدهما ، ومع منحه كل المعونات التي ترجح أمامه طريق الله والحق .

وأبرز ما تتسم به مفاهيم الاسلام للأخلاق هو رسمه للمناهج والقواعد ، وربطه بين الإسلام والإيمان ، وبين العلم والعمل ، ومخاطبته للعقل والقلب .

وأبرز مظاهر الأخلاق في الإسلام . الوسطية والموازنة والملاءمة مع الواقع ، والبعد عن جناحي الافراط ، والتفريط ، والقصد في الغنى والفقر . وهو حين أطلق للإنسان رغباته جعل لكل رغبة من الرغبات قاعدتها وضوابطها . ففي المال : أعطى الإنسان حق جمعه ، ودعاه إلى الزكاة والصدقة ، واتقاء شح النفس . وفي الجنس : أعطى الإنسان حق ممارسته في حدود الزواج ، وبعيداً عن الزنا ، ومن خلال بناء الأسرة والمودة والرحمة ، ولم يقف الأمر عند هذا الحد . بل إنه أعطاه حكمة الأمور :

فالمال له مهمة خاصة هي بناء الحياة ، والجهاد في سبيل الله ، وليس مطلوباً لذاته لاكتنازه ، أو للتعامل فيه دون حدوده وضوابطه ، وأهمها : تحريره من الربا . أما الجنس فمهمته بناء الحياة ، واستمرار النوع . وليس مطلوباً لذاته ، بل لتحقيق هذه الغاية العليا . وله ضوابطه من الزواج ، ومن حماية الكيان البشري . وتدور الأخلاق حول حماية الفرد من السقوط والانحدار ، والتدهور والتحلل . ومن هنا تجيء ضوابط الطعام والمال والجنس ، بهدف إبقاء الأجيال البشرية قادرة على العمل وليس ساقطة تحت أقدام الشهوات ، غير قادرة على المقاومة والنضال . ولما كان الإسلام ينظر إلى الإنسان ككل ، فإنه يعمل على الموازنة بين عقله وقلبه ، وبين حاجاته وغاياته ، وبين

روحه وجسده في سبيل الغاية العليا : وهي ترقية الحياة والارتفاع بالإنسان إلى الصورة الكريمة التي تليق به كمستخلف لله في الأرض . وقاعدة الإسلام الأخلاقية : هي أنه لا يمنع الانسان شيئاً من رغباته ، ولكنه يحميه منها بأن يضعها في قوالب ، ويضع لها ضوابط . وخاصة فيما يتعلق بالطعام والمال والجنس والبقاء .

## ٦

لا ريب أن الأخلاق الإسلامية نسيج وحدها ، ومنهج متميز ، فليس هو مفهوم اليونان الداعي إلى السعادة واللذة ، ولا مفهوم العقائد الداعي إلى الزهد . وليست الأخلاق الإسلامية هي فضائل الجاهلية العربية . وإنما هي منهج متكامل مرتبط بالعقيدة ، يعترف بالإنسان ككل ، ومؤثر في كل جوانب الحياة من سياسية واقتصادية واجتماعية وأدب ، وتربية . وهي منهج عملي ، وليست نظرية فلسفية ، وتقوم على مبدأين : الالتزام والجزاء الأخروي ، وتتشكل من خلال تقدير الإسلام وتقريره للغرائز والميول في ممارستها مع ضبطها ، وليس في الصد عنها ، أو احتقارها . وينطلق في اتجاه المقدرة . ومراعاة الظروف والوسع ، والعفو والسماح عند الاضطرار ، وتقبل التوبة عن الخطأ . فضلا عن اتصاف منهج الأخلاق ا 'سلامية بالوسطية والواقعية ، وارتباط المطلق فيه بالنسبي والمثالي بالواقعي . وهو في نفس ،رقت قد دحض الشبهات القائلة بفصل الأخلاق عن الدين ، أو القول بأن الملحد يستطيع أن يكون أخلاقياً . وقد أقامت القواعد الأخلاقية الإسلامية جداراً قوياً ضد الفوضى ، والظلم ، والشر عامة ، وبقيت في نفس الوقت مرنة تسمح للأجيال المتعاقبة بالعمل داخل إطارها الواسع .

ومن أبرز الملاحظات في هذا الصدد ، تفرقة الإسلام بين الأخلاق الثابتة ، والتقاليد المتغيرة . فالأخلاق ثابتة لاتصالها بالانسان ( لا تبديل لخلق الله ) ، ولأنها متصلة بالقيم العليا للدين كله . أما التقاليد فهي متغيرة ، لأنها متصلة بالوسائل العارضة ، ولأنها من صنع الناس . والاخلاق الإسلامية . تختلف

إختلافاً كبيراً عن مذاهب الثقافة أو السعادة ، أو الواجب . وهي في مجموعها أخلاق تقوى .

## ٧

### الاخلاق وفكرة وحدة الوجود

أجمع العلماء على أن القول بوحدة الوجود نفي للألوهية . وإثبات للكائنات وحدها . ووحدة الوجود عنوان آخر للإلحاد في وجود الله ، وتعبير ملتو للقول بوجود المادة فقط ما دام لا يوجد شيء وراء هذا العالم . فالقول بأن الله داخله صورة أخرى للقول بنكرانه . والقول بوحدة الوجود تفكير هندي قديم .

والمسلمون يؤمنون أن الله هو واجب الموجود ، وهو سر سرمد لا يحده زمان ولا مكان . وأن ممكن الوجود هو كل ما سوى الله مما خلق — ولا ريب أن القول بوحدة الوجود هو أخطر سهم مسموم موجه إلى الالتزام الأخلاقي ، كما جاء به الإسلام ؛ إذ أنه يلغي المسؤولية الأخلاقية التي هي مناط الثواب والعقاب .

# الفصل الثاني

## الوجوديّة

### ١

من الدعوات الهدامة التي راجت رواجاً كبيراً في العالم كله : « الوجودية » وقد شملت جانبين : جانب الفكر ممثلا في الآراء والنظريات التي طرحها دعاتها القدامى والمحدثون . وأهمهم كيركجرد وكامي وسارتر . وجانب التطبيق ممثلا في الجحور والجماعات والصور المختلفة التي أولتها الصحف العالمية اهتماماً كبيراً ، ووجدت من الشباب التفاتاً وإعجاباً .

وقد وجدت الوجودية صدى واسعاً في بعض البيئات . لأنها جاءت بعد أن أفسحت لها الطريق مذاهب وأفكار من المادية ، وإنكار الله ، وإنكار البعث ، وما حملته الرياح من أفكار تقول بإعلاء الجنس وإباحة الرغائب ، وتصل إلى القول بأن الإنسان خاضع لما يقرره العلم بالنسبة للحيوانات والمادة . وقد سادت في السنوات الخمسين الأخيرة موجة من التنكر للأديان والأخلاق في العالم كله، ووجدت فيها مثل هذه الدعوات مجالا خصباً للازدهار والانتشار .

وقد كانت الوجودية رد فعل لأشياء كثيرة منها : الدعوات التي ترى

أن الإنسان ليس إلا « ترساً » في آلة كبيرة ، ليس له وجود ، أو كيان منفصل. ومنها صيحة الحرب المدمرة ، وما حصدت الحرب العالمية الأخيرة من أرواح ، وما يزال يتهدد العالم من أخطار الصواريخ والقنابل الذرية . كل هذه الأخطار حين تواجه النفس الإنسانية التي تجردت عن الإيمان بالله لا تجد طريقاً لها، إلا الاتجاه في طريق الانحلال ، حيث يُتصَوَّرُ أن الحياة هي الغاية الوحيدة ، وهي في نفس الوقت غاية مهددة بالزوال في أي لحظة . هذه هي النار التي توقد الوجودية تحتها ، وهذه هي الصيحة التي ترفعها لتخدم الهدف الكبير الكامن مِنْ ورائها . وهو إشاعة الانحلال ، ودفع الإنسانية إلى الدمار الأخلاقي .

من هنا يجد الشباب في صيحات سارتر ، والبير كامي أصداء مشاعر تطوف بالنفوس ، ثم لا تجد لها طريقاً إلا نحو العنف والإباحة ، وتدمير القوى الإنسانية . وتدور الوجودية حول عدة مفاهيم تصدر أساساً عن العقل المكدود ، والنفس القلقة ، ولا تصدر أيضاً عن الإنسان في طبيعته الأصيلة ، ولا فطرته السليمة . وتتلخص هذه المفاهيم في هذه الصيحات :

إن الحياة بلا معنى ولا هدف . وإن العالم وجد كي يموت فيه الإنسان . وإن الفكر محكوم عليه بالوحدة . وإن الإنسان محكوم عليه بالقلق . وما دمنا سنموت ، فليس لأي شيء معنى ؟ وإن مغامرتنا البشرية لا جدوى لها، اليوم كالغد ، والغد كبعد الغد ، وإنه لا طعم لشيء ، ولا لذة لشيء ، ولا أمل في شيء ، ولا يأس من شيء .

هذا العالم وُجِدَ بلا داع ، ويمضي لغير غاية . يولد كل مولود بدون سبب عقلي وبلا داع ،وتمتد حياته بواقع من الضعف ، ثم يموت بالمصادفة . العالم كله خداع في خداع . إننا موجودون بلا سبب عقلي . والعالم يمضي إلى غير غاية .

## ٢

يمكن القول بأن الوجودية : هي إحدى محاولات الفكر الغربي في فهم الحياة فهماً منفصلاً عن الدين والأخلاق ، في نطاق النظرية المادية . وهي تنطلق من نفس منطلقات الفكر الغربي القائم على الانشطارية ، فحيث ترى النظرية الماركسية ، تحل مشكلة الحياة في مجال الاقتصاد . ترى النظرية الفرويدية . تركز على مجال النفس ، وترى نظرية ، سارتر ، تقف عند الرفض المطلق لكل القيم الروحية والعقائدية كحل في سبيل القول بحرية الإنسان .

ولا ريب أن استعلاء نظرية فرويد في التركيز على الغريزة الجنسية وتشابكها مع نظرية ليفي بريل . في القول بأن الأخلاق ليست ثابتة ، قد فتح الباب واسعاً . أمام إسقاط جديد تنحل معه الضوابط والمقومات التي تفصل بين الخير والشر . وبذلك اندفعت النفس البشرية اندفاعاً خطيراً ، إلى مجال الخوف والذعر ، والضياع ، وقد حسبت أن اندفاعها لتحقيق مطامعها وأهوائها وشهواتها ، وكسر كل القيود والحدود ، سيحقق لها السعادة ، أو الطمأنينة أو اللذة .

وتعد الوجودية ثمرة هذا التطور الخطير نحو الانحلال . وقد وصفها الدكتور حامد عمار (١) بأنها مرض العصر ،يقول : زعم فرويد أن دوافع الناس ، والظواهر النفسية المختلفة تنبع من الطاقة الجنسية المستقرة في اللاشعور ، والإنسان في نظر هذه المدرسة ( مدرسة فرويد ) إنما هو حيوان بشري تسيره غرائزه ودوافعه الفطرية .

وقد صادفت آراء فرويد هوى في مجال الطبيعة الوسطى في المجتمع النمسوي في أواخر القرن ــ١٩ــ ثم اتخذت هذه الاتجاهات بعد الحرب الأولى .

---

١ ــ ك . بعض مفاهيم علم الاجتماع .

أداة لتفسير سلوك الإنسان ، ثم كانت محنة الحرب الثانية وما أتت به من وسائل الدمار والفتك تجربة بشرية قاسية أقسى بكثير من الحرب العالمية الأولى . وخاصة في أوروبا . وفي مثل هذه الظروف كان الجو السيكولوجي ملائماً لظهور أفكار الوجوديين ، وتفسيراتهم التشاؤمية . هذا الوجدان القلق عند الإنسان الذي يشعره بأن الكون سائر نحو العزلة والوحدة والعدم ( هيدجر ) هذا الشعور المرضي (من المرض ) الذي يشبه الغثيان على حد تعبير (سارتر ) . وهذا العالم الذي نعيش فيه ، عالم هش قابل للانكسار السريع والتحطيم المروع . وإذا كان لنا أن نسأل عن القوى التي صنعت الحربين العالميتين ، والتي أفادت منهما ، والتي خططت لهما لتحقيق غاية من ورائهما بالذات ، ومن نتائجهما وأثرها في البشرية بعد ذلك ، إذا كان لنا أن نسأل وجدنا الإجابة واضحة . فإن مخططات التلمودية ممثلة في الصهيونية العالمية هي التي صنعت كل ذلك . فهي مسعرة الحرب ، وفي نفس الوقت صانعة الدعوات والمذاهب .

ولا ريب أن هذا اليأس والتمزق الذي تكشف عنه الوجودية في منهجها ، وفي تصرفات أتباعها ، يدل على الانقطاع الكامل عن كل مصادر الإيمان بالله ، ومصادر الخير والرحمة والحب والإخاء البشري ، وكل هذه القيم الإنسانية العليا التي يقوم عليها نظام المجتمع والحياة .

إن اليأس من رحمة الله ، والانفصال عن الإيمان بالله ، والاندفاع وراء المادية الجافة قد ولد في النفوس هذا الخواء الروحي والفراغ . وإن المحاولة بدأت منذ وقت بعيد . وانتقلت بين الأجيال حتى وصلت إلى نقطة وصفها ( كامي ) بالغثيان .

وقد وصفت الوجودية بأنها مرض الإنسان في منتصف القرن العشرين . وبأنها مرض العصر ، وهي في مجملها : الملل والقلق والسأم والضياع والتوتر والشعور بالاغتراب .

ولا ريب أن هذه الصيحة كان يمكن أن تمضي ، ولا تترك هذه الآثار البعيدة

في العالم كله . لولا وجود قوى خفية تحيطها وتدفعها الى الامام حتى أن كتاباً يصدر في باريس بالفرنسية عنها تصدر طبعته بالعربية في نفس الوقت في بيروت.

ويتساءل البعض لماذا نجحت الوجودية في أوربا . وفي بعض أجزاء من العالم . والإجابة معروفة. يرجع ذلك إلى اعتناق المذهب المادي ، وما يتصل به من دعوة إلى الانحلال . والوجودية ثمرة النزعة الفردية أيضاً،وتجري محاولات دائبة لتجديدها كلما ضعفت أو سقطت ، حتى لقد وصف أحدهم القرن العشرين بأنه قرن سارتر ، وأن سارتر هو إعصار ، وأن الوجودية هي مصدر كل القلاقل والاضطرابات التي حدثت في هذا القرن .

## ٣

إن دراسة يسيرة لحياة سارتر تكشف عن الخلقية التي تقف وراء هذه المفاهيم . ذلك أن مفاهيم سارتر التي أطلق عليها اسم « الوجودية » . لم تكن إلا صدى مشاعر نفسية . يقول سارتر : في كتابه الكلمات « لقد صنعت ذاتي لأني لم أكن ابناً لأحد » .

وسارتر : يعرف بأنه حين وعى نفسه لم يكن له أب ، ولا أم ، ولا أسرة . فقد مات أبوه وهو في شهره الثالث ، أما أمه ، فكانت ممسوخة الشخصية ، ولم تشعره أبداً بحنان أمومتها . ولم تكن الأسرة تتعدى جدين عجوزين يؤذيانه هو وأمه ، ويشعرانهما بالمهانة .

وكانت نظرة سارتر إلى البشرية نظرة مليئة بعطف مشوه . أساسه الاحتقار . وأراد أن يؤكد ذاته . فأنكر الكنيسة ، وحاول أن يكون له رسالة ، وهو الطفل المنبوذ في مجتمع الأطفال العاديين ، فأنشأ الوجودية .

ويرد كثير من الباحثين تمرد سارتر إلى مفاهيم المسيحية الغربية التي لم تستطع أن تسعد نفسه ، أو تعطيه الإحساس العميق بذاته . ومن الجوانب التي كانت مصدر ثورته وتحدياته أن الحياة لم تكن

بذات قيمة في نظر أهل مجتمعه ، وكانت هناك فكرة الخطيئة ، وكانت هناك محاولة تحرير الجسم الانساني من كل رغبة وشهوة . وان ذلك كله قد دفع الناس إلى انتظار مملكة في غير هذا العالم . وعزلة ورهبانية بعيدة عن المجتمع في قلب الصحراء . هذا هو التحدي الخطير الذي واجهه سارتر في حياته . فكانت من ثم فلسفته متأثرة بكل هذه العوامل . وقد صورت ، سيمون دي بوفوار : سلوك سارتر في الحياة ، فقالت : كان يكره الحقوق والواجبات ،وكل شيء رصين في الحياة . وهو لا يكاد يفهم أن له مهنة وزملاء ورؤساء وقواعد تراعي وتفرض ، ولن يكون أبداً رب أسرة ، حتى و لا رجلا متزوجاً . ولم يكن سارتر يرى في الزواج شيئا عظيماً . كان فوضوياً أكثر منه ثورياً — كان يجد المجتمع على ما كان عليه شيئاً محتقراً . وهكذا نجد سارتر خصماً للدين على النحو الذي عاشته أوربا . ومنه امتدت خصومته إلى كل قيم العقائد والأخلاق ، وهو في هذا شبيه ، بفرويد ، وماركس . في دعوتهم الصارخة إلى هدم مقررات الدين . والحقد الدفين على الكنيسة .

ومن هذا المنطلق ، وجدت الأيدلوجية التلمودية واحداً من أهدافها في محاربة الدين بالفلسفات ، على نحو أدركت به ثأراً ، تطلعت اليه زمناً طويلا . وقد أُطْلِقَ على الفلسفة الوجودية : اسم الفلسفة الانحلالية . أو فلسفة العدم وهي تجتمع مع الفلسفات المادية في إنكار ما وراء المادة ، وتختلف معها في الدعوة إلى احتقار الحياة.

ولا ريب أن قادة الدعوة الوجودية كانوا جميعاً من الشواذ ، وكانت حياتهم الخاصة مليئة بالاضطرابات (كيركجورد — جابريل — مارسيل — هيرجرد — سارتر ) ولقد ظلت الصفحات التي كتبها كيركجورد . نحو مائة سنة مغمورة . حتى أخرجتها اليهودية التلمودية في أوائل هذا القرن ، واذاعتها وترجمتها .

وقد أعلن هرجرد حرباً لا هوادة فيها على الإيمان المسيحي كله ، متابعة لحملة أشد عنفاً شنها « نيتشه » وقد أشار المؤرخون وكتاب السيرة إلى

انحرافات أساسية في شخصيات فرويد ونيتشه . أما كيركجورد فقد كانت أمه خادمة عاشرها أبوه سراً ،وكان هو أحدب. مما ضاعف علته النفسية ، وكان ذلك يزيد شعوره بالنقص . فاعتزل المجتمع ،وعاداه . وكانت مؤلفاته العشرون هجوماً عنيفاً على معتقدات مجتمعه الدينية ،وهدماً للكنيسة، وتدميرا للفكرة المسيحية ،ودعوة إلى الناس بعدم الإيمان إلا بأنفسهم . ومن هنا أصبحت الوجودية حرباً سافرة على الأديان كلها .

## ٤

أخطر ما في الفلسفة الوجودية دعوتها إلى نفي الألوهية . وإلى عبادة الذات ، فهي تدعو الإنسان إلى أن يستمتع بوجوده كل الاستمتاع . ويطلق لحريته العنان ، فيحقق لنفسه أكبر نصيب من المتع والملذات .

ويبدو موقف سارتر من الألوهية مشوباً بفهم خاطىء مستمد من الفهم القائم على الوهية الإنسان . ولذلك فهو يدعو إلى تأليه كل إنسان — ولو فهم سارتر « الألوهية » بمعناها الحق : معنى الإله الأعظم . الذي لم يلد ولم يولد — والذي لم يتصل بأحد . وليس لأحد أن يتصل به على أي نوع من أنواع الاتحاد ، أو الحلول ، أو وحدة الوجود ، لكان له موقف آخر .

أما نظرية تأليه الإنسان التي دعت إليها الفلسفات اليونانية ومارستها عقائد ونحل أخرى ، فإنها قد فتحت باباً واسعاً للدعوة إلى عبادة الإنسان ، وتأليه كل إنسان .

وفي رواية الذباب يخاطب سارتر (رب الأرباب) جوبيتر ، فيصفه بما عرف في الفلسفة اليونانية من مفهوم خاطىء عن الله . فيقول : ما إن خلقتني حتى انفصلت عنك ، وتخليت عن نسبتي إليك الخ . وهذا مفهوم بعيد كل البعد عن مفهوم الإسلام لله سبحانه وتعالى الذي يختلف عن نظرية الأبوة ، والذي يقوم على مفهوم « العبودية » .

وقد وصف بعض الباحثين « إلحاد سارتر » بأنه إلحاد يتصف بميزة

غالبة على الإلحاد الحديث . وهي : أنه ليس مجرد إنكار لله ، بل هو أبعد من هذا ، إنه يضع الإنسان في مواجهة الله ، أو يعلن تجاهله لوجود الله عز وجل ، على حد قوله « الإله موجود فالإنسان عدم » .

ويستمد سارتر مفهومه هذا من نيتشه ، ومن المصادر الوثنية اليونانية القديمة . ولا ريب أن سارتر ونيتشه متأثران أبلغ التأثر باضطراب مفهوم الألوهية السائد في الفكر الغربي . قبل عصر النهضة . ولو أن الفكر الغربي تقبل فيما تقبل من الفكر الإسلامي حين نقل المنهج العلمي التجريبي : مفهوم الإسلام في الألوهية . لكان هناك اختلاف كبير في اتجاه الفلسفة الحديثة ، ذلك أن الإسلام لا يقر القول القائل : بأن الله صنع الإنسان على صورته . وهو قول لا يؤيده القرآن، ولا شيء من السنة النبوية الصحيحة . وهو قريب من مفاهيم الغنوصية القديمة .

« وَمَا قَدَرُوا اللهَ حَقَّ قَدْرِهِ » . وليست فكرة تسلط الإله على البشر في مسرحية الذباب ، إلا صورة من الفلسفة اليونانية وهي فكرة زائفة . والعودة إلى إحيائها رجوع بالبشرية القهقرى بعد أن صحح الإسلام مفاهيمها في علاقة الله بالإنسان ، وهي علاقة الرحمة والعفو . كما ترتبط الفلسفة الوجودية بالخطيئة التاريخية .

يقول الدكتور محمد غلاب : إن منشأ القلق، بل الغم أحياناً ، عند أولئك المفكرين . هو أن المسيحية لا تقدم ترضية تامة إلى مطالب العقل الذي يتوق إلى فهم كل شيء ، بل إن العقيدة التسليمية كثيراً ما تتطلب تخلي الفكر عن رسالته ، لأن بعض مبادئها يصطدم مع العقل الذي لم يُعد لقبولها . قال باسكال : إن الخطيئة العنصرية هي في نظر الناس ضرب من الجنون ، ولكن الدين يقدمها على هذا النحو . وإذن فيجب أن تأخذوا عليه عدم تأييد العقل لهذه العقيدة لأنه يقدمها بدون مسوغ .

# ٥

تبدو الفلسفة الوجودية ، كأنما هي مواجهة للفلسفة الماركسية : انها تدعو إلى التضحية بالمجتمع في سبيل الفرد في مواجهة تحديات الماركسية القائلة بالتضحية بالفرد في سبيل المجتمع .

ومن ذلك قولهم : الفرد يعيش ضمناً في الماركسية ، ويعيش أصلا في الوجودية . وهي بالرغم من دعوتها إلى رفع قدر الإنسان ، فإنها تعامله في نطاق الفلسفة المادية . تعامله على أنه حيوان مادي ، له غرائز وأهواء ، وتغضي إغضاء كاملاً عن جوانبه الروحية والنفسية والفكرية . وهي دعوة إلى الانطلاق المتحرر من كل قيد ، أو ضوابط ، أو قيم . وتقوم أساساً على إنكار الألوهية ، وإنكار البعث والجزاء والأخلاق ، وهي تنطلق أساساً من فكرة خطيرة هي « اليأس من الحياة » ، وتواجه المسيحية والفكر الديني الغربي والكنيسة مواجهة خطيرة . وقد وصفت الماركسية الوجودية بأنها دعوة إلى نشر تعاليم الفوضوية العقلية والخلقية ، واحتقار العلم والأخلاق (١) .

وقد وصف الدكتور روجيه جارودي الوجودية على هذا النحو : الوجودية فلسفة الاستعمار . فلسفة هدم لابناء — فلسفة تدمير للشخصية الإنسانية — فلسفة إسقاط النفس الإنسانية في مجالات اللذة والشهوات ، بحيث تصبح غير قادرة على الدفاع عن نفسها أو تركيز وجودها — فلسفة مادية . تستهدف الاستمتاع السريع ، وخشية الموت .

ولقد عارض النظرية الوجودية . مفكرون غربيون كثيرون . وحصروا أخطارها في عدة نقاط أساسية :

أولا : انها تجعل الإنسان في عزلة عن الجماعة .

---

١ — مادة وجودية في القاموس السوفييتي

ثانياً : انها تستطيب إبراز القبيح من جوانب الطبيعة الانسانية، وتدعو إلى الانحلال .

ثالثاً : انها تبطل الأوامر الإلهية ــ وتنكر القيم الخالدة .

رابعاً : انها تدعو إلى اليأس المطلق . والتشاؤم الكلي ، وتدعو إلى هدم الحياة.

خامساً : انها دعوة إلى التمرد على الواقع والقيم جميعاً ترفض كل ما يتصل بالغيبيات والنفس الانسانية وتقف عند الايمان باللحم والدم .

سادساً : انها تنكر محصول البشرية من القيم والتجارب ، وتدعو إلى أن يبدأ الإنسان من جديد .

سابعاً : تحتقر العلم والدين والأخلاق .

ثامناً : ليس فيها نقطة واحدة تفتح الطريق أمام التقدم ، أو بناء الحياة ، أو العمل من أجل مجتمع أفضل .

تاسعاً : هي فلسفة موغلة في الفردية . تنكر الحقيقة الموضوعية للواقع الإنساني .

عاشراً : الأخلاق الوجودية هي الأخلاق المريضة : القلق ، والقنوط ، والتشاؤم ، والرغبة في الموت، والغموض ، والأنانية المفرطة .

حادي عشر : الدعوة إلى جدية اليأس والتحريض على الانتحار (١) .

ثاني عشر : تقويض المجتمعات ، وهدم الأمل والخلق ، والغيرة ، ومعارضة الشجاعة والتضحية .

ثالث عشر : دعوة إلى التحلل من القواعد الأخلاقية .

وقد عارض الباحثون هذه المفاهيم ، وكشفوا عن زيفها ، وأعلن الكثيرون في صراحة أن الوجودية : ظاهرة زمنية عابرة لن يلبث الانسان أن يتخطاها وهي ليست روحاً Essence (٢) .

---

١ - يقول كامي : ليس ثمة إلا قصة واحدة تتمتع حقاً بصفة الجد . وهي قصة الانتحار .
٢ - جاك برك .

# ٦

لا ريب أن الدعوة الوجودية غريبة عنا ، وعن مجتمعنا ، وعن قيمنا كل الغرابة ، ذلك لأنها نتاج تحديات وظروف ومواقف مختلفة تماماً . وهي في مجموعها لا تمت إلى مفاهيمنا بسبب ،وهي ثمرة مجتمعات معينة في ظروف معينة . ونحن نعرف أن الفكر الغربي كله يمر في هذه السنوات بأزمة عاصفة ، ويواجه تحديات خطيرة . وأن الصهيونية العالمية ، من خلال أيداوجيتها التلمودية قد احتوته تماماً ، وصرعت فيه كل قوة، وكل خير ، وهدمت دعائمه الأخلاقية، وعزلته عن مفهوم الدين الحق عزلاً تاماً .

ومن عجب أن الكثيرين في بلادنا يفهمون هذه الحقيقة ، ولكنهم ينظرون إلى هذه الدعوات من خلال مظاهرها البراقة الخادعة ، بينما تجاوزتها مجتمعاتها لفسادها ولأنها وجدتها معارضة تمام المعارضة للفطرة والطبيعة الإنسانية ، وقيم الإنسان العليا . إن الوجودية ثمرة أزمة الإنسان المعاصر . صريع النظرية المادية . التي أعلت من شأن الشهوات والأهواء واللذات ، وفتحت الطريق أمام الغرائز ، بعد أن هدمت جدار الضوابط والحدود والقيم .

وأبرز معالم فكرنا، وحضارتنا ومجتمعنا : هو ذلك الترابط بين الروح والمادة ، والتوازن بين الدنيا والآخرة في إطار التوحيد الخالص لله . والإيمان بالبعث والجزاء . والدين جزء من مجتمعنا وفكرنا ونظمنا المختلفة . والأخلاق قاسم مشترك على التربية والاجتماع والسياسة والاقتصاد .

# الفصل الثالث

## الهيبّيّة

### ١

الدعوة الهيبية هي آخر ثمرات التطور الذي بلغته المجتمعات المعاصرة في طريقها الذي اختطته في ظل المذاهب المادية . وفي معارضة كل ميراث الإنسانية من القيم والضوابط والأخلاق والعقائد . إن الدعوة الهيبية تنطلق من القول بأن الإنسان المعاصر يشكو القلق والتمزق ، وأنه لا يجد الإجابة على أسئلته ، ولا يستطيع أن يفهم سر وجوده . وأن هذا كله قد أسلمه إلى غربة قاسية ، ولا ريب أن هذه الصيحة التي تسود المجتمعات الغربية بالغربة والخوف من المجهول . قد باتت مصدر صدع كبير في بناء الأمم . وأمسى الناس يعيشون بالرغم من كل ما يحوطهم من عوامل المتعة واللهو في فراغ نفسي ، وفي وحشة وانفصال .

لقد فشلت كل الأيدلوجيات والأنظمة والمذاهب التي حاولت أن تقدم للإنسان منهجاً للحياة . لأنها إما قد اعتبرت أزمة الإنسان أزمة معدة وطعام في الأغلب . أو أنها أطلقت الغرائز إلى غير ما نهاية ، ودفعت الناس كالكلاب المسعورة وراء الأهواء واللذات . ثم عاد الإنسان من رحلته هذه ، وتلك ، بإحساس عجيب . لقد أصبح غريباً في مجتمع صاخب يضج بالمغريات والمتع .

والجواب هو شيء واحد : انه فقد لذة الإيمان ؛ عطاء الروح ؛ صمام الأمن في سكينة النفس ، فقد روح الحرية الحقة والثقة والتماس الرحمة من مصدرها الوحيد . وقد حاول الباحثون استقصاء مصدر الدعوة إلى الهيبية ، وهي آخر صيحات التحرر والانطلاق من كل القيم والضوابط والقيود ، فلم يجدوا إجابة لها أكثر من : الغربة .

يقول كولن ولسن في كتابه الغريب (١) : الغربة مرض تمتد جذوره إلى بعيد ، وهو مرض متصل بتصدع الذات وانشقاقها . نتيجة لعدم تولؤمها ، أو انسجامها مع المجتمع الذي تعيش فيه . والغربة المعاصرة تختلف عن الغربة التي عرفتها العصور الماضية . فقد كان الغريب برغم حيرته وشكه ، لا يفقد الإيمان ، ولا ييأس من الوصول إلى الحقيقة . أما الغربة الحالية : فهي غربة إنسان عاجز عن الإيمان بوجود أي شيء . وكان الغرباء قديماً يحاولون تحقيق الانسجام ، والمواءمة مع العالم بالرغم من خلافهم معه . أما الغرباء المحدثون فإنهم يرفضون المجتمع رفضاً كاملاً وينفصلون عنه انفصالاً تاماً .

ويرد الباحثون ، ومنهم كولن ولسن الأزمة إلى أصولها القديمة ، منذ دعا نيتشه دعوته إلى بناء المجتمعات على أساس القوة ، والأقوياء ، وقتل المرضى والضعفاء بلا رحمة .

وتجيء القصص والروايات كلها ، لتحمل هذا الطابع المظلم الذي يستمده الفكر الغربي من الخطيئة الأولى .

فهذا ديستوفسكي في روايته يرسم صورة ايفان الذي يقول ان فكرة الألم فكرة مستبدة بهذا الكون متغلغلة إلى أعماقه ، ومن العسير استئصالها .

ويرى ولسن أن هذا الطابع الذي طغى على الأدب الغربي إنما يتلخص في عبارة واحدة : إنها فكرة الإنسان الذي فقد إيمانه بالله ، ولم يجد ما يعوضه

---

١ — انتفعنا بالنصوص التي ترجمها الأستاذ . دكتور محمد زكي العشماوي في كتابه ( الأدب وقيم الحياة المعاصرة ) .

عن هذا النقص . إنها أزمة العقل المسيطر على الإنسان .

أضعف العقل الصرف مركز الإشعاع العاطفي في الإنسان ، وهو العقيدة الدينية .ثم جاءت بعد ذلك التطورات الخطيرة ممثلة في ( فرويد.وماركس . وليفي بريل . ودوركايم . وسارتر . ) وكلها تحطم الإنسان من حيث هو إنسان وتدفعه من حيث هو غريزة ولحم ودم إلى الانطلاق نحو مطالب الجنس واللذات ، ومن هنا فقد أصبح عارياً تماماً . وأصبح جزءاً من كل . قد غطي بأغشية تحول بينه وبين الحياة . لقد وضع كيانه الوجداني وإحساسه النفسي وطموحه الروحي موضع التجميد والإنكار والكبت الحقيقي . فعاش برئة واحدة . فكان لا بد أن يحس بالغربة والغثيان والتمرد والقلق . لأن قوة حقيقية موجودة في أعماقه ، قد أصبحت حبيسة . بينما أطلقت القوة الأخرى ، وكان التوازن والمواءمة الطبيعية بين قوى الإنسان الجامع بين الروح والمادة هي عامل الحياة الحقيقي .

هذه هي الأزمة الحقيقية وراء الدعوة الهيبية ، التي تجتاح أجزاء كثيرة من العالم اليوم بغرابة تصرفها ، وخروجها على قيم المجتمعات ، وعودتها إلى أخلاق الغابات وطبائع الأدغال . إن هناك نزاعاً في الأعماق بين الواقع المادي الصرف وبين هـــذه القوى المحبوسة . لقد تحولت الحياة في المجتمعات الغربية من النقيض إلى النقيض . كانت العصور الوسطى . وسلطان الكنيسة يحبس الكيان المادي ، ويدعو إلى الزهادة والرهبنة ، واعتزال الحياة، وإنكار النوازع الفطرية الأصيلة في النفس ، الراغبة إلى الممارسة والتنفيس .

فلما كسر هذا القيد ، بلغ الإنسان أقصى المدى من الناحية الأخرى ، فحبس العواطف والروحانيات، وأطلق الأخرى ، ودعا إلى وثنية وإباحية عاصفة .

ومن هنا فإن أزمة الإنسان الحديث ، هي نفس الأزمة القديمة . ولكن على المحور الآخر . لقد عجزت الفلسفات والمذاهب والأيداوجيات أن تعطي الإنسان : التوازن ، والاعتدال ، والتكامل والوسطية والمواءمة . بين عنصرين

حقيقيين في الإنسان . لا سبيل إلى تجاهل أحدهما أو إعلائه على حساب الآخر .

إن حجب الجسم عن غرائزه الفطرية الطبيعية ليس أقسى من حجب الروح عن غاياتها الأصيلة . وكلاهما شر خطير مدمر . والإسلام في هذا يمثل الاصالة والفطرة . ويكشف عن أنه من عند الله حقاً ، خالق الإنسان ، والعارف بجوهره وطبيعته . فالإسلام يقرر وجود الإنسان روحه ومادته ، غرائزه وأهواءه، ثم معطياته العليا.وهو يفسح لهمجال ممارسة هذه وتلك ويضع لهما معاً ضوابط تحول بينهما وبين الإسراف والجمود . فالإسلام لا يقر الرهبانية ولا يقر الاباحية في نفس الوقت . ولكنه يدعو إلى أسلوب وسط فيه مزيج هادىء، ومن خلال ضوابط تحمي النفس الإنسانية والجسم الإنساني من أن ينهار . إذا فرض عليه أحد الخطرين : إعطائه الحرية المطلقة حتى يتحطم وينهار . أو إعطائه الرهبانية حتى يفسد ويذبل . ومن هنا نشأت الغربة، وشكلت أخطر أزمة تواجه الإنسان الحديث .

إن الحلول التي وصفها البير كامي ، وسارتر . لم تستطع أن تحل هذه الأزمة . بل زادتها حدة . فقد انطلق الوجوديان من منطلق مادي صرف ؛ ان الدعوة إلى التحرر من القيم المتوارثة ، إنما هو دعوة إلى التحرر من الدين ، ومن العقائد ، ومن الإيمان بالله . وهو لا يحل المشكلة ، بل يزيدها تعقيداً . وهو لا يهدي إلى ضوء ، ولكنه يدفع إلى مزيد من الظلام .

إن الإحساس بالقلق المبهم الغامض الذي استبد بإنسان العصر لم يكن إلا نتيجة سيطرة المادة ، وسيطرة الدعوة إلى تأليه العقل وتقديسه، وتسخير العلم في إشعال الحروب . وليس هناك سبيل للوصول إلى حل إلا بالعودة مرة أخرى إلى الحقائق الأصيلة التي عرفتها البشرية ، منذ نشأتها ، واهتدت بها . العودة إلى الفطرة ، إلى الدين الحق . ليست المادة هي كل شيء ، وليس العقل إلا جهازاً من أجهزة كثيرة ، أعطيها الإنسان لبناء حياته . وليست الحضارة في خدمة الحرب والدمار ، وإنما هي في خدمة البشرية ، ودفعها إلى التقدم بمفهومه الكامل . التقدم المعنوي والمادي معاً . ولذلك فإن الطريق

الصحيح : هو التحرر من القيم الزائفة البالية التي استحدثتها المذاهب المادية .

يقول الدكتور مصطفى بدوي (١) : إن أزمة الإنسان الحديث . هي أزمة الإنسان الحساس العاقل الذي فقد إيمانه بالله، ولم يجد بعد ما يسد حاجته العاطفية التي كان الإيمان مركز إشعاعها . وهي أزمة لعب العلم ، والتفكير العقلي فيها دوراً بالغ الأهمية أدى في نهاية الأمر إلى ضعف العقيدة الدينية . وهي أزمة كانت إحدى نتائجها الغريبة : إشهار الإفلاس العقلي والتفكير العقلي .

ويصل كولن ولسن (٢) : إلى نفس النتيجة تقريباً حين يدعو إلى استنباط موقف ديني ، ويدعو إلى تحقيق اتساق وتوازن بين قوى الإنسان الثلاث : الجسم ، والعقل ، والعاطفة . لأن الإنسان وحدة لا تتجزأ يقول :

( ليس الانسان بقادر على أن يجلو عن نفسه ما يعتريه من صدأ ، أو ما يغلف إحساسه من سماكة ، إلا إذا ظفر بشيء من السلام النفسي ، والهدوء الروحي . إن التأمل الروحي قد يؤلف بين الإنسان والوجود ، وإن هذا التأمل قادر على أن يحرر العقل من سلطان المادة . ويجعله ينمو مع ما ينمو حوله من عناصر الطبيعة . عند ذلك سوف يكون لكل شيء معنى روحي .

فالأرض ، والماء ، والنور ، والثمار ، والأزهار . لن تُصبح في هذه الحالة مجرد ظاهرات طبيعية يستفيد منها الإنسان ، حتى إذا بطل نفعها بطل التفكير فيها ، ولكنها تصبح أشياء ضرورية في تحقيق الوحدة بين الإنسان والوجود ) .

ويرى ولسون أن أزمة الغريب فقدان الايمان ، يظل فيها على حال من القلق. والتململ والعذاب. حتى يظفر بشيء يشبع عنده عاطفته الدينية المفقودة . عندئذ سوف لا تبقى النظرة إلى الشر هي الغالبة في تفكير الغريب .

ويرى ولسون أن الاعتماد على التفكير العقلي المجرد ليس بقادر على حل مشكلة الغريب، فإن ثمة امكانيات أخرى في الإنسان . لا بد من استغلالها ( هي

---

١ – مجلة كلية الآداب ١٩٥٨

٢ – قصته « الغريب » .

( الإرادة والعقل والعاطفة ) . وأن الغريب الذي ضعفت عنده العقيدة الدينية نتيجة لسيطرة التفكير العقلي الصرف الذي هو ظاهرة عامة في حياتنا المعاصرة . بحاجة ماسة إلى ( بديل ) ليشبع عنده العاطفة الدينية ، ويجد عندها الملاذ الذي يبحث عنه . وهو يدعو إلى تحرير الإنسان المعاصر أولاً وقبل كل شيء — وهو بالطبع يقصد الانسان الغربي — من معتقدات وهمية كثيرة أهمها فكرة الخطيئة الأولى ، التي تسيطر على الإنسان المسيحي ، والتي تقف حائلا بينه وبين رؤية الحقيقة .

ويرى أن على الغريب أن يتخلص من الخطيئة الأولى ، لأنها في حدود فهمه لها هي ما يحجب الحقيقة عن روح الانسان .

وإذا كان كولن ولسون قد أصاب الحقيقة ، فإنه أخطأ العلاج حين دعا إلى « رؤيا صوفية » وإلى إحلال الإرادة محل الايمان ، وحين اتجه إلى الفلسفة الهندية القديمة ؛ يطلب منها العطاء الذي يمكن أن يعطي للانسان المعاصر في أزمته ترياقاً شافياً . وتلك هي محنة الفكر الغربي الذي تسيطر عليه مخططات الأيدلوجية الصهيونية التلمودية . فإنه حين يبدو أن الإنسان الحائر قد وجد مشكلته . فإنه سرعان ما يدفع به إلى متاهة أخرى . وماذا عليه لو أنه وجه الحائرين إلى الإسلام ، وفيه وحده العطاء الحقيقي . إن الفلسفة الهندية القديمة التي ستعطي الإنسان المعاصر في أزمته علاجاً ، لن تعطيه إلا دورة جديدة من دورات الحيرة والقلق والغربة حين يقظته . وحدة الوجود والحلول والاتحاد . ومفاهيم وثنية أخرى لا تقل خطراً عن مفاهيم الوثنية الإغريقية ، التي صنعت أزمته . وأسلمته إلى مكان « الغريب ». إن الفلسفة الهندية سوف تعطيه مزيداً من الغربة والحيرة ، ولن تعطيه الإرادة . التي شاء أن يدعو إليها كولن ولسون ، ولن تعطيه حقيقة الإيمان وجوهره الذي لا ينطلق إلا من خلال إيمانه بالله الواحد الأحد . الذي لا شريك له ، خالق كل شيء ، الكون والإنسان . من الحق أن نقول إن ولسون وغيره قد خطوا خطوات واضحة في دعوتهم إلى التحرر من سلطان العقل ، والمادة ، والخطيئة الأولى . ولكنهم لم يستطيعوا مع الأسف

تجاوز الخطر . أو استيعاب أسباب الأزمة . ذلك لأنهم يتطلعون من منطلق الفلسفة المادية أيضاً .

إن هذا الطابع المتجهم الحامل للتشاؤم ، الغارق في مفاهيم الألم والقسوة والانتقام والحرية والضباب المخيم ، إنما يعود إلى مفهوم الغرب الخاطىء لنهاية الأبطال التراجيدية . التي تتمثل في الصراع بين الآلهة . وبين الإنسان ، والتي تستمد وجودها من ارتباط الفلسفات بالآثار التي تركتها العقائد القديمة . والتي لم تستطع أن تفصل فصلا محكماً بين الله الواحد الأحد وبين الانسان والعالم . والخطأ الذي اتصل بتحول الإنسان إلى إله . وعبادة الأبطال وتحويلهم إلى آلهة وأنصاف آلهة مما يغرق فيه الفكر الغربي . فلا يستطيع معه أن يجد سبيلا إلى رؤيا مشرقة قائمة على الأمل في الله . مضيئة بالرحمة والسماحة والأخوة . بعيدة عن قسوة نيتشه، وعبادة الفرد ، وتصور الكون على أنه الله . ومفهوم الخطيئة . وما يجره من آلام وقسوة لا تنتهي . إن الإنسان ليس الموجود الوحيد . ولكنه خلق الله ، وعبد الله ، وهو مستخلف في الأرض ، في امتحان لقدرته على أداء الأمانة . ومن خلال الضوابط التي أحكمت حماية له . وحماية للمجتمع . ورفعاً له عن مكانة الحيوان ، وتكريماً له بالجمع بين الروح والمادة ، والقلب ، والعقل ، والدنيا ، والآخرة . ولا ريب أن مفاهيم الفلسفات الوثنية القديمة حين اختلطت بالعقائد . قد أعطت صورة مظلمة لمفهوم الله . والكون والإنسان . فلما جاء العقل الناقد . وقف من هذه المفاهيم موقف الانكار . وأحس بعجز هذه العقائد عن العطاء الحقيقي ، وتلك أزمته الحقيقية التي دفعته إلى إنكار الله . وإلى الشك في كل رحمة وفضل . وهذا هو الذي زلزل إيمان الناس . وأفسد عقائدهم . وكان عجزهم عن معرفة الدين الحق . وتعصبهم إزاءه ، وخصومتهم له مصدراً من مصادر الاضطراب الذي ما زال يملأ القلوب ، وما تزال المتاهات تفتح أبوابها لهم ، لتدفعهم من وثنية الإغريق إلى غنوصية الشرق

القديم ،فلا يخلق ذلك إلا مزيداً من التضارب والغربة والغثيان.« وأن هذا صراطي مستقيماً فاتبعوه ولا تتبعوا السبل فتفرق بكم عن سبيله » . إن أبرز ما أعطاه العقل في رحلته بلا دليل ، وفي استعلائه وتفرده ، و التمرد على نواميس الكون ، وسنن الطبيعة البشرية، ومحاولة خرق هذه السنن والنواميس بإنكار الله ، والتماس طرق وأساليب ما زالت تتساقط واحدة بعد أخرى . عاجزة عن أن تهدي النفس البشرية إلى أي حق . أو تفتح لها أي كوة من ضوء .

## ٢

إن صيحة اليوم في مواجهة القلق والغربة هي : أن كل ما حاولت البشرية أن تحققه في رحلتها الطويلة إلى البحث عن الحقيقة ، قد أخفق ، لم تفلح الفلسفة . ولم يفلح العلم ، ولم يفلح التاريخ. لقد ألقى العلم جميع إمكاناته ومقدراته معترفاً بالعجز أمام الأسئلة الأبدية المطروحة : لماذا نحيا حتى العلم نفسه باعتباره آخر درع قد أخذ في السقوط . إذا كانت الفلسفة عاجزة ؟ والتاريخ عاجزاً والعلم قد عجز فأين المفر ؟ وما هو الطريق ؟ هذه هي الصيحة اليوم فيما أسموه مجتمع غربة الإنسان . هنا يجيب ( ماركوز ) فيلسوف الصهيونية الأكبر فيقول : ان مجتمع غربة الإنسان يجب أن يزول من التاريخ ، لأننا نصنع عالماً جديداً . وهذه هي نفس الإجابة التي حملتها الروحية الحديثة . وهي نفس الإجابة التي حملتها البهائية .

إن ( ماركوز ) يرى أن الرأسمالية ، والماركسية ، كلاهما قد أخفقتا . وأن الطريق ممهد أمام النبوءة المجهولة الغامضة .

ويقف دعاة التبشير بالعالمية التي تستمد مفاهيمها من الأيداوجية التلمودية صامتين لا يكشفون عن صورة المجتمع الجديد ، ويدفعون مجموعات جديدة من الشباب إلى الرفض وإلى الغربة ، دون أن يضيئوا أمامهم شمعة واحدة . وإذا كانت كل السدود قد سقطت . فماذا أمام الأسئلة الحائرة؟إنهم يعودون مرة أخرى إلى بعث الغنوصية الشرقية القديمة .

إن مهاريشي يدعو إلى التأمل القائم على النشوة، والمرح في ظلال ( المارجوانا ) . تأمل الذات والبحث عن الحقيقة في ينابيع النفس . ولكن أي نفس هذه التي تستطيع أن تهدي ؟ إن العطاء لن يجيء من الداخل أبداً . ولكنه يأتي من الكون الواسع . ان المعرفة لا يجدها طالبها وراء الظلمات التي تملأ النفس بأهوائها ويأسها . إن العطاء يأتي من الخارج : من كون الله الواسع الذي يلهم الحقيقة (قُلِ انْظُرُوا مَاذَا فِي السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ) (إِنَّ فِي خَلْقِ السَّمواتِ وَالأَرْضِ وَاخْتِلاَفِ اللَّيلِ وَالنَّهَارِ وَالفُلْكِ الَّتي تَجْرِي فِي البَحْرِ بِمَا يَنْفَعُ النَّاسَ وَمَا أَنْزَلَ اللهُ مِنَ السَّمَاءِ مِنْ مَاءٍ فَأَحْيَا بِهِ الأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا . وَبَثَّ فِيهَا مِنْ كُلِّ دَابَّةٍ . وَتَصْرِيفِ الرِّيَاحِ وَالسَّحَابِ المُسَخَّرِ بَيْنَ السَّمَاءِ وَالأَرْضِ لآيَاتٍ لِقَوْمٍ يَعْقِلُونَ ) .

ليس غير الإسلام وحده ضوءاً يستطيع أن يعطي البشرية اليوم طريقها :

إن دعوة ( مهاريشي ) قد تحولت إلى التأمل من خلال تعاطي العقاقير . والمواد المخدرة (الماريجوانا — ل — س — د). ثم تحولوا عنها إلى مادة أقوى تأثيراً . مادة — ت — مادة س — ت — ب — التي يستمر مفعولها ( ٧٢ ساعة ) كاملة ، وتحدث حالات عنيفة من الهياج . لماذا يريدونه ضعيفاً منهكاً محطماً ؟ هل هي السعادة ، أو اللذة ، أو المعرفة ، أو البحث عن الحقيقة ؟ إنها اليأس القاتل ، إنها القنوط . ولكن المسلم لا يصل إلى ذلك إلا إذا فقد إيمانه ، إن المسلم لا ييأس أبداً ، ولا يقنط من رحمة الله . ولا يضل الطريق .

إن جماعات الوجوديين : قد تحولت بالهيبية إلى جماعات الهروب من الواقع إلى السلبية والعنف. وطريقهم هي العقاقير المخدرة . وأفكار جديدة تلقى إليهم كلها سلبية باسم الثيوصوفية من التراث الهندوسي القديم — براهما وبوذا وجينا .

والوثنيون الشرقيون يعبدون عدداً من الآلهة . ويتخذون الانسحاب من الحياة طريقهم الوحيد . إن الانتقال عبر الرحلة الطويلة من وثنية اليونان إلى

وثنية الغنوصية . لا يختلف كثيراً إلا في الصورة . ولكنه مادية أيضاً . لأن الاعتقاد بأن الكون المادي هو الله سبحانه ، إنما يذهب إلى أقصى درجات المادية . وهذا هو مذهب وحدة الوجود والحلول والاتحاد .

ليس الله سبحانه في الحقيقة هو هذه الحياة . أو هذه الجبال والبحار والأنهار ، ولكنه هو صانع هذا الوجود ، وهو منفصل عنه وقاهر له . ومعنى هذا أن فشل الفلسفة المادية لم يزد الباحثين عن الحقيقة إلا مزيداً من الفشل حين اتجهوا إلى الفلسفة الغنوصية الشرقية . من الإباحة المفرطة إلى الزهد المفرط ، ومن تعذيب النفس بالشهوات إلى تعذيب النفس بالحرمان . وكلاهما يؤدي إلى الغربة والخوف والتشاؤم . إنهم يقولون : إن القلقين يمرون الآن عن طريق ( بوذا – براهما – جينا . ) مندفعين كالقطيع وراء آخر دعوة تبشر بأمل ، لعلهم يجدون السعادة المفقودة ، لعلهم يجدون أنفسهم التائهة ، وإيمانهم الضائع . ونحن نقول: ولا أمل، بل مزيد من الغربة . فليس هناك غير طريق واحد فليجربوه .

# الإنسان في ميزان الإسلام

## ١

لا ريب أن الإنسان هو محيط الفلسفات . والهدف المقصود من الدعوات الهدامة . وهو موضع الامتحان من تجربة الحياة والموت كلها . وهذه الدعوات تحاول أن تضع له منهجاً يخرجه عن فطرته ، وعن المنهج الذي قدمه له الدين الحق . والمحاولة تتصل بأمور متعددة أهمها :

الأول : محاولة القول بأن عقل الإنسان كفيل بأن يهديه طريقه في الحياة . والعقل البشري جهاز قاصر . ولا يستطيع بمفرده أن يهدي وإنما الهدى يتصل بالوحي . وهو العلم الرباني الذي لا ريب فيه ، ولا شبهة في أنه يقدم للإنسان الطريق الصحيح. بينما الريب والشبهات تحيط كل هذه الدعوات والفلسفات ، ومن ورائها أهواء البشر ومطامعهم .

ولا ريب أن إعداد الإنسان بالعقل البشري ليس كافياً وحده في التبصير بطريق الحق . والعقل البشري ليس قادراً قدرة كاملة على معرفة كل شيء . وهو يستطيع أن ينفذ في عالم المحسوس . ولكنه يعجز عن النفاذ إلى عالم الغيب إلا بهدى الوحي .

الثاني : محاولة دفع الإنسان إلى خلع كل قيد من قيود الأخلاق ، أو الاندفاع ، في الحياة لتحقيق أهوائه .

ولا ريب أن الإنسان بفطرته يعلم طريق الخير والشر ، وهو على هدى

من الدين الحق يعرف أنه ممتحن في الدنيا ومخير .

ولقد اعترف الإسلام للانسان برغباته وغرائزه ، وأعطاه حق ممارستها في إطار من الضوابط أهمها الاعتدال . والمحافظة على الكيان الذاتي . وكشف له عن الخطر الذي يتعرض له من سلوك أسلوب التحرر المطلق .

ثالثاً : محاولة إخضاع الإنسان للنظريات المادية ، والقوالب المادية . ولا ولا ريب أن الانسان غير قابل للخضوع إلى هذه القوالب ، وأنه كإنسان مكون من روح وجسد . لا بد أن يحكمه علم جديد، مخالف للنظرية المادية ، التي تقوم على أساس النظرة المادية المجردة إلى الكون والحياة . لذلك فإن منهج دراسة الإنسان ، يجب أن يكون شاملاً ومتكاملا على أساس أنه عقل وجسد . وروح. ولا ريب أن النظرة إلى الإنسان على أنه جسد ومادة ( فقط) ، وتطبيق مناهج العلوم المادية ، أو التجارب التي أجريت على الحيوان عليه ، من شأنها أن تستخرج نتائج غير حقيقية ومخالفته تماماً لواقع الإنسان .

رابعاً : خطأ القول بأن الإنسان كان وثنياً ، ثم أصبح موحداً . فإن الإنسان بدأ موحداً أصلاً ، ثم سقط في خطأ الوثنية بالانحراف عن رسالات السماء ، ثم ظلت الأديان تعيده مرة ومرة إلى جادة التوحيد .

خامساً : خطأ القول بالتطور المطلق . ذلك أن التطور لا يحدث في فراغ ، ولا بد من مرتكز ثابت للبشرية ، تستطيع أن تتحرك حوله ، ولا بد من فلك قائم على أسس الثبات ، ثم تأتي الحركة من خلاله وفي دائرته .

سادساً : ليس الإنسان حيواناً كما تقول الفلسفة المادية . وليس الانسان مخطئاً بحكم ولادته كما تقول بعض العقائد . وليس الإنسان مجبور التناسخ . كما تقول البوذية . وليس الإنسان عبداً للأهواء والشهوات . بل هو قادر بتوجيه الدين إلى أن يجد طريقه إلى الخير والهدى . (وَنَفْسٍ وَمَا سَوَّاهَا . فَأَلْهَمَهَا فُجُورَهَا وَتَقْوَاهَا ) (قَدْ أَفْلَحَ مَنْ زَكَّاهَا وَقَدْ خَابَ مَنْ دَسَّاهَا ) . وغاية الإسلام هو إيجاد التوازن في الفرد . فالإسلام لا يقر الزهادة ولا الإباحة .

## ٢

لا ريب أن طبيعة الإنسان في حاجة إلى توجيه إلهي ، ذلك أن طبيعة الإنسان لا تتخلف (فِطْرَةَ اللهِ التي فَطَرَ النَّاسَ عَلَيْهَا لا تَبْدِيلَ لِخَلْقِ اللهِ) . والإنسان في صميم طبيعته نزاع إلى الفرح والفخر إذا جاءه الخير ، ونزاع إلى اليأس إذا جاءه الشر . وقد وصفه القرآن بأنه خلق هلوعاً . وأن علاجه في الصلاة والاتصال بالله . وهو علاج دائم متصل . وهو علاج متجدد مع كل إنسان وكل جيل . ولن تستطيع البشرية مهما ارتقت مادياً أن تقول إنها أصبحت في غير حاجة إلى وصاية الدين ، أو توجيه الله . والطبيعة البشرية في أصل تركيبها تنسى وتغفل. فهي في حاجة دائمة إلى موقظ ، وموقظها القرآن الذي يذكر ، ويقرع الآذان والقلوب .

من الواضح تماماً من أصول التشريع والأخلاق معاً . أن الإنسان في حاجة إلى ضوابط تكفل له السير في الطريق الأرشد ، وأنه لا يستطيع أن يجد هذا الطريق . إلا إذا أرشدته إليه القوة العليا عن طريق الوحي المنزل .

فالتشريع في مجموعه ضوابط من علاقات الفرد بالجماعة . والأخلاق في مجموعها ضوابط من علاقات الفرد بالفرد . وفي التشريع لا يباح التأويل أو التحليل أو الخروج عن حدود الله إلا في ضرورات قصوى ، وكذلك في الأخلاق .

ومن هنا تبدو ضرورة وجود ظاهرتي « الضبط » و« الكظم » وهما غير ما يطلق عليه في المصطلحات الحديثة : « الكبت » ولو كانت الطبيعة البشرية بقدراتها التامة . تعجز عن التماس طريق المشقة المتمثل في الامتناع عن حدود الله . لما فرض عليها ما ليس في استطاعتها . ولولا أنها قادرة على معارضة اتجاه الأهواء والرغبات لما ألزمت به .

وهنا يبدو خبث الدعوة التي تقول بأن مثل هذا الامتناع له ضرره بالنفس أو العقل . إن الضرر ماثل حقيقة في منع المباحات وتحريم زينة الله ، أو معارضة طبيعة البشر . أو مناهضة الدوافع البشرية . وهذا ما لا يقره الإسلام أصلاً ، بل هو ما يعترف الإسلام بوجوده ، ويدفع إلى ممارسته وتحقيقه في نطاق ضوابطه وأطره . وهذا هو ما حرمته بعض الأديان ، وما رأى بعض الأطباء أنه مؤد إلى المرض .

أما إقرار الإسلام له كحقيقة ، ثم النظر في إمكان تحقيقه ، أو الانتظار بالصبر عليه ، وبالاعلاء . فذلك أمر آخر مختلف كل الاختلاف.

ولا ريب أن الإنسان خلق ليعمل ، ويسعى ويتحرك ، ويغالب ويقاوم . ولا بد أن يجدد سعيه في الأرض ، وأن يكون سعيه إيجابياً في سبيل الهدف الذي استخلف من أجله . فهو في حاجة دائمة إلى التذكرة والتوجيه ، وفي حاجة دائمة إلى الاعتصام بالله ، وإسلام الوجه له . وهذا هو التوكل : والتوكل هو التماس هدى الله في العمل والحركة ، لا في القعود والتوكل . ومن هنا فان الإنسان بطبيعته وتركيبه (وهو أمر مستمر في كل زمان وعصر) في حاجة دائمة إلى الذكر والفكر ، وتجديد النفس بمعرفة الهدف وتحديده ، والتماس القوة التي تكفل له النجاح في الحياة . وهي قوة لا يجدها الإنسان إلا في الإيمان بالله ، والخشية منه ، والأمل فيه .

ومن هنا فان القول بأن الانسانية ، قد أصبحت راشدة ، وليست في حاجة إلى وصاية الدين هو من المخططات التلمودية المندفعة إلى غاياتها الخطيرة . فلنحذرها ولنكن في يقظة لكل ما يحيط بنا .

# ٣ ـ الموت

إن هذه الصيحة التي تستعلي خوفاً من الموت . إنما تمثل أقصى ما وصلت إليه النظرية المادية من أثر في نفوس الناس . فقد انخلعت هذه النفوس هلعاً من الموت . فهي تريد أن تعيش ، ومن عجب أن بعض العلماء يذهب إلى العمل من أجل إطالة الحياة، والقضاء على الشيخوخة ، كمحاولة ضد سنن الحياة وطبائعها وتركيبها الذي هو من صميم وجودها .

ولا ريب أن العلم لا يستطيع أن يهدي في هذا المجال . فالموت حقيقة قائمة ، وهو في بعض مفاهيم العلم : غريزة، والحياة لا يمكن أن تستمر إلى ما لا نهاية . والإنسان محكوم بالولادة والموت . وفي ضوء الإسلام . ان الموت ليس نهاية الحياة ، ولكنه مرحلة من مراحلها وانتقال إلى وضع آخر . فالإنسان قد جاء إلى الحياة ليؤدي رسالة استخلافه في الأرض. فهو يعيش التجربة حتى يتمها، ثم تنتهي مهمته ، فينقل إلى المرحلة الثانية : مرحلة الموت ، وهي مرحلة تنتهي بالبعث العام الشامل . كمقدمة للحساب والجزاء عن هذا العمل . ثم هي مقدمة للخلود الدائم في الجنة أو النار .

هذا الفهم قدمته لنا الأديان ، وقدمه لنا الوحي . وقد أعطينا إياه لنعرف مهمتنا في الحياة ، ولنعرف أن الحياة ليست صدفة ، والإقامة فيها ليست اعتباطاً . وإنما هي تخطيط مسبق مدبر من لدن حكيم عليم . وان علينا أن نأخذ بمهمتنا فيها على النحو الذي يكفل لنا النجاة من العقاب . ولن تكون الحياة بلا معنى وهدف ، ولن يكون العالم قد وجد بلا داع . أو أنه يمضي بغير غاية . فذلك قول الماديين ، ولا دليل لهم عليه . وهو القول الذي أحال صيحاتهم صراخاً في سبيل البقاء في الحياة والخوف من الموت . والماديين لا يتمنون الموت أبداً بما قدمت أيديهم . ويود أحدهم لو يعمر ألف سنة ــ كما أشار القرآن الكريم ــ لأنهم يخشون ما بعده .

ولا ريب أن الموت في مفهوم الإسلام قوة دافعة غير سخيفة . فالمسلم لا يخشى الموت . بل يعد له وينتظره ويتمناه على أعلى مستوى : مستوى الشهادة في سبيل الله . والموت في مفهوم الفلسفات المادية نهاية . ولكنه في الإسلام بدء مرحلة جديدة . والذين يقولون إن الموت نهاية . إنما يدفعون أبصارهم إلى الإسراع في الشهوات واقتناص اللذات التي حرم الله . والخروج عن الضوابط التي رسمها الدين من أجل حماية الفرد وحماية المجتمع .

وعندما يصل الانسان الى الشك في أمر البعث بعد الموت ، تتحطم حياته وتفسد ، لأن ذلك سيدفعه إلى الخضوع لأهوائه إلى آخر مدى ، وتبدو له القيم والفضائل . وكأنها أمور لا قيمة لها . ومن هنا كانت دعوة الفلسفة المادية بكل فروعها وفنونها . ( الدهرية والوجودية والفرويدية ) وغيرها إلى هدم هذا الجدار الضخم الذي يحمي الشخصية الإنسانية . وهو جدار البعث ، حتى يذهب الإنسان كل مذهب . وحتى ينفرط عقد التماسك الأخلاقي والنفسي وينهار الجسد . وهي دعوة خطيرة لأنها تدفع البشرية إلى الدمار ، في حين يدفعها الإيمان بالبعث إلى القوة والتماسك في سبيل بناء الحياة نفسها وإقامتها وحمايتها من العوادي .

ومن حكمة الله العليا . إخفاء ميعاد الموت ونهايته حتى يظل الإنسان قادراً دوماً على التأهب والعمل ، والترقب . فاذا آمن الإنسان بالله حقاً ، وعرف أن الدنيا طريق إلى الآخرة . لم يفزعه الموت . ولا ريب أن الحياة الدنيا مرتبطة ارتباطاً جذرياً بالحياة الأخرى ، وهي ليست إلا وجهاً من وجوهها . ومرحلة من مراحل تجربة كاملة للإنسان .

# الباب الرابع

# دعوات هدامة للفكر والثقافة

الفصل الأول : الدعوة إلى إحياء ما قبل الاسلام .

الفصل الثاني : الإسرائيليات .

الفصل الثالث : التغريب . الاستشراق والتبشير .

الفصل الرابع : إحياء الهلينية .

الفصل الخامس : الدعوة إلى العامية .

# الفصل الأول
# الدّعوة إلى إحياء ما قبل الإسلام

## ١

تجددت في السنوات الأخيرة الدعوة إلى إحياء ما قبل الإسلام من مذاهب ونحل . وجرى البحث حول تكتيل الجهود لإبراز معالم هذا التاريخ، ومحاولة خلق تراث فكري ، أو أدبي لهذه المحاولات .

وقد جرى العمل لذلك في كل أجزاء العالم الإسلامي وأقطاره ، وركز في كل قطر على تاريخ سابق للإسلام في محاولة لرده إلى الحياة وانبعاثه ، وربطه بالحاضر عن طريق الفكر والثقافة . والمعروف أن العالم الإسلامي قبل ظهور الإسلام ، قد عاش حضارات مختلفة ، أبرزها الفرعونية، والفينيقية ، والفارسية ، واليونانية ، والهندية . وكلها حضارات استمدت مصادرها الأولى من الأديان المنزلة ، ثم انحرفت عنها . وقد التمست مفاهيم قوامها السيطرة والاستعلاء ، والعدوان ، وعرفت في محيطها الداخلي بنظام المفاصلة الكاملة بين طبقتين . هما : السادة ، والعبيد .

وقد أبرزت فلسفات هذه الحضارات نظام العبودية وجعلته نبراساً لها . فضلا عن العدوان والغدر للأمم المجاورة . وما تزال صورة الصراع بين الفرس والروم قبل الإسلام من أبرز الأمثلة على هذا النهج الذي عرفته هذه

الحضارات ، وما اتصل بها من أنظمة وفلسفات . ولقد كانت حملات البحث عن الآثار والكشف عنها في البلاد العربية والإسلامية أداة خطيرة في تشكيل قضية جديدة تطرح من خلال هذه الآثار عن الحضارات القديمة الوثنية التي حطمها الظلم . وقضى عليها الانحراف عن منهج العدل والحق . والتي اشتغلت بالعدوان والظلم والإباحة ، حتى جاءت نهايتها عبرة لدارسي قيام الأمم وسقوطها . كما ارتبطت الدعوة إلى إحياء ما قبل الإسلام بالدعوة إلى القوميات الضعيفة والأقليات . وقد برزت في البلاد العربية دعوات الفرعونية والفينيقية والأشورية والبربرية وغيرها . وأحاطها دعاتها . والعاملون من ورائها ، والقوى الاستعمارية الدافعة لها بكثير من عوامل التحريك والإثارة . غير أن هذه الدعوات لم تجد لها من القوة الذاتية ما يمكنها من الاستمرار. فان التراث المحفوظ منها لم يكن قادراً على أن يشكل قاعدة يمكن التحرك منها .

ذلك أن الإسلام حين جاء منذ أربعة عشر عاماً ، قد أنهى الوجود الفكري والاجتماعي ، للمجتمعات والأمم ، وشكل لها وجوداً جديداً ما يزال حياً متجدداً .

ولما كان هذا المنهج الإسلامي : هو منهج ربانيّ قائم على الفطرة ، ملتق بالنفس الإنسانية ، والعقل البشري . فقد شكل في المسلمين مزاجاً له طابعه الخاص الذي انغمس في جذور بعيدة فلم يعد في الإمكان اجتنابه .

لقد تجاوز المسلمون والعرب تاريخهم القديم كله بالاسلام مرتين . مرة من حيث أخرجهم الإسلام من مفاهيم الوثنية ، وعقائد الثنوية ، والتعدد ، وعبادة الأوثان ، وتقديس الفرد ، وتحويل البطل إلى إله . ومرة أخرى حين استقطب الفكر البشري كله . وامتص منه خير ما فيه من عصارة . وتجاوز ما ليس متصلا بالأصول الأصيلة له من التوحيد والعدل ، والإيمان بالغيب ، والمسؤولية الفردية ، والالتزام الأخلاقي .

ولا ريب أن ما استقطبه الإسلام من ثقافات الأمم وبلوره واستساغه . إنما كان بمثابة ميراث الأديان . ورسالات السماء . وهو الجانب المضيء في تراث البشرية والفكر البشري . أما ما تبقى من الزيف والخلط مما ينحرف عن هذا الجوهر الخالص . فقد رفضه الفكر الإسلامي واستبعده .

# ٢

# الوثنيــة

استهدفت هذه المذاهب الداعية إلى إحياء ما قبل الإسلام إحياء الوثنية والجاهلية . وهي ترمي في مجموعها إلى تهيئة النفس والعقل الإسلاميين، لتقبل تعدد الآلهة والأصنام والنظر في بساطة إلى امور قطع الإسلام فيها بالرفض . ونهى المسلمين عن الاعجاب بها ، أو التوقف عن معارضتها .

ويتصل بهذه الوثنية عادات وتقاليد ونظم ومثل وكلمات كلها مما لم يعد سائغاً أو متقبلا في النفس العربية الإسلامية ، كالعادات الجنائزية . وصلات الأحياء بالأموات . ثم العادات الاجتماعية في الموالد ، والأفراح ، والمآتم . ونحن نعلم أنه في عصر ما من عصور ما بعد الإسلام . استشرت هذه الوثنيات ، وعادت إلى التشكل في صور مهرجانات ، وأعياد ، ومواسم . وخاصة فيما يتعلق بالنيل والحصاد . والولادة ، والوفاة وما تزال هذه العادات سائدة . وهي تختلف اختلافاً واضحاً عن مفاهيم الإسلام وقيمه في هذه الحالات ، فضلا عما تهيء هذه المذاهب من إحياء « طقوس » لا يعرفها الإسلام ولا يقرها . وهو الذي حرر منها البشرية .

ولقد حرر الإسلام المسلمين من كل ما يتصل بالأحجار ، أو الحيوانات ، أو الأنهار ، ودعا إلى التوحيد المعارض للوثنية والشرك والتعدد جميعاً ، واتخاذ بعض الناس بعضهم أرباباً . كما حرر البشرية من عبادة الطبيعة ( الشمس

والقمر ) وأعلن أنها مسخرة بأمر الله لخدمة الإنسان .

## ٣

تطلق كلمة الوثنية على مختلف العقائد التي لا تفرد الله سبحانه بالتوحيد وتنسب الوثنية إلى الوثن إلى عبادة الأحجار والأصنام . وقد وصف اليونان القدماء ( الإغريق ) بالوثنية . كما وصف بها أهل الجزيرة العربية على اختلاف في المدى والفهم . وكانت الوثنية اليونانية عريقة ، لها أيدلوجية كاملة ، ولها فلاسفة : أمثال أفلاطون وأرسطو ، وشعراء أمثال اسخيلوس وسوفوكليس. والعقائد الوثنية متعددة منها تأليه الطبيعة ، أو جزء منها كالشمس والقمر ،أو بعض أنواع الحيوان ، أو تأليه البشر فردا أو أسرة أو جماعة . وذلك كعبادة الملوك والأسر الحاكمة عند بعض الأمم القديمة ، كالمصريين القدماء ، أو الحديثة كاليابان ، والهنود . وكعبادة الأنبياء ، والأبطال ، والقديسين ، والأولياء . ولذلك فقد حرص الإسلام على الاقتصاد في أي نوع من أنواع المبالغة في تكريم الأبطال والصالحين . حتى لا يتحول مع الزمن إلى مثل هذا النوع من العبادة .

وكان الإغريق يقولون بتعدد الآلهة . فكان كل إله يمثل قوة طبيعية خاصة يديرها ، ويتولى أمرها . ومن ذلك زيوس إله الجمال . وأبولو إله الشمس . ونيتون إله البحر وهكذا .

ولم يفرق اليونان بين طبيعة الآلهة ، وطبيعة البشر ، إذ يجوز عليها ما يجوز على البشر من بغض ، وحقد ، وقسوة ، وشره ، وطمع ، وجبن ، وحب للانتقام . وكانت آلهتهم لا ترى بأساً من اغتصاب زوجات الآلهة الأخرى . وتتصف بالأخلاق الشريرة .

ومن العقائد الوثنية : الاعتقاد بألوهية بعض الكائنات الخفية ، وعبادتها . كالملائكة ، والجن ، والشياطين ، والأرواح . أو تأليه جزء من الإنسان كالعقل . وهناك العقائد السلبية ، والإلحادية القائمة على إنكار الله ومحوه ، وإنكار الحياة الآخرة .

# ٤

# الجاهلية

تختلف الوثنية في الجزيرة العربية عن الوثنية الفارسية والإغريقية . ذلك أن الوثنية في الجزيرة العربية : إنما كانت عرضاً تاريخياً ، جاء بعد دعوة التوحيد التي حمل لواءها إبراهيم واسماعيل . فقد اعتنق معظم العرب دين ابراهيم ، ولكنهم مع تقدم الزمن ، ومع تفرقهم في الأقطار . كانوا يحملون معهم بعض حجارة الكعبة يتبركون بها ، ثم حولوا هذه الأحجار إلى أصنام وأوثان . ومن هنا اختفى التوحيد ، وبرزت عبادة التماثيل والأصنام ، وقدمت لها القرابين .

هذه هي ما يطلق عليها المؤرخون . جاهلية الغيرة — ويقدرها بعضهم بنحو أربعمائة سنة . فهي أقصر وثنيات العالم ، وهي تختلف عن الوثنيات العريقة ، أو جاهليات الفطرة ، بأنها لم تقم لها هياكل ، ولا أنظمة ، ولم تكن لها أساطير على النحو المعروف عن وثنيات الهند والصين والفراعنة واليونان .

ولقد عرفت الجزيرة العربية الأديان : كاليهودية والمسيحية . ولكنها لم تعتنقها . وظلت بقايا حنيفية ابراهيم ممتدة إلى زمن البعثة المحمدية .

أما وثنية اليونان ، فقد كانت مثالا خطيراً للتعدد والشرك ، ولها فلسفة قائمة ومفاهيم خطيرة .

ولذلك فقد كانت مفاهيمهم الخطيرة : هي أبرز ما ركز عليه الإسلام ،

وكشف زيفه . وفي مقدمتها القول بقدم العالم وأن الله سبحانه لا يحيط علماً بالجزئيات ، وإنكار بعث الأجساد ، وتقديس العقل .

ومما طرحته الوثنيات الشرقية المتمثلة في مفهوم الغنوصية : وحدة الوجود ، والحلول ، والاتحاد ، والثنائية ، والحدس ، والإشراق ، ورفع التكليف .

ولا ريب أن إحياء ما قبل الاسلام من شأنه أن يحيي هذه المذاهب والأفكار التي كشف الإسلام وجه الحق فيها . وأبان عن زيفها وفسادها .

## ٥

لا ريب أن الدعوة إلى إحياء ما قبل الإسلام تستهدف إذاعة الفكر التلمودي الذي شكله اليهود . خروجاً عن مفهوم رسالة موسى ، واستهدافاً إلى تحقيق غاية معروفة هي الاستعلاء بالجنس والعنصر إلى امتياز معين .

ولقد سجل الباحثون أن الماسونية قد أعادت تشكيل الفكر البشري الوثني السابق للإسلام كله ، واعادت صياغته من جديد ، واعتبرته تراثاً للبشرية تدعو إليه وتزدهي به ، وأن هذا العمل هو أسلوب من أساليب السيطرة الخفية . وفي عدد من كتبها التعليمية مثل كتاب الآداب والعقيدة ( Morals and Dagms ) يبدو هذا العمل الخطير في إحياء الأساطير والوثنيات وخرافات قدماء المصريين والكلدانيين والهنود والفرس.والعبرانيين واليونان، وما يتصل بها من رموز. كالخنفساء الذهبية.والحية والسمكة والثور يحمل فوق قرنيه الشمس ، والثور المجنح ، وأبي الهول ، والأهرام والمثلثات ، والمربعات ، والدوائر ، والأعداد المقدسة كعدد ٣ ــ ٧ ــ ٩ ، وما يتصل بذلك من طقوس متحجرة ومراسم ، فضلا عن السحر . فإنه باب وحده . وقد حرصت التلمودية كل الحرص على هذا التراث ، وعملت في كل العصور على تجديده ، وعلى بعثه في صورة أو أخرى وعلى تلقينه في الجمعيات السرية .

---

١ ــ راجع الرعيل الأول للسيد محب الدين الخطيب . والعصر الجاهلي لابراهيم مصطفى .

وخاصة ما يتصل بالمهابهارتا . والرمايانا . والزاندفستا . والإلياذة وتجيء التلمودية والمشنا على رأس الكتب ومفهومها القائم على العنصرية على رأس المفاهيم . وتلك هي أخطر خلفية وراء إحياء ما قبل الإسلام .

## ٦

عمد الاستعمار في محاولته الكبرى للتغريب ، وتمزيق وحدة الفكر والأمة إلى خلق ركائز من الطائفية والقبلية . وذلك بالتركيز على عناصر معينة ، والحيلولة دون تنميتها ، أو إدماجها في المجتمعات . وربما عمد إلى إثارتها ، وتعميق خلافاتها مع المجموعات .

وكان هذا العمل من أخطر العوامل التي استعان بها النفوذ الأجنبي لتحطيم وحدة الرابطة الجامعة تمهيداً لبسط نفوذه على العالم الإسلامي . ولقد كان للطوائف الأرمنية واليهودية كالدونمة في تركيا أبعد الأثر في تأريث المخططات الأجنبية في السيطرة . ولم تكن الطائفية ، أو القبلية يوماً قضية وجود في محيط الإسلام ، بل كانت مختلف الطوائف تجد حريتها وانطلاقتها في المجتمع . وقد وضعت الشريعة الإسلامية لها أنظمة حمايتها ورعايتها ، وتكريم أهل الكتاب ، وحماية المعابد . وقد وصل أبناء الطوائف المختلفة إلى أرقى المناصب في عصور الازدهار ، وكان لهم دورهم في الحضارة الإسلامية والثقافة العربية . ولم يقع بينهم وبين الجماعة أي خلاف أو صراع ، إلا تحت نفوذ الاستعمار ، الذي أعلن أنه إنما جاء ليحمي هذه الطوائف .

وقد استطاعت الحركات الوطنية أن تفوت أهداف النفوذ الاستعماري بالترابط بين العناصر المختلفة في الأمة، وأن تقضي على الدسائس الأجنبية ، والأهواء والخلافات القديمة التي حاول المستعمر تأريثها .

# ٧

# الإقليمية

وكانت الدعوة إلى الإقليمية واحدة من هذه الدعوات التي تستهدف التمزيق والتفرقة ، لتأكيد سياسة النفوذ الأجنبي . ويبدو هذا الهدف واضحاً من خلف قضايا الدعوات الطورانية والفرعونية والفينيقية وغيرها ، وكلمات الكيان الخاص وغيرها .

والمعروف أن العالم الاسلامي . والأمة العربية . لم تكن تعرف من قبل هذه المصطلحات المتعددة ، وأنها كانت تعتبر « وحدة الفكر » ، أساس الوحدة ، وكانت جامعة الفكر القائمة على المفاهيم المستمدة من الاسلام ، هي مصدر الترابط واللقاء . غير أن النفوذ الاستعماري ما كان يستطيع أن يقيم قواعد نفوذه ، إلا على تقسيم الجماعة الواحدة إلى عناصر ، يتبع بعضها العرق والجنس ، أو يتبع اللغة والدين . وكان دوماً قادراً على إثارة الخلافات المذهبية بين أبناء الدين الواحد ، والتعارض بين أصحاب الأديان المختلفة . وجاء مفهوم القومية الضيقة عاملا هاماً في هذا التحدي .

وجاء نقل مفهوم القومية الغربي الوافد إلى الأمة العربية عملاً أثار البلبلة والاضطراب، وأخرج مفهوم العلاقة بين العروبة والإسلام عن وضعه الأصيل .

وكانت المحاولة الأولى التي حاولها النفوذ الاستعماري أن تكون القومية

بمثابة إقليمية ضيقة ، وأن تنحصر في مفهوم الوطنية والاستعلاء بالأرض والتاريخ الإقليمي . فلما فشلت هذه المحاولة ، وبرز مفهوم « العروبة » جامعاً قوياً في مواجهة النفوذ الأجنبي ، عمدت محاولات التغريب إلى تفريغ هذا المفهوم من قيمته الحقيقية ومن اسمه الأصيل . فظهرت الدعوة إلى قومية منفصلة عن التراث والثقافة ، وبرزت الدعوة إلى قومية علمانية على النحو الذي عرفه الغرب دون تقدير كبير للفوارق البعيدة في الزمن والبيئة والجذور ، وفي تجاهل خطير لحقيقة أكيدة هي أن الأمة العربية لا تستطيع أن تنفصل في حركتها الاجتماعية والفكرية عن قيمها الأساسية ، وأنها لا تستطيع أن تنعزل عن امتدادها النفسي والروحي والثقافي مع العالم الإسلامي .

# ٨

# الفِرْعَوْنِيّة

كان اكتشاف مقبرة توت عنخ آمون في العقد الثاني من هذا القرن ، وما وجد فيها من آثار عجيبة (وما تزال تتجدد عروض الآثار الفرعونية ، ويتجدد معها الكلام عن الفراعنة ). وقد اتخذ هذا العمل منطلقاً إلى إحياء ما قبل الاسلام من حيث بناء القبور والعصور على الأنماط الفرعونية ، والدعوة إلى لغة وأدب وتراث فرعوني . غير أن حملة هذه الدعوة لم يلبثوا أن أعلنوا فشلهم ، وعجزوا عن تحقيق وجود مثل هذا التراث ليكون نقطة بدء ، ووجدوا أن الصلة قد انقطعت بين المصريين وبين الفرعونية انقطاعاً كاد يكون تاماً ، انقطعت بالإسلام الذي غير النفسية والعقلية والمزاج ، في الانسان تغيراً كاملاً بعد أن أخرجه من الوثنية ، ودفعه إلى منهج رباني . قوامه الفطرة ، وكان قبول المصريين له بالذات من معجزات الإسلام الكبرى بعد انقضاء ألف عام تقريباً بين وثنية الفراعنة واليونان والرومان . وآية هذا الفشل الذريع ما يعترف به أكبر الدعاة إلى الفرعونية : الدكتور محمد حسين هيكل في مقدمة كتابه ( في منزل الوحي ) (١) حيث يقول : وانقلبت ألتمس في تاريخنا البعيد في عهد الفراعنة موئلا اوحي هذا العصر ينشىء فيه نشأة جديدة . فإذا الزمن وإذا الركود العقلي قد قطعا ما بيننا وبين ذلك العهد من سبب قد يصلح

١ – ص – ٢٤ – من كتاب في منزل الوحي .

لنهضة جديدة . وروّأت فرأيت أن تاريخنا الإسلامي هو وحده البذر الذي ينبت ويثمر ، ففيه حياة تحرك النفوس وتجعلها تهتز وتربو .

ويقول الأستاذ أحمد حسن الزيات : هذه مصر الحاضرة تقوم على ثلاثة عشر قرناً وثلثاً من التاريخ العربي . نسخت ما قبلها كما تنسخ الشمس الضاحية سوابغ الظلال . ارهقوا إن استطعتم هذه الروح ، وامحوا ولو بالفرض هذا الماضي ، ثم انظروا ماذا يبقى في يد الزمان في مصر . وهل يبقى إلا أشلاء من بقايا السوط ، وأنضاء من ضحايا الجور ، وأشباح طائفة ترتل ( كتاب الأموات ) ، وجباه ضارعة تسجد للصخور ، وفنون خرافية شغلها الموت. حتى أغفلت الدنيا وأنكرت الحياة .

لا تستطيع مصر الإسلامية إلا أن تكون فضلا من كتاب المجد العربي . لأنها لا تجد مدداً لحيويتها ، ولا سنداً لقوتها ، ولا أساساً لثقافتها ، إلا في رسالة العرب .

انشروا ما ضمت القبور من رفات الفراعين ، واستقطروا من الصخور الصلاب أخبار الهالكين ، وغالبوا البلى على ما بقي في يديه من أكفان الماضي الرميم ، ثم تحدثوا وأطيلوا الحديث عن ضخامة الآثار ، وعظمة النيل . ولكن اذكروا دائماً أن الروح التي تنفخونها في مومياء فرعون هي روح ( عمرو ) . وأن اللسان الذي تنشرون به مجد مصر هو لسان ( مضر ) وأن القيثار الذي توقعون عليه ألحان النيل هو قيثار ( امرىء القيس ) . وأن آثار العرب المعنوية التي لا تزال تملأ الصدور وتملأ السطور وتغذي العالم ، هي أدعى إلى الفخر وأبقى على الدهر ، وأجدى على الناس ، من صفائح الذهب وجنادل الحجارة .

وغاية ما يقال في معركة استمرت طويلا أنها وصلت إلى النتائج الآتية :

أولا : ان الفرعونية لا تتمشى مع روح العصر ، وأنها لم تكن لها ثقافة ، وأنها توقفت منذ ظهور الإسلام وجمدت ، وفصل بيننا وبينها تاريخ إيجابي الفعالية قوامه اللغة العربية والإسلام .

ثانياً : ثبت أن هدف المحاولة هو عزل الثقافة العربية عن الفكر الإسلامي ، وعزل الشخصية المصرية عن الرباط العربي ، غير أن المحاولة الضخمة في الفصل بين المصريين وبين العروبة والإسلام كان أمراً بالغ اليأس ، وأن محاولة الارتباط بتراث فرعوني كان مستحيلا .

ثالثاً : تبين من الدراسات التاريخية أن الفراعنة موجة جاءت من الجزيرة العربية ، وأن بين اللغة الهيروغليفية واللغة العربية آصرة ضخمة تؤكد أنهما من أصل واحد .

رابعاً : كان هدف إعادة الفرعونية إدخال مفاهيم الوثنية الفرعونية المرتبطة بالوثنية اليونانية وغيرها ، من تجديد عبادة البشر والأبطال وصراع آلهتهم حول الغايات الحسية والمطامع الدنيا .

خامساً : ثبت أن الفرعونية لم تكن نظاماً اجتماعياً ، ولا قوة دافعة إلى الحرية والمساواة . بل كانت نظاماً عبودياً ، وقيوداً من التخلف الفكري والاجتماعي .

# ٩
# الفينيقية

وكذلك كانت الفينيقية دعوة من الدعوات الهدامة التي أثارها النفوذ الاستعماري لتقسيم وحدة الأمة ، ووحدة الفكر ، وتجديد التاريخ القديم بكل أخطائه وخطاياه في سبيل القضاء على الواقع الحي الإيجابي ، وإعلاء شأن الإقليمية والعنصرية التي سيطرت على الأمم قبل أن يصهرها الإسلام في بوتقته الموحدة التوحيدية .

وقد حملت الدعوة الفينيقية إلى لبنان الدعايات الاستعمارية . لعزل اللبنانيين عن العروبة وقد ارتكزت هذه الدعايات على أن اللبنانيين هم أحفاد الفينيقيين القدماء الذين كانوا سكان هذا الساحل قبل أن يأتي العرب ، وادعت بأنهم تاريخياً ليسوا عرباً . وإنما هم خليط من أبناء الفينيقيين وأحفاد الأمارات الصليبية .

وقد اتصل بالدعوة إلى الفينيقية دعوات إلى سوريا الطبيعية ، والأمة السورية ، ودعوات إلى البحر الأبيض . وجرت في ظل هذه الدعوة الدعوات إلى العامية اللبنانية ، وكتابة اللغة العربية بالحروف اللاتينية ، وإعلاء اللهجات المحلية .

وتعني الفينيقية إعلاء الإقليمية في مواجهة العروبة ، وإعلاء الثقافة الفرنسية في مواجهة الفكر العربي الاسلامي ، وإعلاء اللهجات العامية ، واللغات الأجنبية في مواجهة اللغة العربية ، وخلق كيانات ليس لها أساس من الواقع الذي تعيشه الأمة العربية منذ أربعة عشر قرناً .

وقد كشفت أبحاث الآثار والتاريخ المجردة من كل هوى استعماري ، أو شعوبي ، أو دعوة للتغريب ، أن الفينيقية موجة من موجات الجزيرة العربية . وأن شأنها في ذلك شأن الفرعونية ، ومختلف الموجات الأخرى التي انفصلت عن المصدر الأم .

# الفصل الثاني

# الإسرائيليّات

## ١

من أخطر التحديات التي واجهت الاسلام والفكر الاسلامي والثقافة العربية ظاهرة الإسرائيليات ، وهي إضافات خطيرة ، ونظريات زائفة مستمدة من نصوص قديمة ، وثنية ومجوسية ، من خارج مفهوم الإسلام وذاتيته المتميزة عن الأديان والفلسفات . تسربت مع الزمن ، وقصد خصوم الإسلام إلى إضافتها إلى الإسلام ، لعزله عن جوهره الأصيل ، وتمييع طابعه الخاص وإخراجه عن بساطته ووضوحه ويسره .

وقد أضافت في مجموعها تفاصيل كثيرة باطلة وتوسعات عديدة تتعارض أساساً مع مفهوم الإسلام القائم على التوحيد ، والمتصل اتصالاً واضحاً بالإيمان بالغيب والبعث والجزاء ، والمستمد من قواعد القرآن ونهجه ومنطقه في مواجهة مختلف القضايا والأمور . وخاصة فيما يتعلق بعالم الغيب ، وما وراء العالم المحسوس .

وأبرز ما أصاب الفكر الإسلامي من الإسرائيليات ما أصاب كتب

الملاحم والمغازي ، وقد تنبه علماء المسلمين وأئمتهم إلى هذا الخطر منذ وقت مبكر حتى أثر عن الإمام أحمد بن حنبل قوله : ثلاثة لا أصل لهم : التفسير والملاحم والمغازي ( أي أنها ليست ذات أسانيد صحيحة متصلة ) ، ومن ذلك وضع الأحاديث ونسبتها إلى الرسول الكريم في سبيل تأييد موقف أو جماعة أو بلد . وكلها مما كشف المحققون عن زيفه .

وكذلك ما وضعه كهان اليهود : أمثال كعب الأحبار ، ووهب بن منبه ، وابن سلام وغيرهم من أخبار وأساطير .

ومما يكشف عن خطورة ظاهرة الوضع ما أثر من أنه كان على عهد الإمام البخاري مائة ألف حديث لم يقبل البخاري منها سوى ٢٥١٣ حديثاً .

وتتصل ظاهرة الإسرائيليات اتصالاً خطيراً بالتفسير ، فقد دست في بعض التفاسير أساطير وأقاصيص غير عربية . أو إسلامية من تراث اليونان ، والفرس ، والهند ، واليهود ، وهي مليئة بالأهواء المضللة .

## ٢

يطلق المسلمون كلمة الإسرائيليات على جميع العقائد غير الإسلامية لاسيما تلك العقائد والأساطير التي دسها اليهود والنصارى في الإسلام .

وأبرز ما في هذه الإسرائيليات مادة الكهانة والتنبؤات . وخاصة ما يتعلق بفكرة المهدي المنتظر ، التي كان لها أثر سيء في عصور الضعف . والتخلف . وتلك التفسيرات للآيات القرآنية . والتوسع في أوصاف الملائكة . والجنة والنار والحشر . وتصويرها تصويراً يخرج بها عن أصلها القرآني .

وقد أشار المؤرخون والباحثون إلى أن هذه التكهنات وصلت إلى المسلمين على أيدي القسيسين والرهبان والقبط واليهود وغيرهم ممن حملوا لواء معارضة الإسلام ، وإدخال الزيف إلى أصوله .

وقد أضيف إلى الاسرائيليات مع ترجمة الفلسفة اليونانية والهندية والفارسية.

إضافات أخرى ، كونت حصيلة ضخمة استعملها الشعوبيون وأعداء العرب والإسلام في القديم سلاحاً لتحويل الأبصار عن جوهر الإسلام ، وإخراجه من مضامينه وقيمه ، وإتاحة الفرصة لمفاهيم الوثنية والثنائية والتعدد لغزوه . والتأثير فيه .

وقد واجه المفكرون المسلمون هذه الدخائل الإسرائيلية الباطنية والمجوسية وغيرها ، وفندوها . وكشفوا عنها . وفي مقدمة من تولى ذلك : الجاحظ ( البيان والتبيين ) والقاضي ابن العربي ( العواصم من القواصم )وابن الجوزي ( تبليس ابليس ) ، كما واجه هذه القضايا : ابن حزم والغزالي وابن خلدون ، وعرضوا لآراء الباطنية والمجوسية والمزدكية والمانوية وغيرهم .

وفي عصر الضعف ومرحلة التخلف وفترة التجميع ، ظهرت كتب كثيرة لم يكتبها علماء محققون وجمعت أحاديث منحولة وأكاذيب ومفتريات مدسوسة على الدين . وفي مقدمة هذه المؤلفات بدائع الزهور ، والعرائس في القصص والأخبار .

## ٣

حفلت بعض كتب التفسير : أمثال الثعلبي والكسائي والخازن بأمثال هذه الروايات . كما جاء الطبري في تفسيره بأشتات منها . وكانت أمثال هذه الروايات متداولة . ينقلها القصاص بين العامة . وكان الخطأ في رفعها إلى مقام التدوين ، مما ساعد على إشاعة الخرافات والأضاليل في النفوس .

ولم يتوقف أثر التداخل المتصل بالإسرائيليات في الفكر الاسلامي . فكان له في العصر الحديث أثر أي أثر . بل لقد كان من العوامل الهامة في مجال إثارة الشبهات والمفاهيم المغلوطة في مجال الثقافة العربية . وفي مقدمة ذلك خطأ تفسير الخطيئة والخلاص والفداء . وكلها كلمات تسربت إلى الأبحاث العربية . دون أن تحظى بتحقيق واضح لمضامينها وآثارها وموقف الإسلام منها . ولقد كان لعمل المستشرقين الخطر . في ضم مثل هذه الإسرائيليات . إلى مادة دائرة

المعارف وتركيز الاهتمام على اليهود أثره البعيد في أن بدت الإسرائيليات ، وكأنها عناصر من الفكر الإسلامي . فإذا جاءت دائرة المعارف . وضمت إلى موادها مادة : رجعة ووصية ، واتحاد ، وحلول وغير ذلك : تسرب إلى ظن المسلمين أن هذه المواد من صميم مفاهيم الإسلام .

٤

وقد كان لمداخلات الغنوصية والهلينية في الفكر الإسلامي أثرها في دخول كثير من الإسرائيليات. ومن أمثلة الأحاديث المدخولة في هذا الشأن ، تلك التي حاولت أن تعطي العقل مكاناً معيناً أو تصور الرسول بصورة لم ترد في القرآن . أو تنسب إلى الله سبحانه وتعالى ما لم ينزل به سلطاناً . ومن هذه الأحاديث الزائفة قولهم : أول ما خلق الله العقل ، وقولهم : كنت نبياً وآدم بين الطين والماء . وقولهم : كنت كنزاً مخفياً فأحببت أن أعرف .

وقد هاجم الإمام ابن تيمية . هذه الأحاديث الموضوعة هجوماً عنيفاً . وأثبت زيفها ووضعها وصلتها بمفاهيم الفلسفة اليونانية وتعارضها مع جوهر الإسلام . كما عارض العلماء المسلمون ما يتصل بتجاوزات بعض العابدين كالتهام الثعابين ، والمشي على السيوف، والرقص على نقرات الدفوف .

وقد وضع المحققون لهذه التجاوزات ضوابط ، فقال أحدهم : لو نظرتم إلى رجل أعطي من الكرامات حتى يرتقي في الهواء ، فلا تغتروا به حتى تنظروا كيف تجدونه عند الأمر والنهي وحفظ الحدود . وأداء الشريعة .

وقال الامام الغزالي في هذا الصدد : لو رأيت إنساناً يطير في الهواء . ويمشي على الماء . وهو يتعاطى أمراً يخالف الشرع فاعلم أنه شيطان .

٥

وقد ذهب أغلب الباحثين إلى أن أكثر الأحاديث الموضوعة من الإسرائيليات إنما وضعت عن تدبير وتخطيط وخصومة وكيد . وأنها من عوامل الحرب

الفكرية والعقائدية الضارية التي شنها اليهود وغلاة النحل المبتدعة على الاسلام والمسلمين بكافة الوسائل من التخفي والتسلل والتمويه بقصد تمزيق وحدة المسلمين وتلهيتهم عن دينهم القويم وتشتيتهم عن صراطهم المستقيم . (١)
ويصف بعض الباحثين هذه الظاهرة بأنها ليست إلا حرباً حقيقية لكتاب الله ، أرادوا بها صرف كل من يقرأ تفسيراً من التفاسير عما يريده الله في كتابه من هداية البشر إلى حكايات وأعاجيب وأساطير تستهوي البسطاء . ثم تراكم هذه الأساطير وتعترض حركة الافهام السليمة .

١ - قرار مجمع البحوث الاسلامية في ١٠ - ٣ - ١٩٧٢ ، والشيخ عبد الجليل عيسى .

# الأساطير

## ١

ويتصل الحديث عن الإسرائيليات بالحديث عن الأساطير . وقد جاء الإسلام معارضاً لها كاشفاً عن زيفها ، محرراً العقل والنفس الإسلامية من الخرافة .

وقد ارتبطت الأساطير بالوثنية اليونانية والفارسية والهندية ارتباطاً وثيقاً. وغلا بها الاغريق غلواً شديداً . فقد كان لديهم قصص كثيرة . يفسرون بها الحياة والطبيعة والخير والشر . وكانوا يؤمنون بأن هذه الأمور بأيدي آلهة وإلهات . ويربط الغربيون بين الأسطورة والدين، بينما يعلن الاسلام التحرر الكامل من كل أسطورة أو خرافة أو صورة غامضة .

والعرب قبل الإسلام ، لم يكونوا يعرفون من الخرافة إلا قدراً قليلاً ساذجاً ، وقد أسقطه الإسلام ومحاه ، وأحل محله قصصاً حقيقية من عبر التاريخ وأحداث الأمم . أما غير العرب من الفراعنة والفرس ، والهنود ، فقد كانت لهم أساطيرهم المشركة الأصل . الوثنية الطابع .

وقد كشف كثير من الباحثين عن الأصل المشترك ، والالتقاء الجذري لأساطير اليونان والمسيحية والفراعنة (١) . وما نقل إلى العربية من أساطير في كليلة ودمنة ، وألف ليلة وليلة . إنما هو تراث من أساطير ما قبل الإسلام الهندية ، والفارسية ، والفرعونية ، واليونانية . ويحتوي العهد القديم عديداً

---

١ – اقرأ مجلة الأبحاث المحلية ٦ ص ٦٦ .

من هذه القصص والنبوءات . وقد استغل الأدباء ، ورجال الفقه والفن من الغربيين هذا التراث .

أما القصص الشعبي فهو بقايا الأساطير التي سادت في العصور الوسطى عن الحروب والغزوات . ولقد وضع القرآن كل هذا التراث القديم في ميزان النقد ، ورد على كل ما فيه من زيف ، وكشف عن الحقيقة ، وأسقط الأساطير والأضاليل . وجلا الحقيقة في مختلف ما يتصل بالعصور القديمة من أحداث ومواقف ، ويتصل بجوهر الدين ورسالة الأنبياء ونضالهم في مواجهة معارضة الأمم والمتغنين من المكذبين .

(٢)

وقد قذف الغربيون الفكر الإسلامي ، والأدب والثقافة العربية بقدر ضخم من هذه الأساطير في محاولة لتجديدها وإذاعتها . وعني كثير من الكتاب والأدباء بترجمتها ومحاولة إغراق الأدب العربي بها ، وجرى البحث حول الأساطير في الأدب العربي نفسه . وكان من أهم هموم المستشرقين والمبشرين . البحث عن الأساطير . وقال رينان : إن العرب ككل الأمم السامية . ليس لها أساطير في شعرها . ولا في عقائدها . ونسي أن اليهودية التلمودية هي مفرخ الأساطير البشري الأكبر . وأن كل ما عرف من أساطير بابلية وأشورية وغيرها . إنما تتصل بالوثنية والاباحية . التي أذاعتها التلمودية . عمد البعض إلى بعث الأساطير العربية في عصر ما قبل الإسلام ، وكان المفكرون المسلمون قد حرروا السيرة النبوية من كل ما يتصل بها من أساطير وزيوف . وأقاموا منهجاً من التحقيق العلمي في الحديث وصف بأنه أعظم المناهج التي عرفها البحث العلمي ، غير أن بعض الكتاب جاء في العصور الأخيرة ، فأعاد الأساطير إلى السيرة مرة أخرى . وخلطها بها ، وانتحل أساطير جديدة . وقد بدا ذلك واضحاً في كتاب ( على هامش السيرة ) .

وقد عارض الباحثون هذا الاتجاه . ووصفوه بأنه اتجاه خطير ، بعد أن

حرص المسلمون طوال العصور على تنقية سيرة الرسول من الروايات الخيالية والوهمية التي حاولت الإسرائيليات إلصاقها بها . ويتصل بهذا إذاعة أساطير في مجال السحر Magic . وفنون السحر هي من فنون اليهود القديمة التي برعوا فيها ، والتي ما زالوا يحرصون عليها.والسحرهو عمل من أعمال الأساطير وجمع الخرافات ، ما يتصل بذلك من القول بقداسة الشجرة والجبل . ويتصل هذا بالكهانة والعرافة ، ذلك أن الكهانة في مفهومها هي محاولة استطلاع الغيب عن المستقبل ، بينما العرافة تعني استرجاع الماضي ، وهما محاولتان للتنبؤ .

وقد رفض الإسلام كل هذا التراث بما فيه من خرافات وأوهام من المسلمين ، وأسقطه نهائياً من دائرة فكرهم ، وأقام مفهومهم على اليقين والبرهان والدليل والاستقراء والتجربة . وبمفهوم المسلمين جاوزت البشرية عصر السحر والأساطير والنجوم ، وخرافات الطلاسم ، والرقى والقرابين التي كانت تقدم للأشجار والأصنام لتحمي مقدميها من شرها وخطرها . ولقد ارتبط السحربالوثنية والإلحاد ارتباطاً واضحاً . والنفوس الوثنية والملحدة تفقد الأمل والرجاء في الخير ، كما تفقد طابع التفاؤل والبشرى . والمسلم المؤمن لا ييأس من روح الله ، ولا يخاف شيئاً . ومن هنا ارتبطت الوثنية بالخوف من العوالم الباطنة ، وأخطار الشياطين والجن والظلام . ولقد حرر الإسلام البشرية من أن تصلي أو تتوب إلى من كانت تطلق عليهم آلهة الخير من أجل الذرية والحصاد . أو آلهة الشر من أجل حمايتهم من الشرور والأضرار . ومنحت العالم منهجاً قائماً على التوحيد ، والإيمان بالله، ورجائه وحده ، والخوف منه وحده . وأنه المرجع الأول والأخير في كل خير وضر ، وهو الذي يرفع الضر . ويمنح الخير . « انْ يَمسسْكَ اللهُ بِضُرٍّ فَلاَ كَاشِفَ لَهُ إلاَّ هُوَ وَإنْ يُرِدْكَ بِخَيْرٍ فَهُوَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِير » .

# الفصل الثالث

## دعوة التغريب وقوامها (التبشير والاستشراق)

قبل أن يصدر المستشرقون الخمسة كتابهم (وجهة الاسلام) في أوائل الثلاثينات من هذا القرن لم تكن كلمة « التغريب » معروفة أو متداولة ، حتى ليمكن القول بأنه أول من طرح هذا المصطلح هو كبيرهم : هاملتون جب . ويعني به القدر الذي أثرت به الثقافة الغربية في الإسلام . وتركز عوامل التغريب على التربية والتعليم والصحافة ومقومات الحياة وكانت في أكثرها ترمي إلى التفرقة بين الحياة الزمنية ، والحياة الروحية الدينية .

ومعنى هذا أن الهدف هو إقامة هذه الانشطارية بين قيم الإسلام المتكاملة الجامعة بوصفه ديناً ومنهج حياة للوصول إلى أن يصبح الإسلام ديناً لاهوتياً فقط ، ويسقط الجانب الآخر منه ، وهو جانب النظام الاجتماعي ومنهج الحياة .

ويقرر جب : أن الاسلام كدين لم يفقد إلا قليلا من قوته . أما كنظام للحياة الاجتماعية فإنه قد نزل عن عرشه ، وقامت إلى جانبه ، أو من فوقه

قوى جديدة لها من السلطان ما يتعارض في بعض الأحيان مع تقاليده . وتنظيماته الاجتماعية .

ويعني بها غلبة المصرف القائم على نظام الربا ، وسيطرة القانون الوضعي .

ويتحدث ارنولد توينبي في كتابه ( العالم والغرب ) عما أسماه الدور الذي لعبه ضباط تركيا في حركة التغريب ، وكيف تسربت عدوى الأفكار الغربية إلى عقول الضباط . ويقول : ان مسألة التغريب المتزايدة في تركيا لا تحل إلا بأحد وسيلتين : إما إن يدفع الأتراك يوماً ثمن خطأهم بانهيارهم تماماً . وإما أن ينجوا من التصفية الشاملة بحصرهم قواهم كلها قلباً وعقلاً في ( التغريب ) .

ويعقد « جان بول رو » في كتابه الإسلام في الغرب فصلا كاملا تحت عنوان « تغريب الإسلام » ويعرض للتغير في حياة المرأة ، وللتربية وخروجها عن منهج الإسلام ، وللتبشير في إفريقيا . وتجربة النظام اللبرالي السياسي .

ولا ريب أن معالجة المستشرقين هذه الظاهرة ، بمثل هذه الجرأة والتوسع ، ليعد دليلاً أكيداً وملموساً على ما يعتقد به المصلحون المسلمون من رجال حركة اليقظة بأن هناك مخططاً دقيقاً منظماً ، ظل يعمل سنوات طويلة من خلال مناهج التبشير والإرساليات . ومعاهدها تقوم بدعمه والتخطيط له ، واعداد مادة الحرب من نظريات تحمل الشبهات والمغالطات والشكوك ... قوة كبرى هي هيئة الاستشراق . وعن طريق المدارس والمعاهد التبشيرية والصحف تثار هذه الشبهات والشكوك . وتنمو وتغرس في العقول والقلوب على النحو الذي يحقق هدف الاستعمار بصهر المسلمين والعرب في بوتقة الثقافة العالمية الغربية .

ولم تكن في حاجة إلى أن تقدم هذه النماذج . لولا أن بعض المغرضين من خصوم العرب والإسلام يعلنون انزعاجهم في كل مناسبة . عند ما يكشف الأبرار عن هذه الخفايا ويفضحونها ويضعونها أمام الشباب المثقف لمعرفة أبعاد الأخطار التي تحيط به مما يطلق عليه الغزو الثقافي والتغريب .

ولا ريب أن معارضتهم هذه تكشف عن عمالتهم وتبعيتهم وحرصهم على التماس مصادر الرزق والحياة . «تعس عبد الدينار ، تعس عبد الدرهم ، تعس عبد القطيفة . تعس وانتكس » .

والتغريب في أبسط مفهوم هو : حمل المسلمين والعرب على قبول ذهنية الغرب ،والتخلي عن الدعائم الأصيلة التي تفرض ذاتية خاصة وطابعاً مميزاً للإسلام ، وإثارة الشكوك في الثقافة والاجتماع والاقتصاد والتشريع والتربية . ونحن نعرف أن الغرب في غزوه لعالم الإسلام في العصر الحديث قد ابتكر أسلوباً جديداً يحقق عن طريقه ما عجز عنه في الجولة السابقة : جولة الحروب الصليبية التي خرج منها مهزوماً مدحوراً .

ومن هنا كانت خطته في أن يتجنب الصدام . وأن يعمل عن طريق التبشير والاستشراق لهدم مقومات القوة في فكر المسلمين والعرب ، وبالتالي في مجتمعهم . وكانت فريضة الجهاد هي أخطر هذه المقومات . ولذلك فقد وضعت مناهج التربية والتعليم على النحو الذي يكفل تجاوزها أو حجبها(١)، ويلي هذا الهدف أهمية تجزئة مفهوم الإسلام . ومحاولة رده إلى مفهوم عبادي لاهوتي ، رغبة في القضاء على جانب التشريع الإسلامي ، وإحلال القوانين الوضعية بديلا عنه .

ولا ريب أن مظاهر التغريب ممثلة في حركة التبشير . قد كانت ، ولا تزال واضحة أمام أمتنا على النحو الذي لا سبيل إلى تجاوز تقدير خطرها .

ومن خلال مخططات التبشير وعمله انكشفت حقيقة التغريب حين قال دكتور زويمر : ليس الهدف من التبشير هو إدخال المسلم في دين آخر ، ولكن الهدف هو إخراجه من الإسلام . حتى يكون خصماً له وعدواً .

فالهدف إذن هو توجيه الثقافة إلى مفهوم الالحاد والاباحية التي تفتح

---

١ – راجع بالتفصيل هذه الظاهرة في كتابنا الاسلام والثقافة العربية .

الآفاق إلى الانتقاض على الدين والخلق جميعاً . وهذه هي الغاية الكبرى للتعليم التبشيري .

ولقد كشفت أفكار المستشرقين وآراؤهم المسموعة الهدف من كتاباتهم، وما فيها من تحريف وزيف .

وقد ركزت حملة التغريب على القيم والمقومات والتاريخ واللغة ، وأثارت حملة التشويه والتمويه ، والقطع بين الأصول والفروع وإفسادها .

وكانت المحاولة هي : إحلال النظرة الجزئية بدلا من النظرة الشاملة . وطرح مفاهيم للقيم تختلف عن مفاهيمها الأصلية ، وانتزاع الطوابع المميزة للفكر الإسلامي والثقافة العربية كالتضليل عن الفوارق بين المعرفة والثقافة . والخلط بين العلم والفلسفة . والدعوة إلى مفهوم الغرب القائم على الفصل بين القيم فيما يتعلق بالأدب والسياسة . وفصلها عن الأخلاق .

## ٢

وبالجملة فإن التغريب يستهدف إيجاد شعور بالنقص في نفوس المسلمين والشرقيين عامة . وذلك بإثارة الشبهات ، وتحريف التاريخ الاسلامي ومبادىء الإسلام وثقافته . وإعطاء المعلومات الخاطئة عن أهله . وانتقاص الدور الذي لعبه في تاريخ الثقافة الإنسانية . ومحاولة إنكار المقومات التاريخية والثقافية والروحية التي تتمثل في ماضي هذه الأمة . مع توهين القيم الإسلامية، والغض من مقدرة اللغة العربية ، وتقطيع أوصال الروابط بين العرب والمسلمين .

ومن أخطر مخططات التغريب : الحيلولة دون قيام ( وحدة الفكر ) التي هي مقدمة لوحدة الأمة وبلبلة العقول والنفوس بعشرات من المذاهب والدعوات. وتجميد الفوارق الثقافية والاقتصادية في الأمة الواحدة مما يحول دون قيام الوحدة .

## ٣

وحركة التغريب Westernism دعوة كاملة لها نظمها وأهدافها ودعائمها . تخدمها مؤسسات مختلفة أهمها مؤسسة التبشير ، ومؤسسة الاستشراق . ويقول أصحاب هذه الدعوة ان للمسلمين والعرب قيماً ومثلا وذاتية خاصة تحول بينهم وبين الاندماج في الأمم الأخرى . وتخلق فيهم قدرة قوية على مقاومة النفوذ الأجنبي والغاصب . ولا سبيل للقضاء على هذه المقاومة إلا صهر هؤلاء في بوتقة الفكر الغربي وإخراجهم من قيمهم لينصهروا في قيم الغرب . وذلك لخلق جو من الالتقاء معه ، والتقبل له ، والانضواء تحت لوائه .

# التَـبْشير

يعتمد التبشير على المدرسة والمستشفى، من خلال حالة الطفولة والتكوين للنشء ، ومن خلال حالة المرض والضعف للمريض .

وقد أجمعت خطط المبشرين ودراساتهم وأبحاث مؤتمراتهم على أن الهدف من « التبشير » هو انشاء عقلية عامة تحتقر كل مقومات الفكر الاسلامي . وإبعاد العناصر التي تمثل الإسلام عن مراكز التوجيه .

وقد كانت خطة التبشير — ولا تزال ـ موحدة شاملة ،وذات مراحل وحلقات . وقد أشرف عليها رجال ذوو خبرة واقتدار ، وفهم عميق لمخططات التغريب في خدمة الاستعمار . وهي تتبع عادة وزارات الخارجية والمستعمرات في الدول المستعمرة . ولها ارتباط مع جماعة المستشرقين لاستخلاص المادة المتجددة للتشكيك وإثارة الشبهات .

وقد أكد مدى التناسق بين هذه الهيئات جميعاً من التقارير التي نشرتها مؤتمرات المستشرقين والتي تكشف عن أن وزارات المستعمرات تستخدم المبشرين في العمل داخل البلاد العربية والإسلامية وتؤكد أهمية عملهم . وخطورة دورهم في أن يكونوا عنواناً لها، وأداة لتحويل الأفكار على النحو الذي تريده .

وقد أشار كثير من الساسة إلى أهمية الدور الذي يقوم به التبشير . فقال

لورد بلفور وزير الخارجية البريطانية : إن المبشرين في نظر الاستعمار هم عيونه التي تقوم باطلاع الدول الغربية بالنواحي التي تهمها معرفتها من عقائد المسلمين وآدابهم ، والثقافات التي يتأثرون بها .

ويشير المؤتمر الاستعماري المنعقد في برلين عام ١٩١٠ إلى أن ارتقاء المسلمين يتهدد نمو مستعمراتنا بخطر عظيم . وأن هذا يتطلب من الحكومات تيسير عمل التبشير ، وإفساح الطريق أمامه .

ومن مناهج التبشير وأنظمته ، تلك القاعدة التي تقول ان جميع الوسائل تستغل في سبيل التبشير حتى أعمال البر . وأن التطبيب والتعليم من أهم وسائل المبشرين .

وتشير المخططات إلى أن يكون عمل التبشير مبنياً على قواعد التربية العقلية . والتأثير على عقول المسلمين وقلوبهم ، وبث الأفكار التي تتسرب مع اللغات الأوربية . وذلك عن طريق نشر اللغات الانجليزية والألمانية والهولندية والفرنسية . مما يمهد إلى إدخال تلك الأفكار وان هذا يؤدي إلى سقوط الأوضاع والخصائص الاجتماعية الإسلامية، لتحل محلها الخصائص الغربية .

# الاسْتِشْراق

ولما كان الاستشراق هو « المصنع » الأساسي لمخططات التغريب ، بينما التبشير هو أداته . فإن أصدق تعريف للاستشراق هو : استخدام العلم في خدمة السياسة .

ومادة الاستشراق هي أعظم معطيات التبشير عن طريق المدرسة والصحيفة. وفي مجال التعليم لدعم خططه ، وإثارة عوامل الخلاف ، وتأريث الشبهات .

ذلك أن الاستشراق إنما يدرس القضايا بوجهة نظر مسبقة ، وبأحكام مقررة ، وبأهداف واضحة . أساسها خدمة النفوذ الاستعماري ، وقوامها التعصب والاتّهام للإسلام والعروبة واللغة . وأعمال رجاله هي البحث بملقط وتحت مجهر عن هفوات صغيرة ، وتكبيرها وجمعها وتضخيمها . ومهما صبغت كلماته في أسلوب براق له مظهر علمي ، فإنها تنطوي على الحقد والتعصب مع عدم الخبرة ووضوح انحياز الهدف .

وقد عمل عدد كبير من رجال الاستشراق في مجال التبشير ، وكانت كتاباتهم وقوداً قوياً في أيدي المبشرين . ومن هؤلاء : مرجليوث ، وماسنيون ، وهنري لامنس ، ولويس شيخو ، وفنسنك وجولد زيهر . وهم أشد المستشرقين تعصباً على الإسلام واللغة العربية — وتكشف أعمال المستشرقين عن غير قليل من القصور في الفهم ، والهوى في القصد . وأخطر ما يتصل بتاريخ الاستشراق : أن رجال الإرساليات التبشيرية قد خلعوا

أثوابهم في السنوات الأخيرة . ( بعد أن انكشف أمرهم ، وتخفوا وراء أستار الاستشراق ) . ويتحدث الكثيرون بحسن نية وبساطة عن الدور الذي حققه الاستشراق في بعث التراث العربي الإسلامي ، ومن يعرف أن مصدر اهتمام المستشرقين بالإسلام والعرب ليس مجرداً ولا خالصاً لوجه العلم والحق . إنما يدركون كيف يفيدون من وراء هذه الدراسات تعرفاً إلى نفسية هذه الأمم ليكيفوا مواقفهم ومعاملاتهم ، وليكشفوا تطلعاتها ليحكموا الضربة ، ويحيطوا بوسائل الإخضاع والسيطرة . وهم يستهدفون من ذلك كله معرفة جوانب القوة للقضاء عليها ، وجوانب الضعف لتعميقها . وذلك في سبيل هدف واضح هو أن يبقى نفوذهم ويستمر . وهم في كل ما كتبوه . قد عمدوا إلى وضع الإسلام والعرب واللغة العربية والتاريخ في قفص الاتهام ، وأوقفوا كتاب العرب والمسلمين موقف الدفاع ورد السهام .

وإذا كان الاستشراق خالصاً لوجه العلم ففيم يركز على الجوانب الضعيفة ، والروايات المدخولة ، والشبهات المشكوك فيها ، والنصوص المحتملة ، ويدع كل ما هو وثيق ومستكمل وواضح ؟ ولماذا يركز على الخلاف حين يدرس الشريعة ؟ ويركز على الباطنية حين يدرس الفلسفة ؟ ويركز على وحدة الوجود حين يدرس التصوف ويركز على العامية حين يدرس اللغة ؟

ولماذا يولي اهتمامه لبشار وأبي نواس في الأدب ؟ والحلاج والسهروردي في التصوف ، وأبي بكر الرازي والراوندي في الفلسفة ولماذا يهاجم المتنبي والغزالي وابن خلدون وابن تيمية وهم من أبرز أعلام الأدب ؟ والفكر الإسلامي ؟

ولماذا يدع ألف باب من أبواب الاصالة في الفكر الاسلامي ليركز على حواشي تتصل بالآثار الفارسية والهندية واليونانية ؟ ولماذا يبعث من جديد الشبهات التي أثارتها الشعوبية قديماً ويطرحها من جديد ؟ ولماذا يعيد إلى البقاء حيث لا سبيل للبقاء : الفرعونية والفينيقية ؟ ويركز على الخلاف بين السنة والشيعة ، ويحاول إثارة الخلاف بين الأديان ، والأمم ، والمذاهب ،ويفتح

باب الشكوك بين العرب والمسلمين ؟ ولماذا الاهتمام بأخبار الزنج والقرامطة والمجوسية . والادعاء بأنها ثورات إسلامية ؟ ولماذا تكتب الأبحاث المطولة عن نبوة مسيلمة الكذاب ، وإنكار وجود عبد الله بن سبأ ؟ ان نظرة شاملة إلى أعمال الاستشراق تكشف بوضوح عن أنه ركز على الأفكار الدخيلة والفلسفات الوافدة والمواقف المضطربة ، وحاول أن يضم ذلك كله إلى تراث الاسلام النقي الصافي .

# الشعوبيّة

ومن خلال مخططات التغريب ، برزت مجموعة من التابعين الذين شكلهم النفوذ الغربي في إرسالياته ، ومعاهده . يحتقرون كل قيم العروبة والاسلام ، ويعارضون مقوماتها ، ويقفون موقف الاستهانة والغض من قدرها .

وقد تشكل من خلال هذه المضامين المنحرفة ما يسمى بالشعوبية الحديثة ، وهي مضامين تحمل معارضة صريحة للقيم الأساسية للفكر الإسلامي العربي ، ومفاهيم في اللغة والقرآن والرسول والإسلام والتاريخ والتراث ، وتقوم في أغلبها على انتقاص هذه المقدرات ، والغض من شأنها ، وإثارة الشبهات حولها . وهي في مجموعها تقوم على الأسس الآتية :

(١) الإقليمية ، وإعلاء شأن الدعوات القديمة كالفرعونية والفينيقية والجاهلية العربية والوثنية اليونانية وإحيائها في الأدب والتاريخ والمسرحية والرواية . (٢) إنكار الروابط العربية الإسلامية الجامعة . (٣)الغض من قدر اللغة العربية ، وإعلاء العاميات (٤) انتقاص التاريخ العربي الاسلامي . (٥) محاولة وضع مصطلح القومية الوافد مكان مفهوم العروبة الأصيل (٦) إنكار أثر الحضارة الإسلامية العربية في الحضارة البشرية (٧) تفريغ مفهوم العروبة من القيم الإسلامية والتاريخ والتراث . ويغلب على هذا الاتجاه

طابع « العنصرية » وغلاف « العلمانية » ، وإطار براق من النهج العلمي الخداع الذي يخفي وراءه أكبر مخاطر التعصب والحقد والتشكيك والانتقاص . وتستهدف الشعوبية الحديثة إذابة العرب والمسلمين في مفهوم زائف وخطير ، هو مفهوم عالمية الثقافة، أو منهج الفكر الحر . وكلاهما من صياغة الدعوات الهدامة التلمودية الصهيونية .

# الفصل الرّابع

# إحياء الهلّينيّة

## ١

كان من أخطر المحاولات التي جرت في ظل النفوذ الاستعماري : إحياء الهلينية ، ومحاولة إغراق الفكر الإسلامي والثقافة العربية في موج متلاطم من مترجمات اليونان والإغريق . وقد بدأت هذه الدعوة بترجمة مؤلفات أرسطو ، ثم بالتوسع في ترجمة الأسطورة . واتسع نطاق هذا الاتجاه حين أدخل إلى الدراسات الجامعية : مادة اللغتين اليونانية واللاتينية القديمتين . ومن ثم نشأ تيار ضخم أعاد بعث هذا التراث وفرضه على الأدب العربي والفكر الاسلامي . ومن ثم أصبح له تأثيره في مقومات الأدب وخصائص الفكر ، وهو أثر جاء أشد عنفاً من أثر الترجمة التي تمت في العصر العباسي للفلسفة اليونانية .

وقد جرت الدعوة إلى هذا المخطط تحت عنوان ضخم وزائف في نفس الوقت هو القول بأن الثقافة اليونانية : هي مصدر الثقافة الانسانية .

وقد كشفت الأبحاث الجادة عن زيف الدعوى القائلة بأن مصادر كثيرة في البلاغة ، أو النقد ، أو المنطق . قد استمدها الأدب العربي من اليونان . فقد كان العرب قد شكلوا بيانهم وبلاغتهم ونحوهم ، قبل أن يتصلوا

بالإغريق . وكان لهم من القرآن منطلقاً أساسياً ، لبناء أدبهم وفكرهم ، وكانت اللغة العربية بماضيها الحافل . واستقلالها الواضح ، قد خطت خطوات واسعة قبل الإسلام ، وقبل نزول القرآن ، على نحو يكشف عن زيف دعوى التأثر العربي باليونان . وهي دعوى أذاعها بعض الشعوبيين من أتباع الاستشراق والتبشير بهدف القول بأن تبعية العرب في القديم لليونان لا تمنع تبعيتهم في العصر الحديث لخلفاء اليونان من الأوربيين .

## ٢

ومما كذبته الوقائع والأسانيد ، القول بأن عقلية مصر عقلية يونانية ، أو أن الفكر اليوناني ، قد أثر في الأمم التي عاشت على شاطىء البحر الأبيض قبل الإسلام . ومهما يكن هذا التأثير فإن الاسلام قد جب كل ما قبله ، وأزال من العقول والنفوس كل آثار الأمم والأديان والمذاهب ، وأقام منهجاً جديداً ، مستمداً من القرآن ، ومرتبطاً بالدين الحق في كل ما أنزل الله على نبيّ سابق ، وهو في نفس الوقت متصل اقوى الاتصال بالنفس البشرية . والفطرة الإنسانية .

ولقد أكد كثير من الباحثين أن ظهور الإسلام كان بمثابة فاصل فكري ،و حاجز عقلي بين عنصر وعنصر ، وأن ركام الفكر البشري الذي كان يتموج قبل الإسلام ، قد أصابه وهن كبير ،عند ما وقع تحت أضواء الفكر الرباني الموحى به ، والإنساني الطابع ، والمحرر للبشرية من العبودية والوثنية والإلحاد والإباحة ، ولا عبرة لما يتردد من أن الفلسفة الإسلامية لم تكن إلا فلسفة يونانية مكتوبة باللغة العربية فقد اتخذ المسلمون منطلقهم العلمي ومنهجهم في المعرفة من القرآن ، وبه شكلوا منهجاً خالصاً يختلف كل الاختلاف مع الفلسفات القديمة ، ويتعارض معها من ناحيتين ؛ من ناحية نقطة البدء وهي التوحيد في مواجهة الوثنية والتعدد . ومن ناحية نقطة التطبيق ، وهي

المجتمع القائم على المساواة في مواجهة نظام العبودية الخطير الذي كان قائماً في مجتمعات الحضارات الثلاث الكبرى في العالم (الفرعونية والفارسية والرومانية).

ولقد كان لعلماء المسلمين موقفهم من آراء أرسطو، ومن المنطق بصفة عامة.

## ٣

وإذا كانت الفلسفة اليونانية، التي ترجمت في العصر العباسي، قد جاءت باختيار المسلمين، فإن الفلسفة اليونانية التي ترجمت في العصر الحديث قد جاءت، وإرادة المسلمين مسلوبة، وقد فرضت عليهم فرضاً. فلم يكن لهم دور في اختيارها. ومن هنا: فإن ما ترجم من عناصر الأسطورة والمسرحية والمأساة ومفهومها، ومحاولة إدخال ذلك في الفكر العربي الإسلامي. إنما جاء معارضاً للذاتية العربية، وللمزاج العربي الإسلامي، الذي تشكل في ضوء القرآن خلال أربعة عشر عاماً. على نحو مختلف عن مفاهيم اليونان الوثنية القائمة على المادية والاباحية (١).

وإذا كانت المدرسة الهلينية الحديثة، قد استطاعت أن تحقق انتصاراً خاطفاً. فإن مدرسة الاصالة التي انبثقت من حركة اليقظة العربية الاسلامية، قد استطاعت أن تكشف هذا الزيف، وأن ترد الأمور إلى حقائقها، ليس بالنسبة للمترجمات المستحدثة فحسب، بل بالنسبة لتقويم مترجمات الفلسفة

---

١ — راجع علي سامي النشار. وأبحاث اسماعيل مظهر

اليونانية إلى الفكر العربي الإسلامي كلها . فقد تكشفت حقائق كثيرة في هذا المجال أهمها .

أولا : إن الفلسفة التي ترجمت للمسلمين في العصر العباسي لم تكن ثقافة إغريق صحيحة، بل كانت صورة من عقائد النساطرة واليعاقبة الذين ترجموها، والذين عمدوا إلى التبشير بمعتقداتهم النصرانية في عالم الاسلام . متخذين من ترجمة الفلسفة اليونانية سبيلا إلى ذلك ؛ هذا فضلاً عن أن عدداً من الكتب ترجم منسوباً إلى مؤلفين غير الذين ألفوه . ومن أخطر ذلك ما نسب إلى أفلاطون ، وهو من تأليف أرسطو مثلا . وقد اعتمد الفلاسفة الذين حملوا هذا اللواء أمثال الفارابي وغيره على هذه الزيوف ، فكان لها أسوأ الأثر في أبحاثهم .

ثانياً : تكشف بطلان الدعوى التي ادعاها بعض الشعوبيين من القول بتأثر العرب بالأدب اليوناني . وقد أفاض الباحثون في تزييف الرأي القائل بالتأثر ومن هذا ما أثبته فخري أبو السعود :

السر في ذلك راجع إلى سليقة العرب المطبوعة على البيان ، المفطورة على فصاحة اللسان . فإن العرب لم يكن لديهم سوى اللسان أداة للتعبير ، ومن ثم تأصلت فيهم سجية البلاغة ، وارتفعت فيهم مرتبة البلغاء ، وتوطدت لغتهم ، ونضج أدبهم ، وهم على بداوتهم وقلة حظهم في الحضارة . ولذلك لم يحاكوا شيئاً من الفنون التي كانت حولهم في اليونان والرومان والفرس والمصريين .

ثالثاً : أمكن التنقيب في النصوص القديمة ، والكشف عن زيف الادعاء بأن قواعد البلاغة العربية إنما اسست على ما وضع أرسطو ونقله العرب .

فقد كشف ابن الأثير في « المثل السائر » خطأ هذا الاتهام — وكتاب المثل السائر من أشهر كتب البلاغة — وذلك في قوله : « فإن قلت إن هؤلاء وقفوا على ما ذكره علماء اليونان وتعلموا منه . قلت لك في الجواب إن هذا شيء لم يكن » إلى أن قال : « وهذا باطل بي أنا . فإني لم أعلم شيئاً مما ذكره حكماء اليونان ولا عرفته ، ومع هذا فانظر إلى كلامي « إلى أن قال » ولقد فاوضني بعض المتفلسفين في هذا . وانساق الكلام إلى شيء ذكره لأبي علي بن سينا في

الخطابة والشعر . وذكر ضرباً من ضروب الشعر اليوناني يسمى اللاغوذيا . وقام فأحضر كتاب الشفا لأبي علي . فوقفني على ما أذكره . فلما وقفت عليه استجهلته . فإنه طول فيه وعرض كأنه يخطب بعض اليونان ، وكل الذي ذكره لغو لا يستفيد منه (١) صاحب الكلام العربي شيئاً » .

رابعاً : انكشفت المحاولات الهدامة التي تهدف إلى ربط الفكر العربي الإسلامي الحديث بالهلينية كهدف من أهداف التغريب لإحياء الوثنية في محيط الإسلام ، وربط هذا الاتجاه بتقبل سيطرة الفكر الأوربي الحديث على العرب والمسلمين . وان كل ذلك إنما يهدف إلى هدم قيم الأخلاق ، وإحياء الاباحية . يقول الدكتور زكي مبارك : عاش اليونان في جاهليتهم بعد ظهور الإسلام بأجيال طوال . وظلوا يتوارثون أوهام أسلافهم من عصر إلى عصر . إلى أن جاء المتطرفون من شعراء الفرنسيس والانجليز فعكفوا على هذه الوثنية يعيدونها من جديد . لأنها قامت على أساس براق هو التقديس لطموح الأهواء ، وطغيان الأحاسيس .

وإذا كان الرجل يعجب من سكوت العرب عن ترجمة ما كان عند اليونان من أسفار وأقاصيص ، فإن المسلمين الذين نهاهم دينهم عن إحياء الوثنية العربية ، قد انتهوا بفضل الدين عن إحياء الوثنية اليونانية .

خامساً : عارض الباحثون هذه المغالاة في القول بأن أرسطو هو معلم العرب الأول ، وأن اليونان هم أساتذة العالم ومثقفو الشعوب . ودحضوا محاولات إبراز مكانة الخطابة في اليونان ، وإهمالها عند العرب ، ومحاولة فرض مفكري اليونان على أنهم قادة الفكر البشري .

وقال الباحثون : ان هذه محاولة لإبعاد النفوس عن مجد اللغة العربية وسمو أدبها بحرمان الناشئين من معرفة الوسائل المؤدية إلى هذا السمو وهذا المجد .

سادساً : وقف الفكر الإسلامي والثقافة العربية موقفاً معارضاً لكل

---

١ – الرسالة : ٤ - ١٢ - ١٩٣٩ .

القيم والمفاهيم التي حملتها الهلينية إلى العرب والمسلمين . وحال إيمانهم العميق بالتوحيد دون الخضوع لكل ما تحمله الهلينية من وثنية واباحية ومعارضة للفطرة .

وقد أشار أرنست رينان إلى هذا المعنى حين قال : إن التوحيد هو أهم خصائص العرب ، وهو الذي يلخص ويفسر جميع صفاتهم، وقد كان دين ابراهيم خالياً من التعقيد . وأشار إلى حركة الوهابيين في الجزيرة العربية وقال : إنها تجديد لفكرة التوحيد باتجاهها إلى تخليص العقيدة الاسلامية من كل العناصر الغريبة التي دخلت إليها وأبعدتها عن فطرتها الأولى .

وان هذا المفهوم من التوحيد : هو الذي حال بينهم وبين الميثولوجيا التي عرفها اليونان .

سابعاً : كشفت حركة اليقظة عن اختلاف مفهوم الفكر الاسلامي ، والفكر الهليني حول الفقه والرواية والمسرح . وأبانت كيف لم يكن العرب والمسلمون في حاجة إلى هذا الفن لنصاعة فكرهم ، ووضوح دعوتهم ، وبساطة كلمة التوحيد . وبعدها عن التعقيد الذي يحتاج إلى تفسير من خلال أساطير ومسرحيات ، وكذلك استبعاد المسلمين لفكرة عبادة البطل ، ومعارضتهم لفكرة الخطيئة الأولى مصدر المأساة . وكذلك إنكارهم لمفهوم الصراع بين الله والناس .

وقد علم القرآن المسلمين بالقصص الحق : كيف تكون المباشرة الصريحة ، والأسلوب الواضح الصريح بعيداً عن الإيماء والرمز والظلال والغموض .

هذا فضلا عما ألهم القرآن المسلمين من عفة المرأة وكرامتها . فضلاً عن طابع الرحمة والسماحة والكرم والأريحية . وهو ما يتعارض كلياً مع القصص اليونانية الحافلة بالوحشية والظلم والفساد على النحو الذي عرف في قصة الكترا ، وأوديب ملكاً . ويرجع ذلك إلى غلظة الآلهة الاغريقية وميلها إلى الشر والانتقام (١) .

---

١ – راجع رحلة الأدب العربي إلى أوربا للشوباشي .

ثامناً : قاوم الفكر الإسلامي في الهلينية نظرة الإلحاد والثنائية والوثنية والاباحية . وهي المظاهر التي ورثها الفكر الغربي والحضارة الأوربية التي يحاول دعاة التغريب فرضها من جديد على الفكر والمجتمع الإسلامي بإعادة انبعاث المسرحيات اليونانية والأدب الإغريقي .

تاسعاً : رفض الفكر الاسلامي مفهوم البطولة اليونانية القائم على الأحجار والتشكل المادي . وأقر مفهومه الأصيل القائم على تقدير العمل ، وإحياء الدور الذي قام به البطل في سبيل أمته ، كما رفض مفهوم التراجيديا اليونانية القائم على صراع الآلهة مع الإنسان ، أو عبادة الأبطال ، أو غير ذلك مما يتعارض مع أصول الفطرة الإنسانية المتحررة من العبودية لغير الله تعالى .

# الفصل الخامس

## الدّعوة إلى العاميّة

### ١

من أخطر الدعوات التي طرحت في نطاق مخططات الاستعمار والتغريب : محاولة فرض اللهجات العامية في البلاد العربية بديلا للغة العربية الفصحى . ولما كانت هذه اللهجات لا تحمل معها تراثاً ، ولا أدباً فقد جرت المحاولات لتجميع أزجال وأمثال ونكات من هنا وهناك في محاولة لخلق تراث يمكن الاعتماد عليه في خداع الأمم ،وتركز هذه الدعوى الباطلة على القول بأن العامية ليست لهجة من اللغة العربية ، ولكنها لغة مستقلة .

ولقد كان عمل دعاة العامية من المستشرقين الذين حملوا لواء الدعوة إلى ما يسمونه اللغة المحكية ( سبيتا – ويلمور – ويلكوكس ) جمع كلمات وأمثال – مما يدور في الأحياءالو طنية ، وبين العامة – من أجل الادعاء بأنه تراث للعامية .

بل لقد ذهب ويلكوكس إلى أبعد من هذا . حين ادعى بأن العامية لغة مستقلة عن العربية ، ولا صلة لها بها .

وعمدت الصحف العاملة في خدمة نفوذ الاستعمار والتغريب ، على

تشجيع الانتاج العامي كالأزجال والحكايات والخرافات من أجل دعم هذه الدعوى .

وقد بدأت الحملة على اللغة العربية منذ أواخر القرن الماضي ، وامتدت وتبلورت في دعوى لم يثبت لها دليل . وهي القول بأن العامية هي مصدر قوة الاختراع . وأن تأخر المصريين في هذا المجال يرجع إلى اللغة الفصحى ، ولو أنهم اتخذوا لهم لغة إقليمية كما فعلت بريطانيا مثلاً لاستطاعوا أن يتفوقوا وأن يخترعوا .

وقد كانت هذه دعوى باطلة ، ومضللة وساذجة أيضاً، ولكن هكذا جرت المحاولات لمهاجمة اللغة العربية . ثم جاء ويلمور فدعا المصريين إلى العامية مكتوبة بالحروف اللاتينية .

وفي الغرب كان ماسنيون يدعو إلى الكتابة بالحروف اللاتينية ، وتابعه كولان وغيره . ثم نبتت هذه الدعوة ثانية بين خريجي معاهد الإرساليات الذين حملوا لواء هذه الدعوة في بيروت. وفي مصر جرت محاولات كثيرة أبرزها، ما دعا إليه لطفي السيد ، وقاسم أمين ، وسلامه موسى ، وعبد العزيز فهمي . وكانت المحاولة التي خطط لها التغريب هي وضع اللغة العربية في مقابلة تاريخية مع اللغة اللاتينية التي ماتت ودخلت المتحف ونشأت منها لغات متعددة .

وكان القول دائماً بأن اللغة يجب أن تتطور لتلبي حاجات الناس في كل عصر . وأن هذا يتطلب منها أن تجاري مستويات الناس . ولذلك فقد جرت المحاولات في أوربا في العصر الحديث إلى اسقاط لغة الكتابة كل قرنين ، واعتماد لهجة الكلام لغة مستحدثة . وكان هذا هو ما يراد باللغة العربية . ولا ريب أن هدف هذا هو تحويل ذلك التراث الضخم . وفي مقدمته القرآن والسنة، والشريعة الإسلامية ، إلى شيء تاريخي لا يمكن دراسته إلا للمتخصصين ، ولا يمكن الوصول إليه إلا بواسطة قواميس ومترجمات ، بعد أن يصبح معزولا تماماً عن اللغة المستحدثة . ولقد تصدى كثيرون لدحض فكرة المقابلة بين اللغة العربية واللغة اللاتينية . ذلك أن اللاتينية حين ماتت كلغة للشعب ، إنما

كان ذلك نتيجة موت الأمة . أما الأمة العربية الإسلامية فإنها لم تمت بعد ، هذا فضلاً عن أن اللغة اللاتينية لم تكن اللغة الأصلية لكل أوربا . وإنما كانت هناك السالية والسكوتية والجرمانية الهندية . فضلا عن أن اللاتينية كانت لغة ارستقراطية ، لا يمارسها ولا يحسنها إلا النخبة الممتازة ، ولم تتغلغل في طبقات العوام (١) .

## ٢

لم تجد الدعوة إلى العامية تقبلا صريحاً . حتى من خصوم العرب والاسلام ، الذين عجزوا عن الدفاع عن العامية . وجرى التساؤل عن أي اللهجات العامية يتخذ العرب ، أهي لهجة الشام ، أو لهجة مصر أو لهجة العراق ؟ وإذا كان المقصود هو أن يتخذ كل قطر لهجته لغة ، فأي اللهجات في مصر مثلا : لهجة شمال الدلتا أو الصعيد . أو القاهرة ؟

وكشفوا عن أن كل لغة في العالم لها لهجة عامية . ولها لغة كتابة . وأن الفرق بين لغة الكتابة ولهجة الكلام في العربية ضيقة المجال . وليست أكثر مما بين اللغة الانجليزية وعاميتها . وقد أحصى الباحثون حجم الخسارة التي تفقدها الأمة العربية من اغفال الفصحى ، وخاصة ما يتعلق بتراث أربعة عشر قرناً من الفكر والأدب والعلم والشريعة . وكشفوا عن أن السر في صمود اللغة العربية في وجه غزو العامية ، إنما هو القرآن الذي ارتبطت به العربية منذ نزوله بها . وقد أحدث معجزة لا تعرفها لغات الأرض قاطبة . وهي أن العربي يستطيع أن يقرأ تراث القرون الماضية كله دون حاجة إلى قاموس ، وأن واحداً من هؤلاء القدامى . لو أنه بعث حياً اليوم لاستطاع أن يتحدث مع الناس .

وقد أشار الباحثون إلى ما تتميز به اللغة العربية من ثبات عجيب لا مثيل له ، إلى درجة أن أحد المستشرقين الألمان دعا الغربيين إلى استخدام اللغة

---

١ — راجع مجلة المشرق . م ٢٣ — وساطع الحصري ( آراء في اللغة والادب )

العربية . لتدوين الآثار الفكرية التي تبنى عليها الحضارة وتستحق الخلود (١) . ذلك أن المواطنين في أي لغة من اللغات المعاصرة ، لا يتجاوز فهمهم أكثر من إنتاج مائتي عام من التراث ، أما ما عدا ذلك فإنهم لا يستطيعون دراسته إلا بواسطة قواميس ، وان أقل مقارنة بين شكسبير مثلا في الأدب الأوربي ، وبين المتنبي في الأدب العربي تكشف عن هذا الفارق البعيد ، من حيث أن العربي يقرأ المتنبي اليوم ويفهمه . وبينهما ألف عام بينما الانجليزي لا يقرأ شكسبير إلا من خلال دراسات تنقل أفكاره إلى لغة القرنين الأخيرين .

## ٣

كشف الباحثون عن فساد اللهجات العامية ، وعجزها عن أن تحمل « اللغة » . ذلك أن العامية لم تبلغ من النضج والضبط والاحكام مستوى اللغة العربية الفصيحة ، فهي بداثية خام بعيدة عن الصقل لم تمرن على النهوض بأعباء الحياة العلمية والفكرية ، بينما كانت الفصحى حاملة رسالة العلم والأدب والفلسفة قروناً طويلة . مما أكسبها صقلا ومرونة وتجاوباً مع الفكر والشعور في مظهرهما الرفيع .

فالعامية أعجز من أن تقفز إلى المستوى الذي تحتله الفصحى منذ دهر طويل . زد على ذلك ، أن العامية لا مناص لها من الانحصار في بيئة ضيقة محلية ، فلن يتاح لها ما أتيح للعربية من الرقي والنضوج في شيوعها . إذ أن شيوع العقيدة الإسلامية كان سبباً في شيوع العربية التي تحمل تلك العقيدة ، فاشترك في الإنتاج بلغتها أمم مختلفة . وهذا الشيوع اللغوي أدى إلى زيادة في طواعية العربية ومرونتها للتعبير عن كل مطالب الفكر الإنساني (٢) . هذا فضلا عن أن العامية لا يمكن أن تحقق التفاهم ، الذي هو الغرض من اللغة . بل إنها تحول دون التفاهم ، مع أبناء الأقطار العربية ، أو بين أبناء القطر الواحد .

---

١ – الأستاذ حقي المحتسب : مجلة المعلم العربي م ١٩٥٤ .

٢ – نفس المصدر

وليس في اتخاذ العامية توفير للوقت والجهد كما يتوهمون . إذ يضطر الناس في المستقبل إلى دراسة أطوار العامية ، لكي يفهموا النصوص المكتوبة في عصر سابق كما سيضطرون إلى دراسة اللغات العامية المجاورة لهم ، كما سيحل مكان دراسة قواعد اللغة الفصيحة الواحدة دراسة قواعد العاميات المتعددة .

« ولا تستطيع العامية أن تباهي بمثل تاريخ الفصحى وفضلها على الحضارة » ولا شك أن العامية ستؤدي إلى اضعاف أواصر الوحدة القومية بين أجزاء الوطن العربي ، كما ستؤدي إلى اضعاف أواصر الوحدة الفكرية بين أتباع العقيدة الإسلامية ، وهدم العقيدة والقومية هدماً يهدف إليه المبشرون والمستشرقون .(١)

## ٤

أما القرآن الكريم وأثره في بناء اللغة العربية ، وأثره في امتدادها على القرون والأزمان . فإنه قد وجد من الباحثين تقديراً واضحاً وفهماً عميقاً . فهو الكتاب الوحيد الذي احتفظ بلغته الأصيلة ، وحفظها على قيد الحياة ، وسيحفظها على مر الدهور . وستموت اللغات الحية المنتشرة اليوم في العالم ، كما ماتت قبلها لغات حية كثيرة في سالف العصور ، إلا العربية فستبقى بمنجاة من هذا الموت ، وستبقى حية في كل زمان ، مخالفة لنواميس الطبيعة التي تسري على سائر لغات البشر ، ولا غرو فإنها متصلة بالمعجزة القرآنية الأبدية (٢) .

وقد أكد غير واحد من الباحثين : بأنه لا لغة عربية بغير القرآن ، وأنه النموذج الخالد الذي سيبقى قمة البيان ، وأن اللغة العربية لا ريب حافظت على وجودها بفضل القرآن .

---

١ – حقي المحتسب : العامية . ( مجلة المعلم العربي )

٢ – نفس المصدر

## ٥

ولا ريب أن اللغة العربية قد صاغت بالقرآن فكراً متميزاً له،معالمه الواضحة ، وطبيعته الخاصة . ومن هنا كانت اللغة العربية ضرورية لفهم هذا الفكر ، وكانت هناك مطابقة واحدة بين أهل اللغة العربية ، وبين القرآن والفكر الاسلامي، وهذا هو السر في القول بالعجز عن ترجمة القرآن، من حيث ارتباط الفكر باللغة ارتباطاً جذرياً ، ومن حيث عجز كثير من المستشرقين عن فهم القرآن، وفهم الإسلام . لأنهم يعجزون عن فهم أسرار اللغة وبلاغتها وتركيبها .

ولما كان من العسير فصل كلمات اللغة عن ملابساتها الفكرية التي تشير إليها . فقد قام للغة جدار ضخم في بناء الفكر . لا سبيل إلى إنكاره ، أو تجاوزه . وفي هذا المعنى يقول العلامة . صادق عنبر : لقد علمنا أن لكل أمة شهيداً من لغتها . على ما فطرت عليه من دين ، ودون لها من تاريخ ، وعرف عنها من نسب ومدنية وفنون . ففقدان أمة لهذه الثروة المعنوية اعتراف منها بتفاهتها .

## ٦

وإذا كان لنا أن نقيّم أهمية اللغة العربية . فإن ذلك يحتاج إلى موازين كثيرة : ومن ذلك أن عدد كلمات اللغة الفرنسية ٢٥ ألفاً ، وكلمات اللغة الانجليزية مائة ألف . أما العربية فعدد موادها ٤٠٠ ألف مادة . ومعجم لسان العرب يحتوي على ٨٠ ألف مادة لا كلمة .

ويقول الخليل بن أحمد في كتاب العين : ان عدد أبنية كلام العرب ( ١٢ مليون و٣٠٥ ألف و٤١٢ كلمة ) ويقول الحسن الزبيدي : ان ما يستعمل من ألفاظها ٥٦٢٠ لفظاً . وعندما نزل بها القرآن أزاحت السريانية والكلدانية والنبطية والارامية واليونانية والقبطية قبل أن ينقضي قرن واحد .

فلما بلغت القرن الثالث الهجري تحولت الصلوات في الكنائس إليها ، ثم كتبت بها اللغات التركية ، والفارسية والأوردية والأفغانية والكردية والمغولية والسودانية والايجية والساحلية . كما كتبت بها لغة أهل الملايو . وقد حدث هذا كله منذ ألف عام تقريباً .

ثم دخلت اللغات الأوربية كالفرنسية والألمانية والانجليزية . وفي اللغة الانجليزية وحدها أكثر من ألف كلمة عربية . ومن الناحية العلمية : فهي تفوق أضخم اللغات ثروة وأصواتاً ومقاطع. إذ فيها ٢٨ حرفاً غير مكررة . بينما اللغة الانجليزية فيها ٢٦ حرفاً ومنها مكرر. وباللغة العربية ثراءٌ في الأسماء المضاعفة . فهناك ١٧٠ اسماً للماء و٧٠ اسما للمطر .

ومن خصائص اللغة العربية : أن جميع مشتقاتها تقبل التعريف ، وهذا يجعلها طوع أهلها أكثر من غيرها وأوفى بحاجة المتكلمين . وللفعل العربي صيغ متعددة تبلغ الاثني عشر صيغة . كل منها يمتاز بمعنى خاص متصل بمعنى الفعل الأصلي . وتمتاز بضروب في النحو في مجال الاشتقاق والمجاز والاستعارة والكناية .

ومن أعاجيب العربية التي لا تجد لها ضريباً أن كلمة ( الوفاء ) في اللغة العربية . قد شغلت أربع صفحات من الجزء العشرين من لسان العرب من صفحة ٢٧٨ إلى صفحة ٢٨١. وفي بعض اللغات لا توجد كلمة واحدة تدل على هذا المعنى .

## ٧

هناك من دعاة التغريب من يقول : « ادعوا إلى قتل الفصاحة ». ولا ريب أن الدعوى هناك موجهة ضد القرآن نفسه ، ذلك أن الأمة العربية . إذا نزلت في أساليبها إلى المستوى العامي ، فإنها ستفقد قدرتها على فهم القرآن ، وعلى الاتصال بمضامينه . ولذلك فإن العربية لا تزال قائمة على الفصاحة وان أساليبها تبقى قائمة على مستوى القرآن دون أن تنزل عنه .

وفي هذا يقول العلامة مصطفى صادق الرافعي ! العربية لغة دين قائم على

أصل خالد هو القرآن الكريم . وقد أجمع الأولون والآخرون على إعجازه بفصاحته . إلا من لا يحفل به من زنديق يتجاهل ، أو جاهل يتزندق . ثم ان فصاحة القرآن يجب أن تبقى مفهومة ، ولا يدنو الفهم منها إلا بالمران والمزاولة . ودرس الأساليب الفصحى ، والاحتذاء لها ، واحكام اللغة والبصر في دقائقها وفنون بلاغتها ، والحرص على سلامة الذوق بها . وكل هذا يجعل الترخص في هذه اللغة وأساليبها ضرباً من الفساد .

والحال الخاصة في فصاحة هذه اللغة : ليست في ألفاظها، ولكن في تركيب ألفاظها (١) . ومن هنا فإن دعوى قتل الفصاحة هي حرب يراد بها إبعاد مستوى المسلمين والعرب ، عن مستوى بلاغة القرآن . ومن ثم يعجزون عن فهمه ، وينحرفون إلى مستويات العاميات .

ومن الحق أن اللغة العربية ليست لغة العرب وحدهم كأمة . وهم لذلك ليسوا مخيرين في أن يتصرفوا بها . ولكنها لغة فكر وثقافة وحضارة ودين ، يتزود بها سبعمائة مليون من البشر . فهي لغة فكر مشترك بين العرب والمسلمين . وبين المسلمين والمسيحيين، وبين مختلف العناصر والشعوب . والأديان والمذاهب ، وهي لغة فكر الشرق بكل ثقافاته . وهذه خاصية لم تعرفها لغة غير اللغة العربية . ومن أجل ذلك فقد استعصت على القوانين والنظم التي حاول علم مقارنة اللغات أن يضعها ، أو يفرضها على ثقافات الأمم ولغاتها .

---

١ – تحت راية القرآن : مصطفى صادق الرافعي .

# الإسلامُ في مُواجَهةِ الفِكر

## ١

إن أكبر الأخطاء التي تواجه الإسلام من خصومه . هي محاولتهم تطبيق مفاهيم الأديان الأخرى عليه . بينما يختلف الإسلام عن هذه العقائد التي قد أصابها التحريف،والقصور عن شمول الإسلام وتكامله . إن معظم العقائد والنحل تتقارب وتتشابه . وتلتقي في كثير من مفاهيمها . لذلك فقد يجد الباحثون من الغربيين في مفاهيم الإسلام شيئاً مخالفاً يعسر عليهم فهمه،وربما بدا غريباً كل الغرابة . ذلك أن الإسلام لم يكن مجرد دين ، بل هو طريقة في الحياة ، ومنهج واضح عني بكل ناحية من حياة الفرد ، منظماً سلوكه الاجتماعي والخلقي والقانوني والديني . وهو إلى ذلك منهج أخلاقي يربط الحياة الدنيا بالآخرة ، ويربط العقل بالقلب . ويربط العلم بالعمل .

والتوحيد هو الأساس الأول للإسلام . وهو أيضاً المحرك الأول للفكر الإسلامي . وبوضوح فهمه منهجاً متكاملاً جامعاً يلغي صور الخلاف . والصراع التي تقوم بين العلم والدين، والروحية والمادية،والفردية والاجتماعية. وهو يعلي من شأن الإنسان . ويجعله مستخلفاً في الأرض تحت إرادة الله .

وليس في الإسلام خطيئة أصلية ، ولكن فيه مسؤولية فردية وجزاء أخروي . فهو لا يقر مسؤولية أحد من البشر عن شيء سوى ما فعله . وهو يؤكد قيمة الإنسان بصرف النظر عن لونه وديانته .

## ٢

وقد رفض الإسلام مبدأ التقليد . ومبدأ التبعية . فالتقليد يمنع الاصالة ، والتبعية لا تتيح معرفة حقيقية . والتقليد ينطبق على الوافد وعلى القديم جميعاً . كما دعا الإسلام إلى التفرقة بين المعارف الجوهرية . والمعارف غير الجوهرية . ونادى بالاهتمام بالأولى ، والتركيز عليها .

وعمل الإسلام على تحرير أتباعه من التأثير الأجنبي بكل أنواعه . ودعا المسلمين إلى اليقظة إزاء الحرب النفسية التي تهدف إلى تغيير المعالم الأصيلة لعقيدتهم وفكرهم ومزاجهم النفسي .

ولقد كان أعداء الإسلام يعلمون أن الطريق الوحيد إلى ضرب الإسلام، هو إثارة الشبهات وطرح الدعوات الهدامة في طريقه وإدخال تفسيرات غريبة عليه . ولا ريب أن الطريق إلى حفظ وجودنا وكياننا . وحماية العقائد والأصول التي تقوم على التوحيد والأخلاق من الشبه والشكوك التي قدمتها الفلسفة المادية ، هو طريق واحد . إنه الاعتصام بالقرآن القادر على العطاء في حل جميع المتناقضات .

إن الفكر الغربي اليوم لا يقدم للمسلمين عوامل بناءة . أو ايجابية . فهو حريص على أن يبقيهم داخل دائرة ضعفهم وتخلفهم . إنما يقدم لهم صراع المذاهب الفكرية . ليفتنهم عن قيمهم . ويمنع عنهم العلوم التكنولوجية التي شاركوا في صناعتها . وهم في حاجة إليها. إنهم يعطون ما لا يحتاجون إليه، ويمنعون من حاجتهم الوحيدة في حضارة الغرب . إن وحدة الثقافة العالمية عبارة خلابة ولكنها تخفي في أعماقها التعصب والاحتقار للثقافات الإنسانية . ومعناها الحقيقي هو سيادة الثقافة الغربية . وتسيدها على حضارات الأمم . ولا سيما الفكر الإسلامي والثقافة العربية . لقد ظل كفاح المسلمين مستمراً على مدى الأجيال في سبيل تحرير الفكر الإسلامي من هيمنة الفلسفات الوافدة .

والنظريات المادية والوثنية . ولم يستسلم الفكر الاسلامي طوال تاريخه للنظريات الوافدة . وقاومها طويلا .

إن أخطر معطيات الفكر الغربي هي الانشطارية — هذه الانشطارية هي الفصل بين القيم عامة والأخلاق من ناحية وبين السياسة والتربية والاجتماع من ناحية أخرى .

وأخطر ما في المناهج الغربية الوافدة ، أنها تتوزع دون أن ترتبط في تكامل مع الإنسان نفسه وحاجاته، فترى علماء يدرسون الأخلاق في عالم المثل، وعلماء يدرسون الإنسان مجرداً عن الأخلاق . ويرى علماء أن هذا الفصل واجب ومفيد في العلوم الطبيعية . ولكنه خطر ومستحيل في علوم النفس والاجتماع ذلك أنه ما دام الناس يعيشون في إطار مجتمع ، وهذا المجتمع داخل في نفس كل فرد كجزء أساسيّ منه، فلا يمكن أن تنشأ قيم خلقية واجتماعية منفصلة عن الإنسان .

## ٣

لا ريب أن على المفكرين المسلمين والعرب أن يفكروا بلغتهم . ومن داخل إطار فكرهم لينطلقوا في الطريق الوحيد الذي تضيئه أمامهم أضواء التوحيد والعدل . وعلى المسلمين أن يعرفوا كيف حطم الإسلام قيد الإغريقية الثقيل . وحررهم من منهجها العبودي الوثني . وأن عليهم اليوم أن يحطموا قيد المادية في العصر الحديث . وعلى المسلمين أن يفرقوا بين الأصيل والبديل . وأن يذكروا دائماً أن الدعوات الهدامة تعمل على تقديم البديل الزائف البراق في مواجهة الأصيل الذي لا يجد طريقاً في زحمة الباطل .

إن تجميد العقل واعتباره سبيلا واحداً في البحث . ليس منهجاً إسلامياً أصيلاً . وعلى المسلمين أن يذكروا أن هناك ظاهرة انحلال واضحة في الفكر الحديث كله : في الأدب والفلسفة والاجتماع . لقد حرر الاسلام المسلمين من ركام الفكر القديم . ووثنياته . واضطرابه وأخطائه . فإذا كان في الفكر

القديم أي ضياء من نور ، فإنه إنما جاء من رسالات السماء . وقد أعاد الإسلام تشكيله من جديد على صورة مضيئة ربانية ، وما سوى ذلك فلا حاجة لنا به . ولا بد أن تكون هناك تفرقة واضحة بين مفهوم التخصص وبين مفهوم فصل القيم وتجزئتها .

إن التخصص هو إعطاء علم معين أو فن معين، أكبر قدر من الاستيعاب والاستقصاء ، ولكن التخصص في مفهوم الإسلام لا يتم إلا في داخل نطاق التوسع في الدرجة الأولى من الفكر كله . والاهتداء بقوانينه وعلاماته . أما فصل الأخلاق عن السياسة، أو عن التربية ، أو عزل الدين عن المجتمع ، أو الأدب عن الفكر . أو العروبة عن الإسلام . أو اللغة عن القرآن . فذلك ليس تخصصاً . ولكنه فصل مضيع لمفهوم التكامل الذي هو أبرز قواعد الفكر الإسلامي . والذي هو بمثابة الجدار السميك الذي يعجز الدعوات الهدامة والفكر الوافدة .

فالمنهج الإسلامي في المعرفة يقوم على الثبات ، والتطور على قاعدة الثبات وحركة التطور من داخله شأنه شأن كل شيء في الكون . له قاعدة يتحرك عليها ولا ينفصل عنها ، وفي الاسلام أهداف ثابتة . ووسائل متغيرة « فِطْرَةَ اللهِ الَّتِي فَطَرَ النَّاسَ عَلَيْهَا لاَ تَبْدِيلَ لِخَلْقِ اللهِ » .

إن الدعوة إلى التخصص على هذا النحو ليست إلا دعوة إلى تمزيق جهة واحدة ، وتفريق أصل واحد . إن مسألة تجزئة المفاهيم في الفكر الغربي لها طابعها وعواملها ومبرراتها . ذلك أن الأصول القديمة للفكر الغربي تقوم على الفصل بين القيم وأهمها بين الدين والمجتمع .

## ٤

وبعد فماذا تعني كلمة « العقائد الموروثة » التي يرددها بعض الكتاب ويلحون عليها ؟ إنها كلمة يراد بها الغض من شأن الدين والقيم الإسلامية . ولا ريب أن العقائد الموروثة صنفان : أصيل وزائف . وهي في إطلاقها دون

تحديد نوعها ، إنما تريد بالتمويه . أن تخدع بعض الناس وأن تصور لهم أن العقائد الموروثة كلها زائفة . والحق أن العقائد الأصيلة غير العقائد الزائفة ، وأن هناك عقائد زائفة جديدة هي في ذاتها نتاج عقائد موروثة .

ونحن نعلم أن الإسلام حين جاء بالحق . إنما كان حجة على العقائد الموروثة الزائفة . وقد كشف عنها ودحضها في قوة عن طريق أسلوب الإقناع القائم على العقل والقلب معاً . ونحن نعرف العقائد الأصيلة من العقائد الزائفة بوسائل كثيرة ، فلا شك أن كل ما يقدمه لنا الأعداء والخصوم زائف مهما بدا بريقه. وكل ما يتعارض مع فطرتنا . ومع روحنا . ومع طابعنا . ومع قيمنا الأصيلة هو زائف مرفوض .

أما الإسلام وحقائقه من التوحيد والنبوة والقرآن والبعث والجزاء . فلن تكون أبداً عقائد موروثة على النحو الذي يقصده دعاة التغريب .

## ٥

هناك صيحة تقول ان البشرية بلغت رشدها . فهل البشرية بلغت رشدها حقاً . ولم تعد في حاجة إلى وصاية الدين ؟ هذه هي الصيحة التي تحملها الدعوات الهدامة في العصر الحديث من أجل التحرر من القيم والمفاهيم التي ورثتها الإنسانية من رسالات الأديان . والتي هدتها في دياجير الظلمات وأمدتها بالقوة على معارضة الظلم والطغيان والفساد . ونحن نسأل عن القيم الجديدة التي أغنت البشرية عن هداية الدين . ونبحث فلا نجد شيئاً . إن كل ما تقدمت به البشرية في القرنين الأخيرين عما كان من قبل ، لا يزيد عن هذه المعطيات المادية التي منحت الإنسان بعض الرفاهية في المسكن . والملبس ، والطعام ، والشراب ، ولكن هل قدمت الحضارة . أو قدم العلم أي إضافة حقيقية في مجال النفس والاجتماع والأخلاق ؟ ثم نحن نعرف أن كل هذا التقدم المادي . إنما جاء على حساب النفس البشرية . وضد ارتفاعها وتقدمها الأصيل الذي يقوم على الروح والمادة معاً . ومن خلال العقل والقلب جميعاً .

إن الإنسان قد أصبح بالتقدم المادي أكثر حاجة إلى هداية الدين ، وأكثر بعداً عن الاصالة والإيمان.وقد كشفت لنا الدعوات الهدامة كالوجودية والهيبية مدى الأخطار التي تهدده وتدفعه إلى الغربة والتمزق .

إن الانسان بطبيعة تركيبه ( نفساً ومادة ) في حاجة إلى هداية من خارجه من كتاب الوجود الذي يكشف للنفس الإنسانية الطريق إلى الحق . ومن كتاب الله الذي يهدي البشرية إلى النور والضياء .

## ٦

ثم ماذا تعني صيحة الصائحين إلى إعادة النظر في كل المسلمات ، وما اصطلح على أنه نهائي ومطلق ؟ الحقيقة أن هذه كلمة حق يراد بها باطل . فقد أصبحت الوثنيات الآن هي المسلمات الجديدة . أما المسلمات المقصودة من أصحاب الصيحة . فإنها لا تتعدى النظر إلى الدين على أنه نتاج عصر انتهى . ومن حق السائلين أن يقولوا لنا أي دين يقصدون ؟ وهل اطلعوا على الإسلام حين عمموا القول بكلمة الدين ؟

إن حملات ضخمة وجهت إلى أديان كثيرة . وبعض ما في هذه الحملات صحيح . لأن هذه الأديان قد تجاوزت بالتأويل مجموعة من الحقائق الربانية لكن كل ما يوجه إلى الأديان في الغرب لا يمكن بحال أن يصدق على الإسلام . الذي يختلف ويتميز في معطياته . وفي تاريخه ، وفي موقفه من الإنسان . ومن العلم ،ومن الحياة. هذا الذي كان في عطائه لقضايا العلم والانسان والحياة . أكثر إيجابية وتقدماً ، والحق أنه ليست هناك مسلمات . اصطلح الناس على أنها نهائية ومطلقة غير الإيمان بالله الواحد الأحد ، الفرد الصمد ، الذي لم يلد ، ولم يولد ، ولم يكن له كفواً أحد . وليس غير الايمان بالدين الحق المنزل على الأنبياء ، رسالة بعد رسالة . حتى أتمها الاسلام فكان خاتمها . وليس غير الإيمان بالقرآن كتاب الله المنزل وخاتم رسالاته . وليس غير الإيمان بالملائكة والنبيين واليوم الآخر . والبعث والجزاء ، فهل هذه المسلمات

التي أقرتها الأديان نهائية ومطلقة . يمكن أن تكون موضع شك أو شبهة ، أو محاولة لإعادة النظر؟ .

إن القائلين بهذه الصيحة . إنما يريدون أن يعلنوا عن حقيقتهم . أما فيما سوى ذلك من حقائق فنحن ندعو إلى النظر في المسلمات الباطلة التي يحاول خصوم الإسلام فرضها والدعوة إليها وتزيينها مثل : العلمانية . والنظرية المادية،والفردية، والوجودية وغيرها — فتلك هي المسلمات الزائفة التي تحتاج إلى إعادة النظر .

# آفاق البحث

لكي نعرف مدى الفوارق العميقة بين معطيات الإسلام . وبين معطيات النظريات الفلسفية في مجالات العقائد . وعلوم النفس ، والاجتماع ، والأخلاق، علينا أن نذكر الحقائق التالية .

## ١

إن الإسلام هو الذي حرر العقل والنفس والإنسانية من الوثنيات من عبادة غير الله ، وحرر الفكر والإرادة والعمل . ورفض استعلاء الوجدانيين والعقلانيين ، وقرر أن أبرز مفاهيمه هي المطابقة بين العقيدة والعمل والكلمة والسلوك .

## ٢

اعترف الإسلام بميول وعواطف الإنسان . فقرر أن في الإنسان ميولاً وعواطف مختلفة ، وكلها فيه غريزية طبيعية أودعها فطرته لتكمل في شخصه ونوعه .

ولقد كانت الدعوة إلى الحرمان . ووقف تيار هذه الميول بالرياضات قبل الإسلام سببا في تعطيل قوى النفس الإنسانية . وقد أنكر الإسلام طريقين لتحرير الإنسان . هما التقشف والإباحة . ووضع الإسلام طرائق لتطهير

النفس كالعبادات والصوم . وتهذيب النفس أصل من أصول الحضارة الإسلامية .

ذلك أن على الإنسان أن يتحرر من ميول النفس ورغائبها وأهوائها وخضوعها لغير الله .

## ٣

إن الإسلام لم يعرف روح النسك التي عرفتها بيئات الأديرة والصوامع . ولم يكن في الإسلام دعوة إلى الرهبانية . بل كانت دعوته إلى : (قل من حرم زِينَةَ اللهِ التي أخْرَجَ لعبَادِهِ وَالطيبات منَ الرِّزْقِ ) . ولم يستسلم المسلمون . ولم يكن إيمانهم بالقضاء والقدر داعية استسلام ، بل داعية تحفز وعمل ، وتضحية بالنفس في سبيل الحق ، الذي آمنوا به واعتنقوه . أما المناضلة ضدالغيب بمفهوم كشف أسرار المادة ، وما يكمن فيها من تفاعل . فإنهم قد ذهبوا إلى أبعد شوط ، ولكنهم كانوا مؤمنين بالله ، فعفوا عن مثل ألفاظ مناضلة الغيب أو صراع القدر أو قهر الطبيعة . وهذه كلها عبارات لا يقرها الإسلام :

والإسلام يؤمن بتذليل الطبيعة . لا تحدي الطبيعة . ويؤمن بلقاء الأجيال لاصراع الأجيال .

## ٤

ولا يقر الإسلام نظرية تغير الأخلاق باختلاف البيئات والعصور . ولا يقر نظرية التطور المطلق الذي يتحرك في فراغ . ولا يقر تقديس العقل ولا عبادة الباطل .

إن مفهوم الأخلاق : هو خلافنا الأساسي مع الفلسفات المادية . وأن مفهوم التوحيد : هو تميزنا الأصيل عن الفلسفات الوثنية .

## ٥

في الإسلام : ليس الإنسان شريراً على وجه الإطلاق . وليست عليه مسؤولية خطيئة سابقة، وليست الخطيئة متأصلة في كيانه . هذه وجهة النظر المتشائمة لا يقرها الإسلام .

وليس الإنسان رَدّ طبيعة صالحة خيرة على إطلاق القول . والإسلام يرى أن في الإنسان طبيعة الخير والشر . وأن إيمانه بالله هو الذي يرده عن الشر . وليس الإنسان عبداً لمواريثه . أو لبيئته . بل إنه قادر بالفهم لمهمته أن يحرر نفسه من كل الأخطاء . وكل موروث يمكن تغييره . ولا تصد المواريث أو البيئة النفس الإنسانية عن التحرر والتغيير .

## ٦

والأخلاق في مفهوم الإسلام : قوانين أخلاقية ثابتة يميز بها الحسن والقبيح، والحلال والحرام . والخير والشر . والمسلم يرى العمل حسناً حين يأمر به الله . والمسلم يؤمن بأن إرادة الله وراء القوانين ، وهي التي تجعل الحسن حسناً . والقبيح قبيحاً .

## ٧

وان أبرز مفاهيم الإسلام . أنه لا انفصال بين الدين والحياة . وبين الدنيا والآخرة وبين الروح والجسم . وبين الواقع والمثال . فالإسلام يرفض تمزيق الجبهة الفكرية بين الاقتصاد والسياسة . والاجتماع والدين . ويؤكد بقاء كل العناصر في اتجاه واحد قوامه « وحدة النفس الانسانية » .

وبذلك يقضي على كثير من الأخطار التي تواجه الفكر المعاصر . والنفس الإنسانية . والتي هي مصدر أزمة الإنسان الحديث .

إن أزمة القلق التي يعانيها المثقف المسلم اليوم . إنما تعود إلى أصل واحد

ومصدر واحد ، هو أنه ترك مقوماته الأساسية وقيمه ، في نفس الوقت الذي أخذ يواجه فيه النظريات والمذاهب العالمية ولو أنه التقى بالفكر الإسلامي . وهو صادر من قيمه ومقيم على قاعدته، لما وقع مثل هذا التمزق ، أو هذه الأزمة .

ولعل أبرز مقومات الفكر الإسلامي الأساسية هي : تلك القدرة الدائمة على مقاومة كل عدوان . وظهور القوة المدّخرة وبروزها على نحو مذهل ابان التحدي ، وذلك حتّى في أشد فترات الضعف والقدرة الدائمة على مقاومة كل ما يضاد مفاهيمنا وقيمنا على مدى التاريخ كله . والإيمان بالذود عن مقوماتنا الأصيلة .

## ٨

إن روح الإسلام . ومنهجه الجامع بين الأخلاق والشريعة في ظل عقيدة التوحيد لا يعارض سير الحضارة . بل هو يدفعها دفعاً إلى الغايات العليا . ولكنه يتعارض مع التجاوزات الاباحية التي فرضها الإلحاد . والتي ليست من مفهوم الحضارة بمعنى أنها دعوة إلى التقدم . ومن هنا فإن القول بان الدين عامة . أو الإسلام يعارض تقدم الحضارة . هو قول مردود ، فالحقيقة أنه يعارض تقدم هذا الجانب من الاباحية والإلحاد والنظرية المادية . وهي ليست الحضارة .

إن الحضارة بمفهوم العلم التكنولوجي . والتقدم في أساليب الحياة تجري مع الإسلام . ولكن الخلاف هو في محاولة فرض منهج اجتماعي وأخلاقي على المجتمع . لا يقوم على أساس الضوابط التي قدمها الدين الحق . وعلى أساس الأخلاق .

إن الخلاف حول نقطة أساسية : هل الأخلاق ثابتة أم متغيرة . والاسلام يقول إنها ثابتة . وترتبط بالإنسان . وأن الإنسان روح ومادة . وليس مادة خالصة .

فاذا كان هذا هو مفهوم الحضارة . فالاسلام يختلف فيه عن مفهوم الغرب . ويرى أنه ليس المنهج الذي يدفع البشرية إلى التقدم بمعناه الحقيقي . والإسلام يرى أن كل حضارة لا ترتكز على الخير والعدل حضارة زائفة .

إن حضارة الاسلام تستهدف ترقية النفس وتحريرها من قيود الأهواء والشهوات بحيث تصبح ربانية الهدف . إنسانية الطابع تعمل لله . وتتجه بالخير إلى الناس جميعاً .

وقد اعترف الإسلام بناموس الرقي ، واعتبر الإنسان مسوقا لغايات من المدنية لم ينلها إلى اليوم .

٩

قرر الإسلام أن للوجود الإنساني سنناً لا تتبدل . ولا تتحول . ولا تزال عاملة على مقتضى نظامها المقرر لها .

١٠

لا يقر الإسلام إقصاء الدين عن منطقة الحياة الاجتماعية . بل يرى أنه ضروري لها . والإسلام جماع بين العقيدة والشريعة والأخلاق . فهو ينظم العلاقة بين الله والإنسان . كما ينظم العلاقة بين الإنسان والمجتمع كله .

ومن هنا . فقد أقام الاسلام منهجاً متكاملاً للخطوط العامة التي يقوم عليها سلوك الإنسان في الحياة إزاء نفسه . وإزاء باقي الجماعة . وهو منهج مرن واسع سمح ، يقبل الاضطرار والاحتمال . ويعفو عن الخطأ وهدفه من ضوابطه وحدوده حماية الإنسان نفسه . واحتفاظه بقواه وشخصيته .

وهو منهج متكامل جامع بين الروح والمادة والعقل والقلب ، يعترف بغرائز الإنسان . وحاجاته الطبيعية . ويسمح له بممارستها في حدود المحافظة على كيانه . ودون العدوان على حقوق الآخرين. وليس مفهوم الإسلام في الترابط بين الدين والمجتمع كمفهوم العقائد التي تفصل بينهما .

## ١١

من طبيعة الإسلام قدرته على التوفيق في براعة بين المتناقضات جميعاً . دون أن يميل إلى جانب أو يغلب كفة على أخرى . فهو يدعم الجماعية والفردية ، ويربط الروحية والمادية ، ويستوعب النفس والعقل الإنساني .

ومن طبيعة الاسلام : الجمع بين الثبات والحركة . وهو يقيم الحركة في إطار الثبات وعلى قاعدته . وهو في نفس الوقت الذي لا يقر فيه التعصب والتزمت ، لا يقر الانطلاق والحرية غير المنضبطة . وهو يفسح للرغبات والمطامح طريقها إلى التحقيق ، ولكنه يحيط الانسان بالضوابط التي تحميه من الفساد والإباحة .

وهو يرفض الرهبانية . والزهادة في نفس الوقت الذي يرفض فيه الترف والتحلل .

والإسلام يطالب المسلمين بالحركة . وتغيير وسائلهم . وأساليب معيشتهم . والأخذ من كل جديد في إطار قيمهم ومبادئهم . ودون التضحية بها .

## ١٢

لا بد من التفرقة بين العقيدة في أصولها السمحة . وبين عملية التطبيق في المجتمع الإسلامي — وكذلك التفرقة بين مراحل القوة . ومراحل الضعف . ان المبادئ الأساسية للإسلام ستظل قابلة للتطبيق . لأنها مثل أعلى في الاصالة . والواقعية . والسماحة . ومطابقة تماما للفطرة . وجارية مع الطبيعة البشرية طرداً وعكساً .

ولا ريب أن توقفها . وتغلب مذاهب أخرى عليها في هذا العصر . ليس إلا عرضاً من أعراض ضعف المسلمين وعجزهم عن القيام على منهجهم ، وهو عرض زائل يمر بكل الأمم . ثم تكون اليقظة عاملاً على تجاوزه . وفي المبادئ الإسلامية من المرونة والسماحة ما يصلح المجتمع البشري كله ،

ويقدم له أصدق الحلول لمشاكله وقضاياه من خلال الإيمان بالله ، والأخلاق ، وقيام المسؤولية الفردية في ظل الإيمان بالبعث والجزاء .

ولا ريب تنكشف يوماً بعد يوم أخطار الانحراف الذي أصاب البشرية ، وما تزال الصيحات تعلو حول ما أسموه « أزمة الإنسان الحديث ». فقد اعترفوا بالأزمة ، وعجزوا عن حلها ، وقدمت لهم طرق جديدة هي : متاهات جديدة . وسوف لا يجدون بعد الجهد الجهيد إلا أسلوب الاسلام ، أسلوب الفطرة المنزل من عند الله .

## ١٣

ولا ريب أن القول بأن (الإيمان بقضاء الله وقدره هو مدعاة للتواكل) . هي دعوى منقوضة من أساسها . فإن الإيمان بالقضاء والقدر كما جاءت به الأديان السماوية . مفروض على المؤمنين في النتائج لا في الأسباب ، فهم مطالبون بالأسباب . مفروض عليهم السعي والأخذ بها ، مطالبون بعد ذلك . بأن يتركوا النتائج لله . مدبر الكون الواحد الأعظم . ومن هنا كانت عقيدة الإيمان بالقضاء والقدر . سر عظمة المسلمين الأولين . لأنهم أخذوا في الأسباب ، وبذلوا جهدهم في استقصائها . إنفاذاً لأمر الله ، ولم يأبهوا للنتائج الضارة المؤلمة . رضاء بقضاء الله . ففازوا بالحسنيين ، وكان أحدهم حين يخرج للجهاد في سبيل الله . لا يبالي أوقع على الموت . أم وقع الموت عليه .

وما ابتلي الناس بهذا التواكل إلا يوم آمنوا بعقيدة القضاء والقدر ايماناً معكوساً . فأخذوا بها في الأسباب . فلم يستعدوا ونسوها في النتائج فلم يرضوا (١) .

ولا ريب أن الإيمان بالقضاء والقدر هو الذي دفع المسلمين إلى التقدم . وجرأهم على المخاطر . لتوسيع رقعة الإسلام . والدفاع عن حوزته على مرّ الأيام .

والمعنى الحقيقي للإيمان بالقضاء والقدر هو أن يؤمن المرء بأن الله

---

١ - صاحب الشهاب

خلق عالماً يسير وفق نظام دقيق ، وعلى المرء أن يعمل وفق طبيعة هذا العالم ، فإن على من يؤمن بالقضاء والقدر أن يقوم بعمله بهمة وإيمان ، ولا عليه من النتائج التي هي من قدر الله وقضائه. ولقد كانت عقيدة خلود الروح من أقوى الدعائم التي دفعت المجاهدين المسلمين إلى الموت غير مكترثين ، واستصغار الدنيا وزخرفها .

## ١٤

إن أثر الإسلام واضح في كل الثورات التي قامت على القيود التي تمنع العقل من التفكير . أو تفرض جماعة خاصة تحتفظ بالأسرار ، وإليها ترد الأمور . ومن الاسلام انطلقت الدعوة إلى تحرير الفكر البشري من الوثنية ، وانطلقت الدعوة إلى حق كل إنسان ، أن يفهم كتاب الله دون وسيط . وأن يتصل بالله دون وسيط . وبالإسلام انطلقت الدعوة إلى التحرر من طغيان الظلم . وعدم الخضوع لجور المستبدين . وباسم الإسلام انطلقت الدعوة إلى النظر في الكون . والبحث عن الدليل . وإنكار التبعية ، ورفض التقليد بالباطل . والتحرر من عقائد الآباء . إذا لم تكن قائمة على الحق الواضح الذي يقره القلب .

ومن مفهوم القرآن تحررت البشرية حضارياً من مفهوم العبودية الذي سيطر على كل الحضارات القديمة (فرعونية — وفارسية — ورومانية) وجعل البشر رقيقاً لمجموعة قليلة من السادة . ومن مفهوم القرآن والإسلام انتقلت البشرية من منهج التأمل النظري إلى منهج التجريب . وإخضاع الأمور للبحث العلمي .

ومن مفهوم القرآن انطلقت الدعوة إلى مقاييس الإيمان بالله ، وإعلائها على مقاييس العصبية والعنصرية ، وخلق الجماعة التي تربطها رابطة الفكر والعقيدة بدلاً من الدم والعنصر .

ومن منطق القرآن تحرر الإنسان من أخطار البحث عن الله والكون

والموت والبعث . فقد قدم له منهجاً متكاملاً موحى به يعجز العقل عن الوصول إليه ، ولكنه لا يعجز عن إدراكه . وبذلك حلت أعظم القضايا التي كانت مصدر الخلاف قروناً طويلة .

## ١٥

لا يمكن تفسير التاريخ الإسلامي بالظروف المادية ، أو بتحديات الاقتصاد وحده . إن هناك عوامل مختلفة تحكم تاريخ الأمم . وبعضها غير مادي . وتاريخ الإسلام تحكمه عوامل كثيرة منها عوامل نفسية وروحية .

## ١٦

لقد عجز العلم عن تقديم تفسير نهائي لكل الأشياء . وفي الإسلام ليس هناك تناقض بين العلم والإيمان ، والمسلم لا يجد في منجزات العلم ما يتعارض مع الإيمان . والفكر الغربي هو الذي فرق بين النظرة الدينية، والنظرة العقلية والعلمية .

## ١٧

إن النضالات الوطنية قد انطلقت تحت راية الجهاد في سبيل الله قبل أن تنطلق تحت راية الجهاد في سبيل الوطن ، ولقد كان الإسلام في أغلب هذه النضالات رمزاً للمقاومة الروحية ضد الاحتلال والاستعباد الاستعماري ، وكان الضمان لاستمرار وحدة اللغة والثقافة ، وكانت تتجسد فيه كل القيم النقية التي لم تكن متوفرة في ظل الاستعمار (١) .

---

١ — عن نص لروجيه جارودي .

## ١٨

الحركة قانون من قوانين هذا الكون ، ولكنها ليست حركة مطلقة من كل قيد ، وليست حركة عشواء بلا ضابط ولا نظام ، ولما كان لكل كوكب فلك ومدار ومحور ، فان الحياة البشرية كذلك لا بد لها من محور ثابت ، ولا بد لها من فلك تدور فيه . وإلا انتهت إلى الفوضى .

## ١٩

إن الفصل بين الدين والدولة : هو نتاج وافد غريب . وهو من معطيات العقائد الأوربية في تشكلها وصراعها خلال تاريخ طويل . ولكنه ليس من معطيات الإسلام ، بل إن الإسلام في تكامله ، وترابط القيم فيه يقيم من الدين والدولة كلاً متكاملاً . فالاسلام دين ومنهج حياة وشريعة وخلق .

وقد جاءت قضية الفصل بين الدين والدولة في الغرب هدفاً عميقاً من أهداف الأيدلوجية التلمودية حيث كان الربط بين الكنيسة والحكومة حائلاً بين اليهود وبين الاندماج في المجتمعات . فلما انكسر هذا القيد سيطروا على الأنظمة كلها ، وفرضوا نفوذهم عليها .

والمسيحية بطبيعتها منهج يقوم على العبادة والوصايا الأخلاقية . وليست لها شريعة منفصلة . لأنها لم تكن إلا أحدى رسالات بني إسرائيل . مصدقة للتوراة ، جاءت مكملة للناموس . وليست نافية إياه . ولقد اعترف المفكرون الغربيون جميعاً بحقيقة الإسلام نظاماً كاملاً ، وقدروا الفوارق العميقة بينه وبين الأديان والمعتقدات الأخرى .

وعبارة هاملتون جب في هذا واضحة صريحة : « ليس الإسلام ديناً بالمعنى المجرد الخالص . بل هو مجتمع بالغ تمام الكمال يقوم على أساس ديني ، ويشمل كل مظاهر الحياة الانسانية لأن ظروفه في أول الأمر أدت إلى ربط السياسة بالدين . وقد أكد هذه النزعة الأصيلة ما تلا ذلك من صوغ

القانون الإسلامي ، والنظام الاجتماعي. والحق أن الإسلام ليس مجرد نظام من العقائد والعبادات : إنه أعظم من ذلك بكثير . فهو مدنية كاملة » .

وميزة الإسلام التي خصته بأن يكون نظاماً كاملاً . هو أنه قدم مبادئ عامة وأصولاً ثابتة في مجال الشورى والعدالة والمساواة تصلح لإقامة مجتمع متماسك. وتترك للبشرية في تطورها . واختلاف عصورها وبيئاتها القدرة على تقرير أسلوب مناسب في إطار هذه الأصول . وهو ما يحول دون الجمود ، ودون التعارض مع تطور المجتمعات . غير أن هذه الأصول واجبة الإقرار ، وأن مقرراتها ثابتة لا تتعرض للتطور . أو التحول . وهي لا تخضع أبداً لتغير المجتمعات . ومن ذلك حدود الله في الزنا ، والربا ، والخمر ، والسرقة فتلك أصول أصيلة — وليست وصايا عامة — أو نصائح أخلاقية .

## ٢٠

الحرية في مفهوم الاسلام أن لا يبقى الإنسان عبداً لشهواته. ولا عبداً لغير الله. وأن لا يخضع لسلطان غير سلطان الخالق . ويأنف أن يكون عبداً للإنسان . والحرية في الإسلام هي حرية جامعة شاملة تقوم على التحرر من قيود الجهل والخرافة والوثنية والتقليد . والاسلام أول من دعا إلى هذه الحرية . ولقد علم الاسلام الإنسان كيف تتفق حرية الفكر مع استقامة الدين .

ولقد استطاع الاسلام بهذا المفهوم أن يطلق العقل البشري من قيوده التي كانت تأسره حول المعابد ، وبين أيدي الكهنة . فارتفع إلى مستوى الاعتقاد بحياة وراء هذه الحياة .

وإذا كانت صيحة أصحاب المذهب المادي إلى تحرير الفكر من كل التقاليد والأساطير الموروثة. فإنها إنما كانت تعني ذلك « الركام » الذي عاشته أوروبا في خلال العصور الوسطى . أما الإسلام فقد كان هو صاحب الدعوة إلى مثل هذه الحرية . وان ما جاء به يرتفع فوق الأساطير والتقاليد . لأنه الحق الصادق الذي تصدع به النفوس والعقول والفطرة البشرية السليمة .

وهو الذي ليس وراءه من حق أو قول: «قُلْ ماذا بَعدَ الحقّ إلاّ الضّلال». ولقد عرف الإسلام « الحق » عاماً شاملاً . بالنسبة للمسلمين وغير المسلمين ، بينما عرف الغرب الحق على أنه شيء في أوروبا . وشيء في المستعمرات يختلف عنه . بل ويتعارض معه . ومن هنا فقد كان موقف الفكر الغربي بالنسبة للمسلمين والعرب والإسلام موقف الخصومة والعداء . وتجاوز الحق ، وتجاهل كل ما ادعى أنه من المناهج العلمية للبحث والاستواء .

ولقد كان المسلمون صادقين في تطبيق حرية الفكر على الناس جميعاً . وحافظوا على القاعدة الاساسية لا إكراه في الدين . ولم يسفكوا دم أحد عقاباً له . لأنه قال رأي يخالف برأي الإسلام . إلا إذا اتصل ذلك القائل بالخيانة السياسية .

وكما دعا الإسلام إلى تحرير الفكر دعا إلى تحرير الجسم . فالاسلام هو الدين الذي جاء ناقضاً للرق ، هادماً للنظام العبودي في امبراطوريات فارس والروم والفراعنة .

## ٢١

إن أبرز معطيات الإسلام هي قدرته على معايشة الحضارات والثقافات المختلفة . واستمراره في مختلف الأزمنة والبيئات . فهو قادر على إجراء حركة التصحيح من داخله ، وردّ الشبهات ومقاومتها ، والمحافظة الدائمة على طابعه الإنساني . وأصله الرباني .

وللإسلام إلى ذلك قدرته على التوسع والانفتاح على الآفاق ، واقتحام مناطق جديدة من الأرض لنشر كلمته .

إن ميزة الإسلام في شموله وتكامله أنه جمع بين الحريات والضوابط ، وبين الفردية والجماعية وبين العلم والدين . وبين العقلانية والوجدان . وبين الروح والمادة . وبين الوحي والعقل . وبين الدنيا والآخرة . وبين الغيب والشهادة . وبين الثبات والتطور . وبين الماضي والحاضر . وبين

المحافظة والتجدد ، وبين الإسلام والانسانية . وتلك ميزة الإسلام وخاصيته التي تميز بها واختلف عن كل العقائد والأديان .

وتلك هي مصدر قدرته الفائقة على مواجهة كل التحديات والأخطار . وعلة خلوده على الزمان .

# المصادر والمراجع


١ ــ القرآن الكريم

٢ ــ الجامع الصحيح للامام البخاري .

٣ ــ تبليس إبليس لابن الجوزي .

٤ ــ فضائح الباطنية للإمام الغزالي .

٥ ــ الملل والنحل للشهرستاني .

٦ ــ العواصم من القواصم للقاضي ابن العربي .

٧ ــ تمهيد لتاريخ الفلسفة الإسلامية . مصطفى عبد الرازق .

٨ ــ النقد التحليلي لكتاب الشعر الجاهلي . محمد أحمد الغمراوي .

٩ ــ دائرة معارف القرن العشرين . محمد فريد وجدي .

١٠ ــ رسالة التوحيد . الشيخ محمد عبده .

١١ ــ مناهج البحث عن مفكري الإسلام . الدكتور علي سامي النشار .

١٢ ــ الإسلام والإيمان . الدكتور عبد الحليم محمود .

١٣ ــ تاريخ الجمعيات السرية والحركات الهدامة . محمد عبد الله عنان .

١٤ ــ الاسرائيليات في التفسير والحديث . محمد حسين الذهبي .

١٥ ــ اتجاهات هدامة في الفكر العربي . دكتور محمد محمد حسين .

١٦ ــ الخطر اليهودي . محمد خليفة التونسي .

١٧ ــ الفكر الاسلامي الحديث . دكتور محمد البهي .

١٨ ـ الجمعيات السرية . علي أدهم .
١٩ ـ أهداف اسرائيل التوسعية . محمود شيت خطاب .
٢٠ ـ اليهودية العالمية . عباس محمود العقاد .
٢١ ـ الغارة على العالم الإسلامي . ترجمة السيد محب الدين الخطيب .
٢٢ ـ التبشير والاستعمار . عمر فروخ وآخر .

الموسوعة الإسلامية العربية

٤

# العالم الإسلامي

## والاستعمار السياسي والاجتماعي والثقافي


بقلم

أنور الجندي



دار الكتاب اللبناني — مكتبة المدرسة

**دار الكتاب اللبناني**

**مكتبة المدرسة**

طباعة - نشر - توزيع

__الادارة العامة__

الصنائع - مقابل مدخل الإذاعة اللبنانية
هاتف: ٣٤٩٠٥٥ - ٣٤٩٢٧٠ - ٣٤٩٢١٩
ص.ب: ٣١٧٦ - تلكس: LE٢٢٨٦٥
برقياً: كتالبان - بيروت - لبنان

__المستودعات__

هاتف: ٢٥٤٠٥٤ - ٢٣٧٥٣٧ - ٢٥٧٤٧٠ - ٣٠٤ ٢٥٨

**طبعة ثانية**

**١٩٨٣**

# المحتويات

بسم الله الرحمن الرحيم

# ( مدخل )

مكان البحث : العالم الاسلامي
زمان البحث : من عام ١٧٤٠ إلى سنة ١٩٤٠

كان العالم الاسلامي وحدة لا تتجزأ قبل الغزو الاستعماري الغربي ، قلما تنوعت حكوماته ودوله . فقد كانت تجمعه وحدة فكر ، ووحدة شعور ، ولقد مر العالم الاسلامي بمرحلة الضعف ، وتخلف شأنه في ذلك شأن كل أمة ، وكل حضارة حين تمر بمرحلة بعد مرحلة ، قوة بعد ضعف ، وضعف بعد قوة ، سنة الوجود وناموس الحياة ، ولكن العالم الاسلامي لم يلبث أن استيقظ بقوته الذاتية ، استيقظ من داخل أعماقه ، وبعامل أساسي قائم في كيانه ، قادر على إعطائه عامل القوة بعد الضعف مستمداً إياه من مقومات فكره الأساسية ، ولقد كانت تلك اليقظة سابقة لما حاول الغربيون أن يدعوا انهم مصدر لذلك ، سابقاً الثورة الفرنسية بسنوات طويلة ، ومتقدما على الحملة الفرنسية ، أيضاً ، فقد انبثق من قلب الجزيرة العربية منذ منتصف القرن الثامن عشر تقريباً ، ثم عم الآفاق الى غير ما حد ، مضت هذه اليقظة إليه ، وإلى كل طريق مضى فيه الاستعمار إلى غايته في السيطرة على العالم الاسلامي ، وتمزيق وحدة هذه الكتلة

الجامعة ، التي يربطها فكر عميق المدى ، وشعور دقيق الأثر ، وكلاهما عميق الجذور يمتد إلى يوم بزوغ ضوء الاسلام في القرن السابع الميلادي ومنذ ذلك الوقت ، وإلى اليوم ، لم يقع أمر في تاريخ العالم أو يحدث حدث في حركة الانسانية ، إلا وكان وثيق الاتصال بالإسلام ، والعالم الإسلامي ، مؤثر فيه أو متأثر به ، فقد فرض الإسلام كقوة عقائدية وسياسية واجتماعية مكانه على هذا الكوكب فرضاً ، ولذلك فقد كان ذلك الصدام بين العالم الإسلامي ، والاستعمار أمراً خطيراً بعيد المدى في تاريخ الإنسانية ، وتاريخ الإسلام نفسه ، يحتاج إلى دراسة واسعة عميقة مستوعبة . ولقد كان من الضروري أن يتصدى كثير من الباحثين لهذا العمل ، وأن يحشدوا له الجهود ، وأمامنا دراسات كثيرة ، لعل أكثرها استيعاباً ، وأعمقها « حاضر العالم الإسلامي » الذي تمثل مجموعة من الدراسات الإسلامية الواسعة التي قام بها الأمير شكيب أرسلان ، وألقاها على هوامش كتاب « لوثروب ستوارد » الذي ترجمه عجاج نويهض في أوائل الثلاثينات .

ومنذ صدر ذلك الكتاب وإلى اليوم لم نجد من كتابنا الذين يكتبون بالعربية من أولى العالم الإسلامي اهتماما واسعا ، فقد شغل الكتاب بالدراسات المتخصصة في مجالات كثيرة ، كان أهمها دراسات العالم العربي التي استنفدت جهوداً ضخمة في السنوات العشرين الأخيرة ، فقد صدرت مؤلفات متعددة متخصصة عن واحد من الأقطار الاسلامية ، أو آخر .

ولكن دراسة شاملة تربط بين تحديات الاستعمار ، وبين رد الفعل في العالم الإسلامي لم تحظ باهتمام خاص ، وربما كتب بعض الباحثين دراسات قصيرة استعرضوا فيها أحوال العالم الإسلامي الجغرافية والتاريخية ، وبالرغم من أن بعض هذه الدراسات قد حملت وجهة نظر الغربيين والمستشرقين ، واعتمدت اعتماداً كبيراً على مصادرهم وآرائهم . فان هذه الدراسات لم تستوف الغرض الذي يحقق ظهور دراسة شاملة عن « الاسلام والاستعمار » .

وكثير من الكتاب الذين يتصدون للكتابة عن تاريخ الإسلام السياسي ، أو خريطة الإسلام في العصر الحديث يعتمدون اعتماداً كبيراً على المصادر الغربية ،

وهم معذورون في ذلك ، حيث انها متوفرة على نحو كبير ، وهي قادرة على منحهم كل ما يريدون من معلومات بدراستها الواسعة ، ولكن هذه المصادر لها وجهات نظر مستمدة من علاقة الاستعمار والتغريب بالعالم الإسلامي وتاريخه .

وهؤلاء الكتاب ينقادون مع الأسف وراء دقائق خطيرة بحسن نية أو عن تصور أنها نظرات علمية ، بينما هي في أعمق أعماقها ، تحمل معنى التوجيه الاستعماري ، وتبطنها الكراهية والحقد ويغلفها الصراع القائم بين الإسلام والغرب من قديم . والمعروف سلفا أن الدراسات الغربية عن الإسلام ( فكراً أو تاريخاً او سياسة أو جغرافيا ) إنما تقوم على أساس خطة أساسية هي إقناع المسلمين أنفسهم بأمور هامة ورئيسية تحول دون وحدتهم أو قوتهم ، لتثير أسباب الخلاف والصراع بينهم دوماً وتجددها كلما هدأت هذه الأسباب، رغبة في أن يظل هذا العالم ممزقا ، فلا تقوم به وحدة فكر من شأنها ان تؤدي إلى وحدة جامعة تمكنه من تكوين جبهة صامدة في وجه الغزو الاستعماري .

ومن الحق أن المسلمين والعرب في مواجهة الغزو الاستعماري الجديد : اقتصادياً وثقافياً ، ومواجهة التغريب المركز ، هم في حاجة إلى عناصر الملاءمة ، والالتقاء ، وفي حاجة إلى عوامل الترابط ، والامتزاج ، والإغضاء عن الخلافات القديمة ، والمعارك الماضية التي قامت بين المذاهب السياسية ، ثم كادت أن تموت ، لولا أن الاستعمار عجل ببعثها من جديد ، وأيقظها ، ودفعها لتثير الخلاف مستأنفاً حتى لا يلتقي أصحاب الفكر الإسلامي الذي يستمد أصوله من التوحيد على الوحدة ، وهم من ناحية أخرى في حاجة إلى النظرة العلمية التي تستمد جوهرها من الايمان بوجودهم وشخصيتهم وكيانهم وقيمهم الأساسية ، وهي نظرة يجب أن تختلف أساسا عن نظرة الغرب إليهم .

فالمعروف أساسا أن الغرب كان يحمل حقد الحروب الصليبية في أعماقه لم يتخل عنه ، وكان يخاصم الدولة العثمانية التي مدت نفوذها إلى أوربا . وسيطرت عليها خمسة قرون ، وان هذه الأحقاد والخصومات قد جرت في دمائهم جيلاً بعد جيل ، ولذلك فمن غير المعقول أنهم ينصفون الإسلام والمسلمين ، والعرب والدولة العثمانية ، أو يصدرون فيها عن رأي مجرد من الهوى ، أو عقل

وضمير متحررين عن الاحساس الذاتي العميق ، الذي قلما ينفصل عن شخصية المؤرخ أو الباحث الغربي .

ومن هنا فهم لا يستطيعون أن يعرضوا تاريخ الإسلام عرضاً بريئاً خالصاً لوجه الحق ، وحيث هم يرون أن « العالم الإسلامي » هو التجسيد الماثل للإسلام ، فهم لا يرون للمسلمين قوة أو نهضة تمكنهم من القوة والعزة ، فهم ما زالوا يمثلون الخطر الذي يمتص ثرواته ومقدماته ..ولقد كان هدف الاستعمار الأساسي من السيطرة على العالم الإسلامي هو القضاء على هذه القوة المعنوية العقلية والروحية التي ترفع المسلمين إلى اليقظة ، وامتلاك ناصية أمورهم ، والسيطرة على مقدراتهم . وكان القضاء على هذه القوة ـ ولا يزال ـ هو أهم في أهداف الاستعمار بحسبان أنه العامل الوحيد الذي يعارض استعمارهم ، ويقاوم وجودهم ، ولكن القيم الاسلامية الحيوية هي دائماً قادرة على التجدد والنمو والتفاعل ، كلما مرت بالعالم الإسلامي فترة من الضعف أو أزمة من أزمات التخلف ، لتدفعه إلى الأمام مرة أخرى . ومن أجل هذا فإن الأقلام الغربية في كتاباتها عن العالم الإسلامي . ومن خلال عشرات المؤلفات والدراسات والموسوعات إنما تحاول أن تصور العالم الإسلامي تصويراً بعيداً عن حقيقته . ولهذا فإن اتجاه بعض كتابنا إلى ترديد هذه النظريات ، موالاة للفكر الغربي ، أو عجزاً عن فهم جوهر أمتهم وقيمها ومقدراتها ، إنما يترك آثاراً بعيدة المدى في تأخير النهضة ، والقضاء على روح اليقظة .

فالغربيون يحاولون إثارة الشبهات المختلفة رغبة في تمزيق وحدة العالم الاسلامي الفكرية ، وإحلال الثقافات الإقليمية والقومية محلها . ولكن هذه الثقافات ما تزال تستمد مقوماتها من الفكر الإسلامي أساسا . ولذلك فهم يدعونها إلى إحياء تراث قديم جدا سابق للإسلام كالفرعونية والبربرية والفينيقية ، وحضارات سالفة في أندونيسيا والهند وإيران وتركيا ، ولكن هذه الدعوات القديمة ما تزال تتهاوى حيث لا أدب لها ، ولا تراث ولا مقومات تربط الأمم بها بعد أن قضى عليها الإسلام خلال أربعة عشر قرنا ، وما تزال الحضارة الإسلامية والفكر الإسلامي هو أعمق عوامل الترابط بين حاضر الأمم الإسلامية

وماضيها . ويحاول الغربيون أن يصوروا الإسلام على أنه « دين » وأنه لاهوت ، ويشبهونه في هذا بأديان أخرى ، هو يختلف عنها ، لأنه ليس دينا فحسب ، ولكنه دين ومجتمع وحضارة . وهو في هذا مخالف للصورة التي عرفتها أوربا للدين والكنيسة ومناهضتها للنهضة ، أما الإسلام فهو يتميز في موقفه من الحضارة والنهضة بأنه منشيء « المنهج العلمي التجريبي » الذي بنت عليه أوربا الحضارة .

وتحاول مقررات التغريب أن تفرض على القيم الاجتماعية والإنسانية مفاهيم تختلف عن مفاهيمنا المستمدة من فكرنا الإسلامي ، كما تحاول إثارة الشبهات حول تاريخنا ولغتنا ورسولنا وتراثنا لتفسر مفهومه في نظر الأجيال الجديدة . ومن هنا فإن اعتماد كتابنا على مصادر الغرب عمل خطير يحمل طابع الهدم لقيمنا ومقوماتنا ، وهو خطر لا يعرف كتابنا مدى أثر المتابعة له . ولذلك فقد كان من الضروري إعادة النظر في هذه الآراء جميعا في محاولة لعرض ( حاضر العالم الإسلامي ) على نحو أكثر اتصالا بقيمنا ، وأكثر إيمانا بكياننا ، وأكثر تحرراً من نظرة الغير الخاطئة المعادية لوجودنا وتاريخنا وأمتنا وكياننا .

ونحن في الحق لا نعادي النظرات المنصفة ، والآراء الخالصة لوجه الحق والعلم ، بل نرحب بها ، ولكننا نصحح المفاهيم الخاطئة المغرضة التي يدفع بها النفوذ الاستعماري كأسلوب من أساليب استدامة وجوده بتدمير وجودنا .

والعالم الإسلامي حقيقة واقعة تلعب دوراً أساسياً في سياسة العالم بين الكتلتين الشرقية والغربية لها ثقلها في ميزان التاريخ ، والسياسة الدولية ، والوجود البشري .

لهذه القوة ميزتان :

( أولا ) انه عامل مؤثر ، وما من حدث وقع في العالم كله منذ ظهور الإسلام إلى اليوم إلا كان له به صلة ما .

( ثانيا ) ان العالم الإسلامي هو موضع الحساب والتقدير من مختلف سياسات الدول الأوربية الكبرى . فلم يكن قط في أي مرحلة من مراحل التاريخ قوة

مهملة أو أثر منكوراً .

وهو إلى ذلك حقيقة فكرية تتمثل في رباط العقيدة الإسلامية والفكر والثقافة . وهو إلى ذلك نظام اجتماعي كامل يقوم على هذه العقيدة ، وهو منهج إنساني شامل العلاقات بين الأفراد والجماعات ، وبين الشعوب والمجتمعات والدول ، فهو يضم سبعمائة مليون من المسلمين يمثلون خمس سكان العالم ( الذي يضم ٣٣٠٠ مليون نسمة ) ومن بينهم مائة مليون عربي ، وهو موزعون على أكثر من ٦٧ دولة يوجد فيها المسلمون بنسبة ، او بأخرى من بينها عدد من الدول اكثر من نصف سكانها مسلمون ، وهم منتشرون في أوربا وأفريقيا وآسيا واستراليا منها ٢٣ دولة مستقلة في إفريقيا و١٤ دولة مستقلة في آسيا ، حتى ليمكن أن يقال إن واحداً من كل ستة أشخاص في العالم يدين بالإسلام .

وحتى ليوشك أن لا تكون هناك دولة واحدة في عالم اليوم لا يتمثل فيها الإسلام ولو ببضعة عشرات من الآلاف كما في استراليا ، أو غرب أوربا . ويكاد يكون الاسلام هو الدين القومي في مجموعة ضخمة من هذه الدول .

نعم هو عدد ضخم من البشر يتحد في العقيدة والفكر والشعور لا مثيل له في العالم كله ، يتميز بأكثر من عامل قوة ، أهمها المجاورة في المكان ، والتركيز في قلب العالم في منطقة تمتد دون حواجز أو فواصل من أواسط آسيا إلى المحيط الأطلسي ، من روسيا في الشمال والمحيط الهندي ، جنوبا إلى ما وراء خط الاستواء . ويملك احتياطي العالم كله من المواد الخام ، والبترول ، وما يزال العالم العربي هو قلب العالم الإسلامي ، مقر العقيدة ومركز الأماكن المقدسة والأزهر ، وما زال العرب يمثلون القيادة الفكرية والروحية ، على مذهب الجماعة والسنة . وقد انتشر الإسلام في هذه المناطق الواسعة بعمل الأفراد دون ان يكون له نفوذ سياسي ، أو قوة تعتمد على المؤسسات والدول والاعتمادات ، في أفريفيا وفي آسيا وفي أوربا وأمريكا ، وما زال الإسلام في توسع دائم في منطقتين من أخطر مناطق العالم هما : قلب أفريقيا ، وجنوب شرق آسيا بالاضافة إلى العالم الجديد ، والإسلام دين المستقبل ، وأفريقيا للإسلام هي قارة المستقبل . والحقيقة التي يعترف بها الباحثون المنصفون هي : أن الإسلام ينتشر كل يوم وأن

عدد المسلمين يزداد يوما بعد يوم في جميع الأوساط والهيئات ، حيث لم يعرف الإسلام دون الأديان جميعا . أي ارتداد عنه ، أو تحول إلى غيره ، فهو دين وزيادة . وإذا كان الدين علاقة بين الإنسان والله ، فإن الإسلام يزيد إلى هذا علاقة بين الإنسان والمجتمع . هذا الوجود الإسلامي له أهميته وخطره ، فهو يسيطر على قارة وسطى في قلب آسيا وأفريقيا هي من أخطر المواقع العالمية حيث يتكلم عالم الإسلام ثماني لغات في مقدمتها اللغة العربية العالمية ، ولغات متعددة تكتب بالحروف العربية ، ويسيطر على موانىء البحور الثلاثة الأحمر - الأبيض - الأسود ، ويطل على محيطين هما : المحيط الهندي ، والمحيط الأطلسي ، ومن هنا كانت خطورة الصراع بينه وبين الغرب ، وبينه وبين الاستعمار بتياراته المختلفة ، وقواه المتعددة المتلاقية عليه أصلاً ، وإن اختلف فيما بينهما . هذا الصراع المتجدد الذي لم يتوقف منذ بزغ فجر الإسلام حتى اليوم . ولعل من أخطر ما واجه الإسلام في العالم المعاصر والتاريخ الحديث ، تلك الغزوة الخطيرة : غزوة الاستعمار الحديث التي تمثل في رأي كثير من المؤرخين حلقة جديدة من الحملات الصليبية . اوكما صورها أحد قادتهم « نهاية الحروب الصليبية » التي انحسرت عن العالم الإسلامي منذ ثمانية قرون مهزومة ، مدحورة . وقد عادت مسيطرة هذه المرة . وهذا هو موضوع هذا الكتاب . ذلك أن العالم الإسلامي في العصر الحديث ما كاد يستيقظ ( من أعماقه ومن داخله ) ليجدد حياته ، وليعيد تجميع قواه ، وانفاس واقعه حتى واجهه الغزو الاستعماري بحركة تطويق ضخمة ، لم تلبث أن اندفعت إلى أعماقه ، فكانت مهمته مزدوجة هي مهمة اليقظة ، ومهمة المقاومة . وكان ضعف الدولة العثمانية مقدمة لحركة الاستعمار الذي طمع في أن يمزقها ، ويسيطر على مقدراتها . ومن ثم واجه العالم الإسلامي معركة طويلة بين المحافظة على وجوده وقيمه ، وبين الاستعمار الغاصب ، قدم فيها الشهداء والضحايا والدماء ، وقاوم بكل ما يملك أهله ، حتى بالأجساد المتراصة أحياناً ، أمام قوات حديثة الأسلحة ، مليئة بالمكر والغدر ، ودخل معارك حاسمة لم ينهزم فيها عن طريق السلاح رغم قلة العدد والعُدد . ولكن هزم بالمؤامرة والخداع ، ولم تستسلم فئة منه إلا بعد أن غدر بها ، أو فقدت كل ما تستطيع أن تقاوم به من عتاد ، وغلب طابع المقاومة على

مختلف طوابع المجتمع الإسلامي : واستطاع العالم الإسلامي أن يواجه التحدي ، تحدي الحضارة الأوربية الاستعماري بصمود عظيم . واستطاع أن يرد بقوة وصلابة جيشا من الطامحين الغزاة ، وقاوم في سبيل التحرر من النفوذ السياسي والاقتصادي والعسكري الغربي ، وخطا المسلمون خطوات واسعة في سبيل التحرر ، وأفسدوا حلم الاستعمار في البقاء الطويل واستمرت مقاومة العالم الإسلامي وامتدت ، ولم تتوقف : فاندلعت ثورات الهند وأندونيسيا ومصر والجزائر والمغرب وليبيا والسودان وتركستان والقوقاز . ولم يتوقف المسلمون جيلا بعد جيل في نطاق الدعوات الإسلامية ، أو الدعوات الوطنية ، أو الدعوات القومية عن مقاومة الاستعمار . ولم يقبلوا أبداً أن تحتويهم مناطق النفوذ ، قاوموا الاستعمار والتبشير والصهيونية ومذاهب الالحاد والإباحة . وعمد الاستعمار إلى مخططات خطيرة ، حاول الفصل بين العرب والمسلمين ، وبين الترك والعرب ، وبين المسلمين والنصارى ، وبين المسلمين والهندوس . وأثار الخلافات القديمة بين السنة والشيعة ، والبربر والعرب . وجمد الاستعمار المجتمعات البدوية ، وجمد القبليات ، وحرص على عدم انصهارها في المجتمعات الكبرى . حتى لا تسود الأمة وحدة شاملة ، وحال دون مقدرة الوحدات الصحراوية على التمدن ، لتظل هناك طبقات مختلفة ، وقوى متفاوتة . وخلق المشكلة الطائفية ، وغذاها وفرضها لتكون أداة سياسية له ، فقد كان التعايش قائما وآمنا على شريعة الله بين الأغلبية المسلمة ، والطوائف المختلفة قبل الاستعمار . غير أن الاستعمار حرص على أن يؤلب ويوقع بين الطوائف ، ويأخذ في كنفه الأقليات ليدفعها إلى الانقضاض الدائم ، أو وقت أن يريد . وألب الاستعمار ، وأثار الخلاف بين الدولة العثمانية والدولة الفارسية وعمق خلافاتهما ، وألب الخلاف بين العرب والترك ، وأوقع الثأر بينهما ، وألب الخصومات بين الفرق الإسلامية . وفتح الاستعمار باب التبشير للإرساليات ، وساندها وضمن لها حرية الحركة والتمويل . وسهل الاستعمار استيراد أقليات دينية غريبة من الأرمن والأشوريين والنساطرة في المشرق العربي ، وقدم أجناسا أخرى من مالطيين ويونانيين ويهود .

واحتضن الاستعمار الفرنسي المارون ، واحتضن الاستعمار البريطاني

الدروز ، فأوقع بينهما وعمل على تمزيق الدولة العثمانية إلى عرب وترك ، وتمزيق سوريا إلى علويين ودروز ، وإلى دمشق وحلب . وعمد إلى تحويل لبنان الصغير إلى لبنان الكبير . وحشد أكبر أقلية مسيحية في رقعة واحدة ، وأفسد الاستعمار نمو الإسلام وتوسعه ، ووقف في وجه زحفه السلمي ، وقاومه ووقف في وجه اللغة العربية ، وجمد انتشارها بحسبانها لغة القرآن . ونشر لغته ، وعمد الاستعمار إلى تمزيق الروابط التاريخية والفكرية بين قوميات المسلمين من عرب وترك وفرس ، وعمق هذه الخلافات بينها حرصا على الانفصالية والحيلولة دون الوحدة الفكرية ، أو الأخوة الروحية ، وانبثقت الغزوة الاستعمارية عن الحركة الصهيونية الطامعة في الوصول إلى ( القدس ) في قلب فلسطين ، طمعا في إقامة هيكل سليمان مكان بيت المقدس . وتجمعت مطامع روسيا القيصرية ، وبريطانيا وفرنسا وإيطاليا وأسبانيا وهولندا ، كلها لتجتاح العالم الإسلامي . وكانت الصهيونية من وراء هذه القوى . ثم أسفرت عن هدف واضح . وإذا كان للاستعمار أثره البعيد في تمزيق وحدة العالم االإسلامي . وإقامة الكيانات الإقليمية ، فإن أخطر تحديات الاستعمار هي تحديات الغزو الثقافي في سبيل إبقاء الوجود الاستعماري ، ودعمه بما يحقق للاستعمار استمرار استنزاف المواد الخام من العالم الإسلامي ، وامتصاص ماليته ، واقتصاده باتخاذه سوقا تجاريا لمنتجاته . ولذلك فقد كانت حركة اليقظة والمقاومة عميقة المسؤولية . فقد عملت على تصحيح مفاهيم الإسلام والتماس جوهره وقيمه ومفاهيمه الأساسية باعتبارها الوسيلة الأولى للمواجهة والمقاومة ، وإيماناً بان انفصال المسلمين عن جوهر فكرهم ، هو الذي أصاب وجودهم بالهزيمة والضعف . وقد أبرزت حركة اليقظة والمقاومة مجموعة ضخمة من الأعلام والقادة والأبطال الأفذاذ الذين قادوا النضال ، كابراً بعد كابر ، بحيث لم تسقط الراية أبداً من أيدي قادة النضال الذين يتتابعون على العالم الإسلامي ، وكانت حركاتهم متوالية يكمل بعضها بعضا . فهي قد اتصلت فلم تنفصل ، وتوالت فلم تتوقف ، وتوزعت على مختلف وحدات العالم الإسلامي ، وما تزال تدفع بالأفذاذ والقادة في مواجهة التحديات ، وعلى قدرها صلابة وصموداً .

وما يزال الإسلام ينمو ذاتيا رغم كل العقبات التي توضع في طريقه ، وقد ارتبط

بحركات النضال والتحرر ، ورفع مستوى أتباعه في كل مكان ، وعلمهم الكرامة والعزة والايمان والأخلاق . وبعد فماذا فعل العالم الإسلامي إزاء الاستعمار ؟

هل تقبله راضياً ، وذاب فيه وفني في بوتقته وانصهر وجوده وانمحى كيانه ؟

الحق أن لا ! ولن يكون ذلك ولو طال صراعه مع الاستعمار ، فإن الجذور العميقة للإسلام لا تزال حية ، والخلايا لا تزال نفاذة وقادرة على المقاومة طويلا . وبالرغم من الخلافات التي يجددها الاستعمار بين السنة والشيعة ، والعروبة والإسلام . فإن هناك أرضية عريضة للالتقاء موجودة ، ويمكن أن تنمى ، والمسلمون والعرب ، والسنة والشيعة قادرون جميعاً على أن يفهموا الهدف من تفريقهم وتمزيقهم ، وإلقاء الفرقة بينهم ، فيزيلوا العوامل المصطنعة التي وضعها الاستعمار ونماها وهم يعرفون أن كل الشيع والفرق والطوائف بدأت أساساً كصراعات على السلطة والحكم . وقد انتهت بانتهاء عصورها .

هذه الأرضية تتمثل في وحدة الفكر التي يفرضها الإسلام ، وتدعمها القيم الأساسية ، الكبرى المشتركة بين المسلمين جميعاً استمداداً من ثقافتهم وتراثهم وجذورهم الممتدة إلى أربعة عشر قرناً .

والعالم الإسلامي يضم عديداً من القوميات ، وليست القوميات معارضة للاخاء الإسلامي ، وليست ضد مفهوم الإسلام ، وليس الإسلام في مواجهة القوميات ، وإنما يتقبل الإسلام القوميات كعامل قوة ، ويدفع عنها التعصب والعنصرية ، ويجعلها مفتوحة للالتقاء مع وحدة الفكر التي تربط القوميات على صعيد الإسلام .

ولن يحول اختلاف المسلمين في المذاهب عن الوحدة والأخوة ، ولن تقف عقبات باسم العروبة والإسلام ، أو السنة والشيعة عن التضامن والتلاحم .

ولن يتخلى المسلمون عن مقومات فكرهم إزاء غزو الفكر الغربي لهم ، وفي مواجهة نظريات القومية والديمقراطية والاشتراكية والحرية ، التي تتميز جميعها بأنها ذات جذور أصيلة في الفكر الإسلامي ، وهي قيم لها مفاهيم واضحة

عندهم منذ أجيال . ولن يكون تقبل المسلمين للحضارة الغربية عاملاً على انصهارهم في بوتقة الأممية أو العالمية ، ولن تدفعهم دراسة فكر الغرب والانتفاع به الى التخلي عن مناهجهم وفكرهم ومقوماتهم . إن تجربة تركيا التي هلل لها الغرب ، وحاول أن يفرضها على المسلمين قد نفقت ، وعادت تركيا إلى جوهر مزاجها النفسي الأصيل الذي انفصلت عنه بقوة القانون العسكري والحكم الاستعماري المتسلط . ولن تكون القومية بمفهوم الغرب ، ولكنها ستكون مستمدة من جذوَر فكرنا : وحدة فكر ، ووحدة شعور ، ووحدة ثقافة . ذلك أن الخطر الذي يواجه الأمة العربية ، والعالم الإسلامي إزاء الصهيونية العالمية ، وسيطرة إسرائيل على فلسطين ، إنما يضع المسلمين والعرب جميعاً أمام تجربة ضخمة أشبه بالتجربة التي خاضوها من قبل في مواجهة الغزو الصليبي ، وحملة التتار ، ومعارك الفرنجة . وقد واجه العرب المسلمون هذه الغزوات في قوة وبسالة وصمود وحققوا في « حطين » و« عين جالوت » و« الزلاقة » نصراً مؤزراً رد الأعداء ، ودك حصونهم ، وسيكتب العرب والمسلمون معهم صفحة جديدة من صفحات الجهاد والاستشهاد والنصر ستكون من المواقع الحاسمة التي يذكرها تاريخ العالم الإسلامي المعاصر ، ويضعها بين أنصع صفحاته . فقد تعلم العرب والمسلمون من دروس التاريخ كيف كان النزاع والخلاف مصدراً لما أصابهم من كوارث . وتنبه المسلمون إلى أنهم يشتركون في تاريخ واحد ، وتقاليد واحدة ، وثقافة جامعة . وعرفوا أن أزمة العالم الإسلامي المعاصر إنما تصدر من حيث هو واقع تحت النفوذ الاستعماري . وما يزال العالم الإسلامي يتمخض عن أوضاع جديدة تقدمية في الاقتصاد والسياسة والاجتماع ، وقوامها الوحدة والتحرر والقوة والعدل الاجتماعي وما تزال عوامل الوحدة والأخوة تعمق وتتسع حتى يعود العالم الاسلامي مرة أخرى إلى أصالته فكرا ومجتمعا ، وحدة لا تتجزأ ، هي وحدة فكر ، ووحدة شعور . وبعد فهذه هي المحاولة التي يجري القلم لتصويرها في هذه الصفحات ، في دراسة للعالم الإسلامي والاستعمار السياسي والاجتماعي والثقافي ، منذ أوائل اليقظة حتى أواخر الحرب العالمية الثانية ، على أن نتابعها بدراسة أخرى عن مرحلة ما بعد الحرب العالمية الثانية ، ويعد هذا الكتاب بديلاً لدراساتنا السابقة تحت أسماء ( الاسلام والاستعمار ) ،

( العالم الاسلامي والاستعمار ) ، ( قضايا الأقطار الاسلامية ) والتي بدأناها عام ١٩٤٦ وتابعناها حتى اليوم .
هذا وبالله التوفيق

أنور الجندي

محرم ١٣٩٨ - يناير ١٩٧٨

# ( ١ )

# الإسلام وعالم الإسلام

( ١ ) الإسلام والأمة العربية
( ٢ ) تركيا ومقاومة الغزو
( ٣ ) إيران : الشيعة ومقاومة النفوذ الأجنبي
( ٤ ) أفغانستان ومقاومة الاستبداد والاستعمار
( ٥ ) باكستان ومسلمو الهند
( ٦ ) أندونيسيا وارخبيل الملايو
( ٧ ) أفريقيا : قارة الإسلام

# ( ١ )
# الإسلام والأمة العربية

هناك حقيقة أساسية هي أن « الأمة العربية » هي التي حملت لواء الإسلام إلى العالم كله ، ونشرته من خلال دولته الكبرى التي امتدت من حدود الصين الى حدود فرنسا . ومن ثم فقد ارتبطت الأمة العربية بالإسلام ارتباطاً عضـويا لا سبيل إلى فصامه . وقد كانت اللغة العربية بحسبانها أكبر عوامل الوحدة العربية هي لغة القرآن والصلاة ، ووسيلة أداء الإسلام ونشره .

وقد ارتبطت الأمة العربية بالدولة الإسلامية في مجـال القيادة السياسية قرونـا طويلة ، حتى إذا ما سقطت الخلافة العباسية عام ٦٥٦ هـ . تقبل العرب الوحدة السياسية التي أصبحت قيادتها للدولة العثمانية دون أن تكون العلاقة بين العرب والعثمانيين علاقة احتلال أو اسـتعمار ، أو ما يوصف في هذه الأيام بالسيادة . ذلك أن المفهوم الأساسي للوحدة الإسلامية إنما كان يقوم على أساس واضح ، هو أنه يحمل لواء القيادة أقدر الأمم الإسلامية عليها ، فحيث ضعف النفوذ السياسي في بغداد بعد أن اجتاح العالم الإسلامي الغزو التتاري والحروب الصليبية التي استمرت أكثر من قرنين لم تلبث قوة الأتراك العثمانيين أن برزت وسيطـرت ، وتقبلتها الأمة العربية ، وانضوت إليها بوصفها قيادة إسلامية,ليست فيها فوارق بين جنس وجنس ، هذه الفوارق التي لم تظهر إلا في القرن التاسع عشر ، وفي مجال التأثر والتأثير بين العالم الاسلامي في مرحلة الضعف ، وبين العالم العربي

في مرحلة القوة ، حيث رجحت كفة أوربا وأخذت تجتاح عالم الإسلام بالغزو والتطويق . . . .

فالأمة العربية كانت إلى قريب من نهاية الحرب العالمية الأولى ، شطراً من الدولة العثمانية ، التي كانت تجمع الأتراك والعرب ، حيث استطاع النفوذ الاستعماري الزاحف أن يضرب هذه الوحدة ، وأن يثير بين العنصرين خصومة عنيفة في ظل دعوة « القومية » التي اجتاحت اوربا ، ونقلها النفوذ الاستعماري إلى العالم الإسلامي كإحدى أسلحته الحادة العنيفة في تمزيق هذه الوحدة الاسلامية القائمة باسم الدولة العثمانية ، والتي تضم الترك والعرب ، وترسم عن طريق الخلافة قيادة للعالم الإسلامي في كله . ولما كان الاستعمار حريصا على أن يمزق هذه الوحدة ، ويسيطر على هذه الأجزاء ويقتسمها ، فقد كان تركيزه قويا على كيان هذه الدولة . وذلك بإثارة العناصر المختلفة فيه ، وقد حملت لواء هذا العمل فئة الاتحاديين الذين كانوا يصدرون عن دعوة الوحدة الطورانية ، ويعمدون إلى تحويل الدولة العثمانية إلى قومية واحدة بتتريك العرب ، وكان لا بد للعرب أن يقاوموا عوامل الفناء ، وخاصة حين امتدت إلى اللغة العربية والكيان العربي . ومن هنا وقع الصدام الذي انتهى إلى الانفصال عسكريا وحربيا عن طريق ثورة الشريف حسين التي قاتل فيها العرب المسلمون الترك المسلمين ، وأجلوهم عن شبه الجزيرة وعن الشام كله . وبذلك أتاحوا الفرصة للقوات الفرنسية والبريطانية بالسيطرة على المناطق التي جلا عنها العثمانيون .

وحيث كان على « الدولة العثمانية » التي مرت بعوامل الضعف والفناء فترة طويلة كعامل قوة لها أن تركز وحدتها على نظام لامركزي يضمن للعرب مثل نصيب الأتراك مع بقاء القيادة التركية في مركز الخلافة ، وحيث كان على العثمانيين أن يأخذوا بكثير مما عرض عليهم من وسائل لدعم الوحدة الإسلامية الممثلة في الدولة العثمانية . وذلك بأخذ اللغة العربية كلسان للدولة الإسلامية ، أو قيام نظام الخديويات الذي اقترحه جمال الدين الأفغاني على السلطان عبد الحميد كمقدمة لانضمام الهند وفارس وأفغانستان إلى دولة الخلافة . حيث كان على العثمانيين كل هذا . فإن قوى النفوذ الاستعماري الضاغطة على حزب

الاتحاد والترقي الذي بدأ في أول أمره كحركة عثمانية إيجابية ، ثم سيطرت عليه عناصر الدونمة واليهود والماسونية والقوى الاستعمارية البريطانية والفرنسية لتحوله إلى أداة للتجزئة ، استطاعت هذه القوى أن تفصم العروة الوثقى ، وأن تحول تركيا تحويلاً خطيراً إلى دولة غربية خالصة انتقلت من النقيض إلى النقيض ، ومن قيادة العالم الإسلامي إلى إلغاء الإسلام رسميا واجتماعيا ، وانتهاج نهج غربي خالص .

* * *

هنا كان دور الأمة العربية قد تجدد ، لتحمل لواء الإسلام والإصلاح الإسلامي ، وأن تقاوم الغزو الغربي العنيف الذي يعمل على محو مقوماتها الأساسية . ولقد كانت اليقظة في قلب الأمة العربية قد اندلع بريقها فعلا في منتصف القرن الثامن عشر ، وحيث خبت شعلة القيادة العثمانية بدعوة التوحيد من قلب الجزيرة العربية وتبعتها دعوات من الأزهر في مصر ، ومن اليمن ، وانقذت من جديد شعلة التجديد والإصلاح قبل وصول الحملة الفرنسية بأكثر من ستين عاماً . وكان ذلك مع امتداده إيذانا بأن تحمل الأمة العربية من جديد لواء حركة التجديد والإصلاح والبعث الإسلامي في مختلف مجالاته . وقد كان على هذه الحركة أن تجدد مفاهيم الإسلام وتنفض عنه غبار الجمود والتقليد ، وأن تقاوم في نفس الوقت قوى النفوذ الغربي الزاحف سياسيا واجتماعيا وثقافيا ، وهي مهمة شاقة اضطلعت بها الأمة العربية ـ وشاركتها فيها حركات إسلامية متعددة في الهند وأندونيسيا . غير أنه كان للأمة العربية ولمصر بالذات أثرها الواضح في تأصيل حركة اليقظة ودفعها إلى الأمام في المغرب العربي . وفي أفريقيا وفي مختلف أنحاء عالم الاسلام بما أتيح لها من منهج قوي قام عليه جمال الدين الأفغانى ومحمد عبده ومدرسة المنار .

* * *

ومن عجب أن الاستعمار حين زحف بنفوذه السياسي والثقافي والعسكري إلى العالم الإسلامي لم يضغط بشدة ، ولم يركز تركيزاً عنيفاً على أمة بقدر ما ركز على الأمة العربية بحسبان أنها حاملة المشعل وقائدة الحركة التجديدية الإسلامية .

وقد تمثلت حركة التحدي والمقاومة في عدة عوامل هامة : أبرزها الطائفية والأقليات . فقد اهتم الاستعمار بخلق الخلافات بين أتباع البلد الواحد ، وإثارة

الخصومات القديمة بينهم ، هادفاً من ذلك إلى خلق الطائفية وتكريسها ، وإنشاب الصراع بين الفرق المختلفة ، وكذلك خلق ولاءً خاصا له مرتبطا بالأقليات إذا كانت غير مسلمة ، فهو قد والى الأقليات المسيحية في لبنان ومصر . بينما والى الأغلبية الهندوكية في الهند ، وللمشكلة الطائفية قصة طويلة اتكأ عليها الاستعمار ، وجعلها عاملا من العوامل الهامة في تنفيذ سياسته . كما جعل منها وسيلة للقضاء على القيم الأساسية التي يقوم عليها المجتمع الإسلامي . « والمشكلة (١) الطائفية لم تنفصل في أي مرحلة من مراحلها عن الاستعمار فهو الذي غذاها إن لم يكن خلقها. وهو الذي اتخذ منها أداة سياسية يدعم بها وجوده » . والمعروف أن أهل الذمة والأقليات في عصور التاريخ الإسلامي المختلفة كانوا يعيشون في ظل نظام سمح يوفر لهم الأمن والسلام ، ويكفل لهم حرية ممارسة شعائرهم الدينية ، ويحافظ على كنائسهم ، ويضمن لهم مكاناً عادلاً في مختلف مجالات المجتمع .

غير أن النفوذ الاستعماري قد عمد منذ اللحظة الأولى لوجوده إلى دعم الطائفية وتغذيتها وشهرها كسلاح في وجه المجتمعات المختلفة ، وجعلها أداته كوسيلة من وسائل دعم بقائه على أساس التفرقة الدائمة . وفي ظل هذه الدعوة « فتح الاستعمار الباب للتبشير والارساليات والمدارس الأجنبية ، كما سهل استيراد أقليات أخرى دينية غربية : كالأرمن والأشوريين والنساطرة والمالطين والقبارصة واليونانيين ، واحتضن الاستعمار الفرنسي الموارنة واحتضن الاستعمار البريطاني الدروز ، وكانت روسيا تحتضن الكنيسة الأرثوذكسية . أما أمريكا فهي ربة الكنيسة البروتستانتية » . وبدأ صراع الإرساليات الأمريكية والفرنسية بالغ العنف على الأرض العربية . في الشام ومصر ، وكانت له آثاره الخطيرة في تنشئة جيل جديد أسلمه الاستعمار لواء القيادة السياسية في أغلب أجزاء العالم العربي . وقد كان للتبشير دوره في تمزيق وحدة الأمة الدولة كما حدث في السودان ، حيث قصد به إلى « تعميق الهوة بين الجنوب والشمال » وصولا إلى الفصل السياسي بينهما . وكذلك جرت المحاولات لتقسيم « الشام » إلى سوريا

---

١ ـ دكتور جمال حمدان ـ مجلة المجلة ـ ١٩٦٦

ولبنان وفلسطين والأردن . وتقسيم سوريا إلى دولة علوية شيعية ودولة للدروز ، وتحويل لبنان الصغير إلى لبنان الكبير على نحو روعي فيه حشد أكبر أقلية مسيحية ممكنة في رقعة واحدة ، وإقامة مشروعات سوريا الكبرى والهلال الخصيب .

وكذلك الدعوة إلى إقامة كيان للبربر في المغرب ، وإيجاد عناصر الخلاف بين المسلمين والمسيحيين في مصر ، ثم بين الشيعة والسنة في العراق وسوريا ، وتمزيق وحدة وادي النيل بين مصر والسودان ، إلى عشرات المحاولات الخطيرة منذ جرى تمزيق الوحدة الإسلامية الجامعة للعرب والترك إلى تقسيم العرب أنفسهم إلى دول ، وتقسيم الدول إلى أحزاب وفرق ومذاهب .

وفي خلال مرحلة الاحتلال البريطاني والفرنسي للعالم العربي تضخمت هذه الفروق المذهبية والطوائف والأقليات ، ودعمت حيث حرص الاستعمار على الابقاء على الكيانات القبلية والطائفية حتى لا تنصهر الامة العربية في وحدة واحدة وما تزال هذه الكيانات قائمة ، ومازال لها أثرها الكبير في دعم الإقليمية وزيادة الخلافات . وتأخير الانصهار والوحدة .

***

والإسلام هو الدين القومي للأمة العربية . وقد نص عليه في دساتير أغلب الأقطار العربية ، وفي دستور سوريا أن الإسلام هو المصدر الرئيسي للتشريع .

ومن قلب الأمة ظهرت الدعوات : الوهابية والسنوسية والمهدية وحركات الإصلاح الإسلامي بقيادة جمال الدين ومحمد عبده ، وتابعتهم في ذلك مدرسة في الشام تتمثل ( في طاهر الجزائري والبيطار والقاسمي ) ومدرسة في المغرب أطلق عليها اسم الحركة السلفية انتشرت في تونس والجزائر والمغرب ، وانبثقت منها جمعية العلماء بقيادة عبد الحميد بن باديس ، ثم تجددت الحركة الوهابية مرة أخرى في العقد الثالث من هذا القرن ، وارتبط ظهورها بسقوط الخلافة في الدولة العثمانية كأنما كانت بديلا عنها . وكان للأزهر دوره الخطير ، بالإضافة إلى دور الزيتونة والنجف والقرويين وغيرها من جامعات الثقافة الإسلامية .

ولا ينكر فضل الطرق الصوفية في نشر الإسلام عرضيا ، بينما كانت الحركة

السلفية تعمل على تصحيح عقائده وتنقيته من التقليد والبدع .

ولعل أخطر ما واجه الأمة العربية في معركتها مع الاستعمار الغربي هو فرض نفوذ صهيوني على فلسطين تحول من بعد إلى دولة يهودية طاردت أهل البلاد الأصليين ، وأقامت في مكانهم جسماً غريباً هو « إسرائيل » التي أصبحت من بعد عاملاً خطيراً في الحيلولة دون التقاء الأجزاء العربية في أفريقيا وآسيا ، وخطراً بعيد الأثر في فرض النفوذ الأجنبي ، وتعويق قيام وطن كامل ، ومانع خطير دون قدرة الأمة العربية على الحركة في مجال مقاومة الاستعمار ، أو بناء كيانها السياسي والاجتماعي والاقتصادي . وقد بلغت الحركة الصهيونية قمتها باحتلال القدس سنة ١٩٦٧ . وكان للنفوذ الاستعماري في العالم العربي خلال فترة ما بين الحربين : « مرحلة الاحتلال » أبعد الأثر في إقامة البناء السياسي العربي على التقليد الغربي الذي أثبت عدم قدرته على التجاوب مع النفس العربية ، وقد قام في خلال فترة ما بين الحربين حكام كانوا أولياء للمستعمر . ولذلك حالوا دون قيام تربية إسلامية ، أو بناء ثقافي مؤصل يستمد مفاهيمه من الفكر الإسلامي ، وسمح في هذه المرحلة للنفوذ الأجنبي أن يسيطر على برامج التعليم ، وأن يفصلها عن أرضيتها العربية الإسلامية ، وأن يؤكد اللغة الأجنبية ( الانجليزية والفرنسية ) ويجعلها مصدر التفوق في مجال العمل في المعارف والدوائر المختلفة ، وبذلك تأخرت اللغة العربية عن أن تشق طريقها وتنمو ، كما تخلف التاريخ العربي الإسلامي ، وتخلفت فنون الثقافة العربية حيث سيطرت دراسات الفكر الغربي وأبطاله وتاريخه وجغرافيته .

وفي جزء من الوطن العربي كالجزائر قضى نهائيا على اللغة العربية لولا ما استنقذته حركة جمعية العلماء التي قام بها الإمام عبد الحميد بن باديس ، كذلك كان للبعثات التبشيرية والصحف الكبرى التي يسيطر عليها النفوذ الاستعماري أثرها في خلق مفاهيم جديدة للفكر العربي منفصلة أو متعارضة مع القيم الأساسية الإسلامية . ولذلك فقد انتفضت في العالم العربي القوى الوطنية ، فكونت جمعيات إسلامية في مقدمتها جمعية الشبان المسلمين التي نشأت في مصر في مواجهة تحديات أعمال التبشير الخطيرة التي استفحلت في مصر والسودان

خلال الثلاثينات . وكان من أبرز ما استهدفته هذه الحركة « تصحيح مفاهيم الإسلام في مجال الاجتماع والسياسة الاقتصادية » وقد كان لهذا النفوذ الثقافي الشعبي أثره البعيد في دوائر الجامعات والمدارس . وكان لها صوتها المسموع عن طريق صحفها ومجلاتها ، وعلى منابر البرلمان .

وقد كان للأحزاب السياسية التي ظهرت في العالم العربي أثرها في تأكيد مفاهيم الاستعمار على الصعيد الاجتماعي بالرغم من عملها السياسي الظاهر في مواجهة الاحتلال والدعوة إلى الاستقلال . ويبدو ثلاثة رجال من كبار الزعماء في مصر والعراق كتوابع للفكر الغربي في تأكيد مفاهيمه من خلف الحركة الوطنية السياسية : وهم لطفي السيد ، وسعد زغلول ونوري السعيد .

***

قاومت الأمة العربية النفوذ الأجنبي والغزو الاستعماري الذي هاجمها في أشد فترات حياتها ضعفا وتفككا ، قاومته بالسلاح والقتال ، ولم يحقق الاستعمار نصراً ما إلا بالخديعة والتآمر . وفي مصر والجزائر وهما من أولى الدول المحتلة قامت ثورة عبد القادر ، وثورة عرابي . وقد وضعت الحرب العالمية الأولى خاتمة هذا الزحف حيث سيطر النفوذ الاستعماري على مختلف أجزاء العالم العربي بالاحتلال العسكري فيما عدا أجزاء من الجزيرة العربية اكتفى الاستعمار بوضعها في منطقة نفوذه السياسي بالمعاهدات ، وفي خلال ما بين الحربين التهب العالم العربي كله بالثورات وأعمال المقاومة التي لم تتوقف في ثورات مصر والسودان والعراق وسوريا وفلسطين . وقد جرت في هذه الفترة مفاوضات متعددة هدفها توقيع معاهدات عسكرية تعترف فيها هذه الأقطار بالاحتلال الذي كان موجودا فعلا ومسيطراً على كل المقدرات ، ونافذ المفعول في توجيه الحياة الاجتماعية والسياسية والاقتصادية والثقافية في البلاد العربية .

واذا كان الاستعمار الغربي قد خدع الأمة العربية حين اعطاها الوعود إبان الحرب العالمية الأولى بإقامة دولة عربية ، وحين أوقع بينها وبين الدولة العثمانية ، وحين فرق هذه الأمة العربية إلى دول متعددة جعل لكل منها نظامها الخاص وحدودها الخاصة وحال دون التقائها في وحدة ، فإن الجذور العميقة للفكر

الاسلامي والثقافة العربية ، بل الاسلام واللغة العربية كانت جميعها من العوامل الهامة التي حققت الالتقاء والتقارب بين الشعوب ، بينما ظلت الحكومات خاضعة للنفوذ الأجنبي الذي كان يفرض عليها السدود والقيود .

بل لقد امتدت عرى الروابط بين الأمة العربية والعالم الإسلامي ، وعقدت عديد من المؤتمرات على المستويين العربي والإسلامي ، كان لها أثرها في التئام الوحدة الفكرية ، واستمرار الدعوة إلى الأخوة الإسلامية الشاملة .

وإذا كان سقوط الخلافة ( ١٩٢٤ ) قد عد من أخطر العوامل التي واجهت العالم الإسلامي والتي عمقت فيه عوامل الإقليمية والتمزق والانفصال العربي والإسلامي جميعا ، فإن « فريضة الحج » التي حتمت على المسلمين الالتقاء في مكة وعرفات خلال موسم سنوي محدد ، قد جددت الصلة بين المسلمين بالإضافة إلى استمرار استقبال الأزهر لعديد من شباب العالم الإسلامي ، مما جعل الدعوة إلى الوحدة الإسلامية ، والرابطة الإسلامية ، والجامعة الإسلامية لا يتوقف النظر فيها ، وإن لم تكن بعد ميسورة التحقيق للعوامل الاستعمارية الضاغطة .

وكان قيام النهضة الوهابية الجديدة في الجزيرة العربية ، مستمدة من الحركة الوهابية الأولى ، عاملاً هاماً في هذا الصدد ، بالإضافة إلى الجماعات الإسلامية المتعددة التي قامت أجزاء مختلفة من العالم العربي ، وخاصة جمعية العلماء في الجزائر ، والحركة السلفية في المغرب التي تحولت إلى مجال العمل الوطني السياسي .

وفي الفترة التي تلت الحرب العالمية الثانية استطاعت الأقطار المغربية بعد كفاح شاق أن تحقق استقلالها ، وأن تقوم في ليبيا والمغرب حكومات وطنية ، وكان لثورة الجزائر العنيدة الخصبة أثرها البعيد في دعم القيم الإسلامية الأساسية في المقاومة والجهاد ونضال الغاصب ، وفي تأكيد الطابع العربي الإسلامي الذي لا يسقط أمام الزحف الأستعماري الغربي . فإن استطاع هذا النفوذ أن يقضي على اللغة ، فقد عجز أن يقضي على الإسلام ، ولم يعد هناك من خطر واضح المواجهة غير الاحتلال الصهيوني لفلسطين ونتائجه وآثاره المستمرة التي كانت

تزداد على الأيام قوة بعد الحرب العالمية الأولى عندما أعلن وعد بلفور ، وبعد الحرب العالمية الثانية حيث قامت دولة إسرائيل في قلب الوطن العربي .

ولا شك كان للاحتلال الصهيوني أثر بعيد وعميق ومخالف لأثر الاستعمار الفرنسي والبريطاني في البلاد العربية . فقد كان الاحتلال الإسرائيلي رامياً إلى الإقامة والتوسع ، مستقدما الملايين من اليهود من أنحاء العالم ، وهو احتلال له طابع مخالف للاستعمار الغربي الذي كان يقوم على أساس المعاهدات العسكرية ، ولا يفرض نفوذه بالإقامة والتهجير والتملك وطرد أهالي البلاد الأصليين طرداً نهائياً .

ولا شك كانت الأزمة الإسرائيلية من أخطر العوامل التي واجهت العالم الإسلامي والأمة العربية على مختلف المستويات الثقافية والاجتماعية والسياسية والاقتصادية . وكان لها أثر ودوي أيقظ النفس العربية الغافلة وحركها في مواجهة خطر طامع يمكن أن يتمدد ويتسع نطاقه ، فيقضي على العروبة والإسلام جميعا ، ويفرض في الأرض العربية والعالم الاسلامي قوة أشد خطرا من الاستعمار الغربي نفسه .

ومن هنا فإن الآثار التي ترتبت على قيام إسرائيل في قلب الأمة العربية كانت بعيدة المدى ، تجلت بصورة واضحة في الشعر والنثر والفن ، وفي مجال البحث العلمي ، وفي المجالات العسكرية والسياسية والاجتماعية للأمة العربية . وقد زادت هذه الاعتبارات أهمية مع تضاعف الخطر الإسرائيلي في مواجهاته العسكرية المتعددة مع الأمة العربية بحيث يمكن أن يقال إن هذا الخطر يمثل تحديا خطيرا يحسب له كل حساب في علاقات العالم الإسلامي بالغرب وفي مواجهة النفوذ الاستعماري الذي يتعرض له العالم الإسلامي ، منذ أوائل العصر الحديث ، وإذا كانت الأمة العربية قد استطاعت بعد الحرب العالمية الثانية أن تخطو خطوات واسعة إلى التحرر من النفوذ الأجنبي ، وبناء قوتها الذاتية الداخلية ، وتحقيق قدر كبير من التقدم العلمي والثقافي والاجتماعي . فإن النفوذ الاستعماري الذي سحب قواه العسكرية ، ومظاهر نفوذه السياسي قد اختفى الآن من وراء الاقتصاد والثقافة . وعن طريق الاقتصاد ما تزال موارد الأمة

العربية تحت سيطرة النفوذ الأجنبي ، والحصيلة منها قليلة ، وما تزال خاضعة لنفوذ الأسواق الأجنبية ومؤامراتها .

أما من الناحية الثقافية فإن النفوذ الاستعماري ، قد وجد في هذا المجال سلاحاً خطيراً يقاوم به الانتماء العربي إلى الفكر الإسلامي والقرآن والإسلام واللغة العربية ، والقيم الأساسية التي أقام بناءه الفكري عليها . وقد اتخذ النفوذ الاستعماري من التبشير والتغريب والشعوبية والغزو الثقافي وسائل جديدة خطيرة خفية في سبيل نقض هذه الروابط الأساسية بين الأمة العربية وتراثها وفكرها ، وإثارة شبهات متعددة ومتصلة حول هذا الفكر الإسلامي العربي بالإضافة إلى تأريث الخلافات بين المذاهب والملل ، وتعميق الفوارق المتصلة بالقوميات والأجناس والطوائف ، والحيلولة دون إذابة الطائفية والقبلية وتجميدها حتى لا يتم انصهار الأمة العربية في بوتقة فكرها الإسلامي الأصيل مع فرض تيارات فكرية غربية متعددة . . ( وجودية وماركسية ورأسمالية ) بحيث تظل الثقافة العربية مضطربة تعيش في متاهات وصراعات لا تنتهي ، وبحيث لا تجد ذاتها ولا طوابعها ولا مزاجها النفسي الأصيل ، وتنتهي إلى دوامة « الأممية » التي تقضي على شخصيتها وكيانها جميعاً . وهذا الغزو هو أخطر جوانب النفوذ الاستعماري في العصر الحديث ، وأشده حاجة إلى التنبه والاهتمام .
ويضاف إلى هذا التحدي معضلة أخرى أساسية هي : ـ

هل فهم العرب الإسلام فهما صحيحا ، أم هناك عوامل كثيرة اليوم تحاول أن تحول بينهم وبين فهم الإسلام ، كما فهمه المسلمون الأولون ، وكما أنزل فعلا ؟ وأخطر ما في هذا الشأن هو تلك المحاولة الخطيرة من الاستعمار والتبشير والتغريب والشعوبية والمستشرقين جميعا ، وهي محاولة تصوير الإسلام على أنه « دين » فحسب ، والإغضاء عن دوره كنظام مجتمع ، ومنهج حياة ، ومحاولة وصفه بالروحية ، وبأنه علاقة بين الإنسان والله . وذلك لإقصائه عن مكان الحركة في المجالات الاجتماعية والسياسية والاقتصادية والتربوية .

وهذا المفهوم في حقيقته مفهوم أوربي أو غربي خالص ، وهو أبرز معالم الخلاف بين الفكر الإسلامي وبين الفكر الغربي ، ويترتب على هذا الفهم

القاصر كثير من النتائج التي تعـزل الإسـلام كثقافـة ومنهـج حياة عن التـربية والدراسة والمجتمع ، كما يؤثر هذا الفهم الخاطىء في كثير من القضايا الهامة ، كقضية الشريعة والقانون ، والربا والاقتصاد ، والـدين والمجتمـع ، والتـربية والأخلاق ، والعلم والدين ، والعروبة والاسلام .

وحقيقة الأمر أن الإسلام ثقافة شاملة كاملة متصلة ، تربـط أجـزاء الفـكر الإسلامـي في وحـدة كاملـة ومـركب كامـل ، وحيث تقـع السياسة والاجتماع والاقتصاد منه مكان الأجزاء من الكل أو العناصر من المركب[1] .

لقد فصل الغربيون بين الدين والدولة ، وبين الدين والمجتمع ، لعوامل كثيرة مختلفة أهمها : أن الدين إنما جاءهم من خارج مجتمعهم ، فكان دخيلا عليهم ، ولم يكن عنصراً أساسيا في تكوين جذور فكرهم الوثني والإغريقي ، وثانيا لأن الدين توقف وجمد في مواجهة حركة اليقظة ولم يتجاوب مع تقدم العلوم ، وحال دون نموها بالإضافة إلى أثره كمؤسسة في تأكيد الإقطاع وسلطة الكهنة والأمراء . أما الإسلام فقد كان مصدر الدعوة إلى العلم والحضارة ، ومن خلال مفـاهيم القرآن بنى المسلمون « المنهج العلمي التجريبي » أساس الحضـارة الحديثـة . وكان الإسلام ولا يزال بمفاهيمه المرنة الحية قادراً على التجاوب مع الحضـارات والأمم والبيئات المختلفة والفكر الإسلامي في أساسه الطبيعي يشتمل على عنصر الدين مرتبطاً ومركبا مع مختلف عناصر الاجتماع والاقتصاد والسياسة والتربية . ولذلك فإن محاولة فصله عن المجتمع هي محاولة عقيمة ، فضلاً عن أن الإسلام ليس ديناً لاهوتيا فقط ، وإنما هو دين ومجتمع وحضارة .

« وما تزال الأمة العربية هي النواة الأساسية للإسلام ، وهي القطب المغناطيسي للمؤمنين وإذا وصف بأنه قلب ، فإنه أيضا رأس مؤثر » . وذلك على حد تعبير أحد الباحثين الذي يرى « أن الإسلام يختلف في تاريخه وتوسعه عن بعض الأديان الأخرى ، حيث إن معظـم الأديان قد صدرت في موطـن ، ثم هاجـرت منه وهجرتـه كلية أو تقريبـاً ، حيث انتشرت خارجـه كالبـوذية بالنسبـة إلى الهنـد

---

١ ـ راجع كتابنا ( القيم الأساسية للفكر الاسلامي والثقافة العربية .

واليهودية والمسيحية بالنسبة لفلسطين ، ولكن الاسلام وحده ينفرد أو يمتاز بأنه رغم أن انتشاره الأكبر يقع اليوم خارج وطنه الأصلي . فما زال وطنه الأصلي هو أخصب حقوله » . وعندناان ارتباط المسلمين بقبلة واحدة هي الكعبة متجه أرواحهم ما تزال هي نقطة الالتقاء الروحي والنفسي والاجتماعي ، وستظل منائر الأزهر والقرويين من أهم مراصد الأمة العربية الأساسية .

ولقد كان ظهور الجامعة العربية كمؤسسة سياسية على مستوى الحكومات في أواخر الحرب العالمية الثانية عاملا من عوامل التوحيد والالتقاء بالإضافة إلى أن الدعوة إلى الوحدة العربية قد اتسع نطاقها بعد الخمسينات . وأصبح لها مرتبطةً بالجامعة العربية أثرها في مجال الفكر والثقافة والتعليم . هذا في جانب الدائرة العربية التي تنمو من خلال قاعدة الفكر الإسلامي والثقافة العربية ، ذات الجذور الوثيقة الصلة بالقرآن والإسلام واللغة العربية ، والتراث والتاريخ الإسلامي العربي المشترك ، والذي لا سبيل الى الانفصال عنه إلى دعوة قومية علمانية كما تحاول بعض الآراء والمذاهب ـ ولقد طغت موجة الإقليمية والانفصالية فترة طويلة على أقطار الأمة العربية . وكان لها دوافعها وتحدياتها التي فرضتها ظروف الاحتلال الذي مرت به ، وقد حاول كثير من الباحثين تكريس فلسفة للإقليمية والانفصالية متصلة بالفرعونية والفينيقية والآشورية والبابلية ، وجرت محاولات لفلسفة أخرى قوامها وحدة البحر الأبيض . ولكن هذه الدعوات جميعا لم تلبث أن فشلت في تحقيق شيء ، فقد كان التلفيق والاصطناع واضحاً فيها جميعاً ، ولم تلبث الأمة العربية أن التقت على مفهومها الأصيل القائم على اللغة العربية والإسلام كأرضية طبيعية ، وكأساس ثقافي وفكري ، وكمقدمة للقاءات واسعة على صعيد الفكر الإسلامي .

وفي دائرة العالم الإسلامي التقت الأمة العربية ، والدول الإسلامية في مؤتمرات متعددة عقدت في القدس ومكة وباكستان وأندونيسيا وغيرها . وهي في مجموعها مقدمات هامة لازالة الفواصل بين الثقافات العربية والتركية والفارسية والهندية التي تنبع جميعا من مصدر واحد هو : ( الإسلام والقرآن ) ولذلك فهي مهما التمست طوابعها القومية والإقليمية ، فإنما ستنمو في جو الوحدة والتجمع

والالتقاء ، وستكون تحديات الاستعمار والغزو الثقافي ، ومؤامرات التغريب والشعوبية دافعاً قويا وعميقاً يقرب الدائرة العربية بالدائرة الافريقية في افريقيا وآسيا .

❋ ❋ ❋

وتواجه الأمة العربية والثقافة العربية تحديات واضحة نتيجة انفتاحها على الفكر الديمقراطي الغربي ، والفكر الاشتراكي الماركسي ، وفي الاتصال بمختلف التيارات التي تحمل لواءها فلسفات الوجودية والعلمانية واللادينية والإلحاد والاباحة ، وخاصة دعوة الثقافة الأممية بالإضافة إلى الخطر الماثل في الصهيونية ، وآثارها في الفكر الغربي جميعا ، ومحاولاتها التي أقرتها بروتوكولات صهيون لتدمير المدنية وتحطيم البشرية ، وتحويلها جميعاً الى خدمة سيادة فكرة يهودية تستعبد الانسانية جميعاً .

كل هذه التيارات تواجه الثقافة العربية ، وتصارعها على نحو أشد مما كان ذلك في مرحلة الترجمة والنقل من الفلسفات اليونانية في القرن الثالث الهجري . فقد كانت تلك حركة حرة اختارها المسلمون وأتيحت لهم فيها فرصة الأخذ والرفض . بينما تنثال الثقافات الغربية المختلفة والمتصارعة اليوم في ظل النفوذ الأجنبي ، ومهما يكن من أمر فإنها ستنصهر في بوتقة الفكر الإسلامي والثقافة العربية لتذوب وتتشكل ، ويتحول الجيد منها إلى كياننا . بينما ينفى ما لا حاجة إليه خارجها كما هي دائماً طبيعة الفكر الإسلامي في مواجهة الفكر الإنساني والتعامل معه .

غير أن وقوع الأمة العربية والعالم الإسلامي في هذه المرحلة تحت سلطان النفوذ الاستعماري والتغريب الثقافي سيطيل مرحلة الصراع ، وسيشكل صورة غير صحيحة عن الفكر الإسلامي في هذه المرحلة ، تتطلب الجهاد بتصحيح المفاهيم حتى تستطيع أن تتبلور فيما بعد عن الفكر الإسلامي بأصوله الأساسية ، وقيمه الأصيلة ، وهي متشبعة بما استطاعت أن تجده صالحا من التراث الثقافي الغربي في مختلف فروعه وفنونه ومذاهبه .

وستظل الأمة العربية هي صاحبة القيادة الفكرية والتجديد الإسلامي ، ممثلة في حركاته ومصلحته ، من حيث إنها تنظر إلى الإسلام نظرة أصيلة سلفية مستمدة من القرآن نفسه ، ومن واقع الإسلام وجوهره الأصيل .

## ( ٢ )

# تركيا : ومقاومة الغزو الغربي

لا شك كانت حركة مصطفى كمال نتيجة طبيعية للحركة التي بدأت بزعامة مدحت في أوائل حكم السلطان عبد الحميد ، وخاتمة للدور الذي عاشته تركيا بين الدعوتين : الجامعة الإسلامية والجامعة الطورانية . ذلك أن الدولة العثمانية كانت قد تعرضت في هذه المرحلة من حياتها الطويلة إلى أخطار الشيخوخة في مواجهة أوربا خصمها الأول الذي سيطرت عليه أكثر من أربعمائة عام .

وكانت دول أوربا قد أجرت عشرات المحاولات للسيطرة على تركيا وتمزيقها ، ضمنها الوزير دجوفارا في كتاب له باسم « مائة مشروع لتقسيم تركيا » : قال فيه إنه في خلال ستة قرون متتابعة كانت الشعوب الأوربية تهاجم الدولة العثمانية . وكان الوزراء ، ورجال السياسة وأصحاب الأقلام يهيئون برامج تقسيم هذه السلطة « وقد أخذ هذا العداء بين الدولة العثمانية ، والدول الأوربية - بحق أو بغير حق - طابع عداء بين الإسلام والمسيحية حتى كان الأوربيون يرددون دائماً المطالبة بعمل مشترك لدحر الإسلام على حد تعبير دُجُوفَارَا . وبينما استطاع العالم الإسلامي أن يحتضن الجماعات المختلفة من أصحاب الأديان والنحل ، والفرق والملل ، قاومت اوربا المسلمين والعرب عن طريق الأندلس ( اسبانيا المسلمة ) وعن طريق البلقان ( تركيا الإسلامية ) . وقد شهد الأوربيون شهادة صريحة

بالتسامح الديني العظيم الذي أولاه الأتراك للمسيحيين والحرية الدينية التامة . وكذلك الحرية المدرسية التي أتاحت لهم النمو والرقي .

ولقد ظلت بريطانيا وفرنسا وروسيا سنوات طويلة تعمل للقضاء على دولة الرجل المريض ، وتحول دون قيام نهضة أو قوة في العالم الإسلامي من شأنها أن تجدد شباب الامبراطورية أو تبني دولة جديدة . ولذلك فقد عمدت إلى القضاء على الحركة الوهابية وحركة محمد علي ـ وقد قامتا في وقت واحد أو متقارب في أوائل القرن الثامن عشر ـ وذلك رغبة في تمزيق كيان الدولة العثمانية والقضاء عليه . وتفتيت أجزائها إلى دول صغيرة تقع تحت نفوذها ، وقد عمدت منذ وقت باكر إلى استقطاع الجزائر وتونس ومصر ، وإقامة حكم خاص في لبنان ـ بعد أن أثارت بريطانيا وفرنسا ( الموارنة والدروز ) إلى معركة دامية سنة ١٨٦٠ كحلقة من حلقات هذا التمزيق للدولة الإسلامية الكبرى .

وكانت أكبر أعمال التمزيق هي الوقيعة بين الأتراك والعرب باعتبارهما العنصرين الأساسيين الكبيرين في هذه الوحدة . وكان للأقليات دور كبير في هذه المعركة الخطرة عن طريق الصحافة والمؤامرة ، وإثارة الخصومات ، وكان الهدف الذي ترمي اليه القوى التي كانت تهاجم الدولة العثمانية ، والسلطان عبد الحميد ، وتدعو إلى انفصال العناصر ، أنها تهدف أساساً إلى تمزيق وحدة ذات طابع إسلامي تمتد عبر منطقة واسعة في سبيل مقاومة الغزو الأوربي الزاحف ، فلما ضعفت الدولة العثمانية استطاعت القوى الأجنبية أن تسيطر في مختلف أجزاء الامبراطورية ، وأن تمهد لتحطيمها .

أما في الدولة العثمانية فقد قادت جماعة « الدونمة » ( اليهودية التي أسلمت تقية ) في سالونيك قيادة هذه المعركة تحت أسماء مختلفة أهمها حركة حزب الاتحاد والترقي ، واتخذت من مقار المحافل الماسونية مراكز لها للعمل ، وخلقت في فترة طويلة تزيد عن أربعين عاماً حركة ضخمة سداها ولحمتها الحملة على السلطان عبد الحميد ، واتهامه بالاستبداد . وقد حملت هذه الحركة الشعوبية الضخمة ـ التي كانت مصر أكبر مراكزها ، حيث كان البريطانيون يفتحون الأبواب لجماعات مختلفة من الدعاة وأصحاب الصحف من مختلف الأجناس والأديان ممن

يجمعهم العداء للإسلام والدولة العثمانية ـ لواء العمل لتحقيق أشياء كثيرة تحققت فعلا بعد الحرب العالمية الأولى :

( أولا ) تمزيق الدول العثمانية التي تمثل قوة إسلامية كبرى ، وتجد لها في مسلمي الهند وأندونيسيا ومختلف أنحاء العالم الإسلامي صدى وتأييداً .

( ثانيا ) السيطرة على الأجزاء العربية من الدولة ووضعها تحت سلطان الاحتلال البريطاني والفرنسي .

( ثالثا ) إقامة إسرائيل في فلسطين قلب العالم الإسلامي .

ومن هنا فقد كانت خطة القضاء على الدولة العثمانية هدفا أساسيا للقوى الاستعمارية وللأقليات المختلفة الموالية للنفوذ الاستعماري ، وهدفا أساسيا أيضا للحركة الصهيونية الوليدة التي عمدت إلى الاتصال بالدولة العثمانية ، وبالسلطان عبد الحميد بعد أن عقدت مؤتمرها الأول في بال ١٨٩٧ ، وحاولت أن تحصل على إذن بالهجرة إلى فلسطين عن طريق الإغراء بقرض قدره خمسون مليونا من الجنيهات لخزينة الدولة العثمانية ، وهبة قدرها خمسة ملايين من الجنيهات لخزينة السلطان الخاصة .

وقد كان موقف السلطان عبد الحميد مشرفا بالغ القدر في الجرأة والصدق . ففد رفض ذلك العرض رفضا تاما . وأعلن في كلمة خالدة له استحالة تحقيق هذا الهدف طالما هو على قيد الحياة .

وقد تكشف للسلطان من بعد حين أسقط عام ١٩٠٩ أن واحداً من الذين أعلنوا اقصاءه عن السلطة كان هو نفسه الذي جاء يعرض عليه ذلك العرض الصهيوني . وكان إسقاط عبد الحميد سنة ١٩٠٩ نهاية لنظام الجامعة الإسلامية الذي دعا إليه السلطان عبد الحميد ، ونفذه في محاولة لتجميع الدول الإسلامية خارج الدولة العثمانية في تجمع باسم دولة الخلافة لمواجهة النفوذ الاستعماري الغربي الزاحف . وقد تحقق فعلا في عام ١٩٠٨ « إعلان الدستور العثماني » وظن المسلمون أن الدولة العثمانية تواجه عصراً جديداً يتحقق فيه مزيد من الحرية والعدالة . بيد أن النظام الذي قام وتوطد بعد عزل عبد الحميد ، إنما كان يمثل

اتجاها مخالفا للتيار الإسلامي ، ومعارضا له ، فقد استهدف حزب الاتحاد والترقي الذي تولى السلطة منذ ذلك التاريخ إلى نهاية الحرب العالمية الأولى تنفيذ مخطط الجامعة الطورانية في محاولة لتتريك عناصر الدولة العثمانية ، ومن هنا فقد وقع الصدام بين العنصرين الكبيرين في المملكة وهم : الأتراك حكاماً ، والعرب محكومين ، وتأججت حركة الدعوة إلى العربية الجامعة في مواجهة محاولة إلغاء الوجود العربي عن طريق فرض اللغة التركية في المحاكم والمدارس في نفس الوقت الذي استشرت فيه الدعوة إلى إعلاء تاريخ طوران والانتقاص من تاريخ العرب والاسلام ، ولقد كانت هذه الفترة ( ١٩٠٩ ـ ١٩١٨ ) فترة حرجة حقاً ، فقد غلا فيها الاتحاديون وأوجدوا بينهم وبين العرب ثغرة واسعة ، وحين اتجه العثمانيون إلى ألمانيا ، وانضموا إليها في الحرب ، اتجه العرب إلى بريطانيا وانضموا إليها . وبذلك تمزقت الوحدة العثمانية العربية ، وانتهت الحرب بهزيمة تركيا ، واستيلاء بريطانيا وحلفائها على الأجزاء العربية من الامبراطورية والتنكر للعهود المعقودة بإقامة دولة عربية مستقلة .

وقد كان من الطبيعي أن يسقط النظام كله بعد هزيمة تركيا في الحرب العالمية ، واحتلال الحلفاء واليونان لأجزاء منها . ولما كانت الدول الأوربية قد حققت بذلك القضاء على الدولة العثمانية ، وتمزيق أوصالها . فقد بلغت من ذلك نهاية الشوط ، وهي تحويلها من دولة الخلافة إلى دولة علمانية لا دينية تتنكر لكل قيم الإسلام ومفاهيمه وأنظمته ، وذلك عن طريق الانقلاب العسكري الذي قام به مصطفى كمال ، وسيطر به على كل مقدرات تركيا وصفى به جميع النظم القديمة .

ويمكن اعتبار الانقلاب الكمالي هو التطور الطبيعي لحركة الاتحاديين استمراراً للمخطط الذي جرى تنفيذه بعد سقوط السلطان عبد الحميد في تحويل الدولة العثمانية تحويلا تدريجيا من دولة الخلافة والسلطنة والجامعة الإسلامية ، ورابطة العالم الإسلامي كله إلى دولة إقليمية ذات طابع عربي خالص ، فقد صارعت الدعوة الإقليمية باسم الجامعة الطورانية اتجاه الوحدة الإسلامية الذي حمل لواءه السلطان عبد الحميد ، واتخذه سبيلا إلى تجميع المسلمين في حركة واحدة لمقاومة

النفوذ الغربي الزاحف . غير أن النفوذ الاستعماري كان قادراً ـ والدولة العثمانية في مرحلة الضعف ـ إلى القضاء على هذه الحركة ، وتمزيق هذه الوحدة .

كان دخول الدولة العثمانية الحرب في صف ألمانيا من العوامل التي عجلت بالقضاء عليها وتمزيقها كوحدة مقاومة جامعة بين العرب والترك ، وكانت الخطوة التالية لذلك ، هي إلغاء الخلافة العثمانية التي كان يدين المسلمون بالولاء لها من خارج الدولة العثمانية ، ومن حق أن يقال إن هذه الخطوة الحاسمة لم تتم طفرة ، وإنما تمت على مراحل طويلة خلال فترة لا تقل عن خمسة عشر عاما ١٩٠٩ ـ ١٩٢٤ وأن النفوذ الأجنبي قد أحكم العمل بالوقيعة بين عنصري الدولة العثمانية ( العرب والترك ) ودفع الاتحاديين إلى مواجهة العرب مواجهة حادة بالمشانق والقتل مما فتح ثغرة لم يكن هناك من سبيل إلى أن تلتئم . وبذلك تحققت خطوة أشد عنفا حينما حارب العرب المسلمون الأتراك المسلمين في معارك متعددة على خط ممتد من مكة إلى دمشق ، وكانت ثمرة الحرب لحساب الحلفاء الذين حلوا محل الأتراك في المناطق التي هزمهم العرب فيها . وبذلك أسلم العرب أرضهم إلى بريطانيا وفرنسا بعد أن استخلصوها من الدولة العثمانية . وتلك مؤامرة النفوذ الأجنبي البالغة الخطر .

وقد كانت هناك آراء لها وزنها ، ترى أن الدولة العثمانية على ما هي عليه من الضعف ما تزال تمثل قوة وكيانا ضخما قائما في مواجهة النفوذ الاستعماري ، وأن من واجب العرب والترك أن يحفظوا هذا الكيان حتى لا يسهل ازدرادهم فرادى . ولكن الاتحاديين ومن ورائهم قوى النفوذ الاستعماري ، وقوى القضاء على فكرة الجامعة الإسلامية والوحدة الممثلة في الدولة العثمانية كانوا هم أداة تمزيق الرابطة بين العرب والترك ـ وإسلام هذه المنطقة إلى النفوذ الأجنبي كلية .

ومن هنا فقد كان من السهل ، وقد تحقق هذا الجزء الهام من المخطط ان تحول تركيا العثمانية دولة الخلافة ، ومقر قيادة الجامعة الاسلامية ـ في فترة قليلة ـ الى دولة علمانية تشجب الاسلام وتتخلى عنه تخلياً تاماً في مجال القوانين ونظم المجتمع والحكم ، وتفتح أبوابها للتغريب والعلمانية في كافة صورها ، مخالفة بذلك أبسط قوانين التطور ، ونواميس التحول . حقاً ، لم يكن هذا الاتجاه طبيعياً . ولم

يكن العمل لتغريب تركيا قائماً على مراحل ، وإنما كان يتم تحت سلطة النفوذ العسكري الصارم ، والقوانين الاستثنائية المفروضة ، في محاولة قوامها الطفرة والعنف إلى تحويل أمة من النقيض إلى النقيض .

حقاً لقد مرت الدولة العثمانية بفترة جمود وتخلف في مجال الثقافة والمجتمع ، كان مصدرها متصلاً بالجبرية التي سادت باسم الدين . ولكن هل كان الاسلام في حقيقته مصدر التخلف والضعف والهزيمة ، أم كان التخلف عن مفهوم الاسلام الأصيل القادر على الحركة والقوة والحياة هو سبب الهزيمة . . . ؟

لقد عزي الى الاسلام ما أصاب تركيا من هزيمة وتخلف وضعف . ومن الحق أن يقال إن تركيا تخلفت عن مفاهيم الاسلام في القوة والعدل والحرية . منذ سنوات طويلة ، يوم تجمدت في حركة التقليد والجبرية ، وعجزت عن مجاراة الغرب في تقدمه العلمي . هذا التقدم الذي كان مصدره العالم الاسلامي أساساً ، وكان قادته المسلمون أنفسهم أولاً .
ولكن الاتهام وجه إلى الاسلام رغبة في تشويهه والقضاء عليه ، وخلق جو عام مسمم ضده في العالم الاسلامي والبلاد العربية .

وقد كانت الخطوات التي خطتها تركيا بعيدة الأثر في مصر وأفغانستان وإيران والهند الاسلامية وفي كل مكان . فقد أتاحت الفرصة لدعاة التغريب وخدام الثقافة الغربية الاستعمارية أن ينفذوا إلى مكان الصدارة ، وأن يضربوا المثل بتركيا في مجال التقدم والنهضة .

ولقد كان المفكرون المسلمون المخلصون في أول الأمر يؤيدون النهضة التركية ، بحسبان أنها ستجمع بين قوة الغرب وطابع الاسلام ، وأنها ستمثل أولى مراحل اليقظة في العالم الاسلامي ، وفق مفهوم النهضة عن طريق نقل جوانب القوة الايجابية في الحضارة الغربية . ولكن الأمر كان على عكس ذلك تماماً ، فإن تركيا لم تلتفت إلى جوانب القوة في الحضارة الغربية ، ولكنها عمدت إلى تقبل جوانب التحلل من الحضارة وحدها ، وكان أبلغ مظاهرها : تطبيق قوانين الأحوال الشخصية السويسري ، وفتح أبواب المراقص ، وزواج المسلمة بغير المسلم ، وإلغاء المظاهر الاسلامية كلها . وإلغاء الحروف العربية للغة

التركية ، واستبدالها بالحروف اللاتينية وكتابتها من اليسار . وقد تأكد من عدد من المصادر الموثوقة أن تركيا قد نفذت فعلاً مخططاً كان مرسوماً لها في المعاهدات التي عقدتها مع الدول الغربية . والمعروف أن تركيا قبلت شروط الصلح الذي عقده الحلفاء معها في لوزان عام ١٩٢٣ . شروط كرزون الاربع وهي :

( ١ ) قطع كل صلة بالاسلام . ( ٢ ) إلغاء الخلافة . ( ٣ ) إخراج أنصار الخلافة والاسلام من البلاد . ( ٤ ) اتخاذ دستور مدني بدلا من دستور تركيا القديم . وقد استجاب مصطفى كمال لهذه الشروط ، ونفذها تنفيذاً أميناً ودقيقاً . وكان في تنفيذها أكثر حماسة من الذين فرضوها عليه . وكان هدف النفوذ الاستعماري أن يتخلص تخلصاً نهائياً من أي بؤرة أو نواة للطابع الاسلامي ، أو للوحدة الاسلامية . ولكن هل من حق أن الانقلاب المفروض بقوة النفوذ العسكري ، والقانون العرفي ، ووسائل الارهاب والاعدام ، قد استطاع أن يحقق تحولاً جذرياً في الأمة التركية بحيث قضى فيها على الاسلام . وإن وقائع التاريخ كله منذ قام نظام مصطفى كمال إلى اليوم ، لتدل على أنه كان نظاماً ملفوظاً مهزوماً . قد واجه المعارضة من مختلف الطبقات منذ اللحظات الأولى وإلى أيامه الأخيرة ، وكشف عن تحديات خطيرة ابان عنها الأتراك المسلمون بمختلف الوسائل ، أولاً بالثورات المتوالية عليه ، وثانياً بالصمت وبالتصميم الجماعي الكامل على أداء فرائض الاسلام ، والتمسك بها . فلما سنحت الفرصة بعد وفاة أتاتورك ، تكشف الشعب التركي عن إيمان عميق بالاسلام لم تزده هذه المحنة إلا قوة وصقلاً .

* * *

## - ٢ -

# حركة الانقضاض على الاسلام

كانت الدولة العثمانية قبلة المسلمين في العالم الاسلامي كله بعد مكة . ولذلك فقد كانت هزيمتها في الحرب الأولى مصدراً من مصادر القلق في الهند ومصر وأندونيسيا . ومن هنا فإن حركة مصطفى كمال لمحاربة اليونان الذين احتلوا تركيا وجدت من المسلمين تقديراً ومتابعة . وكان الكماليون قبل جلاء اليونان يتمسكون بالطابع الاسلامي ، ويستميلون المسلمين لتأييدهم بالمظاهر الاسلامية . فقد اجتمعوا بالسيد أحمد السنوسي[١] ومنعوا الخمور والفجور ، ورفعوا المصاحف علامة على الدفاع عن الاسلام ، فلما بلغوا ساحل الأمان وانتصروا بإجلاء اليونان ، كشفوا خبيئتهم ، وهي السياسة القائمة على التنكر الكامل للدين عامة ، والاسلام خاصة ، والأخذ الكامل بمظاهر الحضارة الغربية ، وإلغاء كل مؤسسات الاسلام . وقد كان المسلمون خلال المرحلة الأولى يحسنون الظن بهم تقديراً . لأن حركة التمدن التركي ، إنما هي الحركة التي تطلع إليها المصلحون المسلمون . وهي تقبل الحضارة الغربية على أساس من القيم الأساسية للفكر الاسلامي . وقد مضى أتاتورك في خطواته على طريقة المراحل . فبدأ بإلغاء الخلافة الزمنية ، وانتهى بإلغاء الخلافة كلية . وفيما بين ذلك أجرى عديداً من التغييرات التي كشفت عن معارضة كاملة للنظام الاسلامي ، ومن هنا تبين أن الأمر لم يكن حركة إصلاح وتطور من خلال إطار الاسلام . وإنما هوعملية انقلاب شامل كامل ، واتجاه إلى الغرب على النحو الذي كان يدعو إليه في تركيا أحمد غايف وزملاؤه حيث كانوا يدعون إلى تقبل الوجود الغربي تقبلاً كاملاً ترتبط فيه الحضارة والثقافة معاً . أي أن تصبح تركيا دولة أوربية في مختلف مناهجها وأنظمتها وقوانينها ، وتخرج خروجاً كاملاً من مجتمع العالم الاسلامي .

---

١ ـ محمد جميل بيهم : العرب والترك

وقد نفذ مصطفى كمال هذا المخطط كاملاً :

( ١ ) اعتماد القانون المدني السويسري وقانون العقوبات الايطالي ، والقانون التجاري الألماني بديلا للشريعة الاسلامية ( فصل الدين عن الدولة ) .
( ٢ ) إلغاء الحروف العربية ، وكتابة اللغة التركية بالحروف اللاتينية ، وتصفية اللغة من الكلمات العربية .
( ٣ ) الأذان باللغة التركية ، وترجمة القرآن إلى التركية .
( ٤ ) الأحد عطلة أسبوعية بدلا من الجمعة .
( ٥ ) إلغاء الطربوش وحجاب المرأة .
( ٦ ) إلغاء وزارة الأوقاف والمدارس الدينية ، وحل منظمات الدراويش ، وغلق تكاياهم .
( ٧ ) إحلال التقويم الأوربي محل التقويم الاسلامي .
( ٨ ) قبول نظم الحضارة بلا تحفظ .
( ٩ ) الاتجاه نحو أوربا والانفصال كلية عن العالم الاسلامي والعرب وآسيا .
( ١٠ ) إلغاء الخلافة .

وقد كانت هذه الخطوات عنيفة عاصفة تحمل طابع الاستفزاز ، ويظاهرها النفوذ العسكري الحاكم ، ولم تكن تصدر عن تطور حقيقي ، أو تفاعل أصيل ، وإنما كانت طفرة طاغية تهدف إلى الاسراع في تغريب تركيا . ومن هنا وقف العالم الاسلامي كله مذهولاً إزاء تحول الدولة التي قادت المسلمين ستة قرون مرة واحدة إلى دولة غربية الطابع ، وكان لهذا التحول أثر بعيد المدى ، فقد ارتج العالم الاسلامي رجة عنيفة لالغاء الخلافة ، وقطع أوصال الرباط الذي كان يربط المسلمين ، وقامت في الهند حركة عاصفة لتأييد الخلافة ، وعقدت مؤتمرات كبرى في الهند ومصر والحجاز . وأتاحت فرصة هذه التصرفات لدعاة التغريب في مصر والعالم العربي فرصة إسباغ التقدير والاعجاب على خطوات مصطفى كمال ، وتأييدها والدعوة الى تقليدها . غير أن الطريقة التي اتخذها مصطفى كمال أوجدت رد فعل عنيف بين المسلمين في تركيا الذين رفضوا هذا التحول رفضاً صامتاً . كما واجه المسلمون والعرب خارج تركيا هذه الخطوات

بالنقد . فقد خلق أتاتورك جواً من الاحتقار للعرب . واعتبر الاسلام عربياً ، والنبي محمداً عربياً . ومن هنا حملت صحفه على العرب والاسلام ومحمد . فانقلب ذلك التقدير والاعجاب الذي أسبغه المسلمون والعرب على أتاتورك أولا نقمة ونقداً .

ومهما قيل عن أن مصطفى كمال كان مضطراً إلى ذلك اضطراراً في مواجهة إحساسه بأن الطابع الاسلامي الذي عاشته تركيا العثمانية في سنواتها الأخيرة كان مصدر هزيمتها ـ مهما قيل في ذلك . وهو بعض الحق ـ فإن ما اندفع إليه لم يكن من عمل المصلح ، وإنما هو عمل عميل التقريب الذي وكل إلى قوته العسكرية والدكتاتورية المفروضة أن تنقل دولة الخلافة إلى دولة أوربية خالصة حتى تطمئن أوربا إلى أن على حدودها دولة لا تحمل من طابع الاسلام شيئاً .

وبعد أن كانت الامبراطورية العثمانية هي : الحصن المنيع الذي تقف عند أسواره موجة التوسع الغربي المسيحي . أصبحت هي المعبر الأكبر لهذا التوسع .

ولقد حاول بعض المصلحين أن يردوا مصطفى كمال عن اتجاهه المصمم بإلغاء الخلافة ، وعن التحول وجهة الغرب كلية على أساس القول بأن الخطأ ليس في النظام ، ولكن في التطبيق ، ولكن الغازي كان منصرفاً انصرافاً كاملاً عن الاستماع لأي وجهة نظر أخرى . وكان حريصاً على أن يقدم للغرب أعظم هدية وهي ( إلغاء الخلافة ) التي كانت في اعتبار المسلمين والعرب عقدة الصلة والرابطة الوثيقة بحسبانها قوة حامية لهم في مواجهة الغزو الغربي .

* * *

ولقد أكدت مختلف المصادر بأن مصطفى كمال كان يهدف إلى قيام دولة أوربية بكل معنى الكلمة ، لا تسترشد في قوانينها وسائر أعمالها إلا بما يؤدي بالبلاد إلى هذا الغرض . وقد جاء في بيان للغازي أنه تحقيقاً لذلك ، واقتداء بالأمم الغربية ، ولاسيما الجمهورية الفرنسية . فقد تقرر فصل الدين عن الحكومة فصلا تاماً ، وإلغاء الخلافة الاسلامية ، وإلغاء وزارة الأوقاف ومشيخة الاسلام ، والمحاكم الشرعية ، وإقرار قانون استعمال التقويم الغريغوري ،

وعدم تغيير مواعيد العمل مدة شهر رمضان في مصالح الحكومة أو المدارس : مع اعتبار العطلة الرسمية يوم الأحد « أو أنه لكي يكون الترك أمة أوربية بمعنى الكلمة . فقد تقرر أن يكون لأفراد الشعب التركي كلهم ثقافة واحدة هي : الثقافة الغربية . وذلك حتى لا تكون هناك طوائف ذات عقليات مختلفة . وتوحيد الثقافة مبني قبل كل شيء على توحيد التعليم ، فقررت سياسة إلغاء التعليم الديني وجعل التعليم كله علمانياً ، وإلغاء جميع الطوائف والفرق الصوفية الاسلامية والمدارس والكتاتيب المدنية الاسلامية بدون استثناء ، وحصر وتدريس العلوم الدينية في كلية الالهيات بجامعة الآستانة دون غيرها » .

وقد صاحب هذه الخطوات حملات عنيفة في الصحف التركية اتجهت أولا إلى رسول الاسلام نفسه وجرت عادة توجيه خطابات مفتوحة إلى النبي صلى الله عليه وسلم تحت عنوان ( إلى حضرة محمد ) . وهذا نموذج مما نشرته جريدة ( كنج دوشوبخةلر ) أي ( الأفكار الفنية ) بقلم قومندان أوغلي توفيق . أول نوفمبر سنة ١٩٢٨ و ٨ و١٤ و٢٢ .

قال في ٨ نوفمبر سنة ١٩٢٨ ما يأتي : -

« أرأيت يا رسول الله كيف كنت لا تتحرج عن الاختصاص ببعض النسوة الاسيرات في كل غزوة تغزوها . وأقررت المشايخ والخلفاء على هذه الرذيلة . بل كنت مصدقاً لعقود أنكحتهم بتواضع عاقد الأنكحة . كيف لا . وقد كنت إمامهم والقدوة التي يتبعونه . فهذا الرجل الذي لا يملك قوت يومه يتزوج لعدة نساء . لأنك قلت له إن هذه سنة وصاحبه مأجور عليه ، فكنت بذلك سبب نكبة ملايين العائلات ، وانتشار ملايين الأطفال في الشوارع ، وأنت أنت وحدك . ( والخطاب للنبي ) سبب تحولهم إلى جناة وأشقياء وأراذل وثرثارين . فهل ترتجف الكعبة كما ترتجف روحك من هول هذا . فلا قيمة للكعبة عنديَ إلا من حيث إنها ركام من أحجار وتراب يتألف منها بناء عتيق ذو سقف أخنى عليه الدهر ، ولا أعتقد أنها ترتجف إلا بزلزلة أرضية .

وكان ختام الخطاب . . . « لقد خلصنا منك »

وقد أمضت هذه الصحيفة خمسة شهور فى هذه الحملة . حتى إبريل سنة

١٩٢٩ ، وتناولت موضوعات واتخذت عبارات أشد عنفاً .

ومن عجب أن هذا المحامي المدافع عن الانقلاب التركي لم يلبث أن ضبط متلبساً بتسليم خريطة حربية لدار سفارة أجنبية .

***

ويروي العلامة محمد عزة دروزة في كتابه « تركيا الحديثة » وكان قد أمضى هذه السنوات في تركيا أنهم كانوا يلقنون الطالب بأن الثقافة والتقاليد الاسلامية هما من أسباب تأخر التركي وجموده . وما أصابه من كوارث ، وتعرض له من دسائس .

وأشار إلى سفور المرأة التركية وبروزها . إنما تم بدعوة ملحة تولاها الزعيم وشجع عليها بكل وسيلة وكل مناسبة . وكانت الدعوة عامة لم تقتصر على سفور المرأة التركية وبروزها . بل شملت اندماجها في المجتمع ، واختلاطها على أوسع معاني الاندماج والاختلاط . وقد أشار مؤرخ الغازي ( محمد محمد توفيق ) أنه كان يقيم حفلات الرقص ، ويدفع الضباط دفعاً إلى مخاصرة الفتيات . فإذا تراجعن قال لهم إنما هي أوامر عسكرية ( يراجع النص ) .

وقد أدى ذلك ـ حسبما أورده دروزة ـ إلى تفكك غير يسير في البنيان العائلي . وخاصة في المدن الكبرى . وكان لمقتضيات البروز في اشتداد رغبة المرأة في التأنق والتبرج ، ولم يكن أثر هذا أقل في الرجل أيضاً . فقد كثرت حوادث السقوط والتدهور . فإن المرأة التي ظلت سنين طويلة جداً محرومة من حريتها ، منطوية على نفسها ، قابعة في عزلتها ، والتي نالت حريتها فجأة قد دهشت ، ولا ريب وصارت في حالة ذهول . ومن هنا فإن مئات الآلاف من الفتيات فقدن الاتزان ، وسرن في الطريق الخاطىء ، واندفعن بدفعة السقوط ، وأصبحت قلوبهن المتفتحة قبل أوانها كالثمرة التي فسدت ، ولم يأت وقت نضوجها . وقد كان للنشرات الفلسفية الوضعية دور خطير في تقوية هذا التيار الجارف . فكم صدر من مجلات وكتب ، وترجم من قصص لعبث فيها السموم ، وكم نشرت الصحف من رسائل وكتابات ، وما نشرته من أحاديث في الصحف عن الراقصات وبنات الحانات ، ومن أخبار البغايا في حياتهن الخاصة من خفايا

وأسرار بأسلوب مغر فاجر ودرس غرام وعشق لفتاتنا .

أما لبس القبعة فإن الجميع مجبرون على اكتساء القبعة . أما اتخاذ القانون المدني . فقد كان له خطورته لا تصاله بحياة المجتمع التركي الاجتماعية والعائلية والشخصية والاقتصادية . فقد هز الحياة هزاً عنيفاً لقيامه على أسس مغايرة للأسس التي تقوم عليها الحياة الاجتماعية . وقد قضى منهاج حزب الشعب الذي ألفه الغازي عام ١٩٢٧ على أن العلمانية (اللائكية ) هي ركن من أركان مبادىء الحزب ، ثم نص هذا الركن في صلب الدستور . وفي عام ١٩٣٨ حذفت المادة التي كانت تنص على أن الاسلام دين الدولة . وقد فسر معنى « العلمانية » على أن تقوم قوانين الدولة وأنظمتها على أساس ما يقرره العلم والفن ، ويتسق مع أصول الحضارة الحديثة ومقتضياتها . واعتبر « الدين » أمراً وجدانياً خاصاً بالأفراد . وأن فصل الدين عن أمور الدنيا والسياسة أمر أساسي . كما دعا إلى صيانة اللغة القومية أي التركية عن تأثير اللغة والثقافة الأجنبية ( أي اللغة العربية والفكر الاسلامي والثقافة العربية ) .

وقد أشار واصف بك وزير المعارف إلى أن « الاسلام كان عقبة في سبيل اندفاعهم نحو الحياة الجديدة ، وأنهم ساروا شوطاً ابتدأوه لهدم المدنية الاسلامية التي استعبدت وطنهم ، وحالت بينهم وبين ترقيته » .

والاسلام في عبارة الغازي والحكومة التركية ووزير المعارف ليست إلا الصورة التي كانت تعيشها الدولة العثمانية . أما الاسلام نفسه فقد كان بعيداً عن تقدير هؤلاء جميعاً ، ولم يكن هو مصدر الضعف والتخلف . ولو كانوا هم جادين حقاً في خلق نظام اجتماعي إيجابي سليم في إطار الاسلام لما أعوزتهم الوسائل ولوجدوا من المجددين والمصلحين من يحقق لهم إعداد هذا النظام ولكن الكماليين في الحق كانوا قد قرروا قراراً لا رجعة فيه بشجب الاسلام أصلاً ، والدين بصفة عامة كأساس لنظامهم الجديد . واقتنعوا اقتناعاً كاملا بأخذ النظام الغربي . وكانت هذه في تقديرنا تجربة ضرورية بالنسبة للعالم الاسلامي . وذلك حتى تنكشف التجربة عن فهم مدى النجاح والفشل الذي ساورها . ولمعرفة ما إذا كان العالم الاسلامي قادراً فعلاً على الانسلاخ كلية من أنظمته ومفاهيمه . أي من جلده ،

لينصهر انصهاراً كاملاً في المجتمع الأوربي عقلا وروحاً . بعد تغيير أنظمته وقوانينه وأساليب التعليم والتربية والتكوين الاجتماعي .

لقد أمضى مصطفى كمال ( ١٩٢٢ - ١٩٣٧ ) خمسة عشر عاماً كاملة يقود هذا النظام في حماسة خطيرة ، وينتقل به من مرحلة إلى مرحلة ، فهل حقاً تقبلت تركيا المسلمة « الأمة التركية » هذا النظام . أم أنه بقي أسير العاصمة ودوائر الحكم والطبقات العالية التي تدور في فلك الحاكم الديكتاتوري ، وتذعن له ؟ الواقع الذي كشفت عنه التجربة أن ضمير الشعب التركي لم يستجب لهذه الحركة المفتعلة التي خالفت المقومات الأساسية للأمة والقيم الأصيلة لفكرها .

وقد تبين تماماً أن هذا المنهج غير صالح للتطبيق ، وأن طموح النفوذ الغربي في أن يجد من كل بلاد العالم الاسلامي تركيا أخرى قد باء بالخسران . بل إن الدول التي عاصرت حركة مصطفى كمال : كمصر وإيران وأفغانستان قد أخذت التطور والنقل من الغرب بشيء كثير من الحذر . بل أن مستشرقاً بعيد النظر هو : « هاملتون جب » قد قرر في صراحة أن العرب لن يكرروا تجربة تركيا . وأن لهم من عمق إيمانهم بالاسلام ما يعصمهم من الجري وراء هذه الخطوة .

***

ومن الحق أن يقال إن نفوذاً هاماً باسم الدين كان مصدراً من مصادر الضعف والتخلف. ذلك هو عنصر الزوايا والتكايا والطرق والدراويش وما اتصل بها من خطط خلقت جواً من الجبرية .

وكان لها نفوذها في الحياة الاجتماعية ، والحياة السياسية جميعاً ، وهو ما عناه الكماليون بإلغاء الطرق الصوفية وإلغاء وحظر كل أنواع الطرق ومشايخها ومسالك وألقاب الدراويش والمريد والاسناد والسيد والعرافة والسحر والتحكيم وكتابة التعاويذ والأحجبة والتمائم وأعمال كشف الغيب وأخبار المستقبل .

كل هذه الأشياء التي عناها الكماليون بالالغاء ، لم تكن من الاسلام . وإنما دخلت عليه ، وكان الغاؤها عملاً إيجابياً حقاً . وهنا يكون الأمر هو أمر هؤلاء الذين تصدروا وتسموا باسم رجال الدين وليس أمر الدين نفسه . ليس

الاسلام . إذن هو الـذي أخـر تركيا . ولـكن المفـاهيم التـي فرضتهـا مرحلـة الضعف . والمعروف أنه خلال هذه المرحلة غلب نفوذ الدراويش والصوفية على العلماء والقضاة والأئمـة ، وآزروا السلاطـين وحملـوا لواء ترضية الشعـب إلى تصرفاتهم . دون أن يحملوا لواء مناصحة الأمراء والحكام . وبـذلك سيطـرت مفاهيم الجبرية . مما أدى بالدولة إلى الضعف والتخلف . وذلك في نفس الوقت الذي تخلفت فيه الدولة عن ميادين القوة العسكرية ، بينما أخذت نظم الحـرب ووسائل الدفاع تتقدم في الغرب . وقد نشأ عن هذا التخلف الثقافي والانحراف في مفاهيم الفكر الاسلامي موقفاً خطيراً . ذلك أن النفوذ الاستعماري هاجم هذا الاتجاه ونسبه جملة إلى الاسلام في سبيل شجـب مفـاهيم الاسـلام في المجتمـع والسياسة ودحرها وإحلال مفاهيم غربية خالصة محلها . وكان « للدونمة » دخل كبير في الحركة الاصلاحية التركية التي حمل لواءها أدباء تركيا ومصلحوها أمثال : عاكف ونامق ، مما أدى إلى الاتجاه كلية إلى المفاهيم الغربية .

لقد كانت المحاولة أول الأمر تحمل طابع المقاومة للنفـوذ العربـي عن طريق اقتباس بعض الأنظمة الغربية . غـير أن الثقافـة التـي سيطـرت على المدرسـة العسكرية بالذات لم تلبث أن اتجهت بعيداً عن فهم الاسـلام . وبنـت فكرة القومية بمفهومها الغربي ، فكانت نزعة طورانية تحولت إلى نزعة تركية خالصة على يد مصطفى كمال . وبالنسبة لمصطفى كمال بالذات ، فقد كان واحداً من أبناء المدرسة العسكرية التي كانت ثقافتها غربية خالصة . وكان الغازي مقتنعاً بضرورة الاتجاه نحو الغرب والاقتباس منه في التشريع والادارة والثقافة والحياة دون تأثـر بالـدين واعتباراتـه وأحكامـه . ولـم يكن مصطفـى كمال في حياتـه الخاصة ، مستقيم السلوك . فقد عرفت عنه حياة مضطربة صارخة . وعـرف بالسهرات الصاخبة الحافلة بالخمر والقمار . ولذلك فقـد كان مندفعـاً إلى هذا الاتجاه بمزاج نفسي ، بالاضافة إلى الظروف السياسية التي فرضـت عليه توقيع شروط كرزون في معاهدة لوزان .

***

وقد حاول الفرد كانتول سميث الدفاع عن مصطفى كمال ، ووصفه بأنه أراد

أن يتخلص من قيود علماء الدين ، وأنه ظل مسلماً . وكل الوقائع تكذب هذا القول . سواء في حياة المجتمع العامة أو في حياته الخاصة ، وأن في دفعه الفتيات إلى المراقص ، ومخاصرة الرجال ، وتحريضهن على الفسق لا يمكن أن يكون هادفاً إلى التخلص من جمود العلماء ، وليس ما تخلصت منه تركيا هو ( الخرافة والجمود ) على حد تعبير سميث ، وإنما هو التخلص من جوهر الاسلام نفسه ، وليس صحيحاً ما ذهب إليه سميث من أن الأتراك في عهد أتاتورك « لم يكونوا مجرد مقلدين بشكل سطحي . بل مساهمين في هذه المدنية الغربية الحديثة ، وخاصة في إعادة تشكيل بيتهم » . والواقع أنهم لم يتخذوا أسلوباً تطورياً في النهضة . بل نقلوا كل ما في أوربا من فساد المجتمعات ، أو القوانين التي لا تنطبق على البيئات الاسلامية ، ولكنهم لم يستطيعوا تحقيق خطوة واحدة إلى المشاركة في أي عمل حضاري أو علمي أو تكنولوجي يشاركون به الغرب في مجال الحضارة والعلم الحقيقين . فهم لم يصبحوا سادة مصيرهم . بل أصبحوا عبيد تقليد آخر . خلصوا من تقليد إلى تقليد ، وخرجوا من نظام مجتمعهم ، ليس إلى تطور . بل إلى تغيير انقلابي خطير . نعم . كانت هناك خصومة واضحة ، وحقد دفين ، وثمن باهظ في مقابل هذا الاجراء . ويرى لويس ف توماس : أن القومية التركية هي نزعة عاطفية أكثر منها حقيقة علمية ، وأنها ليست في الواقع سوى تقليد للقومية الغربية في كثير من وجوهها .

ويعلق ( عجاج نويهض ) على انتقاض تركيا على الاسلام ، ويربط بينها وبين إيران وأفغانستان ، ويتساءل هل هناك شعوبية على الثقافة الاسلامية ويقول : إن الاصلاحات في تركيا تقع موقع القبول في طهران ، كما تأثر بها أمان الله خان في أفغان . وأن لكل شعب من الشعوب التركية والايرانية والأفغانية مزاجاً من أقوى مقوماته : العناصر المستمدة من طبيعة الاقليم وشكل الحياة العامة ، وأن الثقافة في القرون الاسلامية الثلاثة الأخيرة كانت قد اكتسحتها العوامل العنصرية ، وأضعفت آثار الروح الاسلامية .

ويتساءل هل العوامل العنصرية الآرية والمغولية هي المكونة لمزاج هذه الشعوب . ويجيب بأن هذا غير صحيح . لأن الثقافة الاسلامية موجودة وحوداً

حقيقياً في كل هذه الشعوب . لأن الروح الاسلامية التي غمرت قلوب الأمم الاسلامية منذ ثلاثة عشر قرناً لم تزل إلى اليوم روحاً أصيلة بأوسع المعاني مهما قيل من ان الاسلام لم يتغلب على الروح العنصرية في كل من هذه الأمم . ومهما قيل ان هذه الأمم ذات خصائص نفسية يختلف بعضها عن بعض . ومهما قيل من ان الفرس منحدرون من الأصل الآري ، والترك من الأصل المغولي . فإن أوربا على اختلاف عناصرها ولغاتها لا تزال مستظلة بظل ثقافة واحدة هي الثقافة المسيحية .

ويقول : إن العراك الواقع ( إذ ذاك ) بين السلطات والقوة العسكرية في أنقرة وطهران وكابل ، إنما هو عراك بين أفراد قلائل يريدون انتزاع شيء من قرارة نفسية الأمة . أي من النواميس الاجتماعية التي لا تحارب ولا تعاند ولا تحول قهراً . وان هذه المحاولة تهدف إلى خلق روح المباعدة عن أصول الثقافة الاسلامية والانفصال عن العرب فكرياً . ويصل الكاتب إلى القول بأن برنامج « أنقرة ـ طهران ـ كابل » هو برنامج التقصي عن الثقافة العربية الاسلامية . فهم يودون إحياء نفسية جديدة في الأمة بانتزاع نفسيتها الراهنة ـ ا هـ .

***

ومن حق أن مصطفى كمال كان واحداً من جيل استطاع النفوذ الغربي تكوينه في العالم الاسلامي فحمل لواء الدعوة إلى التماس طوالعه ومناهجه ، وحاول أن يتخلص من نفوذ أوربا السياسي بالخضوع لنفوذها الثقافي والاجتماعي . ولسنا نستطيع أن نجحد ما قام به أتاتورك في سبيل تحرير بلاده من اليونان ، ولكن من الحق أن يقال إنه لم يستطع تحريرها من العبودية للنفوذ الأجنبي ، فقد أصبحت به تركيا تابعة تبعية كاملة لأوربا ، كأنما هي ربيبتها . وقد كادت بذلك أن تفقد كيانها الذاتي كأمة مسلمة لها طبيعتها التي لا تستطيع أن تفصل بين الدين والمجتمع .

وقد بلغ الأمر بمصطفى كمال في اتجاهه هذا أن يقول : ليس لتركيا الجديدة علاقة بالدين . أو يقال عنه في الصحف المصرية التي كانت تبتهج بتعصر يحاته مثل جريدة السياسة : انه ـ أي مصطفى كمال ـ ألقى القرآن ذات يوم من يده وقال :

إن ارتقاء الشعوب لا يصلح أن يتقيد بقواعد وقوانين سنت في العصور الغابرة ، أو ينقل عنه قوله « إن حكومة الجمهورية أرادت أن يكون محو النفوذ الديني من الشؤون العامة كاملاً » . ويمكن أن يقارن هذا بموقف مصطفى كمال في أول الحرب الأناضولية عندما أمسك بالقرآن وحرض الناس على الجهاد في سبيل إقراره .

وقد هلل الغرب لخطوات مصطفى كمال وأيدها وألفت عنه عشرات الكتب ، بل مئاتها تمجد جرأته ، وخطواته القوية في سبيل القضاء على الاسلام حتى لتقول جريدة الطان ( نقلا ) عن السياسة الأسبوعية في ١٥/ ١/ ١٩٢٧ .

« لقد نبذت تركيا الاسلام كنظام وكأساس للسياسة والعدالة ، ونظم التربية . ذلك لأن الاسلام الجمهوري - إذا أمكن وصف الاسلام كذلك - لم يبق بعد مذهب الدولة العثمانية . فقد حل محل الدين القديم . إن أول أثر للثورة الكمالية في الدين هو حمل الناس على كسر أصفاد هذه الضلالات والأساطير . لقد اختفت الصلوات من المعاهد العامة ، وقلما تغص المساجد اليوم إلا أيام الأعياد ، أو في رمضان ، وقد طلبت بعض الصحف أن توضع في المساجد مقاعد كما هو الشأن في غيرها من المعابد المحدثة . وانتقد بعضها عدم وجود موسيقى دينية تحل محل قراءة القرآن والأذان . إن الاسلام الجمهوري ليس إلا تقليداً ظاهراً للعقلية والمناهج الأوربية .

***

والحق أن مصطفى كمال قد بلغ أقصى الشوط في مواجهة الماضي . واتخذ اتجاهاً معاكساً ومضاداً تماماً لمفهوم الاسلام نفسه . ولو كان قد توقف عند مهاجمة الدولة العثمانية ، أو الخطأ الذي ارتكبه الخلفاء في فهم الاسلام . لكان من حقه ذلك . ولكنه انتقض لاعلى الخلافة أو الدولة العثمانية . بل على الاسلام نفسه . فندد رجاله بالقرآن ، وسفهوا القيم الأساسية للاسلام ، وفي مقدمتها : الرابطة الجذرية بين الاسلام والمجتمع . أو الدين والدولة . وقد وجد النفوذ الأوربي في هذه الحركة قوة له ، وتجربة وضعها أمام مختلف دول العالم الاسلامي ظناً منه أن كل هذه الدول ستجري في نفس الشوط ، ولكن هذه التجربة نفسها كانت عاملا

هاماً في شجب هذا الاتجاه أساساً ، ولم تلبث أن كشفت . بل لقد كشفت في حياة أتاتورك نفسه ـ عن فشلها ، لولا أساليب القمع الشديدة والاعدام بالجملة ، والنفوذ الدكتاتوري المؤيد بالقوانين العسكرية . ولم نكد تمضي سنوات قليلة حتى حطم الأتراك تماثيله في كل مكان ، وهاجموا اتجاهه ، وانبعث الاسلام من قلب تركيا ، واضطرت الحكومة والأحزاب إلى الاعتراف بالدين ، وبالأحرى بالاسلام كقوة أساسية لها قيمتها ومكانها وفاعليتها في المجتمع التركي المسلم .

# - ٣ -
# التحول

هل صمدت تجربة مصطفى كمال للبقاء وهل استطاعت أن تدمر الاسلام في أعماق الأمة التركية والعالم الاسلامي ؟

من حق ان يقال أن الغازي ظل ساهراً على تجربته خمسة عشر عاماً بقوة السلطة وسلاح الدكتاتور العسكري المستبد ، غير أن نتائج التجربة في حركة مضادة لم تنتظر هذه الفترة لتكشف عن نفسها - بل انها حاولت ذلك مرات متعددة في حياة الغازي وحكمه ، وهي تعرف مدى الخطر الـذي يواجههـا أو النتائـج المترتبـة عليها ، ولكنها كان لا بد أن تعبر عن مقاومتها للنظام الذي فرض واقعـاً ضد طبيعة الأشياء مخالفاً لمختلف القيم التاريخية والأوضاع الاجتماعية . كان لا بد لهذا النظام الذي لا يقوم على الجذور أو التطور الطبيعي أن يواجه انتفاضاً عليه مرة ومرة . ومنذ اليوم الأول وإلى اليوم الأخير فإن الاجراءات التي حاول مصطفى كمال فرضها لم تجد تقبلا صحيحاً من الشعب التركي ، ولم تجد صدى طيباً في العالم الاسلامي ، بل قوبلت هذه الاجراءات بالانتقاد الشديد والاستياء المزمن بأغلب الزمر والجماعات في تركيا[١] .

وقبل مرور عام على إلغاء الخلافة وقعت الثورة الكردية ( شباط ١٩٢٥ ) مطالبة بإعادة الاسلام ، يقول كرافشوفسكي : ( اتهم النقاد مصطفـى كمال بأنـه كان ثملا بخمرة الحكم ، ونددوا بالأوبـاش الحقـيرين الـذين أحـاط بهـم نفسـه ، واستنكروا حلقات السكر التي كانت تعقد في منزله الكائن في خفايا من أرباض أنقرة ، كما طالبوا بالحد من سلطته . وقد عمد إلى القضـاء على المعارضـة ، فأعلنت وزارته في صيف ١٩٢٦ اكتشاف مؤامرة لاغتياله ، وبادرت إلى اعتقال عدد لا يستهان به من شبان الأتراك السياسيين ومؤيدي السلطان المخلوع وبعض

---

١ - الشرق الاوسط ( . . كراتشفسكي )

المارقين من حزب مصطفى كمال نفسه وحكم على ١٨ من الذين اعتقلوا بالاعدام وفرضت عقوبة النفي على الجنرال كاظم قرة بكير ( وهو الرجل الذي كان له الدور الفعلي في انتصار تركيا في معركة سقاريا مع اليونان ) . . وسحق مصطفى كمال المعارضة وأصبح وحزبه سادة البلاد بلا منازع .

ولم تتوقف المعارضة ، وظهرت حركات أخرى تعلن رفض الشعب التركي لنظام مصطفى كمال وإجراءاته ، وكانت هذه المعارضة تقابل بالقمع العنيف ، وفي عام ١٩٣٢ قضى على مجموعة كبرى بلغت أكثر من ١٥٠ من أعلام الفكر ورجال الدولة في تركيا بالاعدام بحجة مقاومة الثورة الكمالية . وكان الغازي قد ظن أنه ثبت دعائم حركته فسمح بإنشاء حزب جديد ، فلم يلبث هذا الحزب أن ضم كل خصوم النظام القائم ، وبدأت معارضة واضحة لآرائه واتجاهاته حمل لواءها حزب النقشبندية وأدت إلى صدام مسلح دفعه إلى إعادة ضم قبضته مرة أخرى .

ولم يقف أمام الغازي رجال الصوفية أو علماء الاسلام وحدهم . بل كشف المثقفون أيضاً عن موقفهم وعلى رأسهم دكتور فؤاد كوبرلي زاده مدير جامعة القسطنطينية الذي كتب في جريدة ( حيات ) التركية عام ١٩٢٨ وكان ذلك على أثر توغل حركات التبشير في المدن التركية . قال : ليس معنى حادث مدينة بروصة الخاص بانسلاخ الفتيات التركيات الأربع عن الجامعة الاسلامية والتحاقهن بالجامعة النصرانية بتأثير الدعاية النصرانية التي تقوم بها المدارس الأمريكية في بلادنا وحدها . ولكن الذي أعان على تنصيرهن عامل آخر عظيم الخطر ، وإن كان خطره غير ظاهر للأبصار هو انحلال رابطتنا القومية منذ حين ، وبلوغنا في ذلك إلى غاية أصبحت في حكم الواقع ، ان من مظاهر انحلال قوميتنا سواء اعتقادنا بثقافتنا ، والدعاية التي نقوم بها للانسلاخ منها ، والتنازل عنها ، لنذوب في ثقافة الغرب متجردين من شخصيتنا القومية وتقاليدنا الأهلية . ومن المؤسف أن القائلين بتقمص الشخصية الافرنجية يدعون إلى ذلك باسم القومية ويلبسون لباسها المزيف . إن تركيا تعاني الآن أزمة يصح أن نسميها ( أزمة الثقافة ) إن اختلال التوازن بين ما نحن في حاجة إليه من التجديد ، وبين ما

يدعونا إليه المجددون من نظريات فكرية ، قد نشأ عنه مرض في التجديد . ومن أعراض هذا المرض تهافت أنصار التفرنج على الدعوة إلى التجديد الظاهري في الأشكال والانخداع بالتغيير المقصور على القشور ، ومن أبرع مظاهر هذا الانخداع بالظواهر ما يحاوله القائمون بالدعوة إلى ترك الكتابة بالحروف العربية والاستعاضة عنها بالحروف اللاتينية ، إننا ننسلخ الآن من المدنية الاسلامية لنذوب في المدنية الأوربية ، فنواجه بهذا العمل خطراً عظيماً . وأظهر سجية نشاهدها في أدعياء التجديد استخفافهم بثقافتهم القومية ، وإنكارهم ماضي أمتهم ، وقيامهم بالدعاية لثقافة أجنبية عنا . من شأنها أن تجعلنا في حكم الأمم المغلوبة على أمرها الخاضعة لأنظمة الاستعمار ، بينما الأمة التي تريد أن تكون أمة عصرية حقاً تحتفظ قبل كل شيء بثقافتها وكيانها ليكون لها بين الأمم شخصية قوية ، فعلى أمتنا أن تربأ بنفسها أن تذوب في المدنية الأوربية . إننا لم نأخذ من حضارة أوربا إلا القشور بل أخذنا القشور المخدرة التي انسلخنا بها من سجايانا وخصائصنا ، فنحن على خطر أن نذوب في الافرنج ، فنصبح أمة ممسوخة كهذه الأمم التي أصيبت بمرض الاستعمار ، وسنفقد شخصيتنا القومية ، ثم لا نظفر من حضارة أوربا إلا بسفاسفها » . اهـ .

وقد وجدت هذه المعارضة الوسيلة إلى إزالتها بالقمع ومواصلة الدعوة إلى « الأمجاد » التي حققتها حركة الغازي .

***

وقد رافقت هذا الموقف مؤازرة كاملة من الصحف الغربية ، وتأييد شامل لاجراءات مصطفى كمال ، وكان ذلك طبيعياً من ناحيتين ، من ناحية تأييد هذه الخطة لما كان لنجاحها من أثر بعيد في تركيز ودعم النفوذ الأجنبي ، والتغريب في العالم الاسلامي والبلاد العربية بحسبان أن كبرى دول الاسلام ومعقل الخلافة والباب العالي ، ودار السعادة التي كانت متّجه المسلمين ومصدر التوجيه لهم سياسياً واجتماعياً طوال القرون الماضية ، هي نفسها اليوم التي تحاول أن تقود حركة التغريب . وكانت الصحف المصرية التي تتصل بحركة التغريب وفي مقدمتها الأهرام والسياسة والمقطم تؤازر الحركة ، وتحاول أن تفسر للناس هذه

الاجراءات على أنها ليست هجوماً على الدين ، ولكن تنحية له عن التفاعل في المجتمع : تقول السياسة ٣/ ١/ ١٩٢٦ : « إن الجنوح عن المعتقدات والتقاليد القديمة هي أهم ما يميز الثورة الاجتماعية التركية ، والصبغة المدنية الحرة من كل أثر للدين ، هي أهم ما يقصد به قادة الاصلاح في أنقرة ، هم لا يريدون أن يمسوا الدين في شيء ، غير أنهم يريدون أن يحرروا نظم الحياة الاجتماعية من المؤثرات الدينية » . وكان التباهي عظيماً بأنه « لأول مرة تعدل دولة إسلامية عن تطبيق الشريعة الاسلامية في مسائل الزواج والميراث ، فتقضي بإلغاء تعدد الزوجات وبالتسوية في الميراث بين الذكر والأنثى واعتبار الزواج عقداً مدنياً محضاً » وترى جريدة الطان الفرنسية ٢٣/ ٣/ ١٩٢٦ أن إنساناً لم يجرؤ حتى يومنا هذا أن يناقش الشريعة في مسألة : زواج مسلمة من غير مسلم . وهي حين تؤيد ما جاء بالقانون التركي الجديد ، من أنه يجيز زواج مسلمة من غير مسلم ، لا تلبث أن ترى مدى الأثر العكسي ، لذلك في محيط الأمة التركية والعالم الاسلامي كله فتقول « لا ريب أن أخلاق البلاد لا تجيزه حتى اليوم . ذلك لأنه برغم الجمهورية ومبتدعاتها ما زالت سريرة المسلم تأبى فكرة تمتع كافر بابنته او بأخته ، والظاهر أن سواد الأمة التركية ما زال متشدداً في تلك المسألة . فإذا كان التشريع الجديد بالنسبة للزواج المختلط خروجاً تاماً على الماضي . فإن هذا التغيير لا يشمل سوى النص ، ولا يصل إلى القلوب . ولا ريب أن القانون الأخلاقي لأمة من الأمم يؤثر في مصائرها بأشد مما يؤثر القانون الشرعي .

وهكذا منحت تركيا العالم الاسلامي تجربة مفتوحة لتطبيق القانون الأوربي الغربي وإحلاله محل الشريعة الاسلامية ، وأتاحت فرصة الكشف عن النتائج المترتبة على ذلك ، والذي تؤكده كل المصادر والأبحاث أن قوانين الغازي لم تكن في الحقيقة إلا حبراً على ورق ، وأنها لم تفعل أكثر مما يفعله صاحب السلطان القوي في محاولة رسم صورة غير منبثقة من أعماق الايمان الأصيل .

***

وقد وجدت الحركة التركية تأييداً من بعض الصحف في مصر ـ إذ ذاك ـ ولكنه تأييد معروف المصدر ، فالصحف في هذه الفترة كانت أجيرة لأكثر من نفوذ

ولكن كلمة حق كانت تتردد أحيانا ، فتكشف الحقائق كاملة ، فإذا جاءت من كاتب أتيح له أن يسافر إلى تركيا ، وأن يؤيد خطواتها فإن الأمر يكون جديراً بالاعتبار ، ويكشف الأستاذ محمد عبد الله عنان عام ١٩٢٨ ( أي في معمعان الحركة ) كيف صكت المعارضة الشديدة سمع الحركة التي قام بها الغازي فيقول : تناول الانقلاب أسس المجتمع القديم كله ( سياسية واجتماعية وروحية واقتصادية ) وظهرت بوادر المعارضة مع ذلك . ولم يتسع صدر الجمهورية التركية لصوت يرتفع بالنقد والمحاسبة ، وسرعان ما لجأت إلى التشريع الاستثنائي ، وقامت محكمة الاستقلال بحجة المحافظة على سلامة الجمهورية . وانتشرت أحكام الموت والأشغال الشاقة والسجن المؤبد هنا وهنالك حينما ظهرت بوادر المعارضة ، على أن إخماد هذه المعارضة في المهد ، لا يعني بأن هذه المعارضة ليست توجد اليوم في تركيا ، فهي قائمة ولكن في خفاء وصمت ، والرأي العام التركي لا يقبل دائما كل المشاريع الجديدة بنفس التأييد والحماسة ، وقد تناولت حكومة أنقرة بالمحو والتغيير كثيراً من الشؤون الدينية ، دعك من الفصل بين الدين والدولة ، وإلغاء الشريعة ، وإلغاء ما يتعلق بدين الدولة من دستور الجمهورية ، ولكن حكومة أنقرة أرادت أن تقوم بنبوة جديدة ، وأن تخلق من شعائر الأسلام خلقا جديداً ، فعهدت إلى لجنة من العلماء ، مما وصف بأنه اجتراء على شعائر الاسلام ، وقد أنكر الرأي العام آراء لجنة تريد أن تلغي فروض الصلاة ، فيؤدي المسلمون صلواتهم ، كما يؤدي النصارى قدسهم بغير الركوع والسجود ، وتغدو المساجد كنائس لا أقل ، فلما حدثت الضجة تراجعت الحكومة وحاولت إخماد الضجة ، ربما كانت خطوة أولى وتمهيداً لدعوة تشهر ضد الإسلام وتعاليمه وما زالت السيادة المطلقة تستند إلى القوة القاهرة . فالقوة هي عماد الثورة التركية ، بل إن قواعد النظم التركية الجديدة ذاتها ، والأساليب التي اختيرت لتنفيذ هذه النظم يجعل من الصعب علينا أن نجد لها مكانا بين النظم البرلمانية . بل النظم الحرة على الاطلاق ، حيث تمزج السلطات الثلاث : التشريعية والتنفيذية والقضائية في الجمعية الوطنية التي تقوم على قواعد غير تلك التي تأخذ بها كل البلاد الدستورية ، تتولى بيدها فوق سلطة التشريع سلطة التنفيذ ، فتختار الوزراء وتعينهم ، ومنها وإليها يرجع القضاء ، فتنشىء محاكم

الاستقلال متى أرادت ، وينتخب رئيس الجمهورية ، حزب واحد ، هو حزب الشعب أو حزب الغازي ، وهو كل شيء في الجمعية ، وخارج الجمعية يدفع رجاله إلى جميع كراسي الجمعية ، ولا يسمح لسواهم بدخولها ، ويلجأ لذلك إلى كل الوسائل .

ولم يكن نظام أنقرة إلا دكتاتورية عسكرية مقنعة تعمل باسم الشعب التركي ، وقد استطاع دعاة التجديد أن يسبغوا على المجتمع التركي العتيق كل مظاهر المجتمعات الغربية : ثورة الثياب ، وتعلم الرقص وكتابة الحروف اللاتينية ، وما يستطيع التشريع العنيف أن ينتزع في بضعة الأعوام طبائع كونتها ورعتها القرون ، والتاريخ يعلمنا أن للشعوب خواص جنسية وأخلاقية لا يمكن محوها بضربة واحدة ، ولا يغيرها سوى تطور الأجيال . لقد ظهر الشعب التركي في مهاد العقلية والتقاليد الشرقية ، وخرج من أقفاص القفار الآسيوية مزوداً بخواص الجنس الآسيوي ، أو بالأحرى المغولي ، وانفق الشعب التركي عصور المجد والانحلال كلها شعباً تركيا متمسكا بخواصه وتقاليده ، ولم يندمج في المجتمع الغربي رغم أنه نفذ إلى أوربا واستقر في شرقها عصوراً . فهل يستطيع سادة انقرة أن ينزعوا بتشريع الأشهر ذاك الثوب الخالد ؟ اهـ .

وقد تنبه الدكتور هيكل في أغسطس ١٩١٧ إلى مفهوم الانقلاب القائم بالحكم العسكري الصارم ، وليس بإرادة أهله ولا باقتناعهم فقال : إن أمراً يلفت النظر في هذه النهضة التركية ، ويدفع إلى التساؤل عن مبلغ ثباتها ، وعدم تعرضها لرد فعل يعود بتركيا إلى ما كانت . ذلك أن هذه النهضة تبدو وكأنها ليست أثراً محتوما لتطور طبيعي ، وأنها مصنوعة على يد مصطفى كمال وأصحابه الذين فرضوها على تركيا عن طريق التشريع وألزموها الأخذ بها بقوة القانون ، وبما وراء القانون من الجندي وسيفه ومدفعه . فإذا حدث لسبب من الأسباب أن جاءت حكومة غير هذه الحكومة ، وألغت هذه القوانين ، ابتهج الناس أيما ابتهاج بالعودة إلى سيرتهم الأولى . « ولم يجد هذا الإصلاح من يؤيده وينصره » .

ولسبب بسيط يجهل الدكتور هيكل أن الذين أقاموا هذه الحركة سوف يحمونها طويلاً حتى تؤكد الغاية التي ذهبوا إليها ، والتي ستظل ضرورة لبقاء نفوذهم في

العالم الإسلامي .

وقد ذهب حكام أنقرة إلى القضاء على مختلف صور الإسلام في البلاد ، بل انهم أسلموا جامع أيا صوفيا إلى بعض المهندسين الأجانب لإعادته إلى صورته الأولى ، فأزالوا ما فيه من آيات قرآنية وأحاديث ، وكشفوا عما ستره المسلمون من صور القديسين والملائكة والصلبان ونحوها من نقوش المسيحية ، ولم يكن ذلك في نظر كثير من الباحثين والمعلقين « إلا إنقاذاً للمنهاج الذي وضعوه ، وأنهم إنما فعلوا ذلك تقربا إلى أوربا النصرانية التي التزموا محاكاتها في كل شيء » .

وكانت هذه الأعمال تدفع إلى مزيد من حركات المعارضة والانفجارات التي كانت تقمع بشدة ولكنها لم تكن تنتهي حتى كانت تعود مرة ثانية إلى الاختفاء في أعماق الأمة منتظرة فرصة أخرى لتعلن عن نفسها .

وقد جرت في العالم العربي تساؤلات كثيرة في ظل الدعاية التي بثها أولياء النفوذ الغربي ودعاة التغريب حول ما إذا كان على البلاد العربية ومصر بالذات أن تقتفي أثر تركيا . وكان الرأي العام الاسلامي قد بدأ يتطلع إلى مصر بعد أحداث تركيا بحسبانها قلب العالم الإسلامي ، وليتخذ منها « مركزاً لحركة الجامعة الثقافية الإسلامية العامة » كما كان يطلق عليها حيث « لم يزل العالم العربي الأسيوي الإفريقي من أعالي الموصل إلى غربي مراكش ينظر إلى مصر نظرة المهتدي المسترشد ، ويهتم بها ويعطف بكل جوارحه على نهضتها السياسية ، ويقرأ ثمرات مطابعها وصحفها . كل هذا اعتقاداً أن مصر هي أحسن معقل للاسلام ، وأحرز حرز للشرع الحنيف » . وقد تناول في الاجابة عن هذا التساؤ ل عدد كبير من المفكرين العرب في مصر وسوريا وتونس . أما الدكتور عبد الرحمن شهبندر فيقول : إن الأمة الحية هي كالشجرة الناضرة لها جذور في الأرض من تراث الآباء والجدود ، ونحن مهما كرهنا الجمود وسئمنا التعفن والركود . فلا نريد بوجه من الوجوه أن نجاري القومندة العسكرية في تركيا ، فنقطع هذه الجذور ، ونعرض الشجرة كلها لليبوسة والذبول ، وإنا مع أنصار الإصلاح الاجتماعي والتجديد الصحيح على أنواعه ، ولكنا من أعداء قطع الاتصال بالماضي فنحن أبناء السلف ، وآباء الخلف ، وأصولنا ثابتة في الأرض ،

وفروعنا باسقة في السماء . ويرى فريد وجدي « أن محاولة الاقتداء بالأمم لا تنتج أثرا محموداً . لأن كل ما في الأمم هو : ثمرات نفسياتها فإذا انساق المجتمع الطالب للاقتداء في مظهر من مظاهرها . وأراد تحقيقه أعوزته العوامل . ويرى الأمير مصطفى الشهابي أنه من حيث الدين ، فقد غلا الترك فخلقوا قومية لا دينية ، ومنعوا تدريس العلوم في المدارس الرسمية ، وتتبعوا خُطَا البلاشفة تقريباً . ومن البديهي أن الشرق العربي لا يمكنه أن يسير في هذا الطريق . لأن القومية العربية والدين الإسلامي يمشيان جنبا إلى جنب ، ولو اقتصرت أعمال الترك في هذا الباب على إصلاح بعض التكايا والزوايا والفرق الدينية لكان في تلك الأعمال نفع لا ينكره العقلاء . أما الكفر والزندقة والمناداة في المجالس الخاصة بعبادة الذئب ، فجهالات يأسف لها عدد كبير من الترك أنفسهم » ووصف عبد العزيز الثعالبي الحركة الكمالية بأنها « ليست نهضة شعبية بالمعنى الصحيح يمكن أن تستهوي أخيلة النقاد الاجتماعيين وتستغرق مقاييس الفقهاء المشرعين . بل هي نزوة ديكتاتورية في أزمة مستقلة أنهكتها أنواع الحروب الداخلية والخارجية » .

***

هذا وقد صدقت توقعات الباحثين جميعا الذين أجمعوا على أن هذه الحركة هي من صنع رجل واحد ، وأنها تشق طريقها ضد التيار ، وأنها لم تلبث ان تسقط بسقوطه ، ذلك أنه ما كاد الغازي يصاب بانفجار في المخ ويختفي من الواجهة عام ١٩٣٩ حتى أخذت السفينة تتحول تدريجيا عن مجراها المنحرف وتتجه شطر الاسلام بتأثير مبادئه الراسخ في قلوب الشعب . وتوالت منذ ذلك الوقت حركات التراجع عن الخطوات العصبية التي ضاقت بها ، وإذا كانت هذه الحركة قد أمضت ربع قرن ، ثم لم تجد لها إحساسا بالأصالة أو الاستقرار . فإن ذلك يعني بحق أنها لم تكن أصيلة المجرى ، ولا متجهة إلى الطريق الصحيح .

وقد زار محمد التابعي تركيا عام ١٩٤٦ بعد وفاة الغازي بسبع سنوات ، فلم يجد عبارة يصف بها المجتمع التركي الذي خلفته حركة مصطفى كمال أبلغ من هذه العبارة : « تركيا تعاني آلام المخاض » . يقول : « ما زالت تركيا وبعد ربع

قرن من حكمها الجديد تعاني آلام المخاض ، لأنها لم تلد بعد مولودها الجديد الذي مناها به ، أو منى نفسه به باعث نهضتها أتاتورك « مصطفى كمال » . لقد ألغى أتاتورك بجرة قلم السلطنة ومن بعدها الخلافة ، وفي فجر أحد أيام ١٩٢٤ تسلل آخر خلفاء آل عثمان عبد المجيد من قصر ضولمة بغجة على ضفاف البسفور ، ومن ورائه أحد الأغوات المخلصين يحمل في يده حقيبة متوسطة الحجم ، وتوالت بعدها قوانين وأوامر الغازي أتاتورك » .

والتاريخ وحده هو الذي سيحكم . هل أصاب أتاتورك أو أخطأ في تقدير الحساب ، ألغيت الخلافة ثم فرق بين الدين والدولة ، ثم حورب أو على الأقل - نوهض الدين الإسلامي ، فألغت الحكومة الأوقاف الخيرية وصادرت أملاكها وأموالها وأموال صناديق النذور وأضرحة أولياء الله ، ثم جعلت الزواج عقداً مدنيا صرفا لافضل للدين فيه ، ولا للمأذون ، وجاز بعدها للتركية المسلمة أن تتزوج برجل من أي دين من الأديان ، وأصدر أتاتورك منشوراً أهاب فيه بنساء تركيا أن يخلعن الحجاب ، وأن يسفرن لدى العالم وجوههن ، وأسفرت نساء تركيا .

واتجهت تركيا إلى أوروبا ، وسنت من القوانين والنظم ما يكفل جعل تركيا الحديثة قطعة من أوربا لا جغرافيا فقط . بل معنويا ونفسانيا ، فاستبدلت الحروف التركية الأصل بالحروف اللاتينية ، وحورب كل شيء عربي شرقي ، أو من أصل عربي شرقي ، ووضعت مكان بك وباشا ( مسيو ومستر ) إلى هذا الحد في الاغراق في الأوروبية أو بالأحرى على سنة الغرب ، سار الأتراك ، والآن بعد نحو ربع قرن يتساءل الباحث :

هل المرأة التركية سافرة أم محجبة ؟ لا هذا ولا ذاك .

أما في المدن فالمرأة سافرة ، أما في الأناضول ، في القرى ، في سفوح الجبال وبطون الأودية فلا تزال كما كانت على عهد السلاطين ، ويحيط برأسها ووجهها قناع من الشاش الأبيض أو الأسود ، هل تركيا اليوم مسلمة أو مسيحية أو ملحدة ؟ لا هذا ولا ذاك . وتستطيع أن تقول إن شباب اليوم في تركيا لا دين له . أما شيوخه وفلاحوه فما زالوا مسلمين .

« واللغة والكتب والصحف تطبع بالحروف اللاتينية والمدارس تدرس بالحروف اللاتينية . بعد أن نبشت الكلمات التركية القديمة لتحل محل الكلمات العربية الدخيلة، أما تركيا المدنية فهل هي ديمقراطية أو أوتوقراطية أو ديكتاتورية ؟ لا هذا ولا ذاك . ثم إن هناك معارضة أخذت تنمو وتشتد نلمس الآن في تركيا تبرماً ، ولعله نفساني معنوي أكثر منه ماديا ، والسبب عدم الاتساق وعدم الانسجام بين الماضي والحاضر ، وبين القديم والجديد ، فتركيا بعد أربع وعشرين عاماً لا تزال تعاني آلام المخاض لأنها لم تضع بعد مولودها الجديد » .

ولم تلبث أن توالت نذر التحول ففي عام ١٩٥٠ تزعم التيجانيون حملة ضخمة ضد أتاتورك وأعماله ، وحطموا تماثيل « منشيء تركيا الحديثة » ووزعت نشرات تحض على معارضة سياسة أتاتورك ومخاصمة كثير من المبادىء التي يعتنقها رجال الحكم في تركيا. ثم تطورت الحوادث، وعرف المراقبون أن شدة تدين الشعب التركي ما زالت ذات فاعلية، وأن جماعة التيجانية ـ بعد جماعة النقشبندية ـ التي تولت قيادة الحركة هي : فرع من الطريقة الإسلامية الكبرى التي تنتظم أغلب العالم الإسلامي وعلى الأخص الجزائر .

وقد حاولت الدولة التركية أن تتمحل الأسباب لهذه الحركة المضادة ، ولكنها غفلت عن المصدر الأساسي لها . وقد علق عباس محمود العقاد على هذا التحول فقال : إنه يرجع إلى سبب أعمق من جميع الأسباب ، فهو مظهر من مظاهر الاحتجاج على حركة الفرنجة والاستغراب الني فرضها مصطفى كمال فرضا على الأمة التركية ، فالإجماع على هذه الحركة كامن في الوعي الباطن من أعماق الأمة التركية ، وقد اقترن ظهور التفرنج والاستغراب بظهور الحركة الطورانية في وقت واحد ، ولعل تفسير الحركة الطورانية بالاتجاه إلى الغرب ، هو أعجب تفسير عهده الناس لحركات الشعوب في العصر الحاضر ، وعير قليل منها مدسوس على الحركة عن قصد وتدبير ، وكانت مدينة سالونك كعبة الدعوة الطورانية ، أو كعبة المدرسة الفلسفية التي تبشر بها وتلتمس لها الذرائع في العلم واللغة ، وفي سالونيك يقيم ( جوب الب ) فيلسوف الحركة ، وسالونيك مدينة تغلب عليها الصهيونية ، واتباع شتياي زيفي الذين دخلوا في دين الإسلام وبقوا في عزلتهم

الدينية باسم الدونمة ليعملوا في البيئة التركية . وقال العقاد : « إن اتباع الطريقة التيجانية جادّون في إعادة الصبغة الإسلامية إلى الحكومة ، وإنهم ينقضون آثار مصطفى كمال فيحطمونها ، ومنها تماثيله في الميادين ، وانهم دخلوا ساحة المجلس الملي الكبير ، وأذنوا للصلاة باللغة العربية . وقالوا إن هزيمة حزب ( مصطفى كمال - عصمت إينونو ) ترجع إلى جهود هذه الجماعة وتضافر دعاتها على التشهير بذلك الحزب .

* * *

وليس كتّاب المسلمين والعرب في مختلف أقطارهم ، هم الذين عارضوا حركة الغازي فحسب ، ولكن المراقبين الغربيين المنصفين كانوا على ذلك الرأي . وفي مقدمتهم : فرنان ويليه الذي يرى « أن النفوس لم تكن مستعدة لمثل هذا الانقلاب الشامل ، لذلك كان مصطفى كمال كي يتمكن من فرض مشروعاته الإصلاحية مضطرا لأن يمارس حكماً ديكتاتوريا ثوريا حقيقيا طوال حياته ، وكان حزب واحد هو الحزب الجمهوري مسيطراً على الجمعية الوطنية ، وكانت السلطة التنفيذية تطغى على التشريعية ، وإذا نظرنا إلى مثل هذا النظام من الناحية الأخلاقية نجده مشوباً بلطخات مثل محاكمة الديمقراطيين والقمع الوحشي لثورة الأتراك » .

ويتساءل : هل خضع الديمقراطيون لحكم غابت فيه الحرية ، على الرغم من المحاكمات التي لفظت عام ١٩٢٦ أحكاماً بالإعدام والابعاد لعشر سنوات ؟

وقد كانت معارضة المفكرين المسلمين والعرب منصبة على أن الحركة التي قادها الغازي لم تكن هادفة إلى الثورة على مشايخ الطرق وحدهم ، ولو فعلت لما أنكر عليها أحد - على حد تعبير السيد : محب الدين الخطيب ، ولكنها كانت ثائرة على « العقيدة » نفسها ، تريد أن تقتلعها من الأمة التركية تدريجيا ، وكل حركاتها وسكناتها ترمي إلى ذلك . ومن الحق أن نقول : إن التغيير الذي أدخلته القوة في أوضاع تركية ، وهدمت به ركنا من الإسلام ، ليس فيه أدنى ضرورة ، ولا يقاس بما أجازه الأوربيون تحت قاسر الضرورة والواقع أن أوربا لها أن تستن من القوانين ما تشاء ، وهي بهذه القوانين لا تكون مخالفة للإنجيل ، لأنه لا يضم

شيئا من أمور المعاملات المدنية ، هذا بخلاف القرآن الذي شرع الدين والدنيا معاً . فلا يقاس أحدهما بالآخر .

وليس ما أخذت به تركيا جديداً . فإن القوانين الأوربية وفي مقدمتها القانون السويسري الذي أخذت به تركيا مأخوذ من القانون الروماني ، ومن الاصطلاحات التي أقرتها الكنيسة وكلها قديم في قديم ، وهذا هو وجه الخلاف . وهذ هو ما يرضي أوربا ويجعلها تقف موقف الدفاع والتأييد لحركة الغازي .

وبعد : فإن الروح الإسلامية تجددت مرة أخرى في تركيا ، وانتقل الزمام ١٩٥٠ من يد حزب مصطفى كمال ، وسمحت السلطات الجديدة للمسلمين الأتراك بالأذان باللغة العربية ، واستعمال اللغة العربية قراءة وكتابة .

ويحق تساؤل المؤرخ « توينبي » الذي شك منذ اللحظة الأولى في جدوى حركة الغازي حين قال : « علينا أن نسأل أنفسنا ما سيكون مآل إدخال هذا المثل السياسي الغربي ذي العاطفة الضيقة في عالم إسلامي تقضي تقاليده السالفة باعتبار كل المسلمين أخوة بسبب دينهم المشترك رغم مرونة العصر واللغة والمنبت ؟ » .

وقد اتسعت فعلا تلك الحرية التي تعمل على مقاومة روح التغريب السائدة في تركيا ، والعود إلى تعاليم الإسلام . ذلك أن وباء التغريب لم يصب إلا المدن الكبرى والطبقات العالية ، التي أخذت تقاوم حركة العودة إلى الإسلام وتعتبرها رجعية . وقد أكدت هذه النقطة العجيبة على أن الحركة التي قادها مصطفى كمال كانت طفرة ، وكانت ضد طبائع الأشياء ، فالعالم الإسلامي متقبل ومرحب للتطور والحركة والنهضة والأخذ من الحضارة الغربية ما يدفعه إلى القوة والحياة ، ولكنه يلفظ كل حركة تحاول أن تخرجه عن مقوماته

***

لقد تحولت الصورة على نحو مثير ، كشف عنه كثير من الكتاب الذين زاروا تركيا ـ وهذا تقرير محمد حسين هيكل عام ١٩٤٩ . « لم أشهد قوة الإيمان

بالدين في بلد شرقي إسلامي ، كما شهدته في تركيا ، وربما كان سبب التعصب هو محاربة الحكومة التركية له ، بكل الطرق ، وليس هناك بلد شرقي إسلامي لا يذكر أهله القرآن إلا بقولهم « حضرة قرآن كريم » إذا سمعوا القرآن في أجهزة الراديو أطفأوا السجائر ، وخلعوا الأحذية ، وتربعوا على مفاعدهم . هذا كله برغم الحواجز والعراقيل والحرب التي أعلنت على الدين حتى فرضت الحكومة أن يردد الأذان للصلاة باللغة التركية ـ يقول المؤذن « الله أكبر » باللغة ( Tanra uludur) العربية وبالحروف اللاتينية ، والخطيب يلبس القبعة ويدخل بها المسجد ، ثم يخلعها ويضع عمامة ، والمقاومة السلبية التي قام بها الشعب التركي لهذه السياسة مقاومة بديعة رائعة ، لا تدخل بيتا في تركيا حتى تجد المصحف موضوعا في أعلى مكان فيه ، ولا تركب سيارة تاكسي يملكها مسلم أو يقودها حتى تجد آية قرآنية بخط عربي جميل ، ولا تدخل متجراً حتى تقابل نفس الشيء ، ولا تدخل مسجداً في استامبول ( وفي استامبول ألف مسجد ) حتى تجد الحلقات غاصة بالمصلين .

ثم بدأت المقاومة تأخذ شكلا عمليا ، وكان خطباء المساجد يصعدون إلى المنابر ويبدأون الحديث . فإذا كل ما يقولونه ينصب على حكومتهم ووصفها بأنها حكومة كفار ، وبدأت روح التذمر . وإذا بمنشورات دينية توزع في الطرق ، ثم رأت الحكومة أنه من الخير أن تسمح بإصدار المجلات الدينية ، فبدأت ست عشرة مجلة دينية تظهر ، وبدأ الاكتتاب لبناء مسجد . وفي أوساط الفلاحين في الأناضول : سلطان الدين هو السلطان .
معظم الناس حتى الآن لا يستعملون الحروف اللاتينية ، بل العربية ، بها يكتبون ، وبها يقرأون حتى الأطفال الذين لا يزيد عمرهم على خمس سنوات .

وفي أنقره تجد بيوتا كثيرة تنتظر موعد إذاعة القرآن من محطة إذاعة القاهرة ، وتجد حلقة كبيرة منعقدة حول الجهاز الذي ينبعث منه القرآن خافتا مرتعشاً بتأثير ضعف محطة القاهرة .

ونوع آخر من المقاومة : ذهب أحد المسلمين إلى المجلس الوطني يوم انعقاده ، وفجأة من شرفة الزوار نهض أحدهم وصاح مؤذنا باللغة العربية بأعلى صوته ،

وهجم الحرس يلقون القبض عليه ، فنهض زميله ليكمل الأذان ، وألقي القبض عليه ، فاندفعت طائفة أخرى فأكملت الأذان .

وفي اليوم التالي شهدت شوارع استامبول منظراً فريداً ، حيث ذهب عدد كبير من أئمة المساجد والخطباء والمؤذنين ، وكان كل منهم يبحث عن جندي بوليس يعثر عليه فيقف أمامه ويصيح : « الله أكبر » وتكرر المنظر في يوم واحد خمسين مرة ، وقدمت الحكومة الذين أذنوا إلى المحاكمة والسجن أربعين يوما . أما هذا العدد الاكبر من الناقمين فأحيلوا إلى مستشفى المجاذيب . ورأت الحكومة أن الحالة ستطول وتتحول إلى حركة خطيرة . فتقدم بعض النواب بمشروع لإدخال التعليم الديني اختياريا في المدارس الابتدائية .

وكانت قد طمست بعض الآيات القرآنية باللغة العربية الباقية على بعض المستشفيات من عهد السلاطين فغادت ورفعت الطمس ، وأظهرت الآيات ، وجدّدتها بماء الذهب . وكانت قد أغلقت قبور الاولياء ، حتى نوافدها سدت بألواح عريضة من الخشب ، فعادت أخيرا ، وفتحت النوافذ . جاء هذا بعد أن ظهر جيلان أو ثلاثة أجيال على درجة مخيفة من الإلحاد .

إن الهوة التي تفصل الاجيال القديمة والاجيال الجديدة الملحدة هوة سحيقة ، وهي من أعقد مشاكل تركيا ، ومسجد أيا صوفيا في تركيا تحول إلى كنيسة . . لقد جاءت الثورة التركية وقررت الحكومة أن لا يصبح مسجداً ولا كنسية . بل يصبح متحفاً ، لا تقام فيه الصلوات ، وكانت تغطي جدرانه الايات القرآنية بالذهب . وقد تبارى السلاطين في إهدائه المنابر ، ثم تقدمت جماعة أمريكية وقالت : إن متحف أيا صوفيا يخفي تحت الآيات القرآنية وتحت نقوشه الإسلامية آثاراً بيزنطية نادرة قديمة ، وأنها على استعداد للكشف عن هذه الآثار ، ووافقت حكومة تركيا فأزالت النقوش الإسلامية والآيات القرآنية ، وظهرت صورة تمثل أحد الاباطرة البيزنطيين يحمل في يده الصليب وفوقه مباشرة الآيات القرآنية . وبعض أهالي تركيا المتدينين يقبلون على زيارة أيا صوفيا ليتنسموا العهد القديم ، وبعضهم يحلو له أن يصلي الجمعة خلسة في هذا المتحف الغريب الذي تحول إلى كنيسة . فإن البعثة الامريكية أزالت نصف المعالم الاسلامية في مسجد أيا صوفيا لتظهر الاثار البيزنطية لدرجة أن مدخل المسجد القديم أزيل ما كان عليه من

آيات قرآنية فظهرت تحتها صورة للعذراء المقدسة فوقها مباشرة الآية الكريمة « إنما يعمر مساجد الله » ولا يحتاج الزائر إلى حدة بصر غير عادية ليرى الدموع في مآقيهم أسًى وحسرة على المسجد الشهير في تاريخ الإسلام الذي تحول الى كنيسة في ظل حكومة تحكم شعبا كاملا من المسلمين . أ هـ .

* * *

ويقول ناصر الدين النشاشيبي إنه في عام ١٩٥٠ جرت المفاجأة ، فإذا بحزب أتاتورك « حزب الشعب » يكاد يدفن تحت الرماد ، فلا يفوز بأكثر من ٦٩ مقعداً ، بينما فاز الديمقراطي بأكثر من ٤٠٨ مقاعد ـ لقد جاء الحزب الديمقراطي إلى الحكم من باب الدين ، من أصوات المؤذنين في الجوامع .

لقد سقط حزب أتاتورك بعد أن ظل يحكم منذ عام ١٩٢٢ ، ولكن يبدو أن النفوذ الغربي قد أزعجه هذا التحول ، فاتهم الحزب الديمقراطي بالتمرد على العلمانية وعلى تعاليم الجمهورية التركية ، ولكن ردّ الفعل الإسلامي استمر زمناً .

يقول ( كراتشكوفسكي ) في كتابه : الشرق الأوسط : كم كان رد الفعل الديني قويا . إن رد الفعل هذا كان يمثل من حيث النوعية ، نواة صلبة من أناس غير مسالمين نزروا أنفسهم للمبدأ ، وعزموا على شنّ حرب لا هوادة فيها من أجل تحقيق أهدافهم ، مع أنهم أقلية من الناس ، لقد شهدت الخمسينات في سني هذا القرن انتعاشا واسع النطاق في الطرق الدينية مثل الطرق التيجانية .

وبديع الزمان والبكاتشية والنقشبندية والقادرية والمنظمات الميالة للإسلام مثل : الحزب الديمقراطي الإسلامي ، وحزب النهوض الوطني ، وجماعة بيوك طوفو ، هذه الجماعات تعتنق فلسفة جزئية في ميلها إلى الإسلام ، وتمارس في بعض الاوقات تدمير الاثار ، وعلى الاخص تماثيل أتاتورك . وقد كان الإقبال على الحزب الديمقراطي في تقدير ( كراتشوفسكي ) أنه يرجع إلى أنه دعا إلى إدخال الدين في المدارس ، وإذاعة القرآن في الراديو بالعربية ، وتكوين جناح إسلامي بين أعضائه ، وفي عام ١٩٥١ تقدم بعدة مطالب أهمها نبذ الحروف اللاتينية ، وإعادة استعمال الاحكام الشرعية الإسلامية . غير أن محاكمة جرت لاعضاء هذا الحزب ، وصدرت قوانين صارمة تحمي ذكرى الغازي ومنع اتخاذ الدين وسيلة

للاغراض السياسية ، وأعلن قادة الحزب أنهم يوافقون على جميع المظاهر الدالة على احترام الإسلام ، ولكنهم ما زالوا يعارضون الاحكام الشرعية . ا هـ .

غير أن الخطوات التي اتخذت منذ ١٩٤٦ واتسعت فيما بعد بإعادة التربية الدينية ، وفتح مدارس لتخريج أئمة وخطباء للمساجد ، وفتح كلية اصول الدين في جامعة أنقره ، لم يلبث أن حقق نتائج في خلال العشرين عاما التالية ، فقد برزت الحركة الإسلامية ، واشتد عودها ، واستطاعت أن تخرج جيلا من الدعاة إلى الإسلام ، وأن توجد قاعدة عريضة ضخمة من جماهير الشعب التركي المسلم المؤمن بأن الإسلام دين ونظام ومجتمع ، وأنه لا يستقيم أمر تركيا إلا بالعودة إلى الإسلام من جديد ، وقد تمكنت الحركة الإسلامية من أن تبرز خلال السنوات القليلة الماضية كحركة لها وزنها ووجودها بالنسبة للمجتمع التركي .

وقد وجهت جريدة بوكون ( اليوم ) التركية عام ١٩٦٨ نداء تطالب فيه المسلمين أن يقيموا صلاة الصبح بصورة مجتمعة . وقد تحقق هذا عندما « اتجهت جموع المسلمين التي تقدر بآلاف في إشراقة الفجر في هدوء كامل ينسجم مع عظمة الموقف إلى أكثر جوامع استامبول حيث زحف خمسون ألف شخص ليقيموا أكبر صلاة شهدتها تركيا منذ خمسين سنة » ويقول المعلقون إن هذه الصلاة كانت جزءاً من سلاح قوي تستخدمه الحركة الإسلامية لضرب القوى الإلحادية ، والمنحرفة في تركيا . وكان لها رد فعل بين عناصر اليهود والماسون والملاحدة مما حمل بعضهم على التهديد بنسف مسجد انقره . وقد انفجرت عدة قنابل فعلا لكنها لم تخرج أي مصلّ من الصلاة ، وانصرف المسلمون بدون ضجة .

# ( ٣ )
# إيران : الشيعة ومقاومة النفوذ الأجنبي
## ( ١ )

ما تزال « إيران » تمثل ثقلاً هاماً وخطيراً في خريطة العالم الإسلامي وتركيبه ، باعتبارها أحد العنصرين الكبيرين الذي تشكل منهما بناء الإسلام في مرحلته الأولى ، وأحد الأجناس الخمسة الكبرى ، العرب ، والفرس ، والترك ، والبربر ، والزنوج ، يتشكل منهم عالم الإسلام . وما تزال منذ العصر الإسلامي الأول تمثل قطاعاً له طابعه بحكم سيطرة اللغة الفارسية ، واستمرارها وبقائها إلى جوار اللغة العربية ودون الانصهار فيها أغلب اللغات في هذه المرحلة ، وإن كانت اللغة الفارسية الجديدة بعد الإسلام قد كتبت بالحروف العربية .

والمعروف أن الإسلام قضى على نفوذ الدولة الساسانية وقوض[١] العرش الكسروي . غير أن فارس ظلت تقاوم انصهارها في العرب ، ثم استطاعت في ظل الدولة العباسية أن تصبغ الحضارة والفكر بطابعها ، وأن تزيد نفوذها وتدعمه . فقد قامت الدعوة العباسية في خراسان بزعامة أبي مسلم الخراساني ، وأقامت عرشها في خراسان ، ثم كان من علو أمر البرامكة في ظل الرشيد ، مما انتهى بالقضاء عليهم . وكان انتصار المأمون على الأمين تركيزاً للطابع الفارسي وضعفاً للعنصر العربي ، ثم تقلص هذا النفوذ في عهد المعتصم الذي استعان بالأتراك . وقد أقام الفرس عديداً من الدول : الصفارية والسامانية والبويهية .

وفي ظل فارس تمت الدعوة إلى آل البيت ، وكونت قطاعا من المعارضة

---

١ ـ راجع كتابنا ( الاسلام وحركة التاريخ )

للقيادة السياسية الإسلامية . ومنذ قتل الإمام علي ، وقتل الحسين من بعده في موقعة كربلاء أخذت دعوة آل البيت تتسع وتعمق .

وبرز مفهوم الشيعة المعارضين لنظام الحكم ، وانصوى تحت اسمهم عدد من الفرق الغالية ، غير أن الإمامية الاثني عشرية ظلت أقرب إلى مفهوم الإمامة العلوية .

وفي إبان غزو التتار للعالم الإسلامي سيطر المغول على إيران ، ثم تركوها نهباً للولاة إلى أن قامت الدولة الصفوية ١٤٩٩ م . واستمرت إلى ١٧٣٦ م . وكانت إحدى الدول الإسلامية الثلاث : العثمانية في تركيا ، والمغولية في الهند . وقد وقع الصراع بين العثمانيين والصفويين عهداً طويلاً . وكان هذا الصراع عاملا من عوامل الشقاق الذي فرض نفسه على المسلمين : بين السنة والشيعة .

كان الشاه إسماعيل الصفوي قد تبنى مذهب الشيعة ، وكان السلطان سليم يناصر السنة ، ومن هنا فقد أصبح الخلاف بين إيران وتركيا ، صراعاً بين المذهبين .

وقد غزا السلطان سليم إيران ١٥١٤ . وهزم الإيرانيين ودخل السلطان سليم تبريز حاضرة إيران . ووالى الأتراك غزو إيران وارتدوا عنها ، ولكنهم تركوا في النفوس خصومة وصراعاً بعيدي المدى، وقد أفاد النفوذ الاستعماري الغربي الزاحف على العالم الإسلامي بهذا الصراع فاتصل البريطانيون بالشاه عباس ( ١٥٨٧ - ١٩٢٩ ) ووسعوا نفوذهم داخل إيران ، وكان لهذه الصلات أثرها في تأريث الخلافات بين فارس وتركيا حتى لا تلتقي الجبهة الإسلامية على وحدة واحدة .

ومن ثم عاود السلطان مراد الرابع ١٦٣٥ زحفه على أزربيجان وملك تبريز وقصد إلى بغداد ليسترجعها من الإيرانيين فأخذوها عنوة وظلت العراق في يد العثمانيين منذ ١٦٣٨ حتى استولى عليها اخيراً الإنجليز ١٩٢٠ م .

ثم سقطت إيران تحت حكم الأفغان وعادت مرة إلى حكم أبنائها . فقامت

فيها دول الافشار حتى ١٧٥٠ والدولة الزيدية إلى ١٧٤٩ والدولة القاجارية التي حكمت ١٧٩٤ إلى ١٩٢٥ حيث أحدث رضا خان انقلابه العسكري ، واستولى على حكم إيران .

وقد وقع في هذه المرحلة التدخل المزدوج من الروس والانجليزي في شؤون إيران ، وظل الصراع بين النفوذين مستمرا . وقد وقع حكام إيران تحت نفوذ بريطانيا . وحاول جمال الدين الأفغاني في عهد ناصر الدين شاه ( ١٨٤٨ - ١٨٩٦ ) أن يصدر الدستور فرفض الشاه أن يقبل الحريات التي وضعها للشعب ، واختلف معه ، فترك البلاد ، ولقد ظل يناوىء ناصر الدين ويحرض عليه حتى قتل في أول مايو ١٨٩٦ . وكانت الحركة الوطنية في إيران قد تأججت ١٨٩٠ حين منح الشاه شركة انجليزية حق احتكار تجارة التبغ مقابل نصيب من أرباحها ، فأفتى العلماء بتحريم التبغ ، وأضرب الأهالي عن التدخين ، فاضطر ناصر الدين شاه إلى إلغائه ، بعد أن دفع نصف مليون من الجنيهات تعويضا للشركة ، ثم تأججت الثورة الفارسية ١٩٠٤ - ١٩٠٥ . للمطالبة بحكومة دستورية تقيد سلطة الشاه ، وكانت أول ثورة على النظام الاستبدادي في الشرق ، واضطر الشاه إلى إعطاء الشعب الحكم الدستوري - ١٥/ ٨/ ١٩٠٦ - وأعلن الدستور ٣٠ كانون أول ١٩٠٦ . غير أن روسيا وانجلترا لم تلبثا أن اتفقتا فيما بينهما ١٩٠٧ على تقسيم إيران إلى منطقتي نفوذ تجاري ، حيث عقدت بريطانيا مع روسيا الاتفاق الودي الثلاثي باقتسام مناطق النفوذ في إيران ، حيث أصبح القسم الشمالي منها خاضعا لنفوذ القيصر ، والقسم الجنوبي في نفوذ بريطانيا . ولم يبق إلا جزء صغير ينحصر في طهران وما حولها . ووقعت على أثر هذا « الثورة الإيرانية ١٩٠٨ » في مواجهة الثورة الدستورية في تركيا . وقررت خلع الشاه محمد علي ، وتولية الشاه أحمد بوصاية الأمير عصر الملك ، وأعيد الحكم الدستوري . وقد استمر التنافس بين النفوذين الروسي والانجليزي حتى فبراير ١٩١٨ . حين رحلت القوات الروسية عن شمال إيران ، واستطاع الإنجليز الوصول إلى بحر قزوين ، والسيطرة على إيران كلها . وثم بدأ نفوذهم منذ ١٩١٨ يزداد قوة ، حتى استطاعت بريطانيا عقد معاهدة ١٩١٩ التي اصبحت البلاد بموجبها تحت

الحماية البريطانية . غير أن الروس أخذوا في مراجعة بريطانيا من جديد ، حين توغلت قواتهم في شمال إيران ، وكانت ذلك مقدمة لحركة في الجيش الإيراني بزعامة رضاخان ، وقيادة ضياء الدين طباطبا أشهر كتاب إيران لإنقاذ البلاد من النفوذ الأجنبي . وقد اتسعت هذه الحركة حتى استطاعت خلع أسرة قاجار عام ١٩٢٥ ، وبذا بدأت إيران الحديثة حيث حكم رضا خان ( ١٩٢٦ - ١٩٤١ ) . وقد استطاع النظام الجديد أن يقوم بكثير من أعمال الاصلاحات ، وفي مقدمتها موقفه من شركة البترول الانجليزية التي تسيطر على استغلال البلاد . إذ ألقى امتيازها عام ١٩٣٢ واضطرها إلى قبول شروط جديدة إذ ألغي الامتيازات الأجنبية ( مايو ١٩٢٨ ) .

## ( ٢ )

استطاع النفوذ الأجنبي الزاحف على العالم الإسلامي أن يوسع شقة الخلاف بين الدولتين الكبيرتين في القرن التاسع الهجري ( الدولة الصفوية الفارسية ) و ( الدولة العثمانية ) وأن يقوي مركز بريطانيا على فارس فى مواجهة الدولة العثمانية . ومن ثم اتسع النفوذ الأجنبي في فارس ، وبدأ التدخل واضحاً من كلا الجانبين : روسيا القيصرية وبريطانيا فى الميدانين السياسى والاقتصادى .

وفي ظل هذا النفوذ أدخلت إيران النظم العسكرية الأوربية على جبشها . وأنشأ ناصر الدين الدين شاه أكاديمية العلوم والفنون ١٨٥٢ على أساس أوربي ، وكان أساتذتها من الأوربيين الذين يعلمون علم الغرب وثقافته وتاريخه ، وقد ترجموا إلى الفارسية كثيراً من الكتب في هذه العلوم ، وظلت هذه الأكاديمية مركزاً لثقافة الغرب وعلومه حتى القرن العشرين ، وفتح الفرنسيون والأمريكان والبريطانيون ، ثم الروس والالمان ، فيما بعد مدارس حملت مظاهر النفوذ العسكري لهذه الدول وتوزع عليها ولاء الإيرانيين ، ويرى بعض المؤرخين أن بداية ظهور النفوذ الأجنبي بإيران كان إبان حكم الشاه فتح علي شاه ( ١٧٩٨ - ١٨٣٤ ) ممثلا في بريطانيا والروس - حيث كانت بريطانيا تسعى إلى بسط نفوذها على إيران خوفا من نفاذ الخطر الروسي والفرنسي إلى الهند .

***

ويمكن أن يقال إن البترول كان أخطر العوامل التي أحاطت فارس بهذا التزاحم والصراع ، وقد بدأ ذلك عندما عقد وليم دارسي ( ١٩٠١ ) مع الشاه مظهر الدين امتيازاً لاستغلال البترول ( ٦٠ عاما ) مقابل عشرين ألف جنيه

انجليزي تدفع نقداً ، وحصة ضئيلة من محصول الشركة المستقلة تبلغ ١٦ في المائة من أرباحها كل عام . وقد بدأت مع هذه الامتيازات قصة الصراع الكبرى بين الدول على هذا الامتياز ، حيث استطاع الراهب روزنيلوم أن يحصل عليه من دارسي لحساب بريطانيا عن طريق تلك المؤامرة الرهيبة ، وقد تبين ان هذا الراهب، وهو جاسوس يهودى ( سكرنـي ريللي ) . كان يعمـل في دائرة المخابرات ، وكانت الدائرة قد عهدت إليه بالحصول على امتياز دارسي لشركة نفط بورما التي كانت تمدها إمارة البحر البريطانية بالعون ، والتي سميت في نفس العام ١٩٠٨ شركة النفط الانجليزية الفارسية .

ومنذ ذلك التاريخ والبترول هو العامل الهام والخطير الذي يحرك الأحداث في إيران ، فقد تدخلت بريطانيا لتحول دون وقوع صفقة البترول الإيراني في أيد غير بريطانية ، حيث استطاعت تموين الأسطول البريطاني العامل في الباسفيك وبحار الصين ، والمحيط الهندي والبحر الأبيض . وفي عبادان : بنت أكبر مصفاة : لتكرير البترول في العالم بالإضافة إلى مكانتها الاستراتيجية على خطوط المواصلات بين الشرق والغرب ، وجاءت الحرب العالمية الأولى فكان إنتاج مصفاة عبادان ٢٧٠ الف طن من البترول ، زادت عام ١٩١٨ إلى تسعمائة الف طن . وبعد الحرب العالمية الأولى ، أصبحت إيران الدولة الرابعة في إنتاج البترول في العالم والدولة الثانية المصدرة للبترول بين دول العالم . وفي عام ١٩٥١ حيث قامت أكبر ثورة من أجل تأميم البترول ، كانت الآبار في عبادان تنتج اثنين وثلاثين مليونا من أطنان البترول . وفي ظل نفوذ البترول إبان الحرب العالمية الأولى وقع شاه إيران معاهدة تمثل الحماية البريطانية المقنعة، حيت تعهدت بريطانيا بتنظيم الجيش الايراني ، ومنح إيران ما يلزمها من المال . غير أن الحلفاء لم يلبثوا أن احتلوها ، ثم اتفقوا على اقتسام أسهم شركات البترول في إيران والعراق بين فرنسا وأمريكا وبريطانيا بحظوظ متعادلة .

وتجدد الحديث حول البترول عندما تولى رضا خان أمر إيران ، وبعد أن أنهى حكم أسرة قاجار عام ١٩٢٥ . حيث جرت المفاوضات لتعديل اتفاقية

البترول المجحفة بحقوق الشعب الايراني . وحيث عقدت اتفاقية جديدة تفضل اتفاقية ١٩٠١ في بعض الوجوه تدفع الشركة فيها ٢٠ في المائة ولكنها تجدد الاتفاق ٦٠ عاما اخرى الى ١٩٩٣ .

ويمثل بترول إيران المركز الاستراتيجي الأول للإمبراطورية البريطانية وللأسطول البريطاني ، والأمريكي في الحرب العالمية الثانية . وكان الأمل معقوداً للجيوش وأسلحة الطيران على مصانع التكرير في عبادان . وكانت إيران صاحبة الفضل الأول في انتصار الحلفاء ؛ غير أن رضا شاه لم يلبث أن استعان بالخبراء الألمان ، وعقد معاهدات تجارية مع ألمانيا الهتلرية فحجب نفوذها نفوذ بريطانيا وروسيا ، وظل يحجبه حتى اندلاع نيران الحرب العالمية الثانية ، فكان عاملا من عوامل عزل بريطانيا والحلفاء للشاه إفساحاً لجيوشها باحتلال إيران لسلامة وصول الامدادات إلى الجبهات الروسية . بعد أن رفض رضا شاه انذارهما ، احتلت بريطانيا وروسيا البلاد في أيام معدودات ، ( ١٩٤١ ) بعد عشرين عاماً من حكم دكتاتوري حقق بعض الأعمال العظيمة ، وكان الشاه في خلال أعوام حكمه العشرين ، قد تحول إلى مثل شاهات قاجار الذين تخلص منهم .

***

وفي ظل الاحتلال البريطاني اليقظ المتنبة إلى ما يريد ، عادت قوة القبائل لنفوذها ، حيث بتسليحها وإفسادها ، وإغداق الأعطيات عليها لاستخدامها في أغراض ، والضغط على القوى الوطنية وقت احتمت هذه القبائل بوجود الجيوش الأجنبية المحتلة ، والتي كانت تقوم بتسليحها. تقوم أغلب هذه القبائل قرب الحدود الإيرانية العراقية . أهمها : ( قبائل البختياري ) والقشقاي وفي الشمال وفي الشرق على محاذاة الحدود التركية الروسية ، والأفغانية والباكستانية . أولت القوات البريطانية للقبائل الكردية والتركية المختلفة بحيث أصبحت قادرة على أن توجه الأحداث . وقد كان هذا التحدي استعداداً مسبقاً لذلك الشعور الجياش في أعماق أهل إيران الذين يملكون البترول الغزير المتدفق ، ويقاسون أشد حالات الفقر ، وسرعان ما برزت قوى ثلاث هي :

الحزب الإسلامي ، والكتلة الوطنية ، وحزب توده الشيوعي . تتصارع . والنفط هو القضية . وتصدر الدكتور محمد مصدق ، وآية الله كاشاني قيادة العمل في خطوة جريئة هي تاميم البترول ضد الشاه وبريطانيا .

ولا شك أن معركة النفط عام ١٩٥١ من أحداث العالم الإسلامي الكبرى بما آلت إليه من هزيمة للقوى الوطنية ، وانتصار للاستعمار ونفوذه ، وهي وان انتهت هذه النهاية ، فقد تركت بصماتها في أحداث الشرق كله ، وما تزال تفعل الكثير . ثم لم يلبث أن ظهر عامل جديد في الامر . فبعد أن كان الصراع بين نفوذي بريطانيا وروسيا ، أصبح النفوذ ثلاثيا بين أمريكا وبريطانيا وروسيا .

وقد كشفت معركة تأميم البترول أن المفاهيم الاسلامية . والثقافة الاسلامية ما تزال عاملاً هاماً فى الحركة الوطنية والسياسية . فقد قاد زعماء الشيعة حركة تاميم البترول بزعامة كاشاني . وكان رجال الكتلة الوطنية بقيادة الدكتور مصدق من أتباعهم . وقد ظل النصر معقوداً لهم ، حتى إذا وقع خلاف بين كاشانى ومصدق . بدأت كفة الاستعمار ترجح .

***

لمعت فكرة التأميم في ٢٢ أكتوبر سنة ١٩٤٧ حيث أصدر مجلس النواب الإيراني قراره برفض منح امتيازات جديدة لأي رأس مال أجنبي للبحث عن البترول في إيران ، وأضاف القرار العمل على مفاوضة شركة البترول الانجليزية ـ الإيرانية ـ لرفع نصيب إيران من بترولها إلى ٣٠ في المائة . غير أن لجنة البترول في مجلس النواب برئاسة الدكتور مصدق رئيس الكتلة الوطنية لم تلبث أن أصدرت قراراً معاده أن خير عمل هو « تأميم البترول » وسقطت الوزارة ، وجاءت وزارة رزام أراه الذي اتفق الانجلبز والأمريكان والشاه على أنه أقوى رجل في إيران لمواجهة الموقف .

وكان من رأي مصدق أن اتفاق رضا خان الذي عقده عام ١٩٣٣ باطل ، لانه وقع في عهد كمت فيه الحريات ، وليس للشركة سوى ( اتفاق دارسي ) الذي

ينتهي بعد عشر سنوات ، ولما كانت الشركة قد استهلكت خمس أسداس حقوقها ، فإنه لم يبق لها إلا السدس عن العشر سنوات القادمة ، ويمكن تعويضها عنه .

ولم يلبث رازم أراه في الحكم أكثر من أربعة شهور ، ثم دوت أربع رصاصات أردت رئيس الوزراء قتيلاً ، وقال قاتله ( خليل طهمس ) : نعم : قتلت رازم أراه ، ولم يكن لي شركاء في شرف قتل الخائن ، وأصدر نواب صفوي رئيس جمعية فدائيان إسلام بيانا قال فيه : إن البطل الذي قتل رازم أراه الخائن أدى واجبه ، وأصدر آية الله كاشاني الزعيم الروحي بيانا قال فيه : إن الرصاصات التي أردت رازم أراه قتيلا قد اكسبتنا معركة البترول وسيؤمم البترول رغم أنف الخائن المضرج بدمه ووجدوا في جيب القاتل ورقة مكتوب عليها ( الجنة تحت ظلال السيوف ) ورفض جميع أئمة المساجد في طهران أن يشتركوا في جنازة رئيس الوزراء . وأعادت الأحداث صورة جمال الدين الأفغاني والشاه ناصر الدين .

وقد عرف آية الله كاشاني بعدائه الشديد للإنجليز ، وكانت له سابقة في الجهاد خلال ثورة رشيد الكيلاني عام ١٩٤١ . وكان يملك السيطرة على أموال الشيعة الطائلة ، وله ولاء على الكتلة الوطنية التي تضم عشرة نواب في البرلمان . بعضهم تخرج من السربون برئاسة الدكتور مصدق .

وكان كاشاني يردد دائما صيحة واضحة : الإنجليز أضاعوا قرآننا ، وكان غلادستون يقول : لا طريق للإنجليز بين الأمم الإسلامية ما دام فيها القرآن ، ليخرج الإنجليز من كل بلد إسلامي .

ومضت الحركة خطوات في سبيل الهدف ، وحاولت بريطانيا أن توقف الثورة حين أعلنت أنها تدفع ٥٠ في المائة من الأرباح ، واضطرت بريطانيا لأن ترحل مواطنيها . غير أن النواب الذين ناصروا مصدق في مجلس النواب . سرعان ما انقلبوا عليه ، ورفضوا منحه الصلاحيات المطلقة لمدة ستة أشهر ، واضطر إلى الاستقالة ، ولم يستطع خلفه « قوام السلطة » واضطر الشاه إلى استدعاء مصدق مرة أخرى لتأليف الوزارة ، وانتخب آية الله كاشاني رئيسا لمجلس

النواب ، غير أن الخلاف ما لبث أن وقع بين الزعيمين الديني والسياسي .

فقد كان من رأي مصدق أن لا سبيل للإصلاح إلا بتنفيذ قانون الإصلاح الزراعي وتطهير الجيش ، وإعطاء خمس محصول الأراضي للفلاحين المستأجرين الفقراء . وعارض كاشاني هذا القرار ، واشتد الخلاف وبلغ درجة بعيدة من العنف والاتساع ، وكسب النفوذ الاستعماري الموقف ، واضطربت الوحدة الوطنية الإيرانية ، وضربت شركات البترول شعاراً حديداً من الحصار الاقتصادي على زيت إيران في الأسواق العالمية ، ورفضت أمريكا وروسيا شراء البترول ، أو توقيع اتفاقيات أو قروض معها ، ولم يستطع الدكتور مصدق أن يفعل شيئا بالرغم من إعلان خفض سعر البترول الإيراني إلى نصف سعره العالمي ، ولم تغن ثورة الذهب الأسود الإيرانية هذه البلاد شيئا في محنتها . بل ربما كانت عاملا هاما في إسقاط مصدق ، وإن استطاع أن يوازن بين الصادرات ، والواردات على نحو مذهل .

## ( ٣ )

لا شك كانت التحديات بين الدولة العثمانية والدولة الفارسية منذ القرن العاشر ، وتلك الحروب والغزوات المتصلة سببا في توسيع شقة الانقسام بين السنّة والشيعة التي ظلت آثارها حية وقائمة إلى أن استطاع الاستعمار الزاحف لتطويق عالم الاسلام الانتفاع بهذا الصراع ودعمه ، والتركيز عليه ، فقد آزرت بريطانيا فارس مؤازرة ضخمة في نفس الوقت الذي كانت تعمل فيه للقضاء على الدولة العثمانية . وفي خلال هذه المعركة عمقت طوابع الخلاف ، واتسعت الشقة بين السنّيين والشيعيين ، وما زالت عراقيل هذا الخلاف باقية إلى اليوم ، بالرغم من المحاولات المتعددة للقضاء عليها ، وللاستعمار أثر لاشك في بقاء هذه الهوة للحيلولة دون وحدة العالم الاسلامي والتقائه في « رابطة تامة » . وقد أكد هذا المعنى كثير من الباحثين الشيعيين أنفسهم ، تقول مجلة العرفان :[١] « إن الفرقة بين السنّة والشيعة جاءت من الحكام الظلمة الذين لا يحكمون إلا إذا تعددت الكلمة وتفرق الشعب شيعا وأحزابا . ولما جاء الاستعمار غذى هذه الروح ، وعمل على تقويتها ، وقسم البلاد العربية ، وأقام بها الحدود والسدود ، وغذى الطائفيين ، فإذا أردنا أن نحمي الإسلام فعلينا أن نقضي على النفوذ الخارجي وأن نعرض الإسلام عرضا سليما بدون سنّة ولا شيعة .

ولا شك يحمل العثمانيون وزراً في تغذية هذا الخلاف . ولكن النفوذ الاستعماري كان من وراء تعميقه ، ولو ترك العثمانيون والفرس لأنفسهم لالتفوا على جامعة تجمعهم هي جامعة الاسلام وكلمة لا إله إلا الله .

وقد جرت في العصر الحديث محاولات لتصفية هذا الخلاف وما تزال ، وكان للأزهر دور كبير فيها . فقد حدثت لقاءات متعددة بين علماء السنة وعلماء الشيعة في مجالات مختلفة أهمها المؤتمرات الإسلامية الكبرى . وفي طليعة

---

١ - ( ١٩٥٨/٨/٢٩ )

من دعي إلى تصفية هذا الخلاف : جمال الدين الأفغاني . جمال الدين القاسمي . سليم البشري ، محمد حسين آل كاشف الغطاء شيخ جامع النجف الأشرف . محسن الأمين . محسن الحكيم . ومن أشهر من نبه إلى قيمة الكنوز الدفينة في مذهبي الإمامية والزيدية : محمد أبو زهرة . الياقوري . السنهوري . شلتوت ، محمد المدني .

ومن الحق أن يقال إنه ليس بين السنة والشيعة من خلاف في الأصول العامة ، فهم جميعا أهل التوحيد . وإنما الخلاف في الفروع ، وهو خلاف يشبه ما بين مذاهب السّنة نفسها ( الشافعية والحنفية ) . فهم يدينون بأصول الدين ، كما وردت في القرآن الكريم والسّنة المطهرة ، كما يؤمنون بكل ما يجب الإيمان به . ومن الحق أن السّنة والشيعة هما مذهبان من مذاهب الإسلام يستمدان من كتاب الله وسنة رسوله ، وتتميز الشيعة بتقدير وافر لأهل البيت ، ولا يوجد في أهل السنة من ينكر فضل آل البيت ، ومصر معروفة بحب آل البيت .

ويحاول الشعوبية ودعاة التغريب دوماً إثارة الخلاف بين السنة والشيعة : فيقولون للشيعة إن السنة تنكر استحقاق « علي » للخلافة قبل أبي بكر ، ويقولون للسنة إن الشيعة تفضل علياً على أبي بكر وعمر ، ويقولون للشيعة إن أبا بكر منع ميراث السيدة فاطمة من أبيها . وقد ألّف أحد المستشرقين كتاباً باسم « فدك » في محاولة لإثارة شبهة عن الضيعة التي كانت تطالب بها السيدة فاطمة ، والتي احتج الخليفة أبو بكر في الاعتذار عنها بأن الأنبياء لا يورثون .

وقد أكد كثير من أعلام الشيعة على أن الغالية كالباطنية وغيرها ليست من الشيعة ، وأن الشيعة منها براء . وأن الشيعة لا تتهم ، وإنما توجه التهم إلى الفرق التي ادعت أنها باسمها ، وأن للشيعة أعلاماً عظماء خدموا الاسلام ، وكانوا من كبار رجاله أمثال : عماد بن ياسر وسلمان الفارسي والأحنف بن قيس وسعيد بن المسيب وابي الأسود الدؤلي والفرزدق والكميت وابن الرومي والبحتري ومهيار الديلمي وابن هانىء الأندلسي وأبي فراس الحمداني

الطفرائي والشريف الرضى[1] .

ولا شك أن الشيعي والعلوي والدرزي والاسماعيلي والسني كلهم منضوون تحت كلمة التوحيد ، وخلافهم في الفروع وحدها .. وهو خلاف لا يفرق ، وهم متفقون في الأصول يقرون بأن لا يحكم بالكفر على أحد من أهل القبيلة .

والشيعة الامامية أكثر فرق الشيعة عدداً وانتشاراً ، ويسمون الاثني عشرية ، ويبلغ الامامية سبعين مليوناً موزعون في العراق وأيران ، ومنها ٣٢ في الهند وباكستان و ١٠ ملايين في روسيا وتركستان وبخارى والأفغان ولبنان ، وبعضهم في سوريا والحجاز واليمن ، ومنهم مجموعات في الصين والتيبت والصومال وجاوه وتركيا والبحرين والكويت .

وقد بذل أعيان الشيعة جهداً واسعاً في سبيل تحرير الفقه الاسلامي من أغلاله ولهم اجتهادات دائمة لم تتوقف . وقد حاول المستشرقون ، وخاصة المستشرق رونلدس في كتابه ( عقيدة الشيعة ) إيقاع الفتنة بين المسلمين ، ودعم هذا الدس بشتى الأساليب . وقد دافع الامامية عما جاء في كتابه من اتهامهم بتحريف القرآن وإنكاره .

وقد دعا كثير من مجتهدي الشيعة ، وفي مقدمتهم العلامة : جواد مغنية إلى عدم التعصب لمذهب فقهي خاص . فإن ذلك تعصب للسياسة التى كانت وراء المذهب . وقال إن الشريعة لها أصول مقررة ، والخلاف والجدل بين المذاهب إنما حصل فيما تفرع عن تلك الأصول وما يستخرج منها .

وقال : إن في كتب الشيعة الامامية اجتهادات لا يعرفها أهل السنة ولو اطلعوا عليها لقويت ثقتهم بالشيعة ومفكريها . نقول : وذلك الشأن بالقياس إلى كتب السنة وعلماء الشيعة .

وجملة القول : إن محاولات الغزو الفكري والاستعمار العقلي والتغريب والشعوبية ما تزال تتدخل إلى حد كبير في توسيع شقة الخلاف بين أهل السنة وبين الشيعة ، وفي إذاعة الشبهات وترديدها وتجديدها في مختلف كتب

---

١ - راجع اعيان الشيعة ج١ص - ٤٦ .

الباحثين عملاً على تمزيق وحدة المسلمين وتعميق الخلافات الفرعية ، وتحويلها إلى خلافات جذرية ، والحيلولة دون الالتقاء[1] . وما يزال المذهب الجعفري هو المذهب الأساسي للفقه الشيعي .

١ ـ فصلنا القول حول هذا في بحثنا الخاص عن التشيعة في كتاب ( الاسلام وحركة التاريخ )

## - ٤ -

في هذا الضوء ينظر إلى حركة المقاومة للاستعمار التي حملت لواءها إيران ، فهي مرتبطة إلى حد كبير بالمفهوم الاسلامي الشيعي العنيد في مقاومة كل غزو ، والذي حمل دوماً لواء المقاومة للحكام المستبدين .

وقد تجلت هذه المقاومة في مواقف حاسمة .

( ١ ) معركة التنباك . ( ٢ ) مقاومة الغزو البريطاني الفرنسي . ( ٣ ) مقاومة الاستبداد . ( ٤ ) حركة تأميم البترول .

***

ولقد استغلت القوى الاجنبية فرصة الخلاف بين تزكيا وإيران . فأيدت إيران تأييداً أفسح لها مجال النفوذ . فقد شرعت الارساليات الانجليزية والفرنسوية والأمريكية تتوافد إلى إيران منذ أواخر حكم ناصر الدين شاه وتفتح مدارسها في وجوه الايرانيين الذين ينتمون إلى الطبقات العليا والوسطى . وكانت الشركات الأجنبية قد حصلت على امتبازات اقتصادية عظيمة الشأن ، ولم يكن في وسع ناصر الدين ان يوقف هذا السيل الجارف من الاوروبيين الذين يحملون معهم الثقافة الغربية . وكان الشاه قد سمح للانجليز باحتكار صناعة التبغ فقاطع الاهالي الدخان ، وقام العلماء بحملة عنيفة اضطرته إلى أن يلغي الاحتكار ( ١٨٩٠ ) . ومن حق أن يقال إن الايرانيين اتجهوا إلى الجامعات الأوربية ١٨٦٥ تقريباً . وأن ذلك الاتجاه الباكر الذي حاول النفوذ الاسعماري تأكده وتعميقه خلق حاجزاً ضخماً بين إيران وبين العالم الاسلامي وصبغها بصبغة التغريب من ناحية وحال بينها وبين الانصهار في المجموعة . غير أن ثبات علماء الشيعة المسلمين قد حفظ مفهوم الاسلام في مواجهة الغزو العربي سياسياً وعسكرياً وثقافياً ـ قادراً على الحياة . فكان عامل المقاومة في مختلف العصور ، وفي جميع حركات الثورة والمقاومة إسلامي الطابع .

وفي خلال العقود المتوالية من القرن العشرين جرى تحوّل كبير فيه مرونة والتقاء بالعالم الاسلامي بعد أن ظلت فارس تمثل شخصية مستقلة عن العالم الاسلامي بإعلاء مفهومها العقائدي ، ولكنها كانت عرضة لخطر النفوذ الغربي شأنها شأن مختلف أجزاء العالم الاسلامي ، بل لعل موقعها الخطير قد عرضها لنفوذ مزدوج وصراع متصل بينها وبين الروس في الشمال ، والبريطانيين في الجنوب ويرى كتاب الغرب ودعاة التغريب أن فارس كانت دوماً ذات طابع خاص بحسبانها مجموعة شيعية وسط الأغلبية السنية في أفغان والهند والمجموعات السنية في العراق ومصر وتركيا . وأن هذا الخلاف العقائدي قد شكل مع الزمن شعوراً قومياً كان دائماً موضع الصراع بين العرب والفرس ، وبين الفرس والترك من ناحية أخرى .

ولا شك كانت خطة الاستعمار واضحة منذ عاون عباس الأكبر (١٥٨٧) لانشاء جيش مسلح لمواجهة الأتراك ، وهي تستهدف السير في مخطط توسيع الخلاف وتعميقه بين إيران وتركيا ، وبين إيران والعرب كخطة يسعى الاستعمار دائماً إلى إبقائها واستمرارها . غير أن المسلمين الترك والعرب والفرس قد تنبهوا إلى هدف الاستعمار ، وحاولوا إحباطه . فقد تمت خطوات كثيرة في السنوات الأخيرة للتقارب والالتقاء على المستوى السياسي ، والمستوى الفكري أيضاً . عاشت إيران في العصر الحديث مدة طويلة تحت حكم آل فاجار امتدت ١٥٠ سنة حتى أسقط حكمهم رضا خان عام ١٩٢٠ وكان أهم آثار هذه الأسرة تقبل التدخل الأجنبي في الأمور الداخلية ، فقد كان الأجانب يسيرون مختلف أمور إيران ، وكان للنفوذ الأجنبي أكبر الأثر في ترسيخ أقدام رؤساء الاقطاع وتشجيعهم على العصيان والثورة .

وكان تدخل الانجليز في أمور إيران يتمثل في حجج مختلفة منها سياسة المحافظة والدفاع عن الهند . وقد انتهز الانجليز ضعف إيران خلال حكم أسرة فاجار ، فوسعوا نفوذهم في أطراف خليج فارس بحسبانه باب الهند ، وكانت سياسة إيران تضطرها إلى عدم التعرض لرواد البحار والسفن التابعة للدول الكبرى وتجارتها وبعثاتها الاستكشافية . فقد أعطت الحرية التامة لتجارة

الأجانب ، وعلى الأخص الانجليز الذين اكتسحوا الاسبانيين والبرتغاليين من طريقهم . وقد مكنت هذه السياسة بريطانيا من التلاعب في أمور إيران الاقتصادية والسياسية ، بفرض الامتيازات الهامة كالسكك الحديدية لجميع طرق إيران ۱۸۸۹ . وامتياز تأسيس المصارف ۱۹۰۷ . وامتياز التبغ والتباكو ۱۹۰۸ . وكانت حكومة قاجار كحكومة إسماعيل في مصر مدينة مرهقة يحيطها النفوذ الأجنبي من مختلف أقطارها .

وقد وضع الاستعمار البريطاني الخطط لاثارة القبائل وتجهيز الطوائف المختلفة بالأسلحة وشد أزر الأمراء والشيوخ ، ومحاولة تقسيم إيران إلى ولايات ومناطق عشائرية . وكان اتصالها بأكبر القبائل والعشائر لاثارة الخلاف والارتباط مع الأجانب ، وكان ذلك جرياً على القاعدة البريطانية والاستعمارية التي تقول : « ان الوظيفة الكبرى للممثلين البريطانيين في البلاد الشرقية هي اضعاف الحكومات في كل شيء ، وبث التفرقة وتشجيع تعدد المذاهب والآراء والعقائد . ثم تأليب فئة على الأخرى ، وإشعال الحكومة والشعب على بعضهما بغية التدخل ، وسيطرة بريطانيا العظمى على تلك الدول » . غير ان العلماء الشيعيين المسلمين لم يتوقفوا عن العمل في سبيل مقاومة النفوذ الأجنبي . وكان جمال الدين الأفغاني قد قاوم استبداد « ناصر الدين شاه » وحاول أن يحقق لايران دستوراً يكفل للشعب حقوقه إزاء سلطات الشاه المطلقة فأخرج من إيران . ولكن لم يكد يعلن منح حق امتياز التمباك والدخان للمستر تالبوت في ٨ مارس ۱۸۹۰ . وكانت مدة الامتياز خمسين سنة حتى كان هو نقطة الانتفاضة بعد أن أسرف الشاه في منح امتيازات مختلفة للشركات الأجنبية بعد ان منح البارون جولياس روتر حق إنشاء البنك الشاهاني ۱۸۸۹ كما منحه حق استخراج جميع المعادن في إيران ورأت[١] الأمة الايرانية إسراف الشاه في منح الامتيازات للشركات الأجنبية ، فثارت ثائرتها ولم تطق بعد هذا صبراً . ورأت حكومة الشاه أن تخمد اتجاه الرأي العام ، فألقت

---

١ ـ مزيرا مهدي رفيع مشكي ( السياسة الاسبوعية ) ٣/ ١٣/ ١٩٢٧

القبض على زعماء الثائرين ـ وكان جمال الدين ـ الذي اقتاده جنود الشاه الى منطقة الحدود العثمانية ـ يعرف ماللحاج مرزا حسن شيرازي كبير العلماء من نفوذ عظيم . فأرسل إليه خطابه المشهور : « هذا يومك يا حجة الاسلام . فإن لم تسمع نداء القوم ، وإن لم تنهض لجمع شملهم ، وتوحد كلمتهم ، وتضم صفوفهم ، وترفع عنهم بقوة الشرع الذي أنت حاميه ظلم الظالمين فقل على ممالك الاسلام السلام . إن العلماء ينتظرون بفروغ صبر كلمتك ، وإن التاريخ ليرمق عن بعد سيرتك ، فماذا أنت قائل والسلام » .

وقد أصدر كبير المجتهدين من مقره في ( سر من رأى ) فتوى تحريم التمباك والدخان . « تلك الفتوى التي سرت مسرى الكهرباء في جميع البلدان . فأقفلت مخازن الدخان ، وأبى البائعون بيعه والشارون مشتراه . حتى لقد هشم رئيس خدم الشاه كل ما في القصر الملكي من نراجيل ، وأتلف ما فيه من دخان بدون أمر أو استئذان . وعند ما عنفه الشاه على فعلته . قائلا : وهل استأذنتم قبل الاقدام على ذلك ، أجاب بشجاعة وسكون : « لقد أمر الشرع فلا حاجة بنا إلى استئذان السلطان » .

وبرزت منذ تلك اللحظات حركة مقاومة للشاه ، تمثلت في اتحاد شامل وجمعيات وطنية ، وحاولت الحكومة أن تخفف من ضغط الأزمة ، فأعلنت أنها اتفقت مع شركة الاحتكار على ألا توظف في إدارتها أجنبياً ، ولكن إعلانها لم ينقص من حماسة الأمة ولم يزد النار إلا ضراماً . « فهاجم الشعب محلات الشركة في كل مكان ، ومزق إعلاناتها ، فأرسلت الحكومة خمسمائة فارس بقيادة سعد الدولة للقبض على السيد ( كالمكير كلاروستي ) أحد زعماء الثائرين فلم يتمكن الجنود من ذلك إلا بعد معركة شديدة قتل فيها ما يزيد على مائتي نفس من الأحرار .

« ونزل الشاه على إرادة الحكومة ، وأعلن أن الامتياز قد أصبح باطلاً ، ولكن حجة الاسلام أبى أن يرفع فتوى التحريم حتى يتأكد من بطلانه تماماً . وعلى ذلك استمر الشعب مقاطعاً ، فعز ذلك على ناصر الدين شاه ، فعمد إلى العنف وأرسل إنذاراً الى الحاج ميرزا حسن ميرزا اشتياني أحد كبار علماء طهران

يخيره فيه بين التدخين والنفي ففضل الخروج من بلدته على الخروج على أمته ، وزحفت الجماهير على قصر الشاه معلنة سخطها . وفي أواخر يناير ١٨٩٢ نالت الأمة ما أرادت فألغي الامتياز . وكانت مسألة التنباك فرصة لاعلان الثورة . فكانت على أشد ما تكون في عهد محمد علي شاه حفيد ناصر الدين الذي حاصر نواب الأمة في البرلمان ، ثم سلط عليه المدافع تدكه على من فيه .

وكان من نتيجة ذلك أن أقدم مرزا رضا كرماني تلميذ جمال الدين الأفغاني على اغتيال ناصر الدين شاه يوم الجمعة ١٨ ذي القعدة ١٣١٣ ( ١٨٩٦ ) في إبان الاحتفال بمرور خمسين عاماً على سلطة ناصر الدين شاه أثناء زيارته لمقام شاه عبد العظيم . وما حدث عام ١٨٩٢ شبيه بما حدث بعد ذلك سنة ١٩٥٢ من موقف علماء الشيعة في إيران في حركة تأميم النفط ودفعها إلى غايتها . هذه الحركة التي كانت ستؤتي أكلها ، لولا وقوع الخلاف بين الزعيمين : آية الله كاشاني ومحمد مصدق .

وقد ثارت إيران مرة أخرى عام ١٩٠٧ بعد توقيع المعاهدة الانجليزية الرسية التي اقتسمت إيران وأملت عليها شروطهما . ونظمت مخطط النفوذ الروسي والانجليزي ، وتقاسمت مناطق النفوذ ( شمال إيران لروسيا وجنوبها لانجلترا ) والمنطقة الوسطى محايدة . وهذه المعاهدة شبيهة بالاتفاق الودي الذي عقد بين فرنسا وانجلترا عام ١٩٠٤ باقتسام النفوذ بين بريطانيا في مصر ، وفرنسا في تونس .

وقد أيقظ هذا التنافس الروح الوطنية في البلاد للتخلس من النفوذ الأجنبي . وكانت هذه الثورة معاصرة لثورة ١٩٠٨ في تركيا التي أعلنت الدستور العثماني ، وقضت على حكم السلطان عبد الحميد ، وفتحت الطريق إلى نفوذ الاتحاديين .

غير أن نذر الحرب العالمية الأولى لم تلبث أن وسعت نفوذ الروس والانجليز معاً . فقد سارع الروس إلى احتلال تبريز ، وأرسل البريطانيون قوتهم إلى بوشير والمجرة باسم حماية امتيازات البترول .

ولا شك كان ظهور البترول في إيران ـ الذي حصل الراهب روزنيلوم على امتيازه عام ۱۹۰۱ ـ قد زاد من خطر النفوذ البريطاني في هذه المنطقة . وكان للبترول أهميته الكبرى في الحرب العالمية الأولى مما ساعد الحلفاء على قهر ألمانيا .

وقد ظلت إيران مسرحاً للقتال والفتن طوال مدة الحرب الأولى .

وفي عام ۱۹۱۹ تم توقيع اتفاق انجليزي إيراني مجحف ، مهد للثورة على الاستعمار حتى حدث انقلاب ۲۱ فبراير ۱۹۲۱ بقيادة رضا شاه الذي دعا إلى طرد جميع العناصر الأجنبية من الجيش .

يقول جورج لنشوفسكي : إن إيران لم تعامل مطلقاً باعتبارها منطقة من مناطق التوسع الاستعماري . بل دولة فاصلة بين الهند وروسيا .

* * *

وقع الانقلاب الفارسي الذي قاده رضا شاه في نفس الوقت الذي وقع فيه الانقلاب التركي بقيادة مصطفى كمال . ولقد حاول رضا شاه أن يسير مسيرة مصطفى كمال ، ولكنه لم يجد الطريق ممهداً ، كانت قوة علماء المسلمين الشيعة عاملاً ضخماً في تحفظه : وقد أشار جورج لنشوفسكي في كتابه : الشرق الأوسط إلى أن نفوذ رجال الدين الشيعة . هو الذي أعطاه الحذر والتيقظ ، وأومأ إلى أن الدستور الايراني ۱۹۰۷ كان ينص صراحة على أن الدين الرسمي هو الاسلام على المذهب الجعفري ، وكان على شاه إيران أن يعتنق هذا المذهب ، ويعمل على نشره ، كما كان يحظر على المجلس أن يصدق على أي تشريع ينافي مبادىء الاسلام ، وينص على استشارة الفقهاء في عملية التشريع ، والاستشارة ملزمة . لذلك لم يشعر الشاه أن في استطاعته أن يتحدى هذه النصوص كما أنه بدلاً من أن يشن هجوماً أمامياً في خططه الاصلاحية التجأ إلى طرق عدة ملتوية تحاشى فيها رجال الدين الشيعة وتجاهلهم دون أن يعمل على كبح جماحهم بصورة مباشرة .

وقد أشار لنشوفسكي إلى الفارق بين رضا خان ومصطفى كمال . فقال إن شاه إيران نجح في الاصلاح والتحرر من النفوذ الأجنبي ، وإن كان لم يصل في

الأخذ بأسباب الغرب إلى ما بلغه أتاتورك وقال « ولا شك كانت مهمته أشق من مهمة أتاتورك . لأن بلاده كانت أكثر تأخراً ، ولأن ثقافته وشخصيته كانتا تختلفان عن ثقافة أتاتورك وشخصيته . ومن حق أن يقال إن رضا خان ومصطفى كمال وأمان الله كانوا في عصر واحد . هو : عصر ما بعد الحرب العالمية الأولى . وكان مصطفى كمال هو أجرأ هؤلاء جميعاً إلى الخطو نحو التغريب . وكان عمله يلقى دهشة كبرى ، بحسبان أن تركيا التي كانت ( الدولة العثمانية ودولة الخلافة ) هي التي تقود في العالم الاسلامي حركة التغريب والانفصال عن القيم الاسلامية . وقد سار الثلاثة في خطوط مختلفة ، أما أتاتورك فقد استطاع أن يلغي كل مقومات الحياة الاجتماعية الاسلامية ويفرض نظاماً جديداً كان عرضة للانتقاض بين فترة وأخرى ، ولم يستقم طوال حياته ، ولا بعدها نظراً لخروجه عن طبيعة المجتمع الاسلامي الجذور ، أما أمان الله خان فقد عجز عن فهم مدى قدرة أمته على التغيير فانفصل عنها . أما رضا خان فقد استطاع أن يسير بخطوات بطيئة في سبيل تحقيق إدخال الأنظمة الحديثة فأدخل ١٩٢٧ النظام التشريعي الفرنسي ونظام التعليم الحديث ، وسار في تحرير المرأة سيرة بطيئة ، ولكنه حقق أمرين هامين هما : جعل التعليم إجبارياً ، وألغى الامتيازات الأجنبية .

ولا يخلو أمر الأنظمة المستوردة في العالم الاسلامي من أخطاء وتجاوزات ، وخاصة في إلغاء رضا خان التعليم الديني الالزامي في المدارس الابتدائية والثانوية ١٩٣٠ وتأكيد الناحية المدنية وحدها ، والتخلص من أرضية الفكر الاسلامي في مختلف مجالات الاقتصاد والاجتماع والسياسة والتربية . ·

# ( ٤ )
# أفغانستان : مقاومة الاستبداد والاستعمار

تمثل أفغانستان طوابع الاسلام على نحو يكاد يكون أشد عمقاً من الهند وإيران وتركيا جميعاً ، ويتمثل ذلك في أمرين خطيرين :

( أولاً ) مقاومة الاستعمار الغربي مقاومة حاسمة جبارة اندحرت فيها بريطانيا في ثلاث معارك كبرى امتدت على مدى ثمانين عاماً .

( ثانياً ) : دحض الخطة التي حمل لواءها ( أمان الله ) في فرض الحضارة الغربية في مواجهة حركة ( مصطفى كمال ) في تركيا ، و ( رضا خان ) في إيران .

وقد أكد الباحثون والمؤرخون ان أفغانستان حين تلقت الاسلام آمنت به وتقمصته ووجدت فيه نفسها ، حيث عجزت المجوسية والبوذية والهندوكية أن تعطيها هذا الاحساس العميق بالله والتوحيد . يقول العلامة صلاح الدين السلجوقي « عندما دخل الاسلام الى أفغانستان ، لم يكن نوره غريباً عن مشاعرهم وإحساساتهم ، ولاسيما أن هناك اختلافات فكرية عميقة بين العقيدة الأوسطائية وبين الفكرتين البوذية والبرهمانية ، فلما دخل العرب الديار الأفغانية مبشرين بالاسلام استقبل الأفغانيون مقدمهم وأفكارهم التي تتعلق بالحياة بعد الموت أحسن استقبال .

ويدحض السلجوقي اتهامات الغرب في فرض الإسلام على الافغانيين يقول : يزعم الغربيون أن العرب دخلوا البلاد الافغانية عنوة وغصبا ، وهذا إفك مفترى على الحقيقة ، فنحن معاشر الافغانيين أحببنا العرب منذ ثلاثة عشر قرنا وافتديناهم بكل ما عندنا من فكرة وعقيدة ، لاننا رأينا لديهم مبادىء قويمة

لاءمت قلوبنا وضمائرنا وتراثنا . ولذلك فنحن لم نأخذ العقيدة التي أتوا بها إلينا فحسب . بل أخذنا لسانهم العربي المبين ، حتى القرن الرابع للهجرة كانت اللغة العربية هي اللسان الرسمي ، ولا تزال اللغة العربية حتى يومنا هذا لساننا الديني والعلمي ، وليس لدينا لغة علمية غير اللغة العربية . لقد فتح جنكيزخان ( أفغانستان ) عنوة وغصبا ، وبعد معارك عنيفة ومذابح دامية ، وكذلك دخل الانجليز البلاد ، وما لبث الافغانيون أن أبادوهم عن بكرة أبيهم ، ولكن العرب « حملة لواء الاسلام » فتحوا ديارنا بمبادئهم السامية ، وسواء كانت دينية أو خلقية أو ميتافيزيقية ، وفتح لهم الافغانيون قلوبهم وصدورهم ، متقبلين هذه التعاليم ، حتى أنه عندما ضعف مركز العرب ومركز الخلافة ، وتوقفوا عن نشر الحضارة الإسلامية . كنا نحن معاشر الافغانيين المبشرين بهذه الحضارة والناشرين لها والمجاهدين في سبيلها في أنحاء العالم . ومن حق لقد قدمت أفغانستان إلى الفكر الإسلامي والحضارة عدداً من الائمة الاعلام البارزين : أبو حنيفة النعمان ، وأحمد بن حنبل ، والبخاري ، والترمذي ، وابن قتيبة ، والرازي ، والغزالي . ومن الفلاسفة : ابن سينا ، والفارابي والبيروني ، وجابر بن حيان ، والجرجاني ، ومن الصوفية : البلخي ، والبسطامي . ومن علماء اللغة ، والبلاغة ، والآدب : الزمخشري ، والسكاكي ، والتفتازاني ، والجامي . ومن علماء الكلام : النسفي والقندهادي .

والظاهرة البارزة في أفغانستان هي : أن اللغة العربية لا تزال تسيطر بحسبانها اللغة الثقافية لها . يقول السلجوقي : لا يجد الزائر للديار الافغانية أيّة قرية ـ مهما صغرت ونأت ـ إلا وفيها مكتب أو اثنان على الآقل لتدريس اللغة العربية والإسلام . ولذا فإن لغتنا الغامية تحوي على اثنين في المائة من المفردات العربية ، بينما لغتنا الفصحى تحتوي على ستين في الماثة من الكلمات العربية الصافية الخالصة مما لا يستعمل بعضها أكثر شعوب العالم فصاحة وبيانا . بل إننا نحفظ بعض كلمات عربية جميلة انقرض استعمالها في البلاد العربية . كل ذلك لان اللغة العربية الشريفة هي لغة القرآن الكريم ، لسان الله المبين ، ولان العرب أمة خرج منها رسول الله ولان الإسلام والحضارة العربية الإسلامية قوتا في قلوبنا مبادئنا السامية الخالدة التي ندين بها . وما تزال آثار

هؤلاء الأعلام الذين أنجبتهم أفغانستان ( خراسان ) تدرس في الافغان ، كما أن التفسير الوحيد الذي يدرس هناك هو تفسير جلال الدين السيوطي .» ويرجع هذا الالتقاء الكامل بين الافغان والإسلام إلى طباع مشابهة لطباع العرب حملة رسالة الإسلام ، وبين الامة العربية والافغانية مئات الصفات والسجايا الخلقية والذاتية المشتركة كالشجاعة والصدق والامانة والكرم ، ومثالية الاخلاق ، وقرى الضيف ، والدفاع عن الحق والخير والحرية ».

وقد دخلت اللغة العربية أفغانستان مع الإسلام ، وأصبحت تمثل نسبة لا تقل عن أربعين في المائة من اللغة الوطنية ( أليشتو والفارسية ) والعربية تدرس في جميع مدارس أفغانستان لا على أنها لغة أجنبية . بل على أنها جزء متمم للغتين اليشتو والفارسية اللتين يتحدث بهما الافغانيون ، وتتبع أفغانستان في معاملاتها الدنيوية التاريخ الهجري الشمسي ، فهي كدولة شرقية تعتز بالإسلام قد رفضت أن تأخذ التاريخ الميلادي المسيحي كتاريخ رسمي لها ، وهي في الوقت نفسه كدولة حديثة أبت أن تكون أيام الدولة والمواسم عرضة للتغيير ، فاتخذت الهجرة نقطة بداية للتاريخ ، ولكنها اتخذت شهوراً شمسية لا قمرية ، ولا شك لهذا الطابع الإسلامي الواضح في حياة أفغانستان صلة كبرى باللغة العربية التي تدرس في جميع المدارس المتوسطة . وفي المدارس العالية يتم تدريس مواد الشريعة الإسلامية واللغة العربية وآدابها بصورة أكثر توسعاً وعمقا مثل دار العلوم في كابل وهرات وجلاد أباد .

استطاعت أفغانستان أن تؤكد طابعها الإسلامي العميق بموقفها القوي من النفوذ البريطاني الذي زحف نحوها بعد أن دخل البريطانيون دلهي في الهند . إذ كانوا حريصين على أن يسيطروا على الافغان بحسبانها جارة الهند ، ولكنهم فشلوا في كل محاولات احتلالها ، كانت بريطانيا في كل مرة تعود وهي مثخنة بالجراح ، فقد حارب الافغانيون الاستعمار ببسالة منقطعة النظير ، وخاضوا مع بريطانيا ثلاثة حروب دموية طاحنة ، فقد المستعمر جيشا بأكمله في المعركة الاولى ، ومنيت القوات البريطانية بخسائر فادحة في حرب استمرت أربع سنوات حتى ١٨٣٨ . ثم زحف البريطانيون على كابل وقاومهم الافغان

مرة أخرى واستطاعوا أن يبيدوا جيوشا بريطانية بأكملها في معارك استمرت ثلاث سنوات حتى ١٨٧٨ منها جيش بريطاني بأكمله قوامه سبعة عشر ألفا من الجنود المجهزين بأحدث الاسلحة .

وعاد البريطانيون مرة أخرى إلى الافغان بحجة تأمين حدود الهند فقاومهم الافغانيون في كل مكان وأنزلوا بهم خسائر كبيرة ، وظلت هذه المقاومة حتى عام ١٩١٩ حيث استطاعت أفغانستان أن تنتزع استقلالها الكامل .

***

وقد واجهت أفغانستان بعد معركة الاستقلال ، معركة البناء الفكري والاجتماعي لها. وكان أمان الله خان الذي تحققت على يديه هزيمة انكليز، قد اتخذ منزع الحركة التي قادها مصطفى كمال في تركيا هادفا إلى تغليب الطابع الغربي في الفكر والحياة تغليباً كاملاً ، ولم تتقبل الافغان هذا الاتجاه .

وقد اندفع أمان الله خان في محاولته لتقليد المدينة الغربية دون أن يفهم روح النهضة . وقد أولى اهتمامه للمظاهر الخارجية وحدها ، محاولاً مجاراة مصطفى كمال ناسيا الفوارق والخلافات بين البلدين .

ومن أهم المسائل التي حاول أمان الله أن يتخذ منها موقفا : مسألة تحرير المرأة على هدي من الخطة التي اتبعها مصطفى كمال في تركيا . دون تقدير لأوجه الخلاف بين البلدين على نحو أشار إليه أحد المعلقين(١) السياسيين في تركيا حين قال : نظن أنه لا يمكن أن تكون مصر أو الهند أو إيران مثالا لبلاد الافغان ، لا بد للافغان أن تسير بنظامها الاجتماعي وفاق خصوصيتها الجنسية والمحلية ، وإنما يتسنى للافغان أن تستعير بعض المبادىء من تركيا تكميلاً لنظامها ، بل إننا نرى أن الهند وإيران ومصر لا يمكنها أن تهب الافغان تلك المبادىء . لان هذه البلاد لا تنفك مرتبطة بتقالدها .

---

١ ـ حسين مجاهد

ويقول معلق آخر[1] : لا نظن أن ما يتطلبه الامر من أفغان هو من هذا النوع من الإصلاح اللاديني ، بل إننا نعتقد أنها ستهتدي بهداية دينها المتين ، الذي رفع شأن المرأة إلى أعلى عليين وساوى بينها وبين الرجل قبل أن يخطر على بال أحد من المصلحين أن يسوي بينهما . وما دام الوجدان الافغاني الفردي والاجتماعي مرتبطا بالعقائد والمبادىء القرآنية الوحدانية يتحرك في تلك الدائرة ، فلا بد من أن تكون كل حركة إصلاحية مبنية على احترام هذه الحرية الوجدانية في تلك البلاد . إن سفور المرأة ( وحده ) لا يضمن لها أي رقي وإنما الرقي الحقيقي في تربية المرأة تربية فاضلة تؤ هلها لان تعيش حرة شريفة نقية طاهرة ، فإذا كانت المرأة حائزة على هذه التربية فإنها أشرف وأرقى ، سواء كانت سافرة أم محجبة ، نود أن يكون نصيب المرأة الافغانية من الرقي الحقيقي أعظم مبلغ ، ونود أن نفتح المدارس والمعاهد التي ترى المرأة الافغانية تلك التربية الإسلامية التي تجعلها عامل خير ونجاح في حياة الافغان .

هكذا كان مفهوم الكتّاب المسلمين في النظرة إلى الحركات المستحدثة في تركيا وأفغانستان وإيران ، أما تركيا فقد استمرت في خطواتها تحت نفوذ الحكم الاستبدادي الدكتاتوري المغتصب ، ومع ذلك فقد قاومت تركيا مرة ومرة هذا الحكم ، وقدمت ضحاياها وشهداءها ، أما في إيران فقد خطا رضا خان خطوات متحفظة وئيدة في أعمال الإصلاح ، ولكنه لم يخرج عن دائرة الإسلام ، أما أمان الله خان فقد تحطم ملكه نتيجة لتهوره في الإصلاح .

وقد وصف سردار إقبال علي شاه في كتابه عن أمان الله خان كيف « ظل أمان الله يبتعد عن شعبه يوما فيوماً وهو غافل عن الله سائر في إصلاحاته الحديثة التي أراد أن تصل بها البلاد طفرة واحدة في حين أن غالبية الشعب متخلفة عنه لا ترى مجاراته في هذا الشأن . فلما أن وقعت الكارثة ، واشتعلت الثورة استفاق الملك من غفوته ، والتفت حوله لا يجد معيناً ولا نصيراً ، ذلك أن ذوي الكلمة والنفوذ ـ على حد تعبير سردار إقبال شاه من الزعماء الدينيين كانوا يرون في

١ ـ عمر رضا ـ من جريدة الاخبار ـ ١١/٢/ ١٩٢٤

أعماله خروجا على الدين والتقاليد ، وقد أحفظهم ذلك عليه ، وكان أعيان البلاد وزعماؤها يرون أن الملك تجاهل أمرهم ، وكان يعمل على تقويض ما لديهم من نفوذ قائم ، أما الشعب فقد كان متردداً حائراً . ذلك أن الإصلاحات السريعة التي ارتأى الملك وجوب إدخالها في بلاده جعلت أفراد الامة يتوجسون منها شراً كبيراً . ذلك أن عقولهم لم تستطع أن تفهمها من جهة لسرعة وقوعها ، وكان الزعماء الدينيون وخصوم الملك يصورونها لهم بأبشع الصور من جهة أخرى . وقد ألقت سياسة الملك ( أمان الله ) الرعب في قلوبهم ، إذ أرهقتهم بالضرائب حتى أنه جمع منهم ضرائب ثلاث سنين دفعة واحدة لينفق منها على رحلته هو وزوجته إلى اوربا ، وما كاد يعود بعد أشهر قلائل حتى أخذ في جمع ضرائب جديدة ، لان ما جمعه منها كان قد انفقه جميعه .

ويرى سردار إقبال علي شاه : أنه في البلاد التي لا تقوم حكوماتها على أساس إداري متين والتي تتوقف إدارة أعمالها الإدارية والسياسية على شخصية الحاكم وقوته ونفوذه يحدث مثل هذا الاضطراب ، وعنده أن أمان الله خان لم يكن له من الثقافة والتعليم ، ولا من الخبرة والتجربة ما يوحي إليه الخطة المثلى .

وقد كان من نتائج خطة أمان الله أن تعرضت بلاده لسيطرة باجي سقا على الحكم ، وهو ابن سقا استطاع أن يهاجم العاصمة كابول ويستولي عليها . غير أن هذا الحاكم بالرغم من أنه ألغى جميع ما أدخله أمان الله من خطط . فإن علماء المسلمين رفضوا قبوله واليا على البلاد ، مما مهد لنادر شاه أن يقود معركة إسقاطه ، وقد استطاع نادر شاه أن يعيد ميزان الامور ، وأن يحقق إصلاحات معتدلة في إطار الإسلام وخطا خطوات عاقلة حذرة . وبالرغم من أنه أعد قواته في أرض الهند التي تحتلها بريطانيا ، فقد رفض أن يكون ألعوبة في ايدي البريطانيين ، وظل محافظا على التوازن بين بريطانيا وروسيا .

***

وتعطي هاتان الصورتان عمق طوابع الإسلام في أفغانستان ، ولعل ذلك يرجع إلى وحدة الامة الافغانية التي لم تعرف يوما نزاعاً طائفياً ، أو صراعاً مذهبياً ، فقد كان الدين الإسلامي باحتوائه على الاسس القويمة ، والمبادىء

السامية » عاملا فعالاً في هذا التماسك والمودة .

إن الشعب الافغاني بأسره يدين بالإسلام الحنيف ، ويتمسك بتعاليمه السنية ، وان الديانة الإسلامية مادة أساسية في المدارس والمعاهد . والقانون الافغاني هو الشريعة الإسلامية ، ولا ترى في حياة أفغانستان شيئا يتنافى مع الإسلام ، فالخمر ممنوعة . وعلماء الإسلام لهم نفوذ روحي عظيم .

ومن أفغانستان انبعثت رسالة جمال الدين الافغاني في « اليقظة » إلى مختلف أجزاء العالم الإسلامي ، وما زال اسمه مقترنا بحركات الكفاح والنضال المختلفة في مواجهة الاستعمار والإنجليز بالذات .

وما تزال هزيمة بريطانيا على تراب أفغانستان من المسائل ذات الاهمية البالغة في تقدير الافغانيين . وقد اقاموا نصبا تذكاريا لهذه المناسبة الخطيرة . وقد شهد « تويمبي » الذي شاهد هذا النصب للافغانيين بأنهم دفنوا قتلى الانجليز مثل ما دفنوا شهداءهم . بل إنهم أقاموا تذكاراً لهؤلاء القتلى الانجليز وقال : « وهذا دليل على خلق كريم أصيل في نفوس الافغان » .

# ( ٥ )

# باكستان ومسلمو الهند

بعد الحرب العالمية الثانية قامت دولتان إسلاميتان : هما أندونيسيا والباكستان . ولكي نعرف حقيقة باكستان علينا أن نرجع إلى عام ١٩٣٠ عندما كتب محمد إقبال يقول : ليستْ الوحدات في المجتمع الهندي إقليمية كما هو شأنها في البلاد الاوروبية . فالهند قارة تضم إليها مجموعات بشرية تعود إلى أجناس مختلفة تتكلم بلغات متباينة ، وتدين بأديان غير متقاربة ، وان المبدأ الذي تعتنقه أوربا الديمقراطية لا يمكن تطبيقه بحال على الهند دون ان يسبق ذلك اعتراف بوجود المجموعات الطائفية ، وعلى هذا فمطلب المسلمين له ما يبرره تماما ، وبودي أن أرى البنجاب وإقليم الحدود الشمالية الغربية والسند وبلوخستان قد توحدت وأصبحت دولة ، ويبدو أنه ليس أمام المسلمين سوى هدف واحد ، هو تكوين حكومة ذاتية لهم ، إما داخل الإمبراطورية البريطانية وإما خارجها : دولة إسلامية هندية تقع في شمال غربي الهند ، وحياة الإسلام كعامل ثقافي وحضاري في هذه الدولة إنما ينهض على تركيزه في حدود معينة فقط ، فإذا ما أتيح لهذه الدولة الإسلامية الحديثة أن تقوم فإنها ستكون المدافع الاكبر عن الهند ضد أي هجوم أجنبي عليها ، وإنا لهذا نطالب بتكوين دولة إسلامية موحدة ، وقيامها هذا سيكون في صالح الهند ، كما هو في صالح الإسلام ، لانها ستعمل على محو الطابع الانستعماري الغربي الذي أجبر على طبعها به ، ولانها ستبيح للقوانين والتعاليم الإسلامية أن تسود ، وللتعليم والثقافة أن يعملا جنبا إلى جنب في تعاون لإظهار الروح الإسلامبة الحقة ، وإمكان تطبيقها في هذا العصر الحديث .

وقد مر عشر سنوات حتى قبل حزب الرابطة الإسلامية فكرة إقبال في الدورة التاريخية التي عقدتها الرابطة في لاهور عام ١٩٤٠ وفي ١٤ أغسطس ١٩٤٧

تأسست الباكستان بقيادة محمد علي جناح الذي حمل لواء فكرة إقبال وسار بها حتى تحققت . ولا بد أن يوضع في التقدير تاريخ المسلمين في الهند أولاً ، والدور الذي قامت به بريطانيا بالنسبة لهم عند احتلالها الهند ، وكيف أقصتهم عن مواطن القيادة ، وكيف أثارت أحقاد الهندوس عليهم بعد أن عاشوا في كنفهم قرونا طويلة في محبة ووئام ، وكيف فتحت أبواب التعليم والثقافة والثروة للهندوس ، وفرضت على المسلمين الفقر والجهل والتأخر .

***

حكم المسلمون الهند ما يقرب من ألف عام ، وكان تاريخاً حافلاً بدأه محمد بن القاسم الذي فتح السند ، وامتد بحركة محمود الغزنوي الذي أسس أسرة جعلت من مدينة ( لاهور ) أول مركز للحضارة الاسلامية وثقافتها في هذه الأرجاء ، واستطاع محمود الغزنوي أن يمد رقعة الغزو الاسلامي حتى وصل البنغال ، وجاء بعد ذلك المغول : نسل الامبراطور التتري الكبير « تيمورلنك » ففي عام ١٥٢٦ غزا ( بابر ) شمال الهند ، وجاء بعده ( همايون ) الذي فتح الطريق أمام النفوذ الفكري الفارسي ، وبلغ المغول ذروتهم أيام الامبراطور ( أكبر ) ، وقد قامت الدولة المغولية واستمرت وظل سلطانها في الهند إلى عام ١٨٥٨ وهي الدولة التي اتسعْ سلطانها وتولى عرشها ستة ملوك عظام في مائتي سنة من بابر الى محي الدين أورنك زيت وابرزهم جهانجير وشاه جيهان . وقد حكمت الدولة المغولية بالعدل والاسلام الاحناس والأديان جميعاً . ثم جاء الانجليز بوصفهم تجاراً في الوقت الذي كانت الامبراطورية قد بلغت مرحلة الضعف والتفكك . وقد حصلوا على ميثاق للتجارة عام ١٦٠٠ ثم لم يلبثوا أن سيطروا على مقدرات البلاد . وحتى عام ١٨٥٧ كان المسلمون سادة البلاد ، حين اندلعت الثورة التي ألقى المسلمون فيها بكل قواهم بقصد التحرر من النفوذ البريطاني

***

وللنفوذ الغربي في الهند قصة ، فقد بلغ فاسكودي جاما ميناء كالكوت الواقعة على شاطىء ملبار من جنوب الهند ١٤٩٨ وأقام ستة شهور على شاطىء الدكن

الغربي في رحلته الأولى . وكان العرب يحتكرون الملاحة بين موانىء الهند وموانىء الخليج الفارسي . وقد استظهر دي جاما بالهندوس في محاولة للتنكيل بالبحارة المسلمين من ناحية ، ومنافسة التجار المسلمين من ناحية أخرى ، وكان بعض الأمراء الهندوس قد حمل الى ملك البرتغال رسالة يغريه فيها باحتلال الهند .

وعاد دي جاما الى بلاده ، فاستقبل استقبال الفاتحين ، ولم يلبث أن كر عائداً الى الهند في ثلاثة عشر مركباً محملة بالجنود فاحتلوا كالكوت وتتباعث البعثات البرتغالية حتى عام ١٥٠٩ فوصل الى الهند ( البوكرك ) واحتل ثغر ( جوا ) باسم البرتغال عام ١٥١٠ وفي ١٥١١ احتل البرتغاليون ملقا في جزر الهند الشرقية :

وقد أيدت السياسة البرتغالية الهندوس في ثوراتهم على الدولة الاسلامية ، وكانت الحملات البرتغالية تحمل في ثناياها شيئاً من التبشير بالديانة المسيحية ، واستطاع ملك البرتغال أن يحصل من البابا على صك رسم فيه بأنه « سيد بحار العرب والعجم والهند والحبشة » وحاول البوكرك ان يثير الهندوس ضد المسلمين ، ثم أثار الهندوس ضد بعضهم بعضاً ، ولم يلبث البرتغاليون أن تواروا أمام أوربيين آخرين ، واقترن انهيار الدولة البرتغالية بظهور دولتي هولندا وانجلترا على مسرح السياسة الدولية والمنافسة البحرية . وفي عصر المغول بدأ موكب القراصنة والمغامرين يفد الى شواطىء الهند من البرتغال وهولندا وفرنسا وبريطانيا حتى استقر الأمر لشركة الهند الشرقية .

وكانت معركة بلاسي في البنغال عام ١٧٧٥ من المواقع الهامة في حركة المقاومة التي بدأها المسلمون في الهند منذ اليوم الأول : وقد سجلت مظاهر واضحة من البطولة والفداء . ولم ينتصر فيها البريطانيون الا بسلاح الخيانة . وقد حمل المسلمون وحدهم عبء المقاوة ضد الاستعمار البريطاني ، وتمثلت في نوعين من المقاومة ، مقاومة الأمراء المسلمين ، ومقاومة الفقهاء المسلمين الذين قاوموا على أساس شعبي شامل ، لأنهم رأوا في الزحف الاستعماري قضاء على الاسلام « وقد بدأ هذه الحركة فقيه مسلم زار نجد واعتنق الدعوة الوهابية ونظم تلاميذه ومريديه بطول الهند وعرضها تنظيماً شعبياً ثورياً ضد

الاستعمار البريطاني ، ودعا الى تطهير الاسلام من البدع . وتطهير الهند من الغزاة ، وكان هذا أعظم تنظيم ثوري شعبي عرفته الهند قبل حزب المؤ تمر ، واستمر صامداً في معركة مقاومة نصف قرن كامل حتى سقط آخر قادته شهيداً في معركة دامية في شمال الهند » .

وقد قام الانجليز بأعمال البطش الرهيبة التي قصروها على المسلمين في نفس الوقت الذي حرموهم فيها من التعليم والمناصب ، وأفسحوا المجال والتأييد والولاء للهندوس الى حد آذن بانفجار ثورة الهند الاسلامية الكبرى عام ١٨٥٧ فجأة[١] « والتي بدأت كحركة تمرد بين بعض وحدات الجنود الهنود في الجيش الامبراطوري ، ثم انقلبت الى حرب تحريرية قادها الأمراء والفقهاء المسلمون ، واشترك فيها المسلمون والهندوس والشيوخ والنساء والرجال ، واكتسحت شمال الهند ومراكز النفوذ البريطاني ، حتى أعلن بعض قواد بريطانيا الكبار أن كل شيء قد انتهى ، وان كل ما بنته بريطانيا قد ضاع ، ولم تستطع بريطانيا استعادة نفوذها إلا عن طريق الخيانة والرشوة .

« وقد حمل الانجليز المسلمين مسؤ ولية الثورة ، فقد أعلنت الثورة باسم ( امبراطور دلهي ) وقاد معظم معاركها قواد مسلمون ، ونادى الفقهاء المسلمون بالجهاد ، وأعلنوا الهند كلها ( دار حرب ) حتى يباد الغزاة الغاصبون ، وصب الانجليز كل حقدهم وانتقامهم على المسلمين ، وكان انتقاماً مريعاً ، أعلنوا أنه لن يقف حتى يباد المسلمون عن آخرهم ، وأهدر دمهم ، وأصبح من حق كل بريطاني أو مدني أن يقتل من يشاء من الهنود ، وأعدمت النساء والأطفال ، وأبعدت أسر وعائلات بأكملها في مذابح جماعية لكي « يبادجنين الثورة في أي مكان في الهند » . كما قال القائد البريطاني . ولم يسبق أن عرفت الهند أو عرف المسلمون رعبا ولاً هولاً كالذي عرفوه يومئذ ، وسميت هذه بالمحنة الكبرى ولم ينسوها أبداً .

***

١ ـ بتصرف عن بحث للاستاذ محمد اسماعيل الندوي .

والمعروف أن البريطانيين كانوا قد استهلوا سياستهم في الهند باضطهاد المسلمين إذا إنهم كانوا سادة البلاد الذين نظموا المقاومة التي انتهت بثورة ١٨٥٧ وهم الذين نشروا الدعاية الحارة ضد الاحتلال البريطاني لبلادهم ، فضلاً عن أن المسلمين كانوا ينظرون إليهم منذ البداية نظرتهم الى مغتصبي حقوقهم المشروعة في حكم البلاد .

وقد عمد البريطانيون الى اثارة العداوة بين المسلمين والهندوس ، وأوغلوا في سياسة احتضان الهندوس دون المسلمين ، وعملوا على اقرار قوانين التفرقة بينهم تحت ستار من حرية الاعتقادات الدينية . وقد قاطع المسلمون المستعمرين في كل شيء ، ولم يقبلوا على المدارس التي أنشأوها ، بينما أقبل عليها الهندوس . وبذلك رجحت كفة الهندوس على كفة المسلمين في العلم ، واصبحت وظائف الحكومة وقفاً على الهندوس .

في ميدان المال والأعمال ساعدت الظروف الهندوس بعد أن تحطمت مالية المسلمين بعد ثورة ١٨٥٧ التي صادر منها البريطانيون كثيراً من ممتلكاتهم وأوقافهم ؛ وطرق المسلمون أبواب الهندوس يستدينون ، وانتهى ذلك الاقراض إلى انتقال أملاك المسلمين اليهم ، فلم يبق لدى المسلمين ما يوازي خمسة في المائة من عامة الاملاك في الهند .

غير أن المسلمين لم يلبثوا أن تنبهوا الى الخطر الذي يهددهم من سياسة التجميد ، حيث قام المسلمون بانشاء مدارس خاصة على نفقة المسلمين حرصاً على مجاوزة خطر مدارس الارساليات الأجنبية التي ترفض الاسلام واللغة العربية ، وتفرض مناهج معارضة للقيم الاسلامية اساساً .

وقد كانت حركة السيد أحمد خان هي نقطة التحول في تاريخ المسلمين من الناحية الثقافية والاجتماعية جميعها ، فهي التي كسرت قيد التوقف والمقاطعة للمؤسسات الاستعمارية في التعليم ، وذلك بانشاء كلية عليكرة التي أنشأت جيلا جديداً يجمع بين الثقافة الاسلامية والثقافة الغربية .

وقد كان عمل أحمد خان موضع النقد وموضع التقدير في نفس الوقت ، فهو

في نظره الى عصره قد الغى الخصومة بين المسلمين والاستعمار الانجليزي ، وحاول أن يحل بدلا منها تقارباً وموده ، على صعيد الفكر ، وفي هذا الاتجاه أحصيت على أحمد خان آراءه في شجب الجهاد ضد الانجليز ، وموالاتهم ، وما عرف من تفسيرات للقرآن نسبت إليه تحمل معنى الطاعة والاذعان ، كما حملت مناهج مدرسته نفس الاتجاه في اعلاء اللغة الانجليزية والثقافة الغربية .

وقد هاجم جمال الدين هذا الاتجاه ، وكان كتابه ( الرد على الدهريين ) مُنْصَبّاً على النتائج التي نجمت عنها محاولة أحمد خان ، غير أن النظرة اليوم تختلف . فقد أحدث هذا العمل تحولاً بعيد الأثر كانت له نتائجه الهامة التي جاءت من بعد في صورة النهضة التي حمل لواءها شبلي النعماني وتلاميذه ، ثم محمد اقبال ومدرسته .

ويشبه احمد خان في هذا الاتجاه موقف الشيخ محمد عبده بعد هزيمة الثورة العرابية وسيطرة بريطانيا على مقاليد الأمور في مصر ، وهي خطة اضطرارية احتاج إليها المسلمون خلال الأزمات التي واجهتهم ليتحركوا بدلا من أن يتوقفوا ، ثم جاءت بعد ذلك مرحلة التصحيح للمفاهيم التي حرفت اوحيل بينها وبين الاستقلال الكامل .

وفي الهند اضطر مفكرو المسلمون ـ ويبدو أن ذلك استمر الى وقت طويل ـ الى مثل هذا الموقف الذي فرض عليهم تفسير آيات الجهاد في القرآن على نحو كان نفوذ الاستعمار واضحاً عليه في حجب مفاهيمه الصحيحة .

اما بالنسبة لكلية عليكرة فانها قد استطاعت من بعد أن صححت طريقها أن تعاود تنفيذ الخطة الصحيحة بالنسبة لمفاهيم الاسلام والفكر الاسلامي ، غير أن هذه الحركة التي قام بها أحمد خان كانت قد ركزت مفهوماً للاسلام يشجب الجهاد ، ويفصل بين الاسلام والمجتمع على النحو الذي يحرص الاستعمار على أن يصنع به ، وذلك في مختلف أنحاء البلاد التي احتلتها في محاولة لخلق جيل يؤمن بهذه المفاهيم ، وتكون له الصدارة في تولي مقاليد الامور ، فقد كان أثر هذه المفاهيم بعيد الأثر في أغلب قادة الفكر أو الساسة الذين جاؤ وا من

بعد ، وكان هذا تحولاً عن الطريق الأصيل الذي مضت عليه حركة اليقظة ، والتي كانت والحق يقال ، انها لم تستطع مواجهة التحول الخطير الذى أحدثه الاستعمار البريطاني في الهند . غير أن عمل احمد خان في انشاء كلية عليكرة التي كان يطلق عليها ( الكلية الاسلامية الانجليزية الشرقية ) فد دفع تيار الاصلاح الاسلامي القديم بالتحدى الى تجديد أساليبه ، فنشأت كلية ( ديوبند ) على الأساليب التقليدية ، ثم لم يلبث أن قام تيار وسط حاول أن يجمع بين دراسات عليكرة ودراسات ديوبند تتمثل في ( ندوة العلماء ) ودار العلوم في لكنو ( ١٣١١ هـ ) . ولم يلبث المسلمون في الهند أن وسعوا نطاق الثقافة والتعليم . فقامت جامعات اسلامية في دكا ودلهي ، والكلية الاسلامية في لاهور وبشاور ، ثم أنشأت مدرسة كلكتا وكلية الشيعة في لكنو والجامعة العثمانية في حيدر أباد والجامع العباسي في بهادلبور . وقد خرجت هذه الجامعات عدداً ضخماً من أعلام الفكر الاسلامي في الهند الاسلامية : من أمثال شبلي النعماني ، وأمير علي ، ومحمد اقبال ، ومحمد علي جناح ونذير محمد ، والطاف حسين وكثيرون .

## ـ ٢ ـ

منذ انبعثت دعوة التوحيد من قلب الجزيرة العربية في منتصف القرن الثامن عشر . وقد تأثر بها العالم الاسلامي كله ، وقد جاء هذا التأثر الواضح نتيجة ورود المسلمين الى مكة في موسم الحج واستماعهم الى هذا الصوت الجهير الذي يحمل لواء فكرة متعددة الجوانب قوامها التحرر الفكري في مجال العقيدة والتحرر السياسيّ في مجال مقاومة النفوذ المسيطر والزاحف . وقد كان شاه ولي الله ( احمد ابن عبد الرحيم الدهلوي ) ( ١١١٤ ـ ١١٧٦ مْ ) معاصراً للامام محمد بن عبد الوهاب . غير أن الهند المسلمة امتازت بأنها قدمت مجدداً ومصلحاً سبق ذلك هو أحمد السرهندي ( ٩٧٧ ـ ١٠٣٤ ) والذي عاصر أيام حكم الامبراطور المغولي « أكبر » وكان له دوره في تصحيح كثير من المفاهيم ، ويوصف بأنه مجدد الألف الثاني .

ويعد الدهلوي واحداً من نوابغ المفكرين الاسلاميين : وكانت دعوته الى التوحيد واضحة الأثر وأبرز آثاره الكتابية : « حجة الله البالغة » و « ازالة الخفاجي خلافة الخلفاء » وقد تابعه ابنه عبد العزيز الدهلوي ١٣٢٩ فدرس وألف ووالى عمل أبيه في الدعوة الحق .

ولم يلبث الامام أحمد بن عرفان أن دعا بها الى التوحيد الخالص ، وقام بجولات في الهند كوّن بها جيلا من المخلصين ، ثم لم يلبث أن اتجه الى تأسيس دولة اسلامية تمتد من الهند الى حدود أفغانستان قاعدتها « بشاور » طبق بها نظام الاسلام المالي والاداري تطبيقاً دقيقاً ، وجمع بين العبادة والجهاد ، وقد عرضه موقفه الحاسم الى خصومة رؤساء القبائل الأفغانية ، فثاروا على حكومته ، وكان عمله هذا مقدمة للثورة الهندية الكبرى التي ثارها المسلمون في مواجهة الانجليز . ولم توقف الطريقة العنيفة التي قاومت بها بريطانيا ثورة ١٨٥٧ كفاح المسلمين الا قليلا . اذ لم يلبث ان تجدد مرة اخرى على هيئة جماعات ومدارس ومعاهد .

فقد هب المسلمون لمقاومة التبشير المسيحي ، والتبشير الهندوكي معاً . وكان واضحاً من أسماء جمعياتهم وتشكيلاتهم الاحساس بالمقاومة والدفاع ، أمثال جمعية حماية الاسلام ، وجمعية الدفاع عن الاسلام .

يقول : ك . ك . برج : « كانت كلمة الدفاع هي الصيحة التي ينفر لها مسلمو الهند جميعاً . الدفاع عن الجماعة أو عن الاسلام الذي يواجه ويحدق به خصمان هما : النفوذ الهندوسي والنفوذ البريطاني الحاكم . فقد انبعث المبشرون والمرسلون يدعون الى أديانهم علناً ، ويهاجمون العقيدة الاسلامية ، ويعلنون أن دولة الاسلام قد زالت ، وأن الهند قد أدخلت في الحكم الغربي المسيحي ، وأن هذا هو دين الحكومة ، وقد بدأ ذلك واضحاً في مختلف المدارس والمعاهد التي أنشأها الاستعمار البريطاني .

ولم يكن أمام المسلمين الا خطتهم التي طبقوها في كل مصر ، وهي انشاء مدارس اسلامية خاصة يستطيعون من خلالها تدريس الاسلام واللغة العربية ( وقد فعلت ذلك الجمعية الخيرية التي أنشأها الامام محمد عبده وآخرون في مصر ، وفعل ذلك الامام ابن باديس في الجزائر ) .

وقد بدأ هذا العمل حين اسس مولانا محمد قاسم النانوتوي مدرسة ( ديوبند ) عام ١٢٨٣ هـ وأسس مولانا سعادت علي مدرسة مظاهر العلوم في سهاربنور في نفس ذلك العام ، وتعددت المدارس المدنية في أنحاء الهند ، وكان لها أثرها الواضح في نشر الدين والدعوة الاسلامية ، لم تكن هذه المدارس تنال مساعدة ما من الحكومة ، وكانت قائمة على أساس جهد المسلمين واعتماداتهم الخاصة . مما أثار المقاومة والجهاد ، ولم يكن لأبنائها المتخرجين منها أقل أمل في وظائف الحكومة ، ومن ثم فقد اتجه أكثرهم الى الانقطاع للعمل في تربية الشعب وتعليمه والخدمة بعيداً عن المناصب والرواتب . وبذلك نشأ جيل من الدعاة المتجردين المحتسبين الذين يقنعون بالكفاف ( وهذا شبيه تماماً بما حدث في الجزائر ) . وقد تنبه المفكرون المسلمون الى أن المدارس الدينية القرآنية الخالصة لا تكفي ، فأنشأوا مدارس تجمع بين الدراسات الاسلامية والمدنية ، فأسست ندوة العلماء في لكهنو ،

ثم مدرسة دار العلوم على نمط دار العلوم المصرية ، وقد أبرزت علماء ومؤلفين وفي مقدمتهم : شيلي النعماني ، وسليمان الندوي ، وهما أكبر مؤلفين في السيرة النبوية ، وتعاليم الاسلام .

واذا كان شيلي النعماني قد ساعد احمد خان في انشاء عليكرة ، فانه كان أشد حرصاً منه في الحفاظ على التراث الفكري الاسلامي ، وأشد ايماناً بأهمية هذا التراث ، وكان يؤمن بالتجديد في اطار الاسلام ، ولذلك فقد عمل على بعث تاريخ الاسلام ، فكتب عن عمر والمأمون .

وناقش بعض القضايا التي أوغل فيها المستشرقون ، وكشف عن الرأي الصحيح كمسألة الجزية واحراق مكتبة الاسكندرية ، وعارض الكثير من خلفاء المبشرين والمستشرقين ، وشن هجوماً ضخماً على جرجي زيدان ، وكشف عن أخطائه في كتابه ( تاريخ التمدن الاسلامي ) وكان شيلي النعماني علامة على التيار الوسط بين مدرستي المحافظة التقليدية ، وبين مدرسة التجديد المندفع الى الاعجاب الكامل بالانجليز والموالاة مفاهيمهم الفكرية ، والداعي الى اخضاع الاسلام لها .

فقد دعا شيلي النعماني الى مخطط جديد للتربية والتعليم بين مسلمي الهند ، وحاول تنفيذه في دار العلوم ، ويرمي هذا المنهج الى اصلاح مناهج التعليم وتغيير الكتب القديمة . كما دعا الى تدريس اللغة العربية كلغة حية للقرآن ، كما كانت تدرس في العصر العباسي ، وأضاف بالضرورة مواد علوم الاجتماع والاقتصاد والشريعة الاسلامية ، والثقافة العربية . وكان قد زار مصر عام ١٨٩١ . وشاهد خطة علي مبارك في انشاء دار العلوم ، وقد نجحت فكرة المدرسة الوسطى في الهند ، كما نجحت في مصر وحققت نتاجاً هاماً ، وتخرج منها كثير من المفكرين مثل : أبي الكلام ازاد ، وسليمان الندوي ، وعبد الماجد الدريابادي وعبد الباري الندوي ممن قادوا فكر المسلمين في الهند .

وقد اتجه المسلمون الى هذا العمل الخصيب البناء في ميدان التربية والتعليم

في مواجهة حركتين قام بهما الاستعمار البريطاني :

أولا : هي تغريب مناهج الدراسة في المدارس التي أنشأها حيث خلت من علوم الاسلام واللغة العربية ، وفي مواجهة حملة التبشير الضخمة التي شنها الاستعمار في مختلف أنحاء الهند ، وقد لفت هذا نظر الذين زاروا الهند من أمثال : دكتور عمر فروخ الذي يقول : ان المستعمر لا يريد ان يعلم ابناء البلاد الخاضعة له . واذا اضطر أن يعلمهم ، علمهم ما يضرهم ، أكثرهم مما ينفعهم ، من أجل ذلك لا نستغرب اذا علمنا ان الانجليز لما غادروا الهند كان عدد الاميين فيها قد أصبح ثمان وثمانين من المائة من مجموع أربعمائة مليون نفس . أما الذين يستطيعون قراءة شيء من لغاتهم المحلية ، فكانوا نحو اثني عشر بالمائة ، والذين تعلموا شيئاً من الانجليزية اثنين بالمائة فقط . ويستطرد فيقول : فالجهل هو أحد أوجه التراث الذي يخلفه الاستعمار في كل بلد ، هذا اذا اضطر الى ان يغادر ذلك البلد ، على ان الامية كانت أكثر تفشياً بين المسلمين منها بين غير المسلمين ، ولما استولى الانجليز نهائياً على الهند أخذوا يقضون على عناصر القوة ، وعلى مظاهر القوة في الهند ، ثم حاولوا ان يخضعوهم لمناحي حياتهم تماماً ، كما يفعل كل مستعمر ، وقضوا ما استطاعوا على الحركة الثقافية ، وفرضوا على الموالين لهم من أهل البلاد تعليماً انجليزياً استعمارياً ، قد ابتعد المسلمون في الهند عن التعليم بعاملين أولهما : أن الانجليز أخذوا يذودونهم عن العلم حتى يغمرهم الجهل ، فيغفلوا عن ماضيهم ، ويفقدوا ادراكهم بقيم الحياة الحرة ، والمسلمون في الهند كانوا اشد سكانها مقاومة للانجليز .

ثانياً : كان كره المسلمين أنفسهم للعلم الذي جاء به الانجليز ، لأنه علم غربي أجنبي ، ولقد كان لهذه السلبية أسوأ الأثر في المسلمين فقد غرقوا في جهل بعيد القعر ، وخسروا الجزء الأوفر من نفوذهم السياسي ، ولكن سلبية المسلمين لم يكن مقدراً لها أن تطول ، وأشار الى دور أحمد خان الذي أدرك أن انكماش المسلمين عن العلم مضر بهم ، فحثهم على طلب العلم الغربي ، والى تعلم اللغة الانجليزية ، ثم اسس جامعة عليكرة الخ .

ومع ذلك فقد ظل المسلمون متخلفين في مضمار العلوم نحواً من خمسين سنة عن الهندوس ، وكان تأخرهم في الحياة السياسية على مقدار ذلك .

وقد عمد احمد خان في تنمية كلية عليكرة الى جمع التبرعات من المسلمين من مختلف الأنحاء « ولم يكن ليترك باباً من أبواب سراة المسلمين . بل أبواب فقرائهم الا طرقه مستندياً الأكف لهذه الجامعة » . وكان احمد خان قد أعلن ان أسباب ما حل بالمسلمين من ضعف وتخلف انما يرجع الى انهم لم يتعلموا العلوم الحديثة ، واللغة الانجليزية « لغة الغزاة » . وقد استجاب له كثير من المسلمين واطلق عليه اسم المنقذ الأعظم . قدر البعض أنه لولاه لا نقرض المسلمون نهائياً . وان عارضه جمال الدين الأفغاني وعدد من الفقهاء والعلماء عارضوه في آرائه لا في عمله التعليمي لما عرف عن آرائه ومنحاه في تفسير القرآن . ويرى العلامة محمد اسماعيل الندوي ( الذي انتفعنا بأبحاثه المتعددة في هذه الدراسة ) أن جمال الدين الذي ألف كتاب ( الرد على الدهريين ) في مواجهة ما أذيع عن أحمد خان لم تتح له فرصة طيبة لكي يطلع على الدعوة التي قام بها « وأن أحمد خان كمصلح ديني يذود عن كيان الدين تلك الحملات الفكرية الصليبية ، ولم ترقه الكتب التي وضعها المستشرقون مثل : وليم موير وغيره من الذين طعنوا في الاسلام ، وصاحب الشريعة وتعاليمه ، وقد صنف في الرد عليهم بالأردية . وقد أنكر الندوي ما تردد من أن هناك صلة ما بين دعوة أحمد خان ، وبين القاديانية ، وكل ما وجه الى احمد خان أنه خالف دعوة الجهاد ضد الانجليز ، وكان هذا رد فعل لنزعة العلماء الذين أفتوا بأن الهند دار كفر ، وعند الندوي أن مسالمته للانجليز كانت لمصلحة المسلمين وترقية أحوالهم ، وهو يشبه في ذلك الشيخ محمد عبده » . ويذكر في هذا الصدد أن احمد خان رد على كتاب مسلمي الهند الذي ألفه احد المستشرقين بكتاب ( أسباب العصيان الهندي ) وضح فيه للبريطانيين فداحة الاخطاء التي ارتكبوها في الهند ، وأبان عن مسؤ ولياتهم ، وانعدام الاختلاط الاجتماعي بين الحكام والمحكومين ، وتدخل الحكومة في الشؤ ون الدينية تدخلا غير مرغوب ، ويرى بعض الباحثين أن الانجليز قد استطاعوا ان يكسبوا الى صفهم طائفة ممن يتسمون بسمة الاسلام ، وقد أتاحوا لهم من الشهرة ما يجعل لارائهم مكانة ،

وأن هؤلاء قد حرفوا مفاهيم الاسلام الاصلية بما يخدم مصالح بريطانيا ، وان هؤلاء قد حملوا لواء الدعوة الدهرية والطبيعية ، فكانوا اعواناً للانجليز في افساد العقيدة الاسلامية ، وأن دور الدهريين كان أخطر من دور المبشرين الذين هاجمهم الناس وأنكروهم ، ويصل هؤلاء الباحثون أحمد خان بهذه الفئة . وقد جعلوا من انشاء جامعة « عليكرة » وسيلة الى بث هذه الاراء . واحصوا عليه ما ردده في تفسيره للقرآن من أمور أهمها : تهوينه من فرض القتال على المسلمين ، والتقليل من شأنه تحت ستار التسامح الانساني ، والتعاون العالمي ، وكذلك ما يتصل برأيه في نفي المعجزات .

ومن هنا كانت حملة جمال الدين عليه وكان ما قيل من أن آراءه كانت تمهيداً لظهور المذهب القادياني ، ولا بد أن يكون لما ورد من ذلك أثر ما . عير أنه لا بد من الاحتياط في تقدير اختلاف النظرة الجذرية في موقف جمال الدين من الانجليز ، وموقف أحمد خان منهم . فالأفغاني رجل ثائر وخصم عنيد لبريطانيا ، وحامل دعوة تنكيس أعلام بريطانيا في كل مكان يذهب اليه . أما أحمد خان فهو مصلح قد اقتنع بأن من مصلحة المسلمبن الهنود اتخاذ خطة مسالمة مع البريطانيين حتى يستطيعوا البقاء والنهوض ، ولا شك أن ما صنعه احمد خان كان بعيد الأثر ، وان كان ذلك لا يمنع من المؤاخذة على تطرفه في بعض الاراء ، وان كانت كلية عليكرة قد صححت بعد ذلك مناهجها حتى لا تصادم القيم الأساسية للفكر الاسلامي .

ويبدو ان اليقظة الاسلامبة في الهند كانت مضطرة الى ان تأخذ طابعاً معيناً اختلف شيئاً ما عن طابع اليقظة الاسلامية العربية ذلك في سبيل السماح لها ان تنطلق من تحت مدافع البريطانيين .

ذلك ان بريطانيا والاستعمار جملة كان حريصاً على ان يقوض روح الاسلام في المسلمين الهنود ، ويحل محلها طابع الذلة والفقر والجهل جميعاً في شماتة وحقد بالغين . وقد أشار الى هذا ( ك . ك . برج ) في كتابه « وجهة الاسلام » حين قال : « واخذ المسلمون يتقهقرون بانتظام حتى ألفوا أنفسهم في منزلة من الانحطاط والمهانة ، ذاقوا ذل الحقيقة المرة ، وهي انهم بغد ان

كانوا سادة الهندوك منذ ستمائة سنة اصبحوا كالهنود رعية ( للانجليز ) .

وقد تمثلت هذه الضربات في جعل اللغة الانجليزية لغة التعليم ، وابطال قانون العقوبات والغاء القضاة الذين كانوا يطبقون الشريعة ، ووجد المسلمون ان جاههم ولّى ، وان قوانينهم زحزحت عن مكانها ، وان لغتهم اهملت جانباً ، وان تعليمهم فقد قيمته . ثم وقعت ضربات اخرى اقوى . . . . انتهت بمحو آخر ما بقي من مظاهر حكم المغول ، وبمصادرة املاك المسلمين مصادرة واسعة النطاق . هذه النكبة الاخيرة انزلت المسلمين الى اسفل درك من الكبرياء المثلوم واليأس القائم مما لاح أنهم لا يقدرون على الخلاص منه .

نعم بهذه اللهجة الحاقدة السيئة يتحدث مستشرق عن صورة الاحتلال البريطاني للهند . ثم هو لا يتوقف عند هذا الحد ، بل يهاجم علماء المسلمين ويصفهم بالتعصب ، لانهم أنشأوا جماعة « الرجوع الى القرآن » ورفضوا ـ ما أسماه ـ الفرص التي أتاحها لهم الانجليز لتحصيل « العلم الأوربي » . ولكن ( ك . ك . برج ) لم يكن منصفاً وتحمل شعاراً واحداً هو : يغفل كل الحق ، فقد واجه المسلمون الاحتلال البريطاني بارادة صلبة ، وقوة ودرامة . ولم تتوقف حركات المقاومة منذ يوم الاحتلال ، واستمرت برغم كل ما فعلته بريطانيا من مجازر ومن وقيعة بينهم وبين الهندوس ، ومن تسييد الهندوس عليهم رغبة في اذلالهم بحسبان أنهم كانوا هم الحكام والامراء . وكانت كل الحركات والجماعات والجهود التي قامت على أثر انقضاض بريطانيا تحمل شعاراً واحداً هو : « الرجوع الى القرآن » .

وان المسلمين حين رفضوا العلم في مدارس الارساليات التبشيرية البريطانية كانوا كراماً على أنفسهم ، لأنهم أنشأوا مدارسهم بنقودهم القليلة ، ولم يقفوا عند المدارس وحدها . بل أنشأوا الكليات . ثم برزت جمعياتهم من تحت حراب الاحتلال . فكانت جمعية علماء الهند في امبالا وفي البنجاب ، ولها فروع في مختلف البقاع مهمتها المزدوجة هي :

( ١ ) مكافحة حركة ( ارياسماج ) التي شجعها البريطانيون بالدعوة الى

تخليص الجنس الاردي ، وهي حركة تدعو الى الوثنية القديمة ، وهي شبيهة بالدعوات التي أثارها الاستعمار في مصر بالفرعونية ، وفي لبنـان بالفينيقية ، وفي المغرب بالبربرية .

( ٢ ) ارسال مبشرين يعلمون المسلمين المتأخرين .

وبرزت ايضاً جمعية ( حماية الاسلام ) في كل مدينة تعنى بتعليم المسلمين ( ومركزها في لاهور ) وتعمل على دحض الافتراءات ، والشبهات الموجهـة للاسلام ، والعناية بأيتام المسلمين .

وعدا هذا عشرات من الجماعات والمدارس والمعاهد ( الجامعة العثمانية ، الجامعة الملية ، دار العلوم ، ندوة العلماء ، مدرسة ديوبند ) ولم يكن احمد خان وحده ، ولا كلية عليكرة وحدها هي مصدر اليقظة ، ولكنها كانت عملا مشاركاً لأعمال اخرى كثيرة ، وكان ايمان زعماء الجماعة الاسلامية في الهند في مواجهة الاستعماز البريطاني منصباً على قاعدة أن « التعليم اول ما يلزم كل انسان ) وهي نفس القاعدة التي دعا اليها الامام محمد عبده في مصر بعـد الاحتلال البريطاني .

ولقد كانت بريطانيا حريصة على أن تقضي على الاسلام كأساس ابقاء لنفوذها في الهنـد ، وذلك بالقضـاء علـى علمـاء المسـلمين او تحويلهـم عن القيم الاساسية لمفاهيم الاسلام الجوهرية ، وخاصة مفهوم الجهاد ، وترابط الدين والمجتمع ، ويحفظ المسلمون الهنود في هذا قول لورد البنرو : « ان العنصر الاسلامي عدو اصيل العداوة لنا ، وان سياستنا الحقة ينبغي ان تتجه الى تقريب الهندوس » ومن هنا فلما بدأت اليقظة الاسلامية واستشرت ، عمد الاستعمار البريطاني الى ان يحول بينها وبين كمـال ذروتهـا وانطلاقهـا ، واستطـاع ان يحجب قادة المسلمين الذين فهموا الاسلام فهماً صحيحاً ، عن مكان الصدارة والقيادة . وكان من أهم الظواهر في هذا الشأن أن الذين حملوا لواء الرابطـة الاسلامية « كانوا ممن تخرجوا من الكليات العصرية ، ولم يكن لهم سابق علم ولا معرفة بالاسلام ومبادئه ونظمه الخالدة[١] » . ومـن هنـا لم يتصـدر للقيادة

---

١ ـ كتاب نظرة اجمالية في تاريخ الدعوة للاسلام في الهند وباكستان : مسعود الندوي

السياسية اصحاب المفاهيم الاسلامية ، وشأن الهند في هذا شأن جميع السياسيين الذي تصدروا بعد الحرب العالمية الأولى في اندونيسيا وفارس وتركيا وافغانستان والعالم العربي . والمعروف إن الاستعمار في الهند ـ كما في مصر وغيرها قد حرص على الفصل بين التعليم الديني والتعليم المدني ، وحال دون اندماجها . وبذلك خلق « ثنائية ثقافية » ادت الى الصراع الفكري والنزاع التربوي . وقد اتاح لاصحاب العلم المدني الوصول الى المناصب القيادية بينما جمد الاخرين . غير انه فيما عدا قطاع السياسة فقد ظل المجتمع الاسلامي مؤمناً بمفهوم الاسلام متكاملاً قوياً في أخص خصائص جوهره . وقد تبلور هذا التيار واتسع في الحركة الثقافية التي تمثل المدرسة الوسطى والتي فهمت الاسلام متكاملا بقيادة شبلي النعماني ، وحافظ نظير ، ومحمد حسن ازاد ، وأمير علي ، وسيد ألطاف حين ، وكانت كتاباتهم شعراً ونثراً ) دعوة الى انهاض الاسلام والكشف عن سر الازمة التي أخرت المسلمين ، وتوصف قصيدة ( مدّ الاسلام وجزره ) التي نظمها سيد ألطاف بأنها من قمم هذه الدعوة الى التحرر والمقاومة المستمدة من مفهوم الاسلام ، فقد دعت المسلمين الى اطراح الاستسلام والايمان بأن ارادة الله تدفع المسلم الى العمل والمقاومة ، ورددت مفهوم القرآن في دعوة المسلمين الى الحرية والكبرياء والكرامة ، وهذا هو الخط الذي نماه أمير علي في كتابه المشهور « روح الاسلام » وتابعه ( خدابخش ) ثم بلغ قمته في أعمال « محمد اقبال » .

ويدور مفهوم النهضة عند هذه المدرسة حول تنقية الاسلام من الشوائب والتماس « أساسيات الاسلام كما أوحاه الله في القرآن ، فالاسلام ليس جامداً ، ولكنه قادر على مسايرة العصور والحضارة ، وعلى المسلمين أن يحتفظوا بقيمهم الأساسية ، ثم يحصلوا علم أوربا » وكان لجمعية أهل الحديث دورها في هذه الحركة ، فقد عملت عن طريق مدارسها ووعاظها وصحفها على تطهير الاسلام في الهند من المفاهيم الوثنية ، وكانت جماعة « أهل القرآن » تدعو الى تأكيد قيمة القرآن أساساً . وقد دحض هؤلاء جميعاً الاراء الخاطئة التي رددها خصوم الاسلام بغية القضاء على مقومات العزة والقوة

في نفوس المسلمين ، ومن رأي « أمير علي » أن الاصلاح يجب أن يسبقه التعليم وتحرير العقل من القيود ، وهو من المؤمنين بأن للاسلام قدرة على صبغ ما عداه بصبغته . أما العلامة : « خدابخش » فيرى ان الاسلام يجب ان يدافع عن نفسه امام الغرب بنفس الأسلحة التي صاغها الغربيون . وعلى المسلمين أن يستفيذوا من أساليب التعليم والثقافة ، وطرق الغرب في البحث ليجعلوا ذلك في خدمة تقدمهم . وهو من المؤمنين بأن روح الاسلام الحقيقي قادر على الوفاء بمقتضيات الزمان والمكان ومفتاحه وحدانية الله وشعاره الأخوة الانسانية .

وقد بلغ محمد إقبال غاية القوة والعمق في الدعوة إلى إيقاظ المسلم ، وشجب نزعة ( الجبرية ) التي سادت من خلال استشراء فهم خاطىء للتصوف ، ويعد « إقبال » رمزاً على المثقف المسلم الذي أتيحت له فرصة إحراز أرقى الدرجات والرحلة إلى الغرب ، والاقامة فيه ، دون أن يقضي ذلك على روحه المسلمة العميقة ، الإيمان بالله وبالاسلام ، ويرى إقبال في الإسلام « المثل الاعلى » الذي لو تحقق تماماً لاوفى بكل مطالب الإنسان في هذه الحياة ، وفي الحياة الاخرى . وإذا كان ( أمير علي ) قد حقق بمحاولته الضخمة في كتاب ( روح الإسلام ) أن يكشف عن جوهر الإسلام على نحو يبني المجتمع المسلم ، فإن ( إقبال ) قد عني ببناء الفرد المسلم كأساس لبناء المجتمع . وعنده أن الفكرة الاساسية الإسلامية هي إقامة أخوة شاملة بين الناس ، غير أن انتصار العرب السياسي الذي لم يكن متوقعا ، وأن ما طبعه من طابع امبراطوري قد عاق تحقيق فكرة إقامة الاخوة الشاملة بين الناس ، ويرى إقبال أن الخطر العظيم الذي يهدد الإسلام هو روح العصبية في الشعوب ، تلك الروح التي لها دلائل كبيرة في معظم البلاد الإسلامية « فالفرس الذين دعتهم عصبيتهم إلى الانحراف عن جمهور المسلمين طالما افتخروا بما كان لهم من تاريخ قبل الإسلام ، كما اشتد الشعور الجنسي في تركيا ومصر ، حيث أخذ الناس يفخرون بتاريخهم الوثني القديم بحذافيره وفراعنته ، ويرى إقبال « أنه ليس في الاسلام قوميات ولا نزعة امبراطورية . بل هو « جمعية أمم » تعترف بالحدود الصناعية والفروق الجنسية لسهولة الإشارة فحسب . لا

لتضييق الافق الاجتماعي » . وقد طفق إقبال منذ عام ١٩٠٨ حتى وفاته يردد في شعره أن تعاليم الإسلام المستمدة من القرآن هي وحدها التي في استطاعتها إعادة الحياة إلى المسلمين ، كما دعا إلى العمل والحركة في بناء الحياة والارتفاع بالإنسان ، والإخاء الإنساني والتوحيد والإيمان بالذات ـ وقد حملت دعوته أساس مقاومة الجبرية التي تأثر الإسلام بها حين اتصل بفلسفة البراهمة وبالمذاهب الفلسفية المنحرفة كوحدة الوجود والحلول والاتحاد مما كان سبيلاً إلى ضعف المسلمين وهزيمتهم وتواكلهم ، وسيطرة الاستعمار الغربي عليهم ، وعنده أن العمل واليقظة والقوة هي من مقومات الإسلام أساساً قبل أن تكون من أدوات الحضارة المدنية .

ومذهب « الذاتية » في فلسفة إقبال يعني : « الروح المنشىء الذي أودعه الله في الإنسان ، وجعل العمل والدأب أساسه . وقد دعا إلى نمو الذات بالسعي والعمل الذي لا ينقطع في سبيل تجديد الحياة والقوة والقدرة على التحرر من تحكم الغير . كما دعا إلى أخوة الإسلام .

ومن أبرز القضايا التي حمل لواءها : الدعوة إلى إنشاء باكستان ، إيماناً بأن أساس الحياة في المجتمع الإسلامي يختلف عن أساس الحياة في المجتمع الهندوكي .

***

ومما يضع العلامات الاساسية لاتجاه « إقبال » العبادة التي صكت أذنه حين قال له والده : « اقرأ القرآن كأنما أنزل عليك » فهو يرى في القرآن أعمالا وحقائق ، ويعتقد أن كل آية تنطوي على حركة وحياة تدفع المسلمين إلى الامام ، وأن الإسلام كشف القناع عن أسرار الكون ، ولذلك فلا ضير أن يأخذ المسلمون الحضارة الحديثة « فإنها ليست سوى ازدهار لبعض الجوانب الهامة في الفكر الإسلامي . هذا الفكر الإسلامي الذي حمله الاوربي ونماه حتى سيطر على الطبيعة ، بينما تخلى عنه المسلم ، وعاد إلى الاستكانة مع تصوف البوذية وجبرية البرهمية » ويقول إقبال : إن النبي محمداً هو روح الثقافة الإسلامية ، هذا النبي العظيم يبدو أنه يقوم بين العالم القديم والعالم

الحديث ، فهو من العالم القديم باعتبار مصدر رسالته ، وهو من العالم الحديث باعتبار الروح التي انطوت عليها ، وان مولد الإسلام هو : مولد الاستدلال العقلي القائم على الاستقراء .

وقد وقف إقبال ضد نظريات الحلاج وابن عربي ، وهاجم الرياضات الصوفية وقال : إن قصد الرسول هو إنشاء أمة صاحية ، ويؤكد أن الامة الإسلامية لم تتأخر ولم تتراجع إلى السلبية القاتلة إلا بعد انهيار سلطانها السياسي ودخول التيارات القرمطية والفارسية بمختلف أقطارها الداعية إلى الهرب من الحياة ، والداعية إلى قتل الذات وإفنائها ، وكل أمة يصيبها ضعف كالامة الإسلامية تتبدل أنظارها ، وتحمل الاستكانة في أعينها ، وتركن إلى ترك الدنيا . وفي ترك الدنيا تخفي ضعفها وهزيمتها في تنازع البقاء .

وعنده أن النظرات التشاؤمية قد استمدت زادها من الفلسفات اليهودية والمسيحية ، وأن هذه الفلسفات كانت مصدر كل تشاؤمية جبرية قاتلة لكل مفاهيم الحرية والارادة والإيمان الصحيح بالله والحياة « فإذا درسنا القرآن نجد أنه صحح المفاهيم التي أخطأ النظر فيها قارئو العهد القديم والجديد حين أوضح أن الله سبحانه وتعالى جعل الارض مستقراً ومتاعاً ومكاناً للسعي ، وتمكيناً للمعاش ، ولم يجعلها لعنة ، أو ساحة تعذيب سجنت فيها البشرية الشريرة العنصر بسبب ارتكابها الخطيئة ، فإن المعصية الاولى للانسان تدل فيما تدل عليه أنها أول فعل تتمثل فيه حرية الاختيار والارادة . ومن هنا كانت المسؤولية ، لهذا تاب الله على آدم وغفر له .

ومن هنا كانت نظرية إقبال هي توكيد بالذات في هدم نظرية وحدة الوجود بكل مفاهيمها المنفصلة عن روح التوحيد .

## - ٣ -

بدأت الحركة الوطنية لتحرير الهند في أحضان الحركة الإسلامية ، وقد أزعجت الاستعمار البريطاني هذه الخطوة ، فعمد إلى القضاء عليها بأسلوب غاية في المكر والبراعة نحى بها المسلمين عن قيادة الحركة الوطنية وأسلمها إلى الهندوس ، وأجراها على الاسلوب الذي أراده . فالاستعمار البريطاني الذي سيطر على الهند بعد ثورة ١٨٥٧ التي قادها المسلمون كان حريصا ألا يتحقق للمسلمين السيطرة على الهند التي ظلت تحكم الهند أكثر من خمسمائة عام مرة أخرى بعد أن أسقط دولتهم . والمعروف أن المسلمين قاطعوا مدارس الاحتلال ، وعزفوا عنها حتى أتيح لهم إقامة نهضة تعليمية ، داخل إطار دينهم وثقافتهم ، وذلك بإنشاء عدد من المعاهد ، جاءت في مقدمتها الكلية المحمدية الإنجليزية التي أقامها أحمد خان ، وأطلق عليها من بعد كلية عليكرة . ثم تعددت الجامعات والمعاهد في لاهور ولكنو ، ولم تلبث أن حققت تقدماً واضحاً في هذا المجال ، ثم اتجه إلى العمل لتحرير الهند فألفت الجمعية الإسلامية العامة في لكنو ( بومباي ) وكان يشرف على أعمالها أكابر المسلمين في الهند :( أغاخان ، وفاضل حسن ، ومظهر الحق الهادي ) مطالبين بحقوق المسلمين الهنود كوطنيين ، بدأ ذلك عام ١٩٠٧ واتسع وتعمق بإنشاء جمعية عامة تشرف على أعمال الاحزاب السياسية بقيادة شيخ المسلمين في الهند مولانا محمود الحسن . وقد استمرت تعمل في الخفاء عشر سنين ، وإليها يعود الفضل في يقظة المسلمين السياسة في الهند .

وكان الهندوك قد أعلنوا إنشاء المؤ تمر الوطني العام ، وسموه المجلس الملي الوطني الهندي العام ، وكانت غايته كما أشار تقرير ( عبد العزيز الثعالبي )[١] أن

---

١ ـ راجع تقرير الثعالبي : البلاغ ابتداء من ٢٢ يونيو ١٩٣٧ وما بعده

ينالوا حقوقا سياسية تخولهم السيادة على الاقليات ( وهم لا يريدون من كلمة الآقليات غير المسلمين ) وفي عام ١٩١٦ تنبهت حكومة الاحتلال إلى حركة الجمعية الإسلامية فأوعزت إلى محمود الحسيني أن يغادر الهند وقبض على أعوانه : أبو الكلام أزاد ، حسرت مهاني ، ظفر الله خان ، محمد علي ، شوكت علي .

ولما عقدت الهدنة في ١١ نوفمبر ١٩١٨ أعلنت الحكومة البريطانية استعدادها لإجراء إصلاحات في قانون الهند ، فاتفق الفريقان ( المسلمون والهندوس ) على عقد مؤتمر في لكنو يجتمع فيه زعماء الفريقين ، وفي عام ١٩١٩ أطلقت الحكومة المسجونين السياسيين المسلمين ، فاجتمع زعماؤهم في لكنو بدعوة مولاي عبد الباري . رئيس علماء افرنجي محل ، فتداولوا في تأسيس جمعية إلاسلامية لتنظيم مطالب الاستقلال ، وكان قد ظهر في هذا الوقت تآمر الدول الكبرى مع تمزيق شمل الدولة العثمانية ، فأطلق على هذه الجماعة ، ( جمعية إنقاذ الخلافة من مخالب الاعداء الطامعين ) . وتأسست جمعية الخلافة في بومباي ( ١٨ فبراير ١٩٢٠ ) برئاسة غلام محمد فتو ، ميان محمد حاجي خان . ودخل في عضويتها الزعماء الملمون المعروفون في الهند ، ودعت اللجنة المسلمين إلى جمع الإعانات للدفاع عن حوذة الخلافة فأقبل المسلمون بسخاء وجمع ما لا يقل عن سبعة عشر مليون روبية إلى أضعاف ذلك . يقول : عبد العزيز الثعالبي في تقريره : كان ( غاندي ) إلى تلك الآونة غير معروف في الهيئات السياسية في الهند ، وكان متطوعا في فرقة تمريض الجنود ، ولما انتهت الحرب وانفصل عنها ، كانت جمعية الخلافة في بدء تأليفها فأقبل عليها . . وكان اسمه غير معروف إلا بين الافراد القلائل الذين عرفوه في الناتال وجنوب أفريقيا فتيامن به زعماء المسلمين رغم تحذير الملولوي ( خوجندي ) وكان على صلة به من قبل ويعلم من أمره ما لا يعلمون . وبالاخص من ناحية تعصبة للهنادكة ضد المسلمين ، وشاءت الغفلة أن تنطوي هذه الحركة العظيمة على يديه ، فقعد في جمعية الخلافة مقعد الناصح الامين ، وجعل يشير عليها باستئلاف الهنادكة ، فقبل الاعضاء نصحه عن حسن نية وندبوه للسعي إلى ذلك . فقام وطاف الهند على حساب الجمعية

يدعو إلى الوفاق . ويقول المطلعون على خفايا الامور إنه كان يتصل بالهنادكة ويتآمر معهم على شل الحركة الإسلامية ، ولما عاد من الرحلة سعى في إقناع جمعية الخلافة بالانضمام إلى الكونجرس ( المؤتمر الوطني ) الذي تأسس لملاحقة المنسلمين ، وانتزاع حقوقهم في الهند ، فانضمت إليه جمعية الخلافة وتبعتها بقية الاحزاب الاسلامية المعروفة ارتكاناً على الثقة بغاندي ، وعقد الكونجرس اجتماعا فوق العادة بعد انضمام المسلمين إليه في مارس ١٩٢٠ في بلدة باكبور حضره ١٥ ألف مندوب أكثرهم من المسلمين ، ولما تلي عليهم القانون الاساسي اقترحوا تعديل المادة التي تقول باصلاح حالة الهند إلى عبارة ( استقلال الهند ) فوافق على ذلك المؤتمر ، وشرعت الاحزاب الهندوكية منذ ذلك اليوم تطالب بالاستقلال التام طبق رغبة المسلمين . وكانوا قبل لا يطالبون إلا بإجراء إصلاحات . فارتاعت الحكومة ( البريطانية ) لهذا التغيير وعدته فاجعة في سياسة البلاد ، وعلى أثره ألقت القبض على الزعماء وزجتهم في السجون ( واجتمع قادة الحركة ) وعرض أبو الكلام أزاد اقتراحا باسم الاعضاء المسلمين يتضمن إعلان الامة الهندية بأن الحكومة الحاضرة غير مشروعة مع دعوة البلاد إلى مقاطعتها ، فوافقت الجمعية وانعقد على أثره ( مؤتمر جمعية الخلافة ) فأعلن موافقته أيضاً بالاجماع ، وبعد أن جرى تصديق المؤتمر على قرار المقاطعة ، قام غاندي خطيباً وقال : إن اتحاد الهنادكة مع المسلمين يبقى متينا ما لم يشرع المسلمون في مناوأة الحكومة ، ويشهروا السلاح في وجهها ، ورد عليه أبو الكلام أزاد فقال : إن كان غاندي يتصور أن أعمال المسلمين في الهند لا تقوم إلا على مساعدة الهنادكة . فقد آن أن يخرج هذه الفكرة من دماغه ، وليعلم أن المسلمين لم يعتمدوا قط على أحد إلا على الله وعلى أنفسهم . . . وشرعت الامة الهندية عقب ذلك في مقاطعة الحكومة واظهار العصيان المدني فامتنعت عن دفع الضرائب والرسوم ، وتخلى المحامون عن الدفاع أمام المحاكم ، وأعاد أصحاب الرتب النياشين والبراءات الحكومية ، وأحرق التجار المسلمون جميع ما في مخازنهم من البضائع الانجليزية ، وترك المسلمون الموظفون مناصبهم في الحكومة ، فحل الهنادكة محلهم ، وهاجر عدد كبير من أكابر المسلمين إلى الافغان بعد أن تركوا أملاكهم وأرضهم في

الهند واشتدت المقاطعة في البنغال اشتداداً عظيماً ليس له مثيل . فقد امتلات سجونها بالمقاطعين من المسلمين ، حتى إذا أعيا الحكومة أمرهم صارت تقبض على يوم على ألف شخص في الصباح وتطلقهم في المساء ، لان السجون لم تعد تسع المعتقلين ، وخطب اللورد ريدنج ( الحاكم العام ) في كلكتا فقال : إنني شديد الحيرة من جراء هذه الحركة ، ولست أدري ماذا أصنع فيها ، ومن هذا السياق تستطيع أن تتصور قوة المسلمين في الحركة الوطنية وضعفها في الهندوكية .

ولا شك أن الهندوكي بالغ ما بالغ من النشاط السياسي لا يستطيع أن يجابه الحكومة كما لا يستطيع أن يحارب المسلمين إلا بسلاح الدس . وقد اجتمع الزعماء عام ١٩٢١ وأعلنوا استقلال الهند استقلالاً فعليا ، وعينوا ولاة الولايات وحكام المقاطعات ، وقضاة المحاكم في جميع المدن ، فكان الوطنيون يرفعون قضاياهم أمامهم ، ويتجاهلون محاكم الحكومة ، وبسبب ذلك تعطلت أعمال الحكومة والبوليس ، وحدث ارتباك شديد في الدوائر العالية بالهند . غير أنها بدلا من أن تستعمل القوة القاهرة لكفاح الشعب الاعزل لجأت إلى المناورات السياسية . وهي أشد خطراً . وكان بطل هذه الحركة المهاتما غاندي زعيم الهند . فقد اتفق اللورد ريدنج مع غاندي على حل الوفاق القومي بين المسلمين والهندوك . وقد أذيع الحديث بواسطة المصادر البريطانية عقب ستة أشهر . فقد نقل أن اللورد قال لغاندي : إن مصدر الحركة الاستقلالية في الهند المسلمون ، وأهدافها بأيدي زعمائهم ، فلوا أسرعنا وأجبناكم إلى طلباتكم وسلمنا لكم مقالبد الاحكام . الا ترى ان البلاد آيلة للمسلمين ، فماذا يكون حال الهنادكة بعد ذلك . هل تريدون الرجوع إلى ما كانوا عليه قبل الاحتلال البريطاني .

وهل تفيدكم يومئذ كثرتكم ، وأنتم محاطون بالامم الإسلامية من كل جانب وهم يستمدون قوتهم منها عليكم . إذا كنتم تريدون أن تحتفظوا لانفسكم باستقلال الهند فعليكم أن تسعوا أولا لكسر شوكة المسلمين ، وهذا لا يمكنكم بغير التعاون مع الحكومة ، وينبغي لكم أيضا تنشيط الحركات الهندوكية

للتفوق على المسلمين في جميع الاعمال الحيوية ، وفي بلوغكم الدرجة المطلوبة ، فإني أؤكد لكم أن حكومة بريطانيا لا تتهمل في الاعتراف لكم بالاستقلال . وقبل انصراف غاندي أوعز اللورد إليه أن يتير على ( مولانا محمد علي ) كتابة تعليق على خطاب كان ألماه في مؤتمر الخلافة ، وحمل فيه على الحكومة حملة عنيفة ، يقول فيه : « إن ما فهمته الحكومة كان مخالفاً لمرادي » فصدع غاندي بالامر ، ودعا محمد علي لكتابة هذا البيان بعد أن أفهمه أن الكتاب سيكون سريا لا يطلع عليه أحد غير اللورد ، فكتب البيان تحت التأثير السحري الذي كان لغاندي عليه ، وما كاد الخطاب يصل إلى اللورد حتى أذيع في جميع أقطار الهند بعد أن صدرته الحكومة بمقدمة قالت فيها : « إن محمد علي تقدم إلى الحكومة يطلب منها العفو عن الهفوة التي ارتكبها » واتهم محمد علي من المسلمين بالتراجع ورمي بالخور والضعف ، غير أنه لم يحاول أن يصحح موقفه إلا حين عقد مؤتمر الخلافة في كراتشي ( اغسطس ١٩٢٠ ) حين أعلن سياسة المناوأة للحكومة لا موالاتها فتلقى منه الهنادكة والمسلمون هذا التصريح بالارتياح التام ، ولكن عقب انفضاض المؤتمر أمرت الحكومة باعتقاله مع ستة آخرين منهم : شوكت علي . حسين أحمد ، كثار أحمد بير غلام محمد . الدكتور سيف الدين كتشلو . وساقتهم جميعاً إلى المحكمة الخصوصية للمحاكمة فرفضوا الاعتراف بالحكومة وهيبة المحكمة عملا بقرار المؤتمر السابق ، وامتنعوا عن الدفاع عن التهم ، ولكن المحكمة أدانتهم بمجرد الاتهام وحكمت عليهم بالحبس عامين مع الاشغال الموجهة إليهم ، وبعد الحكم أصدر محمد علي وسيف الدين كتشلو منشوراً بتوقيعهما يخاطبان فيه الشعب وينصحانه بعدم الاهتمام بما حصل ، ويعدان بأن الزعماء المعتقلين سيحضرون اجتماع الكونجرس القادم في ديسمبر بمدينة أحمد أباد سواء رضيت الحكومة أم كرهت . لاعتقادهما أن الكونجرس سيعلن بصفة رسمية استقلال الهند ، وتأليف حكومة وطنية هي التي ستقرر الإفراج عنهم ، ولكن الحكومة لم تأبه لهذا المنشور لأنها كانت واثقة أن الكونجرس لن يفعل . ولما عقد اجتماع الكونجرس ( ديسمبر ١٩٢٠ ) حضر غاندي وقال : بما أن الزعماء معتقلون ولا سبيل للمداولة معهم في منهاج

أعمال المؤتمر ، فأقترح عليكم تعييني ديكتاتوراً للمؤتمر ، وتخويلي السلطة المطلقة لتنفيذ ما أراه صالحاً من الإجراءات فوافقته اللجنة على ذلك دون أن تتنبه ما كان يضمره هو من المقاصد التي قد لاتتفق مع خطة المؤتمر ، وتقرر فيها أيضا إسناد رئاسة مؤتمر الخلافة إلى أجمل خان ، ومؤتمر مسلم ليك لحسره مهاتى . وقبل اجتماع مؤتمر الخلافة قال غاندي للحكيم أجمل خان إن إعلان الاستقلال في الظروف الراهنة غير مناسب ، وما زال حتى أقنعه بالعدول عن إعلان ذلك . مع أن الزعماء المسجونين كانوا ينتظرونه بفارغ الصبر ، وكانت الحكومة تتوقع صدوره من أحزاب المسلمين بقلق شديد . وماذا عساها تصنع لو تخلف غاندي عن الوفاء لها بوعده .

وفي اغسطس ١٩٢١ اجتمع الكونجرس تحت رئاسة غاندي في أحمد أباد ، فأعلن أن الوقت الذي يصرح فيه المؤتمر باستقلال الهند لم يحن بعد ، فهاج الاعضاء وماجوا ، وعقب انتهاء جلسات المؤتمر انعقد مؤتمر الخلافة وتهيب الحكيم أجمل خان أن يثير عاصفة من قبل المسلمين ، فأمسك عن اعلان الاستقلال ، أما حسرت مهاتي فقد أعلن في مؤتمر مسلم ليك أن الهند تريد أن تعرب بواسطتهم عن إرادتها في الاستقلال ، فعلى الهنود أن يشعروا اليوم بأنهم مستقلون ، وألا يعترفوا بقوانين الحكومة الملغاة ، فأمرت الحكومة بالقبض عليه وأودع السجن عشر سنين مع الاشغال ، وأجمعت الصحف الهندية على نقده ووصفه بالشدة ، وخفضت العقوبة إلى سنتين ، وعقب ظهور هذا الفشل العظيم في سياسة البلاد اعترت المسلمين شكوك في تصرفات غاندي واستيقنوا « بأن زعماء الهنادكة متفقون على ذلك فدب الانشقاق بين الطرفين » .

هذا هو النص الذي اورده العلامة ( عبد العزيز الثعالبي ) عن دور المسلمين في الحركة الوطنية الهندية ، وكيف قضى عليه ، وانهار مخطط الاستقلال ، ومن المعتقد أن هذا العمل كان أكبر مقدمات الدعوة إلى مطالبة المسلمين بكيان خاص لهم . فقد بدأت من خلال ذلك حركة مقاومة خطيرة للكيان الإسلامي ، مرتبطة بحركة تبشير هندوكي وتبشير عربي بريطاني في محاولة لاقتلاع الإسلام والقضاء على دعائمه .

وقد أشار عبد العزيز الثعالبي إلى ضخامة مخطط التبشير في الهند عام ١٩٣٧ حيث توجد ٣٧٧ إرسالية تضم ( ٣٦٣٤ ) مبشراً بإضافة الى ٥٠ كلية و ٣١٨ مدرسة ثانوية و٤٢١ مدرسة ابتدائية و٢٧٠ مدرسة منوعة أخرى بالاضافة إلى ١٧٠ جريدة وصحيفة ونشرة تدار كلها لحساب الإرساليات التبشيرية الغربية .

وقد بلغ حجم النفقات السنوية للإرساليات بالهند ٣٣١ و٢٢٧ مليون روبية . وقد واجه المسلمون هذه الغزوات بإنشاء جمعيات التبليغ بفروعها المختلفة الإسلامية في أنحاء الهند . وذلك لصيانة عقائد الضعفاء من المسلمين والدعوة إلى الاسلام .

***

وفي أعقاب هذه الحركات أخذت الدعوة إلى القومية الهندوكية طريقا متطرفاً أحس المسلمون معه إلى حاجتهم الشديدة إلى تعميق مفهوم الرابطة الإسلامية .

يقول مسعود الندوي : « إنه في الثلاثينيات ظهرت حركتان وحزبان متناقضان : حركة تدعو إلى القومية الهندية المشتركة ، والانضمام إلى حوزة المؤتمر الوطني الهندي ، وحركة تدعو إلى القومية المسلمة ، وغير خاف على المسلم المتبصر ما في الحركتين من خروج على الإسلام وخطر على مستقبله في هذه الديار .

فالقومية الهندية المشتركة كانت تريد إدماج المسلمين في خظيرة القومية الهندوكية تمهيداً للقضاء على الإسلام وشعائره في هذه الديار .

وكذلك القومية المسلمة المتطرفة في المقاومة للقوْمية الهندية لم تكن أقل خطراً على الإسلام من ضرتها . لان القائمين بها والداعين إليها وإن كانوا من أبناء المسلمين يتسمون بسمة الإسلام ، ويصيحون ويصرخون باسمه في المحافل والمنتديات ما كانوا يعرفون من الدين إلا اسمه ، وكان جل همهم أن يحصلوا على مملكة على طراز الجمهورية التركية الكمالية وأخواتها من الجمهوريات اللادينية في الغرب ، وكان من نتائج خطتهم المعوجة أن كثر

التبرج والاختلاط ، وجهر زعماؤ ها بالقضاء على آداب الإسلام واخلاقه الزكية الطاهرة ، بالاضافة إلى ما كانوا يبدون من اعتزامهم تتبع معالم الغرب في الحياة الاجتماعية والسياسية .

ويمضي فيقول : ظهرت هاتان الحركتان المتعارضتان بعد سنة ١٣٥٠ هـ ١٩٣١ م . واشتد الخلاف بينهما بعد بضع سنين . إذ بلغ الامر بأنصار الحركتين أن جعلوا يتنازعون في كل ناد ومجلس ، وأخذت صحف الحزبين تمعن في التنابز بالالقاب ، وعنده أن الرابطة الإسلامية لم تكن على مستوى الاحداث . فقد حشدت في دائرتها كل غث وسمين من مطايا الاستعمار وأذناب الشيوعية ، وأتباع الكمالية من أبناء المسلمين ، وقال إنها ليست من الجماعة الإسلامية في شيء ، وإنما هي جمعية المسلمين الجغرافيين توحدت كلمتها ، وانتظم عقدها لمحاربة القومية الهندوكية والمؤتمر الهندي . وقال إن بعض صحف الرابطة الإسلامية وأنصارها سخروا من الدعوة الإسلامية ، وفريضة اقامة الدين .

ويمكن القول إن الرابطة الإسلامية كانت شبيهة بالاحزاب السياسية التي ظهرت في العالم العربي في نفس هذه الفترة ، وتحررت من كل علاقة بين السياسة والاخلاق ، أو بين الدين والمجتمع .

## ( ٦ )

# أندونيسيا

مرت أندونيسيا في تاريخها الاسلامي بمراحل ثلاث :

* المرحلة الأولى : منذ دخول الاسلام حوالي ١٤٠٠ م إلى عصر الاستعمار الهولندي .
* المرحلة الثانية : عصر الاستعمار الهولندي ١٥٩٦ ـ ١٩٤١ .
* المرحلة الثالثة : عصر الاستقلال منذ سنة ١٩٤١ إلى اليوم .

### ـ ١ ـ

دخل الاسلام أندونيسيا عن طريق الهنود والعرب الذين قدموا الى البلاد للتجارة وحملوا معهم الاسلام واللغة العربية ، فقد وفد المسلمون على سومطره في القرن السادس الهجري ( ١٣م ) وهبطوا جاوه في القرن التاسع الهجري ( ١٥م ) جاؤوا من الهند أولاً ، ثم تتابع سيلهم من حضرموت والبلاد العربية بعد القرن العاشر الهجري ( ١٦م ).

فقد نشر الحضارمة الاسلام في أندونيسيا التي تمثل سلسلة من الجزر الهندية الشرقية تمتد الى سيلان واليابان والصين واهمها : جزيرتان هما : جاوه وسومطرة . وكان الأندونيسيون الأقدمون وثنيين ، ثم جاءت بعد ذلك البرهمية والبوذية فانتشرتا بينهم ، وبعدهما جاء الاسلام . وقد دخل الأندونيسيون في الاسلام سراعا ، واعتنقوه باعداد هائلة حتى لم يبق على البرهمية والبوذية في الجزر الألف الا أقلية ضئيلة ، معظمهم يوجدون في جزيرة بالي . وقد تم اعتناق الاسلام في اندونيسيا بطريقة سليمة ، وبسرعة منقطعة النظير . إذ أقبل الناس

عليه ، ووجدوا في سماحة تعاليمه ما أنقذهم من الاضطراب النفسي الذي كان يسيطر عليهم نتيجة العقائد المتضاربة ، فدخلوا في دين الله أفواجاً . وما هي إلا فترة قصيرة حتى اكتسح الاسلام جميع الأديان الأخرى التي كانت منتشرة هناك . وسطع نور الاسلام في أرجاء الأرخبيل من أقصاه الى أقصاه . بدأ الاسلام في جاوه ، ثم امتد منها إلى سومطرة ، ثم الى سائر الجزيرة ، وحمله التجار العرب والهنود المسلمون الذين كانوا يتحركون بهمة فائقة عبر مختلف الموانىء بين الهند والصين ، ويرى المؤ رخون ان الفضل في ترسيخ أقدام الاسلام وتوطيد أركانه في كل من الملايو وأندونيسيا انما يرجع الى دخول « ملقا » في الاسلام واطراد قوتها في شبه جزيرة الملايو بحسبان انها مركز تجارة التوابل في الشرق . وما لبث حكامها أن دخلوا في القرن التاسع الهجري ( ١٥م ) وشجعوا إقامة علاقات ودية مع أهل جاوه ، فأدى العمل إلى دخول هؤ لاء في الاسلام ، ومضى مسلمو ملقا يعملون للدعوة الاسلامية في شبه جزيرة الملايو ، وعلى محاذاة ساحل جزيرة سومطرة ، وأبرز الدعاة في جاوة تسعة يعرفون بالأولياء في مقدمتهم مولانا الملك إبراهيم اول من دعا للاسلام في أندونيسيا وهو مغربي الأصل .

وعندما فتح البرتغاليون ملقا ( ٩١٧هـ ـ ١٥١١م ) كان الاسلام قد استقر واتسع في مختلف أرجاء الملايو وجزر أندونيسيا . ولكنه لم يتوقف عن الانتشار . ففي القرن العاشر الهجري السادس عشر الميلادي ، كان الاسلام قد استقر في سومطرة ، الملايو ، ملقا ، جاوة . غير أن حركة تطويق العالم الاسلامي التي شقت طريقها من أوربا عن طريق التجار بعد اكتشاف رأس الرجاء الصالح لم تلبث ان أصابت ارخبيل الملايو بضغوط شديدة . فقد جاء البرتغاليون ثم تبعهم البريطانيون والهولنديون . وبذلك خضع مسلمو الملايو للسيطرة الأوربية قبل غيرهم من أجزاء العالم الاسلامي ، والمعروف أن البرتغاليين بعد أن استعادوا الأندلس « أسبانيا الاسلامية » كانوا قد قطعوا على أنفسهم عهداً بشنّ حملة صليبية ضاربة على الاسلام ، ولما لم يتمكنوا من ضربه في مكان القلب الذي كان العثمانيون يحرسونه ، فقد اتجه تفكيرهم الى إجراء تطويق واسعة ، وعندما بدأت أعمال التبشير الغربي في أرخبيل الملايو بدأت حركة هجرة كبرى من مسلمي الصين والهند إلى اندونيسيا كرد فعل للاسلام في جنوب شرق آسيا للعودة إلى

المجتمع الأم لانعاش الاسلام ، واتصل بها إرسال الطلاب لدراسة عميقة في مدن الحجاز المقدسة ، وفي الجامع الأزهر في القاهرة . وكان هؤلاء عند عودتهم ينشطون للقيام ببرامج تثقيفية اسلامية . ومن هنا استقر هذا الترابط العميق بين الأندونيسيين وبين المراكز الاسلامية القديمة في مكة والقاهرة ، وفي أواخر القرن الخامس عشر جاءت البعثة الهولندية إلى ميناء بنتام بجزيرة جاوة سنة ١٨٩٦ وأقامت شركتها ( الشركة الهولندية لجزر الهند الشرقية سنة ١٦٠٢ ) فامتلكت الأراضي ، واتخذت الجيوش والأساطيل باسم التجارة ، ثم لم تلبث عام ١٦١٠ أن عينت حاكما عاما لها في مدينة نجاركتا .

وقد قاوم الوطنيون هذا النفوذ الجديد مقاومة عنيفة حتى أجبروا الشركة على الانتقال إلى جاكرتا بعد ان عقدت معاهدة مع سلطانها ، ثم تنازلت الشركة عن املاكها في أندونيسيا للحكومة الهولندية عام ١٨٠٠ ، ولم يتوقف الأندونيسيون عن المقاومة ، فتوالت ثوراتهم وفي مقدمتها ثورة الأمير ديبونجارا في جاوة الذي استمرت الحرب بينه وبين الهولنديين خمس سنوات كاملة ( ١٨٢٥ - ١٨٣٠ ) خسرت هولندا خلالها عشرات الملايين من الجنيهات ، ولم تتمكن من آخماد الثورة الا بعد أن ألقت القبض على الأمير وهو جالس إلى مائدة المفاوضات . وفي سومطرة استمرت الحرب بين الهولنديين والوطنيين بقيادة علي الدين محمود شاه حتى يناير ١٨٧٤ وبقيادة تنكو عمر حتى قتل سنة ١٨٩٩ فتولت زوجته القيادة إلى أن استطاع المستعمرون بعد خسائر فادحة أن يخمدوا الثورة سنة ١٩٠٤ .

وكانت هولندا قد تخلت عن نفوذها لفرنسا على اثر هزيمتها في أوربا . ثم عادت بعد هزيمة نابليون في معركة وارتلو ، فاستردت مستعمراتها ، وتم الاتفاق عام ١٨٢٤ . وكانت بريطانيا قد استولت على جاوة في هذه الفترة ، ثم تنازلت عنها مرة أخرى إلى هولندا مقابل نزول هولندا للانجليز عن شبه جزيرة الملايو .

ولم تتوقف روح المقاومة ولم تنطفىء حيث بدأت مرحلة جديدة هي : مرحلة جهاد الهيئات الاسلامية وكفاح الأحزاب السياسية وفي مقدمتها ( حزب شركة اسلام - والحزب الوطني الأندونيسي ) انتشر مبدأ المقاومة السلبية وعدم التعاون مع المستعمرين الذي حقق نجاحا باهرا عام ١٩٢٢ . ثم اندلعت الثورة

١٩٢٦ . واستمرت الى عام ١٩٢٧ . ولم تستطع هولندا اخمادهـا الا بعـد أن استعانت بانجلترا ، واستعملت أشد الأساليب وحشية ، وتزعم الحزب الوطني بقيادة سوكارنو ثورة جديدة ولم تلبث الأحزاب الأندونيسية أن تكتلت في جبهة واحدة عام ١٩٤١ مطالبة باتباستقلال . وفي مارس ١٩٤٢ استسلم الهولنديون في أنـدونيسيا للجيش الياباني بعـد أن احتـل الألمان هولنـدا ، واستـأنف الأندونيسيون مقاومتهم لليابان ، وقاموا بثورات عدة . وانهزم اليابان في الحرب العالمية واستسلموا في أندونيسيا ، هناك أعلن الشعب الأندونيسي استقلاله في ١٧ أغسطس سنة ١٩٤٥ . وقام الأندونيسيون في كل أنحاء وطنهم يهاجمون القوات اليابانية وينتزعون السلطة . غير أن بريطانيا كانت تدبر لهم مؤ امرة جديدة لاعادة سيطرة هولندا مرة أخرى على أندونيسيا ، وقاوم الأندونيسيون بريطانيا وهولندا معا . وشنوا حربا غير متكافئة . وفي سورابايا دارت أضخم معركة حيث هاجم البريطانيون المدينة الباسلة من الجو والبحر والبر ليل نهار . وجرت عام ١٩٤٦ مفاوضات للاعتراف بسيادة أنـدونيسيا ، ولـكن الهولنـديين سرعـان ما غدروا بالاتفاق وشنوا هجوما جديداً عام ١٩٤٧ . واستمرت المقاومـة حتـى عقـدت الهدنة سنة ١٩٤٨ ولكن الهولنديين ما لبثوا ان غدروا مرة اخرى بشعب أندونيسيا الذي قاوم العدوان ببسالة حتى اعترف بالسيادة الكاملة لاندونيسيا عام ١٩٤٩ وان بقيت ( الاجزاء الغربية ) محتلة بالقوات الهولندية . وهكذا قاومت اندونيسيا المحتلين ثلاثـة قرون كاملـة ، وصارعـت البرتغـال والهولنـديين والفـرنسيين والانجليز واليابان .

## - ٢ -

لم يتوقف الأندونيسيون عن المقاومة طوال حكم النفوذ الهولندي ، هذه المقاومة التي ترجع أساسا الى يقظة المسلمين ، وتأسيس اول جماعة من جماعات الاصلاح والمقاومة ( شركة إسلام ) وكان طابع المقاومة اقتصاديا وثقافيا . وقد كان لدعوة الشيخ محمد عبده ومجلته المنار أثرها في هذه الحركة . كما استفادت من تجارب قادة المسلمين في الهند . وقد كان من الطبيعي أن يتصدر المسلمون المقاومة لأمرين ، لأنهم أغلب سكان اندونيسيا حيث يبلغ عددهم أكثر من ٩٠ في المائة ، فهم يكونون بالحق مجتمعا اسلامياً . ولأنهم بحكم إيمانهم بالاسلام ووفق منطق القرآن لا يتوقفون عن مقاومة الغاصب . وقد تنبه المسلمون إلى خطرين أساسيين من أخطار الاستعمار الهولندي وهما : الاقتصاد والتعليم . ولذلك فإن الجماعة الأولى التي تكونت قد عمدت الى التركيز على هذين الخطرين . ولقد كان الاستعمار الهولندي حريصا على القضاء على القوة المعنوية لأندونيسيا روحا وعقيدة ولغة وثقافة ، مستهدفاً أن تصبح البلاد جزءاً من هولندا ، أو على حد تعبير المستشرق الهولندي جورنجيه : « أن تصبح أندونيسيا أمة هولندية تعيش في الشرق بروح هولندية قلباً وقالباً فتبني مجد هولندا في ثقافتها ، وتستعمل لغتها ، وتتخلق بعاداتها وتقاليدها .

ومن هنا فقد عمد الاستعمار الهولندي الى ابتزاز ثروات اندونيسيا الضخمة وفرض الثقافة الهولندية واللغة الهولندية على التعليم . فأصبحت لغة الدراسة في جميع المدارس الأولية والابتدائية والثانوية باللغة الهولندية التي اصبحت اللغة الأولى في اندونيسيا كما عمد الاستعمار الهولندي الى بث البعثات التبشيرية في مختلف أنحاء البلاد ، واعتمدت هولندا على هذه الارساليات في تثبيت اقدامها .

وقد كان التعليم الذي قدمته الحكومة الهولندية لأهالي اندونيسيا يتسم بأمرين :

( الأول ) انه قاصر على نسبة صغيرة من الـذين يحتضنهـم الاستعمار ليكونـوا موظفين في الدواوين ( الثاني ) انه يقدم لهم الثقافة واللغة والتراث الهولندي .

وكان هذا المخطط شبيهاً بالمخطط الذي قامت بتنفيذه بريطانيا في مصر وفرنسا في المغرب ، فإذا اضفنا الى هذا مخطط التبشير المسلوق لمخطط التعليم عرفنا كيف واجـه الأنـدونيسيون هذا التحـدي بانشـاء المدارس والجمعيات لنشر التعليم الاسلامي .

غير أن الذين استفادوا من الدراسة الاسلامية كانوا قلة بالنسبة للذين اتصلوا بالمدارس التي أنشأها الاستعمار الهولندي ، والتي حملت لواء التجرد من الدين بكافة .

ومن خلال حركة التعليم الوطني الأهلي القائم على اعانات الأهـالي والتعليم الحكومـي القائـم على مناهـج غربية خالصـة ، والتعليم الـذي تشرف عليه الارساليات ، قامت مظاهر الازدواج الخطير في مجال الثقافة ، حيث نجد نوعين من التعليم : اسلامي خالص بعيد عن الدراسات العصرية ، وعصري خالص لا يمت إلى أصول الاسلام او الدين بسبب . والاستعمار في كل المناطـق التـي احتلها من عالم الاسلام كان حريصا على خلـق هذا الازدواج . وقـد حرص الاستعمار من بعد على أن يوكل أمـور الحـكم والسلطـة الى خريجـي مدارسـه بحسبانهم اقرب إلى التعاون معه ، واقل حماسة لقيم بلادهم وأممهـم ، أو على تعبير بعض المؤ رخين : « جعل منهم أداة صالحة لخدمة السياسة الاستعمارية ، والتعاون مع الهولنديين بروح الولاء . « ويتصل بهذا إرسال البعثات الى هولندا لاعداد ولاة منهم للفكر الغربي .

وقد كان لظاهرة البعثات التبشيرية في أندونيسيا أثرها وخطرها ، فقد نشرت المدارس في مختلف الأنحاء ، واستطاعت ان تضم عدداً كبيراً من التلاميذ نظراً لفقر البلاد وعجزها عن إنشاء المدارس . ومن ثم غلبت الثقافة الاجنبية واللغة الهولندية ، وظهر جيل يجهل أغلبه لغة قومه ودينه ، ولم تلبث أندونيسيا المسلمة التي غلبت البوذية والهندوكية ان واجهت منافسة خطيرة من البعثات المسيحية

فالاستعمار قد أدخل النصرانية إلى اندونيسيا ، واستطاع استغلال الظروف في اخضاع القلوب ، واعتمدت هولندا على غير المسلمين في تثبيت أقدامها ، واتخذت منهم جيشا ، وكونت منهم انصاراً وأصبحت منطقة ( سولاويس ) ملأى بالنصارى وكانوا أنصار هولندة ويتحدثون باللغة الهولندية بطلاقة منذ ليونة أظفارهم ، ويمتزجون بالهولنديين في المعاشرة الزوجية حتى أطلقوا اسماء هولندية على أولادهم وبناتهم ، وتطبعوا بأخلاقهم وصفاتهم وعاداتهم .

ولم يقف الاستعمار عند هذا الحد فقد « قيد الشعب الأندونيسي في حياته وشؤونه وفي الظروف المحيطة بحياته تفكيراً وعقيدة وثقافة ، وضغط على روحه ». وكما حمى الاستعمار الهولندي حرية الحركة للبعثات التبشيرية ، وأتاح لها فرصة العمل . فقد وضع نصوصا صريحة قوامها ان : « كل انسان حر في عقيدته وضميره ودينه . هذا الحق يشمل حرية تغيير العقيدة والدين ، وحرية القيام بطقوس دينه ، واظهار عقيدته » وبالطبع فما دام النفوذ الاستعماري مسيطراً على البلاد ، فإن حرية إظهار العقيدة وطقوسها سيكون أمراً موسعاً فيه لابداع الهولنديين ومضيقا فيه على غيرهم . وقد كشف باحث هولندي مسلم قدم إلى القاهرة في سنة ١٩٣٤ يدعى ( فان بتيم محمد علي ) خطة الاستعمار الهولندي في مجال التبشير فقال : إن الخطة التي تقوم بها هولندا في اندونيسيا ترمي الى افناء الاسلام واخضاعه والتحكم فيه . وفي أندونيسيا تتصارع الكاثوليكية والبروتستانتية والتعاليم الموجودة في كل منهما تناقض بعضها بعضا حتى انهم مختلفون في اعتقادهم في المسيح . وقال ان سياسة التبشير في اندونيسيا تمدها الحكومة بالنقود والمال ، كما نشر صحفا بها مقالات عاصفة في الهجوم على الاسلام . حتى ليمكن القول بأن سلطة الكنيسة في مستعمرات هولندا أقوى من سلطة الحكومة نفسها ، كما يجري تنصير من يذهب إلى هولندا من الأندونيسيين والصينيين ، ولا سيا طبقة الطلبة والمتعلمين الذين سيصبحون فيما بعد قادة البلاد وزعماءها . واذا تمكن رجال البروتستانت من تنصير الطلبة الأندونيسيين الذين هم الآن متحمسون للروح الوطنية القومية التي ترمي إلى استقلال اندونيسيا . فانهم باعتناقهم الدين المسيحي يشعرون بمساواتهم بالهولنديين في الدين ، فيتضاءل شيئاً فشيئاً هذا الروح الوطني و ويشحب نوره وبعد قريب ينطفيء

انطفاء تاما . وقد فتحت الحكومة أبواب أندونيسيا لهيئات التبشير من سائر الدول ، ويبدو تحيز الحكومة الهولندية في أنها خصصت ٧٦٥٠ روبية لاعانة الدين الاسلامي الذي يضم ٩٠ في المائة من السكان بينما خصصت مليون و٧٩٥ الف روبية لمساعدة عدة آلاف من الاندونسيين .

وتشير كثير من الأبحاث والتقارير في هذه الفترة أن حركة التبشير في أندونيسيا كانت تتلقى مساعدات خارجية من بلدان كثيرة غير هولندا ، ومنها كندا وفرنسا والفاتيكان وأمريكا والمانيا الغربية . وقد استطاع هذا العمل المستمر ان يكون طبقة من أعوان هولندا . هم في نفس الوقت خصوم النضال التحرري ، وذلك على نفس النمط الذي فعلته بريطانيا في مصر إبان الاحتلال ـ وقد اعتمدت هولندا على هذه القوة لقمع حركات التحرر في أندونيسيا . وان ظل موقف المسلمين منهم هو موقف « التسامح التام » بيد أن هؤلاء الاعوان كانوا يستغلون هذا التسامح استغلالا غير محدود ، فراحوا يشيدون الكنائس الضخمة في أحياء المسلمين ، وزادوا نشاطهم التبشيري في المراكز الآهلة بالسكان المسلمين . وقد باشر النفوذ التبشيري عملاً واسعاً في مجال تشييد الكنائس والملاجىء ودور الأيتام والمستشفيات ، وكانوا يدفعون أثماناً خيالية لامتلاك الأراضي الواقعة في أحياء المسلمين ، تمهيدا لاقامة مباني التبشير عليها . وقد تمركز التبشير الكاثوليكي في جزيرة تسمى ( فاوديس ) حيث تواجد بها . اذ بها أقليات اسلامية متناثرة في القرى .

* * * *

ولا شك كان للتبشير أثره في مجال التعليم والثقافة بالمدارس الحكومية والمدارس التبشيرية ، التى كانت تعمل وفق مخطط واحد ، حيث تغرس مدارس الاستعمار في نفوس الطلاب المسلمين الالحاد في الدين ، كما تعمل مدارس الارساليات لتنصيرهم ، وكانت كلتاهما تغلب اللغة الهولندية والثقافة الغربية ، وكان طلاب هذه المدارس الحكومية من أبناء الطبقة العليا القادرة على دفع مصاريف التعليم . اما المدارس التبشيرية فقد فتحت أبوابها على مصراعيها أمام الشباب الأندونيسي في محاولة لتنصيره.

وكانت اهداف السياسة التعليمية جملة فهي ابعاد النشء عن دينه وحضارة أسلافه ، وتجاهل تاريخ مجد بلاده مع احياء اللغات الاقليمية المختلفة بقصد تفريق عناصر الأمة بعضها عن بعض ليشعر كل منهم أنه مستقل بلغته وتقاليده ، وتعليمه تاريخ بلاد المستعمرين : سياسيا وجغرافيا واقتصاديا بتوسع .

وعند مقارنة نسبة المتعلمين في أندونيسيا قبل الاحتلال الهولندي نجد أنها كانت عالية ، وان ثلاثة أرباع سكانها يعرفون الكتابة والقراءة ، فلما دخل الهولنديون أغلقوا أغلب المدارس ، وغيروا مناهج الباقي منها ، وحالوا دون نسوء تعليم أهلي .

في مواجهة هذا العمل التبشيري الواسع واجه الأندونيسيون مسؤ وليتهم الاسلامية بقوة ، وتقدموا باموالهم وتضحياتهم في سبيل الوقوف في هذه الموجة العاصفة . واذ كانت حركة المقاومة للاستعمار ، وحركة المقاومة للنفوذ الاستعماري في مجال الاقتصاد والتعليم والثقافة عملاً واحداً .

وكانت أندونيسيا شأنها في ذلك شأن مصر والعالم العربي ومختلف أجزاء العالم الاسلامي كله ، قد انبثقت فيها حركة المقاومة من خلال الهيئات الاسلامية التي حملت لواء النضال لفترة طويلة ، ثم انبثقت منها بعد ذلك الأحزاب والهيئات . وفي مصر كان الأزهر هو مصدر حركة المقاومة والوطنية . وفي السودان وليبيا بدأت المقاومة من خلال الحركتين المهدية والسنوسية . وفي العراق كانت الحركة الاسلامية في النجف هي مقاد الحركة الوطنية والثورة .

وفي أندونيسيا كما في مصر ظهرت اليقظة متمثلة في حركة الاصلاح الثقافي الاسلامي في الجزء العربي من سومطرة في أوائل القرن التاسع عشر بزعامة المجاهد المعروف ( إمام بونجول ) سنة ١٧٧٢ ـ ١٨٦٤ ـ وكان شعار الحركة « من رأى منكم منكراً فليغيره بيده » وقد واجهت انتشار البدع والخرافات وما بلغته العقائد من تشويه بعادات وتقاليد لا تتفق مع التوحيد الصحيح . وقد كانت حركة الاصلاح الديني ضرورة حاسمة في أندونيسيا ، حيث لم يمض على استمرار الاسلام في أندونيسيا ثلاثة قرون .

وفي أواخر القرن التاسع عشر تجددت حركة الاصلاح بقيادة الشيخ أحمد الخطيب الأندونيسي الذي جاور في مكة وتلقى عليه الأندونيسي ، فلما عادوا اظهرت حركتهم في سومطرة الغربية منهم عبد الكريم امر الله وكان خطيباً شجاعا مجادلا بارعا ، وزين الدين يونس الذي أصدر مجلة المنبر لسان أنصار الاصلاح ، وهي أكبر المجلات الاسلامية في أندونيسيا ، وقد أنشأت هذه الحركة عديداً من المدارس جمعت بين الاسلام والعلوم العصرية ، وألف لها عبد الكريم أمر الله كتبا للدراسة بها وبسطها حسب عقول التلاميذ .

وقد كانت شركة اسلام هي أقدم هيئة احتضنت الحركة والمقاومة في مجال الاقتصاد والثقافة معاً . فقد أنشئت عام ١٩١١ بقيادة الحاج عمر سكر وأمينوتد . ثم الجمعية المحمدية التي أنشأها احمد دحلان ، وقد تقدمتها جمعية الأخلاق الفاضلة ( بودي اوتومو ) التي الفت في جاركتا ١٩٠٨ برئاسة الدكتور وحيد الدين الذي يعد بحق واضع أساس التنظيم للحركة الوطنية الحديثة . ويرى المؤ رخون الأندونيسيون ان جمعية الاخلاق الفاضلة كانت عماد الحركة القومية . فقد كانت الجمعية ثقافية اجتماعية ، ولكنها تحولت إلى جمعية سياسية وطنية لها الأثر الفعال في تحرير اندونيسيا ، ثم لم تلبث هذه الجماعات أن توحدت واندمجت بعد في جمعية ماشوى ، وواجه المصلح أحمد دحلان البدع والخرافات ، كما هاجم شبهات المبشرين .

وقد عرف بالصلاح والتقوى وصدق الايمان ، وقد انتصب زعيما اسلاميا ، ومعلماً اشتهر باللين من غير ضعف ، والكياسة مع صدق العزيمة في مواجهة الارساليات التي كانت تقوم بدعاية منظمة ضد الاسلام تعضدها قوات الاستعمار . وكانت الجمعية المحمدية هي ثمرة عمله حيث جعلها وسيلته المنظمة للعمل ، وعن طريقها أنشئت المدارس وانبعث الدعاة للتبليغ ، وقد أولت الحركة الاسلامية التي تحمل طابع الوطنية والاصلاح معاً اهتماماً كبيراً بالتعليم . بحسبانه الطريق الحاسم لمواجهة الغزو الهولندي ، والارساليات . فمنذ أسس الدكتور عبد الله بن أحمد ، والدكتور عبد الكريم امر الله جمعية المدرسين للمعاهد الاسلامية كثر من اعضائها البارزين من أتموا دراستهم في مصر

والحجاز ، ثم انشئت الكلية الاسلامية في سورابايا التي اشرف عليها الدكتور سوتومو . وبذلك أخذت الحركة قيادة التربية والتعليم ، وقل الاقبال على المدارس الحكومية التي تهدف إلى تعليم الهولندية وتاريخ أوربا . غير أن الحكومة الهولندية لم تترك هذه الحركة تمضي في طريقها رخاء . بل أخذت في عرقلتها وتوقيفها ، حيث اصدرت قانون رقابة المدارس الأهلية الذي أطلقت عليه قانون ( المدارس المتوحشة ) ١٩٢٣ . ومظهر القانون حماية المدارس القومية ، ولكنه في مضمونه يقوم على عرقلة تلك الجهود والقضاء على انطلاقة الحركة الاسلامية الاندونيسية في اختيار التعليم الذي يتفق مع عقائد الاندونيسي ووطنيته .

وقد كان من نتائج تنفيذ القانون ان اقفل الاحتلال ابواب المدارس الاسلامية بالقوة ، وشرد تلاميذها ، وزج مدرسيها في غياهب السجون .

وهذه الخطة أشبه بما فعلت فرنسا في الجزائر حين قامت جمعية العلماء بقيادة العلامة : عبد الحميد بن باديس بإنشاء المدارس القرآنية في مواجهة مدارس فرنسا التي تقوم على اللغة الفرنسية والتاريخ الأوربي . غير أن هذا التحدي الذي واجه الأندونيسيين قد أدى الى عمل ايجابي حاسم . فقد اتحد الشعب بمختلف احزابه وهيئاته على الاحتجاج ، وكان للصحافة الاسلامية في أندونيسيا جهودها في هذه الحركة ، معلنة أن القانون عامل خطير في محو حرية الشعب الأندونيسي في اختيار التعليم الصالح ، ومن ناحية أخرى فقد عمدت الحركة الاسلامية إلى تعديل أساليب التعليم الديني . وادخال العلوم الحديثة ، وكانت مهتدية في ذلك بحركة إصلاح الأزهر وبما فعلته الحركة الاسلامية في الهند . وقد نجحت الفكرة وقامت مدارس جمعية نهضة العلماء ، وكان أبرز ما حققته هذه الحركة هي انها جمعت بين العلوم الحديثة والعلوم الاسلامية . وكان العلامة أحمد دحلان هو أول من نادي بذلك ، وحققه في مدارس الجمعية المحمدية في جاكارتا حيث يقول : « لا نريد من التعليم الحديث ان يكون على شاكلة تلك العلوم المدنية الحديثة التي تطبع الاجيال المقبلة بالطابع المادي وتجعلها عبيداً للمادة كما هي الحال في أوربا اليوم ، وانما نريد فوق ذلك جعل الدين الاسلامي الصحيح أساساً للتعليم القومي لانقاذ تلك الأجيال من التيار المادي الجارف ، وجعله ركناً

من أركان قوى الشعب المعنوية التي لا يستغني عنها البشر في يوم من الأيام .

ويمكن القول إن السلاح الوحيد الذي اتخذه المسلمون في مصر والهند وأندونيسيا والمغرب كان هو اعتماد الهيئات الاسلامية على نفسها في إنشاء مدارس تجمع بين العلوم الحديثة والاسلام واللغة القومية .

***

ومن خلال هذه الهيئات الاسلامية انبثقت الأحزاب التي تعددت وتنوعت ، وكان في مقدمتها حزب ماشومي الاسلامي ، والحزب الوطني الذي قام على أساس سياسي قومي ، وقد حمل حزب ماشومي لواء الدعوة الى اقامة صرح الاسلام ، ويمكن ان نعتبره التشكيل الذي انصهرت فيه الحركة الواسعة النطاق . وكانت الجمعيتان الكبيرتان الجمعية المحمدية ، وجمعية نهضة العلماء قد تضامنتا مع هيئات اخرى في تشكيل ما اطلق عليه « المجلس الاعلى الاندونيسي » وقد حل هذا المجلس اثناء الحرب العالمية الثانية . وبعد الحرب واعلان الاستقلال التقت جميع الجماعات والهيئات الاسلامية في اندونيسيا على صعيد ، واعلنت تأليف منظمة : « مجلس الشورى لمسلمي أندونيسيا » وكلمة ماشومي هي اختصار لهذا الاسم ، وقد وضع حزب ماشومي تعاليم الاسلام في صلب مبادئه حاملا لواء التقدم ومقاومة الالحاد والدعوات المختلفة المعادية للاسلام .

وتهدف الحركة الاسلامية في اندونيسيا الى المطالبة باقامة النظام الاسلامي والاخذ بتعاليم القرآن وتطبيق احكامه .

وما زال الفكر الاسلامي في اندونيسيا قائماً وقوياً في مواجهة تحديات القوى الالحادية ، والتغريبية . وفي الجملة يمكن القول بان الحركة الاسلامية في اندونيسيا استطاعت ان تقاوم : النفوذ الاستعماري وحركة الارساليات ، والدعوات الالحادية ، وكل دعوة الى ابعاد الاسلام عن مجال المجتمع ، وخاصة في مجال التربية والتعليم .

وقد عملت الحركة الاسلامية في المجال الثقافي عملا كبيراً ، فكشفت عن

مقاصد الاسلام والتشريع الاسلامي ، وحاربت التقليد الاعمى ، والقت الضوء على حقائق كبيرة اهمها سماحة الاسلام وجوده ومعطياته ، وخاصة فيما يتعلق بأن باب الاجتهاد لم يغلق لمن تتوفر له شروط الاجتهاد . وقد استطاعت هذه الحركة وخاصة في مجال التربية والتعليم ان تحفظ للشعب الاندونيسي لغته ودينه في نفس الوقت الذي قدمت له معطيات الثقافة الحديثة العصرية . وقد سد هذا النشاط الثقافي كثيراً من النقص الناتج من احجام الحكومة الهولندية عن التوسع في نشر التعليم ، كما قضى ـ جزئياً ـ على خطة الارساليات التبشيرية .

وقد كانت للصحافة الاسلامية في أندونيسيا دوراً هاماً . فقد أظهرت كثيراً من الكتّاب والباحثين ، وهاجمت كثيراً من المواقف الاستعمارية مما أدى الى بروز الطابع الاسلامي في الحياة السياسية ، فاتخذته بعض الأحزاب أساساً لجهادها الوطني .

***

وقد واجهت حكومة الاحتلال الصحافة الوطنية والاسلامية بقوانين غاية في الصرامة والتضييق فأسقطت ٢٧ صحيفة في ساعة واحدة ، وسجنت الكثيرين ، وفرضت الرقابة على الصحف ، ومنعت الاجتماعات . وقد استطاعت الحركة الاسلامية أن تثبت وجودها عن طريق صحف تتحدث عن عظمة الاسلام وحسن تعاليمه ، وتراجم رجالاته ، وما بذلوا من جهد في سبيل نشر تعاليمه . وفيما يتعلق باللغة الاندونيسية فقد حرص النفوذ الاستعماري على أن يحول ( أولا ) : دون قيام لغة موحدة . ( ثانياً ) : أن يحول دون ارتباطها باللغة العربية . وذلك عن طريق نشر اللغة الهولندية ، وجعلها أساس التعليم في المدارس منذ المراحل الأولى . وللحفاظ على تعدد اللهجات حتى لا تتوحد أندونيسيا في لغة واحدة . ومع ذلك فقد استطاعت اللغة الأندونيسية « باهاسا هندونيسيا »وهي مشتقة من لغة الملايو الشائعة أن تفرض نفسها كلغة موحدة بدلا من ٢٥ لغة كان يتخاطب بها السكان وتتشعب الى ٢٥٠ لهجة محلية ـ اذ استطاعت الحركة الاسلامية والنهضة الوطنية ان تحقق تأكيد الوحدة

الاندونيسية بلغة واحدة . وقد كانت اللغة الأندونيسية تكتب بالحروف العربية . ولكن الهولنديين عمدوا الى تحويلها الى الحروف اللاتينية في أوائل القرن العشرين . ومع ذلك فان في اللغة الاندونيسية الان كثيراً من الكلمات العربية . ومنذ سيطر النفوذ الاستعماري على اندونيسيا ، اضمحلت اللغة العربيةْ فيها ولم يبق لها نفوذ الا في مجال الدراسات الثقافية .

أما اللغة الهولندية فقد انتشرت انتشاراً كبيراً . اذ بقيت اللغة الرسمية للحكومة ثلاثة قرون كاملة ، حيث كان الهولنديون يعلمونها في المدارس دون سواها في الوقت الذي كانوا يحاربون فيه اللغات الوطنية في جميع الجزر المحتلة . وقد كان للاسلام دوره الواضح في الحركة الوطنية القوية العارمة التي استمرت ولم تتوقف ازاء نمو النفوذ الاستعماري الهولندي ، ويظهر ذلك في كتابات الحاج عمر سعيد عام ١٩١٣ .

« ان الاسلام يدعونا الى الجهاد لاعلاء كلمته ، وسيعلو الاسلام في هذه البقعة الاسلامية التي يعيش فيها ما يزيد على سبعين مليوناً من المسلمين » .

وبالقاء نظرة الى حزب شركة اسلام الذي قام في مواجهة الاحتلال الهولندي نرى ان العمل بدأ في مجال الاقتصاد أساساً للمحافظة على الثروة الأهلية ، وأشاد صناعات تقوم بها الأيدي الوطنية ، ويتجلى ذلك في برنامج الجمعية الأساسية ـ.

( ١ ) ملاحظة شروط الدين الاسلامي في العبادة والمعاملات .
( ٢ ) القيام بأعباء الحياة التي يتطلبها الدين .
( ٣ ) انهاض الحركة الفكرية .
( ٤ ) الدفاع عن الاسلام .

وقد كان الاهتمام بالناحية الاقتصادية مرتبطاً بالعمل في مجال الاقتصاد والتعليم ايماناً بمفهوم الاسلام نفسه المتكامل ، ومواجهة الاثار الخطيرة التي ترتبت على الاحتلال الهولندي لأندونيسيا حتى قيل انه لو جمعت الأموال التي سلبتها الحكومة الهولندية من الأندونيسيين منذ استعمارها أندونيسيا الى اليوم

لأمكن بناء جسر عظيم من ذهب يمتد من أندونيسيا الى هولندا .

وفي أنـدونيسيا يوجـد زيت البتـرول ومـزارع المطـاط ، ومنتجـات البحـر والذهب . والمعروف أن عصر الاستعمار في أندونيسيا استمر من سنة ١٧٩٩ ـ ١٩٤٥ وان كانت طلائع الاستعمار الهولندي في جاوة بدأت سنة ١٥٩٥ باسم شركة الهند الشرقية الهولندية .

# ( ٧ )
# افريقيا : قارة الاسلام

## - ١ -

اقتحم الاسلام القارة الافريقية من جهتين . وكان لكل جهة منهما مسارها وتكوينها وعمقها : شرق افريقيا وغرب أفريقيا .

أما شرق أفريقيا فترجع الى اتصال الموانىء الافريقية بالجزيرة العربية ، ويمكن القول بأن الاسلام قد دخل أثيوبيا قبل أي بلد افريقي آخر ، وذلك عن طريق الهجرة الأولى في عهد النبي صلى الله عليه وسلم ، ولم تلبث الدعوة الاسلامية أن انتشرت على أيدي القبائل التي هاجرت الى أرتريا ، والصومال ، واثيوبيا . حتى أصبح الاسلام هو دين الغالبية في هذه المناطق . والمعروف ان هذا الساحل ( شاطىء الصومال وكينيا وتنجانيقا ) كان مجال التجارة العربية ، فلما جاء الاسلام واعتنقه العرب تحولت تلك الى مراكز اسلامية على الشاطىء الشرقي الافريقي تتحكم في طرق التجارة الى داخل تنجانيقا ، وقلب الكونغو ، وتمتد الى بحيرة فكتوريا . وكان من نتيجة اتصال العرب بالاهالي ان ظهرت اللهجة السواحلية ، وهي تمتد من اللهجات المحلية الافريفية التي يتحدث بها اغلب شعوب القارة ، وهي خليط من الفاظ زنجية وعربية وفارسية وهندية[١] .

ويعلق المؤرخون اهمية كبرى على الدفعتين القويتين اللتين فدمتا احداهما من الشمال ، والاخرى من عمان عن طريق الخليج العربي في القرن الثاني الهجري . وقد اتجهت الاولى الى ارتيريا ، والثانية الى صومالة ، واثمرتا

---

١ - ( محمد عبده مخلوف ) مجلة نهضة افريقيا ١٩٥٧ .

نجاحاً هائلاً ، حيث تأسست ( موجاديشو ) سنة ٨٦٠ التي أشادها عرب وفدوا من الأحساء على الخليج العربي ، ومن الصومـال نفـذ الاسـلام جنوبـاً الـى سواحل تنجانيقا وكينيا في القرن الثالث الهجري .

## ـ ٢ ـ

أما منطقة غرب أفريقا فقد انتشر الاسلام فيها عن طريق قبائل البربر المغربية التي اعتنقت الاسلام ، وعن طريق غرب السودان ، حيث يوجد خط القوافل التجارية المسافرة الى غرب افريقيا . ومن المغرب انتشر الاسلام في السنغال ومملكة غانا القديمة ، وامتد الى داهومي الشمالية . وكذلك نيجيريا وسائرُ غرب أفريقيا انتشر فيها الاسلام عن طريق اهل المغرب ورجال الطرق الصوفية ، ولم يلبث النيجيريون ان اصبحوا دعاة للاسلام في ترحالهم على الأقدام للحج سنوياً مخترقين قلب أفريقا الى غرب السودان فشرقه ، ثم عابرين البحر الاحمر ، ومن غب افريقيا وسع الاسلام آفاقه وسط القارة .

وترجع أهمية التوسع الاسلامي في غرب افريقيا الى مقام دولة ( المرابطين ) القرن الخامس الهجري . حيث توصف هذه الفترة بانها فترة انتعاش للاسلام ، وكان ابرز مظاهر هذه الحركة الاندفاع نحو الجنوب الى جبال ادرار ، ثم الى البلاد المعروفة باسم موريتانيا ، ثم الى نهر السنغال ، حتى اذا كان القرن التاسع الهجري ( ١٥ م ) اتسعت حركة انتشار الاسلام واللغة العربية في هذه المناطق ، ولم تلبث ان اتسعت في القرن العاشر الهجري حيث استطاع الاسلام ان ينتشر بين القبائل ، ويحل محل الديانات الوثنية في السنغال حيث اعتنق الاسلام حوالي مليون و ٣٠٠ الف من مليونين هم مجموع السكان[١] . وفي مالي والسودان الفرنسي سابقاً تأسست في القرن الخامس الهجري ( ١١ م ) دولة بربرية عن طريقها انتشر الاسلام في قبائل السودان الفرنسي . فلما تولى المغاربة حكم هذه البلاد زادت نسبة المسلمين فيها الى اكثر من ٦٠ في المائة ، وفي جامبيا وغينيا انتشر الاسلام انتشاراً هائلاً . وكان

---

١ ـ دكتور عبد الرحمن بدوي ( مجلة نهضة افريقيا )

لقبيلتي الفولا والألمامية أثر كبير . وكذلك كان لرجال الشيخ عمر أثر واضح ، فأصبحت الأغلبية اسلامية . وكذلك في اقليم النيجر ، قامت دولة اسلامية واسعة ، وأنشأ الطوارق سلطنة بربرية منذ القرن العاشر الهجري . فانتشر الاسلام في هذه المناطق .

***

أقبلت بعد ذلك مرحلة الغزو الاستعماري الذي بدأته البرتغال وأسبانيا وتبعتهما باقي الدول الأوربية . وقد استطاع المسلمون في أفريقيا مقاومة الغزو البرتغالي والأسباني المتقدم الذي بدأ في أوائل القرن التاسع الهجري ( ١٥ م ) بعد سقوط الأندلس . غير أن الاستعمار الفرنسي والبريطاني لم يلبث أن حل محل النفوذ البرتغالي والأسباني . وقد استطاع هذا النفوذ ان يستمر طويلا ، ويمكن القول بأن العقدين الاخيرين من القرن التاسع عشر ، كانا اشد مراحل الغزو الأوربي لأفريقيا قسوة واندفاعاً . وفي خلال الفترة بين القرنين الخامس عشر والتاسع عشر ، استطاع الاسلام ان يحقق توسعات ذاتية كبيرة . فعندما انهزم البرتغاليون في القرن الثامن عشر ، نقل سلطان مسقط عاصمته إلى زنجبار ، وأصبح الساحل الشمالي لشرق أفريقيا اسلاميا . غير أنه في القرن التاسع عشر الميلادي ، وفي إبان حركة التوسع الغربي في أفريقيا كان الاسلام يمر بأزهر فترات توسعه التي أوقفتها حركات الاحتلال والغزو وعوقتها . وإن كانت قد استطاعت من بعد أن تحقق نتائج هامة في مجال التحدي للارساليات التبشيرية . ففي هذه الفترة استطاع التاجر المسلم ورجال الصوفية والدعاة المنقطعون للاسلام إدخال عديد من القبائل الوثنية في الاسلام في تنجانيقا وكينيا وزنجبار ، واستطاعت بعض هذه الأمم أن يصبح الاسلام دين الأغلبية فيها كما حدث في أوغندا . وكان للتجار العرب الوافدين من الخليج الفارسي أثر واضح في نشر الاسلام في كومور وجزر المحيط الهندي ( مدغشقر - سيشل - البرلوتبون - موريس ) . حتى بلغ المسلمون في مدغشقر وحدها مليون نسمة .

وكان للجاليات الاسلامية التي وفدت من الهند والملايو واستقرت في

المناطق الواسعة الممتدة من الكاب في جنوب أفريقيا الى كينيا شمالاً اثرها في نشر الاسلام . وقد بلغت ٥٠ ألف هندي ( ٤ الاف ملاوي ) حتى لقد اعتنق الاسلام في هذه المناطق من السكان السود . وكان للاسماعيلية والاحمدية ( وهما طائفتان من مسلمي الهند ) أثرهما في نشر الاسلام ايضا . كما كان للتجارة أثرها الواضح في ادخال الناس في الاسلام نتيجة لهجرة العمال من قبائلهم انتجاعا للرزق .

ويرجع الكثير من الباحثين الفضل في انتشار الاسلام بين قبائل الزنوج في أفريقيا منذ القرن ١٨ الى نشاط الدعاة من أرباب الطرق الصوفية الاسلامية . وقد وجد فيه الزنوج الطمأنينة بفضل نظامه الاجتماعي ، وما يتمتعون في ظله من أمن خلال أسفارهم للتجارة ويسر في فرائضه . والاسلام دين فطرة سهل التناول ، سهل التكيف والتطبيق على مختلف الظروف . ولعل هذا من أهم العوامل التي سهلت اعتناق الوثنيين للاسلام .

وقد بدل الاسلام مظاهر الحياة في البقاع التي دخلها ، وأسبغ روح النظافة حيث يتميز المسلم عن بقية الناس بلباس فضفاض فضلا عن تخريم لحم الخنزير .

ومشايخ الطرق في هذه المناطق يتمتعون بالتقدير بحسبان أن الله أرسلهم هداة ، ويعتبرهم الخاصة مربين روحانيين يوجهون النفوس ، ومن أهم مظاهر الاسلام مسايرته لطبيعة الثفكير الخاص بالعقلية الزنجية ( هوبير ديشان ) .

وقد أشارت صحيفة دي وشنطون بوست إلى أهمية الدور الذي يقوم به الاسلام فقالت :

ولا شك كان لعدد من الطرق الصوفية أثرها البعيد وفي مقدمتها : الطريقة القادرية : التي توسعت في أفريقيا السوداء في جنوب أفريقيا الطريقة التيجانية : في القرن ١٨ بمدينة فاس حيث تتميز بشدة معارضتها للوثنية وهي طريقة الحاج عمر التي حققت انتشاراً واسعاً في أفريقيا السوداء . وتركزت في أفريقيا الغربية جهود المرابطين المغاربة ، وجلهم من اتباع الطريقتين القادرية

والتيجانية . وقد امتد نشاطهم من السنغال إلى غينيا والسودان حتى سواحل العاج ومستعمرة النيجر .

وهناك دور هام لا سبيل إلى تجاوزه هو : أثر الدعوة السنوسية في طرابلس وأفريقيا ، وكذلك أثر الحركة المهدية في السودان .

## ( ٢ )

لقد حقق انتشار الاسلام في أفريقيا نتائج بالغة الخطورة لا يمكن تقديرها الا بتصوير قوة زحف الارساليات التبشيرية الغربية والمبالغ الطائلة التي تنفقها الدول الأوربية عليها ، ويمكن القول بأن تزايد قوة التوسع الاسلامي الذاتي راجع إلى مواجهة هذا التحدي أصلا ، ويعترف هوبر ونشان مؤلف كتاب « الديانات في أفريقيا السوداء » وهو أحد حكام المستعمرات الفرنسية بأن انتشار الدعوة الاسلامية ـ في غالب الظروف ـ لم يقم على القهر والتسلط ، بل قام على الاقناع ، لأن الذين قاموا به كانوا مشايخ متفرقين لا تحوطهم قوة ، او تحميهم دولة ، وإنما كان الاخلاص دافعهم الى اظهار محاسن الاسلام وسماحته ، وقد يسر انتشار الاسلام ، أنه دين فطرة سهل التناول ، خال من التعقيد لا يفرض على المسلم طقوساً ما . بل لا يتطلب سوى النطق بالشهادتين ولذلك كان التجار والمسلمون من الديولا او الهوزا يحملون بذور الدعوة الاسلامية في سماحة ويسر . بل إن الاسلام قد خالف ظن المبشرين والمراقبين الغربيين الذين كانوا يظنون أنه لا يستطيع الانتشار الا في مناطق الشمال حيث تكثر الفيافي والقفار ، دون أن يستطيع اجتياز حاجز الغابات الحادة في الجنوب والتوسع في أوساط سكانها ، فإن تقدم الاسلام في سيراليون وشاطىء العاج وشاطىء الذهب وداهومي أثبت بما فيه الكفاية ـ على حد تعليق جريدة نيويورك تايمس ـ كم كان ذلك الاعتقاد بعيداً عن الصواب .

وقد شهد بالحقيقة بعض الباحثين أمثال بورورت سمث في كتابه : Mohamed and Morpmmedons الذي أوضح كيف انتشر الاسلام سريعا في افريقيا ودانت له ، وكيف اجتاح اغلب دول أفريقيا دون مقاومة تذكر ، وكيف امتدت موجة الاسلام جنوبا الى الشمال الغربي من مراكش حيث بلغت في زمن

الفتح النور ماندي تخوم تمبكتو ، ووصلت شرقاً وجنوباً حتي بلغت في القرن الثالث عشر ( ١٩م ) بحيرة تشاد التي تصافح علي ضفافها العرب القادمون من الشرق مع اخوانهم القادمين من الغرب . وقال « انا لنسمع عن قبائل بأسرها تطرح جانبا الوثنية والشعوذة وعبادة الشيطان لترقى إلى أعلى مستويات العقيدة الدينية . وقد لاحظ المسافرون الغربيون رغم كل رغبة من جانبهم في عكس هذا ـ ان الزنجي الذي يعتنق الاسلام لا يلبث أن يجتلي شعوراً بالعزة والكرامة الانسانية لا تلمس مثلها عادة بين هؤلاء الذين ينضمون الى عيره ، ونقول ونحن متأكدون من جميع النواحي أن للسكان المسلمين رغبة عاطفية في التعليم وحيثما يوجد عدد المسلمين يسرعون إلى انشاء مدارسهم الخاصة ، ومنهم غير قليل يقطعون المسافات الشاسعة للحصول على أفضل تعليم .

ويلاحظ مراسل صحيفة ذي وشنطون بوست أنه في خلال هذا القرن قد تحولت قرى بأكملها الى الاسلام في بحر سنوات قليلة ، ففي فولتا العليا اعتنق الاسلام « موغانايا » ملك الموسى مع مئات من رعاياه . ومنذ الحرب العالمية الثانية تقدم الاسلام تقدما مماثلا في ليبريا وساحل العاج والكونغو . ويوجد الآن في السنغال وجامبيا وغينيا ومالي وموريتانيا والصومال وزنجبار والنيجر وتشاد اكثر من ٨٠ في المائة مسلمون ، ونفس الشيء تجده في شرق افريقيا . ويعلل اسباب تفوق الاسلام الى أنه أكثر بساطة . إذ ليس فيه أسرار مذهبية او تعذيب للضمير ، فالاعتقاد بالله واحد وتمجيد نبيه هما الشرطان الأساسيان في الاسلام ، فضلا عن أنه يجيز تعدد الزوجات .

وقد لاحظ جنتر في تطوافه في أفريقيا حسبما سجله في كتابه : « داخل أفريقيا » أن أهم عوامل انتشار الاسلام أنه ليس فيه تمييز عنصري ، ومن ثم لا يقوم حاجز يمنع تحول البانتو أو الزوج إلى رحابه . وقد انتشر انتشاراً شاملاً عميما بين عباد الأوثان والحيوان ، لأن شعائره مبسطة للغاية ، وترجع أهمية الاسلام في نظر الأفريقيين الى أنه نظام اجتماعي كما هو دين ، يمنح المؤمن اعتقاده بالمساواة بين جميع المؤمنين .

ولقد أشار ولفرهامبتون في بحث له نشرته جريدة التيمس عام ١٨٨٧ نتائج

انتشار الاسلام فقال : إنه عندما تدين به أمة من الأمم الافريقية تختفي من بينها في الحال ، عبادة الأوثان ، وتحرم أكل لحم الانسان ووأد البنات ، وتضرب عن الكهانة وتأخذ أهلها في اسباب الاصلاح وحب الطهارة ، ويصبح عندهم قرى الضيف من الواجبات الدينية ، وشرب الخمور من الأمور الممنوعة ، ولعب الميسر والأزلام محرمة ، والرقص القبيح ، ومخالطة النساء اختلاطاً دون تمييز منعدمة ، يرون عفة المرأة من الفضائل . أما الغلو في الحرية والتهتك وراء الشهوات البالية فلا تجيزه الشريعة الاسلامية ، والاسلام هو الذي يعمم النظافات ويقمع النفس عن الهوى ، ويحرم إراقة الدماء ، والقسوة في معاملة الحيوان والأرقاء ، ويحض على الخيرات ، ويقول بالاعتدال في تعدد الزوجات والعدل في الاسترقاق ، وزيادة على ذلك فالاسلام عفيف بالكلية عن الشركات الدينية والتجارية وفي غنى عنها بالمرة ، والتجارة الأوربية تمهد وسائل المسكرات ، وتسوم الشعوب خسفا واذلالا ، والاسلام ينشر لواء المدنية القائلة بالاحتشام في الملبس والنظافة والاستقامة وعزة النفس .

وفي نفس العام يكتب جوزيف توميسون في التيمس عن انطباعاته بعد رحلة استكشافية في قلب أفريقيا : إذ بلغنا غربي أفريقيا والسودان الأوسط نجد الاسلام كجسم قوي تدب فيه روح الحياة والنشاط ، وتتحرك فيه عوامل الحماسة والاقدام ، كما كان في أيامه الأولى فترى الناس تدخل فيه أفواجاً أفواجاً ، وتقبل عليه باقبال عجيب يشبه أيامه السالفة ، نرى أشعة نوره منبعثة من شوارع سيراليون ، واخذه في انارة بصائر القبائل المنحطة في وهاد الجهالة الآكلة لحوم البشر عند منبع النيجر ، رأيت أن أعظم فتوحات الاسلام في أواسط السودان وغربه كانت على يد جماعة سليمي الطوية منخفضي الجناح ، وكان قائماً بنشره واتساع دائرته رجل يدعى « فيللاني » وكان يفترش الأرض ويلتحف السماء ، وفي الأزمان الحاضرة كان القائم بأمره تاجراً ذا همة واقدام يقال له « هوذا أونوبيه » وفي أوائل القرن الثاني عشر ( ١٨م ) كان ذاك الراعي يجهد نفسه في نشر لواء ديانته من بحيرة تشاد إلى الأقيانوس الأتلانتيكي فحصل من ذلك أن أشرقت شمس الاسلام في سماء هذه الجهة بأجمعها ، وظهرت في أواخر القرن الماضي عدة فئات من المسلمين لم يكن يعوزهم الا رئيس يحمي

ديارهم ،، ويدفع عن هذه البلاد غائلة الوثنية ، فلما قيض لهم في هذا الجيل رجل يسمونه « فودبو » لم يمض غير قليل زمن حتى ساد الاسلام ، وامتد جناح سلطانه بسرعة غريبة في بلاد شاسعة واسعة ، وانتشرت سلطته على القبائل المتبربرة ، فأصاب فوزاً عظيماً .

ويضيف الكاتب عن سلوك دعاة الاسلام في أفريقيا وطريقة عملهم :

ان زعيم الاسلام في هذه السنوات هو التاجر السوداني الذي كان يعتمد في مهماته على تقواه ويستعين بها على أعماله ، وكان يتوغل في كل قبيلة على مسافة بعيدة من بلده ، ويختلط بالوثنيين المتبربرين ، وكان يبيت معهم ويأكل معهم من طعام واحد ، وكان أينما حل أو ساد لا يألو جهداً من توسيع نطاق ديانته وإظهار مزاياها الخالية من الالتباس والوعظ بها بين الناس ، وفي الحقيقة ان الفرائض والسنن التي يعظ بها لا يعسر فهمها على أخيه الوثني ، ولا تخرج عن قوة إدراكه . هذا التاجر كان يقيم تارة شهراً وطوراً ستة أشهر او سنة في خلال هذه المدة تراه موضع التعجب والاستحسان لنظافة ملبسه . ولذلك ينكب الناس الذين حوله على تقليده واتباع طريقته ، وهم لا يرون شيئاً نصب اعينهم الا ويتطلع اليه امامهم ، وليس في ديانته شيء مبهم عليه معرفته ، وعلى هذا انغرست بذور المدنية في عدة قبائل همجية ونما بينها الاسلام نمواً هائلاً .

هذه صور توسعات الاسلام الذاتية في العصر الحديث كما يصورها عدد من المراقبين الأجانب ، ترسم طبيعة هذا الدين وقدرته على الذيوع في مواجهة التحديات التي تعرض لها من خلال جائحة الاستعمار التي واجهت القارة الأفريقية في العقدين الأخيرين من القرن التاسع عشر .

والحق أن الأمور لو مضت على طبيعتها دون تدخل القوى الأجنبية والاستعمار ، وترك لدعاة التبشير من الأديان المختلفة حرية العمل لاستطاع الاسلام واللغة العربية معه أن تحرزا تفوقاً واضحاً وتوسعاً ضخماً في أفريقيا . غير أن النفوذ الاستعماري كان حفيا بأن يوقف هذا النشاط ويعوقه .

- ٣ -

# الاستعمار والتبشير

والمعروف أن النفوذ الاستعماري الزاحف قد أفسد المجتمع الأفريقي وقضى على عوامل الازدهار فيه ، وحاول ان يغير صورة التاريخ ، والحاضر القوي ، ويقضي على آثاره الحية ، وذلك كمحاولة لتصوير الوجود الاستعماري بأنه كان عاملاً من عوامل التنوير والثقافة ، والنهضة ، والحق أن المتسعمرين ادخلوا [١] نظمهم السياسية وقواتهم العسكرية الأوربية ومنظماتهم التبشيرية إلى أفريقيا ، وقضوا على السلطات الاسلامية ، أو سلبوها سلطانها ، ووضعوها تحت الوصاية ، وفرضوا العزلة على هذه البلاد وقطعوا صلاتها بالعالم الخارجي ، وطوقوا القارة الأفريقية بالقواعد العسكرية ، ونهبوا ثرواتها ، واستعبدوا اهلها ، وحاربوا الثقافة الاسلامية حرباً غير متكافئة ، فرفضوا اللغات الأوربية على أفريقية ، وانشاؤا المدارس التي ثبت ثقافتهم وافكارهم ، وخاض الاسلام في أفريقيا معركة حياة أو موت ، وهي حركة يرى الدكتور حسن محمود أنها لم يؤرخ لها بعد تاريخاً شافياً .

والمعروف أن الاستعمار في أفريفيا قد حرص على أشياء هامة في مقدمتها : طمس معالم الحضارة الاسلامية والتراث الاسلامي بها حتى لا يستطيع المسلمون التعرف عليه ، واقامة دعوى خطيرة بأن هذه البلاد كانت مجهولة وغير متحضرة ، وان رجال الاستعمار الأوربي أمثال ( لفنجسون وبكرك وستانلي ) هم الذين اكتشفوها مع انها كانت مكتشفة فعلا ، وللمؤرخين والرحالة المسلمين أبحاث مسجلة عنها ، وكذلك عمدوا الى نقل التراث

---

١ - حسن محمود - الاسلام والثقافة العربية .

الاسلامي الى العواصم الأوربية رغبة في اخفائه والقضاء عليه ، ثم مضى الاستعمار فحمل على التجار العرب في أنحاء أفريقيا . والذين كانوا يحملون معهم الاسلام حملات عنيفة متهما اياهم بانهم تجار الرقيق . وبذلك وضع قيوداً على تنقلاتهم حتى يفسح المجال للبعثات التبشيرية التي تدفقت على مختلف الاماكن تبني مداوسها وكنائسها ومستشفياتها وتحاول اغراء المسلمين قبل اغراء الوثنيين ـ بتقديم خدماتها .

وقد أشار الزعيم محمد فريد في ابحاثه عام ١٨٩٨[١] الى خطة الاستعمار في افريقيا . وكان ذلك في ابانها فقال : ان مبادئهم ارسال الرواد اولاً بدعوى اكتشاف المجهول من البلاد ، ثم يتبعهم التجار والمرسلون الدينيون لتمهيد الطريق . وعندما تنتشر تجارتهم في البلاد ويصبحون اصحاب منافع عظيمة يؤلفون الشركات الكبرى التي تمنحها الحكومة حق تعبئة الجيوش وضرب العملة ووضع القوانين والاحكام حتى اذا ما فتحت البلاد ودوخت العباد حلت محلها الحكومة نفسها ـ بعد التعويض على مساهمي الشركة ، فتملك الدولة المحتلة بذلك بلاداً واسعة لو ارادت أن تفتحها بالقوة بادىء بدء لكلفتها الأموال الطائلة والنفوس العديدة .

***

وقد استهدف الاستعمار الفرنسي والبريطاني في أفريقيا ـ وهو أبرز القوى الاستعمارية ـ القضاء على مقومات المسلمين في أفريقيا ، وذلك بوسائل مختلفة أهمها القضاء على اللغة العربية والثقافة الاسلامية والتراث الاسلامي ، وكل ما يتصل بتاريخ الفترة المزدهرة التي عاشها المسلمون قبل اتساع النفوذ الأجنبي . ولذلك فان التركيز الاستعماري كان على الثقافة أساساً عن طريق : نشر المدارس والمؤسسات التبشيرية والارساليات والقضاء على المدارس الوطنية ، واعدد المدارس التي تشرف عليها الحكومة ، واعداد الارساليات ، وينصب عملها على نشر لغة المستعمر ودينه وتاريخه وتغذية اللغات الاقليمية

---

١ ـ مجلة الموسوعات ١٨٩٨ .

القومية وايقاف اللغة العربية الأم وتجميدها .

ويتجاهل الاستعمار الفرنسي اللغات واللهجات المحلية منذ التعليم الأولي والابتدائي حتى ينشأ الجيل كله يتحدث بالفرنسية ـ ويختار الصفوة فيرسلهم الى فرنسا ليتشبعوا بثقافته ومفاهيمه ، وهؤلاء هم الذين يعملون في دولاب الحكومة مع رجال الاحتلال بينما يترك بقية الأهالي على اميتهم . كما يعتبر الفرنسي الأرض الأفريقية جزءاً من فرنسا ، ولذلك فهو يوزع صحفه الفرنسية ( الفيجارو والموند ) في غرب أفريقيا ويعتبرها صناعة وطنية .

أما أسلوب الانجليز فيختلف قليلا ، ولكنه يرمي إلى نفس الغاية حيث يفصل الانجليزي بينه وبين الذين يحتلهم ، ويدرس اللغات المحلية في المراحل الأولى ، ثم يدرس لغته في المراحل المتقدمة وهو ينمي الاقليمية في اللغة والتراث ، ويدعو إلى بعث الثقافات القديمة البالية السابقة للاسلام رغبة في الفصل بين المسلمين وبين ماضيهم القريب .

ويعمد البريطانيون[1] الى عزل مختلف المناطق الأفريقية عن الجو العربي الذي قد يكون موجوداً بين الافريقيين ، ومن ذلك أنهم حولوا أهالي شرق أفريقيا ( كينيا وأوغنده وتنجانيقا وزنجبار ) من كتابة اللغة السواحلية بالحروف العربية إلى كتابتها بالحروف اللاتينية .

كما يعمد الاحتلال البريطاني إلى السيطرة على الصحف ، وذلك بتحريك قضايا وشبهات من شأنها أن تثير الخلافات بين المذاهب المختلفة ، وتحول دون وحدة الأمة ، فهو يثير مشكلة الأقليات أحياناً ، والخلافات المذهبية او السياسية احياناً ، او ينادي بانفصال مناطق معينة ، ويتلخص مفهوم الاحتلال الغربي ( بانواعه ): فرنسا وبريطانيا وبلجيكا هو أنه رسول الحضارة ، وناشر المدنية وصاحب الرعاية الأبوية ، والتوجيه الديني ، ولطالما اعلنوا في كتاباتهم « أنهم أصحاب رسالة إلى شعب ليس له أن يبدى رايه في أمور يعرفونها هم ، وإنما عليه ان يقبل الرعاية الأبوية كطفل صغير » .

---

١ ـ حلمي شعراوى ـ في بحث له عن الثقافة العربية في افريقيا ( مجلة نهضة افريقيا ) .

هم ، وإنما عليه أن يقبل الرعاية الأبوية كطفل صغير ».

ويغلب على التوجيه الثقافي والعلمي روح التبشير والارساليات ، حيث يترك الاحتلال البلجيكي للبعثات التبشيرية الاشراف الكامل في المجال التعليمي ، وخاصة التعليم الابتدائي . وقد كان للبلجيكيين ٧٢٠ مجموعة تبشيرية تضم حوالي ( ٦ ) آلاف مبشر معظمهم من الكاثوليك ، ولغة التعليم هي الفرنسية .

غير أن الاستعمار الفرنسي والانجليزي والبلجيكي قد رأى معظم الذين يسافرون إلى اوربا من صفوة أبناء البلاد الممتازين لقيادة مجتمعاتهم ، وأصحاب الولاء الواضح للنفوذ الاستعماري انما يعودون بروح غير روح الولاء ، ويسجل ذلك جورج باديمور حيث يقول : نحن نرى الذين يزورون أوربا ويتلقون تعليما عاليا فيها لا يعودون الى بلادهم بروح الحضارة من البلد الأم ، ولكنهم يعودون بروح معادية للبلد الذي فتح لهم أبواب الحضارة .

***

ويمكن القول بأن الغزو الاستعماري في أفريقيا حمل لواء ثلاث عمليات خطيرة :

( اولا ) : عملية تجارة الرقيق حيث عمد إلى خطف اكثر من عشرين مليونا من أهالي أفريقيا ، وأرسلهم الى أمريكا . وقد مات منهم في الطريق عدد كبير . وقد فعل هذا ، بينما كان يثير حملات عنيفة متهما التاجر المسلم المتنقل بين أرجاء أفريقيا بأنه يعمل في تجارة الرقيق ، وقد شهر للمسلمين والعرب كثير من الباحثين المنصفين ، وردوا هذه الشبهة المضللة وفي مقدمتهم بوذورت سميث حين قال : ما كان التجار العرب الذين توغلوا في القارة الأوربية ليقترفوا في يوم من الأيام جرائم الخطف والاسترقاق التي اقترفها المستعمرون . بل كانوا رسل حضارة وايمان الى هذه القارة .

( ثانيا ) : عمليات التبشير حيث تدفقت البعثات التبشيرية الأوربية المختلفة من الكاثوليك والبروتستانت لنشر المسيحية واللغات الأوربية ، ومقاومة الاسلام ، والثقافة الاسلامية ، وقد سار التبشير في ركاب الاستعمار وارتبط

( ثالثا ) : ادخال جماعات بيضاء بكميات ضخمة في كثير من المناطق للاستيلاء على الأراضي الخصبة ، وطرد أهلها الافريقيين منها ، وخلق كيان أوربي يجعل الوطنيين أقلية في بلادهم . والمعروف ان البعثات التبشيرية لم تستطع أن تحقق كثيراً مما كانت تتطلع اليه ، فقد واجهتها حركة التبشير الاسلامية السلمية ، واكتسحت المجال أمامها ، وبلغت أقصى مكان في القارة ، وقد أشار الدكتور زويمر في أوائل هذا القرن دهشاً الى ما وجده في جنوب أفريقيا من نهضة اسلامية في مدن الكاب ، وناتال والسنغال وروديسيا . فقد اشار في تقريره الى انه وجد في مدينة الكاب وحدها ما يزيد على ثلاثة عشر مسجداً ، وحيث يجري تعلم اللغة العربية لنحو ٤٠٠ طالب يتلقون هذه اللغة في مدرسة واحدة ، يوجد بالكاب ٢٤ الف مسلم ويدهش لانه عثر على كتاب صرف عربي انجليزي في ثمانية مجلدات في احدى المكتبات ، ويقول إن زعماء النهضة لتعليم اللغة العربية في الغالب من الحجاج الذين يعودون من مكة[١] .

والمعروف أن المنظمات الاسلامية قد خاضت معركة مريرة مع الغرب وقوانه ، ومراكز تبشيره . وتسابق الطرفان مع المبشرين الذين تسندهم اموال ، أيهما يكسب مزيداً من الزنوج الوثنيين . وقد استطاع الاسلام أن ينتصر في هذا الحرب . وتطرق الدعاة المسلمون إلى اقاليم لم يكونوا قادرين على أن يبلغوها من قبل ، وكسبوا الملايين إلى الاسلام . واحرزت هذه المنظمات نصراً بعيد المدى على المنظمات المسيحية رغم اموالها وسلطانها ، ولما بدأت قبضات المستعمرين في افريقيا تتهاوى ولاحت نزر التحرر تطلع الأفريقيون الى الفكاك من الأسر . فكانت الجماعات المسلمة هي الخمائر التي خرجت منها صيحات التحرر حيث لعبت الجمعيات الاسلامية دوراً هاما في قيادة الحركة الاستقلالية في غرب افريقيا وشرقها ، وأسهم الزعماء المسلمون بدور فعال في تقدم الحيركة الاستقلالية . واشترك المسلمون في المنظمات السياسية ،

---

١ ـ المقتطف سنة ١٩٢٥ .

واقبلوا على التعليم وأسهم الاسلام بنصيب كبير في تحقيق الوحدة الأفريقية . ( دكتور حسن محمود ) .

****

ويؤكد الباحثون والمؤرخون ان أفريقيا هي القارة الوحيدة التي يزحف فيها الاسلام اليوم ، وأن الاسلام قد ضاعف نفسه في أفريقيا خلال عشرين عاما ، حيث ارتفع عدد المسلمين بين عام ١٩٣١ و١٩٥١ من ٤٠ مليونا إلى ٨٠ مليونا .

ويرى الدكتور جمال حمدان ان عدد المسلمين في أفريقيا اليوم يعادل عدد العرب في مجموعهم ، وأن افريقيا أكبر القارات في نسبة الاسلام ، وقد تمددت أطراف الاسلام منها إلى كل ركن وصقع في القارة ، ويصف حركة الاسلام في أفريقيا « بالثورة الصامتة التي تكتسح القارة تحت ناظرينا » وعنده أن الاسلام في حدود انتشاره الحالي في افريقيا . يرتبط بكل أنواع البيئات المختلفة ، وان هذا النمو على كافة المستويات يكذب ما ذهب اليه البعض من أن الاسلام دين الرعاة أو دين الصحارى ، او دين السهول ، فهو دين الرعاة والصحارى والسهول جميعا . والاسلام ممثل اليوم في كل وحدة سياسية في أفريقيا وعددها خمسون وحدة ، وهو قوة سياسية كبرى في أفريقيا .

وعنده أن الاسلام قوة لاحمة سياسية ، فهو جسر امتد بين أفريقيا العربية ، وأفريقيا الزنجية ، ويمثل قاسماً مشتركاً أصغر بينهما برد خرافة « زنوج وعرب » وسيظل الاسلام يزحف في آسيا المدارية وينتقل من نجاح الى نجاح .

ويؤكد الباحثون ان الاسلام في أفريقيا يتحرك في فراغ ديني ، وانه يعمل دون صراع مع المسيحية ولا يصادمها ، وانما يتخذ مجال عمله بين الوثنيين ، والظاهرة الواضحة أن التبشير قد ارتبط بالنفوذ الاجنبي والاستعمار الأوربي ، وان تناقضات المذاهب وصراعها قد قلل من اهمية التبشير نفسه ، بينما يبدو

---

١ ـ دكتور جمال حمدان ـ مجلة المجلة ـ نوفمبر سنة ١٩٦٣ : الاسلام في افريقيا .

الاسلام بسيطاً وسمحاً . وقد اصبح الافريقيون يقرنون بين المسيحية والاستعمار ، ويرون أن المسيحية دين البيض . ومن هنا فإن الاسلام يكاد يكون محتوما كدين المستقبل ، ويشير إلى الدكتور جمال حمدان حين يقول : ربما سجل التاريخ قريبا أن تحرر أفريقيا كان معناه موجة حديثة في انتشار الاسلام . رقد تصبح افريقيا قارة الاسلام بالضرورة .

***

وبالجملة فإن الاستعمار قاوم الاسلام والثقافة العربية والتاريخ واللغة العربية جميعا خلال أكثر من قرن كامل في نفس الوقت الذي شق الاسلام طريقه ، وتوسع حتى احاط بالقارة احاطة شاملة ، وفرض نفوذه الفكري والثقافي والاجتماعي كتيار تقدمي واضح الأثر .

# العالم الاسلامي وحركات الوحدة

## الوحدة الاسلامية

## الجامعة الاسلامية

## الخلافة الاسلامية

# ( ١ )

## الوحدة الاسلامية

ليس من متطلب منهج البحث في هذه الدراسة التعرض للخلافة ومفهومها الفقهي الاسلامي ، وانما نتعرض لها بقدر مكانتها من قضايا العالم الاسلامي الحاضر .

والخلافة في الاصطلاح الفقهي الاسلامي هي الامانة الكبرى ، وامارة المسلمين والمقصود بها أصلا الولاية العامة على شؤ ون المسلمين من دينية ودنيوية .

ترك النبي صلى الله عليه وسلم للمسلمين الحرية في اختيار الخليفة فلم يفرض أحداً ، واتفق المسلمون على اختيار أصلح المسلمين من قريش ، ثم انتقلت الخلافة من مرحلتها الراشدة حتى أصبحت ملكاً عضوضاً بتولي الأمويين الحكم ، ثم انتقلت الى العباسيين ، ثم تعددت مراكزها في مصر والمغرب والأندلس الى أن سقطت عام ٦٥٦ هـ بسقوط بغداد في أيدي التتار ، ثم أعيدت في القاهرة الى أن حمل السلاطين العثمانيون لقب الخلافة منذ القرن الرابع عشر الميلادي الثامن الهجري ، واعترف بهم جمهور المسلمين بعد اتساع الامبراطورية العثمانية .

ومن خلال الخلافة العثمانية نبعت فكرة الجامعة الاسلامية في مرحلة حكم السلطان عبد الحميد الثاني ( ١٨٧٦ ـ ١٩٠٨ ) وكان مصدرها الأساسي الدعوة الى تجمع المسلمين في جبهة واحدة لمواجهة النفوذ الاستعماري الغربي الزاحف .

وقد لمعت هذه الفكرة على لسان جمال الدين الأفغاني الذي جاء مصر ١٨٧١ تقريباً . والذي كان قد عاش تجربة مثيرة في فارس وأفغانستان والهند

قبل هذا التاريخ بقليل ، دفعته الى أن يحمل لواء حركة اليقظة الاسلامية ، ويقصد بها الى المجال الخيوي الاوسع لها : الى استامبول حيث مقر دولة الخلافة والى القاهرة حيث الازهر الشريف . وقد آثر البقاء في القاهرة عند ما وجد البيئة الصالحة لفكرته فاستقر بها سبع سنوات .

ولم تكن « الجامعة الاسلامية » هي الفكرة الوحيدة التي حملها جمال الدين ، ولكنها كانت القالب الذي صاغ فيه الايدلوجية الاسلامية التي أراد تحقيقها ، كان جمال الدين يطمع أساساً في تحرير العالم الاسلامي من أدوائه : الجمود والتخلف والنفوذ الاستعماري والتفكك . وله في كل هذه القضايا اراء حصيفة واعية ، ومتقدمة على فكر العصر نفسه ، ولكنه كان يؤ من بأن هذه النهضة المرتقبة لا تتحقق الا عن طريق عمل سياسي يبدأ من احدى الدول الاسلامية ، ويحمل لواء الوحدة الاسلامية الجامعة للمسلمين تحت لواء القرآن . ومن الحق أن يقال ان جمال الدين الافغاني كان هو « المصلح » الذي يمكنه أن يحقق هذا البرنامج وينفذه سياسياً وكان يرى أن مصر هي أصلح المواقع لقيام هذه الحركة على أساس التقاء فكري وسياسي جامع أشبه بالالتقاء الذي تحقق بين الامام محمد بن عبد الوهاب وامير الدرعية من نجد ، ولذلك كان أمله معلقاً بالأمير توفيق كخليفة للخديوي عباس . وقد التقى به كثيراً ، وتحدث معه ، وكان يرتقب الفرص لتوليه السلطة خلفاً لأبيه ، غير أن توفيق قد عق عهده ، وأخلف وعده للأفغاني ولم يلبث ان أخرجه من البلاد متهماً اياه بأنه رئيس جمعية سرية ، ثم حددت اقامة أكبر تلاميذه محمد عبده في قريته ، وأصاب المدرسة التي كانت تتجمع حوله التمزق والتفرق .

وكانت آماله معقودة يوماً بشاه فارس ، أو بمهدي السودان ، ولكن آماله جميعاً لم تتحقق ، فالتجأ أخيراً الى قبول دعوة كانت دائمة ومتصلة من السلطان عبد الحميد الذي كان قد أخذ فعلا في تحقيق هذه الفكرة ووضعها موضع التنفيذ على النحو الذي ارتآه .

فقد التقط السلطان عبد الحميد فكرة الجامعة الاسلامية عندما وجدها خير سلاح يحارب به النفوذ الاستعماري الغربي الزاحف على العالم الاسلامي ،

وكان مفهومه أن يتوحد المسلمون تحت لواء الخلافة الاسلامية ، وان لم يكونوا اجزاء من الدولة العثمانية ، وهو بذلك يفتح الطريق لاقامة جبهة مقاومة واسعة تضم مسلمي الهند وايران وافغانستان والجزائر والملايو وأفريقيا . وكان شعاره هو : « الوحدة الاسلامية » ودعوته الى مسلمي العالم للتجمع والاتحاد مع الدولة العثمانية في وجه الخطر الغربي الأوربي الزاحف ، وذلك بحسبانها أقوى الوحدات الاسلامية وأقدرها على مقاومة العدو . ومن حق أن يقال ان هذه الحركة هزت دول العالم الغربي ، وخاصة بريطانيا وفرنسا ، وكلفتها جهداً كبيراً في سبيل مقاومتها ورميها بكل نقيصة ، واتهام السلطان عبد الحميد والتشكيك فيه ، ورميه بالجمود والتعصب والاستبداد على نحو لم يوجه لأحد من الزعماء من قبل ولا من بعد ، وقد جعل كرومر حملته على الجامعة الاسلامية في مصر عملاً أساسياً وضخماً ، وأتاح لصحيفتي المقطم والجريدة اعلان الحرب العنيفة على هذه الدعوة ، وأشارت تقاريره المتصلة اليها ، واستطاع ان يرسم في سبيل مقاومتها خططاً خطيرة حمل لواءها لطفي وسعد زغلول .

وكان من أقوى الاسلحة التي واجهت بها الدول الاوربية حركة الجامعة الاسلامية : الدعوة الاقليمية واعلاء شأن الجنسية والوطن والعرق ، وقد استنفذت هذه الحركة جهداً كبيراً ، واستطاع الكتاب المارون الذين تركزوا في مصر أن يحملوا لواء مقاومة فكرة الجامعة الاسلامية على نحو مؤ يد بالنفوذ الأجنبي ، وكانوا في الحق انما يحملون على الاسلام نفسه بالحملة على وحدة المسلمين . وقد جرى في سبيل مقاومة فكرة الجامعة الاسلامية مغالطات كثيرة ، كان أبرزها أنها حرب مقدسة يحاول المسلمون القيام بها ضد اوربا والغرب والمسيحية ، ولم تكن كذلك في الحق ، حيث لم يكن المسلمون يملكون من الاسلحة ما يمكنهم من الدفاع عن أنفسهم . بل مقاومة أوربا وغزوها . فقد جرد الاستعمار الغربي العالم الاسلامي من كل سلاح وقوة حربية ومادية ، وتسلط على جيوشه وحكوماته ، ومقدراته ، فلم يكن ذلك الاتهام معقولا شكلا .

كذلك جرى الادعاء بأن المحاولة ترمي الى انشاء حكومة اسلامية واحدة ، وجرى التشكيك في امكان قيام مثل هذه الحكومة . والحق أن دعاة الجامعة الاسلامية سواء أكان جمال الدين الأفغاني مفكراً أم السلطان عبد الحميد حاكماً ومن معهما من النصراء لم يكونوا يهدفون الى ذلك أو يطلبونه لاستحالته عقلاً ، وانما كان تطلعهم يستهدف تقارباً وتوثقاً والتقاء على مستوى الأحلاف والاتفاقات السياسية والعسكرية والاقتصادية المعروفة .

وعبارة جمال الدين الأفغاني في هذا الصدد واضحة صريحة « لا ألتمس بقولي هذا أن يكون مالك الأمر في الجميع شخصاً واحداً ، فان هذا ربما يكون عسيراً ، ولكني أرجو أن يكون سلطان جميعهم القرآن ، ووجهة وحدتهم الدين ، وكل ذي ملك على ملكه يسعى بجهده لحفظ الاخرين ما استطاع فان حياته بحياتهم وبقاءه ببقائهم » .

وقد استطاعت الدعوة الاقليمية والجنسية والعرفية أن تنمو بسلطان الاستعمار ونفوذه ، حتى تقاوم الجامعة الاسلامية وتكتسحها خلال حياة جمال الدين الأفغاني حتى وفاته ١٨٩٧ وحكم السلطان عبد الحميد حتى عزله ١٩٠٩ .

ومن الطبيعي أن الأطماع الاستعمارية والأطماع الصهيونية أيضاً تلك التي كانت قد تشكلت معاً في مخطط واحد هي التي كانت تطمع في القضاء على هذه الدعوة . ولكن هل ماتت خطة الجامعة الاسلامية وانطوت ؟ .

ذلك ما تستبعده جميع الدلائل والمخططات والدعوات التي ظهرت حتى بعد ذلك ، ولكن يمكن القول ان الاستعمار شغل الوحدات الاسلامبة بقضاياها الخاصة ، وأنه حال دون قيام مخطط للوحدة الاسلامية بالقضاء على نواتها حين قضى على الدولة العثمانية نفسها عام ١٩١٨ بعد هزيمتها في الحرب العالمية الاولى وحين اسقط الاستعمار الخلافة باتفاق سري ملحق بمعاهدة لوزان التي أقرها مصطفى كمال حاكم تركيا بعد الحرب العالمية الاولى .

واذا كانت الجامعة الاسلامية قد انطوت في ظل الاحتلال الغربي للوحدات الاسلامية ، فان روح الوحدة الاسلامية ظلت قائمة في خلق جميع حركات

التحرر واليقظة والمقاومة وانها كانت تبرز بين حين وحين لتؤكد وجودها .

أما سقوط الخلافة الاسلامية عام ١٩٢٤ فقد كان حدثاً بالغ الأهمية بالنسبة للعالم الاسلامي كله ، وبالنسبة للأمة العربية خاصة بحيث يمكن القول انه ترك آثاراً بعيدة المدى ظهرت واضحة في حركة الخلافة في الهند ، وفي انشاء جمعيات الشبان المسلمين العالمية التي بدأت في القاهرة ، وحملت في أول نصوص تشكيلها العمل على اعادة الخلافة . وهو نص التزمت به مختلف الجمعيات والحركات الاسلامية في العالم الاسلامي كله ، والتي انبعثت اساساً من حركة الشبان المسلمين .

وقد كانت تحديات الصهيونية في فلسطين عاملاً اساسياً في قيام وتشكيل المؤتمرات الاسلامية العالمية المتوالية ، التي واجهت هذه القضية كأول وأخطر قضايا العالم الاسلامي ، ثم كان من قيام دولة باكستان عاملا هاماً وأساسياً لبروز دعوة الجامعة الاسلامية والوحدة الاسلامية الى الوجود ١٩٤٧ . وقد توالى انعقاد مؤتمرات اسلامية مختلفة بعد هذا التاريخ . في الهند والقدس ومكة والقاهرة تكاد تكون متابعة للخط الواضح ، خط الالتزام بالوحدة الاسلامية ، أما الخلافة الاسلامية فقد اتخذت حكومة أنقرة لاسقاطها مخططاً له مراحل وحاولت أن تنسب اليها كل عوامل التأخر والجمود والضعف التي عاشتها تركيا ، ولم يكن ذلك في الحق الا تعلة لاجهاض هذا الحدث الضخم ولو كان قادة أنقرة يهدفون الى الاصلاح لاستطاعوا اعادة تصحيح مفهوم الخلافة على النحو الذي يقرره الاسلام ، والذي كانت الخلافة بعيدة عنه في الواقع ، بعد أن تاثرت بمفاهيم البابوية الكاثوليكية في روما ، وقد عرض عبد العزيز جاويش الى هذا المعنى في حديث مع مصطفى كمال حين التقى به ، وتحدث معه حول بقاء الخلافة وزوالها . وقد لمس في حديث مصطفى كمال الاصرار مسبقاً على الالغاء ، وانما كان البحث حول التماس الأسباب لهذا الالغاء ، ولم يلمس جاويش في كمال أي رغبة في اصلاح نظام قائم قد انحرف عن مفهومه الاسلامي .

لقد كان الغاء الخلافة حلقة اساسية من الحلقات التي جرى بها ضغط النفوذ

الاجنبي الهادف الى تمزيق الوحدة الاسلامية ، والقضاء على الدولة العثمانية الجامعة بين أكبر عنصري الاسلام : « العرب والترك » وايقاع الخلاف الدموي بينهما كما حدث تماماً بعد اقصاء عبد الحميد ، وتولي الاتحاديين للحكم وهدفهم الاساسي هو تصفية الدولة العثمانية تمهيداً لتحقيق أكبر هدف للاستعمار الغربي في ازالة قوة الاسلام كعامل فكري وعامل وحدة من ناحية ، وفي اتاحة الفرصة للدول الأوربية لتقسيم هذا الميراث بينها ، والسيطرة عليه ، وبلوغ اقصى ما كانت تحكم به أوربا منذ بدأت عملية تطويق عالم الاسلام في القرن الخامس عشر بعد سقوط الأندلس ، وتحقيقاً لهدف مرسوم هو عودة أوربا الى العالم الاسلامي مرة أخرى بعد هزيمتها في الحروب الصليبية قبل ذلك ( ١٢٩١ ـ ١٩١٨ ) بستمائة عام ، وهو ما عبر عنه اللورد اللنبي حين دخل مدينة القدس واعلن عبارته المثيرة : « اليوم انتهت الحروب الصليبية » .

لقد كان تمزيق الوحدة التركية العربية مقدمة لازالة الدولة العثمانية كبرى الوحدات الاسلامية ونقطة التقاء المسلمين حول الخلافة . وكانت هزيمة الدولة العثمانية مقدمة لالغاء الخلافة . وبذلك ضاعت « نقطة » التقاء المسلمين بحيث أصبح من العسير تحقيق هذا الهدف . اصراراً من النفوذ الاجنبي على الحيلولة دون وجود نقطة بدء جديدة لهذه الوحدة .

كان هدف النفوذ الاستعماري اذن منذ أول الأمر هو تمزيق الرابطة بين العرب والترك أساساً للقضاء على نقطة الوحدة ، تحت شعار الخلافة ، وكان رأي غير المتحمسين لدعوة الانفصال هو ان الغرب لن يسمح بعد اسقاط الدولة العثمانية من قيام وحدة جديدة ، ولو على مستوى الأمة العربية كما كان يتوقع الكثيرون بقيام وحدة جديدة ، ولو على مستوى الأمة العربية كما كان يتوقع الكثيرون والصراع بين العرب والترك . ولم تكن النتائج لحساب العرب ، كما يظنون ، ولا لحساب قيام دولة عربية ، وانما لحساب التقسيم والنفوذ الاستعماري . غير أنه لا بد من القاء تبعة ذلك على العثمانيين . ليس كل العثمانيين ، وانما على الاتحاديين الذين حكموا بعد أن أزالوا السلطان عبد الحميد ١٩٠٨ حتى الحرب العالمية الأولى ، هؤلاء وحدهم ، وفترة حكمهم هي التي يمكن أن

توجه اليها اتهامات :

( ١ ) تمزيق الوحدة العربية . ( ٢ ) القضاء على الدولة العثمانية . ( ٣ ) ارغام العرب بمختلف الوان الظلم على الانفصال عن تركيا .

هؤلاء « الاتحاديون » هم ثمرة الدعوة التي كان طابعها في أول الأمر الحرية والدستور والتقدم ، والتي بدأت عملها منذ وقت طويل ، وكانت خصماً عنيداً طوال فترة حكم السلطان عبد الحميد تحت شعارات براقة مغرية هي : شعارات الحكم النيابي ، والخروج من الجمود والتأخر . نعم : ان الدعوة في مضامينها ومنهجها دعوة يقظة . ولكن الأيدي التي قادتها ، والمخطط الذي كان يدفعها ، لم يكن هادفاً الى خير المسلمين والعرب ، ولم يكن عاملاً على دعم المواجهة امام الغزو الغربي الاستعماري الزاحف ، بل على العكس من ذلك كان أداة هذا الزحف ، وكانت الحرية والخروج من الاستبداد ، انما تعني اسقاط السلطان عبد الحميد ، والخلافة والجامعة الاسلامية جميعاً ؛ وجميعها من عوامل المقاومة ، ولذلك فان أي مقارنة بين حكم السلطان وبين حكم الاتحاديين دعاة الحرية والاخاء والمساواة يكشف مدى الفارق البعيد ، ويصور كيف تحولت دعوة الحرية في أيديهم الى تسلط وعنف وطغيان لا حدّ له . وخاصة بالنسبة للعرب شركائهم في الدولة حتى أنهم سمحوا لأنفسهم بتعليق احرارهم على المشانق .

ولقد عمت الفرحة انحاء المملكة العثمانية بعد سقوط عبد الحميد ، ودقت طبول البشرى معلنة في مختلف صحفها أن المملكة تخلصت من كابوس الاستبداد الممثل في عبد الحميد ، ولكن ماذا تقول صحف التاريخ بعد ذلك . هل دامت هذه الفرحة كثيراً ؟ هل استطاعت ان تقول ان الذين احتفلوا بها كانوا صادقين ؟ الحق أن لا . فقد كشف الاتحاديون عن حقد دفين للوحدة الاسلامية ، وللعرب ولكل القيم التي قامت عليها حركة المواجهة والمقاومة والتجمع أمام النفوذ الغربي . فكان الاتحاديون هم سلاح العرب والاستعمار ، وأداته في القضاء على هذه القوة الباقية ، وتسليم البلاد العربية للاحتلال الفرنسي والانجليزي ، وتسليم تركيا الى نفوذ استعماري تغريبي أشد عنفاً

وقسوة ، قاضياً وماحقاً لكل ما هو اسلامي .

ولقد انخدعنا طويلا وراء ما ترويه كتب التاريخ الحديث في هذا الصدد ، وجرينا وراء العبارات التي حاولت أن تصور الدولة العثمانية في صورة الاستبداد والظلم والتاخر ، وتركز هذا كله على رجل واحد ، وعصر واحد ، هو : السلطان عبد الحميد ! فما أظن أن قائداً في التاريخ كله أمكن ان توجه اليه مثل هذه الاتهامات الزائفة ، وأن تعيش طويلا ، فتظل تغذي أجيالا بعد أجيال دون أن تتكشف حقيقة الأمور التي تختلف كثيراً عما زيفه الكتّاب المارونيون اللبنانيون الذين كانوا عملاء النفوذ الأجنبي ، والذين نفذوا خطة دقيقة رسمتها أيدي وعقول غربية قادرة على الغزو الفكري ، تعرف ما وراء الكلمة من قدرة على اقناع الشعوب والأمم على الاعتقاد بوقائع زائفة توضع موضع الحقائق وتسبغ عليها كل عوامل البقاء والاستمرار .

فالواقع الذي تشهد به الحقائق التي ما تزال تتكشف بين أيدينا . أن السلطان عبد الحميد لم يكن بهذه الصورة التي جرى تصويره بها ، وأنه كان على عكس ذلك تماماً ، وأن دعوته الى الجامعة الاسلامية التي أحيطت بشيء كثير من المبالغة والتحريف ، انما كانت تهدف الى خلق رأي عام اسلامي ينضم مع الدولة العثمانية في مواجهة النفوذ الاستعماري الزاحف ، وان هذه الدعوة التي حمل لواءها : دعوة الجامعة الاسلامية قد هزت الدول الاستعمارية من الأعماق ، ودفعتها في حقد وعصبية الى كيل الضربات العنيفة لهذا القائد في أكبر بقعة يمكن أن يصل منها الرأي المضلل ويتسع ، ومن قلب القاهرة حيث صحف المقطم والهلال والمقتطف والجامعة والمجلة المصرية ، وعشرات من المجلات الى اطراف العالم الاسلامي كله .

لم تكن هذه الحملة في الحق على السلطان عبد الحميد الا ثمناً لكلمة حق ، عندما وقف في اصرار دون محاولة تمزيق الدولة العثمانية ، وحال دون تمكين الصهيونية من فلسطين ، ورفع راية الجامعة الاسلامية في وجه الغرب الزاحف .

ومن هنا كانت الحملة باسم العروبة لا تستهدف للعرب خيراً . بل تستهدف

تمزيق الوحدة والقضاء على البلاد العربية ، كما وقع بعد الحرب العالمية الأولى . وكانت الدعوة الى الحرية لا تستهدف تحقيق مساواة او عدالة بقدر ما كانت تستهدف اسقاط عبد الحميد بحسبانه صاحب اللواء المنصوب في وجه التقسيم والسيطرة الأجنبية ، والا فأين الحرية التي تحققت بعد عبد الحميد في عهد الاتحاديين أو العروبة التي تحققت بعد انفصال العرب عن الدولة العثمانية . ان ما وقع بعد الحرب الاولى . انما كان انتقالا الى السيطرة الغربية الكاملة .

كانت الشعارات والدعوات وسائل لخداع الشعوب وتمزيق الأواصر والقضاء على القوى الموحدة ، حتى اذا تمزق المسلمون لم يعد في الامكان تجميعهم ، لا في وحدات عربية ، ولا في وحدات من أي نوع كان . ولقد استغل هؤلاء الدعاة كل كلمة صادقة وحرة ، وذهبوا بها الى أبعد مدى واستخدموها أكثر مما كانت تقصد أو تحمل كما حدث بالنسبة لآراء عبد الرحمن الكواكبي . ولذلك فان الدعوة الى العروبة واللغة العربية التي بدأت تحت ظلال المؤسسات التبشيرية والارساليات ما كان يمكن أن تكون صادقة اساساً وهادفة الى مصلحة العرب ، وإنما كانت في الحق سلاحاً ضد وحدة العنصرين وضد جدار الدولة العثمانية الجامعة بين العرب والأتراك باسم الاسلام . وكذلك الدعوة الى الحكم العادل والتخلص من نفوذ الفرد ما كان يقصد بها الا التخلص من السلطان عبد الحميد المتهم بأنه مستبد وديكتاتور ، والا فأين أثر هاتين الدعوتين بعد سقوط عبد الحميد ، وتمزق الدولة العثمانية . لقد تحول دعاة العروبة في الارساليات الى اعلاء لغاتهم الأساسية ، واغضوا نهائياً عن اللغة العربية ، وذاقت الدولة التي دعا الاتحاديون فيها الى الحرية والدستور والتخلص من الاستعداد ، أسوأ مظالم الاستبداد في عهد الاتحاديين وفي عهد مصطفى كمال .

لقد كان عبد الحميد الثاني هو آخر الحصون التي دافع بها الاسلام عن وجوده ، وكان اسقاطه هو آخر حلقة من حلقات المقاومة للسيطرة الغربية الكاملة على العالم الاسلامي : سقوط الدولة العثمانية الجامعة بين الترك

والعرب ١٩١٨ والغاء الخلافة الاسلامية ١٩٢٤ .

وقد كشفت وثائق الصهيونية كيف حاول هرتزل ودعاة الصهيونية بعد عقد مؤتمرهم الأول في بادل بسويسرا عام ١٨٩٧ الالتقاء بالسلطان واغرائه لفتح الطريق الى فلسطين . وقد كانت أولى المحاولات هي محاولة هرتزل ( ١٩٠٠ ـ ١٩٠١ ) وكان رئيساً لتحرير جريدة نيوفري في فينا الذي تقدم بعرض مفاده أن يتعهد الصهيونيون بدفع الدين العثماني البالغ « ٢٢ مليون ليرة انجليزية » وبناء أسطول كامل للدفاع عن أراضي الدولة العلية ، وعقد قرض بمبلغ مائة مليون فرنك تصرف في سبيل التسليح العام . وذلك نظير نزول اليهود المضطهدين في انحاء العالم بفلسطين ، وقد سجل هرتزل في مذكراته رد السلطان عليه حيث قال : « بلغوا الدكتور هرتزل ألا يبذل بعد اليوم شيئاً من المحاولة في هذا الأمر ( التوطن بفلسطين ) فاني لست مستعداً لأن أتخلى عن شبر واحد من هذه البلاد ليذهب الى الغير ، فالبلاد ليست ملكي . بل هي ملك شعبي الذي روى ترابه بدمائه ، وليحتفظ اليهود بملايينهم من الذهب » . وفي المحاولة الثانية تقدم ثلاثة من اليهود ( مزراحي ، جال ، ليون ) الى السلطان عام ١٩٠٢ بعرض ضخم مغر ، يتضمن . ( ١ ) الوفاء بجميع الديون المستحقة على الدولة العثمانية . ( ٢ ) بناء أسطول لحماية ثغور الامبراطورية العثمانية . ( ٣ ) تقديم قرض بخمسة وعشرين مليون ليرة ذهبية دون فائدة لانعاش مالية الدولة .

وذلك مقابل : ( ١ ) اباحة دخول اليهود الى فلسطين للزيارة ( ٢ ) السماح لليهود باقامة مستعمرة ينزل فيها أبناء جلدتهم قرب القدس الشريف . وقد رفض السلطان عبد الحميد هذا العرض في اصرار عجيب .

غير ان جمعية الاتحاد والترقي التي تأسست باسم الحرية والتقدم ، ثم لم تلبث عناصر الدونمة المقيمة في سالونيك بالاشتراك مع المحافل الماسونية التي تستهدف اقامة عرش سليمان . أن سيطرت عليها ووجهتها وجهة خدمة أهدف الصهيونية الماسونية اليهودية ـ هذه الجماعة هي التي سمحت لليهود باستيطان فلسطين ، وليس السلطان عبد الحميد .

وقد أكد الباحثون المثقفون أن جمعية الاتحاد والترقي كانت القناع الخارجي الذي تقنعت به جماعة الدونمة المتظاهرون بالاسلام من يهود أسبانيا الذين اتخذوا من مدينة سالونيك مقاماً لهم بعد فرارهم من محاكم التفتيش التي نصبها الأسبانيون لمخالفيهم في العقيدة سواء من المسلمين أم اليهود .

ولما كان السلطان عبد الحميد قد تفادى مؤتمرات النفوذ الاستعماري باعلان المشروطية ١٩٠٨ فان ذلك قد دفع الصهاينة والنفوذ الاستعماري معاً خطوة الى الأمام للتآمر لاسقاطه ، وقد تحقق ذلك بالخطة التي نفذوها باسم حركة الارتجاع قاصدين من ذلك احراج السلطان ودفع الاتحاديين الى الثورة عليه ، والتخلص منه نهائياً تمهيداً للتخلص من الاسلام نفسه فيما بعد . وقد حققت هذه الحركة نتائجها فقام الجيش بحركته لعزل عبد الحميد ، وكان أحد المتقدمين الى السلطان عبد الحميد يطلب التنازل « مزراحي أفندي قراصوه » أحد الذين تقدموا عام ١٩٠١ بطلبات الصهيونية ، وكان هذا الموقف خاتمة للموقف الأول ونتيجة له .

ومن حق أن يقال انه كان لليهود محاولة سابقة لمحاول هرتزل .

وقد سجلت مجلة الشرق الكاثوليكية في مجلدها الثاني ١٨٩٩ ص ١٩٠٤ موقف الصهيونية من الدولة العثمانية فقالت : « لما كان اللورد غوش الاسرائيلي سفيراً بالأستانة عرض على الحكومة السنية أن تجعل تلك النواحي ( مافاد ومؤداب من عبر الأردن ) التي مساحتها نحو ستمائة ألف هكتار مستعمرة لليهود ، تحت نظارة الباب العالي ، يسوسونها كما يشاؤون بشرط أن يدفعوا لمولانا السلطان مبلغاً من الدراهم لا يقل عن بضعة ملايين من الفرنكات ، غير أن الدولة السنية لم تلب دعاء غوش وأغنياء اليهود ، فذهب مالهم أدراج الرياح . وكانت غايتهم أن يمهدوا لأبناء جلدتهم انشاء مملكة مستقلة بالأراضي المقدسة كما كانت قبل المسيح اهـ .

والمعروف أنه بعد أن تولى الاتحاديون السلطة لم تفتح أبواب فلسطين وحدها أمام تدفق اليهود ، بل أتيحت لهم الفرصة للسيطرة على الدولة كلها . وذلك بحسبان أن الدستور العثماني ـ قد أعطى جميع الطوائف حق المساواة ،

وكان اليهود في مقدمة هذه الطوائف وأذكاها وأقدرها على العمل . فقد قفزوا الى الوظائف العالية في الدولة ، وكان اعلان الدستور في تركيا بالنسبة لليهود شبيهاً بأثر الثورة الفرنسية بالنسبة لهم في أوربا . فقد أخذت سيطرتهم تظهر على المراكز التوجيهية العامة ، ومن ثم بدأوا عملهم في الوقيعة والدس بين العرب والترك ، وبين الأتراك وسائر الشعوب المسيحية في المملكة العثمانية . وقد أشارت الى ذلك مجلة المشرق الكاثوليكية أيضاً حين قالت : لم يمض وقت طويل ( على صدور الدستور العثماني ) حين تبين أن مديري دفة جمعية تركيا الفتاة هم يهود ، وأنهم أخذوا بواسطة أعوانهم يثيرون كوامن البغضاء بين الأتراك المسلمين وبين سائر الشعوب المسيحية في المملكة العثمانية .

ومما يؤكد هذه الحقيقة أن جريدة التيمس الانجليزية احدى الجرائد المشهور بممالأتها ، رأت أن تذكر لعباً لعبوه شبيهاً بالدور الذي لعبوه في تهييج النصارى ضد الاسلام . وجملة القول ان الاتحاديين هم الذين سلموا فلسطين لليهود ، والدولة العثمانية للنفوذ الأجنبي .

وكانوا العامل الاساسي الفعال خلال فترة ثمانية سنوات ( ١٩٠٨ - ١٩١٦ ) على تمزيق هذه العروة العربية التركية مستمرين بذلك لاسقاط الخلافة . وأن مصطفى كمال يعتبر امتداداً أشد وأعنف للاتحاديين ومفاهيمهم ، وأنه هو ثمرة الحركة الاتحادية كما كان نابليون ثمرة الثورة الفرنسية .

ومن حق ان يصحح اليوم هذا التاريخ ، وان تجلى هذه الشبهات التي أحيط بها قائد مسلم ظل يقاوم النفوذ الاجنبي الزاحف بقوة خلال اربعين عاماً في بسالة لا تبارى ، وأن يكشف عن زيف الاتهامات التي وجهت اليه من أمثال قولهم : انه كان يلقي في البسفور الآلاف من الأحرار . فقد ثبت أن ذلك لم يقع أصلاً ، وأن انساناً واحداً لم يسقط في البسفور ، واذا كان دعاة هذا القول صادقين فان عليهم أن يذكروا اسماً واحداً .

ويرجع الأستاذ المحقق سعيد الأفغاني تاريخ انشاء جمعية الاتحاد والترقي من جماعة يهود سالونيك على نمط المحافل الماسونية اليهودية الأصل الى نفس العام الذي تمت فيه المقابلة بين هرتزل والسلطان عبد الحميد. . ومن

خلال هذا المخطط المشترك بين النفوذ الاستعماري الزاحف ومطامع الصهيونية ، رسمت خطط الدعوات المتطرفة الى العنصرية الطورانية ، واذكاء العداء بين عناصر المملكة العثمانية من عرب وأكراد وأرمن وشركس وأرناؤ وط . وكان رد الفعل أن اعتنقت هذه الشعوب نفس الدعوة العنصرية ، وكان هذا اخطر تآمر صهيوني غربي في وجه دعوة الجامعة الاسلامية والوحدة العربية التركية الممثلة في كيان موحد للمسلمين في مواجهة الغزو الغربي هو المملكة العثمانية .

وبذلك فقد كان خلع السلطان عبد الحميد خطوة أساسية نحو تحقيق المخطط الذي تم بعد الحرب العالمية الثانية في ثلاث مراحل .

( ١ ) وعد بلفور وتسليم فلسطين للصهيونية .
( ٢ ) تقسيم العالم العربي بين دول الاستعمار .
( ٣ ) تسليم تركيا لأبشع حركة تغريب وتدمير للقيم الاسلامية .

ومن حق ان يوجه الاتهام ، كل الاتهام ، حول قطع اواصر اقوى رابطة في العالم الاسلامي بين الأتراك والعرب ، الى اتحاديين الذين ما ان تولوا الحكم ١٩٠٨ حتى عمدوا الى اعلان الجامعة الطورانية وتتريك العرب ، واضطهاد العناصر التي تضمها الدولة .

ويروي سعيد الأفغاني أن الزعماء العرب الذين تردوا بالصهيونية وأحابيلها في اقتطاع فلسطين قد قتلهم الاتحاديون ، ومن بينهم شكري العسلي ، وعبد الوهاب الانجليزي . بل إن هناك ما يثبت أن اليهود وقوى النفوذ الأجنبي الزاحف قد دفعوا الاتحاديين الى خوض الحرب بحوار ألمانيا . بينما كان اليهود في جانب انجلترا وفرنسا يمولون الحرب . كانت النتيجة ان تمزقت تركيا . وأعلن وعد بلفور ، ولم يكن بين هذا وبين خلع السلطان عبد الحميد الا تسع سنوات .

## ـ ٢ ـ

# الجامعة الاسلامية

قال بعض الباحثين في دعوة جمال الدين الى الخلافة الاسلامية Pan Islam-ism بأن أساس الفكرة عنده « سياسي لا ديني » وهذا مما يخلط به الكثيرون ممن لا يفهمون أن الاسلام نظام متكامل « ديني وسياسي واجتماعي واقتصادي وقانوني معاً » .

وأن مفهومها أساساً إنما هو تجمع المسلمين في جبهة واحدة لمواجهة النفوذ الاستعماري الزاحف ، وقد انتقلت الفكرة الى حيز التطبيق حين حمل لواءها السلطان عبد الحميد ، خلال أغلب فترة حكمه حتى عام ١٩٠٨ حين تولى الاتحاديون الحكم ، حيث توقف مجرى الدعوة للجامعة الاسلامية وغلب عليه الصراع بين العرب والترك .

ومن الحق أن يقال إن مختلف الدعوات التي ظهرت منذ فجر اليقظة الاسلامية العربية كانت تجعل الجامعة الاسلامية هدفاً من أهدافها على نحو من الأنحاء . وكان ذلك ظاهراً منذ حركة التوحيد الوهابية ، وحركتي السنوسي والمهدي ، ثم حركة جمال الدين ، وكذلك كانت بالنسبة للحركات الاسلامية التي ظهرت في الهند والمغرب وأندونيسيا .

غير أن حركة السلطان عبد الحميد تختلف عن هذه الدعوات كلها على أساس أن حامل لوائها كان في سدة الحكم . وكانت قدرته على العمل أكبر ، وقد استطاع فعلا أن يقرب الى هدفه الوحدات الاسلامية المختلفة خارج الدولة العثمانية ، فأصبح قبلة آمال العالم الاسلامي .

وسرعان ما استطاع النفوذ الاستعماري تدمير هذا الاتجاه والقضاء عليه ، وذلك باثارة الحملة الضارية على السلطان عبد الحميد ، والدولة العثمانية ،

وخلق دعوات الاقليمية والوطنية الضيقة ـ وتغذيها بشعارات وقوى وفلسفات ، واستعانت في ذلك بنقل صورة الحركات الاوربية القومية التي قاومت الكنيسة البابوية ، وانفصلت عنها ، وحاولت أن تعقد وجها للمقارنة بينها وبين دولة الخلافة .

وكان كرومر في مصر أقوى خصوم الجامعة الاسلامية ، وقد حمل عليها حملة عاصفة ، وسرعان ما حمل حزب الأمة بقيادة لطفي السيد لواء الدعوة الى الاقليمية الضيقة « مصر للمصريين » مشفوعة بالخصومة العنيفة للاسلام فكرياً وجغرافياً وتاريخياً .

وفي تركيا استطاع الاتحاديون أن يثيروا دعوة الطورانية يضعوها موضع التنفيذ لتمزيق وحدة العرب والترك داخل الدولة العثمانية .

ومن ثم فقد توقفت حركة الجامعة الاسلامية عن الحركة بعد الاحتلال البريطاني في مصر سنة ١٨٨٢ . حيث أصبحت القاهرة مقر الدعوة المعارضة برفع شعار العروبة أم شعار المصرية ، وكان الدعاة لهما هم كتّاب الصحف المارونيين ، وأصحاب المقطم ولطفي السيد في الجريدة . وفي سنة ١٩٠٧ قدم إلى القاهرة زعيم من مسلمي القوقاز يحمل لواء الدعوة إلى مؤتمر اسلامي عام يضم جميع أمم العالم الاسلامي على اختلاف أجناسهم لمواجهة الأحداث ، ومحاولة الاتفاق على خطة موحدة ، واستطاع « اسماعيل عصبرنسكي » أن يقنع مجموعة من أعلام الفكر الاسلامي في مصر ، وفي مقدمتهم : البكري شاكر ، نجبت ، العدوي ، والي ، أحمد تيمور ، الهلباوي ، أحمد زكي ، محمد فريد ، وفيق العظم ، طلعت حرب ، حافظ عوض ، علي يوسف ، رشيد رضا ، وقد أراد « عصبرنسكي » أن يتفادى خصومة أوربا وانزعاجها من الجامعة الاسلامية فحدد هدفه بأنه بحث الشؤ ون الاسلامية على غير الصورة التي يتشاءم منها الأوربيون ( بانسلانيزم ) وقال : إنما غرضي البحث عن أسباب انحطاط الأمة الاسلامية ، وفتح أبواب النجاح في الأمور الاقتصادية والاجتماعية ، واختيار السبل القويمة التي تصل بنا إلى أن نأخذ نصيباً من المدنية الغربية الحاضرة ، وقال مؤتمره « لا يتطرق قط إلى

البحث في الأمور السياسية » وقال ان هناك تهمة ألقيت على عاتق الاسلام وهو براء منها وهي انه ( أي الاسلام ) « علة الانحطاط » ومدعاة التأخر ، ولكن التاريخ يكذب هذه الفرية ويدحضها ، وقال ان هذه القضية : قضية دراسة أسباب انحطاط الأمة الاسلامية لا تتيسر تيسراً كاملا لفرد أو فردين ، فلا مندوحة من عقد مؤتمر اسلامي عام[1] .

٣ ـ وفي نفس هذه الظروف صدر كتاب « المستقبل للاسلام » للسيد توفيق البكري الذي تناول أثر الصوفية في بناء « الجامعة الاسلامية » .

وقد أشار البكري الى الجامعة الاسلامية في مؤتمر عصبرنسكي فقال : « الجامعة الاسلامية قسمان : دينية وسياسية . أما السياسية فهي التي يعنيها الافرنج بلفظ « بانسلانيزم » . اما الجامعة الدينية : فهي غير موجودة لوجود روابطها وهي العقيدة الاسلامية أولا وآخراً الاسلام » .

أما الجامعة الاسلامية فهي غير موجودة ولم توجد ولن توجد كما يتوهمون لعدم وجود الرابطة في كل أمر سياسي ، فاذا أوجد المسلمون جامعة اسلامية ، أوجد الأوربيون ازاءها جامعة مسيحية ، أو جامعة سياسية وثنية ، فتكون المضرة عليهم من جراء ذلك أكثر من المنفعة . وكان البكري يجري في هذا القول في ركاب الاستعمار . غير ان الاحداث لم تلبث ان فرضت الدعوة الى الجامعة الاسلامية مرة اخرى حين اعتدت ايطاليا على طرابلس المغرب ١٩١١ . وبرزت الدول الاسلامية متحدة في مواجهة العدوان ، وكانت مصر في المقدمة مما احفظ لورد كرومر . فشن خادم افكاره لطفي السيد جملة عاصفة على مؤازرة العرب والمسلمين لمجاهدي طرابلس . وقد شهدت معارك طرابلس مجاهدين من تونس والجزائر والمغرب ومصر والسودان والشام والترك والأفغان على اختلاف أجناسهم ، وجمع اهالي مصر ١٥٠ ألف جنيهاً ذهبياً في يوم واحد تبرعاً لها .

ثم كانت الحرب العالمية الأولى عاملا هاماً في عودة الحديث عن الجامعة

---

١ ـ للتوسع في بيان فكرة المؤتمر راجع كتابنا « يقظة الفكر العربي »

الاسلامية ، فقد اهتزت أجزاء العالم الاسلامي المختلفة للغزو الأوربي للدولة العثمانية بعد انتصار الحلفاء وهزيمة ألمانيا وحليفتها تركيا .

وقد كان موقف المسلمين في مختلف أنحاء العالم موقفاً موحداً ازاء دولة الخلافة ، وقد بعثوا بالمتطوعين والأموال الى القائمين بالحركة الوطنية . وكان يمكن أن يصبح الأمر أبعد أثراً لو لم تكن مصر محتلة بانجلترا وطرابلس بايطاليا ، وايران بروسيا ، والهند ببريطانيا . وقد اعترفت الحكومة البريطانية بمدى الأثر البعيد لهزيمة تركيا في البلاد الاسلامية من المغرب الى الهند .

وكان اقوى رد فعل لذلك في الهند الاسلامية . فقد تجمع المسلمون فى وجه بريطانيا المحتلة في حركة عنيفة ، وألغوا حزب الخلافة وتدافعوا الى مساعدة الدولة العثمانية .

وكان موقف العالم الاسلامي غاية في المعارضة الصريحة الواضحة لموقف حكومة انقرة من الغاء الخلافة الزمنية ، ثم الغاء الخلافة نهائياً . ثم شغل العالم الاسلامي تماماً بقضاياه الوطنية ، وبأمور احتلاله بعد الحرب العالمية الأولى على نحو لم يكن يسمح له بالتفكير في قضية الجامعة الاسلامية أو الوحدة . غير ان العواطف المشبوبة والالتقاء الروحي والفكري كان قائماً بين المسلمين اساساً ومتمثلا في روابط الجماعات الاسلامية كالشبان المسلمين . وبعض الطرق الصوفية ، وتأكدت اكبر صورة كل عام في موسم الحاج .

وقد كان المسلمون يرون ان هذه السدود والقيود التي وضعت بين الوحدات المختلفة والأنظمة التي اقامها الاستعمار لعزل المسلمين ، انما هى قيود مادية ، وسدود شكلية محضة ، لن تستطيع ان تقضي على وحدة الفكر والروح الاسلاميين ، وكانوا دائماً يؤمنون بانه سياتي اليوم الذي يتحقق فيه لقاء جامع . ولقد أثبتت الاحداث عمق التجاوب الواضح بين مختلف أجزاء العالم الاسلامي ، وابان ثوراته المختلفة ، ومعاركه مع الاستعمار .

وكان كرومر هو أول من ألب أوربا والعالم العربي على الجامعة الاسلامية . فقد كان الاحتلال البريطاني لمصر عام ١٨٨٢ وقدوم كرومر الى مصر ١٨٨٣ واستمراره ممثلا لبريطانيا وحاكماً فعلياً حتى عام ١٩٠٧ تقريباً عاملا هاماً في

رسم هذه السياسة ، فقد بثت انجلترا وفرنسا الدعوة في أرجاء أوربا للفزع من الجامعة الاسلامية واستبشاعها ، ورسمت مختلف الخطط لمقاومتهـا ، وفـي مقدمتها التبشير ، ودعوات الاقليمية الضيقة ، ومحاربة اللغة العربية وغيرها .

وقد حرص كرومر على أن يتحدث في تقاريره السنوية عن الجامعة الاسلامية ببغض شديد وفي نفس الوقت نشرت الاهرام تصريحات مثيرة لوزير فرنسي هو « هانوتو » هاجم فيها الجامعة الاسلامية . وكانت مهاجمة الجامعة الاسلامية تستتبع بالتالي مهاجمة الدولة العثمانية بحسبان أنهـا عقـدة التقـاء المسـلمين خارج الدولة وداخلها ، وكانت هذه العقدة هي الهدف المحدد الـذي ترمـي بريطانيا وفرنسا وروسيا الى قطعها حتى تتفرق الوحدة التي تجمع من حولهـا الدول الاسلامية لتواجه النفوذ الاستعماري الزاحف الذي قد رسم مخططه على أساس التهام هذه الوحدات ، والحيلولة دون التقائها مرة أخرى في أي نوع من الوحدة ليستديم سيطرته عليها . ولم يكن كثير من زعمـاء العالـم الاسلامـي ومفكريه يصرون على الاستمساك بالجامعة الاسلامية الا من أجل هدف واحد هو بقاء جبهة المقاومة في مواجهة النفوذ الاستعماري ، ولم يكن ذلك يعنـي تبعية من اي نوع .

وقد كان ذلك رأي كبار المستنيرين في هذه الفترة ، جمال الدين الأفغانـي الذي قصد الى الدولـة العثمـانية اخيراً وقبـل بالعمـل معهـا لدعـم الجامعـة الاسلامية ، وقدم الى عبد الحميد مشروع الخديويات كمقدمة لانضمام الدول الاسلامية خارج الدولة العثمانية الى الوحدة الاسلامية باسم الخلافة . والشيخ محمد عبده الذي عرف عنه قوله ١٨٨٦ « ان المحافظة علـى الدولـة العلية العثمانية ثالثة العقائد بعد الايمان بالله ورسوله ، فانها وحدها الحافظة لسلطان الدين الكافلة لبقاء حوزته، وليس للدين سلطان في سواها » .

وموقف مصطفى كامل والحزب الوطني واضح ومعروف في الايمان بالجامعة الاسلامية ، والعمل على تأكيد بقـاء الدولـة العثمـانية كقـوة مواجهـة للغـزو الاستعماري الغربي .

وقد هاجم كرومر بعد خروجه من مصر مشروع الجامعة الاسلامية ، واشار

الى تمسك المصريين بعقيدتهم الاسلامية المتغلبة على الوطنية بمعناها الاقليمي التي تؤمن بالوحدة الكاملة بين المسلمين في سائر اقطار الارض .

وقد واجهت حملته تلك هجوماً عنيفاً من مختلف المفكرين والكتّاب . الذين تسجل آثارهم وكتاباتهم المختلفة الايمان بالوحدة بين المسلمين . وكذلك رد الشيخ محمد عبده على الاتهامات المماثلة التي وجهها هانوتو للجامعة الاسلامية .

وفي مواجهة هذه الدعوة اجج النفوذ الاستعماري عشرات الدعوات منها : فصل السلطة الدينية عن السلطة المدنية . وذلك حتى لا يصبح الخليفة جامعاً بين رئاسته الاسلامية ، وبين منصبه السياسي كحاكم ، وضربت الامثلة بالبابا الكاثوليكي . وكان ذلك بالقطع مخالفاً لمفهوم الاسلام الجامع بين السلطنة الدينية والسلطنة المدنية معاً في المجتمع وفي يد خليفة المسلمين . كما برزت دعوة الى الخلافة العربية أو الولاية الدينية على شؤ ون المسلمين العرب ، وجرت حملات عنيفة على السلطان عبد الحميد بالذات بعد الحملة على الجامعة الاسلامية والخلافة ، ورميه بالتهم المختلفة واثارة الشبهات حوله . وقد ثبت اليوم وبعد مرور اكثر من ستين عاماً ان كل هذه الشبهات كان مبالغاً فيها . وان بعضها كان ملفقاً لا أساس له . وقد تأثر الكواكبي بالنظرية الغربية المسيحية في البابوية ، وحاول تطبيقها في مجال الجامعة الاسلامية والخلافة .

وقد عرض كرومر للجامعة الاسلامية في كثير من تقاريره وآرائه ، ومجمل رأيه فيها هو ما أورده في تقرير عام ١٩٠٦ حيث قال : « المقصود من الجامعة الاسلامية بوجه الاجمال اجتماع المسلمين في العالم كله على تحدي قوات الدول ( الأوربية ) المسيحية ومقاومتها . فاذا نظر اليها من هذا الوجه وجب على كل الأمم الأوربية التي لها مصالح سياسية في الشرق ان تراقب هذه الحركة مراقبة دقيقة لأنها يمكن ان تؤ دي الى حوادث متفرقة فتضرم فيها نيران التعصب الديني في جهات مختلفة من العالم .

ثم أشار الى ان للجامعةالاسلامية معان كثيرة منها : الخضوع للسلطان

العثماني ( أي الخليفة ) وترويج مقاصده ، ثم اشار الى ان من اهم اهـداف الجامعة الاسلامية ما يلي : ـ

« السعي في اصلاح امر الاسلام على النهـج الاسلامـي ، وبعبـارة اخـرى السعي في القرن العشرين لاعادة مبادىء وضعت منـذ الف سنـة هدى لهيئـة اجتماعية في حالة الفطرة والسذاجة ، وقال : ان عيب هذه المبادىء والسنن والشرائع هي المناقضة لآراء اهل العصر في علاقة الرجال والنساء ، اهم من ذلك هو افراغ القوانين المدنية والجنائية والملية في قالب واحد لا يقبل تعقيداً ولا تحويراً . وهذا ما أوقف تقدم البلدان التي دان اهلها بالاسلام .

هذه هي الصورة التي حاول كرومر أن يرسمها لمفهوم الجامعة الاسلامية ، وحاول بها الحملة على الاسلام ومهاجمتـه في صميم عقائـده ومقاصـده من ناحية ، وتأليب الغرب على المسلمين الذين تدفعهم مقاومتهـم للنفـوذ العربي الزاحف ، اذ ذاك على التجمع ، وتوحيد خططهم في جبهة موجودة فعلا هي الدولة العثمانية حتى لا تخترق هذه الوجهة ، مهما كان من أمـر ضعـف هذه الجبهة .

وقد اعلن كرومر في نفس الوقت استحالة سماح أوربا باتفاق المسلمين حين قال : « اني لاثق بقوة أوربا واقتدارها الاقتضاء على تلافـي هذه الحـركة من الجهة المادية .

وقد أشار السيد رشيد رضا الى هذه الاراء وعلل هدفها حين قال : ان السبب الأول لكون الدولة البريطانية هي الخصم الاشد الأقوى من خصوم الخلافـة الاسلامية هي انها تحس ان بها تتجدد حياة الاسلام ، وتتحقق فكرة الجامعة الاسلامية ليحول ذلك دون استعبادها للشرق كله . كما أورد رشيد رضا في رده على كرومر ـ وقد رد عليه كثيرون في مقدمتهم فريد وجدي ومصطفى الغلاييني وعلي يوسف ( تراجع الصحف عام ١٩٠٧ ) ـ فقال ان جمال الدين ومحمـد عبده هما في مقدمة الداعين الى الجامعة الاسلامية ، وان جمال الدين قد اعلن انه لا يهدف من دعوته ان يكون للمسلمين امام واحـد . فان هذا ربمـا كان متعذراً . وانما عنى ان يكون امامهم القرآن . واشار رشيد رضا الى انه يسير

على نفس الدعوة الى الجامعة الاسلامية ويفهمها على هذا النحو « ان الاساس الذي يجب ان يبنى عليه حال المسلمين هو تحرير الفكر من قيد التقليد ، وفهم الدين على طريقة السلف قبل ظهور الخلاف والبدع . وقال ان الدعوة الاسلامية تنحصر في ترك البدع والجمع بين الدين وبين العلم والمدنية .

وقد احس الأوربيون بخطر دعوة الجامعة الاسلامية ، فحاربوها بكل قوتهم بصحفهم ومؤتمراتهم ، لما تبين لهم قوتها وخطرها اذا تحققت ، لذلك فقد اتخذوا لذلك عدة أعمال اساسية :

( ١ ) تعميق الدعوات الاقليمية والخاصة بالوطنية والارض والامة والعرق .
( ٢ ) خلق جو فكري عام لمحاربة الوحدة الاسلامية وتصفيتها .

وكان ذلك من الاعمال التي ركزت عليها مؤتمرات المبشرين وفي مقدمتها ( مؤتمر سبتمبر ١٩١١ ) الذي كان من اهم موضوعاته : الجامعة الاسلامية وكيفية مقاومتها . فقد اشار زويمر الى هذا الامر الخطير في نظرهم وقال : ان الاسلام تمخض في السنوات الخمس الاخيرة عن حوادث خارقة لم يسبق لها نظير هي :

( ١ ) الانقلاب الفارسي .
( ٢ ) الانقلاب العثماني.
( ٣ ) امتداد خطوط السكة الحديدية .
( ٤ ) تأسست في الهند مجالس ثورية .
( ٥ ) دخلت الامور الاسلامية في قالب يلائم العصر .
( ٦ ) انتشر الاسلام في افريقيا والهند الغربية والجزائر الجنوبية ، وكل هذا يحتم على المبشرين ان يعملوا بحزم وجد . وقال : ان يقظة العالم الاسلامى ليست شيئاً اخترعه المبشرون بين ضفتي النيل وشرقي أفريقيا وبلاد النيجروالكونغو ، ثم لخص المؤتمر الموقف بان الاسلام متمخص الان عن ثلاث حركات اصلاحية .

( ١ ) اصلاح الطرق الصوفية .
( ٢ ) تقريب الافكار من الجامعة الاسلامية .

( ٣ ) افراغ العقائد والتقاليد القديمة في قالب له بريق .

وكان تركيز الاستعمار والنفوذ الغربي على العصبية الجنسية هو عمله الاكبر في سبيل القضاء على الجامعة الاسلامية . ولكن جميع الدعوات القومية والوطنية التي ظهرت انما كانت دعوات مؤقتة تهدف الى تحرير الاوطان اولاً ، ثم تجمعها في وحدات قوامها الامة واللغة ، كمقدمة لوحدة فكرية أكبر ، هي الوحدة الاسلامية . وليست دعوة الوحدة العربية اساساً في جوهرها ( وبعيداً عن كل ما حرفت اليه او ادخل اليها من مفاهيم القوميات الغربية ) الا نواة الجامعة الاسلامية . فقد كان المسلمون ولا زالوا يؤمنون بانه اذا ذلّ العرب ذلّ الاسلام ، فلا بد ان يتحرر العرب أولاً ويأخذوا بمقاليد الأمور ، بحسبان أنهم أصحاب اللغة وحماة الكعبة ، وبحسبان أنهم مركز القيادة الفكرية الاسلامية أساساً ، ولن يستطيع المسلمون اقامة وحدة أو جامعة الا اذا تحرر العرب أساساً .

وقد كتب المستر بلانت في هذا المجال كتابه المشهور ( مستقبل الاسلام ) الذي تحدث فيه عن الخلافة الاسلامية وقال : ان مكانها يجب ان يكون في مكة ، وان الخليفة في المستقبل يجب ان يكون رئيساً دينياً لا ملكاً دنيوياً . وقد مهد لدعوته هذه بشعر عربي جميل حين قال :

لا تقنطوا فالدر ينثر عقده

ليعود أحسن في النظام وأجملا

أي أنه يطمئن المسلمين الى ان ولاية بريطانيا للعالم الاسلامي بديلا عن السلطنة العثمانية لن يضر المسلمين ولن يزعجهم . بل سيعود بنتائج هي خير مما هو موجود الان . وقد هاجم « مصطفى كامل » هذه الدعوة التي كانت تحاول ان تمهد للخطوات التالية لها في محاولة خلق رأي عامل لتقبلها فقال :

لقد رأت انكلترا ان بقاء السلطة العثمانية يكون عقبة في طريقها ، ومنشأ للمشاكل والعقبات في سبيل امتلاكها مصر . وان خير وسيلة تضمن لها البقاء في مصر ، ووضع يدها على وادي النيل هو هدم السلطة العثمانية ، ونقل

الخلافة الاسلامية الى ايدي رجل يكون تحت وصاية الانجليز وبمثابة الة في أيديهم . لذلك أخرج ساسة بريطانيا مشروع الخلافة العربية مؤملين استمالة العرب لهم وقيامهم بالعصيان في وجه الدولة العلية .

وقد جعلت جريدة المقطم ( فارس نمر ) لسان كرومر وجريدة ( لطفي السيد ) لسان حزب الامة . من اهم أهدافها الدائمة مهاجمة الجامعة الاسلامية .

وقالت المقطم ان الدعوة الى الجامعة الاسلامية مصدرها الجهل بسنن الرقي الطبيعي ، وان ذلك يهدد الدول الاوربية . وكانت دائماً تردد قولها : نحن ضعفاء والاعداء يحيطون بنا من كل جانب . كما شاركت الاهرام لسان حال الفرنسيين هذه الدعوة وقالت ان الدعوة الى تحقيق الجامعة الاسلامية مضر بالدولة وبالمسلمين . ثم تصل الى الغاية حين تقول : « تأييد الجامعة الاسلامية في ظل الخلافة العثمانية سياسياً ودينياً امر مستحيل لا يتسنى الحصول عليه الا بالحرب ، وأين لنا أن نقاوم أوربا بأسرها » .

وقد كان الرد على خصوم الجامعة الاسلامية في ذلك الوقت يجري على اساس الكشف عن الاخطاء التي تهدد المسلمين والتعرف على ما يقاسيه اخوانهم في جاوة من مظالم الهولنديين ، والهنود من مظالم جمهورية الترنسفال ، وما يقاسيه المسلمون في داغستان وفازان ، وما يقاسيه اخوانهم المسلمون في الهند ، وان ليس في هذا ما يستدعي قيام حرب عوان تقاوم بها أوربا بأسرها . كما لا يستدعي مايقول المقطم من حشد الألوف من الالبان والأكراد والأتراك والعرب لمهاجمة أوربا .

ويقول صاحب الأهرام باستحالة الوصول الى تحقيق الجامعة الاسلامية اعتماداً على أن ذلك لم يحصل في الماضي . حيث كان الاسلام عزيز الجانب ، شديد البأس ، فكيف يحقق في حال ضعفه ما عجز عنه في حال قوته ـ ويعتقد ان العمل لتحقيق الجامعة الاسلامية الان مضرة كبرى على الاسلام والمسلمين. لان دول أوربا المسيحية التي لا يروعها ان تصلح الدولة العلية امورها لتقوى ، كذلك لا يروقها من باب أولى أن تشاهد المسلمين تحت

سلطتها يتآلفون مع المسلمين تحت ظل الخلافة الاسلامية . لذلك ننصح بترك الجامعة الان لما فيه من اغراء أوربا على المسلمين لتفريق شملهم .

وقد أجابت المؤ يد بان الجامعة الاسلامية لم تكن من مطلب المسلمين أيام قوتهم حتى يقال كيف يدركون بعد ضعفهم ما عجزوا عنه أيام قوتهم ، وقالت : اما الان ونحن ضعفاء والاعداء محيطون بنا من كل جانب . فقد حسن ان يكون تحقيق هذه الجامعة مطلبهم ، وليس اقدر على العمل للالفة والاتحاد اكثر من الضعفاء .

وتقول المقطم : « ان معنى الدعوة الى الجامعة الاسلامية هو : الدعوة الى الجهاد ، ويعني تعزيز الاسلام عندهم اهلاك غيرهم ، فهم لا يفهمون ان يكون الاسلام عزيزاً ، الا بابادة خصومهم كما كان ذلك في زمن الصليبيين ، وكما حدث في جبل لبنان ( ١٨٦٠ ) .

ولا شك ان ما ذهبت اليه المقطم فيه مغالطة كبيرة ومبالغة لا شك فيها . فالمسلمون لم يكونوا معتدين قط . بل معتدى عليهم دوماً . وفي الحروب الصليبية ـ زحف المئات من أوربا الى بلاد المسلمين لحربهم والسيطرة عليهم ، وكان موقف المسلمين هو موقف الدفاع والمقاومة . اما ما حدث عام ١٨٦٠ ان وثائق التاريخ المنصفة تشهد بأن المستعمرين هم الذين أثاروا المارون على الدروز . وكانت فرنسا من وراء المارون ، وبريطانيا من وراء الدروز . ولو ان المسلمين والمسيحيين تركوا لأنفسهم لما وقع بينهم ما وقع من خلاف او خصومة ، كما كان ذلك على طوال تاريخ العلاقة بينهما . ولكن المقطم في هذا انما تنقل تهديدات بريطانيا ومغالطاتها . وتذهب المقطم الى القول بان الجامعة الاسلامية الدينية المحضة المجردة من المعاني السياسية هي التي يمكن اخراجها من القوة الى الفعل . وهي بهذا تنكر امرين : ( اولهما ) مفهوم الاسلام الجامع بين الدين والسياسة ووجود الدولة العثمانية التي تحمل لواء الخلافة والجامعة الاسلامية معاً .

هكذا كان يدور السجال في قضية الجامعة الاسلامية يحمل طابع الخوف الشديد من جانب الدول الغربية وطابع التحريض الشديد من جانب حلفاء

النفوذ الغربي وتصويره بصورة اعتداء المسلمين على النصارى ، بينما يعرف الجميع كيف وقف لمسلمون والنصارى في وجه الحملات الصليبية وفي وجه الاستعمار الغربي . ولكن الاستعمار كان دائماً يحاول الوقيعة بين الأديان والاجناس في سبيل احتفاظه بالبقاء .

ومن عجيب ان تخشى اوربا في ذلك الوقت بلاد المسلمين محتلة او شبه محتلة ، وليس في ايديهم قوة اوربا او سلاحها من ان تؤدي الدعوة الى الجامعة الاسلامية الى خطر داهم يتهدد الحضارة الغربية او يؤدي بهم الى اكتساح اوربا . ففد مزق الاستعمار الغربي العالم الاسلامي وسيطر عليه ، وكان عليه ان يتم آخر خطواته وأخطرها بالقضاء على عقدة الدولة العثمانية والخلافة الاسلامية ، وذلك حتى لا يصبح من المستطاع تنفيذ اي مخطط للوحدة ، او التجمع تحت أي شعار كان .

وقد سقط اكبر دعاة الجامعة الاسلامية : جمال الدين وعبد الحميد في الميدان محاربين ومن بعدهما تمزقت الدولة العثمانية وازيلت الخلافة . ولكن الدعوة الى الجامعة الاسلامية لم تتوقف بعد ذلك . فقد ظلت ابرز النقاط في برامج الجمعيات والهيئات الاسلامية المختلفة في اندونيسيا والهند والبلاد العربية .

وكان ابرز العوامل الداعية اليها تاجج مسألة فلسطين والاحتلال الصهيوني لها . حيث عقد عديد من المؤتمرات الاسلامية التي كانت تحمل طابع الدعوة الى الجامعة الاسلامية ، وفي مقدمتها مؤتمر القدس ١٩٣٢ ومؤتمرات الباكستان بعد استقلالها ١٩٤٧ وما بعدها . وقيام المؤتمر الاسلامي في القاهرة وفي كراتشي ، والرابطة الاسلامية في مكة . ومن الحق أن يقال ان مضمون الخلافة الاسلامية ظل في مفهوم عامة المسلمين . انما هو أمر بعيد كل البعد عن الاحلاف او خدمة نفوذ اجنبي معين . وليس من وسائله عندهم الاستعانة به على عمل غير مشروع . وما تزال فكرة الجامعة الاسلامية على المحيط الشعبي الاسلامي فكرة نقية بعيدة عن محاولات السياسة والدول الكبرى التي تحاول الانتفاع بها عن طريق بعض الحكومات .

هذا ويؤكد مختلف الباحثين حتى من خصوم الاسلام الى ان الوحدة الاسلامية هي مآل المسلمين مهما طال الزمن واختلفت الوسائل .

فالشيوعيون بمفهوم احد زعمائهم ( تاق ما لاكا ) يقول : ان الوحدة الاسلامية هي نضال وطني للتحرر . لان الاسلام هو كل شيء بالنسبة للمسلم ، فهو ليس فقط ديناً وانما هو كذلك دنيا ودولة . ومن الناحية الاخرى يقول احد ممثلي الفكر الغربي ( روبرت بيكر ) « الاسلام في صورته الاولية فكرة شاسعة عن مهمته في الدنيا . فلا القرآن ولا الاحاديث ولا اقوال الصحابة تفرق بين الاجناس او اللغات . وعلى اساس هذا قامت نظرية وحدة سياسية ، وهي وحدة ، وان لم تتحقق عملياً أبداً ، الا ان المتمسكين بالدين بقوا على مر الظروف مؤمنين بان تحقيقها رهن بوجود ظروف اصلح ، ووجود حلفاء اقوى » .

لقد توالت محاولات المسلمين للتجمع ، وهي محاولات تبدأ دوماً في ظل تحد خطير ، وهي وحدة طبيعية اساساً . ولكن النفوذ الاجنبي والقوة الاستعمارية قد حالا دائماً دون تحقيقها بخطوط دفاع كثيرة . ولقد كانت دوماً مرتبطة بالتحديات . وهي تبرز دائماً على اثر الاحداث الكبرى كما ظهرت بعد احتلال الصليبيين للقدس. ومنذ بدأ النفوذ الاستعماري العربى الحديث. ولقد توقفت حركة الجامعة الاسلامية خلال حركة النضال في العالم الاسلامى خلال الحربين العالميتين ، ولكن ضياع فلسطين واستقطاعها ، وقيام دولة اسرائيل قد اعاد من جديد فكرة تجمع المسلمين .

يقول المؤرخ فلسن في تقريره عن الجامعة الاسلامية : « ان حركة الجامعة الاسلامية قد ضعفت جداً بعد خلع عبد الحميد ، ولكن لا تزال في المسلمين روح تضامن مع ملازمة للاسلام » . ان الالوف يتجهون كل سنة الى مكة ، ويشربون ماء زمزم ، الا انه بالرغم من وجود كل اسباب الارتباط الخارجي . وبالرغم من وجود الاتحاد الذي يجعل فكرة الجامعة الاسلامية قوة حقيقية الى حد يستدعي اهتمام المبشرين ، فانه يستحيل ان يكون من المسلمين عنصر حقيقي في استطاعته ان يجمع شمل السنّيين والشيعة معاً ويضم الاتراك

والفرس والهنود الى العرب ليكافحوا ويدافعوا يداً واحدة على ثقة واتفاق متبادلة .

ويقول زويمر : ان مدينة مكة والطرق الصوفية هما من اكبر العوامل الدافعة الى بث شعور الوحدة بين المسلمين والنفرة من كل شيء غير اسلامي . وهذا ما يسمونه بالجامعة الاسلامية . ومن المحقق ان التاجر المسلم يبث في هؤلاء الوطنيين مع بضاعته التجارية دينه الاسلامي وحضارته الراقية .

ويقول لوثروب ستوارد : ان الجامعة الاسلامية قامت على اساسين هما : الطرق الصوفية الحديثة النظام كالطرق السنوسية والدعوة التي قامت بها فرقة من أجلة العظماء واكابر المفكرين والحكماء ، وفي مقدمتهم جمال الدين الافغاني . وربما ظفر الاسلام في افريقية اليوم اعظم ظفر بما لإقاه المبشرون المسلمون حديثاً ، ففي بلاد التتر الروسية ، وفي الصين وفي الهند وفي جزائر الهند نهضات اسلامية رائعة ، ويرى كثير من الباحثين والمراقبين ان هناك عوامل كثيرة تقرب المسلمين الان من النظر في فكرة الجامعة الاسلامية واعتناقها : اهمها ضياع بيت المقدس ، واستيلاء الصهيونية عليه ، ومنها ذلك الانتعاش الاسلامي في تركيا ، وبروز الدول الاسلامية الجديدة في آسيا ( الملايو واندونيسيا والباكستان ) بالاضافة الى الدول الافريقية المسلمة الجديدة . هذا فضلا عن ان فكرة الوحدة العربية اخذت تتحرر من المفهوم الغربي للقومية ، وتعود الى التماس مفهومها الفطري المستمد من مزاجها النفسي وروحها وعقليتها ، والقائم على الترابط بين الاسلام والعروبة . وذلك لتنسيق روابطها مع العناصر غير العربية والانفتاح على دول العالم الاسلامي في اخوة وترابط ثقافي واقتصادي واجتماعي ، يضاف الى ذلك التقارب والالتقاء بين فقه السنيين والفقه الشيعي ، واجتماع السنيين والشيعيين على اليقظة والوعي والعمل على كشف اهداف الاستعمار في الوقيعة والقطيعة بينهما .

ولا شك ان الكتابات الجديدة في تحليل العلاقات بين الفكر الاسلامي والثقافات العربية والتركية والايرانية ، وتقارب المذاهب الاسلامية ، واعادة تفسير العلاقة بين العروبة والاسلام على اساس اكثر نضجاً وانصافاً . كل هذا

اخذ يقيم « وحدة فكر » بين المسلمين ستؤ دي الى بناء ثقافة اسلامية موحدة . وهناك دعوة ذائعة تجد صداها اليوم في كل مكان الى جعل اللغة العربية هي لغة العالم الاسلامي الثقافية ، وان تصبح لغة الدول الاسلامية فى افريقيا وآسيا .

قامت فكرة الجامعة الاسلامية اذن في مواجهة التوسع الغربي وزحف النفوذ الاستعماري ، فهي ردّ فعل للتحديات الخطيرة التي واجهها المسلمون في النصف الثاني من القرن التاسع عشر ، وكانت هدف دعوات التوحيد الىي قادها محمد بن عبد الوهاب ، والسنوسية التي قادها محمد بن علي السنوسي ، والمهدية التي قادها محمد احمد المهدي ، ثم دعوات جمال الدين ومدرسته ، ثم دعوة القرآن . وقد استطاع النفوذ الاستعماري تحطيم هذه الدعوات والقصاء على نفوذها السياسي واحدة بعد الاخرى ، وان ثبت بعصها وتحول الى المجال الفكري الخالص .

ولعد كانت حركة المقاومة العسكرية منبثقة من فكرة الحامعة الاسلامية ايضاً . وقد قاومها الاستعمار وقضى عليها : قضى على حركات الامير عبد القادر ، وعبد الكريم ، واحمد عرابي ، والشيخ شامل وثورة الهند ١٨٥٨ .

وكان النفوذ الاستعماري قادراً على اجهاض هذه الدعوات والحركات ، وضرب بعضها ببعض ، فان اكبر عوامل الفوة التي ظهرت في خلال الفرن التاسع عشر قد قضى عليها الاستعمار . وفي مفدمتها حركة محمد علي في مصر التي حاولت ان تخرج الدولة العثمانية من جمودها ، وحركة الوهابية في الجزيرة العربية ، ثم حركة احمد عرابي في مصر ، وحركة المهدي فى السودان ، وحركة جمال الدين الافغاني ، وحركة الجامعة الاسلامية التي قادها السلطان عبد الحميد . كل هذه الدعوات التحررية التي حاولت دفع اليفظة الاسلامية الى مكان الفدرة .

وقد ظهرت هذه الدعوات في مراكز حساسة متعددة من العالم الاسلامي في الجزائر ، في مصر ، في الحزيرة العربية ، فى الهند ، في طرابلس ، في السودان . ولو ان هذه الدعوات اتيح لها حرية الحركة لتمت وتوسعت والتقت . فاذا قال بعض كتاب التغريب عنها انها انطفات . او فصرت .

فليعلموا انها انما كانت تتحرك من تحت مدافع النفوذ الاستعماري وقواته .

ولكن القول الحق انه ما من حركة منها الا وتركت آثارها القوية البعيدة المدى . وكانت عاملا هاماً دفع حركة اليقظة الاسلامية العامة الى الامام قوة ، وزادت المسلمين يقظة وتماسكاً وتجمعاً من جديد لمواجهة النفوذ الاستعماري .

فهذه الدعوات لم تفشل ، ولكنها اجهضيت نتيجة للقوى الاستعمارية المتربصة التي استطاعت ان تقضي على هؤلاء الدعاة ، او تفسد مخططاتهم بالتاليب عليهم او سحقهم ، واذا كانت هذه الدعوات قد ظهرت وانطفأت كالشهب ، فان الظاهرة الاساسية انها والت الظهور ولم تنقطع في عصر من العصور ، وانها كلها اتصلت كحبات في عقد واحد . وذلك آية صِدْقِها ونَجَاحِها ، والحاجة الأكيدة اليها .

ولم تكن هذه الدعوات في مجموعها تجهل ضرورة التلاقي مع روح العصر ، والانتفاع بالحضارة الغربية الحديثة ، ولكنها كانت تفرق بينها وبين الاستعمار من ناحية ، وبينها وبين الغزو الفكري ومحاولة الغرب فرض قيمه ، والقضاء على قيم الاسلام نفسه ، وكانت تعرف أن الاستعمار لن يسمح لها ان تنال من ثمرات الحضارة الغربية ما يزيدها قوة ، وان ما سمح به الاستعمار من وجوه حضارية ، انما اتصل بالجوانب الاستهلاكية والمادية والمتصلة بالترفيه واللذات والمتع ، وليست تلك الجوانب الايجابية المكونة للامم ، البانية للقوى العسكرية او الصناعية .

وليس صحيحاً ما يذهب اليه الغربيون ومن تابعهم من دعاة التعريب الذين يكتبون باللغة العربية من ان السلطان عبد الحميد التمس من الجامعة الاسلامية سبيلا الى دعم سلطانه ، وانما التمس من الجامعة الاسلامية سبيلا الى دعم مركز الدولة العثمانية باعتبارها قوة قائمة وموجودة وقادرة على ان تكون نقطة التقاء وبلورة للقوى الاسلامية المختلفة في مواجهة النفوذ الاستعماري .

وقد استطاعت قوى النفوذ الاستعماري ان تواجه هذه القوة حين بدأت تتجمع وتنضج بحركة الاتحاديين المغرقة في العصبية الجنسية والدعوة الطورانية .

***

ويمكن القول ان هذه الحركة المتجهة الى الجامعة الاسلامية في هذه المرحلة كانت منبثقة من داخل المجتمع الاسلامي حقيقة، ولكنها كانت فيما يبدو تشوبها شائبة النفوذ الاستعماري الذي كان يطمع في توجيهها وجهة معينة يغلب ان تكون وسيلة الى ان تسير في فلك الغرب .

والمعروف ان الجامعة العربية كانت قد قامت بين الحكومات العربية خلال الحرب العالمية الثانية على نحو مقيد لا يسمح لها بالحركة الكاملة .

واذا كان من طبيعة الاستعمار ان يضرب الحركات بعضها ببعض ، فان المفكرين المسلمين في العالم الاسلامي كله ظلوا يحملون لواء الدعوة الى الوحدة الاسلامية ، ومن خير ما كتب في هذا بحث للشيخ محمد ابو زهرة صدر في القاهرة عام ١٩٥٨ .

فقد حاول من خلاله معالجة عوامل الفرقة . ودعا الى وضع مخطط شامل للتقارب والتقريب ، واستبعد فكرة « دولة اسلامية ذات حكومة موحدة » نظراً لتباعد الافكار وتنائي الامصار وهو في ذلك يقول : لا يصلح ان يكون مقصدنا من الوحدة تكوين دولة اسلامية متحدة يدخل في تكوينها كل الاقاليم الاسلامية . وعنده انه يصح ان تكون صورة الوحدة في شكل كومنولث اسلامى او عصبة امم اسلامية او جامعة اسلامية ، وانما يجب ان يتحقق فيه اتحاد السياسة في كل الاقاليم الاسلامية بحيث يوالي كل اقليم اسلامي من يوالى المسلمين ويعادى من يعاديهم .

وقد ركز الباحث على العناية بالتعارف الاسلامي وسبيله ان تشمل المدارس في البلاد الاسلامية كلها على دراسة جغرافية لكل اقليم اسلامي ، وتنظيم الرحلات ، واولى للحج اهمية كبرى في التعارف ، وكذلك اولى اللغة العربية اهتماماً بالغاً باعتبارها لغة المسلمين الجامعة .

* * *

والمعروف ان حركة جمعية الشبان المسلمين والجمعيات التى انبثقت منها ، وجماعة مصر الفتاة قد وسعت مجال الحديث في مصر عن الجامعة الاسلامة قبل الحرب العالمية الثانية ، فتكون رأي عام اسلامي متقبل للحديث مرة اخرى

عن الجامعة الاسلامية ، ثم كان لقيام الباكستان عام ١٩٤٧ اكبر الاثر في تجدد الدعوة الى الجامعة الاسلامية ، وكذلك ظهور الدولة الاندونيسية التي تضم اكثر من ٨٠ مليوناً من المسلمين . وفي هذه المرحلة شاب اغلب الدعوات الى الجامعة الاسلامية طابع السياسة العالمية وكفاح الاستعمار .

ففي نوفمبر ١٩٤٨ نشأت في باريس فكرة انشاء جامعة اسلامية على الأساس الذي نشأت عليه جامعة الدول العربية على ان يكون اها نظام آخر ، فتضم جميع الشعوب سواء أكانت مستقلة أم غير مستقلة . والهدف الاول من انشائها كما ذكر دعاتها هو احياء مجد الاسلام ، والمحافظة على شعائره من الاستعمار والدعوات الالحادية .

ثم تعددت التصريحات والمؤتمرات الصادرة من باكستان والتي تشير الى التمهيد لتشكيل هيئة سياسية عالمية لقيام دولة اسلامية عالمية ، واشارت البرقيات الى ان المؤتمر الاسلامي الذي عقد في باكستان ١٩٤٩ قد وجه اهتماماً كبيراً الى فكرة اقامة دولة قرآنية تحتضن الدول الاسلامية المستقلة . وتحدث احد زعماء باكستان عن انشاء اسلاميتان ( أي ادماج الدول الاسلامية تحت لواء واحد ) .

ورددت تركيا في تصريحات اشارت الى انها لن تقبل الاشتراك في وحدة دولة اسلامية ، وتلا ذلك تصريحات من المسلمين في ايران من ان قيام كتلة اسلامية انما يعود بالخير على الشعوب الاسلامية . ويعزز مركزها الدولي . ورددت اندونيسيا نفس التصريحات التي تقول بالتفكير في انشاء كتلة آسيوية تضم الهند وباكستان واندونيسيا وسيلان وايران وتركيا والبلاد العربية .

وشملت الدراسات التي قدمت في هذا الشان كثيراً من الخطوط العامة . وكان أهمها مشروع من أربع نقاط لتوحيد البلدان الاسلامية قدمته مراكش . وهذه النقاط هي :

( ١ ) استخدام اللغة العربية كاحدى اللغات الرسمية لجميع البلاد الاسلامية .

( ٢ ) اقامة كتلة اسلامية مستقلة في هيئة الامم ، واقامة هيئة اسلامية

منفصلة .

( ٣ ) استخدام عملة مركزية منفصلة تتخذ وسيلة لتبادل العملة بين البلاد الاسلامية .

( ٤ ) رفع القيود والحواجز على حركة النقل والانتقال بين البلاد الاسلامية .

وفي المؤتمر العالمي الاسلامي الذي عقد في مراكش ( ١٩٥١ ) جرى الحديث حول الوحدة العربية وانها ليست الا جزءاً من الاتحاد الاسلامي العام .

واجمعت الاراء على « ان المسلمين يستطيعون المساهمة في قضية السلام ، وتقدم البشرية على هدى من مبادىء الاسلام وتعاليمه » وان العالم الاسلامي اذا اتحد أمكن أن يتحول الى قوة فعالة قد تجعله القوة الثالثة التي يسعى العالم اليها . ودعا آغا أخان المسلمين الى التعاضد ، واعلن الحاجة الى قيام اتحاد متماسك تام بين شعوب هذه الدول المسلمة .

وكان مؤتمر العالم الاسلامي الذي انعقد عامي ١٩٤٩ و ١٩٥١ قد جعل من اهم اهدافه :

( ١ ) النظر في احوال المسلمين وما يحيط بهم ، ثم تعاونهم على خطة اسلامية تهديهم سواء السبيل وتنجيهم من الاضطراب الذي يعم العالم ، ومن الشر الذي يهدد ذلك العالم .

( ٢ ) محو جميع الفوارق المذهبية والقبلية والاقليمية من بين جميع شعوب العالم الاسلامي واحكام الرابطة الاسلامية بين الجميع باتخاد القرآن الكريم والسنة النبوية الشريفة مصدرين للهداية.والتوحيد ، والعمل على تحقيق الاتحاد بين زعماء الشعوب الاسلامية وادخال عناصر التعليم الاسلامي في جميع مناهج الدراسة .

( ٣ ) العمل على نشر لغة القرآن باعتبارها لغة للشعوب الاسلامية عامة في جميع انحاء العالم .

( ٤ ) تأسيس شركات ووكالات لنشر الانباء الصحيحة عن الدول الاسلامية وعن شعوبها .

( ٥ ) جعل التشريع في اساسه قائماً على المبادىء الاسلامية .

( ٦ ) تنظيم الزكاة وتخفيف تكاليف الحياة عن عاتق العمال والزراع بتوفير المطعم والمسكن والملبس والتعليم والعلاج لهم .

( ٧ ) توجيه التعليم في الاقطار الاسلامية توجيهاً اسلامياً حتى يحال بين ناشئيها وبين طغيان الجانب المادي في الحياة . ذلك الجانب الذي تقتضيه طبيعة العلوم التي اصبحت دراستها جزءاً لا غنى عنه في هذا العالم المملوء بالنزاع والكفاح . اما في البلاد الاسلامية المستقلة فيجب ان يكون التعليم الديني الزامياً كافياً مع تسهيل الطرق للباحثين على التعمق في مظاهر الثقافة الاسلامية في كل بلد .

( ٨ ) انشاء مجمع علمي اسلامي دولي يضم اعلام العالم الاسلامي في جميع مجالات الثقافة .

* * *

وكانت المؤتمرات الاقتصادية الاسلامية العالمية تضم بعض هذه المناهج :

« المسلمون يؤلفون وحدة جغرافية بالاضافة الى ما يوجد بينهم من دين مشترك ، وشعور مشترك ، وطراز مشترك فأكثر الاقطار الاسلامية مناطق متجاورة . وهناك عامل ثالث من عوامل اشتراك المصالح بين هذه الشعوب . ذلك هو طراز اقتصادياتها . اذ انها كلها ذات اقتصاديات زراعية لا تزال في مرحلة الزراعة ، والعامل الهام هو اننا اذا كنا مستقلين نوعاً ما سياسياً ، الا اننا لا نزال من الناحية الاقتصادية في قبضة الامم الغربية القوية . ولم يستطع بعضنا حتى بعد الحصول على الاستقلال التخلص من العبودية الاقتصادية .

## - ٣ -

# الخلاقة الاسلامية

من أكبر قضايا العالم الاسلامي : قضية الاجهاز على الخلافة الاسلامية عام ١٩٢٤ كجزء من مخطط النفوذ الاستعماري لالتهام مختلف وحدات العالم الاسلامي ، والقضاء على آخر معقل لتجمع المسلمين وتوحدهم في وجه الغزو الاستعماري الزاحف .

فقد كان النفوذ الاستعماري يرى أن الدولة العثمانية هي عقدة الترابط بين المسلمين سواء في داخلها ، ام بالنسبة للدول الاسلامية خارجها كالهند وأندونيسيا وفارس وأفغانستان . لذلك فقد كانت تلك الحملة المرتبة الدقيقة لتحطيم هذه القوة ( مهما كانت درجتها من الضعف )، فقد كانت الدولة العثمانية تجمع عنصرين من أكبر عناصر الاسلام ( العرب والترك )، وكانت حركة الجامعة الاسلامية التي حمل لواءها . جمال الدين الأفغاني شعبيا ، وعبد الحميد بوصفه خليفة المسلمين وسلطان العثمانيين ـ وهي دعوة مناضلة متحررة من دعوات المجتمع للمقاومة والوقوف في وجه الغزو الغربي ـ ولم تكن دعوة عدوانية سواء لغير المسلمين في العالم الاسلامي او للغرب المسيحي ـ وقد ألح النفوذ الاستعماري وفي مقدمته فرنسا وانجلترا على هذه الدعوة وهذه الدولة بحملات متصلة استمرت منذ ١٨٧١ الى تولي الاتحاديين عام ١٩٠٨ وتحقق اسقاط عبد الحميد عام ١٩٠٩ . وقد استطاع النفوذ الاستعماري بمعونة الاتحاديين اسقاط الدولة العثمانية عام ١٩١٨ . ثم كان مصطفى كمال بحركته المناهضة للوحدة الاسلامية ، والاسلام عاملا هاماً في قطع آخر العلائق . وذلك بفصل الخلافة عن السلطة أولاً ، ثم الاجهاز على

الخلافة نهائيا عام ١٩٢٤ . وبذلك استطاع النفوذ الاستعماري تحقيق آخر اهدافه في القضاء على وحدة المسلمين والدولة العثمانية ، وتمزيق شمل هذه الوحدات والتهامها ، والسيطرة عليها ، والحيلولة دون قيام اتحاد بينها من اي نوع . حتى الاتحاد بين اجزاء الامة العربية لقي من معارضة النفوذ الاستعماري والائتمار به عنتاً كبيراً بحسبانه اول تجمع في سبيل الوحدة الجامعة .

كان إلغاء الخلافة الاسلامية اذن هو خاتمة ما أسماه الاستعمار « الحروب الصليبية » كنتيجة لمخطط وصفه احد الوزراء الفرنسيين دوجوفار بانه « مائة » مشروع لتقسيم تركيا .

ولقد كانت قلوب المسلمين في مختلف أنحاء العالم الاسلامي تخفق خلال المعركة التي قادها المحاربون الأتراك في مواجهة الاحتلال الذي قام به الحلفاء بعد هزيمة الدولة العثمانية في الحرب العالمية الأولى ، وأيدوا كاظم قرة بكير وزملاءه الذين قادوا حركة المقاومة والتحرير ، والتي كادت تصل الى النصر قبل أن يستولي على زمام الحركة مصطفى كمال ، فيقصي جميع القادة المجاهدين ويضع فوق أكتافه وحده اكليل النصر ، وكانوا يعلنون تأييدهم لهذا الجهاد مشاركين فيه بالمال والأنفس من كل اجزاء العالم الاسلامي ، وكانت الهند أكثر بلاد العالم الاسلامي تأثراً وعملاً وتأييداً ، وكانت اكثرها ثورة على بريطانيا المحتلة للدولة العثمانية .

غير ان العالم الاسلامي لم يكن يعرف أن معاهدة لوزان قد الحقت بها معاهدة سرية قبل بها مصطفى كمال تقضي بتصفية الروح الاسلامية في مختلف مجالات القانون والاجتماع والتربية واللغة ، وتقبل الأنظمة الغربية قبولا كاملاً ، واتجاه الدولة التركية الى الطابع العلماني الصرف ، ليس المتحرر من الدين فحسب ، بل المعادي له ، هذا الاتجاه الذي كان في مقدمة خطواته الاجهاز على الخلافة الاسلامية ، واعلان دعوى عريضة تحمل الاسلام اتهامات التأخر والضعف الذي منيت به تركيا . وقد أتم مصطفى كمال مشروعه هذا على مرحلتين :

الأولى : الغاء الخلافة الزمنية ، واقامة خلافة روحية مجردة عن السلطة .

الثانية : الغاء الخلافة نهائياً .

وقد جاشت اقلام الكتاب بنقد بالغ لحكومة انقرة في اقدامها على الغاء الخلافة بحسبان انها ليست ملكا للأتراك وحدهم ، ولأنها خلافة المسلمين جميعا ، والترك لا يتجاوز عددهم جزءاً من مائة جزء من المسلمين ، ووصف ما وقع « بانه بلغ اقصى ما استطاع اعداء الاسلام واشد ما كانوا به ائتماراً وأعدى ما كانوا عليه عدوانا ، واصدق ما كانوا رغبة في الكيد له ، والنكاية به أن يبلغوا ما بلغه هؤلاء الكماليون على مرأى ومسمع من المسلمين ، فاقدام الكماليين على الغاء الخلافة أكبر جريمة في عهد الدولة عل الدولة ، وأبشع جريمة في تاريخ الاسلام ، ووصف عملهم بأنه نقض موثق استمر ثمانية قرون وبعض قرن .

***

لم يتوقف المسلمون منذ ذلك الوقت عن الدعوة الى اعادة الخلافة . وكان الأزهر على رأس الهيئات الاسلامية التي حملت لواء الدعوة الى اعادة الخلافة ، فاجتمع المؤتمر الاسلامي ( ٢٥ مارس ١٩٢٤ ) الذي أفتى ببطلان بيعة عبد المجيد الذي كان الكماليون قد نصبوه قبل الغاء الخلافة ايماناً بأن الاسلام لا يعرف الخلافة على النحو الذي تولاها عبد المجيد منفصلة عن السلطة ، وأعلن دعوة جميع ممثلي الأمم الاسلامية الى مؤتمر يعقد في القاهرة برئاسة شيخ الاسلام للبت فيمن يجب أن تسند إليه الخلافة الاسلامية .

ولكن هذا المؤتمر اجل مرة بعد مرة حتى اجتمع في ١٣ مايو ١٩٢٦ دون أن يسفر عن شيء ايجابي . وذلك أن النفوذ الاستعماري كان قد حطم كل محاولة لاحياء الخلافة ، ووضع مختلف العراقيل والصعوبات ، وتبارى الملك فؤاد ، وامان الله خان ، والحسين بن علي في تولي الخلافة .

وكان الانجليز قد أعلنوا معارضتهم الشديدة لعودة الخلافة الاسلامية في أي صورة من الصور وكانوا يعملون على تعقيد المساعي المبذولة في اعادتها بوسائل ملتوية خفية .

وقد أدى التدخل الاستعماري والنفوذ الاجنبي الى خلق جبهة معارضة للجبهة التي ترشح الملك فؤاد ، فانقسم علماء الازهر بين مؤيدين ومعارضين . وكان

الخلاف بين الملك فؤ اد وسعد زغلول عاملاً من عوامل الصراع . وكان سعد زغلول منذ بدء حياته السياسية معارضا للجامعة الاسلامية ، وظن أن الانجليز يدفعون الملك فؤ اد للترشيح للخلافة تحقيقا لمشروعهم القديم . مشروع الخلافة العربية .

ووقفت الصحافة نفس الموقف ، فهاجمت جريدة السياسة لسان حزب الأحرار الدستوريين موقف المعارضة ، وشاركتها صحف الوفد . وانتهى المؤ تمر المنعقد في ١٣ مايو ١٩٣٦ الى قرار يقول :

« إن الخلافة الشرعية المستجمعة لشروطها المقررة في كتب الشريعة الغراء . التي من أهمها الدفاع عن حوزة الدين في جميع بلاد المسلمين وتنفيذ أحكام الشريعة الغراء فيها لا يمكن تحقيقها بالنسبة للحالة التي عليها المسلمون الآن » .

وعمد حزب الأحرار الدستوريين في سبيل معارضة اتجاه الملك فؤ اد الى تولي الخلافة بأن كلف أحد رجاله ( علي عبد الرازق ) ان يضع بحثا مراوغاً يحمل طابعا علميا فقهيا يقرر فيه وجهة نظره السياسية . وقد اعتمد علي عبد الرازق على المؤ لفات التي نشرها حكام تركيا يعززون بها موقفهم من الغاء الخلافة . وكان مجمل هذه الآراء يقول بأن الخلافة ليست نظاما اسلاميا خالصاً .

بينما وقف رشيد رضا ومصطفى صبري ، ومحمد بخيت في مواجهة هذا الرأي كاشفين عن حقيقة مفهوم الخلافة في الاسلام .

وفي الحق أن كتاب علي عبد الرازق لم يكن يهدف الى اعلان رأي في الاسلام خالص لوجه العلم بقدر ما كان يهدف الى استغلال ففه الاسلام وتشريعه وتاريخه الى تأييد رأي باطل عن الخلافة ، هذا الرأي ليس له أهمية ، ولا خطر الا بقدر ما يتعرض لأصل من أصول الاسلام ، وهو قوله بالباطل إن الاسلام دين روحي لا صلة له بالمجتمع ولا بالسياسة منكراً اكبر معلم من معالم الاسلام الذي يختلف اختلافا اساسيا عن الأديان الاخرى .

ولم يكن لهذا الرأي الذي أثاره علي عبد الرازق ليرجح كفة سياسية على كفة اخرى ، أي اهمية أساسية لولا أنه من الآراء التي تلقفهـا المبشـرون ودعـاة التغريب ، وأعطوها اهمية كبرى في إثارة شبهة من أخطر الشبهات ، وهي أن الاسلام دين لا صلة له بالمجتمع ولا السياسة . وقد حاولوا ان يعتـدوا بهـذا الرأي الفرد الذي لم يصدر في مجال بحث علمي ، ولم يلق من العلمـاء أي تأييد او تقدير ، ولم يقبل به جمهرة العلماء المسلمين او يرتضوه . والذي كان في حقيقته صادراً عن غرض سياسي وذاتي ، ولم يكن يراد به وجه الله والعلم والحق .

وقد واجه الشيخ مصطفى صبري جميع الحجج التي ساقها مصطفى كمـال وحكومة أنقرة متعللين بها لالغاء الخلافة . كما كشف عن الدوافـع الحقيقية والأسباب الخفية لهذا العمل . وقال إن السبيل للاصلاح كان ممكناً بتبـديل المصلحين بالمفسدين لا تبديل الشريعة والدين ، وفصل الدولة عن الدين . وقد دحض الشبهات التي أثيرت حول الدين والحرية وموقف الاسلام منها . فقال : إن الاسلام لا ينافي الحرية ، والاستغلال أن تكون حكومته ممنوعة من التخطي ما وراء حدود الدين . وان المقصود بالحـرية هو حرية الأمـم تجـاه الحكومات لا حرية الحكومات في القيام بأمور الأمة .

وكشف عن أن الاتحاديين هم الذين زجوا بتركيا في الحرب على غير رغبة السلطان . وعلى غير رغبة كثير من المعارضين . ثم وقعوا عقد الاحتـلال . ومع ذلك كله فهم يلومون الخليفة لاستسلامه لعواقب هذه الهزيمة التي جلبوها عليه بأيديهم .

وأورد الشيخ مصطفى صبري ادلة العارف الخبير بالأمور عن أن الكماليين الذين حكموا بعد الحرب العالمية الأولى هم والاتحاديون الذين حكموا قبل الحرب ، وبعد خلع السلطان عبد الحميد حزب واحد . وأن الخلاف بينهم ليس خلافـا علـى المبـادىء ، ولكنـه خلاف شخصـي مبعثـه التنـافس علـى الزعامة ، وكلاهما يستند على السلطة العسكرية في زعامته ، وعندهـم أنهـم المسؤ ولون عن ضياع الامبراطورية العثمانية منذ وضعوا ايديهم على الدولـة بعد خلع عبد الحميد .

وكشف مفتي الاسلام العثماني عن علاقة مصطفى كمال بالانجليز فقال إن الانجليز قد تشددوا في معاملة السلطان وحيد الدين حتى أعجزوه ، ثم تساهلوا بعد ذلك مع مصطفى كمال ، ليجعلوا منه بطلا فتعظم فتنته في أبصار المسلمين وبصائرهم « والرجل من لا تجد الانجليز مثله ، ولو جدت في طلبه ، من حيث انه يهدم من ماديات الاسلام وادبياته في يوم ما لا تهدم الانجليز نفسها في عام ، فلما أثبت كفايته وقدرته من كل الجهات استخلفته لنفسها وانسحبت من بلادنا ».

وإذا كان مؤتمر الخلافة عام ١٩٢٦ في مصر . ومؤتمر مكة في نفس العام لم يسفر عن شيء في أمر الخلافة . فان البحث في امر الخلافة لم يتوقف فيه ثمة ، والى امد طويل ، فاتجهت الانظار الى مصر ، واتجهت الى الجزيرة العربية ، وأثبتت جمعية الشبان المسلمين في برنامجها الذي أعلنته سنة ١٩٢٧ . أن من أهم أهدافها « اعادة الخلافة ». كما أثبتت ذلك عديد من الجمعيات الاسلامية التي انبثقت من جمعية الشبان المسلمين ، وتناول الدكتور : عبد الرازق السنهوري هذا الموضوع الخطير في رسالة الدكتوراه التي قدمها الى جامعة باريس في هذه السنوات تقريباً تحت عنوان « الخلافة وتطورها لتصبح عصبة أمم شرقية » كتبه عقب سقوط الخلافة . وقد كان التساؤل باسم العالم الاسلامي كله ، وهو ماذا بعد الخلافة من رابطة تجمع المسلمين وتعيد وحدتهم . وقد وصل الدكتور السنهوري في بحثه الى ان يتطور نظام الخلافة ، فيصبح عصبة أمم شرقية . وكان مجمل رأيه هو أن تشتد القوميات وتبلغ الرشد ، وتصبح قادرة على أن تكون نوعا من الوحدة بين الأمم . بعد ان تكون قد اصبحت أمماً ، وهذه عبارته : « حتى إذا توافرت لكل قومية كيانها وحرياتها الداخلية ، كان من الطبيعي أن تفكر هذه القوميات المختلفة في التعاون والتضامن على أساس نوع من الوحدة لا يزالون حتى الآن يلتمسون اليه السبيل .

ثم يتساءل : أيحسن التفكير في تكوين المجموع قبل استكمال الاجزاء لمقاومتها ، أو يحسن ترك الاجزاء تستكمل ذاتيتها ، ثم التفكير بعد ذلك في تكوين المجموع . فلنترك الشرق تستكمل كل قومية فيه مقوماتها ، ولكن

لننفخ في هذه القوميات روحا شرقية واحدة ، تسترشد بها كل أمة في نهضتها الوطنية حتى يسود التآخي والتعاون فيما بين هذه الأمم ، ويسهل بعد زمن قريب أو بعيد أن نحقق نوعا من الوحدة في الشرق لا تزال أوربا تتلمس الطريق اليه .

وعرض السيد رشيد رضا لأمر الخلافة وقال : إن اقامة الخلافة الاسلامية يسوء رجال دول الاستعمار ، وانهم قد يقاومونها بكل ما أوتوا من قوة ، واحرصهم على ذلك الدولة البريطانية . وقد دعا البحث في أمر الخلافة من جديد قبيل الحرب العالمية الثانية وحوالي سنة ١٩٣٠ وتعددت فيه الآراء . وكان من رأي الدكتور عبد الحميد سعيد أن الخلافة الاسلامية في الشرق لازمة للاسلام والمسلمين ، وانها في العصر الحاضر الزم منها في أي عصر مضى . غير أنه يقدر ما تحمله فكرة الخلافة من تهديد لسياسة أوربا الاستعمارية والقضاء على أطماعها في الأمم الاسلامية ، والتي عمل الغرب زمناً طويلًا على تمزيق شملها ليصل الى ما وصل اليه ، ذلك أن الذي يرعب أوربا حقا ويخيفها أن قيام الخلافة يؤدي الى اتحاد الأمم الاسلامية ، وتعاونها في سبيل نهضتها ، ونهضة الشرق كله . وهذه النهضة إذا قويت باتحاد الأمم الاسلامية تحطمت مطامع الدول الأوربية وشهواتها الاستعمارية .

واذا كانت هذه وجهة نظر . فان هناك دائما وجهة النظر الأخرى المعارضة ، يحمل لواءها كتاب سياسيون لهم ارتباطاتهم باحزابهم وما وراء الأحزاب من علاقات دولية .

فعبد القادر حمزة يرى أن الخلافة في مصر تكون مصدر خطر عليها من الدول القوية ، وأن الخلافة ستجد من يعارضها كتركيا والمغرب الأقصى ، ولا فائدة من قيام نظام لا يعترف به الجميع ويقول : « ولا ريب أن الخلافة في مصر تستدعي أن تصير حكومتها دينية ، ومعنى هذا أن جميع القوانين التي سارت عليها منذ ستين عاماً يجب أن تتغير ، وتوضع بدلها أحكام شرعية تسري على المصريين والأجانب ، وهذا العمل ينافي ما ارتبطت به مصر في المعاهدة المصرية البريطانية . فقد نصت هذه المعاهدة على أن أي تشريع مصري يطبق على الاجانب يجب أن لا يتنافى مع المبادىء المعمول بها في التشريع الحديث » .

ويورد عباس العقاد قريباً من هذه العقبات ، ويضيف اليها أعباء الخلافة التي تتحملها ميزانية مصر . وفي مجال نقد واقع الخلافة الاسلامية في الدولة العثمانية عرض عبد العزيز جاويش ورشيد رضا ما وصلت اليه الخلافة من انحراف عن مفهوم الاسلام حيث نقل العثمانيون مفهوم البابوية والامبراطورية . وفي هذا يقول رشيد رضا « ليس في الاسلام فوق الشرائع والأحكام أمير ولا خليفة ولا سلطان . فقد قلدت تركيا أوروبا في شتى القوانين الرومانية في قاعدة تقول بأن الخلفاء فوق القانون والشرائع ، فأصبح الخلفاء بهذا خلفاء رومانيين لا خلفاء اسلاميين » .

ومن ذلك ما أشار اليه عبد العزيز جاويش حين ناقش مصطفى كمال في أمر الخلافة حين قال : « إن الأعاجم أفسدوا أمر الخلافة بما دست الباطنية ، وبما أفرط الترك والفرس في الغلو باطراء الخلفاء حتى فتحوا لهم باب الاستعباد ، وقهروا الأمة على الخنوع . ولقد كان تقديس الخلفاء العثمانيين سبباً لاسقاط دولتهم .

كما دافع الفاتيكان عن اتهام جريء طالما ردده الكماليون ، وهو أن ما وصلت اليه الدولة العثمانية من تأخر . انما كان مرجعه الى الاسلام . والاسلام بريء مما وصلت اليه تركيا ، وأنه لا علاقة بين الاسلام وما اضطربت به الدولة من استبداد وفساد . فالاسلام لا يؤيد الاستبداد ، ولكنه يشجعه ، ولذلك فإن الرأي القائل بأن النهضة لا تتم الا بترك التقيد بالاسلام في حكومتهم لم يكن رأيا منصفا . واغلب الظن أنه كان باغراء النفوذ الغربي الطامع في ان يقضي على الطابع الاسلامي وهدمه بعد اتهامه ، والصاق شبهة التأخر به .

وبعد فإننا نصل من هذا العرض التاريخي الى حقيقتين :

أولاً : ان الخلافة هي بؤرة الجامعة الاسلامية . وان الجامعة الاسلامية يمكن أن تقوم اولاً ثم تنبثق منها الخلافة ، وان حركات التحرر والوحدة والتقارب التي تجري اليوم في عالم الاسلام يمكن ان يتحقق من خلالها نظام جامع للدول الاسلامية ترتبط به ثقافيا واجتماعيا قبل أن ترتبط به سياسيا وعسكريا .

ثـانياً : ان المسـلمين بعـد الغـاء الخلافـة لم يتفرقـوا كمـا كان يتصـور الاستعمار . وان الهدف الذي كان يطمع فيه النفوذ الاستعماري ، قد فشـل تماماً . وان العالم الاسلامي قد تلاقى على مستـويات كثيرة سواء في مجـال الوحدة العربية ، أو الوحدة الثقافية العامة ، وأن الفكر الاسلامـي ما زال هو المصدر الأول للثقافات العربية والفارسية والتركية والهندية الاسلامية .

وإذا كانت الخلافة قد سقطت بعمل سياسي استعمـاري دفين اخفـى امـره طويلاً ، وبدقة وراء غلالات وتمويهـات . فإن المسـلمين قد بدت امامهـم الحقائق سافرة ، وتنبهوا لما يراد منها ، فسارعوا الى اتخاذ وسائل اخرى تحل محل الخلافة فاندغمت رابطتهم في مؤتمر الحج السنوي . وفي الاتجاه نحو الأزهر ، وفي مؤسسات مختلفة تقوم الآن بالربط بين المسلمين علـى صعيد الفكر والثقافة والتعليم .

وزاد من قوة هذه الروابط تمرد دولتين كبيرتين بعد الحرب العالمية الثـانية هما : الباكستان واندونيسيا ، وعشرات الدول الاخرى ذات الاغلبية المسلمة في جنوب شرق آسيا وأفريقيا . وكانت أزمة فلسطين والصهيونية عامـلاً بعيد المدى في التقارب والالتقاء ، وخاصة بعد سقوط القدس في يد الصهيونية . وقد دفعتهم الأزمات الى نسيان خلافاتهم ، وتقريب مفاهيمهم ، والالتقاء على الاسس العامـة ، وخاصـة فيما يتصـل بالسـنيين والشيعيين والأكراد والعرب والبربر . فقد توثقـت الصـلات وازدادت عمقـاً ، وخفـت حدة الخصومـات والخلافات التي أججها الاستعمار والنفـوذ الغربـي خلال فتـرة احتلالـه بين الحربين ، كما كشفـت الوقائـع حقائـق كانـت مطمـورة عن السلطـان عبـد الحميد :

الواقع أن تاريخ السلطان عبد الحميد لم يكتب بعد الا من جهة واحـدة ، هي : جهة خصومه واعدائه من اليهود والاستعماريين والغربيين وأتباعهم من أصحاب الأقلام التي تكتب باللغـة العـربية . كأصحـاب المقطـم وسـركيس وغيرهم ، وكتاباتهم عن السلطان فيها كثير من المبالغـة الصـادرة عن الخصومة الشخصية او المذهبية .

ومفتاح تصحيح شخصية السلطان عبد الحميد انما يتصل بنقطة واحدة هي : موقفه من الصهيونية ومقاومته لها . وتآمر الصهيونية مع النفوذ الاجنبي على اقصائه .

فالنفوذ الأجنبي قد أجس بالعمل الخطير الذي أزعج اوربا . وهو دعوة عبد الحميد المسلمين ان يتجمعوا في جامعة اسلامية تواجه الزحف الاستعماري . وأن هذه الدعوة وجدت استجابة تحت تأثير الغزو العسكري والسياسي الذي كان يجتاح اجزاء العالم الاسلامي . ولم يجد المسلمون نقطة التقاء ، اوعروة تجمع الا في الدولة العثمانية التي تضم العرب والترك . ومن هنا كان الضغط شديداً على هذه العروة لفصمها وتمزيقها . وقد ضاعف من هذا العمل ما تطلعت اليه الصهيونية بعد عقد مؤتمر بال ١٨٩٧ من الزحف على فلسطين ، والاستيلاء عليها . ومقاومة السلطان لهذا العمل .

وتبدأ نقطة الحملة عليه من اصطفاء النفوذ الاجنبي للاتحاديين واعدادهم للسيطرة على الدولة العثمانية . وقد نمت الحركة الاتحادية في احضان المحافل الماسونية التي اقامها الصهيونيون كوحدات متنقلة للعمل . والتي كانت مبعثرة في سالونيك . وصلة الاتحاديين باليهود مؤكدة وثابتة ، وليس هناك سبيل الى دحضها .

وقد بدأ الاتحاديون عملهم من نقطة التمزيق . بينما كان يعمل عبد الحميد من نقطة الوحدة . وكانت الدعوة الطورانية هي رسالة تمزيق الامبراطورية . والقضاء على الجامعة الاسلامية ، وايقاع الخصومة الدموية بين العرب والترك . وقد صاحب الدعوة الطورانية مفاهيم غربية جريئة تعارض القيم الاسلامية اساسا ، وتهاجمها في عنف ، وتدعوا الى العلمانية واللادينية ، والالحاد ، وشجب الدين من المجتمع اساسا . وقد اشار الذين تعرضوا لهذه القضية : أن السلطات عبد الحميد كان يخشى من أن يؤدي اصدار الدستور الى تسلط هذا التيار . ومن هذا يبدو أن السلطان عبد الحميد كان ضحية المطامع الصهيونية من ناحية ، والنفوذ الغربي من ناحية اخرى .

وقد جرت على أقلام الكتاب عبارة « الاستعمار التركي » بالنسبة للعرب ،

وهي كلمة غربية دخيلة وليست صحيحة فلم تكن الرابطة الجامعة للعرب والترك في الدولة العثمانية « استعماراً » بقدر ما كانت « امتزاجاً » على اساس مفهوم الرابطة الاسلامية وحدها . ويمكن ان يقال : ان النفوذ الغربي هو الذي مزق هذه الرابطة باثارة الدعوة الاقليمية المنبثقة من احياء تراث طوران وجنكزخان ، وهي دعوة حمل لواءها كتاب معروفون في هذا الوقت في مقدمتهم ضياء كوك الب وسيد بك واحمد اغايف ويوسف اقشورا وآغا او غلي احمد وحمد الله صبحي وجلال نوري ، وقد كان هدف هذه الدعوة في ظاهره العمل على اخراج الدولة العثمانية من التأخر والجمود والعزلة ، غير ان النفوذ الغربي الكامن وراءها والمغذي لها كان طامعاً في ان يحقق بها اهدافه جميعا التي تحققت فعلاً بعد الحرب العالمية الاولى وهي :

( ١ ) القضاء على الجامعة الاسلامية والخلافة .
( ٢ ) القضاء على الدولة العثمانية .
( ٣ ) السيطرة على البلاد العربية واحتلالها .
( ٤ ) نقل تركيا من دولة ذات طابع اسلامي الى دولة غربية الطابع .

وقد عمدت جمعية الاتحاد والترقي ـ التي سيطر عليها الدونمة ( يهود سالونيك ) من الداخل وحولوها عن أهدافها الى خدمة اغراضهم . وذلك حين قرروا لها اثناء عقد ندواتها في المحافل الماسونية تاليف الجمعيات واللجان ، ونشر الكتب الطاعنة في الاسلام ، الداعية الى التحول الى الرابطة الطورانية بدلاً من الاسلام . وكان لهم اناشيد وقصائد ينشرونها سراً . وقد استطاعوا بقوة النفوذ الاستعماري من اسقاط عبد الحميد ، وكان قره صوه اليهودي الذي اشترك في مفاوضة السلطان واغرائه بالملايين لمنح اليهود حق دخول فلسطين واحداً من الذين اشتركوا في خلعه علامة على اعلان اثر اليهود في خلع الرجل الذي عارض نفوذهم .

يمكن القول بأن الفترة التي بدأت من تاريخ تركيا بخلع عبد الحميد ، وتولي الاتحاديين للحكم هي الفترة التي اجتمعت فيها ارادة الحاكمين والاستعمار على تصفية الدولة العثمانية ، وابراز طابع الجامعة الطورانية ، وابلاغ العلاقة بين الترك والعرب أشد مراحلها عنفاً وقسوة مما مهد الى زوال الدولة ، والتهام

الغرب للاجزاء العربية ، ومنح اليهود وعد بلفور الذي يعطيهم الحق في اقامة دولة في فلسطين .

في ضوء هذه الملاحظات يمكن النظر الى موقف السلطان عبد الحميد من التاريخ بعين الانصاف . وفي السنوات الاخيرة اخذت تظهر وثائق كثيرة تكشف حقيقة هذا الرجل ، وتدفع عنه كثيراً مما شاب اسمه من اتهامات وشبهات الصقها به النفوذ الاستعماري والصهيونية على السواء .

## الأمة العربية وعالم الاسلام

الأمة العربية ومصر العربية الاسلامية

الوحدة العربية

الاسلام وحركات المقاومة

ثو رة الجزائر

جذور الوحدة العربية

# الأمة العربية ومصر العربية الاسلامية

« الامة العربية » حقيقة واقعة ملموسة بوضوح في تاريخ المسلمين منذ فجر الاسلام الى اليوم ، لم تختف يوماً وإن جنحت إلى الضعف والانطواء في فترات قليلة . وفي العصر الحديث ، وحيث ضعفت قوة الوحدة الاسلامية القائمة على الرباط بين الترك والعرب ، برز دور الأمة العربية من جديد في مجال اليقظة والاصلاح ، وعاد العرب إلى تسلم مقاليد مركزهم الاجتماعي والحضاري في بناء العالم الاسلامي .

ويمكن القول إن عوامل اليقظة الفكرية والاجتماعية في العالم الاسلامي كله قد بدأت من قلب الأمة العربية ، ومن قلب الجزيرة العربية التي انبثق فيها ذلك الضياء الوهاج . ولقد ظل العرب أوفياء للوحدة الاسلامية حفظاء عليها حتى اضطرهم الاتحاديون ـ وليس الأتراك جميعاً ـ الى الانفصال ورفع لواء الثورة .

كان العرب يطالبون بحقهم ـ حق الأمة ـ من خلال الرابطة الاسلامية والدولة العثمانية ، وكانت حركاتهم جميعا تستهدف قيام نظام لا مركزي ، يقيم لهم حكومة مستقلة داخل اطار الدولة العثمانية ، وكانوا يؤ منون بالوحدة في مواجهة الغزو الزاحف ، فلما ضعفت الدولة العثمانية بعد سقوط السلطان عبد الحميد ، وغلب طابع الاتحاديين مستهدفا تصفية الدولة العثمانية ، والقضاء على الرابطة الموحدة بين العرب والترك خدمة للنفوذ الاجنبي الرامى الى تمزيق هذه الأواصر وابتلاع هذه الأجزاء . اتجه العرب الى افامه حركه المقاومة من خلال وحدتهم كأمة ، وهذا هو المفهوم الحقيقي للوحدة العربية كما فهمها العرب الذين أحسوا بان كيانهم الذاتي قد بدأ يصيبه خطر كبير نتيجة الدعوة التي حمل لواءها الاتحاديون وهي « الجامعة الطورانية » وهي

جامعة تقوم على الجنس والدم وتحاول أن تجمع العناصر الطورانية في قومية واحدة ، كما احسّ العرب بخطر يواجه كيانهم من حيث غزو اللغة التركية لمجتمعاتهم في مجال المدرسة والتعليم والمحكمة والمجتمع . ومن خلال العمل الدائب على « تتريك العناصر » الداخلة في الدولة العثمانية ومن بينها العرب .

كان هذا هو التحدي الخطير الذي واجه العرب ، ودفعهم الى التجمع من حول فكرة الوحدة العربية . وقد نمت الدعوة وتطورت حيث ضعفت الدولة العثمانية ، وزادت تحديات حكامها الاتحاديين للعرب حتى علقوا على المشانق في دمشق وبيروت عام ١٩١٦ . فكان هذا هو الحد الفاصل بين الوحدة العربية وبين الدولة العثمانية ، ثم توالت الاحداث وظل كثير من العرب خلال الحرب العالمية الاولى ـ وقد دخلها العثمانيون الى جوار المانيا ـ يحذرون ويحذزون حرصاً منهم على تفويت الفرصة على النفوذ الاستعماري الذى انتفع وحده من هذا الخلاف ، والذي خدع العرب حين دعاهم الى الانضمام لصفه في مقابل اقامة دولة عربية لهم بعد الحرب ، ثم لم يلبث الحلفاء ان خفروا عهدهم واحتلوا البلاد العربية ، وسيطروا عليها ، وأقاموا حكم الاحتلال والانتداب والوصاية على معظم هذه الأجزاء ، ووجد العرب أنفسهم قد وقعوا في براثن وضع استعماري اشد قسوة من الوضع الذي كانوا يشكونه في الدولة العثمانية .

ولما سقطت الخلافة عام ١٩٢٤ وانطوت الدولة العثمانية ، كانت مرحلة الدعوة الى القوميات في العالم الاسلامي كله قد اخذت تلعب دوراً خطيراً ، وتمثل مرحلة جهيرة . وواجه الاستعمار الأمة العربية بالتحدي . فأثار في مختلف اجزائها دعوات اقليمية ضيقة ، سميت بالقومية المصرية ، والقومية السورية ، وحملت لواء الارتباط بالماضي التاريخي ، الغامض البعيد السابق على ماضيها الاسلامي الحي ، فبشرت دعوات بالفرعونية في مصر ، والفينيقية في لبنان ، والبربرية في المغرب ، وعلت هذه الصيحة التي كانت في اول امرها عاملاً من عوامل المقاومة الوطنية ، وطابعا ضروريا في مرحلة مقاومة الاحتلال الذي كان يلقي الى كل هذه البلاد شبهات تقول بانهم ليسوا « امة »

فالمصريون ليسوا امة ، والعرب ليسوا امة ، كما حاول الاستعمار عن طريق المدارس والكتب والصحف ان يقول بان هذه البلاد عاشت منذ اول التاريخ في احتلال : احتلها الفرس والرومان ، ووصف العرب بانهم محتلون . وهكذا اثيرت دعوات اقليمية خطيرة ، وفرضت قيود كبيرة تحول دون التقاء هذه الاجزاء العربية معاً ، واستسلمت الاقطار لهذه الدعوات في مرحلة « الوطنية.» حيث كان الصراع دائراً بين المستعمر واهل القطر الواحد. فكانوا يتشبثون بالوطنية ويتخذون من تاريخهم الخاص وسيلة للمقاومة والاستعلاء . فكان المصريون حين يدعون الى الفرعونية في هذه الفترة انما يريدون ان يقولوا ان لهم ماضيا وتاريخاً يبلغ خمسة الاف سنة من العمر ، وانه اقدم من تاريخ بريطانيا وامريكا جميعاً .

وفي العراق والشام باجزائه ( فلسطين وسوريا ولبنان ) كانت الدعوة تحمل طابع الماضي العربي ، ثم تذهب الى مرحلة ما قبل تاريخ الاسلام ، فتحاول التفاخر بالفينيقية والأشورية والبابلية ، وغيرها . غير ان الاستعمار حاول الاستفادة من هذه الدعوات لتأريث الاقليمية . وخلق كيان محدود ، وكانت دعوة المصرية في مصر في هذه الفترة تحاول ان تنفصل عن الامة العربية والفكر الاسلامي جميعا ، وترتد الى ماض من الفرعونية غير واضح التاريخ او الثقافة او التراث ، وفشلت هذه الدعوات جميعاً فى مصر والشام والمغرب ، واهتدى العرب الى ان رابطتهم بالاسلام وتاريخه هي اقوى هذه الروابط . ومنها ينبعث كيانهم الحقيقي ووجودهم الواضح المؤصل . وكانت مسألة الاحتلال الفرنسي لسوريا ولبنان والجزائر ومراكش وتونس . والاحتلال البريطاني لمصر والسودان والعراق والجنوب العربي والاحتلال الايطالي لليبيا . هذه مسألة الجهاد الذي لم يتوقف بالكلمة والمفاوضة والدعوة الى الحرية في حركات متصلة لم تتوقف . وقد سبقتها مرحلة الكفاح المسلح ، والجهاد المحارب على ايدي : عبد القادر الجزائري في الجزائر ، واحمد عرابي في مصر ، والمهدي في السودان ، والسنوسي في ليبيا ، وعبد الكريم في المغرب الأقصى . غير ان هناك قضية اخرى كانت اخطر من ذلك كله : هي قضية الغزو اليهودي لفلسطين ، والذي اتخذ خطواته الاولى منذ سنوات طويلة

بعد عقد مؤتمر بال ١٨٩٧ ، والمفاوضات التي جرت بين هرتزل والسلطان عبد الحميد ، والتي قضت على آمال اليهود في فلسطين ، والتي عمد الاستعمار والصهيونية الى تحقيقها باسقاط عبد الحميد ، وفتح الطريق اليها في ظل نفوذ الاتحاديين ، والذي تحقق بصورة قاطعة في وعد بلفور الذي وجهه وزير خارجية بريطانيا الى روتشلد عام ١٩١٨ . والذي كان نقطة تحول خطيرة في الوجود العربي . حيث اقام فاصلاً بشريا بين جزأي الأمة العربية الأفريقي والآسيوي . وفي اخطر موقع على البحر الأبيض المتوسط وعلى البحر الأحمر ، وفي نفس المنطقة التي سيطرت عليها الحملات الصليبية ، وقد تدافعت خطوات هذا الغزو في العصر الحديث حيث انتهى باحتلال الصهيونية لفلسطين ١٩٤٨ . واحتلال القدس عام ١٩٦٧ . وتشكيل اخطر تحدّ واجه الأمة العربية . هذا الخطر كان علامة القوة في التركيز على الوحدة العربية ، حيث بدأت هذه الحركة تتضح وتستحصد حتى بلغت مرحلة هامة من مراحلها بقيام الجامعة العربية ١٩٤٦ ( قبل احتلال الصهيونية للقدس بعامين ) ثم انتقلت حركة الوحدة العربية الى مرحلة اشد قوة وعمقا منذ عام ١٩٥٦ عندما اعلنت مصر انها جزء من الأمة العربية ، وتصدرت لقيادة الحركة العربية بالاشتراك مع الهيئات العاملة في مجال الوحدة العربية في سوريا والعراق والأردن .

وقد حققت هذه الحركة خطوات بعيدة المدى في سبيل البناء القومي العربي ، ومن خلاله حدثت تجربة الوحدة بين مصر وسوريا التي اعطت العمل العربي خبرة واسعة ، ثم اتسع نطاق الحركة العربية حتى شمل العالم العربي كله .

# مصر العربية الاسلامية

ولقد كانت مصر دوما قلب الأمة العربية ، ومنار العالم الاسلامي كله ، وذلك بوجودها الجغرافي والتاريخي والثقافي الفريد . ومن هنا فقد حرص الاستعمار والنفوذ الاجنبي على التركيز عليها منذ وقت بعيد ، حيث زحفت الحملة الفرنسية ١٧٩٨ لاحتلالها ، ثم ارتدت عنها ، ثم تبعتها حملة فريزر الانجليزية ، ثم كان انشاء قناة السويس عاملاً هاماً وخطيراً في مكان مصر من اطماع النفوذ الاستعماري الزاحف الذي قضى على الحركة الوهابية في الجزيرة العربية ، وحركة محمد علي في مصر ، وهما حركتان كانتا من عوامل اليقظة العربية . ثم كان احتلال فرنسا للجزائر ١٨٣٠ . واحتلال انجلترا لمصر ١٨٨٢ مقدمة لاحتواء هذه المنطقة داخل النفوذ البريطاني الفرنسي .

ومع ذلك فقد ظلت مصر هي قلب الأمة العربية بالرغم من الدعوات التي دعت الى تمصيرها ، وظلت منار العالم الاسلامي لوجود « الأزهر » وهو ثالث القوى الاسلامية في هذه الفترة : حيث مكة هي قبلة المسلمين والدولة العثمانية مقر الخلافة الاسلامية ، وكانت مصر مقر الازهر مصدر الثقافة الاسلامية .

ولقد لعبت مصر دورها على المدى الطويل في حركة الغزو الفرنسي ، وفي مقاومة استبداد محمد علي وفي الثورة العربية وفي ثورة ١٩١٩ ، وكان الأزهر هو مصدر جميع الحركات ومباينتها ، وكانت مفاهيم الفكر الاسلامي في العالم كله هي مصدر حركات المقاومة والتجمع والوحدة .

ولقد كانت مصر رابطة جامعة لكل الدعوات والحركات التحريرية ، وكانت تؤ من بانها مصرية وعربية واسلامية في وقت واحد . ففي مجال الوطنية كانت

تؤمن بالأرض وتدافع عنها ، وفي مجال القومية كانت تؤمن بالأمة العربية ورابطتها الاكيدة معها ، وفي مجال الفكر كانت تؤمن بالاسلام كمصدر لفكرها وقيمها ومفاهيمها ، وتؤمن بالأخوة الاسلامية التي تربطها بالمسلمين في كل مكان .

وفي العصر الحديث دعمت مصر دورها في هذه المجالات عن طريق هيئاتها العربية والاسلامية ، فهي مقر الأزهر ، ومقر الجامعة العربية ومقر الهيئات الاسلامية المختلفة ( المجلس الاعلى للشؤون الاسلامية ومجمع البحوث والمؤتمر الاسلامي ) وقد ربطت نفسها بالعالم الاسلامي كله ، فلها طريقها الى الدول الأفريقية المسلمة وطريقها الى ارخبيل الملايو وطريقها الى تركيا والباكستان والهند واندونيسيا وأفغانستان ، تؤدي دورها القيادي الاسلامي الحضاري بالنسبة للاخوة الاسلامية والوحدة العربية فهي لم تتخل قط عن ايمانها المصري ممثلاً في الوطنية والعناية بالتراث الفرعوني والقبطي ، ولم تتخل عن دورها القومي في الايمان بالعروبة وروابطها مع الأمة العربية ، ولم تتخل عن دورها الاسلامي في الأخوة الاسلامية مع المسلمين في مختلف انحاء العالم الاسلامي ، وشاركت في مختلف المؤتمرات والحركات والدعوات التي حملت لواء التحرر والوحدة والمقاومة وتصفية الاستعمار وتحرر الشعوب بايمان صادق اكيد .

## ( ٢ )
# الوحدة العربية والدعوات الاقليمية

عاش المسلمون في تاريخهم الحديث بين ثلاث روابط :

الرابطة الاسلامية العامة .

الرابطة القومية المرتبطة بالأمة وبالقوم .

الرابطة الوطنية المتصلة بالوطن والأرض .

أما الرابطة الاسلامية العامة . فقد كانت تتمثل في مفهوم فكري واحد يجمع المسلمين ، قوامه الاسلام نفسه : دين الأغلبية الساحقة في العالم الاسلامي ، ولذلك وصفت هذه الرابطة بأنها رابطة دينية أو جامعة دينية في مواجهة الرابطة الأخرى التي بدأت تغزو المجمع الاسلامي ، وهي الرابطة القومية ، أوكما كانوا يطلقون عليها الجامعة الجنسية .

ولقد كان الصراع بين الجامعتين الاسلامية والقومية طويلا ، وبعيد المدى ، وقد مر بمرحلتين : المرحلة الأولى خلال الفترة السابقة للحرب العالمية الأولى ، وقبل سقوط الدولة العثمانية ، وقد تمثل في هذه المرحلة في دعوتين : دعوة الجامعة الاسلامية التي تحمل لواءها الدولة العثمانية خلال حكم السلطان عبد الحميد الذي انتهى عام ١٩٠٨ . وهي دعوة ترفع لواء الاسلام بحسبانه جامعة لأهله ليس داخل الدولة العثمانية وحدها . وإنما للمسلمين عامة من حيث إن الدولة العثمانية تحمل لواء الخلافة . وقد كانت هذه الدعوة دعوة ضرورة في هذا الوقت بالذات ، حينما اتسع نطاق الغزو الاستعماري الزاحف ، وتوالي سقوط الوحدات الاسلامية في قبضة النفوذ الغربي ، فكان اعلان شعار الوحدة الاسلامية ، او الجامعة الاسلامية ، انما يستهدف تجمع المسلمين ومقاومتهم ، وقيام جبهة

صامدة قوامها الدولة العثمانية التي تضم عنصري العرب والترك الى باقي المسلمين في الهند وأفغانستان وايران وأفريقيا وأرخبيل الملايو .

أما دعوة الوحدة العربية أو الجامعة العربية ، أو القومية العربية ، أو الجامعة الجنسية . فإنما كانت قد برزت اساساً من خلال الاتجاه الذي نما في الشام بالذات . ومن خلال منابر الارساليات الغربية ، وبثته بيروت بالذات ، ولها وضعها الخاص القائم على أنها كيان مستقل داخل الدولة العثمانية . وكانت الدعوة إلى العروبة انما تعني تمزيق الرابطة السياسية القائمة بين العرب والترك في كيان الدولة العثمانية ، ولم تكن الدعوة في هذا الوقت وبالصورة التي برزت بها نتاجاً طبيعياً وإنما كانت محاولة أولى لاعلاء شأن الجنس والدم والعرق رغبة في تمزيق وحدة العناصر المختلفة التي تضمها الدولة العثمانية ، وفي معارضة وتضارب مع حركة الجامعة الاسلامية التي دعا إليها جمال الدين الأفغاني وحاول تحقيقها السلطان عبد الحميد .

ولم تكن غاية الدعاة الى تحقيق مطالب العرب إلى أبعد وقت . بعد ذلك تطالب بأكثر من حكم قوامه اللامركزية ، او خلق وضع عربي مستقل داخل كيان الدولة العثمانية ، أو على اكثر تقدير ما دعا اليه عزيز المصري وزملاؤه من أن يتم إقامة كيان عربي داخل اتحاد فيدرالي تكون قيادته عثمانية ( أي عربية وتركية ) يبقى به وضع الدولة العثمانية قائماً وجامعاً بين الترك والعرب .

ولقد اقترب العرب كثيراً من الجامعة الجنسية او الوحدة العربية ، ولكن ذلك إنما تم على مراحل طويلة ولم يبرز في صورة واضحة إلا بعد سقوط السلطان عبد الحميد ، وانطواء دعوة الجامعة الاسلامية وزاده قوة وتأكيداً تمزيق الاتحاديين للرابطة التركية العربية ، ودفعها إلى آخر مراحل الخلاف والصراع والتمزق بتعليق أحرار العرب على المشانق .

ثم كانت الدعوة إلى الوحدة العربية ضرورة حتمية بعد أن مزق الغرب الأمة العربية إلى دول وكيانات اقليمية منفصلة بعد الحرب العالمية الأولى . وفي ظل اخطر تحد واجه العرب وهو التحول الذي فرضه الاستعمار على فلسطين وتأهيلها لتقوم بها دولة صهيونية ، ونضال العرب في سبيل مقاومة هذا التحول الخطير .

فالوحدة العربية في الحق لم تصبح جامعة أساسية في تقدير العرب ، ولم يتجه اليها نضالهم الا بعد أن سقطت الرابطة الكبرى : الجامعة الاسلامية ، أو الوحدة العربية التركية الممثلة في الدولة العثمانية وذلك بحسبان أن تحل هذه الجامعة محل الجامعة الاسلامية في مقاومة الغزو الغربي والنفوذ الأجنبي والاستعمار الأوربي .

ولقد كان للاستعمار دور كبير مؤثر في الاضطراب والصراع بين هذه الدعوات المختلفة . إذ كان قد اتجه إلى سلاح التفرقة ، وتمزيق الكيان الأكبر وسيلة إلى القضاء على وحدة العالم الاسلامي . وذلك في سبيل خلق كيانات متعددة يحكمها وتتوزع بين قواه الاستعمارية : المغرب والجزائر وتونس لفرنسا ، وليبيا لايطاليا ، ومصر والسودان والعراق لانجلترا ، وفلسطين لليهود .

ومن هنا فقد أبرز الاستعمار الدعوة القومية وأعلاها ، وأتاح لها فرصة النماء والقوة في حدود محدودة إلى مراحل معينة . فقد بدأت الدعوة إلى القومية العربية من بعض المؤسسات الأجنبية التبشيرية في بيروت تحمل لواء الحرية والديمقراطية واللغة العربية في مواجهة ما وصفت به الدولة العثمانية في هذه الفترة من الاستبداد واعلاء اللغة التركية ، فلما تحقق سقوط النظام الذي كان يقوم عليه السلطان عبد الحميد من الجامعة الاسلامية ، تحولت هذه المؤسسات عن دعواتها ، وأخذت تخاصم اللغة العربية ، وتعلي من شأن لغاتها الأجنبية ، كما سكتت عن الكلام عن الحرية والديمقراطية . فقد قامت حكومة قوامها الاتحاديون الموالون للنفوذ الاستعماري في حرية للوحدة الاسلامية وفي توسيع نطاق الدعوة إلى القومية التركية باسم الجامعة الطورانية ، ومحاولة اعلاء شأن الجنس التركي ، والعمل على تتريك العناصر المختلفة في الدولة العثمانية ومن هذه العناصر العرب .

هناك وقع الخلاف وقامت الخصومة بين الاتحاديين والعرب أساساً ، وبدأ الصدام بين الجامعة الطورانية والجامعة العربية . وبذلك سقط الحاجز الضخم الكبير الذي كان يجمع العرب والترك في الوحدة الاسلامية الجامعة .

***

ولقد كان العالم الاسلامي يتمثل في ثلاث قوى إسلامية هي : الدولة العثمانية ( تضم العرب والترك ) والدولة الفارسية ، والدولة المغولية في الهند ، ولقد سيطر الاستعمار على هذه المناطق الثلاث بدرجات مختلفة .

أما الدولة المغولية في الهند فقد اجتاحها الاحتلال البريطاني في نفس الوقت الذي سيطر الهولنديون على جاوة وسومطرة بالاشتراك مع الانجليز الذين سيطروا على الملايو .

أما الدولة الفارسية فقد تقرب اليها النفوذ البريطاني منذ وقت بعيد في مساندة لصراعها مع الدولة العثمانية حتى تظل أكبر قوتين في هذا الوقت في صراع دائم .

أما الدولة العثمانية فقد كانت الشغل الشاغل للنفوذ الاجنبي ولأوربا وللغرب كله بحسبان أنها الدولة التي اقتحمت أوربا واحتلت القسطنطينية ، وسيطرت على البلقان ، وصارعت الغرب كله خلال ثلاثة قرون ووصلت قواتها ونفوذها إلى أسوار فينا .

ولذلك فقد حرص النفوذ الأجنبي المتمثل في فرنسا وانجلترا وروسيا إلى اقتطاع اجزائها واحدة بعد الأخرى . وأطلق يد روسيا في مناطق آسيا وسبيريا ، كما أطلق يد بريطانيا في مصر والسودان والخليج الفارسي والبحر الأبيض ، وأطلق يد الفرنسيين في المغرب والجزائر وتونس .

ولم يبق في يد الدولة العثمانية الا الجزيرة العربية والشام بأجزائه والعراق . ومن خلال هذه البؤرة بدأت معركة الصراع الأخير للقضاء على الدولة العثمانية وتمزيقها ، ومن هذه المنطقة ظهرت دعوة الوحدة العربية التي تحولت إلى ما أطلق عليه الثورة العربية بحسبان وعد بريطانيا باقامة دولة عربية كبرى بعد الحرب العالمية الأولى تضم هذه الأجزاء التي حملت لواء الحرب مع الدولة العثمانية ، وقد كان مفكرو المسلمين والعرب في هذه الفترة بين رجلين : احدهما : يرى أن بريطانيا ستفي للعرب بما وعدت ، وتمكنهم من اقامة دولة عربية بعد الحرب نتيجة للمؤازرة الضخمة التي قدمها العرب لبريطانيا في مواجهة الدول التي انضمت الى اعداء بريطانيا. اما الآخر فيرى الابقاء على دعم الكيان العثماني كقوة قائمة في وجه النفوذ الأجنبي الزاحف ، إيماناً بأن بريطانيا والغرب لن

يسمحا بقيام دولة للعرب . فإنهم بسبيل تمزيق الدولة العثمانية والتهامها . ومن ثم فإنهم سوف يخدعون العرب حتى يقدموا معونتهم . فإذا انتهت الحرب ، فسوف يغدرون بهم .

وقد تحقق فعلاً ما توقعه أصحاب هذا الرأي . وكان أصحابه أصدق نظرة إلى الاستعمار من الآخرين الذين أيدوا بريطانيا ، وبالحق فقد خدعت بريطانيا العرب ، ثم مزقت المنطقة بعد الحرب إلى كيانات وضعتها تحت نفوذها باسم الانتداب أو الوصاية لتمنعها من الالتقاء والتكامل ، وكان أخطر نقطة تآمر للاستعمار هو تمكين الصهيونية من فلسطين لاقامة كيان غريب في قلب الأمة العربية .

وبهزيمة تركيا في الحرب العالمية الأولى ، انتهت المعركة بين الاستعمار والدولة العثمانية التي سقطت وتمزقت ، وقامت بدلاً منها دولة تركية قومية ذات صبغة غربية خالصة منفصلة عن العرب والاسلام جميعاً . وبذلك غلب طابع القومية العربية مع تمزق الكيان الموحد الذي كان يجمع العرب والترك . وأصبح العمل للجامعة العربية في نظر العرب هدفاً كبيراً ، من خلال محنة تمزق الكيانات وإعلاء الاستعمار للاقليميات ، وإثارة الدعوات القديمة كالفرعونية والفينيقية والأشورية والبربرية لعزل هذه الأجزاء عن بعضها والتفريق بينها تفريقاً يحول دون التقائها على وحدة عربية .

ولقد كانت دعوة القومية العربية في مفهومها الفطري والطبيعي أنها تنفصل عن الأساس الاسلامي الذي يشكل فكرها وثقافتها وقيمها الأساسية ، غير أن بعض دعاة القومية لم يلتمسوا مفهومها من تاريخ الأمة العربية وموقعها من العالم الاسلامي ومن الاسلام نفسه ، وإنما التمسوا مفهومها من نظريات القوميات الأوربية التي كان لقيامها وتشكيلها ظروف تختلف ، وأوضاع تتباين .

ولذلك فقد حرص دعاة القومية العربية ذات المفهوم الغربي أن يؤكدوا ابتعاد أسس الوحدة العربية عن الدين ، والدين هنا هو الاسلام ، ومن الحق أن يقال ان القومية تختلف عن الدين ىٔ مجالات عده ، فإن القومية دعوة جنس ودم وقوم ووحدة أمة ، وان الدين بمفهوم اللاهوت الغربي له مجال آخر يرتبط بالعقول

والأرواح والروابط المتصلة بين الانسان وربه . ولذلك فمن هذه الناحية ليس الدين أساساً من أسس القومية . ولكن هذا الأمر على اطلاقه في مفهوم الدين لا يتفق مع الاسلام نفسه ، فليس الاسلام دينا كالأديان الأخرى التي واجهتها نظرية القومية في أوربا . بل الاسلام دين وزيادة ، دين ونظام مجتمع . ومن هنا فإن مفهوم الاسلام بالنسبة للقومية يختلف عن مفهوم الدين وحده .

ومفهوم الاسلام هنا بالنسبة للقومية العربية ، أو الوحدة العربية يختلف عن مفهوم الأديان في القوميات الأوربية . ذلك أن الأسس الكبرى والقيم الأساسية للثقافة العربية ، واللغة العربية ، والتاريخ العربي وهي العناصر الأساسية للقومية في المفهوم الغربي . إنما تستمد وجودها من الاسلام والفكر الاسلامي ، ولا تنفصل عنه ، فالإسلام بحسبانه نظام مجتمع قد أثر تأثيراً كبيراً في اللغة والتاريخ جميعاً .. وليس هناك لغة عربية منفصلة عن لغة القرآن والاسلام . وليس هناك تاريخ للعرب منفصل عن تاريخ الاسلام . ولذلك فإن القيم الأساسية للوحدة العربية أو مقومات القومية العربية لا تجد إلا الاسلام نفسه بحسبانه فكراً ونظام مجتمع هو القاعدة الأساسية له . وليس للدين في الإسلام كبير دخل في هذا المجال . ومن هنا تسقط دعوى التصارع المفتعل بين الإسلام والعروبة ، وبين القومية العربية والاسلام .

ومن الحق أن يقال إن الدوائر الثلاث : دائرة الوطنية ، وتسمى « دائرة الأرض » ودائرة القومية وتسمى « دائرة الأمة » ودائرة الاسلام وتسمى « دائرة الفكرة » .

ليس بين هذه الدوائر الثلاث صراع أو تقابل ، ولكنها دوائر متداخلة متساندة ، الوطنية أصغرها والقومية أكبر منها وتليها في الدائرة والاسلام هو الدائرة الكبرى . ولقد كانت الدعوة الوطنية في مواجهة النفوذ الاستعماري دعوة ضرورية وهامة ، وحيث كان النفوذ الاستعماري يمحق كيان الأمم فيقول : إن مصر مثلاً ليست أمة وليست وطنا ، وانها لمَ تكن يوما من الأيام حرة ، وقد تواتر عليها المستعمرون من الفراعنة والترك والفرس والانجليز . ويقول مثل هذا عن كل أمة ووطن ، فكان لا بد ان تقوم في مصر دعوة وطنية مصرة على أن مصر أمة ووطن يجري النيل بين شاطئيه ، وله تاريخ قوامه الفراعنة أصحاب الحضارة

الأولى ، وممدنوا العالم ، وأنه رد الغزاة وحمى الحضارة ، وامتد إلى السودان والحجاز والشام ، وهكذا .

ومن هنا كان الضغط على مفاخر التاريخ ، ومفاخر الأرض وسيلة أساسية ، ومرحلة طبيعية في طريق اليقظة والحرية .

ثم كانت المرحلة الثانية : مرحلة الأمة : فمصر جزء من الأمة العربية يربطها بها تاريخ موحد ولغة ومقومات جغرافية وسياسية واجتماعية لا سبيل إلى انفصامها . ولذلك فإن الأوطان حين تبلغ درجة من الحرية تتداعى أجزاؤها الى وحدة الأمة . وهذا هو مفهوم الوحدة العربية .

ولكن هذه الدعوة الوطنية : وحدة الأرض ، وهذه الدعوة القومية : وحدة الأمة . انما تتحرك في إطار واسع هو إطار الوحدة الفكرية الاسلامية التي جمعت هذا العالم منذ أربعة عشر قرناً من خلال ثقافة موحدة وقيم أساسية واحدة صاغت العقل والقلب والضمير . ومن هنا فإن الوحدة الاسلامية ليست وحدة سياسية إلا كنتيجة لوحدة اساسية : قوامها الروح والمجتمع ، وعوامل الوحدة الفكرية .

هذا هو المفهوم الواضح الطبيعي ، ولكن النفوذ الأجنبي يحاول أن يجعل من دعوات الجامعة الوطنية والجامعة القومية ، والجامعة الاسلامية جامعات متعارضة متضاربة متخاصمة ، بينما هي مراحل طبيعية تاريخية فرضتها ظروف النفوذ الأجنبي والاستعمار التي سيطرت على العالم الاسلامي .

فالدول الاسلامية قد عمقت وجودها الوطني ووجودها القومي ، ولكنها لم تنفصل عن دائرتها الواسعة واطارها العام ، وإن بعدت عنه فترة من الزمن ، فإنها في الفترة الأخيرة تتقارب وتلتقي وتحاول أن تقضي عن العوامل الخلافية الفرعية التي عمقها الاستعمار ليجعل منها عوامل تمزيق ، ويحول بها دون الالتقاء والتوحيد .

وقد كشفت مقررات المؤتمرات الكبرى العامة التي ضمت دول العالم الاسلامي مرات متعددة عن سلامة مفهوم الرابطة الاسلامية والالتقاء الجامع .

وعمق هذا المفهوم وضرورته واستمراره دون أن تقلل منه عملية العزل والتمزيق الواسعة التي امتدت حتى الآن أكثر من مائة عام .

وما تزال الرابطة الفكرية والروحية معاً قائمة في مختلف أجزاء العالم الاسلامي بالرغم من الكيانات ووجود الخلافات الفرعية التي أثارها الاستعمار وأكدها وعمقها في خلال مرحلة الاستعمار ، وما تزال ردود فعل هذه الرابطة الفكرية والروحية واضحة في كل موقف او تحد أو حدث من الأحداث المختلفة التي تواجه أي وحدة من وحدات العالم الاسلامي .

وهي تتجلى واضحة في قضية فلسطين ، وفي مختلف معارك الصراع بين الاستعمار والعالم الاسلامي ممثلاً في التطورات المختلفة ومن أقرب هذه النماذج : معركة الجزائر .

## ( ٣ )

# الاسلام وحركات المقاومة العربية

إلى ما قبل أن تندلع الحرب العالمية الأولى كان العالم الاسلامي يتمثل في الدولة العثمانية ويضم العرب والترك ثم أفغانستان وإيران . وكانت هناك ثلاث مجموعات اخرى :

( ١ ) الهند التي سقطت فيها الدولة الاسلامية بالاحتلال البريطاني .

( ٢ ) أرخبيل الملايو بمجموعه الاسلامي الذي قسمه الاستعمار إلى أندونيسيا تحت الاحتلال الهولندي والملايو تحت الاستعمار البريطاني .

( ٣ ) أفريقيا الاسلامية التي مزقها الاستعمار وتوزعتها دولة ، والتهمتها قبل نهاية القرن التاسع عشر ، وكان الزحف الاستعماري الذي بدأ منذ اوائل القرن الخامس عشر على العالم الاسلامي قد اتجه نحو أفريقيا ، ودار حول رأس الرجاء الصالح ومد خطواته الى كانتون .

ثم تواصلت موجاته المتدافعة : البرتغال والأسبان والهولنديون والفرنسيون والبريطانيون . ومنذ اتصل الأوربيون بالعالم الاسلامي لم يتوقف الصدام ، ولم تتوقف المقاومة . هذه المقاومة التي حمل لواءها العالم الاسلامي في مختلف أجزائه دون توقف . وقد تمثلت هذه المقاومة في الحرب والمعارك العسكرية حيناً . فلما ازدادت سيطرة الاستعمار وتمثلت في صور أخرى من المقاومة ، ولكنها لم تتوقف قط ، ولم يستسلم جزء من العالم الاسلامي إلا بالخدعة والمكر وتأليب الخيانة على حركة المقاومة ، ولم تسلم قوة من قوات المقاومة إلا بعد أن نفذ كل ما تملك من عتاد وزاد .

وقد واجه النفوذ الاستعماري هذه المقاومة بالعنف وبالحيلة معاً . أما العنف فقد قضى به على قادة حركات المقاومة . ثم فرق جموعها بالسجن او الاغراء .

أما الحيلة فقد كانت تتمثل في تكوين أجيال جديدة تؤمن به وترضاه وتصادقه وتتعاون معه . وقد اختار بعض مفكري الاسلام وقادته مبدأ المصالحة مع الاستعمار ، ورأوا أنه « طريق ضرورة » لا بد منه في هذه الفترة . وأن من الحمق أن يستمر المسلمون في طريق واحد هو : طريق المقاومة والتجمد ، بينما العناصر الأخرى تتقدم عليهم وتسيطر على مجالات القيادة السياسية والفكرية .

ويحضر هنا ممثلان أحدهما الشيخ محمد عبده في مصر . واحمد خان في الهند . فقد دفع الاستعمار من غير المسلمين في كل مكان حل فيه ، وفتح لهم آفاق التعليم والثقافة والبعثات . ثم جعل منهم ركائزه وخدامه . وبذلك تخلف المسلمون حتى جاء مثل محمد عبده واحمد خان . فدعيا إلى ضرورة مهادنة الاستعمار وفتح الطريق أمام الطلائع المسلمة ، لأن تتعلم تعليما منحرفاً ، ولكنه على كل حال خير من الجمود والتوقف .

ولذلك فقد كان إقبال المسلمين على البعثات وارساليات والمدارس الأجنبية التي نثرها النفوذ الأجنبي في العالم الاسلامي مسألة ضرورة . وكان قادة المسلمين يعلمون ما تحفل به هذه المعاهد من مقاومة للاسلام واللغة العربية وقيم الأمة ومقدراتها ، ولكنهم كانوا في سباق مع الزمن فإما أن يتعلموا هذا التعليم أو يموتوا . فقد جمد المستعمرون المعاهد الاسلامية المختلفة في العالم الاسلامي ، ولم يجعلوا لخريجيها أهمية تذكر في مجال العمل والحياة ، وفتحوا الطريق أمام الثقافة الحديثة عن طريق المدارس التي وضعوا برامجها واستهدفوا بها خلق أجيال ترضي بالاستعمار وتصادقه وتعاون المستعمرين ، وتحتقر القيم العربية والاسلامية والوطنية ، وتقدر بطولات التاريخ الأوربي الانجليزي والفرنسي .

غير أن هذه المجموعات من المثقفين التي أتيح لها أن تتصدر لقيادة أوطانها في العالم الاسلامي ممن تأثرت بأفكار المستعمرين لم تخلص كلها للنفوذ الاستعماري . بل تحرر كثير منها نتيجة لقوة الضمير العربي الاسلامي الموجود ، والقائم في طوايا الثقافة العربية ، وفي جماهير العالم الاسلامي التي كانت تقود

من مواقعها العامة ، وتفرض نفوذها على قادتها ، وتحول اتجاه بعض المفكرين إلى الطريق الأصيل . بل إن من سار في طريق الغرب ثمة ، لم يلبث ان عاد إلى حمل لواء القيم الأساسية بإصالة أمثال : منصور فهمي . وهيكل . والعقاد . وكان لا بد أن تبقى مجموعة قليلة متعلقة بالنفوذ الاستعماري تحمل لواء التبشير والتغريب والشعوبية . وقد كانت هذه الجماعة دائماً مكشوفة معروفة ، ولم تستطع كسب ثقة المجموع ، بل إن تطور الأحداث وبروز الحركات المجددة قد كشف عن الدسائس التي حوتها مؤلفات هؤلاء ، كما تكشف اخطاء سلامة موسى وطه حسين وإسماعيل مظهر ومحمود عزمي وعلي عبد الرازق ، وبان هدفها التغريبي الذي اندفعت اليه حال بروزها .

ويرجع ذلك في الأغلب الى قوة القيم الأساسية للفكر الاسلامي الأصيلة العميقة الجذور في بناء الأمة الاسلامية خلال أربعة عشر قرنا ، بحيث لم يستطع الاستعمار الغربي من خلال قرن من الزمان بأساليبه المختلفة ( المدارس . النظريات . الصحف . الكتب . الدعاة ) أن تطمس هذه الحقيقة .

ولقد واجه النفوذ الاستعماري في زحفه على العالم الاسلامي قوة متجددة يقظى كانت موضع إزعاج شديد له ، تمثلت في الدعوات العربية.الاسلامية التي برزت في مناطق الصحراء : الوهابية في جزيرة العرب ، والسنوسية في صحراء ليبيا ، والمهدية في السودان .

وقد كانت حرباً عنيفة على نفوذه ، حملت لواء المقاومة من ناحية ، ولواء الانشاء والتمدد والتوسع من ناحية أخرى . فإذا بالوهابية في جزيرة العرب تشكل خطراً على النفوذ البريطاني في الهند حين قام بعض من آمن بها ببناء دولة قاومت بريطانيا وكبدتها كثيراً .

وواجهت السنوسية النفوذ الايطالي مواجهة ضخمة ، وامتدت آثار السنوسية فواجهت النفوذ الفرنسي في الجزائر نفسها . وكان هو الخطر الدائم في كل مناطق أفريقيا .

اما المهدية فقد كبدت بريطانيا فى السودان دماء . وهزائم لا حد لها كما فعل المسلمون فى أندونيسيا ، وفى الهند ، وفى إيران ، وفى أفغانستان على نطاق واسع

عريض في معارك ثلاث ضخمة فاصلة .

وواجهت فرنسا في الجزائر وتونس والمغرب مقاومة وصراعاً لا حدّ له . وواجهت دول أوربا المستعمرة في أفريقيا مقاومة لم تتوقف في المناطق التي يكثر فيها عدد المسلمين .

وحين انطوت صفحة الأمير عبد القادر في الجزائر ، وعرابي في مصر ، وعبد الكريم في الريف المغربي ، وشامل في القوقاز بدأت صفحة جديدة من المقاومة .

فالنفوذ الاستعماري قد حرص على أن يستخلف على أقطار العالم الإسلامي قوى جديدة ، ليس لها طابع إسلامي صريح ، تمثلت في الاحزاب السياسية ، ولكن هل كانت هذه القوى الجديدة خالية من مضمون القيم الاساسية الإسلامية التي تحمل دوماً طابع المقاومة ، والجهاد للمحتل والغاصب ؟ لا من الحق أن يقال إن هذه القوى الجديدة التي ظهرت في أوائل القرن العشرين لم تكن إلا صوره مجددة للقوى القديمة لحركة الحزب الوطني في مصر . هي الوليد والبديل لحركة عمر مكرم ، وجمال الدين الافغاني وأحمد عرابي ، وأحزاب السودان كانت بديلاً عن المهدية والانصار . وفي المغرب تحولت الحركة السلفية إلى أحزاب سياسية تحمل في أعماقها طابع المقاومة على مفهوم الإسلام ـ نعم . « إن الحركات القومية لم تكن مطابقة للإسلام فحسب ، بل هي جزء لا يتجزأ من فكرة بعث الإسلام ، فنضال المسلمين للتخلص من الهولنديين وكفاح السوريين ومسلمي المغرب للتخلص من الفرنسيين ونضال مسلمي الهند ضد البريطانيين . كل ذلك كان جزءاً من حركة المسلمين لبناء مجتمع إسلامي في العصر الحاضر ، ومن هذا القبيل قيام الاتراك بطرد اليونانيين سنة ١٩٢٢ والايرانيين للقضاء على منطقة النفوذ الروسية الانجليزية . كانت جميعا خطوات نحو إحياء الإسلام . فكل المسلمين مسلمون اجتماعيا وسياسيا . وإذا كان ثمة اختلاف بين الزعماء الوطنيين والزعماء الدينيين فهو خلاف لم يتخذ مظهر النضال والكفاح .

« وقد كانت الصفة الإسلامية غالبة على جميع هذه الحركات حتى في

الحالات التي يكون فيها القادة ممن تأثروا بالغرب » .

وكانت الجامعة إلاسلامية شعوراً لدى المسلمين بضرورة تماسكهم . إذ إن وحدة المسلمين في العالم الإسلامي . هي وحدة مشاعر . وظلت الجامعة الإسلامية إلى اليوم حلماً جميلاً يعز تحقيقه ، كانت مستقرة في الوعي الديني الإسلامي القديم ، وبقيت محتفظة بقوتها . . وليس ثمة تعارض بين الجامعة الإسلامية ، وبين الروح القومية في البلاد الإسلامية .

وصفوة القول فيما تقدم ان إلاسلام في العصر الحاضر قد احتضن النزعات والحركات القومية التي رآها تتفق ، ونهجه في استعادة أمجاده الماضية ما دامت متمشية وفق التقاليد إلاسلامية . هذا باستثناء تركيا .

هذه العبارات نقلناها بتصرف عن ولفرد كانتول سميث من كتابه « إلاسلام في التاريخ الحديث » وهي تحمل مضمونا أساسيا معترفا به ومقرراً بأن حركات المقاومة والتحرر من النفوذ الاجنبي مهما تطورت ولبست أثواباً مختلفة ، فإنها جميعاً أجزاء أساسية من حركة المقاومة إلاسلامية للاستعمار والنفوذ الغربي وفي سبيل وحدة فكر . وقد مضت هذه الحركات تعمل في مجالين متصلين : مقاومة الاحتلال والاستبداد معا نظراً لتساندهما واتصالهما . وقد مرت بمراحل المقاومة المسلحة في معارك حربية متصلة ـ اتصلت بين البرتغال والمسلمين على شواطىء أفريقيا والهند وجزر الملايو ، ثم تحولت فيما بعد إلى معارك من نوع آخر تمثلت في مقاومة الحملة الفرنسية في مصر . وفي معارك الجزائر بقيادة عبد القادر الجزائري ، والثورة المصرية بقيادة أحمد عرابي ، ومعارك شامل في القوقاز ، وعبد الكريم في المغرب ، وثورة المسلمين في الهند ١٨٥٧ . وحركات المقاومة بين المسلمين والهولنديين في اندونيسيا والمعارك الثلاث الكبرى بين الافغان والاحتلال الانجليزي ، ومعركة ميسلون في سوريا ، وثورة العراق .

وقد انتصر الاستعمار في هذه المعارك بالتآمر والخداع ، وبقواه الحربية الحديثة . غير أن المسلمين في أي بقعة من العالم إلاسلامي لم يستسلموا إلا بعد أن نفذت ذخائرهم ، ولم يجدوا مفرا من التسليم . ولكن حركات المقاومة

لم تتوقف ، ولم تلبث أن تحولت إلى مقاومة فكرية ، وجماعية تمثلت في الجمعيات الإسلامية والهيئات والاحزاب . وفي هذه المرحلة أخذت هذه الحركات طابعاً سياسيا واضحا ، وقام عليها بعض الزعماء المدنيين ، هذه الحركات لم تتخل عن طابع الإسلام . فقد كان مفهوم المقاومة في الإسلام هو : الاساس للعمل ، وكانت روح الإيمان بالله والوطن هي أساس أعمال هذه الهيئات ، ولم تتوقف مفاهيم الإسلام عن العمل من خلال الحركات السياسية . ذلك أن الاسلام جماع بين الدين والسياسة والاجتماع والاقتصاد ، وأنه لا يوجد لهذه الحركات طابع ديني خالص منفصل عن الطابع السياسي ، فالإسلام دين ونظام مجتمع ، جامع بين السياسة والدين معاً .

***

ولما كان الغرب حريصاً في السيطرة على مقدرات عالم الإسلام لعدة أسباب أهمها :

( ١ ) أن يظل عالم الإسلام غير قادر على تمالك مقدراته ومقومات فكره التي تصنع دولة قوية قادرة متكاملة يخشى منها على الغرب نفسه .

( ٢ ) أن تظل في يد الغرب هذه المقدرات الاقتصادية المادية : البترول والثروات المختلفة .

( ٣ ) المركز الاستراتيجي الذي يحوي مواقع هامة على البحرين الابيض والاحمر وبين القارات الثلاث ، أوربا وآسيا وأفريقيا .

هذا الحرص ، هو الخطر الذي ما يزال يواجه عالم الإسلام بمزيد من حركات الغزو ، وبحركات الصراع والتنافس بين الكتل المختلفة والايدلوجيات المتباينة حيث يبدو وكأنه بوتقة للتيارات العسكرية الغربية والشرقية معاً ، ونظريات الفردية والجماعية على السواء . ومع ذلك فإن العالم الإسلامي ما يزال يقاوم بصمود ، ولن يستطيع الاستسلام ، لان مقوماته الاصيلة ما تزال تكون الاجيال وتدفعها إلى الرباط والصمود . إن حركة المقاومة التي واجه بها عالم الإسلام الاستعمار كانت تنطلق من تحت مدافع الغرب . ومن خلال حملاته المتوالية عسكرية وسياسية وفكرية ، وهي حملات لا تتوقف ، وإنما تتوالى بصور مختلفة ، وتدور حول غزو هذه القيم

الفكرية والقضاء عليها ، بحسبانها هي مصدر القوة والقدرة على المقاومة ، ومن هنا تبدو أهمية حركات التبشير والتغريب والشعوبية المتصلة المستمرة وما تثيره من شبهات ، وما تحاوله من إيجاد الخلاف وتعميقه ، بين الفرق المختلفة ، والمذاهب المتعددة .

ولذلك فإن قصور حركة الفكر الإسلامي والثقافة العربية عن مقاومة التغريب والغزو الفكري وتمزقها هي مما لا يستغرب . ذلك أن هذه الحركة لا تتم في جو مطلق الحرية ، وإنما تتم من خلال سيطرة العدو الطاغية بواسطة أدواته وقواه وأقلامه وأجهزته الضخمة المتمركزة في بعض الاقطار .

وقد قاوم الغرب كلمة الإسلام ، والوحدة الإسلامية ، والجامعة الإسلامية ، والرابطة الإسلامية ، وحاول أن يجعل حركات الإقليمية أساساً للعمل . كما أكد على الفصل بين الإسلام والمجتمع في مجال القانون والاقتصاد والتعليم والسياسة . واتخذ من الاقليات في كل بلد ذريعة للضغط في مجال تجميد مفاهيم الإسلام . وقد خلق في كل مكان مشاكل طائفية وتفرقة مذهبية وعنصرية وحزبية ، وأثار دعوات قديمة ماتت مع الزمن وأججها من جديد ، وأكدها بقوة القانون كما فعل بين المسلمين والنصارى في مصر والبربر والعرب في المغرب ، كما حرص على بقاء القبلية ودعمها . ولم يسمح بانصهارها في المجتمعات الكبرى ، واتخذ من الطائفية القبلية أداة سياسية يدعم بها وجوده فقد احتضن الاستعمار في مختلف أجزء عالم الإسلام الاقليات وعمل على خلق شعور بكيان خاص لهم ، وفتح الباب للتبشير والإرساليات والمدارس الدينية ، كما بعث الاستعمار من جديد الصراع بين الفرق والمذاهب داخل عالم الإسلام ، وعمل على الضغط بها ، وأكدها وجمدها بحيث لا تنصهر .

***

ولما كان مفهوم الإسلام هو الطابع الاساسي لكل حركات اليقظة والمقاومة معاً . ولما كانت مختلف الحركات السياسية والاجتماعية ، إنما تدور في اطار الفكر الإسلامي . فقد عمد الاستعمار إلى بناء قوى تابعة له ، مؤمنة بفكره ، وأعطاها أماكن القيادة في الوطن الإسلامي ( بعد الحرب العالمية الاولى )

وحرصت هذه القوى على إبعاد الإسلام عن موضع الفعل في السياسة أو الاجتماع أو القانون أو التربية . وبذلك فصل المدرسة عن المسجد ، والقانون عن الشريعة .

## ( ٤ )

# ثورة الجزائر

تعد ثورة الجزائر ( ١٩٥٤ - ١٩٦١ ) من علامات الاصالة الاسلامية ، والبطولة العربية ، وهي ثمرة من ثمار اليقظة العربية الاسلامية ، وعملا من أعمال المرحلة الجديدة الناهضة للأمة العربية في عصر الثورة والوحدة . ولقد أدهش المراقبين في العالم الغربي كله تلك الصلابة والاستمرار في المقاومة ومواجهة القوات الضخمة ، وعمليات الابادة الفرنسية ، وردها الكثير من المؤ رخين والكتّاب الى مصدرها الأصيل : قوة الايمان الروحي في الاسلام ، وعمق الصلابة العربية . ولا شك كانت ثورة الجزائر عملاً خطيراً وضخماً في سبيل تحطيم النفوذ الاستعماري ، والادالة منه ، وان قدمت مليوناً من الشهدُاء ، ولكنها حققت معنى خطيراً سيكون بعيد المدى في اليقظة العربية الاسلامية . فقد تمزقت كل دعاوى الاستعمار في محاولة ادماج الجزائر في فرنسا ، واعلن اكثر من واحد من كتاب فرنسا ومؤ رخيها ، وفي مقدمتهم ( شارل اندريه جولير ) : أن هناك وحدة متكاملة من الجنس واللغة والحدود ، تجمع تونس والجزائر ومراكش . وأن سلسلة جبال الاطلس التي تبدأ من المحيط الاطلسي من مراكش ، والتي تخترق الجزائر وتنتهي في تونس من البحر الأبيض المتوسط تكون العمود الفقري الذي يربط دول شمال افريقيا الثلاث بعضها ببعض ، ويجعل منها وحدة في الجنس واللغة والحدود الجغرافية . وان هذا الجزء من افريقيا لا صلة من أي نوع تربطه بفرنسا ، كما أثبت غير واحد من المؤ رخين ان سلسلة جبال الاطلس الممتدة عبر المغرب العربي ، وكثبان رمال الصحراء الدافئة والجنوب وأمواج البحر الابيض المتوسط من الشمال طبعت هذا الجزء من الدنيا بطابع واحد .

ولم يذكر هؤ لاء المؤ رخون ان الاسلام في الحق هو الذي أكد وحدة العروبة في

المغرب كله ، وأنه هو الطابع الاصيل لها ، والذي يجمع بينها وبين الاجزاء المختلفة للأمة العربية . وقد انبثقت ثورة الجزائر من اشد مناطق الجزائر ايماناً بالاسلام وتعمقاً لفهمه ، وان هذا الاصرار والثبات والعزم . انما مصدره هذا الايمان الذي يؤكد الاسلام بالقتال دون الارض والعرض والدمار ، وان هذا المعنى هو الخطر الذي واجهه الاستعمار في العالم الاسلامي كله ، وحاول بكثير من الاساليب القضاء عليه حين قاوم دراسات الجهاد في المعاهد الاسلامية ، وحين أيد الدعوات القاديانية والبهائية القائلة بالاستسلام امام النفوذ الاستعماري وتقبله . وكذلك حين اكد دعوات الفاندية والتولستوية من حيث انها تفرض عدم المقاومة .

ولقد عارض النفوذ الفرنسي مقومات الاسلام واللغة العربية في الجزائر مقاومة ضخمة ، وبأساليب بعيدة المدى في الفصل بين الجزائريين ودينهم ولغتهم ، ومنيت اللغة العربية في الجزائر بمحنة شديدة كان الهدف منها القضاء على اللسان علامة القومية ، وكذلك القضاء على القرآن مصدر التشريع . وقد عمدت فرنسا الى اعتبار الجزائريين فرنسيين بمقتضى دستور ١٧٤٨ . واعتبار الجزائر فرنسية ، واعتبار اللغة العربية لغة أجنبية عن الجزائر .

ومن خلال مناهج التعليم جعلت السلطات الفرنسية التعليم من رياض الاطفال الى الفرق العالية باللغة الفرنسية وحدها . وجعلت كل مدرسة تقوم بتدريس اللغة العربية في عداد المدارس الاجنبية ، وكذلك الشأن في الصحف ، وكل رسالة بريد عنونت باللغة العربية يكون مصيرها الاهمال. كما سجلت السلطات الفرنسية المدرسين الجزائريين الذين حاولوا أن يدرسوا لتلاميذهم تاريخ الجزائر العربية الفرنسية ، وكانوا يرون ان تاريخ الجزائر يجب ان يبدأ منذ عام ١٨٣٠ .

واذا كانت اللغة العربية قد اصيبت في الجزائر بالضعف والتأخر ، فقد ظل الاسلام نفسه هو العامل الأقوى في الحفاظ على الشخصية الجزائرية العربية المسلمة .

وأمامي نصوص عديدة تؤكد هذا المعنى عن كتّاب فرنسيين . ومن هنا ما

يقوله : ( جاك بيرك ) . لولا الاسلام في الجزائر لفقدت الشخصية الجزائرية ذاتيتها . لأن ضغط الاستعمار ومفاسده ، كان يمكن ان يؤدي الى اذابة الشخصية الجزائرية . ولكن فكرة اذابة الشخصية الجزائرية في الشخصية الفرنسية بما فيها من جاذبية لمن سخرتهم الحضارة الغربية من الجزائريين هي التي كونت الخط الاكبر من الشخصية الجزائرية في المغرب .

ان هذه الظاهرة هامة وخطيرة ، ويجب ان تكون موضع تقدير الباحثين . لقد كان الاسلام هو العنصر الفعال الحقيقي في دفع الجزائريين الى طلب الحرية « لقد أيقن الجزائريون منذ اليوم الأول للاحتلال ان هدف الفرنسيين كان القضاء على الاسلام . من اجل ذلك ادركوا جميعاً ان عليهم ان يعتصموا بالاسلام حتى يقدروا على التحرر » . وردد هذا المعنى كثير من الباحثين المنصفين . ( لقد قهرت الجزائر الغرب بالاسلام » لقد صمدت الثقافة العربية في الجزائر .

يقول الاستاذ نعيم قداح ( فرض على الجزائريين ان يتعلموا ان تاريخ الجزائر يبدأ من عام ١٨٣٠ وان على الجزائري ان يجهل كل شيء عن تاريخ العرب الحضاري في بغداد وقرطبة ، وان فيكو الايطالي هو واضع اسس علم الاجتماع لا ابن خلدون ، ودانتي لا المعري ، ولا مرتين لا عمر بن ابي ربيعة ، وكلود برنار وليس ابن سينا .

وقد جرت مناقشات مطولة بين مجموعة من الباحثين العرب حضرها ( جاك بيرك ) الذي عاش فترة طويلة في الجزائر حول ثورة الجزائر ، ومفهومها الاسلامي العربي : يقول الكاتب « لقد كدنا نتفق على ان الاسلام قام بأكبر الادوار في المقاومة الجزائرية . بل كدنا نتفق على ان الاسلام كقوة فكرية وروحية ، كان هو السياج الاخير والوحيد الذي لم يستطع الاستعمار الفرنسي ان يزيحه من طريقه . فقد كانت الحرب الاستعمارية الفرنسية حرباً حضارية وجهها الاستعمار الفرنسي ضد اللغة والدين والتنظيم الاجتماعي ، وملكية الارض وطريقة الانتاج . وقد استطاع الاستعمار ان يبدل اللغة العربية ، فجعلها اللغة الفرنسية ، واستطاع ان يحرق ارض الجزائريين ( ١٨٣٠ ـ ١٨٤٥ ) واستطاع ان يوزع هذه الارض على المستوطنين الذين هاجروا معه ومع قواته واساطيله .

ولم يكن الاحتلال الفرنسي غزواً واحتلالا فقط ، بل كان محاولة لاستبدال حضارة بحضارة وتنظيماً اجتماعي بتنظيم اجتماعي ، ولغة بلغة . فلم تكن هذه الحرب الاستعمارية سوى حرب حضارية ، شملت الاقتصاد والأرض ، دعمت اللغة والدين ، واصابت التنظيم الاجتماعي والفكري . ولكن ذلك كله لم يسهل مهمة الاستعمار الفرنسي في الجزائر ، لان المقاومة بدأت باصرار الجزائريين من دعاة الاصلاح بالثبات على تعلم اللغة العربية ، ولعل هذه الحملة التي بدأها مشايخ الجزائريين حين كانوا يجمعون الفرنكات القليلة لاقامة المدارس الابتدائية الاسلامية لتعليم الصغار مبادىء اللغة والقرآن . كانت اول طلقات هذه الثورة الجارفة الشاملة .

وخلاصة ما أريد أن أقول ان الدفاع عن اللغة والاسلام كان هو الخط او الخندق الرئيسي الذي لم يستطع عنده الاستعمار مزيداً من التوغل ، ومزيداً من العدوان . وهكذا فان ثورة الجزائر هي « اسلامية » في بادىء الأمر ، ومن أعمق اعماقها ان كانت المدن الساحلية ، والمدن الصناعية ، قد تقوضت وانهارات بأكملها ، او انهار بعضها . فان هذا السياج الداخلي لم ينقب ولم يستطع عليه الاستعمار شيئاً . لقد تعرض اسلامهم للامتحان وانتزعوا اسلامهم من براثن حملة شديدة الوطأة كثيرة العدة سيئة النوايا .

***

وهكذا يتضح ان الاسلام هو الذي حفظ العروبة والقومية والشخصية الجزائرية في معترك الاذابة في فرنسا . ومن خلال هذه الجذور الاساسية القومية للقيم الاسلامية ، استحالت الشخصية الجزائرية على الموت والانصهار خلال اكثر من مائة وثلاثين عاماً حاول فيها الاستعمار الفرنسي محاولاته المتصلة ، محاولات القوي المسيطر ، للقضاء على « ذاتية الجزائر » واذا كانت اللغة العربية قد أصابها التخلف ازاء خطة خطيرة ألغت المدارس العربية الاسلامية ، وأحلت محلها المدارس الفرنسية اللغة . وقد أغلقت فرنسا نحواً من ألف مدرسة يدرس فيها ١٥٠ الف طالب او يزيد ، عندما احتلت الجزائر ، واباحت للارساليات التبشيرية ان تحل محل هذه المدارس ، وتطبق برامج اقل ما فيها أنها ترسم عظمة

فرنسا وحضارة الغرب ، وتحط من قدر حضارة العرب والمسلمين ، وتدعو الى ما تدعو اليه الارساليات من تحويل المسلمين عن دينهم وقيمهم وتدمير مقومات فكرهم دفعاً لهم الى الاستسلام امام النفوذ الفرنسي وتقبله[1] . والمعروف ان فرنسا لم تلبث في الجزائر بعد احتلالها الا قليلا ، حتى أخذت تخطط لاستيعاب الجزائر بحسبانها فرنسا الجنوبية ، كما اغرقتها بسيول من الكتب والصحف والاسطوانات والأفلام الفرنسية ، وأنشأت بعد عشر سنوات من الاحتلال مكتبتي ( شبكس ) و ( هاشيت ) برأس مال قدره ستة ملايين جنيه استرليني عام ١٨٤٢ لتكون هذه نواة الحركة الثقافية الفرنسية في شمال أفريقيا . ثم أنشأت مراكز في وهران للزحف على غرب الجزائر . وفي قسنطينة للزحف الثقافي على شرق الجزائر ، ولم يلبث ان اصبح ( لهاشيت ) ثلاثمائة مركز . وأصبحت جريدة لموند توزع في الجزائر ٧٨٠٠ نسخة كما توزع الفراتي سوار ١٣٦٠٠ نسخة .

غير ان المقاومة الصلبة العتيدة لهذا الافناء للشخصية الجزائرية لغة وثقافة لم تصدر من الاحزاب السياسية المختلفة التي كانت تذهب وراء الالفاظ ، وتتحرك داخل اطار النفوذ السياسي الفرنسي ، وفيها من يدعي بانه لا توجد للجزائر شخصية خاصة . انما جاءت المقاومة من خارج الدائرة التي والت النفوذ الاستعماري . جاءت من دائرة اليقظة الاسلامية التي بدأ ت في الجزيرة العربية وامتدت الى مصر والشام والازهر ، وظلت تشق طريقها حتى تسلم رايتها في الجزائر علامتها الامام عبد الحميد بن باديس وزملاؤه البشير الابراهيمي ، ومحمد الميلي ، واحمد توفيق المدني وغيرهم .

فقد لمع هذا المجدد المصلح لمعان النجم ، واشرق اشراق الفجر ، ووضع الكلمة التي رددتها الأجيال ، ولم تمت منذ ذلك اليوم ، والتي دحضت أكاذيب وادعاءات وأباطيل الاستعمار خلال مائة عام كاملة ، كانت كلمة ابن باديس .

« اننا نرى الامة الجزائرية موجودة ومتكونة على أمثال ما تكونت به سائر أمم الارض ، وهي لا تزال حية . ولهذه الأمة تاريخها اللامع ، ووحدتها الدينية

---

١ ـ دكتور محمود قاسم ك : الامام عبد الحميد بن باديس .

واللغوية ولها ثقافتها وتقاليدها . هذه الامة الجزائرية ليست هي فرنسا ولا تريد ان تصبح فرنسا . ومن المستحيل ان تصبح فرنسا » .

بدا ابن باديس عمله سنة ١٩١٣ في صمت وخفاء وأناة حتى استطاع ١٩٣١ أن ينشيء جمعية العلماء المسلمين سنة ١٩٣١ ووجه جهده كله إلى التعليم العربي الاسلامي في المساجد ، في مواجهة سياسة فرنسا الاستعمارية التي تحاول أن تمحوا العربية والعروبة والاسلام . وبعيدا عن ضجيج السياسة وصراع الأحزاب ، بدأ وزملاءه يعملون في المساجد ويحمون لغة القرآن من الزوال حتى تم إنشاء مائة وخمسين مدرسة في شرق الجزائر وغربها ، ولم تلبث فرنسا أن احست بخطر عمله حتى بدأت تحاربه بكل وسيلة ، ولكنه كان قد دعم قوة لا سبيل إلى دحرها . واستيقظت اللغة العربية ودراسات الاسلام مرة أخرى على النحو الذي وصفه جاك بيرك وغيره ، والذي كان بعيد المدى في حركة التحرر الجزائرية وثورة الجزائر .

وهكذا رفضت الشخصية الجزائرية باستمرار ، وخلال قرن وثلث قرن ، رفضت الذوبان في الاطار الفرنسي المفروض عليها فرضا . وقضى الاستعمار على اللغة ولكنه لم يقض على الاسلام . لقد طلبت فرنسا من الجزائريين أن يعتبروا أنفسهم فرنسيين . بعد أن أخضعوا منذ ١٨٨٩ في الأحوال الشخصية للقانون الفرنسي . وكانت السلطات الفرنسية ترمي من وراء ذلك الى السير بهم نحو « الادماج » الكامل ، الا أن الجزائري كان مؤمناً بأنه ليس فرنسيا ، وهو مسلم قبل كل شيء . وعندما فصلت فرنسا الدين عن الدولة في ٢٧ أيلول سنة ١٩٠٧ لم ينفذ هذا القرار بالنسبة للجزائر . وبعد أربعين سنة من ذلك التاريخ كانت الدولة الفرنسية تدفع من خزانتها مرتبات لمائتين وتسعة وخمسين رجل دين كاثوليكي وبروتستنتي ويهودي .

ولقد عمدت فرنسا أول ما عمدت إلى السيطرة على أوقاف المسلمين ، ثم اتجهت الى المساجد بحسبانها مراكز الاسلام ، فأجرت لها عملية تصفية أليمة . وفي مدينة الجزائر وحدها ذات الـ ١١٢ مسجداً لم يبق منها إلا خمسة فقط ، وحول اثنان الى كنائس ، وهدم الباقي . وفي كل مكان حولت مساجد الجزائر الى كنائس .

ويرى القائد روفيجو مؤلف « الجزائر الثائرة » كيف حوّل اضخم مسجد في مدينة الجزائر إلى كاتدرائية الجزائر بعد أن هدم على أربعة آلاف مسلم كانوا قد اعتصموا به . وفي أعقاب هذا العمل اتيحت الفرصة للمبشرين ، وتكونت جماعة الآباء البيض إلتي انشأها الكردينال لافيجري . وقد أشار الى هذا مؤلف كتاب ( تاريخ الجزائر ) : « أن أول ضربة ضربها الاستعمار الفرنسي في الجزائر بعد تقويض أساس الدولة الجزائرية هي ضربة الأوقاف الاسلامية . فكل المساجد الاسلامية ، والمؤسسات الاسلامية قد أصبحت ممتلكات الدولة الفرنسية الخاصة . فرجال الإفتاء وأئمة المساجد وسدنتها وقراء القرآن فيها يتقاضون اجورهم من الخزينة الفرنسية ، وهم موظفون تابعون لفرنسا لا يتسلمون عملهم إلا إذا قدموا للاستعمار ما يوجب رضاه . وهكذا مضت الحملة الاستعمارية الثقافية وخطة التغريب لتقضي على الأمة الجزائرية واللغة العربية والاسلام في الجزائر جميعاً . وتغلبت اللغة الفرنسية بعد أن حوربت العربية حرباً متصلة لم تنقطع ولم تفتر ، استخدمت فيها كل الأسلحة .

وعلى رأس المائة من أعوام الاحتلال ، حيث بدأ الاستعمار يحتفل بالادماج الكامل للجزائر كان صوت عبد الحميد بن باديس وجميع العلماء المسلمين يؤكد في قوة وجهارة أن الجزائر عربية مسلمة ، وأنها تستحيل على الفناء في الوجود الفرنسي . وكان هذا علامة ضخمة في تاريخ الاسلام الحديث لها أثرها العميق ومداها الواسع مقدمة حرب ضروس استمرت سبعة أعوام من أجل بقاء « الذاتية الجزائرية العربية الاسلامية » ويرى كثيرون وفي مقدمتهم جاك بيرك أن « اللغة العربية الفصحى أو الكلاسيكية هي التي حمت الجزائر من الانصهار ، يقول جاك بيرك : « إن أقوى القوى التي قاومت الاستعمار الفرنسي في المغرب هي اللغة العربية ، بل اللغة العربية الكلاسيكية الفصحى بالذات ، فهي التي حالت دون ذوبان الغرب في فرنسا ».

كيف كان ذلك !!

يقول « لقد كان للمستعمر قوة مادية مدهشة واقتصاديات عالية ، ومدنية جذابة . ومع ذلك يلاحظ ان شيخ علماء الجزائر الذي كان يعتبر نفسه رجلاً غير

سياسي ، وكان يتجنب السياسة ، ويقولون عنه في الجزائر إنه شخص جاد أكثر من أي شخص آخر ، كان هذا الرجل من أعظم رموز مقاومة الاستعمار . فإن صحت هذه الدعوة المعنوية الثقافية . بل أقول الرمزية كانت أقوى العوامل في النهوض الحقيقي لشعب الجزائر

إن الكلاسيكية العربية هي التي بلورت الأصالة الجزائرية . وقد تركت هذه الكلاسيكية العربية عاملاً قويا في بقاء الشعوب العربية .

***

ويبدو هذا الدور حقيقة ممثلاً في خطاب ابن باديس عام ١٩٣٧ قبل وفاته بسنوات ثلاث الذي القاه في جمعية العلماء حيث يقول :

* ( حوربت فيكم العروبة ) حتى ظن أن قد مات منكم عرقها ، ونسخ منكم نطقها ، فقمتم بعد قرن تصدح بلابلكم بأشعارها ، فتثير الشعور والمشاعر ، ويهدر خطباؤكم بشقائقها ، فتدك الحصون والمعاقل ، ويهز كتّابكم أقلامها ، فتصيب الكلى والمفاصل .

* حورب فيكم « الاسلام » حتى ظن أن قد طمست أمامكم معالمه ، وانتزعت عقائده ومكارمه ، فجئتم بعد قرن ترفعون علم التوحيد ، وتنشرون من الأصلاح لواء التجديد وتدعون إلى الاسلام ، كما جاء به محمد صلى الله عليه وسلم ، لا كما حرفه الجاهلون وشوهه الدجالون .

* وحورب فيكم « العلم » حتى ظن أن قد رضيتم بالجهالة فجئتم بعد قرن ترفعون للعلم بناءً شامخاً ، وتشيدون له صرحاً شاهقاً ، فأسستم على قواعد الاسلام والعروبة والعلم جمعيتكم جمعية العلماء المسلمين الجزائريين .

* وحوربتْ فيكم « الفضيلة » فسمتم الخسف ورميتم بالصغار حتى ظن ان قد زالت منكم المروءة والنجدة ، وفارقتكم العزة والكرامة ، فجئتم بعد قرن تنفضون غبار الذل ، وتهزون أسس الظلم ، وتزمجرون زمجرة العزيز المهان ، وتطالبون مطالبة من يعرف أن له حقًا لا بد أن يعطاه أو يأخذه . نعم : نهضنا بعد أن صهرنا بنار الفتنة والابتلاء ، وقارعتنا الخطوب ، ودافعتنا ودافعناها . « ولولا دفع الله الناس بعضهم ببعض لفسدت الأرض » نعم نهضنا

بعد قرن . بعد ما متنا وأقبرنا ، أحيينا وبعثنا ، سنة كونية فقهناها من القرآن ، ونعمة ( ربانية ) تلقيناها من الملك الديان . نعم نهضنا نهضة بنينا على الدين أركانها ، فكانت سلاما على البشرية .

العروبة والاسلام والعلم والفضيلة هذه أركان نهضتنا ، وأركان جمعية العلماء ، فما زالت هذه الجمعية منذ كانت تفقهنا في الدين ، وتعلمنا اللغة ، وتنيرنا بالعلم ، وتحلينا بالأخلاق الاسلامية ، وتحفظ علينا جنسيتنا وقوميتنا ، وتربطنا بوطننا ، وما كانت جمعية العلماء حتى كان العلماء القرآنيون الذين فقهوا الدين والدنيا بفقه القرآن ، وعرفوا السنن الأقوم بمعرفة سنة محمد صلى الله عليه وسلم ، وهدوا واهتدوا بما كان عليه السلف الصالح .

إن الإسلام عقد اجتماعي عام فيه جميع ما يحتاج اليه الإنسان في جميع نواحي الحياة لسعادته ورقيه . وقد دلت تجارب الحياة كثيراً من علماء الأمم المتمدنة على أنه لا نجاة للعلم مما هو فيه إلا باصلاح عام على مبادىء الاسلام . ا . هـ .

***

هذه هي علامات التحول التي حققتها الدعوة الاصلاحية القائمة على الاسلام واللغة العربية ، وهي أرضية الثورة الجزائرية والحرية . ومن خلال هذه الحركات برزت الشخصية الجزائرية « عربية مسلمة » بعد أن ظن الاستعمار انها انتهت . وكان ذلك مقدمة طبيعية للثورة المسلحة التي حققت « الذاتية الجزائرية » بعد سبع سنوات من الجهاد والاستشهاد .

ولقد استطاع النفوذ التغريبي الثقافي الفرنسي المسيطر أن يخدع بعض المثقفين الجزائريين عن جوهر شخصيتهم ، وعن حقيقة وجودهم.العربي الاسلامي فترة من الزمن حين ظنوا ان أوربا هي كل شيء ، وأن الجزائر ليس لها وجود ذاتي منفصل عن فرنسا ! ولكن كثيراً من هؤلاء الزعماء قد رجعوا عن آرائهم ، وعادوا إلى الايمان بالشخصية الجزائرية « عربية إسلامية » وكان لجمعية العلماء أثرها القوي في تصحيح هذه المفاهيم .

وفي مقدمة هؤلاء عباس فرحات الذي قال في كتابه ( الظلمة الاستعمارية )

أن الجزائر بلد عربي ، ومن ذا الذي ينكر هذه الحفيفة ، وهي أرض اسلامية أصيلة ، وذلك حق أيضاً ومهما يكن من إرادة الامبريالية في الماضي والحاضر ، فإن هذه الظاهرة التاريخية تظل صادقة تمام الصدق .

ومن اعماق جبال أوراس اندلعت الثورة من البيئة التي كانت أكثر تمسكا بالاسلام . ومن الحق ان يقول « مالك بن نبي » من العقيدة الاسلامية نفسها انطلقت ثورة الجزائر ، وكانت العقيدة الاسلامية نفسها المحرك والدافع الكبير للتيار الثوري في الجزائر .

ويؤكد هذا المعنى عمار وزقان في كتابه ( الجهاد الأفضل ) حيث يشير الى أن الفكر الجزائري المشبع بروح الاسلام لم يفقد نفسه في غمار التيارات الفكرية الدولية . « بل إن احتكاكه بهذه التيارات لا يزيده الا اطلاعاً على مظاهر الحقيقة والزيف فيها . وتدعيم الايمان بقيمة المثل والمبادىء التي تحتضنها حضارتنا العربية الاسلامية .

ويقول : إنها لمفارقة واضحة أن يكون الولاء للاسلام الذى اضطهده الاستعمار ، واستخف به هو الأكثر ثورية بالفعل على الصعيدين : الديالكتيكي والتاريخي. وأن حركة الاصلاح الديني حركة نهضة إسلامية ذات طابع ثقافي وسياسي ، وتستهدف القضاء على النظام الاجتماعي « الاستعماري »، « وأنها كانت نهجاً يتلخص في هذه الصيغة الأخاذة ».

« الاسلام ديننا . العروبة لغتنا . الجزائر وطننا ».

وكان سر الرسالة القومية لحركة الاصلاح الجزائري يكمن في الترابط العصوي بين هذه الكلمات الثلاث .

ويصور الكاتب كيف عملت حركة الاصلاح التي قادها ابن باديس على تصفية العيوب الاستعمارية للمجتمع الجزائري ففتحت الطريق إلى اليقظة حين صفته من : « البدع . الجمود . القدرية . السلبية . الخرافة ».

وقد حاول المؤلف أن يقدم تفسيراً لتغلب « اللغة العربية » على « اللاتينية » في إفريقيا وقال : إن العقلية البربرية ليست غريبة الى الحد الذي يظن عن

اللغة العربية . وقال : ان التجربة البربرية التي أجراها الاستعمار كنزعة للتجزئة قد فشلت على الصعيد الاجتماعي والفكري والسياسي .

ويصور عمار وزقان ـ بوصفه احد المشتركين في قيادة الثورة الجزائرية ـ دور الاسلام فيها فيقول : « إن موقفنا من الاسلام لا يختلف لأننا ثوريون مرتبطون بالشعب ، وذلك أن رفض الايدلوجية الاسلامية في بلاد مستعمرة يضطهدون الأكثرية الساحقة فيها هو علامة تجدد أخرق تنادي به فئة منفصلة عن الشعب غربية الحياة والفكر ، امتصتها أو شلتها أيدلوجيا العدو المستعمر . ثم يشير إلى دور التغريب في العالم الاسلامي فيقول : تستعجل العقلية العصرية كثيراً في توديع الأديان كلها توديعاً مأتمياً دون أن تدرك أن الأيدلوجية الاسلامية ليست محتضرة . بل هي في كامل اندفاعها وحركتها

ويبدو مفهوم الشخصية الجزائرية واضحاً في ميثاق ١٩٦٤ . « ان الجزائر بلد عربي إسلامي . ولذا فإن هذا التحديد ينفي أي رجوع إلى مقاييس عرفية ، ويتعارض مع كل انتقاص من الاسهام السابق على الفتح العربي . ورغم تجزئة العالم العربي إلى وحدات جغرافية أو اقتصادية مميزة ، فإن عوامل الوحدة المكونة من تاريخ وثقافة اسلامية ، ولغة مشتركة ظلت تحتل المقام الأول .

فالجماهير الجزائرية العميقة الايمان ، قاومت بصلابة لتخليص الاسلام من كل الشوائب والخرافات التي خنقته أو شوهته وناهضت دائما الدجالين الذين كانوا يريدون ان يجعلوا منه مذهبا للخنوع والتوكل ، وربطه بارادتها من إنهاء استغلال الانسان للانسان . وعلى الثورة الجزائرية أن تعيد إلى الاسلام وجهه الحقيقي ، وجه التقدم ، أن الجوهر العربي الاسلامي للأمة الجزائرية ، قد شكل حصناً منيعاً ضد تهديمها من طرف الاستعمار .

# . جذور الوحدة العربية

قلنا في كتابنا « الإسلام وحركة التاريخ » انه حين ضعفت حركة قائدة في العالم الإسلامي نبعت من مرحلة الضعف « حركة يقظة جديدة » وهي هذه المرة من قلب الامة العربية ، وقد كانت إرهاصا لنهضة ما زال مدها يزداد كل يوم قوة ، وهي على الطريق إلى غايتها ، تصارع قوى كثيرة تحاول أن تعوقها أو تحولها عن جوهر فكرها ومضمونه ، وهي في نفس الطريق ، وبالرغم من كل التحديات فهي شأنها دائماً مفتوحة الآفاق على الثقافات العالمية ، والفكر الإنساني تأخذ منه ما يتفق مع مقوماتها وما يزيدها قوة على الحركة والتقدم كما هي معطية دوماً لا تتوقف عن منح الإنسانية من ثمار فكرها الإيجابي البعيد الاثر في تكوين الحضارة الحديثة والفكر البشري .

والامة العربية اليوم تواجه مرحلة تصفية عصر الإسلام وتواجه تحديات النفوذ الثقافي والتغريب . فلا تستسلم له وتقاوم أخطر تحديات الاستعمار في تاريخها وتاريخ العالم الإسلامي ، وهو « الغزو الصهيوني » المدعم بالنفوذ الاستعماري الذي أقام فلسطين حاجزاً بشريا بين شطري الامة العربية ، وبين قارتي أفريقيا وآسيا ، وفي قلب العالم الإسلامي ، وما زالت الامة العربية تواجه وجوده بالمقاومة أكثر من عشرين عاماً .

ولا شك لهذا الوجود الصهيوني في فلسطين منذ ١٩٤٨ . وفي القدس بالذات ١٩٦٧ أبعد الاثر في حركة المقاومة واليقظة التي تواجهها الامة العربية من خلال ثوراتها المختلفة واتجاهها إلى بناء كيانها بناء قادراً على الصمود في وجه التحدي الزاحف من خلال السياسة والاقتصاد والاجتماع .

ولذلك فقد أصبحت الدعوة إلى الوحدة العربية التي كانت مطمح الامة العربية منذ انفصلت عن الدولة العثمانية ـ أصبحت هذه الدعوة ضرورة محتومة للتجمع في وجه النفوذ الصهيوني والمطامح الاستعمارية الدولية .

ولقد استغرقت السنوات الخمس عشرة الاخيرة من عمر الامة العربية محاورات مفتوحة حول مفهوم هذه الوحدة وفلسفتها ومداها ومضمونها السياسي والاجتماعي . وذلك بعد أن تبنت هذه الدعوة معظم الامم العربية في دساتيرها وفي هيئاتها السياسية وتشكيلاتها الحزبية ، وقد كان لمصر بعد عام ١٩٥٦ حين اعترفت بارتباطها بالوجود العربي ، وعملت في حقله عملاً إيجابيا قياديا أبعد الاثر في دعم فكرة الوحدة واقترابها من مرحلة التحقيق حيث قامت أول تجربة الوحدة بين مصر وسوريا ١٩٥٨ . ثم توالت التجارب بين مصر وسوريا والعراق . ولقد كان مفهوم الوحدة العربية التي انبعث من القاهرة أعمق مفاهيم هذه الوحدة واقربها إلى التطور الطبيعي ، والتشكيل الجذري المرتبط بالقيم الاساسية للامة العربية والثقافة العربية . فقد كان منبعثاً انبعاثا طبيعيا بعيداً عن جميع المحاولات التي تريد أن تغرقه في طوفان المفاهيم الغربية ، أو تنتزعه من جذوره وقيمه وأصالته ، وكان إلى ذلك بعيداً عن ما يحمله مفهوم القومية في بلاد كثيرة من الاستعلاء الجنسي ، أو العنصرية ، أو التعصب ، أو المفاخرة العصبية .

وقد حافظت مصر بفهمها للوحدة العربية على مكانتها في العالم الإسلامي بحسبانها واجهة حامية للتراث والفكر الإسلامي حيث يقوم فيها الازهر ، وحيث تغذي عشرات الاقطار الإسلامية في أفريقيا وآسيا بهذا التراث .

وبذلك بعدت عن القومية في مفهومها العنصري الحاد الذي يبلغ مرحلة العقائد ، أو يحل محلها ، وبعدت أيضا عن المفهوم العلماني الذي يفصل بين القومية وبين القيم الروحية ، وبين الدين ، أو بين الإسلام نفسه الذي كان دوماً دينا وفكراً جامعاً .

لقد كانت النزعة القومية ضرورة طبيعية في العالم كله . وقد فرضت نفوذها في العالم الإسلامي فظهرت القومية الاندونيسية ، والقومية التركية ، والقومية

الباكستانية ، ولكنها في ذلك كله كانت تحافظ على جذورها وروابطها التي تربطها بالإسلام باعتباره مصدراً أساسيا للفكر والثقافة .

وفي مفهوم الوحدة العربية كان العاملان الاساسيان لها . وهما اللغة والتاريخ ، اللغة لسان الامة ، والتاريخ ذاكرتها . كان هذان العاملان مرتبطين أشد الارتباط بالإسلام والفكر الإسلامي .

أما الذين قالوا بأن الدين ليس عاملاً من عوامل القومية فإنهم صدقوا من حيث أرادوا ، « فالدين » بمفهومه اللاهوتي والعبادي يفرق بين أصحاب الاديان المختلفة . أما بالنسبة للإسلام ، فالقول بأنه دين فحسب ، إنما هو خطأ شائع ، أو ظلم مقصود . فالإسلام له جانبه الروحي والعبادي ، وهذا خاص بالمسلمين . ولكن للإسلام جوانبه الاخرى في مجال الفكر والثقافة والتاريخ والتراث ، وهذه الجوانب كلها ليست ملكا للمسلمين وحدهم ، ولا تمثل تقاليدهم وقيمهم وحدهم ، ولكنها تمثل قيم « الشرق » كله . والشرق هنا هو كل ما ليس من العالم الغربي . هذا الجانب الضخم من التراث الفكري والثقافي هو « أرضية » أصيلة وجذور عميقة للوحدة العربية .

والامة العربية حين ينبعث وجودها على هذا النحو البعيد عن المفهوم الغربي العلماني ، وحين يبعد أيضاً عن التعصب الأقلمي أو الاستعلاء العنصري ، فإنه لا يجد من الخصومة أو الصراع أو المخالفة للقوميات الإسلامية الاخرى . بل يلتقي معها في الجذور والاصول والقيم الاساسية والمعالم الكبرى .

لقد حاول الاستعمار أن يستفيد من حركة الوحدة العربية من أجل تمزيق الروابط التي كانت تجمع العالم الإسلامي ، وتربط بين العرب والترك والفرس . ولكن عوامل جديدة أخذت في إحياء هذه الروابط ودعمها من جديد . وكانت الدعوة إلى الوحدة العربية بعد الحرب العالمية الثانية عاملاً هاماً في القضاء على الدعوات الإقليمية التي أرثها النفوذ الاجنبي في مرحلة ما بين الحربين . وكان عوده الى التقاء الامة العربية في فكر موحد على الاصول الاساسية والقيم والجذور الثابتة ، وعلى نحو ما كان يفهمه دعاة الوحدة العربية القدامى وقريباً من مفهوم محمد عبده ، وشكيب أرسلان ، ومحب الدين

الخطيب وعبد العزيز جاويش . وشجباً للدعوة التي برزت في الاربعينات واستشرت بعد ذلك محاولة فصل العروبة عن روابط الفكر الإسلامي وقيمه والتماس مفهوم القومية الغربي المجرد الذي يفصل الامة عن جذورها .

وفي أوربا كانت المسيحية غريبة عن طبيعتها وتاريخها ، ولم تكن إلا عقيدة أخلاقية وتعبدية صرفة وفي نفس الوقت لم تتصل أصولها بلغاتهم ، ولم تمتزج بتاريخهم . أما بالنسبة للإسلام فإن الامر يختلف اختلافا جوهريا ، فهو ليس أخلاقا أو عقيدة أخروية أو تعبدية ، وإنما هو منهج حياة شامل متصل بمختلف أمور السياسة والاجتماع والاقتصاد ، وهو ليس مرحلة تاريخية في حياة الامة العربية يمكن أن يقال إنها انقضت ، ولكنه يرتبط معها ارتباط التربة بالجذور حيث يختلط التراث والتاريخ واللغة بين الامة العربية ، وبين الاسلام نفسه ، وتتداخل على نحو يصعب التفريق فيه بين العروبة وبين الإسلام . فهو للمسلم دين ومنهج حياة ، وللمسيحي ثقافة قومية ، ومصدر لمقومات الفكر والشعور والذوق والحياة . « فعلاقة الإسلام بالعروبة ليست إذن كعلاقة أي دين بأي قومية » .

ولقد تكشف للاجيال الحديثة أن الفرعونية كانت موجة من موجات الامة العربية ، وكذلك كانت الفينيقية والبربرية في بعض أقوال علماء الاثار والمؤرخين . وبذلك لم يعد هناك تعارض ، فقد انصهرت الموجات القديمة بعد الإسلام وتبلورت وتلاقت وأضحى الاعتزاز بالتاريخ الفرعوني في مصر لا يتعارض مع العروبة أو الإسلام إلا من حيث اتصاله بالوثنية ، أو تيارات الفكر التي قضت عليها دعوة التوحيد ، فهي مقبولة من حيث الشكل التاريخي ، ولكنها متعارضة إذا قدمت على أنها ثقافة خالصة . وكذلك مختلف الدعوات والتيارات . فقد صهر الإسلام الامة العربية في كيان موحد ، وصهر الفكر الشرقي في بوتقته ، وتشكل من جديد .

والإسلام لا يعارض وجود الامم وغيرها ، ولكنه يعارض صراعها ، وقيام الخلافات التي تحول دون تحقيق « الوحدة الإنسانية » والالتقاء الفكري والروحي للامم البشرية المختلفة . والنفوذ الاستعماري دائماً من وراء عملية التمزيق والتفرقة بين الامم ووراء التناحر والصراع بين القوميات .

وللوحدة العربية أهميتها في مجال التحدي الذي يواجه العالم الإسلامي اليوم مع الاستعمار ، وخاصة بالنسبة لاقوى هذا التحدي وهي « الصهيونية » في فلسطين ، ولقد تنبه إلى هذا المعنى كثير من زعماء الإسلام ومفكريه وأعلنوا في وضوح ضرورة قيام الوحدة العربية كأساس للاخوة الإسلامية . فالامة العربية هي مبعث الإسلام . ولغته وقرآنه ، وهي الامة التي حملت لواءه إلى العالمين ، وهي جغرافيا وسياسيا وتاريخيا موئل العالم الإسلامي النابض ، ولقد طلت مصر تلتمس لنفسها طريقاً منذ أوائل النهضة الحديثة حتى اهتدت إليه « وطنية مصرية » ذات جذور ترتبط بالأرض ، و« عروبة » ترتبط بالامة واللغة . و« إسلاما » هو أساس الفكر والثقافة ، وقد ارتفعت صيحات كثيرة بالدعوة إلى الفرعونية ، ولكنها عجزت أن تجد لها ثقافة أو فكراً ، أو منطلق حياة ، ولم تلبث الدعوة إلى الفرعونية أن اصطدمت بالوثنية بعد أن غمر مصر التوحيد اربعة عشر قرناً .

وقد تخطاها أغلب المنصفين الذين دافعوا عنها ، وعرفوا بعدها الطريق الاصح ، وفي مقدمة هؤلاء دكتور محمد حسين هيكل .

ولقد كانت زعامة الامة العربية دوماً تستمد مقوماتها الصحيحة من المؤمنين بتراثها المرتبطين بتاريخها الممتد . ولذلك فقد سقطت الدعوات القومية التي حاولت أن تفصل الامة العربية عن مقومات اللغة والتاريخ وجذورهما الثقافية ، وبدأت الآراء المتعددة تنصهر الآن في مفهوم سمح بعيد عن ذلك الجفاء المصطنع للفكر الإسلامي الذي أوجده بعض دعاة المفهوم الغربي للقومية ، ذلك أن الثقافة العربية التي تتمثل بأبرز صورها في التاريخ واللغة ، إنما هي وليدة أصيلة للفكر الإسلامي ، فلا يمكن أن تنفصل عنه .

وواضح أن النفوذ الغربي وحركات التغريب قد حاولت بالنسبة للوحدة العربية محاولتين : حاولت بالدعوة إليها « اولاً » الفصل بين العرب والمسلمين في كيان الدولة العثمانية الموحدة فلما قامت الوحدة العربية ذات أصالة كقوة للمقاومة ، والوقوف في وجه النفوذ الغربي . اتجهت الحركات والدعوات إلى محاولة تصفيتها من مضمونها الثقافي الإسلامي العربي الاصيل ، وذلك حتى لا

تلتئم هذه الوحدة ، لتكون قوة كبرى في وجه النفوذ الاجنبي .

ومن هنا تظهر كل هذه المحاولات التي ترمي إلى التشكيك في التاريخ ، أو هدم اللغة الفصحى ، أو بعث العامية ، أو إغراق الثقافة العربية باليونانيات الوثنية ، أو الفرعونيات أو العربيات الجاهلية السابقة للإسلام ، وكلها عوامل تفرقة ، ومحاولات للتجزئة ولتعميق الإقليمية ودعمها ـ وهي محاولات يائسة ضد حركة التاريخ نفسه الذي يتجه الى توحيد الأجزاء ، وإلى التجمع والالتقاء بين العناصر ذات الاصول الواحدة .

لقد قامت الحركات القومية في الغرب في محاولة للتخلص من نفوذ الكنيسية والإقطاع ، ولكن الحركات القومية في العالم الإسلامي إنما تقوم في محاولة للتخلص من النفوذ الاستعماري الغربي في صوره المختلفة . ولذلك فهي تعتمد أساساً على مقوماتها التي حققت لها النصر في مختلف معارك المقاومة وصدامات الصليبيين والتتار والقوى الزاحفة . ولقد كانت القيم الاساسية المستمدة من إلاسلام والعروبة هي مصدر القوة والصمود ، وآخر هذه الصور إنما تتمثل في معركة الجزائر .

وإذا كان لامم الغرب نظرية في القومية فإنها مستمدة من ظروفها ووجودها وكيانها . ولا بد أن يكون للعرب وللقوميات في العالم الإسلامي نظريات مستقلة مستمدة من ظروف هذه الامة وكيانها وقيمها الأساسية . وإذا كانت نظرية القومية الغربية قد رفضت الدين الغربي . فليس ذلك مساويا للمفهوم الذي يقول بأن نظرية القومية العربية لا بد أن ترفض الدين لاسباب عدة أهمها أن إلاسلام ليس دينا لاهوتياً تعبدياً بالمعنى الذي رفضت به أوربا الدين المسيحي . وليس للإسلام قوة تتمثل في شيء مثل الكنيسة الاوربية التي قاومتها الدعوة القومية في الغرب . وكل ما أورده ساطع الحصري وغيره في هذا الصدد لم يكن فيه متحريا جوهر الحقيقة ولم يكن متمثلا مفهوم الفكر الإسلامي في شموله وتكامله .

وقد تجاوزت الثقافة العربية في تطورها نظريات ساطع الحصري وغيره في ظل الإيمان بقيمها . ولقد حاول الغرب دائما أن يفرض نظرياته ومفاهيمه على

هذه المناطق الواقعة تحت نفوذه الاستعماري والسياسي . ولقد آن للعالم الإسلامي والامة العربية تتحرر من التبعية للنظريات الغربية أو المفاهيم الغربية للقيم المختلفة .

وقد أشار أرنولد توينبي إلى هذا المعنى حين قال إن طغيان الغرب يتجلى في تحويل تجاربه إلى قوانين عامة للجنس البشري . فالعالم عند الغرب هو مادة الحضارة للجنس الابيض الممتاز . والمعروف أن الاستعمار هو الذي قضى على الوحدة الإسلامية ، وهي في طريقها إلى الدعم ،، محاولا أن يحل بدلا منها الدعوة العربية المرحلية في مقدمة لدعوات الإقليمية والتجزئة . ولكن الوحدة العربية تمت في ظل تحديات قضية فلسطين .

ولذلك فقد حاول الاستعمار حين أيّد قيام جامعة الدول العربية إلى تأخير وجودها الحقيقي ، وذلك بوضع العقبات في طريقها ، ولكنها اليوم بعد أن قطعت مراحل متعددة ، وتغلبت على عقبات كثيرة تحاول أن تحقق التئاماً وتقارباً في مجالات مختلفة كالمجال الاقتصادي والتربوي والثقافي .

( ٤ )

## حركات الاصلاح في العالم الاسلامي

١ ـ دعوة التوحيد

٢ ـ الدعوة السنوسية

٣ ـ الدعوة المهدية

٤ ـ الحركات الاصلاحية : حركة جمـال الـدين ومحمـد عبده

٥ ـ الحركة السلفية

٦ ـ جمعية العلماء

٧ ـ الحركة الاسلامية في الهند الاسلامية وباكستان

٨ ـ حركة الاصلاح في اندونيسيا

٩ ـ الحركات الصوفية

١٠ ـ قادة الحركات الاسلامية .

# الدعوات الاسلامية

تتمثل اشارة اليقظة في العالم الاسلامي في صيحة المسلمين لالتماس المفاهيم الاساسية للاسلام بحسبان ان مرحلة الضعف والاستعمار انما ترجع أساساً الى أن فقدان المسلمين قوتهم وكيانهم انما جاء نتيجة ففدانهم لقيمهم الاساسية التي تحمل طابع التأهب الدائم والحرص المستمر ، فالمسلمون في رباط دائم ازاء عدو قائم ( ودّ الدين كفروا لو تغفلون عن امتعتكم وأسلحتكم فيميلون عليكم ميلة واحدة ) . ومن هنا فقد كان الجهاد في ( مفهومه ) الشامل الكامل تأهباً كاملا ورباطاً دائماً ، وتجدداً مع الزمن في اساليب الدفاع والمقاومة .

تلك هي الدعوة التي حمل لواءها المصلحون طوال عصور تاريخ الاسلام ، وهي مفتاح اليقظة في مختلف المراحل التي تتوالى على المسلمين .

ومنذ اوائل القرن الثالث عشر الهجري ، دخلت الدولة الكبرى التي تحمل لواء الاسلام في مرحلة الضعف بعد اربعمائة عام من النضال والمفاومة وقفت خلالها في وجه الزحف الأوربي المتربص ، غير ان تخلف المسلمين ممثلا في قيادتهم السياسية عن سنن الكون وضعهم في موضع الضعف ، ووضع عدوهم في موضع القوة ، ومن ثم تحول الميزان فأصبحوا في منطقة الظل ، واستطاع خصمهم ان يطوق عالمهم على مهل خلال القرن الخامس عشر والسادس عشر والثامن عشر الميلادي ، وأن يشد الحبل في القرن التاسع عشر . حبت سقطت وحدات العالم الاسلامي واحدة بعد الاخرى في يده .

نعم استطاعت الدولة العثمانية ان تحمي منطقة ضخمة هي منطقة شرق البحر الابيض والعالم العربي وان تصمد فيها المقاومة ، ولكن عالم الاسلام الممتد عبر افريفيا والهند واندونيسيا قد اتاح للنفوذ الاجنبي فرصة واسعة في الايغال

هناك . حتى وصل الى حدود الصين ، ومكن لنفسه في ارخبيل الملايو ، وشواطىء افريقيا الشرقية وفي الهند نفسها ، وكان له نفوذه في قلب ايران ، حيث كانت الحرب سجالا بينها وبين تركيا . غير انه يمكن القول بصدق ان جميع بواعث اليقظة في عالم الاسلام كانت نابعة اصلا من تقدير كامل لموقف الضعف الذي يمر به المسلمون ، وفي كلتا المنطقتين علت صيحة اليقظة والتجديد ، وكانت منبثقة من اعماق الامة الاسلامية . وفي كلتا الحركتين اللتين ظهرتا في الهند وفي الجزيرة العربية كانت الدعوة الى الاصلاح تصدر عن الاحساس بان طوابع الفكر الاسلامي قد بهتت واصبحت في حاجة الى الانصقال .

***

ويمكن القول ان دعاة الاصلاح في الهند ممثلين في السرهندي ١٦٣٤ م - ١٠٣٤ هـ . والدهلومي ١٧٦٢ م - ١١٧٦ هـ قد سبقوا دعوة التوحيد التي حمل لواءها الامام محمد عبد الوهاب في قلب الجزيرة العربية . غير ان نجم دعوة التوحيد ما كاد يبزغ ، وصوتها يعلو من حول الكعبة حتى هزت العالم الاسلامي كله واصبحت مصدراً لكل ما تلاها من حركات اياً كان نوعها ومصدرها ، سواء الفكرية الخالصة منها او السياسة او الوطنية . وذلك تصحيح في مفاهيم الاسلام ولا غرابة في ذلك. فقد كان الاسلام ولا يزال جامعاً متكاملا بين السياسة والاجتماع والوطنية والثقافية والتربية . فكل الحركات في أي وحدة من هذه الوحدات ، انما تتصل بالكل وتؤثر فيها .

والواقع ان حركة « السرهندي » انما كانت محلية أساساً ، وكانت تهدف الى اصلاح اداة الحكم ، ونظام المجتمع في الهند بعد ان اوغل في الانحراف بدعوة « أكبر » الى توحيد الاديان رغبة في تأكيد نفوذه . وهو في تقدير كثير من الباحثين مجدد الألف الثاني ( ٩٧٧ - ١٠٣٤ ) وقد رأى ما صارت اليه الدعوة الاسلامية من انحطاطوتقهقر بسبب اهتمام الحكام المسلمين بتوطيد نفوذهم ، وكان جهاده أساساً ينصب على مناصحة الأمراء والحكام ، ومحاربة البدع والمنكرات ، والعقائد الفاسدة ، والمجاهدة في الكشف عن بدع واباطيل العلماء وتحرير ما ابتدعوه ونسبوه الى الاسلام ، ومهاجمة الصوفية الذين تأثروا

بفلسفه البراهمة والاقطار الاخرى غير الاسلامية . وقد رفض فكرة وحدة الوجود والحلول والاتحاد . ودعا الى التصوف الاسلامي الخالص المستمر من المنابع القرآنية .

ظل السرهندي يقاوم دعوة الامبراطور اكبر الى ما أسماه الدين الالهي المبني على تلفيقات من الاسلام والهندوكية . وقد قاوم السرهندي واستطاع في خلال حكم ابنه ( جهابكير ) ١٠١٤ هـ ـ ١٦٠٥ م . ان ينجح اذ وجد رأيه ثقيلا قوياً لدى الحاكم ، فألغى الكثير من البدع وفي مقدمتها الأمر بالسجود أمام الملك ، وايجاد التقويم الهجري بعد ان حل محله التقويم الالهي الذي يبدأ تاريخه بجلوس الامبراطور اكبر . ويعد « السرهندي » نقطة تحول في تاريخ الاسلام في الهند في العصر الحديث وارهاصاً بحركات الاصلاح المتعددة التي جاءت بعده .

***

أما « الدهلوي » فقد جاء بعده بقرن كامل . كان دوره أشد خطراً وعمقاً ، وكان أثره الفكري أبعد مدى من أثره الاجتماعي فقد « أصّل » الفكر الاسلامي وواجه به مجدّداً تحديات المرحلة الحاسمة التي كانت تمر بها الهند ، وهي في طريقها الى السيطرة البريطانية .

كان عمله الأكبر هو تصحيح مفهوم التوحيد الاسلامي ، والدعوة الى الاتصال المباشر بالكتاب والسنة ، ونشر علم الحديث ، وبيان أساليب الاسلام وأسسه في تنظيم الحياة والمجتمع ، وهو معدود في الفكر الاسلامي والثقافة الاسلامية الهندية من طراز حجة الاسلام الغزالي وشيخ الاسلام ابن تيمية .

ويمكن القول بأن « السرهندي » والدهلوي هما حلقتان من حلقات المجددين المصلحين الذين تابعوا العمل على نفس المنهج الذي رسمه ابن تيمية ، والذي توالى متابعوه والعاملون به جيلاً بعد جيل ، وان لم يسمع صوتهم الخافت خلال مرحلة الضعف والتخلف البالغة .

( ١ )

## دعوة التوحيد

أما دعوة محمد بن عبد الوهاب التي أعلنها في قلب الجزيرة العربية ، فقد كان أبرز عوامل نجاحها وقوتها أنها ظهرت في منطقة بعيدة عن التحديات الخطيرة التي واجهها العالم الاسلامي كله من خلال النفوذ الأجنبي الزاحف . وهذا ما أعطاها قوتها ، ومكن واتاح لها فرصة البقاء والتأثير ، كما زاد من قوتها وأثرها أنها انبعثت في مكان الدعوة الاسلامية ، وأنها استهدفت كل المسلمين القادمين من مختلف انحاء العالم قاصدين بيت الله الحرام . ومن هنا وجدت من الملتفين حولها قوة اذاعتها ونقلتها الى مختلف انحاء الاسلامي .

ولم تكن حركة محمد بن عبد الوهاب كما حاول أن يصورها خصومه دعوة « دينية » من حيث انها حملت لواء التوحيد . بل كانت دعوة اسلامية كاملة ، ولم يكن التوحيد منها الا أقوى علامات المقاومة للاستعمار والاستبداد والنفوذ الأجنبي بحسبان أن الاسلام دعوة خالصة لا تقر بالعبودية الا لله وحده . وهذا عامل قوتها الذي أزعج النفوذ الاجنبي الحريص على ان يظل عالم الاسلام غارقاً في مفهوم منحرف عن الاسلام سيطر عليه خلال فترة الضعف عن طريق جبرية التصوف . كان طابعه التواكل وتقبل نفوذ السلطان الظالم .

فكانت هذه الصيحة الى التوحيد من قلب الجزيرة العربية . انما تمثل حركة مقاومة ضخمة في مواجهة زحف النفوذ الغربي . ولذلك فقد حرص الاستعمار على ان يئد الحركة التي تحولت الى دولة . وذلك بما حمل عليها من حملات ، وبما أوغر عليها الصدور لدى الدولة العثمانية التي كانت ترى فيه خطراً على نفوذها ، هنالك اصطلحت القوى على القضاء عليها حين عمدت الدولة العثمانية الى دفع محمد علي الى اعلان الحرب عليها . فلما انتهى

محمد علي من اسقاطها ، استدار خصوم حركات اليقظة سياسية كانت ام فكريه الى حركة محمد علي نفسها فقضوا عليها . ولم تكن ثمرة ذلك لمصلحة الدولة العثمانية بقدر ما كانت لمصلحة النفوذ الاجنبي الزاحف .

غير انه اذا كان قد قضى على الدولة التي اقامت حركة التوحيد . فان الحركة نفسها لم تمت . بل قد وسعت مداها ، واوقدت شعلة قوية في كل اعماق دعوة للاصلاح . وقد تأثر بها دعاة السلفية في الهند والعراق والشام ومصر والمغرب جميعاً . وكان من تلاميذها الالوسي الكبير في بغداد ، والافغاني ومحمد عبده في مصر ، وجمال الدين القاسمي في الشام ، وخير الدين في تونس ، وصديق حسن خان في بهوبال بالهند .

ومزية دعوة التوحيد التي الهمتها الى كل الحركات والدعوات والمصلحين الذين تابعوها هي فهم الاسلام فهماً متكاملا قائماً على انه دين ونظام مجتمع ومنهج حياة . فقد قامت هذه الدعوة « دينية سياسية »[1] . لان الاسلام دين وقانون واجتماع في نظام موحد . ومن العسير فصل هذه العناصر بعضها عن بعض .

والمعروف ان دول النفوذ الغربي وفي مقدمتها بريطانيا قد قاومت هذه الدعوة لاسباب عدة اهمها انها كانت لا تريد ان يسمع في هذه المنطقة صوت يقظة حتى يتم تمزيقها وسلخها من الدولة العثمانية ، وادخالها في مناطق نفوذها . وكانت منطقة الخليج العربي في هذه الفترة هي اخطر هذه المناطق التي تطمع فيها بريطانيا . ومن هنا فقد قاومت هذه الدعوة ، وحملت عليها حملات مختلفة حاولت ان تصورها خارجة عن الاسلام التقليدي الذي تمثله الدولة العثمانية .

وزاد من كراهية بريطانيا لدعوة التوحيد ان قوماً من الهنود التمسوها سلاحاً لمقاومة بريطانيا في مقدمتهم الأمام احمد بن عرفان الهندي ، بدأ دعوته في الهند ١٨٢٠ م ـ ١٢٣١ هـ . فدعا الناس الى التوحيد الخالص ، واتباع السنة

---

١ ـ محمد رفعت : التوجيه السياسي للفكرة العربية .

وحارب البدع محاربة سافرة ، وأنشأ مع أعوانه دولة في بشاود ، طبّق فيها نظام الاسلام ، وجمع بين العبادة والجهاد ، وكان عمله ارهاصاً بالثورة التي قادها المسلمون عام ١٨٥٧ .

وقد عمد النفوذ الاجنبي الى خلق الازدراء بدعوة التوحيد في مصر وفي الهند ، وبلاد الدولة العثمانية . واغضى عن اسمها الحقيقي ، واطلق عليها اسم الوهابية ، واشاع هذه التسمية وادخلها معاجمه الحديثة . وقد أخطأ عمداً حين وصفها بأنها مذهب جديد في الاسلام .

وقد قاومت الدولة العثمانية دعوة التوحيد في مكة والمدينة ، فلما اجتاحت قوات الوهابيين هاتين المدينتين عام ١٨٥٣ واجهت الدولة العثمانية موقفاً صعباً لم تتمكن من اصلاحه الا بعد وقت طويل . فان المدينتين لم تعودا مرة اخرى الى نفوذ الدولة العثمانية الا عام ١٨٧٠ تقريباً .

وقد اكدت « دعوة التوحيد » بما كتبه الامام محمد بن عبد الوهاب ضرورة التماس مفهوم الاسلام أساساً من القرآن . « وان وسيلة الاصلاح والنهضة لن تتحقق الا بحملة ضخمة قوامها القوة ، والاقناع معاً على البدع والمفاسد التي دخلت الاسلام ظلماً ، والعودة الى نقاوته الأولى ، وعدم الاعتراف بما تركه المفسدون مما يتعارض مع اصول الاسلام في بساطته وسماحته وترك الطقوس وانواع الاحتفالات والبدع الخاصة بتقديس الأولياء وقصر العبادة على توحيد الله وحده وفق ما دعا اليه الرسول واتبعه ووفق تعاليم القرآن » .

ولا شك ان صدق عبد الوهاب وعمق ايمانه وصلابته كانت كلها عوامل اساسية في النتائج التي حققتها الدعوة . فقد عاش عمراً مديداً قضى اكثر من خمسين عاماً في قلب الحركة التي قام بها عام ١٧٤٠ والتي ظل يواليها حتى توفي عام ١٧٩٢ . أضف الى ذلك تقبل الامير سعود لها مما دفعها الى مجال القوة والسلطان حيث اصبحت اسلوباً تطبيقياً للمجتمع ، مما اعطاها حيوية وانطلاقاً وخلق لها جذوراً ثابتة .

وقد كانت في تقدير المؤ رخين والمفكرين بحق نقطة انطلاق الامة العربية وتسلمها لقيادة الحركة الفكرية الاسلامية في العصر الحديث ، وايذاناً بانتهاء

دور الدولة العثمانية التي شاخت وضعفت . وكان من ابرز معطياتها عملان كبيران : أنها فتحت باب الاجتهاد في الفروع بعد ان ظل مغلقاً منذ سقوط بغداد ٦٥٦ هـ وضرورة القيام بواجب الجهاد واحياء هذه الفريضة التي اصابها الوهن ، وانها ـ الى ذلك ـ كانت ثورة بدوية عارمة على الاستبداد والضعف والانحلال الذي آل اليه حال العالم الاسلامي ، وكانت كذلك اول حركة تحريرية عربية اسلامية .

وقد حملت الدعوة في عنف على الوجه الاسلامي التقليدي القائم ، وعلى علماء المسلمين التقليديين الذين كانوا يسيرون في ركب الامراء والولاة ، وهزت قوائم مراكزهم ونفوذهم . ومن هنا واجهت خصومة « الاسلام الرسمي » الذي تصدى رجاله لها وحصلوا على تشويه مبادئها بحسبانها عاملا هادماً لوجودهم .

ومن حق ان الوهابيين كانوا غاية في القسوة والعنف ، وتلك طبيعة الدعوات في مواجهة التخلف والضعف ، فقد أعلنوا سخطهم على كل الطوائف الاسلامية الحضرية التي استلسمت للترف ، بل انهم ذهبوا الى ابعد من ذلك في محاولتهم مهاجمة حدود الدولة العثمانية ، التي اغراها النفوذ الاستعماري ومطامع محمد علي ـ على ان تضرب به هذه الحركة الوليدة ، والاستعمار قادر على ان يقوي الخلاف بين القوتين الشابتين : الفكرية في نجد ، والسياسية في مصر ، ولو انهما التقيا لتغير وجه التاريخ .

ومن حق ان الدعوة الوهابية لم تجد أمامها من الوقت ما يهيئها لتنمو ولتتصل بروح العصر وتستخدم اسلحته واساليبه ، حتى تستطيع ان تواجه خصومها ، ولم تكن قوة الفكر وحدها قادرة على العمل ، وقد كان الاستعمار وراء القضاء على هذه الحركة قبل القضاء على حركة محمد علي في مصر ، بحسبان انها حركة ايديولوجية فكرية عميقة الجذور متصلة بالاسلام نفسه الذي كان ولا يزال هو الخطر الاول المستيقظ في مواجهة الغزو الغربي المتطلع الى السيطرة على المنطقة كلها .

ومن هنا جاز للكاتب : لوثروب استوارد ان يقول : ان الوهابية لم تفو على

الوقوف في وجه البنادق والمدافع الاوروبية . ومن حق ان يقال ان محمد علي لم يستطع القضاء على الدعوة الوهابية قبل ١٨١٨ . وكان قد بدأها ١٨١١ . فقد صمدت أمامه صموداً عجيباً بالرغم من اسلحته ، ولولا ان محمد علي استعمل الرشوة الى بعض قبائل العرب ، واغراها بالمال ليستعين بها على الوهابيين لما استطاع تصفية هذه الحركة . ( راجع الجبرتي ) غير ان دعوة التوحيد التي قادها محمد بن عبد الوهاب قد سجلت أمراً خطيراً وبعيد الاثر في حركة اليقظة المعاصرة كلها . ذلك انها ايقظت عالم الاسلام والامة العربية قبل قدوم نابليون بأكثر من ستين عاماً ، وهدته الى وسائل النهضة واسبابها .

وقد استطاع النفوذ الاستعماري الزاحف ، التي اعد خطة القضاء على الدولة العثمانية ، وتمزيق أواصرها ، والسيطرة عليها ، ان يقضي على مختلف الحركات الاصلاحية التي قامت في هذه الفترة . سواء ذات الطابع الاسلامي منها او العسكري او السياسي : كحركة السلطان محمود في تركيا او محمد علي في مصر .

وكان التركيز على الحركة الوهابية اشد . فقد احس الاستعمار انها تمثل مفهوم الاسلام في اليقظة والمقاومة والعودة الى عوامل القوة ، وكان الوهابيون قد وضعوا أمامهم خطاً أساسياً هو الدفاع عن حوزة الاسلام ضد الخطر الأوربي بعد أن حسبوا مدى الوهن والتراخي الذي طرأ على الوحدة الاسلامية العثمانية في الآستانة وانحلال الدول .

واذا كانت الدولة التي أقامتها الحركة الوهابية قد انتهت عام ١٨١١ . فقد تركت آثارها القوية التي انتشرت في أنحاء العالم على حد تعبير لوثروب ستوارت « لقد ظل الوهابيون يبثون روح الحركة في مئات الألوف من الحجاج الوافدين كل عام الى مكة والمدينة . واستطاع الوهابيون ان يبذروا بذوراً تلاها الاختمار الشديد للثورة الدينية في كل فج اسلامي حتى وصلت دعوتهم الى أقصى المعمورة .

وقد اتصلت الدعوة بالهند وافغانستان ، وكان من ثمارها « محمد بن علي السنوسي » الذي تلقاها في مكة ، وأنشأ طريقة مهدت للجامعة الاسلامية ،

وبالجملة فان دعوة التوحيد كانت صيحة التوحيد في مواجهة خطر سقوط العالم الاسلامي في براثن النفوذ الغربي ، ومن هنا جاز للكاتب لوثروب استوارت ان يعتبرها . وبحق مبدأ اليقظة حيث يقول : « استيقظت روح الاسلام في كل رقعة من رقاع العالم الاسلامي ، فهب اتباع محمد من مراكش الى الصين . ومن تركستان الى الكونغو ، هبوب العاصفة الزعزع لا يعرف مستقرها ، قدح الزناد في صحراء شبه الجزيرة ،ثم اخذ الشرر يتطاير الى كل جانب من جوانب العالم الاسلامي » .

***

وابرز المعالم الفكريّة لدعوة التوحيد :

( ١ ) تحرير فكرة التوحيد من الاراء الدخيلة باسم وحدة الوجود ، وعندهم ان الوحدانية التي تكون العنصر الاساسي هي الوحدانية التي تترتب على سلوك الموحد وهو ما يسمونه بوحدانية الربوبية . اي ان المؤمن لا يكون موحداً الا اذا قصر عبادته على كائن واحد .

( ٢ ) ـ ضرورة عودة الفقهاء والقضاة الى المصادر الاصيلة رأساً ، وهي القرآن والحديث ، واجماع المسلمين على حكم معين الى آخر القرن الثالث الهجري . ويترتب على هذا فتح باب الاجتهاد في الفروع . وقد أولى الوهابيون هذا الحق اهتماماً كبيراً .

( ٣ ) ـ دعوتهم الى عدم التقيد بمذهب معين من المذاهب الاربعة ، وانما يجوز لكل قاض ان يأخذ من اي مذهب بما يرى أنه أقرب الى الصواب ، ولا يباح التقليد الا عند العجز من الرجوع الى هذه النصوص .

( ٤ ) ـ انكار التحدث في مسائل الخلاف التقليدية ، والتي كانت مصدر الفرقة بين المذاهب الاسلامية المختلة كمسألة الذات والصفات والجبر والاختيار .

( ٥ ) ـ ضرورة قيام امام للامة الاسلامية ، والامامة عندهم غير الخلافة ، فهي لا تتضمن صفة العموم بالنسبة للعالم الاسلامي ، والخلافة في رأي الوهابية لم تدم أكثر من ثلاثين سنة . ثم تحولت الى ملك . ومنذ ذلك التاريخ

يمكن الاعتراف بعدة أئمة في وقت واحد، ولا يشترط في الامام النسب القرشي .

والامام ضرورة جماعية للمحافظة على مصالح الجماعة الاسلامية[1] .

---

١ - بتوسع وتصرف عن بحث للدكتور صلاح العقاد .

## ( ٢ )

# الدعوة « السنوسية »

أولى الحركات التي انبعثت من دعوة التوحيد هي : السنوسية وهي حركة ودعوة وطريقة قد صيغت على جامع محرر لمفهوم الاسلام المتكامل بين : التصوف ، والفقه ، والعقيدة . وهي ذات صلة بالنسب مع مفاهيم دعوة التوحيد . وهي في نفس الوقت تشكيل اجتماعي تربوي على نمط الصوفية ودعوات الفتوة والجهاد متحرراً من الأخطاء والانحرافات التي وقع فيها بعض الصوفية .

وإذا كانت دعوة التوحيد قد استطاعت ان تقيم دولة . فإن الحركة السنوسية قد استطاعت أن تكون جيلا قادراً على أن ينشر الاسلام في أنحاء أفريقيا ويشكل في نفس الوقت كتائب الجهاد في سبيل الله ، والانماء الاقتصادي والاجتماعي أيضاً .

وإذا كانت حركة التوحيد التي قادها محمد بن عبد الوهاب قد انبعثت من تخلف الدولة العثمانية وتحولها عن المفهوم الصحيح للاسلام وهي قائدته . فإن دعوة محمد بن علي السنوسي كانت رد فعل للتحدي الضخم الذي واجه العالم الاسلامي باحتلال الجزائر في معركة غير متكافئة ظلت تقاوم ستة عشر عاماً ، ثم سقطت بين براثن الاستعمار الفرنسي .

كان محمد بن علي السنوسي في خلال هذه الفترة ينظر إلى موجة جديدة من الحروب الصليبية قد بدأت بالجزائر ، وستمضي في طريقها ، فلا يقف أمامها شيء ، لذلك كانت فكرته ترمي إلى عمل جامع من اعمال المقاومة والمواجهة لهذا الغزو الغربي الزاحف . وكان تطلعه وكانت دراسته تحاول أن توجد عملا

جماعيا كاملاً ، تشترك فيه الأمة الاسلامية جميعاً ، ولعل عبارته التي لخص بها موقفه تصور اتجاهه واضحا يقول :

« أفكر في العالم الاسلامي ، فبالرغم من سلاطينه وأمرائه ورؤسائه وعلمائه ، فهم لا يزيدون عن أن يكونوا كقطيع من الغنم الذي لا راعي له ، في كل محل من محلات الاسلام تجد المسلمين وعلماء الدين ، ولكنك لا تجد في العالم الاسلامي مرشداً حقيقياً تكون غايته سوق الجميع إلى هدف واحد . إن ديننا الحنيف دين توحيد أسس على الاتحاد ، ولكن الخلاف والتفريق قد سادا جميع النواحي . لأن العلماء والمشايخ ليست لهم غيرة دينية حتى ينشروا العلوم والمعارف . انظروا إلى احوال السودان والصحراء تجدوا أفواجا من الشعوب يعبدون الأوثان ، ويوجد في كل مسجد من مساجد المعمورة جماعة من العلماء غير العاملين لا همّ لهم غير راحة أجسادهم ، حريصين على لذاتهم ، غير قائمين بواجباتهم لا ضمائر لهم تؤنبهم على اهمالهم إرشاد هؤلاء المساكين . وقد اتصل بنا خبر أحوال العالم الاسلامي من القوافل التي ترد إلى بلادنا ، اننا مغلوبون في كل محل ، وان المقاطعات والخطط المعمورة تذهب من أيدي المسلمين في كل وقت وبسرعة البرق . فالاسلام في حالة من التدهور المخيف وهو ما فكرت فيه » . ومن هذه النقطة كان انطلاقه إلى دعوته التي تضم خمسة أصول أساسية هي :

* العودة بالاسلام الى منابعه الأولى .
* توحيد المذاهب .
* فتح باب الاجتهاد .
* نشر الاسلام في البلاد التي ينتشر فيها .
* مقاومة النفوذ الأجنبي .

وقد بدأ عمله الجاد عام ١٨٤٢ في زاويته الأولى « البيضاء » بالجبل الأخضر حتى توفي ١٨٥٦ . وفي خلال سبعة عشر عاماً استطاع أن يحقق الكثير ، وأن يرسي أساس نظام تربوي مطبق فعلا لبناء الشخصية الاسلامية من خلال ( الزاوية السنوسية ) .

وتضم الزاوية السنوسية مسجداً ومدرسة لتحفيظ القرآن الكريم ومعهداً

لتدريس العلوم الاسلامية ، ومساكن للطلاب الغرباء ، ومكتبة علمية ، وقد ضمت زاوية جغبوب حوالي ثمانية آلاف مجلد في الفقه الاسلامي والتاريخ وتفسير القرآن الكريم والأدب .

وتقام الزاوية عادة بجوار الابار، أو على الأطلال التي خلفها الرومان في الصحراء الغربية ، أوفي مواضع الزراعة ، أو المواقع الاستراتيجية ، أو تقاطع الطرق وملتقى القوافل ، او على حدود مصر او تونس أو الجزائر او السودان . والمعروف أن هذه الزوايا تحولت عام ١٩١١ عندما بدأ الغزو الايطالي إلى مراكز للمقاومة التي استمرت حتى عام ١٩٢٨ .

وتبدو الحركة السنوسية منفردة بتنظيم جديد يختلف عن حركة التوحيد ، فقد قامت على التربية اساسا ، ولم تلجأ الى العمل السياسي الا بعد وقت طويل . وقد جمعت بين منهج حركة التوحيد وبين منهج الحركة الصوفية ، ومزجت بينهما في دقة ومرونة ، حيث حققت لأول مرة في العصر الحديث محاولة بناء الشخصية الاسلامية عن طريق التربية الاسلامية تأخذ من الفقه ما يثير العقول ، ومن التصوف ما يصلح النفوس . ومن هنا كان خطرها على حركة التبشير التي انطلقت بعد احتلال الجزائر في قلب أفريقيا . فقد استطاعت ان تنشر وتقود حركة للدعوة الاسلامية في مختلف أنحاء القارة . وبواسطة السنوسية صارت نواحي بحيرة تشاد مركزاً للاسلام في أواسط أفريقيا ، ثم امتد عملهم حتى بلغ النيجر الأدنى .

وقد عمدت السنوسية الى تولي عدد كبير من الأرقاء وتربيتهم في جغبوب وغدامس ، وغيرها حتى إذا ابلغوا أشدهم وأكملوا تحصيل العلم أعتقوهم وسرحوهم إلى أطراف السودان يهدون أبناء بلدتهم الى الاسلام . وهكذا يرحلون كل عام مئات من مبشري السنوسية لبث دعاية الاسلام في جميع أفريقية الداخلية من سواحل الصومال شرقاً الى سواحل السينغال غرباً .

ومن هنا فقد تعددت الزوايا واتسع نطاقها وامتدت من شمال أفريقيا إلى أقصى أقاصي السودان ، وتأسست ممالك اسلامية مثل سلطنات رابح وأحمد وساموري .

وقد ظلت قوى النفوذ الغربي ترقب بحذر بالغ خطوات نمو الحركة السنوسية وزواياها . وكان كتّاب أوربا الاستعماريين يحذرون منها ومن خطرها . ومن ذلك ما كتبه الكابتن دانري من رجال الجيش البريطاني في أوائل القرن التاسع عشر ، يحذر من ظهور زعيم اسلامي تتوحد تحت لوائه قبائل الطوارق ، وعشائر العرب والبربر . ويقول إنه « إذا استفحل أمره عززت نجد قواته فسارت وصار العالم الاسلامي يداً واحدة ، وزحف على أوربا فاكتسحها حتى تحاصر جيوش المسلمين باريس . . ».

ومن هنا فقد مضت أوربا تؤلب الدولة العثمانية على هذه الحركة كما فعلت بالنسبة للحركة الوهابية ، وتغري بها مؤكدة للأستانة بأن خطرها على السلطنة العثمانية قريب ، غير ان محمد بن علي السنوسي استطاع بحرصه وذكائه ان ينال ثقة الدولة العثمانية ، ومضى يعمل في حيطة وصمت داخل أفريقيا . بعيداً عن اسلوب الثورة أو التدخل مع حيدة تامّة بالنسبة للخليفة العثماني . وقد رفض أي تدخل مع ألمانيا أو ايطاليا أو تركيا ، أو مع عرابي أو المهدي جميعاً . وكانت ألمانيا قد طلبت من السنوسية مساعدتها ضد فرنسا في أفريقيا ، كما طلبت تركيا منها مساعدتها ضد روسيا . وكذلك طلبت ايطاليا مساعدتها ضد تقدم فرنسا في تونس . ولكن السنوسيين كانوا قد حددوا موقفهم في هذا الصدد ، وهو أن لا يدخلوا معارك من شأنها أن تكشف قوتهم ، أو توقع الخلاف بينهم وبين دولة الخلافة .

وكان عمل السنوسية في المقاومة للغزو الغربي لأفريقيا متكتماً مضمراً مع عمل مكشوف في نشر الاسلام ، ويسجل ذلك مسيو ردوفريرجن يقول : ان السنوسية هي المسؤولة عن جميع أعمال المقاومة التي قامت ضد فرنسا في الجزائر . وان السنوسية هي المدبرة لجميع نكبات فرنسا في الشمال الأفريقي وفي السنغال . وانها أيدت ثورة محمد بن عبد الله في تلمسان وصحراء الجزائر ١٨٤٨ ـ ١٨٦١ . وثورة الصادق بجبال الأوراس ١٨٧٩ وثورات أولاد سيدي الشيخ ١٨٧٩ ـ ١٨٨١ .

ويضيف قوله : ان السنوسية هي أخطر أعداء نفوذنا نحن الفرنسيين في شمال

أفريقيا وفي السنغال . والعقبة في سبيل توسعنا الاقتصادي والسياسي داخل أفريقيا . وهي عائق في طريق أهدافنا في القارة الواقعة شمال خط الاستواء .
ولا شك أن السنوسية بهذه الصورة تختلف كثيرا عن الحركات الصوفية الحديثة : التيجانية والشاذلية والادريسية والقادرية ، حيث جمعت بين عمليتين أساسيتين هما : نشر الاسلام ( وهو ما حاولته الطرق الصوفية ) ومقاومة النفوذ الاجنبي بالقوة المسلحة ، وبناء مواقع المقاومة الاجتماعية والعسكرية .

واتصل بذلك عملها فى سبيل اقامة وحدة إسلامية كبرى . وغاية القول إن السنوسية ليست طريقة صوفية . بل هي حركة اسلامية كاملة . وقد نمت الدعوة السنوسية بعد وفاة الأمام محمد علي وازداد عدد مواقعها فى عهد محمد المهدي إلى ثلثمائة زاوية ، وأصبحت السنوسية قوة اجتماعية وفكرية فى كل مكان . وعندما ولي أحمد الشريف السنوسي امر الدعوة ١٩٠٢ دخلت الحركة في دور جديد أشد قوة . غير أن الغزو الايطالي الذى وجهته ايطاليا إلى طرابلس ١٩١١ حول الدعوة كلها إلى مقاومة عسكرية مسلحة ، قد دام نضال السنوسية بقيادة الشريف حتى نهاية الحرب العالمية الأولى . وقد ظلت الصحراء تحت حكم السنوسيين خلال مائة سنة لم يتمكن الاستعمار خلالها من السيطرة إلا على السواحل فقط .

***

وهذا القول إن الحركة السنوسية كانت دعوة اسلامية جامعة ، هدفها النهوض بالمسلمين في مواجهة الغزو الغربي . ولذلك فقد أخذت بالأسباب على اتساع وشمول .

من حيث ( ١ )التربية . ( ٢ ) بناء شخصية المسلم ، وبناء المجتمع الاسلامي . ( ٣ ) مقاومة العدو . ( ٤ ) الاجتهاد وتنقية الاسلام مما علق به من أوهام .

وقد أقام احد الباحثين المقارنة بين الوهابية والسنوسية فقال : إن الوهابية اصلاح ديني وانابة الى عقيدة السلف . أما السنوسية فهي طريقة عمل بالسنة

والشريعة . وكما واجهت بريطانيا خطر الدعوة الوهابية في كل مكان حتى في الهند . كذلك واجهت فرنسا واخطار الدعوة السنوسية في قلب أفـريقيا . إذ كانت مصدراً لكل أعمال المقاومة في مختلف الأقطار التي عمدت فرنسا إلى احتلالها .

ويقول جيمس هاملتون في كتابه جولات في شمال أفريقيا الصادر عام ١٨٥٦ إنه عندما أرادت فرنسا التوغل في داخل أفريقيا عبر الصحراء اصطدمت بمقاومة عنيدة ، تولى تنظيمها وقيادتها أتباع السنوسية ، وأشار الى أن الكتب الفرنسية التي تناولت التوسع الفرنسي عبر الصحراء قد اعطت الجزء الأكبر للكلام على المقاومة التي وجدتها القوات الفرنسية من أتباع الدعوة السنوسية هناك . وقد بلغ من اهتمام فرنسا بالدعوة السنوسية ان خصصت وزارة الخارجية الفرنسية أرشيفا خاصا بها . وأشار لوريس رين باهتمام كبير إلى المقاومة الصلبة التي اتخذتها السنوسية والطوارق امراء الصحراء اتجاه التوسع الفرنسي .

والمعروف أن السيد محمد بن علي السنوسي قد حرص اساساً على اقامـة وحدة اسلامية في أفريقيا داخل نطاق وحدة اسلامية كبـرى . ولمـا كان هذا مقصداً أسـاسيا له . فقـد مهـد له بالمـزج بين المذاهـب السـنية الموروثـة ( المذاهب الأربعة ) بما صح وكمل من أقوالها ، ثم أضاف اليه ما استنبطه من السنة والمذاهب التي لم يعد هناك اتباع لهـا . واستطـاع أن يجعـل من هذا المزيج الدقيق مذهبا واحداً هو : مرآة المذاهب الأربعة وزبدتها .

* * *

وعمله في هذا المجال الاجتهادي بارز واضح . فقد دعا إلى تحرير الفكر الاسلامي من التقليد الأعمى والتسليم العاجز ، وتطهير السنة المحمـدية من الأقوال المشبوهة والأساطير الموروثة والصوفية المنحرفة الزاعمة بأن الاسلام ليس من شأنه الدنيا ، وان المسلم ليس من شأنه المادة ، وخلص التصوف من الشطح والغلو والتواكل المميت لشخصية المسلم والدافع له علـى الاعتمـاد على غيره في رزقه .

وقد حارب دعوى الاتحاد والحلول . ووحدة الوجود ، كما دعا إلى فتح باب الاجتهاد للقادرين عليه وارجاع الأقوال كلها إلى مصدرها الاصيل من الكتاب والسنة ، وجاهر بالعداء للتقليد المطلق ، وطالب العامي ان يسأل المفتي عن دليله ، الذي استند اليه في فتواه وحكمه ، فإذا اخبره بالدليل اقتنع والا تركه الى غيره ممن هو أقدر منه الى الاتيان بالدليل ، وهذا عنده هو اجتهاد العامي ، ويرى أن الاجتهاد ضرورة عقلية ، لأن فتح باب الاجتهاد يجعل لدى المسلم حيوية وتمسكا بالاسلام ، حيث يجد الحلول المناسبة للمشاكل التي تتجدد في كل زمان .

وقد استفاد الامام السنوسي من مختلف الدعوات التي سبقته وتجنب المآخذ التي اخذت عليها ، واهتم بالتربية العملية ، والتطبيق العلمي للاسلام .

ويمكن القول بأن الحركة السنوسية كانت مدرسة نموذجية لتجديد الاسلام ، جامعة بين الحركتين السائدتين : حركة التوحيد وحركة الصوفية .

## ( ٣ )

# الدعوة « المهدية »

وفي السودان برزت الحركة الثالثة من الحركات الاسلامية التي اخذت طابع العمل السياسي والاجتماعي معاً ، حين أعلن « محمد أحمد » حركة الجهاد ضد النفوذ الاجنبي وتحرير مفهوم الاسلام من البدع والخرافات معاً . وقد قامت حركته على الجهاد واستشرقت انشاء مجتمع إسلامي وحكومة اسلامية عادلة ، تقوم على أساس مفهوم الاسلام . وقد استطاعت هذه الحركة أن تواجه الحملات التي شنتها بريطانيا في ظل احتلال مصر ، وأن تسحق كل عمليات الغزو التي وجهت إليها .

واجهت هذه الدعوة كما واجهت دعوة التوحيد والحركة السنوسية مقاومة عاصفة من الاستعمار والنفوذ الاجنبي الزاحف ، ولكنها صمدت في وجهه ، وكبدته خسائر فادحة . واستطاعت ان تقاوم فترة طويلة .

وقد انتصرت المهدية في جميع المعارك التي قادها غردون وهكس وكرنكريف وستيوارت وبيكو وجراهام وولسلي . كما تطلع « محمد احمد » الى الزحف لانقاذ مصر من النفوذ الانجليزي بعد فشل الثورة العرابية ، ووجد تأييداً من جمال الدين ومحمد عبده .

وقد قامت دعوته على نظرية كاملة ضمنها مناشيره وبياناته المتعددة « أمرنا هذا مبنى على هدى من الله ونور من رسول الله ، ومقصدنا احياء الدين واظهار اثار الأنبياء والمرسلين ، ولا نريد مع هذا ملكا ولا جاهاً ولا مالاً ، ان مذهبنا هو : الكتاب والسنة والتوكل على الله وقد طرحت العمل بالمذاهب ورأي المشايخ » .

وقد نجحت الحركة المهدية في مختلف المجالات السياسية والاجتماعية . اذ حملت لواء المفاهيم الاسلامية المتحررة من سلبية التصوف وجمود الفقه وجبرية الزهادة ، واتسمت بإيجابية واضحة في مختلف المجالات .

فقد عمد « محمد أحمد » المهدي الى إيقاف العمل بالمذاهب المختلفة ، وأذاب جميع الفرق الصوفية بكل طوائفها في طريقة واحدة . وكانت حجته في ذلك ضرورة الرجوع مباشرة إلى الكتاب والسنة دون شروح معقدة ، واستهدف الغاء الخلافات المذهبية بين الناس في أمور العبادات ، وتوجيه أنظارهم الى الوحدة الفكرية ، ورفض عملية الانعزال في الخلوات مع الأوراد والأذكار . هذا مع الدعوة إلى الجهاد والقوة حماية للحق والعدل ، والسيف لحماية الحق . ولذلك فقد تحدث طويلاً عن آداب الفروسية والفتوة في زمان الحرب والسلم . واعلن أن مقام الصبر عند البلاء أقوى من مقام الشكر على النعماء . وقد مزج بين الصوفية ومفاهيم التوحيد مزجا رائعا ، وأعطى مفاهيم القلب والروح قوة على دفع الانسان للعمل . كما نفذ تعاليم الاسلام في القصاص والسرقة والزنا والحدود الشرعية ، وأبطل زيارة القبور والأضرحة .

***

وقد استطاع النفوذ الاستعماري ان يوجه الى الدعوة المهدية عن طريق علماء الدين الرسميين كثيراً من النقد والمعارضة ، وتحذير الناس منه رغبة في زلزلة ثقة انصاره به . ولكنه صمد ووالى دعوته وتأكد صدقه وسلامة مقصده .

ومن حق أن « محمد أحمد المهدي » قد حرر الفكر الاسلامي السوداني من طابع الصوفية المغرق في الجبرية ، واتجه إلى منابع الثقافة الاسلامية العربية الأصيلة وفق نفس المنهج الذي سارت عليه دعوة التوحيد والسنوسية ، وهو تأكيد العمل بالكتاب والسنة ، وتحرير الفقه من روح الخلافات ، ومن ثم ظهر « أدب عربي إسلامي » له طابع أكثر ايجابية ، بعيدا عن أسلوب السجع والزركشة ، وكانت أقوى اعماله توحيد المذاهب الأربعة في مذهب واحد باختيار الأصلح من كل منها معتمداً على الكتاب والسنة ، رافضاً لكل الخلافات التي فرقت الناس ، وقال « إن هؤلاء الأئمة رجال ونحن رجال ، ولو

أنهم أدركونا لاتبعونا . ولذلك قد طرحت بالمذاهب ورأي المشايخ » .

وفي مجال المجتمع عمد إلى تحريره من التقاليد المعارضة للاسلام ، فحرم الاحتفال بالأعراس احتفالا يدعو إلى السرف ، ومنع شرب الخمر ، وخفض مهر الزواج ، وأبدل ولائم الأعراس بطعام من التمر واللبن ، وأبطل الرقص واللعب ، ودعا إلى القصد في الزخرف . فأبطل الألقاب ، وساوى بين الغني والفقير في مواقف المحاكمة والحق ، وفرض على أتباعه لباساً خاصاً يمتازون به ، ولقي عمله تقبلا كبيراً ، حتى قال أحد المؤرخين : ان المهدي هو الرجل الوحيد الذي يدين له السودان باسترجاع حريته واستقلاله .

وكانت حركة المهدية واحدة من سلسلة حركات الجهاد ضد الاستعمار والنفوذ الأجنبي من مختلف بلاد العالم الاسلامي ، وامتداداً للمبادىء الأساسية للاسلام التي كانت دوماً مصدر المقاومة ، وسبيلا لرفض كل نفوذ أجنبي ، ورفع راية الجهاد في سبيل مقاومة الغاصب . ومن هنا حاول النفوذ الاستعماري تشويه الوهابية والسنوسية والمهدية ، وعمد إلى القضاء عليها جميعاً ، وظل يهدد دوماً بخطر ظهور حركات مثلها تقوم على أساس مفهوم الاسلام في الحكم ، وتعلن الجهاد في وجه الغاصب ، وكان لهذه الحركات الثلاث أثرها في خطط الاستعمار ، فقد عمد إلى فصل الدين عن السياسة والمجتمع في مختلف الأقطار التي احتلها ، كما عمل أتباعه من أصحاب الدعوات الهدامة إلى انكار الجهاد ، ومحاولة التقليل من شأنه .

وقد عمد النفوذ الانجليزي الى خطة ماكرة فيما يتصل بالمهدية ، فحيث حرض محمد علي للقضاء على « الوهابية » قضى هو على حركة محمد علي ، ثم قاد الانجليز جيشا مصريا على رأسه ضباط انجليز للقضاء على الحكومة التي كان يرأسها التعايشي بعد وفاة المهدي . وعمدوا إلى هدم وإزالة كل اثار هذه الحركة ، فقد دخلت بريطانيا السودان بقيادة كتشنر في سبتمبر ١٨٦٨ ونسف كتشنر قبة الامام المهدي ، ونبش قبره في بربرية وهمجية ، وبعثر جثمانه وبعث بجمجمته إلى البريطاني في لندن انتقاماً لمقتل غردون . وقضى على الدعوة المهدية كلية ، ولم يقبل عودتها الا بعد ذلك بوقت طويل . بعد أن كان قد سيطر سيطرة كاملة على مقدرات الأمور .

## ( ٤ )

# الحركات الاصلاحية

بدأت دعوة التوحيد ( محمد بن عبد الوهاب ) ١٧٤٠م ـ ١٧٩٢ وامتدت من بعد دعوة ودولة .

وبدأت السنوسية ( محمد بن علي السنوسي ) ١٨٤٢ ـ ١٨٥٩ م وامتـدت من بعد دعوة ودولة .

وبدأت المهدية ( محمد أحمد المهـدي ) ١٨٨١ ـ ١٨٨٤ وامتـدت الى سقـوط السودان ١٨٩٨ .

وما تزال الدعوات الثلاث قائمة الى اليوم في صورة او اخرى . وما تزال تمثل الطليعة الاولى لحركة اليقظة التي اتخذت منهجاً آخر في العمل . ومن خلال هذه الدعوات قامت حركات المقاومـة العسـكرية في العالـم الاسلامـي في مواجهـة الاستعمار وابرز هذه الحركات : ـ

* حركة الامير عبد القادر ( ١٨٣٠ ـ ١٨٤٦ ) .
* حركة احمد عرابي ـ ١٨٨٢ .
* حركة السنوسية ضد الغزو الايطالي ـ ١٩١١ .
* ثورة الهند ضد الانجليز ـ ١٨٥٢ .
* حركة المهدية ضد النفوذ الاجنبي ـ ١٨٨٤ .
* حركة الشيخ شامل في القوقاز .
* حركة عبد الكريم الخطابي في المغرب ـ ١٩٢٦ .

***

وقـد برزت حركة اليقظـة الاسـلامية منـذ القـرن التاسـع عشر في الهنـد

وأندونيسيا . والامة العربية ، وارتبط فيها تجديد الاسلام بحركة المقاومة للنفوذ الاجنبي .

***

وفي أوائل القرن التاسع عشر ظهرت في العالم الاسلامي حركات تستمر مفهومها اساساً من دعوة التوحيد وفي مقدمتها.دعوة « الشوكاني » في اليمن ، ودعوة « الألوسي » في بغداد ، وحركة احمد خان في الهند . وفي نفس الوقت كانت حركة التجديد الادبي والفكري تبدو بارزة بقيادة رفاعة رافع الطهطاوي وعلي مبارك في مصر ، وخير الدين في تونس ، وعاكف ونامق في تركيا .

غير ان بروز جمال الدين الافغاني ، ومحمد عبده في الحلقة السابقة من القرن التاسع عشر ، كان بعيد الأثر في حركة اليقظة حيث ظهر من بعد عدد كبير من تلاميذ هذه المدرسة في مختلف انحاء العالم الاسلامي ، وكان لظهور جريدة « العروة الوثقى » في باريس ١٨٨٤ ثم المنار في القاهرة ١٨٩٨ وانتشارها في مختلف الاقطار . وكانت تحركات جمال الدين بين الهند وفارس وافغانستان وبين فرنسا وروسيا واستانبول ، ثم وقوع الاحتلال البريطاني لمصر ، وتحركات محمد عبده بين الشام وباريس وتونس والجزائر . كل هذا كان من شأنه ان يخلق مدرسة جديدة اطلق عليها اسم « المدرسة السلفية »[1] .

وكان اكبر امتدادها الى الغرب الاقصى ، والى اندونيسيا والهند الاسلامية . وفي هذه الفترة ظهر في تونس المصلح خير الدين ، وكان له دوره في تجديد الفكر الاسلامي ، وقد وقع هذا في نفس الوقت الذي قام فيه دعاة الدستور في تركيا . وفي مقدمتهم : مدحت الذي صاغ الدستور التركي الذي اعلن في اوائل حكم السلطان عبد الحميد .

وفي اوائل هذا القرن ظهر في الشام علامة الشام طاهر الجزائري وزملاؤه وتلاميذه : القاسمي والبيطار وعبد القادر المغربي .

---

١ ـ حتى لا يكرر الكاتب نفسه قد تناول كتاب « يقظة الفكر العربي » هذا البحث بتوسع .

وفي الهند برز : ابو الكلام ازاد ، واميرعلي ، وشبلي النعماني ، ومحمد اقبال .
وفي المغرب برز : محمد بن العربي العلوي ، وابو شعيب الدكاتي ، وعبد الحميد بن باديس ، وعبد العزيز الثعالبي ، والطاهر بن عاشور .
وفي مصر ظهر : رشيد رضا ، وفريد وجدي ، ومصطفى المراغي ، ومحب الدين الخطيب .

( ٤ )

## حركات جمال الدين ـ محمد عبده

تعد ( حركة جمال الدين ـ محمد عبده ) مرحلة جديدة على طريق اليقظة العربية الاسلامية ، لها طابعها ولها استجابتها للتحديات التي كانت قد ازدادت من خلال مواجهة العالم الاسلامي للنفوذ الاجنبي . ومع ذلك فقد كانت في كلتا مرحلتيها تختلف عن الاخرى . فمرحلة ما قبل الثورة العرابية ، والاحتلال البريطاني لمصر . ومرحلة ما بعد ذلك .

وابرز ملامح حركة جمال الدين هي : الدعوة الى الجامعة الاسلامية . اما عمل عبده بعد انفصاله عن جمال الدين عام ١٨٨٥ تقريباً . فقد كانت دعوته الى العلم والتربية كأسلوب اساسي في مقاومة النفوذ الاجنبي .

وقد كانت الجامعة الاسلامية التي دعا اليها جمال الدين عملا من اعمال التجمع في منطقة طابعها اسلامي اساساً لمواجهة الغزو الاستعماري الزاحف الذي شهد جمال الدين طلائعه في فارس وافغانستان . ولم يلبث ان وقع بالفعل في مصر وتونس . فقد اكدت له تجربته وخبرته وثقافته ، ان السبيل الوحيد لمقاومة الاستعمار هو التضامن الاسلامي عن طريق التمسك بالقرآن ، والغاء العصبية المذهبية ، والاجتهاد في فهم القرآن والملاءمة بين مبادئه وظروف الحياة التي يعيش فيها المسلمون ، وطرح الخرافات والبدع التي صبغت الاسلام بلون مغاير لطابعه الاصيل . ومن هنا فقد كان جمال الدين يرى ان القرآن هو اساس الوحدة وقطبها الاصيل . ولم يكن يعنيه بعد اي نظام يمكن ان تتم على اساسه الوحدة ما دام العامل الاساسي في الالتقاء بين اجزاء العالم الاسلامي هو وحدة الفكر ممثلة في القرآن الكريم .

وقد رأى جمال الدين ان اصلح مجال لدعوته هو : الامة العربية بحسبانها

منطلق الاسلام الاول وقاعدته ، ومن ثم اتخذ منبره في مصر ايماناً بأنها ابعد ما تكون عن خلافات المذاهب وصراعات العمل . فقد رأى ان مصر اقدر من يستطيع حمل اللواء .

ومن الحق ان يقال ان تجربة جمال الدين كانت مثيرة ، وبعيدة الاثر في الفكر الاسلامي العربي . فقد اخذ الاصول الاساسية لدعوة التوحيد ، واضفى عليها ثوباً عصرياً ، وربط بينها وبين الزمن والحضارة والفكر الحديث ، فكان استجابة صادقة لعصره ، وتحديات النفوذ الاستعماري في زمنه ـ فقد جمع فيها بين :

( ١ ) تصحيح مفاهيم الاسلام وتحرير قيمه واعادة صياغتها من جديد على نحو مناسب مع المحافظة على قيمتها الاساسية كاملة .
( ٢ ) وبين اتخاذ الوسائل الكفيلة بمناهضة الاحتلال الاجنبي .

وكانت ابرز قواعد دعوته :

(١ ) التقارب والالتقاء بين اهل السنة والشيعة ، على اساس ان التفرقة انما احدثتها مطامع الدول وجهل الامة .
( ٢ ) التوفيق بين العلم والقرآن .
( ٣ ) تأكيد الاساس الواحد للاديان الثلاثة . وقد ضمن برنامجه الذي اذاعته « العروة الوثقى » علامات طريق واضحة الى النهضة ، اذ دعا الى ان يبين المصلحون للشرف واجباته التي كان التفريط فيها موجباً لضعفه وسقوطه وتوضيح الطريق التي يجب سلوكها لتدارك ما فات ، وان النجاح ميسور اذا عقدت العزائم ، واذا كان قائماً على اساس الاصول التي حققت لاسلافنا العزة والقوة .

دعا جمال الدين الى ان تتكون عقائد الامة « وهي اول رقم ينقش في الواح نفوسها ، مبنية على البراهين القويمة ، والادلة الصحيحة ، وان تتحامى عقولهم مطالعة الظنون في عقائدها ، وتترفع عن الاكتفاء بتقليد الاباء فيها . وذلك بحسبان ان الاسلام يكاد يكون منفرداً بتفريغ المعتقدين بلا دليل وتوبيخ المتبعين للظنون » . وعنده ان اهم الامور التي تتم بها سعادة الامم هو صقل القلوب بصقال التوحيد ، وخلع كل عقيدة بان الله جل شأنه يظهر بلباس البشر ، او ان تلك الذات المقدسة نالت في بعض اطوارها شديد الايلام واليم الاسقام لمصلحة

احد من الخلق . وهو يدعو النفس الانسانية الى النهضة ، ويلح في الدعاء الى ان يستقبل وجهة الشرق طامحاً الى بلوغ الغاية من مراتب الكمال الانساني ، ما عدا مرتبة النبوة ، فانها بمعزل عن المطمح ، وذلك تسابقاً في مجالات الفضائل. وقد حرص جمال الدين الدين الى تأكيد القول بفتح باب الاجتهاد ، وان القرآن بشر بالمخترعات والعلوم الحديثة .

وقد اولى جمال الدين اهتمامه بالنفوذ الاستعماري ، وحرص على كشفه ومهاجمته دون توقف ، وكانت بريطانيا هي هدفه الاكبر بحسبانها العامل الاكبر في الحيلولة بين المسلمين والوحدة ، وبينهم وبين القوة والنهضة ، وقد درس اخطار الاستعمار ، وتحقق اسباب تغلغله في عالم الاسلام ، مفرقاً بين النفوذ الاستعماري ، وبين تفوق الغرب العلمي .

وكان يهاجم بشدة امراء المسلمين المستسلمين للنفوذ الاجنبي ، ومقاومة الاستبداد في تقديره تجري مع مقاومة الاستعمار في خط واحد . وهو اول من التفت الى اسلوب الاستعمار الذي يتخذ صورة القضاء على الشخصية الاسلامية التي مصدرها القرآن ، حين بدأ ذلك في محاولة افساد عقيدة المسلم . اما بتشكيكه فيها او بمحاولة صرفه عنها . وكيف ان بريطانيا احتفت بالمذهب الطبيعي في الهند ونشرته ، واتخذت منه سلاحاً خطراً ضد المسلمين . فحين عجز الاستعمار عن تحويل المسلم عن الاسلام بالتبشير ، عمد الى هدم عقيدته بالمذاهب المادية . وفي مقدمتها مذهب الدهرية . ولذلك فقد حمل حملة عاصفة على هذه المحاولة وعراها .

وانطلاقاً من طبيعة جمال الدين ومزاجه الشخصي كانت محاولة الاصلاح التي قادها تهدف الى اتخاذ الثورة السياسية كأسرع الوسائل الى تحرير الشعوب الاسلامية ، ولذلك فهو لم يتجه الى وسائل الاصلاح الاجتماعي والتربوي والتعليم ، ولم يتعمق دور المفكر في حل المشكلات فقد كان ذلك كله عنده انما يجيء بعد قيام حكومة تحمل لواء دعوته في اي مكان من عالم الاسلام ، ولذلك فقد كانت دعوته اساساً تتجه الى الثورة كوسيلة جذرية للقضاء على الفساد والجمود والانظمة والقوانين المتخلفة ، موقناً بان الثورة تفتح الطريق امام الوحدة والالتقاء بين اجزاء العالم الاسلامي وتحرره من نفوذ الاستبداد والاستعمار معاً .

وقد كانت دعوته الى الجامعة الاسلامية من اخطر ما واجهه الاستعمار والنفوذ الاجنبي الزاحف لتقطيع اوصال العالم الاسلامي والسيطرة عليه . ولذلك فقد قاومها مقاومة كبرى ، ووجه الى الدعوة والى القائمين بها كل اهتمام . وقد بلغ به الامر ان اصدر قراراً بمنع دخول جريدة العروة الوثقى الى العالم الاسلامي ، وحدد عقوبة صارمة لكل من يوجد عنده عدد منها . ومع ذلك فقد وصلت العروة الوثقى الى كل مكان . وكانت مدرسة تكون من خلالها نوابغ العصر ودعاة الاصلاح . ومن الحق ان يقال ان التجني كان بالغاً بالنسبة لرأي جمال الدين في الجامعة الاسلامية ، ولكن الاستعمار كان حريصاً من ان يسكت هذا الصوت . ذلك ان جمال الدين لم يكن في مطالبته بالوحدة الاسلامية يستهدف قيام دولة اسلامية كبرى ، وانما كان في حدود ما عبر عنه .

« لا التمس بقولي هذا ان يكون مالك الامر في الجميع شخصاً واحداً . فان هذا ربما يكون عسيراً ، ولكني ارجو ان يكون سلطاناً ،جمعهم القرآن ووجهة وحدتهم الدين ، وكل ذي ملك على ملكه يسعى بجهده لحفظ الاخرين ما استطاع . فان حياته وبقاءه ببقائهم » .

ويقول رشيد رضا : ان ما اشتهر عن جمال الدين من كونه يريد بالجامعة الاسلامية ان يكون للمسلمين كلهم دولة واحدة ، فلم اره في شيء من العروة الوثقى ولا في غيرها مما كان يرويه عنه الاستاذ الامام ( اي محمد عبده ) وهو اعلم الناس بمقاصده واعماله . وربما كان يتطلع الى مصر كنقطة بدء لهذه الدعوة ، ويتجلى ذلك في عبارة الشيخ محمد عبده : « كان غرضه ترقية دولة اسلامية ، اية دولة كانت . فبدأ بمصر . فلما اخفقت خططه تعلقت آماله بالمهدي ، ثم ببلاد ايران واخيراً بالدولة العثمانية » . وتبعاً لمزاجه الدموي فقد اختار وسائل الثورة السياسية « وخيل اليه انها اسرع الطرق ، واكدها في تحرير الشعوب الاسلامية . اما وسائل الاصلاح التدريجي والتعليم ، فكان يرى انها بطيئة وغير محققة لغايته » .

ويبدو اختلاف الوسائل بين جمال الدين وبين الوهابية والسنوسية والمهدية اختلافاً بين حركات استطاعت ان تحكم ، ودعوة لم يتحقق لها ذلك ، لعدة

عوامل حتى ليمكن القول بان حركة ( جمال الدين محمد عبده ) هي حركة بناءة خارج مجال النفوذ السياسي . ومن هنا كان عمق اثرها ومفعولها .

والفارق بين جمال الدين والحركات الثلاث ، هو فرق في الزمن ، وفرق في المكان، وفرق في التصوّر العقلي، وفي تطويد النفوذ الاجنبي نفسه وتغييره لاسلحته . فقد ظهر جمال الدين في الحواضر ( ايران ، مصر ، تركيا ) وفي ظل حكومات قائمة ( الشاه ، اسماعيل ، السلطان عبد الحميد ) .

كما ظهر في مواجهة تقدم الزحف الاستعماري حيث لم تواجه الدعوات الثلاث . هذا الزحف مباشرة في تاريخها ، كما واجهه جمال الدين - بريطانيا في الهند وفي فارس وفي مصر . وامام مواقف حاسمة كامتياز التنباك في فارس . وقناة السويس في مصر ، ثم الثورة العرابية ، والاحتلال البريطاني لمصر والسودان وتونس .

لقد جاء في مواجهة العاصفة الزاحفة على العالم الاسلامي لتدمير مقوماته الفكرية .

امتاز جمال الدين بانه كان واسع الثقافة العصرية بالاضافة الى الثقافة الاسلامية . فقد قصد الى لندن وباريس وبرلين وبطرسبرج - ورأى العالم الغربي وهو يتأهب لالتهام العالم الاسلامي ، وقرأ مختلف الفلسفات والاديان والمذاهب ، ووقف على تاريخ الحضارات والدعوات ، وافاد من ذلك للاسلام نظرة سريعة قوامها تحرير الفقه الاسلامي من الجمود وتحرير العقائد من التقليد ، وكانت دعوته الى عقد اواصر الوحدة والالفة بين السنة والشيعة بعد خلاف مرير استمر اكثر من ثلثمائة عام عملا هاماً بعيد المدى ، وكان يكافح من اجل تغيير الانظمة القائمة في العالم الاسلامي بالقوة والثورة ( وكان يرى جواز خلع وقتل امراء المسلمين الذين يشجعون الاعتداء الاوربي او يرضون عنه[1] . فيقسمون بذلك الحوائل بين الناس وبين خلاصهم على ما يرجون ) .

***

---

١ - المنار : جـ ٩ - ص ٤٠٠ .

وكان يرى ان انقضاء اجل الاستعمار انما يتم بزوال الاسباب التي مكنت اهله من التسلط ، واكرهت الشعوب على الخضوع له ، وذلك متى تعلمت وتيقظت وقويت وبدأت بالتمرد على الغاصب الدخيل . وعنده ان التفاوت بين الشعوب ، واستعمار دولة لاخرى ليس قانوناً ازلياً لا يمكن تبديله . بل هو حادث وقتي يزول بزوال مسبباته كغيره من الحوادث التاريخية والاجتماعية الخاضعة لنواميس التطور .

« ولما كان لحياة الامم والدول اذوار واجيال ، ولحدوثها وتكونها ، ثم ضعفها وانحطاطها اسباب وعوامل الاستعمار خاضعة لتلك النواميس الكونية بمعنى انه يصل الى حد محدود واجل معلوم » .

وبذلك كشف جمال الدين عن النفس الاسلامية ذلك الاحساس المظلم الذي عايشها خلال فترة الضعف وتأثير مفهومية الجبرية ، واعطاها روح الاحساس بالحياة والعمل والتطلع الى الحرية .

وقد كانت مفاهيم جمال الدين التي ضمنتها « العروة الوثقى » بعيدة الاثر في الجيل المتطلع الى العمل في مجال الاصلاح والتجديد . يقول رشد رضا . وهو واحد من هذا الجيل الذي تابع جمال الدين ومحمد عبده ، وحمل لواء الحركة بعدهما : « ان العروة الوثقى نقلتني الى طريق جديد في فهم الدين الاسلامي ان الاسلام ليس روحانياً اخروياً فقط . بل هو دين روحاني جسماني أخروي ودنيوي ، وان مقاصده هداية الانسان الى السيادة في الارض بالحق ليكون خليفة الله في تقرير المجد والعدل . واحدث لي هذا الفهم الجديد في الاسلام رأياً قوى الذي كنت اراه في ارشاد المسلمين . وكان همي محصوراً في تصحيح عقائد المسلمين ونهيهم عن المحرمات ، وتزهيدهم في الدنيا . فقد تعلقت نفسي بارشاد المسلمين عامة الى المدنية والمحافظة على ملكهم ، ومباراة الامم العزيزة في العلوم والفنون والصناعات وجميع مقومات الحياة » .

ومن الحق ان يقال ان جمال الدين قد غير العقلية العربية الاسلامية في مجال المجتمع والسياسة تغييراً بعيد المدى يتمثل في عبارة محمد عبده .

« كان اهل مصر قبل قدوم جمال الدين يرون شؤ ونهم العامة ، بل الخاصة ملكاً لحاكمهم الاعلى يتصرف فيها حسب ارادته ، ويعتقدون ان سعادتهم وشقاءهم موكولان الى امانته وعدله او خيانته وظلمه ، ولا يرى احد منهم لنفسه رأياً يحق له ان يبديه في ادارة بلاده . وفي آخر ايامه الح في طلب الحكم النيابي وحرض عليه ، وكان ذلك آية المقاومة الفكرية السياسية » .

وعبارة جمال الدين في هذا المجال تكشف عن مفهومه العميق للحرية ، كما جاء بها الاسلام وعقدها القرآن ، ونفذها محمد . « انكم معاشر المصريين قد نشأتم في الاستعباد ، وبتم في حجر الاستبداد وتوالت عليكم قرون منذ زمن الملوك الرعاة ، وأنتم تحملون عبء نير الفاتحين ، وتعنون لوطأة الغزاة الظالمين ، تسومكم حكوماتكم الحيف والجود ، وتنزل بكم الخسف والذل وانتم صابرون ، بل راضون ، ويستنزف قوام حياتكم التي تجمعت بما يتحلب من عرق جباهكم ـ بالعصار والمقرعة والسوط وانتم صامتون ، انظروا اهرام مصر ، ومشاهد سيوه ، وحصون دمياط ، فهي شاهدة بمنعة ابائكم وعزة اجدادكم ، هبوا من غفلتكم ، اصحوا من سكرتكم ، عيشوا كباقي الامم احراراً سعداء » .

***

هذا اهم ما ألقاه جمال الدين الى قلب ذلك الجيل الذي اتصل به ، ومن الحق ان جمال الدين قد استطاع ان يترك خلال ثماني سنوات ركيزة هامة في مصر والشام والمغرب ، ركيزة ضخمة كانت بعيدة الاثر في حركة اليقظة الاسلامية ، ويمكن ان يقال ان مدرسة جمال الدين ، قد ضمت اولئك الاعلام الذين تصدروا منذ اول القرن : طاهر الجزائري ، والقاسمي ، والبيطار ، وعبد القادر المغربي ، وكرد علي ، ورفيق العظم ، وشكيب ارسلان ، ورشيد رضا ، والمراغي ، وعبد العزيز جاويش ، وابراهيم اللقاني ، وفريد وجدي ، وطنطاوي جوهري ، ومصطفى عبد الرازق ، وعبد الحميد بن باديس ، ومحب الدين الخطيب ، واحمد زكي باشا ، والبارودي ، وعبد المحسن الكاظمي ، والخضر حسين ، واحمد تيمور ، وعبد العزيز الثعالبي ، والطاهر بن عاشور ،

والعربي العلوي ، وكان على مقدمة هذه المجموعة الشيخ محمد عبده .

***

وبعد الاحتلال البريطاني بدأ دور هام لحركة اليقظة :

وذلك ان عمل جمال الدين قد مضى في طريقه ، واستقر اخيراً في عاصمة الدولة العثمانية .

اما محمد عبده : فقد رسم منهجاً جديداً للدعوة وفق حاجة المرحلة نفسها وله طابعه المستمد من مزاجعه ومفاهيمه . ذلك ان انفصال محمد عبده عن جمال الدين كان امراً محتوماً في الاغلب بحسبان الفارق بين « عقلية الثائر » و «عقلية المربى » وبحكم الزمن نفسه ، وعندنا ان اتجاه محمد عبده كان تطويراً وتعميقاً لحركة اليقظة نفسها . بعد ان ثبت ان عمل جمال الدين الافغاني قد حقق دوره الطبيعي في انه هز الحياة الاجتماعية والسياسية في العالم الاسلامي ( الهند ـ ايران ـ افغان ـ مصر ) وكان لا بد من دور جديد . ذلك هو دور محمد عبده في التربية وبناء الدعاة . وكان هذا هو مناط الخلاف حين اقترح الشيخ محمد عبده كضرورة لتحقيق خطوة اكبر في مجال حركة اليقظة تربية جيل من الشباب في مكان بعيد عن تحديات الاستعمار ، وهو ما لم يقبله جمال الدين الافغاني واتهمه من اجل اقتراحه بانه مثبط ، غير ان الزمن نفسه قد كشف عن عمق مفهوم محمد عبده في معرفة ضرورات المرحلة وحاجة الحركة ، وقد مضى جمال الدين دون ان يستطيع تحقيق هدفه من حيث اقامة حكومة اسلامية تتولى تنفيذ التعاليم الاسلامية ، وتجمع الحكومات الاسلامية الاخرى في وحدة تواجه بها الاحتلال والنفوذ الاجنبي وتناهضه .

وبدأ في ظل اندفاعة الاستعمار العنيفة التي تمثلت في احتلال مصر وتونس ان اسلوب العمل يجب ان يتغير ، وان يكون المخطط قائماً على خطة واسعة مرنة ، قوامها العمل في مجال التعليم والتربية والثقافة . ومن هنا كانت دعوة محمد عبده التي اذاعها في مصر وتونس والجزائر ، حينما حذر من السياسة ، وحين نصح بنقل مجال المعركة كلها الى مجال الثقافة والتعليم ، وبذلك حقق نتائج بعيدة المدى في خلال السنوات العشر الاخيرة من حياته ( ١٨٩٦ ـ ١٩٠٥ ) وقد امتدت هذه الحركة ممثلة في جريدة المنار التي وصلت الى اقصى مكان في العالم الاسلامي ،

وشاركها عمل فريد وجدي ومحب الدين الخطيب وكثيرين . وقد شكلت هذه الحركة ما اطلق عليه : « المدرسة السلفية » .

وكان اعتماد محمد عبده الاساسي في تبليغ الدعوة هو : تفسير القرآن على نحو عصري سلفي معاً ، محرراً مختلف القضايا والمعضلات التي كانت تواجه المسلمين في هذه المرحلة ازاء التحديات التي فرضها الاستعمار والنفوذ الاجنبي ، وحملات المبشرين والمستشرقين ، وكتّاب الغرب على الاسلام واللغة العربية ، وتراث المسلمين والعرب وتاريخهم .

وعن طريق تفسير القرآن استطاع الامام محمد عبده ان يقول رأيه في حرية بالغة ، مما لم يكن يتيسر له عن طريق الكلمة المطلقة بعيداً عن تفسير القرآن . قد ركز على مجال التربية والتعليم تركيزاً هاماً . وكان له دوره في تحرير اللغة العربية اسلوباً ومضموناً من السجع والمقدمات معاً .

وكانت ردوده الحاسمة على « هانوتو » و « فرح انطون » مجالا واسعاً لالقاء نظرة واسعة على جميع القضايا المثارة والشبهات الموجهة الى الاسلام . ومن الحق انه عالجها بحكمة وبراعة ، واضاف الى عمل قادة الحركة اضافات جديدة .

وجملة موقف الامام محمد عبده انه كان حريصاً على ان يبرز الاسلام في مكان القدرة على مواجهة الحضارة الغربية بدون تخلف ، سواء في مجال الرابطة بين العلم والدين ، او بين الدين والمجتمع . وكانت فتاواه في القضايا الهامة مثل : ذبائح اهل الكتاب ، وليس القبعة وغيرها قد القت ضوءاً ساطعاً على قدرة الاسلام في مواجهة الحضارة والزمن ، وعلى فتح باب الاجتهاد في الفروع . ويعد هذا العمل خطوة جديدة بعد عمل جمال الدين الافغاني الذي توقف عمله عند العموميات والكليات . ومن الحق ان الامام محمد عبده كان معلماً ومفتياً . وكان عمله في مجال اصلاح الازهر بعيد المدى . فقد ادخل تعليم الحساب والجبر والهندسة والتاريخ في الازهر . وكان ايمانه بأمرين لا يبلغهما ايمان : اصلاح الحكومة ، وتربية الرجال . وكان يقول : ان القيام على الحكومات الاستبدادية وتقييد سلطتها والزامها بالشورى والمساواة بين الرعية انما يكون من الطبقات الوسطى والدنيا اذا فشا فيهم التعليم الصحيح والتربية النافعة ، وصار لهم رأي

عام . وانه لم يعهد في أمة من الأمم ان الخواص والاغنياء ورجال الحكومة هم الذين يطلبون مساواة انفسهم بسائر الناس وازالة امتيازاتهم .

وكان من ابرز دعوات محمد عبده معارضة الجبرية الصوفية والدعوة الى العمل والبناء : « لماذا نعتزل الدنيا . ان علينا ان نخالط الناس ، وان نعيش في المجتمع عاملين ، وإن واجب كل مسلم صحيح الاسلام ان يؤدي رسالة الامر بالمعروف والنهي عن المنكر » .

وقد جعل من اهم ما عني به التفرقة الدقيقة بين الاسلام وبين المسلمين ، وكان مما قال وجرى مجرى الامثال « الاسلام محجوب بالمسلمين » هذا الجمود مما لا يصح ان ينسب الى الاسلام ، ما ابعد هذا عن صورة الاسلام في صفائها ووضوح بياضها . حدث هذا عند ما دخل على قلوبهم عقائد اخرى ساكنت عقيدة الاسلام في افئدتهم . وكان السبب في هذا لتمكنها من نفوسهم « السياسة » .

« تلك الشجرة الملعونة في القرآن ، نظر المسلمون الى فخفخة الوثنية ، واستعاروا من ذلك للاسلام ما هو عنه براء ، وسنوا عبادة الاولياء والعلماء ، واتخذوا من عقيدة القدر مثبطاً للعزائم ، هذه السياسة التي ادخلت على الدين ما لا يعرفه دخول البدع والخرافات والجمود ، جنى هذا الجمود على اللغة وأساليبها وعلى النظام والاجتماع ، مما ادى الى الاختلاف وتفرق المذاهب ، والشيع في الدين ، وجناية الجمود على الشريعة واهلها مما جعلها تضيق عن اهلها . كان كل متأخر يقصر فهمه على النظر في كلام من يليه هو غير مبال لسلفه الاول . بل ولا بما كان يحف بالقول من احوال الزمان ، وفقدت كتب السلف الاولين مكانتها » .

« قام الاسلام على العقل « والاقناع بالحجة » واقر الاسلام قاعدة تقديم العقل على ظاهر الشرع عند التعارض - والتجاوب مع الزمن وتطوره ، ومراعاة البيئة واختلافها ، وقام على الشورى « وعدم وجود وساطة » . والحاكم ليس بالمعصوم ، ولا هو مهبط الوحي ، وهو مطلع ما دام على الحق ورضي المسلمون عنه ، وليس في الاسلام سلطان الهي مع التسامح مع العلم ، والتسامح مع

الطوائف الاخرى وحماية حقوقها وحرية اعتقادها ، والجمع بين مصالح الدنيا والآخرة ، واباحة الزينة والطيبات ، والمزج بين الروحية والمادية » . وبالجملة فقد كان منهج فكرته في اصلاح الاسلام على هذا النحو :

الاول ـ تحرير الفكر من قيد التقليد ، وفهم الدين على طريقة سلف الامة قبل ظهور الخلاف والرجوع في كسب معارفه الى ينابيعه الاولى ، واعتباره ضمن موازين العقل البشري التي وصفها الله لترد من شططه ، وتقلل من خلطه وخبطه لتتم حكمة الله في حفظ نظام العالم الانساني وفتح باب الاجتهاد ، ومحاربة الخرافات والاباطيل التي نسبت زوراً الى الاسلام .

الثاني ـ اصلاح التعليم في الجامع الازهر وملحقاته ، بحسبانه مصدر النهضة الاسلامية ، وحصن الدين ، ومعقل اللغة ، وانشاء جيل من علماء الدين القادرين على مواجهة العصر ، وبالجملة فقد كان فهم فكرته في اصلاح الاسلام على هذا النحو .

الثالث ـ تجديد شباب اللغة العربية باصلاح اساليبها في التحرير سواء في المخاطبات الرسمية او المراسلات بين الناس ، وكان عمله في اصلاح اللغة على درجتين : « احداهما » القاء دروسه كلها باللغة الفصحى الممتازة برشاقة التعبير وبلاغة التأثير « والاخرى » مقالاته وكتاباته .

الرابع : الاصلاح السياسي . يقول : امر كنت من دعاته : حث الحكومة على الشعب وحقه على الحكومة والاعتقاد بان الحاكم وان وجبت طاعته هو من البشر الذين يخطئون وتغلبهم شهواتهم ، وانه لا يرده عن خطئه ولا يقف طغيان شهوته الا نصح الامة له.بالقول والفعل ، وان تقوم بين الراعي والرعية علاقة قوامها الطاعة من الشعب ، والعدالة من الدولة .

الخامس ـ العناية بتربية الامة تربية خاصة ، وانها مقدمة عى العمل السياسي .

السادس ـ الاتحاد العام امام العدو الخارجي ونسيان الحزازات والخلافات اثناء الخطر .

السابع ـ اعتبار الدين صديقاً للعلم اذ لا موضع لتصادمهما . فلكل منهما وظيفته التي يؤديها وهما حاجتان من حاجات البشر لا غنى لاحداهما عن الاخرى .

الثامن ـ « القرآن » يجب ان يكون اصلا تحمل عليه المذاهب والاراء في الدين .

## ( ٥ )

# الحركة السلفية

أصّل محمد عبده منهج الاصلاح الاسلامي - ورسم بكتاباته فكرة كاملة لايقاظ الفكر الاسلامي العربي ، وواجه تحديات عصره وخاصة في السنوات الاخيرة من عمره ١٨٨٥ - ١٩٠٥ في ظل توسع النفوذ الاجنبي واحتلال مصر وتونس والسودان . وسيطرة فرنسا على الجزائر .

وقد امتدت دعوة محمد عبده في ثلاث جهات متوازية في الشام ومصر والمغرب . ومنها الى اندونيسيا . وكان للهند حركتها الاسلامية المتوازية مع هذه الحركة ، ولها منهجها المستقل وفق ظروفها .

وكانت المنار هي رابطة المسلمين بعد العروة الوثقى على نفس النسق والهدف مع اختلاف الاساليب . وقد استطاعت المنار ان تغذي هذه الحركة حتى عام ١٩٣٥ . وشاركها في هذا الوقت دعاة كثيرون وكتّاب كثيرون .

وكان ابرز مجالي هذه الدعوة « المغرب » فقد وجد محمد عبده في تونس والجزائر من يؤمنون بفكرته ويسايرون خطوه . ثم كان للمغرب الاقصى امتداد آخر ، وان لم يذهب اليها الشيخ محمد عبده . وفي تونس والمغرب كانت الدعوة السلفية متقدمة في الزمن . وفي الجزائر بدأت جمعية العلماء في العقد الثاني من القرن العشرين وبرزت في العقد الرابع قوة بعيدة المدى .

***

والمعروف انه في عام ١٨٨٤ اسس محمد عبده وجمال الدين « العروة الوثقى » جمعية سرية في باريس . وقد شمل نفوذها السواحل الشرقية للبحر الابيض المتوسط وقصد محمد عبده الى تونس ١٨٨٥ واثرت فتاواه في علمائها فأيدوها .

وكانت تونس ذات رصيد في الاصلاح منذ برز الشيخ قبادو وخير الدين التونسي في محاولة الربط بين الامام والحضارة الحديثة .

وقد عاود محمد عبده زيارة تونس والجزائر ١٩٠٣ وكانت دعوته قد تطورت ، فلم يكن يدعو الى مقاومة الغاصب بالثورة بل كان يدعو الى العلم كوسيلة لمقاومة النفوذ الاجنبي .

ويرى المغاربة لشكيب ارسلان ابعد الاثر في نفوسهم ، فقد وقف مع الليبيين في حربهم مع ايطاليا . وكذلك ينسب اليه ازدهار الحركة السلفية وفق غايات استاذه محمد عبده وزميله رشيد رضا صاحب المنار الذي كان من اهم وسائل تغذية الحركة . وقد اتصل شكيب في تونس برجلين من ابرز رجال الفكر : صالح الشريف ، وعلي باش حبنة ، وكان لجمعيتي الخلدونية والصادقية بعيد الاثر في تأريث الحركة السلفية . وكان لظهور الطاهرين عاشور شيخ الاسلام وصديق الشيخ محمد عبده اثر كبير . وقد ظل شكيب ارسلان ومحب الدين الخطيب ورشيد رضا في صحف المنار والفتح ، ومعهم في مصر الخضر حسين يواجهون الحملات العاصفة على المغرب وعلى تونس ومراكش ، وبخاصة في اخطر ازمتين : وهما المؤتمر الافخادستي في تونس ، والظهير البربر في مراكش ( المغرب الاقصى ) .

ومن الذين عملوا في هذا الميدان خارج الوطن ( عبد العزيز الثعالبي ) الذي ظل مبعداً عن تونس اكثر من عشرين عاماً .

وعرض رشيد رضا في المنار الرأي في هذه القضايا ، كما واصل شكيب ارسلان من لوزان مقالاته وشاركهما على الصعيد العربي محمد علي الطاهر .

وكان شكيب ارسلان علماً باحوال المسلمين في افريقيا من ليبيا الى الدار البيضاء ، بصيراً بشبهات الاستعمار التي كان يثيرها للوقيعة بين المسلمين والبربر ، وكان مما يقوله : « في شمال افريقيا يعرفون المسلم بانه هو العربي ، والعربي هو المسلم . فالاسلام والعروبة مترادفتان .

اما الحركة السلفية في مراكش فقد كانت قوة ضخمة بعيدة المدى في مقاومة

الاستعمار . وكان قوامها عدة قادة اعلام من امثال : عبد الله السنوسي ، والمهدي الوزاني ، وابي شعيب الدكالي ومحمد بن العربي العلوي . وقد امتزجت الدعوة السلفية بالدعوة الوطنية ، فكانت دعوة الى اصلاح شامل ، ومقاومة للتخلف والجمود في مناحي الحياة .

ويؤكد العلامة علال الفاسي : ارتباط الدعوة السلفية في المغرب بابن حنبل وابن تيمية وحركة الامام محمد بن عبد الوهاب . وذلك في مواجهة مرحلة الجبرية التي مرت بها الدولة العثمانية في الفترة الاخيرة . ويرى ان علة التأخر في العالم الاسلامي كانت كامنة في « خطأ الفهم بعقيدة الجبر » . وتناول عقيدة القضاء والقدر الاسلامية على انها تعتبر عن حتمية لا مناص منها ، ولا يمكن التحرر من احداثها ، لذلك فلا محل لبذل المحاولات للخروج من اية نكبة تنزل بنا ـ وهذا ما دفع الحكام والولاة الى احتضان الصوفية ، لانها كانت تدعو الامم الى الاستسلام والرضا . وكذلك اتخذها الاستعمار سلاحاً له لهذا الغرض .

يقول : وذلك ما نشأ عن انتشار « الشاذلية » في بلادنا مع سوء الفهم لصوفيتها الحقيقية ، وترتب على ذلك ازدهار شأن طبقة من المشايخ والمرابطين اصبحوا يملكون زمام الامر في الامة ويسيرونها في الاتجاه الذين يريدون ، وقد ساعدتهم على ذلك الاسر الحاكمة .

وفي المغرب دعا السلطان المولى سليمان العلوي الى السلفية الاولى ، ومقاومة الطرق وتشعباتها وواصل الملوك الذين تعاقبوا على عرش المغرب . الدعوة الى السلفية ، فلما سقطت الجزائر تحت نفوذ فرنسا بدأت يقظة دفعت المسلمين في المغرب الى التفكير في التجنيد العسكري والاجتماعي ، وكتب احد علماء المغرب كتاباً اسماه « كشف الغمة في ان الحرب النظامية واجبة على الامة » .

وقال في كتابه : ان الأوربيين تطوروا في أساليبهم العامة ، بينما نحن لا زلنا نواصل الاساليب العتيقة في جهادنا وفي تدبيرنا . ومضى فحلل اسباب الجمود الفكري والجمود العلمي ، وكشف عن حيوية الاسلام وكونه صالحاً لكل زمان ومكان .

وقد كان لازدهار الدعوة السلفية في العالم العربي في أوائل هذا القرن واعادة طبع مؤلفات ابن تيمية وابن القيم والشاطبي ، هذه الحركة التي قام بها رشيد رضا في مصر ، وطاهر الجزائري في دمشق ، والالوسي في بغداد ، ثم ما كان من جهود الحركة الوهابية بعد تجددها في العقد الثالث وكان أول من تصدى لنشر دعوة كاملة للسلفية في المغرب هو : « عبد الله السنوسي » احد علماء القرويين والذي سافر الى المشرق ، واتصل باقطاب الدعوة ، وصدع بدعوته داخل جامعة القرويين ( الجامعة القروية )بفاس ، وتتلمذ عليه محمد بن العربي العلوي . بينما كان شعيب الدكالي يرفع صوته بالدعوة في الرباط ، ويرى الأستاذ الفاسي : ان الجانب السياسي طغى على المدرسة السلفية في مصر والمشرق ، بينما طغى الجانب الاجتماعي والعقلي في الهند . وكان للهجوم الفرنسي على البلاد ودسائس الفرنسيين في استعمال بعض مشايخ الطرق قلب سلم المعركة الى عنف شديد ، فقد جر اغلاق الزاوية « الكتانية » والحكم على رئيسها بالاعدام وتنفيذه ، واتخاذ وسائل شديدة في الحكم على « التيجانية » وغيرهم من رجال الطرق ، ومقاومة المشايخ الذين كانوا يستغلون الدين والتصوف لاغراضهم الشخصية ، وقد انضموا لصفوف الفرنسيين والاسبان ، واخذوا يوجهون الرسائل المختلفة يغرون فيها القبائل المكافحة في سبيل الله والوطن الى العدول عن الجهاد والاستسلام للاعداء . وبذلك حلت السلفية محل التصوف ، ممثلة قوة الاسلام وسلامة مفاهيمه . وكان لتحالف بعض الصوفية مع النفوذ الاجنبي دوره في هزيمة الامير عبد الكريم في الحرب الريفية عام ١٩٢٦ فقد تحالف عبد الحي الكتاني وعبد الرحمن الدرقاوي مع الفرنسيين ضد الثوار والامير عبد الكريم .

وبعد ذلك اتجه الفرنسيون الى مقاومة الشريعة الاسلامية ، ووضع المناهج الرسمية العلنية لفرنسا والمغرب عن طرق تمسيحه ، وكان الظهير البربري في ١٦ مايو سنة ١٩٣٠ ، رمزاً على هذا المخطط . هنالك تحولت الحركة السلفية الى حركة سلفية ووطنية في وقت واحد ، سلفية في اقرار الشرع الاسلامي ، ووطنية فى مقاومة السيطرة الاجنبية .

( ٦ )

# جمعية العلماء

وكانت جمعية العلماء في الجزائر عملا ضخماً بعيد المدى في مجال اليقظة والاصلاح الاسلامي . وقد كانت بعيدة الاثر بقدر خطورة مهمتها ، فلم تكن مهمتها قاصرة على تصحيح المفاهيم ، او مقاومة نفوذ الجبرية الصوفية فحسب ، ولكن كان امامها ما هو اخطر من ذلك : وهو حماية اللغة العربية التي كانت على وشك الضياع بحسب ما خطط لها النفوذ الاستعماري خلال مائة عام كاملة .

وقد برزت جمعية العلماء في عام ١٩٣٠ في ذكرى مرور مائة عام على احتلال الجزائر ، حيث حسبت فرنسا انها قد فرنست الجزائر نهائياً ، فمضت تزدهي بانها حققت عملا باهراً بعيد المدى . غير ان الامام عبد الحميد بن باديس . كذب ذلك حين اعلن صيحته في هذا الوقت بالذات ، وان كان يعمل في مجال الاصلاح منذ ١٩١٤ تقريباً .

هذه الثورة التعليمية التي احدثها ابن باديس كانت بعيدة المدى في اعداد جيل جديد يفهم الاسلام فهماً صحيحاً ، ويكتب ويتحدث باللغة العربية . حتى ليمكن ان يقال بصدق ان كل من يعرف اللغة العربية اليوم في الجزائر مدين للعمل الضخم الذي قام به هذا الداعية الدؤوب .

وكانت مجالس التذكير التي يعقدها في المساجد ذات اهمية بعيدة المدى في الكشف عن جوهر الاسلام ، وهي شبيهة بمجالس الشيخ محمد عبده في الرواق العباسي ، والتي سجلها رشيد رضا في المنار . وقد سجلت مجالس التذكير الباديسية في مجلة الشهاب ، وهي تدل على معرفة شاملة بامور العصر وما يكتنفه من ظروف طارئة ، ومدى معالجة الاسلام لهذه المشكلات والمعضلات على نحو

سمح يسير . وقد اخذ باسلوب الاجتهاد « في اختيار الرأي المناسب وترجيح الحكم المدقق دون ان يتقيد بمذهب من المذاهب ، ولا بامام من الائمة . شان السلف الصالح للخروج بالفكر الاسلامي من دائرة الضيق والجمود » . « وقد جرى في دروسه على ان شريعة الله خالدة لا تتأثر بالمكان ولا تتغير بالزمان ولا تتسم بالخصوص ، ولا تضيق بالحضارة ، ولا تتبرم بالعلم ، ولا تنبو عن التطور »[1] .

وقد رسم « عبد الحميد بن باديس » منهاجه على نحو واضح مشرق : « على مرشدى المسلمين ان يعالجوا ادواءهم بالعلاجات النافعة ، ويشخصوها لهم عند الحاجة بالعبارات الرقيقة المؤثرة في رفق وهوادة ، مجتنبين كل ما فيه تقنيط او تثبيط ، وان يعرفوهم بانهم وان ساءت نواح ، ما تزال هناك نواح صالحة ، وهناك علاجات من الاسلام قريبة وناجعة ، وان يعرفوا ما فيهم من فضائل ، وما لهم من مجد ، وما لهم بهذا الاسلام من قدر وعز ، ليثيروا فيهم النخوة ويبعثوهم على العمل والخير . هذا اصل عظيم في التربية المبنية على علم النفسية البشرية ، فان النفوس عندما تشعر بحريتها وقدرتها على الكمال تنبعث بقوة ورغبة وعزيمة لنيل المطلوب .

وعندما تشعر بحقارتها وعجزها تقعد عن العمل ، ان التحقير والتقنيط وقطع حبل الرجاء قتل للنفوس : نفوس الافراد والجماعات . وذلك ضد التربية ، وهذا مصداق لقول الرسول : « اذا سمعت الرجل يقول : هلك الناس فهو أهلكهم » .

« نحن المسلمين ربينا تربية اسلامية على الفة الجوع والتقلل من الاكل والاقتصار على قدر الحاجة ، فطعام الواحد يكفي الاثنين . بهذه التربية استطعنا ان نبقى ونعيش في مثل ما عليه معظم الامة الجزائرية من الفاقة والعوز والجوع والمسغبة . وكما ربانا الاسلام هذه التربية من ناحية الغذاء . فقد ربانا تربية اخرى من نواح اخرى ، ربانا على تمجيد العلم والمعرفة والرغبة فيهما ، والتلهف على ما فات منهما ، والاحترام لمن له حظ فيهما . وبهذه التربية استطعنا ان نحافظ

---

١ ـ مقدمة كتاب من هدى النبوى للامام ابن باديس .

على قرآننا وخطنا وبقايا علوم لغتنا وديانتنا وجملة معارفنـا واندفعنـا الى تاسيس المكاتب العربية رغم ما يحول بيننا وبينها . ولولا تلك التربية الاسلامية التـي زرعتها القرون فاستقرت فى قرارات النفوس ، وصارت من الخلق الموروث ، لكان ما نحن فيه من ظلم وتعاسة وتقديم كل احد علينا فى وطننا ، والترك لعامل التجويع والتمهيل شاغلا لنا عن العلم وعن الشعور به .

« ظنوا ان الخبز هو كل ما نريد ، لا يا قوم . اننا احياء ، واننا نريد الحياة ، للحياة خلقنا ، وان الحياة لا تكون بالخبز وحده . فهنالك ما علمتم من مطالبنا العلمية والاجتماعية والاقتصادية والسياسية ، وكلها ضرورات فى الحياة » .

( ٧ )

# الحركة الاسلامية في الهند الاسلامية والباكستان

بدأت اليقظة في الهند الاسلامية قبل وصول الاحتلال البريطاني بوقت طويل ، فقد ظهر الامام السرهندي ( أحمد عبد الأحد ) في القرن الحادي عشر الهجري ( ١٧م ) في خلال حكم الامبراطور جلال الدين أكبر الذي دعا إلى ما أسماه الدين الالهي . وقد حكم الملك أكبر خمسين عاما ( ٩٦٤ - ١٠١٤م ) وواجهت المسلمين بدعوته الى الدين الجديد محنة خطيرة . غير أن السرهندي لم يقبل تأييد الامبراطور في دعوته ، ووقف موقفا مجيداً أمام المحنة القاسية ونزل ميدان الجهاد ضد طغيان الامبراطور ودعوته الضالة ، وهاجم العلماء التقليديين الذين لم يعارضوا الملك ، بل شجعوه على نشر هذه الفتنة في اواخر القرن الحادي عشر للهجرة . وبعد ان تولى ابنه « جهانكير » اشتدت هذه الفتنة وتعرض كثير من العلماء والفقهاء للاضطهاد ، ولم يتوقف الملك عن زج الشيخ السرهندي في السجن . وكان ذلك نقطة تحول في تاريخ الدعوة الاسلامية في الهند . فقد اهتدى المسجونون الى الله ، واقلعوا عن الجريمة فلم يلبث مدير السجن أن كتب بذلك إلى الملك حتى اصدر امره بالافراج عنه واستقدمه بالترحيب ، فلما دخل على الملك سلم عليه بتحية الاسلام ولم يسجد ولم ينحن ، وأسدى الى الملك مواعظه ونصائحه .

وكان من نتائج مساعيه أن اصدر الملك قراراً بالغاء كثير من البدع والمنكرات ، ومنها ما ابتدعه ابوه نفسه . وفي مقدمة القرارات التي أصدرها جهانكير امر بتحريم السجود أمام الملك تعظيما له ، وكذلك ابطل جميع

القوانين المعارضة للتعاليم الاسلامية ، وعين قضاة مسلمين في كل بلدة[1] .

وقد واصل السرهندي دعوته بين جميع طبقات الامة ، وكاتب الامراء والرؤساء في الحكومة والجيش يدعوهم الى اتباع الحق ، ويقاوم البدع والمنكرات .

ويعد السرهندي مجدد الألف الثاني الهجري ، فقد جرد قلمه للرد على البدع والاباطيل ، وهاجم دعاة التصوف الذين تأثروا بمذاهب البرهمية وفلسفتها من وحدة الوجود والاتحاد والحلول ، ولم يتوقف عن نقض آرائهم . وقد اعلن السرهندي ان المسؤولية الاولى في نشر التعاليم الاسلامية الحقة والمبادىء القرآنية الخالصة يقع على عواتق العلماء المسلمين . كما أن تبعات النكبات التي يصاب بها المسلمون من ذلة إنما ترجع الى العلماء التقليديين الذين يتهافتون على حكام الدنيا ، ويردد قول الرسول عليه السلام : « صنفان من أمتي إذا صلحا صلح الناس جميعاً . وإذا فسدا فسد الناس جميعاً . العلماء والامراء . كما جاهد بقلمه في الكشف عن البدع والاباطيل والرد على ما ابتدعوه ونسبوه إلى الاسلام ، وعمل على اصلاح الأمراء والحكام ووجه اهتمامه نحو إسداء النصائح لحكام البلاد . وقد ألف عديداً من الكتب في الرد على فكرة وحدة الوجود والحلول والاتحاد ، وكشف عن زيفها ، وأبعد الاسلام عنها ، كما دعا إلى التصوف الاسلامي الخالص الذي ترجع اصوله الى المنابع القرآنية والنبوية .

وأبرز أعماله انه قضى على عقيدة وحدة الوجود التي تغلغلت في أحشاء التصوف ، والأدب والشعر ، وقضى على فكرة استقلال الطرق عن الشريعة وعلى كثير من العقائد والأفكار والعادات التي تسربت من الفلسفات الضالة (٩٧٧ ـ ١٠٣٤م)

## ٢ ـ شاه ولي الله ( أحمد عبد الرحيم الدهلوي )

أما شاه ولي الله فقد كان مجدداً من أبرز مجددي الفكر الاسلامي في العصر

---

١ ـ عن الدعوة الاسلامية في الهند للندوي .

الحديث . وقد عاصر الامام محمد بن عبد الوهاب وتأثر به ، وهو واحد من طراز الامام الغزالي وشيخ الاسلام ابن تيمية . كان من أكبر اعماله تصحيح مفهوم التوحيد الاسلامي ، والدعوة إلى الاتصال المباشر بالقرآن والسنة الصحيحة ، وكتابه ( حجة الله البالغة ) من الكتب المعدودة في هذا المجال .

وقد قاوم ولي الله ما ساد عصره من انحلال وفساد ، وهاجم التساهل وعدم الاكتراث واجتهد في ايجاد تفسير يجمع بين التصوف والسنة الخالصة . ويكون اكثر مرونة وتقبلاً للتطور . وقال ولي الله : إن المسلم الحق يجب أن لا يقبل الانحطاط المعاصر .

## ( ٣ )

تتمثل النهضة في هذه المرحلة بعد الاحتلال البريطاني للهند المسلمة في صورة النهضة الثقافية التى قام بها محمد قاسم النانوتري ، وسيد أحمد خان ، ومحمد علي المونكيري ، وبرز خلال هذه الحركة : شبلي النعماني ، وأمير علي ، وأبو الكلام أزاد .

وقد كانت الدعوة الى انشاء المدارس والمعاهد والجامعات بمثابة رد فعل لحركة التعليم الاستعماري الذي رفض المسلمون الاندماج فيه محافظة على دينهم . فأسس النانوتري مدرسة ديوبند عام ١٢٨٣ - ١٨٦٦م . وسعادت مدرسة مظاهر العلوم سنهارنبود وأسس محمد علي المونكيري : مدرسة دار العلوم عام ١٣١٢هـ و ١٨٩٤ م في ليكنو .

وأنشأ سيد أحمد خان مدرسة عليكرة الشهيرة عام ١٢٩٣ - ١٨٧٦ م . وكان شبلي النعماني هو أبرز معاوني احمد خان ومؤسس ندوة العلماء . وقد خلفه فيها سليمان الندوي ومسعود الندوي الذي أصدر مجلة الضياء العربية ( ١٣٥١ - ١٣٥٤ ) ١٩٣٢م - وأصدر أبو الكلام أزاد صحيفة الهلال ١٣٣٢ - ١٩١٣م .

وكانت الحركة الثقافية التي تصدرها شبلي النعماني تضم : حافظ نظير ، ومحمد حسين أزاد ، وسعد الطاف حسين تدعو إلى انهاض المسلمين في مجال التأليف والشعر والكتابة . وتعد قصيدة ( مد الاسلام وجزره ) لسيد ألطاف من الشعر الرفيع الذي هز النفس الاسلامية الهندية . ولما رأى المسلمون أن خطة احمد خان في كلية عليكرة قد اقتصرت على الثقافة الحديثة أكملوا عمله بمدارس أخرى تعنى بالدراسات الاسلامية الخالصة .

وكان أبرز أعلام اليقظة في الهند الاسلامية : شبلي النعماني ، وأبو الكلام أزاد ، وأمير علي ، وسيد أحمد خان ، واقبال .

( ٨ )

# حركة الاصلاح في أندونيسيا والملايو

على الرغم من أن أرخبيل الملايو قد دخل في الاسلام بعد الهند وفارس وأفغان بقرون عديدة . فانه قد وجد للاسلام تقبلاً روحيا ونفسيا كبيراً مما كان له ابعد الاثر في مواجهة الغزو الاستعماري البريطاني والهولندي للملايو واندونيسيا ومقاومة حركات التبشير والتغريب التي تكاثفت في سبيل اخراج هذه المنطقة من عالم الاسلام .

وتتسم حركة الاصلاح فيها بروح عالية من المقاومة والعمق . وقد عملت في ميدانين في وقتٍ واحد : ميدان تصحيح العقيدة وتجديد الفكر الاسلامي بما يجعله قادراً على الكشف عن جوهره وصلاحيته للنهضة ، وفي ميدان مدافعة الشبهات وحملات التشكيك وشبهات التبشير . وقد استمدت حركة الاصلاح في اندونيسيا والملايو من حركة الاصلاح الاسلامية التي حمل لواءها الامام محمد عبده وجريدة المنار زادها واسلحتها فاحدثت يقظة كبرى في سومطرة وجاوة . وكانت شركة اسلام التي تأسست ١٩١٢ ومن بعدها مجلس العلماء والجمعية المحمدية ، كلها قوى ايجابية عاملة في هذا المجال على الرغم من اختلاف ميادين عملها .

وقد حملت هذه الجماعات لواء العمل في كل الميادين ، وبدأت بالعمل في الميدان الاقتصادي في محاولة لتحرير الاقتصاد القومي من براثن النفوذ الاجنبي وخلق اقتصاد اسلامي يحفظ للمسلمين ثرواتهم . ومن خلال هذا العمل

توسعت أهداف عمل الاصلاح في مختلف الميادين واهمها الوحدة الاسلامية والكفاح المشترك للخلاص من الاستعمار والحركة الوطنية ومقاومة التبشير وبناء المساجد والمدارس والمعاهد والأندية لمواجهة القوى المؤ يدة بالنفوذ الاستعماري .

وقد استغل المصلحون المسلمون كل اسلحة المستعمر في سبيل مقاومته ، وخاصة ما كان يجمله طابع الحكم الاستعماري في اندونيسيا عن طريق الهولنديين بصبغ استعمارهم بصبغة دينية ، وتحدثهم دوما عن القضاء على دين محمد ، والقول بانهم في أندونيسيا بارادة الله ، وانهم يحملون السيف ويقاتلون لهذا الغرض . وفشل النفوذ الاستعماري بالقضاء على الوعي الاسلامي ، واستطاعت المعاهد والمدارس الاسلامية ان تحد من نفوذ التبشير ، وان تقاوم حركة الفصل بين العرب والوطنيين . كما عمدت هذه الهيئات الى مقاومة نفوذ الوثنية والهندوكية . وقد اعلنت عن ذلك صراحة الجمعية المحمدية ، التي أنشأها المجاهد احمد دحلان عام ١٩١٢ في جاكرتا حين سجلت في ميثاقها « تنقية عقيدة الاسلام من آثار الديانات الاخرى : كالبرهمية والبوذية واوهامهما » كما عنيت هذه الهيئات بالمرأة المسلمة ، فأنشأت اقساماً خاصة لتربيتها وتعليمها وتكوينها تحت اسم « العائشية » ضمت الفتيات المسلمات من مختلف انحاء اندونيسيا ، وعملت على تنشئتهن تنشئة اسلامية قوية . وقد كانت هذه الحركة الاسلامية هي نواة الحركة الوطنية ، فقد اوقدت المقاومة ضد الاستعمار الهولندي بحيث لم تتوقف من بعد .

وقد اعترف سنوك هروجينيه ( كبير خبراء التبشير والتغريب ) في أندونيسيا بان هذه الحركة كانت بعيدة الأثر في مقاومة النفوذ الاستعماري ، والحيلولة دون تحويل اندونيسيا الى الغرب كلية ، وعزا ذلك إلى أثر الازهر ، وخريجي أندونيسيا والملايو منه ، ومن الدارسين في مكة .

ويمثل عصر الاستعمار الهولندى ، اخطر عهود المقاومة فى الفترة من عام ١٥٩٦ الى ١٩٤١م . وقد كان لهذه الفترة اثرها البالغ في الحد من نفوذ الاسلام وتوسعه . والقضاءعلى اللغة العربية في أندونيسيا . وفرض كتابة اللغة

الأندونيسية بالحروف اللاتينية ، على الرغم من رغبة الأهالي الذين كانوا يرون الارتباط قوياً بين اللغة العربية والاسلام - يقول فؤاد محمد فخر الدين « إن الاسلام قد جاء بالعربية الى هذه البلاد ، هذه اللغة التي لا تفارق الاسلام أينما ذهب ، هي لغة الوحدة الدينية لجميع المسلمين ، وهي تربط أرواحهم رغم اختلاف أجناسهم ، وبها يتلون القرآن ويقفون على أسراره . واللغة الأندونيسية قد اقتبست واستمدت كثيراً من كلماتها من اللغة العربية ، واتخذت منها مصطلحات عديدة . وقد جاء ذلك عن طريق الاسلام نفسه .

وما تزال اللغة العربية بعيدة الأثر في نفسية الشعب الأندونيسي ، بينما لم تؤثر الهولندية أو اليابانية في روح الشعب ، لأنها فرضت فرضا خلال فترة الاحتلال الأندونيسي او الاحتلال الياباني ( ١٩٤٢ - ١٩٤٥ ) كما عمد النفوذ الأجنبي الى اصطفاء طائفة من الشباب الأندونيسي ونقلهم إلى انجلترا وهولندا ، وكونهم تكويناً خاصا اراد به فرض نفوذه عن طريقهم .

وقد حرص التعليم الغربي والتبشيري الى توهين اسس الاسلام في نفوس الشباب ، وأن يحمله على كراهية ثقافته القديمة ، فيقطعه بذلك عن تاريخ وروح الأمة التي ولد فيها ، والتي سيعمل من اجلها . وهذا هو ما تقوم به السياسة الاستعمارية في مختلف بلاد الاسلام ، وكان من دعواه احياء مجد الامبراطوريات الوثنية القديمة السابقة للاسلام كما فعل في العالم العربي حين دعا إلى الفرعونية في مصر، والفينيقية في لبنان، وفي اندونيسيا اتجهت الدعوة إلى احياء امبراطورية ما جاباهت الوثنية والمغالاة في تقدير هذا التاريخ ومحاولة اتخاذه مثلا اعلى في البطولة ، وكذلك كان لعلماء الآثار وعلماء اللغات القديمة دعواهم في هذا المجال . وقد جرت محاولات لمقارنة العصر الهندوكي الجاري القديم بمجد العصر الاسلامي في محاولة لرفع شأن الهندوكية على حساب الاسلام ، كما حاولت القوى الاستعمارية صبغ الجامعة الأندونيسية بصبغة قومية خالصة لاخراجها من جوهرها الاسلامي ، وطبعها بروح اقليمية ووثنية قديمة ، وذلك في محاولة لاقصاء مفهوم الوحدة الاسلامية التي تدعو إليه الحركات الاسلامية .

وقد عمقت قوى التبشير اعمالها وزاد من نشاطها ما قدمته لها الدول الأوربية من مساعدات بشكل واضح منذ النصف الأول من القرن التاسع عشر ، حيث ابدوا نشاطاً واسعاً ، وأحرزوا بعض النجاح في مناطق نائية ، وجزر غير رئيسية . اما في أهم نواحي أندونيسيا فإنهم قد واجهوا مقاومة واسعة ووجدوا في اسلام منافساً قوياً لبساطته وسماحته التي تملأ القلوب . وقد عانت البعثات التبشيرية والارساليات خسائر كبيرة في هذا المجال ، فهم يربطون بين هذه البعثات وبين النفوذ الاستعماري بينما يربطون بين الدعوة الاسلامية وبين الحرية والمساواة والاخاء .

وقد واجهت جماعات شركة اسلام والمحمدية والشبان المسلمين حركة التبشير ، واستطاعت مقاومتها عمليا ، وقد اعترف ( المستشرق ك .ك . برج ) في كتابه : ( وجهة الاسلام ) إلى الدور الضخم الذي قامت به هذه الجماعات فقال : كان لها شأن عظيم بانشائها المدارس وتأسيسها المكاتب وفتحها إياها على المصراعين وبيع الكتب ، وانشاء المستشفيات ومآوي الفقراء ، وملاجىء الأيتام ، ونشر الثقافة الاسلامية والدعاية وترجمة الكتب الاسلامية الى لغة البلاد ( فضلاً ) عن الأخذ والتوفيق بين الاسلام وبين الظروف الجديدة ( وبذلك ) قطعت الطريق على المبشرين المسيحيين من وجوه كثيرة ، بعد أن اصطنعت وسائلهم .

ويقول الدكتور سنوك هروجنيه الهولندي الذي أمضى سبعة عشر عاماً في الهند الشرقية الهولندية مستشاراً لحكومة هولندا واستطاع أن يدرس قضايا الاسلام ، ويواجه مشاكل النفوذ الهولندي مع ٣٥ مليونا من المسلمين في أندونيسيا ، وساح في البلاد الاسلامية خلال ربع قرن يراقب الحركات الاسلامية . قال : إن المبشرين لا يزالون يتوقعون انضمام كل الأديان اليهم . أما بالنسبة للاسلام فلا تتحقق احلامهم . لأن الدين الاسلامي سيظل ديناً قوياً نشيطا . ذلك أن للاسلام شرائع تتعلق بالحياة في كل أطوارها . شخصية وعمومية وفردية واجتماعية . ومن الحق أن الاسلام في القرن الماضي تعرى من استقلاله السياسي باعتداء الدول الاوروبية عليه ، ونتج عن ذلك أن الاسلام اضطر أن يعدل آراءه وأعماله .

« وقد استنتج الباحثون أن القضايا الروحية متصلة تمام الاتصال بالقضايا المادية في الاسلام بحيث ان سقوط الاسلام السياسي يستلزم سقوط الاسلام نفسه ، ولكنني لا أوافقهم على هذا الرأي » . « وإذا كان الاسلام قادراً على احتمال ذلك التغيير ، فهو قادر على أن يطبق نفسه على قضايا الحياة الحديثة بطريقة يستطيع بها تابعوه ان يكونوا في مقدمة الصفوف فى ارتقاء العالم ومدنيته » .

والمسلمون لا يقصدون أن يغيروا دينهم ، وقد احتاطوا اعظم الاحتياط لهذا الامر الذي أدركه كل المبشرين المتنورين في أرض الاسلام . ففي الهند الشرقية الهولندية . حيث قضيت سبع عشرة سنة ملتصقا تمام الالتصاق بالمؤسسات الاسلامية لا يقدر المرسل الديني أن يربح تابعين لدينه . ولا أعتقد أبداً أن الدين الاسلامي يسقط أمام الأديان الأخرى ، لأن المسلم محتاط أشد الاحتياط لمقاومة النفوذ الغريب ، وقد يرى أن تدينه بدين سابق ، خطوة إلى الوراء .

وقد تغلغلت الأفكار الأوربية في كل جهة من الأراضي الاسلامية ، ولكن لم يجد فيها الشعور الغربي مركزاً . ولهذا قيل بأن المسلمين سيستمرون على دينهم مهما اتخذوا من التهذيب والمدنية الغربيين . وفي كل المدارس الأوربية نجد كثيراً من الطلبة المسلمين قد درسوا العلوم الغربية بفروعها ، ولكن مجرى عقلهم لا يزال اسلاميا ، وقد كان بين يدي طلاب مسلمون . وعندما كنت أتناول مباحثهم التي يكتبونها . كنت أرى فيها مظاهر فكر إسلامي في شكل يختلف كل الاختلاف عما يكتبه طلبتي الآخرون . بل كنت أعرف الطالب المسلم من مباحثه .

ولا يمكن أن يقع انحطاط تدريجي في الاسلام ، حيث توجد بواعث خارجة تمنعه ، فالاسلام قوي لم يضعف ، ولا سيما في القرن الماضي . وقلّت فيه الانشقاقات الداخلية ، وزاد على ذلك أن الاسلام يربح أكثر من غيره ، تابعين له من الوثنية ، فالذي يصير مسلما لا يطلب منه شيء كثير . إذ لا يوجد تقديس ولا طقوس دينية ، ولا تعليم طويل .

فكل ما يطلب منه ان يعترف بالله أنه كلي الموة ، ومن ثم يتدرج إلى تعليم الفضائل الاسلامية وعندما يصير مسلماً يتغير مركزه الاجتماعي ، ولكن إذا اختار دينا آخر . فإنه يبقى دون غيره ا هـ .

# ( ٩ )

# الحركات الصوفية

لا يستطيع الباحث في تاريخ العالم الاسلامي المعاصر أن يتجاهل الدور الضخم الذي قامت به الحركات الصوفية كجزء من حركة اليقظة والاصلاح الاسلامي ، فالحركة السنوسية ، والحركة المهدية لها طابع صوفي ، وان كانت قد ربطت بين دورها الصوفي القائم على تربية النفس ، وبين دورها في الاصلاح الاجتماعي ومقاومة النفوذ الاستعماري .

والحركة الصوفية في مفهومها الأصيل هي تكوين أجيال من المسلمين على التربية النفسية المفطومة عن الشهوات القادرة على مواجهة انحلال المجتمعات بايجابية وقوة ، ومجابهة الغزو الخارجي بنفسية المجاهد المعتد للاستشهاد في سبيل حماية الفكرة والذود عن البيضة والدفاع عن الأرض والوطن . غير أن الحركة الصوفية لم تلبث أن انحرفت عن مفهومها الأصيل حين دخلت عليها مفاهيم فلسفية هندية ويونانية ، قتلت فيها روح الجهاد والمقاومة ، وأسلمتها إلى التواكل والجبرية . هذه الصوفية التي قاومها ابن تيمية ، ثم قاومها محمد ابن عبد الوهاب في العصر الحديث بعد أن تركت آثارها البعيدة المدى في المجتمع العثماني في العصور الاخيرة .

لذلك فقد كانت السنوسية والمهدية من بعدها تحريراً للصوفية من جمودها ، وتخليصاً لها من مفهوم الجبرية ، ومفاهيم الحلول والاتحاد ووحدة الوجود . وكانت السنوسية والمهدية ثمرتين خالصتين من ثمار دعوة التوحيد التي قادها محمد بن عبد الوهاب ـ غير أن هناك طرقاً صوفية اخرى ظهرت في آسيا وأفريقيا كان لها دورها الضخم : كالشاذلية ، والتيجانية ، والرفاعية ، والقادرية .

هذه الطرق كانت بعيدة المدى في نشر الاسلام ، ومقاومة حركات التبشير العربية التي انطلقت موازية للنفوذ الاجنبي منذ أواخر القرن التاسع عشر . ودور هذه الطرق ، بالاضافة الى السنوسية والمهدية لا حد لاهميته في الدعوة إلى الاسلام . غير أن انحرافات قد أصابت هذه الحركات ، حيث اتصل بعضها بالنفوذ الاستعماري ، وعاونه على توطيد نفوذه .

وإذا كانت السنوسية قد نشأت في مواجهة تحدي الغزو الفرنسي للجزائر ، فكانت عاملاً خطيراً في وجه التوسع الغربي فى أفريقيا، فان الطريقة النقشبندية التي نشأت في أواسط آسيا وامتدت شرقا حتى بلغت الصين كانت عاملا هاماً في ثورة المسلمين الكبرى في تركستان الصينية ، كما اوقدت الثورات ضد النفوذ الاستعماري في جزائر الهند الشرقية ، وكذلك كانت المهدية عاملاً في نشوب الثورة ضد النفوذ الأجنبي في أفريقيا .

وفي قلب أفريقيا ظهر « مهدي الصومال » الذي اشعل الحرب ضد النفوذ الأجنبي بها سنوات ، ويسجل المؤ رخون ظاهرة انتعاش الاسلام ، خلال القرنين الثامن عشر والتاسع عشر الميلاديين، من طريق نشاط حركة التصوف فقد شهدت هذه الفترة ولادة الطرق الصوفية التي كانت تتميز باتساع رقعة الفرق القديمة وتأسيس فرق جديدة ، كما ازدهرت الحركة الصوفية « في البلاد الاسلامية غير العربية » .

وتحتل المجموعة العربية البربرية في أفريقيا المغربية التي لعبت في الماضي دوراً هاما في الحركة الصوفية خلال القرون الوسطى مركزاً في الدرجة الاولى من هذه النهضة الحديثة لحركة الصوفية . وقد أسس عدد من الطوائف الجديدة في القرن ١٨ الميلادى، في كل من الجزائر ومراكش، وقامت هذه الفرق بنشاط شديد لا في مواطنها فحسب ، ولكن كذلك في الصحارى وفي أفريقيا الغربية .

وقد كان لهذه الطرق الصوفية أثرها الواضح في توسيع رقعة الاسلام في أفريقيا ، وجنوب شرق آسيا في العصر الحديث . فقد أدخلت ملايين كثيرة من الوثنيين ، وحققت نسبة عالية للاسلام في أفريقيا بالذات .

وقد كان لتوجيهات جمال الدين ومحمد عبده في مفهوم الصوفية وتحريره من الجبرية أبعد الأثر في طابع الايجابية الواضح في هذه الطرق والفرق . غير أن هذه الطرق هي القوة الذاتية الوحيدة التي وقفت ولا تزال تقف أمام البعثات التبشيرية في الهند وأندونيسيا وجزائر الملايو وأفريقيا . وقد اختطت الحركة طريقها في الأغلب في المناطق الوثنية . أما في المغرب والجزائر فقد تعارضت بعض الطرق والفرق مع الحركة الوطنية . ومن هنا دافعتها الحركة السلفية ، وقضت عليها ، بعد أن ثبت اتصال بعض الطرقيين بالمستعمرين واستغلال تصوف الاسلام استغلالا خاطئاً منحرفا . وهناك ظاهرة واضحة جديرة بالتسجيل هي : أن النفوذ الاستعماري قد حاول الانتفاع بالطرق الصوفية في مصر وشمال أفريقيا . من أمثال الشيخ الدمرداش في مصر وشيوخ التيجانية والكتانية في المغرب . ولقد كان للتيجانية دور خطير في مقاومة جهاد الأمير عبد القادر الجزائري والأمير عبد الكريم الخطابي . فقد أعانوا النفوذ الاستعماري الفرنسي وأيدوه .

وقد قامت الحركة السلفية في المغرب وجمعية العلماء في الجزائر بدور كبير في معارضة الدور الذي قامت به هذه الطرق ، وكشفتها أمام الجماهير الاسلامية ، وسجلت عليها أخطاءها وتصرفاتها المعارضة للوطنية والاسلام معاً . وقد اتخذت الحركة السلفية في مواجهة ذلك أسلوب العمل الايجابي حيث بدأت بإنشاء المدارس القرآنية في مختلف القرى ، وكشفت عن مفهوم الاسلام في مفهوم التصوف نفسه . وكان للحركة السلفية التي قادها الشيخ محمد عبده في مصر دورها في توجيه الطرق الصوفية في مصر فالف محمد توفيق البكري نقيب الأشراف كتابا هاماً في هذا الصدد كشف فيه عن مفهوم الصوفية للاسلام تحت عنوان ( التعليم والارشاد ) أشار فيه ان للمعرفة طريقين : طريق النظر والاستدلال ، وطريق الرياضة والكشف . وقال إن العلوم الضرورية هي العقائد والعبادات وتدبير المال ، وتدبير الأمة ، وتدبير المنزل ، وعنده أن للتربية ثلاث مدارس : مدرسة العائلة ، ومدرسة التعليم ، ومدرسة الدنيا . والمبادىء السائدة في المدارس الثلاث متناقضة للآن في ما تعلمه . مدرسة العائلة ومدرسة التعليم ، هما الأساس الذي تشيد على دعائمه

آثار التربية في المدرسة الثقافية . لهذا وجب أن يكون في الأمة رجال أقاموا انفسهم مرشدين يختص كل منهم بفئة من الناس ، يلازمهم ويراقب اعمالهم ، ويردهم إلى الفضيلة عن الرذيلة . وإلى الصواب عن الخطأ ، ولا ينقطع أثر تهذيبه وتقويمه عنهم مدى العمر ، ولما كان مشايخ الصوفية وخلفاؤهم هم الذين انتدبوا للارشاد بين الناس فهم فرسان هذا الميدان ، ورجال هذا المعترك ، وعليهم المعول في التقويم والتثقيف .

***

وفي مختلف أنحاء العالم الاسلامي توجد فرق الصوفية وخاصة في تركيا وإيران وباكستان وأفغان والملايو : النقشبندية والشنشنية والقادرية والجيلانية والمولوية ، وهي ما تزال أقوى مما هي عليه الآن في البلاد العربية ، التي غلب عليها مفهوم السلفية المحررة للفكر الاسلامي من الغيبيات والجبرية ، وهي سائرة في طريقها إلى التماس مفهوم الاسلام والتحرر من مفاهيم الفلسفات الهندية واليونانية التي تتصل بوحدة الوجود والاتحاد والحلول .

( ١٠ )

## ثمرة الحركات الاسلامية

قامت حركة اليقظة والاصلاح الاسلامية على إبداع جهاز دفاعي للاسلام ، عماده التماس المنابع الأصيلة وجوهر الاسلام ، وقد عملت على تحقيق أمور ثلاثة :

( ١ ) تحرير الفكرالاسلامي من التقليد والجبرية والجمود ، وإعلان أن باب الاجتهاد مفتوح لم يغلق ، وإزالة ما تجمع خلال فترة الضعف مما نسب إلى الاسلام أو وصل به وهو ليس منه ، وفي مقدمتها الوثنيات وطوابع الفلسفات المادية والقديمة .

( ٢ ) التوفيق بين الاسلام وقضايا العصر والحضارة على النحو الذي يحقق قيام المجتمع الاسلامي على روح الاسلام وقيمه مع انفتاح على الحضارة وعرض الاسلام كأيديولوجية صالحة لنظام المجتمع والكشف عن أنه دين ومدنية معاً ، وليس ديناً لا هويتا خالصاً ، وأنه لا يقف عند جانب معين من حياة الانسان وشؤونه ، وأنه يربط بين عنصري الفرد والجماعة ويصهرهما معاً . كما يربط بين الروح والمادة والعقل والقلب والدنيا والآخرة .

( ٣ ) مقاومة الاستعمار والنفوذ الاستعماري والتفرقة بين الاستعمار والحضارة من ناحية والثقافة والحضارة من ناحية أخرى .

وقد تتابعت حركات اليقظة حلقات متصلة بدعوة التوحيد ، وتوسعت فروعها

في تغطية مختلف الجوانب ، ومواجهة مختلف التحديات دون أن تنزع نفسها من الترابط : التاريخ العضوي المتصل اساساً بمفهوم الاسلام كما رسمه القرآن وطبقه الرسول صلى الله عليه وسلم .

وقد كان عمل المجددين المسلمين من المصلحين والسلفيين بالغ الأهمية والخطر . فقد كانوا يواجهون روحا من الجمود.والجبرية ، وكان العمل للخروج من ظلمات مرحلة الضعف والتخلف يحتاج الى كثير من الحضانة والمرونة .

وكان الهدف هو توحيد فكر المسلمين على مفاهيم مستمدة من القرآن أساساً : باعتباره ينبوع الفكر الاسلامي ، والثقافات العربية والفارسية والتركية والهندية والملاوية والأندونيسية ، وهي مفاهيم أكثر ايجابية وتحرراً مما وصل إليه المسلمون من جمود وجبرية ، وكذلك التقريب بينهم اجتماعيا وفكريا بعد أن باعدت بينهم خلافات مذاهب الفقه والفلسفة والتصوف وأهمها الخلاف بين السنة والشيعة ، ولم تكن هذه الخلافات في مجموعها الا خلافات الأحزاب السياسية التي انطوت وانتهت وكان على هذه الخلافات أن تنتهي معها . ثم إنها لم تكن تنصب إلا على مسائل فرعية لا عبرة بها ، ولكن الأحزاب السياسية القديمة المختلفة قد غالت وقسمت الناس إليها ، ثم توارث الناس هذا الانقسام .

فلما جاء الاستعمار الغربي والنفوذ الأجنبي حرص على إبقاء هذا الخلاف وتأريثه . وذلك بالتحريض الذي شجع عليه بين السنة العثمانية والشيعة الفارسية . وكان له دور في ابلاغ الخصومة مبلغها بين فريقين من المسلمين يقولان لا إله إلا الله ، ويجتمعان في أصول فكرهما حول مفهوم التوحيد والنبوة . وقد حرص الاستعمار والنفوذ الغربي في كل مكان حل فيه على إثارة الخلافات والمذاهب القديمة كالفينيقية في الشام ، والفرعونية في مصر ، والبربرية في المغرب ، وأوقد الصراع بين المسلمين والهندوس في الهند ، وحاول إحياء التاريخ القديم السابق للاسلام في فارس وأندونيسيا والهند وتركيا . وذلك في محاولة خطيرة للحيلولة دون اجتماع المسلمين على فكر

موحد يكونون به أقدر على الالتقاء والمواجهة الموحدة للنفوذ الاستعماري ومقاومته والقضاء عليه .

وقد عمد جمال الدين الأفغاني الى تحقيق ذلك حين حمل لواء الدعوة إلى اللقاء بين السنة والشيعة . وقد سارت هذه الدعوة من بعد خطوات واسعة .

كذلك عمد الألوسي ( أبو الثناء ) إلى التقريب بين الفقهاء والصوفية ، وتوحيد قلوب أهل العراق خاصة ، والمسلمين عامة سنيهم وشيعيهم ، ورفض الخلافات بينهم عن طريق التقريب بين المذاهب .

ومثله فعل العلامة جمال الدين القاسمي في الشام حين اعلن أن الاسلام لا يجيز تكفير أحد ممن استقبل القبلة ، كما هاجم التعصب بحسبانه مفرقاً بين الناس ومقيداً للمعقول . وقدنجحت الحركة السلفية الاصلاحية في كل مكان سارت إليه حين تخطت الحدود غرباً حتى وصلت إلى المغرب الأقصى ، وشرقاً حين وصلت إلى الهند الاسلامية وأندونيسيا ، وأعطت الأعمال السياسية والاجتماعية صبغة اسلامية خالصة ، وعملت على التوفيق بين الاسلام وحاجات العصر . وكان ا الامام الشوكاني في اليمن ( ١١٧٣ - ١٢٥٠هـ ) مقدمة لليقظة التي تلت حركة التوحيد في شبه الجزيرة . وكان قد سبقته دعوة محمد بن إسماعيل الأمير ( ١٠٩٩ - ١١٨٢م ) وكانت كتابات الشوكاني ذات أثر في ازالة الركود المتراكم خلال القرون . وإن لم يكن مصلحا داعيا . وقد اكتفى بالتأليف ، شأنه شأن الكثيرين .

وعاد الشيخ أبو شعيب الركالي إلى المغرب من زيارة المشرق ( مصر والحجاز ) داعيا إلى التوحيد والاصلاح ، والتماس مفاهيم الكتاب والسنة ، والتف حوله جماعة من الشباب النابغ ووزع الكتب التي كان يطبعها المنار في مصر - كما ظهر محمد بن العربي العلوي في فاس ، فشنّ الحملة على الصوفية الجبرية ، وكان ذلك مقدمة لقرار مولاي عبد الحفيظ الذي تولى الحكم في مراكش عام ١٩٠٧ باقفال الزوايا الكتانية . وقد كان للحركة السلفية الفضل في احياء القومية الجزائرية بعد أن أنكرها الموالون للفكر الفرنسي الاستعماري ، وكان لها فضل الحفاظ على التراث العربي الاسلامي للجزائر

بعد أن كاد أن ينمحي اسمه ، وكان للامام عبد الحميد بن باديس وجمعية العلماء بالغ الأثر في ذلك . وقاومت السنوسية في كفاح طويل حرب الابادة الايطالية ( ۱۹۱۱ - ۱۹۳۳ ) في مقاومة بطولية رائعة ضد قوة أوربية مسلحة . وكان في مقدمة رجالها : أحمد الشريف السنوسي وعمر المختار .

وكان لأتباع « المنار » في تونس والمغرب دورهم البالغ في مقاومة الاستعمار الفرنسي ، وقد أطلقوا على أنفسهم اسم المدرسة العبدية ( انتسابا إلى محمد عبده ) وقاومت الحركة الاصلاحية تقرب العلماء للأمراء والسلاطين ، وتهافتهم على أموالهم ، وحاربت رجال الدين التقليديين ورجال الصوفية المعاونين للاستعمار . كما قامت بطبع مختلف كتب التوحيد ، كما فهمه ابن تيمية ومحمد بن عبد الوهاب ووزعتها في مختلف انحاء العالم المتعددة بفضل جهود طاهر الجزائري في الشام ومحمد عبده ورشيد رضا في مصر ، والركالي والعربي العلوي في المغرب ، وجماعة اهل الحديث في الهند والسعودية في نجد والحجاز .

وفي مصر قامت مدرسة دار العلوم ۱۹۰۷ بقيادة عبد العزيز جاويش وحفني ناصف ، ومحمد المهدي ، ومحمد عبد المطلب ، وعبد الوهاب النجار واحمد السكندري وحملت لواء اللغة العربية . وكانت مدرسة الهند الاسلامية من المدارس الكبرى ذات الأثر البعيد ، ومن رجالها السرهندي والدهلوي ، واحمد خان ، وشبلي النعماني ، وامير علي ، وأبو الكلام أزاد ، ومحمد إقبال .

## ( ٢ )

كانت المرحلة التي قاد خلالها الامام محمد عبده حركة اليقظة يطلق عليها « الاصلاح » وكلمة الاصلاح كانت معروفة وشائعة في مجال الفكر الاسلامي في الدولة العثمانية . وقد كانت ترمي الى الاصلاح السياسي المدني .

يقول رشيد رضا « مرادنا بالاصلاح الديني ما يؤدي إلى المحافظة على الدين ، والعمل به ، وجمع كلمة المسلمين ، وأهم اركان الاصلاح الاسلامي جمع المسلمين على عقيدة واحدة ، وأصول واحدة ، وقانون شرعي واحد ، لا يحكم عليهم غيره من أي نوع من أنواع الأحكام ، ولغة واحدة ، وتوحيد العقائد والآداب ، في أصولها الثلاثة صحة الاعتقاد ، وتهذيب الأخلاق ، وإحسان الأعمال » . وقد استهدفت حركة الاصلاح الفكري الوحدة بين المسلمين ، هذه الوحدة التي لا تمنع الاختلاف في المسائل الفرعية ، والتي ليست من أسس الاسلام . ودعت إلى :

( ١ ) توحيد الأحكام وعمل منهج يوحد بين جميع المذاهب الاسلامية بما ينطبق على حالة العصر . وفي توحيد الأحكام الشرعية إرضاء لجميع مذاهب المسلمين في الفروع .

( ٢ ) توحيد اللغة ، فاللغة هي مناط الجنسية ومعقد الارتباط . وذلك بحسبان ان اللغة العربية هي لغة العالم الاسلامي ، وهي ترجح اللغة التركية بانها لغة الدين .

(٣ ) تلافي البدع والتعاليم الفاسدة .

وكانت دعوة الاصلاح ترى أن هذا المنهج في تجديد الاسلام من شأنه أن يوحد المسلمين ضد هجمات أوربا عليهم ، والالتقاء بين السنة والشيعة ،

وبين مذاهب السنة المختلفة . وقد استهدفت دعوة الاصلاح : إصلاح التعليم في الأزهر ، وإصلاح الادارة والاصلاحات السياسية . وكان من أبرز أهداف حركة الاصلاح فتح باب الاجتهاد . وقد كشف الأستاذ رشيد رضا ١٩٠١ عن ذلك في المنار فقال : إن الأحكام القطعية المعلومة من الدين بالضرورة لا اجتهاد فيها . لأن طلب معرفتها تحصيل حاصل كتحريم الظلم والخمر وفرض الصلاة والعدل ، وجملة القول إن الاجتهاد هو النظر في الامور الشرعية التي هي في الكتاب والسنة والاجماع والقياس لمعرفة احكام الفروع التي لم تثبت بالأدلة القطعية المتواترة والمقيدة في شروط فهم الكتاب والسنة ، ومعرفة مقاصد الشرع والوقوف على أحوال الناس وعاداتهم . لأن الشريعة ولا سيما المعاملات دائرة على مصالح الناس في معاشهم ومعادهم . أي على قاعدة درء المفاسد وجلب المنافع . وقال: إن إقفال باب الاجتهاد معناه أنه لم يبق في الناس من تتوفر فيه شروط المجتهد . وقال هذا القول بعض المقلدين لضعف ثقتهم بأنفسهم ، وتعظيم عقول السابقين . ولذلك أجمع الناس على المذاهب الأربع ، ولو أجيز للعلماء الاجتهاد لجاؤ وا بمذاهب كثيرة ، والمحققون يعلمون أن منشأ هذا الحجر هو السياسة . فالسلاطين والامراء المستبدون كانوا يخافون العلم ، ولا علم لهم بالاجتهاد.والمقلد هو الذي يقلد السابقين ، فهو ناقل لا عالم . وقد أقفل باب الاجتهاد بعد القرن الخامس . ولكن كثيرا من العلماء اجتهدوا بعد ذلك ، فلم يكونوا يعملون الا بما يقوم عندهم من الأدلة ، ولا يخلو زمن من هؤلاء . .

***

كان هدف الاصلاح واليقظة اساسا هو تحرير التوحيد ، ورسم خطط الالتقاء بين الاسلام والحضارة ، ومفاهيم العلم والعصر .

وقد امتد عمل محمد عبده في الثقافة والتربية والصحافة والأزهر ، وكانت له توجيهاته في مجال الطرق الصوفية واللغة العربية جميعاً ، وامتد عمله مغرباً حتى وصل مراكش وتابع المنار هذا العمل . أما مدرسة الشام فكان أبرز اعلامها القاسمي والبيطار وشكيب أرسلان وطاهر الجزائري . وكان أبرز رجال مدرسة المغرب : الركالي والعربي والمهدي . اما مدرسة العراق : فقد كان

من قادتها الألوسي . أما مدرسة تونس فكان على رأسها الخضر حسين والطاهر بن عاشور وعبد العزيز الثعالبي .

## ( ٣ )

تتسم المدرسة السلفية المغربية التي انبثقت عن دعوة محمد عبده والمنار بالربط بين روح العمل في مجال الاصلاح الاسلامي ، والحركة الوطنية معاً ، وهي تلتمس مفهوم الاسلام الأساسي في الربط بين الدين والمدنية ، يقول علال الفاسي ان السلفية المغربية ترفض فكرة لا دينية للدولة . وبذلك تجعل الحكومة الاسلامية حارساً على الأخلاق والفضيلة في وسط الأمة ، وتطالبها بتهيئة سائر الوسائل التي تسهل على الفرد القيام بالواجبات الفردية والاجتماعية ، وتحمله عن طريق الاقتداء والمتابعة على السلوك الحسن في علاقته مع عائلته ، وتؤمن بأنه يجب أن لا يبتعد المسلمون عن القانون المستمد من الشريعة الذي يصبح مطوراً للفقه الاسلامي أصولاً وفروعاً كمادة تشريع مدني عام . وتؤمن المدرسة السلفية الحديثة كما يصورها علال الفاسي بالقومية بحيث لا تصل الى الحد الذي يحول بين التقارب المطلق بين سائر الشعوب الاسلامية والعربية بصفة خاصة . « وإلا أصبحت عنصرية تتنافى مع الأصل الأصيل للاسلام » . وترى انه لتسهيل هذا التقارب يجب أن تتوافق أساليب الثقافة في وسط المسلمين ، وان يعمل على جعل اللغة العربية صالحة لتكون لسان العالم الاسلامي كله ، وصلة الوصل بين سائر افراده ، وللوصول إلى هذه الغاية لا بد أن تتحرر البلدان الاسلامية من سيطرة الأجنبي المادية والمعنوية . ومن أبرز رجال المدرسة السلفية(١) المغربية عبد العزيز الثعالبي وعبد الحميد ابن باديس ، ومحمد بن العربي العلوي .

وقد كان الثعالبي مصلحا اجتماعيا وسياسيا ووطنيا في آن ، وهو يؤمن بأن

---

١ ـ راجع تراجم هؤلاء الاعلام في كتابنا ( الجيل في اعلامه ) .

العرب قصروا في أداء واجبهم وحماية الأمانة ، ومن ثم طغت عليهم الأمراض الاجتماعية ، وقامت أوربا تنازعهم السيادة ، وكان يردد دائما أن تونس جزء من الأمة العربية ، وأن مصر مستقر الدعوة والكفاح ، وعنها تلقى رجال الاصلاح في تونس دعوتهم ، وعلى مثالها سيروا كفاحهم . وقد بث الثعالبي دعوة الحرية ، وناضل المستعمرين في سبيل حصول الأمم المغلوبة على حقها . وأهاب بأبناء الأمة إلى التناصح بالحق ، والتعاون في انشاء المؤسسات النافعة ، فلزم أن تكون الدعوة هذه راجعة إلى مبدأ يؤلف بينها ، وخطة توحد وجهتها نحو الغاية المثلى . وقد دعا الثعالبي الى الكشف عن أمجاد تاريخنا وفلسفة نشوئنا القومي . وقال إن ذلك يستتبع العمل على توحيد مصادر الثقافة في البلدان العربية كلها . وقد طاف الثعالبي بالعالم الاسلامي كله وأقام في مصر فترة طويلة وكتب في صحفها فصولا رائعة عن أزمة العالم الاسلامي الاجتماعية والاقتصادية ، وله كتاب أسماه « روح القرآن » دعا فيه الى الاصلاح الاسلامي والبعد عن الجمود .

أما الامام عبد الحميد بن باديس فقد حقق بانشاء جمعية العلماء الجزائريين عملاً ضخما بعيد المدى في المحافظة على اللغة العربية من الاندثار في الجزائر ، والاصلاح الاسلامي ، ومقاومة الجبرية والجمود ، وفتح اكثر من ثلاثمائة مدرسة في المساجد . وخلق فكراً اسلاميا يقظا . كان مصدراً ووقوداً للثورة الجزائرية . وقد اتسم بالحزم والعزم وحصافة الرأي ، والتحرر من الجمود ، وتطهير العقيدة الاسلامية من الدخيل ، واحياء اللغة العربية ، وتقوية الشعور بالشخصية العربية في الجزائر . ومن ذلك قوله : « إننا نرى الأمة الجزائرية موجودة ومتكونة على مثال ما تكونت به سائر امم الارض ، وهي لا تزال حية ولم تزل . ولهذه الامة تاريخها اللامع ووحدتها الدينية واللغوية ، ولها ثقافتها وتقاليدها . هذه الأمة الجزائرية ليست هي فرنسا ولا تريد أن تصبح فرنسا ، ومن المستحيل أن تصبح هي فرنسا ». *

---

راجع الحركة الادبية الفكرية في تونس للفاضل بن عاشور .

وكان الامام محمد بن العربي العلوي داعية الاصلاح واليقظة في القطر الثالث المغرب ، وله آثاره البعيدة المدى في اعداد جيل جديد من أبرز رجاله الفاسي وكنون وغيرهما من مفكري المغرب اليوم .

( ٤ )

أما المدرسة الاصلاحية التجديدية في الشام فقد كانت خصبة غنية ، وابرز رجالها : طاهر الجزائري ( ١٨٥٢ - ١٩٢٠ ) وقد عمل الجزائري على تكوين جيل من المصلحين ، كان في مقدمة رجاله : القاسمي والبيطار ومحمد كرد علي ومحب الدين الخطيب وعبد القادر المغربي .

يقول : « ان الامة في احتياج شديد الى من يبين لها الطريق الاقوم من أرباب الاخلاص ، واعظم ما تحتاج اليه هو امر الاخلاق وما يتعلق بها ، ومعرفة الامور العمرانية على وجه لا يكون فيه اخلال بمعالي الامور » . ويقول « ان لكل امة شعاراً اذا تركته طمع فيها واستضعف جانبها وربما صارت مندمجة في غيرها » .

وقد أحيا طاهر الجزائري مئات من الكتب الاسلامية ، والمخطوطات ، وألف كثيراً ، وكان عمله في مجال النهضة بعيد المدى .

ويعد جمال الدين القاسمي في مقدمة المصلحين المسلمين ايماناً بدور الامة العربية في اليقظة الاسلامية « لما كانت الامة العربية هي المختارة لتهذيب الامم وتعديل عوجها ، واقامة منار العدل في ذلك العالم المظلم . فقد وجب ان التهذيب الالهي ينزل بلغتها خاصة حتى تستمد وتتهيأ لاداء وظيفتها . وجمال القاسمي هو امام الشام في عصره ( ١٨٦٦ - ١٩٢٤ ) .

ومن اهم مؤلفاته : قواعد التحديث في فنون مصطلح الحديث . وله تفسير للقرآن في اثني عشر مجلداً . وقد قام مع زميله الشيخ عبد الرازق البيطار بالدعوة الى الاجتهاد والجهر بكلمة الحق ، في دمشق عام ١٣١٣ . واحتملا في سبيل ذلك كثيراً من المشقة والاعنات .

وكان عبد القادر المغربي من المصلحين والعلماء في مجال الاسلام واللغة

العربية ، وله آثاره في مجال الاشتقاق والتعريب ، والاخلاق والواجبات . ومن آثاره قوله : ان اي نوع من الاصلاح لا يتم الا بسعي الـذين يعنيهـم امـره ، واصلاحنا الاسلامي انما يعني علماء الدين ، فهم المكلفون به ، المخاطبون شرعاً بالعمل على تحصيله ، وليس العمل منهم سوى الدعوة اليه . بخطبهم وكتاباتهم وتآليفهم ، حتى اذا اقتنع بذلك جمهور الامة ومعظم افرادها هبوا هبة واحدة. وعماد الاصلاح بوجه عام، انما هو التربية والتعليم الاسلاميان، او كما يقال : هو المدرسة الاسلامية . هذا هو اصل الاصول . وقد اتجه عبد القـادر المغربي الى النظر في عديد من قضايا الاصلاح والاجتهاد ، وله في مجـال المرأة وموقف الاسلام منها آراء طيبة . قال عبد القادر المغربي : ان الحجاب ليس من اسلام ، الحجاب الاسلامي اثر من آثار ارستقراطية المرأة وملكيتها في الاسلام ، وليس هو اثر من آثار احتقارها او عبوديتها . وقال في ( توريث البنت نصف ارث اخيها ) لأن الأبناء لما كانوا هم الذين يخلفون آباءهم في أسرهم . كانوا في حاجة الى المال اكثر من اخواتهم البنات اللواتي يندمجن في اسرة اخرى غير مكلفات فيها النفقة . وقال في ( شهادة المرأة نصف شهادة الرجـل ) المرأة بعيدة عن معترك الاعمال التي يقوم بها الرجال ، والتي تكثر فيها الدسائس والمخادعات . لذلك رأى الاسلام ان يتعزز عن تحمل الشهادة بواحدة من بنات جنسها ، فتذكر كل منهما صاحبتها .

ومن مدرسة الشام العلامة : الامام رشيد رضا تلميذ محمد عبده وخليفته على نهجه ، وصاحب المنار ( ١٨٦٥ ـ ١٩٣٥ ) وقد جاء الى مصر ١٨٩٠ . وعمل مع الشيخ المفتي ، وأنشأ مدرسة الدعوة والارشاد في مصر . وله من آثاره : تفسير المنار ( ١٢ مجلداً ) ومجلة المنار ( ٣٤ مجلداً ) وتاريخ الامام الشيخ محمد عبده .

ومـن قبـل خرجـت الشـام علامتهـا الـكبير عبـد الرحمـن الكواكبـي ( ١٨٤٩ ـ ١٩٠٢ ) صاحب الدعوة الى قيام الامة العربية بدورها في يقظـة الاسلام ، وصاحب ام القرى ، وطبائع الاستبداد . ولـه كتابـات متعـددة في

الاقتصاد والزكاة[1] . وقد وضع الكواكبي تخطيطاً لوحدة المسلمين السياسية في النطاق الدولي ، وعالج ازمات الفكر الاسلامي على هيئة مؤتمر ضمنه مختلف المعضلات وحلولها .

اما مدرسة العراق فكان علامتها « الألوسي ابو الثناء » وتبعه الالوسيون ، وأشهرهم حفيده محمود شكري الالوسي . وهو صاحب التفسير المشهور ( روح المعاني ) في تسعة مجلدات الذي طبع في بولاق ١٣٠١ هـ . وقد كان الالوسي مجدداً واضح الاثر في أوائل القرن التاسع عشر ، وهو مفتي بغداد ، وامام العراق في اللغة والدين والتفسير في النصف الاول من ذلك القرن ، وله عشرات من الفتاوى والمؤلفات والكتابات النافعة ، وكان مجلسه مجلس العلم والادب ، وعنه تخرجت مجموعة كبيرة من الادباء والمؤرخين والفقهاء . ومن خلفاء مدرسة الالوسي اليوم العلامة : محمد بهجت الاثري . وقد جمع الالوسي الكبير بين مذهب التوحيد والتصوف والفقه جميعاً ، وصاغ ذلك كله صياغة جديدة حاول بها الجمع بين هذه الطوائف ، وتوحيد الامة على فكر واحد ، قوامه التوحيد ، وكان حذراً في خطواته حتى لا يصطدم بالمتعصبين ، وكان عاملا من عوامل التقريب والتجميع والتلاقي ، والقضاء على الخصومات والفوارق المذهبية الضارة ، وقد رد على الغلاة من دعاة الفلسفة الصوفية ، ووحدة الوجود ، وفضح الملحدين والباطنية ، وقطع ببطلان الفلسفة اليونانية والافلاطونية الحديثة ودعا الى منطق القرآن كما فهمه الغزالي وابن تيمية .

---

١ ـ راجع دوره الفكري في كتابنا ( يقظة الفكر العربي ).

( ٥ )

اما المدرسة الهندية الاسلامية ، فقد كانت ذات اثر واضح في الفكر الاسلامي كله ، ولم يقف اثرها عند مسلمي الهند وحدهم .

ويعد احمد السرهندي ( ٩٧٧ ـ ١٠٣٤ ) مجدد الالف الثاني . فقد ظهر في خلال الازمة التي اثارها الامبراطور « اكبر » بالدعوة الى مزج الاديان المختلفة في دين واحد ، واستطاع ان يحرر الفكر الاسلامي ، والمجتمع الاسلامي الهندي من اخطار هذه الدعوة ، وتمكن في عهد خلفه « جهانجير » ان يعيد كثيراً من الاصول الإسلامية الى المجتمع الاسلامي الهندي . كما عمل السرهندي الى مهاجمة الصوفية التي تأثرت بفلسفة البراهمة والفلسفات الاخرى ، ورد على فكرة وحدة الوجود والحلول والاتحاد ، ودعا الى التصوف الاسلامي الخالص المستمد من المنابع الاسلامية ، كما نصح للامراء والحكام ، واستطاع ان يقاوم عدداً من البدع . وفي مقدمتها بدعة السجود امام الملك .

وكان شاه ولي الله الدهلوي ( ١١١٤ ـ ١١٧٦ هـ ) من ابرز الدعاة المسلمين في فترة من أرق فترات المجتمع الاسلامي الهندي ، وهي مرحلة الاحتلال البريطاني .

فقد صحح مفهوم التوحيد الاسلامي ، ودعا الى الاتصال المباشر بالكتاب والسنة ، وبين أصول ألاسلام واسسه في تنظيم الحياة والمجتمع ، وقام بمهمة التجديد الاسلامي ، وقاوم ما ساد في عصره من انحلال وفساد ، وهاجم العوامل التي ادت الى تدهور المجتمع ، وعمل على الجمع بين الصوفية الخالصة والسنة الخالصة . وقال : ان المسلم إلحق يجب الا يقبل الانحطاط الغامر وقد عالج الدهلوي نظرية الاسلام السياسية ، ودحض المعتقدات المخالفة للسنة ، واهمية كتابه التحفة الاثنا عشرية ان الاسلام ليس مسألة ولاء

لاشخاص ، ولكنه حركة يكون الفضل الاساسي فيها ، والولاء للمثل العليا . وقد فاق الدهلوي الغزالي وابن تيمية ، وجمع بين التصوف والتسليف ، وترك أثراً لا يمحى في تطور الفكر الاسلامي ، وكان لنظرياته وفعالياته اثرها في حركة المد التي ادت الى نضال المسلمين في سبيل الاستقلال من خلال دور التدهور والانحلال .

وقد عاصر الدهلوي حركة التوحيد التي قادها الامام محمد بن عبد الوهاب في الجزيرة العربية ، وللدهلوي مؤلفاته الكثيرة . وفي مقدمتها كتابه الخطير : « حجة الله البالغة » .

وقد كان لهذه الحركة اثرها في المقاومة العنيدة التي ابداها المسلمون ازاء النفوذ البريطاني مما اجج ثورة ١٨٥٧ م التي ازعجت الاستعمار البريطاني . وبدأت على اثر ذلك حركات اسلامية فكرية تدعو المسلمين الى التعليم والمحافظة على التراث الاسلامي ، وقد عملت هذه الحركات في الميدانين التقليدي والحديث ، وكانت كلية عليكرة التي اسسها احمد خان عام ١٨٨٧ اول خطوة نحو الدراسات الحديثة للمسلمين . فقد كانت دعوته انما ترمي الى ان يكون التعليم الحديث اكبر عامل لتحرير المسلمين وتقدمهم ، وفي نفس الوقت قامت جمعيات مختلفة اهمها جمعية علماء الهند في البنجاب ، ودار العلوم في ديوبانر ، وندوة العلماء في لكنو والجامع العباسي في بهادلبور ، واستهدفت هذه الهيئات المختلفة مقاومة التبشير الاستعماري وخلق جو مدرسي اسلامي يجمع شباب المسلمين ويحميهم من اخطار المعاهد التبشيرية ومدارس الارساليات التي تعمل للقضاء على الثقافة الاسلامية . وقد نشأت في مختلف المدن الاسلامية على اثر تفشي التبشير جمعيات مختلفة لحماية الاسلام ، قامت بالدعوة الى الاسلام والرد على الشبهات . وبذلك نهضت الحركة الاسلامية الاصلاحية نهضة كبرى على مختلف مستويات الثقافة والتعليم . ومن خلال هذه الهيئات ظهرت حركة ثقافة اسلامية قوامها : شبلي النعماني وحافظ نظير ومحمد حسين ازاد وسيد الطاف حسين ، وكان لها تراث ادبي قوامه ( الرجوع الى اساسيات الاسلام، كما اوحاه الله في الفرآن ) وكان رجال جمعية اهل القرآن يدعون الى تأكيد قيمة القرآن ، وكانت جمعية اهل

الحديث تقوم بتطهير الاسلام في الهند من اعمال الوثنية . وقد كان للجامعة الاسلامية ، وجامعة عليكرة ، والجامعة الملية ، ودار العلوم ، وندوة العلماء آثارها الكبرى .

وقد قدم شبلي النعماني وأمير علي وابو الكلام ازاد : اعمالا كبرى للفكر الاسلامي ، ثم تبعهم محمد اقبال الذي يعد اعظم ثمرة لليقظة الاسلامية الهندية للفكر الاسلامي العالمي . فقد اعاد شبلي النعماني في كتابه التاريخ الاسلامي وتاريخ اعلام الاسلام من جديد ، مصححاً شبهات التبشير والاستعمار ، كما كان لتوليه قيادة ندوة العلماء أثره في تكوين جيل من الباحثين والمصلحين . ولقد لقب بشمس العلماء . وقد امتاز بقدرته على اتقان اللغة العربية وحسن الذوق في فهم منثورها ومنظومها والقدرة على الكتابة بها . ووصفه رشيد رضا بأنه « وسط بين الجامدين على التقاليد القديمة وبين المفتونين بالتقاليد الحديثة ، وصاحب مشاركة صالحة في العلوم الاسلامية والعلوم الكونية » . ومن أهم آثاره ردوده على جرجي زيدان في كتابه « التمدن الاسلامي » .

أما « امير علي » فقد عمل على كشف صورة الاسلام لاهل الغرب ، فكتب باللغة الانجليزية عن الاسلام داحضاً الاراء الخاطئة التي اثارها خصوم الاسلام ، وعمل على التعريف بالاسلام في المجتمعات الأوروبية ، ودافع عن الحضارة الاسلامية والفكر الاسلامي في مجال الشريعة الاسلامية وحقوق المرأة . وقد وصفه رشيد رضا بانه اول مسلم استطاع ان يخرج للغرب صورة صادقة للمبادىء الاسلامية ، ويعرضها في ثوب علمي محدث يتذوقه الذهن العرب ، ولا ينكره الذهن الاسلامي . وقد كان أمير علي خطيباً بارعاً ، وكاتباً بليغاً . يقف في وجه كل من يحاول ان ينال من الاسلام ، وكان الى ذلك داعية جاداً في انهاض المسلمين لادراك حقوقهم ، ومن أهم مؤلفاته : روح الاسلام ، ومختصر تاريخ المسلمين .

وهو يؤمن بان الاصلاح يجب ان يسبقه التعليم وتحرير النقل من القيود . ويقول : ان للاسلام قدرة على صبغ ما عداه بصبغته ، وسيبقى جوهره ، وان تغير مظهره .

وكان « لابي الكلام أزاد » دور هام في مجلتي الهلال والبلاغ في الدفاع عن الاسلام وايقاظ النفوس لمفهومه الصحيح . وقد واجه النفوذ البريطاني الاستعماري في مقاومة ضخمة بعيدة المدى ، يقول : الاسلام من أوله الى آخره دعوة عاملة الى البسالة والجزالة والاستشهاد بالموت في سبيل كلمة الحق ، وقد ابيضت عين الدهر ، ولم تر مثل هذه التضحيات الكثيرة في اعلاء كلمة الحق التي قدمتها الامة الاسلامية في كل دور من ادوار حياتها ، الا فلتعلم الحكومة الانجليزية ان المسلم الذي امره ان يرحب بالموت الاحمر ويتغلغل في لجج الدواهي والكوارث ، ولا يقبل السكوت عن الحق ، لا يخيفه قانون العقوبات الاستعماري .

ومن مؤلفات العلامة : ابي الكلام ازاد الهامة كتابه : ترجمان القرآن . وهو من اعظم آثاره الفكرية ، فقد عرض خلاله ترجمة للقرآن وتفسيراً له على منوال حديث في اللغة الاوربية .

ومن اعلام الفكر الاسلامي الهندي العلامة « خدابجش » الذي يقول : » يجب ان يدافع الاسلام عن نفسه امام الغرب ، ويجب ان يستعمل جميع الاسلحة التي صاغتها ايدي الغرب اينما ولينا وجوهنا » .

اما الفيلسوف الاسلامي « محمد اقبال » فقد كان بعيد الاثر في ايقاظ الفكر الاسلامي الهندي بدعوته الى التحرر من الجبرية ، ويرى محمد اقبال في الاسلام « المثل الاعلى الذي لو تحقق تماماً لوفى بكل مطالب هذه الحياة وفي الحياة الاخرى » . وعنده ان الفكرة الاساسية للاسلام هي اقامة اخوة شاملة بين الناس ، وقد طبعت هذه الصفة الشريعة الاسلامية بطابعها .

ويرى محمد اقبال : ان الخطر الذي يهدد الاسلام هو روح العصبية في الشعوب ، ويقول محمد اقبال : ليس فى الاسلام قوميات ، ولا هو نزعة امبراطورية ، بل هو جمعية امم تعترف بالحدود الصناعية ، والفروق الجنسية لسهولة الاشارة فحسب ، لا لتضييق الافق الاجتماعي للمسلمين . ويقول محمد اقبال : ان النبي محمداً هو روح الثقافة الاسلامية ، هذا النبي العظيم يبدو انه يقوم بين العالم القديم والعالم الحديث ، فهو من العالم القديم باعتبار

مصدر رسالته ، وهو من العالم الحديث باعتبار الروح التي انطوت عليها . فان للحياة في نظره مصادر اخرى للمعرفة تلائمها في اتجاهها الجديد . وعنده ان العمل واليقظة والجرأة والقوة من صفات الاسلام اساسا قبل ان تكون من ادوات الحضارة الحديثة ، ومذهب الذاتية الذي دعا اليه يتمثل في ان الذات هي الروح المنشيء الذي اودعه الله الانسان ، وجعل العمل والدأب فيه وسيلتنا الى انتشار هذه الروح ، حيث تنمو الذاتية بالسعي والعمل الدائب الذي لا ينقطع لتجديد الحياة والقدرة على التحرر من حكم الغير .

( ٦ )

وفي مصر كان عبد العزيز جاويش وتوفيق البكري ورشيد رضا وفريد وجدي والمراغي من العاملين في مجال اليقظة . ففي مجلة الهداية ( ١٩١٠ ) وما بعدها اخذ عبد العزيز جاويش ينهج نهج الشيخ محمد عبده ، ويتحدث عن اثر القرآن الكريم في تحزير الفكر البشري ، ويرد على شبهات خصوم الاسلام .

يقول : القرآن مشتجر الطعان ، قلما يمر يوم دون ان نسمع فلاناً من كتاب الافرنج طعن في القرآن ، واذا كان للقرآن منقبة لا يشوبها نقص فهي الفصاحة والبلاغة ، واذا كان له مزية عظمى يفخر بها ثلاثمائة مليون من البشر ، فهي استعلاؤه على سائر الكتب السماوية من حيث سلامة مبانيه ، وجمال معانيه ، ان القرآن بمثابة ندوة علمية للعلماء ومعجم لغة للغويين واجرومية نحو لمن اراد تقويم لسانه ، وكتاب عروض لمحب الشعر وانسكلوبيدية عامة للشرائع والقوانين . وقد كان ابرز اعمال عبد العزيز جاويش في الاضلاح والتجديد الاسلامي في مجال التربية فهو الذي درس التربية الاسلامية والتربية الغربية ، وقارن بينهما وتحدث للعرب وللمصريين عن مفهوم التربية الذي ينفعهم . يقول : الخطأ الاول في فهم التربية ، والخطأ الثاني في ارسال الاحداث الى اوربا قبل ان يبلغوا سن الرشد . وعنده ان ارسال الشباب الى اوربا قبل ان يثقف ثقافة اسلامية اصيلة ، انما يحولهم الى اوربيين حتى اذا عادوا الينا لم نفد منهم .

وتوفيق البكري يكشف في كتابه « المستقبل للاسلام » الدور الذي سيحققه الاسلام فى مستقبل ايامه ، وهو يتمدد وينتشر في مناطق جديدة لم يصل اليها الفاتحون العرب ، ويعتبر ان التعليم هو اعظم وسائل النهضة .

ومحمد كرد علي في صحيفته المقتبس التي اصدرها في القاهرة يدعو الى

اصلاح نظم التعليم ويكشف عن روح الاسلام الصحيح ، ويتحدث عن اللغة العربية واعلام المسلمين المعاصرين ، ومحمد فريد وجدي في مجلته ( الحياة ) وما تبعها من ابحاث يهاجم الفلسفة المادية ، ويتصدى للدكتور شبلي شميل فيكشف عن مفهوم الاسلام في هذه النظريات الوافدة ، ويصحح في مجال الروح والمادة ، ويرد على اللورد كرومر وعلى خصوم الاسلام .

ويفتح رشيد رضا بمجلة المنار آفاقاً واسعة للدعوة الاسلامية والاصلاح الاسلامي متابعاً صحيفة العروة الوثقى في تحرير مفهوم الاسلام والتوحيد والقضاء على الاعتقادات الدخيلة في الاسلام ، ومحاربة التعاليم الضالة ، ومحاربة التعصب لمذهب من المذاهب .

يقول : « المنار يدعو من اول نشأته الى التوحيد الخالص ، ومذهب السلف الصالح في عقائد الاسلام وهدايته » ويقول انما انشىء المنار لايقاظ الشرق ، وتجديد الاسلام باعادة تكوين الامة وحياة الملة والدولة ، ونشر الاصلاحات الاجتماعية والدينية والاقتصادية ، واقامة الحجة على ان الاسلام باعتباره نظاماً دينياً لا يتنافر مع الظروف الحاضرة ، وان الشريعة اداة عظيمة صالحة للحكم . ويمضي الامام المراغي في اصلاح الازهر على منهج الشيخ محمد عبده ، ويدعو دعوته الحارة الى العمل على ازالة الفوارق المذهبية وتضييق شقة الاختلاف . ويقول : معروف لدى العلماء ان الرجوع الى اسباب الخلاف ودراستها دراسة بعيدة عن التعصب المذهبي تهدي الى الحق في اكثر الاوقات . وان بعض المذاهب والاراء قد احدثتها السياسة في القرون الماضية لمناصرتها ، وخلفت في اهلها تعصباً يساير التعصب السياسي ، ثم انقرضت تلك المذاهب السياسية ، وبقيت تلك الاراء الدينية لا ترتكز الا على ما يصوغه الخيال ، وما افتراه اهلها . وبالجملة فقد ابرزت الوهابية ( دعوة التوحيد ) اهمية دعوة التوحيد ، وربطت الحركة السنوسية الدين بالسعي والانتاج في الحياة الدنيا . يقول : « كيرك » ان برامج السنوسية هي جمع صفوف المسلمين في افريقيا اولا ، ثم بعد ذلك في مختلف انحاء العالم تحت لواء الاسلام في نقاوته الاولى .

وكانت دعوة الكواكبي تهدف الى محاربة الاستبداد، والتماس العدل الاجتماعي . وكان مفهوم جمال الدين مقاومة الاستعمار الاوربي . اما الامام محمدعبده فقد جعل العقل معيار الفكر، ودعا رشيد رضا الى نشر الدعوة الاسلامية . وقد توالت الحركات الاسلامية ولم تتكامل ، ولكنها كانت في كل مرحلة تصحح اخطاء الحركة التي سبقتها وتحاول ان تعوض النقص الذي لم تحققه .

وكان عمل هذه الاجيال من المصلحين الاعلام جد خطير في مواجهة خطرين ماثلين : خطر الجبرية والجمود ، وخطر الاستعمار والتبشير . وكان عليهم ان يعملوا في المجالين معاً ، يكشفون عن روح الاسلام وجوهره ، ويدعون الى مفهوم التكامل في الاسلام دون الانحراف الى جانب الروح دون العقل او العاطفة دون الفكر . وقد عملوا كثيراً في سبيل كشف الغشاء الذي فرضته الوراثيات التقليدية فوق جوهر الاسلام ، وازالوا تلك القشرة الجامدة ، وكشفوا عن قيمة الاسلام الاساسية ، وجعلوه اسلاماً ، قادراً على مقاومة النفوذ الاجنبي والتبشير والتعصب المذهبي ، يهتدي الى الحق في اكثر الاوقات . وحاربوا به المذاهب والاراء والتغريب والشعوبية جميعاً ، وواجهوا به الغزو السياسي العسكري الغربي الذي فرض نفسه على عالم الاسلام ، حتى الحركات الوطنية التي انبثقت من الحركات الاسلامية ، كانت مرتبطة بها ، وكانت تستهدف نفس اهداف اليقظة الاسلامية . وهي عائدة اليها بعد ذلك غير منفصلة عنها . وقد كان دعاة الاصلاح بين جماعة او حركة ، وبين رجل يحمل القلم ويصحح المفاهيم ، او رجل يحمل لواء الاصلاح بالتوجيه من خلال الجماعات في المساجد والمعاهد .

***

وقد استطاعت الحركات الاسلامية ان تواجه قوى الاستعمار ، وان تكشف عن مخططها وتفسر اهدافها ، وكانت هذه القوى تحرص على تغيير مفهوم الاسلام في نفوس اصحابه فتقنعهم بانه دين لاهوتي عبادي صرف ، وان تغريهم بمفاهيم جامدة ، وان تلقي عليهم ظلال الاسرائيليات وكتابات الباطنية

والصابئة ، والوثنيات المتعددة ، والشعوبيات المتجددة ، مع مذاهب اوربا والغرب المختلفة . وذلك حتى يظل المسلمون في صراع لا ينتهي ، وانقسام لا يتوحد . وبذلك سينحرفون عن مفهوم الاسلام فكرياً بالتجزئة او بالانحراف عن مفهوم الاسلام اجتماعياً بالتخلف في مجال العلم والقوة . واستطاعت هذه الحركات الاسلامية ان تكشف عن ان الاسلام قادر على مجاراة الازمنة والعصور والامم المختلفة ، وانه لا يعارض الحضارة ، ولا يضار العلم ولا يرفض النهضة . بل هو عامل ايجابي فعال في مجال الحرية والقوة والبناء . وان المسلمين حين التمسوا جوهره ومفاهيمه ومقوماته استطاعوا بناء حضارة ضخمة .

ولاول مرة في تاريخ الحضارة ارتبط الضمير بالعلم والخلق بالسياسة ، والروح بالمادة ، واضفى الاسلام على الامم والحضارات قدرة على الحركة والبناء والانتاج مع بقاء جوهر الخلق الانساني رفيعاً عالياً متطلعاً الى المعنى الانساني الكريم القائم على الحب والاخاء والمساواة . ولأول مرة ربط الاسلام الفرد بالمجتمع ، والمجتمع بالفرد ، وقضى على الثنائية التي لا تزال تصارع الحضارة الحديثة .

## ( ٧ )

وبعد فما هي النتائج التي حققتها دعوات المصلحين والحركات الحديثة في الاسلام . لقد حققت نتائج كبرى ما تزال بعيدة الاثر في خط حركة اليقظة وتطورها وفي مقدمتها : -

( اولا ) - محاربة التقليد ، وفتح باب الاجتهاد ، والتخلص من الجمود .

( ثانياً ) - كشف المصلحون حقيقة اساسية هي ان ضعف المسلمين انما كان مرده الى انصرافهم عن تعاليم الاسلام الصحيح .

( ثالثاً ) - التماس منابع الاسلام الصافية وتطهير الاسلام من شوائبه .

( رابعاً ) - مناهضة استبداد الحكام ومناصحتهم وتأكيد مشورة اهل الحل والعقد .

( خامساً ) - لفت النظر الى ان الاسلام قد اشتمل على نظام اقتصادي اجتماعي يكفل توزيع الثروة بالعدل ، ويمنع استبداد الغني بالفقير .

( سادساً ) - الجهر بان التعليم لا يكفي ، وان التربية اعظم اهمية لبناء التعليم على اسس اخلاقية .

( سابعاً ) - دعوة المسلمين الى الاقتراب من القانون المستمد من الشريعة ، وللوصول الى ذلك يجب العمل الى ان يصبح منظوراً للفقه الاسلامي اصولا وفروعاً كمادة لتشريع مدني عام .

( ثامناً ) - العمل عل مقاومة الاستعمار ، وايجاد وحدة فكرية اسلامية .

( تاسعاً ) ادخال الاصلاحات في مختلف المجالات ، وبث نور العلم في جميع ارجاء العالم الاسلامي .

( عاشراً ) - رفع لواء الانبعاث الاسلامي من القرآن ، والعودة الى التماس القرآن كمنهج انساني اجتماعي كامل صالح للمسلمين ، واصلح لهم من مختلف المذاهب والمناهج .

# ( ٥ )

# الثقافة في العالم الاسلامى

**١ ـ التعليم**

**٢ ـ الثقافة**

**٣ ـ اللغة العربية**

## - ١ -

# التعليم

كانت أعقد المشاكل التي واجهها العالم الاسلامي هي مشكلة « التعليم والثقافة » : فقد أحس المسلمون مدى حاجتهم إلى توسيع مجال التعليم وتجديد مجال الثقافة كعامل هام من عوامل النهضة . وعرف النفوذ الاستعماري هذا المقتل في حياة المسلمين ، فحاول أن يفيد منه إلى أبعد الحدود . وكان الاستعمار حين عاد إلى عالم الاسلام في دوره الجديد ، قد أعد مخططه على النحو الذي يكفل له تغيير العقيدة الاسلامية ، والقضاء على مقوماتها الاساسية عن طريق التعليم والثقافة ، واعتبر هذه الحركة القائمة على الغزو الثقافي والتغريب الفكري هي كبرى معاركه ، وأعظم عوامل تثبيت قواعده . وتنبه المسلمون إلى هذا الخطر ، فحاولوا من ناحيتهم مواجهة هذا الموقف ببناء مدارس وجامعات لها طابع الحفاظ على المقومات ، ولكنهم لم يكونوا ليبلغوا في هذا المجال المدى الذي يحقق لهم ما يريدون . فقد كان وراء الارساليات والمدارس والجامعات الأجنبية التي انبثقت في مختلف أنحاء العالم الاسلامي قوى مادية وأجهزة قوية قادرة على العمل ، ويهيء لهذه الطريق ويضمن لها سبل البقاء نفوذ دولها في العالم الاسلامي ، فهي محمية بالامتيازات الأجنبية مفتوح أمامها الطريق بالاعفاء الجمركي لكل ما تستقدم من أدوات وكتب ، وكانت الدول المختلفة الطامعة في فروض الدول الكبرى تتفرب بمنح الأراضي والاعانات لهذه الهيئات العديدة .

ومن هنا نشأ تياران متعارضان : تيار التعليم التقليدي القديم ، وتيار التعليم الغربي الجديد ، وكانت مدارس الدولة في الأغلب في ظل الاستعمار تسير على مناهج أقرب إلى مدارس الارساليات والمدارس الأجنبية ، وظلت أزمة

« الحلقة المفقودة » التي تجمع بين ثقافة الغرب والثقافة الاسلامية قائمة لما تتحقق بعد على النحو الذي يقضي على تلك الثنائية التي مزقت وحدة الفكر في العالم الاسلامي ، وخلقت صراعاً فكريا بعيد المدى استحال معه التقاء المسلمين على رأي موحد .

والواقع أن القول بأن الاستعمار كان حريصاً من توجيه التعليم على تخريج طائفة من المتعلمين يخدمون مصالح الحكومة والشركات . هذا القول قاصر في الحق عن الغاية الكبرى . فقد كان الاستعمار حريصا على[1] أن يرافق الفتح السياسي فتح معنوي بحيث يتقرب أهالي المستعمرات من المستعمرين إلى أن يندمجوا فيهم اندماجاً . وذلك بنشر لغة المستعمر ، وتعليم الأهالي تعليما ينشىء في نفوسهم حب المستعمر ، فيستسلمون له عن طريق طواعية . فذلك في الحق هو الهدف الأكبر ويتصل به هدف آخر هو : القضاء على الثقافة القومية ، وذلك بالطعن فيها وإثارة الشكوك من حولها والشبهات في أعماقها حتى ينظر اليها المواطن نظرة الازدراء والاحتقار ، ويعلي عليها ثقافة المستعمر التي تقدم له في قالب براق، وتعرض عليه عرضاً حافلا بالبطولة والقوة ، ولا يتوقف الأمر عند هذا ، وإنما يتصل بأمور اخرى ترمي الى هدم اللغة العربية نفسها بحسبانها لغة القرآن ، ومصدر الثقافة جميعاً . وذلك بنشر لغته الأجنبية ، ونشر اللهجات العامية ، وذلك بهدف المباعدة بين الوحدات الاسلامية والأقطار العربية .

وقد حاول المستعمر لتأييد هذا الهدف أن يذيع دعايات براقة أقواها القول بأن الجماهير لا تعرف اللغة الفصحى ، فعلينا أن نقرب اليهم وسائل التعليم باللغة المحلية أو العامية . وهذه كلها أهداف أساسية في خطة الغزو الثقافي والتغريب ترمي إلى إيقاف اللغة العربية وتجميدها . وإلى القضاء على مقومات الفكر الاسلامي .

وفي مصر تبدو صورة هذا الغزو في مجال التعليم واضحة في الخطط التي

---

(١) ساطع الحصري : الاستعمار والتعليم .

رسمها كرومر ، ونفذها المبشر دنلوب مستشار وزارة المعارف . فقد استطاع أن ينزع من برامج التعليم الدين وروح الأدب العربي ، وتاريخ العرب ، وصلة مصر بالعرب والعربية ، ثم أدخل في برامج المدارس أن مصر فرعونية .

وفي كل وحدات العالم الاسلامي نجد نفس الهدف . قد أعد بصورة أخرى . ففي الهند الاسلامية يحاول التعليم التركيز على الحضارات الوثنية ، وفي أندونيسيا يجري الاهتمام بتاريخ ما قبل الاسلام ، وكذلك في إيران وأفغانستان وفي تركيا كان الاهتمام بالتاريخ الطوراني والجامعة الطورانية وأمجاد جنكيزخان ، وكلها محاولات للقضاء على العوامل الجامعة للعالم الاسلامي ، وهي تاريخ الاسلام وثقافته وكل ما يتصل باللغة العربية والقرآن .

وقد جرت محاولات لتوحيد برامج التعليم في العالم العربي ، ولكنها كانت جميعها تدور في نطاق المخططات التي وضعها الاستعمار ، والتي تحول دون إبراز الذاتية العربية والنفس العربية مستمدة من الفكر الاسلامي . وقد وجدت هذه المخططات من يعارضها ويقاومها ، ويحول دون تحقيقها فتبقى في حدود المخططات غير المنفذة ، والآراء التي لا تستطيع أن ترقى إلى درجة التنفيذ .

ولقد حرصت الهيئات الاسلامية وكثير من العلماء والباحثين على توجيه النظر إلى استمداد التعليم في العالم الاسلامي من الاسلام . ولكن هذه المحاولات كلها لم تحقق شيئاً ، وغاية مناهج التعليم في البلاد المحتلة هو خلق عزلة إقليمية بين الأمم والشعوب ، فلا تتناول بالدرس إلا الاقليم الذي تعيش فيه ، فإذا عرضت لغيره من الأقاليم ، فإنما تعرض إلى الخصومات والفوارق التاريخية حتى تخلق جوّاً من الخصومة والفرقة . وقد نشأ المسلمون في ظل هذه المدارس لا يعرفون شيئا عن العالم الاسلامي الا ما تورده كتب أوربا وصحفها ، وهي كتب مكتوبة بأغراض معينة ، فإذا عرت لقضايا هذه الممالك والأقطار ، فإنما تعرضها من وجهة النظر الغربية حيث تبرز ما حقق النفوذ الاستعماري ، وهو أنه حال بين مناهج التعليم في المدرسة الوطنية أن تحقق اتصال الوطن نفسه ماضيه بحاضره ، واتصال الوطن بالأوطان الأخرى التي كانت قبل الاحتلال وحدة كاملة . ويعرف الباحث دون حاجة إلى مزيد من

التفاصيل السر فى اتجاه السياسة الاستعمارية في وطن من أوطان الاسلام نحـو جعل التعليم مجرداً من الدين والأخلاق . لأن هذا هو ما تقضي مصلحته ويؤ دي إلى تسلط نفوذ المستعمر بدينه ولغته .

## ( ٢ )

أما المدارس الأجنبية في العالم الاسلامي ، فقد حرصت على أن تقصي طلابها عن الاسلام واللغة العربية والتاريخ الاسلامي جميعاً ، وعمدت إلى إذاعة تاريخ نابليون ، وفرنسا وبريطانيا واللغات الانجليزية والفرنسية وآدابها ، بل وذهبت إلى أبعد من ذلك ، فقد قدمت لطلابها كتباً تتناول بالهجوم والتشكيك مختلف القيم الاسلامية والعربية .

وعلى مدى هذا التاريخ الطويل انتقلت الصيحات بالثورة على عدد من الكتب التي تدرس في هذه المعاهد والجامعات ، وكلها حملات ضارية على رسول الاسلام وعلى القرآن وعلى الاسلام نفسه . ومن شأن هذه المدارس أنها تخرج شباب المسلمين على الولاء لثقافة معينة ، ونظراً لتعدد هذه المعاهد بين فرنسية وأمريكية وانجليزية وايطالية وألمانية وروسية . فإن شباب العالم الاسلامي ظل يتمزق بين هذه الثقافات وبين الولاء لها على النحو الذي يحول دون قيام وحدة فكر إسلامية أساسية .

وقد حرص النفوذ الاستعماري ان يجعل من جامعاته ومعاهده مصدراً لتخريج القادة والحكام في العالم الاسلامي ، وكانت خطابات القائمين بأعمال الدول الكبرى في هذه الجامعات في كل عام تكشف عن هذه الأغراض . يقول اللورد لويد ممثل بريطانيا في مصر في حفل كلية فكتوريا بالاسكندرية عام ١٩٢٦ . « إن أبناء هذه الكلية من ثمانية أجناس او تسعة أجناس مختلفة ، وإن من الطلبة الآن مصريون وانكلوسكسون ويونان ويهود وإيطاليون وأرمن وسوريون وأحباش وغيرهم ، كل هؤلاء لا يمضي عليهم وقت طويل حتى يتشبعوا بوجهة النظر البريطانية بفضل العشرة الوثيقة بين المعلمين والتلاميذ فيكونوا قادرين على أن يفهموا أساليبنا ويعطفوا علينا . وأود أن أشعر أن كلية

فكتوريا تنجب نفراً تنمي فيهم الشعور الانجليزى بما يكون كافياً لجعلهم صلة للتفاهم بين الشرق والغرب . وهذه المشاكل التي بين بريطانيا ومصر تحل إذا تعلم كل من الانجليز والمصريين أن ينظر كل منهم إلى رأي الفريق الآخر نظراً مقروناً بالفهم والعطف . وهكذا يكشف العميد الانجليزي عن الغاية من التعليم البريطاني ، انه يحاول أن يخلق جيلاً مؤمنا بانجلترا متعاطفا معها ، مغضيا عن استعمارها ونفوذها في بلاده ، عاملا على دعم المودة والصداقة بين المحتل والوطني - وهذه غاية خطيرة غاية الخطورة لم تقتصر على كلية فكتوريا ، ولا على التعليم الانجليزي .

وقد كشفت الأحداث عن خبيئة كثير من هذه المعاهد والجامعات المختلفة في العالم الاسلامي ، واستعلن ما حاولت أنه تخفيه ، فبين حين وآخر يذاع أن هناك كتاب يدرس يحمل ثمار التبشير أو الشكوك في الاسلام ، أو الاساءة إلى نبيه ، أو اتهام القرآن ، والمعروف أن هذه المعاهد قد بدأت في العالم الاسلامي في الثلاثينات من القرن التاسع عشر ، وأنها كانت ذات طابع تبشيري واضح مكشوف ، وكانت تقوم في مختلف أنحاء العالم الاسلامي بالدعوة الصريحة للمسيحية ، وكان لها في هذه الفترة مواقف مؤسفة بالغة الجرأة اعتمدت الارساليات التبشيرية فيها على نفوذها ، وحماية الامتيازات الأجنبية لها ، وعلى نفوذ القناصل وضعف الدول الاسلامية . غير أن هذه المعاهد لم تلبث أن غيرت أسماءها ومناهجها ، وحاولت أن تستوي في صورة جامعات علمانية بعد أن كانت معاهد تبشيرية صريحة . وقد ركزت مناهجها في كلتا الحالتين على غاية واحدة ، وإن اختلفت الأساليب ، تحمل ثقافة المستعمر وتاريخه ولغته ودينه على نحو واسع الاغراء للشاب المسلم ، مبتعدة به عن تاريخه ولغته ودينه بالهجوم والتشكيك ، وإثارة الشبهات ، والربط بينه وبين تاريخ المستعمر ودينه ولغته ومكانه من الحضارة ، والربط بين تاريخ الأمم الاسلامية ودينها وبين وقوعها تحت نفوذ الاستعمار وتخلفها .

وقد حدث في إحدى الجامعات المتصلة باحدى الدول الغربية في عاصمة من أكبر العواصم العربية أن وقف شاب من خريجي هذه الجامعة . بعد أن أحرز شهادتها العالية في حفلها السنوي الضخم ليظهر الناس على حقيقة هذه

الجامعة وأهدافها فقال : « إن هذه الجامعة تظهر أمام الناس في مظهر المدرسة العلمية ، لكنها في الحقيقة تعمل لافساد عقائد الشباب الدينية وتطعن في الاسلام ». ومن خلال بعض هذه المعاهد انطلقت حركات التبشير ، وقد جعلت من طلابها حقل تجارب لذلك ، وكشفت التحقيقات والأحداث عن نتائج خطيرة .

وهكذا وقف المسلمون من هذه المدارس طوال هذه السنوات موقف الحذر ، كاشفين لها ، ولم يستسلموا مطلقا لاغرائها ولم يثقوا بها . وما تزال ومن تخرج منها يمثلون في المجتمع الاسلامي ولاءً غير خالص للوطن ولا للأمة ولا للفكر الاسلامي ، او الثقافة العربية . ولقد شنت الصحف في مصر في الثلاثينات حملة ضخمة على هذه المعاهد وعلى حركة التبشير التي انبعثت منها وكشفت عن خطر هذه المعاهد .

وقد قوبلت هذه الارساليات جميعها من المسلمين بالاعراض التام ، ثم لم يلبثوا أن استسلموا لها تحت ضغط عوامل مختلفة ، أهمها عجز التعليم الرسمي الوطني عن افساح المجال للراغبين في التعليم . وكان أغلب الذين أقبلوا على هذه المعاهد أبناء الطبقة الحاكمة ذات الثراء التي أنفت المدارس العامة ، وحاولت أن ترضي غرورها النفسي بالالتحاق بالمدارس الأجنبية ، وكان النفوذ الاستعماري حريصاً على إغرائها بدخول مدارسه . وذلك حرصا على أن يربي الجيل القادم من الحكام والقادة على مفاهيمه وقيمه . وقد تحقق ذلك في العالم الاسلامي كله إلى ابعد حدّ . فلما جاء هذا الجيل قبل التفاهم مع الاستعمار ، ولم يعارضه على الأقل من ناحية علاقة الدين بالمجتمع ، أو علاقة الدين بالسياسة ، وقبل مفهومه في فصل الدين عن المجتمع والدولة . وقد كان الاستعمار حريصا من انشاء هذه المدارس والمعاهد أن يضع المسلمين أمام خطرين كلاهما شر وخطر :

( الأول ) : أن يتخلفوا عن التعليم ويتقدم غيرهم . وبذلك يفقدون نفوذهم بحكم أنهم أصحاب الأغلبية في بعض الأقطار كالعالم العربي ومصر ، أوكانوا حكامها وأمراءها كالهند .

( الثاني ) : أن يقبلوا على هذه المدارس فيفقدوا ايمانهم بأمتهم وبقدرتهم على مقاومة النفوذ الأجنبي .

وقد رضي المسلمون بالأمر الأول ، فتخلفوا في كثير من البلاد خاصة في الهند ، وسبقهم الهندوس الى التعليم وإلى مراكز القيادة والحكم ، ولكنهم لم يلبثوا أن عوضوا ذلك بإنشاء معاهدهم الخاصة وجامعاتهم ومدارسهم التي تحمل رسالة فكرهم ودينهم ، ويبدو ذلك جلياً في مصر والهند والجزائر وأندونيسيا . فإن جماعات ضخمة من المسلمين اندفعت للبذل والانفاق والتبرع لاقامة مثل هذه المعاهد والمدارس .

وقد ساهمت هذه المعاهد والمدارس بنصيب كبير في إضعاف اللغة العربية لدى تلاميذها وقد عمدت إلى تنشئة شبابنا على معرفة اللغات الأجنبية ، والجهل بلغتهم الوطنية ، كما أسهمت الى حد كبير في تلقين أبنائنا تاريخ أوربا والدول الأجنبية المختلفة وامبراطوريتهم ، ونسيت أو تناست أن تلفن هذا النشء ذاته تاريخ أو جغرافية وطنه .

ولما كان التعليم الأجنبي الذي قامت به الارساليات التبشيرية مستقلا بمناهجه ، وليس خاضعاً لمناهج الدولة ولا إشرافها . فقد سهل هذا الأمر على الذين أقاموا هذه المدارس توجيه النشء وجهة خاصة دونما رقابة من الدولة . وبذلك كانت الكتب المستعملة بهذه المدارس مليئة بتمجيد الدول والأمم والأديان الغربية مع معلومات خاطئة ومضللة كلها شبهات واخطاء عن الاسلام والعرب والمسلمين ، والمصريين ، وعن اللغة العربية والتاريخ . وكان ذلك كله يدرس للشباب المسلم الذى يلتحق بهذه المعاهد ، حتى كان أغلب خريجي هذه المعاهد يعرف عن الأديان الأخرى كل شيء ، ولا يعرف عن دينه شيئا . وكذلك عن اللغات والتاريخ . فإذا به كبير الولاء لما تعلم من دين ولغة وتاريخ ناقم ساخط ساخر بكل ما يتصل بالعرب والمسلمين واللغة العربية والتاريخ الاسلامي . هذا فضلا عما كان يتاح لهذا الشباب من فرص إذا أخلص الولاء لهذه الثقافات من بعثات الى تلك البلاد . فإذا عاد اقتعد مناصب الصدارة وأماكن القيادة في وطنه بفضل النفوذ الأجنبي المسيطر .

***

هذه صورة الخطر الذي تعرض له العالم الاسلامي في مجال التعليم والذي ما زال أثـره قائمـاً إلـى الآن في بعض الأقطـار بالرغـم من تغيير هذه المعاهـد لمناهجها ، أو توافر المدارس الوطنية . فقد قارب النفوذ الأجنبي وأعوانه بين مناهج المعاهد الأهلية الوطنية ، وبين مناهج هذه المعاهد التبشيرية على نحو كبير ، وإن كانت المعاهد الأهلية والوطنية قد أولت اهتمامها باللغـة العـربية والتاريخ القومي ، فإنها حملت معها الخطوط العامة لفكر المستعمر وأهدافه في التعليم ، وهي إبعاد القيم الأساسية للفكر الاسلامي عن أن تكون القاعدة التي تنبثق منها المناهج . ولذلك فإن أقصى ما كان يطمع فيه المصلحون في المعاهد الوطنية أن تدرس مادة الدين ، وهي تدرس الآن في أغلب بلاد العالم الاسلامي في المدارس الابتدائية والثانوية على نحو لا يعطي النفس الاسلامية أو العربية ، أي ربط حقيقي بين الاسلام وبين المجتمع والفكر والثقافة .

أمـا في الجامعـات فإن الفلسفـات والمذاهـب الاجتمـاعية والسياسية والاقتصادية والتربوية الغربية فإنها تدرس بحسبانها هي العلوم الأساسية دون أن يوضع موضع التقدير أن للفكـر الاسلامـي مفـاهيم وقيماً ونظـرات في الاجتماع والسياسة والاقتصاد والتـربية هي أصلـح لأهـل العالـم الاسلامـي ، وأقـرب لأمزجتهم وعقلياتهم ، وأقدر على إصـلاح مجتمعهـم وتهـذيب نفوسهـم من الثقافات الأجنبية التي يدرسونها على أنها وجهات نظر ، ربما فشلت في تحقيق نتائج إيجابية في أوطانها .

وأمر آخر بالغ الأهمية حرص النفـوذ الاستعمـاري علـى استدامتـه وابقائـه وتعميقـه في العالـم الاسلامـي هو « ثنـائية التعليم ـ التعليم الدينـي والتعليم المدني » . وذلك لخلق تمييز طبقـي بين المـواطنين . ولتحقيق الفـروق بين الطبقتين لابعـاد الشقـة بينهمـا في الثقافـة والميول والاتجاهـات ليجعـل من احداهما حاكمة ، والسبيل أمامها إلى الصدارة مفتوحة في نفس الوقت الذي أبعد فيه الاخرى عن مجال القيادة او العمل المباشر ، « والاستعمار يهدف في ذلك إلى تأصيل بقائه وخلق طبقة تسانده ويختبىء وراءها لارغام المـواطنين على استساغة وضعه .

كما أقام الفارق بين التعليمين الشعبي والحديث على الفقر والغنى ، فأصبحت هناك أغراض تعليمية تستهدف الفقراء وأخرى للأغنياء ، وتفاوتت خطوط المواطنين تفاوتها بين الاقطاعيين والأمراء[1] .

وقد حرص النفوذ الاستعماري على تجميد المعاهد الاسلامية الكبرى : كالأزهر ،والقرويين،والزيتونة ، وأنشأ نظاما آخر مستقلا عنه ، له طابعه الغربي الخالص ، وخلق خصومة وصراعا بين المتعاملين ، وجعل مدارسه ومعاهده هي التي توصل إلى المناصب والنفوذ والثروة حين أبقى خريجي المعاهد الاسلامية في درجة منخفضة . وقد كان لهذا الازدواج العلمي وهذه الثنائية أثرهما البعيد المدى في الأخطار التي واجهها العالم الاسلامي طوال هذه الفترة .

والمعروف أن جميع الثورات والحركات الوطنية والمقاومة للنفوذ الاستعماري إنما انبعثت من هذه المعاهد الاسلامية التي قادت دعوات الحرية والنهضة أساساً . وقد كشف كثير من الباحثين عن خطر هذه الثنائية ، ودعا إلى القضاء على التعارض ، وإزالة هذه الهوة الواسعة بين المتعلمين تعليما مدنيا عصريا ، والمتعلمين تعليما دينيا إسلاميا ، ولا يكون ذلك إلا بسلخ الصبغة الأجنبية عن التعليم المدنى ، وإعطائه صبغة أخرى من لون محيطه الاسلامي تكون ملائمة لتقاليد الأمة وعقائدها . ويكون القسط الأول فيه لاعلان مفاخرها وتنوير تاريخها ، وإحياء ماضيها ، وربط الحاضر به ، وكذلك تعليمنا الاسلامي يجب أن يجهز بأساليب العصر ، ومعارفه ليكون أئمة المسلمين من أعرف الناس بزمانهم ، وأدواته وأسباب معالجتها .

وعرض كثير من الباحثين للجامعات العصرية التي أنشئت في العالم الاسلامي ، وكيف طمع منشئوها في أن تكون وسيلة لدعم الوطنية والقيم العربية الاسلامية . ولكنهم عجبوا كيف تحولت هذه الجامعات لخدمة النفوذ الاستعماري . وأبرز مثل لذلك الجامعة المصرية الأهلية التي أنشأها

---

( ١ ) كتاب تاريخ التعليم الاجنبي في مصر .

المصريون بأموالهم دعماً لليقظة الوطنية . فإذا بها تقع تحت سيطرة التغريب ، وتصبح مصدراً للشبهات التي تثار حول الاسلام ، واللغة العربية ، والتاريخ الاسلامي العربي على النحو الذي قام به الدكتور طه حسين وزملاؤه وتلاميذه ، والتي كشف عنها عام ١٩٢٥ كتاب « الشعر الجاهلي » و « حديث الأربعاء » ومن بعدهما « مستقبل الثقافة في مصر » . فقد حملت لواء الدعوة إلى الفرعونية والتشكيك في القرآن ، ومحاولة خلق جيل من الشباب المثقف يتنكر لعروبته واسلامه وقيمه ، وإعلاء شأن الأدب الغربي والثقافة الفرنسية . والدعوة إلى الفرعونية . وعن الجامعة بأقلام تلاميذها صدرت رسالة : طه حسين في نقد ابن خلدون والتشكيك في مكانته العلمية ، ورسالة زكي مبارك عن الغزالي واتهام آرائه ، ورسالة منصور فهمي عن المرأة المسلمة وفيها حملات على الاسلام والرسول .

وقد حرص المسلمون في مواجهة المدرسة الوطنية الخاضعة للنفوذ الاستعماري ، والمدرسة الارسالية الخاضعة لنفوذ التبشير ، وكلاهما يهاجم الثقافة الأساسية . وفي مقدمتها الاسلام والقرآن ، حرص المسلمون إلى سد هذا النقص بانشاء المدارس الأهلية . وقد جرى هذا العمل بأهمية بالغة في مختلف أنحاء العالم الاسلامي ، وحقق نتائج طيبة ، كان أقل قدر منها أنها استنقذت جانبا من الشباب من قصور المدرسة الأهلية ، وتدمير المدرسة التبشيرية . وقد كان للجمعية الخيرية في مصر والجمعية المحمدية في أندونيسيا . ومدرسة دار العلوم في لكنو بالهند ، ومدارس جمعية العلماء في أندونيسيا ابعد الأثر في هذا المجال .

ولا شك كان للجامعات الاسلامية التقليدية في هذا المجال دور هام وخطير . هذه الجامعات التى انبثقت منها جميع حركات المقاومة للنفوذ الاستعماري والحركات الوطنية ، ومواقف المواجهة لكل حركات النفوذ الاستعماري ودعوات الالحاد والتبشير ، ومعارضة مختلف الآثار المكتوبة التي أثار اصحابها شبهات حول الاسلام واللغة العربية .

وفي مقدمة هذه المعاهد : الأزهر ، والقرويين ، والزيتونة ، ومعاهد النجف . أما الأزهر فقد عمل على حفظ التراث العربي الاسلامي في وجه

الحملات الصليبية وغارات التتار ، ومحاولات العدوان المتكررة على العالم الاسلامي ـ فضلاً عن أنه قاوم الحملة الفرنسية والاستعمار البريطاني ، وكان له مواقفه في الثورة العرابية ، وثورة ١٩١٩ ، كما قاوم الأمراء المستبدين من المماليك حتى قال عنه اللورد لويد في كتابه ( مصر خلال حكم كرومر ) .

إن أهمية الأزهر بوصفه مركزاً من مراكز الدعاية المعادية لبريطانيا كبيرة متعددة الامكانيات ، وقد أدرك الوطنيون ذلك فحاولوا استغلاله لتأييدهم ولآدابهم ، وترتب على ذلك نمو الروح المعارضة الشديدة لسيطرة الانجليز على التعليم به .

إن التعليم الوطني عندما قدم الانجليز مصر كان في قبضة الجامع الأزهر الشديد التمسك بالدين ، والذي كان أسلوبه الجاف القديم يقف حاجزاً عن طريق أي صلاح تعليمي ، وكان الطلبة الذين يتخرجون منه يحملون معهم قدراً عظيماً من غرور التعصب الديني . ومن الطبيعي أن يكون رأي المندوب البريطانى في الأزهر سيئاً ، وأن يكيل له عبارات الجمود والجفاف ، فقد كان الأزهر هو الصخرة التي وقفت أمام مطامع الاستعمار ، ومن بؤ رتها قامت كل الحركات المعارضة للاستعمار على طول المدى . ولقد كانت سياسة النفوذ البريطاني في مصر إزاء الأزهر وفرنسا ، إزاء القرويين والزيتونة . العمل على تجميد هذا النوع من التعليم مع المحافظة على بقائه . تجميده على النحو الذي يعزله عن الحياة الاجتماعية والسياسية والابقاء عليه لخلق الثنائية والتضارب والحيلولة دون قيام ثقافة وطنية أو قومية موحدة . وكما فعل النفوذ البريطاني في الأزهر ، فعلت فرنسا بالنسبة لجامعة القرويين في فاس . فقد أثر عن الحاكم الفرنسي ليوطي ـ صنو كرومر في مصر قوله : إذا تم لفرنسا القضاء على القرويين ، فقد ضمنت لنفسها الخلود في المغرب ـ ولذلك فقد تسلط النفوذ الاستعماري الفرنسي عليها حيث توجد بها « الطاقة التي تكمن فيها قوة المغرب » فأوحى الى عملائه فمنعوا دراسة العلوم بها ، واكتفوا بالقشور ، وتحولت كلية القرويين إلى شيء لا فائدة منه . « فدراسة أحوال إعراب ما تستغرق شهرين . وقد حاولت الحكومة المغربية أثناء السيطرة الاستعمارية أن

تحقق بعض الاصلاحات التعليمية فيه ، فكانت دائما تجد معارضة شديدة من الاستعمار .

* * *

وهكذا عمد النفوذ الاستعماري إلى القضاء على نفوذ الأزهر في مصر والقرويين في فاس ، والزيتونة في تونس ، فوضع خطة محكمة تستهدف إضعاف هذه المعاهد وتهوين مركزها وإضاعة نفوذها ، حيث وقف المستعمرون « في طريق علمائه ، وحالوا بينهم وبين مراكز القيادة ، ومناصب الحكم ، ووظائف الادارة ، وأشاعوا بين الناس أنهم يهدفون إلى تكريم الدين . على أن يكون الاسلام على تعبيرهم بعيداً عن السياسة ، وبمعزل عن الحكم . فأعفوا علماء الدين من التجنيد ، وأسقطوا الجهاد عمن يحفظ كتاب الجهاد « القرآن » وكأنهم أرادوا أن يبعدوا السلاح عن أيدي أولئك الذين يتعاملون بالقراءة . وبذلك أبعد القرآن وتعاليم الدين عن المدارس والمحاكم وسائر دواوين الحكومة » .

واستطاع النفوذ الاستعماري أن يجعل عددا من أبناء هذه المعاهد في موقع أكبر الخصوم لها ، الحاملين عليها ، الساخرين بها مثل : علي عبد الرازق وطه حسين . ولكن هذه المعاهد لم تجمد برغم ما قدر لها المستعمر أن تجمد ، فإنها خرّجت رجالاً كباراً فادوا خطوها إلى الأمام أمثال : محمد عبده والمراغي وشعيب الدكالي ومحمد العلوي العربي والطاهر بن عاشور . وعبد الحميد بن باديس وعبد العزيز الثعالبي . وقد حدد الأستاذ المراغي أهداف الأزهر في أهداف أربعة كبرى اعتقد انها هي رسالة الجامعات الاسلامية .

( أولا ) : تعليم الأمم الاسلامية المتأخرة في المعارف وهدايتها إلى أصول الدين وإلى فهم الكتاب والسنة ، ومعرفة الفقه الاسلامي ، وتاريخ الاسلام ورجاله .

( ثانيا ) : إثارة كنوز العلم التى خلفها علماء الاسلام في العلوم الدينية والعربية والعقلية ، وهي مجموعة مرتبطة بعضها ببعض وتاريخها متصل الحلقات .

( ثالثا ) : عرض الاسلام على الأمم غير المسلمة عرضا صحيحاً في ثوب نقي خال من الغواشي المشوهة لجماله ، وخال مما أدخل وزيد فيه من الفروض المتكلفة التي يأباها الذوق ، ويمجها طبع اللغة العربية .

( رابعا ) : العمل على إزالة الفروق المذهبية ، أو تضييق شقة الخلاف بينها . فإن الأمة في محنة من هذا التفريق ، ومن العصبية لهذه الفرق ، ودراسة أسباب الخلاف دراسة بعيدة عن التعصب المذهبي تهدي إلى الحق .

## ( ٢ )

# الثقافة

يشكل الفكر الاسلامي أساساً موحداً للدراسات العقلية والروحية في العالم الاسلامي كله ، ومنه تنبثق الثقافات المختلفة التي تتصل بكيان الأمم التي برزت معالمها الاجتماعية والنفسية باختلاف اللغات .

ذلك أن اللغة العربية : لغة القرآن لم تتح لها الفرصة لكي تكون لغة العالم الاسلامي كله . ومن ثم فقد ظهرت ثقافات مرتبطة باللغات العربية والفارسية والتركية ، وهي الثقافات الثلاث الكبرى . ثم برزت ثقافة المسلمين الهنود باللغة الأوردية . وثقافة المسلمين في جزائر الملايو . غير أن هذه الثقافات المرتبطة باللغات والأمم قد احتفظت ولا تزال تحتفظ بأساس موحد هو الاسلام ، وإطار موحد هو القرآن .

وفي العصر الحديث وفي عصر اليقظة بدت فوارق مختلفة بين هذه الثقافات ، غلب على بعضها الطابع الروحي أو الصوفي ، وظلت الثقافة العربية تقوم على أساسها على جوهر الاسلام ، جامعاً بين جناحي العقل والروح . وقد كان للاستعمار الغربي ونفوذه الضخم المسيطر منتصف القرن الثامن عشر على أغلب أجزاء العالم الاسلامي أثره البعيد في تجميد اللغة العربية في الوحدات الاسلامية القديمة والنامية . فقد جعل من قواعد مخططه الأساسية تنمية اللغات الأوربية واللهجات الاقليمية ، كما عمد إلى إجراء مباعدات وفواصل كثيرة بين الثقافة العربية والثقافات التركية والفارسية والهندية ، وكان لحركة التغريب العاتية التي جرت في تركيا بعد الحرب العالمية الأولى آثارها البعيدة في تقارب ثقافات الاسلام ولغات الاسلام . فقد عمد الكماليون حكام أنقرة على كتابة اللغة التركية بالحروف اللاتينية ، وكذلك

أجبر النفوذ الاستعماري الهولندي « جزائر الملايو وأندونيسيا » على مثل ذلك حيث كانت الحروف العربية تمثل جامعة اللغات الاسلامية المختلفة .

كما جزى هذا التباعد في مجال الثقافات التي انحرفت عن مفاهيم الاسلام ، ولكن كثيرا من هذا التباعد لم يلبث أن صعف وحل محله تقارب ، من حيث خفت يد الضغط غير الطبيعى على تمزيق وحدة الفكر الاسلامى الجامعة بين العرب والترك برباط الاسلام ، وحيثما يضعف ضغط نفوذ الاستعمار أو نفوذ وريثه التغريب . فإن الثقافات الاسلامية في مختلف أنحاء عالم الاسلام تتقارب من حيث ارتباطها وتوحدها باللغة العربية والقرآن . ذلك أن الجذور الاسلامية ما زالت عميقة الجذور في هذه الأمم مهما فرقتها لغات أو نزعات سياسية أو عرفية . ذلك أنه بالرغم مما غلب بعد الحرب العالمية الأولى ، وانحلال الرابطة الاسلامية الجامعة ، واستعلاء طابع القوميات من نزعات اقليمية مصدرها « الدافع الوطني » . الذي اتخذت منه الأمم سبيلها إلى مقاومة الاستعمار ، فأعلت من شأنه وربطته بالماضي القديم لتؤكد ذاتها . أقول : بالرغم من هذه الدعوات الاقليمية ، فقد ظلت هذه الاقليميات ذات رابطة أكيدة بالوحدة الاسلامية الكبرى ، وعاشت الأمم الاسلامية المختلفة في ثلاث دوائر متداخلة مترابطة ، ولم تقهر إحداها ولم تنقطع ، وإن غلب طابع واحدة منها . تلك : هي دائرة الوطنية المرتبطة بالأرض ، ودائرة القومية المرتبطة بالأمة او الجنس والعرق ، ودائرة الفكر والعقيدة المرتبطة بالاسلام والقرآن والثقافة .

وقد حاولت بعض الأمم والثقافات إعلاء ماضيها قبل الاسلام وإحيائه ، والاعتزاز به . وكان ذلك في الأغلب بدافع من تيارات الغزو الفكري والتغريب . ولكن هذه المحاولات لم تقطع الصلة الاسلامية الجذرية ، أعرق هذه الروابط وأقوها لاتصالها بالعقائد والعقليات والكيانات الاجتماعية والنفسية . ولقد كان هدف دعوات إحياء ما قبل الاسلام من تاريخ الهنود أو الفرس ، أو الترك أو العرب أو المصريين أو اللبنانيين أو المغاربة ، هو تمزيق وحدة هذه الأمة لتطرح العامل الجامع لوحدتها والقاسم المشترك لرابطتها وهو الاسلام ، ولكن الثقافات تسامحت وتوسعت فشملت الماضي القديم الدارس الوثنى إلى جوار الماضى القريب الاسلامي إلى جوار الوافد من الثقافات الغربية

الحديثة وأجرت تذويباً للعناصر الثلاثة في بوتقتها وصهراً لكل هذه المعطيات .

وقد استطاعت بعض هذه الثقافات أن تحتفظ بمقوماتها وعجزت بعضها الأخرى ، وغلب عليها الطابع الأممي ، أو الطابع الاقليمي الذي استعلى فيه الجنس والدم والعرق .

وقد كانت كتابات شبلي النعماني . وأمير علي . ومحمد إقبال في الهند بعيدة الأثر في تعميق مفهوم الاسلام ، وكانت دراسات معاهد الشيعة ، وتجديدات الفقهاء الجعفريين في إيران ، وفي أندونيسيا هيئات إسلامية لها دراساتها وأعمالها الفكرية الاسلامية التجريدية .

أما في مجال الأمة العربية ، فقد أثرى مجددو الاسلام الفكر الاسلامي بنظرات شاملة تمثلت في كتابات محمد بن عبد الوهاب والسنوسي والمهدي وجمال الدين الأفغاني ومحمد عبده ورشيد رضا ومحب الدين الخطيب وفريد وجدي والقاسمي والكواكبي والجزائري وشكيب أرسلان .

وكان للهيئات الاسلامية : الأزهر في مصر ، والزيتونة في تونس ، والقرويين في فاس ، وديوبند في الهند ، ومعهد النجف في العراق ، وجمعية العلماء في الجزائر ، وجمعية أهل الحديث في دلهي ، واتحاد الاسلام في سومطرة ، وشركة إسلام في جاوة ، والجمعية المحمدية في جاكرتا وجمعية ترقي الاسلام في الصين اثرها الكبير .

وقد عملت هذه المدارس والجماعات في مختلف مجالات الفكر الاسلامي . فهناك المدرسة الفقهية التي حاولت الكشف عن جوهر الشريعة الاسلامية ، وأبرزت طابع الاجتهاد في الاسلام وقدرته على مواجهة العصور المختلفة ، والبيئات المتعددة ، وهناك المدرسة اللغوية التي عملت على إدخال المصطلحات الحديثة ، والكشف عن عظمة اللغة العربية ومكانتها وهناك المدارس التاريخية والاجتماعية والتربوية التي قدمت عشرات الأبحاث في هذه المجالات . وكان الذي يطبع هذه الدراسات الاسلامية المتعددة طابعان .

( ١ ) الكشف عن قدرة الاسلام على الالتقاء بالفكر الانساني والحضارة الحديثة ، ومدى قيمه الأساسية في منح الانسانية زاداً جديداً ، وحلولاً مرنة ، سمحة لمختلف معضلات المجتمع الحديث على نحو يفوق الأيديولوجيات الغربية ، وإقناع أهل الاسلام بصلاحيته لهم صلاحية تتناسب مع أمزجتهم وعقلياتهم وأرواحهم على نحو يفوق التطلع إلى اقتباس مناهج المجتمع والحياة من الغرب ، وفضلا عن ذلك فهو مفتوح الآفاق لتقبل العلوم وعوامل الرقي المستخدمة ، وتقبل كل فكر إيجابي صالح لترقية المجتمعات ودفعها إلى الأمام .

( ٢ ): الرد على حملات التغريب والتبشير والشعوبية ، هذه الحملات الضارية التي تحمل طوابع الشبهات والتشكيك للقيم الاسلامية الأساسية ، وإثارة المغالطات حول اللغة العربية ، والقرآن والتاريخ والفكر الاسلامي .

ويمكن القول بأن جانبا كبيراً من عمل الحركة الثقافية في العالم الاسلامي كان منصبا على مهمة الدفاع عن الاسلام في مواجهة حملات خصومه . والمعروف أن النفوذ الاستعماري الغربي قد حرص عند سيطرته على مختلف وحدات العالم الاسلامي على ايجاد نوعين من التعليم بالإضافة إلى التعليم التقليدي الذي حرص على تجميده ومنعه من النمو وعزل خريجيه عن مجال الحركة في المجتمع . هذان النوعان هما :

١ ـ التعليم التبشيري الذي تقوم به الارساليات الأجنبية .

٢ ـ التعليم المدني الذي أشرف عليه مستشارون من المحتلين يرسمون مخططاته ويحولون بينه وبين دعم ثقافة القرآن وفكر الاسلام واللغة العربية والتاريخ الاسلامي .

ولقد حرص المسلمون في مواجهة هذه النظم التغريبية إلى سد الثغرة بإنشاء المدارس الأهلية والوطنية والقرآنية . وجرت في بعض أجزاء العالم الاسلامي محاولات للتقريب بين المدارس الاسلامية والمدارس الوطنية والتوفيق بينهما لصالح الاسلام ، كما فعلت ندوة العلماء في لكنو بالهند .

كما كان حرص المجددين للثقافة العربية المستمدة من الفكر الاسلامي ، وكذلك الثقافات الهندية الاسلامية والأندونيسية الاسلامية ، على تأكيد عدة معان أساسية لها أهميتها في مجال التغريب والشبهات المثارة .

أولاً ـ وهو أن الاسلام ليس دينا بالمعنى المألوف لهذه الكلمة ، ولكنه دين ونظام اجتماعي في آن واحد . وقد حرص النفوذ الاستعماري في مدارسه ومعاهده وخريجيه على دعم هذا المفهوم الخاطىء ، والحيلولة دون تعمق المفهوم الأصيل .

ثانياً ـ حرص المجددون المسلمون على تأكيد مفهوم الجهاد في الاسلام باعتباره فريضة من فرائضه . وكان النفوذ الاستعماري يحرص على الاغضاء عن هذا المفهوم . بل إن الاستعمار البريطاني في الهند قد حرص على ظهور جماعات تحمل لواء الدعوة إلى الاسلام ، تعلن أن الجهاد ليس أساسا من أسس الاسلام ، فضلا عن حرص الاستعمار على إبعاد آيات الجهاد ودراساته عن مجال المدارس والجامعات والمعاهد .

ثالثا ـ الاهتمامات بتأكيد مفهوم صلاحية الشريعة الاسلامية للعالم الاسلامي وامتيازها عن القانون الوضعي ، وخاصة بعد أن أعلن مؤتمر لاهاي ١٩٣٧ ومؤتمر سان فرنسسكو ١٩٥١ ـ أن الشريعة الاسلامية شريعة تامة ، وأفرد له كرسيا في محكمة العدل الدولية تولاه مستشار مسلم .

رابعاً ـ الاهتمامات كانت الدعوة إلى استمداد التربية والتعليم في العالم الاسلامي من مناهج التربية الاسلامية القائمة على الربط بين الأخلاق والسياسة وبين الدين والمجتمع .

خامساً ـ هذه الاهتمامات تأكيد اعتبار اللغة العربية الفصحى لغة أساسية في المدارس والجامعات وأساس أكيد للثقافة ومقاومة دعوات العامية ، أو الكتابة بالحروف اللاتينية . وكانت أكبر أهداف حركة التغريب والتبشير والنفوذ الاستعماري والغزو الثقافي هي القضاء على هذه المقومات ورفع شعار ( العلمانية ) في التربية باقصاء الدين أساساً من برامج التعليم ومناهج

المجتمع ، ورفع شعار ( الأممية ) في مجال الفكر في محاولة القضاء على المقومات الأساسية للثقافات العربية والتركية والفارسية والهندية المستمدة من الاسلام بدعوى مضللة هي « وحدة الثقافة العالمية » . وكان مفهوم هذه الدعوة هو إذابة الثقافات الاسلامية في الثقافة العربية المستعمرة والمسيطرة .

وقد عرض كثير من الباحثين لهذه التحديات ، وأشار إليها ( ساريدار بابنكار ) في كتابه ( مشكلات الثقافة الأفريقية والآسيوية ) فقد أبان أن الاحتلال الأجنبي الذي عانته هذه الدول عمل على سيطرة اللغة الأجنبية على التعليم . ففي كل مكان ما عدا العالم العربي كان التعليم يجري بلغة أجنبية .

ففي الهند لأول مرة وضع نظام تربوي شامل بلغة أوربية . وفي أندونيسيا لوحظ أن عدد الذين أنهوا علومهم الثانوية باللغة الهولندية لا يتجاوز ١٤ ألفا . وفي السودان هبط مستوى التعليم إذ لم يكن يوجد إلا كلية واحدة في الخرطوم ، وفي المغرب وتونس كان التعليم الفرنسي سطحيا . وكانت التربية في ظروف الوضع الاستعماري محافظة جامدة ، لأنه لم يكن من مصلحة الأجنبي المستعمر الذي يبغي استغلال البلاد أن تروج تربية حيوية . وكانت الكتب المستعملة في المدارس والنفسية التي كان يراد خلقها لدى النشء كانت تميل بالطبع إلى التقليل من قيمة الثقافة الوطنية مع تمجيد فضائل السيد الأجنبي . وكان أبرز أهداف التربية الاستعمارية إثارة الروح الانهزامية في المواطنين لتتمكن من التحكم فيهم . وكان التعليم يتم في مختلف بلاد العالم الاسلامي باللغة الأجنبية كالانجليزية في المستعمرات البريطانية ، واللغة الهولندية في أسبانيا ، والفرنسية في الهند والصين والمغرب وتونس . فضلا عن تضييق نطاق التعليم حتى يصبح قاصراً على الطبقة العليا التي ستحكم . وإلى هذا المعنى كانت دعوة لطفي السيد في مصر ١٩٠٧ - ١٩١٤ - بايحاء من النفوذ الاستعماري .

***

وتبدو صورة الاستعمار الثقافي في أفريقيا أشد وطأة وابعد أثراً حيث ما تزال حركة الغزو الفكري قائمة على أشدها في أفريقيا بالذات . بينما تحرر كثير

من وحدات العالم الاسلامي من الاستعمار ، وإن لم تتحرر من النفوذ الثقافي والتغريب. ويكمن الاستعمار في مجالات ثلاثة: التعليم . الصحافة . الثقافة . والخطة الأساسية للغزو الثقافي : هو توجيه الانسان الأفريقي الى الخضوع للاستعمار وتقبل حضارته والتعاطف معها .

فالثقافة في مختلف المناطق المحتلة تقوم على نفوذ مدارس التبشير والاستعمار . هذه المدارس التي كانت سببا أساسيا في تقهقر الثقافة العربية الاسلامية . حيث ابعد الاسلام واللغة العربية نهائياً ووضع بدلاً منها لغة المستعمر ودينه وثقافته وتاريخه . وإعلاء شأن اللغات المحلية في بعض المناطق للقضاء على اللغة العربية ، وللتمهيد للغة الأجنبية . وقد أجبر البريطانيون مختلف المناطق التي احتلوها على استخدام الحروف اللاتينية في كتاباتهم . كما التهمت نيران الجيوش في مدن أفريقيا الغربية كثيراً من المكتبات القديمة ، كما نقلت مئات من كتب التراث الاسلامي والعربي إلى أوربا . وذلك لقطع التيار العربي الاسلامي نهائيا . وتحويل هذه المناطق عن الثقافة الوافدة من شمال أفريقيا ومصر . كما تعرضت الزوايا والمدارس الاسلامية والكتاتيب للمحاصرة والانقراض لعجزها عن الحصول على إعانات .

ويستهدف الاستعمار من هذه المخططات الأساسية أن يوجد مفهوما ثقافيا قوامه الالتقاء بين الوطنيين والمستعمر في تعاون وتقبل للوجود الاستعماري . وهو نفس ما دعا إليه كرومر في مصر عند احتلالها في عبارته المرنة الدقيقة « التقاء أهل البلاد المدنيين بالغربيين في منتصف الطريق ». هذا المنطق الذي خلق أجيالا ترى أن العلاقة بين الأوطان والمحتلين ليست احتلالاً ، ولكنها تمدين وتعاون وصداقة . وهذا يتطلب تقاربا فكريا وثقافيا يتم عن طريق اللغة الأجنبية . وعن طريق عقائد المستعمر الدينية والاجتماعية ، وقوانينه ونظمه ، بحسبان أن هذه أمانة الرجل الأبيض الذي عهدت اليه العناية الالهية ، تمدين الأمم المتخلفة . وهذا يتطلب أساسا إبعاد الاسلام واللغة العربية بحسبانها أساس المقومات الداعية إلى مقاومة المستعمر ومعاداته ، ورفض وجوده غير الشرعي .

وقد جرى التركيز على أفريقيا في خلال المائة عام الأخيرة تركيزاً أساسياً باعتبارها هي الجبهة الأخيرة للاستعمار على حد تعبير جوميد جنتز .

وترسم المناهج التعليمية والثقافية والصحفية إلى إعداد السكان الوطنيين على نحو يحقق فهم روح الطاعة والاستسلام والذلة ، وتربية روح الخضوع والاستسلام مع الاعجاب والعرفان والتقدير للرجل الأبيض صاحب الفضل في تمدين البلاد والمنقذ الذي ادخره القدر . وقد كان نظام الارساليات من العوامل الفعالة في تنفيذ هذا المخطط . ويبلغ عدد الارساليات الأوربية والأمريكية في أفريقيا رقما يزيد على ١٠ آلاف ارسالية . ويصور هذا التحدي الخطير مؤلف كتاب[١] الثقافة الأفريقية حين يقول : « ما من ثقافة أفريقية إلا وتأثرت باحتكاكها بالأوربيين . ولكن في الوقت نفسه لم تستسلم أية ثقافة استسلاماً كلياً للغزو الثقافي الأوربي ، ولا ننكر هنا أنه يجري تدريب عدد متزايد من الأفريقيين على النظر إلى دين أجدادهم ، كما لو كان ضرباً من الخرافة وأن ينبذوا المعتقدات والتقاليد الأخرى على اعتبار أنها بالية ، ولم تعد تجاري العصر الحديث .

***

ولكن هذا المخطط الاستعماري التبشيري على الرغم من اتساع نطاقه ووسائل دعمه ، فإنه واجه تحديا أشد قوة حال وما زال يحول دون تنفيذ مخططه على الوجه الذي يرضاه الاستعمار ، فإن حركة انتشار الاسلام تحطم كثيرا من هذه الخطط وتفرض نفوذ الاسلام وثقافته ، فما تزال زوايا التعليم القرآني المتواضعة تؤدي دورها . وكل الذين تعلموا في الأزهر عندما عادوا الى بلادهم أنشأوا عدداً من المدارس الاسلامية .

وما تزال الفرق الصوفية : التيجانية ـ والقادرية ـ والشاذلية بنفوذها الواسع الممتد تقوم بإنشاء المدارس . وما يزال القرآن يشكل حجر الزاوية في البناء الثقافي ، وأغلب سكان نيجيريا وأفريقيا الغربية يكتبون مراسلاتهم باللغة

---

١ ـ الثقافة الافريقية بقلم وليم ساسكوم ، فلفيل هيرسكوفير ـ ١٩٦٦ .

العربية ، وتسير حركة الاصلاح الاسلامي جنبا إلى جنب مع انتشار اللغة العربية في بلاد أفريقيا .

والحركات الوطنية جميعها مرتبطة بالثقافة الاسلامية ، حيث ارتبطت الدعوات التبشيرية الأخرى بالاستعمار . ومن ثم فقد حمل الاستعمار في أفريقيا طابع الحرية والمقاومة والكفاح ضد النفوذ الأجنبي .

ويرجح جون جنتز في كتابه « داخل أفريقيا » السر في ذلك إلى « أن الاسلام نظام اجتماعي كما هو دين ، نظام اجتماعي يمنح المؤمن اعتقاده بالمساواة » مع جميع المؤمنين الآخرين ،وكثيراً ما يوصف الاسلام بأنه الأكثر ديمقراطية بين ديانات العالم الكبرى ، وليس في الاسلام تمييز عنصري ، ولا يحول دون تحول ( البانتو ) إلى رحابه . لقد انتشر الاسلام انتشاراً شاملاً عمليا بين عباد الأوثان والحيوان . لأن شعائره مبسطة للغاية بقدر ما فيه من جاذبية أصيلة راسخة . ا هـ .

# ( ٣ )
# اللغة العربية في العالم الاسلامي

اللغة العربية هي لغة القرآن الكريم . ولذلك فقد رافقت رحلة الاسلام وانتشاره إلى مختلف أنحاء العالم الاسلامي ، وكان لها تأثيرها الواضح في لغات الأمم على عدة أوضاع :

اولا ـ ورثت في مصر اللغة القبطية . وفي سوريا اللغتين اليونانية واللاتينية واللغة السامرية واللهجات الآرامية . وفي العراق وبلاد الجزيرة ورثت اللغة السريانية وغيرها من اللهجات الآرامية وغيرها من اللغات التي كانت شائعة في العالم العربي ، كما تغلب الخط العربي على خطوطها .

ثانيا ـ كانت بعيدة الأثر في اللغات الاسلامية الكبرى الثلاث : الفارسية ـ والتركية ـ والأردية ـ أما بالنسبة للغة الفارسية فقد أنشأت لغة جديدة هي الفارسية الحديثة التي يتكلم بها الفرس الآن . وهي غير اللغة الفارسية السابقة قبل الاسلام والتي تسمى البهلوية التي انقرضت تماماً أمام اللغة العربية ، وحلت محلها الفارسية الحديثة التي تميزت بكثرة الألفاظ العربية التي زادت زيادة كبرى خلال حكم الدولة العباسية ـ كما أن الفرس كتبوها بالحروف العربية والخط العربي . وقامت أساسا عن طريق إدماج اللغة الفارسية بالألفاظ العربية . وقد ظل شعراء الفرس لا يقولون الشعر نحو قرنين إلا باللغة العربية .

وما تزال اللغة العربية في إيران تحتل مكانة واضحة في مجال الدراسات الاسلامية ، وبها تؤلف الكتب ، ويتحدث بها المعلمون والأساتذة . وما زال الايرانيون يعلمون أبناءهم في مدارسهم الاسلامية باللغة العربية ، ومعظمهم

يقول : الشعر باللغة العربية الفصحى . وقد استعمل الأفغانيون الحروف العربية لكتابة لغاتهم الباميرية .

ثالثاً ـ أما بالنسبة للغة التركية فإن العربية تؤلف الجزء الأكبر من الأجزاء الثلاثة التي تتألف منها اللغة التركية العثمانية ( وهي : اللغة الفارسية ـ اللغة التركية ـ اللغة العربية ). وقد دخلها من الألفاظ العربية أكثر من خمسين في المائة من مجموع ألفاظها . بل إن قواعد صرفها ونحوها مستمدة من القواعد التي اقتبسها العجم من العرب .

ولما كانت اللغة الفارسية هي لغة العلم والأدب والسياسة في عصر السلاجقة . فقد كانت مصدراً أساسياً للأدب التركي واللغة التركية ، ولما كانت اللغة الفارسية أساسا تحوي عناصر كبرى من اللغة العربية وآدابها . فإن هذه الآثار قد انتقلت بالطبع إلى اللغة التركية فضلا عما نقله الأتراك العثمانيون من اللغة العربية رأساً فيما بعد . ولذلك فإن الألفاظ العربية في اللغة التركية تبلغ أضعاف الألفاظ الفارسية فيها .

ولقد كان المسلمون يتطلعون إلى أن الدولة العثمانية تأخذ باللغة العربية لغة للدولة . غير أن التحول الذي واجهته تركيا بعد الحرب وانسلاخها عن العالم العربي وعن الاسلام دفعها إلى التخلص من الأثر العربي . وكان أساس الانقلاب هو كتابة اللغة التركية بالحروف اللاتينية . بدأ ذلك عام ١٩٢٧ ـ ثم جرت تصفية اللغة من الكلمات العربية ، حيث عقد عدد من المؤتمرات التي قامت باخراج ١٣٦٥٠ كلمة عربية حلت بدلا منها كلمات تركية حيث اعتبرت الكلمات العربية كلمات أجنبية . وقد أشار الباحثون إلى مدى الأثر الخطير الذي حققته هذه التجربة . حيث فقدت تركيا تراثاً ضخماً يتمثل في مئات المجلدات في الأدب والنقد والثقافة التي كتبت باللغة التركية العثمانية ـ فضلا عن أن استعمال الأتراك للحروف اللاتينية أفقدهم تصوير الأحرف المشابهة : كالغاء والحاء والصاد والضاد والظاء والعين . فإن هذه الحروف لا يمكن أن تجد في اللاتينية ما يصورها بحرف واحد يقوم مقامها .

رابعا ـ وكذلك كان أثر اللغة العربية دائماً في اللغة الأردية ( التي كانوا

يطلقون عليها الهندوستانية ) ويتكلم بها أكثر مسلمي الهند ، وهي مأخوذة من اللسان الهندي من الالفاظ العربية والفارسية ، وتأثير العربية فيها أظهر من تأثير الفارسية .

خامسا ـ وللغة العربية أثرها الواضح في لغات سكان أرخبيل الملايو : فقد اتخذوا حروفها لكتابة لغاتهم كما استعملها المسلمون الصينيون لكتابة لغاتهم المحلية ، والأمم التترية لكتابة لغاتهم الخاصة في مناطق بين سيحون وجيحون الممتدة حول بحر قزوين شمالي البحر الأسود . وجنوبي الأورال وجنوبي الروسيا . وكذلك لها مكانها في لغة الفكر ، وأخواتها التركية في الشمال ولغة الأكراد وغيرها من اللغات الفارسية .

سادسا ـ واللغة العربية لها مكانها الأصيل في لغات أفريقيا ، فهي في السنغال لغة المسلمين ، وتعتمد بقية اللغات الوطنية على الحروف العربية في كتابة لغتها ( تقويم العالم الاسلامي لماسنيون ) وهي شائعة في السودان الفرنسي وعلى شاطىء العاج . ويعتمدون في النيجر على الحروف العربية ، وكذلك في نيجريا . والعربية ميسرة في أقاليم تشاد وجيبوتي والحبشة ، واللغات الوطنية أغلبها يكتب بحروف عربية . والسواحلية والهوسا في أفريقيا ، وهي والعربية أعضاء في أسرة اللغات الاسلامية تتقارب في المفردات والمصطلحات . وتلقى اللغة العربية في بلاد الصين إقبالاً عظيما ، حيث يوجد ٤٠ ألف مسجد تدرس فيها العلوم الاسلامية واللغة العربية .[١]

---

١ ـ راجع عبد الفتاح عبادة سنة ١٩١٥ ـ الهلال

## ( ٢ )

واجهت اللغة العربية منذ اتسع النفوذ الأجنبي للعالم الاسلامي مقاومة بعيدة الأثر خاصة من اللغات الثلاث : الفرنسية والانجليزية في أنحاء العالم الاسلامي ، والهولندية في أندونيسيا . فقد قطع الاستعمار الغربي الطريق على توسع اللغة بين مسلمي العالم ، حيث كان من الطبيعي أن يتسع انتشارها في مختلف المناطق التي يصل إليها الاسلام لارتباطها العضوي به : بحسبانها لغة الصلاة والدين والثقافة . وقد استطاع النفوذ الاستعماري أن يضرب عدة ضربات خطيرة .

( الأولى ): نقل كثير من اللغات إلى الحروف اللاتينية ، وفي مقدمتها الأندونيسية واللغة التركية .

( الثانية ): توسيع نطاق لغته وجعلها اللغة الرئيسية كما فعل في الهند الاسلامية والباكستان وفي قلب أفريقيا .

( الثالثة ): تجميد اللغات الاسلامية القادرة على النمو كالأزدية في الهند مع الحملة عليها وتحريض الهنود على اتخاذ لغة اخرى باعتبارها لغة الثقافة الاسلامية ، وإعلاء اللغات الأوربية وتقديمها . ومن حيث ان اللغة العربية هي لغة القرآن . فإن الاستعمار والنفوذ الأجنبي يعمل لهدمها وتجميدها وايقافها بحسبانها لسان الاسلام . وما تزال اللغة العربية عاملاً مساعداً لنشر الاسلام وتعميقه . وما تزال اللغة العربية قائمة بقيام كتابها ودينها ، ولن تموت كما ماتت لغات أخرى انفصلت عن دينها وكتبها المنزلة .

( الرابعة ) : استخدام الدعوة الى العامية ، والتحريض على جعلها لغة للتأليف والكتابة . كما فعل اللورد وفرق السياسي البريطاني حين طالب في

اوائل الاحتلال البريطاني لمصر بتدوين العلوم باللغة العامية للمصريين ، وكما حاول الاستعمار في الجزائر . وليست اللغة العربية الفصحى لغة دينية بالمعنى الذي يلجأ اليه بعض المبشرين والمستشرقين . وانما هي لغة فكرية . ذلك ان اللغة العربية انما تحمل ثمار الفكر الاسلامي الذي يشتمل على الدين والاقتصاد والاجتماع والسياسة والتربية جميعاً . وهي كلها فروع تتصل باصل واحد هو الاسلام الذي ليس ديناً فحَسب . ولكنه دين ونظام حياة .

واللغة العربية ليست لغة امة فقط ، تنطبق عليها قوانين اللغات الخاصة بالامم وتطورها . وانما هي لغة ثقافة مرتبطة بكيان كامل من الفكر الاسلامي وهي لغة كل مسلم عربي كان ام غير عربي يعلم ان القرآن كلام الله . وان على المسلم أن يتعلم لغة القرآن ليفهمه .

واذا كانت اللغة العربية الفصحى هي الرباط الذي يجمع الامة العربية ويحميها من التفكك ، والعامية هي اداة التفكك . فان اللغة العربية هي لغة الوحدة الفكرية للعالم الاسلامي كله . وهناك قاسم مشترك بالبلاد الاسلامية غير العربية هو القرآن كلام الله . ولذلك فان الاستعمار يحاول دون ان يجتمع العالم الاسلامي على لسان واحد هو اللغة العربية . وعند الامام الشافعي ان العلم بالعربية كالعلم بالسنن .

ولذلك فقد تعالت الصيحات منذ وقت بعيد بالدعوَة الى ان لغة القرآن هي لغة العالم الاسلامي وبحسبان ان اللغة العربية هي ( اسبرانتو الشرق ) ومن هذه الصيحات صيحة رشيد رضا في العقد الثاني من هذا القرن بدعوة المسلمين الى استعمال لغة واحدة بينهم هي : اللغة العربية لغة الاسلام ولغة شطر القارة الافريقية الشمالي من الغرب الى الشرق ، وشطر آسيا الشرقي من البحر الاحمر الى خليج فارس . هذه اللغة التي يتلقى بها المسلمون الثقافة الاسلامية في جميع الاقطار .

« ولما كان الاسلام دين التوحيد » ديناً عاماً لجميع البشر ، وكان من مقاصده ان يؤلف بينهم ، فرض عليهم توحيد اللغة ، فخرجت هذه اللغة عن ان تكون لغة شعب واحد منهم ، ولولا ذلك لم تؤثرها جميع الشعوب الاسلامية على

لغاتها ، حتى عم انتشارها في الشرق والغرب مع الاسلام . ولسنا هنا في مجال عرض المؤ امرات التي قامت من أجل القضاء على اللغة الفصحى ، وذلك عن طريق دعم العامية او بعث الحروف اللاتينية[1] وقد واجه كتاب الاسلام والعرب بابراز الحقائق ودحض الشبهات حتى أن بعض المستشرقين ايدوا الاتجاه العربي الاسلامي . وفي مقدمتهم كارلوأ . نلينو الذي اكد ان الحروف اللاتينية لا تصلح للكتابة العربية حين قال :

« فقد حفظ الخط العربي للآن وحدة اللغة العربية ، حيث ان الحروف اللاتينية مبنية على اساس ان صوت الحرف واحد غير متبدل ، اما في العربية فهناك اصوات لكل حرف لاسيما فيما يختص بالحركات . فاذا تغير الخط العربي بالخط اللاتيني اصبحت النتيجة خطيرة للغاية . فكيف يكون مصير الكنوز العظيمة التي خلفتها الاداب الاسلامية في الدين والفقه والفلسفة والعلوم والاداب والفنون وغيرها ، وكلها مدونة بالخط العربي » .

وفي العصر الحديث جرت محاولات كثيرة متعددة في سبيل دفع اللغة العربية الى مكانها الاول في العالم الاسلامي : بحسبانها لغة القرآن : لغة عالمية لجميع المسلمين مع وجوب تعلمها وتعليمها . وفي مقدمة ذلك القرارات التي اتخذتها المؤ تمرات الاسلامية التي عقدت في القدس وباكستان وغيرهما من العواصم الاسلامية بان تكون اللغة العربية لغة دولية في العالم الاسلامي ، تتفاهم بها الدول الاسلامية في مكاتباتها الرسمية . ولذلك فلا بد من ان تكون مادة اجبارية تدرس في مدارس العالم الاسلامي كله . غير ان عقبات كثيرة وقفت دون هذا الهدف ، فما يزال النفوذ الاجنبي وقوى التغريب والتبشير والشعوبية تسيطر على كثير من الجهات التي تحول دون تحقيق هذا الهَدف . وقد واجهت اللغة العربية في شمال افريقيا ، وفي الاقطار التي احتلتها فرنسا ( تونس ـ الجزائر ـ المغرب ) محاولات متعددة للقضاء عليها . اما في الجزائر فقد كان الامر اشد خطورة حيث كادت اللغة العربية ان تمحى محواً تاماً ، حتى اتيح لجمعية العلماء الجزائرية وقادتها : عبد الحميد بن باديس ـ والبشير

---

( ١ ) راجع كتابنا : اللغة العربية بين حماتها وخصومها .

الابراهيمي وغيرهما .أن تعيد بناء اللغة العـربية من خلال ثلاثمائـة مدرسـة . اقيمـت في المساجـد علـى نحـو بارع استطـاع ان يتحقـق تحـت مدافـع الاستعمار ، وفوهات بنادقه .

وقد كان لهذا العمل الخطير ابعد الاثر في التحول التاريخي الذي شهدتـه الجزائر . وقد اشار الى ذلك المؤ رخ الفرنسي « جاك بيرك » حين قال : « ان اقوى القوى التي قاومت الاستعمار الفرنسي في المغرب هي اللغة العربية . بل اللغة العربية الكلاسيكية ( الفصحى ) بالذات ، فهي التي حالت دون ذوبان المغـرب في فرنسـا . ان الـكلاسيكية العـربية هي التـي بلـورت الاصالـة الجزائرية . وقد كانت هذه الكلاسيكية العربية عاملا قوياً في بقـاء الشعـوب العربية . ا هـ .

# اللغات الاسلامية واللغة العربية
# في الباكستان والهند الاسلامية

كانت اللغة العربية في الهند الاسلامية هي لغة الثقافة ولغة الدين . بالاضافة الى اللغة الفارسية التي كانت حصيلتها وحروفها عربية . وكانت اللغة الفارسية في الهند هي اللغة الرسمية طوال العصور الاسلامية . وكانت تحمل في طياتها ذخيرة هائلة من التراث العربي .

ثم كانت اللغة الاردية هي اللغة الغالبة في المناطق الاسلامية . فقد حملت الثقافة الاسلامية قرابة تسعة قرون وذخرت بالكلمات العربية والفارسية . ولما كان في القارة الهندية ( التي انقسمت من بعد الى الهند والباكستان ) نحو اثنتين وثلاثين لغة مستقلة عن الاخرى . لان لغة كل اقليم لا يعرفها اقليم آخر . بينما كانت اللغة الاردية غالبة على مجتمعات المسلمين ، وكان هناك عدد كبير يتكلمون اللغة العربية الفصحى ، منهم من يجيدون الخطابة بها ويحفظون اشعار شعرائها . ومنهم من يقرؤها ويكتبها . كما كان هناك مؤلفون بالعربية في الفقه والتفسير والحديث .

وكانت هناك معاهد كثيرة في انحاء الهند الاسلامية تجري فيها الدراسة باللغة العربية . غير ان الموقف قد تغير تغيراً شاملا بعد الاحتلال الانجليزي للهند . فقد جعل الانجليز في مقدمة اهدافهم تجميد اللغة العربية ، والحيلولة دون قيام لغة واحدة للمسلمين والهندوس وفرض اللغة الانجليزية للهند كلها واعلائها لتصبح اللغة الاولى الجامعة للهند كلها . وقد تحقق ذلك خلال فترة احتلال الهند الطويلة الى ابعد حد .

فقد قرر حاكم الهند لورد ويسلي عام ١٨٠٠ انشاء كلية ( فورد وليم ) في مدينة كلكتا بالهند واسند مهام ادارتها الى المستشرق الدكتور دان جيكرست )

وقد تولت اول الامر تدريس العربية والسنسكريتية والاردية والبنغالية بالاضافة الى الانجليزية واللاتينية واليونانية .

ثم لم تلبث ان قصرت مهمة هذه الكلية على اللغات الشرقية . حيث حاول الانجليز لاول مرة في تاريخ الهند بذر بذور الشقاق بين المسلمين والهندوس ، لانهم شرحوا لهم عن طريق خططهم المدبرة ان كلا من المسلمين والهندوس ، لهما حضارتان مختلفتان ، وثقافتان متباينتان مستقلتان . وعلى هذا الاساس فقد دفع الانجليز الهندوس الى رفض اللغة الاردية كلغة موحدة للهند ، وجعلوا حجتهم التي ترضي الهندوس . باثارة القومية الهندية القديمة ، على اساس ان الاردية لغة اسلامية ، وحاملة للفكر الاسلامي . ومن هنا فلا بد من ايجاد لغة هندية للهندوس يشتقونها من نفس اللغة الاردية مع شطب الكمية الكبيرة من الكلمات العربية والفارسية ، وحروفها من ناحية ، واخراجها من اللغة ، وادخال كلمات سنسكريتية وحروفها من ناحية اخرى . وبهذا شكل الانجليز لغة جديدة للهندوس تكون بمثابة اللغة القومية للهندوس ، وقسموا هذه الكلية الى دراسة لغتين : الاردية والهندية ، واسندت مهام الرئاسة للغة الاردية الى استاذ مسلم ومهام الرئاسة للغة الهندية الى كهنوت هندي . وتطورت هذه المؤامرة حتى اصبحت بمرور الايام مثار خلاف بين الهندوس والمسلمين . وبذلك تكونت في مستهل القرن التاسع عشر لغتان مع أنهما لغة مشتركة واحدة .

وقد كان من نتيجة ذلك ان شعر الهندوس بانهم تحرروا من سيطرة المسلمين . ولا بد لهم ان ينفضوا عنهم جميع الاثار الاسلامية التي رسخت بهم طوال القرون الماضية وتغلغلت في نفوسهم . وظهر هذا الشعور في النفور من مظهر اللغة المشتركة . فبدأوا ينفرون من اللغة الاردية ، لانها حافلة بالاثار الاسلامية ، وأنشأوا لغة جديدة . هي « الهندية » .

وكرسوا لاحيائها ونشرها جميع جهودهم وطاقاتهم . كما اخرجوا جميع الحروف العربية والفارسية التي كانت تستخدم في اللغة الاردية من بعض الولايات التي كانوا يتمتعون فيها باغلبية ساحقة ، ثم وجهوا عناية كبرى الى

الادب الهندي القديم واحيائه واتخاذه نبراساً لمستقبل اللغة الهندية . ثم كان ان فرض الهنود « اللغة الهندية » لغة مشتركة على المسلمين[1] .

وقد اتسع هذا الخلاف بعد انشاء دولتي الهند وباكستان ، وظهر الخلاف بين المسلمين حين اتجه الرأي الى اتخاذ اللغة الاردية اللغة الرسمية ، ذلك لان باكستان الشرقية تتكلم اللغة البنغالية ، وباكستان الشرقية اقرب الى الهند منها الى باكستان الغربية . كما انها تتغذى بالانتاج الفكري للهندوس البنغالية ، بدلا من الاردية ، لذلك رفضت باكستان الشرقية ( الاردية ) لغة رسمية وحيدة لدولة الباكستان . اما باكستان الغربية فهي اكبر معقل للفكر الاسلامي ، وفيها ظهر ( اقبال ) وفيها ولاية ( السند ) التى بدأ فيها الاسلام الضخم ، وابناؤها يمتازون باصالتهم فى الاسلام وبالانتاج الضخم في الفكر الاسلامي .

ومما يتصل بهذا التحول الخطير ان غاندى زعيم الهندوس كان قد أعلن انه من الخير لسكان الهند الا يلجأوا الى اللغة الأردية . لانها تكتب باحرف القرآن وهو كتاب المسلمين وحدهم[2] . وعلى الهند ان تختار اللغة المحفوظة عن الامهات فقط وهي اللغة السنسكريتية .

وقد عارض المسلمون ذلك الرأي ، وقالوا ان لغة الامهات هي اللسان العربي المبين . وكان الهدف التغريبي يرمي الى تذويب المسلمين مع الهندوس في اللغة السنسكريتية ، تعصباً ضد الاردية التي تحمل الثقافة الاسلامية وضد العربية ، وفتحا للطريق امام اللغة الانجليزية التي سيطرت على الهند كلها بعد الاستقلال .

وترجع صلة الثقافة الاسلامية باللغة الاردية الى مدى تسعة قرون ، وان لم تبلغ اللغة الاردية مكانة واسعة في الهند الاسلامية بعد ان آلت دولة المغول الى

---

( ١ ) سليمان الندوي : بحث عن اللغة الاردية ـ مجلة الثقافة المصرية سنة ١٩٦٤ .

( ٢ ) محمد حسن الاعظمي ص ١٧،١٧ م الرسالة م ١٩٤٩ .

الزوال واندثرت لغتها الرسمية ( الفارسية ) في اوائل القرن التاسع عشر . حيث تركزت عناية المسلمين على اللغة الاردية ، وحظيت بعناية الشعراء والكتاب . وبفضل التأليف بها والترجمة اليها اصبحت سهلة ميسرة عذبة في اسلوبها . وترجع غزارة مادة اللغة الاردية الى اتصالها بالثقافة الاسلامية[1] . فقد ترجمت الى الاردية امهات الكتب الفقهية للمذهب الحنفي وامهات كتب السنة ومنها ( الموطأ والبخاري ومسلم ) .

وقاد هذه النهضة اعلام المسلمين الذين اخذوا بنصيب موفور من الثقافة العربية ، ويعد العلامة شبلي النعماني ومدرسته في لكنو ودار العلوم بها ، وندوة لكنو وخريجوها من اعظم الافذاذ الذين عرفتهم الصحافة العربية ، وعرفهم ميدان التأليف من اقدر من كتبوا باللغة العربية . كما كتب بها عدد كبير من الاعلام .

وفي اللغة الاردية تراث اسلامي حديث قدمته اقلام كثيرة في مقدمتها : ألطاف حسين الذي صور بالشعر قضايا المسلمين والحرية ، ودعا الى ادب القوة ، وهاجم الجبرية . ومن ابرز انتاجه قصيدة ( مسدس حالي ) حيث يروي قصة الحضارة الاسلامية ومجدها .ويصور تخلف المسلمين واسباب انحطاطهم ذاكراً اسباب النجاح وعوامل التقدم حاثا المسلمين على اعادة مجدهم ومسايرتهم موكب الحضارة الحديثة وتفوقهم في العلوم المعاصرة .

وتدرس اللغة العربية في الجامعات الاسلامية الهندية والباكستانية كلغة اكاديمية لنيل الشهادات العليا في الاداب وقد عنى بها الكثيرون باعتبارها لغة القرآن الكريم والحديث الشريف . كما اعد بعض الباحثين دراسات مقارنة مشتركة بين اللغة العربية واللغة الاردية كالعلامة محمد حسن الاعظمي صاحب المعجم الاعظم ، الجامع بين اللغتين العربية والاردية ، ويوجد في حيدر اباد الدكن مركز هام لنشر العربية ، حيث يوجد مائة الف او يزيد من العرب ، ويوجد في باكستان مئات الالوف من دارسي اللغة العربية . وفي باكستان

---

( ١ ) د ـ محمد اسماعيل الندوي ـ الثقافة ـ م ١٩٦٥ .

الشرقية نصف مليون تلميذ يدرسون العربية . ولا شك كان للغة العربية تأثيرها الواضح في مختلف اللغات الهندية بصفة عامة، وخاصة في اللغة السندية عن طريق الجيوش العربية التي دخلت السند بقيادة محمد بن القاسم ( ٩١ هـ ) وتوسع سلطانهم فيما بعد الى ملقان وما جاورها حتى اصبحت العربية في السند لغة التخاطب ، وما تزال السندية تكتب بالخط العربي ، وتضم مفردات عربية تتجاوز الحصر ويرى بعض الباحثين[1] . ان تأثير اللغة العربية غير المباشر في اللغات الهندية انما يأتي عن طريق الفارسية التي غمرتها العربية مادة واشتقاقاً وغلبتها نفوذاً وانتشاراً .

اما اللغة الاردية فقد تأثرت باللغة العربية تأثراً كبيراً ، والكلمات العربية في الاردية يفوق عددها في الفارسية وتتراوح نسبتها بين عشرين وستين في المائة ، وتبلغ الكلمات العربية في الاردية عشرات الالوف .

وتتراوح الالفاظ العربية في جميع لغات باكستان المحلية بين ٣٠ و٦٠ في المائة وهي الاردية والسندية والبنغالية والكشميرية والبشتية ومعظمها يكتب بالخط العربي .

وقد كان لقيام دولة الباكستان الاثر البعيد في احياء اللغة العربية . فقد تأكد انه اذا كانت الاردية لغة رسمية للباكستاني . الا ان اللغة العربية هي لغة الثقافة الاسلامية ، وقال : « اقبال » اذا استثنينا اللغات الاوربية ، فلا مستقبل لاي لغة شرقية غير اللغة العربية .

والواضح ان المسلمين في الهند يتلهفون على اللغة العربية كلغة لهم ، والبنغاليون شديدو الاقبال على تعلم العربية . وقد علت صيحة ( اغاخان ) بالدعوة الى اتخاذ اللغة العربية لغة اساسية للباكستان بدلا من الاردية . وقد خطت باكستان خطوات واضحة في هذا الشأن . فقد قرر المؤتمر الاسلامي في كراتشي ( ١٩٥١ ) اتخاذ العربية لغة دولية في العالم الاسلامي تتفاهم بها الدول الاسلامية في مكاتباتها الرسمية ( باكستان ـ ايران ـ تركيا ـ اندونيسيا ) .

---

( ١ ) مبارك الباكستاني م ٢٩ المجمع العلمي العربي ـ ١٩٥٤ .

وانشاء معهد لتعليم اللغة العربية في كل من باكستان واندونيسيا .

واكد كثيرون من مفكري الباكستان بان معرفة اللغة العربية امر ضروري جداً لكي تتخذ « الوحدة الاسلامية » صورتها العملية انه ليس في مكنة العالم الاسلامي ان يحكم اتصالاته ، وان يدعم روابطه الا اذا اتخذ اللغة العربية لغة مشتركة ، ومن الضروري ان تتخذ الحروف المطبعية حروفاً للغات الاسلامية[1] .

وفي سبيل دعم هذه الغاية قامت دولة الباكستان عام ١٩٤٨ باعادة الحروف العربية الى اللغة البنغالية حتى يزيد التقارب عن طريق جمعية حروف القرآن الثقافية . وان كان هناك بعض دعاة التغريب الذين دعوا الى استعمال الحروف اللاتينية للغة الاردية بدلا من الحروف العربية ، كما حدث في تركيا وفي اندونيسيا . ويعلق كثير من الباحثين اهمية كبرى على استعمال حروف لغة القرآن لكتابة اللغات الاسلامية المختلفة مما يزيد قوة الروابط الثقافية . خاصة وان المسلمين جميعاً يشتركون في لغة واحدة هي لغة القرآن الكريم ، وتجري الدعوة في تركيا الى استعادة تعلم اللغة التركية بالحروف العربية حتى تتمكن الاجيال الحاضرة والقادمة من قراءة التراث الاسلامي التركي الفني المكتوب بالحروف العربية .

ولا يزال هذا الاتجاه « استعمال حروف القرآن لجميع لغات المسلمين » ركيزة هامة من ركائز الوحدة الاسلامية الفكرية .

---

( ١ )عن بحث للاستاذين ناظم الدين ـ وحسين الهزاني .

# اللغة الاندونيسية واللغة العربية

اللغــة السائــدة في انــدونيسيا هي لغــة الملايو ويسمونهــا اليوم « اللغة الاندونيسية » وهي لغة التعليم في المدارس الاهلية ، اسلامية كانت اوحرة .

وقد كانت هذه اللغة بعد دخول الاسلام الى اندونيسيا ، تكتب بالحروف العربية ،.بعد ان كانت تكتب بالحروف الانـدونيسية القديمـة التـي لا تزال موجودة حتى اليوم وتشبه بعض اللغات الاقليمية في انـدونيسيا مثـل : الجاوية ولغة سوندا في جزيرة جاوة . وقد ظلت اللغة الملاوية تكتب بالحروف العربية خلال ستة قرون كاملة . غير ان النفوذ الاستعماري الهولندي الذي سيطر على اندونيسيا اكثر من مائة عام . كان له اثره البعيد المدى في الغاء الحروف العربية عن الاندونيسية وكتابتها بالحروف اللاتينية . غير ان هذا التحـول اللغـوي الخطير لم يقلل من اهمية الثقافة العربية ، بحسبان ان اللغة العربية هي لغة الدين والقرآن . وقد ظلت اللغة الاندونيسية تكتب بالحروف العـربية ، منـذ دخل الاسلام ارخبيل الملايو ، فعاشت تترجم اليها الكتب الفارسية والهندية والعربية . وتقدمت دراسة اللغة فألف بها كثير من العلماء .

واثر اللغة العربية ما زال قائماً في اللغات الملاوية ، حيث تجـد آلافـاً من الكلمات العربية وقلما يتكلم انسان في الملاوية جملة واحدة دون انْ يلفـظ بكلمة عربية . وتأثير العربية في الملاوية اكبر واقـوى من تأثيرهـا في لغـات انـدونيسيا الاخــرى : الجــاوية والسونــدانية . وقــد الف بعض العلمــاء الاندونيسيين كتباً باللغة العربية منهم : العالم السومتري الشيخ خطيب فنانكبو والشيخ محفوظ .

# حاضر اللغة العربية في افريقيا

دخلت اللغة العربية الى القارة الافريقية قبل الاسلام ، وتركت آثارها في لغات الحبشة والصومال وزنجبار . ثم انتشرت اللغة العربية في افريقيا كنتيجة طبيعية لانتشار الاسلام واعتناق شعوب البلاد له ، وامتدت على ايدي العلماء والفقهاء . واصبحت بعد توقف التوسع لغة الاقطار الكبرى شمال الصحراء ، وتركت طابعها الواضح على لغات باقي الاقطار والاجناس[1] .

وقد قامت المساجد التي انشئت والكتاتيب والزوايا بتحفيظ القرآن ، وتعليم القراءة والكتابة . ويؤكد اغلب المؤرخين على انه في القرن الرابع الهجري ( ١٠ م ) تغلغت الثقافة العربية في افريقيا ( الغربية ) واصبحت اللغة العربية لغة التخاطب في المراسلات الرسمية للدول الافريقية الاسلامية بالاضافة الى انها كانت اللغة المستعملة في التجارة التي كانت بايدي العرب . وكان للعرب في عاصمة غانه القديمة اثنا عشر مسجداً ، الحق بكل مسجد مدرسة لتعليم اللغة والفقه الاسلامي ، ثم اصبحت اللغة العربية لغة التدوين في شتى انحاء القارة . وان السلاطين الافريقيين كانوا يتحدثون العربية .

وكذلك الامراء الافريقيون يستعملونها في مكاتباتهم الرسمية . وقد عقدوا معاهداتهم مع المستعمرين بالفرنسية والعربية . وقد اصطحب السلطان موسى الاول صاحب مالي ١٣٣٢ من القاهرة بعد مقابلة محمد بن قلاوون عدداً من الفقهاء والعلماء . كما ارسل هذا السلطان البعوث العلمية الى القاهرة . واقام علاقات طيبة مع المورينين في فاس ، وقد عاد المتعلمون في هذين البلدين ليعملوا في القضاء وفي اقامة المساجد ، واصبحوا نواة للمراكز الثقافية

---

١ـ راجع بحث المرحوم الاستاذ عبد العزيز اسحاق : مجلة نهضة افريقيا ـ والاستاذ نعيم قداح في كتابه عن الحضارة العربية في افريقيا .

الاسلامية في بناني عاصمة مالي ، وكوسى صالح عاصمة غانا . وفي تمبكتو ودينية في النيجر الوسط . وكان القرآن هو المحور الاساسي الذي تدور حوله علوم التفسير والقراءات والفقه والنحو والصرف .

وكانت اللغة العربية هي اللغة الوحيدة المستعملة في التكلم . وقد امتد اثرها الى اللغات الافريقية المحلية التي كتبت بحروف عربية او تسربت اليها بعض الكلمات العربية . ويوجد في مكتبة المعهد الفرنسي في دكار منذ ١٩٠٠ اكثر من ثلاثمائة مخطوط باللغة العربية ، وهي قسم مما استولى عليه المستعمرون الفرنسيون اثناء احتلالهم للسودان ( جمهورية مالي حالياً ) عام ١٨٩٣ ـ وقد سرق الفرنسيون جميع المخطوطات التي كانت في حوزة السلطان احمد بن الحاج عمر .

وقد ساهمت الطرق الصوفية في انشاء اعداد كبيرة من المساجد والكتاتيب ، ونشرت بعض العلوم الحربية باسم الجهاد والمقاومة للنفوذ الاستعماري . في السنغال ظهر في القرن الخامس الهجري ( ١١م ) « الرباط » وهو مدرسة دينية عسكرية ثقافية ومستشفى ودار للمسافرين . فلما احتل الفرنسيون مالي اغلقوا ( ١٣ معهداً ) وكثيراً من المكتبات . ونقل الفرنسيون محتوياتها الى فرنسا .

وقد صور هذه المرحلة فرنسيس مور في كتابه « رحلات الى ربوع افريقيا » الصادر عام ١٧٣١ : حين قال : في كل بلد من جانبي النهر ( نهر كامبيا ) توجد جماعة ذات بشرة سمراء تدعى القيلبي او القلا وهم يشبهون العرب ومعظمهم يتكلم اللغة العربية . لانهم يتعلمونها في مدارسهم . ولان القرآن وهو ايضاً شريعتهم مكتوب بهذه اللغة .

واشار توماس ارنولد في كتابه ( الدعوة الى الاسلام ) فقال : إن اللغة العربية وهي لغة الديانة الاسلامية قد بلغت حداً يفوق كل وصف . بل انها اصبحت لغة التخاطب بين قبائل نصف القارة الافريقية . وهي الى ذلك لغة شريفة مكتوبة . كما أشار ارنولد الى التقرير الذي عرض على مجلس العموم البريطاني عام ١٨٠٢ ـ والخاص بمستعمرة سيراليون . وقد جاء فيه : « انه منذ سبعين عاماً

استقرت جماعة صغيرة من المسلمين في الشمال من سيراليون فتحوا مدارس تدرس فيها اللغة العربية ، والعقائد التي جاء بها « محمد » وجروا على عادة المسلمين في عدم بيع ابناء دينهم بيع الرقيق . وقد اقاموا لانفسهم شرائع استخرجوها من القرآن وجلبوا الى البلاد حضارة بلغت درجة عظيمة . وقد تمتع المتعلمون بكثير من الاحترام ، ثم اصبحوا معلمين يبجلهم الناس بعد ان يعودوا مزودين بالعلم الكثير من مساجد القيروان وفاس وتلمسان وطرابلس والازهر » .

وقد اشار شاريت كانيا المؤرخ الفرنسي في كتابه « تاريخ افريقيا » فقال : ان اهم ما يعتمد عليه في تاريخ افريقيا هي المصادر العربية التي الفت في هذه الفترة القرن ١٦ و١٧ الميلادى ( ١٠ ـ ١١ هـ ) باللغة العربية لمؤلفين افريقيين هما : عبد الرحمن السعدى ( كتاب تاريخ السودان ) ومحمود كاتي .

ويقول انتاروب : لقد تغلغل العرب الى افريقيا السوداء سلمياً ، واثروا في الافريقيين دينياً وفكرياً ، وكانوا على وفاق مع العرب .

( ٢ )

توسعت العربية وسيطرت بحكم انها لغة الاسلام على عديد من اللغات الافريقية : ( الهوسا . الماندنجو . الولوف . السواحلية . الصومالية . ولغات النيجر . والدناكل في اثيوبيا . وارتيريا ) . وما بقي من هذه اللغات استعار الكثير من الالفاظ العربية . وخاصة الالفاظ الخاصة بالشرائع والنظم الاسلامية . وكان لانتشار التجار العرب في الاسواق التجارية ابعد اثر ، وكذلك انشاء الخلوات والكتاتيب . ومعظم هذه اللغات كانت تكتب بالحروف العربية . وقد تداخلت العربية والسواحلية حتى ان ٣٠ في المائة من مفردات السواحلية من الكلمات العربية مباشرة . واللغة السواحلية اكثر اللغات المحلية انتشاراً في شرق افريقيا ، وتمتد المنطقة التي تتكلم اللغة السواحلية فتشمل زنجبار والمناطق الساحلية في كينيا وتنجانيقا . وتمتد في الداخل حتى المناطق الشرقية من حوض الكونغو . وقد دخلت اليها الالفاظ العربية وانصهرت فيها . وفي مستعمرات شرق افريقيا البريطانية ( كينيا وتنجانيقا ، وزنجبار يكتبون السواحلية بحروف عربية ) .

فقد عمد الاستعمار الى دفع هذه القبائل الى استعمال الحروف اللاتينية في كتاباتهم بدلا من العربية . وجميع اللهجات الافريقية الموجودة في غانا والسنغال ونيجريا والكونغو البلجيكي ويوغندا وتنجانيقا وكينيا وزنجبار قد طعمت باللغة العربية على مر العصور . والعربية في جميع هذه المناطق هي لغة القرآن والثقافة ، وتنتشر فيها كتاتيب تحفيظ القرآن وتنتشر بين قبائل الطوارق وشعب الهوسا . وفي انحاء نيجيريا وبحيرة تشاد ، وتهتم الطوارق ـ التي لها لهجتها ـ باللغة العربية ، ومعها فقهاؤ ها الذين يعلمون اطفالها القرآن والحديث . وللهوسا ايضاً لغتهم الخاصة التي هي تحريف للالفاظ العربية . وفي مقدمتهم ( كانو ـ كادونا ) حيث تنتشر المدارس التي تعلم اللغة العربية .

واقليم تشاد عريق في ثقافته الاسلامية . ومن اهل هذا الاقليم كثير من علماء اللغة والدين الذين تركوا مؤلفات لها قيمتها في الفقه والتفسير . ومعظم قبائل الدنيكا والشلوك والنوير والباريا والزانـدي ، رطانتهـا بالعـربية فيهـا حروف الحلق ، وخاصة العين والحاء ، وجوهر الكلام عربي يحتاج الى جهد صادق ، لكي يتجلى عن عربية قد تماثل عربية المغرب الاقصى . وشعوب البانتو تتكلم لغة تعتبر فرعـاً مباشـراً من اللغـة العـربية . ومـن اللغـة السـواحلية ، وهـي في مجموعها اقرب اللغات الى الرطانة العربية في السودان الجنوبي ، ولكنهـا تمتاز عن تلك الرطانة بانها لغة مكتوبة[1] .

---

١ ـ عن بحث مطول ( مجلة نهضة افريقيا ) .

## ( ٣ )

وترتبط اللغة العربية في افريقيا بالثقافة العربية والفكر الاسلامي، وهي تستند اساساً الى القرآن وعلومه ، مما يعطيها شخصية متميزة . من العسير ان تذوب في مؤثرات الثقافات الاخرى ، وهي قوية بالنسبة للثقافات الافريقية الساذجة التي يستطيع الاسلام ان يصهرها في بوتقته . ومن هنا فان حرص الاستعمار على اضطهاد اللغة العربية ، انما كان يهدف الى القضاء على الثقافة العربية المستمدة من الفكر الاسلامي بمقوماته وشخصيته .

وقد اتبع كل من هذه القوى الاستعمارية خطة مختلفة في ظاهرها . ولكنها تلتقي عند هدف موحد هو صرف الانصار عن تعليم اللغة العربية ، الى تعليم لغاتهم الاجنبية .

فالفرنسيون اتبعوا سياسة مباشرة في القضاء على اللغات المحلية ، واللغة العربية على حد سواء . وهدفهم هو امتصاص الشعوب وفرنستها ، فاهملوا المحلية والعربية ، وقصروا التعليم على الفرنسية في المدارس ، واقروا اللغة الفرنسية ايضاً كلغة رسمية في المصالح والشركات وقصروا الانخراط في الوظائف على الملمين بالفرنسية . وكذلك اتبعت بلجيكا والبرتغال ذلك في مستعمراتها .

اما الانجليز فقد هدفوا الى ايقاف تيار الثقافة العربية وتأثيرها باحياء الثقافات الافريقية الاصيلة . وصبغها بصبغة قبلية تساعد على اثارة العصبيات والقوميات المحلية المحدودة في نطاق قبلي، هادفين من إحياء هذا الروح إلى اقامة سد في وجه انتشار الثقافة العربية التي يعدونها خطراً على نفوذهم ومصالحهم الاستعمارية[1] . وقد عمد الانجليز الى تشجيع دراسة اللغات المحلية على يد

( ١ )راجع بحث الاستاذ حلال عباس ـ مجلة الازهر م ١٩٦٠

المبشرين وعلماء اللغات ، وتكوين لغات جماعية لمواجهة احتياجيات التعليم بحيث توضع لغات جديدة مختارة تطعم ببعض الالفاظ من لغات اخرى قريبة منها ، او لهجات من نفس اللهجة . وعندما تقوم المحاولات لايجاد لغات افريقية شبه موحدة ، يتجه الرأي الى اختيار احدى اللهجات ، ويجري احياؤ ها وتقليبها على سائر اللغات بترجمة الكتاب المقدس اليها وتعليمها في المدارس ، مع العمل على تشجيع اللغة الانجليزية المحلية ( Local English ) كتمهيد لسيادة اللغة الانجليزية . وتعد اللغة الانجليزية لغة التعليم فى مختلف المدارس العالية تدرسها تلك الصفوة التي يختارها المستعمر ليعدها لشغل الوظائف البسيطة في المصالح والشركات[1] .

ويتصل بهذا ـ في سبيل تجميد اللغة العربية وايقاف نموها ـ ابعاد الذين يتخرجون من المدارس العربية ، وعدم تقديم العون للتعليم العربي وعدم الاعتراف به ، وذلك كوسيلة للضغط على المسلمين للاتجاه الى المدارس التبشيرية ، والمدارس الاستعمارية ، حتى يقعوا في اخطبوط التغريب والاستعمار .

وهكذا كان للنفوذ الاستعماري فى القارة الافريقية الذى امتد خلال قرن كامل اثره العميق في ايقاف نمو اللغة العربية التي كان انتشار الاسلام ذاتياً في افريقيا عاملا هاماً في انتشارها ، وذلك بادخال اللغات الاوروبية واحياء اللهجات المحلية . ونظراً لتعدد اللغات الافريقية الوطنية . فقد اصبحت اللغات الاوروبية هي لغات التفاهم العامة ، وما تزال اللغة عاملا هاماً في مخطط الاستعمار للاحتفاظ بسيطرته الثقافية على عقول الافريقيين واتجاهاتهم .

ففرنسا تعمل على خلق اجيال من المتحدثين بالفرنسية ، وبريطانيا تدرب المدرسين في انجلترا تدريباً خاصاً ، ثم تبعث بهم الى هذه الاقطار الافريقية . ( ابريل ١٩٥٣ : درب ١٦ الف مدرس ) . وفي مناطق كثيرة حال المستعمرون بصورة عامة بين المسلمين والتعلم . اذ كانوا يشترطون على

---

( ١ ) نفس المرجع السابق .

المسلم ان يغير اسمه الى اسم لاتيني ، ويشترطون حضور الصلوات الكنسية ودراسة التاريخ الاستعماري .

## ( ٤ )

وقد عمدت بريطانيا في شرق افريقيا الى احياء اللغة السواحلية لايقاف اللغة العربية التي كانت تنتشر مع انتشار الاسلام ، ومع تزايد عدد العرب المهاجرين الى هذه المناطق . وبذلك صرف الناس عن اللغة العربية ، وادخلت اللغة السواحلية في التعليم . ولما كانت كتابة السواحلية باللغة العربية عاملا هاماً في ربط السواحلية بالثقافة العربية ، فقد انبعثت الدعوة الى كتابة اللغة السواحلية بالحروف اللاتينية عام ١٩٣٢ ووضعت الاسس والقواعد لكتابتها بالحروف اللاتينية . وتم ذلك عام ١٩٤٨ . وصدرت عشرات الكتب المدرسية باللغة السواحلية الحديثة .

وفي شرق افريقيا عمدت بريطانيا الى القضاء على الثقافة العربية التي تقوم على نظام الحصص القرآنية . وذلك لافساح الطريق امام اللغة الانجليزية ، فوضعت خطة لاحلال اللغة الانجليزية تدريجياً في زنجبار وكينيا وتنجانيقا ، كما جرى تطعيم اللغة السواحلية بالالفاظ الانجليزية لايجاد لغة افريقية انجليزية مختلفة[١] .

---

١ـ محمد حلال عباس ـ م ٣ ـ مجلة نهضة افريقيا .

( ٥ )

وبالرغم من هذه الحملات العنيفة المشهرة على اللغة العربية والحرف العربي في اللهجات واللغات الافريقية . فان الافريقيين ما زالوا يرون ان اللغة الانجليزية او الفرنسية غريبة عنهم وانها لغة المستعمر ، وما يزال اقبال اهالي شرق افريقيا على اللغة العربية ، وان قلت فرص تعلمها ، وهم يقبلون عليها باعتبارها لغة القرآن ، وهم يطلقون عليها ( رباني قرآني ) اي لسان القرآن لانها لغة العقيدة : « الاسلام » . وقد استطاعت الشعوب القريبة من المغرب ان تستقدم المعلمين وحفظة القرآن الكريم ، وخاصة شعب غانا ، السنغال .

وما تزال اللغة العربية في افريقيا اصلح اللغات لتحقيق وحدة القارة الافريقية ، وهي منتشرة في انحاء كثيرة من القارة . وبخاصة بين المسلمين الذين يسكنون في جهات كثيرة من افريقيا فيما يلي الصحراء . وستظل اللغة العربية طلبة المسلمين في افريقيا خاصة . حيث يوجد اساس من اللغة العربية في اكثر اللغات الافريقية ، نتيجة العقيدة الاسلامية ، والاحتكاك بالعرب قبل الاستعمار . ولا زال هناك اقبال عارم لدى الشعوب الافريقية على تعلم اللغة العربية لاعادة صلاتها بالعالم الاسلامي . والامة العربية ، وتركز افريقيا كثيراً على جامعتي الازهر والقرويين .

وقد اجرى الباحث العربي المسلم العلامة : محمد عبد العزيز اسحاق ( رحمه الله ) تحقيقاً حيا في هذا المجال ، فوصل الى حقائق اساسية تتمثل في ترحيب شعب غانا ترحيباً عظيماً بالثقافة العربية والدين الاسلامي . وكذلك القسم الاسلامي من نيجيريا واقرب الاقطار العربية الى نيجيريا هي ليبيا . واما السنغال المجاورة لشنقيط ـ مصدر الاشعاع القديم ـ فتستمد من المغرب المعلمين وحفظه القرآن . وفى اقليم تشاد تسود الثقافة العربية القديمة ، والازهر حافل بابناء تشاد . ويجري تعريب المناطق الشاسعة من السودان العربي

والجنوبي . وفي مناطق السواحيلي يتم انشاء سلسلة من الكتاتيب والخلوات ومعاهد تدريب المعلمين على حدود السودان الجنوبي الغربي .

# ( ٦ )
# الاستعمار والعالم الاسلامي

١ ـ الاستعمار

٢ ـ التبشير

٣ ـ الصهيونية

٤ ـ الحركات الهدامة

## ( ١ )

# الاستعمار

واجه « العالم الاسلامي » على مجرى تاريخه الطويل تحديات متصلة من القوى المعارضة لم تتوقف . فقد كان الوجود الاسلامي الذي تشكل بظهور الاسلام وتوسعاته خلال القرن الاول الهجري عاملا في تحرك قوى الدولة الرومانية ـ التي كانت تحتل بعض الاجزاء التي سيطر عليها الاسلام ـ بالمناوشة والغزو وعلى خطوط الحدود بين الدولة الاسلامية والدولة البيزنطية ، وقد امتدت هذه المناوشات زمناً طويلا ، وظلت اوربا تغذيها دون انقطاع ، فلما آن للدولة البيزنطية ان تضعف ، وتفقد مقوماتها في مهاجمة اطراف العالم الاسلامي تدافعت اوربا في مغامرة ضخمة شرسة تحت علم الحروب الصليبية لغزو العالم الاسلامي باسم تحرير بيت المقدس من سيطرة المسلمين .

وقد اتصلت هذه الغزوة قرنين كاملين ، في نفس الوقت الذي تدافعت فيه قوى الفرنجة من فرنسا والبرتغال الى استعادة « اسبانيا الاسلامية » الاندلس . وقد حرت المعارك في الميدانين في وقت واحد . غير ان قوة غازية احرى لم تلبث ان اندفعت للسيطرة على العالم الاسلامي . تلك هي قوة المغول والتتار ، التى اجتاحت المشرق ، واندفعت حتى التقت بالقوى الصليبية في محاولة لوضع العالم الاسلامي بين شقي الرحى .

وانتهت هذه الصفحة او كادت بانهزام الحملات الصليبية وعودتها على اعقابها ، وانصهار القوات التترية المغولية في بوتقة الاسلام ، ثم لم تلبث ان ظهرت القوة الاسلامية التركية شامخة لتحمي العالم الاسلامي من محاولات الغزو الاوربي المتجددة . فظلت صامدة تحرس شواطىء البحر الابيض والامة العربية في نفس الوقت الذي تدافعت القوى الاوروبية التي استعادت الاندلس الى

مهاجمة الساحل الغربي لافريقيا والتوغل فيها . وذلك وفق خطة عرف من بعد انها تهدف الى تطويق العالم الاسلامي كمقدمة للسيطرة عليه واحتلاله . وبذلك تكون حركة الاستعمار الحديث قد بدأت من نقطة سيطرة الدولة العثمانية على ( القسطنطينية ) قلعة الدولة الرومانية الشرقية . وسقوط آخر معاقل الاسلام في الاندلس ( قرطبة ) في ايدي الفرنجة . فقد اندفعت اوربا على اثر ذلك في عملية غزو جديدة للعالم الاسلامي ، تعارف الكتاب من بعد على اطلاق كلمة ( الاستعمار ) عليها . وهي حلقة جديدة ومرحلة متصلة بالحروب الصليبية القديمة ، وآية ذلك ان اللورد اللنبي بعد ان دخلت القوات البريطانية الى القدس سنة ١٩١٨ قال كلمته الموحية بهذا المعنى « الان انتهت الحروب الصليبية » .

وقد حفظت النصوص والوثائق مضامين رسمية تثبت كيف ان خطة الاستيلاء على العالم الاسلامي كانت امراً متصلا لم تتوقف اوربا والغرب عن التفكير فيه . والسعي له والعمل لتحقيقه خلال هذه المرحلة الطويلة التي تزيد على سبعة قرون . وكان هذا هو الخلفية الطبيعية للتصريح الخطير الذي القى به اللورد اللنبي محاولا ان يؤكد ان هزيمة الحروب الصليبية واجلائها من العالم الاسلامي لم يكن هو نهاية الجولة في ذلك العمل الدائب الذي استمر قروناً طويلة ، منذ خرجت القوات البرتغالية والاسبانية للسيطرة على سواحل افريقيا الى ان تم ذلك اليوم . وكأنما قد استطاعت اوربا المسيحية اخيراً ان تهزم القوى الاسلامية ، وان تستعيد ( بيت المقدس ) الى نفوذها من جديد . واذا كانت اوربا المسيحية قد استعادت بيت المقدس بالسيطرة على العالم الاسلامي . فان الصهيونية العالمية كانت تدفع هذا العمل بقوة في سبيل نقل هذا النفوذ اليها كما تحقق ذلك عام ١٩٦٧ بسيطرة الصهيونية العالمية واسرائيل على ( بيت المقدس ) بديلا للاستعمار الغربي .

وفي هذا تقول الكاتبة اليهودية ( بربارة توخمان ) في كتابها « التوراة والسيف » . . وهكذا دخل الجنرال اللنبي الى القدس ١٩١٨ فنجح حيث كان ( ريكاردوس قلب الاسد ) قد اخفق . ولولا ذلك الانتصار لما كانت اسرائيل الان قد اصبحت حقيقة واقعة . وكذلك لم يكن بامكان اللنبي ان ينجح لولا محاولة ريتشارد . اي لو لم تكن النصرانية قد اقامت في الاصل الاساس الذي

يحمل النصارى على التعلق بالارض المقدسة . وان من غريب التهكم ان يكون اليهود قد استعادوا موطنهم ، والى حد ما بفعل الدين الذي اعطوه للاميين . وتحاول هذه النصوص ان تكشف المطامع الخفية المتصارعة بين قوى الاستعمار الغربي ، وقوى الاستعمار الصهيوني التي تمثل اعتى صور هذا الاستعمار . وكأنما كانت هذه القوى المختلفة قد اتخذت من الروابط التي تربط الاديان الثلاثة بالقدس مدخلا الى العالم الاسلامي ، ورأس جسر للغزو والسيطرة عليه .

ومن عجب ان ثلاثة ارباع الجنود الذين فتحوا الطريق للبريطانيين الى القدس كانوا من ابناء الاسلام ، وقائدهم الامير فيصل بن الحسين . ويمكن القول بان الغزو الغربي للعالم الاسلامي قد تم خلال مرحلتين :

١ ـ المرحلة الاولى : مرحلة تطويق العالم الاسلامي ـ وهذه هي المرحلة التي بدأت قبل نهاية القرن الخامس عشر ، وابطالها هنري الملاح ، وفاسكودي جاما وخلفاؤهم . وقد وصفهم المؤرخ كيرك : بأنهم « كانوا يهدفون الى السيطرة على الشاطىء الافريقي من المحيط الاطلنطي مولين وجهتهم نحو الجنوب ، في محاولة للالتفاف حول ديار الاسلام وحصرها من الوجهتين الحربية والتجارية مع انتزاع تجارة الذهب وغيره من حاصلات افريقيا الغربية من يد المسلمين . ثم الاتصال مما وراء الصحراء الكبرى جنوباً بنجاشي اثيوبيا ( برسترجون ) . والاشتراك معه في مهاجمة المسلمين من الجنوب .

وقد هاجمت هذه القوات ثغور العالم الاسلامي التي لم تكن متأهبة لمقاومة الاساطيل الاوروبية ، ولكنها قاومت طويلا ، وسقط منها الشهداء ، ولم تقبل بالتسليم الا بعد ان فقدت كل ما كانت تملك من قوى وعتاد .

وقد استطاع فاسكودي جاما ان يصل عام ١٤٨٨ الى رأس الرجاء الصالح . ثم اتجه الى الهند . وكان احمد بن ماجد هو قائد سفنه الى ثغور الهند .

ومن ثم تحولت التجارة الى راس الرجاء الصالح بعد ان كانت تمر بالبحر الابيض المتوسط ، واستطاعت البرتغال ان تستولي على مسقط وهرمز والبحرين عام ١٥١٥ وان تصل الى فاليقوط ( كلكتا ) اعظم ثغور الهند .

ولم يلبث الفرنسيون والانجليز ان ورثوا البرتغاليين وازاحوهم وسيطروا على هذه المناطق ، وبلغت هولندا جزر الملايو فاقتسمتها مع بريطانيا ( جاوة وسومطرة في يد هولندا ، والملايو في يد بريطانيا ) كما سيطرت بريطانيا على الهند : درة التاج البريطاني لأزمان طويلة ، ومصدر كل الخطط التي سيطرت بها على مصر والعراق وغيرها ، وعلى قناة السويس باعتبارها تأميناً لطريق الهند . وكان ذلك في منتصف القرن السادس عشر .

وفي نفس الوقت كانت روسيا قد بدأت تحقق مطامع بطرس الاكبر في الاستيلاء على اجزاء مختلفة من العالم الاسلامي حيث استولت على فازان واسترخان في منتصف القرن السادس عشر . حيث بدأ التوسع الروسي في الاراضي الاسلامية . ثم امتد حتى وصل الروس الى القوقاز وسهول تركستان ، ثم توالت حركة استيلائها في خط واحد مع فرنسا وانجلترا .

كانت كبرى الدول الاسلامية في هذه الفترة هي :

( ١ ) ـ العثمانية في الاناضول والعالم العربي والبلقان .
( ٢ ) ـ الفارسية في ايران .
( ٣ ) ـ المغولية في الهند .

وكان الصراع قائماً بين العثمانية والفارسية ، وقد استغلته بريطانيا والغرب الى ابعد حد ، وحيث ايدت فارس في صراعها مع الدولة العثمانية . ومن ثم فتحت فارس ابوابها للنفوذ الاجنبي مبكرة واتخذت من ذلك ركيزة لحماية درة التاج . وفي هذه الفترة : عصر تطويق الاسلام والسيطرة الاوربية .

تركزت انكلترا في الهند والملايو ، وهولندا في اندونيسيا ، وروسيا في آسيا الوسطى ، وفرنسا في البحر الابيض المتوسط .

( ٢ ) ـ المرحلة الثانية : ( مرحلة تقسيم العالم الاسلامي ) .

بدأت بالحملة الفرنسية على مصر ١٧٩٨ . وانتهت بهدنة الحرب العالمية الاولى عام ١٩١٨ حيث تمت عملية توزيع الاجزاء الباقية من البلاد العربية والتابعة للدولة العثمانية بين فرنسا وانجلترا . وهي العراق والشام باجزائه ، واصدار

وعد بلفور الذى اعطى للصهيونية العالمية حق اقامة دولة في فلسطين . وقد تمت عملية التقسيم هذه خلال مائة وعشرين عاماً تحركت فيها الاحداث في طريق اتمام سيطرة النفوذ الغربي على العالم الاسلامي كله ، بالاحتلال العسكري او المعاهدات ، وكانت هذه هي المرحلة التنفيذية للمرحلة الاولى : مرحلة تطويق العالم الاسلامي التي بدأت منذ انتهى آخر خيط لتحرر اوربا ( البرتغال ) من النفوذ الاسلامي .

وفي اعقاب الحروب الصليبية التي انهزمت في المشرق وانتهت بقيام دولة اسلامية شامخة هي الدولة العثمانية التي استولت على القسطنطينية عام ١٤٥٣ . بينما استطاعت الحروب الصليبية في المغرب انْ تحقق اجلاء المسلمين والدولة العربية عن الاندلس .

وقد ترابطت هذه الحركة منذ قام هنري الملاح بحملته على العالم الاسلامي بادئاً عملية التطويق عام ١٤٥٠ تقريباً حتى دخل اللورد اللنبي الى القدس عام ١٩١٨ . واعلن في عبارة قصيرة « انتهاء الحروب الصليبية » .

بدأت هذه المرحلة : انكلترا في الهند ، وروسيا في آسيا الوسطى ، وهولندا في اندونيسيا ، وفرنسا في البحر الابيض المتوسط . وقد تحقق في هذه المرحلة خطوات هامة في دعم عملية تقسيم العالم الاسلامي .

اولا : عام ١٨٣٠ ـ استيلاء فرنسا على الجزائر ، وهزيمة الامير عبد القادر وقواته بعد اربعة عشر عاماً من المقاومة .

ثانياً : عام ١٨٥٧ ـ القضاء على ثورة المسلمين في الهند .

ثالثاً : عام ١٨٥٩ ـ القضاء على ثورة الامير شامل واستيلاء روسيا على القوقاز .

رابعاً : عام ١٨٦٩ ـ افتتاح قناة السويس وسيطرة الدول الاوربية على عنق الزجاجة في مصر في ادق موقع بين آسيا وافريقيا واوربا .

خامساً : عام ١٨٦٠ ـ تدخل الدول الاوروبية في لبنان ، واشعال الثورة بين المارون والدروز ، وخلق كيان خاص تبدأ منه حركة الغزو الفكري بالبعثات التبشيرية الى العالم الاسلامي كافة .

سادساً : عام ١٨٣٨ ـ نفارين وتحطيم القوة المصرية الجديدة المخوفة النماء .
سابعاً : عام ١٨١٨ ـ تحطيم القوة الوهابية الصاعدة في الجزيرة العربية .
ثامناً : عام ١٨٦٨ ـ قيام الحركة الصهيونية واطلاق وعد بلفور ١٩١٧ .
تاسعاً : عام ١٩١٨ ـ اسقاط الدولة العثمانية .
عاشراً : عام ١٩٢٤ ـ الغاء الخلافة الاسلامية .

ويمكن تقديم الحقائق التالية في ايجاز :

اولا : ان الاستعمار هو الجولة الصليبية الثانية في مواجهة عالم الاسلام .

ثانياً : كانت اوربا هي القارة التي واجهت العالم الاسلامي منذ ١٥٠٠ الى الان . حين تحول هذا النفوذ بعد الحرب العالمية الثانية الى الولايات المتحدة .

رابعاً : بدأ تطويق العالم الاسلامي عام ١٥٠٠ وبدأ الغزو بالحملة الفرنسية عام ١٧٩٨ .

خامساً : كانت الامة العربية موضع التركيز الشديد والعنيف لانها حاملة لواء الاسلام واللغة العربية .

سادساً : كان اسقاط الدولة العثمانية باعتبارها عروة وحدة العالم الاسلامي هو الهدف الاول ، واسقاط الخلافة هو الهدف الاكبر .

سابعاً : برزت الحركة الصهيونية عام ١٨٩٧ وبدأت صراعها مع السلطان عبد الحميد الذي عارضها حتى اسقطته عام ١٩٠٩ ثم اسقطت الدولة العثمانية عام ١٩١٨ .

ثامناً : بسقوط الدولة العثمانية (رابطة العقد بين العرب والترك ) سقطت كلمة العالم الاسلامي ، وبدأت كلمة القوميات . فظهرت القومية الهندية في مواجهة المسلمين في الهند ، والقومية الطورانية في مواجهة العرب ، والقومية اليهودية . بالاضافة الى تحديات الاقليمية والقبلية والطائفية .

تاسعاً : برزت القوميات الايرانية والتركية والاندونيسية والباكستانية . وقد حاول الاستعمار ان يوقع بينها من ناحية ، وبين الامة من ناحية اخرى .

عاشراً : الاستعمار قضية كلية ، والسيطرة الصهيونية على فلسطين واجهة لقوة استعمارية جديدة هي الصهيونية العالمية . وقد تركزت في قلب العالم الاسلامي ( فلسطين ) حيث بدأت عام ١٨٩٧ وعد بلفور ١٩١٧ قيام اسرائيل ١٩٤٨

سقوط القدس ١٩٦٧ .

وبعد سقوط القدس في يد الصهيونية العالمية هو اكبر حدث في العصر الحديث بعد الغاء الخلافة .

***

ومن الناحية الاخرى يمكن القول بان قوة اليقظة الاسلامية العربية قد حققت نتائج ايجابية هي :

١ ـ قيام اليقظة الاسلامية العربية بالحركات الاسلامية لتصحيح العقيدة وقيادة الحركة لمقاومة الاستعمار .

٢ ـ قيام دولتين اسلاميتين كبيرتين : اندونيسيا والباكستان .

٣ ـ ظهور الحركة الثورية العربية كمنطلق للنهضة ، وبروز الثورات المختلفة في انحاء العالم الاسلامي .

٤ ـ قيام الجامعة العربية بعد الحرب العالمية الثانية ١٩٤٤ .

٥ ـ بروز عدد من المجاهدين والقادة الذين حملوا لواء اليقظة في انحاء العالم الاسلامي .

٦ ـ بدأت مرحلة التصنيع والقوة الصناعية والتكنولوجيا في العالم الاسلامي .

٧ ـ مقاومة الغزو الصهيوني والاستعماري .

٨ ـ كشف شبهات التغريب والغزو الثقافي المتسلط على الفكر الاسلامي .

٩ ـ بدأ التقارب والالتقاء بين المذاهب الاسلامية وفي مقدمتها : ( السنة والشيعة ) .

١٠ ـ التقاء الدوائر الثلاث : العربية ـ والافريقية ـ والاسيوية ـ في مواجهة الاستعمار .

# تاريخ الاحتلال الغربي للعالم الاسلامي

## ( ١ ) الاحتلال الفرنسي :

١٨٤٧ ـ الجزائر ، حيث بدأ الغزو عام ١٨٣٠
١٨٨١ ـ تونس
١٨٨٢ ـ السنغال
١٨٨٢ ـ مدغشقر
١٩١١ ـ المغرب

## ( ٢ ) الاحتلال الايطالي :

١٩١١ ـ ليبيا
١٨٨٧ ـ الصومال وارتيريا

## ( ٣ ) الاحتلال الاسباني

١٩١٤ ( الريف ) لم يتم احتلاله الا عام ١٩٢٦ بعد تسليم عبد الكريم

## ( ٤ ) الاحتلال الروسي :

١٥٨١ سيبريا
١٦٥٤ دولة استراخان
١٦٧٠ اراضي مسلمي اورال
١٨٦٤ جزيرة القريم بالبحر الاسود
١٨٦٤ بلاد القوقاز ( شامل ) بعد وقوعه اسيرا عام ١٨٥٩ .
١٨٥٩ احتلال طشقند
١٨٨٢ امارتا بخاري وجنوة

١٨٨٤ الاستيلاء على التركستان

## ( ٥ ) الاحتلال الهولندي :

١٦٢١ جزيرة جاوة

١٨٧٤ حزيرة شومطرة وهما تعرفان الان باسم اندونيسيا

وهما تعرفان الان باسم اندونيسيا

## ( ٦ ) الاحتلال البريطاني :

١٧٥٧ البنغال

١٨٤٩ البنجاب

١٨١٥ نيجيريا

١٨٨٢ مصر

١٨٩٨ السودان

١٩١٦ العراق

١٩٢٠ الاردن وفلسطين

١٨٧٠ زنجبار

١٨٧٨ جزيرة قبرص .

## ( ٢ )

حاول الاستعمار الغربي ان يعزز موقف الغزو العسكري الذي اجتاح به العالم الاسلامي بنظرية فكرية تهدف الى ان تعطي الاستعمار مفهوماً فلسفياً قوامه ان الاوربيين باعتبارهم اكثر تقدماً من الامم المستعمرة . فان الحضارة تكل اليهم امانة انسانية هي تمدين هذه الامم ، ولذلك فمن حق الاستعمار ان يسيطر عليها ، وان يعدها للتقدم ، واتصل بهذا المنطق ذلك القول بان الجنس الابيض هو صاحب الحضارة ، وان الاجناس الملونة هم ابناء الامم الواقعة تحت نفوذ الاستعمار .

وقد تعددت نظريات الاستعمار التي تحاول تبرير سيطرتها . وكان غلاة دعاة الاستعمار يحاولون تصوير العلاقة بين البلاد المستعمرة وبين المستعمرين على نحو يمحو شخصية هذه الامم ، وينكر حقها في ارضها في محاولة للقول بان هذه الاجناس محرومة من اي قابلية للتقدم . فمن حق الجنس الابيض السيادة عليها واستخدامها لخدمة البشرية ، وان الاراضي ليست ملكاً لمن يسكنها ، بل هي ملك للبشرية جمعاء ، فان كانت مسكونة لشعب غير راق ، يكون من حق الشعوب الراقية بل من واجبها ان تستولي عليها وتستعمرها لمصلحة البشرية .

غير ا هذه النظريات لم تلق تقبلا علمياً ، وثبت كذبها وتضليلها ، وتكشف انها لم تكن اكثر من محاولة تبرير الاعمال البربرية التي قام الاستعمار في السيطرة على البلاد التي تم احتلالها ، والمظالم القاسية التي كانت تصل الى درجة الابادة بالجملة . حيث ثبت خلال هذه الفترة الطويلة ، ان الدولة المستعمرة لم تكن تعمل على تأهيل اهل البلاد للحضارة او التقدم ، بل كانت تعمل على تجميدهم في حالة من الفقر والجهل لا تمكنهم من التحرر .

وقد تصارعت الدول الاوربية فيما بينها على مناطق النفوذ ولكنها لم تلبث ان

اتفقت على اقتسام هذه المناطق ، وعقدت المعاهدات التي تطلق ايدي بعضها البعض في اقطار في مقابل اقطار ، فعقد عدد من الاتفاقات الودية بين فرنسا وانجلترا وروسيا .

وقد عرف الباحثون الاستعمار بانه قيام دولة بفرض حكمها ونفوذها او سيطرتها السياسية والاقتصادية خارج حدودها على شعب او دولة اجنبية على غير رضا اهلها . وقد اندفع الاستعمار اساساً من اوربا الى افريقيا وآسيا باسم الارتياد والاستكشاف والتجارة . فأقام الاسبان والبرتغاليون امبراطوريات تجارية ، ثم خلفهم البريطانيون والفرنسيون فشيدوا امبراطوريات استيطان . وكانت الكشوف العلمية وبناء البواخر الضخمة والحاجة الى الخامات ، وانشاء الاسواق للتجرة من العوامل الهامة في توسع نطاق الاستعمار وسيطرته وعمله في القضاء على مقومات الامم المستعبدة لادامة استعماره ونفوذه ، واستمرار احتكار حاصلات المستعمرات ، واستغلال مواردها الطبيعية ، والسيطرة على المواقع الاستراتيجية . وقد ارتبط الاستعمار العسكري بالاستعمار السياسي والاقتصادي والثقافي .

واذا كان الاستعمار قد بدأ باسم التجارة والتبشير ، فانه لم يلبث ان تحول الى الفتح والغزو والحكم وانتزاع الاراضي من اصحابها ، واقامة حكومات بديلا عن الشركات .

وقد اقام الاستعمار في العالم الاسلامي دعائمه على اساليب مختلفة كان اخطرها توطين الاوربيين فيها عن طريق التجارة كما فعل في الجزائر التي اوفد لها نصف مليون فرنسي اوربي . وكذلك اوفد الى البلاد العربية مئات الالوف من الاوربيين واغلبهم من اليهود . وكما اقام الاستعمار القلاع والمعاقل الحربية التي تؤمن بقاءه ، وتحفظ له السيطرة على البر والبحر وتمكنه من الحصول على الموارد الاولية والحاصلات الزراعية بابخس الاثمان . فقد اقام المؤسسات الاقتصادية والبنوك لتوظيف ذهب اوربا الذي طفحت به خزائن بنوكها في اواخر القرن الماضي ، وفتح الاسواق لمصنوعاتها ومنتجاتها وخاصة الاستهلاكية والترفيهية . ثم عمد الاستعمار الى اقراض الامراء والحكومات

للسيطرة عليها ، وتكبيلها بالنفوذ الغربي وايقاع ذوي اليسار في الديون للاستيلاء على املاكهم وتصفية القوى الوطنية ، وتحويل مختلف الاراضي والتجارات والاموال الى البنوك الاجنبية ، واقراض الفلاح بالربا الفاحش وتجنيد المرابين والصيارف واصحاب الخمارات في مختلف القرى لسلب الاهالي ، وبالجملة فان الاستعمار كان يخفي في اعماق خططه ، العمل على سلب كل موارد البلاد الاسلامية وارسالها الى اوربا والغرب ، رغبة في افقار هذه البلاد وايقاعها فريسة الجوع والاستدانة لادامة السيطرة عليها . كما عمدت القوى الاستعمارية الى احكام السيطرة بانشاء الموانىء وحفر القنوات التي تمكنها من القبض على ناصية الاستيراد والتصدير ، كشق قناة السويس والاستيلاء على البواغيز كجبل طارق وباب المندب وغيرها .

***

توحدت اذن خطط الدول المستعمرة وان اختلفت الاساليب وجمعها هدف واحد ، هو السيطرة واخضاع المسلمين للنفوذ الغربي والولاء الاوربي . ومن هنا نشأت فكرة « وحدة الحضارة » ورسالة الرجال الابيض في محاولة لاخضاع الفكر الاسلامي ، والثقافات العربية والتركية والفارسية والهندية والاندونيسية لنفوذ الفكر الغربي ، والقضاء على مقومات الاسلام والقرآن ، واللغة العربية ، وذلك بقيام مؤسسات خاصة لاثارة الشبهات وتدمير الحقوق الداخلية كمؤسسة التبشير العالمية .

ويمكن القول بناء على الحقائق الواقعة ان الاوربي لم يفد الى الشرق كممدن ، بل كمستعمر ، وان اخوف ما يخافه هو الانبعاث واليقظة عن طريق الاسلام . ومن هنا تأتي محاولته للسيطرة على التعليم والثقافة والتربية .

## - ٣ -

لا ريب ان الخطط التي تقوم بها الدول المستعمرة بالنسبة لعالم الاسلام واحدة الهدف مختلفة الاساليب ، يجمعها مفهوم واحد هو السيطرة واخضاع المسلمين لنفوذهم وحضارتهم وفكرهم وخلق جو من الولاء لها . وقد تحقق من الخطط المختلفة التي تكشفت ان هناك تنسيقاً بين الاستعمار والمستعمرين ، وهناك خططاً متفقاً عليها للتفاهم والتقسيم كالاتفاق الودي بين بريطانيا وفرنسا ١٩٠٤ واتفاق سايكس بيكو ١٩١٦ والاتفاق بين انجلترا وهولندا في ارخبيل الملايو .

والدعوى التي يبرر بها الاستعمار اقتحامه واحتلاله للعالم الاسلامي ، انما هي دعوى براقة خداعة . اذ اطلق عليها « حق تحضير الامم المتخلفة » ورسالة الرجل الابيض الى العالم الاسود والاصفر ، شريطة ان يتم التحضير باخضاع هذه الشعوب لوحدة الحضارة الغربية ، وهي وحدة تقضي على قيم الامم ومقدساتها ، وتحل محلها مفاهيم الحضارة الغربية ، والهدف من ذلك انما هو ان تنتهي مقاومة هذه الامم للنفوذ الاستعماري ليحل بدلا منه خضوع واندماج وصداقة وتقدير للاستعمار ، بحسبانه عملا تمدينياً مع الاعتراض على اي مفهوم للاستقلال او الذاتية او التحرر من النفوذ .

وقد درس الاستعمار وقدر ورأى ان خير وسيلة لاخضاع المسلمين هو تغيير عقليتهم والقضاء على ثقافتهم وتراثهم ، ولما كانت عقلية العالم الاسلامي وثقافته مرتبطة بالاسلام واللغة العربية ، فقد ركز عليها . ولما كانت وسيلة التغيير ، انما تكمن في التعليم . فقد حرص على غزو تعليمي وثقافي ضخم واسع النطاق . وذلك عن طريق ارسالياته ومعاهده الاجنبية ، فاستطاع تخريج اجيال جديدة وفق مفاهيمه ، واتاح لهذه الاجيال السيطرة والقيادة والزعامة والحكم في اغلب انحاء العالم الاسلامي ، كما اطلق حركة التبشير لتحكم

تنفيذ هذه الخطة ، وفرض على الدولة المحتلة انظمة تعليمية قوامها تحقيق هذا الهدف . ومن هنا جاء ما وصف بانه محاربة للاسلام واللغة العربية .

***

هذا الجانب الثقافي والفكري من الاستعمار ، وما يتصل به من شؤ ون التبشير والتعليم والتربية لم يحظ باي اهتمام في دراسات الباحثين عن الاستعمار الذين اولوا اهتمامهم للجوانب السياسية والاقتصادية والعسكرية وحدها . وقد مضت حرب الاستعمار للاسلام لا هوادة فيها باعتباره العامل الدافع الى القوة والجهاد والمقاومة . وكانت هذه الحرب باساليب مختلفة :

( اولا ) نقض مفاهيم الاسلام وتحريفها، وخلق دعوات تحمل لواء الاسلام ، وتتنكر لاهم مقوماته وهو « الجهاد » الذي هو ذروة سنام الاسلام ، حيث الغته الغاء ، او قللت من اهميته ، او عملت على تفسيره تفسيراً خاطئاً .

( ثانياً ) الطعن على الاسلام والحملة على مقوماته واتهامه بانه مصدر تأخر المسلمين وضعفهم .

اما اللغة العربية فقد استهدفت الحملة عليها ايقاف نموها ، حيث يجري نموها بنمو الاسلام نفسه ، والعمل على تغليب اللغات الاجنبية عليها ، والدعوة الى العامية لاحلالها محل العربية ، والتنادي باحلال الحروف اللاتينية بديلة للحروف العربية فقد كانت اللغة ولا تزال هي ضمير الفكر نفسه ، وما تزال اللغة الفصحى هي مدخل الفهم الى القرآن الكريم ، وفي القضاء عليها محاولة للاغراب والبعد بمستوى الفهم عن القرآن ، والحيلولة دون الارتباط به .

وقد كانت حركة التبشير هي اكبر الاعمال الاساسية لتحقيق هذه الغاية ، فهي القوة المتحركة في جيش الاستعمار لغزو العقول والقلوب في مختلف الجبهات واثارة الشبهات في مجالات المدرسة والجامعة والصحافة والثقافة .

وكانت حركة الاستشراق هي المصنع الذي يعد « ادوات » العمل ، والشبهات ، والطعون والشكوك ، والاتهامات التي يقدمها العلماء الذين يعملون تابعين لوزارات الاستعمار في الدول المختلفة ، يقدمونها الى حقل

التبشير لنشرها ، والاذاعة بها . فلما فضحت خطط التبشير ، تخفى التبشير وراء التعليم والصحافة والثقافة ، وان كان لا يزال ظاهراً ومتحركاً على جبهات كثيرة من العالم الاسلامي ، وخاصة في قلب افريقيا وارخبيل الملايو. وقد كشف التبشير عن هدفه الذي لم يكن اساساً تحويل المسلمين الى اديان اخرى بعد ان تأكدت استحالة ذلك للدعاة الذين اقتحموا الازهر ، ووزعوا نشراتهم داخله ، وعقدوا مؤتمراتهم في قلاع الاسلام والوطنية مثل بيت احمد عرابي في باب اللوق او في لكنو معقل الاسلام وندوة العلماء . ودار العلوم في الهند . ولكن الهدف هو اخراج المسلمين من قيم دينهم ومفاهيمه اساساً . وبذلك يصبحون عجينة طيعة للتشكل وفق مفاهيمهم .

ولذلك فان حركة التبشير اساساً هي حركة استعمارية تهدف الى خدمة النفوذ الاجنبي وتأكيده ودعم بقائه . ولم يقف مخطط الاستعمار عند الغزو الفكري والثقافي عن طريق حركة التبشير الذي ركزت على المدارس والجامعات والتعليم. بل انه دفع قوى اخرى خطيرة لتكون ركائز له في الداخل : من اهم هذه القوى حركة « الماسونية » مقدمة « الصهيونية » وربيبتها التي مهدت لها الطريق ، و « البهائية » التي حملت لواء الدعوة الى هدم الاديان بتوحيدها .

وكذلك استغل الاستعمار اوجه الخلاف الفرعية بين المسلمين ، فحاول تعميقها وحرض على الابقاء عليها خلال فترة حكمه الطويل ، كما ابقى على الاقليات واغرى بعضها بالبعض الاخر وحرض على تجميد الطوائف والقبائل حتى لا تنصهر في المجتمعات الواحدة . واوجد بينها وبين الاكثريات خصومات واحقاداً ، مستغلا ذلك كله لتأكيد بقائه . فالاستعمار هو الذي عمق اسباب الصراع بين تركيا وفارس ، وغذى الخلاف بين السنة والشيعة فوسع شقة الخلاف بينهم . ولم تنفصل المشكلة الطائفية في اي من المراحل عن الاستعمار الذي خلقها وغذاها ، واتخذ منها اداة سياسية يدعم بها وجوده . فقد احتضن الاستعمار الاقليات ، وعمل على خلق الشعور بكيان خاص ، له انفصال وتميز ، بحيث لا يلتقي في مجال الوحدة الكبرى ، كما فتح الباب للتبشير والارساليات . كما اكد الاستعمار في مختلف انحاء العالم الاسلامي عوامل التفرقة العنصرية والجنسية ، واستغل في سبيل تثبت ركائزه كل

الوسائل ، وفي مقدمتها « الامتيازات الاجنبية » التي منحت الاجانب في الاقطار الاسلامية مراكز خاصة ، ونفوذاً متميزاً ، بحيث لا يخضعون لقوانين البلاد ، وتظل مؤسساتهم في حصانة كاملة دون التفتيش او الرقابة او التحقيق معها ، بما تتيح لها ان تتصرف على النحو الذي تراه دون ان تستطيع الحكومات ايقافها ، او محاكمتها .

وقاوم الاستعمار كلمة الإسلام والجامعة الإسلامية ، والوحدة الإسلامية . وشن عليها جميعها حربا عنيفة ، ووصفها بغير ما كانت على الحقيقة ، وركز جملته على « السلطان عبد الحميد » الذي قاد حركة المقاومة ضد زحف النفوذ الاستعماري حين دعا المسلمين خارج الدولة العثمانية إلى الالتفاف حول راية الخلافة الإسلامية ، في حركة جامعة لمواجهة الغزو الزاحف . ومن هنا كانت تلك الصورة السيئة التي رسمها عملاء الاستعمار للسلطان عبد الحميد وما وصف به وما نشر عنه من أعمال كشفت الايام من بعد أن ليس لها نصيب من الحقيقة .

فقد تضافرت قوى النفوذ الاستعماري وقوى الصهيونية على تدمير هذه الحركة وإسقاط السلطان عبد الحميد الذي كان موقفه الصامد حائلا دون تمزيق العالم الاسلامي واستيلاء الدول الغربية عليه واحتلاله . فضلا عن أن موقفه المشرف من هدف الصهيونية بالاستيلاء على فلسطين ، بالغ القوة والصمود ، مما حمل المحافل الماسونية في سالونيك وجلها من الدونمه ( اليهود الذين أسلموا تقية ) السيطرة على جمعية الاتحاد والترقي ودفعها إلى هدفين :

( ١ ) إسقاط النظام الذي يحمل لواء الجامعة الإسلامية .

( ٢ ) ايقاع الخلاف الدموي بين عنصري الدولة العثمانية : الأتراك والعرب .

وقد تحقق ذلك عام ١٩٠٨ بتولي الاتحاديين للحكم وحمل لواء الدعوة الطورانية ومحاولة تتريك العرب وتمزيق الدولة ، وفي المرحلة الثانية ١٩١٨ بهزيمة تركيا ، وإلغاء الخلافة الإسلامية ، وتقسيم الاجزاء العربية بين فرنسا وانجلترا ، وصدور وعد بلفور بإعطاء اليهود الحق في إنشاء دولة صهيونية في

فلسطين . كما ألح الاستعمار على القبائل البدوية ، وحرص على عدم انصهارها في المجتمعات حتى لا تسود الوحدة الشاملة : وحال دون دفع الوحدات الصحراوية إلى التمدن لتظل الامم ممزقة بين طبقات مختلفة وقوى متفاوتة .

وهناك حقيقة هامة لا سبيل إلى تجاهلها . هي أن الاستعمار ركز على الامة العربية اكثر مما ركز على اي جزء آخر من العالم الاسلامي ، وجعل لمصر في مخطط الاستعمار والتبشير والتغريب قدحا معلى ، باعتبارها قلب العالم الإسلامي ومركز القيادة من الامة العربية ، فصحف مصر هي التي كانت تحمل الافكار والدعوات المختلفة ، وعملاء الاستعمار الذين يكتبون باللغة العربية في المقطم والاهرام والهلال والمقتطف والجامعة وغيرها من صحف اللبنانيين المتآمرين كانت تحمل لواء مخطط التغريب كاملاً . هذه الصحف التي عاشت وامتد بها العمر ، بينما سقطت الصحف الوطنية واحدة بعد أخرى . ثم كان لظهور دعائم التغريب والشعوبية في مصر : الاسماء التي لمعت وتصدرت للشهرة أثرها البعيد المدى : طه حسين وعلي عبد الرازق ومحمود عزمي .

وقد صور « لوثروب ستوارد » مدى خطر النفوذ الاجنبي في العالم الإسلامي بأصدق عبارة حين قال : « إن سيطرة الغرب الحديثة على الشرق لا مثيل لها في التاريخ من حيث الفظاعة والخطورة والمدى والمجال ، فما كان لليونان ورومية من قبل من السيطرة المحدودة على بعض من العالم لا يعد بالقياس إلى سيطرة الغرب اليوم شيئاً مذكوراً .

## ( ٤ )

# انجلترا والعالم الإسلامي

كانت بريطانيا أشد الدول الاوربية المستعمرة خطراً على العالم الإسلامي نفسه ، لان وسائلها كانت أقل حماقة من وسائل فرنسا وإيطاليا . وكان أخطر المناطق التي استولت عليها الهند ، القارة الضخمة التي كان يحكمها المسلمون فأصارتهم فيها محكومين متأخرين تعلياً وثقافة وثروة ، ثم مصر ( قلب العالم الاسلامي ) . وتقاسمت مع روسيا السيطرة والنفوذ في إيران واستولت على الخليج العربي وسلطناته .

وقد جندت بريطانيا مئات الالوف من الجنود في الحرب العالمية الاولى من الهند ومصر . ودفعت المسلمين العرب إلى مخاربة اخوانهم المسلمين الترك مغرية إياهم بإقامة دولة عربية ، حتى إذا تحررت تلك البلاد العربية من الاتراك احتلها الفرنسيون والانجليز . ولقد كان الاستعمار البريطاني أشد قسوة على الإسلام وعالم الإسلام .

وكان لانتصار انجلترا بعد الحرب العالمية الاولى ـ ذلك الانتصار الساحق بحسبانها كبرى دول العالم الاستعماري ـ أثره البعيد المدى في الاعمال التي تمت خلال ما بين الحربين ، والتي ركزت دعائم الاستعمار في نفس الوقت الذي كانت الثورات تشتعل ولا تتوقف عن الاشتعال في مختلف أجزاء العالم الإسلامي . وفي الحق ان الانجليز هم الذين قضوا على الدولة الإسلامية الكبرى ، والتي كانت تمثل القوة الصامدة المقاومة للنفوذ الاجنبي ، وهم الذين أزالوا دولة الخلافة العثمانية ، وأذلوا المسلمين في كل البلاد .

والاستعمار البريطاني هو الذي نظم الهيئات التبشيرية والإرساليات الاجنبية وحماها في مختلف أنحاء العالم الإسلامي ، وأتاح لها الحرية الكافية والفرصة

المواتية لتحريف عقلية الشباب المسلم ، سواء في الهند أو الصين أو مصر والسودان والصومال وفلسطين والعراق وسائر أرجاء آسيا وأفريقيا الإسلامية ، وأمدها بالمال وساعدها . كما منع المسلمين وعلماءهم من الدخول إلى جنوب السودان ، وحال بينهم وبين تعليم المسلمين من سكان تلك الجهات أحكام الدين وآداب المسلمين .

والاستعمار البريطاني هو الذي هدم دولة المسلمين في الهند ، وأذل أهلها المسلمين . وهو الذي أزال الدولة العثمانية ( دولة الخلافة ) واستعمر بلادها ومزقها كل ممزق ، وألغى الخلافة ، وحال بين المسلمين وبين إعادتها . وإليه يرجع الخطر الاكبر في إقامة دولة إسرائيل في قلب العالم الإسلامي . فهو الذي مكن لها ذلك، وأتاح لها الفرصة لمليون يهودي أقطعهم الاراضي وأمدهم بالسلاح والعتاد ، وجعل منهم قوة عسكرية ذات بأس تهدد الحجاز ومصر وسوريا ولبنان والعراق وسائر بلاد العرب . ثم كان للاستعمار البريطاني وللدول الكبرى الأثر الاكبر في إقامة دولة إسرائيل وتشريد مليونين من العرب . ثم ما كان من التوسع الخطير الذي حققته الصهيونية باحتلال القدس . والاستعمار البريطاني هو الذي أيد الاستعمار الهولندي على تركيز مقامه في أندونيسيا سنوات طوال ، وعودته إليها بعد خروجه منها . كما عرف الاستعمار البريطاني بفرض المعاهدات ذات المواد الغامضة ، وفي مقدمتها معاهداته مع السلاطين في جنوب الجزيرة العربية التي تنص على أنها تنتهي عندما ( يشيب الغراب ويبيض التراب ) .

## - ٥ -

لقد اندفع الاستعمار بأقسى وسائل القمع والتدمير للقضاء على كيان العالم الإسلامي ، ولم يحقق وجوده في مكان ما ، إلا بالتآمر والكيد . وقد كان يظن أن فلسفته وأساليبه قادرة على أن تحقق له الامن وتحقق للشعوب المستعمرة الاستسلام . ولكن العالم الإسلامي قد قاوم بحق ، وألقى بثقله في مواجهة الغزو والاستعمار ، وهو لا يملك من الاسلحة ما يجعله كفاء المقاومة ، ولكنه كان يقاتل بكل ما يملك حتى باحتشاد الاجساد . هذه المقاومة أذهلت الاستعمار الذي عرف أن مقومات هذه الامة وروح إيمانها المستمدة من إيمانها بالله والإسلام والقرآن ، هي التي تعطيها ذلك الصمود العجيب في وجه الغزو والمقاومة الرائعة غير أن الاستعمار استمر يعمل على قمع هذه الحركات بأساليب بالغة العنف إلى منتهاه ، دون أن يتراجع عن أهدافه ، وإن غير وسائله مرحلة بعد مرحلة محاولا خلق جو من التهدئة ، وذلك بالتخفي وراء أقنعة غامضة كالانتداب والوصاية مدعيا أنه يدير شؤ ون هذه الشعوب حتى يعدها لحكم نفسها .

غير أنه مضى في طريق تحقيق سيطرته بأساليب مختلفة منها : تجزئة البلاد إلى دول ودويلات وإيقاظ الثغرات الطائفية والدينية ، وإيقاع الطوائف في بعضها البعض ، وإثارة روح الفتنة والخلاف بينها ، وتأييد طائفة على طائفة ، وإحياء القبليات ودعمها وتعميقها . وكان أخطر أعماله في هذا الصدد خلق محاور بين المسلمين والمسيحيين ، وبين السنة والشيعة وبين العرب والبربر . مع الدعوة إلى إحياء النزعات القديمة : كالفرعونية والبابلية والاشورية . والفينيقية ، وإنشاء مؤ سسات خطيرة للعمل ضد القوى الوطنية بإثارة الدعوات الهدامة العلمانية التغريبية والإلحادية ، وقد اعتمد الاستعمار في ذلك كله على « الارساليات التبشيرية » التي ركزت دعائمها في مختلف أجزاء العالم الإسلامي ، وأخذت تسيطر على أسباب التعليم ومناهج التربية والثقافة . وكانت ـ ولا تزال ـ للتبشير

مخططات بعيدة المدى في غزو الفكر الإسلامي والثقافات العربية والتركية والفارسية والهندية والملاوية وغيرها .

وكان أخطر ما عمد إليه الاستعمار في سبيل تأكيد وجوده هو إقامة جسر بشري يمزق وحدة الامة العربية ويضع إسفيناً خطيراً في قلب العالم الاسلامي ، ذلك هو غرس إسرائيل ، ومن ورائها الحركة الصهيونية العالمية التي هي وليدة الاستعمار نفسه ، وأقوى ثماره وأشدها خطراً .

وكانت بريطانيا في عام ١٩٠٧ قد أخذت تدرس عن طريق رؤوس الاستعمار ومفكريه ، الوسائل التي تؤدي إلى تدعيم بقاء الاستعمار ، وتقضي على كل مقاومة ضده . وقد انتهت طائفة من الاستعماريين إلى وضع مشروع عرف باسم « كامبل » يرى أن أخطر مناطق الاستعمار في العالم وأشدها تعرضاً للثورة والانتفاض هي منطقة « العالم الإسلامي » وقلبها « الامة العربية »

ولذلك فإن الوسيلة المثلى في نظر الاستعمار للحيلولة دون تماسكها وتلاقي أجزائها في وحدة هو خلق إسفين يمزق قلبها . وذلك بإقامة جسم غريب في المنطقة الواقعة شرق قناة السويس ، ولما كان الاستعمار الغربي يضع مخططات الحروب الصليبية أمامه ، فإنه قد اتخذ من فلسطين ومنطقة القدس بالذات نقطة ارتكاز لإثارة الخلافات بين الاديان الثلاثة . فسيطر على فلسطين عام ١٩١٨ في ظل مؤامرة خطيرة تهدف إلى خلق هذا الكيان الغريب ، وإقامة هذا الجسم البشري من اليهود .

وبذلك نفذ الاستعمار خطة تهدف إلى تثبيت وجوده في العالم الإسلامي كله بوضع فلسطين تحت الانتداب البريطاني لما لها من المواقع الحربية والاهمية الروحية لجميع الشعوب ، مما يجعل السيطرة عليها أمراً بعيد المدى في التطورات التي وقعت فيما بعد ، والتي حققت هدف الاستعمار في إدخال عنصر جديد من السكان ، وإقامة استعمار استيطاني يوغر صدور العرب . وقد امتد هذا وبلغ مداه حين انسحبت بريطانيا من فلسطين ، وتركت للصهيونية القوة التي تمكنها من السيطرة على النحو الذي تحقق من بعد حتى استطاعت إسرائيل عام ١٩٦٧ من السيطرة على فلسطين جميعها ، ووضع يدها على بيت المقدس . . وقد بلغ الاستعمار حين وضع هذا المخطط موضع التنفيذ إلى تأكيد دعائم نفوذه ، ووضع

يده على قلب العالم الإسلامي . ثم الاستيلاء عليه ، ثم تأكيد الوجود الاستعماري على النحو الذي يتح للاستعمار أن يقبل الجلاء العسكري والسياسي عن هذه المناطق ، بعد أن تأكد وجوده فيها بنفوذ ثقافي داخلي قائم على تخريج أجيال لها ولاء لوجوده وبقائه . غير أن العالم الإسلامي لم يتوقف منذ اليوم الأول لحركة الغزو الاستعماري عن العمل ، فعمل في دائرتين :ـ

( ١ ) الدائرة الإسلامية الوطنية التي ارتبط فيها الجهاد بالقاعدة الإسلامية ، وهي الدائرة التي أجهدت الاستعمار فعمل على تصفيتها والقضاء عليها .

( ٢ ) الدائرة الوطنية الخالصة ، وهي الدائرة التي حاول الاستعمار أن يجعل منها بديلا للمقاومة العسكرية ، والخصومة الكاملة وان يحولها عن العمل الإيجابي إلى الصراع السياسي ، وأن يقيمها داخل فكره وتعاليمه ( وفي مصر ظهر أمثال لطفي السيد وسعد زغلول بدلاً لاحمد عرابي ومصطفى كامل ) وأمثال هؤلاء الزعماء مهما بلغ أمر وطنيتهم فإنهم يتعاملون مع الاستعمار من داخل دائرة الولاء والاقتناع بأنه لا سبيل إلى تحقيق أي قدر من التحرر إلا بالتفاهم مع الاستعمار نفسه .

وهذه هي المرحلة التي واجهها العالم الإسلامي كله في مرحلة ما بين الحربين .

أما الدائرة الإسلامية ، فقد كان لها دورها الخطير الذي أزعج الاستعمار وأدال منه . وقد قاد الثورة العسكرية على النفوذ الاستعماري .

ـ عبد القادر الجزائري الذي قاوم احتلال فرنسا للجزائر ستة عشر عاما ( ١٨٣٠ ـ ١٨٤٦ )

ـ الشيخ شامل الذي قاوم نفوذ روسيا واحتلالها للقوقاز والقرم والتركستان[١] .

ـ محمد أحمد المهدي قاوم نفوذ بريطانيا في السودان .

ـ أحمد عرابي قاوم نفوذ بريطانيا في مصر .

ـ عبد الكريم الخطابي قاوم فرنسا في الريف المغربي .

---

١ ـ قام الشيخ شامل عام ١٨٠٨ بحركة في مقاومة الغزو الروسي للقوقاز والقرم والتركستان وظل يكافح ويناضل على رأس جيوشه وتابعيه البواسل المجاهدين الذين تجمعوا تحت لوائه من مختلف القبائل والديار الاسلامية حلال تسعة وثلاثين عاماً متواصلة ، وكبد الروس خلالها مئات الالوف من القتلى ، وكما كبدهم انفاق الملايين الوفيرة من الاموال . وكانت مقاومته ترمي الى تحرير امة تبلغ ٤٠ مليون نسمة من نير الاستعمار الروسي الراحف .

ـ المسلمون في الهند الذين ثاروا عام ١٨٥٧ في مقاومة للنفوذ البريطاني .
ـ ثورة المسلمين في أندونيسيا في مواجهة الاستعمار الهولندي .
ـ السيد أحمد السنوسي وعمر المختار في مقاومة الاستعمار الايطالي لبرقة .
ـ ثورة يعقوب في التركستان .

وعيب هذه الجهود أنها كانت متفرقة غير موحدة ، بينما كان الاستعمار الغربي موحداً في مواجهتها مما عجل بالقضاء على هذه الحركات أو إجهاضها قبل أن تحقق غرضها .

وحين توقف الجهاد العسكري لم يتوقف المسلمون عن مقاومة الاستعمار في مختلف أجزاء العالم الإسلامي ، في مختلف المجالات ، في مجال التعليم والثقافة والسياسة والاجتماع والاقتصاد وعملوا على معارضة خطط الغزو المختلفة ، ولم يستسلموا أو يتقبلوا الوجود الاستعماري ، وبرزت هذه المعارضة في دعوات المعلمين المصلحين ، وفي مختلف الجماعات والهيئات الإسلامية والطرق الصوفية . وفي أعمال كثير من المفكرين التي حملت لواء الدعوة إلى تصحيح المفاهيم وتخليص الفكر الإسلامي والثقافات العربية والفارسية والتركية والهندية من شوائب البدع والخرافات . وقد انتظم المصلحون والمفكرون في مختلف أجزاء العالم الإسلامي .

١ ـ جمال الدين في إيران والهند ومصر وتركيا .
٢ ـ المهدي في السودان .
٣ ـ السنوسي في ليبيا .
٤ ـ محمد عبده في مصر .
٥ ـ الالوسي في العراق .
٦ ـ حسين الجسر وطاهر الجزائري والقاسمي والكواكبي في الشام .
٧ ـ الدهلوي وأحمد خان وإقبال في الهند .
٨ ـ ابو شعيب الدكالي والعلوي العربي في المغرب .
٩ ـ ابن باديس في الجزائر .
١٠ ـ خير الدين والطاهر بن عاشور في تونس .
١١ ـ اسماعيل عصبرنسكي في القرم .

وكان لهؤلاء المصلحين الأثر العميق ، والمدى البعيد في يقظة الفكر

الاسلامي ، وخلق روح من الثقة والحيوية والقدرة على مواجهة الغزو الاستعماري في مختلف مجالاته السياسية والفكرية على نحو كشف عن جوهر الإسلام وإيجابيته التي تؤكد أنه هو الاساس الاصيل لكل نهضة في العالم الاسلامي .

كما كشف هذا الصمود عن مدى عمق الاثر الاسلامي في النفس الاسلامية والمزاج الاسلامي من حيث ظن النفوذ الاستعماري أن المسلمين سوف يستسلمون للقيم والمفاهيم الغربية وأنهم سينطوون في بوتقة الفكر الغربي ومفاهيم الاستعمار وفلسفته . وظلت مقاومة الغزو العثماني مستمرة في صمود في عالم الإسلام كله ، كرد فعل لمخططات الاستعمار التي عملت على :

( ١ ) إعمال الابادة بالقتل والسجن ، والقضاء على القيادات الفكرية والسياسية القوية القادرة على العمل .

( ٢ ) التبشير والتغريب ، وإثارة الشبهات وقتل مقومات الإسلام العالمية .

( ٣ ) حرمان عالم الإسلام من علامات القوة التكنيكية والصناعية وعوامل الثقة بالنفس .

وإذا كانت هذه الحركات قد أخذت طابعا إسلاميا عاما . أم طابعاً عربيا أو وطنيا أو قوميا ، فإنها كانت جميعها تنبعث من مفهوم إسلامي أصيل ، وإذا كان الغرب قد حول المسلمين عن مفهوم الوحدة في محاولتين لتغلب جانب الاقليميات الضيقة ، والقوميات ، فإن الاستعمار لم يلبث أن انزعج عندما وجدت حركة الوحدة العربية الذي حاول أن يشجعها أول الامر ويجعلها بديلاً للجامعة الإسلامية في خلال مرحلة ما بين الحربين .

## ( ٤ )

ركز الاستعمار في مرحلة ما بين الحربين على توطيد نفوذه عن طريق إقامة ركائز ثابتة حتى إذا اضطرته الحركات الوطنية إلى اخراج قواته العسكرية أو نفوذه السياسي كان له من هذه الركائز عامل فعال قادر على تأكيد وجوده . ولذلك عوّل كثيراً على حركة التبشير وأعطاها أقصى ما يستطاع من التأييد . وكان جل اهتمامها بمعاهد التعليم ، وبرامج التربية . وذلك عن طريق مدارس الارساليات ومدارس الاستعمار وبعض المدارس الحكومية .

وفي نفس الوقت دفع مخططاته الى القمة باعلان الظهير البربري في المغرب الذي يفصل البربر عن العرب ويعزلهم ثقافيا وقضائيا وتعليميا ، ويردهم إلى منظمات خاصة تستمد قوانينها وأنظمتها من الأعراف القديمة .

وكانت حركة التجنيس أيضا التي نفذها الاستعمار في تونس محاولة أخرى لاخراج المسلمين من جنسيتهم الوطنية الى الجنسية الفرنسية ـ وكانت الصهيونية خلال فترة ما بين الحربين هي الخطر النامي بين اعين المسلمين ومسامعهم ، بحماية النفوذ الاستعماري . ومن الناحية الاخرى كانت الحركات الهدامة تتجمع وتتركز في دعوات وأحزاب . وكان ابرزها البهائية التي أولتها بعض الصحف المصرية اهتماما كبيراً ، ورحبت بها وأشادت بمفهومها الجامع بين الأديان جميعا ، والهادم للأديان جميعا . وكذلك ظهرت دعوات تحاول أن تفسر الاسلام تفسيراً جزئياً كالقاديانية التي ألغت الجهاد من مفهوم الاسلام ، أو مؤلفات تدعو إلى فصل الاسلام عن المجتمع كدعوة على عبد الرازق .

وفي نفس الوقت علت أصوات دعوات انبعاث ما قبل الاسلام من حضارات كالفرعونية في مصر والفينيقية في لبنان والآشورية في العراق والبربرية في

المغرب ، مع الدعوة إلى عاميات اللغة ومحاولة جعلها تواجه العربية وتنفصل عنها . كما حملت الدعوة إلى القومية الضيقة ، دعوة أخرى إلى إعلاء الماضي الوثني السابق للاسلام وابرازه وتأكيده ، كما حدث في الهند واندونيسيا وإيران . وكانت الدعوة الطورانية في تركيا المسلمة دولة الخلافة والامبراطورية العثمانية من أبرز هذه الحركات التي اعادت أمجاد جنكيزخان . وحاولت أن تصور الأتراك ، وكأنهم مصدر الحضارات وأساس المدنية ، وأول التاريخ . وقد حاولت هذه الدعوات أن تصبغ الأبطال والأعلام بصبغة الاقطار والأوطان كالفردوسي إيراني . والفارابي تركي وكانت حركة أنقرة وانقلاب مصطفى كمال في تركيا تحولا خطيراً في مجال التغريب ، وقدوة بارزة ظلت تؤثر في مجريات الفكر العربي سنوات طويلة وتفتح لدعاة التغريب والشعوبية أبوابا من الاغراء في محاولة دفع الأمة العربية الى ان تقبل خطوة مماثلة . وكان هدف هذه الحركات جميعا هو : « محو الذاتية الماثل في وجود الأمة بالقضاء على مقوماتها وشخصياتها من لغة وأدب ودين ، جريا وراء تنفيذ خطة الاستعمار التي ترمي إلى إزالة سلطان المسلمين من هذه الأرض » .

كان سلاح إعلاء النزعات الجنسية والعرقية والاقليمية ، وإحياء القوميات الضيقة ، وإذكاء روح العنصرية والانكفاء على الماضي القديم للأمم التي جمعها الاسلام ووحدها فكريا وثقافيا واساسيا هو اخطر سلاح تعامل به الاستعمار مع المسلمين . فقد كان المسلمون قد تجمعوا منذ قرون طويلة ، بالاسلام أمة واحدة وفكراً واحداً .

ولما كان الاستعمار يحصل من محاولة التمزيق والتقسيم والتفرقة على ركيزة هامة لاقامة نفوذه ، فقد صبغ هذه المحاولة بصبغة لها طابع علمي فلسفي ، فأقام الحواجز من جديد بين اجزاء العالم الاسلامي ، بالعمل على اعلاء مفاهيم الدم والجنس والاقليم والأرض ، وانبعاث المذاهب القديمة ، هذه المفاهيم التي انطوت ، وذلك في سبيل معارضته الوحدة الاسلامية التي قامت اساساً ، وحدة العقل والفكر والشعور .

وليس عيبا أن يتخذ المسلمون سلاح الوطنية او القومية سبيلا إلى مقاومة النفوذ الاستعماري ، ولكن الخطر أن يجري هذا التحرك خارج إطار الايمان

بالوحدة الفكرية الاسلامية التي اقامها القرآن ، فلقد اتخذ المسلمون في خلال حركة اليقظة ومقاومة النفوذ الاستعماري ثلاث دعوات متداخلة ومتواترة هي : دعوات الوطنية والأمة والفكر .

فالدعوة الوطنية كانت دعوة طبيعية إزاء احتلال الاستعمار للأوطان ومحاولة تصوير هذه الأوطان بانها ليست ذات كيان أساسي ، فكان لا بد أن تتخذ المقاومة طابع الدعوة الوطنية بالكشف عن امجاد الأمم وتاريخها القديم العريق ، وكان لا بد أن تبرز الدعوة الى الأمة . كأن يلتقي العرب في نطاق دعوة الى وحدة الأمة العربية ، ليس في هذا من بأس ، ولكن الخطر هو أن تصل هذه الدعوات إلى التطرف ، فتنسى جذورها وأسسها المرتبطة بوحدة الفكر الاسلامي الجامع للعالم الاسلامي .

ولقد تحرك العالم الاسلامي في الحلقات الثلاث خلال هذه الفترة ، ولكن الاستعمار جمد تحركهم في دائرة واحدة ، وحال بينهم وبين التحرك الطبيعي بين الحلقات الثلاث .

- ٥ -

واجه العالم الاسلامي في خلال القرنين الأخيرين اكثر من قوة من قوى الصراع على السيطرة والنفوذ العالمي . وأهم هذه القوى هي : فرنسا وبريطانيا وروسيا وهولندا ، كما واجه الصراع بين القوى الثلاث بعد الحرب الأولى : الرأسمالية والشيوعية والصهيونية ، وتقف الحركة الصهيونية في صف الرأسمالية ، ولكنها حركة ذات اهداف خاصة تختلف في أعماقها عن الرأسمالية ذاتها ، وتحاول أن تحقق سيطرة عالمية متميزة . ويقف العالم الاسلامي في مواجهة القوى الثلاث التي تحتل بعض اجزائه وتؤثر في وجوده وكيانه ، وما يزال النفوذ الاقتصادي لبريطانيا وفرنسا وامريكا قائماً في أجزاء كثيرة . وكذلك بالنسبة لأفريقيا حيث ما تزال دور أوربية كثيرة تسيطر على بعض أجزائها .

وقد كانت نهاية الحرب العالمية الثانية علامة على انتهاء الاستعمار في صورته القديمة ، التي كانت تعتمد أساسا على الاحتلال العسكري « حين كانت الدول الغربية تتذرع في تقرير شرعية الاستعمار بحق الغزو ووضع اليد ، واحتلال رعايا الدولة المستعمرة محل أهل البلاد الأصليين » .

ثم برز نوع من الاستعمار أطلق عليه الاستعمار الجديد ، وقوامه فرض السيطرة الأجنبية من سياسية واقتصادية على دولة ما . مع الاعتراف باستقلالها وسيادتها ، ودون الاعتماد في تحقيق ذلك على أساليب الاستعمار التقليدية ، كما يطلق على هذا الأسلوب الاستعماري اسم « الامبريالية الجديدة » ويستخدم الاستعمار الجديد في تحقيق أغراضه وسائل خاصة لتحاشي المعارضة الوطنية الصريحة . ومن تلك الوسائل الاتفاقيات الثنائية غير المتكافئة ، وتكبيل الدولة النامية بشروط تحرمها من حركة التصرف ، والضغط

عليها في صورة معونات وقروض . واقامة القواعد العسكرية ، وإثارة الاضطرابات الداخلية والانقسامات الطائفية والحزبية في الدول الحديثة الاستقلال لاضعافها وايقاعها تحت السيطرة الأجنبية ، وتشجيع الأقليات البيضاء التي تتمتع بامتياز اقتصادي وثقافي باتسيلاء السلطة ، وممارسة سياسة التمييز العنصري فضلا عن استخدام المنظمات الدولية التي تقوم عليها الدول الكبرى بدور رئيسي في الضغط على الدول النامية ، وتوجيه سياستها[1] هذه العملية هي ما تعرف اليوم باسم الامبريالية الحديثة التي يقوم جوهرها على محاولة كبار الذين يتحكمون في الصناعة لتوسيع المجرى الذي ينساب اليه فائض ثرواتهم عن طريق البحث عن الأسواق الأجنبية والاستثمارات الأجنبية حيث لم يعد للتركيز الرأسمالي الهائل متنفس الا فيما وراء البحار ، وعلى ضوء هذه المطامع الاستعمارية . كان العالم الاسلامي ولا يزال مجال الصراع بين القوى السياسية والعسكرية والاقتصادية العالمية .

وقد حاول الاستعمار أن يصف نفسه بأنه رسالة المدنية والحضارة لرفع مستوى الشعوب والأمم ، وان الفتح والغزو ليس غاية بل وسيلة لاعلاء البشرية والسمو بها الى آفاق العزة والكرامة والحرية . غير أن الوقائع كلها أثبتت كذب هذه الادعاءات، فإن أوربا الاستعمارية لم تكن مستعدة بأى وجه من الوجوه إلى منح البلاد المستعمرة ثمرة حضارتها دون مقابل . بل إن المسلمين والعرب ما كانوا يستطيعون الافادة من النهضة الأوربية دون أن ينزلوا عن رجولتهم وحريتهم . ولا شك أن تحول الاستعمار العسكري والسياسي الى الاستعمار الجديد المتمثل في الاستعمار الاقتصادي في مختلف اجزاء العالم الاسلامي ، والاستعمار البريطاني الذي تقوم به الصهيونية في فلسطين وتمتد منه الى ما حولها ، بالاضافة الى الاستعمار الثقافي ، كل هذا يؤكد أن الاستعمار انما يغير من جلده ، ويتحول من أساليبه الى أساليب أشد خفاء ومكراً ، وأكثر عمقاً ، وأبعد عن مواجهة الشعوب في نفس الوقت الذي يحتفظ فيه بخططه واهدافه الأساسية ، ويجري التجول الاستعماري اليوم إلى التركيز الصهيوني في قلب

---

١ـ راجع محمد عوض محمد والامير مصطفى الشهابي وغيرهما .

العالم الاسلامي بتمريق وحدة الامة العربية ، والحيلولة دون وحدة العالم الاسلامي . وذلك بالفصل بين قارتي افريقيا وآسيا . بحاجز بشري يحمل فلسفة تعتمد على الأساطير الدينية ، ويهدف إلى التوسع ، واقامة امبراطورية اسرائيل في قلب العالم الاسلامي ، وهذا هو الوجه الخطير للتحول الاستعماري باعتبار أن الحركة الصهيونية تطمع في أن ترث النظام الرأسمالي ، وتقيم الحكومة العالمية التي تمهد لها الآن بتدمير كل القيم والأنظمة والأخلاقيات وتحويل المفاهيم الانسانية التي تحملها الأديان ، والحضارة ، الى أسلوب من الالحاد والاباحة والتسلط .

وكأنما كان الاستعمار الغربي حين وجه كل اسلحته العلمية والفكرية والاجتماعية والاقتصادية الى العالم الاسلامي بقصد اذلاله وتحقيره واشعاره بالضآلة والخنوع ـ كما يقول كانتول سميث ـ انما يمهد لنفوذ آخر اشد عنفا وشراسة ، ويفسح الطريق لقوى أشد شرا هي قوى الالحاد والاباحة التي تعمل على سحق المقومات الانسانية للمجتمعات والحضارة والأديان كوسيلة لاسقاط الشعوب والأمم في براثن نفوذ استعماري اشد خطراً يتطلع إلى السيطرة على العالم كله .

ومن هنا تبرز مخططات الغزو الثقافي الذي يواجه الفكر الاسلامي والفكر العالمي كله ، ولدحر مفاهيم الدين بعامة ، ومفاهيم الاسلام بخاصة ، والحيلولة دون قيام الوحدات القومية والتجمعات الروحية والفكرية ، وخلق اسباب التمزق وتعزيز عوامل الاقليمية والقبلية واستبقاء صراعاتها . ومحاربة الاسلام على وجه أخص باعتباره الطاقة التي تدافع الاستعمار وتقاوم حركته وتكشف دسائسه ، واللغة العربية باعتبارها لغة القرآن ، والمصدر الاول للفكر الاسلامي والثقافة العربية وما تزال القوى الاستعمارية والطامعة في السيطرة على العالم الاسلامي تعمل على تقويض الاستقرار الاقتصادي والسياسي والاجتماعي ، وخلق جو من عدم الثقة بين المسلمين والعرب لمنع اي تكتل باسم العروبة او باسم الاسلام واذكاء العداوة بين الشعوب العربية وحكوماتها .

وتقوم مخططات الاستعمار على محاولة ابطال مفعول الوجدان الديني

والقومي والخلقي ، وإعلاء شأن المفاهيم المـادية ، واطفـاء مفـاهيم الفـكر والروح . ويعد الاستعمار مسؤ ولاً عن انه اتاح الفرصة للصهيونية وللدعوات الالحادية والاباحية ، والفلسفات المادية المختلفة ، عندما اعتمد الاستعمـار على الأقليات المختلفة لادخال هذه المذاهب والفلسفات الـى قلـب العالـم الاسلامي . ولقد أعلن لورانس براون ان تخوف الغرب من كل خطر عالمي سواء أكان الخطر اليهودي ام الخطر الاصفر ، ام الخطر البلشفي ليس شيئاً بالنسبة الى ما يصفه من أن الخطر الحقيقي الكامن في نظام الاسلام وعلى قدرته على التوسع والاخضـاع ، وفي حيويتـه بحسبانـه انـه الجـدار الـوحيد فى وجـه الاسـتعمار الاوربي .

# التبشير

كان على الاستعمار الزاحف على عالم الاسلام أن يركز على عملين أساسيين :

( العمل الأول ) : هو محاولة اقناع الرأي العام أن ما يقوم به الاستعمار هو عمل حضاري وانساني يهدف إلى ترقية البشرية باعتبار أن الجنس الابيض هو صاحب الحضارة المسؤ ول عن تمدين الأجناس الملونة .

( العمل الثاني ) : هو تحويل العقلية الاسلامية عن مفاهيمها الاساسية ، واثارة الشبهات حول مقومات فكرها الاسلامي . وذلك كمقدمة لتذويبها في الفكر الغربي باعتباره هو الفكر العالمي المسيطر . وبذلك يفقد العالم الاسلامي قيمته الاساسية ، ويستسلم للاحتواء الغربي ويسقط كفريسة ذليلة في يده .

وقد كان لا بد لتنفيذ ذلك من ايجاد « جهاز فكري » له مؤ سسات منثورة في مختلف أجزاء العالم الاسلامي ، هذا الجهاز هو « الارساليات التبشيرية » التي كان لها دور عميق المدى في خلق تيار جديد مؤ من بالفكر الغربي مدافع عنه لا يقف من الاستعمار موقف الخصومة . بل موقف الولاء والتقدير عن طريق هذا الجهل الذي تخرج من مدارس الاستعمار ، وحمل لواء الكلمة عن طريق الصحافة والثقافة في نفس الوقت الذي سيطر فيه الاستعمار على مناهج التعلم في المدرسة الاجنبية والمدرسة الوطنية وفي الجامعات ، وفرض مفاهيمه في محاولة للقضاء على ابرز مقومات الفكر الاسلامي ، وهو المقاومة للغاصب ،

---

١ ـ للتوسع في البحث راجع كتابنا ( مخططات التبشير ) .

وفي سبيل احلال مفهوم التقبل والرضا للنفوذ الاستعماري والمدنية ، وباسم دعوى عريقة تقول بأن الأمم المتاخرة والملونة لا بد أن تتقبل الحضارة والثقافة الغربية تقبلا كاملا حتى تستطيع ان تنهض وأن تصبح متحضرة ، وان تكون اهلاً للتحرر من الاشتعمار .

ولقد أيد الاستعمار هذا النفوذ الجديد للتبشير المتمثل في الارساليات بمدارسها ومستشفياتها ومؤسساتها حتى انها كلما عقدت عقداً مع اي دولة عربية أو اسلامية كانت تنص في صلب المعاهدة على حماية هذه الارساليات ودعمها ، وحتى ان بريطانيا لم تقبل ادخال العراق في عصبة الأمم الا بقبولها حماية هذه الارساليات والمؤسسات .

وقد كانت حركة التبشير من اكبر الاعمال التي اعتمد عليها الاستعمار في تركيز وجوده وبقائه ، ليس فقط في خلال فترة احتلاله لهذه الاقطار ، بل لاعداد ركائز تبقى بعد جلائه عن طريق اجيال تستقطب مفاهيمه وقيمه ، وتزيفها حتى تصبح حقائق اساسية لا سبيل الى انكارها ، وذلك بموالاة ترديدها ولها فرص متاحة من النشر والاذاعة في مجالات الصحافة والثقافة بمجالات التعليم بصوت عال ، فتنفذ الى القلوب والعقول وتستقر فيها .

من وراء حركة التبشير تقف مؤسسة الاستشراق التي هي المصنع الذي يعد الشبهات والطعون ، ويقدمها للعاملين في حقل التبشير لنشرها والاذاعة بها . وهناك حقيقة يجب تقريرها ان هدف التبشير لم يكن في اساسه تحويل المسلمين الى اديان اخرى . فقد تأكد للدعاة منذ اول الطريق استحالة ذلك.. ولكن الهدف الأكبر هو اخراج المسلمين من قيمهم ودينهم ، ومفاهيمه اساساً . وبذلك يصبحون عجينة طيعة للتشكل وفق مفاهيم الفكر الغربي والاستعمار . ولذلك فأن حركة التبشير هي اساسا حركة استعمارية لخدمة النفوذ الأجنبي وتأكيده وتعميقه .

ولقد حمى التبشير واذاع الدعوات الهدامة التي انتشرت في العالم الاسلامي ، سواء منها ما يتصل بالالحاد او الاباحة او الاحزاب المتصلة بالنفوذ الاجنبي ، مع تعميق الدعوات القديمة وانبعاثها كالفرعونية والفينيقية والبربرية

وغيرها . او تأريث الخلافات المذهبية في الاسلام او بين الاسلام والأديان الاخرى أو بين العرب والأجناس الاسلامية الاخرى . وكذلك الدعوة إلى العروبة في مواجهة الروابط الاسلامية او الدعوة إلى الاقليمية في مواجهة الوحدة العربية . وكانت اللغة العربية والدين بصفة عامة ، والاسلام بصفة خاصة ، والتاريخ العربي الاسلامي هي ابرز اهداف الحرب التي أثارتها المؤسسات التبشيرية ، وهي حرب لا هوادة فيها ، باعتبارها الركائز الاساسية للمسلمين والعرب ، فهي لا تتوقف عن انتقاص مفاهيم الاسلام واثارة الشبهات حولها ، وخلق دعوات تحمل لواء الاسلام وتتنكر لاهم مقوماته وهو ( الجهاد ) حيث تتجاوزه او تقلل من اهميته او تفسره تفسيراً خاطئا . وكذلك الطعن على اللغة العربية والحملة عليها ، بهدف إيقاف نموها ، وتغليب العامية عليها ، او تغليب اللغات الاقليمية ، أو اللغات الأجنبية عليها ، حيث يعرف الاستعمار ان الفصحى تنمو بنمو الاسلام نفسه .

وتتصل الحملات بالتاريخ والتراث فتثير حولها كثيرا من الشبهات والأكاذيب ، ولقد وضع المستشرقون والمبشرون كتبا متعددة حملوا فيها على الاسلام والعرب والمسلمين حملات ضارية ، رموهم فيها بكل نقيصة ، وأثاروا شبهات متعددة حول قيم الاسلام ومفاهيمه . وطعنوا على النبي محمد ، كما حملوا حملات شديدة على القرآن والسنة النبوية ، وفي مقدمة هؤلاء مرجليوت وهانوتو وزويمر ولامنس وكرومر ولا فيجري ودنلوب[1] . وكان هدف هذه الحملات العمل على تغيير العقلية الاسلامية والقضاء على مقوماتها الأساسية فقد أجمعت خطط المبشرين ودراساتهم على أن الهدف من التبشير هو : « انشاء عقلية عامة تحتقر كل مقومات الفكر الاسلامي ، وإبعاد العناصر التي تمثل الاسلام عن مراكز التوجيه » . وقد أشار واحد من مؤتمرات التبشير العالمية الى ان السياسة الاستعمارية قد استطاعت أن تقضي على برامج التعليم في المدارس الابتدائية حين اخرجت منها القرآن ثم تاريخ الاسلام . وبذلك « اخرجت ناشئة مضطربة مادية الأغراض لا تؤمن بعقيدة ولا تعرف حقا »

---

١-راجع كتابنا ( الاسلام والثقافة العربية ) ولمزيد من التفاصيل اقرأ كتاب ( مخططات التبشير ) .

وأشار إلى هذا مدير احدى الجامعات التابعة للارسـاليات التبشيرية الكبـرى حين قال : « اننا نراقب سير القرآن في المدارس الاسلامية ونجد فيه الخطـر الداهم ، ان القرآن وتاريخه هما الخطران العظيمان اللذان تخشاهما سياسة التبشير » وهم يرددون دائما انه إن عجزت ارساليات التبشير عن زحزحة العقيدة الاسلامية في نفوس معتقديها ، فإنها تستطيع أن تقضي لبانتها من هدم الفكرة الاسلامية ببث الأفكار التي تتسرب مع اللغـات الأوربية ، فتنشرهـا اللغـات الانجليزية والألمانية والهولندية والفرنسية بتحلل الاسـلام بصـحف أوربـا ، وبتمهيد السبيل لتقدم اسلامي مادي . وبذلك تقضي الارسـاليات لبانتهـا من هدم الفكرة الدينية الاسلامية .

## - ٢ -

كانت الارساليات التبشيرية هي مقدمات الاستعمار وطوالعه الممهدة له ، فحيث مد النفوذ الاجنبي نفوذه في العالم الاسلامي ، كانت هذه البعثات هي القوى المتقدمة والطلائع المتقدمة . فمنذ أوائل القرن التاسع عشر تقريبا بدأت عملية الغزو التبشيري في بطء وأناة مترابطة بخطوط أخرى كأجهزة عاملة لتحقيق السيطرة الاستعمارية .

ولقد وجدت قوى التبشير الطريق مفتوحا وميسراً مع العوامل التي أعدها لها النفوذ الاستعماري وأهمها الامتيازات الاجنبية ونفوذ القناصل وسيطرة الدول الاجنبية على كثير من الامراء في إيران كالشاه ناصر الدين في إيران ، والخديوي إسماعيل في مصر وغيرهما ممن فتح لهم الغرب باب الاستدانة .

ولما كانت الدولة العثمانية هي أكبر أهداف التبشير أولوية لتمزيقها وتوزيعها . فقد ركزت القوى الاستعمارية بحملات تبشيرية انطلقت من مختلف الدول الاوربية ، وبعثات من دول فرنسا وانجلترا وألمانيا وإيرلندا والسويد والدانمرك وروسيا .

وفي خارج الدولة العثمانية تركز الاستعمار في فارس وأندونيسيا ( جاوة ) والهند الإسلامية ولما كان المخطط قد رسم أساسا للسيطرة . فقد عمد النفوذ الاستعماري أولاً للقضاء على القوى الشابة الجديدة ، وفي مقدمتها الحركة الوهابية في الجزيرة العربية والنهضة المصرية التي قادها محمد علي ، وكان أن حرض الاستعمار الدولة العثمانية على دفع واحدة القوتين للقضاء على الاخرى ، ثم تفرغ من بعد للقوة الاخرى ، فكانت عملية التدخل العسكري في الشام عام ١٨٤٠ التي مزقت الوحدة التي كونها إبراهيم . وبذلك أهلت سوريا لعملية من أخطر السيطرات الأجنبية في

الصراع بين النفوذين الفرنسي والبريطاني مما دفع الدولتين إلى إثارة الصراع بين الطائفتين : الموارنة والدروز ، وقد اخذت فرنسا جانب الموارنة وامدتهم الاسلحة وفعلت بريطانيا مثل ذلك بالنسبة للدروز ومهد ذلك للصدام الذي وقع بتحريض الدولتين عام ١٨٦٠ . وكان ذلك مقدمة للخطة التي أعدتها الدول الاجنبية من اتخاذها لبنان رأس جسر لنفوذها في الشرق كله . وذلك بوضع نظام يكفل للبنان نظاماً خاصا ، وحاكما خاصا في حماية الدول الاوربية . وفي ظل هذا الوضع الذي أهل لبنان لتكون منطلقا للغزو الاستعماري سياسيا وثقافيا بدأت الارساليات التبشيرية تصل إليها ، وتعمل في حرية مطلقة ، وتتخذ منها حقلاً لكل مخططات النفوذ الاجنبي وفي مقدمته :

( ١ ) ـ القضاء على الرابطة الإسلامية الجامعة للمسلمين في العالم كله .

( ٢ ) ـ إعداد خطط الفصل والوقيعة بين العرب والترك .

( ٣ ) ـ إعداد خطط الفتن والخلاف بين المسلمين وغير المسلمين والعرب .

( ٤ )ـ تمكين الصهيونية من السيطرة على فلسطين .

( ٥ )ـ تخريج طبقة مثقفة تفتح أمامها وسائل الحكم والسلطان في مختلف أجزاء العالم العربي . وكانت المدارس الاجنبية وإرساليات التبشير في مختلف صورها ، من معاهد وجامعات . وقد احتضنت لبنان نفوذ فرنسا وأمريكا في نفس الوقت الذي تقدمت كل دولة من ذوات المطامع إلى الدولة العثمانية معلنة نفسها حامية طائفة معينة : فالفرنسيون لحماية الكاثوليك ، والبريطانيون لحماية البروتستانت ، والروس لحماية الارثوذكس . وهكذا بدأ الغزو الاستعماري للعالم الإسلامي باسم العلم ، ورصدت لذلك الميزانيات الضخمة ، وكان لهذه البعثات أثرها الهام في حل المسألة الشرقية ـ على النحو الذي أراده الغرب ـ كما اعترف بذلك كبار السياسيين وكان لها دورها في تمزيق الوحدة السياسة التي ظلت قائمة بين الترك والعرب خمسة قرون .

ففي المرحلة الاولى حملوا لواء الدعوة إلى العروبة وتدريس اللغة العربية ، والإلحاح على الحرية ، ومقاومة الاستعمار كوسائل مرحلية حتى سقط السلطان عبد الحميد وتسلمت حكم الدولة العثمانية جماعة الاتحاديين ثمرة الارساليات والنفوذ الاستعماري ، وهنا تحول اتجاه هذه المؤسسات والجامعات من الدعوة إلى العروبة ، وحماية اللغة العربية إلى اتخاذ اللغات الاجنبية أساسا للتدريس مع الحملة على الوحدة العربية واللغة العربية وتغليب العامية والحروف اللاتينية عليها ، وطبع التعليم طبعا علمانيا خالصا .

ومن الحق أن يقال إن النفوذ الاستعماري قد اختار في الدولة العثمانية ثلاث مناطق من أخطر المراكز الاساسية لعمله = الاولى : ( لبنان ) والثانية ( مصر ) والثالثة ( سالونيك ) في تركيا . وقد قامت كل منها بدور ضخم . أما لبنان فقد غطت منطقة الشام جميعا والعراق . أما مصر فقد كانت تمثل القيادة الفكرية للعالم العربي كله . ولذلك فقد جاء التركيز عليها في مجالات التعليم والثقافة والصحافة عاملاً أساسيا في إعداد خطط النفوذ الاستعماري في العالم العربي . بل الاسلامي كله ، أما سالونيك فقد كانت مقر المخطط التبشيري والاستعماري الذي خلق القوة التي صارعت الخلافة والدولة العثمانية وقضت عليهما نهائيا .

وقد اعتبر المبشرون عام ١٩٠٨ من الاعوام الحاسمة في حركة التبشير في العالم الإسلامي كله ، وان الانقلاب الذي قاده الاتحاديون والذي أنهى حكم السلطان عبد الحميد هو عمل بعيد الاثر في توسيع حركة التبشير في الدولة العثمانية كلها ، فقد أصبح تجول المبشرين في البلاد العثمانية والعربية والفارسية غير ممنوع ، وكانت السلطة السياسية على أكثر المسلمين قد انتقلت من يد الخلافة الإسلامية إلى يد انجلترا وفرنسا وروسيا وهولندا . كما أصبح بيع كتب التبشير مباحا بسبب حرية النشر التي أعطاها الدستور العثماني . وقد عقدت الهيئات التبشيرية عدداً من المؤتمرات منذ عام ١٩٠٦ عندما عقد المؤتمر التبشيري الاول بمنزل أحمد عرابي في باب اللوق في القاهرة ( تحديا واستفزازاً ) . ثم عقدت مؤتمرات في أدنبرة عام

١٩١١ وبيروت ١٩١١ ولكنو بالهند ١٩١٣ وفي القدس وبرمانا ( لبنان ) وقسنطينة في الجزائر وحلوان في مصر عام ١٩١٤ وفي القدس ١٩٢٨ وفي تونس عام ١٩٣٢ وفي القدس عام ١٩٣٥ . وقد شهد هذه المؤتمرات عديد من كبار الساسة وكثير من المستشرقين والكتاب المبشرين ، وبلغ عدد الهيئات التي اشتركت في كل مؤتمر أكثر من مائة من أربعين دولة .

وكان التركيز على فلسطين واضحا في عقد مؤتمرات الارساليات التبشيرية بها وتنافسها مع قوى الاستعمار والصهيونية . وهو ما أطلق عليه « إعداد الفريسة للالتهام » وهو ما تحقق بعد ذلك . وكانت هذه المؤتمرات تحاول أن تكشف الطريق للهيئات التبشيرية مرحلة بعد مرحلة ، حتى أنهم أطلقوا على حملتهم « فتح العالم الإسلامي » في وجه الثقافة الغربية بحسبانه أصبح عالما ممزقا مغلوبا على أمره ، تسيطر عليه حكومات الانتداب ، أو حكومات لها ولاية للنفوذ الاستعماري ، وفي ظل النفوذ الفرنسي والبريطاني والهولندي لأغلب أجزاء العالم الإسلامي . وقد أولت هذه المؤتمرات دراسات واسعة لعملها في المجالات الثلاثة :

( ١ ) - المدرسة ( ٢ ) - المستشفى ( ٣ ) - الصحيفة والكتاب .

وكانت دائما تعد أساليبها بما يحقق الغاية وفق ما تسفر عنه المرحلة السابقة . وكانت هذه المؤتمرات تذكر دائما بما في أيديها من قوى :

( أولا ) معاهدة فرساي التي نصت في المادة ٤٣٨ على جواز التبشير في سورية .

( ثانيا ) الامتيازات الاجنبية في الدولة العثمانية ومصر .

( ثالثا ) الوضع الخاص الذي فرضه النفوذ الاجنبي على لبنان منذ عام ١٨٦٠ . وقد وصلت هذه المؤتمرات إلى خطط محددة أهمها أن التعليم هو أنجح الخطط في تحقيق الاهداف ، وذلك بوضع الشباب المسلم العربي تحت تأثير التعليم ( الغربي المسيحي ) وأن يشمل هذا التأثير أولئك الذين سيصبحون يوما قادة أوطانهم .

كما عمدت هذه المؤتمرات إلى دعم المخططات الفرعية وفي مقدمتها

دعوات الفرعونية في مصر ، والبربرية في المغرب والبحر الابيض المتوسط في سوريا ، والفينقية في لبنان . وتنشيط دعوات القاديانية والبهائية ، والانتفاع بنشاط المحافل الماسونية ، والسيطرة على الصحف والاندية والجمعيات . غير أن أكبر خطوة للتبشير في العصر الحديث إنما تتمثل في عقد معاهدة تاليران التي عقدتها الحكومة الإيطالية مع الفاتيكان .

والمعروف أن خطوات التبشير في العالم الإسلامي قد تلاحقت منذ مطلع القرن الثامن عشر . غير أن خطواتها الضخمة قد تمت في فترة ما بين الحربين . هذه الفترة التي يطلق عليها فترة « إنضاج » الثمار التي سيكون لها الصدارة في مجالات القيادات السياسية والثقافية في العالم الاسلامي كله ، ولذلك فقد حرص الاستعمار أن يبقى في هذه المرحلة حارسا لهذه المؤسسات ومدعما لها حتى تتم مهمتها ، وتركز أقدامها بحيث يصبح من المستحيل بعد ذلك إجلاؤ ها عن قواعدها .

أما معاهدة تاليران التي عقدت بين الفاتيكان والدولة الايطالية فقد حققت أن تستولي الفاتيكان بمقتضاها من الحكومة الايطالية على ( ٧٥٠ مليون ليرة إيطالية ) كتعويض عن حقوقها المالية التي توقفت منذ عام ١٨٧١ عندما وقع الخلاف بينهما . وكذلك على ربح قدره خمسة في المائة لقرض اسمي قدره ثلاثة مليارا ت ليرة تصدره الحكومة الايطالية . « اقرأ التفاصيل في كتابنا : مخططات التبشير » . وقد نشرت تصريحات إثر ذلك أعلنت أن القسم الاكبر من هذه الأموال ستصرف في تقوية البعثات التبشيرية في المشرق وأفريقيا ، وتوقع الكثيرون أنه لن يمضي وقت طويل حتى تبرأ غزوة جديدة للتبشير في العالم الاسلامي ، وقد حدث ذلك فعلاً سنوات ١٩٣٢ و١٩٣٣ في مصر عندما هزتها حركة تبشيرية ضخمة كان لها أثرها البعيد المدى في مختلف المجالات السياسية والاجتماعية والفكرية . وقد بلغ من أهمية هذه المعاهدة أن وصفها الآمير شكيب أرسلان بأنها من أعظم الحوادث التاريخية في هذا العصر . وقد استتبع ذلك أن أعلن الفاتيكان عن إنشاء معهد خاص

لدراسة الفقه الإسلامي ، والعقيدة الإسلامية . وذلك حتى يمكن المبشرين من مهاجمة الإسلام في بلاده .

***

وقد ركز التبشير تركزيا كبيراً على مصر بعد انتهاء الحرب الاولى سنة ١٩١٨ لامرين : ( الاول ) أن مصر هي مركز النقل في العالم العربي كله . وكل ما يثار فيها من تيارات ، إنما يكون عاملاً هاما للتأثير على مختلف الاجزاء .

( الثاني ) إن المرحلة الاولى في مصر قبل الحرب عن طريق ثمار الارساليات التبشيرية الاولى قد آتت أكلها عن طريق الصحافة ، والتي أبرزت ألمع نجومها من الصحفيين الغربيين النزعة ، خريجي هذه الكليات من زيدان إلى صروف إلى فرح أنطون إلى سركيس إلى شبلي شميل بالاضافة إلى الصحفيين الذين عملوا في فرنسا وبريطانيا .

ولذلك فقد اجتاحت في أوائل الثلاثينات مصر والسودان حملة تبشيرية ضخمة عن طريق بعض المعاهد الكبرى للارساليات وبعض مستشفياتها ، ولم تلبث الحركات العنيفة أن كشفت عن أحداث خطيرة تمثلت في إغراء بعض الشباب والفتيات المسلمين عن طريق التنويم المغناطيسي لترك دينهم .

وفي خلال هذه المعركة اندفع المبشر « زويمر » فدخل الجامع الازهر ووزع منشوراته بها وتألفت على أثر ذلك جمعية الدفاع عن الإسلام من صفوة العلماء والكتّاب . وأهدت النصح إلى المصريين بسحب أبنائهم من المعاهد التبشيرية ، ودعت إلى إنشاء معاهد ومدارس لفقراء المسلمين . وقد رافقت هذه الحركة في مصر والسودان حركات مماثلة في تونس والجزائر والمغرب أهمها حركة الظهير البربري في المغرب وحركة التجنيس في تونس وحركة الادماج في الجزائر .

وقد اهتدت الحركة في هذا بتقارير اللورد كرومر عن التبشير ، الذي وجه

أنظار المؤسسات التبشيرية إلى العمل في جنوب السودان حيث الميدان خصيب وبكر . وقد نفذت الحكومة السودانية الخطة بدقة فأوجدت فاصلاً بين الشمال والجنوب وأطلقت على تلك الاجزاء « المناطق المقفلة » وحالت بين المسلمين الشماليين وبين الجنوب . كما استقدم لهذه المناطق كثير من المبشرين ، وجرت محاولات تجنيس التونسيين بالجنسية الفرنسية ، وفي المغرب صدر الظهير البربري عام ١٩٣٠ الذي استهدف إخراج القبائل البربرية المسلمة من حظيرة الشريعة الإسلامية ، وإلغاء العلوم التي تعلم باللغة العربية في مناطق القبائل ، والعمل على فصل البربر المسلمين عن العرب ، ووضع أنظمة خاصة بهم في القضاء والتعليم ، مستمدة من قوانينهم العرفية القديمة .

وفي مصر وعديد من بلاد الشرق اقتحم دعاة « البهائية » المجال وبشروا وأعلنوا وكتبوا في الصحف وأقاموا محافلهم ، وكذلك اندفع دعاة القاديانية في الهند الإسلامية وغيرها . وفي قلب أفريقيا تدفقت مختلف البعثات التبشيرية الكاثوليكية واليسوعية والبروتستانية : من السويد وانجلترا وألمانيا . وكانت خطة ( ولفنجستون ) هي دليل العمل حين قال : « إن نهاية الاكتشاف الجغرافي هي بداية العمل التبشيري » . وفي الهند ركز النفوذ الاستعماري البريطاني على الهند ، وأفسح للبعثات التبشيرية فيها منطلقا واسعاً . فقد وفد المبشرون إلى الهند قبل وصول بريطانيا . وفي ظل النفوذ البريطاني المتزايد أنشأ المبشرون في مختلف بلاد الهند المدارس والكليات والمستشفيات ، وأسسوا مراكز التبشير ، وترجموا التوراة إلى معظم لغات الهند ، ووزعوا منها الملايين من النسخ .

ونفذت البعثات التبشيرية منذ وقت مبكر الى فارس والاناضول والأستانة التي صارت منذ ١٨٤٦ مركزا عاما آمنا لاعمال المبشرين ، وفي الملايو توزعت البعثات التبشيرية ، وشغلت مختلف الانحاء وأولت هذه البعثات اهتمامها للساحل الشرقي من الجزيرة وإلى جاوة وسومطرة . وفي الصين بدأت بعثات التبشير عام ١٨١٣ حيث انتشر المبشرون والاطباء التابعون لهم في مختلف المدن .

وأولت حركة التبشير ( الجزيرة العربية ) اهتمامها الواسع جريا على ما قاله : وليم جيفرد بالكراف : متى توارى القرآن ومدينة مكة عن بلاد العرب حينئذ نرى العربي يتدرج في سبيل الحضارة التي لم يبعده عنها إلا محمد وكتابه . ولذلك فقد ركز التبشير على الجزيرة العربية ، وطمع في الوصول إلى مختلف أجزائها . ولذلك فقد استغل وجوده في البحرين وفي عدن لهذا العمل . كما وصلت بعثاته إلى البصرة والشيخ عثمان . واتخذ المبشرون من أطراف جزيرة العرب مراكز تمهد لهم سبيل التوغل داخل الجزيرة . كما أذاعت بعثات التبشير نداء حاراً عام ١٩٢٧ إلى مراكزها في أوربا تناشدها إرسال مبشرين إلى بلاد العرب حيث تشتد الحاجة إلى مائة مبشر . ومنذ وقت بعيد عمد التبشير إلى العمل في المملكة الفارسية ( إيران ) وكان التعليم التبشيري هو أبرز هذه المعالم . فقد أنشأت الارساليات مدارسها عام ١٨٨٢ في مختلف مدن إيران ( طهران ، ميناء بهلوي ، كرماشاه ، تبريز ، همدان ) وقد تم لهم شراء أراضي شاسعة خارج مدينة طهران حيث جرى العمل على إنشاء كلية ضخمة افتتحت عام ١٩٢٨ .

وقد ضمت البعثات جماعات النساطرة للايفاع بينهم وبين المسلمين والعرب ، وإيجاد فتن وملاحم دموية على نفس النسق الذي اتخذه النفوذ الاستعماري في لبنان بين الدروز والموارنة . وفي أندونيسيا غزا التبشير الجزر الالف ، وأعانته حكومة هولندا المسيطرة على مقدرات البلاد ، وأفسحت مجال الارساليات ، وأعمال التبشير الاخرى عن طريق المستشفيات والانقضاض على الطلاب والشبان .

***

وقد واجه المسلمون أعمال المبشرين في مختلف أنحاء العالم الإسلامي بالكشف عن مخططاته وإقامة الجمعيات الوطنية وإنشاء المدارس الاهلية ، والرد على الشبهات في مجتمعاتهم وصحفهم بالرغم من نفوذ الاستعمار الغاصب المؤيد للتبشير . وقد أشار إلى ذلك الدكتور سنوك حين قال : لا أعتقد أن الإسلام يسقط أمام النصرانية . لان المسلم محتاط أشد الاحتياط .

لمقاومة النفوذ الغربي المسيحي . وهو يرى ان النصرانية شيء مضى ، وأن تدينه بها هو خطوة إلى الوراء ، زد على ذلك أن الإسلام يربح تابعين له من الوثنيين ، فالذي يصير مسلما لا يطلب منه شيء كثير ، إذ لا يوجد تقديس ولا طقوس دينية ولا تعليم طويل : فكل ما يطلب منه أن يعترف بالله . وعند ما يصير مسلما يتغير مركزه الاجتماعي ، ولكنه إذا تنصر فإنه يبقى دون غيره ، ويظل المرسل الديني غريباً متنحيا عنه » .

***

وغاية القول في مخططات التبشير أنها بعد أن انكشفت اوراقها في أوائل الاربعينات قد حاولت أن تغير جلدها ، وأن تتحول عن أساليبها الاولى إلى أساليب جديدة أشد خفاءً ومكراً ، وربما لم تعد مظاهرها تبدو على السطح ، وهذا مما يؤكد خطورة العمل التبشيري الذي تحول الآن إلى ايدي عدد من أبناء البلاد الإسلامية من أتباعه وتلاميذه ، ويمكن أن يقال إن أخطر تحول في طريق التبشير ، إنما أدى إلى دعم حركة التغريب وحركة الشعوبية معاً .

أما وجود الخطر التبشيري فهو قائم ، وأما عمله فهو مستمر لم يتوقف ، وطالما يطمع الاستعمار في البقاء الطويل فإن عليه أن يقضي على عوامل القوة والمقاومة في العالم الإسلامي . ولما كان المسلمون والعرب يستمدون عوامل قوتهم ومقاومتهم من أسس فكرهم الإسلامي العربي ، فإنه يعمل دوماً لتحريف هذه الاسس وإثارة الشبهات حول هذه القيم والمفاهيم .

والحقيقة التي يجب أن تكون ماثلة في كل عقل ونفس ، هي أن النفوذ الاستعماري الذي ما تزال مصالحه قائمة في العالم الاسلامي والامة العربية ، إنما يريد استبقاء هذا النفوذ عن طريق تغريب الثقافة العربية والفكر الإسلامي ، وسلخ مقوماتها ، وإضفاء مقومات الفكر الغربي والثقافة الغربية عليهما بحيث ينتزع من هذه الامة مقدرتها النفسية والعقلية على مقاومته أو معارضته أو التخلف عنه ، وإحلال روح من التقبل والتشبع به

والصداقة له ، والدفاع عنه . بل والإعجـاب به ، هذه الـروح تحمـل في طياتها أيضا الغض من شأن التراث الإسلامـي واللغـة العـربية الإسـلامية والشريعة وإثارة الشبهات والاتهامات حولها جميعها . وهذا هو الذي تقوم به البعثات التبشيرية وإن غيرت جلدها .

## ( ٣ )

# الصهيونية

تمثل الصهيونية بعداً جديداً للاستعمار والغزو الغربي المتطلع الى السيطرة والنفوذ في العالم الاسلامي ، وهي بمخططاتها تمثل كياناً مستقلا من كيانات القوى الغازية ، وهي بتعاونها مع القوى الاستعمارية منبعثة منها اصلا تشكل اتحاداً مع النفوذ الاستعمار الغربي .

والصهيونية حركة يهودية قام بها اصحابها في مواجهة التحديات والاخطار التي واجهت اليهود في اوربا والاضطهاد الذي واجهوه في اجزاء كثيرة منها . وكان تطلع هذه الحركة الى ايجاد وطن قومي في اي بقعة من بقاع العالم للاقامة فيه والهجرة اليه .

وقد وجدت هذه الحركة تقبلا من النفوذ الاستعماري نفسه ، من ناحية لتكون عاملا معاوناً بخلق استعمار استيطاني ، ومن ناحية اخرى كان متقبلا من الغربيين للتخلص من النفوذ اليهودي باخراجه من اوربا .

وكان الاستعمار الانجليزي قد فكر وقدر في محاولة اقرار وجوده في العالم الاسلامي حين قرر عام ١٩٠٧ الى ان ايجاد حاجز بشري بين افريقيا وآسيا من شأنه ان يحول دون وحدة هذا العالم وتجمعه ، وقد تلقفت الصهيونية هذا القرار ، وطمعت في ان تحقق وجودها بالحصول على ارض فلسطين لتكون مقراً للدولة الصهيونية .

وقد عمدت بريطانيا في تبني مخطط وطن قومي في فلسطين تمهيداً لاقامة دولة صهيونية الى تحقيق عدة مزايا كان اهمها تغطية قناة السويس من الناحية الشرقية وحمايتها ضد حركات التحرر العربية ، فضلا عن كسب النفوذ اليهودي في العالم كله ، غير ان الصهيونية لم تلبث حين تقرر الاتفاق بينها وبين الاستعمار

على تحقيق مخطط السيطرة على فلسطين . ان اعلنت فلسفة مستمدة من الاساطير تتمثل في العودة الى فلسطين . ويتصل ذلك بوجود اليهود في فلسطين قبل ثلاثة عشر قرناً ، وحاولت الصهيونية ان تجعل من دخول اللورد اللنبي الى فلسطين ١٩١٨ وسيطرة الاستعمار على القدس مقدمة لسيطرتهم عليها ، وحاولت ان تجعل من بعض النصوص القديمة وسيلة لكسب المسيحية الى صفها .

وعمدت الصهيونية الى وضع مخطط واسع في سبيل اكساب وجودهم في فلسطين حقاً تاريخياً . وذلك بالتزوير في كتابات التاريخ ، ووضع الموسوعات والكتب باللغات المختلفة . وكذلك القصص المسرحية والسيمائية التي تحاول فرض نظريات جديدة ، قوامها القول بان اسرائيل هو الشعب المختار الذي واجه الاضطهاد على مدى التاريخ ، وان عظماء الفكر في العالم وكبار المكتشفين والباحثين في مختلف العلوم كانوا من اليهود ، واعلاء شأن الجنس اليهودي ، والدعوة الى السامية واعتبار كل من يقف في وجه حركتهم هو من اعداء السامية .

وقد استطاعت الصهيونية بوسائلها المختلفة ، واساليبها المتعددة ، وسيطرتها على الاسواق المالية والتجارة واجهزة الاعلام في مختلف انحاء العالم من ترديد هذه الدعاوى وفرضها على الفكر العربي ، وتزييف جذور هذا الفكر نفسه بالهجوم على المسيحية .

وكانت الحركة الماسونية قد سبقت الحركة اليهودية في سبيل تحقيق هدف عريض تسعى له اليهودية العالمية ، والسيطرة عليه ، واقامة الامبراطورية الصهيونية كوريثة للحضارة الغربية والانظمة الرأسمالية على السواء . وقد تكشفت هذه المخططات من خلال ما تسرب الى العالم من نصوص التلمود ، وما كشفت عنه بروتوكولات حكماء صهيون ، ويوميات هرتزل ، وعديد من الكتابات التي سمحت الصهيونية باذاعتها بعد الحرب العالمية الثانية ، وحاولت بها ان تكشف عن مخططاتها الخفية التي كانت سرية ومحاطة بقدر كبير من الكتمان .

وظهر عدد من المفكرين الصهيونيين امثال : اميل لدوفيج الذي حمل لواء مهاجمة البطولة وتعريتها ، واثبات ان جميع الابطال العالميين كانوا منحرفين ، وفرويد ودوركايم اللذين حملا لواء العمل على تدمير الشخصية الانسانية ، فعمد فرويد الى علم النفس محاولا اثبات ان الجنس واللذة والغريزة هي مصدر كل تصرفات الفرد . واعلن دوركايم عن ان نظام الاسرة ليس من الانظمة الطبيعية ، وان الاديان خرجت من الارض ولم تنزل من السماء ، وتولى كثيرون غير هؤلاء دعم المخططات التي استهدفت القضاء على مقومات الدين والاخلاق والمثل العليا في البشرية كلها تحقيقاً للمخطط الذي كشفت عنه بروتوكولات صهيون بالسيطرة على العالم بعد تدمير مقوماته . وتتصل بهذا حملات نيتشه وكيركجار دورنيان على المسيحية ، ورميها بابشع الاتهامات ، ودعوات الوجودية والانحلال والعبث واللامعقول وغيرها من الدعوات التي تغمر البشرية الان ، وتدفعها الى ان تقع فريسة سائغة في ايدي القوى الصهيونية العالمية . وقد كشفت كتابات كثيرة عن ابعاد المخطط الصهيوني في محاربة المسيحية والاسلام واخضاع الشعوب المختلفة في العالم .

وقد تكشفت في السنوات الاخيرة الصلة الوثيقة بين النظريات التي حملت الطابع العالمي سنوات طويلة ، وبين التراث اليهودي الصهيوني ، بما يؤكد ان هذه النظريات وخاصة « التحليل النفسي » قد استقت من نفس المنبع الذي استقت منه الحركة الصهيونية طاقتها وتوجيهها ، وان الحركتين سارتا معاً لكي تصلا آخر الامر الى غاية واحدة هي : الالتقاء بشعب الله المختار في ارض الميعاد[1] . وفي يقيني ان الكشف سيؤدي الى مثل هذا بالنسبة للوجودية وغيرها من الدعوات .

وقد قال الدكتور صبري جرجس : ان التحليل النفسي الذي ابتدعه فرويد مع ظهور الحركة الصهيونية منذ سبعين سنة لم يكن علماً مجرداً كما زعم ، ولكنه وثيق الصلة في جوانبه المرضية والحضارية معاً بالتفكير اليهودي الصهيوني الذي ظهر في التراث منذ عهد التوراة وما بعدها ، وانه من اجل ذلك سخرت

---

١ـدكتور صبري جرجس : التراث اليهودي الصهيوني .

الصهيونية اليهودية اجهزتها الاعلامية والدعائية لنشر مفاهيمه والدعوة له في اوسع نطاق مستطاع حتى اصبحت الفرويدة من اقوى العوامل اثراً في التوجيه الفكري والخلقي لعالم الغرب ، وقد ثبت ان فرويد كان يهودياً حقاً وعضواً عاملا في بعض المنظمات ، وصديقاً شخصياً لهرتزل ، وان العلاقة العضوية والمصلحية والمصيرية بين اليهودية والصهيونية ، والاستعمار الامبريالي من ناحية ، وبينها وبين التحليل النفسي الفرويدي من ناحية اخرى ، قد جعلت من الحركات الثلاث ثالوثاً قوامه العنصرية وروح الاستعلاء ، ووسيلة الافساد ، وهدم الاستقلال ، وبشكل تحدياً يواجه البشرية ومستقبلها .

( ٢ )

# الصهيونية واجهة المطامع اليهودية العالمية

في عام ١٨٩٧ أجمع المؤتمر الصهيوني الأول في مدينة بال بسويسرا برئاسة الدكتور تيودول هرتزل مؤلف كتاب « الدولة اليهودية ». وبذلك انتقلت الحركة اليهودية العالمية إلى مرحلتها الثانية . وقد اتجهت الحركة الصهيونية إلى العمل الفوري من أجل تحقيق هدفها ، فركزت على العمل في الدولة العثمانية عن طريق المحافل الماسونية التي كانت بؤرتها « مدينة سالونيك » حيث توجد جالية ( الدونمة ) المعروفة من اليهود الذين هاجروا من الأندلس بعد الاضطهاد ، واعلنوا اسلامهم ، وأقاموا في هذا الموقع الخطير .

ومن خلال المحافل الماسونية تأسس جزب الاتحاد والترقي الذي سيطر عليه اليهود ، وحولوه الى هدفهم الرامي الى تنكيس الدولة العثمانية وتمزيقها وايقاع الخلاف الدموي بين عنصريها العرب والترك . ومن ناحية اخرى فقد توجه الصهيونيون مرة الى السلطان عبد الحميد بمشروع قوامه السماح لهم بالاقامة في فلسطين في مقابل دعم الدولة ماليا بقرض قدره خمسة ملايين من الجنيهات ، وقد رفض السلطان هذا العرض صراحة حين قال : « انصحوا الدكتور هرتزل بالا يتخذ خطوات جديدة في هذا الموضوع ، اني لا استطيع ان اتخلى عن شبر واحد من الأرض ، فهي ليست ملك يميني ، بل ملك شعبي . لقد ناضل شعبي في سبيل هذه الأرض ورواها بدمه ، فليحتفظ اليهود بملايينهم ، واذا مزقت امبراطوريتي فلعلهم يستطيعون أنذاك ان يأخذوا فلسطين بلا ثمن . ولكن يجب أن لا يبدأ هذا التمزيق في جثتنا ، فاني لا أستطيع الموافقة على تشريح اجسادنا

ونحن على قيد الحياة . كان هذا العرض في الأغلب حوالي ١٩٠٢ مقدمة لاسقاط الخليفة عام ١٩٠٩ بعد انقلاب الاتحاديين عام ١٩٠٨ . هذا الانقلاب الذي هلل له المسلمون جميعاً ظنا منهم انه فاتحة التحرر بالدستور الذي اعلن في أوائل حكم الاتحاديين .

ويكفي في الكشف عن هذه الصفحة أن ننشر ما نقلته مجلة المشرق اليسوعية عام ١٨٩٥ عن مجلة الكلمة عن علاقة اليهود بدستور المملكة العثمانية كاشفةعن نفوذ اليهود في تركيا منذ إعلان الدستور ، قالت نقلا عن مجلة الكلمة : « إن الدستور العثماني ككل دستور آخر خطته يد الماسونية ( يقصد دستور الثورة الفرنسية ) « حرية . اخاء . مساواة » وقد منح اليهود حق المساواة فلم يلبث اليهود في تركيا أن اخذوا يظهرون لدى الملأ ماذا يعنون بهذه المساواة . فقبل كل شيء انسلوا إلى اعلى الوظائف في المملكة ، ثم لم يمض وقت طويل حتى ظهر أن مديري دفة جمعية تركيا الفتاة ( المنبثقة عن حزب الاتحاد والترقي ) هم يهود اما الحاخام باشي او رئيس الحاخامات في الآستانة ، ففي يوم الاحتفال بمرور سنة على اعلان الدستور في المملكة العثمانية اخذ من شدة فرحه بالحرية الدستورية وعظم تعصبه للنصرانية يدوس برجليه أوراقاً منتزعة من الكتاب المقدس . وبوجه الاجمال ، فان اعلان الدستور في تركيا قد ملأ قلوب بني اسرائيل اجمعين فرحا عظيما بهذا المقدار حتى انهم اصبحوا كالسكارى لاهمّ لهم الا الانتقام في السر والجهر من اخوتهم النصارى ، فأخذوا بواسطة اعوانهم لدى الباب العالي ينثرون كامن البغض بين الأتراك المسلمين وبين سائر الشعوب المسيحية في المملكة العثمانية ، وكلما رأوا نيران هذا البغض بين الطرفين تكاد ان تخمد اوارها بادروا وزادوها وقودا . ومما يؤ يد لنا هذه الحقيقة هو ان جريدة التيمس الانجليزية احدى الجرائد المشهورة بمالأتها لليهود واليهودية ، رأت من واجبها أن تذكر اليهود بالدور الذي كانوا يلعبونه دوما في تهييج المسلمين ضد النصارى وباشتراكهم مع الأولين في ذبح الآخرين ، وكفى مذابح سوريا ومذابح الاستانة ، ولا سيما مذابح ادنة ونواحيها ، وتذكرهم ـ اي جريدة التيمس ـ بما استفاده اليهود من وراء هذه المذابح الاخيرة ، وهو أن اراضي الذين ذبحوا او هربوا من الارض قد استملكها احد اليهود المسيحيين جاربل ـ واسكنها يهوذا

من روسيا . وأشارت الجريدة إلى ان جمعية تركيا الفتاة التي أحست من جراء استلامها للنفوذ الأجنبي مكروهة في أكثر انحاء المملكة العثمانية . وهذا ما جعل جريدة التيمس الانجليزية تبادر الى تحذير اليهود في كل مكان ، ولا سيما في تركيا من وخامة عواقب استعجالهم في التظاهر باماَنيهم اليهودية » أ هـ .

***

في هذه المرحلة تحالفت الصهيونية مع الاستعمار بفلسفة واضحة مخططة قوامها استعادة بناء هيكل سليمان . ووجد الاستعمار في المخطط الصهيوني عاملا هاما في طريق تحقيق وجوده وضغطه على العالم الاسلامي ، وذلك باقامة احتلال استيطاني اخطر اثرا من الاحتلال العسكري والسياسي في بقعة من ادق بقاع العالم الاسلامي ، قلب الأمة العربية : فلسطين .

ولذلك فقد بدأ تحرك النفوذ الاجنبي وقوامه ( فرنسا وانجلترا وروسيا ) مع الحركة الصهيونية في سبيل تمزيق الوحدة الاسلامية الكبرى ( العربية التركية ) الممثلة في واجهة المقاومة : الدولة العثمانية .

وكان الاتحاديون ثمرة المحافل الماسونية في سالونيك اخطر قوة في سبيل تحقيق هذه الغاية في الفترة منذ اسقاط عبد الحميد عام ١٩٠٩ إلى انتهاء الحرب العالمية الاولى عام ١٩١٨ حين امكن التمهيد الكامل لصدور وعد بلفور ، وبدء اقامة كيان صهيوني يهودي في قلب فلسطين . فقد بدأت الصهيونية في حملتها مع الدول العثمانية الى الاغراء فالتآمر ، ثم استغلت قوة داخلية تركية اساسية لهدم الدولة ، بعد أن ازاحت السلطان عبد الحميد الذي استطاعت الصهيونية العالمية بالاشتراك مع الاستعمار ان ترميه بكل نقيصة في محاولة اظهاره للمسلمين في ابشع صورة ، بعد أن استطاع خلال اربعين عاما ان يشغل اوربا بمشاكلها الخاصة ، وان يحبط مؤامراتها وذلك برفع لواء الوحدة الاسلامية . وقد حاول سفير بلغاريا في الآستانة أن يؤلب الدول الأوربية على عبد الحميد حين قال : إنه من طراز محمد الفاتح الذي سبق له ان طرق بجيوشه أبواب اوربا . وان عبد الحميد يهدف الى اعادة عظمة الدولة واعادة مجد المسلمين ، فعليكم تناسي خلافاتكم ومعرفة أي شخصية تواجهون . والمعروف في هذا الصدد أن السلطان عبد

الحميد حين رفع علم الجامعة الاسلامية ، واستقدم جمال الدين الأفغاني انما كان يحاول ان يتخذ خطة غاية في القوة والبراعة ، لولا أن عجل النفوذ الاستعماري والصهيونية بالقضاء عليه ، كانت خطته هي محاولة تعريب الخلافة وايجاد الكيان العربي في قلب الدول الاسلامية نفسها ، وكان هذا العمل من اخطر ما تنبه إليه الاتحاديون والماسونيون وخشوا اثره لو تحقق . والواقع أن عبد الحميد كان بسبيل احياء سنة السلطان سليم بتعريب الديوان ، وجعل اللغة العربية اللغة الرسمية للدولة ، ثم السعي لتعريب الخلافة نفسها وصرفها عن الأتراك المحدثين[1] . ويرجع ذلك في نظر الكثيرين إلى أرومته العربية التي يرتبط بوشائجها عن امة الهاشمية . والمعروف ان الدونمة في مدينة سالونيك المجاورة لليونان حيث مقر المحافل الماسونية ، ومراكز الاتحاديين . كانت منطلق حركة خلع عبد الحميد ، كما انطلق منها بعد ذلك بسنوات اولئك الذين حملوا لواء الغاء الخلافة . وكان واحد من الثلاثة الذين حملوا للخليفة وثيقة التنازل هو احد الذين حملوا اليه وثيقة الصهيونية في القرض اليهودي نظير سماحه بدخول فلسطين كان معنى هذا واضحا . ان الصهيونية قد استطاعت ان تزيل من طريقها اخطر عدو لها .

***

وكان تيودور هرتزل في كتابه « الحل الصهيوني » الصادر عام ١٨٩٥ . ثم في المؤتمر الصهيوني العالمي عام ١٨٩٧ قد رأى ان تكون فلسطين ارض الدولة اليهودية ، ثم عقد المؤتمر الصهيوني مرة أخرى عام ١٩٠٨ . وأصر على ان تكون فلسطين ارض الميعاد هي مقر الدولة اليهودية . فلما تحقق الانقلاب التركي انفتح باب الأمل أمام الصهيونية في فلسطين ، وقد عاونت الماسونية الاتحاديين في خلع السلطان عبد الحميد عن طريق خطة الزحف على العالم بقيادة ضابط مسلم عربي هو : محمود شوكت ومعه عارف حكمة ، وقارصوه اليهودي وحين ولى الاتحاديون السلطان محمد رشاد . كان نفوذ الاتحاديين والصهيونية والماسونية قد قرر كل شيء بالنسبة لتمزيق وحدة الأتراك والعرب عن طريق اخطر رجالهم :

---

١ـ مصطفى البدوي : عن كتابه الامام مصطفى صادق الرافعي عن المنار ( رشيد رضا ) حـ ٦ م المحرم ١٣١٨ ـ نسان ١٩٠٠ .

احمد جمال الدين باشا .

وقد أثبتت عشرات المصادر أن الماسونية كانوا يؤلفون القسم الاعظم من افراد جمعية الاتحاد والترقي وانه كانت لهم اليد الطولى فيما أصاب الدولة ، ثم في قيادة حركة الجامعة الطورانية وتتريك العناصر العربية ، وانهم ابعدوا العناصر العربية عن جمعية الاتحاد تحرزا من كشف مخططهم ، وكانت اخطر اعمالهم شنق الأحرار العرب لايجاد خصومة دموية تقطع كل امل في الالتقاء بين العنصرين ، وارغام الدولة العثمانية على دخول الحرب الى جانب الالمان ، فلما انهزمت تركيا بانهزام الالمان تحقق كل شيء للنفوذ الاستعماري واليهود معاً .

١ ـ القضاء على الدولة العثمانية .
٢ ـ تقسيم الاجزاء العربية بين فرنسا وانجلترا .
٣ ـ صدور وعد بلفور باقامة الدولة اليهودية .
٤ ـ تحويل الدولة العثمانية الى دولة تركية قومية علمانية ، معادية للاسلام ، واللغة العربية .

ثم كان للماسونية الصهيونية بالاشتراك مع النفوذ الأجنبي تحقق اخطر خطوات تمزيق الوحدة الاسلامية ، وهي اسقاط الخلافة ، فهم الذين حرضوا مصطفى كمال الذي تدل كثير من الدلائل على انه كان من دونمة سالونيك ، وانه كان من أخطر رجال الماسونية والاتحاديين ، ومما يذكر في هذا الصدد أن معاهدة لوزان قد رافقها مقررات سرية كانت تحتم اسقاط الخلافة العثمانية والغاء وجه تركيا الاسلامي العربي .

## ( ٣ )

ما هو الخطر الذي واجه العالم الاسلامي ويواجهه نتيجة للحركة الصهيونية ، وانشاء اسرائيل في فلسطين قلب الوطن الغربي .

الواقع أن الصهيونية كانت تحديا جديداً للعالم الاسلامي أصبح مع مرور الأيام اشد خطراً من الاستعمار نفسه . بعد أن قطع المسلمون مراحل طويلة في مقاومة الاستعمار نفسه والادالة منه ، وتحقيق جانب من الانتصار عليه ، وهو إنهاء الاحتلال العسكري من أغلب أجزاء العالم الاسلامي ، وإن بقي الاستعمار الاقتصادي والثقافي مسيطراً ، ولكنه في طريق المواجهة والمقاومة . أما الاحتلال الصهيوني لفلسطين ، فقد أخذ صورة اكثر عنفا من الاستعمار نفسه ، فهو استعمار استيطاني من نوع أشد خطورة . ففي بعض مناطق العالم الاسلامي عمد الاستعمار الى تحقيق الاستعمار الاستيطاني . وذلك باستقدام مجموعات من الأجانب للاقامة في الأوطان المستعمرة ( كما فعل الاستعمار الفرنسي في الجزائر ) ولكن الاستعمار الصهيوني يختلف عن ذلك ، ويتميز بأنه كان أشد ضراوة ، لأنه عمد إلى طرد الشعب الأصيل ليحل هو محله . ولم يقف الأمر عند هذا الحد ، بل إن الصهيونية عمدت إلى الاعلان عن مخطط واسع لبناء امبراطورية كبرى يجري تنفيذها من النيل الى الفرات ، مرت في مراحل مختلفة كان في مقدمتها وعد بلفور ١٩١٧ وانشاء الدولة الاسرائيلية عام ١٩٤٧ متعدية الحدود التى رسمها قرار التقسيم الذي رفضه العرب ، ثم التوسع الجديد الذى وقع ١٩٦٧ بضم القدس والضفة الغربية وصحراء سيناء وهضبة الجولان .

هذا هو الخطر الذي واجه العالم الاسلامي منذ خمسين عاما . وإن لم تؤثر تحدياته في هذا الوطن كله الا في السنوات الأخيرة بعد سيطرة اليهود على القدس ، وانتزاعها من المسلمين والعرب بعد أكثر من ألف عام ، عندما انتزعها

الصليبيون ، واستردها صلاح الدين ، ويبدو أن الخطر الصهيوني الذي كان يمثل تحديا للأمة العربية وحدها إلى ما قبل ١٩٦٧ قد أصبح اليوم خطرا أشد ضراوة بالنسبة للعالم الاسلامي كله ، إذا ما وضعنا في اعتبارنا التوسع الاقتصادي الذي تقوم به اسرائيل في قلب افريقيا وسيطرتها على عرض الدول الاسلامية ، وذلك عن طريق النفوذ الاستعماري الذي يفسح لها المجال في كل مكان . وهذا هو مصدر الخطر الذي يواجه العالم الاسلامي ، حيث ينسحب الاستعمار التقليدي اليوم من مناطق كثيرة في نفس الوقت الذي يتسع فيه نفوذ اسرائيل كبديل له اشد خطورة واعمق اثراً . ولقد كان الاستعمار يرى في اسرائيل منذ انشائها قاعدة لاستمرار سيطرته على العالم الاسلامي ، وكانت بريطانيا وأمريكا من بعدها ترى في الصهيونية بديلا من الاستعمار الذي انتهى عهده ، ووسيلة لاستمرار رسالتها الاستعمارية ، والسيطرة الاقتصادية والثقافية على اخطر اجزاء العالم الاسلامي ، ولا سيما منطقة قناة السويس الاستراتيجية والقدس التي يتمثل فيها نفوذ الأديان الثلاثة ( الاسلام والمسيحية واليهودية ) . وهذا ما عبر عنه السياسي البريطاني اميري حين قال : « إن بريطانيا قد تأكد لديها أنه لن يحمي مصالحها في الشرق الاوسط سوى إنشاء دولة صهيونية في فلسطين » .

غير أننا إذا القينا نظرة عميقة على أثر الحركة الصهيونية وقيام اسرائيل في العالم الاسلامي والأمة العربية . نرى أن فلسطين كانت بؤرة الانتفاضة العربية الاسلامية ، فهي في مفهوم العرب والمسلمين الحملة الصليبية التاسعة على العالم الاسلامي ، او امتداد لهذه الحملات لتحقيق أهداف بعيدة المدى أهمها :

أن تكون مركز انقضاض للاستعمار على العالم العربي ، وبها يتحقق بقاء التجزئة او الاقليمية وعزل الجناح الاسيوي ، وابادة شعب فلسطين العربي والاستيلاء على أرضه .

وليس أدل على الترابط بين الحروب الصليبية والغزو الاستعماري الحديث ، والسيطرة على فلسطين من تصريح اللورد اللنبي الانجليزي الذي قال حين دخل القدس : اليوم انتهت الحروب الصليبية ، وقول الجنرال غورو الفرنسي حين دخل دمشق : ها نحن قد عدنا باصلاح الدين ـ وبذلك جدد الاستعمار الرابطة

بين وعد بلفور وبين الحروب الصليبية التي انتهت من ثمانمائة عام .

وكان قيام اسرائيل في قلب العالم الاسلامي والوطن العربي مصدر صدمة يقظة عارمة حتى يمكن القول بأنها ( بؤرة الانتفاضة ) التي عرفها عصرنا الحديث . وقد أرادها الاستعمار مؤامرة للقضاء على الأمة العربية وتمزيقها وتحقيق ما عجز عنه في الفترة التي بدأت منذ صراعه مع العرب .

ولقد حرصت بريطانيا ان تعد فلسطين لاقامة الدولة اليهودية منذ اليوم الأول لانتدابها . ولكن العرب لم يستسلموا بالسهولة التي كانوا يتصورونها ، وقد سجل ذلك ( وايزمان ) في مذكراته حين قال : إن المقاومة الفلسطينية العنيفة اخرت تنفيذ البرنامج اليهودي في فلسطين إلى عام ١٩٤٨ بينما كان مقرراً أن يتحقق ذلك عام ١٩٣٤ على الأكثر .

وبالرغم من أساليب التعسف والضغط وحرق القرى الكاملة ، فانه في خلال ثلاثين عاماً ( ١٩١٨ ـ ١٩٤٨ ) لم ينتزع من العرب الا ٦,٥٠ في المائة من مجموع الاراضي . وقد قاوم العرب في فلسطين مقاومة فعالة باسلة طوال الفترة منذ صدور وعد بلفور حتى قيام اسرائيل بالغدر دون توقف ولا تردد في تقديم التضحية بالمال والدم . غير أن النفوذ الاستعماري الحريص على قيام اسرائيل في قلب العالم الاسلامي قد حقق هذا الهدف بالغدر والقوة ، والاسلحة والخبراء ، عندما أعلن مجلس الامن قراره بتقسيم اسرائيلَ الى دولتين عام ١٩٤٧ وعندما استولت اسرائيل على فلسطين كلها عام ١٩٤٨ .

هنالك بدأت يقظة فكرية سياسية بعيدة المدى في العالم العربي كله عمدت إلى تعميق هذا الخطر ومواجهته ، حيث علت كلمة القومية العربية ، وجربت خطوات الى الوحدة ، وبدأ أن المعركة مع الوجود الاسرائيلي هي معركة حياة او موت ، غير ان الموقف قد زاد تعقيداً عندما أيد الاستعمار بكل قوته بقاء اسرائيل وعمل على دعمها وبعد أن ضعف نفوذ بريطانيا في المنطقة استطاع نفوذ الولايات المتحدة الذي حل محلها أن يقوم بدور التأييد والدعم لاسرائيل ، وما تزال فلسطين والاحتلال الاسرائيلي والحركة الصهيونية من ورائها هي اخطر تحد يواجه العالم الاسلامي والأمة العربية ، وما تزال فلسطين وبيت المقدس هي بؤرة الخطر الذي يدعو الى التجمع والمواجهة .

## ( ٤ )

# الحركات الهدامة

## ودعوات تغيير مفاهيم الإسلام

واجه العالم الإسلامي حركتين فكريتين : ( أولى ) هاتين الحركتين ، هي حركة اليقظة التي حمل لواءها دعاة التوحيد والسنوسية والمهدوية ، وكما حمل لواءها جمال الدين الافغاني وعصبرنسكي والكواكبي وسيد أمير علي وشبلي النعماني والالوسي والمراغي وإقبال ومحب الدين الخطيب ، وحركة المنار والشبان المسلمين في مصر والمحمدية في أندونيسيا ، وحركة العلماء وندوة العلماء في الهند الإسلامية .

هذه الحركة الإسلامية الاصيلة التي بدأت من نقطة « التوحيد » وعملت على بعث مفهوم الإسلام الصحيح دينا ونظام مجتمع لا ينفصل ، والتي أحيت القيم الإسلامية في الاجتماع والتشريع والسياسة والاقتصاد والتربية وجدت مفهوما على النحو الذي عرفه السلف الصالح ، مستمدة روحها من القرآن الكريم والسنة النبوية الصحيحة أصلا . هذه الحركة كان يمكن أن تصل إلى نتائج جد خطيرة في بناء يقظة عالم الإسلام في دعوتها إلى الجامعة الإسلامية ، وربط الدين بالمجتمع ، وإقامة أنظمة متجددة في مختلف المجالات لها قاعدتها وجذورها المستمدة من الإسلام أساسا ، لولا أن النفوذ الاستعماري واجهها بحركة أخرى جد عنيفة وخطيرة أيدها بنفوذه السياسي والعسكري ، وأتاح لها من المؤسسات والاساليب والقوى ما دفعها إلى مكان الصدارة في الجامعة والمدرسة والصحافة والثقافة ، وساند دعاتها وأنصارها بأن أسند إليهم كبريات لمناصب في القيادات السياسية والفكرية والاجتماعية ، بينها عزل قيادات الحركة الإسلامية الأصيلة ونحاها وجمدها في الظل حتى لا تكون ذات فعالية . ومع ذلك فقد ظلت حركة اليقظة الإسلامية المبعدة عن مكان الصدارة من النفوذ الاستعماري أشد قوة

بشعبيتها . وقد استطاعت بصحفها المتواضعة ، ومنابرها القليلة أن توقف نمو حركة التغريب والشعوبية ، وأن تقيد كل خطر من أخطارها ، وأن تهز الدنيا بصوتها في مواجهة حركات الاستعمار التغريبية التي قصد بها إلى القضاء على الرأي العام الإسلامي في مثل حركات التبشير في مصر والسودان ، والتجنيس في تونس ، والظهير البربري في المغرب ، ودعوات الفرعونية في مصر ، والفينيقية في لبنان ، والبربرية في المغرب .

وبالرغم من أن الاستعمار استعان بعناصر الاقليات وقوى الطائفية على إقصاء المسلمين عن التعليم والثقافة والقيادة وتقديم غيرهم ، فقط استطاع المسلمون أن يواجهوا حركة الغزو الثقافي والاستعمار الفكري والتغريبي والشعوبية بقوة ، وأن يكشفوا حركاتها ، وأن يفضحوها في كل خطوة ، وأن يحذروا منها جموع المسلمين وقد انكشفت خطط المستعمر إلى أسلوب جديدودعوة جديدة وخداع جديد .

أما الحركة الثانية فكانت تمثل تحديات النفوذ الاستعماري مجتمعة في صورة دعوات اتصلت بالدين أو بالجنس أو بالقومية ، واستغلت نصوصاً قديمة انطوت صفحتها من أجل تعميق الخلافات وإثارة الشبهات ، وخلق أحزاب فكرية جديدة متضاربة . بل وأيقظت خلافات قديمة كانت قد ماتت فعلاً ، وذلك حتى تحول دون التقاء العالم الإسلامي على وحدة فكر .

وكانت أبرز هذه الحركات الهدامة : في مجال الشعوبية والإلحاد والاباحة ، والدهرية ، وأخطر هذه المؤسسات : الماسونية ، وإرساليات التبشير ، وأخطر الدعوات : البهائية ودعوات الإقليمية الضيقة ، والحركات ذات الطابع الإسلامي مظهراً ، والتي تحمل مفهوما منحرفا أو مضللا كالقاديانية . وكانت هناك قوى لها طابع أشد قوة وخطراً تحمل لواء مثل هذه الحركات الهدامة ، كما حدث في تركيا وأفغانستان وإيران وغيرها من بلاد العالم الإسلامي . وبرزت وراء هذه الحركات أسماء دعاة وقادة أمثال : الباب والبهاء ، ومنها : غلام أحمد ، وضياء كوك ألب وطه حسين وسلامة موسى وأنطون سعادة .

ولقد كانت مثل هذه الحركات أمام الرأي العام الإسلامي ، وليست في حاجة

إلى من يكشف عن مخالفتها الصريحة لمفهوم الإسلام ومعارضتها الواضحة لخطر حركة اليقظة الإسلامية الممتد من الإمام محمد بن عبد الوهاب إلى حركات الجماعات الإسلامية : الشبان المسلمين في مصر والمحمدية في أندونيسيا وندوة لكنو في الهند الإسلامية وحركة السلفية في المغرب وجمعية العلماء في الجزائر .

ولكن كان هناك ما هو متداخل المظهر يحمل الخطر في أعماقه وفي ظاهره يحمل اسم الإسلام مثل الدعوة القاديانية التي وإن كان امتدادها في أحمدية لاهود قد تحول تحولا عن دعوة غلام أحمد ، غير أنه ما زال في حاجة إلى مزيد من الارتباط بمفهوم الإسلام ارتباطا كاملاً .

وقد حاولت دعوات الإقليمية الضيقة ، والدعوات القومية غير ذات المنابع والقيادات الإسلامية أن تفصل العروبة عن الإسلام ، أو تفصل قطراً من الاقطار عن باقي أجزائه العربية أو اخوته الإسلامية ، كالدعوات التي ظهرت في أوائل القرن وحملت شعاراً براق المظهر ، ولكنه يخفي الخطر كدعوات مصر للمصريين ، وسوريا للسوريين ، والسودان للسودانيين ، وتركيا للأتراك . هذه الدعوات وفي مقدتها دعوة حزب الامة في مصر ، الذي رسم المخطط الاساسي للقومية الضعيفة ، إنما كانت تهدف إلى أمرين :

١ ـ الانفصال بمصر « جغرافيا وسياسيا » عن كيانها : العربي والإسلامي في رابطتها بالأمة العربية ، وفي رابطتها بدولة الخلافة والدول الاسلامية

٢ ـ الانفصال بمصر فكريا وروحيا عن كيانها الفكري الإسلامي ، وعن الثقافة العربية ذات الجذور الممتدة بتاريخ الإسلام واللغة العربية ، والفكر الإسلامي في مجالاته المختلفة : الاقتصادية والاجتماعية والسياسية والتربوية ، والاعتماد على مفاهيم الفكر الغربي الخالص ، ذات الجذور المرتبطة بسان سيمون والحريين والليبريين منفصلة تماما عن جذور الفكر الإسلامي في الثقافة والتربية ، والاجتماع . ويمثل لطفي السيد في كتاباته التي حملتها الجريدة : لسان حال حزب الامة منذ ( ١٩٠٧ ـ ١٩١٤ ) مضمون هذه الفلسفة الإقليمية البالغة الضيق والتعصب والتجمد داخل المصرية والمنفصلة عن أبعادها السياسية والتاريخية واللغة والإسلام . وظهرت دعوات تحاول أن تجزىء وحدة وتكامل أرضية الفكر

الإسلامي للاوطـان الإسـلامية . هذه الدعـوات الجـزئية : التـي حملـت لو
التولستوية والغاندية . ومن هذه دعوة الانفصال بين الربط الجذري والتك ي
العضوي بين جوانب الاسلام المختلفة خدمة للنفوذ الاستعماري بحجب مفهوم الجهاد في الاسلام ، أو إبراز مفهـوم السـلام فيه على نحـو يختلف عن تكامـل الإسلام في الجمع بين السلام والجهاد في منطق واحد . ومـن هذا ما دعـا إليه أمثال : علي عبد الرازق ، أو ما دعا إليه غيره من الفصل بين الدين والضمير . أو ما حاوله الآخرون من إعلاء آراء السلام الذي جمـع بـين المسيحية وتولستـوي وغاندي بحسبانه مذهبا يصلح للفكر الاسلامـي ويحـرره من مفهـوم الإسـلام المتكامل : سلاماً وجهاداً وربطا بين الدين والمجتمع ، وبين الروح والعقل ، وبين الإخاء الإنساني ومقاومة الغزو الاجنبي والنفوذ الاستعماري . وقد حملت معظم هذه الدعوات لواء العداء للإسلام في جانب من جوانبها ، كما حاولت في إعلاء جانب له ، وتعطيل جانب آخر .

ولقد كانت البهائية والقاديانية من أخطر هذه الدعوات ، ولقد تلقفها النفوذ الاستعماري الذي دفعها أساساً وأوجد لها كياناً هاماً ، وأذاع بها ، وخلـق لهـا أنصاراً ، حتى أن الاستاذ العقاد أضاف حركة البهائية والقـاديانية إلى دعـوات الإصلاح والتجديد فيه ، وضمها إلى الوهابية والسنوسية وحركات جمال الدين ومحمد عبده وأحمد محمد المهدي ، بينما غفل عن مخاطر هاتين الدعوتين ، ومـن الحق أن يقال إن هذه الدعوات كانت تعمل لتغريب الإسلام أولتمسيحه ونقض الجانب الكفاحي له ، وإعلاء جانب السلام والرحمة على نحو يجهلـه الإسـلام نفسه ، وكان هذا العمل لحساب النفوذ الاجنبي والاسـتعمار الـذي يعـرف أن الإسلام يغذي في المؤمنين به الايمان بالدفاع عن أوطانهم وحرياتهم وأعراضهم حتى يموتوا شهداء في سبيلها ، وهو الخطر الذي يواجهه النفوذ الاجنبي ، والذي يحول دون تسويد الاستعمار وتحويله إلى مودة وصداقة وموالاة من جانب العالم الإسلامي .

كانت هذه الدعوات وفي مقدمتها : البهـائية وهـي ترمـي إلى توحيد الآديان والقاديانية التي تنقض الجانب الكفاحي في الإسلام ، إنما تهدف جميعا إلى محاولة تغيير مفاهيم الإسلام والقضاء على فريضة أسـاسية في الإسـلام هي : الجهـاد

والكفاح ضد المستعمر ، ونزع الجانب الاعلى الذي يتميز به الإسلام عن غيره من الأديان . فالإسلام دين ونظام مجتمع ، كما تدعو إلى تمسيح الإسلام وإعطائه طابعاً من الهوادة بحيث يجعله يتقبل النفوذ الاستعماري ، ويرضى به كأنما هو قدر مقدور .

وإذا كان غاندي أو تولستوي قد حمل لواء هذه الدعوة ، فإنما كان ذلك في مواجهة تحديات تختلف عن الخطر الاستعماري الجارف الذي اكتسح عالم الإسلام ، كما تتعارض أصلا مع مقومات الإسلام الذي يحمل دوماً في جوهر مفاهيمه عنصر المقاومة والجهاد للغزاة والمغيرين والمحتلين والمستعمرين . والحيلولة دون انصهار المسلمين في غيرهم ، أو القضاء على شخصيتهم الاساسية الجامعة بين الروح والقلب والدين والعلم والدنيا والآخرة ، وقوامها التوحيد الخالص . ومن هنا كانت دعوة التجديد أو العلمانية أو تحرير الفكر إنما تحاول أن ترمي هذا المفهوم بأنه تعصب ؛ وكان مفهوم تسامحها وتحررها إنما يهدف إلى تقبل الاستعمار الغربي تقبل الرضا والإعجاب والتقدير والموالاة ، وممالأة النفوذ الاجنبي ، ولم يكن ذلك ممكناً إلا بتغيير أصل جذري أصيل في مفهوم الإسلام وهو إلغاء « باب الجهاد » . ولذلك فقد كانت الدعوة إلى التماس مفهوم الإسلام الاصيل المستمد من القرآن الكريم هي عامل المقاومة الاكبر للنفوذ الاجنبي والتغريب .

١

# ( ١ )

## البهائية

ظهرت البهائية في ايران ، والقاديانية في الهند .

اما البهائية فتجمعت فيها جوامع الباطنية والحلول والاتحاد وآراء الشيعة الغالبة وفلسفات الوثنية واليهودية والمسيحية واساطيرها ومزيج من آثار التنجيم والتأويلات ، وقد برزت في ثوبين : ثوب البابية ، ثم ثوب البهائية الذي استوت اليه .

ظهر ميرزا علي محمد ( الباب ) عام ١٨٤٢ .

وقتل الباب عام ١٨٥٠ بعد ان أثار فتنة كبرى ، وثورة عامة في زنجان ومازندوان وتبريز من اعمال فارس ، ولم يترك الباب منهجاً اصلاحياً ، وانما ترك كتاباً عرض فيه لبعض نظريات العقائد وقضايا الباطنية ، وفرائض البابية ركعتان في الصباح ، والكعبة عندهم في مسجد شيراز ، وصوم شهر من آخر نزول الشمس ببرج الحوت .

ثم انقسمت البابية الى رجلين من خلفائه : صبح ازل وعرف اتباعه باسم ازلية ، وميرزا حسين الملقب بالبهاء ، ومات بهاء الله عام ١٨٩٢ مخلفاً في زعامته عباس البهاء الذي تبناه الاستعمار البريطاني ، واتاح له الفرصة لاذاعة آرائه منذ سنة ١٩١١ في كل مكان ، واقام في القدس فترة ، ثم زار مصر ، وزار امريكا واوربا . ومات في نوفمبر سنة ١٩٢١ . وخطب في كثير من الكنائس والمعاهد العلمية ، ودعا الى توحيد العالم البشري ، وترك العصبيات المذهبية والجنسية والسياسية ، وبين ان مطالب الرسل واحدة . وقد منحته الحكومة البريطانية لقب « سير » شكراً له على ما ابداه من الكرم والاكرام للجنود البريطانية خلال الحرب . وقد احتفل بدفنه السير هربرت صمويل المندوب

السامي البريطاني لفلسطين . ( اليهودي الاصل ) ويمكن ان يقال ان هذه الدعوة في بلادها ربما كانت لها بواعثها واهدافها التي قصد الى تشجيعها النفوذ الاستعماري في ايران ، او مما يتصل بالعقائد والدعوات السارية في بلاد الفرس ، ولكن براعة النفوذ الاستعماري كانت قادرة على الاعلان بها واذاعتها والاستفادة بها في مختلف انحاء العالم الاسلامي لاثارة الشكوك في النفوس .

وقد حملت الصحف المصرية ـ في هذه الفترة ـ لواء التبشيرية . فتحدثت عنه طويلا ، واهتمت به اهتماماً كبيراً ، وأطالت عرض مذهبه ودعوته ( المجلة الجديدة . والهلال . والمصور ) واستمرت الاهرام زمناً طويلا تكتب عنه . وترجمت عدداً من المؤلفات المختلفة عنه . وحملت الصحف تفاصيل كاملة عن مبادىء المذهب البهائي ، ودعت الناس اليه بحسبانه آخر الاديان واسلمها وابعدها عن خلافات الاديان واضطهادها . وكشفت الصحف وكتابها عن موالاة لهذه الدعوة وامل في ان تجتاح الاسلام وتغري اهله بالدخول فيها . وقال سلامة موسى : ان هذا الدين اي البهائية يختلف عن المسيحية واليهودية حيث لم يقتل احداً من مخالفيه ، لان مبادئه تدعو قبل كل شيء الى السلام . قال : ونحن نحب ان يلقى هذا الدين تأييداً في مصر حتى ينتشر بين الطبقات التي لا تجد من الاديان السائدة او من الاداب والعلوم ما يقنع نفوسها . وفي الدعوة الى البهائية كبت للتعصب ودعوة الى اخاء البشر . وان البهائية تنزل على حاجة العصر الحاضر الذي يكره تعدد الاديان ، وما يجلب من مخالفة بعضها البعض من تحزبات وتعصب ( المجلة الجديدة فبراير ١٩٣٠ ) .

وكذلك كتب اسماعيل مظهر في مجلته « العصور » عن البابية والبهائية ، وعباس افندي ، ثم فصل مبادىء المذهب البهائي ، وكتب في ذلك عباس العقاد ، وعمر عنايت ، والدكتور صروف ، ورددوا ادعاءات البهائية في القول بوحدة العالم الانساني ، وان اساس الاديان واحد ، وانها جماع المسيحية واليهودية والاسلام ، وتوحيد لغات العالم ، ومساواة الرجل بالمرأة ، ونبذ العصبيات ، وانها محاولة لاتحاد الشرق والغرب والاديان والاجناس وزوال الحرب :

وقد اعلنت مجلة المقتطف ١٩٠٠ عن اول كتاب عن البهائية ( الدرر البهائية ) وقال فيه بانكار كون القرآن معجزاً ببلاغته وفصاحته ، وفيه تأويل آيات القرآن على ما ينطبق على بدعتهم . ولم يتوقف دعاة اليقظة الاسلامية عن مواجهة هذه الحملة التي كانت تهدف اساساً الى مهاجمة الاسلام ، وانتهاز فرصة كل دعوة او حادث لمعاونة اذاعة شبهات الانتقاص من الاسلام . ولم تفلح كل وسائل الدعاية الواسعة في اكبر الصحف وباكبر الاقلام في كسب واحد من المسلمين لهذه الدعوة ، ولم يحقق التهليل الكبير شيئاً . بل ماتت الدعوة البهائية في مصر ، كما ماتت في مختلف العالم الاسلامي ، وانكشفت اهدافها من بعد حين ظهر انها احدى فروع الحركة الصهيونية ، وانها من فروعها وامتداداتها .

ولم يكن يعرف خلال هذه الفترة منذ ودع سيرهربرت صمويل مؤسس الدولة الصهيونية في فلسطين جثمان عباس البهاء تلك العلاقة بين البهائية والصهيونية والماسونية حتى انكشفت في السنوات الاخيرة حين اجتمع المؤتمر العالمي للبهائية في اسرائيل ١٩٦٨ بعد وفاة عباس البهاء بخمسين عاماً ، وتكشفت تلك العلاقة في ان البهائية التي تدعي العمل على ازالة جميع الاديان : اليهودية والمسيحية والاسلام لم تكن في الحق تهدف الا لمواجهة الاسلام وحده . ولقد كان يعرف ذلك كثير من الذين اولوا هذه الدعوة اهتمامهم ويقصدون اليه ، فليس الاسلام الحق هو الذي فرق بين الاجناس او الذى اثار الحروب بين الامم ، او الذي اخر وحدة الجنس البشري ، وليس الاسلام هو الدين الذي بدأ برفضه اصحاب العقول والارواح ، والذين يلتمسون المفاهيم الصحيحة عن طريق العلم او العقل او التجربة .

ولقد اندلعت الدعوة الى البهائية في العالم الاسلامي ومصر بالذات في نفس الوقت الذي كانت الصهيونية تركز قواعدها في فلسطين ، وحيث كانت الحركة التبشيرية في العالم الاسلامي تؤكد وجودها . وقد كشف عن ذلك بعض كتاب هذه الفترة . فقد وصف المرحوم : محمد محمود بدير : البهائية بانها اشد خطراً من المبشرين . وقال ان اساليبهم تختلف عن اساليب المبشرين وتفوقهم ، ولهم في اباحيتهم الاخلاقية اكبر مبرر لهم . وقال : ان الذين

يمدون المبشرين بالاموال يمدون البهائيين ، وانه اذا كان ثم فارق بين الحركتين ، فانهما يلتقيان عند نقطة اساسية مرجوة هي : اخراج المسلم من عقيدة الاسلام . ثم قال ان هذا المخطط في بلاد الشرق وخاصة مصر ، انما يمثل مؤامرة واسعة النطاق ، محكمة الاطراف على الاسلام وتعاليمه[1] . ولم تتوقف الدعوة الى البهائية ، بل ظلت تجدد سنوات بعد سنوات ، وفي كل مرة تجد من كتاب المسلمين من يكشف عن جوهرها .

يقول العلامة محمد فريد وجدي : ان دعوة البهائية الى اتحاد الاديان قد سبق اليها الاسلام واسسه على اقوى الاصول . فقرر ان اصل الاديان واحد ، فوحدة الدين هي الاساس الذي يقوم عليه الاسلام ، وان طموح البهائيين لان تكون ديناً عاماً يقضي بالعجب ، لانها ليست بدين سماوي ، وليس فيها من الاصول والمبادىء ما يلفت العقول اليها . بعد ان بالغت في عرض نفسها على الامم فضلا عن ان البشرية ليست في حاجة الى دين جديد بعد الاسلام ، فانه استكمل شرائط الدين العام ، واين هي من الاسلام الذي تبنى امماً قوية ومدنيات فاضلة في خلال عصور متعاقبة ، ولا يزال على مثل حيويته الاولى حتى ليتوقع فلاسفة كثيرون ومنهم برناردشو . ان مبادىء الاسلام توشك ان تعم العالم اجمع ، ويتسم الاسلام بسمات اصيلة ضمنت له التعميم والخلود ، تلك هي : موافقته للفطرة واعتماده على العقل والعلم ، فاين البهائية من هذا الموقف العلمي الحق ، وهي تقوم على اصلين احدهما عتيق غامض ، قال به افراد من محبي السبح في الخيالات ، وهي تصوير ذات الله بصور المخلوقين ، وثانيهما وهو صرف الالفاظ عن ظواهرها في مجال فسيح للظنون والاوهام والخبط .

« ان كل تجديد في مجالات النظم الاجتماعية والتطورات الفعلية ، وكل نجاح يصيبه دين او نظام يكون مناسباً للقدر الذي يحمله الناس من الوفاء للحاجات المناسبة للامم والشعوب ، تدعي البهائية انها اتت بجديد من الاصول ، لم يدر في خلد المصلحين قبلها كاتحاد الاديان ، وترك

---

١ـ مجلة النهضة الفكرية : ١٥ يوليو ١٩٣٣ .

العصبيات ، واتحاد الاجناس ، والسلام العام ، ومساواة المرأة بالرجل .

اما ما سموه باتحاد الاديان فقد سبق اليه الاسلام واسسه على اقوى الاصول ، واحاطه باحكم الدلائل ، فقرر ان اصل الاديان كلها واحد ، وان الخلافات التي بينها ما حدثت الا لسبب ما ادخله قادتها من الاوهام . فالاسلام يفرض على اهله القول بوحدة الدين فرضاً ، ويأمرهم بالاعتقاد بجميع الرسل من غير تفريق .

اما السيد : محب الدين الخطيب فقد عرض للبهائية من الناحية التاريخية فاشار إلى هدفهم الاساسي في محاربة اللغة المشتركة في العالم الاسلامي . وذلك حين اعلن البهائيون انسلاخهم من الاسلام ، واشتد بهم الحرص على محاربته من كل ناحية ، ومنها لغة الاسلام العالمية ، وهي لغة القرآن الغربية ، فكان من عناصر دعوتهم استنكار عالمية اللغة العربية وكونها اللغة المشتركة - لغة الصلاة والعلوم الاسلامية في العالم الاسلامي ، فتآمروا على قطع الصلة بين المسلمين وتراثهم العلمي الذي تعاون اعلام المسلمين على تكوينه ، لذلك قام البهاء بالدعوة الى ايجاد لغة اخرى تكون لغة الامم فاخذ يدعو الى اختراع لغة صناعية جديدة . واضاف الى ذلك ان البهائية تنكر المعجزات المحمدية واعجاز القرآن .

( ٢ )

## القاديانية

أما الدعوة القاديانية التي ظهرت في الهند فقد ارتبطت بالدعوات التي عمد النفوذ الاستعماري البريطاني الى اضفائها على تفسير القرآن ، والتي ارتبطت بهدف اساسي هو تحريف مفهوم الاسلام فيما يتعلق بجهاد المحتلين والمستعمرين والغاصبين وهو ما حاوله « احمد خان » في تفسيره المشهور عنه للقرآن . اما غلام احمد القادياني ، فقد كان كان صريحاً واضحاً حين اعلن انه ربيب بريطانيا ووليها ، والمؤمن بوجودها ، وان دين الاسلام لم يكن دين جهاد . بل دين سلام .

وقد كان غلام احمد موظفاً عند الانجليز ويشيد في خطبه وكتبه بذكرهم ، ومما يّروى عنه وله : ان الوقيعة في جانب الله اهون من الوقيعة في جانب الانجليز .

اعلن رسالته الى العالم عام ١٨٨٩ وهو في الخمسين من العمر ، وادعى انه نبي ومجدد ومهدي ومسيح ، وادعى انه المهدي المنتظر الذي يترقبه المسلمون جميعاً ، ودعا الى جهاد سلمي لا جهاد تراق فيه الدماء مع تأكيد الولاء للحكومة البريطانية . ومن ذلك قوله : « ان مهمة المهدي هي الدعوة الى السلام . اما الجهاد فيجب الا يقوم على امتشاق الحسام . بل على وسائل سلمية » . وبذلك اسقط فريضة الجهاد من بين الفرائض الاسلامية ، وحبب الى اتباعه المسالمة والتسامح ، ونهاهم عن التعصب .

وقد امنت الحكومة جانب هذه الحركة وايدتها في الوقت الذي كانت تحارب فيه كل دعوة صادقة ، وأتاحت الفرصة لنشر مؤلفاته ، واصدار عدد من المجلات ، وخاصة مجلة الاديان باللغة الانجليزية .

وتضم الدعوة القاديانية ملامح من البهائية : فهي تقوم على التوفيق بين الامم ، ومن كلام غلام احمد ما يشبه القول بالحلول ، فهو يتلبس بروح السيد المسيح وروح كرشنا رب الخير عند البراهمة . وفي مذهبه انكار صريح لصلب عيسى ورفعه الى السماء . كما ادعى انه يوحى اليه ، وانكر نبوة محمد . مع اعلان الولاء للملكة فكتوريا ، واعلان ابطال الجهاد ، وقال ان محاربة الانجليز حرام في دينه ، وقال عن الدولة البريطانية بالنص في كتابه : ( الهدى والتبصرة لمن يرى ) ص ٢٦ ج ١ : ولا يخفى على هذه الدولة المباركة انا من خدامها ونصحائها ودواعي خيرها من قديم . وكان والدي غلام القادياني من نصحاء الدولة البريطانية . وكان ابي قد امدها ـ اي الدولة البريطانية ـ بخمسين فارساً بخيولهم مذ امته في ايام المفسدة ( اي ايام ثورة المسلمين في الهند على الاستعمار ) .

ولا شك ان هذه النصوص وحدها كفيلة بان تكشف عن دوافع الحركة . وان الاستعمار البريطاني قد قصد بها الى تغيير مفاهيم الاسلام اساساً ، وانه اختار لها من وفى لبريطانيا حتى اعتبر ثورة المسلمين عليها . هذه الثورة التي تعد من مفاخر المقاومة الاسلامية والجهاد الشريف اعتبرها : « مفسدة » .

ومن الحق ان يقال ان ظهور القادياني قد احيط بالشبهات ، ولقي من تشجيع الحكام البريطانيين ان لم يكن بايعازهم اصلا ما لم يكن مألوفاً منهم من معاملة ، ثم جاءت فتواه بقبول الحكم الاجنبي وتفسير الجهاد على هوى بريطانيا مرجحاً عند الكثيرين لتلك الشبهات . وقد تعهد القاديانيون بالدعاية للحكومة البريطانية ، وانتهزت بريطانيا الفرصة فساعدتهم على الدعوة لالغاء الجهاد وتفريق كلمة المسلمين .

وقد هاجم المسلمون المصلحون الهنود هذه الدعوة الهدامة ، وقال العلامة محمد عبد العليم الصديقي : ان عقيدة هذه النحلة الضارة فاسدة ، وهي التي اضرت بالاسلام والمسلمين ، كما هاجمها المصلحون المسلمون في كل مكان ، وكشفوا عن زيفها . ومن ذلك ما يقوله العلامة فريد وجدي : لقد جرت سنة الله ان يرسل الى الناس رسلا لهدايتهم الى طريق الحق فصحبت

رسالة كل واحد منهم انقلابات اجتماعية خطيرة ، وحوادث تطويرية كبيرة ، تجاوبت اصداء حركاتها في ارجاء الارض ، فاين ما يدعيه غلام احمد . لقد مضت على دعوته ستون سنة فلم يتبعها الا افراد من السذج . لقد تجشم جهداً لكي يثبت انه نبي ، فاصطدم بالنص القرآني الدال على ان النبي محمداً خاتم النبيين ، وانه لا نبي بعده ، واتى في هذا الباب بما لا يعقل من ضروب التأويل والتحريف .

ولقد اولى الكتّاب الاجانب من المبشرين والمستشرقين اهتماماً كبيراً بالدعوتين : البهائية والقاديانية وعدّوهما من حركات الاسلام ، وادمجوهما مع الوهابية والسنوسية وحركة جمال الدين الافغاني حتى يفسروا بذلك مفهوم حركة اليقظة ، ويعكروا مجراها الثر النقي بآراء هذين الدعيين اللذين يحملان مفاهيم خارجة في اساسها عن المقومات الاصيلة للدعوة الاسلامية . فادعاء كل من الدعيين بالنبوة لانفسهما يقطع بان هاتين الحركتين وامثالهما ، انما تندمج في الحركات الهدامة التي يتصل نسبها بحركات الباطنية والمجوسية والمزدكية وغيرها من الحركات التي قام بها الغلاة والخارجون على الاسلام ، ولا يمكن في تقدير المنصفين ان تضاف هاتان الحركتان الى حركات اليقظة والاصلاح الاسلامي الذي يجب ان يقوم اساساً على التوحيد والاعتراف بنبوة محمد صلى الله عليه وسلم بعيداً عن الحلول والاتجاه ، ووحدة الوجود او القول ببطلان الشريعة الظاهرة ، والاخذ بالحقيقة الباطنة .

وقد اشار العلامة ابو الكلام ازاد في كتابه « التذكرة » الى ذلك الامر فقال : ان غلام القادياني لم يدع يوماً من الايام انه نبي ورسول . بل اتباعه وانصاره هم الذين استغلوا اسمه ، واضافوا اليه اقوالا غريبة ، واسسوا جماعة تبشيريةً ، لكي يحصلوا على مركز بين الناس ،. وان الاستعمار استغل دعوة القادياني ، واشترى هذه الطائفة لاغراضه السياسية وتشكيك ابناء المسلمين في القيم الاسلامية . وقال : ان موالاة القاديانيين للانجليز كانت مبنية على تشتيت القيم الاسلامية .

وقال الدكتور محمد اسماعيل الندوي : ان القاديانية دعوة سلبية رجعية ،

اساسها المنامات والالهامات والخرافات . ويمكن القول بان ابرز ما دعا اليه غلام القادياني وركز عليه هو رفض المفهوم الاسلامي الصريح بان الجهاد فرض مقدس لمقاومة المستعمر من مبادىء الاسلام . ومن اهم فرائضه واعلان تعاونه مع الحكومة البريطانية ، وعدم تأييده لاي محاولة التعويض اركان السيطرة البريطانية في الهند باسم الاسلام ( راجع كتاب المسألة القاديانية : للمودودي ) .

ويرى بعض المؤرخين : ان القاديانية ظهرت في الوقت الذي انتهت فيه الخلافة ، وتحرق المسلمون الى اعادتها . وان الحركة القاديانية كانت محاولة بريطانية ، وقد دافع نهرو عن القاديانية . وكتب اقبال رسالة طويلة جعلها بمثابة دعوى مقامة على القاديانية ، وكانت التهمة الرئيسية ان القاديانيين لا يرون مكة وطنهم الروحي ولكنهم يتجهون بدلا منها الى قاديان ، وهذا يتعارض مع الروح الاسلامي الدولي[1] .

***

ومن الحق ان يقال ان الحركة القاديانية قد تحولت من بعد وانصهرت في حركة الاحمدية ، ولم يبق من اخطائها الا قليل من الامور . وكان ابرز عوامل التحول هو : المولى محمد علي اللاهوري ( ١٩١٤ - ١٩٥١ ) . الذي انفصل عن القاديانيين عام ١٩١٤ وانشأ ما يسمى بالدعوة الاحمدية في « لاهور » وهي حركة لا تقبل بادعاءات القاديانيين وتنكر قولهم بالنبوة . وتقول فرقة لاهور هذه ان غلام احمد كان لا يزيد كثيراً عن مجدد للاسلام ، وتنفر مما تقوله الفرقة الاخرى « فرقة قاديان » من تكفير اهل السنة .

وقد اتسمت الحركة الاحمدية بنشاط موفور في سبيل التبشير بالاسلام على نحو بارع واسع وصل الى اقصى الاطراف ، وركز على اوربا وقلب افريقيا ، وطبع ونشر العديد من دراسات التعريف بالاسلام باللغة الانجليزية ، فاستطاعت ان تكسب الى الاسلام كثيراً من الاتباع .

---

١- تاريخ الدعوة الاسلامية في الهند للاستاذ الندوي .

وكان لهم دورهم في الكشف عن طبائع الاديان الاخرى والدعوات المعادية للاسلام ، والكتب المنسوبة اليها ، آخذين بمبدأ الشيخ خوجابخش القائل باستعمال الاسلحة التي صاغتها ايدي الغرب . وقد وضع الاحمدية كتباً كثيرة ، كما قدم محمد علي اللاهوري ترجمة كاملة لمعاني القرآن . وابرز اعمال الاحمدية هي : حركة التبشير التي انتشرت على نطاق واسع في الصين واوربا ، وجزر الملايو وجاوه وافريقيا .

ويعتز جميع الباحثين للاحمدية بالخدمة التي ادوها ويؤدونها ، وهي الدفاع عن الاسلام في مواجهة الدعوات المعارضة له . وقد عرف لها النشاط الجم الذي تبذله بعثاتها في بلاد الغرب للدعوة الى الاسلام ، حيث تصدر الحركة الاحمدية اللاهورية صحفاً في لندن . ومن ابرز دعاتها الاستاذ خوجة كمال الدين .

وقد دافع كثير من منصفي كتّاب المسلمين الهنود امثال : محمد اسماعيل الندوي عن السيد احمد خان الذي نسب اليه رأيه في ايقاف الجهاد ضد الانجليز كمقدمة لحركة غلام القادياني ، فقال ان مسالمة احمد خان للانجليز كانت لمصلحة المسلمين وترقية احوالهم ، وهو يشبه في ذلك الشيخ محمد عبده في مصر . اما موالاة القاديانيين للانجليز فكانت مبنية على تشتيت القيم الاسلامية .

## (٣٠)

# الماسونية

وكانت الماسونية من الدعوات الخطيرة التي انبثقت في انحاء العالم الاسلامي منذ وطد النفوذ الاستعمار اقدامه في هذه المنطقة . وقد ظلت سنوات طويلة تخدع الناس بانها حركة خير واحسان ومعاونة ، وانها تحمل الطابع الانساني الخالص حتى تكشفت مخططاتها في اوائل هذا القرن على انها اداة النفوذ اليهودي الطامع في السيطرة وفتح الطريق اما مطامعه ، ثم تكشف بعد ذلك بقليل انها مقدمة الصهيونية وطليعتها . ثم عرف من بعد انها لم تنطفىء بظهور الصهيونية ، ولكنها مضت ولها مخطط خاص وعمل كبير .

فالماسونية طليعة التحرك اليهودي الواضح الذي انشأ عدداً من المؤسسات لتحقيق اغراضه منها الخفي كالماسونية والظاهر - بعد ان مهدت له الطريق - كالصهيونية .

والمعروف ان الصهيونية واجهة تخفي وراءها مطامع اليهودية،اعطيت طابع العنف والجرأة بينما اعطت واجهة الماسونية السابقة لها طابع الخفاء والغموض ، وكلها تلتقي مع دعوات اخرى ربما كان مظهرها مختلف كل الاختلاف في سبيل فرض نفوذ اليهودية العالمية ، ومن خلال ايدلوجية تحاول ان تستمد مفاهيمها من التلمود ، وتقوم على احياء شعب اسرائيل ولغته ودينه ، واعادة بناء هيكل سليمان مكان المسجد الاقصى .

في هذه المرحلة الاولى للحركة اليهودية كانت الماسونية هي الطليعة او القوة الكاشفة حيث كان ذلك قبل الثورة الفرنسية باكثر من ستين عاماً ، والتي كانت الثورة الفرنسية نفسها اكبر ثمارها وابعدها اثراً . والتي حققت مساواة اليهود بالمسيحيين في اوربا ، ومكنتْ لهم الخروج من الجيتو ، والمشاركة في

الحياة العامة ، والقدرة السريعة على تسنم ارقى المناصب السياسية والاقتصادية ، والسيطرة في وقت قصير على مقدرات اوربا واخضاعها فكرياً ودينياً واجتماعياً لنفوذ التلمود كمقدمة للسيطرة العامة ، واقامة الامبراطورية والحكومة العالمية على النحو الذي صورته بروتوكولات صهيون ، لذلك فقد كانت صيحة ( الثورة الفرنسية ) : حرية ـ اخاء ـ مساواة ـ انما تعني اساساً مساواة اليهود بالعناصر الاخرى . وقد تمت خطوة الثورة الفرنسية عن طريق عمل متصل قامت به المحافل الماسونية في فرنسا ، وانحاء اوربا المختلفة ، وحققت بالغدر والقتل ازالة كل من وقف في طريقها .

وقد استهدفت الدعوة الماسونية منذ اليوم الاول هدفاً محدداً يتمثل في رمزها « البناؤ ون الاحرار » وقد كثر التساؤ ل عن هذا البناء الذي يحاولون تشييده ، وهو الذي يظهر واضحاً من خلال الانظمة والتشكيلات الماسونية : ويعني بناء هيكل سليمان في القدس .

وقد استطاع كثير من المؤ رخين الذين تعمقوا الاحداث ان يكشفوا العلاقة الوثيقة بين الماسونية وبين الثورة الفرنسية . وفي مقدمتهم المسيو تموترو الذي نشر مذكراته التاريخية عام ١٩١٢ . والذي اكد في صراحة بان الثورة الفرنسية كان ضابط ازمتها في ايدي الماسونية ، وانهم هم الذين دبروا كل فصولها ولعبوا كافة ادوارها .

وما كان قتل لويس السادس عشر سوى تنفيذ لاحد مآربهم التي كانوا قد اتفقوا عليها في المحافل الماسونية . يقول المؤ رخ تموترو : وبعد ان ملأ الماسون فرنسان دماء وفظائع اخذوا يعممون الثورة في كل انحاء اوربا بواسطة جيوش الجمهورية . فالماسونية تنفخ روح الثورة حيثما تحل ، فكم ثلت من عروش وكم قلبت من دول وكم عارضت من حلول ، ومنها الغنوصيون واهل النهلست .

وقد اشار المؤ رخ هرما غروير : ان الماسونية حركة تكونت في لندن عاصمة الانجليز عام ١٩١٧ . ثم وضعت الدستور الماسوني ، وقد انحاز لها ملوك انجلترا الذين وجدوا في الماسونية مساعداً قوياً على تنكيس الدول

الكاثوليكية . وقد احصى الاحصائيون في مدة مائة عام عدد الملوك والرؤساء الذين قتلوا بمساعي الماسونية ، فاذا هو ينيف على الثلاثين .

ومن انجلترا تسربت الماسونية الى سائر انحاء اوربا ، ولم تزل تقوى وتشتد بكل الوسائل التي في وسعها حتى انفجر يوماً بركانها بالثورة الفرنسية ، ثم تبعتها الثورة الاوربية العامة ، وكان لها اثرها في البرتغال والدولة التركية .

واشار الاب لويس شيخو في مجلته المشرق عام ١٩١٢ الى ان الماسونية كان قد مر عليها مائتا عام بان لها ما يزيد على ثلاثة وعشرين الف محفل واعضاؤها مليون .

وقد اشار جرجي زيدان وشاهين مكاريوس مؤخراً الى الماسونية وابرز دعاتها في العالم العربي ، الى ان الماسونية دخلت بيروت عام ١٨٦٢ وتجددت عام ١٨٨٨ . وفي عام ١٨٦٩ تأسس في بيروت محفل آخر لغته العربية ، وان الذين اشتركوا في هذه المحافل كانوا من الروم والبروتستانت واليهود ، وبعض افراد من الكاثوليك والموارنة والمليين والارمن ، وكان للماسونية في بيروت جريدة المشير ، وكانت رسالتها على حد تعبيرهم : تقارن كل المذاهب والاديان الا المذهب الكاثوليكي .

ثم تعددت المحافل في فلسطين ودمشق وحمص وحلب وانطاكية وادنة ، وقد خدع بعض المسلمين خلال فترة نضال النفوذ الاجنبي الاولى ، فظنوها وسيلة للتحرر من ظلم المستبدين ، ولكنهم لم يلبثوا ان اكتشفوا انهم خدعوا وعرفوا دخائلها ، وفي مقدمة هؤلاء محمد عبده ، كما اخبر عن نفسه . راجع ( مجلة المنار السنة ٦ ص ١٩٦ والسنة ٨ ص ٤٠١ ) كما كشف حقيقتها السيد جمال الدين الافغاني خلال اقامته في مصر والامير عبد القادر الجزائري خلال اقامته في دمشق ، وقد كتب كثير من يقظة المفكرين العرب والمسلمين عن اخطار الماسونية ، وكشفوا عن دخائلها ، وفي مقدمتهم الاب لويس شيخو اليسوعي في كتابه : السر المصون في شيعة الفرمسون ( مجلة المشرق م ١١ و١٢ ) ومحمد بن عز الدين العاملي في كتابه : كشف الظنون عن حال الفرمسون . وكان في مقدمة دعاتها يوسف الحاج صاحب مجلة الوقائع الماسونية في لبنان

وشاهين مكاريوس ونعوم شقير[1] وعزيز ميرهم[2] .

وقد اجمع الذين اتصلوا بالماسونية عن قرب ، وحذروا اهلهم من دخولها ان مبادىء الماسونية عموماً مرجعها الى دك صروح كل مذهب ونقض كل نظام .

٢ ـ وقد كان للماسونية دور بعيد المدى في تقويض الدولة العثمانية ، ويمكن ان تغرى اكثر الاحداث الخطيرة التي قامت على التآمر والصراع بين الطبقات والعناصر الى عمل الماسون ، وقد ارتبطت الماسونية بحركة جمعية الاتحاد والترقي ، وكانت عاملا هاماً مع مخطط الاستعمار الاكبر على تمزيق الدول الاسلامية الكبرى ، والسيطرة عليها .

فقد اجمع المؤ رخون وتكشفت الحقائق في الفترة الاخيرة عن ان الماسونية كان لها اليد الطولى في اسقاط الدولة العثمانية ، والغاء الخلافة ، وخلع السلطان عبد الحميد ، وان دعوتها الاساسية كانت تهدف الى بناء هيكل سليمان في مدينة القدس على انقاض المسجد الاقصى ، وهو هدف خطير لم يكن من السهل الاذاعة به ، ولكن جميع مخططات الماسونية كانت تصل في النهاية الى هيكل سليمان كرمز اكبر ، وهذا الهدف الذي حملت لواءه الماسونية ما زال هو اكبر اهداف الصهيونية منذ ظهورها الى الان . وللماسونية يرجع الاثر الاكبر في اذاعة صورة كريهة للسلطان عبد الحميد الذي يمثل اقوى مراحل المقاومة للنفوذ الصهيوني وموقفه من الصهيونية المشرف الواضح ما زال يحمل طابع الشرف والكرامة لهذا الرجل الذي احيط بصورة خطيرة من الاتهام . فقد وقف المدافع عن القدس ، ورفع لواء الوحدة الاسلامية في وجه النفوذ الاجنبي الخطير في جبهاته المختلفة .. ورفض ان يمنح اليهود شبراً واحداً من ارض فلسطين بالرغم من العرض الضخم المغري الذي تقدموا به اليه في وقت كانت الدولة في اشد حالات العجز المالي والافلاس . وقد كان الحديث وما زال عن الماسونية غامضاً ، ويحاول البعض الفصل بين الماسونية والصهيونية وبين

---

١ ـ المقتطف م ١٩١٠ ص ١٥٧ .

٢ ـ السياسة الاسبوعية م ١٩٢٦ .

الصهيونية واليهودية . ومما يذكر ان اليهودي واكتشت من كبار دعاة اليهود سئل عام ١٩٢٧ :

ما هي الماسونية فاجاب : الماسونيون الاحرار هم اولئك الذين يبنون المملكة اليهودية العالمية[١] . والواقع ان اهداف الماسونية معروفة للمسلمين منذ وقت بعيد ، وقد تبينوا هدفها في اوائل هذا القرن .

وقد اشار رشيد رضا الى الماسونية في عديد من دراساته في المنار فقال انها تأسست لاجل هدم الحكومة الدينية البابوية ، وان الواضعين لاساسها الاول هم اليهود ، وغرضهم اساساً اعادة ملك سليمان الى شعبهم في القدس ، واعادة هيكله الى ما وضع له في المسجد الاقصى ، وانهم هدموا الحكومات المسيحية في اوربا غربيها وشرقيها والحكومة الاسلامية التركية والقيصرية الروسية ، ثم ظهرت بعد ذلك جمعيتهم الصهيونية تستغل خدمتهم للانجليز في الحرب بالتوصل الى اقامة حكومة دينية يهودية في فلسطين .

ويقول : ان الجمعية الصهيونية تكونت في اوربا خلافاً لما يزعمون من قدمها لمقاومة استبداد رؤساء الدنيا من الملوك والامراء ورؤساء الدين من البابوات والقسيسين ، وجعلوا رموزها واشارتها قريبة من رموز المسيحية .

***

وبعد فقد تعددت تيارات الدعوات والاخطار الوافدة الينا من خارج العالم الاسلامي . من الحادية ، وعلمانية ، وقومية عنصرية ووطنية مجردة ، واقليمية ضيقة ووثنية ، وما تزال هذه الدعوات تغير جلدها ، وتتشكل في صور جديدة ، وتحت عناوين جديدة وباقلام جديدة ، ولكنها في مضمونها واحدة واهدافها ما تزال واحدة ، وهي القضاء على وحدة الفكر الاسلامي والحيلولة دون التقاء الاجناس والعناصر المختلفة ذات الثقافة الواحدة .

وما تزال هذه الدعوات والتيارات البالغة الخبث والمكر تتخفى وراء اسماء

---

١ ـ ص ٥٠١ ـ م ١٢ الفتح ١٩٣٧ .

براقة ومصطلحات لامعة ، وشعارات مغرية ، وهي تقوم على فلسفات مدروسة ، ولكنها في اعماقها لا تستهدف الا القضاء على كيان العالم الاسلامي وقيمه ومفاهيمه ، ودفعه الى بوتقة العالمية لصهره فيها صهراً كاملا . ومن الدعوات التي ظهرت في العالم الاسلامي ، وافسح لها النفوذ الاستعماري وجوداً واحاطها بالعوامل المختلفة لتبقى الى حين خادعة مضللة :

١ ـ محاولة تغيير مفاهيم الاسلام ، والقضاء على قيم الجهاد والكفاح ضد المستعمر . ولقد كان الجهاد الاسلامي دائماً هو الوسيلة الفعالة في اخراج المحتلين وفرض العين عندما تغزوا بلاد المسلمين الغزاة . وبذلك استهدفت هذه الدعوات حماية المحتلين وترسيخ اموالهم ، تفريغ الاسلام من مضمونه الاصيل باعطائه طابع السلام الذي لا يقوم على الحق . وفي هذا الاتجاه استغلت المفاهيم المسيحية دعوات غاندي وتولستوي . وقد برز ذلك واضحاً في البهائية والقاديانية . فقد حاولت البهائية الدعوة الى الغاء حكم الميراث تحت ستار المساواة بين الرجل والمرأة بغية خلخلة التشريع الاسلامي كله .

٢ ـ محاولة تغيير مفاهيم الاسلام من حيث ترابط الاسلام بالمجتمع ونظامه الاخلاقي واثر ذلك في التربية والسياسة والاقتصاد ، وذلك بتشجيع الادعاء الباطل بان الاسلام دين روحاني .

وقد برز ذلك واضحاً في دعوة الكماليين وكتابات على عبد الرازق .

٣ ـ محاولة الدعوة الى تقبل الحضارة الغربية مع الثقافة جملة واحدة ، مع تجاهل الفارق بين الثقافة التي هي بطبيعتها ذاتية قومية ، والحضارة التي هي عالمية وانسانية ، ومن حق جميع الامم . وقد برز ذلك واضحاً في دعوة طه حسين في مصر ـ واحمد اغايف في تركيا .

٤ ـ تمزيق وحدة المسلمين الفكرية والاجتماعية والروحية ، وذلك باذاعة وتعميق دعوات الاقليمية والمتوسطة ، وفصل العروبة عن الاسلام ، وايقاع الخلاف بينهما ، ومحاولة خلق ما يسمى بالاسلام الهندي ، والاسلام التركي .

٥ ـ تدمير المؤسسات الاسلامية ، وهدم مقومات الاتحاد والترابط باحياء الخلافات بين الاجناس الاسلامية وتعميقها . وقد كان للماسونية اليد الطولى

في هدم الخلافة الاسلامية ، وفصل العرب عن الترك ، وخلع السلطان عبد الحميد ، واسقاط الدولة العثمانية ، والماسونية تهدف اساساً للقضاء على الاديان في سبيل ابراز نفوذها ، وان الصلة الوثنية بين الصهيونية واليهودية العالمية ، وبين الماسونية لا تخفى على باحث مدقق لتلاقي المصطلحات والرموز ، كما ان الصلة الاكيدة بين الماسونية والصهيونية واضحة جلية في الهدف والطابع والتخطيط .

٦ ـ محاولة الفصل بين الامة العربية والعالم الاسلامي .

فقد ايد النفوذ الاستعماري في العالم العربي دعوات قوية في مجالين مختلفين ، كلاهما يخرج عن مفهوم الترابط بين العرب والاسلام .

الاولى : قومية علمانية تحاول ان تفصل بين العروبة والاسلام .

الثانية : قومية علمانية تخاصم القوميات المجاورة التي ترتبط معها بأسس من الفكر والثقافة .

وقد ظهرت الدعوة الاولى في مصر وفي سورية ، فحاولت ان تدعو الى مصر للمصريين ـ او سورية للسوريين متجاهلة رابطتين لا سبيل الى انفصال المصريين او السوريين عنهما هما : الرابطة العربية بالامة ، والرابطة الاسلامية بالفكرة .

وقد سقطت كلتا الدعوتين ، وان ظل الاستعمار يغذيهما كقوى عاملة في خدمته . وقد غذى النفوذ الاستعماري هذه الدعوات لتحول دون نمو الدعوة التلقائية التي قامت الى الوحدة العربية المفتوحة على العالم الاسلامي ، والتي لا تحمل طابع « العنصرية » الكارهة لغير العرب ، او المناهضة لهم في محاولة للسير ضد التيار الطبيعي لالتقاء العناصر والاجناس التي جمعتها ثقافة واحدة ، وفكر واحد ، ودين واحد .

غير ان مصر لم تلبث ان صححت مفهومها وحملت لواء الدعوة الى الوحدة العبية ، ذات المضمون المرتبط بالقيم والمقدرات ، الملتقي مع الدوائر الافريقية والاسيوية جميعاً ، وما يزال مفهومهما ينمو في انحاء الامة العربية كلها ليكون المنطق الطبيعي في مواجهة الدعوات الهدامة والغامضة .

والسؤال : هل استنفدت تلك الفرق اغراضها ؟

الجواب : ان لا ـ فان هذه الفرق ما تزال تعمل في الضوء ترة ، وفي الخفاء تارة اخرى . وما تزال افريقيا حقلا واسعاً لتحرك هذه الفرق والدعوات .

( انتهى البحث عند اواخر الحرب العالمية الثانية ١٩٤٠ ) .

# الموسوعة الإسلامية العربية

# ٥

# الإسلام وحركة التاريخ

رؤيا جديدة في فلسفة تاريخ الإسلام

بقلم

أنور الجندي

دار الكتاب اللبناني - دار الكتاب المصري

بيروت - لبنان        القاهرة ج م ع

دار الكتاب المصري
القاهرة ج.م.ع
٣٣ شارع قصر النيل - ص.ب ١٥٦
ت ٧٤٢١٦٨/٧٥٤٣٠١ - برقيا (كتامصر)
TELEX No 2336 CAIRO
A.T.T 134 K.T.M.

دار الكتاب اللبناني
بيروت - لبنان
ص.ب ٣١٧٦ - برقيا (كتالبان)
تليفون ٢٥١٢٩٤ ٢٣٧٥٣٧
TELEX No 22865 K.T.L
LE BEIRUT

الطبعة الأولى
١٩٨٠

# الإسلام وحركة التاريخ

# موضوعات البحث

## ( الباب الأول ) : بناء الجماعة الاسلامية



## ( الباب الثاني ) : بناء الاسلام وتوسعاته



## ( الباب الثالث ) : مرحلة الانصهار والبلورة

## ( الباب الرابع ) : مرحلة الغزو الخارجي



## ( الباب الخامس ) : مرحلة الوحدة الاسلامية العثمانية

بسم الله الرحمن الرحيم

# إطار البحث

ظهر الاسلام بعد انهيار الحضارة الرومانية التي أوشكت على الانحلال عام ٤٤٠ م فيا كادت كلمته ترن في الآفاق حتى أخذ مكان القيادة في العالم كله خلال مائة عام ، فقد نشأ في الجزيرة العربية ، ولكنه لم يلبث بعد اثني عشر عاماً من الهجرة أن وسع نفوذه إلى العراق وفارس ، وإلى الشام ومصر وأفريقيا حتى بلغ الأندلس عام **٩٣ هـ - ٧١١** م - ثم بلغ السند وما وراء الهند ، وأشرف على أوربا وأوغل في فرنسا وجنوبي إيطاليا حتى أوقفه اتساع الدائرة التي امتدت من دمشق إلى بواتيه عابرة هذه الألوف من الأميال في معركة بلاط الشهداء( **١١٤هـ - ٧٤١** م )

وقد امتدت هذه الدولة من حدود الصين إلى حدود فرنسا في أقل من مائة عام وبلغت من السعة الضخمة في هذا المدى القصير من عمر الزمن ، الواسع في الامتداد الجغرافي على غير نحو مسبوق في الحضارات والامبراطوريات كالدولة الرومانية وغيرها .

ولا شك أن القيم والمبادىء التي يحملها الاسلام تفسر هذا التوسع والتطور ، لم يكد يبدأ القرن الثاني الهجري حتى كان الغرب قد بدأ الصراع مع القوة الجديدة محاولا إيقاف مدها في معركة بلاط الشهداء . هذه المعركة التي

قادها كارل مارتل والتي عدها بعض المؤرخين الغربيين تجميداً لنمو الاسلام واتساعه . ولقد اعترف الكثير من المؤرخين المنصفين بأن معركة بواتيه ( بلاط الشهداء ) كانت شراً على اوربا ، وأنها أوقفت الحضارة الجديدة الاسلامية عن النمو والامتداد سبعة أو ثمانية قرون .

هكذا نظرت أوربا الى الاسلام ، وقد وسعت هذه النظرة من بعد،فحسبت أن سوريا ومصر وشمال إفريقيا كانت كلها تابعة للدولة الرومانية ، وأن الاسلام قد انتزعها من الغرب ، وأن من حق الغرب أن يستعيد هذه الأرض ويرد الاسلام الى الجزيرة العربية .

وفي خلال قرن ونصف توالت الحملات الصليبية (ثمان حملات من **٤٨٩** هـ إلى **٦٤٤** هـ إلى **١٠٩٦**م الى **١٢٥٣**م ) لم تتوقف ، وجاءت حملة لويس بعد هذا التاريخ بعشرين عاماً على تونس ، وهي ما يطلق عليها المؤرخون الحملة الصليبية الثامنة . وكانت هذه هي قمة الضغط على الاسلام ومحاولة تمزيقه والقضاء عليه .

وقد مضت أوربا عن طريق بيزنطة لا تتوقف عن مهاجمة حدود عالم الاسلام تترقب الفرصة بعد الفرصة للتوغل والسيطرة على هذا المدخل الحيوي ، وظلت القوة الاسلامية تردها وتديل منها حتى هزمت بيزنطة في معركة ملاذكرد ، وأحس الغرب بأنها لم تعد قادرة على تحقيق مطامعها ، هنالك قذف الغرب عالم الاسلام بالحملات الصليبية المتوالية ، وأقام المملكة اللاتينية في قلب عالم الاسلام ،وظلت تمتد حتى برز صلاح الدين فانتصر في حطين عام **٥٨٣** هـ **١١٨٧** م واسترد بيت المقدس .

وكانت حملة التتار التي اجتاحت « عالم الاسلام » منذ عام **٦١٦** هـ **١٢٤٩** م فاستطاعت ان تستولي على بغداد **٦٥٦ - ١٢٥٨** م وأن تتوالى توسعاتها حتى ردها المسلمون في عين جالوت **٦٥٩ - ١٢٦٠** م . وكانت معركة تصفية الأندلس من العرب والاسلام قد بلغت ذروتها عام **١٦٠٩** م باتفاق فرديناند وإيزابيلا ، واستطاعت في خلال مائة وعشرين عاماً ان تجلي المسلمين نهائياً عن الأندلس وأوربا ، فتم ذلك عام **١٠١٨** هـ - **١٦٠٩** م . غير أن حملات الغزو على عالم الاسلام لم تتوقف إلا بقدر ما أتيح لأوربا استعادة الأندلس . ومن ثم

انطلقت البرتغال وأسبانيا إلى تطويق عالم الاسلام في حركة ضخمة سيطرت على سواحل أفريقيا ، وحولت مجرى التجارة الأوربية إلى طريق رأس الرجاء الصالح في محاولة لفرض الحصار الاقتصادي على العالم الاسلامي واضعافه اقتصادياً . وقد وصلت عملية التطويق الى الهند وتجاوزتها إلى الملايو ومهدت « لعصر الاستعمار » الذي بدأ في أوائل القرن التاسع عشر بالحملة الفرنسية على العالم العربي كمقدمة للسيطرة على العالم الاسلامي كله . وقد بلغت ذروتها في نهاية الحرب العالمية الأولى عام **١٩١٨** .

وهكذا تبدو صورة العالم الاسلامي في معركة مستمرة بينه وبين القوى المعادية له ، المندفعة الى السيطرة عليه في عمليات غزو متصلة ، خرج منها الاسلام ظافراً منتصراً لم يتوقف خلال هذا التاريخ عن الامتداد والاتساع بقوته الذائبة . فاذا كان قد انحسر نفوذه عن أوربا من ناحية الغرب والأندلس ، فإنه امتد إلى قلب أوربا من ناحية الشرق عندما سيطر العثمانيون على القسطنطينية **٨٥٨** هـ **١٤٥٢** م ومدوا نفوذهم حتى بلغ أسوار فينّا **١٠٩٥** هـ **١٦٨٣** م في قلب أوربا .

ويمكن القول بأن ما بلغه العالم الاسلامي في فترة الحكم العثماني من ضعف إنما جاء نتيجة عدة عوامل أبرزها « دورة التاريخ » ذات الحكم الذي لا مردّ له ، نتيجة التوسع الجغرافي من ناحية والامتداد الزمني من ناحية أخرى ، غير أن العامل الحاسم في حركات الجزر إنما ترجع بقدر أكبر من الأهمية إلى العوامل الخارجة وهي عمليات الغزو التي جرت على فترات متوالية خلال هذا التاريخ الطويل ، وأبرزها عملية الغزو الاستعماري الحديث الذي بدأ عام **١٧٩٨ - ١٢١٣** م .

وإذا كان النفوذ الغربي الذي سيطر على العالم الاسلامي وامتد حتى اليوم خلال القرنين **١٣** و **١٤** الهجريين قد حقق من النتائج في مجال الاستعمار ، فإن الاسلام - الذي سقطت دولته في براثن الاحتلال الفرنسي البريطاني - الاسباني الايطالي - لم يوقف أمرين :

( الأول ) الفكر العربي الاسلامي الذي ظل حيا متحركاً قوياً ممتداً ، والذي تعمق خلال هذين القرنين الأخيرين وتوسع وكشف عن نفسه غطاء

الجمود والتخلف والتقليد وبدت معالمه أشد وضوحاً وأكثر إشراقاً مما كانت في فترة الضعف التي سيطرت على العالم الاسلامي .

( الثاني ) توسع الاسلام نفسه بالانتشار في إفريقيا وجنوب شرق آسيا ، بالرغم من سيطرة الهيئات التبشيرية المختلفة المسنودة بالحكومات والاحتلال . فقد استطاع الاسلام أن يحقق عن طريق التوسع الذاتي انتصاراً ساحقاً يمكن أن يوصف بأنه اضعاف للاسلام أكثر من خمسمائة مليون مسلم .

والظاهرة الواضحة أن تاريخ الاسلام لم يتوقف في أي مرحلة من مراحله عن تقديم بناة الدول وقادة الفكر ، وكان جرياً على ناموس الحياة يمر بمراحل القوة ، ثم يمر بمراحل الضعف ، ثم يعود مرة أخرى إلى القوة من خلال الدول المتجددة ، والبناة الذين يقومون على هذه الدول ، ومن خلال الفكر الاسلامي العربي المتجدد وقادته الذين لم يتوقفوا يوماً عن إتاحة الفرصة للنمو الانساني والحضاري ، وفتح الطريق لالتقاء الاسلام بالحياة والحضارة ، كاشفاً عن قدرة الاسلام على الالتقاء الدائم ، والحركة المتصلة في العلاقة بين مجتمعه وبين مختلف الحضارات والثقافات والمجتمعات مع القدرة على الأخذ والعطاء ، ومع المحافظة الدائمة على مقوماته الاساسية .

***

ويمكن النظر إلى تاريخ الاسلام كوحدة تامة منذ بزوغ فجره الى اليوم ، وتتمثل صورته شاملة كاملة في مجاليه الواسعين :

( ١ ) مجال بناء الحضارة ( ٢ ) مجال بناء الفكر

ولا يمكن ـ حين إلقاء النظر نحو أحدهما دون الآخر ـ أن تكون الصورة واضحة أو تكون النظرة صحيحة ، فقد كان بناء الحضارة وتطور الفكر يجريان في خط واحد في مواجهة تحديات واضحة ، هي تحديات الجمود والانحراف ، ومقاومة القوى الخارجية في آن واحد .

فمن خلال الجماعة الاسلامية الأولى التي كونها الرسول : محمد ( صلى الله عليه وسلم ) أمكن تعميق مفهوم الاسلام الذي حملته هذه الجماعة ، ومضت تشق به وجه هذا الكوكب شرقاً وغرباً منطلقة من قلب الجزيرة ـ ذلك المنطلق

الذي قدم موجات بشرية متعددة من قبل ـ حتى بلغت حدود الصين وحدود فرنسا .

وإلى الذين يعجبون من قدرة الاسلام ـ التي توصف بأنها خارقة ـ على التوسع في خلال هذه الفترة القصيرة ذلك المدى ، أن يذكروا أثر عملية البناء التي أجراها ( محمد ) الرسول ، بتعاليم ( القرآن ) لهذه الجماعة الصغيرة من أتباعه حين سيطر مفهوم جديد للحياة ، يحمل طابع التوحيد لله والايمان بدعوته والاندفاع في صدق لنشرها في آفاق الأرض ، وبذل النفس والتضحية بالروح في سبيل هذه الرسالة ، وهذا التحول النفسي في جماعة المسلمين الأولى التي كانت من العرب أساساً ، هو المصدر الحقيقي لذلك التوسع السريع الشامل ، وقد كان دور العرب في هذا العمل ضخماً وشاملاً ، وحين توقف التوسع على هذه الجبهة من افريقيا وآسيا بما أطلق عليه ( عالم الاسلام ) كانت المرحلة التالية هي أخطر مرحلة : مرحلة الانصهار الاجتماعي والفكري بين الامم والقبائل والشعوب والأجناس .

ولا ننسى أن نذكر أن مفهوم الاسلام وأيدلوجيته قد استكملت مفهومها قبل أن يلحق الرسول بالرفيق الأعلى ، وأنه لم تجر إضافة أي شيء جديد إلى « مقومات الاسلام » بعد ذلك ، وأن الخطوط العامة والأسس الأولى كانت قد رسمت فعلا خلال حياة الرسول ، ومن خلال النص القرآني الثابت على النحو الذي يكفل للانسانية صورة رسالة إنسانية عالمية خالدة تمتد مع التاريخ والبشرية إلى أن يرث الله الأرض ومن عليها .

في ضوء هذه المفاهيم وبعيداً عن النظرة التقليدية يمكن تقسيم تاريخ الاسلام الى عصور ستة :

( الأول ) عصر بناء الجماعة الاسلامية التي بناها الرسول خلال ثلاثة وعشرين عاماً في مكة والمدينة التي قام بها مجتمع موحد في الجزيرة العربية كلها ، وإلى هذه الجماعة تعزى تلك القوة التي وصفت بانها معجزة في سبيل اذاعة الاسلام في أطراف الأرض .

( الثاني ) توسع الاسلام وامتداده ، وهي تمثل المرحلة التي بدأت بعد اختيار الرسول للرفيق الأعلى ، حتى تم للاسلام امتداد عالمه من حدود الصين

الى أطراف فرنسا وهي مرحلة تمتد إلى علم ١١٤ تقريباً من الناحية التاريخية وإن كانت امتدادات الاسلام لم تتوقف الا بعد فترة طويلة .

( الثالث ) مرحلة بناء الفكر الاسلامي في مواجهة محاولات تحريفه ، وبناء الحضارة الاسلامية وهي مرحلة مزدوجة النماء في مجال الثقافة والمدنية معاً وفيها ظهر بناة الدول وقادة الفكر ، ويمكن ان توصف تاريخياً بأنها تمتد من بدء حركة التدوين الى الحرب الصليبية الأولى ١٠٩٦ م ٤٨٩ هـ .

( الرابع ) مرحلة أزمة الاسلام والغزو الخارجي : حين واجه عالم الاسلام غزوات الصليبيين والتتار ومؤامرات الباطنية ( الحشاشون ) وفي هذه المرحلة قامت المملكة اللاتينية في قلب العالم الاسلامي ، ثم تقلصت وانتهت كما انتهت غزوات المغول ، وفيها توسع الاسلام بالكلمة ، وحيث تسقط الخلافة في بغداد ويتقلص النفوذ الاسلامي في الأندلس ، يقتحم الاسلام آفاقاً جديدة في جنوب شرق آسيا وقلب إفريقيا وتمتد هذه المرحلة تاريخياً الى قيام الدولة العثمانية ٦٩٩ ـ ١٣٠٠ واندماج القوة العربية معها في علم ٩٢٧ هـ ١٥١٧م.

( الخامس ) ظهور مرحلة الوحدات الثلاث في عالم الاسلام : ( ١ ) الدولة العثمانية في منطقة آسيا الصغرى والعالم العربي ( ٢ ) الدولة الصفوية في فارس ( ٣ ) دولة المغول في الهند . وتمتد هذه المرحلة تاريخياً حتى علم ١٢٤٦ هـ ـ ١٨٣٠ م وهو تاريخ الاحتلال الفرنسي للجزائر بعد أكثر من ثلاثين عاماً من وصول الحملة الفرنسية الى مصر والشرق .

( السادس ) مرحلة اليقظة العربية الاسلامية . وتبدأ هذه المرحلة بالدعوة الى التوحيد في قلب الجزيرة العربية ، وحيث تجري مرحلة الاحتلال الغربي لعالم الاسلام ، وهي مرحلة جديدة في تاريخ الاسلام تتمثل في نهضة الفكر والحضارة التي تحمل لواءها الأمة العربية مرة اخرى .

* * *

وقد سار تاريخ الاسلام في خطوط متساوية متسارعة :

* خط التوسع والامتداد ، ونمو الفكر الاسلامي وتطوره .
* خط المقاومة لمحاولات هذا الفكر الاسلامي ومقاومة الهجوم الخارجي .

* قيم بناة الدول وقادة الفكر في كل المراحل التاريخية وفي كل اجزاء عالم الاسلام .

* بناء الحضارة وتطورها في مجالاتها المختلفة ، وتطور المجتمع .

* اثر الاسلام في العالم الخارجي من توسع عقلي ونمو فكري .

« ا - ج »

# ( الباب الأول )

# بناء الجماعة الاسلامية

# ( ١ )
# « الاسلام والتاريخ »

التقى الاسلام والتاريخ منذ بزغ نوره ، وظل هذا اللقاء ممتدّاً إلى اليوم وإلى ما بعد اليوم ، متصلا مؤثراً بعيد المدى والأثر ، فما من حدث من أحداث العالم والانسانية الا والاسلام متصل به ومؤثر فيها ومتفاعل به .

تلك حقيقة في حاجة الى بيان فكيف بدأ التقاء الاسلام بحركة التاريخ ؟

منذ بدأ الانسان يتصل بالحياة ويترك بصماته على أحجارها ويعرف الكتابة والنار . فقد بدأ عصر التاريخ . وتكاد تجمع التحقيقات العلمية على أن ذلك كان قبل الميلاد بخمسة آلاف سنة . هنالك سارت الحضارة والأديان في موكب واحد ، لترسم للبشرية طريقها الى حياة أفضل ، وقد التقى التاريخ في مسيرته الطويلة بأديان وحضارات وقادة في محاولة بناء الكيان الانساني وترقية البشرية وتحقيق رسالة الكائن الأسمى . وفي خلال هذه المسيرة التقى التاريخ بقمم عالية وأحداث ضخمة ما تزال علامات كبرى في تاريخ الانسانية .

ولقد كان الاسلام واحداً من أكبر هذه القمم ، ولكن مزيته أنه جاء بعد ان مرت البشرية بحضارات وأديان ومواقف أتاحت لها أن تنصقل وتسمو وترتفع عن خشونتها وبداوتها لتمضي في طريق الارتقاء .

ومن خلال حلقات الحضارة الفرعونية ، وحضارة حمورابي ، والحضارة

الفينيقية ، والحضارة الفارسية ، والحضارة الاغريقية ، والحضـارة الرومـانية . ومن خلال الديانات العبرية والزرادشـتية والهنـدوكية والبـوذية والكنفوشـوسية والمسيحية التقي التاريخ بالاسلام .

كانت هذه الديانات علامات على الطريق الى الحضارة والنور والعرفـان ونمو العقل والفكر ، وكانت الأديان علامات على الطـريق الى ضياء القلـب ، وصفـاء النفس حتـى جاء الاسـلام جامعـاً في مزيج دقيق لطـريقـي« العقـل والقلب » معاً في تناسق يمكن أن يطلق عليه ( رسالة حياة ) .

ولقد كانت البشرية في خلال تطورها الطويل ، ومراحل نموهـا المتصـل تلتقي من خلال موكب التاريخ بالحضارات والأديان ، وبالأنبياء والرسل والهداة على مراحل ، وكانت الأديان مصـادر للحضـارات ، وكانـت رسـالات السماء ودعوات المصلحين كلها تهدي البشرية الى الطريق ، ولكنها كانت « جـزئية » تقوم في قطر أو أمة أو شعب ، وتختص به ، وقد يقوم أكثر من هاد في وقت واحد ، في قطرين متجاورين .

كانت كل رسالات السماء ودعوات المصلحين اذ ذاك ، دعوات مرحلية وجزئية وزمنية ترتبط بالانسانية في مسارها الطويل ، ليظل مشعل ضيائها موقداً ، فهي تمده بالزيت بين حين وحين . ولما كانت الانسانية لا تزال لما تبلغ رشدها . فقد توالت الدعوات والرسالات ، فكلما طال بها الزمن وانحرفت عن مسيرتها ، جاءت دعوة اخرى لتصحح المفاهيم وتردها إلى الدعوة الأصلية : دعوة التوحيد والايمان بالله وحده ، وإحلال « الانسان » مكانه في الأرض بوصفه سيد هذا الكون تحت ظل الله .

ولقد كانت اليهودية قبل ألف ومائتي عام من ميلاد المسيح رسالة السماء ، رسالة إلى أمة العبرانيين ، فلما انحرفت وغلبـت عليهـا المادية جاءت المسيحية تصحيحاً لها وتكميلاً ، جاءت لنفس الأمـة والشعـب في خلال فتـرة اليهـودية والمسيحية ، وكانت هناك البوذية والكنفـوشيوسية والزرادشـتية ولهـا مجتمعاتهـا وأممها ونموها . ولكن هذه الأديان كلهـا قد خلـت من روحهـا ودخلـت إليهـا انحرافات وزيوف كثيرة ، وفقدت سلطانها وأثرها في البشرية ، وتحولت الى وثنية وتحلل ، اضطربت معه المجتمعات . اما الحضارات السائدة إذ ذاك ، حضارة

الفرس في الشرق ، وحضارة الروم في الغرب ، فقد شاخت كلتاهما بعد ذلك الصراع العنيف والمعارك الدامية ، والاضطراب البالغ الذي استأثر بمصادر النماء والقوة والحركة فيهما .

ومن هنا سقطت روما في القرن الخامس وبقيت بيزنطة تعاني شيخوخة وعجزاً . ولعل المؤرخ الكبير جيبون صاحب كتاب سقوط الامبراطورية الرومانية هو اصدق من يرسم صورة بيزنطة في هذه الفترة : يقول : في أواخر القرن السادس وصلت الدولة الرومانية في ترديها وهبوطها آخر نقطة ، وكان مثلها كمثل دوحة عظيمة ، كانت أمم العالم في حين من الأحيان تستظل بظلها الوارف ، ولم يبق منها الا الجذع الذي لا يزداد كل يوم الا ذبولاً .

ويقول درابر : لما بلغت الدولة الرومية من القوة الحربية والنفوذ السياسي أوجها ، ووصلت في الحضارة الى اقصى الدرجات هبطت في فساد الأخلاق ، وفي الانحطاط في الدين والتهذيب الى أسفل الدركات . بطر الرومان في معيشتهم وأخلدوا إلى الأرض واستهتروا استهتاراً . وكان مبدؤهم أن الحياة إنما هي فرصة للتمتع ينتقل فيها الانسان من نعيم إلى ترف ، ومن لهو إلى لذة . ولم يكن زهدهم وصومهم في بعض الأحيان إلا ليبعث على شهوة الطعام ، ولم يكن اعتدالهم الا ليطول به عمر اللذة ، كانت موائدهم تزهو بأواني الذهب والفضة مرصعة بالجواهر يحتف بها خدام في ملابس جميلة خلابة ، وغادات رومية حسناء ، ويزيد من نعيمهم حمامات باذخة ، وميادين للهو واسعة ، ومصارع يتصارع فيها الأبطال مع الأبطال أو مع السباع ، ولا يزالون يصارعون حتى يخر الواحد منهم صريعاً . وقد ادرك هؤلاء الفاتحون الذين دوّخوا العالم أنه إن كان هناك شيء يستحق العبادة فهو « القوة » .

أما الفرس فقد كان الأكاسرة ملوك فارس يدعون أن دماً إلهياً يجري في عروقهم ، وكان الفرس ينظرون إليهم كآلهة فوق القانون وفوق البشر . وقد استحوذت على الناس في الامبراطورية الرومانية ـ حياة الترف والبذخ ، وكان لكسرى ابرويز ١٢ ألف امرأة وخمسين ألف جواد . وكانت عبادة فارس : النار والشمس . أما المجوسية فقد اضطربت واشتبكت فرقها في صراع متواصل . في نفس الوقت الذي بدأ فيه انحلال السلطة الفارسية . كما وقع الصراع بين الفرق

المسيحية حول طبيعة المسيح ، وبلغ الجدل قمته والخلاف غايته ، وأصيبت « البوذية » بالانحطاط وابتلعتها البرهمية فتحولت إلى « وثنية » تحمل معها الأصنام أينما سارت ، تبني الهياكل وتنصب التماثيل .

وانتقلت الأديان من بساطتها ويسرها إلى التعقيد والجدل ، وسيطرت عليها الفلسفات والوثنيات المفرقة ، وانقلبت المشاحنات المذهبية إلى فتن ومذابح ، ومع صراع الأديان كان صراع الامبراطوريتين الكبريين : « فارس وبيزنطة » وقد اشتبكتا في صراع مستمر دائم كل منهما تطمع في السيطرة على العالم وقيادته . وبالجملة فقد كان القرن السادس والسابع لميلاد المسيح من أخطر أدوار التاريخ بلا خلاف حيث ساد الانحلال والفوضى وسوء النظام وعسف الحكام .

بلغت الوثنية أوجها ، سيطر نظام الطبقات الجائر ، وبلغ ظلم الحكام والأباطرة والأكاسرة غايته ، وانحط مركز المرأة ، وسيطر الربا على معاملات الاقتصاد ، وسيطرت الاباحة على حياة المجتمع ، وبلغت العصبية القبلية والدموية مداها ، وغلب الخمر ، والانحراف الجنسي ، والطمع وشهوة المال ، وأصبح الأحبار والرهبان أرباباً من دون الله ، ووأد الناس الأولاد وقتلوهم .

وبدأ عالم متداع قد شارف النهاية . وكانت الأحداث كلها تتمثل في تطلع كبير الى رسالة جديدة ودعوة جديدة ترد البشرية إلى الحق ، إلى التوحيد ، إلى عقيدة سمحة بعيدة عن تعقيدات الفلسفة وظلام الوثنية ، وزاد هذا التطلع اصطراع الفرق في مختلف الأديان ، حتى فقد الناس ثقتهم بكل القيم والمقدسات ، وكان كل ذلك مقدمة لرسالة ورسول .

* * *

هكذا وصلت البشرية في أكبر مظهر من مظاهرها : الحضارات والأديان إلى أبعد مهاوي الاضطراب والضعف ، مما ينذر بسقوط كثير من النظم والعقائد التي فشلت في هداية الانسانية إلى الحق ، وكان لا بد من دعوة يتمثل فيها الرشد الانساني من خلال مرحلة جديدة تتيح تقبل رسالة عالمية إنسانية شاملة بعد أن انطوت مرحلة الدعوات والرسالات والنبوات المحدودة والجزئية والاقليمية والزمنية ، رسالة جديدة تعيد صياغة الفكر الانساني والحضارة وفق مفهوم

التوحيد ، وتحمل في أعماقها طابع الشمول والتكامل . ومن هنا كان التقاء التاريخ بالاسلام التقاء حاسماً ومؤثراً وبعيد المدى .

وكانت بؤرة اللقاء هي : « الجزيرة العربية » بوصفها منطقة عذراء بعيدة عن تأثرات الحضارتين الفارسية والرومانية فضلا عن « أن العرب بوصفهم جماعة » لم يخضعوا كثيراً للأديان والحضارات السابقة ، ولا شك كان ظهور الاسلام في الجزيرة العربية كدعوة عالمية ، ورسالة إنسانية ، هو أول علامات الظفر والقوة التي حققتها هذه الدعوة ، إذ لم تكن منطقة ظهوره غارقة في تبعية فكرية للوثنية أو المسيحية أو اليهودية ، ولم تكن متحضرة قد عقدتها الحضارة وأصابتها بالانحلال ، ولم تكن تطويها عقيدة واضحة أو نزعة سالفة عميقة الأثر ، وكانت إلى ذلك فقيرة وغير مسرفة الثراء ، وبذلك كله أصبحت قادرة على أن تحمل لواء دعوة جديدة دون عناء من تبعات المعتقد أو الحضارة .

فإذا ألقينا نظرة على « الجزيرة العربية » وجدناها قبائل متصارعة ، ضعيفة ، تعيش على هامش الحياة ، تتطلع إلى الفرس والروم على أنهما مظهر القوة القادرة ، والثراء البالغ ، والترف الواسع ، وهي من دون ذلك معزولة ضعيفة لا تقوى الا على التجارة في أطراف الجزيرة رحلة الشتاء والصيف ، غارقة في الوثنية ، مضطربة بين الربا والبغاء ، والتفكك والصراع القبلي ، وإن كانت قريش على قدر من الثقافة والبلاغة تقول الشعر ، وتقيم أسواق الجدل وحلبات السجال ، ولم تخل من طوائف من الموحدين زهدوا في الوثنية ، وأحرار ضاقوا بظلم الطغاة والأثرياء يترقبون ساعة الخلاص .

* * *

كانت الجزيرة العربية « بؤرة الرسالة » تعيش بعيدة عن الأحداث وتحركات الدولتين المتصارعتين إلا ما تتأثر به أطرافها ، مبقية على وثنيتها ، لا تبلغ من صراع الأديان ما يدفعها إلى أن تتخلص من سلطانها ، فالكعبة في مكة قاعدة الوثنية ، ولكل قبيلة صنم تعبده ، اللات لثقيف ، ومناة للخزرج ، والعزى لكنانة ، وأساف ونائلة لأهل الصفا والمروة ، وسواع لبني هذيل ، ويغوث لبني مذجح ، ويعوق لهمدان ، ونسر لذي الكلاع ، ومن حول الكعبة ثلاثمائة صنم .

و « مكة » بعد مقر النفوذ الوثني الضخم يحج إليها الناس من كل مكان ، ثم هي مقر التجارة مع العالم كله ، شمالا إلى الشام ، وجنوباً إلى اليمن ، ومن هنا فهي متأثرة بأحداث الصراع السياسي والعقائدي ، يجري فيها الجدل حول المجوسية والمسيحية واليهودية ، ويصطرع الخلاف حول أفق الغد ، الذي تترقبه البشرية ، وقد ثبت فيها قبل البعثة رأي عام مثقف ، حمل لواء الخصومة للوثنية ودعا إلى شجب عبادة الأصنام ، قوامه ورقة بن نوفل أعلم أهل عصره ، وعثمان بن الحويرث وعبيد الله بن جحش ، وزيد بن عمر بن نفيل . ولكن قريشا كانت تصر على وثنيتها باعتبارها مصدر النفوذ والسلطان ، فهم سدنة البيت ، ولهم امتيازات قريبة من امتيازات الكهنة ، وفي حسبانهم أن الوثنية هي مظهر الزعامة والسيادة للجزيرة كلها . غير أن الأحداث لم تلبث أن هزت مجتمع مكة والجزيرة كلها ، حين زحف أبرهة من اليمن على مكة فحاصر الكعبة ، ثم انصرف عنها منهزماً ، وقد ترك آثاراً بعيدة المدى ، كانت إرهاصة العصر والجزيرة ، وعلامة على ما وقع بعدها بأربعين عاماً ، وفي نفس العام : ٥٧٠ م علم الفيل وُلِدَ « محمد بن عبد الله » الذي اختاره الحق لحمل لواء هذه الرسالة التي غيرت مجرى التاريخ .

برزت دعوة الاسلام في إبان الحاجة إليها ، حاجة الضرورة والتطور ، لتعيد إلى البشرية الثقة في الانسانية ، وتفتح من جديد آفاق الحرية والعدل والكرامة ، رسالة جديدة في صياغتها ، قديمة في مصادرها وجذورها ، من خلال قيادة محمد بن عبد الله ، ومنهج « القرآن » تستهدف دفع البشرية خطوات إلى الأمام في طريق الانسانية .

ومن خلال الصورة التي كانت تحياها البشرية في القرن السادس الميلادي التقى التاريخ في مسيرته بالاسلام ، ومنذ بزغ فجر الاسلام إلى اليوم وهو بالغ الأثر في حركة التاريخ وفي تطور الانسانية ، غير منفصل عن العالم في مسيره ومصيره . نعم ، منذ ظهر الاسلام إلى اليوم في خلال أربعة عشر قرناً ما زال مؤثراً في مجرى التاريخ لم يتوقف أثره في كل أحداث العالم والانسانية منذ ظهوره إلى اليوم . فالاسلام هو حركة التاريخ نحو الحرية ، تحرير الانسان من ربقة الظلم والاستعباد ، وبذلك فهو انطلاقة إنسانية بعيدة المدى في كل الأمم والشعوب

التي اتصلت به . ولقد كان لبزوغه في محيط الأمة العربية دلالة واضحة ، هي اصطفاء هذه الأمة لحمل رسالته ، ومن ثم بعث « محمد » من أهلها ونزل القرآن بلغتها ، فكانت الجماعة الاسلامية الأولى التي صاغها الاسلام في الجزيرة العربية هي القوة الدافعة التي حملت هذه الرسالة وسارت بها الى الآفاق لتحقق بها حركة التاريخ نحو الحرية والاخاء والمساواة ، وبناء حضارة جديدة وفق مضمون انساني عالمي يجمع بين الروح والمادة والعقل والقلب والدنيا والآخرة .

## ( ٢ )
## « بناء الجماعة الاسلامية

يمكن أن توصف المرحلة التاريخية التي تبدأ من بعث الرسول الى اختياره الرفيق الأعلى بمرحلة « بناء الجماعة الاسلامية » ففي خلال ثلاث وعشرين عاماً أمكن بناء مجتمع جديد ، بدأ في مكة في قلب الجزيرة العربية ، وفي دار الأرقم بمكة ، ثم امتد في مرحلتين : مرحلة مكة ( ثلاثة عشر عاماً ) ومرحلة المدينة ( عشرة أعوام ) تتوسطهما « الهجرة » وهما مرحلتان متكاملتان لا انفصال بينهما ، تكمل الثانية الأولى ، وتعد امتداداً ونمواً ونتيجة لها . يمكن أن يطلق على الأولى مرحلة بناء الفرد المسلم ، والأخرى مرحلة بناء الجماعة الاسلامية ممثلة في الأمة العربية التي تقيم في الجزيرة العربية .

وكلتا المرحلتين تسيران في تدرج واضح من الدعوة السرية في مكة إلى إنذار العشيرة الأقربين ، ثم إعلان الدعوة واحتمال الأذى ، والتعذيب ، والهجرة إلى الحبشة ، والمقاطعة في الشعاب ، ثم بدأت دعوة الرسل للوافدين في موسم الحج ، وظهور عصبة مؤمنة في يثرب استطاعت أن تبرز بعد ثلاثة مواسم في قوة ، تبايع الرسول بالحماية والنصرة له ، وللدعوة إذا هاجر إليهم ، ثم تكون الهجرة تأميناً للدعوة . وفي يثرب « المدينة » يبدأ الرسول في إتمام رسالته في ثلاثة جوانب : ( ١ ) - بناء المجتمع الجديد . ( ٢ ) - تأمين الدعوة بالسرايا والغزوات . ( ٣ ) تشكيل ( ايديولوجية الاسلام » فكراً وشريعة وديناً ومجتمعاً .

وفي مكة تبدو الأحداث خلال ثلاثة عشر عاماً كشريط متتابع دقيق لمحاولة رائدة في غزو فكرة جديدة مليئة بالايجابية والسمو والتقدمية لمجتمع راكد مغلق ، فيه ـ شأن كل هذه المجتمعات ـ عنف المقاومة للجديد ، وصلابة العداء لكل ما يغيره عن اوضاعه ، بيد أن هذه الخصومة وهذه المقاومة إنما تتمثل في الطبقة التي تسود المجتمع وتحكمه وتسيطر عليه ، والتي تجد في الدعوة الجديدة انهياراً لسلطانها وزوالا لنفوذها وثرائها . أما الطبقات الفقيرة المغلوبة المغبونة . فقد وجدت في الدعوة الجديدة : ضياء ونوراً ، فسارع هؤلاء الفقراء والأذلاء الى جناح الرجل الذي حمل لواء كلمة التوحيد ، وانضموا إليه ، ولم يكن هذا الرجل قادراً ـ إذذاك ـ على أن يحمي نفسه فضلا عن أن يحمي أعوانه المنضوين تحت لواء الاسلام . ومن هنا بدأت عملية تعذيب واضطهاد طويلة امتدت خلال هذه الفترة أو أغلبها في أكثر من صورة ، في صورة تعذيب الموالي حتى كان يعتقهم الموسرون من المسلمين ، وفي تحالف قريش على مقاطعة بني هاشم ، فأقاموا ثلاث سنين محصورين في شعاب مكة لا يبتاعون ولا يباع لهم ، ولا يعاملون معاملة اقتصاد أو اجتماع .

وفي دار الأرقم وفي الشعاب كان الرسول يعلم أصحابه الصبر ويعدهم للدعوة ويمكن في أعماق نفوسهم لايمان عميق يستطيع أن يندفع بعد قليل في الأرض وفي مرتين أتاح الرسول لأصحابه التحرر من هذا المجتمع الظالم ، كانت الأولى بالهجرة إلى الحبشة حيث هاجر أحد عشر رجلا وأربع نسوة . والمرة الثانية بالهجرة إلى يثرب ، وكانت هجرة شاملة بعد أن تحقق بها قيام جماعة إسلامية صغيرة حملت لواء الحماية والاستعداد لاستقبال المسلمين .

وكان اسلام حمزة وخالد من أهم نقط الارتكاز في بناء هذه الجماعة ، وكانت اصابة الرسول بوفاة زوجته خديجة وعمه ابي طالب في علم واحد من الوقائع البعيدة الأثر في مسار الدعوة . غير أن الأعوام الثلاثة عشر في مجموعها قد استطاعت أن تنقل الدعوة من مرحلة السرية إلى دعوة العشيرة إلى إعلان الدعوة الشاملة وأن تحملها من مرحلة الى مرحلة تنمو ويزداد أنصارها . وكانت قريش تنظر الى الدعوة اول الامر ساخرة ، فلما بدأ عُودُها يورق ، وجذرها يثبت تآمرت للقضاء عليها ، واشتد الأذى على من في مكة من المسلمين وكان الرسول ـ وهو

صاحب دعوة عالمية إنسانية ـ قد أخذ يعرض نفسه على القبائل القادمة إلى مكة لزيارة في موسم الحج . ومن هنا بدأ ضياء خافت من قِبَلِ يثرب . ثم توسع خلال عامين بزيادة « الأنصار » الذين دعوا النبي من تلقاء أنفسهم ، دعوة أكيدة ملحة إلى الهجرة إليهم وعقدوا معه بيعة تعاهدوا فيها بنصرته وحماية اتباع الاسلام بما يحمون به أهلهم وعشيرتهم ، هنالك أذن النبي لأصحابه في الهجرة ، فتجهزوا في خفاء وستر ، وتسللوا ، وكان بين أولهم وآخرهم أكثر من علم ، مضوا خلاله يترافدون بالمال والظهر ، ويترافقون . هنالك اشتد الخطر على قريش حين أفلت هؤلاء . فأزمعوا قتل حامل اللواء وصاحب الدعوة ، وتآمروا للقضاء عليه في مؤامرة جماعية يضيع بها دمه بين القبائل ، وأستطاع الرسول في يقظة القائد وعمق البصيرة ان يفلت من المؤامرة ، وأن يشق طريقه الى يثرب حتى بلغها ، حيث أقام الجماعة الاسلامية ، ولم يكن هذا آخر العهد بقريش ، ولكنه كان في الحق أول العهد بمقاومة خصومتها وعدوانها وتآمرها المركز لتقويض دعائم الجماعة الجديدة بالتآمر مع القبائل المجاورة في الجزيرة خارج يثرب ، وبالتآمر مع اليهود داخل يثرب ذاتها .

كان بيت « الأرقم بن أبي الأرقم » هو مقر الدعوة الاسلامية الأول ، حيث اجتمع النبي بمن آمنوا به من شباب خلال ست سنوات وهي فترة الدعوة السرية حتى أسلم عمر بن الخطاب . وقد أتاحت هذه الفترة فرصة تكوين هذه الجماعة التي لم تلبث ان انداحت في الارض بعد أقل من خمسة عشر عاماً حاملة لواء الاسلام الى كل مكان .

فكانت دار الأرقم بذلك المدرسة الاسلامية الأولى التي جمعت القادة والعلماء وبناة الدول من بعد ، وقد علمهم النبي في هذه الفترة : دروس الصبر والايمان والثبات والايثار ، فقد بناهم بالقرآن أمةوسطا فأقاموا مجتمعاً صغيراً بعد ان انفصلوا من أهليهم ، ولم يكن لأغلبهم مورد أو مال ، فكان الرسول يضم الغني إلى الفقير ، ويرسل أحدهم هنا أو هناك يعلم القرآن . ومن ثم شهد نظام « المؤاخاة » أول صورة له في هذا المجتمع ، ثم تحول إلى نظام المؤاخاة بين المهاجرين والأنصار في مجتمع المدينة ، فقد خلط الجميع بين طعامهم وشرابهم

وملابسهم وأدواتهم ، فلما جهر النبي بالدعوة بعد أن انضم إليها حمزة بن عبد المطلب وعمر بن الخطاب ، خرجوا إلى الكعبة فصلوا بها وفرضوا على مجتمع الوثنية صورة جديدة شابة .

هذه المجموعة الشابة المؤمنة التي انضوت تحت لواء الاسلام حين دعاها « محمد رسول الله » تمثل أبرزصحابة النبي الذين اشتركوا من بعد في الهجرة والغزوات والفتوح . وقد برز في هذا الرعيل : علي بن أبي طالب ، والزبير بن العوام ، والسائب بن عثمان بن مظعون ، طلحة بن عبيد الله ، الأرقم بن أبي الأرقم ، عبد الله بن مسعود ، سعيد بن زيد ، سعد بن أبي وقاص ، عبد الله بن مظعون ، مسعود بن ربيعة ، جعفر بن أبي طالب ، صهيب الرومي ، قدامة بن مظعون ، زيد بن حارثة ، عثمان بن عفان ، عامر بن أبي وقاص ، السائب بن مظعون ، طليب بن عمير ، خباب بن الأرت ، عامر بن فهيرة ، مصعب بن عمير ، المقداد بن الأسود ، عبد الله بن جحش ، عمر ابن الخطاب ، أبو عبيدة بن الجراح ، عتبة بن عزوان ، أبو حذيفة بن عتبة ، بلال بن رباح ، عمر بن سعيد ، خالد بن سعيد ، عباس بن أبي ربيعة ، عامر بن ربيعة ، نعيم بن عبد الله ، عثمان بن مظعون ، ابو مسلمة بن عبد الأسد ، عبد الرحمن بن عوف ، عمار بن ياسر ، أبو بكر الصديق ، حمزة بن عبد المطلب ، عبيدة بن الحارث ، ابو ذر .

كما أسلمت منذ بدء الاسلام :خديجة بنتُ خويلد، أم أيمن ، أسماء بنت أبي بكر ، فاطمة بنت الخطاب ، أسماء بنت عميس ، أم سلمة بنت حذيفة ، أسماء بنت سلامة ، أمينة بنت خلف، فاطمة بنت سوان ، ليلى بنت أبى حثمة ، وقد جمع الاسلام في مجتمعه الاول : بلال الحبشي ، وصهيب الرومي ،وسلمان الفارسي ، فتمثل بذلك رمز الطابع الانساني في دعوة الاسلام ، وبدأت نقطة الامتداد من الجزيرة العربية الى العالم كله من خلال مختلف الأجناس والشعوب ، وقد كان هذا الجيل مقدمة لجيل ثان تكون من خلال سنوات اعلان الدعوة والهجرة ، وما بعد الهجرة . وقد أبى هذا الجيل في أحضان هذا الرعيل ، وظل ينظر إليه نظرة الاعجاب بالسبق ، وكانت المشاركة في « بدر » رمزاً للمدرسة الأولى لبذل النفس والاستشهاد . فأعطي أهل بدر درجة مميزة في تاريخ الاسلام .

ومن أبرز شباب الجيل الثاني الحسن بن علي ، والحسين بن علي ، وعبد الله بن الزبير ، وزيد بن ثابت ، وعبد الله بن عمر ، وعبد الله بن العباس ، وعائشة .

## الجماعة الاسلامية في مكة

( ١ ) نزول الوحي بالقرآن . . ٦١٠م
( ٢ ) الجهر بالدعوة . . ٦١٣م .
( ٣ ) هجرة الحبشة . . ٦١٥م
( ٤ ) اسلام عمر . .
( ٥ ) صحيفة المقاطعة . .٦١٦م .
( ٦ ) نقص الصحيفة . . ٦١٨م
( ٧ ) وفاة ابي طالب وخديجة . . ٦١٩م
( ٨ ) الاسراء . . .
( ٩ ) بيعة العقبة الأولى . . ٦٢٠م
( ١٠ ) الهجرة . . ٦٢٢م .

* * *

مرت الدعوة الاسلامية في مكة خلال ( ١٣ عاماً ) بعشرة مواقف حاسمة :

( ١ ) ـ عند ما هبط الوحي على محمد في غار حراء في سنّ الأربعين بالقرآن ( ٦١٠م ) .

كان ذلك نقطة البدء في مرحلة جديدة من مراحل تاريخ الانسانية من ازهر هذه المراحل وألصقها أثراً ببناء الحضارة الانسانية ، واعطاء البشرية عالمية انسانية قوامها : التوحيد والمساواة . وكان محمد بن عبد الله « النبي » الذي حمل هذه الرسالة ، إنساناً ممتازاً ، قد هيأته عوامل كثيرة لكي يكون أقدر الناس على حمل هذه الأمانة ، أبرز هذه العوامل أنه لم يكن منتمياً إلى دين سابق أو إلى عبادة الأوثان ، وكان في تقدير الجماعة التي اختير لتبليغ الاسلام إليها غاية في الأمانة والشرف ، ملتمساً ذلك من مكانة أسرته وقبيلته ، ومن سلوكه الشخصي والاجتماعي ، وكان إلى ذلك تاجراً عرف الرحلة ، ومعاملة الناس ، واتسعت

آفاق فكره وحياته . وقد مرت الدعوة في ثلاث مراحل خلال ثلاث سنوات : ( الدعوة السرية ، اعلان الدعوة للعشيرة الأقربين ، ثم الجهر بالدعوة للناس جميعاً ) وقد واجه هذه المراحل بإصرار وثبات ، وصادف من البيئة جموداً ومعارضة تمثلت في ردود فعل مختلفة ، أقلها تعذيب أتباعه ، ثم مقاطعتهم ، ثم محاولة قتله بوصفه صاحب اللواء ، فإذا سقط انتهت دعوته .

( ٢ ) ـ الجهر بالدعوة ( ٦١٣م ) .

وكان جهر محمد بالدعوة إعلاناً واضحاً بالمعارضة لكل مفاهيم قريش وقضاء على السيادة القبلية وهي أبرز مفاهيم العالم في ذلك الوقت ، كانت دعوته تحمل بذور أمرين خطيرين يمثلان المقاومة والشجب للمفاهيم التقليدية التي يفرضها سلطان الرؤساء ونفوذ الطبقات الحاكمة . ( ١ ) عبادة الله وحده لا شريك له ، ونبذ عبادة الأوثان ، وفي هذا مقاومة للوثنية وللدعوات المنحرفة باسم بعض الأديان ، وقضاء على نفوذ سدنة الكعبة ( ٢ ) المساواة بين الناس جميعاً ، لا أبيض ولا أسود ، ولا غني ولا فقير ، وفي هذا هدم لنظام الطبقات التي تفرض للسادة نفوذاً وسلطاناً ، وتجعل ممن دونهم عبيداً وخدماً لا حقّ لهم في شيء ما .

وقد تابع النبي على دعوته : العبيد والضعفاء لأنهم وجدوا في صيحته وسيلة الى تحررهم . وقد واجه الرسول والذين اتبعوه من المستضعفين والفقراء حملة متصلة من الاضطهاد لم تزدهم الا صلابة وثباتاً على ما آمنوا به ، واحتمل العبيد الأذى في سبيل ماوهبهم الاسلام من حرية ، وقاوموا إلى أبعد حد ، واستطاع المسلمون بعد قليل ان يجتمعوا في دار الأرقم بن أبي الأرقم بحسبانها أول جامعة لتكوين الفرد المسلم وبنائه عقلياً وروحياً ، وعذب بلال وخباب بن الأرت ، ومات ياسر وهو يعذب وطعنت زوجته ، وتعرض لايذاء قريش أبو بكر وعثمان والزبير وأبو عبيدة . ولم يكن أمام المسلمين الا الصبر والانتظار حتى يؤذن لهم بالدفاع عن أنفسهم . فلما ازداد الأذى بالمسلمين أذن الرسول لهم بالهجرة إلى الحبشة .

( ٣ ) ـ هجرة الحبشة ( السنة الخامسة بعد البعثة ) ٦١٥م

فكانت هجرة الحبشة علامة على مفهوم الدعوة الاسلامية في الحركة ، وفي

رفض الجمود على موقف الذل ، وترك البيئة التي لا تحقق الامن لأفرادها ، ولا النمو للدعوة . وكانت تجربة لها أهميتها في مسير الدعوة ، فقد كشفت عن جوهر الاسلام في آفاق جديدة ، وفتحت الطريق لهجرة أكبر من بعد قد ضمت الهجرة إلى الحبشة عثمان بن عفان والزبير بن العوام وعبد الرحمن بن عوف وجعفر بن أبي طالب . وقد هاجروا إلى الحبشة مرتين ( ابن هشام وابن القيم في زاد المعاد ) وحاولت قريش ان تسترد المسلمين . فكان ذلك مجالا لحوار واسع مع النجاشي حول مفاهيم الاسلام ، كشف عن جوانب جديدة للصورة أكدت نبوة النبي وصدق ما جاء به .

( ٤ ) ـ اسلام عمر

وكان إسلام عمر رأس مرحلة جديدة . فقد أتاح للمسلمين الخروج من « الاختباء » في دار الأرقم إلى « جهارة » الدعوة والصلاة في الكعبة . وكان عمر بعد حمزة علامة على التطور الطبيعي للدعوة التي استطاعت أن تكسب من محيط جديد غير محيط الضعفاء ، وأن توسع نطاقها وآفاقها ، وحاولت قريش الضغط على الرسول وإغراءه بالعروض ، وفي هذه المناسبة قال كلمة الحرية الخالدة « والله لو وضعوا الشمس في يميني والقمر في شمالي على أن أترك هذا الأمر حتى يظهره الله أو أهلك دونه ما تركته » ولما لم يجد الاغراء بالمناصب والمال والجاه بدأت حملة الهجوم والايذاء والتهديد .

( ٥ ) ـ صحيفة المقاطعة ـ ٦١٦ م

هنالك كان لا بد أن تضغط قريش بقوة فتفرض المقاطعه على المسلمين ، هنالك تحالفت قريش على مقاطعة بني هاشم فأقاموا ثلاث سنوات محصورين في الشعاب لا يبيعون ولا يتبايعون ، فقد وقعت بذلك قريش « وثيقة » التزمت بها مكة ، وكانت تلك قمة الاضطهاد كجزء من خطة الضغط السياسي من جانب قريش ، وكانت مقاومة المسلمين حلقة من تجربة التكوين النفسي او الروحي والاجتماعي الذي اعده الاسلام للمؤمنين به ، وهي المرحلة التالية للاضطهاد الفردي ، تتمثل في الاضطهاد الجماعي . غير ان صمود المسلمين ـ والرسول على رأسهم قدوة ومعلما ـ كشف عن فشل هذه المحاولة ، وجمع للمسلمين قلوبا جديدة ، وفتح الباب مرة أخرى أمام المسلمين لمرحلة جديدة .

( ٦ ) - نقض الصحيفة ٦١٨ م

وكان حدث نقض الصحيفة انفتاحاً للطريق أمام الدعوة الاسلامية إلى نصر جديد ، ثم بلغت ذروة المساءة والاضطهاد عام ٦٢٠ م .

( ٧ ) - وفاة عمه ابي طالب وزوجته خديجة

وكلاهما كان سنداً قوياً لمحمد ، أضف إلى ذلك ما لقي من أهل الطائف ، إذ دعاهم إلى الاسلام فردوه رداً غير جميل . هنالك فتح لمحمد الطريق إلى نهج جديد عريض هو عرض دعوته على القبائل في موسم الحج ، ولم يكن هذا الطريق يسيراً ولا سهلا . فقد سار وراء عمه عبد العزى بن عبد المطلب أبو لهب - أينما سار يرد الناس عنه . ويكذبه ويحرض الناس عليه أينما ذهب ، وكان لذلك رد فعل عكسي هو : اتجاه الناس إليه ومحاولة استكشاف كلمته . وصمد محمد لهذا النهج ، وزاد عليه أن زار بعض قبائل العرب فأتى « كندة » في منازلها وكلبا وبني حنيفة وبني عامر بن صعصعة وردوه جميعاً رداً غير جميل .

( ٨ ) - الاسراء

وكان حادث الاسراء بالرسول امتحاناً جديداً لأصحابه وخصومه على السواء ، وكانت هذا المحن والاحداث كلها غربلة لا بدّ للتابعين للاسلام والموالين لمحمد حتى تستصفي جماعته على تلك النماذج التي عرفت من بعد بالبطولة والنبل والتصميم .

( ٩ ) - بيعة العقد الأولى ( أول وفد من يثرب ) ٦٢٠ م

وكان ثبات محمد على دعوته رغم كل ما لقيه ، هو مصدر النصر ، ذلك النصر الذي تمثل في إيمان جماعات من أهل يثرب بدعوة الاسلام ونصرة رسوله في مراحل ثلاث . فقد قدم في السنة الحادية عشرة للبعثة نفر من الخزرج يريدون الحج فاستقبلهم النبي ودعاهم إلى الله فآمنوا وعادوا ، فإذا ذلك بين قومهم ، وتنافس الأوس والخزرج في الاستباق الى الاسلام ، وفي السنة التالية تمت بيعة العقبة الأولى وكانت اثني عشر رجلا ومعهم امرأة « عفراء بنت عبيد » قدموا الى رسول الله واجتمعوا به عند العقبة وعاهدوه : « لا نشرك بالله شيئاً ولا نسرق ولا

نزني ولا نقتل أولادنا ولا نأتي ببهتان نفتريه بين أيدينا وأرجلنا ولا نعصيك في مكروه » .

( ١٠ ) ـ الهجرة ـ **٦٢٢** م

وأرسل الرسول معهم مصعب بن عمير يقرئهم القرآن ، ويعلمهم الصلاة ، وقد هز مصعب يثرب وجمع إليه رؤساءها فاستمع الناس إليه وانضووا تحت لواء الدعوة الجديدة . وفي السنة الثالثة عشرة للبعثة تمت البيعة الثانية وكانت في ثلاثة وسبعين رجلا وامرأتين قدموا من يثرب ودعوا رسول الله الى الهجرة ، وبايعوه زعيماً ونبياً وعاهدوه انهم ينصرونه ويحمونه ويحاربون لأجله الأبيض والأحمر من الناس ، قال العباس لوفد بيعة العقبة الكبرى : إن محمداً منّا كما علمتم ، وقد منعناه من قومنا فهو في عز من قومه ومنعة في بلده ، وإنه قد أبى الا الانحياز اليكم واللحوق بكم ، فاذا كنتم ترون أنكم وافون له بما دعوتموه إليه ، وما نعوه ممن خالفه فأنتم وما عملتم في ذلك ، وإن كنتم أنتم مسلموه وخاذلوه ، فمن الآن فدعوه . قال الوفد : « تكلم يا رسول الله فخذ لنفسك ولربك ما أحببت من العهود والمواثيق » . قال الرسول : « أبايعكم على أن تمنعوني مما تمنعون منه نساءكم وأولادكم » فبايعوه على هلاك الأموال وقتل الأشراف والاحتمال في كل حال .

# ( ٣ )

## الجماعة الاسلامية في المدينة - « الهجرة »

( ١ ) بناء المسجد
( ٢ ) نظام الاخاء
( ٣ ) العقد السياسي
( ٤ ) فرص الجهاد
( ٥ ) بناء المجتمع الاسلامي
( ٦ ) الغزوات : بدر - احد - الخندق
( ٧ ) دعوة الملوك الى الاسلام
( ٨ ) فتح مكة
( ٩ ) تبوك وتأمين شمال الجزيرة
( ١٠ ) الوفود ومبايعة الجزيرة بعامة .

* * *

لم تكن « الهجرة » الا مرحلة طبيعية من مراحل تطور الدعوة في سبيلها الى غايتها ، كانت مرحلة مكة في أعوامها الثلاثة عشر تمهيداً طبيعياً للكلمة ، وإعداداً لمعتنقيها ، وهزاً لمجتمع مكة حتى يلتقي بالاسلام بعد الهجرة بسنوات وحتى يكون ذلك مقدمة لوحدة الجزيرة العربية كلها خلال الاعوام الثلاثة

والعشرين . فتصبح « الجماعة الاسلامية الأولى » هذه التي كونها الرسول ، هي قائدة التوسع الاسلامي الى الآفاق ، وحاملة لواء الحضارة والفكر الى الفرس والترك والبربر .

وقد كانت الهجرة تطبيقاً حقيقياً لمفهوم الاسلام ، وهو : الحركة ، وتغيير الوطن اذا استعصى على الفكرة انطلاقها إلى غايتها أو أصاب صاحبها الاضطهاد. لقد كان لقاء الرسول للوافدين الى مكة في مواسم الحج من مختلف الأقطار ، وعرض الاسلام عليهم هو منطق الاسلام إلى الانسانية كلها ، وهو اتجاه الرسول بالاسلام الى وطن جديد أكثر تقبلا لفكرته ، حتى إذا وجد تجاوباً وقبولا من أهل يثرب ، سارع فدعا أتباعه الى الهجرة إليها ، تخليصاً لهؤلاء المؤمنين الضعفاء الفقراء من اضطهاد أهل مكة ، فلما قامت الجماعة الاسلامية في المدينة ، كانت نموذجاً للمجتمع الاسلامي الأمثل ، من حيث بناء الكيان الداخلي على مستوى الترابط الكافي بالمسجد والترابط الفكري بالقرآن والاجتماعي بالاخاء . ثم التعاقد مع أهل الوطن بوثيقة مكتوبة تقوم على أساس المشاركة في العمل الاجتماعي والوطني ، وبقي بعد هذا ـ لاستكمال اطار الجماعة ـ حماية هذا المجتمع من الغزو الخارجي ، وكانت قريش التي حاربت الدعوة وحالت بينها وبين أن تقوم في مجتمع مكة ، ثم حاولت القضاء على صاحب الدعوة بعد إذنه لأصحابه بالهجرة ، قد توعدت هذه الدعوة بالقضاء عليها في مجتمعها الجديد . فكان لا بد للجماعة الاسلامية أن تدافع عن نفسها ، وأن تديل من خصومها ومن ثروتها لقاء ما صادرت من ثرواتهم .

وقد تمت بيعة أهل يثرب للمسلمين على مراحل ثلاث في سنوات ثلاث . وتمت البيعة الكبرى حين تقدم اليثربيون للرسول داعين إياه وقومه الى ارتضاء بيئتهم مكاناً لدعوته . وقد اشترك فيها النساء مع الرجال ، وكان تعهدهم فيها واضحاً أنهم يحمون النبي والمسلمين مما يحمون منه أهلهم وأبناءهم ، وكانت دعوة الاسلام خلال ذلك قد انتشرت في المدينة واتسع نطاقها . ومن هنا قامت الجماعة الاسلامية على دعائم وطيدة . وقد جرى نماء الجماعة الاسلامية في المدينة من نقطة الهجرة منطلقاً حتى تمت بوحدة الجزيرة العربية كلها للاسلام واذعانها بالولاء له . كقوة موحدة ضاربة ، استكملت عوامل القوة النفسية القادرة على العمل من أجل اذاعة الاسلام ، تحمل إيماناً لا حد له بصدق الدعوة ، وتحمل

بيعة كاملة تقدم أرواحها مستشهدة في سبيل النصر والتوسع .

ولا شك كانت مرحلة « بناء الجماعة الاسلامية » امتداداً طبيعياً وتطوراً متصلا لحياة الدعوة الاسلامية التي بدأت من خلال مجتمع مكة المضطرب الذي اهتزت قواعده حين انفصل عنه هؤلاء الذين والوا الدعوة الجديدة .

وقد استمر نمو هذه الفئة القليلة المستضعفة في مجال الاضطهاد ، وبين عوامل الانتصار حتى تمت الهجرة التي كانت تعبيراً صلباً جهيراً على قدرة الدعوة على الحركة لاستنقاذ نفسها من الاضطهاد والفناء ، وإتاحة الفرصة للمستضعفين في جو مؤمن قادر على حمايتهم ، وكنقطة بدء لبناء مجتمع جديد في أرض أشد خصوبة وأوفر قدرة على استقبال الدعوة ونموها في يثرب .

## بناء المسجد

وكان بناء المسجد هو الخلية الأولى للبناء الاجتماعي للأسرة والجماعة بوصفه أداة صهر المؤمنين بالاسلام في وحدة فكرية واحدة من خلال حلقات العلم والقضاء والعبادة والبيع والشراء ، وإقامة المناسبات المختلفة ، فالمسجد هو مكان الندوة العامة ، ومجال المشاورة ، ومقر عقد الألوية للجيوش ، وارسال البعوث ، فلم يكن المسجد معبداً أو مقراً للصلاة وحدها ، بل كان شأنه شأن الاسلام نفسه ، متكاملا في مختلف جوانب الدين والسياسة والاجتماع .

## نظام الاخاء

ثم قام في الوقت نفسه تنظيم الحياة الاجتماعية الاقتصادية للمسلمين الذين يتمثلون في المهاجرين القادمين من مكة والأنصار ( الأوس والخزرج ) وقد تم على مرحلتين : « المرحلة الأولى » هي دعم الوحدة بين الأنصار وإصلاح ما بينهم ، والقضاء على خلافاتهم ، وإذابة العوامل القديمة والتقليدية في بوتقة الوحدة ممثلة في كلمة « الأنصار » ثم إجراء عملية صهر كبرى بين هذه الجماعة الجديدة ( الأنصار ) بوصفها المستقبلة للمهاجرين على أرضها ، وبين ( المهاجرين ) . وقد أقام النبي نظام الاخاء أو المؤاخاة حين عمد رابطة أخوة قوامها رجلان أحدهما مهاجر والآخر من الأنصار . وقد بدأت هذه الرابطة على

نحو إيجابي يتمثل في تحقيق المعيشة والعمل لهما معاً ، وكان المهاجرون الذين تركوا أموالهم في مكة لا يملكون شيئاً . فاقتسم الأنصار أموالهم معهم على نحو أو آخر ، وكان تصرف الأنصار في هذا الموقف مثلا عالياً من المروءة والكرم والايثار ، فلم يلبث المهاجرون أن شاركوا في التجارة وعملوا في مزارع الأنصار على نظام المؤاجرة أو الزراعة ، ولم تلبث أن انتظمت حياتهم الاقتصادية ، كما انتظمت حياتهم الاجتماعية بإقامة أسر جديدة ، والاصهار إلى الأنصار ، وقد حققت هذه الخطوة « انصهار الجماعة الاسلامية » في وحدة شاملة على أساس رباط العقيدة بعد أن كانت الروابط تقوم على أساس المفهوم القبلي .

## مجتمع المدينة : المهاجرون - والانصار - واليهود

## ( ٣ ) النقد السياسي

ثم لم يلبث الرسول أن عقد مع مختلف الأطراف في المدينة عقداً هو أشبه بدستور دولة . وقد دخل في هذه « الصحيفة » - كما أطلق عليها المؤرخون - مختلف القبائل والبطون والعشائر ، حيث أقر الدستور لكل من الأطراف الثلاثة شخصيتهم ودورهم في بناء وممارسة الحياة في المجتمع الجديد ، وقد أبرز هذا العقد « أمة الاسلام » لأول مرة أمة واحدة ، يجمعها رباط التعاون والتضامن والتكافل ، كما رسم الروابط بين المسلمين وبين اليهود في نظام الجماعة اليثربية ككل ، وكان في مجموعه صورة تطبيقية لمفهوم الاسلام في إقرار نظام سياسي واجتماعي يشترك فيه المسلمون وغيرهم على سنة المساواة والتعاون ومراعاة حقوق الجوار .

ويعد هذا العقد أول نظام مكتوب قامت على أساسه دولة منذ أول تكوينها ، كما يمثل تطوراً كبيراً في مفاهيم الاجتماع والسياسة ، فهذه جماعة تقوم لأول مرة في الجزيرة العربية على غير نظام القبيلة ، وعلى غير أساس رابطة الدم ، حيث انصهرت طائفتا الأوس والخزرج في جماعة الانصار ، ثم انصهر الأنصار والمهاجرون في جماعة المسلمين ، ثم ترابطت هذه الجماعة المسلمة مع اليهود الذين يشاركونهم الحياة في المدينة إلى أمد ، ولأول مرة يحكم القانون حيث ترد الأمور إلى الدولة ويرجع بالرأي الأخير إلى رئيسها . وبذلك بدأ قيام مجتمع

جديد على مفاهيم جديدة ، بعيداً عن القيم القبلية ، ومن خلال تغيير شامل وتحول سريع يطوي صفحة اجتماعية طابعها القبلية ويفتح صفحة جديدة أكثر إيجابية ، وأقرب إلى الترابط والتكافل والوحدة الفكرية ، تنمو خلالها العلاقات الانسانية وترتفع فوق مفاهيم الثأر والعصبية والفردية والقبلية .

## ( ٤ ) فرض الجهاد ، وبناء الجيش القوي

وكان من أهم ما شغل الرسول في مرحلة « بناء الجماعة الاسلامية » هو تأمين أمرين هامين ( ١ ) أمر الجماعة وأمر الدعوة الاسلامية وفتح الطريق الآمن لتوسعها ولاعطاء الراغبين في اعتناقها الاحساس بالأمن والحماية ( ٢ ) وخلق جو الهيبة التي ترهب خصومها فيحجمون عن الانتماء بها أو الانقضاض عليها . وقد فرض « الجهاد » لتأمين الدعوة الاسلامية ، وحماية حدود المجتمع الجديد ، ومواجهة من يقف في سبيله أو سبيلها ، وأعطى انطلاقة كبرى ، هي أن على معتنقي الاسلام والمؤمنين به رسالة متجددة على الزمن ، هي أن يجاهدوا في سبيل كلمة الله وإذاعتها في الآفاق ، وكان هذا العمل مقدمة للخطوة التالية مباشرة وهي : توحيد الأمة العربية في كيان نفسي وفكري واجتماعي . غير أن « الجهاد » لم يفرض إلا بعد مرحلة طويلة من الاعداد النفسي والاجتماعي له بوصفه دفاعاً عن النفس ، وتأميناً للدعوة الاسلامية ، وأنه ليس هدفاً مسبقاً للدعوة ، بل هو آخر المراحل حين يقف خصوم الاسلام في وجهه يحولون دون انتشاره ، أو حين يحاولون الانقضاض على بنائه وجماعته .

وقد أمضى المسلمون مرحلة « الاعداد والدعوة » في مكة في احتمال عجيب للأذى دون أن يسمح لهم الرد بالمثل ، ثم كانت الهجرة محاولة جريئة لتحرير الدعوة من عوامل القضاء عليها ، واستنقاذها بالحركة وبناء الجماعة في مكان أكثر قبولاً لها وأكثر أمناً واستعداداً لدور جديد من أدوارها في سبيل وحدة « أمة العرب » : وحدة اجتماعية وجغرافية تمثل القوة الأولى التي ستتحرك الى آفاق الأرض تحمل أمانة الدعوة ، غير أن انتقال الدعوة إلى يثرب لم يوقف خصومة قريش لها ، بل زادها رغبة في تقويض دعائمها ، هنالك كان لا بد من الدفاع عن النفس ، وتأمين الدعوة الاسلامية ، فأذن للذين يقاتلهم خصومهم ظلماً أن

يواجهوا الموقف على مستواه في تقدير دقيق . وهو ليس إذناً مفتوحاً بغير قيود : « وقاتلوا في سبيل الله الذين يقاتلونكم ولا تعتدوا » .

ومن هنا كان نظام « السرايا » الذي هو أشبه بدوريات « أمن وحماية » لمجتمع المدينة وحدودها الخارجية فضلاً عن تدريب المسلمين وإعدادهم على المقاومة المسلحة ، وذلك بعد أن تم إعدادهم فكرياً وتربوياً ، وبناء شخصيتهم الاجتماعية الصلبة في مجتمع مكة . وقد جرى ذلك مع تقدير محسوب للدور الذي سيلقى على هذه الطلائع بعد تمام الدعوة للاندفاع في آفاق الأرض من أجل إذاعة الدعوة وتحطيم العوائق التي تقف أمام نشرها . وقد كانت فريضة الجهاد موجهة أساساً للدفاع لا للهجوم ، وفي مفهوم الاسلام كله لم يكن هدف الاسلام الهجوم ، ولا هو من أساليبه وغاياته . فالاسلام أساساً : « عقيدة فكر » لا يتحقق قبولها إلا بالانقطاع العقلي والتقبل النفسي ، وقد حرص الاسلام على أن يترك أصحاب العقائد في حرية مع عقائدهم ، بل ومع حمايتهم ، وكل وثائق الرؤساء في الحرب والحكم والقادة تحمل في تضاعيفها تأكيد هذا المفهوم في وضوح تام .

وكان الرسول شديد الايمان بأن الاسلام بوصفه توحيد الله وعدالة اجتماعية سيجد من قلوب الطبقات المختلفة تقبلاً وإيماناً ، وأن المقاومة لن تصدر إلا من الآخذين بيدهم زمام السلطة والنفوذ والمستغلين والطغاة ، هؤلاء الذين يخشون من ضوء الاسلام على مراكزهم وثرواتهم ، والذين يتشبثون بالقيم القديمة البالية للابقاء على نفوذهم . أما القوى الشعبية الغالبة التي تعيش حياة الظلم والفقر والاستعباد فإنها سوف تنضوي تحت لواء الاسلام بوصفه رسالة التوحيد والعدل الاجتماعي ، وأنها ستنقض ولاءها لحكامها الظالمين المستبدين . ومن هنا فليس الاسلام في حاجة إلى قتال لنشر كلمته ، ولكنه في حاجة إلى أن يجد الوسيلة لابلاغ هذه الكلمة إلى الناس وحملها إليهم أيّاً كانوا . ومن هنا كانت فريضة الجهاد لا تعني غير الدفاع عن النفس ، وإزالة العوائق من طريق انتشار الاسلام مع قدر كبير من التسامح والعدل والمساواة .

ويبدو مضمون هذا التفسير واضحاً في آية القرآن نفسه التي فرضت الجهاد « أُذِنَ للذين يقاتلون بأنهم ظلموا وأن الله على نصرهم لقدير ، الذين أخرجوا

من ديارهم بغير حق إلا أن يقولوا ربنا الله » .

وقد فرض الجهاد في السنة الثانية من الهجرة بعد أن أتيحت الفرصة للجماعة الاسلامية أن ترسي قواعد مجتمعها ، وتعلن نظامها وفق مفهوم الاسلام ، وقد كان يعني أمرين أساسيين : ( ١ ) حماية مجتمع الاسلام بوصفه دولة لها حدودها ، ولها هيبتها ضد أي اعتداء خارجي ( ٢ ) فتح الطريق أمام كلمة الاسلام لتشق طريقها إلى العالم كله بوصفه رسالة عالمية وإنسانية شاملة .

ولم تبدأ خطة الدفاع عن الدعوة ومجتمعها إلا بعد أن حدد « القرآن » خطة الجهاد : « وقاتلوا في سبيل الله الذين يقاتلونكم ولا تعتدوا » والاذن هنا مشروط بالدفاع وعدم الاعتداء ، وقد بدأت قريش عدوانها حين تخطت بقوافلها حدود الدولة الاسلامية في محاولة للاستهانة بها . والانقضاض عليها ، فكان لا بد للمسلمين أن يخرجوا لمواجهة الأمر . إما بالاستيلاء على القافلة نفسها بوصفها جزءاً من أموالهم التي صادرتها قريش عند هجرتهم إلى يثرب أو مواجهة الموقف مواجهة دفاع .

## ( ٥ ) بناء المجتمع الاسلامي

منذ استقر المسلمون في يثرب بدأ تكوين المجتمع الاسلامي وتنظيم علاقاته الداخلية بين المهاجرين والأنصار وفيما بينهم وبين اليهود المقيمين في المدينة ، وبدأت إجراءات الأمن في حماية يثرب من غارات خصوم المسلمين ـ وفي مقدمتهم قريش ـ عليها . وتركزت أهم التنظيمات الداخلية على التنظيم الاقتصادي ، والتنظيم الاجتماعي . وقد تم إعداد تنظيم اقتصادي قوامه العمل والكسب والملكية الفردية ، وشرعت الزكاة تقريباً بين الطبقات ، وضماناً لحق الفقير والشيخ والعاجز والمريض ، وألغي الربا ، فقد أحل الاسلام البيع وحرم الربا . وكانت الزكاة إحدى أركان الاسلام الخمس : تعطي الفقير الحق في مال الغني ، فهي ليست صدقة أو منحة ، ولكنها حق أكيد قائم تقوم الدولة عليه وتنفقه في وجوهه ، ويتمثل في مقدار معين يدفع في وقت محدد ، ويرتبط بمحاصيل الزرع والثمار والذهب وعروض من التجارة .

وقد انتظم بناء مجتمع المدينة على مراحل ، ونزل التشريع على دفعات ، وامتد على سنوات ، وغطى مختلف مسائل الاقتصاد والقانون والاجتماع وأمور البيع والاجارة والربا والقتل والسرقة والزواج والطلاق والميراث . وكان تدرج التشريع في إلغاء الربا والخمر والزنا وغيره يعطي صورة الانتقال على مراحل ، حتى لا يصاب المجتمع باضطراب او نكسة من جراء الانتقال الفوري ، أو الطفرة ، كما نظم الاسلام المجتمع أمور المرأة وحقوقها وعلاقاتها بالرجل وأمور الزواج والطلاق . بما يحقق حماية الأسرة ودعمها ، وصلات الزوجين والأبناء على نحو غاية في الكمال والدقة ، بما يحقق سلامة الأسرة والمجتمع . وبما يضمن نمو المجتمع الاسلامي على دعائم ثابتة . وكان قضاء الاسلام على : الزنا ووأد البنات وتقييده تعدد الزوجات نقلة واسعة عن مجتمع ما قبل الاسلام ، وقد تحقق للمرأة المسلمة بهذا النظام حقوقها الكاملة في حرية البيع والتصرف في المال والاجارة والميراث ، وضمن لها حقها في الزواج والطلاق والحضانة على نحو لم يكن معروفاً لا في الجزيرة العربية وحدها ، ولا في العالم كله في هذه الفترة . وكان ذلك دفعاً لها لتكون عضواً حيّاً عاملاً في المجتمع الاسلامي مما أهلها لأن تخطو خطوات واسعة في مجال العلم والحرب وبناء الأسرة ، وأن تبرز شخصيتها في تاريخ الاسلام وتلمع ، وكان الرسول حريصاً على أن يثقف النساء كما تعهد الرجال وان يوجههن ويفتح لهن الطريق ، وكانت زوجات الرسول المثل المتقدم في هذا المجال . وقد استطاعت عائشة وحفصة أن تكونا من رواة أحاديث الرسول ، وتحقق من بعد للكثيرات المشاركة في ذلك .

## ( ٦ ) - المرأة في الجماعة الاسلامية

**أولاً :**

كان للمرأة المسلمة دورها الواضح في الجماعة الاسلامية ، هذا الدور الذي تتميز فيه المرأة عن حياة ما قبل الاسلام ، كان أساس هذا الدور هو موقف الاسلام الواضح الذي ترتب عليه دورها في المجتمع ، وتمثل ذلك في شمول الخطاب القرآني للمرأة والرجل ، والتسوية في الخطاب والتبعات بين الرجل والمرأة ، وإقرار القرآن لأهلية المرأة . « أهلية حقيقية » للارث والهبة والوصية والدين والتملك والتعاقد والكسب دون أن يكون ذلك منوطاً بموافقة الرجل

وإذنه ، والتسوية في التكاليف العامة بين الرجل والمرأة من زكاة وحج وصوم وصلاة ، وأعطى الاسلام للمرأة حريتها كاملة في أمور الزواج والطلاق والبيع وحق الارث . وكرم المرأة بنتاً وزوجة وأمّاً ، وكرم الأم وساوى بين المرأة والرجل ، وأكد الرفق بالبنات وتعليمهن والعناية بالأسرة في نصوص صريحة في القرآن « ولهنّ مثل الذي عليهن بالمعروف وللرجال عليهن درجة » . « لا يحل لكم أن ترثوا النساء كرها ولا تعضلوهن لتذهبوا ببعض ما آتيتموهن » .

وفي تعاليم الرسول : طلب العلم فريضة على كل مسلم ومسلمة ، استوصوا بالنساء خيراً فإنهن عون لكم ، الدنيا متاع وخير متاع الدنيا المرأة الصالحة ، نعم الولد البنات ، وأباح الاسلام تعدد الزوجات ولم يفرضه ، ووضع له من الضمانات ما يذهب الظلم وينفي الضرر .

**ثانياً** : شاركت المرأة في غزوات النبي وبرزت أسماء كثيرة : أم عطية . أم عمارة نسيبة بنت كعب المازنية . صفية بنت عبد المطلب ، ومنهن من غزت مع النبي سبع غزوات ( أم عطية ) وكن يخلفن الرجال في رحالهم ، ويصنعن الطعام ، ويداوين الجرحى ، ويقمن على المرضى ، ومنهن من شهدن العقبة الكبرى كأم عمارة أول مبايعة للنبي عنها . وقد شهدن مختلف الغزوات ، وكان لهن دور عظيم ضخم .

**ثالثاً** : في مجال العلم والفصاحة والبلاغة ، وقد نافسن الرجال في العلم بالاسلام ، حافظات للقرآن ، راويات للحديث ، شاعرات وخطيبات ، وشاركن في كل مجال ، ودخلن المساجد وشهدن حلقات العلم والصلاة جماعة وخضن المعارك وألقين الخطب والأشعار ، وكان الرسول يُعِدّ لهن في مجالسه وفي الصلاة أماكن خاصة ، واشتهر نفر من النساء غير قليل بالحديث والفقه ، حتى أن طائفة من الأحاديث المختلفة قد رويت عن عائشة وأم سلمة وغيرهما من الصحابيات ، بل إننا نرى بعض الأحاديث تروى مسلسلة عن نسوة دون أن يكون بينهن رجال ، وروت عائشة عن النبي ألفين ومائتين وعشرة أحاديث . وجاء في الاصابة أن عائشة أم المؤمنين كانت تجيد القراءة وأن حفصة كانت تحسن الكتابة ، علمتها إياها « الشفاء » بنت عبد الله بن شمس القرشية .

# ( ٧ ) ـ قيام المجتمع الاسلامي في الجزيرة العربية

كان لا بد لمجتمع المدينة أن تبرز فيه ظاهرة الغزو والحرب والقتال . فقد كان ضرورياً لبناء الجماعة الاسلامية في المدينة أن تؤمن من الخارج ، ولما كانت قريش قد أحست بفداحة الخطر الذي سيلحقها من هجرة المسلمين إلى يثرب ، وقيام مجتمع جديد شاب بها من شأنه أن ينشر الاسلام في أنحاء الجزيرة ، وأن يعود قوياً زاحفاً إلى مكة من بعد ، لما كانت قريش قد أحست بذلك إحساساً قوياً فإنها قد أخذت تتآمر للقضاء على هذه الجماعة ، لذلك كان لا بد للمسلمين من إحساس دائم باليقظة والحركة والحراسة ، حتى لا تؤخذ الجماعة على غرة . ومن هنا كانت السرايا وكان الاستعداد الدائم لمواجهة أي موقف من مواقف الغزو . وقد تمثل هذا حين زحفت قريش بعد استنقاذ قافلتها إلى ماء بدر قريباً من المدينة . وكان لا بد وقد أذن للمسلمين بأن يقاتلوا من يهاجمهم أن يصطدموا مع قريش ، وأن ينتصروا على قلة العُدَدِ والعَدَدَ ، وكان ذلك بدء صدام مسلح ، وعدوان متصل شنته قريش خلال أعوام متصلة في غزوة أُحد بعد عام واحد من بدر ، وفي مؤامرة ضخمة حشدت لها كل قبائل العرب واليهود وخصوم الاسلام جميعاً في غزوة الخندق . غير أن الهزيمة التي منيت بها «الأحزاب» قد دفعت مجتمع الاسلام إلى القوة وأضافت إليه انتصارات ومكاسب جديدة ، فقد ذاع الاسلام في الجزيرة ، ورجحت كفة « الجماعة الاسلامية » بانضمام قبائل جديدة إليها ، وكان لا بد أن يتجه المسلمون إلى الكعبة : البيت الحرام في مكة ، وقد استوى مجتمعهم ، معتمرين . فقد كان الحج فريضة من فرائض الاسلام ، وقد ساقوا أمامهم الهدي علامة السلم لا الحرب ، والحج لا القتال ، واستطاعت قريش أن ترى قوة الاسلام ، والتي أصبحت وشيكة أن تدخل مكة ، فلم تلبث أن عقدت مع النبي « صلح الحديبية » الذي كان أول علامات « نصر الله والفتح » وعاد الرسول والمسلمون ليرجعوا في العام القادم يؤدون عمرة القضاء .

وفي خلال ذلك أخذ النبي والمسلمون يوطدون المجتمع ويقاومون مؤامرات اليهود بحصارهم في خيبر وإجلائهم بعد أن تواصلت محاولاتهم للقضاء على الجماعة الاسلامية ، وكان عقد الحديبية وعمرة القضاء مقدمة لأكبر

نصر في تاريخ الجماعة وهو « فتح مكة » . وحقق المسلمون في هذه المرحلة أعظم توسع سلمي لهم بتضاعف عدد المنضوين تحت لواء الاسلام ، وحقق فتح مكة انتصار الدعوة الاسلامية وتركزها ، وقد أصبحت مكة مصدر الدعوة الأولى ، وقد دانت للاسلام ، وتطهرت الكعبة من الوثنية ، وتقدم دعاة الاسلام الذين أوفدهم النبي إلى القبائل ناشرين لواء الاسلام ، وحاولت حنين أن تغزو مكة فبادرها الرسول في اثني عشر ألفاً ، ثم كانت الطائف هي الخطوة الثانية في تركيز الاسلام في الجزيرة العربية ، والتفت الرسول إلى مشارف الجزيرة حيث « الروم » تريد أن تنقضَّ على الجماعة الاسلامية فبادرها في ثلاث جولات متصلة . إحداها معركة مؤتة ، ثم كانت غزوة العسرة الشاقة التي زحف على رأسها الرسول في ثلاثين ألفاً من المسلمين إلى تبوك ، ولم يقع قتال . وكان بعث أسامة قبل أن يلحق الرسول بالرفيق الأعلى على تأمين الشمال وتأكيد الحرص على خطر انقضاض الروم منه .

وفي خلال هذه السنوات العشر في المدينة تحقق للاسلام أن ينشر ظله على الجزيرة جميعاً فانطوت تحت لواء الاسلام ، ثم أتم الرسول الحلقة بافراد الحج للمسلمين فلا يحج مشرك ولا يطوف بالبيت عريان . وبذلك قام مجتمع الاسلام الأول منتظماً الجزيرة العربية . وقد أتم الله الرسالة وأكملها وتم نزول القرآن . وكان الرسول قد أعلن عموم رسالته بإبلاغ الاسلام إلى الملوك والأمراء على حدود الجزيرة العربية وأرسل رسله يحملون الرسائل إلى عواهل الفرس والروم والحبشة ومصر معلناً إياهم ومبلغاً . وقد استقبلها بعضهم بالقبول وبعضهم بالتحفظ والبعض الآخر بالنقمة . وكان ذلك كله تمهيداً لحركة الاسلام المتصلة ، ومرحلته التالية في التوسع والانتشار ، وتكوين الجماعة الاسلامية الكبرى ، وقدمت الوفود من أنحاء الجزيرة العربية وأطرافها مبايعة للرسول بالاسلام ، وأذن رسول الله في القبائل بالحج الأكبر فاجتمع مائة ألف مسلم من شبه الجزيرة في ركب الرسول ، وفي عرفات أعلن رسول الله تمام الرسالة : « اليوم أكملت لكم دينكم وأتممت عليكم نعمتي ورضيت لكم الاسلام ديناً » . فكان ذلك إيذاناً باكتمال المرحلة الأولى من بناء الاسلام . ولم يلبث رسول الله أن اختار الرفيق الأعلى وكانت كلمته الأخيرة « أنفذوا بعث أسامة » .

* * *

وباختيار الرسول الرفيق الأعلى كانت « رسالة الاسلام في أيديولوجيتها الكاملة قد تمت واستكملت ، ولم تدخل عليها أي إضافات أخرى من بعد . وقد دار الفكر العربي الاسلامي بمختلف مفاهيمه وحركاته وتطوراته من بعد ، وحتى اليوم في إطار مفهوم الاسلام - كما رسمه القرآن وقام عليه الرسول - ولم يخرج عنه ، وإنما كان الفكر الاسلامي تفسيراً وتحليلا وتوسيعاً لآفاق الالتقاء بين الاسلام والحياة .

## ( ٤ )

## « تكامل مفهوم الاسلام »

كانت فترة « الثلاثة والعشرين عاماً » منذ بزوغ فجر الاسلام إلى اختيار الرسول للرفيق الأعلى هي فترة بناء « مفهوم الاسلام » وتكوين « القاعدة » التي اندفع منها إلى العالم كله ، وبناء النماذج القادرة من القادة المحاربين ، وبناة الدول ، وقادة الفكر . وقد اكتملت مقومات الاسلام ومفاهيمه في حياة النبي من حيث هو دين ومدنية وفكر ومجتمع . وتم وضع الخطوط العامة لها . هذه الخطوط التي لم يدخل عليها بعد إلى اليوم أي إضافة جديدة ، فكان كل ما جاء من بعد تفسيراً لها وتوسيعاً لآفاقها ، وتحليلا لدقائقها ، مستمداً من جوهرها القابل للحركة والتطور وعلى النحو الذي أتاحته في صميم مقوماتها من سعة وحيوية ومرونة ، جعلتها قادرة أبداً على مسايرة الحياة والانسان والحضارة على اختلاف البيئات والأزمنة . فقد استطاعت أن تمتزج بالثقافات والحضارات المختلفة وتصهرها في بوتقتها وتحولها إلى طابعها ، وتتقبل من أسلحة الفكر الانساني وفلسفاته ومذاهبه ما يزيدها قوة على البقاء والحياة والتمدد . وقد ظل الاسلام إطاراً ثابتاً للثقافة والحكم والاجتماع والحضارة ، تتحرك صوره وفق مجريات الزمن وتطورات الأحداث ، دون أن تخرج من طابعه الأصيل ومقوماته الأساسية .

و « الاسلام » بمفهومه الأصيل هو دعوة التوحيد مع التكامل والوسيطة بين جوانب السياسة والاجتماع والحضارة والاقتصاد والثقافة ، تلتقي هذه الجوانب من خلال الاسلام وتنصهر ، قوامها العقل والقلب ، والدين والعلم ، والمادة والروح ، والدنيا والآخرة . ومن خلال الاسلام لا تبدو هذه الجوانب متصارعة ، ولا يتمثل في لقائها ثنائية . بل تنتظم في امتزاج وتكامل . وقد أعطى الاسلام للحياة في المجتمع الجديد رسالة أسمى من الصراع القبلي ، وهدفاً أكبر من المطامع الذاتية . أما القرآن فهو : « الوثيقة الاسلامية الخالدة » التي لم يصبها تحريف أو يعتورها نقص بوصفها المنهج الكامل لمقومات الاسلام والفكر العربي الاسلامي ، ومفاهيمه والأرضية الكاملة له ، والمنطلق ، وقوام جذوره الأساسية .

« ومحمد بن عبد الله » هو رسول الله بالاسلام إلى الانسانية كافة وهو التطبيق الفعلي البشري لمفهوم القرآن للانسان ، والدافع للقيم الانسانية إلى التفاعل مع الحياة . وقد عاشت سيرته نموذجاً حيّاً لتطبيق « أخلاق القرآن » وظلت سنته مصدراً لتقدم النموذج الانساني الكامل بوصفها تفسيراً للقرآن وتطبيقاً له . وقد كانت حياة النبي نموذجاً كاملاً رفيعاً للانسان في أسمى صورة ومفاهيمه وتصرفاته . فقد وصفت ذلك السيدة عائشة بدقة حين قالت « كان خلقه القرآن » .

( ٢ ) ـ ولقد كانت الجماعة الاسلامية الأولى محاولة لتطبيق « مفهوم الاسلام » في بناء المجتمع والحضارة لتظل صورة مثلى أمام التاريخ كله تمده بالقوة والنموذج والمثل العملي كلما افتقر الناس إلى فهم مضمون الاسلام في مجالي الاقتراب منه أو الابتعاد عنه ، ففي خلال هذه الثلاثة وعشرين عاماً اختصرت صورة كاملة لتحول أمة من النقيض إلى النقيض عن طريق مفهوم الاسلام ، كان القرآن فيها هو الدستور ، وكانت السنة هي المذكرة التفسيرية ، وتطبيق القرآن على النموذج الأول « محمد » حامل لواء الدعوة .

وقد مرت هذه المرحلة من حياة الجماعة الانسانية الأولى بمرحلتين ( ١ ) مرحلة الدعوة ( ٢ ) مرحلة بناء الجماعة التي حملت لواء الدعوة وانطلقت بها إلى أطراف الأرض ، كانت المرحلة الأولى في مكة منبع الدعوة في محاولة التحدي

الكبير لاخراج مجتمع من أوضاعه القائمة الموروثة إلى أوضاع جديدة أكثر تقدماً وإيجابية وإخاءً ووحدة .

ولقد قاوم المجتمع القديم بكل قوته في سبيل المحافظة على قديمه ، وصادم بكل وسائله وأدواته الدعوة والداعي بكل ما استطاع أن يصل إليه من أسلحة ، إلا بضعة نفر من الفقراء والضعفاء تبعوا الداعي ، وآمنوا بدعوته ووهبوا أنفسهم للدفاع عنها . ثم كانت « الهجرة » نتيجة لظهور مجموعة من المؤمنين بالدعوة في يثرب سعوا ( ثلاث سنوات متوالية ) في اعداد متزايدة إلى مكة موسم الحج ليلتقوا بالداعي ، ثم عاهدوه على أن ينصروه إن هاجر إليهم ، وأن يحفظوه كما يحفظون أبناءهم وذويهم ، فكانت الهجرة إلى المدينة هي « حركة الاستجابة » لتحدي مكة خلال ثلاثة عشر عاماً ، ومن ثم بدأ مجتمع الدعوة الجديدة يتكون ويمارس حياته وفق أنظمة الدولة ، ويمضي ليقر هذا النظام في الداخل ويبث الدعوة إلى أطراف الجزيرة العربية خلال عشرة أعوام كاملة ، تحقق خلالها قيام « مجتمع إسلامي جديد » في الجزيرة العربية كلها ، فكانت بذلك هي الطاقة المشعة ، والأمة الحاملة لدعوة الاسلام إلى العالم كله ، والجماعة الأولى التي تلقت الأمانة. واستطاعت بما قدمه لها الاسلام من قيم ومفاهيم أن تغير نفسها وتتحول إلى أمة موحدة ، وتسعى لتنشر الاسلام في الأرض .

هذه هي أمانة « الأمة العربية » ممثلة في الجماعة العربية الاسلامية الأولى التي تكونت في خلال عشر سنوات في مجتمع المدينة بعد ثلاثة عشر عاماً من صراع مع القوى المسيطرة المتحكمة . وفي خلال هذه السنوات العشر استطاعت الجماعة الاسلامية التي قامت في المدينة أن تسيطر على مجتمع مكة وأن تذيبه في الاسلام ، وأن تصهره في بوتقة الدعوة الجديدة وتشده معها في كفاحها ونضالها من أجل إعلاء كلمة الاسلام في الأرض .

ومن هنا كان مفهوم الاسلام نفسه هو الحكم والمقياس ، فهو الذي استطاع أن يبني هذا المجتمع ، وأن يكون هذه النماذج القادرة من الأبطال القادة وبناة الدعوة والمفكرين ، وفق مفاهيمه صيغت هذه العقليات والنفوس التي خلقت به شيئاً آخر ، فكانت لها هذه القدرة المعجزة التي أدهشت الباحثين خلال أيام التاريخ الاسلامي كله من استطاعتها تحقيق بناء هذا التوسع خلال مائة عام .

ومن هنا تبدو أيضاً سلامة المقاييس التي لا تخطىء في الحكم على الأحداث فيما بعد ، فكلما قربت الأحداث من مفاهيم الاسلام كانت مندفعة في الطريق الصحيح ، وكلما انحرفت عن هذه المفاهيم الأولى كانت الهزات والأزمات والهزائم .

إنه مقياس لم يخطىء خلال أربعة عشر قرناً كاملة . الارتباط بمقومات الاسلام ومفاهيمه هي الصحة والسلامة والنصر والقوة والقدرة على البقاء والحركة ، والانحراف عنها هو الخطأ والهزيمة والضعف والعجز عن الحركة والبناء ، وفي كل نهضة نهض بها « بناة الدول » في عالم الاسلام ، يبدو هذا المعنى واضحاً ، وكلما انهارات دولة او حركة كان مصدر الانهيار هو الانحراف عن معنى الاسلام بدعوته الى الأخوة والقوة واليقظة .

( ٣ ) كان المجتمع الاسلامي الذي كونه الرسول خلال عشر سنوات في المدينة ، وثمرة دعوته خلال ثلاثة عشرة سنة في مكة هو بؤرة الدعوة الاسلامية كلها ، وفيه انصهر ذلك الفريق من صحابة الرسول الذي أطلق عليه اسم « الصحابة » وكان تكوينه وانصهاره في مجالات احتمال الأذى والصبر على التعذيب والايمان بالرأي والاصرار عليه في مكة ، والكر والفر والقتال والاشتراك في السرايا والغزوات والبعوث في المدينة ، إيماناً بالاسلام وبيعة الروح لله في سبيل نصر الاسلام ونشره والدفاع عنه والشهادة في سبيله . وكانت حياة الرسول هي النموذج الاعلى لذلك الايمان باحتمال الأذى والنضال في سبيل مقاومة خصوم الاسلام . فقد كان هو المثل الذي لا يرقى إليه مثل في هذا المجال ، يتقدم أعوانه في القتال حتى لا يكون أحد أقرب إلى العدو منه ، ويصرف الأمور في حكمة واتزان ، وهو صاحب الكلمة المشرقة ، والنفس المتسامية على الحقد والهوى والمطامح . ومن حوله هذا الرعيل الأول قد صهره الاسلام وحوله الى قوة جارفةعارمة بالحقيقة التي لا تجادل : « احرص على الموت توهب لك الحياة » وبالفكرة العليا التي تستغرق هذه النفوس ، وهي إذاعة الاسلام في العالمين والتضحية بمتاع الدنيا ، والمال والنفس ، في سبيل هذه الغاية ، وكل عجب يوجه إلى انتشار الاسلام في أقل من مائة عام من الصين إلى الأندلس ، يجب أن يرد تفسيره إلى عملية التكوين والبناء والتربية التي قام بها محمد رسول الله لهذه الجماعة المسلمة في مجتمعي مكة والمدنة .

( ٤ ) - إنما أقبل على دعوة محمد في أول الأمر الفقراء والمستضعفون والعبيد ، أولئك الذين كانوا يحسون الضعف والمهانة ، وكانوا يترقبون في ظل الاسلام عزة وكرامة . هم المستضعفون والفقراء والعبيد في كل مكان . هؤلاء الذين ترقبوا دعاة الاسلام حين أقبلوا عليهم فانضووا تحت لوائهم طامعين في التخلص من الطغيان والذل والحرمان . وهؤلاء الضعفاء الذين التفوا حول « محمد » هم الذين حملوا من بعد رايات الاسلام إلى كل مكان بعد أن صهرتهم الأحداث من تعذيب واضطهاد ومساءة خلال سنوات مكة القاسية ، وخلال سنوات المدينة المليئة بحركات الدفاع عن المجتمع الجديد من سرايا وقتال وبعوث .

( ٥ ) - كان على الجماعة الاسلامية في يثرب أن تنظم نفسها على مفهوم الاسلام : ديناً ودولة ، ومجتمعاً وحضارة ، لتكون نموذجاً تطبيقياً ، وأن تنشر الدعوة إلى الاسلام في شبه الجزيرة كلها حتى تصبح في نهاية عهد النبي « أمة موحدة » وجماعة كاملة ، وأن تكون متأهبة للكفاح والاندفاع في الأرض لنشر الاسلام وإذاعته وإقامة مجتمعه الكبير .

وقد استطاعت فعلاً هذه السنوات العشر أن تديل من خصوم الاسلام في الجزيرة ، وأن تحقق انتصارات متعددة : أبرزها دخول الرسول مكة فاتحاً واستسلامها له . ثم استسلام القبائل المتعددة التي دخلت في الاسلام واعتنقته ، وكان على الرسول صلى الله عليه وسلم أن يتم دعوته بأن يبعث إلى الملوك والأباطرة والأمراء في شتى الأنحاء من حوله داعياً إياهم جميعاً إلى الاسلام كعلامة على الطريق الذي سيسلكه الاسلام من بعد ، وكان أبرز قوتين تجاوران الجزيرة العربية : فارس ، والروم .

( ٦ ) - ولا شك كان إرسال الرسل إلى مختلف الشعوب والأمم بالدعوة إلى الاسلام علامة على « عالمية الرسالة » وبحسبانها ليست للعرب وحدهم ، ودلالة على الطريق الذي يسلكه الاسلام بعد في اندفاعه إلى العالم كله . وقد فهم المسلمون في الجماعة الاسلامية الأولى تلك الصفة الانسانية . وذلك الطابع العالمي لرسالة الاسلام . وهذا هو ما عبر عنه الفقهاء بمعنى « عموم الرسالة » باعتبار أن الاسلام كان الدين السماوي الذي اختاره الله للجنس البشري كافة ثم

أوصى به اليهم من جديد على لسان محمد خاتم النبيين ، وقد حمل القرآن آيات كثيرة تثبت عالمية الاسلام .

وقد ارسل الرسول الكتب إلى الملوك والأمراء في السنة السادسة من الهجرة ( ٦٨٨ م ) إلى هرقل قيصر الروم ، كسرى فارس ، حاكم اليمن ، حاكم مصر ، نجاشي الحبشة . ولقد كان مقتنعاً منذ اليوم الأول لرسالته بمفهوم عالمية الرسالة وإنسانيتها معاً ، وأن تركيز دعوته في الجزيرة العربية وتحويلها إلى مجتمع واحد ، وأمة واحدة . إنما كان يهدف إلى تكوين القوة التي تستطيع أن تحمل لواء هذا الدين وتندفع به خارج الجزيرة العربية إلى العالم كافة . وكان ذلك يتمثل في قوله إن بلالاً هو أول ثمار الحبشة ، وصهيباً هو أول ثمار الروم ، وأن سلمان هو أول ثمار الفرس .

( ٧ ) ـ ومنذ تكونت الجماعة الاسلامية واكتمل بناؤها ، ثم اكتمل بناء الاسلام في حياة النبي . بدأت في التاريخ صورة جديدة ، ذات طابع جديد ، وبرز مفهوم جديد للحياة من خلال « رسالة » وجماعة تقوم على « فكرة » قد قهرت خلافاتها العصبية والعقلية ، وتجمعت لتشق في التاريخ خطاً جديداً . منذ ذلك الوقت بدأ تأثير الاسلام في التاريخ ، حين مضى يدك صرح الامبراطوريتين العظميتين : فارس والروم ويديل منهما ويقيم بناءه الجديد الضخم على امتداد عريض متصل من الصين الى الأندلس في مائة عام ، فيصهر الفرس والبربر والترك ويصوغ المصريين والمغاربة والهنود والسوريين في بوتقة واحدة ، ويقف ليواجه الصراع مع أوربا والدولة الرومانية الشرقية « بيزنطة » وريثة الدولة الرومانية في روما بإحساس أن أرض الاسلام كانت تحت سلطان الروم والشام ومصر والغرب ، ثم سيطرة الاسلام على الأندلس ، وهي جزء من أرض الغرب ، ثم محاولات العرب السيطرة على أطراف فرنسا وروما .

( ٨ ) ـ إن قوة بناء « الشخصية » التي أعطاها الاسلام في هذه المرحلة للذين التفوا حول محمد ، والنموذج الذي تمثلوه في الرسول ، هذه القدرة الرائعة هي التي أمدت هذا الرعيل الأول بتلك الصلابة التي صارت من بعد مضرب المثل في الايمان بالله ، وفي الشوق للشهادة من أجله ، وفي الاندفاع لنشر

الاسلام بالحق في أقطار الأرض من خلال نفوس تستعلي على متاع الدنيا ، وتطمع في أن تذود عن هذه الرسالة حتى تستحصد وتقوى ، هذا هو التفسير الذي يعطي مفهوم معجزة التوسع الذي حققه الاسلام في خلال فترة قصيرة على نحو أعجز الباحثين وأدهشهم . إن قوة بناء الشخصية إنما يتمثل من خلال الحياة المضطربة التي عاشتها تلك القلة في مجتمع مكة في اضطهاد لم يتوقف .

( ٩ ) - أعطى الاسلام بمجتمعه الصغير الأول ذلك النموذج الذي عاش مدى العصور في نفوس المسلمين وعقولهم مثلاً يحتذى ، وصورة شامخة من صور المثل الأعلى للمجتمع الانساني السليم المتكامل الذي يقوم على الاخاء والحب والتسامح والتكافل . ليس هذا المجتمع صورة مثالية غير واقعية ، ولكنه تطبيق أمين لمفهوم الاسلام ومضمونه وأيديولوجيته ، وما تزال صورة هذا المجتمع الاسلامي الأول باتساقها وصلابتها وسلامتها في فهم مضمون الاسلام ومنهجه تعطي علامة القوة في تطبيق الاسلام . فمن هذه الجماعة الاسلامية انطلقت الدعوة الاسلامية الى العالم كله ، فبلغت الصين شرقاً ، والأندلس غرباً . وليس صحيحاً ما يدعيه بعض المستشرقين ومن تابعهم من أن سياسة هذه الجماعة لا تلائم طبيعة العمران ، أو أنها توقفت على رجال يندر اجتماعهم في عصر .

( ١٠ ) - كان مجتمع مكة غير متقبل لقيام مجتمع جديد في داخله ، أو على أطرافه متحرراً من الزعامة القبلية ، أو قاضياً على الصراع القبلي ، أو متجمعاً تحت لواء محمد ، هذه الألوية القبلية التي كانت تتكون من خلال العصبية الخاصة والسلطان والمال . أما « مجتمع المدينة » على النحو الذي كان عليه . فقد كان متقبلا لقيام هذه الجماعة ، بعد أن ذابت القوتان القويتان فيه - وهما الأوس والخزرج - في جماعة المسلمين ، ودانت بالولاء لصاحب رسالة الاسلام . ومن هنا نما مجتمع جديد له مفهوم جديد قوامه الايمان بالرسالة والدفاع عنها وإذاعتها في الناس . ومن هنا كان لا بد للجماعة الاسلامية من تنظيم سياسي واجتماعي واقتصادي يحفظ قوام الجماعة ويرد عنها خصومها ، ويدفعها في تماسك وقوة للاندفاع براية الاسلام الى آفاق الأرض ، وقد توسعت هذه الجماعة من بعد ، ولكنها ذابت في المحيط الواسع الكبير . ولم تكن صورة الدولة أو الحكومة التي

قامت إلا تطبيقاً لنظام حكم يتحرك في إطار الاسلام . ومن هناك كانت سعة الاسلام ورحابته ومرونته في فرض نظام معين يلتزم به المسلمون . وكان الالتزام الوحيد أن يكون الاسلام هو إطار الدولة والجماعة والفكر مع قدرة كل منها على الحركة والتجاوب مع تطور الزمن وتغير البيئة .

( ١١ ) - ولم يكن مجتمع المدينة كما تحاول أن تصوره مختلف كتب السيرة ، مجتمع حرب وغزوات وقتال . فلو أننا أحصينا عدد الغزوات الكبرى فيه وأيامها لما تجاوز ذلك في مجموعه بضعة شهور في خلال عشر سنوات . ومن هنا فإن المجتمع الاسلامي في المدينة قد قام فعلا وبني خلالها دعامتين واضحتين : نظام مجتمع ، ونظام دولة . كما بنى تشريعاً وقانوناً . ثم كانت الحرب إحدى وسائله للحفاظ على بقائه ومدافعة خصومه ، ثم كانت المهمة الكبرى التي أولاها رسول الاسلام اهتمامه البالغ ، وهو نشر الدعوة إلى آفاق الجزيرة العربية . ثم ابلاغها إلى ملوك العالم القريب منه في رسائل ودعوات خلال السنوات الأخيرة من حياته ، وفي خلال هذه السنوات العشر الخصبة تشكل منهج الفكر ونظام المجتمع وتشريعه ، وسارت الدعوة إلى غايتها في التبليغ . وكانت الغزوات لدفع العدوان جزءاً من هذا العمل الكبير ، ولكنها لم تكن هي كل شيء كما تحاول أن تصورها كتب التاريخ التي بين أيدينا .

( ١٢ ) - كانت مدرسة الأرقم بن ابي الأرقم في مكة بالاضافة إلى مدرسة مصعب بن عمير بالمدينة قد كونت تلك الطليعة التي ظلت خلال سنوات المدينة تخرج في بعوث متوالية تحمل كتب النبي إلى شيوخ القبائل العربية ، وتزامل الوفود المتوالية التي كانت تتقدم معلنة إسلامها إلى المدينة ، وفي كلتا الحالتين كانت تقوم بالدعوة إلى الاسلام لأولئك أو تعلمها لهؤلاء . وقد لقي بعض هؤلاء الدعاة الإعنات والتعذيب والشهادة .

وقد أرسلت بعثة من أربعين مسلماً إلى قبيلة بني عامر فقتلوا غدراً ولم ينجح إلا ثلاثة منهم . كما لقيت هذه القبائل من محمد رسول الله تفهماً عميقاً لمشاكلهم وقضاياهم ومنازعاتهم ساعدت على الصلح بينهم . وكانت حكمة النبي وسماحته وحسن معاملته عاملا هاماً في تجمع القلوب حوله .

( ١٣ ) - قبل أن يلحق محمد رسول الله بالرفيق الأعلى كانت القبائل المائة

التي تعيش في الجزيرة العربية قد انصهرت في الجماعة الاسلامية تجمعها « وحدة فكر » قوامها الاسلام « وقيم أساسية » تستمدها من القرآن و « زعامة واحدة » هي زعامة محمد . وقد ارتقت فوق عوامل التناحر والصراع ، وبدأ لها اتجاه واضح ، وهدف محدد ، ونظام سياسي واجتماعي واقتصادي واضح المعالم ، لتندفع بعد ذلك إلى مجال التوسع والنمو والتمرد في خطين واسعين : أحدهما اتجه شرقاً إلى الفرس والثاني اتجه شمالا إلى الروم .

# ( الباب الثاني ) :
# بناء الاسلام وتوسعاته .

# ( ٥ )

## « بناء الاسلام »

كان « بناء الجماعة الاسلامية » في الجزيرة العربية إلى أن اختار الرسول الرفيق الأعلى هو نقطة الانطلاق لبناء الاسلام : أمة ودولة وحضارة . وكان الاندفاع من الجزيرة العربية المحدودة إلى آفاق الحضر اتجاهاً طبيعياً . فبعد أن تكونت الجماعة الاسلامية في قلب الجزيرة من خلال مكة ويثرب ، ثم إسلام الجزيرة كلها وولائها للدعوة الجديدة كان طبيعياً أن يتجه الاسلام إلى الآفاق .

وقد عرف الاسلام بظواهر ثابتة استمرت خلال تاريخه كله وأبرزها « القدرة على الحركة » تبدو واضحة في نشأة الدعوة ، فالدعوة التي ظهرت في مكة لم تتوقف ، حاولت أن تنفذ إلى قلوب أهل مكة وعقولها .

فلما واجهتها المعارضة والتحدي والاضطهاد تحركت حركات متوالية ، تحركت بالهجرة إلى الحبشة ، وبالدعوة خارج مكة في الطائف . ثم تحركت بالهجرة نحو يثرب ، وفي يثرب بدأت « مرحلة جديدة » لقد انتقلت إلى أرض أكثر قابلية وأكثر يسراً ورخاءً . ثم عادت إلى مكة ظافرة ، ثم استطاعت أن تؤلف الجزيرة العربية في « وحدة فكر » وفي « مجتمع موحد » . ثم كانت حركتها في أواخر سنوات النبي إلى الشمال نحو الحضر ، نحو عنق الزجاجة ، نحو الفوهة التي خرجت منها الهجرات المختلفة ، وكان يدفعها الى ذلك عاملان هامان :

الأول : نشر الدعوة الاسلامية وإذاعتها والجهاد في سبيل تحقيق رسالتها .

الثاني : المبادأة بالحركة واليقظة ، وإبراز الهيبة الرادعة للخصوم المتربصين على الأطراف والذين يحاولون الانقضاض عليها .

وقد أشارت تحركات الرسول في خيبر ، ومؤتة ، وبعث أسامة الذي لحق الرسول بالرفيق الاعلى ورايته منصوبة أمام المسجد ، والذي كان آخر ما أوصى به « أنفذوا بعث أسامة » والذي أنفذه أبو بكر في أول أعمال ولايته ، كانت كل هذه الارهاصات توحي بالخط الذي يسلكه الاسلام ، وهو خط طبيعي ، فإن دعوة « عالمية إنسانية » لا بد أن تنطلق إلى الآفاق . لأن من أقوى دعائمها الجهاد في سبيل الله لنشرها ، وقد بدأ الرسول هذه الخطوة بأن أرسل رسائله إلى الملوك والأمراء ، داعيا إياهم إلى الاسلام . لذلك كان طبيعيا أن يتجه الاسلام إلى مجاله الحيوي وأن ينفذ من الجزيرة إلى دولتي الفرس والروم المتاخمتين للجزيرة العربية .

وكانت دولتا فارس والروم قد أحستا في السنوات الأخيرة من حياة الرسول بخطر الدعوة الاسلامية ، فقد ألفت مجتمع الجزيرة العربية . وقد تجمع في وحدة فكر قوامها التوحيد والاخاء والعدل الاجتماعي ، وبلغتها رسائل النبي بدعوتها إلى الاسلام ، فكان لا بد أن تفكر طويلا في أمر هذه الجماعة الوليدة ، ومدى الخطر الذي يترتب على وجودها ونموها . ومن ثم بدأت تتآمر حتى كان بعث أسامة . فكان لا بد أن يندفع الاسلام لمواجهة هذا الموقف ، وكان التحاق النبي بالرفيق الأعلى علامة الطريق على الخطر وعلى خط مسيرة الاسلام نفسه ، ومن هنا لم تكن حروب المسلمين مع فارس والروم حروب غزو ، بل حروب دفاع ووقاية . ولم يكن من الطبيعي أن ترى دعوة الاسلام الشابة العالمية هذا الخطر يتربص بها على أبواب الجزيرة ثم تتقاعس عنه ، ثم زاد هذا الخطر قوة حين واجه الاسلام بعد انتقال الرسول للرفيق الأعلى انتقاضا شاملا في شبه الجزيرة . فارتد كثير من العرب وثبتت قريش والطائف ، وواجه المسلمون الموقف على عزمة أبي بكر خليفة رسول الله الذي أصر على مقاومة المرتدين ، وكان موقف أبي بكر حاسماً وهو من المواقف الخالدة في تاريخ الاسلام كله وفي تاريخه هو بوصفه أول حاكم بعد النبي ، فقد أصر على مقاومة من منعوا الزكاة . وقال « والله لو منعوني عقالا كانوا يؤدونه إلى رسول الله لقاتلتهم عليه . والله لأجاهدنهم ما استمسك

السيف في يدي » ورفض رأي بعض الصحابة الذين قالوا : نقبل منهم الاسلام ، قال عبد الله بن مسعود : والله لقد قمنا بعد رسول الله مقاماً كدنا نهلك فيه لولا أبو بكر أجمعنا أن لا نقاتل على ابنة مخاض وابنة لبون ونعبد الله حتى يأتينا اليقين ، فغرم الله لأبي بكر على قتالهم . ثم اتفق الصحابة كلهم على قتالهم واستصوبوا ما رآه أبو بكر . وقال عمر : والله لقد رجح إيمان أبي بكر بإيمان هذه الأمة في قتال أهل الردة ، ووالله ما هو إلا أن رأيت أن شرح الله صدر أبي بكر للقتال حتى عرفت أنه الحق .

وكان أبو بكر قد تقلد سيفه وأزمع أن يخرج وحده لقتال المرتدين ، من هنا فقد حقق قتال أهل الردة « وحدة الجزيرة العربية » ذلك الدور الذي لعبه الفرس في حروب الردة . فقد تآمر الفرس وتآمر مع بقايا اليهود في شمال الحجاز . بل لقد جدد انتقاض الجزيرة العربية في « حركة الردة » - جدد الأمل عند الفرس والروم - على محاولة القضاء على الاسلام ، هنالك قدمت الفرس والروم لخصوم الاسلام عوامل الإغراء للانتقاض . وكانت في هذه المرة بعض المساعدات العسكرية كما آوت المتمردين ، لذلك فما كاد المسلمون يعيدون وحدة الجزيرة حتى قرروا الزحف نحو الشمال لمواجهة العدوين الكبيرين المتربصين بالاسلام .

ثم كان إنقاذ بعث أسامة من علامات التمسك والقوة . فقد رفض أبو بكر تأخير جيش أسامة ، وكان قد جهزه النبي ، وأمره أن يسير إلى الموضع الذي استشهد فيه أبوه « زيد بن حارثة » وأمره أن يوطىء الخيل تخوم البلقاء والداروم من أرض فلسطين ، ومشارف الشام . وقد أوصى النبي قبل اختياره الرفيق الأعلى : « انفذوا بعث أسامة » .

وكان أول أعمال أبي بكر هو إنفاذ هذا الجيش . وقد عارض الصحابة حين سمعوا أخبار الردة وانتقاض العرب فقال : لو ظننت أن السباع تخطفني لأنفذت جيش أسامة الذي جهزه رسول الله . فلم يلبث أن بث الجنود في بلاد قضاعة وأغار وقتل وغنم ورجع لأربعين يوماً . وقالت العرب : لو لم يكن بهم قوة لما أرسلوا هذا الجيش فكفوا عن كثير مما كانوا يريدون أن يفعلوه .

والحق أن اختيار المسلمين لأبي بكر خليفة للنبي ، كان عملا بعيد المدى في تطور الدعوة الاسلامية واجتيازها الجزيرة العربية ودعم قواعدها . ففي خلال الفترة القليلة التي أمضاها والياً لأمر المسلمين خلال عامين استطاع أن يحقق ثلاثة

مواقف حاسمة في تاريخ الاسلام .
( ١ ) بيعة السقيفة وجمع كلمة المسلمين على ولاية الأمر .
( ٢ ) مواجهة خطر « الردة » بالحسم .
( ٣ ) دفع الاسلام الى آفاق الانطلاقة الكبرى .

وقد ساد الاسلام بعد أن خرج من الجزيرة العربية في مرحلتين متتابعتين هما : مرحلة « الابعاد والاعماق » . كانت مرحلة الابعاد تعني التوسع والامتداد الجغرافي ، حيث حمل العرب رسالة الاسلام من الجزيرة العربية فانطلقوا بها إلى آفاق الأرض فأقاموا بناء الدولة الاسلامية في ثلاث موجات :

الموجة الأولى : ( ١ ) من ١٢ ـ ٢٢ هـ إلى العراق ودمشق ومصر وفارس والقدس وطرابلس الغرب .
الموجة الثانية : ( ٢ ) من ٤٠ ـ ٥٠ هـ في شمال افريقيا .
الموجة الثالثة : ( ٣ ) من ٨٣ ـ ٩٣ هـ إلى الاندلس غربا والسند شرقا .

ولم تلبث المنطقة كلها من حدود الصين إلى حدود فرنسا أن رفعت راية الاسلام . ولكن حركة الاسلام لم تتوقف منذ اقتحمت قارة اوربا من الأندلس حينما كانت تلح على نفس القارة من الشرق بحصار القسطنطينية .

ومن هنا بدأ الصدام بعالم الفرنجة والغرب والمسيحية . وهو صدام لم يتوقف حتى اليوم ، وكان على الاسلام أن يواجه هذا الخطر من طرفين أساسيين : خطر البيزنطيين على حدود الشام ، وخطر الفرنجة على حدود الأندلس . ومنذ اقتحم الاسلام الأندلس ( أسبانيا ) واستولى عليها ٩٣ هـ ٧١١ م

منذ ذلك اليوم بدأت معركة ذات صراع وهول بين عالم الاسلام وعالم الغرب ، وبين الاسلام نفسه كرسالة ونظام وفكر وبين الغرب وفكره وحضارته التي قامت أساسا على المنهج التجريبي الذي ابتدعته من حضارة الاسلام . وقد وصل الصدام إلى مداه في معركة بلاط الشهداء ١١٤ هـ ٧٣٢ م غير أن ذلك لم يوقف التوسع الاسلامي في فرنسا وإيطاليا وسواحل اوربا .

أما حركة « الأعماق » فتتمثل في بناء المجتمع الاسلامي بالانصهار والفكر الاسلامي بالتبلور ، وهي مرحلة تالية لمرحلة بناء الاسلام وتوسعاته .

# ( ٦ )

## « حركة التوسع »

على الموجة الأولى من حركة التوسع ، تقدمت القوات الحربية الاسلامية إلى حدود الشام والعراق في مواجهة نفوذ الدولة الرومانية ، وإلى حدود العراق لمقاومة نفوذ الدولة الفارسية . فقد وجه أبو بكر إلى الشام ابا عبيدة إلى حمص ، ويزيد بن أبي سفيان إلى دمشق ، وعمرو بن العاص إلى فلسطين ، وشرحبيل بن حسنة الى وادي الأردن . وقد بدأت حركة التقدم في أرض العراق على يد المثنى ابن حارثة الشيباني ، فلما بلغت مرحلة دقيقة أنجده الخليفة « بخالد بن الوليد » فتقدم إلى الحيرة فالأنبار فعين التمر ، أهم مواقعها ذات السلاسل . . .

وبينما كان خالد في تقدمه في قلب العراق ، دعي إلى إنجاد قوات الشام ، وارتد جيش المثنى إلى أطراف الجزيرة العربية ، وأعطيت حركة التوسع في الشام بذلك مداها ، وكان اهتمام المسلمين بغزو الروم هو بالدرجة الأولى ، لتخليص شعب الشام وفلسطين من احتلال الروم . وقد واجه الروم قوات المسلمين بزحوف ضخمة ، اضطرتها إلى توحيد قواتها ، واتجه خالد من العراق لمساندتها . إذ قطع المفازة بين العراق والشام في رحلة أسطورية ، ثم جمع القادة الخمسة على خطة موحدة .

وواجه المسلمون الروم في معارك ( اجنادين ) في ٣٠ ألف مسلم في مواجهة مائة ألف ، وفي معركة ( دمشق ) دخل المسلمون المدينة من ناحيتين . دخل خالد من الباب الشرقي قسرا ، وأبو عبيدة من باب الحبانية سلما ( ١٤ هـ )

وعزل عمر بن الخطاب خالداً من الرئاسة بعد معركة ( اجنادين ) وتلقى خالد عزله راضيا ، وعمل جنديا تحت قيادة أبي عبيدة . وقال عمر : اني لم أعزله عن ريبة . ولكن الناس عظموه فخشيت أن يفتنوا به . وكان هذا الموقف من عمر غاية في تحرير الفكر الاسلامي من عبادة الفرد ، وكانت استجابة خالد بتقبل عزله عن ميدان الحرب كلية مثلا عاليا لعمق مفهوم الاسلام في نفسه ، وسلامة شخصيته ، وقد وصف تصرف عمر فوق ما صوره هو ، بأنه براعة سياسية . فقد كان أبو عبيدة في تقديره أقدر على المسألة .

وفي معركة « اليرموك » كان المسلمون في ٢٤ ألفا بقيادة ابي عبيدة ، والرومان في مائتي ألف بقيادة جبلة بن الايهم آخر ملوك الغساسنة . وقد انتصر المسلمون في كل هذه المعارك بالرغم من تفاوت العدد والعدد ، وتوالت الانتصارات حين استولى أبو عبيدة وخالد على حمص وحماه وقنسرين واللاذقية وحلب . واستولى عمرو بن العاص وشرحبيل على عكا وحيفا ويافا وغزة . ودافع الروم عن بيت المقدس دفاعاً شديداً ، فلما اشتد حصار المسلمين له طلبوا الصلح على أن يتم ذلك على يد الخليفة نفسه ، ليكتب معهم عهدا . وقد قدم عمر بن الخطاب في رحلة ذات طابع عجيب ، وكتب بنفسه كتاب الأمان .

ثم استسلمت مصر لقوات الاسلام . وقد سارع المصريون إليه خروجا من ظلم الرومان ، بعد أن جرت المعارك في أكثر من موقع . وهزم جيش الرومان وتم الصلح بين عمرو بن العاص والمقوقس ( ٢١ هـ ) على دفع الجزية وحرية العبادة ، ورحيل حامية الروم ، ولا شك قد رحب السوريون والمصريون بالمسلمين وهم عرب من بني جنسهم ، تخلصا من الغاصبين .

وفي فارس استانف المسلمون الزحف على فارس ، وكان معركة القادسية ( ١٦ هـ ) بقيادة سعد بن أبي وقاص والمسلمون في عشرة آلاف في مواجهة قائد الفرس : رستم ذا الحاجب في مائة وعشرين ألف مقاتل ، ونصر أبو محجن الثقفي قوات المسلمين . فقد انتزع نفسه من القيد ، وركب البلقاء فرس سعد . وفي معركة المدائن على ضفتي نهر دجلة انتصر المسلمون على قلة عددهم ، وسقطت العاصمة ( ١٦هـ ) وفي معركة جلولاء التي أعد يزدجرد عظيم الفرس فيها آخر محاولاته . وكانت من أعنف معارك فارس . وصفها البلاذري فقال : إن

المتحاربين استعملوا الرماح حتى تقصفت وتجالدوا السيوف حتى انثنت ، وثبت المسلمون وكتب لهم النصر ، وفي معركة نهاوند ( ١٩ هـ ) تم النصر النهائي فأطلق عليها ( فتح الفتوح ) وكان الفرس في مائة ألف بقيادة الفيرزان والمسلمون في « قيادة النعمان بن مقرن المزني الذي ولاه عمر بعد عزل خالد ، وسقط النعمان في مطلع المعركة وخلفه حذيفة بن اليمان على القيادة ، ثم استولى المسلمون على الأهواز ، وقم ، وكاشان .

* * *

من هذا العرض السريع تبدو معارك المسلمين مع الروم والفرس ، وقد كللت كلها بالنصر ، وكان المسلمون فيها غاية في الكفاية والجدية والبطولة والقدرة على الاستشهاد والانتصار بالعدد القليل ، وكانت نتيجة هذه المرحلة أن دانت امبراطوريتان كبيرتان ، وساد حكم الاسلام العراق وفارس والشام والقدس ومصر .

غير أن هذا النصر لم يكن ليستقر أو يستمر دون حراسة ويقظة دائمة . فقد كانت عوامل الانتقاض تحاول أن تجتاحه من أطرافه ، ومضى أصحاب السلطان المنهار في استئناف محاولات جديدة لاسترداد نفوذهم . أما الروم فقد هاجموا الاسكندرية بجيش كثيف ، وأما خراسان فقد انتقضت في محاولة انقلاب . وقد رد المسلمون الحركتين وأبادوهما . وكانت معركة ذات الصواري ( ٣١ هـ ) اشتركت فيها قوات إسلامية في أسطول مكون من مائتي سفينة في مواجهة ثمانمائة سفينة رومانية بقيادة قسطنطين امبراطور الروم ، وكان النصر للمسلمين .

ثم اتصل التوسع الاسلامي مرة أخرى في خلال عهد عثمان ، وكان أبرز ما اتسمت به هذه المرحلة : بناء الاسطول الاسلامي ، وتولى معاوية بن أبي سفيان أمره ، وفي خلالها انضم إلى الكيان الاسلامي برقة وطرابلس وجزء من بلاد النوبة وبلاد أرمينية ، وأجزاء من بلاد طبرستان جنوبي قزوين ، وتخطت جيوش المسلمين نهر جيحون ودخلت بلاد ما وراء النهر ، فاستولى المسلمون على بلخ وهراه وكابول وغزنة من بلاد الترك .

وعن طريق البحرية الاسلامية دخلت ( قبرص ) في إطار الدولة الاسلامية ، وقد قام معاوية بغزوها بحراً ( ٢٨ هـ ) . ثم توقفت هذه الاندفاعة ثمة لتعود مرة اخرى في أوائل حكم معاوية الذي أولى اهتمامه النافذة الشمالية بينه وبين الروم ، فقد كانت هذه الثغرة من أخطر ما واجه المسلمون في تاريخهم كله . وقد أولى معاوية هذا الميدان اهتمامه في موالاة حصار القسطنطينية سبع سنوات متوالية ، وغزو بعض جزر البحر الأبيض .

## ( الموجة الثانية )

وتجددت موجة التوسع مرة أخرى في عهد عبد الملك بن مروان ، والوليد ابـن عبد الملك في امتداد جناحي الاسلام « إحداهما » استكمل الامتداد العربي فيما يلي برقة حتى الأندلس . ثم بلغ قلب فرنسا . « والآخر » استكمل الامتداد الشرقي فيما يلي فارس وما وراء النهر وانقسم الى قسمين : ( أحدهما ) سار إلى الشمال تجاه ما وراء النهر و ( الثاني ) مضى الى الجنوب حيث بلغ السند واخترق الهند وبلغ حدود الصين . ففي خلال حكم الـوليد بن عبـد الملك ( ٥٩٣ م ) حيث اتجه التوسع إلى الأندلس وأطراف فرنسا من ناحية ، وإلى السند من ناحية أخرى . ثم ثناها إلى مرحلة من أعمال الولايات خلال حكم الأغالبة لتونس ، وإذا كان في الامكان أن يقال إن القرن الأول كان عام التوسع في ظل القوات المندفعة خلال هذا الأفق الواسع من حدود الصين إلى حدود فرنسا . فإن هناك أمرين جديرين بالاهتمام والتسجيل :

( الأول ) : ان مرحلـة التوسـع الثـانية ( ٤٠ ـ ٩٣ ) في خلال حكم الأمويين لم تكن في عمق المرحلة الأولى ، فقد كانت أقل درجة في الكفـاءة ، ولذلك فإن أغلب الأرض التي كسبتها لم تثبت طويلا كما ثبتت الأرض التـي كسبتها الجولة الأولى .

( الثاني ) : إن الاسلام بعد القرن الأول لم يكن في حاجة إلى أن يجري في ظل الحركات العسكرية ، بل بدأ خطوات جديدة مستقلة ، واستطاع أن يفتح آفاقا جديدة بقوته الذاتية ، ومعنى هذا أن قيام « عالم الاسلام » على النحو الذي قام به خلال القرن الأول . وعلى هذا النحو الرائع العجيب وما حققه من نتائج رائعة في نقل سكان البلاد إليه بالدعوة ، وعلى أساس جوهر مفاهيمه : « التوحيد العدل الاجتماعـي ـ المسـاواة » كان ذلك كافيا لأن يدفعـه اندفاعـا ذاتيا ليحقـق توسعات جديدة في أرض لم يكن للاسلام عليها دولة أو كيان سياسي .

( الثالث ) كانت الجولة الثانية للتوسع الاسلامي أقل درجة من ناحية الاعتصام بمفاهيم الاسلام وقيمة الأسس التي رسمها « نبي » الاسلام وحرص صحباته وخلفاؤه على الاستمساك بها .

( الرابع ) كان منهج التوسع الاسلامي في عهد الأمويين أقل درجة من ناحية العمل على نشر الاسلام والدعوة إليه . وكانت « القدوة » التي تمثل رأس القيادة الاسلامية أقل قدرة على إعطاء المثل الأعلى للاسلام مما كانت أيام الراشدين ، فقد كانت بساطة الخلفاء الراشدين عاملا عجيباً في كسب غير المسلمين في الأقطار التي تولاها الاسلام ، منها في عهد الأمويين ، غير أننا نؤمن بأن التطور الذي بلغته القيادة السياسية كان تطوراً طبيعيا .

دخل الاسلام في الجولة الثانية : « الأندلس والهند » ولكنه لم يتعمق نفوس المسلمين . كان من أسباب ضعفه حرص الولاة على إيراد الخزينة العامة حتى جاء عمر بن عبد العزيز فحطم هذا القيد ، وألغى الأوضاع التي كانت تفرض على المسلمين ما كان خليقا أن يرفع عنهم من ضرائب بعد إسلامهم . فقد أوقف عمر بن عبد العزيز الجزية عمن دخل الاسلام منهم ، فدخل الناس في الاسلام أفواجاً ، ودعا ملوك السند فدخلوا بدعوته وتبعتهم شعوبهم كما دخل الاسلام كثير من أهالي مصر والشام وفارس وهو القائل لواليه الذي اعترض على إلغاء الجزية لأنها تنقص مال الخزانة : « قبح الله رأيك ،ارفع الجزية عمن أسلم . فإن الله بعث محمداً هادياً ولم يبعثه جابياً ، ولعمري لعمر أشقى من أن يسلم الناس جميعهم على يديه » .

وفي هذه المرحلة ظهر من أسماء الفاتحين : طريف بن مالك وطارق بن زياد وموسى بن نصير ( الأندلس والمغرب ) وقتيبة بن مسلم ( ما وراء النهر إلى حدود الصين ) . ومحمد بن القاسم الثقفي ( السند ) ويزيد بن المهلب ( جرجان وطبرستان ) ومعاوية بن أبي سفيان ( حصار القسطنطينية ) وعقبة بن نافع ( فتح أفريقيا إلى المحيط ) وقد شمل التوسع العسكري الميادين الثلاثة :

( ١ ) الحرب ضد الدولة الرومانية ( بيزنطة ) ومحاصرة القسطنطينية .

( ٢ ) شمال أفريقيا . وقد امتد حتى المحيط ، ثم عبر مضيق جبل طارق وامتد إلى أسبانيا ( الأندلس )

( ٣ ) شرق آسيا : سار إلى ( ١ ) الشمال تجاه ما وراء النهر ( ٢ ) والى الجنوب فشمل السند .

ولقد كان قادة المعارك نماذج نادرة في البطولة والايمان « قتيبة بن مسلم » غزا ما وراء النهر وأغار على الصفد وفتح مدائن خوارزم صلحا ، وغزا سمرقند ، وسار إلى حدود الصين ( ٩٦ ) فأرسل ملكها وفدا له يقول:ارجع ، فقد عرفت حرص من أرسلك وقلة أصحابه ، قال قتيبة : كيف يكون قليل الأصحاب من أول خيله في بلادك وآخرها في منابت الزيتون ، وكيف يكون حريصا على الدنيا من خلف الدنيا وغزاك . أما تخويفك إيانا بالقتل . فإن لنا آجالاً إذا حضرت فأكرمها القتل فلسنا نكرهها ولا نخافه » .

و« يزيد بن المهلب » غزا جرجان وطبرستان بجيش مكون من مائة الف .
أما « محمد بن القاسم الثقفي » فقد حمل لواء الحرب وهو في سن السابعة عشرة وجمع بين البطولة والشجاعة وسداد الفكر . مما تجدر الاشارة إليه أن ما أورده كثير من المؤرخين من خلاف بين طارق بن زياد وموسى بن نصير لا تؤكده المصادر الأمينة ، وكل ما روي في هذا سنده ضعيف ، ومن وضع وضاع العصر العباسي . لقد كمل أحدهما الآخر ، أرسل موسى طارق فلما تحقق النصر ودانت أرض الأندلس ، عبر من منطقة أخرى ليكمل التوسع ، وليحكم الخطة ، فلما التقيا سارا معاً إلى الشمال حتى وصلا جبال البرانس .

وفي الجولة الثانية للتوسع الاسلامي أنشأ الأمويون الأسطول البحري ، وقد غزا معاوية في البحر واستعمل على أسطوله عبد الله بن قيس ، كما أغرى معاوية « عقبة بن عامر » فوجهه إلى رودس ، وركب معاوية البحر إلى قبرص فافتتحها . وكان معه ألف وسبعمائة سفينة للسلاح والأموال ، وأجرى معاوية محاولته لفتح القسطنطينية ، وكانت صور وعكا وطرابلس موانيء متخصصة لصناعة السفن .

## تفسير لنجاح التوسع الاسلامي

إن أبرز ما يرتكز عليه مفهوم عموم الرسالة في الاسلام هو تبليغها وإذاعتها ونشرها في الآفاق . ذلك هو هدف الاسلام الأكبر ، والغاية المنوطة بكل من يعتنق الاسلام والأمانة التي يحملها كل مسلم . فالاسلام ليس دين عبادة ، ولكنه دين ورسالة ، قد وكل إلى معتنقها أن يذيعها في أنحاء الأرض ما استطاع إلى ذلك سبيلاً ، سجل ذلك القرآن : حين وصف الاسلام بالعالمية ، وحين بعث محمد للعالمين نذيراً ، وكافة للناس ، ورسول الله إلى الناس جميعاً[1] . وقد سجل الرسول ذلك في عديد من أحاديثه : « إني بعثت رحمة للناس كافة » . ومن هنا كانت دعوته إلى ملوك العرب وأمرائها بعد صلح الحديبية في السنة السادسة للهجرة . ثم رسائله إلى الملوك قبل فتح مكة .

فقد بعث إلى الملوك ورؤساء الأمم خارج الجزيرة العربية يدعوهم إلى الاسلام ، إلى هرقل امبراطور الروم ، وإلى كسرى فارس ( هوأبرويز بن هرمز ) ونجاشي الحبشة ، والمقوقس حاكم مصر ، وقد صدرت هذه الرسائل عن يقين ثابت ، وحماس متقد على حد تعبير ( توماس ارنولد ) وتدل دلالة واضحة على ( عموم الرسالة ) التي تكررت في القرآن . وقد أجمع الفقهاء على أن ذلك مما هو معلوم من الدين بالضرورة ، وليس في طبيعة الاسلام ، ولا في خطط الرسول في دعوته ، ولا في أحوال الأمم عند مبعث الرسول أمر لا يؤكد ( عموم الرسالة ) . وقد صدقت الأحداث ذلك من بعد وأيدته . وقد أمر القرآن بالدعوة إلى الله بإقناع ونهي عن الاكراه . ( **ادع إلى سبيل ربك بالحكمة والموعظة الحسنة وجادلهم بالتي هي أحسن** ) وقد كان الاسلام منذ بدء ظهوره ، « دين دعوة »

---

( ١ ) سورة الفرقان ، وسبأ ، والاعراف في القرآن الكريم

وكان مفهوم « عالمية الاسلام » واضحا في النماذج التي اعتنقت الدعوة الاسلامية في المدينة ، بلال أول ثمار الحبشة وصهيب أول ثمار الروم وسلمان أول ثمار الفرس . هكذا كان يطلق عليهم ، ومن ذلك ما ذكره الرسول عن بلاد كثيرة تفتح على المسلمين ، وما أوصى به لقيط مصر ، وما أشار إلى من سيعطى أساور كسرى ، ويعني هذا كله أن عالمية الاسلام وعموم رسالته كانت أمراً مقطوعاً به ، وأن المسلمين كانوا في جماعة الاسلام التي كونها محمد في المدينة يفهمون منطلق الاسلام ، هذا المنطلق الذي بدأ فعلاً ببعث أسامة الذي أعده الرسول وأمر بإنفاذه . وكان اتجاهه إلى عنق الجزيرة العربية إلى الشمال .

وعلى ضوء هذا المفهوم نستطيع أن ننظر إلى حركة التوسع التي قام بها الاسلام ، والتي حققت قيام دولة ممتدة من حدود الصين إلى حدود فرنسا . فقد كانت هذه الحركة تحقيقا لمفهوم عموم رسالة الاسلام ، ودفعا للقوة الحاجزة دون انتشاره والقضاء عليها ، مما يطلق عليه عبارة « الفتح » إذا جاز لنا ان نستعمل لفظ « الفتح » فإنما يتم ذلك بمفهوم واحد . هو إزالة القوة التي تقف أمام أمانة « عموم الرسالة » التي حملها المسلمون عن الرسول ، وكانت في تقديرهم مهمة حياتهم ، يهبون لها أرواحهم ، ويستشهدون من أجلها . فالفتح هو كسر الحواجز المادية التي يحاول أن يقيمها الحكام والأباطرة والأمراء أصحاب السلطة في الأقطار التي ينفذ إليها الاسلام رغبة في تحقيق اللقاء بين الاسلام وبين هذه الشعوب المغلوبة على أمرها ، الغارقة في : ( ١ ) الظلم الاجتماعي ( ٢ ) الوثنية ، ولذلك فقد استقبلت هذه الشعوب الاسلام بغبطة كبيرة ، وتقدير لا حد له ، لأنه أتاح لها التحرر من مظالم الاستبداد ، وحفظ لها حقها في ديانتها وطقوسها القديمة . دون أن يفرض عليها عقيدته ، وسمح لها أن تتأكد بمزيد من الحياد كيف يحقق الاسلام : العدل - المساواة - هنالك اندفعت تحت لواء الاسلام بإرادتها الحرة ، وباقتناعها العقلي والروحي الكامل .

وفي كل خطوة من خطوات الصدام كان الاسلام معتدى عليه ، أو محالا بينه وبين إذاعة كلمته ، ونشر دعوته . وقد انتفضت الجزيرة العربية بعد أن لحق الرسول بالرفيق الأعلى ، وقطعت روابطها ، كان معنى هذا الانتقاض انفراط عقد الوحدة التي كانت موضع هيبة الامبراطوريتين الفارسية والرومانية ، وقيد نظرهما في حركة الاسلام ، لذلك كان لا بد من صدام مسلح يعيد وحدة الجماعة

الاسلامية ، غير أن انتقاض أهل الردة شجع الفرس والروم على العمل للقضاء على الدعوة الناشئة . وسارعت الفرس والروم فقدمت للمنتقضين مساعدتها وآوت المتمردين ، ولذلك فقد كان طبيعيا أن يتجه المسلمون إلى مواجهة الفرس والروم ، بعد القضاء على الردة في موقعة فاصلة ، يزيلون بها هذا الخطر الذي يقف أمام نمو الاسلام وانتشاره ، والذي كان يتربص به ، ويستعد لضربه ضربة قاتلة ، ومن ثم اتجهت القوات المسلمة إلى أطراف الامبراطوريتين في وقت واحد ، وفي معركة زمنية واحدة ، وكان ذلك من علامات القوة بالرغم من أنها تخالف العرف العسكري والحربي الذي يرى أن لا يشترك المحارب في معركتين معاً في وقت واحد . غير أن ذلك أرهب العدوين وأدال منهما .

وتوالت الانتصارات حاسمة متتابعة في كلا المعسكرين ، وبرزت بطولات رائعة ، وظهر قادة ابطال ، واعطت هذه العمليات الحربية صورة رائعة لتطبيق مفهوم الاسلام وانصهاره في نماذج حية رباها محمد ، وكونها خلال كفاح طويل ، وبرزت صور من التضحية والاستشهاد والبطولة غير عادية .

ولقد لفت التوسع الاسلامي نظر الباحثين ، فذهبوا في تحليله مذاهب شتى . يقول : لوردستروب : كلما زدنا استقصاء باحثين عن سر تقدم الاسلام زادنا ذلك العجب العجاب بهراً ، فارتددنا عنه بأطراف حاسرة ، عرفنا أن سائر الأديان العظمى إنما نشأت تسير في سبيلها سيراً بطيئا متلافية كل صعب ، حتى أن قيض الله لكل دين ما أراده له من ملك ناصر وسلطان قاهر انتحل ذلك الدين ثم أخذ في تأييده والذب عنه ، حتى رسخت اركانه ومنعت جوانبه .

فبطل النصرانية : « قسطنطين » وبطل البوذية : « أسوكا » وكل منهم ملك جبار أيّد دينه الذي انتحله بما استطاع من القوة والايد ، إنما ليس الأمر كذلك في الاسلام ، الاسلام الذي نشأ في بلاد صحراوية يموت فيها كل شيء ، حيث القبائل الرحالة التي لم تكن من قبل رفيعة المكانة والمنزلة في التاريخ ، فسرعان ما شرع يتدفق وينتشر وتتسع رقعته من جهات الأرض ، مجتازاً أفدح الخطوب وأصعب العقبات دون أن يكون له من الأمم الأخرى عون يذكر ، ولا أزر مشدود ، وعلى شدة المكاره فقد نصر الاسلام نصرا مبيناً عميقاً . إذ لم يكد يمضي على ظهوره أكثر من قرنين ، حتى باتت راية الاسلام خفاقة في البرانس حتى هملايا ، وفي صحارى أواسط آسيا حتى صحارى أواسط أفريقيا . وعندنا

أن العامل الأول في نجاح التوسع الاسلامي لم يكن هو التطلع إلى السلطان والثورة كما يظن بعض المؤرخين الأجانب ، ولم يكن مصدر النصر الوحيد هو ضعف هذه الدول . ولكن العامل الأول في الحقيقة إنما هو مفهوم الاسلام وسلامته ، وقربه من الفطرة الانسانية ، ومطابقته للواقع ، هذا المفهوم هو بناء حضارة جديدة في إطار التوحيد : وكانت القوة الدافعة هي إيمان هذه الجماعة إيماناً لا يتزعزع بالاستشهاد في سبيل دفع لواء الاسلام إلى كل أرض . أما السلطان والثروة ، فقد كان الاسلام في أعمق مفاهيمه جامعاً بين الدنيا والآخرة ، والمادة والروح لا يفرق بينهما ولا يفصلهما ، ولم تكن الوسائل الحربية التي اتخذها المسلمون هي وحدها سبب النصر ، فقد كان هنالك دوماً فارق بعيد في العدد والعُدد بين المسلمين وخصوم الاسلام ، وإنما كان مصدر النصر الحقيقي هو ذلك الايمان بالقاعدة الذهبية : « احرص على الموت توهب لك الحياة » .

ولقد خالف المسلمون القاعدة الاستراتيجية الحربية التقليدية التي تقول : على المحارب أن يركز قواته في ميدان واحد ، ودفعوا قواتهم في ميدانين واسعين في وقت واحد ، ومهما يكن من العوامل التي يوردها المؤرخون تفسيرا لهذا النصر الرائع . فإن العامل الأول والأعظم ، هو ذلك الايمان العميق بالله ، والثقة في نصره ، وطلب الموت في سبيل إذاعة الاسلام ، وإبلاغه للعالمين ، والتضحية بالروح ، والتماس الشهادة ، هذا هو العامل الأول والأعظم من بين العوامل المتعددة .

لقد كانت الامبراطورية الرومانية قد شاخت وبلغت المدى في الضعف والتحلل ، وكان الأباطرة الرومان قساة مستبدين ، وكانت حياة الترف والانحلال بادية ، وكان الخاضعون للروم يعيشون في ضنك من جراء ثقل الضرائب الباهظة ، وفساد الموظفين . فلم يكونوا يدينون بشيء من الولاء لهذا الحكم ، وكانت مصر مزرعة قمح لروما . أما الفرس فقد كانت الحروب مع الرومان قد أنهكتها . وكان جنودهم يحاربون من غير حافز روحي ، حتى اضطر القائد الفارسي في أحد المواقع أن يقيد جنوده بالسلاسل حتى لا يفروا . وذلك في موقعة ذات السلاسل .

لقد ذهب البعض إلى عرض مفهوم « الجهاد » في الاسلام عرضا غير

منصف ، محاولا أن يجعله عملا حربيا هجوميا عدوانيا . بينما لم يكن الجهاد جهاد حرب أو قتال أو عدوان ، بل كان عملاً بَنّاءً للشخصية الانسانية أساساً ، وللمجتمع وللدفاع عن الاسلام ، ونشر لوائه . فهو دعوة خالصة وسيلتها الحكمة والموعظة الحسنة والمجادلة بالحسنى . فإذا فرض العدو المعركة ووقف في طريق الدعوة كانت الحرب وهي في مفهومها تقوم على أساس غاية في الرحمة والعدل .

والحق أن موجة التوسع الاسلامي كانت حركة عدل ورحمة ، فقد صادفت أقطاراً غلبت عليها قوى الظلم والاضطهاد ، والفقر والذل ، فكانت دعوة الاسلام بمفهومها « دعوة التوحيد والعدل والمساواة » علما على تحرير الرقيق والعبيد والضعفاء وتخليصهم من سلطان المستبدين والظالمين ، وسلطان الأباطرة . فبقوة مفهوم الحرية والعدل كانت تشق طريقها بعزيمة ، وتجد في كل مكان تحل فيه قبولا ، لأنها كانت تزيل السلطة المستبدة الطاغية ، وتحل محلها سلطة جديدة قوامها العدل ، لا ترغم الناس على دينها ، ولكنها تؤمن للناس حياتهم ، وحرية أديانهم .

لقد كان المسلمون يصلون إلى الأقطار فيقيمون فيها نظامهم ، فيلقاهم الناس بالرضا ، لأنهم كانوا يحررونهم من الظلم ، ولا يفرضون عليهم الاسلام ، ويؤمنونهم على أموالهم وأملاكهم ، ويدعون لهم حرية دينهم . بل لقد تركوا الأرض لاصحابها على أن يدفعوا خراجها . بينما كان الأكاسرة والقياصرة يعتبرون أنفسهم ملاكاً للأرض وللعاملين فيها .

وكان المسلمون يتركون لغير المسلمين أن يحكموا قانونهم المدني في شؤونهم وإلى جوار ذلك كان دعاة المسلمين والفقهاء يتحدثون عن الاسلام ومبادئه وقيمه . ومن هنا أخذ الاسلام ينتشر ببطء . وأخذت الجماعات المختلفة تتخلص من أديانها وتعتنقه ، وتتخلص من لغاتها ، وتعتنق اللغة العربية أيضا ، حتى رجال الكنيسة في القرن الرابع الهجري وضعوا كتاباتهم باللغة العربية .

وقد سجل سلوك عمر بن الخطاب في مدينة القدس مقدار الرفق العظيم الذي كان يعامل به العرب الأمم الداخلة تحت لواء الاسلام ، فلم يزد عمر أن يدخل معه مدينة القدس سوى عدد قليل من أصحابه ، وطلب الى البطرك

صفرونيوس ان يرافقه في زيارته لجميع الأماكن المقدسة . وقد أعطى الأمان لسكان المدينة وقطع لهم عهدا باحترام كنائسهم وأموالهم ، وبتحريم العبادة على المسلمين في بيعهم ، وكذلك فعل عمرو بن العاص ، فقد منح المصريين حرية دينية تامة وعدلاً مطلقا ومساواة كاملة ، واحتراما كبيرا لاموالهم ، وتبديلا للضرائب الجائرة التي فرضها قياصرة الروم .

وهكذا وجد الفرس والمصريون والسوريون في الاسلام منقذاً من الظلم والطغيان والاستغلال ، حين ضمن لهم حرية الاديان ، وترك الأرض لاصحابها على أن يدفعوا خراجها ، وهو أقل بكثير مما كانوا يدفعونه للأكاسرة والقياصرة . كما أمن غير المسلمين على أموالهم وأهليهم . وقد نفذ النظام الاسلامي على المسلمين ، وترك لغيرهم الفصل في شؤونهم وفق القانون الذي كان مصدراً لقضائهم . ولقد تابعت حركات الفتح اعمال الدعوة والتعريف بالاسلام ، فقد انبث الفقهاء والدعاة في كل مكان يتحدثون عن مبادىء الاسلام وقيمه . وكانت صورة الرسول كنموذج وقدوة وما التمسه أصحابه وتابعوه من شمائل وخلق من العوامل الأساسية لفهم الاسلام وقبوله ، مما دعا الكثيرين الى اعتناقه . وقد انتشرت اللغة العربية مع الاسلام . إذ أصبحت لغة الجماعة وقوام الأنظمة السياسية والاجتماعية . وفي الحق لم تكن أعمال التوسع مجرد أعمال عسكرية تهدف إلى السيطرة أو تحقيق المجد الشخصي أو توسيع رقعة الأرض . بل كانت أساساً تحمل دعوة الاسلام إلى كل مكان ، ولم تكن الشخصيات التي برزت في هذا المجال شخصيات طامحة الى السلطة ، او راغبة في الظفر الذاتي أو المادي . بل لقد استهدفت حركة التوسع الاسلامية نشر الاسلام أولاً ، وإزالة القوى الحاكمة الظالمة المسيطرة ذات النفوذ والمصلحة الخاصة ، لاتاحة الفرصة لأهالي الأقطار المختلفة تحقيق قيام حكومات شعبية أهلية .

ولقد كانت نتائج الحروب والمعارك مفضية الى هذه الحقيقة ، فقد كان الهدف الدنيوي في الدرجة الثانية . وكان هدف تضحية الروح والاستشهاد في سبيل الغاية هو أبرز الدوافع . إذ إن البسالة الفائقة والتضحية بالنفس لا تكون مصدراً للمطامع الدنيوية بذاتها . ولقد كانت مختلف المواقف تشهد بأن المسلمين كانوا الصف الأقل عددا بينما كان عدوهم يمثل ضعف عددهم أو أضعافه . ومع

ذلك كان مرجع النصر الذي يكسبونـه دائماً إلى قوة أخـرى غـير القـوى المادية وحدها . ومع هذا العامل القوي فإن المسلمين لم يتخلفوا عن الامتياز والتفنن، والابتكار والبراعة في فنون الحرب والقتال ، واصطناع أحدث الوسائل ، وأذكى الخطط ، وما تزال المعاهد العسكرية العالمية تدرس خططهم الاستراتيجية .

## ( ٧ )

# الاسلام والحرب

لم تكن مواقع التوسع الاسلامي مجرد أعمال عسكرية تستهدف زيادة رقعة الأرض الاسلامية . وإنما كانت تتمثل في القضاء على المقاومة التي تحول دون اندفاع دعوة الاسلام إلى مداها ، بعد أن تكفلت الجماعة الاسلامية التي صنعها محمد في الجزيرة العربية خلال ثلاثة وعشرين عاماً إبلاغ الاسلام الى العالمين .

وظلت الحرب في مفهوم الاسلام حرب دفاع لا حرب هجوم ، ورداً للعدوان وذوداً عن الحمى ، وكانت القوة في الاسلام إرهاباً أكثر منها تدميراً . « وأعدوا لهم ما استطعتم من قوة ومن رباط الخيل ترهبون به عدو الله وعدوكم » وقد صاغ الاسلام لفكرة الحرب مفهوماً يختلف عن مفهومها العدواني ، فصانها عن قتال الأطفال والشيوخ والعبّاد من أي دين ، وارتفع بها عن التدمير والابادة ، ولم يجعل مفهوم انتشار الاسلام مرتبطاً بالحرب ، بل جعله منوطاً بالاقتناع والتقبل النفسي ، وكان أهم ما أدخله الاسلام من تطوير لتطرية الحرب هو السمّو بها ، ووضع مبادىء تقود المحاربين إلى النصر بالاعداد للمعركة إعداداً سليماً يضمن كسبها .

واتسعت مواقع التوسع الاسلامي بالبسالة الفائقة ، والتضحية بالنفس ، كان المجاهد حين يقاتل يطمح في إحدى الحسنيين على النحو الذي علمه الرسول للجماعة الانسانية : النصر أو الشهادة . ولم تكن مطامع الغزو المادية منكورة ،

غير أنها لم تكن أبداً الهدف الأول كما تحاول كتابات بعض الغربيين أن تصورها .

وإذا اعتبرنا أن المسلمين في هذه المرحلة قد اعتنقوا عقيدة نشر الاسلام والسير بلوائه إلى أقصى ما يستطيعون بلوغه في الأرض . فإن هذا الايمان العميق قد فتق أذهان وعقول هذه النخبة الممتازة إلى فنون من الحرب وابتكار أدوات للقتال وأساليب للدفاع .

وقد رسم الرسول قاعدة الغزو في كلمات حاسمة دقيقة ظلت دستور الاسلام في الحرب : « أغزوا باسم الله ، في سبيل الله ، لا تغدروا ولا تغلوا ، ولا تمثلوا ولا تقتلوا وليداً ولا امرأة ولا كبيراً فانياً ، ولا منعزلا بصومعة ، لا تعقروا نخلا ولا تحرقوه ، ولا تقطعوا شجرة مثمرة ، ولا تهدموا بناءً ، ولا تذبحوا شاة ولا بقرة ، ولا بعيراً إلا لمأكله ، سوف تمرون على أقوام قد فرغوا أنفسهم في الصوامع فدعوهم وما فرغوا له ، أوصيكم بتقوى الله وبمن معكم من المسلمين خيراً » .

***

وقد حقق الرسول صلى الله عليه وسلم بوصفه القائد الأول لجيش الاسلام مبادىء عسكرية ونظريات حربية جديدة طبقها في موقعة بدر . ثم جاء قادة المسلمين فأضافوا إليها . وأهم هذه القواعد :

( ١ ) تقسيم مواجهة الهجوم
( ٢ ) القضاء على القوة الرئيسية للعدو
( ٣ ) تخصيص قوة حارسة تحمي مؤخرة الجيش
( ٤ ) السيطرة على ممر في جبل لمنع العدو من المرور فيه
( ٥ ) دراسة شخصيات قادة العدو .
( ٦ ) الاستعداد لمواجهة طباع وعادات وأساليب الحرب لكل قائد منهم
( ٧ ) تطبيق مبدأ الوقاية
( ٨ ) مبدأ المبادأة .

كما اتخذ الرسول : خطة اختيار الموقع الملائم لجنده ، كان يخرج للقاء

عدوه ، وكان يعاود الخروج ولو كان متعباً ، كما فعل بعد معركة أحد ، وكان يفرض الحصار وفقاً لخطة حربية ، والسيطرة على الماء ، وحفر الخندق ، وكان مع هذا لا يكل نفسه إلى القوة العددية ، ولا يكتفي بها . بل يلجأ إلى اللـه . وكان يؤمن بخطر الحرب في نتائجها بما يختلف من بداءتها فيقول : « لا تتمنوا لقاء العدو فإذا القيتم العدو فاثبتوا » . وكان حريصاً على تعرف قوة العدو بوسيلة أو بأخرى ، فقد يسأل عن الجزور التي تعود ذبحها كل يوم ، ثم يستنتج منها عدد جيش أعدائه ، ولا يضطرب في الأزمة أو القارعة ، بل يثبت في صمود ، وفي موقفين غاية في الحظر ثبت الرسول ولم يضطرب ، أولهما عنـد الفشـل في أحد ، فقد ثبت بقوة كما ثبت بقوة في حنين بعد أن فارقه أكثر أنصاره .

ولم تذهله المعركة عن واجباته كقائد لقومه ، وهو لا يمنع عن تغيير مكان المعركة إذا وجد في رأي أعوانه صواباً ، ولا يستهين برأي أحد من رجاله ، ففي بدر غـيرّ الموقـع ، وفي الخنـدق غـيرّ الخطـة . وكان من أسلحتـه القضـاء على اقتصاديات العدو ومحاصرته . وذلك بالتعرض لقوافل قريش . وكان لا يتعرض للآمنين الوادعين الذين لم يشتركوا في الحرب ، ولا يغير على قوم لم يخاصموه أو يعادوه . فإذا عرف بعزمة قوم على مهاجمته سارعهم بالهجوم . وإذا بلغه أن قوماً يحملون عليه أو يهاجمـون دعوتـه أرسـل إليهـم من يناصحهـم ويدعوهـم إلى الاسلام ، فإذا رفضوا حاربهم . وكان في خط النار أقرب ما يكون إلى العدو . قال أصحابه « كنا إذا حمي وطيس الحرب وحميت الحدق نثق به فلا يكون أحد أقرب إلى العدو منه » .

وقد تطورت خطط الحرب بعد ذلك وتوسع نطاقها وتعددت أساليبهـا ، ولكنها لم تخرج عن المثل الأعلى للاسلام ، فلا يتأخر المسلمون عن أداء الصلاة في مواعيدهـا ، ولا يهاجمـون غـير المحاربـين ، ولما صادفتهـم مواقف جديدة استحدثوا لها ما يواجهها ، لما واجهتهم الفيلة ضربوا خراطيمها ، ولما واجههم النهر خاضوه بالفرسان .

( ٢ ) ابتكر القعقاع بن عمرو فناً عسكرياً جديداً . فقد وصل قادماً إلى معركة القادسية من العراق في نجدة من الجنود في اليوم التالي . فلما رأى قلة عدد المسلمين قسم جنوده ، وكانوا يعدون ألف فارس أقساماً صغيرة ، كل قسم عشرة

وأميرهم ، ثم أمرهم أن يتواتروا إقبالاً على المعركة عشرة بعد عشرة ، وأن يبدأوا الهجوم عند وصولهم فيزيدوا في قوة المسلمين ، ويظن الفرس أن الامدادات متتابعة فيساعد ذلك على خذلانهم .

( ٣ ) كانوا يسيرون إلى الحرب يرتلون الآيات القرآنية ، ويكبرون عند الهجوم ، ويستعملون الطبول ، يقول عبد الله بن الزبير : « بتنا وباتوا ، وللمسلمين دوي القرآن كدوي النحل ، وبات أولئك في خمورهم وملاعبهم » .

( ٤ ) كانت النساء تصحب المقاتلين وتخصص لهن أماكن وراء الجيش ، وكن يعملن مع الرجال في أثناء المعركة ويقمن بتحريض الرجال على الصبر والاستبسال وينقلن الماء ، ويشتغلن بتمريض المرضى ومواساة الجرحى ، وقد وقفت النساء المسلمات خلف الجيش في معركة اليرموك وبأيديهن العمد والحجارة يضربن بها من يحاول الهرب .

( ٥ ) برز طابع الاستقامة الخلقية في معاملة أهالي المدن المفتوحة ، فلا فساد ولا خمور . أما الجندي فلا يقيم في الجيش أكثر من أربعة أشهر ، ثم يسمح له بزيارة أهله ،وكان عمر قد سأل ابنته عما يمكن ان تنتظر المرأة غيبة الرجل فقالت أربع شهور .

( ٦ ) عرف خالد ببراعته في خططه الحربية ، وفي « مؤتة » استطاع الارتداد بثلاثة آلاف مقاتل لما ظهر رجحان الروم عليهم . وفي معارك الردة كان يتقدم لمبارزة قائد المعركة فيقتله ويتفرق أصحابه ، وفي معارك العراق أخذ بالمفاجأة . وفي موقعة ذات السلاسل فرق جيشه ( ١٠ آلاف مقاتل ) إلى ثلاث فرق وواعدهم ( الخفير ) وفي معركة الولجة حارب أعداءه في ثلث جيشه ، وأرسل الثلثين كميناً له على أن يأتوا العدو من خلفه ، وبدأت المعركة والعدو لا يظن إلا أن خالداً في هذه القوة القليلة ، وأنه ظاهر عليه حتماً ، وخالد يماكر عدوه ويخاتله ، حتى ظهر كمين خالد من خلف العدو فأصبح محاصراً من خلف ومن أمام .

وكان خالد يتحرك دائماً على تعبئة ، وفي معركة ( أليس ) واجه خصومه وهم يتهيأون لطعامهم ، فلما رأى عددهم وقوتهم تعجلهم بالسيف فشتت

شملهم . وفي ( الأنبار ) وجد القوم قد خندقوا واعتصموا في حصونهم ، فاقتحم الخندق بجثث الابل الضعيفة نحرها ورماها في الخندق ركاماً . وأمر جيشه بالعبور على هذا الجسر ، وكان من أساليبه القدرة على نقل جيش عدوه بعيداً عن مراكزه ، فقد عسكر في ( الخفير ) فلما تحرك هرمز قائد الجيش غادر المكان إلى ( كاظمة ) فكبد عدوه السير مسافة طويلة وواجههم ، وقد أضنناهم التعب ، وكان الانتقال في الرمال والمغاور أمراً سهلاً على العرب مهلكاً للفرس . ولم يلبث أن هاجم هرمز وقتله وبدد جيشه . وكانت أبرز مفاهيم خالد الحربية .

( ١ ) معرفة مواطن الضعف في عدوه
( ٢ ) سرعة الحركة
( ٣ ) العزيمة والجرأة .

وفي اليرموك كان في أربعين ألفاً وكان الروم في مائة ألف فقسم جيشه إلى كراديس . كل كردوس ألف فارس ليوهم الروم أن العرب مثلهم عدداً .

( ٧ ) ومن القواعد التي سنها عمر بن الخطاب : أن يكون كل مسلم جندياً من جنود الاسلام على أهبة الاستعداد لتلبية داعي الجهاد في كل لحظة دفاعاً عن دينه ، وأن يمنح من بيت المسلمين عطاءً معيناً .

وقد حدد قادة الحرب المسلمون خطوات العمل الحربي على خمس مراحل :

( ١ ) الاستيلاء على المراكز ذات الخطورة العسكرية .
( ٢ ) استدبار الجند عين الشمس أو الريح .
( ٣ ) كتمان أخبار الجيش في حله وترحاله .
( ٤ ) وضع الأسلاك الشائكة حول الجيش .
( ٥ ) إقامة الكمين « حركة التعويق » .

واهم من هذا كله الحرص على الموت : احرص على الموت توهب لك الحياة .

■ عن البلاذري أن النعمان بن مقرن قال لرجاله في معركة نهاوند : إني هاز لوائي ثلاث هزات . فأما أول هزة فليتوضأ الرجل بعدها . أما الهزة الثانية

فلينظر الرجل بعدها إلى سيفه وليتهيأ وليصلح من شأنه ، أما الثالثة : فإذا كانت فاحملوا ولا يلوين أحد على أحد .

■ عند اقتحام دمشق بعد معركة اليرموك سبح المسلمون عبر الخندق الذي يحيط بها ، وكان مليئاً بالماء ، وعلى ظهورهم القرب . ثم رموا بالحبال والأنشوطة فعلقت بالأسوار فتسلقوها وفتحوا الأبواب .

وكان القادة يجعلون من أنفسهم القدوة في كل آن ، فيدعون أشجع الشجاعان إلى المبارزة قبيل كل معركة . فإذا قضوا عليهم حلت الهزيمة بالخصوم . كان من الحرب أول الأمر جديداً على المسلمين . وكانت أبرز مقومات غزوهم : الايمان والشجاعة والاقدام ، غير أنهم لم يلبثوا أن درسوا أنظمة الحرب فأنشأوا كتائب منظمة ، وكانوا يرتقبون الاشتباك قبل صلاة الظهر ، ويحافظون على التوازن الحربي حتى المساء ليعودوا إلى المعركة بكتائب جديدة ، واتخذ خالد طريقة إخراج الجيش إلى مكان بعيد وإعادته في الصباح فرقة وراء فرقة ليفت في عضد العدو ، وليزيد أصحابه قوة برفع روحهم المعنوية بإمدادات جديدة ، ولم تمثل الغنائم إلا دوراً ثانوياً في مفهوم المسلمين المحاربين ، وعني الاسلام بتأمين أسر المحاربين . ففرض عمر بن الخطاب راتباً لأرملة الجندي ، وذلك لأول مرة في تاريخ العالم ، وفي مجمل الصورة تبدو ظاهرة اقتصار العدد القليل من المسلمين على العدد الأكبر من خصومهم « قضية » عاودها بالبحث كثير من المؤرخين ، ومجمل القول فيها أن مقاتلة المسلمين كانوا من طراز خاص ، لقد أعطاهم الايمان بالله مع تضحية النفس في سبيل نصر الاسلام قوة على الاندفاع في الحرب دون خوف الموت ، ومع إكبار لهذا المعنى كانت نفوسهم تحمل الازدراء لحكام الدنيا ولا تحرص عليه .

وحرص قادة المسلمين على تأمين القوى المحاربة ، وكانت صيحة الخلفاء والولاة : لا تقدموا بالمسلمين على مواقع شديدة الأهوال ، كما حقق الاسلام للداخلين فيه مشاركة على قدم المساواة ، في معاركه وغنائمه وقياداته ، فكان أهل الوحدات الاسلامية دائماً غالبية المحاربين وإليهم ينسب النصر والظفر ، وفي مختلف توسعات الاسلام فيما وراء النهر والهند والمغرب والأندلس كان أهل البلاد من فرس وترك وبربر هم أهم القوى المحاربة ، ولم يكن الطمع في الغنائم هو

الدافع الأول إلى انضمام هؤلاء كما يصور بعض المؤرخين ، وإنما كان الاسلام في مفهومه متكاملا جامعاً بين نصر الاسلام وخير الدنيا يملأ نفوس هؤلاء المحاربين .

يقول فون كريمر : كان العرب المسلمون في حروبهم مثال الخلق الكريم ، فحرم الرسول عليهم قتل الرهبان والنساء والأطفال والمكفوفين ، كما حرم عليهم تدمير المزارع وقطع الأشجار . وقد اتبع المسلمون في حروبهم هذه الأوامر بدقة متناهية ، فلم ينتهكوا الحرمات ، ولا أفسدوا الزرع ، وبينما كان الروم يرمونهم بالسهام المسمومة ،فإنهم لم يبادلوا أعداءهم جرماً بجرم ، وكان نهب القرى واشتعال النار عادة درجت عليها الجيوش الرومانية في تقدمها وتراجعها . أما المسلمون فقد احتفظوا بأخلاقهم المثلى ، فلم يحاولوا من هذا شيئاً .

ولا شك كان لحرب المسلمين في جبهتين في وقت واحد وانتصارهم فيهما ، وهو مما لم يقع كثيراً في التاريخ - أثر كبير في تقدير المؤرخين والباحثين . يقول لين موتيروز في كتابه ( الحرب على مر العصور ) : لقد كان من القواعد العسكرية المقررة المتفق عليها ألا يحارب قائد في جبهتين . وإذا كان لا بد من حرب خصمين فليقدم أحدهما على الآخر ، ولكن العرب لم تأخذ بهذه القاعدة . ففي الوقت الذي كانوا يحاربون الفرس ، أرسلوا جيشاً إلى سورية لمحاربة الروم ، وظفر العرب في الحربين ، وقضوا على جيوش الدولتين ، وهذا من عجائب الدنيا .

# استراتيجية الحرب والمعارك

لا شك كان الأسلوب الذي اختطه المسلمون في المعارك والغزوات والحروب أسلوباً انسانياً بارعاً ، فقد كان قوامه وسداه ولحمته « مفهوم الاسلام » نفسه في السلم والحرب ، هذا المفهوم الذي يستهدف نشر الاسلام والدعوة إليه بالاقناع والحكمة والموعظة الحسنة ، فلا يلجأ المسلمون إلى القتال إلا لدفع العدوان أو إزالة أصحاب النفوذ الذين يحولون دون انتشار الاسلام وامتداد دعوته .

ومن هنا كانت معاركهم في الأغلب : « معارك دفاع » وهم لم يبدأوها إلا بعد أن استنفدوا كل وسائل التبليغ ومحاولات السلام ، فإذا اضطروا عزموا ، فكانوا قوة عجيبة في كسب المعارك : إيماناً بالله وثقة بالعقيدة التي يعتنقونها ، وإخلاصاً يفتق العقول والقلوب لأساليب التغلب على العدو ، وما زالت معارك المسلمين وحروبهم ومواقعهم تدرس في الجامعات العسكرية في العالم كله ، كأرقى مثال لنظم الحرب ، البريئة من الغدر والانتقام والابادة . وقد كشفت هذه المواقع عن أعلام أبطال هم : قادة المعارك الذين حملوا رايات الاسلام إلى الصين وإلى الأندلس . وكان للعرب : الأمة التي أنزل عليها القرآن واختيرت لحمل لواء الاسلام ـ المكان الأول في هذه المراحل متمثلة في القوى البدوية الشابة ، الصامدة ، المتدفقة من قلب الجزيرة العربية ، تدفع معها كل مسلم من كل جنس ولون إلى مواقعها ومعاركها .

ومع ذلك فلم يكن لهذه القوة ولهذه المعارك والحروب صلة بانتشار الاسلام أو دعوته ، فقد كان هدفها تخليص الأقطار والبلاد من حكامها الذين وقفوا أمام الاسلام ، يردونه ويقاومونه . أما البلاد التي قبل قادتها وحكامها « الاسلام » فلم تقع بها حروب أو غزوات ، وفي كلا الحالين لم يفرض الاسلام نفسه « ديناً »

على غير الذين ارتضوه واعتنقوه عن اقتناع ، وإنما سمح لكل الأديان والطوائف أن تباشر عبادتها في حرية . وقد شهد بهذه الحقيقة المؤكدة كثير من المنصفين . فهذا روبرتسن في كتابه ( تاريخ شارلمان ) يقول : إن المسلمين وحدهم هم الجنس الذين جمعوا بين التسامح وغيرة التبشير ، فلما حملوا السلاح لنشر مذهب نبيهم أباحوا للذين لم يريدوا اعتناق هذا المذهب أن يبقوا متمسكين بدينهم .

ويقول ميشود في كتابه : « تاريخ الحروب الصليبية » منع ( محمد ) قواده من قتل الرهبان لأنهم رجال صلاة . ولما استولى ( عمر ) على بيت المقدس لم يمس النصارى بسوء ، ولما صار الصليبيون سادة هذا المدينة ( يعني القدس ) ذبحوا المسلمين بلا رحمة ولا هوادة ، ويقول جوستاف لوبون في كتابه ( حضارة العرب ) : لم تكن القوة عاملاً في انتشار الاسلام قطعاً ، فقد ترك المغلوبون أحراراً في المحافظة على دينهم . وإذا حدث أن اعتنقت الشعوب دين غالبهم ، فذلك لأن الفاتحين الجدد بدوا أكثر عدلاً نحوها مما كان عليه سادتها السابقون . ولأن دين هؤلاء الفاتحين كان من البساطة البالغة بما لم تعرفه الشعوب حتى ذلك الحين ، ولم يفرض القرآن بالقوة . بل بالاقتناع . والاقناع وحده هو الذي كان يمكن أن يجلب إلى اعتناقه الأمم التي قهرت العرب مؤخراً كالترك والمغول .

وقد كان اتجاه التوسع الاسلامي واضحاً في الطريق إلى الشمال ، هذا الطريق الذي كان مصدر الخطر على فوهة الجزيرة العربية ، وكان يهدف إلى توسيع عالم الاسلام بازالة سلطان الامبراطورية الرومانية عن الشام ، وقد بدأت اعمال التوسع في العراق والشام في وقت معا ، على نحو عد من مبتكرات الاستراتيجية الاسلامية ، وكان مصدر النصر . بعد أن أوقع الهزيمة في قلوب قادة الامبراطوريتين ، وقد رجح الخليفة أبو بكر أمر الشام فأرسل خالد بن الوليد أن يترك موقعه في العراق إلى الشام : « امض مخففاً في أهل القوة من أصحابك الذين قدموا معك العراق من اليمامة وصحبوك في الطريق حتى تأتي الشام وتلقى أبا عبيدة ومن معه من المسلمين ، فإذا التقيتم فأنت أمير الجماعة » . فلم يلبث خالد أن استجاب ، فترك القيادة للمثنى بن حارثة ومعه نصف الجيش ، وسار بالنصف الآخر إلى الشام . وهنا تبرز عبقرية خالد ، وألمعيته ، فقد اختار طريقاً قصيراً شاقاً ليصل في أقصر وقت ، وليتفادى القلاع الرومية في طريق وادي

سرحان ، فسار من دومة الجندل ( الحوف ) إلى قراقر ، واقتحم بوابة سوريا في صحراء مجدبة خمسة أيام ، وأمامه دليله رافع بن عمير ، ولم يلبث أن وصل إلى أطراف دمشق في ثمانية عشر يوماً .

* * *

وقد تحقق مفهوم الاسلام في الحرب على هذا النحو :

( ١ ) في مختلف المواقع العسكرية الكبرى التي وقعت بين المسلمين من ناحية ، والروم أو الفرس من ناحية أخرى ، كانت القوة الاسلامية أقل بكثير من القوة المضادة في اليرموك . كان جيش الروم ١٤٠ ألفاً وجيش المسلمين ٤٠ الفاً .

( ٢ ) في موقعة فتح دمشق كانت براعة المسلمين تتمثل في اليقظة ، وترقب الأحداث ، فقد سهر خالد يرقب تحركات العدو ، وحتى شاهد غفلة من الحراس الذين غادروا أماكنهم لحضور فرح مولود جديد فانتهز الفرصة ، وتسلق السور بواسطة سلالم من الحبال ، ومعه القعقاع بن عمرو ومذعور بن عدي فقتلوا الحراس ، ونصبوا سلالم أخرى من الحبال رقى بواسطتها أركانه إلى السور ، ثم انحدروا إلى الداخل حتى فاجأوا حراس الأبواب فقتلوهم ، وفتحوا الأبواب ، وراحوا يكبرون ، واقتحم المسلمون الأبواب .

( ٣ ) عندما تولى عمر الخلافة عزل خالد بن الوليد عن قيادة الجيش وولاها أبا عبيدة ، هنا تبدو صورة من أروع صور مفهوم الاسلام في إنكار الذات ، جاء البريد بعزل خالد ومعركة اليرموك على أشدها ، فاحتفظ أبو عبيدة بالرسالة ، فلم يعلنها لخالد ، تاركاً إياه على قيادة الجيش ، وهو جندي معه حتى علم خالد بالأمر من غيره . وخالد لا يضيق بالعزل . بل يتقبله ويمضي بعد جندياً في الجيش تحت إمرة أبي عبيدة ، فيحقق انتصارات جديدة .

( ٤ ) اشتركت النساء في القتال وتضميد الجراح ، وتقديم الماء .

( ٥ ) سلمت مدينة القدس صلحاً بعد حصار شديد ، اشترط أهلها أن يسلموها إلى الخليفة عمر بن الخطاب ، وقدم عمر بن الخطاب من المدينة إلى الجابية ، وذهب إلى بيت المقدس ، ولم يصطحب معه غير خادم ، ولم يأخذ معه من الزاد غير قربة ماء وجراب شعير وتمر ، فلما دعاه البطريرك ليصلي رفض أن يصلي في الكنيسة ، وخشي أن يتخذ المسلمون من صلاته حجة لانتزاع الكنيسة من أصحابها .

( ٦ ) ظهر طاعون عمواس فأباد عشرين ألفاً من الجنود ، فأرسل الخليفة عمر إلى أبي عبيدة قائد المسلمين يستدعيه في حيلة بارعة لينقذه من الوباء . غير أن أبا عبيدة رفض عرض الخليفة . قال : إنك يا أمير المؤمنين تريد أن تستبقي ما ليس باقياً .

( ٧ ) لم تكن القيادة العسكرية يوماً وقفاً على العرب وحدهم . بل عقدت ألوية الجيوش إلى قادة من غير المسلمين : أحباشاً وفرساً وعجماً وبربراً .

( ٨ ) استقبل الأهالي المسلمين في كل مكان بلا مقاومة .

( ٩ ) احترم المسلمون شروط الهدنة والصلح .

( ١٠ ) الجماعة الاسلامية الأولى التي كونها محمد في المدينة ومكة هي التي حملت لواء نشر الاسلام وعلى يديها تحقق التوسع ، وهي التي واجهت سيوف الروم وفارس .

# ( البـاب الثالث )

## مرحلة الانصهار والبلورة .

# ( ٨ )

## « مرحلة الانصهار »

تعد مرحلة الانصهار والبلورة من أخطر وأدق مراحل تاريخ الاسلام . لقد بدأت هذه المرحلة في نفس اللحظات التي تمت فيها مرحلة التوسع الأولى في عهد الخليفة الثاني ( عمر ) عندما سيطرت القيادة السياسية للاسلام في المدينة على فارس والعراق والشام ومصر ، وأزالت امبراطورية الفرس وضمت ما كان تحت نفوذ الدولة الرومانية من أرض الشام ومصر ، ثم إفريقيا من بعد ، في هذه اللحظات بدأت « مرحلة الانصهار والتبلور » لهذه العناصر المختلفة التي ضمها الاسلام تحت قيادته السياسية ، وقبل أن يجمعها تحت لوائه كفكر وعقيدة . وكانت الدولة الفارسية المنهارة هي أدق وأخطر هذه العناصر ، وأقواها أثراً ، بحكم أنها أكثر حضارة ، وأكثر اعتزازاً بقوميتها ، وبحكم أنها كانت ترى العرب ـ قادة الحركة الجديدة ـ من قبل أقل من الفرس درجات في مجال الحضارة والسلطان السياسي والعسكري ـ ثم اتسعت مرحلة الانصهار والبلورة من بعد ، عندما توقفت حركة التوسع في أواخر حكم عثمان ، وبدأ أثرها الواضح في حركة الشد والجذب حول نظام الحكم إذ ذاك ، واستمرت سنوات من حكم « عثمان » وخلال حكم « علي » حتى انتهت إلى مرحلة جديدة ، هي مرحلة الملك العضوض بولاية معاوية لشؤون القيادة السياسية .

غير أن هذا الانتقال من الخلافة إلى الملك العضوض لم يكن هو النهاية . فإن عملية الانصهار والتبلور كان لا بد أن تكون طويلة المدى ، ولقد زادها

النظام الجديد حركة حيوية خلال فترة حكم الدولة الأموية ( ٤٠ - ١٣٢ هـ ) كله .

لقد تكونت منذ أواخر عهد عثمان معارضة قوية تمثلت في فرق مختلفة ، لا نريد أن نلتزم في عرضها مناهج المؤرخين السابقين . بل نرى أنها تتمثل في دعاة المثل الأعلى ، ودعاة العاطفة ، وفئة المؤامرة على الاسلام ، وقد تداخلت العناصر الثلاثة تداخلا عجيباً ، حتى لم يكن في قدرة الكثير من الباحثين الفصل بينها . بل إن أحدها قد حاول أن ينتفع بقوة الآخر ، في سبيل تحقيق هدفه ، ثم ظهر من بعد دعاة العدل والمساواة .

وقد استطاعت المعارضة أن تنتفع بالتحول الخطير الذي شمل المجتمع الاسلامي كله ، نتيجة لتموجه بالعناصر المختلفة ، واتجاهه إلى تغيير أسلوب الحكم ، ومكانه ، وتداخل الثقافات الفارسية واليونانية والرومانية والفرعونية ، وامتزاج القيم الاجتماعية والسياسية والاقتصادية المختلفة في هذا المجتمع الواسع المتضخم ، هنالك كانت تلك الأزمة الخطيرة التي ظهرت في ظل حكم الخليفة الثالث ( عثمان ) وكان لها مقدماتها في حكم ( عمر ) .

كان أبو ذر من دعاة العدل الاجتماعي ، والخوارج من دعاة المثل الأعلى ، وأنصار آل البيت من دعاة العاطفة ، وعبد الله بن سبأ من قادة المؤامرة ، يتحركون جميعاً . وربما تلاقوا ، وربما اتخذ قادة المؤامرة من منهج قادة العاطفة ستاراً ، وربما حاول دعاة العدل الاجتماعي أن يحسنوا الظن بالمتآمرين ، فاضطربت الحياة السياسية اضطراباً أوقع ذلك الصراع بين أهل الأمصار والخليفة الثالث ، وأوقع الخلاف بين المسلمين والخليفة الرابع ، وانتهى ذلك كله على النحو الذي حقق قيام الملك العضوض ، بديلا للخلافة في دمشق ، بقيادة معاوية . هنالك بدأت مرحلة جديدة من هذا الصراع استمرت خلال حكم الدولة الأموية .

كانت الدولة الأموية بقيادة معاوية ، هي الحل الذي ارتضاه الواقعيون لضمان « وحدة المسلمين » واستمرار سلامة المجتمع الاسلامي ، فقد نقلت النظام السياسي من الخلافة إلى الملك ، ومن قلب الصحراء الى قلب المدينة ، ولكن هل حققت مطالب دعاة المثل الأعلى ، وطلاب العدل ، ودعاة العاطفة ، لقد ظل هؤلاء جميعاً في صف خصومها ، في صف المعارضة ، واستمرت فئة

المؤامرة على الاسلام ممن زحزح الاسلام نفوذهم الشخصي ، وسلطانهم السياسي ، لقد استمرت هذه الفئة الموتورة حرباً عليه ، غير أن غالبية المسلمين كانوا قد والوا النظام السياسي القائم في دمشق ، واعتصموا به . هؤلاء هم ( دعاة الواقع ) الذين كانت لهم حججهم في قبول هذا النظام ودعمه ، حرصاً على بقاء الاسلام نفسه ودفعاً له الى الأمام .

غير أن المعارضة كانت تأخذ على حكم الأمويين مغالاته في تأكيد السيادة العربية الخالصة وتمييزها عن المسلمين من غير العرب ، مما خلق مشكلة طلاب العدل ( الموالي ) . وما استتبع استمرار هذا النظام من محاولات متوالية لانتقاض دعاة العاصفة ( الشيعة ) الذين آمنوا بحق آل البيت في تولي الحكم ، وبتمثل أبرز خصوم الأمويين من دعاة المثل الأعلى ( الخوارج ) الذين كانوا يرون أن من حق المسلمين اختيار حاكمهم . وقد استغلت المؤامرة على الاسلام كل هذه الفرق الساخطة ، وكل قوى المعارضة . غير أن الدولة الأموية بوصفها القيادة السياسية للاسلام ، قد حققت كثيراً ، اذ وسعت نطاق عالم الاسلام ، وأضافت إليه ، وعمقت آفاق الحضارة فيه ، وإن كانت الدولة الأموية لم تلبث أن سارعت لضرب دعاة العاطفة ، وبلغ ذلك قمته بمقتل ( الحسين ) ، هنالك تجمعت مختلف القوى على النظام الأموي فاستطاعت أن تسقطه .

والحق أن سقوط النظام الأموي كان تطوراً طبيعياً للمجتمع الاسلامي . فقد حقق كسر القيود التي كانت تحول دون اشتراك العناصر المختلفة في المجتمع الاسلامي على قدم المساواة بلا تفرقة وفق مفهوم الاسلام ودون سيطرة العرب على سائر المسلمين أو استعلائهم . وإذا كان النظام العباسي قد كسر هذا القيد ، وأرضى دعاة المساواة فإنه لم يحقق آمال دعاة المثل الأعلى ( الخوارج ) ولا طلاب العدل الاجتماعي ، ولا طلاب العاطفة .

وفي هذه الفترة كانت هذه الفرق المتعارضة تتصارع حول سلطان الدولة ، فقد واصل دعاة المثل الأعلى حربهم . وكذلك واصل طلاب العدل الاجتماعي دعوتهم ، كما واصل دعاة العاطفة حملتهم ، وافسحت عوامل الصراع الطريق لدعاة المؤامرة على الاسلام والشعوبيين جميعاً . في هذه المرحلة ظهرت حركات حملت لواء العدل الاجتماعي كالزنج والقرامطة ، وحركات حملت لواء العاطفة حاولت ان تنتصر لآل البيت الذين خاصمهم العباسيون الحكام بنو

عمومتهم بأقسى مما خاصمهم به الأمويون . وفي هذه المرحلة نهض الفكر الاسلامي وتعمق ووسع آفاقه في مواجهة « المؤامرة على الاسلام » وظهر دعاة للدفاع عنه تحت أسماء كثيرة ، تحت أسماء المعتزلة ، والأشعرية والفقهاء ، والمحدثين ، وأهل السنة ، وفي هذه المراحل مضت حركات ثلاث في خط واحد هي :

( ١ ) نمو الحضارة .

( ٢ ) انصهار المجتمع .

( ٣ ) بلورة الفكر .

وقطعت في ذلك الطريق خطوات واسعة ، في عالم الاسلام كله ، في المشرق والمغرب والأندلس ، وساعد على ذلك ودفعه إلى الأمام دفعات - بروز السلطات الاستقلالية في كل قطر ووطن ، وظهور القوى القومية الخالصة في مواطنها يحمل لواء الحكم فيها « بناة الدول » الذين كانوا في الأغلب قادة مبرزين يجمعون - في الأغلب - بين الفقه والحكم ، فقربوا العلماء ، وشجعوا الشعراء ، ووطدوا الحضارة ، وأقاموا العمارة . وفي خلال ذلك اتسع نطاق التجارة ، وبلغ الثراء مبلغه بعالم الاسلام وامتد بين الأندلس والصين في طريق ممهد أمين يستطيع أن يتحرك فيه المسافر دون أن يصده شيء .

ولقد استطاع المجتمع الاسلامي أن يترابط ويتبلور وتنصهر فيه كل القوى وأن تجمعها روابط مفهوم الاسلام وتعلو على روابط الجنس والدم والقوميات الاقليمية . غير أن هذا الانقسام السياسي تحت خلافات ثلاث ، وفي ظل دول استقلالية ، وغلبة عناصر الخلاف بين هذه القيادات السياسية ان ْسية ، ثم غلبة الترف ، وضعف القوى العسكرية ، وتراخيها . كل هذا أغرى القوى المتراصة خارج عالم الاسلام به ، فأخذت تتأهب للانقضاض عليه وغزوه . هذا الغزو الذي بدأ أول أمره هيناً في جبهتين : جبهة الحدود البيزنطية ، وجبهة حدود الأندلس في محاولة الغرب الصامدة لرد قوة الاسلام عن أوربا ، والادالة منها وتحرير شبه جزيرة إيبريا من الاسلام أيضاً ، وحصر الاسلام في إفريقيا وآسيا ، تلك كانت خطة الغرب قامت عليها الدولة الرومانية الشرقية في شرق أوروبا ودولة الفرنجة في غرب أوربا . فقد ظلتا تترقبان فرص الضعف للانقضاض على حدود عالم الاسلام من ناحيته ، حتى اتيح لهما من بعد أن يصلا إلى هدفهما

بالحروب الصليبية التي غزت عالم المشرق ، بينما كانت الحروب الصليبية في المغرب والأندلس لا تتوقف .

والحق . إن مرحلة الانصهار والبلورة قد استطاعت ـ بعد توقف حركة التوسع وحتى أوائل الغزو الخارجي ـ أن تصل إلى مداها في ( ١١٤ ـ ٤٨٩ هـ ) في مجالات نمو الحضارة وانصهار المجتمع وبلورة الفكر ، بالرغم مما واجه هذه الحركات من صراع المعارضة والفرق المختلفة ، ما كان فيها داعياً الى تحرير السلطة والسياسة العليا من عوامل النقص والاضطراب ، وما كان منها متآمراً على الاسلام نفسه ، راغباً في القضاء على دولته أو تشويه مقومات فكره .

هذه نظرة مجملة لهذه المرحلة نفسها فيما بعد :

كان لا بد أن يمر الاسلام بمرحلة الانصهار والبلورة منذ بدأت حركات التوسع الاسلامي وخلالها وبعدها .

فقد دخلت في سنوات قليلة في عالم الاسلام ، شعوب وعناصر وأمم وأجناس ، متعددة . دخلت بفكرها وثقافتها وأديانها . لم يفرض عليها الاسلام . وإنما ترك لها حرية الاعتقاد ، في نفس الوقت الذي بدأ فيه دعاة الاسلام يعرفون به . هنالك بدأت حركة ذات موجات عدة .

( ١ ) تحول من هذه الأديان القديمة إلى الاسلام .

( ٢ ) مقاومة ممن سقط نفوذهم السياسي أو الاجتماعي من الفرس وغيرهم .

( ٣ ) تآمر من اليهود الذين انتزع سلطانهم ونفوذهم ، ومن سدنة الأديان المختلفة الذين أحسوا بخطر الاسلام على نفوذ معابدهم ونفوذهم الشخصي .

ومن هنا كان لا بد أن تتواتر الدعوات والحركات ، وتتصارع وتتعارك في عنف . وقد استغلت هذه الحركات خلافات المسلمين حول الحكم ، واتخذ بعضها من جانب ( آل البيت ) ستاراً لهم لبث دعوتهم ، وإبراز شعار براق خادع هو موالاة آل علي وأولاده.، وإدعاء التشييع .

# ( ٩ )

## « حركة البلورة »

تتمثل في هذه المرحلة عدة ظواهر : قوامها :

( ١ ) محاولة « التبلور » في فكر اسلامي عربي موحد

( ٢ ) محاولة الانصهار في مجتمع اسلامي متكامل .

وابرز معالم هذه الفترة الالتقاء بين العرب والفرس والبربر والترك بوصفها العناصر التي جمعها لواء الاسلام وحدة فكرية ، وعالم الاسلام جغرافيا في وحدة سياسية ، وقد برزت في هذه الفترة أربع ظواهر :

( أولاً ) : قيام عدد منوع من الدول المستقلة في مختلف أقطار « عالم الاسلام » عبد الرحمن الداخل والدولة الأموية في الأندلس ( ١٣٩ ) الأغالبة في تونس : ابراهيم بن الأغلب ( ١٤٢ ) إدريس بن عبد الله : الأدراسة في مراكش (١٧٣ ) طاهر بن الحسين في خراسان ( ٢٠٤ ) أحمد بن طولون في مصر ( ٢٥٥ ) يعقوب بن الليث في فارس ( ٢٥٨ ) الدولة الفاطمية : عبد الله بن المهدي ( ٢٩٨ ) سيف الدولة في حلب ( ٣٣٣ ) السلاجقة ( ٣٤٥ ) البويهيون ( ٣٣٤ ) بنو عباد ( أشبيلية ) ( ٤١٤ ) طغرلبك ( خراسان ) ( ٤٢٩ ) دولة المرابطين ( ٤٥٤ ) ( مراكش ) .

ولقد تمثلت في هذه الدول حركات نشاط سياسي واجتماعي ، لا حد لها في تحريك الأمم ، وبناء الحضارة ، فاستطاعت أن تجدد شباب عالم الاسلام ، وقد قامت هذه الدول في مواجهة تحديات الحضارة والسياسة .

( ثانياً ) : حركة التدوين والتقنين والترجمة والتأليف . وهي حركة

مترابطة . وقد كانت هذه الحركة في مجموعها تمثل : الدفاع عن الاسلام . ومقاومة خصومه ، ومواجهة تحديات الأديان والعقائد والمذاهب القديمة ، والوارد من ثقافات الفرس والروم والهند والفراعنة والاغريق والرومان . وقد كان موقف الاسلام من هذه الثقافات متمثلا في أصالته وسماحته وانفتاحه على الحضارات والثقافات ، فقد استصفى الفكر الاسلامي عصارات من هذه الثقافات وفق مفهومه ، وعلى قاعدته ، وداخل اطاره القائم على مفهوم التوحيد والنبوة ، وسيادة الانسان على الكون تحت حكم الله ، ورد ما سوى ذلك أو معارضته ونقده .

( ثالثاً ) : مقاومة حركات الانقضاض من الداخل : وأبرز هذه الحركات : حركة البرامكة ( ١٨٨ ) حركة بابك ( ٢٢٣ ) حركة القرامطة ( ٢٧٧ ) .

( رابعاً ) : مقاومة حركات الانقضاض من الخارج . وأبرزها مقاومة المسلمين للبيزنطيين ( ٣٣٣ ) وسقوط طليطلة في الأندلس كأول محاولة للفرنجة للقضاء على الاسلام ( ٤٧٨ ) والحملة الصليبية الأولى على بيت المقدس ( ٤٨٩ ) .

## كبريات الأحداث في مرحلة الانصهار والبلورة من ١١٤ ـ ٤٨٩

في اواخر القرن الأول الهجري ( ٩٣ هـ ) بلغ التوسع الاسلامي غاية مداه في أرض السند شرقا ، والأندلس غرباً . هنالك كان قد آن الوقت لمرحلة جديدة في تاريخ الاسلام : يمكن أن يطلق عليها مرحلة « الانصهار والبلورة » أو مرحلة بقاء الفكر والحضارة .

هذه المرحلة تستمر من خلال السنوات الثلاثين الأخيرة تقريباً للدوله الأموية التي كانت تمثل سلطان الدولة الاسلامية الموحدة ، ومن خلال الدولة العباسية التي لم تلبث أن شاركتها دول كثيرة في حكم ( عالم الاسلام ) .

ولعل هذا هو أكبر تطور في تاريخ الاسلام السياسي ، وهو تطور طبيعي بعد مرحلتي المدينة والكوفة ، ومرحلة دمشق ، فقد انتهى « طابع » من ولاية أمور المسلمين تمثل في ( أبو بكر وعمر وعثمان وعلي ) وبدأ نظام جديد في دمشق

امتد ( ٤٠ ـ ١٣٢ هـ ) أكثر من تسعين عاماً ، كان له طابعه الواضح ، طابع الملك العضوض بوراثة السلطة ، وعهد ولاة العهود . وقد تمثل في هذه المرحلة طابع الحكم العربي الخالص ، وفي خلالها توسع عالم الاسلام إلى أقصى مداه الذي بلغه ووقف عنده ، حدود الصين مشرقاً ، والاندلس من غرب أوربا . ولما كان هذا الحكم عربياً خالصاً فقد استهدف لكثير من النقد والتآمر ، وكان من الطبيعي أن يتطور من ناحيتين : « الأولى » أن تشارك فيه كل الأجناس وأبناء الأوطان التي انضوت تحت راية الاسلام كالفرس والترك والمصريين والبربر « الثاني » أن يضعف نفوذ السلطة الجامعة في « بغداد » ويبرز من كل قطر قادة يستقلون بالأمر ، ويتابعون الخلافة بالولاء أو ينفصلون عنها ، وقد أعطت هذه المرحلة تطبيق هذين الأمرين كأوسع ما يكون التطبيق ، وأضاف ذلك لعالم الاسلام مزيداً من التقدم الحضاري ، وإن أصابه بكثير من التمزق والضعف . غيرأن الذي يلفت النظرحقاً هو ذلك التفجرالحي للطاقات الخلاقة في كل أجزاء عالم الاسلام بحيث لم تتوقف موجات النهضة ، أو التجدد ، وقد أبرزت هذه المرحلة وما تلاها من مراحل عديداً من بناة الدول النوابغ الذين جمعوا بين الثقافة الاسلامية والقوة الحربية ، او بين القدرة على الحكم ، والبراعة السياسية ، واستطاعت كل القوى التي ترى أنها خليقة بأن تسود سياسياً والتي تحمل فلسفة ما . أو مذهباً ما . من مذاهب السياسة او الاجتماع أن تحرز انتصاراً بأن تلي الحكم في منطقة ما . فالفرس ، والترك ، والمصريون ، والتونسيون ، والمغاربة ، والبربر ، والفاطميون ، والشيعة ، والمعتزلة جميعاً استطاعوا أن ينفذوا الى مجال الحكم والسياسة . ولم تعد سلطة الولاية العامة قاصرة على العرب وحدهم ، ما عدا الخلافة التي ظلت تمثل العباسيين حتى سقوط بغداد ٦٥٦ هـ وكانت الصورة على هذا النحو :

# كبرى الأحداث ( ١١٤ ـ ٤٨٩ هـ )

**٣٨٨** هـ محمود الغزنوي ( السند ) : **٩٩٨** م ـ **٤١٤** بنو عباد ( أشبيلية ) : **١٠٢٣** م
**٤٢٠** طغرلبك ( خراسان ) : **١٠٣٧** ـ **٤٥٤** دولة المرابطين ( مراكش ) : **١٠٦٢**
**٤٥٦** نظام الملك : **١٠٦٣** ـ **٤٧٨** سقوط طليطلة : **١٠٨٥**
**٤٥٤** دولة المرابطين ( مراكش ) : **١٠٦٢** ـ **٤٦٤** معركة ملاذكرد: **١٠٧١**
**٤٧٩** يوسف بن تاشفين يهزم الفرنجة في الزلاقة : **١٠٨٦**
**٤٨٩** الحملة الصليبية الأولى : **١٠٩٦** ـ **١١٤** بلاط الشهداء : **٧٤١** م
**١٣٣** ـ الدولة العباسية : **٧٥٠** م .
**١٣٩** ـ عبد الرحمن الداخل : الدولة الأموية في الأندلس : **٧٧٥** م
**١٤٢** الأغالبة في تونس ( ابراهيم بن الأغلب ) : ـ **١٧٠** هارون الرشيد ( بغداد )
**١٧٣** ادريس بن عبد الله ( مراكش ) ـ **١٩٨** المأمون : **٨١٣**
**٢٠٤** طاهر بن الحسين ( خراسان ) **٨١٩** ـ **٢٣٣** المتوكل والسنة : **٧٤٧**
**٢٥٥** أحمد بن طولون ( مصر ) **٨٦٨** ـ **٢٥٨** يعقوب بن الليث ( فارس ) : **٧٨١**
**٢٩٨** الدولة الفاطمية ( عبد الله بن المهدي ) : **٩١٠**
**٣٠٠** عبد الرحمن الناصر ( الأندلس ) : **٩١٢**
**٣٣٣** سيف الدولة وحروبه ضد البيزنطيين : **٩٤٤**
**٣٤٥** هـ السلاجقة : **٩٥٦** ـ **٣٣٤** البويهيون في بغداد : **٩٤٥** م

***

وقد جمعت هذه المرحلة بين ظاهرتين مترابطتين : حركات بناء الدول ، وقيام الحكومات المستقلة في كل أجزاء عالم الاسلام ، وظهور قادة الفكر في مختلف جوانب السياسة والاجتماع والثقافة والعلوم . ولقد كانت دعوات المفكرين أحيانا بمثابة رد على تحديات السياسة ، أو تجديداً لجوانب أصابها الجمود ، أو تصحيحاً لقضايا اضطربت مفاهيمها أو تجافت مع مفهوم الاسلام .

ومما يلفت النظر أن هذه الدول التي قامت خلال تلك الفترة ، لم تستطع البقاء والصمود فترات طويلة . فكانت تقوم برجل او رجلين أو ثلاثة لتهوي ، لتقوم مكانها دولة أخرى برجال آخرين ، ولكن الظاهرة الواضحة أن « بناة الدول » كانوا قادرين دائما في عهد ازدهار دولهم على البناء والنهضة ، والعمل ، وكانوا حفيين بالعلماء والأدباء والفقهاء ، وكان طابع الاسلام وإطاره واضحاً متمثلاً .

## مرحلة بناء الفكر والحضارة

لم تكن هذه المرحلة هي مرحلة تراخ وترف فحسب ، إذ انتهى المسلمون من اعمال الفتح والتوسع ، ومن هنا بدأ عهد الكلام والصراع الفكري ، كما يقول بعض كتاب الغرب ، ولكن الحقيقة ان الاسلام الذي توسع في الآفاق على هذا النحو في مرحلة ( الابعاد ) كان لا بد أن يمر بمرحلة تالية في طريق نموه هي مرحلة ( الأعماق ) ، وهي مرحلة طبيعية لا شك فيها . فقد التقى الاسلام الذي أقام « دولة » بتراث ضخم ، وقضايا ، ومعضلات في مجال الفكر والقانون والاجتماع ، كان عليه أن يواجهها وفق مفهومه . ومن هنا بدأت تظهر أبرز معالمه ومقوماته ، وهي الأصالة المتجددة القادرة على إيجاد حلول لقضايا جديدة ليس لها سابقة في القرآن والحديث ، والانفتاح بالقدرة على تقبل الثقافات والحضارات ، وامتصاص التراث العقلي السابق على وجوده وتمثله وإذابته في كيانه كقوة جديدة دافعة الى الحياة ، وقد واجهته في هذين المجالين أعظم تجربة . فقد استطاع قادة الفكر أن يجددوا ويمتصوا في تجربة ضخمة من تراث اليونان والرومان والفرس والهنود والفراعنة على نحو من القدرة والعمق والحرية . فأخذوا ما زادهم قوة ، ورفضوا ما لا حاجة لهم به ، أو ما يختلف مع جوهر فكرهم : ثم صاغوا هذا التراث مرة اخرى صياغة جديدة في إطار قيم « الاسلام ومقوماته » واتخذوا منه سلاحاً ماضيا في مقاومة خصوم الاسلام .

# ( ١٠ )

## ازمة الحضارة

إن مقتل عمر بن الخطاب الخليفة العادل بخنجر أبي لؤلؤة ، كان علامة على ذلك التحول الخطير ، والأزمة العنيفة التي انفجرت بعد أكثر من عشرة أعوام من حكم عثمان . هذا الموقف الذي اتصل بعثمان وأدى إلى مقتله ، واتصل بعلي وأدى الى مقتله ، وأقام هذه الرحلة الدقيقة العجيبة منذ أواخر حكم عثمان ، وطوال حكم علي ، إلى أن ولي معاوية سلطة الحكم الاسلامي العامة ، لا شك أن هذه الأزمة بالغة الدقة ، فهي ذات أطراف عديدة ، أطرافها بين عثمان وأهل الأمصار ، وبين عثمان وأهله ، وبين علي والصحابة ، وبين علي وأنصاره ، وبين علي ومعاوية .

وهي تتخلص في ثورة أهل الأمصار على عثمان ، ثم قتله ، ثم ولاية علي وخلافه مع الصحابة ، والاصطدام بهم ، ثم خلافه مع الذين خرجوا عليه ، ثم موقفه مع معاوية ، وانحسام الموقف بخروج ثلاثة لقتل علي ومعاوية وعمرو ، وقتل علي ونجاة معاوية وعمرو . وقد حدثت هذه الأزمة كلها في خلال خمس سنوات أو تزيد قليلا ، ولكن مقتل عمر بن الخطاب بخنجر أبي لؤلؤة قبل ذلك بخمسة عشر عاما ، يكاد يكون علامة على الموقف الجديد الخطير الذي بدأت تواجهه سلطة الحكم الاسلامي العامة في المدينة بعد اتساع نطاق الدولة الاسلامية وإسقاطها امبراطوريتي فارس والروم ، فقد اتسع عالم الاسلام

بدخول عناصر جديدة مختلفة إليه ، كانت ذات حضارات وأديان . وقد تجرد كثير من قادتها من النفوذ والسلطان . وفي مقدمة ذلك المجوس واليهود الذين عقدوا العزم على التآمر بالاسلام ، ومحاولة القضاء عليه . وقد أدى التحقيق في مقتا عمر بن الخطاب بخنجر أبي لؤلؤة المجوسي الفارسي إلى أنه جاء نتيجة خطة دبرها ( الهرمزان ) الذي كان يقيم في المدينة بعد أن سقط نفوذه في فارس ، فتجمع ومن تآمر معه على الانتقام من شخص عمر بن الخطاب الذي ساند التوسع الاسلامي ودعمه ، واستطاعت الدولة الاسلامية في ظل حكمه أن تقوم .

ويعطينا حادث مقتل عمر بن الخطاب على ما عرف به من رفعة العدل ، علامة على ذلك التحول الذي بدأ يفرض أوضاعا جديدة ، هي أوضاع الحضارة ، وصراع الثقافات والمدنيات ، وتلاقي الأديان والمذاهب ، ومحاولات خصوم الاسلام كدين ، وخصومه كدولة ، في العمل عن طريق الدس والتآمر بعد أن سقطت أسلحة الحرب والقتال .

وقد امتد هذا التحول في عهد عثمان ، ووجد طريقاً أشد فسحة واندفاعاً ، إزاء خليفة ليس له سطوة عمر ولا قوته الشابة ، فقد كان عمر قويا على نفسه وعلى أهله ، عادلا شديد العدل ، يقظا متنبها إلى تطورات الأمور ، حتى لا تبغته . وقد عاش عمر أيام التوسع ، وعاش عثمان أواخرها . إذ امتد التوسع في عهده وبلغ غايته في المغرب والمشرق . غير أن السنوات الطويلة في خلافة الرجال الثلاثة التي مضت ( هي أكثر من ربع قرن ) قد أحدثت تطوراً في الفكر والحياة ، وأضافت معضلات جديدة ، وفتحت أبواب قضايا متعددة في السياسة والفكر والمجتمع نفسه وقل التوازن بين مقر الحكم في قلب الجزيرة العربية وبين حواضر الدولة الواسعة التي انصرف إليها الصحابة ، فأقاموا بها وملكوا ، وبدأت عملية تطور ضخمة تريد أن تذيب المجتمع الاسلامي كله في بوتقة واحدة . هذا المجتمع الذي بدأ في الجزيرة والصحراء صغيرا ، ثم اتسع نطاقه وشمل العرب والروم والفرس والترك والبربر والفراعنة والهنود . كانت فترة حكم عثمان هي أدق مراحل النمو والتحول من مجتمع بسيط صحراوي إلى مجتمع دقيق مركب ، وكان هذا التطور قويا عاصفا من العسير مقاومته ، أو الوقوف في وجهه أو ضبطه على النحو الذي كان يضبط به حكم الجماعة الاسلامية

في المدينة ، ولما يتجاوز الاسلام الجزيرة العربية . ومن هنا كان ذلك الاضطراب الذي لا حد له ، وكانت تلك المواقف المفاجئة المتوالية التي عجز القادة عن مواجهتها ، وايجاد حلول سريعة لها مما دفعها إلى التفاقم والتضخم .

فإذا أضفنا إلى ذلك أن هذا التطور لم يكن طبيعيا يجري في تيار واضح محدد إلى غايته المرسومة ، وأن هنلك قوى معينة كانت تفرض عليه اتجاها معينا . وأن هذه القوى من المجوس واليهود قد رسمت مخططا دقيقا لتمزيق جهة الاسلام ، وإيجاد صدام ضخم ، وأن هذا المخطط قد حمل لواءه « عبد الله بن سبأ » وسار به سيرا دقيقاً ، واستغل كل الأحداث ، واختلق مواقف بارعة ماكرة ، رمى بها إلى ضرب الوحدة الاسلامية ، وتمزيق الجماعة الاسلامية . إذا ذكرنا هذا كله عرفنا الى أي حد كانت هذه الأزمة الداخلية الكبرى .

وكان عمر يمسك الصحابة في المدينة ، ولا يسمح لهم بمبارحتها إلى الأمصار ، حتى ضاقوا بذلك أشد الضيق ، وتمنوا نهايته ، فإذا سمح لهم عثمان من بعد تحول موضع الثقل الذي كانت تمثله « المدينة » بصفوة أهل الرأي فيها ، كما ظهر جيل جديد غير جيل النبوة الذي أخذ ينقرض . ومن هنا بدأ التحول واسعاً في نظام الحكم وعناصر المجتمع ، واستتبع مواجهة شاملة بما يتلاءم مع التغيير الشامل والعناصر الجديدة ، وإفساح نطاق البحث واشتراك الأجناس المختلفة في الحكم والسياسة ومختلف شؤون الاجتماع والاقتصاد بما يوائم مرحلة التحول والتطور والانتقال بما يبرز فيها من مشكلات وقضايا ومعضلات .

ومن هنا كان لا بد للتيار الجديد أن يمضي في الطريق الذي رسمه له المتآمرون على الاسلام ، ما لم يكن هنلك ما يحول دون رده ، أو تعديله ، ومن هنا وقعت تلك الأحداث المتوالية المتصلة التي لم تتوقف إلا بأمرين خطيرين ، هما : *امتداد للتحول ونتيجة له . ( ١ ) نقل مقر السلطة الحاكمة الرئيسية من الجزيرة العربية إلى ( دمشق ) حيث الحضارة والمدنية ( ٢ ) تحول الخلافة إلى الملك العضوض بمراسيمه ومناهجه وأساليبه ممثلة في ( معاوية ) الذي نهج نهجا عصريا حديثا يتمثل فيه أسلوب الحاكم الناجح القادر على تركيز سلطته في وجه أنصاره وخصومه على السواء . ولكن هذا المنهج الذي كان يرسم نظاما ناجحا للحكم متخلصا من قيود كثيرة ، والذي نجح نجاحا مؤقتا ، لم يكن هو

الأسلوب الذي يتمثل مفهوم الاسلام كاملاً ، وإن تحرك في إطاره . فلم تلبث بعد ذلك أن ظهرت معضلة المعضلات في تاريخ الاسلام كله . تلك هي قضية العرب وغير العرب من المسلمين » مما يطلقون عليها قضية الموالي ، أو قضية الصراع بين الفرس ( الموالي ) والعرب ، وما أثير حول ذلك من نتائج لسياسة الأمويين في مواجهة « بني هاشم » وأهل البيت والعرب من غير قريش وغير العرب من الأجناس الأخرى ، وما بلغ من التفرقة بين العرب وغير العرب . مما كان عاملاً في تمزق الوحدة الاسلامية .

## من البداوة الى الحضارة

ويمكن إطلاق اسم معركة الحضارة على الموقف الذي بنت منذ تولي عثمان الحكم ، ثم تولاه « علي » حتى معاوية ، وإن اي محاولة لتصوير عثمان بارتفاع السن أو موالاة بني أمية ، أو بالتماس مؤامرة عبد الله بن سبأ ، إنما هي عوامل اضافية للخطر الأكبر : خطر التحول من البداوة الى الحضارة . إن الأمر كله أوسع من ذلك ، وبنظرة فوقية واسعة يمكن ان نرى المجتمع الاسلامي وقد اتسعت آفاقه ، فبلغ مدىً بعيداً ، ودخلته عناصر متعددة من امم وديانات وأجناس وشعوب ، ونرى كيف يحاول المجتمع أن ينصهر في بوتقة واحدة إطارها الاسلام ، وقوامها حكومة ودولة ، ونظام جديد ، مغاير تمام المغايرة للنظم القديمة ولسلطات الحكم الفارسية والرومانية ، وبمفاهيم جديدة ، حيث تتجمع القوى القديمة الفاقدة لسلطانها في مؤامرات للانتقاض ، وفي محاولة للقضاء على القوة الجديدة ، وفيما تذهب « أيديولوجيا الاسلام » في توطيد دعائمها ، والدولة الاسلامية في بناء قواعدها ، والمجتمع الجديد في محاولة الامتزاج والتداخل ، كان هذا الصراع لا بد أن يطفو على السطح في صورة هزة ضخمة طويلة المدى ، تريد أن تحقق تغيرا شاملاً قوامه :

( ١ ) الانتقال من الخلافة الى الملك ( ٢ ) الانتقال من الصحراء الى المدينة ( ٣ ) بناء نظام سياسي واجتماعي جديد ، إطاره مفهوم الاسلام ، وتتمثل في كيانه مفاهيم عديدة من حضارات الروم والفرس والفراعنة والبربر ، تحاول أن تنصهر كلها في حضارة جديدة « عربية اسلامية » ووفق لغة جديدة هي « اللغة العربية » وفي نطاق دولة مدنية ، فكأنما التاريخ كان يجري ويتحرك بقوة إلى دولة أموية عاصمتها في « دمشق » كمرحلة أولى لبناء يستمر ( من عام ٤٠ إلى عام **١٣٢** ) أكثر من تسعين عاماً .

كان عهد أبي بكر وعمر هو عهد بناء الدولة الكبرى ، وفتح الطريق أمام الاسلام في انطلاقته الجبارة ، وقد تحقق في ظل عمر أكبر قدر من هذا النمو والتوسع الجريء القوي ، وفي ظل عثمان ، ثم توسع في طرق الجناحين ( الهند ) و( المغرب ) .

# « عصر عثمان »

انتهى عصر عمر بعد « عشر سنوات » من حكم عادل دقيق يمثل ذلك العصر العجيب . وتلك المرحلة الدقيقة في تاريخ الاسلام كله ، المرحلة التي تم فيها قيام « دولة الاسلام الكبرى » على أنقاض الامبراطوريتين الفارسية والرومانية في فارس والعراق والشام ومصر . وبدأ ذلك التطور الخطير في بناء الأمة الاسلامية : اجتماعيا وسياسيا واقتصاديا . وجاء عصر عثمان خلال خمسة عشر عاما مختلفاً كل الاختلاف مع عصر عمر وشخصيته ، فهو امتداد له ، ولكنه امتداد مغاير بحكم الزمن نفسه ، وبحكم شخصية الخليفة وتصرفاته ، زادت رقعة عالم الاسلام خلالها ، وامتدت وبدأت عوامل التعقد والتغير بصورة اوضح ، فقد التقت عناصر المجتمع الجديد في أقطار متعددة ، تحت سلطان دولة « المدينة » في قلب الصحراء على بساطتها ، وحيث خرج الصحابة الى الأمصار فأقاموا فيها ، وحيث ازداد الثراء وتدفق المال ، وبدأت معضلات جديدة تبعاً لذلك التطور الاجتماعي والاقتصادي والفكري ، ولم تكن آثار التغيير بسيطة ، بل كانت متعددة ومعقدة ، وكانت في حاجة الى مواجهة من الخارج ، مواجهة تقدير شامل للموقف ، كان التطور أكبر من طاقة القيادة السياسية في المدينة ، وفي خلال هذه المرحلة برزت ظاهرتان خطيرتان ( ١ ) ظاهرة سمحة كريمة ، يتمثل فيها أول صوت لدعاة العدل الاجتماعي ، تتمثل في « أبي ذر » . ( ٢ ) وفي نفس الوقت ظهرت دعوة معارضة عنيفة دقيقة ماكرة ، هي دعوة « عبد الله بن سبأ » تتكيء على اسم آل البيت وحق علي وآل البيت في الحكم والخلافة . وكان دهاء ابن سبأ عميقاً . فقد حاول أن يفيد من دعوة أبي ذرّ . فإذا لاحظنا أن خطرين كانا يحيطان بالموقف كله ، هما خطر اليهود ، وخطر أصحاب السلطان المنتزع من الفرس ، عرفنا إلى أي مدى أمكن للموقف أن يضطرب ، وكيف أمكن لهذه القوى التي تريد أن تديل من دولة الاسلام ومن الاسلام نفسه أن تتحرك ، وأن تفيد من هذه الخصومة العنيفة التي تمثلت من قبل في مقتل عمر ، حين أخذت المؤامرة طريقها هادفة إلى مصارعة القيادة السياسية الحاكمة في

المدينة . في ضوء هذا كله يمكن النظر إلى حركة عبد الله بن سبأ ، فمهما قصد خصوم الاسلام ومن تابعهم من دعاة الشعوبية والتغريب إلى التقليل من شأن ابن سبأ ودوره وإنكار وجوده ، فإن الاجماع منعقد على أن حركة التآمر على الاسلام ممثلة في أصحاب النفوذ من الفرس ، أو المتآمرين مع اليهود ، قد وجدت فرصتها في ظل حركة التحول الكبرى ، والتوسع الحضاري التي برزت في عهد عثمان بعد توسع آفاق الجماعة الاسلامية ، وانبساط نفوذها .

ولا شك كان اليهود والمجوس : أشد خصوم الاسلام حملة عليه : فقد أطفأ الاسلام نار المجوسية بعد ألفي عام إلى الأبد ، ودخلت فارس في عالم الاسلام ، وقام المسجد الأقصى على انقاض الهيكل . فكانت الحملة على أبي بكر وعمر ، وعثمان وابي عبيدة ، وخالد وسعد ، ولما كان خصوم هؤلاء لا يستطيعون أن يحاربوا في جبهة مكشوفة ، فلا بد من أن يدّعوا اعتناق الاسلام ، وأن يوزعوا أنفسهم بين صفوف المسلمين يثيرون الشبهات والأحقاد ، وكان شعارهم الذي وجدوه وسيلة مغرية لاقتحام قلوب المسلمين هو « آل البيت » . كان عبد الله بن سبأ على رأس هذه المؤامرة « يهوديا » ادعى الاسلام ووالى عليا ، ونقل الى الاسلام مفاهيم اليهودية والمجوسية حين قال بتأليه علي ، وقد أنكره « علي » ونفاه وأبعده ، ولكنه مضى يبث دعوته في تدرج ودهاء ، واستجاب له بعض الناس ، وتكونت له حركة ودعاة ، وفهم أعوانه أغراضه ، فساروا في الأقطار يحملون مفاهيمه ، وقد أتاحت له فرصة الخلاف إعداد نفر من الدعاة . انبثوا في الفسطاط ، والكوفة ، والبصرة ، عملوا على التأثير في أبناء الزعماء وقادة القبائل . فاستجاب لهم الضعفاء والكارهون . من هذه النقطة بدأ ذلك الخط الذي اتسع من بعد ، وحمل لواء المؤامرة على الاسلام ، واستغل مختلف الأحداث ، وكان مؤثراً في المواقف المختلفة ، وكان لهذه الحركة أثرها في موقف الثورة على عثمان . وفي تأليب الناس عليه ، وفي تزوير قصة الخطاب التي أبلغ الخلاف بين وفود الأمصار وعثمان غايته ، هذا الخطاب الذي كتبه باسم عثمان وأعطاه لأحد رجاله ، ثم رصد له من صادره منه ، فأجج الموقف وأدلع نار الثورة .وقد ثبت أن الخطابات التي نسبت الى عثمان واستند اليها خصومه في أمر قتله كانت مزورة .

دعا ابن سبأ إلى الطعن في تصرفات الحكام ، فالتفت حوله العامة ، وقد

استطاع أن يعمل في البصرة وفي الكوفة وفي الشام وفي مصر ، وكانت كلمته هي الطعن في عثمان وولاته ، والدعوة لخلافة علي بوصفه وصي الرسول . ولقد استطاع ابن سبأ ان ينفذ إلى الشيخ الزاهد ( أبي ذرّ ) وأن يستغل دعوته البريئة ، وينشر آراءه في مجالسه ويغريه بالحكومة ويحرضه على الأغنياء ، وكان يعلن في كل مصر وقطر : « هذا علي وصي الله فانهضوا في هذا الأمر وحركوه ، وأبدأوا بالطعن على أمرائكم » وقد وجد في مصر مرتعا خصيباً . وكان ابن سبأ من يهود اليمن ادعى الاسلام ، وقرأ كثيرا من التوراة ، وخلط تعاليمها بالقرآن ، وأدخل إلى مذهبه مفاهيم الفرس القديمة المتمثلة في خطط المجوسية ، فلما اشتد ساعد دعاته في هذه الأقطار ، ونما ذلك التيار بالخصومة على عثمان ، وجه الثوار الى المدينة من كل قطر ، وذهب هو من خلفهم يدبر لهم الخطط . ومن ثم استطاعت حركة ابن سبأ أن تزعزع السلطة السياسية الاسلامية .

ولا شك أنه كان هنلك ارتباط واتصال بين موقف الهرمزان وأبي لؤلؤة ومن ورائهما أسماء كثيرة ارتفعت أعلامها : عبد الله بن يسار ، وأبو بكر الكروسي ، ورشيد الهجري ، ومحمد بن أبي زينب ، وصنيفان الطاق ، وجهم بن صفوان ، وهشام بن الحكم ، وأبو حالم الجواليقي ، والأحوص بن إسحاق القمي ، وكثيرون . هؤلاء كانوا من أولياء المجوسية الحاقدين على الاسلام ، كانوا يأخذون على الاسلام أنه أخضع الدولة الفارسية للاسلام ، وأطفأ نار المجوسية ، وأقام المسجد الأقصى على أنقاض الهيكل ، وكان الهدف هو التخلص من زعماء الاسلام وأئمته ، فانخرطوا بدعوة اعتناق الاسلام لتنفيذ المؤامرة . ولم يجدوا فكرة يتسترون بها ، ويحاربون في ظلها ، إلا فكرة آل البيت التي تجد من جماهير الناس عطفا ، وتهز مشاعرهم وأحاسيسهم ، وقاد الحركة جميعها « عبد الله بن سبأ » الذي كان يقول في يهوديته : إن يوشع بن نون هو وصي موسى . فلما أسلم قال : إن علي ابن أبي طالب هو وصي محمد ، وهنلك إجماع على أنه أول من أشهر القول بإمامة علي ، وأظهر البراءة من أعدائه ، ولقد عارض الامام علي كرم الله وجهه قولة ابن سبأ ولعنه ، وطارده ونفاه ، وأنكر دعوته في مختلف خطبه على منبر الكوفة ، وفي قوله « خير هذه الأمة بعد نبيها : أبو بكر وعمر » وقد روي ذلك عنه من ثمانين وجها ورواه البخاري .

وقد بلغ من دهاء ابن سبأ أو ابن السوداء . أن كان يبث دعوته في كل مكان

على وجه مختلف زيادة في التآمر على صحابة رسول الله ، فكان يبث في جماعة الفسطاط الدعوة لعلي ، وفي جماعة الكوفة الدعوة لطلحة ، وفي جماعة البصرة الدعوة للزبير ، وهو الذي زور الكتاب على عثمان إلى حامله بمصر ، بدليل أن حامله كان يتراءى لهم متعمداً ، ثم يتظاهر بأنه يكتم عنهم ليثير ريبتهم . وفي اعتقادي أن هذا هو مصدر الأزمة العنيفة التي واجهها النظام الاسلامي في هذه الفترة ، هذه الأزمة التي أودت بعثمان ثم بعلي ، والتي قسمت المسلمين ، وأوقعت بهم ذلك الصراع الرهيب حتى استشهد الامام علي .

أما ما نسب إلى عثمان من أمور تتعلق بإسرافه في تقريب أهله ، أو اعطائهم وإعطاء سائليه . فتلك أمور لا تؤدي إلى مثل هذه المؤامرة الضخمة ولا تدفعها على هذا النحو الخطير البالغ الاحكام من حيث التآمر والتنفيذ ، ولا شك قد مهدت لذلك العوامل التي واجهها المجتمع الاسلامي في مجال التبلور والانصهار .

فقد كان عصر عثمان عصرا جديدا تفتحت فيه آفاق الثراء ، وتدفقت فيه الأموال ، وإن ما حدث من تحول هو تحول طبيعي بدأت بوادره في أواخر عهد عمر . وإذا كان لكل عصر من عصور الخلفاء الراشدين طابع ولون يستمد من العصر ، ومن مقومات شخصية الخليفة نفسه ، فإن عمر كان مظهر الزهد . بينما كان عثمان مظهر الثراء والعطاء . ولقد أعطى عثمان من ماله وأنفق . ولم يعط أهله فقط بل أعطى الجميع . وقد كشف عن مفهوم الاسلام وسماحته بالنسبة للحضارة والتخلص من البداوة .

## « الامام علي »

وقد استطاع ابن سبأ أن يذيع نظرية دخيلة على مفهوم الاسلام هي نظرية الحق الالهي والوصاية حين قال : ( إن لكل نبي وصيّا ، وإن عليّا خاتم الأوصياء . كما أن محمداً خاتم الأنبياء ) وهي نظرية فارسية أصلاً ، ومعناها أن عليّا هو صاحب الحق الأول في الخلافة ، وقد تصدى « علي » للجموع الزاحفة على المدينة ، وكشف لهم عن خطأ ما ذهبوا إليه ومخالفته لجوهر الاسلام ، وما يؤدي إليه من إضعاف لوحدة المسلمين ، وواجه عثمان الثائرين بما أقنعهم بسلامة موقفه ، حتى أنهم قفلوا راجعين ، وأحسّ ابن سبأ أنه أوشك على الهزيمة ، وأن الهدف الذي يعمل له سنوات قد فشل ، هنالك اهتدى إلى الحيلة ، فاختلق قصة الخطاب ، وروى أن الثائرين رأوا رجلاً يمشي على بعد منهم ، وأنه يحاول أن يختفي عنهم ، أو يخفي شيئا في ثيابه ، فشكوا في أمره ، فلحقوا به وقبضوا عليه وفتشوه ، فوجدوا معه خطاباً عليه خاتم عثمان . وفي الخطاب أمر الى والي مصر أن يقتل هؤلاء الثائرين ، هنا جاشت الفتنة مرة أخرى وعاد الثوار الى المدينة . وقد أقسم عثمان أنه لم يكتب هذا الكتاب ، وثبت من بعد أن هذا الخطاب زوّره عبد الله بن سبأ ، ولكن عثمان قتل وهرعت الجماهير إلى « علي » تبايعه بالخلافة : وقال « علي » : إن هذا الأمر ليس لكم ولكنه لأهل بدر .

وبدأت سنوات على الخمسة في الحكم عصيبة مضطربة . كان « علي » امتداداً لحكم أبي بكر وعمر . بيد أنه كان بينه وبين ذلك خمسة عشر عاما وأحداثا وتطورات ، ولم تكن مفاهيمه المثالية وفلسفته الأصيلة قادرة على أن تمضي في الطريق . . إذ كانت مفاهيم المجتمع الاسلامي قد تطورت وتبلورت في صورة أخرى خف فيها طابع الايمان الخالص . فبدا « علي » وكأنه غريب عن مجتمعه وكان « معاوية » أكثر قدرة على العمل منه ، ومر « علي » بذلك المضطرب في معارك ثلاث : مع الصحابة ، وعائشة ، ومع شيعته والخارجين عليه ، ومع معاوية . كان ينتصر في كل موقف بالحق ، ولكن التحول النفسي والاجتماعي كان يكشف عن أنه غريب عن أساليب السياسة ، كان يعمل في ظل « المثل العليا

للاسلام » وكان التطور يفرض غير ما يريد . فلم تكن نهايته الا تمثلاً لانطواء منهج قد بعد عنه عصره ، وأسلوب مضى زمنه . وكان معاوية إعلانـا لتطـور جديد في الخلافة والحكم والملك .

كانت قضية مفهوم السلطة السياسية العليا في الاسلام هي أولى المعضلات التي واجهت المجتمع الاسلامي ، فكانت مصدراً لظهور « حـركة المعارضـة » التي تمثلت في أكثر من فرقة أو حزب : أبرزها دعاة المثـل الأعلى ( الخـوارج ) ودعاة العاطفة ( آل البيت ) . ان الاسلام لم يرسم في مجال الحكم والقيادة نظاماً محدداً ، تقديراً لتطور الأمم وتحول العصور ، ولكنه وضع « مقومات أساسية » هي : الشورى ، وحق اختيار الشعوب لحكامها ، دون أن يكون هذا الحاكم من جنس معين ، أو دم معين ، وأن ينصب هذا الحاكم ما ارتضاه الفارسي ، ولو كان عبداً جيشا . ذلك لم ينص الرسول نصّا صريحاً على من يخلفه ، وكان اختيار أبي بكر طبيعيا قريباً إلى منطق الأمور وتطور الأحداث ، فهو صاحب رسول الله ، وأول المؤمنين به ، وأكبر الصحابة خبرة وذكاءً . وقد كانت مواقفه في خلال عامي ولايته غاية في الحسم والقوة . فقد واجه « الردة » بمفهوم تابع به النبي وحفظ به مقومات الاسلام ووحدة المجتمع الاسلامي ، كما دافع المؤامرة على الاسلام ، ووسع نطاق عالم الاسلام ، وكان اختياره لعمر من بعده مرضيا عنه من جلّة الصحابة والمسلمين وكان امتداداً طبيعيا .

وجرى اختيار عثمان وفقاً لخطة دقيقة ، ثم اختار المسلمون عليّا . وحين عقد أبو بكر لعمر لم يكن مستبدًّا برأيه ، بل استشار الصحا[illegible] فيه ، فأثنوا عليه وأقروا رأيه في استخلافه ، وهو لم يرغم جماعة المسلمين على قبوله ، وبذلك كان اختيار الخلفـاء الراشـدين الأربعـة انتخابـاً حرّا شوريّا . غير أن توسـع « المجتمـع الاسلامـي » في ظل عمـر ، وانفتـاح الجـزيرة العـربية على عالمي الامبراطورية الرومانية والفارسية الخاضعين للعالم الاسلامي ، قد خلق معضلة سياسية واجتماعية واقتصادية ضخمة ، امتدت أواخر حكم عثمان ، وخلال حكم علي ، وانتهت بتحول في نظام الحكم وفي مكان سلطة الحـكم جميعـا وأصبـح « معاوية » رأس التنظيم السياسي في الدولة الاسلامية ، بعد خلافة الراشـدين يمثل مرحلة جديدة من النظام والحكم أقرب الى نظام الملك العضوض منها الى نظام

الخلافة الجمهوري . ومن هنا بدأ « نظام حكم » مستقر في وضع وراثي ، يتمثل في ولاية العهد .

وقد التمس المؤرخون والباحثون في تاريخ الاسلام لمعاوية عذراً في هذا الاجراء ، ومنهم من عدّة تطوراً ، طبيعيا للأمور ، فقد كانت الأحداث المتوالية التي قضت بمقتل الخلفاء الثلاثة « عمر وعثمان وعلي » تتطلب إجراءات جديدة حاسمة ليس لها طابع بساطة نظام الحكم في المدينة . مع تعقد الأمور ، واتساع الدولة ، وتعدد العناصر ، فهو في نظرهم اتجاه ضروري فرضته الظروف والأحداث التي واجهها المجتمع الاسلامي إذ ذاك .

ولا شك كان أبرز تحول في منهج السياسة الاسلامية العليا هو : إقرار الحكم في أسرة بالتوارث ، ولا شك في رأينا كان لهذه الظاهرة دوافعها وضروراتها ، وكان لها أخطارها ومضارها وآثارها العكسية . لقد بدأ الاسلام جمهوريا شوريّا ، يتيح الفرصة لاختيار الخليفة وانتخابه ، ثم تحول إلى نظام ولاية العهد ، ووراثة الملك تحت ضغط ظروف معينة كانت تواجه ( معاوية ) أول من سَنّ هذه السُّنة ، فقد جاء معاوية عقب صراع عنيف ، تشققت فيه فرق وخلافات ، وتعرضت فيه الدولة الاسلامية للخطر الشديد ، فضلا عن أن نظام الدولة كان قد تحول تحولا واسعاً من الخلافة ، إلى الملك العضوض،هنالك رأى معاوية ورأى من معه أن يأخذ بنظام ولاية العهد إبقاءً على فترة استقرار أطول ، ثم توالى هذا النظام من بعد ، ولم يعد هناك مجال لتغييره . وقد حقق هذا النظام باستقراره نتائج كثيرة في مجال النمو الحضاري والاجتماعي والاقتصادي .

غير أن هناك عاملاً هاما ظهر فيما بعد ، هو قيام الأنظمة الاستقلالية ، والحكومات التي يستقل أمراؤها بقطر أو بآخر ، حين يبرز فيها واحد من « بناة الدول » فيسيطر على الحكم ، ويعلن الولاء للخليفة ، بل إن ( بغداد ) نفسها عاصمة قد تعرضت من بعد لذلك ، حين ظهر نظام السلطنة ، وحيث قام بالحكم « سلطان » نيابة عن الخليفة نفسه . وقد كان لهذا النظام الاستقلالي نتائجه الهامة والضخمة في نمو الحضارة وبناء الدول ، فقد كان كل حاكم من هؤلاء الحكام حريصا على أن يعمل ما وسعه العمل في سبيل إنهاض الأمة التي

وليها ، وتقريب العلماء وتشجيع المفكرين . وإن لم يطل عمر هذه الدول أو تستمر كثيراً ، فقد كانت تنطوي صفحتها أحيانا بانتهاء بانيها فهي ما تكاد تدخل في نظام وراثة الملك حتى تدخل في مرحلة الضعف ، ثم تتلاشى لتقوم غيرها مكانها ، وأحيانا كان الذين يلون الحاكم الأول ، أكثر منه قوة ونهضة ، وربما زادوا عما قدمه سابقهم ، ولكن هذه الدول كلها ظلت تبرز وتتألق وتختفي ، وتحل محلها دول أخرى ، وفي مختلف انحاء العالم الاسلامي منذ توقفت حركة التوسع ، وفي ظل الدولة العباسية وما بعدها في العصر العثماني .

***

ومن الحق أن ظهور الدول الاستقلالية كان أمر طبيعيا لا بد منه ، لاتساع نطاق الدولة ، وتباعد الأقطار عن مقر السلطة ، وأنه كانت له آثاره من بعد تمزق الوحدة الاسلامية ، غير أنه لم يكن ممكنا أن تظل الوحدة المتمثلة في إطار الدولة قائمة طوال القرون الاعلى أساس يقظ من مفهوم الاسلام ، لا تبرز فيه مشكلات الصراع بين عناصر المسلمين ، ولا تستفحل . لقد حقق قيام الدول المستقلة المتعددة الى نتائج إيجابية في شأن الحضارة ، وفي منهج العناصر الاسلامية المختلفة الحق في الحكم ، ولكنه أضعف مركزية الدولة والوحدة الاسلامية الشاملة ، وبذلك مهد للغزو الخارجي ، وضرب مركز القيادة فيه . زحف الصليبيون على الشام والتتار على العراق ، والفرنجة على الأندلس والمغرب .

ويرى بعض الباحثين أن نظام الحكم الذي بدأه معاوية ( نظام الملك ) كان تطوراً طبيعيا من النظام القبلي ، وأنه لم يكن من اليسير قيام نظام جمهوري انتخابي لهذه المساحات الواسعة من دولة الاسلام ، وأن نظام الشيعة إنما كان يتمثل في الملكية ، في آل البيت . وأن كل الدعوات كانت تحمل لواء حصر الحكم في بيت وسلالة ( ما عدا الخوارج بالطبع ) .

## حركة المعارضة

يمكن أن يطلق على الفرق والدعوات التي وقفت في وجه الدولة الاسلامية التي كانت تمثل القيادة السياسية للعالم الاسلامي ( الخلافة الراشدة ، الدولة الأموية ، الدولة العباسية ، وما رافقها من دولة الأمويين في الأندلس ، والدولة الفاطمية في مصر وغيرها ) هذه الدعوات والحركات ـ فيما عدا حركة المؤامرة على الاسلام ، ومؤامرات طلاب الحكم ـ كانت تتصل بمفهوم من مفاهيم الاسلام ، العدل الاجتماعي ممثلا في حركة أبي ذر ، المساواة ممثلة في حركة الموالي ، المثل الأعلى لنظام الحكم ممثلا في حركة الخوارج . غير أن هذه الحركات كلها لم تلبث أن انحرفت عن مفهومها ، حين حاولت فرض مفهومها بالقوة عن طريق حركة الانقلاب أو الانتقاض على الدولة ، أو الانضواء تحت لواء خصوم الاسلام ، والمتآمرين عليه ، لقد أسرف هؤلاء جميعاً في مقاومة الدولة القائمة ، ونسوا أنها تمثل الكيان السياسي الأكبر للاسلام ، وأن الانتقاض عليها من شأنه أن يغري بالاسلام خصومه من خارج نطاق عالم الاسلام وهو ما وقع بالفعل بعد أن اتصلت هذه الحركات ، وانصهر بعضها في حركة المؤامرة الضخمة على الاسلام التي تمثلت في القرامطة ، والاسماعيلية ، والباطنية وغيرها .

وكان أخطر ما بلغته هذه الحركات هو اصطناع مبدأ الاغتيال ، واستحلال قتل مخالفيهم من المسلمين ، ويجب أن نفرق هنا بين حركات المعارضة للحكم ، وبين حركات المؤامرة على الاسلام ، وبين فرق الشيعة والمعتزلة والخوارج ، وهي فرق مجتهدة بما تراه حقاً ، وبين فرق المؤامرة على الاسلام التي التمست لها شعارا من الشيعة الغالية . ويمكن أن يقال إن صراعاً قد برز بين الحضارة ( الحكم ، والسياسة ، والمجتمع ) . وبين المثل الأعلى للاسلام ، وأن هذا الصراع تمثل في طلاب العدل والمساواة ( أبو ذر والخوارج ) وأن هناك صراعاً بين طلاب الحكم بحق الروابط التي تتصل بآل البيت ، وبين من يرون لأنفسهم حق الولاية ، وهناك فريق دعاة النقد الاجتماعي ، وكشف عيوب الحكام والمجتمع ( حسن البصري ) .

## ( دعاة المساواة )

هناك قول يكاد يصل إلى الاجماع هو : أن حركة دعاة المساواة ( الموالي ) كانت رد فعل لغلو الدولة الأموية في تمثل السيادة العربية ، مما أدى إلى قيام صراع بينها وبين المسلمين من غير العرب ممن أطلق عليهم الموالي . هؤلاء الذين كان مفهوم الاسلام وفن أصوله ـ يعطيهم حق المساواة مع غيرهم .

ويرجع المؤرخون ذلك إلى أن طابع الدولة الأموية كان عربياً غالياً في العروبة ، حتى أنهم فرقوا بين العرب ، ومن دخل الاسلام من العناصر الأخرى ، وكان أغلب هؤلاء الموالي فرساً . وقد كان لطلاب الملك من الفرس قضية ارتبطت بمقتل عمر بن الخطاب ، مصدرها حق الطبقة التي كان بيدها النفوذ والسلطان فضلاً عن طابع النظرة الفارسية القديمة إلى العرب بوصفهم أصحاب حضارة ، والعرب أصحاب بداوة ، وقد توالت الأزمة التي عاشت أيام عثمان وعلي ، وكان موقف بعض الفرس فيها يحمل طابع الحقد على العرب لأنهم سيطروا على دولتهم ، وفي رأي الفرس أن الاسلام هو الذي أعطى العرب هذا الامتياز ، ومن هنا بدأت حملتهم على الاسلام نفسه . وقد صاحب هذا الاتجاه موقف الأمويين من الموالي ، فارتبط به على نحو من الأنحاء .

والحق أن موقف الاسلام من الموالي كان واضحاً صريحاً ، وأن مخالفة هذا المفهوم كان مصدر « الأزمة » التي وقعت بين العرب والموالي ، والذي أودى بالدولة الأموية . فقد كان للموالي دورهم في زعزعة بنائها في سبيل قيام نظام يحقق لهم المساواة ، ولقد كان مفهوم الاسلام أن يحكم المسلمون عرباً وغير عرب ، وأن لا يقتصر السلطان على العرب وحدهم . وهذا ما حققه تطور الأمور في العصر العباسي .

والموالي هم خليط من المسلمين الذين كانوا موالي لمن أعتقوهم ، أو أهل الأمصار الذين أسلموا وانضموا إلى العرب وتحالفوا معهم ، فأصبحوا موالي بالحلف ، وقد كانوا يمثلون الأيدي العاملة في الدولة ، ومما يذكر لهم أنهم كانوا أداة الجيوش ومادتها ، وأنهم قاموا بدور ضخم في توسيع عالم الاسلام ، وأنهم صدقوا الله إسلامهم ، وقدموا أرواحهم خالصة في حركة الجهاد المقدس ، وفي المعارك المتوالية التي استمرت ردها طويلاً خلال حكم الدولة الأموية ، كما أتيح

لهم أن يسيطروا على الحياة الاقتصادية ، غير أن الأوضاع التي فرضها الاستعلاء بالسيادة العربية تركت في أنفسهم كثيراً من الجروح والندوب ، فأحسوا بفوارق مختلفة لا يقرها مفهوم الاسلام نفسه . هذا المفهوم الذي سوى بين العرب وغير العرب تحت لواء الاسلام الذي فرَض للقيادة السياسية الحاكمة أن تحقق هذه المساواة ، وفي حكم عمر بن الخطاب بدأ هذا المفهوم واضحاً ، وهو يوضع موضع التحقيق .

وقد كان من نتائج هذا ، قيام ثورات مختلفة متعددة للموالي على الحكم الأموي ، وقد أدى ذلك إلى انضمام طائفة من المجتمع الاسلامي إلى خصومه وإلى حركات التآمر على الاسلام ، كما انضموا إلى الخوارج ، والشيعة وإلى كل منتقض على الدولة ، حتى تجمعت الشيعة والخوارج والموالي على هدم الدولة الأموية ، ولا شك كان سقوط الحكم الأموي ، وقيام الحكم العباسي انتصاراً للموالي . فقد حقق لهم العمل على قدم المساواة مع العناصر الاسلامية الأخرى . ولقد عد المؤرخون موقف الأمويين من الموالي واستعلاءهم بالسيادة العربية من أكبر الأسباب التي أدت إلى سقوط دولتهم ، غير أن أخطر النتائج التي أدت إليها حركة الموالي التي تتمثل في ذلك التحدي الذي فرض اتصال الموالي بالفرس الناقمين على العرب ، إنما كان ظهور موجة الشعوبية العاصفة المنحرفة التي بدأت أول أمرها تنادي بمساواة العرب والموالي ، ثم تطورت في العصر العباسي ، فصارت تنادي بأن الفرس أرفع درجة من العرب . ومن الحق أن يقال أن شعور الاضطهاد الذي أحسّ به الموالي كان عاملاً هاماً من العوامل التي دفعتهم إلى المشاركة في حركات التآمر على الاسلام نفسه رغبة منهم في إسقاط الدولة الأموية .

## دعاة المثل الاعلى ( الخوارج )

وكان « دعاة المثل الأعلى » أبرز من حملوا لواء المعارضة للسلطة السياسية ، كان الخوارج يمثلون مفهوم الخلافة الحق ، الخلافة الديمقراطية التي لا تتقيد بقريش ، ولا بآل البيت ، وقد صاغوا من المثل الأعلى الاسلامي « نظرية » دافعوا عنها ، وبلغوا في حماسة الدفاع عنها حد العنف وسفك

الدماء ، وهم في نظرتهم لا يقبلون مفهوم الواقع المتطور ، ولا الواقع الجاري ، ولا النظرة العميقة لمفهوم الأحداث وتطور الأمم ، ولو لم ترتبط فلسفة الخوارج بالانتقاض على الدولة ، والمقاومة الدموية ، لظلت تمثل جانب المثالية في الاسلام في مواجهة الدولة التي كانت في الأغلب نظاماً سياسياً يدور في إطار الاسلام ، ولا يطابق مفهومه تمام المطابقة .

كانت أيديولوجية دعاة المثل الأعلى أن تكون الخلافة شورى بين المسلمين ، لا يقبلون مبدأ الوراثة ، ولا حق قريش في الخلافة . وقد حدد الخوارج موقفهم في قضية الخلافة فقالوا : إن الامامة قد تكون في غير قريش ، ويجب ألا ينظر في اختيار الامام إلا لتوافر الكفاية ، والعدل ، واجتناب الجور ، فكل من أنس فيه المسلمون هذه الخلال فلهم أن يولوه الامامة ، ومن خرج عليها وجب اعتباره عاصياً ، وأن غيرّ الامام السيرة وعدل عن الحق وجب عزله ، أو قتله ، كما أنه يجوز أن يكون الامام عبداً أو حراً ، قرشياً أو غيره .

وقد ظل الخوارج أشد الفرق الاسلامية الثورية معارضة لقيام الأسر والحكم الموروث ، وأشدها مقاومة للملك الجائر ، ولم يقف أمرهم عند وضع النظريات . بل ذهبوا في تطبيقها أبعد مدى وعرف لهم أبطال وأدب ومواقف متعددة ، وتاريخ طويل امتد خلال حكم الأمويين والعباسيين . فقد شهروا الحرب على الدولتين ، ولبثوا يقاومونها زهاء قرنين ، وكانوا مثلا عالياً في الجرأة والمخاطرة . غير أن أبرز ما يؤخذ عليهم إسرافهم في سفك الدماء ، ومغالاتهم في قتل الأطفال والشيوخ والنساء .

## دعاة العاطفة ( لآل البيت )

يمثل مفهوم آل البيت : « العلويون ـ الشيعة » الاتجاه المرتبط بالرسول صلى الله عليه وسلم وآل البيت وهي دعوة العاطفة العميقة التي ملأت نفوس المسلمين بحب رسول الله وآل بيته في ظل مفهوم القرآن « قل لا أسألكم عليه أجراً إلا المودة في القربى » وكان حقاً لهذه الدعوة أن تتسع في مجال رد الفعل لما واجهت من تحد . هذا التحدي الذي تمثل في امتناع النبيِّ صلى الله عليه وسلم وخليفتيه أبي بكر وعمر عن إعطاء سلطات سياسية ، أو قيادات حربية لأحد من

آل البيت ( آل علي وآل العباس ) ويتصل بهذا ما أورده المسعودي من حوار دار بين عمر بن الخطاب ، وعبد الله بن عباس جاء فيه قول عمر . إني رأيت رسول الله استعمل الناس وترككم ، فقال عبد الله : والله قد رأيت من ذلك ، فلم تراه ، قال عمر : « والله ما أدري أضن بكم عن العمل فأهل ذلك أنتم ، أم خشي أن تبايعوا بمنزلتكم منه » . ومما يروى في هذا أن علّياً والعباس قد التقيا في مرض النبيِّ ، قال العباس لعلي : أنت بعد ثلاث عبد العصا وأن رسول الله صلى الله عليه وسلم سيتوفى في مرضه هذا ، وإني لأعرف الموت في وجوه بني عبد المطلب ، فاذهب إلى رسول الله فاسأله فيمن يكون هذا الأمر ، فان كان فينا علمناه ، وإن كان في غيرنا أمره ، فأوصى بنا ، فقال علي : « لئن سألناها رسول الله فمنعنا إياها لايعطيناهاالناس أبداً » ويتصل بهذا ما كان من أمر اجتماع السقيفة حيث دار الحوار بين الأنصار والمهاجرين حول أمر الاستخلاف بعد النبي ، واتفق على أن يكون المهاجرون هم الأمراء ، والأنصار هم الوزراء ، وبايع عمر ابن الخطاب وأبو عبيدة لأبي بكر . ثم ما كان من أمر عَليّ وتردده في البيعة ما يقرب من ستة شهور ، وما وقع للسيدة فاطمة بنت النبي حين قصدت خليفة رسول الله أبا بكر تسأله في أرض لرسول الله في فدك ، وما أجابها به أبو بكر حين قال : أن معاشر الأنبياء لا يورثون وما تركوه صدقة .

من هذه الصورة يتمثل الاتجاه الذي كون موقف دعاة العاطفة الذين أحسوا بآل البيت ، وهم مبعدون بعد رسول الله عن مكان الحكم ، وإن لم يبعدوا عن مكان الصدارة ، فقد كان علي بن أبى طالب وعبد الله ابن عباس هم أبرز قادة الفكر الاسلامي في هذه الفترة . وفقهاء المسلمين : حتى كان يقال « قضية ولا أبا حسن لها » .

وقد امتدت هذه الصورة ، واتسع نطاقها حين اختير عثمان بعد أبي بكر وعمر ، وكان عَليّ في مقدمة المرشحين ، وما روي في شأن ذلك من آراء وروايات لاحدّ لها ، من أبرزها ما قيل من أن الصحابة كانوا قد ضاقوا بنظام حكم عمر ، وخشوا عليا أن يكون استمراراً لهذا الحكم ، وتطلعوا في عثمان طابعاً أقل شدة واكثر انطلاقاً نظراً لارتفاع سِنِّه واختلاف طبيعته ومفاهيمه عن « عمر » الشديد الحازم .

فلما جاء دوره بعد عثمان ، كان المجتمع الاسلامي قد بلغ غاية من الاضطراب ، وقد علت فيه صيحات ، وتدافعت قضايا ، وتفرق الصحابة في الأمصار ، ووقع الخلاف بين جماعة المسلمين ، ثم وقع الخلاف بين عَليّ وشيعته ، ثم وقع الخلاف بين علي ومعاوية ، ثم كانت نهايته تلك الآسية الأليمة . وما كان من تنازل ابنه الحسن لمعاوية عن الخلافة ، ثم كان خروج الحسين ومقتله بيد ولاة الأمويين الذين كانوا قد جعلوا السلطة الاسلامية العليا توارثاً في بيتهم ، هنالك وفي خلال هذه الظروف تكونت جماعة « دعاة العاطفة لآل البيت » قوية عنيفة تناهض نظام الدولة القائم ، وتحاول أن تديل منه بالثورات والانتفاضات ، حتى بلغت من بعد مبلغها « حركة ذات فلسفة ومفاهيم » تطبعها بطابعها .

وقد حاول خصوم المسلمين والمتآمرين عليه أن يندسوا في رحاب هذه الدعوة ، وأن يحملوا لواءها حتى دق الفارق ـ في فترة من الفترات ـ بين دعاة العاطفة المحبين لآل البيت ، وبين المتآمرين على الاسلام ، هؤلاء الذين كانوا دائماً يحملون لواء آل البيت ، ويدعون باسم آل علي أو أبناء فاطمة . وقد واجه دعاة العاطفة خصومة الأمويين ، حتى إذا شاركوا في محاولة القضاء عليهم ، كان أبناء عمهم ( العباسيون ) الذين ولوا الحكم أشد عنتا في معاملتهم ، وخصومة معهم . ولكنهم استطاعوا من بعد أن يقيموا الدول : في فارس ( اليوبهية ) وفي المغرب ( الدولة الفاطمية ) التي امتدت من تونس إلى الشام والحجاز واستمرتَ ٢٦٠ عاماً .

ولقد قام آل البيت « الشيعة » : أتباع علي وبنوه ، مذهبهم على أن الامامة ليست من المصالح العامة التي تفوض إلى نظر الأمة ، ويختار القائم بها ، بل هي متصلة في آل البيت وأبناء علي ، وقد اعتمدوا في فكرهم ، ومفاهيمهم على أحاديث للرسول صحت عندهم تعطي فلسفتهم جذورها الأساسية . وقد ظلت فكرة آل البيت هدفاً يلتمسه كل من يطلب الانتقاض على الرئاسة السياسية القائمة يلتمسها وسيلة لاستهواء الناقمين ، والبسطاء والساخطين .

## دعاة النقد الاجتماعي

انتقلت القيادة الاسلامية من المدينة إلى دمشق ، من البادية إلى الحاضرة ،

كان الاتجاه إلى الشمال وإلى مواطن الحضارات تطوراً طبيعياً لمقر القيادة الاسلامية ، كما كان التحول من جمهورية الراشدين إلى الشام إلى نظام الملك تطوراً طبيعياً لنظام الحكم ، وكان قيام دولة عربية خالصة السيادة والسلطان تطوراً طبيعياً بعد أزمة الخلافة . كان هذا كله انتقالا طبيعياً في مجتمع متعدد الأجناس والعناصر في مرحلة تفاعلها وتبلورها وانصهارها ، في محاولة صياغة فكرها من جديد في إطار الاسلام ، لم يكن من الطبيعي أو المعقول أن يتحقق المثل الأعلى الاسلامي في هذه المرحلة الباكرة . ولذلك فقد كان النظام السياسي محاولة لتمثيل مفهوم الاسلام ، وإن لم تبلغها أو تحققها . لقد كان الاسلام أيديولوجية انسانية شاملة للناس كافة في كل عصر ومصر ، وصلاحيتها مستمرة ، وقدرتها على الالتقاء بالحضارات والأمم والأجناس والأقطار مفتوحة طيبة ، ولقد كان من شأن النظام السياسي الاسلامي أن يحاول مجتهداً أن يقترب من هذه الأيديولوجية ، وأن يتطاول إلى تطبيقها ، غير أنه لم يستطع ذلك على نحو يرضي الفقهاء والمفكرين والأئمة ، فقد طفق دعاة النقد الاجتماعي وطلاب المثل الأعلى لا يكفون عن التوجيه والنصح .

كان طابع الملك يحمل في طياته الاحتجاب عن الشعب ، بالاضافة إلى نمو الحضارة وظهور نظم القصور وطوابع الترف والثراء . مع وجود الطبقات الكادحة الفقيرة . مما حمل الفقهاء دعاة النقد الاجتماعي على مواجهة الخلفاء والأمراء ، ويمكن أن يقال إن « أباذر » من دعاة النقد الاجتماعي ، غير أن أبرز مثل لذلك هو الحسن البصري ، ولم تكن دعوة الحسن معارضة للقيادة السياسية ، ولكنها كانت نقداً اجتماعياً يتصل بمحاولة تصحيح مفاهيم المجتمع نفسه في ظل موجة الترف والنفاق والانحلال التي أخذت تجتاحه في أواسط العصر الأموي ، وكانت علامة على نزعة الزهد التي كانت رد فعل للترف ، ومحاولة من بعض المثاليين لاعتزال المجتمع .

وقد كان العلماء والأئمة والمفكرون على طول التاريخ الاسلامي قادرين على ردّ المسلمين إلى المفهوم الصحيح للاسلام ، ومقاومة الانحراف الفكري والاجتماعي ، هؤلاء الدعاة والمجاهدون ونقاد المجتمع الذين عارضوا دائماً الانحراف ، ومنعوا العامة أن يجرفها الترف أو النفاق أو الانحراف . وقد كانوا

عاملاً أساسياً في بناء الاسلام ، والحفاظ على أيديولوجيته من أن يضاف إليها ما يغير مضمونها ، أو يحول طابعها . فقد بذلوا جهداً ضخماً في المحافظة على خصائص الأمة ، واتصال حياتها الروحية والخلقية .

ولقد ظل تيار الاصلاح الاجتماعي قادراً على مواجهة خطر المادية الجارفة والانحطاط الخلقي والروحي ، وإذا كان قد عرف الحسن البصري ومدرسته : سعيد بن جبير ، ومحمد بن سيرين ، والشعبي . فقد حفل تاريخ الاسلام بهؤلاء الدعاة في كل عصر ومكان في عالم الاسلام . وكان منهم كثيرون يؤمنون بالعمل الخالص البريء من الدعاية والشهرة .

والظاهرة الواضحة أن هؤلاء جميعاً كانوا من دعاة المساواة ( الموالي ) وقد عملوا وفق منهج واضح قوامه : الحث على الايمان ، والعمل الصالح ، والتحذير من غرور النفس ومهاجمة الترف ، وكان الحسن البصري وصفوة من هؤلاء الدعاة يصدعون بالحق في شجاعة أمام رجال الحكم ، لا يخشون في الله لومة لائم . وقد اتسق مفهوم هؤلاء القادة السياسيين مع نقاد المجتمع فأولوهم تقديراً ، وسارع كثيرون منهم إلى هؤلاء الناقدين يطلبون نصحهم ، وكان محمد بن سيرين والحسن البصري والشعبي في نهاية القرن الأول ، وأوائل القرن الثاني في مقدمة العاملين ، ومما يروى في ذلك أن عمر بن هبيرة الفزاري ولي العراق ، في أيام يزيد بن عبد الملك . فدعا الحسن البصري وصاحبيه ، قال الحسن : يا ابن هبيرة خف الله في يزيد ، ولا تخف يزيد في الله ، إن الله يمنعك من يزيد ، ويزيد لا يمنعك من الله ، وأوشك الله أن يبعث إليك ملكاً فيزيلك عن سريرك ، ويخرجك من سعة قصرك إلى ضيق قبرك ، ثم لا ينجيك إلا عملك يا ابن هبيرة : إن الله قد جعل هذا السلطان ناصراً لدين الله وعباده ، فلا تتركن دين الله وعباده لسلطان الله ، « فإنه لا طاعة لمخلوق في معصية الخالق » .

***

وفي هذه الفترة واجه تاريخ الاسلام حدثاً من أبلغ أحداثه . ذلك هو تولي « عمر بن عبد العزيز » الخلافة خلال عامين ونصف بين سنوات حكم الأمويين ، كانت غريبة غاية الغرابة ، أراد عمر خلالها أن يعود بالناس إلى

« منهج عمر بن الخطاب » وكان ذلك عسيراً عليه كل العسر ، وكان سبباً في القضاء عليه ، حقاً ، لقد استطاع أن ينشيء للمجتمع قيماً جديدة تقترب من « المثل الأعلى » ولكن المجتمع الذي استجاب للتحول السريع العميق ، لم يكن قادراً على حماية الخليفة الذي جمع بين صفة القائد السياسي ، والداعية الاسلامي . كان مخطط عمر بن عبد العزيز مغايراً للمخطط الذي قطعته الحضارة ، كان محاولة لتقريب النظام السياسي من مفهوم الاسلام ومقوماته . غير أن ذلك لم يكن يسيراً بالقدر الكافي في فترة حكمه القصيرة ، وربما استطاع أن يصل إلى شيء من التحول لو طال به العمر ـ ذلك أن الحضارة موج دافع لا يتوقف ، ولحركة التطور مراحل لا تتراجع ، ولم يكن من اليسير تغيير خطها بعد اندفاعه خلال جيلين أو ثلاثة إلا بجهد زمني واسع لم يتح له ، غير أن عمر بن عبد العزيز ترك صفحة مضيئة مشرقة ما زالت حتى الآن تهز المؤرخين والباحثين ، وترك آثاراً هامة . فقد حمل لواء الدعوة الاسلامية على نحو رائع أدخل أعداداً ضخمة من أهل عالم الاسلام في الاسلام نفسه ، فقد رفع الضرائب عن الداخلين في الاسلام ، وأعلن أن الله لم يبعث محمداً جابياً . بل بعثه داعياً ، كما أرسل الولاة الممتازين إلى المغرب والأندلس على النحو الذي حقق تعميق الاسلام واتساع نطاقه ، وأجرى الحوار المفتوح مع طلاب العدل والمساواة حتى أوقفهم وأنهى صراعهم مع الاسلام ، وعمقه ، وكان دوره ليس في توسيع الاسلام . بل في تعميقه ، وليس في بناء الدولة بقدر ما كان في بناء الفكرة والعقيدة . وقد عمه فعلا بالمثل والقدوة ، فقد كان هو نموذجاً عالياً ومثلا رائعاً ، صحح كل مواقف الخطأ في تصرفات الخلفاء ، وحفظ مال المسلمين عن الانفاق في الترف وأعطيات الشعراء ، وجمع إليه العلماء والخلصاء ، ونقل الناس من وضع إلى وضع . فالناس على دين ملوكهم ، وخفف أبهة الملك . وألغى المظاهر الفخمة ، والمواكب . وقد اقترب من أيديولوجيا الاسلام تطبيقاً للشريعة الاسلامية ، وكتب إلى ملوك الهند يدعوهم إلى الاسلام ، فلما بلغتهم سيرته ومذهبه أسلموا وتسموا بأسماء العرب ، كما كتب إلى ملوك ما وراء النهر فأسلم بعضهم ، ولما أقر البربر إلى واليه إسماعيل بن أبي المهاجر غلب الاسلام على المغرب . ولعل فهم النقد الاجتماعي كان ثمرة الحكم لعمر بن عبد العزيز القصير . وكان في مقدمة تلاميذه الحسن البصري . وقد انتقد الحسن البصري

النفاق في الطبقات الممتازة من الأمة ، وانتقد أدواء المجتمع ، ووصف العلاج ، وحقق نتائج هامة ، واجتمع حوله نفر كثيرون ، حيث جمع بين التوجيه والتربية العملية ، والنقد والبناء . وقد توارث علمه خلفاء بعد وفاته ١١٠ هـ ، ومضى هذا الخط لم يتوقف ، هادفاً إلى المحافظة على مفهوم الاسلام وروح هذه الأمة وصلتها بالله والمحافظة على منابع الحياة الاسلامية الأساسية ( القرآن والحديث ) ومن خلال هذا الاتجاه ظهر تيار الزهد واعتزال المجتمع كردّ فعل على تيار الترف والنفاق والامعان في اللذات الحسية . وقد ظهر من بعد في العصر العباسي : الأوزاعي ، وسفيان الثوري ، وصالح بن عبد الجليل ، وابن السماك . وكان لهؤلاء مواقف وكلمات غاية في القوة ، بل إن بعض العلماء من أصحاب المثل الأعلى قد أعرضوا عن فرض آرائهم ومذاهبهم بسلطان الحكم ، كما فعل مالك حين اعتذر للمنصور عن نشر موطئه في العالمين ، دون كتب الحديث والفقه . وقد كانت لمالك مواقفه في معارضة النفوذ السياسي .

## الواقعيون

يتمثل الواقعيون المسلمون في تلك الجموع العامة التي أولت القيادة السياسية للاسلام ثقتها ، ورأت في الحفاظ على وحدة الجماعة ضرورة ، والتجمع حول القيادة أهمية كبرى في بناء الاسلام نفسه ونموه واستمراره ، وقبلوا بالولاء لنظام الدولة بوصفه قوة قائدة دافعة إلى العمل والحركة والتوسع . ولقد كان هؤلاء الواقعيون هم الأغلبية الغالبة أو الساحقة للمسلمين ، هؤلاء الذين تمثلوا التطور ونتائجه ، والتقدم وآثاره ، وهم الذين شهدوا تلك الأزمة الضخمة التي أودت بمستقبل الخلفاء الثلاثة . وما أسباب المجتمع الاسلامي خلال عشرين عاماً كاملة بعد وفاة عمر إلى عام الجماعة ، عام البيعة لمعاوية ، واستقرار الاسلام تحت قيادته السياسية : دولة أموية عربية مقرها « دمشق » .

هؤلاء الواقعيون هم الكثرة الكاثرة من المسلمين ، يرون أن القيادة العربية ضرورة في هذه المرحلة لبقاء الاسلام واستمراره ونموه ، ولنشر اللغة العربية وسيطرتها على اللغات ، وحلولها محل اللغات القديمة . لقد قبلوا بالولاء لحاكم من صحابة الرسول ، وبيت من بيوت الاسلام ، واستطاعت الدولة

الأموية أن تبني بناءً ضخماً في كل مجال ، بنت في مجال التوسع الاسلامي ، وسارت في سنة الجهاد المقدس مدفوعة إلى إضافة أرض جديدة إلى رقعة عالم الاسلام ، وبنت الأسطول الاسلامي ، وواجهت بيزنطة ودفعت قواتها إلى محاصرة القسطنطينية مرات .

وواصلت توسعات الاسلام إلى حدود الصين ، وفي عهدها أضيف السند والهند وما وراء النهر إلى رقعة الاسلام ، واستكمل ولاء المغرب للاسلام ، وعَبَرَ المسلمون بحر الزقاق إلى شبه جزيرة سبريا وأوغلوا في أوربا . وقدمت الدولة الأموية للاسلام طائفة من بناة الدول من أمثال : معاوية ، وعبد الملك بن مروان ، والوليد بن عبد الملك . وقدمت قادة في مجال الحرب من أبرزهم : موسى بن نصير ، وعبد الرحمن الداخل ، ومحمد بن القاسم الثقفي ، وبنى الأمويون الحضارة ، ووسعوا مجال التجارة ، ونشروا الاسلام بعد أن أخضعوا هذه الأرض الواسعة . وبعد فليس من شك أن الدولة الأموية كانت تواجه تحديات خطيرة ، جعلتها حريصة في نظر الواقعيين جميعاً ـ وهم جماهير المسلمين ـ على حياة استقرار ، فضلا عن ضرورة سيطرة العنصر العربي في هذه الفترة الأولى من حياة الاسلام ، فقد كان العرب هم حملة لواء الرسالة ، نزل فيهم القرآن ، وظهر منهم وبينهم رسول الله ، واصطفوا لحمل أمانة الاسلام وإذاعتها في العالم كله ، وهم الذين اعتنقوا عقيدة الدعوة إلى الاسلام ونشره ، ومقاومة كل قوة تقف في طريقه ، ولذلك فقد كان طابع الدولة الأولى التي تكونت بعد جمهورية الاسلام الراشدة ، دولة عربية ، التمست من مفهوم الاسلام في الأمم التي دخلت تحت لوائه. وقدكان لها دورإيجابي ضخم غير قدرتها على السير برسالة الاسلام ، وتوسيع آفاقه ، وتثبيت دعائمه ، ونشر الاسلام في الأمم التيدخلت تحت لوائه . وقد كان لها دور إيجابي ضخم غير منكور في دعم هذا اللواء ، هذا فضلاً عن أن مرونة معاوية وبراعته السياسية ، وقدرته على فهم ما حوله من حضارات الأمم ونظمها والاستجابة لها ومسايرتها ـ بحيث تبدو الدولة في موضع الهيبة ـ كان ضرورياً إذ ذاك ، وكان بعيد الأثر في عملية الانصهار والبلورة ، هذا بالاضافة إلى انتقال حاضرة الدولة الأموية إلى دمشق حيث الخصب والنماء ، وقريباً من مواقع الدفاع عن حدود الدولة

الاسلامية ، وعلى شواطىء البحر المتوسط حيث الأسطول البحري والحركة السريعة في أفق عالم الاسلام الممتد ، كل هذا كان من دوافع القوة والتثبيت لعالم الاسلام .

وقد ذهب بعض المؤرخين إلى تعليل سقوط الأمويين بأنهم كانوا أشد تعصباً للعرب ، واعتماداً عليهم دون سواهم ، وصبغ الدولة الأموية بالصبغة العربية ، حتى أطلق عليها اسم الدولة الأموية ، وأنها عربت الأقطار المختلفة ، بربر أفريقيا ، وأقباط مصر ، وأهل فارس ، والعراق . كما استطاعت أن تحقق صهر مدنيات الأمم الداخلة تحت لواء عالم الاسلام في بوتقة العروبة . وليس في هذا كله ما يعيب إلا أن يبلغ الأمر مبلغه من التعصب بما ينقص حق العناصر الأخرى من المسلمين ، وخاصة الموالي . وقد ذهب خصوم الأمويين إلى اتهامهم بالعصبية القبلية ، وهي العصبية لبني أمية ، فوق عصبيتهم للعرب على غيرهم من المسلمين ، وقد تجدد في ظلهم الخلاف القديم بين الأمويين والعباسيين ، وبلغوا في ذلك إلى الفخر على القبائل العربية بوصفهم أهل قريش ، فضلاً عن أنهم ناصروا القيسيين حيناً ، واليمنيين حيناً آخر .

ولا شك أن التعصب القبلي يناهض مفهوم الاسلام نفسه ، الذي دعا إلى وأد نخوة الجاهلية وفخرها بالآباء حيث لا فضل لعربي على أعجمي إلا بالتقوى ، ولست أتصور قيام دِولة في ظل مفهوم الاسلام إلا على النحو الذي قامت عليه الدولة الأموية بعد مرحلة التمهيد التي تمثلت في امتداد العصر النبوي ، وقيام جمهورية الراشدين التي كانت تحتاج إلى جهود ضخمة لتتسع لنظام يصهر جميع العناصر الاسلامية فيه ، والذي قصرت عنه بيئة المدينة ، وتدافع التوسع ، وإتمام السيطرة على أغلب أراضي الامبراطورية الفارسية والرومانية وانضوائها لسيطرة حكومة المدينة ، على هذا النحو السريع قبل أن تتشرب نفوس المنضوين مفهوم الاسلام أوترتضيه معتقداًلها. ومن هنا كانت الأزمة التي حولت جمهورية الراشدين في خلال عشرين عاما إلى نظام عربي الطابع والصيغة قائم على نفوذ إحدى قوتي قريش الكبيرتين ، وهي بالقصد ليست القوة التي تحمل إسم النبي صاحب الرسالة ، وإنما هي القوة المناهضة لها ، والتي أبطأت في اعتناق الاسلام ، ولكنها القوة التي قدمت عديداً من القادة

والولاة والنوابغ في خلال أيام النبي وحكومات الخلفاء الراشدين الأربعة مما أهلها للصدارة وبلور طابع القيادة السياسية على هذا النحو .

ولا شك كان انتصار الأمويين انتصاراً للطابع العربي ، الذي امتد إلى النزعة القبلية ، والذي بلغ درجة السيادة العربية ، مباعداً عن مفهوم الاسلام في إسقاط أفضلية عنصر على عنصر ، وكان لهذا ضرورته من ناحية في ظل التحدي الذي واجهه من خلال مؤامرة القضاء عليه ممثلة في عناصر الفرس والموالي والمجوس ، ومن هنا كان ردّ الفعل في حماية القيادة السياسية من غير العرب عملا مرحلياً حماية للدولة من الاضطراب ، غير أن تراخي الزمن ، وانتشار الترف ، وعدم تحقق المثل الأعلى الاسلامي في المجال الاجتماعي كاملاً ، قد أضعف هذا النظام وأبعده عن فاعليته الايجابية ، وفتح الطريق لنظام سياسي آخر يتطور من داخله يتغير موضع القيادة فيه ، فيسلمها إلى البيت الآخر من قريش ، ويحل بعض الأزمات ، وإن بقي نظام الحكم ممتداً في أسرة واحدة ، ونظام واحد هو نظام ولاية العهد ، وهو الطابع الذي استمر النظام السياسي في الاسلام على أساسه فيما بعد طويلاً .

***

لقد كان هناك قوتان للمجتمع الاسلامي : قوة المثل الأعلى ، وقوة التطبيق .

كانت قوة المثل الأعلى والمعايير الخلقية تتطلع إلى أن يقترب النظام السياسي أكثر وأكثر من مفهوم الاسلام ، وكانت قوة التطبيق تحاول أن تدور في إطار الاسلام على قدر ما تمكنها ظروف الوراثيات القبلية والعنصرية ، وتطور المجتمع والحضارة ، وقد ظلت « أيديولوجيا الاسلام » ولا تزال منهجاً سمحاً مرناً ، قابلاً للأخذ منه وقادراً على مواجهة تغيرات البيئات وتطورات الأزمنة ، وقد ظل يتمثل في صورة عليا لما تصل إليها قوة التطبيق بعد ، وإن دارت في فلكها مجتهدة ، ومن هنا كان دور المجتهدين من الفقهاء والأئمة والعلماء الذين كانوا يوائمون دائماً بين الواقع وبين ايديولوجيا الاسلام ، بين المثل الأعلى وبين التطبيق ، وكان من رأي الواقعيين دائماً الحرص على مبدأ وحدة الجماعة وسلامتها بقبول التوفيقات والتسويات التي تسمح بالتوازن بين القوانين .

ومن هنا كان دور الفقهاء والمجددين دافعاً المجتمع الاسلامي إلى الاقتراب أكثر من مفهوم الاسلام وتمثله تدرجاً نحو الكمال ، ومن هنا ظلت مقومات الاسلام هدفاً متمثلا للحكام والعلماء والمجتمع على السواء ، سعياً وراء العدل والمساواة . ولقد كانت كل مواقف التاريخ الاسلامي تتسم بالنصر والنجاح والقوة كلما اقتربت من مفاهيم الاسلام ومقوماته ، وتتسم بالضعف والهزيمة كلما بعدت عن هذه المفاهيم ، وكل معضلات تاريخ الاسلام وأزماته إنما صدرت عن تخلف من تلك المقومات البسيطة اليسيرة التي رسمتها أيديولوجيا الاسلام وحاول الرسول أن يطبقها في المجتمع الاسلامي القائد الرائد ، ولطالما استطاعت التجربة التاريخية أن تحقق بالتحول والتطور « مفهوم الاسلام » جرياً على سنن الكون في التعبير والاتجاه نحو الكمال .

ولقد تفاعلت مفاهيم الاسلام وأيديولوجيته مع المجتمع الاسلامي في درجاته المختلفة ومراحله المختلفة ، وقواه المتعددة ، ومع اختلاف الناس والبيئات والعناصر ، واستطاع بآفاقه الواسعة أن يحقق نتائج مرنة على توالي القرون ، لم يصطدم بالحضارة ولا بالتطور ، ولم تتوقف ، ولم تجمد . وقد مضت كلها ضمن إطار الاسلام الواسع .

فقد كانت أيديولوجيا الاسلام ومضامينه الأساسية ، نظاماً شاملاً للحياة كلها على أسس التوحيد والعدل الاجتماعي والمساواة والاخاء ، وهو منطوق فسيح سمح ، متقبل لعادات الأمم وأذواقها وتقاليدها وفلسفاتها ما دامت تصاغ في إطاره ، وتتحرك وفق هذه الأسس ، ولم يكن الاسلام ديناً إلا من ناحية إعطاء دفعة الضمير والخلق . أما في مجال الثقافة والمجتمع والاقتصاد والسياسة . فقد كان تنظيماً بشرياً انسانياً كاملا للمجتمع ، متقبلا للتطور ، متمثلا للعصور والأمم المختلفة قادراً على الحركة والحياة ، مهيئاً لتقبل أبعد تطوراتها ، وأكثر معضلاتها خطراً ، وأكثر مذاهبها السياسية والاجتماعية والاقتصادية تطرفاً . قادراً على صهرها في بوتقته وتشكيلها في إطاره : توحيداً وعدالة اجتماعية ومساواة وبناء ضمير وخُلُق .

ومن هنا تبدو جميع دعوات العدل الاجتماعي ، والعقل والمساواة والمثل الأعلى والعاطفة والواقعية كلها تراثاً إسلامياً مستمداً من صميم الاسلام

ومفاهيمه ما دامت لها جذور من القرآن والسنة ، وليس هذا الخلاف بين دعاة هذه الدعوات ، إلا خلافاً بين وجهات نظر تتعدد حول الفرعيات والقضايا ، وتتفق أساساً حول القيم العليا للاسلام وتدور كلها حول النظام السياسي أو الاجتماعي للمجتمع ، ولا عيب في أن تتعدد وجهات النظر وتختلف ، ما دامت في نطاق الفروع ، وما دام ذلك كله يجري في إطار الاسلام نفسه ، وليس خارجاً عنه ، وهو علامة صحة وليس علامة مرض ، إذ تستهدف هذه الحركات جميعاً أن تصل إلى الحق والعدل ، وأن تصهر أفكارها وتبلور مفاهيمها ، وهو عمل ضروري أساساً لمجتمع تكون من عناصر مختلفة ، وثقافات وفلسفات وتقاليد ومقومات متعددة ، ومن هنا فإن كل هذه الدعوات ، إنما تمثل مراحل للفكر والحضارة الاسلامية يتسع لها أفق المؤرخ والباحث ، والحياة الانسانية . ولا شك تتطور وتتحرك في موجات متعددة من القوة والضعف والانحراف والاعتدال ، والتجرؤ والتكامل .

ولقد كان تاريخ الاسلام يتمثل هذه الحركات والموجات ، وكانت تبرز فيه دوماً القوى القادرة على تصحيح الطريق ، ورد الدعوات إذا خرجت عن مفهوم التكامل والشمول والوسطية ، ولقد كانت كل حركات الفكر الاسلامي ، وكل موجات المجتمع الاسلامي ، علامات قوة ، وقد مضت حركات التغيير ، وظهور بناة الدول وقادة الفكر مستمرة دائماً لا تتوقف . كل حركة منها تحقق خطوة إيجابية نحو التقدم والبناء ، وهي في ذاتها دفاع عن حق مضيع ، أو تصحيح لحقيقة توشك أن تفقد مفهومها في طريقها إلى تحقيق حتمية الاسلام ، بوصفه رسالة عالمية وإنسانية .

إن كل هذه الحركات والدعوات تلتمس من الاسلام بسبب ، وتتصل به بنسب ، وهي الآن حصيلة فكرية وثقافية وتاريخية لا سبيل إلى الرضا عن بعضها ، ومعاداة بعضها الآخر ، لكننا نراها اليوم عصارة فكر حي متجدد ، وحين ننفي عنها ما ارتبطت به من عوامل السياسة ، ودوافع الصراع ، ونستصفيها تكشف عن مدى حرية الاسلام ، وسعة أفقه التي كانت قادرة على أن تعطي انطلاقة الفكر والرأي ، غير أن هذه القطاعات تمثل قطاعات الاسلام الجزئية ، وحين تلتقي تمثل شمول الاسلام وتكامله .

# ( ١١ )
# النظام السياسي

يستمر النظام السياسي الاسلامي الذي تمثله ( الدولة الأموية ) مرحلة بلغت **٩٢** عاماً تقريبا بين عام ٤٠ ـ وعام **١٣٢** هـ . عندما سقطت لتقوم مقامها ( الدولة العباسية ) وكان مقر السلطة السياسية العليا ( الخلافة ) دمشق . وهي سلطة شاملة ضمت تحت لوائها أقطار الدولة متمثلة في بلاد ما وراء النهر والسند والهند حتى حدود الصين ، والشام بأجزائه ، والجزيرة العربية ومصر والمغرب كله ( شمال أفريقيا ) والأندلس في جزيرة ابيريا .

كان هذا النظام المتمثل في حكم عربي خالص ، قد أمضى دورة كاملة من دورات الدول بين الأبعاد الأربعة : نشوء ، ونمو ، ونضوج ، واكتهال . استطاعت أن تحقق فيه رسوخ دولة الاسلام ، وامتداد نفوذه ، وتحول غالب المستظلين بظله إلى الاسلام ، واستقرار اللغة العربية ، وقيامها محل اللغات الاقليمية ، وانتشار كلمة الاسلام الى أبعد مدى مستطاع ، وقيام حضارة ضخمة واسعة الآفاق بعناصرها المختلفة من فكر ، وعمارة ، وتجارة ، واقتصاد ، وبرز عدد كبير من الأعلام والقادة وبناة الدول .

وإذا كان « العرب » هم الذين حملوا لواء الاسلام ، وشقوا به الطريق إلى هذه المنطقة الواسعة من حدود الصين في آسيا الى حدود إيطاليا وفرنسا في أوربا

عبر شمال إفريقيا ، فقد تعددت العناصر القوية التي شاركت العرب في حمل لواء التوسع ، وفي بناء الحضارة ، وفي الثقافة والفكر ، وفي مختلف جوانب الفكر ، هذه العناصر التي كانت تتأهب بدخولها الاسلام لتحمل لواء القيادة والسيادة في أفكارها وأمصارها : وأكبر هذه العناصر وأكثرها نفوذاً هم : الفرس ، والترك ، والبربر .

لقد كان الفرس هم أقرب هؤلاء العناصر إلى العرب ، وأكثرهم تأثراً بالفتح ، وتأثيراً في هذه المرحلة ، وكان لهم دور ضخم في الأحداث التي بدأت بها مرحلة التبلور والانصهار . وكان لاصرارهم وتصميمهم على المحافظة على كيانهم الخاص داخل نطاق الاسلام وإحساسهم بماضيهم الفاخر وحضارتهم ، وسبقهم للعرب في مجال المدنية ، ثم سيطرة العرب عليهم بنفوذ الاسلام ونفوذ الحكم أثره في الصراع والمقاومة ، وبروز روح التآمر على الاسلام بالاشتراك مع العناصر الأخرى كالفرس واليهود وقدامى المجوس ، وبقايا المذاهب الهدامة في بروز تيار قوي هو تيار « الشعوبية » . أما الترك فإن دورهم لم يكن بدأ بعد ، وهو دور ضخم بعيد المدى ينتظم تاريخ الاسلام كله من بعد ، هذا في الشرق ، والشرق الأقصى ، أما في المغرب فقد كان البربر أقوى القوى التي قاومت الاسلام ، وصارعت حكوماته العربية الخالصة ، ثم كان لهم ـ كما كان للترك والمماليك أبعد الأثر في نصرة الاسلام ، وحمل لوائه والدفاع عنه في مرحلة الغزو الخارجي . هذه المرحلة التي تلي مرحلة التبلور والانصهار . وكان تقوض الدولة الأموية بعد تسعين عاماً من حكمها اتجاها طبيعيا ، وبحكم أنها لم تتح لنفسها فرصة البقاء بتوسيع قاعدة عملها السياسي على النحو الذي فعلته الدولة العباسية في أمرين هامين :

الاول : أنها لم تصبغ نفسها بصبغة عربية لها طابع السيادة والعصبية . بل سمحت للعناصر المختلفة أن تجري في الفلك السياسي وأتاحت لها حق المساواة والحرية .

الثاني : ظاهرة ظهور الدول الاستقلالية الذي جاء نتيجة لهذا في عصر الدولة العباسية مما يمكن القول معه أن الدولة العباسية ليست إلا إحدى نظم المرحلة التي تلت الدولة الأموية في خلال المرحلة من **١٣٢** هـ إلى عام **٦٩٩**

بظهور الدولة العثمانية كإحدى الدول الكبرى الموحدة لأغلب أجزاء عالم الاسلام .

وعندنا أن انغلاق الدولة الأموية على السيادة العربية كان ضرورة ، ولكنه بلغ في بعض مراحله درجة عالية من التعصب ، وما كان من طبائع الأمور ونواميس الحياة أن يستمر ويبقى نظام مغلق ، ومن هنا فقد استطاعت القوى الاسلامية غير العربية أن تتجمع للانتقاض من هذا النظام السياسي ، والقضاء عليه جريا على سنة الحياة في ضرورة مشاركة هذه العناصر من ناحية واتجاها مع مفهوم الاسلام الذي يرفض سيطرة الطبقة أو العنصر ، ولو كان هذا العنصر هو العنصر العربي الذي نزل فيه الاسلام ، وكان له دوره الخالد في بناء دولة الاسلام وتوسيع آفاقه ، وفي كل دولة في تاريخ الاسلام عناصر بقائها وعوامل انهيارها ، فهي كلما اقتربت من مفهوم الاسلام ، وحاولت تحقيق ايديولوجيته في العدل الاجتماعي والمساواة استطاعت إطالة بقائها .

وعندنا أن أبرز عوامل انتهاء الحكم الأموي ، هو بلوغه أبعد قدر مستطاع من تحقيق الهدف الذي قام من أجله ، فقد ثبتت قواعد النظام الاسلامي ، ولم يعد هناك ما يخشى منه ، لم تعد المؤامرات الداخلية قادرة على انتزاع الاسلام أو القضاء على دولته ، لقد تمكنت جذوره في الأرض ، وقامت حضارته ، وأصبح أيديولوجية اجتماعية عقلية روحية لهذه الجماعة التي ارتضته واعتنقته ، ومضى وقت طويل بلغ أكثر من قرن وربع قرن ، على بزوغه ، وتوالت الأجيال بعد الأجيال التي ولدت في أفقه وعصره ، ومن هنا حققت الدولة الأموية أبرز أهدافها ، وهي حماية الاسلام من الأزمة الضخمة التي واجهها في منتصف حكم عثمان ، والتي تآمرت فيها قوى مختلفة من اليهود والفرس والمجوس وغيرهم على اجتثاث الاسلام من جذوره ، والعودة الى الديانات القديمة ، ونفوذ أسر الأباطرة ، كذلك أمنت المداخل الشمالية في مواجهة دولة بيزنطية التي انتزع الاسلام ما كانت تسيطر عليه في الشام ، وشمال إفريقيا ، بعد أن أحسّت هيبة الدولة الاسلامية وقاعدتها الضخمة وبعد أن استقر حكم الاسلام في جزء من أوربا ، وقامت دولته متصلة بالمغرب الاسلامي كان هذا الهدف قد تحقق ، هذا الهدف الذي بلغ القائمون عليه أبعد حدّ في تأكيده وتركيزه بالجور على العناصر

الاسلامية غير العربية . ومن أبرزها العناصر الجماهيرية التي تشكل القاعدة الكبرى وهي طائفة الموالي ، هؤلاء الذين دخلوا الاسلام إيمانا بقيمه ومفاهيمه وأيديولوجيته في العدل الاجتماعي والمساواة . ثم عجزوا أن يجدوا ذلك في الدولة الاسلامية تطبيقا كاملاً ، ومع ذلك فإن هذا لم يردهم عن الاسلام . بل دعاهم الى ملاقاة خصوم الدولة القائمة لاسقاطها ، رغبة في قيام نظام جديد يفسح لمختلف العناصر حرية المشاركة على قدم المساواة في العمل الاجتماعي والسياسي . وإذا ذكرت هذه القطاعات الضخمة من المجتمع الاسلامي ذكر أفضل عناصره ، وأقواها ، واعمقها إيمانا ، وأبعدها أثراً في هذا البناء الذي قام وتضخم ، فقد كانوا هم القوة العسكرية الضاربة التي شاركت وجاهدت واستشهدت في سبيل الاسلام ، من مختلف العناصر من الفرس والبربر والترك وغيرهم من العناصر الذين كانوا هم القوة الحقيقية للمجتمع الاسلامي ، فبالاضافة الى دورهم الضخم ، وتكون الجيوش الاسلامية في غالبيتها منهم . فقد كانوا عماد الحركة الاقتصادية والعمالية والاجتماعية في مختلف أجزاء عالم الاسلام ، وبهم رجحت كفة القوة المناوئة للنظام الأموي ، وهي التي أضافت إلى طلاب الحكم والمتآمرين على الحكومة الأموية قوة شعبية ضخمة في الأطراف البعيدة ، حيث كانت تجري حركة الانتقاض التي شاركت فيها عناصر آل البيت ( العلوية والعباسية معاً ) وعناصر الخوارج ، وعناصر الموالي ، وعناصر الناقمين ، من خصوم الاسلام يهودا وفرساً ومجوساً الخ .

وقد كان أبرز ما حملته بيانات الحركة العباسية التي أطلقت على نفسها ( الرضا من آل محمد ) إلى جوار استقطاب العناصر الشعبية المختلفة حول إسم آل البيت . كان أبرز ما حملته دعوتها هو : إتاحة الفرصة للعناصر الاسلامية المختلفة للمشاركة في النظام السياسي الحاكم ، وإسقاط هذه العزلة القاسية التي فرضتها ( السيادة العربية ) المتمثلة في الحكم الأموي بأقسى صورها . لم تغير الدولة العباسية العمود الفقري للنظام الاسلامي الحاكم . بل أبقته على ما كان عليه ، حكم قائم في أسرة ونظام توارث للعرش . هذا بقي على ما هو عليه . ولكن الذي تغير أن طابع الحكم لم يعد عربيا ، بل أصبح فارسياً سمح للعناصر الشعبية وأبرزها الموالي أن تشارك فيه ، وأن تجد حريتها وانطلاقها ، وهنا تحول الموقف تحولاً عكسيًّا بالنسبة للعرب . فقد أخذوا يذوبون في الكيان الاسلامي ،

وظهر في هذه المرحلة أدب له طابع إسلامي أكثر انفتاحاً على الأدب الفارسي القديم .

غير أن هذا الاتجاه الذي غلب فيه طابع الفرس على الطابع العربي باسم إعطاء الموالي فرص الحرية والمساواة ، قد تحول قليلاً قليلاً الى أن أصبح حملة ضارية على العرب . ومن هنا برزت الحركة الشعوبية التي استطاعت تنمية هذا الاتجاه وتوسيع أفقه كجزء من مخطط المؤامرة على الاسلام نفسه .

وقد كان طبيعيا أن يتحول الحكم من البيت الأموي إلى البيت العباسي . فإن ذلك في ذاته امتداد للنفوذ السياسي السائد من خلال الصراع بين أمية وهاشم ، ولقد كانت صيحة المقاومة للأمويين تركز دائماً على المطالبة بعودة الحكم الى بيت الرسول . وهنا كان العلويون والعباسيون هم خصوم الدولة الأموية ، وهم المتصدرون للحكم في الدولة الجديدة ، فأيهم يحرز قصب السبق .

ومرة أخرى تتغلب إرادة التطور ، بما تحمل في طياتها من واقعية ومرونة ، وانفتاح على الآفاق الجديدة ، وفي مقدمتها الأفق الفارسي ، وأفق العناصر المختلفة التي تجد في العباسيين الواجهة الأصلح . كانت دعوة العلويين تحمل كلمة آل البيت ، وهي بالغة الأثر في جمع الناس حولها . غير أن دعاة العباسيين استطاعوا أن يتقدموا خطوة أبعد مدى دلت على ذكاء وسعة أفق ، وهي أنهم وضعوا برنامجاً سياسيًّا واجتماعيا أبرزوا فيه اهتمامهم بالاصلاح الاجتماعي والسياسي للطوائف المضطهدة في ظل الأمويين ، ولا شك قد كان لسنة التحول أثرها الواضح في سيطرة النفوذ الفارسي ، ونفوذ الموالي والعناصر المختلفة ، اجتماعيا وثقافيا ، وكان لا بد أن يتم ذلك بالسيطرة السياسية .

ولا شك كان أبرز عوامل القضاء على الحكم الأموي ، هو بلوغه مرحلة الضعف التي لا بدّ أن تصيب أي بناء سياسي بعد مرور جيلين أو ثلاثة ، أو عدة عقود من السنين ، وبذلك يمكن القول بأن قيام الدولة العباسية كان تطوراً طبيعياً وفق نواميس الحياة نفسها . ومن خلال إطار الاسلام نفسه ، وخطوة واسعة في مجال النظام الاسلامي ، انتقلت من مفهوم غلبة عنصر ـ لو كان هذا العنصر الرئيسي في بناء الدولة الاسلامية ـ على العناصر الأخرى ، وبذلك وضع مفهوم الاسلام في أنه ( لا فضل لعربي على أعجمي ، ولا أبيض على أسود ) موضع التنفيذ .

ولا شك كان لكسر هذا القيد ، ولفتح الطريق أمام المساواة أثره البعيد في نمو الحضارة ، وتوسيع آفاق البناء الاجتماعي والاقتصادي والثقافي . فقد كان للمسلمين من غير العرب دور ضخم لا حدّ لضخامته في مجال الثقافة والفكر والحضارة ، قام هذا الدور ليس باسم أجناس لها تركيب بيولوجي ، أو عقلي خاص . بل بوصفها عناصر انصهرت بثقافتها في إطار الاسلام ، وجرى نموها العقلي والثقافي من خلال أيديولوجية الاسلام الفكرية ، وبيئة الدولة العباسية

## الدولة العباسية

تعد الدولة العباسية تطوراً طبيعيا ، ومرحلة متصلة بالمرحلة السابقة إليها في النظام السياسي الاسلامي ، وغير صحيح ما ذهب إليه البعض من أنها نظام مستقل ، فالمجتمع الاسلامي ما زال مستمرا مطرد التطور والحركة ، لم يغير منه سقوط الدولة الأموية ، وقيام الدولة العباسية إلا ( ١ ) ـ انتقال مقر الدولة من الشام إلى العراق ( ٢ ) ـ تحول القيادة السياسية العليا من الأمويين إلى العباسيين ، وإن استتبع ذلك تغييراً في بعض مناهج الحكم ، أو في تحقيق العدل لبعض قطاعات المجتمع ، غير أن نظام الحكم نفسه ظل نظاماً ملكيا وراثيا ، قائما على ولاية العهد . في أسرة من الأسر ، ولم يتحقق بها أي تعديل في نظام الشورى مما يقرب المسلمين من أيديولوجية الاسلام في الشورى . وقد كان خصوم الدولة الأموية ، وأنصار إسقاطها هم : الشيعة والخوارج والموالي . أما الشيعة فإن التغيير لم يحقق لها شيئا . وقد ظل العلويون في ظل حكم أبناء عمومتهم يقاسون نفس الاضطهاد والابعاد عن مراكز القيادة كما كانوا في عهد الأمويين . بل وأشد . أما الخوارج فإن المثل الأعلى الذي تطلعوا عليه لم يتحقق .

غير أن التغيير الأكبر الذي تحقق هو قيام دولة لا يسيطر على قيادتها أصحاب السيادة العربية ، وإن كان خلفاؤها وقادتها من العرب ، فقد قامت بنفوذ الفرس . ومن هنا فقد انصهرت القطاعات العربية في الحكم ، ولم يعد لها صفة قيادية . وكل ما تحقق هو أن العناصر الاسلامية قد سيطرت ، وأن السيادة العربية في المجتمع الاسلامي قد تراجعت . وكما أن الدولة الأموية لم تحقق للمسلمين المثل الأعلى الذي كانوا يتطلعون إليه ، هذا المثل الأعلى المتمثل في العدل الاجتماعي والمساواة . فإن الدولة العباسية أيضاً لم تحقق هذا المثل ومن ثم فقد واجهت انتقاضات متعددة عليها .

* * *

توقف في خلال حكم العباسيين التوسع الاسلامي ، واستقرت الدولة الاسلامية في حدودها التي بلغتها في أواخر الدولة الأموية ، وكان أبرز معالم هذه

المرحلة الرخاء والترف ، وبلوغ الحضارة الاسلامية قمة عالية ، وتوسع نطـاق الفكر الاسلامي نماء وترجمة وانصهـاراً ووضوحـاً لايديولوجيتـه في مجـال الفقـه والفلسفة والعلوم .

ويمكن القول بأن مرحلة الحكم الأموي كانت مرحلة التوسع الاسلامي ( الابعاد ) وأن مرحلة حكم العباسيين كانت مرحلة البنـاء الحضـاري الثقـافي ( الاعماق ) غير أنه لا انفصال بين مرحلتين من الحكم في مجتمع ضخم واسـع يضطرم بأسباب القوة والحياة في مجالات الحضارة والثقافة والاقتصاد ، وإنما يمكن أن يقال انه تطور طبيعي ، غير المجتمع خلاله غلافه وجلده . وان كل البذور التي ألقيت في التربة خلال فترة حكم الأمويين قد نمت وآتت ثمارها في العصر العباسي حتى كان الرشيد يقول لِلسَّحَابة المارة : « أمطري حيث شئت فسيأتيني خراجك » . وقد بلغت إيرادات الدولة العباسية في عهـده ( **٧٠** مليون و **١٥٠** ألف دينار ) ( مقدمة ابن خلدون ) وقد زادت في عصر المأمون عن ذلك كثيراً .

غير أنه لم يكن هناك فارق كبير في أبهة الحكم أو الترف أو الأرستقراطية التي كان يعيشها الحكام ، فإن انتقال الحكم من البيت الأموي إلى البيت العباسي لم تغير من مظاهرها ، ولم يقترب بها نحو مفهوم الاسلام ، بل على العكس من ذلك ربما ازدادت عمقا واتساعاً .

كما أن المجتمع نفسه لم يتحول عن طريقه الذي كان قد حفره وسار فيه من حيث الامعان في الحياة الحضرية بكل ما فيها من انحلال وفساد وزندقة ومجون وإلحاد وانحرافات في الأخلاق والعادات ، وقد رسم الجاحظ للترف في العصر العباسي صورة دقيقة في كتابـه ( الحيوان : جـ **٢** ص **٩١** . جـ **٥** ص **١١٥** ) وقصة عرس المأمون العباسي على بوران بنت الحسن بن سهل بالغة الحد في الترف ( وفيات الأعيان جـ **١** ص **٢٥٩** ) .

لم يكن هذا الترف متفقاً ولا مقبولاً في مفهوم الاسلام ، ولا أيديولوجيته ، بينما كانت الطبقات الوسطى والفقيرة تعاني الاذلال والفقر والمسغبة . ومن هنا برزت في ظل حكم العباسيين كامتداد لحكم الأمويين حركات مناهضة تحمل لواء العدل الاجتماعي ، وربما كانـت تسـير وراءه ، مدفوعـة بخصومـة التآمـر على

الاسلام ، ولكنها وجدت فعلاً من مناقص المجتمع وعيوبه ما يدفعها الى اتخاذه سلاحاً تشهره في وجه الحكومة العباسية .

ولم يكن المجتمع العباسي يجري كله في مجاري الترف والانحلال ، ولكن كان كالمجتمع الأموي جماع عناصر القوة والضعف معا ، يضم بيئات الزندقة والترف والانحلال ، ويضم فئات العلم والزهادة وحلقات العلماء والفقهاء والمساجد والجامعات والمعاهد ، غير أن هذا الاغراق في الترف قد خلق رد فعل يتمثل في تيار جديد توسع من بُعد وعمق ، هو تيار الصوفية الزاهدة المنعزلة عن المجتمع النابذة له . هذا الى جوار تيار النقد الاجتماعي الذي اتسع نطاقه في خلال الحكم العباسي ، وبرز كثير من أعلامه الذين واجهوا الخلفاء ، وعارضوا الانحراف ، فقد كان لهؤلاء العلماء والزهاد مواقف مجيدة أمام الخلفاء في مواجهة موجة الترف العارمة تحمل طابع النصيحة البارة المخلصة ، البعيدة عن عصر التآمر ، وظهرت في نفس الوقت قوى جديدة تقاوم الحكم العباسي ، وتنتقض عليه ، عاد الخوارج مرة اخرى الى موقف المعارضة المسلحة ، وكذلك ذهب دعاة العاطفة من آل البيت الى موقفهم في مقاومة الحكم العباسي .

***

ازدهرت الحياة السياسية والاجتماعية في المرحلة الأولى للدولة العباسية ، حيث ظهر أعلام من بناة الدول في مقدمتهم المنصور باني بغداد ، والرشيد ، والمأمون ، والمعتصم . يقول الثعالبي إن لبني العباس فاتحة وواسطة وخاتمة ، فالفاتحة المنصور والواسطة المأمون ، والخاتمة المعتضد ، والحق أن الدولة العباسية منذ قيامها عام **١٣٢** إلى أول حملة صليبية على العالم الاسلامي عام**٤٩٨**هـ تمثل مرحلة متكاملة هي مرحلة قيام البناء الحضاري والفكري الأساسي في مجال الانصهار والتبلور ، وهي مرحلة تتمثل في ثلاث قطاعات متشاكبة : ( ١ ) الانصهار في مجال المجتمع ( ٢ ) التبلور في مجال الفكر ( ٣ ) نمو المؤامرة على الاسلام وانتقالها الى مرحلة التنفيذ .

في هذه المرحلة انفتح الطريق أمام الفرس الذين كانوا يحملون على الدولة الأموية لأنها تسيطر بنفوذ عربي وتستأثر بسيادة عربية خالصة ، فقد كان الفرس هم القوة الأولى والأساسية التي أعانت على قيام الدولة العباسية التي يمكن اذ توصف بأنها « واجهة عربية وبناء من الفرس والموالى » كان لهذا أثره الايجابي

وأثره السلبي ، الأثر الايجابي هو سهولة الانصهار في المجتمع والبلورة ، وامتزاج العقليات والثقافات وتبلورها في إطار الاسلام ، وأثرها السلبي في : ( ١ ) - معركة هدم الأمة العربية وبوصفها سياج الاسلام ومادته ، وماجرى من معارك عنيفة ذهب فيها الفرس إلى تجريد العرب من كل مقومات الأمم ، وكذلك ذهب العرب إلى الدفاع عن كيانهم ومقاومة الفرس بنفس السلاح . ( ٢ ) معركة مفهوم الاسلام نفسه وهي تتمثل في الحملة على مفاهيمه بإدخال مفاهيم وثنية وفارسية ومجوسية كمحاولة على القيم العليا للاسلام ، والقضاء عليها كوسيلة للقضاء على السلطة السياسية الاسلامية .

هاتان المعركتان يمكن أن يطلق عليها اسم « الشعوبية » وقد استتبع ذلك على الصعيد السياسي ، تلك المحاولات التي جرت لنقل النفوذ السياسي من القيادة العباسية العربية إلى القيادة الفارسية ، وظهر ذلك في حركتين كبيرتين بعد حركة « أبي مسلم الخراساني » : هما حركة : البرامكة في أيام الرشيد ، وحركة الفرس في الصراع بين الأمويين والمأمون .

فقد اتجه الفرس بعد سقوط نفوذ أبي مسلم الخراساني وشيعته بوصفه مؤسس دولة العباسيين إلى أساليب أكثر مرونة ودقة ، حتى أحصي على « جعفر بن برمك » قوله : إننا سنحول الدولة إلى الفرس بأسلوب غير أسلوب الخراساني . وقد وصل البرامكة في ذلك غاية الدهاء . وقد عملوا لهذا المنهج سنوات طويلة ، غير ان القوى العربية اليقظة استطاعت استثارة الرشيد حتى قضى على نفوذهم بضربة واحدة ، غير أن هذا الصراع تجدد مرة أخرى على نحو أشد عمقا بعد وفاة الرشيد من خلال الصراع بين الأمين ( وأمه عربية ) والمأمون ( وأمه فارسية ) وانتصار المأمون ، واتجاهه الى خراسان ، ومحاولة تولية عهده ( علي الرضا ) إمام الشيعة الموالين للفرس ، هذا الخلاف والحرب بين الأمين والمأمون ، هما صورة أخرى من صور المؤامرة على الاسلام ، والخلاف بين عنصري العرب والفرس .

غير أن هذا الصراع لم يتوقف عند المجال السياسي ، بل امتد الى المجال الفكري والثقافي ، فقد برز الصراع بين مفاهيم الاسلام ، بين مفاهيم الفرق المختلفة ، وكان لظهور الدعوات الفلسفية والباطنية والمفاهيم المستترة الخفية التي

تحاول أن تتخذها واجهة من الدعوة لآل البيت . وكانت ترسم مخططاً واسعاً لصراع فكري واجتماعي وسياسي ضخم تمثل بعد في حركات سياسية ضخمه ، وهي ثورة الزنج ، وثورة القرامطة ، وثورة الباطنية وهي ثورات اتشحت بأثواب العدل الاجتماعي ، والدعوة لآل البيت ، وحاولت ان تقضي على السلطة السياسية العليا الممثلة في الدولة العباسية .

وكان هذا الصراع كله مقدمة لضعف عام ، كشف القيادة الاسلامية أمام خصومها في منطقة الخطر الحساسة ( الحدود البيزنطية الاسلامية ) حيث يكمن الخطر المتحضر دائماً للانقضاض على عالم الاسلام باسم اوربا والغرب والدولة الرومانية التي لم تنس أن الاسلام قص جناحيها ، وأزال نفوذها في الشام وشمال أفريقيا .

## الدولة الاستقلالية

لعل من أبرز ما تتسم به المرحلة التي تلت نهاية الدولة الأموية ، وخلال البناء السياسي العباسي ظهور دول كثيرة ، ونظم سياسية ذات طابع قيادي باسم الخلافة في مصر والأندلس .

ظهرت ثلاث دول كبرى : السلجوقية في فارس والعراق ـ الأموية في قرطبة ـ والفاطمية في مصر والمغرب . كما ظهر نفوذ آخر غير الخليفة في مقر السلطة السياسية العليا . هو : نظام السلطة ، وأمير الأمراء ظهرت دول استقلالية في فارس الزيدية والصفارية السامانية والبويهية . . وفي مصر : الطولونية ، الأخشيدية ، الفاطمية ، الأموية . وفي أفريقيا : الأغالبة ، الادريسية ، الفاطمية ، المرابطون ، الموحدون الخ ـ وفي الأندلس : الدولة الأموية ـ ملوك الطوائف ، دولة المرابطين ، ودولة الموحدين .

وقد استقلت بعض هذه الدول عن الرئاسة السياسية في بغداد ، وظل بعضها الآخر على علاقة ولاء للخلافة مع الاستقلال الذاتي لها ، كان لهذا التطور أثره ، فإن أفريقيا الشمالية وكانت تمثل الجناح الأيسر من عالم الاسلام ، قد برزت في هذه المرحلة ذات كيان سياسي واضح ، وهي التي تحملت أكبر مسؤولية في مواجهة أوربا والغرب باعتبارها القوة الخلفية وراء دولة الأندلس التي

كانت شوكة في جنب أوربا طوال فترة بقائها ، وظلت عمليات التآمر عليها لاسقاطها خلال القرون الثمانية التي عاشتها في شبه جزيرة إيبريا . ولعل هذا التطور الذي حدث في خلال الفترة التي تلت الدولة الأموية يسمح لنا بأن نقول إن هذه المرحلة هي مرحلة الدول الاستقلالية ، هذه الدول التي كان لها أبعد الأثر في توسيع نطاق الحضارة والثقافة .

# ( ١٢ )

## المؤامرة على الاسلام

لم تكن المؤامرة على الاسلام أمراً مستغرباً . بل على العكس من ذلك كان أمراً طبيعيا ، فإن أيّ قوة جديدة من شأنها أن تغير مجرى التاريخ وتفرض كيانها . فإنما تقيم هذا بالفعل على أرض الواقع ، مؤثرة في الأوضاع القائمة بالتغيير أو بالازالة أو بالتحويل ، ولم يكن في الامكان أن يقوم هذا الفعل في فراغ ، ولذلك فقد كان لا بد له من رد فعل .

ومن هنا كان للاسلام رد فعل بعيد المدى في البيئات المختلفة ، التي سيطر عليها ، والأديان التي واجهها ، والقوى الحاكمة التي أزالها ، لقد قاوم الوثنية والمجوسية ، وأزال امبراطورية الفرس ، وأجلى الامبراطورية الرومانية عن مناطق استعمارها في الشام ومصر وأفريقيا ، ومن هنا كانت مقاومة الاسلام بالحرب هي العمل الأول الذي واجهه بحركة التوسع البارعة ، التي أقامت عالم الاسلام في أقل من نصف قرن ، غير أن الخطر بعد توقف أعمال التوسع كان يتمثل في مقاومة ذات واجهتين .

( ١ ) مقاومة خارجية تتمثل في أوربا والغرب ، وتتمثل في دائرتين :

( أ ) مقاومة الفرنجة في الأندلس وما حولها

( ب ) مقاومة البيزنطيين في حدود عالم الاسلام من الشمال ، وهي مقاومة لم تتوقف طوال القرون الأربعة عشر وإلى اليوم .

( ٢ ) مقاومة داخلية ، وتتمثل في القوى التي سقط نفوذها السياسي والديني من الفرس والمجوس واليهود . وقد بدأت هذه القوى عملها منذ قيام الدولة الاسلامية في عهد ( عمر ) وتمثلت أولى صور هذه المؤامرة في مقتل الخليفة الثاني بخنجر أبي لؤلؤة المجوسي الفارسي ، وفي الأزمة العنيفة التي تحركت في أواخر حكم عثمان ، وامتدت خلال خلافة علي ، وهي أزمة ذات طابع دقيق ، حتى ليمكن القول بأنها قد أحدثت في الاسلام منذ ذلك الوقت صراعاً لم يلتئم فقد تحركت القوى المختلفة تناضل من أجل مفهوم النظام السياسي للدولة الاسلامية .

ولم تتوقف منذ ذلك الوقت حركة الانتقاض : على الدولة الاسلامية ، أو التآمر على الاسلام ، وقد تداخلت هذه الحركات ، بين طلاب الحكم وطلاب العدل ، وبين حركات استهدفت فعلاً القضاء على الاسلام نفسه .

## الفرس والعرب

ويمكن القول بأن المعركة بين نفوذ العرب ، ونفوذ الفرس كانت أبرز معالم هذا الصراع ، وكانت مشاعر الأقوام الفارسية شديدة الحساسية ، بالنسبة لسيطرة العرب ، وخضوع بلادهم للسيادة العربية . وقد قام هذا الاحساس على اساس الخلافات القديمة بينهما ، وفي ظل الشعور الذي كان يغمر الفرس بأنهم أصحاب حضارة وسلطان ولغة وتقاليد . ومن هنا كان ذلك الصراع الذي امتد طويلاً ، خلال حكم الدولة الأموية . ومن هنا كان عملهم الدائب لنصرة العباسيين ، وتأييد دعوتهم للقضاء على الأمويين .

ولا شك كان مفهوم الاسلام لا يسمح بقيام اي نوع من أنواع الاستعلاء بين العناصر التي جمعها الاسلام تحت لوائه ، ولذلك فقد كان قيام الدولة العباسية تطوراً طبيعيا ازاء موقف الدولة الأموية المجافي لمفهوم الاسلام في المساواة بين العرب والفرس . غير أن قيام الدولة العباسية لم يحقق أثره في نفوس طلاب الحكم الطامحين والمغامرين من الفرس الراغبين في إعادة السيادة الفارسية ، ومن هنا كانت المحاولات المتوالية للقضاء على الرئاسة العربية العباسية للدولة بمؤامرات متوالية أبرزها : مؤامرة البرامكة ، ومؤامرة ولاية عهد المأمون .

كما تمثل هذا الصراع في الحملة العنيفة التي شنهـا الفـرس على العـرب واتهامهم بكل نقيصة ، والانتقال في مجال الحملة من العرب الى الاسلام نفسه كمحاولة للقضاء على الاسلام « فكرة ودولة » . ومن هنا كانت مؤامرات : الزنج والقرامطة والباطنية ، وهي مؤامرات تسترت باسم آل البيت كذباً ، وكان طابعها فارسيا . والواقع أنه لا يجوز إطلاق القول في نسبة هذه الحركات إلى الشيعة ، ولا الى الفرس ، بدليل أن المدافعين عن الاسلام من الفـرس كانـوا بحيث لا يحصيهم العدّ ، مدافعـين عن الاسـلام واللغـة العـربية ، وتـاريخ العـرب ومقومات الفكر الاسلامي .

كذلك لا يمكن أن تنسب هذه الفرق ـ التي تحمل شعار آل البيت ، والتي انحرفت في مفهومها ـ إلى الشيعة . فقد كان الفرس قوة من قوى الاسلام ، وما تزال بعيدة الأثر فيه ، لا تختلف مع السنة في أي أصل من أصول الاسلام ، وإن اختلفت في بعض الفروع والمسائل ، وقضـايا الحكم والشريعـة ، فلا بد من التحرز في نسبة مثل هذه الحركات الى الشيعة أو الفرس بعامة .

وقـد كانـت أغلـب هذه الحـركات تحمـل طابـع الدعـوة إلى « العــدل الاجتماعي » كالزنج والقرامطة ، ولكنها كانـت في الأغلـب دعـوات متآمـرة في أهدافها مهما حملت من شعارات . فقد قادها خصوم الاسلام من مجوس ويهود وأصحاب النفوذ القديم من الفرس ، ولكنها كانت تستتبع جوانب من النقص كانت في حقيقتها مجافية لمفهوم الاسلام ، ولو طبق مفهـوم الاسـلام في العـدل الاجتماعي ، والمساواة بين العرب وغـير العـرب لضـعف اتجـاه الخارجـين على الاسلام ، ولما وجدت مثل هذه الشعارات مكانا أو تقبلاً ، ولو خلت القيادات السياسية من طابع التعصب والانحراف والاستئثـار بالنفـوذ والثـراء لأوليائهـا وكانت أكثر قدرة على الاستجابة لصيحات التحرر ، وطلاب العدل الاجتماعي ، لما استطاعت مثل هذه الحركات ان تجد من يستمع إليها أو ينضوي تحت لوائها .

غير أن أغلب هذه الحركات كانت تستهدف أساساً إسقاط الاسلام بإسقاط دولته ، وكانت تعلن العودة إلى الوثنية والمجوسية والثنوية والزرادشية والمانوية ، وعبادة النار . ومن هذه حركة بابك والأفشين ، وكان بابك الحزمي قد أرسل الى ملك بيزنطة وأغراه بغزو بلاد الاسلام ، فسار هذا الملك ، وأوقع بالمسلمين ،

وقد نقلت عن الأفشين أمور تكيد للاسلام ، وتجهد في هدم الدولة ، فقد كتب الى مازيار أشروسنة يقول : إن هذا الدين يعني الاسلام إن اتفقنا أنا وأنتم محونا أثره ، ونعود إلى دين آبائنا العجم ( يقصد المجوسية ) . وقد قاوم المعتصم هاتين الحركتين مقاومة شديدة ، وأنفق في عام واحد ـ عام ١٢٢ ـ ألف ألف دينار .

* * *

والخرمية حركة فارسية حاولت أن تعتصم ببرامج اقتصادية لتخفي هدفها الأساسي وهو التخلص من حكم العباسيين ومن الاسلام ، وإرجاع مجد فارس ، والدين المجوسي بشكل ما ، وجاءت ثورة الزنج ٢٥٦ هـ واستمرت حتى ٢٧٠ هـ ثم اندلعت ثورة القرامطة ٢٧٧ هـ التي كانت مرحلة تالية لثورة الزنج ، فقد انتشرت الدعوتان في محيط الفلاحين ، هذه القوى التي كانت تعيش في جنوب العراق وبادية الشام ، وتمثلت هاتان الثورتان مقاومة النظام الاجتماعي والاقتصادي القائم في ظل الدولة العباسية ، كما كشفت عن قسوة الحياة التي كانت تحياها هذه الطبقات من العاملين في أراضي الاقطاعيين .

غير أن هاتين الثورتين لم تصدرا عن منهاج إسلامي أساسي يتيح لهما سنة البقاء . وقد اتخذت كل منهما أساليب غاية في العنف والتدمير . إذ قام الداعون اليهما بفظائع لا حدّ لها . فقد حمل لواء الدعوتين متآمرون ادعوا الانتساب الى الشيعة ، واستهدفوا القضاء على الدولة . وقد دمرت ثورة الزنج كثيرا من المدن الهامة كالبصرة والأبلة . غير أن هاتين الحركتين لا تخليان القيادة السياسية للدولة الاسلامية من مسؤوليتها إزاء استخدام هذا العدد الضخم من العبيد في مزارع الاقطاعيين بأجور تافهة . وقد جلبوا من شرق أفريقيا ، وحشد الألوف منهم في أوضاع سيئة ، بما يخالف مبادىء الاسلام .

* * *

• أما القرامطة فقد بعدت حركتهم عن مفاهيم الاسلام بعداً شديداً ، بل حاولت أن تتهم الاسلام بأنه مصدر استعباد الجماهير ، ولم يكن ذلك في الواقع هو مفهوم الاسلام ، ولم يكن تطبيقه هو مصدر الظلم . بل على العكس من ذلك . كان التخلف عن أيديولوجيا الاسلام التي قامت على العدل الاجتماعي

والمساواة ، هو مصدر قيام مثل هذه الثورات . وقد صاغ القرامطة دعوتهم في مفاهيم المجوسة والثنوية والوثنية ، فادعوا أن الجنة هي الدنيا ونعيمها ، واعتمد حمدان قرمط في دعوته على مفاهيم حركة مزدك المجوسية التي قامت في العصر الساساني . كما استغل القرامطة تكتل أهل الحرف ، ووجهوه لهدم الدولة العباسية والقضاء عليها ، فأوقدوا نار التذمر ، وحملت « الحركة الباطنية » نفس مفاهيم الحركة البابكية الحزمية ، مستهدفة القضاء على حكم العباسيين وعلى الاسلام وارجاع مجد فارس القديم والمجوسية ، ووجدت ارضاً خصبة في الطبقات العاملة والفقيرة في سواد العراق من الأنباط والفرس والسريان . ولذلك وجهت خصومتها إلى « الدين » واعتبرته مصدر الشقاء . ومن هنا حاربت مفهوم الدين أصلاً ، واحتلت بدلا منه مفهوم الفلسفة ، ولما كان أهل المناطق التي وجهوا إليها دعوتهم تؤمن بالاسلام ، ومن الصعب حملها على خلعه ، فقد اتجهوا الى طريقة التأويل أو علم الباطن ، وكان الباطنية « قادرين » على تعديل وسائلهم بما يناسب الوسط مع الاحتفاظ بالأساس والهدف الذي يرمون إليه ، وهو القضاء على الاسلام ، ودولة الاسلام معاً ، وكانت الحركة القرمطية إحدى حركاتهم . وقد اتخذت الباطنية من الحشيشة وسيلة إلى إغراء الشباب المنضم إليها باعتناق مذهبها ، وذلك بدعوى أن من يمت في سبيل غايتها ينتقل إلى الجنة ، فكانوا يخدرون الشباب بالحشيشة ، ثم ينقلوهم إلى حدائقهم الجميلة ، فإذا استيقظوا وجدوا أنفسهم في ذلك الفردوس المصنوع ، وقد خدعوا كثيراً من الشباب بهذه الوسيلة ، وازداد نفوذ الحشاشين قوة وخاصة في فارس والعراق ، ومن أكبر معاقلهم في « قلعة الموت » قرب بحر الخزر ، وقد أنهى المغول سلطانهم الذي ظل يهدد الدولة العباسية أكثر من قرن ونصف قرن . وهكذا مرت حركة التآمر على الاسلام باسم الاسماعيلية والباطنية والحشاشية بصور وأشكال متعددة ، وكان أبرز وسائلها إذاعة السخط على الدولة العباسية بالدعوة إلى حق العلويين « الشرعي » في الحكم ، بينما كانت تهدف أساسا إلى القضاء على الاسلام نفسه ، وذلك بمزج مبادىء الاديان والفلسفة ، واستغلالها لخلق روح التذمر الاجتماعي مستغلة في ذلك الطوائف والعناصر غير العربية .

وينسب الدور الأكبر في تنظيم الحركة الاسماعيلية ، ووضع مبادئها الى عبد الله بن ميمون القداح . وقد اتبع أتباعه وأولاده أثره في توسيع نطاق

الحركة ، ويؤكد مؤرخوالغرب أمثال : دي ساسي وديموج بوجه خاص وجوددافع سياسي لدى عبد الله بن ميمون القداح هورغبته في القضاء عليسلطان العرب وعلى الاسلام ، الذى جلب إليهم تلك السلطة ، وإرجاع مجد فارس القديم مرة أخرى . ويؤكدالدكتور عبدالعزيز الدوري في كتابه : العصورالعباسية المتأخرة . القول بأن القداح أراد أن يقوض الاسلام ، فأشعل الشعور الشيعي عند الجماهير ، وكون المذهب القرمطي المؤدي إلى الالحاد ، واستغل اسم إسماعيل بن جعفر الصادق في إثارة حركة شعبية قوية تنقل الملك إلى أحد أحفاده باسم « المهدي » .

وقد ارتبطت مختلف حركات القرامطة ( في العراق والبحرين خلال القرن الرابع ) والحشاشين والباطنية في ( سوريةوإيران خلالالقرن الخامسوالسادس) كات لهم دعوة في كل زمان ومقالة جديدة بكل لسان . ( الشهر ستاني ) وأهم مبادئهم مبدأ( الباطن ) الذي كان من أبرع الأساليب وأدهاها وأقدرها على التأثير بين جماعات مختلف المذاهبوالأديان ، فهم يقولون بأن لكل ظاهر باطناً ، ولكل تنزيل تأويلاً ، وأن الظاهر بمنزلة القشور والباطن بمنزلة اللب . وقد تأولوا آيات القرآن ، وسنن النبي ، وقالوا إن من ارتقى إلى علم الباطن انحطعنه التكليف ، وان جميع ما استبعد الله به العباد في الظاهر من الكتاب والسنة أمثال مضروبة وتحتها معان هي بطونها ، وعليها العمل وفي النجاة ( ابن الجوزي ) ويرى الباحثون والمؤرخون أن غايتهم الأساسية سياسية عامة ، وأن تطبيق التأويل كان حير وسيلة لاستخدام الكتب المقدسة لجميع الأديان لتحقيق غرضهم في جميع مختلف الطوائف تحت لوائهم للقيام بالثورة المنشودة ( الدكتور الدوري ) والأثر الفارسي القديم . ظاهر في تضاعيف هذه الدعوة ومفاهيم الثنوية والمجوسية واضحة في جوهرها ، مما يؤكد ان هدفها كان ضد الاسلام أساساً ، وأنها كانت حلقة من المؤامرة على كيان الاسلام ودعوته .

وقد أكد البغدادي : أن الذين وضعوا أساس الباطنية كانوا من أولاد المجوس ، وكانوا مائلين إلى دين أسلافهم . وقال : « لا تجد على ظهر الأرض مجوسياً إلا وهو مواد لهم » ( أي للباطنية ) منتظر لظهورهم على الديار ، وقد قاومت السنة هذه الحركة مقاومة ضخمة ، وواجهت مفاهيمها ، وردت عليها ، ونقضت شبهاتها . وأكد المؤرخون أنها حركة معادية للاسلام ، ناشئة منهدين

أجنبي بحسبانها حركة فارسية ، إيرانية ضد العرب ، وأنها وثيقة الصلة بالحركات الفارسية ، الراوندية والخرمية والبابكية وامتداد لها . وقال الدكتور الدوري : إنها تمثل نمو مباديء المزدكية التي تطورت بظهور الاسلام ، واكتسبت ثوبا إسلاميا . وقال ابن الجوزي ( أحد كبار المؤرخين المسلمين ) : إن المزدكية والخرمية والبابكية والاسماعيلية « حركة واحدة » . والمعروف أن فكرة التأويل مانوية ، وفكرة الحلول والرجعة والتناسخ من آراء الغلاة ، والثنوية من تعاليم مزدك ، الداعي إلى استباحة الأموال والأعراض . وتعد حركة إخوان الصفا على نفس الخط ، وهي محاولة للتآمر على القيادة السياسية والاسلامية عن طريق نشر مفاهيم فلسفية تجمع بين مفاهيم المزدكية والبابكية ، ويرى مؤرخو السنة ان الباطنية كانوا يريدون سلخ الناس عن المذاهب والأديان ، وخاصة عن الاسلام ليتركوا لهم الخيار في اتباع أي مذهب ، وخاصة المذاهب الفلسفية والمجوسية ، وترك مراسيم العبادة الاسلامية ( أي رفض الظاهر ) .

ويقول الدكتور الدوري : إن الدعوة الباطنية ( الاسماعيلية ) كانت تهدف قبل كل شيء إلى احداث ثورة اجتماعية . ولما كان الاسلام هو أساس النظام القائم ، فقد حاولت هذه الدعوة بطريقة التأويل والتنشوء توحيد المتذمرين من كل العناصر والأديان في جو من التعاون لتقويض المجتمع ، وإقامة اخر .

وقدهاجم الامام الغزالي «الدعوة الباطنية»وماجرى على يديها من ترويع وإرهاب وسفك دماء ، وبينما كان السلاجقة يكافحون الباطنية بوصفها خطرا سياسيا ـ كان الغزالي يكفاحها من حيث إنها انحراف عن مفهوم الاسلام ومقوماته . فكشف في كتابه « فضائح الباطنية » عن بدعهم وضلالاتهم ، وفنون فكرهم ، ووجوه استدراجهم الناس . وقد اعتبر الغزالي : الباطنية ، والقرامطة ، والقرمطية ، والخرمية ، والاسماعيلية ، والسبعية ، والبابكية كلها فرقا خارجة عن مفهوم الاسلام ، وعلل سبب تلقينهم بالباطنية بأنهم يدعون أن للقرآن « باطناً » وقال إن هدفهم الأكبر هو إبطال الشرائع ، وهم المنسوبون الى حمدان قرمط ، وبابك الخرمي .

وقد استطاع خط الدفاع عن الاسلام ، الكشف عن نوايا هذه الدعوة في

مواجهة تواطوء المجوس والمزدكية والثنوية الملحدة ، وملاحدة الفلاسفة على هدم عقائد الاسلام في نفوس معتنقيه ، على أن يتخذوا هذه الدعوة في إطار من السرية مستغلين في ذلك الركون الى طائفة يثق بها المسلمون ، وهم آل البيت ، ولما لم يكن من الممكن إعلان هذه الدعوة الا بوسيلة خادعة لجماهير الناس ، اتخذ الباطنية منهجاً سرياً مكوناً من تسع درجات . وقد تجمع في نطاق هذه الدعوات . الموتورون الذين ملأ الحقد نفوسهم من أبناء الأكاسرة والدهاقين ، والروافض والملاحدة والثنوية ، ومن استولت عليهم الشهوات ، دفعتهم - هذه المطامع المتباينة إلى التجمع تحت لواء الحركة الباطنية التي قامت على تأويل معاني الشريعة .

# ( ١٣ )

## « حركة الدفاع عن الاسلام »

أبرز ما تتسم به مرحلة « البلورة والانصهار » أنها كانت المرحلة التي جاءت بعد « بناء عالم الاسلام وتوسعاته » فعندما توقفت حركات التوسع بدأت مرحلة الترسيب ، وحضانة القيم الجديدة ، ذلك أن الاسلام قد أزال القوى الحاكمة التي وقفت في طريق دعوته ، وأتاح للشعوب التي انضوت تحت لوائه نظاماً جديدا قوامه : « التوحيد العدل ـ المساواة » جاءت بديلاً من الأوضاع الظالمة القاسية المضطربة ، التي كانت تعيش فيها الأقطار والأمصار ، غير أن الاسلام لم يفرض نفسه على هذه الشعوب كعقيدة . بل ترك لها حرية تقبله عن اقتناع ، أوالبقاء على عقائدهم ، ومن ثم نشأت بعدتوقف حركات التوسع محاورات ضخمة ، ومجادلات واسعة في كل أقطار الاسلام ، فقد أتاح الاسلام لأهل الأديان الأخرى من مجوسية ومسيحية ويهودية الدفاع عن معتقداتهم ، وكان المسلمون يردون على هذه المناظرات ، ويدخلون في مساجلات مع أصحابها على أساس فلسفي جدلي . ومن هنا كانت الفلسفات سلاحاً أخذ به أصحاب الأديان الأخرى ، ولم يكن ثمة سبيل إلى تجاهل هذا السلاح للدفاع به عن الاسلام إذ كان لا بد للمسلمين أن يكونوا على مستوى السجال والجدل . ومن هنا ظهرت طائفة « المعتزلة » .

وكان لا بد للمسلمين من علماء وفقهاء ـ بعد أن هدأت « حركة التوسع » للدعوة إلى الاسلام بالحكمة والموعظة الحسنة ـ فكانت القوى التي تستمع إليهم

تتعرض إلى ذكر الحجج والبراهين التي تعرفها عن الأديان الأخرى ( المجوسية واليهودية والمسيحية ) .

وكان كل من هذه الأديان قد تسلحت من قبل بالمنطق السرياني ، والفلسفة اليونانية تستخدمها في الجدل . وإذا كان عصر الأمويين هو العصر الذي تكاملت فيه حركات التوسع حتى وصلت السند وبخارى وسمرقند الى كاشغر على حدود الصين ، ووصلت إلى الأندلس إلى حدود فرنسا ، فقد كان عصر العباسيين هو العصر الذي ترسبت فيه قيم الاسلام ومفاهيمه في هذه الجماعة الضخمة التي تنوعت أديانها ، وتنوعت لغاتها ، وتنوعت أجناسها . فبدأت تنصهر في بوتقة واحدة ، هي : « بوتقة الاسلام ، حيث أخذت ثقافتها وفلسفاتها وعاداتها وقوانينها ، ونظم مجتمعاتها تتبلور في « إطار الاسلام » وتخضع لمفاهيمه وقيمه الأساسية ، وكان الاسلام بسماحته وسعة أفقه ومرونته ، قادراً على تقبل خير ما في هذه الثقافات والفلسفات ، والقوانين ، وعادات المجتمع ، ونظمه وصهرها في مفاهيمه وفق الخطوط العامة الأيديولوجية، ورد كل ما يتعارض مع هذه المقومات ، وقد كان للنظام السياسي للدولة العباسية ، والصيغة الهاشمية المتصلة بآل النبي أثرهما في تحقيق قدر كبير من النجاح في سبيل اعتناق أغلبيات ساحقة من عناصر المجتمع الاسلامي للاسلام عن اقتناع . فقد وجد كثير من الناس في الاسلام وبساطته وسماحته ما دفعهم الى اعتناقه تحرراً من العقائد التي أصابتها الوثنية والفلسفة اليونانية بالتعقيد وما احتواها من اضطراب .

وسعى في هذا السبيل المحدثون بمناهجهم السمحة القريبة الى القلوب ، والمعتزلة « المتكلمون » بأساليبهم الذهنية المقنعة للعقول ، فوجد للاسلام طريقان متصلان بالقلوب والعقول ، هذان الطريقان ـ معاً ـ يمثلان مفهوم الاسلام الذي يقوم على التكامل والشمول والوسطية ، ويخاطب العقول والقلوب جميعاً . وقد استعان المحدثون بالقرآن والسيرة والحديث النبوي ، والمغازي ، يعرضون تاريخاً مليئا بالعزة والسماحة والبطولة والايمان والعدل والمساواة ، واستعان المعتزلة بالجدل ، والمناظرة ، والمنطق ، ونظروا في كتب الديانات الأخرى من مجوس ويهود ونصارى ، والمذاهب من مجبرة ورافضة ومانوية . وقد نجحت هذه الحركة نجاحاً منقطع النظير ، فقد تحول كثرون من أديانهم الى

الاسلام . وأسلم على أيدي المعتزلة كثيرون ، حتى قيل إنه أسلم على يد أبي الهزيل العلاف وحده ، وهو رأس المعتزلة أكثر من ثلاثة آلاف رجل . كما أسلم على أيدي المحدثين كثيرون ممن بهرتهم القدوة والخلق والمثل الأعلى . وقد أسلم يوم مات أحمد بن حنبل عشرون ألفا من النصارى والمجوس واليهود ، كما كان لدعاة الوعظ والتصوف أثرهم البعيد المدى ، أمثال أبي قاسم الجنيد ، وأبي الفرج بن الجوزي .

وكان للخفاء العباسيين في هذا المجال دور واضح ، فقد نشط كثير منهم للدعوة إلى الاسلام ، وكان المأمون يكتب إلى عماله على خراسان في دعوة من لم يكن على الاسلام من أهل ( ما وراء النهر ) يستميلهم بالرغبة فإذا وردوا بابه شرفهم وأنعم عليهم بالأعطيات والأرزاق ، وسار المعتصم بالله على نفس الخطة ، فغلب الاسلام على أهل ما وراء النهر من السِّند والأشروسنة ، وأهل الشاس . بل لقد كان المأمون يدعو إليه من يرتد ممن أسلموا فيناقشهم ويحاورهم ، حتى يقنعهم ، ولم يكره أحد من خلفاء العباسيين أحداً ، ولم تكن الجزية تؤخذ الا من القادرين ، وكانت مرفوعة عن المسكين ، والأعمى ، ومن لا حرفة له ، ومرفوعة كذلك عن الرهبان في الاديرة ، والشيخ الكبير ، ولم تكن تزيد عن ٤٨ درهما للغني و٢٤ للوسط و١٢ درهما للعمال والصناع في العام ( الخراج لأبي يوسف ) ومن هنا لم تكن هذه الجزية اليسيرة بدافعة أصحابها إلى ترك أديانهم إلا عن إيمان واقتناع وتفضيل .

## ( ٢ )

# المعتزلة والدفاع عن الاسلام

أتصور حركة التآمر على الاسلام ، وقد أتيحت لها الفرصة ، لأن تبرز في خلال حكم العباسيين من خلال قضية الموالي والصراع بين العرب والفرس . لقد برز ذلك التيار في صور متعددة من خلال مراحل متوالية ، لقد كان للترجمة وانتشار الفلاسفة ، وتعدد النظريات الفارسية والمجوسية واليونانية القديمة بما تحمل من وثنية وثنائية ، داعيا إلى ظهور المعتزلة كمدافعين عن الاسلام بنفس الأسلحة . فقد برز من الذين دخلوا الاسلام مستهدفين بث أفكارهم وفلسفاتهم ، كوسيلة لهدمَ الاسلام ، كان أخطر هؤلاء ممن أدال الاسلام نفوذهم : الفرس واليهود ، ولم تلبث أن ظهرت شعارات وكلمات منحرفة عن مفهوم الاسلام ، كانت هذه المعاني قد عرفت في محيط الاسلام منذ حمل عبد الله بن سبأ لواء الدعوة إلى بث مضامين المجوسية في الاسلام عن طريق الوصاية والرجعة وغيرها .

وقد انتشرت هذه المفاهيم ، وثارت الفتن ، حين زعم « ابن السوداء » أن عَلِيًّا إلَه ، وأن الجزء الالَهي يحل في الأئمة ، وقد جاهده الامام علي ونفاه إلى ساباط المدائن ، وحرق بعض أتباعه ، ومن أتباع ابن سبأ ظهرت فرق الغلاة « السبئية » وبدأ ذلك الخط الدقيق من المؤامرة على الاسلام . هذا الخط الذي اتسع من بعد ، حين توسع في استخدام أفكار الفلسفات والأديان القديمة . ولم يلبث مثقفو المسلمين أن اصطنعوا نفس السلاح ، وظهر « المعتزلة » كأقوى قوة

فكرية في هذا المجال . فكان لهم فضل الدفاع عن العقيدة بالحجة العقلية ، وفي مقدمتهم واصل بن عطاء ، والنظام ، وأبو الهذيل العلاف ، والجاحظ ، والحياني .

وقد كان عمل المعتزلة في هذه الفترة من صميم الدفاع عن الاسلام ، بإعطاء العقل مكانة في مفهوم الاسلام ، غير أن المعتزلة تطورت من بعد وغالت في مكانة العقل وبعدت بذلك من مفهوم الشمول والتكامل والوسطية في الاسلام ، هذا المفهوم الذي يمزج بين العقل والقلب ، فانحرفت عن مفهوم الاسلام الشامل الجامع ، وبلغ ذلك غاية الاضطراب حين تدخلت الدولة ففرضت مفاهيم المعتزلة على الناس . غير أن خط الدفاع عن الاسلام لم يلبث ن تطور حين ظهر رجلان من أبرز رجاله هما : الأشعري والماتريدي .

أما الجاحظ فقد كان عليما بأساليب الكلام وطرق الجدل مع الالملم بالديانات والمذاهب الكلامية والمنطق ، فقد رد الجاحظ على المشبهة والنصارى واليهود ، ودحض شبهاتهم . هذا فضلاً عن دوره في مواجهة الشعوبية والرد على دعاتها . وقد قاوم المعتزلة البدع والخرافات التي بدأت تدخل في مفاهيم الاسلام ، وتسيطر على عقول العامة ، واستأصلوها ، إيماناً منهم بخطرها في الزحف على أصول الاسلام ومقوماته الأساسية ، وفي مجال العقائد الفلسفية المثارة ، استطاع المعتزلة أن يواجهوا جدل أهل الأديان الأخرى ، وأهل الفلسفات بنفس أسلحتهم ، وكان لهذه الحركة أثرها في إحاطة الاسلام بدرع قوي في مواجهة خصومه .

وكان المعتزلة أول من أدخلوا الفلسفة في الاسلام محاولين التوفيق بين الدين والفلسفة ، وأطلق على مناهجهم التي استعملوها « علم الكلام » أو فلسفة الدين ، أو علم التوحيد ، وقد ظل أهل السنة بعيدين عن هذا المجال ، حتى ظهر أبو الحسن الأشعري الذي كان من أنصار المعتزلة ، ولم يلبث أن خرج عليهم حين انحرفوا عن الهدف الأول وقاومهم بنفس الأسلحة ، ونصر مذهب السنة ، واصطنع أساليب « علم التوحيد » في مناصرة أهل الحديث في البحث والمناظرة والاستدلال .

ولقد كان لهذا الخطر الذي امتد من المعتزلة كمدافعين عن الاسلام بأسلحة

الفلسفة في وجه خصومه ، ثم تطورها على يد الأشعري والماتريدي إلى الدفاع عن السنة والحديث ، كان لهذا العمل أثره الذي لا حدّ له في ازدهار الاسلام وعلومه ، كما مهد لظهور المذاهب الفقهية . وكان أبو الهذيل العلاف أول متكلم إسلامي تأثر بالفلسفة ، وهو من أوائل من ناقشوا أصحاب الملل الأخرى من المجوس واليهود والمسيحيين ، وكانت البصرة موطن أبي الهذيل في هذه الفترة تموج بتيارات مختلفة تحاول ان ترد الاسلام وكتابه عن المكانة التي بلغها ، وتدافع عن ديانتها ومذاهبها وفلسفاتها ، وتواجه هذا الدين الجديد بسلاح الجدل . وكان الاسلام من قبل بسيطا سمحاً ، وكانت الديانات القديمة قد تفلسفت وتأثرت بالفلسفة اليونانية بالذات التي انتشرت في الشرق منذ فتح الاسكندر . وكان الفرس ـ هم القطاع الثاني من الاسلام بعد العرب في هذه الفترة ـ قد عرفوا الفلسفة اليونانية ، وكان اليهود والنصارى والمجوس قد تأثروا بها جميعاً واتخذوها سلاحاً للمحافظة على دياناتهم . ومن هنا كان اتجاه المسلمين إلى الأخذ بسلاح الفلسفة اتجاه ضرورة لا معدى عنه . وقد أدار « أبو الهذيل العلاف » مجالس المناظرة التي كان يعقدها المأمون مع أهل الديانات الأخرى ، وعرف بقوة جدله وفصاحته ، فقد قرأ بدقة مختلف هذه الديانات ، وتبحر في الأدب العربي ، وحفظ كثيراً من الشعر العربي ، وكان أبو الهذيل مقتدراً على توجيه الجدل ، والرد على كل الشبهات ، والانتصار في النهاية ، وذلك لمحض قدرته على تعمق آراء الفرق المخالفة للاسلام ، وعلمه بالشبه التي تثار حول القرآن والاسلام وإفحام مثيريها .

وكان ذلك الجدل الحرّ المنطلق هو : أروع ما عرف في سماحة دين ، يسمح في مجال حكمه ، وفي ظل دولته بالجدل ، ويتيح لأصحاب الأديان والمذاهب المختلفة حرية الدفاع عن معتقداتهم ، ومن قبل أظلهم بظله دون أن يفرض على هذه الطوائف الانتقال إليه قسراً . بل سمح لهم بأن يقيموا شعائرهم في حرية ، ومن هنا وفي ظل الحرية المتاحة ، بقي كثير من أصحاب الأديان الأخرى على عقائدهم القديمة مخلصين لها .

ثم كان لهم من بعد أن يطمعوا في تحويل المسلمين إليها ، وكان من المسموح به أن يتحدث حبر عن يهوديته وقسيس عن مسيحيته . وكان أبو الهذيل يناقش هؤلاء ويجادلهم ، وبلغ من أمر هذه الحرية أن ألّف « يحيى الدمشقي »

كتابا يعلم فيه المسيحي الدفاع عن دينه وعمله عن طريق السؤال والجواب ، فيقول : إذ قال لك المسلم كذا ، فقل له كذا ، وكانت هذه الفترة - بعد توقف عمال التوسع - مرحلة انصهار واسعة ، وبلورة ضخمة للفكر والمجتمع الواسع الضخم . وكان لترجمة الفلسفة اليونانية وانتشارها أثرها في خلق هذا الجو الجديد ، وكثيراً ما كانت هنالك محاولات لاتخاذ هذه الفلسفات والمواقف وسيلة للتآمر على الاسلام . ولقد كانت المعتزلة في مرحلة من مراحل حياتهم الفكرية « دعاة الدفاع عن الاسلام » وحمله لواء الذود عنه . غير أنهم مع ثقافتهم الواسعة وبراعتهم ، لم يتعمقوا الاسلام « ووقفوا منه عند حدود الجانب العقلي ، وأسرفوا في تقديره . وكانت تلك نقطة الضعف ، الاسراف في تمجيد العقل والايمان الذي لا حد له باقتداره » فقد رأوا أن العقل البشري قد منح من اليقظة والسعة ما يمكنه من إقامة البرهان حتى فيما يتعلق بالله سبحانه وتعالى .

هنا برزت ظاهرة التجزئة في مواجهة قانون التكامل في مفهوم الاسلام . هذا القانون الذي يقف في وجه كل فكرة متقدمة إذا بلغت درجة الانحراف ، لقد بلغ المعتزلة درجة الانحراف ، حين أغفلوا تماماً جانب القلب ، والاسلام بوصفه أيديولوجيا يقوم على الشمول والتكامل والوسطية ، وعلى القلب والعقل معاً ، فإن الايمان بالعقل وحده وإعلاءه ، إنما يمثل انحرافاً بالاسلام عن مفهومه الذي لا يجعل الاعلاء لشيء سوى الله وحده . ولقد أخذ على المعتزلة كثير من المؤرخين والباحثين أنهم حاولوا إخضاع العقائد الاسلامية للعقل وحده . وكان هذا اتجاها خطراً على مفهوم الاسلام المتكامل ، وأنهم أفرطوا في قياس الغائب على الشاهد ، وأن سيرهم وراء السلطان العقلي ، قد جعلهم ينقلون الاسلام إلى مجموعة من القضايا العقلية ، والبراهين المنطقية ، ويحولونه إلى نهج فلسفي ، وليس الدين ( أقصد الاسلام ) كالمسائل الرياضية ، ولا النظريات الهندسية وإنما يجمع - دوماً - بين العقل والقلب ، والعلم والروح .

وجملة القول إن نظام المعتزلة نظام جيد التفكير ، ضعيف الروح ، غالى في تقدير العقل ، وقصر في قيمة العاطفة ( ضحى الاسلام : أحمد أمين ) . ولا شك كان الاعتزال هو الجناح الثاني للتصوف والزهد ، وكان كلاهما يستمد من مقومات الاسلام . ولذلك كان لا سبيل أن يسرف أحدهما فيستأثر بمفهوم الاسلام دون الآخر . ولقد بلغ أمر الاعتزال غايته في الاسراف والانحراف ،

حين فرض نفوذاً سياسيا في عهد المأمون وضع الناس موضع الامتحان بخلق القرآن ، وأثار أزمة سياسية وفكرية ، بعيدة المدى تصدى للوقوف على رأس معارضتها . الامام أحمد بن حنبل بوصفه أبرز رجال الحديث والفقه . إذ قال أحمد بن حنبل : القرآن كلام الله لا نقول عنه إنه مخلوق أو غير مخلوق .

غير أن السياسة لم تلبث أن غيرت موقفها . وجاء على رأس القيادة السياسية رجل أبعد المعتزلة ، وقرب أهل السنة ، وكان ذلك كله مقدمة لتحول خطير في صفوف المعتزلة ومفاهيمها ، وهو ظهور « الأشعري » وكانت موجة الاعتزال قد سيطرت واستخدمت في إثارة الشبهات في وجه السنة ، والعقائد ، وبدأ بعض دعاتها يعبثون بتفسير القرآن ، واستعلى اتجاه تقديس العقل وتحكيمه في كل شيء ، وبدا أن ( الايمان ) يتعرض لصراع مع العقليات ، هنالك برزت « شخصية الأشعري » كقوة دافعة جديدة ، لتصحيح مفاهيم الاسلام ، والقضاء على الانحرافات التي انتجها تحول المعتزلة .

وكان الأشعري من المعتزلة أصلاً ، ولكنه آمن بالسنة ، وكانت السنة قد بلغت درجة التقليد والجمود . بينما بلغت المعتزلة درجة الانحراف ، هنالك كانت صيحة الأشعري يقظة جديدة تمزج الاعتزال في السنة بوصفهما رمزاً لمفهوم الاسلام الذي يتسم « بالشمول والتكامل والوسطية » فقد أعاد صياغة الفكر الاسلامي على النحو الذي يعطي السنة أسلحة الاعتزال لتجددها وتدافع بها عن جوهرها ، وتنشيء للفكر الاسلامي أفقاً مجدداً يقضي على الجمود والانحراف معاً .

* * *

## ( ٣ )

## بلورة الفكر

أما وقد اتسع المجتمع الاسلامي ، وأخذت العناصر المختلفة تنصهر فيه : عرب وترك وفرس وبربر ، كما أخذت الثقافات والفلسفات والأديان تتبلور فيه . فقد كان من الضروري أن يبرز تحد خطير في مواجهة مفهوم الاسلام . ذلك هو موقف الفكر الاسلامي من القانون الروماني ، والفلسفة اليونانية ، ومن الحكمة الفارسية ، ومن مفاهيم اليهودية والمسيحية ، ومن أهداف الوثنية والمجوسية والمانوية . فمن خلال الانصهار والتبلور جرت حركة التزاوج في مجال الأجناس والأفكار وعملية التوليد : الاجتماعي والعقلي ، فكان ضروريا في خلال هذا البحر الخضم الذي يقذف بالثقافات والعادات والفلسفات والأديان ، أن يبرز الفكر الاسلامي واضح الحدود والمعالم ، كاشفا عن خصوصياته العامة ، ومقوماته الأساسية ، لتكون الاطار الذي تلتقي فيه هذه الثقافات جميعها ، وتنصهر . وقد زاد هذا التحدي قوة توسع حركة الترجمة من الفارسية واليونانية ، هذا التحدي هو الذي فرض تدوين السنة والفقه ، وتحقيق الحديث ، وتقنين الفقه ، وتنسيق مصادر التشريع الاسلامي .

وهناك حقيقة هامة هي أن « أيديولوجيا الاسلام » قد تمت قبل اختيار الرسول للرفيق الأعلى ، وأن مقومات الفكر العربي الاسلامي قد تمت قبل الترجمة من اليونانية والفارسية . وقد أثمرت هذه الحركة الضخمة عملين كبيرين :

( ١ ) تحقيق الحديث والسنة على النحو الذي قام به البخاري ومسلم ومالك والترمذي وأبو داود السجتاني ، والنسائي وابن ماجه .

( ٢ ) تقنين الفقه على النحو الذي قام به مالك والشافعي وأبو حنيفة وابن حنبل . ومن هنا تكونت صورة واضحة لمفهوم الاسلام ومقوماته ، محققة دقيقة ، استوعبت ميراث الفكر الاسلامي منذ بدأ الرسول محمد صلى الله عليه وسلم دعوته ، وما تابعها من أحكام وأحاديث وقضايا واجهها الخلفاء الراشدون وصحابة الرسول ، وما اتصل بذلك كله من أمور تتعلق بتنظيم المجتمع الاسلامي في مجالات المعاملات بين المسلمين وبعضهم ، وبين المسلمين وغيرهم من أهل الأديان الأخرى . وقد كان خلق هذا الاطار وتكوينه ضرورة خطيرة بعيدة الأثر في هذه المرحلة في مواجهة مختلف التيارات والأفكار والقضايا النابعة من فلسفات اليونان والهند والفرس ، ومن مفاهيم الديانات والمذاهب المختلفة .

وكان هذا العمل الفكري الذي يطلق عليه حركة « التدوين في الاسلام » عاملا هاماً في مواجهة ذلك السيل المتدفق من ثقافات الشعوب والأديان التي انطوت تحت لواء المجتمع الاسلامي . فقد حدد موقفه منها ، ورسم لها المقومات الأساسية ، والقيم العليا للاسلام متمثلة « التوحيد ، العدل الاجتماعي ، المساواة » . كما أبان عن أبرز مضامين الاسلام ومقوماته ، وهي : « الشمول والتكامل والوسطية » . بين الروح والمادة والعقل والقلب ، والدين والدنيا ، كما كشف عن طابع الاسلام الأساسي : ديناً ومدنية ، وأبرز مرونة الاسلام وقدرته على الحركة وتفتحه على الثقافات والحضارات ، ودعائمه الأساسية في التجدد والاجتهاد والتطور على النحو الذي يجعله قادراً على الحياة والاستمرار مع تطور الأزمان والحضارات في مختلف البيئات والأقطار . فقد جعل الاسلام « الاجتهاد والاستنباط » في مقدمة أسسه العامة حرصا منه على مواجهة التطور ، ولم يمنع - في حدود هذه المفاهيم والأسس - من الاقتباس من مختلف النظم الرومية والفارسية ، والثقافات اليونانية والهندية ، ما دامت لا تمس هذه القيم ولا تخرج عن هذا الاطار . وهكذا كشف الاسلام في مرحلة التبلور والانصهار عن قدرته الفائقة في تذويب الثقافات المختلفة ، وصهر الفلسفات والمذاهب ، وبلورة المفاهيم بحكم أنها أساساً مفاهيم إنسانية عامة تستهدف خير البشرية . وبذلك أبان عن طابعه العالمي الانساني الشامل بوصفه « الحتمية التاريخية » التي تتطلع

الانسانية الى بلوغها مهما وقفت العقبات في طريقها على مسار البشرية الطويل . ومن هنا كشف الاسلام عن دوره الايجابي في لقاء التاريخ . ومن هنا كانت الأسس التي استطاعت أن تلقي الضوء الكاشف على محاولات تحويل الاسلام عن مجراه ، أو تجزئة مفهومة ، أو إعاقته عن طريقه - أو انتقاص شموله وتكامله على النحو الذي بدأ في حركات التآمر على الاسلام التي توالت في هذه المرحلة .

وقد كشف الفقهاء والعلماء والمحدثون في هذه المرحلة عن قدرتهم الفائقة ، على إنماء الفكر الاسلامي وتوسيع آفاقه بما جعله قادراً على الاستجابة للحضارة والتطور ، وذلك باستنباط المسائل ، وحل القضايا ، ووضع الاجابات السمحة للمعضلات ، واستخراج النتائج والفتاوى في كل ما يتعلق بتنظيم التجارة وشؤون المجتمع ، وقد أحصي لأبي جنيفة أنه أجاب عن ٦٠ ألف مسألة منها ٤٥ ألفا في المعالات ( مناقب أبي حنيفة للمكي ) وأورد مالك في المدونة ( ٣٦ ألف مسألة ) وجمعت مسائل أحمد بن حنبل في أربعين مجلداً ( الجامع لعلوم الامام أحمد : أبو بكر الخلال ) وقد سارت هذه المدارس كلها في طريق واحد ، تتوالى على نحو متكامل ، وتقوم على أربعة قضايا هامة .

( ١ ) الاجتهاد بإعطاء المجتمع الحلول الفقهية لمختلف معضلاته .

( ٢ ) تصحيح المفاهيم إذا اضطرب الطريق ، أو خرج عن مفهوم التكامل والوسطية .

( ٣ ) الدفاع عن الاسلام ، والرد على الشبهات الموجهة إليه .

( ٤ ) النقد الاجتماعي للمجتمع ، ومناصحة الولاء .

ولقد ظل عمل مفكري الاسلام طوال هذه العصور . هو : « إعادة صياغة مفهوم الاسلام » وفق روح العصر ، وتشكيله على النحو الذي يكشف عن قدرته الفائقة في الاستمرار متفاعلاً مع التطور في البيئات المختلفة ، وعلى توالي العصور ، متقدماً نحو تحقيق الحرية والعدالة والاخوة والمساواة بين بني البشر في ضوء التوحيد . ولقد كان لذلك العمل بعده الهام بالنسبة لحركة الترجمة التي أعطاها الفكر الاسلامي تقديره وثقته ، حتى اشترط الخلفاء على البيزنطيين في عقود المهادنة والصلح ، تقديم المخطوطات اليونانية . وقد نقلت هذه الترجمات فلسفات ونظريات لم يقبلها الفكر الاسلامي على علاتها . بل قبل منها

ورد منها في نطاق مفهومه ، وفي إطار مقوماته الأساسية ، واستطاع أن ينتفع بالمنطق كسلاح للدفاع عن الاسلام في مواجهة استعمال أصحاب الأديان الأخرى له .

وقد تبلور هذا العمل عن صياغة كاملة لأيديولوجيا الاسلام : السياسية والاجتماعية والاقتصادية ، وقد قامت هذه الايديولوجيا على القرآن ، والحديث . أما القرآن ـ الوثيقة الخالدة التي خلت من التحريف على مرّ العصور ـ فهي المصدر الأول ، أما الحديث فقد حوى ذخيرة ضخمة بالأحكام والمواقف والأقضية ، التي واجهت المسلمين كمجتمع خلال ثلاثة وعشرين عاماً في حياة الرسول ـ هذا الحديث كان في حاجة إلى مراجعة وتنقيح ونفي المكذوب منه . وقد حمل لواء هذه المهمة أعلام أبرار ، عاشوا حياتهم كلها له ، وقد اعتمدت أساسا على الصحف التي كتبت في حياة الرسول ، وحفظت لدى أوائل المسلمين . وقد كانت هذه الجوامع والمسانيد والسنن الأساس للتجميع ، وقد قطع المحدثون وفي مقدمتهم « البخاري » أعمارهم في السفر من أقصى العالم الاسلامي إلى قصاه طلبا لتحقيق الحديث من أقصى المغرب إلى خراسان .

* * *

غير أن إطار الاسلام للثقافة الجديدة قد ظل واضح الأثر في حركات النقل والترجمة والاقتباس ، فإن المسلمين مع كونهم ترجموا الفلسفة والعلوم والثقافات ، فإنهم لم يترجموا أي تشريع أو قانون أو نظام . وفي مجال الفلسفة فإن الفلاسفة المسلمين أخضعوا ما نقلوا إلى مفهوم الاسلام في التوحيد والنبوة .

وقد ظل دعاة الاسلام وعلماؤه وفقهاؤه ، قادرين دائما على المحافظة على مفهوم الاسلام وأيديولوجيته ، ويجب هنا التفريق بين مبادىء الاسلام وتعاليمه ، وبين التطبيق الذي وسعه التاريخ للقيادات السياسية الاسلامية المختلفة ، فقد ظل الفكر الاسلامي قائما حيا يدافع عن كيانه ضد عوامل الانحراف والتجزئة والاضطراب ، ويدافع عن التطبيق ، وظلت الجماعة الاسلامية قوية حية سليمة ، فإن المسلمين لم يعودوا سيرتهم الأولى قبل الاسلام ، ولم يتراجعوا عن الاسلام بعد إذ أسلموا ، وظلت طبقات العلماء والزهاد والمجاهدين ، والدعاة والطبقات الشعبية تمثل مفهوم الاسلام ، لم

تنحرف الا بعض الطبقات الحاكمة والمترفة ، ومع ذلك فقد ظلت الشريعة الاسلامية نظاماً مطبقاً في مختلف العصور حتى اوقفها الاحتلال العربي ، غير ان نظام الاسلام في بعض المراحل قد أسيء تطبيقه ، ولكن هذا لا يعني أنه قد أبعد نهائياً عن مجال التطبيق . وقد مرت مرحلة الصراع بين المذاهب والأديان والأنظمة والفلسفات ، وتبلورت في صورة « فكر إسلامي عربي » له مقوماته المستمدة من الاسلام ، وله قدرته على التطور والحركة ، وقد عولجت على أساساسه مشكلات الجماعة الأساسية ، وقد استطاع الاسلام أن يصبغ المقتبسات من الثقافات الهيلينية والفارسية ، وأن يصهرها في بوتقته بحيث أصبحت فكراً عربياً خالصاً . واستطاع الفكر الاسلامي أن يحقق نتائج هامة .

( ١ ) القدرة على استمرار أيديولوجيا الاسلام ، وفكره وفقهه في مختلف الأزمنة والبيئات ، مع استطاعته المرنة على معايشة الحضارات والثقافات . وذلك لحيوته وقدرته على الحركة ، وإيجابيته وتقدميته .

( ٢ ) مواجهة الصراع الفكري ، والرد على المؤامرات الموجهة للاسلام .

( ٣ ) استمرار انتشار الاسلام وتوسعه وتمدده ، وتحول العناصر المختلفة في المجتمع الى الاسلام ، وفتح الاسلام لآفاق جديدة .

( ق٤ ) نقد المجتمع الاسلامي ومقاومة الانحرافات من ترف وإباحة ومناصحة الحكام والولاة .

( ٥ ) تصحيح المفاهيم ، ومقاومة الانحرافات الفكرية التي تحاول تجزئة الاسلام وإقصائه عن مفهوم التكامل والوسطية .

( ٦ ) إعادة صياغة الاسلام بالتجديد ، وردّ الانحراف بكشف القيم الأساسية ، ودفع الاسلام في مجراه إلى الأمام مع العمل على إزالة ما يحول بينه وبين الحركة ، كالتجميد أو التوقيف أو التجزئة .

( ٤ )

# انصهار المجتمع الاسلامي

في هذه المرحلة تمت عملية انصهار المجتمع الاسلامي ، وقد واجهت عملية الانصهار خطوات بالغة الدقة ، فقد كانت الجماعات المختلفة في العراق وفارس والشام ومصر وبرقة ، تحمل عناصر مختلفة ، وديانات مختلفة ، وقد تداولت عليها حضارات ومدنيات متعددة .

ولم يكن العرب حين قاموا بحركة التوسع ، قد عزلوا أنفسهم عن أهل هذه الأقطار ، بل انهم انصهروا فيها بالتزاوج والتوليد . وكانت أبرز القضايا الاجتماعية هي : الرقيق أو الأسرى ، أو الموالي ، كما تعددت أسماؤها ، وكان بروز هذه القضية طبيعيا نتيجة لحركة التوسع ، وما يتصل بها من رق وولاء ، غير أن هذه الجماعات قد أخذت تنصهر بسرعة . بعد أن دخلت بيوت العرب عناصر فارسية ورومانية ، ومصرية وبربرية ، نتيجة للزواج أو التسري . فلما جاء الجيل الثاني لعصر التوسع حمل معه دماء مختلطة ، وقد أتاح الاسلام لعملية الانصهار آفاقاً من السعة والسماحة حققت الاختلاط والامتزاج والمشاركة في الحياة الاجتماعية والاقتصادية . فلم يكن العرب بوصفهم أصحاب حركة التوسع مستعمرين انعزلوا عن هذه الشعوب . بل إنهم قد اندمجوا في الأقطار منذ اليوم الأول ، مما عجل بعمله « الامتزاج » فضلا عن أن الاسلام لم يكن يفرق بين العناصر المختلفة . كما امتزجت العادات الفارسية والرومانية

بالعادات العربية ، وانتظمت كل عمليات البلورة والانصهار مختلف مرافق الحياة الثقافية والاجتماعية والسياسية والاقتصادية .

ولم تمض إلا فترة قليلة خلال نظام الأمويين الذي قام على السيادة العربية حتى انصهرت القوى العربية مع العناصر الأخرى ، وفي حكم العباسيين الذي أصبح طابعه إسلاميا شاملاً تعمق الانصهار ، وأتيحت الفرص لكل العناصر أن تقيم دولاً وحكومات . غير أن هذا الانصهار الاجتماعي قد حفظ أمرين أساسيين له : اللغة العربية والاسلام ، فقد انسحبت هذه العناصر من أديانها أولاً بأول ، كما انسحبت من لغاتها ، إذ أصبحت اللغة العربية هي لغة العلم والسياسية . ولقد كان طابع الاسلام واضح البروز في هذا المجتمع الجديد الذي امتزجت فيه العناصر المختلفة . فقد ظهرت حركات النقد الاجتماعي ، ومناصحة الولاء والزهد كردّ فعل على الانحرافات التي اضطرب بها المجتمع ، وفي مواجهة حركة اللهو والانحراف . وقد حملت بعض هذه الفرق لواء الأمر بالمعروف ، والنهي عن المنكر . وفي مقدمتها حركتا خالد الدربوس وسهل بن سلامة الأنصاري وهما من دعاة الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر . والعمل بكتاب الله . يقول الطبري إنه تبعهما خلق كثير ، وقال ابن خلدون : إن الذي دعا إلى هذه الحركة هو توافر أهل الدين والصلاح على منع الفساق وكف عاديتهم . ثم كانت حركة الزهد التي قادها : عبد الله بن المبارك ، شعبان بن عتيبة ، سفيان الثوري ، الفضل بن عباد . هي رد الفعل على انحراف المجمع ، وقد رفض هؤلاء عطاء الأمراء .

وعندما ظهرت حركة الزندقة ( الشك والالحاد ) قاومها العلماء ، والخلفاء . يقول المسعودي ان المهدي أمعن في قتل الملحدين والمداهنين عن الدين ، كما قاوموا ما انتشرمن كتب ماني وابن ديصان ومرقبون ، وماترجم من الفارسية والفهلوية الى العربية ، وما صنف في ذلك ابن أبي العوجاء وحماد عجرد ويحيى بن زياد ومطيع ابن إياس في تأييد المذاهب المانوية والديصانية . كما أمر المهدي رجال الكلام والمعتزلة بالبحث والكتابة في الرد على الملحدين . وقد قاموا في ذلك بحركة واسعة دحضوا فيها شبه الملحدين .

وقد اقتفى الخليفة الهادي ( ١٦٩ هـ ) نفس الطريق الذي سلكه المهدي ، فقام أصحاب ماني التي وصفت بأنها « فرقة تدعو الناس إلى ظاهر حسن ، ثم تخرجها إلى عبادة اثنين : أحدهما النور . والآخر الظلمة » كما تعقب الرشيد الزنادقة ( ١٧١ هـ ) . كما واجه العلماء والفقهاء كل فرقة ظهرت تقاوم

الاسلام ، من أمثال عبد الكريم بن أبي العوجاء الذي وضع أربعة آلاف حديث مكذوب . وحماد الراوية ، وصالح بن عبد القدوس ، وبشار بن برد ، وابن المقفع .

وقد كان دعاة الزهد ونقد المجتمع ، يواجهون هذه الحركات ويصححون المفاهيم ، ويدحضون دعاوى المضللين . ويجدون تقديراً بالغاً لما اتسموا به من ورع وتقوى ، وعزوف عن أصحاب الجاه والسلطان ، وكان سفيان الثوري مع صلاحه وورعه يعيش من تجارته ، ويرفض عطاء الولاة ، وكان المعتزلة في مقدمة من تصدوا للردّ على الزنادقة ، وفي مقدمتهم واصل بن عطاء ، وأبو الهذيل العلاف ، وبشر بن المعتمد ، وإبراهيم بن النظام . وهكذا واجه الاسلام كل ما جرى حوله من مؤامرات لتحريفه أو تأويله ، وبقى قادراً على نقاء روحه وطابعه وسلامة شخصيته ومعالمه ، كما قاوم البدع والأفكار الأعجمية والوثنية . كما امتحن بالمادية والترف والالحاد والزندقة والفلسفات ، حتى شك الناس في قدرة الاسلام على مقاومة هذه الهجمات ، ولكن الاسلام لم يستسلم ولم ينهزم ، وقام خلال مختلف مراحله رجال أعلام ، ودعاة أبرار فضحوا المتآمرين ، ورفعوا التحريف عن الاسلام ، وكشفوا عن جوهره الأصيل ، وقاوموا البدع والخرافات ، ودافعوا عن السنة دفاعاً حاراً . وحاربوا الوثنية والترف ، وجهروا بالحق في وجه الولاة والأمراء ، وبذلك انتصر الاسلام في هذه المعركة الضخمة خلال مرحلة التبلور الفكري والانصهار الاجتماعي ، وصهر التراث الانساني كله في بوتقته ، دون أن يخرج عن أصوله ومفاهيمه وأسسه ، ومضت قوى الدفاع عن الاسلام وتحريره من الزيوف ، وتنقيته من التقاليد والبدع ، والتحريف ، وإعادة عرضه في صورته الصادقة ، بما يوائم تطور المجتمعات ، وتحول العصور ، وظل تاريخ الاصلاح والتجديد متصلاً لم يتوقف ولم ينقطع ، فلم تمر فترة دون ظهور مصلح أو مجدد ، يعارض التيار المنحرف ، ويكافح الفساد الشامل ، ويرفع صوت الاسلام الحق ، ويفتح نوافذ جديدة أمام اتصال الاسلام بالحياة ، وقدرته على الأخذ والعطاء وما من مجدد او عالم أو مصلح إلا وقد أضاف إضافة مهما كانت صغيرة . فقد كانت ضرورة في عصرها وجديدة . وبذلك بنى المصلحون لبنات في هذا البناء الضخم كشفاً لجوهر خصائص الاسلام ، وتحديداً لاتصاله بالحياة وفتحا لطريق الاسلام الى غايته في حتمية التاريخ : نظاماً للانسانية كلها .

( ١٤ )

## دور الاسلام في العلم

منذ كشف الإسلام عن مفهومه في تقدير العلم والعقل ، انفتح الطريق أمام المسلمين إلى آفاق البحث . فقد كشف القرآن عن منهج جديد هو « منهج البحث العلمي » والجدل العلمي ، والمطالبة بالبرهان والدعوة إلى إمعان النظر والفكر ، وحمل على المقلدين الذين يعطلون عقولهم ، وأكبر الإسلام العقل إكباراً ، ودعا إلى النظر في الكون ، وجعل العقل أساساً للتحكيم والتفكير في الطبيعة ، ولفت النظر إلى السماء والأرض ، والجبال ، وخلق الإنسان والنبات ، ودعا القرآن إلى إيقاظ العقل ، ورفع من شأن العلم والعلماء . ( قل هل يستوي الذين يعلمون والذين لا يعلمون ) وكانت نظرة الرسول إلى العقل نظرة تعظيم ، وهو عنده أصل الإسلام وأساسه ، وأن لا دين لمن لا عقل له ، فالعقل أصل دينه ، وبه يتفاضل الناس . وقال : العقل نور القلب ، يفرق بين الحق والباطل ، وفضل الإسلام العالم على العابد ، خذ الحكمة ولا يضرك من أي وعاء خرجت ، وطلب العلم فريضة على كل مسلم ومسلمة .

وفي نطاق هذه المفاهيم : كانت انطلاقة المسلمين والعرب إلى مجال الفكر والحضارة ، فأصبح للعلم مقامه الأسمى في الفكر العربي الإسلامي ، وقام منهج هذا الفكر على سلطان العقل ، محاكمة ومحاجة ، وتقريراً . فإذا تعارض دليل النقل ودليل العقل ، عملوا بدليل العقل ، وأخضعوا الأدب والتشريع للبرهان ، وعالجوا القضايا على أساس المنطق ، والدليل ، دون أن يخل ذلك

بمفهوم التكامل والشمول في الإسلام ، « مادة وروح » معاً . وقد فتح لهم هذا « الإيمان بالعقل » الذي أمدهم به الإسلام أبواب البحث العلمي حين كانت أوروبا غارقة في ظلمات العصور الوسطى . ومن ثم أبرز الإسلام تفوقاً ملحوظاً في مجال الحضارة ، وساهم بدور فعال في مختلف عناصر العلوم والفنون : الطب والصيدلة ، الكيمياء والزراعة ، الرياضيات والفلك والجغرافيا ، التجارة والصناعة ، العمارة والبحرية ، الإدارة والموسيقى ، الفروسية . واستمد المسلمون قاعدة البحث العلمي من مفهوم القرآن أساساً . وقد بدأ اتجاه العقل الإسلامي إلى هذا المجال مبكراً قبل عصر الترجمة ، وتجلى ذلك أولاً في مجال الفقه والتشريع والقانون . ثم امتد إلى مجال العلوم ، وكان يزيد بن معاوية في مقدمة من تناولوا هذه العلوم . ثم كان للترجمات التي تمت في خلال خلافة المنصور والرشيد والمأمون ثمرتها في بروز العقلية الإسلامية في مجال العلوم حيث استطاع مجموعة من العباقرة المسلمين ، الانتفاع بما وصل إليه اليونان في المجال ، والإضافة إليه والتوسع فيه على نحو حقق نتائج بعيدة المدى .

وقد امتد هذا القطاع منذ القرن الثالث الهجري إلى القرن العاشر ، لم يتوقف ، ولم تحل دونه الأحداث التي اضطرب لها عالم الإسلام : في مرحلة « الغزو الخارجي » . وقد انتظم البحث العلمي : عالم الإسلام كله ولم تقتصر ، وحدة من وحداته على العمل وحدها . فمن حران والقاهرة ودمشق وبوزجان وخوارزم وطوس وبغداد والري وقرطبة وبخارى والبصرة . ظهر ذلك العدد الكبير من العلماء الذين عملوا في مجال الجبر ، والتفاضل والتكامل . والفلك والطب ، والرياضيات والبصريات والجراحة ، ومنهم من جمع بين الطب والفلسفة ( الرازي ) ومن جمع بين الفلسفة والنجوم والفلك والحساب والهندسة والطب والطبيعيات والموسيقى ( الكندي ) ومنهم واضع علم الجبر ( الخوارزمي ) ومن يساوي مكانه في الكيمياء مكان أرسطو في المنطق ( جابر بن حيان ) . في هذه المرحلة برز جابر بن حيان ، ومحمد بن موسى الخوارزمي ، والكندي ، وثابت بن قرة ، والتباني ، وأبو بكر الرازي ، والفارابي ، والبوزجاني ، وابن يونس ، وابن سينا ، وابن الهيثم ، والبيروني ، وأبو القاسم الزهراوي . وقد حقق هؤلاء العلماء في مجال العلم بأنواعه إضافات جديدة ، تسلمها من جاء بعدهم ، وكانت بيئة المشرق في أول هذه المرحلة ذات أثر

واضح ، ثم أصبحت بيئة الأندلس من بعد أكثر قوة واهتماماً . ومنها تحولت نهضة العلوم إلى الغرب . فإن كل جزء من أجزاء الأندلس كان يسقط في أيدي الفرنجة . إنما كان يصبح بدراساته وتجاربه التي حققتها الحضارة الإسلامية خلال القرون المتوالية جزءاً من أوروبا . لقد تسلم المسلمون والعرب من الفكر اليوناني والهندي مبادىء هذه العلوم ، ثم تعمقوها وقدموا عليها تصحيحات هادفة وإضافات مهمة ، وليس صحيحا ما ردده خصوم الإسلام من أن العرب لم يكونوا إلا نقلة . تقول دكتورة : سجريد هونكه : « حين أخذ العرب هذه الأشياء ، فإنهم لم يكونوا مجرد وسطاء لنقلها فحسب ، الا فإن الإغريق هم وسطاء أيضا . إن لكل عبقرية طابعها الخاص ، وطريقها الخاص ، وإن مآثر العرب الخالدة لتقوم على تطويرهم بواسطة المشاهدة والتجربة للمعطيات العلمية المورثة عن الإغريق . وان العرب هم مبدعو « التجربة » بالمعنى الدقيق للكلمة ، وهم الخالقون الطبيعيون « للاستقصاء العلمي » فقد كانوا أول من جعل من المواقع المعزولة عن متنها نقطة الانطلاق لكل بحث ، وعندئذ أصبح الارتقاء الصبور من الخاص إلى العام ، أو الطريقة الاستقرائية : اثقل عليه طوال ألف عام ويفرد جناحيه لكي يطير ، إلا بعد ما استمسك بالمنجزات العربية في الميادين التقنينية والصحية والادارية . بعد ما تبنى هذه المنجزات على المستوى الحضاري .

وشهدت أبحاث المسلمين في مجال العلم أنهم كانوا لا يضعون قاعدة إلا بعد تجربة وإسعة تبلغ عشرات المشاهدات . وقد قدم المسلمون في مجال العلوم كشوفاً جلى :

( ١ ) في مجال الفلك وحركات النجوم ، شيدو « مراقب » في مختلف العواصم ، وبلغوا الغاية في استقصاء السماء وتوصلوا إلى اكتشافات لا حصر لها في تحديد مدارات الشمس والقمر والنجوم ، بصورة متزايدة الدقة .

( ٢ ) وفي مجال الرياضيات بلغوا الغاية في حل المسائل بواسطة الحساب ، أول من استخدموا الفاصلة للإشارة إلى الكسور ، كما أسسوا علم المثلثات والحساب الستيني ، وقسموا الدائرة إلى ٣٦٠ درجة ، ووضعوا الحساب التفاضلي الذي أسسه ابن سينا . وقد قادت الفارابي إلى نظرياته في الفنون

الموسيقية قريباً من اللوغاريتم ، ونظريته في المقادير المتناهية في الصفر مع نظرية ابن سينا ، ألهمت العلماء الأوروبيين .

* ابن سينا : اكتشفْ الطبيعة المعدية لمرض السل ، وصف مرض الالتهاب في الغشاء الصدري ، وكثيراً من أمراض الأعصاب . أول من كشف مرض الإنكلستوما وعلامات الإصابة والقابلية لمرض السل .

* الرازي : كشف عن مرض الجدري والحصبة . عرف التطعيم ، واكتشف أن مركز الإبصار هو قاع العين ، ونادى بأن الكيمياء يجب أن تستغل في خدمة الطب ، وعرف كثير من الأطباء المسلمين فائدة الكي ، وأعراض السرطان الذي يصيب المعدة ، ووضعوا الجرعات في حالات التسمم ، وهو أول من وصف استخراج الماء من العين .

* ابن الهيثم : أول من قرر أن الرؤية تتم ليس بواسطة شعاع تطلقه العين في اتجاه الأجسام إلى العين التي تراها بواسطة جسمها الشفاف . بل العكس ، ووضع نظرية الظل ، وكان سباقا إلى استخدام الغرفة المظلمة في تجاربه .

* جابر بن حيان : مؤسس علم الكيمياء .

الخوارزمي : ما زال اسمه يطلق على الأعداد وهو علم الجبر .

* البيروني : حدد الكثافة النوعية لكثير من المعادن والأحجار الكريمة .

* الزهراوي : أعظم الجراحين وفي كتابه : « التصريف لمن عجز عن التأليف » وصف دقيق للعمليات الجراحية ، أول من لجأ إلى استئصال حصاة المثانة من النساء عن طريق المهبل ، ونجح في شق القصبة الهوائية ، كما جرى عملية تفتيت الحصاة في المثانة .

وفي مجال الطب اكتشف علماء المسلمين : التطعيم ضد الجدري ( الرازي وابن سينا ) . وابن النفيس الذي اكتشف دورة الدم الصغرى قبل وليم هارفي بأربعمائه عام ، وقد اشتغل بالطب عدد كبير من علماء المسلمين بلغ في عصر واحد في عاصمة واحدة . « بغداد » : في عهد الخليفة المقتدر بالله ما يقرب من تسعمائة طبيب ، والجرجاني كشف عن تضخم الغدة الدرقية ، وبهاء الدولة عرف السعال الديكي ، ومهر المسلمون في الجراحة ، وخاصة في أمراض

العيون ، وكانوا أول من طبق طريقة التخدير العام في العمليات الجراحية ، كما كانوا يستخدمون التعقيم بواسطة الكمادات الحارة ، وكان الأطباء المسلمون أول من استخدم المرقد ( المخدر ) في إجراء العمليات الجراحية ، ووضعوا علاج اليرقان والهواء الاصفر ، وأول من كتبوا في الجذام والعدوى ، ووسائل انتقال المرض ، وكان لهم دورهم في الصيدلة . يقول جورج سارطون : إن التشريح كان في أوروبا ممنوعا البتة ، فإذا جئنا إلى الإسلام رأينا أن صناعة التشريح قد بلغت فيه الذروة وخصوصا في المغرب ، وأعظم تقدم علمي حققه المسلمون كان في علم البصريات ، وفي مقدمتها أبحاث الكندي وابن الهيثم والخازن . فقد عارض الكندي كل من سبقه من العلماء الذين اعتقدوا أن العين ترسل أشعة تبصر بها الشيء المرئي ، فقرر أن شكل الجسم المرئي هو الذي ينفذ إلى العين مراراً من خلال العين ماراً خلال الفتحة الشفافة ( العدسة ) وفي دراسات انكسار الأشعة وانعكاساتها وانقلاب الصورة المعكوسة .

( ٣ ) وفي الكيمياء لمع نجم العلماء المسلمين ، وما تزال كثير من الصطلحات الكيمائية الأوربية تحمل الاسم العربي كالقلويات والأنبيق ، والقصدير ، والتنور ، والزرنيخ ، والدانق ، والخميرة ، والزئبق .

( ٤ ) وفي الطبيعيات درس المسلمون علم مركز الأثقال ، وخواص السوائل . ( عبد القادر الطبري ) والخازن له بحث في الضغط الجوي ، وللمسلمين أبحاث في الجاذبية سبقوا بها نيوتن .

( ٥ ) وفي الرياضيات كانت أوروبا تجهل استعمال الأرقام .

( ٦ ) وفي الجغرافيا : ياقوت والمقدسي وابن الفقيه وابن حوقل والمسعودي والبيروني وابن بطوطة وابن جبير وابن خرداذبة والأدريسي . ومن الخرائط التي رسمها العلماء المسلمون كون « كولومبس » فكرته عن الكرة الأرضية . وكان اعتقاد الاوروبيين أن الأرض مسطحة ، فغير الجغرافيون المسلمون هذا الاعتقاد ، وأكدوا كروية الأرض . وقد زخرت البحار والمحيطات بأساطيل المسلمين ، وما تزال مصطلحات الفلك عربية : [ القلفطة ، أمير البحار ، دار الصناعة ، الطرف ، كرسي الجوزاء ، الكف ، الأرنب ، العرقوب ، سعد السعود ] والغزاري هو أول من اصطنع الاصطرلاب .

وهم أول من اخترعوا الكتابة البارزة للمكفوفين : ( زين العابدين الآمدي ) . والحوالة المالية عرفها العالم الإسلامي قبل أوروبا . وكذلك الورق والطباعة ، والقطن أهداه المسلمون الى أوربا .

( ٧ ) والمسلمون لهم دورهم في الموسيقى . وقد عرفت أوربا آلات الموسيقى التي جلبها المسلمون : العود ، والصفارة والرباب والصنوج والنفير .

ويقول الدكتور فرانتز روز نيتال : إن أعظم نشاط فكري قام به العرب والمسلمون يبدو لنا جلياً في حقل المعرفة التجريبية ضمن دائرة ملاحظاتهم واختباراتهم ، فإنهم كانوا يبدو نشاطاً واجتهاداً عجيبين ، حين يلاحظون ويمحصون ، وحين يجمعون ويرتبون ما تعلموه من التجربة ، أو أخذوه من الرواية والتقليد . فإن اسلوبهم في البحث اكبر ما يكون الأمر في نطاق الرواية والوصف .

ويقول فرانتز روزنيتال : أن الغاية يجب أن تكون عند المسلم محددة واضحة قبل الشروع في أي بحث . أما البحث الذي لا يعلم صاحبه إلى أين سيؤدي به ، ولا النتائج التي تسفر عنه فيحرم في الإسلام ، وحاجة هذا العلم أن يعرف الإنسان أن لا إله إلا الله وأن محمداً رسول الله . وأعتقد أن العقيدة بالقضاء والقدر ، لم تؤثر التأثير السيء في النشاط الفكري الإسلامي طيلة قرون عشرة . لقد كان المؤرخون المسلمون . كما كان العلماء يعتمدون على الوثائق المدونة .

ولم يكن للمعارف التي تعتمد الذاكرة شأن في تأليفهم . ولم يستنكف المؤلفون المسلمون عن ذكر « الجذاذات » التي كانوا يدونون عليها الملاحظات ، أو ينسخوا منها المقتبسات . وقد عني علماء الحديث والفقه ، وعرفوا في الدرجة الأولى بالأمانة والدقة في ذكر المصادر المأخوذ عنها . لأن الأسانيد في نظرهم جزء من مادة البحث . وكل عمل آخر له علاقة مباشرة بهذين العلمين « الحديث والفقه » تأثر إلى حدّ بعيد بالأسلوب المتبع في دروسهما ومعالجتهما . ومن الواضح أن العلماء المسلمين كانوا يقدرون أهل العلم من غير دينهم ، ويحترمون الثقات منهم أيما احترام . وقد ألف العلماء المسلمون كتباً لدحض آراء معينة ، وكثيراً ما كان العلماء المسلمون يحاولون وضع مقاييس لتقرير صدق المعلومات لشعورهم بضرورة ذلك ، عندما يجابهون المشاكل حكماً في إثبات الحقائق ، وأن الحقائق لا يمكن الحصول عليها إلا بواسطة المعلومات التاريخية المتوفرة لدينا .

وأوصى رشيد الدين عم ابن أبي أصيبعة ، المؤلفين والمؤرخين أن ينظروا في كل خبر نظراً عارياً عن محبة أو بغضة وأن يزنوه بميزان العقل والقياس ، وأن يتفحصوه .

وقد كانت الغاية المثلى للتربية عند المسلمين أن يقرب الإنسان من الكمال ما مكنه الاقتراب في كل ناحية من نواحي العلم في سنّ مبكرة جدّاً . فإن ابن سينا يباهي بأنه كان يجيد معرفة كل علم وفن يخطر بالبال . ويقول الأزدي في كتابه « تاريخ الممالك الإسلامية » إن الزمن لا يقف ، بل إن صفته الدائمة التغير . ولم تكن فكرة التطور الفكري المستمد من جيل إلى آخر فكرة غريبة كليّاً عن التفكير الإسلامي ، وكان الرازي يرى أن تاريخ الفلسفة بناء متواصل على أسس وضعتها الأجيال السابقة . وتأخذ نظرية ابن خلدون فكرة التطور التدريجي بعين الاعتبار في مجال الطب والكيمياءولم تكن فكرة التطور والنمو التدريجي غريبة على العلماء المسلمين وقد اعتبروا بلوغ الكمال بمعنى أن المتأخر يتم عمل المتقدم هو الصفة الرئيسية التي يتصف بها التطور والنمو من جيل الى جيل .

## ( ١٥ )

## « انتشار الاسلام »

كانت عدالة النظام الإسلامي في مختلف وحدات عالم الإسلام ، بعد أن تمت حركة التوسع ، عاملاً هاماً في انتشار الإسلام نفسه ، وانتقال الناس إليه ، فإن تخليص الإسلام للجماعات المختلفة من الجور والظلم كخطوة أولى . ثم ما حققه من حرية لجماعاتها ودياناتها كتطبيق عملي للإسلام نفسه ، في حدود ما أذاعته تعاليمه وما رسمه عمر بن الخطاب وغيره من الولاة في العقود التي عقدوها كعقد بين المقدس وغيره . كل هذا أسرع بالجماعات المختلفة إلى الإسلام بعد أمد قصير ، وزاد في ذلك ما عرف عن بساطة الإسلام وبعده عن التعقيد . وصدق توماس أرنولد حين قال : إن القوة لم تكن عاملاً حاسماً في تحويل الناس إلى الإسلام ، وقد تولت جماعات من العلماء والفقهاء في مختلف الوحدات الجديدة إذاعة مبادىء الإسلام وشرطها ، وكان الخلفاء يرسلون إلى كل قطر من يفقه الناس في دينهم ، ويحفظهم القرآن ، وكانت « الجزية » التي يدفعها غير المسلمين ـ وهي بمثابة ضريبة الدفاع التي تفرض على غير المسلمين في مقابل الدفاع عنهم مع إحلالهم من الاشتراك في القتال ـ هذه الجزية كانت ترفع فور إسلام صاحبها . وقد ردّ المسلمون « الجزية » لأهل حمص عندما تحولوا عنها ، ولم يستطيعوا أن يمنعوا أهلها . وقد كانت مغريات « الأخوة » بين المسلمين كافة عاملاً هاماً في اندفاع الناس إلى الاسلام . وقد شهد لحرية الارادة في إسلام المجموعات المختلفة كثير من الباحثين المنصفين . يقول توماس أرنول : لم نسمع عن أية محاولة مدبرة لارغام الطوائف من غير المسلمين على قبول الاسلام ،

أو عن أي اضطهاد منظم قصد به استئصال الدين المسيحي ، ولو اختار الخلفاء تنفيذ إحدى الخطتين لاكتسحوا المسيحية بتلك السهولة التي أقصى بها ( فرديناند وإيزابيلا ) دين الاسلام من أسبانيا ، او التي جعل بها لويس الرابع عشر المذهب البروتستانتي مذهباً يعاقب عليه معتنقوه في فرنسا ، وان مجرد بقاء الكنائس الشرقية في آسيا حتى الآن ليحمل في طياته الدليل القوي على ما قامت عليه سياسة الحكومات الاسلامية بوجه عام من تسامح نحوهم . والمعروف أن المسيحيين في بداية دخول العرب لبلادهم قد انتقلوا إلى الاسلام في جموع هائلة .
واتسمت الفترة التي تولى فيها عمر بن عبد العزيز الخلافة ( ٩٩ - ١٠١ ) بتعميق ضخم لدعوة الاسلام وتحول واسع النطاق إلى الاسلام ، ونقل مجال الدعوة الاسلامية من التوسع الجغرافي إلى التعمق العقائدي ، فقد أرسل عشرات الرسائل يدعو الرؤساء والأمراء في مختلف وحدات عالم الاسلام إليه ، وكانت شخصيّته عاملاً هاماً في هذه الحركة ، فإن الصورة التي رسمتها حياة عمر بن عبد العزيز في سماحته وتفقهه واستعلائه على مظالم الحكام ، وعدالته المقطوعة النظير ، وكانت هي أساساً مصدر ما تحقق من نجاح بعيد المدى في هذا السبيل حتى دخلت ألوف مؤلفة من الناس إلى الاسلام عن طريق الولاة النادرين الذين اختارهم ، وكانوا من تلاميذه فكراً ، وعلى نهجه عملا . كما أنه ألغى القرار الذي كان قد وضع قبلاً ، فأعفى من يدخل في الاسلام من دفع ضريبة الرأس ، ودفع ضريبة الأراضي واستبدلها بضريبة أخف هي ضريبة العشر ، وكانت هذه الأساليب كما يقول أرنولد : « وإن انطوت على خسارة فادحة من الناحية المالية قد صادفت نجاحاً تاماً في الاتجاه الذي كان يريد أن يحققه صاحب العقلية التي شربت الورع والتدين ، فبادرت جموع هائلة إلى الدخول في زمره المسلمين »
يضاف إلى هذا ما قام به ولاة المسلمين من عمل متصل في الرد على الشبهات التي يثيرها أصحاب الأديان الأخرى ، وخصوم الاسلام . والمأمون ( ١٩٨ - ٢١٨ هـ )مثل بارز في هذا المجال . فقد كان شديد الحماسة للجهود التي تبذل في نشر الاسلام . وقد أرسل إلى كثير من الأمراء ممن كانوا يقيمون في أقصى أجزاء عالم الاسلام كبلاد ما وراء النهر ، وفرغانة يدعوهم إلى الاسلام ( البلاذري ) .

* * *

منذ أن توقف التوسع الإسلامي إلى أن بدأ الغزو الخارجي لعالم الإسلام بالحملات الصليبية ، كانت عمليات البلورة والانصهار الفكري والاجتماعي تحاول أن تعيد صياغة مجتمع موحد وعقلية متقاربة ، وكانت الأجناس العربية والفارسية والتركية والبربرية تتلاقى وتنصهر في بوتقة عالم الإسلام بحدوده الجغرافية لتكون « أمة واحدة ذات عقلية واحدة » وكانت الفلسفة والمذاهب والنظريات والعلوم والآداب والفنون الهندية والفارسية والرومانية واليونانية والمسيحية واليهودية تحاول ان تنصهر في بوتقة الفكر الإسلامي بمقوماته الأساسية ، فكر أمة واحدة . غير أن ذلك العمل كان على ضرورته خطيراً ودقيقاً ، وكان مليئاً بالتحديات ، ومؤامرات خصوم الإسلام . ومن هنا بدأ ذلك الصراع الضخم بين الفقهاء والفلاسفة والصوفية ، في معركة كبرى ذات نحل وفرق مختلفة متعارضة ، كان قوامها سياسياً في الأغلب . غير أنها لم تلبث بعد أجيال متعددة أن تبلورت عن قيام « أسس كاملة » للفكر الإسلامي دعامتها القرآن نفسه ، وقوامها « جوهر الإسلام » كما دعا إليه محمد رسول الله ، أساسه « التوحيد والنبوة والقرآن » على قواعد الإسلام الأصلية ، ولم يبق الخلاف قائماً إلا في الفرعيات والقضايا والمسائل التي لا بدّ من الخلاف فيها نتيجة اختلاف الأجناس والأوطان والظروف .

وكانت أكبر قضية خلافية هي قضية العقل والروح : هذه التي أقامت معسكري السنة والشيعة من ناحية ، وطبعت الفكر الإسلامي بطابع فلسفي معتزلي من ناحية ، وطابع صوفي روحي من ناحية أخرى . والواقع أن الإسلام في جوهره ليس إلا امتزاجاً دقيقاً وواعيا بين العقليات والروحانيات ، فلا يمكن الفصل بينهما ، ولا يرجح أحدهما عن الآخر ، وكل ادعاء بأن جانبا بمفرده مثل مفهوم الإسلام هو ادعاء مردود .

وقد كان رجحان العقليين في مرحلة من مراحل تاريخ الاسلام مدعاة للاضطراب . كما كان رجحان الروحيين في مرحلة اخرى . ومن هنا كانت حتمية الاستمرار في الاسلام قادرة على تصحيح المفاهيم ، ورد كل انحراف ينشأ بين حين وحين ، بقيام داعية مصلح يعيد صياغة مفهوم الاسلام على اساس جوهره القائم على التكامل والشمول والوسطية .

***

وفي خلال « مرحلة التبلور » والانصهار ظهرت دعوات المعتزلة والفقهاء والفلاسفة ، ثم برزت الصوفية التي تحمل طابع الزهد اول الأمر ، وكانت رد فعل للترف والانحراف الذي اصيب به المجتمع الإسلامي في تطوره . ثم تطورت الدعوة الصوفية في القرن الثالث من زهادة ملتزمة لقواعد الإسلام متمسكة بالفقر ، ومحاربة النفس والتوكل على الله . إلى فلسفة نظرية قوامها دعوة إلى وحدة الوجود والحلول والاتحاد . وبذلك انحرفت عن مضمونها الإسلامي الأصيل ، حين تأثرت بالفلسفات القديمة ، وبالنظريات الباطنية والمنحرفة التي كانت بعض دعوة خصوم الاسلام في سبيل إخراجه عن مفاهيمه الأصلية . وقد اتصلت بأصحاب الدعوة إلى الصوفية الفلسفية ، شبهات التآمر على الإسلام فإن كلا من الحلاج والسهروردي قد اتهم بموالاة حركة من حركات الانتفاض على الإسلام .

وقد قدم التصوف الإسلامي في تياره الأول « الزهد » روحاً جديدة إلى الفكر الإسلامي تخفف من جفاف الطابع العقلي الذي سيطر على دعوات الفلسفة والاعتزال والفقه، غيرأنه لم يلبث أن دخل في متاهات فلسفية أذهبت عنه أصالته وسماحته وبساطته المستمدة من « جوهر الإسلام » حين أخذ يبحث في قضايا المعرفة والأحوال ، والمواجد والأذواق . غير أن الإمام الغزالي في نهاية هذه المرحلة ، قد استطاع أن يقضي على هذا التمزق الذي أصاب الفكر الإسلامي بانقسامه إلى فقه وتصوف ، فأعاد صياغة الفكر الاسلامي من جديد ، فامتزج التصوف والفقه وعادت الى الاسلام وحدته . وكان هذا مقدمة للوحدة الاسلامية التي استطاعت من بعد أن تواجه الغزو الصليبي . غير أن التصوف كان قد تحول إلى مرحلة جديدة ، قوامها تكوين الفرق الصوفية . هذه الفرق التي توسعت في مرحلة الغزو الخارجي من بعد .

والحق أنه إذا كان « التصوف » الذي بدأ باسم الزهد ، إنما جاء بمثابة رد فعل على الإسراف في الترف الذي وقع فيه الامراء والولاة والحكام . فإنه قد انحرف حين تحول الى دعوة واسعة ، عن مفهوم الإسلام في التحرر من الفقر ، هذا التحرر الذي يتم بتحويل الطبقات الشعبية إلى اليسر بإحقاق العدل الاجتماعي والزكاة ، وليس بإقرار الفقر وفلسفة الرضا به ، والدعوة إليه ، فقد ظهر في ظل الدعوة الصوفية مفهوم التواكل والاستسلام وقبول الذل والفقر مما يخالف مفهوم

الإسلام نفسه ، وإن كان قد قام في خلال تلك الفترات من دعا إلى الإصلاح ومناصحة الولاة وتحرير مفهوم الإسلام من انحراف التصوف كدعوة جزئية تتسم بطابع الروحية ، ولا تمثل شمول الاسلام وتكامله ووسطيته التي تجمع بين الروح والمادة والعقل والقلب ، والعمل للدنيا والآخرة معاً . وقد خرجت الصوفية بذلك عن بساطة الاسلام وفطرته وعباداته البسيطة ومظهره السمح حين تحولت إلى رموز ومعميات وانفصمت به عروة فلسفة الاسلام التي تجمع بين حصول المعرفة عن طريق القلب والعقل معاً .

***

أبرز ما يتمثل في هذه المرحلة بعد أن بلغت « موجة » التوسع والامتداد الإسلامي غايتها هو : أن العوامل المختلفة قد أخذت تتجمع محاولة أن توقفها أو تصدها . وبدا أن الموجة قد بلغت غاية امتدادها الزمني خلال أكثر من مائة عام من ناحية ، وغاية امتدادها الجغرافي إلى قلب أوربا ، من ناحية أخرى ، في خلال هذا التوسع كانت معركة أخرى على وشك أن تدور ، معركة من طرفين :

أحدهما في الداخل ، والآخر في الخارج ، وكلاهما مجمع على دحر الإسلام وتقليص ظله ، والقضاء عليه ، وقد تنبه المسلمون لهذين الخطرين . أما أحد الخطرين فكان قريباً ملاصقاً يتحرك في قلب عالم الإسلام ويتمثل في عملين :

( ١ ) عمل حركي ، يحمل طابع التآمر السياسي على نظام الدولة ، ويتمثل ذلك في حركات البابكية والقرامطة ، والباطنية وغيرها .

( ٢ ) عمل فكري ، يحمل طابع الشعوبية والتآمر على قيم الإسلام ومفاهيمه ، وقد كانت أغلب هذه الحركات تجمع بين التآمر السياسي والتشكيك الفكري . ويستهدف ذلك القضاء على الإسلام بالقضاء على دولته والقضاء على مفاهيمه . ولقد امتدت هذه المعركة طوال تاريخ الإسلام ، وامتدت المقاومة ، ورد الفعل لهذا التحدي ، في ظل جبهة من العلماء والمفكرين ، والدعاة يمكن أن يطلق عليهم اسم « المصلحون المجددون » تحمل لواء العمل لمواجهة هذه الحملات التي هي أشد عنفاً من الحملات العسكرية والحربية . وقد استمرت هذه الجبهة قوية ممتدة على طول التاريخ كله لم تتوقف ، تواجه هذه الانحرافات والشبهات ، وتكشف محاولات الخصوم في القضاء على المفهوم الأساسي ، والقيم

الأصلية الإسلام ، وقد استطاعت هذه الجبهة أن تحقق كثيرا من النصر ، وأن تقضي على عوامل تجزئة مفهوم الإسلام أو تحريفه أو تشويهه . وقد برز هذا العمل واضحاً خلال هذه المرحلة في مجال ترجمة التراث : اليوناني والفارسي والهندي ، وتداخل المفاهيم الوثنية والإسرائيليات والشبهات إلى مضمون الإسلام .

ولقد كانت هذه المعركة خلال تلك المرحلة من أبرز المعالم التاريخية لهذه الفترة التي تتمثل فيها قوى :

( ١ ) قطاع الترجمة والنقل من الفكر اليوناني والفارسي والهندي .

( ٢ ) قطاع الزهد والنقد الاجتماعي وشجب المجتمع .

( ٣ ) قطاع العلماء العاملين في مجال تقييم الفقه والسنة .

( ٤ ) قطاع المدافعين عن الإسلام في مجال العقيدة .

# الباب الرابع

## مرحلة الغزو الخارجي

## ( ١٦ )
## مرحلة الغزو الخارجي

مر تاريخ الاسلام في مراحل متداخلة . فإن الجماعة الاسلامية التي انصهرت في الجزيرة العربية خلال ثلاثة وعشرين عاما لم تلبث أن حققت اندفاعة ضخمة باهرة أقامت عالم الاسلام من حدود الصين شرقا إلى حدود فرنسا غربا في أقل من مائة علم ، هنالك ازدهرت مرحلة الانصهار والبلورة التي كانت قد بدأت فعلا بعد قيام « التوسع » باتصال العرب بالفرس والترك والتتر وتضلم الوحدات الاسلامية .

غير أن الصراع الداخلي في عالم الاسلام ، والانحراف عن مقومات الاسلام بالتفكك والصراع والتخلف في مجال القوة والوحدة والعدل الاجتماعي قد هيأ الفرصة لضربات متوالية من الغزو الخارجي ، جاءت من الغرب أولا « الحروب الصليبية » ثم جاءت من الشرق « غزوات التتار » واستمرت قرنين كاملين ، لم يستطع المسلمون خلالها مواصلة التوسع لأنهم تخلفوا عن مقومات الاسلام . كانت الغنائم مصدراً من مصادر الهزيمة ، ولم يستطع المسلمون مواصلة التبلور والانصهار في مجتمع واحد ، وفكر موحد . كان الخلاف والخصومة والصراع بين الأمراء والملوك . وكانت فكرة الغزو الغربي لعالم الاسلام كامنة حية ، متحركة لا تتوقف ، تمثلت في تلك الجولات المستمرة بين بيزنطة من ناحية ، وأطراف الاسلام عالم ( الموصل وحلب والشام ) وفي الصراع بين الأندلس ، ودولة قشتالة والفرنجة من ورائها . ثم لم تلبث ان وجدت أمامها

فترة ضعف في ظل موجة السلام التي تخافتت ، فكانت تلك الحملات الصليبية المتواصلة خلال قرنين كاملين في غارات لا تتوقف على جميع سواحل عالم الاسلام في الشام ومصر والمغرب جميعاً، ثم لم تتوقف هذه القوة من بعد وإن ضعفت وخضعت . وقد استطاعت أن تجلي الاسلام والعرب عن الأندلس من بعد ، وأن تنتصر في هذا القطاع في مواجهة هزيمتها إزاء الضربة القاسية التي أوقعتها القوة الاسلامية الشابة « العثمانية » بها بالاستيلاء على القسطنطينية بعد محاولات متصلة لم تتوقف من جانب عالم الاسلام . وهكذا يمكن أن يطلق على هذه المرحلة التي تعد من أدق مراحل تاريخ الاسلام : « مرحلة الأزمة الكبرى » فقد كان توقيتها طبيعيا بالنسبة لرسالة عمت الدنيا في فترة قليلة من الوقت . فكان لا بد أن تمتحن حتى تكشف عما إذا كانت جديرة بالبقاء والخلود ، شأنها في هذا الامتحان شأن كثير من الدعوات والرسالات التي سبقتها وعاصرتها . وقد كشفت هذه الأزمة عن جوانب القوة ، وجوانب الضعف في المجتمع الاسلامي ، وأتاحت الفرصة للمسلمين لمواجهة انفسهم وتجميع قواهم ، ولم يكن هناك من مصدر للضعف إلا ذلك التناقض بين قيم الاسلام ، وبين أعمال المسلمين ، أو بين الايديولوجيا والتطبيق ، فإن عوامل الانقضاض لم تقع من كل جانب من خصوم الاسلام الا بتقدير محسوب يضعف عالم الاسلام أو اضطرابه أو جموده أو قصوره عن حماية نفسه أساساً .

وإذا كانت « أزمة الاسلام » أساسا هي الغزو الخارجي والانقضاض عليه ، وكان أبرزها في هذه الفترة : غارات الصليبيين والتتار . فإن المصدر الحقيقي لذلك هو ضعف الجبهة الداخلية وتفككها ، وتاريخ الصراع بين الاسلام وخصومه يكشف عن حقيقة واقعة ما زالت مستمرة وقائمة ، قوام هذه الحقيقة : أمران : « الوحدة » وهي عمل معنوي و« القوة » وهي عمل مادي ، فطالما كانت الوحدة والقوة استطاع عالم الاسلام أن يواجه خصومه ، وأن يرهب المتربصين به .

والحق أنه كان لا بد أن يمر الاسلام في أزمة ضخمة تستمر فترة طويلة يمكن أن توصف بأنها نصف قرن من الزمان ، امتدت فيها المعارك من الأطراف الثلاثة : من حدود عالم الاسلام في المشرق الأقصى عن طريق التتار . ومن

حدوده الشمالية من حدود دولة البيزنطيين عن طريق الصليبيين ، ومن حدوده الغربية عن طريق فرنسا وأسبانيا في عمليات الانتقاض واسترداد الأندلس . لقد بدأت عمليات غزو عالم الاسلام في اواخر القرن الخامس . غير أن هذه العمليات لم يبدأها خصوم الاسلام إلا بعد أن تأكدوا من ضعف الجبهة الداخلية ، وانقسام الوحدة ، وتراخي القوة ، وهي مرحلة بدأت قبل ذلك بوقت طويل .

***

ويمكن القول إن حملة القوى الخارجية على عالم الاسلام ، إنما جاءت كردّ فعل لفترة المد الطويل خلال خمسة قرون . وكانت الأطراف التي امتد إليها الاسلام هي مصدر الانقضاض من طرفين :

الأول : آسيا الصغرى ( الدولة البيزنطية )
الثاني : غرب أوربا ( فرنسا وأسبانيا )

ومنذ بدأت أعمال التوسع الاسلامي حول القسطنطينية من ناحية ، وحول الأندلس من ناحية أخرى لم يتوقف الاشتباك ، فهل يمكن القول بأن اقتحام الاسلام أوربا خارجا من آسيا وأفريقيا . كان هو المصدر الأساسي لهذه المعركة التي يمكن أن يقال إنها امتدت منذ عام **١١٤** هـ حتى الآن ، ولم تتوقف خلال ألف وثلاثمائة عام . غير أنه لو لم يقتحم الاسلام أوربا . هل كانت أوربا تتوقف عن مهاجمته في أفريقيا ؟ إن نظرة إلى تحركات الدولة البيزنطية مترقبة فترات الضعف لتنقض على حدود عالم الاسلام ، كذلك موقف الفرنجة من المسلمين على حدود الأندلس تكشف عن أن الموقف بين المسلمين وأوربا كان سجالاً منذ هذه الفترة الباكرة في تاريخ الاسلام . فقد ظلت أوربا تحمل في أعماق أعماقها عصراً بعد عصر « طابع الادالة من الاسلام وإخراجه من أوربا » .

ولذلك فإنه لم يكد التوسع الاسلامي يصل إلى مداه . حتى كانت القوة الخارجية تعمل على الانقضاض عليه والانتقاص منه . وتلك سنة طبيعية لا محيد عنها في تاريخ البشرية ، وفي نواميس الكون . ومن هنا كانت دعوة الاسلام لأنصاره في إعداد القوة دائما ، وحماية الثغور والرباط بها ، واليقظة دوماً ( وأعدوا

لهم ما استطعتم من قوة ومن رباط الخيل ترهبون به عدو الله وعدوكم ) وطالما نفذ المسلمون هذا القانون الطبيعي من قوانين البقاء كانوا في مأمن من عدوهم ، وما تراخوا عنه حتى واجهوا حملات الانقضاض والعدوان على أرضهم . ولقد شهدت مناطق الشام وحلب تاريخاً طويلاً في المقاومة والغزو ، وكان لها دور بارز من أدوار البطولة حمل لواءه سيف الدولة الحمداني في فترة من أدق فترات المقاومة . ولالقاء أضواء واسعة على هذه المرحلة نقول :

نما عالم الاسلام واستكمل توسعه عام **٩٣** هـ تقريباً حين بلغ السند وما وراء النهر شرقاً . وبلغ الأندلس غرباً ، تم هذا التوسع خلال ثمانين عاماً ( **١٢ ـ ٩٣** هـ ) ثم توقف في الجبهة الشرقية واستمر في الجبهة الغربية على شواطىء أوربا في حملات متصلة مستمرة حمل لواءها الأغالبة في تونس وجروا بها شوطاً طويلاً ( **١٤٢ ـ ١٨٤** هـ ) . ولم يلبث عالم الاسلام أن دخل مرحلة التبلور والانصهار ، وهي مرحلة دقيقة غاية الدقة ، كانت مصدر صراع فكري لا حدّ له . غير أن أبرز ما تتسم به هذه المرحلة التي نمت فيها الحضارة هي « روح الترف » التي انحرفت بالمجتمع الاسلامي عن مفاهيم الاسلام في وسطيته وتكامله ، والتي تخلت عن طابع الوحدة والقوة واليقظة . كانت الحلقة الأولى في مرحلة التبلور والانصهار في المشرق والمغرب تسير في خط واحد تقريبا : العباسيون في المشرق ، والأمويون في الأندلس . وقد حققت هذه الفترة نتائج ضخمة في مجال انصهار الفكر العربي ، وبرز فيها عدد كبير من بناة الدول والحضارة ، ثم تراخى طابع القوة بتغلب روح الترف . ثم بدأت روح الضعف تسري في عالم الاسلام كله .

ومع ذلك فإن « الدفاع عن أرض الاسلام » لم يتوقف . كانت دولة الأغالبة خلال أربعين عاماً تواجه الفرنجة وتديل منهم ، وتسيطر على شواطىء البحر الأبيض ، وتصل إلى سواحل إيطاليا ، وإلى قريب من العاصمة « روما » . وقد تمكن المسلمون من السيطرة على جزيرة صقلية ( **٢١٢** هـ ) وفي جبهة الدولة البيزنطية كانت مقاومة سيف الدولة مثلا عاليا من أمثلة الكفاح ضد الغزو الخارجي ( **٣٣٣** هـ ) . أما في الأندلس فقد توالت حملات المقاومة التي قادها عبد الرحمن الناصر ( **٣١٦** هـ ) خلال خمسين عاما . ثم توالت حملات ابي

عامر المنصور ( ٣٦٦ هـ ) الذي غزا خمسين غزوة انتصر فيها جميعا . وفي الشرق استطاع محمود الغزنوي أن يوسع عالم الاسلام ، وأن يحقق انتصارات رائعة ( ٣٨٨ هـ ) غير أن تمزق الدولة العباسية في بغداد . وسقوط الدولة الأموية في قرطبة . قد أدى إلى تنمر الغرب إلى مدافعة عالم الاسلام والانقضاض عليه . هنالك انبعثت قوتان جديدتان من أعماق الصحراء بدويتين خشنتين عنيفتين تتمثلان في الأتراك السلاجقة في الشرق ، والبربر في المغرب . ثم تلتهما قوة المماليك في مصر والشام .

* * *

هاتان هما القوتان الجديدتان اللتان سيطرتا على عالم الاسلام ، بعد أن ضعفت القوى المنحصرة التي تخلفت عن مفهوم الاسلام ، كانت قوة السلاجقة في المشرق ( ٤٢٩ هـ ) وقوة المرابطين في المغرب ( ٤٥٤ م ) بمثابة دم جديد ، وعلامة قوة . فقد كانت القوى المتربصة بالاسلام من جدود الدولة البيزنطية ( آسيا ) ودولة الفرنج ( أوربا ) قد تحفزت من جديد لتنقض . فكانت قوة السلاجقة قادرة على الردع على النحو الذي ظهر من بعد في موقعة ملاذكرد بقيادة عماد الدين زنكي ( ٤٦٤ هـ ) ومعركة الزلاقة التي قادها يوسف بن تاشفين في الأندلس ( ٧٤٩ ) بعد أن سقطت طليلة في أيديهم ( ٤٧٨ هـ ) وقد أخرت هذه القوى انقضاض الغرب على عالم الاسلام ، ففي سنوات متقاربة هاجم الفرنجة المهدية ( المغرب ) بأسطول مؤلف من ٣٠٠ مركب ( ٣٠ ألف مقاتل ) عام ٤٧٦ هـ . ثم نزعت الحملة الصليبية الأولى عام ٤٨٩ هـ فاستولت على بيت المقدس ٤٩٣ هـ . غير أن الصورة الشاملة لمقدمات الغزو الخارجي لا تتم الا باستعراض شامل للصراع بين الروم والمسلمين على حدود الدولة البيزنطية .

## ( ١٧ )
## « ازمة الاسلام »

عاش الاسلام بعد مرحلة التوسع والامتداد مرحلة الانصهار والتبلور .

كان المرحلة الأولى : موجة من موجات التوسع بلغت في قرن من الزمان حدود الصين من الشرق وحدود فرنسا من الغرب . ثم كانت مرحلة جديدة انبثقت من أعماق هذه المرحلة ، هي تبلور هذه الجماعة وانصهارها ، فكريا واجتماعيا وسياسيا من خلال العناصر التي تكون منها عالم الاسلام : « العرب والفرس والترك والبربر » غير أن مرحلة الانصهار كانت تضطرم بالصراع السياسي والفكري . يتمثل هذا الصراع في قيام الدول وسقوطها ، وبروز القادة من بناة الدول ، وظهور عديد من الدول المستقلة المرتبطة بالخلافة ، أو المنفصلة عنها ، فضلاً عن ظهور خلافات وحكومات منفصلة ، في ظل هذا الانصهار والتبلور في إطار الاسلام ، فكريا واجتماعيا وسياسيا ، برزت مؤامرات داخلية متعددة من خصوم الاسلام تهدف إلى القضاء على كيان الدولة ، أو مفهوم الاسلام نفسه . حدث هذا التخلخل والاضطراب والانقسام وصراع الحكام والقادة في نفس الوقت الذي كان الفكر الاسلامي يجري نحو الانصهار والتبلور والتوحد .

كان هذا مقدمة لتحد خطير هو الغزو الخارجي لعالم الاسلام في مواجهة الاستجابة لقيمة أساسية من مقومات الاسلام وهي « الوحدة » وعامل خطير هو

« القوة » فإذا تمزقت الوحدة بين أطراف عالم الاسلام ، ووقع الصراع بين الأجزاء ، ثم ضعفت القوة الرادعة ، ورباط الخيل الذي يرهب العدو . إذا ما تراخى هذا كله ، كان ذلك مقدمة لتجمع خصوم الاسلام للانقضاض عليه ، كانت صورة عالم الاسلام تتمثل في أزمة واضحة شاملة ، فقد تراخت نظم الدولة الاسلامية ، وتمزقت الوحدة ، وغلب الترف ، وضعفت الحماية على الثغور ، وبان الخلاف بين الدول المتعددة ، وحكم نظام يعيش في إطار الاسلام ، ولكنه لا يلتزم مقوماته ومفاهيمه ، هنالك كان لا بد ان يواجه عالم الاسلام أزمة كبرى ، ومحنة عاصفة ، تقتطع من حياته مرحلة لا تقل عن ( **٤٩٣ ـ ٨٩٨** هـ ) أربعة قرون وهي مرحلة عصبية عنيفة تداخلت فيها الأحداث على نحو عاصف ، وانتهت باسترداد الغرب للأندلس ، وسيطرة عالم الاسلام على القسطنطينية .

وقد اشتبك فيها المسلمون من خلال معارك طويلة بالصليبيين في حملات متعددة على مختلف الجهات ، من حدود الدوّلة البيزنطية الى فرنسا ، وعبر سوريا وبيت المقدس ومصر وتونس والمغرب والأندلس . كما اشتبك المسلمون في حملات متعددة بالتتار الذين تآمروا مع الصليبيين لاقتلاع عالم الاسلام ومحوه . وكانت الأحداث متوالية دراكاً .

والحق أن الصراع بين عالم الاسلام والغرب لم يبدأ يوم جاءت ( الحملة الصليبية الأولى ـ **٤٩٣** هـ ) وإنما كان قد بدأ قبل ذلك بأربعمائة عام ، يوم اندفعت توسعات الاسلام لتنفذ إلى أوربا من القسطنطينية مرة . ومن الأندلس مرة أخرى ، وكانت أعوام **٩٢ ـ ٩٨** هـ حاسمة في هذا الموقف . فقد كانت « اندفاعة الاسلام » قد انطلقت من الشام إلى هضاب آسيا الصغرى ، حتى بلغت مياه البوسفور ، وحاصرت القسطنطينية كنقطة انطلاق الاسلام ( **٣٢** هـ ) إلى أوربا . ثم عادت مرة أخرى الى ذلك عام **٤٤** هـ . ثم عادت مرة ثالثة عام **٩٦** هـ ورابعة عام **٩٨** هـ . وفي هذه المراحل الأخيرة جاز المسلمون أسبانيا . واقتحموا غرب أوربا ـ إذ استعصت عليهم القسطنطينية ـ حتى بلغوا قلب فرنسا ونهر اللوار ، وكان لاقتحام الاسلام أوربا من غربها ، ووقوفه على حدود الدولة الرومانية الشرقية في سبيل اقتحامها من المشرق ، عاملاً من عوامل الصراع بينه

وبين الغرب لم يتوقف منذ ذلك اليوم وإلى اليوم .

كانت غاية التوسع الأولى والكبرى هي تبليغ أوربا دعوة الاسلام ، وكان الخليفة الثالث عثمان قد تصور ما يمكن أن يصل إليه الاسلام ، حين يتصل بين أسبانيا والقسطنطينية مخترقا قلب أوربا . وكان موسى بن نصير يتطلع إلى أن يصل دمشق عن طريق القسطنطينية .

غير أن أوربا قد استطاعت أن تواجه هذا التيار الجديد ، وأن تصمد في سبيل صده ودفعه ، وأن تقاوم في ذلك غاية المقاومة ـ كان الصراع يجري في ميدانين في وقت واحد : ميدان الدولة الرومانية ( بيزنطة ) حيث كانت عمليات الغزو والادالة بين شمال الشام وحدود بيزنطة لا تتوقف خلال أربعة قرون ونصف القرن . كان عالم الاسلام يقظا لا يتردد في رد عدوان بيزنطة الذي كان يترقب أي لحظة ضعف ليهجم ويحاول أن يستقطع من أطراف عالم الاسلام ، وكان الميدان الثاني هو ميدان الأندلس ، فإن دولة الاسلام التي قامت فيه لم تتمكن من أن تلتقط أنفاسها دون صراع أو مؤامرة ، أو حركة انقضاض على أطرافها . وقد امتد ذلك طويلاً منتهزاً فترات الضعف ليحاول الادالة منها .

وقد امتدت حركة المقاومة لاطراف عالم الاسلام من القسطنطينة والأندلس ، حتى بلغت مرحلة دقيقة عندما بدأت قوة جديدة من قوى الاسلام تبرز هي قوة « السلاجقة » في المشرق ، ثم تلتها قوة « الموحدين » في المغرب والأندلس . وهنا بدأت أوربا تصارع القوتين . وكانت الحروب الصليبية بحملاتها التسع قد بدأت نتيجة لتوسعات السلاجقة .

أما في الميدان الشرقي ، ميدان الدولة البيزنطية فقد كانت عين المسلمين على ذلك الخط الفاصل بينهم وبين الروم . وقد حرص المسلمون على حماية هذه الثغور ، وكانت البحرية الاسلامية التي بناها معاوية في خلال خلافة عثمان وما بعدها قوة ردع ومهابة ، وقد وقع الصدام في هذا الجانب طويلاً ، وحاصر المسلمون القسطنطينية مرات خلال أكثر من ستين عاما ، حيث اضطرت حملات الشواتي والصوائف لاتني ولا تتوقف .

ثم كان ذلك التربص من أطراف عالم الغرب ممتدًّا لا يفتر ، ومستمراً لا يتوقف ، يترقب فترات الضعف ومراحل الغفلة لينتقض ثم لا يلبث أن يدافع المسلمون عن هذه الحدود مرات في مواقع حاسمة ، ويتوغل هارون الرشيد في أرض الروم ، وينهض المعتصم لرد العدوان ، ثم يظل هذا الصراع قائما حتى نرى سيف الدولة الحمداني في ثلاثينات القرن الثالث الهجري بمواقفه المشهورة في الرد على عدوان الروم . غير أن هذه المناطق ظلت بعد ذلك عرضة لهجمات الدولة البيزنطية طويلاً .

فقد كانت أوربا ترى في هذه الجبهة قوة مدافعة عنها تحول بينها وبين سيطرة عالم الاسلام أو توسعه في أوربا حتى لحقت الشيخوخة بالدولة البيزنطية ونالها الضعف إزاء موجات الاسلام المتلاحقة ، التي لا تفتر عن موالاة الدفاع عن الثغور ، وكانت موجة السلاجقة قوة جديدة من قوى الدفاع قد اجتاحت بيزنطة وأدالت منها ، وكشفت عن ضعفها وعجزها عن حماية أوربا ، هنالك كانت فكرة الحملات الصليبية بمثابة بديل عن قوة بيزنطة المنهارة .

هذا في الشرق . أما في الطرف الثاني من عالم الغرب . فالاسلام كان قد عبر « بحر الزقاق » وسيطر على أسبانيا . ومنها نفذ الى فرنسا حتى بلغ نهر اللوار ، حيث تجمعت أوربا لتقف أمام زحفه في موقعة « بلاط الشهداء » . هذه المعركة التي انسحب منها الاسلام مستنقذاً قواه ليعاود الكرة في اقتحام أوربا من ثغور إيطاليا .

***

وقد يقف المؤرخون طويلاً عند معركة بلاط الشهداء ( ١١٤ هـ ـ ٧٤١م ) ويقولون إنها نهاية التوسع الاسلامي في أوربا . بينما تشهد وقائع التاريخ بأن حوادث التوسع لم تتوقف في غرب أوربا عند هذا الموقف . بل امتدت حتى عام ٢٩٨ هـ . وأن الأغالبة في تونس قامت في ذلك المجال بدور ضخم ، إلى أن شغل المسلمون عن أعمال المقاومة والتوسع ، وتراخت قبضتهم خلال قيام الدولة الفاطمية واتجاهها نحو الشرق . هنالك أخذت حركة الاسترداد الغربية تتأهب لجولة حاسمة في مواجهة « التوسع الاسلامي » فيما أطلق عليه من بعد « الحروب الصليبية » هذه الحركة التي بدأت من دولة الفرنج أولا عبر الأندلس والمغرب

العربي . ثم كانت صيحة البابا أوربان الثاني للاتجاه إلى الشرق مرحلة تالية لها ، وقد امتدت الحركتان معاً للادالة من عالم الاسلام عن طريق الأندلس وعن طريق الحملات الصليبية على الشام ومصر . أما معركة بلاط الشهداء فقد هلل لها المؤرخون الغربيون بوصفها عملاً حاسماً في سبيل إنقاذ أوربا من التوسع الاسلامي ، وكانت تلك وجهة نظر ضيقة محدودة في تقدير موجة المدنية الزاحفة في ركب الاسلام . ذلك أن عمل كارل مارتل إنما كان حقيقته فيها تعويقا للحضارة الانسانية نفسها وأنه أخر تقدمها في قلب أوربا ثمانية قرون . وقد شهد بذلك كثير من المؤرخين في مقدمتهم العلامة كلود فارير الذي دعا أوربا إلى تصحيح تاريخها الرسمي : فقال ليس ما أكتبه فصلا من التاريخ الرسمي . بل هو التاريخ الحقيقي الذي يتعلمه المرء نفسه ، مما يختاره من بحار أو نقطة من فياف وآفاق .

فإذا أضفنا[1] إلى هذا شهادة هنري دي شامبيون . عرفنا إلى أي مدى صور بالخطأ والتعصب موقف الاسلام . أما المسلمون ففي الحق أنهم لم يتوقفوا عند موقعة بلاط الشهداء عن أن يصلوا إلى قلب أوربا حتى بلغوا روما . وقد ظلت مقاومة الغرب لعالم الاسلام من القسطنطينية ومن الأندلس ممتدة لا تتوقف ، ومستمرة لا تنقطع ، واستطاع السلاجقة أن يردوا عدوان بيزنطة في موقعة حاسمة هي : موقعة ملاذكرد ( ٤٦٣ هـ ) التي كشفت عن الضعف الذي بلغته الدولة الرومانية الشرقية ، مما حمل الغرب على التفكير في

( ١ ) قال كلود فارير : في هذا اليوم ( ٨ شعبان ١١٤ ـ اكتوبر ٧٢٢ ) تراجعت المدينة ثمانية قرون إلى الوراء ، ويكفي المرء أن يطوف في حدائق الأندلس ، أو بين الآثار العربية التي لا تزال تأخذ بالأبصار مما يبدو من عواطف السحر والخيال ( أشبيلية ـ غرناطة ـ قرطبة ـ طليطلة ) ليشاهد الألم الغريب آخذاً منه ، ما عساها تكون بلادنا الفرنسية لو أنقذها الإسلام العمراني الفلسفي السلمي المتسامح ـ لأن الإسلام في مجموعه كل هذا ـ فخلصها من الأهاويل التي لا أسماء لها . وكان من ذلك نتج خراب غاليا القديمة التي استعبدها أولا لصوص استرانا ، حدث هذا في حين كان العالم الإسلامي من نهر الوادي الكبير في أوربا إلى نهر السند في قلب آسيا يزدهر كل الازدهار في ظل الإسلام تحت أقدام أربع دول ( الأموية ـ العباسية ـ السلجوقية ـ العثمانية ) .

عمل آخر يقاوم به توسع عالم الاسلام ، بعد أن ظلت هذه الدولة تقاوم عالم الاسلام خمسة قرون ؛ وقد تمثل العمل الجديد في تلك الحملات التي تحركت خلال قرنين كاملين على القدس والشام ومصر ـ أما الأندلس فقد ظلت تواجه حملات انقضاض متصلة من داخلها ومن خارجها . حيث ظل الفرنجة من خارج الأندلس والقوط من داخلها في محاولات مستمرة للانقضاض عليها ، ومحاصرتها لايقاف التوسع الاسلامي وإجلاء العرب والمسلمين إلى أفريقيا وتحرير أوربا من الاسلام في هدف موحد محدد هو « وقد زاد هذا الضغط بعد موجات استنقاذ الأندلس التي قام بها المرابطون ، ثم الموحدون « **٤٤٥ هـ ـ ٦٧٤ هـ**» ( **١٠٥٣ ـ ١٢٧٥** م ) وفيما كانت الحملات الصليبية تتوالى على المشرق وتقيم المملكة اللاتينية في القدس لم يتوقف عالم الاسلام عن المقاومة في جهة الشام ومصر لهذه الحملات ، وفي جبهة الأندلس والمغرب ، لحملات الغزو والانقضاض المتوالية . وقد أبرز عالم الاسلام أبطالا حملوا لواء الدفاع والمقاومة : من أمثال : نور الدين محمود ، وصلاح الدين الأيوبي ، والظاهر بيبرس في المشرق ، ويوسف بن تاشفين وعبد المؤمن ابن علي في المغرب .

## مواقف الدفاع

غير أن خطراً ثالثاً لم يلبث أن واجه عالم الاسلام بقوة في خلال معركته مع الصليبيين في القدس ومع الفرنجة في الأندلس . ذلك هو الاعصار « التتري[1] المغولي » ممثلا في غزو جنكيزخان وهولاكو وتيمورلنك على التوالي خلال فترة ( **١٩١** عاما ) ( من **٦١٦ ـ ٨٠٧** هـ ) ولا يمكن أن ينظر هذا الغزو ، منفصلاً بغير ارتباط وتدبير واتفاق بالغزو الأوربي ، ومن ثم أصبح عالم الاسلام . بل الاسلام نفسه في امتحان خطير ، وكان لمصر دورها الحاسم في مواجهة الصليبيين والتتار في هذه المرحلة . وكان لدولة المماليك الدور الحاسم في القضاء على القوتين بعد معارك صلاح الدين التي تقدمتها .

( ١ ) بدأ الغزو المغولي للعالم الإسلامي عام **٦١٦** بقيادة جنكيزخان ، وهاجم هولاكو بغداد **٦٥٦** . وتوفي تيمورلنك عام ٨٠٨ بعد حملة سوريا عام ٨٠٤ هـ .

لقد توقفت الحروب الصليبية في جبهة المشرق ، وانتهت بفشل هذه المحاولات ، ولكنها لم تنته بالنسبة لجبهة المغرب والأندلس ، فقد اتجهت تاسعة هذه الحملات إلى تونس ، لتشارك في الادالة من الدولة العربية الاسلامية القائمة على أرض أوربا ، والتي دخلت مرحلة دقيقة من مراحل المقاومة حتى صفيت ، ولكنها لم تصف إلا بعد أن قامت موجة جديدة من موجات القوة الاسلامية ممثلة في الأتراك العثمانيين .

هذه القوة التي استطاعت أن تسيطر على القسطنطينية في نفس الوقت الذي زالت فيه الأندلس ، وبدأ عالم الغرب يواجه توسعاً جديداً داخل أوروبا من فوق الأرض التي قاومت الاسلام ( أرض الدولة البيزنطية ) خلال ثمانية قرون . وفي هذه الفترة استطاع الاسلام أن يكسب قوة جديدة ، فقد تحول التتار والمغول إلى الاسلام فأعادوا بناء هذه المنطقة التي كانوا قد أزالوا منها معالم الحضارة في نهضة جديدة ، بل إنه وفي نفس الوقت الذي كان التتار يلحون على بغداد بالغزو لتسقط في أيديهم كإحدى منارات عالم الاسلام ، كان الاسلام يشق طريقا جديداً إلى جنوب شرق آسيا دون معارك أو قتال ، ليفتح فتحا جديداً من فتوحه وتوسعاته الذاتية في عالم جاوة وسومطرة .

# ( ١٨ )
## « الروم وعالم الاسلام »

ظلت الروم ( الدولة الرومانية الشرقية ) أو دولة بيزنطة المتاخمة لحدود عالم الاسلام من الشمال ، هي الثغرة الخطرة ذات الأهمية الكبرى على حدود عالم الغرب . فقد كان الغرب منذ ظهور الاسلام وامتداده إلى الشام وأفريقيا يهدد باستعادة ما كان تحت يد الرومان . لذلك وقف المسلمون إزاء هذا الخطر في أهبة دائمة ، ومواجهة مستمرة ، وقاموا بمحاولات ضخمة لتطويق بيزنطة ، وغزو القسطنطينية والاستيلاء عليها . جرى ذلك إبان حكم الخليفة الثالث : « عثمان » ثم استأنفه معاوية بنظلم الشواتي والصوائف .

ثم كانت محاولته الكبرى في الاستيلاء على القسطنطينية بعد بناء الأسطول الاسلامي الأول الذي بلغ ( ١٧٠٠ سفينة ) مزودة بالسلاح ، واستطاع أن يسيطر على جزيرة رودس ( ٥٣ هـ ) وأقريطس ( كريت ) ( ٥٤ هـ ) . ثم غزا صقلية وأرواد ، وفتح قبرص ، ومضى من بعد لمعركة حصار القسطنطينية التي استعصت وقاومت خلال سبع سنوات كاملة ( ٥٤ ـ ٦١ ) فلما توقفت هذه الحملات ، أخذ الروم في مهاجمة ثغور عالم الاسلام . فاستولوا على بعضها واقتحموا ساحل سوريا ، ثم تمكن ( عبد الله بن مروان ) من استعادة ثغور الاسلام ، وأخضع أرمينية ، ونظم سلسلة من الشواتي والصوائف ، ودعم الحصون بالحراسة والذخائر . ولم يلبث علم ٨٤ هـ أن غزا الروم ، وفتح حصن المصيصة ، ثم اتجه الوليد بن عبد الملك من بعده الى ميدان آسيا الصغرى ،

واستولى على حصون مرعش وعمورية وأنطاكية . وأجرى سليمان بن عبد الملك من بعده محاولة حربية أخرى للاستيلاء على القسطنطينية التي قاومت الحصار الثاني ـ الذي ظل مضروباً عليها ـ حتى رفعه ( عمر بن عبد العزيز ) وقد برز في مجال هذه المعارك أبطال مجاهدون ، في مقدمتهم جنادة بن أبي أمين قائد الأسطول الاسلامي الأول ، ويزيد بن معاوية ، وأبو أيوب الأنصاري ، وعبد الله بن الزبير ، وعبد الله بن عمرو بن العاص ، وعبد الله بن عبد الملك .

كانت هذه المحاولة مقدمة لمعارك متصلة استمرت خمسة قرون حتى استطاع السلطان محمد الفاتح أن يستولي على القسطنطينية ( **١٤٥٣** م ـ **٨٥٧** هـ ) وفي خلال هذه الفترة ظلت الدولة الرومانية تواصل انتقاضها على أرض الاسلام منتهزة فترات الضعف والخلاف الداخلي . وقد واصل المسلمون مقاومتها وردعها والادالة منها في مواقف متوالية ، شارك فيها الرشيد والمأمون والمعتصم ، وكان أبرز أدوار المقاومة ، الدور الذي قام به سيف الدولة الحمداني ، ثم الدولة الحمدانية .

وقد استطاع هارون الرشيد أن يرغم الروم ( **١٨١** هـ ) على دفع جزية بلغت **٣٠٠** ألف دينار سنويا وذلك بعد انتصاره في حركات غزو الروم المستمرة لأراضي عالم الاسلام . وقد استمر دفع هذه الجزية سنوات متوالية . ثم كان غزو المعتصم لعمورية ( **٢٢٣** هـ ) حيث حقق النصر على الروم بجيش قوامه خمسة عشر ألف فارس في مواجهة جيش الروم البالغ ( مائتي ألف ) : ( النجوم الزاهرة ) ثم استطاع السلاجقة توجيه ضربة ضخمة لبيزنطة في موقعة « ملاذكرد » كانت مقدمة لنقل مجال المعركة بين عالم الاسلام والغرب من الدولة الرومانية ـ المستضعفة التي حمت أوربا خلال خمسمائة سنة من توسع الاسلام ـ إلى اندفاعة الحملات الصليبية من قلب أوربا إلى عالم الاسلام خلال مائتي عام .

ولقد لفت هذا الصراع أنظار الباحثين حتى قال « سيد أمير علي »
لعله لا يوجد على وجه الأرض مكان نشبت على أديمه معارك مروعة كهذه التي نشبت في الأرض الواقعة بين الشام والأناضول ، فقد ظلت تعزيزات الجيوش على الحدود قائمة ومستمرة ، وكانت حاميات حمص وطرسوس وأدنة والمصيصة

أهم هذه الحاميات . غير أنه بالرغم من توالي الصدام بين الروم والمسلمين . فإن ذلك لم يمنع من قيام معاملات تجارية ، وفترات سلام تبادل فيها المسلمون والروم العلاقات الثقافية والاقتصادية ، وكان التبادل الثقافي من أهم المبادلات في هذه الفترة . فقد جعل الخلفاء المؤلفات اليونانية والرومانية القديمة بديلا للمبالغ المفروضة . وفي أوقات السلم كانت بيزنطة ـ تستقبل السفراء العرب من بغداد والقاهرة . كما كانت بغداد تستقبل سفراء الروم . كان الخليفة يستقبلهم رسميا في أبهة شرقية بالغة . ومن خلال عروض عسكرية .

وكانت مقاومة سيف الدولة الحمداني ودولته ( ٢٩٣ ـ ٣٨٠ ) للروم بالغة الأثر في تاريخ الاسلام . فقد قامت الدولة الحمدانية بالجزيرة على حدود الروم . إذ أجج سيف الدولة روح الجهاد والمقاومة والمرابطة في سبيل حماية الثغور . فكانت ثغور ملطية والحدث ومرعش والهارونية والكنيسة وعين زربة والمصيصة وأدنة وخرسوس معاقل صامدة للمقاومة . إذ كانت مواقف سيف الدولة كلها موقف دفاع إزاء هجمات الروم المتوالية ، يقول ماركفارت : إن حروب سيف الدولة فصل خطير من فصول الحروب الصليبية ، فالروم في ذلك الوقت كانوا يغيرون على أرض المسلمين . وكان سيف الدولة يقف من غزواتهم موقف الدفاع في حالات كثيرة . غير أن المرحلة التي تلت الدولة الحمدانية لم تكن بنفس القدرة على المقاومة مما جرأ الدولة البيزنطية على مزيد من التوسع والاعتداء على حدود عالم الاسلام ، ولم يواجه هذا العدوان من المسلمين الا مقاومة ضعيفة ، فاستطاعت أن ترفع فتوحاتها نحو الشرق والجنوب ، وأن تسيطر على أرمينية ، وأن تفرض الجزية على الأمراء المسلمين في شمال الجزيرة ، وشمالي الشام . وقد كان هذا كله مقدمة لمشروع غربي ضخم لغزو الشرق الاسلامي ، بالاشتراك مع الدولة البيزنطية لم يؤخره إلا ظهور قوة إسلامية جديدة هي « قوة السلاجقة » . هذه القوة التي جددت شباب الاسلام ، وحلت محل القوة العباسية المنهارة . وقد استطاعت القوة السلجوقية الشابة أن تواجه الغزوات البيزنطية في صمود وأصالة وسار قادتها ( طغرلبك ـ ألب أرسلان . ملك شاه ) لرد عدوان الأراضي البيزنطية ، وحققوا انتصارات هامة ، كان أكبرها في موقعة ( ملاذكرد ) التي أسر فيها الامبراطور رومانوس . الذي كان قد خرج على رأس جيش ضخم من الروم والصقالية والفرنج ، وفي أعظم قوة جردتها الدولة

الرومانية الشرقية على قوى الاسلام ، واتجه إلى « ملاذكرد » وهي بلدة حصينة على فرع نهر مرادسو . فضرب حولها الحصار . وقد خاض المسلمون المعركة بقيادة ( ألب أرسلان ) في عدد لا يتجاوز ربع قوة عددهم ، وتقول الرواية إن قائد المسلمين اختار الاشتباك مع الروم يوم الجمعة ، فصلى بجنده ظهراً . ولبس البياض ، وتحنط استعداداً للموت وأعلن أنه إن هزم ، فإن ساحة الحرب تغدو قبره ، وزحف على رأس قواته نحو الروم .

وقد ثبت المسلمون وحاربوا في براعة وجلد وبسالة ، فلما رأى رومانوس ما لحق بجيشه من الضعف حاول الارتداد ، ليتأهب للقتال في اليوم التالي . غير أن المسلمين حالوا بينه وبين ذلك ، فضغطوا بقوة ضخمة على صفوف العدو المتخاذلة المتراجعة ، فأحدثوا ثغرة تدافع منها الفرسان المسلمون ، واقتحموا قلب القوة الرومية وأصلوها سهاما قاتلة ، ثم انقضوا على جيش الروم من كل ناحية فحصدوه ، واسر رومانوس وتمت هزيمة الروم ( **٤٦٣** هـ ) ونقل العنصر الأسير إلى حيث التقى بالسلطان ألب أرسلان الذي عاتبه على رفضه طلب الهدنة الذي تقدم به المسلمون .

وسأل ألب أرسلان الامبراطور : ماذا كان يفعل لو كان هو المنتصر .

وقال رومانوس : إنه كان يقتل السلطان ويمثل به .

قال أرسلان : ولكني عزمت على العفو عنك والفداء .

فافتدى الامبراطور نفسه بألف دينار وخمسمائة ألف دينار . وقد أطلقه السلطان ، وأطلق معه البطارقة وشيعه فرسخاً وأرسل معه جندا يحفظونه ، ومعه راية مكتوب عليها ( لا إله إلا الله ) . « البداية والنهاية » . وقد علق على هذه المعركة المؤرخ ريتشارد بنوهول . فقال : لقد كان الغزو الاسلامي بقيادة ألب أرسلان في نطاق لم تشهد الامبراطورية البيزنطية أوسع منه أكثر من ثلاثة قرون . وقد مني الروم بهزيمة منكرة تمزقت بها أوصال جيشهم ، وأخذ المسلمون الامبراطور البيزنطي أسيراً . ومن ثم كانت واقعة ( ملاذكرد ) من الوقائع الفاصلة في تاريخ الشرق والغرب . إذ كانت ضربة للامبراطورية البيزنطية لم تبرأ منها فكانت عاملاً حاسماً في اندلاع الحروب الصليبية ، ولو أن ألب أرسلان

سار في طريقه ـ بعد هذه المعركة ـ إلى البوسفور لما وجد شيئاً من المقاومة ، ولقوض أركان « الامبراطورية البيزنطية » .

ومنذ معركة ( ملاذكرد ) استوطن السلاجقة ، هضاب آسيا الصغرى ، وأصبحت في حوزة المسلمين ثم استولوا على ( نيقة ) **٤٧٧** هـ وبقي سلطانهم في هذه البلاد أكثر من قرنين حتى قضى عليه المغول **٦٥٥** هـ قبل سقوط بغداد بعام واحد ، وتوفي السلطان ألب أرسلان بعد معركة « ملاذكرد » بعامين وخلفه ملكشاه واستمرت غزوات السلاجقة لأراضي الدولة الرومانية الشرقية حتى طوق السلاجقة آسيا الصغرى من الجنوب وبسطوا سلطانهم عليها .

وكان لملاذكرد أعمق وقع في أوربا . فقد بدا للغرب أن سيل الغزو الاسلامي ينذر باقتحام الدولة الرومانية الشرقية ، والاندفاع الى أوربا ، هنالك تعالت الصيحات وجرى إعداد مخطط الغزوات الصليبية التي امتدت بجناحها إلى المشرق وإلى المغرب ، غير أنه لم يمض على ( ملاذكرد ) أكثر من خمسة عشر عاماً حتى استطاعت القوى الاسلامية في المغرب والأندلس بقيادة المرابطين أن تسحق قوى الفرنجة الغازية في « موقعة الزلاقة » **٤٧٩** هـ .

***

هكذا كان هذا الموقف الخطير فيما بين المشرق والمغرب ، وفي طرفي عالم الاسلام بمحاذاة الدولة الرومانية الشرقية الضعيفة المنهارة . وبمحاذاة فرنسا على حدود الأندلس ، دافعاً لمخطط الحروب الصليبية التي اندلعت في أواخر القرن الخامس ، واستمرت خلال القرنين : السادس والسابع ، وانتهت بهزيمة ساحقة في المشرق ، وبتصفية الأندلس كجزء من عالم الاسلام في الغرب .

غير أن الحروب الصليبية نفسها كانت مقدمة لموجة جديدة قوية شابة في عالم الاسلام ، هي موجة الوحدة الاسلامية العثمانية ، التي استطاعت أن تتوغل في أوربا ، وتسيطر على أقدارها خلال خمسة قرون كاملة ، كرد فعل للحروب الصليبية والتي استولت على « القسطنطينية » وأقامت في آسيا الصغرى إمبراطورية ضخمة امتدت ستة قرون ( **١٣٠٠ ـ ١٩١٧** م ) ( **٦٩٩ ـ ١٣٣٦** هـ ) .

وإذا كان لنا أن نستعرض النتائج التاريخية والثقافية والاجتماعية لهذه الفترة التي سبقت الحروب الصليبية ، قلنا إن الاسلام كان بعيد الأثر في النفاذ إلى قلب الدولة البيزنطية ، والتأثير في مفاهيم الغرب الفكرية ، مما كان له أثره في حملة رجال الكنيسة على الصور والأيقونات المقدسة .

كما كانت هذه المرحلة بعيدة الأثر في الأدب العربي الاسلامي حين رسمت صورة البطولة الاسلامية في المرابطة والدفاع عن الثغور ، وبرز اسم المحارب العربي المسلم « عبد الله البطال » الذي نسجت حول حياته قصص أسطورية حاولت أن ترسمه ، وقد وهب قوة خارقة فوق مستوى البشر ، وكان قد استشهد في معركة كرونيون في آسيا الصغرى . كما كان لهذه المعارك آثارها في انتقال كلمات كثيرة من العربية إلى اليونانية وبالعكس .

## ( ١٩ )

## « الحروب الصليبية في المشرق »

« والحروب الصليبية » : كانت هي انطلاقة أوربا الدينية والاقتصادية في مواجهة عالم الاسلام وتوسعاته ، وقد بدأت منذ اليوم الأول لبلوغ الاسلام أطراف أوربا ، ثم ازدادت عمقا واتساعا مع توالي الزمن ، فلم يكد يصاب تماسك الدولة الاسلامية بالضعف ، ويناها التجزؤ والانقسام حتى توالت هذه الحملات من طرفي عالم الاسلام اندفاعا ، فلم تلبث أسبانيا والمغرب وآسيا الصغرى وشمال إفريقيا والشام ومصر والعراق وشبه الجزيرة العربية والبحرين المتوسط والأحمر أن أصبحت جميعها ميادين معركة ضارية قوامها الحملة على الاسلام والعمل على سحقه والادالة منه .

إن الظاهرة الواضحة الدالة لهذا المعنى هو : أن الغزو من قبل أوربا والغرب كان عنيفا مليئا بروح التعصب والانتقام . بينما كان التوسع الاسلامي في عالم الغرب أو الدفاع عن عدوان الغرب ، ومقاومة غزوه كان رحيما عادلاً . وقد أجمع المؤرخون على أن الحروب الصليبية لم تبدأ يوم بدأت **٤٩٢** هـ ـ **١٠٩٩** م . بل إنها تعود إلى الوراء سنوات طويلة ، وتعتبر امتداداً لمعارك الدولة الرومانية البيزنطية مع عالم الاسلام ، وترتبط بالصراع الذي دار بين المسلمين ، والفرنجة في أسبانيا وحدود فرنسا ، وانها لم تنته يوم انتهت لسقوط عكا **٦٩٠** هـ ـ **١٢٩١** . ولكنها امتدت بعد ذلك حتى استعادت الأندلس ، وأخرجت المسلمين من أوربا ، وشملت ـ ليس منطقة الساحل الشامي وحده من القسطنطينة إلى

القدس ومصر ـ بل ساحل البحر الأبيض المتوسط جميعاً .

## الحروب الصليبية

**٤٩٢** ( **١٠٩٩** ) الحملة الأولى : بيت المقدس **٥٤٢** ( **١١٤٧** ) الحملة الثانية : ساحل الشام

**٥٨٤** ( **١١٨٨** ) الحملة الثالثة : ساحل الشام **٥٩٩** ( **١٢٠٣** ) الحملة الرابعة : القسطنطينية

**٥١٩** ( **١٢٠٣** ) ( عصابات ناهبة : **٦١٣** ( **١٢١٧** ) الحملة الخامسة عكا .

**٦١٥** ( **١٢١٨** ) الحملة السادسة : دمياط ( مصر ) **٦١٦** ( **١٢١٩** ) استيلاء الصليبيين على دمياط .

**٦١٨** ( **١٢٢١** ) انسحاب الصليبيين من مصر **٦٢٥** ( **١٢٢٨** ) الحملة السادسة : استعادة بيت المقدس ( فردريك الثاني )

**٦٣٩** ( **١٢٤٤** ) الملك الصالح العرب : يسترجع بيت القدس **٦٤٧** ( **١٢٤٩** ) الحملة الصليبية السابعة ( دمياط )

**٦٤٨** ( **١٢٥٠** ) هزيمة الحملة الصليبية السابعة ( المنصورة ) **٦٤٨** ( **١٢٥٠** ) مقتل توران شاه وتولي المماليك حكم مصر

**٦٨٨** ( **١٢٨٩** ) الحملة الصليبية الثامنة : تونس **٦٩٠** ( **١٢٩١** ) سقطت عكا في أيدي المسلمين ( الأشرف خليل )

* الحملات الأولى والثانية والثالثة والخامسة : اتجهت الى الشام .
* السادسة والسابعة : اتجهت إلى مصر ـ والثامنة اتجهت إلى شمال أفريقيا ( تونس )
* أهم الحملات : الأولى والرابعة والخامسة .
* كانت الحملات الثانية والثالثة والسادسة والسابعة والثامنة تحت زعامة ملوك أوربا .
* منذ بدأت الحملة الصليبية الأولى إلى الشام **١٠٩٨** لم يتوقف ورود جموع صليبية جديدة ، متصلة على هيئة حجاج إلى بيت المقدس . وقد بلغت

هذه الجموع في مجموعها أضعاف الأرقام التي عرفت عن الحملات الصليبية .

* اتصل مجرى هذه الحملات خلال قرنين كاملين ، ومر بثلاث مراحل .

( أولها ) : دور ظفر الافرنج ( **٤٩٢**هـ ـ **١٠٩٨** م ـ **٥٣٩** هـ ـ **١١٤٤** م ) .

( ثانيا ) : بدأ رد الفعل الاسلامي بحركات مقاومة وصلت الى استعادة الرها ( **٥٣٩** ) بقيادة نور الدين ، ثم بلغت قمتها بانتصارات صلاح الدين في « حطين » واستعادته بيت المقدس .

( ثالثاً ) : محاولات لمقاومة التمزق والنهاية في مواجهة حملات المماليك ( الظاهر بيبرس ، وقلاوون ، والناصر ، انتهت **٦٨٩** هـ ـ **١٢٩١** عندما فقد الصليبيون آخر سلطة لهم في بلاد الاسلام .

* كانت جيوش الصليبيين مؤلفة من نورمانيين وإيطاليين وبريطانيين وفرنسيين وألمانين ونرويجيين وسويسريين . ولم تكن لهذه الحملات الصليبية قيمة توسعية هامة أكثر مما حققته .

* الحملة الصليبية الأولى ( **١٥** يوليو **١٠٩٩** ) **٤٩٢** هـ استولت على بيت المقدس . أما باقي الحملات فقد كانت موالاة للبقاء ومحاولات للاستمرار .

* استطاع الفرنجة باحتلال بيت المقدس إقامة عدة ممالك هي :

( ١ ) إمارة الرها ( **٩٤٢ ـ ٥٣٩** هـ ) .
( ٢ ) إمارة طرابلس ( **٤٩٦ ـ ٦٨٨** ) .
( ٣ ) إمارة أنطاكية حتى **٦٦٧** هـ .
( ٤ ) إمارة بيت المقدس .

أما إمارة الرها فقد استمرت من **٤٩٢ ـ ٥٣٩** حتى أزالها عماد الدين زنكي .

وأما مملكة بيت المقدس فقد أزالها صلاح الدين .

والمعروف أن حركة المقاومة الاسلامية بدأت منذ اللحظة الأولى تغير على قواعد العدو ، ثم تطورت إلى قوة هجوم حمل لواءها : عماد الدين زنكي الذي

استطاع أن يستعيد ( الرها ) كبرى معاقل المملكة اللاتينية ( **٥٣٩ هـ ١١٤٤** م ) .

وقد اهتز الغرب لسقوط الرها اهتزازاً ضخماً ، فكان دافعاً للحملة الصليبية الثانية **٥٤٢ هـ ١١٤٧** م .

* لم تتوقف حركة اتحاد أجزاء العالم الاسلامي المتاخم لمجال الغزو الغربي . أما منطقة الشام وفلسطين ومصر . فقد اتحدت في ظل نور الدين محمود الذي هزم جيش أنطاكية ، واستولى على تل باسر آخربقايا إمارة الرها . كان لانتصارات نور الدين محمود أثرها في تحرك الحملة الصليبية الثالثة التي فشلت أمام دمشق .

* توسعت خطوات المقاومة وبلغت قمتها في أعمال صلاح الدين حتى استطاعت في معركة حطين أن تسترد بيت المقدس ( **٥٨٣ - ١١٨٧** ) هنالك أخذت الحملات الصليبية تتوالى على مصر بوصفها المركز الأقوى الذي يقود حركة المقاومة حيث اتجهت الحملات الصليبية الخامسة إلى دمياط ( **١٢١٨** ) والسابعة ( **١٢٤٩** ) إلى شاطىء مصر في محاولة لويس للاستيلاء على دمياط . ثم هزيمته في المنصورة وفارسكور ( **١٢٥٠** ) .

* كانت الحملة السادسة قد استطاعت بعد وفاة صلاح الدين أن تستعيد بيت المقدس ( **٦٢٥ هـ ١٢٢٨** م ) غير أنه ولما تمض على هزيمة لويس في المنصورة إلا سنوات قليلة حتى استولى المغول على بغداد ، وأسقطوا الخلافة العباسية ، وقتلوا الخليفة المستعصم العباسي ( **٦٥٦ هـ ١٢٥٨** م ) ثم اجتاحوا حلب ، واستولوا على دمشق . أتيح لمصر كرة أخرى أن ترد المغول عين جالوت ( **٦٥٩** هـ **١٢٦٠** م ) وكانت قوة المماليك قد سيطرت منذ سنوات قليلة على السلطة في مصر . وبذلك استطاعت مصر أن ترد الحملة الصليبية ( **٦٤٨ هـ ١٢٥٠** م ) والحملة المغولية ( **٦٥٩ هـ ١٢٦٠** م ) في خلال عشر سنوات ، هنالك بدأت هذه القوة الجديدة ( المماليك ) تسيطر على مقدرات عالم الاسلام ، وتحمل لواء المقاومة خلفاً لنور الدين وصلاح الدين ، ممثلة في قطز والظاهر بيبرس وقلاوون والناصر . وفي هذه المرحلة حقق المماليك ثلاثة أمور هامة .

( ١ ) تصفية الممالك اللاتينية الصليبية ، وانهاء مملكة بيت المقدس .
( ٢ ) تصفية قلاع الباطنية في الشام والقضاء عليها .
( ٣ ) الحفاظ على الشام ومصر من غزو المغول .

وقد امتد هذا النفوذ واستمر حتى برزت موجة جديدة من موجات المقاومة الاسلامية البدوية هي قوة العثمانيين التي سيطرت بعد ستة قرون كاملة .

وصلت الحملة الصليبية الأولى القدس ٤٨٩ هـ وسقطت آخر معاقل المملكة اللاتينية في القدس ٦٩٠ هـ وتوالت خلال هذه الفترة ثمان حملات صليبية ( منها أربع حملات على المقدس وحملتان على مصر وحملة على تونس ) .

ومن خلال الحروب الصليبية كانت حملات التتار التي انتهت بسقوط الخلافة في ( بغداد ـ ٦٥٦ هـ ) وقد بدأت مقاومة عالم الاسلام للغزو منذ وطئت قوى الفرنجة القدس ، ولم تتوقف خلال قرنين كاملين ، برز خلالها عدد من الأبطال والقادة والمجاهدين ، واستشهد عدد لا حدّ له من المحاربين . وواجه المسلمون والعرب هذا التحدي برد فعل متصل .

برز « نور الدين محمود وصلاح الدين الأيوبي ، والملك الصالح نجم الدين ، والظاهر بيبرس ، وقلاوون وخليل » على فترات في الشام ومصر ، خلال هذه الفترة ، حتى صفيت هذه المواقع ، وقضي على هذه الحملات ، وانتهت بالفشل ، وكتب المسلمون والعرب المقاومون صفحات غاية في الاشراق والقوة والحيوية ، كشفت عن البطولة في المقاومة ، ومواجهة أساليب الصليبيين البالغة العنف في العدوان بأساليب كريمة . فقد اندفع الفرنجة في حملتهم يسفكون الدماء على نحو غاية في البشاعة ، فلما استمسك المسلمون بالأمر لم يردوا هذا الفعل بمثله ، ولم يوغلوا في الانتقام . وقد ضرب « نور الدين محمود » مثلاً عالياً في تطبيق خلق الاسلام وطابعه ، وكان صلاح الدين الأيوبي نموذجاً رائعاً في البطولة والسماحة معاً . وكانا معاً في إطار الجهاد والمقاومة : أشبه بالشيخين أول الاسلام ، وتتمثل في الظاهر بيبرس وقلاوون ، وخليل وجميعهم من المماليك موجة أخرى من موجات القوى الخارجة من أحشاء الاسلام ، تضاف إلى موجات السلاجقة والبربر ، ولهم جميعاً دورهم في هذه المرحلة في مقاومة الغزو الخارجي . وقد كان لأبطال المماليك بعد دور بطلي السلاجقة ( نور

الدين وصلاح الدين ) أثر ضخم في إنهاء المملكة الصليبية اللاتينية ، والقضاء على التتار .

وكانت حطين معركة فاصلة في سبيل استرجاع بيت المقدس . وكان هزيمة لويس في المنصورة حاسمة في فشل الحملات وعودتها خاسرة . غير أن ذلك لم يكن هو النهاية بالنسبة لموقف أوربا من مقاومة توسع الاسلام ، والعمل على دفع موجة نفوذه ، فإن فشل هذه الحملات قد أغرى الفرنجة بالضغط على أسبانيا ، وتكتيل القوى الأوربية في سبيل تصفية الاسلام والعرب من شبه جزيرة إيبريا وفقاً لخطة مؤداها : « تحرير أوربا من شرقيها وغربيها من دفعة الاسلام » ومن ثم فقد تعمقت في هذه المرحلة خطط اقتلاع الاسلام من أسبانيا والقضاء على الدولة العربية بها .

ويمكن القول إن أبرز عوامل الحملات الصليبية هي العمل على استعادة الأرض التي في يد العرب ، وإعادة السيطرة على عالم الاسلام ، أو على الأقل إيقاف توسع الاسلام والحيلولة بينه وبين السيطرة على أوربا ، وقد كان ذلك مفهوماً عاش واستمر وتطور في أعماق النفس الأوربية قروناً متصلة ، منذ وصل المسلمون إلى أسوار القسطنطينية ، وسيطروا على الأندلس . بلغوا نهر اللوار وما بعده حتى باتوا قريباً من روما ، ومن هنا فقد كانت الدولة البيزنطية هي حامية أوربا دون توسع الاسلام . فلما عجزت عن القيام بدورها التاريخي ، كان على الغرب أن يترقب فرصة وقوع جزر إسلامي جديد لتحقيق هذا الهدف باسم استرداد بيت المقدس .

وكانت محاولة الاسترداد ممتدة على طول البحر الأبيض المتوسط من القسطنطينية إلى الأندلس ، وعلى الشام ومصر والمغرب بالذات .

ولا شك كان العامل الديني ممتزجاً بالعاملين الاجتماعي والاقتصادي ، دون تفرقة أو تغليب لأحد منها على الآخر ، فهي حركة أوربية مناهضة لسيطرة الاسلام ، تحمل الطابع الديني في أشد مراحل عنفه وتعصبه لمقاومة نفوذ العرب المسلمين الذي تزايد في هذه المرحلة ، ثم هي حملة من مجتمع أقل حضارة ومدنية وثقافة على مجتمع حضارة وثروة ، وقد واجه الفرنجة حضارة أرقى من حضارتهم ، فأفادوا منها ، بينما ترك الأوربيون آثاراً بعيدة المدى لصور الجشع

والتعصب والحرب والتدمير ، ما زالت تتمثل حتى اليوم بالرغم من محاولة الغرب رسم صورة أقل عنفاً في حملته الثانية ( الاستعمار الحديث ) التي فصلتها عن الأول ثمانية قرون هي : عمر القوة العثمانية .

ولا شك أن حركة إعادة نفوذ الغرب في المناطق التي تحتلها الدولة الرومانية في شرق وجنوب البحر الأبيض المتوسط ، والتي لم تكن في الحقيقة جزءاً من عالم الغرب نفسه ، وإن فرضت عليها السيطرة الاستعمارية ، وهي التي أصبحت بعد جزءاً من عالم الاسلام . هذه الحركة قد تقدمت خلال مائة عام ونيف قبل الحملة الصليبية الأولى نتيجة لموجة الضعف التي كانت تمر بالمسلمين ، إذ ذاك بعد مرحلة تضخم وترف ، فكانت بعيدة الأثر في إضعاف الوحدة السياسية ، والقوة العسكرية ، مما أدى إلى القصور عن الحماية واليقظة ، في الثغور والمناطق المكشوفة للغزو . ومن أهم المواقع في هذه الفترة : استرداد الغرب لصقلية الاسلامية وإزالة الفرنجة لكثير من أجزاء الدولة الاسلامية في الأندلس بتفريق الأمراء المسلمين ، والايقاع بينهم ، وتمزيق إماراتهم ، وتضام أمراء الفرنجة ، ودمج ممالكهم في سبيل مواجهة البقاء الاسلامي في شبه جزيرة إيبيريا .

وقد كانت الحركة الصليبية في المشرق ذات مخطط واضح . فهي قد اندفعت في خط ممتد من القسطنطينية إلى غزة ، ووجهت حملاتها إلى شواطىء : الشام ومصر ، وأقامت دولة ذات أربع إمارات على الساحل الشامي خلال مائتي عام ، ثم وسعت نفوذها بالسيطرة على العقبة . وبذلك أقامت فاصلاً يحول دون التقاء عالم الاسلام في أفريقيا وآسيا . واستطاعت فعلا أن تستنزف ـ خلال مائتي عام ـ جميع القوى البشرية والمادية في هذه المنطقة حيث كانت الشام ومصر هي المسؤولة عن مواجهة هذه القوة المعتدية ، وقد توقفت خلال هذه الفترة أعمال البناء والحضارة . كما اتسم « الفكر العربي » بطابع المقاومة والتحدي ورد الفعل . وقد برز ذلك في اتجاه فكر الغزالي وابن تيمية وأصحاب الموسوعات . فمن الناحية الاقتصادية تناقصت الثروة ، وضعفت الأيدي العاملة نتيجة لأعمال الحرب التي استنفدت الموارد الاقتصادية والقوى البشرية . غير أن هذه الحملات كانت معبراً للحضارة والثقافة إلى أوربا . إذ كانت بعيدة المدى في خلق جسر واسع عريض خلال قرنين كاملين لنقل الحضارة الاسلامية العربية إلى أوربا . فقد نشأت على الأثر حركة واسعة في ترجمة العلوم والمعارف العربية إلى اللاتينية .

وكان أبرز مركزي هذه الترجمة : جزيرة صقلية والأندلس .

كما استطاعت « أيديولوجيا الاسلام » أن تتمثل في كثير من الحركات الثقافية والاجتماعية التي عرفتها أوربا بعد ذلك ، فالأوربيون وإن لم يأخذوا الاسلام ، وقاوموا عالمه بعنف وشراسة ، فإنهم أخذوا « منهجه التجريبي » في العلم ومقوماته في الفكر والاجتماع والفروسية ، فقد كان الاسلام وفكره وثقافته ومفاهيمه بعيد المدى في حركات الاصلاح الديني ، قوي الأثر في الحركة العقلية ، وعلى الحضارة ، وعلى كل جوانب النهضة التي بدأها الغرب بعد . وبذا يمكن القول بأن الاسلام أعطى وتعامل مع كل القوى التي اصطدمت به . أو حاولت غزوه ، وكذلك كان الأمر بالنسبة للتتار . ومن هنا يمكن القول أيضاً بان الغزو الخارجي لعالم الاسلام كان هو العامل الأكبر في دخوله « مرحلة الضعف » . هذا الضعف الذي تمثل في تخلف المسلمين متخلفين عن أيديولوجية الاسلام عن الحركة والعمل ، بينما كانت تتوالى موجات القوى البشرية القادرة على الدخول فيه وحمل لوائه .

هذه القوى التي تتمثل في السلاجقة والتتار والبربر والعثمانيين ، وهي قوى بشرية هائلة ، دخلت الاسلام وآمنت به وسيطرت على عالمه عسكرياً وسياسياً . ولكنها ظلت دون القدرة الكاملة على تطبيق أيديولوجيته على نحو يكفل لها الاستمرار ، أو إقامة مجتمع العدل والحرية لجماهير المسلمين .

***

لعل أبز ما يلفت النظر هو : الاستجابة السريعة بالتحدي ورد الفعل على الحملات الصليبية إلى المشرق « فلا يكاد الصليبيون يغزون الشام حتى تخرج الجيوش في العراق لمنازلة الغزاة المعتدين ، ولا يكاد الصليبيون يتحركون ضد مصر حتى تسرح جيوش الشام للذود عنها ، ولا يكاد الناصر صلاح الدين يثبت قدميه في مصر حتى يسخر جميع مواردها البشرية ، وطاقتها المادية لطرد الصليبيين من دمشق ، ولا يكاد أرناط حاكم الكرك الصليبي يخرج في البحر الأحمر لتهديد الحجاز ، حتى تشيد السفن في مصر وتحمل على ظهور الجمال إلى البحر الأحمر لدفع الخطر عن الحرمين ، ولا تكاد الأخبار تصل إلى القاهرة بأن لويس التاسع ملك فرنسا قد نزل على رأس جيوشه في تونس حتى تتخذ الاجراءات السريعة

لدفع هذه الطارة[1] وهكذا ظل التجاوب سريعاً وتاماً بين أجزاء الوطن العربي .

كانت الحروب الصليبية حلقة من حلقات الصراع بين الشرق والغرب ، وكانت رداً على توسع الاسلام بعد سيطرة الغرب لأكثر من ألف عام على أغلب المناطق التي قام فيها الاسلام ، والتي كانت قد أضيفت إلى الغرب بعد حركة الاسكندر الذي استطاع أن يسيطر على هذه المنطقة ، وأن يوحدها تحت سلطة الغرب ونفوذه . ولكن هذه الحملات كشفت عن مفهوم جديد ، هو أن هذه المنطقة بعد ظهور الاسلام ، لم يعد من السهولة ضمها إلى عالم الغرب وفكره .

لقد جاءت الحروب الصليبية بعد خمسة قرون من ظهور الاسلام في محاولة لاستعادة هذه المناطق التي لم يعد من السهل إعادتها إلى الغرب . لأن مفهوماً فكرياً جديداً قد سيطر في هذه المنطقة وتعمق وأصبح يمثل قوة جديدة تستطيع أن تواجه عالم الغرب ، فقد برزت حضارة وعقلية جديدتين ، وظهر أسلوب حياة مباين بحيث يمكن القول إن الحروب الصليبية هي صراع بين حضارتين وعقليتين وأسلوبين في الحياة ، وأنه بعد مائتي عام اتضح للغرب عجزه عن تكرار محاولة الاسكندر الأكبر . ذلك أن الاسلام قد أقام أيديولوجيا جديدة عميقة الجذور . وأن الغرب نفسه قد جاء في أفواج همجية مشردة ، ليواجه عالماً من الحضارة والمدنية يستطيع أن يعطي في مجال القيم الخلقية والفكرية والحضارية .

وبعد : فإن عالم الاسلام لم يواجه هذه القوى ـ بعد أن سيطر عليها وأحاطها بنفوذه ثم أجلاها . لم يواجه هذه القوى بمثل ما واجهته عند ما غزت أرضه ، فأسرفت في القتل والعدوان . بل كان بها عادلاً ورحيماً . وقد بدأ تمثل صلاح الدين الأيوبي ، وهو في موقف القوي المنتصر قائماً في ضوء مفهوم الاسلام وأيديولوجيته ، كريماً رحيماً عادلاً ، يتمثل مفهوم الاسلام : ( العفو عند المقدرة ) مما كان له أثره في تحول مفهوم أهل الغرب عن الاسلام وأهله بالنسبة لما كانوا يعتقدونه بالظن فيه . لقد كانت المقارنة قادرة على الكشف عن مفهومين وعقليتين لا يمكن أن يلتقيا ، ولكن يمكن أن يقتبس كل منهما من الآخر .

---

( ١ ) الدكتور عاشور : الحركة الصليبية .

## ( ٣ )

# معاملة المسلمين ومعاملة الفرنجة

حاول مؤرخو الغرب وتابعهم بعض المؤرخين العرب أن يبرروا الحملات الصليبية على « عالم الاسلام » بأنها إنما كانت مجرد حملات لاسترداد بيت المقدس ، وأنها إنما تحركت لتحرير الطريق إلى قبر السيد المسيح ، وحمايته من مظالم السلاجقة الذين اضطهدوا الحجاج المسيحيين ، وأن بطرس الناسك قد زار القدس ، وعاد يهيج الخواطر ، ويثيرها على سوء المعاملة .

والحق ، أن هذه إحدى افتراءات التاريخ الكبرى التي عاشت طويلاً دون أن تجد ما يحققها أو يدفعها ، فليس هناك أي دليل ، أو أي وثيقة تثبت مثل هذه الاتهامات ، وكل ما عرف في هذا المجال هو أمر الضريبة المقررة على الحجاج والتي زعموا أنها فاحشة ، أما الاعتداء على حجاج القبر المقدس فلم تتأكد بدليل واحد ، أو شاهد منصف ، وإذا وجدت حوادث فردية فهي مما لا تخلو منه مملكة .

ومن المؤرخين المنصفين الذين عاشوا تلك الفترة وزاروا الشام « بردناري فيس » الذي كتب في مذكراته أنه يقول : « إن السلام ساد فوق تلك الربوع بين النصارى والمسلمين حتى أني لو كنت مسافراً ونفق بعيري أو حماري الذي ينقل أمتعتي ، وتركتها كلها دون حارس ولا رقيب ، وسرت إلى أقرب مدينة لأجلب لي بعيراً أو حماراً آخر لوجدت عند عودتي أنها باقية على ما هي عليه » .

وقال العلامة منزو: « كانت تلك الفظائع المنسوبة إلى المسلمين ممزوجة بكثير من الأفاوية « التوابل » لتوافق روح ذلك العصر الذي كان أشد توحشاً من عصرنا هذا ، وكان النصارى يأخذون قصص تلك الفظائع على علاتها » .

وتجمع المصادر على أن المسلمين لم يعاملوا الفرنجة بالمثل ، بالرغم من مظاهر العنف البالغة ، والانتقاض والنكث بالعهود ، والتآمر الذي نفذها الأوربيون وكرروها في أكثر من موقف .

كان المسلمون في جميع أدوار الحروب الصليبية يتصرفون في حدود مفهوم الاسلام وأيديولوجيته رفقاً وعدلاً في دار الحرب والسلم ، ويسجل المؤرخون أن الصليبيين في الحملة الأولى سفكوا دماء المسلمين حتى في المسجد الأقصى بحيث كان الفارس منهم وهو راكب تصل إلى رجليه دماء المسلمين الذين قتلوا ( كتاب التاريخ العام للافيس ورامبو ) فإذا نظرنا إلى أعمال الصليبيين ، تركنا للعلامة ميشو في كتابه تاريخ الحروب الصليبية أن يصور أعمالهم قال : « إنهم قتلوا في معرة النعمان وحدها جميع من كان فيها من المسلمين اللاجئين إلى الجوامع ، والمختفين في السراديب ، وأهلكوا صبراً ( دون قتال ) ما يزيد على مائة ألف إنسان .

وقال ميشو : لقد تعصب الصليبيون في المقدس التعصب الأعمى الذي لم يسبق له نظير حتى شكا من ذلك المنصفون من مؤرخيهم ، فكانوا يكرهون العرب على إلقاء أنفسهم من أعالي البروج والبيوت ، ويجعلونهم طعاماً للنار ، ويخرجونهم من الأقبية وأعماق الأرض إلى الساحات حيث يقتلونهم فوق جثث الآدميين وقد دام الذبح في المسلمين أسبوعاً حتى قتل منهم على ما اتفق في رواية مؤرخي الشرق والغرب سبعين ألف نسمة . كما أحرقوا دار الحكمة في طرابلس . وكان فيها نحو مائة ألف مجلد من الفكر العربي ، فإذا راجعنا ما فعله صلاح الدين بعد سيطرته على القدس واستعادتها منهم عام **٥٨٣** هـ . وكان بها مائة ألف من الفرنجة والصليبيين ( منهم ٦٠ ألف راجل وفارس ) غير النساء والأطفال ، لوجدنا تصرفاً يختلف كل الاختلاف ، لقد حفظ صلاح الدين حياة هؤلاء جميعاً واستوصى بهم ، وسمح لهم أن يخرجوا بكل ما يملكون من ذهب وفضة ، واكتفى بأن فرض على كل منهم عشرة دنانير ، وعلى كل امرأة خمسة ،

وعلى كل طفل دينارين . وتحمل عمن عجز منهم ، فأعفى كثيرين من هذه الفدية . وأدى الملك العادل أخو صلاح الدين الفدية عن ألف منهم ، وعومل النساء معاملة غاية في السماحة واللطف ، وأغضى عن كل ما حملوا معهم من غنائم ، وأباح للبطريرك الأكبر أن يخرج آمناً بأموال البيع ، وذخائر الجوامع التي غنمها الصليبيون في هجومهم الأول . ورفض صلاح الدين ما ذهب إليه مستشاروه من أن البطريرك سيتقوى بما أخذ على حرب المسلمين ثانية . وقال : « لا أغدر به » كما خالف ما أشار به بعض الفقهاء الذين قالوا بمعاملة الفرنجة بمثل ما عامل به أجدادهم جمهور المسلمين يوم فتحهم للقدس ، بل لقد ذهب صلاح الدين إلى أبعدمن ذلك فإنه لماعقد الصلح بينه وبين الفرنجة،دخل خلق كثير من الافرنج إلىالقدس فأكرمهم صلاح الدين وقدم لهم الأطعمة . لقد التزم صلاح الدين منهج الاسلام ومفاهيمه ، وحاول أن يكون مثلا واقعياً للقيم الاسلامية . وكان لهذا أبعد الأثر في تصحيح مفاهيم الغربيين إزاء ما ألقي إليهم من شبهة عن قسوة المسلمين وظلمهم . حتى عاد كثيرون منهم بعد انتهاء الحروب الصليبية يتحدثون عن الاسلام وعن صلاح الدين .

وقد تحدث بعض المؤرخين عن خلق صلاح الدين فقال « أيوركا المؤرخ » . « لقد ظهرمن الجند المسلمون الذين رافقوا المطرودين من الفرنجة شفقة مؤثرة ، ولا سيما على الأطفال والنساء ، ولا يتأتى إيراد البرهان على سمو أخلاق صلاح الدين بأكثر مما عامل به الصليبيين . حتى لقد هدد أصحاب السفن من رعايا الجمهوريات الايطالية ليعيدوا هؤلاء البائسين من الصليبيين ، وقال منزو : كان صلاح الدين محبوباً في الغرب لرأفته وكرمه بعد استيلائه على أورشليم وسلوكه سلوكاً آخر غير سلوك الصليبيين آثار دهشتهم وعجبهم ، وكان كما هي العادة عند المسلمين شديد التسامح ، مشهوراً بتأدبه . ولكن هل كان في ذلك عبرة أو ردّ بالجميل . الواقع أن العكس هو الذي كان . فإن الصليبيين لم يلبثوا أن أظهروا الغدر بعد قدوم الحملة الصليبية الثالثة . إذ سارع ريتشارد قلب الأسد مستبطئاً وعداً لصلاح الدين بإرسال بعض الأمانات ، ولم يلبث أن خذ ملك الانجليز ألفين وسبعمائة من أسرى المسلمين وقتلهم على رأس تل في عكا بمرأى من جند صلاح الدين ، وبقر عسكره بطون المقتولين ليروا إن كان فيها شيء من الجواهر والذهب ، ورغبة في الانتفاع بمرائرهم ليتخذوها دواء

يستشفون به ( تـاريخ الأمـير حيدر ) وسجـل المؤرخـون الغـربيون كيف أسر المسلمون كثيراً من الفرنجة الذين ظلوا أمداً طويلاً في أسرهم ، فكانوا يعاملونهم معاملة طيبة ، ويمنحونهم وافراً من الحرية : ( تاريخ الحروب الصليبية لمنزو ) وقد أشار هذا المؤرخ إلى أن الفرنجة قد اكتشفوا حقيقة هامة وخطـيرة هي أن « اتهام المسلمـين بالجبـن قد زال من أذهـان الصـليبيين لما التحمـوا معهـم في القتال » .

## المقاومة

( أولا ) : وحدت الحروب الصليبية جبهة المسلمين ، وأزالت خلافاتهم فأضحوا عرباً وتركمان وأكراداً على مقاومة الغزو الغربي ، كما تلاقت الدول : الفاطمية والأتابكية ، والأيوبية للمماليك .

( ثانياً ) : عني المسلمون بفنون الحرب ، وبرعوا في ابتكار أنواع جديدة منها . وكانت مواقفهم واختراعاتهم الجريئة موضع إعجاب الفرنجة حين قاتلوا بالأبراج والمنجنيقات والدبابات والكباشي واللوالب والطب والسرايات وطم الخنادق ، ونصب السلالم والزحوف في الليل والنهار .

( ثالثاً ) : كانوا يتعاودون المعارك والمواقف ساعات من الليل والنهار ، فيعملون في سبيل أرزاقهم أوقاتاً ، ويخصصون للجهاد ساعات وأياماً .

( رابعاً ) : أبرزت الحروب الصليبية أعلاماً في مجال السياسة والحرب : نور الدين وصلاح الدين والكامل والظاهر وقلاوون والأشرف وعشرات من الزعماء والقواد .

( خامساً ) : اختلف أسلوب مقاومة الحملات اصليبية في الشرق وتطور و كان منهج نور الدين مختلفاً عن منهج صلاح الدين ، وكان منهجاهما معاً يختلف عن منهج الظاهر بيبرس وقلاوون . وقد ظلت مقاومة نور الدين قائمة ومستمرة في الغارات على حصون الصليبيين ، وقد استطاع أن يفض أكثرها . ففتح أكثر من خمسين حصناً ، وكسر الصليبيين في حارم وكانت عدتهم ٣٠ ألفاً

من الروم والأرمن والفرنج .

أما صلاح الدين فقد أوقع بهم في معارك فاصلة . وقد أعطى صلاح الدّين للغربيين صورة باهرة للتطبيق الاسلامي للحرب والقتال والصلح . أما الظاهر بيبرس فقد اضطر إلى اصطناع أسلوب أكثر عنفاً من صلاح الدين . وكان لمؤامرات الصليبيين أبعد الأثر في هذا الاتجاه .

( سادساً ) : ظل الشعب صامداً ومتحملا آلام الضيق الاقتصادي نتيجة استنزاف الموارد في معارك المقاومة ، ولكنه ظل يقظاً لأي موقف مهادن . فقد استنكر المسلمون صنع الملك الكامل ابن أخي صلاح الدين عند ما وقع مع الامبراطور فردريك معاهدة بإزالة الصفة العسكرية عن القدس والتنازل عنها للصليبيين .

( سابعاً ) : قاوم المسلمون كل محاولة لتثبيط الهمم . فقد دبرت الخاتون صفوة الملك على أبيها شمس الملوك صاحب دمشق من يقتله لما أيقنت أنه استدعى الافرنج ليسلم إليهم الملك . ولما وقع أحد ملوك الصليبيين أسيراً في قبضة نور الدين.باعه نفسه بمال عظيم أنفقه في الجهاد ، وافتدى أحد ملوكهم نفسه بمبلغ كبير . فأخذه وبنى به مستشفى عظيماً .

( ثامناً ) حاول ( أرناط صاحب الكرك ) من ملوك الصليبيين فتح الحجاز ، فأنشأ لذلك أسطولا في بحر الروم ( الأحمر ) وسار في البحر فحاصر حصن « أيلة » واتجه نحو عيذاب لاضطهاد المسلمين في تلك الأرجاء ، وأهان اسم النبي بكلمات رويت عنه ، فحلف صلاح الدين أن يقبله بيده . إذا ظفر به ، وقد حقق صلاح الدين وعده بعد موقعة حطين .

( تاسعاً ) : في خلال الحروب الصليبية وفي معمعتها . برز « الخطر المغولي » : كانت الحروب الصليبية تشغل الشام ومصر . أما الخطر المغولي فقد اجتاح عالم الاسلام من حدوده الشرقية حتى وصل بغداد ، وحلب ودمشق . كانت ( حملة هولاكو ) ( ٦٥٦ هـ ١٢٥٨ م ) بعد الحملة الصليبية السابعة ( حملة لويس على مصر ) ( ٦٤٦ هـ ١٢٤٨ م ) بعشر سنوات . وقد اجتاحت عاصمة الخلافة ( بغداد ) فأسقطتها ، واستطاع المماليك الذين كانوا قد حكموا مصر قبل

ذلك بسنوات قليلة ( ٦٥٢ هـ ) أن يردوا عدوان التتار على حدود مصر في موقعة فاصلة هي : « عين جالوت » انهزم فيها التتـار بعـد جولـة ضخمـة من النصر اكتسحوا خلالها عالم الاسلام .

( عاشراً ) : أثبت انهيار مملكة بيت المقدس في موقعة ( حطين ) ٤ يوليو ١١٨٧ م أن الصليبيين بعد تسعين عاماً لم يتمكنوا من توطيد أقدامهم في البيئة العربية الاسلامية . وجاءت الأحداث المتوالية مؤكدة أن الأيديولوجية الغربية لا تستطيع أن تسيطر على عالم الاسلام أو تذويه أو تقضي على مقوماته المستمدة من الاسلام ، ولم تكن الفترة التي امتد خلالها كيان مملـكة الفرنجـة في السـاحـل الشامي بالرغم من الامدادات المتوالية والحملات المستمـرة إلا فتـرة مضطربـة عقيمة ، انتهت بالقضاء على هذا الكيان وهزيمته هزيمة منكرة ، وتمزيقه تمزيقاً . لقد توقفت الحملات الصليبية على الساحل الشامي بعد الحملة الثالثة ، واتجهت الرابعة إلى مهاجمة الامبراطورية الشرقية ، والحملة الخامسة والسابعة اتجهت إلى مصر .

( ٢٠ )

## « عزو الفرنجة للمغرب »

في مقابل الحروب الصليبية على المشرق كانت هناك الحروب الصليبية المغربية على المغرب الاسلامي ، وبينهما أوثق الروابط حيث كانت أوربا تمد جناح الغزو إلى القسطنطينية والمشرق ، من ناحية . وتمد جناحه الآخر إلى الأندلس والمغرب .

بلغ التوسع الاسلامي أفريقيا . ثم عبر الأندلس سنة **٩٢** هـ على يد القائدين طارق بن زياد ، وموسى ابن نصير . فلم تلبث أسبانيا أن أصبحت ولاية إسلامية ، ودخلت عالم الاسلام . ثم شق التوسع طريقه إلى ما وراء جبال البيرنيه ، فأوغل المسلمون في ولايات فرنسا الجنوبية ، وسيطروا على سهول الزون وتقدموا في قلب فرنسا خلال عشرين عاماً حتى توقفوا ثمة في معركة تولوك ( تولوشة ) **١٠٢** هـ **٧٢٢** م واستشهد قائدهم السمح ابن مالك فارتدوا إلى أسبانيا . ثم كانت موجة جديدة قادها ( عبد الرحمن الغافقي ) **١١٣** هـ فمضى إلى الشمال مخترقاً أراجون ونافار حتى بلغ نهر الرون ، فهزم الفرنسيين وطاردهم حتى بوردو . ثم استولى على ليون ، وبلغ قريباً من باريس نحو مائة ميل ، واتجه الى ضفاف اللوار ليتم فتح هذه المنطقة ، فسيطر على نصف فرنسا الجنوبي . وقد امتد خط التوسع كما يقول إدوار جيبون ـ مدى ألف ميل من صخرة طارق إلى ضفاف اللوار . وقد كان اقتحام مثل هذه المسافة يحمل العرب إلى حدود بولونيا

وربا أيقوسيا ، فليس الرين بأمنع من النيل والفرات . فلو حدث كانت أحكام القرآن تدرس الآن في جامعة اكسفورد . وربما كانت منابرها تؤيد لمحمد صدق الوحي والرسالة .

ثم كان اللقاء بين المسلمين والفرنجة في معركة بلاط الشهداء (وبواتييه) **١١٤** هـ هذا اللقاء الذي يقف عنده المؤرخون الأجانب على أنه حاسم ، وأنه قضى على التوسع الاسلامي في أوربا بينما ظل المسلمون يتوسعون في أوربا من بعد ذلك إلى تاريخ بعيد .

لم يتوقف التوسع الاسلامي في أوربا بعد معركة بلاط الشهداء . وإن كان قد انتظر ثمة ، ثم عاود من بعد حركته ، وكانت دولة بني الأغلب في تونس هذه المرة ، هي التي حملت لواء التوسع بعد توقف دولة المغرب ، فلم يلبث عبد الله بن الحيات والي أفريقيا أن بعث حبيب بن أبي عبيدة بن عقبة الفهري عام **١٢٣** هـ - أي بعد معركة بلاط الشهداء بتسع سنوات - الى حدود إيطاليا . . .

ثم جهز زياد الله الأكبر أسطولاً عام **٢٠٧** بإمارة محمد بن عبيد الله التميمي لمنازلة سردانية . ثم أعاد عليها الكرة **٢١٢** هـ بقيادة أسد بن الفرات ، ثم توالت محاولات التوسع في إيطاليا **٢٢٤** هـ . وتمت السيطرة على صقلية ، وتقدم التوسع في شطوط إيطاليا من **٢٣٣** إلى **٢٤٠** هـ . ثم سيطر المسلمون على جزيرة أقريطش بعد موقعة هائلة مع أسطول بيزنطة ( **٢٤٠ - ٢٥٠** ) واقتحم القائد خفاجة جنوة عام **٢٥١** هـ . وتقدم إلى جبال الألب ، وسيرت بيزنطة أسطولا ضخماً لمحاربة المسلمين في شطوط أوربا الجنوبية ومنعهم من التقدم في فرنسا ، فواقعهم خفاجة على شواطىء جنوة وسركوسة ، وألحق بهم خسارة عظمى ، واستولى الأسطول الأغلبي على جزيرة مالطة .

وتقدم الحسن بن رباح إلى مرسيليا وفتح البروفنس ، فاستنجدت فرنسا بالدولة البيزنطية ، فسيرت لها أسطولا مؤلفاً من **١٤٠** مركباً فلقيه الأسطول الاسلامي في عرض بحر الروم ودارت معركة ضخمة ، وتوغلت القوات الاسلامية في فرنسا بقيادة خفاجة بن سفيان ، واستمرت من **٢٦٦** إلى **٢٧٢** هـ فملكت بعض شواطىء الرون واحتلت كولونيا ، كما جهزت أفريقيا أسطولا

عظيماً عام **٢٧٥** هـ لتعقب أسطول البزنطيين ، فشل حركتهم عن التقدم ، وتمكنت سيادة المسلمين في إيطاليا وجانباً من فرنسا .

يقول العلامة عبد العزيز الثعالبي الذي نقلنا عنه هذا العرض : لقد استمر نجم الاسلام صاعداً في أوربا بعد هذه الواقعة العظيمة ، والأمراء الأغالبة لا ينفكون عن تعزيز المسلمين في ولايتهم الأوربية .

مراقبة حركات الصليبيين مراقبة عنيفة تحيط كل مسعى في الانتكاس ، إلى أن قامت الدولة العبيدية ( الفاطمية ) . هنالك توقف التوسع الاسلامي ( أواخر القرن الثالث ) . ومعنى هذا أن المسلمين ظلوا من عام **١١٤** إلى **٢٩٨** هـ تقريباً وهم يوسعون عالم الاسلام في فرنسا وإيطاليا . وقد اقتحم المسلمون بعض ولايات إيطاليا الجنوبية واشتبكوا في معارك بحرية في مياه أوستيا ( ثغر روما ) وهددوا مدينة روما بالحصار حتى اضطر البابا يوحنا الثامن أن يدفع لهم جزية قدرها **٢٥** ألف مثقال من الفضة . غير أن الموقف لم يلبث أن تحول بانتقال المعز لدين الله إلى المشرق ، وشعر الغرب بسريان الضعف والانحلال في القوة الاسلامية . فأخذوا يتواثبون في كل مكان . وما زالوا يؤلبون عليهم حتى **٣٧٢** هـ حين قاد الملك روجار النورماندي جموعاً كثيفة لمناجزة المسلمين في فرنسا ، ودارت معارك ردت الفرنجة على الأعقاب . وقد استنفر ( روجر ) الأمم الأوربية لمحاربة عالم الاسلام في أوربا وأفريقيا . ثم نزل النورمانديون من شمال فرنسا إلى جنوبها ، وشرعوا يتعقبون القوى الاسلامية ويناجزونها في إيطاليا حتى أزالوا المسلمين من جنوب أوربا ، ثم اتجهوا بعد ذلك إلى مهاجمة أفريقيا ، ففي عام **٤٧٦** هـ هاجموا ثغر « المهدية » وهو دار المملكة الصنهاجية بأسطول مؤلف من ثلاثمائة مركب بها **٣٥** ألف مقاتل فحرقوا وخربوا . وعاود المسلمون الكرة عام **٥١٦** هـ فأغزى علي بن يوسف بن تاشفين صاحب العدوتين أسطوله شطوط أوربا الجنوبية بقيادة ( أبي عبد الله بن ميمون ) وأعاد النورمانديون الكرة على المهدية **٥١٧** هـ . فغنم المسلمون مراكبهم وأسلحتهم وأموالهم . ثم عادوا عام **٥٤٣** فاحتلوا المهدية ، وجعلها الصليبيون قاعدة لحركاتهم البحرية في شمال أفريقيا إلى أن أجلاهم عبد المؤمن ابن علي سنة **٥٥٥** هـ .

وقد جاء هذا الصراع بين الاسلام والغرب ، على حدود إيطاليا وفرنسا

وأسبانيا ( مدخل أوربا الغربي ) مكملا للصراع بين الاسلام والدولة البيزنطية ( مدخل أوربا الجنوبي ) فلم ينفصل هذا الصراع في شطريه ولم يتوقف ، وكان آناً يتسع ويعمق في أحد الجناحين ، ثم يتخفف ليواصل اشتداده في الجناح الآخر .

ولم يلبث الاسلام أن دعم وجوده في الأندلس ، ولكنه كان وجوداً محفوفاً بالخطر الذي كان يجتاحه من أطرافه ، فلم تلبث أن قامت الدولة الأموية راسخة البنيان استمرت ( ٢٧٥ عاماً ) ثم اعتورها الضعف والترف والتمزق ، ولم تلبث أن تحولت إلى ممالك صغيرة استطاع نفوذ الفرنجة المتربص أن يجتاحها وينتقص منها ، ويغري بعض أمرائها بالبعض الآخر ، وكان المسلمون قد تركوا إبان وصولهم إلى الأندلس جيباً به مجموعة من الفرنجة اعتصمت بالجبال ، وظلت تكبر وتنمو حتى أصبحت قوة كبيرة ، وخطراً مهدداً ، ولم تلبث الأندلس أن تعرضت للغزو الصليبي الذي كان ينتقصها من أطرافها ، لولا موجتان متواليتان ، إحداهما للمرابطين ، والأخرى للموحدين . هاتان الموجتان اللتان قادهما يوسف بن تاشفين وعبد المؤمن ابن علي . قد أجلتا تمزق الأندلس فترة من الوقت . وكانت قوة البربر التي ظهرت على مسرح الأحداث في المغرب إحدى القوى الاسلامية الثلاث : البدوية الخشنة التي نصرت الاسلام في إبان أزمته ، وهي ثالثة : السلاجقة والمماليك .

ولقد ظل الغرب يقاوم بقاء المسلمين في أوربا ، ويعمل على إجلائهم من مواقعهم ، وكانت دولة الاسلام قد تراخت فلم تحقق تطلعها إلى بلوغ القسطنطينية من الأندلس ، وتحول الموقف سريعاً من مرحلة التوسع إلى مرحلة الدفاع والمقاومة ، وهي مرحلة طويلة مريرة واجه فيها المغرب والأندلس صراعاً من عام ٩٣ إلى ٨٩٨ هـ - وهو عام استرداد الغرب - للأندلس ولم يتوقف . وقد ترابط الغزو الصليبي على الأندلس من ناحية ، وعلى عالم الاسلام في المشرق من ناحية أخرى ، وازداد ضغطاً وقوة بعد فشل الحروب الصليبية في المشرق وارتدادها منهزمة ، وكانت أوربا تتقاسم المعركتين وتؤلب عليهما في كلا الميدانين : ميدان الشرق في الشام ومصر . وميدان الغرب في الأندلس والمغرب ، ولقد بلغت الأندلس مكاناً عالياً في مجال العلم والحضارة ، وازدهرت قرطبة

ونافست بغداد ودمشق والقاهرة . بينما كانت أوربا على مرمى حجر منها تعيش في ظلمات البداوة والتفرق .

* * *

تقبلت أسبانيا عبور المسلمين اليها تقبل المنقذ ، فقد التمست فيهم التخلص من الظلم والاستبداد كما تقبلت دولتا فارس والروم « الاسلام » محررا لها . وقد توالت حركة التوسع في الأندلس ممثلة في فرقة طريق الاستطلاعية . ثم عبرت قوة طارق . ثم عبر بعده موسى بن نصير نفسه ، وكان للبربر الدور الأعظم في هذه المعارك . ثم عبر جبال البرانس من بعد « الحر بن عبد الرحمن الثقفي ( ٧١٧ م ٩٩ هـ)فاستولى على ستمبانيا . ثم احتل أربوبة التي جعلها المسلمون من بعد حصناً منيعاً ومستودعاً للمؤ ن والذخائر . ثم كانت موقعة بلاط الشهداء عام ١١٤ هـ بعد عشرين عاماً من التوسع ، فانسحب المسلمون بعد هزيمة اليوم الأول ، واستشهاد عبد الرحمن الغافقي . وتوقف التوسع في هذا الجناح ليبدأ في جناح آخر . وبطابع آخر . فقد استأنفته قوى المسلمين في جناح تونس ، وإن لم يكن بنفس الدرجة ولا القوة .

ويمكن أن ينظر إلى هذه الموجة التي بدأت عام ٩٢ وتوقفت ١١٤ هـ على أنها موجة طبيعية قد بلغت مداها . كان قوامها البربر والعرب معاً . وقد استنفدت قوتها . بعد أن بعدت عن جبل طارق نقطة بدئها نحو ألف ميل ، فضلاً عن الخلاف الذي دّب بين البربر والعرب ، وفضلاً عن مأساة الغنائم .

فكان بلوغ الزحف موقع « بلاط الشهداء » في الحق ، هو أقصى ما يمكن أن تبلغه هذه الموجة ، ومن هنا بدأت المرحلة التالية هي : مرحلة التبلور والانصهار ، وبناء الحضارة التي ازدهرت في ظل الدولة الأموية الأندلسية خلال ( ١٣٩ - ٤١٤ ) خلال قرنين ونصف ويزيد . غير أن الظاهرة الواضحة في الأندلس . أن الصراع لم يتوقف بين المسلمين والفرنجة حتى في أزهر العصور . وأن بناة الدول أمثال : عبد الرحمن الداخل . وعبد الرحمن الناصر . والمنصور أبو عامر ، كانوا مجاهدين بالدرجة الأولى ، وكانوا يوالون تأمين حدودهم من غارات الفرنجة الذين كانوا يتربصون الدوائر بهذه المملكة العربية الاسلامية التي نجمت في قلب عالم أوربا الناقم المتعصب ، المبيت النية للقضاء عليها .

ومع ذلك فقد تمت في مرحلة التبلور والحضارة ، وأينعت ثمارها ، وكتبت صفحة باهرة ، فقد فاقت حضارتها حضارة المشرق . وحملت لواء العلم والفلسفة واضطرت أوربا أن تتصل بها . وأن تأخذ عنها . ثم أن تمتص هذه الحضارة وتحيلها إلى كيانها ، وتبدأ بها النهضة الحديثة . فقد كان « المنهج التجريبي » هو أعظم ما قدمت الأندلس المسلمة العربية إلى الحضارة الأوربية الوليدة . وكانت مؤامرة سحق الأندلس ، وإخراج المسلمين والعرب من أسبانيا ، والقضاء على الاسلام ، واللغة العربية في أوربا والتخلص من آخر عربي ومسلم في أوربا بالاخراج أو القتل أو التنصير هو ردّ الفعل أو ردّ الجميل .

ومن عجب أن تكون قرطبة عاصمة الأندلس هي زهرة أوربا كلها ، وفيها يقيم نصف مليون من السكان . وكان بها سبعمائة مسجد وثلاثمائة من الحمامات العمومية ، وبها شقت شوارع طولها أميال كانت دائماً مضاءة بقناديل حيث لا يوجد في ذلك الوقت قنديل واحد عمومي في لندن إلا بعد سبعمائة سنة . أما باريس فظلت قروناً بعد ذلك ، لا يأمن من يتخطى داره في يوم ماطر من الخوض في لجة من الوحل .

# الغزو المغولي التتري

يمثل الغزو المغولي ( التتار ) موجة من الموجات العاصفة التي واجهت عالم الإسلام ، واستمرت تجتاحه بعنف على دفعات متوالية خلال أكثر من قرنين ونصف قرن .

* جنكيزخان : امبراطورية المغول ( ٦٠٠ هـ )

* هوكولاكو في بغداد ( ٦٥٦ هـ )

* تيمورلنك في خراسان وما وراء النهر ٧٧١ - فتوحاته ٧٨٣ في بغداد ( ٧٩٥ هـ ) . حملة تيمورلنك على سوريا ٨٠٤ - وحملة تيمورلنك على الدولة العثمانية .

وقد اقترنت غزوات التتار لعالم الإسلام بغزوات الصليبيين وارتبطت بها وفق مخطط عسكري في محاولة وضع عالم الإسلام بين فكي كماشة قوامها الصليبيون والتتار الذين كانوا على صلة بالقوى الأوروبية التي تدعم الحملات الصليبية ، كما حاولت القضاء على الدولة العثمانية كقوة شابة من قوى الإسلام . وكان للمغول والتتار في كلا الموقفين من غزو بغداد لإسقاط الخلافة ، ودحر القيادة السياسية الإسلامية ٦٥٦ هـ بقيادة هولاكو و ٧٩٥ هـ بقيادة تيمورلنك . ثم غزو آسيا الصغرى لإسقاط الدولة العثمانية الشابة التي تمثل قيادة الإسلام شأنه

دائماً مع كل القوى المواجهة له . كان دائما قادرا على التأثير فيها . فقد استطاع بقوته العقلية والروحية الفاعلة أن يحول التتار إلى الإسلام . فلم يكد ينقضي على ظهور التتار أكثر من ثمانين عاماً حتى أعلن الامبراطور ( تاجدار اوغلي ) الذي تولى السلطة عام ( ٦٨١ هـ ١٢٨٢ م ) اعتناق الإسلام ، وأطلق على نفسه السلطان أحمد ، ووزع منشوراً بذلك على المقاطعات التي يكون فيها امبراطوريته ( عربستان . عجمستان . هندستان . تركستان ) وكان نص منشوره الذي بعث به الى والي بغداد يقول : « لقد جلست على عرش أجدادي ، فخذوا علماً أننا معشر المغول مسلمون ، وأن حقوقكم الموروثة من عهد العباسيين ستظل محترمة مقدسة . وقد أمرت أن ترد الى الشعب العراقي جميع التكايا والمدارس والمؤسسات الدينية والشخصية التي كانت ملكا لهم ، واغتصبها عمال ووكلاء أجدادي ، وبلغت نائبي لديكم أن يمشي في جميع أحكامه على مقتضى تعاليم الشرع الإسلامي لأن محمداً صلى الله عليه وسلم بشرنا بالقرآن الكريم . إن الدين الإسلامي هدانا لهذا والسلام سيظل قائما وسائداً إلى يوم القيامة . ولنأمل الاعتقاد بذلك ، فالحمد لله الواحد الأبدي : ( امضاء ) الخان الأعظم ملك ملوك آسيا ( تاجدار أوغلي ) .

وسار ( غلزان ) ابنه في نفس الطريق ، فما إن تولى الملك حتى هاجم بلاد مغول الصين التي كانت تتمسك بالشامانية والبوذية والكنفوشوسية ، وحملهم على اعتناق الإسلام ، فأصبح المغول بأجمعهم والتابعون لهم يدينون بالإسلام . وقد كان هذا التطور سببا رئيسيا في إقبال الأهالي على اعتناق الاسلام . ومن هنا تمركز الإسلام في بلاد المغول ، ثم أمر « السلطان جاردوان » بهدم المعابد الوثنية وإقامة المساجد الإسلامية مكانها .

وما زال حادث سيطرة الإسلام على هؤلاء الفاتحين القساة الذين كانوا كالإعصار الماحق للحضارة الإسلامية ، وما زال يعد من أحداث تحولات التاريخ الخطيرة التي تحتاج الى مزيد من الدراسة والبحث . فقد كان حادث إسقاط الخلافة العباسية في بغداد من الحوادث الفاصلة المعدودة في تاريخ الإسلام كله ، والتي هزت عالم الإسلام هزة عنيفة حتى قال ابن الأثير في تاريخه سنة ٦١٧ هـ :

« لقد بقيت عدة سنين معرضاً عن ذكر هذه الحالة استعظاماً لأمرها ، كارهاً لذكرها ، فأنا أقدم إليه رِجْلاً وأؤخر أخرى . فمن ذا الذي يسهل عليه ان يكتب نعي الإسلام والمسلمين . ومن الذي يهون عليه ذكر ذلك . فيا ليت أمي لم تلدني » .

وقد صور توماس أرنولد قوة الإسلام في التحدي ورد الفعل حين استطاع بعد ربع قرن من إسقاط التتار لبغداد منار الخلافة الإسلامية أن يفرض عليهم اعتناق الإسلام : « لا يعرف الإسلام من بين ما نزل به من الخطوب والويلات خطبا أشد هولاً من غزوات المغول . فقد انسابت جيوش جنكيزخان انسياب الثلوج من قلل الجبال واكتسحت في طريقها المراكز الإسلامية ، وأتت على ما كان لها مدنية وثقافة . . ولكن لم يكن بدّ من أن ينهض الإسلام من تحت أنقاض عظمته الأولى ، وأطلال مجده الخالد ، كما استطاع بواسطة دعاته أن يجذب أولئك الفاتحين المتبربرين ، ويحملهم على اعتناقه ، ويرجع الفضل في ذلك الى نشاط الدعاة من المسلمين الذين كانوا يلاقون من الصعاب أشدها لمناهضة منافسين قويين كانا يحاولان إحراز قصب السبق في هذا المضمار .

وقد واجه المغول صراعاً حامياً بين البوذية والمسيحية والإسلام ، كانت الشعوب التي اختلطوا بها على أثر فتوحاتهم تضم أهل الديانات الثلاث . وقد تنافس دعاة الديانات في كسب الفاتحين الى أديانهم . ولما فتح جنكيزخان البلاد التي تسكنها قبيلة الكرائيب المسيحية تزوج كما تزوج ابنه كوبلاي منها . أما ابنه الثاني إخياي فإنه لم يعتنق المسيحية . وكان لهذه المصاهرة أثرها في تطلع قوى الإفرنج الى مساعدة المغول في حروبها ضد المسلمين . فقد تمكن هيتون ملك أرمينيا المسيحي من إقناع مانجوخان ( ٦٤٦ - ٦٥٥ ) وحمله على إرسال تلك الحملة التي فتحت بغداد تحت قيادة هولاكو ( ٦٥٤ - ٦٦٣ ) غير أن الخطة التي كانت تقوم بها حملات التبشير وقوى الفرنجة لكسب المغول إلى المسيحية لم تحقق نجاحاً مضطرداً . ولمّ تلبث ان توقفت نتيجة لظهور الخلاف بين هذه القوى وامتدادها إلى مجتمعات المغول . فكان للصراع بينها اثراً سيئاً في نفوس التتر . ومن ثم استطاعت البوذية واستطاع الاسلام إن يحتلا مراكز متقدمة في بلاد المغول ، وظل الصراع قائماً حتى حسمه « بركه خان » رئيس القبيلة الذهبية

٦٥٤ - ١٢٥٦ م . وكان أول من اسلم من المغول ، وكان بركه خان قد اعتنق الاسلام منذ طفولته ، وكان جيشه مسلماً . وقد دخل بركه خان من بعد في حلف مع الظاهر بيبرس ، وكان من نتيجة ذلك ان وفد كثير من رجال القبيلة الذهبية إلى مصر ، حيث اتخذوا الاسلام ديناً لهم ( المقريزي ) .

وكان من أبرز آثار انتشار الاسلام بين المغول بعد ان ردهم الظاهر بيبرس من سوريا أن عمدوا إلى توطيد أقدامهم في فارس والعراق . وانصرفوا إلى التعمير وإقامة الحضارة ، واصلاح المناطق التي كانوا قد خربوها . والحق أن المغول بعد هذه الحملات العاصفة على عالم الاسلام والتصاقهم بالمجتمع الاسلامي قد وجدوا انفسهم خاضعين للاسلام ويمكن القول أن أثر الغزو المغولي في ضراوته لا يقل عن أثر الحروب الصليبية . بل إنه كان من الوجهة النفسية أسوأ أثراً حيث أسقط مركز القيادة السياسية الاسلامية التي كانت دوما موضع الاكبار والاجلال ، وكان الغزو المغولي قد بلغ من العنف مبلغاً لا حدّ له ، وامتدت دفعته امتداداً شمل آسيا كلها ، وبلغ أطراف أوربا . غير أن المغول لم يلبثوا بعد أن انصهروا في عالم الاسلام واعتنقوا ديانته ، أن أقاموا دولة كبرى امتدت من الصين الى بداد . بينما أقام الصليبيون في الشريط الساحلي للبحر الابيض تجاه الشام .

وقد نقلت غزوات التتار مقر الحضارة الإسلامية الى مصر التي لم يمسها هذا الغزو ، وانكسر لأول مرة على حدودها ، والذي استطاع إبراز قوة حربية فتية ظلت تحمي عالم الإسلام أكثر من قرنين هي قوة المماليك ، الذين انضووا تحت لواء الإسلام ، وحملوا راياته ، ودافعوا عنه ، وكانوا إحدى القوى الثلاث التي ابتعثها الإسلام من أعماقه للدفاع عنه : « السلاجقة الأتراك والبربر اللميتونيين والمماليك البحرية » .

## التتار وسقوط بغداد

زحف هولاكو على بغداد عاصمة الخلافة الإسلامية فدمرها وقتل الخليفة المعتصم وجلّة العلماء والفقهاء . ووضع السيف في بغداد أربعين يوماً حتى زاد

عدد القتلى عن ٨٠٠ ألف ( عدا الأطفال ومن هلكوا في السراديب والقنى والآبار ) وبدد مظاهر الحضارة من كتب وفنون وتراث ونهب أكثر من أربعمائة ألف مجلد بها خزانة كبيرة نقلها الى عاصمته من بغداد والشام والجزيرة .

وقد أشار ابن تيمية في مؤلفاته الى أن من قتلهم هولاكو في هذه المعارك من المسلمين : بضعة عشر ألف إنسان . وقال إن الإسلام لم ير ملحمة مثل هذه الملحمة . وقد عجزت السلطة الحاكمة في بغداد من الوقوف في وجه الغزو المغولي الأول عام ٦٥٦ نتيجة لعوامل كثيرة توالى بها الضعف عاما بعد عام ، أبرزها التفكك الذي أصاب دولة الخلافة وسيطرة القوى المحتلة الغازية عليها . ومن بغداد اتجه المغول نحو الشام في غزو مندفع كالإعصار . بدأ غزو التتار للشام بعد إسقاط بغداد ١٢٥٩ م ( ٦٥٧ هـ ) فتدفقت قواتهم على الجزيرة ، واستولى هولاكو على آمد ونصيبين وحران والرها والبيرة ، ثم اتجهت القوات صوب حلب فاستولت عليها عنوة . ثم استولى هولاكو على دمشق ١٢٦٠ م ( ٦٥٨ ه ) ووصلوا الى غزة ، ثم جاء دور مصر واستطاع قطز وبيبرس التصدي للخطر وإيقافه لأول مرة منذ زحف المغول من أواسط آسيا . فقد هزموا هذه القوة التي لم تستطع قوة في الشرق الاوسط والأدنى الصمود لها ، وانتصر المصريون على التتار في موقعة ( عين جالوت ) وقتل « كتبغا » قائدهم الخطير ، وأظهر المماليك شجاعة كبيرة ، فقد اهتز السلطان قطز عندما اضطربت صفوف المسلمين ورمى خوذته من فوق رأسه الى الارض وصرخ بأعلى صوته « وإسلاماه » حمل بنفسه على العدو ، وقضى على العدو قضاءً تاماً . وتعد معركة « عين جالوت » من المواقع الفاصلة في التاريخ لما ترتب عليها من نتائج خطيرة ، فلو انتصر التتار في هذه الموقعة لفعلوا بمصر ، وأهلها ما فعلوا بالعراق ، ولا قاموا واستقروا في الشام . ومن هنا لم ينقذ انتصار المماليك مصر وحدها . بل أنقذ الشام أيضاً ( سعد الدين عاشور : المماليك ) .

ويجمع المؤرخون على أن غزو التتار لبغداد إنما كان بتحريض واتفاق مع الصليبيين في سبيل القضاء على قوة الإسلام : فقد كانت زوجة هولاكو « دوقوز خاتون » مسيحية نسطورية ، وكانت ذات نفوذ مسموعة الكلمة ، وقد كان للقوى الصليبية في مملكة هولاكو نفوذ بارز . ومن هنا استطاعت هذه القوى -

وفق خطة مرسومة مع القوى الأوروبية ـ أن تحرض التتار وتستغل قوتهم في القضاء على عالم الإسلام . وقد تحالف الأرمن ( مملكة أرمينية الصغرى ) مع التتار ، واشترك الطرفان في وضع خطة غزو هولاكو لبلاد الشام ، واستطاعت اوربا أن تقيم صلات مع تتار فارس بلغت درجة عالية ، فاستطاعت أن تحقق بهذا الغزو التتري لمناطق الشام والجزيرة وأطراف آسيا الصغرى نتائج هامة . إذ هي المناطق التي تتاخم المملكة اللاتينية على الساحل الشامي . فالقضاء عليها وضربها لا شك يؤدي إلى إضعافها وإعجازها عن مقاومة نفوذ الصليبيين . وقد كشف التاريخ عن ان ضربات التتار كانت تزداد عنفا كلما استولوا على مدينة من مدن الشام الإسلامية ، مثل حلب ودمشق . فقد كانوا « يسرفون[1] في اضطهاد أهلها المسلمين وامتهان مساجدهم بقدر ما أسرفوا في تأمين المسيحية واحترام كنائسها ودورها » .

والمعروف ان زوجة هولاكو وأمه كانتا مسيحيتين ، على المذهب النسطوري . الأمر الذي جعل هولاكو يعطف على المسيحية بقدر ما قسا على المسلمين . وقد وجدت قيادة القوى الصليبية في الشرق الأدنى ، وفي الغرب فرصة في إمكان تحويل التتار إلى المسيحية فاتصلوا بهم واستشاروهم ضد المسلمين ، وفي المراجع الصليبية المعاصرة ما يثبت أن ملك أرمينيا الصغرى المسيحي اتصل بهولاكو ورسم معه خطة غزو بلاد الشام ، وانتزاع بيت المقدس من المسلمين ليتسلمه المسيحيون . أما المعركة الأخرى : التي آزر فيها التتار النفوذ الغربي الأوربي الصليبي . فهي الحملة التي شنها تيمورلنك على الدولة العثمانية الناشئة .

وكانت هزيمة التتار في « عين جالوت » هي ردّ الفعل الحاسم بعد عامين على تدمير بغداد . بعد سنوات طويلة من الاندفاع المغولي ، والإنتصار التتري دون أن تقف في وجههم قوة يحسب حسابها ، وكانت قوة الدفاع عن الإسلام إذ ذاك قد تركزت في وحدة مصر والشام لمواجهة الغزو الصليبي . غير أن غزو المغول وحملاتهم المتوالية لم تتوقف بعد ذلك على الشام ، فلم يلبثوا أن عادوا إليها في حملة أخرى ( ٦٧٠ هـ ) فانتصر عليهم الظاهر بيبرس . ثم عاودوا الهجوم على

---

( ١ ) سعد الدين عاشور : الحركة الصليبية جـ ٢ ص ١١٣٠ .

الشام بقيادة غازان . وكانوا قد اعتنقوا الإسلام ، فأدال منهم السلطان الناصر محمد بن قلاوون . ودارت المعركة في حمص وحماة . وكانت قوة التتار تمثل خمسة أمثال القوة الاسلامية ، ثم تجددت المعارك مرة أخرى ( ٧٠٢ ) وخرج الناصر من مصر على رأس جيش كبير لملاقاة التتار بالشام ، ودارت المعركة عند برج الصفر بالقرب من حمص وانتصرت القوة الاسلامية العربية . ثم تجدد خطر التتار مرة اخرى بزعامة « تيمورلنك » الذي اجتاح وسط آسيا ، وزحف بجموع جرارة على بغداد وحاصر البصرة . وقد خرج السلطان برقوق على رأس جيش كبير الى الشام ٧٩٦ هـ وبلغ دمشق وقصد منها الى حلب وعبر الفرات ليلقى تيمورلنك على ضفته الشرقية . وقد استطاعت القوة الاسلامية أن تديل من جموع التتار وأن تغنم منهم ، كما أغار تيمورلنك مرة أخرى على حلب وحمص وبعلبك ودمشق وخرج السلطان المصري فرح لمحاربتهم فالتقى بهم عند دمشق .

وهكذا توالت حركات الغزو المغولي وحملت مصر لواء المقاومة واستطاعت في مختلف المعارك التي نشبت أن تديل من القوات الغازية وتردها .

***

تحول التتار « المغول » تحولا بطيئاً نحو الإسلام بعد حملات عاصفة ضارية لا حد لضراوتها في القتل والتحريض ، وكانت قوتهم قد ظهرت عام ٦٠٠ هـ بعد أن تداعت قوة الإسلام وضعفت ومزقت الحملات الصليبية كيانها وشغلت مناطق الشام ومصر بالمقاومة التي لا تتوقف . وقد امتدت مملكة جنكيزخان : من بحر الصين الى البحر الأسود ، فاستولى على ما وراء النهر ، وخوازم ، وخراسان ، وهراة ، وقندهار ، وملتان ، وأتى على حضارة الإسلام خلال ستة قرون في غزنة ونيسابور وشيراز وبخارى وسمرقند وطوس وقزوين وأصفهان ومراغة . وانتهت هذه الموجة بالسيطرة على هذه المناطق حتى جاءت الموجة التالية بعد أكثر من نصف قرن بقيادة : « هولاكو » الذي وسع دائرة الغزو فمدها الى بغداد والشام ، وتوقف عند حدود مصر . غير أن هؤلاء الذين ضربوا الحضارة العربية الإسلامية في عنف لم يلبثوا أن خضعوا لنفوذ الإسلام ، واستسلموا لمدنية العرب ، وأخذتهم الدهشة من عجائبها الى حد أن ملكهم لم يلبث أن تحول الى حام لهذه المدينة ( جوستاف لوبون ) ولم يلبث المغول أن اعتنقوا الإسلام ، وقد استعان هولاكو بنصر الدين الطوسي في بناء المراصد ، وإنشاء المكاتب فابتنى مرصداً في مراغة ، وأقام إلى جانبه مكتبة فسيحة الأرجاء ، وأخذ يجتمع بالعلماء

والفلاسفة ، وخطا كوبلاي خان خطوة أخرى ، فهو ما كاد يتم فتح الصين حتى نقل إليها المؤلفات من بغداد والقاهرة . فانتشر الإسلام عاجلاً بين شعبها وأمرائها . فتعالت المآذن في تركستان وروسيا وتوسع ذلك وازداد في عهد « غازان » . أما تيمورلنك فقد كان مسلما تغلب على امبراطورية المغول ، وقد ساق غزوة عاصفة على عالم الإسلام كله ، وبغداد والشام ، ولكنه كان أقل عنفا . فقد نهى عن التعرض لدور العلم وبيوت الدين ، وفي عصر تيمورلنك برزت نهضة علمية ، وصدرت مؤلفات متعددة لعلماء عربا وفُرْساً . وفي مقدمة هؤلاء الفيروز بادي مؤلف القاموس المحيط ، وأشار سديو إلى أن بغداد كانت ما تزال منارة العالم الاسلامي ( ٧٥٠ هـ ) .

***

وتمثل غارات التتار ( المغول ) « سنة » الكون « وحركة » التاريخ التي لا تتخلف ، فإذا انحدرت الحضارة ، وغلب الترف ووقع التفكك ، وتراخت الأيدي عن المقاومة والحفاظ على الثغور وضعفت الجيوش ، وتخلفت الأمة عن مقومات فكرها وقيمها الأساسية ، كان لا بد أن يسقط هذا الملك في يد قوة جديدة بدوية شابة ، ولا شك تقع مسؤولية انتصار قوى التتار الغازية على المسلمين الذين ضعفوا وتخلوا عن العوامل الثلاث للسيادة « القوة والوحدة والإيمان » غير أن التتار لم ينتصروا على طول الخط ، بل واجهوا بعد معركة بغداد مقاومة صلبة على حدود الشام ومصر ردّتهم عن هذه المنطقة طويلاً ، ثم لم يلبث الإسلام أن صهرهم في بوتقته فأقاموا دولاً كبرى تحت رايته . كان أبرزها الدولتان الخوازمية في منطقة ما وراء النهر والمغولية في الهند . قال أرنولد : لم يكن أحد يتوقع أن ينتصر الإسلام في هذه المعركة ، وتهزم البوذية والنصرانية ، ويستأثر وحده بالتتار ، فقد كانت عاصفة هجومهم وغاراتهم أشد على المسلمين منها على غيرهم ، والفضل لهؤلاء المخلصين الذين حرصوا على إرشاد هؤلاء الظالمين وهدايتهم ، وأسلوب دعوتهم ، ورقة مواعظهم ، وتجردهم من الأنانية والكبرياء فقد أسلم سلطان كاشغر ( تغلق تيمورخان ) عام **٧٤٨ هـ - ١٣٤٧** م على يد الشيخ جمال الدين الذي جاء من بخارى فقد أوثق مع جماعة من الغرباء وحملوا إليه : قال لهم تيمورخان : كيف دخلتم في حماي من غير إذن ! .

قالوا : نحن غرباء ، ولم نشعر أننا نمشي في أرض ممنوعة . قال : حتى الكلب أفضل منكم .

قال الشيخ جمال الدين : صدق الملك لولا أن الله أكرمنا بالدين الحق لكنا أذل من الكلاب .

وتحير الملك ، ومضى للصيد ، وبقيت كلمة الشيخ تشغل فكره ، فلما عاد من الصيد أمر بعرضهم ، وخلا بالشيخ ، وقال : فَسّرْ لي ما قلت ، وأخبرني ماذا تعني بالدين الحق . وفسر شيخ الإسلام في حماسة وقوة تفسيراً رقّ له قلب السلطان ، وصور الكفر تصويرا فزع منه السلطان ، ورأى السلطان أنه لو أعلن الاسلام لما استطاع أن يدخل قومه في الإسلام ، ورجا الشيخ ان ينتظر حتى إذا سمع أنه ولي الملك ، وجلس على أريكة الحكم زاره ، وكانت المملكة الجغتائية قد توزعت على إمارات متعددة ، واستطاع تغلق تيمورخان أن يجمعها ويكون منها مملكة كبيرة ، ورجع الشيخ جمال الدين الى بلاده ومرض مرضاً شديداً ، ولما حضرته الوفاة دعا ولده « رشيد الدين » . وقال له : إن تغلق تيمورخان سيكون في يوم من الأيام ملكاً عظيما . فإذا سمعت ذلك فعليك أن تزوره وتقرئه مني السلام ، وتذكره بما كان قد وعدني به من اعتناق الإسلام . فلما بويع تغلق تيمور بالملك . وجلس على الأريكة مكان أبيه . توجه الشيخ رشيد إلى المعسكر لينفذ وصية أبيه . ولكنه لم يخلص الى الملك ، فاحتال ، وبدأ يوماً يؤذن بصوت عال عند خيمة السلطان في الصباح الباكر ، فطار نوم السلطان ، وغضب ، وطلب رشيد الدين ، وحضر الشيخ وبلغ السلطان تحية والده ، وكان السلطان على ما ذكر به فنطق بالشهادتين وأسلم ونشر الإسلام في رعيته ، وأصبح الإسلام ديانة الأقطار التي كانت تحت سيطرة أولاد خبتاي بن جنكيزخان » أ . هـ .

## سقوط قلاع الباطنية

ظلت قلاع الباطنية في قلب عالم الاسلام أكثر من قرنين تثير الحرب على عالم الإسلام كواحدة من أبرز الحركات الهدامة ، التي كان لها أبعد الأثر في مقاومة الإسلام ، والقضاء على قوى المقاومة التي تكونت لمقاومة الحركة الصليبية .

وإذا كانت غارات المغول على العالم الإسلامي هي أقسى ما مر من حملات العنف في تاريخ الإسلام حتى قال ابن الاثير : إنه « لم ينل المسلمين أذى وشدة منذ جاء النبي إلى هذا الوقت مثل ما دفعوا إليه الآن ، هذا العدو الكافر ( التتر ) قد وطئوا بلادنا وراء النهر وملكوها وخربوها والعدو الآخر : ( الفرنج ) قد ظهر في بلادهم إلى أقصى الروم بين الغرب والشمال . وإذا كان المغول قد أوقفوا الحياة الفكرية والثقافية نحواً من قرن كامل في المناطق التي اجتاحوها إلا أنهم قد خلصوا عالم الإسلام من قوة ضارية ، هي قوة « الباطنية » فقد تمكنوا من القضاء على القلاع والمعاقل الباطنية ، ذلك أن التتار قد عادوا الى تعمير الأرض التي خربوها بعد ان صهرهم الإسلام في بوتقته ، فاعتنقه زعماء قبائلهم .

يقول المؤرخ منيورسكي : لقد كان الحشاشون ( الباطنية ) أعدى اعداء أهل السنة ، وكانوا كثيراً ما يبثون الألغام ، ويدبرون المكائد للقضاء على المذهب السني بشكل منظم ، ولقد هيأ المغول بالقضاء عليهم سبيلاً لوحدة الإسلام . وكان هذا من أهم العوامل الرئيسية في انتصار الإسلام وبقائه بالرغم مما أصابه على يد التتار من عسف وإرهاق . ولم يكن الحشاشون مهما أوتوا من بأس وقوة ليؤثروا في بقاء الإسلام في الأمصار الأخرى برغم أن دعايتهم كانت واسعة النطاق .

ذلك أن هولاكو قد دهم قلعة « الموت » الحصينة وقضى على دولتهم قبل أن يدخل بغداد بعامين ، وبدأ هولاكو بمهاجمة الباطنية ( الاسماعيلية ) واستولى على قلعتين من قلاعهم في قهستان وهماطون وخواف ، وكان قد اصطحب معه ألف بيت من صناع المنجنيقات وأصحاب الحيل في إصلاح آلات الحرب فاستطاع هدم قلاعهم الضخمة ، وفي مقدمتها قلعة « الموت » في الشمال الغربي من قزوين بوصفها قاعدة لخمسين قلعة أخرى في هذه المنطقة ، وقلعة الموت هذه القلعة الرهيبة ذات التاريخ المظلم في مقاومة الإسلام تقع على ستة فراسخ من قزوين . وقد استولى عليها الحسن الصباح عام **٤٤٦** هـ . وظلت خلال مائة وسبعين عاماً حصناً مخوفا يتحصن بها أتباع مذهبة حتى قضى عليها هولاكو **٦٥٣** هـ .

# ( ٢١ )

## « القوى التي جددت شباب الاسلام »

## ( السلاجقة - البربر - المماليك )

كانت حركة الإسلام بين عاملين : ( ١ ) - عامل دعوة العناصر التي يضمها عالم الإسلام الى الإسلام نفسه وذلك بالحوار المفتوح بين الأديان والمذاهب المختلفة ، وقد بلغ الإسلام في ذلك غاية السماحة ، إذ أذن لكل صاحب دين أن يناضل عن دينه حتى يتبين الحق . ( ٢ ) - عامل الانتشار الذاتي التلقائي في المناطق التي لم تسيطر عليها دولة الإسلام . غير أن حركة الإسلام لم تلبث أن دخلت مرحلة جديدة هي : مرحلة المقاومة والغزو الخارجي . ولم يصل هذا الغزو الخارجي الى ذروته إلا بعد أن تفككت القوى الداخلية ، وانسحب عالم الإسلام من مفهوم الاسلام نفسه في مجالين من أكبر مجالي أيديولوجيته : ( ١ ) الوحدة ، وقد ساد التمزق ( ٢ ) القوة ، وقد بدأ الضعف : هنالك تحركت القوى الغربية التي كانت قد نمت وتوحدت وتسلحت إلى غزو عالم الإسلام من ناحيتين : من طريق الدولة البيزنطية التي ظلت تواصل الانقضاض على عالم الإسلام خلال خمسة قرون ، ثم تحولت الى مجال لمرور الحملات الصليبية خلال قرنين آخرين . ومن ناحية الأندلس كانت قوات الفرنجة والأسبان تحاول أن تقضي على دولة الأندلس وتسيطر على أطراف المغرب . وهي معركة دارت طويلاً ، واستمرت طوال تاريخ الإسلام كله في القرون الثانية التي قضاها في الأندلس ، والحق أنه لم تكن حركة الإسلام لتتوقف ، وهي تحاول أن تغزو

القسطنطينية من ناحية الشرق ، وأن تصل الى قلب أوربا عن طريق فرنسا ، ونهر اللوار ، وأن تصل إلى قريب من روما . لم تكن لتتوقف إلا لتتراجع ، فهي بين المد والانحسار ، وهي ظاهرة واضحة طوال تاريخ الإسلام . فمن حيث انطوى الإسلام في أوربا على الأطراف في بيزنطة وحدود فرنسا وحدود إيطاليا ، بدأت حركة الغزو المضادة لاجلائه عن أوربا كلها . بل إن هذا الاجلاء لم يتوقف من بعد .

ولم يكتف بإخراج الإسلام والعرب من أوربا . بل امتد في عملية انتقام واستعمار قامت به القوى التي كانت فى نطاق دولة الإسلام كالبرتغال والأسبان الذين نهضوا لتطويق عالم الإسلام ، وتقدموا لاكتشاف رأس الرجاء الصالح ، والذهاب إلى تمبكتو ، فقد واجه الفرنج تحدي الإسلام بتحد أشد منه في القرن الثامن الميلادي على حد تعبير « تويمبي » فقد استثار هجوماً مضاداً من جانبهم استمر عدة قرون ، ولم يقتصر ذلك الهجوم على دفع أتباع الإسلام بعيداً عن شبه الجزيرة العربية ، ولكنه تجاوز كذلك هدفه الأصيل حاملاً الأسبان والبرتغال عبر البحار إلى قارات العالم بأسرها .

وهكذا بدا واضحا أن أبرز معالم المد في تاريخ الإسلام : القوة والوحدة ، وافتقادها هو أبرز معالم الجزر والوهن والضعف . فكلما تفرق العالم الإسلامي وتجزأ ووقع الخلاف بين قادته وأوليائه تعرض للغزو الخارجي ، وكلما تماسك وحدة وقوة توقفت حملات خصومه عليه . فقد نشأ عالم الإسلام أساساً من خلال التوسع في أرض كانت تسيطر عليها الامبراطورية الرومانية ، ثم لم يلبث ان بلغ أطراف أوربا ، وأوغل فيها بحصار القسطيطينية وبالنفاذ إلى أسبانيا وأطراف فرنسا وإيطاليا . ومن هنا قامت بينه وبين الغرب معركة مستمرة الأوار لم تتوقف . وظلت محاولات الانتقاض على أطراف عالم الإسلام عن طريق دولة بيزنطة في آسيا الصغرى مستمرة لم تتوقف ، ثم أسلمت هذه الحركة الدائبة نفسها إلى القوات الصليبية التي تكونت بديلاً للقوة البيزنطية المغيرة .

( ٢ ) ـ كانت قوة العرب المندفعة من الجزيرة العربية ، والتي حملت لواء الإسلام قوة بدوية تتميز بالخشونة والقوة والصلابة ـ وقد أمدتها روح الإسلام بمفهوم الجهاد في سبيل الله ، وإذاعة الإسلام ـ تتطلع إلى أحد أمرين : الشهادة

أو النصر .

فلما ضعفت القوة العربية البدوية ، وانصهرت في مجال الحضارة ، ودخلت في صراع المذاهب والفرق ، بعـد أن توقف التوسـع الإسلامـي ، بدأت عوامـل الضعف تجتاح المجتمع الإسلامي وتمزقـه ، وتوقـع بينـه عوامـل الصراع ، ثم تولدت من ذلك عوامل الضعف والانهيار نتيجة غلبة الترف والانحلال ، هنالك ضعفت جبهة المقاومة عن عالم الإسلام ، مما أغرى القوى المتربصة في أطراف عالم الإسلام : أسبانيا وبيزنطة بالإيغال والغزو ، ومحاولة السيطرة والتوسع ، وتجمعت أوربا الغـربية لتضرب عالـم الإسـلام من كلا جنـاحيه ، اعتماداً على ضعف القوى العربية والفارسية المسيطرة . هنالك برزت قوى جديدة من أعماق عالم الاسلام أو أحشائه ، من البداوة . ظهرت قوة البدو ، وبـرزت بعـد أن ضعفت قوة الحضر الفارسية العربية ، وظهرت القوة البدوية في أجـزاء العالـم الاسلامي الثلاثة .

السلاجقة ( وأتباعهم الأتابكة والكرد ) في العراق وفارس وآسيا الصغرى ، و « البربر » في المغرب ( الموحدون ) والمماليك في مصر والشام . كانت خشونة هذه القوات الثلاث بعد إسلامهم قوة ضخمـة للإسـلام ، ردت عن الإسـلام عادية القوى الثلاث التي انتقضت على عالم الإسلام : الصليبيون في الشام ، الفرنجة في المغرب والأندلس ، التتار القادمون من شرق سمرقند مجتاحة عالم الإسلام .

( ٣ ) ـ كان موعد هذه القوى الثلاث التي برزت مطابقا للحاجـة إليهـا ، ومطابقاً لنمو هذه القوى التي دخلت في الإسلام بعد ان اتسع نطاقه في ما وراء النهر . وفي المغرب الأقصى وقد ظلت هذه القوى تتفاعل وتتكون حتى أتيح لها أن تشكل ظاهرة الانتعاش الإسلامي منذ القـرن الخـامس الى القـرن السابـع بالقوى الشابة القادمة من خارج نطاق المدنية . القوى البدوية التي كانت أشبه ما تكون حماسة وفتوة وبطولة بالقوى العربية اليدوية التي خرجت من الجزيرة في القرن الأول ، وإن كانت أقل درجة من حيث عمق إيمانها بالاسلام وتمسكهـا بمقوماته ومناهجه في شؤون الحرب والقتال . بل إن التتار المغول الذين اكتسحوا عالـم الإسـلام من بعـد في ثلاث حمـلات ضخمـة : هولاكو ـ جنكيزخـان ـ

تيمورلنك . قد صهرهم الإسلام وأصبحوا من حماته .

برزت هذه القوى التي دانت بالإسلام وحملت لواء الدفاع عنه حين تراخت قوى المسلمين من العرب والفرس الـذين أدى الصراع فيما بينهـم إلى التمـزق والضعف والذوبان في الترف والرخاوة . بل إن بعض هذه القوى لم تقف عند حماية الإسلام ، والرد على عدوان الغرب له . .بل استطاع أن يحقق مهمة أخرى هي : توسيع دائرة عالم الإسلام بالدعوة والقدوة ، فقد حمل البربر الإسلام الى قلب أفريقيا ، وكان ذلك قد جرى بوسائل مختلفة منها القـوى الصـوفية التـي تشكلت في أفريقيا .

وقد كان ذلك مقدمة لموجة أخرى من موجات انتعاش الإسلام هي « موجة الوحدة العثمانية » التي استطاعت أن تسيطر على أغلب عالم الإسلام ستة قرون كاملة . وأن تقيم دولتها في أرض امبراطورية بيزنطية التي كانت خطراً متلاحقا على الإسلام ستة قرون كاملة . وأن تسيطرعلى القسطنطينية ، وتضمها بعد أن حاصرها المسلمون وانفضوا عنها ، بل بلغوا الى أبعد من ذلك إذ اقتحموا أوربا وسيطروا عليها حتى بلغوا أسوار فينّا أكثر من ثلاثمائة عام .

# ( ٢٢ )
## « موجة السلاجقة »

وصل الاسلام إلى أرض الأتراك بعد أن تخطى ما وراء النهر ، ودخلت الشعوب التركية فيه منذ بلغها عن طريق قتيبة بن مسلم ، ثم محمود الغزنوي من بعده ، في الاسلام ، ومن ثم اصبحوا على موعد مع التاريخ العالمي لكي يلعبوا دوراً هاما في تاريخ الاسلام وفي تاريخ العالم كله ، بدأ ذلك منذ استقدمهم المعتصم وبنى لهم مدينة ( سامرّا ) ثم كانت جولتهم الأولى في نصر الاسلام هي « موجة السلاجقة » وكان دورهم هذا بعيد الأثر في تغيير مجرى الاسلام ، وفي التأثير البالغ فيه ، حيث حملوا ، ومن بعدهم خلفاؤهم لواء السنة ، ولواء الدفاع عن الاسلام في مواجهة قوى الصليبيين . وكانوا بذلك مقدمة لدور اكثر قوة وضخامة ، هو دور الأتراك العثمانيين الذين دحروا الدولة الرومانية الشرقية ، وأقاموا مكانها امبراطورية عظيمة استطاعت ان تنتزع القسطنطينية ، وأن تعبر إلى أوربا ، فترفع أعلام الاسلام عليها ستة قرون . استمرت موجة السلاجقة بامتددها من الأتابكة والأكراد ( زنكي وأيوب ) ( ٤٥٠ ـ ٦٤٨ ) خلال قرنين كاملين . وكانت قوة من القوى الاسلامية الشابة المجددة التي حلت محل القوة السياسية الحاكمة في بغداد عندما دخلت الدولة العباسية في مرحلة الضعف . وقد أظهرت هذه القوة عدداً كبيراً من رجالها بناة الدول والمحاربين من أمثال : طغرلبك ـ ألب أرسلان ـ ملك شاه ـ والوزير نظام الملك . ثم أظهرت عماد الدين زنكي ، ونور الدين وصلاح الدين الأيوبي . سيطرت موجة السلاجقة

على المنطقة الشرقية من العالم الاسلامي ؛ فارس والعراق والشام وأحرزت تقدماً ضخما في مجالي الحضارة والقوة العسكرية . وكانت قوة ناصرة ومؤيدة للمفهوم الاسلامي الجماعي ( مفهوم السنة ) وكان وجودها نهاية لعوامل الصراع العنيف التي استمرت طوال القرن الثاني والثالث بين الفرق والمذاهب والنحل في صراعها السياسي والديني الطويل الذي كان يتمثل صورة صراع بين الفرس والعرب ، ويهدف إلى القضاء على القوة السياسية المسيطرة في بغداد ، وإزالتها من مكان القيادة ، مع العمل على تمزيق مفهوم الاسلام نفسه ، والقوة العربية بوصفها حاملة لواء الاسلام إلى العالم كله .

وقد استطاعت موجة السلاجقة ان تحقق ازدهاراً ماديا وأدبيا ، وأن تنصر الاسلام في مفهومه الوسط والجماعي ، وأن تواجه الغزو الخارجي المتمثل في الدولة البيزنطية المتاخمة لحدود عالم الاسلام ، والتي كانت توالي العدوان على هذه المناطق .

وقد جرى « بناة الدول » وقادة السلاجقة على سنن الخلفاء في مناصرة الآداب والفنون ، فاحتضنوا عدداً كبيراً من الأعلام أمثال : عمر الخيام ، والنظامي ، والسعدي ، وجلال الدين الرومي . وأحيا السلاجقة الروح الحربية الاسلامية ، بعد أن خمدت طويلاً . فمنذ عام **٤٢٩** إلى عام **٧٠٠** هـ تجددت مفاهيم الاسم في بناء القوة العسكرية وتوحيد عالم الاسلام مرة أخرى ، والتئامه في وحدة سلجوقية وعاود الاسلام قوته مرة أخرى ، وتجمع في بوتقة السنة . وطارد السلاجقة ومن بعدهم نور الدين ، وصلاح الدين خصوم الاسلام ، أصحاب دعوات الشعوبية والزنادقة . وظلوا يعاملون اليهود والمسيحيين وأهل الذمة معاملة إسلامية مجددة بلغ من تسامحها أن طالبت جماعات مسيحية بيزنطية ، الحكام السلاجقة تخليصها من حكامها ، وأصبحت دمشق وحلب والموصل وبغداد وأصفهان والري وهراة ونيسابور ومرو حواضر زاهرة . فقد اظهر ألب أرسلان تقديراً للفن والثقافة ، وبرز عهد من النهضة العلمية ، والابتكار في مجال الأدب والفن والفلك والموسيقى والشعر والعمارة . وفي عهد ملك شاه ( **٤٦٥ ـ ٤٨٥** ) برز الوزير نظام الملك .

وقد جدد السلاجقة شباب دولة الاسلام وأمدوها بدم جديد ، وكانوا محاربين أشداء ، بدواً ذوي بأس في القتال ، أقوياء الأجسام ، بعد أن ضعف

العرب والفرس . وقد أعادوا للخلافة العباسية ، نفوذها الروحي ، وسلطتها السياسية ، وخلصوا العالم من الخلافات والمصارعات . ولا شك كان ظهور السلاجقة مؤذنا بقوة دفاعية جديدة تواجه محاولات الانتقاض على عالم الاسلام من خارجه ، واستطاع السلاجقة وخلفاؤهم قهر خصوم الاسلام طوال مرحلة طويلة في معاركها مع بيزنطة وانتصارها في موقعة حاسمة هي ملاذكرد . وفي مواقف عماد الدين زنكي ونور الدين محمود ( **٥٤١** ) وصلاح الدين ( **٥٦٧** ) في مواجهة الحملات الصليبية . وهم القوة الأولى في هذه المرحلة التي نصرت الاسلام ، وتبعتهم قوة المماليك . وهكذا استطاع السلاجقة إعلاء « كلمة الاسلام » داخل عالمه ، وهزموا خصوم الاسلام والمنقضين عليه وأوجدوا مرحلة من مراحل يقظة المثل العليا الاسلامية تمثلت بصورة رائعة في نور الدين وصلاح الدين . ولقد لعبت سلاجقة إيران والعراق دوراً هاماً على مسرح الأحداث ، وسيطرت فترة قرنين من الزمان ، ومهدت حملات السلاجقة في آسيا الصغرى السبيل أمام الأتراك العثمانيين فيما بعد للقضاء على الدولة الرومانية الشرقية . وقد كان هدف السلاجقة توحيد الرقعة الكبيرة من عالم الاسلام الممتدة من بلاد ما وراء النهر شرق البحر الأبيض ، في ظل لواء السنة ، والالتقاء حول علم الجهاد المقدس لنشر راية الاسلام والدفاع عنه .

وقد كان دور السلاجقة في مواجهة الروم حاسماً وضخماً . فقد كان الموقف على حدود الدولة الرومانية البيزنطية ضعيفاً بعد موقعه عمورية **٢٢٣** هـ حيث لم تقم الخلافة العباسية طوال هذه الفترة بهجوم يذكر . مما جرأ الروم على الانقضاض على العالم الاسلامي ، فكانت موجة السلاجقة عاملاً هاماً في مواجهة القوة الرومانية من ورائها من قوى تترقب فترات الضعف . وقد اجتاز السلاجقة الثغور والعواصم وانتزعوا من الروم أرض الأناضول وحولوها اسلامية وسيطرت قوى جديدة على المنطقة .

غير أن الخلاف بين السلاجقة لم يلبث أن أضعفهم ، فانتهزت أوربا الفرصة لتحل محل الدولة الرومانية البيزنطية التي قاومت عالم الاسلام خمسة قرون كاملة ، ولتتقدم باسم استعادة بيت المقدس في ادعاء بأن الحجاج المسيحيين قد وجدوا بعض الغبن أو الاضطهاد ، وفي غيبة من القوة العسكرية

والوحدة استطاع الفرنجة احتلال بيت المقدس **٤٩٢** هـ

وكان ذلك عاملاً من عوامل التحدي الضخمة التي واجهت عالم الاسلام ، والتي برزت بردّ فعل ضخم في النهضة التي حمل لواءها آل زنكي خلفاء السلاجقة ، وفي مقدمتهم عماد الدين زنكي الذي استطاع ان يوحد دولة قوية ضخمة ضمت دولة الجزيرة العربية وأعالي الفرات وحمص وحلب وبعلبك ومعرة النعمان ، ومضى يكيل الضربات للصليبيين ، وكان أكبرها استيلاؤه على إمارة الرها ( **٥٣٩** ) وإزالة نفوذ الصليبيين فيها مما هز القوى الغربية ، ودفعها الى إرسال حملة صليبية جديدة بقيادة ملك فرنسا وإمبراطور ألمانيا . وقد فشلت هذه الحملة التي هاجمت دمشق . ثم ارتدت منهزمة . ثم كان محاولة مملكة بيت المقدس الصليبية بالاستيلاء على مصر ، وبروز نور الدين محمود . حيث هزمت هذه الجولة وخلصت مصر لقوة نور الدين محمود الذي حمل لواء الدفاع عن العالم الاسلامي في مواجهة الغزو الصليبي ، غير أن خلافه مع إخوته ، أتاح الفرصة لجلوسين أمير الرها استرجاعها . هنالك توجه نور الدين من حلب في عشرة آلاف فانتزعها منه ( **٤٥١** هـ )

ومضى نور الدين يديل من إمارات الصليبيين ، ففتح عدداً من الحصون والمعاقل ، واستطاع التغلب على صاحب أنطاكية ( ريموند ) **٥٤٤** هـ كما تغلب على الحصون والقلاع التي كان يسيطر عليها جلوسين ، والواقعة شمالي حلب ، ولم يكن نور الدين الذي حمل لواء الوحدة في مواجهة الغزو ، واصطنع الأسلوب الاسلامي في المعاملة إلا مقدمة لحركة ضخمة ، استطاع أن يحمل لواءها « صلاح الدين » وأن يمضي بها معمقا خطة « نور الدين » ومتجاوزاً إياها إلى أبعد مدى . فقد استطاع صلاح الدين هزيمة الصليبيين في « حطين **٥٨٣** هـ » واسترجاع بيت المقدس ( يوم الجمعة **٢٧** رجب ) وقت صلاة الجمعة ، حيث أقيمت صلاة الجمعة ثامن يوم الفتح لأول مرة في بيت المقدس بعد واحد وتسعين عاماً .

***

إذا كانت مقاومة الحملات الصليبية تتمثل في أقوى صورها في موقف عماد الدين زنكي ، وأسامة بن منقذ ونور الدين محمود وصلاح الدين والظاهر بيبرس على الترتيب ، يحمل الراية منهم بطل بعد بطل ، فإن لهذه المقاومة تاريخ سابق

منذ وطيء العدو أرض الاسلام ، فما أن استقرت الحملة الصليبية في بيت المقدس حتى تحركت المنطقة المتاخمة لها فى مناهضة سريعة ، اختفت فيها الخلافات الشخصية بين الأمراء فلم يلبث عدد من الأمراء المسلمين في شمال العراق أن التحموا وحملوا علم الجهاد ، ولعل سيطرة الرها إحدى إمارات الصليبيين ١٠٩٨ على الطرق المؤدية إلى حلب والموصل هي التي حركت جيرانها للثورة عليها . فلم يلبث ( مودود أتابك الموصل ) ٥٠٤ هـ - ١١١٠ م أن أعلن الجهاد وخرج بجيش كبير وزحف على أطراف الرها وتقدم صوب طرابلس ، ولم تنجح هذه المحاولة ، ولكنها فتحت الطريق لمحاولات أخرى . ومعنى هذا أنه لم يمر غير عام واحد بعد احتلال الصليبيين للأرض الاسلامية حتى بدأت المقاومة ، وزاد ذلك انتفاضة القوى الاسلامية وتجمعها ، وأخذت روح الجهاد تملأ النفوس ، وتهز المشاعر ، وتحركت جماعة كبيرة من أعيان حلب وتجارها وفقهائها إلى بغداد يستنهضون الهمم ، وانتهزوا فرصة صلاة الجمعة للمناداة بالجهاد ، واستثارة المشاعر ، ولم تلبث أن تجمعت القوى الاسلامية بقيادة مودود ( ٥٠٥ -٨ ٨ ١١١١م ) فاتجه الى الرها حيث حاصر المسلمون تل باشر ، ودبت اليقظة ، وبدأت تتمركز في أرض الشام ، وبدأت علامات الوحدة بين الأمراء المسلمين .

وظهر ( إيلغاري ) وحمل الراية بعد مودود وقاوم الصليبيين في حلب ٢١١٩ حين هاجموها ، واستولى على حصن قسطون غربي معرة النعمان ، واتسع نطاق حركة التجمع والمقاومة . وظهر بلك بن أرتق ١٥٦ - ١١٢١ وكانت وجهته الرها أيضاً . ثم ظهر البرسقي : أتابك الموصل ٥١٨ ونجح البرسقي ، وحاول أن يتخذ من حلب مقر تجمع يربط بها الموصل ، ثم سقط البرسقي ، كما سقطت الشخصيات الثلاث التي سبقته بغدر الجماعات الباطنية التي كانت تقاوم الوحدة الاسلامية .

***

غير أن شخصية كبيرة لم تلبث أن ظهرت هي شخصية ( عماد الدين زنكي ) الذي تولى أتابكية الموصل ٥٢١ هـ ١١٢٧ م . وكان من أبرع القادة العسكريين فلم يلبث أن أمن حدود ولايته ، واتجه إلى حلب ودمشق وزحف على حمص وحماه . واستطاع تكوين جبهة إسلامية تضم الأمارات والبلدان المتاخمة

للأمارات الصليبية . وكانت خطته دفع الخطر البيزنطي من الشمال ومقاومة الفرنجة من الغرب والجنوب .

ثم اتجه عماد الدين زنكي نحو الرها **٥٣٩** هـ التي قاومت طويلاً حتى استنفذت كل وسائل التسليم السلمي ، هنالك نصب عليها آلات الحرب ، وضربها بالمجانيق وافتضها بعد حصار عنيف ، وكانت هذه أولى معارك الانقضاض الاسلامي على المملكة اللاتينية ، وكان النصر فيها قويا للمسلمين ، رفع من روحهم المعنوية وزادهم قوة وحماسة . كما دفع الأمراء المسلمين إلى التآزر والوحدة . لقد كان سقوط الرها ضربة كبرى في مواجهة القوة ، وكان مقدمة للخطوات التي حققها نور الدين وصلاح الدين .

## نور الدين »

حققت هذه الخطوات لنور الدين إقامة وحدة تكتل القوى الاسلامية في وجه الخطر الصليبي على نحو أعطى حركة المقاومة قوة وحيوية . وكان لشخصية « نور الدين » أثرها البعيد المدى في هذه الحركة . فقد تمثلت فيه صورة القائد المسلم ، وأعادت سعد بن أبي وقاص ، وعمر بن عبد العزيز . بل لقد حاول كثير من المؤرخين أن يضعوا اسمه مع أسماء ابي بكر وعمر وغيرهما من الخلفاء الراشدين .

والحق أن نجاح نور الدين كان إلى حد ما نتيجة للخطوات التي سبقته ، كما كان أثره بعيد المدى في خطوات صلاح الدين ، فهو حلقة مسبوقة وسابقة ومرتبطة . غير أن أثره الواضح العميق وتألق شخصيته في معركة المقاومة للحملة الصليبية ، وبروزه في صورة العباد الزاهدين والشهداء ، إنما يرجع إلى إنكاره للذات . فقد جمعت شخصيته بين البسالة والزهد ، والايمان ، والقوة . فكانت بذلك بعيدة المدى في تحقيق وحدة المسلمين ، وكان أبرز ما اتسمت به حركته هو أنه أعطى السياسة قوة الأخلاق ، فاقترب من مفاهيم الاسلام ومقوماته إلى حد لم يسبقه إليه الكثير في هذه المرحلة من تاريخ الاسلام . وقد كان اقترابه من مفاهيم الاسلام في محاولته لدعم الوحدة الاسلامية لمواجهة الخطر الصليبي هو أقوى العوامل التي حققت له النصر ، حتى ليمكن القول بحق إن نور الدين قد التمس ثلاث قوى من قوى الاسلام في سبيل عمله هي : ( القوة ، الوحدة ، الايمان ) .

ولقد جرت محاولات لتصوير نور الدين في صورة زعماء الصوفية في عصره ، غير أن الحقيقة كانت غير ذلك تماماً . وأن « نور الدين » كان أعمق فهماً للاسلام ، وأنه كان يجمع بين السياسة والخلق معاً ، السياسة بكياستها ومرونتها ودهائها دون أن يجرفه ذلك إلى الغدر أو الحقد أو الانتقام ، وقد أعطاه ذلك ثقة من كانوا حوله ، أو اتصلوا به ، وقد أغناه هذا الوضوح عن كثير من مناورات السياسة وأكاذيبها ، وأتاح له سرعة تحقيق هذه الوحدة ، ومكن له استمرارها ، ودعم الضربات المتوالية التي وجهها إلى العدو .

وقد استطاع نور الدين خلال مدة حكمه ( ٥٤١ - ٥٩٦ ) أن يحقق أمرين هامين :

أولاً : توحيد القوى الاسلامية مما أسماه المؤرخون « الجبهة الاسلامية المتحدة » . والادالة من الامارات الصليبية . وقد شملت مملكة سوريا الشرقية ، وقسما من سوريا الغربية ، والموصل وديار بكر والجزيرة ومصر ، وبعض بلاد المغرب ، وجانباً من اليمن ، وكما حصّن قلاع الشام ، وبنى الأسوار حول مدنها ، ومضى مداوما للجهاد يقود معارك المقاومة بنفسه ، لا يتوقف عن مهاجمة الامارات الصليبية التي تكونت في نهاية القرن الخامس الهجري في أربع وحدات : مملكة بيت المقدس - أمارات أنطاكية - طرابلس الشام ، الرها . وقد استطاع أن يوقف زحف الصليبيين من الشام . وقد وصف المؤرخون مواقفه من الصليبيين بأنها نقطة التحول في تاريخ تلك الحروب . وأن نور الدين قد أعد الأساس للعمل الذي حققه من بعده صلاح الدين . وكان أبرز ما حققه في سبيل نجاح خطة المقاومة هو : استيلاؤه على دمشق **٥٤٩ هـ ١١٥٤** م ، ( وعلى مصر **٥٦٤ هـ ١١٦٨** م ) بعد أن تبين أن حملات الصليبيين قد اتجهت إليها أخيرا بوصفها مصدر المقاومة . أما استيلاؤه على دمشق والقاهرة ، فقد قضى نهائيا على مطامع الصليبيين في التوسع فضلا عن أنه وضع الامارات الصليبية بين فكي الكماشة الاسلامية التي ظلت تضغط بقوة حتى استخلصت هذه الأجزاء واستردتها .

وقد عمل نور الدين على تخليص نصارى العرب من ظلم الصليبيين ، وأعطى مقاومة الصليبيين طابع الغزو والاعتداء . وبذلك وحد « العرب

مسلمين ونصارى » في جبهة المقاومة ، وأعطى معاركه طابع الاسلام : لم يمس كنيسة ولم يؤذ احداً من أبناء الأديان الأخرى ، وكرم الرهبان والقسيسين ، وعارض منهج الصليبيين في اعتدائهم على مقدسات المسلمين . وكان لخلقه الواضح في عمله السياسي يلقى المهابة في قلوب خصومه ، وقد أقام للمجتمع الاسلامي مقومات حديثة . فقط أسقط المكوس ، وأقطع عرب البادية إقطاعات حتى لا يتعرضوا للحجاج . وقد كان من أهم ما أولاه نور الدين بالغ الاهتمام ، بناء القاعدة الفكرية للمقاومة عن طريق نشر الثقافة الاسلامية الموحدة البعيدة عن الخلافات بوصفها جوهر المقاومة وتأريث الجهاد في النفوس ، فبنى مدارس كثيرة ، وبنى أول دار للحديث ، وبنى الخانات على الطريق ، وكان أعدل ملوك زمانه ، عارفاً بالفقه ، يجلس إلى العلماء كل أسبوع ، ويسمح لمن يشاء أن يحضر مجلسه . وقد كان لهذا التكوين الثقافي بالاضافة إلى ما طبع به من عدل وإيمان وخلق صورة رائعة لعصره كله ، ولأجيال المسلمين ، فكانوا يتطلعون إلى دعوته للتنفير العام وتنثال الجموع من مختلف الأقطار واثقة بالنصر بقيادته .

وفي الوقت الذي لم تكن الامدادات الصليبية تتوقف من أوربا وصقلية عاماً واحداً . كانت قوات المسلمين والعرب تتدفق على معسكرات الجهاد المقدس ، وتلتئم في معارك المقاومة . وقد تميز نور الدين عن أفراد أسرته من السلاجقة والأتابكة تميزاً كبيراً . فهؤلاء الذين سبقوه قد نصروا الاسلام وأعزوه كملوك وأمراء ، أما نور الدين فقد أعزه كمجاهد عسكري ، وقائد سياسي ، وعابد زاهد ، فقد « امتلأت نفسه بالاسلام ، وتمثل روحه على نحو لا نكاد نجد له شبيها الا عند الأوائل من أعلام صدر الاسلام » .

ولم يكن إيمان تعصب وتشرد . بل إيمان سمح بسيط تساوت أمامه المذاهب الاسلامية ، فلم يفرق بينها ، وكانت سماحته في معاملة المسيحيين واضحة ، وكان يحارب الصليبيين بوصفهم أجانب ، اعتدوا على بلاده ومقدسات أمته ، ويفصل فصلا واضحا بين هذا المعنى ، وبين أنهم نصارى . ولذلك كان حفيا برجال الدين مكرماً لهم لا يدخلهم في حساب مقاومته . وقد انضم إلى صفوفه نصارى العرب في معركة المقاومة بناءً على هذا الفهم الدقيق . وكان الصليبيون يقدرون عمق إيمانه بالإسلام في مقاومتهم ، ووسائله

فيقولون : « إن ابن القيم ( أي نور الدين ) له مع الله سرّ . فإنه ما ينتصر علينا بكثرة جنده وعسكره . وإنما يظهر علينا بالدعاء وصلاة الليل » .

والحق أن نور الدين كان يرى في بناء الايمان عن طريق الثقافة الاسلامية عاملاً موحداً للأمة ، ودافعاً إلى الجهاد . ومن هنا كانت انطلاقته الضخمة في بناء المدارس والمساجد والزوايا وإعداد برامج الدراسة ، فيها كوسيلة فعالة ، وأساس جذري للمقاومة . وكانت مؤاخاته لجنده ، والتحاقه بهم ، ومداومة المشورة معهم ، والتقدم أمامهم في المعارك من أبرز العوامل التي أكسبته النصر ، وقد كسب تقدير الصلبيين الذين أسرهم لمعاملتهم بالرفق والاكرام حتى استل اعتراف أقسى الحروب الصليبيين تعصباً ، أمثال : وليام الصوري مؤرخ مملكة بيت المقدس . فقد اعترف بفضل نور الدين وعدله .

إذا كان اسم صلاح الدين قد لمع كثيراً في مجال العدل والسماحة . فإن نور الدين هو الذي بنى هذه القاعدة وترك لصلاح الدين صورة رائعة للمثل الأعلى الاسلامي في مواقف المقاومة والحرب .

# « صلاح الدين »

إذا كان « عماد الدين زنكي » قد استطاع أن يستعيد « الرها » أولى الامارات الصليبية ، فقد حقق « نور الدين محمود » الوحدة الفكرية والروحية في المنطقة كسلاح لمقاومة الصليبية . وبذلك استطاع صلاح الدين أن يحقق أضخم نصر في معارك المقاومة في موقعة حطين الذي مكنه من استرجاع بيت المقدس . فما كاد صلاح الدين يوحد مملكته ، ويؤمن مواقعه حتى بدأ معاركه مع الصليبيين عشر سنوات كاملة ، وتحقق على يديه أضخم نصر في معركة حطين ( ٥٨٣ هـ ١١٨٧ م ) والاستيلاء على بيت المقدس مما حصر الصليبيين في منطقة ساحلية ضيقة انتقلت إليها مملكة بيت المقدس وجعلت مدينة ( عكا ) عاصمة لها . وكان موقف صلاح الدين في استعادة بيت المقدس مشرفا كريما . جرى فيه على مفهوم الاسلام ، فلم يزدهه النصر بحيث يدفعه إلى الانتقام . وقد سمح صلاح الدين للصليبيين بافتداء أنفسهم مقابل مقدار زهيد من المال ( ١٠ دنانير للرجل - ٥ للمرأة - ٢ للطفل ) وأوسع لهم في أجل هذا الفداء زمنا بلغ أربعين يوماً . وخرج الصليبيون تحت حماية القوات . ولم يدخل بيت المقدس إلا بعد أن أجلى الصليبيين عنها . وقد ادعى الأب لامنس بأن محاسنة صلاح الدين للصليبيين كانت عجزاً وخوفاً فلم يعاملهم بأبشع حروب القسوة والعذاب . وخير ما يدحض هذه الشبهة ما كتبه ول ديورانت في هذا المجال .

وهناك شبه إجماع على أن صلاح الدين لم يكن قائداً بارعاً ، أو محارباً شجاعاً ، أو حاكماً عادلاً بقدر ما كان « إنساناً » فمثلاً للأخلاق والقيم

الاسلامية ، فإن هذا المفهوم وحده هو الذي جمع حوله جميع العناصر والقوى التي كانت تهدف إلى توحيد الاسلام في وجه الغزاة . يقول هاملتون جب : إنه لم يستعمل في تحقيق هذا الأمر شجاعته وعزمهالذاتيين في غالب الاحيان ، وإنما حقق ما حققه من ذلك بإنكاره للذات وتواضعه وكرمه ، ودفاعه المعنوي عن الاسلام ضد أعدائه ، وضد من ينتمون إليه انتماءً اسميًا على حد سواء . كان غاية في البساطة ، فذًا في النزاهة . ولقد أجبر أعداءه من الأدنين والأبعدين ، لأنهم كانوا يتوقعون أن تكون حوافزه مثل حوافزهم ، وأن يقوم بالألاعيب والمناورات السياسية مثلما يفعلون . وكان هو نفسه طيب السريرة ، ولذلك لم يكن يتوقع أبداً أن يفهم فكر الآخرين ، وقلما فهمه . وذلك ضعف استغله فيه أحياناً أقرباؤه ، إلا أنهم كانوا آخر الأمر يصطدمون بصخرة مستقرة من إخلاصه لمثله العليا إخلاصاً لم يكن لأحد من الناس ، أو لشيء من الأشياء أن يزعزعه من مكانه .

والحق أن صلاح الدين مضى في خطة نور الدين ، خطة الايمان بأن قيام الامارات الصليبية . إنما جاء ناتجاً عن تخلف عن مفهوم الاسلام نفسه ، وانحراف عن القيم الأساسية له . وفصل بين السياسة والأخلاق ، وكان المفهوم الذي بدأه نور الدين ، وبلغ به صلاح الدين الغاية . مما حقق له النصر ، هو الايمان بضرورة إعادة الكيان الاسلامي في ظل دولة موحدة وفق مفهوم الاسلام نفسه ، وعلى مستوى القيم والأخلاق التي سار عليها محمد بن عبد الله ، وصحبه الأولون . وقد أورد في بعض رسائله مقاصده الثلاثة من حركة : الجهاد في سبيل الله ، والكف عن مظالم عباد الله ، والجمع حول قيادة سياسية قوامها الخليفة العباسي ، وتكشف رسائله عن كثير من مفاهيمه الأساسية أهمها :

« انه لن يسمح بتداول الحرب بين أمراء المسلمين بدلاً من اتحادهم معاً في الجهاد » يقول هاملتون جب : « كان يعرف أن المشكلة التي يواجهها لم تكن سياسية فحسب : بل هي إلى حدّ أكبر أخلاقية نفسية وأنه إذا عالجها على المستوى السياسي والعسكري سيعجز عن حلها . وأدرك أنه إذا شاء أن يصل إلى نتائج فعالة فعليه أن يدعم الولاء السياسي بحوافز وروادع أخلاقية ونفسية » ومن أجل أن يصل إلى غايته كان عليه أن يقوي أعماله ، والقدوة التي يخلقها بإيجاد تيار خلقي ونفسي يسند موقفه ، ويكون قوياً بحيث يتعذر مقاومته . فكان

لذلك في حاجة إلى حلفاء . وبخاصة فقهاء المدارس ، قادة الرأي العام يومئذ . .
وهناك شبه اجماع بين المؤرخين على أن السر في نجاح أعمال صلاح الدين العسكرية وظفره في معركة حطين واستعادته بيت المقدس . إنما يرجع إلى قابلية هذه العوامل . لا إلى الأعمال العسكرية .

# ( ٢٣ )

## « موجة البربر »

يمثل « البربر » إحدى القوى البدوية الشابة التي اعتنقت الاسلام وجددت شبابه ، وهي القوة الكبرى في شمال أفريقيا ، والتي يدين لها نمو الاسلام وانتشاره في أفريقيا كلها بالأثر البينٍ الواضح خلال عمر الاسلام كله ، ومنذ دخوله أفريقيا . وقد برزت هذه الموجة تحت أسماء كثيرة أهمها : المرابطون والموحدون والمرينيون ، هذه القوى ذات الفاعلية الضخمة في تاريخ نمو الاسلام ، والدفاع عنه ، فقد شارك البربر منذ المراحل الأولى في عمليات التوسع ، وكانوا هم فاتحي الأندلس أصلاً ، وهم القوة الاسلامية الأولى التي عبرت إلى بحر الزقاق ، فأسست « الأندلس » أول دولة للاسلام في أوربا ، وكانت قوى البربر التي تدفقت إلى الأندلس من بعد ذات أثر كبير في عمليات التوسع والاستقرار والدفاع طوال فترة القرون الثمانية . وقد ساهمت قوى البربر المسلمة بالاشتراك مع القوى العربية في مختلف أعمال التوسع التي امتدت في قلب أوربا . وكان دورهم أبرز في حركات التوسع في قلب أفريقيا .

وقد ظل البربر ينظرون الى التوسع الاسلامي على أنه سيطرة من نوع جديد ، فقاوموا الفاتحين أمثال : أبي المهاجر ابن دينار ، وعقبه بن نافع الفهري ، وحسان ، وزهير بن قيس . حتى جاء موسى بن نصير ، واستطاع بشخصيته الرائعة أن يكسب البربر إلى صف الاسلام . فقد كان داعية إلى الاسلام أكبر منه قائداً محارباً ، حيث استطاع أن يكسب قلوب البربر

بالاسلام ، وأن ينشر الاسلام نفسه ، ويدعو إليه بينهم ، ويكشف لهم عن جوهره ، وأن يقف منهم موقف الاخاء لا موقف الرئاسة . فقرب إليه البربر وأشركهم في إدارة بلادهم ، فتحقق لهم بالاسلام قوة جديدة ، حين لم يفقدوا سلطانهم ونفوذهم في بلادهم . وكانت زكانة موسى بن نصير هي التي هدته أن يكون إسلام البربر اقتناعاً وحبًا . فوسع آفاق الثقافة الاسلامية ، وأنشأ المساجد . هنالك تأكد البربر أن الاسلام ليس نظام استعمار شبيه بسابقه . أو أنه سلطة مفروضة ، أو أن اعتناقه أمر ملزم لمن لا يقتنع به . من هنا كان إقبال البربر على الاسلام وتأييدهم موسى بن نصير ، على النحو الذي تحقق في خروجه إلى الأندلس في الغزوات الثلاث بقيادة طريف بن مالك . طارق بن زياد ، ثم بقيادته . وقد كان البربر هم العنصر الأكبر والأغلب من قواته في فتح الأندلس . وقد اشتركت صنهاجة الملثمين في قوات التوسع . وقد تم التحالف بين العرب والبربر بعد إسلامهم ، وأدى ذلك إلى دخول قبائل متعددة في الاسلام ، وبعد صنهاجة دخلت لمتونة وامتدت سياسة موسى بن نصير من بعده حتى كان عصر عمر بن عبد العزيز الذي أولى نشر الاسلام اهتماماً كبيراً ، وغلبه على نظم الاقتصاد والضرائب ، وكان رسوله إلى إفريقيا إسماعيل بن عبيد الله بن أبي المهاجر الذي ولي أمر أفريقيا . وكان مثلا عالياً من أمثلة دعاة المسلمين وقادتهم مما أدى إلى نشر الاسلام في ربوع المغرب الأقصى ، حتى لم يبق في ولايته يومئذ من البربر أحد إلا أسلم ( المؤرخ ابن عبد الحكم ) وكان عمر بن عبد العزيز قد أمده بصفوة من أعلام التابعين انبثوا في البلاد يحضون الناس ويبصرونهم بمقاصد الاسلام ، ويرى المؤرخون[1] أن إسلام الملثمين في القرن الثالث الهجري . كان ذا أثر بالغ في تاريخ قبائل البربر ، فقد تمخض عن تحالف قوي ضم قبائل الملثمين جميعا بزعامة لمتونة ، بفضل زعامة الزعيم اللمتوني ( تيولوتان بن تيكلان ) الذي أسلم وحسن إسلامه ، وأكسبه دينه الجديد القوة التي مكنته من إتمام هذه الوحدة .

غير أن قوى البربر قاومت محاولات حكام العرب إلى السيطرة مثل حبيب بن عبيدة . مما أدى إلى ثورتها على نظام الحكم العربي ، وقيام جبهة من المقاومة

---

( ١ ) الدكتور حسن محمود/ ك : دولة المرابطين

حملت لواء الدعوة إلى أن الامامة ليست للعرب وحدهم . بل هي للمسلمين جميعاً على السواء ، والمعروف أن البربر والمغاربة كانوا يعتزون بالاسلام كقوة من قوى الحرية . ولذلك ضاقوا بمحاولة السيطرة عليهم ، وثاروا على النفوذ المفروض ، وكانت هذه المواقف نهاية لسلطان العرب ومعبراً لحكم المغاربة لبلادهم . ومع هذا فقد ظل البربر أولياء للاسلام صادقي الايمان به . فقد اندفعوا في سبيل إذاعته ونشره والاستشهاد في سبيله ، مما دفعهم الى إبلاغ الاسلام لديار الزنوج في غانة حتى تحررت من الوثنية ، بزعامة زعيم صنهاجة اللمتوني .

كما قضى الاسلام ووحدته الفكرية على الخلاف بين قبائل صنهاجة وزناتة . وكان العداء بينهما عنيفاً متصلاً تقليدياً لامتداده بين البرانس والتبر . وقد آثر البربر مذهب مالك ، واتخذوه مصدراً لمفهوم الاسلام على النحو الذي آمنوا به ، مستمدين منه مفهومهم في الحرية مؤكدين إيمانهم بالنزعة الاستقلالية ، كمصدر من مصادر القوة في مقاومة كل نفوذ أجنبي يحاول أن يفرض عليهم ، فقد اتسم مذهب مالك بمقاومة نفوذ الحكام المستبدين ، وظلت مفاهيمه مرتبطة في أنفسهم بإعلاء كلمة الحق ، والاستشهاد في سبيل العقيدة ، وأنه لا ولاية لظالم أو متسلط ، وقد تطورت هذه المفاهيم إلى إيمان له طابع الجهاد في سبيل نشر الاسلام والزهادة في المطامع الدنيوية . هذا الايمان الذي كان مضمون الدعوة التي حملها المرابطون ، ثم الموحدون ، وفي القرن الخامس كانت « موجة البربر » هي اقوى موجات الاسلام في أفريقيا والأندلس ممثلة في قبائلها زناتة وصنهاجة وكتامة والمصامدة ، التبر والطوارق والملثمين والبرانس وطوائفها التي واجهها الاسلام عندما بلغ أرض أفريقيا والمغرب ، وهي قوى بشرية تمتد من طرابلس الى السوس الأقصى . وقد كان لهذه القبائل شأن ، أي شأن ، في تاريخ المغرب والاسلام تفوقا في الروح الحربية وشجاعة ( زناتة ) تتمثل في رجالها الفرسان الذين لعبوا دوراً هاماً في تاريخ الأندلس زمن المنصور ابن أبي عامر ، حين استقدم إلى الأندلس أعداداً ضخمة قامت بدورها في مقاومة الغزو الخارجي على الأندلس .

وقد كان القبائل الملثمين نواة الدولة المرابطية أبلغ الأثر في نشر الاسلام في ربوع أفريقيا ، والسلطان المغربي ، فقد أمضت بعد إسلامها قرونا طويلة تجاهد

قبائل السودان حتى أدخلتها في نطاق عالم الاسلام وقد أمدّ الاسلام هذه القبائل بالوحدة والالتقاء بعد أن كانت تتصارع ، فأعطاها اتحادها قوة دفعتها في أقاصي الصحراء ، ناشرة لواء الاسلام ، وقد بلغت سعة دولة المرابطين من منحنى النيجر في الجنوب حتى البحر الأبيض في الشمال ، ثم جاوزته الى الأندلس ، وقامت ( صنهاجة ) بنشر الاسلام بين قبائل السودان ، ميممة شطر الجنوب حتى بلغت منحنى النيجر ، وقد تم توحيد هذه القبائل تحت لواء « عبد الله بن ياسين » .

وقد أعدت هذه المفاهيم البربر إلى التطلع لزعامة تجمع قواهم وتدفعها في سبيل نشر الاسلام حين توحدت بزعامة « عبد الله بن ياسين » باسم « الرباط في سبيل الله » بمعنى الاقامة في الثغور ، حيث ترابط الخيل المقاتلة تحمي الحدود ، وترد المعتدين ، وتجاهد في سبيل الله ، وقد واجه المرابطون القوى المغيرة على السواحل الاسلامية التي ظلت تتعرض لغارات الأسطول البيزنطي ، من قواعده في صقلية وسردانية ، وجنوب ايطاليا ، وأقاموا في المدن الساحلية ، وتحصنوا بها ، ووفد عليهم عددكثير من المقاتلة الذين آمنوا بأن الرباط في سبيل الله ضريبة يفرضها الاسلام للدفاع عن ثغوره وسواحله ، وقد انتشرت أعمال الرباط من بعد على ساحل البحر الأبيض من الاسكندرية إلى المحيط الأطلسي ، ومن ثم تراجعت الأساطيل البيزنطية إزاء هذه القوة الجديدة ، وظلت هذه القوة المرابطة تحرس المسلمين ، وتتخذ من الرباط عبادة ، فإذا دهم الغزاة أرض المسلمين تنادوا إلى المرابطين الذين يتدافعون لرد العدوان ويصمدون في وجه الغزاة .

ثم تبلورت قيادة المرابطون في زعامة يوسف بن تاشفين ( ٤٥٤هـ ) الذي امتد نفوذه من المحيط الأطلسي إلى الجزائر والمغرب الأوسط وأنشأ « مراكش » . ولم يتردد المرابطون بقيادة يوسف بن تاشفين من العبور إلى الأندلس نجدة للمسلمين الذين تمزقت دولتهم بعد جهاد طويل ، ومقاومة ضخمة لعبد الرحمن الناصر ، والمنصور بن أبي عامر . فلما ذوت الدولة الأموية وتقسمت بين إمارات الطوائف طمح الأسبانيون والفرنجة في الأندلس ، وأخذوا يغيرون على أطرافها ، حتى زلزلت دولة الاسلام في أوربا . هنالك عبر يوسف إلى الأندلس في قوات ضخمة من البربر ، واشتبك مع الأسبانيين والفرنجة في معركة حاسمة هي معركة الزلاقة ( ٤٧٩ هـ ١٠٨٦ م ) .

وقد توحدت قوى الأسبانيين تحت راية الأذفونس السادس لمواجهة القوة الاسلامية الجديدة ، وفي هذه الموقعة الحاسمة أظهر المسلمون شجاعة وقوة ونصروا الله حقا ، فحققوا الظفر الذي ردّ خصومهم واستخلص لهم سرقسطة وطرطوشة وبلنسية . وقد كادت أن تلتهمها القوى الغربية ، ولم يلبث يوسف أن عاد إلى المغرب ، غير أن تجمع القوات الأسبانية والفرنجة مرة أخرى بعد عام واحد مهاجمة المدن الاسلامية ، اضطره إلى العبور إلى الأندلس مرة أخرى حيث قضى على ملوك الطوائف ، واستولى على غرناطة ومالطة وقرطبة وأشبيلية ، واستطاع أن يؤخر سقوط الأندلس في أيدي الأسبانيين والفرنجة فترة أخرى ، ولم يلبث أن ضعف المرابطون وعاود الأوربيون والفرنجة للادالة من مملكة الأندلس ، فاستولى الأذفونس ملك أرغونة على طليطلة ثم سرقسطة **٥١٣**هـ ومضى يحاصر غرناطة ومالطة . هنالك كانت الموجة البربرية الثانية « الموحدون » قد استحصدت واستطاعت أن تعبر إلى الأندلس بقيادة « عبد المؤمن بن علي » حيث واجه الموحدون الخطر الغربي الذي تدفق على سواحل أفريقيا **٥١٧** في حملات النورمان الذين استولوا على سواحل طرابلس والمغرب والجزائر ، وانتهت بوصول الأسطول النورماني إلى المهدية ، وقد انبعثت دعوة الموحدين في مستهل القرن الخامس الهجري بقيادة محمد بن تومرت . وكان من أعظم أنصاره عبد المؤمن ابن علي . وقد خلف الموحدون المرابطين واستطاعوا أن ينصروا الاسلام في جولة جديدة وموجة تالية حيث طردوا النورمان من السواحل الافريقية (**٥٥١** هـ وعبروا إلى الأندلس ، وضموا إليهم مدائن الأندلس ، التي أصبحت جميعها عام **٥٦٧** هـ تحت سيادة الموحدين . ثم كان للموحدين معركة حاسمة مع الأسبان الفرنجة انتصروا فيها انتصاراً ساحقاً ، وأخضعوا المنتقضين على الأندلس ، هي معركة الأرك سنة **٥٩١** هـ . غير أن هذه القوة الاسلامية الفتية البدوية قد أصابها ما أصاب مختلف القوى من لقاء الحضارة والترف ، فلم تلبث أن اضطربت وتمزقت ، وبينما كانت القوى الأسبانية والأفرنجية تتكتل وتستعيد قوتها لتثأر من هزيمتها في الزلاقة والأرك كانت القوات الاسلامية قد ضعفت حتى عجزت أن تلتقي بالقوى الاسلامية المجاهدة في المشرق حين أرسل صلاح الدين إلى أبي يوسف المنصور **٥٨٠** هـ يدعوه إلى عقد الخناصر لمقاومة الحملات الصليبية في معركة موحدة للعالم الاسلامي كله ، وفي موقعة العقاب

استطاع الأسبانيون والفرنجة الادالة في المسلمين بعد أن توحدت القوى الغربية وتدفقت سيول الصليبيين من مختلف أنحاء أوربا حتى بلغت مائة ألف ، بينما لم تكن قوات الموحدين متحدة أو متحمسة ، فلم تلبث أن اضطربت أمام جحافل الفرنجة سنة ٦٠٩ هـ التي حققت نصراً كان مقدمة لاسترجاع الأندلس .

***

وما تزال موجات القوى الشابة تبرز وتجدد الاسلام ، تبرز قوية شابة خشنة بدوية . ثم تنالها يد الحضارة والترف فتضعف ، لتحل موجات أخرى بديلاً لها ، لم يتوقف عالم الاسلام من إمداد الاسلام بهذه القوى في مجال الدعوة إلى الاسلام أو الفكر ، أو بناة الدول والأبطال ، وما تزال هذه القوى تتوالى ، وما تزال أسماء أبطالها تلمع مرحلة بعد مرحلة ، وكلها تحاول أن تستمد القدوة من المسلم الأول ( صلى الله عليه وسلم ) ومن تجربته ومفهومه وتصرفه في بناء عالم الاسلام ، وفي الحرب والسلم ، وفي الدعوة إلى الاسلام والدفاع عنه ، وللبربر ( المرابطين ومن بعدهم الموحدين ) دور في تاريخ الاسلام إيجابي رائع ، فقد نشروا الاسلام في ربوع السودان الغربي ، وثبتوا الثقافة الاسلامية بين الشعوب الأفريقية ، ونشروا اللغة العربية ، وشاركوا في معركة الدفاع عن الاسلام وتثبيت دولته في الأندلس ، وقد سجل تاريخ الجهاد أسماء أبطال وقادة وفرسان ، وقرن اسم يوسف بن تاشفين ، وعبد المؤمن بن علي بأسماء نور الدين محمود وصلاح الدين ، وكان لدولة المرابطين والموحدين قوة جاهدت في البر والبحر ، وصدت الفرنجة وقاومتهم وأدالت منهم .

وقد كان للمغاربة المسلمين في ظل الدولتين دور ضخم في بناء القوى البحرية والأساطيل ، نافس قوى المسلمين في المشرق . وذلك بعد ضعف القوى البحرية الاسلامية التي أنشأها موسى بن نصير ، مؤسس البحرية الاسلامية في غرب البحر المتوسط . فقد عادت دور الصناعة على طول الساحل افريقي من برقة إلى طنجة مرة أخرى قلاعاً ضخمة عامرة ، تصدّ المغيرين ، وتدفع الخطر الافرنجي ، ومن خلالها استطاع المسلمون تنظيم غارات متصلة بين الجزر والقواعد البحرية ، كما أغار مسلمو المشرق على قبرص ورودس ، وكان فضل يوسف بن تاشفين في إحياء البحرية الاسلامية سنة ٥١٧ هـ كبيراً . ويمكن القول في إيجاز :

( ١ ) قاوم البربر توسعات الاسلام ونفوذه حين دخل المغرب واستمروا في هذه المقاومة طويلا بحسبانه نفوذاً غريباً ، كما قاوموا من قبل نفوذ الدولة الرومانية الذي امتد ألف عام ، فلما تحققت عدالة الاسلام وسماحته وإتاحته الفرصة ، لأهل كل وطن في حكم وطنهم أقبل البربر على الاسلام في اندفاعة قوية ، فاعتنقوه وجاهدوا في سبيل نشره جهاداً مشرفا ، وأصبحوا أكثر أنصاره إيمانا ودفاعا عنه .

( ٢ ) البربر هم فاتحو أسبانيا أصلاً ، وهم القوة الاسلامية التي عبرت إلى بحر الزقاق ، فأسست « الأندلس » أول دولة للاسلام في أوربا ، فلما تم الفتح تدفقت جماعات كبرى من البربر إليها فانصهرت في مجتمعها مع العرب شركائهم في التوسع ومع القوط أصحاب البلاد الأصلية .

( ٣ ) ساهمت قوى البربر بالاشتراك مع القوى العربية في مختلف أعمال التوسع التي امتدت في أسبانيا واستمرت طويلا ، والتي وصلت في ظل قيادة عبد الرحمن الغافقي إلى مدينة ( صانص ) التي لا تبعد عن باريس أكثر من مائة كيلومتر . ومن ثم أصبحت ضفاف أنهار الرون والصاوون واللوار تحت نفوذها .

( ٤ ) قاد المرابطون والموحدون والمرينيون أضخم معركة مقاومة مع الفرنجة والأسبانيين ، هي إحدى شقي معركة الغزو الصليبي ، وذلك بعد أن ضعفت القوى العربية السيطرة في الأندلس بفعل الترف والتمزق ، وكان للمغرب أضخم دور في حماية الأندلس من القوى الغربية المتجمعة للقضاء عليها .

( ٥ ) كان البربر أقوى القوى الاسلامية الشابة في المغرب في مواجهة أزمة الاسلام في القرن الخامس ومن بعده ، حين بدأ الغرب تنفيذ مؤامرة الغزو الصليبي مجتاحة المشرق والمغرب ، وكانت أبرز دولهم دولتي المرابطين والموحدين وقد أدى البربر مهمتين خطيرتين .

( الأولى ) نشر الاسلام في إفريقيا وتوسيع آفاقه إلى أبعد حد ممكن .

( الثانية ) الدفاع عنه في مواجهة الغزو الخارجي للأسبان والفرنجة في

الأندلس . فقد عبر الموحدون إلى الأندلس في خلال قرن واحد ثلاث مرات ، ثم عبر بعد ذلك المرينيون .

وقد ظهرت قوتا البربر متواليتين : المرابطون والموحدون . أما المرابطون فقد ظهرت قوتهم في وقتها وإبانها ، حين اندلعت نيران الحروب الصليبية بالمشرق الاسلامي ، وحين ضعفت الدولة الأموية في الأندلس ، وتوقفت غزوات عبد الرحمن الناصر ، والمنصور بن أبي عامر الذي غزا الفرنجة خمسين غزوة ، فلما تقسمت الدولة الأموية إلى أمارات الطوائف في نفس الوقت الذي توحدت فيه أرجونة وقشتالة مملكتا الفرنجة في مملكة واحدة استأسدت وأخذت تديل من أرض الأندلس ، بينما تقسم المسلمون وتصارعوا مما مكن الأذفونس ملك أرغونة من الاستيلاء على سرقسطة ثاني معقل إسلامي ( **٥١٢ هـ** ) بعد طليطلة ، ومضى في محاصرة غرناطة وتهديدها ، وبلوغ مالقة ، هنالك كان لا بد لحركة التاريخ الاسلامي أن تعطي قوة جديدة في مواجهة الغزو العنيف ، موازنة للموقف ، وإنقاذاً للاسلام من الانحدار ، وكما كانت قوة السلاجقة وخلفائهم في المشرق ، والمماليك من بعدهم هي عنصر الموازنة ورد الفعل والتحدي إزاء الحملات الصليبية . كذلك كان المرابطون والموحدون في المغرب .

# ( ٢٤ )

## « موجة المماليك » .

حقق « المماليك » عملاً ضخما في مجال المقاومة الاسلامية ، فاستطاعوا أن يردوا الهجوم المغولي والغزو التتري الذي تعرض له ( عالم الاسلام ) من سمرقند إلى حلب في موقعة ( عين جالوت ) : بقيادة قطز وبيبرس بعد سقوط بغداد بعامين . وكانت هذه أول هزيمة تواجه القوات المغولية التترية في زحفها الطويل خلال أربعين عاماً ، وتوقفت اندفاعها نحو البحر المتوسط ومصر .

ثم استطاع الظاهر بيبرس أن يحقق انتصارات أخرى على معسكرات الصليبيين وحصون التتار وقلاع الباطنية ، وأتم تصفية هذه القوى الغازية : قلاوون وصلاح الدين خليل ، وكان المماليك بحق : قوة من أكبر قوى الاسلام ذات الفاعلية في مجال الجهاد ، ودفع العدوان الذي تعرض له عالم الاسلام خلال القرنين السادس والسابع ، وقد عاشت دولتا المماليك ( البحرية والجراكسة ) ٢٧٠ عاماً تولى الحكم فيها خمسون سلطاناً . وإذا كان ( الغزو الصليبي ) على عالم الاسلام قد أبرز القوى الاسلامية المتمثلة في السلاجقة وحلفائهم ( عماد الدين ، ونور الدين ، وصلاح الدين ) فإن ( الغزو التتري ) قد أبرز المماليك ( قطز وبيبرس وقلاوون والناصر ) كذلك أبرز غزو الفرنجة والأسبان قوى البربر ( المرابطون والموحدون ) : يوسف بن تاشفين ، وعبد المؤمن ابن علي . وقد كان اجتياح المغول لبغداد حدثا طبيعيا ، ونهاية محتومة ، إذا ما نظرنا إلى تطور القوى في العالم . إذ ذاك ، مع ضعف القيادة السياسية

الاسلامية في مقر الخلافة في بغداد ، حتى ليمكن أن يقال إن العبارات التي وجهها جنكيزخان وتيمورلنك إلى أمراء المسلمين ، إنما تمثل الواقع المحتوم في هذه الفترة حين وصفهم بأنهم « ملوك وحكام ظلمة قد أشبعوا أنفسهم ، وأجاعوا أمتهم ، وأنهم غفلوا عن مفهوم الاسلام في عدالته ووحدته ، وفي المساواة والحق . ولذلك فإن الله قد سلط التتار عليهم لينتقموا منهم ، وإنهم آية الله على هذه القيادات الظالمة » هذه العبارات التي أوردها التتار في رسائلهم إلى أمراء الاسلام إنما تمثل مفهوم التطور وحركة التاريخ ، فما من قوة تضعف إلا ولقوة أخرى مجددة أن تسيطر عليها ، وأن تحل محلها ، وان الدول تمر بمراحل من القوة والضعف ، فإذا شاخت كان لا بد لها أن تنهار ، وكذلك كانت الدول الممثلة للاسلام من سمرقند إلى بغداد في هذه الفترة ( ٦١٦ - ٦٥٦ هـ ) بين سيطرة جنكيزخان وهولاكو قد أصابتها الفرقة والضعف والغفلة ، واستسلمت إلى الترف والانحلال ، وانطوت على نفسها . فكان لا بد أن تطيح بها قوة جديدة شابة حتى يستيقظ المسلمون من غفلتهم .

وقد جاءت موجة المغول الأولى **٦١٣** هـ **١٢١٦** م بقيادة جنكيزخان في جيش قوامه ستون ألفا ، اجتاح هراة وبخارى وسمرقند وبلخ وخوارزم ، وتدفق ما بين الصين والأدرياتيك .

ثم كانت موجة المغول الثانية ( **٦٥٦** هـ **١٢٥٨** م ) بقيادة هولاكو فاجتاح عالم الاسلام حتى بلغ بغداد فدمرها ، وأسقط الدولة العباسية ، وقتل الخليفة المستعصم وبلغ الشام ، واستولى على حلب . وكانت معركة « عين جالوت » هي الرد الحاسم من القوة الاسلامية الجديدة التي برزت في مصر ، وهي « قوة المماليك » التي حملت لواء الدفاع عن الاسلام . غير أن التتار لم يلبثوا بعد نصف قرن من حكم هولاكو أن طواهم الاسلام ، فاعترف بركة خان سابع الخانات . وزعيم القبيلة الذهبية بالاسلام ديناً لدولته **٦٥٤** هـ **١٢٥٦** م وكان بركة خان معاصراً لركن الدولة الظاهر بيبرس سلطان المماليك ، ومن ثم قامت محالفة بين الرجلين على مقاومة بقايا الصليبيين والتتار الوثنيين ، وكان لهذه المحالفة أثر بعيد المدى في انتصار الاسلام والادالة من خصومه ، وفي ظل محالفة بيبرس لبركة خان استطاع أن يكبر المغول خسائر فادحة ، وأن يوقف زحفهم نحو الشام ومصر ،

والأجزاء القريبة من عالم الاسلام ، ولم يلبث أوزبك خان أن انضم إلى الأميرين ، وعرف بتحمسه للاسلام والدعوة إليه ، وكان أول من جدّ في نشر الاسلام في جميع أنحاء روسيا .

## ( ٢ )

إذا كانت قوة السلاجقة وخلفائهم ممثلة في عماد الدين زنكي ونور الدين وصلاح الدين قد واجهت المرحلة الدقيقة من معركة الحملات الصليبية ، فإن المماليك قد واجهوا معركة التتار ، ومعركة تصفية الامارات الصليبية . وقد كان المماليك قوة إسلامية شابة بدوية . من الصعب أن تتكون وتنمو وتبلغ ما بلغته من عز وقوة في غير ظل الاسلام على حد تعبير ( فيليب حتي ) فقد كان المماليك مجموعة من أرقاء مختلف الأجناس والعناصر ، رفعهم الاسلام وأمدهم بمفهومه في الحرية والقوة ، فدافعوا عنه ونصروه . سيطر المماليك على مقدرات السياسة في الشام ومصر طول قرنين وثلاثة أرباع القرن ، في أدق مراحل التاريخ الاسلامي ، وفي أدق مناطق الخطر ، وأتيح لهم أن يحققوا نصرين كبيرين للاسلام :

( الأول ) إجلاء بقايا الصليبيين والباطنية ، وإقامة سدّ منيع في وجه جيوش التتار دون غزو هذه المنطقة ، أو بلوغ امتدادها في البحر الأبيض وأوربا . وكان ذلك من أدق المواقف التي يقدرها التاريخ العالمي قدرها حين يكون السؤال هو : ماذا يكون ميزان القوى وحركة التاريخ لو لم يكن المماليك في هذه المنطقة ، وماذا يكون مستقبل آسيا الغربية ومصر ، في التعرض لموجات التتار التي ساقوها على بغداد وسوريا وحلب ؟

ولقد كان دور « الظاهر بيبرس » في هذه المرحلة بالغ القوة والأثر ، في معارك « عين جالوت » واستخلاص الامارات التي سيطر عليها الصليبيون ، واحدة بعد واحدة . والحملات العنيفة التي جردها عليهم حتى تزعزع مركز بقائهم في ساحل الشام مما عجل بإجلائهم من بعد .

وكانت للظاهر بيبرس حركته العالمية الضخمة في معاهداته مع ملوك المغول وملوك أوربا واتفاقاته مع زعيم خانات المغول في وادي الفولجا ، وما حقق

من دفع امتداد الاسلام في قبائل المغول ، بحيث كسب الاسلام قوتهم العسكرية للوقوف في صفه والدفاع عنه .

وكان للظاهر بيبرس تاريخ قديم قبل معركة « عين جالوت » فهو الذي هزم لويس التاسع في معركة المنصورة ٦٤٨ هـ ١٢٥٠ م . وقد أتيح له بعد سيطرته على مقدرات الحكم أن يبني جيشا وأسطولاً قويين ، وقد كللت مختلف اشتباكاته مع الصليبيين بالظفر والنصر . ومن أجل هذا يعده المؤرخون ثالث العلمين : هارون الرشيد ، وصلاح الدين . وقد عرف بجولاته الرائعة ، وتنقلاته من حصن إلى حصن ، ومن ميدان إلى ميدان حول المملكة اللاتينية الممتدة من شمال سوريا إلى حدود مصر ، وداخلها . وقد كانت هذه المنطقة مجال جهاد المماليك العنيف المتصل ضد الصليبيين ، فامتلأت بجيوشهم وزهرة فرسانهم حتى انتزعوا منهم آخر معاقلهم ، واستخلصوا آخر حصونهم . كما استأصلوا شأفة الباطنية والحشاشين .

وكان قلاوون وابنه الملك الأشرف من أبرز المجاهدين في سبيل الدفاع عن الاسلام ، ورد خصومه ، وإليهم انتهت آخر قلاع الصليبيين . وفي عهد الأشرف سقطت عكا في أيدي المسلمين ٦٩٠ هـ / ١٢٩١ م وكان لاستعادة عكا صدى بعيد في المجتمع الاسلامي فقد كان ذلك علامة على انتهاء آخر حلقات الغزو الصليبي في المشرق الاسلامي . وقد وصلت سلطة المماليك أقصى اتساع لها خلال القرن التاسع الهجري ( ق ١٥ م ) حين استطاعت أن تسيطر على قبرص ، وتحاول ضم رودس للاجهاز على ما بعد الحملات الصليبية من محاولات الحصار على عالم الاسلام ، كما بسطت نفوذها على الشام ومصر وأعالي الفرات ، وأطراف آسيا الصغرى الشرقية .

ولا شك كانت هذه الفترة مرحلة من أقوى مراحل « استعادة الثقة » في عالم الاسلام . فقد نشط المسلمون إلى عمليات المقاومة وبرعوا في أعمال القتال بالمنجنيقات والكبوش وهدم الأسوار والأبراج . وفي هذه المرحلة كان الأدب العربي سلاحاً قويا في مواجهة هذه الحملات ، وفي شحذ الهمم ، وتعبئة القوى الروحية والعسكرية . وكان الزحف الصليبي والزحف التتري من بعده دافعاً قويا للمسلمين إلى الوحدة والمقاومة ، وكان التتار مع الصليبيين على اتفاقات

سرية ، وارتباطات حددت مواعيد الغزو التتري . وذلك لوضع العالم الاسلامي بين فكي الكماشة : التتار من الشرق ، والصليبيين من الغرب ، ولكن الاسلام استطاع أن يثبت للصليبيين والمغول ، واستطاع الظاهر بيبرس وخلفاؤه أن يضربوا الصليبيين ويمنعوهم من التحالف مع التتار ، حتى خرج الصليبيون مقهورين ، وامتص الاسلام المغول وصهرهم في بوتقته فاعتنقوا الاسلام وكونوا دولاً إسلامية كبرى أشهرها دولة المغول في الهند التي أسسها الملك بابر . وإذا كان القرن السابع ( ١٣ م ) قد شهد تصفية الامارات الصليبية ، وطرد الصليبيين نهائيا من فلسطين وساحل الشام . فإن القرن الثامن الهجري ( ١٤ م ) قد شهد ردّ الفعل لهذه النتيجة في المعسكر الصليبي ، حيث قامت أوربا بالدعوة إلى مقاطعة عالم الاسلام وتحريم الاتجار مع المماليك ، مهددة تجار الافرنج بتوقيع قرارات الحرمان من الكنيسة . غير أن المماليك كانوا من البراعة والحنكة السياسية بحيث استطاعوا تحطيم هذا الحصار ، وتمكنوا من عقد عدة معاهدات مع الدول الأوربية ، كما أحسنوا معاملة التجار الفرنجة . ومن ثم أخذ الغربيون في إعداد حملة لمهاجمة مصر عسكريا . وقد تم ذلك بالحملة على الاسكندرية التي قام بها بطرس الأول ملك قبرص ( ٧٦٧ هـ - ١٣٦٥ م ) غير أنه اضطر إلى الانسحاب بعد بضعة أيام - ويمثل القرن الثامن الهجري (١٤م) مرحلة جديدة في تاريخ الاسلام ، ذلك هو ظهور الدولة العثمانية الفتية التي استطاعت من بعد أن تجمع أغلب أجزاء العالم الاسلامي ، وفي مقدمتها العالم العربي تحت جناحها ، وإن بقي المماليك يسيطرون على الشام ومصر خلال القرن التاسع الهجري ( ١٥ م ) حيث واجهوا غارات القراصنة الفرنجة بالتعاون مع القبارصة وفرسان الأسبارية في رودس على السواحل والثغور المصرية والشامية ، مما انتهى إلى إذكاء روح الجهاد من جديد ضد الفرنجة ، حيث قام المماليك بغزوات انتقامية ضد رودس وغيرها من جزر البحر الأبيض بالاستيلاء على قبرص في عهد ( برسباي ) .

## ( ٢٥ )

## « انتشار الاسلام في مرحلة الغزو الخارجي » .

تكشف « حركة التاريخ الاسلامي » عن ظاهـرة بعيدة المدى على طوال مراحله هي : قدرة الاسلام على كسب النصر في مجال النكسة ، وتوسيع نطاقه حين تحاول القوى الأجنبية الانتقاص منه ، وامتـداد ظلالـه إلى شعـوب جديدة حين تنكسر قواه وتلحقه الهزيمة أو الضعف في إحدى مراكزه المتقدمة . وفي مرحلة الغزو الخارجي واجه عالم الاسلام هجوم ثلاث قوى :

( ١ ) هجوم الصليبيين في حملاتها المتوالية التي لم تتوقف ومعارك المسلمين معها .

( ٢ ) هجوم الفرنجة والأسبانيين على الأندلس وشواطىء المغرب .

( ٣ ) هجوم التتار والمغول في زحوفهم الضخمة ، وانتصارات المسلمين عليها .

ولقد كان وقع سقوط بغداد في قبضة الغزو المغولي بالغ الأثر في المجتمع الاسلامي كله ، فقد زلزل النفوس وأصابها بالاضطراب والتشاؤم ، وأضفى على المسلمين روحاً من اليأس القاتل . فقد خيل للناس من ضخامة وقع الحدث ، وعمق الضربة أن الاسلام قد انتهى ، حتى أن مؤرخاً كبيراً هو ابن الأثـير ظل معرضا عن ذكر الحادثة بضع عشرة سنة . بل لقد كان وقع سقوط بغداد أكثـر دويا ، وأخطر أثراً في النفوس من الحملات الصليبية . ذلك أنها كانت تمثل ضربة رئيسية موجهة إلى مركز القيادة السياسية لعالم الاسلام وقاعدة الاسـلام

بالرغم مما منيت به هذه القاعدة من الضعف وما بلغته من الانكماش والتضاؤل في نفوذها الحقيقي . غير أن النظرة الأوسع تكشف عن حقيقة عجيبة ، هي أنه في نفس العام **٦٥٦** هـ الذي سقطت فيه بغداد ، مركز القيادة السياسية الاسلامية في يد المغول ، في نفس هذا العام . غزا الاسلام واحدة من أضخم قبائل التتار هي قبيلة بركة خان ، وفتح طريقه بالسيطرة على عقول وقلوب هذه القوة العاتية التي كانت قد هزت العالم كله ، وزلزلت قواعده منذ أربعين عاماً قبل فتح بغداد ، وكانت موضع تطلعات الغرب الطامع في أن يضمها إلى دينه وثقافته ليجعل منها أحد فكي الكماشة على عالم الاسلام . غير أن ذلك لم يتحقق ، فقد كان « دعاة الاسلام » البسطاء أقدر على كسب إيلخانات المغول من حملات التبشير الغربية . ويرى توماس أرنولد أنه ليس في تاريخ العالم نظير لتلك المعركة الحامية التي قامت بين البوذية والمسيحية والاسلام ، حيث كل ديانة تنافس الأخرى قلوب أولئك الفاتحين القساة ، وكانت زوج جنكيزخان من قبيلة مسيحية . ومن ثم تطلعت السلطتان المسيحيتان في الشرق والغرب لمساعدة التتار في حربها الصليبية مع المسلمين ، ويؤكد توماس أرنولد أن هينون ملك أرمينية المسيحي هو العامل الرئيسي في إقناع مايخوخان ( **٦٤٦** هـ - **١٢٤٨** م ) بإرسال تلك الحملة التي دمرت بغداد بقيادة هولاكو **٦٥٦** هـ ( **١٢٥٨** م ) الذي حملته زوجته المسيحية بما كان لها من نفوذ على أن يظهر عطفاً شديداً على المسيحين . وقد ظن الغربيون أن المغول قد تحمسوا للمسيحية وانتصروا لها ، فأرسل القديس لويس سفيراً من قبله إلى الخان الأعظم يستحثه على مواصلة جهوده لنشر المسيحية ، غير أن ظهور الاختلافات بين المسيحية من اللاتين والاغريق والنسطوريين والأرمن وامتدادها إلى وسط معسكر المغول ذاته . قد جعل الأصل ضئيلا في إحراز نجاح أكبر . هذه عبارة توماس أرنولد في الخطة التي دبرها الغرب مع المغول ، والتي تحطمت حين دخل بركة خان وقبيلته في الاسلام ، ثم تحالف مع الظاهر بيبرس سلطان المماليك ، وكان بركة خان ( **١٢٥٦ - ١٢٦٧** ) أول من أسلم من أمراء المغول ، وكان رئيساً للقبيلة الذهبية في الروسيا ، غير أن تحالف هولاكو مع القوات المسيحية في الشرق كملك أرمينية والصليبيين ، ربما قد حجب الأمل في انتشار الاسلام بين المغول قليلا ، وكان ابن هولاكو ( أباقاخان ) قد تزوج من ابنة امبراطور القسطنطينية ، وكان يرسل السفراء إلى القديس

لويس ملك فرنسا ، وشارل ملك صقيلية وجيمس ملك أرغونة يطلب إليهم التحالف معه على المسلمين ، غير أن ذلك لم يحقق نتيجة ما على النحو الذي كان يرجوه ملوك أوربا ، فإن اخاه تكودار **٦٨١ هـ ١٢٨٢** م الذي اعتلى العرش من بعده ـ كان قد اعتنق الاسلام منذ صباه عن طريق اتصاله بالمسلمين ، فلما تولى السلطة رغب في تحويل كافة التيار إلى الاسلام ، وأرسل نبأ إسلامه الى سلطان المماليك في مصر « قلاوون » قال في رسالته :

« لقد ابتدأنا بتوفيق الله ، بإعلاء أعلام الدين وإظهاره ، في إيراد كل أمر وإصداره تقديما لناموس الشرع المحمدي على مقتضى قانون العدل الأحمدي إجلالاً وتعظيماً ، إن الاسلام يجب ما قبله ، وأنه تعالى ألقى في قلوبنا أن نتبع الحق وأهله ، عفا الله عما سلف ، ومقدمنا بإصلاح أمور المساجد والمشاهد والمدارس ، وعمارة بقاع الدين والربط الدوارس ، وأمرنا بتعظيم أمر الحجاج وتجهيز وفدها ، وتأمين سبلها ، وتيسير قوافلها وإنا أطلقنا سبل التجار المترددين على تلك البلاد . ليسافروا بحسب اختيارهم » توقيع « دتلودار احمد » . وتوالى الأيلخانات المسلمون حتى كان أعظمهم شأناً « غازان » **٩٦٥ هـ ١٢٩٥** م سابع الأيلخانات الذي جعل الاسلام دين الدولة الرسمي في فارس ، وتوالى إسلام أمراء التتار وملوكهم : أسلم طرماشبرين ملك جعطاي **٧٢٧ هـ ١٣٢٦** ) . وتغلق تيموخان ملك كاشغر **٨٤٨ هـ ١٣٤٧** م على يد الشيخ جمال الدين ، وعندما تولى تغلق تيمور السلطة استقبل أمراء دولته ، وكان أولهم الأمير تولك : وقال له الخان : ألا تدخل الاسلام ، عند ذلك سالت عبرات الأمير وقال : قد دخلت في الاسلام منذ ثلاث سنين على يد أحد رجال الدين في كاشغر ، وأصبحت مسلماً منذ ذلك الحين ، ولكني لم أصرح بذلك خوفا منك ، وعرض الاسلام على سائر الأمراء فقبلوه جميعاً إلا واحداً . وفي هذا اليوم قص **١٦٠** ألف رجل شعورهم ودخلوا في الاسلام ، ولما تولى أوزبك خان زعيم القبيلة الذهبية ( **٣١٧ هـ** ) **١٣١٣ ـ ١٣٤٠**م السلطة عمل على تحويل كثير من الأهلين إليه ، وقد وضع خطة لنشر الاسلام في كافة أرجاء بلاد الروسيا ، وبالرغم من تحمسه لنشر الاسلام وتفانيه ، كان كثير التسامح نحو رعاياه المسيحيين . وقد منحهم الحرية التامة في إقامة شعائرهم من غير أن يتعرض لهم أحد بسوء .

وفي هذا يقول توماس أرنولد : إنه بالرغم من كل المصاعب أذعن هؤلاء المغول والقبائل المتبربرة آخر الأمر لدين هذه الشعوب التي ساموها الخسف وجعلوها في مواطىء أقدامهم . ولا بد أن يكون هناك كثير من أنصار النبي قد انتشروا في طول امبراطورية المغول وعرضها مجاهدين في طي الخفاء لجذب غير المسلمين إلى حضارة الاسلام .

* * *

كما حقق الاسلام توسعا ذاتيا في هذه المرحلة في قلب الصليبيين أنفسهم . فإن روح الاسلام وعدالته التي لمسها الغربيون عن قرب ، وما أدهشهم من شمائل نور الدين وصلاح الدين ، قد شدهم إلى الاسلام ، وقد أدى اختلاط علماء اللاهوت المسيحيين بالاسلام إلى تغير مفهومهم عن المسلمين ودينهم ، وبدا رأيهم أقرب إلى الانصاف . بل لقد انجذب كثيرون منهم إلى حظيرة الاسلام ، ويقول توماس أرنولد : يظهر أن أخلاق صلاح الدين وحياته التي انطوت على البطولة قد أحدثت في أذهان المسيحيين في عصره تأثيراً سحريا خاصا حتى أن نفراً من الفرسان المسلحين قد بلغ من قوة انجذابهم إليه أنهم هجروا ديانتهم المسيحية ، وهجروا قومهم وانضموا للمسلمين ، حتى أن صيغة القسم التي عرضها على القديس لويس ، أولئك المسلمون الذين أسروه حين طولب بأن يتعهد بأداء ما فرض عليه من الفدية **١٢٥٠** م كانت من إملاء بعض المسلمين الذين كانوا قسيسين من قبل ، ثم اعتنقوا الاسلام ( جونفيل ) . ويتصل بهذا أن المسلمين حين استعادوا سلطانهم على بيت المقدس بسطوا على المسلمين روح التسامح التي كانت من قبل ، ومن المؤكد أن المسيحيين من أهالي هذه البلاد قد آثروا حكم المسلمين على حكم الصليبيين ، ويظهر أن أهالي فلسطين من المسيحيين لما وقع بيت المقدس في أيدي المسلمين نهائيا **١٢٤٤** م رحبوا بالقادة الجدد ، واطمأنوا إليهم ، ورضوا بحكمهم ، وقد دفع هذا الشعور كثيراً من مسيحيي آسيا الصغرى إلى الترحيب بمقدم السلاجقة باعتبارهم مخلصين لهم من الحكومة البيزنطية البغيضة ، لا بسبب نظام الضرائب المجحف وحده ، ولكن بسبب روح الاضطهاد التي ظهرت بها الكنيسة الافريقية ( توماس أرنولد ) .

* * *

وقد انتشر الاسلام ذاتيا في آفاق أخرى ، هي المغرب وشمال أفريقيا ، وكان لتقبل البربر له أبعد الأثر في انتشاره في آفاق أفريقيا ، ويرى المؤرخون أن ظهور المرابطين كان بعيد الأثر في انتشار الاسلام بوصفه حركة قومية عظيمة جذبت عدداً كبيراً من قبائل البربر نحو الاندماج في الأمة الاسلامية ( الدكتور حسن محمود ) وقد ظهر في مستهل القرن الخامس ( عبد الله بن ياسين ) المعلم التقي الذي اكتشفه يحيى بن إبراهيم شيخ قبيلة صنهاجة ، وكان مقدمة للنهضة الضخمة التي قادها من بعد يوسف بن تاشفين ، فقد عمل عبد الله بن ياسين على نشر الاسلام في مختلف أنحاء قطاعيات أفريقيا التي تعرف بالسودان ، وقد بنى رباطا في جزيرة نهر السنغال ، حيث كون مجموعة ضخمة من التلاميذ المدربين على الدعوة بلغ عددهم ألف شخص ، ثم دفعهم إلى قبائلهم وعشائرهم ، ثم زاول الدعوة في القبائل المجاورة ، واستطاعت حركة عبد الله بن ياسين أن تحقق توسعاً في قلب أفريقيا حيث أسلمت قبائل كبيرة من البربر الوثنية ، ثم كانت حركة الموحدين امتداداً لحركة المرابطين من حيث جذبت إلى الاسلام قبائل أخرى كانت بعيدة عن الاسلام . وقد استطاع ابن تومرت مؤسس دولة الموحدين أن يكسب الكثير للاسلام عندما كتب رسائل التوحيد باللغة البربرية ، وشرح قواعد الاسلام وأمر بالأذن بها .

## ( ٢٦ )

## « الفكر والثقافة في مرحلة الغزو الخارجي »

هل مهدت مرحلة التبلور والانصهار لمرحلة الغزو الخارجي :

الواقع أن مرحلة التبلور والانصهار تميزت باندفاعات قوية نابعة من مفاهيم الاسلام . فقد استطاع الاسلام أن يحقق انتصارات ضخمة في خلال مرحلة « التبلور والانصهار » مستقلا عن الدولة الاسلامية ، ذلك أن حرية الحوار الفكري بين دعاته وبين دعاة الأديان الأخرى والمذاهب والملل المختلفة قد كشفت جوهره ، فاستطاعت بساطته وشموله وتكامله أن تنفذ إلى أعماق النفس الانسانية المتطلعة إلى قوة دافعة إيجابية ، تعين على البناء والتقدم والانشاء ، وقد أعطى الاسلام معتنقيه هذه القوة ، وأنشأ نهضة ضخمة في مجال العلوم والفكر والبناء والحضارة فهو بقيمه الانسانية من التوحيد والعدل والمساواة ، وسماحته في الانفتاح على الثقافات والحضارات قد استطاع أن يستوعب حصيلة ضخمة من عصارة تجارب الأمم ونهضاتها من الاندفاع إلى الأمام ، كما استطاعت مفاهيمه التي تتسم بالشمول والتكامل والوسطية أن تصهر العناصر المختلفة في بوتقة « وحدة فكر » بقيت واضحة الخطوة في مجال البناء ، حيث ظلت قوى الشعوبية والزندقة والالحاد والاباحة تواصل محاولاتها في إزاحة الاسلام عن مفهومه ، أو التألب عليه بالمؤامرة للقضاء على دولته .

وظلت دولة الاسلام تشق طريقها على النحو الذي تحقق لها . دائرة في

فلك الاسلام ، لم تصل بعد إلى تحقيق المثل الأعلى الذي رسمه ، ولكنها مضت تبني الحضارة في الشام ، ثم في العراق وفارس ، وأصبحت القيادة السياسية في بغداد في العصر العباسي ، وقد أفسحت الطريق إلى الدول الاستقلالية ، حيث ظهر بناة الدول ، وقادة الأفكار المختلفة ، وحيث استطاعت كل القوى والملل والمذاهب والعناصر أن تقيم دولاً وحكومات لا فرق في ذلك بين الشيعة والسنة ، وبين القرامطة والزنج ، غير أن الصراع بين هذه القوى بدافع الخلاف بين العرب والفرس أساساً ، وبين محاولة الفرس في الاستقلال عن النفوذ العربي ، وبين حركات التآمر والانقضاض التي حاولت أن تحمل شعارات العلويين ، أو آل البيت كوسيلة لاغراء الشعوب ، هذه المعركة الضارية في مجال الفكر ، وفي مجال الحركات السياسية قد أضعفت الوحدة السياسية الاسلامية بين أجزاء « عالم الاسلام » على النحو الذي مكن القوى الخارجية من التأهب لغزوه من الأندلس في حدود المغرب والدولة البيزنطية في حدود الشام ، هنالك دخل العالم الاسلامي مرحلة جديدة : هي مرحلة « أزمة الاسلام » كما نسميها وهي مرحلة الغزو الصليبي المزدوج على الشام والأندلس ، والغزو التتري الذي ارتبط بالغزو الصليبي في خطط منسقة كمحاولة ثلاثية للقضاء على عالم الاسلام .

وقد استمرت هذه المرحلة : مرحلة الغزو الخارجي فترة قرنين كاملين هما ( القرن السادس والسابع ) . وفي هذه المرة ظهرت القوى الثلاث الشابة البدوية المحاربة ، ذات الفروسية والصرامة ، والتي كانت في مستوى الأحداث وهي قوى ( ١ ) السلاجقة وحلفائهم وتابعيهم الأتابكة والأيوبيين ( ٢ ) المماليك ( ٣ ) البربر « المرابطين والموحدين » .

ماذا كان شأن الفكر الاسلامي في هذه المرحلة ؟

كان الفكر الاسلامي في مرحلة الانصهار والبلورة قد مرّ بعدة مراحل :

( ١ ) المعتزلة : لسان الدفاع عن الاسلام في مواجهة الفلسفات القديمة .

( ٢ ) تحقيق الحديث والسنة ، وتكون مدارس الفقه في مواجهة حملات الشعوبية .

( ٣ ) إعادة صياغة مفهوم الاسلام بالعودة إلى مفهوم « القرآن » بوصفه حجر الأساس للفكر الاسلامي جامعاً بين العقل والقلب في مواجهة انحرافات :

( ١ ) الاعتزال ( الأشعري ) . ( ٢ ) الباطنية ( الغزالي ) .

وفي أواخر القرن الخامس وأوائل مرحلة الغزو الخارجي استشرت الدعوة الباطنية .

( ١ ) كقوة فكرية تهدف إلى القضاء على مفهوم الاسلام في بساطته وشموله وتكامله ووسطيته .

( ٢ ) وحركة سياسية تهدف إلى إسقاط الدولة الاسلامية .

كانت الفكرة الباطنية خلاصة الفلسفات المجوسية واليونانية الوثنية مصاغة في قالب ظاهره إسلامي ، تدعو إلى إسقاط التكليف في العبادات ، وتعطيل ظاهر الشريعة ونسخه وذلك عن طريق تأويل الكلمات الشرعية الاسلامية المتواترة تأويلاً لا يقوم على اللغة والقياس والمنطق ، مع إنكار الغيبيات وإنكار عقيدة ختم النبوة ، وقد صور دعاة الباطنية هدفهم في عبارة واضحة ، بعث بها عبد الله بن الحسن القيرواني ، إلى الحسن بن سعيد الحبابي زعيم القرامطة على هذا النحو « ادع الناس بأن تقترب إليهم بما يميلون إليه ، وأوهم كل واحد منهم بأنك منهم ، فمن آنست منهم رشداً فاكشف له الغطاء فإذا ظفرت بالفلسفي فاحتفظ به . فعلى الفلاسفة معولنا » .

والواقع أن دعاة الباطنية وفي مقدمتهم ( عبد الله بن ميمون القداح ) قد بحثوا عن أنصارهم بين الوثنيين وطلاب الفلسفة اليونانية ـ على حدّ تعبير دوزي ـ ولم يكن ابن ميمون يعتمد إلاعلى الطائفة الأخيرة ، وإليهم وحدهم استطاع أن يفضي بسره وخفي عقيدته ، وهو أن الأئمة والأديان والأخلاق ليست إلا ضلالاً وسخرية ، وأن باقي البشر ( وكان يطلق عليهم الحمر ) ليسوا أهلاً لفهم هذه المبادىء . وقد ظلت الباطنية تنشر دعوتها باسم الدعوة إلى آل البيت ، حتى أصبحت مؤسسة ضخمة تنقض على الحكومات وتقتل الأعلام من الوزراء والقادة أمثال الملك الطوسي ، والوزير نظام الملك ، وكان لها دورها الخطير في معركة الاسلام مع الصليبيين ، فإن معظم المجاهدين الذين قاوموا الغزو الصليبي ترصدتهم الباطنية بالقتل . أو تعرضوا لمحاولات الاغتيال ، كما تعرض صلاح الدين .

ويتصل بالباطنية جماعة إخوان الصفا ودعوتهم خليط من الفلسفة اليونانية ، والعقيدة الباطنية ، ومزيج من الاسلام والالهيات اليونانية مستهدفة خلق دين آخر ، وكانت دعوتهم هي « أن الشريعة قد دنست بالجهالات ، ولا سبيل إلى غسلها وتطهيرها إلا بالفلسفة ( التوحيدي : الامتاع والمؤانسة ) والمعروف أن أصحاب حركة ( إخوان الصفا ) قد كتموا أسماءهم ، وهنا موضع التساؤل فيما لو كانوا مخلصين أو صادقين أو غير منحرفين عن فهم الاسلام ومقوماته . ومن أهم معالم دعوتهم إنكار البعث بالأجساد ( جـ ٤ ص ٦١ رسائل إخوان الصفا ) ويفسرون الآخرة والجنة والنار على نحو مغاير لما يفهمه ويعتنقه المسلمون . وبالجملة فإن فلسفة إخوان الصفا هي مزيج من فلسفات اليونان الوثنية ، والمزدكية الفارسية ، والمانوية ، والوثنية ، والكهانة ، والتنجيم والسحر . ويرى العلامة ابو الحسن الندوي أن هذه الدعوة كانت تهدف إلى إعداد النصوص والنقول لحركة انتقاض جديدة . وذلك بتجميع علم ماكر يراد به عمل سياسي لهدم دولة الاسلام والاسلام نفسه .

## الغزالي : واعادة صياغة الاسلام

هذه هي الصورة التي كانت تتحرك قبل الغزو الخارجي لعالم الاسلام ، بالاضافة إلى التمزق والخلاف الضخم بين العناصر والقوى الاسلامية . ومن هنا كان لا بد للاسلام أن يواجه هذا الصراع بإعادة صياغة مفهوم الاسلام على نحو يسلك الجماعة الاسلامية في وحدة فكرية وسطية متكاملة .

أما من الناحية الفكرية فقد كان « الغزالي » هو حامل لواء « إعادة صياغة مفهوم الاسلام » بالاتجاه نحو القرآن نفسه كمصدر أساسي وإعطاء الاسلام تكامله وشموله بالجمع بين العقل والقلب في مواجهة انحرافات الباطنية ، والفلسفات القديمة .

وفي نفس الوقت كانت القوة السلجوقية ، البدوية الشابة المحاربة في المجال السياسي عنواناً لسيطرة وحدة الجماعة ، فهم حملة علم السنة ، وأصحاب اللواء المرفوع في وجه الغزو الخارجي . وقد استطاع الغزالي أن يعيد صياغة مفاهيم الاسلام صياغة جديدة . بعد أن أوغل في دراسة الفرق ، وتعمق حجج الفلاسفة والباطنية . ( ٤٥٠ ـ ٥٠٥ ) كان جوهر الاسلام قد اختفى وتوارى خلف تيارات الكلام والفلسفة والباطنية فاستصفى الغزالي الاسلام من جديد ، وأزال عن وجهه ذلك الغشاء الذي حجب صفاءه ، وصارع القوى التي كانت في يوم من أيام الاسلام أسلحة قوة ، ثم تحولت مع الزمن ومع انفصالها عن شمول الاسلام وتكامله ووسطيته لتصبح وكأنها مفهوم الاسلام نفسه ، صارع قوى

المتكلمين والباطنية والفلاسفة ، وواجه انحرافاتها وردها جميعها في صياغة جديدة ، وصبها جميعها من جديد في « بوتقة الاسلام » ليبرز الاسلام بمفهومه الأسنى ، وقد استصفى عناصر القوة والحيوية التي تتمثل في هذه الأفكار والدعوات ، وأعادها إلى منابعها من الاسلام ، وأقام من جوهرها بناء فكر الاسلام في شموله .

فليس الاسلام فلسفة وحدها ، ولا فقهاً وحده ، ولا زهداً وحده ، ولا كلاماً وحده ، ولكنه هو الأصل الأصيل الذي تلتقى فيه هذه القيم على قدر لتكون شمول الاسلام وتكامله ، ووسطيته . وقد دعا الغزالي إلى اتخاذ القرآن نفسه أساساً لمنهج الفكر الاسلامي ، كاشفاً عن أن علم الكلام كان سلاحاً من أسلحة الاسلام لفترة من الفترات غلبت فيها الفلسفات القديمة . فكان دفاع الاسلام - عن نفسه - بنفس أسلحة خصومه ، وإنما يمثل الكلام أمراً جزئياً فيما يتعلق بالدفاع عن شكوك خصوم الاسلام ، وهو ليس دعوة شاملة ، للطباع السليمة ، والعقول المستقيمة « أما القرآن » فهو الغذاء الصالح والماء السائغ لكل إنسان ليس فيه ما في الكلام من ضرر أو خطر أو جزئية مجال الدفاع عن الاسلام والرد على خصومه فضلاً عما تعطي آراء المتكلمين من صورة الجدل مما يعجز عنه العامي ، وربما يكون سبباً لروح العناد في قلبه ، والأنفع هو الكلام الجاري كما يشتمل عليه القرآن .

« «وادلة القرآن مثل الغذاء ينتفع به كل إنسان ، أما أدلة المتكلمين فهي مثل الدواء ينتفع به آحاد الناس ، ويستضربه الأكثرون . بل إن أدلة القرآن كالماء الذي ينتفع به الصبي الرضيع والرجل القوي » . أما الفلسفة عنده فهي « مجموع أفكار وقياسات وتخمينات » والغزالي لم يتهم الفلسفة بالتكفير أو يهاجمها بالهجاء . ولكنه قال : « إن أغلب قضاياها برهانية ، ولا يخدم الاسلام إنكارها ، وقال إن الاسلام لا ينصر بإنكار هذه العلوم . وليس في الشرع تعرض لها بالنفي والاثبات ، ولا في هذه العلوم تعرض للعلوم الدينية ، وقال إن بعض علوم الفلسفة لها فائدتها وخاصة علوم ( الرياضة والطبيعة ) أما الالهيات ففيها أكثر أخطائهم . وقال إنهم ما قدروا على الوفاء بالبراهين على ما شرطوه من المنطق ، ويرجع ذلك إلى أن الالهيات ليست كالعلوم الأخرى ( الرياضة

والمنطق)وليس لها مقدمات ومحسوسات ومبادىء . ولذلك كثرت فيها أغاليطهم وتخيلاتهم ، وقال إن خطر الفلسفة على أذهان الناشئة هو أن يجدوا أصحابها مع رزانة عقولهم ، وغزارة علمهم منكرين للشرائع والنحل جاحدين لتفاصيل الأديان والملل ، ولم يهاجم الغزالي علوم الفلسفة التي لا تصادم الشريعة . وناقش مسائلهمفي الالهيات . وما بعد الطبيعة ، وبين ضعف استدلالهم وتناقضهم واختلافهم في ثلاث مسائل :

( ١ ) قدم العالم .

( ٢ ) قولهم بأن الله لا يحيط علماً بالجزئيات الحادثة من الأشخاص وأنظارهم .

( ٣ ) بعث الأجساد وحشرها . وقال إن هذه المسائل الثلاث لا تلائم الاسلام بوجه ، وعلى هذا النحو بدأ القرن السادس . وقد أقبلت الحملة الصليبية الأولى ، وبدأت حركة مقاومة ضخمة في منطقة الشام وساحل فلسطين ، ولم يلبث أن برز عماد الدين زنكي يحمل لواء الوحدة الاسلامية السنية وخلفه نور الدين محمود صاحب دعوة « إعادة بناء الأخلاقية الاسلامية » كقوة أساسية لمعركة المقاومة .

ثم صلاح الدين الذي أقام بخلقه الاسلام نموذجاً جديداً للمثل الأعلى الاسلامي . وقد كان لأزمة الاسلام أثرها في أمرين :

( ١ ) وحدة الجماعة الاسلامية : وحدة سياسية وفكرية ، وبروز دعاة ومصلحين من أمثال: « عبد القادر الجيلاني » .

( ٢ ) بروز دعاة الزهد والتصوف ، وتجمع كتائب المرابطين في الثغور ، ثم تحولهم إلى جماعات تعيش في الخوانق والزوايا .

( ٣ ) ظهور أدب جديد هو أدب المقاومة للصليبيين ( الشرق ) والفرنجة ( الغرب ) والتتار . وقد كان لحملات الصليبيين المستمرة أثرها في بروز دعاة السنة من السلاجقة وخلفائهم من الأتابكة وآل زنكي والأيوبيين والمماليك وأثرها في التقاء الفكر الاسلامي على وحدة تتمثل في مفهوم أهل السنة والجماعة ، حيث انصهرت مختلف الفرق الفلسفية والكلامية والمتصوفة والفقهية من جديد في لقاء روحي وفكري بين أجزاء العالم الاسلامي ومفاهيمه الفكرية ، وفي مقاومة

الغزو الصليبي والتتري والفرنجي خلال قرنين كاملين ، وكما انتشرت حلقات الوعظ ، وحلقات الصوفية ، وانتشرت المدارس السنية التي أنشأها السلاجقة ، وفي مقدمتها المستنصرية والنظامية ، وبدأت التربية الاسلامية تشق طريقاً جديداً قوامه « وحدة الجماعة السنية » في التقاء المذاهب الاسلامية ، كما برزت حركة الاخاء والفتوة الاسلامية . غير أن الغزالي في إسقاط الكلام والفلسفة الالهية اليونانية قد أنعش التصوف خلال القرن السادس كله حين بلغ التصوف مبلغه من الانحراف الذي بلغته الفلسفة والكلام من قبل ، عندئذ كان الاسلام في حاجة إلى شخصية ضخمة « تعيد صياغة مفاهيم الاسلام » في مواجهة محاولة الجزئية الصوفية بمفهومها الجبري ، حيث حاولت أن تتمثل مفهوماً كاملاً للاسلام ، ففي نحو قرن من الزمان انقلب التصوف إلى حركة فلسفية مضطربة جمعت إليها انحرافات الفلسفات القديمة ، وقالت بالحلول : والاتحاد ووحدة الوجود . وبعدت عن بساطة الاسلام في شموله وتكامله ، ووسطيته ، ويتمثل ذلك في أقوال الحلاج والسهروردي وابن عربي ، كما تحولت حركة الرباط في الثغور إلى حركة الدراويش المنسحبة من المجتمع والعمل والحركة والحياة إلى الاعتكاف في الخوانق ، ومن هنا أصبح التصوف انحرافاً إلى نزعة فلسفية فكراً ، وإلى جمود وعزلة وسلبية من الناحية العملية ، ودخل إلى التصوف القول بإسقاط التكليف . وبذلك بعد عن مذهب السنة وقواعد الشرع ، وروح الاسلام في طبيعته الايجابية القائمة على محاربة النفس والتوكل على الله والجهاد ، غير أن الحركة الصوفية من ناحية أخرى قد استطاعت أن توسع قاعدة الاسلام ، وأن تنشر التوحيد ، في مختلف أجزاء أفريقيا وآسيا . ثم لم تلبث خلال هذه المرحلة أن تقاربت السنة من الصوفية ، كما تقاربت الصوفية من مفاهيم الشيعة ، وحاولت أن تلتقي في وحدة فكر في حظيرة الاسلام .

وإذا كان « الكلام » هو محاولة إيقاف الاسلام في فلك العقل فإن « الصوفية » هي إيقاف الاسلام في فلك القلب ، وكلاهما شطرا الاسلام ، ولا يستطيع مفهوم منهما أن يستقل بالاسلام ، والاسلام في شموله وتكامله ووسطيته يلتقي بهما منصهرين فيه ، والاسلام دين العقل والقلب معاً .

## ( ٢ )

## الحركة الموسوعية الكبرى

كان هجوم الصليبيين والفرنجة والتتار من خارج عالم الاسلام عليه في ثلاثة اتجاهات متلاقية يربطها خط واحد هو القضاء على الاسلام « دولة وفكرة » . وهي حملة « عاتية » يمكن أن توصف بأنها « أزمة الاسلام الكبرى » . كان يمكن أن تقضي على أي حضارة يحمل لواءها فكر ودولة ، غير الاسلام ، فقد استطاع الاسلام أن يخرج أحشاءه من البدو المقاتلين الأشداء في ثلاث قوى : هي السلاجقة والمماليك والبربر في مواجهة القوى الثلاث ، كانت هذه القوى عاملة على « إعادة وحدة الجماعة » في مفهوم الوسط ( السنة ) والدفاع عن أرض الاسلام ، غير أن الاسلام لم يتوقف في هذه المرحلة عند « الدفاع » بل استطاع أن يفتح فتحاً سلمياً في آفاق جديدة في أفريقيا وجنوب شرق آسيا ، ويشق طريقاً مجدداً فيغزو قلوباً جديدة ببساطته وسماحته وشموله ووسطيته ، فيضيف عناصر جديدة في الوقت الذي كانت قلاع الباطنية تسقط ، والمغول البرابرة يدخلون في الاسلام أفواجاً .

وفي هذه المرحلة برزت « حركة فكرية وثقافية » بعيدة المدى ، لم تشهدها المرحلة السابقة من حيث عمقها واتساعها وشمولها . ذلك أن الغزو الخارجي قد هز نفوس الأعلام والمفكرين هزاً عنيفاً . وكانت عمليات القضاء على التراث الاسلامي على النحو الذي حدث في بغداد حين فقدت مئات الألوف من مجلدات الكتب ، أو ما حرق منها في ساحات حلب أو دمشق أو نقل إلى مناطق بعيدة

بقصد القضاء على قوتها كفكر ، لقد هال الباحثين المسلمين الأعلام هذا الموقف ، ومن ثم بدأت مرحلة من مراحل تأليف الموسوعات الضخمة تضم إليها ألوان الفنون والثقافات التي كانت موزعة على كتب مختلفة الفنون والثقافات . وقد نسقت من جديد دون تقدير كبير للصياغة الفنية . وكان ذلك حماية لها من الضياع وإعادة لاحيائها من جديد ووضعها في أيدي الباحثين .

ونظرة إلى مؤلفات الغزالي ، أو ابن تيمية ، أو ابن القيم ، تجد أنها محاولة تقديم عصارات شاملة سريعة للفكر الاسلامي كله ، حتى لقد قيل في وصف كتاب « إحياء علوم الدين للغزالي » انه يكفي بديلاً ، إذا فقد التراث الاسلامي كله ، ومهما كان في هذا القول من المبالغة ، فإنه محاولة لتصوير مدى هذا التحدي الذي واجهه الغزالي في سنواته الأخيرة ، بعد قدوم الحملة الصليبية الأولى إلى المشرق ، واستيلائها على بيت المقدس . وفي مواجهة ذلك الاحساس المضطرم بالخطر على الفكر الاسلامي مما كان ثمرته تأليف عمل ضخم كإحياء علوم الدين .

* * *

قد اتسمت مرحلة الغزو بظاهرة عجيبة في مجال الفكر هي وجود إنتاج ضخم في مختلف مجالات الثقافة . فقه ونحو ولغة وعروض وحديث وتفسير وبلاغة وأدب وتاريخ وجغرافيا ومنطق وفلسفة وسياسة ورياضة وفلك وتنجيم . فقد كانت هذه المرحلة في الواقع ثمرة المرحلة السابقة التي توسعت فيها دور العلم والمساجد والمعاهد والمؤسسات العلمية المختلفة في عواصم الحواضر الاسلامية ، وكانت منطقة الشام ومصر أغنى هذه المناطق حيث لم تحل الحروب الصليبية ، ولا الغزوات التترية ، ولا غزوات الفرنجة لأطراف الأندلس والمغرب دون استمرار حركة الفكر والثقافة والأدب ، وطعمتها بتحد جديد وأضفت عليها لون المقاومة والمحافظة على التراث وظلت الجامعات الكبرى : الأزهر في مصر . والقرويين في فارس . والزيتونة في تونس . والأعظم في القيروان والأموي بدمشق ، والنجف وكربلاء ، وسامّرا . ظلت قادرة على أن تحتضن هذه الثقافة وأن تحميها . وعندما سقطت بغداد تحت سنابك المغول، ظلت القاهرة ودمشق وحلب وحواضر المغرب جميعها حافظة للثقافة منمية لها .

ولعل هذا العمل هو أقوى رد على الشبهات التي كانت تتردد من آن لآخر بأن الحياة العقلية قد واجهت في مرحلة الغزو الخارجي مرحلة انحطاط . فضلاً عن أن الخلفاء وبناة الدول في عصر ما قبل الغزو ( ٤٩٢ هـ إلى ٦٩٩ هـ ) ـ وهو أول فترة الحملات الصليبية إلى أوائل عصر الوحدة العثمانية ـ هؤلاء القادة لم يترددوا في تكريم النوابغ والعلماء ، واستقدموا إلى دولهم عدداً كبيراً من أعلامهم أمثال : البيروني وابن سينا وابن الهيثم . غير أن هذا العصر يتسم بظاهرة أشد عمقاً هوأن « الجدل الفكري الاسلامي »قد انتهى ،حيث تقاربت مفاهيم الكلام والسنة والتصوف وأهل البيت ، وبدأت تلتقي في وحدة فكر إسلامي له وسطيته وشموله . ذلك أن حكام هذا العصر كانوا علماء وأئمة ، وعلى قدر كبير من الثقافة ، وكان من حولهم دوماً نخبة ممتازة من أعلام المثقفين . فقد كان نور الدين محمود يتابع سياسة السلاجقة في بناء المدارس ، واستقدام العلماء وكذلك شجع صلاح الدين العلماء وقربهم . وكانت مجالسهم حافلة بأهل العلم والفضل ، حيث تطرح مذكرات واسعة ، ومحاورات مفتوحة حول مختلف جوانب العلوم ، وكان صلاح الدين يتكلف السعى إلى العلماء الذين لا يغشون مجالس الأمراء والسلاطين ، كما بنى الكامل دار الحديث في القاهرة وناظر العلماء ، وفي كل ليلة يجلس إلى المفكرين ، ويعقد المباريات بين العلماء في حفظ الجامع الكبير وغيره من كتب الحديث ويجزي عليها .

كذلك كان كلف الظاهر بيبرس بالعلماء والنوابغ ، وحبه لمحاورات التاريخ والفقه ، وعلى هذه السنة كان قلاوون الذي أنشأ المدارس الكبرى ، وطارح الأدباء . وكانت حلقات العلم زاخرة في مختلف الجوامع الكبرى والزوايا . وفي القاهرة كان جامع عمرو والأزهر والطولوني وجامع الحاكم والمشهد الحسيني ، وكذلك كانت جوامع دمشق وحلب ، ودار الحكمة في طرابلس كلها تشتغل بالعلم .

وقد رحبت القاهرة ودمشق وحلب وبغداد بالعلماء من مختلف أجزاء العالم الاسلامي ، واستقبلت القاهرة عدداً من علماء الأندلس وفدوا إليها مهاجرين خلال حملات الفرنجة ، وساهمت الأميرات المسلمات : روح الملك الأشرف وأختا صلاح الدين في إقامة المدارس ، وقامت مدارس للمذاهب

الفقهية المختلفة ، المالكية والشافعية والحنفية والحنابلة ، ومدارس للحديث ، ومدارس للقرآن . ومدارس للطب ، وكانت هناك خزائن الكتب المتعددة ، وقد تعددت آثار الباحثين خلال هذه الفترة في مجالات الحديث والفقه والقراءات والتعبير وأصول الدين والنحو والعروض والقوافي واللغة والبلاغة والنقد الأدبي والتاريخ والجغرافيا والفلسفة وعلوم الرياضة والكيمياء والفلك والموسيقى والطب والسياسة واللغات الأجنبية ، وبرز أعلام متعددون في مقدمتهم : الشاطبى . السخاوي . القرطبي . محي الدين النووي . ويجمع الباحثون المثقفون على أن الحياة الفكرية في مرحلة الغزو الخارجي . قد نشطت نشاطاً كبيراً ، وأن ظاهرة « الموسوعات » علامة صادقة على حركة التحدي ورد الفعل في مواجهة الغزو الخارجي : الصليبي والتتري في القضاء على الثقافة الاسلامية .

وقد ظهرت في هذه المرحلة موسوعات : نهاية الأدب : للنويري . صبح الأعشى : للقشلقندي ، ووضع كثير من معجمات اللغة والتاريخ ومطولات السير والأخبار . وقد ظلت اللغة العربية هي لغة العلم والسياسة ، وقد اصطنعها السلاجقة والمماليك والبربر بوصفها لغة القرآن الكريم . وكان للفاطميين والأمويين من قبل دور واضح في رعاية الآداب والعلوم والفنون في مصر والشام بعد أن تحولت الحركة الأدبية والعلمية إليها بعد سقوط بغداد .

# ( ٣ )
# الفكر الاسلامي يقاوم تحديات الغزو

بمراجعة مرحلة الغزو الخارجي ( من وصول الحملة الصليبية الأولى ٤٨٩ إلى نهاية الحملات الصليبية ٦٩٠ هـ ) نستطيع أن نسجل ظاهرة بعيدة الأثر في حركة التاريخ الاسلامي . هذه الظاهرة أن مقاومة حملات الفرنجة في المغرب ، والصليبيين في المشرق ، والتتار في خلال هذه الصلة وهي حملات متوالية لم تتوقف ، بل كانت دائماً في اضطراد وتدفق ، هذه المقاومة لم توقف العمل في مجال الثقافة والفكر الاسلامي . بل يمكن القول بأن ثمار مرحلة الانصهار والبلورة ، قد تحققت في هذه المرحلة يظهر ذلك بوضوح في مراجعة سريعة للأعلام الذين ظهروا في هذه الفترة ، وهم من ألمع شخصيات الفكر الاسلامي في مختلف فنونه : الفقه والفلسفة والعلوم والدعوة والتصوف والحكم :

الغزالي ، وعبد القادر الجيلاني ، وفخر الدين الرازي ، ومحمد بن تومرت ، وابن رشد ، ويوسف بن عبد المؤمن ، وأبو فرج الجوزي ، وعز الدين عبد السلام ، ونصر الدين الطوسي ، وتقي الدين بن تيمية ، ومحي الدين النووي ، وابن دقيق العيد ، ومحي الدين بن عربي ، وجلال الدين الرومي . وقد اتسم مجال عملهم الفكري شأن الفكر الاسلامي في مختلف تطوراته ومراحله ، اتسم بمقاومة الغزو الخارجي ، وتوجيه مفاهيم الاسلام إلى العمل في هذا المجال ، وأبرز ما توصف به آثار هؤلاء العلماء وكتاباتهم أنها كانت تهدف

إلى القضاء على الدعوات والنزعات والمذاهب المنحرفة التي كانت من عوامل التخذيل ، ومن الأدوات التي استغلها الغزاة لتفرقة جماعة المسلمين ، أو بث روح التراخي والترف والهزيمة . وكانت هذه الآثار من ناحية أخرى تحاول أن تصوغ أيديولوجية الاسلام على نحو جديد ، جامع موحد شامل ، يمزج بين الدعوات المتفرقة ويردها إلى أصلها ، ويقرب بين دعاتها في وحدة ، حتى لا تكون هذه الفرقة بين الصوفية والمتكلمين ، أو بين الفقهاء والفلاسفة عاملاً من عوامل التمزق في كيان المجتمع الاسلامي . وكان هناك أيضاً الاحساس بالخطر من تدمير مقومات الفكر الاسلامي . ومن هنا كانت خطورة ذلك العمل الذي وصف بالتصنيف والموسوعات . وقد لعب العلماء والفقهاء والمسلمين دوراً كبيراً في مجال المقاومة للغزو الصليبي والتتري ، كان إيمانهم بأن مقاومة هذا الغزو تتطلب تحرير الاسلام من البدع والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر ، وتحرير القيادة السياسية والعسكرية من الظلم والطغيان .

ومن هنا كانت مواقف ابن تيمية والعز بن عبد السلام وابن دقيق العيد في مواجهة الأمراء . كانوا يوصون السلاطين بالعدالة في جمع الضرائب والمكوس ، ويطلبون إليهم أن يقدموا ما لديهم ولدى مماليكهم أولاً من حياصات الذهب والحلى . فإذا أنفقوا هذا في الجهاد ، أفتى لهم الفقهاء بأخذ مزيد من مال الرعية .

ولقد عزفوا جميعاً عن المناصب المرموقة واستعلوا على عطايا السلاطين ، وحين استجاب مثل ابن دقيق العيد تلميذ العز بن عبد السلام إلى تولي منصب قاضي القضاة ، اشترط بأن لا يرد حكمه ، وأذاع منشوراً عاماً يدعو الجميع إلى التزام نصوص الشرع واطراح ما يؤثر في تنفيذها من الوساطات والمحسوبيات ، وشدد النكير على من تضعف نفسه أمام شهوات الحكام . ولم يتوقف هؤلاء العلماء عند حدود النصح . بل شاركوا بسيوفهم في الجهاد . شارك ابن تيمية في مقاتلة التتار ، واشترك العز بن عبد السلام في مدافعة الصليبيين في غزو دمياط ، وأشعلوا الحماسة في الصدور ، وكان ابن تيمية يوقد الحماسة في الصفوف المقاتلة ، ويقود الفقهاء في ميدان التدريب الحربي على أعمال الفروسية والجهاد .

وكان « ابن تيمية » يرى أن مهاجمة الجمود والتقليد الفكري وتحرير الاسلام من الشبهات والبدع عامل من عوامل النصر في معركة الغزو الخارجي ، هاجم أصحاب الدعوات المنحرفة عن مفهوم الاسلام في شموله وتكامله ، وهاجم أنصار الاتحاد ووحدة الوجود والحلول : وناصر عقيدة التوحيد ، ونازل خصومه بالرأي والحجة ، وعقد مجالس المناظرة ، واحتمل في سبيل ذلك مؤامرات خصومه ، وتقبل السجن والاضهاد في تصميم وإيمان ، ودعا الى إحياء روح الجهاد في المسلمين ، وفتح باب الاجتهاد في الفروع وإصلاح التصوف وكتب الامام النووي إلى الظاهر بيبرس يوجهه في أمور المسلمين ، وهاجم المبتدعة والباطنية .

***

وقد قام العز بن عبد السلام بدور ضخم في الاصلاح الاجتماعي حيث أنكر بيع الخمور واصطفاف الجند وتقبيلهم الأرض بين يدي السلطان ورابط في مواجهة الحملة الصليبية السابعة مع المسلمين في المنصورة يحمسهم ويحثهم على مقاتلة الصليبيين . وقد عني قادة المسلمين : نور الدين محمود ، وصلاح الدين ، والظاهر بيبرس بفتح مدارس الحديث ، كما حرصوا على وحدة العلماء والمسلمين . فقد أجرى صلاح الدين حسماً للخلافات بين العلماء من أجل استئصال الخطر الصليبي ، وكان العلماء موضع شورى القادة ، كان الملك العادل أخو صلاح الدين يستشير الشيخ عبد الرحمن البيساني ( القاضي الفاضل ) في شؤون الجند والأسطول ونقل المؤن إلى ميادين القتال . كما قدم مصر والشام خلال مرحلة تصفية الأندلس عدد كبير من العلماء حيث لم يتوقف البحث العلمي الصرف ، فقد وصل إليها عالم النبات : أبو العباس بن الرومية من المغرب ٦١٣ هـ والطبيب مهذب الدين عبد الرحيم الداخور الطبيب والأديب ، وألف بها مقالة عن الأغذية ، واشتغل بعلم الفلك ، واقتنى الآلات الفلكية . وكانت لديه ست عشرة رسالة في الأسطرلاب . وكان بها : العلامة الكمال شديد بن القاسم مدير البيمارستان الناصري ، وأخوه رشيد الدين أبو خليفة من علماء الرياضيات والموسيقى والطب والأدب ، كما اجتذبت القاهرة العالم الرياضي علم الدين قيصر تلميذ كمال الدين موسى بن يونس ، والنباتي

البارع صفاء الدين عمر ( ابن البيطار ) الذي عرف بسياحاته وأسفاره لدراسة خواص النبات في اليونان وآسيا الصغرى . كما شيد السلطان الكامل دار الحديث الكاملية ، وشجع على التأليف في التاريخ والسياسة ، وألف في « فن الدبلوماسية » تاج الدين بن حمويه كتابه عن السياسة الملوكية . وألف علي بن يوسف كثيراً من كتب التاريخ .

وممن لمعوا في هذه المرحلة جمال الدين الحاجب في النحو الصرف ، وزكي الدين عبد العظيم في الحديث والطبيب أبو سعيد ابن أبي سليمان الذي ألف عيون الطب والعشاب ابن البيطار مؤلف الجامع في الأدوية .

ومن أبرز ملامح هذه المرحلة أدب المقاومة المتمثل في شعر الشعراء والخطب الحماسية ، والكتابة عن الجهاد والفروسية وتفسير آيات الجهاد وأحاديثه ، وإعادة كتابة مواقف البطولة في التاريخ الاسلامي ، فقد أشاد الشعراء بالأبطال والمحاربين . وكان الشعر من أعظم الأسلحة في معركة الصليبيين .

كما لعب الفقهاء في الأندلس دوراً هاما في إيجاد نوع من الوحدة بين القوى الاسلامية المتنافرة للوقوف في وجه الخطر الغربي ، ولاسيما بعد سقوط طليطلة ، ومن أوائل الداعين إلى توحيد القوى أبو الوليد الباجي الذي طاف بملوك الأندلس يؤلف قلوبهم على نصرة الاسلام وتوحيد الصفوف ( الدكتور حسن محمود ) .

( ٤ )

## الفكر لا الادب هو أداة للمقاومة

حاول بعض المؤرخين والكتاب أن يصفوا الفترة من ٦٥٦ بعد سقوط بغداد إلى ١٢١٣ - ١٧٩٨ وهو تاريخ قدوم نابليون إلى الشرق بأنها فترة انحطاط . والحق أن هذه القرون الستة لا يمكن أن تدرس على أنها مرحلة واحدة ، ولا يمكن أن يصدر عليها حكم واحد . فضلاً عن أن علامات اليقظة في عالم الاسلام سبق قدوم نابليون بوقت طويل ، وقد انبعثت من الأعماق ، ولم تكن بفعل مؤثر خارجي .

وأعتقد أن هذا الحكم قد قصد القائلون به قطاعاً منيعاً هو « الأدب العربي » . ثم انسحب على الفكر الاسلامي كله . ذلك أن الدلائل المؤكدة تثبت أن الفكر الاسلامي قد واجه مرحلة ضخمة من مراحل التحدي خلال فترة الغزو الخارجي ، وأنه استجابة واضحة ، فكان على مستوى المعركة . وقد استمر هذا الفكر قوياً إلى مرحلة « عصر الوحدة الاسلامية العثمانية » وأن فترة ضعفه لم تزد عن مائة عام قبل ظهور دعوة التوحيد على لسان الامام محمد بن عبد الوهاب .

والواقع أيضاً أن الأدب ليس هو الفكر العربي الاسلامي في هذه المرحلة ، ولكنه قطاع واحد منه ، ولم يكن سقوط بغداد في الحق هو أول مرحلة الغزو . ولكنه وسطها . إذ بدأت هذه المرحلة بالغزو الصليبي . وليس بسقوط بغداد الا

حادثاً جزئياً ، وربما أحدث أثره في الآداب نتيجة للهزة العاطفية التي أصابت المسلمين بعد سقوط مقر القيادة السياسية الاسلامية . أما أثره الفكري فلم يكن عميق الغور . إذ ان مراكز الثقافة لم تلبث أن انتقلت إلى الشام ومصر والمغرب . ويمكن القول بأن « عصر الغزو والمقاومة » كان امتداداً طبيعياً « لعصر التبلور والانصهار » لعالم الاسلام فكراً ومجتمعاً ، بل ان ثمرات الفكر الاسلامي والعلوم والفلسفات كلها قد تفتحت في عصر المقاومة . ولعل الادعاء بأن هذه المرحلة جميعها فترة ضعف ، ولا نقول انحطاطاً . قد جاء بنتيجة ما لوحظ من توقف حملات الصراع بين المذاهب والدعوات التي اتسم بها « عصر التبلور والانصهار » . بيد أن هذا التوقف في معارك السجال ، إنما هو ظاهرة طبيعية لهذه المرحلة ، وليس علامة جمود فإن المذاهب التي نشأت نتيجة اختلاف مفاهيم المعتزلة والسنة ، ودعاة الكلام والفلسفة والتصوف . كانت قد تقاربت بعد أن زال الصراع السياسي الذي كان يحمل لواءها ويستخدمها ، وبعد أن دخلت إلى الاسلام موجات ضخمة من السلاجقة والبربر والمماليك ، وعناصر مختلفة من الأجناس والأمم . وبعد أن غلبت الثقافة السنية التي حمل لواءها الأتراك في عناصرهم المختلفة : سلاجقة وأتابكة وأيوبيين وعثمانيين من بعد ، وكانوا بالاضافة إلى المماليك والبربر ( المرابطون والموحدون ) جميعاً من أنصار الثقافة السنية . بينما كانت الثقافة التي تحمل طابع أهل البيت وهي أساساً لا تختلف مع مذهب السنة والجماعة إلا في الفروع قد انحسرت في منطقة فارس وما بعدها ، وتمثلت في الفرس والتتار .

ومن أبرز ما تتسم به هذه المرحلة منذ الغزو الخارجي للعالم الاسلامي ( الصليبيون في المشرق ، والفرنجة في المغرب ) هو غلبة طابع التصوف على الجماعات الاسلامية ، وتغلغل هذه الظاهرة في المجتمع الاسلامي وتأثيرها على مفاهيم الثقافة السنية والربط بينها وبين مفاهيم الثقافة الشيعية في الالتقاء على حبّ النبيّ وآل البيت مما قرب هذه المرحلة بين أهل الفقه وأهل التصوف ، وبين السنة والشيعة جميعاً .

وقد كان لسمة التصوف ، الظاهرة الواضحة في هذه المرحلة ، أثرها البعيد المدى في معركة المقاومة للغزو الأجنبي . فقد كانت من عوامل القوة

الدافعة لمجموعات ضخمة من الشباب بالفتوة والمرابطة في سبيل الله والانصراف إلى الجهاد ، والمقاومة والاعتصام بالثغور ، والانضواء تحت لواء القوات الاسلامية المندفعة بقيادة عماد الدين زنكي ونور الدين محمود ، وصلاح الدين الأيوبي والظاهر بيبرس ، ويوسف بن تاشفين وعبد المؤمن بن علي وغيرهم من زعماء مقاومة الغزو الخارجي لعالم الاسلام .

وفي هذه المرحلة كانت المعاهد الاسلامية القائمة في أنحاء العالم الاسلامي ، هي العامل الأكبر الذي حافظ على اللغة العربية والفكر الاسلامي . الأزهر في مصر . والقرويين في فاس . والزيتونة بتونس ، والأعظم بالقيروان . والأموي بدمشق . ومعاهد النجف وكربلاء وسامّراء . وكلها استطاعت أن تحتضن الفكر الاسلام واللغة العربية في هذه المرحلة الدقيقة ، وتذور عنهما عادية الغزو . وقد ظلت هذه المعاهد من حلقات المساجد والكتاتيب ، وإلى الجامعات قائمة بدورها التاريخي خلال فترة اجتياح المغول والصليبيين والفرنجة لعالم الاسلام . وكان دور المرأة في مجال العلم خلال هذه الفترة مضطرد النماء . فقد ظهرت أسماء لها شهرتها في هذه المرحلة من المسلمات المتفقهات ، كن يعلمن ويتحدثن في مجالس القاهرة ودمشق . كما رافق حكم المماليك في مصر والشام حركة علمية أدبية توافرت خلالها المدارس والمكتبات والمؤسسات الخيرية فضلاً عن التآليف والأبحاث الدينية واللغوية ، وظلت اللغة العربية هي لغة العلم والسياسة .

وكان للأزهر دوره الضخم في هذه المرحلة ، فقد أطلق صلاح الدين الأيوبي **٥٦٧ - ١١٧١** م للأزهر رسالته في مجال الثقافة الاسلامية السنية ، ومنذ عصر صلاح الدين أصبح الأزهر جامعة الفكر الاسلامي ، ومعهداً للاسلام واللغة العربية ، فلما جاء الظاهر بيبرس جدد شباب الأزهر . حيث عادت صلاة الجمعة .

وكانت للأزهر في مرحلة الغزو والمقاومة مدارس فرعية متخصصة تمده بالطلاب . وكانت إقامة هذه المدارس قد بدأت في عصر الدولة الأيوبية ، وقد أقامها نور الدين محمود في الشام ( دمشق وحلب ) وفي مصر قامت مدارس مختلفة لدراسة الفقه الشافعي والمالكي والحنفي والحنبلي ، وفي المدرسة الناصرية تولى

شأن الدراسة ابن خلدون . وقصد الأزهر علماء كثيرون من مختلف أنحاء العالم الاسلامي ، في هذه الفترة منهم : عبد اللطيف عبد البغدادي ( ٥٨٩ ) وقد تولى التدريس بضعة أعوام فيه ، وكان موسى بن ميمون يلقي فيه دروساً في الرياضة والفلك والطب . وكان شرف الدين بن الفارض يعقد به حلقاته الصوفية والروحية . وكذلك شهاب الدين السهروردي وشمس الدين بن خلكان صاحب وفيات الأعيان . وكان الأزهر في هذه المرحلة يضم أعداداً ضخمة ، وكان مفتوحاً للطلاب من كل مذهب ، تدرس فيه سائر العلوم الدينية واللغوية ، ويقوم على تثقيف العدد الكبير من الطلاب عدد كبير من الأساتذة يقصدونه من كل بقاع العالم الاسلامي ويقطن في أروقته منهم عدد كبير . بلغ في أواخر القرن الثامن الهجري سبعمائة وخمسين طالباً ( المقرنري ) .

ومن علماء الأزهر في القرن الثامن الهجري : شمس الدين الأصبهاني ( إمام الدنيا في المقومات ) وشرف الدين الزواوي المالكي ، وكان بمصر من الأندلس العلامة : محمد بن يوسف بن جنان النفري ، والعلامة الحافظ ابن حجر العسقلاني ، وتقي الدين المقريزي تلميذ ابن خلدون ، والحق أن الأزهر منذ الغزو المغولي والقضاء على الحضارة الأندلسية أصبح أكبر معهد في عالم الاسلام كله . وميزته أنه يتوسط هذا العالم ، وأنه قريب من الحجاز وله صبغته العربية المحضة ( د . فولرز ) والواقع أن هذه فترة ناضلت فيها الثقافة الاسلامية ، وإن ضعف الأدب . كانت عوامل اليقظة والقوة واضحة في مجال التاريخ والقصة والنصوص . وفي تأليف الموسوعات وكان ذلك تحدياً للضعف السياسي ، وكان مجال العلم التجريبي والفلسفة قد اتسع أفقه في الأندلس ، بينما عرفت الشام ومصر بالتقدم في مجال الفقه والنصوص .

ولعل من أهم الظواهر في هذه المرحلة « ظهور الثقافة العربية » مقام الأدب العربي الذي لم يكن في كل هذه المراحل ممثلا للفكر الإسلامي . وقد كان طابع التكامل والوسطية التي اتسمت به الابحاث في هذه الفترة أكثر أصالة من ذلك التمزق الذي حفلت به الفترات الماضية ، حين كان الأدباء والشعراء يذهبون إلى أبعد مدى في خدمة الأمراء ، وإذلال النظم لهم ، وقولهم غير الحق ، وإسرافهم في المدح والهجاء والمجون والإباحة والخمريات على نحو بلغ انحرافه عن مفهوم الإسلام حداً كبيراً .

أما « الثقافة العربية » في مرحلة الغـزو الخارجي فقـد كانـت تحـررت من خلافات المذاهب ومعاركها ، كما تحررت من أهواء الشعر والنظامين الواقفـين على أعتاب الأمراء ، ومن ثم كان العلماء وهم القادة في هذه المرحلة أشد عزوفاً عن عطايا الحكام ، أو قبول مناصبهم ، تحرراً لفكرهـم واستعـلاءً على قبـول الظلم أو كتمان كلمـة الحـق ، وكان للثقافـة الإسـلامية في هذه المرحلـة أثرهـا الواضح ، والتخلص من المحسنات البلاغية ، ومع جمع الفنون المختلفة والمزج بينهما ، وكان التأليف الموسوعي الجماعي المنوع في هذه المرحلة يهدف الى تقديم المعرفة بصورة شاملة وسريعة . وكان ذلك في واقعه إنما يمثل أكبر ردّ فعل للغزو الصليبي والفرنجي والمغولي ، وما دمر من مكتبات وآثـار ، وقضى على معاهـد وجامعات . فهو عصر خوف وسرعة ومقاومة ، استهدف جمع حصيلة ضخمة من التراث الإسلامي وحفظها وتنسيقها في موسوعات ما تزال حتى الآن من الأعمال التي قامت عليها النهضة الحديثة في مجال التراجم والفقه واللغة .

أما توقف الاجتهاد وغلبـة النقـل والتقليد ، فيرجـع ذلك الى طابـع العصر نفسه . فإن عصور المقاومة والجهاد لا تتيح فرصة العمل العقلي المنظم الذي يحقق الإبداع والاجتهاد إبداعاً واجتهاداً يتصل بعصور البناء ونمو الحضارات وازدهار السلام ، كما يقوم في كنف الوحدات النامية المزدهرة ، ومن خلال تطور الحياة الاجتماعية ونموها بالتفاعل والتعامل . أما في عصر المقاومة فمن الحق أن ينصرف الفكر الإسلامي كله إلى شحذ أسلحة المواجهة والجهاد ، وإعادة صياغة الفكر على نحو من الشمول والتكامل حتى لا يفقده الغزو المتصل مقوماته الأساسية . وآية ذلك أن النشاط العقلي للمسلمين لم يتوقف وإن ضعف فيه الابتكار الذي هو ثمرة حياة الدعة والسلام ، وبرزت ظاهرة تأليف الموسوعات التي تعد من أعمال مراحل التحدي والمقاومة ، ويمكن القول بأن هذه الفترة ليسـت فتـرة موت ، ولكنها فترة بناء على نحو يتفق مع تحديات العصر في مجال حياطة وتجديد الفكر الاسلامي وتنسيقه على نحو جديد .

وقد تنوعت الثقافة في هذه المرحلة : بين أبحاث التاريخ والجغرافيا والأدب والكلام واللغـة والعـروض والحـديث والتفسـير والفلك والموسيقـى والسياسـة والفلسفة والرياضة ( أحمد أحمد بدوي : الحياة العقلية في مصر والشام في عصر

الحروب الصليبية ) ويرجع ذلك الى انتشار دور العلم في أرجاء مصر والشام وخزائن الكتب . وقد وصف حكام هذا العصر بأنهم كانوا مثقفين ثقافة ممتازة . وقد أحاطوا أنفسهم بطبقة ممتازة من المثقفين ، وآية ذلك مجالس نور الدين محمود وصلاح الدين الحافلة بأهل العلم ، فضلا عن بناء المدارس .

وقد مضى المماليك في نفس طريق الأيوبيين ، فكان الظاهر بيبرس يقرب النابعين في كل علم وفن . ويقول إن سماع التاريخ أعظم من التجارب ، وكذلك فعل قلاوون . وظلت المساجد خلال هذه الفترة عامرة بحلقات العلم . وكذلك الزوايا والمدارس .

وأبرزت هذه المرحلة عديداً من الأعلام .

مرحلة الغزو : القزويني : ( ٦٠٥ - ٦٨٢ ) ابن منظور : ( ٦٣٠ - ٧١١ ) ابن بناتة : ( ٦٨٦ - ٧٦٨ ) ابن قيم الجوزية : ( ٦٩١ - ٨٥١ ) .

مرحلة الوحدة العربية الإسلامية : ابن بطوطة : ( ٧٠٣ - ٧٧٩ ) القلقشندي : ( ٧٥٦ - ٨٢١ ) المقريزي : ( ٧٦٦ - ٨٤٥ ) لسان الدين الخطيب : ( ٧٣٣ - ٨٠٨ ) . ابن خلدون : ( ٧٣٢ - ٨٠٨ ) .

# الباب الخامس

# مرحلة الوحدة الاسلامية العثمانية

# ( ٢٧ )

## « الوحدة الاسلامية العثمانية »

### - ١ -

مر الإسلام خلال قرنين كاملين ( من الحملة الصليبية الأولى الى القدس حتى ظهور الدولة العثمانية ) بأدق مرحلة في تاريخه كله . مرحلة الأزمة الكبرى ، في محاولة ضخمة من القوى الخارجية على عالمه للقضاء عليه ، واكتساحه . وقد تدفقت عمليات الغزو من أطرافه الثلاثة : من الشمال عم طريق بيزنطة بالحملات الصليبية . ومن الشرق : بالغزو التتري المغولي . ومن الغرب : عن طريق الأندلس بغزو الفرنجة والأسبان ،وكانت أوربا هي التي تقذف عالم الإسلام بالقوى الغازية من قلبها إلى جناحيها عن طريق آسيا الصغرى ، وعن طريق حدود فرنسا التي ألبت التتار المغول،وتآمرت معهم على ضرب جناح المشرق ، غير أن عالم الإسلام لم يقف صامتاً إزاء هذا الغزو . بل واجهه بالمقاومة والوحدة والقتال ، واستطاع أن يديل من القوى الصليبية الضارية ، وأن يمزقها ، وأن يردها على أدبارها مهزومة ، وأن يصهر القوى التترية المغولية في بوتقته ، فيحولها الى الإسلام ، فتصبح قوة ضخمة من قواه الفاعلة . أما في المغرب فقد قاومت الأندلس ولم تستسلم ، . . هنالك كان لا بد لتاريخ الإسلام أن يستقبل موجة جديدة من موجات القوة . وقد تمثلت هذه القوة في الدولة العثمانية الجديدة الشابة التي حملت رايات الإسلام من جديد بعد أن ضعفت السلاجقة والمماليك والبربر بعد أن أدوا دورهم في المقاومة .

كان هدف حملات الغـزو هو : « القضـاء على الإسـلام » وقـد ألحـت هذه الحملات خلال قرنين كاملين على عالم الإسلام وردّت منهزمة مدحورة ، ونجا الإسلام ، غير أنه كان ضعيفا منهكا مثخناً بالجـراح . وكان عرضـة لحمـلات جديدة ، قد بدأت فعلاً بالحصار الاقتصادي الـذي ضربتـه أوربـا على البحـر الأبيض ، مع اندفاع القوى الأسبانية والبرتغالية في محاولة صليبية جديدة ، هي تطويق عالم الإسلام من خارجه ، والسيطرة على نفس الثغور والموانىء المغربية التي قاومتها ودحرتها ، هنالك استطـاع الإسـلام ان يبـرز قوة جديدة من قواه المذخورة ، هي قوة الأتراك العثمانيين الذين اندفعوا من أطراف آسيا هاربين من وجه الغزو التتري ، والذين كانوا قد اعتنقوا الإسلام ودخلوا في حظيرته كقـوة جديدة شابة بدوية عسكرية . هذه القوة الجديدة التي استطاعت أن تقوم بدور كبير عجزت عنه قوى السلاجقة والمماليك والبربر ، وهي القوات الثلاث البدوية المحاربة التي سبقتها ، والتي واجهت مرحلة الغزو التتري الصليبي الفرنجي .

ومـن ثم بدأ « عصر الوحـــدة الإسـلامية العثمانية » ( **٦٩٩ هـ ١٣٩٩ م** ) واستمرت هذه الوحدة قوية قادرة على أربعة قرون ونصف القرن . ثم ضعفت من بعد ، ولكنها ظلت تسيطر سياسيا حتى مزقها الغزو الاستعماري الغربي عام **١٢٣٧ ـ ١٩١٨** أي أنها عاشت مسيطرة مؤثرة أكثر من ( **٦٤٨** عاما ) . ويمكن ان يطلق على هذه المرحلة : مرحلة قوى الوحدة الثلاث ، فقد قامت فيه الدول الكبرى الثلاث : ( العثمانية ) التي ضمت العالم العربـي وتـركيا وأجـزاء من أوربا . و ( الصفوية ) في فارس . و ( المغولية ) في الهند . ومن قلب هذه الموجة برزت الموجة الجديدة : « موجة اليقظة العربية » كقـوة ذات فعـالية في تجـديد الاسلام ونموه ، ويمكن القول بأن عصر الوحـدة الإسـلامية العثمانية قد أمضى القرن الثامن والتاسع والعاشر في مكان القـوة والصـدارة ، وهـو دور التوسـع والتوغل في أوربا . هذه المرحلة التي كانـت في حدّ ذاتهـا «ردّ فعـل للحـروب الصليبية التي تسيطر على الشاطـىء الشامـي خلال قرنـين ، حيث استطاعـت الدولة العثمانية الاسلامية ان تسيطر على قلب أوربا ، وأن ترفع رايات الإسلام فيها على البلقان والصرب ، وتصل إلى أسـوار فينّـا ثلاث مرات ، وفي القـرن الحادي عشر ( **١٠٠١ ـ ١١٠٠** ) بدأت الدولة العثمانية تنتقل إلى مكان الدفاع بدلا من الهجوم ، وأخذت تفقد نفوذها حثيثا ، وترفع يدها عن هذه الأجزاء التي

سيطرت عليها في أوربا . في هذه المرحلة بالذات كانت أجزاء كثيرة من العالم العربي ، قد بدأت تستقل حيث أخذت قيادات جديدة عربية تسيطر . غير أن البعث العربي الإسلامي كقوة روحية وفكرية قد بدأت فعلا في منتصف القرن الثاني عشر ، وحوالي ١١٥٣ - ١٧٤٠ بظهور دعوة التوحيد كقوة سياسية وروحية عربية ، تنبعث من قلب الجزيرة العربية مجددة دعوة ابن تيمية ، وداعية في نفس الوقت الى ابتعاث القوة ، كقوة جديدة شابة تلعب دورها على مسرح الأحداث في عالم الإسلام .

في هذه المرحلة ( ٧٠٠ هـ ١١٥٣ م ) ( ١٣٩٩ هـ ١٧٤٠ م ) سقطت الأندلس في أيدي الفرنجة ، والأسبانيين ، وارتفع عنها لواء الإسلام الذي عاد إلى حدود إفريقية ، حين أصرت أوروبا على أن تحرر من الإسلام والمسلمين والعرب جميعاً . ومن ثم أجلت هذه العناصر ، وحررت أوربا تحريراً كاملاً من حكم الإسلام وأهله . غير أنها لم تكن قادرة على أن تحرر أوربا من أثر الإسلام الفكري والعلمي والثقافي . إذ كانت قد استوعبت حضارة الإسلام والعرب وتراثها وعلومها وفلسفاتها ، واعتصرت هذه القوة الفكرية الحية ، وترجمتها الى لغاتها ، ومضت بها في قوة فطورتها ، وأمدتها بالقوة والحياة في مجال الكشف والرحلة والملاحة والصناعة والعلوم . وإذا كانت أوربا قد بلغت غاية التعصب حين أخذت فكر الإسلام وعلومه وفلسفاته . ثم عاملت أهله بأقسى صنوف الاضطهاد والعنف . فإن الإسلام بسماحته قد استطاع حين أقام في أرض أوربا بالأندلس ثمانمائة عام أن يعطي للإنسانية علومه وحرياته ورسالته الحية التي لا تموت ، أبلغها إلى أرض الأندلس ، وأقرها في جامعاتها ومكاتبها ، وأوقد لهيبها في نفوس علمائها . حتى استطاعت أن توقد جذوة اليقظة والضياء في قلب أوربا ليمضي مشعل الإنسانية مرفوعاً حين تخلف المسلمون والعرب عن حمل لوائه . وإذا كان الإسلام قد طوى امتداده في أوربا عند الأندلس من الغرب . فإنه قد استطاع ان يحقق نصراً بالغ الأثر والقوة ، هو امتداده إلى اوروبا من خلال البلقان من الشرق . ثم وضع يده على « القسطنطينية » عاصمة الدولة البيزنطية ، وتحقق له في هذه المرحلة اسلام القبيلة الذهبية في روسيا والباكستان . فضلاً عن توسع الإسلام بقوته الذاتية في إفريقية الوسطى ، حيث دخلت الصومال في الإسلام ، وظل التوسع سائراً ، وظلت الدولة العثمانية تزداد باسم

الإسلام قوة ونفوذاً في مجال الحضارة والتوسع . وهي تتسم أساسا بالسمة العسكرية ، حيث قضت أعوامها في ميدان الجهاد مؤمنة به كأساس من أسس الإسلام ، وكانت هذه المرحلة هي مرحلة النصر ـ هذا النصر الذي تجمعت أوربا في وجهه . وعقدت الخناصر على هزيمته ، وعجزت عن ذلك ، كما عجز عنه تيمورلنك الذي هاجم أنقرة في القرن التاسع ، وهدم قصر الإمبراطورية في الأناضول . غير أن العثمانيين ما لبثوا بعد قليل أن أفاقوا . وقد أعادوا كيانهم قويا ، وحققوا بعد قليل أعظم نصر هز أوربا كلها . وهو السيطرة على القسطيطينية ، ومن خلال الصراع بين الإسلام ممثلاً في الدولة العثمانية من ناحية ، والغرب من ناحية أخرى ، كانت طلائع الاستعمار التي تحمل لواء تطويق عالم الاسلام مندفعة من أسبانيا والبرتغال في طريقها ، حيث استطاع فاسكودي جاما كشف طريق رأس الرجاء الصالح ـ **١٤٩٨** وإقامة محطات على طول الساحل الشرقي لأفريقيا كمرحلة من خطة الضغط الاقتصادي على عالم الإسلام وحرمانه من قوافل التجارة التي كانت تمرّ في أعماقه ، وتنفيذاً لخطة الدوران حول إفريقيا دون المرور بأرض الإسلام ، لفرض العزلة على العالم الإسلامي . نمت القوة الإسلامية العثمانية الجديدة بين القرن السابع والقرن العاشر ( **٧٠٠ ـ ١١٥٣** ) فقد اندفع العثمانيون بعد أن استولوا على آسيا الصغرى وأزالوا الدولة الرومانية الشرقية الى شبه جزيرة البلقان ، الصرب ، بلغاريا ، اليونان ، البوسنة ، الهرسك ، أزوف ، القرم ، بلغاريا ، المجر ، ترانسلفانيا . سيطروا على هذه كلأجزاء من أوربا في الفترة ما بين **١٣٩٩** م **٧٠٢** هـ ـ **١٥٤٧** م **٩٥٤** هـ وحين دخل العالم العربي في قلب هذه الوحدة الإسلامية العثمانية ، امتدت الدولة العثمانية من الدانوب الى الخليج الفارسي الى المغرب الأقصى . وقد قامت في هذه المنطقة وحدة سياسية اسلامية الطابع على انقاض التفكك الذي واجهه عالم الاسلام بعد ضعف قوى المماليك التي استنفذت في مقاومة الصليبيين والتتار . وفي ظل هذه الوحدة بدأت مرحلة استقرار في عالم الاسلام . فقد كان قيام هذه الوحدة إنقاذاً لهذه الوحدات من عالم الاسلام ( من آسيا الصغرى والشام ومصر والعراق ) من سيطرة قوات المغول ، أو الحملات الصليبية التي كانت توشك على التحرك قبل ظهور القوة العثمانية الاسلامية ، كما أوقفت هذه الوحدة النفوذ البرتغالي من التوغل في البحر الأبيض المتوسط . وبذلك استنفذت أدق مناطق الاسلام ، وأشدها حساسية من الخطر الأوروبي .

ولا شك أن الوحدات العربية قد وجدت في « لواء الإسلام » الذي رفعته الدولة العثمانية قوة جديدة تحميها وترد عنها الغزوات الغربية ، وكان النظام الذي وضعه العثمانيون لحكم هذه الوحدات نظاماً مرناً ، فقد أقروا النظم القديمة وتركوا لكل وحدة : الحرية في تصريف أمورها ، مع ربطها بحزام السياسة العامة ، والدفاع والضرائب . وإن كان هذا النظام الذي كان مقبولاً في فترة القوة قد أصبح عاملا من عوامل الخطر في فترة الضعف ، ويمكن القول إن القوة العثمانية الجديدة كانت موجة جديدة من موجات الإسلام أمدته بقوة جديدة ، ردت عنه الغزو الخارجي ، وأقامت « وحدة » استمرت قوية أربعة قرون ونصف قرن ، فقد خلف العثمانيون العرب والفرس والسلاجقة والأتابكة والأمويين والبربر في رفع راية الاسلام ، واستطاعوا أن يمتازوا عن القوى الاسلامية التي سبقتهم بانهم وقفوا في صفوف الدفاع والمقاومة بل أعادوا عصر التوسع الاسلامي الأول بأن اندفعوا في قلب أوربا ، وحققوا انتصارات وضموا أجزاء كبيرة منها إلى عالم الاسلام ، وإن كانوا قد عجزوا ان يصهروا أهل هذه الأجزاء ، أو أن ينشروا فيهم دعوة الاسلام .

وإن كانت اوربا قد استطاعت أن تصد الإسلام كقوة سياسية عنها من ناحية الأندلس وفرنسا حتى نهر اللوار ، ومن ناحية البلقان حتى أسوار فينّا . فإنها لم تستطع أن تصد الإسلام كفكر . وإذا كان العثمانيون قد استطاعوا أن يوجهوا الغرب بالقوة العسكرية منتصرين ثلاثة قرون كاملة ، ومدافعين ثلاثة قرون أخرى . فإن هذا كان رد فعل للحملات الصليبية على المشرق ، وحملات الفرنجة على الأندلس . . وكان في نفس الوقت مصدر تلك الخصومة العنيفة التي ظلت اوربا والتاريخ الغربي يحملها للدولة العثمانية وللوحدة الإسلامية ممثلة في هذه الفترة ، لقد استطاعت القوة العثمانية الإسلامية أن تخلف الموجات الإسلامية السابقة على سيادة البحر الأبيض ، واستطاعت أن تحيل البحر الأسود بحيرة إسلامية . كما بسطت سيادتها على البحر الأحمر ، وخليج فارس وأثر انتصار أسطولها على أساطيل الدول الأوروبية المتحدة والبابا . وقد عاشت القوة الإسلامية العثمانية خلال القرون الستة بين صراع القوة والغلبة والنصر ، ثم في صراع الدفاع والمقاومة . وكانت مرحلة من مراحل الإسلام استعاد فيها قوته ، ورفع راياته في قلب أوربا . وأكد وحدة شعوبه ، وكانت فكرة الجهاد من أبرز العوامل التي دفعت العثمانيين إلى اكتساح الامبراطورية البيزنطية ، والتوسع في

ممالك أوربا . وإذا كان العثمانيون لم ينشروا دعوة الإسلام على نحو تربوي وعلمي كما فعل المسلمون من قبل ، فإن الإسلام قد اتصل بأوربا ، وأثر في أسلوب الفكر والحياة والحضارة ، وأثر في جذور الفكر الأوربي نفسه ، كما ترك العثمانيون في قلب الأوربيين هيبة للإسلام ، وتقديراً له حين استطاعت قوتهم أن ترد قوى أوربا المتجمعة مرة ومرة ومرات . وفي هذه المرحلة لم يكن العثمانيون متعصبين ، ولكنهم كانوا يعاملون العناصر المختلفة على أساس أحكام الإسلام .

وقد ظل شيخ الإسلام مرجعاً للسلطة في الأمور الشرعية والمدنية على السواء ، ولا شك كان طابع العثمانيين طابعاً حربيا عسكريا . وبذلك غلبت على حياتهم صورة الحرب والقتال والغزو . مما قلل من فترات الاستقرار وبناء الحضارة ، وقد أعان على هذه الوحدة الإسلامية تحت لواء العثمانيين أن الفكر الإسلامي قد دخل في مرحلة غلب فيها الطابع الصوفي ، وصبغ بلونه السنة والفقه والفكر جميعاً ، وكان هذا الطابع هو أحد عوامل أسلمت عالم الإسلام إلى مرحلة الضعف التي قصرت فيها عن مقاومة الغزو الغربي من بعده . كانت مرحلة الغزو الخارجي لعالم الإسلام مرحلة شاقة ، واجهها المسلمون بكل قواهم ، وصمدوا لها ، وقدموا زهرة شبابهم في مجال الجهاد المقدس باسم الدفاع عن راية الإسلام ، وحماية أرض الإسلام ، وقد امتدت هذه المرحلة قرنين كاملين ، وانتهت . وقد استنفذت كل القوى الحية الشابة . وخلفت المعركة وراءها عالما مفككا مضطرباً من مختلف النواحي السياسية والاجتماعية والاقتصادية ، وقد انطوت القوات الثلاث : السلاجقة وتوابعهم ( الأتابكة والأيوبيون ) والمماليك ، والبربر : ( المرابطون والموحدون ) بعد أن بلغت قمة قوتها ، وأدت دورها ، وضعفت وتحللت بالحضارة والترف ، ووقف عالم الإسلام والحملات الصليبية تصفي مواقفها من ساحل الشام يترقب قوة جديدة شابة بدوية لها طابع الفروسية والحرب تحت لواء الإسلام تحقق له وحدة تضم أجزاءه المتناثرة المضطربة ، وتدفعه في مجال الحياة دفعة قوية ، ولم يكن الغرب بعد أن فرض على بقايا قواته الغازية أن تنسحب من المشرق . قد جعل ذلك آخر جولاته بالنسبة للصراع التقليدي المستمر بين عالم المغرب وعالم الإسلام . بل بدأ مرحلة جديدة قوامها الضغط على المسلمين في أسبانيا لتصفية دولتهم ، وإخراج آخر مسلم وعربي من أوربا . وبدأ في نفس الوقت مرحلة

جديدة من مراحل الزحف لتطويق عالم الإسلام ، وكانت جبهة الغرب الإسلامي قد ضعفت بعد أن انهارت قوى المرابطين والموحدين والمزنيين ، وحيث كانت جبهة المشرق لا تزال صامدة بالمماليك البحرية وسلاجقة قونية . لذلك كان ظهور الدولة العثمانية كقوة إسلامية جديدة شابة بدوية مقاتلة ، تطوراً تاريخيا طبيعيا على النحو الذي تطور إليه تاريخ الإسلام في مراحله المختلفة ، وكظاهرة اعتيادية موافقة لناموس حركة التاريخ الإسلامي ، وعلى طريق حتميته إلى غايته الكبرى ، وأبرز ما تمثله هذه الظاهرة أنها حققت مظهرين أساسيين من مظاهر القيم الأساسية للإسلام هما : الوحدة والقوة وإن لم تحقق المظهر الثالث وهو ( العدل ) وهو مظهر افتقدناه طويلاً على طول حركة التاريخ الاسلامي ، وتتسم القوة الإسلامية الجديدة بطابع التكامل من حيث إنها لم تكن كالقوى الثلاث التي ظهرت في مرحلة الغزو الخارجي قوى قادرة على المقاومة ، والدفاع ، ورد العدوان فحسب ، ولكنها كانت قادرة أيضا بالإضافة إلى ذلك على التوسع ودفع قواها في قلب أوربا ، كتعويض عادل للإسلام على مرحلة انتقاض القوة الغربية لأرضه من خلال جداره الشمالي ، وكرد على محاولة إخراجه من أوربا الغربية . وعلى يد القوة الإسلامية العثمانية عرفت أوربا ـ بعد تصفية المملكة اللاتينية الصليبية في ساحل الشام لسبعين عاما ـ قوة إسلامية جديدة لم تقتصر على إيقاف توسعها في أرض الإسلام ، بل زحف الى قلب أوربا وظلت تهددها بالغزو حتى حاصرت أسوار فينا . وكان دور العثمانيين طبيعيا بحكم أنه دور قوة إسلامية ، استطاعت أن تنمو بعد أن ضعفت القوى الاسلامية التي توالت : العرب والفرس والبربر والسلاجقة . ولقد كانت العثمانية أشد حماسة للإسلام واندفاعا في سبيل نشره .

وكان أبرز ما تتسم به هذه القوة هو : الطابع الحربي العسكري المتطلع الى توحيد عالم الإسلام ، وتوسيع نطاقه بإضافة أرض جديدة ، وإبلاغه الى القارة المستعصية عليه ، القارة التي قاومته منذ وطيء أرض الأندلس ، ويجمع المؤرخون على أن دور العثمانيين في بناء الإسلام دور طبيعي وأنه « بينما كانت الجذوة الإسلامية تضعف في نفوس قيادات الإسلام بتأثير الحضارة ، كانت تلك الشعلة تضطرم في أفئدة الترك ، وتدفعهم إلى أداء دور العرب في صدر الإسلام ، والمبادرة إلى تمثله ، ويقول ليون كاهن : إن دخول الإسلام لديار الترك قلب حال

العالم . فبعد أن كان الأتراك أعداء للمسلمين وحلفاء صادقين لأوربا . انقلبوا عقب إسلامهم إلى خصوم لها ألداء . وقد كرسوا كل قوتهم لخدمة الإسـلام ، وأنهم دخلوا إلى الإسلام بعد فترة وبعسر شديد » والواقع ان الأتراك أقبلوا على الإسلام بعد خصومة طويلة له ، فلما اعتنقـوه ـ شأنهـم في ذلك شأن البربـر ـ انقلبوا إلى حماة له شديدي التمسك به .

ولما برزوا في ميادين الجهـاد وظهـرت بوادر انتصاراتهـم في حروبهـم ضد الامبراطورية البيزنطية التي وقفت أمام موجة الإسلام المندفعة إلى أوربا سبعمائة عام . هنالك علق المسلمون عليهم الآمال واتجهوا بقلوبهم إليهـم ، ووجـدوا فيهم المنقذ والحامي . وكان هذا هو مصدر النجاح السريع الذي حققه العثمانيون في حركة توحيد عالم الإسلام حيث لم تقف في وجوههم إلا قوة الفرس التـي أقامت دولة ضخمة هي الدولـة الصفـوية التـي حملـت لواء الثقافـة الشيعية ، واتخذتها شعاراً لها في نطاق الإسلام السمح المتقبل للثقافات المختلفة .

وكان ظهور القوة العثمانية الموحدة لعالم الإسلام قد برزت بتوقيت متفق مع نواميس حركة التاريخ الإسلامـي في طريقـه إلى حتميتـه . وفي خلال معـركة الأندلس بين المسلمين والعرب من ناحية وبين القوى الأسبانية والفرنجة ، التي كانت قد أعدت خطة لإجلاء الإسلام عن أوربا . وقد استسلبت القوى العثمانية واجتازت البسفور الى الضفة الغربية . ثم أتيح لهـا أن تدخـل القسطنـطينية **٨٥٧ هـ ١٤٥٣** م فقضت على الدولـة البيزنـطية ، ومضـت في طريقهـا حتـى حاصرت أسوار فينّا ثلاث مرات .

وكان فتح القسطنطينية من الأحداث الضخمة القليلة في تاريخ العالم كله ، وفي تقدير أوربا والغرب . فقد أتاح للقـوة الإسـلامية العثمانية ان تزحف إلى رومانيا وبلغاريا واليونان ويوغسلافيا وألبانيا وبلاد المجر ، وبذلك قلبت القوة الإسلامية العثمانية ميزان القوى ، بعد ان كان عالم الإسلام في موقف الدفاع وعالم الغرب في موقف الهجوم ، أصبح العكس . فقد وقفت أوربا منذ ذلك التاريخ الى ثلاثة قرون متصلة موقف الدفاع في وجه الهجوم العثماني .

وعندمـا احتـل العثمانيون القسطنـطينية ( **٨٥٧ هـ** ) كان ذلك قمـة الموقف بالنسبة للغرب . فقد بدأت حركة إجلاء المسلمين عن الأندلس ولم يمض أكثر

من أربعين عاماً ( ٨٩٨ هـ ) حتى سقطت الأندلس وانطوت صفحة الإسلام بها ، وبالرغم من تجمع القوى الغربية وتوحدها في وجه الزحف الإسلامي ، فإن القوة الاسلامية العثمانية ظلت قادرة على كسب النصر غير أن اوربا لم تقف توقف المقاومة في وجه القوة الاسلامية العثمانية . بل عمدت الى فتح جبهة أخرى عن طريق أسبانيا والبرتغال في الكشف الجغرافي لتطويق عالم الاسلام ، والاتجاه نحو افريقيا الاستوائية والهند وأندونيسيا ، ومنذ ضعفت مقاومة الأندلس كانت فكرة الغزو الأسباني البرتغالي لعالم الاسلام ، قد خطت أولى خطواتها ، فلم تمض إلا سنوات قليلة حتى بدأ ( فاسكودي جاما ) طوافة حول رأس الرجاء الصالح الى الهند ( ٩٠٤ هـ ١٤٩٨ م ) وذلك لاستقطاب مراكز جديدة تحقق إحكام الحصار الاقتصادي للعالم الاسلامي بصرف مجرى التجارة العالمية عن البحر الأبيض وموانئه الاسلامية .

ولقد كانت أسبانيا والبرتغال أولى دول الكشف الجغرافي والاستعمار كرد فعل على السيطرة الإسلامية على الأندلس ، وكقوة دفعتها أوربا لغزو عالم الإسلام الذي ظل يسيطر على أسبانيا ثمانمائة عام ، وكمواصلة لمخطط متصل لم يتوقف بالقضاء على الإسلام والعرب في الأندلس . بل بالزحف على أرض الإسلام نفسه والسيطرة عليها . وقد بدأت فعلا في ذلك الوقت حركة التطويق . غير أن نمو الدولة العثمانية وصمودها أخر ذلك أكثر من ثلاثة قرون .

**- ٣ -**

سجل عام ٦٥٦ هـ اجتياح التتار لبغداد وإسقاط الخلافة كما سجل عام ٦٩٠ هـ ١٢٩١ م تصفية الإمارات الصليبية وطرد الصليبيين نهائيا من ساحل الشام وبيت المقدس ، وسجل عام ٦٩٩ هـ ظهور أول خيط في بناء الدولة العثمانية التي أصبحت من بعد قوة إسلامية ضخمة استمرت تحكم ستة قرون حتى صفاها الاستعمار الغربي بالقضاء على آخر الأجزاء العربية التابعة لها ( ١٣١٦ هـ ١٩١٨ م ) . في ظل هذه المواقف الحاسمة الثلاثة التي سجلها القرن السابع الهجري قبيل نهايته شهدت هذه الفترة رد فعل شديد ، في عالم الغرب ، يتمثل فيما قامت به أوربا والبابوية من الدعوة إلى تحريم الاتجار مع دولة المماليك بقصد حرمانها من الموارد الاقتصادية الرئيسية لها . وقد تمخض اتجاه الحصار الاقتصادي عن حملة ملك قبرص لاحتلال الاسكندرية

**٧٦٧ هـ ١٣٦٥** م ثم انسحاب الحملة ، وقد تطور الاتجاه خلال القرن التاسع الهجري إلى مشروعات تخريب للموانىء المصرية لشل الحركة التجارية ، وانتشار الفرسان على السواحل المصرية والشامية للتربص بسفن التجارة الإسلامية ، وقد واجه المماليك ذلك بغزوات انتقامية على أوكار القراصنة في قبرص ورودس . هذه هي الحملات الصليبية الجديدة التي كانت تتمثل في مواجهة عالم الإسلام قبيل بروز قوة الدولة العثمانية وتوحيدها العالم الإسلامي تحت جناحيها ( ماعدا فارس والهند ) . لذلك فإننا حين نقول إن عالم الإسلام لم يلبث ان اندمج في الوحدة الاسلامية العثمانية بمحض إرادته ، وأن عملية السيطرة العثمانية على العالم العربي لم تكن فتحاً بالمعنى الذي تصوره الكتابات الغربية التي تحمل الحقد على الدولة العثمانية والواحدة الإسلامية القادرة التي هاجمت عالم الغرب ، وأوقفت تقدمه وغزوه لعالم الإسلام . لقد كان عالم الإسلام في الساحل الأفريقي كله من الشام الى المغرب يواجه غزواً غربيّاً جديداً في نفس الوقت الذي برزت فيه القوة العثمانية داعية إلى الوحدة الإسلامية الكبرى . ولذلك فإن التقاء القوى العربية التركية ، إذ ذاك ، كان ردّا على التحدي الغربي المتمثل في جولة جديدة لغزو عالم الإسلام . ومن هنا فإن اندفاعات العثمانيين للسيطرة على أوربا كانت تواجه من عالم الإسلام كله بالإعجاب والتقدير والتأييد ، وأن حركة الجهاد المقدس التي حملت الدولة العثمانية لواءها في دفع رايات الإسلام إلى أبعد مدى في قلب أوربا أدت إلى إذكاء روح الوحدة والتضامن بين المسلمين في الشام ومصر والمغرب .

بدأت الدولة العثمانية **٦٩٩ هـ ١٣٠٠** م وانتهت **١٣٣٦ هـ ١٩١٨** م . وقد مرت في طورين كبيرين : الطور الاول : « طور القوة » . والثاني : « طور الضعف » . كان طور القوة مرتبطا بمفهوم الإسلام أو دائراً في إطاره من حيث الوحدة والقوة . فلما تخلف العثمانيون عن هذا المفهوم ، وحل الصراع والضعف العسكري تحولوا من مركز الهجوم والتوسع إلى الدفاع والانتقاض .

ويرى الكثيرون أن مرحلة الضعف تبدأ بهزيمتهم عند أسوار فينّا **١٠٩٥ هـ ١٦٨٣** م أو **١١٠٩ هـ ١٦٩٧** م . وهي نفس الأعوام التي بدأت فيها إرهاصات اليقظة العربية التي وضحت في منتصف القرن الثاني عشر الهجري

( القرن الثامن عشر الميلادي ) وهي المرحلة التي تمثل حركة التناقص حتى انتهت في أواخر الحرب العالمية الأولى ( ١٣٣٩ هـ ـ ١٩١٨ م ) . ويهمنا هنا أن نركز على : مرحلة الوحدة الإسلامية العثمانية ، وأن نعنى بالمرحلة الأولى : مرحلة القوة والتوسع .

امتدت توسعات العثمانيين في ثلاث اتجاهات :

( ١ ) أوربا . ( ٢ ) العالم العربي . ( ٣ ) فارس .

( ١ ) وقد تحقق لها النصر في الميدان الأوربي ، وظل شغلها الشاغل حتى مرحلة الضعف ، وقد بدأت الدولة العثمانية فعبرت مضيق الدردنيل إلى غاليبولي ، وشرعت في اكتساح الأقاليم الأوربية التابعة لدولة ( الرومبلي ) الشرقية ، ومنها بدأ توسعهم في جزيرة البلقان ، وكان انتصارهم في موقعه أنقرة قد مد نفوذهم إلى نهر الطونة . ثم والى السلاطين غزو أوربا حتى استطاع محمد الثاني أن يحقق أكبر نصر في تاريخ الإسلام بالسيطرة على القسطنطينية ، وبسقوطها في يد عالم الإسلام انتهت الامبراطورية الرومانية الشرقية ، وامتد التوسع إلى بلاد القرم ، وجزائر الأرخبيل ، وخفق العلم الإسلامي العثماني على قلعة ( أوترانتو ) في إيطاليا نفسها ، ومضى التوسع إلى بلاد بلغراد حتى أصبحت بلاد المجر في يد العثمانيين ، وبدأ حصار فينّا ١٥٢٩ ومضت الانتصارات الباهرة متعاقبة ، حيث اكتسحت أساطيل القوة الإسلامية العثمانية شطوط البحر المتوسط ( بحر الروم ) وجزائره إلى سواحل أسبانيا ونشر رجالها أمثال بربروسة ودراغوت وبيالة الهيبة على سواحل أوربا وشمال أفريقيا ، واستطاعوا طرد الأسبان من بلاد الجزائر . وقهر العثمانيون الأسطول البابوي ، وامتدت راياتهم إلى بودابست على نهر الطونة . غير أن هذا التوسع الذي ظل ممتداً ومستمراً حتى ١٥٧١ م بدون هزيمة أو توقف . بدأ يصاب بضربات وهزائم منذ موقعة ليبانتو البحرية ، وليس معنى هذا أن انتصارات العثمانيين قد توقفت ، ولكنها أصبحت تترجح بين النصر في مواقع والهزيمة في مواقع أخرى . فقد أضاف العثمانيون إلى نفوذهم أقريطش وجزائر أخرى . غير أنهم ارتدوا عن فينا ١٦٨٣ م . وقد تحطمت قواهم في موقعة ( موهكس ) فضاعت بلاد المجر من أيديهم ١٦٨٦ م .

( ٢ ) أما في المشرق فقد تضامت الوحدات العربية في الشام ومصر وكردستان

وديار بكر وبلاد العرب ومكة والمدينة . ثم توالى انضمام أجزاء المغرب العربي : تونس - الجزائـر - والمغـرب إلى الدولـة العثمـانية

( ٣ ) أما بالنسبة لفارس فقد توالت حملات العثمانيين عليها دون أن تحقق نصراً ، واستطاعت فارس أن تحتفظ بسلطانها ، وأن تقيم دولة عظمى هي « الدولة الصفوية » . أما الهند الإسلامية فقد نجت من حملات العثمانيين وأقامت « دولة المغول الكبرى » التي ظلت قائمة حتى أزالها الاستعمار البريطاني للهند ، وقد بهر العثمانيون العالم بالقوة الحربية وبالبطولة العسكرية التي عرفت لسلاطينهم: عثمان ، وأورخان ، مراد الثاني ، بايزيد ، محمد الخامس ، سليم الأول ، سليمان . وهم السلاطين الذين شهدوا مرحلة التوسع والانتصار . وقد تمثلت قوتهم العسكرية في التنظيم الرائع الذي أقامه أورخان للجيش ، والذي أطلق عليه « الانكشارية » وهو نظام عسكري إسلامي له طابع الجهاد الإسلامي ، ممتزجا بالزهادة الإسلامية . هذه القوة التي استطاعت أن تحقق هذه الانتصارات ، والتي حين تلقت الضربة الجائحة التي وجهها إليها المغول لم تسقط نهائيا . بل استطاعت أن تسارع إلى تنظيم صفوفها من جديد . وكان تيمورلنك قد ظهر في جنوب آسيا ، واسترعى انتباه الغرب الذي خشي أن يجتاح أوربا . ومن هنا اتجه المخطط الغربي إلى توجيه قواه لضرب الدولة العثمانية خصم أوربا والغرب . فإذا قضى عليها أزال نفوذها ، وإذا قضت عليه خلصت أوربا منه .

ولقد جرت بين تيمور وعالم الغرب مفاوضات واسعة في محاولة استغلال قوته العسكرية ضد الاسلام ، والانتفاع بها من ناحية تجنب خطرها ، وتحطيم القوى الاسلامية وكانت « جنوة » قد تبادلت مع تيمورلنك المراسلات والشعراء وحرضته على تحطيم الدولة العثمانية ، كما أرسل ملك قشتالة ( أسبانيا ) الشعراء إلى تيمور ، وبتحريض من أحد الرهبان الدومنيكان الذي كان صديقا لتيمور . ومن دعاة المسيحية هناك ، وقد جرت أوربا في ذلك على نفس المخطط الذي نفذته مع هولاكو حين حرضته على تخريب بغداد خدمة للمملكة الصليبية القائمة في قلب العالم الإسلامي إذ ذاك ، وكخطة تحالف بين التتار والصليبيين لدحر عالم الإسلام ، وتشهد معظم كتب التاريخ ان المراسلات دامت بين الغرب ( فرنسا والبابا ) وبين خلفاء هولاكو . فلما تألق تيمور . كان الخطر العثماني قد

أحلق بأوربا الشرقية ، وطوق القسطنطينية . ومن هنا حرصت أوربا في أن تحرضه على قتال العثمانيين . يؤيد ذلك الكتاب الذي حمله إليه وقتئذ الراهب « فرنسيسقوس » من ملك فرنسا شارل السادس ، ذلك الكتاب الذي كتب تيمور عليه الرد بعد أن قضى على آل عثمان . وقد أرسل ملك أسبانيا إذ ذاك يهنىء تيمور في إجهازه على آل عثمان . وقد كانت مصادمة التتار والعثمانيين ٨٠٤ هـ ١٤٠٢ م من الضربات القاتلة التي تلقتها الدولة العثمانية بصمود عجيب ، واستطاعت بعد قليل أن ترتفع على جراحها . وأن تعيد تكوين جيشها ، وان تخلص القوة الإسلامية النامية من الموت ، وأن تعود مرة أخرى أشد قدرة على التوسع ، وأن تستطيع بعد قليل أن تحقق أكبر نصر لها وهو (فتح القسطنطينية) .

وقد نجح العثمانيون في بناء هذه القوة العسكرية « الانكشارية » حين أقاموها على أساس نظام الإسلام في التربية العسكرية وفق مفهوم الإسلام ، فصارت ولا مثيل لها في القوة والإقدام ، وقد استمر نظامها مثلا عاليا في الكفاءة ثلاثة قرون ، ثم تغير مع ضعف الدولة .

— ٤ —

كان العثمانيون قد ورثوا السلاجقة في الأناضول ، وقامت حركتهم على مفهوم الجهاد المقدس ، ورفع راية الإسلام ، والدفاع عنها ، ودفعها إلى الأمام ، وهو نفس المفهوم الذي تبناه ( السلاجقة والأتابك ، والأيوبيون والمرابطون والموحدون والمماليك ) استمداداً من مفهوم الإسلام نفسه ، وعلى نفس الخط الذي سار فيه المسلمون في حركة بناء الإسلام ، وتوسيع عالمه ، وكان هذا الأساس السياسي هو الذي دفع القوة الإسلامية العثمانية إلى العمل في ميادين :

الأول : « القضاء على الدولة البيزنطية » التي وقفت أمام توسع الإسلام الى أوربا عن طريق القسطنطينية ستمائة عام .

الثاني : « التوسع في أوربا » وقد استطاعت أن تبلغ فيه بعد فتح القسطنطينية رومانيا وبلغاريا ويوغسلافيا وألبانيا وبلاد المجر ، وأن تحاصر أسوار فينا ثلاث مرات .

الثالث : « إقامة وحدة إسلامية » ضمت العالم العربي كله من العراق إلى المغرب ، إلى الحجاز والسودان . بالإضافة إلى الأناضول حيث قامت الدولة

العثمانية ، ولم يتخلف عن هذه الوحدة غير دولتي : الصوفيين في فارس ، والمغول في الهند .

وقد رحب العرب بالوحدة الإسلامية العثمانية ، بعد أن ضعفت المماليك والبربر ، وأصبحوا هدفا لهذه الحملات الصليبية الجديدة . وقد وجدوا في العثمانيين منعشاً جديداً للإسلام ، وقوة شابة بدوية مقاتلة رفعت راية الإسلام عالية خفاقة ، وأعادت ذكرى الأبطال الأوائل في سبيل إعزاز الإسلام ونشره . كما رحب العرب في مصر والشام بالوحدة الإسلامية العثمانية ، بعد أن نقموا على دولة المماليك إهمالها شأنهم في المرحلة الأخيرة فحاربوا في صفوفهم ، والواقع أنه لم يكن في هذه المرحلة خلاف جذري بين العرب والترك . فقد كان الطابع الإسلامي هو الوحدة الأساسية بين العناصر المختلفة والوحدات المنضمة تحت لواء الوحدة الإسلامية الكبرى . والحق أن العثمانيين قد قاموا في المرحلة الأولى بتمثل مفهوم الإسلام فى نطاق الحكم ، وتحركوا من خلال إطاره . ويشهد المؤرخون بأن العثمانيين قد اقتفوا أثر الخلفاء في العدل والتسامح ، وتمثلوا اعمالهم واتخدوهم تودة ، وعملوا على جمع القلوب إليهم بتقدير العلماء والأتقياء ، وإنشاء الجوامع والمدارس . وكان عثمان مثلاً على ذلك . فقد أطعم الفقراء بيديه ، واكرم العلماء والاتقياء .

وظلت مفاهيم القران بوصفه الكتاب المقدس ، أساس السنة والتشريع الإسلامي هو طابع الحكم والحضارة والفكر . فضلا عن احترام الترك للعرب وتقديرهم للغة العربية ، وإعلائهم للطابع العربي الشامل الذي هو طابع الإسلام نفسه : لغة وتقاليد وقيما ، وكانت جامعة الإسلام بطبيعتها تمتص الكثير من خلافات العناصر والأمم والأخطار على النحو الذي حققه الإسلام في تاريخه كله . وبالنسبة للفرس والترك والبربر ، كانت وحدة الثقافة وتقاربها في ظل مفهوم « السنة » والوسائط التي جمعت بين السنة والتصوف ، وكادت تمزج بينهما عاملاً أساسيا في الالتقاء السياسي والاجتماعي ، كما حرص الحكام الأتراك على تقدير العرب ، وتأكيد معنى الرابطة الإسلامية « وقد توطد ذلك بطول المدة ، فعاش أهل البلاد في جو الفكرة الإسلامية » وذلك خلال مرحلة القوة التي تؤرخها . وقد حرص العثمانيون بوصفهم أصحاب القيادة السياسية للوحدة الإسلامية على متابعة الخط الذي سارت فيه الخلافة الأموية والعباسية ، وفق التقاليد والمخططات التي رسمها الخلفاء وفي نطاق دراسات فقهاء السنة .

ومهما قيل في أمر تنازل اخر الخلفاء العباسيين للعثمانيين عن الخلافة ، وهو أمر شكلي محض . فإن نظام الخلافة قد أصبح ضرورة سياسية لا محيض عنها بالنسبة للعثمانيين ، كما كان ضرورياً من قبل بالنسبة للمماليك بحسبان أنه يعطى القوة الروحية المرتبطة في نظام الاسلام بالقوة السياسية ، وقد قام منصب « شيخ الاسلام » في الدولة العثمانية كرمز على تطبيق الشريعة الاسلامية . وكان نظاماً مقدوراً من الخلفاء الذين لم يكونوا يتصرفون في أمر من الأمور الدينية أو المدنية إلا بعد صدور فتوى المرجع الأكبر للشريعة الاسلامية . وكان المفكرون المسلمون والفقهاء قد صاغوا نظام الخلافة وفق حاجة المسلمين وتطور التاريخ الاسلامي ، وفي نطاق مفهوم أساسي للاجتهاد في الاسلام . هو المحافظة على وحدة المسلمين ، وحماية عالم الاسلام من التفكك . وبذلك حلت السلطنة محل الخلافة في مختلف أعمالها والتزاماتها ، وقد صاغ هذه النظرية العلامة ( الدواني ) ووصل ابن خلدون إلى نفس النتيجة ، وكانت عند كلا العالمين تطبيقاً لنظرية الغزالي التي كانت ترمي إلى توحيد المجتمع السني تحت لواء إمام خليفة أو سلطان ، أو حاكم يقود الناس إلى الكمال ، ويحقق لهم نظاماً صالحاً .

ـ ٥ ـ

وقد حرصت القيادة السياسية الاسلامية في هذه الفترة على رعاية الأديان المختلفة وأوليائها على النحو الذي رسمه مفهوم الاسلام ، وقامت العلاقة بين الدولة والعناصر غير المسلمة على تسامح كامل ، وإن لم تتعد تساكن المسلمين وغيرهم وتزاوجهم ، وقد أعطت الدولة الحرية الدينية التامة لكل العناصر ، وخولتهم حقوقهم من ناحية العبادة والتعليم ، وإن ظلت هذه العناصر على عداء للوحدة الاسلامية العثمانية ، بالرغم من هذا التسامح الذي كان فيما بعد عاملا من عوامل التجمع للتآمر ضد الدولة وعنصراً من عناصر هدمها . وقد سجل ذلك كثير من المؤرخين المنصفين ، ومن بينهم المؤرخان لامنس ورامبو ( من مؤرخي فرنسا ) قالا : إن محمداً فاتح القسطنطينية كان كأكثر سلاطين الأتراك والمغول بعيداً عن كل اضطهاد ديني ، وكانت حكومة الأتراك لا تعارض أحداً في دينه . وكان الأتراك لا يمسون امتيازات الكنيسة الأرثوذكسية . بل إن البعض ذهب إلى أبعد من ذلك ، فرأى أن هذه الحرية الدينية كانت من بعد مصدر ضعف الدولة

العثمانية يقول دجوفارا : أن من أعظم أسباب انحلال الدولة العثمانية هو مشربها في إعطاء الحرية المذهبية والمدوسية الثابتين للأمم المسيحية التي كانت خاضعة لها . لأن هذه الأمم بواسطة هاتين الحريتيين كانت تبث دعايتها القومية ، وتتماسك وتسير سيراً قاصداً في طريق الانفصال عن السلطة العثمانية .

وقد أشار العلامة جميل بيهم في كتابه « فلسفة التاريخ العثماني » إلى أنه لما استتب الأمر لآل عثمان عادوا إلى سياسة الخلفاء الراشدين في الفقه والحكم ، وكان يخيرون الخصم بين الاسلام والجزية والحرب ، وأن السلطان محمد الخامس قلد « بطريق الروم » الرئاسة على قومه وثبته فيها ، وأن هذا العدل لم يكن قاصراً على الذين يرضون بدفع الجزية طوعاً . وإنما كانت شاملة الأمصار المفتوحة قسراً ، وأن محمد الخامس حين دخل القسطنطينية ( **٢٩** مارس **١٤٥٣** ) أعلن حرية الدين لغير المسلمين والاحتفاظ بأملاكهم وأموالهم . وقال العلامة جميل بيهم معلقاً : انه جرى في ذلك مجرى عمر بن الخطاب في معاملة البطريرك ( صفريغوس ) في بيت المقدس . وفي أيا صوفيا احتفظ الروم بكنائسهم كافة وبحرية دينهم واستقلالهم . وكانوا ينعمون بالسيادة والحرية ، ويتركون لأهل البلاد أمرها بما فيه استقلالها السياسي . وعندما اعترض على محمد الفاتح لعدم تخيير رعيته من النصارى بين الاسلام والقتل . قال : كم هو فوق الواجب الادعاء بالحرص على الاسلام زيادة على حضرة الشارع ( يقصد الرسول صلى الله عليه وسلم ) وكذلك فعل أورخان في البلاد التي ضمها . فقد حافظ على سلامة أهلها وخيرهم بين البقاء والهجرة ولهم أموالهم كافة .

وإذا كان العثمانيون قد مدوا سلطانهم باسم الاسلام إلى قلب أوربا ، وحقق ذلك دخول عدد كبير في الاسلام ، ولا سيما في آسيا الصغرى ، وأن سياسة العثمانيين إزاء هذه العناصر كانت من العوامل المشجعة لهم على دخول الاسلام . بالرغم من هذا ، فإن الدولة العثمانية قد قصرت تقصيراً لا حدّ له في الدعوة الاسلامية بين العناصر التي ضمتها الدولة خلال ستمائة عام ، وأنها لو فعلت لتركت في أوربا قوة إسلامية فاعلة . إذن فقد درج آل عثمان على التمسك بالشريعة الاسلامية منذ اليوم الأول ، وكرموا مفكريها وفقهاءها وقد سجل هذا منصفو كتاب الغرب يقول « دوش » سواء للسلم أو للحرب ، أو لنظام سياسي ، أم لقانون عسكري . كانت تركيا تلجأ إلى شيخ الاسلام طالبة فتواه ، ويقول

جونين وفوتجيفر صاحب كتاب تاريخ العالم : كان كل شيء في المملكة تحت نفوذ مفتي الاسلام لانه نائب السلطان المطلق في الأمور الشرعية والمدنية سواء . وقد أشار كثير من المؤرخين إلى مدى تأثير الاسلام في نظام الامبراطورية العثمانية من حيث مفعوله بواسطة قيام سياسة الدولة على أحكامه ، ومن حيث مفعوله في أخلاق السلاطين .

# ( ٢٨ )
## القوى الاسلامية الثلاث

قامت في هذه المرحلة ثلاث وحدات إسلامية :

( ١ ) الامبراطورية العثمانية وتضم بلاد الأناضول والعالم العربي .
( ٢ ) الدولة الصفوية في فارس .
( ٣ ) الدولة المغولية في الهند .

وقد حاولت « الدولة العثمانية » السيطرة على فارس ، وضمها إلى نطاق الوحدة الاسلامية العثمانية , غير أنها فشلت ، واستطاعت فارس في ظل « الدولة الصفوية » أن تقاوم العثمانيين ، وأن تقيم دولة قومية على أساس من الثقافة الشيعية الاسلامية ، بينما كانت الدولة العثمانية تنصر الثقافة السنية . وقد كانت حوافز الثقافة الاسلامية العربية تحت سلطانها ، ومن بينها المدن المقدسة : مكة والمدينة وبيت المقدس .

أما « الدولة المغولية في الهند فقد ظلت بعيدة عن صراع العثمانيين والفرس . ويمكن القول بان الحركة الصوفية كانت هي بذرة الدولتين العثمانية والصفوية . وان هذين الدولتين هما من ثمرة الثقافة الصوفية الاسلامية وتجمعاتها . وأن هذه التجمعات ذات الطابع الصوفي الذي كان يحمل طابع الجهاد لنشر الاسلام كان لها أثرها من قبل في بناء دولتي المرابطين والموحدين في المغرب . وقد كانت هذه الحركات قد بدأت دعوة الاسلام ، ثم تحولت إلى دولة

وقوة سياسية وعسكرية . وكانت « فارس » قد سقطت تحت نفوذ المغول ، ثم استطاعت أن تتحرر من هذا النفوذ في النصف الثاني من القرن الثالث الهجري ، وهنا ظهرت دعوة صفي الدين أحد شيوخ أردبيل ، حاملاً لواء الدعوة إلى الثقافة الشيعية فلقيت دعوته قبولاً وتجمعت معه القبائل ، وقد اتصل صفي الدين باوزون حسن شيخ قبيلة ألاق فيون لو ، اتصالا بامتزاج الدعوة الشيعية بالقوة العسكرية . وقد ترك صفي الدين أساساً قوياً مكن ابنه « الشاه إسماعيل » من إقامة دولة عظيمة ضم إليها بغداد وديار بكر والموصل ، وامتدت من باكو شمالاً إلى شتسترجنوباً ، ثم بلغت نهضة الدولة الصفوية الفارسية الاسلامية أوجها في عهد عباس الأكبر ( ٩٨٥ - ١٠٣٨ هـ ، ١٥٨٧ - ١٦٢٩ م ) وفي هذه المرحلة استطاع الصفويون الانتصار على العثمانيين . يقول « بروكلمان » : إن نهضة فارس قد مكنتها من استرداد شخصيتها مستقلة عن العالم الاسلامي ، وأصبح لها جيش قوى منظم بالأساليب الأوربية في أوائل القرن الحادي عشر .

وقد وسع الشاه عباس الأكبر امبراطوريته حتى شملت فارس كلها . وقد قام بدور واضح في المقاومة الاسلامية للنفوذ الغربي حين حارب البرتغاليين واستولى منهم على هرمز ، وكذلك قامت الدولة المغولية في شبه القارة الهندية في القرن العاشر الهجري ، فوصلت بالحكم الاسلامي في هذه البلاد إلى أرقى صوره ، وبلغ نفوذ الاسلام أوسع مداه ، ونشرت الوحدة الاسلامية إلى أقصى درجات الذيوع واستطاعت - بنشر الاسلام في ربوع الهند - أن تحول ملايين عدة من أهل الهند عن معتقداتهم القديمة إلى الاسلام ، وعن فنونهم ولغاتهم ورسومهم إلى فنون المسلمين ولغاتهم ورسومهم . وقد عاصرت الصفوية في فارس ، والعثمانية في آسيا الصغرى والعالم العربي ، ويمثل قادة الدولة المغولية خلفاء التتر والمغول . بعد أن صهرتهم بوتقة الاسلام ، وتحولوا إليه ، وتحولوا من دعاة هدمه إلى دعاة نصره وإذاعته والدفاع عنه .

وقد عرفت الدولة المغولية الاسلامية برعاية العلم والعلماء ، رعاية صادقة ، وأقامت منشآت الثقافة والمدنية ، وازدهرت على أيديهم الحضارة الاسلامية في الهند وما وراء الهند وخراسان وفي كثير من المدائن التي ضربها

أجدادهم من قبل ( بارتولد : تاريخ الحضارة ) وقد كان ولاة الدولة المغولية يمثلون الاسلام في معاملاتهم مع غير المسلمين . فقد أطلقوا حرية العبادة لأهل البلاد من الهندوك ، وفتحوا لهم أبواب المناصب ما كان له أثره الواضح البعيد المدى في اعتناق عدد كبير منهم للاسلام بوصفه رسالة المساواة بين معتنقيه ، فدخلوا فيه أفواجاً . كما كان لهم دورهم في رعاية الثقافة الهندية وتطويرها . وقد بدا للاسلام أثر واضح فيها حيث نشأ مزيج إسلامي هندي بلغ بالحضارة الاسلامية الهندية أرقى صورها . وكان للاسلام أثره الواضح في مفكري الهندوكية ومصلحيهم الذين نادوا بمذاهب جديدة خففت من قيود نظام الطبقات ، وأنكرت عبادة الأوثان ودعت إلى عبادة الإله الواحد ( نامديو كبير ونانك ) وقد أقام الدولة المغولية الاسلامية ظهير الدين محمد بابر حفيد تيمورلنك وجنكيزخان في أول الربع الثاني من القرن العاشر الهجري ٩٢٥ هـ وظلت تحكم البلاد أكثر من ثلاثة قرون حتى انتزع الاستعمار البريطاني نفوذها . وكان من أبرز مظاهر الالتقاء بين الثقافة الهندية والاسلام وآدابها ظهور « اللغة الأردية » أوسع لغات شبه القارة الهندية ، والتي أخذت أغلب ألفاظها من اللغة العربية ، ومزجتها بالألفاظ الفارسية والهندية الأصلية ، وكانت الأردية لسان الزعماء المسلمين . وقد أشار الندوي إلى أن أثر الاسلام في الهند كان بالغاً . فإنه فضلا عن اجتذابه الملايين من أهلها بسماحته وقوله بالمساواة بين الناس جميعاً لم يلبث أن دفع طائفة من المصلحين الهنادكة إلى الدعوة لأفكاره في التوحيد ، وإنكار نظام الطبقات وزواج الأطفال .

# ( ٢٩ )

# الاسلام والاندلس

يمكن تعريف تاريخ الاسلام في أسبانيا في ثمان حلقات :

* عصر الولاة : ٩٢ - ١٣٨ هـ .
* العصر الأموي : ١٣٨ - ٤٢٢ .
* حلول الطوائف : ٤٢٢ - ٤٨٤
* عصر الموحدين : ٤٨٤ - ٦٤٠ .
* الحروب الصليبية بالأندلس : ٦٢٥ - ٨٩٨ . وسقوط غرناطة .
* عصرالعرب الأخير: مرحلة الاضطهادوالتنصير ( ٨٩٩ - ١٠١٧ هـ )
* ترحيل المسلمين نهائياً من الأندلس ( ١٠١٨ ) .

## المقاومة والمعارك مع الفرنجية
## خلال عصر الدولة الأموية بالأندلس

حين سيطر المسلمون على الأندلس ، غفلوا عن منطقة جبلية كانت من بعد مصدر الخطر والمقاومة ، هي منطقة « قنطرية » على مقربة من حدود فرنسا ، وكانت جبلية وعرة ، استهان بها المسلمون ، واعتز بها الفرنجة وآزروها حتى قامت بها حكومة في ( استورباس ) التي استهدفت استعادة أسبانيا إلى الغرب ،

وذلك بمواصلة الحملات المتوالية على الدولة الاسلامية العربية ، ولم تلبث هذه القوة أن استعادت ليون ( ١٠١ هـ ) بينما المسلمون يجتازون جبال البرانس إلى فرنسا . ثم استفحل شأن الأستوريين ، وأمدهم الافرنج بالمعدات والامدادات حتى استطاعوا أن يسيطروا على جليقة وقشتالة ، واستغلوا تنازع العرب ، فلما انحلت الدولة الأموية إلى « ولايات» وقام عليها ملوك الطوائف ازداد شعورهم بالقوة فقامت دول : نوارة ، ليون ، قشتالة ، قطلونبة ، أراغون ، البرتغال .

واحتاطت هذه الدول بالأندلس العربية الاسلامية على هيئة هلال . وقد هددت هذه الحركة الدولة الاسلامية فبدأت معركة المقاومة والادالة ، واستمرت فترات طويلة ، بل إنها لم تتوقف في الأغلب ، قد أمضى عبد الرحمن الناصر سنوات حكمه في الغزو والمقاومة ، وواصل أبو عامر المنصور حركة المقاومة والادالة من الفرنجة ، ففي خلال فترة حكم ( ٢٧ عاماً ) انتصر عليهم في خمسين موقعة وقضى حياته شهيداً .

وقد استمر هشام بن الحكم الثاني ( ٣٦٥ ـ ٤٠١ هـ ) حكمه على تعبئة خلال اثنين وعشرين عاماً في مواجهة ممالك ليون ونوارة وقشتالة ، وقطلوبة . غير أن الفرنجة استطاعوا أن يجتاحوا ثلث الأندلس حين انهارت الدولة الأموية ، وقامت الامارات الأربع لملوك الطوائف : بنو زيري ( غرناطة ) بنو عامر ( بلنسية ) وبنو عباد ( أشبيلية ) بنوهود ( سرقسطة ) . وقد تنازع الأمراء فيما بينهم تنازعاً شديداً ، واستعان كل منهم بالأسبان الفرنجة على خصومه ، وبرزت للفرنجة مملكة كانت نواة حركة استرداد الأندلس هي : « قشتالة » :

٣٥٠ هـ ثم تلاقت مع دولة ليون في اتحاد عام ٤٢٩ هـ فانتظمتا تمثلان مملكة ضخمة لم تلبث أن حملت لواء المقاومة والادالة من المسلمين إلى أن تولى الفونس السادس ملك قشتالة ، فاقتحم طليطلة ٤٧٨ م واتخذها قاعدة للدولة . وبدأ تهديد عنيف لأمراء المسلمين ، دفع المعتمد بن عباد إلى مناداة ( المرابطين ) في مراكش ، وكان يوسف بن تاشفين ٤٥٣ ـ ٥٠٠ هـ قد جاء على رأس موجة جديدة جددت شباب الاسلام هي موجة البربر في أفريقيا ، فسيطر على المغرب الأقصى والأوسط ، وبنى مدينة مراكش . وقد استجاب للنداء فعبر إلى الأندلس وهزم الفرنجة في موقعة حاسمة هي « الزلاقة » ثم لما عاود الفرنجة الهجوم على

مواقع المسلمين في الأندلس من بعد عبر مرة أخرى عام ٥٣٧ هـ واندمجت دولة المغرب والأندلس في وحدة بقيادته لمقاومة غزو الفرنجة المتدارك .

ثم لم يلبث « الموحدون » وهم موجة أخرى من البربر أن حلت محل المرابطين ، وكان لهم دور ضخم في مقاومة الزحف الفرنجي على مملكة الأندلس ، فقد ألقوا الرعب في أوربا فتنادت للتجمع لمقاومة الموحدين وللقضاء على الأندلس المسلمة العربية . وكان أبرز قادتهم يوسف بن عبد المؤمن ( ٥٥٧ - ٥٨٠ ) . ويعقوب المنصور ( ٥٨٠ - ٥٩٥ ) .

وقد استطاع المنصور أن يقتحم طليطلة عاصمة ألفونس التاسع ملك قشتالة ، وأن يعيدها إلى الاسلام ، وكانت الحروب الصليبية إلى الشرق قد آذنت بالفشل ، ومن هنا ركزت أوربا همها على تحرير القارة من الاسلام والعرب والمسلمين ، ومن ثم بدأت مرحلة من مراحل الحروب الصليبية في الأندلس ، عنيفة عاصفة ، حملت لواء الدعوة إلى إخراج « الهراقطة » أي المسلمين من أوربا . وقد واجه المسلمون هذه الحركة بصلابة وإصرار ، وواصلوا الاشتباك مع الفرنجة في معارك ، فأدالوا منهم . غير أن الموقف كان في صف القوى المتجمعة على أرضها ، والتي ازدادت استقراراً وقدرة على مقاومة إمارات بدا عليها الضعف والتمزق والخلاف ، حتى انهزم المسلمون في موقعة العقاب . ( طولوز ) عام ٦٠٩ هـ ١٢١٢ م ولم يلبث بنو مرين ( ١٦٧٤ هـ ) وهم موجة من موجات البربر - الذين نصروا الاسلام - أن سيطروا على المغرب ، وجاوزا إلى الأندلس ، واشتبكوا مع الفرنجة في معارك عدة .

غير أن الصراع لم يلبث أن وقع بين الأمراء بعضهم البعض ، وبين أمراء الأندلس ، والذين عبروا إليهم من المغرب ، واستند - بنو الأحمر آخر أمراء المسلمين في الأندلس - على خصومهم في الانتصار على أشقائهم وجيرانهم ، ولم يلبث الفرنجة أن استولوا على هذه الامارات واحدة بعد الأخرى [ قرطبة ٦٤٥ ، أشبيلية ٦٤٦ هـ ، مرسليا ٦٩٥ هـ ] ثم جاءت أقسى مراحل القضاء على العرب والاسلام في الأندلس ، وفي أوربا . عند ما تضامنت مملكتا فرديناند وإيزابيلا ٨٨٤ هـ حيث لم تلبث غرناطة بعدها بضعة عشر عاماً حتى أسلمت آخر أنفاسها ، وانطوت صفحة الاسلام والعروبة في أسبانيا .

***

وهذا إجمال له تفصيل : فمنذ ضعفت قوى « الموحدين » أخذت قوى الأسبان والفرنجة في إثارة الاضطرابات ، وكانت مملكتا قشتالة وأرغونة تحملان لواء المؤامرة وتؤلبان على مملكة الاسلام المنقسم إذ ذاك إلى ولايات تتصارع ، وأخذت « حركة الاسترجاع » التي بدأت منذ عصر ملوك الطوائف تقوى ، وزادها قوة واضمحلال الموحدين ، الذين كانوا الموجة التالية بعد المرابطين في إنقاذ الأندلس من الخطر الحتم ، ولم تلبث إمارة بلنسية ٦٣٦ هـ أن سقطت في أيديهم ، واتجه أهلها من المسلمين إلى غرناطة بجنوب الأندلس ، واستسلمت عاصمة بني أمية « قرطبة » عام ٦٢٣ هـ ١٢٣٦ م . واتجهت قوى الغزاة إلى أشبيلية ، وتوحد ملوك أسبانيا ضد المسلمين ، وأبدى المسلمون بسالة لا حد لها في كل مختلف عمليات الاسترجاع فلم ينصرفوا عن موقع إلا بعد أن استنفذوا كل ما يملكون من قوى بشرية وحربية .

ولم يسلم المسلمون موقعاً واحداً إلى الأسبانيين بدون قتال ، وقد حاصرت الجيوش الأسبانية مدينة أشبيلية وامتد الحصار ثمانية عشر شهراً ، أبدى فيها المسلمون ضروباً من الصبر والشجاعة ، دون مدد أو مساعدة ، فلم تستلم قواتهم ٦٤٦ هـ ١٢٤٨ م إلا بعد أن استنفذت كل قواها .

ولم تبق بعد إلا مملكة غرناطة تحت إمارة بني الأحمر ، وهي رقعة ساحلية ضيقة بالجنوب الشرقي لشبه جزيرة إيبريا محصورة بين الوادي الكبير والبحر الأبيض ، وقد تجمع المسلمون فيها بعد أن انتزعت منهم إماراتهم ، واستمرت قائمة قرنين ونصف قرن ( ٦٣٥ - ٨٩٧ ) ولم تلبث ممالك أسبانيا الثلاث أن أتحدت على مواجهة « مملكة غرناطة » وعبر سلطان بني مرين إلى الأندلس بجيوش عظيمة عام ٧٧١ هـ : اشتبكت في معركة ( طريف ) مع الفرنجة وانتهت بهزيمتها .

ولم تلبث مملكة غرناطة أن واجهت الخطر الأسباني بمفردها ، وعمل الأسبانيون على إثارة الخلافات والفتن والدسائس بين بني الأحمر ، ولم تلبث مملكة قشتالة أن استولت على جبل طارق ٨٦٨ هـ ١٤٦٢ م بعد أن توقفت النجدات الواردة من المغرب الأقصى . وبلغ الخلاف الداخلي أوجه في غرناطة حيث اقتسمها الأخوان ، فأصبحتا مملكتين : غرناطة ، ومالقة ، وقع ذلك في

نفس الوقت الذي اتحدت فيه قشتالة وأرغونة ٨٨٤ هـ - ١٤٧٩ م ، ثم توالت الخلافات والمؤامرات ، وتوالى الصراع بين الأسرة الحاكمة ، وبين زوجات السلطان وأبنائه ، حتى سيطر الأسبان على مالقة .

وقد حوصرت أسبانيا حصاراً عنيفاً وثبت أهلها للحصار حتى أكلوا الجلود وورق الشجر ، ولما علم حكام الأسبان أن سلطان العثمانيين وسلطان المماليك بمصر عزما على نجدة الأندلس بادروا إلى احتلال الموانيء الأندلسية وأهمها مالقة ، حتى يحولوا دون وصول أي مدد إلى الأندلس ، ولما طلب حكام أسبانيا إلى غرناطة التسليم عمدوا إلى آخر ما في استطاعتهم من قدرة على المقاومة ، ووجد الأسبانيون مقاومة جبارة ، هي مقاومة الفناء من المسلمين المحصورين في دائرة ضيقة ، وكان الأسبانيون قد أحكموا الحصار على الغرناطيين وصمد المسلمون وصبروا على طول الحصار ، وكان موسى بن أبي الغسان أبرز من حمل لواء المقاومة . وقد امتنع عن الخضوع والاستسلام ولم يمت شهيداً إلا بعد قتل مئات القشتاليين ، وصبر المسلمون على طول الحصار ونفاذ الذخيرة ، وتفشي الجوع والمرض ، ولم تستلم غرناطة في ٧٩٨ ( ٣ ربيع الأول ) ١٤٩٢ م إلا بعد أن أعذرت إلى الله بالمقاومة . وتقدم فرديناند وإيزابيلا إلى غرناطة ودخلتها الجيوش الأسبانية في مظهر رهيب . وبذلك انقرض آخر مظاهر الاسلام والعروبة من الأندلس ( ٩٢ - ٨٩٧ ) بعد ثمانية قرون .

لقد سقطت الأندلس بعد أن تخلت عنها الدول الاسلامية القوية ، كالعثمانيين والمماليك ، وكان حكام الأسبان قد أحكموا الحصار البحري عليها حتى لا تتسرب إليها أي معونة أو مدد من عالم الاسلام ، وتعهد الأسبانيون في « وثيقة تسليم » غرناطة باحترام أمر المسلمين في دينهم وأملاكهم وحريتهم ، والسماح بالهجرة لمن أراد الخروج منهم إلى ديار الاسلام . غير أن الأسبان لم يصدقوا في عقدهم ، ولم يلبثوا أن اضطهدوا المسلمين لتصفيتهم والتخلص منهم نهائياً .

واستطاع الكردينال كيمناس أن يحمل حكام أسبانيا على نقض شروط الأمان التي منحت للمسلمين ، وبدأت دعوة جائحة إلى تنصير المسلمين ، وفي عام ٩٠٥ هـ ١٤٩٩ م - صدر قانون تنصير المسلمين جبراً ، وتحريم إقامة

شعائرهم الدينية ، وإغلاق المساجد ، وأحرق الكردينال كيمناس كتب التراث الاسلامي في غرناطة فاشتعلت النار في مئات الألوف منها ، وزادت الحملة عنفاً على المسلمين . ففي ٩٠٧ هـ ١٥٠١ م منع المسـون من البقاء في أسبانيا ، وثار المسلمون في جبال البشرات ، فقاومهم الأسبان بي عنف ، وصدر قانون بإكراه المسلمين ( الموريسكو ) على ترك ألبستهم الخاصة ، واتخاذ الزي الأسباني ومنعوا من الاغتسال ودخول الحمامات ، والتكلم بالعربية ( ٩٥٦ هـ ١٥٥٥ م ) وحولت المساجد إلى كنائس ، واندلعت الثورة مرة أخرى في جبال البشرات ٩٨٦ هـ ١٥٦٨ م بقيادة محمد بن أمية ، الذي استطاع أن يضم إليه مختلف قوى البشرات ، وقاوم المسلمون مقاومة فناء . وهم يعلمون أن أمر القضاء عليهم وسحقهم لا شك أنه يسير على القوى الأسبانية ، ولكنهم لم يتخلفوا عن المقاومة ، واستشهد ابن أمية وتوّلى بعده ( عبد الله ) .

وثار المسلمون في بلنسية وانتقضوا ، ولكن القوى الأسبانية استطاعت أن تقمع ثورتهم ، وفي عام ١٠١٧ هـ وضعت نهاية المسلمين ( الموريسكو ) في أسبانيا حيث تقرر نفيهم وإجلاؤهم نهائياً وحشدت لهم السفن . فذهب بعضهم إلى فرنسا وإيطاليا وإلى الهند وإلى مصر والأستانة ، وذهبت الأغلبية الساحقة إلى المغرب العربي وتونس - ويقرر الطاهر بن عاشور أن عدد المخرجين بلغ ( ٣٠٠ ألف ) ويردد قول بعض المؤرخين بأنه ربما بلغ نحو المليون . سافر منهم إلى فارس وتطوان وسلا والرباط وتلمسان ووهران وتونس ( ١٣٠ ألفاً ) . ومات منهم في الطريق ما يقرب من تسعين ألفاً من الجوع والتعب ، وخرج منهم إلى فرنسا مائة ألف « فاشترط عليهم الافرنج أن يتدينوا بالديانة الكاثوليكية فرفضوا ، فردوا من حيث أتوا ، فاحتاروا في أمرهم ، وقصدوا المراسي الفرنسية للسفر ، فمات منهم كثير في فرنسا ، ونجا قليل . وقد تسلط أعراب البوادي على كثير ممن خرجوا إلى فاس وتلمسان في الطرقات ونهبوهم ، ولم يسلم من ذلك إلا الذين خرجوا إلى تونس .

ولا شك تكشف هذه الصفحة المؤلمة عن الصمود الذي عرف به المسلمون في إبان الأزمات والأحداث الكبرى مع القدرة على التضحية والاستشهاد ، ذلك أن المسلمين لم يسلموا في أي جزء من أجزاء وطنهم إلا بعد أن بذلوا آخر ما في

مقدورهم من قوة على التضحية والاستشهاد ، كما تكشف عن أقسى صور الظلم والغدر التي واجهتهم.

ولكن هل توقف المسلمون المخرجون من الأندلس ، وهل انتهى أمرهم ، « والحق أن لا » فإن هؤلاء المخرجين عاشوا وعاش أبناؤهم من بعد في مقاومة متصلة للفرنجة . فقد عمدوا إلى الانتقام من الفرنجة الذين حاولوا السيطرة على موانىء المغرب العربي ومراسيه .

ذلك أن الأسبان والبرتغال حين طردوا المسلمين من الأندلس ، لم يكونوا ليقفوا عند هذا الحد ، بل كانت خطتهم اقتحام سواحل المغرب ، والانتقام من المسلمين الذين ظاهروا الأندلسيين في مخطط طويل لتطويق العالم الاسلامي والسيطرة عليه .

ومن هنا بدأ الأسبان والبرتغال في اقتحام السواحل الأفريقية كمرحلة مجددة من مراحل الحروب الصليبية التي شنها عالم الغرب على عالم الاسلام . لقد فشل الصليبيون بالمشرق وسيطر العثمانيون على القسطنطينية واخذوا يهددون أوربا الغربية والوسطى ، كان كل هذا بالاضافة إلى السيادة البحرية في مشرق حوض البحر الأبيض مما دفع الغرب إلى التركيز على مغرب حوض البحر الأبيض المتوسط ، فاندفع الأسبان والبرتغال يغزون شواطىء المغرب والقارة الأفريقية ، وكان هنري الملاح قد أعد خطة مع ملك البرتغال بملك الحبشة المسيحي للتعاقد والتحالف ضد المسلمين .

وفي هذا المجال كان عمل المهاجرين الأندلسيين بأسلافهم الذين قاوموا غارات السفن الأسبانية ضد السواحل المغربية ، والانتقام من الأسبانيين الذين أخرجوهم من ديارهم ، وقد حملت هذه الغارات طابع الجهاد ، وشارك فيها سكان السواحل الأفريقية . وقد بدأت على هيئة غارات متصلة على السفن الأسبانية ، كانوا يعودون منها بالغنائم والأسرى ، ومن ثم تكونت هذه القوة المرابطة في الثغور التي تحمل لواء الجهاد ، والانتقام من الأسبان وتكون تحت قيادة هؤلاء المجاهدين أسطول جديد ، وبرزت أسماء عروج وخير الدين ، واستطاع خير الدين أن ينقذ ٧٠٠ ألف مسلم أندلسي ، وقطعت هذه الحركة على البرتغال والأسبان محاولة الاستقرار بسواحل المغرب العربي واحتلالها ،

واستطاع الأخوان عروج وخير الدين ( ٨٩٩ ـ ٩٣٢ ) الاستيلاء على السواحل الجزائرية ، واستخلاصها من الأسبان .

***

وإذا كان سقوط الأندلس في أيدي الفرنجة بعد ثمانمائة عام من إسلامها وعروبتها قد هز الشعراء والأدباء وبعض المؤرخين . فإن النظرة العلمية وفق نواميس التطور ، وحركات المدّ والجزْر في التاريخ كانت تكشف جميعها عن قلق واضح في هذا الجزء من عالم الاسلام منذ اليوم الأول ما دام التوسع الاسلامي قد توقف عندها . فإن أوربا المسيحية بكل مفاهيمها وقيمها وطبيعتها قد ظلت هذه القرون الثمانية تقاوم ولا تستسلم أبداً لغزو الاسلام لها سواء من القسطنطينية أو من الأندلس ، وأنها طاولت بقاء هذه الدولة بالمؤامرات والفتن ، والمقاومة ، ولم تهدأ حتى ضعف المسلمون وتمزقوا ، وانقسموا على أنفسهم .

وإذا كانت الأندلس مرت بكل ما تمر به كل الدول من علامات التكون والقوة والضعف والانهيار بالرغم مما حملت في أعماقها من حضارة باهرة زاهرة ، فإنها كانت في الواقع أشبه بالمحاصرة أو المعزولة من عالم الاسلام بحكم وقوعها في أوربا . وكان العدو أقرب إليها من أهلها في المغرب ، وكأنما كانت مملكة إسلامية منفصلة لها طابع واضح يجري في إطار طابع الاسلام ، ولكن يختلف عنه بحكم البيئة الأوربية والجوار والعقلية والتحديات المختلفة . ولكن الأندلس كانت من ناحية أخرى هي أزكى ثمرات الحضارة العربية الاسلامية التي تكونت وتجمعت في قلب أوربا إيذاناً بالدور الذي سيقوم به الغرب في تلقف هذه الحضارة وتنميتها ، وإذا كانت الحروب الصليبية واتصال الغرب بالشرق قد قرب مرحلة النقل والترجمة ، وتبنى القيمة الحضارية العربية الاسلامية ، فإن قوة التاريخ في تحركه وتطوره ، قد نقلت مركز الثقل في الحضارة الاسلامية إلى قلب أوربا نفسها ممثلا في قرطبة بوصفها البيئة المعدة والمتبناة لحمل أمانة الحضارة في هذه المرحلة بحسبان أن النمو والتطور الحضاري لن يتوقف اذا ضعفت أمة عن حمل أمانته وتنميته .

ولقد استطاعت أوربا فعلا أن ترفض الاسلام ، وأن تجلي العرب عن

أرضها ، ومن مداخلها الشرقية والغربية ولكنها عجزت عن أن ترفض « فكر الاسلام ، وعقلية العرب ، وأن تبدأ من حيث توقف المسلمون ، وإن صاغت ذلك على نحو أو آخر بمحاولة أن تغضي إغضاء الناكر للجميل عن الدور الاسلامي في الحضارة . هذا وقد كانت عوامل سقوط الأندلس هي نفسها امتداداً لعوامل توقف الاسلام عن التوسع في أوربا ، نتيجة ضعف روح الجهاد والايمان بالعمل في سبيل نشر الاسلام وتبليغه وحمله إلى آفاق العالم على النحو الذي فعل الرواد الأولون بالاضافة إلى طابع الترف والدعة والحضارة والاستقرر ثم غلبه عنصر التمزق والخلاف والقصور عن القوة واليقظة ، بينما أحرز العدو كل القوى الايجابية للحضارة الاسلامية وفكرها ، فاتحد وتسلح وآمن بحقه في استعادة أرضه ونشر دينه .

ويمكن القول إجمالا إنه لولا الموجتان البربريتان اللتان جازتا إلى الأندلس ، فأمدته الواحدة بعد الأخرى بقوة البقاء لانقضى أجل دولة الأندلس قبل ذلك بكثير ، ولقد كانت هذه القوى التي أعادت شباب الاسلام قوى بدوية لم تتحضر .

# ( ٣٠ )

# الثقافة في عصر الوحدة الاسلامية العثمانية

ينتظم عالم الاسلام في هذه المرحلة : ثلاث وحدات سياسية هي :

( ١ ) الدولة العثمانية التي قامت على انقاض الدولة البزنطية في آسيا الصغرى ، وقد انضم إليها العالم العربي من العراق إلى المغرب الأقصى .

( ٢ ) الدولة الصفوية في فارس .

( ٣ ) الدولة المغولية في الهند .

غير أن هذا التغيير السياسي الذي بدأ منذ أوائل القرن الثامن ، واستقر في القرن العاشر تقريباً ، لم يغير كثيراً أو قليلاً في مجرى الثقافة الاسلامية التي كانت تمضي كنهر قد عمق مجراه ، واتصلت روافده بين أقصى عالم الاسلام وأقصاه ، قائماً على الاسلام أساساً كإطار فكري عام بمقوماته الأساسية من التوحيد والعدل والاخاء .

وكانت مرحلة الغزو الخارجي التي سبقت هذه المرحلة قد أضافت إلى هذه الثقافة تطوراً جديداً ، وخلقت فنوناً جديدة من الأدب والفكر ، فقد هزت أعمال الغزو نفوس المفكرين ، وأظهرت فنوناً جديدة من فكر المقاومة والجهاد والتحدي حين تدافعت في حدود أرض الاسلام من الشرق والشمال والغرب قوى الغزو الثلاث : التتار والصليبيون والفرنجة ، قد دفعت في سرعة وقوة إلى التجمع والتوحيد بين أجزاء عالم الاسلام تحت قيادات جديدة بدوية شابة

ظهرت في أوانها ، وحملت لواء « الجهاد » في سبيل الدفاع عن الاسلام ، ورفع رايته ودحر خصومه ، وكان لهذا أثره في مختلف جوانب الفكر والأدب والثقافة معاً .

وقد برز في هذه المرحلة طابع التقاء فكري بين كبرى الحركتين الثقافيتين الاسلاميتين وهما : السنة والشيعة . وإذا كان اللقاء والتقارب بينهما ، قد تم في حركة « التصوف » فإن أعمال العدوان الضخمة المتصلة خلال القرنين السادس والسابع قد دفعت المسلمين في طريقين هما : طريق الجهاد والرباط لمقاومة العدو . وطريق الزهد والارتفاع على ماديات الحياة ومطامعها في ظل الجائحات التي فتكت بالأعداد الضخمة من المسلمين في هجمات التتار المتوالية والحملات الصليبية المتصلة . غير أن أبرز ما تتمثل به هذه المرحلة : هو اتساع نفوذ اللغتين الفارسية والتركية إلى جوار اللغة العربية ، فقد برزت ثقافة إسلامية لها طابع فارسي منذ القرن الثالث الهجري . غير أنها لم تلبث أن توسعت وتعمقت وحملت مضامين قومية وصوفية ، ثم كانت نهضة الأدب التركي المستمد من الأدب الفارسي أساساً والسائر في نفس خطه الصوفي ، والمتميز بطابعه القومي فيما بعد . وقد بدأ طابع الثقافة الشيعية يغلب على فارس منذ قيام الدولة الصفوية ، ويبدع فيها فكراً جديداً يتمثل في مفهوم الدعوة الشيعية وفقهها وتاريخها وبطولاتها ، كما اتسمت الثقافة التركية - التي أحيت اللسان التركي وبدأت تكتب به - بطابع السنة ، المشوب بروح التصوف الفارسي ، ويرى أرنولد أن الترك لم يتخلوا عن لسانهم . ومع ذلك فإن تأثير المدنية العربية الايرانية على الترك كان من القوة بحيث لم تستطع اللغة التركية في أي مكان أن تصبح لغة رسمية ، أو لغة ثقافية وحتى القرن ( ١٣٥٧ م ) كانت اللغة العربية رسمية في آسيا الصغرى ، وهي أقصى بلاد الترك من ناحية الغرب . والنقوش الموجودة بالأناضول كانت تكتب حتى القرن ١٣ م باللغة العربية . وقد ظلت العربية لغة القضاء في بلاد الترك حتى كاشغر إلى النصف الثاني من القرن الثاني عشر الميلادي .

ولا شك قد لعب الاسلام دوراً هاماً في تكوين الثقافة التركية ، التي كانت في الأساس جزءاً من الثقافة الاسلامية مطبوعة بطابع السنة بالاضافة الى التقاليد، والعادات ، واللغة العربية ، واصطناع الحروف العربية في كتاباتهم .

وبالرغم من اتخاذ الدولة العثمانية « التركية » لغة فإنها لم تحاول أن تفرض لغتها على البلاد العربية ، حيث ظلت اللغة العربية سائدة ، وظل الاسلام بوصفه ثقافة عربية يفرض طابعه على بلاد الأناضول والبلقان . بل إن اللغة التركية تأثرت باللغة العربية القرآنية حتى وصفت بأن نصفها عربي ، وظهر أثر ذلك في أسماء الأسر والأفراد ، وغدت طوابع التقاليد الاسلامية العربية واضحة الأثر في المجتمع العثماني وفي أنظمة البيوت ، بل إن المثقفين والكتاب العثمانيين احتفظوا باللغة العربية أساساً ، بعد أن كتبوا لغتهم بالحروف العربية ، وألفوا بها كثيراً من الكتب ، وظل القرآن العربي والحديث العربي يتلى ويروى بأدائه وحروفه العربية ( عزة دروزة ) وهناك شبه اجماع بين الباحثين على أن العنصر التركي لم يستطع أن يصبغ العرب والعالم الاسلامي بصبغته بل هو أن الذي تحول إلى الصبغة الغالبة : صبغة العربية والسلطان العربي بحكم أنه طابع الاسلام أساساً .

وقد ورث العثمانيون النظام الاسلامي الاجتماعي والسياسي المستمد من الشريعة الاسلامية وطبقوه وجعلوا من المفتي ( شيخ الاسلام ) وعدد من المفتين والفقهاء ، ومشايخ الطرق ، وخطباء المساجد ، هيئة تتولى الناصيتين القضائية والتعلمية في أنحاء الدولة ، وكان هذا هو مصدر محافظة العثمانيين على الثروة الفكرية والثقافة الاسلامية التي تتمثل في الفقه والتوحيد والشريعة والتصوف والفلسفة .

ويصور العلامة حيدر بامات أثر الاسلام في الأدب التركي فيقول : يبدو عند الكلام عن الآداب التركية أنه من المتعذر تجريدها من المؤثرات العربية ، فمما لا جدال فيه أن هذه المؤثرات قامت بعملها خلال الأدب الفارسي على الخصوص ، وأن الأدب الفارسي لم يبلغ أوج كماله إلا بمباشرة الفاتحين العرب . ويفضل المثل الديني الأعلى الذي كان العرب حملة لوائه .» ويقول فون هامر برجستال : عرف الترك الذين لم يكن عندهم مثل ما عند للعرب والفرس من عبقرية شعرية فطرية أن يجمعوا ذخائر ثقافة هاتين الأمتين فبدوا تجاه العرب والفرس من هذه الناحية وغيرها ، كما بدا الرومان تجاه اليونان . وقد ردد الشعراء العثمانيون صدى الشعر الفارسي والعربي .

وقد ظلت اللغة العربية هي : اللغة الدينية والعلمية التي تكتب بها الوثائق الدولية ، وتتم بها المراسلات . أما اللغة الفارسية فهي لغة البلاط . أما اللغة التركية فكانت لا تستعمل في غير الاتصال بالشعب . وقد أجمع المؤرخون على اهتمام العثمانيين بالعلوم والآداب العربية الاسلامية ، وولوع سلاطينهم بها ، وأن السلطان محمد الفاتح فضلاً عن أنه أسس جامعين عظيمين : ( وكل خلفاء العثمانيين أسسوا مساجد فاخرة ) فإنه عني بالكتب ، وأنشأ لها الخزائن ، وأبقى على نفائسها ، وأمر بأن يكتب على أبواب المكتبات قول النبي صلى الله عليه وسلم : طلب العلم فريضة على كل مسلم ، وقد أولى اهتماماً لكتب اليونان فأمر بنقلها إلى التركية .

كما برع العثمانيون في التاريخ ، فلم يكونوا رواة فحسب ، بل محللين . وقد قدموا في مجاله بحوثاً مستفيضة ( مادة وتحليلاً ) ومن أهم مؤرخيهم سعد الدين صاحب تاج التواريخ ، وكان أوائل السلاطين إلى ذلك أدباء وشعراء ، ناصروا الأدب وأهله ، وقدموا للعلماء والأدباء كثيراً من الهدايا والمكافآت الجزيلة التي أعانت على تقدم العلوم والفنون ، وكان منهم شعراء لهم دواوين مطبوعة ، وقد برز في عصر الدولة العثمانية الأولى مفكرون وعلماء كثيرون ، نقول هذا ونتحفظ في أن العثمانيين لم يتأثروا خطى العرب لا في أمور الشريعة والفقه وعلوم الدين ، ولم يظهروا ميلا إلى العربية وخدمتها على النحو الذي أظهره الفرس .

وقد حظي في عصور السلاطين أعلام كثيرون بالتكريم للعلم ، فقد تشبهوا بالخلفاء والسلاطين والملوك السابقين في تقدير العلماء وبناء المدارس ، وقد اتخذ أورخان بن عثمان من العلماء أهل شوراه ، وعهد إليهم إدارة المدارس التي فتحها ، ومن العلماء اللامعين في حاشيته عربشاه السوري . أما محمد الفاتح فكان يتكلم خمس لغات ، وكان مُلِمّاً بالعلوم والرياضة ، وقد أحيا في القسطنطينية ما وصف بعصرها الذهبي بما أنشأ من المدارس ، ودار الفنون . وكان السلطان سليم الأول شاعراً وله آثار في اللغات التركية والفارسية والعربية ، وقد نقل إلى بلاده المؤلفات العربية ، واستقدم العلماء والأدباء . أما السلطان سليمان القانوني فقد كان عالماً بالفقه والقانون . وهو الذي وضع قوانين الدولة .

## الحركة الصوفية

كان للتصوف دوره الحاسم في كلتا المرحلتين : مرحلة الغزو الخارجي ، ومرحلة الوحدات الثلاث : ( العثمانية ، الصفوية ، المغولية ) ومنذ القرن السادس ( ١٢ م ) صارت للصوفية منظمة اجتماعية ، احتضنت عدداً ضخماً من أفراد المجتمع ، وكانت في مصادرها الأولى تتمثل في مجموعة المرابطين في الثغور ، والمتطوعين للجهاد وقتال العدو المغير على السواحل ، والعاملين على نشر الاسلام في الأطراف البعيدة . غير أن حركة التصوف لم تلبث أن ركدت وتحولت من ناحية إلى جماعات من الدراويش المقيمين في الخالقاه والتكايا ، وغزا فكرها خليط من التصورات الفلسفية الهندية والمجوسية والبوذية واليونانية القديمة في مسائل الحلول ووحدة الوجود فانحرفت عن مفهوم الزهادة الاسلامي السمح . ومن هنا كانت معارضة ابن تيمية لها وحملته عليها ، واعتباره الحجيج للأضرحة ، والتماس العون من قبور الأولياء « وثنية » تخرج عن مفهوم الاسلام البسيط السمح الذي يفتح الطريق بين الانسان وربه دون وساطة أو شفاعة .

غير أن دعوة ابن تيمية إلى التوحيد الخالص ( ٧٢٩ هـ ) ومحاربة مختلف الفرق كالصوفية والفلاسفة والمتكلمين . إنما كانت تهدف إلى تصحيح مفهوم الاسلام في شموله وتكامله ووسطيته . هذه الدعوة لم تحل دون امتداد التصوف وانسحابه طوال العصر العثماني حتى تجددت الدعوة إلى التوحيد الخالص في إبان يقظة الأمة العربية كقوة جديدة من قوى البعث الاسلامي ، وكموجة جديدة هي عنوان على « مرحلة اليقظة العربية الاسلامية » بعد أن صعفت « الوحدة

الاسلامية العثمانية » عن حمل لواء الاسلام كقوة متطورة دافعة لتاريخ الاسلام إلى حتميته .

وكان جلال الدين الرومي قد ظهر في الأناضول (توفي ٦٨٨ م) وعرف بأنه أعظم شعراء الصوفية ، وله كتاب « المثنوي » بالفارسية وهي منظومة صوفية في نحو ٣٠ ألف بيت . قال المؤرخون إنها موضع نظر الصوفية من سور الصين شرقاً إلى شاطىء البحر الأبيض غرباً . وأنها مرجع لكل من أراد الماماً بقصائد الصوفية . وقد كان للمثنوي أبعد الأثر في الشعر التركي . وقد نشر جلال الدين الرومي طريقة الصوفية في الأناضول قبيل ظهور الدولة العثمانية فانتشرت طريقته المعروفة بالمولوية .

* * *

وفي أوائل العصر العثماني ظهرت « الطريقة النقشبندية » وعمت أنحاء الدولة العثمانية ، ثم توسعت الطرق الصوفية من بعد ( أورخان - الطريقة السعدية ) .

وقد تأثر الأدب العثماني بالتصوف تأثراً كبيراً . ويرى حيدر بامات أن التصوف كان من العوامل التي ساعدت على نشوء الأدب التركي . وأن هذه المبادىء الصوفية جاءت من آسيا الوسطى ، وقد كانت الأناضول مستعدة استعداداً خاصاً - بعد أن احتاجتها الغارات المغولية الأولى - لتقبل مواعظ الدراويش الذين أدخلوا إلى الأناضول أشعار أحمد يسري التركية ، فانتشر نفوذ هذا المتصوف الخراساني في جميع آسيا الوسطى وفي آذربيجان حتى سهل الفولجا ، وكان متصوفة الأناضول يكتبون باللغة الفارسية ، فيعانون نفوذ التصوف العربي الفارسي الذي ظل جلال الدين الرومي عنوانه الأعلى .

وقد تأثر العثمانيون بالتصوف والسنة معاً ، ويرى الباحثون أن تشدد الترك واندفاعهم إلى العمل تحت راية الاسلام ، والجهاد كان نتيجة مفهومهم لعقيدة السنة والتصوف ممتزجين . وان هذا يختلف عن مفهوم الفرس الذي يتسم بطابع الاجتهاد والعقلانية . كان عبد القادر الجيلاني ( ٥٦١ هـ ) أكبر دعاة الصوفية الذين حملوا لواء الدعوة إلى إخضاع الطريقة للشريعة والتمسك بالكتاب

والسنة ، فقد عارض بقوة دعوى القائلين بانفصال الشريعة عن الحقيقة ، ودعوى أن الوصول إلى الحقيقة يسقط الفرائض والتكاليف الشرعية ، وكان ذلك التصحيح لمفهوم الاسلام سبباً في دخول عدد كبير من غير المسلمين في الاسلام ، وتصحيح عقائد عدد هائل من المسلمين . غير أن التصوف الاسلامي لم يلبث أن انحرف مرة أخرى بتأثير تراث التصوف الفارسي القديم من الاتحاد والحلول ووحدة الوجود .

**- ٢ -**

يقسم هذا العصر في مجال الفكر والثقافة بمظاهر هامة :

أولا : نمو البحث العلمي الاسلامي في مجال الفلك والعلوم الطبيعية . فقد هاجر إلى المشرق كثير من علماء المغرب والأندلس الذين كانت جامعاتهم وأبحاثهم العلمية قد التهمها الغرب حين أضاف مدنهم الحافلة بمعامل الأبحاث والدراسات إلى نفوذه . كما حدث في طليطلة وبلنسية وقرطبة . وقد اتسعت مرحلة الغزو الخارجي بالتحاق كثير من علماء الأندلس والمغرب بحواضر مصر والشام ، وفي هذه المرحلة استمر هذا التدفق .

ثانياً : كما ظهر في مرحلة الغزو والمقاومة ( ٤٩٨ - ٦٩٨ ) مجموعة من أعلام الفكر الاسلامي في مجال العلوم الطبيعية لا تقل قدراً عن أعلام مرحلة التبلور والانصهار ( ١٣٢ - ٤٩٨ ) أمثال القزويني وابن منظور وابن طفيل وابن رشد . فإن مرحلة الوحدة الاسلامية ( ٦٩٩ - ١١٥٣ ) قد حفلت بأعلام لهم دور كبير في بناء الفكر الاسلامي وتطويره ، لعل من أبرزهم ابن تيمية ( ٧٢٨ ) وابن القيم ( ٧٥١ ) وابن خلدون ( ٨٠٨ ) وابن نباتة ( ٧٦٨ ) وابن بطوطة ( ٧٧٩ ) والقلقشندي ( ٨٢١ ) والمقريزي ( ٨٤٥ ) والشاطبي والبلقيني والسيوطي . وقد اتصل تطور العلم في مجال الطب والطبيعيات ، فقد كان من ألمع أطباء هذه الحقبة : ابن النفيس مكتشف الدورة الدموية .

ثالثاً : ظلت معاهد وجامعات الفكر الاسلامي تقوم بدورها : الزيتونة والأموي ، ومدارس النجف ، والأزهر . ومن خلال هذه المعاهد انبعثت اليقظة مرة أخرى ، وظلت هذه الجامعات منارات للثقافة العربية الاسلامية ، ومرجعاً

للدولة العثمانية في شؤون الفقه واللغة العربية ، وفي الأزهر تعلم أكابر العلماء العثمانيين شمس الدين الفناري، ويعقوب بن إدريس، ومحي الدين الكافية جي والمولى أحمد بن إسماعيل الكوراني ، وعديد من أعلام الثقافة الاسلامية من الأتراك ، وكان للأزهر إلى ذلك هيبته واحترامه . وفي هذه المعاقل تحصنت اللغة العربية والتراث الاسلامي وغالبت لغة العثمانيين ، وفي خلال القرن التاسع الهجري حفل الأزهر بأعلام في مقدمتهم : ابن حجر العسقلاني **٨٥٢** القلقشندي **٨٢١** المقريزي **٨٤٥** ابن تغرى بردى **٨٧٤** بدر الدين العيني **٨٥٥** سراج الدين البلقيني **٨٦٨** وشمس الدين السخاوي **٩٠٢** وجلال الدين السيوطي **٩١١** . وفي خلال القرنين العاشر والحادي عشر أبرز الأزهر عدداً من العلماء أمثال : ابن الحق السنباطي والشيشيني والمناوي والصفدي والشويري والشبراملي والزرقاني والبرماوي وحسن الجبرتي ( والد الجبرتي ) والشرنبلاني ( راجع : الكواكب السائرة في أعلام المائة العاشرة ) .

وظل الأزهر كذلك مقصد أكابر العلماء الوافدين إلى مصر من أنحاء عالم الاسلام ، وممن قدم إليه خلال القرن الحادي عشر علامة المغرب : شهاب الدين المقري **١٠٢٧** وتوفي بها ، وكتب المقري في مصر : نفح الطيب ، وإزهار الرياحين .

وظلت حلقات الأزهر خلال هذه المرحلة غاصة بالعلماء والطلاب ، وبلغ طلابه في هذه الفترة نحو ألف طالب . وفي فاتحة القرن الثاني عشر وفد على القاهرة عبد الغني النابلسي وكتب يقول : دخلنا الجامع الأزهر المعمور بالعلماء والصالحين وقراءة القرآن ، ودرس العلم ليلاً ونهاراً . كما قدم إلى مصر في هذه الفترة مرتضى الزبيدي شارح القاموس ، والعلامة المغربي أبوعبد الله المربي .

رابعاً : بدأت في هذه المرحلة إرهاصات اليقظة فالوزير العثماني أحمد باكور والي مصر **١١٦٢** هـ **١٧٨٤** م كان من هواة العلوم الرياضية . وقد قابل علماء الأزهر وفي مقدمتهم عبد الله الشبراوي شيخ الأزهر وسألهم عن العلوم الرياضية فاعتذروا بأنهم لا يعرفون عنها شيئاً . ونعى الوزير هذا النقص من علماء مصر وقد نال الشيخ حسن الجبرتي والد الجبرتي المؤرخ حظوة عند الوزير

لبراعته في العلوم الهندسية والرياضية ، وقام الوزير بتصميم عدة مزاول لبيان الوقت ، وأهدى إحداها إلى الجامع الأزهر . وقد ظلت قائمة به إلى عصر الجبرتي .

خامساً : دارت في هذه المرحلة مساجلات فكرية ضخمة : فقد أثارت آراء ابن حجر والقلقشندي والمقريزي في صحن الأزهر مناقشات . وقدم ابن خلدون نظرياته في العمرات والعصبية ، وأسس الملك ونشأة الدول . وتلقاها عنه تلميذه المقريزي الذي تأثر بها في موسوعة : « إغاثة الأمة لكشف الغمة » ودارت بين البقاعي والسيوطي ، وبين البقاعي والسخاوي ، وبين السيوطي والسخاوي معارك أدبية وفكرية في اللغة والأدب ، وجرى في صحن الأزهر مراجعات تحفل بها موسوعة السخاوي : الضوء اللامع في أعيان القرن الرابع .

كان موقف العثمانيين من الثقافة بوجه عام موقفاً يتسق مع طابعهم العسكري الحربي . فقد كان الحكام الأول قريبون من اللغة العربية والثقافة الاسلامية . ثم توسع نطاق الثقافة التركية القائمة على اللغتين الفارسية والتركية ، وضعف أمر الثقافة العربية الاسلامية ، ويمكن القول بأن ثقافات ثلاث شملت عالم الاسلام مرتبطة باللغات الثلاث الكبرى :

* الثقافة الفارسية الاسلامية في فارس والهند .
* الثقافة التركية الاسلامية في آسيا الصغرى .
* الثقافة العربية الاسلامية في الوحدات العربية .

هذه هي الظاهرة الأولى : أما الظاهرة الثانية فهي سيطرة الأدب الصوفي في العالم الاسلامي كله . ولقد كان للثقافتين الفارسية والتركية أثرهما في توسيع نطاق هذا الأدب العاطفي ، وتأثر الأدب العربي به نتيجة لاتصال مضمونه بالاسلام نفسه . ومن ثم ضعفت في هذه المرحلة وتقلصت الدراسات العقلية في مجال الفقه والفلسفة والتوحيد ، ويمكن أن يقال : إن العالم الاسلامي قد انحاز إلى الطوابع الروحية والوجدانية التي تتمثل في الصوفية المغرقة في الجبرية والاستسلام . وقد كان لهذه الظاهرة المنحرفة عن وسطية الاسلام أثرها البعيد المدى لعدة قرون من بعد .

الظاهرة الأولى : تقوم الثقافة التركية الاسلامية على عناصر ثلاثة :

( ١ ) الثقافة الفارسية . وقد ظلت هي لغة البلاط العثماني .

( ٢ ) الثقافة العربية وهي ثقافة الفقه والشريعة والدين والعلوم . وكانت العربية في أول الأمر لغة الدولة في مراسلاتها ، ثم تكونت من العنصرين معاً : « الثقافة التركية » التي كتبت باللغة التركية ، وكانت في أول الأمر لا تستعمل في غير المجالات الشعبية ، فقد تأثر الترك بآثار الثقافتين الفارسية والعربية : أما الثقافة الفارسية فقد غلب عليها الشعر الصوفي ، أما الثقافة العربية فقد غلب عليها الفكر الاسلامي لعلومه ودراساته المختلفة . ولما كانت اللغتان الفارسية والتركية متقاربتين . فقد غلب طابع الثقافة الفارسية المتمثل في اللغة التركية ، وأصبحت لغة الدولة والثقافة معاً . ولما كانت الثقافة التركية فارسية الطابع وليست عربية ، فقد برز دور الأزهر والزيتونة والنجف والقرويين في حماية اللغة العربية . والثقافة العربية الاسلامية . وتبدو هنا ملاحظتان هامتان :

( ١ ) إن جذور الثقافتين الفارسية والتركية قائمة أصلاً على « المثل الاسلامي الأعلى » .

( ٢ ) إن غلب التشيع على الفرس . وغلب السنة على الترك لم يمنعهما من التأثر بالتصوف ، الذي ساد الثقافات الاسلامية الثلاث بدرجات متفاوتة ، ومع ذلك فقد ظلت الثقافة العربية محتفظة بطابعها ومقوماتها الاساسية القائمة على الصوفية والتوحيد معاً ، على المزج بين الفقه والتصوف ، وإن غلب طابع التصوف على الفقهاء .

ويرجع ذلك إلى جامعي الأزهر والزيتونة اللذين حفظا : الفكر الاسلامي واللغة العربية في وقت معاً .

الظاهرة الثانية : ارتبطت ظاهرة اتساع الحركة الصوفية بالحروب الصليبية والغارات المغولية . ففي خلال القرنين ـ خلال معركة الغزو الخارجي والمقاومة ـ وتمثل التصوف في الجهاد والمقاومة . فقد كان عمق الايمان بالاسلام هو الدافع الأكبر لتحرر المجموعات الضخمة من المسلمين عن مطامع الحياة واندماجها في القوى العاملة للحرب والمقاومة والقتال ، وكان ذلك يفرض على هؤلاء المجاهدين نظماً اجتماعية ، قوامها المرابطة في الثغور ، والاكتفاء بالقليل من الزاد ، والالتجاء إلى الله ، فلم يكن الزهد أو التصوف في هذه المرحلة إلا سلاحاً

ضخماً من أسلحة المعركة ، التي عزف عنها الطامعون في الحياة ، الغارقون في ترفها ومتعها ، بينما أقبل عليها رغبة في الدفاع عن أرض الاسلام وكيان المسلمين ، أولئك الذين كانت نفوسهم قد ارتبطت بمتابعة صيحة الدعاة والمرشدين ، وصغرت في عيونهم رغبات الحياة ومطامعها ، وقد اتسعت هذه الظاهرة على أفق عالم الاسلام كله . ففي المغرب وعلى طول سواحله كانت عمليات الغزو التي يشنها الفرنجة لا تتوقف ، وفي المشرق كانت حملات الصليبيين وإمداداتهم لا تتوقف ، وغزوات التتار الجائحة المندفعة كانت تباغت عالم الاسلام وعواصمه ، ومن ثم عاش المسلمون في مختلف هذه المناطق حياة ذات طابع غريب ، هو طابع المقاومة والرباط ، وهو طابع عاشت عليه أجيال متوالية لم تتردد عن أن تهب نفسها للمعركة ، دون أن تولي اهتمامها لأمر من أمور الدنيا ، فلما توقفت الحروب الصليبية وغزوات التتار ، كانت تلك الظاهرة التي استمرت حوالي مائتي سنة قد تركت آثارها في المجتمع والفكر ، وخلفت آثاراً بعيدة المدى ، قوامها ذلك الطابع الجبري من التسليم والرضا بالظلم ، ونشأ ذلك التصور البعيد كل البعد عن مفهوم الاسلام وهو : تقبل ذلك كله والاستسلام له بوصفه قدراً من عند الله لا يرد ، وكان هذا هو الانحراف البعيد المدى الذي أنتجه الفصال عن مفهوم الاسلام في الجهاد وفي الحياة وفي الزهد جميعاً . ولقد كان هذا المفهوم الجبري دخيلاً على الاسلام ، وليس مستمداً من مقوماته أو مفاهيمه الأساسية ، وإنما جاء من فلسفات ومذاهب قديمة عاشت طويلا في بلاد البيئات ، ولما تنصهر انصهاراً كاملاً في الفكر الاسلامي ، ثم استطاع الغزو الأجنبي أن يثيرها ويجددها ليجعلها عاملاً من عوامل التثبيط والاستسلام والاذعان لنفوذه وسلطانه ، ثم استغلها بعض الحكام والأمراء والولاة في خلال « مرحلة الوحدة الاسلامية العثمانية » التي كان « التصوف » الجبري طابعها الأغلب ، وإن كان الأمر لم يخل مطلقاً من قيام دعاة يفهمون الاسلام فهماً سليماً يدعون إلى تحرر التصوف ، ويدعون إلى ارتباطه بالشريعة ، وإلى تخلصه من النزعات الفارسية . والهندية واليونانية القديمة التي أضافت إليه نظريات الحلول والاتحاد ، ووحدة الوجود ، وإذا كان « التصوف » قد كان بعيد الأثر في مرحلتي الغزو الخارجي ، ومرحلة الوحدة العربية الاسلامية ، وما بعدها ، في نشر الاسلام وتوسيع آفاقه ذاتياً وكسب أرض جديدة للتوحيد . فإنه قد أضعف الجانب العقلي في الاسلام ، وأصاب المجتمع الاسلامي بعوامل

الركود والضعف والاستسلام والقدرية باسم « الجبرية » التي لم تسلم منها المفاهيم الصوفية جميعاً في هذه المرحلة ، وكان من آثار الموجة الصوفية العاتية اتساع نطاق الزوايا والتكايا ، وكثر الداعون إلى رفض الدنيا ، ومن قلب الدولة العثمانية التي كانت تقود المعارك ، وتقاتل وتحارب ، ظهرت هذه الدعوة وتعمقت ، وكان لها أثرها البعيد في مرحلة الضعف والتخلف . ويرى كثير من الباحثين أن « المفاهيم الصوفية » قد تأثرت كثيراً بالفلسفات اليونانية والمجوسية الفارسية القديمة .

ولم يلبث رجال الصوفية أن سيطروا على المقدرات السياسية في الدولة العثمانية ، وازداد نفوذ أصحاب الطرق الصوفية عند ما بالغ الحكام في الخضوع لهم ، وكان موقف العلماء بالنسبة لذلك يتمثل في محاولات اصلاح الصوفية وردها عن انحرافها ، والانكار عليها . ومن الذين أنكروا على الصوفية محمد صفي الدين الحنفي . . . وكلهم تابعوا تقي الدين بن تيمية ، وابن حجر العسقلاني . كما شكا العلماء من انتشار الجهل ، ويمكن القول بأن الصوفية كانوا يمثلون معسكرين منفصلين : الصوفية المجاهدون الذين عزفوا عن السلطان وهاموا في الأرض يدعون إلى الله والذين أسلم على أيديهم كثير من الأمراء والحكام ، والصوفية التقليديون الذين اتصلوا بالولاة فاتخذ منهم الأخيرون وسيلة لتثبيت ملكهم .

ولم يكن الانحراف في مفهوم الصوفية إلا جزءاً من الانحراف الذي أثارته الباطنية والشعوبية ، وخصوم الاسلام وأصحاب دعوات الهدم والتدمير . وكانت كل جهود هذه الدعوات تهدف إلى الانحراف بالاسلام عن مفاهيمه الأصيلة ، أو الاستغناء بالجزء عن الكل . بينما يتمثل الاسلام في مفهومه الحقيقي : في خاصية الشمول والتكامل والوسطية قلباً وعقلاً ، فقهاً وتصوفاً ، وروحاً ومادةً . كان أبرز العوامل الهدامة في دعوة بعض الصوفية « طابع الجبرية والاستسلام للمقادير ، وغلبة النزعات الوجدانية والروحية » واعتباره الوسيلة الوحيدة لفهم الاسلام ، وكذلك في رفع مقام الولي إلى مقام النبي أو ما فوقه .

وقد حمل الشعراني ( ٩٧٣ هـ ) على المتصوفة في عصره ـ وهو من أئمة الصوفية ـ فقد رأى أن معظمهم دجالون يحتالون على كل أموال الناس ، وحذر

المجتمع من حيلهم ودجلهم ، وأورد صوراً وقصصاً تمثل فساد أخلاقهم وتهافتهم على حطام الدنيا ، ووقوفهم بأبواب الحكام . غير أن كثيراً من أعلام الصوفية ، كأبي الحسن الأشعري ، والشعراني وأحمد البدوي . قد حملوا السلاح في معارك مقاومة الغزو الخارجي ، ولا شك كان التصوف رد فعل خطير في مواجهة التحلل والانحراف والترف الذي غمر المجتمع الاسلامي في هذه المرحلة ، وفي مواجهة طغيان الحكام والولاة والأمراء .

# الباب السادس

# اليقظة العربية الاسلامية

# ( ٣١ )

## اليقظة العربية الاسلامية

في أواخر القرن السابع الهجري ، كانت الحركة الصليبية في المشرق قد بلغت غاية الضعف ، فلم تلبث أن طوت أعلامها ، وانسحبت من عالم الاسلام مهزومة بعد قرنين كاملين من الصراع ، هنالك كانت موجة جديدة من موجات الاسلام تتأهب لتأخذ مكانها على مسرح الأحداث وتلعب دورها التاريخي كحلقة متتابعة متصلة من حلقات التاريخ الاسلامي . وقد بدأت هذه القوة بالفعل تأخذ مكانها في آسيا الصغرى منذ ( ٦٩٩ هـ ـ ١٣٠٠ م ) ولم تلبث أن مدت آفاقها خلال القرنين الثامن والتاسع بالتوسع في أوربا حتى استطاعت في القرن العاشر أن تقيم الوحدة الاسلامية العثمانية ( ٩١٥ هـ ـ ١٥١٧ م ) في نفس الوقت الذي كانت الدولة الصفوية في فارس والمغولية في الهند تغطي عالم الاسلام في مجال البناء السياسي .

وكانت « الوحدة الاسلامية العثمانية » هي أقوى الوحدات الاسلامية الثلاث وأوسعها نطاقاً ، فقد شملت العالم العربي كله بالاضافة إلى الدولة العثمانية وإلى امتدادها في أوربا . وقد امتدت هذه الوحدة قوية مهيبة ضخمة خلال أربعة قرون كاملة ، غير أنها لم تلبث أن واجهت نقطة التنازل والضعف في القرن الحادي عشر ، فخلاله وخلال القرن الثاني عشر كانت الوحدة الاسلامية العثمانية تتحول من معارك الهجوم الى معارك الدفاع ، وكانت أوربا التي واجهت التوسع الاسلامي العثماني خلال القرون الأربعة قد أخذت تتقدم

علمياً في مجال الحرب والصناعة ، حين توقفت الدولة العثمانية عن تطوير صناعتها الحربية وأساليبها في مجال المقاومة والدفاع ، ومن ثم بدأت هزائم الدولة العثمانية في نفس الوقت الذي بدأت هذه الوحدة تتزعزع ، وأخذت عوامل الضعف والاضطراب تؤثر في كيان المجتمع ، وتوسع شقة الخلاف بين العناصر والقوى والأحداث ، وحين أخذت الصوفية تجرف الفكر الاسلامي وتنحرف به . وتسيطر عليه ، وكأنها وحدها مفهوم الاسلام ، بينما انطوت تحت سيطرتها وضعفت مفاهيم الاسلام الأساسية من التوحيد والعدل والحرية والقوة واليقظة والرباط الحربي ، وحين بلغت الصوفية سيطرتها على المجتمع ووسمته بطابع التواكل والضعف والاستسلام يختفي مفهوم الاسلام الحقيقي : الجامع بين العقل والقلب والعلم والروح ، والدنيا والآخرة ، واختفى طابعه .الايجابي التقدمي ، طابع الشمول والتكامل والوسطية .

فإذا ما بلغت مفاهيم الاسلام هذا الانحراف . كان لا بد أن تبرز قوة جديدة لتعيد صياغة مفهوم الاسلام من جديد ، وتصحح المفاهيم ، وتكشف عن جوهره الذي اختفى تحت تضاعيف الانحرافات المسيطرة : شأنها في ذلك شأن الاسلام في مختلف مراحله ، وطوال تاريخه .

ومن هنا كانت « موجة اليقظة الاسلامية العربية » منبعثة من القوة الأصلية الأولى التي بلغت مفهوم الاسلام عن النبي أول مرة في جزيرة العرب ، وحملته إلى العالم كله وظلت تحمل لواءه في مجالي الفكر والسياسة خلال قرون متصلة ، تلك القوة هي « الأمة العربية » . فقد بدأت من قلب الأمة العربية أول دعوة إلى تحرير الاسلام من الزيوف والبدع والاضافات المنحرفة التي عاصرت هذه المرحلة الطويلة ، وكانت عاملاً من عوامل الضعف والتخلف ، امتد أثره من بعد . حين انهارت الوحدة العثمانية الاسلامية وضعفت قيادتها ممثلة في الدولة العثمانية ، وكان الغرب قد أعد مخططه في السيطرة على مختلف وحدات الدولة العثمانية بعد انتزاعها منها ، وبذلك . عن طريق هذا الانحراف في مفهوم الاسلام . انهارت الدولة العثمانية ككل . وسيطر الاستعمار على هذه الوحدات العربية .

غير أن صوت « الدعوة إلى تحرير الاسلام » من الانحرافات قد كان عاملاً

أساسياً في اليقظة الاسلامية الجديدة التي كانت قيادتها مرة أخرى للأمة العربية ، التي بدأ كيانها يبرز كقوة منفصلة عن الدولة العثمانية ، بعد أن مرت حركة المقاومة بمرحلة طويلة من العمل تحت لواء « الجامعة الاسلامية » هذه الجامعة التي كانت تمثل مواجهة الكيان العربي العثماني موحداً لحركة الاستعمار ، ثم كان لا بد من انتقال إلى مرحلة جديدة من المقاومة باسم الوحدة العربية وحدها ، بعد أن وقع الصراع بين العثمانيين والعرب . حين حمل العثمانيون لواء الدعوة إلى الجامعة الطورانية أو القومية التركية .

وفي نفس الوقت الذي كان دور الترك بالنسبة لقيادة عالم الاسلام ينتهي ، كان دور العرب يتألق ويقوى ، فقد حملت الأمة العربية مرة أخرى لواء هذه المرحلة من مراحل التاريخ الاسلامي كقوة قيادية موجهة ، حملت لواء اليقظة ، هذه اليقظة التي انبعثت من تصحيح مفهوم الاسلام « التوحيد » بينما كان انهيار القوة العثمانية يقظة للاستعمار الذي حل محلها في كل مكان ، بدأت حركة اليقظة الاسلامية . وقد أطلق عليها حركة الاصلاح الاسلامي من قلب الأمة العربية ، وتمثلت في دعوات متناثرة في أجزاء العالم الاسلامي في وقت واحد ومتوالية من بعد على فترات .

بدأت الحركة الأولى والكبرى والأم ( عام **١١٥٣** هـ **١٧٤٠** م ) : في منتصف القرن الثاني عشر ، وما زالت مستمرة إلى اليوم خلال أكثر من قرنين كاملين ( أو ما يقرب من **٢٢٧** سنة ) وكانت الأمة العربية هي « بؤرة الحركة » وإن كان قد امتد أثرها إلى الهند وأندونيسيا وأفريقيا .

وقد صحح العرب مفاهيم الاسلام في دقة ، وكان أبرز ما ركزوا عليه ، شجب المفهوم القائل بأن الصوفية وحدها هي الاسلام . أو أن القلب وحده هو طريق المعرفة ، وكانت دعوة اليقظة العربية الجديدة : تقول بأن العقل والقلب هما مصدر المعرفة ، وأن الاسلام في تكامله وشموله ووسطيته يجمعهما ويمزج بينهما .

وبذلك التقى الغزالي وابن تيمية في نفوس هؤلاء الدعاة والتقى التصوف والاعتزال ، وقامت « السنة » من جديد وفق هذا المفهوم تفسر اتصال الاسلام بالحياة وبالحضارة وتكشف عن جوهره وحيويته وقدرته على الحركة والعمل في كل

عصر وبيئة . وحين بدأت الوحدة العربية استلهمت قاعدتها الأساسية من وحدة الفكر العربي الاسلامي الذي يتمثل فيه فكر مختلف العناصر التي تعيش في العالم العربي ، هذه الوحدة التي كانت تحمل مفهوماً واضحاً هو أنه إذا ذل الاسلام ذل العرب وأن يقظة الاسلام لا بد أن تنبعث أساساً من الأمة العربية التي تأهلت لحمل لواء الاسلام منذ أربعة عشر قرناً ، والتي تحمل لواء اللغة العربية : لغة القرآن .

وكما كشفت هذه المرحلة عن جوهر الاسلام قوياً إيجابياً قادراً على الحياة . فقد كشفت عن أصالة العالم الاسلامي في مواجهة الغزو الاستعماري الحديث في مرحلة عنيفة ممتدة حاول فيها الغرب السيطرة على هذه الوحدات المختلفة ، بدأت هذه الحركة بتطويق العالم الاسلامي من خلال حملات الكشف والملاحة التي بدأها البرتغاليون والأسبانيون كرد فعل انتقامي لشواطىء المغرب وأفريقيا ، وكحركة تطويق للعالم الاسلامي اتصلت بسقوط الأندلس ، اتصال معركة الحروب الصليبية في المشرق بمعركة الحروب الصليبية بالمغرب .

وقد واجه العالم الاسلامي الاستعمار الغربي . هولندا في أندونيسيا ، وانجلترا في الهند ، وفرنسا وانجلترا في العالم العربي في معركة مقاومة مستمرة ، كما واجه المسلمون معركة تصفية خطيرة في التركستان وما وراء النهر من الروس . كما صمدوا أمام مواجهة ضخمة في الهند والصين . وكان أخطر ما واجه الاسلام سيطرة الصهيونية على فلسطين .

**- ٢ -**

بدأت علامات اليقظة العربية الاسلامية في أوائل القرن الثاني عشر الهجري ( الثامن عشر الميلادي ) كان العلماء في الأزهر أول ضوء في هذه اليقظة . فقد أخذ العلماء يواجهون الأمراء والحكام ، ويجبونهم بالمظالم ويأخذون عليهم المواثيق ، هذه الظاهرة تعطي أول دلالة على « أصالة » مفهوم الاسلام في مواجهة معضلات المجتمع . فقد كشف العلماء في هذه الفترة عن إيجابية الاسلام في مواجهة الأمراء المستبدين ، وكانت آراء « ابن تيمية » في تحرير الاسلام ، والدعوة إلى التوحيد . وما أفاض العلماء في الكشف عن نصوص الشريعة من حق الأفراد ، وواجبات الحكام . ومن هنا بدأ « علماء الاسلام »

يأخذون مكان الصدارة . بعد أن ظلت هذه الصدارة فترة طويلة « للصوفية » الذين كانوا موضع تقدير الحكام وتقدير الاستعمار من بعد لمفاهيمهم المنحرفة التي تفرض على الناس التسليم بالواقع ، وقبول الجبرية في سلطة الحاكم . ويسجل الجبرتي أن عام ١١١٤ هـ ١٧٠٢ م . شهد موقفاً باكراً من هذه المواقف عندما أصيب أهل الأسواق . نتيجة لظلم الأمراء ، فاتجهوا إلى الجامع الأزهر . « وشكوا أمرهم إلى العلماء وألزموهم بالركوب معهم إلى الديوان » وقد بلغ ذلك الأمر من القوة غايته حين ألزم العلماء الأمراء بالتوقيع على ميثاق ( ١٢١٠ هـ ١٧٩٥ م ) الذي يعد وثيقة مجددة لمفهوم الاسلام في إلزام الحكام بمنع فرض أي ضريبة على الأهالي إلا بعد استشارتهم .

ويروي الجبرتي أنه عندما حكمت المحكمة على أحد الأمراء بالاذعان فرفض . هنالك هب العلماء لنصرة الحق ، أرسل الأمراء له وحملوه على الاذعان ، ولم يترك العلماء الأمير بغير حق مسجل فكتب لهم صلح رسمي به شروط على الأمراء ، وتعهد من الحكام بالتزام ما يقضي به القانون .

ومن هذه النقطة ، نقطة تجدد نفوذ العلماء ، وارتفاع صوتهم ، بدأ عامل جديد مضاد لعامل الجبرية الذي فرضه الصوفية ، والذي كان يعطي للحكام حق إذلال الرعية والسيطرة عليها باسم الاسلام . لقد وقف العلماء مع الشعب في نضاله ضد الأمراء الطغاة كمقدمة للحد من استبداد الولاة . وهكذا كان العلماء في هذه المرحلة على رأس الثورات الشعبية التي قام بها الشعب على الأمراء الظالمين ، وكان مراد وإبراهيم طاغيتين متجبرين -حيث كانت مجموعات الشعب تقصد إلى الأزهر فيتقدمهم العلماء ، وفي مقدمة من شاركوا في ذلك أعلام أجلاءهم : الدرديري - العروسي - الشرقاوي . وكان لعمر مكرم دور كبير من بعد . قال الجبرتي عن الشيخ الدرديري : فركب بنفسه وتبعه جماعة من العامة حتى التقى بالأمير ، فكلمه ووبخه وهو راكب على بغلته ، وقال له : أنتم ما تخافون الله ، كما التجأ الناس إلى الشيخ العروسي بعد وفاة الدوديري يلتمسون عنده الحماية من الظلم .

وقد عزل الوالي وولى غيره ، قال الجبرتي ، ونزل الوالي الجديد من الديوان إلى الأزهر وقابل المشايخ واسترضاهم ، كما التجأ الفلاحون إلى الشيخ

الشرقاوي لمخاطبة مراد وإبراهيم ، فلما كلمهم ولم يجد أثراً لمسعاه ، دعا إلى الثورة ، فاجتمع له أهل القاهرة وأهل الأطراف ، هنالك « التزم الأمراء بما شرطه العلماء عليهم وانعقد الصلح » وكان القاضي حاضراً ، فكتب صحيفة بذلك ، وفي خلال الحملة الفرنسية كان موقف عمر مكرم والعلماء مشرفاً . وقد بلغ عمر مكرم القمة في ذلك حين خاطب خورشيد الحاكم التركي الذي رفض أن يستجيب لرغبة الشعب بعزله . قال عمر مكرم : « إن أولي الأمر هم العلماء وحملة الشريعة والسلطان العادل ، وهذا الحاكم ما هو إلا رجل ظالم خارج على قانون البلاد وشريعتها . وإن للشعوب طبقاً لما جرى به المسلمون قديماً ، ولما تقضي به أحكام الشريعة الاسلامية الحق في أن يقيموا الولاة ، ولهم أن يعزلوهم إذا انحرفوا عن سنن العدل وساروا بالظلم . لأن الحكام الظالمين خارجون عن الشريعة . فقد كان لأهل مصر دائماً الحق في أن يعزلوا الوالي إذا أساء ولم يرض الناس عنه ، على أني لا أكتفي بذكر ما جرت عليه عادة البلاد من قديم . بل أذكر لك أن السلطان أو الخليفة نفسه إذا سار في الناس سيرة الجور والظلم كان لهم عزله وخلعه .

وقد صدر « عمر مكرم » في هذا عن فهم مفهوم عميق للاسلام والشريعة الاسلامية ـ ولم يصدر كما رد بعض المؤرخين عن فهم لآراء الفرنسيين ـ والواقع أن علماء المسلمين كانوا دائماً ينصحون الحاكم ويواجهونه إذا سار في الرعية سيرة الظلم . وكان عمر مكرم امتداداً لمفهوم العلماء الذين سبقوه منذ أوائل القرن الثاني عشر ، ودلالة على أن الاسلام قد أخذ يكشف عنه تلك القشرة التي حجبت جوهره خلال استشراء مفهوم الجبرية الصوفية ، والحق أن صوت الامام محمد بن عبد الوهاب كان قد ارتفع منذ ( **١١٥٣** هـ **١٧٤٠** م ) بالدعوة إلى التوحيد ومواجهة الاستبداد السياسي . وظلم السلاطين والملوك ، ولم تكن دعوته إلى تحرير العقيدة ، وتصحيح المفاهيم وإعادتها إلى نقائها إلا تحرراً من الخضوع لغير الله . وقد كانت تنطوي في أعماقها على مفهوم سياسي واسع يرمي إلى مقاومة الظلم ونفوذ الأمراء المستبدين .

***

وقد ساير ذلك في نفس الفترة حركات سياسية يمكن أن توصف بأنها

حركات إقليمية تدعو إلى تحرر بعض الوحدات واستقلالها عن الدولة العثمانية . مثال ذلك حركات : علي بك الكبير في مصر - الأمير فخر الدين المعني في لبنان ، وظاهر العمر في سوريا ، وداود باشا في العراق . ولا شك يمثل القرن الثاني عشر مرحلة دقيقة في حياة الاسلام ، وتاريخ العالم الاسلامي ، والأمة العربية ، والدولة العثمانية . هي في جوهرها ردّ فعل واضح للتحدي الخطير الذي واجهه الاسلام نتيجة لضعف الدولة العثمانية ، وغلبة عوامل التفكك في عالم الاسلام . ومن أبرز مظاهر هذا التحول الجديد ما يتصل به بالمواقف التي حاولها نادر شاه في إيران . والسلطان محمود في الدولة العثمانية من أجل مواجهة حالة الضعف والتفكك .

وكان نادر شاه الذي ولي عرش إيران ١٧٢١ م قد تنبه إلى أن ضعف المسلمين يرجع في جوهره إلى الانقسام بين السنة والشيعة . وأن الاختلافات المذهبية هي العامل الأول لهذا التمزق الذي مكن الاستعمار الأوربي من فرض نفوذه . ومن هنا حاول تأكيد الالتقاء بين إيران الشيعية والدولة العثمانية السنية في محاولة لتوحيد السنة والشيعة على أسس مستمدة من جوهر الاسلام ، وفي نفس الوقت اتجه السلطان محمود ليحمل لواء هذه الدعوة ، وكان من أهم ما قام به في هذا السبيل : القضاء على قوة الانكشارية . تلك القوة العسكرية التي ظلت تركيا تعتمد عليها جيلا بعد جيل . وقد أصابها في هذه المرحلة الانحلال والتمزق والضعف نتيجة لتسرب مذاهب تحمل اسم التصوف وتنحرف به عن مفهوم الاسلام .

وكان قد تكشف بوضوح مدى الخطر الذي أصاب الروح المعنوية للانكشارية بعد أن انحرفت عن مفاهيم الاسلام الأساسية مما أدى إلى فرار ٥٠ ألف جندي في وجه خمسة آلاف جندي في البلقان ، وقد عمد السلطان محمود في مواجهة الزحف الغربي على عالم الاسلام إلى إجراء إصلاحات مدنية وسياسية وإدارية مستهدفاً استعادة هيبة الدولة العثمانية لتظل صامدة كسد قوي في وجه النفوذ الأوربي ، غير أن هذه الاصلاحات لم تكن جذرية ولم تتحقق وفق مفهوم الاسلام ، الذي يجمع إلى القوة والتكامل بين العقل والقلب ، وبين العلم والدين ، والتي تهدف قيمه أول ما تهدف إلى تحقيق العدل الاجتماعي ، والحكومة الشورية ، وتوحيد العناصر . وقد كانت القوة والرباط والجهاد واليقظة

في مواجهة العدو . والوصول إلى مثل قوته ودرجة كفايته الحربية والعسكرية أمراً سياسياً ، من أول مفاهيم الاسلام في مواجهة العدو ، وهو ما لم يتيسر على وجه حقيقي للسلطان محمود ، مما مهد للنهاية المحتومة للدولة العثمانية .

# ( ٣٢ )
## تركيا العثمانية بين الرفعة والانحدار

اقتصر العثمانيون على العناية بالقوة العسكرية ، والجري وراء التوسع دون تركيزه واستقطابه وبلورته ، واستغرقت الدولة العثمانية تاريخها كله بين التوسع والمقاومة ، ثم تطورت أوروبا بسرعة ، وتوقفت العثمانية وتجمدت . وكان التطور في أساليب الحرب وفنونها وآلاتها هو العامل الأول الذي رجح كفة أوربا حين ضعف لدى العثمانيين مفهوم الاسلام بعد أن ضعف تطبيقه ، غير أنه لا سبيل إلى إنكار دور العثمانيين الحاسم حين أعادوا وحدة الاسلام ، ورفعوا رايته ستة قرون ، فقد واجهوا أوربا التي كانت تتحفز للسيطرة على عالم الاسلام ، فاستطاعوا صدها وتجميدها على الأقل عن طريق البحر الأبيض ، ومن هنا تبدو حقيقة لا سبيل إلى إنكارها ، هو أن العثمانيين لا ينالون من المؤرخ الأوربي أي إنصاف . بل على العكس يواجهون حقداً وخصومة تحول دون كلمة الحق .

ويمكن القول انه في القرن الثاني عشر الهجري ( القرن السابع عشر الميلادي ) مال الميزان بالدولة العثمانية وارتفع بقوة جديدة ، هي القوة العربية حاملة اليقظة للفكر الاسلامي العربي .

كان الانبعاث أساساً مستمداً من مفهومين هما : التوحيد ومقاومة الاستبداد في صورة الحاكم المستبد والنفوذ الأجنبي معاً ، وكان ذلك رداً على تحد

خطير تمثل في المرحلة الأخيرة من حياة الدولة العثمانية وعالم الاسلام كله في **هذه** الفترة ، وهو غلبة طابع « الجبرية والتواكل » الذي تغلغل في مختلف **قطاعات** المجتمع والفكر ، وهو ما أسلم تركيا العثمانية إلى مرحلة الانحدار ، وأورث الغرب الغلبة والسيطرة على العالم الاسلامي كله ، فلم يكن الجزر العثماني إلا مداً عاليا للاستعمار ، انتهى بإسقاط المنطقة كلها في يد « قوة غربية » تحاول أن تستعيد نفوذها القديم على الأمة العربية والوحدات الاسلامية وفق أسلوب جديد . وقد تمثل هذا المعنى في عبارة اللورد اللنبي قائد الجيوش البريطانية حين دخل القدس عام **١٦١٨** بعد مرور **٨٢٣** عاما على خروج الصليبيين عام **١٠٩٥** حين قال « الآن انتهت الحروب الصليبية » . ومعنى هذا أن كل حركات الغزو بجناحيه في المشرق والمغرب طوال تلك الفترة إنما كانت تستهدف تحقيق إسقاط العالم الاسلامي كله في قبضة الغرب .

كانت سمة الوحدة العثمانية الغالبة هي : « القوة والحرب » مختلفة في ذلك عن طابع الموجات الاسلامية المتوالية التي تقدمتها ، والتي كانت تمزج بين بناء القوة وبناء الحضارة . كانت « القوة » سمة الحرب تبدو بارزة في سنوات التكوين الأولى للدولة ، ثم سمة تكوين « الحضارة » هي الغالبة من بعد . أما في خلال خمسة قرون من النفوذ العثماني فقد كانت القوة والحرب هي الصورة الممتدة المتصلة ، لا تفسح للحضارة أو البلورة الفكرية أو لانصهار العناصر أي مجال . مما قلل كثيرا من طابع الحضارة الذي يتمثل فيه الاستقرار والبناء الاجتماعي والامتزاج بين العناصر المختلفة .

ومن هنا تعذرت عملية الانصهار والبلورة ، في مجال المجتمع ، كما غلب طابع الفكر الصوفي المهوم ، مما أضعف من قوة الجوانب العقلية في عالم الفكر الاسلامي . وكان لذلك أثره في المجتمع والبناء السياسي وكيان الدولة نفسها ، وكانت أقسى عمليات التدهور والاضطراب هي أن العثمانيين ضُربوا في مجال مجدهم ومظهر دولتهم : « القوة والحرب » فقد غفلوا عن عوامل التطور والنمو والتغيير في هذا المجال بالذات فسبقهم الغرب فيه ، فكانت هزيمتهم المتوالية في حروبهم مع أوربا . ومن هنا بدأ التدهور والضعف من قلب مصدر القوة .

توقفت الدولة العثمانية إذن ، وخمد عالم الاسلام كله في الوقت الذي

تقدمت فيه أوربا ، واقتحمت مجالات الكشف والملاحة والعلم واتصلت بعلوم المسلمين ، فكأنما أخذت أوربا مفهوم الاسلام حين غفلت عنه القوة الاسلامية الكبرى ، فتألفت أوربا وسادت وضعفت القوة العثمانية وتدهورت .

****

نستطيع أن نقف طويلا عند مرحلة التدهور ، ويجمع المؤرخون على أن هذه المرحلة تبدأ بهزيمة الدولة العثمانية عند أسوار فينا عام **١٦٨٣** حين فشل الحصار للمرة الثانية ، ومن هذه النقطة بدأ الصراع بين الغرب وعالم الاسلام يتحول لصالح الغربيين ، والواقع أن هذه العلامة على التدهور لم تكن هي نهاية المعارك بين الغرب والعثمانيين . بل كانت علامة على الضعف الذي أصاب معسكر المسلمين في مواجهة التصاعد في القوى الغربية . فقد توالت من بعد تلك الهزائم وخاصة في الحرب الروسية التركية **١٧٦٨ - ١٧٧٤** .

ويرى بعض المؤرخين أن علامات التدهور بدأت قبل ذلك ، حين تجمعت أساطيل الدول المتحدة لمواجهة الأسطول العثماني في موقعه ( ليبانت ) عام **١٥٧١** .

غير أنه لابد من ربط ذلك الموقف المتصل بالواجهة العثمانية الاسلامية بالخطوات الواسعة التي خطاها الغرب منذ أزال الأندلس وأعاد أسبانيا إلى عالم الغرب وصفاها من القوى الاسلامية والعربية ، وسيطر على جامعاتها ومعاملها وتراثها وحضارتها . وبدأ في نقلها إلى لغاته ، والتوسع فيها ، وما تبع ذلك في خط واحد من حركات الكشف ، والسيطرة على البحار ، حين اندفعت البرتغال وأسبانيا في حركة رد فعل عنيف للانتقام والادالة من أطراف عالم الاسلام ، ومن شواطىء المغرب وأفريقيا بالذات ، وهو ما وصفه المؤرخون وفي مقدمتهم أرنولد توينبي بحركة « تطويق عالم الاسلام » هذه الخطة التي بدأها العالم الغربي بتطويق البلاد الاسلامية عوضا عن مقابلتها وجها لوجه ، كما فعل خلال الحروب الصليبية يقول : « وفي طوافهم حول أفريقيا وصل البحارة البرتغاليون إلى الشواطىء الغربية للهند سابقين ببضع سنوات إلى هناك ( المغول ) آخر موجة من موجات الاسلام التوسعية ، هؤلاء الذين قدموا من آسيا الوسطى بطريق البر . وعندما حقق الأسبانيون ربط المحيطين الأطلسي والهادي مرورا

( بمكسيكو ) قامت في الفليبين حواجز جديدة آسوية هذه المرة ، بين المسيحية الغربية والاسلام اللذين حتى ذلك التاريخ لم يتجاورا إلا في الطرف الثاني من العالم في وادي الدانوب وغربي المتوسط ، وهكذا في نهاية القرن السادس عشر بفضل السيطرة على البحار ، استطاع الغرب أن يطوق البلاد الاسلامية ، ولكنه لم يخاطر في شد الحبل إلا في القرن التاسع عشر فيما بعد ، وحتى ذلك التاريخ كانت فكرة بسالة المسلمين العسكرية تفرض الحذر على الغربيين ، وتشدد عزائم المسلمين أنفسهم لتجعلهم واثقين من أنفسهم . هذه الثقة المتينة قضي عليها شيئا فشيئا على أثر الفشل المتعالي الذي منيت به الامبراطورية العثمانية وباقي الدول الاسلامية ، وقد كبدهم إياه خصم مجهز بأسلحة غربية تملك التكنيك والعلم اللذين تقوم عليهما الحرب الحديثة » .

***

ولا شك كانت حركة الكشف والملاحة عاملاً هاما في إضعاف الوحدة الاسلامية العثمانية وتحطيمها من الخارج ، وقد امتزجت بها حركة موازنة لاضعاف هذه الوحدة من الداخل وتمزيقها ، تمثل هذه الحركة خطة الاضعاف من الداخل ، فيما حاولت دول الغرب فرضه على الدولة العثمانية من الامتيازات مستغلة فترة الضعف ومتخذة من حماية المسيحيين في داخل الدولة وسيلة لفرض نفوذها ، وكان هذا النفوذ في أكبر خطره ، وأهم أمره داخل العالم الاسلامي متمثلاً في إتاحة الفرصة للارساليات التبشيرية التي بدأت تسيطر على الثقافة داخل العالم الاسلامي والعربي بوجه خاص ، وكانت هذه الامتيازات من عوامل التمزق وإثارة الفتن من بعد . وقد كانت مؤامرة ١٨٦٠ بين الموارنة في لبنان من نتائج هذه السياسة .

***

عاشت أوربا خلال فترة المد العثماني لأوربا ( ١٣٠٠ - ١٦٨٣ م ) مرحلة خصومة وانتقاض ، لم تتوقف فيها المعارك ، ولم تتحول العلاقة بين الدولة العثمانية والوحدات التي سيطرت عليها من أوربا إلى رابطة سياسية أو اندماج ، حيث لم تقم الدولة العثمانية بصهر هذه العناصر ، وإقامة نظام اجتماعي لها يؤهلها للدخول في عالم الاسلام ، كان طابع العلاقة هو طابع السيطرة

العسكرية لا الترابط العقلي أو الروحي ، أو الحضاري . ومن هنا عاشت أوربا في إحساس بالخطر العثماني المباغت ، وقامت علاقة خصومة وعداوة حملت طابع الصراع بين المسيحية والاسلام ، حتى أطلق على العثمانيين اسم الاسلام وحمل الاسلام تبعة تصرفاتهم وسياستهم ومفاهيمهم . وإذا كان التوسع العثماني الاسلامي في أوربا يمثل في نظر بعض المفكرين « ردّ فعل » للحروب الصليبية في فترة بلغت ضعف زمنها . فإنه قد أعاد تأجيج نار الخلاف والخصومة مما دفع الغرب إلى رد الفعل في عنف لا حدّ له بمجرد أن ضعفت الدولة العثمانية ، فقد ساد أوربا اتجاه عاصف يحمل طابع الخصومة والانتقام ، وقص أجنحة الاسلام عن أن يستطيع في غده أن يملك القوة المادية أو الوحدة أو الايمان وهي العوامل التي تمكنه من مواجهة الغرب أو الانتصار عليه أو التحرر من نفوذه .

وكان مخطط الغرب قد أعد منهجا سياسيا وعسكريا وثقافيا يحاول أن يقضي على القوة المادية لعالم الاسلام وتمزيق وحدته حتييحال في حسم شديددون استئناف مقدرته في مجال الصناعة والتكنيك وللقضاء على مقومات فكره التي تعطيه القدرة على المقاومة وتدفعه إلى الوحدة ، وذلك بالعمل على إثارة الشبهات من حول تاريخه ولغته ودينه ومفاهيمه ، وتسليط نزعة مادية وإباحية « نيتشرية » على شبابه وأجياله الجديدة حتى يحال بينها وبين العوامل الايجابية القادرة على مقاومته وهزيمته ، وذلك بالقضاء على قواه الروحية والجسدية بالتحلل والترف والتمزق ، وكانت هذه الحرب موجهة أساساً إلى مفاهيم الاسلام باعتبارها أبرز عوامل القوة في بناء عالم الاسلام السياسي والاجتماعي .

ولقد كانت حملة الغرب على الدولة العثمانية عنيفة ومستمرة ، تمثلت في عشرات المؤامرات والتكتلات بين القوى المختلفة لتمزيق تركيا وتقسيمها ، وقد امتدت هذه المشروعات طوال فترتي القوة والضعف ، واتخذت أول الأمر سبيل مقاتلة المسلمين بالتجارة بالطواف حول رأس الرجاء الصالح في محاولة لفرض الحصار الاقتصادي حول عالم الاسلام ، حتى إذا بدأت الدولة العثمانية تضعف . كانت الخطة هي تحرير أجزائها الأوربية والسيطرة على أجزائها العربية . واتصل بهذا المخطط إنشاء قناة السويس في مصر قلب العالم العربي ، كوسيلة لربط العالم الاسلامي بالعالم الغربي ، والسيطرة على مقدراته . يقول

دوجفادا الوزير الروماني في كتابه : مائة مشروع لتقسيم تركيا :

مدة ستة قرون متتابعة ، كانت الشعوب المسيحية تهاجم الدولة العثمانية ، وكان الوزراء ورجال السياسة وأصحاب الأقلام يهيئون برامج تقسيم هذه السلطة ، مما يناهز مائة برنامج ، كانت المصالح الاقتصادية تفرق بين الملوك . فإذا جاء الوقت الذي يتكلمون فيه عن تركيا ( الرجل المريض ) اتفقوا أن السلطة العثمانية لم تسقط دفعة واحدة ، ولكنها تساقطت قطعة بعد قطعة ، في مدة الأعصر الطوال التي كانت أوربا تناصبها العداء ، فما السبب ؟ الأسباب كثيرة ، منها السبب الذي نشأ عنه سقوط أكثر الممالك العظمى في العالم .

( ١ ) سعة الممالك المفتوحة تلك الخارقة للعادة .

( ٢ ) اختلاف الأمم الخاضعة واستحالة إذابتها في بوتقة واحدة ، وصعوبة إعطائها كلها فكرة قومية متحدة .

( ٣ ) فساد الادارة وارتخاء النظم .

( ٤ ) ضعف القوة العسكرية .

( ٥ ) اختلاف الأديان بين سكان السلطنة .

وقد كانت السلطة العثمانية عسكرية محضة مستندة على شرع سماوي ، وكان التسامح هو الذنب العظيم عند الأتراك : فقد أعطت الدولة العثمانية المسيحيين حريتهم الدينية التامة وخولتهم أيضا الحرية المدرسية ، هذه الحرية التي كفلت نموهم وترقيتهم . وقد كانت النصرانية عروة دينية وثيقة كفلت للأمم البلقانية جامعة تتأهب للمقاومة ، أقول : ومن هنا فقد حرص الأوربيون على هدم هذه الجامعة في عالم الاسلام حين استولوا على بلاده . قال دجوفارا : لقد كانت عدواة الأوربيين للمسلمين برغم تسامح المسلمين في الدين والحرية الدينية ، قال المؤرخان : لا منس ورامبو ( من مؤرخي فرنسا ) إن محمداً فاتح القسطنطينية كان كأكثر سلاطين الأتراك والمغول بعيداً عن كل اضطهاد ديني ، كانت حكومة الترك لا تعارض أحداً في دينه . وكان الأتراك لا يحسون امتيازات الكنيسة الأرثوذكسية .

ثم ركز دجفارا على هذا المعنى حين قال : إن من أعظم أسباب انحلال الدولة العثمانية هو مشربها في إعطاء الحرية المذهبية والمدرسية التامتين للأمم

المسيحية التي كانت خاضعة لها . لأن هذه الأمم بواسطة هاتين الحريتين كانت تبث دعايتها القومية ، وتتماسك وتنهض وتسير سيراً قاصداً في طريق الانفصال عن السلطة العثمانية . ومن خطط تمزيق تركيا : ما قدمه الرهبان ومستشارو الملوك عن مشروعات يجعلون التجارة فيهاأساساً للسيطرة ، ومعاودة العمل على استعادة بيت المقدس ، والسيطرة على العالم الاسلامي في استئناف مخططات الحروب الصليبية ، ويرى دجوفارا أن هذه المشروعات بدأت في أواخر القرن السادس عشر بعد موقعة ليبانت البحرية . وكانت الخطة هي جمع كلمة أوربا على وقف تقدم الاسلام في قلب أوربا ، وعمل البابا ماكسيمان على دعوة الملوك والأمراء على مقاومة سلطان الدولة العثمانية مجتمعين تحت زعامة البابا . وتم التحالف في **٢٥** مايو **١٥٧١** على إعلان الحرب الهجومية والدفاعية على الأتراك لاسترداد جميع المواقع التي سيطر عليها الأتراك ، ومن جملتها تونس والجزائر وطرابلس ، وفي موقعة ليبانت فقد المسلمون **٣٠** ألف مقاتل و **١٣٠** سفينة وألف اسير . ووصفت بأنها علامة الانحدار الأكيد للقوة الاسلامية العثمانية .

***

منذ ذلك الوقت بدأت أوربا تستعيد أجزاءها البلقانية الخاضعة للدولة العثمانية ، واستمرت عملية الاسترداد حتى عام **١٩١٨** حين وقف اللورد اللنبي في بيت المقدس ليعلن أن الحروب الصليبية قد انتهت . وقد نشأت في ظل هذه الحركة أجيال من أوربا ، تحمل في عقولها ونفوسها طابع الحقد والكراهية للاسلام متمثلاً في خصومتهم للدولة العثمانية ، وتحمل طابع الانتقام من تركيا وتقسيم أملاكها والسيطرة عليها . وكانت في مجموعها تهدف إلى محو تركيا والاسلام بأسره ، يقول فندال : في هذه المرحلة لم يكن رجل سياسة إلا وعنده برنامج تقسيم للسلطة العثمانية . وقد استمر ذلك حتى أوائل القرن التاسع عشر حين قدم تاليران ( أكتوبر **١٨٠٥** ) مشروعا بتقسيم السلطنة العثمانية . وقد درس نابليون مع الروس هذا المشروع . وكان يرى أن يستولي على فلسطين .

( **٢** ) إذا كان ضعف القوة العسكرية هو العامل الأكبر في تدهور الوحدة الاسلامية العثمانية . فإن عامل الانفصال عن جوهر الاسلام ومفهوم فكره ومقوماته الأساسية كان لاشك بعيد الأثر ، فقد سقطت الدول وانهارت النظم في

وحدات الاسلام خلال تاريخه الطويل نتيجة هذا الانفصال أو الانحراف عن مفهوم الاسلام .

كانت سلبية الصوفية واستعلاء الدراويش وسيطرتهم ، عاملاً هاما وأساسيا في حركة الجزر المندفعة في قوة ، ذلك لأن الفلسفة التي غرستها في أعماق القلوب والعقول كانت سلبية جبرية تدفع إلى الزهادة والانقطاع ، والانصراف عن العمل والبناء ، وقوامها ترغيب الجماهير في الفقر والمسكنة ، وبذلك قضت على أبرز مفاهيم الاسلام وهو الايجابية والعمل والحركة ، ويصور العلامة بهجت الأثري كيف كان سلطان طوائف المتصوفين في العهود الأخيرة خاصة ، أقوى سلطان على عقول الجماهير ، وكيف كان مسلكهم يجري على هدي الطبقات الحاكمة في حجب الأبصار عن ترفهم وباطلهم وتعسفهم ، فوطدت للمظالم والاستبداد ، ووقفت في وجه الاصلاح والمصلحين ، كما حللت طاقة الأمة وقعدت بقواها عن السعي ، ولاشك كانت هذه المرحلة مصدر تأخر الاسلام وانحطاط مجتمعه . بينما كانت الحركة الصوفية في خلال الحروب الصليبية وبعدها علامة قوة وتجمع ، وكانت في قلب أفريقيا وشمال شرق آسيا عاملاً هامّاً من عوامل توسيع رقعة الاسلام ، وكانت نظم « الفتوة الصوفية » قد تحولت في الدولة العثمانية إلى قوة ذات تأثير، وفي مقدمتها الولاية النقشبندية، وكذلك كان نظام « الأخية » وهو ما يسمى بنظام الأخوة ، عاملاً فعالاً في خلق جوّ اجتماعي بعيد الأثر في نجدة الغرباء ، وقضاء الحوائج ، والأخذ على أيدي الظلمة ، والاحتفاء بالغرباء من الناس . غير أن هذه الحركات التي كانت علامات قوة ، لم تلبث أن تراخت مع الزمن ، فأصبحت من عوامل الضعف .

( ٣ ) ومن علامات الضعف تمزق الثقافة الاسلامية . فقد كانت قوة المسلمين في وحدة الثقافة . وقد بدأ ذلك على نحو باهر في مرحلة الغزو الخارجي والمقاومة . غير أن الثقافة الاسلامية قد تقاسمتها : اللغتان الفارسية والتركية اللتان ظهرتا إلى جوار اللغة العربية ، وكان المسلمون قد صاغوا ثقافة موحدة ، هي عصارة الثقافات اليونانية والهندية والفارسية والرومانية التي انصهرت في بوتقة الاسلام ، وتبلورت في إطاره القائم على التوحيد والنبوة والاخاء والحرية والعدل ، ولم يكن الخلاف في الفرعيات إلا محاولات مرنة لتوسيع مجال

المعاملات في نطاق الاجتهاد الذي هو أحد طوابع الفكر الاسلامي الذي يتسم بالوسطية والشمول والتكامل .

وقد كتب الفارسي والتركي والهندي باالعربيـة، ومن ثم كان هذا هو من عوامل تقارب المسلمين والتقائهم ، وحماية للفكر الاسلامي من غلبة عناصر الفلسفات القديمة وتعقيداتها التي تخرج الاسلام عن بساطته ومرونته وقدرته على الحركة والتطور مع الزمن . فلما توزعت الثقافة الاسلامية في اللغات الفارسية والتركية والعربية ، غلبت طوابع جديدة عليها . كان أبرزها الطابع الصوفي الشاعري الذي ظهر في الأدب الفارسي ، ثم سيطر على الأدب التركي . ثم بدأ باللقاء بينهما ، والامتزاج ، مخالفاً لمقومات الفكر الاسلامي العربي اللغة ، مباعداً عن جوهر الاسلام ومقوماته . ومن هنا غلب ذلك الطابع الصليبي الذي اتسم به الأدب العثماني في مرحلة الضعف . وهو ما تنبه له مجددون ومصلحون من بعد أمثال : نامق كمال ، ومحمد عاكف ، وحاولوا تغييره بوصفه عاملاً من عوامل الضعف والتخلف . والحق أن كل محاولات الاصلاح العثماني التي جرت في مجال السياسة أو الفكر لم تحقق نجاحاً ، لأنها أجرت محاولاتها على السطح ولم تتعمق عوامل الضعف ، ولم تحاول التغيير الجذري الذي يجب أن يعتبر أساساً من مفاهيم الاسلام .

( ٤ ) ـ ضمت الدولة العثمانية ـ في قطاعها الأوربي ـ عناصر وشعوباً مختلفة : اليونان والبلقان والمجر والجرمان والسلاف والصرب والرومانيين والألبان والأرناؤوط . وفي قطاعها الاسلامي العربي ، كانت تضم التتار والعرب والأكراد والتركمان والأرمن والموارنة والكلدان والفرس والعثمانيين والبربر . وبعض هذه الأجناس والشعوب تدين بالمسيحية ، وبعضها يدين بالاسلام . وقد عاشت شعوب أوربا خلال هذه القرون الخمسة أو الستة ، وهي تعتبر آل عثمان غرباء عنهم للاختلاف في الجنسية والدين واللغة وآفة العثمانيين أنهم عجزوا عن تذويب هذه الشعوب في جسم الدولة الكبرى ، فظلت هذه الأمم محافظة على قومياتها . ومن هنا كانت حركة انتقاضها بمجرد ضعف الدولة العثمانية وتراجعها سريعة وعاصفة . وقد أعانها على ذلك أنها نهضت وتجمد العثمانيون .

( ٥ ) ـ أغضى العثمانيون عن عملية تصفية الغرب للدولة العربية في

الأندلس . وكان في استطاعتهم الاتجاه إلى أسبانيا وتحرير المسلمين فيها . وقد طال أمر تصفية المسلمين والعرب في أسبانيا زمناً خلال فترة تألق العثمانيين . بل إن بعض الأندلسيين الفارين قد التقوا بقادة الدولة العثمانية ، وشرحوا لهم ما حل بالمسلمين والعرب من نكبات . غير أن العثمانيين لم يتخذوا أي مبادرة في هذا الشأن . ولما علم قادة أسبانيا أمر اتصال مسلمي الأندلس بالعثمانيين ، سارعوا إلى ترحيل المسلمين إلى خارج البلاد ، وقد بلغوا في تقدير المؤرخين ٦٠٠ ألف . وإن استطاع خير الدين بربروس أن يؤازر الأندلسيين بفرض سلطانه على البحر المتوسط ، غير أن ذلك كان في مجال الثأر بعد أن تمت تصفية الأندلس ، ولا جرم قد شنّ بعض الغارات الموفقة على الاسبان في الثغور وعلى قوافلهم البحرية الذاهبة إلى الشرق .

وقد أشار المؤرخ الألماني ليوبولد زنكي إلى موقف آل عثمان فقال « لو هاجم العثمانيون أسبانيا لما تجرأت البندقية على مساعدتها ، وهي تكاد تكون في قبضة العثمانيين لاتصال الحدود بينهما ، وقد كان تعرض السلطان للبندقية في فتح قبرص ، مما حرض فيليب الثاني ملك أسبانيا الخائف من خطر تركيا عليه ضم أسطوله إلى أسطول ( البندقية ) وأسطول البابا فكانت موقعة ( ليبانت ) التي أضاعت سيادة تركيا البحرية ، فلما أمنت أسبانيا عقب موقعة ليبانت من آخر نصير يرجى للمسلمين أقدمت على إجلاء من لم يرض بالتنصر منهم .

## ( ٣٣ )

## حركات اليقظة والتجديد .

* استيقظت روح الاسلام في كل رقعة من رقاع عالم الاسلام ، فهب أتباع محمد من مراكش إلى الصين ، ومن تركستان حتى الكونغو هبوب العاصفة المزعزع لا يعرف مستقرها ، قدح الزناد في صحراء شبه الجزيرة ، ثم أخذ الشرر يتطاير إلى كل جانب من جوانب العالم الاسلامي .

« لوثروت »

ظل الاسلام قادراً على طول تاريخه - كظاهرة عضوية لا تتخلف - قادرا على الانبعاث من داخله حين تنحرف مفاهيمه ، أو يتخلف عالم الاسلام عن مفهوم الاسلام ، وكانت مقومات الاسلام الأساسية قادرة على أن تجدد المجتمع الاسلامي ، وتقوم نظمه في مختلف ميادين السياسة والاقتصاد والثقافة . وقد كانت أزمة عالم الاسلام في مرحلة انحدار الدولة العثمانية قد صدرت عن تجمد مفهوم الاسلام والانحراف عن مضمونه الأساسي بوصفه شاملاً متكاملاً وسطيا ، مما أهوى بالوحدة الاسلامية العثمانية . غير أن اليقظة العربية للقضاء على غلبة مفهوم الجبرية الصوفية لم تتح لها الفرصة الكافية لتحقيق البعث ، كانت قوى الغرب التي ارتدت مهزومة في الحروب الصليبية خلال قرنين ، والتي واجهت « المد الاسلامي » خلال خمسة قرون في قلب أوربا . قد عاودت عملية الغزو من جديد وفق أساليب مستحدثة ، لا تعتمد على الغزو الجائح المضطرب ، بل على

منهج علمي قوامه التنظيم الحربي ، والكشف ، والتجارة ، ومحاصرة الموانىء ، وعمليات التطويق الاقتصادي والعسكري .

ومن هنا سارت حركة اليقظة والتجديد الاسلامي مع حركة الاستعمار والنفوذ الغربي ، وكانت هذه اليقظة تمثل قدرة الأمة العربية على حمل لواء مسيرة الاسلام ، وبعثه وفق مفاهيمه الأساسية ، واندفاعه كقوة مقاومة ضخمة إزاء النفوذ الاستعماري الذي كان مندفعا للسيطرة على عالم الاسلام ، واتخاذ أماكن الدولة العثمانية ، وتمزيق أواصر وحدة عالم الاسلام ، ووحدة الأمة العربية كسلاح أساسي في القضاء على مضامين الفكر الاسلامي التي كانت قادرة على إمداد أهله بالقوة على المقاومة والبناء والحركة .

ومن هنا كانت حركة التجديد واليقظة الاسلامية تعمل في عدة مجالات في وقت واحد .

مجال : تجديد الاسلام نفسه وإزالة عوامل الضعف والجمود .

ومجال : مقاومة نفوذ الاحتلال بالحرب وحركات المقاومة .

ومجال : بناء حركات إصلاحية في مصر والهند والمغرب والسودان وصحراء ليبيا .

ومجال : العمل الوطني الخالص في نطاق التنظيمات السياسية الحديثة .

ومجال : الوحدة العربية بنفس مضمون الوحدة الاسلامية ، وهو التصدي للنفوذ الاستعماري ، وتوسيع جبهة المقاومة وفاعليتها ضده .

* * *

في كل هذه القطاعات وفي كل ما ظهر فوق أرض عالم الاسلام ، منذ بدأت حركة الغزو الاستعماري الحديث . كانت في أعماقها موجة من موجات اليقظة العربية الاسلامية مهما حمل اسمها أو مظهرها من معاني أو مسميات جديدة عصرية . فقد تحولت هذه الحركات ، وتطورت من الطوابع الاسلامية الصرفة إلى الطوابع الوطنية والقومية ، ثم إلى الطوابع الديمقراطية والاشتراكية ، ولم تكن في مجموعها إلا أسلحة لها طابع العصر ، وروح التطور ، ولكنها ظلت في أعماق أعماقها علامات طريق طويل يمكن أن يطلق عليه اسم « اليقظة العربية الاسلامية » .

وفي هذا يقول العلامة : ولفرد كابتول سميث : إن الحركة القومية هي حركة مقاومة للاستعمار الحديث ، ولم تكن حركات القومية مطابقة للاسلام فحسب ، بل هي جزء لا يتجزأ من فكرة بعث الاسلام ، فنضال الأندونيسيين المسلمين للتخلص من الهولنديين ، وكفاح السوريين ومسلمي العرب للتخلص من الفرنسيين ، كل ذلك كان جزءاً من حركة المسلمين لبناء مجتمع إسلامي في العصر الحاضر . بل إن طرد الأتراك لليونانيين عام **١٩٢٢** ، والايرانيين للقضاء على منطقة نفوذ الروس والانجليز كلها خطوات نحو إحياء الاسلام . فكل المسلمين مسلمون اجتماعيا وسياسيا ، والصفة الاسلامية غالبة على كل الحركات الوطنية حتى في الحالات التي يكون القادة فيها قد تأثروا بالغرب تصبح هذه الحركات إسلامية بالنسبة للجماهير والأتباع . وبالجملة فان الاسلام في العصر الحاضر قد احتضن كل النزعات والحركات القومية .

وعندنا أن الغزو الاستعماري الجديد . كان هو التحدي الكبير الذي لون حركات اليقظة والبعث الاسلامية ، وأعطاها طابع التحدي وردّ الفعل ، والمقاومة للنفوذ الغربي الذي لم يكن تسلطا سياسيا أو عسكريا فحسب ، ولكنه سيطرة كاملة للمقدرات والقيم في مجال الفكر والمجتمع والاقتصاد والسياسة . ومن هنا فقد كانت مواجهته للفكر الاسلامي بفكر آخر من أكبر تحديات حركة التمدن الاسلامي .

## - ٢ -

بدأت اليقظة العربية الاسلامية كقوة حية بديلة للقوة العثمانية الاسلامية التي ضعفت وأصابها التحلل في منتصف القرن الثاني عشر **١١٥٣** هـ ، **١٧٤٠** م جريا على ناموس حتمية التجدد وتصحيح المفاهيم ، وهي الظاهرة التي لم تتخلف خلال تاريخ الاسلام كله ، سواء بالدعوة الفكرية على يد المصلحين أم بالحركة السياسية على يد القادة وبناة الدول . وقد برزت ظاهرة التجدد هذه المرة في قلب الأمة العربية ، ومن محورين في وقت واحد : محور « قاهرة الأزهر » ومحور جزيرة العرب حيث انبعث الاسلام أول مرة .

أما في القاهرة فكانت تحمل طابع التحرر من ظلم الأمراء والولاة ، وهو من أبرز مفاهيم الاسلام ، وكان ذلك على أيدي العلماء الذين برزوا لأول مرة

كقوة قائلة بعد أن كان النفوذ الاجتماعي كله في يد زعماء الصوفية . وفي الجزيرة كانت الدعوة تحمل طابع التحرر من الجبرية الصوفية بإبراز مفهوم الاسلام الأصيل : التوحيد .

وفي خلال ستين عاما منذ ظهرت :عوة التوحيد بقيادة الامام محمد بن عبد الوهاب في نجد حتى وصول الحملة الفرنسية إلى مصر ، كانت القاهرة تموج بحركة العلماء في مقاومة نفوذ الأمراء باسم مفهوم الاسلام ، وفي أوائل القرن الثالث عشر الهجري كانت اليقظة الاسلامية التي قادتها الأمة العربية سنة **١٢١٣** هـ ، **١٧٩٨** م . قد أخذت تعمق وعيها في المجالين : تحرير العقيدة بالتوحيد وتحرير الأمة بالحرية ، ولم يكن مفهوم التوحيد في الاسلام إلا خلعا للعبودية والذلة لمن سوى الله وحده .

ومن هنا كانت الدعوة إلى التوحيد نفسه ، سلاحاً أساسيًا لمقاومة الاستبداد . ثم امتد المعنى واتسع بمقاومة النفوذ الأجنبي والاستعمار . وكان هذا المفهوم قد نضج خلال ستين عاما حتى بدا أثره واضحا في مقاومة أول غزو استعماري مباشر ، بعد مرحلة الكشف والاستعمار المبطن بالتجارة في شواطىء أفريقيا ، والجزيرة العربية والهند وأرخبيل الملايو وهي مرحلة ( **١٦٠٠** - **١٧٩٨** ) .

وكان وصول الحملة الفرنسية إلى مصر إيذاناً ببدء مرحلة الغزو العسكري السافر لعالم الاسلام ، والتركيز بنوع خاص على « الأمة العربية » بحسبانها القوة الجديدة التي تحمل لواء اليقظة في سبيل مقاومة .

( ١ ) جبرية الصوفية : التي كانت طابع المرحلة السابقة من الاستسلام للظلم .

( ٢ ) مقاومة استبداد الأمراء ونفوذ الغرب المتزايد ، وباسم مفاهيم الاسلام الأصيلة التي حملها العلماء ، كانت مقاومة مصر للحملة الفرنسية **١٩٧٩** ، وللحملة الانجليزية بعدها **١٨٠٧** وللوالي العثماني خورشيد ، ثم لمظالم محمد علي من بعد ، وكان عمر مكرم رمزاً على هذه المرحلة كلها ومعه عديد من العلماء .

( ٢ ) ثم تطورت حركة اليقظة الاسلامية وتأقلمت في طوابع مختلفة ، كان أبرزها حركة السنوسي في طرابلس، ثم حركة المهدي في السودان ، وهما حركتان مستمدتان أساساً من مفهوم الاسلام ، وتعتبران استمراراً لحركة التوحيد . وقد كانت الحركة السنوسية بمثابة رد فعل للنفوذ الاستعماري بعد احتلال فرنسا للجزائر وهو أول استعمار مركز على الأرض العربية ، وقد واجهه المسلمون بعملين متوازيين :

( ١ ) العمل العسكري الحربي بقيادة الأمير عبد القادر . وقد استمرت أعمال المقاومة سبعة عشر عاماً .

( ٢ ) العمل التربوي الاسلامي بقيادة الامام محمد علي السنوسي للقيام بحركة إسلامية شاملة لمواجهة الاستعمار الغربي المتحضر للانقضاض على العالم العربي ، ثم كانت حركة محمد بن أحمد المهدي ( ١٢٨٧ هـ ، ١٨٧٠ م ) حركة سياسية تحريرية للتخلص من النفوذ المسيطر . وقد قضى عليها الاستعمار البريطاني بعد احتلال مصر .

( ٣) ثم انبثقت من قلب هذه الحركة موجة أخرى هي حركة « الجامعة الاسلامية » التي قادها جمال الدين ( ١٢٨٨ هـ ، ١٨٧١ م ) والتي تبناها بعد ذلك السلطان عبد الحميد واصطدمت في آخر أيامها بحركتي الجامعة الطورانية التركية والوحدة العربية .

( ٤ ) ومن خلال حركات اليقظة ظهرت ثورة الهند ( ١٨٥٧ ) وثورة فارس ( ١٨٩٥ ) وثورة مصر بقيادة عرابي ١٨٨٢ .

( ٥ ) حركة الاصلاح الدستوري والاجتماعي ، ويتمثل في دعوة خير الدين التونسي ١٢٧٨ هـ ، ١٨٦٠ م وحركة إسماعيل المويلحي في الدعوة للدستور المصري ١٢٩٧ هـ ، ١٨٧٩ م .

ولم تلبث حركة اليقظة العربية الاسلامية أن تبلورت في منهج علمي فكري ثقافي في حركتين متجاورتين : حركة محمد عبده ، وحركة عبد الرحمن الكواكبي . وقد توسعت حركة محمد عبده إلى آفاق المغرب كله ، وتبلورت في الحركة السلفية التي قاومت النفوذ الاستعماري الفرنسي . وهكذا حفل القرن الثالث عشر الهجري بحلقات متتابعة ، وموجات متوالية من عوامل اليقظة في مختلف ميادين المقاومة ، والتجديد والاصلاح . فاذا أضفنا إلى هذا حركة تطوير

الفكر بالترجمة والتأليف التي قادها رفاعة الطهطاوي وعلى مبارك ، وحسن العطار ، وحسن الطويل عرفنا إلى أي مدى أمكن تعميق حركة اليقظة .

وأبرز ما اتسمت به هذه المرحلة :

( ١ ) حركات مقاومة الاستعمار مقاومة عسكرية في الجزائر ( الأمير عبد القادر ) وفي مصر ( عرابي ) وفي السودان ( التعايشي ) وفي القوقاز ( شامل ) وثورة المسلمين في الهند .
( ٢ ) حركت فكرية تحولت إلى دولة في نجد ( **١٤٧٠** هـ ، **١٨٩٣** م ) .
( ٣ ) حركة سياسية في مصر أقامت امبراطورية عربية ( مصر والشام والحجاز ) .

وقد استطاع النفوذ الأجنبي المندفع في حركة الغزو الاستعماري الادالة من هذه الحركات وفرض نفوذه العسكري والسياسي ، غير أن الملاحظ بوضوح أن المسلمين والعرب لم يسلموا إلا بعد نضال مرير ، وبعد أن استنفذوا كل وسائل المقاومة . وإذا كانت حركة المقاومة العسكرية توقفت ، فإن حركة اليقظة العربية الاسلامية ، وهي في أحد شقيها حركة مقاومة بالكلمة لم تيأس ، حتى بعد سقوط الوحدات المختلفة لعالم الاسلام في قبضة نفوذ الاحتلال ، فقد تعمقت حركة جديدة من المقاومة عن طريق الفكر ، وتصحيح مفاهيم الاسلام والكشف عن جوهره ، ومحاربة النفوذ الاستعماري من خلال القيم الأساسية للاسلام والفكر العربي .

## - ٣ -

# اليقظة في العالم العربي

إن مفهوم حركات اليقظة والتجديد في تاريخ الاسلام كله تتمثل في هذه القاعدة : « إن الاسلام مهدد دائما بالاضمحلال » لما يتطرق إلى أسسه من بدع تغطي وجهه الحقيقي ، وتحجب مفهومه الأساسي ، وأهدافه وقيمه العليا . وأنه لابد من تطهير مجرى الاسلام أولاً بأول ، والحيلولة دون انحرافه عن مفاهيمه الأساسية ، وعن جوهره المتمثل في : « الشمول والتكامل والوسطية » ووفق هذا المفهوم بدأت حركة التوحيد وتابعتها حركات تصحيح المفاهيم والمقاومة والجامعة الاسلامية والوحدة العربية .

١ ـ قاد حركة التوحيد : الامام محمد بن عبد الوهاب وكانت أبرز أهدافه :

( ١ ) صياغة شعار الاسلام في كلمة التوحيد دون سواها .
( ٢ ) تنقية الاسلام من البدع والأدران التي علقت به .
( ٣ ) التحرر والاستقلال ورفع يد الاستغلال والظلم عن ديار العرب .
( ٤ ) إيجاد وحدة سياسية إسلامية .

ويقدر الباحثون أن « دعوة التوحيد » كانت رد الفعل الطبيعي لانحراف حركة الصوفية عن مفهوم الاسلام وأنها كانت محاولة لتصحيح الجوهر بعد أن

غلبت الصوفية في فترة الانحدار والضعف مفهوم « الجبرية » والاستسلام للظلم والاستبداد .

وليس من شك أن الحركة الصوفية استطاعت أن تحقق في مرحلة الوحدة الاسلامية العثمانية نتائج ضخمة في كسب مجموعات كبيرة من الوثنيين وتحويلهم إلى الاسلام ، حيث استطاعت أن تمد نفوذ الاسلام الفكري لا السياسي إلى أجزاء واسعة في شمال وغرب ووسط أفريقيا وجنوب شرق آسيا . غير أن هذه الجماعات الاسلامية الجديدة كانت مفاهيمها قاصرة على المفهوم الروحي الخالص ، وهو شطر الاسلام ، وليس الاسلام كله .

وقد كان أعمق ما أبرزته دعوة التوحيد أمرين هامين هما : جماع مفهوم الانبعاث في الاسلام :

( أولاً ) باب الاجتهاد مفتوح ، وأن لكل مسلم الحق في أن يجتهد لفهم دينه .

( ثانياً ) ضرورة القيام بفريضة الجهاد .

وقد ركز الامام محمد بن عبد الوهاب على اعتبار الكتاب والسنة هما دستور الاسلام الوحيد ، ونادى باتخاذ أسلوب الفطرة في فهم الاسلام بعيداً عن تعقيدات المتكلمين والفلاسفة والصوفية . ويرى بعض المؤرخين أن « دعوة » التوحيد التي أطلق عليها « الوهابية » والتي تحولت إلى « حركة » حين اتصلت بالأمير سعود ، لو تحقق لها أن تحيط دعوتها بأسلوب من البراعة السياسية ، والمرونة لاستطاعت أن تكسب القلوب إليها .

وعندنا أن طابع هذه الدعوة مستمد من بيئتها ، وتكوين دعاتها النفسي والاجتماعي ، وأنها في مواجهة مد عنيف من الجبرية والضعف والاستسلام الذي فرضته الصوفية ، قد اقتضت ـ شأن كل الحركات والدعوات التي تقوم في مواجهة تحد كبير ـ أن تصل إلى نفس المدى من التطرف في الجانب الآخر ، وهذا سر ما وصفت به من طابع عسكري أو تشدد ، أو عدم المرونة في قبول وجهة النظر الأخرى ، أو المساومة ، أو ما جرت إليه من تصنيف المسلمين ، بحيث اعتبرت عدداً كبيراً منهم ممن تجب محاربتهم ، ويتصل بهذا ما دعاه إلى القصور عن طابع

العصرية في الحرب والتسليح ، أو ميدان الصناعة أو غيرها . وعندنا أن أهميتها لم تكن في مجال « الحركة » وإقامة الدولة بقدر ما كان في بعث النفس العربية ، وإيقاظ العقل الاسلامي وإعادة النظر في مفهوم الاسلام وتحريره من الجزئيات والانحرافات والبدع ، وتصفية العقيدة ، وتطهير الفكر الاسلامي من الانحرافات والأوهام . ذلك أثرها البالغ العميق في كل حركات اليقظة والتحرير والاصلاح الاسلامي التي تلتها .

وبالجملة فإن دعوة التوحيد ( الوهابية ) كانت ثورة على الاستبداد والضعف والانحلال الذي آل إليه عالم الاسلام ، وأول مواجهة عربية حقيقية لحمل لواء الدعوة الاسلامية بعد ضعف الدولة العثمانية عنها . وقد استمدت مفهومها من نفس الأسس التي أقام عليها ( ابن تيمية **٧٢٨** هـ ) وتلميذه ابن الجوزية دعوتهما قبل أربعة قرون ، وكانت دعوة ابن يتمية قد ضعفت ، ولكنها لم تتوقف ، فقد ظل العلماء يعتقدونها ، ويتوالى ظهورها ، جيلا بعد جيل ، ومن السابقين لمحمد بين عبد الوهاب : عثمان النجدي سنة **١٠٩٦** في نجد وإسماعيل الصنعاني في صنعاء ( وهو مؤلف كتاب تطهير الاعتقاد ) وقد ترك محمد بن عبد الوهاب بحق أثراً في يقظة الاسلام أكبر مما كان يتطلع إليه ابن تيمية . وقد دخلت الحركة الوهابية فعلا في صراع مع الشيعة والمتصوفة وصل إلى القتال المسلح على حدود العراق .

## الحركة الصوفية

ظلت الحركة الصوفية منذ القرن الثامن الهجري توسع آفاق الاسلام ، وكانت حركة ابن تيمية ومن بعده ابن القيم في تصحيح مفاهيمها ، متصلة مستمرة في عديد من تلاميذهما ، وإن ظلت خافتة إزاء استغلال الأمراء والولاة للحركة الصوفية بوصفها وسيلة إلى تأصيل التواكل والتسليم والقبول بجبرية الظلم . وقد بلغ أمر الصوفية قمته في الانحراف عن مفاهيم الاسلام حين انضم الفقهاء والعلماء إلى المنظمات الصوفية وانصهروا فيها ، غير أنه منذ منتصف القرن الثاني عشر الهجري بدأت يقظة العلماء والفقهاء . وقد اشتد تأثير مفهوم ابن تيمية لجوهرالاسلام سيطرة على نفوسهم ،وأخذت كتابات ابن تيمية تحيا من

جديد على أقلام بعض أتباعه حيث كانت صيحة محمد بن عبد الوهاب أقوى هذه الصيحات ، ويرى « جب » أن الحركة الصوفية قد أكسبت الاسلام حيوية كبيرة ، غير أن غلبة مفاهيم الأدب الفارسي ، والأدب التركي المستمد منه ، والقائمة على طوابع صوفية مغرقة في الانحراف نحو الحلول ووحدة الوجود . قد أبعد مفهوم الصوفية عن شمول الاسلام وقصره على جانب القلب وحده ، ومن ثم كان لابد كرد فعل لا يتخلف في تاريخ الاسلام ، وأن تبرز حركة لتصحيح المفاهيم ، والكشف عن جوهر الاسلام وحقيقته وفق أسسه الأولى ، ممثلة في حركة التوحيد التي حمل لواءها محمد بن عبد الوهاب ، وأهمية هذه الحركة ليس في تأسيس دولة بقدر أهميتها في خلق نقطة تحول جديدة عن محور الروحية الصوفية الذي ركز المسلمون عليه أكثر من خمسة قرون إلى مفهوم الاسلام الأساسي : متكاملا شاملاً جامعاً بين العقل والقلب ، مهاجما أشد الهجوم مفهوم « الجبرية » الذي لا يعترف به الاسلام ولا يقرّه ، والذي كان مصدراً من مصادر الضعف الذي عرّض عالم الاسلام لأزمته المتمثلة في تدمير الغرب للوحدة الاسلامية العثمانية . وتطويق عالم الاسلام كله وتمزيقه بالاحتلال والسيطرة .

ومن هنا كانت أهمية « حركة التوحيد » في أنها تمثل طلائع اليقظة العربية الاسلامية قبل وصول الحملة الفرنسية من ناحية ، وإيقاظ عالم الاسلام لمواجهة الغزو الغربي ، وقد كان أثرها واضحا في حركات : شريعة الله . وسيد أحمد ضد سلطة المغول والبريطانيين ، وحركة أحمد خان ( الهند ) والسنوسية ( طرابلس الغرب ) والمهدية ( بالسودان ) وحركة جمال الدين في الهند وفارس ومصر ، وحركة محمد عبده ، وصحيفة المنار ورشيد رضا . كما امتد نفوذ حركة التوحيد ( محمد بن عبد الوهاب ) إلى قلب الأقطار البعيدة مثل نيجيريا وسومطره . وكان دورها في تأريث الحركات الثورية .

وكان اتجاه الحركات الاسلامية كلها واضحاً في مواجهة النفوذ الغربي ومقاومته ، وفي نفس الوقت ، وفي ضوء مفهوم التوحيد المجدد ظهرت حركات ذات طابع صوفي كانت بعيدة الأثر في نشر الاسلام وتربية الشخصية الاسلامية وبنائها كشخصية مثقفة ومحاربة في نفس الوقت ، وكانت الحركة السنوسية تمثل هذا المفهوم على خير وجه كما تمثله الحركة المهدية . وكان لنشاط الطرق التيجانية

والقادرية والمرغنية الصوفية في مجال التبشير بالاسلام أبعد الأثر . فقد قامت بدور كبير خلال القرن الثاني عشر والثالث عشر في كل من الجزائر ومراكش ، وفي صحراء أفريقيا الغربية ، وقامت في الهند حركات مماثلة تحت قيادة الفرق الصوفية . غير أن بعض هذه الفرق الصوفية قد انحرفت من بعد مرة أخرى ، في مواجهة الاستعمار الفرنسي الذي حاول استغلالها فكانت الحركة السلفية المغربية حركة مقاومة لها .

## السنوسية ( ١١٤٧ هـ ١٨٣١ م )

تمثل « السنوسية » الحلقة الوسطى بين دعوة التوحيد وبين الجامعة الاسلامية ، وتجمع في نفس الوقت بين الدعوة والحركة ، وتربط بين التوحيد والتصوف . وقد انبعثت السنوسية كرد فعل لاحتلال فرنسا للجزائر . وكان محمد بن علي السنوسي جزائري الأصل ، فدفعته الصدمة المذهلة إلى الطواف بالعالم الاسلامي بحثاً وراء محاولة جماعية إسلامية للمقاومة . ثم استقر رأيه على العمل في الصحراء على دعامتين أساسيتين :

( أولا ) بناء أجيال من شباب المسلمين بالتربية الاسلامية والعسكرية في نفس الوقت .

( ثانيا ) نشر الاسلام في مجاهل أفريقيا .

وقد رسمت السنوسية مفهومها على أساس أن تحرير عالم الاسلام سياسيا من الغزو الغربي يجب أن يسبقه « انعاس روحي ومعنوي عميق للمسلمين » توطئة لتحقيق وحدة الشعوب الاسلامية ، وقد قامت على أصول ثلاثة : الدين والاجتماع والسياسة .

لقد انتشرت السنوسية في السودان الغربي وأواسط أفريقيا . وقد كان الامام السنوسي مجتهداً مزج بين المذاهب الأربعة السنية المعروفة . ثم أضاف إليها ما استنبطه من السنن والمذاهب ، وأجملها في مذهب واحد . وقد بلغ عدد الزوايا السنوسية **١١٩٧ هـ ١٨٨٤** م مائة منتشرة بين برقة وطرابلس وفزان

وطريق مصر وطريق واداي وشبه الجزيرة العربية ، والجريد بتونس ومراكش ، وتوسع نفوذ السنوسية في أفريقيا الغربية . ولما ولي محمد المهدي بعد وفاة والده ١٨٩٥ عمق الدعوة ، ودعم نفوذها ، فعلم السنوسيين استعمال الأسلحة التي كانت تهرب من ميناء طبرق ومن هنا بدأ نفوذ السنوسيين يفزع الاستعمار الأوربي ، ويهدد نفوذه في قلب أفريقيا . واتسع نطاق الحركة سياسياً ، فبلغ من الحدود المصرية شرقاً إلى شواطىء الأطلنطي غرباً من خلال ليبيا وبرقة وطرابلس وفزان وصحراء الجزائر ومنطقة تشاد ، وكان للسنوسيين من بعد دور ضخم في مقاومة الاحتلال الايطالي سنة ١٩١١ .

## الجامعة الاسلامية

ظهرت الجامعة الاسلامية كمرحلة متقدمة لدعوة التوحيد ولمعت كمحاولة سياسية للتجمع لمواجهة الغزو الاستعماري ومقاومته كوحدة ، وكان مفهوم جمال الدين الأفغاني للجامعة الاسلامية مفهوماً تقدميا قائما على استخلاص أكبر قدر من الحضارة لمواجهة الاستعمار بنفس أسلحته ، والاقبال على العلوم الأوربية ، وأساليب الحكم العصرية ، وتطهير الاسلام من الشوائب ، وتضامن المسلمين وتوحيد كلمتهم ، والتضييق على استبداد الأمراء بالحكم الدستوري والشورى ، واستكمال أسباب القوة المادية ، ونبذ الخلافات الجنسية والمذهبية . وقد كانت دعوة جمال الدين الأفغاني أقوى موجة من موجات مفهوم اليقظة العربية الاسلامية ، وكان إيمان جمال الدين بأن الأمة العربية هي التي تستطيع أن تحمل لواء اليقظة هو ما دفعه إلى أن يترك الأفغان والهند وفارس ، وأن يختار مصر لبث دعوته ، وقد تابعه مجموعة ضخمة من المفكرين الذين برزوا أوائل القرن الرابع عشر : محمد عبده ، ورشيد رضا ومصطفى الغلاييني ، وشكيب أرسلان .

وقد حاول السلطان عبد الحميد أن يتلقف دعوة جمال الدين بعد أن تحررت الأجزاء الأوربية من الدولة العثمانية وانفصلت عنها ، وحين التقى جمال الدين والسلطان عبد الحميد تبين مدى الفرق بين الفكرة التي يحملها الأفغاني في سبيل غاية حقيقية ، والفكرة التي يحملها السلطان في سبيل دعم الدولة العثمانية ، فقد واجهه جمال الدين بمشروع يرمي إلى جعل كل من الولايات

العثمانية خديويات على غرار خديوية مصر تصبح مستقلة ذاتيا وتابعة للسلطنة ، فاذا تحقق ذلك أمكن أن تتم خطوة تلقائية تالية لذلك بأن تنتظم إيران وأفغانستان والهند تحت لواء السلطنة ، ويصبح الاسلام قوة منيعة يرهب الغرب جانبها ، وتستطيع أن تواجه الزحف الاستعماري ، ويتحقق قيام جامعة إسلامية لا تضم تركيا والعالم العربي وحدهما . بل تضم العالم الإسلامي كله .

ولابد لنجاح المشروع من استعراب الأتراك ، وجعل اللغة العربية لغة الدولة الرسمية « لو استعرب الأتراك لترأسوا ذلك الملك وعدلوا في أهله » غير أن السلطان عبد الحميد لم يكن حين دعا إلى مشروعه ليستهدف مثل هذا العمل الكبير ، ولذلك فقد طوي مشروع جمال الدين .

* * *

وقد صور جمال الدين مفهومه لإيقاظ الإسلام في عبارات واضحة صريحة حين قال : « العالم النصراني على اختلاف أممه وشعوبه عرقا وجنسية هو عدو مقاوم مناهض للشرق على العموم والإسلام على الخصوص ، تجميع الدول النصرانية متحدة معاً على دك الممالك الإسلامية ما استطاعت إلى ذلك سبيلاً ، إن الروح الصليبية لم تبرح كامنة في صدور النصارى كمون النار في الرماد ، وروح التعصب لم تنفك حية معتلجة في قلوبهم حتى اليوم كما كانت في قلب بطرس الناسك من قبل .

فالنصرانية لم يزل التعصب مستقرا في عناصرها ، متغلغلاً في أحشائها ، ومتمشيا في كل عرق من عروقها ، وهي أبداً ناظرة إلى الإسلام نظرة العداء والحقد والتعصب الديني الممقوت تنتحل الدول النصرانية أعذاراً لها في كرها وهجومها وعدوانها على الممالك الإسلامية وإذلالها وإكراهها بقولها ان الممالك الإسلامية هذه إنما هي من الانحطاط والتدني بحيث لا تستطيع أن تكون قوامة على شؤون نفسها ، وفوق جميع هذا . فهي النصرانية عينها لم تفتأ تعمل هذا من ناحية ، وتتذرع بألوف الذرائع من نواح أخرى حتى بالحرب والحديد والنار للقضاء على كل حركة حاولها المسلمون في بلادهم وديارهم في سبيل الإصلاح والنهضة ، جميع هذا يوضح أن العالم الإسلامي يجب أن يتحد اتحاداً دفاعيا عاما مستمسك الأطراف وثيق العرى ليستطيع بذلك الذياد عن كيانه ووقاية نفسه من

القضاء المقبل ، وللوصول إلى هذه الغاية الكبيرة ، إنما يجب عليه اقتضاء اسباب الغرب والوقوف على مقدراته وقدراته .

وبالجملة فإن جمال الدين كان يرى أن ضعف المجتمع الإسلامي هو علة تأخره ، ومن أجل هذا طاف بالبلاد الإسلامية ( الهند . إيران. أفغانستان مصر . تركيا ) يلهب حماس المسلمين ويذكرهم بأمجاد الماضي ، ويدعو إلى أمرين : مقاومة النفوذ الأجنبي ، والقدرة على كسب علوم الغرب وثقافته ، وكان طابع المقاومة للجبرية واضحاً في كلماته حين دعا إلى أن يغير المسلمون ما بأنفسهم حتى يغير الله ما بهم . وذلك بالعمل وشجب الجمود .

## حركة محمد عبده

وتمثل حركة محمد عبده امتداداً طبيعيا للعمل السياسي الذي قام به مع جمال الدين الأفغاني ومنطلقا منه إلى مفهوم جديد ، ربما جاء نتيجة لأن أهداف جمال الدين الأفغاني لم تتحقق ، وربما لطبيعة تكوين محمد عبده . ذلك هو تبلور إيمانه في حقيقة واحدة هي : أن التربية والعلم هما المجال الوحيد لليقظة ولمقاومة الاستعمار .

## الكواكبي ١٨٤٨ - ١٩٠٢

قام مفهوم الكواكبي لليقظة الإسلامية على أساس أن العرب هم القوة الوحيدة لجمع الكلمة ، وأن يقظة الإسلام انبعثت أساساً من الأمة العربية ، فقد أكدت كتابات الكواكبي مفهوم قدرة الأمة الغربية على حمل لواء يقظة الإسلام . وإذا كان جمال الدين قد هاجر إلى مصر بوصفها قلب الأمة العربية والعالم الإسلامي كله في هذه الفترة ، وإذا كان جمال الدين يدعو إلى تجميع المسلمين في وجه الغزو الأجنبي فان الكواكبي قد اتخذ ذلك اساساً للأمة العربية وبذلك تكون قادرة على أن تحمل لواء المقاومة والتجمع ورفع راية الاسلام ، والدفاع عنه ، وتصحيح مفاهيمه .

وقد هاجم الكواكبي التصوف الزائف الذي حمله بعض دعاة الجبرية . ممن كانوا يبثون في الناس روح الاستسلام والاستكافة للحاكم المستبد ، وللغزو

الغربي ، وكان يرى أن انحدار الدولة العثمانية وأزمة عالم الإسلام في هذه المرحلة نبعت أساساً من فرض « جبرية » ليست من الاسلام أساساً ، استطاعت أن تشل العزائم ، ولذا فقد كان إيمانه منصبا على إيقاظ مقومات الإسلام الأصيلة وهي : الحرية والقوة والوحدة والعلم ، وكان أبرز ما دعا إليه الكواكبي مقاومة الاستبداد والمستبدين .

وقد حلل الكواكبي في كتابه « أم القرى » أسباب الضعف والتأخر ، وقال إن مرجعه إلى ضعف الدولة العثمانية في الستين سنة الأخيرة ، وحمل على « الأمراء المستبدين ، والعلماء المدلسين ؛ وجهلة المتصوفين » ويرى الكواكبي أن موجة الاستعمار الغربي الحديث قد انصبت بأكبر قدر منذ فاتحة القرن التاسع عشر ( الثالث عشر الهجري ) على العالم العربي .

## الحركة السلفية

ومن خلال مفاهيم الإمام محمد عبده التي تبلورت بعد الثورة العرابية ، وبعد عودته من المنفى ( ١٨٨٦ تقريباً ) وبعد انفصاله عن السيد جمال الدين الأفغاني وعلى أساس الخطة التي حملت لواءها « المنار سنة ١٨٨٩ » وقادها تلميذه « رشيد رضا » تكونت مدرسة في شمال أفريقيا . وقد تمركزت هذه المدرسة في المغرب الأقصى الذي لم يتح للشيخ محمد عبده زيارته حين زار تونس والجزائر .

ويرجع العلامة علال الفاسي جذور هذه الحركة إلى أحمد بن حنبل وابن تيمية والشاطبي ، وإلى دعوة الامام محمد بن عبد الوهاب التي حملت لواء « تجديد عقائد التوحيد وتخليصها من شوائب البدعة والعودة إلى الإسلام في معينه الأول : الكتاب والسنة .

ولقد قامت الحركة السلفية في المغرب وفي الجزائر كرد فعل لما نشأ عن انتشار الشاذلية في البلاد مع سوء الفهم لصوفيتها الحقيقية . إذ ترتب على ذلك ازدهار شأن طبقة من المشايخ والمرابطين ؛ أصبحوا يملكون زمام الأمر في الأمة ويسيرونها في الاتجاه الذي يريدون . ورأى الأتراك أن يستغلوها لاستمرار سلطتهم في الجزائر ، أما في المغرب حيث لا نفوذ للسلطان العثماني . فقد أمكن خروج هذه الدعوة . فقد دعا السلطان مولاي سليمان العلوي إلى السلفية الأولى ، ومقاومة الطرق وتشعباتها ، ويرجع العلامة الفاسي تحول الانتباه إلى القوة العسكرية والعمل السياسي كنتيجة لهزيمة المسلمين أمام قوات الاستعمار في

الجزائر مما دفعهم إلى التفكير في : « التجديد العسكري والاجتماعي » .

فقد كتب أحد علماء المغرب كتاباً أسماه « كشف الغمة في أن الحرب النظامية واجبة على هذه الأمة » وقال : إن الأوربيين تطوروا في أساليبهم العامة ، بينما نحن لازلنا نواصل الأساليب العتيقة في جهادنا وفي تدبيرنا . وكان أول من تصدى لنشر دعوة اليقظة والإصلاح وهي ما يطلق عليها في المغرب الدعوة السلفية ، الشيخ عبد الله السنوسي . أحد علماء القرويين الذي سافر إلى المشرق واتصل بأقطاب الدعوة ، وصدع بدعوته داخل الجامعة القروية . ثم تتلمذ عليه « محمد بن العربي العلوي » ثم ظهر الخضر السنقيطي وأبو شعيب الدكالي ، وقد كان للعروة الوثقى التي أصدرها الأفغاني ومحمد عبده في باريس . ثم للمنار أثره البعيد المدى في تأريث مفاهيم تحرير العقيدة ، وارتباط ذلك بمقاومة النفوذ الأجنبي ، وقد اتخذت الحركة السلفية في المغرب خطوات أشد حسماً وعنفاً عندما استغل الفرنسيون بعض الطرق ، مما أدى إلى الحكم على رئيس الزاوية الكتابية بالاعدام وتنفيذه ،وصدور رسائل وكتابات عنيفة في مهاجمة الكتانيين وغيرهم من رجال الطرق ، ووسعت الحركة نطاقها بمقاومة الشيوخ الذين كانوا يستغلون الدين والتصوف لأغراضهم الشخصية ، واستطاعت هذه الحركة من بعد ومع الزمن أن تحل محل التصوف ممثلة قوة الإسلام وسلامة مفاهيمه .

## - ٤ -

# اليقظة في عالم الاسلام

لم تكن حركة اليقظة التي ظهـرت في القاهـرة ونجـد هي أولى حركات اليقظة في عالم الإسلام ، فقد شهـدت « الهنـد » الإسـلامية في خلال القـرن الحادي عشر دعوة أحمد عبد الأحد السرهندي الذي ظهر في حكم « جلال الدين أكبر » وقاوم دعوة أكبر إلى ما ادعاه من دين جديد أطلق عليه « الدين الإلهي » وكان السرهندي من تلاميذ الطريقة النقشبندية . وقد استطـاع أن يواجـه هذا الانحراف ويقاومه ، وأن يقاوم حسم ابنه ، وأن يبث دعو الاسلام الصحيح في رجال دولته وجيشه ، وأن يستنفرهم لخدمة الإسلام ، كما قاوم طائفة الصوفية الذين تأثروا بفلسفة البراهما ، وهاجم فكرة « وحدة الوجود والحلول والاتحاد ، التي تغلغلت في التصوف والآداب ، وقضى على فكرة استقـلال التصـوف من الشريعة ، وهاجـم كثـيرا من العقائـد والأفـكار والعـادات التـي تسربـت إلى المسلمين ، ودعا إلى التصوف الإسلامي الخالص من منابع القرآن ، كما هاجم أباطيل العلماء الخاضعين للأمراء ، ودحض ما ابتدعوه ونسبوه إلى الإسـلام ، ونصح الأمـراء والحـكام ، وحـارب التظاهـرات والبـدع ( تـوفي سنـة ١٠٣٤ هـ ١٦٢٥ م ) وكانت حركة شاه ولي الله المتوفى ( سنة ١١٧٦ هـ ١٧٦٢ م ) تمثلا لمفاهيم حركة التوحيد التي حمل لواءها محمد بن عبد الوهاب ، ثم ظهر أحمد عبد الرحيم الدهلوي ١١٧٦ هـ الذي دعا إلى تصحيح مفهوم الاسـلام والاتصـال المباشر بالكتاب والسنة ، ونشر علم الحديث ، وبيان أساليب الاسلام وأسسه في

تنظيم الحياة والمجتمع ، وأبرز كتابه « حجة الله البالغة » وقد ظهر الدهلوي بعد ذيوع دعوة التوحيد « الوهابية » وقد تأثر بها . ثم ظهر الإمام أحمد بن عرفان الشهيد وبدأ دعوته ١٢٣٦ هـ . وقد دعا الناس إلى الدين الخالص ، والتوحيد ، واتباع السنة ، ومحاربة البدعة ، واستطاع أصحابه إنشاء دولة في ( بشاور ) طبقوا فيها نظام الإسلام ، وجمعوا بين العبادة والجهاد ، واستشهد ١٢٤٦ هـ .

وقد كان لهذه الحركات أثرها في ثورة الهنود المسلمين على الانجليز ( ١٨٥٧ - ١٢٧٤ هـ ) هذه الثورة التي جالد فيها المسلمون النفوذ البريطاني . وفي أعقاب انتصار البريطانيين تحولت شركة الهند الشرقية الى احتلال بريطاني سافر ، وكان لهذا الحديث اثرها البعيد المدى في نفوس المسلمين بعد استكمال السيطرة البريطانية على الهند وتكوين الامبراطورية البريطانية . هذه السيطرة التي أبعدت المسلمين حكام الهند حتى هذه الفترة من مكان القيادة ، وعزلتهم تماماً عن الحكم والتعليم ، وقدمت الفئات الأخرى عليهم ، مما أثار روحاً من اليأس في نفوس المسلمين وأضفى على مستقبلهم لوناً من فقدان الثقة ، وقد زاد في هذا الجو المكفهر ما عمدت إليه بريطانيا من دفع مجموعات من المبشرين في القرى والمدن في حماية سلطانهم ليشنوا حملة ضخمة على الاسلام : « شريعة وعقيدة » وعلى نبي الاسلام بالاضافة إلى الدعوة إلى المذهب الطبيعي والمادية والالحاد ، وكان المجال الضخم لسحب الأرض من تحت الاسلام بالتركيز في مجال التربية والتعليم . فقد حرص الاستعمار البريطاني على إنشاء مدارس تحمل لواء الهجوم على الاسلام والأديان والقيم الإسلامية الفكرية والتاريخية والاجتماعية بهدف خلق أجيال جديدة من المسلمين معادية له ، وقد واجهت حركة اليقظة هذا الموقف بفتح المدارس العربية الاسلامية والمعاهد الدينية الأهلية ، التي استطاعت أن تكافح خطر الغزو الفكري الغربي .

واستطاع المسلمون تخريج دعاة للإسلام ومرشدين يقاومون تيار الإلحاد والتغريب العنيف ، وكان في مقدمة العاملين في هذا الميدان مولانا محمد قاسم النانوتوي الذي أنشأ مدرسة ديونبه ، ومولانا سعادت علي الذي أسس مدرسة مظاهر العلوم في سهاتبور ، ثم تطورت هذه الحركة التعليمية، حين ظهرت ندوة العلوم في لكهنو ١٣١٢ هـ بزعامة مولانا محمد علي المونكيري ، واستطاعت أن تخرج علماء موفقين يجمعون بين الثقافة الغربية والاسلامية ، وقد ركزوا على

السيرة النبوية ، والتاريخ الاسلامي كسلاح دفاع في مواجهة حملات دعاة البشرية والمبشرين ، وفي مقدمة أعلام هذه المدرسة : شبلي النعماني وسليمان الندوي ومسعود البدوي الذي أصدر مجلة الضياء العربية **١٣٥١ - ١٣٥٤** .

وقد كان أبرز مفاهيم حركة اليقظة الإسلامية في الهند أن الأمة العربية هي وعاء الإسلام ولسانه ، وأنها القادرة على حمل رسالة العمل الاسلامي في هذه المرحلة بعد ضعف الدولة العثمانية .

وقد ظهر في هذه المرحلة السيد أحمد خان مؤسس كلية عليكرة داعياً إلى التعليم العصري الذي حجبه الاستعمار الانجليزي عن المسلمين عمداً ودفعوا إليه غيرهم . وكانت كلية عليكرة ( **١٢٩٣** ) تطوراً لليقظة الإسلامية على نحو المصالحة مع النفوذ البريطاني ، ومنه أيضا انطلقت دعوات أخرى باسم الإسلام أخذ عليها انحرافها عن شمول مفهوم الإسلام وتكامله .

وقد عدّ كثير من الباحثين حركة أحمد خان من حركات الإصلاح الإسلامية - مغضين عن تحريفاته في تفسير القرآن ، من تقي المعجزات واعتبارها خوارق غير طبيعية ، وتقريره بأن النبوة غاية إنسانية ، يصل إليها المرء بالرياضة النفسية والمجاهدة مما مهد لظهور المذهب القادياني في الهند ، وقيام غلام أحمد بدعوته . وفي أواخر القرن الثالث عشر الهجري ألقى الانجليز بثقلهم في أولى محاولات التغريب وإثارة الشبهات ( **١٨٨٠** م **١٢٩٨** هـ )

توسع نطاق الدعوة المادية التي أطلقوا عليها « نيتشر » وعمت وحدات أوده وبنجاب وبنجال والسند وحيد آباد مساجلات ضخمة في هذه المفاهيم ، وقد واجه جمال الدين هذه الحركة وألف بالفارسية كتابه المعروف الذي ترجمه الشيخ محمد عبده « الرد على الدهريين » وقال إن الدهرية نزعة ظهرت في بلاد اليونان في القرنين الثالث والرابع قبل المسيح ، وأن هدف هذه النزعة محو الأديان ، ووضع أساس الإباحة والإشتراك في الأموال .

# ( ٣٤ )

## الاسلام والغرب

لم يتوقف اتصال الإسلام بأوربا منذ بزغ فجره ، حين اتصل بعالم الغرب عن طريق الأندلس ، وجنوب فرنسا وصقلية ، ثم اتصل مرة أخرى بالحروب الصليبية ، ثم اتصل عن طريق القسطنطينية والبلقان . بعد أن وسع الإسلام آفاقه إلى أسوار فينّا . ومن هنا فقد امتد اتصال الإسلام بأوربا سياسيا وثقافيا دون توقف . ويمكن القول بأن الضياء الذي ألقاه الإسلام إلى العالم منذ بزوغ فجره . قد تطور واتسعت آفاقه في مجال العلوم والطب والفلك كامتداد للحضارة الإنسانية ، وكان دور الإسلام في هذا المجال إيجابيا وقويا . فقد أضاف إضافات أساسية إلى حركة العلوم ، وطبعها بالطابع الإنساني ، وجعلها حقا مباشرا للبشرية بعد أن كان طابعها أرستقراطيا . ولقد أعطى الإسلام للعلم إلى ذلك طابع الأخلاقية والخير والإخاء وتكريم الإنسان والاستعلاء على الظلم والغدر ، وأعطاها تربية الضمير .

وحين كانت أوربا تمر بأقسى مراحل التأخر . كان عالم الإسلام يزخر بحضارة واسعة الآفاق ، عميقة الأثر ، في مجال العلم والحضارة والفن والعمارة . وقد التقى الغرب بحضارة الإسلام في معارك الصليبيين ، حين غزا الأضعف حضارة الأقوى . فكان ذلك مقدمة لإقامة الجسور الكبرى التي نقلت الحضارة والفروسية وقيم الفكر الإسلامي إلى مجتمع الغرب وثقافته .

وقد اتصل هذا التأثير وبلغ غايته حين انضم مجتمع الأندلس بجامعاته ومعاهده العلمية ، وبخزائن كتبه ، وآثار حضارته وثقافته إلى الغرب انضماما نهائيا ، وأجلى العرب والمسلمين عنه ، وحرمهم من آثار علمهم ، هنالك نقلت أوربا جذور الحضارة الإسلامية والثقافة العربية إلى لغاتها . ومنذ ذلك اليوم كانت كل خطوات النهضة ذات اتصال وثيق بالفكر العربي والحضارة الإسلامية . بل كانت الخطوات التالية استكمالا لما أتمه المسلمون والعرب وحققوه في مختلف ميادين العلم والفن والفلسفة والأدب والعمارة .

وهكذا لا يموت التقدم العقلي الإنساني . بل ينتقل حين تضعف الدول وتضطرب السياسة ، ويمثل في هذا مرحلة من أدق مراحل حركة الحضارة الإنسانية التي نشأت على ضفاف النيل والفرات . ثم انتقلت إلى يونان وروما ، ثم تحولت مرة أخرى إلى عالم الإسلام ، ثم تحركت مرة أخرى إلى أوربا بعد مرحلة خصبة امتدت أكثر من ألف عام ، منذ سقوط روما في القرن الخامس إلى أن بدأ عصر الرينسانس في الخامس عشر ، غير أن الأثر الإسلامي للحضارة والثقافة قد ظل قويا بعيد الأثر في اليقظة الأوربية في مختلف مجالات الحضارة والثقافة ، مهما حاولت أوربا أن تنكره ، أو تزيل مظاهر آثاره ، فقد ظل بارزاً في معالم الفلسفة وفي مجال الطب والفلك ، والكشف البحري لا يمكن أن ينكر . بل في مجال الفكر المسيحي نفسه ، وإذا كان الفكر الإسلامي قد توقف في عالم الإسلام نتيجة لسنن التاريخ وظواهر الكون ونواميس الزمن ، فإنه قد تحرك في أوربا من خلال النهضة ، ولم يستطع المؤرخون المنصفون إنكار نتائجه . وقد كان أثر ابن رشد بعيد الأثر في الفكر الفلسفي الأوربي إلى حد يمكن أن يقال معه انه كان نقطة تحول ، وأن مفهوم الإسلام للحرية والكرامة الانسانية وللمساواة ، كان بعيد الأثر من بعد في كل كتابات الفلاسفة أمثال : روسو وديدرو وفي الحركات السياسية كالثورة الفرنسية وغيرها .

وكانت دعوة الفكر الاسلامي إلى « تحرير العقل » بعيدة المدى في انهيار نفوذ الكنيسة والحد من سيطرتها على الحياة . بل إن حركة لوثر وكالفن كانت أثراً من آثار الفكر الاسلامي ، ومن قبل كانت حركة إبطال عبادة الصور ، ورفعها من المعابد في بيزنطة نتيجة لمفهوم الإسلام ، حتى ليصل بعض المؤرخين في هذا

المجال إلى القول بأن الصراع بين الكنيسة والحرية العقلية في القرون الوسطى كان صراعاً بين الكنيسة والفلسفة الإسلامية بأسرها . وقد كان الرهبان الفرنسسكانيون أنصاراً أقوياء للفكر الإسلامي . وقد أثار كثير من الباحثين إلى أن دعوة الإصلاح في أوربا لم تبعد عن الإسلام إلا قليلاً ، وذهب بعض طوائف الإصلاح في العقائد إلى ما يتفق مع عقيدة الإسلام ( رسالة التوحيد ) .

وقد ظل العلماء في أوربا منذ القرن الخامس الهجري والحادي عشر الميلادي يعملون على نقل العلم العربي والفكر الإسلامي ، وقدمت الثقافة الإسلامية مادة ضخمة في مجال السياسة والاقتصاد والاجتماع ، وكما ترك ابن رشد أثره الفلسفي فقد ترك الغزالي طابعه العقلي على الباحثين الغربيين فاستعملوا براهينه في مسائل اللاهوت ، كما أثرالتصوف في الفكر الغربي ( ج مور : تاريخ الأديان ) كما ترجم القرآن إلى اللاتينية ، فاللغات الأوربية في القرن السادس ( الثاني عشر الميلادي ) .

وكان لابن حزم أثره البالغ المدى في الفكر الغربي . وقد بقيت آراؤه في اليهودية والمسيحية ، وقد أشار ( كتاب تراث الإسلام جـ ١ ص ٥٤ ) إلى هذا المضمون حين قال : « استغرق تأثيرالاسلام كل مرافق الحياة في أسبانيا في القرن العاشر حين سقطت طليطلة ، وانتشر هذا التأثير حتى شمل بقية أوربا ، وذلك أن ( طليطلة ) كانت قد أصبحت شيئا فشيئا مركز الثقافة الإسلامية في القرن الحادي عشر بعد أن خرب البربر قرطبة .

وكان توماس الأكويني بالغ التأثر بكتابات الغزالي وابن رشد ، وكان للقرآن بعد أن ترجم بالغ الأثر في صيحة لوثر ، بعد أن قرأ ما كتبه ابن رشد ، وابن سينا والفارابي عن نبي الإسلام « محمد » مما دفعه إلى أن يقول عن المسلمين : ان نشاطهم الديني مثل يحتذى ، وكذلك حكومتهم الرشيدة ، وقوانينهم وصدق إخلاصهم ، وهم يتركون الناس يعتنقون الدين الذي يميلون إليه ولا يكرهون أحداً . ولا شك كان حادث الإصلاح البروتستانتي المسيحي من الأحداث البارزة في تاريخ الأديان . فقد ارتبط بأصول الإسلام وعلوم الإسلام . وقد أشار أمين الخولي في رسالته ( صلة الإسلام بإصلاح المسيحية ) إلى أن التأثير الإسلامي كان في أوربا قويا واضحاً ، وبخاصة في البيئة الجرمانية . ومن هنا كان أثر الإسلام الواضح في تحرير العقل الأوربي ، وفي مقدمة هذا الأثر : إلغاء

وساطة الكنيسة بين الله والناس ، والثورة على الأصنام والصور وتحطيمها .

في تقدير كثير من الباحثين أن الحضارة الإسلامية انتقلت إلى أوربا عن مصادر مختلفة . غير أن الجزء الاكبر قد انتقل عن طريق « الأندلس » ويقدر بأربعة أخماس هذه الحضارة . فقد كانت موطن استقرار للحضارة والثقافة الإسلامية ، وتزاوج واختلاط بين المسلمين والعرب من ناحية ، وبين الأوربيين من ناحية أخرى خلال ثمانية قرون ، والواقع أن الحضارة الإسلامية والفكر العربي الإسلامي لم ينتقلا من عالم الإسلام إلى أوربا . ولكن الأرض التي كانت تحملها الحضارة هي التي نقلت . وذلك باسترداد الفرنجة والأسبانيين وحدات المملكة الاسلامية « الأندلس » جزءًا بعد جزء خلال فترة لا تقل عن ثلاثة قرون ، ولعل أبرز ما نقلت الحضارة إلى أوربا « المساواة » كان القانون الإسلامي يطبق على الجميع ، يقف الفقير والغني أمام القاضي .

ومن هنا كانت هذه أبرز الأفكار الإسلامية الأساسية التي قامت عليها حركة النهضة وفلسفة الثورة الفكرية ، التي كان لها أكبر الأثر في أوربا . ومن أعظم ما نقلته النهضة عن طريق الأندلس « الفلسفة الاسلامية » بطابعها المختلف كل الاختلاف عن الفلسفة اليونانية أو الهندية أو غيرها ، وأهم ما تمثله الفلسفة الإسلامية : المقارنة والتوفيق بين الإيمان والعقل ، وبين العلم والدين .

فقد كان أبلغ ما وصل إليه مفكرو الاسلام وفلاسفته استمدادا من مفاهيم الإسلام نفسه ، التقريب بين مجرى الإيمان والعقل ، وبين الدين والعمل والتأليف بين أجزائهما بعد أن كانت الفلسفات السابقة تفصل بينهما . وقد بلغت الحضارة الإسلامية في الأندلس مبلغا عاليا وضخما بالمقارنة بينها وبين أوربا . فقد كانت قرطبة وعدد سكانها نصف مليون نسمة ، بها ثلثمائة حمام وسبعون دارا للكتب ، وفيها من الطرق المرصوفة المضاءة ليلاً ما يبلغ في جملته أميالاً كثيرة في نفس الوقت الذي كانت لندن وباريس في حالة تأخر شديد ، وفي قرطبة أنشئت الجامعة الإسلامية الكبرى التي استقدم لها عبد الرحمن الثالث العلماء من المشرق وأنشأ فيها ستا وعشرين مدرسة مجانية ،ونقل اليها مئات المؤلفات من المشرق . غير أن الفرنجة لم يلبثوا أن انتزعوا مملكة طليطلة الإسلامية من المسلمين عام ( ٤٧٨ هـ ١٠٨٥ م ) ومن ذلك بدأ ريموند رئيس الأساقفة ، ترجمة الفلسفة والعلوم العربية . وظلت هذه الحركة مزدهرة فترة لا تقل عن مائة وخمسين عاماً . وقد

اتسعت حركة الترجمة في القرن السابع الهجري ( **١٣ م** ) وعن طريق هذه المؤلفات العربية الإسلامية المترجمة تجمعت مصادر الفكر الغربي الحديث مستخلصة عصارة الفكر والمعارف والثقافة العربية .

وقد درس في معاهد الإسلام في طليطلة كثير من اعلام الفكر الغربي ، وعن طريق صقلية نمت حركة مماثلة ، وقد شملت هذه الحركة العمارة البحرية والفلك والتنجيم ، والرياضيات ، والطب ، والزراعة ، والتجارة ، والصناعة والفلسفة والإدارة والموسيقى والألعاب والفروسية .

وهكذا انتقلت العلوم الإسلامية إلى أوربا عن طريق بالرمو ( صقلية ) وطليطلة ( الأندلس ) بالترجمة ، وانتقل إلى اللغات الأوربية بواسطة هذه الترجمات وأمثالها عديد من المصطلحات والألفاظ العربية ، ومختلف آثار ابن رشد والفارابي والخوارزمي وابن سينا والرازي . وما تزال مصطلحات الفلك حتى اليوم عربية ، وكان للمسلمين دورهم الطليعي في مجال البصريات والرياضيات والفلك والموسيقى والطب .

# ( ٣٥ )
## الغرب والاسلام

ذلك كان دور الإسلام في أوربا فماذا كان دور أوربا في الإسلام ؟ الحق أنه كان دورا مليئاً بالعقوق والكراهية والتعصب . فإن الغرب لم يلبث أن استيقظ على فكر الإسلام وحضارته حتى استأنف الغارة على عالم الإسلام . وبدأ مرحلة جديدة من مراحل الغزو أشد عنفا من الحروب الصليبية ، وكان البرتغاليون والأسبانيون أبعد الناس تأثراً بالفكر والثقافة العربية الإسلامية ، والمحرزون لذلك التراث الضخم ، هم حملة لواء العقاب لعالم الإسلام ، ولشواطىء المغرب أولا ، وأصحاب فكرة « تطويق عالم الإسلام » بالالتفاف حوله . وقد غفل الكتاب والباحثون والمؤرخون طويلاً في آثارهم ومؤلفاتهم التي عرضت لحركة الكشوف الجغرافية حول شواطىء العالم الإسلامي ، أو في قلب أفريقيا من بعد ، غفلوا عن أنها حركة استعمارية وليست علمية ، وأنها كانت تخفي وراءها مطامع الحروب الصليبية القديمة ، وأنها كانت تستهدف السيطرة على عالم الإسلام ، مورداً للخامات ، ومصدراً للإنتاج ، ولا يمكن تفسير أعمال هنري الملاح ، أو مركوبولو ، وكولمبس إلا في ضوء مرحلة جديدة من مراحل استرداد عالم الإسلام نفسه بحسبانه في تقديرهم كان ملكاً للإمبراطورية الرومانية ، وأن تصفية الإسلام والعروبة من أوربا بالقضاء على دولة الأندلس ، كان في نظر الغرب يستتبع السيطرة على المغرب ومصر والشام بوصفها كانت تحت نفوذ عالم الغرب قبل الإسلام ، وهو مفهوم استعماري متعصب ، بعيد عن الفهم النزيه لتطور التاريخ وحركته ، يقول جورج كيرك « لقد كان هدف هنري

الملاح هو استمرار الصليبيين بواسطة التغلب على دار الإسلام حربيا وتجاريا ، وانتزاع تجارة الذهب وغيره من أيدي المسلمين ، والاتصال في جنوبي الصحراء بجون نجاشي الحبشة للتعاون معه على مهاجمة المسلمين من الجنوب . ومن هنا بدأت في أوائل القرن التاسع الهجري ( الخامس عشر الميلادي ) وخلال القرن العاشر حركة يقودها البرتغاليون والأسبانيون في الاستيلاء على موانىء شاطىء أفريقيا ( مراكش والجزائر ) : سبقة وطنجة ومليلة والمرسى الكبير ، ثم اتصلت هذه المحاولات باحتلال البرتغاليين للبحرين ومسقط بقصد محاصرة الأساطيل العربية في البحر الأحمر الفارسي » .

وكان البرتغاليون قد وصلوا إلى رأس الرجاء الصالح **١٤٨٧** واستطاع الفونسو البوكرك إقامة دولة في الشرق واستولى على مدينة هرمز ، ثم سيطر البرتغاليون على الخليج الفارسي خلال القرن السادس عشر ، وأبحر فاسكو دي جاما إلى موزنبيق ، وفي عام **١٥٠٢** سيطر على زنجبار وعام **١٥٠٥** خرج من البرتغال أسطول تعداده **٢٠** سفينة ( **١٥٠٠** محارب ) فاحتلوا سفالة وكلوة وممباسا ، وبلغوا مسقط وهرمز **١٥٠٩** ، وفي عام **١٥١٩** احتلوا السواحل الأفريقية وانتزعوها من أيدي العرب .

غير أن هذه الحركة لم تصل إلى ما كانت تطمع فيه ، فقد أوقفتها القوة الإسلامية العثمانية النامية التي استطاعت أن تقضي عليها . فقد ظهر العثمانيون في مياه الخليج **١٥٨٥** وقابلهم أهل الساحل بحماس شديد ، ولا سيما أهل ممباسا . كما دخلت دولة المماليك مع البرتغال في حروب بحرية واسعة ، كان أبرزها استيلاء هولندا على أرخبيل الملايو وفرنسا وانجلترا على إفريقيا ، واستأثرت انجلترا بالهند ، كما ناهض الانجليز البرتغاليين وأرسلوا سفنهم إلى بلاد فارس عام **١٦١٦** ، واستقبل الشاه عباس أول بعثة تجارية إنجليزية ، وقد استطاع العثمانيون إنقاذ العالم العربي من الغزو البرتغالي الأسباني الذي استهدف خنق التجارة العربية ، وحين حاولوا السيطرة على ساحل المغرب الإسلامي للإغارة عليه وضربه ، هنالك سارع العثمانيون بالسيطرة على الغرب كله ما عدا مراكش ، واستطاعوا مواجهة الأسبان في حوض البحر المتوسط وجزائره وسواحله ، وأدالوا منهم ، وبذلك استطاعت القوة البحرية العثمانية أن تقضي على النفوذ البرتغالي الأسباني ، وأن تحفظ شاطىء البحر الأبيض المتوسط

للعروبة والاسلام . غير أن الاستعمار لم يلبث أن أستأنف حركته باسم بريطانيا وفرنسا وهولندا للسيطرة على البحار الإسلامية منذ ١٦٨٣ .

واستطاع العثمانيون أن يسيطروا على ساحل شرق أفريقيا ، وشمال المحيط الهندي في مطلع القرن الثامن عشر ( الثاني عشر الهجري ) فأرهب ذلك الأوربيين وأزعج انجلترا وهولندا ، واستطاع أحمد بن سعيد عام ١٧٤٠ أن يقف في وجههم في عمان ، هنالك فقد البرتغاليون الأمل في استرداد هذه المنطقة .

وقد كانت عمان بعد سقوط الأندلس أكبر قوة عربية دامت نهضتها من عام ١٠٠٠ إلى ١٢٥٠ . وقد استولت على ثغور البحر الأحمر ، والمحيط الهندي ، والخليج الفارسي ، فأفريقيا الشرقية إلى رأس الرجاء الصالح . وفي بضعة أجيال صار أهل عمان سادة هذه البحار العظمى الثلاث ، وصار لهم أسطول ضخم هاجم الأسطول البرتغالي ، وأجلاه عن جميع الثغور الهندية والفارسية والأفريقية ، ولقد كان الأسطول العثماني مؤلفا من ثلاثمائة قطعة من بارجة وقرقاطة ونسافة وحراقة ، قبل أساطيل المماليك والدولة العثمانية ، ولم يصبر الإنجليز على هذه الدولة البحرية التي كانت تهددهم في أملاكهم في آسيا وأفريقيا ، فعملوا في مدى ثمانين عاماً على إضعافها والقضاء عليها ، وضرب الأسطول البريطاني مدنها بالقنابل ( ك : حياة الشرق ) .

وقد بدأت حملات هولندا إلى جزر الهند الشرقية عام ١٥٩٩ واستطاعت أن تركز نفسها من بعد ، أما شركة الهند الشرقية الانجليزية ، فقد بدأت عام ١٦١٢ وفي حوالي عام ١٧٨٠ ركز الاستعمار الهولندي في أرخبيل الملايو وركز الاستعمار البريطاني في الهند ، ولا شك كان هدف الاستعمار الغربي أساساً هو القضاء على الإسلام كقوة للوحدة والمقاومة وكخطر يقف أمام توسع النفود العسكري والسياسي والاقتصادي في السيطرة على المنطقة .

يقول الدكتور حسين مؤنس : إن أوربا لم تكف عن التفكير في الإسلام ، والأخذ بثأرها من الحروب الصليبية حتى هداها الفكر إلى حركة الالتفاف الجنوبي ، وفي القرنين ١٢و١٣ ( السابع والثامن الهجري ) سعت إلى تنصير المغول حتى تحصر الإسلام بين دولتين مسيحيتين ، وكيف اتصلت الأسباب بينهما وبين الحبشة النصرانية للقضاء على مركز المقاومة الاسلامية في مصر ، ثم كيف بدأت الى الغرب للوصول إلى الهند ، وللوصول إلى بلاد

الإسلام . ويقول باركر مؤرخ الحروب الصليبية : كانت البعثات التبشرية التي أرسلت إلى بلاد المغول ترجو من وراء رحلتها أن تحقق أمل الصليبيين وتستعيد بيت المقدس إلى الأبد . بيد أن هذا الحلم الخادع قد تهدم عن آخره ، نعم . تلاشى ذلك الحلم الخادع الذي كان يرسم لأصحابه في الخيال صورة آسيا وأوربا المسيحية تحصران الإسلام بينهما ، فلا يصبح بعد ذلك إلا عقيدة متضائلة محصورة في فئة قليلة من الناس في ركن أسبانيا . وفي جانب من شرق البحر الأبيض . ذلك أن خانات فارس دخلوا الإسلام ١٣١٦ م وأسلم اهل وسط آسيا في منتصف القرن الرابع عشر ( الثامن الهجري ) . وتربعت على عرش الصين أسرة منج الشهيرة بين سنتي ١٣٨٦ - ١٣٧٠ وأقفلت أبواب الصينيين في وجه التجارة الأجنبية ، فكانت النتيجة انقطاع السبيل بالمسيحية ، واتساعا بعيدا في رقعة الإسلام الذي أدرك شأوا بعيدا من الاتساع بظهور الأتراك العثمانيين ،ولكن أملا جديدا تراءى للغرب الذي لا ييأس ، وكان هذا الأمل الجديد سببا في أكبر انقلاب عرفه التاريخ ، وتساءل الأوربيون : إذا كان طريق البر قد أقفل فلم لا تسلك أوربا طريق البحر . لماذا لا تبحر إلى الشرق وتهاجم الإسلام من الخلف . وبذلك تستعيد بيت المقدس ، كان هذا أمل الملاحين الذين حملوا الصليب على صدورهم واعتقدوا أنهم برحلتهم إلى بحار الهند يعملون لتخليص الأراضي المقدسة ، هكذا كان مفهوم الغرب للغزو الجديد وللمرحلة الجديدة للحروب الصليبية ، التي أطلق عليها اسم « الاستعمار الحديث » .

وقد كان احتلال بريطانيا للهند ، وهولندا لجاوة ، وأرخبيل الملايو ، هو الخط الأول لتطويق عالم الإسلام ، وكان البريطانيون والهولنديون قد ابتدعوا فكرة استعمار عالم الإسلام بطريقة تأسيس الشركات التجارية ، فأسس البريطانيون شركة الهند الشرقية عام ١٦١٢ .

وأسس الهولنديون عام ١٦٠٠ الشركة الشرقية ، وأسسوا شركة الهند الغربية عام ١٦٢١ فامتلكوا غينيا وسورينام وركاب وسيلان عام ١٦٥٣ .

وجزائر ملقة ، وفي ١٦٨٠ استولوا على جاوة. وكان الحضارمة (أهل حضرموت) قد هاجروا قبل ذلك بأربعمائة عام إلى جزائر الهند الشرقية ،ونشروا فيها

***

الإسلام . وبعد أن نمت حركة التطويق تحولت شركتا هولندا وانجلترا إلى استعمار صريح .

لم يلبث الغرب أن ركز ثقله على تمزيق قاعدة الإسلام : « الإمبراطورية العثمانية » وقد ظل هذا العمل مستمراً من **١٦٨٤** إلى **١٨١٨** م خلال مائة وأربعة وثلاثين عاماً ، وتنافست في ذلك فرنسا وروسيا وبريطانيا ، واستهدفت في نفس الوقت القضاء على كل قوة جديدة ، وفي مقدمتها القضاء على القوة في مصر التي قادها محمد علي ، وابراهيم ، واستطاعت بالضغط أن تفرض في الداخل نفوذها عن طريق الامتيازات الأجنبية ، وفي الخارج باقتطاع الوحدات الداخلة في نطاق الدولة العثمانية واحدة بعد أخرى حيث تقاسمتها روسيا ( حين عبرت القوقاز ، وبسطت سلطتها على أواسط آسيا ) وبريطانيا وفرنسا ، وتتمثل في هذه الحركة الضخمة « أزمة الإسلام الكبرى » المكملة للحروب الصليبية والوجه الجديد لها ، والتي لم تتوقف أكثر من ثلاثة قرون يوم تضاءلت - ولا تفول توقفت - في أواخر القرن الثاني عشر ( السادس الهجري ) ثم استأنفت عملها من جديد في منتصف القرن السادس عشر ( العاشر الهجري ) .

وقد تمثل ذلك في عدة خطوات :

( **١** ) تطويق العالم الإسلامي ( **٢** ) السيطرة على الهند وأرخبيل الملايو
( **٣** ) تمزيق الدولة العثمانية من الداخل ( **٤** ) اقتطاع أجزاء الدولة العثمانية
( **٥** ) تنازع السيطرة على فارس .

***

وكان من أبرز الحركات الاستعمارية الجديدة ما اتجه إليه الغرب من العمل على شق قناة تربط البحر الأبيض بالبحر الأحمر . يقول الدكتور مصطفى الحفناوي : إنه في سنة **١٤٩٨** حدث تحول خطير في التاريخ الانساني . ذلك أن أحد الملاحين البرتغاليين ، ( فاسكو دي جاما ) استطاع أن يصل إلى الهند طوافا حول رأس الرجاء الصالح ، واستعان في ذلك بجماعة من الملاحين العرب أبرزهم ( أحمد بن ماجد ) وكانت قد رفعت إلى ملك فرنسا عام **١٢٤٩(٦٤٧هـ)** وثيقة تطالب بشق قناة في برزخ السويس تكون ملكا للعالم الغربي كجزء من خطة الحروب الصليبية ، ثم توالت المشروعات التي تستهدف إنشاء طريق في

برزخ السويس ، وفي ١٥ مارس ١٦٧٢ رفع الفيلسوف ليبنز إلى لويس الرابع عشر مذكرة قال فيها « أريد أن أتحدث في مشروع غزو مصر ، ولا يوجد بين أجزاء الأرض بلد غير مصر يمكن السيطرة فيها على العالم كله وعلى تجارة الدنيا بأسرها ، أنكم حين تغزون مصر ستقضون على الامبراطورية التركية القضاء المبرم ، إذا غزو تم مصر ستنظرون بعين الارتياح والرضا لهجومكم على المسلمين الخ . ثم كان مشروع المركيز دي سنبلاي لشق قناة في برزخ السويس تصل النيل بالبحر الأحمر . وقد كادت الدبلوماسية الفرنسية أن تظفر بموافقة السلطان العثماني . غير أن الحركة القومية المصرية التي قادها العلماء وقفت دون المشروع سداً منيعاً . وفي نفس الوقت توسعت حركة النفوذ الاستعماري في قلب الدولة العثمانية عن طريق الإرساليات والكليات الدراسية التبشيرية ، وعن طريق خلق طليعة مثقفة من غير المسلمين تحمل لواء الحملة على تركيا ويكون من نفوذها البالغ إنشاء الصحف في مصر والمغرب وأوربا للهجوم عليها وتركيز الحملة عليها بوصفها « صورة الإسلام » ومن هنا كانت الحملة على الإسلام بحسبان كل أخطاء الدولة العثمانية هي « أخطاء الإسلام » نفسه ، وكان هذا من التمويهات الضخمة التي اصطنعها الاستعمار كسلاح خطير في وجه « اليقظة العربية » التي حاولت أن تحمل لواء نمو الإسلام وحيويته .

## الاسلام والغرب

مرت العلاقة بين الإسلام والغرب في ثلاث مراحل :

الأولى : مرحلة العطاء : قدم الإسلام إلى الغرب كل حصيلته من الحضارة والعلم والثقافة ، فكانت مبعث النهضة الحديثة في أوربا في القرن الخامس عشر ( التاسع الهجري ) .

الثانية : مرحلة الجمود من الغرب : فقد أنكر فضل الإسلام ، وازدرى أثر الثقافة الإسلامية ، واستعملها سلاحاً لضرب الإسلام وعالمه ، والقضاء عليه كقوة ، واستغل مختلف قوى العلم في السيطرة والظلم مغلفا فكره بالتعصب والاستعلاء الجنسي ومقاومة فكر الإسلام ودينه ومقوماته .

الثالثة : مرحلة التحول : وهي مرحلة دقيقة تتمثل في آراء عديدة من الباحثين المنصفين ـ غير المستشرقين والمبشرين ، ودعاة التغريب المتصلين بدوائر وزارات الاستعمار والمستعمرات ـ هؤلاء الذين بدأوا يحسون بالحاجة إلى مقومات جديدة للفكر الإنساني بعد أن بلغ الفكر الغربي غايته في الانحياز للماديات ، فقد تكشف للعلماء والباحثين المجردين عن الغايات الاستعمارية ، أن العقل الإنساني قد كبر وتضخم ، بينما روح الإنسان قد ضعفت . ومن هنا كان تطلع الباحثين إلى الثقافات الإنسانية ، وكان الرأي على أنه إذا كان الفكر الغربي ( الأوربي ) قد بلغ إلى مرحلة المادية الحالية . فإن الفكر الشرقي مطبوع بطابع الروحية الخالصة ، بينما يتسم الإسلام وفكره بطابع الشمول والتكامل والوسطية في الجمع بين الروح والمادة والعقل والقلب ، والدنيا والآخرة . ومن هنا برز تيار

جديد في الفكر الإنساني يحمل لواء التطلع إلى الإسلام كحل نهائي وحاسم للمعضلات البشرية ، وكوسيلة للقضاء على الأزمات وحل الخصومات والخلافات المتراكمة في عالم الغرب . هذا التيار[1] قد حقق بعض النجاح ، ولكنه لازال ضعيف الأثر والحركة بالنسبة للتيار الضخم الذي يتصدره الاستعمار في سبيل إثارة الشبهات والقضاء على مقومات الإسلام . وذلك في سبيل العمل على خلق وحدة فكر عالمية قوامها الفكر الغربي - ينصهر فيها الفكر الإسلامي ويذوب . ولقد استطاع الإسلام أن يواجه هذا المخطط وأن يتحداه ، ويديل منه ، وليس أدل على قدرة الإسلام في مرحلة اليقظة ، انه في خلال الخمسين سنة الأخيرة من القرن الرابع عشر ( هـ ) قد صارع الفكر الرأسمالي والماركسي والصهيوني جميعاً ، واستطاع أن يقاوم القوى الاستعمارية الجبارة ، ذات السلطان والنفوذ ، ويواجه الأسلحة والقوى المختلفة التي حاولت أن تؤثر في مقوماته أو تقضي عليها ، ولاشك سينتصر الإسلام في أزمة الفكر الأممي ، وسيخرج من محنة الفكر الرأسمالي ( الغربي ) والماركسي والصهيوني ظافراً منتصراً مؤكداً ذاته وقيمه بحسبانها أصلح القيم لعالم الانسان .

---

( ١ ) راجع كتابنا « الاسلام في غزوة جديدة للفكر الانساني » .

# ( ٣٦ )
## انتشار الاسلام

اتسمت هذه الفترة بأن جمعت بين : حركتين : ( ١ ) حركة يقظة داخلية استهدفت تجديد الإسلام وتصحيح مفاهيمه ( ٢ ) حركة انتشار الإسلام ذاتيا خارج دائرة عالم الإسلام ، وقد عمل المسلمون على نشر الإسلام في بلاد غربي أفريقيا وجزائر الهند الهولندية ، وجزائر الفلبيين ، وصمد لهذه الحركة عدد كثير من التجار والحجاج والعلماء على اختلاف الأجناس ، وكان للمبشرين السنوسيين دور ضخم ، هؤلاء الذين أخرجتهم زوايا الصحراء . وهم يعدون بالألوف . فقد قاموا بجولات واسعة في غربي إفريقيا ووسطها ، ووصف المؤرخون والباحثون نتائجها خلال القرن الثالث عشر ( ١٩ م ) بأنها عجيبة من العجائب الكبرى ، وكتب أحد الباحثين ١٩٠٦ يقول : إن الإسلام ليفوز في أواسط أفريقيا فوزاً خطيراً حيث الوثنية تختفي أمامه اختفاء الظلام في فلق الصبح ، وليس ظفر الاسلام في أفريقيا مقصوراً على الوثنية فحسب . بل على الأديان الأفريقية الأخرى .

ولم يتوقف هذا التوسع الذاتي للإسلام عند أفريقيا وحدها . بل امتد إلى بلاد التتر في روسيا وفي الصين ( قبل أن يصاب فيهما بأزمة القضاء عليه خلال القرن الرابع عشر ) . وقد أشار زويمر إلى أن مصدر انتشار الإسلام ؛ فريضة الحج والطرق الصوفية .

---

( ١ ) راجع كتابنا « الاسلام في غزوة جديدة للفكر الانساني » .

وليس عجيبا أنه خلال هذه المرحلة ـ حين كانت اليقظة العربية الإسلامية تحل محل الوحدة الإسلامية العثمانية التي آلت إلى الضعف ، والتي كانت في نفس الوقت تواجه أعظم تحد لها ، وهو النفوذ الاستعماري الغربي الزاحف في غزو جديد ، نجد الإسلام يشق طريقه ذاتياً في قلب إفريقيا وغربيها بسرعة مذهلة ، ويحقق انتصارات جديدة في أرخبيل الملايو ، وشمال شرق آسيا . فقد سجل الإسلام على طول تاريخه كله هذه « الظاهرة » من التحدي وردّ الفعل ، فحيث تظهر قوة تحاول أن تقضي عليه ، يظهر الإسلام وهو يكسب أرضاً جديدة ، وحيث تبدو علامات الضعف والانهيار في وحدة من وحداته ، تظهر علامات البعث واليقظة في وحدة أخرى ، فلا يسقط اللواء أبداً ، فإذا ضعفت اليد التي تحمله ، امتدت يد أخرى فأبقته مرفوعا ، ظهر هذا واضحا في « الغزو الصليبي والغزو التتري » ، كما ظهر حين بدأت القوة الإسلامية العثمانية تضعف حيث حلت محلها يقظة عربية إسلامية عارمة . وحيث يواجه الإسلام في هذه المرحلة غزواً غربيا جديداً يسيطر على مقدرات عالم الإسلام في الهند وأرخبيل الملايو ، والعالم العربي يندفع إلى مناطق جديدة في إفريقيا وجاوة .

***

وتبدو صورة التوسع الإسلامي في قلب إفريقيا في أواخر القرن الثالث عشر ، وأوائل القرن الرابع عشر الهجري يرسمها كابتن تيلر في تقريره الذي ألقاه في مؤتمر الكنيسة الانجليزية ( ١٨٨٧ م ) والذي نشرته جريدة التيمس ٧/ ١٠/ ١٨٨٧ يقول : إن الإسلام اليوم يمتد من مراكش إلى يافا ، ومن زنجبار إلى الصين ، ويخطو في داخل إفريقيا خطوات كبيرة وتعتنقه أمم كثيرة . وقد خطا بنفسه وثبت أقدامه في الكونغو وزامبيري، وأصبحت أوغندا ـ أقوى البلاد السودانية وأشدها بأساً ـ إسلامية بأجمعها . أما في الهند فإن التمدن الغربي الذي يهدم أركان الوثنية قائماً يمهد الطريق للدين الإسلامي لاغير ، وسكان إفريقيا بأجمعهم أكثر من النصف منهم مسلمون . وليس هذا بأول تقدم للإسلام يلزم بيانه ، والبحث عن سرعة انتشاره . بل هو عدم الخلط والخبط في أصوله وتبيانه ، الأمر الذي جعل له مكاناً ثابتا في قلوب أهله وكل من يدين به . أجل : فقد اعتنق الإسلام أمة بحذافيرها في إفريقيا صفقة واحدة ، ولم ترتد إلى الوثنية قط ، والإسلام أفاد التمدن أكثر من أي دين آخر . فقد نشر راية المساواة والأخوة ،

وهذه الأدلة نذكرها نقلا عن تقارير الموظفين من الإنجليز . هذه النتائج التي تنتج عن الإسلام ، فإنه عندما تدين به أمة من الأمم السودانية ( الأفريقية ) تختفي من بينها في الحال عبادةالاوثان ، وتحرم أكل لحم الإنسان ، وقتل الأولاد ، ووأد الأطفال ، وتضرب عن الكهانة ، وتأخذ أهلها بأسباب الإصلاح ، وحب الطهارة ويصبح عندهم قرى الضيف من الواجبات الدينية ، وشرب الخمر من الأمور الممنوعة ، ولعب الميسر والأزلام محرمة ، والرقص القبيح ومخالطة النساء اختلاطاً دون تمييز منعدمة ، وتصبح عفة المرأة عندهم من الفضائل ، فالإسلام هو الذي يعمم النظافات ، ويقمع النفس عن الهوى ، ويحرم إراقة الدماء والقسوة بالاعتدال في تعدد الزوجات والعدل في الاسترقاق ، وزيادة على ذلك ، فالإسلام عفيف بالكلية عن الشركات الدينية التجارية . وقد غني عنها بالمرة ، والتجارة الأوربية تروج لبيع وسائل المسكرات ، وتسوم الشعوب خسفاً وإذلالاً . والإسلام ينشر لواء المدنية القائلة بالاحتشام في الملبس والنظافة والاستقامة وعزة النفس .

ويكشف الرحالة جوزف تومسون في تقرير له نشرته التيمس ١٤/ ١١/ ١٨٨٧ جوانب أخرى من حركة انتشار الإسلام دائبا في إفريقيا فيقول : إذا بلغنا غربي إفريقيا والسودان الأوسط ، نجد الإسلام كجسم قوي تدب فيه روح الحياة والنشاط ، وتتحرك فيه عوامل الحماسة والإقدام ، كما كان في أيامه الأولى ، فترى الناس تدخل فيه أفواجاً أفواجاً ، وتقبل عليه بإقبال عجيب يشبه أيامه السالفة ، نرى فيه أشعة نوره منبعثة من شوارع سيراليون ، وأخذةفي إنارة بصائر القبائل المنحطة في وهاد الجهالة الآكلة لحوم البشر عند منبع النيجر . وقد كانت أعظم فتوحات الإسلام في أواسط السودان وغربه ، كانت على يد جماعة سليمي الطوية ، منخفضي الجناح ، وفي الأزمان الحاضرة كان القائم بأمره تاجراً ذا همة وإقدام يدعى ( هواذا أونوبيه ) كان ذاك الراعي يجهد نفسه في نشر لواء ديانته من بحيرة تشاد إلى الأقيانوس الأتلانتيكي ، ونتج عن ذلك أن أشرقت شمس الاسلام في سماء هذه الجهة بأجمعها ، وظهرت في أواخر القرن الماضي عدة فئات من المسلمين لم يكن يعوزهم إلا رئيس يحمي ذمارهم ، ويدفع عن هذه البلاد غائلة الوثنية ، فلما قيض لهم في بدء هذا الجيل رجل يسمونه ( فوديو ) لم يمض غير زمن قليل حتى ساد الاسلام ، وامتد جناح

سلطانه بسرعة غريبة في بلاد شاسعة واسعة ، وانتشرت سلطته على القبائل المتبربرة فأصابت فوزاً عظيماً .

إن زعيم الاسلام في هذه السنوات هو التاجر السوداني ( الأفريقي ) الذي كان يعتمد في مهمته على تقواه، ويستعين بها على أعماله، وكان يتوغل في كل قبيلة على مسافة بعيدة عن بلده، ويختلط بالوثنيين المتبربرين ، وكان يبيت معهم ويأكل معهم من طعام واحد ، وكان أينما حل أو سار لا يألو جهداً في توسيع نطاق ديانته ، وإظهار مزاياها الخالية من الالتباس ، والوعظ بها بين الناس ، وفي الحقيقة إن الفرائض والسنن التي يقضي بها لا يتيسر فهمها على أخيه الوثني ، ولا تخرج عن قوة إدراكه ، هذا التاجر كان يقيم تارة معهم شهراً وطوراً ستة أشهر ، أو سنة . وفي خلال هذه المدة تراه موضع التعجب والاستحسان لنظافة ملابسه. ولذلك ينكب الناس الذين حوله على تقليده ، واتباع طريقه ، وليس في ديانته شيء تشكل عليهم معرفته ، وعلى هذا انغرست بذور المدنية في عدة قبائل همجية ، ونما الايسلام بينها نمواً هائلا إلى حد رنّ صداه في هذه البلاد ، وملأ الآفاق .

- ٢ -

ما زال الاسلام يشق طريقه في قلب القارة الافريقية بالرغم من القوى المضادة التي تحمل لواءها هيئات التبشير باعتماداتها الضخمة ، وبقواها السياسية والعسكرية ، وترجع أسباب تفوق الاسلام إلى أنه أكثر بساطة ، وأبعد عن التعقيد من الأديان الأخرى ، فهو خلو من الأسرار المذهبية ، أو تعذيب الضمير ، فالاعتقاد بإله واحد ، وبمحمد نبياً ، هما الشرطان الأساسيان في الاسلام ، فضلا عن أن الاسلام يجيز تعدد الزوجات واقتناء العبيد والجواري ، وهو من هذه الناحية ملائم للنفسية الأفريقية كما اقترن الاسلام في إفريقيا بمقاومة الاستعمار وشجب التمييز العنصري . يقول نعيم قداح : إن الاستعمار في غرب أفريقيا كان نهاية للحقبة المزدهرة التي توهجت فيها الثقافة الاسلامية في ظل الدولة الاسلامية التي قامت في تلك الأصقاع ، وقد التهمت نيران جيوش الاستعمار في مدن أفريقية العربية كثيراً من المدارس والمكتبات ، وأتى المستعمر على كل أثر علمي عند ما قطع التيار الحضاري العربي الاسلامي القادم من شمال أفريقيا ومصر . ولما اشتد اضطهاد الاستعمار للافريقيين بصورة عامة ، وجد

كثير منهم أن الاسلام هو الذي سيخلصهم من ظلم المستعمرين ، ولذلك تضاعف عدد معتنقيه في مدى نصف قرن ، واقترنت الدعوة للدين الحنيف بمجهود فردي لاعادة أمجاد الثقافة العربية الاسلامية ، وقد بدأ الاستعمار الفرنسي في غرب إفريقيا منذ ١٢٧٤ هـ ١٨٥٧ م يقضي على الاسلام واللغة العربية ، فهو لم يحاصر اللغة العربية في شمال أفريقيا والجزائر وحدها . بل حاصرها أيضاً في قلب إفريقيا ، فانقرضت المدارس الاسلامية ، لأنها لم تستطع الحصول على إعانات ، ولم تبق إلا الزوايا للتعليم القرآني . وقد كان تعليم القرآن هو المنطلق الأول في التعليم العربي هناك .

وإن كان الذين تعلموا في الأزهر قد أنشأوا عدداً من المدرس الاسلامية عندما عادوا إلى بلادهم ، غير أن المستعمرين سرقوا الكتب الاسلامية ، ونقلوها إلى بلادهم ، وأغلقوا المدارس ، فسادت الجهالة بين المسلمين ، بينما توسعت مدارس التبشير والاستعمار . على الرغم من ازدياد عدد الذين اعتنقوا الاسلام في تلك الفترة ، وتضخمه بصورة واضحة .

وفي المناطق الي احتلها الانجليز حالوا بصورة عامةبين المسلمين والتعليم . إذ كانوا يشترطون على المسلم أن يغير اسمه الى اسم « لاتيني » ويشترطون حضور الصلوات الكنسية ، ودراسة التاريخ الاستعماري ، ووجد السلمون أن أمامهم طريقتين . إما أن يعمدوا إلى تغيير ديانتهم ليدخلوا مدارس المستعمرين ، وإما أن يحتالوا على المستعمرين ليتعلموا ، ثم يعودوا إلى دينهم ، بعد أن تشبعوا بآراء وتوجيهات المستعمرين .

وقد صور توماس أرنولد انتشار الاسلام في أفريقيا فقال : كانت الأساليب السليمة هي الطابع الغالب على نشر الدعوة الاسلامية في أفريقيا ، كان التاجر المسلم عربياً كان أم إفريقيا ، يجمع بين نشر الدعوة وبيع سلعته ، حتى إذا دخل قرية وثنية سرعان ما يلفت الأنظار بكثرة وضوئه ، وانتظام أوقات الصلاة والعبادة التي يبدو فيها وكأنه يخاطب كائناً خفياً . وما يتخلى به هذا الرجل من سمو عقلي وخلقي كان يفرض احترامه وثقة الأهالي الوثنيين به .

ويدهش المؤرخون والباحثون من أن الاسلام قد انتشر بصورة ضخمة في افريقيا في نفس الوقت الذي وطد الاستعمار أقدامه في قلب أفريقيا ، ومضى

ينشر حملات التبشير والشبهات حول كل ما هو اسلامي وبالرغم من ذلك فقد واصل الاسلام فتوحه ، وكان للصوفية وأبناء القارة الهندية من التجار المسلمين الذين هاجروا الى أفريقيا دور فعال .

ويرجع ذلك الى بساطة الاسلام وسماحته ، وقدرته على ملاقاة الفطرة أو التقاليد أو العادات المحلية دون أن يصادمها ، وهو ما اطلق عليه بعض الباحثين « الاندماج » أو « الامتزاج الصحي » وقد كان لمبدأ « المساواة » بحسبانه المبدأ الأساسي في الاسلام أثر مباشر وعملي في ترحيب شعوب أفريقيا به ، والمسارعة إلى اعتناقه ، وأبرز ما يتسم به في نظر الأفريقيين هو أن الذين يتحولون الى الاسلام يعطون نفس الحقوق التي يتمتع بها أي عضو آخر في المجتمع الاسلامي حتى قيادة الجيوش ، وتولي أعظم مناصب الحكم .

ويرجع « هوبيرديشان » : الفضل في نشر الاسلام بين قبائل الزنوج في أفريقيا إلى نشاط الدعاة من أرباب الطرق الصوفية . « فقد وجد فيه الزنوج الطمأنينة بفضل نظامه الاجتماعي ، وما يتمتعون في ظله من يسر وأمن في أسفارهم للتجارة » ويركز على أن انتشار الاسلام تم بمجهود الطرق « القادرية » : التي نشأت في العراق ، وتوسعت في جنوب افريقيا والسنغال ، «والتيجانية » في فاس ، وتتميز بشدة مقاومتها للوثنيين ، وقد كان للحركة « الأحمدية » دورها في نشر الاسلام في أفريقيا ، كما كان للمرابطين[1] المغاربة وأغلبهم من اتباع الطريقة القادرية والتيجانية ـ دورهم في نشر الاسلام ومد نشاطه من السنغال إلى غينيا والسودان حتى ساحل العاج ، ومستعمرة النيجر .

ويرجع ذلك في نظر هوبير ديشان إلى أن الاسلام دين فطرة ، سهل المتناول ، لا تعقيد فيه ، سهل التكييف والتطبيق في مختلف الظروف ، ويقول : لقد بدل الاسلام مظاهر البقاع التي دخلها ، وأشاع النظافة التي يتميز بها المسلم عن بقية الناس « لباس فضفاض » و « تحريم لحم الخنزير » . ويتسم الاسلام في أفريقيا بطابع صوفي ، وربما اختلطت به بعض العادات الوثنية التي لا تزال باقية .

---

( ١ ) المرابطون : الدعاة المسلمون

ولعل أبرز أثر للاسلام في افريقيا اختفاء أقبح الرذائل ، وهي أكل لحوم البشر ، وتقديم الانسان قرباناً ووأد الأطفال أحياء . لقد حول الاسلام العراة إلى لابسين ، والذين لم يغتسلوا قط إلى الطهارة ، وأعان على اندماج القبائل فأصبحت أمماً . وفتح باب ازدياد المعرفة والثقافة . وقد أمر الاسلام الأفريقيين بالنشاط والعزة والاعتماد على النفس ، وقضى على الحروب الصليبية .

ولعل أبرز ما أعان على انتشار الاسلام في افريقيا ما صوره أحد الباحثين الأجانب حين قال : إنه من السهل على الزنجي أن يصير مسلماً ، فكيفيه أن ينطق بشهادة لا إله إلا الله وأن محمداً رسول الله ليندمج حينئذ في مجموعة اجتماعية هائلة وسلسلة من تعاضد على مسافة الآف الكبيرة من الكيلومترات ، وان الزنجي المسلم سيجد عند أخيه في الدين دائماً الطعام والحصير للنوم .

هذا بالاضافة إلى روحه التحريرية للفرد والجماعة . وقد حاول الاستعمار ضرب حركة انتشار الاسلام بإثارة الشبهات حوله ، واتهامه بأنه قائم على مفهوم الغيبيات والتواكل ، غير أن اندفاع الاسلام بهذه الصورة بالرغم من كل قوى التبشير التي تواجهه ، تكشف عما يتميز به جوهره من بساطة تعاليمه وانسجامه ، وطبيعة الفطرة الاسلامية المتحررة من التعقيدات . ولا شك أن انتشار الاسلام في هذه المرحلة من مراحل الغزو الاستعماري يكشف عن جوهر الاسلام وقدرته على التحدي ورد الفعل .

وفي أرخبيل الملايو استطاع مصارعة البرتغال والهولنديين والفرنسيين والانجليز واليابانيين .

## ( ٣٧ )

# بين العرب والترك

حين أخذ نجم العثمانيين الترك في الضعف ، تألق نجم « العرب » كقوة جديدة للاسلام ، لم تكن القوة هذه المرة في مجال الحرب والتوسع ، أو المقاومة العسكرية ، ولكنها كانت قوة فكرية سياسية تمثل « مرحلة جديدة » من مراحل حركة تاريخ الاسلام . ولقد كان من الضروري على هذه القوة الجديدة أن تتحرر من سلطان الأتراك السياسي والفكري ، وكان عليها في نفس الوقت أن تواجه نفوذ الاستعمار الكاسح المندفع للسيطرة على ميراث الدولة العثمانية التي كانت تمر بمرحلة « الرجل المريض» والحق أن الخلاف بين القوة الاسلامية الجديدة المتألقة وبين القوة الاسلامية التي أدت رسالتها ، واستكملت دورة التاريخ ، كان مركزاً في مفهوم واحد ، هو مفهوم « إعادة صياغة الاسلام » صياغة مجددة في مجال بعثه كرد فعل على عوامل الضعف والتأمر التي مني بها المسلمون نتيجة الانحراف عن تكامل مفهوم الاسلام ، الجامع بين العقل والقلب ، وغلبة التصوف كمفهوم روحي وجداني له طابع الجبرية والتواكل

ومن هنا كانت اليقظة العربية الاسلامية تقوم على حركات متوالية متتابعة ، تمثل في مجموعها تطور الفكر الاسلامي العربي في مجال التجديد والاصلاح والتحرر من عوامل الجمود والتخلف والضعف ، وكانت الدعوة إلى التحرر من « الجبرية الصوفية» هي في نفس الوقت دعوة للتحرر من نفوذ الاستبداد السياسي والجمود الاجتماعي . وفي مجال التاريخ الاسلامي بدأت حركة اليقظة بعلامتين كبيرتين :

تقدم العلماء مرة أخـرى لحمـل لواء المناصحـة للحـكام والامراء ، وقيادة الحركات المطالبة بالاصلاح والعدل الاجتماعي ، وكانت ابرز هذه الصور ، قد انبعثت من الأزهر في القاهرة ، لمواجهة ظلم الأمراء : إبراهيم ومراد ، وفي نفس الوقت كانت الدعوة إلى « التوحيد » التي حمل لواءها محمد بن عبد الوهاب في قلب الجزيرة العربية دعوة إلى التحرر من مفهوم العبـودية السياسية والـروحية والاجتماعية كافة . ومن هنا بدأ الصدام بين هذه القوة الجديدة الشابة . وبـين الدولة العثمانية التي كانت خاضعة لنفوذ الصوفية الجبرية . غير أن قوة جديدة في مجال السياسية لم تلبث أن ظهرت في أوائل القرن التاسع عشر بقيادة محمد علي في مصر . وكانت تحمل طابع القوة العسكرية ، وتستهدف إقامة إمبراطورية تحـل محل القوة العثمانية المنهارة . وبذا أصبح على المسرح في ذلك الوقت قوى أربع :

* النفـوذ الغَربـي المتمثـل في الغـرب المندفـع للسيطـرة على العالـم الاسلامي ، وتقسيم ميراث الوحدة الاسلامية العثمانية .

* الدولة العثمانية في مرحلة ضعفها بين مؤامرات الاسـتعمار ، ومحـاولات الإصلاح .

* القوة السياسية الحربية ممثلة في مصر ومحمد علي .

* القوة الإسلامية السياسية ممثلة في دعوة محمد بن عبد الوهاب والأمراء السعوديين .

ولما كان الاستعمار المتصارع على مناطق النفوذ متفقا في القضاء على الدولة العثمانية وتمزيق ممتلكاتها وتقسيمها فيما بينه . فقد استطاع أن يوعز إلى الدولـة العثمانية أن تضرب القوتين بعضهما ببعض . وقد حدث ، فاستعان السلطـان بقوة مصر العسكرية الحديثة في القضاء على قوة الجزيرة العربية ، ثم استطـاع الاستعمار من بعد أن يقضي على قوة مصر . بذلك انفسح أمامـه الطـريق مرة أخرى لتحقيق غايته في السيطرة على العالم الاسلامي وتقسيمه إلى مناطق نفوذ له .

غير أن القوة الإسلامية التي انهارت ، ظلـت قوة فكرية متألقـة ، وكان مفهومها هو لباب مختلف حركات الإصلاح والتجديد الإسلامي من بعد ، وكان

القرن الثالث عشر الهجري ( التاسع عشر الميلادي ) مجالا خصباً لعوامل اليقظة التي بدأت قبل وصول الحملة الفرنسية إلى مصر بستين عاماً . من هنا بدأ وجه الغرب من جديد في أولى خطوات الغزو الاستعماري الغربي الحديث ( **١٣١٦** هـ - **١٧٩٨** م ) والتي امتدت خلال القرن الثالث عشر باحتلال : الجزائر ومصر وتونس والخليج العربي ، وذلك مقدمة للسيطرة التامة على العالم العربي قبل الحرب العالمية الأولى وخلالها . وكانت الهند وأندونيسيا قد سقطتا في قبضة النفوذ الاستعماري في منتصف القرن التاسع عشر . وبذلك تمت السيطرة على العالم الإسلامي بعد ثلاثة قرون من حركة تطويقه ، وفي عام **١٩١٨** تمت الحلقة الأخيرة بانتهاء الحكم العثماني على العالم العربي بعد أن سقطت وحداته تحت نفوذ الاستعمار الغربي .

## - ٢ -

## مراحل الخلاف

مرت العلاقة بين العرب والعثمانيين في عدة أدوار :

( الدور الأول ) المرحلة التي بدأت ( **٩٢٣ هـ ١٥١٧** م ) وذلك باندماج العرب والعثمانيين في وحدة إسلامية شاملة ، بعد أن ضعفت القوى العربية ، وقوى المماليك والسلاجقة حين بدأت الوحدات العربية تتعرض للهجوم الغربي وخاصة في مناطق البحر الأبيض المتوسط ، وهي المناطق التي واجهت الغزو والحصار الاقتصادي بالالتفاف حول رأس الرجاء الصالح . وقد امتدت هذه المرحلة حتى ظهرت محاولات الانتقاض في وحدات عربية مختلفة على الحكم العثماني : خاصة في مصر ( على بك الكبير ) وسوريا ( ظاهر العمر ) ولبنان ( فخر الدين المعني ) . ثم ظهرت حركة عربية أيدلوجية ذات طابع فكري إسلامي هي دعوة التوحيد : التي كانت تحمل في مضمونها لواء المقاومة والانتقاض لطابع الحكم العثماني الذي بلغ غايته في الضعف والجمود . ومن هنا بدأت اليقظة الإسلامية تنبعث من قلب الأمة العربية ، وبدأت الأمة العربية تستعيد مكانها كقوة إيجابية في مواجهة عوامل الانهيار لتحمل لواء اليقظة والنهضة في العالم الإسلامي كله ، وكان ذلك إيذاناً بأن الوحدة الإسلامية العثمانية قد وصلت إلى نهاية المد ودخلت مرحلة الجزر ، وأكملت دورتها في مراحل التكون والتألق والانحدار . وقد وقع هذا في ( **١١٥٣ هـ ١٧٤٠** م ) في نفس الوقت الذى بدأت فيه الدولة العثمانية تتحول من موقف الهجوم إلى موقف الدفاع

بالنسبة لوحداتها في قلب أوربا والبلقان . غير أن اليقظة العربية ظلت فترة طويلة في مرحلة « الشرنقة » .

( الدور الثاني )المرحلة التي بدأت في اول حكم السلطان عبد الحميد ، والتي كان يقودها دعاة الحرية على المفهوم الغربي ، وفي مقدمتهم « مدحت » والتي استطاعت أن تقيم نظاماً سياسيا جديداً ( **١٢٩٣** هـ **١٨٧٦** م ) قوامه الدستور . بيد أن هذه الحركة لم تستكمل عناصر البقاء . ولذلك فإنها سرعان ما انهارت ، ودخلت الدولة العثمانية في دور صراع فكري خلال مرحلة استمرت حتى عام **١٣٢٦** هـ **١٩٠٨** م حينما استعادت الدستور العثماني مرة أخرى .

في هذه المرحلة كان « جمال الدين الأفغاني » قد بدأ دعوته إلى الجامعة الإسلامية التي نؤرخها بوصوله إلى القاهرة عام **١٨٧١** . وذلك بحسبان أن مذهبه الفلسفي كان قد تحدد بعد سنوات الكفاح التي قضاها بين فارس والهند وتركيا ، وبحسبان أن مصر ـ في تقديره ـ قلب العالم الإسلامي ، وأشد مناطق الأمة العربية حساسية ويقظة ، هي أصلح موقع لإطلاق دعوته التي تمثل تطوراً لحركة اليقظة العربية الإسلامية التي تقدمه بأكثر من سبعين عاماً . وفي ضوء حركات التحرر والاصلاح في الدولة العثمانية ، والوحدات العربية ، وخاصة فيما يتصل بحركة مدحت وأتباعه الاتحاديين في قيام دستور وحكم نيابي ، وتقييد سلطات الولاة والأمراء ، وهو ما شارك فيه من بعد عندما وضع دستور فارس . وعندما أشار على سيد ( المابين العثماني ) من قيام نظام الولايات ، وما ناقشه مع توفيق وعباس من حكام مصر .

من خلال هذه الدعوة ظهرت حركة السلطان عبد الحميد التي تعمل من أجل « وحدة المسلمين » . ومع اختلاف هدف الدعوة التي يقودها رجل فكر . والحركة التي يقودها حاكم فعلي فإن السلطان العثماني قد استطاع بذكائه أن يجعل من دعوة « وحدة العالم الإسلامي » سلاحا يواجه به النفوذ الغربي المضطرد الغزو لعالم الاسلام . وقد جاءت حركته في أعقاب تحرر الأجزاء الأوربية من الدولة العثمانية . ولا شك كان للحركة أثرها ومفعولها وامتدادها بعد سقوط عبد الحميد عام **١٩٠٩** ـ فقد ظل نصراؤها يحملون إلى نهاية الحرب العالمية الأولى **١٩١٨** ـ ثم تطورت بعد إلى منهج آخر ، وأسلوب جديد . غير أن

الصراع كان خفيا بين دعوة الجامعة الإسلامية التي يدعو إليها جمال الدين الذي توفي في ظروف عام ١٨٩٧ وبين حركة الجامعة الإسلامية ، التي قادها السلطان العثماني من ناحية ، وبين حركة الجامعة الطورانية التي كان قيادها في أيدي الاتحاديين ، غير أن هذا الصراع لم يتكشف إلا بعد عام ١٩٠٩ .

فقد استطاع الاتحاديون أن يفرضوا نفوذهم عام ١٩٠٨ ، وأن يحققوا إصدار الدستور في نفس العام ، هذا العام الذي يعد من الأعوام الحاسمة في تقدير المؤرخين لحركة اليقظة ، فقد استقبل هذا الدستور في مختلف أجزاء عالم الإسلام ووحداته العربية بالذات باهتمام كبير . غير أن هذا الجو من التفاؤل لم يلبث أن تضاءل بعد سقوط عبد الحميد ١٩٠٩ حين حاول استرداد الدستور . فقد كشف الاتحاديون عن هدفهم في إعلان الدعوة « إلى الجامعة الطورانية » وأخذوا في تنفيذ مخطط تتريك العناصر في الدولة العثمانية وواجهوا الأمة العربية بأقسى ألوان الاضطهاد ، حين أصر العرب على الحفاظ على كيانهم القومي ولغتهم العربية ، ووقفت سوريا بالذات في خلال الحرب العالمية الأولى تحت نفوذ أحد قادتهم أحمد جمال باشا الملقب بالسفاح الذي قاوم الوحدة العربية أعنف مقاومة .

( الدور الثالث ) ومن هنا بدأ الانفصام بين الوحدة العثمانية العربية المتمثلة باسم الإسلام في الدولة العثمانية . كانت الحركة العربية في أول أمرها حريصة على بقاء الوحدة العثمانية العربية على أساس قيام نظام لا مركزي يحفظ للوحدات العربية كيانها ولغتها ، غير أن إصرار الاتحاديين على تتريك العناصر ، والدعوة إلى الجامعة الطورانية التي تعارضت في أسلوب الدعوة مع مفهوم الإسلام ، ومع مقومات الأمة العربية ، هنالك انفصمت الوحدة ، وبرزت الدعوة إلى الوحدة العربية سافرة ، غير أن الأحداث العالمية كانت بعيدة الأثر في تحديد موقف العرب والترك ، حين قامت الحرب العالمية وانضم الأتراك لألمانيا ، وأغرت بريطانيا العرب بوعود مكذوبة بإقامة الدولة العربية بعد الحرب شريطة مساعدتهم لها ، هنالك بدأ الصدام بين العرب والترك في الجزيرة العربية وفلسطين وسوريا ولبنان على النحو الذي تحقق معه النصر للحلفاء ( الانجليز والفرنسيين ) في الحرب العالمية وهزيمة ألمانيا وتركيا ، غير أن بريطانيا كانت قد غدرت بالعرب ، وأنكرت عهدها لهم ، وتعاهدت مع فرنسا على تقسيم الشام ( فلسطين وسوريا ولبنان ) . والعراق .

وانتهت الحرب باحتلال انجلترا للعراق وفلسطين ، واحتلال فرنسا لسوريا ولبنان مع صدور وعد بلفور بإقامة وطن قومي لليهود في فلسطين ، وفي نفس الوقت احتل ( الحلفاء ) العاصمة العثمانية ، وأجزاء من الدولة . هنالك برزت حركة التحرير التي قادها ( مصطفى كمال ) واستطاعت تحقيق إجلاء الحلفاء واليونان عن ( آسيا الصغرى ) وهي القسم التركي الباقي من الدولة العثمانية بعد انتزاع الوحدات العربية منها .

( الدور الرابع ) حققت الحرب العالمية الأولى للاستعمار الغربي الوصول الى استكمال عملية الغزو التي بدأها عسكريا منذ بدأت حملة نابليون ١٧٩٨ ووقف اللورد اللنبي ( القائد البريطاني ) في بيت المقدس ، وقال كلمته الحاسمة : « الآن انتهت الحروب الصليبية » ومن ثم بدأت مرحلة « الإقليمية الضيقة » في مختلف أجزاء العالم الإسلامي ، تحاول أن ترجع هذه الوحدات إلى ماضيها قبل الإسلام لتدعو اليه من جديد ، ففي مصر ظهرت الفرعونية ، وفي سوريا ولبنان ظهرت الفينيقية ، وفي العراق ظهرت الأشورية ، وفي المغرب ظهرت البربرية ، ثم بدأ تمزيق عنصري وفكري وديني بين العناصر المختلفة قوامه مسيحي ومسلم ، وكردي وعربي ، وشيعي وسني ، وماروني ودرزي ، وبدأت حركة الإقليمية الضيقة تستعلي وترتفع صيحاتها حتى يحال بين عالم الإسلام ، وبين التجمع في وحدة فكرية . واتصل ذلك باللغة العربية التي جمدت ، وباندفاع اللغتين الفرنسية والإنجليزية إلى السيطرة الثقافية في العالم الإسلامي كله ، كما اتصل ذلك بالثقافات والبطولات ، وتاريخ وأمجاد الدول المختلفة لتصبح أجزاء أساسية في مناهج التربية والتعليم ، وذلك لحجب الطابع الاسلامي الذي كان مسيطراً على الفكر قبل هذه المرحلة ، وبدأت الوحدات صراعاً داخليا عنيفاً مع المحتلين ، أحوجها إلى مرحلة طويلة حتى عادت إلى التنبه لأسلحتها وقواها في الوحدة والايمان بتراثها ومقوماتها .

أما تركيا الكمالية ـ فقد اتجهت نحو الحضارة الغربية اتجاها قويا وحاداً ، فألغت كل مظاهر الحياة الاجتماعية والفكرية والسياسية ، وانتقلت من النقيض إلى النقيض ، وكان ذلك كرد فعل للعوامل الضخمة التي أوقعت الدولة العثمانية في الاضطراب والتفكك والهزيمة في الحرب العالمية ، وكاستجابة لنتائج مرحلة ضعف طويلة استمرت أكثر من قرن ونصف قرن ، ومن طباع الأشياء أن تتحرك

القوى المتغلبة من أقصى اليمين إلى أقصى اليساركمرحلةاندفاع أولى ، ثم تعود مرة أخرى إلى التوازن والتعادل بعد أن تمر بمرحلة الانفجار أو التنفيس ، فقد شجبت تركيا الإسلام اللغة العربية كلية وحجبت تراثها الإسلامي والعربي الثقافي كله ، وبدأت تكتب لغة تركية جديدة منفصلة عن اللغتين العربية والفارسية ، واستعملت الحروف اللاتينية ، وقاومت الطابع الديني كلية في الحياة الاجتماعية ، واندفعت في التحرر إلى أقصى مدى ، في الزي ، وفي البيت ، وفي المدرسة ، وربطت نفسها بعالم الغرب ثقافيا وسياسيا وعسكريا واجتماعيا على نحو أحدث هزة ضخمة ، ثم تابعتها إيران وجرت مثل ذلك محاولة في أفغانستان ، وواجهت الأمة العربية هذه التجربة مواجهة لاحدّ لدقتها ، فقد كانت « حركة التغريب » التي يحمل لواءها الاستعمار ، والتي تهدف إلى فصل المسلمين والعرب عن مقومات فكرهم وكيانهم ( التي هي إسلامية أصلاً ) بوصفها من عوامل المقاومة للغزو والاستعمار والنفوذ الأجنبي ، كانت تحاول أن تتخذ من حركة تركيا تجربة ناجحة ، وتدعو إلى تقليدها . وقد أحدث ذلك هزة نفسية بالغة في مختلف مقومات الفكر العربي الإسلامي ، غير أن الأمة العربية بحسبانها حاملة لواء « اليقظة العربية » التي بدأت قبل ذلك بأكثر من قرنين ، وعمقت آثارها في بيئة الأمة العربية استطاعت أن تقاوم .

لقد ربطت حركة اليقظة الإسلامية العربية بين تحرير الفكر الإسلامي من التقليد والجمود ، وبين مقاومة النفوذ الاستعماري الزاحف ، وقدمت كل الأسلحة لمقاومة الشبهات الفكرية والاجتماعية ، ومن هنا عجزت حركة التغريب عن ضرب الإسلام فى الأمة العربية .

( الدور الخامس ) بدأت حركة الوحدة العربية تحمل لواء مقاومة النفوذ الاستعماري ، بعد أن تمزقت جبهة الوحدة الإسلامية العثمانية التي التف حولها كثير من المفكرين العرب والمسلمين بحسبانها قوة قائمة فعلاً ، تعمل على دفع الغزو الغربي ، فلما مزق الاستعمار عالم الاسلام ، قامت حركة الوحدة العربية كعلامة على العمل الواقعي لمواجهة الغزو وتوسيع جبهة المقاومة ، وقد بدأت فكرة العروبة مرتبطة بالأساس الفكري بالاسلام . غير أن الاستعمار الذي قاوم أي وحدة ، حاول أن يثير في أعماق هذه الدعوة الشبهات والتمزقات . وذلك حين ظهر تيار يرمي إلى نقل الوحدة العربية من مفهوم الفكر العربي الاسلامي ،

ومن أرضيته الطبيعية إلى « عربية الوحدة » منفصلة عن أرضية الإسلام ، منعزلة عن مقوماتها الأساسية : اللغة العربية والتاريخ ، وكانت مؤامرة الاستعمار في محاولة خلق صراع بين العروبة والإسلام ليضرب الروابط بينه وبين الأمة العربية من ناحية ولتجزئة الفكر العربي الإسلامي ، بإثارة خصومات سياسية وفكرية بين عناصر الأمة العربية .

## - ٣ -

## الحرب الصليبية الجديدة

يمكن أن توصف الفترة التي بدأت بإعلان دعوة التوحيد ( **١١٥٣هـ ١٧٤٠م** ) إلى نهاية الحرب العالمية الأولى ( **١٣٣٧** هـ **١٩١٨** م ) بأنها مرحلة متكاملة في مجال اليقظة الإسلامية ، فقد تطورت فيها حركة اليقظة وتبلورت وتداخلت في عديد من الموجات والدعوات التي حمل لواءها : محمد بن عبد الوهاب والشوكاني ، والسنوسي والمهدي والسرهندي والدهلوي ، وجمال الدين ومحمد عبده والكواكبي ورشيد رضا . كما تمثلت في ثورات متوالية على الانجليز في الهند ( **١٨٥٧** ) وعلى الفرنسيين في الجزائر ( **١٨٣٠** ) وعلى الانجليز في مصر عرابي ( **١٨٨٢** ) وعلى الإنجليز في السودان ( **١٨٩٨** ) وعلى الروس في القوقاز ، وعلى الانجليز في فارس ، وتمثلت في هذه الحركات العسكرية والسياسية والفكرية مختلف أساليب اليقظة والمقاومة وتصحيح المفاهيم والوحدة السياسية والفكرية والإصلاح الاجتماعي .

ويمكن القول بأن ( اليقظة العربية الاسلامية ) وقد واجهت مرحلة جديدة بعد الحرب العالمية الأولى لها طابعها وتحدياتها المختلفة . ومن هنا يمكن القول بأن هذه الحركة حققت نتائج بالغة الأهمية في مقدمتها :

* بعث أمجاد العرب والمسلمين ، والرد على مختلف الشبهات التي حمل لواءها المبشرون ودعاة الاستعمار والتغريب .

* هز عالم الإسلام ، وبعث « خط جديد » قائم على تكامل الإسلام وشموله : بالربط بين العقل والقلب ، ومستمد من امتزاج مفهومي الغزالي وابن تيمية للإسلام .

حاولت التوفيق بين الإسلام وحاجات العصر ، وأعطت الأعمال السياسيةوالوطنية طابع الإسلام .

* رسمت مفهومها في أبسط صورة: العمل بكتاب الله وسنة رسوله مع مسايرة مقتضيات العصر ، بحيث لا تقبل نظرة إلا إذ أقرها العقل وصادق عليها الإسلام . وفهم الإسلام على أساس أنه يعتمد على العقل ونواميس الكون ، وتطورات الزمن في العاداتالعبادات .

* غلب الطابع السياسي على حركة اليقظة في العالمالعربي وغلب الجانب العقلي الاجتماعي على الحركة في الهند وجمعت المغرب بين الاتجاهين .

* ناضل السلفيون في المغرب ضد رجال الطرق الموالين للاستعمار، وضد الغزاة الأجانب .

مزجت حركة اليقظة الإسلامية بين مقاومة الانحلال الداخلي ، ومقاومة السيطرة الأجنبية .

* تصفية التفاسير الجزئيةوالخاطئة التي وضعت في فترة الضعف .

* إعادة الحريةالعقلية .

* الدعوة إلى دراسة الكتب العلمية الغربية ، وإن كان مؤلفوها من غير المسلمين ، أو كان فيها ما يخالف القرآن .

* الدعوة إلى استقصاء الشريعة ، واستثمار الأوفق منها لمقتضيات العصر .

* * *

إذا قلنا إن مرحلة الغزو الغربي على عالم الإسلام في العصر الحديث بدأت مرة أخرى بعد أن توقفت الحروب الصليبية بقرنين أو ثلاثة ، فإنما يكون ذلك القول بمثابة نظرة جزئية إلى الحروب الصليبية التي انتهت فعلا في المشرق عام ٦٩٠ هـ ١٢٩١ م . أما بالنسبة لعالم الإسلام كله فيمكن القول بأن الحروب الصليبية لم تتوقف . وإنما دخلت في دور جديد من ثلاث مراحل .

( ١ ) مرحلة تطويق عالم الإسلام التي بدأت بحملات البرتغال وأسبانيا بعد تحقيق هدف من أضخم أهداف الغرب ، وهو تخليص أوربا من سيطرة المسلمين والعرب ـ هذا في نفس الوقت الذي كانت أجزاء البلقان قد وقعت تحت سيطرة المسلمين والترك منذ ٧٥٩ هـ ١٣٥٧ م أي قبل سقوط غرناطة بما يقرب من

قرن ونصف قرن ـ وقد كانت الأندلس منطلق حملة تطويق الاسلام حوالي عام ١٦٠٠ تقريباً الى شواطىء المغرب وشواطىء إفريقيا ، وقد امتدت هذه المرحلة حتى ١٧٩٨ وقد قاومت الوحدات الاسلامية خلالها مقاومة كبرى ، وانتهت بقيام استعمار اقتصادي بواسطة شركتين إحداهما هولندية في أرخبيل الملايو ، وبريطانية في الهند ، ثم بدأت مرحلة الاحتلال العسكري ( حملة نابليون ١٧٩٨) وانتهت هذه المرحلة ١٩١٨ ( نهاية الحرب العالمية الأولى ) سيطرت هولندا على أندونيسيا عام ١٨٠٠ واحتلت بريطانيا الهند ١٨٥٧ واحتلت بريطانيا الأمة العربية عام ١٨٣٠ الجزائر ، وعام ١٨٣٩ عدن ، وعام ١٨٨١ تونس وعام ١٨٨٢ مصر ، وعام ١٨٩٧ السودان ، وعام ١٩١١ ليبيا ، وعام ١٩١٢ المغرب ، وعام ١٩١٧ سوريا وفلسطين والعراق .

ويمكن القول إنه بانتهاء الحرب العالمية الأولى كان العالم الإسلامي كله قد سقط في قبضة الاستعمار الغربي ما عدا : إيران وأفغانستان . وإن كان للاستعمار معهما ومع أجزاء من الجزيرة العربية معاهدات . وبذلك انتهت عملية الغزو الاستعماري الغربي الحديث ، الذي ظل ممتدًا في بعض أجزاء المغرب والأندلس منذ الحروب الصليبية ولم يتوقف .

***

وفيما بعد الحرب العالمية الأولى بدأت مرحلة ما تزال ممتدة هي مرحلة الاستعمار الفكري( الغزو الثقافي والتغريب )والاستعمار الاقتصادي لعالم الإسلام ، وقد تمثلت في هذه المرحلة باستمرار عملية المقاومة في مختلف أجزاء عالم الإسلام : هذه المقاومة لم تتوقف . منذ بدأت عمليات الغزو العسكري والسياسي . غير أنها اختلفت في فترة ما بين الحربين عنها في المرحلة السابقة لها . فقد غلب عليها الطابع السياسي والدبلوماسي . حيث استطاع الاستعمار أن يقيم حكومات موالية له ، وظلت القوى الوطنية تقاوم بالكلمة والتجمع وبالثورات .

وأبرز ما تتسم به مرحلة ما بين الحربين : « طابع الثورات » بينما كان طابع المرحلة التي سبقتها يتمثل في « حروب المقاومة » . وقد تفاوتت هذه الثورات طولاً وقصراً ، وكان أكثرها شبهاً بحروب المقاومة : ثورة الريف التي قادها الأمير عبد الكريم الخطابي ( ١٩٢٦ ) وثورة عمر المختار في ليبيا ١٩٣٠ . أما أجزاء العالم العربي فقد اندلعت فيها الثورات متوالية ومتصلة لم تتوقف : مصر ١٩١٩ ـ العراق ١٩٢٠ ـ السودان ١٩٢٤ ـ سوريا ١٩٢٤ ـ فلسطين ١٩٣٥ .

أما الهند وأندونيسيا وتركيا وإيران وأفغانستان فقد توالت فيها الثورات والانقلابات ، بالإضافة إلى ثورة تركستان . وفي خلال هذه الفترة أثيرت في تركيا وإيران وأفغانستان محاولات تحول وتغيير قامت تحت سلطان التجديد والتغريب . غيرأن العالم العربي كان أقل تأثراً بهذه الحركات ، وظل أكثر أصالة في مفهومه الاسلامي المتصل بماضيه وقيمه . وكانت تركيا أقوى هذه الوحدات الإسلامية جريا وراء تيار التغريب . وقد اتخذها الاستعمار « نموذجا » للتجربة التي نجا عالم الإسلام من آثارها الهادفة إلى القضاء على طابعه الإسلامي ، والتوغل في عملية التحول والتغريب والانفصال عن مضمون الإسلام الفكري والاجتماعي والسياسي

***

وتمثل مرحلة ما بين الحربين أدق مراحل المقاومة والصراع ، ليس في مجال المقاومة العسكرية أو السياسية تجاه الاستعمار بقدر ما كانت في مجال مقاومة التغريب والتبشير والشعوبية في مجال هدم مقومات الفكر الاسلامي في نفوس المسلمين ، وإثارة الشبهات حول الاسلام والقرآن والنبي محمد والتاريخ والتراث واللغة العربية .

وقد ركز الاستعمار في هذه المرحلة تركيزاً ضخماً على « الأمة العربية » باعتبارها بدت وكأنها الطليعة الجديدة لقيادة الاسلام ، وبوصفها قلب عالم الاسلام وأقوى القوى المدافعة عن السنة والمفاهيم الأساسية التي كانت دعوة اليقظة في خلال أكثر من **١٧٧** عاماً . قد استطاعت من خلال حركات متعددة تحمل طوابع التوحيد والجامعة الاسلامية والاجتهاد ، وتحرير العقل الى إقامة كيان فكري ضخم قادر على المقاومة لم يكن من اليسير القضاء عليه أو تدميره .

وفيما بعد الحرب العالمية الثانية استطاع النفوذ الاستعماري أن يركز دعائمه الفكرية والثقافية في العالم الاسلامي . ويتخلى عن قواعده العسكرية ، ومن ثم بدأت بعد الحرب حركات جلاء واستقلال لمعظم وحدات العالم الإسلامي تحت ضغط القوى الوطنية التي حملت لواء المقاومة .

ومن أبرز انتصارات الإسلام استقلال أندونيسيا وقيام دولة الباكستان الإسلامية منفصلة عن الهند ، ومن أظهر هزائمه ، وأقسى ما ظهر من حركات الاستعمار في هذه المرحلة ، عملية زرع دولة صهيونية في قلب الوطن العربي في فلسطين ( **١٩٤٨** ) وقد كان رد الفعل في مواجهة إسرائيل هو ذاك التحول

السياسي والعسكري والاجتماعي الذي شهده العالم العربي والذي تمثل في أكبر وأخطر مواجهة لاسرائيل ، وإذا كان لنا أن نستعرض في كلمة سريعة موقف الاسلام ، قلنا إن مرحلة الحرب العالمية الأولى حققت تقسيم العالم العربي ، وتمزيق الدولة العثمانية بعد انضمامها لألمانية وهزيمتها ، ثم انتقاض تركيا على الاسلام ، وإلغاء الخلافة كمقدمة لحركة غزو ضخم للغة والدين والتراث . أما بعد الحرب الثانية فكانت أبرز الأحداث : قيام إسرائيل وبروز يقظة عربية جديدة . قوامها الوحدة العربية لمواجهة الاستعمار والصهيونية معاً . ثم بروز اتجاه تقارب بين العرب وعالم الاسلام بعد فترة من الوحشة والانقسام ، هذا فضلا عن تقارب في الفكر الاسلامي ارتقى فوق خلافات المذاهب ، وحاول الالتقاء في مواجهة الغزو الغربي . ومن خلال إيمان بالحفاظ على مقومات الاسلام كقوة مدافعة في وجه حملة الاستعمار الغربي ، ويمكن أن يطلق على مرحلة ما بين الحربين طابع مرحلة الغزو الفكري والتغريب للقضاء على المقاومة وإحلال طابع محاسنة الاستعمار والالتقاء به ، غير أن هذه الفترة قد زخرت بأعلام تابعوا دعاة اليقظة العربية الاسلامية على الطريق ، وبلوروا أسلحة مقاومتهم مع تطور العصر ، ومع ظهور شبهات جديدة ، ومحاولات جديدة للغزو الفكري والتغريب .

في هذه المرحلة برزت مؤسسات عربية وإسلامية ضخمة في مختلف عالم الإسلام ، اتخذت من تصحيح مفاهيم الإسلام ، وإجلاء جوهره سلاحاً لمقاومة الاستعمار والاحتلال والتغريب ، ومقاومة حركات التبشير والشعوبية وكان من أبرزها :

* مؤسسة الإصلاح والتجديد في مصر وقوامها رشيد رضا ، ومحب الدين الخطيب ، وفريد وجدي وتلاميذهم .
* ندوة العلماء في لكنو وقوامها شبلي النعماني ، وسليمان الندوي ، ومؤسسات أخرى قوامها مولاي محمد علي وسيد أمير علي .
* مؤسسة النجف وقوامها الإمام كاشف الغطاء ، ومحمد جواد مغنية .
* اتباع دعوة التوحيد في العراق ( الألوسي ) وفي سوريا ( المغربي والقاسمي والبيطار ) .
* السلفيون في المغرب وفي مقدمتهم الدكالي ، ومحمد العربي العلوي وتلاميذهم .

* حـركة التجـديد في الجزائـر بقيادة عبـد الحميد باديس ، وبشـير الإبراهيمي .

*حركة التجديد في أندونيسيا .

وفي خلال هذه المرحلة لم تتوقف حركة المقاومة : في قطاعاتها الثلاثة : : الاجتماعية والسياسية والفكرية ، ويمكن أن يقال إن الاستعمار قد واجه عالم الإسلام بأقصى حملات الغزو وحمامات الدم التي لم تتوقف . وقد رد عليها عالم الإسلام بالمقاومة والثورات المتوالية ، وقدم فيها المسلمون في مختلف الوحدات شهداءهم وأبطالهم الذين رفضوا الاستسلام ، وواجهوا القوى الغاصبة بالأجساد المتراصة ، وتلقوا رصاص الغزاة في صدورهم ، ففي ثورة الهند المسلحة على الانجليز ١٨٥٧ ، وفي ثورة الجزائر ١٧٣٠ ـ ١٨٤٧ بقيادة الأمير عبد القادر التي استمرت سبعة عشر عاماً . وفي ثورة تركستان بقيادة شامل في مواجهة القوى الروسية ، وثورات المسلمين في جزائر الهند الشرقية في مواجهة الاستعمار الهولندي وفي العالم العربي بمختلف أجزائه لم تتوقف الثورات ، بل توالت فترة بعد فترة ، ومرحلة بعدمرحلة ،قاوم السنوسيون في ليبيا سنوات طويلة استمرت من ١٩١١ إلى ١٩٣٢ تقريباً ، وعرفت مصر ثورة عرابي ١٨٨٢ وثورة ١٩١٩ وثورة ١٩٥٢ .

## ـ ٤ ـ

حرص الاستعمار في مرحلة التغريب والغزو الفكري علىتمزيق جبهة الإسلام بالتفرقة بينالعرب والترك ، ثم بين الترك والفرس ، ثم تمزيق جبهة العرب ، ثم استغلال الحركات القومية في شجب مفاهيم المقومات الإسلامية ، والعربية الجذرية ، والقضاءعلى الرابطةالإسلامية الجامعة لعالم الإسلام بوحدة الفكر ، ومحاولة إذابة المسلمين والعرب في بوتقة حضارة الغرب وفكره ، والسيطرة عليهم سياسياواجتماعيا واقتصاديا ، وقد سعى الاستعمار إلى ذلك بعدة وسائل اتخذ لها خططاً حاسمة .

( أولاً ) تجميد اللغة العربية في العالم الإسلامي كله ، وإيقاف ثقافتها ، ومحاولة إحياء اللغات القومية ، وتغليب لغة المستعمر ( الفرنسية أو الانجليزية عليها ) ودفع اللغات القومية إلى طريق جديد بكتابتها بحروف لاتينية كما حدث في تركيا وأندونيسيا .

( ثانيا ) فرض المدارس الأجنبية ، ومدارس الإرساليات بمناهجها ولغاتها، والقضاء على المدارس الوطنية وإيقافها ، واعتبار لغة الاستعمار هي اللغة الأولى ، مع فرض تاريخ الغرب وأبطاله ومذاهبه وثقافاته أساساً ، وذلك للقضاء على مقومات الفكر الإسلامي ، وتاريخ الإسلام وابطاله .

( ثالثا ) التبشير بالديانات التي تمثلها ثقافات المحتل ، وذلك عن طريق المدارس والمستشفيات والصحف والأندية والكتب والإذاعات ومختلف الوسائل .

( رابعاً ) تغيير العقائد والأنظمة الاجتماعية والقوانين ، وتجميد الشريعة الإسلامية وأحكامها وأنظمتها ، وإحلال القوانين الأوربية المستمدة من بيئات الغرب وأديانه وحاجاته على القيم الاسلامية والعربية الأساسية .

( خامسا ) فرض مظاهر الحضارة الحديثة في الفنون والمجتمع ، وأدوات اللهو ، والقصص المكشوف ، والمسرحيات ذات الطوابع المنحلة ، وذلك بهدف القضاء على مقومات المجتمع وأخلاقياته ، وبث روح الانحلال في الشباب ، وتمزيق وحدة الجماعة ، والقضاء على كيان الأسرة .

( سادساً ) إذاعة الدعوات التغريبية المنحرفة ، والمذاهب الهدامة ، وضرب الفكر الإسلامي بقضايا وأفكار ، وآراء تقوم على الإلحاد والإباحة والتحلل بما يقضي على مقومات الإسلام والفكر الإسلامي وأخلاقياته ، والنيل من الدين والروحية ، والقيم الانسانية والمعنوية .

( سابعا ) ضرب العروبة بالإسلام ، ومحاولة دفع تيار العروبة إلى نهج منفصل عن مقومات الفكر العربي الأساسية . في اللغة والتاريخ والتراث . وذلك لتفسيخ مقومات الوحدة العربية بحسبانها عاملاً هامًا في تركيز مفاهيم الفكر العربي الإسلامي وجذوره . وفي هذا يقول الأستاذ محمد علي الغتيت : لقد حرص الاستعمار منذ الحروب الصليبية على القضاء على البعث العربي في أية صورة من صوره ، باعتبار أن ذلك في رأي الغرب بالإضافة إلى أنه يشكل في ذاته خطراً جسيماً على سياسته : فإنه متى تحقق كان المقدمة التي تجر وراءها حتما وتلقائيا « البعث الإسلامي » . فإن بعث القومية العربية في نظر ساسة الغرب هي الطاقة القومية التي متى انبعثت . كان من المحتم أن تدفع المسلمين أمامها الى التجمع من جديد على الصورة القوية التي لا يمكن أن تتحقق إلا في ظل

القومية العربية ، والتجمع الاسلامي ، أو بين العروبة والاسلام ، ففي العروبة يتمثل أمام ساسة الغرب : « الاسلام » . فلهذا فإن الغرب يتهيب دائماً خطر التجمع الاسلامي ويراه كامناً في العروبة حيثما كانت لا في الاسلام حيثما كان » .

( ثامنا ) إقامة قواعد عسكرية ذات طابع عنصري تحمل فلسفة خاصة نكون عاملاً أساسيا في ضرب حركات التحرر . وفي الحيلولة دون قيام الوحدة العربية التي هي عامل أساسي في تحقيق جانب القوة للإسلام ، وقد حرصت دول الغرب مجتمعة على تعميق هذه القاعدة وإبلاغها أقصى مدى من القوة ، ودون تقدير لتشريد العرب أهل المنطقة .

( تاسعاً ) إثارة الاتهامات الباطلة والشبهات المضللة حول الإسلام واتهامه بأنه سبب انحطاط الشعوب الإسلامية ، ومحاولة بناء ادعاءات كاذبة حول هذا المعنى تستمدة من مرحلة الضعف التي مرّ بها عالم الإسلام في أواخر عصر الدولة العثمانية . والواقع أن الإسلام محجوب بالمسلمين ، وأن انفصال المسلمين عن مفاهيم الإسلام . كان العامل الأساسي في ضعفهم وهزيمتهم أمام الغزو الغربي .

## - ٥ -

# الإسلام والغزو الاستعماري الحديث

اتسمت مرحلة اليقظة العربية الإسلامية ، بطابع الإسلام بكل مقوماته ، واستكملت ملامحها على النحو الذي استكملته المراحل المتصلة المتلاحمة ، حلقة وراء حلقة ، لا يفصل بينها شيء ، فكل منها يتمم ما قبله ، ويهيء لما بعده ، فحيث يبدو عامل الضعف في وحدة من وحدات عالم الإسلام، يبدو عامل اليقظة في وحدة أخرى . وحيث ينحرف مفهوم الإسلام ، يظهر المصلح المجدد الذي يكشف عن جوهر الإسلام فيصحح المفاهيم ، وحيث تسيطر فكرة جزئية محاولة أن تمثل الإسلام ، يشرق من جديد ضوء الإسلام في تكامله وشموله ووسطيته ، وحين يقوم الظلم أو الجور أو الانحراف أو التحلل في مجتمع يبرز الآمرون بالمعروف ، والناصحون للولاة . والدعاة الى الحق ، وهكذا يعطى الإسلام بنقاء جوهره وقدرته على الحركة والحياة ، قوة مجددة على الاستمرار ، والفاعلية والحيوية ، وإعادة تشكيل نفسه ، وصياغة مفاهيمه على النحو الذي يجري مع كل زمن ، وفي كل عصر لا يتخلف ولا ينحرف . وتتسم هذه المرحلة بسمات واضحة .

( أولا ) قدرة الإسلام على مواجهة الغزو الاستعماري ، والكشف عن أصالة جوهره وإيجابيته بعد أن تعرف على أسباب تأخر مجتمعه وتخلفه ، وقد تبين أن التخلف لم ينتج عن الإسلام نفسه . فالإسلام بفاعليته وديناميكيته الحية قادر على إعطاء القدرة الدائمة على المقاومة والقوة والحياة ، إنما نتج التخلف عن انفصال المجتمع الإسلامي عنه ، بينما كانت قيم تراث الإسلام وحدها من أكبر

مصادر النهضة التي ظهرت في الغرب ، حيث العدو الذي ظل يستعد للسيطرة والانقضاض .

( ثانيا ) أبرز الإسلام في هذه المرحلة قادة فكر وقادة عمل ، واستطاعت حركات المقاومة أن تستمد وقودها من الكلمات المضيئة التي جهر بها قادة الفكر ، واستمدوها من القرآن والسنة أصلاً ، فقد كانت قدرة الإسلام الجوهرية تتمثل خلال الأزمات الكبرى في التماس عوامل النظر من المنابع الاصيلة : القرآن والسنة النبوية ، ( حديثا وسيرة ) وأن تعبر عن مراحل الفكر الإسلامي كله مستمدة من « الأصول » و « الجذور » بوصفها أصدق إمداداً ، وأعمق أثراً ، وأقرب إلى العزائم ، وأبعد عن الزلل أو الرخص .

( ثالثاً ) برزت في هذه المرحلة قوى مقاومة عسكرية قادرة ، لا تقل في إيمانها بالاسلام والدفاع عنه عن قوى السلاجقة والبربر والمماليك . وقد تمثلت هذه القوى في الجزائريين بقيادة الأمير عبد القادر ، والقوقازيين بقيادة شامل ، والمصريين بقيادة عمر مكرم ، وأحمد عرابي ، والسودانيين بقيادة المهدي التعايشي والهنود في ثورة ١٨٥٧ وغيرها ، والعمانيين والسواحليين والأزارقة في مواجهة البرتغال والأسبان والانجليز ، وكذلك السنوسيين بقيادة السيد أحمد الشريف ، وبين المغاربة جملة على شاطىء البحر الأبيض المتوسط وبين الفرنجة ، كما قاوم الجاويون هولندة .

كانت هذه الحروب غير متكافئة حيث دارت بين المسلمين والعرب من جهة في أواخر مراحل الضعف وبين الغرب وهو في أول مراحل القوة ، واستمرت هذه الحروب طويلاً حتى يمكن أن يقال إنها لم تتوقف ، وفي الجزائر استمرت سبعة عشر عاما ، وتوالت . وفي كل هذه المعارك لم يكن النصر فيها للاستعمار - رغم علم التكافؤ العسكري والحربي - نصر ميدان . بل كان نصر غدر وتآمر . وقد كتب المسلمون في هذه المرحلة صفحة مشرقة لا تقل كفاءة عن صفحات مرحلة الغزو الخارجي التي سبقت عصر الوحدة الاسلامية العثمانية . وبالقطع كان هذا الغزو الجديد امتداداً لها .

وبسيطرة الاستعمار الحديث على عالم الإسلام تمزق الكيان الموحد - حيث سيطرت حكومات جديدة أقامها الاستعمار وبدأت بينها وبين القوى الوطنية معارك مقاومة . وبذلك دخلت وحدات عالم الإسلام في مرحلة جديدة هي

مرحلة « المقاومة بالكلمة » وهو الدور الوطني الذي ازداد اتساعاً بعد الحرب العالمية الأولى . وقد تنوعت وسائل الاستعمار الذي أخذ صورة احتلال مسلح ، وسيطرة كاملة على المقدرات الاقتصادية والسياسية والعسكرية مع تنفيذ برنامج كامل في مجال التربية والتعليم والثقافة والصحافة تهدف إلى قتل مصادر القوة في المجتمع والأسرة ، وتمزيق القوى المعنوية ، وبث روح من الإلحاد والإباحة والتشكيك والانحلال في القوى الشابة ، حيث سيطرت هذه القوى المحتلة بمختلف وسائل القضاء على القوى الاقتصادية والمعنوية واستغلت الامتيازات الأجنبية لانتزاع الأراضي وتحقيق أكبر قدر من الضغط والإفساد ، وإتاحة الفرصة للارساليات الأجنبية وبعثات التبشير . وتمزيق الوحدة الوطنية ، وإثارة الخلافات بين المذاهب والأديان وابتعاث الدعوات العنصرية القديمة كالفرعونية والأشورية والبابلية والفينيقية والبربرية ، وغيرها وفرض قوى ضخمة للسيطرة على مجاري الفكر بحيث يتحقق الجهر بهذه الدعوات مع إثارة الشبهات حول الإسلام ورسوله وقيمه وتاريخه ، وحول القرآن واللغة العربية والتراث مع ارتفاع هذه الأصوات وجهارتها عن طريق الصحف والمجلات الضخمة المسنودة بمالهم ونفوذهم ، بينما لا تستطيع أن ترقى كلمات المقاومة ، والرد على هذه الشبهات إلى نفس المستوى في التعبير أو الذيوع ، ومن هنا مهد الاستعمار في هذه المرحلة إلى مرحلة أكثر عنفا وشراسة في تدمير القيم الأساسية للإسلام بوصفه العامل الضخم الذي أعطى المسلمين القوة على مقاومة الغزو الأجنبي والنفوذ الأجنبي ، واستطاعت قوى المبشرين والمستشرقين أن تعد حملة ضخمة بدأت سنة ١٨٣٠ ( وهو نفس العام الذي احتلت فيه الجزائر ) بإذاعة الشبهات التي أثارها خصوم الإسلام في عصوره المختلفة بعد إعادة صياغتها من جديد ، كوسيلة للتشكيك في قدرة الإسلام على الحياة ، واستغلت هذه القوى ما وجه إلى المسيحية الغربية من اتهامات في أوائل عصر النهضة للهجوم به على الإسلام على بعد الفرق بين مواجهة الإسلام للحضارة وموقفه من العلم وموقف غيره من الأديان .

وفي الهند حيث كان المسلمون يحكمون الهند قبل الاحتلال البريطاني أبعدت بريطانيا المسلمين عن مجال الثقافة ومراكز القيادة السياسية ، وقدمت غيرهم وحجبتهم جيلاً كاملاً عن التعليم ، حتى هب قادتهم لمقاومة هذا الاتجاه بإنشاء المعاهد والجامعات ، وفي الجزائر حاولت فرنسا ان تقضي على اللغة العربية قضاءً نهائيا وأن تعتبر الجزائر جزءًا من فرنسا ، وفي مصر عمد الانجليز إلى نشر

اللغة الانجليزية ، وإضعاف اللغة العربية ، كما كانت الخطة الرئيسية للاستعمار الفرنسي والانجليزي الذي سيطر على القارة الأفريقية كلها في هذه الفترة هي حجب اللغة العربية وتجميدها وإيقافها عن النمو والانتشار ونشر لغته ، واعتبارها أساس الثقافة والتعليم ، وكما فرضت بريطانيا في الأجزاء الإسلامية بالهند اللغة الانجليزية ، ثم شجعت اللغة القومية « الأوردو » للقضاء على اللغة العربية .كذلك فعلت هولندا في أندونيسيا حيث فرضت الحروف اللاتينية على اللغة الأندونيسية بعد ان كانت حروفها عربية .

# الباب السابع

# معالم اساسية في تاريخ الاسلام

# ( ٣٨ )

## السنة والشيعة

هناك خلافان في تاريخ الاسلام وقعا في المجتمع الإسلامي :

( أولا ) الخلاف بين المسلمين وغير المسلمين حول مفاهيم الإسلام وهو خلاف واضح الجذور ، إذ إنه مهما تستر بصورة أو أخرى أو مذهب أو آخر فقد كان بطبيعته يختلف مع أصول الإسلام : « التوحيد ، النبوة ، فريضة العبادات ، والمعاد والقبلة والقرآن » وذا الخلاف يفرق بين الاسلام وغيره .

( ثانيا ) الخلاف بين المسلمين أنفسهم : وقد انصب ذلك على الفرعيات ، وهي ماسوى الاصول الثابتة للاسلام وقد أطلق عليه من بعد اسم « المذاهب الفقهية » : التي استقرت في خمس مذاهب : المالكية والحنفية والحنبلية والشافعية والجعفرية ،وهو خلاف مقبول ، لأنه يتصل بالمسائل الفرعية وحدها ، ولا يرقى إلى الأصول الثابتة . وقد قامت في صدر الإسلام نحل ومذاهب سياسية كان أساساً لها مذاهبها الفكرية التي تحدد بها موقفها من القيادة السياسيه لتي وليت الحكم في الإسلام بعد الخلفاء الراشدين الأربعة : وتمثلت في الأغلب في الدولة الأموية والدولة العباسية .

والمعروف أن القوى التي تصدت للقيادة السياسية في عصر الراشدين كانت تتمثل في الأمويين ، والهاشميين - والهاشميون يمثلون العلويين ( من آل سيدنا على بن أبي طالب رضي الله عنه ) - ( ٢ ) والعباسيين ( من آل العباس بن

عبد المطلب ) . وقد كان العلويون هم القوة الوحيدة في القوات الثلاث التي لم تتصدر للحكم أو التي حرص الأمويون على إبعادها مع الهاشميين جملـة ، ثم حرص العباسيون على إبعادها أيضاً ولم يكن الخلاف قائماً أول الأمر حول مفهوم أحقية أهل البيت في القيادة السياسية بوصفهم أهل النبي صلى الله عليه سلم ، وإنما كان الخلاف قائماً حول تحرير مفهوم الاسـلام في الحـكم بوصفـه شورى يتولاها أي مسلم مؤهل لذلك ، ولو كان عبداً حبشياً . وقد كان الامام علي في مقدمة رجال القيادة السياسية التي كونها النبي ، وكانت له بطولاته ومواقفه وخلقه وفقهه ، حتى قيل « قضية وأبا حسن لها » غير أن النظام السياسي الـذي وافـق عملية بناء عالـم الاسـلام ، قد أحـدث عدداً من التحـديات الخطـيرة كان في مقدمتها مقتل الخلفاء الثلاثة : عمر وعثمان وعلي . وفي عهد عثمان وقع الخلاف بين المسلمين ، ونشأت عنه تمزقات بعيدة المدى ، اضطرت المسلمين إلى إقرار نظام وراثي يدور في فلك الاسلام ، ولكنه لا يمثل مفهوم الاسلام في الشورى ، ومضى هذا النظام واستمر . وفي خلال ذلك كان تبلور المسلمين في مجموعتـين كبيرتين : أهل السنة والشيعة ، ولم يكن الخلاف بينهما جذرياً . ولكنه كان في الفروع . كانت الأصول الأساسية للاسلام قائمة شاملة لا خلاف فيها . وإن اتسمت الشيعة بسمـة واضحـة هي ذلك الحـب القـوي لآل البيت والارتبـاط الروحي والفكري بالنبي وأهله . ومن هنا كانوا « دعاة العاطفة والحب والولاء » وكانت تلك علامة بارزة في فقههم وفكرهم جميعاً .

وقد تحقق للشيعة الصدارة في مجال القيادة السياسية في دول كثيرة فيما وراء النهر « الساسانية والبويهية والصفـارية » ثم قامـت الدولـة الفـاطمية الباذخـة باسمهم في المغرب ومصر ، ثم قامت في القرن العاشر الهجري الدولة الصفوية في فارس . وما زالت فارس تمثل الدولة الشيعية في عالم الاسلام الحديث .

وقـد كان تاريخ الاسـلام حافـلاً بالخلافـات والمساجـلات الفـكرية ، وبالصراع السياسي بين السنة والشيعة ، وقد حرص الغزو الخارجي الممتد منذ الحروب الصليبية الى اليوم ان يغذي هذا الخلاف وأن يعمق آثاره حتى لا تلتئم وحدة عالم الاسلام . وكانت حركة التغريب حريصة على الدس والايقاع بين السنة والشيعة ، وتفريق كلمتهم وإذكاء الخصومـة بينهـم . وقـد تنبـه السنـة والشيعة جميعاً لهذه المؤامرات ، وعملوا على تضييق شقة الخـلاف ، والتقـارب

والحق أن الخلاف بين السنة والشيعة لا يزيد عن أن يكون خلافاً بين المذاهب الأربعة ، ويمكن القول بأنه ليس إلا خلافاً بين المذاهب الخمسة . المذاهب الأربعة ، والمذهب الجعفري .

***

أما مصدر الشبهة التي ما تزال سلاحا في يد التغريب والشعوبية وخصوم العرب والإسلام جميعا ، فهي ما يحمل التاريخ من فرق انتسبت ادعاء إلى الشيعة وهي « فرق الغلاة » .

ومن الحق أن يكون الباحث يقظا في التفرقة بين الشيعة والغلاة ، هؤلاء الذين هاجمهم أئمة الشيعة أنفسهم وحذروا مما يدسونه .

فالخطأ الأكبر الذي يحترز منه ، هو القول بأن « التشيع » كان مأوى يلجأ إليه كل من أراد هدم الإسلام ، إذ الواقع أن الشيعة كانوا أساساً ملتقين مع أهل السنة في قواعد الإسلام ومقوماته الأساسية . وإن الخلاف لم يقع إلا في المسائل الفرعية التي ليست إلا رحمة ، والتي هي نوع من الاجتهاد ، ومن اجتهد فأصاب فله أجران ، ومن اجتهد فأخطأ فله أجر واحد . وقد أكدت النصوص الصحيحة أن الشيعة بعدت عن التناسخ والحلول والتجسيم ،وأنهم قاوموا أقوال الغلاة ؛ وحتموا ألا يقبلوا حديثا إلا ما وافق الكتاب والسنة ، وقد دعا الإمام علي بن موسى الرضا صراحة إلى رفض ما يخالف القرآن وقبول مايوافق القرآن والسنة .

فكل فرق الغلاة: كالرافضة والباطنية وما اتصل بأفكارهم من إلحاد كالقول بتحريف القرآن وكتمان بعض آياته ، ومن راجت فيهم البهائية ، هؤلاء ليسوا من الشيعة الأصلاء الذين عرفوا بالزيدية والاثني عشرية[1] ( الإمامية ) وقد دعا جمال الدين الأفغاني ، كما دعا كثيرون إلى جمع كلمة المسلمين والتأليف بين فرقهم التي يجمعها الإيمان بالقرآن ومحمد والتوحيد ، وقالوا إن السياسة كانت السبب الأول لهذا التفرق الذي ألبس بعد ذلك لباس الدين .

والحق أن الشيعي والعلوي والدرزي والإسماعيلي والسني كلهم

---

( ١ ) الشيعة الإمامية أكبر فرق الشيعة عدداً وانتشاراً ، ويسمون الإثني عشرية ، تبلغ الإمامية سعين مليونا في العراق وإيران والهند وباكستان وروسيا وتركستان وبخارى والأفغان ولبنان وسوريا والحجاز واليمن والصين والتبت والصومال وجاوة والألبان وتركيا والبحرين والكويت .

منضوون تحت كلمة الإسلام ، والخلاف بينهم في الفروع لا يفرقهم ، لما أتاح الإسلام من حرية المذهب الذي لا يؤدي إلى تمزيق وحدة المسلمين وقد علم الإسلام أتباعه أن يكونوا على يقظة كاملة في مواجهة خصوم الإسلام ، وأن لا تكون خلافاتهم المذهبية سبيلاً إلى الفرقة ، ومن هنا فليس في وسع أحد أن يحكم بالكفر على أحد من أهل القبلة .

والحق أن مذاهب الشيعة ( آل اليت ) الجعفرية وما تفرع منها : وأعلامها الإمام جعفر الصادق ، وسيدنا زيد وإسماعيل بن جعفر هي عصارة العقل الإسلامي في اجتهاده وتحقيقه ، وهي وحدة متكاملة مع ما قدمه مالك وأبو حنيفة والشافعي وابن حنبل والأوزاعي والظاهري وغيرهم من الأعلام ، وما تزال تمثل حركة فكرنا وفقهنا في مواجهة التطور والحضارة .

يجمع الباحثون المتصدرون للتقريب بين السنة والشيعة على أن الإسلام هو اتباع القرآن ، والأخذ بما صح من كلام النبي وأقواله وتقريراته ، وما عداه ففروع مذهبية . واجتهادات الأئمة ، وكل ما توخوه في اجتهادهم ، إنما قصدوا به أن يصيبوا مقاصد الإسلام ، ومن الخطأ التعصب لإمام دون إمام ، وان المغالاة في العصبية لإمام من الأئمة واجتهاداته هي خروج على روح الإسلام المتسامح .

والرافضة غير السنة والشيعة : والرفض هو ترك ما جاء به الوحي والرجوع إلى أساطير الوثنيات ودسائس اليهود ، ويشير الكثيرون إلى الدور الذي لعبه « عبد الله بن سبأ » زعيم الرافضة الذي دخل الإسلام وهو يحمل في أعماق وراثياته إسرائيليات وأساطير كثيرة ، ظهرت في عقيدته الجديدة ، وقد اندس الرافضة ( السبئية ) أتباعه بين الشيعة وبين أهل السنة ، وبلغت هذه الفرق الرافضة **٧٣** فرقة وهي غير الشيعة أصلاً : كما أن هناك شبهة لا يلتفت إليها الكثيرون في الفرق بين الإمام « جعفر الصادق » وبين الرافضي « جعفر بن حرب » . فقد اختلط الرأي على بعض الباحثين فلم يفرقوا بين الإمام الجليل والرافضي ، وقد فند البغدادي هذه الشبهات في كتابه « الحرب على جعفر بن حرب » متقصياً خرافاته وأباطيله ، كما تناولها أبو منصور البغدادي في كتابه ( الفرق بين الفرق ) ولاشك كان سيدنا جعفر الصادق مناراً من منارات الإسلام .

والرافضة اسم أطلقه الإمام زيد على الفرقة السبئية التي اندست بين رجاله . ومن هنا جاء الخطأ المتصل في إلصاق الرافضي بالشيعة الموحدين المحبين لآل البيت .

***

وجملة القول إن الفروق المذهبية بين الجعفرية والمذاهب الأربعة السنية لا تكاد تذكر ، وهي تتمثل فى مسائل فرعية دعا إليها الاجتهاد في الرأي . ومن جهة أخرى فإن حب آل البيت والرسول الكريم إنما يمثل حقيقة سنية وشيعية واحدة وربما كان الخلاف في الدرجة ، ويقول العلامة الشيعي : « جواد مغنية » إن الشريعة لها أصول مقررة ، وان الخلاف والجدل بين المذاهب حصل فيما يتفرع عن تلك الأصول ، وما يستخرج منها ، وان في كتب الشيعة الامامية اجتهادات لا يعرفها أهل السنة ولو اطلعوا عليها لقويت ثقتهم بالشيعة ومفكريها . وكذلك الشأن بالقياس إلى كتب السنة وعلماء الشيعة .

ويصور العلامة : جواد مغنية موقف الشيعة من الغلاة فيقول : الغلاة هم المتظاهرون بالاسلام الذين نسبوا إلى أمير المؤمنين علي بن أبي طالب ، والأئمة من ذريته الألوهية والنبوة ووصفوهم بما تجاوزوا فيه الحد وخرجوا عن القصد فهم ضلال كبار .

ويشير العلامة مغنية إلى أن كتابات المستشرقين كانت دائما من عوامل الوقيعة بين السنة والشيعة ، وآية ذلك كتاب المستشرق رونلدس « عقيدة الشيعة » والهدف منه إيقاع الفتنة بين المسلمين .فقد دعم هذا الدس بشتى الأساليب ، وفي مقدمة ما أثاره من شبهات ما أسماه : تحريف الشيعة للقرآن ، وقال مغنية : إن الإمامية دافعوا عن القول بتحريف القرآن وأنكروه. كل الخلاف بينهم وبين السنة فيه : أن السنة تقول إنه كلام الله والإمامية تقول إنه محدث وليس بقديم . وقال مغنية : إن الشيعة الإمامية إذا أرادوا أن يستخرجوا حكماً شرعيا لمسألة تعرض لهم ، بحثوا في نصوص الكتاب والسنة وأقوال العلماء باذلين الجهد ، فإذا وجدوا نصًا خاصًا أو جماعيا وقفوا عنده ، واذا لم يجدوا لجأوا إلى العموميات والقواعد الكلية التي وردت في نصوص الكتاب والسنة .

## - ٢ -

لقد كان « النجف الأشرف » على طول تاريخ الاسلام مركزاً هامًا من مراكز الثقافة الإسلامية ، شارك الأزهر والزيتونة ، والقرويين الحفاظ على الإسلام واللغة العربية ، والتراث الإسلامي ، وللشيعة أعلام عظماء خدموا الإسلام وكانوا من كبار رجاله أمثال : عمار بن ياسر ، وسلمان الفارسي ، والأحنف بن قيس ، وسعيد بن المسيب ، والفرزدق والكميت ، وابن الرومي ، وأبي تمام ، والبحتري ، ومهيار الديلمي ، وابن هانيء الأندلسي ، وأبي فراس الحمداني ، والطغرائي والشريف الرضي ، وهم اليوم من أعلام الفكر الإسلامي .

والسنة والشيعة والدروز جميعاً أهل كلمة التوحيد ، وليس الخلاف في أساسه الا خلافاً في نظرية الحكم وفي الفرعيات، وهو دليل على عظمة « الشريعة الإسلامية » وقدرتها على الخلود والاستيعاب ، وهو خلاف محصور في بعض مسائل لا صلة لها بأصول الإسلام وقواعده .

وإذا كان الشيعة قد اتسموا بإكبار آل البيت . فإن أهل السنة يحبون آل البيت ، ويقدرون فضلهم . وقد اقتربت النظرة حول حب الرسول وآل البيت بين مختلف المذاهب الإسلامية ، بين مفهوم « التوحيد » بصورته الأولى ، وبين « التصوف » إلى الحد الذي قرب الصلة بين السنة والشيعة قربا كبيراً .

ولا نثير الخلافات القديمة وحول فضل الإمام علي ودرجته في الخلافة ، وحول خلاف السيدة فاطمة مع أبي بكر حول ميراث النبي في فدك ، وهي ليست من المسائل الرئيسية التي تتصل بأصل من أصول الإسلام ، وهو خلاف طبيعي في هذه المرحلة من حياة الإسلام . أما الخلاف حول مسألة الرجعة ، أو زواج المتعة ، أو مسألة الإمامة ، فهي اجتهادات في الفرعيات ومثلها خلافات كثيرة بين مذاهب السنة نفسها ، وهي لا تحول دون « وحدة المسلمين » . في الأصول العامة ، والواقع أن أهل السنة والشيعة لابد أن يلتفوا بعيداً عن الأطراف وأن يتعارفوا ، وقد تحقق جانب كبير من هذا حين ضم الأزهر دراسات المذهب الجعفري إلى المذاهب الأربعة ، ويقول الدكتور سليمان دنيا في مواجهة الخلاف بين السنة والشيعة :

« إن مذهب التشيع أشبه بثغر في الدولة الإسلامية ، وهو أشد بقاع المملكة الإسلامية كلها قرباً من العدو ،وهوهذا السبب المنفذ الذي يحاول أعداء الإسلام الدخول منه إلى بلاد الإسلام لغزوها، فواجب حامية هذا الثغر أشد من واجبات غيرهم ممن يوجدون في أماكن نائية عن العدو . فإن لم تكن حامية هذا الثغر يقظة منتبهة اقتحم العدو الثغر ، واقتحم قلب الدولة الإسلامية عن طريقه .

ويقول إن أئمة الشيعة قد أعلنوا براءتهم من الغلاة ، وعن أميرالمؤمنين علي رضي الله عنه قال : « إياكم والغلوفينا ، قولوا : إنا عبيد مربوبون ، وقولوا في فضلنا ما شئتم ، وقال : اللهم إني بريء من الغلاة كبراءة عيسى بن مريم من النصارى ، اللهم اخذلهم أبداً ولا تنصر منهم أحداً » ، ويروى عن أبي عبد الله جعفر بن محمد الصادق رضي الله عنهم أنه قال : أدنى ما يخرج الرجل من الايمان أن يجلس إلى غال فيستمع إلى حديثه ويصدقه . ويقول : إن أبي حدثني عن أبيه عن جده عليه السلام أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : « صنفان من أمتي لا نصيب لهما في الاسلام : الغلاة والقدرية » .

وقال : إن أهل السنة وإن كان من رأيهم عدم القول بعصمة الأئمة ، فإنهم مع هذا يحملون للأئمة حبًّا يجري في دمائهم ، ويتمكن من سويداء قلوبهم . فإن لهؤلاء الأئمة من الصلاح وحسن السيرة ، إلى جانب انتمائهم إلى الدوحة الشريفة الطاهرة ما يجعل أهل السنة يكنون لهم كل حب وإجلال وإكبار .

# ( ٣٩ )

## « العرب مادة الاسلام »

منذ بزغ الإسلام ارتبط بالأمة العربية أوثق ارتباط .

وقد كان التقاء الإسلام بالأمة العربية التقاءً بعيد المدى في نمو الإسلام وتوسعاته ، وفي بناء الأمة العربية ذاتها ، فالأمة العربية هي التي حملت الإسلام إلى العالم أجمع ، وكانت اللغة العربية ـ لغة القرآن ـ هي أداة فكره وثقافته وحضارته ، والإسلام هو الذي نقل العرب إلى الطور النهائي من أطوار تكوين الأمم ، إذ جعلها أمة ذات حضارة وفي نفس الوقت ذات رسالة إنسانية وعالمية .

ومن هنا فإن تصور الإسلام منفصلاً عن العروبة ، والعروبة منفصلة عن الإسلام هو تصور مبتور وناقص وغير قادر على إعطاء الحقيقة في بناء الإسلام ، وفي كيان الأمة العربية ، وفي مجالين كبيرين كاللغة والتاريخ لا يمكن فصل الإسلام عن العرب . فقد ظلت اللغة العربية هي قوام الثقافة الإسلامية حتى في فترات الضعف وفي مراحل اتساع اللغتين الفارسية والتركية ، وظل تاريخ الإسلام هو تاريخ العرب في بطولاته ومواقفه وتوسعاته وآثاره البعيدة المدى .

فالفكر الديني الذي كونته اللغة العربية بالارتباط بالإسلام ، كان حصيلة مشتركة للمسلمين والعرب جميعا ، بحيث لا يمكن أن يوصف بأنه فكر عربي خالص ، أو فكر إسلامي صرف ، وكذلك الحضارة ، ويمكن القول بحق بأن الفكر : فكر عربي إسلامي ، والحضارة حضارة عربية إسلامية .

ومكونات هذا الفكر هي : « اللغة العربية والإسلام » وقادة الفكر كانوا عرباً وغير عرب هم مسلمون أساساً صدرت مقدراتهم الفكرية عن مضمون الإسلام ومقوماته الأساسية وبيئته ، وكان أبطال التوسع ، وبناة الدول كقادة الفكر، قداستمدوا مجال بطولاتهم ومقوماتهاالتي بهرت الدنيا من مقومات الإسلام . وقد ورث الإسلام ثقافات الأمم والأديان والحضارات السالفة من فارسية ورومانية ويونانية وهندية وفرعونية ، هذه الثقافة التي انصهرت في بوتقته وتشكلت من جديدعلى أساس مقوماته ومفاهيمه . ولقدكان للعرب دور بناء الإسلام وتوسعاته ، هذا التوسع الذي بدأ في نظر الباحثين والمؤرخين عربيا . ولكنه في الحق لم يكن كذلك ، فإن طابع الإسلام وأيديولوجيته ، هما اللذان عمقا إيمان العرب الذين رباهم محمد فحملوا لواء الإسلام وآمنوا بمفهوم الإسلام « حب الموت لأجل الحياة » كانوا-أي العرب هم أصحاب القيادة السياسية خلال مرحلة طويلة ، استمرت متصلة حتى نهاية الدولة الأموية ومشاركة مع العناصر الإسلامية حتى نهاية الدولة العباسية وفي ظل الدولةالأمويةفي الأندلس ، وكان لهم دورهم في مقاومة الغزو الصليبي والتتري والفرنجي حيث شاركوا مشاركة ضخمة مع السلاجقة والمماليك والبربر ، ثم اختفوا عن مسرح القيادة خلال عصر « الوحدة الإسلامية العثمانية » غير أنهم سرعان ما برزوا في مجال القيادة خلال دور اليقظة العربية الإسلامية ففي الحق كان « العرب مادة الإسلام » طوال تاريخه كله ، وكانوا حملة مفهوم الإسلام البسيط الوسط البعيد عن التعصب الفلسفي والغيبية الصوفية .

ويؤكد كثير من الباحثين بأن « عروبة العرب » ظلت جية خلال تاريخ الإسلام في مختلف جماعات وادي النيل والسودان وفي مختلف الدول في أفريقيا : الحميدية ، وبين حمود ، والأغلبية والفاطمية ، وبني مرين ، وبني علول والدولة السعيدية وبني شبابة ، والدولة الشريفية . وفي الشام : التنوخيون ، والدنادشة،وبنو العظم ، وبنو حمدان ، وبنو مرداس ، وبنو المسيب .

وقد ظلت الجزيرة العربية تقذف موجاتها طوال هذه العصور ، فقد كانت أشبه بخزان هائل يقذف بين كل حقبة وأخرى بموجات من المهاجرين ، وقد كانت كذلك قبل الإسلام ، ثم كانت موجة الفتوح الإسلامية هجرة واسعة

النطاق لقبائل عربية بأكملها استقرت في البلاد المفتوحة . ثم توالت الهجرات من بعد فلم تتوقف .

غير أن العرب في كل مكان من حدود الصين إلى حدود فرنسا قد انصهروا في الأجناس والأمم ، وقام الإسلام بأضخم عملية بلورة بين المسلمين عرباً وفرساً وفرنجة وتركاً . وهي عملية طبيعية لم يكن للعرب فضل فيها . بل كان الاسلام ـ الذي لم يكن العرب مستعمريه ، أو فاتحيه ، بل ناشريه ودعاته ـ هو الذي دفعهم الى الامتزاج بالمصاهرة والنسب والاندماج في الأجناس والأمم امتزاجاً كان علي مستوى الأجناس ، وعلى مستوى العقول .

فقد امتزجت ثقافات هذه الأمم المختلفة التي كانت معهم بالاسلام نفسه ، وانصهرت فيه ، ونحى الاسلام مالم يتفق مع روحه وطابعه ومقوماته ، وبلورها على النحو الذي أصبحت به ثقافة إسلامية خالصة ، وإن ظلت بعض آثار المذاهب والثقافات القديمة تقاوم ، وتجد من يغذيها من أجل مقاومة الاسلام وتمزيق وحدته ، وكذلك تبلورت التقاليد والعادات والطبائع كلها في إطار الاسلام وتعاليم القرآن ، ولم يقف الزواج والمصاهرة عند المجتمع . بل واقتحم مجال الفكر أيضاً .

١ ـ وسادت اللغة العربية مع الاسلام ، فقد أخذت لغة قريش تسود غيرها من اللهجات العربية،فهي التي نزل بها القرآن ، ومن ثم أخذت مكان الصدارة ، في الكتابة والأدب والتخاطب ، وظهرت اللغة العربية على كل اللغات الإقليمية ، وأصبحت هي بالدرجة الأولى لغة الثقافة والتعامل ، ثم كان إبرازها للثقافة الإسلامية عاملاً في قيام الامتزاج الثقافي و الاجتماعي ، الذي أزال كثيراً من الفروق العقلية والاجتماعية في مختلف وحدات عالم الإسلام ، وعندما ضعفت اللغة العربية عن أن توحد عالم الإسلام ،وغلبت اللغات الفارسية والبربريةوالتركية ، كان الإسلام هو الرابطة الحقيقية ، وعندما ضعفت الوحدة اللغوية زادت « وحدة الفكر » قوة ، واختفت الخلافات الذهبية ، وتقاربت المفاهيم بين السنة والشيعة ، والفقهاء والصوفية . ومن هنا يمكن القول بأن الإسلام كان الإطار الفكري والعقلي للحضارة والثقافة الإسلامية .

## - ٢ -

لا سبيل لفصل تاريخ العرب عن تاريخ الإسلام منذ بزوغ فجر الإسلام إلى قيام الدولة العثمانية ، وفي خلال التاريخ عندما تخلى العرب عن الصدارة السياسية ظلوا أصحاب القيادة العسكرية ، فقد وجد الفكر الإسلامي في « عالم العربية » أكبر عوامل نموه وأقوى عوامل الحفاظ على جوهره ، وقد كان الإسلام بمفاهيمه ولغته هو الذي حال دون ذوبانها حتى في أشد فترات الضعف ، وقد انبعثت يقظة عالم الإسلام في العصر الحديث من قلب الأمة العربية ، وظل عالم الإسلام ينظر إليها كمركز قيادة .

وبالرغم من اندماج « الأمة العربية » في الوحدة الإسلامية العثمانية ، فقد ظلت محتفظة بطابعها الإسلامي البعيد عن التعقيد الفلسفي أو الصوفي ، بينما تحول الإسلام في مفهوم الثقافات الأخرى إلى جبرية صوفية ، ونصوص تقليدية ، وبالرغم من توسع اللغة التركية بوصفها لغة الدولة وامتدادها على آفاق الأمة العربية ، فقد ظلت اللغة العربية خلال مرحلة الوحدة العربية الإسلامية ( ٩٢٣ - ١٣٣٦ هـ ) هي السائدة ، بل إن الإسلام الذي دان به الأتراك كان عربي الطابع ، وكانت نصف كلمات لغتهم وأسماء رجالهم ونسائهم عربية ، وبذلك كانت التقاليد التي طبقوها في حياة البيت والمجتمع إسلامية ذات طابع عربي . بل ان اللغتين الفارسية والتركية ، كانتا تكتبان بالحروف العربية ، وقد ألف بالعربية كثيرون في فارس وتركيا ، وظل القرآن والحديث يتلى بأدائه وحروفه العربية ، وكان لقوة حيوية اللغة العربية وامتزاجها بالإسلام أبعد الأثر في الثبات والصمود ، عندما أراد الأتراك إزالتها ، بل استطاعت هي أن تطبعهم بطابعها ، وكان الإسلام هو الإطار الأكبر الذي تعلق العرب فيه بآمالهم القومية ، حين انهارت الخلافة الإسلامية باختفاء السلطة العثمانية .

والمعروف أن مجموعات كبيرة من عناصر الترك : التتر والتركمان والشركس والكرد لم تلبث أن دمجها الإسلام في الأمة العربية ونسيت لغاتها ومقوماتها العنصرية، واتخذت « الثقافة العربية » أساساً لفكرها ، ونبغ منها شعراء وكتّاب . هذا فضلا عن أن عدداً كبيراً من العلماء والمؤلفين في مجال الفلك والرياضة والفلسفة واللغة والتفسير من غير العرب أتقنوا اللغة العربية ، وألّفوا فيها ، كما كتب كثير من أعلام الترك باللغة العربية .

## - ٣ -

## الاسلام فكرة والعرب جنس

ومن هنا كان الإسلام أعم ، وقد اعتنق الإسلام أجناساً كثيرة غير العرب بوصفه إنساني النزعة ، عالمي التركيب ، وقد كان دور العرب فيه هو دور الطلائع القادرة على توسيع رقعته ، وهووان صبغ الفكر الاسلامي بصبغته العربية نتيجة لأنها قدمت للأمم والشعوب في وعاء اللغة العربية . غير أن موجة اللغة وموجة الإسلام لم تلبثا أن انفصلتا ، فتوقفت اللغة العربية عند حدود محددة : هي « الأمة العربية » وغلبت اللغات الأصلية على الفرس والترك والهند ، فلم تستعرب هذه الأمم ،وإن كتب بعضها بالحروف العربية ، ولذلك فقد ظل الرباط الأساسي والأوسع والأشمل هو « الفكر الإسلامي » المستمد من القرآن والسنة . ولقد أتيح للوحدات غير العربية أن تترجم القرآن إلى لغاتها ، وأن تؤذن وتصلي بلغاتها . وأن تقيم ثقافات قومية مرتبطة بلغاتها ، وإن ظل الإسلام جوهرها . غير أن دار الإسلام ظلت داراً واحدة لا تفصلها حدود أو سدود ، وكان أهلها يتنقلون في رحابها دون قيد ، كما تحررت كثير من هذه الوحدات من حكم العرب لها ، وأقامت حكامها كما فعل البربر ، والفرس والترك الذين سيطروا حاكمين على بعض مناطق عربية ، ثم استطاع الأتراك أن يصلوا إلى مركز الخلافة . بل وقد كان دور غير العرب من المسلمين بعيد المدى في مجال الفكر والثقافة : فلسفةً وفقهاً وعلوماً طبيعية .

بل لقد استطاع الإسلام أن يزيل العرب من الحكم عندما سيطرت عليهم مفاهيم العصبية الفعلية ، بدلا من مفهوم المساواة الإسلامي . وإن كان ا لإسلام قد أحدث حركة استعراب ضخمة في مختلف المناطق التي وصل إليها حملة الإسلام ، وإن كان الإسلام لا يلزم أحداً باعتناقه . فقد تعربت جماعات كثيرة دون أن تصبح مسلمة ، وساهمت بدور واضح في مجال الفكر العربي الإسلامي ، جنبا إلى جنب مع المسلمين .

***

ويمكن القول أيضاً في هذا المجال أن « القرآن » هو الذي حفظ العربية ، طوال أربعة عشر قرناً من التمزق إلى لهجات محلية ، فقد مرت بعالم الإسلام فترات ضعف قاسية كادت أن تودي بالفصحى ،وتمزقها« لولا أن وقف القرآن سدًّا منيعاً أمام هذه الأخطار الجسيمة » وقد جرت محاولات تغريبية وشعوبية متعددة في هذا المجال ، غير أن « القرآن » وقف حائلاً دون تحقيق ذلك ، فقد ظلت المعاهد الإسلامية كالأزهر والزيتونة وغيرهماحافظة للفصحى حتى مرت « أزمة الضعف » واستطاعت اللغة أن تنبعث من جديد في عصر اليقظة الإسلامية العربية قادرة على مواجهة الحضارة .

.وبفضل « القرآن » استطاعت اللغة العربية أنتسيطر في كل الوحدات ، وأن تزيل اللغات الإقليمية حتى أن العرب النصاري اضطروا إلى ترجمة الكتاب المقدس إلى اللغة العربية ، وصارت صلواتهم في كنائسهم بها . ويرى المستشرق جب : أن اللون العربي الذي التصق بالإسلام أتى من القرآن العربي ، وأن القرآن كان المرجع الأخير فيما يخص اللغة العربية وقواعدها ،وأن اتجاهاتالقومية العربية تؤكد على أن اللغة العربية حجر أساسي للوحدة العربية .

غير أن اللغة العربية قد توقفت عند حد محدود ، بينما استطاع « القرآن » أن يوسع نطاقه في فارس وتركيا والهند وأفريقيا وأرخبيل الملايو . إذ استطاع الإسلام أن يشق طريقه إلى هذه المناطق فيالقرون الأخيرة ، دون أنتنتشر اللغة العربية ، وتولدت في هذه الوحدات لغات مختلفة تفهم الإسلام والقرآن ، كما انتشر الإسلام في آسيا الصغرى . وفي بلاد البلقان دون أن تنتشر اللغة العربية .

وكذلك لعبالاسلامدوراً هامًّا في توسيع نطاق « العروبة » فإن انتشار اللغة العربية على يديه قد وسع نطاق « الأمة العربية » وكذلك صار « الإسلام » القوة

الواقية التي أكسبت « اللغة العربية » عامل المناعة ضد عوامل التصدع والتفتت ، وصانت بذلك الأمة العربية من الانشطار ( ساطع الحصري ) .

ولكن الإسلام ولسانه العربي « القرآن » قد طبع المسلمن جميعاً بطابع عربي وفقا للقاعدة الأساسية التي رسمها محمد صلى الله عليه وسلم : « ليست العربية بأحدكم من أب وأم ، وإنما هي اللسان ، فمن تكلم بالعربية فهو عربي » بمعنى أن من اتخذ « اللسان العربي » منطقاً له فهو عربي مهما اختلفت الأصول التي انحدر منها ، والدماء التي تجري في عروقه ، وقد غلبت خلال القرن الرابع عشر الهجري « دعوة » نسبت إلى العرب كل المقومات والتراث الحضاري والفكري المشترك بين الاسلام والعروبة ، ودأب كثير من كتاب الغرب على العمل الحثيث للفصل بين الأمة العربية وبين الاسلام كفكر وثقافة وحضارة ، محاولين تصور حضارة عربية وثقافة عربية ، وتاريخ عربي منفصلاً عن الاسلام كأساس أصيل لها .

وبالرغم من دور العرب الضخم في بناء الحضارة الإسلامية ، فإنه من الظلم أن ينكر دور الأجناس غير العربية التي شاركت في التاريخ والحضارة والثقافة والتراث ،والواقع أن كلاًمن كلمتي « عرب وإسلام» قدحلت إحداهما محل الأخرى دون تمييز دقيق ، والواقع أن التاريخ العربي لا ينفصل عن التاريخ الإسلامي ، إلا في فترات دقيقة لا تستطيع وحدها أن تمثل تاريخاً قائماً بذاته .

والحق أنه إذا ذكرت « العرب » في مجال الحضارة والفكر ، ذكر ذلك الأصل الذي قامت عليه الحضارة ، وذلك الفكر وهو « الإسلام » فالعرب أمة والإسلام فكر وحضارة ومجتمع ودعوة إنسانية عالمية ، والعرب هم الأمة التي حملت لواء الاسلام وشقت به الطريق إلى أقصى المشرق والمغرب . ولكن الفكر الذي حمله العرب في الرحلة الطويلة كان « إسلاميا » في جذوره مستمدا من مفاهيم واضحة أصيلة ، هذه المفاهيم هي التي دفعت العرب إلى النهضة والحضارة ، وشاركتهم في ذلك عقليات المسلمين من مختلف الأمم من غير العرب ، ولذلك فإن نسبة الحضارة والفكر إلى العرب وحدهم ليست صحيحة تماماً إلا اذا قصد إلى أن اللغة العربية كانت وعاء هذه الثقافة . بل إنه يمكن القول بأنه اليقظة العربية الحديثة « ظاهرة إسلامية » .

فإن الإسلام هو الذي أيقظ العرب مرة أخرى ، ودعاهم إلى التماس الحرية والمقاومة بسلاحه ، ويرى بعض الباحثين ومنهم ( الفريد كانتول سميث ) أن

الاسلام هو الدين الوحيد في العالم الذي ملأ نفوس معتنقيه فخراً وإعجاباً ، وهم ينظرون إلى لغتهم بوصفها « اللغة » التي اختارها الله لإظهار دينه ، وهي اللغة التي يتعلمها كل من أراد أن يتخذ الإسلام ديناً له ، ولسنا نحن مع الذين يرون أن قوة الإسلام تتمثل في عصر « الجماعة الاسلامية » أو أنها تنتهي بسقوط بغداد أو دولة الأمويين في الأندلس ، أو فتح العثمانيين لمصر سنة ١٥١٧ . بل الرأي عندنا أن تاريخ الإسلام متكامل في عروبته وإسلامياته ، وفي قوته وضعفه ، وأن هذا الجزء من تاريخ الإسلام الذي نما بعد الحروب الصليبية . إنما هو امتداد طبيعي لعنصر إسلامي قوي استطاع أن يحمل لواء الإسلام حتى عاد العرب ليحملوه من جديد ، غير أننا نذكر أن الإسلام ظل في موجة العثمانيين أقل عمقاً منه في أيدي العرب ، وفي مرحلة « الغزو الغربي الحديث » كان الاستعمار حريصا على أن يقضي على الموجة العربية الجديدة المتصدرة ، حتى لا تقوى على حمل لواء الإسلام ، أو تحويلها إلى النزعات الاقليمية أو الوطنية أو القومية لصرفها عن المفهوم الأوسع . غير أنها استطاعت أن تنتفع بكل هذه النزعات المستحدثة وصبغها من جديد وفق مفهومها الإسلامي . وقد استطاعت هذه الموجة أن تكافح من تحت مدافع الاستعمار ، ومن بين ضرباته ، وان تحقق نصراً في ( ١ ) مجال الحرية الوطنية والوحدة العربية . ( ٢ ) مجال انتشار الإسلام ( ٣ ) مجال

تصحيح مفاهيمه ، وقد فرض الاستعمار على الاسلام سلاح الضغط الاقتصادي والقوة العسكرية والشعوبية والسيطرة على التعليم والصحافة ، وخلق طبقة من المثقفين الذين اعتنقوا مبادئه ، واتخذوا أسلوبه في الحياة وفكره وقيمه ـ غير أن أغلب هؤلاء ـ ما عدا صنائعه ، قد أحسوا بأنهم خدعوا ، فعادوا أقوى ما يكونون دفاعاً عن قيم العرب والاسلام .

وقد برزت في خلال القرن الرابع عشر الهجري ( ٢٠ م ) حركات إيجابية كافحت في سبيل الحرية واليقظة ، واستطاعت أن تواجه عوامل الغزو الفكري والتغريب التي تمثلت في دعوات شعوبية متعددة المظهر ، متحدة الهدف ، تخاصم العروبة والإسلام معاً ، وهي تسعى إلى هدفين :

( ١ ) القضاء على الشعور القومي والاعتزاز بالتاريخ الإسلامي .

( ٢ ) القضاء على الاسلام باعتباره الاطار العقائدي للوحدة العـربية في مجال نشاطها وحركتها وحيويتها .

* * * *

والحـق أن الإسـلام في مختلف دورات التـاريخ قد احتضـن « الوحــدة العربية » بكل قوة ونماها ، واتخذ منها منطلقا له . وقد استطاع الإسلام القيام بهذه المهمة ، ولا يزال ، والأمة العربية أعمق وحدات الإسلام عقيدة ، وأقدرها على فهمه فهما صحيحاً ، والدفاع عنه ، والدعـوة إليه ، ولا شك كان لحـركة « اليقظة في مفهومها العربـي الإسلامـي القـدرة على مقاومـة محـاولات الغـزو الاستعماري ، والتغريب والشعوبية جميعاً .

## ( ٤٠ )

## « انتشار الاسلام ذاتيا »

يتسم الإسلام بسمتين واضحتين :

« الأولى » هي توسعات الإسلام وانتشاره عن طريق التحركات العسكرية التي كانت تحمل طابع المبادرة بالقضاء على مدبري خطط العدوان للقضاء على الإسلام الوليد في شبه الجزيرة . وتتمثل هذه « المرحلة الأولى » في حركة توسع امتدت شرقاً وشمالاً وغرباً فاستطاعت أن تبلغ في عصر الخلفاء حدود الهند وأفريقيا . ثم كانت موجتها الثانية في عصر القيادة السياسية الأموية ، وقد بلغت إلى حدود الصين شرقاً وحدود فرنسا غرباً ، بعد ان اقتحم المسلمون أوربا وأقاموا دولة الأندلس العربية المسلمة ، ثم توالت موجات ذات طابع محلي تتمثل في تحركات محمود بن سبكتكين في الهند وما وراء الهند ، وما جرى من محاولات للتوسع في إيطاليا وقلب أوربا الغربية ، ثم كانت حركة القيادة السياسية العثمانية في قلب أوربا من ناحية البلقان .

« الثانية » توسعات الإسلام ذاتيا وهي الحركة التي اتصلت في تاريخ الإسلام كله ، ولم تتصل بأعمال قادة عسكريين أو سياسيين ، وإنما كانت من عمل التجار والعلماء والصوفية ، وقد كسبت هذه الحركة توسعات تزيد عما حققته أعمال التوسع السياسية الأولى .

غير أن هناك حقيقة أساسية يجب أن لا تغيب عن الباحث عن حركة انتشار الإسلام ، هي : أن الوحدات التي سيطرت عليها القيادة السياسية لا يمكن أن

توصف بأنها أصبحت مسلمة بين عشية وضحاها . فقد كان الإسلام حريصاً على ألا يفرض عقيدته على أحد من سكان الأرض الإسلامية ، وأن يترك لأهل هذه الوحدات الحرية المطلقة في ممارسة أديانهم ، بل وحماية مقدساتهم ، وإتاحة الفرصة الكاملة لهم للأمن الشامل في مجال العقائد والمجتمع ، ومختلف عوامل التعامل . ومن هنا فإن « انتشار الإسلام » في هذه الوحدات إنما تم بالإقناع وبمطلق الحرية .

فقد قامت على أثر سيطرة القيادة السياسية الإسلامية على هذه الوحدات ، جماعات من العلماء والفقهاء للدعوة إلى الإسلام وشرحه ، والرد على ما يعرض له أصحاب الديانات والمذاهب الأخرى ، وما يطلبون تفسيره ، وما يثيره خصوم الاسلام من شبهات . ومن هنا فان تعمق الاسلام وتقبله واعتناقه لم يتم بمجرد السيطرة السياسية على هذه المنطقة الفسيحة من حدود الصين إلى حدود فرنسا ، وإنما تم ببطء شديد ، وبناء على اقتناع كامل . وقد بقيت وحدات إسلامية على طابعها السابق للاسلام فترة تتراوح بين قرن وثلاثة قرون ( الشام وفارس ) ولم يتم انتصار الاسلام في المغرب إلا في القرن الخامس الهجري على يد المرابطين . ومن هنا وبالاضافة إلى ما حققه التجار والدعاة في المناطق التي لم يفرض الاسلام عليها سلطانه السياسي يمكن القول بأن الاسلام قد انتشر ذاتياً .

* * *

وقد استطاع الاسلام بقوته الدائبة أن يحقق فتوحاً بعيدة المدى كان من أهمها : دور عمر بن عبد العزيز ، وهو دور خطير وبعيد المدى ، وهو يتمثل في أكثر من عمل ( ١ ) الكتابة إلى ملوك الهند يدعوهم إلى الإسلام ولهم ما للمسلمين ، وعليهم ما عليهم ، وكانت سيرته نبراساً لهم ، فأسلموا وتسموا بأسماء العرب . ( ٢ ) ولى بلاد المغرب أحسن الولاة سيرة : إسماعيل بن عبد الله بن أبي المهاجر ، فسار في البربر أحسن سيرة ، وكتب عمر كتاباً لهم يدعوهم إلى الاسلام فقبلوه . ( ٣ ) كتب إلى ملوك ما وراء النهر يدعوهم إلى الإسلام فأسلم كثير منهم . ( ٤ ) خفف اثقال الخراج عن النصارى ، وأوقف الجزية عمن دخل الإسلام .

وكان لدخول الأتراك في الإسلام في العصر العباسي ، وبالأخص في خلافة المعتصم بعد اتخاذه بعض أجنادهم أعواناً له ، أثر كبير في كسب جماعة ضخمة

كان لها أبعد الأثر في تاريخ الإسلام خلال عشرة قرون كاملة . استطاع الإسلام بواسطة دعاته أن يجذب إليه أولئك الفاتحين ويحملهم على اعتناقه ، ويرجع الفضل في ذلك إلى حماسة الدعاة من المسلمين الذين كانوا يلاقون من الصعوبات أشدها لمناهضة منافسين عظيمين هما : المسيحية والبوذية .

كما اجتذب الإسلام إلى مجال اعتناقه عدداً من الصليبيين ، وكان هؤلاء قواداً وأمراء . وقد سجل توماس أرنولد أن ستة من أمراء مملكة القدس اعتنقوا الإسلام بغير أن يضطرهم أحد . كما أسلم عدد كبير من الأسبانيين بعد القضاء على الدولة الاسلامية في الأندلس .

## « افريقيا »

بدأ الاسلام توسعاته في أفريقيا باعتناق البربر أهل المغرب الأصليين للإسلام ، وكان عقبة بن نافع قد بلغ واحة الكوار في الجنوب ، حيث أكد له سكانها أنه لا يوجد بشر جنوب منطقتهم ، فلما نزحت جماعة من العرب والبربر إلى جهة بحيرة « تشاد » . وفي القرن الثاني الهجري - حيث مفترق جنوب الصحراء - نتج عن هذا الاتصال الأول عن الصحراء بين العرب والمسلمين ، وبين السودانيين اعتناق عدد من ملوكهم الإسلام ، وتأسس عدد من الممالك المزدهرة : كانم ، سنراي ، غانا .

وتوالى اعتناق الملوك الافارقة للإسلام مع المبادلات التجارية بين غانا والمغرب الأقصى على أيدي قبائل الطوارق ، ولم يلبث هؤلاء الملوك أن جلبوا عدداً من العلماء والفقهاء ليعلّموا شعوبهم أصول الإسلام . وتوالى تأسيس الرباطات التي أسفرت من بعد عن ظهور ( المرابطين ) في القرن السادس الهجري بعد أن انتشر الاسلام في قبائل صنهاجة فأسسوا مملكتهم الاسلامية الممتدة من أسبانيا إلى السنغال .

دفعت دولة المرابطين الإسلامية بقوة بين رعايا امبراطورية غانا الأفريقية الوثنية الكبرى التي امتدت رقعتها فشملت مناجم الذهب في السنغال الأعلى ، وفي القرن السابع الهجري ( ١٣ م ) كانت ( تمبكتو ) مركز الثقافة الاسلامية ، ثم ازدادت أسباب التوسع قوة دفع جديد عندما تأسست دول

( سوكوتو ) وأخضعت أغلبية السودان الغربي لها بمساعدة الأخوة الصوفية المراكشية مريدي الطريقة التيجانية . وفي السودان الأوسط[1] على محاذاة بحيرة تشاد ، دخل الإسلام في أوائل القرن الخامس الهجري ( ١١م ) أما السودان الشرقي المتاخم لحدود مصر الجنوبية ، فقد ظل على نصرانيته مدة طويلة بعد أن أصبحت مصر ولاية إسلامية في القرن الأول بعد الهجرة ، وفي القرن السابع الهجري ( ١٣ م ) اعتنق النصارى والوثنيون من اهل افريقيا دين الإسلام عن اقتناع ، ونتيجة لنزوح قبائل عديدة من المسلمين والعرب من مصر .

وقد دعى البيت الحاكم في السودان الشرقي « الفونج » في القرن **١٢ - ١٨** هـ . ثم اتسع نطاق الإسلام في إفريقيا الغربية على أيدي الملوك والتجار ، وبواسطة الحج إلى مكة . واستقدام العلماء وإدخال اللغة العربية والقرآن . ومن أبرز الملوك في هذا المجال : كنكان موسى أعظم ملوك مالي ( **١٣١٢ - ١٣٣٥** ) وأسيكا محمد ( **١٤٩٣ - ١٥٢٨** ) . وفي القرن الثالث عشر ( **١٩** م ) نشط الإسلام بعد فترة ركود استمرت ثلاثة قرون وتأسست عدة امبراطوريات إسلامية بإفريقية الغربية من أهمها امبراطورية ( عثمان دان فوديو ) وإمبراطورية ماسنيا وعلى رأسها الشيخ أحمد ، وامبراطورية الحاج عمر . وقد جاهدوا جميعاً لإدخال أفواج كبيرة من الوثنيين في الإسلام . ثم ظهر « ساموري » في مالي فقاوم توغل الاستعمار الفرنسي ، وحارب الغزو الأجنبي ( **١٨٩٠ - ١٨٩٦** م ) .

وفي عهد الناصر بن قلاوون ( **٧٤١** هـ ) أسلم ملك دنقلة ، فانتشر الإسلام بين سكان البلاد من المسيحيين على أيدي التجار .

ودخل الإسلام الحبشة عام **٧٠٢** هـ ثم توسع في القرن الحادي عشر حتى بلغ المسلمون ثلث سكان البلاد . ومنذ اعتنق الإسلام نصارى النوبة دخله

---

( ١ ) السودان : شرقي ، أوسط ، غربي .
أ - الشرقي : حوض النيل ويغطي جمهورية السودان المستقلة
ب - الأوسط : حوض بحيرة تشاد
ج - الغربي : حوض نهر السنغال وزمبيا وأواسط نهر النيجر .

السنغاليون والسواحليون في زنجبار ، وقبائل الصحراء ، ثم ازداد انتشاره في السودان حيث أسست ممالك إسلامية قوية .

وفي القرن الحادي عشر الهجري نهض الإسلام نهضة قوية على أيدي الدعاة ومشايخ الطرق ، وكانت الدعاية المسيحية الكاثوليكية والبروتستانية قد نشطت في أفريقيا أواخر القرن الثاني عشر الهجر ( ١٨ م ) غير أن الإسلام اندفع بقوة . من أبواب الزوايا الصوفية في المغرب وبلاد فاس ومراكش ، واخترق بلاد الأردار بجبهة السنغال . وكانت زوايا أتباع الشيخ عبد القادر الجيلي في تمبكتو وزوايا التيجانية ( أحمد محمد التيجاني ) ( ٧٢٨ ) التي اتسعت حول مجرى نهر النيجر وزوايا السنوسية ( محمد بن علي السنوسي ) في الجنوب وغدامس متجهة نحو بحيرة تشاد . ومن أهم مراكزها وادي وبورنو . ومن خريجي الأزهر امتد خط آخر إلى كردفان . ثم إلى أوغندة . وكان لتجار المسلمين الذين كانوا يقطنون المسافات بين مصر وطرابلس ودارفور أثر كبير ، وكان أقوى نفوذ للتجار الذين يذهبون من زنجبار إلى إقليم البحيرات الكبرى . ثم عبر النهر الكنغو إلى بلاد البانتو ، أو من ساحل إفريقيا الشرقي داخل البلاد إلى مدغشقر .

## أرخبيل الملايو

يرجع انتشار الإسلام في جنوب شرق آسيا إلى التجار الذين وصلوا هذه البلاد في القرن الأول للهجرة واستطاعوا أن يوسعوا تجارتهم حتى كانت تجارة جزيرة سيلان ، كلها في أيديهم في القرن الثاني ، ثم راجت تجارتهم مع الصين رواجاً عظيماً وكانت « كانتون » أكبر مركز لهم ، وظلت لهم السيطرة التجارية حتى القرن التاسع الهجري حين ظهر البرتغاليون ، وتطلعوا إلى هذه الآفاق . وقد أسس المسلمون مستعمرات تجارية في أكثر من موقع في جزء أرخبيل الملايو ، وكانت لهم مستعمرة على ساحل سومطرة الغربي ، ويرجع الأثر الحقيقي في الدعوة للاسلام في هذا القطاع إلى الدعاة المسلمين الذين وفدوا إلى أرخبيل الملايو من جنوب الهند ، والذين حملوا الاسلام اليها ، مما أرث جذوره في جاوة وسومطرة . كما كان لاصهار التجار المسلمين إلى سكان البلاد أثره البعيد ، فقد كونوا بذلك النواة الحقيقية للجماعة الاسلامية التي ظلت أعدادها تتزايد مما طبع المنطقة بطابع إسلامي واضح ، ثم امتدت الدعوة إلى الاسلام التي حملها وجاهد في سبيلها كثير منهم إلى سومطرة وسيام وبرنيو .

ثم انتقل تيار الإسلام إلى شبه جزيرة الملايو ، فأصبحت إحدى معاقل الإسلام ، وفي جاوة الشرقية استطاع المسلمون القضاء على الإمارة الهندوكية ، وامتدوا منها إلى جاوة الغربية في القرن العاشر الهجري ، ويمكن القول بأنه منذ منتصف القرن السابع الهجري استطاع « ضوء الإسلام » أن يكسب جولة جديدة في ربوع الأرخبيل الأندونيسي وشبه جزيرة الملايو وجزائر الفيليبين .

وقد قاوم الاستعمار الهولندي في مطلع القرن العاشر الهجري حركة توسع الإسلام الذاتية ، وبذل جهوداً ضخمة لتحطيم جهود الدعاة المسلمين واستئصالها ، وطمس الصلات التي ربطت بين مسلمي أندونيسيا والعرب ، كما عمل الاستعمار الهولندي على إيقاف هجرة المسلمين إلى أندونيسيا ، وَسَنّ قوانين صارمة ، وفرض ضرائب دخول فادحة على المهاجرين القادمين إلى أرخبيل الملايو من الهند ، أو جزيرة العرب .

وقد حفظ تاريخ انتشار الإسلام في أرخبيل الملايو أسماء كثير من المجاهدين الأعلام الذين قاموا بدور ضخم في سبيل الدعوة إلى الإسلام ، وجعلوا من منازلهم معاهد ومدارس لإيواء المريدين والطلاب ، والقيام بتكاليف معاشهم وتعليمهم عقائد الإسلام والواجبات ، والمبادىء ، ثم بث المتخرجين في مختلف النواحي والقرى لإقامة المعاهد والمصليات لتعليم القرآن والأحكام .

وقد أعان على انتشار الإسلام في أرخبيل الملايو أمران هامان : الأول : كان أغلب سكان هذه المناطق على الفطرة ، فوجدوا في بساطة الإسلام وسماحته ما جعله متقبلا لديهم ـ الثاني : مرونة الدعاة وصدق إيمانهم وصبرهم وقدوتهم الحية .

وقد استطاع الإسلام بمرونته أن يتقبل في مرونة ويسر طابع أفراحهم وأناشيدهم وأغانيهم ، وأضاف إليها مفهومه ، ثم استطاع أن يحول أبطال الأساطير إلى أبطال من قادة الإسلام ، كما حول الصور المجردة إلى معان إنسانية . ويرى بعض الباحثين أن بساطة الإسلام استطاعت أن تسيطر في مواجهة الدعوات المتعددة التي كان ينشرها مغتصبو ديانتي شبوا ووشنوا ، وما بين البوذيين والحيثيين . وبينهم من خلاف وخصومات . وقد أتاح هذا الجو المضطرب الفرصة لنشر الإسلام بسماحته وبساطته التي تتمثل في الايمان المطلق بالله ، والمساواة بين البشر وحرية العقل والرأي في الحياة العملية بما ألغى حواجز اللون أو المنصب أو النسب بين الناس .

وقد كان عمل التجار العرب في مجال الدعوة إلى الإسلام بارعاً ودقيقاً ، فقد نالوا تقدير أهل البلاد بتعلم لغتهم وعادتهم ، « وقد بدأوا أولاً بضم النساء اللاتي تزوجوا منهن الى الإسلام ، كما جعلوا كل من يتصل بهن يعتنق

الإسلام ، ومن ثم أخذوا يندمجون في عامة السكان ولم ينفصلوا عنهم بدافع الغرور أو الكبرياء وأخذوا يواصلون نشر دينهم مستخدمين في ذلك ذكاءهم الفائق وحضارتهم العظيمة ، وأظهروا مقدرة فائقة في تفسير الأصول والعادات المتعلقة بدينهم بحيث يتيسر أمره لمن يراد جذبهم إليه .

**- ٢ -**

صور هاملتون جب حركة انتشار الإسلام على أنه تم بسلسلة من القفزات السريعة ، ففي مدة لا تتجاوز القرن إلا بقليل بين عامي ١٠ - ١٣٣ هـ ( ٦٧٢ - ٧٥٠ م ) استطاعت جيوش الخلافة أن توسع رقعة الحكم الإسلامي من أواسط آسيا شرقاً حتى مراكش وأسبانيا في أقصى المغرب ، وظل الإسلام محصوراً في هذه الرقعة إلى قرابة القرنين ونصف القرن ، امتد بعدها حتى شمالي غربي أفريقيا وآسيا الصغرى ، وآسيا الوسطى وشمالي الهند . وكان ذلك بين عامي ( ٤٠٠ - ٥٠٠ هـ ) حوالي ١٠٠٠ و ١١٠٠ م وبعد قرنين آخرين كانت هناك موجة أخرى من التوسع اندفعت صوب شبه جزيرة البلقان ومنحدرات روسيا وسيبيريا وفي أرجاء الهند إلى أندونيسيا ، وهكذا أضحت خريطة العالم الإسلامي في مطلع القرن التاسع للهجرة ( ١٤٠٠ م ) من الاتساع كما هي الآن باستثناء زوال الإسلام من شبه جزيرة ابيريا وصقلية ، متغلغلة في بعض المناطق على نطاق ضيق لاسيما في أفريقيا .

ونستطيع أن نضيف إلى عرض هاملتون جب القول بأن الإسلام قد وسع رقعته ، وما زال في أرخبيل الملايو وفي وسط أفريقيا وغربها على نحو كان موضع الغرابة من الباحثين والمعلقين الذين يتصورون أنه سيتضاعف قوة في خلال القرن الخامس عشر الهجري .

والحق أن انتشار الإسلام في خلال موجاته المتوالية ، قد كشف مقدرة أشبه برد الفعل إزاء تحديات الغزو الخارجي ، حتى يكاد استمرار هذه الظاهرة وتواليها أن يكون أشبه بقانون علمي ، أو ناموس طبيعي . يقول : توماس أرنولد : عندما تضعضعت قوة الإسلام السياسية ظلت غزواته الروحية مستمرة دون انقطاع ، وعند ما ضربت جموع المغول بغداد ( ٦٥٦ هـ ١٢٥٨ م ) وعندما طرد فرديناند ملك قشتالة وليون المسلمين من قرطبة ١٢٣٦ م . في هذين الوقتين كان

الإسلام قد استوت دعائمه ، وتوطدت أركانـه في جزيرة سومطـرة وكان يشـق طريقه إلى تقدم ناجح في جزيرة الملايو .

( ٢ ) يقدر جملة الذين أسلموا في البلاد التي كانت تحت سلطان القيادة السياسية الإسلامية بمائة مليون بينما يبلغ الذين أسلموا بانتشار الإسلام ذاتيا أكثر من خمسمائة مليون . وهم من أسلم في الهند والصـين وأرخبيل الملايو ووسـط أفريقيا .

( ٣ ) شارك في نشر الإسلام مختلف عناصر المسلمين : بربر وفرس وترك وزنوج ، وعلى مختلف مذاهبهم : سنة وشيعة ، ولم تكن المساجلات التي دارت بين المسلمين حائلة دون الدعوة إلى الإسلام والجهاد في سبيل نشره ، وقد حاول كثير من الباحثين الكشف عن السر في انتشار الإسلام على هذا النحو من القوة ، وخاصة في القرنين الأخيرين : الثالث عشر والرابع عشر في مواجهـة حمـلات التبشير الغربية المزودة بالمال ، وأن تتم هذه القدرة في التوسـع على يد التجـار والعلماء والصوفية .

وليس هناك من سبب أصيل سوى أن الإسلام دين الفطرة ، وأن بساطته وسماحته قد نقلت قلوب هذه الجماعات البدائية البسيطة من الوثنية إلى تقبله ، فضلا عن أنه بالمقارنة مع غيره ، ليس فيه أسرار مذهبية أو تعذيب للضمير ، كما أنه من المرونة بحيث يتقبل العادات والآداب الاجتماعية الإيجابية ، ويجيز تعدد الزوجات واقتناء الجواري والعبيد ، وأبلغ أثر يتركه في نفوس معتنقيه هو المساواة أو الإخاء ، وشجب التفرقة العنصرية ، وإعطاء معتنقيه صفة الحرية والكرامة .

وقد اعترف هوبرديشان مؤلف كتاب الديانات في أفريقيا السوداء ( وكان حاكما للمستعمـرات الفـرنسية ) بأن انتشـار الدعـوة الإسـلامية ـ في غالـب الظروف ـ على حد عبارته ـ لم يقم على القهر والتسلط . بل قام على الإقناع لأن الذين قاموا به كانوا شيوخاً متفرقين ، لا تحوطهم قوة أو تحميهم دولة ، وإنما كان الإخلاص هو دافعهم إلى إظهار محاسن الإسلام وسماحتـه ، وقـد يسر انتشـار الإسلام ـ في تقدير المؤلف ـ أنه دين فطرة سهل التناول ، خالٍ من التعقيد ، وأنه لا يفرض على المسلم طقوساً مبهمة ـ بل لا يتطلب سوى النطق بالشهادتـين ، لذلك كان التجار المسلمون يحملون بذور الدعوة في هدوء ويسر .

## ( ٤١ )

## مفهوم البطولة في تاريخ الاسلام

يزخر تاريخ الإسلام بأحداث البطولة ، وهي تمتد عبر مراحله المتصلة دون توقف ، وهي في صورها القريبة لا تنفصل في مفهومها عن صورها الأولى ، وكلها تستمد وجودها من مفهوم أساسي واضح ، هو القيام بدور خلاق في سبيل دفع الأمة الإسلامية إلى الأمام نحو الحرية والقوة والمجد ، وتتسم البطولة الإسلامية بطابع عملي إيجابي ، وحيث يكرم البطل ، إنما يكرم عمله أساسا ، وليس شخصه أو ذاته ، تقديرا للخطوة التي حققها ، والدور الذي قام به . ومن هنا كان « البطل » دائما خادما لمجتمعه وفكرته وأمته ، يؤمن حق الإيمان بأن عمله مقدور في ميزان العمل الصالح على تعاقب الأجيال . ومن هنا فهو لا يتطلع إلى الجزاء المادي أو المغنم أو الشهرة . وقد عرف تاريخ الإسلام أبطالاً قاموا بأدوار على قدر عظيم من الاهمية دون أن يكشفوا عن شخصياتهم أو يبوحوا بأسمائهم . وقد سجل التاريخ هذه المواقف تحت أسماء مجهولة . ومن هؤلاء « صاحب النقب » هذا البطل الذي استطاع أن يفتح ثغرة في سور دمشق . بعد أن حاصرها المسلمون طويلا وحاولوا مرات متعددة أن يثلموا الجدار دون أن يتمكن واحد من أبطالهم إتمام هذا العمل ، فقد كان لا ينطلق أحدهم نحو الهدف حتى تنتاشه السهام والنبال ، فترغمه على العودة مرة أخرى دون أن يصل إلى السور ، غير هذا البطل الذي لم يعرف التاريخ اسمه ، ولم يكشف هو عن شخصيته ، وقد اندفع فجأة ـ بعد أيام طويلة ظل القائد يحرض خلالها المسلمين على الاندفاع نحو السور ـ اندفع على رأس فرسه وسهام العدو تنوشه من كل مكان دون أن يتوقف

أو يرتد حتى بلغ الجدار فأحدث فيه ثقبا ، ثم اخترقه إلى داخل السور وكبّر ، فكبّر المسلمون وعبروا إليه ، فلما انتهت الموقعة ، ظن قائد الجيش محمد بن مسلمة أن « صاحب النقب » سوف يتقدم إليه ولكن دون جدوى ، هنالك نادى في الجيش أن يتقدم ، فلم يتقدم أحد ، ووعد ثم هدد ، وبينما هو جالس في خيمته تقدم منه رجل ضامر نحيل ، فقال : أيها القائد : هل تريد أن تعرف صاحب النقب . قال : نعم ، قال : أنا أدلك عليه ، إذا أعطيتني العهد أن لا تسألني عن اسمي ، فقال القائد : محمد بن مسلمة : لك عليّ عهد الله . أن لا أسألك عن اسمك قال : أنا هو : وانطلق خارجاً من خيمة القائد .

ؤ * *

ومعنى هذا أن مفهوم البطولة في الإسلام لم يكن الإعلان والشهرة ، والتطلع إلى الحظ العاجل ، والأجر السريع . ولكنه كان إيمانا صادقا من أعماق النفس بأن الله وحده هو الذي يجزي على العمل .

ويزخر تاريخ الإسلام ببطولات كثيرة مجهولة ، قام أصحابها بالعمل ، دون أن يكشفوا عن هويتهم التماساً لرضا الله وحده ، وانصرافا عن مطمع الظهور والإعلان والشهرة ، وكان هذا هو مفهوم « الزهادة » التي تتمثل في إخفاء العمل وتحريره لوجه الله ، وإخلاصه للحق وحده .

ويجمع الإسلام في معنى البطولة قطاعات عدة : بطولة المفكر والمصلح - وبطولة القائد المحارب - وبطولة بناة الدول ومؤسسي الحضارة ، والبطل في الإسلام خادم لقضية وهدف ، ولا يقل عمل المصلح الذي يصحح المفاهيم عن المحارب الذي يرد العدو ، ويتساوى مداد العلماء بدم الشهداء . وفي مجال الحرب تتمثل البطولة ليس في إعمال القتل وحرق المدن . بل في البراعة في كسب المعارك بأقل تضحيات ممكنة .

والبطولة أساساً : بطولة بناء ونمو وامتداد ، تتمثل في مجال العقل مع إضافة الجديد وقدرة العالم على توسيع آفاق الروابط بين الفكر والحياة ، والمرونة في تحقيق التجديد والاجتهاد ، وتتكشف في قدرة العاملين في مجال الحضارة والبناء والتعمير ، وفي مجال المربين وبناة الأجيال ، وفي العاملين على إضافة كشوف

جديدة . وتتركز البطولة الإسلامية في العمل نفسه ، لافي « الفرد » من حيث هو من أسرة أو مدينة ، أو بلد معين .

فليست بطولة عمر بن الخطاب . أو خالد بن الوليد . أو صلاح الدين مستمدة من ميراثه الفردي أو العائلي . بل مستمدة من مفهومه وعمله . وكان مفهوم البطولة دائما هو : دفع الجماعة إلى الأمام ، وتحريرها من الاستعباد وتخليصها من إسار الغزو ، وإتاحة الفرصة أمامها للحركة والتقدم . ولقد كان تاريخ الإسلام قائماً دوماً على القدرة المتجددة في أن يبتعث البطل الذي يقود المعركة ، ويواجه الأزمة ، وكلما تجمعت التحديات في وجه المسلمين ، برز القائد الذي يحمل اللواء ، ويقود الجماعة في معركة مقاومة ، وكانت الأحداث والأزمات دائماً قادرة على أن تدفع الأمة إلى الوحدة ، والتجمع والتكتل ، والتضحية حتى يتحقق النصر ، ولقد عرف تاريخ الإسلام عدداً من النكسات ، ولكنها كانت كلها مقدمات للنصر المظفر ، والهزيمة الساحقة للعدو . فقد كانت الجماعة دائما قادرة على مواجهة الخطر مهما بلغ من الشراسة والعنف بالتماسك والتجمع والتضحية .

ولقد رسم القرآن الكريم صورة للبطولة جعلها دائماً في مواجهة المسلمين ، لتكون العبرة قريبة إلى نفوسهم ، وكل الأبطال الذين عرضهم ( القرآن ) أبطال مقاومة لا يستسلمون أمام الظلم ، ولا يحنون رؤوسهم للعدوان ، ولا يخافون ، بل يقفون دائما موقف الصمود والمقاومة مرفوعي الرؤوس . فقد كانت رسالتهم دائماً هي رسالة « التقدم والبناء » ومن هنا عجزت دائماً قوى العدوان ، عن أن تقتلعهم أو تنتصر عليهم ، وكانت المقاومة عندهم إيماناً في أعماق النفس ، وصلاحاً في اليد . وكانوا يعملون دائماً في اقتناع كامل بأنهم أصحاب رسالة . لقد كان البطل دوما في مفهوم الاسلام « استجابة » لحاجة الأمة والمجتمع ، ينبعث في وقت الأزمة ، ثم هو بعد ذلك يصنع الأحداث ، ويقود أتباعه إلى مرحلة جديدة من مراحل العمل على وجه موجة من موجات التقدم .

لقد كان الرسول صلى الله عليه وسلم هو « النموذج الإسلامي الأعلى للبطل » وكانت صورته دائماً وتجربته وعمله موضع القدوة والتمثل طوال فترات التاريخ الإسلامي ، ومراحله . وما تزال حتى اليوم موضع القدوة لكل بطل

وقائد . فهو الذي إذا اشتد البأس اتقى الناس به ، فما يكون أقرب إلى العدو منه ، وهوالذي وجده الناس عائداًمن مصدرالصوت على فرس عندماخرجوا يلتمسون الخبر . وهو الذي وقف في « حنين » كالطود بعد أن تفرق أنصاره على أثر هجمة مفاجئة من العدو ، ينادي الناس إلي إلي . . » وهو الذي كان يفرق دائما بين موقفه في الغار ولا قوة معه ، ويلتمس نصر الله ، وموقفه في بدر ومعه القوة ، وحيث توجد القوة ، فهو وجل من أن يكله الله إلى القوة ، فهو يلتمس نصر الله مجرداً ، وهو البطل الذي لم تذهله الأحداث ، والقائد الذي لم يهزم قط ، وقد علم خلال السنوات الثلاث عشرة في مكة جيلاً من القادة والمغاوير ، ورباهم على البطولة والتضحية والإيمان ، فكتبوا صفحات بارعة من المجد ، وظل ذلك الرعيل موضع إعجاب الأجيال المتصلة المتوالية .

ومن ثم اتصلت في تاريخ الإسلام روح البطولة والتضحية والموت من أجل الحياة ، وكانت مقاومة الظلم هي أبرز صفحات الكفاح في مواجهة كل باغ وظالم ومعتد ، على أرض الإسلام . ولقد استمد المجاهدون الأبطال من الرسول أبرز مفاهيم البطولة ، ولعل السر في تقدير الفرنجة لصلاح الدين قربه من مفهوم النبي وأسلوبه ، بل لعل هذا كان هو مصدر النصر الذي كسبه صلاح الدين .

وقد تمثلت البطولة العربية الإسلامية في الشجاعة والمروءة والأريحية والكرامة والإباء مع قوة الإرادة ورجاحة الرأي في ميادين الحرب والعلم والحضارة على السواء . وقد جمع المسلمون بين بطولة الفكر وبطولة الحرب . فقد كان العلماء كلهم قادة معارك يحملون السلاح في مواقف الجهاد : ابن تيمية ، والعز ابن عبد السلام ، حتى المتصوفة تركوا زواياهم واندفعوا يحملون السيوف ، ويقاتلون في معارك مقاومة المغول والصليبيين ، ويحرضون المجاهدين ويملأون قلوبهم شجاعة واندفاعاً . ومن قبلهم الحسن البصري شارك في مواقع الغزو ، كما شارك القاضي أسد بن الفرات .

وبطولة الإسلام تقوم أساساً على إنكار الذات ، ووفق قيم الأخلاق والأريحية : « لا تجهز على جريح ، ولا تقتل صبيا أو عجوزاً أو امرأة أو تتعرض لغابد في صومعته » .

ولقد كانت بطولة العلماء في الدعوة إلى الاستمساك بالقيم وإذاعتها في الأمة ، خاصة في فترات المحن ، على أنها أعظم أسلحة النصر ، فإذا استطاع المغول أو الصليبيون أن يهدموا بيتاً ، أو يملكوا شبراً . فإنهم لا يستطيعون أن يملكوا النفوس الحرة أو أن يهزموا القوى المذخورة في أعماقها . ومن هنا كانت بطولة الجماهير تدفع في طريقها كل ظلم ، وتحطم كل عدوان ، وكانت قادرة على رد العدو وسحق الغزو .

وقد كانت بطولة العلماء دائماً في أن يبثوا في نفوس الأمة أن تكون متأهبة لخطر العدو الذي يتحين الفرصة ، ويترقب لحظة الغفلة ، وبطولة بناة الدول . إنما تتمثل في بناء الجيوش وتأهيلها لتكون على أهبة العمل . ليس عدوانا ، ولكن اتقاء للعدوان . « وأعدوا لهم ما استطعتم من قوة ومن رباط الخيل ترهبون به عدو الله وعدوكم » ومن ذلك قول الرسول : « ألا إن القوة الرمي ، ألا إن القوة الرمي ، من رمى بسهم في سبيل الله فهو له عدل محرر » وقول عمر : « علموا أولادكم السباحة والرماية وركوب الخيل » .

ولقد كانت المعركة مع العدو ، هي : معركة المسلمين جميعا ، يشترك فيها الرجل والمرأة ، والشاب ، وفيها تخرج الزوجة بغير إذن زوجها ، والخادم بغير إذن سيده .

* * *

ومن خلال القيم التي ترسمها البطولة الإسلامية وجد المسلمون دائما القوة على العمل . ومن هنا كانت محاولة الغزاة والخصوم تدمير هذه المقومات أو صرف الناس عنها .

ولقد حول الإسلام مفهوم الفروسية والفتوة من المجد الفردي والقبلي إلى مجد الأمة ، والدفاع عن مبدأ ورسالة . ويرسم تاريخ الإسلام للبطولة مخططا واضحا قوامه : « الموت من أجل الحياة » فنرى عمر بن الخطاب يرسل إلى أبي عبيدة بن الجراح يستقدمه ، وقد خشي عليه وباء الطاعون ، فنرى أبا عبيدة يرفض ويقول : « دعني يا أمير المؤمنين بين جندي » ويخشى عمر ما عرفه الناس عن بطولة خالد والمثنى الخارقتين فيعزلهما في أوج نصرهما عن مكان القيادة في الجيش ويقول : خشيت أن يوكل الناس إليهما ، وأردت أن يعلموا أن الله هو

الصانع ، فلما علم بعض الناس هذا الخلاف أوعز إليه بالمشادة ، فإذا خالد يقول : أما وعمر حي فلا . . إننا نسمع ونطيع لقادتنا ، ويذهب عقبة بن نافع فاتحا حتى يصل المحيط الاطلنطي على شواطىء المغرب فيغرس حافر فرسه فيه ويقول : « والله لو أعلم أن وراء هذا البحر أرضا لذهبت فاتحاً في سبيلك » ويرى أبو محجن الثقفي ميمنة جيش المسلمين في معركة « القادسية » تنكسر ، وهو معتقل في محبسه فيطلب إلى زوج سعد بن أبي وقاص أن تطلقه ، ويعاهدها على ان يعود إن لم يستشهد ، وينظر سعد محارباً يقاتل فيزلزل كالصواعق ،ويدهش العدو ، ثم يعلم بعد المعركة أنه أبو محجن الذي اعتقله لأنه شرب خمراً ، فيرسل في طلبه ويقول : والله لن أضربك الحد أبداً ، مهما شربت الخمر ، فيقول أبو محجن : أنا والله لن أشربها أبداً . فقد كنت أشربها أنفة حتى لا تقول العرب إني أخاف الحد ، وأنا اليوم أتركها رغبة في أن يقولوا : « خاف الله » ولقد حفل تاريخنا بهذه الصور : بطولة في خلق ، وإنكار للذات مع طلب للموت ، وجمع بين بطولة الحرب وبطولة الفكر ، على نحو صورة الجندي المجهول في رده على سؤال المقوقس « رأيت قوماً الموت أحب إليهم من الحياة ، والتواضع أحب إليهم من الرفعة ، ليس لأحد منهم في الدنيا رغبة ولا نهمة ، أميرهم كواحد منهم . ما يعرف كبيرهم من صغيرهم . وإذا حضرت الصلاة لم يتخلف منهم أحد » .

## - ٢ -

## بطولة الحرب

في تاريخ الإسلام تنكشف البطولة في ثلاثة أبعاد :

( ١ ) بطولة الحرب والمقاومة ورد الغزاة .

( ٢ ) بطولة الفكر وتصحيح المفاهيم .

( ٣ ) بطولة بناة الدول في مجال الحضارة .

وهي بهذا تكاد تسيطر على تاريخ الإسلام كله الذي يجري في هذه الأبعاد الثلاثة . والواقع أن الإسلام قد رسم « أيديولوجية جديدة » لها طابعها الخاص ، تتسم بالإيمان بالله ، وقوامها الجهاد في سبيل كلمته ، وإقامة حياة الفرد والجماعة على أساس العمل المتقدم البناء في مجال الإنشاء والحضارة . ومن ثم فإنه من خلال هذا المفهوم تتمثل النظرة إلى الحياة والمال والموت والجزاء .

ومن هنا برزت « البطولة » التي تمثلت في شخصيات نموذجية أهدت حياتها لتحقيق رسالة الإسلام في الدعوة إليه ، والدفاع عنه ، وتصحيح مفاهيمه ، ورد عادية خصومه عن قيمه وعن أرضه . ومن هنا كان مفهوم « الجهاد » الذي لا يتوقف عند الحرب وحدها ، والذي يتسع نطاقه حتى يشمل مجال النشاط الإنساني كله ، مادام هدف الحياة الإنسانية الأساسي هو تحقيق رسالة الإسلام ودعوته .

هذا هو التغيير الخطير الذي أدخله الإسلام على مفاهيم الأمة التي بزغ فيها نوره ، وهي أمة مهيأة بالفطرة لتحمل رسالة عظمى كهذه الرسالة ، ولما كانت حركات التاريخ كلها تتمثل في أمم وجماعات تكون بطبيعتها معدة إعداداً نفسيا وبيئيا ووراثيا لحمل رسالة معينة . ومن خلال هذه الجماعات تبرز بطولات الأفراد التي تخطو بالعمل خطواته المتوالية ، فإن الأمة بطبيعة تكوينها وبيئتها ووراثيتها ، وهي تعيش في هذه الجزيرة الضيقة المنعزلة عن حضارة الرومان وحضارة الفرس ، والتي بعدت عن معابر الغزاة ، وحركات الغزو ، ومعارك القتال ، وتيارات الحضارة والفكر والمذاهب والأديان ، إنما كانت معدة بذلك إعداداً خاصا لتلقي رسالة ضخمة إنسانية عالمية ، تحمل لواءها بكل هذه العوامل المكونة ، النفسية لجماعتها وأفرادها . وقد التقى مفهوم الإسلام بطبائع العرب ، فتحقق بذلك تحول خطير في قيم العرب وفق مقاصد الإسلام ، وقد حدث هذا التحول الخطير في دقة ويسر ، واستطاعت أعوام لا تزيد عن نيف وعشرين عاماً هي حياة الرسول محمد بن عبد الله منذ بعثه إلى وفاته أن تحقق هذا التحول .

فقد عرف العرب بالشهامة والكرم والقوة والعزم ، والمقاتلة والصبر والصمود والبذل ، وتلك كلها صفات يرتضيها الإسلام . غير أنها قبل الإسلام كانت موجهة في سبيل الغاية الفردية ، والمجد الشخصي والفخر ، وفي سبيل الاستطالة والاستعلاء والظلم . فكان أن حولها الإسلام إلى مفهوم إنساني رفيع ، وجعلها أداة في سبيل تحقيق هدف وسيلة من أجل غاية عليا ، قوامها الإنسانية والتوحيد والعدل والحق والحرية ، وأحاطها بسياج متين من الضوابط ، فعدل اتجاهها ، وبالتالي عدل اتجاه النفس الإنسانية العربية ، وجعل عزيمتها الصارمة قوة لا حدّ لها في سبيل إذاعة كلمة الله في الآفاق ، وتحطيم كل قوة تحول دون توسعها ، مادامت قوة عدوانية أو أداة تسلط أو ظلم وفق مفهوم القرآن . « أُذِنَ للذين يقاتلون بأنهم ظلموا » .

ومن هنا ترى النماذج الخطيرة التي كانت تعد من جبابرة الجاهلية تصبح أبطالاً يهز اسمها التاريخ ، ويصل أثرها إلى أبعد مدى في أعمال عمر بن الخطاب وخالد بن الوليد في مجال بطولة الحرب ، وعمرو بن العاص ، ومعاوية بن أبي سفيان في بطولة بناء الدول . وعبد الله بن عباس ، وعبد الله بن مسعود في مجال الفكر .

وهكذا رسم الإسلام مثلا أعلى ، استبطن معالم القوة والبطولة في الشخصية العربية وحولها إلى هدف أعلى ، فبرزت تلك النماذج من البطولة من خلال سنوات التدريب والإعداد . في مدرسة « الأرقم بن أبي الأرقم » التي عاش فيها المعلم الأكبر « محمد » يعد هذه النماذج ، ويعد من خلالها أمة كاملة لا تلبث بعد قليل أن تنساح في الأرض ، فتبلغ في سنوات قليلة لا تزيد عن عمر الدعوة في عهد النبي إلى حدود فارس ، وإلى حدود أفريقيا مكتسحة الامبراطورية الفارسية ، وما تسيطر عليه الدولة الرومانية من أرض الشام وأفريقية .

وهذا هو سرّ ذلك النصر في معارك التوسع ، وسرّ تلقي الناسْ في مختلف هذه الأقطار للمسلمين ، فاتحين لهم صدورهم ، بوصفهم مخلصين من الظلم ، داعين إلى العدل والحق والحرية لا يفرضون دينهم ، ولكنهم يدعون إليه بالإقناع والحجة .

ومن هنا نرى ذلك التحول الغريب في المفاهيم ، رجل يقدّم ماله كله ، ورجل يقدّم نصف ماله ، وابن يحارب أباه ، ورجل يترك بنيه وأهله وماله مهاجراً ، ورجل يقسم ماله ، وما يملك بينه وبين مهاجر إليه ، ونرى أيضا اختلاف الموازين المادية ، فحيث تكون القوة العددية هي مصدر الانتصار ، تتغير هذه « القيمة » ويصبح النصر في الأغلب للقوة العددية الأقل ، وفي مختلف معارك المسلمين والعرب خلال مائة عام كان النصر للقوة الأقل أمام القوات الضخمة التي يتضاعف عددها مرة ومرتين وعشر مرات .

ويرجع السر هنا ، ليس إلى عدد الجيوش ، وضخامة القوى الحربية ، بقدر ما يرجع إلى العقيدة التي يحملها هذا الطرف أو ذاك ، كانت قوات المسلمين دوماً هي الأقل ـ عدداً وعدّة ـ ولكنها كانت تحمل مفهوماً « معنويا » ضخما بعيد المدى في كسب المعارك . وذلك هو مفهوم « البطولة » على المعنى الذي أعده بها الاسلام ، والقرآن ومحمد .

فالمسلمون يقاتلون في سبيل غاية عليا هي تحقيق كلمة الله ، ونشر الإسلام ، والدفاع عنه . وهم لا يطمعون في نفحة مادية بالدرجة الأولى ، وهم في أعمق أعماقهم قد خرجوا على مفهوم واضح في نفوسهم ، هو النصر أو

الشهادة ، وفي حال الشهادة يحس المسلم أنه أكبر نصراً ، فهو قد قدم روحه في سبيل القتل ، لأنه وطد نفسه على أن يموت ، فلا بد أن ينصر الكلمة التي آمن بها أولاً . ومن هنا فإنه ينتصر ولا يموت تحقيقاً لقانون صادق وهو « اطلب الموت توهب لك الحياة » وليس معنى هذا أنه لم يقتل من المسلمين كثير . بل قتل الكثيرون ، ولكنهم ماتوا شهداء ، مؤمنين بأنهم قد أدوا حق الله في سبيل إيمان امنوا به ، وعقيدة ملأت نفوسهم .

وقد عاش هذا المعنى في نفوس المسلمين طويلا ، ولا زال حيًّا نابضاً بالحياة ، فهم يتمثلون في كل خطوة . ذلك المعلم الأول والقائد الأول « محمد رسول الله » ما تزال صورته الواضحة الدقيقة المتمثلة في كتب السنة، في مختلف تصرفاته ، تواجههم وتملأ قلوبهم بالشوق إلى المتابعة والتأسي ، فقد كان صلى الله عليه وسلم هو التطبيق العملي لفكرة الإسلام ومقاصده وأهدافه ، وكان تجسيداً كاملاً لتعاليم الإسلام الحق ، والأسوة الحسنة للمسلمين ، كان خلقه القرآن . وقد وصفه الحق بقوله « وَإِنَّكَ لَعَلَىٰ خُلُقٍ عَظِيمٍ » .

هذا النموذج الرائع قد كوّن جيلاً من القادرين على احتمال أقسى صنوف العذاب والجهاد والحرب ، بصبر وجلد . منهم بلال الذي كان يخرج كل يوم إلى الهاجرة يتعذب ، وعمار بن ياسر وأبوه وأمه ، ومنهم كثيرون وجههم الرسول في السرايا والغزوات ، ووصفهم بأنهم صبر على الجوع والعطش ، ومنهم من يقاتل بسيف ورمح ، ومنهم من كان يصرع عدوه بضربة واحدة ، تمثلت البطولة في هذه المرحلة في مواجهة « الردة » التي أصبحت الجزيرة العربية عليها بعد اختيار النبي الرفيق الأعلى ، وفيما عدا ثقيف وقريش ارتدت سائر العرب .

وكان موقف الصديق رائعاً . فقد أصر على المقاومة ورفض الاستسلام ، وأنفذ أحد عشر جيشا في يوم واحد ، فاستطاع أن يستأصل الردة في معارك متعددة أكبرها « معركة اليمامة » وسرعان ما ابرزت هذه المعركة الأساسية في ميزان بقاء الإسلام بطولات في مقدمتها بطولة البراء بن مالك . فقد زحف المسلمون حتى الجأوا المرتدين إلى حديقة أطلق عليها فيما بعد « حديقة الموت » وفيها مسيلمة مدعي النبوة . فقال البراء : يا معشر المسلمين ألقوني عليهم في الحديقة ، فقيل له : لا تفعل . قال والله لتطرحني عليهم فيها ، فاحتمل حتى أشرف على

الحديقة من الجدار ، فاقتحم مقاتليهم عند باب الحديقة حتى فتحها المسلمون . وغير الإسلام القيم والمفاهيم لدى المرأة ، كما غيرها لدى الرجل ، فقد جاهدت المرأة في الحرب وقاتلت ، وقدمت حليها وشعرها في معركة اليرموك ، قاتلت النساء في جولة ، فخرجت جويرة بنت أبي سفيان ومعها زوجها فقاتلا قتالاً شديداً .

وبدا أثر التحول في فكر المرأة ومفاهيمها ، متمثلا في النساء اللائي قدمن الأبناء ، ثم قدمن الأبناء والأزواج ، راضيات مستقبلات شهادتهم بالرضى ، إيمانا بالعقيدة والهدف والغاية غير جزعات للمصير من بعد ، قالت امرأة من النخع لبنيها الأربع الذين شهدوا القادسية : « والله أنكم لبنو رجل واحد ، كما أنكم بنو امرأة واحدة ، انطلقوا فاشهدوا أول القتال وآخره » .

ويتمثل هذا التحول في موقف الخنساء من مقتل أخيها قبل الإسلام ، ومقتل أبنائها بعد الإسلام ، وكيف استقبلت هذا وذاك . ويبدو هذا التحول في مواجهة المسلمين للفيلة في حرب الفرس . وللبحر في فتح المدائن وكيف استطاعوا التغلب على كل عقبة ، يدفعهم إيمان جارف ،.وحب للموت ،ومنهم من غزا خمسين غزوة شاتية وصائفة كما فعل عبد الله بن قيس الحارثي .

وهكذا بدت بطولة الحرب والمقاومة في صورة من أدق صورها ، مستمدة قوتها من مفهوم الإسلام نفسه ، وإذا كانت بطولة الحرب قد توقفت ثمة في العام **١١٤** هـ بصورة عامة ، فإنها ظلت حية تتمثل في حركة المقاومة التي لم تتوقف في جبهات الحدود الإسلامية البيزنطية ، والحدود الأندلسية الأوربية والأسبانية، وفي حدود العالم الإسلامي من الشرق . فقد امتدت معارك المقاومة منجمة على مراحل وفترات ، ولكنها كانت وفق خطة لم تتغير هي الإدالة من العالم الإسلامي ، أو الحيلولة بينه وبين التوسع ، ثم برزت ثلاث معارك ضخمة هي : الحروب الصليبية في المشرق ، وحروب الفرنجة في الأندلس والمغرب ، والغزو المغولي التتري ، وفي خلال هذه المعارك تجددت مفاهيم الإسلام في المقاومة بصمودها وسماحتها في الوقت نفسه ، وبرزت نماذج جديدة من البطولة الحربية ، وتشابهت صور نور الدين محمود ، وصلاح الدين الأيوبي مع صور خالد بن الوليد وسعد بن أبي وقاص . وتلمس الآخرون أخلاق الإسلام ومفاهيمه ، وحاولوا أن يكونوا على مستوى الرعيل الأول حماية للذمار ومقاومة

للعدو ، وعدلاً وسماحة ، وقد كان سر نجاح خطة نور الدين وخلفه صلاح الدين الأيوبي هو إعادة بناء « مدرسة تربية الضمير والخلق » كقوة روحية ذاتية دافعة إلى النصر ، وكانت بطولة الزهاد والصوفية ، المرابطين في الثغور من أبرز وجوه المقاومة في هذه المرحلة .

وكان مفهوم الإسلام هو السلاح الأول في معارك رد عدوان التتار والصليبيين معاً . وكان لجولات الظاهر بيبرس ، ويوسف بن تاشفين ، ومحمد ابن تومرت ، والمنصور بن أبي عامر في المشرق والمغرب اثرها في رسم صورة البطولة الحربية ، في صورة المقاومة في هذه المرحلة . غير أن البطولة في مجال المقاومة تختلف عنها في مجال التوسع ، فلا شك كان لتخلف المسلمين عن مفهوم الإسلام في خلال القرنين السادس والسابع الهجري اثره في الشرق والشمال والغرب جميعا ، ولو التمس المسلمون مفاهيم الإسلام وقيمه في حياتهم لما استطاعت قوة عادية أن تغزوهم ، تلك هي مفاهيم « الوحدة ، والقوة ، والايمان » .

## « بناة الدول »

في مجال بناء الدول والحضارة ، نرى عشرات من نماذج عالية في الهمة والقوة والحيوية من القادة والأمراء والحكام الذين صنعوا حياة مليئة بالعمل والبناء والتشييد على نحو رائع وعجيب ، وهو ما يدحض كل ما وجه إلى الاسلام من آنه يحض على الرهبانية أو الزهادة ، أو إنكار الدنيا وكراهيتها ، ويؤكد مفهوم الاسلام في أنه روح ومادة ، وقلب وعقل ، ودين ودنيا ، وبناء وعبادة .

فهؤلاء الأبطال في مجال الدول : معاوية والرشيد والناصر والمنصور ونظام الملك . هؤلاء يجمعون بين سمت العلماء وسمت الحكام ، فهم بارعون في الثقافة لا يقلون فيها عن العلماء المتخصصين . ثم هم بناة يشيدون الحضارة في مجالات البناء المختلفة ، المساجد للعبادة ، والجامعات للعلم ، والقصور للسكنى ، والأبراج والقلاع للحرب ، والمراصد للفلك ، ولم يقف الأمر عند هذا . بل بنى هؤلاء الأبطال مُدُناً كاملة ، بنى يوسف بن تاشفين ( الدار البيضاء ) والكامل بن أيوب ( المنصورة ) وعبد الله المهدي ( المهدية ) وجوهر القائد ( القاهرة ) وأحمد بن طولون ( القطائع ) وإبراهيم بن الأغلب ( العباسة ) والمعتصم ( سر من رأى ) والسمح بن مالك الخولاني ( قرطبة ) والمنصور ( بغداد ) وعبد الرحمن الناصر ( الزهراء ) والمنصور بن أبي عامر ( الزاهرة ) وبنى يوسف بن تاشفين ( منارة أشبيلية ) والمهدي ( الرصافة ) والحجاج ( واسط ) وسليمان بن عبد الملك ( الرملة ) وعقبة بن نافع ( القيروان ) وسعد بن أبي وقاص ( الكوفة ) وسيف الدولة ( قلعة حلب ) .

# تكريم العلماء

وقد أضاء هؤلاء الأبطال ملكهم بالجامعات والمعاهد والمنشآت العظيمة ، وجعلوا بلاطهم محط انظار الشعراء والأدباء والعلماء، وكان تكريم العلماء مناط إيمانهم . فالرشيد يصب الماء على يد أبي معاوية الضرير ويقول له : هل عرفت من صب الماء على يديك فيقول لا : يقول الرشيد : إنما فعلته إكراما للعلم ، وقد أقاموا المجالس ليقدموا إليها العلماء ويناقشوهم ويساجلوهم في مختلف فنون الفكر والثقافه وكانت مجالس المأمون مشهورة مذكورة ، حافلة بكل مفكر ونابغة . وليس الشعراء وحدهم الذين كانوا يجالسون فيها بناة الدول ، وكذلك مجالس سيف الدولة التي كانت تجمع في بلاطه بين الفارابي الفيلسوف وأبي فراس الحمداني . وابن نباتة الفاروقي والمتنبي والسلافي ، وابن خالويه النحوي . وكان محمود الغزنوي يستضيف العتبي المؤرخ والبيروني العالم ، والفردوسي صاحب الشاهنامة . أما ألب أرسلان فقد أظهر تقديراً عظيما لنواحي الثقافة والفن . وقد رتب معاشا كبيراً لعمر الخيام العالم الفلكي الذي ترك في مجاله العلمي آثاره الخالدة . وإن نسب إليه الشعر وحده ، ولم يذكره أحد في مجال العلم الذي كان عمله الأكبر . أما ملك شاه فقد عقد مؤتمراً من الفلكيين في مرصده الفلكي وطلب إليهم أن يفتحوا التقويم . وكان نظام الملك وزير ملك شاه من المفكرين والباحثين وكانت أيامه خلال ثلاثين عاماً أيام أهل العلم والبحث . وقد أنشأ المدارس والجامعات . وكان إلى ذلك باحثا ومؤلفا . وله كتاب في سياسة الدولة .

وجهد ( بناة الدول ) في إنشاء الجامعات والمساجد والقصور حتى بلغوا في ذلك الغاية . بنى الناصر مدينة الزهراء في أربعين عاماً يتوسطها قصر الزهراء الذي يقوم على ألف ومائتي عمود من الرخام . ويزينه أربعة آلاف عمود من المرمر . ويضم بين جدرانه أربعمائة غرفة ومقصورة . وقد جند لها وأوقف على عمارتها عشرة آلاف رجل وجلب لها من روما والقسطنطينية وأفريقيا أعمدة الرخام الملون . وقد كانت شوارع قرطبة مضاءة بالقناديل في حين أن لندن لم يكن بها قنديل واحد عمومي إلى ما بعد سبعمائة سنة . وقد كان كل إنسان في قرطبة قادراً على أن يسافر في الليل عشرة أميال على ضوء مصابيح الشوارع .

وبين صفين لا ينقطعان من المباني . وكان في قرطبة وحدها مائة وسبعين جارية تعمل في نقل المؤلفات لطلاب الكتب النادرة .

وإذا ذكرت المساجد ، ذكر مسجد قرطبة وجامع الزيتونة وجامع القيروان والجامع الأموي الذي بناه الوليد بن عبد الملك واستمر بناؤه عشر سنوات ، وبلغت نفقاته خمسة ملايين و ٦٠٠ ألف دينار وعمل في بنائه ١٢ ألف عامل . قال الوليد : إذا كان أهل دمشق يفخرون بأربع : بمائهم وهوائهم وفاكهتهم وحماماتهم فقد أحببت أن أزيدهم خامسة هي هذا المسجد . وقد رصع محرابه بالجواهر وصور فوقه بالفسيفساء .

ويعد مسجد قرطبة أروع مثل للعمارة العربية ، فله تسعة عشر دوراً وتسعة عشر باباً يتسع بيت الصلاة والبهو منه لما يقرب من أربعين ألفا ، ويمتد من بيت الصلاة أكثر من ستمائة عقد وله مئذنة ضخمة . وبنى المنصور بغداد وأمضى أعوامه يراقب البناء بنفسه ، وكان في بغداد ستون ألف حمام ، وحيال كل حمام خمسة مساجد ، وكان في دجلة ثلاثون ألف زورق .

( الجامعات والمدارس ) أما في مجال الجامعات والمدارس فقد بنى نظام الملك المدرسة النظامية التي تَخَرَّجَ منها : أبو إسحاق الشيرازي وأبو حامد الغزالي ، وبنى المستنصر ، المدرسة المستنصرية التي بلغ ما أوقف عليها من العقارات اكثر من سبعين الف مثقال سنوياً ، وأسس المأمون مدرسة ببغداد وسماها بيت الحكمة ، وبنى « المعز لدين الله » الأزهر ودار الحكمة في القاهرة ، وبنى عبد الرحمن الثالث في قرطبة ٢٧ مدرسة مجانية . وبنى نور الدين وصلاح الدين في دمشق والقاهرة عشرات المدارس والمكتبات . وكانت جامعة قرطبة مدرسة الفقه والرياضيات والكيمياء والطب والعلوم الشرعية والفلسفية والفلك . وفي مجال العلم بني أول إرصاد منظم استخدمت فيه آلات دقيقة الصنع في جنديسابور ودمشق وبغداد ، وجهزت تلك المراصد بآلات فيها مقياس الارتفاع والأسطرلاب ، والساعة الشمسية . وفي بغداد كانت مكاتب المترجمين والنساخ ومجالس أبي حنيفة ودكاكين الوراقين . وكان للحكم الثاني مكتبة في قرطبة فيها ٦٠٠ ألف كتاب و ٤٤ فهرساً تردها الكتب من بغداد ودمشق وخراسان والأستانة . وبها ٨٠ مدرسة يؤمها الطلاب من جميع أنحاء العالم ،

درس بها البابا سلفستر الثاني ، وكان الحكم بطلا محارباً ،.وحاكماً قادراً . وكان إلى ذلك عالماً بالأدب والتاريخ ضليعاً في معرفة الأنساب محباً للعلماء يستقدمهم من البلدان النائية فيدارسهم العلم . أما المأمون فقد أتحف ملوك الروم بالهدايا سائلاً أن يصلوه بما لديهم من كتب الفلاسفة ، فبعثوا إليه بعدد كبير من كتب أفلاطون وأرسطو فاختار مهرة الترجمة لنقلها إلى العربية ، وقرب العلماء والفقهاء والمحدثين والمتكلمين وأهل اللغة والأخبار والمعرفة والأنساب والشعر . وكان فصيحاً واسع العلم .

ومن قبل ذلك عبد عبد الملك بن مروان الذي نقل الدواوين من الفارسية إلى العربية ، وضبط الحروف بالنفط والحركات . وهو أول من صك الدنانير في الإسلام ، وكان يحادث العلماء والشعراء . وقد بلغ في ذلك أنه ما ذكر أحد أمامه حديثاً ولا شِعْراً إلا زاده فيه

أما عمر بن عبد العزيز فقد نشر الإسلام بالدعوة وبالقدوة الصالحة وحل المشاكل ودفع الجزية . وناقش الخوارج وأقنعهم بالحسنى ، وهكذا يبدو كل واحد من بناة الدول وهو عالم مثقف ، يناقش العلماء ، يجمع إلى بطولته في ميدان القتال ، حصافته في مجال الحكم إلى تفوقه في مجال تكريم العلماء وبناء المدارس والجامعات والمساجد والمعاهد والمراصد إلى صاحب مجلس علم ، إلى ناشر للإسلام بالاقتناع إلى مؤمن للتجارة والطرق . فاتحاً الطريق للرحالة العرب يجولون بين أطراف العالم الاسلامي دون جواز سفر ، مكرما أصحاب الأديان الأخرى ، دافعاً لهم إلى كبريات المناصب ، مستقبلا لشعراء الدول الاجنبية ، على نحو غاية في الهيبة والعظمة ، ويذكر في هذا المجال العرض الذي اقامه الخليفة المقتدر لاستقبال رسائل الامبراطور قسطنطين فقد مشى في موكب الاستقبال يومئذ مائة وستون ألف فارس وسبعة آلاف رجل وسبعمائة حاجب ونحو مائة أسد .

وقد بلغت الثروة غاية الغايات . فكان الرشيد يقول للسحابة المارة « أمطري حيث شئت فسيأتيني خراجك » . وكانت موارد عبد الرحمن الناصر اثني عشر مليون دينار من الذهب ، يقول ديورانت إنها كانت تفوق إيرادات حكومات البلاد اللاتينية مجتمعة .

وهكذا تتمثل البطولة في جانب « بناة الدول » بطولة الأفراد الممتازين ،

يخرجون من قلب مجتمعهم ، ثم هم يغيرون المجتمع ويزيدونه قوة وحيوية .

ولا شك كانت البطولة في ميدان البناء والحضارة والإنشاء والحكم أكبر مسؤولية من بطولات الحرب والمقاومة ، فهي تتطلب الجهد الدائب المبذول في كل لحظة على مدى الأيام والسنوات في نفس الوقت الذي تحصن فيه الحدود وتؤمن الثغور ، ومع إثارة روح العمل الخلاق في مجالات التجارة والصناعة والأدب والفن .

وقد ظل تاريخ الإسلام دوماً حافلا بهؤلاء البنائين للدول ، يتوالى ظهورهم في وحدات عالم الإسلام مرحلة بعد مرحلة ، ووحدة بعد وحدة ، يحملون اللواء ويحمون الحضارة ، حتى إذا ضعفت قوة الدفع بعد عهد المنشىء الأول أو الثاني لكل موجة ، ظهر قائد جديد يحمل اللواء ، وكان ظهور الدول المختلفة في أجزاء عالم الإسلام عامل تنافس وقوة ، ولم يكن عامل ضعف . فقد كان الأمراء يتنافسون على تكريم العلماء وبناء الجامعات والمساجد ، وكانوا يحاولون أن يكونوا على مستوى مقر القيادة السياسية في بغداد أو دمشق أو قرطبة .

# ( ٤٢ )

## المرأة في تاريخ الاسلام

إن أدق وصف لموقف المرأة قبل الاسلام هو ما عبر عنه « عمر بن الخطاب » حين قال : « والله ما كنا في الجاهلية نعد النساء شيئاً حتى أنزل الله لهن ما أنزل ، وقسم لهن ما قسم » .

هذا في قلب الجزيرة العربية ، أما في أوربا فقد انعقد « مجمع ماكون » ( ٥٨٦ م ) ليبحث هل المرأة إنسان . وكانت قرارات المجمع تتلخص في أن المرأة ليست إلا خادمة للرجل ، في نفس هذا العصر قال رسول الإسلام « محمد » كلمته الخالدة : « إنما النساء شقائق الرجال » وبذلك منح المرأة المساواة وقال : « الجنة تحت أقدام الأمهات » وبذلك كرم الأمومة ووضع ركيزة بناء الأسرة .

وأبرز ما يمثل مكانة المرأة في الإسلام :

( ١ ) شمول الخطاب القرآني للمرأة والرجل .

( ٢ ) إعطاؤها الأهلية الكاملة للإرث والهبة والوصية والدين والتملك والتعاقد والاكتساب دون أن يكون ذلك مرتبطا بموافقة الرجل وإذنه .

( ٣ ) التسوية بين الرجل والمرأة في التبعات والتكاليف العامة من زكاة وحج وجهاد وصوم وصلاة . وبذلك برزت شخصية المرأة المسلمة في المجتمع وهي ذات كيان واضح مستقل ، له خصائصه بالنسبة للرجل في حدود القاعدة الأساسية : « ولهن مثل الذي عليهن بالمعروف وللرجال عليهن درجة »

ومن هنا بدأت مشاركتها في المجتمع الإسلامي الجديد حاضرات مجالس النبي ، مشاركات في الحرب ، ومهاجرات ، وحافظات للقرآن ، راويات للحديث ، شاعرات وخطيبات . وقد دخلن المسجد وشهدن حلقات العلم والصلاة الجامعة ، وكان الرسول يعدّ لهن في مجالسه وفي الصلاة أماكن خاصة .

واشتهر نفر من النساء غير قليل برواية الحديث حتى أن طائفة من الأحاديث المختلفة قد رويت عن « عائشة » . « وأم سلمة » وغيرهما من الصحابيات . بل لقد رويت بعض الأحاديث مسلسلة عن نسوة دون أن يكون بينهن رجل ، وروت « عائشة » وحدها عن النبي ألفين ومائتين وعشرة أحاديث .

وشاركت المرأة في غزوات النبي وبرزت أسماء كثيرة : « أم عقبة » « وأم عمارة » . « نسيبة بنت كعب » . « المازنية » « وصفية بنت عبد المطلب » . ومنهن من غزت مع رسول الله سبع غزوات « كأم عطية » . وكن يخلفن الرجال في رحالهن ، وكن يقاتلن ويصنعن الطعام ، ويداوين الجرحى ويقمن على المرضى ، ومنهن من شهدن العقبة الكبرى « كأم عمارة » أول مبايعة للنبي وثانية اثنتين شهدتا العقبة الكبرى ، وكان لهن في فتوح الروم والفرس مواقف مشهورة .

قال إدوار جيبون : ـ إن الشجاعة التي أعربت عنها المرأة المسلمة في موقعة اليرموك ، وفي غضون حصار دمشق لأعظم مما يتناوله التقدير .

ووصف المؤرخون بطولات « خولة بنت الأزور» الكندية و « الخنساء » التي استشهد أولادها الثلاثة في موقعة واحدة ، فاستقبلت استشهادهم بإيمان صادق . بينما كان لها موقفها العاصف في الجاهلية عندما مات أخوها صخر .

وكما غير الإسلام مفهوم المرأة الإنساني في أمر الحياة والمجتمع والأسرة ، فقد أعطى الإسلام المرأة حريتها الفكرية حتى استطاعت امرأة أن تواجه « عمر » وتعارضه في المسجد علانية حين دعا إلى تحديد المهور ، وعدم زيادتها عن أربعمائة درهم ، فقامت من قالت : ما يحل لك هذا والله يقول : « وآتيتم إحداهن قنطاراً فلا تأخذوا منه شيئا » وأجاب عمر في صراحته المعهودة : أصابت امرأة وأخطأ عمر .

وفي أيام الدولة الأموية زاحمت المرأة المسلمة الرجل في الثقافة والعلم ، وشاركت في مجال الفقه والحديث والأدب والبيان وأحاطت بجميع فروع العلوم وأتقنتها ، وفي هذه المرحلة قامت النساء بتربية البنات وتثقيفهن فكن يعلمن في البيوت : القراءة والموسيقى والآداب الاجتماعية ، وأسرار اللغة العربية .

وامتد دور المرأة المسلمة في تربية البنات وتثقيفهن ، وفي رواية الحديث حتى بدت عوامل الاضطراب في المجتمع الإسلامي ، هنالك اتجهت المرأة إلى التصوف وعكفت على العبادة ، وإن لم يعدم تاريخ المرأة المسلمة نماذج مختلفة خلال العصور في مختلف الحواضر يعقدن الحلقة في المساجد ويحدثن في الفقه والحديث .

وقد سجل « العقد الفريد » المناورات التي نسبت الى معاوية ، والوافدات من أنصار علي كأروى بنت عبد المطلب ، وسودة بنت عمارة ، وأم سفيان بنت خشمة ودرامية الحجونية . وهي تكشف عن صراحة وجرأة . وكانت عمرة بنت دريد بن الصحة وعائشة بنت طلحة التميمية زوج مصعب بن الزبير وكلتاهما تهب هبة الملوك وقد أفرد ابن حجر في كتابه ( الاصابة في تمييز الصحابة ) مجلداً خاصاً أسماه ( كتاب النساء ) وهو الجزء الثامن في ٢٩٢ صفحة من القطع الكبير سجل فيه أسماء وتراجم ١٥٤٥ سيدة من راويات الحديث والصحابيات ، وحوى الاصابة لابن حجر ، والضوء اللامع للسخاوي ، وأعلام النساء لكحالة عدداً ضخماً من البارزات في مجال الفكر والثقافة والتصوف على طول العصور بين عابدة ومحدثة وأديبة وراوية ومن ربات الرأي والعقل والنفوذ والسلطان .

وليس في صدر الإسلام وحده بدا شأن المرأة المسلمة عاليا . بل في مختلف العصور ، فإذا كانت « مرحلة بناء الإسلام » قد شهدت أمثال عائشة وزينب بنت جحش ، وأم سلمة وفاطمة وعكرشة بنت الأطرش ، وأم الخير بنت جريش والزرقاء بنت عدي ، وبكارة الهلالية وهند بنت زايد ، فقد توالت أسماء البارزات تظهر ، فظهر من بعد أصحاب الندوات أمثال : عمرة الجمحية ، وخرقاء وعمرة ابنة أبي وهب وعائشة بنت طلحة وسكينة بنت الحسين ، وكن جميعاً يعقدن المجالس ، ويمضين إلى الحرب لابسات الحديد ، يساعدن إخوتهن

وأزواجهن في الدفاع عن المعاقل والقلاع ، كما عرفت المرأة بالطبابة في صدر الإسلام ، بعد أن نهى الإسلام عن الكهانة ، وإذا كان الإسلام قد نهى عن الخلوة بالنساء إلا أن ذلك لم يمنع المرأة من الخروج إلى مجالس العلم والمساجد . وفي فتح العراق اشتهرت خزانة بنت خالد بن جعفر ، خاضت مع سعد بن أبي وقاص المعارك وحضرت فتوح الحيرة .

ثم كان عصر الانصهار والتبلور ( ١٣٢ - ٤٩٠ ) وإلى ما قبل الغزو الخارجي حافلاً بالنماذج المتعددة الشمائل . فاطمة بنت خليل الدمشقي محدثة سمع عليها العلامة السخاوي كتاب الشمائل للترمذي ، فائقة بنت عبد الله تجلس في مجلس أمير المؤمنين المهدي ، فائدة تولت مشيخة رباط الظاهرية في مكة .

ولعبت المرأة دوراً ضخما في المجال السياسي ، كان للخيزران فضل في حياة المهدي ، فإن معاهد التعليم كانت منسوبة إليها . وكان لزبيدة زوجة الرشيد دورهام ، وفضلها في توصيل المياه العذبة بين مكة ومنى ، وجر المياه إلى بيروت ما زال مذكوراً . وكان لزبيدة مائة جارية يحفظن القرآن .

وأنشأت أم المقتدر مستشفى خصصت لنفقته السنوية سبعة آلاف دينار ، وكانت ولادة بنت المستكفي في القرن الخامس للهجرة تجالس الرجال وتحاورهم . ولعبت « ست الملك » دوراً هامًا في التاريخ ، فقد تولت الملك قرابة أربع سنوات ، وعرف عنها العدل والإنصاف ، وأنشأت والدة السلطان الأشرف « بركة » مدرسة مجانية ، وعمرت فاطمة بنت المحدث « المقري » الدمشقي مدارس ومارستانات وتكايا ، وأوقفت لها الأوقاف ، ولشجرة الدر في حرب الصليبيين ، ومقاومة الغزاة دور جسور في الفترة التي حفلت بالغزو الصليبي والتتري . وكان عالم الإسلام حافلا بنماذج من النساء العالمات في مختلف وحداته : أم الواحد وأم السلام في بغداد ، كريمة بنت محمد حاتم في مكة ، خديجة بنت محمد في بغداد ، وفي القرن السابع والثامن . نرى عائشة بنت أحمد ابن عبد الله في نيسابور ، عائشة بنت الحسن في أصبهان ، فاطمة البغدادية أم الفضل ، ليقة بنت أبي الفرج في دمشق رقية بنت العفيف في الحجاز . فاطمة بنت علاء الدين ( سمرقند ) ، فاطمة بنت أحمد الرفاعي ( العراق ) زينب بنت الشعري ( نيسابور ) . كما نرى في نيسابور عائشة النيسابورية ، وفي المغرب :

عائشة الشريفة ، وزينب بنت إسحاب النصراوية التي تزوجها يوسف بن تاشفين . وفي مصر ساره بنت الشمس البالي المصري ، وفي دمشق شمس الملوك شهدة بنت أحمد العامري ، وشهدة الدينورية ولدت في بغداد وروى عنها ( ابن الجوزي ) كتاب التصديق بالنظر إلى الله عز وجل ، وشهدة المصرية ، وشهدة بنت عمر الحلبية ، وهناك من هاجر في طلب العلم أمثال الحلبية وصفت بأنها شاعرة أديبة وطبيبة ماهرة ، كانت تتعاطى كثيراً من الصناعات ، وكتبت الخط الجيد ، أصلها من الشام ، وفدت على تونس ، ثم ارتحلت إلى الأندلس ومراكش ، وراسلت الأدباء والشعراء وناظرتهم وظهرت على بعضهم . وإلى القرن الثالث عشر الهجري لم ينقطع ظهور مسلمات في مجال العلم والفقه أمثال : قرة العين بنت صالح القزويني المتوفاة **١٢٣٠** هـ كانت محدثة وأديبة وشاعرة وعالمة بصيرة بالاكم ، حافظة للقرآن ، عالمة بتفسيره وتأدبه ، عارفة بأسرار التنزيل ، تعقد الحفلات والجمعيات ، وتخطب وتعظ الناس ، عرفت برقة لهجتها فاشرأبت لها الأعناق .

وقد شاركت المرأة المسلمة في العلوم ، وخاصة حركات الكواكب ، فقد روي أن عائشة بنت طلحة وفدت على هشام بن عبد الملك وسمرت عنده مع شيوخ بني أمية ، فلم يذكروا شيئا من أخبار العرب وأيامهم إلا شاركتهم فيه ، وما طلع نجم أوغار إلا ذكرت اسمه . قال لها هشام : أما الأول فلا أنكره ، أما النجوم فمن أين لك ؟ قالت تعلمتها من خالتي عائشة أم المؤمنين .

وكان للمرأة في مجال الشعر دور . فقد ظهرت مئات من الشواعر : صمدة بنت زيادة ، وولادة بنت المستكفي ، وعلية بنت المهدي ، ودنانير وعائشة الباعونية ، ورابعة العدوية . وأحصى المؤرخون في الأندلس في عصر ملوك الطوائف ستين ألفا من الشاعرات ، وكان أكثرهن في غرناطة .

وقد ذكر صاحب كتاب « نفح الطيب » أن النساء المسلمات لم تخل لهن مشاركة في العلوم ، الا ان المهنة التي اهتمت المرأة بها هي التعليم والطب ، ومن الطبيبات الشهيرات : أخت المفيد بن زهر وابنتها ، وقد نوه باقتدارهما صاحب طبقات الأطباء ، ولا سيا في الأمراض النسائية ، وقبل كان في الأندلس ستون

ألف حافظة للقرآن الكريم ترفع كل واحدة قنديلاً فوق باب بيتها بالليل تمييزاً لها عن غيرها .

***

أما ما وقع للمرأة المسلمة في فترة الضعف فإنه لا يحسب حسابه على مقاييس الإسلام ، ولا ينطبق على قيمه ومفاهيمه هذه المفاهيم التي اضطرت المرأة أن تحتجب عن المجتمعات وتعتصم بدارها ، وتعكف على العبادة والتصوف بعد أن ساد المجتمع الإسلامي بعض عوامل الانحراف ، ومن الحق أن لا يحاكم « الإسلام » إلى فترة الضعف فإنها لا تمثل تعاليمه ، وما مر بالمرأة من انخفاض لمركزها ، لم يكن إلا نتيجة التخلف عن تطبيق تعاليم الإسلام وقيمه ، كان انفصال المجتمعات عن مفاهيم الإسلام هو ما خلق ذلك الجو العاصف من توسع نطاق الإماء والجواري على نحو لا يدانيه جو من الشبهة والشكوك والاضطراب ، مما دفع المرأة المسلمة الى التخلي عن مكانها في المجتمع ، فلما أرادت أن تنهض قبل أوائل هذا القرن كانت « قيم الإسلام » هي الأساس الذي اعتمدت عليه في هذه النهضة . فرفاعة الطهطاوي قبل قاسم أمين بأكثر من ستين عاماً ، اعتمد في دعوته إلى تحرير المرأة ، ليس على مفاهيم الغرب ، وإنما على مفاهيم الإسلام أساساً فلم يكن ما رآه في الغرب دافعاً له على الاقتباس بقدر ما كان داعيا إلى إعادة النظر في مفهوم الإسلام للمرأة والعودة إليه بعد الانفصال عنه ، وكذلك فعل « قاسم أمين » الذي ضمن كتابه نصوصا منيرة من القرآن الكريم والسنة . قيل إن الشيخ « محمد عبده » هو الذي اختارها وأضافها .

والواقع أن المسلمة بعامة والعربية بخاصة لا تستمد قواعد نهضتها من فكر الغرب ، وإنما تستمدها من انبعاث قيمها الأساسية التي رسمها « القرآن » ، ودعا إليها « الإسلام » بفتح الطريق أمام المرأة على أساس من مقومات الكرامة والخلق ، وبناء شخصية المرأة على أساس الإيمان والتربية دون أن يضطرب بها الطريق ، فليست المرأة في مفهوم الإسلام أداة ولا متعة ، وإذا كان الغرب قد أخرجها من أجل ظروفه الاقتصادية أو الحرب ، فإن اليقظة العربية الإسلامية اليوم ترى أن بناء شخصيتها على مفهوم الدين والخلق عامل هام في قدرتها على مواجهة الحياة العاملة بنجاح وعمق .

إن المرأة المسلمة حين اندفعت طوال تاريخ الإسلام في مجال العلم والعمل كانت تحمل معها قيم الإسلام نفسه ولم تتخل عنها . وبـذلك استطاعـت أن ترسم صورة من أشرف الصور لدور المرأة في الحياة الإنسانية . والمرأة المسلمـة تستطيع أن تجد مكاناً عظيماً ضخما إيجابيا في نهضة العصر ما استمسـكت بتلك القيم ، ووازنت بين حاجة بناء الاسرة وحاجة العمل نفسه ، ودورها الطبيعي الفعال في تكوين كيان الأمة .

## ( ٤٣ )

# عوامل التأخر ودوافع التقدم

لخص كثيرون عوامل التحلل والضعف في عالم الإسلام في ثمان نقاط .

( ١ ) الخلافات السياسية والعصبية ، وتنازع الرئاسة والجاه مع التحذير الشديد الذي جاء به الإسلام في ذلك ، والتزهيد في الإمارة ، ولفت النظر إلى هذه الناحية التي هي سوس الأمم ومحطمة الشعوب والدول .

( ٢ ) الخلافات الدينية والمذهبية والانصراف عن روح الدين كعقائد وأعمال إلى ألفاظ ومصطلحات ميتة لا روح فيها، ولا حياة، وإهمال كتاب الله وسنة رسوله ، والجمود والتعصب للآراء والأقوال والولع بالجدل والمناظرات والمراء .

( ٣ ) الانغماس في ألوان الترف والنعيم والإقبال على المتعة والشهوات ، حتى أثر عن حكام المسلمين في كثير من العصور ما لم يؤثر عن غيرهم

( ٤ ) انتقال الرئاسة والسلطة إلى غير العرب من الفرس تارة والديلم تارة والمماليك والأتراك وغيرهم ممن لم يتذوقوا طعم الإسلام الصحيح ، ولم تشرق قلوبهم بأنوار القرآن لصعوبة إدراكهم لمعانيه .

( ٥ ) إهمال العلوم العملية ، والمعارف الكونية ، وصرف الأوقات ، وتضييع الجهد في فلسفات نظرية عقيمة وعلوم خيالية سقيمة ، مع أن الإسلام يحثهم على النظر في الكون ، واقتفاء أسـ ار الخلق .

( ٦ ) الغرور بسلطانهم ، والانخداع بقوتهم ، وإهمال النظر في التطور الاجتماعي للأمم من غيرهم حتى سبقتهم في الاستعداد والأهبة وأخذتهم على غرة ، وقد أمرهم القرآن باليقظة ، وحذرهم مغبة الغفلة .

( ٧ ) الانخداع بدسائس المتملقين من خصومهم ، والاعجاب بأعمالهم ، ومظاهر حياتهم ، والاندفاع في تقليدهم مما يضر ولا ينفع مع النهي الشديد عن التشبه بهم ، والأمر الصريح بمخالفتهم ، والمحافظة على مقومات الأمة الإسلامية والتحذير من مغبة هذا التقليد .

***

ويرى كثيرون أن أبرز أخطاء مرحلة الضعف هي غلبة « عقيدة الجبرية » التي نشرتها الطرق الصوفية ، وقد حاول الكثيرون تأويل عقيدة القضاء والقدر الإسلامية وتصويرها على أنها تعبير عن « حتمية » لا مناص منها ، ولا يمكن التحرر من أحداثها . ولذا فلا محل لبذل المحاولات للخروج من أية نكبة تنزل بنا ، يضاف إلى هذا انحطاط المدارك وميلها إلى تصديق الخرافات والأباطيل ، وفقدان ألمعية البرهان ، وتحكيم العقل ، وغلبة مفاهيم العاطفة والغيبيات . ويرى « انيان دينيه » أن السبب الأول في تدهور المسلمين هو الخروج عن مبادىء المساواة التامة الشاملة التي بذل الرسول كل جهد خلال سني حياته في فرضها ، والتي كانت سبب انتصاراته وانتصارات الخلفاء الأول . والسبب الثاني هو التخلي عن إحدى المميزات الأساسية للاسلام ، وهي التوافق التام بين العقيدة وبين ضرورات المنطق . فقد خمدت حماسة الروح الاسلامية العلمية شيئاً فشيئاً ، مكتفية بالنتائج الباهرة التي حصل عليها المسلمون .

ويرى شكيب أرسلان أن أهم عوامل تأخر المسلمين هي :

( ١ ) ترك المسلمين عزائم القرآن التي قام بها سلفهم .

( ٢ ) إعراض علماء المسلمين عن العلوم الطبيعية وفقدهم أعظم قوة مادية .

( ٣ ) الاكتفاء من الدين بالرسوم الظاهرة ، واللهو بالقشور عن اللباب .

( ٤ ) اليأس من رحمة الله ، وفقدان الثقة في النفس .

( ٥ ) استخذاء المسلمين أمام الأوربيين وفقد أكثرهم عزة الإسلام القومية .

( ٦ ) مواطأة المسلمين للأوربيين على إخوانهم وخدمتهم إياها .

( ٧ ) فقد روح التضحية التي سادت بها الأمم الأوربية .

( ٨ ) عدم اقتداء المسلمين بالأوربيين في تأليف الجمعيات والشركات.

( ٩ ) فساد الأخلاق عامة ، وأخلاق الأمراء خاصة .

( ١٠ ) فساد العلماء الذين هم القوة المراقبة للحكومات .

( ١١ ) تفوق الأوربيين في العدد وطمعهم في مجاورتهم لجميع البلاد الإسلامية وثباتهم ، وصبرهم وسيرهم على خطط مرسومة يتبعونها منذ مئات السنين.

( ١٢ ) تخييم الجهل على الأمم الإسلامية .

( ١٣ ) عدم تجدد برامج التعليم واستيلاء الجمود على الفقهاء .

( ١٤ ) كثرة الكلام عن الآخرة مع أن الإسلام دين دنيا وآخرة .

( ١٥ ) الدعايات الاستعمارية التبشيرية .

* * *

ويلخص عبد الرحمن الكواكبي ضعف المسلمين في عدة عوامل :

( ١ ) العقائد التي أقحمت على الإسلام وفي مقدمتها العقيدة الجبرية .

( ٢ ) الجهل .

( ٣ ) تحول الحكومات الإسلامية من نيابية ديمقراطية إلى ملكية مطلقة .

( ٤ ) جهل أمراء المسلمين .

( ٥ ) حرمانهم من الحرية وفقدان الحرية من أسباب موت النفوس ،

وضعف الهمم ، وتعطيل الشرائع ، وإحلال القوانين.

( ٦ ) إهمال الدين ، لأن الدين يدعو إلى عدم الذل لغير الله .

( ٧ ) انحلال الرابطة الدينية ، والإسلام مبني على أن لاولاء فيه لغير المسلمين .

( ٨ ) تشويش الدين والدنيا على العامة بسبب العلماء المذلسين .

( ٩ ) الانحلال الذي أصاب السلطة القانونية بسبب فسادها ، أو بسبب تغلب الأهواء الشخصية عليها .

( ١٠ ) اقتصر علماء المسلمين في بحثهم ودراساتهم على العلوم الدينية ، وعلى قليل من العلوم الرياضية ، وأهملوا ما عدا ذلك من العلوم الرياضية والطبيعية حتى جهلوها ، وصارت نسيا منسيا .

( ١١ ) شعور المسلمين باليأس ، وعدم القدرة على مباراة أهل الغرب .

( ١٢ ) عدم وجود تربية قومية تنشىء شعبا له رأي عام لا ينقسم على نفسه ولا يتخاذل أمام عدوه .

( ١٣ ) الفقر مصدر كل شر وعيب ، فمنه جهلنا ، وفساد أخلاقنا وانقسامنا .

( ١٤ ) عدم وجود الجمعيات المختلفة من سياسية وغيرها .

( ١٥ ) تكبر الكبراء وميلهم إلى العلماء المتحملقين المنافقين الذين يتواضعون أمامهم ،ويتذللون لهم .

( ١٦ ) الدين بوضعه الحالي ، فقد نشأ الدين من أصل صحيح يسير على معتنقيه . ثم طرأ عليه التأويل ، ودخل فيه التحريف والزيادات .

## لماذا تأخر المسلمون

هذا هو السؤال الذي ألح على المفكرين والباحثين خلال الأعوام المائة الأخيرة ، وحاول الكثيرون الإجابة عنه كل من وجهة نظره ، ومن الزاوية التي يراها العامل الأهم من عوامل الضعف والتأخر ، والحق أن عوامل التأخر طبيعية ولا بد من وقوعها اعترافا بسنن الكون وطبيعة النواميس ، ودورة التاريخ ، والأمم شأنها شأن الكائنات الحية تنشأ وتنمو وتقوى وتضعف وتذوي . ثم تعود مرة أخرى إلى الحياة . وقد جاءت مرحلة الضعف في تاريخ الإسلام بعد دورة ضخمة طويلة المدى استغرقت أكثر من عشرة قرون ، ثم لم تلبث أن انحسرت بعد قرن واحد ، حتى ليمكن أن يقال إن عالم الإسلام لم يمر إلا بمرحلة قصيرة قبل أن يتنبه من جديد ويأخذ في عوامل اليقظة والقوة . أما أنه لم يصل بعد إلى مكانه الطبيعي مرة أخرى حتى الآن . فإنما يرجع ذلك إلى عوامل جديدة ضاغطة ما زالت تحول بينه وبين استعادة مكانته ، هذه العوامل تتمثل في القوى الأجنبية التي استطاعت خلال فترة الضعف أن تضع قيوداً تغلغلت في المجتمع الإسلامي والفكر الإسلامي إلى حد النخاع وبات التحرر منها أمراً بالغ العسر . ومن هنا يمكن القول إن « مرحلة اليقظة العربية الإسلامية » لم تكن في الحق إلا محاولة لفك هذه الأغلال وتحطيم هذه القيود . ومن هنا طال الصراع بين عوامل التأخر ودوافع التقدم وتأخر عالم الإسلام طويلاً عن الأخذ بمقدراته التي تمكنه من التماس مكانه الطبيعي .

وعندنا أن أبرز عوامل التخلف إنما جاء من الانفصال عن القيم الاساسية للاسلام هذه القيم التي تدعو إلى القوة والايمان والوحدة فحين تخلف عالم

الاسلام عن هذه القيم حل به الضعف والتفكك والتخلف عن ركب الحضارة ، واستطاعت القوة الأخرى المواجهة أن تكسب الجولة وأن تسيطر على مقدرات العلم التجريبي التي حققها الاسلام ، وأن تسير بها إلى ميادين الكشف والاختراع ، وكانت القوة العسكرية والحربية والبحرية هي العامل الأول في انتصار الغرب على المسلمين ، والسيطرة على عالم الاسلام واحتلاله وتطويقه .

ولقد ظلت الحرب سجالا بين أوربا وعالم الاسلام منذ بزغ ضوء الإسلام ، وكان عالم الإسلام في موقف المقاومة والصمود بعد مرحلة التوسع الأولى . وقد ظلت الموجات الإسلامية البدوية المتوالية ، ممثلة في السلاجقة والبربر والمماليك . ثم في الأتراك العثمانيين تقاوم الغزو الغربي حتى ضعفت قوة العثمانيين في القرن الحادي عشر الهجري ( ١٧ م ) . واستطاعت أوربا أن تزحف لتطوق عالم الإسلام ، ثم لم تلبث في القرن الثالث عشر ( ١٩ م ) أن أطبقت عليه في حركة احتلال ضخمة .

والحق أن عالم الاسلام في خلال تاريخه الطويل كان يمر دوماً بمثل هذه الأزمات : أزمات التخلف والضعف والاضطراب ، نتيجة انفصاله عن قيم الإسلام الأساسية ، ولكنه كان لا يلبث أن يعود إلى القوة والوحدة ويجدد كيانه ، وأنه كان قمينا بأن يفعل ذلك في هذه الأزمة ، لولا أن القوة المواجهة كانت قد بلغت قدرا من القوة ، واستطاعت أن تستثمر نتاج المنهج العلمي الإسلامي في أسلحة جديدة لمواجهة الإسلام ، والتوسع الإسلامي بعد مرحلة الدولة العثمانية التي سيطرت على أوربا خمسة قرون .

ومن هنا لم تكن « أزمة التخلف » قضية منفصلة عن القوى الغازية الضاغطة التي كانت تحمل معها مفهوما جديدا هو : القضاء على مصادر القوة في عالم الإسلام بحيث لا يستطيع - إلى أمد ما - التمكن من السيطرة على بقائه خيفة الزحف على أوربا مرة أخرى ، ولم تكن عوامل القوة هذه إلا ممثلة في الإسلام نفسه ، ومن هنا كانت الحرب : حرب فكر وتغريب وتبشير وشعوبية تثير عواصف الشبهات والشكوك والانتقاص من الإسلام واللغة العربية والتاريخ والتراث على نحو منظم ، ومن خلال أجهزة قادرة مسيطرة يملكها الاستعمار في مقدمتها المدرسة والصحافة والكتاب . هذا في اعتقادي هو العامل الأساسي في استطالة مرحلة التخلف ، وعجز المسلمين عن استرداد القوة القادرة على أن

تقيمهم مرة أخرى على طريق التقدم . ولقد حاول الغربيون أن ينسبوا أسباب تأخر المسلمين إلى الإسلام نفسه ، وإلى مبادئه في محاولة للقضاء على مقوماته وتذويب عالم الإسلام في مفهوم الفكر الغربي القائم على جماع الوثنية والمادية ، وجرى على هذا النهج كثيرون من أتباعهم ، وغفلوا عن أن المسلمين استطاعوا بالإسلام بناء حضارة باذخة ، وحققوا تقدماً ملموساً في مجال العلم التجريبي والقانون والفلسفة ، وكانت هذه الحصيلة الضخمة هي حجر الأساس في بناء الحضارة الغربية الحديثة ، وأن الإسلام هو الذي أمد الفكر الإنساني بأصول النهج العلمي ، والاتجاه نحو الكشف بتحريضه أتباعه بالنظر إلى الكون واكتشاف أسراره ، وتحرير نفوسهم من أغلال الوثنية ، وإطلاقها بالتوحيد ، وبناء النهضة على أساس الإيمان والخلق وصياغة مفهوم الانسان على نحو يجعله سيداً للكون تحت حكم الله . قد أتيحت له كل طيبات الأرض ودفائنها خالصة له ، ولا شك أن دوافع التقدم هي التحرر من عوامل التأخر .

# الباب الثامن

# فلسفة تاريخ الاسلام

# ( ٤٤ )

## فلسفة التاريخ الاسلامي

اتمثل فلسفة التاريخ الإسلامي في هذا النحو :

مبدأ تاريخ الإسلام « جماعة » لها منهج تستمده من « الإسلام » وقد سارت به من قلب الجزيرة العربية حتى بلغت به أطراف العالمين تتدفق في مجرى ممتد ( قوامه منهج وأحداث وقادة ) ظل يعمق ويتسع . هذه الجماعة « كونت المجتمع الإسلامي » وبنت « الحضارة الإسلامية » وفق مقومات فكر أساسية ، قوام فكرها دعوة إنسانية للعالمين : إلى الحرية والعدل والحق والمساواة .

في طريق هذه الحركة إلى غايتها ، واجهت مرتين :

( أولاً ) معارضات قوية ، وقوى مصادمة تحول بينها وبين طريقها المرسوم .

( ثانيا ) هذا المجرى يصيبه بين الحين والحين ركام يعوقه ويسد مجراه . وتلك سنة الحياة : قوة من بعد ضعف ، وضعف من بعد قوة .

« ومنهج » هذه الجماعة هو منطلقها ، فإذا تخلت عنه بلغت موقف الضعف والتخلف ، وانتصر عليها معارضها فإذا عادت إلى مقوماتها واستمسكت بها ، انتصرت بعد هزيمة ، وقويت بعد ضعف ، وصفحات التاريخ الإسلامي خلال أربعة عشر قرنا تجري على هذا النحو : تتدفق في مجرى ممتد قوامه « منهج : وأحداث : وقادة » وفق ناموس واضح لا يتخلف .

ولقد كانت القيم الأساسية للإسلام هي مصدر القوة واليقظة ، فإذا انحرف المجتمع عنها بدأت مرحلة الضعف والتخلف ، فإذا أعاد الأمة قائد أو مفكر إلى هذه القيم برزت نهضة جديدة وتجدد شباب التاريخ .

( ٢ ) هذه رؤية جديدة للإسلام من خلال التاريخ الإنساني ، يتمثل خلالها « تاريخ الإسلام » في صورة مجرى طويل ممتد ، بدأ منبعه عند بحيرة واسعة هي : الجزيرة العربية ، ثم مد فروعه أحدها إلى المشرق حتى بلغ الصين ، والآخر إلى المغرب حتى بلغ الأندلس ، والثالث إلى الجنوب حتى بلغ قلب أفريقيا . وما زال هذا المجرى يعمق ويتسع حتى شمل القارتين آسيا وإفريقيا وأوغل في أوربا من طرفيها ، فبلغ نهر اللوار من ناحية الغرب وأسوار فينا من ناحية الشرق . ثم هو منذ بزوغ فجره إلى اليوم ، وهو بالغ الأثر في حركة التاريخ ، وفي تطور الإنسانية ، غير منفصل عن العالم في مسيره ومصيره ، تأثيراً وتأثراً . والإسلام في مفهومه الصحيح « منهج حياة » وإطار واسع لأيديولوجية شاملة متكاملة يرتبط فيها الانسان بالله وبالكون والحياة . ليس الإسلام في حركة التاريخ هو الدولة الاسلامية ، أو الحضارة الاسلامية ، أو الأمة العربية إلا بقدر ما يتصل ذلك بالاسلام نفسه . والاسلام يبدو من خلال تاريخه في صورة « كائن حي » له جناحان : فكر وحضارة ، متجدد الخلايا ، يمر بمراحل القوة والضعف . حركته الدائبة وخطوه المتصل الدافع إلى الأمام شأن الكائن الحي ، كلما تقلص طرف منه استرد قوته في طرف آخر ، وأبرز ظواهره ظاهرة التجدد والتغير وتصحيح المفاهيم « من خلال إطاره الجامع » يتصا ذلك في كلا جناحيه : جناح « الفكر » يتجدد بظهور أعلام الفكر وقادة الرأي ، وجناح « الحضارة » يتجدد بظهور بناة الدول وصناع الأحداث . « المفكرون » يجددون الجوانب العقلية ، ويعيدون صياغة المناهج ، ويدحضون شبهات الانحراف « والقادة » يبنون الجهة الداخلية ويردون القوى الخارجية ، وحركة التاريخ الاسلامي تجمع دوماً بين الخط المستقيم ، والدائرة فهو من خلال الخط المستقيم يتجه نحو التقدم الى الأمام ، ومن خلال الدائرة يتحرك ولا يقف ، واحياناً تبدو حركة التاريخ أمامية ورائية ، فهي رجعة إلى الوراء قليلاً من أجل التقدم إلى الأمام .

لم يجمد « الإسلام » أمام حركة « التاريخ » خلال العصور أو تطور

الحضارات والمدنيات . ولم يتوقف عن مدها في إيجابية وقدرة على السير بخطوة التاريخ نفسها . بل ربما سبقها خطوات .

***

ومن أبرز سنن التاريخ الإسلامي : القدرة على الخروج من دائرة الضعف والتخلف بالتماس جوهر القيم الأساسية .

فكلما ضعفت حياة « المجتمع » وانحرف ، ظهرت « قوة شابة دافعة » تحمل اللواء ، وكلما تحول « منهج الفكر » واضطرب ظهر مصلح مجدد يرده إلى الجادة . وهكذا عاش تاريخ الإسلام بين « التحدي » ورد الفعل ، تعتوره الأحداث قوة وضعفا ، ولكنها لا تقضي عليه ، تهاجمه القوى من الخارج فتؤثر فيه حثيثا لكنه لا يلبث أن يتماسك في مواجهتها ، فينتصر عليها ويذيبها في بوتقته ، وتصارعه القوى من الداخل ، فتبرز مقوماته مجددة مرة أخرى ، وقادرة على إعادة صياغة الحياة .

والإسلام في التاريخ حركة أوسع من الأمة العربية أو الدولة الإسلامية أو الحضارة ، وأعمق من الحدود التي تربطه بالسياسة أو تقصره على الحضارة والثقافة ، أو تقف به عند قيام الدول وسقوطها أو الفتوحات والحروب ، وإنما تتمثل فيه كل هذه القطاعات وتتشابك .

فالإسلام في الحق هو حركة التاريخ نحو الحرية ، تحرير الإنسان من ربقة الظلم ، وإقرار حقوق الأفراد والجماعات وتحريرها من الاستعباد . وبذلك فهو انطلاقة إنسانية بعيدة المدى في كل الأمم والشعوب التي اتصلت به سواء من دانت له أو أساغت فكرته ومقوماته .

ولقد كان لبزوغه في محيط الأمة العربية معنى واضح الدلالة ، هو اصطفاء هذه الأمة لحمل رسالته ، ومن ثم بعث الرسول من أهلها ، ونزل القرآن بلغتها . ومن ثم فلا سبيل لفصل تاريخ العرب عن تاريخ الاسلام منذ فجر الاسلام إلى اليوم . فمنذ بزغ الاسلام ارتبط تاريخ العرب به أوثق ارتباط . لقد ظهر في الأمة العربية أولاً ، وفي حياة الرسول دانت الجزيرة العربية له ، فكانت البحيرة التي امتدت منها روافده وفروعه ، كما انبعثت منها الموجات المتوالية المختلفة التي تحركت شرقاً وغرباً وشمالاً ، فحملته الأمة العربية إلى العالم

أجمع ، وكانت اللغة العربية أداة فكره وثقافته وحضارته ، فالفكر الذي كونته الأمة العربية من خلال جوهر الاسلام كان حصيلة مشتركة للمسلمين والعرب جميعاً بحيث لا يمكن أن يوصف بأنه فكر عربي محض ، أو فكر إسلامي خالص ، وكذلك الحضارة . بل هو : فكر عربي إسلامي ، وهي حضارة عربيو إسلامية ، شارك فيها الجميع وانصهرت فيها مختلف الثقافات الانسانية : فارسية ومصرية ويونانية ورومانية وهندية ، تبلورت جميعها في إطار الاسلام وفق مفهومه ومضمونه ، شارك في هذه المرحلة العرب وغير العرب ، شاركوا في الحضارة والفكر والحكم . وقد رسم الاسلام مفهوم الوحدة بين معتنقيه والمرتبطين به على أساس الفكر ، لا على أساس الجنس . ووسع دائرة الاخاء الانساني ، وأسقط العصبية والتفرقة العنصرية ، وجعل أساس التبريز والتفوق والتفاضل من العمل لا من العرق ، ومن الشخصية لا من الوراثة .

# تكامل مفهوم التاريخ الاسلامي

وقد التفت كثير من كتاب الغرب إلى مفهوم « تكامل » التاريخ الإسلامي ، واستقلالية منطقة : يقول ولفرد كانتول سميث « إن المسلم يحس إحساساً جاداً بالتاريخ » على نحو يختلف عن فهم البوذي والمسيحي والماركسي .

« فالرجل الهندي لا يأبه بالتاريخ ، ولا يحس بوجوده ، لأن التاريخ هو ما يسجله البشر من أعمال في عالم المادة وعالم الحس ، والهندي مشغول أبداً بعالم الروح ، عالم اللانهاية ، ومن ثم فكل شيء من عالم الفناء المحدود لا قيمة له عنده ، ولا وزن ، والتاريخ بالنسبة إليه شيء ساقط من الحساب . أما المسيحي فيعيش بشخصية مزدوجة ، أو في عالمين منفصلين لا يربط بينهما رباط .

( ١ ) المثل الأعلى غير قابل للتطبيق . ( ٢ ) والواقع البشري المطبق في واقع الأرض منقطع عن المثل الأعلى المنشود . هذان الخطان يسيران في نفسه متجاورين أو متباعدين . ولكن على غير اتصال « والتاريخ في نظره هو نقطة ضعف البشر وهبوطه وانحرافه » .

أما الماركسي فهو مؤمن بحتمية التاريخ بمعنى أن كل خطوة تؤدي إلى الخطوة التالية بطريقة حتمية ،ولكن لا يؤمن إلا بهذا العالم المحسوس . بل لا يؤمن في هذا العالم إلا بالمذهب الماركسي وحده ، وكل شيء عداه باطل ، والماركسي يتبع عجلة التاريخ ، ولكن لا يوجهها ولا يقيسها بأية مقاييس خارجة عنها .

« أما المسلم » فإنه يحس إحساسا جاداً بالتاريخ . إنه يؤمن بتحقيق ملكوت الله في الأرض ، يؤمن بأن الله قد وضع نظاما عمليا واقعيا يسير البشر في الأرض على مقتضاه ، ويحاولون دائماً أن يصوغوا واقع الأرض في إطاره ، ومن ثم فهو دائما يعيش كل عمل فردي أو جماعي . وكل شعور فردي أو جماعي ، بمقدار قربه أو بعده عن ذلك النظام الذي وضعه الله ، والذي ينبغي تحقيقه في واقع الأرض لأنه قابل للتحقيق .

والتاريخ في نظر المسلم سجل المحاولة البشرية الدائمة لتحقيق ملكوت الله في الأرض ، ومن ثم فكل عمل وكل شعور فرديا كان أو جماعيا ذو أهمية بالغة ، لأن الحاضر هو نتيجة الماضي ، والمستقبل متوقف على الحاضر ، وما من دين استطاع أن يوحي إلى المتدين به شعوراً بالعزة كالشعور الذي يخامر المسلم من غير تكلف ، ولا اصطناع ، وأن اعتزاز المسلم بدينه يعم المسلمين على اختلاف القومية واللغة ، وكون الإنسان مسلما باعث من بواعث الحمد تسمعه من جميع المسلمين ، وان الغربي لا يفهم الإسلام حق الفهم إلا إذا أدرك أنه أسلوب حياة تصطبغ به معيشة المسلم ظاهراً وباطناً، وليس مجرد أفكار أو عقائد يناقشها بفكره[1] أهـ

* * *

إذا صح في العقول أن التفسير المادي للتاريخ يمكن أن يكون صالحاً في تعليل بعض الظواهر التاريخية الكبرى وبيان أسباب قيام الدول وسقوطها . فإن هذا التفسير المادي يفشل فشلا ذريعاً حين يرغب في أن يعلل وحدة العرب وغلبتهم على غيرهم وقيام حضارتهم ، واتساع رقعتهم ، وثبات أقدامهم ، فلم يبق أمام المؤرخين إلا أن ينظروا إلى العلة الصحيحة لهذه الظاهرة الفريدة ، فرأوا أنها تقع في هذا الشيء الجديد إلا وهو « الاسلام » .

ويقول اليان وايدغراي في كتابه « تفسيرات التاريخ » : ـ

إن وجهة نظر المسلمين للتاريخ نظرة بناءة فهم يرون أن البشرية إذا

---

( ١ ) ك/ الإسلام في التاريخ الحديث

اعتنقت تعاليم الوحي القرآني فإن إرادتها حينذاك تتطابق وإرادة الله ، ولا يعود يوجد من يعصي أوامره ، ويعم الاخاء بين البشر ، ومن صفات المؤمن أنه صابر ، ويعلم أن لا مردّ لارادة الله .

ويشارك بوجه عام تياران يتنازعان السيطرة على أفكار فلاسفة التاريخ الاسلامي المسلمين ، المفهوم الحركي ، والمفهوم القدري . وكلها تظهر بوضوح في تفسير تقلبات القوى الاجتماعية ، وعلى العكس من ذلك كان الفلاسفة الهنود قد قطعوا كل صلتهم بكل ما هو وقتي وفوري ، وقدموا تعاليم انهزامية وانعزالية ، والتاريخ بالنسبة للبوذية والهنود ليس إلا وهماً .

***

وإذا كان مفهوم المسلم لمنطلق التاريخ يختلف عن مفهوم غيره . فإن وجهة التاريخ الإسلامي قد سارت في طريق يختلف عن وجهة التاريخ الأوربي ، من حيث حركته الخصبة السريعة في التوسع . ومن حيث أثره في الأمم والشعوب التي اتصل بها . ويصور هذا المعنى هاملتون جب في عبارة دقيقة حين يقول : إن التاريخ الإسلامي سار في وجهة معاكسة للتاريخ الأوربي على نحو يثير الاستغراب ، كلاهما قام على انقاض الإمبراطورية الرومانية في حوض البحر الأبيض المتوسط ، ولكن بينهما فرقا أصيلاً ، فبينما خرجت أوربا على نحو متدرج لا شعوري . وبعد عدة قرون من الفوضى الناجمة عن غزوات البرابرة . انبثق الإسلام انبثاقا مفاجئافي بلاد العرب ، وأقام بسرعة تكاد تعلو على التصديق في أقل من قرن من الزمان امبراطورية جديدة في غربي آسيا وشواطىء البحر الأبيض المتوسط الجنوبية والغربية ، وأقام نظاماً سياسيا شمل جميع المناطق المتسعة ، ومن ضمنها فارس ، وواجه مهمة أخرى، هي إدخال هذه المناطق في نظام ثقافي ديني مشترك قائم على مفهومه العالمي الشامل ، فكان عليه من أجل تحقيق ذلك أن يقاوم تأثير المفهوم العالمي السابق ( المسيحية ) في غرب آسيا ، والنصف الجنوبي من حوض البحر الأبيض المتوسط ، ويضعفه إلى أقصى حد ممكن ، ويحطم الزرادشتية ، والديانات التترية في فارس ، وبين النهرين ، وأن يقيم حاجزاً في وجه انتشار البوذية في أواسط آسيا .

## قانون التاريخ الاسلامي مستمد من طابعه

ولقد اتسم تاريخ الإسلام بسمات جعلت له طابعه ومفهومه :

ذلك أنه لما كان الاسلام هو دين وفكر ومجتمع وحضارة ، فإن « التاريخ السياسي » في تاريخ الإسلام هو أقل هذه الجوانب أهمية وعظمة ، حيث تبدو الجوانب الضخمة الحافلة بالأمجاد في تاريخ الإسلام الفكري والعلمي والعقلي ، وفي مجال الدراسات العقلية والفقهية والفلسفية الاجتماعية ، وأبرز جوانب التاريخ الإسلامي تتمثل في القادة والأعلام والمفكرين الذين بنوا القاعدة العريضة للفكر الإسلامي مستمدة من « القرآن » . أولئك المصلحون والمجددون ، وحملة لواء اليقظة وتصحيح المفاهيم الذين حفل بهم تاريخ الإسلام خلال مراحله وأدواره المختلفة .

في هذا المجال تجد طبقات الأطباء وأخبار الحكماء ، والنحاة والرواة والأدباء ، وطبقات الفقهاء والفلاسفة والمؤرخين الاجتماعيين ، وتاريخ أعيان كل عصر ، فليس تاريخ الإسلام إذن تاريخاً سياسياً فحسب . وليس التاريخ السياسي إلا جناحاً من أجنحته ، بل ربما أقلها خصوبة وعمقاً وأثراً في حركة التاريخ ونموه وتجدده ولكنه تاريخ شامل قوامه ، تاريخ فكر متحرك في مجالات الدين والسياسة والاجتماع والاقتصاد والأخلاق والتربية .

ومن هنا تسقط تلك الشبهة التي يرددها دعاة التغريب من اقتصار تاريخ الإسلام على حياة الخلفاء والملوك . بل تتناول مختلف مظاهر حياة المجتمع والحضارة . وقد حفلت كتب الأنساب والطبقات والوفيات وموسوعات الأصفهاني والحصري والجاحظ وأبي حيان التوحيدي بإفاضة ، بأخبار المجتمع

بسائر طبقاته ، ومختلف قطاعاته ، وفي مفهومي إن التاريخ في جوهره ليس سرد وقائع وحروب ودول تقوم ، ودول تذهب ، وأحداث سياسية . بل هو تطور شامل متصل ، وحركة اجتماعية يدفعها مفهوم وعقيدة في مختلف ميادين الحياة السياسية والاجتماعية والاقتصادية والفكرية .

وعندنا أن دراسة تاريخ الإسلام في هذه المرحلة من حياتنا ضرورة لا سبيل إلى تجاوزها لفهم الأحداث ، وتطور المجتمع ، ولمعرفة مكاننا في العالم الإسلامي والأمة العربية من الحضارة العصرية . فإن نظرتنا إلى الأحداث لا تصدق إلا إذا قامت في ظل مفهوم شامل ، وفي إطار تاريخ الإسلام نفسه ، كما أن اتصالنا بالغرب اليوم يجب أن يقوم على مفهوم مرحلة ، هي : ردّ فعل لمرحلة قد سبقتها ، بحسبان أن هذه الحضارة العصرية الغربية ليست منفصلة عن عالم الإسلام . وإنما قامت قواعدها على المنهج التجريبي الإسلامي ، وعلى بناء صاغه علماء العرب والمسلمين ، فنحن حين نتصل بها اليوم لا نكون غرباء عن جذورها ، فهي ملك للبشرية كلها التي صاغتها وشاركت في تكوين جوانبها المختلفة . لقد قدم الفكر العربي الإسلامي لهذه الحضارة علومه وفلسفاته ومعامله وجامعاته ، وبنى قاعدتها العريضة في الأندلس ، فهو متصل بها غير منفصل عنها حين يقتبسها اليوم .

***

وأبرز ظواهر تاريخ الإسلام : تكامله وشموله وترابطه ، ليس تاريخ الإسلام دوائر منفصلة ، ولكنه نسيج كامل . فالحدث السياسي لا يفهم إلا بإدراك تفاعله مع الأوضاع الثقافية والاقتصادية والاجتماعية . انها خيوط واحدة تكون « نسيج التاريخ » كل خيط له قيمته ، وأثره المتمثل في مدى التحامه مع سواه .

والتاريخ الإسلامي تاريخ حضارة مكتملة الدائرة ، وليس تاريخ شعب أو قومية معينة ، والقوميات كلها حلقات يطبعها طابع موحد ، وهو تاريخ ذو مضمون إنساني قوامه الحرية والعدل والتوحيد والمساواة . وتاريخ العرب كافة لا ينفصل عن تاريخ الإسلام كفكر كلي شامل . هذا الشمول يضم مختلف أوجه النشاط الإنساني : الاقتصاد والدين والعلم والفن والفلسفة والاجتماع .

ومن هنا فإن نظرة الباحث الغربي قد تقصر ولا تصل إلى أعماق هذه

المفاهيم ، نتيجة تأثره بمفهومه الغربي الخالص للتاريخ ، وهو غير مفهوم المسلمين والعرب للتاريخ ، والباحث الغربي بعيد بفطرته ومفاهيمه عن روح الفكر الاسلامي وقيمه ومناهجه التي قامت عليها أعمدة التاريخ الإسلامي . ومن حيث إنه بحكم قيمه الخاصة مرتبط بمفاهيم قوامها تراث يوناني روماني مسيحي غربي ، أضيفت إليها فلسفات مادية موغلة في الانفصال عن الروح ، بل مخاصمة للأديان والتوحيد والغيبيات مخاصمة حادة ، وهي نظرات تقوم من خلال فكر « يؤمن بتجزئة الكون والطبيعة ، والفصل بين العلم والدين » أما مفهوم الفكر العربي الإسلامي الذي قامت عليه الحضارة الإسلامية ، وسار عليه مسار التاريخ الإسلامي ، فقائم على أساس التوحيد ووحدة الكون وانسجام قوى الطبيعة واتساقها ، وهو النظام الوحيد الذي يحقق هذا الانسجام لأنه يجمع بين الروح والجسد في نظام الانسان ، والعبادة والعمل في نظام الحياة والدنيا ، وللآخرة في نظام الدين والسماء ، والأرض في نظام الكون[1] .

ومن هنا يجيء الخلاف في النظرة ، نتيجة للخلاف الجذري بين القيم الأساسية للفكر الغربي والفكر الإسلامي ، وهو خلاف بعيد المدى .

ويبدو من غير الطبيعي دراسة تاريخ الإسلام أو الحضارة الإسلامية ، أو المجتمع الإسلامي منفصلاً عن الإسلام بحسبان أنها جميعا تقوم في ظل مفاهيمه وقيمه .

والتاريخ في الحق هو حركة الزمن من خلال المجتمع . ولقد كان التاريخ الإسلامي متصلا بالمجرى الرئيسي للتاريخ الإنساني مؤثراً فيه ، متأثراً به . وكانت تحدياته دوماً هي تحديات الشعوبية والقوى الخارجية ، وتحريف النص ، ويقوم التاريخ الإسلامي حول فكرة ودعوة وثقافة ، على أساس فكرة لها طابعها المميز ، الذي تلتقي فيه جميع مظاهر الحضارة والمجتمع بحسبان أن « التوحيد » هو الفكرة العامة التي تحتضن جميع مظاهر الفكر الإسلامي .

« فالفكر » هو أساس التاريخ الإسلامي ، والعامل الموحد بين المسلمين ، وأساس كيان المجتمع الإسلامي الذي مازال قائما ومستمرا ، والذي أخذ عديداً من صور الوحدات السياسية الكبرى : كالخلافة أو الدول الكبرى ، أو الدول

---

( ١ ) أحمد نصيف الجنابي : مجلة الأقلام ١٩٦٦ .

القومية . هذه التشكيلات السياسية في مختلف صورها . ينتظمها روح واحد ، وفكر واحد ، وثقافة موحدة الجذور . هي الرابط المشترك الأعظم بينها ، مهما اختلفت أقطارها ودولها وأنظمتها ، وهي جميعا تستمد أصلاً من القرآن الذي يمنحها القالب الذي تتشكل فيه كل أقطارها ومفاهيمها وتطوراتها السياسية والاجتماعية والاقتصادية .

* * *

والإسلام هو جماع المثل العليا التي أمدت الحضارة البشرية في خلال ألف وأربعمائة عام بصياغة جديدة مميزة للقيم تجمع بين العقل والقلب والمادة والروح والدنيا والآخرة .

## ( البطل في تاريخ الاسلام )

وأبرز ما يتسم به تاريخ الاسلام وضوح وقائعه ، وملامح شخصياته ، وتفاصيل حياتها ، وضوحاً يكاد يكون كاملاً مع تعدد هؤلاء القادة في مختلف المجالات وتفاعلهم . فقد كان تاريخ الاسلام دوماً عملية تفاعل بين المجتمع والفرد الممتاز من بناة الدول ، أو قادة الفكر .

وإذا كانت حركة التاريخ تتمثل في أمور ثلاثة : « منهج وأحداث وأبطال » فإن البطل دائما هو المحرك الأساسي للأحداث ، والقادر على تحديد المنهج إذا انحرف المجتمع عن مفهومه الأصيل ، قد طفقت القوة الشعبية الإسلامية الجامعة قادرة على تخريج القادة والمجددين والمصلحين ، وهي التي قدمت نماذج حية ، متصلة لم تتوقف ، في مختلف المراحل ، وفي مختلف الوحدات ، والمجالات ، قادة ومفكرون ومصلحون ، كلهم يلتمسون قدوتهم من بطل الأبطال « محمد رسول الله » . صلى الله عليه وسلم ، ومن مفهوم « القرآن » . وقد أعطت هذه القوة الزاخرة ، الأبطال والمجددين في وقت الحاجة إليهم .

لقد ظلت صورة الرسول محمد نبي الإنسانية ، في مختلف شمائله وتصرفاته وحركاته وأعماله ، قدوة لكل قائد ومفكر وبناء من بناة الدول في تاريخ الإسلام كله ، لم تحجب هذه الصورة مطلقاً ولم يتخلف قائد أو مفكر دون النظر إليها ، والتماس الخبرة والقدوة ، كما ظلت صورة الرعيل الأول من الأبطال والأعلام مثلاً ومصدراً .

❊ ❊ ❊

تمثلت البطولة في ( ١ ) المجددين ، مصححي المفاهيم . ( ٢ ) الآمرين بالمعروف والناهين عن المنكر . ( ٣ ) علماء الرياضيات والفلك . ( ٤ ) بناة الدول .

كان البطل دائما هو قائد اليقظة ، ممثلا في بناة الدول ، وفي المفكرين ، وفي المصلحين . وهم جميعاً يستمدون قوتهم من المجتمع نفسه ، ويكونون استجابة لوجود الحاجة إليهم ، حين يلتمسها في قوة جديدة شابة ، ثم يبرز البطل بعد ذلك محققا للأهداف مستمدا قوته من أمل المجتمع وحاجته ، ثم لا يلبث أن يمضي خطوة أوسع ، فيقود الجماعة إلى مرحلة جديدة أكثر قوة وإيجابية .

وقد كان أبرز التحديات الداخلية التي واجهها الاسلام: « محاولة تحريف النص » أوالقضاء على مقوم من مقومات الإسلام . هذه المحاولات المنحرفة ، قد استطاع المصلحون والمجددون دوماً القضاء عليها ، وإبراز مفهوم الاسلام على حقيقته ، والكشف عن جوهر الاسلام وإعادته إلى مكانه الحق ، بعيداً عن التجزئة والانحراف والجمود ، شمولاً وتكاملاً وتوحيداً .

فقد أعاد المصلحون الفكر الإسلامي إلى الاتصال المباشر بجوهر الإسلام . بعد أن بلغوا متاهات الجدل في ظل غزو العقائد والمذاهب المختلفة ، وحرروا الإسلام من شكليات الصناعة والحرفة .

* * *

والحق أن تاريخ الإسلام في جميع مراحله ـ حتى في أشد عصوره تخلفاً وضعفاً ـ لم يخل من المصلحين الأحرار الذين كانوا يتوالون مرحلة بعد مرحلة ، فقد ظلت الجماعة الإسلامية قوية صلبة لم تتحطم ، وظلت تخرج القادة والمجددين والمصلحين ، وظل جوهر المجتمع الإسلامي حيًّا . نعم أعطت الجماعة الإسلامية هؤلاء الأبطال والمجددين وقت الحاجة إليهم .

* * *

وقد كان تاريخ الإسلام يمثل تطلعات المجتمع الإسلامي ومصالحه ، ممثلة في بطولة ، كان الأبطال الذين هم استجابة لمجتمعهم يدفعون هذا المجتمع إلى الأمام خطوة ، حتى ليمكن القول بأن موجات التاريخ الإسلامي كانت تمثل

اندفاعات متوالية لقوى ممتازة قائدة على طريق تحقيق حتمية الإسلام . والممتازون في تاريخ الإسلام كانوا استجابة لحاجات عصرهم ، توافوا إليه مع الضرورة التاريخية ، ثم كانوا من بعد دافعين إياه إلى الطريق الصحيح الذي يكون قد انحرف بالموجة السابقة لهم ، والحق أنه لا يمكن بدون القادة أن تكون الأحداث ذات فاعلية ، ولا يمكن تصور التاريخ بدون قادة . « والتاريخ باعتباره مجموعة حوادث ناتجة عن فعاليات البشر يزودنا بنتيجة علمية هامة هي : أن حوادث التاريخ ليست مستقلة عن إرادة البشر » .

كانت مهمة القائد في تاريخ الإسلام هي : دفع العجلة ، ذلك أن حركة التاريخ كانت تجري في مجال مفهوم الإسلام وأيديولوجيته وقيمه ، وأن قائداً مهما بلغت براعته أو ذكاؤه لم يكن يعمل إلا في إطار الإسلام .

والحق أن تاريخاً ما ، من تواريخ الأمم والأديان والحضارات لم يضع قادته وحكامه وملوكه على مائدة التشريح ، ولم يعرضهم للنقد ابتداءً من الخلفاء الراشدين أنفسهم كتاريخ الإسلام .

## حركة التاريخ الإسلامي

حركة التاريخ الإسلامي منذ فجره إلى اليوم ، حركة تقدمية متكاملة ، تتمثل فيها القدرة على الحركة والصمود ، والاستمرار ، وتعميق المجرى ، ومقاومة كل محاولة للتوقيف أو التعويق ، ويتمثل في تاريخه طابع القدرة على الانفتاح الدائم الواعي على الحضارات والثقافات ، وهو إذا ما توقف سياسيا بالغزو الخارجي من داخل عالم الإسلام ، شق له طريقاً في الأرض الجدباء ، وأضاف أمما جديدة تعتنقه وتؤمن به ، فهو حركة دائبة نحو التقدم والبناء ، وإشاعة الروح الإنساني . ومنذ أن ظهر الإسلام إلى اليوم ، وكل حدث عالمي مرتبط به على نحو من الأنحاء .

## غائية التاريخ الاسلامي

غائية التاريخ الاسلامي أنه منهج الغد للإنسانية . , فالإسلام دعوة إنسانية ايجابية قادرة على الحياة والتأثير في مجرى الزمن والأحداث وللحضارات ، في نظرة عالية متسقة الآفاق . وهي قادرة دوما على أن تقدم للبشرية الحل الإيجابي لازماتها وقضاياها ومشاكلها .

وغائية الإسلام في مجراه التاريخي هي الوصول إلى عموم الرسالة بحسبانه القوة الوحيدة القادرة على تحقيق الوحدة الإنسانية ، والعدل ، والمساواة ، والحرية .

# أبر ز ظواهر تاريخ الاسلام

**١ ـ المقاومة .**

أبرز مظاهر حركة التاريخ الإسلامي تتمثل في مقاومة القضاء عليه ، وشجب كل محاولات التآمر والانتقاض بالانتصار على القوى الغازية أوتذويبها في بوتقته .

وحركة المقاومة في تاريخ الإسلام تمثل جزءًا هاما في كيانه وطبيعته الأساسية ، ومنها يتمثل مفهوم الجهاد بوصفه : اليقظة والاستعداد الدائم المستمر في مواجهة العدو ، والمثل الأعلى في الجهاد : « الاستهانة بالموت والحرص عليه » . بحسبانه مصدراً للحياة « وإعداد القوة أساساً لإرهاب العدو لا لحربه » .

وقد عاش الإسلام تاريخه كله ، حياة مقاومة مستمرة لم تتوقف ، متصلاً بالأحداث والأزمات والمعضلات البشرية .

وقد قام الإسلام في مختلف أدواره على « التحدي ورد الفعل » متجها إلى تحقيق الوحدة الإنسانية على أساس العدل والايمان والحرية ، قادراً على إزاحة القوة المانعة من الوحدة ، أو من المفهوم الصحيح ، وكانت تعقب كل عملية خارجية مرحلة يقظة وقوة وتجمع واندفاعة نحو المقاومة .

**٢ ـ التفاعل .**

ومن مظاهر حركة التاريخ الإسلامي : قدرته على التفاعل المستمر . فهو في طريقه الطويل لم ينفصل عن التيار الإنساني ، وسار في الخط الايجابي المتفاعل المؤثر .

**٣ ـ تصحيح الانحراف .**

ومن ظواهر حركة التاريخ الإسلامي قدرته على تصحيح المجرى إذا انحرف ، فهو يعيش سلسلة متصلة من حركات التجديد والإصلاح ، وتصحيح المفاهيم . وقد كان فكر الإسلام قادراً ، ولا يزال ، أن يعدل بالمجتمع عن الطريق المنحرف إلى الطريق الصحيح ، وكلما وقفت موجة وتجمدت اندفعت

موجة أخرى إلى الأمام تحمل نفس الهدف بصورة أخرى .

٤ ـ الاستمرار .

ومن ظواهر تاريخ الإسلام القوية « الاستمرار » فلم يكن من الملفت للنظر قيام هذا المجتمع الضخم ، وهذه الحضارة الكبرى في هذا الوقت القصير . بل العبرة بقدرتها على البقاء والاستمرار والامتداد والتأصل ، ولولا هذه القوة القادرة لما استطاعت أن تصمد أمام حملات الغزو الخارجي التي استمرت تنتقض على عالم الإسلام ، ولكانت قادرة على تمزيق هذه الجماعة ، لولا صلابة مضمون الإسلام الذي حفظ لها قدرتها على الاستمرار . ولقد كان المجتمع الإسلامي قادراً بقوة فكره ووضوح مفاهيمه الأساسية على أن يرتفع على الضروريات التي كان يتعرض لها كالغزوات والكوارث ، واستطاع في إبان حركات الغزو أن يتجمع ويتوحد ويدفع من أعماقه قوى جديدة قادرة على أن تكون على مستوى المعركة ، وهو في مختلف أزماته لم تطل به فترة الوجوم والذهول ، وسرعان ما يستجمع نفسه ، ويتحدى الضربة ، ويقاوم بشدة ، ويتخلص من ركوده ويسترد حيويته .

٥ ـ الاتصال .

ولم تكن الوقائع في تاريخ الإسلام منفصلة إحداها عن الأخرى ، بل متصلة دوما ، لم يكن هناك انفصال بين الموجات المتوالية . بل كانت كل موجة استجابةلتحدسابق لها ، أو تحديا لمرحلة ضعف ، أو مدًّا لحالة جزر . لقد كان الحادث الواقع في تاريخ الإسلام استجابة لحادث سابق في سلسلة متصلة من التحديات والاستجابات .

٦ ـ وحدة الفكر .

ووحدة الفكر هي أبرز علامات حركة التاريخ .

قد انتظم مختلف وحدات التاريخ الإسلامي ودوراته وموجاته ، فكر واحد ، وثقافة واحدة ، هي الرابط المشترك الأعظم بينها مهما اختلفت أقطارها ودولها وأنظمتها ، هذا الفكر هو روح الجماعة ، والمحرك الأساسي ، والقالب الذي تتشكل فيه مختلف أفكارها ومفاهيمها وتطوراتها السياسية والاجتماعية

والاقتصادية ، ولعل أبرز ما يتمثل في الفكر الإسلامي والحضارة الإسلامية هو « الأصالة » فقد قاما على أسس جديدة لا صلة لها بالحضارة السريانية والفارسية أو اليونانية ، قوامها التوحيد والنبوة والمساواة والعدل .

٧ ـ التكامل .

طوابع الشمول والتكامل والوسطية والحركة والوحدة هي أبرز مظاهر حركة التاريخ الاسلامي ، فإذا بدت عملية تجزؤ قابلتها حركة تكامل ، وإذا برزت حركة تراخ قابلتها حركة يقظة . وقد ظلت عملية التجزؤ والتكامل في الفكر والتراخي واليقظة في المجتمع عمليتين مستمرتين لا تتوقفان . وحركات القوة والضعف ، التراخي واليقظة حركات طبيعية ، غير أن عامل الأزمة الحقيقي كان يتمثل دائما في الغزو الخارجي . وقد جاء دوماً نتيجة فقدان الوحدة والقوة واليقظة وحراسة الثغور والحركة مع الزمن والتطور مع الحضارة، وكل الأجزاء التي سقطت ، إنما سقطت بفعل « قوة خارجية » نتيجة التخلي عن القوة العسكرية والحربية ، وكان الانحلال الخلقي والاجتماعي في المجتمع عاملا قويا من عوامل الضعف والمقاومة والعجز عن الدفاع .

غير أن كل عملية غزو خارجية للاسلام كانت تتبعها عملية رد فعل وتحد حيث تبرز قوة جديدة شابة تحمل لواء اليقظة والوحدة والتجمع والاندفاع والمقاومة . وقد ظهر ذلك واضحاً في تاريخ الاسلام بظهور السلاجقة والأتابكة والأيوبيين ، والمماليك والبربر والعثمانيين .

# مفهوم التكامل

« التكامل » من أبرز طوابع تاريخ الإسلام :

وتاريخ الإسلام ـ شأن الإسلام نفسه ـ لا يُفهم إلا على أساس الشمول والتكامل . فهو وحدة متصلة الحلقات مهما تعددت جوانبه ، وهو « كل متصل » لا ينفصل أبدا مهما بدا من مظاهر التعدد والانقسام .

فالتاريخ السياسي ، والتاريخ العسكري ، والتاريخ الاقتصادي ، والتاريخ الاجتماعي ، والتاريخ الثقافي ، كل متكامل لا ينفصم أبداً مهما بدا الانفصال ظاهراً فيه . . كل جانب من هذه الجوانب يتصل بالآخر ، ويعتمد عليه اعتماداً تامًّا ، وهي جميعها تشكل الإطار العام للحضارة .

ولم تكن حركة التاريخ الإسلامي قاصرة على الأمة التي حملت لواءه ، ولا الدولة التي قامت باسمه ، ولكنه ذلك التيار الضخم الحي المتحرك المتدفق الذي يبرز من وراء كل ظواهر المجتمعات والحركات ، والثقافات والمذاهب . فالإسلام ليس هو الدين وحده ، ولكنه ذلك الطابع الذي يصوغ الحياة كلها فكراً وثقافة ومجتمعا ، ويعطيها مفهوما شاملاً متكاملا : قوامه الروح والمادة الفردية والجماعية والعقل والقلب .

والواقع أنه لا سبيل للنظر إلى تاريخ الإسلام إلا « كوحدة تامة » منذ بزوغ فجره إلى اليوم حيث تتمثل صورته شاملة كاملة في مجالين واسعين :

( أولا ) بناء الفكر ( ٢ ) بناء الحضارة .

وهما مجالان متكاملان لا ينفصلان ، فقد سار بناء الحضارة ، وتطور الفكر في خط واحد في مواجهة تحديات واضحة ، هي تحديات الجمود والانحراف ، ومقاومة القوى الخارجية والداخلية في آن . وتاريخ الإسلام بمثابة الإطار الواحد الذي تتكامل عناصره ، وتتسق فيه الوقائع والحقائق ، بحيث لا يمكن أن ننظر فيه إلى موقف أو حدث زمني نظرة منفصلة عن سابقتها أو ما بعدها ، كما لا يمكن أن ننظر إليه نظرة إقليمية جزئية . فهو متصل الحلقات والمراحل ، كل مرحلة تسلم إلى المرحلة التي تليها، وكل مرحلة متولدة من المرحلة السابقة لها ، وليس مصدر الخطأ في المواقف والوقائع الا ناتجاً من النظرة الزمنية أو الإقليمية الجزئية .

***

وتبدو مظاهر التكامل في تاريخ الإسلام في أمرين :

« كل موجة » من موجات اليقظة أظهرت قوة جديدة بدوية تولت مقاليد القيادة السياسية ، لم تتخلف قوة واحدة عن العمل ، جنساً كانت أو مذهباً : العرب ، الفرس ، السلاجقة ، البربر ، كذلك السنة والشيعة .

و « كل عاصمة » جاء عليها دور اليقظة والقوة : بغداد . قرطبة . القيروان . دمشق . فاس . القاهرة . حلب . أصفهان . غزنة . الري . بلخ . وكل عاصمة أخرجت علماء وقادة .

وكانت حركة التاريخ تتمثل في ظهور القوة في وحدة من وحدات عالم الإسلام ، في نفس الوقت الذي تظهر فيه مرحلة الضعف في وحدة أخرى ، ثم لا تلبث أن تضعف الوحدة القوية ، ويتجدد كيان الحضارة والمجتمع في الوحدة الضعيفة .

ومن أبرز مظاهر التكامل : أن تاريخ الإسلام كله حفل بالقوة والحركة ، وظهور الأعلام والمصلحين : ولم تكن عظمة الإسلام قاصرة على مطالعه الأولى وحدها . بل لقد ظلت مضطردة في تاريخه كله وفي كل مراحله ، وظل مفهوم الإسلام قادراً على الحركة طوال التاريخ ، وليس فقط الصف الأول ، ولا القادة الأول . ولا الرعيل الأول هو وحده الذي كان يمثل مفهوم الإسلام في المجتمع

والحكم ، ولكن على مدى العصور ، كانت تظهر الشخصية ذات الطابع الإسلامي في كل مجال ، مجال بناة الدول ، مجال الدعاة والأئمة والقادة .

ومن أبلغ مظاهر التكامل في تاريخ الإسلام أن قوة وحدها من قوى المجتمع لا تستطيع أن تمثل عصرها ، فلا يمكن أن يقال إن الفقهاء وحدهم أو الشعراء وحدهم ، هم صورة العصر ، ولكن القوى المختلفة كانت جميعها تتفاعل وتتحرك :

العلماء والأمراء ، والفقهاء ، والصوفية ، والشعراء .. الخ .

## سنن الضعف والقوة

تتمثل سنن الضعف والقوة في تاريخ الإسلام في الاقتراب أو الابتعاد عن قيمه الأساسية ، فلم يضعف الإسلام في مرحلة من مراحل تاريخه إلا حين تخلف مجتمعه عن مفاهيمه ، وانحرف نحو مفاهيم أخرى ، أو انحرف عن تكامل مفهوم الإسلام ووسطيته بالانحراف عن : القوة أوالوحدة أو الإيمان .

وتبدو سنن الضعف طبيعية في دورات التاريخ ، فكلما وقفت موجة وتجمدت وضعفت عن العمل اندفعت موجة أخرى إلى الأمام .

غير أن ظاهرة الغزو الخارجي الواضحة في تاريخ الإسلام من خلال حركات انقضاض شديدة ، فهي معزوة أساساً إلى التخلف عن مفهوم الإسلام نفسه من حيث الغفلة عن القوة ، أو تمزق الوحدة ، أو غلبة الترف والانحلال في المجتمع .

ولكن سرعان ما كان المسلمون يستردون حريتهم عندما يلتمسون قيمهم الأساسية ، فهي القادرة دوماً على إزاحة « القوة الغازية » ودحرها أو تصفيتها أو امتصاصها . وقد استطاع الإسلام على طول تاريخه ، ومازال قادراً على مقاومة كل قوة حاولت القضاء عليه أو السيطرة : ( الصليبيين ، التتار ، الفرنجة ، الاستعمار ) وكما قاوم كل قوة تحاول تغيير مفهومه أو صهره في مفاهيم فكر أو حضارة أخرى .

ففي الداخل حمى تطور الحركة الفكرية ودفعها إلى الأمام ، ووصلها بالحضارة والعصر ، وصحح كل انحراف طرأ عليها .

لقد ظل الإسلام يمد المجتمعات والحضارات في عالم الإسلام بطابعه ، وظل قوة قادرة حية على الحركة والتفاعل ، وظلت قيمه خلاقة بناءة متولدة قادرة على مواجهة التحدي والتغلب عليه .

أما نزعات التاريخ الاسلامي المحلية فهي أمور لابد منها في كل مجتمع حي ، إنها لم تكن تؤثر على خط السير الحضاري إلا مزقت عامل الوحدة ، ولم يكن ضعف المجتمع الإسلامي ، بعد قوة ، إلا ظاهرة طبيعية لكل مجتمع . غير أن فاعلية الإسلام وقدرته كانت دوماً قادرة على بعث الحياة في المجتمع الإسلامي بعد هبوطه وانحداره ، بالتماس مفهوم الإسلام مستمداً من القرآن .

ويتمثل في تاريخ الإسلام القدرة على الاستمرار ، والقدرة على تعميق مجرى الحياة . ومقاومة كل محاولة للتوقف .

وقد ظل جوهر المجتمع الإسلامي حيا بالرغم من مختلف وجوه الاضطراب والانحلال ، فاستطاع إخراج القادة والمصلحين والمجددين جيلاً بعد جيل ، وموجة بعد موجة . ومن هنا تتأكد الظاهرة التي يكشف عنها تاريخ الإسلام كله وهي : أنه لم يتخلف المسلمون عن الحضارة والقوة إلا حين تخلفوا عن التمسك بقيمهم ومفاهيمهم .

وقد ظل تاريخ الإسلام حافلاً باستمرار التجدد والتوسع ، فهو في كل يوم يكسب أرضا جديدة ، وفي نفس الوقت يتجدد بإقصاء عناصر الانحراف والتجزئة والزيوف عن معدنه والكشف عن جوهره الأصيل وقيمه الأساسية .

وقد تفوق المسلمون عندما استطاعوا « صهر » ثقافات الأمم وفلسفاتها في قوالب فكرهم ، وفي إطار التوحيد ، وانحدر المسلمون عندما استطاعت هذه الثقافات والفلسفات أن تسيطر على قيمهم الأساسية ، وتضعف فاعليتها .

وقد ظلت « المقومات الأساسية » ثابتة بالرغم من قدرة الفكر الإسلامي على الحركة ، ولا تزال هي العوامل الأكيدة في بناء النهضة ، فإذا انصرف عنها المسلمون انحدروا ودخلوا في مرحلة الأزمة والغزو الخارجي .

وهذه المقومات هي : « التوحيد ، الوحدة ، النبوة ، القوة ، الاجتهاد ، الإيمان ، الجهاد ، العدل ، الحرية » .

فالإسلام أساساً : دين وفكر وحضارة ، ومجتمع ، في منهج قوامه : عقيدة ومعاملات ، وأخلاق ، فالجتمع الإسلامي صيغ أساسا ، والدين جزء منه ، وقامت فيه القيم على أساس الالتقاء بين العقل والقلب ، والدنيا والآخرة ، والروح والمادة ، والجماعة والفردية ، فإذا تخلخل أساس من هذه الأسس حلت مرحلة « التخلف » ، وإذا التمست هذه المفاهيم بدأت مرحلة « اليقظة » .

## تحرك التاريخ في إطار الاسلام

كان المجتمع الاسلامي دوماً يتحرك مع التاريخ ، ولا يتحرك ضد التاريخ ، لأنه لم يحقق المثل الأعلى الذي رسمه الإسلام ، ومازال منطلقا إلى تحقيقه .

لقد تحرك المجتمع الإسلامي في إطار الإسلام ، ولكنه لم يطاول مفهوم الإسلام ، فالإسلام في ذاته مقومات أساسية كلية مرنة ، وليس خطوطاً محدودة مرسومة أو ثابتة . أو بالأحرى « ثابت الإطار متطور المضمون والمفهوم » تتمثل الصور في تعددها مشتقة منه ، دائرة في فلكه ، قريبة منه آنًا أو بعيدة آنًا آخر ، وهي بقدر اتصالها به والتماسها منه ، وأخذها عنه تكتب لها الحياة ، فإذا تخلفت وبعدت وتحللت بدا ضعفها وبدأ اضطرابها .

وقد كانت الدول والمجتمعات تتفاوت في اصطباغها به ، وفي تحركها في إطاره ، وهذا هو السر في بقاء الإسلام مع تغير الدول .

# « تاريخ الاسلام والتاريخ الانساني »

تاريخ الإسلام ـ لا شك ـ شطر من التاريخ الإنساني متصل به لا ينفصل عنه ، وإن كان له طابعه المتميز في منطقـه ومنطلقـه ومفهومـه . كما أن تاريخ الإسلام ، مادة أساسية وجزء أصيل من « تاريخ الإنسانية والعالم » فهو متفاعل مع هذا التاريخ مؤثر فيه ، حتى ليمكن أن يقال إن تاريخ الغرب كله منذ ظهور الإسلام هو تاريخ الصراع مع الإسلام . وهو متصل بالأمم والحضارات والثقافات مفتوح عليها ، يأخذ منها ويعطي ، ولقد ظل تاريخ الإسلام متصلاً بالتاريخ العالمي ، مؤثرا ومتأثرا ، وظلت النظرة إلى الإسلام من خلال العالم ، والنظرة إلى العالم من خلال الإسلام متصلة ، وإذا أمكن أن يقال إن هناك عالمين : عالم الإسلام ، وعالم الغرب ، أمكن القول بأن الصراع لم يتوقف بينهما منذ بزوغ الإسلام إلى اليوم ، وهو الصراع بين فكرين مختلفين أساساً . فقد كان الشرق منذ مطالع فجره ، وهو أرض النبوات والرسالات ، والإيمان بالله ، وكان الغرب أرض الفلسفات الحرة المنطلقة ، التي تؤمن بالصراع بين البشر وبين الآلهة ، فلما غزت المسيحية أوربا ظل مفهوم الغرب قائما على أصوله الأولى لم يتغير إلا قليلا . فهو لم يقبل المسيحية على سماحتها وبساطتها ، ولكنه أدخلها في إطار من وثنية اليونان ، وقوانين الرومان ، ثم بنى بها جميعاً حضارته الحديثة ، وظل على موقف الخصومة للإسلام ، يصارعه من بيزنطة ومن الأندلس ، ويغزوه بالحروب الصليبية ، ثم يطوق عالم الإسلام ، ويسيطر عليه بحركة الاستعمار الحديث ، والإسلام في خلال هذا التاريخ كله يقاوم الغزو

ويتمدد في أرض جديدة ، ويعمق رسالته في العقول والقلوب في حركة دائبة لم تتوقف ولم يزدها الصراع إلا قوة وصقلا .

ظل تاريخ عالم الإسلام رمزاً على الصمود في وجه الغـزو الخارجـي في حملاته المتصلة التي تحاول أن توقفه عن الانتشار ، وترده عن الامتداد . فهو لا يلبث أن يضعف تحت ضغط العدوان المسلح حتى يسترد قوته وأرضه ، ثم هو من الناحية الأخرى يتوسع ذاتيا ، ويضيف ملايين جديدة إلى معتنقيه دون حرب أو قتال .

وأما تاريخ فكر الإسـلام فقـد ظل قادراً على التجـدد ، معيداً لصياغـة مقوماته وفق روح العصر ، لا يتوقف عن الحياة والحركة ، وقد عجزت الحملات المتوالية عن القضاء على عالم الإسلام ، أو إضافته إلى الحضارة الغربية إضافة التابع .

كما عجزت حملات الغزو الفكري أن تحطم مقوماته ، أو تضيف إليها ما ليس منها ، أو تؤكد الشبهات أو الشكوك المثارة . بل على العكس من ذلك . كان هذا التحدي عاملاً هاما في تنقية العقيدة وتصحيح المفـاهيم والتماس القيم الأساسية للإسـلام ، مستمـدة من القـرآن ، قاضية على الانحرافـات والبـدع والجبرية ، مما أصاب الفكر الإسلامي في مرحلة الضعف . نعم استطاع الإسلام أن يصحح مفاهيمه وأن يبرز نقيا ، وأن يكشف عن جوهره ، قادراً على لقـاء مختلف تطورات الحضارة ودعـوات الفـكر على نحـو من الاستقـلال ووضـوح الشخصية ، والقـدرة القـادرة على الهضـم والإساغـة ، والاقتبـاس من مختلف الثقافات والحضارة بما تريده قوته وحيويته .

وقد واجه حملات الغزو العسكري ، في الشرق ، التتار ، والصليبيين في الشمال والفرنجة في الغرب ، ثم واجه حملة الاستعمار الحديث ، ومعها حملات التغريب والتبشير والشعوبية . وقد حاربت الإسلام قوى كبـرى ، ثم زالـت وانتهـت بزوال البرتغـاليين والأسبـان ، وانصهـر المغـول والتتـار وانحسر ظل بريطانيا وفرنسا .

ويمكن القول إن في تاريخ الإسلام اتجاهين أسـاسيين : اتجـاه الانتشـار والتوسع ، واتجاه التطبيق ، وتاريخ الإسلام لا يزال يمثل تاريخ الانتشار الذاتي بعد الانتشار في المرحلة الأولى بالتوسع . أما اتجاه التطبيق فلا يزال في مراحله الأولى .

فالمجتمع الإسلامي لم يستطع بعد أن يحقق مفهوم الإسلام كاملا في إطاره .

مفهوم الإسلام بالنسبة للأجناس والألوان هو المساواة التامة الصريحة . غير أن الموالي لم يجدوا تطبيقاً بهذا المفهوم ، وهذا سر ثورتهم ، وظهرت نزعة التفاضل بين الأجناس والصراع بينهم ، وهي مما لم يقره الإسلام .

ودعا الإسلام إلى العدل الاجتماعي . غير أن الطبقات الدنيا لم تجد طوال هذا التاريخ ما يحقق لها هذا العدل ، وظلت الطبقات الحاكمة بمعزل عن الشعوب ، ودعا الإسلام إلى الاعتدال ، غير أن الترف اجتاح الطبقات العليا ، مما نتج عنه رد فعل في ظهور مؤامرات الانتقاض وحركات الزهد والانعزال عن المجتمع ، أقول هذا وأنظر إلى العصور : الأموية ، والعباسية ، والعثمانية . وقد بدت بشائر التحول في اليقظة العربية الإسلامية الأخيرة .

## والخلاصة

( أولا حركة تاريخ الإسلام في مختلف مراحله ، تتجه نحو الحرية والعدل والتوحيد والمساواة . بهدف تحرير الانسان من ربقة الظلم والاستعباد ، وتحرير فكره من القيود والتقليد والمحاولات التي تريد أن تقصيه عن التوحيد والحرية والعدل .

( ثانيا ) عاش تاريخ الإسلام نظرية التحدي ورد الفعل في مجالين :

* مجال قيام بناة الدول ، ودعاة التجديد وقادة الحركات الإصلاحية كلما ضعفت القوى العاملة ، أو انحرف مجراها .

* في مواجهة كل حركة غزو خارجية حيث تظهر قوى جديدة قادرة على رد الغزو .

( ثالثا ) كانت حركة التاريخ الإسلامي دائرية لولبية ( تجمع بين الخط المستقيم والدائرة ) الخط المستقيم الذي يوحي بالتقدم إلى الأمام ، والدائرة التي توحي بالحركة اللولبية ومعناها حركة أمامية ، وحركة ورائية راجعة إلى الوراء قليلا من أجل التقدم إلى الأمام .

( رابعا ) التطور حركة تقدم وتراجع ، ونهضة ونكسة .

التاريخ الإسلامي كالكائن الاجتماعي له صفة أساسية هي قدرته على نزع الأعضاء الضعيفة في كيانه ، واستبدالها بأعضاء أقوى وفي دفع عوامل المرض والفناء .

( خامسا ) مقومات الإسلام هي عامل القوة في تاريخه .

التوحيد ، الوحدة ، القوة ، الاجتهاد ، الجهاد ، الإيمان ، العدل ،

الحرية ، فإذا ضعفت انحدر ، فإذا عاد إلى جوهر مفاهيمه دخل مرحلة القوة .

وبالجملة فإن تاريخ الاسلام :

( أولا ) قاوم القوى الداخلية المنحرفة .

( ثانيا ) واءم بين الفكر الإسلامي والتطور .

( ثالثا ) قاوم القوى الخارجية الغازية .

( رابعا ) صهر خصوم الإسلام في بوتقته .

( خامسا ) كسب أرضاً جديدة بعد مرحلة التوسع .

( سادسا ) دفع الحضارة البشرية إلى الأمام خلال ألف عام .

( سابعا ) أعطى المرحلة الأوربية من الحضارة « المنهج التجريبي » أساس العصر الحديث .

أنور الجندي

# أبرز وقائع تاريخ الاسلام .

هـ م

١ ـ ٦٢٢ الهجرة

١١ ـ ٦٣٢ وفاة النبي

١١ ـ الراشدون إلى ٤١/ ٦٦١م

٤١ ـ الدولة الأموية إلى ١٣٢/ ٧٤٩

١٣٣ ـ ٧٥٠ الدولة العباسية

٢٩٧ ـ ٩١٠ الدولة الفاطمية

٣٤٥ ـ ٩٥٦ الدولة السلجوقية

٣٤١ ـ ٩٥٢ الفاطميون في مصر

٤٨٣ ـ ١٠٩٠ دولة المرابطين

٥٤٥ ـ ١١٥٠ دولة الموحدين

٦٤٥ ـ ١٢٥٤ المماليك في مصر

٦٩٩ ـ ١٣٠٠ الدولة العثمانية

هـ م

١١٤ ـ ٧٣٢ بلاط الشهداء

٤٧٨ ـ ١٠٨٥ سقوط طليطلة

٤٧٩ ـ ١٠٨٦ الزلاقة ( هزيمة الأسبان )

٤٦٤ ـ ١٠٧١ موقعة ملاذ كرد

٤٩٣ ـ ١٠٩٩ الصليبيون في القدس

٥١٥ ـ ١١٧١ هزيمة فرنسا في دمياط

٥٤٢ ـ ١١٤٧ الحملة الصليبية الثانية

٥٨٦ ـ ١١٩٠ الحرب الصليبية الثالثة

٥٨٣ ـ ١١٨٧ حطين ( استعادة بيت المقدس )

٥٩٣ ـ ١١٩٦ معركة الأرك

٦٥٦ ـ ١٢٥٨ سقوط الخلافة في بغداد
٦٥٩ ـ ١٢٦٠ عين جالوت وهزيمة المغول
٦٩٠ ـ ١٢٩١ نهاية الحروب الصليبية
٨٥٧ ـ ١٣٥٤ العثمانيون يحتلون القسطنطينية
٨٩٨ ـ ١٤٩٢ سقوط غرناطة ونهاية الأندلس
١٠١٨ ـ ١٦٠٩ ترحيل المسلمين من الأندلس
١٢١٣ ـ ١٧٩٨ الحملة الفرنسية
١٢٤٦ ـ ١٨٣٠ احتلال الجزائر
١٢٩٩ ـ ١٨٨١ احتلال تونس
١٣٠٠ ـ ١٨٨٢ احتلال مصر
١٣٣٠ ـ ١٩١٢ احتلال طرابلس
١٣٣٦ ـ ١٩١٨ تقسيم الدولة العثمانية
١٣٤٣ ـ ١٩٢٤ نهاية الخلافة العثمانية

هـ م

١٣٩ ـ ٧٥٥ عبد الرحمن الداخل
٤٥٦ ـ ١٠٦٣ الب أرسلان
٥٠١ ـ ١١٠٧ محمد بن تومرت
٥٤١ ـ ١١٤٦ نور الدين زنكي
٥٦٢ ـ ١١٢١ صلاح الدين
٦٦٥ ـ ١٢٦٦ الظاهر بيبرس
٨٥٥ ـ ١٤٥١ محمد الفاتح
٩٠٨ ـ اسماعيل الصفوي
١١٥٣ ـ ١٧٤٠ محمد بن عبد الوهاب
١٢٢٠ ـ ١٨٠٥ محمد علي
١٢٥٩ ـ ١٨٤٣ محمد بن علي السنوسي
١٢٨٧ ـ ١٨٧٠ المهدي في السودان
١٢٩٣ ـ ١٨٧٦ السلطان عبد الحميد

# المصادر العامة (*)


محمد بن إسحاق : سيرة الرسول ................ ٧٦٧ هـ

ابن سعد : كتاب الطبقات الكبرى ........... ٨٤٤ هـ

ابن هشام : سيرة رسول الله ............ ٨٣٤ هـ

الطبري : تاريخ الأمم والملوك ............ ٩٢٣ هـ

ابن مسكويه : تجارب الأمم ............... ١٠٣٠ هـ

ابن الأثير : الكامل في التاريخ ............. ١٢٣٢ هـ

ابن كثير : البداية والنهاية ............... ١٣٧٢ هـ

المسعودي : مروج الذهب ............... ٩٥٦ هـ

البلاذري : فتوح البلدان ............... ٨٩٢ هـ

الذهبي : تاريخ دول الاسلام ............ ١٣٤٧ هـ

ابن خلدون : المقدمة . العبر والمبتدأ والخبر......... ١٤٠٦ هـ

المقريزي : كتاب السلوك لمعرفة الدول والملوك........ ١٤٤١ هـ

المقري : نفح الطيب في غصن الأندلس الرطيب..... ١٦٣١ هـ

ابن العربي : العواصم من القواصم : تحقيق وتعليق فخر الدين الخطيب

أبو الفداء : مختصر تاريخ البشر.............. ١٣٣١ هـ

ابن إياس : بدائع الزهور في وقائع الدهور......... ١٥٢٣ هـ

ابن تغرى بردى : النجوم الزاهرة.............. ١٤٦٩ هـ

المراكشي : المعجب في تلخيص أخبار المغرب.......... ١٢٢٤هـ

الهمداني : الاكليل.................. ٩٤٥ هـ

الدينوري : الأخبار الطوال.............. ٨٩٥ هـ

سبط بن الجوزي : مرآة الزمان.............. ١٢٥٦ هـ


---

* المراجع وردت في صلب البحث

# الموسوعة الإسلامية العربية

## ٦

# أخطاء المنهج الغربي الوافد

بقلم

أنور الجندي

دار الكتاب اللبناني - بيروت

دار الكتاب اللبناني
بيروت - لبنان
ص.ب ٣١٧٦ - برقيا (كتالبنان)
هاتف - ٢٥٧٤٧٠ - ٢٣٧٥٣٧
TELEX No 22865 K.T.L
LE BEIRUT

١٩٨٢

# وقائع البحث وآفاقه

صفحة

صفحة

- ١ -

بسم الله الرحمن الرحيم

# مدخل

## أصول منهج البحث بين النظرية والتطبيق

يطلق اسم « منهج البحث » في الغرب على ذلك الأسلوب المستحدث الذي يتخذ أساساً للبحث في مختلف قضايا الفكر والعلوم الطبيعية والرياضية والعلوم الانسانية ( النفس والاجتماع والتاريخ ) وقد تنقل الفكر الغربي بين منهجين من مناهج البحث . هما المنهج القائم على (الاستنباط) والمنهج القائم على (الاستقراء) . أما المنهج الأول فهو منهج أرسطو الذي يقوم على استخراج النتائج من مقدماتها القائمة . وهذا منهج قد نبذته أوربا منذ وقت بعيد . ومنذ وضع فرانسيس بيكون منهج ( الاستقراء ) القائم على التجربة .

ويقرر التاريخ أن هذا المنهج الذي وضعه فرنسيس بيكون هو المنهج الاسلامي الذي قدمه المسلمون والذي نقله بيكون عنهم ، وأعلن ذلك رسمياً في أكثر من وثيقة ثابتة . فقد كان الفكر اليوناني يقوم على منهج الاستنباط المستمد من القياس المنطقي والحكم الذهني ، وهذا هو ما رفضه الفكر الاسلامي في فجر ظهوره . حيث التمس أسلوباً مغايراً قوامه الممارسة العملية والتجريب .

ومن خلال التمرس العملي أخذ الفكر يكشف قصور مذهب أرسطو الذي

لا يهتم بالتجربة . ولقد كانت التجربة هي أساس المنهج الاسلامي . ومن حيث كان الفكر اليوناني يرى أن العلم يبدأ بالكلي"، وأن الجزئي ليس علماً، اتجه الفكر الاسلامي الى التجريب ، وبدأ من الجزئي حتى وصـل الى الكلي ، واتخذ التجارب وسيلة الى كشف الروابط بين الأشياء . وبذلـك تحققت النظرة الموضوعية الى الظواهر الطبيعية والاجتماعية على السواء .

وتقررت تماماً حقيقة أساسية هي أخذ اليونان بالقياس ، وأخـذ المسلمين بالتجربة . وقد عرفت أوربا المنهج التجريبي الاسلامي بعد قرون من مطلـع حضارتها الحديثة من كتابات علماء المسلمين واعتنقه من الأوربيين أولئـك الذين تعلموه عن المسلمين .

وقد أعلن روجر بيكون أنه إنما تلقى هذا المنهج عن المسلمين . ويعد روجر بيكون الأمـير الحقيقي للفكر الأوربي في القرن الثالث عشر ، لأنه أول من نادى بمهاجمة المنهج الأرسطي في أوربا وحمـل لواء الدعوة الى اصطناع منهج العرب .

وقد أوضح روجر بيكون قيمة المنهج العربي عندما قارن بين ثلاثة مناهج فقال : إن هناك طرقاً ثلاثة يمكن أن تؤدي الى المعرفة . وهي الأخذ بأقوال رجال الدين المسيحي اذا أمكن التحقق من صدقها بالعقل ، والاستدلال القياسي الذي مهما بدت نتائجه متحملة للصدق ، فلا قيمة له إلا اذا أمكن التحقق من صدق هذه النتائج بحسب الوقائع . وأخيراً تؤخذ التجربة . وهي تكفي نفسها بنفسها . فهي غير مشروطة بشرط ، ويريد بها التجربة العلمية على نحو ما بدأ العرب باستخدامها مع الاستعانة بالعلوم الرياضية .

* * *

وهكذا تحررت أوربا من منهـج الاستنباط الأرسطي اليوناني . والتمست منهج الاستقراء التجريبي الذي أخذه الفكر الغربي عن المسلمين .

- ٢ -

## مقوّمات منهج البحث

ما هي مقومات منهج البحث القائم على التجربة : « منهج الاستقراء » ؟
يقوم هذا المنهج على قواعد عامة :

**أولاً** – اذا أراد الباحث الكشف عن القانون الذي تخضع له طائفة معينة من الظواهر بدأ بملاحظة هذه الطائفة ملاحظة دقيقة . أو أجرى عليها تجاربه متى كانت طبيعته تسمح بذلك . وينتهي ذلك عادة الى تكوين فكرة عامة عن النظام الذي تخضع له هذه الظواهر في وجودها وتطورها . وتأثير بعضها ببعض . ويشترط أن تكون الملاحظة والتجربة موضوعيتين [١] .

**ثانياً** – يجب أن تكون كل من الملاحظة والتجربة خلواً من الهوى . فلا يتأثر الباحث بعاطفة خلقية أو دينية أو وطنية . أو بوجهة نظر فلسفية سبق له اعتناقها حتى تكون رؤية ما يرى حقيقية لا رؤية ما يخيل أنه يراه [٢] .

وليس معنى هذا أن يتجرد المرء من كل فكرة عقلية سابقة خاصة بالشيء الذي يلاحظه ، أو يجري عليه التجارب ، بل معناه أن

١ و ٢ – محمود محمد قاسم ( المنطق الحديث ومناهج البحث ) .

يكون حراً الى حدّ كبير تجـاه أفكاره السابقة ، ومعلوماته التي تلقاها من غيره . فـلا يتخذها عقيدة ، لا تقبل الجدل أو النقد أو التمحيص .

**ثالثاً** – يجب على الباحث أن يروض هواه ، وهذه المرونة جزء جوهري من حسن السياسة في العلوم ، كذلك يجب أن يتصف بقليـل من الاعتزاز بالنفس وكثير من الاحتقار للغرور . واذا كان من العسير أن يوفق الباحث بين هذه ( العواطف والآراء ) وبـين الحقائق التي تتعارض معها ، فلا بد من قهر عاطفته ، والتخلص من آرائه السابقة – مـا أمكن ذلـك – حتى يستطيع ملاحظة الأمور الانسانية الراهنة والماضية ملاحظة منزهة عن الهوى[1] .

**رابعاً** – لا بد للحقيقة العلمية أن تجيء مستقلة بقدر المستطاع عن قائلها . فلا يمازجها شيء من ميوله وأهوائه ونزعاته الذاتية ، وقيمه التي يقوم بها الأشياء من حيث خيرها أو شرها، وجمالها أو قبحها ، فليس لعـالم النفس مثـلاً حين يصف السلوك الانساني أن يقول عنه انه سلوك مستحب أو مستهجن . وليس للباحث العلمي أن يختار من الشواهد لبحثه ما يخدم رغبة في نفسه . أو ما يحقق له مثلاً على ما يتمناه ، بل العالم الحق هو من ينظر الى الواقع الخارجي المبحوث نظرة منزهة عن كل هذه الجوانب الذاتية .

فالعلم يحصر نفسه فيما هو موضوعي عام ، وليس له أدنى شأن بما هو ذاتي خاص، وتعريف الموضوعي هو ما تتساوى علاقته بمختلف الأفراد المشاهدين مهما اختلفت الزاوية التي يشاهدون منها[2] .

---

١ – دكتور محمود قاسم : المنطق الحديث ومناهج البحث .

٢ – دكتور زكي نجيب محمود : المنطق الوضعي .

**خامساً** – إن لكل موضوع طريقته العلميـــة التي تستمد من طبيعته ، فللعلم التجريبي منهجه . ولعلوم الانسانيات منهجها الخاص بها . فهناك منهج البحث في الرياضة . ومنهج البحث في العلوم . وهما يختلفان عن منهج العلوم الانسانية : كالأدب واللغة والتاريخ والاجتماع .

وإن اختلاف المناهج تبع لاختلاف العلوم والأبحاث[1] . وإن العـــلوم الاجتماعية بالذات ليست كحقائق العلوم الطبيعية . ذات طبيعة مطلقة[2] . وان كل العلوم الانسانية ترتبط بالبيئة ، وتتأثر بالتاريخ .

وان مفهوم المنهج العلمي الحديث : أنه علم قائم على قوانين عـــامة . منها التجربة والبحث والدليل والوثيقة . وتتمثل أصول البحث العلمي في الموضوعية ، وعدم ارتجال الأحكام . وحسن الاستدلال ، والتجرد من الهوى والميـــل الذاتيين النفعيين ، والتحرر من كل سلطان سوى سلطان الحقيقة .

وقد أطلق على منهج البحث اسم المنهج العلمي لقيـــامه على أصول علمية ومقررات موضوعية ، ولعدم ارتباطه بالأهواء والأوهام والظنون . ومعنى العلمية على الجملة هو قيام البرهان والنص الموثق .

* * *

في ضوء هذه الحقائق التي تمثل أصول المنهج العلمي للبحث نستطيع أن نحكم على ما بين أيدينا من ثمرات الفكر الغربي لنرى ، هل حقيقة ، قـــام هذا الفكر وأجريت هذه الأبحاث على ضوء المنهجية والموضوعية . وأنهـــا تحررت تماماً من سلطان الهوى ، والفرض والميل الذاتي والنفع الخاص .

إن مراجعة ما حمل الى اللغة العربية والفكر الاسلامي والثقافة العربية مما

---

١ – دكتور عبد الرحمن بدوي .

٢ – دكتور أحمد خليفة : منهج البحث .

أطلق عليه المنهج العلمي الوافد ، وثماره في الأدب والتاريخ والاجتماع والعقائد . تكشف بوضوح عن أن معطيات الفكر الغربي لم تطابق أصول هذا المنهج مطابقة كاملة . وإن كانت هناك أبحاث قامت على أساس صحيح ، ولكن أغلب الأبحاث التي نقلت إلينا خالفت هذه الأصول وانحرفت عنها . وأخطر النقط التي اختلفت فيها ثمرات الأبحاث عن أصول مناهج البحث كانت تلك التي سيطر عليها خطر تطبيق منهج العلوم الطبيعية والرياضية على المفاهيم الانسانية ، وهذه ظاهرة جديدة في الفكر الغربي اتسع نطاقها بعد أن استشرت الفلسفة المادية وسيطرت على مختلف الميادين ، وتمثلت في مدرسة العلوم الاجتماعية التي حاولت أن تخضع دراسات الانسان للمنهج التجريبي المطبق في مجالات العلوم المادية .

ولقد كشف البحث العلمي عن حقيقة لا محيص عنها ، هي أن منهج العلوم التجريبية لا يصلح للتطبيق في مجال الدراسات الانسانية . وهي نفس الحقيقة التي ترتبط بمفهوم أن العلوم التجريبية عامة عالمية مِلْكٌ للأمم جميعاً . بينما العلوم الانسانية مرتبطة بذاتية الأمة وخصائصها الاجتماعية والفكرية التي كونتها الثقافات والعقائد .

ومن حيث ان لكل بحث منهجاً علمياً . فإن المنهج العلمي للانسانيات ليس هو نفس منهج العلوم التجريبية . وقد أصبح مقرراً هذا الفصل الكامل بين المنهجين : —

يقول الدكتور أحمد خليفة : «إن العلوم الاجتماعية تختلف نوعاً عن الكيمياء والطبيعة في أنها لا تعمل تحت قوانين حاسمة تخضع للتجربة الدقيقة في المختبرات . بل إنها تتناول نحواً فريداً يعتمد على عوامل ليست كلها قابلة للعزل التجريبي . وان التجربة العلمية في المجتمع في ذاتها نوع من التصرف الانساني له صبغته الشخصية البعيدة عن الموضوعية التي يتطلبها العلم » وقد ارتفع صوت العلماء بالقول بأن « علينا أن نحذر من اعتبار الظاهرة الاجتماعية كالظاهرة الطبيعية خاضعة تماماً لنفس قواعد المنهج بغير تقدير لطبيعتها الخاصة » وبأن « المجتمع

ليس علماً محضاً . بل يعيش أيضاً بالانسانيات غـــير العلمية كالدين والأخلاق والفلسفة بكل ما يلابسها من القيم والمثل والآمال والانفعالات »[1] . ولما كان لهذه الظاهرة أهميتها الأساسية ، فقد تناولناها بالبحث في فصل مستقل .

ويرجع الالحاح على دراسة الانسان وفق مناهج البحث التجريبي المطبقة على الظواهر المادية الى أن الفلسفة المادية تعتبر الانسان « شيئاً مادياً » محضاً . وذلك وجه من أوجه الخلاف الكبرى بين المنهج العلمي الوافد . وبـــين المنهج العلمي الاسلامي . ومن العسير أن يكون مقبولاً أو معترفاً بـه في الفكر الاسلامي . حيث هو في الفكر الغربي نفسه صريـع مذهبين ومدرستين . فكيف يمكن أن يتقبله الفكر الاسلامي الذي يعتبر الانسان كياناً مادياً وروحياً معاً .

١ - دكتور أحمد خليفة : منهج البحث .

## - ٣ -

# منهج البحث في الإنسانيات

إن الخلاف بين الفكر الغربي والفكر الاسلامي حـــول منهج البحث في الانسانيات من أعمق العوامل التي تجعلنا ننظر بحذر الى المنهج العلمي الوافد . ونتعامل معه في حيطة بالغـــة نظراً الى الفوارق البعيدة التي تفرضها النظرة الغربية التي تحاول أن تعامل الانسان وقضاياه على النحو الذي تعامل به موضوعات العلم المادي .

ويعرض الدكتور توفيق الطويل لهذه القضية الفاصلة بين الفكرين على نحو مستفيض وعميق فيقول : « إن طبيعة موضوعات ( العلوم والانسانيات ) مختلفة متباينـــة . ومن ثم لزم أن تختلف المناهج التي تعالجها كما تختلف القوانين التي تنتهي اليها ، فقوانين العلوم الطبيعية دقيقة وعـــامة ، ولا تتقيد بزمان ولا مكان . أما العلوم الانسانية فتعوزها الدقة ولا يمكن جعلها عـــامة غير مقيدة بظروفها وأحوالها كما انه لا يمكن أن تبرأ من الحالات الاستثنائية »[١] .

ومن هنا فهي غير صالحة للعلوم الانسانية : ذلك أن العلوم الانسانية تحكمها عوامل أخرى تحول دون اصطناع المناهج التجريبية .

أولاً — إن حرية الإرادة البشرية تتدخل في الظواهر الانسانية وتتكفل بتغيير مجراها تغييراً قد يجعل من العسير اخضاعها لقانون علمي ثابت ، ومن

---

١ — عن بحث الدكتور توفيق الطويل بتصرف ( أسس الفلسفة ) .

هذا تيسر التنبؤ العلمي في مجال العلوم الطبيعية ، بمعنى أن تتكهن بالمعلومات متى أدركت عللها . وهذا غير ميسور في العلوم الانسانية على وجه الدقة . لأن سير ظواهره يمكن أن يغير مجراه بتدخل الإرادة البشرية ، وأحكام الناس تتأثر كثيراً بعوامل لا تتمشى مع منطق العقل . فتفسد على العقل ما كان يتوقعه .

**ثانياً** – إن التجربة تلعب دوراً رئيسياً في كشف القوانين الطبيعية . بينما يتعذر إجراء التجارب في مجال العلوم الانسانية إلا في نطاق ضيق محدود ، بحيث لا يكون من المعقول إقامة منهج البحث على أساسها .

**ثالثاً** – إن القوانين الطبيعية عامة صادقة في كل زمان ومكان ، أما مقررات العلوم الانسانية فتشير على عكس هذه القوانين الى ظروف شخصية تاريخية .

**رابعاً** – إن قوانين العلوم الانسانية (المزعومة) ليست موضوعية خالصة ، إذ أن الباحث في هذه المجالات لا يستطيع[1] أن يتجرد من أهوائه وميوله ومصالحه . وهو ينظر الى موضوعه الذي يتصل حتماً بالانسان من خلال عقيدته وثقافته وتقاليد وطنه ونحو هذا من عوامل تؤثر على نزاهته ، وتجعل بحثه ذاتياً أو متأثراً بالعوامل الذاتية ، على عكس الحال في العلوم الطبيعية ، فإن تحرر الباحث من الميل والهوى ميسور عند علاج موضوعاتها ومن هنا كان البحث العلمي موضوعياً وليس ذاتياً .

---

١ – إن المراجعة الصحيحة لمنهج العلوم الانسانية الذي يفترض محاكمتها الى المنهج التجريبي والعلم المادي وإطلاق ذلك على علوم النفس والاجتماع والأخلاق ، لم يقل به إلا جماعة الفلاسفة اليهود : ماركس ، فرويد ، ليفي بريل ، دوركايم . وقد كشفت الوثائق التي ظهرت أخيراً بعد ( بروتوكولات صهيون ) . بالترابط العميق بين هذه النظرة وبين المخططات التلمودية ( اقرأ في علم النفس . كتاب التراث اليهودي الفرويدي ) للدكتور صبري سلامة .

**خامساً** – إن الدقة في قوانين العلوم الطبيعية: مرجعها الى صورتها الرياضية، لأن من الميسور أن تقاس مقاديرها بالكمية ، أما العلوم الانسانية فيتعذر اخضاع موضوعاتها لهذا الضبط الكمي ويستحيل تصويرها بالمعادلات الرياضية الدقيقة . مما أدى ببعض العلماء الباحثين بالعلوم الانسانية الى القول بأن قوانين علومهم لا تكون قط عامة . لأنها لا تخلو من الحالات الاستثنائية التي لا تدخل في طبيعتها ( فيلكس كيفمان ) .

# تجربة علمي النفس والاجتماع

وقد عرض الباحثون لتجربة علم النفس والاجتماع مع المنهج التجريبي ، وأشاروا الى المراحل التي قطعها العلمان في سبيل التشبه بالعلوم الطبيعية ، وكيف أنه بالرغم من الأشواط الطويلة في هذا المجال فإنهما[1] « ما زالا يفتقران بحكم الموضوعات التي يعالجانها لبعض الخصائص التي تميز العلم بمعناه الضيق ، لأن العلم لا يستقيم بغير جبرية تجعل ظواهره ضرورية محتومة الوقوع ، وليست ممكنة تقع مصادفة واتفاقاً » .

ولما كانت الظاهرة الطبيعية تجري على نسق واحد ، فإنها تيسر لعالم الطبيعة أن يحدد سرعة سقوط الأجسام بمبادلات رياضية دقيقة . ويبدو أن الظواهر الانسانية لا تجري على هذا الغرار تماماً ، وأن الظاهرة النفسية غير الظاهرة الطبيعية ، تستثيرها وتتدخل في توجيهها عوامل كثيرة متشابكة ، يرتد بعضها الى حرية الفرد وخبراته والى الثقافة والاجتماع بوجه عام ، ويرجع بعضها الى البيئة التي تكتنفه وتؤثر فيه وتوجهه . وهذه العوامل من التداخل والتشابك بحيث يصعب حصرها ، وتحديد نصيب كل منها في توجيه الظاهرة التي يدرسها ، وتكفي حرية الفرد بتدخلها في مجرى الظاهرة ، مانعاً للتنبؤ بوقوعها ، أو اطراد حدوثها على نسق واحد ، فيتعذر بها وضع قانون عام له دقة القوانين الطبيعية .

إن الظاهرة النفسية أصلاً ذاتية . وليست موضوعية ، إنها تتصل بباطن

---

١ — نفس المصدر السابق .

النفس منعزلة أو مجتمعة بغيرهـــا ، فهي تتعرض لتدخل الإرادة البشرية التي تستطيع في كثير من المجالات تغيير مجراها فيتعذر التنبؤ بوقوعها على وجـــه دقيق . وتنتفي « الجبرية » التي هي طابع العلم وروحه .

إن الشعور بالفقر والحرمان والاخفاق قد يسلم صاحبه الى اليأس من الحياة أو الانتحار هرباً من مواجهتها ، وقد يؤدي الشعور نفسه عنـد فرد آخر الى التمسك بالأمل ومضاعفة العمـل لتغيير الظروف الكئيبة التي تكتنفه ، ومرد الأمر في الحـالين الى اختلاف هذين الفردين في مدى حظهما من سداد الفكر ، وسلامة الجسم وسعة الثقافة ، ونوع التربية ، وسائر المقومات الشخصية . وقريب من هذا يمكن أن يقال عن الظاهرة الاجتماعية ، إنها لا تخضع لمثـل الجبرية التي تخضع لها الظواهر الطبيعية . فالفقر ظاهرة اجتماعية قد تفرض على أفراد أحد المجتمعات الإقبال على الانتحار . بينما يتوافر هذا الفقر في بيئة أخرى تكاد تخلو من ظاهرة الانتحار . بل إن الفقر يختلف تأثيره في أفراد البيئة الواحدة ، يدفع أحدهم الى الإجرام بينما يدفع آخر الى الصلاح إيماناً بما قدر له الله من حظ ، أو استجابة لنوع سليم من التربية يؤدي الى الترحيب بمواجهة التبعات .

« فالظاهرة الاجتماعية معقدة أشد التعقيد ، ولا تضطرد على غرار واحد »

« يرى الاجتماعيون أن البطل في كل صورة مجرد معبر عن روح العصر الذي عاش فيه ، ولكنهم يفسرون ظهوره بأنه سبق معاصريه الى معرفة الطريق الذي يسلم الى تقدم مجتمعه . والأمر يبدو على غير هذا الوجه ، فالفرد متى كان زعيماً أو بطلاً أو مصلحاً له أثره الملحوظ في خلق ظواهر اجتماعية ما كان يمكن أن يكون لها وجود بغير ظهوره . وما دامت الظواهر الاجتماعية لا تجري على نسق واحد دائمـاً فإنه من المتعذر وضع قانون عام لتفسيرها .

وجمـــلة القول : إن « الظاهرة الانسانية نفسية واجتماعية » تختلف عن « الظاهرة الطبيعية » وهـــذا الفرق « هو أكبر العوامل التي تعوق العـلوم

الانسانية عن التقدم في وضع قوانين عامة تشبه في دقتها وصرامتها قوانين العلوم الطبيعية »[1] .

والظاهرة الاجتماعية : معقدة شديدة التعقيد ، ويبدو أنهـا لا تضطرد على غرار واحد . ومن هنا يكون : خطأ الظن بأن النـــاس كالقطيع الواحد في استجاباتهم، ونكران فضل النخبة والزعمـاء والمتفوقين . ويرى الاجتماعيون أن البطل في كل صورة مجرد معبر عن روح العصر فيه ، ولكن الواقع « أن الفرد متى كان زعيماً أو مصلحاً أو بطلاً له أثره الملحوظ في خلق ظواهر اجتماعية ما كان يمكن أن يكون لها وجود بغير ظهوره . وما دامت الظواهر الاجتماعية لا تجري على نسق واحد دواماً . فإنه من المتعذر وضع قانون عام لتفسيرها » .

وجمـــلة القول ان قوانين العلوم الطبيعية : تعتبر اليوم قوانين احتمالية أو ترجيحية ، أما قوانين الرياضة فهي وحدها القوانين التقيينية ، أما قوانين العلوم الانسانية فلا توصف بأنها قوانين بالمعنى الدقيق ، وإنما هي مجرد تعميمات يكثر فيها الاستثناء ، ولا تخلو من كثير من التعسف ، وهذا مـا يجعل الفرق شاسعاً بينها وبين القوانين العامة التي تبرأ من كل استثناء .

---

١ – نفس المصدر السابق .

- ٣ -

ولا ريب أن هذا هو أخطر خلاف جذري بين منهج البحث الاسلامي وبين منهج البحث الغربي . ومن هنا كان اتجاه الفكر الاسلامي الى التماس منهج خاص لدراسة مفاهيم النفس والاجتماع والأخلاق أقرب الى العلم والفطرة من ذلك الاتجاه المادي . يقول الدكتور محمد أحمد الغمراوي : انه اذا كان العلم قد اكتشف سنن الله الفطرية في المادة ، فإن عليه أن يهتدي الى سنن الله في الانسان وفي المجتمع ، لقد تحقق الكشف عن سنن الفطرة في المادة وبقي أن تكتشف سنن الفطرة في الروح ، روح الفرد وروح الجماعة . وان كتاب الله فاطر الفطرة يخبر بما جهلته الفلسفة . ولم يدركه العلم . ويقول : ان الاتجاه الى منهج البحث المادّي في التماس مفهوم الانسان وما يتصل به من مفاهيم سوف لا يؤدي إلا إلى التمزق والضياع . وان لمفاهيم الانسانيات منهجاً آخر لا يقوم على المفهوم المادي وحده . ولكنه يعتمد أساساً على الوحي والكتاب ورسالات الأنبياء والإيمان بالله والبعث وعالم الغيب .

- ٤ -

## « منهج البحث الغربي » ليس عاماً ولا عالمياً

هناك محاولة من أتباع الفكر الغربي تستهدف الى تقرير فكرة أن منهج البحث العلمي الغربي ، هو منهج عام يصلح للتطبيق على الفكر العالمي كله . وقد تقرر هذا الافتراض على أساس أن الحضارة الغربية تسيطر على العالم كله ، وأن الفكر الغربي بعالميته يستطيع أن يحتوي الفكر البشري كله . ومن الحق أن منهج البحث الغربي ليس له الصلاحية الحقيقة ليكون عاماً أو عالمياً لأسباب كثيرة تحول بينه وبين ذلك . وأنه في أصوله ومقرراته الأساسية يختلف اختلافاً جذرياً عن منهج البحث الاسلامي ولا يلتقي معه كما أنه يختلف اختلافاً أساسياً مع القيم الانسانية التي تقوم على الفطرة والإيمان بالوحدة البشرية .

**أولاً** — الاستعلاء بالعنصر . ذلك أن هذا المذهب يصدر عن روح الغرب ، التي تمثل الاستعلاء بالجنس والنظر الى الشعوب غير البيضاء ، وشعوب إفريقيا وآسيا نظرة لا توازي النظرة الى أوربا والجنس الأبيض . وهي نظرة تقوم على تاريخ أوربا ، والتي تعتقد — عن غير حق من التاريخ أو المنهج العلمي الأصيل — بوجود حضارة واحدة هي الحضارة الغربية وليدة الحضارة الاغريقية ، وهي نظرة متعصبة ترى ظلماً أن الحضارة الاسلامية كانت جزءاً منها . ومن خلال نظرة التفوق العنصري والسيطرة الاستعمارية على العالم الاسلامي تصطبغ النظرة الى هذا العالم الاسلامي وفكره بصبغة فيها شيء غير قليل من الانتقاص. ذلك أن التفوق الغربي الذي كفل له السيطرة على عالم الاسلام قد أراد أن يبرر

نفسه بالاستعمار والبقاء بمحاولة لغض قيم الاسلام التي يدين بها العالم الاسلامي من أجل القول بأحقيته في حمل رسالة تمدين الشعوب ، ومن هنا كانت تلك الفلسفة الاستعمارية التي طرحها الغرب في مجال الحضارة والفكر بالقول بأن الاسلام هو مصدر تأخير المسلمين والعرب . أو القول بأن تخلف بعض الأمم ناتج عن خصائص تتصل بالجنس أو الدم أو العرق . وهذه كلها ليست إلا « افتراضات » دفعت إليها محاولة تبرير الاستعمار . ولم تصدق أمام النظرة العلمية الأصيلة . ومن هذا أيضاً الادعاء بأن العصور الوسطى كانت عصوراً مظلمة في العالم كله . بينما كانت في الحقيقة عصوراً مظلمة بالنسبة لأوربا . وعصوراً مضيئة في آسيا وأفريقيا . وحيث امتد الاسلام خلال ألف عام .

ولا ريب أن هذا المفهوم الغربي كان منطلقاً لمنهج البحث العلمي الغربي في كل مقرراته التاريخية والاجتماعية والحضارية . ومن هنا فقد عجز أن يكون منهجاً إنسانياً أو عالمياً صالحاً للتطبيق على مختلف الحضارات والثقافات .

**ثانياً – النظرة التي يحكمها الدين أو السياسة :** ونحن حين ننظر في مناهج البحث في مجال الأدب أو التاريخ أو الحضارة أو الاجتماع بفروعه ( النفس والأخلاق والمجتمع ) نجد أن هذا النتاج المطروح لم تحكمه روح البحث العلمي الأصيلة إلا في القليل منه .

فالكتاب الغربيون على وجه العموم تحكمهم عقدة التفوق التي تجعلهم ينظرون الى البشرية . فيرون أن الجنس الأبيض أكثر تقدماً بحكم طبيعته . وأن الأوربيين مقدمون على الشعوب بل وممدنون لها أيضاً ، من هنا فهم يصدرون في كل ما يكتبون عن هذا الاتجاه . وهو اتجاه غير صادق أصلاً ، وله أثره في تزييف الحقيقة والانحراف بها . ومن هنا فإن المؤرخين من أمثال ( توينبي ) تحكمهم نزعة الاستعلاء بأوربا وحضارتها وسيطرتها على العالم الثالث ، كما تحكمهم فكرة إعلاء العقيدة الدينية التي يؤمنون بها في مواجهة الأديان الأخرى .

ومن هنا فإن حكمهم على الأمم الشرقية فيه شيء غير قليل من الانحراف . وكذلك حكمهم على الأديان .

ومثل هذا يبرز في اتجاه كاتب أو مؤرخ مثل لودفنج، أو شبنجلر. فإن غلبة الإيمان بالعنصرية اليهودية تؤثر تأثيراً كبيراً في حكمه على الاسلام وعلى العرب . ويتجلى هذا واضحاً في كتابات ماركس . ورودنسون . وجاك بيرك ، اتصالاً بمذهب أو آخر من مذاهب التفسير المادي للتاريخ أو المدرسة الاجتماعية الفرنسية فهو يكون رأيهم في الاسلام وفي العرب وفي حضارتهم وتاريخهم .

★ ★ ★

وفي مجال الاستشراق يبدو الموقف أشد تعقيداً — فالمستشرقون المسيحيون . اما متصلون بدوائر الكنيسة أو دوائر الاستعمار . فالأولون يخضعون لوجهة النظر المسيحية الغربية التي يكون لها اثرها وتحدياتها في مواجهة الفكر الاسلامي والقرآن .

أما الآخرون فإن اتصالهم بدوائر الاستعمار يحكم موقفهم بالنسبة للعرب وحضارتهم ولغتهم وهكذا . وهناك مستشرقون يهود لهم أمانتهم للتلمود وبروتوكولات صهيون ولكل فكر يرتبط بإسرائيل ونبوءة الميعاد . ومن هنا فإن ذلك يؤثر في مفهومهم عن العروبة والقرآن ورسالة الاسلام مما يتعارض تعارضاً كاملاً مع مفاهيم الفكر الاسلامي . وتستطيع أن تقسم الكتاب الغربيين الى : أوربيين يستعلون بالجنس الأبيض والحضارة الحديثة على الملونين ومنهم العرب والمسلمون، أو مسيحيين تابعين للكنيسة أو دوائر الاستعمار الغربي أو يهود يدينون للتلمود والبروتوكولات .

ومن هنا فإن أحكام كتاب الغرب في الأغلب كلها لا تستطيع أن تحتفظ بأمانتها لأصول المنهج العلمي في البحث دون أن تتأثر بالأهواء أو العنصر أو الدين أو الاستعلاء الحضاري .

والكتاب الغربيون في الغالب يعملون في مجالين : ( أولاً ) مجال الدراسات الانسانية . ( ثانياً ) مجال التاريخ العام والدراسات الاسلامية .

أما المجال الأول : مجال الدراسات الانسانية . وهو مجال عام . فإن منهج البحث فيه يتأثر بالنظرية التي تحاول أن تحاكم الدراسات الانسانية الى منهج التجريب المادي . وذلك أخطر مقاتل هذه الدراسات .

أما المجال الثاني : فإنه في دراسات التاريخ العام تحكمه نظرية اعتبار تاريخ أوربا هو تاريخ العالم . وأن الجنس الأبيض سيد الأجناس .

أما في مجال الدراسات الاسلامية فإن الأمر يختلف تماماً . وتسيطر عليه روح أخرى من التعصب والهوى والانحراف بحيث لا يمكن إخضاعه لروح البحث العلمي الصحيح . ذلك أن العاملين في هذا المجال وأغلبهم من المستشرقين هم بحكم عملهم مرتبطون بمؤسسة الكنيسة أو بمؤسسة الاستعمار . أما القلة القليلة من الباحثين في تاريخ الاسلام بإنصاف من أمثال ( توماس كارليل ، وجوستاف لوبون ، وسيجريد هونكه ) فإنهم في الغالب تنقصهم القدرة على اكتناه بلاغة القرآن ، أو فهم روح الاسلام نتيجة ارتباطهم بمفاهيم دينهم ولغاتهم وفكرهم وميراثم الطويل الممتد الى الفلسفة اليونانية . وهذا ما يجعل نظرتهم الى الفكر الاسلامي قاصرة كليلة ، ويجعل كتاباتهم تحتاج الى تصحيح وتصويب .

وأغلب أخطاء هؤلاء تتصل بالنظرة الى الوحي والنبوة والألوهية ، وربانية المصدر القرآني مما يختلف تماماً عن مفاهيم الفكر اللاهوتي الغربي التي تعرف أن الانجيل هو من كتابات الرسل . وأن هناك اختلاطاً بين الألوهية والنبوة ، الى غير ذلك .

**ثالثاً** ــ مذهب الشك : من أخطر المذاهب التي اعتنقها المنهج العلمي الغربي في البحث : مذهب الشك على النحو الذي أقامه من خلال المفهوم المادي الخالص . أو مفهوم التوقف به عند ( اللاأدرية ) الغامضة . فقد كان للمذهب

المادي أثره في ظهور موجة الشك وتفشيها في الفكر الغربي كله، ومذهب الشك يتصل بالفكر اذا أسقط من حسابه عامل الدين ، وهو ميراث قديم للفكر اليوناني ، جاء نتيجة إعلاء شأن العقل وحده ، مع عجز العقل عن أن يقول الكلمة الأخيرة في أدق الأمور وأخطرها أثراً في النفس الانسانية . ومن هنا ظهر طابع التردد والحيرة .

ويروي فيدون زعيم الشكاك اليوناني ( ٣٦٥ ق. م ) أنه ليس هناك قبول أو رفض قاطع في أمر من الأمور فهو يعلن الحكم ويرى أن الأشياء مظاهر لا يدري حقائقها . ومن هنا فهو يدعو الى الوقوف على الحياد دون مبالاة بشيء ، ويعرف الجرجاني الشك بأنه التردد بين النقيضين بلا ترجيح لأحدهما على الآخر ( وذلك هو اللاأدرية عند فيدون ) ، وقيل الشك ما استوى فيه الطرفان . ويقول الجويني : الشك ما استوى فيه اعتقادان . ومن ثم فهناك ثلاث حالات : اللاأدرية ، وتعليق الحكم ، والطمأنينة . والفكر الاسلامي يقوم على اليقين والإيمان والطمأنينة فلا يعلق الحكم ولا يقول باللاأدرية ، لأنه يدري وقد رسم له القرآن منهجاً كاملاً للميتافيزقيا ( عالم الغيب ) يثق به ثقة كاملة . ويؤمن به إيماناً عميقاً . ومن ثم فهو لا يتعرض لأزمة الشك أو اللاأدرية .

ولا ريب أن منهج الشك أو اللاأدرية أو تعليق الحكم وعدم المبالاة ، ليس من مذاهب الإيجاب والثقة . وهو من عوامل الهدم والتحطيم للشخصية الانسانية وللحياة ، ولا ريب أن اللاأدرية تحول دون التقدم والبناء والسعي الى الكمال . فهي ظاهرة من ظواهر التوقف والتخلف .

ولا ريب أن السكون هو الموت ، ولا بد للانسان أن يختار موقفاً وأن يحسم أمره .

وقد ورث الفكر الغربي ظاهرة الشك واللاأدرية من الفكر اليوناني على هذا النحو الذي يعلق الأشياء ولا يحكم فيها ، وهو مفهوم يختلف عن مفهوم الشك في سبيل الوصول الى الحقيقة والكشف عن قوانين العلوم . وتنبعث ظاهرة الشك

واللاأدرية من الوقوف عند انتظار الدليل الذي يقدمه العقل البشري ، دون تقدير لحجم العقل ومهمته ومجال قدرته الحقيقي ، وتجاهل الحقيقة المقررة ، التي تقول ان العقل ليس وحده أداة المعرفة . وانه ربما كان أداة صالحة في مجال التجريب . ولكنه يحتاج الى ضوء يسير في هداه اذا ما حاول البحث في مجال الغيب . وهذا الضوء هو الوحي .

فالإيمان بالله في دائرة الدين الحق ، تكفل تقديم منهج المعرفة الكامل الذي يكون العقل فيه واحداً من أدوات كثيرة تكفل تحقيق اليقين . وليس كل ما في الحياة يمكن أن يدرس عن طريق العقل أو الحواس ، وهناك قيم أساسية في الحياة لا يستطيع العقل أن يكشف عن دليلها وأن يبرهن عليه .

وان المذهب المادي وحده يعجز عن تفسير الوجود . وكذلك المذهب الروحي وحده لا يستطيع أن يصل الى الحقيقة ، ولكن المنهج المتكامل الذي رسمه القرآن رابطاً بين العقل والحواس والوحي والنظر في الكون والتفكر والتدبر ، كل هذه العوامل مجتمعة . هي أساس المنهج الذي يحقق اليقين ويدفع الانسان في الحياة قادراً على الحركة والبناء . ويصدق في هذا القول بأن الانسان عاجز بمفرده عن تحقيق اليقين والإيمان واصدار الحكم السليم . وانه في حاجة الى وحي علوي ليصل الى المعرفة بوجود الله . ويحجب هذه المعرفة كثير من الاعتقادات المضللة . ومنها فكرة وحدة الوجود التي تقول بأن الله والعالم شيء واحد ، وهي فكرة مادية الأصل ، ومفهوم الاسلام أن الله سبحانه مستقل عن الكون ، خالق له ، متصرف فيه ، يمسكه لحظة بعد أخرى .

- ٢ -

ولقد وسع موجة الشك في الفكر الغربي مـــا ذهب اليه الدارونيون والتطوريون والفرويديون من أن الانسان حيوان تنطبق عليه النظريات والتجارب التي أجريت على الحيوان . وقد بلغ الشك غايته عند ما أعلن فرويد أن الانسان يتصرف من خلال غريزته . وأن الجنس هو العامل الأول الموجه له . ولو أن هذه النظرية قد دحضت وزيفها زمــــلاء فرويد نفسه . ولكنها استطارت في أجواء الفكر وخضعت لها مناهج الأدب والنفس والاخلاق والاجتماع . وكذلك كان للمدرسة الاجتماعية أثرها في ارتفاع موجة الشك وتوسعها ، فقد أنكرت مسؤولية الفرد ومكانته . وأقامت قواعدها على أساس أن الجماعة وحدها هي مصدر القيم .

والتفسير المادي للتاريخ في مجال السياسة والاقتصاد كان يعيد الأثر أيضاً في إعلاء شأن الشك ، فقد أقام تفسيرات الحياة على أساس الإنتاج والمادة ، وأنكر المثل العليا والقيم الدينية والروحية . وأقام أساس الصراع في الحياة على المنافسة في المادة واحتكارها . وتتمثل هذه التحديات كلها في مفهوم واحد هو : محاولة خلق إحساس نفسي وفكري بأن الإنسان محكوم بجبرية قاسية ، وأن الانسان مسيّر أمام جملة من العوامل لا فكاك له منها . وأن إرادته ليست منطلقة على النحو الذي يجعله مسؤولاً ومحاسباً على تصرفاته .

ولا ريب أن هذا الأثر العميق الدفين الذي تحاول أن تفرضه على الفكر

الغربي وعلى الذهن البشري نظريات الفلسفة المادية . والفرويدية ، والماركسية ، إنما يستمد أساسه من الأيدلوجية التلمودية . وهذا المفهوم يختلف اختلافاً أساسياً وجذرياً عن مفهوم الفكر الاسلامي الذي يقرر أن الانسان حُرّ الإرادة ، وأنه مسؤول مسؤولية كاملة عن عمله وتصرفه ، فضلاً عن أحكام الرابطة التي يقررها الاسلام بين العقيدة والسلوك ، وهو ما سعى علم النفس الى تمزيقها والمباعدة بين شطريها .

وحيث يجعل الإسلام من القيم الأساسية أصولاً ثابتة ، ويقيم مثلاً أعلى مستقراً ، ويجعل من الأخلاق ركائز ثابتة مرتبطة بالانسان لا تتغير مع اختلاف البيئات والعصور ، تجيء مناهج علم النفس ومناهج العلوم الاجتماعية ، فتحاول أن تشكك في ذلك كله وأن تحطمه .

يقول الاستاذ أحمد خاكي : لما طغى علم النفس طافت بالنفوس الشكوك . ومن العبث أن نهتدي بعلم النفس في سيرنا الى المثل الأعلى . فعلماء النفس يصفون حالات الجماعة ونفسية الجماهير بما يحكمها من عقلية الرعاع وبما يشينها من العقل الباطن غير المفكر ، وكان حقيقاً بأن يدفع العالم الى الشك . وأن يزعزع إيمان الناس في سمو المثل الأعلى . ويقول « حينما أبديت أصول علم النفس بما حملته من مباحث التحليل النفسي وما تضمنته من وصف نفسية الجماعة . وما فرقت به بين العقل الواعي والعقل الباطن ، تطرق الشك الى قيمة الفكرة ، وأصبح الناس لا يرون للعقيدة نفس السلطان الذي كان لها فيما مضى ، ووصل العلماء الى أن الفكرة شيء ، والعمل شيء آخر . ويرجع ذلك الى أن علم النفس الحديث يرى أن الانسان مسيّر أمام جملة من العوامل التي لا يحكمها العقل . بل هي مؤثرات ودوافع تدفع الانسان الى أعمال أكثرها قد تحرر من سلطان التفكير القويم . إنما يسير الانسان عند هؤلاء : الرغبة والعاطفة والمزاج ، قبل الفكرة أو العقل .

فقد كانت فلسفة الأخلاق تؤمن بأن لكل فكرة نهجاً تنتهجه ، فهي لا

تنتهي عند مجرد التفكير ، وإنما تمتد الى العمل والتنفيذ . فالفكرة لها شطران : عقل وسلوك ، ولا يكون لها أثر خلقي حتى تنقلب الى هذا السلوك . ولكن علم النفس حل في تاريخ الفكر الحديث محل علم الأخلاق . فباعد ما بين شطري الفكرة . وعالج الإحساس الضئيل مجرداً عن العمل وباين ما بين العقيدة والسلوك .

وعلم النفس غير قادر على أن يخلق مثلاً أعلى لأنه غير قادر على تثبيت قيم الأشياء ، لأنه علم وضعي يسير في نطاق ضيق من التجارب . ولما طغى علم النفس على علم الأخلاق طافت بالنفس الشكوك » .

## - ٣ -

أما الاسلام فيقف من قضية الارادة موقفاً واضحاً صريحاً ، فلا يؤمن الاسلام بالجبرية التي تقول إن الانسان ليست له إرادة وأنه مسيّر غير مخيّر . أو أن الوسيلة المادية هي التي ترسم الطور الاقتصادي ثم الواقع الاجتماعي [١] .

ومن هنا فإن كل المذاهب التي تحاول أن يحجز الانسان في نطاق الجبرية تتنافى مع الارادة الانسانية التي تشيع الالتزام الاخلاقي والجزاء الأخروي .

**رابعاً** – الانشطارية وتجزئة المفاهيم : إن من أبرز خصائص الفكر الغربي التي تحول بينه وبين القدرة على أن يكون فكراً عالمياً إنسانياً ، هو تجزئة المفاهيم أو الانشطارية . ذلك أن طبيعة الفكر الغربي تتمثل في تجزئة الأمور لا في تكاملها . فهي تفصل بين الأشياء فصل التعارض والمخالفة ، وهو استمداداً من طبيعته أو مزاجه يستحيل عليه تقبل المواءمة أو التوازن أو التكامل على النحو الذي هو طبيعـــة أساسية للفكر الاسلامي ، فهو يقبل العلم ويرفض الدين ، ويقبل المادة ويرفض الروح ، ويقرّ المحسوس ويرفض الغيبيات . بينما يقف الفكر الاسلامي على قاعدة أرحب ويتحرك في أفق أوسع ، حيث يزاوج ويوازن ويربط في دقّة وإحكام بين القيم التي تتلاقى بحكم أنها تشكل طبيعة الانسان نفسه .

---

١ – من بحث للدكتور عماد الدين خليل .

أما الفكر الغربي فإنه يعجز عن هذا التكامل ، ويعجب لإمكان تلاقي الروح والمادة والنفس والجسم ذلك لأنه في أعمق أعماقه يقوم على أساس الفصل بين القيم . بل والنظر اليها نظرة التعارض والخصومة والصراع . ولقد حـــاول الفكر الوثني القديم أن يقيم صراعاً بين الجسم والروح . فلما جاء الاسلام ألغى هذه الفكرة ودحضها وأعلن أن الجسم والروح متكاملان . وبذلك أسقط مفهوم الرهبانية القائمـــة على الرياضة العنيفة وتدمير الجسد من أجل تحقيق الصفاء الروحي . ونظر الى الانسان نظرة متكاملة : قوامها الروح والجسد معاً . وجعلهما معاً موضع التكريم ، ودعا الى الاهتمام بالطهارة الحسية والنظافة والزينة — وكذلك جمع الفكر الاسلامي بين « الفردية والجماعية » بينما انقسم الفكر الغربي الى قسمين بينهما صراع شديد وقف أحدهما عند الفردية . ووقف آخر عند الجماعية . أما الاسلام فقال : إن الفرد للمجتمع والمجتمع للفرد .

(٢)

ويتصل بهذا أن الفكر الغربي يركز على الجزئيات والفروع . ويفصل بين العلوم فصلاً تامًّا تحت اسم التخصص ، واليوم يدرس علم الانتروبولوجيا مستقلاً عن علم الاجتماع ، وعلم النفس مستقلاً عن علم الأخلاق ، وعلم السياسة مستقلاً عن علم الاقتصاد ، مع أن هذه العلوم تلتقي كلها حول كيان واحد هو الانسان .

ومن شأن هذه التجزئة أن توجد التضارب فتحدث بعض التجاوزات الخطيرة في ناحية على حساب النواحي الأخرى . ولقد دعا كثير من الباحثين الى ضرورة تحطيم العزلة بين العلوم الاجتماعية ، ولكن قوى كبرى ترى ضرورة الفصل وتعمقه ، وتجعل لها وحدها القدرة على الاستفادة من التضارب والصراع بين المناهج المختلفة .

أما الفكر الاسلامي فهو لا يقبل التجزئة بين القيم ، بل يصوغها كلها في كل واحد ويجعل حركتها متوازنة لأنها مرتبطة بكيان الانسان نفسه .

ومن هنا فإن من أكبر محاذير منهج البحث العلمي هذا التمزق الذي يحول بينه وبين أن يكون منهجاً عالمياً أو انسانياً — ولقد وصل عمق طابع الانشطارية وأثره في تجزئة المفاهيم الى الحد الذي جعل أهل التخصص يتقوقعون دون الإحاطة بشؤون الفكر البشري عامة ويعرضون عن النظر الى مجموع

مشاكل الانسان بعين المتبصّر الحصيف ، لأن كل فريق منهم قد اعتاد النظر الى الشطر الذي هومتخصص فيه كأنه كلٌّ منفصل عن غيره. فعالم النفس قد استغرق فكره مبادىء ذلك العلم ومقاييسه . فهو يريد أن يقدم للعالم حلولاً مما تعلّمه من مبادىء علم النفس ، و كذلك عالم الاقتصاد عنده أن مسائل العيش هي قوام الاصلاح للانسان . والحق أن هذه المسائل كلها إنما هي نَـواحٍ مختلفة ، ومظاهر متنوعة للوحدة الكلية ، ولكل مسألة من هذه المسائل الانسانية مكان خاص ، وذلك أن الانسان جسم وروح . فمن ناحية كونه جسماً فهو موضوع العلوم الطبيعية ، ومن حيث أنه ذو حياة فهو موضوع علم الحياة ( Biology ) وعلم الحيوان ( Zoolagy ) ، ثم إن الانسان يحتاج الى غذاء ولباس وبيت ، ومن هنا كان للمعاشيات أثر ظاهر في الحياة ، والاتصال الجنسي مثل غريزي ، وهذه مادة علم الجنسيات . وله شعورٌ وادراك وهذا له صلة بعلم النفس ، وهو مدني بالطبع ( أنظمة الحياة الاجتماعية والعمرانية ) وهو حي عاقل يحتاج الى ادراك ما وراء المحسوسات ( العلوم العقلية ) وليس عقلاً صرفاً ، وهذا يخص العلوم الروحية والأخلاق ، وما يميز الخير من الشر . والانسان جامع لكل ما ذكرنا ، فإذا أردنا أن نسنّ للبشرية نظاماً وجب علينا أن نعرف منزلة الانسان من هذا الكون، ولا بد من فلسفة حياة بكل تفاصيلها . ذلك أن الحياة لا تدور على مسألة واحدة — وهذا يعني قصور منهج البحث الغربي الوافد عن تحقيق رسالته كمنهج عالمي انساني ، وهو في نفس الوقت يتعارض مع « تكامل المنهج الاسلامي في المعرفة » الذي ينظر الى الانسان ككل متكامل . ويدرسه من جميع جوانبه دون فصل أو انشطار أو تجزئة . ومن هنا فإن أخطر نتائج التخصص : هو تمزيق القيم المترابطة ، وجعل هذه القيم تتقابل وتتصارع . أما الفكر الاسلامي فإنه يقوم على ضم العناصر والمواءمة بينها وربطها بالأصل . بل ان الفكر الاسلامي لا يفرق بين العقل والقلب . بل يجعلها وجهين للمعرفة ، يسلم أحدهما للآخر .

## (٣)

لقد نشأ الفكر الغربي بطبيعته أساساً على أنـه فكر انشطاري يعجز عن فهم أبعاد التـكامل ، ويرى استحالة التقاء العناصر في كل واحد . وقـد بدأت الانشطارية في الفكر الغربي من نقطة الفصل بين الدين والدنيا . وعزل الدين عن الدولة وعن المجتمع ، وقصره على العلاقة بين الله والانسان . حتى أصبح مفهوم الدين يعني هذه العلاقة وحدهـا ، وهي في مفهوم الاسلام جزء من الدين حيث يقرر الاسلام أنه دين ومنهج حياة .

ومن الفصل بين الدين والدنيا ، نشأ الفصل بين الدين والعـلم ، ثم نشأت مذاهب وأيدلوجيات تحاول أن تضع نظمـاً للمجتمعات منفصلة عن الدين والأخلاق ، ثم جاء العلم فحقق بعض الانتصارات التي دفعته الى الأمام . حتى أطلق عليه اسم دين البشرية. ومن استعلاء العلم ، جاء نفوذ المادية ووقع الانفصام الكامل بين شطري النفس والحياة . فغاض جانب الروح والنفس والوجدان والقلب واستعلى جانب العقل والعلم والمادة . وأصبح المنهج العلمي قـائماً على المحسوسات والمعقولات . أما ما سوى ذلك من علوم الوحي والغيب ومقررات الألوهية والنبوة واليوم الآخر والبعث فقد أدرج تحت اسم الخرافات والأساطير. وبذلك أنكرت الفلسفة المادية شطراً ضخماً من المعرفة والحقائق والعـلم . وعلت في ظل ذلك الدعوة الى التطور ( المطلق ) وعلا معها ما أطلق عليه مبدأ التغير والمتغيرات على نحو لا يعترف بالأصول الثابتة ، والحقائق القـائمة . فأرسلت الدعوة ارسالاً الى القول بالتغير المستمر لكل كائن وكل فكرة .

ثم ظهرت عقلية الجزئيات والتفصيلات التي نجحت في حجب الصورة الكاملة عن أذهان الناس .

إن ميزة الفكر الاسلامي التي يستمدها من الاسلام : هي هـــذه النظرة الكاملة الشاملة بكل أبعادها . وقد أعطى القرآن المسلمين فكرة محيطــة شاملة الى أبعاد الحياة وما بعد الحياة واليوم الآخر والكون والانسان والماضي كله منذ خلق الله الكون والانسان . وذلك ليكون هذا الانسان قادراً على التحرك بالفكر في الإطار الواسع ، ويستطيع أن يستوعب في وضوح مكانه من هذا الكون الواسع ، وحقيقة رسالته ومدى مهمته .

وفي حدود هذا الفهم نجد أن منهج البحث الغربي غير قــادر على استيعاب أبعاد الحياة والكون في عالمي الغيب والشهادة ، وموقف الانسان من هـــذا الوجود ، وأنه يتحرك في داخــل دائرة ضيقة هي شطر من الفكر الانساني ، وجانب من جوانبه؛ ذلك الجانب الوحيد الذي اعترف به الفكر الغربي . وهو الجانب المادي والحسّي . أما ما سوى ذلك فإنه لا يدخله في حسابه ، ويعجز عن تصوره واستيعابه .

أما الفكر الاسلامي فإنه لا يقر دراسة الجزئيات منفصلة عن أصولها ، ولا يقبل إعلاء أي جزء منها ، ويقرر في ضوء الاسلام إقامة الصورة التامة الكاملة أمام الانسان : ذهنه وقلبه . كما يقيم مفهوم الحيــاة في منظور متكامل وصورة متماسكة تفضي الى نظرة موحدة ، فهو يعطي العناصر كلها طابـــع الالتقاء . وروح المواءمة . بحيث تلتقي ولا تتعارض . والقرآن الكريم أكبر مثــل على هذا المنهج . فهو يعطي فكرة شاملة للكون والانسان والحياة ، ويربطها جميعاً بأصل واحد . هو التوحيد ، ويمسكها بخالقهــا ومنشئها النشأة الأولى والنشأة الآخرة .

ولعل أخطر ما حققته نزعة الانشطارية أنهـــا خلقت عقلية الجزئيات التي حجبت عن أذهان الناس الصورة الكاملة ممــا يجعل منهج البحث العلمي قاصراً عن أن يكون عالمياً أو إنسانياً .

ومن ثم فقد انفصلت المدارس الفكرية في الغرب وتمزقت ، وقـام
ضخم بين العلوم والآداب ، وصف بأنه أزمة الثقافة الغربية .

يقول أحد الباحثين : إن التناقض بين الثقافة الأدبية والثقافة العلمي
ظاهرة من خواص المجتمع الغربي حيث تنقسم الحيـاة الفكرية الى
متباعدين . هناك قطبان : واحد يدور حـوله المفكرون الأدبيون . وفي
المفكرون العلميون . وبين الاثنين هوّة سحيقة أساسها عـدم القدرة عل
المتبادل، وان كل مجموعة يحتفـظ بداخلها بصورة مشوهة للمجموعة الأ
والسبب هو عـدم وجود قاعدة أساسية شاملة « أو وجود أساس للتف
ومثل هذا الانشطار لا يوجد في الفكر الاسلامي الذي يتلاقى فيه الأدب
على قاعدة أساسية هي الانسان نفسه .

**خامساً** – محاولة احتواء ثقافات الأمم : إن أخطر ما يحاول الفكر
أن يفرضه على الفكر البشري كله هو فكرة الاحتواء والسيطرة ، وا
وجهة النظر الغربية وكأنما هي الحقيقة الوحيدة ، وذلك مـا يرفضه
الاسلامي الذي تشكل على أساس ذاتية خاصة وكيان مفرد غير قابل لل
أو الاحتواء أو الانصهار في أي فكر آخر .

ولقد عاش الفكر الاسلامي مقاوماً ومجاهداً في سبيل عدم السماح لـ
الاسلام أن تذوب وتتلاشى في أي شخصية أخرى . ولعل هذا الاتجـ
فرض النفوذ عن طريق أساليب الضغط ، عندما يتعذر الإقناع هي التي
الأمم جميعاً بأن الفكر الغربي يعمل على السيطرة عن غـير طريق الإ
التقبل الذي يقوم بين فكر وفكر وأمة وأمة على أساس إقامة الحوار ا

ولقد رفع الفكر الغربي عبارة خلابة خادعة ليسيطر بهـا على فك

---

١ – مجلة المجلة أغسطس سنة ١٩٦٢ .

التي وقعت تحت سيطرته السياسية هي عبارة وحدة الثقافة العالمية . والعبارة براقة المظهر خادعة ، وإن كانت تخفي في أعماقها التعصب والاحتقار للثقافات الانسانية المختلفة . وهي تعني في الأغلب فرض الثقافة الغربية . وتسويدها على ثقافات الأمم وحضارتها . ولقد يمكن أن يقع مثل هذا الاحتواء أو الاستيعاب لبعض الثقافات . أما ثقافة الفكر الاسلامي فإنه من العسير احتواؤه واستيعابها مهما تعددت الأساليب التي توجه الى هذا الغرض ، ذلك لأنها ثقافة عميقة الجذور قد شكلها فكر رباني المصدر وهو القرآن الكريم ، وقامت على قواعد راسخة أساسها التوحيد ، وهي ثقافة محكمة لأنها تقوم على فكرة الحق المطلق . والإيمان بالله . وقد سادت العالمين أربعة عشر قرناً . وتركت آثاراً عميقة في المجتمعات والثقافات واللغات . وهي ما تزال تطبع منطقة شاسعة في قارتي آسيا وأفريقيا بطابعها المميز .

ولا ريب أن فكرة وحدة الثقافة العالمية مرتبطة أساساً بالدعوى التي سقطت والتي تقول بأن الرجل الأبيض إنما يعمل على تمدين الأمم المختلفة وتحضيرها . والحقيقة أنها تهدف الى سوقه الأمم الى الولاء والعبودية للسيادة الغربية في الفكر . وإحلال قيم الفكر الغربي ومفاهيمه محل القيم الاسلامية العربية — ونحن نعلم أن الغرب منذ بدأ الاستعمار عمد الى تحطيم قيم الفكر الاسلامي والثقافة العربية ، وزعزعة قوائمها بإثارة الشكوك والريب والشبهات في نفوس المسلمين والعرب لتحطيم تلك القوة الضخمة التي منحها الاسلام لهم . والتي كانت عامل المقاومة الفعال في وجه الغزو الغربي .

ولكن الفكر الاسلامي ثبت لهذا الامتحان ثبوت الطود ودحض كل الشبهات والمفتريات وكشف عن جوهره الأصيل .

# الباب الأول

## الأخطاء في مجال العقائد والدين والفلسفة

أولاً — في مجال العقائد

ثانياً — في علم مقارنات الأديان

ثالثاً — في الشريعة والسنة

رابعاً — في الفلسفة

# الفصل الأوّل

## الأخطاءُ في مجَالِ العقَائِد

إن أخطر مواقف المنهج العلمي الذي أقـامه الفكر الغربي هو موقفه من الدين عامة ، انطلاقاً من موقفه من دين الغرب نفسه ، من خـلال تجربة خطيرة ومواجهة حادة بين الفكر العلمي الحديث وبـين مقررات الفكر الديني الغربي التي كانت قائمة ومسيطرة في مجـال المجتمع والحضارة ، حتى ليمكن القول بأن الفكر الأوربي الحديث قد أقام منهجاً له مقرراته وقيمه التي ظلت تتطور وتنمو حتى انفصلت تماماً عن الفكر المسيحي الغربي . ولم تبق إلا خيوط قليلة لا قدرة لها على الحركة والسيطرة مع استشراء هذا الفكر واحتوائه لكل مجـالات الثقافة والمجتمع والحضارة والتربية والاقتصاد والسياسة .

ولقد كانت تجربة الفكر الغربي بعد انطلاقته العلمية بالنسبة لـلدين الغربي مثيرة وقاسية ، اشتد فيها الصراع وقست فيهـا الكنيسة وانسلخ الفكر من سيطرة الدين ونفوذه ، وبدأ حملة ضارية على الدين كمقوم للفكر والمجتمع . وخطا خطوات واسعة في سبيل التحرر من نفوذه . وكانت نظرية التطور التي أعلنها دارون نقطة الانطلاق في طريق الفكر المادي بعد أن سيطر عليها الفلاسفة ، ودفعوها خارج نطاق العلوم التجريبية والطبيعية الى مجال الاجتماع ، وأقاموا عليها منهجا فكرياً قوامه التطور « المطلق » . ومن هـذه النقطة تدافعت كل النظريات والمذاهب الحديثة . وفي مقدمتها التفسير المـادي للتاريخ ونظرية فرويد في النفس والجنس ، ومفهوم العلوم الاجتماعية في الفصل في إلغـاء ثبات الأخلاق وظهور مفاهيم الوجودية والهيبية الخ .

أما موقف المنهج العلمي من الدين ، فقد كان يمثل تجربة خاصة تتعلق بأوربا مع المسيحية . ومن هنا فإن إطلاق نتائج هذه التجربة على كل الأمم والأديان فيه تجاوز كبير ، وخاصة في منطقة العالم الاسلامي الذي يتشكل فيه منهج علمي يختلف اختلافاً كبيراً ، الدين فيه عنصر أساسي – والأخلاق فيها محور أساسي تدور عليه كل المفاهيم وترتبط فيه القيم المختلفة وتتماسك تماسكاً شاملاً . ذلك أن الاسلام لم يقف من العلم موقف الخصومة أو المعارضة ، بل كان هو مصدر انطلاق شرارة الضياء التي صنعت « المنهج العلمي التجريبي » الذي هو عماد الحضارة العالمية المعاصرة . واذا كان الدين بمعنى الاسلام هو دعامة الفكر الاسلامي وأساسه . فإن قيام المنهج العلمي الوافد من الغرب – والداعي إلى اقصاء الدين أساساً يشكل اضطراباً كبيراً اذا ما أخذ به الفكر الاسلامي بديلاً لمنهجه القائم على الدين ، فضلاً عن اختلاف مفهوم الدين في الفكر الغربي عن مفهومه في الفكر الاسلامي .

فالفكر الغربي يقرر أن « الدين » هو العلاقة بين الله والانسان فحسب ، وأنها علاقة شخصية وخاصة ولا صلة لها بالمجتمع . ولا تؤثر في تطور الحركة الاجتماعية أو السياسية أو الاقتصادية ، بينما يقرر الفكر الاسلامي أن الدين ( بمعنى الاسلام ) هو دين ونظام مجتمع ، وأنه يتجاوز العلاقة بين الله والانسان الى العلاقة بين الانسان والانسان ، وبين الانسان والمجتمع وأنه نظام شامل متكامل ترتبط فيه العبادة والعقائد بممارسة الاجتماع والسياسة والاقتصاد والتربية ، وأن الأخلاق عامل جامع بين هذه القيم .

بهذا المفهوم يختلف المنهج العلمي الاسلامي عن المنهج العلمي الغربي اختلافاً عميقاً ، بحيث يبدو المنهج العلمي الغربي الوافد قاصراً وعاجزاً عن العطاء للنفس العربية الاسلامية ، وللروح العربية الاسلامية والعقل العربي الاسلامي . وهو لهذا كله قاصر أيضاً عن أن يكون منهجاً عالمياً أو إنسانياً .

فالفكر الغربي يقف من الدين موقفاً يتموّج بين الرفض والكراهية والخصومة

والحذر ، وسواء في مجال الفكر الليبرالي أو الفكر الماركسي ، فالدين منظور إليه نظرة قلقة . وقد طرح هذا الفكر حول الدين مواقف كثيرة تتراوح بين القول بأن الأديان نبتت من الأرض ، ولم تنزل من السماء ، وأنها ظاهرة من الظواهر الاجتماعية ، أو أن الدين أفيون الشعوب ابتدعه الاقطاعيون لتخدير العبيد والطبقات الكادحة عن المطالبة بحقوقهم المسلوبة ، أو أن الدين لا يصلح مطلقاً لأن يكون عاملاً مدنياً . وأنه مانع من الترقي والنهوض ، أو القول بأن البشرية بدأت وثنية ثم عرفت التوحيد ، أو القول بأن الدين علاقة خاصة بين الله والانسان . وأن الانسان يستطيع أن يكون مؤمناً بضميره وكافراً بعقله . وقليل من كتاب الغرب من قال بأن الأديان أساس الثقافة، ومن قال بهذا أعرض عن القول بأن الدين نظام أو منهج حياة .

ويرجع هذا كله الى مواقف وتحديات من التاريخ السياسي والاجتماعي الغربي في مواجهة الدين ، وفي مواجهة الصراع بين اليهودية والمسيحية ، وبين المسيحية والوثنية اليونانية التي سبقتها ، ومنها ما يرجع الى مفهوم المسيحية الغربية التي عبرت الى أوربا . فوجدت مجتمعاً قائماً على أساس نظام اجتماعي كامل فكانت بطابعها الروحي الخالص ذات وضع عقائدي. فضلاً عن أنها عن طريق الكنيسة قد اصطدمت بالنهضة العلمية في منطلقها . ويرد كثير من الباحثين ، تلك التحديات التي قامت عليها مفاهيم الدين في الفلسفات الغربية (سواء منها الليبرالية أم الماركسية أم النفسية والاجتماعية ) الى هذا الطابع الذي طبع الفكر الغربي كله بالعداء للدين والخصومة للكنيسة على النحو الذي نراه في كتابات سبنسر الذي ارتكزت فلسفته على المادية واللاأدرية . وهلكس ونيتشه وماركس وفرويد والدعاة الى البشرية ( Humanism ) على أنها دين جديد يجعل مردّ الآداب الى النفس البشرية وينزع بالناس الى درس الكتب الوثنية . وتقوم البشرية على أساس الإيمان بالانسان بدلاً من الإيمان بالله .

والفكر الاسلامي في مواجهة هذا كله يختلف اختلافاً عميقاً على النحو الذي

يجعل مثل هذا المنهج العلمي الغربي الذي شكلته هذه المفاهيم والتحديات عاجزاً عن استيعاب الأبعاد الواسعة لفكر الاسلام . ولقد يبدو واضحاً موقف الغرب من المسيحية وما ردّدَه الكثيرون من أنها نتاج وافد ، وكيف عمدت أوربا الى إعادة إحياء ( الهلينية الاغريقية ) بكل مفاهيمها مرة أخرى في أوائل عصر النهضة ، وإحياء طابع الوثنية في الفنون والآداب . ثم جاء العلم بمفهومه القائم على سلطان العقل وحده دافعاً الى انتزاع قيم « مناهج البحث » من كل أثر للدين، يبدو هذا واضحاً في المقارنة بين الأمم .

أما في عالمنا العربي الاسلامي فإننا نجد أصالة التدين في هذه الأمة التي كانت مهد النبوة ، والرسالة ، والتي شكلت فكرها وعقيدتها وأخلاقها وفق مضامين الحنفية السمحاء التي حمل لواءهـــا رسول الله ابراهيم . فكانت الجذور الأصيلة للأديان المنزلة ، وكانت مصدر ذلك التراث الأصيل العميق الذي جاء على أصوله دين موسى ودين عيسى ودين محمد .

ففي هذه الأمة الحنيفية ، نجد أن التوحيد هو العلامة الكبرى لحركة الفكر والأخلاق والنفس ، ونجد العامل الروحي معانقـــاً للعامل الماديّ في تناسق وتكامل ، ونجد الدين بمفهومه الأصيل عاملاً فعالاً وأساساً جذريًّا في المجتمع والأخلاق والتربية وممارسات الحياة السياسية والاقتصادية .

ومن هنـا يبدو عسيراً على الفكر الاسلامي العربي الذي تشكل منذ القديم أن يخرج عن فطرته وطابعه ومزاجه الأصيل، وأن ينفصل عن جذوره الراسخة العميقة ، فيقبل مفهوم التجزئة والانشطارية ممثلة في منهج الفكر الغربي بطابعه المادي الصرف .

فالاسلام ليس ديناً تعبدياً فحسب . ولكنه حركة اجتماعية واسعة تشمل الاعتقاد والدولة والنظم الاجتماعية والأخلاق . ومن ثم فإن المنهـــج العلمي

الاسلامي للبحث والمعرفة لا بد أن يكون واسعاً وشاملاً ومتكاملاً على النحو الذي يتمثل فيه هذا الفكر .

ومن هنا أيضاً يبدو المنهج العلمي الوافد قاصراً وضيقاً ومحدوداً في مجال المقارنة والنظر. ولقد يستطيع صاحب المنهج الجزئي أن ينظر في المنهج المتكامل، وأن يقبله لأن ما يؤمن به موجود في داخل الأفق الأرحب ، ولكنه من العسير على صاحب المنهج المتكامل أن ينصهر في دائرة ضيقة بعد أن ألف الحركة الواسعة الشاملة .

## - ٢ -

لم يكن غريباً على الفكر الغربي أن يتحول في مراحل مختلفة دون أن يثبت على أصول أساسية ، ذلك أنه إنما يصدر في ذلك عن طبيعة العقيدة التي عرفها واعتنقها . فهي تفصل أساساً بين الدين والدنيا ، وتلغي المسؤولية الفردية . وتجعل النظرة الى الجزاء الأخروي نظرة روحية ، وتربط بين الخالق والمخلوق في وحدة الوجود ، وتجعل الحياة دوائر منفصلة غير متكاملة . ومن شأن ذلك أن يوحي بالتحول والانتقال والصيرورة الدائمة . ومن أجل أن الفكر الغربي لم يجد في رسالته الدينية معطيات تنظم الحياة . فلقد أحس بأنّ من حقه أن ينظم الحياة وفق حاجته وظروفه وإرادته الخاصة . فليس غريباً على الفكر الغربي أن يتحوّل ويتطور دون أن يثبت في قيمه أو في مفاهيمه للقيم . ولكن الفكر الاسلامي الذي قام أساساً على قواعد ثابتة ، وإطار متكامل ، ومنهج شامل يعظم الحياة والمجتمع ويرسم صورة كاملة للعلاقة بين الدنيا والآخرة من حيث المسؤولية الفردية والالتزام الأخلاقي والجزاء الواقعي .

من شأن هذا الفكر أن يقيم منهجاً للبحث مختلفاً ، وأن لا يقهره منهج الفكر الغربي الذي يختلف معه في جوانب كثيرة . بل ويتعارض معه في أغلب المسائل .

كذلك فإن الفكر الغربي ليس من فصيلة واحدة . ولا أرومة واحدة . ولكنه يصدر عن فصائل عدة : أهمها الجذور الأساسية لمعطيات الفكر اليوناني

والهلينية الاغريقية . وما زال كتاب أوربا وفلاسفتها يفاخرون بهذه المعطيات ويميزونها في المقارنة مع معطيات المسيحية التي يرون أنها نتاج شرقي . وأنها أدخلت الى أوربا النسك الشرقي ، ومبادىء الرحمة والضعف وأفقدت أوربا روحها الأصيلة القائمة على الاستعلاء والظلم واستعباد غير الأوربي من أجناس . ومن الحق أن يقال ان المسيحية قد حررت أوربا من طغيان الروح الاغريقي الذي يؤمن بأن السادة ( وهم فئة قليلة من الناس ) يجب أن يتسلطوا على الناس جميعاً وما هم إلا عبيد لهم ، وفتحت الطريق للقضاء على هذه الظاهرة في العالم كله بظهور الاسلام الذي أذاع روح الإخاء وقضى على العبودية الرومانية والفارسية والفرعونية والبرهمية الهندية .

لقد غيرت المسيحية أوربا حقًّا ونقلتها من الوثنية والعبودية الى الدين والأخلاق ، وأشاعت روحاً جديدة فيها العبادة لله بدلاً من عبادة الأبطال . وحطمت روح الاغريقية وفلسفتها الوثنية . ودحرت طابع الامبراطورية الرومانية القائم على العبودية ، وصهرت أوربا من جديد في كيان عقلي وروح جديد ، ولكن المسيحية التي عبرت الى مجتمع الحضارة الرومانية لم تستطع أن تغير كثيراً . وإن أقامت صرحاً ضخماً في أوربا كلها ، وهي بالرغم من خلافها مع مناهج العلم ومعطيات الحضارة فإنها قد شادت مجتمعاً ضخماً باسم المسيحية تجاوز أوربا الى أمريكا . وحمل لواء النفوذ الاستعماري في العالم كله حتى صبغ الصراع السياسي وجعله صراعا ليس بين عالمين هما : الغرب والشرق . بل بين الاسلام والمسيحية .

غير أن الفكر الغربي لم يخلص لمعطيات الهلينية والمسيحية وحدهما . ولكنه وقع أيضا تحت سيطرة اليهودية التلمودية التي ارتبطت بالمسيحية أساسا بالتتابع ارتباط العهد القديم بالعهد الجديد بين دفتي كتاب واحد ، وبالنقلة من رسالة موسى الى رسالة عيسى ، وهي متابعة يقرها الاسلام الذي جاء خاتما للأديان كلها . غير أن الفكر الغربي ظل مقيما على معطيات الهلينية والمسيحية ،

وأضاف إليها العلم الحديث ، بل إنه في بعض تقسيمات مفكريه انتقل بين الروح الغيبية القديمة عند الانسان البدائي ، الى الروح الدينية باليهودية والمسيحية الى الروح العلمية بالحضارة والعلم الحديث .

غير أن الفكر اليهودي الذي كانت له مفاهيمه الخاصة لم يلبث أن انصهر في داخل الفكر الغربي على نحو وآخر . وكانت أبرز علاماته القول بالفكر الحر ، والسخرية بالغيبيات ، واحتقار الأخلاق ، والقول بالتطور في مجال الاجتماع ، والدعوة الى النسبية التي تحمل على التغيير الدائم ، والقول بعدم فطرية الدين والأسرة والجماعة .

وقد كان الفكر اليهودي قد تشكل من خلال التلمود . وأقام منهجه على أساس توجيه نبوءة ميراث ابراهيم أبي الأديان الثلاثة الى اليهودية وحدها بالقول بأن اليهود شعب الله المختار ، وبأن مُلك إبراهيم الذي تمثل في اليهودية والمسيحية والاسلام باعتبار أن ابراهيم هو أبو اسماعيل واسحاق ، قد تحول الى اسرائيل وحده – هذه هي النبوءة التي دفعت اليهودية الى بناء أيدلوجية تلمودية للسيطرة على العالم ، وتحقيق نبوءة أرض الميعاد .

ولقد كانت محاولة التلمودية الى السيطرة على الفكر الأوربي المسيحي واحتوائه واتخاذ ذلك الاحتواء معبراً للسيطرة على الفكر البشري كله .

ومن هنا فقد حاولت الماسونية تطعيم الفكر الغربي بالمفاهيم التلمودية من خلال الدعوة الى إحياء المفاهيم الهلينية في العقائد والسياسة والفن والحضارة . وإعلاء مفاهيم العنصرية بإعلاء صراع الأجناس والدماء والأعراق . وإذكاء هذه الظاهرة للقضاء على الوحدة التي أقامتها الأديان .

ومن ثم بدأت حرب الوطنية ، والقومية ، وعبادة الدولة ، والديمقراطية تجتاح أوربا لتقضي على سلطان الكنيسة ، وأنظمة الدول المسيحية ، وإقامة الصراع بين الكاثوليكية والبروتستانتية ، وإنشاء ( الموسوعة ) على مفاهيم

التلمود ، وإبراز فولتير وديديرو وروسو . وبذلــك استقطبت الفكر الغربي وأخرجته من دائرة الدين الى دائرة الفكر الحر ، وأقامت العلمانية وأسقطت الطابع المسيحي للدول الأوربية ، وحققت تحرير اليهود وإخراجهم من الجيتو . وبذلك بدأت سيطرتهم على الفكر الأوربي والمجتمع الأوربي كله من خـــلال السيطرة على الأدب والفن والقانون والحضارة .

من خلال هذا النفوذ التلمودي بدأ تحوّل الفكر الغربي عن طابع الأخلاق المسيحية الى طابع التلمودية التي جددت وثنية اليونان وعبودية الرومان .

ومن خلال هذا التحول الذي خطــا إليه الفكر الغربي بالانسحاب من المسيحية الى دين البشرية ، والى إعلاء العلم والعقل ، والى عبادة الانسان، وقيام الفلسفة المثالية؛ بدأت بذور التلمودية تطفو على السطح في كبريات قضايا المجتمع: الاقتصاد والتفسير المادي للتاريخ بالماركسية ، وعلم النفس بالفرويدية ، وعلوم الاجتماع بالمدرسة الاجتماعية ( ليفي بريل ودوركايم ) . ثم سيطرت هذه المناهج على الفكر الغربي كله وأخرجته من مفاهيمه الأخلاقية بعــد أن أخرجته من الدين . وظهر عصر الأيدلوجيات في مواجهة الأديان ، أو باعتبارها الأديان البديــلة .

## - ٣ -

لا ريب أن الدين أهم ضرورات الانسانية ، وأنه من الممكن أن تجد مدناً بلا أسوار وبلا ملوك وبلا ثروة وبلا آداب . ولكن لم ير إنسان قط مدينة بلا معبد أو لا تمارس الصلاة على حد قول ( بلوتارك ) . والدين طابع الانسان ، والتدين جزء من الطبيعة البشرية ، والانسان لا يستطيع أن يعيش بغير دين على حد تعبير ( أرنولدتوينبي ) في كتابه ( العادة والتغيير ) الذي يقول : لقد ترتب على تراجع الدين عن موقفه في أوربا أن قامت ديانات بديلة تسمى المذاهب الفكرية والأيدلوجيات الفردية أو الرأسمالية أو الجماعيـــة أو الشيوعية أو الوطنية أو القومية . وعنده أن كلاً من الرأسمالية والشيوعية يؤيد جانباً على حساب الجانب الآخر ، وكلا النظريتين مادية . ولما كان الانسان لا يستطيع أن يحيا بالخبز وحده . فإن هذين التفسيرين الماديين للعدالة والحرية تفسيران خاطئان .

ثم هناك بعد صراعها معاً صراع كلتيهما مع الوطنية أو القومية . ويرتب توينبي على هذا أن الأيدلوجيات تنافس الأديان العليـــا على اكتساب ولاء الجماهير ، وهذا معناه العودة الى عبادة الانسان . فبعد أن حررته الأديان من عبودية المجتمع وعبودية الفرد ليتجه إلى الله وحده ، عاد الانسان الى سجن المجتمع ، وبعد أن كان في علاقة مباشرة مع الحقيقة الخالدة عاد إلى ديكتاتورية العصور البائدة ، فتضاءل ليصبح نملة اجتماعية في مجتمع النمل . لقد استطاعت

الأديان أن تعلم الانسان أنه ليس حشرة اجتماعية ، ولكنه إنسان ذو كرامة وإدراك واختيار . فالأيدلوجيات لا تستطيع أن تنسيه هذه الحقيقة . لأنها لا تستطيع أن تحقـــق له الانعتاق الروحي الذي منحته إياه الأديان . لقد وجدت الأديان لتحرير الانسان من إسار المجتمع ، ووضعه مباشرة أمام مسؤولياته وقد استطاعت أن تمنح معتنقيها هداية لا تستطيع أن تجاريها فيها الأيدلوجيات الحديثة . لقد منحت الانسان الاطمئنان والمساعدة والتوجيه والمثل الأعلى الخليق بالطموح ، منحته الراحة الروحية ، وحررته من عبوديته للمجتمع .

ثم يقول توينبي : لا غنى للإنسان عن الدين . ولن تستطيع الأيدلوجيات أن تحل محل الدين ، لأنها تمنحنا التعصب والتباغض بدلاً من المجد والتعاون ، إنها قد تمنحنا لقمة الخبز . ولكنها تسلبنا الطمأنينة النفسية والتحرر الروحي .

وهذا المفهوم للدين الذي رسمه أرنولدتوينبي هو في ذاته مفهوم مسيحي ؛ لأنه يقوم على أساس الاعتقاد بأن الدين ليس إلا عبادة ورابطة روحية بين الله والانسان ، أما الاسلام فإنه ينظر الى القضية من ناحية أكثر شمولاً ، ذلك أن الاسلام لا يقصر الدين على أنه عامل روحي ، ولكن يراه نظامـــاً اجتماعياً كاملاً ، هو قوام الأيدلوجية التي تصلح لعالم الاسلام .

أما الغرب فلما كان دينه لا ينطوي على مفهوم النظـــام الاجتماعي . فقد اختار لنفسه أيدلوجية بشرية .

## - ٤ -

إن معنى كلمة « دين » تختلف اختلافاً واسعاً بين الفكر الغربي والفكر الإسلامي.

فكلمة رليجون ( Religion ) الغربية لا تعطي معنى كلمة الدين بمفهوم الاسلام فهي مأخوذة من الفعل اللاتيني ( Religare ) بمعنى العبادة المصحوبة بالرهبة أو الوحشية. ويرى جيبيو أنه بمعنى جمع أو ربط: وأن الدين هو ارتباط جماعة إنسانية بإله أو بآلهة.

ومن هذا التفسير تبدو ( مادية ) معنى ( رليجون ) وجزئيتها بالنسبة لمفهوم الدين في المفهوم الاسلامي. وفي القاموس الفرنسي: يوصف رجل الدين بأنه ( Religuieux ) ومعنى هذا الوصف أنه لا يصلح لفهم أمور المعاش لسبب انقطاعه عن صحبة الناس. وليس كذلك مفهوم الاسلام الذي لا يعترف بأن هناك رجل دين له نفوذ واختصاص.

يقول العلامة ( علال الفاسي ): « كلمة الدين في اللغة العربية تعني نوعاً من الإيمان الذي يظهر أثره في السلوك وتعني في الاصطلاح ما شرعه الله على لسان أنبيائه من الأحكام كالصلاة والزكاة والصيام. وهو بذلك صلة بين الانسان وربه، ورابطة اجتماعية بين معتنقيه تحملهم على نوع من المحبة وضروب من الوحدة لا يستطيع غير الدين أن يحملهم عليها. وهي أبعد ما تكون عن

وجود وساطة بشرية ، أو نظام كهنوتي يخضع المتدين لفئة من الأحبار أو يجعلهم متحكمين في ضميره أو مالكين لمصيره ، فالدين يعني قبل كل شيء اختياراً من الانسان لمرضاة خالق أعلى . وهو بداية التحرر من كل سيطرة أرضية .

فإذا نحن أخذنا الكلمة التي تستعمل عـــادة مقابل الدين وجدناها هي ( Religion ) ولكن هذه تعني معاني أخرى غير ما أسلفناه . فهي تشير قبل كل شيء إلى نظام كهنوتي فيه الراهب والاعتراف . وفيه سيطرة الانسان على أخيه وتحكمه في دينه وقبول توبته و ( رليجون ) تعني استسلاماً كامـــلاً لهذا النوع من العبودية وامتثالاً لكل ما يأمر به رئيس الديانة أو ينهى . ومن هنا خطر مثل هذه المصطلحات في المنهج العلمي الوافد فقد « أصبحنا نفهم من معنى الدين ما تحتويه كلمة ( Religion ) وأصبحنا نفكر في أمر الدين بما يفكر به الغرب ، وما نقرأه في آدابه الموجهة قبل كل شيء لنقد مجتمع مبني على تحكم الكنيسة . فالدين بالمعنى الغربي لا وجود له في بلادنا . والدولة والدين شيء واحد ، لأن الدولة يجب أن تقـــوم على عقيدة وخلق » اهـ . وليست هذه التفسيرات في الفكر الغربي إلا إيماءات للحيز الذي يشغله الدين في منهج البحث العلمي الغربي الوافد والذي طرح في أفق الفكر الاسلامي والثقافة العربية . والذي يجعل من العسير على الفكر الاسلامي أن يتخذ من المنهج العلمي الغربي بديلاً لمنهجه الذي يختلف في هذا الجانب اختلافاً كبيراً . والظاهرة الخطيرة في المنهج العلمي الوافد أنه لا يقتصر على تجاوز الدين نفسه ، ومحاولة خلق بديل له من الأيدلوجيات والفلسفات ، بل أنه يظل يتابعه في عنف وقسوة لإخراجه من دائرة الحياة الاجتماعية والنفسية كلها . وبذلك يعارض المنهج العلمي الوافد الفطرة ، ويضاد طبائع الأشياء .

إن الفكر الغربي يواجه الدين بموجتين من التحدي تربطان بين الفلسفتين الليبرالية والماركسية بسبب أن احداهما وهي « المادية » لا ترى في الدين إلا تخلصاً من الواقع . ولجوءاً إلى التحديرات الروحية التي أبرز ما فيها أنها توجه

السلوك الانساني توجيهاً سلبيًّا إزاء مشاكل الحياة . وهذه الموجة هي محور الهجوم الماركسي على الحياة الدينية .

والثانية : موجة « التحلل » من القيم الدينية وهي نزعة « أوربية غربية » تتزعمها الآن الحضارة الأمريكية وتنقلها إلى سائر بقاع الأرض مواصلات فكرية ، قوامها الأفلام السينمائية . والصور الفوتوغرافية ونوع من وسائل الاتصال الفكري . وهي تأخذ نظرية التفسير المادي للتاريخ التي يقول بها الشيوعيون وتضيف إليها عنصراً من أخطر العناصر في السلوك الانساني . وهو تركيز النشاط الفكري والنفساني على حرية الغريزة والعاطفة والأهواء .

« فالصراع الفكري في أوربا وأمريكا الآن يكاد ينحصر في توجيه سلوك الانسان لا على أساس العقل ( كما شرحه فلاسفة القرون ١٧ ، ١٨ ، ١٩ ) ولكن على أساس الغريزة والانطلاق النفساني . كما بشر به فرويد وأتباعه . وكما تدعو إليه هوليود وكتاب القصة الجديدة وبعض أئمة الفن في أوربا وأمريكا[١] وهكذا نجد أن الماركسية والفرويدية تحكمان الفكر الغربي بشقيه ، وتسيطران عليه ، وترسمان قواعد منهج البحث العلمي الغربي « الوافد » .

---

١ – دكتور عمر خليفة : الدين والسلوك الانساني .

## - ٥ -

ثم إن المنهج العلمي الغربي يقوم على إقصاء الدين عن مجال التأثير الاجتماعي ، وعلى القول بأن الدين مرحلة في حياة الأمم قد تجاوزتها بفضل العلم ومعطيات العقل البشري . ويُعدّ هذان العاملان من الركائز الأساسية للفكر الغربي ولمناهج البحث .

١ – أما بالنسبة لإقصاء الدين عن مجال التأثير الاجتماعي . فإنه يعتمد على القول بأن الدين عائق عن التحضر والارتقاء . ولذلك يقتضي ابعاده عن السيطرة على مفاهيم الحياة السياسية والاقتصادية والاجتماعية والأخلاق .

ويقدم المنهج العلمي الغربي « تجربة أوربا » مثلاً صارماً في هذا المجال فيقول : إن الغرب كان متخلفاً في ظل الدين . فلما أزاحه من طريقه تقدّم وحقق فتوحاً واسعة في مجال العلم والحضارة .

ويحاول المنهج العلمي الوافد أن يطرح هذه القضية في أفق الفكر الاسلامي . والواقع أن هناك خلافاً تاريخياً واسعاً بين الاستجابة الاسلامية للعلم وبين الاستجابات الأخرى . وأن هناك بعداً للمسألة يجب أن يوضع في الضوء حتى يمكن الوصول إلى الحقيقة ، أما هذا البعد فان الاسلام لم يعارض العلم . وإنما هو الذي فتح للمسلمين آفاق البحث ، ولم يكن في مضامينه أو أسسه أو كتابه ما

يتعارض مع أية ثمرة من ثمرات العلم ، بل لقد كان القرآن هو المنطلق الحقيقي لظهور المنهج العلمي التجريبي .

٢ ـ أما بالنسبة للقول بأن الدين مرحلة في حياة الأمم ، وأن الأمم الغربية قد تجاوزت هذه المرحلة وأن الدور الذي احتاجت فيه البشرية إلى الدين قد انتهى ، وأن البشرية أصبحت في العصر الحديث مضطرة لمواجهة الدين ومجابهته ، فهذا الفكر يتصل بأوربا في عصر معين وفي مجال الصراع بين الدين والعلم وبذلك فهو ليس قضية عامة بشرية يمكن أن تطبق على كل الأمم وكل الأديان لانتفاء الظواهر والعوامل الأولية التي فرضت هذه النتائج من أفق العالم الاسلامي والفكر الاسلامي مثلاً . والواقع أن النظرة العلمية الأصيلة ، القائمة على استظهار عوامل الاجتماع التاريخي والخالصة من الهوى والعصبية ، والصادرة من الفهم العميق للأمور تكشف عن أن الدين ليس مرحلة في حياة الأمم ولا حياة البشرية . لأنه بدأ بها وسينتهي بها . فهو عنصر أصيل وكيان عضوي لم يتخلف عن تركيب الإنسان : عقله وروحه وحياته ، ولا سبيل إلى انتزاعه منه .

ولذلك فإن الدين لم يمت ولن يموت ، وإن الفكر الغربي الذي فرض أنه كان مرحلة سبقتها مراحل من الوثنية وتبعتها مراحل من العلم، هو تصوير قاصر ، وغير مستوعب،وربما أراد به أوجست كانت أن يصور الفكر الغربي على أنه الفكر البشري كله وهو ما ليس صحيحاً. وأن هذا الاستعلاء لا يكشف الحقيقة، بل يحجبها ، وأن هناك أمماً كثيرة وعقائد كثيرة وحضارات متعددة. غير الأمة الأوربية والفكر الأوربي والحضارة الأوربية لها أثرها العميق في الفكر البشري ، إذا ما أريد دراسته دراسة بعيدة عن الهوى والتعصب والاستعلاء

الغربي باللون والسيطرة الاستعمارية . والدين لا يموت لأنه منذ تعالت هذه الصيحات قبل مائة عام لم تتقلص ظاهرته ، وهو لا يموت لأنه غريزة أصيلة في الانسان كامنة ؛ والغريزة لا تموت « وإن انطمرت في بعض الحالات تحت ركام من العقائد النفسية والمشاكل الدنيوية . فإذا زال هذا الركام برزت صافية[1] » .

١ – من بحث للدكتور عمر خليفة : ( الدين والسلوك الانساني ) .

## - ٦ -

إن أخطر ما يقرره المنهج العلمي الوافد هو : إنكار عـالم الغيب كله ، والوقوف عند عالم الظاهر والمحسوس . وهذا يعطي المنهج العلمي الوافد عجزاً شديداً عن الإحاطة والتعمق والفهم لأساس الوجود البشري ، وقيام المجتمع الانساني ، ورسالة الانسان ومسؤوليته في الكون ، وما يترتب على عمله من جزاء في يوم البعث ، وإنكار الغيب . إنما يعني إنكار الألوهية والنبوة والوحي ورسالة السماء المنزلة على الأنبياء والجزاء والبعث .

وبينما يقرر المنهج العلمي الاسلامي هذا اليقين لوجود عالمي الغيب والشهادة وتكاملهما ويقبل مفاهيم الألوهية والنبوة والوحي ورسالة السماء المـنزلة على الأنبياء والجزاء والبعث ، ويشيد مفاهيمه في فهم الحياة ، وبناء المجتمع وتربية الإنسان على هذا الشكل الكامل المتماسك . ويرى أن الاسلام دين ونظام مجتمع لا ينفصلان ، يقف المنهج العلمي الغربي قاصراً عنـد حدود الواقع الملموس والمحسوس وعالم الظاهر . وبذلك لا يتحقق له فهم حقيقة الانسان ووجوده وكيانه ورسالته . ويستتبع الانتماء الى أحد المنهجين اختلافاً عميقاً في وجهات النظر إلى كل أمر من الأمـور وقضية من القضايا سواء في مجال السياسة أو الاجتماع أو الاقتصاد أو الفن أو العلم أو التربية أو الحضارة . فأحد المنهجين يتّسم بالتكامل والاتساع والشمول والاستيعاب . ويتصل بالوجود في أزَلِهِ وَأَبَدِهِ ، وبالحياة في إنشاء الله لها . وإنهائها عنـد أجلها المسمى . وإقامة

النشأة الآخرة في حياة الخلود التي يتحقق فيها الجزاء والحساب ؛ بينما يقتصر المنهج الآخر على الظواهر التي لم يستطع العلم أن يتجاوزها . ويقف بالانسان عند حد الموت . ولا يفهم من مهمته إلا سدّ نهمه إلى الرغائب في مجال الطعام والجنس والتملك دون أن يفهم رسالته الحقيقية وغايته الأصيلة في الوجود على هذه الأرض . وهذا الإيمان بالغيب في منهج الاسلام دعامة أصيلة راسخة ، وهو يختلف اختلافاً كبيراً عما وصفه الغرب بأنه التفكير الغيبي الذي عرفته أوربا في القرون الوسطى ، والذي كان جماعاً من الأساطير والخرافات ، وركام الفكر البشري القديم من السحر والأهــواء والأوهام التي شكلتها الثقافات الوثنية في بابــل وآشور بالإضافة إلى المجوسية الفارسية والكبالا اليهودية والهلينية اليونانية والغنوصية الشرقية .

لقد كان هذا هو الفكر الغيبي الذي هاجمته مفاهيم الاسلام حين جاءت بالمنهج العلمي الأصيل في المعرفة القائمة على البرهان والدليل والتحرز من الهوى ، وإنكار مواريث الآباء والأجداد والتماس الحقيقة من خلال الإيمان بالله القائم على عقيدة التوحيد الخالص .

ولقد أطلق الاسلام العقل البشري من قيــوده التي كانت تأسره حول المعابد ، وبين أيدي الكهنة من ذوي الأديان المختلفة ، فارتفع الى مستوى الاعتقاد بحياة وراء هذه الحياة .

## - ٧ -

في تأصيل مناهج البحث يؤمن الفكر الاسلامي بأن المنهج العلمي هو المنهج القائم على الملاحظة والاستقراء وبأن لكل علم منهجه ، وبأن للانسان منهجاً علمياً يختلف عن المنهج التجريبي المطبق على الجماد والحيوان . وبأن المنهج العلمي غير منهج العلم التجريبي . وأنه ليس بالضروري أن يكون مادياً ، بل هو جامع متكامل . وفي ضوء هذا المفهوم نجد أن الفكر الغربي يقيم منهجاً علمياً آخر مخالفاً لهذه الأصول يجعل من المنطلق المادي أساساً ويسوّي بين الانسان والجماد والحيوان في الخضوع لمنهج واحد ، فإذا تجاوز عن ذلك أخضع العواطف والمشاعر والعوامل الروحية والدينية والنفسية إلى التفسير المادي الخالص . هذا الخلاف هو أعمق عوامل الخطر في تطبيق المنهج العلمي الوافد على الفكر الاسلامي والثقافة والأدب العربيين .

وأبرز نقاط الخلاف تتمثل في قضايا ثلاث :

فكرة التقدم – فكرة التطور – فكرة نسبية الأخلاق .

ولا ريب أن المنهج العلمي إنما جاء لوضع حد لتجاوزات الأهواء أو العصبيات أو الانفعال أو المغالاة من أي نوع ، ولكن الحكمة تقتضي أن لا يكون في تجاوز هذه الأخطار مدعاة لتجاوز أصول أصيلة من الفطرة أو من الكيان الإنساني القائم فعلاً . وبذلك يتحرر المنهج العلمي من خطر في التطبيق ليقع في خطأ في الأصول .

إن محاولة محاكمة الانسان إلى منهج التجريب هي بمثابة اقتطاع لمصدر كبير من مصادر المعرفة وتخطٍّ لقيمة كبرى من قيم البحث الأصيل . ويصر المنهج العلمي الغربي على وصف كل ما ليس محسوساً أو مشاهداً بالغيب . ويصف هذا الغيب بأقسى الأوصاف . فإذا نقل هذا المعنى إلى أفق الفكر الاسلامي كان كأنما هو في مواجهة الدين نفسه . والحقيقة أن الغيب في مفهوم الفكر الغربي جد مختلف . وان مفهومه لا ينطبق مطلقاً على الدين بمفهـــوم الاسلام . وإذا راجعنا أصول البحث في مفهوم الغيب في الفكر الغربي نجد صورة من صور الجاهلية والوثنية التي جاء المنهج العلمي الاسلامي لدحضها والقضاء عليها . فلقد حفلت مدائن اليونان بالمعابد والعرافات والنبوءات – أمثال معبد دلف وهرقل وزيوس التي انتشرت فيها مراكز العرافة والكهانة التي كانت لها ركائزها الهامة في الحياة الاجتماعية . حتى أن دساتير مدينة اليونان وقوانينها كانت تعرض على عرافة معهد دلف قبل العمل بها ليقرها ويباركها الإله أبو للو إله علم الغيب والنبوءات فوق أنه إله الشباب والفن . وفي مرحلة أخرى نجد رجال اللاهوت وقد ردوا الأمراض إلى عوامـــل خفية . أهمها حقد الشيطان وغضب الله ، ووصل اعتقادهم في السحر والجـــن والخوارق إلى درجـــة عاليةحتى ردّوا الأوبئة والزوابع والقحط وكسوف الشمس وخسوف القمر إلى فعل الشاطين .

وهذا هو مفهوم الغيب الذي جاء المنهج العلمي الغربي ليعارضه ويقاومه ، ولكن أتباع الفكر الغربي لم ينقلوا هذا المعنى في إطار الصورة التاريخية . وإنما حاولوا نقله ليكون في مواجهة مفهوم الغيب الاسلامي الذي هو حقيقة أساسية في العقيدة الاسلامية . ويقوم على بيّنات أصيلة من الوحي والقرآن والذي لا يتعارض أبداً مع المنهج العلمي بل يكمله ويضع له الجانب المواجه لعالم الشهادة المادي الذي يقف المنهج العلمي الغربي عند أبوابه .

ففي القرآن التقى الوحي والعقل لأول مرة . وقد يعرض الدين شيئاً

يتجاوز حدود الفهم . ولكنه لا يعرض شيئاً يتجاوز حدود الإدراك مطلقاً [١] فالفكر الاسلامي ينكر أن المعرفة الانسانية قاصرة على معطيات الحواس . ولكنه لا يفضل بين العقل والوجدان ، فلا يكبر العقل البشري ولا يلغيه ، ولا يعارض العلم . ولكنه لا يسلم بأنه كل شيء ، فالعلم على قوته لا يتناول سوى مظاهر الحيـــاة الخارجية ، وهو لا يستطيع أن يقول الكلمة الأخيرة . ولا يستطيع أن يتجاوز دائرته في مجال المادة . وهو يلائم بين الكلمة والسلوك ويطابق بـــين الدين والعلم . ويوازن بين العقل والقلب . ويربط بين الفردية والجماعية . وهو لا يقرّ طغيان المفهوم المادي ولا المفهوم الاقتصادي على تفسير الحياة أو تفسير التاريخ ، ولا يقر تقويم كل ما في الحياة بالمال . فذلك منهج العقل الذهبي .

ومن هنا يلتمس المنهج العلمي الاسلامي الفطرة ، فلا يصادم العقـــل ولا يعارض الروح ولا يخالف طبائع الأشياء ، ومن ثم فلا يقع الالحاد في دائرته .

فالاسلام نظـــام اجتماعي وأسلوب للعيش ، لا يقر السلبية والانطوائية والهروب من الحياة . وهو في نفس الوقت لا يقر الترف والسرف والاندفاع إلى الإباحية .

ومن هنا فإن المنهج العلمي الاسلامي يتعارض مع المنهج العلمي الغربي في أصول متعددة : أهمهـــا فكرة التقدم ، وفكرة التطور ، وفكرة نسبية الأخلاق .

وأما التقدم . فالمنهج الغربي ينظر إليه في إطار مادي . ولذلك فهو يحكم بأن البشرية تجري في طريق الارتقاء جيلاً بعد جيل .

أما التقدم في مفهوم الاسلام . فهو تقدم معنوي ومادي في نفس الوقت ، أما التقدم المادي وحده فليس مقياساً صحيحاً .

---

١ ــ محمد عبده : رسالة التوحيد .

أما فكرة التطور المطلق فإنها تخطىء في تقدير المنهج العلمي الاسلامي من عدة وجوه : من حيث أنه لا يوجد تطور مطلق . وإنما هو تطور في إطار الثبات من حيث خط القول بأن الحاضر أكثر تقدماً من الماضي .

أما فكرة نسبية الأخـــلاق والعقائد . وهي مستمدة من فكرة التطور المطلق . فهي مما لا يقره المنهج العلمي الاسلامي ، لأنها تجعل من الدين مجموعة من المبادىء النسبية ، بينما الدين حقائق مطلقة ، وان اعتبارها قابلة للتطور يجعلها تتطور إلى ما لا نهاية ، ولا ريب أن المناهج والأيداوجيات البشرية تتطور حتى تستطيع مواجهة التغييرات . أما الدين الحق فإنه إطار واسع محكم مستقبل لكل المتغيرات دون أن يفقد أصوله وحدوده وضوابطه الثابتة الراسخة على مدى الزمن .

فالاسلام يؤمن بما يتبدل ويتغير حسب البيئات والعصور في إطار ما هو ثابت راسخ ، وذلك في ضوء القاعدة الاسلامية الكبرى التي لا تفصل الدين عن الدنيا ، ولا تفصل الدنيا عن الآخرة . لقد حاولت نظرية فرويد إثبات أن الانسان عبد لنزواته وغرائزه الجنسية ، وأن العقل الباطن هو المسيطر الفعال على توجيه الانسان . وبهذه النظرية أدخل الانسان في حظيرة الحيوان وهو ما يتعارض مع مقررات الاسلام .

ومن هنا فإن محاولة فرض المنهج العلمي الغربي الوافد على النفسية والمزاج والروح الاسلامي من شأنه أن يحدث اضطراباً كبيراً . وقد جرى ذلك في العقدين السابقين من هذا القرن تحت تأثير النفوذ الاستعماري في محاولة لإخراج المسلمين والعرب من مواريثهم ومفاهيمهم وفرض أعراف جديدة عليهم مخالفة لجذورهم وأصولهم . ولما كانت هذه المحاولة مغايرة لطبائع الأشياء بالنسبة لفكر عميق الجذور ، مستمد من منهج رباني محكم ، فقد كان لا بد أن ينكسر قيد التبعية ويتحطم قيد التقليد ويتحرر الفكر الاسلامي من الدائرة المغلقة التي فرضت عليه بنفوذ المنهج العلمي الوافد .

ولا ريب أن منهج البحث ( الأرجانون ) لأي فكر لا بد أن يستند أساساً على خصائص اللغة ، ولذلك فإن منهج البحث العلمي الغربي الوافد إنما يستند الى خصائص لغة ( أو لغات ) غير العربية . ولما كان لكل لغة منهجها الفكري القائم على معانيها ومضامينها الأصلية فإنه من المستحيل استمرار سيطرة المنهج العلمي الغربي الوافـــد على الفكر الاسلامي . وهي نفس التجربة الأولى التي واجهها في القرن الثالث الهجري حين حـــاول المنهج الأرسطي المستند الى خصائص اللغة اليونانية أن يسيطر ، أو يحتوي الفكر الاسلامي. غير أن الطابع الخاص الذي أقيم عليه المنهج العلمي الاسلامي قد كسر هذا التحدي وحطمه . وهذه إحدى خواص هذا المنهج دوماً وهي قدرته على تجاوز أي محاولة لاحتوائه أو إفساد مضامينه ، أما الخاصية الأخرى فهي قدرته الدائمة على تجديد نفسه وإعادة صياغة فكره ، كلما انحرف هذا الفكر أو أصابته دخائل في محـــاولة تحويله عن جوهره .

- ٨ -

إن أبرز ما يتسم به المنهج العلمي الاسلامي ويتجاوز فيه المنهج العلمي الغربي الوافد هو : الترابط بين المادي والروحي في الانسان ، والفصل بين الله الخالق والكون المخلوق . أما هذا الترابط فهو ليس ثنائية ، ولكنه تكامل . واما هذا الفصل فلا يمثل فراغاً ولكنه يحدد العلاقة الحقيقية بين الله والكون .

والاعتقاد بأن الانسان جسم وبَدَنٌ فقط ، ينقص الانسان أكبر عناصر الانسانية ، وهي النفس أو الروح أو ذلك الوجدان المدرك الذي وصف من أجله بأنه من أولي الألباب . فإذا تجاوزنا هذا الجانب في الانسان سقطت فكرة المسؤولية الفردية والالتزام الأخلاقي والجزاء الأخروي ، ومفهوم المنهج العلمي في الاسلام يقيم الترابط والتكامل بين شطري الحياة والانسان . ومن هذا التعامل يقدم هذا المنهج : فطرة الله في الحياة ، وفطرة الله في الغيب . عالمُ الحياة فتح الله للانسان فيه آفاقَ العلم والبحث . وأعطاه فهم النواميس والقوانين التي تمكن من بناء الحياة وإقامة العمران ، وعالمُ الغيب رسمه الله للانسان بالوحي صورة كاملة ليحمي عقله وكيانه من البحث وراءها بالعقل المجرد الذي لا يستطيع أن يصل بمفرده الى اكتناه أسرار هذا العالم .

ويبدو هذا التكامل في الملاءمة بين جسم الانسان وروحه ، وبين عقل الانسان وقلبه ، وبين الخالق والمخلوق ، وبين الدين والآخرة ، وبين العلم

والعمل ، وبين السلوك والجزاء ، وبين الذكر والأنثى ، وبين الحياة والموت ، هذه هي سُنَّةُ الفكر الاسلامي ، وقانونه الأكبر الذي يقدم عليه منهجه العلمي ، فالله خالق والانسان مخلوق . والله هو الأول والآخر ، والكون له أول وآخر .

وفي الانسان تكون الصلة بين الروح والجسد بالانسجام والتكامل دون أن يطغى أحدهما على الآخر ، ولا بد من ترابط دائم بين الحياة والموت على أساس أن الحياة منطلق للجزاء بعد الموت والبعث .

ومن هنا فالمنهج الاسلامي في المعرفة والبحث : يقوم على أساس أنه لا صراع بين الجسم والروح بل تكامل ولا وحدة بين الله والعالم ، بل ارتباط المخلوق بخالقه .

ومن هنا يدعو الاسلام الى ابتغاء الآخرة دون نسيان نصيب الدنيا، وينكر تحريم زينة الله التي أخرج لعباده والطيبات من الرزق ، ثم في نفس الوقت ينكر السرف والترف والتفريط . فهي موازنة دون الرهبانية ودون الانحلال . ومن هنا يتمثل وجود الانسان على هذه الأرض من خلال رسالة ، وفي إطار عقيدة : أما الرسالة فهي عبادة الله بالعمل على الوجه الصحيح ، وأما العقيدة فهي وحدانية الله والإيمان به خالقاً فرداً والكون كله مخلوق له .

ومن خلال هذا المفهوم ينبعث المنهج العلمي الاسلامي على نحو مغاير ومخالف للمنهج العلمي الغربي الوافد الذي يحاول أن يطرح مفاهيم إنكار الألوهية ، وإنكار الغيب وإنكار البعث ، وإنكار الجزاء ، والدعوة الى وحدة الوجود ، والى تأليه المادة ، والى عبادة الأبطال . ومنهج المعرفة في الاسلام حيث يتكامل بالعقل والقلب مما لا يستقل بنفسه . وإنما يتحرك من خلال الإيمان بالله والنبوة

والوحي ، ويعمل في إطار واضح مرن ، واسع الأفق ، له جذوره ، وآفاقه ، وله أسسه الثابتة وركائزه المكينة ، وفيه بعد ذلك اتساع وانطلاق ، وقدرة على الحركة والتشكل ، ويقبل لكل القوانين التغيير والتطور .

ومن هنا فإن الانسان كائن له جسد وروح ، ولا يمكن محاكمته وفق منهج التجريب الذي تحاكم به القوى المادية ، ولا تنطبق عليه التجارب التي تجري على الحيوان ، وله منهجه الخاص الذي يعترف بكيانه ومنه تنطلق المفاهيم الخاصة بمجتمعه ونفسه وأخلاقه وتربيته وشؤونه السياسية والاقتصادية .

والانسان في إطار هذا المنهج العلمي الأساسي : ليس سيد هذا الكون المطلق على نحو ما ترسم بعض فلسفات الفكر الغربي ، وليس حشرة أو ترساً في إله كما ترسم فلسفات غربية أخرى . وليس حيواناً تحكمه الغريزة والجنس كما ترسم فلسفات غربية ثالثة . وإنما هو أشرف المخلوقات ، مستخلف في الأرض بأمر الله ، ليس عبداً مستذَلاً ولا رقيقاً ولا خاضعاً لعبودية إنسان آخر ، مهما يكن ، وليس خاضعاً لوثنية من أيّ نوع ، ولكنه خاضع لله وحده .

والفكر الاسلامي على هذا النحو صالح لكل زمان ومكان وقادر على مواجهة أزمات الفكر والحضارة وليس في حاجة الى تطوير . لأنه ليس بناءً بشرياً يخضع لظروف التحلل والتغير .

فمنهج الاسلام منبثق من الفطرة الأصيلة ، قابل لنواميس الكون والاجتماع . ومن هنا فهو عسير على حملات إسقاطه وشبهات خصومه . وهو في هذا مغاير لمنهج الفكر الغربي الذي لا يستقر على وضع معيّن ، والذي يتحول بين مرحلة ومرحلة ويتغيّر جلده ، لأنه لا يرتبط بأي قاعدة من الثوابت أو الركائز الأساسية . بينما يتحول الفكر الاسلامي ويتطور من داخله بين دورة ودورة ،

ومرحلة وأخرى دون أن يتغير إطاره العام الثابت القائم على التوحيد، والإيمان باليوم الآخر ، والالتزام الأخلاقي ، والمسؤولية الفردية والجزاء بعد البعث ، والانبعاث من نفس الأصول الأولى ، والتجدد الدائم من المنابع الأصيلة .

ومن هنا يبدو الخلاف والتباين بين فكر وفكر ، فكر يثبت على قوائمه ويتجدد من الداخل . وفكر يتطور الى ما لا نهاية دون أن يثبت على أي قيم أخلاقية أو اجتماعية . فكر ينبعث من مفهوم جامع للمادة والروح . وفكر ينطلق من فكرة المادة وحدها .

# - ٩ -

إن المراجعة الواسعة للفوارق والمعارضات بين الفكر الاسلامي والفكر الغربي . تؤكد أنهما عالمان منفصلان قد يؤثر أحدهما في الآخر ، ولكن لا يسيطر الوافد منهما على الأصيل . والتباين يقوم على اختلاف الأساس بين المنهجين ، واختلاف أسلوب البحث ، واختلاف المزاج ، واختلاف النظرة ، واختلاف النفسية ، واختلاف العقلية اختلافاً جوهرياً وعميقاً .

ومن هنا فإن المنهج العلمي الغربي الوافد حين طرح نفسه في أفق الفكر الاسلامي . إنما أراد إجراء محاولات ضخمة لاحتواء الفكر الاسلامي وإذابته ، منها محاولات فرض مفهوم القومية أو الوطنية بديلاً عن العقيدة ، وفرض علم النفس بديلاً عن الدين ، وفرض أيدلوجيات الماركسية والديمقراطية بديلاً عن الشورى والعدل الاجتماعي . ولم يكن في الإمكان فرض هذه القيم وهذه المفاهيم إلا بفرض أصول المنهج العلمي الغربي الوافد الذي يمكن عن طريقه استيعاب هذه النظريات وتقبلها في محاولة لصياغة العقلية الاسلامية ، وأسلوب تفكيرها، ونظرتها الى طبائع الأشياء في قوالب الغرب . وما تزال المحاولة تجري ، ومـا زالت المقاومة مستمرة .

* * *

إن المفهوم العلمي الاسلامي الجامع بين الوحي والعقل . ينبعث من الحقائق الثابتة . بينما المفهوم العلمي الغربي قائم على الفروض والقرائن التي توضع موضع

التجربة . والحقائق غير القرائن . والمفهوم العلمي الاسلامي يقرر أن لكل قيمة وجهين متكاملين : مادي ومعنوي لا انفصال بينهما ، بينما يقرر المفهوم العلمي الغربي ، أن لكل قيمة وجهاً واحداً ، فهو إما مادي فيعترف به ، وإما معنوي فيوضع في حساب الغيبيات . وهذا المفهوم الاسلامي المتكامل قد يعجز العقل الغربي حين يرتاد البحث في الفكر الاسلامي . فلا يستطيع الباحث الغربي استيعابه وفق طبيعته العقلية الجزئية الانشطارية . فإذا كان عمق البيان العربي في اللغة والمضمون عاملاً آخر يعجز الباحث الغربي عرفنا إلى أي حد تتعثر نظريات المستشرقين والباحثين الغربيين حين دراستهم مفاهيم الاسلام .

* * *

ولا ريب أن أي منهج وافد سيلقى في أفق الفكر الاسلامي خيبة وفشلاً . وأن الماركسية والليبرالية والديمقراطية الغربية والقومية الوافدة قد عجزت عن أن تقدم للمسلمين والعرب ما يرضيهم . وقد لقيت صعاباً شديدة في مواجهة اصالة الفكر الاسلامي ومنهجه العلمي المتكامل ، الذي استمد أصوله من منهج محكم رباني تعجز المناهج البشرية أن تقتحمه أو تستوعبه أو تسيطر عليه . وأن هذه المناهج حين تطرح نفسها في أفق الفكر الاسلامي . فإنها سرعان ما ينكشف نقصها وعجزها عن العطاء الذي تتطلع إليه النفس العربية الاسلامية من خلال مفهومها الجامع المحكم الذي أمدّها به الاسلام منذ أربعة عشر قرناً . والذي مهما نحّي عنها قسراً فإنه قائم في أعماقها . ولقد تكشف بوضوح من خلال وقائع التاريخ وتجارب الأمم أن المسلمين والعرب « لا يقادون » إلى نهضة أو إصلاح في مجالات حياتهم إلا في ظل الدين الإلهي الصحيح الذي يروض أخلاقهم ويعبد قلوبهم ويطوع ضمائرهم ويكون أساليب تفكيرهم[1] .

---

١ – من بحث للاستاذ عبد المنعم خلاف .

إن النظرية الغربية الوافدة هي من صنع قوم آخرين أقاموها على مقاييس مجتمعهم وابتدعوها في ظل تحدياتهم الواقعية والتاريخية جميعاً .

ولقد جاءت تبعية المسلمين والعرب للفكر الغربي نتيجة الاستعمار والسيطرة التي فرضها النفوذ الأجنبي على التعليم والصحافة والثقافة ، ولقد كانت مقومات الفكر الاسلامي القائمة على أساس التوحيد حائلة دون انصهاره أو احتوائه ان الاسلام وحده هو المنهج القادر على إعطاء المسلمين والعرب مكانهم الحق في البشرية ، وأن حضارة المسلمين لن تقوم على العلم وحده ، بل على علم من داخل عقيدة . لاسيما وقد بان خطأ اعتناق فلسفة المجتمعات المتقدمة . فقد رفضت روسيا أيدلوجية الغرب . كما رفضت الصين أيدلوجية روسيا[1] .

---

١ – من بحث لجلال كشك .

# الفصل الثاني

## الأخطاءُ في مُقارنَاتِ الأدْيان

### الاسلام في علم (مقارنات الأديان)

١ – إن أخطر ما قدمه المنهج العلمي الغربي الوافد ما أطلق عليه اسم مقارنات الأديان . وهي دراسات تقوم على دراسة الأديان من خلال مناهج بحث مختلفة ، وتنظر إليها من خلال قاعدة أساسية تقول بأن الأديان ظاهرة اجتماعية ظهرت كما ظهرت الجماعة البشرية ، وأنها لم تنزل من السماء . ولا ريب أن هذه القاعدة التي لا يقرها منهج الفكر الاسلامي هي بعيدة الأثر في النتائج التي تترتب عليها . لأنها تنكر أول ما تنكر الوحي والنبوة والقيم الثابتة في الدين كما تنكر عالم الغيب ويومَ البعث والجزاء والمسؤولية الفردية والالتزام الأخلاقي .

ومن خلال نتائج علم مقارنات الأديان تخرج النظريات ، ثم تتحول بعدُ من افتراضات الى حقائق ومسلمات .

٢ – وأخطر الوسائل والأدوات التي يتخذها علم مقارنات الأديان هو المقارنة بين الدين ، وبين ما توارثته الشعوب المختلفة من أساطير ، في محاولة للوصول الى الغاية التي يقصد إليها هذا العلم : وهي الاستنتاج بأن الأديان ليست إلا مجموعة من الأساطير التي لا تصلح إلا للتلهية وإمتاع الخيال .

ولا ريب أن المنهج العلمي الغربي ( الوافد ) لا يخلص من الزيف حين يربط

بين الأديان والأساطير . وأن منهج الفكر الاسلامي يفرق بينهما . وهذا في حد ذاته يكشف عن أن المنهج العلمي الغربي الوافد ليس محرّراً وليس خالصاً من الهوى والعصبية ، وليس حرًّا بالقدر الذي يكفل له الإنصاف والرغبة في الوصول الى الحقيقة .

ولا ريب أن هذه المقارنة ( غير العلمية ) تترك للقارىء أن يستنتج أن الأديان ليست إلا مجموعة من الأساطير ، بينما جاءت الأديان لتحرير البشرية من السحر والقوى الخفية والخيال الخائف الذاهب وراء الأوهام . جاءت الأديان بالحقيقة الساطعة ، فألقت الضوء الكاشف على النفس الانسانية وأخرجتها من ظلمات الأساطير والأوهام .

٣ – ويحاول « علم مقارنات الأديان » أن يصل الى افتراض يروج له المنهج العلمي الغربي الوافد وهو أن البشرية بدأت في طفولتها بالوثنيات . ثم ارتفعت الى التوحيد . وأن الأديان تطورت وتتطور . وهي فروض باطلة تدحضها نصوص التاريخ والوثائق والحفريات . ويدحضها القرآن نفسه . وهو النص الموثق الخالد . فإن آدم أبا البشر . كان على علم ، وكان يعرف التوحيد ويؤمن بالإله الواحد . ومعنى هذا أن البشرية بدأت موحدة ، ثم انحرفت ، وأنها واجهت صراعاً بين الأديان الداعية الى التوحيد والدعوات المادية والوثنية ، وكلما انحرفت البشرية جاءت الأديان ترد الناس الى التوحيد ، الى أن جاء الاسلام دعوة عالمية خاتمة .

ولقد واجه الاسلام قضية التوحيد والوثنية على نحو مستفيض حاسم ، وكشف عن انحراف البشرية الدائم عن عقيدة التوحيد ، وأشار الى عبرة التاريخ وقانون الأمم وناموس الحضارات .

ولا يعترف الاسلام بما يسمى تطور الأديان ، فالأديان السماوية لا تتطور ، وإنما تتطور الأديان البشرية والأيدلوجيات والمذاهب الفلسفية التي لا تستطيع

أن تواجه تغير الأزمان والبيئات . أما الاسلام فإنه دين محكم قد أقامه الله على أصول الثبات وعناصر التغيير والحركة .

ولذلك فإن الاسلام يرفض ما يطرحه المنهج العلمي الغربي الوافد من القول بأن البشرية مرت بثلاثة أدوار هي : ( الخرافة - الغيبيات - العلم ) كما ينكر النظرية الأسطورية الطموطمية عن نشوء الأديان التي تدعي أن الابن أراد الاعتداء جنسياً على أمه فمنعه أبوه فقتله فندم . فنشأت المحرمات . أو القول بأن فكرة الألوهية بدأت بعبادة الحجر والحيوان والانسان . ثم الإله ثم العلم »[١] .

والمفهوم الاسلامي في هذا . هو أن الاسلام بدأ مع بداية البشر ، بدأ بالتوحيد ، ثم وقعت الانحرافات على مدى العصور بتقديس بعض الأشياء ، ثم نسي الناس بمرور الزمن أن هذه الأشياء مجرد واسطة فعبدوها من دون الله . ومع أن بعض العلماء ينكرون فكرة التطور . ويقدمون الأدلة والبراهين على صدق فكرة التوحيد . غير ان ( المنهج العلمي الغربي الوافد ) يحرص دائماً على أن يركز على نظرية التطور ويدفع بها في قوة ويبشر بها في حماسة زائدة في أفق الفكر الاسلامي .

والمعروف أن أفكاراً كثيرة أصر (المنهج العلمي الغربي الوافد ) على التبشير بها . والدعوة إليها مع أنها كانت قد دحضت عند أصحابها أنفسهم وفي محيطهم. ولكنه رغبة في تزييف أفق الفكر الاسلامي وإثارة الشبهات حوله ، قد حرص « التغريب » عن طريق مؤسسات التبشير ، والاستشراق ، والثقافة العالمية ، ومعاهد الإرساليات ، على طرح هذه النظريات والدفاع عنها . والتهوين من شأن ما يكون قد جرى من أجل الاجتهاد فيها ، ولا يقلل هذا التصحيح من خطر المنهج نفسه في أصله وكيانه . لأنه قائم فعلاً على أساس مادي ، وأن هذا

---

١ - عن بحث لمجلة حضارة الاسلام ( .... ) .

الخلاف إنما يجري في الفروع . وقد يعنى البعض بعرض الفرضين : الى جوار بعضها البعض ، ومع كل فرض أدلة تدعمه دون أن يرجح أحدهما أو يحسم الموقف بوجهة نظر الفكر الاسلامي .

٤ – يحاول علم مقارنة الأديان أن يطرح مفهوم الألوهية ( الله ) من خلال تفسيرات تخرج بها عن مفهومها الصحيح . وذلك بالتركيز على التجريد أو التجسيد .

أ – أما التجريد فيحاول أن يعد ( الله ) – سبحانه وتعالى عما يقولون علوا كبيراً – فكرةً مجردة . وقوة خارقة مخوفة ، ولقد كانت فكرة الإله القبلي (رب الجنود) هي طابع المعتقدات الوثنية في العصور المتفاوتة . وجاءت اليهودية فاعتنقت هذا المفهوم : إله شعب من الشعوب بينما يقرر الاسلام أن الله سبحانه وتعالى الرحمن الرحيم . هو رب الناس جميعاً . ومن مفهوم الإله القبلي ظهرت في اليهودية بعد التحريف فكرة شعب الله المختار الذي يفني شعبه كل الأمم . وتهدف محاولة ترويج هذه النظرية الى إذاعة الدعوة الصهيونية ، فكرة عهد الله الى ابراهيم، ومن بعده الى اسرائيل على النحو الذي أوردته (التوراة) . وهي فكرة زائفة . لأن الملك العظيم الذي أعطاه الله لابراهيم إنما عممه في الصالحين من أبنائه جميعاً وذريتهم . ( اسماعيل واسحاق ) ولم يجعله قاصراً على ذرية اسرائيل وحدها .

ولقد أسقط الاسلام النظرة الباطلة التي كانت موجودة حول الإله : الإله المخيف الجبار . وأقام المفهوم الحقيقي لله سبحانه وتعالى الرحمن الرحيم الذي يقبل التوبة ويدعو الى المغفرة . ولا يكلف الله نفساً إلا وسعها . والذي أباح للمضطرين الاضطرار . ولم يجعل التكليف إلا على قدر الاستطاعة .

ب – أما التجسيد فهو محاولة القول بأن الله تجسد في إنسان . ونزل الى الأرض كمخلص يضحي بنفسه فداءً للبشر .

وقد أعـــاد الاسلام توكيد وحدانية الله في مقابل الضعف البادي في تمسك بعض الأديان بهذه الحقيقة الجوهرية[1] . ولقد قرر الاسلام وحدانية الله وقضت تعاليمه على التجريد والتجسيد جميعاً .

٥ – إن علم مقارنة الأديان قد سقــط أخيراً في أيدي اليهودية التلمودية ، التي تحاول بإجراء مقارنتها بــين الدين والأساطير ، أن تمحو قداسة الدين ، وتظهر الأنبياء بمظهر غير كريم ، وتقضي على طابـــع القداسة في النص ، والإيمان في النفوس . ولذلك فقد عمدت الى وضـع الدين في ضوء عدد من المناهج في محاولة لتقديم تفسيرات متعددة متباينة تعين على البلبلة وتستأثر بتفكير الباحثين في المجالات المختلفة . ومن هـــذه المناهج : التفسير السيكولوجي للدين . والتفسير الفيتوميغلوجي للدين والتفسير الفلسفي للدين والتفسير التاريخي للدين . وهـــذه التفاسير تحاول أن تصور الدين . ( أولاً ) بأنه ظاهرة اجتماعية لا رسالة سماوية . ( ثانيـــاً ) أنه علاقة وحدانية أو نفسانية أو تعبدية ، وهي بهذا تتجاهل مفهومه الرباني القائم على الوحي وتنتقص مفهومه الكامل في أنه عبادة ومنهج حياة . وتصدر هذه النظريات في أصولها الأولى من مصدرين ، أولهما مفهوم الدين في الفكر الغربي ، ووفق تفسيرات الأديان . والثاني : مفهوم المذهب المـــادي . ويعرض علم مقارنة الأديان للفلسفات الشرقية الغنوصية وأثرها في الأديان البوذية والهندوكية وغيرهـــا كما يعرض للفلسفات الهلينية وأثرها في الدين المسيحي الغربي ، ثم يعجز العلم عن استيعاب مفهوم الاسلام . تحت تأثير : ( أولاً ) المفهوم المادي الذي يحاول أن يعتبر الاسلام من عمـــل محمد . ( ثانياً ) الهوى والتعصب الديني الذي يحاول أن يعتبر القرآن جماعـاً من الكتب السماوية السابقة . واعتبار أن القرآن كتاب غـــير سماوي . ( ثالثاً ) العجز عن فهم العلاقة بين الألوهية والنبوة – والعلاقة بـــين الله

---

١ – عن نص لأرنولد توينبي .

والعالم . ويرجع هذا العجز الى أمرين : ( أولهما ) عدم قدرة الفكر الغربي على استيعاب مفاهيم تختلف عن مفاهيمه . ( ثانياً ) تأصل مفهوم أن الكتاب المقدس هو من عمل الرسل . وأن العلاقة بين الله والعالم في الفكر المسيحي تقوم على وحدة الوجود . ومن هنـــا فإن أحكام ( المنهج العلمي الغربي الوافد ) تعجز عن فهم مجموعة من الحقائق الأساسية هي :

**أولاً** ــ ان الاسلام رسالة سماوية وان محمداً ﷺ هو النبي الموحى إليه بالقرآن ولأن الاسلام والقرآن هما من عنـــد الله شأنهما شأن الأديان والكتب السماوية التي أرسلها الله للبشرية . ولذلك فإن هناك لا ريب اتفاقاً بينهما في الأصل وهو توحيد الله واليوم الآخر ، والجزاء والأخـلاق والشرائع وإن اختلفت التفاصيل .

**ثانياً** ــ ان الله سبحانه وتعالى لا يتجسد في أي صورة من صور الناس . وليس له ولد ، وأنه خالق العالم . ولذلك فإن بين الألوهية والنبوة ــ كما بَيْنَ الله والعالم ــ فواصل لا يمكن أن تمتزج أو تتحد .

**ثالثاً** ــ ان القرآن هو كتاب الله المنزل ، أما الكتاب المقدس فهو من عمـــل الرسل . وليس منزلاً من عند الله باعتراف جامع من الباحثين والعلماء في المسيحية واليهودية .

**رابعاً** ــ ان الآلهة المتعددة ليست هي الله ، فالله هو الخالق الأول والآخر الذي لا شريك له ، ليس كمثله شيء ، والله سبحانه هو خالق الانسان . وهو صانع المنهج للانسان وللبشرية . والانسان من خلق الله، وهو مستخلف في الأرض . وان الحق تبارك وتعالى هو مالك الملك ، وهو يمسك هذا النظام المترابط في كل لحظة . وانه لو تخـلى عنه لتلاشى وانتهى . وهو خالق العالم وهو الذي يديره لحظة بعد أخرى . وانه سبحانه يعـــلم الكليات والجزئيات ؛ ونواميس الكون وقوانينه هي من صنـع الله ،

وهو وحده الذي يخرق هذه النواميس ، وهو المحيـــط بالعوامل التي تخفى علينا .

ولقد فصل الاسلام بين الألوهية والبشرية فلا يمكن أن يرقى الانسان الى مرتبة الألوهية ، وألغى الوساطة بـين الله والانسان . ولا يقر الاسلام مظهراً إنسانياً لطبيعة إلهية . وجملة مفهوم الاسلام أنه فصل بين الله والعـالم ، وفصل بين الألوهية والبشرية . فلا يمكن أن يرقى الانسان الى مرتبة الألوهية .

٦ – ان أغلب نظريات تاريخ الأديان ومقارنة الأديان تقوم على مجرد افتراضات، وان مفهوم الدين في أغلب الأيدلوجيات قـــاصر بالنسبة للمنهج العلمي الاسلامي ( مفهوم ماركس وسارتر وفرويد ) والمدرسة الاجـــتماعية . وعندما قال ماركس إن الدين أفيون الشعوب كان ينظر الى تاريخ أوربا وحده. حيث أصبح الدين في أوربا وسيلة لتخدير الجماهير وتبرير استغلالها. وقد غالى كارل ماركس في حملته على المسيحية ، زاعماً أنها هي التي بررت الرق والاستعباد . ويعني هـــذا أن الدين يصبح غير ذي موضوع في الماركسية . كذلك فإن التعريف الذي وضعه المنهـج العلمي الغربي للدين لا ينطبق على الاسلام ، لقد نادى فلاسفة أوربا ومفكروها بفصـل الدين عن الدولة ؛ لما تبين لهم أن الدين لا يصلح أن يكون منهاجاً تسير في ضوئه الحياة المتطورة .

٧ – ان أخطر مقررات علم مقارنة الأديان هو مفهوم الدين نفسه : « فالدين على ما فهمه علماء أوربا هو الذي ينظم علاقة الانسان بالله » ، « فلا علاقة[1] له بالحياة السياسية ولا بالأوضاع الاجتماعية ، ولا بالقوانين والنظم ، ولا يصح أن تبنى عليه الجامعة الوطنية » . وليس هـــذا المفهوم صحيحاً بالنسبة للاسلام . فالاسلام جامعة فكر ، ورابطة عقيدة .

---

١ – من بحث لأحد علماء الاجتماع الاسلامي .

٨ – إن موقف الفكر الاسلامي من قضية المـــادة والفكر يختلف عن موقف المنهج العلمي الغربي . فحينما[1] تقول المادية : ان المادة هي الوجود الأول ، فإن الاسلام يقرر بخلافها معاً أن المادة والفكر كلاهما بعكس الآخر . ولا يسبق أحدهما الآخر ، فالطبيعة مادة وفكر ، والانسان مـــادة وفكر وهما معـــاً خلق الله ، الواحد الذي يدبر أمرهما بعلم واحد يسبقها ويتجاوزهما .

٩ – ان الفهم الغربي للعقائد والألوهية قـــد نشأ مستمداً من صورة الدين التي عرفها الفكر الغربي وان المفهوم الاسلامي للدين لم يكن موضوعاً في تقدير أصحاب النظريات ( ماركس – فرويد – سارتر – دوركايم ) تعصبـاً أو جهلاً . وأقل تصوير للألوهية ما يردده ينتشه حين يقول ( لو كان هنـاك آلهة من البشر فكيف أطيق أن لا أكون أنا إلهاً ) ولو تجـاوز الفلاسفة التعصب والهوى لأتاحت لهم معرفة مفهوم الاسلام تقديراً مختلفـــاً لفهم الانسان والحياة والمجتمع .

١٠ – ان طابع العقيدة التلمودية واضح الأثر في محاولة احتواء الفكر الغربي . وفرض سلطان اليهودية عليه . وقد أشار الى هـذا المعنى المؤرخ الكبير ( أرنولد توينبي ) . ولا ريب أن الروح التي تسيطر على الحضارة الغربية في الاستعمار والتسلط والمطامع ليست هي روح المسيحية بقدر مـــا هي روح التلمودية . كذلك فإن الترويج لعقيدة نهاية الحياة بالموت ، وإنكار البعث فكرة تلمودية فشت الآن في مناهـج الفكر الغربي وسيطرت على كل الفلسفات والمذاهب الحديثة .

ولا ريب أن الدعوة الى إنكار عقيدة البعث إنمـا يهدف الى إلغاء المسؤولية الفردية ، والالتزام الأخلاقي الذي هو قوام أمانة الانسان في الحياة الدنيـــا .

---

١ – أحمد موسى سالم : في بحثه جريدة الأخبار سنة ١٩٧٢ .

فإذا انحلت هذه العقيدة « قادت الناس شهواتهم وضاعت الشكائم التي تملكهم . وأصبح المرء لا يرى له حياة إلا هذه الحياة ، فاندفع يحصل الشهوات ويقتحمها من كل سبيل . واذا لم يكن هناك جزاء تفتحت الغرائز واندفعت الى الشر » .

وتحاول الفلسفات التلمودية المطروحة من خلال فرويد وسارتر وماركس ودوركايم وليفي بريـل أن تقول بأن الجزاء يجري في الدنيا وكذلك العقاب . كما تحاول أن تبث فكرة أن الجنة على الأرض ، وان البعث هو عودة اليهود الى السيطرة على العالم .

١١ – في مواجهة مفاهيم عـــلم مقارنات الأديان يقف الفكر الاسلامي موقف الصلابة في إنكار فكرة وحدة الوجود التي تكاد تكون حجراً أساسياً في الفكر الغربي الديني . وكذلك في الفكر الغنوصي الشرقي كله .

ذلك أن القول بوحدة الوجود ؛ إنما هو نفي للألوهية وإثبـــات للكائنات وحدها . ووحدةُ الوجود عنوان آخر للالحاد بوجود الله ، والاعتقاد بأن المادة وحدها الموجودة . ما دام لا يوجد شيء وراء هذا العـالم فالقول بأن الله داخله هو صورة أخرى للقول بنكرانه . والقول بوحدة الوجود تفكير هندي قديم ، وهم يتصورون أن العالم أزلي أبدي . وأن الأرواح تخرج من أجسادها لتعود في أجساد أخرى . وقد تكون أجساد حيوانات . وان قصة الحياة تدور في هذا النطاق المحصور وتبدأ من حيث تنتهي . ومفهوم وحـــدة الوجود يقضي على قاعدة المسؤولية التي هي منـــاط الثواب والعقاب . ومفهوم الاسلام يقوم على القول بأن الله سبحانه وتعالى هو واجب الوجود : وهو الأول والآخر لا يسبقه شيء ، وهو علة كل موجود ، وهو واحد سرمد ، لا يحده زمان ولا مكان . وان الكون ممكن الوجود وهو صادر عن شيء يسبقه ، وغير قائم بذاته .

أما القول بحلول الخالق في المخلوق أو تجسد الخالق فمن المعتقدات البـاطلة التي تناقض مبدأ التوحيد لأن الله هو الموجد الحقيقي ، وأما الانسان فهو كائن

يستمد وجوده من الله ـ شأنه شأن الكائنات الأخرى ـ ويقرر الاسلام أن فكرة الحلول ـ كفكرة وحدة الوجود ـ تناقض مفهوم التوحيد وتنزيه الله عز وجل عن الخلق . وهي لكونها تستتبع فكرة التناسخ تجعل من الله موجوداً منتقلاً . وذلك يتنافى مع صفات الله : كالبقاء والقيام بالنفس . وقد دخلت هذه المفاهيم الزائفة الى الفكر الاسلامي في مراحل مختلفة وأثرت في مفاهيم التصوف والأخلاق ( على النحو الذي عرف عند محيي الدين بن عربي والحلاج وابن سبعين .

ولا ريب أن إعجاب المستشرقين والمفكرين الغربيين بمفاهيم التصوف الفلسفي ، والاعتزال ، والتركيز عليها وإذاعتها إنما يرجع الى أن هذه المفاهيم تنحرف بالاسلام عن مفهومه الأصيل وذاتيته الخاصة وتدخله في تبعية الفكر الغربي المسيحي . فيبتعد الاسلام عن مقدرته الفائقة في بناء الفرد والأمة ، ويقضي على روحه وحيويته ، ولا ريب أن فكرة الحلول تقول بالطبيعة المزدوجة الإلهية والانسانية ، وهذا كله يقضي في النهاية على هدف الشريعة التي أقامها الاسلام لبناء نفس الفرد ووضع مثل أعلى رباني أمامه .

ولما كان الاسلام حريصاً على تحديد مفهوم التوحيد ، فقد أعلن توحيد الألوهية . ولم يكتف بتوحيد الربوبية الذي كان موجوداً في أهل مكة قبل الاسلام وحمل معه جريرة الشرك : فتوحيد الربوبية هو الايمان بالله خالقاً ورازقاً . وقد أقر به المشركون في عصر النبي فلم يجزهم شيئاً ، أما توحيد الألوهية فيقوم على إخلاص العبادة والعمل كله لله وحده . وهو ما لم يقرّ به المشركون في الجاهلية .

١٢ ـ حاولت علوم مقارنات الأديان أن تطرح مفهوماً للبطولة والمثل العليا . وللمنهج العلمي الاسلامي مفهومه الواضح في الفارق بين النبوة والعبقرية ، وفي المثل الأعلى ، الذي يختلف اختلافاً واضحاً عن المنهج العلمي الغربي الوافد .

فالمنهج العلمي الغربي الوافد يحاول أن يجرد الأنبياء والرسل من صفة الوحي والنبوة ، وينظر إليهم على أنهم أبطال ودعاة حرية وعباقرة وأناس ممتازون عرفوا أزمات أممهم وقاموا لإصلاحها ، وقد استمد المنهج الغربي هذا المفهوم من طابعه الماديّ الخالص الذي ينكر عالم الغيب بكل ما يتصل به من قيم وحقائق .

أما المنهج الاسلامي العلمي الأصيل الجذور ، المنطلق من خلال فكر هذه الأمة ، فإنه يفرق بين النبوة من ناحية ، وبين البطولة والعبقرية والزعامة من ناحية أخرى . أما النبوة فهي ذلك الاختيار الإلهي لفرد من البشر ليحمل رسالة السماء الى الناس مؤيداً بالوحي وبالمعجزة وبالبينات، هذا النبي ( كل رسول نبي والنبي أعمّ من الرسول ) مكلف بتبليغ شريعة الله الى قومه وبلسانهم ، ثم كان محمد ﷺ خاتم الرسل مبعوثاً الى العالمين كافة . أي الى الإنس والجن . ويتميز أنبياء الله بالصدق ، والفطانة ، والأمانة العلمية ، وسلامة الأبدان ، وفيما عدا هذا فَهُمْ « مساوون[1] لباقي النوع الانساني : يأكلون ويشربون وينامون ويألمون ويمرضون ويصابون بالأذى والبلاء ويموتون » .

أما العبقرية والبطولة فهي أمر دون النبوة بمراحل «وليس مبناها على الوحي من الله ، إنما هي نوع من الإلهام والقدرة على الابتكار وحل الأمور حلاً موفقاً » وقد أطلق العرب لفظ العبقرية على الفاخر من كل شيء . ويمكن أن توصف العبقرية بأنها « الإلهام بغير نبوة » وهذا ما عبر عنه النبي محمد ﷺ حين قال : ( لقد كان فيما قبلكم محدثون ) أي ملهمون في إصابة الحق والصواب . وفي حل المعضلات وفي ابتداع ما لم يسبقوا إليه ( فإن يكن في أمتي أحد فإنه عمر بن الخطاب ) . والمحدث الملهم بالصواب . ومن هنا فإن النبي لا يوصف بالعبقرية أو

---

١ – دكتور علي القماري : بحث في مجلة الأزهر سنة ١٩٦٢ .

البطولة أو الزعامة أو القيادة أو أنه رسول الحرية . فتلك معان مـــادية وهي دون مكانة النبي .

★ ★ ★

ويتصل بهذا موقف الاسلام من البطولة وتخليدها . فإنه لا يخلد البطل وإنما يخلد العمل ، ومن هنا فقد كان تحريم التماثيل والصور لا يرمي الى تجـاوز مفهوم الأوثان والوثنية « وإنما للاسلام ملحظ أدق من هذا : هو أن الاسلام عمـل على تحرير النفس الانسانية من التعلق بالأشخاص الفانين ومن تعظيم صورهم ، وقـد كان الرسولِ يقول لأصحابه : لا تعظموني كما كانت تعظم الأعاجم ملوكها ، ولا تجعلوا قبري وثناً ، والمقصود هو أن يتعلق القلب بالله الواحد القهـار ، والنفي القاطع أن يكون هناك بشر يتعلق به الناس على جهـة الإكبار ، والابتعاد عن الفناء في هذه الشخصيات » ومن هنا فإن « التماثيل تصرف القلوب عن التوحيد وتدعو الى فناء الشخصية في عبادة الفرد . فالتماثيل المقامـة هي ذريعة لعبادة الفرد وإلغاء الشخصية الانسانية في إنسان كان جباراً في يوم مـــا ، ولكن الاسلام يقصد الى تحرير النفس الانسانية وتحقيق ذاتيتها ، وهذا هو الملحـــظ الذي لم يقع عليه العلماء مما ترتب على إلغاء الذاتية الانسانية وأحدث فراغاً بين الذات الانسانية وبين خالقها فيما لا يتعلق إلا بالله[1] .

١٣ ـ أما فيما يتعلق بالمثل الأعلى . فإن المنهج العلمي الغربي الوافد يُقَدِّمُ نماذج مختلفة متضاربة ، ولا يقـــدم مفهوماً واحداً ؛ يقدم صورة المسيحية في القديس المتبتل الزاهد في الدنيا معتزلاً الناس في الأديرة منعزلاً عن الحياة والناس ، مختلطة بنظرية السوبرمان التي قال بهـــا نيتشه والتي تتمثل في ذلك الانسان الطاغية المستبد الأناني الجبار الذي يعتصم بالظـلم والقسوة

---

١ ـ دكتور محمد سعاد جلال من بحث له عن المفاهيم الاسلامية .

والجبروت . ويحتقر الصبر والحلم ، ويطالب بالقضاء على الضعفاء والمرضى ، ومنه ينطلق مفهوم « المنفعة » التي يقوم فيها العمل على أساس تحقيق غايات مع النسبية المتغيرة بتغير الزمان والمكان .

وهذا المفهوم الذي يقدمه المنهج العلمي الوافد يتعارض ويختلف مع مفهوم المنهج العلمي الاسلامي الذي يتمثل المثل الأعلى في الله سبحانه وتعالى ، وفيه تجتمع الكمالات المطلقة أقصى ما يستطيع عقل بشري أن يتصوره[1] .

(وَلَهُ ٱلْمَثَلُ ٱلْأَعْلَىٰ فِي ٱلسَّمَٰوَاتِ وَٱلْأَرْضِ) . « وإذا كانت الرحمة في المسيحية رأس الكمالات . وإذا كانت القوة عند نيتشه قمة الفضائل . فقد جمع الله تعالى ( في الاسلام ) بين الرحمة والقوة في تعادل وتوازن فالله تعالى رحمن رحيم ودود غفور ، وهو تعالى في نفس الوقت قويّ قادر منتقم قهار جبار . وصفات الرحمة والمحبة فيه تعالى لا تطغى على صفات القوة والجبروت ، كما أن صفات القوة والجبروت لا تطغى على صفات الرحمة والمحبة والغفران «فالله تعالى هو المثل الأعلى لكل من آمن بالاسلام ، فمن اهتدى بهدي الاسلام حق عليه الاقتداء بالله ومحاولة التحلي بصفاته الحسنى « والله تعالى يأمر عباده بمزاولة حياة القوة والبطش حين يدعو الداعي الى القوة والبطش ومباشرة الرحمة والحنان حين تـمسُّ الحاجة الى الرحمة والحنان. وهو يصف عباده برد العدوان. وإن حرم عليهم أن يبدأوا بالاعتداء (وَقَاتِلُوا فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ ٱلَّذِينَ يُقَاتِلُونَكُمْ وَلَا تَعْتَدُوا) ويدعوهم الى المصابرة والمرابطة والإعداد والثبات في مواجهة العدو. وبهذا قضى الاسلام على الاستكانة والخنوع والمذلة والمسكنة، وأكد تعالى فكرة القصاص (وَلَكُمْ فِي الْقِصَاصِ حَيَاةٌ) ، وجمع الاسلام

---

١ – من بحث للدكتور توفيق الطويل عن المثل الأعلى .

بين الرحمة والمحبة والحنان ، ودعا الى القوة والفتك، وحذر المؤمن من استخدام قوته في الاعتداء على غيره . وإن أوجب أن ينهض لرد العدوان » .

١٤ – قرر الاسلام في مواجهة علم مقارنات الأديان الوافد حقائق أساسية أهمها : أن العالم ليس سرمدياً وليس أزلياً ، وأن المجتمع كل متكامل يحمل الأقوياء فيه الضعفاء . يقوم على وحدة الجنس البشري وينكر العبودية والعنصرية ، وان منهج المعرفة له جناحان : هما الروح والعقل . وأنه لا قداسة للعقل والإشراق ولا رهبانية . وان أخلاق الاسلام أخلاق تقوى ، وأنها تقوم على تأكيد الالتزام الخلقي والمسؤولية الفردية .

# الفصل الثالث

## أخطاء الشريعة والسنة

ترجع أخطاء المنهج العلمي الغربي الوافد في مجال الشريعة والسنة الى مفهوم هذا المنهج للدين وصلته بالوحي ، ولما كان المنهج العلمي الوافد يقوم على أساس أن الدين ظاهرة اجتماعية خرجت من الأرض كما خرجت الجماعة نفسها ( على حد تعبير الدكتور طه حسين نقلاً عن دوركايم رأس مدرسة العلوم الاجتماعية ) فإن مفهوم الاسلام : عقيدة وشريعة يصبح خاضعاً لنظرية الدين المقارن التي تقوم على أساس تطور الأديان . ومن هنا فإنها لا تستطيع أن تستوعب الألوهية أو النبوة أو الوحي .

ومن هنا تجيء أخطاؤها بالنسبة للشريعة ، كما جاءت بالنسبة للعقيدة ، ومن هنا أيضاً يواجه الفكر الاسلامي تلك المحاذير التي تتمثل في النظرة الجزئية وطابع الانشطارية الى مفاهيم الرسالة والرسول ، والشريعة ، والسنة وغيرها .

ولقد كان حقيقاً بالمنهج العلمي الغربي أن يحاكم الاسلام وفكره الى منهج يختلف من حيث النظرة الى الدين واللغة والتاريخ ، والعوامل المختلفة الأساسية التي تشكل مناهج البحث في كل فكر وأمة ولغة .

ولا ريب أن فرض منهج فكر معين على فكر آخر هو عمل توجيهي تحكمي ولكنه لن يكون عملاً علمياً منصفاً . ذلك أنه يفرض أساليب وأهواء ومطامع أمة من الأمم على الأمم الأخرى .

فإذا كان المنهج العلمي الغربي في طبيعة تشكيله ليس منهجاً عاماً ولا إنسانياً لخضوعه الى دين الغرب وإعلاء الدم والجنس الغربي الأبيض ، وقيامه على النظرة التي تكتب التاريخ بادئاً بالغرب منتهياً بالغرب ، مع تجاهل أدوار الأمم الأخرى مهما كانت عظمتها وأثرها ، والفترة التي قامت بها ( والمعروف أن حضارة الاسلام قامت وحدها ألف عام كاملة وتركت بصماتها على فكر وثقافة ولغات جميع الأمم التي اتصلت بها ) ومع ذلك فالغرب يتجاهل هذه المرحلة ، ويرى أن الحضارة الرومانية انتهت عام ٤٥٠ م وأن الحضارة الغربية بدأت عام ١٤٠٠ م وأن الفترة بينهما هي العصور الوسطى المظلمة ، نعم هي مظلمة ولكن في أوربا وحدها . أما في العالم كله فقد كانت عصوراً مضيئة .

من هذا المنطلق : منطلق خصوصية المنهج العلمي الغربي وعنصريته ، نجد النظرة الى الاسلام وفكره ورسوله وشريعته نظرة يحكمها الهوى والتعصب . ونجد الدراسات منطلقها من عدة مواضع .

أولاً – محاولة الغرب الدائبة في السيطرة على عالم الاسلام حتى لا يستطيع أن يصل الى مكان القيادة العالمية أو التكامل والوحدة .

ثانياً – ما تزال مفاهيم الصراع بين الامبراطورية العثمانية وأوربا ، والتي امتدت ثلاثمائة عام تحكم النظرة بين الشرق والغرب من خلال منطلق يوصف بأنه الصراع بين المسيحية والاسلام ، وعلاماته في الغرب عدوان الحروب الصليبية على المشرق وحروب الفرنجة على المغرب وعدوان الاستعمار الغربي الحديث على العالم الاسلامي كله والسيطرة عليه .

ثالثاً – المفهوم القائم في الذهن الغربي والذي يحكم المنهج العلمي الغربي ، وهو أن أي تقدير للفكر الاسلامي ، أو تاريخ الحضارة الاسلامية يعارض نظرية الاستعمار التي تقوم على تمدين الشعوب المتخلفة والتي تبرر الاستيلاء والسيطرة بأن أوربا متقدمة والبلاد الاسلامية العربية متخلفة .

ويدخل الى هذه العوامل عامل جديد هو : المحـاولة الدائبة التي تفرضها الصهيونية العالمية في مواجهة العروبة ( فكراً ، وحضارة ، ولغة ، وتاريخاً ) من أجل تزييف الحقـائق وتبرير غزوها وسيطرتها على فلسطين وبيت المقدس وتوسعها من أجل إقامة امبراطورية يهودية في قلب العالم الاسلامي ترث النفوذ الاستعماري القديم .

وقد حاولت هذه الظاهرة الجديدة أن تستوعب الظواهر الأخرى وأن تحكمها وتستغلها .

## - ٢ -

ولقد كانت شخصية الرسول محمد بن عبد الله ﷺ موضع تزييف خطير من جانب الباحثين وكانت نظرتهم مستمدة أساساً من المنهج العلمي الغربي الوافد وقائمة على أصوله .

فمن خلال مفهوم المنهج العلمي الغربي الوافد تجري محاولة لتصوير النبي محمد في صورة المصلح أو الثائر الذي « تتجمع فيه مطامح قومه وآمالهم » من أجل « نقل الأمة من وضع اجتماعي إلى وضع آخر » فهم ينكرون جميعاً مسألة النبوة والوحي ، ويرون أن القرآن من عمـــل محمد ، ويقررون أن ( محمداً ) ظهر في قومه في عهد ضعفت فيه الوثنية وفسدت المجتمعات وتهدمت الدول الكبرى والامبراطوريات ، وكانت الجزيرة العربية قد استعدت للنهوض فلما دعاهم نهضوا .

أما القرآن فهو « فيض وجدان محمد وصورة من انطباع نفسه بما كان يدور حوله ويقع أمام عينيه ، والوحي في نظر المنهج العلمي الوافد ليس إلا وحياً من داخل النفس لا من مصدر خارج عنها ، أي من « العقل الباطن لا من رب العالمين » .

ولا ريب أن هذا المفهوم يتعارض تماماً مع مفهوم الاسلام ويختلف معه في

أصوله وفروعه . أما الجزيرة العربية فقد كانت على قدر كبـــير من قسوة الجاهلية . وكانت مقاومتها لدعوة الاسلام ثلاثة عشر عاماً أبلغ دليل ، وكانت حربها للرسالة والرسول في معــــارك متعددة من أصدق الأدلة على أنها لم تكن مؤهلة لأي نهضة ، وان الاسلام هو الذي بنى الجماعة الاسلامية وشكلها في مكة ، ثم أقام بها الدولة في المدينة ، واستطاع في خلال ثلاثة وعشرين عاماً أن يدخل فيها شبه الجزيرة كلها ، وان مفاهيم الاسلام وقيمه وشريعته هي التي شقت طريقها في العالم كله محررة الأمم والنـــاس من عبودية القيصريات والامبراطوريات داعية إلى العدل والإخاء الانساني على نحو لا يستطيع المنهج العلمي الغربي الوافد استيعابه لأنه يقوم على أساس الإيمان والعدل وتحرير العقول والقلوب من الوثنية وتحرير الانسان من العبودية .

أما تلك الصورة الباهرة التي تكشف عنها سيرة الرسول فهي ليست من صنيع البطولة أو العبقرية أو العظمة الفردية إلتي تتمثل في المصلحين أو الثوار . ولكنها شيء آخر لا يفهم إلا على أساس فهم رسالات السماء ورسل الله الذين أرسلهم الى البشرية . وكان خاتمهم محمد بن عبد الله .

أما القرآن فهو وحي السماء وكلام الله ، وليس من صنيع محمد أسلوباً أو مضموناً . فإنه يختلف ويتجاوز كثيراً مقدرة البشر ومفاهيم عصر النبي ، والنبي مذكور فيه على أنه عبدٌ ، وأنه بشر يأكل الطعام ويمشي في الاسواق ، يعيش ثم يموت ، وأن الأمر كله لله وحده الذي توجه إليه العبادة ، خالق كل شيء ، صانع الكون والانسان ، وصاحب النواميس وقوانين الطبيعة والاجتماع ، وما كان للنبي محمد أن يستوعب ذلك ، وما كان ذلك كله موجوداً في ذلك العصر حتى يمكن أن يستوعبه النبي الأميّ الذي لم يكتب ولم يقرأ . والذي ما قرأ كتب الأقدمين ولا وعى آثارهم .

فالقرآن من خارج نفس محمد ، ومن رسالة السماء ، ولو كان من عند غير

الله لما استطاع البقاء . تلك الأجيال ، ولما عجز البلغاء عن محاكاته أو قول مثله ، ولو كان من عند غير الله لوجدوا فيه اختلافاً كثيراً .

أما محاولة القول بأن القرآن جماع لما جاء في التورات والانجيل ، فلا ريب أن هناك حقائق أساسية للدين الحق المنزل من السماء وأصولاً عامة لا تختلف فيها الأديان ، ولكن ميزة القرآن أنه الكتاب الذي أنزله الله ولم يصل إليه التحريف أو التغيير أو التأويل .

ولقد شهد كتاب الغرب على منهجهم بالتعصب ونقص الاستيعاب والعجز عن فهم الاسلام وقرآنه ونبيه وأشار أمثال كرادي فو وغيره إلى هذا المعنى حين قال : « إن محمداً ظل وقتاً طويلاً معروفاً في الغرب معرفة سيئة فلم توجد خرافة أو فظاظة إلا نسبوها إليه » وأشار دورمنجم إلى هذا المعنى حين قال : « هب الكتاب والشعراء المرتزقة من الغربيين يهاجمون العرب ولم تكن مهاجمتهم إلا تهماً باطلة بل متناقضة » .

وأخطر ما يمثله المنهج العلمي الغربي من زيف ومعارضة لأصول العلم والبحث ما كانت تنطوي عليه موسوعة لاروس من القول بأن النبي محمداً كردينال لم ينجح في الوصول إلى كرسي البابوية مما دفعه إلى أن يخترع ديناً جديداً لينتقم من زملائه الكرادلة .

ومن عجب أن نجد المنهج العلمي الوافد يقوم أحياناً على المساومة والتلبيس على الحق فيقول أحدهم « حسب الرسول نبوغاً في العقل والفكر أن ترك هذا الكتاب : أي القرآن » أو يقول أحدهم أليس من الخير أن يعظم محمد بأن ينسب إليه هذا القرآن من أن يكون « ساعي بريد » .

أما المنهج الاسلامي الأصيل فيرى أن الرسول صادقاً أميناً مبلغاً أمر ربه أعظم من أن يكون كما يريدون كاذباً مدعياً ما ليس له .

## - ٣ -

اما الشريعة الاسلامية فتواجه من المنهج العلمي الغربي نظرة خطيرة ، حيث لا يؤمن هـــذا المنهج بوحي السماء ، فهو ينظر الى الشريعة المنزلة نظرته الى الأعراف . وينظر الى الأخلاق نظرته الى العادات والتقاليد .

ولذلك فقد سقط كثير من الباحثين الغربيين في محاذير عجزوا منهــا أن يفرقوا بين الشريعة والعرف . ( وموقف جولدزيهر وشاخت ) في هذا الصدد معروف للباحثين جميعاً .

فهناك المحاولة التي تقول ان الشريعة أحكام متطورة بتطور الزمان والبيئات. وتحاول أن تلتمس ملتقطات تقول بتغير الأحكام ، أو جواز ترك النص واتباع العادة ، وهي محاولة خطيرة تحاول أن تركز على القول بقابلية الشريعة للتطور. ( دون تقدير لمدى الأصول الثابتة التي لا تتغير ولا تتطور ) . وذلك من أجل استخدام الشريعة في تبرير أنماط الغرب الفكرية والاجتماعية .

والمنهج العلمي الاسلامي يختلف في هذا مع الفكر الغربي فهو لا يقر التطور المطلق . ولكنه يؤمن بالأصول الثابتة ، ومن داخلها الفروع المتغيرة .

وهناك محاولة أخرى تقول : إن أساس المعاملات هي رعـــاية حاجات الناس والمصلحة العامة ، وليس هذا القول صحيحاً على إطلاقه . وهو يعني أن المصلحة هي التي توجه النصوص وتفسر الآيات ، ولا ريب اننـــا حين نخضع

التشريع للمصلحة نقع في خلاف كبير في تقدير المصلحة[1] . كذلك هنـــاك محاولات لتقييد بعض التفصيلات ومحاولة انتزاعها وإقامتهـا كحقائق مستقلة كالقول بأن المعاملات هي أمور فصل فيها النبي وتركها للمسلمين حين قال ( أنتم أعلم بأمور دنياكم ) ولا ريب أن النبي حين قال هذا عن تأبير النخل ، لم يكن ذلك الأمر من المعاملات . وهكذا يبدو المنهج العلمي الغربي الوافد وكأنه محاولة لالتماس الأهواء لا للوصول الى الحقائق الأصيلة .

---

١ - دكتور علي القماري : مجلة الأزهر ١٩٦٥ .

## - ٤ -

ومن زيوف المنهج العلمي الوافد: هذه المحاولة بالقول بأن الشريعة الاسلامية عظيمة ، ومن أبرز مظاهر عظمتها أنهــا تتسع لجميع التشريعات الحديثة التي تفرضها الحضارة والعصر الحديث ألا وهي : تبدل الأحكام بتبدل الزمان . وقد نجح علماء الغرب في مؤتمرات متعددة في السنوات الأخيرة من أجل إثارة هذه الخدعة الباطلة واستخلاص قبول لها من علماء المسلمين .

ولقد يذهب بعــض المتابعين للمناهج الغربية الى الإشارة بمرونة تطبيق الشريعة[١] « حتى تبلغ هذه المرونة حد الميوعة وانعدام الذات والمقومات التي تجعلها صالحة لأن تكون ذيلاً لأي نظام وتبعاً للأهواء . وبذلك تنتهي الى إلغاء وظيفة الدين لأنه لا بد أن يُقوِّم عوج الحياة بنصوص الشريعة » لا أن يحتـال على نصوص الشريعة حتى يبرر بها عوج الحياة المعاصرة .

وقد أشار الى هذا الخطر دكتور محمد محمد حسن حين قـال : « إن أخطر الأخطار هي الجهود المبذولة لهدم الاسلام أو تطويره وجعـله آلة من آلات الدعاية الغربية » وتحمل هذه المحاولة اسم تقارب القيم « وهذه القيم لا تتقارب ما دامت الشعوب الاسلامية تعيش على قيم ثابتة تخالف قيم الغرب: هي قيم الاسلام. فلا بد إذن من أحد حلَّيْن : إما أن يمحي هذا الاسلام بتشكيك الناس فيـه

---

١ - دكتور محمد محمد حسن - نقد كتاب الثقافة في الاسلام .

وفي الأسس التي يستند إليهـــا ويحاصر بحيث لا يتجاوز نفوذه المسجد وبحيث يفقد سيطرته على مسالك الأفراد في حياتهم الاجتماعية . وذلـــك عن طريق إقناع الناس بأن الدين شيء . ومشاكل الحياة شيء آخر . وإما أن يخضع هذا الاسلام للتطور ، بحيث يصبح أداة لتبرير القيم الغربية ولتقريب ما بين الشعوب الاسلامية وبين الغرب . « على أن هذا الأسلوب بشقيه (هدم العقيدة من ناحية، ومحاصرتها من ناحية أخرى) هو أصلح تمهيد لإقناع المسلمين بتطوير قيم الاسلام، فهذا التطوير لكي يحدث ثمرته المرجوة – يجب أن يحدث بأيدي المسلمين أنفسهم وهم لا يفعلونه إلا إذا ضعف يقينهم بالاسلام . فاعتقدوا أنه يتعارض مـــع حاجات الحياة من ناحية ، أو تعودوا إهمـــاله ، وعدم التقيد بالتزام قواعده في شؤون الحياة من ناحية أخرى ، اقتناعاً منهم بأن دائرته لا تتجاوز شؤون العبادات ولا تتعداهـــا الى المعاملات » ويقول الدكتور محمد محمد حسن « إن فكرة تطوير الشريعة الاسلامية هي وسيلة لتطوير المسلمين أنفسهم » .

## - ٥ -

ومن أخطـــاء المنهج العلمي الوافد دعواه العريضة بأن الشريعة الاسلامية متأثرة بالفقه الروماني وهي من الشبهات التي أثارهـــا ( جولدزير ومن بعده شاخت ) .

ولقد تعرض الكثيرون لهذه الشبهة فدحضوها بواقع التاريخ واصالة المنهج العلمي الاسلامي . وأبلغ آيات زيف هذه الشبهة ما تؤكده الوقائع التاريخية من أن القانون الروماني بدأ عاداتٍ ، ونـما وازدهر عن طريق الدعاوى والاجراءات الشكلية .

أما الشريعة الاسلامية فقد بدأت كتاباً منزلاً ووحيـــاً من عند الله ونمت وازدهرت عن طريق القياس المنطقي والأحكام الموضوعة .

ومن ذلك أن القانون الروماني متأخر عن الشريعة الاسلامية . وانه في نظر الكثيرين فقه إسلامي أخذ من الأندلس .

هذا فضلاً عن اختلاف الهدف ، فالأول منهما ( الشرع الاسلامي ) قائم على قواعد العدل المطلق ومقتضيات العقول . والثاني ( الشريعة الرومانية ) قائمة على المصالح والمنافع الدنيوية . ويبنى على هذا التخالف أن الشرع الاسلامي يمثل مصلحة الفرد في الدنيا والآخرة . بينما يمثـــل الشرع الروماني مصلحة الجماعة فقط .

وكذلك فإن الشريعة الاسلامية وجدت كاملة دفعة واحدة ، لم يزد فيهـا

الفقهاء شيئاً ، أما الفقه الروماني فهو أحدث ، حيث لم يعمل به إلا في القرن الثاني عشر أو الثالث عشر بعد الميلاد . أما قبل القرن الحادي عشر فإنه لم يكن معروفاً حتى عند الرومان أنفسهم . ( والمعروف أن الشريعة الاسلامية نزلت في القرن السادس الميلادي ) والمعروف أن الفقه الاسلامي قرر وصنف قبل ظهور الفقه الروماني بقرون . فكيف يكون متأثراً بشيء لم يوجد بعد، وما قيمة هذا الزعم بالتأثر بالفقه الروماني ، إذا كان مالك والشافعي وأحمد بن حنبل وأبو حنيفة والثوري والأوزاعي درسوا وألقوا وصنفوا قبل أن توجد القوانين الرومانية للرومان أنفسهم . بل إن الأصح هو أن الفقه الروماني مأخوذ من الفقه الاسلامي .

أما دعوى اختفاء الفقه الروماني ثم ظهوره بعد ستة قرون فهي أكذوبة كذبها القانوني الشهير ( سافينيه ) حين قال : إن القوانين الرومانية لم تختف لأنها ظلت معمولاً بها الى اليوم من غير انقطاع ، ويتضح من هذا أن القوانين الحديثة ليست إلا حديثة الوضع وضعها بعض علمائهم مقتبسة من الفقه الاسلامي. والفقه الروماني الحاضر جديد بإجماع الباحثين لفقه طائفة من العلماء بعد أن اندثر الفقه الروماني القديم[١] .

---

١ - عن صالح بن علي الحامد العلوي وفارس الخوري ومحمد الشافعي اللبان وعبد الرازق السنهوري من بحث مطول ، راجع كتاب الاسلام والثقافة العربية .

- ٦ -

من أخطاء ( شاخت ) قوله إن التشريع الاسلامي المتعلق بالأسرة والوراثة كما قرره الاسلام كان مستمداً من النظام القبلي أو خاضعاً له ، وقوله : إن العقوبات في الاسلام كانت أيضاً تحت سلطان النظام القبلي . وقد اعترض الشيخ محمد أبو زهرة على هذه المفاهيم المعممة القائمة على أساس الأهواء القومية والعنصرية فقال متسائلا .

١ - هل الطلاق الذي جاء به الاسلام . هل هو ما كان متبعاً في الجاهلية ؟ وحقوق المرأة كما قررها الاسلام ، هل هي التي كانت في الجاهلية أو عند الرومان ؟ وهل كان للمرأة عند العرب أو الرومان إرادة في تزويج نفسها ؟ والولاية الكاملة على مالها؟ هل المرأة كان لها كيان كامل عند الرومان أوعند الفرس أو عند البدو ؟ هل قرر الاسلام ما قرره البدو والرومان في ثبوت النسب؟ هل أقرّ الاسلام نظام التبني الذي كان معمولاً به عند العرب وعند الرومان ؟ وهل نظام الولاية على النفس والمال عند الاسلام كما كان عند الرومان ؟ لقد اعتبر الاسلام الولد حرًّا في التصرف في نفسه وماله بمجرد البلوغ الطبيعي ، والرومان كانوا يعتبرونه في ولاية أبيه ولو بلغ الستين حتى يمنحه الأب حق التصرف . هل نظام الميراث كما قرره الاسلام سبق به أيُّ شرع من الشرائع [١] ؟

١ - مجلة الدراسات الاسلامية ( يوليو ١٩٦٨ ) .

٢ – يقول شاخت في العقوبة إن الاسلام فيما قرره من نظم في العقاب كان تحت سلطان العادات القبلية . ثم يسترسل فيقرر أن نظام القبائل كان بعيداً عن العدالة . وأنه لم تكن هناك نظم للقضاء عليها . بل كانوا يلجأون في البحث عن الجريمة والمجرم إلى الكهان . ويترك الكلام من غير تعليق بما يوهم القارىء أن نظام العقاب في الشرع الاسلامي هو هذا النظام القبلي الفاسد أو يقاربه لأنه مشتق منه . ونريد أن نسأل : هل كان في النظام القبلي أن الفرد يقتل بالفرد ؛ وأنه لا يسأل غير القاتل ؛ وأن النفس بالنفس ؟ ولا عـــبرة بمقدار ما كان عليه المقتول من جاه أو منزلة عند الناس ؟ فإن النفوس متساوية بحكم القرآن وأقوال محمد ، وليست متساوية بحكم القبائل العربية . فزعيم القبيلة يقتل به ألوف . وهل كان في نظام القبيلة أن يقتل الحرّ بالعبد ؟ بل إن السيد يُقتل إذا قتـــل عَبْدُهُ ؟ وهل كان في حكم القبيلة جلد الزاني بمائة جلدة أو الرجم ؟ وحدّ الخمر بثمانين جلدة أو أربعين ؟ وحدّ القذف بثمانين جلدة ؟ وهل كان في حـــكم القبيلة أن العبد تكون عقوبته على النصف من عقوبة الحرّ ؟ وهل كان في حكم القبيلة أن السارق تقطع يده ؟.. أغفل ( شاخت ) كل هذه الحقائق . وقال في كلمة واحدة : إن حكم الاسلام في العقاب امتداد لحكم الأعراب . ثم يقول بعد هــذا إلى أيّ حدّ يمكن أن يكون المنهج العلمي الغربي الوافد ، علمياً وبعيداً عن الهوى وعن التعصب وعن الغرض . ومرتفعاً عن العنصرية ومحققاً للنصوص .

## - ٧ -

ويبدو اضطراب المنهج العلمي الغربي الوافد واضحاً وعميقاً حـــين يتصل البحث بالسُّنَّة وعلوم الحديث ، ولقد استغل هذا المنهج مختلف الشبهات التي ردّدها خصوم الاسلام والفكر الاسلامي في القديم ، وجدّدها وابتعثها واعتمد عليها في مختلف الأبحاث التي كتبها الباحثون الغربيون .

وأبرز هذه الشبهات محاولة القول بأن تدوين الحديث بدأ في المائة الثانية للهجرة . وأن المسلمين زادوا ونقصوا في الحديث بل ووضعوا أحاديث خدمة لأغراضهم من هؤلاء ( دوزي وسبرنجر وجولدزيهر ) وهذا الأخير يشكك في صحة وجود صحف كتبت في عهد الرسول ، يرمي بذلك إلى إضعاف الثقة باستظهار السنة وحفظها في الصدور . ووصم السنة كلها بالاختلاق والوضع على ألسنة المدونين وهو يزعم أن هؤلاء المدونين لم يجمعوا من الحديث إلا ما يوافق أهواءهم .

ولا ريب، أن هذا الاتجاه ليس علمياً وليس خالصاً لوجه العلم ، ولكنه جماع محاولات لاقتناص نصوص متفرقة مبتورة لتأييد رأي مسبق ، يقوم على الهوى والتعصب .

ولا ريب أن الاسلام قد اكتمل في عهد الرسول تمامـاً ، وأن السنة كانت مكتوبة عند كثير من الصحابة . أما ما جاء بعد ذلـــك فهو تحقيق السنة

وتبويبها بحيث لا يرى قول لإمام من أئمة المذاهب في القرنين الثاني والثالث إلا وقد سبقه إليه صحابي أو تابعي ، ولقد كشف علماء الحديث عن منهج غـاية في الدقة في معرفة الرجال وتحقيق النص وتبين الزيف من الصحيح .

ولكن دعاة المنهج العلمي الغربي الوافد يتجاوزون ذلك كله . ويذهبون وراء أهوائهم الى الطعن في الحديث ورواته ورمي مصادره جميعـاً بالكذب . وإنكار السنة بتاتاً . وذلـك مغمز خطير يوجه الى منهج علمي يعجز عن الاحتفاظ بالأسس الأولية في اعتماد النصوص واطراح الأهواء .

## - ٨ -

ومن أخطاء المنهج العلمي الوافد في مجال الشريعة موقفه من قضية (الاسلام دين ودولة ) : ومحاولة القول بأن الاسلام دين روحي . وأن الرسول كان موجهاً دينياً ، ولم يكن حاكماً أو رئيساً لدولة وعلى النحو الذي ردده علي عبد الرازق في كتابه ( الاسلام وأصول الحكم ) وهو من أفكار علماء الغرب .

ويحاول المنهج العلمي الغربي الوافد أن يتجاهل حقيقة أساسية من أبرز حقائق الاسلام وأصل من أصوله : وهي الجمع بين مصالح الدنيا والآخرة ، أو بعبارة أخرى أنه لا عزلة بين الدين والدنيا ، ومن ذلك فإن عناية الاسلام بشؤون الدنيا تجعله يعنى بشؤون الدولة . فقد جاء الاسلام بشريعة ( قوانين وأحكام تنظم شؤون الحياة ) لذلك كان طبيعياً أن يعنى بإقامة دولة وحكومة تهتم بتنفيذ تلك الأحكام ، وتنص آيات القرآن في عدد من المواضع على أن الاسلام دولة الى جانب كونه عقيدة أو ديناً :

(إِنَّا أَنْزَلْنَا إِلَيْكَ الْكِتَابَ بِالْحَقِّ لِتَحْكُمَ بَيْنَ النَّاسِ بِمَا أَرَاكَ اللَّهُ) . (فَلَا وَرَبِّكَ لَا يُؤْمِنُونَ حَتَّى يُحَكِّمُوكَ فِيمَا شَجَرَ بَيْنَهُمْ) .

**ولقد أقام الرسول في المدينة «دولة الاسلام» التي استوفت شرائط أركانها ،**

وكان حاكمهم وقاضيهم وقائدهم ، ووضع الخطوط الواسعة لدولة إسلامية . ولقد جاء الاسلام بأصول عامة صالحة لجميع العصور والبيئات ، وترك للأمم والشعوب اختيار نظام الحكومة على أن تتحرك في إطار مبادئه العامة ، ومن خلال الحدود التي أقامها الله . ولا يوجد في الاسلام ما يماثل سلطان الكنيسة والبابوية في المسيحية من الكهانة أو الوساطة أو الحكومة الثيوقراطية ، وليس في الاسلام ما يسمى بالسلطة الدينية ، بوجه من الوجوه ، فإن لكل مسلم أن يفهم عن كتاب الله من كتاب الله وعن رسوله بدون وساطة أحد .

يقول العلامة علال الفاسي : إننا قد نسينا مدلول الدين بالمعنى الاسلامي . وأصبحنا نفهم من معنى الدين كلمة ( رليجون ) الأوربية ونفكر في أمر الدين بما يفكر به الغرب وما نقرأه من آدابه الموجهة قبل كل شيء لنقد مجتمع مبني على تحكم الكنيسة وصعوبة الطلاق إلا في حالات تلبس أحد الزوجين بالزنا وقيام أرستقراطية إقطاعية يحميها رجال الكنيسة وتستعبد بها الشعوب . وهكذا وجدت عندنا مشكلة فصل الدين عن الدولة فالدين بالمعنى الغربي لا وجود له في بلادنا . والدين والدولة ( في الاسلام شيء واحد ، لأن الدولة لا بد أن تقوم على عقيدة أو خلق ، ولا بد أن تكون حامية لقانون . وهي المسؤولة عن إيجاده إن لم يكن موجوداً ) فالدولة الاسلامية دولة ( إكليريكية ) كهنوتية بالمعنى الذي يفهمه الغرب . بل يمكننا أن نقول انها ( لايكية ) بطبيعتها لا لأنها منفصلة عن الكنيسة ، ولكن لأن الكنيسة غير موجودة وليست من طبيعة الدين الاسلامي ولا جزءاً منه .

ولقد كان عدم إدراك هذا الفرق الكبير بين مدلول كلمة الدين عند المسيحيين وعند المسلمين عظيم الخطر في تضليل الكثيرين من العرب الذين تعلموا تعليماً

غربياً دون أن يحصلوا بجانبه على دراسة صحيحة تمكنهم من معرفة الاسلام على حقيقته . ولما كانت الكلمات اللغوية إنما تعيش في المعاني الحيّة التي يلبسها الناس لها بالاستعمال كل يوم . فإن كلمة الدين لم تعش في ذهن هذه الطبقة من المثقفين إلا بمدلولها الغربي[1] .

---

١ – دعوة الحق ، يونيه سنة ١٩٦٨ .

- ٩ -

ويرد بعض الباحثين عجز المنهج العلمي الغربي الوافد عن استيعاب مفهوم الاسلام للشريعة الى الأرضية الأساسية التي أقامهـــا الفكر المسيحي الغربي . فالمعروف أن النصرانية جاءت للآخرة فقــط ، والمسيحية بالمعنى الذي دعا إليه المسيح لا يوجد في أوربا وأمريكا من يستطيـع أن يتقيد بها .

أما الاسلام فدين الدنيا والآخرة : يقول « ولا تنس نصيبك من الدنيا » ولما كانت فيه هذه المزية التي يفترق بها عن النصرانية كان من الطبيعي أن يمتاز أيضاً بأن تشريعه قائم على أساس سعادتي الدنيا والآخرة . ومن هنا كان التشريـع الاسلامي متصلاً بشؤون المسلمين الدنيوية والأخروية ، ومن هنا كان الاسلام دين عقيدة وعبادة وحكم ، وهو ما قام الكثيرون لإنكاره زاعمين أن الحكم الاسلامي ليس عبادة . فالدولة المسيحية إذا جعلت الدين مقصوراً على العقائد والعبادات ولم تجعل لذلك علاقة بالحكومة لها شيء من العذر بعد أن علمنا أن المسيحية جاءت للآخرة فقط لا للدنيا[1] » .

---

١ - مجلة الفتح : ٢٠ / ١١ / ١٩٢٨ .

- ١٠ -

وقد حاول بعض الباحثين من خلال المنهج العلمي الغربي الوافد ادعاء أن الاسلام قام على أساس الحكومة الثيوقراطية . والواقع أن ذلك القول يرجع إلى نقص في أساس المنهج من حيث استقصاء الأسانيد ، أو تعليق الأهواء ، أو افتراض رأي مسبق والبحث عن أدلة متيسرة لتعزيزه .

ذلك أن الاسلام لم يعرف الحكومة الغربية الثيوقراطية . والاسلام يقيم نظام الدولة شاملاً لجميع المواطنين ، ويجعلهم على قدم المساواة أمام القانون في الحقوق والواجبات ، وهو يكفل حرية الاعتقاد والعبادة للجميع . والقول بأن في الاسلام دولة ثيوقراطية من الشبهات التي نقلت من أفق التاريخ الغربي دون تعمق أو تدقيق .

ومن الحقائق الأكيدة التي لا تقبل النقض : أن الاسلام لم يعرف الدول الثيوقراطية على المفهوم الذي عرفه البابوات في حكوماتهم . ومفهوم الدولة الثيوقراطية التي يتولى أمرها رجال الدين على المعنى المتعارف عليه في الغرب لا يوجد في الاسلام : منهجاً أو تطبيقاً . وشريعة الإسلام لا تقر وجود ما يسمى رجل الدين ، وليس في التوحيد بين السلطتين الدينية والدنيوية في الاسلام ما يؤدي إلى شيء من التضارب . فليس الاسلام حقائق روحية خالصة ، ولكنه جامع للروح والمادة .

# الفصل الرابع

## أخطاء الفلسفة

يركز المنهج العلمي الغربي على ما يسميه الغربيون : الأثر الأجنبي للفكر الأوربي في تكوين الفكر الاسلامي ، ويبحثون عن هذا الأثر في مختلف العناصر الأدبية والاجتماعية في محاولة لتصوير الجوانب الايجابية كلها في الفكر الاسلامي وكأنها معطيات الفكر الغربي · ولكن الفكر الغربي لا يقيم مثل هذه الموازنة بالنسبة لمعطيات الفكر الاسلامي للثقافة الغربية . بل تذهب أغلب كتابات الكتاب الغربيين إلى انكارها وتجاهلها في نفس الوقت الذي يذهب فيه كتاب الغرب إلى حد المبالغة التي تخرج عن كل منهج علمي ( نقصاً في التحقيق ، وجرياً وراء الأهواء ، وتعصباً ) الى القول بأنه لولا الفكر اليوناني القديم ما كان للمسلمين والعرب شيء يمكن أن يسمى فكراً .

وهناك تركيز واضح على ثلاثة جوانب مما نقل الى الفكر الاسلامي من فكر وافد : آراء المعتزلة — الفلسفة الاغريقية — نظريات التصوف .

* * *

ولا ريب أن أكبر ما يرد شبهة عطاء الفكر اليوناني للفكر الاسلامي ، هو الدليل الأكيد بأن الفكر الاسلامي لم يلتق بالمترجمات اليونانية إلا في القرن الثالث الهجري ، في حين أن مفاهيم الاسلام تكاملت بتكامل القرآن . وتمت قبل اختيار الرسول للرفيق الأعلى ، وأن القرآن قد قدم للمسلمين عدداً من

المناهج في ميادين المعرفة ، والبحث ، وفي مجال الاجتماع والحضارة والميتافيزيقا. وهناك حقيقة أساسية يؤيدها الدليل التاريخي والعلمي والعقلي . هي أن المسلمين كونوا العلوم وأصّلوها وأقاموا مناهجها قبل الاتصال بالفلسفة اليونانية بوقت طويل . وخاصة في السُنّة والفقه والتاريخ واللغة . وكان الاسلام قد وضع أول منهج علمي في البحث لتحقيق الحديث والسنة بشهادة أعلام الفكر العالمي [١] .

كان أرنست دينان في مقدمة رجال المنهج العلمي الغربي تجاوزاً لأيّ منهج علمي في القول بأن الفلسفة العربية ليست شيئاً آخر غير فلسفة أرسطو طبعت بالطابع العربي وسميت الفلسفة العربية . وجرى في مجراه اتباع المنهج الغربي الوافد من أمثال : لطفي السيد – وطه حسين الذين رددوا أقوال الكتاب الغربيين من أمثال ( وليم ولسن ) من أنّ ما يُعرفُ بالفلسفة العربية ليس فيه من العربية سوى الاسم ، وما عدا ذلك فهو فكر يوناني منظّم ، عُبّر عنه بلغة سامية ، وحوّر بالمؤثرات الشرقية وأدخل بين أهل الاسلام .

ومع أن المسلمين رفضوا فلسفة أرسطو وعارضوها منـــذ اليوم الأول لترجمتها . فإن رجلاً مثل لطفي السيد . وهو على رأس مدرسة المنهج العلمي الغربي يقول في غير ما حرج .

ولقد قوبلت فلسفة أرسطو عند السلف بصدر رحب ، واشتغل بها الخلفاء وأهل النظر من علماء المسلمين ، وأصبحوا خلفاء أرسطو وممثـــلي مذهب المشائين [٢] . بل إن الدكتور طه حسين يتجاوز كل ما يوصف بأنه أسلوب علمي في حماسة واندفاع بالغين ، وفي تقريرية مرفوضة من كل أصحاب المناهج العلمية في البحث ليقول « لو أن هذه الحضارة أزيلت ، وأريد تأسيس حضارة جديدة لكانت فلسفة أرسطو أساساً لهذه الحضارة الجديدة ؛ ( ذلك ) أن اليونان والرومان عاشوا في العصر القديم على فلسفة أرسطو ، وأن الشرق

---

١ – راجع كتاب الدكتور أسد رستم عن مصطلح الحديث .

٢ – علم الأخلاق لأرسطو ترجمة لطفي السيد ١٩٢٥ .

والغرب عاشا في القرون الوسطى على فلسفة أرسطو ، وأن أوربا الحديثة تعيش الآن وستعيش غداً على فلسفة أرسطو[1] . ومن العجب أن أقل فهم للفلسفة الأوربية الحديثة يُعَرِّف أن ما قاله طه حسين منقوض علمياً وتاريخياً فإن ( روجرز بيكون ) إنما بدأ مذهبه الجديد بالهجوم على فلسفة أرسطو وتهديمها ، وإنشاء المذهب التجريبي الذي استمده من الفكر الاسلامي . وإذا كان علماء الاسلام قد هاجموا أرسطو و كشفوا أخطاءه وأنشأوا مذهباً مخالفاً له ، فإن الغربيين في أوائل النهضة التمسوا منهج المسلمين ، وهاجموا منهج أرسطو وعابوه ، ثم جاء طه حسين ولطفي السيد ليقيموه مرة أخرى أمام الفكر الاسلامي الحديث .

والمعروف أن اليونان أخذوا بالقياس ، وأن المسلمين أخذوا بالتجربة ، وأن العلم الحديث مستمد من المنهج العلمي التجريبي الاسلامي .

أما الفكر الاسلامي فقد رفض الفلسفة الإلهية اليونانية جملة : أي أنه رفض الوثنية ، وتعدّد الآلهة ، وطابع الإباحية اليوناني والفارسي .

---

١ – فصل عن لطفي السيد وترجمة كتاب الأخلاق لأرسطو ( السياسة الأسبوعية ) .

## - ٢ -

وصف أرنست رينان الفكر العربي بأنـــه تفكير يهتم بالجزئيات ويفسح صدره للخيال [١] . وليس في ذلك ما يشينه ، بل هو اعـــتراف بأنه يحوي العناصر الضرورية للمنهج العلمي . بل يذهب إلى أكثر من ذلك فيقول : إن منهج أرسطو كان منهجاً عقيماً ، وأنه ضلل كثيراً من مفكري العرب ، ثم وقف حائلاً دون ازدهار الحضارة العربية ، ويرجع عقمه إلى أنه كان خلواً من الخيال ، وإلى أنه كان أكثر اهتماماً بالقضايا المجردة منه بدراسة التفاصيل والجزئيات .

وقد كشف الباحثون المسلمون عن حقيقة هذه الدعوى العريضة التي جرى وراءها المنهج العلمي الغربي الوافد متحرراً من كل اصالة علمية – رغبةً في تصوير الفكر الاسلامي تابعاً ومستعبداً للفكر اليوناني – وان هذه التبعية لا تراد مجردة للتاريخ ، ولكنها تراد ليقال انه ما دام الفكر الاسلامي في ماضيه قد عرف التبعية للفكر اليوناني الذي هو مصدر الفكر الغربي الحديث ، فإن الفكر الاسلامي سيظل تابعاً ومستعبداً للفكر الغربي الحديث .

والمعروف أن فلسفة أرسطو والفكر اليوناني ، وكل ما يتصل به من منطق وعقائد ، إنما يعبر تعبيراً دقيقاً عن المجتمع اليوناني العبودي المنقسم إلى سادة

---

١ – دكتور محمود قاسم من بحث له .

يتأملون ، وعبيد يعملون : السادة هم الصورة . والعبيد هم المادة[1] . ولكن المجتمع الاسلامي كان يختلف عن المجتمع اليوناني اختلافاً كبيراً . لأن الاسلام دين عبادة ونظر ومعاملات . وفي البداية حاول الفكر الاسلامي التوفيق بين الفلسفة اليونانية والفكر الاسلامي . ثم تبين عسر ذلك بل استحالته لقيام الفلسفة اليونانية على مفهوم الوثنية في الإله . بينما يقوم الفكر الاسلامي على أساس التوحيد . وبينما تقوم الفلسفة اليونانية منه على نظام العبودية ، وقد دافع أكبر أساطينه أفلاطون وأرسطو عن الرق واعتبروه ضرورة حياة كما دافعوا عن سلطان السادة الحاكمين الذي يحرم أن يدخل إليهم أحـــد من الطبقات الأخرى فضلاً عن أن الفكر اليوناني كان فكر تأمل ومنطق . بينما كان الفكر الاسلامي فكراً تجريبياً يجمع بين النظرة العقلية والممارسة العملية . ومن هنا كان علماء المسلمين يقومون بممارسة صناعة الطب ويكتشفون الأحماض المختلفة من أمثال البيروني وجابر بن حيان وغيرهما .

وهذا الاتجاه إلى الحكم والتجربة هو : خروج مباشر أساسي عن منطق أرسطو . ولقد انتهى المفكرون المسلمون إلى نظرة جديدة : تقررت في أن أصبحت عملية التجريب العملي ( لا عملية الاستخلاص المنطقي ) سبيلاً من سبل المعرفة . وبذلك خرج الفكر الاسلامي عن المنطق الصوري إلى التجريب . ثم خرج مرة أخرى من الكلـّي الى الجزئي . وكان الفكر الأرسطي يرى أن العلم لا يكون إلا بالكلـّي . أما العلم الجزئي فليس علماً، و « توج هذه الاتجاهات جميعاً إدراك عميق بأهمية الرابطة العلـّية بين الأشياء كأساس للمعرفة العقلية ، وعلى هذه الرابطة العلـّية بين الأشياء تقـــام التجارب ، وبهذه الرابطة العلـّية فسّر ابن خلدون حركة التاريخ وتطور العلاقات البشرية ، وعلى هذه الرابطة العلـّية أقام البيروني والرازي وجابر بن حيان وابن سينا تجاربهم » .

---

١ – راجعنا في هذا أبحاث الدكتور علي سامي النشار .

وبهـذه النظرة المتطورة للكون والانسان اختلف الفكر الاسلامي العربي اختلافاً كبيراً عن الفكر اليوناني المترجم وتناقض معه في مختلف فروع الثقافة من علم ، وأصول ، وفقه ، وفلسفة عقلية ، ونظرة الى الانسان . ولم يكن هذا الاختلاف عابراً أو طارئاً. وإنما كان نتيجة طبيعية لاختلاف التكوين الاجتماعي للدولة العربية وللحضارة اليونانية[1] .

ومن هنا كان جوهر الحضارة العربية الاسلامية : جوهراً عقلياً عملياً تجريباً حسيًّا : وقد أشار الى هذا المعنى ( هـ. ج. ولز ) في كتابه خلاصـة التاريخ العام حين قال : لم يهتد اليونان مدة اشتغالهم بالبحوث الفلسفية الى جعل التجربة قاعدة للبحث وأساساً للتنقيب .

---

١ ـ محمود أمين العالم في بحثه تعليقاً على كتاب علي سامي النشار .

- ٣ -

ومن ناحية أخرى فإن الأبحاث التي قامت على أساس المنهج العلمي الاسلامي قد أكدت أن الفلسفة الاسلامية قد انبعثت من صميم البيئة الاسلامية ، ذلك أنه نشأ من طول معاناة القرآن والحديث : علم إسلامي أصيل هو علم أصول الفقه ( أعلن هذه الحقيقة الشيخ مصطفى عبد الرازق وتابعه فيها تلاميذه وعلى رأسهم علي سامي النشار ) . وفي نفس الوقت كشف علماء المسلمون أخطاء أرسطو وأفلاطون في المنطق وأخطاء بطليموس وأبقراط وأقليدس في العلوم والرياضيات .

ولقد كشفت أبحاث المنهج العلمي الاسلامي الأصيل عن أن معرفة اليونان[1] بالنجوم كانت خرافات في الأكثر ، ومحاولات على الأقل ، وأنّ ما كان منها صحيحاً ثابتاً لم يكن يعدو ما كان عند المصريين والبابليين ، فلما جاء العرب جعلوا من النظر في النجوم علماً صحيحاً . وأنكروا خرافاته . وحاولوا إصلاح مجالاته . أخذ العرب الجبر من اليونان في درجته الأولى فرقوا به الى الدرجة الثامنة . أخذ العرب الكيمياء من اليونان محاولات لتحويل العناصر الخسيسة الى عناصر شريفة ، والعرب هم الذين وضعوا أسس المختبرات العلمية للكيمياء . وان العرب هم الذين استعملوا الأرقام الحسابية بما فيها الصفر .

( هذا كله بالاضافة الى المنهج العلمي التجريبي ) .

---

١ - دكتور عمر فروخ : العرب والفلسفة اليونانية .

## - ٤ -

ما زال اتبـــاع المنهج العلمي الوافد يرددون القول بأن معارضة الفكر الاسلامي للفلسفة كان مصدراً من مصادر الجمود الفكري والثقافي عند العرب ولم يكن هذا حقـًّا فقد كانت[1] الفلسفة اليونانية طابع شؤم ونذير سوء وإيذاناً للعرب بزوال سلطانهم . وفي زمن المأمون الذي شجع الفلسفة وعمل على ترويجها فشاع في عصره الشك وهبت الريح الصفراء من وراء الاباحية تحمـل في طياتها جراثيم المذاهب المختلفة والنحـــل المتعارضة وظهرت الفرق التي كادت تؤلف بآرائها وعقائدها أدياناً جديدة، وجلبت النكبات وأوغرت الصدور واستنزفت الأموال والدماء . ولم تلبث الدولة إلا قليلاً حتى انحطت عليها جحافل المغيرين من التتر والمغول . وكان كثيرون من أتباع هذه الفرق عوناً للمغيرين .

خسر العرب بالفلسفة عقيدة الإيمان الفطري وقوة الاعتقاد النقي وتركوا الدين وهو جوهر رسالتهم العالمية الى أيدي ( هؤلاء ) ليلبسوه أثواباً خلقة ملونة من الآراء الافتراضية التي أيقظت الشك وأثارت الفتنة وبلبلت الألسنة .

ما الذي أفاده المسلمون من تلك الدروب التي هلـك فيها اليونانيون ومن

---

١ – مجلة الأنصار سنة ١٩٤٤ .

جرى مجراهم من الأمم القديمة والحديثة ؟.. من الحق أن علماء المسلمين جاهدوا جهاداً ضخماً في سبيل مواجهة هذا الخطر ، وظـل كفاحهم مستمراً أكثر من ثلاثة قرون في سبيل تحرير الفكر الاسلامي من هيمنة الفلسفة الهلينية والهندية والفارسية .

ولقد كانت صفحات كفاح الشافعي والشعراني وابن حنبـــل والغزالي وابن تيمية في هذا الصدد مشرقة بالإيمان والصمود في وجه كل القوى الزاحفة .

## - ٥ -

ولقد كان حرص دعاة المنهج العلمي الغربي الوافد على تأكيد معنى أن معارضة الاسلام للفلسفة هو مصدر الجمود والتخلف في الفكر الاسلامي والعقبة الكبرى التي تقف بين المسلمين وبين التقدم . والفلسفة التي يراها دعـــاة المنهج العلمي الغربي الوافد هي الفلسفة الإلهية اليونانية ومـا يتصل بها من فكر وثني أو فكر مادي غربي حديث وكلاهما يعارض التوحيد والنبوة والوحي ورسالات السماء والبعث والجزاء .

ولقد ترددت هذه الدعوى على ألسنة أصحاب المنهج الوافـد ، ولم تتوقف كأنما هي حقيقة ثابتة أو أصل من أصول العلم . ولو أن هذا التركيز جـاء من دعاة المنهج العلمي الغربي الوافد على « العلم » لا على الفلسفة ، لـكان ذلك دعوة انصاف وكلمة حق ، ولكن الفكر الغربي لا يريد من الفكر الاسلامي أن يعرف طريق العلم . وإنمـــا يعرف طريق الفلسفة ، والفلسفة الإلهية بالذات المتصلة بالهيولى وخرافة الميتافيزيقيا واحتقار الغيب وكل ما يتعارض مع أصوله الأصيلة .

ولقد كشف هذا الاتجاه الذي حرص الفكر الغربي على أن يحمـل لواءه في مواجهة الفكر الاسلامي عن أهداف بعيدة . ذلـــك أن جميع الفلسفات التي نادى بها مفكرو العصر تقوض دعائم الاعتقاد بوجود إله واحد ، بِـغَضّ النظر عن البديل المقترح . فمنها ما يقترح ألوهية المادة . ومنها مـــا يقدم ألوهية

الانسان ، ومنها ما يجعل الغريزة محور تفسير الوجود . والدين الوحيد الذي صفت فيه عقيدة الوحدانية من شوائب الشرك إنما هو الاسلام .

أما المبادىء والأفكار الحديثة فتركز جهدها لهدم العقيدة التي تمثل في نظر أصحابها جوهر رسالات السماء . والإله في عرف اليهود إله قومي لهم وحدهم دون غيرهم من الأميين وعند النصارى واحد من ثلاثة . وإذا كانت الماركسية في حقيقتها تدميراً لفكرة الألوهية ، وربطاً للإنسان ومصيره بمصير المادة المحسَّة ، وتفسيراً لحركة التاريخ بعوامل ليس منها ( إرادة الله ) وخلقه على أي حال ، فإن عداءها الصريح لم يتوجه في الحقيقة إلا الى الاسلام باعتباره معقل الفكر الديني ورمزاً يجسد العلاقات بين الله الواحد والمخلوق الموجَد . وهناك محاولة أقل غلواً ولكنها أشد كثيراً هي محاولة الفلاسفة الوضعيين الذين يهونون من شأن الاسلام وحركته التاريخية . فقد أشبع أوجست كونت الاسلام مدحاً وتمجيداً . ولكنه لم يزد على أن عده مرحلة كانت ضرورية كحلقة من سلسلة تطور البشرية نحو الدين الجديد والنهائي « الوضعية »[1] .

وهكذا تهدف الفلسفات الغربية الى تدمير العقيدة الاسلامية لأنها العقبة الكؤود في طريق سيطرة الأهواء الحديثة على مصاير البشر .

---

١ – عن نص للدكتور عبد الصبور شاهين .

- ٦ -

وفي مواجهة هذه التحديات . فإن المنهج العلمي الاسلامي الأصيل يفرق بين الفلسفة والعلم تفرقة واضحة ، وقد عرف الامام الغزالي هذا الاتجاه حين هاجم الفلسفة الإلهية الوثنية وتقبل الفلسفة في مجال الرياضيات والطبيعيات ، لتعلق هذه الأخيرة بموجودات واضحة بينما لم تقم الفلسفة الإلهية الوثنية على منطق وإنما فاقامت على الوهم والافتراض لبعد مجالها عن المحسوس . ونحن اليوم في حاجة الى مثل هذه النظرة في التفرقة بين العلم والفلسفة ، فالعلم هو ما يجري داخل المعامل . أما الفلسفة فهي ما يقوله أصحاب الأيدلوجيات ، العلم واقع قائم على حساب وتجربة ، أما الفلسفة فهي نظرية عقل نافذ ، قد يخطىء وقد يصيب ، لأنها قائمة أساساً على الفرضيات . ومن ثم فهناك فرق بين نظريات العلم في مجال الفلك أو الذرة وبين نظريات الفرويدية والوجودية والماركسية والبراجماتزمية وغيرها من نظريات الفلسفة التي وضعها فيلسوف ما من خلال تحديات عصره وبيئته وحياته الخاصة ، وتجربته . ان العلم حقائق ، أما الفلسفات فهي نظرات اصلاحية معرضة للخطأ والصواب ، صالحة لبيئة دون بيئة وعصر دون عصر ، أما العلم فهو تراث إنساني مشترك بين سائر البشر يقوم على قواعد عامة .

وللغرب قيمه وتاريخه وفلسفاته ، وللمسلمين فلسفاتهم ومفاهيمهم التي تترجم عن نظرتهم الى الحياة وأسلوبهم فيها ، وهي في مجموعها هنا وهناك ليست قابلة للتصدير أو الاستعارة أو النقل .

فالوجودية والماركسية والبراجماتزمية والسيكولوجية ليست علوماً لها قوة المنهج التجريبي ، وإنما هي فلسفات لها اتصالها بالنفس الانسانية والعقل والروح وكلها قوى لا تقاس بمقاييس المحسوس ، ومن هنا كانت الفلسفات – وهي قائمة على النظرة الخاصة المحدودة بحدود البيئة والزمن – معرضة للخطأ ومعرضة للسقوط مع تغير الأزمنة والأمكنة ، أما العلوم فهي تراث إنساني مشترك بين سائر البشر يقوم على قواعد عامة تجريبية . ومن هنا كان خطأ القائلين حين يعرضون لنظرية من نظريات النفس أو الاقتصاد أو الاجتماع بأنها علم . ولا ريب أن العلوم الانسانية لها منهج علمي . ولكن ليس منهج العلوم التجريبية .

وبالجملة فالفلسفة وجهة نظر صالحة للنظر فيها والأخذ منها مع حاجة البيئات واختلاف الثقافات .

يقول الدكتور محمد البهي : إن المعرفة التجريبية هي التي أخذت مفهوم العلم ، وفرق بين التجريب في عالم المادة وعالم النفس ، وعلوم الاجتماع والنفس والتربية والأخلاق لا تخضع للتجريب لاختلاف النفوس والطبائع ، والبيئات والعصور . ولكن العلوم المادية تخضع لذلك ، وكل ما يقال عنه علم في هذا المجال فهو فلسفة .

والفلسفة المعاصرة حسيّة مادية واقعية لا تعترف مطلقاً بغير ما يقع تحت التجربة من محسوس وملموس ، ولذلك فهي تنكر العوالم الغيبية والميتافيزيقيا . ومنها الوحي والإله والبعث والنبوة والأديان والقرآن . ولذلك فهي أيضاً بعيدة عن تقدير السلوك الأخلاقي . وقد أخفقت الفلسفة المعاصرة في خلق توجيه أخلاقي ، وفي خلق خلقية أو ضمير يدفع الانسان نحو العمل الانساني ، هذا النقص جاء نتيجة لغلو الفلسفة في تقييم النظرة الواقعية والتجارب الإلهية والرياضية ، لأن هذا الغلو ركز القيمة كل القيمة فيما يدرك الحس وينشأ عن التجارب المادية . ولذا ألغى اعتبار المثل والقيم الرفيعة في حياة الانسان كما ألغى رسالة الدين في توجيه الناس نحو الله .

والاسلام لا يعادي العلم بمعنى البحث التجريبي ، ولا التطور الصناعي ، ولا يعادي سعادة الانسان على الأرض . بل يدفعه . وإنما يعادي الشر .

ولقد عني الاسلام بتكوين الخلقية في الانسان وبتكوين الضمير الديني بمثابة ضوابط تحول دون أن يتجه علم الانسان وسيادته في الكون الى الإفناء والتخريب وهو يعصم العلم والسعادة والقوة عن أن تستخدم في غير صالح البشرية عامة[1] .

---

١ - من نص في بحث للدكتور محمد البهي .

- ٧ -

## ١ ـــ العلم والفلسفة

إن المنهج العلمي الغربي الوافد يحاول في مواجهة أفق الفكر الاسلامي أن يموّه في العلاقة بين العلم والفلسفة ؛ العلم التجريبي الذي يتصل بالمادة ، والفلسفة التي تتصل بالغيبيات أو الانسان . ويحاول هذا المنهج الذي يحـــكم الفلسفة والانسانيات بمنهج العلم التجريبي للنظر في أمور العقائد والأخلاق ورسالات السماء عن طريق الحـــواس وحدها ، وهو يدور في حلقة ضيقة هي حلقة المحسوسات والمعقولات . فإذا وجدت إشارات إلى الدين والقلب والغيب ، قدم أخطر إجابة في هذا المجال :

وتلك الاجابة هي في القول بأن يكون الانسان ممزقاً بين عقيدتين عقيدة القلب يؤمن بها ، وعقيدة العقل يرفض بها نفس الشيء . ولقد أشار كثير من تابعي المنهج العلمي الغربي الوافد إلى هذا المعنى حين قال أحدهم ( إذا كنت تدرس الاقتصاد فلا تفكر في الدين[١] ) وحين قال آخر ( يمكن أن يكون الانسان مؤمناً قلباً وكافراً عقلاً[٢] .

---

١ – من نص للدكتور محمود عزمي .

٢ – من نص للدكتور طه حسين .

أما الفكر الاسلامي فلا يقبل هذه الانشطارية أولاً ولا هذا التمزق بين العقل والقلب ، ولا يواجه الأمور بمثل هذا المنهج الذي يحطم النفس الانسانية ويجعلها تعيش حياتها كلها في ريب وقلق وشك وصراع . فقد جاء المنهج العلمي الاسلامي ليضع النفس الانسانية والعقل الانساني في خط واحـــد من اليقين والايمان وسكينة القلب على أساس مكين من الفطرة وقاعدة ثابتة من الاقتناع العقلي . فالحياة كلها تسير في منطلق واحـــد لا تمزق فيه ، يلتقي فيها العقل بالقلب ، ولا يتصارعان ويستمدان ضوءهما من الوحي والإيمان بالله ورسالة السماء .

ولقد عاش دعاة الفلسفة الغربية الممزقة بين النفس والعقل في صراع ونوبات عصبية وَجُنّ كثير منهم ولقـــوا أسوأ مواجهة في الحياة . ومن أبرز هؤلاء نيتشه الذي قضى نحو عشرين عاماً وهو في جنون يكاد يكون مطبقاً ، وكذلك فيلسوف الوضعية ، وباني الدين الجديد في أوربا أوجست كُونْت الذي قاسى أشد أنواع الآلام والأمراض والتمزق . ولم يكن فرويد أو ماركس إلا مريضين مصابين بالتمزق والصراع .

فقد اتجهت هذه الفلسفات إلى العنف والقسوة ، وجفت فيها ينابيع السخاء البشري . حتى دعا ( ليكرغوس ) مشترع اسبارطة إلى قتل الأطفال الضعاف البنية . وضحى أفلاطون بالفرد من أجل الطبقة السائدة . واعترف أرسطو بالرق واستعباد الناس ، وتابع نيتشه هذا الاتجاه ، فدعا إلى قتل العاجز أو تركه يموت دون العمل على شفائه ، وإبادة الضعفاء .

ولقد كانت الفلسفة محاولة لفهم الحيـــاة والكون خارجاً عن منهج الدين الحق ، ولذلك فقد غلب عليها الشك والعجز مع استعلاء الهوى . ومن ذلك ما أعلنه دارون وردده أتباعه من أن الحياة تقوم على تنازع البقاء . ثم تبين أن

التعاون في الطبيعة أقوى من التنازع . وأبعد أثراً . واعتمد الفلاسفة في سبيل غايتهم وأهوائهم على الأساطير لا على التجارب أو الحقائق .

وكان لإعلاء الأصل الحيواني للإنسان أثره السيء في تصويره الانسان بأنه خاضع للغرائز والرغبات والأهواء . وكان لإعلاء العامل الاقتصادي وإعطائه الأهمية الأولى أثره الخطير في الانسانيات والأخلاقيات . فالحياة بين المذهبين غريزة جنس أو غريزة طعام والانسان بينهما مطحون .

وقد حجبت هذه الفلسفات المادية عامل الروح والبطولة والكرامة والنفس المعطاء والاتجـــاه إلى الله والتماس الآخرة ، وأغضت عن المسؤولية الفردية والالتزام الأخلاقي وأثرهما في حياة الانسان والمجتمعات على السواء .

وكان لاتجاه سقراط في الانحراف الجنسي والخلقي أثره في الفكر اليوناني ثم في الفكر الغربي كله . فقد كان له من طبيعته الخاصة ما سيطر على فلسفته حين فرض احتقار الجسد الانساني ، وكان لفرويد من طبيعته وعنصره أثر في فكره ونظرياته . وكذلك ماركس ودوركايم وأفلاطون حين يفترض السوء في طبيعة الانسان . وحين تقرر بعض الفلسفات أن هناك صراعاً بين النفس والجسد . وحين يميز أرسطو بين خلق الله . فيقول إن السيد ولو قضت الظروف أن يكون عبداً فهو سيد . والعبد مهما استطاع أن يكون سيداً فهو عبد . وأن السيادة بالعنصر لا بالنفس والعقل . لا ريب ان كل هذه الآراء التي نماها المنهج العلمي الغربي الوافد ، وصاغها من جديد ، وبرّرها ودعا إليها . إنما تحمل في طياتها أقسى صور الأهواء النفسية ، والتعصب للجنس ، وهي في مجموعها مخالفة لطبائع الأشياء . ولفطرة الانسان حتى ليمكن القول بأن المنهج العلمي الغربي هو أكبر معبر عن روح الغرب ، كما كان منهج الفكر الهليني معبراً عن روح اليونان . وقد لفظه المسلمون قديماً لا عن ضيق أفق أو تزمت مذهبي ، وإنما كان

ذلك تأكيداً لروح الحضارة الاسلامية ، وإعلاناً صادراً من منهج القرآن الإلهي الذي أقام للبشرية منهجاً قوامه الفطرة والخلق والإيمان . ونحن الآن في مواجهة مثل هذا التحدي .

اننا نرفض النظرية الغربية التي تقول إن المعرفة مادية وإن الثقافة عالمية ، وإن الفلسفة تعطي الجواب لكل أحداث الحياة والفكر ، فنحن نؤمن أن الدين الحق هو الذي يعطي الإجابة الصحيحة لمفاهيم العقائد والغيبيات والمجتمع، وأنه هو وحده الذي يستطيع أن يفسر وجود الله وخلق البشر وخلود الروح . أما الفلسفة فقد عجزت بعد أن عجز العلم . ولقد يستطيع العلم أن يقدم معطيات حقيقية في مجال التجريب . وقد أعلن العلم أنه لا يستطع فهم جوهر الأشياء . وأنه يعمل في مجال دراسة ظواهر الأشياء . أما الفلسفة الغربية فإنها قد اندفعت إلى آفاق ومرّت بمراحل ، منها الفلسفة الغربية المسيحية . ثم الفلسفة المثالية ، ثم جاءت الفلسفة المادية فنظرت إلى الحياة والإنسان من خلال الحس والعقل وحدهما ، فقصرت عن الآفاق الواسعة التي استطاع الفكر الاسلامي أن يصل إليها حين جمع إلى العقل القلب . وإلى العلم الوحي .

ولا ريب أن العلوم[1] الطبيعية لا تستطيع أن تدرك كنه الدين في مجالاته الروحية والاجتماعية لأن العلوم الطبيعية مادية لا تقنع إلا بالملموس والمحسوس . وفي نظام الكون وفي طبيعة النفس البشرية إحساسات ومشاعر لا تلمس لمساً . وهذا يفسر اتجاه الجهابذة من علماء الطبيعة والرياضيات نحو التفاسير الدينية في أرقى مراحل البحث عن طبيعة الأشياء عندما يستعصي عليهم التفسير الشامل الإيجابي المقنع .

---

١ - عن باحث كبير .

وقد اعترف بهذا مؤتمر الذرة ( ١٩ ديسمبر سنة ١٩٥٠ ) في جامعة روشتسر في ولاية نيويوك . فقد أعرب أعضاء هذا المؤتمر وهم صفوة علماء الذرة والفيزياء في الولايات المتحدة بأن تحطيم الذرة والتصرف في تكوينها والتغلب عليه . قد طرح بالنظرية التي سبق لعالم ياباني أن فسر بها حقيقة تماسك الكون تفسيراً علمياً ( نال به جائزة نوبل للغرباء ١٩٤٩ ) وقد أوجد هذا التطور في علم الذرة والتفسير الفيزيائي لتماسك الكون بلبلة في تفكير علماء الطبيعة والرياضيات والفلسفة .

- ٨ -

# ٢ ـــ أخطاء الاعتزال

إن المنهج العلمي الغربي الوافد يتحدث في حفاوة ضخمة عن الاعتزال والمعتزلة. ويرى أن سقوطهم كان مصدر خطر كبير على الفكر الاسلامي . وأن منهجهم هو أصدق المناهج التي عرفها هذا الفكر، ودعا مجدداً الى عودة المعتزلة، وأنكر هزيمتهم . والمعروف أن المعتزلة استخدموا الفلسفة اليونانية ، بل كانوا أسرع الفرق للاستفادة منها ، وصبغها بصبغة إسلامية ، والاستعانة بها على نظرياتهم وجدلهم[١] وأنهم كانوا يؤمنون بسلطة العقل ويرون بأن العقل – قد منح من السلطة والسعة ما يمكنه من إقامة البرهان حتى على ما يتعلق بالله . فلا حدود للعقل في براهينه ولا زلل ولا خطأ متى صح البرهان[٢] .

ولعل هذا الاتجاه عند المعتزلة هو الذي دعا المنهج العلمي الغربي الوافد على الاحتفاء بهم والإشادة بالدور الذي قاموا به في « تعقيل الفكر الاسلامي » ونقله الى مرحلة « تقديس العقل » حتى ليروي أحمد أمين أن المعتزلة كانوا يأملون أن تهجم العقول على فلسفة اليونان والهند وفارس فتستقي منها وتعمل فيها وتأخذ منها ما لا يتنافر مع القرآن والحديث المجمع عليه حتى تتحرر عقول العامة[٣] .

---

١ – أحمد أمين – فجر الاسلام .

٢ – أحمد أمين – ضحى الاسلام جـ ٣ .

٣ – نفس المصدر .

والواقع أن المنهج العلمي الغربي الوافد ومن تابعوه قد قصر بهم الفهم من خلال حماستهم وأهوائهم وانتصارهم في أن يكون الفكر الاسلامي تابعاً للفكر اليوناني الغربي تبعية نهائية – قصر بهم عن الإحاطة بجوهر الاسلام ومنهجه العلمي، وأسلوبه في البحث. فهم لم يستوعبوا حقائق الاسلام ولم يفهموه فهماً صحيحاً خالصاً متحرراً من كل قيد، وربما فهموه من داخل دائرة المنهج العلمي الغربي الذي كان دائماً سيء الرأي في الاسلام وفي الأديان عامة.

والحقيقة أن هزيمة المعتزلة – على حد تعبيرهم – كانت نتيجة طبيعية لاختلاف هذه الدعوة مع جوهر الاسلام، ومع طبيعة الفكر الاسلامي ومنهج المعرفة فيه. هذا المنهج الذي يقوم على جماع العقل والوجدان.

ولما كان الاعتزال أساساً هو محاولة لمواجهة المذاهب الفلسفية التي كانت تحتمي وراءها الأديان المعارضة للاسلام، فإنه قد أدى دوره. غير أن المعتزلة لم يلبثوا أن بلغوا درجة من الغلو في مفاهيمهم. خرجوا بها عن الموازنة التي أقامها القرآن بين العقل والقلب. وبذلك أعلوا من شأن العقل. وبلغوا به مبلغاً خطيراً. ولما كان الإيمان في الاسلام يقوم على الإيمان بالغيب والشهادة والوحي والعقل، ويتشكل من ذلك في وحدة واحدة. فإن إعلاء شأن العقل وحده كان خروجاً على مفهوم الاسلام، وهو خروج عرض المعتزلة للهزيمة. وعرض فكرهم للانهيار تحت أضواء الاسلام الصحيح.

ومن هنا جاءت تعديلات وتصحيحات قام بها ابن حنبل والأشعري قامت على التحرر من نفوذ الفلسفة اليونانية. ولذلك فقد كانت هزيمة المعتزلة في حقيقتها اتجاهاً طبيعياً. ونصراً لأصالة الاسلام وتعديلاً لمسار فكره، وربما كان رثاء الفكر الغربي لهزيمة المعتزلة راجعاً الى ما فقدوه من احتواء الفكر الاسلامي لمنطق اليونان.

(٢)

إن أخطر ما عزل منهج المعتزلة عن مجرى الفكر الاسلامي الأصيل أنهم أخرجوا الاسلام « دين الفطرة » عن البساطة والسهولة واليسر . وأنهم غالوا في شأن العقل وانقسموا الى طوائف انحرفت عن مفاهيم الاسلام ، ويرى كثير من الباحثين أن المعتزلة ، بسيرهم وراء سلطان العقل قد نقلوا الاسلام الى مجموعة من القضايا العقلية والبراهين المنطقية ، وليس الاسلام نظريات رياضية أو هندسية ، إذ قصرت مفاهيم المعتزلة عن تعمق الروح والعاطفة والوجدان في نفس الوقت الذي رفعت فيه قدر العقل . ومن هنا فهي لا تستطيع الانفراد بالنظرة الشاملة. ويمكن القول إن المعتزلة كانوا شديدي التأثر بالفلسفة اليونانية، يدعون الى تحكيم العقل في كل أمور الاسلام .

## (٣)

ولقد كان من أخطر مفاهيم المعتزلة : القول بخلق القرآن . وهو من مفاهيم اليهودية أساساً وقد شهد بذلك أحمد أمين حين قال : ويختلف الباحثون في أن المسلمين تأثروا في قولهم بخلق القرآن باليهودية كما روى ابن الأثير أو بالنصرانية تقليداً لقولهم في عيسى أنه كلمة الله[١] .

وقد اعتنق هذه الفكرة المأمون وحملها على رقاب الناس . ومضى في ذلك المعتصم والواثق وأدخلوا هـذه الفكرة الفلسفية في نطاق عقيدة الدولة وقتلوا من أجلها وعذبوا . وكان رجالهم يأملون من ورائها سلطاناً ونفوذاً[٢] .

وقد وقف أحمد بن حنبل في مواجهة هذه المحنة موقفاً صامداً كريمـاً حتى انحسرت في خلافة المتوكل وبعد سبعة عشر عاماً . وكانت كلمة أحمد بن حنبل في مواجهة هذا الموقف هي : هو كلام الله لا أقول مخلوق . وقـد ضرب ابن حنبل بالسياط حتى سالت الدماء من جسمه ولصق قميصه بلحمه وأغمي عليه . ولقد عسف المعتزلة بالناس وبالمحدثين والعلماء واستباحوا دماءهم وملأوا منهم

---

١ – ضحى الاسلام جـ ٣ .

٢ – نفس المصدر ص ١٩٦ .

السجون ونحن ننقل هذا من كلام واحد من مؤيديهم ومن أتباع المنهج العلمي الغربي الوافد هو : أحمد أمين .

* * *

هذه الصورة القاسية الغريبة على الاسلام في سماحته ويسره . هي التي كانت موضع رثاء المنهج العلمي الغربي للاعتزال وهزيمته . ويؤكد بعض الباحثين[1] أن الفكر اليهودي التلمودي الذي حملته الباطنية وقاده عبدالله بن سبأ قد استطاع أن يعمل من خلال المعتزلة : وان بشر المريسي الذي استولى على عقل المأمون هو يهودي أظهر الاسلام . قال الخطيب البغدادي في كتابه تاريخ بغداد : رأيت بشر المريسي مرة فوجدته شيخاً قصيراً دميم المنظر وسخ الثياب وافر الشعر أشبه شيء باليهود ، وكان أبوه يهودياً صباغاً بالكوفة في سوق المراضع ثم قال : لا يرحمه الله فقد كان فاسقاً . وقال الخطيب أيضاً : دخل الشافعي على أمير المؤمنين وعنده المريسي ، فقال أمير المؤمنين للشافعي : ألا تدري من هذا ، هذا بشر المريسي فقال الشافعي لبشر : أدخلك الله في أسفل سافلين مع فرعون وهامان وقارون . فقال المريسي : أدخلك الله أعلى عليين مع محمد وابراهيم وموسى . قال محمد بن اسحاق : فذكرت هذه الحكاية لبعض أصحابنا فقال لي: ألا تدري أي شيء أراد بقوله ؟ انه يقول ليس ثمة جنة ولا نار .

وجملة القول في المعتزلة : انهم جعلوا العقل هو المهيمن على الشريعة وعلى القرآن والسنة . فما وافق العقل قبلوه ، وما لم يقبله رفضوه إن كان حديثاً وأوّلوه إن كان آية من الكتاب ، فيخرجون الآيات عن مواضعها[2] . وقد أنكروا رؤية الله يوم القيامة ، وعذاب القبر ، ومنكر ونكير ، والميزان والصراط .

---

١ - عن نص للاستاذ سعدي يس ( مجلة رابطة العالم الاسلامي ١٣٧٩ هـ ) .

٢ - نفس المصدر .

أما أهل السنة فإنهم لم يهملوا العقل ، ولكنهم جعلوا الوحي دليله فاستفادوا منه في الميادين التي ينجح فيها فيرتب المقدمات المسلمة ويستخلص النتائج المقنعة. ولم يزجوا بالعقل فيما ينهك قواه من متاهات ما وراء المادة ، لأن ما لم يقع تحت حواس الانسان لا يستطيع أن يبحثه ( والحكم فرع عن تصوره ) . وهذا هو رأس الخلاف بين أهل السنة والمعتزلة أو المتطرفين منهم .

فأهل السنة يحترمون العقل لأن القرآن العظيم أثنى على أهله وكرمهم في غير ما آية من كتاب الله . فقال تعالى في سبعين موضعاً ونيفاً ( إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَاتٍ لِقَوْمٍ يَعْقِلُونَ ) . ( إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَاتٍ لِأُولِي ٱلْأَلْبَابِ ) . ( إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَاتٍ لِقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ ) . ( وَتِلْكَ ٱلْأَمْثَالُ نَضْرِبُهَا لِلنَّاسِ وَمَا يَعْقِلُهَا إِلَّا ٱلْعَالِمُونَ ) . ومتطرفو المعتزلة يحكمون العقل في الشرع ويجعلونه مهيمناً عليه .

ونقطة الخلاف بين المعتزلة وأهل السنة هو سلطة العقل . فالمعتزلة يرون أن العقل البشري قد منح من السلطة والسعة ما يمكنه من إقامة البرهان حتى على ما يتعلق بالله تعالى مما لا يعلم إلا عن طريق السمع أي النقل عن المعصوم ﷺ . فلا حدود للعقل عندهم . ولا زلل ولا خطأ متى صح البرهان . وهكذا تراهم يحكمون العقل ويسيرون خلف البرهان ويثيرون أصعب المشاكل وأعقدها ، ثم يتعرضون لحلها . فإذا اعتقدوا بحلها تأولوا آيات القرآن على مقتضاها .

أما أهل السنة فإنهم رأوا أن « العقل » له حد يقف عنده ، وأن من أمور الدين ما لا سبيل الى معرفته إلا عن طريق السمع . وذلك هو الإيمان بالغيب بما فيه الإيمان بالله واليوم الآخر ، وبالجنة والنار ، وبالصراط والميزان والبعث والحشر. وبما فيه الإيمان بالملائكة والرسالة على العموم، ورسالة نبينا محمد ﷺ على الخصوص . والعقل لم يمنح هذا كما أنه لم يمنح القدرة على معرفة كنه الله وصفاته .

وقد أقام الله تعالى في هذا العالم أدلة واضحة على قصور العقل وعدم استطاعته تعدي حدوده ، فها هوذا العالم المتمدن اليوم ، ومن قبل اليوم، عجز عن اكتناه معرفة الروح الذي به يحيـا الانسان ويتحرك ويأكل ويشرب ، كما عجز عن معرفة حقيقة الجاذبية . وهذا النور الذي يملأ الفضاء ويُظهر الأشياء اختفى عنا وعجز العقل عن معرفة كنهه .

وأهل السنة لم يهملوا العقـل ولم يعطلوه . ولكنهم أطلقوه في ميدانه الذي يمكن أن ينتج فيه بينما زجّ به المعتزلة في حلبة لا يستطيع الجري فيها مع بحوث الإلهيات العصيبة ولقد أساؤوا للاسلام السمح الفطري حيـنما مزجوا عقائده بفلسفات دخيلة وعقيمة ، والفلسفة من شأنها أن تعقد ما نفهمه حتى لا نفهمه .

أراد مثيرو الفتنة وحاملو هذه المحنة أن ينكروا الخالق البرّ الرحيم. ولكنهم لو قالوا ذلك صراحة لكانوا طعمة للسيف، فعمدوا الى طريقة ودعوا الى ما يلزم منه نفي الإله ( تَعالَى ٱللهُ عَمَّا يَقُولُونَ عُلُوّاً كَبِيراً ) وذلك بأنهم نفوا عنه تبارك وتعالى صفات الحي الموجود . فنفوا عنـه السمع والبصر والكلام والاستواء والنزول والغضب والرضا . وكل ما وصف به نفسه سبحانه وتعالى في كتابه . وما وصفه به رسوله في سنته . وقالوا إن الله تعالى قال : « ليس كمثله شيء » والسمع يحتاج الى صماخ وأذن ومحارة وهي صفات الانسان المخلوق . والله ليس بمخلوق . والأبصار تحتاج الى حدقة وأجفان وهي صفات المخلوقين . والكلام يحتاج الى لسان ولهاة وحلق وهي صفات المخلوقين[1] .

---

١ – عن بحث عن المعتزلة للاستاذ سعدي ياسين .

- ٩ -

# ٣ ـــ أخطاء التصوف

ويقف المنهج العلمي الغربي الوافد من التصوف موقفاً مماثلاً لموقفه من الاعتزال بل أشد عنفاً وأكثر مطمحاً ، ويركز على التصوف الفلسفي ، ويعلي من شأن مفاهيمه واعلامه الى الحد الذي يبلغ بعالم كبير مثل ( ماسينيون ) أن يركز حياته كلها على دراسة الحلاّج وآثاره وأخباره، كما يركز الكثيرون من مفكري الغرب على وحدة الوجود والاشراق والاتحاد والحلول والفناء ، ويعتبرون هذه المفاهيم مفاهيم إسلامية بينما هي في الواقع مفاهيم وافدة . كما أولى الكثيرون اهتمامهم بدراسة الحلاج وابن عربي والسهروردي وابن سبعين وهم ممن تأثروا بالأفلاطونية الحديثة والفلسفة اليونانية والغنوصية ، وأحيوا العناصر التي أدخلها إخوان الصفا من مفاهيم إغريقية ومسيحية وفارسية الأصل . ومنها المذهب المانوي والزرادشتي وفلسفة فيلون اليهودي ، وفلسفة الرواقيين .

ولقد كان واضحاً في احتفال الفكر الغربي ومنهجه الوافد بالتصوف . وفي إحياء التراث القديم له ، إحياء ذلك الخيط الذي يربط بين هذا الفكر كله وبين الفكر الغربي قديمه وحديثه . مما يخرج عن مفهوم الاسلام وجوهر التوحيد . والجبرية من أخطر الأهداف التي أدى إليها انحراف التصوف ودخول عناصر غريبة عنه إليه ، وخاصة الاتحاد والحلول ووحدة الوجود ، وتعني السلبية والانحراف عن مفهوم الاسلام في إيجابيته وإيمانه بالحياة والعمل ، ومعارضته لقيمة أساسية في الاسلام هي المسؤولية والجزاء .

فالانسان في مفهوم الاسلام مسؤول مسؤولية كاملة عن أعماله وتصرفاته

وسلوكه . ومن حقه أن يتصرف في حرية ، ويختار أفعاله . ومجاله في الاختيار واسع على ألا يتعدى حدود الله . ومن هنا فإن جزاءه على قدر مسؤوليته وعمله.

أما مفهوم وحدة الوجود فهو يطعن هذا المعنى ويقيم مفهوماً من الجبرية ؛ يجعل الانسان غير مسؤول . ومفاهيم الحلول والاتحـــاد ووحدة الوجود هي مذاهب زائفة وافدة ترى امتزاج الله والعالم . وهو ما يخالف مفهوم الدين الحق. ومفهوم الاسلام : الله واجب الوجود ، فالله خالق والعـــالم مخلوق . والله مدبر الكون والعالم مدبَّرٌ له ، وليس الله ( جل جلاله ) حالاً في العالم . وإنمـــا هو خالقه ومدبره . والله بيده عاقبة الأمور .

وقد فصل ذلك الإمام ابن تيمية في الرد على أصحاب هذا المذهب حين قال: إن الاتحاد بين الخالق والمخلوق ممتنع . لأن الخالق والمخلوق اذا اتحدا . فإما أن يكونا بعد الاتحاد اثنين كما كانا قبله، وهذا تعدد وليس باتحاد . وإما أن يستحيلا الى شيء ثالث كما يتحد الماء واللبن . أو النار والحديد . فيلزم أن يكون الخالق قد استحال ، وتبدلت حقيقته كسائر ما يتحد مع غيره . وهذا ممتنع على الله تعالى إذ الاستحالة تقتضي عدم ما كان موجوداً . والله تعالى ( واجب الوجود ) بذاته وصفاته الملازمة له ، التي هي كمال ، والتي اذا عدمت كان ذلك نقصاً تنزه الله عنه .

والاسلام ينكر مذهب الحلول ووحدة الوجود ولا يقر مذهباً يقول بحلول الله في جسد إنسان ولا يقر العقول بفناء الذات الانسانية في الذات الإلهية ، ولا يقر القول بأن الله سبحانه وتعالى هو مجموعة هـذه الموجودات والكون بسمائه وأرضه ومخلوقاته العلوية والسفلية هو الله . كما لا يقر القول بحلول الله في جسد الانسان ، كما يرفض الزهد والرهبنة ووراثة الملك وحياة الانقطاع . بل إن قهر النفس والانقطاع عن الدنيا ونبذها ليس من مفاهيم الاسلام أصلاً . بل هي من السلبيات التي شجبها شجباً كاملاً .

والاسلام لم يدع الى الرهبنة، بل هو صريح في إنكارها في القرآن والحديث، ولكنه دعا الى العبادة والورع والصوم والصلاة ، وقد جعل الاسلام الزواج أساساً للزهد : يقول عبدالله بن عباس : لا يتم نسك الناسك إلا بالزواج . ومن هنا يتبين مدى الخطر الذي واجهه الفكر الاسلامي منذ ألقى المنهج العلمي الغربي الوافد بمفاهيمه في ساحة التصوف ، وحرص على الاهتمام بشخصيات معينة منه ، هي الشخصيات المنحرفة التي لا تمثل مفهوم الاسلام الصريح والتي التبس مفهومها بفلسفة الاشراق اليونانية كالحلاّج والسهروردي وابن عربي .

والمعروف أن الآراء التي أذاعها دعاة التصوف عن الجبرية ووحدة الوجود ليست أصيلة في الاسلام وإنما هي ثمرة الفكر الباطني الوافد من النظريات الفارسية واليونانية والهندية . فمذهب وحدة الوجود مذهب هندي برهمي ، ومذهب الإشراق مذهب يوناني مستفاد من الأفلاطونية الحديثة .

وقد أشار الباحثون المسلمون [1] الى مدى خطر اهتمام المنهج العلمي الغربي الوافد بآثار الصوفية بهدف إغراق المثقفين المسلمين والعرب . فكتب الصوفية المنحرفة تصرفهم عن ميدان الكفاح الحقيقي . وان التأويل الفلسفي قد دخل على التصوف من الفلسفة اليونانية . أما الحلول والاتحاد فقد جاءا من نظرية التناسخ الهندية .

---

١ – عن نص للدكتور عمر فروخ .

( ٢ )

يقول الدكتور عبد القادر محمود: ان التصوف في مفهوم الاسلام لا يقر مذهباً يقول بحلول الله في جسد إنسان أو فنـــاء الذات الانسانية في الذات الإلهية. كما لا يقر القول بوحدة الوجود. أو أن الله هو مجموعة هذه الموجودات. وإذا جاز للمسلم المتصوف معنى من معـــاني الوحدة. فهي وحدة التوحيد المزاوجة بين الروحية والواقعية. وبين الظاهر والباطن. ومن هنـــا شط المستشرقون والتابعون لهم حين أكدوا أن التصوف هو مذهب الاتحاد ووحدة الوجود. ولم يدركوا بحكم اتجاههم الروحي والعقلي أن التصوف الاسلامي قد أثمر ثمراته من القرآن والحديث، وأن النظريات الفلسفية المنحرفة لم تقف على قدميها إلا في عهد انهيار الفكر الاسلامي الخالص وضياع السلطان السياسي وتمزق الخلافة، كما لم تثمر ثمارها إلا في عهد الصليبيين والقرامطة والتتار.

## (٣)

ومن الحق أن يقال إن المنهج العلمي الغربي الوافد كان متجاوزاً للحق في إعلاء أمور لا يقرها الفكر الاسلامي ، وتتعارض مع أصله الأصيل (التوحيد) ، وان تلك الفرحة بهذه المفاهيم . وإعلاء هذا النوع من التصوف الفلسفي ونشر آثاره وإذاعة أخباره . وتخصيص الأساطين حياتهم كلها (نيكلسون ، ماسينون، جولدزيهر ، فلهوزن ، الخ ) . ليكشف عن تلك الرغبة الحاسمة ، وذلك الهوى المكين في إخراج الاسلام عن مفاهيمه الأصيلة . والاسلام في مواجهة هذا الفكر الصوفي الفلسفي يقيم ثلاث دعائم أساسية :

الأولى : هي التوحيد الخالص فلا يقر وحدة الوجود أو الحلول أو الاتحاد بوجه من الوجوه .

الثانية : انه لا يقر العزلة عن الحياة والتحرر من الكفاح فيها باسم العبادة أو النسك .

الثالثة : ان أياً من الناس مهما بلغ قدره في الإيمان بالله ارتفاعاً وعلواً لا يحق له أن يكف عن أداء فرائض الله . فإن الإسلام لم يرفع هذا التكليف عن أحد من الناس حتى رسول الله نفسه .

# الباب الثاني

## أخطاء التاريخ والحضارة

أولاً ــ مفاهيم التاريخ

ثانياً ــ علم الأجناس والقومية

ثالثاً ــ مفاهيم الحضارة

# الفصل الأوّل

## مَفاهِيمُ التَارِيخ

إن المنهج العلمي الغربي : وقد قام على أسس أصيلة من الفكر الغربي ، وفي سبيل الدفاع عنه ، وإعلاء مفاهيم الغرب الأوربي ذي البشرة البيضاء المسيطر بالحضارة وأسرار العلم ، والزاحف بالنفوذ السياسي والعسكري على العالم الاسلامي ، يقف من التاريخ البشري كله موقفاً واضحاً . ويقف بالتالي من تاريخ الاسلام والعرب موقفاً خاصاً باعتبار أن تاريخ الاسلام من وجهة نظر الغرب ؛ هو تاريخ الصراع بين القوة الاسلامية العربية التي صاولت الغرب وسيطرت على مناطق كثيرة في إفريقيا وآسيا كانت تحت نفوذ الامبراطورية الرومانية ، ثم هي القوة التي زحفت إلى شبه جزيرة اسبريا واستقرت في الأندلس ثمانمائة سنة . ووصلت إلى حدود نهر اللوار . ثم زحفت من الناحية الأخرى فنزلت في البلقان . ووصلت إلى أسوار فِينَا فاستقرت هناك ثلاثمائة عام . وفي خلال فترة الصراع هذه التي استمرت حوالي ألف عام زحف الغرب بجحافل الصليبيين على العالم الاسلامي . وأقام معه معركة ممتدة زهاء قرنين كاملين ، ثم أعاد الكرّة بعد ذلك بالدوران حول العالم الاسلامي وتطويقه والسيطرة عليه على امتداد من القرن الخامس عشر إلى القرن التاسع عشر حيث أحكم سيطرته على أغلب أجزائه حتى سيطر على بيت المقدس في أواخر الحرب العالمية الأولى ، وأحس الغرب بأنه باحكام هذه السيطرة قد ثأر لهزيمة الحروب الصليبية حتى قال بيبرس سميث في كتابه سيرة المسيح : « ان هذا الاستيلاء على بيت المقدس

كان حرباً صليبية ثامنة أدركت المسيحية فيها غايتها » وقام من مؤرخي الغرب وكتابه من يقول : لو أن العرب لبثوا في جزيرتهم العربية لما وقعت الحروب الصليبية . وان على العرب أن يعيدوا الأجزاء التي كانت للغرب أولاً .

ويقرر المنهج العلمي الغربي الوافد أن التاريخ يبدأ من الغرب وينتهي إلى الغرب . وأن دور الأمم الأخرى ليس شيئاً أساسياً أو رئيسياً .

وقد صور هذا المعنى كثير من المؤرخين والباحثين وعلمـــاء الأجناس من خلال المنهج العلمي الغربي وفي ضوء أصوله ومقاييسه التي تتأثر بالعاطفة والعنصر ولا ترتفع عن الهوى والتي تكوّن كل شيء بميول الغرب ونزعاته وتتحرك في دائرة استعلائه وطموحه .

فالانسان الأبيض في المنهج العلمي الغربي « لا الانسان عامة هو تاج الخليقة . وإن الغلبة له في كل صراع ينشب على وجه الأرض ، سواء أكان بينه وبين غيره من الأجناس الملونة أو بينه وبين مظاهر الطبيعة كالجبال والغابات والبحار أو بينه وبين الوحوش» . ويردد شتاينبك عبارته التي تجري مجرى الأمثال «الرجل الأبيض لا يغلب » . « وهم عند ما يكتبون تاريخهم يبدأونه بشعب أبيض هو شعب اليونان . وينقلون زعامة البشر من بعده بين أجناس بيضاء من رومان وطليان وجرمان . فإذا ظهر شعب ملوّن . وارتفع إلى مستواهم نظروا إليه بإيمان الذي يعتقد ان هبوطه لا بدّ منه يوماً . وذلك لانه ليس من الجنس الأبيض » .

ولا ريب أن هذه النظرية لا تمثل المنهج العلمي الأصيل في قليل ولا كثير . فهي تغض النظر عن التاريخ البشري كله قبل نهضة أوربا وخلالها وبعدها ، وتنكر فضل المعطيات التي أخذوها من الشرق قبـــل الاسلام . وكلها من معطيات دين إبراهيم الحنيف ، كما يغضون الطرف تمامـــاً عن دور المسلمين والعرب خلال ألف سنة كاملة لم يكن لأوربا فيها ذكر ولا اسم منذ سقطت روما في القرن الخامس إلى أن بدأ عصر النهضة الأوربية في القرن الخامس

عشر . ويطلقون على هذه المرحلة الضخمة من التاريخ : العصور المظلمة . وهي عصور مظلمة بحق" ولكن في أوربا وحدها ، أما في أنحاء العالم كله ( آسيا وإفريقيا ) فقد كانت عصوراً مضيئة مشرقة .

ولقد كشف التاريخ موقف الغرب من العـــالم كله ، وموقفه من الاسلام عندما اقتحم أوربا من الغرب ثم من الشرق ، فالأوربيون لا يقبلون مزاحمة الاسلام لهم في قارتهم ، فهناك قاعدة لم تتخلف هي أن ينتهي المسلمون من أوربا بالهجرة أو بالتنصير . وقد وضعوا لذلك سياسة بالغة العنف . حدث هذا من ناحية الأندلس . ثم حدث من ناحية آسيا الصغرى والبلقان .

وقد عمل مفكرو الغرب على نقل الفكر الاسلامي مـــع إهدار طابعه الاسلامي وتحويله إلى فكر غربي . ثم أقاموا على الاصرار على انكار فضل المسلمين والعرب . وهناك نماذج كثيرة ، أبرزها تجربة توماس الأكويني الذي عمل على فصل الثقافة العربية الاسلامية وهو يترجمها لتكون الأساس الفكري للحضارة الغربية عن أصلها الاسلامي من حيث طابع التوحيد والتكامل . ومضت حركة الترجمة والنقل على أساس الانتفاع بكل ما قدمه الاسلام للفكر الانساني دون نسبته إليه . ونقل المنهج العلمي التجريبي وتحويله إلى منهج غربي مع عدم الاعتراف بفضل العرب والاسلام ، مع القفز من الحضارة الرومانية إلى الحضارة الحديثة مع تجاهل فترة ألف عام هي المرحلة الاسلامية ، وتعمُّد مخالفة الأسس وتجاهل الأثر العربي الاسلامي ومعارضته واتهامه والحقد عليه ونقده في تعصب ( هذا مع التحفظ بأن هناك أفراداً قلائل من الباحثين خرجوا على المنهج العلمي الغربي الوافد . ونظروا إلى الأمـــور بإنصاف منهم : كارليل ، ولوبون ، وهونكه ) .

وهؤلاء قلة قليلة بالنسبة لكتاب الغرب الذين يحكمهم المنهج العلمي الغربي الوافد . والذين تقطر أقلامهم سمًّا وكراهية واحتقـــاراً واستعلاء للعرب والمسلمين وللبشرية كلها .

ومن أخطر صور الازدراء والاحتقار ما يقوله مؤرخ غربي كبير هو : موريس كوردييه في كتابه تاريخ الحضارات « ان المسلم يتمثل عند الأوربي : هو ذلك الذي يرسم عندما يجثو حركة يشمئز منها الأوربي ، لأنها تنم عن العبودية . فالمسلم هو نقيض الأوربي والاسلام نقيض أوربا » .

ومعنى هذا أن السجود لله وهـــو عنصر أصيل أساسي في الاسلام . فيه الإكبار لله وإعلان العبودية لله ، والخضوع لوجهه الكريم وحده ، هذا المعنى الذي يشمئز منه الأوربي هو أعلى مظاهر التحرر مـــن عبودية المادة ، ومن الوثنية ، ومن عبادة الذهب والحضارة ، ومن الخضوع للأهـــواء والشهوات والمطامع ، ومن الذل للإنسان أميراً أو بطلاً أو حاكماً . فهو أرقى مظاهر الحرية العقلية والروحية . والاسلام هو الذي حرر البشرية من الانحناء للنار . وللصور وللتماثيل وللبشر المؤهلين . وأطلقها من عبادة الأبطال والآلهة وأنصاف الآلهة ، ولا ريب أن هذا الخلاف العميق في العقائد بين الاسلام والفكر الغربي يجعل المنهج العلمي الغربي الوافد عاجزاً عن استيعاب الاسلام ، وغير قادر على النظر فيه . بله الحكم عليه ، ولا ريب أن الهوى العقائدي والهوى التاريخي يشتركان معاً في الحكم بالعجز عن الوصول إلى أحكام علمية خالصة من العواطف والعنصرية والميول والرغبات .

## - ٢ -

ليس للفكر الغربي منهج واحد لدراسة التاريخ . ولكن هناك منهج واحد للبحث يحكم كل هذه المناهج العلمية ، ذلك المنهج مستمد من العقلية والعقيدة والجنس وهو يجري في نطاق طابع الفكر الغربي في آخر مراحله ، وهو المادية الخالصة التي فصلت عنها كل ما يتصل بالروح أو عالم الغيب أو ما وراء الحسّ والظواهر .

ومن هنا فإن المنهج العلمي الغربي الوافد لا يعتبر حاكماً . لأنه لا يستطيع أن يقف موقف العدل في النظر المنصف المجرد بين وجهتي نظر مختلفتين ليقول أيهما أصدق وأيهما أعدل وأيهما أحكم وأيهما خير للبشرية في حاضرها ومستقبلها . ولكنه حاكم بمعنى أنه يرجح وجهة النظر الغربية . ويحاول دائماً إيجاد الأدلة على أنها الأصح والأقوى وأن وجهة النظر الأخرى هي الأضعف والأبعد . ومعنى هذا أنه يدخل حلبة البحث بفكر مسبق وبعقيدة مسبقة ، وبإصرار على مناصرة وجهة نظره ، والتماس كل الوسائل التي تكفل انتصارها ، وهزم وجهة النظر الأخرى . ويحكمه في هذا أمران : الاستعلاء العنصري الذي يحمل معه كل فلسفاته ومفاهيمه معتقداً أنها : مصدر نفوذه وسيادته وسلطانه .

أما الأمر الثاني فهو تبرير وجوده واستعماره لعالم العرب والاسلام . ودعوة

هذا العالم الى فكر هو مصدر السلطان والحكم ، وفي هذا ما فيه من الإشارة الى أن الفكر والعقيدة التي تحكم عالم الاسلام هي مصدر التخلف والهزيمة .

ولا ريب أن في ذلك افتئات كبير على الحقيقة وعلى المنهج العلمي الأصيل . فليست قيم الغرب هي مصدر نصره واستعلائه . ولكن مصدر ذلك هو تطويق العوالم المستعمرة وتجريدها من كل عوامل القوة المادية . واستمرار الحيلولة بينها وبين امتلاك إرادتها ، ثم العمل من داخل هذه الدائرة على هزيمتها فكرياً بطرح هذه المفاهيم .

ولا ريب أن الفكر الاسلامي يؤمن ، وأهله يؤمنون ، بأنه أصلح المناهج لهم وللانسان جميعاً وأنه يقوم على أساس فكرة العدل والانصاف وتحري الحق . حتى ولو كان هذا الحق معارضاً لموقف من مواقفه ، أو تصرف من تصرفات أهله ﴿ وَلَا يَجْرِمَنَّكُمْ شَنَـَٔانُ قَوْمٍ عَلَىٰٓ أَلَّا تَعْدِلُوا۟ ٱعْدِلُوا۟ هُوَ أَقْرَبُ لِلتَّقْوَىٰ ﴾ .

فالفكر الاسلامي يقوم على أساس الحق المطلق الذي ليس له أكثر من أسلوب . أو أكثر من طريقة ، أو الذي يحاور ويداور عن طريق « التأويل » أو « التبرير » . فقد قدم الاسلام معطاة رئيسية هي فكرة الحق في كل شيء . في النظر والبحث عن الله سبحانه وتعالى ، وعن الكون ، وعن المعرفة ، وهي أساس الحكم على الأشياء ، بعيداً عن التقليد والتبعية أو الجمود ومأثور الباطل ، والرأي القائم على الظن ، والحكم بالهوى .

وحين يتاح للفكر الاسلامي أن يقوّم الفكر الغربي والحضارة الغربية بإرادة مطلقة فإنه سوف يكون أكثر إنصافاً وأقل تعصباً أو تحيزاً . وخاصة في مجال النقد الذاتي .

والمنهج العلمي الاسلامي يصدر عن فكرة أصيلة واحدة تنتظم مناهج

البحث في كل العلوم والقيم وتكشف عن منطق واحد واضح ، ساطع الضوء بعيد عن الظلال والرمزية والإيماءات التي تحمل أكثر من تفسير وأكثر من تحليل.

أما المنهج العلمي فإنه يقدم عدداً من المدارس والمذاهب في تفسير التاريخ : لاهوتيًّا وماديًّا واقتصادياً وجغرافياً وجنسياً . ويقصر عن النظرة الكاملة التي يعتمدها المنهج العلمي الاسلامي في أن يقيم نظرية في تفسير التاريخ على أساس الدين والجنس والاقتصاد والمناخ . ويجعل للعقائد والأديان والفكر وبطولة الفرد والإيمان عاملاً هامًّا أساسيًّا .

والمنهج العلمي الاسلامي يصدر في منهجه في تفسير التاريخ من طبيعته التي تقوم على التوحيد والتكامل وارتباط الدنيا بالآخرة والجزاء . وأبرز معطيات المنهج العلمي الاسلامي في تفسير التاريخ هو : « أن نهاية وجود التاريخ يوم تقوم الساعة »[1] .

وان أبرز ضوء يوضع تحت نظر الباحث في التاريخ هو الموت والمسؤولية الفردية والجزاء الأخروي . وان خطأ المنهج العلمي الغربي الوافد ( غربياً أو ماركسياً ) هو ناشىء عن تجاهل الموت والتنكر للقيم[2] .

فالمنهج العلمي الاسلامي « لا يقر النظرية الفردية الغربية المتطرفة لتفسير التاريخ . ولجعل التاريخ من رسم أفراد معدودين » وهو « لا ينكر أثر الأفراد كعامل من عوامل رسم التاريخ بما أودع فيهم من قوة سواء السير على الطريق الصحيح أو الطريق الخاطىء : وأمامنا أثر ابراهيم في الطريق الأول وفرعون في الطريق الآخر »[3] وهو في نفس الوقت « لا يقر النظرية الجبرية الماركسية

---

١ – من بحث للعلامة علي الفاسي .

٢ – نفس المصدر .

٣ – عن بحث لاستاذ كبير في مجلة حضارة الاسلام .

للمجتمع لأنه ينكر أية نظرية تثبت جـبرية الانسان ، وتعطل إرادته . حيث أنه يؤكد مشيئة الانسان ومسؤوليته عن أعماله . ومع ذلك فإنه لا ينكر أثر المجتمع في سير التاريخ» ولا يقر نظرية منفصلة تجعل العوامل الجغرافية والطبيعية مصدراً أساسياً للتاريخ يقوم على أثر الأنهار والجبال . وإن كانت هذه العوامل إحدى العوامل المؤثرة .

فالإرادة الانسانية عامل لا ريب فيه يحرك التاريخ من داخـــل إرادة الله ومشيئته .

## - ٣ -

قام تفسير التاريخ في الفكر الغربي على عـــدة مناهج ، وتحرك في دوائر مختلفة ، وتطور تطوراً كبيراً من خلال الفلسفات اللاهوتية والمثـالية والمادية التي تتابعت على الفكر الغربي .

أولاً : تفسير مسيحي قوامه أن المسيحي يعيش بشخصية مزدوجة أو عالمين منفصلين لا يربط بينهما رباط . فالمثل الأعلى عنده غير قابل للتطبيق . والواقع البشري المطبق في واقع الأرض منقطع عن المثـــل الأعلى المنشود ، ويسير هـــذان الخطان في نفسه متجاورين أو متباعدين . ولكن بغير اتصال. والتاريخ في نظره هو نقطة ضعف البشر وهبوطه وانحرافه[١] .

ثانيـاً : تفسير مادي ويقوم على أساس تطبيق القوانين البيولوجية مثل نظرية داروين وما يتعلق بها على التاريخ وعلى المجتمعات البشرية باعتبار أنها نوع من الكائنات الحيـــة ، وهم يرون أن الأشياء الحقيقية هي الأشياء المرئية فقط . وما يسمى بالروح ليس إلا أسطورة . وأن الحس والشعور طاقة من طاقات المادة ، ورفض ما وراء الطبيعة[٢] .

---

١ - عن ولفرد كانتول سميث في كتابه ( الاسلام في التاريخ الحديث ) .

٢ - عن بحث للدكتور جواد علي .

ثالثاً : تفسير غربي : يؤمن بأن البشرية هي الغرب وحده ، وأن التاريخ الغربي هو تاريخ البشرية وحده ، وأن التاريخ البشري بدأ بالرومان وانتهى بالغرب . وهذه هي النظرية التي تقوم على تبرير الاستعمار وأفضلية الجنس واللون والامتياز العنصري الذي أعطى لأوربا مكانتها في السيطرة . ويفرق هذا التفسير بين الشعوب الآرية والشعوب السامية . ويقرر تفوق الأمم الأوربية على سائر أمم العالم .

رابعاً : تفسير ماركسي : ( التفسير المادي للتاريخ ) وهو يقوم على نظرية أن تاريخ البشرية هو تاريخ البحث عن الطعام ، ويعرض هذا التفسير عن جانب المعنويات والقوى الذاتية ، وعن القيم سواء منها العقائد أو الأخلاق .

ويقول ولفرد كانتول سميث ان التاريخ في النظر الماركسي : هو الإيمان بحتمية التاريخ بمعنى أن كل خطوة تؤدي الى الخطوة التالية بطريقة حتمية ، ولكن لا يؤمن إلا بهذا العالم المحسوس . بل في هذا العالم إلا بالمذهب الماركسي وحده وكل شيء عداه باطل ، والماركسي يتبع عجلة التاريخ ولكن لا يوجهها ولا يقيسها بأية مقاييس خارجة عنها .

خامساً : النظرية القائمة على تأثير الجغرافيا والطقس والمناخ والتي يتزعمها «بكل» ويتخذها كثير من الباحثين أساساً لتفسير التاريخ .

سادساً : النظرية الجماعية التي تقول بأن التاريخ ليس من صنع الأفراد والأبطال بل من صنع الجماعات وأن الفرد لا قيمة له في سير التاريخ .

سابعاً : النظرية العالمية للتاريخ : وقد سيطر على هذا الاتجاه دعاة التلمودية الصهيونية وقد قصد به الى تفسير التاريخ تفسيراً عاماً يخضع لنظرية التطور المطلق ، وإعلاء شأن الحضارات القديمة والوثنيات والسحر

والخرافة والأسطورة . وقد سار في هـذا الاتجاه ولزوول ديورانت الذي يظهر عطفاً كبيراً على اليهود في التاريخ . فقـد عرض تاريخ اليهود في موسوعة قصة الحضارة عرضـاً جذاباً مشرباً بالعطف والمحاباة .

ثامنـاً : التفسير الجنسي : وهو غير التفسير العنصري . ويقوم عـلى أساس أخلاقيات القـادة ويرد أصحاب هذا المنهج تفسيرات التاريخ الى علاقات الغرائز والمواقف الجنسية ومواقف الحبّ والغرام والرغائب الجنسية . ويعتمد هذا التفسير في الأغلب على نظرية فرويد التي تقوم على أن الجنس هو مصدر تصرفات الانسان كلها .

- ٤ -

وهكذا يضطرب المنهج العلمي الغربي الوافد بنظريات متعددة . ووجهات نظر جزئية ومنفصلة . يقف أصحاب كل منها موقف الحسم في أن مذهبه وحده هو التفسير العلمي الصحيح للتاريخ . ويتصل بهذا الافتراض الذي يقوم في الفكر الغربي مقام المسلمة التي لا سبيل الى معارضتها تقسيم الغربيين للعصور من جهة وللأمم والشعوب من جهة أخرى :

أولاً : العصور الوسطى هي عصور الظلام ، لأن أوربا كانت تعيش في ظلام حالك ، وقد تجاهل الغربيون الحضارة الاسلامية التي كانت متألقة في تلك العصور .

ثانياً : تاريخ افريقيا السوداء يبدأ عندهم حينما دخلها الرحالة الأوربيون . أما قبل ذلك فليس لها تاريخ .

ثالثاً : العالم هو الغرب ، والفكر العالمي هو الفكر الغربي ، والعالم قد عاش حضارة اليونان والرومان ، ثم عاش حضارة أوربا منذ عضر النهضة .

رابعاً : العالم مقسم الى أجناس عليا وأجناس دنيا ، ودماء زرقاء ودماء سوداء ، والقول بأن أسباب تخلف الأمم مصدره وجود خصائص أصيلة في عقلية تلك الأمم تمنع تقدمها ، وبأن هناك شعوباً مختارة كالشعب اليهودي .

★ ★ ★

ولا ريب كان لهذه النظرية أثرهـا البعيد المدى في النفس العربية الاسلامية والعقل العربي الاسلامي . وكان لها رد فعل في الريب القائم والشك الدائم في كل المقررات التي يقدمها الفكر الغربي تحت اسم المنهج العلمي الغربي (الوافد) .

وقد أشار هاملتون جب الى هذه الظاهرة حين قال : إن المسلمين والعرب يعترضون على محاولة تصوير الحوار بين الشرق والغرب على أنه حوار بين غالب ومغلوب . وأن ذلك العامل كان له أكبر الأثر في عقول الشعوب الشرقية اليوم. وهو أن الغرب الذي أمسك بزمام المبادرة في الخمسمائة سنة الأخيرة كان ولا يزال ينظر الى الشعوب الشرقية و كأنها وسائل لغاياته الخاصة .

ولقد جاء الغربي الى الشرق فاتحـــاً أو مستعمراً أو تاجراً أو مستغلاً أو مرسلاً في المقام الأول . وكان دافعه الرئيسي الكسب والاقتناء . فاستخدم في الأغلب القوة التي وضعها العلم والتقنية في يديه في سبيل مصالحه الخاصة[١] .

إن هناك محاولة لاخضاع الشرق ووضعه دائماً في دائرة النفوذ . وفي حلقة مغلقـة لا تمكنه من الحركة الحرة ، ولكن فكر العرب والمسلمين لا يستطيع أن يقبل التبعية والتقليد فضلاً عن أنه هل يقبـل الشرق هذه الحضارة الغربية وهي تمر الآن بمرحلة أزمتها الخطيرة وتفككها وتمزقها البالغ وشعبها المتصارع ؟

* * *

ولا ريب أن هنـاك عدة ظواهر بعيدة الأثر في عجز المنهج العلمي الغربي الوافد عن الوصول الى الحقيقة الكلية :

أولاً : ذلك الصراع الضخم القائم بين المدارس الغربية وتمزقهـا ( وخاصة ذلك الصراع بين المدرستين الأدبية والعلمية ) وقصور نظرهـا على جزئية واحدة ، أو أفق محدود . دون أن يكون قادراً على النظرة

١ – النص عن مقال . م ١٢ سنة ١٩٥٩ مجلة الأبحاث ص ٤٨٥ .

الكلية والآفاق الواسعة والأبعاد المتكاملة والتي لا يحققها غير النظرة الاسلامية .

ثانياً : محاولة الحكم على العصور والأمم على أساس مفاهيم عصر آخر ( فالحضارة اليونانية لا تقاس بمفاهيم الحضارة الرومانية ) .

ثالثاً : محاولة تطبيق المناهج الخاصة بالأنبياء والرسل على الأبطال والقادة . ذلك لأن بطولة الأبطال والقادة إنما تقوم على غير الأسس التي تقوم عليها عظمة الأنبياء والرسل . بل لربما كانت تقوم على عكسها فسر عظمة نابليون والاسكندر وهانيبال « إنما تكمن في ضخامة الأنانية وفرط الدنيوية » وهي في هذا مغايرة تماماً لروح الإيثار وإنكار الذات التي عرفت عن الأنبياء والرسل. فضلاً عن أن الرسل والأنبياء لهم جوانب لا تخضع للمقاييس المادية ، وتتصل بالوحي وتأييد الله لهم .

## - ٥ -

حاول المنهج العلمي الغربي الوافد أن يطرح في أفــق الفكر الاسلامي « تصوراً » للتاريخ الاسلامي مستمداً من مفاهيم الغرب وقائماً على أساس قيمه. وقد عجز هذا التصور عن الإحاطة والاستيعاب ، بـل والفهم للاسلام وتفسير تاريخه وحركة انطلاقته وأحداثه .

ولا ريب أن هناك عوامل كثيرة ، تحول دون النظرة الصحيحة المنصفة والاستيعاب الكامل ، ترجـــع الى طبيعة المؤرخ وجنسيته ودينه ونظرته العقائدية . وفي أشد الحالات تحرراً من هذه العوامل . فإن الباحث الغربي يعجز عن فهم روح التاريخ الاسلامي وأسراره نتيجة اختلاف وجهـــة النظر الأساسية بين الفكر الاسلامي والفكر الغربي ، وأول هــذه الاختلافات هي : تجزئة الكون والطبيعة أو الفصل بين ( الله والطبيعة ) وبين العـــلم والدين في الفكر الغربي . والمنهج العلمي الغربي الوافد .

أما الفكر الاسلامي فيقوم على أساس وحدة الكون وانسجام قوى الطبيعة واتساقها . فالاسلام هو النظام الوحيد الذي يحقق هذا الانسجام ، لأنه يجمـع بين الروح والجسد في نظام الدين والسماء ، والأرض في نظام الكون . ويسلكها في طريق واحد هو الطريق الى الله . وان الاسلام – والاسلام وحـده – هو الذي يجمع بين العلم والدين في وحدة تامة غـــير متنافسة . والتاريخ الاسلامي

حافل بأسماء الألوف من الأفذاذ الذين كانوا مناراً في العقيدة ومرجعاً في البحث العلمي . ولا تجد مثل هذه الكتب في تاريخ غير المسلمين[1] .

ويكشف الباحث المسلم محمد أسد ( ليوبولد بولس ) عن الفرق بين وجهة النظر الاسلامية . ووجهة النظر الغربية مقارناً بينهما فيقول : « إن وجهة النظر الاسلامية مخالفة على كل حال لوجهة النظر الغربية الآلية ، إذ أن الاسلام يعتبر وجود الامكان الروحي لمجموع البشر صفة كامنة . أي أنه شيء وضع في بناء الطبيعة البشرية ، ولا يسلم أبداً – كما يفعل الغرب – بأن الطبيعة تخضع لعملية تبدل ارتقائي كالذي يحدث للشجرة في نموها ، ذلك لأن أساس تلك الطبيعة ( أي النفس الانسانية ) ليس كمية عضوية فحسب . والخطأ الأساسي في التفكير الأوربي الحديث ناتج عن اعتبار التزايد من المعرفة المادية ومن الرفاهية مرادفاً للترقي الروحي والأدبي ، وذلك يقوم على جحود الغربيين لوجود نفس مفارقة للمادة منفصلة عنها ومخالفة لها . أما الاسلام الذي بني على أوجه من الادراك المطلق . فإنه يعتبر وجود النفس حقيقة لا تقبل النقاش ، والسبب في هجر الأوربيين للأفكار المطلقة ، هو أن الفكر الأوربي في هروبه من الكنيسة ورغبته الخفية والظاهرة في خلع نيرها . قد مال الى فكرة نفي الثبات على الاطلاق ، واستعاض عنها بفكرة التطور على الاطلاق . وفكرة التطور المطلق لكل الأوضاع ولكل القيم ولأصل التصور الذي ترجع إليه القيم فكرة تناقض الأصل الواضح في بناء الكون وفي بناء الفطرة الانسانية . فمادة الكون سواء كانت الذرة أم الإشعاع البسيط المنطلق عند تحطيمها . أو أية صورة أخرى ثابتة الماهية تتحرك حول محور ثابت لا يتغير مطلقاً ، ولما كانت الأمة المسلمة ذات حضارة ناتجة عن نظام خاص بحياة المسلمين ومشاعرهم ومعتقداتهم وألوان سلوكهم : أمة ذات ايدلوجية خاصة في نظرتها الى الكون والحياة والانسان .

---

١ – عن بحث للدكتور أحمد نصيف الحبابي ، مجلة الأقلام الواقعة مارس سنة ١٩٦٩ .

ولما كان من المستحيل تصور إمكان دراسة الحياة الاسلامية والتاريخ الاسلامي دون ربطهما بالعقيدة الاسلامية . لأن الحياة الاسلامية والتاريخ الاسلامي انبثقا عن هذه العقيدة أدركنا بعد الشقة بين مناهج البحث الغربية والاسلامية .

ويظهر أهم أوجه الخلاف بين المنهجين في ابعاد الجانب الروحي عن مفهوم الفكر الغربي واختلاف زاوية النظر تبعاً لذلك بالإضافة إلى أن الغربيين يعتبرون أوربا محور العالم ، فكل ما هو غير غربي فهو غير جدير بالاعتبار . وليس بذي قيمة ، وليس له من « الأصالة » شيء . وهذه النظرة المتحيزة ذات أثر بعيد في بحوث الغربيين في التاريخ « ولما كان كتاب الغرب ومستشرقوه لا يمكن أن يستوعبوا خصائص التصور الاسلامي ومقوماته الانسانية فهم لا يستطيعون أن ينفذوا إلى أعماق الحياة الاسلامية . وبالتالي فهم لا يدركون الأمـــور ذات الطابع العقائدي التي أثرت في سلوك المسلمين فيشوهون تفسيرها »[1] اهـ .

---

١ ـ محمد أسد : الاسلام على مفترق الطرق .

## - ٦ -

وإذا كان محمد أسد قد استطاع أن يستوعب مفهوم المنهج العلمي الاسلامي في تفسير التاريخ لأنه أسلم واستوعب الاسلام وفكره ومفاهيمه. فإن باحثاً غربياً آخر. لم يدخل في دائرة الاسلام. ومع ذلك فقد استطاع أن يفهم بعمق مفهوم المسلم للتاريخ. ذلك هو ( ولفرد كانتول سميث ) الذي يقول: « إن المسلم يحس إحساساً جادًّا بالتاريخ. إنه يؤمن بتحقيق ملكوت الله في الأرض ، يؤمن بأن الله قد وضع نظاماً عملياً واقعياً. يسير البشر في الأرض على مقتضاه ، ويحاولون دائماً أن يصوغوا واقع الأرض في إطاره ، ومن ثم فهو دائماً يعيش كل عمل فردي أو اجتماعي ، وكل شعور فردي أو اجتماعي بمقدار قربه أو بعده من ذلك النظام الذي وضعه الله ، والذي ينبغي تحقيقه في واقع الأرض. لأنه قابل للتحقيق ، والتاريخ في نظر المسلم هو سجل المحاولة البشرية الدائمة لتحقيق ملكوت الله في الأرض. ومن ثم فكل عمل وكل شعور فردياً كان أو اجتماعياً ذو أهمية بالغة. لأن الحاضر هو نتيجة الماضي ، والمستقبل متوقف على الحاضر.

« وما من دين استطاع أن يوحي إلى المتدين به شعوراً بالعزة. كالشعور الذي يخامر المسلم من غير تكلف ولا اصطناع. وإن اعتزاز المسلم بدينه يعم المسلمين على اختلاف القومية واللغة ، وإن الغربي لا يفهم الاسلام حق فهمه إلا إذا أدرك أنه أسلوب حياة تصطبغ به معيشة المسلم ظاهراً وباطناً ».

٢ – ويقول العلامة تريتون : إذا صح في العقول أن التفسير المادي للتاريخ يمكن أن يكون صالحاً في تعليل معظم الظواهر التاريخية الكبرى ، وبيان أسباب قيام الدول وسقوطها ، فإن هذا التفسير المادي يفشل فشلاً ذريعاً ، حين يرغب في أن يعلل وحدة العرب وغلبتهم على غيرهم ، وقيام حضارتهم واتساع رقعتهم . وثبات أقدامهم . فلم يبق أمام المؤرخين إلا أن ينظروا في العلة الصحيحة لهذه الظاهرة الفريدة . رأوا أنها تقع في هذا الشيء الجديد ألا وهو الاسلام . « رأوا أن الاسلام قوة هائلة فيه حيوية دافعة ودنيا مليئة حية ، وهو علة العمران وسبيل الحضارة ، وهو الطريق إلى جمع الكلمة ونشر السلام وتحقيق العدل بما يؤلف بين القلوب ويربط بين الشعوب » .

٣ – ويقول البان وايدجراي : أما وجهة نظر المسلمين للتاريخ . فإنها نظرة بناءة أكثر مما سبقها . فهم يرون أن البشرية إذا اعتنقت تعاليم الوحي القرآني ، فإن إرادتها حينذاك تتطابق وإرادة الله ولا يعود يوجد من يعصي أوامره ، ويعم الرخاء بين البشر ، ومن صفات المؤمن أنه صابر ، ويعلم أن لا مرد لإرادة الله .

- ٧ -

إن نظرات المؤرخين الغربيين للتاريخ الاسلامي تكشف عن قصور واضح عن فهم الاسلام ومنهجه العلمي الأصيل وخير مثال لذلك أرنولدتوينبي . ذلك أن توينبي لم يتناول الحضارة الاسلامية والتاريخ الاسلامي وحـــدة حضارية متكاملة . بل عزل حوادث التاريخ الاسلامي عزلاً ، وخالف المنهج العلمي الذي يفسر التاريخ على أساسه ، كما أنه انتخب من الحوادث ما يروق له . ويتضمن كلام توينبي أولاً : ان مبدأ الوحدانية في الاسلام مأخوذ من الروم . ثانياً : ان مبدأ النظام والقانون نقله محمد ﷺ عن الدولة الرومانية . ثالثــاً : ان هجرة النبي وصحابته الكرام كانت خروجاً على مبدأ الاعتكاف[1] .

وقد واجه الباحثون هذه الأخطاء : أما مبدأ الوحدانية في الاسلام فهو بعيد جداً عن روح الحضارة الرومانية التي تعبد آلهة متعددة بعيدة عن مبدأ التوحيد . وأما القول بأن مبدأ النظام والقانون في الاسلام قد نقله محمد عن الدولة الرومانية ، فإن هذا الزعم يبدو متهافتاً إذا أثبتنا أن النبي كان أمياً وأن مرد التشريع في الاسلام إلى الله . ومن الأمور المسلّم بها أن النبي كان أمياً لحكمة تتمثل في سد الطريق أمام المتشككين في الوحي والظانين أن النبي أخذ من أهل الكتاب . ومن أهم ما ينقض هذا الزعم الطريقة التي ظهرت

---

١ – أحمد نصيف الجنابي : مجلة الأقلام الواقعة مارس ١٩٦٩ .

بها قواعد التشريع الاسلامي . فقد كان التشريع الاسلامي في حياة الرسول يعتمد على مصدرين : القرآن والسنـّة . وقد اشتمل القرآن على القواعد الاقتصادية والتشريعية وعلى القواعد المتعلقة بالعقيدة الدينية والأخلاقية . كما أن القواعد القانونية في الاسلام تكونت تدريجياً وبمناسبة وقعت فعلاً ، ولم تكن هناك قواعد قانونية . شرعت لحالات افتراضية . كما أمكن تبني بعض التقاليد العرفية التي سادت المجتمع العربي وتعديل بعضها لتلائم روح التشريع الاسلامي . وهذا كله بعيد عن كل تأثر بالقانون الروماني .

أما ما يتصل بأن هجرة النبي وصحابته كانت خروجاً على مبدأ الاعتكاف . فهو زعم متأثر بالنظرة الغربية المسيحية . ولا شك أن وجود توينبي ( الانسان المؤرخ ) في مجتمع مسيحي غربي يؤثر في نظرته إلى الاسلام حتى في الكلمات التي يستعملها . وبناء على نظريته المسيحية الغربية . يرى أن سيرة النبي في الفترتين ( المكية والمدنية ) متناقضة لأن النبي شغل في الفصل الأول برسالته الدينية بطريقة سليمة من الدعوة والتبشير . وشغل في المرحلة الثانية ببناء سلطة عسكرية وسياسية ، والنظرة المسيحية الغربية هنا واضحة إذ إنها ترى أن ما لقيصر لقيصر ، وما لله لله . والصريح في تعاليم يسوع وحياته نبذ الأخذ بالسيف ، أو استخدام القوة . وهذه النظرة تختلف عن النظرة الاسلامية أساساً إذ إن الدين والدولة لم ينفصلا في الاسلام ، وليس في الاسلام نبذ الأخذ بالقوة . وخير ما يستشهد به في هذا المجال ما قاله ( نوراندريه ) في كتابه عن حياة محمد ودعوته حيث قال : إننا معشر الكتاب المسيحيين الغربيين نقيس حياة محمد عن شعور وغير شعور بحياة المسيح . ووفق المبادىء الموجودة في الكتاب المقدس ، وهي نظرة مخالفة على كل حال للنظرة التي يراه أصحابه ومعتنقو دعوته بها[1] .

---

١ – هذا الدفاع من قلم الاستاذ أحمد نصيف الجنابي .

- ٨ -

تتعدد مناهج المؤرخين والكتاب الغربيين الذين يتصدون لتفسير الاسلام ، ولكنها لا تخرج عن التأثر بالمذهب المادي في دراسة التاريخ . وهو ما تقوم الإرساليات بتدريسه في الجامعات التي أنشأتها في العالم الاسلامي ، أو التأثر بمفهوم المسيحية نفسها ومحاولة تطبيقه على الاسلام ، أو تتأثر بأهواء الدين أو الاستعمار أو هما معاً . ونجد ( بروكلمان ) في كتابه « تاريخ الشعوب الاسلامية » يذهب هذا المذهب الذي ذهب إليه ( توينبي ) في القول بتأثر النبي بالكتب القديمة . وبأن القرآن من تأليفه .

وهو نفس ما يذهب إليه ( مرجليوث ) وإن كان هذا يحمل معه تعصباً أشدّ عنفاً . ويجري مجراه ( لامنس ) وكثـــير من المستشرقين . مما يتصل بالتعصب الديني أو القومي الذي يعمي عن الحقائق . أو يدفع إلى قلبها على حد تعبير الدكتور زكي محمد حسن، الذي يقول عن لامنس: انه جمع بين التعصب الديني والتعصب لبني أمية : وان ذلك كان يدفعه في كثير من الحالات إلى إهمال بعض النصوص والاكتفاء بنصوص مبتورة يعمل على أن يحملهـــا من المعاني ما لا تحتمل ، كما كان يدفعه في حالات أخرى إلى إهمال بعض الجوانب من الموضوع الذي يعرض لدراسته . ويقول : كان الأب لامنس من أشد المتعصبين على الاسلام ، وهو بعد ذلك من المعجبين ببني أمية لأن الدولة التي أقاموها كانت

تعنى بمظاهر الملك وبالعصبية العربية أكثر من عنايتها بالدين وشؤونه لأنها قامت في الشام ، وتأثرت بالمدنيات القديمة التي قامت في ربوعه[١] .

وعندما يراجع الباحث آثار أرنست رينان[٢] وصمويل زويمر ولورنس وجبرائيل هاناتو ودوق داركور ولويس شيخو ولويس برتران ووليم وبلكوكس وفنسنك وجلوب وجولدزيهر فيما عرف عنهم من كتابات عن الاسلام بالاضافة إلى عشرات الكتاب الغربيين يجدها لا تخرج عن أنها :

١ – خطأ في الفهم وتطبيق على مفهوم المسيحية .

٢ – استعلاء بالجنس أو بالعنصر أو بالحضارة .

٣ – محاولة لإثارة الشبهة وتزييف الرأي لإخضاع الأمم . وكلها في مجموعها لا تتقيد بمنهج علمي ، ولا تخضع لنظرة موضوعية ولا تستهدف الوصول إلى حقيقة . وإنما تقوم على فكر مسبق وهوى غالب .

يقول الدكتور حسين الهراوي : إنهم في التاريخ يتكلمون بروح المؤرخ ، أما عن سيدنا محمد وعن الاسلام والقرآن فهم يتكلمون بروح المنفر الذي يخيف الناس من الاسلام ، وبروح المتحامل الذي يكيل الشتائم من غير وزن وتنقصهم في مباحثهم عن الاسلام الروح العلمية . ولهم في الاستقصاء طريقة لا تشرف العلم ، وهي أنهم يفرضون فرضاً ثم يلتمسون أسبابه . فإذا وجدوا في القرآن آيات تتناسب في معانيها مع فرضهم اقتبسوها وإذا وجدوا الآيات لا تتناسب مع أغراضهم تجاهلوها ، وقالوا إنها غير موجودة في القرآن . فإذا وجدوا في القرآن ما يهدم نظريتهم تجاهلوه . والتمسوا الآيات التي تتناسب والمعنى المراد . ولا مانع من بترها إذا اقضى الحال . وتحريف معناها حسب الرغبة .

---

١ – مجلة كلية الآداب م ١٢ سنة ١٩٥٠ .

٢ – راجع دراستنا عن هذا الاتجاه في كتابنا ( الاسلام والثقافة العربية ) .

- ٩ -

ولقد أمكن الحصول على إشارات متعددة وإيماءات سريعة تكشف عن هذا الانحراف في المنهج العلمي الوافد ، وتؤيد الاتجاه الذي يحكمـــه الهوى والعنصر والاستعلاء باللون . من ذلك ما أشار إليه أحد أتباعهم ( نبيه أمين فارس ) حين قال : إن الجزء الأكبر من مؤلفات الغربيين عن الاسلام قد صدر عن أولئك الذين يتحكم في تفكيرهم الاعتقاد بأن الاسلام دين متخلف . وقد تقدم كثير منهم نحو فهم الاسلام . ومع ذلك فلا تزال الأحكام السابقة والآراء المغرضة تلازم موقفهم من الاسلام[١] ويصل دكتـــور ( أدوين كالغربي ) إلى حقيقة أساسية حين يقرر في بحث مطول[٢] أن الغربيين استقوا معارفهم عن الاسلام من مصدرين :

( أحدهما ) يتمثل في الشائعات التي روجها بعض المحاربين والتجار الغربيين وغيرهم ممن زاروا المدن الاسلامية بعد عودتهم إلى بلادهم . (والآخر) يتمثل في المعلومات التي أذاعها الغربيون القليلون الذين اطلعوا على القرآن وغيره من كتب الدين الاسلامي . وعنده ان أبرز هذه الأخطاء أن المسلمـــين يعبدون محمداً . ويقول : إنه ليس عسيراً أن يتقبل الغربي هذه الفكرة . فكما أن بعض المسيحيين يعبدون المسيح – مؤسس المسيحية والشخصية المركزية التي يدور

١ – مجلة الأبحاث ، ١٩٥٦ .

٢ – الهلال م ١٩٥٦٠ .

حولها هذا الدين – فكذلك يظن بعض الغربيين أن المسلمين يعبدون محمداً مؤسس دينهم الذي يطلق عليه الغربيون لهذا السبب اسم « المحمدية » .

وقد اتصلت أخطاء المنهج العلمي الوافد في تاريخ الاسلام فشملت قضايا متعددة ، منها : ( معركة بلاط الشهداء ) حيث حاول الغربيون تصوير المسلمين فيها بصورة مخالفة للحقيقة التي اعترف بها بعض المنصفين من بعدُ حين اعترفوا بأن هذه الموقعة التي أوقفت الفتح الاسلامي قد أخرت أوربا ثمانية قرون عن اللحاق بركب المدنية الذي كان قياده بيد المسلمين . ومنها محاولة الادعاء بأن حريق مكتبة الاسكندرية تم بأيدي العرب . وقد كشفت الوثائق التاريخية الأصيلة زيف هذه الدعوى . كما حاول الكتاب الغربيون أن يردوا أسباب تخلف المسلمين إلى الاسلام . وقد سقطت هذه الدعوى أيضاً . ويتبين أن هذه محاولات لإثارة الغبار في وجه الفكر الاسلامي الأصيل . كما جرت الدعوة إلى تجزئة الاسلام والحديث عنه على أنه دين عبادة فحسب .

ولقد حمل لواء هذه الشبهات وطرحها في أفق الفكر الاسلامي عدد من التابعين للفكر الغربي ، والموالين له من العرب عن هوى وتحيز . ومنهم جرجي زيدان ، وفيليب حتي ، وطه حسين ، وسلامة موسى ، ونبيه أمين فارس ، وأحمد أمين ، وجورج أنطونيوس . وقد تابع هؤلاء المنهج العلمي الغربي الوافد في عثراته وأخطائه وأهوائه بالرغم من أنهم شرقيون ، ومنهم من حاول تفسير الاسلام تفسيراً عنصرياً قومياً زاعمين أن النبي محمداً ﷺ ، إن هو إلا بطل من أبطال العرب ، وأن الاسلام مجرد تعبير من تعابير عبقريتهم . ويستهدف هذا الاتجاه إعلاء الطابع القومي في الفكر لإحلاله مكان الطابع الاسلامي الجامع .

ولقد تابع أحمد أمين المنهج العلمي الغربي الوافد في تقبل رأي ( أرنست رينان في العرب ) وما ادعاه من خيالهم المحدود العاجز عن خلق الأساطير . وكان هذا الاتجاه أيضاً مما يستهدف به دعاة المنهج العلمي الغربي الوافد إلى التهوين من العقلية العربية التي تقبلت القرآن ونزل منهج الاسلام بها . ومن خلال

بيانها المعجز ذلك أن « العقلية العربية هي نواة النظام الاسلامي كله » وفي إثارة الشبهات حولها محاولة لتهديم الاسلام نفسه .

ومن ذلك محاولة جورج أنطونيوس في كتابه يقظة العرب التركيز على وجهة نظر الاستعمار الغربي في تفسير الأحداث التاريخية . أو محاولة فيليب حتي : الإشارة إلى أن الاسلام ظهر بعد أن شاخت الدولتان الرومانية والفارسية ، وانتهى دورهما وهو من الشبهات المضللة . فقد كانت الدولتان في أوج القوة الحربية . وكذلك محاولة اعتماد الأساطير وإدخالها إلى مجال التاريخ الاسلامي بعد أن ظل المسلمون يحررون تاريخهم من زيفها قروناً طويلة — وهذا هو ما عمد إليه طه حسين في كتابه ( على هامش السيرة ) أو محاولة تفسير التاريخ الاسلامي تفسيراً اقتصادياً مادياً على النحو الذي كتب به ( الفتنة الكبرى ) بالإضافة إلى محاولته استنقاص الصحابة وتصويرهم على هيئة السياسيين والأمراء الأوربيين المتصارعين .

ومن ذلك ما ذهب إليه ( العقاد ) من تفسير بطولات الصحابة تفسيراً مادياً خالصاً معتمداً على نظرية ( لامبروزوا ) وغيرها من النظريات إلى تفسير الشخصيات في إطار الوراثيات والملكات والأمزجة . وهي تعجز تماماً عن أن تفهم أثر التوحيد في تحويل هذه الشخصيات وإخراجها من جلدها القديم وتكوين فكرها الجديد القائم على الإيمان والخلق والحق والعدل .

ومن ذلك ما حاوله طه حسين من تفسير عصر من العصور الاسلامية الزاهرة من خلال طائفة من شعراء المجون .

* * *

وتبدو تفسيرات المنهج الغربي العلمي الوافد في مخالفتها لمفهوم الاسلام في عشرات المواضع في دائرة المعارف الاسلامية ، والمنجد ، والموسوعة العربية الميسرة . وكلها تصدر عن مفهوم لا يستوعب الاسلام ولا يمثل تفسيره الحقيقي .

ويدخل إلى هذا الجانب التاريخي زيف كثير يتصل بأهـــواء اليهودية التلمودية الصهيونية في موقفها من قصد إبراهيم وإسماعيل ، وفيما يتعلق ببناء الكعبة . ويهدف تحريف حقيقة إبراهيم إلى إقرار الأيدلوجية التلمودية القائمة على إنكار انحدار العرب من إسماعيل بن إبراهيم الأول السابق على ابنه إسحاق جد اليهود والنصارى . ويتصل بهذا محاولات كتابة تاريخ الرسول تأثراً بأمثال أميل درمنجم ومرجليوث وغيرهم .

- ١٠ -

ويتصل بهذا الضعف والقصور في المنهج العلمي الغربي الوافد : ذلك التركيز العجيب بالتقدير والإعجاب البالغ لعصر ما قبل الإسلام ، والإذاعة به ، وتوسيع البحث فيه . وذلك عن طريق بعث الفرعونية والفينيقية والبابلية والبربرية ، وتزيين الماضي الوثني وإعلائه عن طريق علوم الأنتروبولوجيا والآثار وإحياء الأنماط القديمة . ويتبع ذلك إحياء الأساطير والسحر من خلال دراسات التراث اليوناني الاغريقي بما يحمل من ملاحم وفلسفات تتعارض مع التوحيد ، بالإضافة إلى إحياء الجاهلية العربية التي قامت على عبادة الأوثان والأصنام ، وما يتصل بذلك من الفلسفات المجوسية الفارسية القديمة والغنوصية القائمة على وحدة الوجود والحلول والاتحاد والتناسخ .

## - ١١ -

وقد أشار إلى هذه الظاهرة الدكتور إبراهيم العدوي حين قال : إن تزييف التاريخ العربي الاسلامي هو أحد الأسلحة الخطيرة والمدمرة للاستعمار ، ومن هنا كانت الحاجة إلى قيام مدرسة عربية تكشف عمليــات التزييف وتقوم بإزاحة الغبار عن تاريخنا ، وإسقاط كل أقنعة الزيف التي صنعتها الكتابات والمناهج الأوربية والصهيونية . ويصور الدكتور العدوي المنهج العلمي الغربي الوافد في التاريخ فيقول : إن منهج الغرب في كتابـــة التاريخ والذي سار في البداية على آثار هيردوت وديودور . وخاصة بالنسبة لأخبار الشعوب الأخرى يعتمد عـــلى الأساطير وخدمة الملوك والقواد والكهان ، وأفراد الطبقات المسيطرة والقوى الاقتصادية الفعـــالة إلى اليوم . وبالنسبة للتاريخ العربي الاسلامي وبخاصة بعد الحروب الصليبية ، ونشوء مدرسة الاستشراق بأهداف استعمارية ، وتغلغل النفوذ اليهودي الصهيوني في كل فرع من فروع الفكر والثقافة في أوربا ، فقد برزت فيه النزعة إلى اقتناص الشوارد الصغيرة المثيرة وتكبيرها مع ثبوت كذبهـــا بالاستحالة أو ضعف الرواية . وذلك لتكون أساساً لنشر وترويج بعض النظريات الهدامة عن العرب والمسلمين والاسلام ، مما يكون تأثيره فعالاً بصفة عامة في إضعاف إمكانية أي بعث عربي على أساس العقيدة .

ومن أمثال هذه الشبهات : قيام الاسلام بالسيف ، وما يلقنه الاستعمار لطلاب المغرب من أن خروج العرب من الأندلس بعد ثمانية قرون زاهرة . هي

حركة طرد للمستعمرين العرب . ومحاولة التشكيك في عروبة فلسطين لكثرة ما قرأوا من الكتب الغربية وسمعوا ورأوا في الأفلام الاستعمارية عن أرض الميعاد وعن مُلْكِ سليمان من التهاويل .

ومن هنا فإن الهدف من كتابة التاريخ الاستعماري هو : تنشئة أجيالنا على مفاهيم تاريخية خاطئة . يصعب اقتلاعها ، حيث تقوم الصهيونية ببناء امبراطوريتها الوهمية على أساس أن معركتها مع العرب تاريخية ، أي أنها تقوم خلالها بتزييف التاريخ العربي لصالحها .

## - ١٢ -

يركز بعض الباحثين المسلمين[١] فساد المنهج العلمي الغربي الوافد في تفسير التاريخ في عدة أمور أهمها : ( التشويه ) وذلك بعرض مواقف مختارة من التاريخ الاسلامي كالمعارك مثلاً وتصويرها على غير حقيقتها لتزول عنها صفة الجهاد في سبيل الله . ( التجهيل ) وهو إهمال أحداث ذات عبرة هامة . ( التشكيك ) : وجهت السهام إلى التاريخ الاسلامي ورجاله وإلى المؤرخين المسلمين أنفسهم منها : فرية لامنس : بوصف النبي بعدم الشجاعة ، وتأويل الكثير من دوافع وأهداف الوقائع كقصة خالد بن الوليد مع مالك بن نويرة ، وذهاب الرسول بعد وفاته . وقالوا عنها إنها كانت مؤامرة أبي بكر وعمر وأبي عبيدة . ( التجزئة ) وهي محاولة تجزئة التاريخ الاسلامي إلى مقاطع ، وتفريق أوصاله إلى أشلاء فـــلا يدرس ككائن حي مكتمل سليم . بل يدرس على أنه أوصال وأجزاء وتفاريق لكائن مشوه . (الإهمال) إهمال كل ما هو مدعاة للفخر أو لإعطاء هذا التراث طابعه الاسلامي المشرق ، وإقحام أمور واختلاق غيرها لجعل الخلاف قائماً بين المسلمين محكومين وقادة . ومنها اختلاق الخلاف بين عمر وعلي ( تكلم فيليب حتي عن الحجاز قبل الاسلام ضعف كلامـــه عن الرسول والرسالة ) . ومن المفتريات الكبرى :

أولاً : محاولة اعتبار الغنيمة دافعاً أساسياً ، ففسروا الفتوحات الاسلامية

---

١ - الدكتور عبد الرحمن علي الحجي ، دراسة التاريخ الاسلامي .

بدافع الغنيمة . وفي هذا سلخ الاسلام والمسلمين من الأهداف النبيلة التي قدموا لها أرواحهم فكانوا يتسابقون إلى الموت من أجلها .

ثانياً : قطع الدعوة الاسلامية عن السماء واعتبارها دعوة أرضية .

ثالثاً : فرية التفسير المادي لتاريخنا والنظر من خلالهـا فقط . وقصد أصحاب هذا المذهب في ربطه بالاسلام إلغاء صفته الإلهية وطبيعته الربانية .

رابعاً : فرية انتشار الاسلام بالسيف .

خامساً : التفسير القومي للتاريخ وتفسيره على أنه تاريخ للعرب . وليس على أساس أن العرب كانوا إحدى الأمم التي دخلت الاسلام ، وأن بقيـة الأجناس شاركت في حمل أمانته وإنتاجه الفكري والأدبي والعلمي .

- ١٣ -

# مفهوم الاسلام للتاريخ

إن المنهج العلمي الاسلامي له أسسه وقيمه وأصوله التي تشكل تفسيره للتاريخ الاسلامي والتاريخ العالمي والبشري كله من خلال : الإنصاف وإنكار الأهواء ، والتجاوز عن عوامل العنصرية والغرور المستمد من السيطرة الحضارية أو الاستعمارية المعاصرة .

**أولاً** : التاريخ الاسلامي جزء من الاسلام ككل ، وغير منفصل عنه . والتاريخ الاسلامي قبل أن يكون تاريخ حوادث وفكر ، هو تاريخ عقيدة شاملة لها سماتها وخصائصها المميزة . وان التاريخ بحكمه قانون ما ، وليست أمور البشر خاضعة للمصادفة العمياء ، والحياة البشرية ذات معنى وهدف .

**ثانياً** : الاسلام لا يعتبر الانسان مجرد كائن حيّ . بل يضعه في منزلة رفيعة هي منزلة الاستخلاف في الأرض . وان كل ما هو موجود في هذا الكون . إنما هو لمنفعة الانسان . وان هذا الاستخلاف يستوجب مسؤوليات . وقد منح الانسان حرية الإرادة ضمن حدود معينة . وعليه أن يختار سبيلاً ويترك أخرى .

**ثالثاً** : الاسلام لا يعتبر الأرض مكاناً للعذاب سجن فيه البشر الآثمون في أصل تكوينهم بسبب خطيئة أصلية ، وان المعصية الأولى التي ارتكبها الانسان كانت هي أول عمل مارس به حرية الاختيار . وقد غفر الله له خطيئته الأولى .

**رابعاً :** يقرر الاسلام قوانين معينة ترتقي بمقتضاها الأمم وتنهار ، ولم يترك شيئاً وليد المشيئة العمياء . إن الأمم التي ترتفع فتبلغ أوج التقدم والرفاه الاقتصادي إنما ترتفع بعد أن تنمي في أنفسها صفات خاصة ، بينما الأمم الأخرى التي زحزحت عن مجال الوجود ، إنما أصابت هذا الحظ ، لأن فيها مواضع ضعف نخرت بنيان مجتمعها . ان الذي ينظر نظرة سطحية الى هذا الانهيار يرى أنه نتج عن هجوم خارجي أو عن خيانة بعض رؤسائها . والحقيقة أن التدهور نتيجة فساد بطيء وانحطاط نخر في قوة الأمة ، إن نهاية الأمم يمكن أن يؤجل بعض الوقت ، ولكن لا يمكن الإفلات منه (سُنَّةَ ٱللَّهِ فِي ٱلَّذِينَ خَلَوْا مِنْ قَبْلُ وَلَنْ تَجِدَ لِسُنَّةِ ٱللَّهِ تَبْدِيلًا ) .

**خامساً :** يقرر الاسلام أن الانسان في الاسلام هو محور فلسفة التاريخ : ليس مجرد مركب ، إنه شيء أكبر من مجرد مختبر كيماوي تسيره غريزة الجنس أو غريزة الجوع . والانسان ليس خالق هذا الكون ، ولكن لديه الإرادة والمقدرة على تسخيره لمصلحته ، وان هذا التقدم المادي الذي حققه ، وسيطرته على قوى الطبيعة ، لم يستطيعا أن يمنحاه الأمن والسعادة خيراً مما كان في العصور السالفة . هذا فضلاً عن ان الانسان اليوم لا يختلف عن الانسان في أقدم العصور الحجرية في صراعه مع الحرب والمطامع والحضارات والسيطرة والربا والاستبداد والانتحار والقلق ، ومعنى هذا أنه ليس هناك تقدم في حياة الانسانية الأخلاقية والروحية مُوازٍ للتقدم المادي .

**سادساً :** يقرر الاسلام أن القانون الثابت للتاريخ هو أن حياة البشرية في تغيّر مستمر . وأن التاريخ هو عملية الصراع المستمر بين قوى الخير والشر . وأن تاريخ البشرية هو سلسلة من فترات متعاقبة من السلم والحرب ، وهذه الدورة مستمرة الى قيام الساعة مهما حاول المصلحون ورجال السياسة والقانون الدولي أن يحولوا دون قيام الحروب . هذه الدورة من السلم والحرب مستمرة حتى

تنتهي قصة البشرية ، ذلك لأن الحرب من طبيعة البشر نتيجة لغريزة القتال .

وقد تنتصر قوى الشرّ في بعض المعارك . ولكن النصر لقوى الخير في النهاية .

**سابعاً** : يقرر الاسلام أن الزعماء والقادة يغيرون مجرى التاريخ ، قام الأنبياء والرسل وقادة الفكر بالدور الأول على مسرح التاريخ في قصة البشرية والحضارة الانسانية . ولكن ليس الزعماء والقادة وحدهم هم الذين يؤثرون في التاريخ ، وإنما هناك عوامل كثيرة . منها عوامل لها طابع الاستمرار والثبات كالعوامل الطبيعية من بيئة مناخية ، وموقع جغرافي ، وثروة ، وعوامل بشرية كالجنس والعوامل الاقتصادية والاجتماعية والسيكولوجية والثقافة الدينية . وينكر الاسلام المغالاة في تفسير التاريخ على أساس اقتصادي . أو من خلال أي عنصر آخر . وإنما يكون التفسير جامعاً للعوامل الطبيعية والاجتماعية والاقتصادية مرتبطة بالدين والأخلاق والعوامل النفسية والروحية .

وقد اعتمد الاسلام على الأثر النفسي في قانون التغيير .

(إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُغَيِّرُ ما بِقَوْمٍ حَتَّىٰ يُغَيِّرُوا ما بِأَنْفُسِهِمْ) .

**ثامناً** : ان أهم ما يقرره أن التفسيرات المختلفة للتاريخ ( جغرافية ، اقتصادية ... الخ ) تتجاهل شخصية الانسان تجاهلاً تاماً مع أنه محور التاريخ .

**تاسعاً** : ان تقدم العلم غير تقدم الانسانية . إذ ليس في حياة الانسان الأخلاقية تقدم حتمي فهي معرضة للتأخر كما هي معرضة للتقدم . وان ماضيها لا يضمن مستقبلها ، والانسانية ليست مستقرة دائماً ، بل هي في حركة دائبة . ولكن حركتها ليست تقدماً دائماً . وان التقدم العلمي لا يضمن التقدم للبشر .

وان القوة التي لا تقيدها الأخلاق تصيب العالم بهزات عنيفة قاسية . وإنما يكون التقدم في مفهوم الاسلام بسيطرة المبادىء الأخلاقية على قوى الطبيعة .

**عاشراً :** يقرر الاسلام أن سنن الله في الأمم والحضارات . أي (قوانين الله) لا يمكن تغييرها . فهي ليست ناتجة عن ظروف المناخ في الدولة التي تعيش فيها الأمة ولا هي ناتجة عن البيئة الاقتصادية . وهي لا تختلف من زمن الى زمن . ( فَلَنْ تَجِدَ لِسُنَّةِ ٱللهِ تَبْدِيلاً . وَلَنْ تَجِدَ لِسُنَّةِ ٱللهِ تَحْوِيلا ) إن هذا الطابع العالمي للقوانين الخلقية يرجع الى أن طبيعة الانسان لا تتغير . فالحوافز الانسانية لم تزل نفسها الى اليوم كما كانت منذ فجر الانسانية . والغرائز التي هي محور عمل الانسان لم تزل باقية كما كانت بالرغم من أن مجال النشاط الانساني قد اتسع[1] .

**الحادي عشر :** «الجبرية التاريخية» في الاسلام غير موجودة . لأن الانسان ليس خارج التاريخ . بل هو من عوامله الداخلية الفاعلة والمنفعلة . وليست عمليات التاريخ دون غاية[2] .

**الثاني عشر :** التاريخ في مفهوم الاسلام يمتد الى ما بعد الموت ، الى عالم يحاسب فيه المرء على ما قدمه من خير وشر ، وفي هذا الإطار يبقى الانسان عاملاً مختاراً ، وعمله أن يوفق بين نواميس الكون وتعاليم القرآن . والانسان هو الذي يصنع تاريخه وتاريخ البشرية[3] .

---

١ – اعتمدنا في هذه النصوص على بحث عبد الحميد صديقي ( تفسير التاريخ ) وعبد الرحمن علي الحجي ، « دراسة التاريخ الاسلامي » .

٢ و ٣ – بحث للعلامة علال الفاسي .

# الفصل الثاني

## ( أولاً )

## مَفاهِيمُ الأجناسِ وَالقَوْميّاتِ العُنْصُرِيّة

مَن أخطر مقررات المنهج العلمي الغربي الوافـــد نظريات العنصرية وعلوم الأجناس المتضاربة وما اتصل بها من مفاهيم القوميات والأقليات . وقد روجت الحضارة الغربية لهذا الفكر ترويجاً كبيراً ، حتى سيطر على جميع الدراسات السياسية والاجتماعية والاقتصادية ، وكان واحداً من الدعوات التي حاولت أن تحل محل الدين ، وتشكل أدياناً قومية وإقليمية تستعلي بها الشعوب وتتميز وتتصارع . وكان أكبر آثارها في قارة مثل أوربا مثلاً أن انتقلت من وحدة الفكر الغربي المسيحي إلى عنصريات متعددة استعلت بدمائهـــا وأجناسها . فظهرت في أوربا وحدها نظرية الدم الأبيض وانحطاط السلالات غير البيضاء وأسطورة الجنس اليهودي . ونظرية الجنس الآري أو تفوق العناصر النوردية ( المانيا ) . ونظرية الجنس السكسوني ( انجلـــترا وأمريكا ) والنظرة الكلية ( فرنسا ) .

ومن ثم أصبحت نظريات العنصرية والأجناس واحدة من مصادر الصراع والخصومة التي أججت الخلافات العالمية والحروب الدامية بعد أن بردت صراعات المذاهب الوثنية التي اجتاحت أوربا في العصور الوسطى ، وتعد نظريات العنصرية والأجناس هي الوجه المضاد لنظريات الرأسمالية والماركسية أو الليبرالية والاشتراكية .

واستمدت مفاهيم العنصرية والقوميات مـــادة بنائها من عدد من العلوم والدراسات الحديثة منها : علم الأنترولوجيا ( علم الأجناس البشرية ) وعلم اللغات ( السامية والآرية ) . ونظريات القومية في تفسيراتها المختلفة بين ألمانيا وفرنسا وإيطاليا والمتضمنة نظرية اللغة والتاريخ ونظرية المشيئة .

وقد برزت فكرة القومية في الغرب مقترنة بفكرة التفـــوق الإقليمي واحتقار الأمم الأخرى . وتقوم « المفاضلة بين الأجناس على أساس دعوى تقرر أن لكل جنس خصائص تميزه عن غيره » على النحو الذي أورده ( أرنست رينان ، كرستيان لاس ، ليون جونييه ، جونبيو ) . وتحاول هذه النظرية أن تسبب أسباب القوة والعظمة للدول البيضاء استمداداً من الواقع . وهو السيطرة على الحضارة ، بينما تسبب أسباب الضعف والتخلف إلى الشعوب الملونة . وقد ثبت فساد هذه النظريات وانحدارها أمام التجارب العلمية الأصيلة التي كشفت ضلال القول بأن حجم مخ الزنجي أقل من حجم مخ الأوربي ، بل لقد تبين أن الذين اشتهروا بقوى عقلية ممتازة لم يكونوا ذوي أمخاخ كبيرة الحجم أو أثقل وزناً ، كما تبين أن عوامل الانحطاط والارتفاع ترجع إلى القدرات الاقتصادية والحضارية والعلمية المتاحة ، لا إلى السلالات البيضاء والملونة . وتلك كانت من أكبر التحديات التي تعرض لها المنهج العلمي الغربي . والتي كشفت عجزه عن اطراح الهـــوى أو العصبية ، وقيام أحكامه على أساس فروض مسبقة يجري البحث حول إيجاد الأدلة والبراهين لتأكيدها مع الإغضاء والحجب لكل الدلائل التي تنقض النظرية المسبقة .

وتتصل نظرية الاستعلاء العنصري بالفكر الغربي منـــذ المرحلة اليونانية الرومانية التي دافع عنها فيلسوفان كبيران : هما أرسطو وأفلاطون . وقد كان الإغريق القدامى يعتبرون كل ما عداهم ( برابرة ) أما أرسطو فقد نادى بسيادة الجنس الإغريقي للعالم . وقال إن جماعات معينة تولد حرّة بالطبيعة وأخرى تولد لكي تكون مستعبدة .

ولقد حطم الاسلام هذه النظرية ، وكشف عن زيفها ، وأطلع البشرية على حقيقة خالدة هي وحدة الجنس البشري الذي تشكل كله من نفس واحدة ، والذي تنوع وتوزع في شعوب مختلفة دون أن يكون لذلك الاختلاف في اللون والجنس والعنصر والوطن أثر في جوهر القيمة الانسانية الذاتية التي ليس لها إلا ميزان واحد في المفاضلة هو : « العمل » وهو ما عبر عنه الاسلام بكلمة التقوى :

( يا أَيُّها ٱلنَّاسُ إِنَّا خَلَقْناكُمْ مِنْ ذَكَرٍ وَأُنْثى وَجَعَلْناكُمْ شُعُوباً وَقَبائِلَ لِتَعارَفُوا إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِنْدَ ٱللهِ أَتْقاكُمْ ) .

- ٢ -

حاولت مقررات المنهج العلمي الغربي الوافد التأكيد بأن هناك سلالات بشرية نقية ، استطاعت أن تحتفظ بعناصرها منها الآرية ، والكلت ، والجنس اليهودي . وقد أكدت وقائع التاريخ البشري والأبحاث المتحررة من نفـــوذ الاستعمار ومطامع السيطرة زيف هذه النظريات ، وكشفت عن أنه لا يمكن القول بأن سلالة بشرية واحدة استطاعت أن تحتفظ بنقائها . وأن اختلاط الأجناس قد جرى منذ بدء الحياة البشرية ، وما زال مستمرًّا . وأن امتزاج الأجناس عملية مستمرة لم تتوقف ، وأن الهجرة قديمة قدم السلالات البشرية . بل إن التاريخ يشير إلى أن جميع الحضارات قد تمّت عمليات غزو لها من جماعات البدو الرحل انتهت بانهيار القسم الطبقي وتكوين خليط من السكان . وأن سكان أوربا متعددو الأصول لدرجة أنه من الاستحالة تصنيفهم . كذلك ثبت أن القول بأن اختلاط الأجناس يهدد الانسانية بالتقهقر والتدهور لا يستند الى أقل دليل علمي بل إن العكس هو الصحيح[1] .

١ - من بحث للدكتور السيد محمد بدوي ( كتاب التطور ) .

## - ٣ -

ارتبطت نظرية العنصرية وإعلاء الأجناس والسلالات البيضاء عن طريق المنهج العلمي الغربي بالاستعمار، واتخذت من مقررات العلم مبررات لها ومحاولات لتبرير السيطرة الاستعمارية على البلاد المتخلفة في إفريقيا وآسيا . وكانت هذه النظرية التي لم تثبت للبحث العلمي الصحيح والأسانيد التاريخية الحقة — عاملاً من عوامل الاستئثار بالأراضي المكتشفة حديثاً . وبخاصة في إفريقيا وأمريكا . وفي ظل جلب أعداد غفيرة من رقيق إفريقيا إلى الولايات المتحدة .

وقد استغل دعاة العنصرية نظرية ( دارون ) في القـــول ببقاء الأصلح منطلقاً الى اضطهاد الشعوب الملونة . وغالوا في ذلك حتى أنكروا حق النفس السوداء في الوجود على نحو ما عبر عنه ( مونتسكيو ) في كتابه .

يقول الدكتور بدوي : استطاع العنصريون أن يتخذوا من نظرية دارون البيولوجية أساساً لنظرية اجتماعية دارونية «بمعنى أنهم نادوا بما يسمى بالاختيار الاجتماعي ليقابل مبدأ الاختيار ، ومن ثم فإن المجتمع يختار أصلح من يقود هذه المجتمعات كما تمثلت في امتياز بعض الشعوب عن بعضها الآخر » .

وكذلك ارتبط الاستعمار الغربي لإفريقيا بالعنصرية . فقد كان مجتمع الدول المستعمرة يعامل الوطنيين معاملة سيئة لأنهم في نظرهم ليس لهم دين ولا قانون ولا أخلاق . لذا فقـــد نظروا إليهم على أنهم ليسوا من نوع البشر الذي ينتمون إليه .

ويقول جوان توماس[1] : إن الاستعمار يحاول تبرير القول بأن الزنجي ليس أحط من الرجل الأبيض فحسب ، بل إنه لا يختلف إلا بقـــدر يسير عن الحيوان . وان نظرية دارون الخاصة ببقاء الأصلح رحّبَ بها البيض واعتبروها وسيلة لتدعيم سياسة التوسع والعدوان على حساب الشعوب المنحطة .

وبناء على ذلك اعتقد الأبيض أن استبعاد أو إفناء المجموعات البشرية المنحطة بواسطة الرصاص الأوربي ليس إلا تنفيذاً لنظرية استبدال مجتمعات راقية بأخرى منحطة . وقد استغلت النظرية العنصرية في مجالات السياسة الدولية لتبرير الأعمال العدوانية . والواقع أنه « ليس ثمـــة أساس علمي على الاطلاق لتصنيف الأجناس تصنيفاً عاماً على أساس من الرقي النسبي ، ولذلك فإن التمييز الجنسي وخرافاته وأساطيره ليست إلا وسائل لإيجاد كبش فداء حين تتهدد الأخطار مركز بعض الأفراد أو تماسك بعض الجماعات .

---

١ – في كتابه ( خرافات عن الأجناس ) .

## - ٤ -

إن طرح فكرة ( الآرية والسامية ) في أفق الفكر الاسلامي على أنها نتاج المنهج العلمي الغربي الوافد ، هو عمل سياسي وليس منهجاً علمياً . وهو سلاح يراد استعماله لإبراز تفوق الاستعمار الأوربي المسيطر وتبرير سيطرته على أجناس أقل تفوقاً . وقد ثبت أن أجناس البشر على اختلاف ألوانها متساوية في قواها العقلية .

وتستمد النظرية ( الآرية والسامية ) وجودها من النزاع القديم المتجدد بين الشرق والغرب . وهو نزاع ليس حربياً ولا سياسياً فحسب ، ولكنه نزاع فكري أيضاً . والغرب حين يريد أن يقلل من شأن الشرق ما أمكن يستعمل في سبيل ذلك مختلف الوسائل ، وليس المادية وحدها . وقد استطاع المنهج العلمي الغربي أن يضيف الى السامية باعتبارها تمثل الشرق والعرب والمسلمين كل صفات الضعف والنقص والتخلف .

ومن الحقائق العلمية ، أنه لا يوجد في مجـــال نظرية الأجناس ما يسمى بالآرية والسامية ، وإنما نشأت هذه الفكرة في مجال الدراسات اللغوية . وان هذه القصة بدأت بدراسات حول اللغات الهندية تبين منها أن هناك جذوراً مشتركة بينها وبين اللغات الأوربية ثم جاء علماء الأجناس فاستغلوا هذه القضية لحساب الفلسفة السياسية الاستعمارية .

ويُقرر الباحثون أن أول من استعمل لفظ آري هو ماركس مولر . الذي

سرعان ما قرر أن تشابه اللغات يفترض أن أصل الأجناس التي تتكلم هذه اللغات المتشابهة لا بدّ واحد . ومن ثم اتخذت وحدة اللغة أو تشابهها وحدة بين هذه الأجناس . ولما كان ماركس مولر أول من روّج لهذه الفكرة يهودياً ، فمعنى هذا أن اليهود تلقفوا الفكرة لمصلحتهم ، ولتكون مقدمة لإعلان فكرة الجنس اليهودي المتفوق . ولم تسلم آراء ماركس مولر من المعارضة الشديدة . وقابلها كثير من الباحثين بفتور وإعراض[1] ومع ذلك فقد روج اليهود لهذه الآراء الباطلة . كما روجوا من بعد لفكرة فرويد التي خرج عليها زمـــلاؤه ورموها بالنقص والقصور .

ولا ريب أنه مما ينقض نظرية تخلف الساميين : والمقصود بها الجنس العربي ما ثبته التاريخ من دور ضخم استمر أكثر من ألف سنة . وامتد على نطاق العالم كله من الصين الى فرنسا في وقت كانت فيه أوربا تعيش في ظلال التخلف وظلمات القرون الوسطى .

والمعروف أن نظرية تفوق الآريين ، أو تفوق الجنس الأبيض : تقوم على أساس تفسير التاريخ تفسيراً تحكمياً وفق الجـــبرية التاريخية التي تستند الى الأنانية المطلقة وازدراء كل ما هو ليس أوربياً أو غربياً . وإذا كان المنهج العلمي الغربي الوافد قد ساق هذه المفاهيم استمداداً من الهوى والتعصب والاستعلاء بالجنس . فإن أساتذة علماء الاحياء اعترفوا بفساد النظرية بعد أن وجدوا أن الجماجم الآرية تشبه جماجم أقزام إفريقيا الوسطى ، وأن شعورهم وجلودهم ومميزاتهم الجسدية يتمتع بهـــا كثير من القبائل والشعوب في أنحاء الارض . وليس يطعن في نظرية السلالات إلا كونها قائمة على المفاهيم المادية ومقاييس الاجساد والجماجم ، وليس على مفاهيم الفكر والثقافة والعقائد .

---

١ ــ دكتور محمد عبد المنعم الشرقاوي .

## - ٥ -

يقرر الباحثون أن استعلاء نظرية العنصرية والأجناس إنما كان محاولة لهدم وحدة الجماعة المسيحية الأوربية ، وأن محاولة تحطيم نفوذ الكنيسة الغربية كان مقدمة لطرح مفهوم الاستعلاء بالأجناس . فقد كانت المسيحية أساساً تقوم على الأخوة البشرية غـير أن سيطرة اليهودية التلمودية على الفكر الغربي من خلال الثورة الفرنسية وبعدها قد أحيا مفهوم العهـد القديم الذي يشير إليه جوان كوماس حين يقول : في العهد القديم نجـد اعتقاداً بأن الاختلافات الجسمانية والعقلية بين الأفراد وبين المجموعات على السواء ترجع الى المولد . وأنها اختلافات موروثة لا تتغير. ويشتمل سفر التكوين على عبارات تفترض فيما يبدو انحطاط جماعات معينة بالنسبة لغيرها ، هـذا الى جانب أن التفوق البيولوجي قد تضمنه التأكيد بأن ( يهوه ) قد عقد عقداً مع ابراهيم ونسله[١] . ومن الحق أن يقال إن اليهودية التلمودية قد أثارت قضية الأجناس كلها وأسقطت الأخوة الانسانية التي جاءت بها الأديان من أجل التمهيد لمقررات بروتوكولات صهيون بالسيطرة التامة وبالاستعلاء بالجنس اليهودي . وإن إحيـاء حركات استعلاء الكلت والسكسون والألمان إنما كانت محاولات لتبرير الدعوة الى الجنس المختار ولتحقيق الانعتاق من « الجيتو » ومن الاضطهاد المرير الذي واجهـه اليهود في كل مكان في أوربا .

١ - ( ك ) خرافات عن الأجناس .

ويقرر الباحثون ان اليهود قد انتهوا كشعب وأمة واحدة منـــذ استولى ( تيتوس ) على القدس عـــام ٧٠ ميلادية ، حيث لم يلتئم لهم شمل الى اليوم ، وان سلالة المهاجرين القدماء من فلسطين منذ ذلك العهد البعيد هي فئــة ضئيلة جداً . وان اليهود اليوم هم يهود بالديانة فقط وليس هناك ما يربطهم إطلاقــاً ( من الناحية الأنثرولوجية ) بيهود فلسطين القدماء . ويتكون هذا النوع غالباً من أفراد سلالة أخرى اعتنقوا الديانة اليهودية[١] .

ويرى هانس كهن في كتابه القومية أن صراع الأجناس والقوميات ، قد كلف أوربا أكثر مما كلفها صراع المذاهب الدينية ، وأن الثورة الفرنسية التي أعلنت في البداية رسالة السلام العام قد ألقت أوربا في أتون حرب أطول أمداً وأشدّ تدميراً من أيّ حرب مضت منذ عهد الحروب الدينية .

١ ــ عن بحث جوان كوماس عن الأجناس .

- ٦ -

وجدت النظرية العنصرية انتقاضات عدة أهمها : ( أولاً ) ما أثبته التاريخ من أن اشتراك الأوربيين في الحضارة البشرية جاء متأخراً. فقد ظهرت مدنيات عريقة قبل أن تعرف الشعوب الشمالية معنى الحيـــاة . وأن الجرمان ليسوا صانعي الحضارة وأن مصادر الحضارة البشرية معروفة . وهي وادي النيــل ، ووادي دجلة والفرات، وحوض البحر المتوسط . ( ثانياً ) ثبت خطــأ وفساد منهج تفسير الظواهر الاجتماعية عن طريق أحجام الرؤوس والجماجم والألوان . كما أكدت وقائع التاريخ أن الحاجز بين الرجل الأبيض والرجل الملون لا يستند الى أساس علمي . ( ثالثاً ) ان أجناس البشرية على اختلاف ألوانها متساوية في قواها العقلية ( رابعاً ) ان وحدة الجنس البشري حقيقة تاريخية . وان اختلاط الأجناس منذ عصور ما قبل التاريخ نتيجة الهجرات العظيمة للشعوب قــد أحدثت امتزاجاً واسعاً سواء في إبان فترات الحرب أو السلام . (خامساً) ان أثر الخصائص النفسية والأخلاقية كان مقدّماً على أثر العناصر البيولوجية .

## - ٧ -

إن موقف الاسلام من قضية العنصرية والأجناس بالغ الإنصاف والسلامة . وان مفهوم المنهج العلمي الاسلامي كان غاية في العدل والحسم . فقد أطفأ الاسلام جذوة العنصرية ، وحرر البشرية منها على أساس صحيح من العلم والفطرة . ذلك أنه كشف عن حقيقة وحدة البشرية، ووحدة الجنس البشري. وجاء تطبيق الحضارة الاسلامية لذلك علامة مميزة في التاريخ الانساني كله . فقد عمد الى تقارب الأجناس وتداخلها بالزواج المختلط فامتزجت الأجناس العربية والفارسية والرومية والهندية في بوتقة الاسلام ، ثم عمد الاسلام الى العقول والقلوب فصهرها في مفاهيم التوحيد والأخوة وكان ذلك أكبر أسرار النهضة التي عمت العالم كله ، والتي شملت مختلف نواحي الفكر والمجتمع . « فلم يعد الأمر أمر سياسة عنصرية حنيفة متحزبة للعرب على غير العرب ولا كراهية من الموالي لنفوذ العرب السياسي . بل لقد جر هذا الإعجاب كثيراً من الموالي والأعاجم الى انتحال النسب العربي تشرفاً وتعظيماً »[١] وقد حال مفهوم وحدة الجنس البشري في الاسلام دون التفاخر بالنسب حيث جاء الاسلام قاطعاً في هذا الأمر : [إن الله أذهب عنكم نخوة الجاهلية وتفاخرها بالآباء : كلكم لآدم وآدم من تراب] .

---

١ – عبد الحميد العبادي – الاسلام والمشكلة العنصرية .

وقد أقام الاسلام مجتمعه على نظام الأخوة بديلاً عن نظام القبيلة فانصهر فيه الفارسي والرومي والحبشي وأصبح ( أمة واحدة من دون الناس ) وتقرر في هذا النطاق : إنما العربية اللسان . فمن تكلم العربية فهو عربي . وفي هذا الاتجاه الذي نفى فيه القرآن العنصرية نفياً باتاً أقر الفقه كفاءة العربي للأعجمي، فتصاهر المسلمون واختلطوا وامتزجوا . فالقرآن يعترف بأن الانسانية وحدة ولا تفاضل بين الناس إلا بالتقوى والعمل ، ولا يقر أي تفرقة بسبب الأجناس أو الألوان أو الأنساب .

وقد اعترف بهذا النموذج الفريد كثير من الباحثين . وأشار أرنولد توينبي الى هذا المعنى فقال « إن انطفاء جذوة النزعات العنصرية بين المسلمين يعد ظاهرة من أعظم المنجزات الأخلاقية في الاسلام . وفي العالم المعاصر تبدو الحاجة صارخة الى نشر هذه الفضيلة الاسلامية . ومع أن التاريخ يظهر عموماً أن الشعور بالعنصرية لم تكن قاعدة عامة ، بل حالة شاذة في طبيعة العلاقات المتبادلة بين الأجناس البشرية المختلفة ، فإن من سيئات الحالة الحاضرة أن يكون هذا الشعور بارزاً وبارزاً بشدة لدى الشعوب القوية التي استطاعت أن تقتطع لنفسها — ولو مؤقتاً على الأقل — حصة الأسد من ميراث الأرض خلال التنافس الذي قام بين الدول الغربية في القرون الأربعة الأخيرة .

ولا ريب أن روح الاسلام هي القوة المدخرة التي تقرر مصير تلك المشكلة لصالح التسامح والسلام .

ولا ريب أن هناك إجماعاً على أن تلك الهزة الفكرية والاجتماعية الخطيرة التي أحدثتها موجة السلالات هي التي أشاعت الاضطراب في العلاقة بين العروبة

والسلام ، وأن اليهود قد أحدثوا هذه الفكرة لإعــــلاء عنصرهم وإسقاط نفوذ الكنيسة الذي وحد المسيحية في أوربا . وإسقاط نفوذ الخلافة الذي وحـــــد المسلمين في الشرق .

وقد استخدمت العنصرية من أجل فك الرابطة وحل العروة فقـد وضعت الوطنية المحررة والإقليمية الضيقة في مواجة الوحدة ، وكانت عاملاً هـــاماً في تمزيق الحزام الرابط بين الأمة الواحدة التي جمعها التوحيد والقرآن .

( ثانياً )

# مُقارَنات الأجْنـاسِ

إن محاولة وضع الفرضيات والتفاسير التي يقدمها بعض الباحثين في إطار المنهج العلمي الغربي للأجناس لا تستطيع أن تشكل نفسها في منهج أصيل ، إلا اذا تحررت من الهدف الذي ينحرف بها لمحاولة إقرار فكر مسبق ، وتشكيل نظرية تريد أن تعلي من شأن التراث القديم المختلط الذي يشمل الأساطير والخرافات والسحر ، وآثار بابل وآشور والفراعنة والفنيقية . وقد كشفت المراجعات الدقيقة عن أن علم الأجناس من التحديات التي أقامها المخطط الاستعماري والصهيوني . وأن دراسة الديانات الفتشية والطوطمية والشامانية والتابو في محاولة لاستخراج قوانين تحاكم بها الأمم وترسم بها مخططات دراسة الأديان من الأمور الدخيلة الخطيرة التي لا تصل بالبحث العلمي إلا الى الزيف .

ذلك أن هذه الأديان جميعها أديان وضعية . وأنها ظهرت في فترات مضطربة من خلال الأديان السماوية التي بعث بها الأنبياء بالحق ، ومن ثم فهي تحمل أوهام البشرية وأهواءها ومطامعها وشهواتها . ولا تستهدف إلا تحقيق الرغبات . ومن هنا فإن الاعتماد على مثل هذه الأساطير لا يستطيع أن يقدم الحقائق المرتجاة لكي تسلك البشرية طريقاً الى النور . ولعل أخطر ما وصل اليه علم مقارنات الأجناس هو نظرية تطور الدين وهي نظرية تقوم على أساس القول بأن البشرية بدأت وثنية ومعدّدة ثم عرفت التوحيد .

وتستهدف دراسة هذا التراث القديم الموغل في القدم الى إحيائه وإعادة

بعثه . وصهر هذه الأساطير في صور ونظريات عصرية براقة حتى يكون ذلك مدعاة لترويجها .

ولما كانت اليهودية التلمودية حين أعادت صياغة فكرها ودينها من جديد خلال النفي البابلي ، قد استوعبت كل الفكر البابلي القديم القـــائم على السحر والخرافات والأوهام القديمة التي تقوم على حساب الاعداد وغيرها ممـــا يتصل بالأفلاك والكواكب والأبراج ، وكلها من الزيف الذي كشفت عن فساده الأديان السماوية .

ومن خلال سيطرة الفكر التلمودي الصهيوني على دراسات عـــلم مقارنات الأجناس أمكن طرح مقارنات بين الأديان السماوية وبين مـــا توارثته الشعوب المختلفة من أساطير . وذلك في محاولة الاستنتاج بأن الأديان ليست إلا مجموعـة أساطير لا تصلح إلا للتلهية وإمتاع الخيال .

وكذلك حاول بعض علماء الانتربولوجيا إعلاء افتراض العـــامل الغربي والادعاء بأنه العامل المسيطر في تكوين شخصية الانسان .

ولقد جرت محاولات كثيرة في مجـــال مفاهيم العلوم الاجتماعية ( النفس والأخلاق والاجتماع ) التماس الأساطير القديمة مدخلاً لإقرار هذه المفاهيم وركيزة لإقامتها من جديد ، من ذلك ما ذهب إليه فرويد من عقدة أوديب وعقـدة الكترا ، وما ذهب إليه سارتر من اتخاذ الأساطير الإغريقية منفذاً الى تصوير فكرته .

## - ٢ -

# السحر

من الفكر البشري القديم الذي أعيدت صياغته وإذاعته وتجديده في العصر الحديث : تراث السحر والاسطورة . ولم يقف أمر إحيائه الى أن يكون قصصاً ولكن الذين أرادوا توجيه الحياة به أرادوا أن يدخلوه في مختلف المفاهيم الاجتماعية والنفسية والاخلاقية حتى نرى عديداً من الفلسفات تعتمد الاسطورة مصدراً من مصادر المعرفة تبنى عليها نظرية من نظريات السلوك الانساني في العصر الحديث بينما لا تزيد قيمة الاساطير عن أنها تمثل طفولة الانسان الحيواني وقصور عقله وسذاجة فكره .

ولقد كان للبشرية أن تتطور وتتقدم وترتقي في مجال الفكر والعقل بعد أن تجددت لها رسالات الأديان وألقت اليها فيضاً من المفاهيم الأصيلة والعلوم المستيقنة المصدر ولم يكن لها أن ترتد ناكصة أعقابها مرة أخرى لتجدد هذا التراث الضال المضلل الذي تجاوزته بالمناهج العلمية بعد وحي الأديان .

لقد كان السحر من تراث الفكر البشري الوثني حتى جاء الاسلام بضوئه الساطع فقضى على ذلك التراث كله ، وقضى عليه بالحق الذي أعلنه في مواجهة الزيف والاسطورة والخرافة والوهم الذي كانت تجدده العصور التي تتراخى فيها رسالة الدين الحق ، الذي عارض السحر في كل رسالاته والذي كانت تخبو شعلته تحت ضوء الدين الحق .

وكان لليهود في مختلف العصور عنـــاية كبرى باحياء السحر والاساطير وتجديدها وإعادة صياغة خرافاتها ولهم في عصرنا الحاضر أكبر اهتمام لتجديد هذا الميراث الخطير الذي حرصوا عليه وقاموا على حمايته في كل مكان .

ولقد كان السحر ذائعاً عند العرب قبـــل الاسلام ، أخذوه من الفرس والآشوريين والمصريين وغيرهم من الأمم القديمة المجاورة التي ازدهر فيها السحر ، وكان يتخذ لديهم صوراً مختلفة : كالعرافة والكهانة ومعرفة أسرار الطلاسم . وكان للسحرة والكهنة مكانتهم ونفوذهم في مجتمعات الجزيرة في تلك العصور ، فلما جاء الاسلام فقد السحر مكانته كفن من فنون الخفاء والغيب . أعلن الاسلام عليه حرباً عاتية وكشف زيفه ودعا الناس في العالمين جميعاً الى التماس الخير من الله وحده ، وعارض بالحق كل ما كان من حساب الكواكب أو الأرقام أو غيره من الاساطير ، وطـــارد الاسلام السحر والسحرة في كل العصور ، وكشف عن قدرة الله الواحد الاحد في إدخال السكينة والطمأنينة على النفس الانسانية من دون كل هذه الوسائط المضللة . ومن ثم فقـــد السحر مكانته « وغدا من القوى الشريرة التي يخشى شرها وبأسها وغدا السحرة من العناصر الممقوتة التي يخصها المجتمع ببغضه ويطاردها ويعتبرها خطراً على أمنه وسلامته » فلقد فهم المسلمون أن رياضة السحر كلها معارضة للتوحيد الخـــالص لله في توجهها « الى الافلاك والكواكب والعوالم العلوية والشياطين بـــأنواع التعظيم والعبادة والخضوع والتذلل » مما لا يجوز للمسلم أن يقع فيه إذ لا تكون العبادة إلا لله وحده .

أما في المجتمعات غير الاسلامية فقد استشرى هذا الخطر وبلغ الى غـــاية مداه ، في غيـــاب مفهوم صحيح مستمد من الدين نفسه لمواجهته وتحطيمه . ويقول المؤرخون إن حركة السحر الأسود اجتاحت المجتمعـات النصرانية في العصور الوسطى ، وذاعت في بعض الاقطار نماذج ملفقة للنظر على نحو ما عرف في القرن الخامس عشر في فرنسا من قصة المارشال ( دي رتز ) الذي ارتد عن

دينه وحاول أن يتوسل الى محالفة الشيطان بأروع الوسائل كتعذيب الاطفال، وقتلهم قرباناً ، وتدنيس الشعائر الدينية وإقامة القداس الأسود، وارتكاب أشنع الجرائم وقد اشتدت الكنيسة في مطاردة الحركة. وأعدم المارشال ولكن الحركة لم تخمد بسرعة بل لبثت زهاء قرن تجتاح المجتمعات الأوربية وتفتك مبادئها ورسومها الخبيثة بعقول الكافة والخاصة معاً » .

وفي أوائل القرن السادس عشر هبت على المجتمعات الأوربية ريح شاملة من الدعوة الى الخفاء ، وظهر السحرة في كل مكان ، وذاعت مزاعمهم ووسائلهم ذيوعاً كبيراً ، ونشطت السلطات الدينية والمدنية في مختلف الدول لمطاردتهم ، وأحرق في مدينة جينيف وحدها عام ١٥١٥ م. خمسمائة ساحر . وفي بامبرج ستمائة ، وفي فونمبورج ثمانمائة . وقضى برلمان تولوز باحراق أربعمائة وبلغ عدد السحرة في هذا العصر زهاء مليونين » .

ويجمع الباحثون على أن حركة السحر كانت ولا تزال حركة منظمة ترعاها من وراء ستار شخصيات وقوى خفية وترمي الى غايات بعيدة. ويرى ان مبعثها تعاليم ( الكابالا ) اليهودية .

أما الاسلام فقد دعا الى بناء النفس الانسانية على نحو يجعلها قادرة على الاطمئنان بالله الى الغيب والمستقبل دون خوف من أي قوى غريبة أو مستورة ، ومن ثم فالمسلم الحق مستعلٍ عن الاعتماد على مثل هذه الأوهام الزائفة التي تدخل في باب الشعوذة والخداع .

وان التماس المعرفة بالوحي من القرآن وبناء مفهوم العقل المؤمن من شأنه أن يلاشي هذا الاتجاه الذي ارتبط بالهمجية والعصور البدائية خلال فترات ضعف الأديان السماوية وفساد تفسيرها .

ولقد كشف التاريخ ان الكهنة والسحرة كانوا ماكرين وأنهم لم يكونوا يقولون في الأزمات والأحداث التي يدعون اليها كلمة صريحة أو واضحة ولكنهم

كانوا يقولون كلاماً يحتمل أكثر من وجهة نظر حتى يفسروه حسب ما تقع الاحداث وكان أمثال الاسكندر وقيصر وغيرهم من الملوك يستعينون بالسحرة والعرافين في معرفة الأحداث ، فكان هؤلاء يشيرون على الملوك وقادة الجيوش بأشياء لا يمكن أن يؤاخذوا عليها مهما جاءت به الحوادث .

وبالرغم من هذا ، وبالرغم من أن العلم الحديث ساير مفهوم الاسلام بكشف هذا الزيف فإن المخططات اليهودية التلمودية سعت سعياً حثيثاً الى بعث هذا التراث وتجديده في مناهج علم النفس الفرويدية وقصص ومسرحيات سارتر ونظريات دوركايم، وجعلت له علماً خاصاً قام عليه ليفي بريل اليهودي وغيره هو الانتروبولوجيا أو الفلكلور وغيرهما .

يقول سير جيمس فريزر ( صاحب كتاب الغصن الذهبي ) ان أساس السحر في نظر العلم هو اعتقاد في التوافق غير المقصود على انه ضن للسببية مهما تكن ، فقد يقع الحادث للاتصال بحادث آخر على أساس قانون المشاركة الوجدانية ، بفرض ان الاشياء يؤثر بعضها في بعضها الآخر ، ثم تنسب هذه المصادفة الى السحر .

ومن عجب أن ترى لدى المدرسة التي يطلق عليها الانتروبولوجية (تيلور ولانج وهانز ناومن ) دراسات على أساطير الشعوب وكهوف العصر الحجري وأشهرها ما وجد في التاميرا باسبانيا . ومع ذلك فهي تترك تجربة صحيحة لها آثارها العميقة على تجربة الدين الواضحة الدلائل ، وتتجاوزها قاصدة الى الاهتمام بالأساطير واعلاء شأن السحر .

ومع هذا الوضوح في القصد والبعد عن المنهج العلمي الصحيح ، فإننا نجد الباحثين في أفق الفكر الاسلامي يولون اهتماماً لمثل هذه الأمور، ويجارون فيها هؤلاء دون النظر الى الخلفيات الخطيرة القائمة فيما وراء هذه النظريات المطروحة والافتراضات الباطلة .

( ثالثاً )

## اَلْقَوَمِيّاتُ وَالإقْلِيمِيّاتُ الضَّيِّقَة

من أخطر ما طرحه المنهج العلمي الغربي الوافد نظرية القومية والإقليمية بمفهوم تشكل في أوربا في ظل تحدياتهـــا ووقائع تاريخها الخاص . ومن خلال عقائدها وقيمها . ولا ريب أن « القومية » مدرك غربي ظهر في القرن الماضي في أوربا في ظل تحديات مختلفة واجهت الغرب من خــــلال عصر النهضة ، وخروجاً من قيود الكنيسة وسلطان نفوذ أمراء الإقطاع ، فظهرت فكرة التشكيل القومي في إيطاليا وألمانيا .

ولقد قامت فكرة القومية في الغرب من خلال مفاهيم حددتها تلك الظروف والتحديات ، وكانت اللغة أبرزها، والتاريخ الخاص لكل أمة أساسها . وبذلك تناثرت وحدة أوربا التي كانت قائمة من خــــلال الفكر والدين المسيحي إلى قوميات متصارعة تستعلي كل منها بلغتها وتاريخها الخاص ، وبرزت فلسفات ومفاهيم لهذه القومية منها نظرية اللغة ونظرية المشيئة وقد كان أكبر أخطار مفاهيم نظرية القومية الغربية ذلك الصراع والعداء للقوميات الأخرى المجاورة والاشتباك معها .

وحين حاول الاستعمار تمزيق الوحدة الاسلامية أخذ يطرح هذا المفهوم الغربي للقومية في محيط الدولة العثمانية الجامعة بين الترك والعرب ، وتشكلت فعلاً نظرية تدعو الى العودة الى الاعراق التركية الطورانية القديمة والاستعلاء

بها ، في نفس الوقت الذي فرض فيه الاستعمار على الأجزاء العربية نظرية القومية الاقليمية على النحو الذي قام في مصر والعراق ولبنان والذي استظهر دعوات الفرعونية والأشورية والفينيقية .

فلما تجاوز العرب هذه المرحلة الإقليمية ، واستجابوا للعروبة باعتبارها الرابطة الجامعة للعرب في نطاق فكرهم وعقائدهم ، طرح المنهج العلمي الوافد مفهوم القومية الغربي القائم على أساس اللغة والتاريخ ، والذي لا يعتبر الدين عاملاً أساسياً في بناء القومية . بل ربما يراه عاملاً معوقاً .

كانت دعوة المنهج العلمي الغربي تستهدف تفريغ مفهوم العروبة من العامل الفكري والعقائدي الذي هو الأساس في قيام العروبة . وذلك من خلال مفهوم القومية الوافد . والواقع أن هناك خلافاً جذرياً بين العروبة والقومية ، فالعروبة نتاج إسلامي أصيل شأنها شأن كل القيم التي يتحرك فيها العرب من خلال ثقافتهم وعقائدهم ومفاهيمهم . ذلك أنه لم يكن للعروبة كيان حقيقي موجود قبل الاسلام . بل إن كلمة العرب لم ترد في أي شعرٍ أو نثر قبل الاسلام بمفهوم الجماعة .

أما القومية فكانت البديل لفكرة الدين في الغرب ، والإطار الذي تحرك فيه المجتمع الغربي بعد أن حطم إطار الوحدة المسيحية الغربية . ولذلك فقد كان هذا التضاد عاملاً هاماً في مفهوم القومية على غير الدين باعتبار أن الدين في مفهوم الغرب ( عِبَادَةً وَلاهُوتاً ) هو شيء مضاد للقومية ( بمعناها أمة وكياناً قائماً على الجنس والعنصر ) أما في الفكر الاسلامي فإن هذا المعنى يتلاشى تماماً على أساس أن الاسلام ليس ديناً ( بمعنى العبادة ) بل هو منهج حياة ونظام مجتمع، وهو في حقيقته منطلق المزاج النفسي والاجتماعي للأمة العربية . وليس ديناً بمفهوم الدين الذي عارضته القوميات الأوربية .

ومن هنا يبدو زيف النظرية الغربية التي طرحت في أفق الفكر الإسلامي

والتي تبشكل القومية على أنها لغة وتاريخ . وذلك لأن الثقافة العربية وليدة الفكر الاسلامي ولا يمكن بشكل من الاشكال فصل اللغة أو التاريخ عن مفهوم الاسلام المتكامل الجامع .

ولقد اعترف كثير من الباحثين بفساد المنهج العلمي الغربي الوافد في نظرية القومية المطروحة . وشهد البعض بأنه لم تقم حركة وطنية في العالم العربي إلا وكانت الروح الاسلامية أساسها . وان وقائع تاريخ الشرق الأدنى الحديث تؤكد على أن القومية المجردة وبالمفهوم الغربي ليست القاعـــدة الملائمة للنهوض والبناء، وما لم يكن المثل الأعلى إسلامياً على وجه من الوجوه فلن تثمر الوحدة. وتتوالى من خلال كثير من الأبحاث الإشارة الى أن العرب متمسكون بلغتهم وأدبهم ومعنون بمجد الاسلام ، وان من المستحيل أن يصرفهم صارف عن لغة القرآن التي تربطهم بالعالم الاسلامي كافة . وان الروح الاسلامية ستبقى تسود بلادهم . وتتقدم أبداً بلا كلل ، ولن يطرأ عليها أي ضعف أو وهنٍ .

وقد كشفت ثورة الجزائر عن اصالة الطابع الاسلامي في الاتجاه الوطني والعربي وكفاح الاستعمار والغزو ومدى عمقه في النفس العربية الاسلامية . ويقرر كثير من المراقبين المنصفين أن أزمة الخلاف بين مفهوم العروبة الأصيل وبين مفهوم التوجيه الوافد يتمثل في ذلك الجفاء المصطنع مع الفكر الاسلامي ، وقد حمل بعض الدعاة لواء قومية علمانية على الطراز الأوربي امتداداً للدعوة التي حملها الاتحاديون في تركيا ، وهو من التيارات التي ترفضها الأمـــة العربية وتتجاوزها لما تحتويه من عوامل الانتقاص والقصور .

ولقد حاول الكثيرون تزييف العلاقة بين الاسلام والعروبة والتشكيك فيها، ومحاولة خلق جوّ من الالتباس بين المفهومين للمباعدة بينهما . غير أن وقائع التاريخ وهي أصدق من افتراضات المنهج العلمي الغربي الوافد تشير إلى مدى عمق الجذور المشتركة بين العروبة والاسلام .

وإن مفهوم العروبة ( لا القومية ) في الفكر الاسلامي والثقافة العربية هو

مفهوم حضاري جامع ، يقوم على أساس تعاقد روحي واجتماعي عميق ، دون أن يحمل معه اي معنى من معاني الاستعلاء بالجنس أو العداء للأجناس الأخرى ، بل هو على العكس من ذلك يؤمن بالالتقاء مع القوميات المختلفة التي تجمعها معه وحدة فكر وأصول ثابتة وعقيدة أساسية وكتاب عربي هو منطلق الثقافة والعبادة لكل المسلمين .

ومن هذا المنطلق فقد عجزت كل المحاولات عن أن تجعل العروبة مناقضة للاسلام أو مصادمة له .

ومع أن الاسلام ليس ديناً فحسب ( ولكنه دين ونظام مجتمع ) مما يدل على افتئات النظرية المطروحة التي تحاول أن تبعده عن الاشتراك في تشكيل مفهوم العروبة . فإن النظرة السريعة الى القوميات الأوربية تكشف عن أنها لم تنفصل عن أديانها . فالبروتستانتية جزء لا يتجزأ من القوميات الهولندية والانكليزية بينما الأرثوزكسية جزء أصيل من القوميات اليونانية والبلغارية ، والاسلام كان ولا يزال جزءاً أساسياً من القوميات التركية والإيرانية والأفغانية والعربية والباكستانية والأندونيسية .

ومن الملاحظ أن كل دعاة القومية العلمانية هم من غير العرب الأصلاء دماً وفكراً ومن الذين تعلموا في معاهد الارساليات والتبشير . أما الذين عرفوا ( اصالة الثقافة العربية ) فقد ربطوا بين العروبة والاسلام . وهناك عشرات منهم لهم كتاباتهم وقصائدهم التي تؤمن بأرضية الاسلام الحضاري والثقافي للعروبة ، بل إن البعض قد وصل الى حد القول بأنه ليس من العروبة التنكر للاسلام أو التفتيش عن بعث عربي بغير دين العرب .

- ٢ -

ولقد جرت محاولات المنهج العلمي الغربي الوافد بإثارة الصراع والالتباس بين الوطنية والقومية ووحـــدة الفكر الاسلامي الجامعة ، وهذه التفرقة إنما تقوم على أساس مفهوم الغرب الذي يعلي شأن الانشطارية والتجزئة بينما لا يعرض الفكر الاسلامي مثل هذه التقسيمات في نطاق مفهومه الكامل الجامع الذي يجعل من هذه الجزئيات عناصر تتكامل وتتشكل في مجموع واحد .

ولقد استطاع الفكر الاسلامي أن يبلور هذه المفاهيم في حلقات ثلاث هامة متداخـــلة مترابطة هي الوطنية بمعنى الأرض في كل قطر ، والعروبة ( بمعنى الأمة ) وهي في المفهوم الغربي ( القومية ) ، ووحدة الفكر في مجال الثقافة التي ترتبط باللغة والتاريخ والتراث ذي المصدر الواحد . ولا سبيل الى فصل الحلقات الثلاث ، ومن المستحيل أن يتخلى العرب عن مصادر ثقافتهم ووحدتهم الفكرية ، ولا يزال الاسلام عاملاً أساسياً في بناء أرضية العروبة . وقد رفضت الثقافة الاسلامية العربية المفهوم الوافـــد للوطنية أو القومية . وعارضت أن تقبل تجربة الغرب لأنها لا تطابق ظروفها ولا معتقداتها . ولكل أمة لها فكرها وتراثها وجذورها العريقة في الثقافة ومكانها القائم تحت الشمس أن تلتمس تجربتها الخاصة التي صاغتها وفق ظروفها ومزاجها النفسي . وليست هي بالتالي قابلة لفرضها على أمة أخرى . وقد عجزت قوى التغريب عن صهر الفكر الاسلامي والثقافة العربية والعروبة في قوالبها التي أرادت بها أن تحتويها في بوتقة الثقافة العالمية أي ثقافة العالم الاستعماري المسيطر .

- ٣ -

قدم كثير من المتابعين العرب لمناهج الفكر الغربي الوافد مفاهيم في مجال الإقليميات والقوميات والتجزئة استمدوها من تجربة الغرب وفكره، وكان ساطع الحصري في مقدمة الأسماء التي لمعت في هذا المجال . فقد عرف بنظريته التي تقول باللغة والتاريخ . وقد استهدى ساطع الحصري في أبحاثه بالنظرية الالمانية وبمناخ البلقان في حركته القومية التي رفع فيها شعار اللغة في مواجهة الدولة العثمانية للتحرر من نفوذها . وكان من أكبر أساتذته ( ماكس مولر ، وماكس نوردو ) وهما فيلسوفان يهوديان قصدا من وراء نظرية اللغة الى إحياء القومية اليهودية . وقد اعتبر ساطع الحصري اللغة أساس القومية ، وعارض نظرية الارض التي دعا إليها أنطون سعادة . وقد جرى الجدل بينه وبين عدد من النظريات الاوربية في ( القومية ) دون أن يواجه الواقع العربي أو يفهم اصالة الفكر العربي في جذوره الممتدة الى الفكر الاسلامي أساساً ؛ هذه الجذور التي تجعل من العسير فصل اللغة عن الفكر ، واعتبارها ( أي اللغة ) مقوّماً منفصلاً ، أو الاعتماد على النظرية القائلة بأن بقاء اللغة أو ضياع اللغة هو بقاء الأمة أو ضياعها . ذلك أن الانطلاق من مفهوم الفكر الاسلامي نفسه يجعل مثل هذه الآراء على درجة كبيرة من السذاجة والبساطة ؟

والواقع أن ساطع الحصري كان غربي الفكر أساساً . بل وغربي الذوق والنطق أيضاً وأن تركيبه الثقافي والاجتماعي يحول بينه وبين تبني نظرية عربية

أصيلة مستمدة من واقع الأمة العربية وكيانها وذاتيتها وقيمها التي لا تنفصل فيها اللغة والتاريخ عن الفكر نفسه . وفي ذلك مغالطة أو جهل : ذلك أن اللغة العربية ليست لغة أمة ولكنها فكر أمة ولغتها في آن . وان تاريخ العرب لا ينفصل عن تاريخ الاسلام . بل إنه يمكن القول بدون تجاوز أو مبالغة ان العرب لم يكن لهم تاريخ حقيقي بمعنى التاريخ قبل الاسلام .

ويرجع ذلك الى أن ساطع الحصري نشأ في بيئة الاتحاديين الاتراك الذين كانوا صنائع الفكر الغربي والذين تربّوا في أحضان المنظمات الماسونية . وحملوا لواء الإيمان بالفصل بين العربية والمجتمع ، والذين فهموا الاسلام فهماً غريباً على أنه دين لاهوتي، وعلى هذا الفهم الخاطىء القاصر قامت نظرية ساطع الحصري . فهي نظرية مضطربة من أساسها . ذلك لأن كلمة واجب لو أنها صححت لكان موقف ساطع الحصري من نظريته مختلفاً كل الاختلاف : هذه الكلمة هي أن الدين الذي أقام عليه نظريته من أساسها ليس هو الاسلام دين العرب الذين أراد أن يطبق نظريته في محيطهم ولكنه دين أوربا في فترة من فترات التاريخ . ولذلك فإن كل التحديات التي تعالجها نظرية القومية الوافدة لا توجد أساساً في الفكر الاسلامي، هذا فضلاً عن اختلاف مفهوم (العروبة) عن مفهوم (القومية) واختلاف مفهوم الاسلام عن مفهوم الدين عند الغربيين .

وجملة القول أن ساطع الحصري نادى بمفهوم القومية الاوربية الوافد . وحاول تطبيقه على العروبة ذات الجذور الاسلامية دون أن يدرك عمق الاثر الذي تركه القرآن في اللغة العربية ، وبالغ الاثر الذي تركه الاسلام في الامة العربية ، ومدى ترابط ذلك الى أكثر من ثلاثة آلاف سنة ( قبل الاسلام ) بالامة الوسطى الحنيفية وبدين ابراهيم واسماعيل في الجزيرة العربية ، وهو الذي يعد مصدر كل القيم والاخلاقيات الإيجابية في مجال الكرم والبطولة والنجدة والمروءة في الجاهلية .

وقد استوحى ساطع الحصري نظرية الانشطارية ؛ وهي نظرية معروفة

في الفكر الغربي ولكنها تسقط سقوطاً شديداً عندما تطبق على الفكر الاسلامي ( والثقافة العربية وليدته ) الذي يقوم على التكامل الجامع وترابط القيم ؛ فقد ركز على اللغة كأساس لنظريته وعزلها عن مفهوم الفكر العربي الاسلامي الواسع كما ركز طه حسين على الأدب وعزله عن الفكر الاسلامي .

ونظرة طه حسين كنظرة ساطع الحصري ، نظرة ضيقة أوربية تتعارض مع المزاج النفسي والاجتماعي الاسلامي القائم على تكامل القيم وشمولها ، كما دعا الى اعتبار التاريخ مقوماً وبذلك عزله أيضاً عن اللغة والفكر والثقافة جميعاً .

وقد أخطأ ساطع الحصري حين فهم الاسلام فهماً غربياً خالصاً على أنه دين وروح ولم يستطع أن يتجاوز أفقه المحدود الى التفرقة بين الدين بعامة والاسلام بخاصة ولم ينظر الى فوارق العصر والبيئة والجذور الثقافية التي تختلف فيها القومية في أوربا عن العروبة في عالم الاسلام .

## - ٤ -

إن المنهج العلمي الاسلامي حين يفرق بين العروبة والقومية الوافدة ، إنما يكشف الفارق العميق بين مفهوم التلمود وبين المفهوم الانساني، ويكشف (هانس كوهين ) جذور فكرة القومية ، وأنها نتاج عبري يهودي في كتابه ( أساس القومية الحديثة ) فيقول : ترجع القومية الحديثة في أصولها الى ذلك المصدر الذي يعتبر أساس المدنية الغربية بأكملها ، وهو المصدر العبري والهليني ، فهذان الشعبان كونا بعض المظاهر الجوهرية التي تميز القومية الحديثة لا من ناحيتها السياسية . بل من ناحيتها الثقافية ، فكل فرد من أفراد القوميات اليهودية والإغريقية كان يشاطر بني قومه الشعور بميزات تفرقه عن كل الشعوب الأخرى . فكلاهما أنشأ فكرة الملكية والكهنوتية بما يخالف كافة الشعوب القديمة ، كذلك نشأت بين اليهود مبادىء الثقافة والشعب المختار والمملكة ذات الرسالة ؛ تلك المبادىء التي أصبحت من بعد عناصر القومية الحديثة . كما أن الإغريق أنشأوا مبادىء الوطنية للمدنية وما يجب أن تكون عليه العلاقة بين الهليين والبرابرة .

ويشير هانس كوهين الى أن هذه الفكرة اليهودية الأصل قد انتشرت في فرنسا إبان الثورة الفرنسية ومنها انتقلت الى أوربا كلها . ويرتبط بهذا ما

روجت له اليهودية التلمودية من الصراع بين السامية والآرية في مخطط إعلاء الشعوب والأمم والأعراق والعناصر ، وإحلال صراع الأجناس محل وحدة الأديان . ومن ذلك تزكية الالتباس بين العنصرية والجنسية والقومية ، وأشار كثير من المصادر أن هذه الدعوات جزء من مخطط الثورة العالمية . وقد ارتبطت القومية في أوربا بأمرين خطيرين يتعارضان مع الفكر الاسلامي .

أولاً – العودة الى الجذور القديمة مع تعدي الآثار القريبة التي غيرت كل شيء .

ثانياً – ارتباط القومية بالعلمانية أو اللادينية أو نفي أثر الدين من الثقافة والتكوين الاجتماعي، وقد حاول المنهج العلمي الغربي الوافد تبرير الدعوات الوطنية والاقليمية والقومية الضيقة المجردة من الاسلام . والادعاء بأنها مصدر التحرر والتساوي مع الأمم العصرية والمتحضرة . وشجب زيف هذه الدعوات كثير من المفكرين المسلمين . فأشار الأمير شكيب أرسلان الى أن الدعوة الوطنية المجردة من الاسلام لا تخلق في قلب الوطني أدنى اعتقاد بأنه أعلى من الأوربي وكيف تخلقه وهي مجردة من العقيدة القرآنية معتمدة على المادة المحسوسة لا غير . ولا مراء في أننا اذا رجعنا الى المادة المحسوسة وجدنا الأوربي اليوم على وجه الاجمال أعلى بكثير من المسلم، فلا يكون من نتيجة لتلك الدعوة الوطنية المجردة من الاسلام سوى أن تجرد ذلك الوطني من عزة النفس الواقرة في صدره بكونه مسلماً موحداً . « أنتم الأعلون » وأن تسلبه ذلك الخلق الضروري في نهضات الأمم وهو الاعتماد على النفس الكافل تحفزها الدائم للوثوب . أضف الى ذلك أن المسلم المعتقد بدينه لا يزال موقناً بأن لا بد من أن يدال له من الأوربي ولو بعد زمن طويل ( وَهُوَ الَّذِي أَرْسَلَ رَسُولَهُ

بِالْهُدَىٰ وَدِينِ ٱلْحَقِّ لِيُظْهِرَهُۥ عَلَى ٱلدِّينِ كُلِّهِۦ) وان ما عليه الاسلام من الضعف إنما هو عارض مؤقت لا بد أن يزول وانه إنما وقع تمحيصاً للمسلمين بذنوبهم التي اقترفوها . وتهاونهم بأوامر الله ونواهيه . ومن المعلوم أن الأمل هو الشرط الأساسي للعمل . فليس من حافز للمسلم على النهوض مثل أن يعتقد أن الضعف الذي حل به اليوم طارىء لا أصل له ، وأن الأصل هو أن يكون سيداً عزيزاً في الأرض .

- ٥ -

ولقد حاول المنهج العلمي الغربي الوافد اذكاء مفهوم ( السامية ) ليجعله مشتبهاً بين العرب واليهود . والواقع أن الفكر الاسلامي في سبيل تحرير المفاهيم وتصحيح التفسيرات الزائفة المضللة يتحدث عن الجنس العربي لا السامي. وعندما نقول الجنس العربي لا نقصد المعنى الذي يميز الجنس البشري من الجنس الآخر بخصائص جسمانية في الدرجة الأولى وإنما نقصد المجموعة البشرية التي عاشت في جزيرة العرب من أقدم الأزمنة التاريخية المعروفة . وشاركت في اللغة والأفكار والتقاليد حتى صارت حساً واحداً .

لقد حكم اليونان والرومان مصر وبلاد الشام ألف سنة ( ٣٣٠ ق. م. الى ٦٤٠ م ) ونشروا لغتهم وثقافتهم . وقد جمع بينهم دين واحد هو المسيحية قرابة أربعة قرون . وجاء الفرس وكانت لهم السيادة على العراق أكثر من ألف ومائتي عام ، وكان لهم دينهم وثقافتهم . ومع ذلك لم يستطيعوا أن يفرضوا طابعهم في حين أن الموجات العربية الصريحة التي جاءت الى الهلال الخصيب في حكمهم ورضخ ملوكها لسيادتهم العليا أخذت تفرض طابعاً على البلاد وتمتزج بأهلها القدماء . ثم جاءت موجة الفتح الكبرى تحت راية الاسلام . فلم تكد

تمضي بضعة أجيال حتى توطدت السيادة في هذه البلاد للطابع العربي الصريح ، وغدا شاملاً عاماً .

ومن هنا فإن أنسب الأسماء لهذا الجنس وأصحها هو الاسم الذي صار علماً له في دور العروبة الصريحة . وهو الجنس العربي لا السامي .

هذا فضلاً عن أن السامية تسمية أعجمية وافرنجية[1] .

١ — عن بحث للعلامة : محمد عزة دروزه .

## - ٦ -

ومن هنا وفي ضوء هذه المحاذير جميعاً فقد كان موقف المنهج العلمي الاسلامي إزاء النظرية القومية الوافدة واضحاً صريحاً . فقد جاء الاسلام مصححاً للتطرف والتعصب في القوميات . الأمر الذي تشكو منه الانسانية اليوم ، وجاء مقاوماً للعصبيات القومية . فالاسلام يؤاخي بين القوميات الاسلامية فلا فضل لقومية على أخرى في الاسلام إلا بالتقوى . ذلك أن الاسلام رابطة أخوة روحية بين العناصر المسلمة المختلفة القوميات التي تعيش في الوطن الواحد مثل العرب والأكراد والأتراك والفرس .

## ( رابعاً )

# العروبة والسامية

- ١ -

لقد ركز المنهج العلمي الوافد على العرب كافة والعروبة كفكرة وجماعة في محاولة استبدال مفاهيم أصيلة بمفاهيم زائفة وإيجاد التباس بين العروبة والاسلام. وقد كان للغزو الصهيوني القائم في قلب الأمة العربية دوره الخطير في طرح هذه المفاهيم في أسلوب براقٍ له مظهر البحث العلمي، ذلك أن اليهودية الصهيونية في سبيل تبرير وجودها في فلسطين تحاول أن تصطنع بالتزييف نظرية الأمة المختارة والوعد الإلهي.

ومن هنا جرت محاولات لتزييف مفهوم العروبة بإحلال مفهوم البداءة محل العروبة على النحو الذي عمد إليه برنارد لويس المستشرق اليهودي، أو التشكيك في رحلة ابراهيم عليه السلام الى الحجاز، وتقدم اسماعيل على إسحاق، وبناء الكعبة بيت الله الحرام فضلاً عن الاسرائيليات الكثيرة التي حفلت بها الدراسات الاسلامية. ومنها اسرائيليات جديدة. ومنها ما يتصل باللغات السامية. ومنها الدعوة الى نبذ الماضي القريب، وإحياء الماضي القديم الوثني السابق للاسلام بما يحتويه من عبادة النجوم والكواكب وصراع آلهة النور والظلمة وتأليه البشر.

ولقد حرص الاسلام على مهاجمة الوثنيات والخرافات والسحر والكهانة. كما أنكر العرافين وطارد الأوهام والمعتقدات الباطلة. وأنكر ادعاء علم الغيب

واعتبر السحر كفراً وحرص على أن يرتفع المسلم بإيمـانه عن الضعف البشري . الذي يجعله ألعوبة في يد أوهام الطوالع وأضاليل العرافين .

وكان من أبرز مفاهيم الاسلام : الوضوح الصادق حيث لا تأويل ولا كناية ولا غمغمة ، وحيث لا يحمل اللفظ أكثر مما يطيق أو يؤدي أكثر من معنى ، وحيث الحق حـــق . والباطل باطل ، وحيث لا يكون الشيء في نفس الوقت حقاً وباطلاً .

- ٣ -

ولقد كشفت الحقائق التي تواجه زيف المنهج العلمي الغربي الوافد عن أن العروبة جزء من الاسلام . بل هي نتاج الاسلام نفسه ، فالاسلام هو الحركة الاجتماعية الكبرى التي جمعت القبائل العربية المتفرقة المتصارعة على إيمان واحد، ولولا الاسلام لبقي العرب في جزيرتهم قبائل متفرقة لا مكان لها في تاريخ الحضارة الانسانية . فللإسلام على العرب فضل توحيدهم . ثم فضل إطلاقهم في معارج الحضارة وفي الحياة الانسانية . ان العرب توحدوا بالاسلام ، وان الاسلام جعل منهم قوة عالمية حملت لواء الحضارة الى العالمين .

لقد انتقل الاسلام بالعرب الى المجال العالمي . ومع ذلك فالاسلام ليس ملكاً للعرب وحدهم . ولا لأية أمة من الأمم . وإنما هو رسالة الله الواحد الحق الى الانسانية جميعاً . ولقد اختير العرب لحمل لواء هذه الرسالة ، وأعدوا لذلك إعداداً صحيحاً فقاموا بدورهم ولا يزالون مؤهلين لتجديد القيام بهذا الدور .

لقد خلق الاسلام العرب خلقاً جديداً . وأقام وحدتهم على أساس العقيدة والفكر ، وليس على أساس الجنس والعرق . وكان بمثابة السور المنيع الذي رد عنهم العوادي وحطم الغزاة .

ولقد صحح الاسلام القيم الجاهلية التي كانت قد بدأت مع الحنيفية السمحة في عهد إبراهيم واسماعيل . ثم انحرفت ، ومنها بطولة الحرب ، وكرم الضيافة وحماية الذمار . وأعادها من جديد الى مفهومها الأصيل .

## - ٣ -

حاول المنهج العلمي الغربي الوافد إحلال مفهوم بديل مكان مفهوم أصيل ، حين فسر برنارد لويس ( العربي ) بمفهوم ( البدوي ) .

قال إن العرب بالنسبة لمحمد ومعاصريه هم البدو سكان الصحراء . وقد استعمل القرآن هذا النص ( العرب ) على التخصيص في هذا المعنى ولم يستعمله قط ليدل على سكان مكة والمدينة والمدن الأخرى .

وحاول لويس أن يعلي مفهومه هذا على جميع ما ورد في المعاجم العربية ( لسان العرب ، وتاج العروس ، وغيرها ) مدعياً أنّ تفسيرها خاطىء .

يقول جلال مظهر في مواجهة هذه الشبهة : نحن نعرف أن لفظ ( عرب ) اسم جنس يطلق على هذا الجنس من الناس الذين يقطنون بلاد العرب سواء كانوا بدواً أم حضراً وأن هنـــاك تفريقاً واضحاً بين عربي وأعرابي . وأن ذكر ( الأعراب ) تحديداً لسكان الصحراء الرحل جاء في القرآن عشر مرات ، وقد فسر جميع الذين ترجموا القرآن كلمة أعرابي هذه بساكن الصحراء أي البدوي . وقد ذكر القرآن كلمة عربي (أحدى عشرة مرة) ، ولم يقل بلسان أعرابي . وإنما قال : بلسان عربي .

ولقد نقل الاسلام العرب من البداوة الى العروبة . وجاء في الحديث : ثلاث من الكبائر منها : التعرب بعد الهجرة ( أي العودة الى البادية والاقامة مع الأعراب ) بعد أن كان مهاجراً من مكة . وكانوا يعدون من يفعل ذلك كالمرتد . وقال الأزهري : والذي لا يفرق بين العرب والأعراب . والعربي والأعرابي ربما تحامل على العرب بما تتأوله آية :

( الأَعرابُ أَشَدُّ كُفْراً وَنِفاقاً )[1] .

وقد تناول هذا المعنى الدكتور عمر فروخ . فأشار إلى أنـــه لا يوجد في الشعر الجاهلي الذي وصل إلينا جذر ( عرب ) للدلالة على معنى قومي يتعلق بالجنس ولا معنى يتعلق باللغة .

فلما جاء الاسلام ونزل القرآن ورد فيــه جذر ( عرب ) في ثلاث صيغ . ( عرباً ) جمع عروب نعتاً للمرأة المتحببة الى زوجها ( عرباً أتراباً ) (أعراب) جاءت عشر مرات في سور مدنية فقط . منهـــا : ست مرات في سورة البقرة وحدها : بمعنى البدو .

أما الكلمة الفاصلة فهي كلمة ( عربي ) التي وردت في القرآن إحدى عشرة مرة في سور مدنية ومكية . ثم وردت عشر مرات نعتاً للغة التي نزل بها القرآن بأنها لغة واضحة مبينة .

( إِنّا أَنْزَلْناهُ قُرْآناً عَرَبِيّاً لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُون ) .

---

١ – من بحث لجلال مظهر – مجلة العلوم البيروتية .

وان استعمال كلمة ( عربي ) دلت الشعراء على التعبير الذي لم نقع عليه في شعرهم قبل الاسلام . ومنذ السنة الثالثة للهجرة قال كعب بن مـــالك يذكر رسول الله :

بدا لنـــا فاتبعناه نصدقه وكذبوه فكنا أسْعَدَ العربِ

وهكذا بدا في الشعر العربي مدرك لم يكن معروفاً من قبل ؛ وهو أن العرب جماعة واحدة في نطـــاق الوحدة الجامعة .

- ٤ -

ولقد أثار المنهج العلمي الغربي الوافد شبهة وجود إبراهيم، وولادة إسماعيل. وبناء الكعبة. وجاء من أتباع المنهج الوافد من طرح مثل هذه الزيوف في أفق الفكر الاسلامي. فقال طه حسين « للتوراة أن تحدثنا عن إبراهيم وإسماعيل والقرآن أن يحدثنا عنهما أيضاً. ولكن ورود هذين الاسمين في التوراة والقرآن لا يكفي لإثبات وجودهما التاريخي فضلاً عن إثبات هذه القصة التي تحدثنا بهجرة إسماعيل بن إبراهيم الى مكة ونشأة العرب المستعربة فيها، ونحن مضطرون الى أن نرى في هذه القصة نوعاً من الحيلة في إثبات الصلة بين اليهود والعرب من جهة وبين الاسلام واليهودية والقرآن والتوراة من جهة أخرى. وأقدم عصر يمكن أن تكون قد نشأت فيه هذه الفكرة. إنما هو هذا العصر الذي أخذ اليهود يستوطنون فيه في شمال البلاد العربية ويبنون فيه المستعمرات ». ويتصل هذا اتصالاً واضحاً بشبهات اليهود على تاريخ الاسلام وعلى مفهوم العروبة المتصل تاريخياً بالحنيفية الإبراهيمية.

ويشير الباحثون الى أن التوراة عندما جددها ( عزرا ) إبان السبي البابلي قد صهرت الحقائق التاريخية في قالب يؤكد العنصرية، بينما قدمها القرآن في قالب يؤكد الحنيفية. يقول الدكتور الفاروقي « ولكن المسألة ليست مجرد اختلاف وجهة النظر بين الكتابين. فالتوراة يوماً ما قدمت الحقائق من وجهة نظر الحنيفية إلا أنها غيرت نفسها بمرور الزمن. وهذا دليل على أن الحنيفية أو

الخبر التاريخي كما قاله القرآن الكريم هو الحق . فوجود الحنيفية في التوراة بشكل محرف دليل خارجي على صدق خبر القرآن الكريم .

ويعني هذا أن التوراة حرفت لتحول الحنيفية الى عنصرية تمثل حزباً أو قبيلة من المهاجرين أنفسهم كنوع أفضل من المخلوقات ، واتباع نظام أخلاقي يقضي بالحفاظ على سلامة عنصرهم وعدم الانصهار في قبيلة أو شعب أو أمة أخرى . أما الحنيفية فهي تمثل المهاجرين أنفسهم كذوي رسالة يحملونها الى البشر أجمع، ويحققونها بالانصهار في جسم البشرية، وبإهداء الذين ينصهرون معهم عن طريق المصاهرة والإخاء لغتهم وثقافتهم ورسالتهم » ويكشف هذا الاتجاه أساس التحريف الذي زيف وجود العرب في البناء الابراهيمي الحنيفي، وإنكار وجود إسماعيل ورحلة إبراهيم الى الجزيرة العربية . وذلك لكي يفرد اليهودية بميراث ابراهيم كله من خلال إسحاق الابن الثاني لابراهيم بعد إسماعيل .

ثم تحاول التوراة بعد بلورتها العنصرية – على حد تعبير الدكتور الفاروقي – يقول بأن ابراهيم هاجر لأن ( يهوه ) أمره بذلك . ولكنها تتعمد السكوت على أمر يهوه . فهي تقول انه أمر تلقائي عرفي . أي لا سبب له . فالله في نظرها فضله لأنه هو، وقد فضّل ذريته لأنها ذريته . بل قطع عهداً (لا ميثاقاً: والفرق بين العهد والميثاق أن الأول ذو اتجاه واحد أي يلزم جهة واحدة فقط ) على نفسه بتفضيلها مهما حصل الى الأبد . حتى الإله تمثلته كإله هذا العنصر من دون الناس .

« أما القرآن الكريم فجاء يعلن أن الله إله الجميع لا قدرة وقهراً . بل حباً ورحمة وجاء يؤكد أن هجرة ابراهيم كانت لسبب وجيه هو التوحيد . وأن الله أعطى له ميثاقاً بأنه تعالى سيجزيه أحسن الجزاء إذا قام وقومه بتحقيق أمانة السموات ، وأنه تعالى سيعاقبه أشد العقاب ، بل سيستبدله وقومه اذا لم يحققوا هذه الأمانة »[1] .

---

١ – مجلة كلية الآداب م/ ٢١ / ١٩٥٩ .

## - ٥ -

ويتصل بهذا ما كشف عنه بعض الباحثين من الخلاف الواضح في أبطال اليهود بين القرآن والعهد القديم [1] . يقول :

إن الصورة التي يتبينها القارىء من نصوص القرآن لموسى يختلف اختلافاً كبيراً عن الصورة التي يتبينها من تأمل نصوص التوراة ، فإن موسى المؤمن بالله الواحد غير موسى الذي اختص هو وقومه بعبادة « يهوه » مرة « وألوهيم » ومعناها الآلهة مرة أخرى .

وهذه الملاحظة لا تصدق على موسى ، والإله في نظره فحسب . بل تصدق على كل أبطال اليهود قبله وبعده ممن رسمت صورهم ، أو جوانب بارزة منها في القرآن والعهد القديم معاً . وقد يشتد الخلاف بين صورة البطل هنا وصورته هناك حتى يبلغ حد التناكر .

وهنا ينكشف جانب هام من محاذير علم مقارنات الأديان حين يركز العلماء اليهود على محاولة القول بأن اليهودية وأسفارها لها فضل على ما تلاها من الديانات والفلسفات . ومن الحق أن يقال إن هذا الاتجاه يبدو في السبعينات واضحاً أشدّ الوضوح من خلال كتابات الكثيرين وخاصة كتب المقارنات المسيحية التي يكتبها من لهم ولاء الى اليهودية التلمودية . ويمكن أن يرد ذلك

---

١ – محمد خليفة التونسي : الرسالة م ١٩٥٨ .

الى هدف أكبر . وغايته[1] شر من هذه الغاية فهم يسيرون على هذا النحو المضلل . وهو تشكيك المسيحيين والمسلمين – وهم أقوى مزاحمي اليهود في الديانتين ، فالعالم إذا تمكن من تفتيت الدين ، وأعاد كل فئة الى مصدر قبله – ولو لم يكن المصدر يهودياً ، استطاع أن يمحق قداسة الدين في القلوب والعقول . وبخاصة عند المسلمين الذين يعتقدون أن القرآن وحي من عند الله أنزله على محمد فبلغه من غير أن يكون له مشاركة فيه . وهذا يخالف ما يعتقد المسيحيون في الوحي ؛ إذ يرون أن كتاب الأناجيل هم كاتبوها بإلهام من الله وإشراق عليهم منه .

ومن هنا فقد قام اليهود « بعقد مقارنات بين كثير مما جاء في العهد القديم ولا سيما في التوراة ، وما جاء في الشرائع والعقائد السابقة له عند الأمم كالبابليين والمصريين والهنود وغيرهم فزعزعوا من مكانة العهد القديم ما زعزعوا ولكن في أنظار غير اليهود ويكشف وجه المقارنة بين صور الأنبياء في القرآن وصورهم في العهد القديم عن خلاف واسع قد يصل الى حد التناكر « وأهم مظاهره هو عصمة الأبطال في القرآن عما لا يليق بهم وعدم عصمتهم في العهد القديم من ذلك[2] » .

ومن ذلك أنهم يقسمون البشر الى يهود وهم الشعب المختار . وجوييم ، وهم من عداهم من البشر ومعنى الجوييم الكفرة والوثنيون والأنجاس والحيوانات ، وهي ما تعرف في العربية بكلمة الأميين .

واليهود يعتقدون أنهم غير ملزمين بأي شريعة في معاملة غيرهم فلهم قتل غير اليهودي وسرقة ماله وانتهاك عرضه[3] .

---

١ – محمد خليفة التونسي : الرسالة م ١٩٥٨ .

٢ و ٣ – نفس المصدر .

## - ٦ -

وتركز الصهيونية العالمية على العرب والأمة العربية والحضارة العربية هادفة الى إزالتها لإحـــلال الصهيونية والحضارة الصهيونية مكانها . وقد كشفت تصريحات زعماء الصهيونية عن ذلك ، وعن موقفهم من الدين الواحد ومن اللغة العربية ، كما كشفت كتابات اليهود التلموديين عن ذلك الحقد الدفين الدائم الممتد للكنعانيين ، وقد حمل كثير من المواقف والمواقع إشاراتٍ الى الماضي القديم حيث أطلق على عملية ١٩٦٧ اسم ( خيبر ) وخيبر هي أرض في الجزيرة العربية كان يسكنها اليهود منذ ١٣٧٠ عاماً وأجلاهم منها نبيّ الاسلام .

ومن عجيب أن تركز الصهيونية على العرب الذين هم الشعب الوحيد الذي أنقذ اليهود من اضطهاد الأوربيين في العصور الوسطى ، وحمـاهم ثمانمائة عام في الأندلس ثم بعد ذلك في الدولة العثمانية .

ومن حيث استطاعت الصهيونية واليهودية والتلمودية احتواء الفكر الغربي ، والسيطرة على الدين والاجتماع والاقتصاد والتربية والسياسة ، فإن من وراء طرح مفاهيم الفلسفات المادية في أفق الفكر الاسلامي ما يشير الى أثر الفكر التلمودي ومحاولته لاستيعاب الفكر الاسلامي واحتوائه .

ولقد حفلت دوائر المعارف العالمية ، والتي ترجم بعضها الى العربية . وفي

مقدمتها دائرة المعارف الاسلامية بوجهة النظر اليهودية التلمودية في مختلف المواد التي تتصل بالاسلام والعروبة وإبراهيم والقرآن وما يتصل بالتاريخ واللغة .

ومن هنا بدأت محاولات إثارة الشبهات حول اللقاء بين العروبة والاسلام ، وبين العروبة والبداوة ، وبين القومية والاقليمية وبين التراث القديم السابق للاسلام ، وبين الأديان وبين القومية والعالمية .

# الفصل الثالث

## مفاهيم الحضارة

طرح المنهج العلمي الغربي الوافد في أفق الفكر الاسلامي تفسيراً للحضارة استمده من مفاهيمه وعقائده وقيمه . ثم حاول أن يحاكم الحضارة الاسلامية على ضوئه ، فجاءت نتائجه التي استخلصها غير علمية وغير مطابقة للحقيقة . ذلك أنه تجاهل أول ما تجاهل العامل الجوهري الذي دفع الحضارة الاسلامية في هذا الزمن القصير حتى بلغت آفاق المشرق والمغرب . وحاول أن يفسره تفسيراً مادياً محضاً . دون تقدير لأثر العقيدة ومضمون الأخلاق وأثر الجوانب الروحية والنفسية والفكرية على الأمم والحضارات ، وعلى بنـــاء البطولات والتضحية بالنفس والجهاد في سبيل الله . ولا ريب كان تجاهل هذا العامل أخطر تجاوزاتهم في تفسير الفكر الاسلامي كله . ولقد اختلف رد الفعل الذي وُوجِهَتْ به الأديان الأخرى من حيث ان الاسلام هو الذي قدم للبشرية فكرة تحرير العقل والنفس والجسم من وثنية العقيدة وعبودية الانسان بما يشبه أن يكون ثورة فكرية واجتماعية بالغة الأثر عظيمة الخطر .

ومما لا شك فيه أن من الأسباب الرئيسية في ازدهار الاسلام ونجاحه هو إصراره على محو العبودية ، وتأكيد مبدأ المساواة الذي يختلف اختلافاً تاماً عن المجتمعات العبودية والاقطاعية القديمـــة حين طرح مفهومه الصريح ( الناس

سواسية كأسنان المشط ) ( لا فضل لأبيض على أسود ، ولا لعربي على عجمي إلا بالتقوى ) اهـ .

ذلك أن نظرة الى أفق العالم قبل الاسلام تكشف في يسر وبساطة عن ذلك الطابع الوحشي القاسي الذي كانت الحضارات الفرعونية والفارسية والهندية واليونانية والرومانية تطبع به معاملاتها للإنسان .

## (٢)

وخلاف آخر جوهري : ذلك أن الاسلام هو الذي صنع حضارته ومجتمعه وبناها منذ اللبنة الأولى . بينما وفـدت المسيحية على المجتمع الغربي ، والحضارة الرومانية مشكلة قائمة ، غير أن النهضة الأوربية التي سميت بالحضارة الحديثة لم تبدأ إلا بعد ألف وخمسمائة عام من ظهور المسيحية . وألف ومائتي عام بعد دخول المسيحية أوربا . فلا صـلة بين الحضارة الغربية وبين المسيحية ، بل إن البعض ليذهب الى أبعد من ذلك فيقول : « إن هذه الحضارة لم تعرف الطريق إلا بعد أن حطمت قيود الكنيسة التي فرضتها على الناس ، وتخلصت من رجال الدين الذين حبسوا العقلية الغربية داخل نطاق التعاليم المسيحية الروحية التي تخالف اتجاهات الغرب التي تميل الى المادية . وان أوربا لم تتقدم فكراً وثقافة وعلماً إلا بعد أن قضت على سلطان الكنيسة وتحررت منه تحرراً تامـًا[١] .

---

١ - عن نص للاستاذ أبي الحسن الندوي منقولاً عن بعض الباحثين الغربيين .

( ٣ )

ومن وجوه التباين والاختلاف أن الإسلام حين انطلق الى الشام ، والى المغرب عبر مصر وإفريقيا قد دخل عالمـــا كان في قبضة الحضارة الرومانية وفكرها قروناً طويلة، فمسح فكرها ولغتها وشكّـلها من جديد، مما كان موضع تساؤل الباحثين الغربيين ودهشهم حيث لم يجد تفسيرهم التاريخي والحضاري مبرراً لهذا التحول الخطير فيقول أحدهم : « تركت روما القديمـــة في بلاد الغرب ( المغرب ) آثاراً لا تمحى . وكانت من تلك البلاد ، افريقيا الشمالية . فتكلمت اللاتينية مدة ستة قرون . وأنشأت الكنيسة آباءً عظاماً أمثال القديس أغسطينوس . ومع ذلك اضمحلت فيها تلك الآثار الرومانية المسيحية وبسط الاسلام نفوذه فيها على كل شيء . فكيف حدث هذا التغيير الغريب البعيد الأثر في تاريخ شواطىء البحر المتوسط . هذا أمر مبهم غامض لم يجرب أحد فيما سلف أن يكشف القناع عنه . ولهذا دعيت تلك القرون بالقرون المظلمة [١] » . ويقول في هذا المعنى باحث آخر « قبل الميلاد : دخلت روما بلاد العرب فاتحة واستقرت في مشرقها وفي مغربها قروناً كثـــيرة متعاقبة واحتلت من الأراضي أكثر مما أحتل الفرنسيون . وبنت من القلاع والحصون أكثر مما بنى الفرنسيون واستوطنت مدناً عربية ، وغيرت أسماءها بأسماء رومانية على غرار ما فعلت فرنسا ( من بعد ) وبسطت سلطان لغتها وقانونها

---

١ - م ( ٢٦ ) مجلة المشرق .

وآدابها مثلما فعل الفرنسيون . ثم عصفت العاصفة بروما وهبت عليها الرياح الاسلامية العربية ففدت أثراً بعد عين».

* * *

ولا ريب أن المنهج العلمي الغربي الوافد المقايس بالماديات والأرقام يعجز عن أن يعلل انتصار الجيوش الاسلامية . وهي أقل عدداً . كما يعجز عن أن يعلل انبساط الاسلام في العالم في أقل من سبعين عاماً . ويعجز أن يعلل محوه للثقافات التي استمرت أكثر من ستمائة عام . تلك أمور تعجز المناهج العلمية القائمة على التقديرات المادية والمحسوسة وحدها أن تستوعبها . ولذلك فهي حين تفسرها تكبو وتسقط . ذلك أنها لا تجد الوسيلة ولا تجد الدافع . وربما غلب عليها اتباع الظن وما تهوى الأنفس . والأوربيون من المفكرين في الأغلب حين يواجهون مثل هذه الظواهر ، يتصورون كيف كانت هذه المناطق تابعة لنفوذ الغرب ، ثم انتزعها الاسلام . ولذلك فهم يعجزون عن ضبط النفس إزاء هذه المشاعر ، ولا يدفعهم البحث العلمي الى معرفة أسرار التغيير بين الحضارات ولا قوانين قيام الدول وسقوطها . ولكنهم يذهبون الى أهواء تنكر الحقيقة ، ولا تحاول أن تواجهها . ومن هنا يصدق الدكتور ناصر الحاني حين يقول : اننا لا نعرف في التاريخ البشري حضارة ُهوجِمَتْ بشراسة وضراوة كالحضارة العربية ( الاسلامية ) لقد أقامت عصوراً طويلة تحت وطأة الاحتلال الأجنبي ، وظلت دوماً تجابه مشكلات وأزمات لا نشك أنها لو جابهت حضارة أمم أخرى ليس لها الجذور العميقة في التاريخ لطوحت بها .

- ٢ -

ومن هنا نرى أن المنهج العلمي الغربي الوافد حريص على إثارة الشبهات حول القيم العليا للحضارة الاسلامية . فيقف الكردينال لافيجري في أول يوليو ١٨٨٨ في كنيسة سان سوليبس في باريس ليلقي محاضرة عن الرقيق في الاسلام . فينكر فضل الاسلام على محو العبودية البشرية التي كانت تنتظم الحضارات المصرية والرومانية والفارسية والهندية ، ولكن الكردينال وأتباعه يتهم الاسلام بأنه يدعو الى النخاسة ويوصي أهله بارتكاب الفظائع التي يرويها عن أواسط إفريقيا ، ويغض الطرف عن الملايين التي حشدها أهله الأوربيون لتصديرها الى أمريكا. ويذهب كرومر الى القول بأن المسلمين لا يمكن أن يرقوا في سلم الحضارة والتمدن إلا بعد أن يتركوا دينهم ويدعوا القرآن وأوامره وراء ظهورهم لأنه يأمرهم بالخمول والتعصب ، وأن الاسلام يناقض مدنية هذا العصر من حيث المرأة والرقيق ، وأن الشريعة الاسلامية هي شريعة صحراوية ، وأن أكبر أخطاء الاسلام إباحة الطلاق وتحريم الربا والزنا . وهناك من رجال المنهج العلمي الغربي الوافد من يحاول أن يصور الحضارة الاسلامية عالة على حضارة الرومان والفرس ، والواقع أن الحضارة الاسلامية من حيث هي مدنية قد قدمت للبشرية ما لم تقدمه حضارة سابقة : تحرير العقيدة والعقل من الوثنية وتحرير الانسان من العبودية . أما من حيث الجانب العلمي ، فقد قدمت للبشرية المنهج العلمي التجريبي الذي خرجت به عن مفهوم الحضارة اليونانية . والواقع أن الحضارة الاسلامية أصابت الغرب بنوبة هستيرية لظهورها ، وأن أشد

ما خشيه الغرب من الحضارة الاسلامية الناشئة أنها كانت تستند الى مثل أعلى فوق المادة لا ينفع في دفعه ما لذى الغرب من أسلحة مادية [1] وأن الغرب الذي عجز عن تقبل عقيدة الاسلام ، قد تأثر بالاسلام في عشرات المواضع من حياته ومجتمعه وفكره :

١ – تأثر به من خلال دعوة لوثر وكلفن الى تحرير الدين وتفسير الكتاب المقدس .

٢ – تأثر به من حيث الدعوة الى حقوق الانسان وتحرير الرقيق .

٣ – تأثر به من حيث مفاهيم الاجتماع والتاريخ والفروسية والتربية .

٤ – تأثر به من حيث التماس المنهج العلمي التجريبي .

ولقد كشف بريفولت في كتابه : ( Making of Humanity ) عن هذه الحقيقة بعد أن أخفاها ( المنهج العلمي الغربي الوافد ) سنوات طويلة وأنكرها المفكرون الغربيون ودحضوها في استهانة واحتقار ، ثم جاء من تحرروا من هذا القيد الدامي ليقول بريفولت : « ليس ثمة ناحية واحدة من نواحي الازدهار الأوربي يمكن إرجاع أصلها الى مؤثرات الثقافة الاسلامية بصورة قاطعة ، فإن هذه المؤثرات توجد أوضح ما تكون في تلك الطاقة التي تكون ما للعلم الحديث من قوة متميزة ثابتة . ان ما يدين به علمنا لعلم العرب ليس فيما قدموه إلينا من كشوف مدهشة لنظريات مبتكرة فحسب ، إنه مدين لها بوجود نفسه » .

---

١ – عن نص لتوينبي في كتابه الحضارة في فترة اختبار .

## - ٣ -

من أخطاء المنهج العلمي الوافد تلك النظرية التي أذاعها جورج سارتون في كتابه : ( The unity and Dinersaty of the mediterranean World ) والتي حاول فيها أن يجعل للبحر المتوسط شخصية حضارية أساسية . ويجعل الحضارة الاسلامية جزءاً منها ، فهو يرى أن في العالم ثلاث حضارات رئيسية حية هي : الحضارتان الصينية والهندية ، وحضارة ثالثة ينتمي إليها ما بقي من العالم المتمدن . وأن هذه الحضارة مزيج من عناصر مختلفة ، منها ما هو مصري وسومري وإيراني وبابلي ويوناني وروماني وعربي، وأنه لا يحق لنا أن نطلق عليها اسم عنصر من هذه العناصر ، ولا نقدر أن ندعوها آرية أو سامية ، ولا نستطيع أن نسميها : وثنية أو يهودية أو نصرانية أو اسلامية ، وإنما اسمها حضارة حوض البحر المتوسط . ويرد سارتون هذه الحضارة الى أصول ثلاثة :

أولاً : الفكر اليوناني .

ثانياً : النظام الروماني .

ثالثاً : الدين السامي .

وفي مادة الدين السامي يقول : إنه عناصر وآثار تعود الى أصول هندوسية وفارسية ومصرية غير أن الساميين صهروها بحرارة أرواحهم .

وقد قال بأن هذه الحضارة قد تشكلت في بحر إيجة ثم انتقلت الى روما ، ثم قال: وفي القرن السابع دخل العرب معترك التاريخ. وكانت فاتحة أعمالهم أن قضوا على امبراطورية الفرس وزعزعوا أركان الامبراطورية البيزنطية فجردوها من أغنى ولاياتها ( المغرب ، الشام ، مصر ) وما لبثوا أن نازعوا الروم وما بقي من الرومان على ملاحة البحر الأبيض وتاريخه ، والعرب لم يقضوا على وحدة البحر المتوسط الاقتصادية والثقافية ، بل عززوها . ثم نشر العرب ما ورثوه من الفرس ، ومـــا اقتبسوه من البيزنطيين والأقباط ، وما أخذوه من النصارى واليهود وصائبة حران الوثنيين . ثم استولت حضارة البحر المتوسط على العرب فدخلوا في مجراها وأدخلوا فيها ما كانوا قد استقوه من مياه الثقافات الأخرى. وأن الدور الذي قام به العرب تجاه هذه الحضارة هو : الدور الذي قام به من سبقهم من شعوب المتوسط كالأيجيين والفينيقيين واليونان والرومان » ا هـ .

والواقع أن هوى متبعاً لم يبلغ بالمنهج العلمي الغربي الوافد أبعد مما بلغ به في هذه الصورة التي رسمها باحث غربي وأقامها في إطار علمي براق ، وحاول أن يخدم بها أهدافاً بعيدة . تجري في ذلك المجرى الزاخر الذي يحـاول طمس الحضارة الاسلامية ودور العرب عن طريق الاسلام في بنـــاء فكر التوحيد الخالص الذي اختلف وتجاوز وتباين مع الفكر البشري كله . ولو أن المنهج العلمي الغربي الوافد كان منصفاً وكان متحرراً من الظن ومـــا تهوى الأنفس لأدار هذه الصورة الحضارية كلها حول الحنيفية الإبراهيمة التي تعد المصدر الأول للتوحيد وبناء الحضارة الانسانية الحقة ، والتي واجهت التحدي مرات كثيرة خلال ذلك التاريخ الطويل ، حتى جاءت رسالة الاسلام لتقدم حضارة التوحيد في مواجهة حضارة الوثنية .

لقد كانت الأمـــة العربية التي أنشأها إبراهيم في الشام والجزيرة العربية ( إسماعيل وإسحاق ) هي التي أقامت الحضارة الانسانية بمفاهيم التوحيـــد

والحنيفية والأخوة ، ثم تحولت عبر فلسفات الشرق البابلية ، وفلسفات الغرب الهلينية إلى فكر وثني وإلى حضارة تقوم على العبودية .

أما الدين السامي الذي يعود الى أصول هندية وفارسية ومصرية، فليس هو دين إبراهيم، وليس هو رسالة موسى التي أنزلت الى بني إسرائيل، ولا رسالة عيسى التي جاءت مكملة لها، وإنما هي ذلك الدين التلمودي الذي صاغه اليهود في مفاهيم في بابل من تراث الوثنيات القديمة والسحر والكهانة والأساطير .

إن الدين السامي ليس هو دين السماء المنزل ولكنه الدين الذي يرسم فكرة الشعب المختار . وكيفما تكن الحضارة التي نشأت قبل الاسلام ، وما يتصل بها من تجارة وفكر وحروب ، فإن الاسلام حينما جاء ، قدّم للبشرية شيئاً جديداً في منهجه وفكره وأسلوبه ومفاهيمه سرعان مـــا فصل به بين العقول والأمم والمجتمعات على نحو لم يلبث بعد عشرين عاماً أن أعلن الصورة المتميزة التي تقوم على ذاتية خاصة وعلى فكرة واضحة لم تلبث أن جاوزت الجزيرة العربية الى العالم كله شرقاً وغرباً حتى أصبح شاطىء البحر الأبيض المتوسط الجنوبي بعد سبعين عاماً مستقلاً له : له طابعه وآثاره التي تدافعت الى كل آفاق القارات الثلاث، وغيرت العقول والقلوب. وسرعان ما أقامت فيصلاً واضحاً بين الفكر البشري كله ممثلاً في العناصر البابلية والهلينية والفرعونية ، وبين الفكر الرباني المستمد من القرآن والقائم على التوحيد .

ومعنى هذا أن الاسلام لم يدخل في دائرة حضارة البحر المتوسط دخول الاحتواء ، ولكنه استقطع عالمه الخـــاص ، وأقام كيانه المستقل الذي لم يكن اندماجاً ولا انصهاراً في حضارة الوثنية . ومن ثم أقام اقتصاداً جديداً غيّر مجاري التجارة ومصادر الثروات . أما ما ورثه العرب من الفرس ، وما اقتبسوه من البيزنطيين ، وما أخذوه من النصارى واليهود . فذلك كله قد ذهب وتبدد . فقد قدم القرآن للعرب والمسلمين منهجاً جديداً وعلماً واسعاً عريضاً في الاقتصاد والسياسة والاجتماع والقانون والتربية . ثم تشكل هذا

المنهج وتبلور قبل أن يختار الرسول الى الرفيق الأعلى . فلما ترجمت الفلسفات الفارسية واليونانية وغيرها لم تكن بالنسبة لهذا المنهج إلا شيئاً مقارنا . ليس هو الأصـــل الأصيل . وإنما هو الوافد الذي جرت المحاولات لاخضاعه لفكر التوحيد ، ثم تجاوزته لأنها وجدته وثنياً عبودياً مخالفاً للفكر الاسلامي في أكبر معالمه . ومن هنا لم يكن دور العرب كدور الأيجيين والفنيقيين واليونان والرومان . ولكنه كان دوراً مغايراً واضح الذاتية ، له طابع التوحيد والإيمان بالغيب والبعث والجزاء واليوم الآخر ، وله فكره القائم على أساس الترابط بين الدين والمجتمع ، وبين المسؤولية الفردية والالتزام الأخلاقي .

- ٤ -

إن المؤرخ البلجيكي : هنري بيرين ، قد أشار الى دور الاسلام في حضارة البحر المتوسط فقال : « إن البحر المتوسط كان حلقة اتصال مستمر بين الحضارات التي نشأت حول شواطئه منذ العصور القديمة حتى اكتسب تلك الحضارات . وطبعها بطابعه . لكن الحدث الكبير الذي قلب الأوضاع رأساً على عقب ، هو ظهور الاسلام الفجائي في القرن السابع الميلادي على مسرح الأحداث . ومـــا كان من استيلائه على الموانىء الشرقية والجنوبية والغربية من ( البحيرة الأوربية ) . ومنذ ذلـــك الوقت أصبح البحر المتوسط سدًّا وحاجزاً بين الغرب والشرق ، بعد أن كان معبراً وأداة اتصال ، على الرغـــم من أن الدولة البيزنطية بفضل أسطولها استطاعت أن ترد المسلمين عن بحر أيجه والأدرياتيك والشاطىء الجنوبي من إيطاليا ، إلا أن غرب ذلك البحر المتوسط سقط كاملاً في أيدي العرب فطوقوه من الجنوب ومن الغرب بفتحهم المغرب واسبانيا وباستيلائهم على جزائر البليار وكورسيكا وسردينيا وصقلية . وتبعاً لذلك فإنه منذ القرن الثامن الميلادي حكم على التجارة الأوربية بالموت في تلك المنطقة . وانتقلت حركة النشاط التجاري كلها نحو بغداد عاصمة الامبراطورية الاسلامية . إن هذه الشواطىء التي قامت عليهـــا في يوم من الأيام علائق ترتكز على وحـــدة العادات والحاجات والأفكار قامت عليها حضارتان ، بل عالمان متعاديان يواجه أحدهمـــا الآخر . إن التوازن الاقتصادي الذي قام منذ العصور القديمة ، واستمر حياً بعد الغزوات الجرمانية قد انتهى أمام الغزو الاسلامي . ومن هذه الحقيقة الجوهرية ظهر بالضرورة نظام اقتصادي جديد » اهـ .

## - ٥ -

إن أبرز اختلاف بين مفهوم الحضارة في الفكر الاسلامي والفكر الغربي يقوم على تفسير «التقدم» . فالغرب يرى التقدم مادياً خالصاً ، بينا يرى الاسلام أن التقدم معنوي ومادي ، وأنه إنساني أصلاً وتوحيدي أساساً . فكل تقدم في مفهوم الاسلام يجب أن يقوم على التحرر من عبودية غير الله ، ومن عبادة ما سوى الله فلا يؤمن بسلطان غير سلطانه . والأصل في الوحدانية هو التحرر من عبودية غير الله ، ومن كل سلطان غير سلطان الله فلا تفرقة بين الناس[1] . وأن تجري حركة التقدم كلها في إطار أخلاقي .

أما مفهوم الغرب للحضارة فيختلف عن ذلك اختلافاً واضحاً فهو يرتبط بالعلوم والمعطيات المادية وحدها ، موجهة لخدمة الانسان ورفاهيته دون تقدير لإطار توحيد الله أو استهداف الغاية التي رسمها لبناء الحياة وحركة المجتمع داخل هذا الإطار .

ولذلك فإن خطأ المنهج العلمي الغربي الوافد يتمثل في أمرين : في عجزه عن تفسير الحضارة الاسلامية في نطاق معنوياتها التي يعجز عن تصورها ، فهو يحاكمها في حدود مادياته . والأمر الآخر في هذه الدعوة التي يبثها في المسلمين والعرب حين يدعوهم الى اتخاذ الحضارة الغربية أسلوباً للعيش كوسيلة للوصول

---

١ – دكتور يوسف العش من بحثه عن روح الحضارة الاسلامية .

بهم الى ما وصلت إليه الأمم الغربية. وهي دعوى استشرت كثيراً ، وحاول أصحابها ومن تابعهم اذاعتها وتوسيع رقعة انتشارها. وقد جرت محاولات ترمي الى نقل الحضارة الغربية ، حلوها ومرها ، ما يحمد منها وما يعاب . وعمدت تمويهات كثيرة الى تصوير اقتباس الحضارة وكأنه أمر لا صلة له بالاسلام أو بالدين . واندفع الكثيرون الى تبرير الحضارة على وضعها الحالي ، وعمد آخرون الى تأويل النصوص لتبرير هذه الحضارة . بل لقد جرت محاولات لاستخدام النصوص الفقهية في خدمة هذا الهدف .

والواقع أنه بالرغم من سيطرة الحضارة الغربية على العالم كله . فإن الحضارة الاسلامية ما تزال قائمة بجذورها العريقة في المجتمع الاسلامي . وما تزال قيمها ومفاهيمها هي الحاكمة للنفوس والعقول والأذواق ، وهي بذاتيتها الخاصة لا تسقط أبداً أمام استشراء ظاهرة الحضارة الغربية وامتداد مظاهرها المادية الى كل مكان . والمسلمون يفرقون بين هذه المظاهر المادية وبين أسلوب العيش ومنهج الفكر ، فهذه المظاهر المادية من التحضر لا يرفضها الاسلام ولا يعارضها. وإنما يرفض محاولة إخراج المسلمين من أسلوب عيشهم ومنهج فكرهم. فالحضارة الغربية تقوم على فكر يؤمن بالربا ونسبية الأخلاق والتحرر من القيم الاجتماعية والنفسية، ويدفع الحياة الى الصراع والحرب ويجعل منجزات الحضارة قوى باغية للتدمير والتسلط . وقد ارتبطت الحضارة الغربية منذ يومها الأول بالاستعمار ونفوذه الذي سيطر على العالم الاسلامي كله وحاول إخراجه من مقومات فكره وعقيدته .

ومن هنا فإن مفهوم الحضارة الغربية يتعارض تعارضاً تاماً مع مفهوم الحضارة الاسلامية الذي يقوم أساساً على الاخلاق ، والذي يحدد أسلوبه ومنهجه في أمر المرأة والمجتمع وقضايا الرفاهية والترف ورجولة الرجل وأنوثة المرأة وبناء الرجال للجهاد والمقاومة والربط الواضح بين الزينة وبين المسؤولية الفردية . وله مواقفه الواضحة في أرجاء الفراغ والخمر والزنا

ومفاهيم التحلل وغيرها مما يرتبط ارتباطاً أساسياً بالانسان من حيث هو بنية متكاملة .

والمنهج العلمي الاسلامي يفرق بين الحضارة وبين العلم . أما العلم فهو تلك المعطيات المادية التي تتحرك في إطار الأخلاق والعقيدة ، وتعمل في خدمة الانسان دون ما أن تكون عامل بغي أو ظلم أو تحكم أو إبادة .

فالاسلام يدير معطيات العلم في إطار التقوى والرحمة ، والأخوة الانسانية . وهو حين يقبل العلم الذي شارك في بناء قاعدته التجريبية أساساً، فهو يقف من أسلوب العيش الغربي ومنهج الفكر الغربي موقفاً مختلفاً . ذلك أن هذا البناء الفكري والاجتماعي يقوم على وثنية الترف والتحلل والرفاهية . بينما يقوم البناء الاجتماعي في الاسلام على أساس الصمود والقوة والقدرة الدائمة على المواجهة والتأهب للجهاد وحماية الانسان من الانهيار تحت ضربات الترف والتحلل والانحلال .

ومن هنا كانت يقظة الفكر الاسلامي وتنبهه للهدف الذي يختفي وراء المنهج العلمي الغربي الوافد . وهو محاولة صياغة عقلية الشعوب الاسلامية وأسلوب تفكيرها ونظرتها الى طبائع الأشياء في القوالب الغربية .

واننا في الواقع لسنا في حاجة الى أن تصرعنا هذه الحضارة . وليس من مصلحتنا أن نذوب في خضمها ، وأن تمزقنا باتجاهاتها الجماعية والفردية والوجودية ، وان علينا أن نتحرك من داخل إطار فكرها « وعلينا أن نقف في وجه هذه الموجة الطاغية من مدنية المادة التي جرفت الشعوب الاسلامية فأبعدتها عن مفهوم التوحيد ومنهج القرآن وزعامة النبي » .

وان أخطر مفهوم للحضارة يواجهه الفكر الاسلامي هو محاولة إخراج الحياة

من تقدير الله وتعريفه باسم الانتصار على الطبيعة ، والغفلة عن صاحب القوانين التي يزدهي الانسان باكتشافها . ويظن أنه عرف مفاتيح الكون بينما إرادة الله قائمة وراء ذلك كله ، وفوق ذلك كله .

ولا ريب أن كل الغايات التي يطمح الانسان الى بلوغها عن طريق التقدم والعلم والمدنية قد قدمها له الاسلام ، ولا يزال يقدمها . وأبرزها العمران والعدل والحرية والاخوة الانسانية .

أما الحضارة الغربية ، فبالرغم من عطائها العلمي في مجال الماديات ، فإنها عاجزة تماماً عن أن تعطي شيئاً للنفس البشرية .

يقول العلامة محمد أسد[1] : ان المدنية الغربية لم تستطع حتى الآن أن تقيم توازناً بين حاجات الانسان الجسمانية والاجتماعية وبين أشواقه الروحية ، لقد تخلت عن آدابها السابقة دون أن تتمكن من أن تخرج من نفسها أي نظام أخلاقي آخر مهما كان نظرياً يخضع نفسه للعقل . وبالرغم مما حققته من تقدم ثقافي فإنها لم تستطع حتى الآن أن تتغلب على استعداد الانسان الأحمق للسقوط فريسة لأي هتاف عدائي أو نداء للحرب .

« لقد رفعت المدنية الغربية ( منظمة ) التقنية الى فن سامٍ ، ومع ذلك فإن الأمم الغربية تدلل كل يوم على عجزها المطلق عن السيطرة على القوى التي أوجدها علماؤها الرياضيون ، فالأمم الغربية قد وصلت الآن الى درجة أصبحت معها الامكانيات العلمية غير المحدودة تصاحب الفوضى العلمية . وإذا كان الغربي يفتقر الى كل توجيه ديني صادق ، فإنه لا يستطيع أن يفيد أدبياً من ضياء

---

١ - الطريق الى الاسلام .

المعرفة التي تسلبه علومه ، وهي لا شك عظيمة ـ فعليه يمكن أن تنطبق كلمات القرآن : « مثلهم كمثل الذي استوقد ناراً » ومع ذلك فالغربيون مـــع تعاظم عماهم يقتنعون بأن مدنيتهم هي التي ستجلب النور والسعادة للعالم . ومن هذا المنطلق فهم لا يسمحون للدين بأن يؤثر في الحياة العملية . وقد بدأوا بدلاً من الدين يبشرون بالرسالة المادية ( لطريقة الحياة الغربية ) التي تؤمن بـأن جميـع المشاكل الانسانية يمكن حلها في المصانع والمختبرات ومكاتب الاحصاء .

## - ٦ -

يقرر الباحثون المصنفون أن البشرية لم تعرف قبل الاسلام ديناً سماوياً أو غير سماوي قد قام على حضارة بالمعنى الكامل لكلمة حضارة ، ليست هنـاك حضارة يهودية قامت على الديانة اليهودية ، وإنما هناك ثقافة يهودية . ولم يكن هناك حضارة مسيحية ، بل ثقافة مسيحية . والفارق بـين الثقافة والحضارة ، أن الأولى محلية محدودة والثانية واسعة شاملة .

ومن أهم خصائص الحضارة الاسلامية بوجه عام اتصال العقيدة بالنظـام ، والنظام بالعقيدة . وكل فصل بينهما إفساد لخصائص هذه الحضارة ، والجمع بين الدنيا والدين بعيداً عن الشهوات الدنيوية وعن الرهبانية على حدّ سواء. لا تحتقر الأمور الدنيوية . ولا تجافي الأمور الروحية وتجمع بينهما في مثل أعلى رفيـع .

وتتمثل الحضارة الاسلامية في شيء واحد هام . وهي أنها ربطت العلم بالدين وربطت السياسة بالخلق . والقيم الخلقية هي عماد بناء الحضارات ، فإذا انهارت انهارت الحضارة . وهي مصدر التفوق في مختلف مجـالات السياسة والاقتصاد . وتتمثل القيم الخلقية في الصدق والمساواة والتواصي بالحـق وتطبيق العدل على المسلم وغير المسلم وعلى الغني والفقير والصديق والعدو . وان سقوط الأخلاق هو أول أسباب سقوط الحضارات التي لا ينقذها ازدهـــار القوة العسكرية . فالانحلال الخلقي يعرض النسيج الاجتماعي للخطر .

ومن مفاهيم الاسلام في الحضارة أن الأمم تمر بمراحل القوة والضعف ، فليس هناك أمة أو حضارة تملك السيطرة أو الغلبة الدائمتين . ولقد ضعفت الحضارة الاسلامية لأنها تخلفت عن مقوماتها . ولكنها لم تمت لأن وجودها مرتبط بفكر أصيل محكم، مرتبط بالفطرة والحق، ما يزال حياً متفاعلاً في الوجود البشري ، فضلاً عن أن كثيراً من قيمها ما زالت تنمو في داخل الحضارة الغربية .

والصدارة والتخلف في الحضارات له قانونه في الاسلام ( إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُغَيِّرُ ما بِقَوْمٍ حَتَّىٰ يُغَيِّرُوا ما بِأَنفُسِهِمْ ) .

## - ٧ -

إن أبرز ما يمثل الحضارة الاسلامية وهو ما عجز المنهج العلمي الغربي الوافد عن استيعابه . هو : « ذاتية الحضارة الاسلامية » . فقد [١] قامت الحضارات المختلفة ونشأت رويداً رويداً من تراث الماضي بمـــا حوى من ضروب الرأي وتيارات الفكر التي استغرقت في تبلورها الى شكلها الخاص و كيانها المحــــدد آماداً طويـــلة من الزمن ، بينما انفردت حضارة الاسلام وحدها بانبعاثها الى الحياة دون سابق عهد أو انتظار . وقد جمعت في فجر نشأتها كل المقومات الأساسية لحضارة مكتملة شاملة . فقامت في مجتمع واضح المعـــالم ، له نظرته الخاصة الى الحياة ، وله نطاقه التشريعي الكامل ، وله منهجه المحدد لعلاقـات الأفراد بعضهم ببعض داخل هذا المجتمع . ولم يكن قيامها ثمرة تقاليد زخر بها الماضي ، ولا وليد تيارات فكرية متوارثة . ولكن هذه الحضارة كانت وليدة حدث تاريخي فريد هو تنزيل القرآن الحكيم ، وكان مردها الى رجل فذ في التاريخ هو محمد رسول الله ﷺ . فلقد أدرك الذين آمنوا بالاسلام واتبعوا محمداً وصدقوا بالقرآن ، فاتخذوه قاعـدة حياتهم أن الدين الجديد الذي جاءهم بـه القرآن يتطلب منهم هجرة الى مـا جاءهم به عما توارثوه من عقائد في الحياة ، وما ألفوه من مناهج السير فيها ، فكان قبولهم لما جاء به بداية حدث جديد في حياة البشر وتاريخهم ، إذ أنهم أدركوا أن الاسلام ، وقد جاء نظاماً شاملاً للحياة

---

١ – من نص للعلامة محمد أسد .

قد افتتح حقاً حضارة جديدة ، وما كان دوره ليقتصر على التمهيد لغيره من الحضارات أو الارهاص بها. فتبينوا كما تبين من جاء بعدهم أن مبعث رسول الله كان إيذاناً ببدء عهد جديد، بكل ما ينطوي عليه هذا البدء من حقائق ومعانٍ .

ولن نفهم من هذا أن الاسلام قد قطع كل صلة بين حضارته وبين الماضي . فذلك فهم لا يقبله العقل ولا يستسيغه ، لأن كل كائن عضوي لا يمكن أن يوجد دون أسلاف وآباء . فلن ندهش إذن حين نرى أن ما جاء به رسول الله – على ما هو عليه من حدة في النظر الى الكون والحياة ، ومن استحداث نظام اجتماعي كامل – يتضمن كثيراً مما جاءت به الأديان ، ويتحدث عن كثير من الفضائل الخلقية التي كانت لدى من سلف قبله، ولم يتنكر لهذه الفضائل والحقائق أحد من أهل الاسلام ، بل لقد كان القرآن الكريم ذاته أصرح ما يكون اعترافاً بها وتسليماً[1] .

---

١ – لعله قد غاب عن العلامة محمد أسد أن كل الفضائل التي اعترف بها الاسلام كانت من تراث الحنيفية الابراهيمية السمحة .

## - ٨ -

ويعجز المنهج العلمي الغربي الوافد عن أن ينصف الحقيقة التاريخية الأساسية في عطاء الحضارة الاسلامية للحضارة البشرية وأثرها في الأمم ، ولا حتى مجرد الاعتراف بالأثر الذي تركه الاسلام حين هز الفكر الغربي اللاهوتي كله وحرره من عبادة الصور والطقوس وأعطاه التجربة . وكان اليونان يأخذون بالقياس . وكان الاسلام أول من علم العالم كيف تتفق حرية الفكر مع استقامة الدين ، وأدخل مفاهيم الفروسية والمروءة والنخوة ونصرة الضعيف ونجدة الملهوف . ولقد ظل المنهج العلمي الغربي الوافد يقف عند حدود الهوى الغربي الغالب إلا قلة قليلة ممن خرجوا على هذا المنهج . واعترفوا بأن مراكز الثقافة في الغرب مثلاً « كانت أبراجاً يسكنها أمراء إقطاعيون متوحشون يفخرون بأنهم لا يقرأون ، وأن أكثر رجال النصرانية معرفة هم الرهبان الذين كانوا يقضون أوقاتهم في أديارهم ليكشفوا بخشوع كتب الأقدمين النفيسة . فيكون عندهم من الرقوق ما هو ضروري لنسخ كتب العبادة . وظلت همجية أوربا زمناً طويلاً ، ولم يبن فيها بعض الميل الى العلم إلا في القرن الحادي عشر وفي القرن الثاني عشر على الخصوص . فلما ظهر فيها أناس رأوا أن يرفعوا أكفان الجهل الثقيل عنهم ولّوا وجوههم شطر العرب الذين كانوا أئمة وحدهم[1] . وحين يعجز ( المنهج العلمي الغربي الوافد ) عن الاعتراف بالواقع التاريخي الذي تثبته الوثائق والأسانيد

---

١ - عن نص لجوستاف لوبون : حضارة العرب .

ويغضي عنه، وهو حق قائم، يحاول من ناحية أخرى أن يذهب الى التمويه البالغ في التعمية عن الفارق بين الفكرة والتطبيق ، ذلك أن من أخطر ما ذهب إليه المنهج العلمي الغربي الوافد هو محاولته الاستناد في محاكمة الاسلام الى موقف المسلمين والى المجتمع الاسلامي في انحرافه عن مفهوم الاسلام . ولا ريب أن المنهج العلمي الغربي الوافد لو أقام دعائمه على غير الهوى لاعترف بالفضل ولفرق تماماً بين « رأي الاسلام في شيء وموقف المسلمين منه » ولعزل تماماً قوانين الاسلام ومعطياته عن تطبيقات المسلمين .

## - ٩ -

وإذا كان المنهج العلمي الغربي الوافد يقف مثل هـذا الموقف من الجحود والتجاوز للحقيقة العلمية في شأن الحضارة الاسلامية ، فإنه يصل الى غاية الإفراط والهوى في شأن الحضارة الغربية، في محاولة للدعوة الى اصطناع أسلوب العيش وعقائد الفكر الغربي التي تقوم عليها الحضارة وهي : فصل الدين عن الدولة، ونسبية الأخلاق، وفصل العلم عن الضمير ، وتأكيد الجوانب المادية والحسية ، والاغضاء والسخرية من الجوانب الروحية والدينية . وحين يحاول المنهج العلمي الغربي الوافد وضع الحضارة المعاصرة أمام المسلمين على أنها السبيل الوحيد لتحررهم وتفوقهم لا يقدم لهم منها إلا الجوانب الاستهلاكية والمتصلة بالغرائز والأهواء ، ويحجب عنهم تماماً الجوانب العلمية والتكنولوجية التي — هي وحدها — حاجتهم من هذه الحضارة .

ويذهب المنهج العلمي الغربي الوافد في الدفاع عن الحضارة وهي في أزمتها الكبرى ودور احتضارها بعد أن احتواها الفكر التلمودي اليهودي، وصرعتها المادية ، وفقدت توازنها ، وأصبحت صورة قاسية من صور القلق والحيرة الذهنية والتمزق النفسي وفقدان الهدف حيث « تحول المجتمع الى قطيع يركض بلا هدف كما تركض القطعان » .

وحيث يقف المنهج العلمي الغربي الوافد إزاء الأزمة يعجز عن تفسيرها

تفسيراً صحيحاً ، شأنه في ذلك شأنه في تفسير التاريخ ( لاهوتياً ومادياً وجغرافياً وجنسياً ) كذلك موقفه من الحضارة . يقول السيد خوري : لقد حسب هيجل أن أزمة العالم سياسية فحاول حلها بالدعوة الى الدولة المثلى ، واعتقد ماركس أنها اقتصادية فحاول حلها بالدعوة الى تحقيق النظام الاشتراكي ، أما توينبي فالأزمة في نظره روحية .

ولا ريب أن الفكر الاسلامي ، وهو الذي يقوم على أساس المنهج العلمي الأصيل الجامع المتكامل ، ليقف في حذر إزاء كل هذه الدعوات التي تدعوه الى الانصهار في حضارة الغرب وفكره . وذلك لأن له موقفه الصريح الواضح من هذه الحضارة ، كما أن له موقفه الصريح الراضح من كل القيم .

# الباب الثالث

# أخطار اللغة والأدب في الفن

أولاً ـ مفاهيم اللغة

ثانياً ـ مفاهيم الأدب

ثالثاً ـ مفاهيم الفن

# الفصل الأول

## أخطاء اللغة

إن المنهج العلمي الغربي حين أقام علم اللغات افترض فيه قومية اللغة وتبعيتها للأمة ، كما خضع لمفهوم التطور المطلق الذي يخضع له الفكر الغربي كله الذي فرض عليه الاعتراف بتغيير أسلوب اللغة بين فترة وفترة ، بحيث تكون اللغة دائماً هي لغة العامة . ثم تدخل اللغة الفصحى القديمة فتقرأ آثارها بواسطة القاموس .

ومن هنا فإن اللغات الأوربية المتداولة اليوم لا يزيد عمرها عن ثلثمائة عام . وان الانتاج السابق لذلك أصبح غير ميسور تداوله أو دراسته إلا عن طريق الأكاديميات والمعاهد باعتباره تراثاً . ومن هنا جاء تفسير كلمة تراث بأنه الشيء الميت الدارس الذي يرى فيه الرأي من حيث صلاحية بعضه أو فساده .

وتلك الخاصية الأصيلة للغات التي قام عليها علم اللغات تتعارض مع طبيعة اللغة العربية وتاريخها وحركة نموها . ذلك أن اللغة العربية منذ ارتبطت بالقرآن الكريم كتاب الله الذي نزل بها للعالمين ، تغير موقفها تماماً من الخضوع للمقاييس العامة أي خضوعها للأمة أو خضوعها للتطور المطلق .

ومن هنا فقد نمت اللغة العربية دون أن تفقد نتاجها ، ولم تتحول عنه الى الدرجة التي يمكن أن يقال معها إن امرأ القيس لو عاد الى الوجود الآن لفهم العربية كما كان يفهمها قبل خمسة عشر قرناً . وإن أعظم آثار الأدب العربي وأبعدها في القِدم يمكن قراءتها دون قاموس مساعد ، بينما شكسبير وألفريد دي موسيه وغيرهما لا يقرآن إلا بعون من تفسير المصطلحات .

ومن هنا فإن المنهج العلمي الغربي الوافد حين طرح مفاهيمه في أفق الفكر الاسلامي والثقافة العربية وجد عسراً شديداً ، وعجزاً عن تفهم أبعاد اللغة العربية في التاريخ وفي المجتمع الاسلامي ، فإذا أضفنا الى ذلك أن اللغة العربية ليست لغة قومية بالمعنى الحرفي ، وأنها من حيث هي لغة أمة هي الأمة العربية ، هي في نفس الوقت « لغة فكر وثقافة ودين وعبادة » السبعمائة مليون من المسلمين ، أحسسنا بمدى أبعاد اللغة العربية من حيث إنتاجها واستعمالها ، فإذا عرفنا أن إنتاجها لا يخضع لمفهوم التراث على النحو الذي تعرفه اللغات الغربية من حيث انفصاله عن اللغة المستعملة في هذا العصر ، وجدنا تبايناً عاماً وفروقاً عديدة تجعل من اليسير تطبيق المنهج العلمي الغربي الوافد على اللغة العربية .

* * *

غير أن أصحاب المنهج العلمي الغربي الوافد من حيث انهم عجزوا عن استيعاب اللغة العربية ومعرفة وجوه تميزها عن اللغات ، فهم أيضاً لم يكونوا صادقي النية في التعرف . وإنما كانوا على هوى ومطمع وخصومة في محاولة هدمها وتحطيمها وإعلاء العامية عليها . فمنذ اليوم الأول لاتصالهم باللغة العربية كانوا على حرص شديد على العاميات ودراستها ، ومحاولة إيجاد جذور لها من الأمثلة

والأغاني حتى ليقولون ان العامية لغـــة لها تاريخ وتراث ، وانها سبقت العربية أو حاذتها . وقد اختلقوا لذلك تاريخاً وقصة لا تخضع للحقائق العلمية أو الوقائع التاريخية . ولكنها صدرت عن هوى شديد الكراهية للغة العربية : لغة القرآن . ومن ثم تشعبت أبحاث المنهج العلمي الغربي الوافد فتحدثت عن صعوبة اللغة ، وقصور اللغة عن ألفاظ الحضارة ، وبعد الفصحى عن التعبير عن المشاعر الشعبية. الى غير ذلك من شبهات واتهامات لا تخضع للبحث، ولا تثبت أمام الحق .

- ٢ -

حرص المنهج العلمي الغربي الوافد على إجراء المقارنة بين اللغة العربية واللغة اللاتينية . والمقارنة من الناحية العلمية غير صحيحة ، لأنها مقارنة بين لغة حية عاملة ما تزال تسيطر ولغة ميتة انتهى وجودها الفعلي منذ أربعمائة عـــام أو يزيد .

فاللغة اللاتينية لغة أمة وقد انتهت بانتهاء أمتها ، أما العربية فهي لغة أمة حية ، وهي الى ذلك لغة فكر لأمم وشعوب لا تنتهي. فهي لغة ثقافتهم ودينهم وصلاتهم .

أما اللغة اللاتينية فإنها لغة تاريخية تدرس اليوم من أجل إحيـــاء نصوص الأدب اللاتيني القـــديم . يقول الأب صالحاني في معارضة مفاهيم المنهج العلمي الغربي الوافد في المقارنة بين العربية واللاتينية : إن دعوى اتخاذ اللغـــة العربية العامية واسطة للانشاء. وذلك بتحويل العناية إليها، والعمل على إحيائها ونهضتها، هي دعوى مستغربة لم تكن منتظرة من ناطق بالضـــاد ، ومن براهينه الواهية ذكره اللغات الأوربية المشتقة من اللاتينية ومن غيرها . فأراد أن يقارن العربية بها وشتان بين خمر وخل ، فإن اللاتينية ماتت كلغة للشعب بموت الدولة الرومانية وبقيت كلغة للكنيسة والعلماء . أما الشعب فكانت اللغات على لسانه تتكيف بتكيفات مختلفة حسب الأمكنة والأزمنة والعناصر ، ولم تكن

اللاتينية لغته الأصلية ، وإنما كانت أخرى : كالسلتية والسكسونية والجرمانية الهندية اقترنت بلغة اليونان . فلم تثبت تلك اللهجات إلاّ بتمادي الزمان وبتنوع الكتبة وفتح المدارس ، وتأليف الكتب ، وساعد الشعوب في ذلك انفرادهم في أصقاع متنائية ، ودول مستقلة . وعلى كل حال فليس من شبه بين اللغات المشتقة من اللاتينية التي كما قلنا كانت لغة ميتة . وبين اللغة العربية الفصيحة التي هي لغة حية منذ أربعة عشر قرناً لم تحط اللهجات العامية الكثيرة من قدرها مع شيوعها . ولو أمكنها أن تعزلها عن مرتبتها لفعلت ، ولكانت اللغات العامية سائدة بين الشعب لا تزاحمها المدارس والمطابع والأدباء بتآليفهم ومنشوراتهم العلمية المكتوبة باللغة الفصيحة . اهـ .

## - ٣ -

حاول المنهج العلمي الغربي الوافد ثلاث محاولات في سبيل مواجهة اللغة العربية والإدالة منها :

أولاً – إعلاء شأن الترجمة من اللغات الأجنبية ، وتدريس اللغتين اليونانية واللاتينية .

ثانياً – إعلاء شأن العاميات .

ثالثاً – دراسة اللهجات بأسلوب لغات أخرى . وليس من عيب في دراسة هذا كله في إطار الفهم الصحيح للغة العربية ، والتقدير الكامل لمكانتها العالمية ، ودورها البشري والانساني في الفكر والمجتمع ، أما اذا انفصلت الدراسات عن هذا الفهم فإنها تكون بمثابة حرب للغة العربية وانتزاع لجذورها وانتقاص لمكانتها ، ذلك لأن الترجمة من اللغات الغربية إنما تستهدف طرح فكر وأسلوب في فكر ، في ذات الوقت يكون بعيد التأثير في العقلية العربية والنفس المسلمة .

وموقفنا من أدب اللغات يتركز في أمرين: أمر إيجابي، نستطيع أن ننتفع به، وهذا يجب أن نصهره في دائرة فكرنا وأن نسيغه في محيط لغتنا، لا أن يظل قائماً بنفسه يمثل وجهة نظر مختلفة أو معارضة . وأمر يتصل بنا من حيث الدراسة أو البحث ، وهذا يحتاج الى أن نرد عليه ، وأن نكشف أخطاءه ونفند شبهاته .

أمـــا العاميات فهي أسلوب آخر من أساليب القضاء على اللغة العربية الفصحى ، وتوسيـع نطاق العامية في اللسان بدلاً من ترقية هذا اللسان ليعمل مع الفصحى .

أما دراسة اللهجات فهي ليست في الحقيقة إلا محاولة لتقنين هذه العاميات وتصويرها بصورة العلم أو بصورة اللغة التي لهـــا خصائص تدرس وتستقصى . فضلاً عن أن المنهج الذي يستعمل في دراسة اللهجات ليس منهجاً عربياً . وإنما يفكر هؤلاء الباحثون للعربية بمفهوم اللغة الانجليزية . ويراد إلبـــاس العربية أثواباً لم تقدر على مقياسها ولم تطابق مفاهيمها وأصولها[1] .

---

١ - من نص للدكتور محمد محمد حسين .

- ٤ -

عجز المنهج العلمي الغربي الوافد تحت تأثير تشكيله وتكوينه. ومطامحه أن يفهم كثيراً من الحقائق عن اللغة العربية ، ومن أهم هذه الحقائق أنه ليس هناك لغتان : فصحى وعامية وإنما هناك لغة واحدة هي اللغة العربية ، ولهجة هي العامية . وان الفصحى هي اللغة المشتركة بين العرب جميعاً ، وانها هي القوة القادرة على المحافظة على بقاء المستوى البياني بين القرآن وبين اللغة العربية ، وان أخطر الأخطار أن يمس هذا المستوى أو تجري محاولة الانتقاص منه . والمعروف أن العامية مرحلية . وأن الفصحى هي الامتداد الطبيعي للفكر الاسلامي والثقافة العربية . وأن الروائع لا تكتب إلا بالفصحى ، وأن العامية إقليمية دائماً . بل أكثر من إقليمية ، بحيث يكون لكل بلد لهجته ، فنرى في مصر عدداً من اللهجات وكذلك في سوريا ولبنان والعراق والمغرب .

ولقد يركز المنهج العلمي الغربي الوافد على اللهجات العامية ويدرسها بعناية محاولاً أن ينفخ فيها لتكون لغة إقليمية فيتحقق بذلك اندحار اللغة العربية . ولكن المحاولة مضللة وغير علمية ، ولقد سجلت الأخبار كثيراً من بعثات أجنبية الى مختلف الأقطار لدراسة لهجاتها . وكيف أن عدداً من المستشرقين قد انبثوا هنا وهناك من أجل هذا الغرض .

فالدكتور سرجنت «يتحمل رياح السموم اللافحة ويكافح المتاعب في الصحارى

والقفار من أجـــل جمع القصائد الشعبية والأمثال العامية في حضرموت . والدكتور مانسنج أقام في مصر عشرين عـاماً ليجمع الأمثال العامية المصرية ، ويتجه الى البوادي في بلاد العرب لتسجيل الأغاني والأزجال والمواويل . هذا في حاضرنا هذا[1] . أما في الماضي فقد عمل في هذا المجـــال ( سبيتا وفولرس وديلكوكس ووليمور ) وكانوا يكتبون هذه الأمثال على أطراف قمصانهم حتى لا ينتبه إليهم الناس فيمتنعوا عن محادثتهم ، وقد عمدوا الى جمـع هذه الآثار في محاولة للتركيز على شبهة مضللة بأن هناك لغة عامية غير اللغة العربية وأنهـــا سابقة لها .

لقد عجزت كل هذه المحاولات أن تجعل من اللهجة العـــامية أو اللهجات العامية في البلاد العربية شيئاً . بل إن هذه الآثار التي جمعوها قـد كشفت عن عجز العامية عن معالجة الموضوعات الرفيعة[2] . ولقد كشف كثير من الباحثين عن خطـــإ الاحتمال الذي يستهدفه المنهج العلمي الغربي الوافد من التركيز على اللهجات العامية بحيث يطابق بين العربية واللاتينية .

قال الدكتور علي عبد الواحد وافي : ليس من الممكن أن تصل اللهجات العامية في المستقبل الى ما وصلت إليه اللهجات المتشعبة من اللاتينية فتصبح كل لهجة منها لغة مستقلة مكتملة التكوين صالحة للاستخدام في مختلف شؤون التعبير والكتابة . ذلك لأن اللهجات المتشعبة من اللاتينية قد سارت في طريق النموّ والرقيّ لما كانت تمتصه من أمها اللاتينية من حين لآخر ، فضلاً عن الجهود التي بذلت لتوسيع نطاقها وتكملة بعضها وتهذيبها من نواحي المفردات والقواعد والأساليب ، وتدوين آثارها ، واستخدامها في الترجمة والتأليف ، على حين أن

---

١ – مجلة قافلة الزيت – رجب ١٣٧٨ ﻫ .

٢ – دكتورة نفوسة : كتابها تاريخ الدعوة الى العامية .

لهجاتنا العامية قد جمدت على أوضاعها الساذجة . ولم يبد على أيّ لهجة منها جنوح الى مفارقة هذه الأوضاع . وقد وجد العالم العربي ما يبغيه في اللغة العربية الفصحى[1] .

ولقد أشار أكثر من باحث الى أن العامية لا تصلح أداة لأكثر من التخاطب في الشؤون العادية . فهل يجوز اتخاذها أداة للكتابة وما يطلب منها من أغراض البيان . وهي فضلاً عن قصورها تختلف باختلاف الأقطار في الأقاليم المتقاربة . فلهذا لا تصلح أن تكون لغة عامة[2] .

---

١ – الرسالة : ابريل ١٩٦٥ .

٢ – من نص : لإبراهيم عبد القادر المازني .

- ٥ -

إن المنهج العلمي الغربي الوافد يتجاوز عن حقائق كثيرة ويحجبها بحيث يعجز عن معرفة خصائصها وابعاد تاريخها . ومن ثم فإن أحكامه تكون قاصرة عن الوصول الى الحقيقة . ومن هذه الحقـائق التي يتجاهلها المنهج العلمي الغربي الوافد . أن اللغة العربية من أضخم اللغات ثروة وأصواتاً ومقاطع وحروفاً وتعبيرات ، حتى أنها تفوق اللغة الانجليزية في عدد الأصوات إذ بها ( ٢٨ حرفاً ) غير مكررة في حين أن في اللغة الانجليزية ( ٢٦ حرفاً ) منها مكرر .

ومن خصائصها أن جميـع مشتقاتها تقبل التصريف إلا ما ندر ، وهي من الغنى بحيث تتألف من ثمانين ألف مـــادة المستعمل منها عشرة آلاف فقط ، والمهجور منها سبعون ألفاً ، وتمتاز بضروب من النمو : منها الاشتقاق والمجاز والاستعارة والكناية . وللفعل العربي صيغ تبلـــغ الإثني عشر صيغة كل منها تختص بمعنى مختلف . وهو في نفس الوقت متصل بمعنى الفعل الأصلي .

والعربية تكتب كما تقرأ ، وفي لغات أوربا تختلف لغـــة الكلام عن لغة الكتابة ، وهي لم تتراجع في أرض دخلتها ، وقد تغلبت على كل اللغات التي سبقتها . وفي نفس الوقت أثرت في كل قواميس اللغات الغربية والشرقية بحيث لم تبق لغة أوربية واحدة لم يصلها شيء من اللسان العربي المتين ، حتى اللغة اللاتينية الأم الكبرى فقد صارت وعاءً لنقل المفردات العربية . وقد امتازت

اللغة العربية بمزية خالدة ضمنت لها البقاء ألا وهي نزول القرآن الكريم بها . ولقد ماتت أمم كثيرة وماتت لغاتها كاللاتينية والسريانية والآشورية ، أما اللغة العربية ، لغة الأمة العربية من أواسط آسيا الى جبال البرانس فإنها ثبتت للزمن، ولم تثبت لغة أخرى في وجه لغة القرآن الكريم .

ولقد امتازت اللغة العربية بأنها لغة اشتقاق تقوم على أبواب الفعل الثلاثي التي لا وجود لها في جميع اللغات الهندية والجرمانية . وليس لتعدد الكلمات في الاسم الواحد ما يعني الترادف ، بل إن لكل لفظ دلالته . وتختلف الدلالات باختلاف الألفاظ .

ولولا الاسلام لظلت اللغة العربية محصورة في الجزيرة العربية . ولقد كان للقرآن أكبر الأثر في المحافظة على وحدتها . وقد رفع من قدرها حتى صارت إحدى اللغات الرئيسية في العالم .

- ٦ -

ومن أخطاء المنهج العلمي الغربي الوافـــد دعوته الى كتابة « العربية » بالحروف اللاتينية وهي دعوة ألـحّ عليها الغربيون إلحاحاً شديداً وأغروا بها إغراءً شديداً ودفعوا أسمـــاء لامعة كبيرة الى احتضانها ، وما حسبوا أنها دعوة معارضة لطبيعة الأشياء . وأن الذوق العربي الاسلامي – الذي بنـــاه القرآن باللغة العربية – معارض لذلك ومخالف له . إن الحروف العربية ضرورة لازمة لا يمكن العدول عنها ، فكما أن الحروف السامية وضعت موافقة لطبيعة هذه اللغات . فكذلك الخط العربي وضع موافقاً لطبيعة العربية ، فالحروف لها أهمية كبيرة في اللغة العربية . لأن الألفاظ فيها ثلاثة : المادة في الغالب أعني ذات ثلاثة حروف بدون اختيار الحركات والمعنى ، والأساس محصور في تلك الحروف الثلاثة ، أما في اللغات الأجنبية فتشتمل المادة على حروف وحركات بدون اعتبار عدد الحروف . فلفظ كتب مثـــلا يكتب بالخط العربي ثلاثة حروف بثلاثة حركات . ولكنه بالخط اللاتيني لا بـــد أن يكتب بشبه حروف . والحروف اللاتينية مبنية على أساس أن صوت الحروف واحد غير متبدل ، أما في العربية فهنـــاك أصوات لكل حرف ، ولا سيا فيما يختص بالحركات . فمادة الفعل الثلاثي تظهر جيداً بالحروف العربية ، لأن الحركات لا تقرأ بالكتابة ومع تغيير الأصوات واللهجات العربية على حسب الأشخاص أو على حسب الأفكار ، ثم إنه ليس هناك معادلة بين الحروف العربية واللاتينية

مع الحروف مثلاً في الألمانية . والروسية قريبـــة الشبه باللاتينية . أما في العربية فوجه الشبه بعيد جداً ، وإذا تغير الخط العربي بالخط اللاتيني أصبحت النتيجة خطيرة للغاية فكيف يكون مصير الكنوز القيمة التي خلفتها الآداب الاسلامية في الدين والفقه والفلسفة والعلوم والآداب والفنون وغيرها ، وكلها مدونة بالخط العربي[١] .

---

١ – من الأبحاث المقارنة للحروف العربية واللاتينية .

# - ٧ -

هناك دعوات أخرى يرددها اتباع المنهج العلمي الغربي الوافد تحمل أسماء : « تطوير اللغة ، تطوير النحو » ، وهناك من يفسر هذا فيقول إنـــه تطوير الفصحى حتى تقترب من العامية لا العكس الذي هو من الأمور الطبيعية . وهذه دعوة مريبة يختلف أهلها في تسميتها . ولكنهم لا يختلفون في حقيقتها فهم يسمونها تارة تهذيباً . وتارة اصلاحاً وتارة تجديداً ، ولكنهم في كل الأحوال وعلى اختلاف الأسماء يعنون شيئاً واحداً هو التحلل من القوانين والأصول التي صانت اللغة خلال خمسة عشر قرناً أو يزيد . فكأنما القرآن قد أنزل فينا اليوم ، وكأن شعراء العربية وفقهاءها وفلاسفتها وكتّابهـــا وأطباءها ورياضييها وطبيعييها وكيمائييها على اختلاف أزمانهم قد كتبوا ما كتبوا وألفوا ما ألفوا في الأمس القريب ، وكأنما المتنبي أو البُحْتُرِي يخاطب جيلنا ، لا تميز بينه وبين شاعر معاصر كالبارودي أو شوقي أو حافظ . وهذه ميزة مَنّ الله بها علينا ولم تحظ بمثلها أمة من الأمم . فإذا تحللنا من القوانين والأصول التي صانت لغتنا خلال هذه القرون المتطاولة تبلبلت الألسن ، وأضاف كل يوم جديد يطلع على الناس مسافة جديدة توسع الخلف بين المختلفين حتى يصبح بين الشامي والمغربي مثل ما بين الإيطالي والإسباني ، وتصبح عربية الغد شيئاً يختلف كل الاختلاف عن عربية القرن الأول بل عربية اليوم والأمس القريب ، وتصبح قراءة القرآن والتراث العربي والاسلامي كله متعذرة على غير المتخصصين من دارسي الآثار

ومفسري الطلاسم . عند ذلك يصبح كل جهد سياسي أو حزبي أو أدبي مما يبذل اليوم من جمع شمل العرب عبثاً لا طائل تحته [١] .

ولا ريب أن الدعوة الى إبطال النحو وقواعد الإعراب أو الى تطوير النحو هي مثل دعوة تطوير اللغة شبهة وسوء فهم لخصائص العربية .

---

١ - دكتور محمد محمد حسين : مجلة الأزهر ١٩٥٦ م .

## - ٨ -

ومن أخطاء المنهج العلمي الغربي الوافد محاولته إيقاف نمو اللغة العربية والتمكين للغات الأجنبية . فقد واجهت اللغة العربية منذ اتسع النفوذ الأجنبي للعالم الاسلامي مقاومة بعيدة الأثر من اللغتين : الفرنسية والانجليزية في أنحاء العالم الاسلامي، والهولندية في أندونيسيا. فقد قطع الاستعمار الغربي الطريق على توسع العربية بين مسلمي العالم حيث كان من الطبيعي أن تمتد بامتداد الاسلام الى مختلف المناطق بحسبانها لغة الثقافة والدين . وقد استطاع النفوذ السياسي الاستعماري إيصال كثير من اللغات الى الحروف اللاتينية ، وفي مقدمتها اللغة الأندونيسية واللغة التركية ، وتوسيع نطاق لغته وجعلها اللغة الرئيسية كما فعل في الهند والباكستان وفي قلب أفريقيا. وكذلك تجميد اللغات الاسلامية القادرة على النمو كالأردية في الهند مع الحملة عليها . وتحريض الهنود على اتخاد لغة أخرى . كما عمد الى استخدام الدعوة الى العامية . وذلك بالإضافة الى المحاولات من أجل القضاء على الفصحى وبعث الحروف اللاتينية .

ولا ريب أن الأمة العربية أمة بلاغة وبيان ، وأن اللغة في حقيقتها هي الفكر ومخزن التقاليد والتاريخ والدين ، وانها جهاز الاجتماع في الانسان ، ومن هنا فقد كانت اللغة والأمة أمرين متلازمين ومتبادلين . وإذا كانت اللغة هي التي ترافق الفرد وتجدده وتحركه حتى أعمق أغوار تفكيره ومشيئته — كما يقول فخته — فإلى أي مدى تكون محاولة المنهج العلمي الغربي الوافد في القضاء على

هـــذه الرابطة . وتجري بعض المحاولات لتجريد مفهوم اللغة من مضمونه الحقيقي ، حين يتخذ بعض دعاة القومية اللغة العربية مقوماً لها ، وقـد غفلوا عن أنه ليس كل من يتكلم بالعربية هو عربي بـــل إن العربي هو من يفكر بالعربية. وهنا خطر سيطرة اللغات الأجنبية على العقل العربي، حين يكون المثقف العربي على درجة قليلة من ثقافته العربية قبل اتصاله باللغات الأجنبية، فإن المزاج النفسي حين تشكله اللغة الأجنبية تجعل من صاحبه موالياً لغير الفكر الاسلامي العربي .

## - ٩ -

إن أخطر ما يعجز ( المنهج العلمي الغربي الوافد ) عن استيعابه في مفهوم اللغة العربية هو الصلة بين اللغة والشريعة الاسلامية ، بل ربما كان هذا الجانب هو الهدف الحقيقي وراء دعوة تطوير اللغة والنحو ، فإذا تحـــولت اللغة عن أصولها القديمة ضاعت شريعتها واضطربت .

يقول الدكتور عـــلي العناني : « الدين الاسلامي هو عقيدة وشريعة قد استنبطت أحكامه في العبادة والمعاملات من الكتاب والسنة ، وعمل الرسول ، والقياس والاجتهاد ، وكل هذه الأركان والينابيع لا يمكن أن يستنبط منها حكم إلا بواسطة مبادىء خاصة وقوانين معروفة بعلم الأصول . وأساس هذه المبادىء والقوانين الراسخ ، أو دعائم علم الأصول إنما هي فهم لغة العرب : لغة القرآن والرسول بما وضع لها من القواعد الصرفية والنحوية وضوابط علوم البلاغة . وإذا اضطربت هذه الضوابط وتلك القواعد بالإزالة والوضع انهدم أساس علم الأصول ، وتداعت دعائمه . وإذا انهدم الأساس وتداعت الدعائم انهدم أيضاً ما يرتكز عليها . وهذا هو العلم .

وإذا وصل هذا العلم الأساسي في استنباط أحكام العقيدة ومسائل الشريعة الى التداعي تداعت معه أيضاً طريقة الاستنباط وفهم ما استنبط ودوّن بالفعل وضاعت العقيدة واحتجبت الشريعة وعدنا الى الجاهلية الأولى .

- ١٠ -

آثار المنهج العلمي الغربي الوافد شبهة تأثر البلاغة العربية بالبلاغة الفارسية واليونانية، وذهب دعاة هذا المنهج الى أن قواعد البلاغة العربية إنما أسست على ما وضع أرسطو ونقله العرب عن اليونانية . ولا ريب أن مناهج البلاغة العربية مختلف أشد الاختلاف عن مناهج البلاغة اليونانية حتى في أسسه الأولية ، وأن هناك فوارق واضحة في الصياغة وفي أولوية الموضوعات وفي طريقة تصوير الموضوعات كلها تتفق مع الطبيعة والمزاج والآثار العقائدية والأخلاقية ووجهة النفس البشرية .

ولقد جرت محاولات قدامة بن جعفر وغيره في أوضاع البلاغة العربية للأصول اليونانية ، غير أن هذا الاتجاه لم يجد قبولاً . بل وجد معارضة ورفضاً كاملاً . ولقد أشار أعلام البيان العربي الى هذا المعنى ، ومن بينهم ابن الأثير في كتابه المثل السائر ودحض ذلك الأثر حين قال : فإن قلت إن هؤلاء وقفوا على ما ذكره علماء اليونان وتعلموا منه ، قلت لك في الجواب : إن هذا شيء لم يكن ، ( الى أن قال ) : وهذا باطل لي أنا فإني لم أعلم شيئاً مما ذكره حكماء اليونان ولا عرفته . ومع هذا فانظر الى كلامي ، ( إلى أن قال ) : ولقد فاوضني

بعض المتفلسفين في هذا ، وانساق الكلام الى شيء ذكره لأبي عليّ بن سينا في الخطابة والشعر . وذكر ضرباً من ضروب الشعر اليوناني يسمى ( اللاغوذيا ) وقام فأحضر كتاب الشفاء لأبي علي فوقفني على مـــا أذكره فلما وقفت عليه استجهلته فإنه طوّل فيه وعرّض كأنه يخطب بعض اليونان وكل الذي ذكره لغوٌ لا يستفاد منه .

# الفصل الثاني

## أخطاء الأدب

### ( أولاً ) ــ النقـــد

قدم المنهج العلمي الغربي الوافد للأدب العربي نظرية في النقد أطلق عليها اسم المنهج الحديث . وتقوم هذه النظرية على أساس النظر للإنسان من حيث هو كائن ماديّ صرف ، ومن ثم فإن معطياته الفكرية والروحية والنفسية تخضع للنظرية المادية . وقد اعتمد دعاة المنهج الوافـــد على ثلاثة من نقاد الأدب الفرنسي هم :

( سانت بوف ــ ١٨٦٩ ) ، ( تين ــ ١٨٩٣ ) ، ( برونتير ــ ١٩٠٦ ) .

والمعروف أن الحياة الفكرية الغربية قد دخلت في منتصف القرن التاسع عشر نطاق الفلسفة المادية بعد أن طرحت نظرية دارون مفهومها عن الانسان وعن تطور الحياة ، وان هذا التأثر قد زاد واتسع مـــع اتساع العلوم النفسية والاجتماعية التي تحركت جميعها في هذه الدائرة ، كما تأثر بمفهوم المنهج التجريبي الذي قام أساساً في نطاق العلوم والمعامل ، والذي حاول بعض الدعاة تطبيقه على الانسان فضلاً عن المحاولات التي أجريت لإخراج نظرية التطور من نطاق العلوم ومحاولة تطبيقها على المجتمعات والانسان .

ومن هذا جرى تقدير العمل الانساني كله بوصفه أدباً على أنه نتاج ماديّ صرف . وكان هذا جائزاً في منهج النقد الأدبي في أوربا . ولكن لم يكن مقبولاً لاستعارته أو تطبيقه على الأدب العربي الذي كان في أصول فكره وثقافته مؤمناً بأن النفس الانسانية قبس من نور الله .

أما ما يؤمن به ( تين ، وسانت بيف ، وبرونتير ) ويقيمون عليه مذهبهم فهو المنهج التاريخي الذي يرى أن الانسان بمواهبه ومعنوياته إن هو إلا أثر من آثار البيئة بمعناها الاجتماعي الواسع لا يكاد يفترق عن الحيوان والنبات مع انتفاء الحول وانعدام الإرادة[١] .

يقول ادمون ولسن : « في أواسط القرن ١٩ أحرز العلم تقدماً جديداً ، وقفزت الأفكار الآرية أو الميكانيكية الى الوجود مرة أخرى ، ولكنها جاءت هذه المرة من مكان آخر ، فلم تجيء من الطبيعيات أو الرياضيات . وإنما جاءت من علم الأحياء ، فقد كان أثر نظرية النشوء والارتقاء هو الدافع الى النزول بالانسان عن تلك المكانة البطولية التي حاول الرومانتيكيون أن يضفوها عليه الى تشبيهه بالحيوان الذي لا حول له ولا قوة ، ونظروا إليه مرة أخرى على أنه شيء تافه جدّاً في الكون ، وأنه تحت رحمة القوى المحيطة به . ومن ثم كانت الانسانية نتاجاً عارضاً للوراثة والبيئة ، وكان من الممكن شرحها بمصطلحات هذه الأشياء . وقد طبقه القصصيون أمثال زولا ، وطبقه المؤرخون والنقاد الآخرون من أمثال ( تين ) الذي أثبت أن الفضيلة والرذيلة ليستا الى حد كبير إلا نتاجاً لعملية تلقائية مثل الأحماض والقلويات ، والذي حاول أن يستظهر أسباب الروائع بدراسة الأحوال الجغرافية والمناخية للبلد الذي نتجت فيه . يقول تين : إن الرذيلة والفضيلة منتوجات مثل الزواج والسكر ، فكل حقيقة معقدة تخرج من الحقائق البسيطة التي تلحق بها وتعتمد عليها[٢] .

---

١ – دكتور حلمي رزق .

٢ – ستانلي هايمان : النقد الأدبي ومدارسه الحديثة ، ترجمة إحسان عباس .

هذا هو مفهوم المنهج العلمي الغربي الوافد في النقد الأدبي يقوم على أساس جبرية لا يقرها مفهوم الفكر الاسلامي ، وعلى أساس حتمية لا تعرفها الثقافة العربية أصلاً ، ذلك أن مفهوم الانسان الذي قام عليه الأدب العربي والفكر الاسلامي كله إنما يقوم على حرية الارادة التي هي مصدر المسؤولية الفردية، حيث لا تحول بين إرادة الانسان وبين العمل إلا القوى الذاتية المنبعثة من نفسه كالتقوى ودوافع الحل والتحريم . ولا يقر الفكر الاسلامي بحـال أي منهج يفرض حرية أو حتمية تجعل الفرد عبارة عن نتاج مادي لا إرادة له ولا بصيرة ولا مسؤولية .

ويشير الدكتور هيكل في بحثه عن ( تـين ) بأن مذهبه هو تطبيق الطريقة الواقعية أو الوضعية التي قررها ( أوجست كونت ) على الأحياء بنفس الدقة التي تطبق بها على غير الأحياء أي بتطبيقها على الانسان وعلى النفس والروح بنفس الدقة التي تطبق بها على الأحياء الأخرى غير الانسان وعلى غير الأحياء .

فكما أن طريقة البحث العلمي في شأن غير الأحياء هي الملاحظة والتجربة واستنباط القوانين على قواعد هذه الملاحظة والتجربة فيجب اتبـاع هذه الطريقة بعينها في شأن الحيوان والانسان على السواء . وهو بالنسبة للإنسان ، « لا يرى فيه عالماً مستقلاً وسط هذا العالم الذي يعيش فيه . وإنما هو جزء من هذا العالم خاضع لقوانينه وأحكامه متأثر به مؤثر فيه ، تجري عليه السنن التي تجري على غيره من الخلائق [1] » .

ويرى هيكل أن هذه الطريقة التي اعتمدها ( تـين ) هي التي جنت عليه في كثير من الأحيان فقد كانت « عماداً للمذهب المادي ، فهي لا تقر للروح ولا للنفس ولا لأمثال هذه الألفاظ بمدلولات مستقلة قائمة بذاتها بعيدة عن مادة الجسم ، بل هي ترى كل ما في الجسم بعض مادته . كما أن كل ما في أي موجود من الموجودات بعض مادة هذا الموجود ؛ الانسان وغير الانسان على السواء » .

---

١ - تراجم مصرية وغربية . لهيكل .

وهكذا يرد الباحثون هذا المنهج العلمي الغربي الوافد في النقد الى المذهب المادي الذي بدأه ( دارون ) ، واتسع نطاقه على أيدي سبنسر وأوجست كونت . ثم شمل ميدان الأدب والنقد بتطبيق قواعد مادية لا هوادة فيها على الانسان على نحو ما يطبق على الحيوان والجماد . ومن الحق أن الأدب العربي يرفض هذا المنهج . وقد رفضه منذ اليوم الأول ، لولا أنه اعتصم بكليات الآداب التي كانت تدار من داخل إطار التغريب ، الذي استشرى في معاهد الارساليات وجامعاتها .

والمعروف أن هذا المذهب قد تضاعفت آثاره حين أضاف إليه نظرية التحليل النفسي لفرويد الذي قرر أن تصرفات الانسان كلها هي نتاج جنسي ينبعث من حنايا الغرائز . ولم يلبث مذهب فرويد أن سيطر بهذا المفهوم على الأدب الأوربي الحديث كله في مجال القصة والسيرة والتاريخ والأدب والشعر والمقال . لقد ألقى فرويد نظرية أقامها على بعض الفروض، واعترض زملاء فرويد ( أدلر ويونج ) على وجهة نظره في الجنس ، وحاولوا اتخاذ تفسيرات أخرى ، وبالرغم من أن فروضهم كانت أقل مبالغة وأقرب الى الصواب . فإن وجهة نظر فرويد – وحدها – هي التي حملتها الرياح الى كل مكان ، وفتحت لها كل أفق ، ومكنتها من السيطرة على آفاق الأدب والفن قوى كانت من ورائها لها هدفها وغايتها .

لقد انطلق الأدب الأوربي من نطاق النظرية المسيحية الأخلاقية الى طريق محفوف بالكشف والإباحة والأخطار ، بالدعوة الى الجنس وتصويره وإبلاغه أقصى حدود الجرأة والعنف .

لقد كانت أوربا بمفهوم المسيحية تقاوم الطبيعة بكراهية الجنس ، فجاء فرويد ليكسر أمامها هذا الحاجز ويدفعها الى أن يصبح الجنس هو العامل الأول والأخير في تفسير كل تصرفات الانسان معتمداً في ذلك على عدد من

الأساطير الإغريقية القديمة التي تحولت الى قواعد أساسية لعلم النفس الحديث ، ثم انطلق الأدباء من وراء ذلك ينقلون النظرية من مجال الدراسات العلمية الى مجال القصة والتصوير الفني فتدافع مورجان وهلسكي ولورنس وجونس .

وبدأت القصص تشق غمار الشهوات وتنطلق وراء صورة المجتمع الأوربي القائم على التنافس بين الزوجة والعشيقة وعلى الصراع بين الحب والجنس ، وعلى الصدام بين شباب المرأة وشيخوخة الزوج ، وعلاقة الأنثى الجميلة بالمريض الصدر ، أو المشلول العائد من الحرب . ولقد جرى القصاصون وراء خفايا المستشفيات والدور والأديرة واستخرجوا صوراً عاصفة فيهـــا صراع الحب وصراع المال .

وقد يقال كل هذا في تصوير المجتمع العربي ، لولا أنه ملأ علاقته بالمجتمع الاسلامي الذي لا ينوء بأزمة الخطيئة . والذي يحرره دينه من قيود الزواج الذي لا ينفصل ، والذي تقوم العلاقات فيه على أساس من الخلـــق والرحمة والكرامة ، وفي ظل مفاهيم الاسلام التي لا تجعل من العلاقة بين الرجل والمرأة كبتاً من أي نوع والتي تعترف بالرغبة البشرية ، ولكنها لا تعاديها ولا تسقطها ، والتي قد يؤجلها دون أن تفقد أصالتها من حيث هي طبيعة بشرية . كل هذا يحول بين الانسان في المجتمع الاسلامي وبين ذلك الغـــول الخطير الذي أطلقه فرويد في مجتمع أوربا باسم الكبت العاطفي وأثره في أحداث الجنون والانفصام .

ومن هنا فإن الأدب الذي يصدر عن النفس العربية الاسلامية التي تخلو من عقد الكبت ، ومن استنقاص الرغبات لا يطابق الأدب الأوربي ، بل يختلف عنه . ومن ثم فإن هذا الأدب لا يخضع للمذهب الغربي الوافد .

إن أعظم ركائز الأدب الغربي إنما تقوم على عقدة نظرية الخطيئة الأصلية التي تعتبر الانسان شريراً بطبعه . وترى أنه خاطىء بتكوينه الأبدي ، والتي

تحمل طابع التشاؤم والحقـــد للبشرية والتي تفصل بين الروح والجسد ، وتقيم بينهما الصراع الأبدي . ومن هنا فإن هذا الأدب يختلف عن الأدب العربي الذي يقوم على أساس الفطرة ، وعلى أساس الاعتراف بأن النفس الانسانية خيرة كريمة ، وأن خطيئة آدم التي قد غفرها الله له لا تنسحب على أحد بعده، (وَأَنْ لَيْسَ لِلإِنْسانِ إِلَّا مَا سَعَى) وأن الرغبة الحسية هي من الطبيعة البشرية التي يستجاب لها عن طريق اللقاء الطبيعي بين الرجل والمرأة في ظل الإطار الذي أقامته الشريعة ، وأن على من عجز أن يحقق كماله بالزواج أن يعلي رغباته حتى تتاح له الفرصة وتتم له الغاية . والنفس الانسانية المسلمة مشرقة بالإيمان ، مستظهرة دائمـــاً برحمة الله مليئة بالأمل فيه . ولذلك فهي لا تحس التشاؤم ولا التبرم بأي قضاء . وتترقب دائماً الخير واليسر ، وتتطلع الى عطاء جديد مهما أدلهمت حولها الأحداث أو اخترمتها الأزمات، فهي لا تعرف اليأس ولا الحقد ، ولا تحب الفاحشة ، ولا تعلي عبادة الجسد ولا عبادة البطل ، وإنما تؤمن بالله الواحد الأحد ، وتجعل من التقوى نبراساً لها ، ومن رحمة الله أملاً متجدداً .

والنفس العربية الاسلامية تعيش في أجواء الضوء ، فالشمس حين تطلع تغمر الكون فهي لا تحتاج أبـــداً الى الرموز أو المواربة أو الظلال ، ومن ثم فهي تختلف اختلافاً واضحاً في أدبها ونتاجها الفني ، ومن ثم فهي لا تجد في المنهج العلمي الوافد في النقد ما يرضي طبيعتها أو يتفق مع ذوقها أو مزاجها النفسي والاجتماعي .

ولا ريب أن الفكر الاسلامي الذي طبعها بطابعه لا يقر مقايسة الانسان على أنماط الحيوان أو الجماد ، ولا يرى الانسان إلا سيد هذا الكون تحت حكم الله فهو مستخلف في الأرض ، قد حمل أمانة الرسالة وبناء الحياة ، وامتحان الخير والشر ، وقد أعطي الارادة والعقل والقدرة على تصريف الأمور ليكون مسؤولاً مسؤولية كاملة يوم الحساب .

والانسان الذي يحمل المسؤولية الفردية والالتزام الأخلاقي ، والذي يؤمن بالله وبالبعث والجزاء لا يكون أبداً خاضعاً لمذاهب جبرية تفرض عليه أن يكون قشة تحركها القوى أو ترساً تديره الآلة ، بل هو الانسان المريد العاقل المتصرف المسؤول عن تصرفه ، والذي يتحرك داخل إرادة الله ولكن بإرادته التي تصرف أمور الحياة والتي هي موضع مسؤوليته وحسابه .

والمنهج العلمي الاسلامي يؤمن بأن للإنسان منهجاً خاصًّا يدرس من خلاله ، وتفسر أعماله في ضوء قوانينه ، وهو حتماً غير المنهج التجريبي الذي تحاكم إليه الطبيعة والمـــادة ، وغير المناهج التي تجرى فيها التجارب على الحيوانات والحشرات .

ولقد حمل الى الأدب العربي بعض أتباع المنهج الغربي الوافد هذه المذاهب ، فعجزوا عن أن يزيحوا مفهوماً أصيلاً بمفهوم زائف . ولقد كان هدفهم هو تدمير القيم الأساسية للأدب العربي وفصله عن الفكر الاسلامي ، وإبراز جوانب الكشف والجنس في إعادة صياغة فكر أبي نواس وبشار والأغاني والخيّام . ولكن التجربة باءت بالفشل .

## - ٢ -

طرح المنهج العلمي الغربي الوافد في مجال الأدب نظرية «لا أخلاقية الأدب» أو تحرير الأدب من قيد الأخلاق ، وذلك من خلال نظرية الفن للفن الغربية ، وجرت المحاولات المتصلة لفرض هذا الاتجـــاه جرياً وراء الموجة الغربية التي سادت أدب أوربا في العصر الحديث .

ومن الحق أن هذا الاتجاه الوافد بدأ غريباً في محيط الأدب العربي ، وأفق الفكر الاسلامي ، ذلك أن كلمة أدب عند العرب كانت ترتبط أساساً بأدب النفس كل الارتباط .

فالأديب[١] هو الذي يروي من الشعر والنثر ما يرتفع بالروح ويسمو بالخلق ، وقد بقي الشعر العربي قبـــل اختلاط العرب بالأعاجم صورة تنطق بالفضيلة والمروءة وكمال النفس ، وكان الشعر صورة النفس الماجدة ذات المروءة والخير . ويختلف هذا المفهوم اختلافاً واضحاً عن المفهوم الغربي لكلمة أدب . فإن كلمـــة ( Literature ) لا تعني أثراً من مفهوم المعلومات والعلم ، ولا تتصل بالأخلاق . وفي أقدم مفاهيم الأدب نجد الغربيين يفصلون بين الأدب والأخلاق ، ومذهب أرسطو الذي احتـــواه كتابه ( الشعر ) يشير الى ذلك بوضوح ،

---

١ - نازك الملائكة ، ( عن بحث لها ) .

حيث [1] يرى أرسطو أن جمال الأدب لا يستند الى الأخلاقية ، وإنما هو معنى منعزل لا شأن له بأي قيمة خارجية . ومن الشائع عند أرسطو أن يكون الأدب جميلاً كل الجمال حتى وهو غير أخلاقي . فلا دخل للمبادىء والمثل في الأدب .

« وقد سيطر هذا المذهب على الفكر الأوربي ، فبقي ينحدر من صفحة الى صفحة عبر تاريخ الأدب والنقد » وقد ظلت الآداب الغربية منفصلة عن الأخلاق حتى أعلن الفيلسوف المعاصر كروتشه قاعدة أساسية أصبحت قانوناً وصكاً هي قوله : [ لا شأن للأخلاق في الأدب ] .

وقد حاول المنهج العلمي الغربي الوافد أن يطرح هذا المفهوم في أفق الفكر الاسلامي والأدب العربي . وجرى بعض أتباع هذا المذهب وراء الدعوة له وإعلانه ، ومضى بعضهم يكتب آثاراً أدبية وفق هذا المفهوم ، ولكنها كانت نماذج غير صحيحة بالنسبة للبيئة العربية والمجتمع الاسلامي . وجاءت مناقضة لروح العرب والاسلام ، معارضة للمزاج النفسي والاجتماعي الذي عرفه المسلمون والعرب ، وبدت وكأنها شارة واضحة بالتبعية والخضوع ، وليس كذلك الانسان العربي ولا المرأة العربية . فإن النفس العربية تنأى عن الخضوع للجنس والإباحية على هذا النحو . ومن عجب أن تكشف هذه الآثار عن زيف يحاول أن يصور أثر الجنس في الحياة العربية الاسلامية وهو يحرفها عن طبيعتها أو ينحرف بها عن استوائها .

---

١ ـ نازك الملائكة ، ( عن بحث لها ) .

## - ٣ -

حاول المنهج العلمي الغربي الوافد أن يطرح في أفق الأدب العربي مفاهيم جديدة تختلف اختلافاً جذرياً عن القيم الأساسية التي قامت عليها النفس العربية الاسلامية . هذه المفاهيم تنطوي على شيء غير قليـــل من الشكوى والأنانية والانطواء على النفس والبكاء والضعف والتمزق والحرمان ، وكلها مفاهيم وافدة غير أصيلة في الذات العربية أو مفهوم الأدب العربي الأصيل . فلقد كانت النفس العربية تزهى دائماً بقوتها وإيمانها وصلابتها في مواجهة الأحـــداث ومقاومة الأزمات ، ولم تكن تعرف مطلقاً مثل هذا الاستسلام والخنوع والتحلل الذي هو من المفاهيم الوافدة . وهذا الطابع الفردي الحزين الممزق ليس من طبيعة الأدب العربي في أيّ طور من أطواره ولا من شأن النفس العربية ، وإنما جاء الى المسلمين والعرب من بعض المجتمعات والحضارات التي قامت على الإباحية والتحلل الخلقي ثم تسلل مع بعض المنحرفين ، وحاول أن يشكل تياراً في الأدب العربي لم يلبث أن طوته طبيعة الأمة نفسها ذات الأصالة والصلابة .

وفي الفكر الاسلامي يقوم مفهوم الترابط بين الفردية والجمـــاعية ترابطاً أصيلاً ، فالفرد للجماعة والجماعة للفرد والكل للإسلام . فالرجل إذا عرف الحب عرفه كريماً متعالياً عن الدنايا . فإذا خاب في تجربته ، كان موقفه موقف الرجل الكريم المتعالي عن الصغائر ، الحافظ للذمام ، الأنف عن موقف النقص والانهيار .

- ٤ -

إن المنهج العلمي الغربي الوافد قد أجرى محاولات كثـــيرة لصبغ الأدب العربي بصبغته ولونه ، وإخراجه عن مضامينه وفطرته . ومن ذلك ما حاول أن يطرحه من طوابع التشاؤم والإباحة والشك ، بينما يتميز الأدب العربي ( لاتصاله بالفكر الاسلامي الذي هـــو أساسه ومصدره ) باليقين والأخلاق والإيمان . اليقين في مواجهة الشك والأخلاق في مواجهة الإباحة والإيمان في مواجهة التشاؤم . ومن المستحيل أن يستطيع المنهج العلمي الغربي الوافد صرف الأدب العربي عن طبيعته هذه ، لأنها تقوم أساساً على المصادر النفسية والاجتماعية للفرد المسلم ، وحتى إذا انكسرت القـــيم وخضع الأدب العربي لظاهرة التشاؤم والإباحية والشك ، فإنها تظل غريبة عليه . ذلك أن مصدر التشاؤم هو عقيدة ليست موجودة في الاسلام والفكر الاسلامي : تلك هي عقيـــدة الخطيئة ، والاعتقاد الخفي المتصل في النفس الغربية ، المتوارث مع العصور والأزمان ، بوراثة البشر للخطيئة منذ أول الحياة . ومن هنا فإن الفكر الماركسي والوجودي والفرويدي كله محاصر بهذه الفكرة . ومن ثم فهو فكر تشاؤمي لأنه يستمد وجوده من المادية .

وإذا كان الفكر الاسلامي ( والأدب العربي وليده ) لا يؤمن بالجبرية الاجتماعية أو الحتمية التاريخية . فإنه لا يؤمن أيضاً بسيطرة فكرة الخطيئة التي هي مصدر التشاؤم الواضح في أفق الأدب الغربي بل والفكر الغربي كله .

ويتمثل أبرز مظاهر التشاؤم والإباحة في نظرية فرويد الذي أعلن أن النفس الانسانية مجموعة من الرذائل التي تتحكم في قواها وتسيطر على مشاعرها . وأن الانسان حيوان تحكمه الغريزة وتوجه مشاعره وسلوكه وتصرفاته . وبذلك ألقى على كل علاقة إنسانية نبيلة ظلاً قاتماً يشوهها حتى حب الأمومة . فقد تحول الأمر الى الاعتقاد بأن الانسان عبد نزواته وغرائزه الجنسية . ومن ثم أدخلته العلوم الاجتماعية والفلسفات الى حظيرة الحيوان .

والمعروف أن روح الأدب الجديد في أوربا ( هي النفي والتمرد على الماضي ووصف صفحاته بما يسمى إجرام الماضي وغلطاته وسخافاته وأكاذيبه ونفاقه ) وقد ردّ كثير من الباحثين ظاهرة التشاؤم ( الذي هو حقيقة اجتماعية في حياة الفرد أولاً ، ثم هو طابع الأدب نفسه والفكر الغربي كله ) الى عدم الاقتناع العقلي بوراثة البشر جميعاً لما يطلق على الخطيئة الأصلية . ويقول الباحثون إن الوجدان المتشائم في الغرب إنما ساد نتيجة هذه القضية ، وقد ظهرت آثاره القوية على الآداب والفنون والفلسفة والأخلاق . وفي مسار هذه الأيديولوجية السوداوية المتشائمة تنتشر على أوسع نطاق في عالم الغرب أفكار عن لا معقولية الحياة وعبث الوجود ، حتى أصبح المفكرون المتشائمون يشنون هجمات هستيرية على كل فكر معارض .

ويرى الباحثون أن الوجودية هي أعلى أطوار فلسفة التشاؤم ، ويرد البعض ذلك الى الآلة التي انقلبت على صانعها ، وأصبحت وحشاً مدمراً يحاول أن يقضي على قلبه وعقله ويحيله الى أداة طيعة له . ولطابع التشاؤم جذور قديمة وعميقة في الفكر الغربي فقد قاد هذا التيار شوبنهور وهارتمان ونيتشه . وفي الوقت الحاضر تصدر ألوف الأبحاث والكتب تتحدث عن التشاؤم وسباق العالم الانساني نحو الموت . ولا ريب أن موجة التشاؤم قد علت بعد الحرب العالمية الثانية ، وسيطرت فكرة تقول « إن العالم قد فقد بريقه وفقد حق الوجود » ويرى توينبي أن نهاية الطبقة الوسطى الغربية هي نهاية الحضارة كلها .

وأنه إذا تحطمت الطبقة الوسطى الغربية فإنه ينهار معها بنيان الانسانية . ويغفل الباحثون عن الوقود الذي يحرك هذه النار وهي المفاهيم التلمودية اليهودية التي تأخذ صوراً متعددة ومذاهب متعددة لتصطرع جميعاً في محيط المجتمع الغربي . وهي محاولة دفع عجلة التقدم المادي الى أقصى مدى مع إسقاط المفاهيم الأخلاقية والانسانية والروحية وتدميرها . وهدف هذا إسقاط الحضارة كلية ، وقد تنبه كثيرون الى هذا الخطر ولكنهم عاجزون تماماً عن مواجهته ، أو الحيلولة دون وقوعه . ويقول بارسبرز ( إن التقدم العلمي والتقني يعتبر صعوداً . أما بالنسبة للبشرية من حيث هي بشرية ، ومن حيث أخلاقيات الانسان ، ومن حيث عطفه وفطنته فإنه لا يتقدم ) . ويقولون : إن المجتمع ينزلق مع الزمن نحو الانقراض . ويقول بارسبرز إن الانسان يواجه أربعة مواقف أساسية في العالم لا يستطيع أن يغيرها أو يتجاوزها : ( الموت ، الألم ، الصراع ، الإثم ) . ويقول سمير كرم : لقد ساد الوجدان المتشائم أيدولوجية النظام الرأسمالي بكل أبعادها ومظاهرها في الآداب والفنون والفلسفة والأخلاق والسياسة . ويتحدث الكثيرون عن الفزع من الموت وكراهيته ومحاولات القضاء عليه . ويبدو هذا كله في نظر الفكر الاسلامي والأدب العربي شيئاً غريباً ومختلفاً وبعيداً جداً عن الوجدان العربي والمزاج النفسي الاسلامي . والفكر الاسلامي يجعل الانسان سيد الخليقة والمستخلف في الأرض عن تقدير وتكريم له ، إذا صلح على طريق الله ، ويعلو به عن كل نظرية تحاول أن تصوره محكوماً لنزواته أو غرائزه ، أو تدخله في حظيرة الحيوان ، وليس في الأدب العربي الأصيل صراع بين غرائز الانسان وعقله ، لأن المسلم يعتقد أساساً بحقيقة جوهرية هي اعتراف الاسلام برغباته وحرصه على ممارستها في إطار الخلق والضوابط . دون أن يحرمه منها أو يعتبرها خطيئة ، ومن ثم فهو لا يجد أزمة الصراع بين الغريزة والعقل ، وكل قضاياه بعد ذلك بسيطة ويسيرة ، ولكنها لا تصل به الى هذا الحد من الأزمة القاسية . ثم إن الاسلام

يطبع الفكر والثقافة والأدب بطابع التفاؤل والإيمان والسماحة ، ويرفض طابع التشاؤم والإباحة والشك .

أما « الموت » فإن الفكر الاسلامي يقدمه على أنه حقيقة واقعة لا سبيل الى الافلات منها . ولذلك فإن المسلم لا يمتنع عن أن يقدم حياته لله خالصة في سبيل غاية كبرى ورسالة حقة ، والمسلم يقدم حياته فرحاً بالاستشهاد في سبيل الله ، ويرى أن الموت خير من الحياة الذليلة ، وأن المؤمن بين إحدى حسنيين هما الحياة الكريمة أو الشهادة ، والمسلم يؤمن بأن له أجلاً لا ريب فيه ، وأن وراء الموت عالماً آخر وجزاءً وحساباً وخلوداً ، وليس الموت عنده هو نهاية الحياة وإنما هو مرحلة من مراحلها ، ومن هنا فليس في الأدب العربي ولا الفكر الاسلامي مثل ذلك الجزع البالغ الذي تصوره الآداب الأوربية تجاه الموت، ولا الفلسفات الوجودية إزاءه .

## - ٥ -

من دعائم المنهج العلمي الغربي الوافد ، فصل الأدب عن دائرة الفكر ، ومن ثم عن البلاد ، وكأنه قيمة مستقلة لها حريتها وانطلاقها الذي لا يتوافق مع الأخلاق أو القيم الأخرى المختلفة . وقد يتفق هذا الاتجـــاه مع الانشطارية الواضحة في الفكر الغربي . والتي تجعل كل قطاعات المجتمع منفصلة ، بينما لا يعرف الفكر الاسلامي هذا التمزق ويعرف بديلاً عنه تكاملاً ومواءمة بين القيم والمفاهيم . ولقد جرى دعاة المنهج العلمي الغربي الوافد وراء مفهوم الانشطارية في الأدب الغربي فأخـذوا بمذهب بلاشير الذي يضيق مفهوم الأدب ويستعيد من دائرته جميـع الآثار الفلسفية والكلامية والفقهية والعلمية . بينما تتمثل اصالة مفهوم الأدب في الفكر الاسلامي في شموله وتكامله لجميع العـــلوم والفنون . ولا ريب أن أخذ دعاة المذاهب الوافدة بالمفهوم الضيّق قد قصر الأدب على مجموعة رديئـــة من تراث شعر الغزل والخمريات والسجع والمحسنات اللفظية والمقامات ، وكلها مفاهيم فارسية مجوسية لم تكن من شأن الأدب العربي في طابعه الاسلامي .

وفي الوقت الذي تقدم فيه آثار ابن المقفع وعبد الحميد وأبي نواس وبشار ، تتجاهل كتب الحديث والسيرة وخطب أبي بكر وعمر وكلمات علي . ولا

ريب أن كتب الحديث النبوي تقدم لنا في هذا المجال ذخراً أدبياً رائعاً « فهي أوثق مصدر للغة العربية البليغة التي كانت سائدة في عهدها الذهبي الاول[1] ويجد فيها دارس الأدب العربي من البلاغة العربية والقدرة البيانية والوصف الدقيق والتعبير الرقيق، ومن عدم التكليف والصناعة ما يجعله يقف أمامه خاشعاً معترفاً للرواة بالبلاغة والتحري عن صحة النقل.

ومن هنا تجد المنهج العلمي الغربي الوافد يتجاوز هذا الأصل الأصيل المتمثل في الحديث، وفي كتب السيرة، وفي كلام العرب الأقحاح وخلفاء الرسول، ليوسع مجال الحديث عن المتكلفين المقلدين للعجم أمثال، أبي إسحاق الصابي، وأبي الفضل بن العميد، والصاحب بن عباد وأبي بكر الخوارزمي، وبديع الزمان الهمزاني، وأبي العـــلاء المعري، الذين[2] اخترعوا أسلوباً للكتابة والانشاء هو بالصناعة اليدوية والوشي والتطريز أشبه منه بالبيان العربي السلسال، وكلام العرب الأولين المرسل الجاري مع الطبع، وقد غلب عليهم السجع والبديع غلواً أذهب بهاء اللغة ورواءها، وقيد الأدب بسلاسل وأغلال أفقدت حريته وانطلاقه وخفة روحه وجماله ».

ثم جاء الحريري فألف المقامات باسلوب هو أسلوب الكتابة المسجّعة. وقد حرص المنهج العلمي الغربي الوافد في تاريخ الأدب ونقده أن يحرص على هذه الحصيلة، وأن يحجب القيم الأساسية للأدب العربي، وذخائره العليـــا الموجودة في كتب التاريخ والسير والتراجم، وفي مؤلفات العلماء من أمثال

---

١ ـ أبو الحسن الندوي : مختارات من أدب العرب.

٢ ـ نفس المصدر.

الإمام الغزالي ، وابن تيمية ، وابن الجوزية ، وابن القيم ، وابن حزم ، وابن خلدون . فإن من قرأ آثارهم وجد « مثالاً رائعاً للكتابة الأدبية العلمية يتدفق قوة وحياة وتأثيراً » ، وقد استهدف هذا الاتجاه حجب فصاحة القرآن وكرامة رجال الفكر والأدب الذين « عرفوا الإيمان وصفاء النفس والعزوف عن الشهوات » ، وتقديم النماذج الضالة المضلة من الشعوبيين والزنادقة والملاحدة وعبادة الشهوات .

- ٦ -

ثم هناك محاولة فصل الأدب العربي الحديث عن الأدب العربي في عصوره المختلفة ، وذلك بإثارة دعوى بالغة الزيف بأن العصر الحديث له طابعه المستقل المنفصل عن التاريخ العربي تحت اسم الأدب المصري أو السوري أو المغربي ، وهذه كلها محاولات مضللة . فإن الأدب هو أدب اللغة العربية أساساً . ثم له طابعه المرتبط بالإقليم في بعض صوره ومواقفه ، ولكنه في عمومـــه امتداد للأدب العربي الذي صنعه الاسلام بنزول القرآن . وترمي هذه المحاولة أساساً الى عزل الأدب العربي عن فصاحة القرآن ، مما يترتب عنه العزوف عن الانماط الاسلوبية الاولى والـــتماس الاساليب الغربية الحديثة ، وهي أساليب وثنية ومسيحية في كثير من الاحيان تحجب الاساليب العربية الاصيلة ، وتحول دون تذوق بلاغة القرآن المعجزة بل ودون فهمها آخر الأمر [١] .

ولقد جرى طه حسين وغيره على هذا النحو في نقل استعارات اللغـــة الفرنسية ، وجرى في أسلوبه على نمط تلك اللغة . ويكفي أن تطالع صفحات من كتاباته لتتأكـــد من هذا ، فأسلوبه الفكري فرنسي وطريقته في النقد

---

١ – لباحث كبير .

ودراسته للأدب والشعر والأدباء والشعراء فرنسية ، وهو في عنوان أبحاثه في النقد ( حديث الأربعاء ) ناقل للعنوان الذي كان يجريه ( سانت بيف ) على فصوله النقدية ( حديث الآثنين ) وهو يتتبع في النقد مذهب الاحساسيين الذاتيين مقتفياً أثر أناتول فرانس [1] .

ولا يقف الأمر عند هذا ، بل إننا نجد من يحاول إدخال أسلوب التوراة والعهد القديم في أساليب الادب العربي الحديث أمثال : جبران خليل جبران ، وميخائيل نعيمة ، وأمين الريحاني . ولقد حرص ميخائيل نعيمة أن يصدر فصوله بآيات من العهد القديم ، ومن المزامير وسفر الجامعة ونشيد الإنشاد . وقلده الى حد ما ( ابراهيم عبد القادر المازني ) وجاء أخيراً من كان يكتب افتتاحياته تحت عنوان ( الحق أقول لكم ) . وعلا صوت جبران فترة من الزمان ، ثم هوى ذلك كله وتلاشى . فقد كان معارضاً في أساسه لطبيعة الادب العربي القرآني المصدر . ولقد سجل الدكتور محمد أحمد الغمراوي رحمه الله هذه الظاهرة التي حاول المنهج العلمي الغربي الوافد إبرازها حين قال : ( يؤسفنا أن صاحب كتاب الشعر الجاهلي « يقصد الدكتور طه حسين » ومن لفّ لفّه يسوقون الادب العربي في غير طريقه ، ويلبسونه ثوباً من غير نسجه ، وينسجون عليه نسجاً فرنسياً ، ويسوقونه في نفس الطريق التي ضلّ فيها الادب الالماني قرناً وبعض قرن ، فضلّ عن نفسه ولم يهتد حتى رده عن تلك الطريق : هللر وهاجيدن وليسنج ، وما تلك الطريق التي يسوقون فيها الادب العربي إلا طريق الافتتان بالأدب الفرنسي خاصة والغربي عامة . كان

---

١ – مجلة المكشوف اللبنانية .

الدكتور طـــه حسين ومن معه يريدون أن يكونوا للعربية ما كان أولئك للالمانية ، فيفتنوها بغيرها ويضلوها عن نفسها ، فإذا أنت قرأت لهم رأيت تقليداً بحتاً يعرض عليك باسم التجديد . ثم جاءت موجـــة اليقظة الفكرية العربية الاسلامية لتحمل الادب العربي الحديث الى الارتباط بجذوره وأصوله على امتدادها الواسع الطويل والعـــودة الى الاصالة والاقتراب من فصاحة القرآن .

## - ٧ -

حاول المنهج العلمي الغربي الوافد أن يخضع العربية لأسلوب في تاريخ الادب يقوم على أساس انفصال العصور السياسية ، وهو أسلوب عرفتـه الآداب الاوربية ، وربما كان يتفق مع طبيعتها وظروفها . ولكنه حين يطبق على الادب العربي يأتي بنتائج غـاية في الاضطراب والفساد . ذلك أنه مذهب « توائم طبيعته الآداب الاوربية عامة بوحداتها المتعددة والصغيرة . وانفصال كل وحدة منها عن الاخرى انفصالاً سياسياً وتاريخياً ، وانفصالاً لغوياً وأدبياً من حيث استقلال كل منها بلغتها الخاصة وأدبهـا الخاص ضمن حدودها الضيقة » .

أما الادب العربي فإن هذا المنهج لا يصلح له ، وتطبيقه يعجز عن تحقيق أي نتائج علمية أو أساسية ويرجع ذلك الى أن الادب العربي تميز بخاصيتين عظيمتين باين منهما آداب هذه الوحدات الاوربية وغيرها أيضاً . فامتنع بهذه المباينة إخضاعه إخضاعاً تاماً لمـا أخضعت له من قانون دوّنت به تواريخها الادبية العامة [1] . أما إحداهما . فتلك هي ما انبسط لهذا الادب من أوطان ترامت ما بين بلاد الغـال في الغرب وتخوم الصين في الشرق ، وبين حواشي البسفور شمالاً واليمن وحضرموت جنوباً . وما حظي به من مشاركة عبقريات

---

١ - العلامة : محمد بهجة الأثري ، الى خط سير جديد في تدوين تاريخ الأدب العربي .

من مختلف الشعوب في بنائه ، وما زخر بـه من آثار متنوعة إذا استطاع الاحصاء لشيء ما أن يحيط بإقراره حصراً ، فلن يبلغ من آثاره مدى يحصرها في حدوده ، ويعطيها صورة عامة صادقة . أما الأخرى : فتلك هي طبيعته الخاصة ومناشئه وينابيعه التي تشق مجاريها الدافعة طرقها فيه إلى « لانهايتها » ، وترفده دائماً بما يمنحه استقلال الشخصية ، وحماية وجودها بالصمود أمـام الأعاصير . بل القدرة على التأثير في مجاري أحداث الحياة نفسها فيفرض عليها سلطانه .

ونحن إذا تدبرنا هذا كـله بإزاء هذا الاسلوب الاوربي في تدوين تاريخ الادب مقسماً الى عصور سياسية : اتضحت لنا صورة الصعوبة في تطبيقه على أدبنا إن لم نقل تعذر تطبيقه عليه ، وبدت لنا هذه المعالم الفاصلة بين أدب عصر وآخر في ضعفها أشبه بالحدود والحواجز التي أقامتها دول الاستعمار في الوطن العربي .

ونحن حين نمضي في ملاحظة الأحداث السياسية والاجتماعية على وجه الزمن كله ، نجدها تجري أبداً متلاحقة ومتلازمة بالضرورة تلازم أجزاء الزمن الذي تحدث فيه ، كل حادث منها ينشأ ، وهو منفعل بأسباب وعلل متقدمة متصلة بحادث سابق ، فما يكون في يومنا من حادث جديد فلأحداث الأمس الدابر أثر في حدوثه ، وله بهـا اتصال وثيق ومباشر . ثم نمضي في ملاحظة تولد الأفكار . فنجد الفكر الانساني لا ينبع من الأذهان ابتداءً وإنمـا ينبع من أفكار تقدمته وولدته ، وإن بدا منفصماً عنها في النزعة والمعنى والغاية . وهو كما يكون مؤثراً فيما يحدث بعده من أفكار يخضع لعوامل شتى سبقت زمان ظهوره . وإذا كان الأمر كله كذلك في جملة شأنه . فلا جرم يكون مؤدى هذه التقاسيم للعصور السياسية حين نفرضها على الأدب العربي اننا ندخل بهـا عليه

إفساداً . إذ نضيف الى عصر لاحق نتاج عصر سابق حمل في نفسه كل عوامـله ومؤثراته وخصائصه .

نخلص من هذا الى أننا نجد أنفسنا بإزاء قانون خاص إن صلح لكتابة تاريخ عام لآداب هذه الوحدات الأوربية الصغيرة . فإن التجارب في تطبيقه في تدوين تاريخ أدبنا قد انتهت الى الإخفاق في رسم صورته وتوضيح اصالته[1] .

١ – نفس المصدر .

- ٨ -

يحاول المنهج العلمي الغربي الوافد أن يطرح في أفق الأدب العربي التركيز على الأدب الحديث ، وتجاهل الأدب العربي القديم . ولا ريب أن هـذه المحاولة لا تتفق مع الاصالة ، ولا تدعو اليها ، ولا تتفق مع ما يقرره المنهج العلمي الغربي بالنسبة للآداب الغربية المرتبطة الجذور بالأدب اليوناني القديم الى الحد الذي يغلو فيه هذا المنهج ، ويرى أنه لا سبيل لفهم الأدب الغربي الحديث إلا بدراسة الآداب اللاتينية واليونانية . بل واللغتين القديمتين المندثرتين أيضاً . ولا ريب أن دعوى الفصل بين القديم والجديد من أخطر المحاولات الى فصل حياتنا الراهنة والمستقبلة عن مصادرها القديمة حتى تتفرق جماعتنا ويتشتت شملنا ، وحتى لا تكون أخلاقنا امتداداً لأخلاق آبائنا ، ولا تكون أذواقنا امتداداً لأذواقهم ولا تكون لغتنا وأساليبنا امتداداً للغتهم وأساليبهم . وحتى لا تكون مذاهبنا في الأدب والفن امتداداً لفنونهم وآدابهم . بل لا يكون إسلامنا امتداداً للاسلام نفسه ، فإذا نجحت في أن تجعل المجتمع الجديد مقطوع الصلة بماضينا في اللغة وفي الدين وفي العادات وفي الذوق الفني وفي المزاج وفي التقنين الخلقي فأيّ جامعة يمكن أن تجمعنا عند ذاك ؟ وأيّ طابع يمكن أن يميزنا عن غيرنا من سائر خلق الله ، ويجعل لنا الحق في أن نقول إننا قوم ؟ إننا عرب ؟ ما أيسر ما نكون عند ذلك تبعاً لسادة الشرق والغرب . وذيلاً لكائن من كان ممن يريد أن يستلحقنا كما كان السادة يستلحقون العبيد في عصور الرقّ[1] .

---

١ – دكتور محمد محمد حسين من بحث في مجلة الأزهر .

- ٩ -

عمد المنهج العلمي الغربي الوافد الى طرح نظرية الاقليمية في أفـــق الأدب العربي ، وحمل لواءها عدد من التابعين ، وزعم أصحاب هذا المذهب أن الأدب العربي كان إقليمياً اختلف من إقليم الى إقليم ، وهو لا يزال إقليمياً ، ويجب أن يبقى إقليمياً يساير خصائص كل إقليم . وقد بدت بوادر هذه النظرية حين قال: ( أحمد ضيف ) إن الأمة العربية ليست أمة واحدة . وإن أدبهـــا أدب أمم مختلفة المذاهب والأجناس واللغات ، ثم تولى تنمية هذه البذور ( أمين الخولي ) الذي اعترض على دراسة الأدب العربي على أساس التقسيم الزمني أو الزماني . وقال بضرورة التحول الى التقسيم المكاني . ودراسة الأدب العربي إقليماً بعـد إقليم . لا عصراً بعد عصر . وقد كانت النظرية زائفة ، ووجدت من مزقها ، وكشف عن خطئها. وأول ملاحظ الخطأ هو أن تقرير تأثـــير البيئة في الأدب شيء والقول بإقليمية الأدب شيء آخر . وأن واقـع الأدب العربي في الماضي القريب والبعيد يثبت أن هذه الآثار لا ترجع الى قطر من الأقطار أو إقليم من الأقاليم . فالمتنبي مثلاً ولد في الكوفة وعاش في بغداد وحلب ودمشق ، وآثاره لا تعتبر محصولاً لأي إقليم من تلك الأقاليم ، وأثره لم يقتصر على إقليم ما بـــل يشمل جميع الأقطار ، وغيره كثيرون على هذا النحو . ولقـــد حافظ الأدب

العربي على طبيعته الموحدة والموحدة حـــتى في أسوأ عصور تفكك الدول العربية وتفتيت شعوبها وحتى في خلال العهود التي لم يكن يتيسر فيها الاتصال بين البلاد العربية إلا على ظهور الجمال[1] .

وان الحقيقة الواضحة هو أنه لا يوجد ولن يوجد أدب مصري وأدب عراقي وأدب مغربي . وإنما يوجد أدباء مصريون وعراقيون ومغاربة .

---

١ – من نص لساطع الحصري .

## - ١٠ -

ركز المنهج العلمي الغربي الوافد على الأدب العربي قبل الاسلام وعلى الحياة الأدبية الجاهلية بصفة عامة . وأولاها اهتماماً كبيراً . وكان في ذلك يهدف الى طرح محاولة للانتقاص من عظمة الرسالة المحمدية والدور الكبير الذي حققته في العالمين . فقد ركزوا على القول بأن الحياة الجاهلية كانت تتجه في آخر أيامها نحو التمهيد لنهضة اجتماعية أو ثورة سياسية : « هي النهضة التي تولى زعامتها رسول الله ﷺ . وفي ذلك إهدار لدور النبوة والوحي وأثر القرآن في بناء أمة جديدة »[١] ومحاولة القول بأن العرب كانوا مستعدين للنهضة . فلما جاء الرسول ونهض بهم نهضوا معه . وهذا مخالف للحقائق التاريخية ويتعارض مع الصراع القوي الذي قام بين الرسول والمسلمين القلائل معه من جهة ، وبين قريش من جهة ثانية ثلاثة عشر عاماً كاملة ، حتى جاء قوم من مدينة أخرى هي يثرب فانتصروا للمسلمين وفتحوا لهم طريق الهجرة . وكذلك ينخدع المنهج العلمي الغربي الوافد بما يرى من تقارب بين الأديان الثلاثة ، ويحاول أن يصور الاسلام وكأنه جماع مما جاء في هذه الأديان وينسى الحقيقة الأساسية ، وهي أن مصادر الأديان كلها واحدة وهي من عند الله أساساً ، وقد حملت رسالة التوحيد والحق ، ثم انحرفت بعض التفسيرات والمفاهيم . فلما جاء الاسلام كان يحمل الأصل الأصيل للفكر الرباني وللدعوة الإلهية .

١ - من رسالة للدكتور محمد محمد حسين .

ويثير المنهج العلمي الوافد الشبهات حول ما بقي في البيئة الجـاهلية من أخلاق الكرم وحماية الذمار والشهامة وغيرها وحقيقة الأمر في ذلك أن فضائل العرب في جاهليتهم هي البقية الصالحة من ملة ابراهيم عليه السلام[١] غـير أن الخطر الحقيقي في حملات المنهج العلمي الغربي الوافد إنما يكمن في إثارة تراث الحضارة الجاهلية . وإعادة طرحه مرة أخرى في محيط المجتمع الاسلامي وأفق الفكر الاسلامي كوسيلة لخلق عصبية قومية عنصرية تباهي بهذا القديم لتحل محل العصبية الاسلامية التي جمعت هذه الاشتات المتفرقـة وقضت على دواعي فرقتها ، وتستهدف كذلك تمجيد العرب في جاهليتهم ورفض القول بأن القرآن هو سبب مجدهم وأس حضارتهم[٢] .

ولقد حرص المنهج العلمي الغربي الوافد على المحاولة لإيجاد تراث فكري مشترك يستطيع أن يربط بين الفرعونية والاشورية والبابليـة والفينيقية والبربرية وبين الاسلام . ولكنه عجز عجزاً مطلقاً عن إيجاد مثل هذا التراث حيث استطاع الاسلام خلال أربعة عشر قرناً أن ينقل المسلمين والعرب نقلة بعيدة جداً عن جو الوثنية القديمة بكل أبعادها . وحيث انقطعت الصلة تماماً بين المصريين والفرعونية ، وبين الشاميين والفينيقية ، وهكذا ، بالاسلام الذي غيّر النفسية والعقلية والمزاج العربي تغييراً كاملاً بعد أن دفعه الى آفاق أرحب هي آفاق التوحيد والمنهج الرباني القائم على الفطرة ، وحرر العقل والنفس من اصار العبودية لغير الله ، كما حرر البشرية من العبودية التي كانت تفرضهـا الامبراطوريات الرومانية والفرعونية والفارسية . ولم يترسب في النفس العربية والاسلامية من شيء من تراث الجاهلية إلا مـا كان متصلاً في الاساس بدين ابراهيم وكل ما استطاعت الجاهلية العربية أن تستبقيه من علامـات الكرم .

---

١ – من رسالة للدكتور محمد محمد حسين .

٢ – المصدر السابق .

والمروءة والشجاعة الحربية إنما هو بقية دين الحنيفية السمحاء بعد أن انحرفت أهدافه وغاياته . ثم جاء الاسلام فأعاده الى مفاهيم الحق والعدل والخير وأجراه مرة أخرى في مجرى التوحيد الخالص . وان اليقظـة إزاء بعث التاريخ القديم على الاستعراب والاسلام وتكوين أدب إقليمي من شأنــه أن يفكك عرى الأخوة العربية الاسلامية ويدعم الصهيونية التي قامت وسط الثغرات الإقليمية التي حالت دون تكتل العرب ووحدتهم .

## - ١١ -

حاول المنهج العلمي الغربي الوافد أن يطرح في أفق الفكر الاسلامي مفهوم الأدب الغربي ، والأدب الغربي ليس أدباً واحداً ولكنه آداب إقليمية تحكمها مناهج الفكر المادي والمدرسة الإجتماعية التي تعتبر النفس البشرية خاضعة لقوانين المادة والحيوان . وفي مجموع ما ساقه المنهج العلمي الغربي الوافد من مفاهيم للأدب ، فقد انحرف به عن اصالة مفهومه في المنهج العلمي الاسلامي على هذا النحو :

أولاً — إن أبرز ما أعطى الاسلام للأدب « عمق المعرفة التي تدور على تحرير الادب من الاساطير والخرافات . وإيقافه عند الحقيقة دون مبالغة في تصوير الواقع على النحو الذي كان يعرفه الشعر الجاهلي أو الملاحم اليونانية ، كما أعطاه الاحتياط في اعتبار الشعراء أصدق معبر عن العصر الذي يعيشون فيه ، فالشعراء ليسوا أصدق معبر عن عصورهم ، بل إن الشعراء وسائر رجال الفنون هم قوم عاطفيون ، تغلب عواطفهم عقولهم ، ومن هنا كانت الصور التي يقدمونها براقة لامعة غير أنها لا تلتزم الاعتدال والانصاف[1] » .

ثانياً — الادب في مفهوم الاسلام له حرية التصوير وبراعته بوصفه فناً يتحرك داخل إطار خلقي حيث يرتبط الادب بالدين والخلق والمجتمع ، ولا ينفصل

---

١ — عن نص للاستاذ علي أدهم .

عنها . ومن مهمة الادب العربي تحرير الخيال من الاغلال الضيقة الشديدة الوطأة، وهذا يختلف عن مفهوم الادب الغربي الذي يحرر نفسه من الاخلاقيات بل ويراها عبئاً على حركته الحرة .

ثالثاً – ليس في الادب العربي نظريات متعددة متفرقة ترتبط بالعصور أو البيئات ( الرومانسي ، الكلاسيكي . الخ ) ولكنه منهج متكامل له طابع الثبات في الجذور ، واتساع الافق في الفروع ، أما الادب الغربي فإن النظريات المتعددة فيه قد ارتبطت ببيئات متعددة وعصور مختلفة . فأصبحت تمثل تطوراً تاريخياً وتضارباً واختلافاً . وليس من شأن الادب العربي أن يحاكم الى مثل هذه المذاهب . أو أن تنقل لتمثل عصوراً من عصوره . فذلك شيء يختلف تماماً . ويستطيع الادب العربي أن ينظر في هذه المذاهب دون أن يعتنقها أو يضع أدبه في امتحان بقوالبها .

رابعاً – الادب بوصفه عنصراً في مجموع كلي هو الفكر ، فهو مرتبط بقانون الاخلاق ورسالة التقوى والتوحيد التي تنظم الحضارة والمجتمع جميعاً .

والأدب بوصفه رسالة وجدان تقوم على العاطفة والمشاعر الحسية التي قد تخطىء وتصيب ، والتي قد تسيطر عليها العواطف والأهواء ، فإنه يعدو طوره اذا تدخل في مباحث العقائد والاجتماع « إن مولدات الخيال في الادب تستطيع أن تخرج ثلاثة أرباعه بضاعة زائفة ظاهرها أنيق ، وفي باطنها السم ّ . ولقد بالغ كثير من القطع الأدبية في الباطل .

خامساً – إن نقد الادب العربي يختلف اختلافاً أساسياً عن النقد في الادب الغربي الذي يعتمد اليوم على العلوم الاجتماعية ، والتحليل النفسي ، والتحليل الماركسي والوصف الوجودي . وهي في تقدير الفكر الاسلامي احتمالات ونظريات وفروض قد ثبت خطأ الكثير منها . وهي تختلف أساساً مع مفهوم الانسان في الاسلام .

سادساً – إن المنهج العلمي الاسلامي يفصل بين خصائص الادب وتاريخ الادب . ذلك أن خصائص الادب إنما هي قيم أساسية . أما تاريخ الادب فهو واقع قد يمضي على الطريق الصحيح وقد ينحرف . وهذه الانحرافات التي يحاول بعض دعاة النقد الغربي الوافد أن يصوروها على أنها مظاهر حقيقية لهذا الأدب، ليست من طبيعته ولا من نظريته وإنما جاءت له من سيطرة الحضارة الفارسية . والزخرف ، وأدب الكشف ، والأدب الحسي ( والغزل والخمريات ) كلها ليست إلاّ نتوءاً في طريق الادب العربي الاصيل . وهي ظاهرة تجاوزها الادب العربي بعد ذلك .

ومن هنا يجيء خطأ المنهج العلمي الغربي الوافد في التماس الانحرافات، وتصيد الغمزات ، والبحث عن الفجوات والعمل على تصويرها على أنها مظاهر حقيقية . ومصدر الخطإ هنا هو العجز عن طريق الذوق الاصيل ، وبعض الذين يجرون وراء هذه المناهج ليست لهم أذواق عربية أصيلة تكونت من داخل أدبهم . وإنما تكونت لهم أذواق غريبة جعلتهم يعلون شأن الادب الغربي ويلهجون باسمه بينما تتقاصر نظرتهم عن أدبهم الاصيل الذي تخطوه دون أن يقفوا معه وقفة التقدير ، بل التعرف والإحاطة .

( ثانياً )

# ظاهرة الهلينية الجديدة في الأدب العربي

إن أكبر محاذير المنهج العلمي الغربي الوافد هي محاولة إغراق الادب العربي في تيار الادب الاغريقي مستهدفة إشاعة هذه المفاهيم الوثنية المتحللة في آفاق الفكر الاسلامي والمجتمع العربي عن طريق الادب ومناهجه . وذلك تمهيداً لتحول الادب العربي إليها واحتوائها له . ولقد استمرت هذه المحاولة أكثر من خمسين عاماً . ولم تستطع أن تحقق هدفها ، ذلك أن هناك فوارق بعيدة بين خصائص الادبين ، وعميقة بين الامتين .

وأخطر ما في محاولات المنهج العلمي الغربي الوافد : تلك المحاولة الدائبة المضللة لتصوير الفكر الاسلامي مرتبطاً بالفكر اليوناني نتيجة تمويهات شاردة تحاول أن تصور المسلمين ، وقد خضعوا لمنطق أرسطو . والواقع أن المسلمين قد وجدوا هذا المنطق مختلفاً تمام الاختلاف مع جوهر فكرهم . ومن هنا فإن المفكرين المسلمين لم يقبلوا المنطق الارسطي وإن حاول بعض الفلاسفة إخضاعه للتوحيد . « وعلل الامام الشافعي السبب الحقيقي لنقد المسلمين لمنطق أرسطو حين قال : إن هذا المنطق يقوم على أساس خصائص اللغة اليونانية ، ولغة اليونان مخالفة للغة المسلمين . فلما طبق المنطق اليوناني على أبحاث الاسلام أدى هذا المنطق الى متناقضات عدة . أما علماء أصول الدين المتكلمون فقالوا : إن العلة في عدم قبولهم المنطق الارسطي هو أن الميتافيزيقيا الارسطية مخالفة لإلهيات المسلمين ، وهذا المنطق الارسطي وثيق الصلة بالميتافيزيقيا. ولهذا رفضه

المتكلمون كذلك . نقد الفقهاء المنطق الارسطي ، وذكر « ابن تيمية » العلتين اللتين ذكرهما الاصوليون والمتكلمون وتوسع فيهما ، ثم أضاف إليهما ، وقال إن المنطق الارسطي يقيد الفطرة الاسلامية بقوانين صناعية ، متكلفة في الحد والاستدلال . ومما ذكره العلماء المسلمون أن الاسلام يعمل على الوفاء بالحاجة الانسانية المتغيرة . بينما المنطق الارسطي يعتبر قانوناً كلياً ثابتاً .

« والعلة الحقيقية لنقد المسلمين للمنطق الارسطي أن هذا المنطق يقوم على المنهج القياسي لأن هذا المنهج هو روح الحضارة اليونانية حيث لم يترك للتجربة مكاناً في هذا المنهج ، بينما يقوم المنهج الاسلامي على أساس التجربة وينظم قوانين الاستقراء . وحيث يعبر المنهج القياسي الارسطي عن روح الحضارة اليونانية يعبر المنهج التجريبي عن روح الاسلام[١] .

ولقد تحققت هذه القضية في العصر الأخير بأوفى بيان ، وكشفت كثيراً من ذلك الزيف الذي طرحه المنهج العلمي الغربي الوافد ( لطفي السيد . وطه حسين . وابراهيم بيومي مدكور ) حين فرضوا على الفكر الاسلامي والثقافة العربية ذلك المفهوم الزائف الذي لا يتفق مع اصالة الفكر الاسلامي . وهو أن الاسلام كان مديناً في عصره الاول للفلسفة اليونانية ومنطق أرسطو ، جرياً وراء ذلك الخيط المضلل الذي ألقاه رينان وسانتلانا وغيرهم[٢] .

ولا يجد المنهج العلمي الغربي الوافد خيطاً يلتمسه ويتعلق به في سبيل محاولة تصوير الفكر الاسلامي والأدب العربي تابعين للعقلية الهلينية إلا قضية الترجمة من اليونانية وهي قضية لا تشرف أصحابها كثيراً ، لأنها قامت على غش كثير وزيف أكثر . وان ما نقل الى المسلمين لم يكن هو الفكر اليوناني بقدر ما كان شبهات النساطرة واليعاقبة الذين حاولوا نشر معتقداتهم متخذين من الفلسفة

---

١ - ملخص عن بحث للدكتور علي سامي النشار .

٢ - راجع كتابنا التفسير الاسلامي للفكر البشري .

اليونانية سبيلاً الى ذلك . وقد تمحل المنهج العلمي الغربي الوافد كثيراً ليزيف الحقائق ، ويصور المسلمين وكأنهم لم يكونوا يحملون فكر القرآن الواسع العظيم الذي استفاض على كل مقومات المجتمع اقتصاداً وشريعة وسياسة وتربية واجتماعاً . والذي أنشأ حضارة التوحيد ، ليردوا كل شيء في الأدب العربي أو الفكر الاسلامي الى الهلينية .

ولقد كان هدف المنهج العلمي الغربي الوافد واضحاً من حملته هذه . وهي أن يقال للمسلمين : اذا كان فكرهم الاسلامي قد خضع لليونان والهلينية وأرسطو ، فإنه في تطوره الحديث لا بأس من أن يخضع لأوربا والليبرالية والغرب . ومن الحق أن يقال إن الفكر الاسلامي قد تكاملت مقوماته من حياة الرسول ومع آخر آيات القرآن الكريم ، وإن فكراً قام على التوحيد والأخلاق واليوم الآخر والجزاء والمسؤولية الفردية لا يستطيع أن يستسلم بسهولة لفكر يقوم على الوثنية والإباحة والدهرية والتحرر المطلق من كل قيود الخلق والاجتماع .

أما موقف الفكر الاسلامي من الفلسفة اليونانية (والتراث الفارسي والهندي جميعاً) فقد كان واضحاً ، إذ ترجم العلماء المسلمون الأبحاث العلمية والطبيعية وعلوم الفلك والحساب والطب وغيرها وأعرضوا عن الأدب والشعر .

أما في مجال الطبيعيات والعلوم الرياضية فقد صحح المسلمون أخطاءها وحولوها الى منهج أصيل مستمد من جوهر القرآن ، ومفهوم الاسلام للعلم ، كما حرروا علم النجوم من النظرة الغيبية وصححوا أضخم النظريات اليونانية في مجال العلم والطب . والقول الحق في هذا المجال انه ليس من شأن الفكر الاسلامي ، وهو فكر له اصالته وتاريخه وحضارته ، أن يلتمس مقاييس الفكر الغربي أو الاغريقي في تعليل الكون أو فهم الحياة . ذلك أن الفلسفة اليونانية ومفاهيم الوثنية إنما تتنافى مع التوحيد والنبوة وتعارضها على خط مستقيم .

- ٢ -

في العصر الاسلامي الأول تحرز الفكر الاسلامي من ترجمة الادب اليوناني والشعر والملاحم والأساطير. وكانت حجتهم في ذلك واضحة صريحة وهي أن الادب ليس عالمياً ، وأنه يحمل طوابع الأمم ، ويتشكل من خلال عقائدها وفكرها ، وليس المسلمون في حاجة إليه ، وإنما هم في حاجة الى العلوم الطبيعية والرياضية وحدها ، وهي التي نقلوها أولاً بدافع الحركة نحو بناء فكر إنساني ، كذلك فقد وجد المسلمون في الادب اليوناني طابع أمة وثنية لها مفاهيمها المعارضة لمفاهيم المسلمين في الألوهية والأخلاق والبعث والجزاء .

* * *

أما في العصر الحديث فقد كان الموقف مختلفاً كل الاختلاف . ذلك لأن المنهج العلمي الغربي الوافد قد فرض ترجمة الاساطير والملاحم والشعر والتراجيديا على الأدب العربي فرضا مع دعوى عريضة بقصور الادب العربي عن الاساطير والقصة ، وبعظمة الادب اليوناني وبراعته ، في محاولة لتمجيد الاسلوب الوثني الذي يتعارض مع طبيعة العقل الاسلامي والنفس العربية ويختلف معها اختلافاً عميقاً .

فالأدب اليوناني يقوم على أساس الصراع بين الانسان والآلهة ، ويدور حول آلهة يتصارعون من أجل المطامع والشهوات ، وينتقم أحدهم من الآخر ، ويتزوجون بالإنسيات ، وقد كان هذا كله مما يختلف مع مفاهيم المسلمين بالنسبة

للإله الواحد الأحد الخالق المتعالي عن كل صفـــات الغدر والخسة ، ولم يكن المسلمون يفهمون الحياة صراعاً بين الانسان والإله ، ولكنهم يؤمنون بالإله الواحد الذي أعطى الانسان كل شيء . واختلاف آخر عميـــق الأثر في رفض الفكر الاسلامي والادب العربي لما طرحه المنهج العلمي الغربي الوافد من أساطير وتراجيديات الادب الاغريقي هو قيامه على أصل أصيل من الوثنية . والوثنية اليونانية تقوم على عبادة المرح والبهجة والإيناس – على حد تعبير زكي مبارك – فأهواء الآلهة عندهم أهواء حادة من الوجهة الحسية بحيث يمثلون ما في الطبيعة الحية من غضب وبطش وجبروت . وأذواق الآلهة عندهم أذواق مترفة ناعمة ، والشاعر الذي يعيش في رحاب الوثنية اليونانية محروس بقوات خفية من جميع الشؤون ، فله عند الغضب إله ينصره هو إله الحرب ، وله في أوقات السرور إله هو إله الخمر ، وله عند الصبوة إله يفتح له قلوب الملاح هو إله الحب . ولا ريب أن هذه المفاهيم كلها تختلف بل وتتعارض مع النفس العربية والعقل الاسلامي .

## - ٣ -

قارن كثير من الباحثين بين الادب العربي وبين الادب الاغريقي في المجالات المختلفة ( وفي مقدمة الابحاث الرائعة في هذا المجال ما كتبه الاستاذ محمد مفيد الشوباشي ) يقول :

١ – الأدب العربي واقعي إنساني بينما الأدب الاغريقي خرافي وثني .

٢ – إن تعاطف الاغريق مع الطبيعة لا يرقى إلا ما بلغه تعاطف العربي في رقة العاطفة وسمو الوجدان .

٣ – تعاطف العرب مع الطبيعة أكثر مما تعاطف معها الاغريق فقد كانوا يناجون الليل والنجوم ومنازل الاحباب .

٤ – لم يؤمن العرب بالجبرية إيمان الاغريق بها .

٥ – فطرة العرب البساطة الطبيعية وعنوانها الصدق بكل معانيه . ولقد كان الشعر ديوان علوم العرب ومستودع عاداتهم وأخلاقهم وأدواتهم وصناعاتهم « أما الشعر الاغريقي الملحمي فإنه يصور عالماً وهمياً لا تكاد تقوم صلة بينه وبين الحياة الحقيقية للمجتمع الاغريقي ، ويصف آلهة وعمالقة وفرساناً يتميزون بقدرات غير آدمية . ويحققون الخوارق ، وينساقون وراء

شهوات وأطماع وأحقاد ووحشية ، ويأنفون أن تغلب عليهم الرحمة ، أو يمس قلوبهم حب أو حنان . ويرتكبون في سبيل تحقيق غاياتهم آثاماً تتقزز منها النفوس ، ولا يعتدون على الأحياء فحسب ، ولكنهم يمثلون بالجثث . المرأة قاسية كالرجل ، فهناك امرأة تشترك مع عشيقها في قتل زوجها والتنكيل بأبنائها . وهناك أخرى تحرض أخاها على قتل أمها فيقتلها فعلاً ، وأخرى تتزوج بابنها .

وبينما كان الشعر الاغريقي يرسم هذه الصورة الشوهاء لمجتمعه . كان الشعر العربي عالماً مختلفاً تمام الاختلاف . فالعرب قد حال نضجهم العقلي دون استرسالهم وراء شطحات الأوهام ، والشعراء العرب كانوا يعبرون عن تجارب ذاتية على خلاف أدباء الأمم الأخرى الذين كانوا يستمدون موضوعات قصصهم الملحمية من أخبار ترامت إليهم عبر القرون بعد أن موهتها إضافات المبالغات والأوهام[١] .

---

١ – بتصرف عن الشورباشي : رحلة الأدب العربي الى أوربا .

- ٤ -

وفي مجال العواطف يبدو الفارق البعيد بين الشعر العربي والشعر اليوناني . فقد حفل الشعر العربي بعواطف الحب والغيرة والرحمة بالضعيف وحماية المظلوم . كما حفل بصور الحب العفيف الشريف والإيثار والعدل والتضحية .

والمرأة العربية تتصف في أغلب القصص العربية بالوفاء ، وتتولد محنتها عادة من رقة إحساسها وينشب الصراع في نفسها بين عاطفتين كلتاهما نبيلة . أما المرأة الاغريقية فتتصف بالغدر في أغلب مآسي الاغريق ، وتستسلم للرذيلة دون أية مقاومة ، وترتكب أبشع الجرائم مدفوعة بأخطر النزوات ، فها هي ذي هلينية تخون زوجها في قصة ( طروادة ) وتهرب مع حبيبها دون أي تردد أو شعور بتأنيب الضمير وتتسبب في حرب أبادت شعوباً بأسرها ودمرت بلاداً عن آخرها .

وهناك قصة ( الكترا ) التي تعبث فيها البطلة كلمنسترا بقدسية رباط الزوجية ، وتتخذ لها عشيقاً في غيبة زوجها ( أجاممنون ) الذي رحل على رأس الجيوش الإغريقية ليغزو ( طروادة ) ، وينتقم من أميرها ويستعيد هلينية الغادرة الى أحضان زوجها المنبوذ ، ولم تكتف ( كلمنسترا ) بارتكابها هذه المعصية ، ولكنها أقدمت على جريرة أشد نكراً مدفوعة بشهوتها البهيمية ، فقتلت زوجها البطل غدراً بالاشتراك مع عشيقها ( إيجست ) في أثناء حفل أقيم تكريماً له بمناسبة عودته من حرب طروادة ظافراً . وكان لهذه القاتلة

الفاجرة ابنة تدعى ( ألكترا ) وطفل يدعى ( أورست ) وخشيت الأخت أن تقدم أمها على قتل ابنها الطفل أيضاً حتى تتحاشى انتقامه منها بعد اشتداد ساعده ، فهيأت سبيل فراره من قريته . وعاش ( أورست ) بعيداً عن وطنه دون أن يعلم شيئاً عن جريرة أمه . ثم عاد الى مسقط رأسه بعد أن بلغ أشده وتلقفته أخته (الكترا) التي قضت السنوات الطوال منطوية على نفسها وأطلعته على السرّ الرهيب وطلبت إليه قتل أمها أخذاً بثأر أبيها . وما زالت تولول وتدفع أخاها دفعاً الى الجريمة حتى لوث يديه بسفك دم أمه . وقصة الكترا هي أعنف مآسي الإليـاذة والأوديسا وأشدها اتصافاً بالوحشية . وقد ظفرت بالنصيب الأوفى من إعجاب كبار كتاب الاغريق ومن تابعوهم من دعاة المنهج العلمي الغربي الوافد .

ولقد أجمعت أغلب المصادر على أن الادب الاغريقي أدب بدائي ، وأنه لا يصور النفس الانسانيـة في قطرتها . وإنما يصور « حياة شعب طمست المعتقدات الوثنية عقله ، وحجبت عنه الحقائق الواقعية ، وأضعفت فيـه العواطف الانسانية النبيلة ، واستثارت فيه الغلظة والميل الى الشر » « وآلهة الاغريق في الأغلب قاسية تميل الى الانتقام . فإذا عنّ لها أن تنصف مظلوماً أو ترحم ملهوفاً اشترطت في ذلك شروطاً تجرد رحمتها وإنصافها من أي سمة إنسانية . وهي لا تنكل بعبـادها فحسب ، ولكن بعضها ينكل ببعض ، ويفتك به . وليست المقادير الرهيبة التي يقع الناس في حبائلها ، ولا يستطيعون منها فكاكاً إلا من تدبير هذه الآلهة . وقد قيل إن الوثنيين الاغريق فطروا على صورة آلهتهم . أو على الأصح انهـم ابتدعوا آلهتهم على صورتهم[١] . فأين هذا من سماحة الأدب العربي وبساطة النفس العربية وكرمها وأخلاقها ؟ ومع ذلك فإن دعاة المنهج العلمي الغربي الوافد يصرون على تمجيد الادب الاغريقي ووصفه بأنه قمة الآداب العالمية ، ولا ريب أن أمثال الدكتور طه

---

١ — الشوباشي : رحلة الأدب العربي الى أوربا .

حسين الذي يبدي إعجابه بقصة « أوديب مَلِكاً » وأمثالها من قصص الملاحم الاغريقية ، ويقول إنها منبع الآداب العالمية ، قد انتزع من بين جنبيه مشاعر العرب وفطرتهم ومزاجهم النفسي والاجتماعي .

وغاية ما يقال في الأدب الاغريقي أنه يقوم على الخوارق والأساطير ، وأن الأساطير متعلقة بالمجتمعات البدائية متولدة من أعمال السحر والطقوس الدينية .

أما العرب فقد تقدموا من مرحلة الادراك الحسي الى مرحلة النمو العقلي فلم تستحوذ الأساطير على ألبابهم كما استحوذت على ألبـــاب الاغريق. « وواكب الادب هذه المحاولة فأعرض الشعراء عن تصوير عالم الخرافة [1] . ومع هذا فقد أعرض المنهج العلمي الغربي الوافد عن هذه الحقيقة الكبرى . وهاجم الادب العربي بضيق الخيال . لأن العرب لم تعرف الاساطير في شعرهـــا ولا في عقائدها [2] كأنما وجود الاساطير وسيطرتها على الادب دليل التقدم والرقي ، بينما هي في حقيقتها تمثل المراحل البدائية وعصور الوثنية والخضوع للشهوات والأهواء .

ولقد كانت العرب قبل الاسلام مسترشدة في أخلاقها وأدبها بحكمة الحنيفية التي أقامها إبراهيم وإسماعيل ، وظلت هذه القيم الكريمة باقية ممتدة فيها بالرغم من انحرافها نحو الوثنية الساذجة التي قضى عليها الاسلام . فعادت النفس العربية مرة أخرى الى أصالتها .

فلما جاء الاسلام تحول الادب العربي من طريق الى طريق . « فلم يقتصر على الاشادة بالحسب والنسب والتفاخر بقوة الشكيمة وشدة المراس والبطش . بل غلب عليه التنويه بالتقوى ، والترفع عن الدنايا ، والتمسك بعفـــة اليد

---

١ – الشوباشي : رحلة الأدب العربي الى أوربا .
٢ – أحمد صنيف ( مقدمة لدرس بلاغة العرب ) .

واللسان ، وبالتواضع والحياة والرقــة والدماثة ولين العريكة والتسامح . ونزهوا المرأة عن أن تكون مجرد وسيلة لمتعة رخيصة .

وطلع شعراء بنو عذرة في التاريخ لأول مرة بقصائد عبّروا فيها عن حبهم العذري . وتخطى هذا الشعر حدود نجد ، وذاع في الارجاء ، ونسج الشعراء على منواله ، وانتقل مع العرب الى أوربا . وكان كما قال بعض النقاد الشرفاء : أهم عامل في تهذيب النفوذ وتهيئة السبل لانتقال البشرية من العصر الوسيط الى العصر الحديث [١] .

* * *

ولذلك فقد كان من أكبر جرائم المنهج العلمي الغربي الوافد تلك المحاولات التي جرت على أيدي طه حسين وغيره . في فرض مفاهيم زائفة تصور الادب اليوناني وهو أعز مكاناً من الادب العربي حتى وضعت في مناهج المدارس الثانوية قبل الجامعات مفاهيم تصور الاغريق وهم أعلى درجة في الخطابة من العرب ، وتركز على فلاسفة اليونان ، وتصورهم بأنهم قادة الفكر البشري . ويهدف هذا كله الى إبعاد النفس العربية الاسلامية عن مجد اللغة العربية وسمو أدبها .

١ – مفيد الشوباشي : رحلة الأدب العربي الى أوربا .

( ثالثاً )

# القِصَّةُ وَعَالَمُ الأُسْطُورَة

حـــاول المنهج العلمي الغربي الوافد أن يفرض على الأدب العربي : القصة والمسرحية والأسطورة استمداداً من نقل الرواية المترجمة والميثولوجيا اليونانية والتراجيديا الغربية .

ولقـد عرف الأدب العربي القصة التي هي بمفهوم التاريخ والواقع والحق في مجال العبرة والفهم لقيام الأمم وسقوطها ، وعوامل نهضتها واندحارها ، ولقد قام لها القرآن في ذلك نموذجاً فريداً يرقى على كل فنون القصص . لأنه يقوم على الحق ، ويهدف الى العبرة ، ويكشف عن الحكمة العالية في حركة هذا الكون، وإبراز سير النماذج العليا المصطفاة لقيادة الفكر الانساني ، وتقديم رسالة السماء وكلمة التوحيد وأمانة الحق الى الانسان .

أما على النحو الذي عرفه الغرب وهو خلق عالم آخر وهمي أسطوري من صناعة الكتاب والشعراء يختلف عن عالم الواقع ، ويزدريه ، فذلـــك هو الفن الذي لم يعرفه الأدب العربي إلا في العصر الحديث حين عمد المنهج العلمي الغربي الوافد الى إقحامه في مجال هذا الأدب بالترجمة والتعريب .

ولا ريب أن القصة المترجمة أو المعربة ذات الأصل الأوربي لا تمثل الوجدان العربي الاسلامي الغني بواقعه عن التعويض الوهمي والخيالي .

ولا ريب أن فن القصة له أصل وثني يقوم على مفـــاهيم المعبد والكهنة

والطقوس والأغاني . فالقصة تعطي الفنان الحق في الخروج عن الحقيقة التاريخية والحقيقة المتمثلة في الطبيعة . والعقلية الاسلامية عقلية تقوم على التوحيد ، ولا تسرف في الخيال ، ولا تنحاز الى الأوهام أو الأساطير . وإنما تواجه الواقع في وضوح .

وأخطر ما تواجهه القصة هي الخروج من عالم الواقع الى عالم ليس موجوداً في الحقيقة ، فهي تقدم للمحرومين العاجزين تعويضاً خيالياً وهمياً عن جميع حاجاتهم الرئيسية ، فتقتل فيهم الحافز القوي ، وتميت فيهم الضمير الحيّ ، وتضللهم عن مقاييس العقل ، وترفع عنهم تكاليف الحياة .

وقد نشأت القصة في المجتمع اليوناني العبودي القائم على استمتاع السادة وإذلال العبيد ، كوسيلة لتعويض الفقراء والمرضى والمحرومين . بخيالات الثروة والحرية دون حقائقها .

ومن هنا لم يكن لهذا الفن في حياة العرب وجود . فقد كان وجود العرب قائماً على واقع الحياة ، ووضوح الكلمة ، والإيمان بالله ، والأخوة البشرية الجامعة .

ولقد كانت المسرحية اليونانية محاولة لتفسير العقيدة وتمثيلها ، أما عند العرب فإن العقيدة غاية في الوضوح .

ومن هنا فقد وقف الفكر الاسلامي حائلاً في العصر الحديث دون ظهور القصة بالرغم من محاولات التعريب والترجمة حتى قال أحدهم[١] : إن المجتمع الانساني متى بقي تطوره وتقدمه محصوراً في المبادىء الاسلامية أو في التقاليد

---

١ – عن نص للاستاذ محمد عبدالله عنان .

التي كانت أثراً لهذه المبادىء ، فإنه لن يمدّ كتاب القصص العربي يوماً بمـادة واسعة أو غزيرة كالتي يقدمها المجتمع الغربي الى كتاب الغرب . أو أن يعدو الأثر الذي يفسح للمرأة ذات يوم أن تكون موحياً للفن أو للخيال[١] .

ومعنى هذا هو أن ظهور القصة في الأدب العربي إنما يمثل تياراً متعارضاً مع طبيعة الأدب العربي .

١ – عن نص للاستاذ محمد عبدالله عنان .

- ٢ -

نشأت الأسطورة في اليونان ، وفي فارس ، وفي الهند ، كبديل للحقائق التي جاء بها الوحي وأذاعها الدين ، فقد قامت على محاولة تفسير بشريّ لما وراء الطبيعة اعتماداً على الخيال والوهم والخرافة . أما في الجزيرة العربية فقد قامت ديانة إبراهيم وإسماعيل ( الحنيفية ) منذ وقت بعيد ، فقدمت للعقل العربي حقائق أصيلة ، لم تحوجه بعدها الى الأساطير التي ذاعت في المناطق التي تجمعت فيها الاساطير والخرافات والسحر ، مما تكوّن في بابل واليونان ، وكان أساساً للفكر البشري الذي شكل بعد ذلك الفلسفات اليونانية الهلينية في الغرب ، والغنوصية الغيبية في الشرق ، وقد ذهب البعض الى أن الأسطورة كانت مصدر العقائد في اليونان . وهي مجموعة من الصور والقصص تدور حول الأوثان والآلهة والهياكل والمذابح والطقوس والكهانة وما يتصل بها من ترانيم ، وكلها تهدف الى خلق تصور لموقف الانسان أمام أسرار الطبيعة وقضية الخلق والحياة والموت . وتقوم في مجموعها على تقديم الضحايا لاتّقاء غضب الآلهة ، واسترضائها في عدد من المناسبات كالفصح والعنصرة ومواسم الحصاد . وفي هذه المناسبات تتألف الجماعات التي يتقدمها الكهنة والتي تنشد الأناشيد وتتبعها الموسيقى ويتقدمها الكهنة . وتحمل هذه الأساطير بالإضافة الى المعتقدات ، وتفسير أحداث الحياة ، وظواهر الطبيعة ، قصصاً عن الابطال والعظماء الذين قاموا بأعمال الشجاعة الخارقة والذين تحولوا مع الزمن الى آلهة أو أنصاف آلهة . والاساطير في مجموعها حصاد من القصص الخرافية القائمة على التهويل والمبالغة ،

والتي تضم عوالم العمالقة والأقزام والشياطين والغيلان والجان والقوى غير المنظورة . هذا العالم كله قد ظل تراثاً لليونان وغيرهم ، وعجز أن يتجاوز الى أرض الحنيفية التي قامت فيها الأديان من إبراهيم الى محمد ، إلا حين حمل ذلك أصحاب التلمود ونقلوه من البابليين والإغريق وأضافوه الى تراثهم . ولقد كان لفكرة التوحيد أثرها البعيد المدى في مطاردة هذا الركام الزائف من الوثنيات . ولقد خلا الادب الجاهلي من هذه الاساطير ولم تشر المعلقات وهي أعظم آثارهم قبل الاسلام الى شيء منها[1] .

ولا ريب أن الاسطورة في مجموعها نتاج غريب عن بيئة التوحيد والفكر الاسلامي ، لأنها تقوم على تفسير بشري زائف ، بينما يجد المسلم عنده تفسيراً كاملاً للكون والغيب وعالم ما وراء الطبيعة كله ، فلا يحتاج معه الى مثيل أو بديل . وكل ما تورده الاساطير اليونانية وغيرها يتعارض مع الصراحة والبساطة والوضوح التي يتسم بها الاسلام ، حيث لا يوجد إلا الله الواحد الأحد الذي لا شريك له ، الواحد الذي لا يتعدد ، الرحمن الرحيم ، مصرف الطبيعة في غضبها ورضاها والبحار والرياح ، والذي لا يحارب البشر ولا يصارعهم ، ولا يطلق عليهم الجن أو الشياطين ، أو حيوانات البحار أو الجبال ، وحيث الاسلام يعارض مفهوم البطولة الوثني ، ويفرق بين الألوهية والبشرية ، ويرفض مفهوم تحول الابطال الى آلهة ، والذي يقرر أن النبي المؤيد بالوحي بشر قد خلت من قبله الرسل يعيش ويموت ولا يتميز عن الناس إلا بأنه يوحى إليه .

ولقد حاول المنهج العلمي الغربي الوافد أن يقذف الفكر الاسلامي ، والثقافة العربية بهذا الحصاد الضخم من الاساطير بترجمتها الى اللغة العربية في محاولة لإغراق الادب العربي بها ، بل وجرت المحاولات في البحث عن الاساطير في الادب العربي نفسه . ولقد حاول بعضهم بعث الاساطير التي دارت حول

---

١ – مفيد الشوباشي .

ولادة الرسول وبيئته الاولى لإضافتها إلى السيرة بعد أن نفاها منها المؤرخون والمحققون على مرّ العصور .

ولقد كانت طبيعة النفس العربية الاسلامية قائمة أساسا على الإيمان بالله ، وعلى طابع الاخلاق ، وعلى الواقعية الفطرية التي تواجه الحياة مواجهة الوضوح والصدق . فلم تعرف عالماً وهميـّاً خرافياً يقوم على الشهوات والاطماع والاحقاد والخمر والرقص والخوارق والاهواء ، على النحو الدامي الصارم العنيف المليء بالظلم والقلوب المطموسة كعالم الاساطير . والاسلام في جملته – وهو دين إبراهيم من قبل – ينبذ فكرة الظلم والشهوة وعبادة الاجساد وعبادة الفرد .

## - ٣ -

أبرز معطيات الأساطير هي المأساة ( التراجيديا ) فقد تحولت مواسم العبادة الى استعراضات صاخبة ، تشكلت في ظلها المسرحية وارتفعت الى أن أصبحت فناً غنائياً راقصاً يستوعب فكرة الأسطورة ويصور هدفها . وتفترض المأساة وقوع الصراع بين الانسان والآلهة ، وانتهاءه بمأساة فاجعة تنتصر فيها الآلهة على الانسان وتسحقه .

ونظرية الصراع بين الانسان والقدر : هي نظرية وثنية . ثم استشرت في آفاق الفكر الغربي كله . وسيطرت على المسرح الغربي المسيحي بعد المسرح الوثني اليوناني وأمدتها فكرة الخطيئة بما جعلها طابعاً أساسياً للتراجيديا .

وقد قامت التراجيديا على أساس عبادة باكوس إله الخمر عند الإغريق باسم ( ديونيزوس ) . ففي كل ربيع كانت تقام لهذا الإله حفلات صاخبة ، يرقص فيها الناس ويغنون حول تمثال إله الخمر . ومنها تطورت الى أن ولدت المسرحية . وتنبع روح التراجيديا من شعور ديني ، وأساس التراجيديا في تقدير الباحثين الغربيين هو الصراع بين الانسان والقوى الإلهية . ثم تطور المسرح بعد ظهور المسيحية في كنائس روما وباريس ، واتخذ من مفاهيم الصلب والشهداء والآلام مادته الأولى . وقد وجدت المسيحية في المسرح أسلوباً لتفسير لاهوتها وتحليله وإقناع الجماهير به . وهذا هو السرّ في احتجاب المسرح عن أفق الفكر الاسلامي والمجتمع الاسلامي ، فقد كانت عقيدة التوحيد من الوضوح والجلاء

والبعد عن الغموض ، بحيث لم تكن في حــاجة الى الأداء المسرحي « وشعائر الاسلام على بساطته ليست في حاجة الى عــازف يعزف على آلة موسيقية ، أو منشد ينشد نداءات كهنوتية ، أو تنظيم عرض مسرحي » .

هذا فضلاً عن أن « الصراع المأساوي الدرامي الذي هو حيــاة الحدث في المسرح لا يجد بيئة طبيعية في إيمان العرب ومعتقداتهم ، فالبطـل المأساوي في صراع مع الآلهة والقدر . بينما الانسان العربي في سلام مع الله الواحد الأكبر ، وفي استسلام للقدر لا يحول دون السعي ، وإن كان يحـــول دون المصارعة والصراع » .

والعقلية العربية لا تتصور الصراع مع القدر والآلهة على نحو مــــا يتصوره اليونان الذين يؤمنون بقوى متعددة ، ويؤمنون بأن الحرب مع القدر ، وإن كانت آخرتها الهزيمة المرّة ، فـــإنها حرب تدل على شجاعة الانسان وتجبره وجبروته وعلو شأنه. أما المسلمون فيرون أن الصراع لا يقوم أصلاً مع التوحيد. ثم تحولت التراجيديا مع العصر المسيحي الى مفهوم قائم على آلام المسيح والخطيئة الأصلية ، وقـــام مفهومها على نفس الأسس الإغريقية : فكرة الإله المعذب بالقياس عليه الانسان المعذب ، وأولى مراحل الدراما الخطيئة ، وسبب الخطيئة سقوط الانسان . وان مصدر عذاب الانسان وتمزيقه هو القدر الذي يتحكم في البشر والآلهة جميعاً بحسب معتقدات الأديان القديمة » .

هذا المفهوم غريب جدًّا على الفكر الاسلامي . وهو ليس متقبلاً أصـلاً ، فليس في الاسلام خطيئة أصلية لكل البشر ، والانسان مسؤول في حدود عمله ( فَلَا تَزِرُ وازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَى) ، ورحمة الله واسعة لجميـــع المخطئين تقبلهم وترفع عنهم إصر الخطيئة ، وليس في الاسلام مطلقاً القدر المتحكم ، ولا تمزيق الانسان . ولذلك فإن المحاولة الحديثة التي تجري بتطوير التراجيديا بالنسبة لكل الأبطال والعظماء حتى تضعهم في هذا القالب من الصراع ، هي محـــاولة

زائفة يردها الفكر الاسلامي والأدب العربي لأنها لا تتفق مع عقيدته ، ولا مع طبيعته ومزاجه النفسي . وقد أشار الدكتور شكري عياد : الى هذه الفوارق البعيدة بين الفكر الغربي والفكر الاسلامي حول هذا المعنى حين قال : نرى أن هناك أسباباً أساسية في نظرتنا الى الحياة تجعل شخصية البطل التراجيدي كما يعرفها الأدب التمثيلي الغربي بعيدة عن إحساسنا الأصيل، بحيث اننا قد نستمتع بمشاهدتها ، ولكن لا نستطيع أن نخلقها في أدبنا خلقاً .

ومفهوم التكفير ( عن الذنب ) موجود في تراثنا . ولكننا نلاحظ أن فعل التكفير لم يستعمل في القرآن إلا مستنداً الى الله ( ويكفّر عنكم سيئاتكم ) ونفهم من ذلك أن الله يمحو ذنب الانسان التائب . وفي تراثنا كلمة هامة هي كلمة العصمة ، والفقهاء يقرون عصمة الأنبياء من الذنوب في نفس الوقت الذي يجمعون فيه على أنهم بشر . والنتيجة هي أننا في نظرتنا الى الحياة يمكننا أن نفهم الضعف والجريمة . ولكننا نفهم أيضاً أن الانسان يجاهد ضعفه أو ميله الى الجريمة جهاداً مستمرًّا . وأن هناك قوة عليا تسنده في ذلك . ونحن نشترك مع البشر جميعاً في اعتقادنا أن العقاب الذي ينزل بالخاطىء هو كفارة أو تكفير عن ذنبه . إلا أننا نعطي قيمة كبيرة لجهاد النفس ، ونرى أن القوة العليا تكون دائماً قريبة من هذا الجهاد . وهذا التصور للذنب أو الجريمة من الناحية الروحية يختلف الى درجة كبيرة عن التصور الغربي الذي لا يزال مرتبطاً بتراث اليونان كما نراه في تراجيديّاتهم .

فالتراجيديّات اليونانية حين تصوّر لنا سقطة البطل تفترض أن هناك صراعاً بينه وبين القدر ، وبينه وبين نظام الكون الذي لا يفهمه أو لا يسلم به دون فهم إلاّ حين يرى هلاكه ، أما البطل المسلم فهو أكثر وعياً بالنسبة الى دوافعه ، وأعظم إيماناً بالقدر . ولا أظن أن ذلك راجع الى أننا لم نتجاوز عصر الملاحم بعد . ففي كل أطوار حضارتنا بارتفاعاتها وانخفاضاتها لم نتصور الانسان قط

على أنه محكوم عليه بالخطأ ، وإنما تصورناه مركز الصراع المستمر بين الخير والشر ، وهو ميدانه والقابض على السيف فيه[1] .

ولا شك أن القصة ( التراجيديا والمسرحية ) وفق المفهوم الغربي ، تصادم النفس العربية الاسلامية . ( أولاً ) : من ناحية الصناعة والتلفيق والتهويل والأوهام . فالنفس العربية الاسلامية تؤمن بالواقع ، والواقع يؤكد أن عشرات من الأبطال لم تنته حياتهم بالمأساة . إذ أنهم لم يصادموا الأقدار ، بل كانوا مثالاً عالياً للرحمة والعطاء . وقد استطاعوا أن يقدموا لأمتهم إضافات جليلة وأعمالاً باهرة . ( ثانياً ) : من ناحية قسر القصة على أن تنتهي بالهزيمة . فشرط المأساة ، وهي عمل فني ، وليست صورة واقعة من الحياة ، أن ينهزم فيها البطل دون حقه . وأن يهوي الانسان الطيب وينتصر الشرير . والواقع أن الحياة وفق مقاييس الحق والعدل الإلهيين لا بد أن تنتهي بانتصار الحق وسقوط الباطل والشرّ . ولا ريب أن هذا المفهوم الذي فرض على المأساة والمسرح الغربي . إنما يستمد مفهومه من التلمود ، ويرمي الى خلق جوّ دائم من التدمير والصراع ، وإعلاء قيم الباطل والشر في وجه قوى الحق والخير . وذلك ما يرفضه الفكر الاسلامي والمزاج النفسي العربي بطبيعة تكوينه . كما يرفض الطقوس الجنائزية والموسيقى والصيحات والاستعراضات الصاخبة . فهي تبدو متعارضة مع هتاف ( الله أكبر ) الذي به تطمئن القلوب .

---

١ - من بحث في مجلة الثقافة ١٩٦١ .

- ٤ -

ومن هنا يمكن أن نفسر في يسر . لماذا لم يعرف العرب والمسلمون المسرح . « ذلك أن العقيدة الاسلامية على وضوح أركانها وجلاء تعاليمها لا يشوبها لبس ولا غموض يتطلبان تحايلاً في التفسير . فالوحدانية لا تقبل التأويل ولا تحتمل الشرك ، وليس هناك أرباب ولا أنصاف أرباب كما هي الحال في الوثنية ، كذلك لا توجد عقدة يتعذر فهمها ، ولا يوجد أب ولا ابن ولا روح قدس كما هي الحال في العقيدة المسيحية »[١] .

---

١ - زكي طليمات ، مجلة المجلة مارس سنة ١٩٦٦ .

( رابعاً )

# الأدب المكشوف

طرح المنهج العلمي الغربي الوافد في أفق الأدب العربي تيارات جديدة من نتاج المترجمات الغربية ممثلة في قصص لورنس وهافلوك أليس ، وشعر بودلير وعشرات من القصص الخليع الذي يحمل صورة الدعارة والإباحة . فلما ثار الناس حوله وعارضوه تدافع أتباع هذا المنهج يموهون بالقول بأن الفن الصريح غير الفن المكشوف ، وأن هناك ميولاً إنسانية وحقائق دفينة تختلف عن طابع الكشف العربي . ولم يكن ذلك في الحقيقة إلا خداعاً ووهماً . ذلك أن الأدب حين ينفصل عن القيمة الأخلاقية ويتحرك خارج إطار الفكر الاسلامي الجامع بكل مقوماته ، فإنما يكون في مجموعه زائفاً ، لأنه أسقط الأصل الأصيل في ولائه ونسبه . ذلك أن الفكر الاسلامي لا يقر فنون العري ولا الصراحة في رسم الجسم أو الكشف عن العلاقات التي تقوم على غير طابع الأسرة الأصيل . ويرى أن ما سوى ذلك فهو ليس من طبيعة المجتمع الاسلامي الذي يتحرك في دائرة القيم الاخلاقية والاجتماعية. واذا كان الاوربيون قد ذهبوا في ذلك مذهباً وبلغوا فيه مبلغاً ، فإن ذلك يرجع أساساً الى أنهم لا يتحركون في دائرة الاخلاق والفضيلة ، وأنهم لا يجعلون للضوابط الدينية أهمية تذكر .

ولا ريب أن الأدب المكشوف وأدب الجنس يقوم على شخصيات تحركها الشهوات وتحكمها الغرائز والاهواء ، وتشوقها عواصف من المغريات ، وهي في تصوير هذا كله لا تستطيع أن تقدم للنفس الانسانية السوية شيئاً مما تضيفه الى

تجربتها أو يضيء لها طريق الحياة البشرية الصحيح . ولقد تعالت في الغرب الصيحات في مواجهة هذه التيارات المكشوفة، حتى لقد أرسل الرئيس مارزايك ( تشكوسلوفاكيا ) الى الوزير الفرنسي ( لويس بارتو ) يقول : إن أبطال قصصكم الجديدة تحركهم الشهوات الوضيعة والحب الجنسي الشره ، ويمكنكم أن تتأكدوا أننا قد مللنا ، بل قد اجتوينا هذا الضرب من الروايات العاطلة السقيمة التي لا تطالعنا فيها سوى امرأة سليطة يحبها اثنان أو ثلاثة عدا زوجها الصنديد الذي تخدعه بشتى الحيل . وهكذا في دائرة بغير انتهاء . ويقول المازني معلقاً على بعض قصص الجنس : إني لأعجب لهذا الكاتب لماذا يسمي الاشياء بأبشع أسمائها ويصف ما يكون بين الرجل والمرأة بأصرح عبارة . وما ينقص أحداً أن يعرف أسماء أعضائه أو ما يكون بين الجنسين .

★ ★ ★

ولقد تصدر بعض دعاة المنهج العلمي الغربي الوافد للدعوة الى الأدب الجنسي والأدب المكشوف وتبريره . ومنهم من ترجم بودلير ، وأكثر القصص الفرنسي إباحة . ومنهم من دافع عن حرية الانسان . ومنهم من حاول تجديد الصور الإباحية في الأدب العربي القديم، والتي ظهرت في عصور تغلب الطوابع الفارسية والمجوسية القديمة على الأدب . وقال زعيمهم عبارته المعروفة : ( ليس للأدب أن يعطل عمله ليسأل عن قواعد الأخلاق ) . واستمد الدعاة جميعاً مفاهيمهم وفلسفتهم من نتاج نظرية فرويد. وهو تمجيد الشهوة البدنية والتغني بلذة الجسد. وترددت مفاهيم لورنس عن احتقار العقل للجسم ، ومفاهيم أوسكار وايلد . وهكذا تستر الأدب الهدام تحت أسماء مذاهب فنية ومناهج علمية تدعو الى إطلاق الفن من قيود الأخلاق .

★ ★ ★

ولا ريب أن نظريات الجنس تحمل دعوة مدمرة خطيرة الى التحلل والانطلاق والقضاء على مختلف الضوابط والقيم في مجال علاقات المرأة بالرجل وإخراجها من مفهوم الاسلام .

- ٢ -

رفض الفكر الاسلامي والادب العربي مفهوم المنهج العلمي الغربي الوافد الذي يقول بأن الادب فنّ حرّ يصور النفس الانسانية ولا يتوقف عند قواعد الاخلاق ، وهذا المفهوم بطبيعته بعيـــد عن الفطرة ، ولا إنساني ، ولا يرضي الذوق أو الضمير أو المزاج العربي الاسلامي .

فالمفهوم الاسلامي للأدب يقوم على أساس أنه وحدة من وحدات الفكر الكلية ، لا ينفصل عنها ولا يستقل ، بل يتكامل ويتلاقى مع الاخلاق والدين والمجتمع ، بل إن الفن والادب في الفكر الاسلامي يلتقيان مع الدين والاخلاق، ولا يتعارضان معها ، ليؤديا دورهما البناء في حياة الجماعة والفرد معاً . وان النظرة الصحيحة تثبت أنه ليس هناك تعارض أصلاً بين الفن والدين . بل هناك تطابق واتفاق ، فإذا خالفت الفنون الدين في شيء فهي بالصورة التي تخالف بها الدين قد جانبت الحق ، ودابرت الخير ، وأخطأت الفطرة التي فطر الله عليهـا الناس والخلق(١) .

وروح الفكر الاسلامي المتمثـل في الادب العربي يقوم على القول الكريم

---

١ - عن بحث للدكتور محمد أحمد الغمراوي .

دون الهجر ، وعلى الإشارة العابرة الى الأمور المبتذلة دون الكشف والافاضة في التبذل والتهتك وتصوير المحرمات الجنسية والميول المنحرفة وذلك بالقدر الذي يدل عليها . أما هذا اللون من تصوير أخفى الغرائز البشرية والتحدث عن تطوراتها وتقلباتها على النحو المثير الذي يكون له آثاره البعيدة في نفوس الشباب فهو مرفوض أصلاً .

# الفصل الثالث

## أخطاء الفن

## ( أخلاقية الفن )

أثار المنهج العلمي الغربي الوافد صراعاً شديداً في أفــق الفكر الاسلامي والأدب العربي بين الأخلاقيات والفنون في محاولة لخلق أدب متحرر من إطار الأخلاق وأولويته خاضع لمفهوم الفن للفن ، أو إعلاء الجماليات على الاخلاقيات.

وقد جاء هذا الاتجاه في الغرب في محيط تحول خطير في الآداب والقيم انتقل به الفكر الغربي من طابع المثالية وبقايا مفهوم الدين الى نحو من أنحاء التحرر الكامل الخاضع لإطار المادية الصرفة .

أما في الفكر الاسلامي والأدب العربي ، فإن الفنون كلها تتحرك في إطار المفهوم المتكامل الجامع الذي يحول دون استعلاء الأدب أو الفن أو التربية أو غيرها باستقلاله عن الاطار الشامل . وتلك قاعدة طبيعية راسخة لا تختلف فيها وجهات النظر ، ولا تحتاج الى تأويل . فالفن جزء من العمل الفكري المتجه الى بناء المجتمع على أساس الدعائم الأخلاقية والنفسية المنبعثة من مفهوم أصيل : هو دفع العجلة البشرية كلها الى تحقيق رسالة العمران في إطـــار من التماسك والصمود . ولذلك فإن الفنان الاسلامي ملتزم بمسؤولية الهدف ، كما يلزم بها الكاتب سواء بسواء وهي مسؤولية مشتركة بين جميع أفراد المجتمع .

- ٢ -

إن الفن بمفهوم التحرر من إطـــار الأخلاق والدين ( وهو مفهوم الفكر الغربي المعاصر ) إنما يرمي الى تمجيد الجسد وتعظيم الأهواء وإعـــلاء طوابـع الوثنية والإباحية . وهو تجديد لمفهوم الفن اليوناني والرومـــاني الذي كان مصدر إنهيـــار الحضارة الرومانية التي تداعت عند ما فصلت الفن عن الدين والأخلاق ، وتسرب إليها الانحطاط ودبت في جسمها عوامل الفناء .

والفكر الاسلامي إزاء هذه المفـــاهيم الوافدة التي يطرحها المنهج العلمي الغربي له موقف هو الاعتراف بالتباين الواضح بين أمة وأمة في فكرها وذوقها ومناهجها ، ثم هو اليقظة للغايات التي تختفي وراء الدعوة الى مفاهيم حرية الفن، وهي تتصل تماماً ببناء الشخصية الانسانية وتعمل على إفسادها وزلزلة قواها وتحطيم مقوماتها ، ودفعها الى طريق الانحراف والتحلل .

ولا ريب أن الفن بمفهومه الغربي لا يجد قبولاً في النفس العربية الاسلامية ، وإن وجد مسارب من خلال مطامع الهوى وغايات الإباحة الفردية التي تهدم الفرد وتترك أبلغ الأثر في دائرة مجتمعه .

وإذا كان العلم تحكمه مقاييس المنطق وقواعـــد العقل ، فإن الفن تحكمه ضوابط المشاعر وقوانين العواطف . فالفن ليس إذاً طليقاً من كل قيد . وليس في الوجود كله شيء طليق لا يتحرك في إطار واضح ولغاية معروفة .

## - ٣ -

لا ريب أن الاطار الأخلاقي للأدب العربي هو حقيقة قائمة [١] . وأن القول بأن الأدب أو الفنَ للفن هو مفهوم وهمي إذ لا بد أن يكون الأدب أو الفن في خدمة غاية أو هدف . والأساس أن الأدب والفن خاضعان لقانون الأخلاق القائم على حراسة المجتمع ، وقد عرف الأدب العربي هدفه الواضح منذ نشأته في رحاب الاسلام ، فعرف جمال الطبيعة ، وخلق الله في الأنعام والانسان على نحو كريم ورفيع ، ونوّه القرآن في آياته الكريمة بمفاتن الطبيعة الساحرة ولفت إليها الأنظار والأفئدة ، ونزه العاطفة بين الرجل والمرأة عن الشهوات الصاخبة والأهواء العاصفة إذ أدارها في دائرة أصيلة ثابتة « وتنزه الحب في الأدب العربي عن شهوات الجسد واستعذب ابطاله ألم الحرمان واستعاضوا بمتعة الطهر عن المتع الارضية ، وبالوصال الروحي عن الوصال الجسدي ، ووجدوا في الوفاء المتبادل أنبل غايات عاطفتهم السامية » . وعرف الفكر الاسلامي والادب العربي الجمالَ بمعنى أرحب وأوسع وأكثر عمقاً من مفهوم الادب الغربي ، فلم يقصره على لذة الغريزة أو لذة العين أو لذة السمع ، بل اعتبر أن الجمال المعنوي لا يقل عن ذلك بل قد يزيد عليه ، وأن على الاديب أو الفنان

---

١ - من بحث للدكتور محمد سعيد البوطي .

إذا تناول الجمـــال أن يقدمه في أسلوب كريم ولفظ عفيف[1] . ورسالة الأديب المسلم والفنان المسلم هي « تصحيح النفس الانسانية في الوجود ونفي التزوير عنها وتخليصها مما يتلبس بها من أدرانٍ ، ونفي الوثنية عن الفكر والسموّ بها » .

---

١ – من بحث في مجلة المعلم العربي .

- ٤ -

إن محاولة البحث في العلاقة بين الجمال والأخلاق ، أو بين الفن والاخلاق هي من القضايا التي كانت موضع اهتمام المنهج العلمي الغربي الوافـــد ، نتيجة لأساس أصيل في هذا الموضوع . ذلك هو قيام الانشطارية والاستقلالية الكاملة بين العلم والفن والاخلاق والسياسة والنفس وغيرها من المناهج الفكرية المختلفة. ومن هنا فقد كان لا بد من البحث عن وجوه الالتقاء والاختلاف بين هذه المناهج المنفصلة أساساً .

أما في مجال الفكر الاسلامي فإن الأمر يختلف . ذلك أن هذه المناهج كلها ليست إلا خيوطاً لنسيج واحد هو الانسان . والمنهج العلمي الاسلامي يقوم على الوحدة والتكامل بـــين هذه المفاهيم . ولا يعتبرها مناهج مستقلة . ولكنه يعتبرها عناصر في جوهر واحد . ومن هنا فإن الفكر الاسلامي يواجه بالدهشة محاولة المقارنة والبحث عن العلاقة بين هذه العناصر التي هي في أفقه متكاملة متوازنة .

فالطابع الاخلاقي هـــو قانون أساسي شامل لا يستوعب الفن أو الادب وحدهما . ولكنه يستوعب السياسة والاجتماع والتربية والاقتصاد ، حيث يعجز أي عنصر من هذه العناصر أن يتحرك خارج الإطار الجامع ودون تقدير للعلاقة الواضحة بين القيم ، ومن هنا فليس هناك مـــا يسمى بإخضاع الفن

للإخلاق ، أو استقلال الفن عن الخضوع للأخلاق . وكذلك الجمال فإنه أخلاقي المصدر والفهم والاتجاه .

وقد يذهب الفكر الغربي الى أن يشهد علماء الجمال حرباً ضروساً ضد الاخلاق على حد تعبير شارل راولو ، وقد يذهب البعض الى القول بأنه ليس هناك كتاب أخلاقي أو غير أخلاقي ( كما يقول أوسكار وايلد ويردده عشرات من دعاة التبعية للفكر الوافد ) ، بل إنه مكتوب كتابة جيدة أو رديئة ، فذلك الذي يقوله زولا واوسكار وايلد وغيرهم ، مما لا يحمل الادب العربي تبعته ولا يخضع له . وليقم الصراع شديداً أو يسيراً بين الجماليين والاخلاقيين وليحفر دعاة الماسونية ورجال التلمودية هوة عميقة بين الفن والاخلاق ، وليتابع ذلك من يكتبون بالعربية أمثال محمد مندور وتوفيق الحكيم وغيرهما ليقولوا إن الفن للفن لا علاقة له بالمسألة الأخلاقية ، وأن الفن غاية في ذاته لا محل للحكم عليه حكماً أخلاقياً . فكل هذا ومثله لا قيمة له في ميزان الفكر الاسلامي والأدب العربي ، ولا يخدعنا لحظة عن مفهومنا الأصيل الجامع الذي يفهم الفن منطلقاً الى الخير في أحسن أداء دون أن يحوجه ذلك الى الخوض في الشهوات والآثام .

إن النفس الإنسانية في مفهوم الفكر الاسلامي تتطلع بالفن الى السموّ والارتفاع والاستعلاء على الأهواء ، لا أن يردها الفن الى حمأة الإثم والفاحشة . وهي توازن بين المادي والروحي . وتجعل أولية الخلقي على الجمال . والقيم في ثقافتنا فوق مفهوم الفن بمفهومه الحرّ المنطلق . ذلك أن الثقافة العربية هي ثقافة القيم ، أما ثقافة الغرب والإغريق فهي ثقافة المتعة . فقد أطلقوا الجسم للعري وقدموا الجمال بمفهوم الشهوة على الخير والأخلاق .

- ٥ -

إن محاولة تحرير الفن من كل قيد ، وإعفاءه من كل قانون ليحقق عنصر الجمال هو مفهوم وافد غير أصيل . وهو في نفس الوقت ليس علمياً ولا يتفق مع الفطرة « ذلك أن الحرية المطلقة ليست هي الجمال ، إن الضوابط في الفن هي روح النظام ، والحرية المطلقة تبث روح الفوضى . والقبح في الفن هو الفوضى ، ولا بد للفن من قيود المواصفات التي هي بمثابة المقاييس التي تحدد القيم الجمالية . ذلك أن الفن له هدف وتصميم وخط سير وخطوات .

والفن يعتمد على ملكة التنظيم ، وكل فن يخلو من عمل هذه الملكة التي تربط بين الظواهر ، وتوفق بين الخواطر ، وتنسق المشاهد لا يعدُّ فنًّا »[١] . ويتسم الفن الاسلامي بالبهجة والرونق الجميل . ويتميز بمفاهيم خاصة ، تختلف اختلافاً تاماً عما اتجهت إليه مفاهيم الفنون الأخرى ، ولقد كانت الفنون اليونانية تبدأ بالتمثال المجسم ، أما الاسلام فقد قلب قائمة الفن رأساً على عقب ، ووضع ( البيان ) على رأس القائمة . فعالم الفكر والتأمل أوسع العوالم ( نٓ. وَٱلْقَلَمِ وَمَا يَسْطُرُونَ ) .

« لقد[٢] بدل الاسلام الرسم من محاكاة الطبيعة الى خدمة الأدب والتعبير

١ - من بحث لأحد الباحثين .

٢ - من بحث لمحمد عبد العزيز رزق .

عن المعاني فأوجد أنواعاً جديدة من الخطوط . فقد هجر الاسلام التماثيل المنحوتة ، ووقف بجانب البيان والموسيقى وفن التعمير » .

« والفنان المسلم يعلم حق العلم أن الفن ليس تقليداً للطبيعة كما زعم أرسطو ، ولا هو تسلية ولهو محض كما زعم غيره . بل إن الفن عند المسلم كما كان وقت ميلاده جبيرة للنشاط غير المطلوب في الغريزة الجنسية ، كابحاً لجموح الغرائز ومحولاً قواتها واندفاعاتها الطاغية الى مسالك الخير ومطالع النور » .

« ولقد أبدع الرسام المسلم في رسوم الأشخاص والحيوان والطير ، دون أن يكرر نفسه ساعياً الى تهذيب المنتج وتجميله دون أن يتقيد بعناصر معينة . كما أنه نظر الى الطبيعة نظرة واعية ، وأخذ عنها معانيها الخالصة مجردة عن كل ثانوياتها » .

وكان هدف الفن عنده هو تجميل الحياة ، التجميل ينقل العناصر الزخرفية عن الطبيعة بالتصرف والتهذيب والتحوير . وفي نطاق الاستمتاع بالجمال والزينة في دائرة الاعتدال في وجه تهذيب الذوق وتربية حاسة الجمال . وكان رائده منهج القرآن : ( إنا جعلنا ما على الأرض زينة لها ) . ولقد تمسك الفكر الاسلامي بفكرة أن مهمة الفن هي السمو بالأخلاق وإعلاء النفس الإنسانية والتسامي بالغرائز .

- ٦ -

إن موقف الإسلام من الفن في مواجهة المنهج العلمي الغربي الوافد واضح وصريح . ذلك هو أنه « ما دام العلم والدين كليهما قد اجتمعا على استحالة التناقض في الفطرة ، فإن هذه الفنون إذا كانت من روح الفطرة وجب ألا تخالف أو تناقض دين الفطرة : دين الإسلام في شيء . فإذا خالفته في أصوله ودعت صراحة أو ضمنا الى رذيلة من أمهات الرذائل التي جاء الدين لمحاربتها ، وعاقت الانسان أن يعمل بالفضائل التي جاء الدين لإيجابها على الانسان حتى يبلغ ما قدر له من الرقي في النفس والروح ، إذا خالفت الفنون الدين في شيء من هذا أو في شيء غير هذا ، فهي بالصورة التي تخالف بها الدين فنون باطلة ، فنون جانبت الحق وأخطأت الفطرة التي فطر الله عليها الناس والخلق . إذن لا بد أن يكون بين الفن والأدب والعلم وبين الاسلام تمام التطابق والاتفاق . ويصل الى هذا المعنى كثير من الباحثين وفي مقدمتهم مؤلف كتاب الفن الاسلامي الذي يرى أن التصور الاسلامي للفن يبدأ من الله سبحانه وتعالى الى الوجود في كل صوره واشكاله وكائناته وموجوداته . ويعنى عناية خاصة بالانسان خليقة الله في الأرض . ثم يعود الى الحقيقة الإلهية التي صدر عنها فيكون تصويراً سليماً كاملاً شاملاً في خشوع لله وتقوى ومراقبة له ، وفيه حبّه والتطلع إليه والاطمئنان الى قدرته ، على حين تقف أوربا عند الموروث الإغريقي الذي يصور الآلهة في صراع مع البشر أو صراع فيما بينها ، ومفهومها

هو أن الانسان في صراع مع الكون جماده ونباته وحيوانه، بينما في الاسلام تقوم الصلة بين الانسان والكائنات على القربى والمودة والتعاطف والتعاون في ظل ناموس ( الله الأكبر ) .

والانسان في مفهوم الاسلام قبضة من طين ونفحة من روح الله ، وهو غير منفصل بأحد عنصريه عن عنصره الآخر في أية لحظة من اللحظات ، وهو ليس حيوان الدارونية ولا ملاك البوذية والهندوكية .

والجنس أساس في الانسان والجماد والحيوان والنبات ولكنه وسيلة لا غاية . وسيلة لحفظ النوع ، وفي الانسان لحفظ النوع وتربيته ، والحب طاقة واسعة ، والجنس لون منها فحسب ، منها حب الإله وحب الكون وحب الانسان . وليس كل الناس هابطين . هناك أبطال وأنبياء وعلماء مصلحون وشهداء الى جانب الأغنياء والرعاع والشهوانيين .

والواقعية في التصور الاسلامي هي التي تقدر الانسان حق قدره ، وتصور جانبيه ، وليست واقعية أوربا التي تعكف على الجانب الحيواني باسم الواقعية ( حيوانية دارون ومادية ماركس ) .

---

١ – بتصرف عن نص للدكتور محمد أحمد الغمراوي ( الرسالة م ١٩٣٨ ) .

## - ٧ -

هناك حقائق أربع لها أثرها في الفن الإسلامي :

الأولى : اليقين باليوم الآخر ، يوم الحساب ، والخضوع لله عز وجل ، والعمل بما جاء به القرآن، والنظر الى النبي كبشر يوحى إليه اصطفاه الله لتبليغ رسالته . هذا هو منطلق مفهوم الفن الاسلامي ، بالإضافة الى مفهوم الاسلام للحياة وكراهيته للترف والأواني الذهبية والجوهرات وكنوز القصور وتحف المعابد ، فضلاً عما كان لفكرة اليقين بيوم الحساب من أثر في خلق روح التواضع في بناء المسجد . فحلت المحاريب في الإسلام محل الطقوس والزخارف والأغاني .

- ٨ -

ويشير الدكتور عماد الدين خليل الى عوامل الاختلاف العميقة بين الفن الاسلامي والغربي نتيجة لاختلاف العقائد والقيم فيقول : إن الجمال سمة بارزة من سمات هذا الوجود ، والجمال ليس ضرورة ، بل زائد عن الضرورة . والكون خاضع لناموس ينظم حركاته وينسق عناصره وطاقاته ، هذا الناموس نظام وليس ضرورة ، والنظام عنصر من عناصر الجمال في الكون وإن لم يكن هو ذاته الجمال ومظاهر النظام : الدقة والتناسق والتوازن والترابط وخفة الحركة .

« وأوربا لم تر في مجال الجمال إلا الجمال الجسدي فعكفت عليه وحده . فنخرها السوس ، وعجزت عن فهم الجمال الأكبر المستمد من ناموس الكون . وهو الذي ينبغي أن تمارسه الفنون الانسانية الرفيعة .

والقدر في الفن حقيقة هائلة رهيبة . والبشر لا يحسونه وهو سائر معهم في التيار . وإنما يحسونه وهو معاكس لهم . لذا عالجته الفنون البشرية منذ القدم في ثوبه الفاجع العنيف . ولا سيما الأدب اليوناني الذي أفسح له رقعة واسعة من لوحته الفنية زاد من قساوتها وعنفها تصويرهم للآلهة بصورة شهوة التجبر المحموم والفسق المنحرف ، ثم انحرفوا فصوروا القدر قوة عمياء لا ترحم الآلهة نفسها .

« ثم جاءت الواقعية الأدبية التي جنحت عن معالجة القدر المتلفع بالغيب ، واستبدلت به قدراً آخر في صورة محسوسة ملموسة كقوة الطبيعة أو قوة المجتمع أو الدولة أو الطبقة . وهكذا أصغرت من قيمة الانسان حين أصغرت من قيمة الإله ، وتعبدت للآلهة الجديدة » .

ولا ريب أن إيمان المسلم بالقدر يدعوه للعمل الدائم في كل لحظة بلا قلق ولا جزع ولا اضطراب . هـــذا التصور ينشيء فنـًّا يختلف عن اختلالات الفن اليوناني .

فالعقيدة في الله هي أضخم الحقـــائق في حياة الانسان ( المسلم ) ، كما هي أضخم الحقائق في كيان الوجود .

والفن الصحيح لا يمكن أن يغفل هذه الحقيقة . لذلك ينبغي أن يبرز الفن حقيقة العقيدة بمقدار ما هي حقيقة كونية عميقة شاملة . وينبغي أن يرسم من خلالها كل حقائق الحياة .

وجملة القول في هذا : ان الجمال في الفن الاسلامي هو جمال المضمون ( مــع حسن الأداء ) ومن أجل هذا فليس كل موضوع صالحاً للفن ، والجمال ليس دائماً نشوة ترتبط بالغريزة الجنسية ، وان القول بذلك يتعارض مع أدق أصول المفهوم الاسلامي للفن ، هذا المفهوم الذي يقوم على أساس أن الجمـــال أداة من أدوات المعرفة والإيمان ، لأنه في مهمته الأساسية يكشف للانسان عظمة الخالق .

ومن هنا يجيء الخلاف الجذري بين المدرسة الاسلامية والمدرسة الغربية التي يحاول المنهج العلمي الغربي الوافد أن يفرضها .

ولقد خضعت مفاهيم الفن والجمال والأخلاق في الغرب للمدرسة الاجتماعية السائدة القائمة على أساس المذهب المادي ، والتي تحولت من مفهوم الى مفهوم .

بينما يقف الفكر الاسلامي على قاعدة الثبات في ربطه بين الروح والمادة والدنيا والآخرة.وأخطر ما يساق إليه المنهج العلمي الغربي الوافد هو تفسير الانسانيات بمذهب المادة المنكرة للروح والنفس والدين والغيب . وأخطر مـا يقع الخلاف فيه : الذوق الذي لا يفهم في إطار المنهج المادي إلا فهماً محدوداً ناقصاً . وكيف يمكن للمنهج المادي وليـــد المنهج التجريبي أن يفهم المواهب الفطرية والغرائز والانفعالات والعواطف والأمزجة إلا على أنها ذبذبات يحدثها الجسم . وذلـك فهمٌ يجعل القاعدة في فهم الجمال والفن مادية مغرقة في القصور والانحراف عن طبيعة الانسان الجامعة المتكاملة .

## - ٩ -

إن موقف الفكر الاسلامي من مفهوم « الطبيعة » معارض لموقف الفكر الغربي معارضة كاملة . وأبرز ما يناقض فيه الفكر الاسلامي مفهوم المنهج العلمي الغربي الوافد . نظرية المحاكاة أو التقليد التي هي أساس الفن الاغريقي ، وما يتبعها في العصر الحديث من دعوى القول بتجميل الطبيعة . والفكر الاسلامي يصدر في هذا عن مفهوم أساسي واضح هو التوحيد والإيمان بالله الخالق إيماناً عميقاً يرى به عظمة الخلق وكماله . عظمة وكمالاً لا تعجز كل إنسان عن محاكاتها أو سبقها أو تحسينها .

ولا ريب أن هذه المفاهيم كلها مما يقف منها الفكر الاسلامي والأدب العربي موقف الإنكار والرفض الكامل .

والاسلام يرفض أساساً نظرية أرسطو التي انتقلت مع الفلسفة اليونانية الى الآداب الغربية ثم طرحها المنهج العلمي الغربي الوافد في أفق الفكر الاسلامي .

لقد[١] قرر الاسلام وأكد التحريم القاطع للنقل المباشر من الطبيعة ، ذلك النقل الفج الذي يعيد نسخ المخلوقات الحية على سطوح الجدران والمعابد واللوحات . وينبثق هذا التحريم عن فكرة ( التحرر الوجداني ) العميقة الشاملة التي أراد بها الاسلام أن ينقل المسلمين من عصور الوثنية والتعبد للقريب الملاصق الى سماوات التوحيد الخالص .

---

١ – الدكتور عماد الدين خليل في بحث مطول عن الطبيعة .

ومن هنا فقد رفض الفن الاسلامي النقل المباشر من الطبيعة وفتح الطريق أمام التجريد وإعادة الصياغة .

« والفنان المسلم يحمل موقفاً عادلاً ومزدوجاً تجاه قضية الفن والطبيعة . يحمل رفضاً للنزعة الشيئية المباشرة التي عبرت عن نفسها بالمذاهب الواقعية والطبيعية . لأنها تقوده الى التقليد والنسخ . وتقضي على الابداع والابتكار . ولأنها تخضع عنق الانسان لقوى الأرض وطينها . وتمنعه من التطلع الى السماء ، الى الآفاق البعيدة ، الى ما وراء الملموس والمنظور، ولأنها تحيله الى آلة رصد وتسجيل وتصدّه عن تفجير إرادته وإبداعه لصياغة مادة الأرض وفق ما يطمح . كما أن هذه النزعة تقوده بالضرورة الى الإذعان لفكرة أن التخبط في الوحل والتمرغ في القمامة والركض وراء نداءات الجنس والطعام فيراها القضايا الأساسية ، وربما الوحيدة التي يجب أن يدلي الفن بدلوه فيها .

ويقف الفكر الاسلامي في دائرة الفن من الطبيعة موقفاً أصيلاً . فإن الطبيعة ليست نقيضاً عدائياً للانسان . بل هي الأرضية التي تعده بالرفعة ، وبتحقيق مزيد من إمكانياته البشرية – مادية وروحية ، حسية وجسدية ، عقلية ووجدانية – وعندما دعا القرآن الكريم الناس الى التأمل في الطبيعة لم تكن دعوته هذه تنصب على الجانب التجريبي النفعي العملي من أجل استغلال كنوز الطبيعة لامكاناتها فحسب ، وهو ما يهدف العلم إليه ، بل رافق هذه الدعوة توجيه الى الجانب الانفعالي الجمالي من أجل تنمية وتهذيب الإحساس البشري ورفعه الى الدرجة التي يستحقها الانسان . ذلك أن الطبيعة هي التشكيل الإلهي الفذ الذي لا بد وأن يقود الانسان السويّ الإيجابي الفعال ، عالماً كان أو فناناً، في الطريق الى الله . والانسان المسلم يعبد الله في شتى فاعلياته الحياتية [1] .

---

١ – محمد قطب في كتابه الفن الاسلامي .

- ١٠ -

وجملة القول ان الفكر الاسلامي ( والفن جزء منه ) لا يقر فكرة المحاكاة ، أو التقليد ، أو عداء الطبيعة التي يدين بها الفكر الغربي ، ويرفض رفضاً باتًّا ما يقوله أرسطو من أن الفن يصنع ما عجزت الطبيعة عن تحقيقه « فالطبيعة ليست في كل أشكالها سوى صور من خلق الله وقدرته الفذة المعجزة » . ومن ثم فإن القول بأن الطبيعة قد عجزت عن الكمال ، إنما يصدر عن نفس عجزت تمام العجز أن تستشرف عظمة الكون ، وعن غرور داخلي يرى أن الانسان قد يستطيع أن يحاكي الطبيعة ، أو يخلق خيراً منها ، أي أنه يتفوق على صنعة الله وأنى له ذلك .

ولا ريب أن النفس المؤمنة ذات الفطرة الصافية تردّ مثل هذا المفهوم وتزدريه ، حيث ترى عظمة الخالق في بناء الطبيعة على نحو معجز أخاذ ( فَٱرْجِعِ ٱلْبَصَرَ هَلْ تَرَىٰ مِنْ فُطُورٍ ، ثُمَّ ٱرْجِعِ ٱلْبَصَرَ كَرَّتَيْنِ يَنْقَلِبْ إِلَيْكَ ٱلْبَصَرُ خَاسِئاً وَهُوَ حَسِير ) .

وان هذه النظرة الغربية الوثنية ترجع الى مصادر قديمة في الفلسفة اليونانية ، تقوم على أساس الصراع بين الانسان والطبيعة ، ثم تحولت الى ما يفهم منه استنقاص الطبيعة ، والدعوة الى استكمال نقصها كمحاولة للسيطرة عليها . وهو ما سيظل يعجز الفكر الغربي دوماً ، وذلك موضع الخلاف البعيد العميق بين الفكر الاسلامي والفكر الغربي الذي يقف وجهاً لوجه ضد إرادة الله .

ولا ريب أن فن النحت وتصوير الطبيعة ومفهوم الفن بعــامة في الفكر الغربي له طابعه الوثني، بالإضافة الى أن مفهوم الأدب وهمٌ ينبثق من تصور خاطىء لموقف الانسان من الله ومن الكون، ويقوم على نظرية الصراع القائم بين الانسان والطبيعة والانسان والآلهة، والغرور العميق الذي يصور للفنان أن عمله خالد في عالم فانٍ يزول فيه الانسان والأشياء. بينما لا يؤمن الفكر الاسلامي بـأيّ نوع من الصراع بين الله والانسان وبين الانسان والطبيعة. أمــا بالنسبة لله فعبودية وإقرار وإخبات. وأما بالنسبة للطبيعة فإعجــاب بقدرة الله لا يحدُّه حدّ ومعايشة لكل خلق الله ومعطياته.

ولا ريب أن نظرة الفن الغربي الى الفن والطبيعة هي أشد صور الوثنيــة والانحراف عن مفهوم الفطرة الأصيل.

يقول الدكتور عماد الدين خليل: حذار أن يخطر له يومــاً أنه في معطياته الفنية، إنما يناقش خلق الله لكي يكوّن ما هو أفضل منه، أو أن يسعى جاهداً لإكمال النقائص التي لم يستطع خالقه أو الآلهة إتمامها كما توهم بعض الغربيين «لِيَفْعَلِ الفنانُ ما يشاء ولكن حــذارِ أن يتجاوز طريقه المستقيم كالسهم صوب رفضٍ وعداءٍ للطبيعة ومحاولة للتفوق عليهــا وعلى صانعها أو صوب إعجاب بها يتجاوز لحظات الاستغراق والتأمل الى الإجلال والتقديس والعبادة» وذلك أن مفهوم الفن الاسلامي يرى أن الطبيعة من صنع الله الواحد الأحد وأنها تزدري كل عقل وفكر ونفس تريد أن تسمو فوق كمالهــا واعجازها. وهي في نفس الوقت مخلوقة بقدر، وقائمة الى أجل مسمى، فــلا هي تزدرى، ولا الانسان بقادر على أن يقلدها أو يحاكيها أو يستكمل منها ما يراه النظر القاصر نقصاً، ولا هي موضع عبادة أو تقديس.

وللفنان المسلم آفاق أخرى غير الطبيعة يعمل فيهــا من طراز الخطوط والأشكال التجريدية الهندسية بعيداً عن الوثنية قريباً من التوحيد.

# خاتمــة

إن للمنهج العلمي الغربي الوافد محاذير خطيرة . هي في ذاتها دقيقة ربما تخفى على النظرة العجلى . وربما تخيل للبسطاء والذين لم يتعمقوا اصالة الفكر الاسلامي أن يروها من الهنات الهينات. ولكنها إزاء النظرة العميقة تكشف عن مخالفتها للفطرة ومعارضتها للتوحيد .

والقصة هي أخطر هذه الفنون محاذير وأخطاراً . لأنهــا محاولة معارضة لواقع الحياة ، في محاولة لخلق عالم آخر وهمي غير العالم الحقيقي . ولما كان الفكر الاسلامي لا يرضى بغير الحقيقة بديلاً ، ويرفض العوالم الوهمية ، فــإنه يرفض القصة كما يرفض الفن الوثني الذي يحاكي الطبيعة أو يقلدها .

لقد كانت القصة في الأدب الغربي هي التعويض عن الواقع المؤلم والبديل عن عطاء الدين . وكانت المحاولة لمعالجة المشاكل الاجتماعية في مجتمــع لا يصدر عن أثاث ثابت . ثم هي التفريج الكاشف عن الغرائز والرغبات والأهواء الى الحــد النهم الذي يتطلع فيه الانسان الى أن يعرف أسرار النفوس فهي على حد تعبير ( ر. م البيرلس ) تقدم المتع الطفولية وتقوم بدور الكاهن المعروف والمشرف السياسي وخادمة الأطفال . وان تاريخها هو تاريخ اطراح الحياء ، وان أعمــق بواطن الكائن وأهمها وأشدها سرية هي الهاوية التي جذبت نحوها الرواية . وانها تقوم بدور مصّاصِ الدماء . وان الرواية هي مرض الانسان . هذا الانسان الذي لا يكفيه ضميره . بل ينبغي أن يقدم له إغراء انتهاك ضمائر أخرى وتجعله يعيش حيوات أخرى . لقد حلت الرواية محل فكرة الأبدية[1] .

---

١ – الرواية الغربية : البيرلس ترجمة جورج سالم .

والرواية هي بديل الفراغ الروحي والنفسي الذي تعيشه النفس الغربية بعيدة عن مصادر الإيمان والدين واليقين . ومع ذلك فهي لا تقدم إلا الخيال الوهمي ، أما قصص القرآن فإنه يقدم الصدق الذي لا تتسرب إليه ذرة من الهوى أو الوهم .

لقد علم القرآن المسلمين الحقيقة اليقينية ، بينما علمت القصة الناس أن الحياة عبث ومجون « إن القصص التي تكتبها الشعوب الأوربية ليست سوى أناتها وصرخاتها من مشاكلها المعقدة التي لا تجد لها خلاصاً اليوم . إن عقدة القصة الأوربية تنحل من فورها في ضوء المجتمع الاسلامي وبمقياس القواعد والآداب الاسلامية . لأن هذه العقدة تتجمع خيوطها دائماً في ظل مشاكل لا وجود لها في عقل المسلم . « وليس من اللذة العقلية عند المسلمين أن يقرأوا في القصص شروحاً مفصلة تجريدية لحياة أهل الخلاعة ، وما تصنعه البغايا في خلواتهن . فهذه لذات مرضى النفوس من ذوي العقد الجنسية .

ولقد جنت القصة في الواقع على أخلاق الأمم أكبر جناية لأنها قربت الى الأذهان أفكار الاستهانة والتغلغل في السقوط الأدبي . بل التمست للمستهترين والمتحللين أعذاراً ما كان أحدهم يستطيع أن يلتمسها لنفسه منفرداً . « فما نون ليسكو وذات الكاميليا وغيرها من القصص التي تلتمس الأعذار المسمومة للساقطين والساقطات نجدها قد أثرت تأثيراً بالغاً في عقول النشء فجعلتهم يستهترون ويسرفون وينتحرون . « وقصة تاييس : متاجرة بالغرائز وأشادة بالأبيقورية واهتمام باللاأدرية . تقدم على لذة الشك وصورة العراء ومخاطبة الغريزة ، تحاول أن تغري بالمناقضة مناقضة الجسد الذي يستسلم للشهوات وتبقى النفس طاهرة[1] . وقد تولى الترجمة « قوم عمدوا الى حقن الشباب المسلم بداء المعتقدات الفاسدة سعياً وراء نفس الأغراض التي يسعى إليها رجال الإرساليات .

---

١ – أحمد صبري : مجلة الأنصار ١٩٤٤ م .

يقول المازني : اقرأ للأستاذ ( يقصد طه حسين ) قصصه التي ترجمها ، هل كان همه نقل الفصاحة الافرنجية الى قراء اللغة العربية ، أو نقل الصورة الفاضلة في ثيابها المصونة . إنما كان همه مدح الخيانة والاعتزاز بالخونة وتصوير الخلاعة والمجون في صور جذابة ، ليقضي بهذه الترجمة حقّ الإباحة لا حقّ اللغة ولا حق الفضيلة[1] . وفي قصص دافيد كوبر فيلد ( جي دي موباسان ) والبؤساء ( فكتور هيجو ) والجوع ( كنوت هامزن ) أنات مكبوتة ، وصرخات الجياع ، وصورة الحرمان ، وغلظة القلب إزاء اليتيم . أغراض الخلل العقلي نتيجة الجوع ، رجل يسرق رغيفاً ليعيش . كل هذا يبدو غريباً في أمة تعرف الرحمة والعطاء والزكاة والمروءة ، ولا يجد طريقاً الى عقولها أو قلوبها .

وهكذا تستغل القصة والفن والمسرح لكي تطرح في أفق الفكر الاسلامي ، ومجال العقل الاسلامي مفاهيم مخالفة ومعارضة لمفاهيمه الأصيلة . وأخطر ما في ذلك كله هو يسر وصول هذه المعطيات الوافدة والزائفة الى الناس عن طريق الإذاعة والسينما والمرناة والقصة .

إن قصص جان بول سارتر وألبير كامي وصمويل بكيت ويونسكو تطرح في أفق الثقافة العربية مفاهيم التشاؤم والشك والعبث والرفض والتمزق . كل شيء قائم وكل شيء مزعج رديء ، مقبض ، لا قداسة لشيء ، ذلك مفهوم الوجودية الذي يلقي بظله على الأدب الغربي كله والقصة والفن ومفهوم الجمال .

ولا ريب أن ذلك الركام الهائل الذي يقدمه المنهج العلمي الغربي الوافد من الكتب والقصص والمسرحيات والدواوين والمترجمات التي تفرض آراء ومذاهب تحمل روح الغرب وقلقه في أقسى مراحل أزمته الحضارية والنفسية والاجتماعية حين سيطرت التلمودية عليه واحتوته ودفعته الى الصدور عن كل ما يهدم روح العزيمة والأمل وقوة الشخصية وفقدان العنصر الأخلاقي . كل هذا يتعارض مع

---

١ - قبض الريح .

روح الأدب العربي وطابعه ومزاجه ومضامينه ، ذلك أن الأدب العربي يقوم على عناصر أساسية هي التوحيد والأخلاق والإيمان ، وهو دعوة الى الحـــق والخير والعدل . والأدب العربي أدب رسالة إنسانية ، ودعوة سماوية خالدة حملها أول كتاب أدبي . والأدب العربي هو الأدب الوحيد الذي يحمل في طياته كتاباً إلهياً بلغ درجة الاعجاز في البيان ، ووضع الأسس الأولى للأدب، ووجّه الانسان أصدق وجهة نحو الهدف الاجتماعي والانساني والرباني جميعاً . كل هذه الأسباب تجعل الأدب العربي له طابعه المميز الذي لا يمانع في طوابع الآداب الأخرى ولا ينطوي ولا يحتوي ولا ينصهر ، والذي يتميز بأنه أدب له ذاتية ربانية المصدر إنسانية المحتوى .

# الباب الرابع

## أخطاء مفاهيم الاجتماع والنفس والتربية

أولاً ــ مفاهيم الاجتماع

ثانياً ــ مفاهيم الأخلاق

ثالثاً ــ مفاهيم النفس

رابعاً ــ مفاهيم الوجودية

خامساً ــ مفاهيم التربية

# الفصل الأوّل

## أَخْطاءُ مَفاهِيمِ الاجْتِماع

إن أخطر ما طرحه المنهج العلمي الغربي الوافد في أفق الفكر الاسلامي هو مفاهيم مدرسة العلوم الاجتماعية التي تقول بأن العلوم الاجتماعية علوم تجريبية ، وأن كل ما يتصل بالانسان والنفس والأخلاق والاجتماع هو من الأمـــور التي تخضع لمناهج العـــلم المادي دون أدنى تقدير للجوانب النفسية والروحية والوجدانية ، والتي تشكل السلوك والأحاسيس والتصرفات ، والتي تتصل أساساً بالعقائد ، وترتبط بالإيمان بالله والنبـــوة والغيب واليوم الآخر . ولقد وجدت هذه الدعوة معارضة شديدة ، وأثبتت الأبحاث العلمية عجز المناهج التجريبية المطبقة على المادة وعدم قدرتها في الحصول على نتائج صحيحة بالنسبة لمشاعر الانسان وعواطفه وأخلاقه وتصرفاته .

وتستهدف هذه النظرية التي يطرحها المنهج العلمي الوافد القضاء على الشخصية الفردية قضاءً تاماً على أساس من الجبرية الاجتماعية التي تحاول القول بأن الانسان محكوم بعدة من العوامل هي التي تدفعه فلا يستطيع منها فكاكاً . وهي بذلك تحاول القضاء على مفهوم المسؤولية الفردية الذي هو منـــاط الجزاء في الفكر الاسلامي .

- ٢ -

كذلك يحاول المنهج العلمي الغربي الوافد عن طريق مفاهيم مدرسة العلوم الاجتماعية أن يطرح مفهوماً تاريخياً خاطئاً ينكر أصالة قيام الأسرة منذ العهود البشرية الأولى ( وهو يستمد هذا من بعض نتائج علم الأنتروبولوجيا كما استمد منه مفهوماً آخر زائفاً هو أن البشرية بدأت وثنية ثم عرفت التوحيد ) .

وفي مفهوم الاسلام أن الأسرة تكونت في بداية البشرية . ولم يخل منها جيل من الأجيال . ( ولا يعترف الاسلام بأي نظرية عن تطـــور العائلة على أساس أن المرأة كانت مشاعة في عهد البشرية الأولى ، ثم تكونت العائلة بمرور الزمن بفعل عامل اقتصادي ) ، والقرآن يقرر أن الأسرة نظام بشري أصيل : ( يَا أَيُّها ٱلنَّاسُ اتَّقُوا رَبَّكُمُ ٱلَّذِي خَلَقَكُمْ مِنْ نَفْسٍ وَاحِدَةٍ وَخَلَقَ مِنْهَا زَوْجَها وَبَثَّ مِنْهُما رِجالاً كَثِيراً وَنِساءً ) .

ولا ريب أن محاولة المنهج العلمي الغربي الوافد من طرح هذه المفاهيم في أفق الفكر الاسلامي ، إنما ترمي الى التشكيك في أصالة هذا النظام توطئة للدعوة الى القضاء عليه على النحو الذي يحدث في بعض المجتمعات وتتعالى به صيحات رجال مدرسة العلوم الاجتماعية الذين يقررون أن الأسرة ليست من الفطرة البشرية .

ولقد علت مثل هذه الصيحات على مر الزمان ، ولكنها فشلت جميعها فشلاً

ذريعاً لأنها عارضت الفطرة والحقيقة التاريخية معاً . وقد عجزت كل المحاولات في القضاء على الأسرة ، وسيظل نظام الأسرة ثابتاً مكيناً ، وان أي نجاح يتحقق لخصومه في القضاء عليه ، فسيظل عملاً جزئياً يسقط بمرور الزمن ، ولا يأخذ صفة الشمول أو الاستمرار .

ويرى الدكتور علي عبد الواحد وافي : أن مدرسة العلوم الاجتماعية تظن أن نظام الأسرة قائم على دوافع الغريزة وصـــلات الدم ومقتضيات الطبيعة الإنسانية ، ولذلك فهم يعالجونه غير عابئين بالعلاقات التي تربطه بمعتقدات الأمة وتقاليدها وعرفها الخلقي . والرأي في مفهوم الفكر الاسلامي أن نظم الأسرة « تقوم على مصطلحات وقواعد تختارها المجتمعات . وأنها لا تكاد تدين بشيء لدوافع الغريزة . بل إن معظمها ليرمي الى محاربة الغرائز أو توجيهها . والواقع أن نظم الأسرة ليست من صنع الأفراد ، ولا هي خاضعة في تطورها لما يريده لها القادة والمشرعون . والواقع أن نظام الأسرة في أمة ما يرتبط ارتباطاً وثيقاً بمعتقدات هذه الأمة وتقاليدها وعرفها الخلقي وتاريخها ، وما تسير عليه من نظم ، وما تمتاز به شخصيتها وما يكتنفها من ظروف شتى في فروع الحياة » .

- ٣ -

كذلك جاوز الفكر الاسلامي محاولات القول بأن الدين نظام اجتماعي قابل للتطور مثل الجماعة في تاريخها من تشريع وأخلاق . وهو بعض مـــا ردده فلاسفة أوربا من خـــلال حملاتهم على تفسيرات المسيحية . ومنهم أوجست كونت .

ولما كان الاسلام ليس ديناً وضعياً . وإنما هو دين إلهي موحى به من السماء . فإن الأمر بالنسبة اليه يختلف مع العقائد الوضعية التي تأخذ في حسابها عامل التطور لتستطيع أن تجاري الزمن أو تلائم البيئة .

أما الاسلام فإنه قد أحكمت آياته على نحو يجعله صالحاً لكل الأزمان والعصور والبيئات ، لأنه جاء على نحو من المرونة واتساع الأطر ، وملامسة الفطرة البشرية . وصدر عن معرفة كاملة بالإنسان في تركيبه وتكوينه وسلوكه، ومن هنا فهو لا يحتاج الى التطور . ولذلك فإن التساؤل الذي يثيره البعض بالقول : هل الشريعة الاسلامية قابلة للتطور ؟ هذا ما لا يتفق مع المجتمعات الاسلامية . فالشريعة الاسلامية شريعة إلهية لا يمكن أن يطورها البشر الذين هم أقل قدرة على استيعابها ، وحيث تتطور العقائد الوضعية بأيدي أتباعها لأنها من صنع عقولهم يختلف الأمر في الاسلام حيث يتطور البشر ليلائموا بين أنفسهم وبين هذه الشريعة الأصيلة الثابتة الجذور والقواعد . ولا يمنع هذا من القول بأن أسلوب العمل والتطبيق والأمور الفرعية قابلة للتجديد في إطار الثبات ، ومع بقاء الركائز الأصيلة لها .

## - ٤ -

حاول المنهج العلمي الغربي الوافد أن يطرح في أفق الفكر الاسلامي أكثر من مفهوم وأكثر من نظرية . ورأى أن ذلك من شأنه أن يثير أكثر من شبهة وأزمة ، وكان في كل مرة يحاول أن يستخدم الاسلام لنفسه لتأييد دعوته . فعل ذلك عندما طرح مفهوم الليبرالية في أوائل هذا القرن ، كما فعله حين طرح مفهوم الجماعية في منتصف هذا القرن .

وجرى التابعون للفكر الغربي ومناهجه وراء نصوص من الاسلام لتأييد كل دعوة من هذه الدعوات ، وغفلوا عن أن الاسلام نظام شامل جامع لا يصلح للانشطار أو التجزئة . وهو يختلف اختلافاً واضحاً عن الليبرالية والجماعية على السواء ، فهو يؤمن بالفرد ويؤمن به في إطار المجتمع وفق منهج التكامل بين الفردية والجماعية . والمجتمع الاسلامي بناء متكامل من لبنات قوية يمثل كل منها فرداً مؤمناً . ولقد حرص الاسلام على بناء الفرد المؤمن في صورة الإنسان الممتاز ، تربيه وتكونه الصلاة والصوم والزكاة وطاعة الله ورعاية الأمانة والعهد والمحافظة على النفس والعقل والمال والخلق . فقد انفرد الاسلام برعاية الفرد وتكريمه في إطار المجموعة فيما ركز على ضمير الفرد المسلم وحمله منفرداً مسؤولية ارتقـــاء سلم الكمال . ولم يذهب الاسلام مذهب من أعطوا الفرد الاهتمام بلا حدود ، كما أنه لم يذهب مذهب من أفنوا صورة الفرد في المجتمع . ولما كان أفراد المجتمع هم نتاجه في نفس الوقت وكلهم تجمعهم وتربيهم دعوة

الله ، فإن وحدة الهدف أمر يأتي بلا اجتهادات داخلية في المجتمع ، ويتم الترابط بين المؤمنين ويتصرفون في أعمالهم تلقائياً تصرف رجل واحد .

« إِنَّمَا ٱلْمُؤْمِنُونَ ٱلَّذِينَ آمَنُوا بِاللهِ وَرَسُولِهِ وَإِذَا كَانُوا مَعَهُ عَلَى أَمْرٍ جَامِعٍ لَمْ يَذْهَبُوا حَتَّى يَسْتَأْذِنُوهُ » .

« وليس ذلك المجتمع نتيجة لقهر السلطة ، فخطوات المسلمين تحددها كلمة الله ثم مصلحتهم ورغباتهم « وأمورهم شورى بينهم » وتجيء الاجتهادات في البناء « داخلة في الاطار العام الذي يجب أن يحيط بالبناء الاسلامي للمجتمع »[١] .

والانسان في مفهوم الفكر الاسلامي لا يفسر على أنه في درجة الحيوان أو تنطبق عليه مناهج البحث في الحيوان . وليس على نحو ما تقول بعض الفلسفات من أنه هو سيد الكون ، وإنما هو سيد الكائنات تحت حكم الله وعن طريق الاستخلاف وحمل الأمانة لبناء الحياة وعمران الكون .

وتقوم العلاقة بين الفرد والمجتمع على أمرين : تحقيق إرادة الفرد التي هي مناط المسؤولية والتعادل بين الفرد والمجتمع ، ثم التوازن بين الفرد والمجتمع .

ويقرر الاسلام بناء الفرد أولاً ، ثم إعداده لبناء الأسرة ؛ بناء الفرد بوصفه عاملاً أساسياً في تكوين الأسر التي تمثل وحدات المجتمع ، والانسان في الاسلام كائن جسدي وروحي معاً، والفكر الاسلامي يقر طبيعة الانسان على حقيقتها: مادية وروحية ، واقعية ومثالية ، وبذا لا يحول بينه وبين متاع الحياة المادي ، ولكنه يحوط هذا بالاعتدال دون أن يصل الى درجة العدوان على حق الآخرين،

١ - من بحث للاستاذ فاضل .

ودون أن يتخذ الانسان ، مما يحصل عليه من جاهٍ ومكانةٍ ، وسيلة للظلم والعدوان أو الإفساد في المجتمع .

ونظام الأسرة نظام أساسي في بناء المجتمع ، فهي أصغر وحداته ، وهو نظام لا يقضي على فردية الرجل أو المرأة ، ولا يطلب صهر أحدهما في الآخر ، بل يستبقي الخصائص الفردية لكل منهما دون أن تذوب أو تفنى في خصائص الآخر . ولما كانت طبيعة المرأة أن تحمل وتلد ، وليس لها مثل تفرغ الرجل وعمله جاءت قوامة الرجل ، علامة لحفظ حياة الأسرة وصيانتها .

وتقوم العلاقة بين الفرد والمجتمع عن طريق الأسرة الصغرى ، ثم الأسرة الكبرى من خلال الآداب العامة التي تعمل على إدماج الفرد في المجتمع لحماية التضامن الاجتماعي .

ويقف الاسلام من الفردية والجماعية موقفاً واضحاً صريحاً . لقد عاش الفكر البشري منذ فجره والى اليوم منقسماً بين الفردية والجماعية ، وقد وقع الفكر الاغريقي في هذا الصراع كما وقع الفكر الغربي الحديث ، وتقسمته هاتان النزعتان بينما استطاع الفكر الاسلامي – وحده – صياغة منهج الالتقاء والتكامل بين الفردية والجماعية .

ففي الفكر الاغريقي القديم احتضن أفلاطون مفهوم ( الجماعة ) وقامت نظريته في الجمهورية على أساس تغليب الجماعية . ثم جاء أرسطو فاحتضن مفهوم الفردية ، ثم وقع الصراع في ظل الدولة الرومانية بين الفردية والجماعية .

وفي العصر الحديث تبنى الغرب فكرة الفردية حتى ظهرت الماركسية فتبعت مفهوم الجماعية وما يزال الفكر الغربي في صراع بين الفردية والجماعية .

أما الاسلام فقد ربط الفرد بالجماعة والجماعة بالفرد ، وحدد العلاقة بينهما . فالفرد للجماعة والجماعة للفرد . وقضى على الافراط والتفريط في الفردية أو الجماعية . وأقام مفهومه على المنزلة بين المنزلتين : ( على حد تعبير صلاح الدين

السلجوقي ) فالفرد له حق وعليه واجب نحو فرديته ومجتمعه سواء بسواء ، فهو يتأمل فردياً ، ويعمل اجتماعياً ، ويرعى نفسه ، ويكون مسؤولاً عن رغبته ويشاور الجماعة في الأمر .

وإذا عزم عند الضرورة توكل على الله ، وله حق الكسب والتملك والتمتع بالمال ، ولكن عليه أن يؤدي الزكاة والصدقات ، حتى لا يدخر رأس مال كبير . وبعد موته يقسم ماله بين الورثة ولا يبقى شيء جدير بأن يسمى رأس المال ، ولا ينسى نصيبه من الدنيا كالعلم والرياضة والغذاء . وحينما يحتاج المجتمع أن يقدم الفرد نفسه فإنه يقدم هذه النفس الى التضحية مؤمناً بأن التضحية حياة له .

## - ٥ -

يطرح المنهج العلمي الغربي الوافد مفهوماً للانسان يجعله في إطــــار القوالب العلمية المادية ، ويحاول أن يفسر أخلاقه ونفسيته وسلوكه في ضوء مناهج العلم التجريبي ؛ وتنطلق هذه النظرة من اعتبار الانسان حيواناً عاماً . ولا يجد هذا المفهوم تقبلاً في أفق الفكر الاسلامي الذي يقرر أن الانسان جسد وروح وعقل وقلب، ولذلك فإن منهج دراسته يجب أن يكون مختلفاً عن مناهج العلوم المادية وعلوم الحياة .

ومن أخطر ما تحمله الآداب والفلسفات الغربية النظرة الى الانسان على أنه دنس ومذنب وخاطىء وأنه يولد حاملاً لما يسمى الخطيئة الأصلية التي ورثهـــا عن أبيه آدم .

ويمتد أثر هذه الفكرة في الآداب والفلسفات الأوربية الى أبعـــد مدى . ويترك فيها آثاراً لا حد لها ، ومن أبعدها أثراً في حياة الانسان هو وضعــه في إطار الجبرية التي تتنافى مع أبسط أوضاع الانسان وهي : حرية الإرادة .

إن الاسلام يعتبر أن هذه المعصية – لا الخطيئة – قد انتهى أمرها في حياة آدم نفسه . فقد اجتباه ربه فتاب عليه وهدى . وإنما كانت مرتبطة به وحده حيث لا تزر وازرة وزر أخرى . وإن الله كرم بني آدم على العموم . ويُقرر الاسلام أن معصية الانسان لا تورث ، ولا يحتمل أحد عمل أحد آخر ، وان

كل مولود يولد على الفطرة فأبواه ( أو محيطه ، أو النظام الذي يحيـا في ظله ) يشكله من جديد .

* * *

ومن عجب أن يتخبط المنهـج العلمي الوافد في الانسان فيطرح في أمره نظريتين مختلفتين متعارضتين : (الأولى) تقول إنه أرقى الكائنات ، وأنه سيد الكون ، وأنه ليس غيره في الكون وهي نظرية الوجودية . و (الثانية) تقول إنه حيوان خاضع لغرائزه يتصرف من خـلال الجنس والشهوات وهي نظرية فرويد . وكلتا النظرتين في مفهوم الانسان تتجاوز الحقيقة وتبتعد عن المفهوم الصحيح . فليس الانسان وحده في هذا الكون ، ولكنه مخلوق للخالق الأكبر الذي اختاره للاستخلاف في الأرض ، ووكل إليه عمـارة الدنيا . وليس هو حيواناً ولا خاضعاً لغرائزه ، ولكنه مهيأ وفق إرادته الحرة لأن يختار أحـد الطريقين . وهنا مناط الأمانة التي وكل الله أمرها إليه والتي تقوم على الاختيار بين الهدى والضلال والخير والشر والحق والباطل ( وَهَدَيْنَاهُ النَّجْدَيْنِ ) فالانسان بطبيعته وفطرته قابل للخير والحق والهدى مهيـأ لها في ضوء هداية الله . ومن هنا كانت حاجة الانسان الى الوحي والنبوة والرسالة .

ومن هنا يختلف مفهوم الفكر الاسلامي عن الفكر الغربي الذي يستعلي على مفاهيم الدين . فلقد ذهب الفكر الغربي الى القول بأن طبيعة الانسان قـد أصبحت في غير حاجة الى توجيه إلهي . فهل حقاً : وصل الانسان الى مرحـلة الرشد ، فلم يعد في حاجة الى وحي السماء ؟! هل الحضارة الحديثة ومنجزات العلم الحديث هي التي أعطته هذا الرشد ؟! الواقع ان هـذه المنجزات لم تتقدم بالانسان خطوة واحدة على طريق الانسانية والأخلاق ، ولم تدفع طبيعته لترقى وتتحرر من أهوائها ومطامعها . فكيف يصبح الانسان بمعطيات المادة قادراً على أن يستغني عن وحي السماء ؟!

إن طبيعة الانسان طبيعة ثابتة لا تتخلف ، ولقد جاء الدين الحق ليقدم لها الضوء الكاشف والهدي الصحيح الذي يحفظها من القلق والتمزق والتشاؤم والحيرة واليأس . وهي بغير هذا العطاء لا تستطيع أن تواجه الحياة . ولقد ذهب العلم الحديث في منجزاته الى آفاق بعيدة المدى من المتاع المادي والترف والرفاهية ، ولكنه ظل عاجزاً عن أن يعطي الانسان لمحة سكينة أو نفحة طمأنينة .

إن الطبيعة الانسانية لا تجد طريقها الحق إلا في الاتصال بالله ، وفي التماس طريقها من منهجه وفي ضوء كتابه .

## - ٦ -

من مفاهيم الفكر الغربي الوافد القول بأن القيم الأساسية للبشرية تتغير بتغير العصور والجماعات وروح الزمن ، وأن في مقدمة القيم التي تتغير : الأخلاق والعقائد والشرائع ، وأن العصر الحديث يعارض قيم الإيثار والرحمة والأبوة والعرض والأسرة . ويقدم قيماً جديدة في مقدمتها المنفعة والرفاهية واللذة أو المتعة وتدبير الثروة والحرية .

ولا ريب أن هذه النظرية لا تلقى قبولاً في الفكر الاسلامي الذي يقرر بأن القيم الأساسية ثابتة لا تتغير ، وأن الأخلاق والعقائد والشرائع ليست من صنع الانسان ، ولذلك فهي قائمة على الزمن ما قام الزمن وعلى اختلاف البيئات والعصور ، وأن الحق سيظل هو الحق لا يتغير ، وأن مقررات الأبوة والأسرة والعرض والأخلاق ستظل كما حملتها أديان السماء الى البشر قائمة . ولقد عجز الفكر الغربي عن التفرقة بين القيم الأساسية والقيم الاضافية . فالقيم الأساسية هي قيم ثابتة ، لأنها ليست من صنع الانسان . أما القيم الاضافية فهي قيم متغيرة لأنها مرتبطة بالناس والمجتمعات ، وهي ما يطلق عليه اسم التقاليد والعادات . ومن الخطر الخلط بين الثوابت والمتغيرات ، بين القيم الأصيلة الربانية وبين القيم التي صنعها الانسان .

ولا ريب أن القيم التي أقامها الاسلام بتحريم ما حرم ، وتحليل ما أحل لا يمكن أن تخضع للظروف الاجتماعية والاقتصادية التي تتغير بحيث يمكن الحذف

منها أو الإضافة ، أو بحيث يتغير ترتيبها ، فتنتقل من قيم أصلية الى قيم إضافية .

ومن المحرمات الأساسية الربا والقتل والزنا والخمر والميسر. فإن نظام المجتمع لا يمكن أن يكون سليماً في مفهوم الاسلام إلا إذا تأكد إقرار هذه القيم بالمنع . وكذلك في الناحية الأخرى بالنسبة الى مهمة المرأة ومكانة الأسرة والى قيام الأبوة ورعاية الآباء والأمهات والمحافظة على العرض .

ومن هنا فلا يقبل الاسلام أن تمس هذه القيم بأي تغيير أو تطور سواء كان ذلك في مجتمع رعوي أو زراعي أو صناعي .

لقد جعل الاسلام أساس القيم : التوحيد والتقوى والعدل والكرامة الانسانية ، وجمع بين عمل الدنيا وعمل الآخرة ، وواءم بين القوى المادية والروحية ، وأقام منطقة وسطى بين الإفراط والتفريط بعيداً عن الشهوات المدمرة والزهادة المدمرة ، بين الترف المفسد وبين الحرمان القاتل . ولم يمنع الاسلام من تطوير القيم الصغرى المرتبطة بالبيئات والأزمنة دون المساس بالقيم العليا الثابتة، فقبل أن يكون للبادية قيم تختلف عن قيم المدنية . هذا التفاوت والاختلاف في القيم الصغرى جائز ، بل هو ضروري في تقدير الشريعة الاسلامية ، شروطه عدم الخروج عن القيم الكبرى التي أقرها الاسلام وتحركاً في دائرة التوحيد والتقوى والعدل والإيمان بالله .

## - ٧ -

وللمنهج العلمي الغربي الوافد مفهوم في المرأة ، وقد طرح هذا المفهوم في أفق الفكر الاسلامي والمجتمع الاسلامي . ولما كان هذا المفهوم مخالفاً ، بل معارضاً لمفهوم الاسلام . فإنه لم يجد قبولاً إلا فيما فرض بالاضطرار، وكان لسيطرة النفوذ الأجنبي أثره في تطبيقه ، ومع ذلك فقد أحس المجتمع الاسلامي بالأثر البعيد والخطر القريب .

لقد حاول المنهج العلمي الوافد أن يخرج المرأة عن ذاتها وطبيعتها ووظيفتها، ليضعها في مجال البديل الاقتصادي أو المتعة الذاتية مخالفاً بذلك الفطرة والطبيعة الأصيلة والتركيب الصحيح للمرأة .

لقد حرر الاسلام المرأة من آصار العبودية والإذلال، وردّ لها مكانتها الحقة، واعترف بها شقيقة للرجل ، ومنحها المساواة في العلم والتملك والتصرف ، وأقام لها منهجاً أصيلاً في المعاملة والزواج والطلاق، بما يحقق سلامة بناء الأسرة وقيام كيان المجتمع . وكشف عن مهمتها الأصيلة وعن تركيبها الجسماني والعقلي وأعد لهذه المهمة لكل من الرجل والمرأة عمله ، ولكنه في نفس الوقت يتكامل مع عمل الآخر . فهما يقيمان معاً صرح الأسرة ، ولا تعطي القوامة الموكولة الى الرجل أي ضغط أو ظلم أو سلطان متعسف بل لها قواعدها التي تتيح للمرأة الحق في العدل كما تتيح لها الحق في الانفصال إذا لم يتحقق العدل . ويستمد الفكر الاسلامي مفهومه في أمر المرأة من القرآن الكريم الذي أعطاها من

الإرث نصف ما أعطى الرجل . وكشفت الشريعة الاسلامية عن حريتها فيما تملك من مال وعقار لا يمنعها مانع من التصرف بأي نوع من التصرفات . وليس لزوجها أن يفرض عليها نفوذاً في ذلـــك . وليس لولي الأمر أن يلزمها طلب القوت . وقد قام الزواج عقداً تصان به حرية المتعاقدين الكاملة ، والطلاق فرصة لكل زوجين أن ينفصلا عندما يتعسر الوفاق ويصبح الانفصال أمراً لازماً .

وتقوم المساواة بين الرجل والمرأة في الاسلام من خلال حساب التفاوت في التكوين الجسدي وما يتبعه من المسؤولية والاختصاص . وحيث يوجد التفاوت الطبيعي يوجد التغاير الوظيفي .

وقد أكسبت الفطرة كلاً من الرجل والمرأة أوضاعاً خاصة ويسرت لكل منهما سبيله في حدود المطلوب منه « والمساواة لا تقتضي إنكار حـــكم الطبيعة ونسيان الفوارق الخلقية وما يتبعها » . « وليس الزواج في الاسلام نوعـاً من المتعة . بل هو نظام اجتماعي يهيىء للمجتمع مقومات العفة والفضيلة باعتبار أن الأسرة هي نواة المجتمع الفاضل » .

ولقد كان المنهج العلمي الغربي الوافد يسبح ضد التيار حين كان يفرض على أفـــق المجتمع الاسلامي مفاهيمه في تحرير المرأة بالمعنى الذي يخرج المرأة من خصائصها ومهمتها .

ولا ريب أن القــانون الطبيعي الذي خصص المرأة للبيت والزواج وولادة الأبناء وتربيتهم هو قانون لا يتغير . وأن كل معارضة له من شأنها أن تفسد الحياة الزوجية وتفسد الحياة الفردية للمرأة نفسها .

وقد أحدثت التجربة آثاراً بعيدة في الغرب بحيث انهارت الآداب العامة ، واهتزت أركان الأسرة ، وظهرت أحداث خطيرة من الانحدار والخطأ نتيجة دخول مفهوم وافد خطير كان من أخطر عوامل تحطيم الأسرة المسلمة ، ونشر

عوامل الانحلال فيها وإبعادها عن طريقها الصحيح . ومدخل الخطر هو الدعوة الى الحرية الجنسية واتخاذ المرأة متعة يتمتع بها الرجال، ومشاركة المرأة الرجل في صالات الرقص والنوادي الليلية . ومنها قبول فكرة صديق العائلة ، وعدم تمييز الفتاة بمنهج تعليمي خــاص يتفق مع رسالتها وشخصيتها وخصائصها ، وتجاوز البنــاء الأخلاقي والتربوي للأسرة على أساس القدوة الحسنة والمفهوم الاسلامي الأصيل الذي عرفته المرأة في تاريخها ، والخضوع لمدارس الإرساليات أو مناهجها في المدارس العامة . ومن ثم فقد طرح المنهج العلمي الغربي الوافد في مجال المرأة والمجتمع مفاهيم وافدة كثيرة معارضة لطبيعــة مفهومنا الاسلامي الأصيل هي حرية المرأة وملابس المرأة والزينة ، وحول القوامة ومهمة المرأة وتقدير مسؤولية العرض والشرف والبيت . ولقــد كان للنظريات التي قدمها ماركس وفرويد ودوركايم وليفي بريل أثرهــا في تحريف مفهوم حرية المرأة وعلاقتها بالرجل والأسرة . فقد كانت هذه الدعوات تهدف أساساً الى إخراج المرأة من مفاهيم الأديان وقيم الأخلاق ، ودفعها الى الحياة لتخوض بحــار الرغبات والأهواء . وكان ذلك كله على حساب بنــاء المجتمع وكرامة المرأة وعفافها وعلى حساب الأجيال القادمة . ذلك أن محاولة تصوير الفرد البشري ( رجلاً أو امرأة ) بصورة الحيوان ، والقول بأن دوافعه الأولى هي الجنس — كان ذلك عاملاً خطيراً في المفاهيم التي كونت عقلية المرأة الحديثة التي أثيرت أحاسيسها بالدعوة الى تحريرها من قوامة الرجل ونفوذه وسيطرته وإعطائها الحق في أن تتصرف في أمر حياتها ورغباتها على النحو الذي تراه .

ولقد كان من وراء هــذه المذاهب الفلسفية دور الأزياء ودور الزينة . أخضعت المرأة في العالم كله لأزياء تختلف وتتبدل موسماً بعد موسم وعاماً بعــد عامٍ ، وتتجه أساساً الى العري والكشف دون تقدير للحاجة أو لذوق البيئات أو القيم الأخلاقية . وبذلك حاول المنهج العلمي الغربي الوافد خلق عقلية زائفة للمرأة تصورها بصورة القدرة على الحياة في المجتمع دون التقيد بضوابط الأب

أو الأسرة أو الزوج من حيث هي قادرة مادياً على أن تجد موردها المادي الذي تعيش به .

وكان لتقدم العلم في موانع الحمل والاسقاط والاجهاض أثره البعيد في تذليل كل العقبات أمـــام الرغبات التي هي بطبيعتها خروج على فطرة المرأة وطبيعة تكوينها وخصائصها ودورها في المجتمع البشري . ولهذا كله أثره البعيد على كيان الأسرة وبناء شخصية المرأة نفسها .

ولقد كان موقف الاسلام من الرغبات موقفاً واضحاً صريحاً . فقد أعطى هذه الرغبات حقها من خلال إطار منظم كريم هو الزواج ، كما أعطى المرأة الحق في أن تلتمس حياة أخرى إذا عجزت عن أن تجد الأمن أو الطمأنينة . وفي نفس الوقت الذي تتحقق لها مكانتها الاجتماعية والاقتصادية ، يتعين لها أن تتحرك الى هدف واضح هو أداء رسالتها في الأسرة ومـــع الزوج والأبناء والبيت .

ولقد جاءت القوانين الوضعية معززة لمفهوم الأديان في أن المرأة مكلفة بتدبير المنزل والبيت وكل ما يتعلق بالحياة العائلية وتربية الصغار ، بـــل والكبار .

ولقد حماها الاسلام بوسائط كثيرة من أن تكون لعبة الرجل أو تكون هدفاً من أهداف الغواية أو اللذة أو ما يناقض فطرتها ووظيفتها الأساسية أو خصائصها الطبيعية .

# الفصل الثاني

## أَخطاءُ مَفاهِيم الأخلاق

حمل المنهج العلمي الغربي الوافد مفهوماً للأخلاق مستمداً من المجتمع الأوربي وعقائده وقيمه من حيث تطورها الأخير بعد أن خضعت لمدرسة العلوم الاجتماعية ، وبعد أن انسلخت من مفهوم الأخلاق المسيحية .

وتقوم النظرية الغربية على القول بأن مبادىء الأخلاق إن هي إلا ظواهر اجتماعية تملى على الأفراد دون أن يكون لهم دخل في بنائها ، أو فضل في الإيمان بها . وتقول إن الأخلاق تختلف عن الدين ، إذ ليس من الضروري أن كل من يعتقد في دين معين أن يصبح أخلاقياً كما أنه ليس من الضروري أن يكون كل ملحد لا أخلاق له ، وأن الأخلاق هي استجابة النفس الى الوسط ، فإذا تغير الوسط تغيرت الأخلاق . وهذا الوسط يتسع وينحصر باختلاف الزمان والمكان . وأن الأمم ليست بحاجة الى الدين ، ولكنها بحاجة الى الأخلاق ، فالأخلاق هي التي ترفع الأمم الى مستوى الرقيّ وليس الدين . وأن أوربا لم تنهض إلا بالأخلاق . وانه يمكن الاستغناء عن الأديان اكتفاء بالضمير الانساني الدافع الى فعل الخير .

وهناك ما تطرحه النظرية الماركسية من أن الأخلاق مثل السياسة والقانون تخضع للأحوال الاقتصادية والظروف المعيشية لكل مجتمع . ويحمل النظرية الغربية التي يطرحها المنهج العلمي الغربي الوافد أن الأخلاق نتاج للبيئة ، وأنها تختلف من شعب الى شعب ومن حقبة الى أخرى .

ويبدو من مجمل النظرية أنهـــا مادية الأساس . ولذلك فهي ليبيرالية وماركسية في وقت واحد .

ولا ريب أن الفكر الاسلامي لا يجد في هذه النظرية نفسه ولا حاجته ولا قيمته الأساسية . بل يجد فيها خلطاً بين الأخلاق والتقاليد . وبين الأصول التي جاءت بها الأديان السماوية والأعراف التي أقامها الناس .

ولا ريب أن الأخلاق ذات جذور من الدين لا تنفك عنه وهي أصل قائم داخل إطاره يطبع كل التصرفات وأعمال السلوك ويطبع السياسة والاجتماع والتربية والسياسة بطابعه .

وتقوم الأخلاق في الاسلام على أساس الالتزام . وفي نطـــاق المسؤولية الفردية . والدين والأخلاق حقيقتان لا تنفصلان في الاسلام ، كما تتلازمان في جميع الأديان . والقرآن أصل الأخلاق الاسلامية . وليس هناك انفصال بين النظرية والسلوك العملي . وقد رسم القرآن قواعد العمل الصالح .

والأخلاق في الاسلام منهج عملي غايته التعاون في الحياة ، واحترام القيمة الانسانية . وبينا الأخلاق في نظر أرسطو وأفلاطون وارسطاطاليس لا تخرج عن دائرة السعادة ( التي هي راحـــة النفس وسرور الفرد ) نراها في الاسلام تقوم على أساس التقوى والجمع بين الدنيا والآخرة .

( وَٱبْتَغِ فِيمَا آتَاكَ ٱللَّهُ ٱلدَّارَ ٱلآخِرَةَ وَلَا تَنْسَ نَصِيبَكَ مِنَ ٱلدُّنْيا وَأَحْسِنْ كَمَا أَحْسَنَ ٱللَّهُ إِلَيْكَ وَلَا تَبْغِ ٱلْفَسَادَ فِي ٱلْأَرْضِ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ ٱلْمُفْسِدِينَ ) .

« فالأخلاق الاسلامية هي أخلاق تقوى بكل ما تحمل من معان سلبية

وإيجابية أي تجنب الحرام ، والإقبال على الحلال » والإيثار والتقوى هي لحمة الأخلاق وسدادها[١] .

ومن هنا اختلفت الأخلاق الاسلامية عـــن الأخلاق المسيحية والأخلاق اليونانية والأخلاق المعاصرة على السواء .

فالمسلمون لم ينظروا الى الأخلاق على أنها موضوع جدال أو نقاش . ولا على أنها جانب نظري من النشاط العقلي . ذلك أن الاسلام جعـــل من الأخلاق منهاجاً عملياً غايته التعاون في الحياة ، واحترام القيم الانسانية وحسن المعاملة . ومبدأ الأخلاق الاسلامي يقوم على أساس الارادة والمسؤولية والجزاء .

أما النظرية الأخلاقية المسيحية فقد انطلقت من فكرة الخطيئة التي تحول دون الالتزام والمسؤولية ، وتجعل وجود الانسان وتصرفاته خاضعتين لجبرية قسرية .

---

١ - دكتور أحمد فؤاد الأهواني .

- ٢ -

تقوم الأخلاق في الاسلام على أساس الالتزام . ذلك أنه لا أخلاق من غير حرية ، كما أنه لا تكليف من غير اختيار . والإرادة حركة نفسية داخلية ، لذلك يقرر الاسلام أن المكره إذا فعل ما يكره عليه غاضباً غير راض كان له عذره .

وقد سمى الاسلام حرية الإرادة اختياراً ، وجعلها مناط التكليف . ومن حرية الاختيار أن يكون العمل الخلقي متصفاً بالطاعة صادراً عن إرادة طيبة في حب الخير والحق والفضيلة .

وقد ربط الاسلام بين الدين والأخلاق ، وجعل الإيمان بالله وعاء الأخلاق . وفرق بين الأخلاق والتقاليد ، فالأخلاق ثابتة ومتصلة بالقيم العليـــا لأنها من صنع الله .

أما التقاليد فهي وسائل عارضة تختلف وتتغير مع تغير الزمان ، لأنها من صنع الناس .

ولا ريب أن فكرة الالتزام الخلقي هي العنصر الأساسي أو المحور الذي تدور حوله القيمة الأخلاقية . « فإذا زالت فكرة الإلزام قضي على جـــوهر الحكمة العقلية والعملية التي تهدف الأخـلاق الى تحقيقها . فإذا انعدم الإلزام

انعدمت المسؤولية . وإذا انعدمت المسؤولية ضاع كل أمل في وضع الحق في نصابه وإقامة العدالة » .

ولذلك فقد جاءت فكرة المنهج العلمي الغربي الوافد في الدعوة الى أخلاق بلا إلزام ولا جزاء عملاً نظرياً محضاً لا يؤدي الى تحقيق غاية ما[1] .

---

١ – عن نص للدكتور محمد عبد الله دراز .

- ٣ -

ويصور الدكتو محمد عبد الله دراز : كيف يفسر القرآن مصدر الالتزام الخلقي فيقول : « إن النفس الإنسانية قد عرفت في تكوينها الأول معنى الخير والشر ، (وَنَفْسٍ وَمَا سَوَّاهَا) ، كما ألهم الإنسان الحدس الخلقي ، وعرفت طريقَي الفضيلة والرذيلة (وَهَدَيْنَاهُ النَّجْدَيْنِ) . ولا مراء في أن الطبيعة الإنسانية قد تندفع نحو الشر (إِنَّ النَّفْسَ لَأَمَّارَةٌ بِالسُّوءِ) ، ولكن الإنسان قادر على أن يكبح جماح شهواته . وإذا لم يكن في مقدور كل إنسان أن يغالب نفسه فيغلبها . فإن هناك من يتيسر لهم ذلك بفضل العون الإلهي ( إذا أراد الله بعبد خيراً جعل له واعظاً من نفسه يأمره وينهاه ) .

« هناك إذاً قوة كامنة في نفس الانسان لا تهيىء له النصح ولا تضيء له السبيل فحسب ، بل إنها تحدد له ما يجب عمله وما يجب تحاشيه ، هذه السلطة الكامنة التي تسيطر على قدراتنا وعلى غرائزنا السفلى هي أسمى جزء في نفوسنا ، هي العقل . وسلطة العقل هي السلطة الشرعية الوحيدة . وقد كرمنا الله بفضل العقل وما يسبغه على الانسان من الكرامة . (وَلَقَدْ كَرَّمْنَا بَنِي آدَمَ) ولم يصور لنا القرآن النفس الانسانية بالرغم من اندفاعها أحياناً نحو الشر على أنها شريرة في أصلها ، ( لَقَدْ خَلَقْنَا ٱلْإِنْسَانَ فِي أَحْسَنِ تَقْوِيمٍ )

مما يدل على الأصل الطيب . ولا يفسد الانسان إلا عـــدم استخدامه للقوى والمواهب ، ( لَهُمْ قُلُوبٌ لَا يَفْقَهُونَ بِهَا ) فالأمر إذن يتوقف على مدى استخدامنا للقوى العليا التي أودعها الله إيانا ، وتنمية هذه القوى وتزكيتها برفع النفوس ، ( قَدْ أَفْلَحَ مَنْ زَكَّاهَا ) . كذلك عني القرآن بعد إيقاظ قوانا العقلية بإيقاظ مشاعرنا النبيلة بشرط أن تعمل تحت رقابة العقل وهو يدعونا لأن نزن الأمور بميزانها الصحيح قبل أن نحكم على قيمها » .

ويعني هذا في مجمله ثبات القيم الأخلاقية وعـــدم خضوعها للبيئات أو للعصور . ذلك أن جميع أفراد الجنس البشري توحد بينهم صفات نفسية وخلقية عامة ، وان الاختلاف بالزيادة والنقصان لا يكون إلا في الصفـــات العرضية . أما الصفات الجوهرية فإنها ثابتة . والمسلمون يؤمنون بثبات الأخلاق ، كما يؤمنون بثبات الشريعة . « فقوانين الله لا يمكن تغييرها ، وهي ليست ناتجة من ظروف المناخ في الدولة التي تعيش فيها الأمة ، ولا هي ناتجة من البيئة الاقتصادية ووسائل الانتاج ، وهي لا تختلف من زمن الى زمن ومن مكان الى مكان ،(فَلَنْ تَجِدَ لِسُنَّةِ اللهِ تَبْدِيلا وَلَنْ تَجِدَ لِسُنَّةِ اللهِ تَحْوِيلا) . هذا الطابع العالمي يرجع الى أن طبيعة الانسان لا تتغير ؛ فالحوافز الانسانية لم تزل نفسها اليوم كما كانت منذ فجر الحياة البشرية ، والغرائز التي هي محور عمل الانسان لم تزل باقيـــة كما هي ، وصفات الايثار والشرف والصدق والشجاعة لا تزال كذلك . فإن « الفطرة الانسانية عنصر ثابت أصيل ، ولما كان صاحب هذه العقيدة ، وتلك الشريعة ، هو خالق تلك الفطرة وصاحبها . فلا غرابة بعد ذلك في أن يكون في الدين عناصر ثابتة لا تقبل التغيير أو التطور باختلاف المكان أو تغير الزمان . وهناك عناصر ووقائـــع ومستحدثات لم يتعرض لها الاسلام أصلاً . بل ترك للناس الاختيار في شأنها بين الحلول المختلفة الممكنة في ضوء ما يتغير من ظروفهم وأصول معاشهم » . وفي الاسلام تنبعث الاخلاق من

عنصر ثابت هو الكيان الانساني ذاته ، وهناك أساس مقرر هو أنه مهما تغيرت حوادث التاريخ ووقائع الاختراع ، ومنجزات العلم . فإن الانسان لا يستطيع أن يغير حقيقة وجوده . وفي الاسلام يتميز الانسان عن الحيوان ، ويحقق كيانه الانساني المتميز ولا ينحرف الى حياة الحيوان .

ومما يدحض نظرية نسبية الأخلاق أن القيم الأساسية للسلوك والفضائل والخير والشر ما تزال ثابتة من آلاف السنين . ولقد عرف المسلمون الأخلاق في الأديان السابقة مرتبطة بالحنيفية حتى جاء محمد ﷺ ، فوضع اللبنة الأخيرة فيها : إنما جئت لأتمم مكارم الأخلاق . نعم جاء الاسلام مصححاً للقيم الأخلاقية ومحرراً لها ومكملاً ، وواضعاً إياها في صورتها النهائية .

ومن أبرز معالم القواعد الأخلاقية الاسلامية : أنها ضوابط متينة تحول دون الظلم والفوضى والإباحية والتحلل . وتبقى في نفس الوقت مَرِنَة بحيث يمكن للأجيال المتعاقبة صياغتها في صور تناسب عصرها دون أن تغير جوهرها أو مضمونها .

# الفصل الثالث

## أخطاء مفاهيم النفس

إن نظرية المنهج العلمي الغربي الوافـــد في النفس الانسانية التي طرحت في أفق الفكر الاسلامي والثقافة العربية تختلف كل الاختلاف عن مفهوم الاسلام. وتتعارض مع طبيعة النفس البشرية التي قدمتها لنـــا الأديان وأضاء مفهومها الاسلام على نحو كاشف صريح يقوم على أساس الفطرة البشرية الجامعة بين أشواق الروح ورغبات الجسد، والتي تتحرك دائماً فيما بين رفعة الحس وقوة الإيمان.

ومن هنا فقد تركت مفاهيم النفس الوافدة أثراً بعيداً في إثارة أجواء الشك والاضطراب والقلق والتمزق لأنها بعدت عن الحقيقة الكاملة، واقتصرت على الجانب المادي وحده فالتمست منه مقوماتها ومفاهيمها.

وأخطر مـا في مفاهيم النفس الغربية من التعميم والقصور ومن الانشطارية والتجزئة – شأن الفكر الغربي كله في معطياتة المحدثة ومراحله الأخيرة، هو القول بأن الجنس هو أساس الدوافع النفسية جميعاً، وأن الانسان مقسور في إطار من الجبر الذي تفرضه هذه الغريزة على كل تصرفاته بحيث يعجز عن أن تكون له إرادته الخاصة.

ومن خلال هذه الفرضية الجريئة حاول فرويد ومدرسته استخلاص مفاهيم تتعارض تماماً مع مقدرة النفس الانسانية وأعماقهـا البعيدة، وحركة التوازن القائمة بين الغريزة والعقل، وبين النفس والجسم وبين الروح والمادة. وحـــين

يفترض فرويد أن الشهوة الجنسية هي الحافز الأول لنشاط الانسان يضع قاعدة خطيرة هي : إعلاء حيوانية الانسان ، ورد كل العوامل إليها . ومن هنا يذهب الى القول بأن النشاط الذهني والاجتماعي والفني والديني له أساس جنسي، ويمضي الى القول بحُبّ الأم وكراهية الأب عند الرجـــل . ويعتمد فيه على أسطورة يونانية قديمة هي أسطورة أوديب التي تتحول الى مركب . وكذلك فيما يتصل بحب الأب وكراهية الأم عنـــد المرأة . ويعتمد فيه على أسطورة أخرى هي ( الكترا ) ، ويمضي فرويد فيقرر أن الانسان في جوهره حيوان كغيره من الحيوانات . وأن غرائزه وميوله الفطرية وحاجاته العضوية هي أساس سلوكه في الحياة .

- ٢ -

إن أخطر ما تقدمه مفاهيم النفس في المنهج العلمي الغربي الوافد من آراء إنما تدعو الى معارضة مفاهيم الدين في مغالبة النفس ومجاهدة الأهواء وعدم الخضوع للدوافع المدمرة للكيان الانساني. غير أن الدين الحق حين دعا الى المغالبة والمجاهدة لم يدع الى الكبت أو الاسقاط وتحريم هذه الرغبات الحسية، بل اعترف بها ودعا الى ممارستها وتحقيقها في إطارين:

الأول: إطار النظام الاجتماعي وقوانينه الحافظة من أخطاء الزنا والإباحية.

الثاني: إطار الضوابط التي تحمي الطبيعة البشرية من الانهيار والتحلل.

فالاسلام أساساً لم يحرم الرغبات الحسية، بل اعترف بها. ولكنه نظم الممارسة في إطار كريم ومتوازن مع حاجات الانسان الأخرى بحيث تتحقق أشواق الروح، ورغبات الحس في وقت واحد ودون طغيان أحدهما على الآخر. وليس على هذا الأسلوب الذي يدعو الى الانطلاق الحر غير المقيد الذي تدعو إليه المذاهب النفسية والاجتماعية الغربية. هذا فضلاً عن أن وصف الرغبات الحسية بأنها من عوامل الكبت وأنها من مصادر الخطر العقلي والجسماني. ومن هنا تجيء الدعوة الى إطلاقها. فإن ذلك يرجع في الواقع الى واقع المجتمع الغربي نفسه في تعامله مع عقائده الدينية وتقاليده الاجتماعية وهو ما لا نجد له شبيهاً في المجتمع الاسلامي.

ومن هنا يمكن القول بأن « مناخ » المفاهيم النفسية الغربية إنما يستمد استجاباته من تحديات معينة هي خلاصة تاريخ العلاقات الاجتماعية في أوربا . والتي استمدت مضامينها من جو الرهبانية . وكراهية العلاقة الطبيعية بين الرجل والمرأة . حيث بالغت المسيحية « الغربية » في فرض القيود على النشاط الحيوي ، وإنكار حق الفرد - لا في مزاولته بل في الاحساس بالرغبة في هذا النشاط . ولا تكتفي بوضع القيود على الميدان العملي بل تتعداه الى مجال الشعور في داخل النفس وعلى سبيل الالزام . وهذا يعني معارضة الطبيعة البشرية ، وقمع الجسد ومقاومة رغبة أصيلة في النفس ، وامتهان الجسد كوسيلة لا وسيلة غيرها للارتفاع بالروح . وقد صاحب هذا الاتجاه تلك الدعوة الحارة الى الرهبانية والزهد . وما اتصل بالأديرة من أحداث وأهواء ، وما يرتبط بهذا من عدم إباحة الطلاق . كل هذا قد أدى الى مفهوم وواقع كلاهما يتعارض مع الطبيعة البشرية - هذا المفهوم والواقع مع تحدياته وآثاره الخطيرة كانت نظرية فرويد هي ردّ الفعل الطبيعي لها .

## - ٣ -

لم تكن نظرية فرويد إلا مجموعة من الفروض التي استقاها من تجربته مع المرضى والشواذ والمصابين . وليس مع الأصحاء أو الأسوياء ، وهي وجهة نظر معينة لم تثبت طويلاً في مجال التجربة ، وقال كثير من الباحثين ان فرويد أقرب الى المتنبئين منه الى العلماء . وانه يرمي بنظرياته وآرائه دون أن يقدم لها البرهان العلمي أو السند الواقعي . وانها تقوم في أغلبها على الافتراض ، ثم تصديق ما يفترض فيبني عليه وكأنه حقيقة علمية لا يأتيها الباطل . وقد أثبتت الدراسات العلمية بما لا يقبل الجدل أن الدافع الجنسي يأتي في مرتبة أدنى من كثير من الدوافع الأخرى كالدوافع الى الهواء أو الشراب أو الطعام . ثم ان الدافع الجنسي يخضع للتربية بمعنى أننا نستطيع تربية الانسان على العفة بحيث يضبط دافعه الجنسي ويتحكم فيه . وبذلك تكون العفة أمراً ليس ممكناً فحسب بل ضرورياً .

★ ★ ★

ويقول الباحثون ان نقطة الضعف الأساسية في فرويد كعالم ، هي أنه اتخذ من دراسة نفسه وطفولته قاعدة للتعميم والوصول الى قوانين عامة . وقد ترك فرويد من كتاباته عن نفسه وعن حياته ما يثبت أنه كان يتخذ من تحليل أحلامه وهواجسه ومشاكل صباه ، كيهودي في النمسا ، المتعصبة ضد اليهود ،

قاعدة كل تصميماته[1] .

ويقول الباحثون : إن فلسفة فرويد تمتاز بأنها ميكانيكية جبرية . فإنها تنظر الى الانسان على أنه آلة عديمة الحرية خاضعة كل الخضوع لقوى خفية لا يمكن التغلب عليها إلا بالحيلة . وان فرويد أسرف في إرجاع كل ظاهرة سلوكية الى الغريزة الجنسية[2] .

---

١ - عن بحث للدكتور عبد العظيم أنيس .

٢ - عن بحث للدكتور يوسف مراد .

## — ٤ —

لم تكن فرضيات فرويد موضع قبول من العاملين معه في حقل علم النفس بل على العكس من ذلك كانت موضع المعارضة . وقد عارض يونج وأدلر نظرية فرويد في الجنس ، ورفضا رأيه في الغريزة الجنسية وفي الطفولة وفي عقدة أوديب .

أما أدلر فإنه نبذ أهمية الغريزة الجنسية النبذ كله، وأرجع تكوين الشخصية ونشأة الأمراض العصبية الى مجرد الرغبة في القوة والتعويض عن نقص الكيان. ويعتقد أدلر أن حافز توكيد الذات ( Self assurative compulse ) وليس الدافع الجنسي هو القوة السائدة الايجابية في الحياة . ويرى يونج أن الجنس ليس هو الدافع الحقيقي ولكن الرقي والسيادة والرغبة الملحة في التفوق . وأن الحب ليس الوسيلة الوحيدة لتحقيق هذه السيادة . وأن هناك وسائل أخرى لا علاقة لها بالحب الجنسي .

ويرى أدلر الشعور بالنقص أهم في الأمراض العصبية من الأمور الجنسية التي بالغ فرويد في خطورتها . ويقول يونج إن آراء فرويد ذات جانب واحد وغير ناضجة تمام النضوج ، وان مصدر سرور الطفل في الحصول على الغذاء هو اللبيد ولكن يجب ألا يوصف بأنه جنسي أبداً ، وذلك باعتبار أن الدافع الجنسي لم يتميز بعد عن الميل الابتدائي للحياة . وينكر يونج أن اللبيد جنسي بكليته . وهو يعتبر أن اللبيد هو إرادة الحياة .

## - ٥ -

أجرى الدكتور اسكندر توماس عدداً من البحوث مع جماعة من الأطباء النفسيين انتهى منها الى أن نظرية فرويد لم تكن مطلقة ، وان إقبال رجال التربية على لوم الآباء هو المسلك المدمر في تربية الأبناء. ويقول العلماء في تقريرهم انهم درسوا أحوال ١٥٨ طفلاً غير منحرفين فيهم الفقراء والأغنياء ، وقد نشأ الأولاد أصحاء مستقيمين بالرغم من القيود التربوية القاسية . ويدل ذلك على أن مسلك الطفل يتأثر بعدد كبير من العوامل ، وليس بالبيئة والوسط والحالة الاجتماعية وحدها .

ويدعو الدكتور ناتان كلاين : الى نبذ نظرية فرويد في العلاج النفسي والعقلي وهي النظرية التي ترجع جميع الاضطرابات النفسية الى أسس جنسية بحتة ، وقال إن هذه النظرية ليست سوى معول هادم لعقول الشباب ، ومخدر مميت لنفوس أبناء الشعب . ويرى أن رأي ( ايفان بافلوف ) بأن البيئة هي المسؤول الأول عما يصيب الانسان من انحراف نفسي وعقلي هو الأصح . كما أعلن كثير من العلماء فساد رأي فرويد في أن معارضة رغبات الطفل في صغره تؤثر في تصرفاته إذا كبر . وان التجربة قد اثبتت بعد دراسات طويلة ضرورة استخدام الضرب كوسيلة لتقويم الطفل ، وقالت هذه الأبحاث ان مسلك الطفل يتأثر بعدد كبير من العوامل غير البيئة والوسط والحالة الاجتماعية ، فلا سبيل لإخضاع تربية الطفل لنسق واحد .

- ٦ -

أجمعت الأبحاث التي كتبها أقرب الناس الى فرويد ومنهم صديقه ومترجمه الدكتور أرنست جونز على أن فرويد لم يكن سويّ الطبيعة أو الصحة وأنه كان عرضة للإغماء على أثر بعض المفاجآت[1] ، وكانت مرارة الطبع خلة ملازمة له في علاقاته بغيره ، وكانت لأحلامه وجوه خفية ترمز الى دلائلها في سريرته الباطنة ، وكانت له ضروب من القلق تنم عن باعث من بواعث الحيرة المكتومة وكان أظهر حالاته الخاصة أنه يحارب التشبث في العقائــد الدينية والعادات والتقاليد الخلقية ، ولكنه يتشبث بالتفسير الجنسي للعقائد والعادات تشبثاً يفوق في إصراره وشدته تعصب المتعصب اللدود لمذهبه ودينه . « ومن قوله ليونج : عدني أنك لن تتخلى يوماً عن الإيمان بالتفسيرات الجنسية . إلا أن يونج لم يلبث أن تزحزح بتفكيره شيئاً فشيئاً عن ذلك الإغراق في العصبية الجنسية التي تحيط بكل علة ، وتتغلغل وراء الأسرار في أعماق كل طوية . وقد خالفه تلميذه الفرد أدلر كما خالفه يونج » .

وان فرويد كان مجموعة من العقد النفسية والعادات الغريبة ولم يستطع أن أن يشفي عقله الباطن من هذه العقــد النفسية الى آخر حياته ، وكان ينسى الأسماء ومنها اسم أحد معارفه الدكتور فرويد، وكان يتتبع أوراقه التي تدخل

---

١ – من بحث للاستاذ عباس محمود العقاد .

في ترجمة حياته فيحرقها . وكان يؤمن بأنه سيموت في نهـــاية الحرب العالمية الأولى . فمات في بداية الحرب العالمية الثانية ، وكان يدخن عشرين سيجاراً في النهار ليهدىء من سوراته العصبية . وكان في طفولته ينسى نفسه ليلاً في فراشه ، وكان يخشى من السفر بالقطار ويحضر الى المحطة قبل موعد قيامه بنحو ساعة . وكان دائم العزلة لا يسمح لأحد أن يصاحبه طويلاً .

وكذلك كتب الدكتور أرنست جونس ( أكبر تلاميذ فرويد ) في الترجمة له ، يقول : إن فرويد كان يحرق أوراقه قبل أن يتمكن أحـــد من الاطلاع عليها . وكان يحتفظ لنفسه بأعوان من اليهود .

وقد أشار الاستاذ العقاد[1] الى ما نشرته الصحف الغربية من أن الأطباء النفسانيين الذين اجتمعوا لإحياء ذكرى فرويد في مدينة شيكاغو ( ١٩٥٦ ) قد فوجئوا بحملة عنيفة على فرويد ومذهبه يتولاها رجـــل مسؤول عن مركزه العلمي والرسمي هو الدكتور برسيفال نيلي مدير معهد النفسيات بولاية البنواز . وخلاصة جملته أن البقية الباقية من طب فرويد قليلة لا يؤبه لها ، وأن آراءه لا تضيف شيئاً الى القيمة الانسانية لأنـــه يرد بها الانسان الى أغوار العقل الباطن ويهمل جانبه المنطقي والشاعر ، وانه لم يكن يفهم المرأة ، ولم يكن يتذوق الموسيقى ولا يحس جلال العقيدة وأنه لمن العجب أن يكون الدكتور أرنست جونس تلميذه الوحيد من غير اليهود .

وكذلك وجه ( كلابارن ) انتقاداً لآراء فرويد في التحليل النفسي ، وشبه قائلها وأتباعه بالبوم لأنهم لا يرون إلا ما تشتمل عليه كهوف اللاشعور . وأشار كثير من الباحثين الى أن أبلغ نقاط الضعف في فرويد كعالم أنه اتخذ من دراسة نفسه وطفولته قاعدة للتعميم والوصول الى قوانين عامة . وقالوا : إن فرويد نفسه كان مصاباً بأزمات نفسية عجيبة فقد حدث وهو يعالج مريضة بالهوس

---

١ – أخبار اليوم ، مايو سنة ١٩٥٦ .

الجنبي – هي بيسلي المصابة بعقدة أوديب – وبينما كان يقوم فرويد بعلاج هذه الفتاة تكشف له في نفسه أنه مصاب بعقدة أوديب . وأنه كان يتجه الى أمه ويغار من أبيه . وانه اتهم أباه ظلماً بجريمة أخلاقية رهيبة . ان أسطورة أوديب الاغريقية التي تتحدث عن ابن ارتكب جريمتين فقتل أباه وارتكب خطيئة أخرى . ثم عاقب نفسه بأن فقأ عينه ، هذه الأسطورة جعلها فرويد حقيقة يؤمن بها ويعيد سلوكها .

ويقول الدكتور فاخر عاقل في تصوير أثر حياة فرويد في فكره : ان فرويد يهودي . وانه كان ليهوديته دخل كبير في صياغة الكثير من نظرياته وفرضياته وتعليلاته ، ذلك أنه كان ينتمي الى أقلية مكروهة بحكم صفاتها المعروفة ، تلك التي أقل ما ينسب إليها حب المال والانغلاق والتعصب والتوحيد بين القومية والدين والمطامح الاقتصادية والحنين الى الماضي والعمل على بناء وطن قومي من نوع محدد ، وكان ذلك ضمن إطار معين .

# - ٧ -

يعجز المنهج العلمي الغربي الوافد أن يقرر مع فرويد تلك الآراء التي تجد معارضة البحث العلمي الصحيح ومخالفة الفطرة والعلم والعقل جميعاً .

أولاً : القول بأن الحياة النفسية للإنسان هي حياة حيوانية مطلقاً . وأن غرائز الانسان هي التي تحكمه وتسيطر على نشاطه . وأن الجانب المسمى بالروح لا وجود له على الإطلاق .

ثانياً : في القول بأن الحياة كلها جنس ومنبثقة من الجنس حتى الدين والأخلاق وأن الانسان يولد جنساً خالصاً .

وبالجملة فإن فرويد ومدرسته يرون أن الانسان في جوهره حيوان كغيره من الحيوانات وأن غرائزه وميوله الفطرية وحاجاته العضوية هي الأساس لسلوكه في الحياة وهي التي تحكمه وتسيطر على نشاطه ، والروح لا وجود لهـــا على الاطلاق .

ويرجع كثير من الباحثين هدف فرويد الى تحطيم القيم الأساسية التي جاءت بها الأديان . وان ذلك من أول أهداف الصهيونية التي تعمل على هدم النظم الدينية والأخلاقية من أجل السيطرة على العالم ، والسيطرة عليه وتسخيره ، على النحو الذي أوردته بروتوكولات صهيون ، لا بد لها من تخريب العالم أولاً قبل السيطرة عليه . ومن أجل هذا بدأت السيطرة على الفكر الغربي واحتوائه

وتوجيهه الى أهـــداف الفكر الصهيوني وتصفيته من مفاهيم المسيحية والقيم الانسانية واستغلال الثقافة والحضارة في بث روح الالحاد في العالم كله[١] .

وقد اذيعت مرات عديدة[٢] تلك الدعوة الى تنظيم جماعة من الناس يرونهم أحراراً لا يخجلون من أعضائهم التناسلية حين يجتمعون في نوادي العراة . من أجل هذا تتخذ الماسونية من المدنية المسيحية موقفاً عدائياً وترى أن المسيحية تقف في وجهها عائقاً أخلاقياً يحول دون نجـــاح دعوتها ، فعند ما أرادت الماسونية أن تلقن الشباب في طفولتهم أسس دعوات الجنس والانحلال ، وتلقنهم مبادىء تقديس أعضائهم التناسلية ، ووقفت آداب المسيحية في وجههـــم ، صنعوا برجـــال الدين المسيحيين الأعاجيب من قتل وتخويف . وقد جعلت اليهودية العالمية من عقيدة الماسونية خلقاً وأسلوب عمل يهدد مجتمعات الدنيا بالدمار الأخلاقي .

ثم جاء دور فرويد في هذا الإطار « ففرويد هو الرجل الذي أراد أن يحطم احترام الانسان لنفسه تحطيماً كاملاً ، ومن يقرأ فرويد يدرك تماماً أنه ينفذ مخططاً يهودياً جباراً حين أراد أن يصم الجنس البشري بأنه جنس متحلل ينطوي على أسوأ النوايا وأخسّ الرغبات ، حتى أنه اتهم الجنس بأن الطفل يعشق أمه ، ويريد أن يقتل أباه ، وبنى فلسفته ومذهبه على هذه المضامين الرئيسية حتى جعل الناس يشكون في كل فضيلة وكل أمر وكل عاطفة رقيقة » .

وفي نطاق هذه الدعوة جاء نيتشه ينادي بسيادة القوة واللارحمة ، ودوركيم وهو يقرر أن نظام الأسرة نظام مصطنع . وقد جرت المخططات اليهودية وراء عالم الطبيعيات دارون ونقلت مذهبه الى تشكيك المجتمع الانساني في طبيعة الخلق . وقد أشارت البروتوكولات الى ذلك صراحة حين قالت : لاحظوا ان نجاح دارون وماركس ونيتشه نحن الذين رتبناه من قبل ، وحين قالت : « يجب أن نعمل لتنهار الأخلاق في كل مكان فتسهل سيطرتنا ، ان فرويد منا ،

---

١ و ٢ - من كتابات خليفة التونسي مقدمة البروتوكولات .

وسيظل يعرض العلاقات الجنسية في ضوء الشمس لكي لا يبقى في نظر الشباب شيء مقدس ، ويصبح همه الأكبر هو إرواء غرائزه الجنسية وعندئـــذ تنهار أخلاقه » .

لقد كان هدف فرويد هو القضاء على الدين والأخلاق فسعى الى تلويثها ، فقال إن الأخلاق تتسم بالقسوة . وان التسامي نوع من الشذوذ . وكان لذلك كله أثره في الأدب والقصة والسينما والمسرح والإذاعـــة والتلفزيون وفي بيوت الأزياء وأدوات الزينة . وهكذا كان الهدف هو السيطرة على الفكر العالمي عن طريق القضاء على كل فكر أصيل وزرع الشك والإباحـــة للوصول بالفكر البشري الى مرحلة الحيرة والاحتواء .

## - ٨ -

يقف الاسلام موقفاً واضحاً صريحاً من مفهوم النفس والسلوك الانساني ، فهو يأخذ الكائن البشري كاملاً ولا يفصل بين نفسه وجسمه أو بين عواطفه وعقليته أو بين ماديته وروحانيته ، ويؤمن بأن الانسان ثابت الجوهر متغير الصورة ، وأنه لا سبيل الى تفريغ كيانه من مضمونه ، أو النظر اليه على أنه الهيكل البشري خالياً من الروح والوجدان . والانسان في نظر الاسلام كائن لا هو بالملاك ولا هو بالشيطان ، له مطامع تربطه بالأرض ، وأشواق تربطه بالسماء .

ولذلك فإن الاسلام يعمد الى إيجاد التوازن في نفس الفرد بين قواه المختلفة مما يؤدي الى التوازن في المجتمع فيحاول أن يحفظه دون أن يعتزل الحياة بالرهبانية أو يلقي بنفسه فيها بالإباحة ، فالتوازن الدائم هو الذي يحقق للإنسان قدرته على أداء رسالته وممارسة تجربته دون أن يفقد المسؤولية باعتزالها ، ودون أن يعجز عن احتمال الأمانة بالانحدار عنها .

والاسلام يعترف بالكائن البشري كما هو فيحقق له رغبات جسده وعقله وروحه ، كما يعترف بالنشاط الحيوي للانسان ، ويحق الفرد في مزاولة هذا النشاط في حدوده المعقولة .

واعتراف الاسلام بالطبيعة البشرية وبحق ممارستها يحول دون كل ما يسمى

بكبت أو تمزق أو ضياع . إنما يقع التمزق والضياع والكبت نتيجة الفصل بين القيم ، وإعلاء شأن إحداها ، اما إعلاء الروحانيات بالزهادة المطلقة . أو إعلاء الماديات بالإباحة المطلقة .

ومن حيث تكون النظرة الى الحيـــاة متكاملة جامعة ، فإن الانحراف لا يقع . ذلك أن النظرة المادية الخالصة هي وحدها التي تخلق طابع التشاؤم والشك والقلق الذي يحس معه الانسان أنه وحيد وغريب وشقي ، وهذا هو معنى التمزق والضياع . أما حيث يوجد التكامل الذي يقوم على الإيمان بالله . فانما تحل معه الثقة والتفاؤل والرضاء بقضاء الله .

ذلك أن الايمان بالله قوة دافعة تعطي الأمل وتحـــول دون اليأس وتبعث الثقة وتدعو الى المعاودة في حالة الإخفاق .

وان أبرز معطيات الاسلام الإيجابية التفاؤل برحمة الله . فليس في الفكر الاسلامي طابع الانهزامية أو اليأس أو الضعف أو التشاؤم الذي نراه في الفكر الغربي ، ويتصل بهذا تحرر الفكر الاسلامي من طابع الوثنية في عبادة الشهوة أو عبادة الأجساد أو عبادة الفرد أو عبادة ما سوى الله الواحد الأحد .

ويقوم الاسلام على فكرة التضحية والتقوى ، بينما يقوم الفكر الغربي على فكرة الرفاهية وهي ما يتعارض مع البذل والفداء .

## - ٩ -

إن دراسة معطيات الفكر الاسلامي في النفس تكشف بوضوح عن السبق الواضح للمسلمين في مجال الدراسات النفسية ، ويبرز في هذا فضل أبي الحسن الأشعري والغزالي وغيرهما، وقد كشفوا قبل الباحثين في العصر الحديث بقرون عن حقيقة النفس والجنس وقالوا إن النفس لها جوهر روحاني بما يرى من شرف طباعها ومضادتها لما يعرض للبدن من الشهوات والغضب ، وأشاروا الى أن الغريزة الجنسية ركبت في الانسان لفائدتين : اللذة وبقاء النسل ولهذه الشهوة إفراط وتفريط واعتدال . أما الافراط فهو ما يقهر العقل حتى يصرف همة الرجال الى الاستمتاع بالنساء والجواري فيبعدهم عن سلوك سبل الآخرة أو يقهر الدين حتى يجر الى اقتحام الفواحش . والتفريط في هذه الشهوة هو الضعف وهو وهو مذموم، وتمتزج مفاهيم النفس الاسلامية بالأخلاق والدين، وترمي أن تكون سبيلاً الى اصلاحها، وإلى تهذيب الأخلاق والوصول بالمسلم الى شاطىء النجاة... الى رضا الله .

ويفسر الغزالي مظاهر سلوك الانسان بأربعة دوافع أساسية هي : شهوة الطعام والجنس والمال والجاه ، وأساس هذه الدوافع كلها غريزة الطعام . ويرى أن الاعتدال هو الميزان الصحيح لجميع أنواع السلوك . وأن الخروج من الاعتدال الى التفريط والافراط هو مصدر الأمراض النفسية والعلاج هو العودة الى حد الاعتدال الواجب .

# الفصل الرابع

## أخطاء مفاهيم الوجودية

حين طرح المنهج العلمي الغربي الوافــد مفاهيم الوجودية والهيبية في أفق الفكر الاسلامي كان معارضاً للأصول الأصيلة لمفاهيم الاسلام ، ذلك لأنه كان يصدر عن أفق الفكر الغربي الذي مر بتحولات كثيرة حتى وصل الى طرح فكرة الدين من المجتمع وفكرة الاله من الحياة وأحل محلها فكرة الانسان الاله المعبود .

وقد تطورت فكرة الالحــاد بين ماركس وفرويد وسارتر . واستمدت موقفها من التحديات التي فرضها الفكر المسيحي الغربي القائم على ألوهية المسيح، أي تحول الانسان الى إله .

ويتصف إلحاد سارتر بميزة قد تكون الصفة الغالبة على الالحاد الحديث ، ألا وهي أنه ليس مجرد إنكار لله ( سبحانه ) بل هو أبعد من هذا وأعمق ، انه رفض لفكرة الاله ؛ محاولة إبعــاد فكرة الله وإحلال فكرة الانسان ، وتمرد على الايمان بالله من أجل الدعوة الى تأليه الانسان .

يقول فورنباخ ان نقطة التحول الكبرى في التاريخ ستكون في اللحظة التي سيعي فيها الانسان أن الاله الوحيد هو الانسان نفسه ، الانسان هو إله الانسان . وان سيادة الانسان لنفسه هي في أن لا يكون مديناً لأحد بوجوده .

ويرى كثير من الباحثين أن التمرد على مفهوم الله في العصر الحديث مرتبط الى حدٍّ ما بالتمرد على سلطة الأب ، وهذا يتصل بمفهوم الأبوة في العقيدة المسيحية .

ولا ريب أن طرح هذه المفاهيم في أفق الفكر الاسلامي يواجه بكثير من الانتقاد والكراهية . ذلك أن النفس الاسلامية عميقة الايمان بالله الواحد . بل إن مفاهيم العقيدة الاسلامية إنما تقوم أساساً على التوحيد الخالص ، والارتباط الكامل بإرادة الله وقدرته ، وهو الله الذي لا إله إلا هو ليس كمثله شيء ، خالق كل شيء .

ومن هنا كانت عظمة الاسلام في إقامة العلاقة بين الناس والله سبحانه وتعالى على مفهوم العبودية . وليس على مفهوم ( الأبوة ) . وتلك الفواصل الواضحة التي تقوم على أساس التفرقة بين الألوهية والنبوة من ناحية والألوهية والبشرية من ناحية أخرى ، وعدم الخلط بينهما ، وعدم تجاوز البشرية أو النبوة الى الألوهية . ولسنا[1] ندري إذا ألغينا وجود الله ، فكيف نعلل وجودنا ووجود العالم . وإذا ذهبنا مع القائلين بقدم وجود العالم وأنه غير محدث ، فكيف نعلل نشوء الحياة ونشوء العقل الانساني .

كذلك فإن محاولة إعلاء الانسان الى أكثر من مكانه الحقيقي ووضعه موضع الألوهية على الكون . ذلك مما لا تقبله العقول السليمة ، أو الفطر الصحيحة ، ذلك أن الانسان ليس خالق هذا الكون ، وليس القادر على تصريف أي شأن من شؤون الحياة . ثم هو محكوم بالموت الذي يقضي عليه ، فيحول بينه وبين مفهوم الخلود أو البقاء الذي لا يتحقق إلا لله سبحانه وتعالى .

ولقد انحرفت الوجودية عن مفهوم الفطرة حين رأت أن الحياة غاية في الظلام واليأس والغثيان ، وانها بغير غاية ، وانها من المصادفات . مما خلق جو

---

١ ـ من بحث للمرحوم دريني خشبة .

الشك واليأس والحيرة وخلق فكرة « الغريب » التي انتهت الى ( الهيبية ) المدمرة .

وتقوم فكرة الالحاد على تصور مادي يقول بأن الانسان خُلِقَ من العدم ، وصائر الى العدم ، وأن للانسان حياته المحدودة ، ولا سلطان عليه إلا نفسه الشهوانية فينبغي أن يسارع الى اقتناص الشهوات قبل انتهاء أجله . ويرد كثير من الباحثين ذيوع الالحاد الى جحود الفكر الديني الغربي ، وعدم التطابق بين الفكر والسلوك في حياة الكثير من رجال الدين الغربيين وتصوير الاله في أغلب الاديان تصويراً لا يقبله العقل والمنطق فهو برأيهما إله بشري يتشكل في أجساد البشر أو خاص بقبيل من الناس ، محب للدماء محب لعذاب الناس وفناء أجسادهم .

أما الاسلام فإنه يمتاز بمفهوم أصيل عن الالوهية ، واستيعاب كامل لهذا المفهوم الذي هو سر الفطرة ، مع تحرير العبادة من الرموز والطقوس والشارات ، وإلغاء الوساطة بين الله والانسان ، « لقد أطلق الاسلام : الدين من كل ما ألصقه به المجسمة والمشبهة ، وجرد محيط العبادة من التماثيل والصور والرموز ، وجعل الارض كلها مكاناً للعبادة ، وجعل روح الدين في الشارع والسوق والمسجد . ولم يجعل طبقة معينة تحتكر شؤون الدين وتلبس زيًّا خاصاً . بل حتم على جميع معتنقيه أن يكونوا علماء به .

## - ٢ -

كان من نتيجة مفاهيم الوجودية ظهور أزمة الفكر والنفس المعاصرة التي تقوم على أساس مفاهيم الغربة والغثيان والتمرد والغيب واللامعقول .

ويرى كولن ولسن أن الغربة هي مرض البشرية في النصف الثاني من القرن العشرين وأن الغريب هو الفرد الذي لا يتلاءم مع المجتمع الذي يعيش فيه ، والذي يشغله التفكير في الجنس والجريمة والمرض . ويمكن وصف الغريب بأنه الانسان الذي ينشق على ذاته ، والذي يميز الغريب هو إحساسه بأن العالم غير حقيقي .

ويستشهد كولن ولسن بقصة الغثيان لسارتر ، والغريب لكامو ، بما يخلق مشكلة انعدام المعنى من الحياة ، ومشكلة الحرية . ويتميز الغريب بإحساسه بعدم ملاءمة البيئة التي يعيش فيها له ، وبعدم قدرتها على إشباع رغباته الخاصة. وفي قصة الله والشيطان لسارتر . يقول : إن الانسان هو الموجود الوحيد في الكون . وانه ليس ثمة في الكون إله غير الانسان .

ولا ريب أن هذا كله قد زلزل إيمان المجتمعات الغربية بأقدس مقدساتها وهو الايمان بالله ، ذلك أن الايمان بالله هو الشيء الوحيد القادر على أن يجعل لحياتنا معنى ، وأن يجعل من وجودنا قوة ، وأن يجعلنا متمسكين بالحياة ونعيشها .

ويرد الباحثون هذه الأزمــــة الى فكرة إعلاء العقل ، مما أضعف مركز الاشعاع الروحي في الانسان وهو العقيدة الدينية .

ومعنى هذا أن أزمة الغريب هي أزمة فقدان الايمان مما أورث الانسان الغربي المعاصر حالة من القلق والتململ والعذاب لا تنجلي عنه حتى يظفر بشيء يعيد اليه عاطفته الدينية المفقودة .

لقد أسقط الفكر الغربي الحديث الدين ، ثم أسقط الفلسفة والتـــاريخ . واليوم يسقط العلم الذي لم يستطع أن يحقق للانسان الأمل الذي كان يرتجيه . ومن ثم تجمعت خيوط الرفض والغربة والتمزق والضياع .

وإذا كان[1] العلم قد قتل الدين في نفوس البشر ، فإن إنسان العصر الحديث يبحث عن إيمان جديد يوازي سطوة العلم ، لقد أضاع الانسان أعز ما يملك . وهو يبحث الآن عن شيء يحفظه . فقد الغرب الايمان وفقد نفسه . وفي طريق البحث بدأ بعالم الرهبة فلم يزده ذلك إلا حيرة وقلقاً . ثم اتجــه نحو مسالك الشك والالحاد فلم يسعد إلا بمزيد من الخوف والضياع . ثم اتجه نحو التجربة التي تنادي بضرورة تحرير النفس من ضوابط المجتمع ، فكانت الهيبية .

---

١ - من بحث للاستاذ نجيب صالح .

- ٣ -

يصور أرنولد توينبي ( الهيبية ) بأنها حركة الانسحاب من الحياة . ويقول : إن الجيل الأوسط مسؤول عن أنه أتى بهذا الجيل الأصغر الى الدنيا وأنه علمه أو شاء تعليمه أو فشل في تعليمه . وسوء الفهم بين الأجيـــال ليس غريباً ولا مفاجئاً ولكنه شيء لا مفر منه . ولسوء الحظ فإن الأزمة الحاضرة في تاريخ الانسان ملحة وخطيرة . وتتمثل الهيبية في معارضة ضوابط المجتمع وتحطيم جميع الحدود ومعارضة الأنظمة المستقرة الأساسية في حيـــاة الناس كنظام الأسرة ، والدعوة الى النظم البدائية ومعارضة الحضارة والدعوة الى الايمان بالجسد والعري ، وتنـــاول المخدرات ، وممارسة عمليات التأمل الباطني والاستغراق في أحلام اليقظة ، وإذابة الذاتية بالخلــط بين الرجل والمرأة ، والسلبية التامة .

وقد استمدت كلمة الهيبز من كلمة ( Hip ) الانجليزية ومعناها عظم الحرقفة أو أعلى الفخذ . وترتبط فكرة إرسال الشعور بدعوة اليهـــود التي فرضت عليهم ، فحاولوا أن يجعلوها من مظاهر الزينة العالمية كجزء من خطتهم في السيطرة على تطورات الأزياء والزينة في سبيل تحطيم الطبيعة البشرية ، وإذابة

الفوارق بين الرجل والمرأة كجزء من خطتهم بإعلان الحرب على القيم والأخلاق والتقاليد .

وتتعارض كل هذه المفاهيم مع طابع الاسلام والفكر الاسلامي ، ولا تجد طريقاً مقبولاً الى فكر يقوم أساساً على مقومات الأخلاق والضوابط المكينة التي تحمي الشخصية الانسانية من الانهيار والتحلل .

# الفصل الخامس

## أخطاء مفاهيم التربية

طرح المنهج العلمي الغربي الوافد في أفق الفكر الاسلامي مفهوماً للتربية مستمداً من تحديات المجتمع الغربي . وقد تحـــول الفكر الغربي منذ سيطرت الثورة الفرنسية ، وحطمت المدرسة الدينية التي أقامتها الكنيسة . وأقامت المدرسة العلمانية المتحررة من كل قيود الدين والأخلاق ، والقائمة في مجال التحرر والانطلاق من كل القيود . وقد أجمعت مفاهيم الفكر الغربي على الفصل بين التربية وبين مفاهيم الدين .

وأبرز التباين بين مفهوم الفكر الاسلامي والفكر الغربي في مجال التربية ، ذلك الفصل بين التربية وبين الأخلاق فصلاً كاملاً أو جزئياً استمداداً من الفصل القائم في الفكر الغربي بين الأخلاق والدين ، من حيث تقرر النظريات الفلسفية أن الدين مسألة خاصة بالفكر وهي عبارة مهذبة في إنكار المسيحية ( الغربية ) نتيجة قصور الفكر الديني عن مبدأ الملاءمة المتجددة مـــع أحداث الحياة وخطوات المدنية . ومن هنا كان الاتجاه الى فصل التربية والتنظيم عن الدين والأخلاق استمداداً من المثل الإغريقي في تنمية الانسان عقلياً وبدنياً دون عوائق من عقيدة أودين ، ومع إنكار واضح وصريح للجانب الغيبي كله ، وفيما يتصل بالألوهية والنبوة والوحي . ويرى أكثر الفلاسفة التربويين وفي مقدمتهم جون ديوني أن الدين وفلسفة ما بعد الطبيعة ليست إلا نتاجاً للخيال يقع تحت

الظروف السيئة في الحياة . فالانسان عنده لا يتصور ( الله ) ولا يذكره إلا في حالات الضعف أو العجز أو اليأس . وعنده أن الدين لا يصلح مقوماً من مقومات المدنية .

وقد جرى الاتجاه التربوي الغربي في إطار الانحراف الذي أصاب الفكر الغربي في العصر الحديث ، وأسقطه في براثن المادية التي فرضت مفهوم الحسيات وإنكار الغيبيات والديانات ، وفتحت الباب واسعاً أمام الاستهانة بالقيم الروحية والاستهانة بالمبادىء والأخلاق وسيطرة شعار العصر ( لا شيء صحيح ، كل شيء مباح ، كل شيء ممكن ) وهو شعار وثني مادي خطير قوامه التحلل والانحراف ، ويرد الباحثون المنصفون ذلك الى سيطرة المادة والآلة ، وتحرر الحضارة من ضوابط الأخلاق ، واندفاعها الى دواعي المتعة والإغراق واللذة . وقد عبّر أحدهم عن ذلك حين قال : إن الإيمان القديم قد زال ، ولكن لم يتكون بعد إيمان جديد يقوم مقام ذلك الايمان القديم .

- ٢ -

من خلال هذه المفاهيم تبدو الفوارق الواضحة بين مفهوم الاسلام للتربية وبين مفهوم الفكر الغربي ، كما يتبين مدى الخطر من سيطرة مفاهيم الفكر الغربي الوافد في التربية على المجتمع الاسلامي وفكره ، ذلك أن العلاقة المباشرة بين القيم الأساسية للمجتمعات والأمم وبين التربية تجعل من الخطأ المحض تطبيق منهج أية أمة مهما كان ممتازاً على بيئة أمة أخرى لها قيمها وعقيدتها وثقافتها .

ولما كانت التربية تجسيد كل ما تقرّ به الأمة من قيم مؤمنة وإنسانية أصبح من الطبيعي أن تتجسد في التربية روح الأمة . ومن هنا فإن الفصل بين التربية والدين . وبين التربية والأخلاق ، إذا صلح كمنهج في الغرب فإنه لا يصلح في بيئة الفكر العربي الاسلامي الذي يتخذ من الدين والأخلاق مقومات أساسية .

وقد كشف عن ذلك كل الباحثين في التربية ، وأعلنوا أننا نأخـــذ من الغربيين مناهجهم وطرقهم وأساليبهم دون أن نلائم بينها وبين منازع أمتنا وحاجات مجتمعنا . يقول أحـــدهم : « أخذنا الأسلوب الأدبي على علاته ، وتعصبنا له أكثر من أصحابه وأسرفنا في تقليده ، مثلنا في ذلك مثل الغراب — فقد مشيته التي كان عليها وصار أقبح الطير مشياً . وأسرفنا في التقليد حتى تكلفنا من الأمور ما لا يشاكلنا وما ليس من طبيعتنا وطورنا ، ونسينا ما أدبنا عليه آباؤنا وأجدادنا وما ورثناه عنهم من قيم خلقية ثابتة » .

ولا ريب أن تربيتنا الاسلامية كانت أكثر اصالة . لأنها قامت على مبدأ المساواة بين الجميع - خلافاً لمـــا كانت عليه التربية اليونانية - فكان غرضها دنيوياً ودينياً ، وروحيًّا ونفعيًّا وفردياً واجتماعياً . ولم يكن هناك فرق بين دائرة الدين ودائرة الدنيا . بل كانت هناك دائرة واحدة للحياة هي مزيج منهما معاً .

## - ٣ -

وفي فكرنا الاسلامي تتميز التربية بطابع خاص : أبرز ملامحه تأديب النفس وتزكية الروح وتثقيف العقل وتقوية الجسم فهي تربيـــة دينية خلقية صحية جسمية ممتزجة متكاملة لا ينبني نوع منها على حساب النوع الآخر ، والايمان بالله ، هو حجر الزاوية في التربية الاسلامية . والتمييز بين الحـــلال والحرام ، والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر ، والبر لأهله ، ومساعدة الضعفاء ، وخلوص النية ، كل ذلك دعائم من دعائمها الأصيلة .

فالتربية في الاسلام تستهدف أساساً تهذيب الشخصية وتزويد قواها الفكرية والبدنية بكل ما يصلحها للعلم والعمل . فتجتمع قوة البدن وقوة الروح . وتقوم التربية الحقة في الاسلام على الاعتماد على النفس والكرامة وحسن الظن بالناس وحرية الإرادة والجرأة الأدبية والصراحة والصدق ، والاستقامة في الرأي والعمل . وقد وضع الاسلام منذ فجره آداب الرفق بالمتعلمين وتعليمهم بالقدوة وتقديس حرية الرأي ، وتفهم الأحكام فهماً صحيحاً .

وتقوم تربية شخصية الفتى والفتاة في بنائها على القـــدوة في البيت أولاً ؛ والجزء الذي يتم منها في المدرسة قليل ، فلا بد أن تكون هناك رسالة للآباء والأمهات . ومن هنا فقد فشلت نظرية ديوني في فصل الدين عن التربية ، ولم تجد تقبلاً في مختلف الدوائر العالمية ، وهي أولى أن لا تصلح في أفق الاسلام .

وقد أشار بيارد دورج في كتابه التربية الاسلامية في العصور المتوسطة الى مدى ذاتية التربية الاسلامية وخصيصتها البارعـــة حين قال : إن التربية الاسلامية تهدف الى نشدان الحقيقة والخير لذاتها ، وعند ما ندرس سير علماء المسلمين الذين انقطعوا للعلم نعجب بالتصوف العلمي الذي كان يتجلى في العالم الاسلامي . فلا غرض مـــادي ، ولا هوى سياسي ولا سعي لشهرة زائلة . بل وقف العقل والنفس للوصول الى الحقائق والسعي إليها وقـــد عنيت التربية الاسلامية بالأخلاق والفضائل ، بعد أن أدرك المربون بالبداهة أن تدريب

العقل واستيعاب الحقائق هما جزء من عملية تدريب الطالب . ولكن الغاية القصوى هي تهذيب النفس وتقوية الأخلاق .

ومن هنا « فلا غرابة أن يمتـاز الاسلام بضروب من التربية تختلف في أهدافها ووسائلهـا عن ألوان التربية الاخرى التي سادت حضارات شتى . واعتمدت على دعائم مغايرة لتعاليم الاسلام » وهي القائمة على التوحيد وامتزاج الروحية بالمادة، وترابط العقل والقلب . وهي حين تقوم على المحاكاة والتقليد، وتجمع النفس والروح والعقـل والجسم معاً ، وتتمثل العقيدة والاخلاق فهي تطبع الشخصية بطابع خاص في النظرة الى الحياة [1] . أما في الغرب فالاساس هو الفصل بين الدين والمجتمع وبين الاخلاق والتربية وإقامة الحرية المطلقة بديلاً للتقوى والضوابط الاسلامية . وقد حقق الاسلام ما يطالب به المصلحون اليوم وهو قيام تربية خلقية الى جوار ثقافة الفكر والمعرفة .

– ٤ –

والمسلمون اليوم لا يجدون أنفسهم في حاجة الى مفهوم الفكر الغربي الوافد في التربية وإنما يجدون حاجاتهم كلها في منهج التربية الاسلامي ، ذلك أن معنى عزل الدين عن التربية هو بناء شخصية هشّة طريّة لا تملك القدرة على حمل أمانة الأمم أو مقاومة الغزو ، أو مواجهة وسائل الإغراء ومؤامرات القضاء على حريات الاوطان ، وان عزل الدين والاخلاق عن التربية يفتح أمام الشباب أبواباً من الانهيار والتحلل تدفعهم الى الانزلاق الى الشهوات والاهواء . ولقد تحطمت حضارات الفرس والرومان والفراعنة ، وتتحطم اليوم الحضارة الغربية تحت تأثير هذا الخطر . ولا ريب أن دعـاة المنهج العلمي الغربي الوافد ، إنما يطمعون في القضاء على نهضة المسلم عن طريق تدمـير عناصر التماسك في بناء مجتمعه وأفراده عن طريق الفصل بين القيم ، ودفعـه الى مغريات الغرائز واللذات .

١ – بتصرف عن الدكتور أحمد فؤاد الأهواني .

# الباب الخامس

# أخطاء المنهج الغربي الوافد

# الفصل الأوّل

## أخطاء المنهج الغربيّ الوافد

كان المنهج العلمي الغربي الوافد في كل محاولاته في ميادين العقائد والأدب والاجتماع والفكر متجاوزاً للمجتمع الاسلامي ومعارضاً للقيم الأساسية للفكر الاسلامي . فقد كان يصدر أساساً من منطلق الاحتواء ومحاولة السيطرة : سيطرة الفكر الغربي الذي يحمل لواء الحضارة والاستعمار معاً ، ويحاول أن يبهر النفس العربية الاسلامية بقوته وجبروته ، ويحمل مع ذلك دعوة المسلمين والعرب الى التماس أسلوبه ومفاهيمه ومقوماته كسبيل للوصول الى السيادة والسيطرة .

ومن هنا انطلقت الدعوة من اتباع المنهج العلمي الغربي الوافد الى نقل المناهج والأساليب الغربية واعتناقها في مختلف مجالات الفكر والحياة .

ولقد التمست أسلوب العلمانية أساساً . والعلمانية تعني الفصل بين الدين والمجتمع وقصره على العلاقة بين الانسان والله ، ودفع المجتمع الاسلامي الى مجال الأيدلوجيات المتصارعة : الليبرالية والماركسية . وقد مر المجتمع الاسلامي بمرحلتين : خضع خلال إحداهما لهذه ، وفي الأخرى لتلك . ولكنه سرعان ما تحرر منها جميعاً وتحقق بالتجربة أن أسلوب الحياة لأمة ما هو أسلوب فكرها الأصيل .

ولقد اصطنع المنهج العلمي الغربي الوافد في سبيل فرض نفوذه وسلطانه في

أفق الفكر الاسلامي أساليب كثيرة كان أخطرها : قادة الفكر ، وكتّاب الصحافة ، وأساتذة الجامعة . وكانت الصحافة والمدرسة أخطر المؤسسات ، ثم جاءت بعد ذلك الاذاعة والسينما .

وكان الاستشراق أخطر أدوات فرض المنهج العلمي الغربي الوافد ، ذلك أن الاستشراق في أبسط مفاهيمه ، إنما هو استخدام العلم في خدمة السياسة ، ولذلك فقد اتصل الاستشراق بالاستعمار ، واتخذ من روابطه الدينية أساساً لتدمير النفس العربية الاسلامية وإخراجها من أصولها وحدودها .

ومن ثم كانت مادته الخام هي الأداة التي حملها التبشير وأذاعها في مناهج المدارس والارساليات وفي أحاديث الصحف وفي نصوص المؤلفات .

وخطأ الاستشراق وخطره أنه يدرس القضايا بوجهة نظر مسبقة وبأحكام مقررة ، وبأهداف واضحة أساسها خدمة النفوذ السياسي وقوامها التعصب .

ولقد كشف الكثير من النصوص التي قدمها المستشرقون عن هوى في القصد وقصور في الفهم ، وإذا كان الاستشراق خالصاً لوجه العلم . فلماذا يركز دائماً على الجوانب الواهنة والروايات الضعيفة والشبهات المثارة ؟ ولماذا يركز على الشخصيات الضالة : ( كالحلاج ، والسهروردي ، وأبي نواس ، وابن الراوندي ) ، ولماذا يحاول تحطيم الشخصيات البارزة أمثال (المتنبي ، وابن خلدون ، والغزالي) ؟ ولماذا يركز على الأثر الفارسي والهندي واليوناني ويحاول أن يجعله مصدراً للفكر الاسلامي الذي تشكل واكتمل قبل اتصاله بالفكر الوافد ؟ ولماذا يركز على الخلافات بين المسلمين ويؤرث الخصومات بين القوى حتى لا تتم لهم وحدة فكر؟ ولماذا الاهتمام بأخبار الزنج والقرامطة والمجوسية ؟

لقد ركز الاستشراق على الأفكار الدخيلة على الاسلام والفلسفات الوافدة وحاول تصويرها على أنها جوهر الفكر الاسلامي ، مع الإغضاء المتعمد عن القيم

الأساسية للاسلام ، كذلك الاهتمام الدائب بوحدة الوجود والحلول في التصوف والعاميات في اللغة والفلكور والأمثال الشعبية .

* * *

ولقد اتخذ التبشير هذه المفاهيم وعمد الى نشرها من خلال مناهج الدراسة وأصول الثقافة ودراسات التاريخ والأدب بهدف إخراج المسلمين والعرب من القيم التي تدفعهم الى الحرية ومقاومة النفوذ الأجنبي ، وعدم الانصهار في الأممية والعالمية ، وللحيلولة دون إقامة مجتمعهم الخاص المستمد من قيمهم وتاريخهم ولغتهم ودينهم . والهدف من ذلك هو إذابتهم في الثقافة الغربية بأحد شقيها . وتتمثل خطة التبشير التي رسمها ( شاتليه وزويمر وماسنيون وغيرهم ) في أن يكون التبشير عملاً مبنيًّا على قواعد التربية العقلية ، والتأثير على عقول المسلمين وقلوبهم . فإن عجزت إرساليات التبشير عن زحزحة العقيدة الاسلامية في نفوس معتنقيها ، فإنها تستطيع أن تحقق هدفها في هدم الفكرة الاسلامية ببث الأفكار التي تتسرب مع اللغات الأوربية ، وذلك عن طريق نشر اللغات الانجليزية والالمانية والهولندية والفرنسية مما يمهد الى إدخال الأفكار الغربية الهدامة للفكر الاسلامي عن طريق هذه اللغات . ومن هنا تسقط الأوضاع والخصائص الاجتماعية الاسلامية وتحل بدلاً منها الخصائص الغربية .

ويقوم عمل التبشير في مجال التعليم على أساس فرض ثقافة الغرب وتاريخه وبطولاته ولغته وإقصاء لغة العرب والمسلمين وتاريخهم وإثارة الشبهات حولها وانتقاصها .

أما في مجال الثقافة ، فهو يهدف الى إثارة الغمزات والاتهامات للشريعة الاسلامية واللغة العربية والسنة النبوية على نحو يفتح باب الشكوك والاتهامات ، ويجري ذلك وفق مخطط مدروسٍ وأسلوب دقيق ، فهو يبدأ أولاً بإثارة قضية جزئية ، ثم يتوقف ليهدأ بإثارة قضية جزئية أخرى ، بحيث لا يشعر الباحث

أن هناك ترابطاً بين هذه الاثارات وبعضها ، اعتماداً على أنه في المدى الطويل يستطيع أن يكشف من وراء ذلك عن خصمٍ للفكر الاسلامي وصديقٍ للتبشير والفكر الغربي يكون عوناً على أبناء وطنه ودينه وتاريخه .

* * *

ومن كل هذا نجد أن المواجهة الاسلامية العربية للفكر الغربي كانت مواجهة لخطر واضح ولهدف مدبر ، ولم تكن مواجهة فكرٍ لفكرٍ على نحوٍ حرٍ يستطيع أن يأخذ أو يترك ، وأن يحدد موقفه سلفاً بتأكيد ذاتيته ومعرفة ما يلتقي فيه مع الفكر الغربي أو يختلف معه .

لقد كان لعجز الإرادة في العرب والمسلمين خلال مرحلة الاستعمار وما بعدها أثر كبير في استشراء المنهج العلمي الغربي الوافد وسيطرته على كثير من مجالات الثقافة والتربية والتعليم والاجتماع . غير أن مرحلة التبعية والتقبل القسري قد انتهت ، أو أوشكت أن تنتهي الى ضوءٍ كاشفٍ من الرشد الفكري ، والتماس الذاتية ، والتعرف على الجذور ، والإيمان بأن معطيات اليقظة الحقيقية إنما تصدر من الفكر الأصيل لكل أمة وليس من الفكر الوافد .

ومن هنا فنحن نرى كيف أن مفاهيم المنهج العلمي الغربي الوافد ، تواجه الآن بشيء كثير من التحقيق والنقد والتعرف على الخلفيات والغايات التي تحملها أو تدفعها الى أفق الفكر الاسلامي ، ذلك أن جميع الشبهات والأهواء والزيوف القديمة التي عرفتها البشرية قبل الاسلام ، قد أعيدت صياغتها من جديد في أسلوب براق ومنهج له طابع علمي ، وأحيطت بضياء يخطف الأبصار من كتب لامعة أو أسماء شهيرة أو مؤسسات كبرى ، وذلك في محاولة دفعها الى العقل الاسلامي والنفس الاسلامية ، لإحداث ذلك التضارب الخطير بين القيم ، وإزاحة المثل العليا الأساسية للفكر الاسلامي القائم على التوحيد والإيمان بالله ، والإرادة النفسية والمسؤولية الفردية ، والالتزام الأخلاقي والإيمان بالبعث

والجزاء ، وتبدو المحاولة واضحة من حيث ترابط الغايات والأهداف بين خصوم الاسلام كدين ،وخصوم العرب كأمة ،وخصوم العالم الاسلامي كقوة سياسية أو اقتصادية أو اجتماعية ، بما يوحي بأن هناك تجمعاً حقيقياً لسحق هذا الفكر وهذه الأمة ، وهو ما يوحي بصدق مـــا وصفه الرسول الكريم بتداعي الأمم على المسلمين تداعي الأكلة على قصعتها .

تلك هي الازمة الكبرى التي يمر بهـــا المسلمون وفكرهم وعقيدتهم اليوم ، وهي أخطر مما ألـمّ بالمسلمين والعرب من قبل ، من أزمات التتار والصليبيين والاستعمار الغربي ، من حيث هدف المحاولة الماكر ، وهو القضاء على العقـــل الاسلامي والإيمان والعقيدة أساساً . وليس السيطرة على الارض والمضائق والممرات الاستراتيجية والنفط فحسب . ذلـــك هو وجه الخطورة الذي يحتاج الى النظروالنظر البعيد .

- ٢ -

ونحن في هذا المجال نجد الكثير من الشبهات والاخطاء والتجاوزات التي تؤثر في اصالة المنهج العلمي الغربي الوافد كمنهج عالمي ، أو إنساني ، أو منهج صالح للأخذ به في آفاق الفكر أيًّا كانت ، فضلاً عن قصوره في مجال الفكر الاسلامي الرحب المتكامل الجامع وفشله عن الاحاطة والفهم والتعمق لمعطياته وعجزه عن استيعاب أبعاده .

ويرجع ذلك الى أن النظرية الغربية الوافدة هي من صنع قوم آخرين أقاموها على مقاييس مجتمعهم ، وابتدعوها في ظل تحدياتهم الاجتماعية والتاريخية جميعاً . وأن الصورة المسيحية فيها ترتكز على الاعتقاد بأن الطبيعة البشرية فاسدة فساداً دائماً ، اثر الخطيئة الاولى : خطيئة آدم ، وقوام هذه النظرة العمل على محاربة الطبيعة البشرية وقتل الميول الجنسية ، ثم جاءت الصورة الوثنية المادية التي تدافعت الى تحرير الطبيعة البشرية بهدم ثياب الاخلاق وإقامة التطور المطلق وإعادة الانسان الى الرق والجبرية والمجتمع البدائي المنطلق الى الطعام والجنس بكل ما في شريعة الغاب ، وحياة الغابة ، من عبودية وإباحة .

ومن عجيب أن الايدلوجيات الليبرالية والماركسية هي على السواء في ذلك نزعة ومنطلقاً واستمداداً من أصول المادية الوثنية ، وإن مالت إحداهما نحو نداء الطعام ومالت أخرى نحو نداء الجنس .

وجاء ماركس وفرويد ودوركايم وليفي بريل وسارتر وكلهم على طريق واحد . فلما طرح هذا كله في أفق الفكر الاسلامي بدا غريباً وربما أثار إعجاب النظرة القاصرة من حيث براعة عرضه ، واندفاع النفس الانسانية دوماً الى التحلل والإباحية دون تقدير أثر ذلك على الامم والجماعات . غير أن المسلمين لم يلبثوا أن صححوا موقفهم وأخذوا يراجعون فصائل المنهج العلمي الغربي الوافد في مختلف مجالاته ، وبشتى تياراته الليبرالية والماركسية والوجودية والمادية لاستكناه جوهرها وفهم حقيقتها . ومن ثم وجد أن المنهج العلمي الغربي الوافد :

أولاً : لم يستوف شروط النظرية العلمية ولم يلتزم بأخلاقية البحث التي تفرض النزاهة والتجرد عن الأحكام القبلية والعنصرية ، ودواعي الميل والهوى وخاصة عندما يتعرض للفكر الاسلامي وتاريخ الاسلام. فإنه يقوم على افتراض مسلمات أساسية يحاول أن يثبتها بتلفيق الحجج وبراعة العرض لاعطائها صورة الحقيقة وإثارة الشبهة في نفوس المطالع لها .

ثانياً : وضوح ظاهرة الخضوع للاغراء والهوى في سبيل هدف أساسي هو استقطاب فكر هذه الأمة والسيطرة عليها واحتوائها .

ثالثاً : الانطلاق من مقدمات خاطئة ، والتفرقة بين الأبيض والاسود ، وإعلاء العنصر الابيض ، وتشويه الحقيقة العلمية والحقيقة التاريخية لخدمة الاستعمار أو هوى الغرور الذاتي، والاستجابة لمركب الاستعلاء بالجنس والعنصر والحضارة .

رابعاً : جمع ما تفرق من شبهات ، ومحاولة إعطائها صورة كاملة مما ورد في كتب التراث واستخدام هذه الكتب استخداماً خطراً بإبراز كل ما يفرق ، وإخفاء الحقائق ، والتركيز على الشبهات والصور الشاذة والشخصيات المدمرة وإعادة طرحها من جديد في أفق الفكر الاسلامي .

خامساً : سوء الظن الدائم بكل ما يتصل بالاسلام في أهدافه ومقاصده . وسوء الفهم لكل ما يتصل بالبيان العربي، ووجوه الخلاف في الاخلاق والتقاليد والقيم . وإخضاع النصوص للفكرة التي يفرضونها حسب أهوائهم ، وتحريفهم للنصوص في كثير من الاحيان تحريفاً مقصوداً ، وإساءتهم فهم العبارات حين لا يجدون مجالاً للتحريف ، وتحكمهم في المصادر التي ينقلون منها . فهم ينقلون من كتب الادب ما يحكمون به في تاريخ الحديث والشريعة، ومن كتب التاريخ مثلاً ما يحكمون به في تاريخ الفقه. ومن ذلك فإنهم يصححون ما ينقله الدميري في كتابه حياة الحيوان . ويكذبون ما يرويه مالك . كل ذلك جرياً مع الهوى وانحرافاً عن الحق .

سادساً : اعتبار تاريخ أوربا هو تاريخ العالم كله والاعتقاد أن هناك حضارة واحدة في العالم هي الحضارة الغربية ، وأن الجنس الأبيض هو سيد العالم ، وأن العصور الوسطى كانت عصوراً مظلمة في العالم كله بينما أن تاريخ أوربا ليس تاريخ العالم بالقطع . وان هناك حضارات عديدة سادت العالم ، ومـا تزال تسوده . وليست الحضارة الغربية وحدها التي ارتفعت بالعالم وليست هي خيرها. وان العصور الوسطى كانت عصوراً مظلمة في أوربا وحدها . ولكنها كانت مضيئة في العالم كله : العالم الذي أشرق عليه نور الاسلام .

## - ٣ -

ومن هنا فقد تقرر في العقل الاسلامي العربي الحديث ( بعد تجربة طويلة استمرت أكثر من مائة عام ) زيف هذا المنهج العلمي الغربي الوافد ومعارضته للذاتية والمزاج والتركيب الاجتماعي والروحي والعقلي العربي الاسلامي ، كما تقرر أن الاسلام ، والاسلام وحده هو المنهج القادر على إعطاء المسلمين والعرب مكانهم الحق في البشرية . وقد تبين من وقائع التاريخ المعاصر ما يكفي العرب والمسلمين خبرة وتجربة بخطأ اعتناق فلسفات المجتمعات المتقدمة مادياً ، وخطأ إخضاع العقيدة للعنصرية ، وتأكد أن حضارة المسلمين لن تقوم على العلم وحده ولكن على العلم والعقيدة ، وذلك انطلاقاً من الايمان بأن الانسان انسان بكيانه كله ؛ روحه ومادته : وعلى أساس ثبات الأخلاق والحركة في إطار الثوابت .

والاسلام في حقيقته وفي فهم المسلمين له : ليس نظرية ولا أيدلوجية . ولكنه منهج متكامل يهدف الى تحقيق قيام المجتمع الرباني الأصل الانساني المظهر . وان الاسلام لا يقبل الأيدلوجيات الوافدة . لأن له منهجه الخاص ، وان تعاليم الاسلام وحدة متكاملة لا يصح تجزئتها أو تفتيتها أو الأخذ بفرع منها دون الآخر . وان للاسلام نظرية أصيلة في الاجتماع والنفس والتربية والأخلاق والاقتصاد تعرض عليها كل النظريات الوافدة فتقبل منها وترفض على هذا الضوء الكاشف .

ولقد عمل الاسلام على تحرير اتباعه دوماً من التأثير الأجنبي بكل أنواعه ، ودعا الى اليقظة إزاء الفكر الوافد الذي يهدف الى تغيير المعالم الأصيلة لعقيدتهم وفكرهم وثقافتهم ومزاجهم النفسي .

وفي خلال أربعة عشر قرناً لم يستسلم الفكر الاسلامي للنظرية الوافدة مطلقاً . وقاومها طويلاً في شتى صورها ، وأعلن وجهة نظره واضحة في مختلف القضايا . ولم يتوقف عن حماية نفسه ومعارضة كل وافد .

- ٤ -

أما الاسلام فقد قدم منهجاً إنسانياً عادلاً رحيماً ، وهو أقرب ما يكون للفطرة البشرية وأصدق ما يكون تقبلاً من العقل ، فضلاً عن جمعه للجانب المادي والمعنوي معاً . وهو لم يحتقر الأمور الدنيوية في سبيل الاعتماد على الروحيات، ولم يفعل العكس ، وفي نفس الوقت لم يضحِّ بالفرد من أجل المجتمع ولا بالمجتمع من أجل الفرد .

وليس في الاسلام تناقض بين المثل العليا والواقع العملي للناس ، وفيه يلتقي الدين والعلم . وميزة الاسلام أنه لم يفرض الحلول مقدماً ولم يطبقها بالقسر والإكراه . بل كانت تعاليمه متفاعلة دوماً مع طبيعة الفرد ومع بشريته ، وكانت وقاية له من الأزمات والمشاكل قبل أن تكون حلولاً للأزمات والمشاكل.

ولقد اعترف الاسلام بحقوق الانسان وميوله وعواطفه ، وجعل ضوابطه وحدوده في الأساس مستهدفة عدم استهلاك الانسان لطاقاته الجسدية . وكانت الدعوة الى الاعتدال والقصد دون الإسراف الذي يفضي الى الانهيار ، ودون الجحود الذي يؤدي الى الانحطاط .

وليس في الاسلام سر ولا تناقض ، وليس فيه ما يصادم العقل البشري أو الذوق . ولم يحجر الاسلام على العقل ، ولم يجعل له سلطاناً مطلقاً .

والاسلام يخاطب العقل والقلب معاً، ويؤكد وحدانية الله وكرامة الانسان. وقد أبطل سلطان الوسطاء بين الانسان والله .

وعلم أتباعه أن يواجهوا الحياة بواقعية ورباطة جأش ، وحثهم على الإقبال على الدنيا والزهد فيهـــا في آن واحد في توازن منضبط لا تفريط فيه ولا إفراط .

ولا ريب أن الافتراض النظري الذي قدمه المنهج العلمي الغربي الوافد بأن الدين يحرف الانسان في كل زمان ومكان عن النضال والعمل ، هــذا الافتراض يتناقض تناقضاً تامـًّا مع تاريخ الاسلام وأصوله التي جعلت الجهـــاد فريضة أساسية .

# الفصل الثاني

## وُجُوهُ التَبايُنِ وَالاخْتِلاف

### خطوط عامة لوجوه التباين والاختلاف بين المنهج العلمي الغربي الوافد والمنهج العلمي الاسلامي

في مراجعة عامة لوجوه التباين والاختلاف بين المنهج العلمي الغربي الوافد وبين المنهج العلمي الاسلامي نجد الحقائق الآتية :

أولاً : لا ريب أن هذه المذاهب الغربية موضوعة في أسلوب له طابع علمي براق ليخفي ما وراءه من هدف .

لقد بدأت هذه المذاهب من خلال تحديات مجتمعها ، ومرت بأطوار مختلفة واستجابت لظروف وأوضاع تتعلق ببيئتها ، وكانت هذه المذاهب في أول أمرها محاولات لتحل محل الأديان ، ثم أصبحت معارضة لها . وقد ظهرت هذه المذاهب حين عجز الدين في الغرب عن العطاء وحين انفصلت الأخلاق عن الدين .

ثانياً : من أهم العوامل التي تؤثر في اصالة المنهج العلمي الغربي أنه يقوم على مسلمات أساسية تخالف مخالفة كاملة لمفاهيم الفكر الاسلامي من ناحية ، والحقائق التاريخية . وتتعارض مع التاريخ البشري عامة ، والتاريخ الاسلامي خاصة . وتتجاوز ما يعتقده المسلمون ، والعرب بصفة خاصة .

ثالثاً : إن المناهج العلمية الوافدة متضاربة متعارضة ، فإن كل منهج منها قد نشأ في بيئة معينة . وحاول الاستجابة لتحدّ معين ، ومنها مناهج طرحت في مواجهة الدعائم والأسس التي يقوم عليها الفكر الاسلامي ، كاللغة العربية والقرآن ونبوة الرسول ووحدة المسلمين. وفي كل هذه القضايا لا تستطيع المناهج الوافدة أن تستوعب الأصول والحقائق ، حتى لو أرادت أن تحكم حكماً نزيهاً صادقاً. ثم هي في نفس الوقت تعجز عن هذا الحكم لأمرين: لخضوعها لأيدلوجيات لغاتها وفكرها ، ولمفهومها الموروث إزاء الشرق والغرب والأجناس من غير الجنس الأبيض .

رابعاً : لا ريب أن للغربيين مثلاً وغايات في الحياة ، وقيماً في الأخلاق، ومقاييس في المجتمع ، وأهدافاً خاصة ، ومزاجاً نفسياً منبعثاً من عقائدهم ومواريثهم ، كما أن للغرب أيضاً مشاكله وظروفه الخاصة . وله تحديات في مواجهة العقائد . وكذلك فإن للغرب مفهوماً خاصاً للدين ، تكوّن من خلال ظروفه التاريخية من جهة ومن طبيعة دياناته من ناحية أخرى .

خامساً : لا ريب أن الغرب في السنوات المائة الماضية، قد انتقل الى مرحلة مختلفة في الفكر والفلسفة والنظرة الى الأدب والعلم والاقتصاد والاجتماع . وهي مرحلة تختلف عن المرحلة السابقة لها ، والتي كان يطلق عليها اسم : الفلسفة المثالية ، وريثة الفكر الغربي المسيحي ، أما المرحلة الجديدة ، فقد غلب عليها طابع العلمانية المتحررة من عنصري الدين والأخلاق ، القائمة تحت تأثير الفكر المادي الخالص ، سواء في النظرة الغربية أو في النظرة الماركسية ، فكلتاهما أصبحت الآن تستمد أسُسَها وأصولها وجذورها من معين واحد هو الفكر المادي الخالص .

سادساً : إن كل الأبحاث والدراسات المنصفة العلمية تقرر أن الفكر الغربي يخوض أزمة عنيفة ، وأن المجتمع الأوربي يقاسي أزمة قاسية ، وأن الحضارة

الغربية والانسان الغربي في مواجهة أمواج عاصفة من القلق والتمزق والضياع ، وانفصام الشخصية . ويردون ذلك كله الى غلبة الطابع العقلي المادي الحسي على الطوابع النفسية والروحية والدينية . وقد حدد الفكر الغربي موقعه تماماً في هذه المرحلة من كل القضايا على أساس التجزئة والانشطارية ، فاعترف بالعلم والعقل والمادة ، وأنكر ما سوى ذلك من مقدرات النفس البشرية الجامعة للمادة والروح والعقل والقلب .

سابعاً : إن أبرز طوابع المنهج العلمي الوافد ، ذلك التغير الدائم الذي لا يستقر على رأي ، والذي ينقض نفسه بنفسه، ذلك أن هذه المذاهب والنظريات التي توصف بأنها ( علم ) قد بدأت في أول أمرها « فرضية » وضعت تحت الاختبار ، ثم تحولت مع الزمن الى « نظرية » ، ولم تستطع نظرية واحدة حتى الآن أن تثبت أكثر من جيل في مواجهة المتغيرات ، وما من نظرية بدا أول الأمر أنها ذات بريق عبقري إلا وقد اجتاحتها عوامل الفساد فعدلت مرة بعد مرة في محاولة للبقاء ، وقد تصدعت نظريات الفرويدية والماركسية والوجودية وهي كبرى هذه النظريات .

ثامناً : أخطر ما يمثل المنهج العلمي الوافد عجزه عن التفرقة بين المفاهيم التي تتصل بالانسان وبين المفاهيم التي تتصل بالكون . ففي مجال العلوم نجد « منهج التجريب » ، وهو منهج ثابت دقيق لأنه يقوم على معادلات مضبوطة ثابتة ، أما في مجال الانسان فإن الأمر يختلف اختلافاً كبيراً ، ولا بد من منهج آخر لدراسات الانسان غير منهج العلوم المادية ، بل وغير التجارب التي تجري على الحيوان . فإذا ما طبق المنهج العلمي الوافد مناهج العلوم المادية على الانسان . فإنه يواجه في فكرنا الاسلامي العربي اختلافاً كبيراً .

تاسعاً : إن المنهج العلمي في فكر ما يختلف عنه في فكر آخر ، اختلافاً جذرياً في جوانب عديدة من اختلاف الأمم والشعوب والعقائد . وفي كل أمة

نجد أن الأخلاق والعادات والتقاليد والآداب مختلفة ، ونجد أن الذوق والروح والمزاج متباينة أحياناً لدرجة أن ما تعده أمة ما مقبولاً عندها نجـده مرفوضاً تماماً في أمم أخرى . ذلك أن لكل أمة مقوماتها الأصيلة ومنابع إلهامها التي تختلف باختلاف الدين والتاريخ . وبالنسبة للفكر الاسلامي والمجتمع الاسلامي فإن عوامل قوية عميقة الجذور في الأخلاق والعقائد واللغة تجعل من المستحيل تطبيق منهج علمي أو نظرية اجتماعية أو مذهب أدبي وافد عليها .

عاشراً : قام الفكر الاسلامي وفي أحضانه الثقـافة العربية على أساس تأكيد الذاتية والأصالة . فقد دعا الاسلام معتنقيه الى معارضة التقليد للأجنبي ، وحذرهم من التشبه بغيرهم ، وحرص على أن تظـل شخصية المسلم وفكره وحضارته ومجتمعه متميزة . ولذلك فقد أعلن حرباً شعواء على التقليد والتبعية معاً ودعا الى إعلان التميز في العادات والأخلاق ، وأعلن أن التقليد فقدان للشخصية ، وأن التبعية عبودية للفكر والعقل .

حادي عشر : إن العلم سوف يعجز عن القضاء على الدين ، بل سوف يؤكد الدين ، وإن كان الدين لا يفسر ظواهر الكون كالعلم ، فهو يضع الإطـار الأخلاقي للحياة ، ويرسم منهج العلاقة بين الله والانسان . والاسلام هو الذي أقام للعلم منهجه ومنطلقه من حرية البحث وصراحة التفسير والتسامح الديني ، وهو الذي مهد لظهور المنهج العلمي التجريبي ، وان أي حديث عن الصراع بين العلم والدين فهو عن غير ديننا وغير تاريخنا .

والعلم أعجز من أن يقدم تفسيراً نهائياً لأشياء الوجود وغايته أن يقدم تفسيراً جزئياً لظواهر الأشياء .

ثاني عشر : يقرر الاسلام مكانة الانسان في الأرض ، ويؤكد حق استخلافه وأمانته ومسؤوليته الفردية . والتزامه الأخلاقي الذي يستتبع البعث والجزاء ، ويؤكد الاسلام أهمية الانسان كفرد وأهميته كفرد في مجتمع . ويؤكد حاجته

الى التقدم المستمر . ولذلك فهو يحرر طاقاته كلها ( فكرية وخلقية وعملية ) لينطلق في سبيل خدمة تقدمه كإنسان ، وفي خدمة المجتمع ككل وفق ضوابط خاصة ، وفي إطار حركته الخالصة لوجه الله تعالى .

ولقد وقف الاسلام أمام الانسان موقفاً مخالفاً لموقف الفلسفات والعقائد ، وأقام مفهومه على أساس تكريم الانسان بوضعه موضع الاستخلاف في الأرض والنظر إليه من خلال طبيعته الأصيلة الجامعـــة بين الروح والجسم والعقل والقلب . وبوصفه كياناً متكاملاً ، وبذلك أقر رغباته المادية كلها وأباحها له دون أن يقيدها إلا بضوابط قصد بها حماية الانسان نفسه من الانهيار والتدمير . وحتى يكون قادراً على أداء رسالته ، ومواجهة تحدياته دون أن يضعف أو يتحطم وجعل سعيه في الحياة الدنيا مرتبطاً بالجزاء في الآخرة . والاسلام لا يرفع الانسان عن مستواه ولا يخفضه عن مكانته الصحيحة .

ثالث عشر : إن الدين جزء من الطبيعة البشرية . ولا يستطيع الانسان أن يعيش بغير دين ، ولقد عجزت الأيدلوجيات والمذاهب أن تقدم له بديلاً عن الدين يشفي روحه ويملأ حياته . ولقد حررت الأديان الانسان من عبودية المجتمع وعبودية الفرد ليتجه الى الله وحده .

لقد علمت الأديان الإنسان أنه ليس حشرة اجتماعية . ولكنه إنسان ذو كرامة . لقد نقلت الأيدلوجيات الانسان من عبادة قوى الطبيعة الى عبادة قوى المال والمادة . ولكن الدين الحق يرد الانسان دائماً الى الله الواحد .

رابع عشر : قد تختلط طوابع الانجليز والفرنسيين والألمان والأمريكيين ( وهو ما زال يبدو عسيراً ) لأن هناك جامعاً يجمعهم من أصول دين ، وثقافة ، ولغة . ولكن من العسير أن تختلط طوابع المسلمين والعرب معهم ، وقد تشكلت بمعزل عن هذه الأمم واستمدت أصولها من دين وفكر غير دينهم وفكرهم . هذه الطوابع والقيم التي قادتهم في الحياة على المدى الطويل وحققت لهم التمكن

في الأرض والقوة والمهابة في نظر الأمم ، ولذلك فمن العسير التخلي عن هذه القيم وتقبل الاحتواء والإذابة في الأممية العالمية .

خامس عشر : حرر الاسلام الفكر من الظنون والفروض والأساطير والخرافات والأوهام والأهواء ، ودعا الى التماس المنابع الأصيلة ، وفي مقدمتها ( القرآن ) . ومن هنا فإن تحرك الفكر الاسلامي إنما يجري أساساً في إطار القرآن . فإذا خرج عنه وقع الحرج الذي لا يرفع حتى يعود الى القرآن .

ولقد كان التأويل من أخطر الأسلحة التي استعملت لتفسير النصوص تفسيراً يخرجها عن مدلولاتها الأصيلة الى مدلولات منحرفة ومفاهيم مبتورة .

ولقد هاجم الاسلام الخرافات والسحر والكهانة ، وأنكر العرافين وطارد الاوهام والمعتقدات الباطلة ، وأنكر ادعاء علم الغيب ، واعتبر السحر كفراً ، وحرص على أن يرتفع المسلم بإيمانه على الضعف البشري الذي يجعله ألعوبة في يد أوهام الطوالع وأضاليل العرافين .

سادس عشر : إن حاضر الفكر الاسلامي والأدب العربي والثقافة العربية لا ينفصل عن ماضيها الممتد المتصل المتفاعل خلال مراحل التاريخ المختلفة دون توقف . وان الفكر الاسلامي الحديث هو ثمرة الفكر الاسلامي الذي بناه القرآن . وان الثقافة العربية وليدة الفكر الاسلامي .

ولقد ولد الفكر الاسلامي في أحضان التوحيد الذي حرر النفس الانسانية والعقل البشري من الوثنية والخرافة والأسطورة . وأقام منهج البرهان والعلم والتجربة .

سابع عشر : إن الحرية في مفهوم الاسلام هي تحرير العقل البشري من قيد الوثنية والجهل والخرافة والتقليد ، وتحرير الانسان من قيد العبودية وسلطان الاستبداد والطغيان .

ثامن عشر : إن مفهوم الأخلاق في الاسلام يقوم على أساس تلك القيم الثابتة الراسخة التي أثبتت أجيال البشر جيلاً بعد جيلٍ انها مرتبطة بالانسان ، وليست مرتبطة بالمجتمعات والعصور . وقاعدة الأخلاق الأساسية أن الحق واحد ، وأنه لا يتعدد ، وأن أساس الأخلاق هو التمييز بين الخير والشر والحق والباطل ، وأن مفهوم الأخلاق في الاسلام يحرر الانسان والمجتمع من عبادة الجسد وتقديس الشهوة وتأليه الأبطال .

تاسع عشر : إن أبرز مفاهيم الاسلام أنه وحدة متكاملة لا يصح تجزئتها ولا تفتيتها أو الأخذ بفرع منها دون آخر ، فكل عنصر منها متصل بباقي العناصر ، مؤثر فيها متأثر بها ، ومن هنا فقد تكاملت تعاليمه الاجتماعية والأخلاقية والتربوية .

عشرون : حرر الاسلام الفكر الاسلامي من مشكلة البحث فيما وراء الطبيعة ، أو عالم الغيب فقدم له منهجاً كاملاً يرضي نفسه ويسد حاجته الروحية . وذلك حتى يفرغه لمهمته في بناء الحياة وتعمير الكون وتحقيق العدل والإخاء الانساني .

واحد وعشرون : ربط الاسلام بين العقيدة والتطبيق ، وقرن العلم بالعمل ، ورفض مبدأ العلم للعلم ، وقرر أن العلم إنما يطلب من أجل العمل به والاستفادة منه في تحسين الحياة الانسانية وتقدمها ، وكشف عن أن الطبيعة البشرية مزودة بقدرتين مترابطتين : قدرة نظرية قادرة على تحصيل العلم ، وقدرة عملية قادرة على تقويم العمل ، ولا بد من الاثنتين معاً .

ثاني وعشرون : فرق الاسلام بين العلم النافع والعلم الزائد عن الحاجة ، ودعا المسلمين الى أن يأخذوا من كل علم أحسنه ، هذا مع أهمية الاجتهاد ، ورفض

التقليد ، والبحث عن البرهان ، وقبول الدليل ، وتغيير الرأي دون حرج متى تبين أن غيره أصح منه .

لقد قرر الاسلام أن هناك معارف جوهرية ، ومعارف غير جوهرية ، ودعا الى الاهتمام بالأولى وتجاوز الأخرى .

ثالث وعشرون : لا يرى الاسلام في مفهوم الإيمان شيئاً مضاداً لمفهوم المعرفة ، ولا يقتصر الاسلام على مفهوم المعرفة القائم على الحس والتجربة . بل يضيف عليه علم الوحي الذي جعل الإيمان بالغيب شرطاً أساسياً من شروط العلم ، والإيمان بالله قوة دافعة تعطي الأمل وتحول دون اليأس وتبعث الثقة . ولذلك فإنه لا توجد في الأدب الاسلامي ظاهرة التشاؤم واليأس والتمزق .

رابع وعشرون : إن الاسلام بالنسبة للعرب هو مصدر كيانهم ووجودهم . فقد خلق الاسلام العرب خلقاً جديداً . وأقام لهم الوحدة على أساس العقيدة والفكر ، وليس على أساس الجنس والعرق ، وكان لهم السور المنيع الذي ردّ عنهم الأعداء وحطم الغزاة ، ولقد انتقل العرب بالاسلام الى المجال الدولي . ولذلك فإن موقف العرب من الاسلام يختلف عن موقف القوميات الأوربية من دينها وعقيدتها . والاسلام معارض لموجة العنصرية وإعلاء السلالات ، داعٍ الى الأخوة البشرية .

خامس وعشرون : إن تمجيد العقل وتقديسه واتخاذه سبيلاً وحيداً للمعرفة ليس نظرية أصيلة في مفهوم الاسلام ، الذي يقيم منهج المعرفة على العقل والقلب معاً .

سادس وعشرون : تتفق الثقافات على أسماء القيم الانسانية . ولكنها تختلف في تفسيرها ، فالحرية والعدل والأخلاق والمعرفة والسلام والحرب . كل

هذه القيم لها في كل فكر مفهوم متميز ، ونظرة الاسلام لهذه القيم نظرة متكاملة جامعة .

سابع وعشرون : أبرز مظاهر اصالة الفكر الاسلامي إنما يتمثل في أنه يرفض كل عنصر غريب عليه . ومن هنا تخطىء النظرية القائلة بتلقيح الفكر الاسلامي ، وللاسلام ذاتية لها من عوامل الثبات ما يكفل لها استمرار العطاء والتلقي على مدى العصور ومع اختلاف البيئات مع سماحة الاختلاف في الفروع ولها قدرة الامتصاص بما يزيدها قوة ، ولا يخرجها عن اصالتها .

أنور الجندي

الموسوعة الإسلامية العربية

# خصائص الأدب العربي

## في مواجهة نظريات النقد الأدبي الحديث

بقلم
أنور الجندي

دار الكتاب اللبناني

خصائص الأدب العربي

في مواجهة نظريات النقد الأدبي الحديث

دار الكتاب اللبناني        مكتبة المدرسة

طباعة - نشر - توزيع

الادارة العامة

الصنائع - مقابل مدخل الاذاعة اللبنانية
هاتف : ٣٤٩٠٥٥ - ٣٤٩٣٧٠ - ٣٤٩٢١٩
ص.ب : ٣١٧٦ - تلكس : LE٢٢٨٦٥
برقياً : كتالبان - بيروت - لبنان

الطبعة الثانية
١٩٨٥

# آفاق البحث

صفحة

صفحة

صفحة

بسم الله الرحمن الرحيم

# إطار البحث

أما بعد : فقد كانت تجربة دراسة الأدب العربي الحديث وتاريخه وأعلامه من لقضايا الكبرى التي شغلت الباحثين في العصر الحديث ، ولها ظلالها البعيدة المدى على الفكر العربي الإسلامي كلّه ، بل لعلّ الأدب كان هو المنطلق الأوسع له . ولقد دخلت المناهج الوافدة الى الجامعات والصحافة والثقافة ، واصطنعها أغلب الكتّاب الذين برزوا في هذه المرحلة التي بدأت قبل الحرب العالمية الأولى واتسعت فيما بين الحربين. وكان كتّابنا جميعاً في مجال الأدب يجنحون الى التماس هذه المناهج سواء الفرنسية منها أو الإنجليزية ، ولقد حمل الأدب العربي منذ صدر الإسلام إلى أن وضع في بوتقة هذه المذاهب. ولم تكن التجربة سليمة تماماً ، ولم تكن خالصة لوجه العلم وحده ، ولقد كان من الضروري بعد أن مرّ الآن اكثر من خمسين عاماً على تطبيق هذه المناهج ان تناقش وتدرس في ضوء الإسلام نفسه منشىء الفكر الإسلامي كلّه وصانع الأدب العربي الإسلامي ، الذي بدأ منطلقاً من القرآن الكريم كما بدأت علوم اللغة والبلاغة والنحو وغيرها. وهذا هو ما تردّد الكثيرون من المشتغلين بالأدب العربي وبالنقد بالذات أن يواجهوه أو يفصلوا فيه ، حتى أصبح منهج النقد الأدبي الحديث من المسلمات التي لا تناقش ، وقد سرى من الجامعة الى دار العلوم الى كليّة اللّغة العربية في الأزهر دون أن يتبين الباحثون كثيراً مدى التقائه ومدى اختلافه مع خصائص الأدب العربي وفي ضوء أصالته. ولقد كان من الضروري أن تقوم هذه المحاولة لتفتح الطريق الى منهج عربي إسلامي في تاريخ الأدب ونقده ، خاصةً وأنّ كثيراً من الأعلام طرقوا هذا الباب وارهصوابالرغبة الى التماس الأصالة في مجال الأدب العربي استكمالاً لهذه المحاولات التي تجري في مختلف

ميادين الفكر الإسلامي. ولا ريب أنّنا نعيش عصر الأصالة والرشد الفكري الذي يدعونا إلى إعادة النظر في كل ما دخل في أفق الفكر الإسلامي من نظريات ودعوات لنرى إلى أيّ مدى نلتقي مع أصولنا العامة وقيمنا الأساسية ، والى أي مدى نختلف ، وذلك رغبة في تحرير الفكر الإسلامي من الوافد الضار ، وتقبل الصالح النافع وإساغته وهضمه ، وتصحيح المفاهيم وتحرير القيم إيماناً بأن مقوماتنا الحقيقية في كل هذه الميادين هي وحدها التي تدفع أمتنا الى تأكيد وجودها الحقيقي.

ولا ريب أن مهمتنا — في هذه المرحلة من حياة أمّتنا — بعد أن انكسر المدّ التخريبي مع آفاق العاشر من رمضان وروحه — هي التعرف الى ذاتنا ، ومزاجنا النفسي ، وطابع أمّتنا وأدبنا ، وإبراز هذا واضحاً أمام الأجيال الجديدة لتكون قادرة على شق طريقها وسط هذا الركام من المذاهب والدعوات ومحاولات التغريب والغزو الثقافي.

إن معرفة النفس هي أكبر قضايا عصرنا وأكبر التحديات التي تواجهنا ، ذلك لأن هدف أعدائنا الذي ينفذ منه إلى مقاتلنا هو إزالة هذه الذاتية وإحتواؤنا وصهرنا في بوتقة العالمية والأممية ، وقتل هذا الطابع النفسي الروحي الفكري الإسلامي العربي الذي صاغه الإسلام ورسم القرآن طريقه ومنهجه الأصيل. ولا غرو فإن هناك محاولة خطيرة تجند لها قوة الإستعمار والصهيونيّة المادية لعزل هذه الأمة عن مقدراتها وقيمها وذاتها ، وعزل الأدب العربي عن أصوله وجذوره وامتداده التاريخي ، وإلحاقه بالأمميّة تحت إسم «عالمية الأدب». ومن الحق أن عالمية الأدب لا تكون في انصهاره ، ولكن تكون في تفرّده بطابعه الخاص.

إن أوّل أهداف الأدب في عصرنا وفي هذه المرحلة الدقيقة من حياة أمّتنا : هو التحرّر من التبعيّة للغرب في شتّى صوره ، ومن سيطرة النفوذ الأجنبي ، ومن الغزو الثقافي والتغريب مع القدرة على الأخذ والعطاء والرفض أيضاً والتماس الإرتباط الدائم مع الأصالة إمتداداً الى المنابع ، والتماس الالتقاء الدائم مع العصر حتى لا نفقد هويتنا ولا نتأخر عن الركب الحضاري ، ليس متابعة مناله واحتواء فكره لنا ، ولكن

توجيهاً وبياناً لرسالة أمّتنا ومعطياتها القادرة دائماً على أي تقدم للبشرية ترياق آلامها، وسكينة نفسها، وسلامة طريقها وصدق غايتها، فلسنا تابعين للقافلة ولكنّا هداة، ولسنا إلّا الشعرة البيضاء في الشاة السوداء.

لقد عاش الفكر العربي الإسلامي في كفاح دائم للتحرّر من هيمنة الثقافات الأجنبية عليه وسيطرة العقلية الغربية والفلسفات اليونانيّة والفارسيّة والهنديّة. ولكن الفكر العربي استطاع بقوته الذاتيّة وقيمه الأصلية أن يحطّم هذه القيود ويكسر هذه الدائرة، ودافع عن نفسه بقوة وانتصر وما زال يجالد على طريق الأصالة معركة بعد معركة في كفاح ضاغط يحتاج الى تركيز جهود كثيرة في سبيل مجاهدة حلقة أخرى في العصر الحديث تحاول ان تطبق عليه شبيهة بالحلقة القديمة، ليتحرّر من التبعية والإذابة والإحتواء. ذلك أن المحاولة الكبرى التي جرت منذ أوائل العصر الحديث إنّما كانت ولا تزال تستهدف أن ينصهر «الأدب العربي» في مناهج الآداب الغربية وقوانينها، وان تكون هذه المناهج حاكمة عليه في مجالات النقد والإنشاء والأسلوب والمضمون وفي الشعر والنثر والقصة، ابتداءً من عزله تماماً عن الأدب العربي الإسلامي، كأنّما هذا الأدب الحديث وليد لقيط لا أصل له ولا أب ينتسب إليه، وقد وجدت هذه الدعوة الضارة من أدبائنا استسلاماً وضعفاً حتى بدت بواكير اليقظة والصحوة والرشد الفكري تأخذ بالأسباب لتتحرّر ولتستعيد قدرتها على التماس طريق الأصالة.

والسؤال هو: لماذا تكون تابعين لمدارس معيّنة في النقد الأدبي ولا تكون لنا نظريتنا الأصيلة ومدارسنا المبتكرة القائمة على أساس من قيمنا؟ لماذا نتأقلم نحن لنظريات الآخرين وهي غريبة عنّا كما سنرى، ولا تكون لنا مناهجنا المبتدعة الخالصة المستمدّة من أدبنا؟. وما دام أدبنا يختلف في جوهره وذاتيّته ومضامينه عن الأدب الغربي فلماذا نحكم مقاييس هذا الأدب فيه؟. هذه هي الكلمة التي تقال اليوم في مواجهة تحديات نهج النقد الأدبي الحديث. لقد كان لأدبائنا في عصور الأدب العربي نظرياتهم ومناهجهم التي شكّلوها في ضوء إنتاجهم. فلماذا لا نستمدّ منها لبناء نظرية في النقد الأدبي جديدة وأصيلة في نفس الوقت؟.

ذلك هو السؤال الذي حاولت أن أجيب عنه في هذا البحث ، وأعتقد أن الكثيرين من اساتذة الأدب العربي في الجامعة ودار العلوم والأزهر يؤمنون بما أؤمن به من أنّه قد جاء الأوان لإنشاء منهج النقد الأدبي العربي الإسلامي.

هذا والله من وراء القصد.

# الباب الأوّل

## خصائص الأدب العربي

أوّلاً: خصائص الأدب العربي.

ثانياً: بيئة الأدب العربي.

ثالثاً: الفكر الذي شكّل إطار الأدب العربي.

رابعاً: الأصول التي استمد منها وجوده.

خامساً: وجوه الإختلاف في الأدب العربي والأدب الغربي.

سادساً: التحدّيات التي واجهت الأدب العربي.

# معالم الأدب العربي المعاصر

(١) أضواء على الأدب العربي المعاصر.
(٢) النثر العربي المعاصر.
(٣) الشعر العربي المعاصر.
(٤) القصة العربية المعاصرة.
(٥) أدب المرأة.
(٦) المعارك الأدبية.
(٧) الترجمة في الأدب العربي المعاصر.
(٨) أدب المقاومة والتجمع.
(٩) تطوّر الصحافة العربية.
(١٠) الفكر والثقافة في شمال افريقيا.
(١١) الصحافة السياسية في مصر.
(١٢) المساجلات والمعارك الأدبية.
(١٣) اللغة العربية بين حماتها وخصومها.
(١٤) الفكر العربي المعاصر.

# الفصل الأوّل

## خصائص الأدب العربي

لا ريب أن خصائص الأدب العربي التي تميزه عن الآداب العالمية : شرقيها وغربيها ، ترجع الى البيئة التي نشأ فيها والفكر الذي تشكل في إطاره والأصول التي استمدّ منها وجوده والتحديات التي واجهته في طريق مساره الطويل.

ولا ريب أنّ أدب أيّ أمّة مرتبط دائماً بلغتها فهو في المصطلح الفنّي «أدب لغة». وهو بالنسبة للأمّة العربية : أدب اللغة العربية.

وأدب أيّ أمّة هو نتاج عواطفها ومشاعرها وعقولها ، وهو عصارة مزاجها النفسي ، وطابع روحها ، وهو في نفس الوقت مرتبط بهذه الأمّة : أرضها وسمائها وقيمها وتقاليدها ، أحداثها ومجتمعها ، فهو عصارة وجهة نظرها في الحياة مستمدّة من داخلها.

ومن هنا كان الاختلاف والتباين بين أدب أمّة وأدب أمّة أخرى ، ومن هنا كان الأدب أدب أمّة وأدب لغة لأنّه يستمد وجوده من مشاعر هذه الأمّة وطوابعها الروحيّة والعقلية والنفسية ، ويستمدّ وجوده من اللغة التي يكتب بها. ولكل لغة مفاهيمها وتاريخها ومعاني كلماتها وخصائصها الذاتية.

والأدب الأصيل عالمي بطبعه من حيث نزعته الإنسانية ، لا من حيث إنصهاره في نموذج واحد. والطابع الإنساني للأدب لا يخرجه عن ذاتيّته كأدب أمة خاصة ولا يدمجه في غيره من الأدب تحت ما يسمّى عالمية الأدب.

والأدب العربي أدب أمّة عريقة وأدب لغة عريقة أيضاً ، وهو أدب لم يتشكل في صورته الحقيقية إلّا منذ ظهور الإسلام ، الذي جمع العرب في الجزيرة العربية فكان عاملاً في تحويل القبائل العربية إلى أمة تامة ، وبذلك يمكن القول بأنّ الأدب العربي قد تشكّل في صورته الحقيقية بالإسلام ، ولا يمنع هذا من وجود ديوان الشعر القديم وما يتّصل به من أسجاع الكهان ؛ وهي في مجموعها لا تشكل صورة الأدب بمفهومه الفني ولا بمعالمه الأصيلة التي وضحت بعد نزول القرآن ؛ الذي كان هو العامل الأعظم في بناء الأدب وظهور فنونه وعلومه ومناهجه. واللّغة العربية سابقة على الإسلام وهي عماد وجود الأمة العربية ، وهي لغة تطوّرت ونمت خلال مئات السنين حتى وصلت إلى صورتها التي عرفت بها قبيل الإسلام ، وإن ظلّت لها لهجاتها المختلفة المتعدّدة. فلمّا نزل القرآن انصهرت اللّغة العربية في لهجة واحدة ، ثم كان أن أعطاها القرآن — كما أعطى الأدب العربي — هذا البيان المعجز الفائق الذي فهمه العرب وأعجبوا به وعجزوا في نفس الوقت عن الإتيان بمثله.

إذن يمكن القول بأن أدب أي أمّة إنّما يشكل : ضمير الأمّة + القيم الفكرية + الروحية التي تعتنقها + جوهر اللغة.

وفي مجال أدب اللّغة العربية نجد الأمة للعربية لم تكن قائمة قبل الإسلام في الجزيرة العربية ، وإنّما كانت مجموعة من القبائل المختلفة المتصارعة التي لم تجتمع تحت أي لواء سوى الإسلام ، ولكنها كانت ذات قيم وتقاليد ولها طابعها الذي أورثه إيّاه مكانها في هذه الجزيرة شبه المنعزل عن حضارتي العالم : حضارتي الفرس والرومان. هذا الطابع اليدوي الخاص الذي أهّلها لتتلقّى رسالة إنسانية كالإسلام ، فقد حماها وجود المنعزل عن أن تذوب في متارف الحضارات وانحلالها ، ومكّن لها من تنمية قيمها وهي بقايا الحنيفية (دين ابراهيم) التي تمثل كل ما كان عند العرب في الجاهلية من خلق يقوم على الأريحية والمروءة وإن خالطها كثير من فساد عادات الثأر ووأد البنات والشرك وعبادة الأصنام والإستعلاء والتفاخر. فلمّا جاء الإسلام حرّر هذه النفس العربية من جاهليتها وصاغ كثيراً من طوابعها صياغة جديدة حول أهداف الكرم وحماية الذمار والخبرة ، فأعطاها مفهوماً متجدّداً هو مفهوم التوحيد

الأوّل واستبقى قدرتها على المجالدة والحمية ، ووجه ذلك كلّه إلى هدف أسمى تحت لواء عقيدة التوحيد الخالص. وبذلك محا عنها درن الجاهلية وحرر قيمها التي كانت عماد القوة الكبرى التي اندفعت في الارض ترفع راية الإسلام وتعلن اسمه وتمدّ نفوذه من حدود الصين إلى حدود فرنسا.

كل هذه العوامل أعطت أدب اللّغة العربية ذاتية خاصة وطبعته على نحو خاص يختلف به عن آداب الأمم الأخرى ، فظهرت فنون لم توجد في الآداب الأخرى ، واختفت فنون وجدت في الآداب الأخرى. وظهور هذه الفنون فيه واختفاء تلك الأخرى منه لا ينقص من قدره ، ما دام يصدر عن أعماق روحه الطبيعية ومقوماته الخالصة.

ومن هنا فإنّ هذا الأدب لا يدرس على ضوء مناهج وضعت لآداب أخرى ، ذلك أن أساليب النقد والبحث إنّما توضع للآداب بعد ظهور هذه الآداب ، ولذلك فهي مستمدّة منها ، ولا يمكن العكس.

إنّ مذاهب الأدب التي يحاول النقّاد محاكمة الأدب العربي عليها هي في جملتها مذاهب غربية، وضحت مسمياتها ومناهجها بعد قيام ظواهرها في الآداب الأوروبية ، وهي في الحق ليست مذاهب وإنّما هي أسماء عصور: كالكلاسيكيّة والرومانتيكيّة وغيرها. وهي تتّصل في مجموعها بتاريخ الأمم التي وضعت هذه المذاهب. فلماذا تنقل لتكون قوانين يخضع لها أدبنا الذي يختلف من حيث تكوينه وطابعه وتاريخه وبيئته ومظاهر حياته عن هذه الآداب.

هذا من ناحية النقد ، أمّا ناحية أصول الأدب نفسه : أصول الشعر والنثر والقصص والتراجم فلماذا يخضع الأدب العربي لقواعد مستمرّة من آداب تختلف عن الأدب العربي : مزاجاً وشكلاً وطابعاً؟

وهل يمكن أن يقال إنّه هناك أصولاً يضعها الأوروبيون لتخضع لها الآداب في العالم كلّه؟ ، وإذا قالوا هم ذلك فهل نقبل نحن ذلك والأدب العربي عريق الجذور وسابق لهذه الآداب كلّها في النشأة والتكوين؟ هل نقبل أن يخضع أدبنا لقواعد

غريبة عنه، بينما يشكّل أدبنا بوجوده خلال أربعة عشر قرناً قواعدَ وقيماً مستمدّة من جوهره وطوابعه؟

إنّ اختلاف المصادر والمنابع بين الأدب العربي والآداب الغربية يجعل من العسير خضوع الأدبين لمقاييس واحدة، أو لقوانين واحدة، والمعروف أن الآداب الغربية جميعاً تستمدّ مصادرها من الأدب الهلّيني والفلسفة اليونانية والحضارة الرومانية، فقد اتّجه الأدب الأوروبي الحديث منذ أوّل ظهوره في عصر النهضة الى هذه المنابع، وربط نفسه بها وجعلها أساساً ثابتاً لمختلف وجهات نظره ومفاهيمه وقيمه، واتخذ من النظرات التي قدّمها أرسطو في الأدب والنقد والشعر وغيره أساساً له.

وهذه الحصيلة التاريخية الضخمة. وهذا التراث الإغريقي الروماني المسيحي يقوم على أساس يختلف اختلافاً واضحاً عن الأساس الذي يقوم عليه الأدب العربي الذي استمدّ مصدره أساساً من القرآن الكريم والإسلام والقيم العربية الأصيلة التي تلاقت مع مفاهيم الإسلام وانصهرت معها، ومن هنا كان ذلك الخلاف الواضح، والتباين الكبير بين المشاعر والعواطف والأحاسيس في كلا الأدبين.

الأدب الذي يستمدّ وجوده من التوحيد والنبوّة، والثقة بالله، والنظر إلى الكون بمنظار السماحة والتفاؤل والإيمان، وهو ما كونته طبيعة البيئة العربية بالإضافة إلى ما صاغه الإسلام في النفس العربية من عقيدة، وبين الأدب الذي يستمدّ وجوده من بيئة تتصارع فيها الآلهة ويقتل بعضها بعضاً، وتصارع الإنسان ويصرعها الإنسان ومن أجواء ضبابية تقاسي جو الجبال الصخريّة، وظلام الليالي الطويلة، وظلال الحياة الغامضة وغلبة السماء المغطاة بالسحب.

لا شك أنّ هذا الإختلاف البعيد المدى في طبيعة البيئة، وفي طبيعة النفس الإنسانية، وانعكاس هذه البيئة عليها، يجعل من المستحيل التقاء أدبي العرب والغرب في وجهة واحدة، أو مشاعر واحدة، ومن ثم فإنّه من المستحيل أن يخضع كلا الأدبين إلى قوانين واحدة ومناهج في الصياغة والنقد والبيان والمضمون واحدة.

وحيث يطلع النهار في سماء العرب فيملأ الفضاء بالضوء الساطع والشمس المشرقة المشعّة، ويلف الكون كله نور وضياء فإنّ النفس الإنسانية لا شك تواجه الحياة في الضياء والنور، ومن ثم فهي تعبر عنها على هذا النحو، ومن ثم فإن أدبها لا يشكل صور الضباب، والظلال، والرمز، والقصة الخيالية الوهمية، وفي فنون كثيرة تتّصل بطبيعة الأرض وبطبيعة النفس الإنسانية في الأدب العربي تختلف اختلافاً واضحاً وجذرياً عن مثيلاتها في الأدب الأوروبي حيث يشكل الضباب والظلام وعواء الذئاب في الليل والجبال العالية لوناً مختلفاً وطابعاً متبايناً.

هذا هو أهم أوجه الخلاف بين الأدبين العربي والغربي، وهو خلاف عميق أشدّ العمق متّصل بالنفس الإنسانيّة باعثة الأدب ومنشئته، ومن ثم فإن خضوع الادب العربي لقوانين وقواعد ونظم قامت اساساً في ضوء حصيلة الأدب الأوربي وفنونه أمر بالغ الخطر، وبعيد الأثر.

وإذا كان لنا أن نتساءل فإلى متى نظل تابعين، لأفكار الغرب، ومستوردين لمناهج الغرب حتى في أدقّ ما يتصل بالنفس الإنسانية والتعبير عنها؟ ومتى نصل إلى مرحلة الرشد والأصالة والتشكّل الذاتي الصادر من أعماق أدبنا؟ أدبنا العريق الذي يسبق الآداب الأوروبية بعشرة قرون أو تزيد.

* * * *

# الفصل الثاني

## البيئة التي نشأ فيها الأدب العربي

نشأ الأدب العربي في الجزيرة العربية ، فهي البيئة التي تشكّلت فيها تلك الخميرة الأساسية للّغة العربية والإسلام والأمّة العربية.

ويرجع ذلك إلى قرون عديدة سبقت الإسلام. ويمكن القول إنّ الجزيرة العربية عرفت مجتمعين: أحدهما في جنوب الجزيرة والآخر في وسطها وهما مجموعتا قحطان وعدنان ، وكانت كلّها جماعات قليلة متناثرة ، وقد يشكل العنصر العدناني في وسط الجزيرة نتيجة هجرة ابراهيم عليه السلام وزوجته هاجر وولده إسماعيل إلى منطقة بئر زمزم.

وكان الحدث الأكبر هو رفع ابراهيم واسماعيل لقواعد البيت (الكعبة) ، وتجمع قبائل جرهم وغيرهم وقيام دين التوحيد في هذه المنطقة بنبوّة إسماعيل بعد نبوة إبراهيم. وتكاد تجمع المصادر على أن اسماعيل هو أوّل من تكلّم اللّغة العربية وكان ذلك قبل الإسلام بثلاثة آلاف عام تقريباً.

ولا يعرف التاريخ من وقائع عصر ما قبل الإسلام (الجاهلية) إلّا شذرات قليلة ، وأعظم حصيلة في هذا الشأن هو ما أورده القرآن. وقد قسمت الجاهلية إلى عصرين: الجاهلية الأولى والجاهلية الأخيرة وهذه توصف بأنّها تمتدّ الى قرنين من الزمان.

والنصوص التاريخية كلّها تشير إلى أنّ كلمة عربي لم تستعمل في الشعر الجاهلي أو الأثار السابقة للإسلام ، وانّ القرآن هو الذي طرح هذه الكلمة ، وان الاسلام

هو الذي أعطاها دلالتها الحقيقية إذ أقام وحده الأمّة وكانت العرب قبله قبائل متفرّقة لا يجمعها رابط. ولقد كان للحنيفيّة السمحاء ودعوة التوحيد التي جاء بها ابراهيم واسماعيل أثرها البعيد في القيم الأخلاقية التي عرفت عن العرب في جاهليتهم وفي مقدمتها الكرم وحماية الذمار والأريحية والمروءة وهذا يعني تماماً عبارة الرسول ﷺ في قوله: (إنّما بعثت لأتمّم مكارم الأخلاق) أي إنّ مكارم الأخلاق قد سبقت على أيدي الأنبياء وإن الإسلام جاء ليحتمها وليضعها في أصفى قالب وأصدق نهج. ولقد كانت أخلاق العرب قبل الإسلام في أصولها الأصيلة هي التي أعطتهم القدرة على تقبّل الإسلام وحمل رسالته والإنطلاق به الى الآفاق؛ ذلك أنّ هذه القيم التي كانت صحيحة في أصولها ثم أصابها الإضطراب والفساد وغلبت عليها الوثنية، أصبحت بالإسلام قادرة على التماس أصولها والعودة إليها.

ولذلك فقد كان اختيار العرب لرسالة الإسلام مرتبطاً الى حدٍّ كبير بالرسالة الاولى «الحنيفية» التي جاء بها ابراهيم، ولذلك فقد ربط القرآن بين الرسالة الأولى والرسالة المجددة، فقد أعلن الرسول أنّه إنّما جاء مجدّداً للحنيفية السمحة التي أقامها ابراهيم، وفي نفس الوقت نجد ابراهيم يتطلّع إلى أن يبعث الله في العرب رسولاً منهم يحمل لواء التوحيد ويرفعه إلى العالمين جميعاً.

ومن هنا نجد ذلك الالتقاء بين العروبة والإسلام في المصادر الأصيلة، والجذور القديمة، ونرى أنّ الجاهلية العربية كانت جاهلية ساذجة، ولم تكن على مثل جاهلية اليونان والفرس والهنود والفراعنة، ذات جذور عميقة وفلسفة مشكلة ذات طابع وثني عريق، وإنّما كانت قشرة غالبة بدأت بالانحراف عن التوحيد إلى عبادة الأوثان وإلى إشراك الآلهة المرتجاة في الوساطة والزلفى مع الله في تصريف الأمور. وقد كشف القرآن عن زيف هذا الاتجاه وحرّر العقيدة من كل عوامل الوثنية والشرك والتعدّد، ولذلك سرعان ما تحرر العرب من وثنيتهم وتمت كلمة ربّك في الجزيرة كلّها في السنوات الأخيرة لحياة الرسول، وأصبحت هذه القوة كلّها مهيّأة لتقوم بدورها التاريخي الخالد الذي قامت به في الانطلاق برسالة الإسلام الى الآفاق.

تلك هي البيئة التي نشأ فيها الأدب العربي : بيئة الصحراء والأفق الطلق والشمس المشرقة والرؤيا البعيدة وسماحة البادية وطابع الكرم والغيرة على العرض وحماية الذمار، وبيئة المراعي والأمطار والتطلّع إلى فضل الله في إطار الصبر والمصابرة والمرابطة. وكانت هذه المعاني قبل الإسلام قد أصابها الاضطراب، وتوجّهت بها الجاهلية الى المطامع والأهواء والاستعلاء والغرور. بيد أن الإسلام لم يلبث ان ردّها مرّة أخرى إلى أصولها الحقيقية، وجرّدها من الهوى وجعلها خالصة لله. فالإسلام هو الذي حرّر النفس العربية ودفعها الى التماس الإيمان واليقين وهيّأها الى رسالتها الحقّة.

فالعرب قبل الإسلام كانوا موحدين بدعوة ابراهيم ثم سقطوا في الوثنية، وظلّ طابع التوحيد قائماً في أعماق الكثيرين منهم، وقد ظلّت طائفة تتعبّد على دين ابراهيم حتى جاء الإسلام، ومن هنا فإنّ كل ما لديهم من طوابع الإيمان والخلق والكرم إنّما صدر عن ذلك الأصل القديم، ثم جدّده الإسلام وأعطاه مضموناً ربّاني الطابع إنساني المظهر.

ولقد تقدّم الإسلام إلى العرب (والى الناس جميعا) لا باعتبار أنه دين جديد، ولكنّه باعتبار أنّه دين البشرية الأقدم خالصاً من جميع الشوائب التي ألحقتها به الأجيال المتعاقبة. ونجح الإسلام في ربط الناس في مجتمع أوسع من العائلة والقرية والقبيلة، وساوى بين أفراده ولم يبق أثراً للتمييز على أساس العرق أو اللون أو اللّغة أو الوطن، واعتبر وحدة الجنس أساس الوحدة الإنسانية، فلم يعرف مجتمع الإسلام مفهوم العنصرية، بل صهر الإسلام ذلك كله وأقام منهجه الخالص.

والعرب بغير الإسلام لم يكونوا شيئاً، بل حتى لم يكونوا يسمّون (عربا)، وبه أصبحوا أمة ثم نقلهم الإسلام الى المجال العالمي.

ولقد خلق الإسلام العرب خلقاً جديداً، وأقام لهم الوحدة على أساس العقيدة والفكر، وكان ولا يزال الحائط المنيع الذي ردّ عنهم العوادي وحطّم الغزاة.

وأعطاه المسؤولية الفردية والالتزام الخلقي لكي يواجه العالم من منطلق الكرامة وجعل مسيرته كلّها خالصة لله.

والإسلام لا يرفع الإنسان عن مستواه ولا يخفضه عن مكانته، فهو ثابت الجوهر متغيّر الصورة. ويتميّز منهج الإسلام في أنه ينظر إلى الإنسان من جميع جوانبه، ويربط بين مختلف القوى فيه، ويوازن بينها، ولا يقر التفسيرات التي تحاول أن تميل به إلى جانب الطعام أو الجنس أو البيئة، ويرى أنّها تفسيرات إنشطاريّة لا تلتمس الحقيقة التي تتمثّل في المنهج الواحد المتكامل.

ولقد جاء الإسلام بفكرة رئيسيّة هي فكرة «الحقّ» في كلّ شيء: فيما يتعلّق بالكلام عن الله وعن الكون وعن المعرفة وعن أساس الحكم على الأشياء، وجاء يحارب التقليد والجمود ويحارب الرأي القائم على الظن.

وقد فرّق الإسلام بين العلم النافع والعلم الزائد على الحاجة، ودعا المسلمين أن يأخذوا من كل علم بما هو أحسن؛ وهو في ذلك يركّز على الاجتهاد ورفض التقليد، ويطلب البحث عن البرهان وقبول الدليل وتغيير الرأي دون حرج متى يتبيّن أن غيره أصحّ منه.

وكذلك فرّق الإسلام بين المعارف الجوهرية والمعارف غير الجوهرية التي ليس لها قيمة إلّا ان تكون للزينة فقط، ودعا الى نبذ لغو الحديث الذي يضل الناس بغير علم.

وقرّر أن هناك أموراً مشتركة بين الأمم وأموراً أخرى مطبوعة في كل أمّة بطابعها ومنها الأخلاق والآداب والقيم، وان هذه الأمور هي مقومات كل أمة وهي ترجع إلى عوامل كثيرة: أبرزها عامل الدين والعقيدة وخاصة فيما يتّصل بالأخلاق والاجتماع واللّغة.

* * * *

ولمّا كان القرآن هو المصدر الأصيل للفكر الإسلامي فهو المثل الأعلى للأدب

العربي ولا ريب أن تأثير القرآن في الفكر لا ينقطع وفي الأدب لا يتوقف لأنّه يتناول المنهج الإجتماعي والسياسي والتربوي والقانوني لحياتهم الفردية والاجتماعية.

ولقد كان تحرّك الفكر الإسلامي والأدب العربي أساساً، إنّما يجري في نطاق القرآن فإذا خرج عنه وقع الجرح الذي لا يرفع إلّا بالعودة إليه.

ولقد كان التأويل من أخطر الأسلحة التي استعملت لتفسير النصوص تفسيراً يحجبها عن مدلولاتها الأصيلة الى المفاهيم المنحرفة. ولقد حذر القرآن المسلمين من هذا الخطر، وأولى الرسول هذا الأمر اهتماماً كبيراً حتى لا يقع المسلمون في محاذيره فيخرجوا عن أصول دينهم الجامعة الواضحة.

وهناك محاولة لزلزلة النص الإسلامي القائم على القرآن والسنة بالدعوة الى فصل الأدب عن الفكر وإعطاء الأدب حجماً أكبر من حجمه الطبيعي ونفوذاً أكبر من قيمته الحقيقية، وهو فصل عسير لأنه يرمي الى تجزئة أمرين تجمعها وحدة عضوية.

فالقرآن هو مصدر المعطيات العربية في البيان والفكر جميعاً، ولم يكن يملك العرب قبل الإسلام تراثاً حقيقياً في مجال الأدب والفكر حتى جاء القرآن فأعطى البشرية كلّها هذه الحصيلة الضخمة من الضياء الكاشف لمناهج الحياة والمجتمعات وبناء الإنسان.

وليس القرآن في الحقيقة كتاب دين كما يقولون، ولكنّه المصدر الأساسي للفكر الإسلامي والثقافة العربية، وهو يتّسم بالشمول والتكامل، وأعظم مناهجه: العقيدة والشريعة والأخلاق، استمداداً من حقيقة أصيلة هي أن الإسلام ليس ديناً عبادياً ولكنه دين ومنهج حياة.

ولقد حفظ الله القرآن من أن يطرأ عليه تبديل أو تغيير أو تحريف ممّا أصاب الكتب السابقة فهو الوثيقة الخالدة (إنّا نحن نزلنا الذكر وإنّا له لحافظون) ولقد أمدّ القرآن العلوم والآداب والفنون كلّها من عطائه.

فقد قدّم للمسلمين علوم الدين، ورسم الخطوط العامة للفكر الإنساني، وأصل

المناهج والقيم في مجال السياسة والاجتماع ، وقدم منهج المعرفة ذا الجناحين : الروحي والمادي ، وأعطى البشرية منطلق النظرة العقلية والعلمية على أساس الفطرة ، وطالب بالبرهان وأنكر الأساطير وزيف الخرافات والأوهام ، وحرر البشرية من عبودية الفرعون والقيصر والأمبراطور ، كما حرّر العقل البشري من الوثنية والتقليد والتبعية والمادية جميعاً. ومن هنا فمن الزيف قول القائلين بالفصل بين العلوم الدينية والعلوم الدنيوية في الإسلام.

وقد حفظ القرآن رابطة الفكر والبيان بين الشعوب الإسلامية وغيرها من الشعوب وحفظ اللّغة العربية من ان تتمزق إلى لهجات ، وهو الذي نشر اللّغة العربية في الآفاق حتى وصلت من الصين إلى فرنسا ، وهو الذي حفظ اللغة العربية لساناً مبيناً لأصحابها خلال أربعة عشر قرناً ، حتى لو عاد أحد من القدماء إلينا الآن لتحدّث إلينا ؛ وهو ما لم يقع لأيّة لغة أخرى من اللغات الحية الآن التي لا يزيد تراثها الحي المتعارف عليه عن ثلاثة قرون.

ومرد ذلك الى احتفاظ اللّغة العربية بمستوى بلاغة القرآن استمداداً منه واتصالاً به ، ومن هنا تقصد الدعوة الى مهاجمة الفصاحة العربية والخطابة والشعر العربي عن طريق تحقيق مطمعها في إحياء العاميات والغضّ من الأسلوب البياني وفصل العرب عن لغة القرآن وزلزلة وحدة الفكر الجامع بين المسلمين.

وأبرز مفاهيم البيان العربي : الوضوح الصادق حيث لا تأويل ولا غمغمة ولا ظلال ولا رمز ، وحيث لا يحمل اللفظ أكثر مما يطيق ولا يؤدّي أكثر من معنى ، والأمر فيه إمّا باطل وإمّا حق ، ولا يكون الإثنين معاً.

ومن هنا فإنّ أبرز مفاهيم الإسلام هو أن تعاليمه وحدة متكاملة لا يصح تجزئتها او تفتيتها.

واللغة العربية بهذا المفهوم ليست لغة أو أنّها لغة العرب وحدهم ، ولكنها لغة فكر وثقافة ودين لألف مليون من المسلمين. ومن هنا فمن العسير مقايستها وفق مفهوم

اللغات الغربية ، وليس في استطاعة العرب وحدهم التصرف بها او عزلها عن مستواها القرآني وطابعها الإسلامي.

وعندما هاجم الإمام الشافعي المنهج الأرسطي قال إنه يستند الى خصائص اللغة اليونانية وهي مخالفة لخصائص اللغة العربية.

* * * *

# الفصل الرابع

## الأصول التي يستمد منها وجوده

### ١ ــ إنسانية الأدب :

يتّسم الفكر الإسلامي بالطابع الإنساني البعيد عن العنصرية والإستعلاء بالدم او اللون والتمامه روح الإخاء البشري. ومفهوم الرحمة والكرامة والثقة المتبادلة.

فلقد كان العرب أهل أريحية ووفاء ومروءة ، وجاء الإسلام فعزّز فيهم هذه القيم ونماها بدعوته الى وحدة الجنس البشري ورفع لواء الإخاء : كلّكم لآدم وآدم من تراب ، ليس لعربي على عجمي فضل إلّا بالتقوى.

ولذلك عرف الفكر الإسلامي بالتسامح وتقدير الأديان والكتب السماوية والأجناس ، بينما لم يتمكن الفكر الغربي التنازل عن بغضه واستعلائه على الأديان والأجناس.

### ٢ ــ الأصالة :

الأصالة هي الالتحاق بالجذور مع التفتّح ، والتحرّر من التبعية في نفس الوقت. وقد دعا الإسلام إلى معارضة التقليد للأجنبي والاحتفاظ بالشخصية الذاتية ، وأعلن حرباً لا هوادة فيها على التقليد وعلى التبعية ، ودعا الى إعلان التمييز بين فكر وفكر، وكشف عن أن التقليد فقدان للشخصية ، والتبعية هي عبودية الفكر والعقل.

### ٣ — الصدق :

الصدق والوضوح من أبرز معالم الإسلام التي أهداها الى الأدب العربي ، ولذلك يرفض الإسلام الأساطير والخرافات والأوهام التي تتمثّل في ذلك الركام الزائف الذي ليس له مصدر علمي ولا يثبت للبحث أمام البرهان.

### ٤ — الوضوح :

يبرز مفهوم الوضوح في الفكر الإسلامي والأدب العربي في مواجهة الظلال والرموز التي تميزت بها الآداب الأوروبية.

فالجو الصافي المشرق والنفس المؤمنة المتفائلة من شأنهما أن يمدّا الأدب بطابع الوضوح الخالص البعيد عن التعقيدات والرمزيات والأوهام.

### ٥ — الإيمان :

عرف العرب الإيمان بالله والثقة به ، وهو إيمان مضيء ، يقوم على الدليل والبرهان ، فقد هاجم الإسلام الخرافات والسحر والكهانة ، وطارد الأوهام والمعتقدات الباطلة ، وأنكر إدعاء علم الغيب ، واعتبر السحر كفراً ، وحرص على أن يرتفع المسلم بإيمانه على الضعف البشري.

وفي مقابل الإيمان تبدو روح الشك والارتياب في الآداب الغربية. ولا يرى الإسلام في الإيمان مفهوماً مضاداً لمفهوم المعرفة كما هو الحال في الأديان الأخرى ، ويرفض الإسلام الاقتصار على مفهوم المعرفة القائم على الحسّ والتجربة وحده بل يضيف إليه الوحي وعلم الدين فيتكامل عالم الغيب مع عالم الشهادة.

وقد قرّر الإسلام أن الإيمان بالله قوة دافعة تعطي الأمل وتحول دون اليأس وتبعث الثقة وتدعو الى المعاودة في حالة الإخفاق.

٦ـ التفاؤل :

الثقة بالله هي مصدر التفاؤل ولذلك فإن الأدب العربي لا يعرف التشاؤم على النحو الذي يتمثّل في الأدب الغربي . وأبرز معاني التفاؤل في الفكر الإسلامي هو الثقة بالله ، والإيمان بأنّه لا تزر وازرة وزر أخرى . لقد ساد الوجدان المتشائم في الأدب الغربي نتيجة ما يطلق عليه : الخطيئة الأصلية . ومن ثم ظهرت آثاره على الآداب والفنون والفلسفة والأخلاق .

وطابع التشاؤم ليس له مكان في الأدب العربي لانقطاع أسبابه .

٧ـ الأخلاق :

القانون الأخلاقي أساس وطيد في الفكر الإسلامي ، ومن ثم في الأدب العربي ، فهو محور الدائرة لكلّ القيم . ومفهوم الأخلاق في الإسلام يقوم على قِيَم ثابتة راسخة لا تتغيّر بتغيّر الزمن والبيئات .

والأخلاق هنا شيء غير التقاليد المتغيّرة التي اتفق الناس على اتّباعها في المجتمعات .

ومن هنا فإنّ قِيَم الأخلاق ثابتة والتقاليد متغيّرة وقاعدة الاخلاق الأساسية هي أن الحقّ واحد والخير واحد وأنّهما لا يختلفان ولا يتعدّدان .

وتقوم الاخلاق في الأدب العربي في مواجهة الاباحية والكشف ، فالفكر الإسلامي لا يقرّ الأدب المكشوف ولا الأدب الجنسي ، ويقدم الأخلاقية على الجمالية .

ومعارضة الإسلام في إطلاق ميول الشهوات والإباحة ، عامل هام في تقديس الأنسال وحماية الأسرة ودعم كرامة المرأة .

٨ـ التكامل :

يقوم مفهوم المعرفة في الإسلام على أساس التكامل ، ارتباطاً بالإنسان الذي

يتكامل في حياته الجسدية وحياته النفسية وحياته الإجتماعية. فالإسلام يشكّل منهجاً متكاملاً يرتبط فيه العقل والجسم، والعلم والدين والروح والمادة، والدنيا والآخرة.

ويبدو طابع التكامل واضحاً في الأدب العربي بمعنى الشمول والإحاطة في مواجهة الانشطارية والفصل بين القيم التي هي دعامة الفكر الغربي.

ومن هنا فلا يقرّ الفكر الإسلامي تفسيراً جزئياً ما للحياة كالتفسير الجنسي لفرويد أو التفسير الاقتصادي لماركس.

ويتحرك الأدب داخل نطاق الفكر ويقوم النظر العقلي في ضوء التوحيد والوحي:

ولقد الغى الإسلام الفكرة التي كانت تقول إن هناك صراعاً بين الجسم والروح، وهو يعترف بأنهما متكاملان وبذلك أسقط مفهوم الرهبانية القائم على الرياضة العنيفة وتدمير الجسد. فليس في الإسلام زهد خالص، ولا إباحيّة مطلقة، وإنّما هناك ضوابط ومثل بعيدة عن التفريط والإفراط والترف والجمود.

وقد أقرّ الإسلام قاعدة الاعتراف بكيان الإنسان واستحالة تفريقه عن مضمونه الاجتماعي أو النفسي أو الروحي أو النظر إليه على أنه هيكل بشري خالٍ من الروح أو الوجدان.

والإسلام في ضوء التكامل — على أساس التقاء العناصر — يختلف عن الفكر الغربي الذي يقوم على الانشطارية والتجزئة. ومن أبرز مفاهيم التكامل أن الأدب جزء من الفكر. ان تجربة الأديب تعدّ تجربة ناقصة لأنّها تجربة وجدان لا يستوفي أبعاد البحث الصحيح حيث تحكمها العاطفة في الأساس وتستهدف إرضاء الأهواء. ومن مفهوم التكامل عدم التسليم بالدعوة الغاندية والتولستوية القائمة على السلام المطلق دون أن يرتبط ذلك بطابع الإسلام في الجهاد والقوة.

**٩ — البرهان :**

ودعا الإسلام إلى التماس البرهان في كلّ حقيقة يعتقدها الإنسان وأنكر على المسلمين التقليد بعد معرفة الدليل..

وقد هاجم الإسلام الخرافات والسحر والكهانة، وطارد الأوهام والمعتقدات الباطلة، وأنكر ادّعاء علم الغيب واعتبر السحر كفراً، وحرص على أن يرتفع الإنسان بإيمانه عن الضعف البشري الذي يجعله ألعوبة في يد أوهام الطوالع وأضاليل العرافين.

**١٠ — الحريّة ذات الضوابط :**

إنّ مفهوم الحريّة في الإسلام مفهوم شامل كامل. وتقوم الحريّة في مفهوم الإسلام على تحرير العقل الإنساني من قيد الوثنية والجهل والخرافة والتقليد وتحرير النفس الإنسانيّة من الإستعباد والإذلال والفقر.

ولا يقر الإسلام مفهوم الحرية معنى الإباحة والانطلاق وينكر الإسلام إطلاق الشهوات.

**١١ — الالتزام والمسؤولية :**

يقيم الإسلام قاعدته الأصيلة على الالتزام الأخلاقي والمسؤولية الفرديّة وهو التزام قائم إزاء المجتمع مرتبط بالمسؤولية في الآخرة.

فليس في الإسلام خطيئة أصليّة لأنّه لا توجد مسؤوليّة عامة محدّدة، ولذلك فإن موقف الإنسان من القدر واضح وصريح.

ويرتبط الالتزام الفردي والمسؤولية الأخلاقيّة بإقرار مفهوم البعث والحساب والجزاء، ولا ريب أنّ إقرار البعث مطابق للفطرة وان إنكاره هو الذي يشكّل التناقض العقلي. ذلك أنّ الحياة على وجه الأرض لا تكون بأي حال صدفة عارضة بل حقيقة ومسؤوليّة ورسالة.

ولا ريب أن تحرّر الإسلام من فكرة الخطيئة الأصلية ــ التي هي دعامة أساسيّة للفكر الأوروبّي ــ حتى آخر تطوّراته بعد انفصاله تماماً عن الفكر المسيحي ــ هذا التحرّر عامل هام في تأكيد الفوارق البعيدة والاختلاف الواضح بين الفكرين ثم بين الأديين.

ذلك أن الخطيئة الأصليّة كان لها أثرها العميق في الذهنيّة الأوروبيّة والعقليّة الغربيّة إيجاباً وسلباً، وعنها نشأت كثير من المدارس الملحدة. والصراع من أجلها متغلغل في الأدب الغربي برمته وفي الفلسفة الغربية وفي كثير من النظريات السياسيّة الأوروبيّة.

أمّا الإسلام فإنّه يقيم منهج الالتزام الخلقي والمسؤولية الفردية، ولا يعترف بأنّ أي عمل لأي إنسان يمكن أن تكون له مسؤولية عامة على البشرية كلّها.

**١٢ ــ ثبات القِيَم:**

يقيم الإسلام ثبات القيم في مواجهة نسبية الأخلاق الغربية، ويقيم مفهوم الثوابت والمتغيّرات في وجه التطوّر المطلق غير المحدود.

**١٣ ــ ترابط الفرديّة والجماعيّة:**

يجمع الإسلام بين الفردية والجماعية، ويبني الإنسان كفرد يجعله في خدمة المجتمع. ولا يقرّ الإسلام الامتياز القائم على العنصر أو على الجنس او على اللون او الطبقة. وإنّما يعرف مقياساً واحداً هو التقوى.

فالفرد للجماعة والجماعة للفرد والكل للإسلام.

**١٤ ــ ترابط العلم بالعمل:**

يربط الإسلام العلم بالعمل ويجعل تقييم البطولة بإحياء العمل والانتفاع به، ويرفض تكريم الفرد بتجسيد البطولة في نموذج مادي، وبذلك يعارض الإسلام

مفهوم البطولة الوثني القائم على الأحجار، ويجعل تقدير الفرد بالعمل لا بالموروثات ولا بالعناصر او الألوان، وبذلك يدحض فكرة العنصرية والاستعلاء الجنسي او اللون او الطبقة. وحين يقرن الإسلام العلم بالعمل والعقيدة بالتطبيق يرفض مبدأ العلم لذاته ويقرّر ان العلم يطلب من أجل العمل به والاستفادة منه في تحسين الحياة الإنسانية وتقدمها.

### ١٥ ــ أصالة الاستجابة:

لما كان لكل بيئة تحدياتها وقضاياها فقد كانت استجابة الأدب العربي للبيئة استجابة صادقة، تتّفق مع روح المجتمع الإسلامي من حيث الأخلاقية والرحمة والوفاء ووضوح النظرة في إطار طابع التوحيد الذي يطبع المزاج والفكر جميعاً. هذه الأصالة تبدو واضحة في مختلف المواقف الاجتماعية بالنسبة لموقف الفكر الغربي من نفس هذه المسائل.

### ١٦ ــ الذاتيّة:

لكل أمّة ذاتيتها الخاصة وأدبها النابع من ذاتيتها. فالطابع الخاص هو أبرز طوابع الإسلام. والمعروف أن هناك أموراً عالمية مشتركة كالعلم والمعرفة، وهناك أموراً ذاتيّة منها الثقافة والأخلاق والآداب والأذواق. وللعرب خلقهم وثقافتهم وآدابهم النابعة من دينهم وفكرهم وذاتيتهم وهي القيم التي قادتهم في الحياة خلال المدى الطويل ومكنت لهم في الأرض.

### ١٧ ــ الاعتراف برغبات الإنسان:

اعتراف الإسلام برغبات الإنسان المادية وأشواقه الروحية لا مجال معه لقضية جدَل الجنس ولا أزمة من أزماته.

لقد نظر الإسلام الى الجنس نظرة الفطرة، وحرّره من تعقيدات الرهبانيّة

والرياضيّات القاسية، وأعلن أن الرغبات من طبيعة الإنسان التي لا سبيل الى قمعها او القضاء عليها ،.ودعا الى تحريرها من الاسراف ومن الجمود معاً ، ووضع لها ضوابط من الاعتدال والعفة وأقامها في دائرة الشريعة . وبذلك عجزت أزمة الجنس ان تجد لها مجالاً في محيط الإسلام لأنها لم توجد أصلاً.

ولا ريب ان دعوة الإسلام لتحقيق الرغبات الحسية عن الطريق المشروع بالزواج وتحريم الزنا لا تنبعث عن كراهية للجنس ، بل عن احترام له ، وتنزيهه عن العبث وارتفاع بالمرأة عن أن تكون سلعة او أداة متعة.

**١٨ — التوحيد :**

أبرز دعائم الإسلام وبه يتبيّن وضوح الفارق وعمق الاختلاف في المفهوم الديني والاجتماعي بين عالم الإسلام وبين الغرب.

وقد جعل التوحيد لسلّم القيم أولويّات ، وخصّص لها سبقها وتقدّمها ، وجعل لبعض القيم طابع الثبات فإذا جرى العمل على تغيير ترتيبها في سلّم القِيَم او تحويلها من مجال الثبات الى مجال التغيير أصاب المجتمعات الفساد والاضطراب.

وفي مقدمة سلّم القيم : الجهاد والزكاة والعبادة.

وقد جعل للجسم والمال واللذّة حصصاً فلم يغفلها ولكن جعل لها مقادير وضوابط.

وقد قرّر الإسلام وحدة الجنس البشري ووحدة الفكر الإنساني ، كما أطلق الإسلام العقل البشري من قيوده التي تأسره حول الأوثان فارتفع الى مستوى الاعتقاد بحياة وراء هذه الحياة.

**١٩ — الارتباط بالميراث :**

يرجع هذا الارتباط الى مصدر واحد هو أن التراث العربي الإسلامي ليس تراثاً

جامداً ، ولكنّه ميراث متفاعل لم يتوقّف عن الحركة ، ولم ينفصل تاريخياً عن النحو الذي انفصل فيه تراث اليونان عبر اوروبا الغربية في عصر النهضة.

**٢٠ — التجريب :**

لمّا كان التجريب هو أبرز طوابع الفكر الإسلامي من حيث.دعوة الله الى الإنسان أن يسير في الأرض ، وأنه ينظر في الطبيعة ، وأنه يكشف قوانين الكون ، فقد انتقلت البشرية بالإسلام من عصر التأمل النظري والفكري المجرّد الذي عرف عن اليونان الى عصر التجريب ووضع الجزئيات موضع الفحص العام ، وبذلك تكامل بالإسلام روح العلم الحقيقي ، وانتقلت البشرية الى عصر جديد ، فكان للإسلام فضل في إنشاء المنهج العلمي التجريبي في هذا الفكر وله أثره في الأدب والعلم على السواء.

**٢١ — الفطرة .**

قام الفكر الإسلامي على أساس فطرة الإنسان الأصيلة ، فكان استعداداً منها واستجابة لها ومحاولة لتأكيدها وتحريرها في نفس الوقت من زيف الانحراف والفساد وحمايتها من الاضطراب والتدمير ، فاعترف الإسلام برغبات الإنسان وغرائزه ودعا الى ممارسة هذه الرغبات في إطار الضوابط التي تحميها من الانحراف ، وتحمي الإنسان من التحطّم.

**٢٢ — ترابط العروبة والإسلام :**

لقد أحدثت موجة العنصرية والدعوة الى السلالات هزّة كبرى في الفكر البشري في العصر الحديث ومنها تسرّبت الاضطرابات الى العلاقة بين الغروبة والإسلام ، ولكن النظرة الأصيلة لها تختلف اختلافاً واضحاً عن القوميات والاقليميات والعنصريات الغربية التي قامت في سبيل تحطيم الوحدة التي أنشأتها الكنيسة بعد الثورة الفرنسية.

قرّر الغرب فصل القوميّة عن الدين ، لأنّ الدين دخل على أوروبا من الخارج ، بينما نجد أنّ الإسلام بالنسبة للعرب ليس عقيدة أخروية فحسب بل هو مصدر نظرتهم الى الحياة.

والإسلام بالنسبة الى العرب أساس فكرهم وحضارتهم.

فالعروبة قيمة تختلف عن مفهوم القومية الغربي لأنها لا تحمل العداء او الصراع بل تحمل الانفتاح والتكامل مع عالم الإسلام كلّه ، أخذاً وعطاء بحكم الترابط العميق الذي أقامه الإسلام نفسه والفكر الإسلامي.

ومن هنا يتكامل الإسلام والعروبة تكاملاً عضوياً متفاعلاً بحيث لا يمكن فصلهما.

ولا يقرّ الإسلام مفهوم العروبة إعلاء جنس أو عنصر، ويرفض نظرية الجنس الأبيض تاج الخليقة.

**٢٣ــ قوامة الرجل :**

أقام الاسلام قانون قوامة الرجل في نفس الوقت الذي أقام للمرأة كيانها وحقّها ومساواتها. وتمييز الرجل بالقوامة في الإسلام لا يجعل من ضعف المرأة عقاباً إلّهيّاً لها كما تحاول ادعاء ذلك بعض العقائد والمذاهب ، ولكنه يقيم التكامل ويحقق التوازن ويدفع المجتمع الى الوجهة الصالحة ويجعل أمور الحياة متّصلة على النحو الذي يحقّق السلامة ويؤكّد الفطرة.

**٢٤ــ تكامل المعرفة :**

يفرّق الاسلام تفرقة واضحة بين مقاييس العلوم ومقاييس المفاهيم الإنسانيّة ، فالأخلاق والمجتمعات وشؤون الوجدان النفسي وغيره لا تخضع لمقاييس العلم المادي.

ولذلك فإنّ تمجيد العقل واتخاذه سبيلاً وحيداً للمعرفة ليس مفهوماً إسلاميّاً أصيلاً. فالاسلام يقيم منهجه في المعرفة على تكامل القلب والعقل جميعاً.

**٢٥ ــ الوسطية :**

ينزع الفكر الإسلامي نزعة الطب في الوسطية، فهو يعتبر الكائن الإنساني كلّاً متّسقاً في حياته النفسية، وينظر الى العوامل الروحية والمادية معاً في تشخيص الأحداث.

* * * *

# الفصل الخامس

## وجوه الاختلاف والتباين
## بين الأدب العربي والأدب الغربي

من خلال دراسة الأصول التي استمدّ الأدب العربي منها وجوده تظهر جلياً وجوه الخلاف والتباين بين الأدب العربي والآداب الغربية.

وتتركّز هذه الوجوه بالنسبة للأدب العربي في عناصر أربعة:

أوّلاً: تفسيرات العقائد.
ثانياً: طبيعة البلاد الأوروبية جغرافياً.
ثالثاً: موروثات الهلّلينيّة والفكر اليوناني.
رابعاً: الآثار الخطيرة التي حقّقتها سيطرة الفكرة التلمودية على الفكر الغربي كلّه في العصر الحديث.

والمعروف ان تفسيرات العقائد التي عرفتها أوربا (وهي تختلف عن المسيحية المنزلة) قد أقامت فلسفة قوامها تداخل الألوهيّة والنبوّة، وامتزاج الربوبيّة والبشرية. وقد كان لهذه المفاهيم أثرها البعيد في طوالع التشاؤم ومفهوم المأساة والصراع بين الإنسان والقدرة، وكلّها مفاهيم ورثها الفكر الغربي عن الهلّلينيّة ونتيجة التضاد والالتقاء بين تفسيرات المسيحية التي جاء بها القدّيس بولس وبين التراث اليوناني القديم، بالإضافة إلى مفاهيم اليهوديّة التلموديّة، كل هذا شكّل خلافاً حاداً بين الفكر الغربي والفكر الإسلامي ومن ثم بين الأدب الغربي والأدب العربي.

وأهم هذه الفوارق العميقة هي :

أوّلاً : الفارق بين نظرة العقائد الغربية الى الإنسان وبين نظرة الإسلام ، فبعض الاديان تقدّم الإرادة على العقل وعندها أن إرادة الانسان تسقطه وتحوجه الى غفران الخطيئة بالفداء. أمّا في الإسلام فإن عقل الإنسان يوجب عليه أن يدرك عمله ويدرك التبعة التي تلزمه بين يديّ ربّه.

ثانياً : بعض العقائد التي ليس لها شريعة مستقلّة قبلت القانون الوضعي ، ومن ثم فصلت بين الدين والنظم الاجتماعية والسياسيّة ، ومن ثم فهي تختلف مع الفكر الاسلامي في مفاهيم كثيرة وينتج عن هذا الخلاف آثار بعيدة المدى.

ومن أهمّها : في الإسلام الترابط بين الدين ونظام المجتمع والحكم ، او التكامل بين العبادة والشريعة.

فالإسلام يقيم منهجه على أساس تكامل العبادة والشريعة والأخلاق ، ويقرّر أن الدين بهذا المعني مرتبط بالحياة والمجتمع وأنظمة الحكم. بينما تقف بعض الأديان عند حدود العبادة وحدها وتقبل الأنظمة الاجتماعية التي تقدمها الأيدلوجيات المختلفة.

ويرجع ذلك الى أنّها عندما دخلت مجتمع الامبراطوريّة الرومانية كان النظام الاجتماعي والقانون الروماني قائماً وكانت هي خلواً من الشريعة في أساسها.

أمّا الإسلام فإنّه أقام مجتمعه من الأساس على منهج متكامل ترتبط فيه العقيدة بالشريعة وبالقانون الأخلاقي.

ثالثاً : لم يحدث في الفكر الاسلامي صراع او تضارب او خصومة بين الدين والعلم على النحو الذي عرفه الفكر الغربي ، والذي كان بعيد المدى في قيام الفوارق العميقة وإنشاء المناهج المختلفة كالدين الطبيعي ودين البشرية وغيرهما ، وظهور منهج الأخلاق القائمة على الواجب وغيرها من المناهج التي فصلت بين القيم.

ذلك أن الإسلام هو الذي فتح الأفق الواسع أمام العلم بما طرحه القرآن من دعوة الى النظر في الآفاق ومن ثم اتخذ المسلمون أسلوب التجربة ، حيث كانت اليونان تصطنع أسلوب المنطق العقلي.

رابعاً : نشأ عن هذا كلّه قيام الفكر الغربي على مبدأ الانشطارية وتجزئة القيم ، بينما يقوم الفكر الإسلامي على التكامل بين القيم على أساس الجمع بين رغبات الإنسان الماديّة وأشواقه الروحيّة . فالاسلام لا يحتقر الأمور الدنيوية بالزهادة فيها ولا يدعو الى المادية الخالصة ، ولكنه يقيم منهجه على مثل جامع بين الدين والدنيا ، والبعد عن النفعية والرهبانية على السواء.

ويستمد الإسلام مفهوم التكامل من الكائن الحيّ نفسه ، فالإنسان يخضع لقانون واحد ، وجميع الوظائف الكيماوية والعضويّة والعصبية تعمل بالتعاون ، والجسم والروح والنفس كلّها تشكل قوة متكاملة .

والفكر الإسلامي لا يفصل بين الديني والدنيوي ، ولا بين الزمني والمطلق ، والقيم الروحية فيه مرتبطة بالقيم المادية متجاوبة معها .

خامساً : ومن هذا المنطلق يرى الإسلام أن الحياة في حركة تطوّر ، ولكنّها تجري في إطار ثابت وهو ليس دائماً يعني الإرتقاء والتقدم وإنّما هو حركة دائبة بين الانتكاس والجمود وبين التقدم والنمو.

ولا يعلي الإسلام العقل إعلاء السيادة الكاملة ، ولكنه يعرف له دوره ووظيفته ، فالعقل ليس مستقلاً بالإحاطة بجميع المطالب ولا كاشفاً للغطاء في جميع المعضلات .

ولا بد له من مساعد من الوجدان والقلب ، ولا بد أن يتحرك في إطار القيم الأساسية التي جاء بها الدين الحق ، وهو يتكامل مع الوحي في إعطاء مفهوم جامع .

سادساً : يقرر الفكر الاسلامي الترابط بين الماضي والحاضر والمستقبل ، فهي حلقات متتابعة يسلم كل منها الى ما بعده ، ولذلك فهو يرى أن التجديد في الأدب كالتجديد في العلم لا يمكن أن يقوم إلّا على أساس تعاون الماضي والحاضر ، فالعقل في حاضره ينبني على ما أسّس عليه العقل في ماضيه .

سابعاً : في الفكر الاسلامي نقطة بدء هي في نفس الوقت إطار كامل للتحرك ،

ذلك هو القرآن الكريم ، فهو في مجال الأدب النموذج الخالد الذي سيبقى أبداً قمّة البيان ، لأنّه من عند الله الحكيم الخبير ، ومن هنا فإنّه من المستحيل أن يظهر عمل من صنع الإنسان يفوقه بيانا .

واللغة العربية مرتبطة بالقرآن ارتباطاً جذرياً ، فلا لغة عربية بدون القرآن الذي حافظ على وجودها وصفاتها .

وللإسلام عدتان : الأولى ان تحرك الفكر الإسلامي — والأدب العربي جزء منه — يجري في إطار القرآن . والثانية : أن القرآن أصول عامة تركت التفصيلات اللازمة للأجيال والبيئات المختلفة .

ثامناً : حين يقرّر الفكر الاسلامي وحدة البشرية يعارض قاعدة من أبرز قواعد الفكر الغربي ذات الأثر البعيد في أدبه وانتاجه ؛ تلك هي الادعاء بان الإنسان الأبيض هو تاج الخليقة الذي لا يغلب في أي صراع .

تاسعاً : يقف الفكر الإسلامي من الفكر الغربي موقف الحذر في مسائل كثيرة ، منها اعتقاد الغرب بالزعامة العالمية التي تجعله يعتقد أن فكرة مبادىء زاهية على العالم أن يقبلها بلا تردّد هذا بالاضافة إلى طابع الاستعلاء والإدعاء بأن ممدن الشعوب ؛ وهي دعوة باطلة يطلقها في سبيل تبرير استعماره للبلاد المختلفة ، وكذلك معتقده القائم على اعتبار القوة أساس الحضارة وأنها هي بديلة الحق .

وتتصل بهذا ظاهرة الغبن بالحقوق وعدم الاعتراف بفضل الحضارة والثقافة الإسلاميتين بالرغم من عمق دورها في الفكر الغربي وخاصة في بناء المنهج التجريبي ، ومن هنا تتمثل المحاولة الدائبة لإنكار هذا الأثر في تجاوز طوابع الإسلام بعد استخلاص عصارته وإضافتها الى الفكر الغربي والانتفاع بكل ما قدمه الإسلام للبشرية ، ليس في مجال العلم وحده ولكن في مجال الإنسانيات دون نسبة ذلك إليه .

ثم الادعاء بأن الحضارة البشرية هي الحضارة الغربية وحدها بدءاً بحضارة اليونان وقفزاً إلى الحضارة الحديثة مع تجاهل فترة ألف عام كاملة بينهما .

ومن ذلك أيضاً ذلك الإتّجاه البارز في علوم الغرب ، وهي علوم ليست خالصة للعلم ، وليست معمّمة للبشرية كلّها ، ولكنّها تخضع لروح الاستعمار وتقوم على إقرار الحرّيّات والأخلاق لأهلها وحدهم ، ولا تطبق ذلك خارج بلادها . بينما يجعل الإسلام معطياته خالصة للبشريّة كلّها ، ولا يخضعها لأيّ هدف أو غرض. ولقد كشفت الأبحاث أنّ المستشرقين يعدّون أحكاماً مسبقة على مسائل العلم ، ثم يبحثون عن النصوص لتأييدها ، وأنّهم لا يتّخذون منهج الباحث المنصف الذي يرغب في الوصول إلى الحقيقة.

ويضاف إلى هذا تلك الصيحة التي تقوم على التعصّب ، والتي تعلن أنّ أوروبا لا تقبل مزاحمة المسلمين والإسلام لها ، ومنها حركات التصفية في الأندلس والبلقان والقرم. وذلك بالإضافة الى صيحة أخرى أشدّ تعصّباً تقول بإخراج المسلمين والعرب من ميراث الدولة الرومانية القديمة.

عاشراً : ومن هنا تبدو الفوارق بين الفكر الإسلامي والفكر الغربي عميقة وجذريّة وبعيدة الأثر في كل المعطيات الأدبيّة والاجتماعيّة والفنيّة ، فالفكر الإسلامي لا يعتمد التفسير المادي للتاريخ لأنه منهج يستمدّ وجوده من الفلسفة الماديّة ولذلك فهو عاجز عن أن يحيط بجوانب المعنويات المستمدّة من الأديان والعقائد وهي بعيدة الأثر في تفسير التاريخ.

كما أنّه يرى أنّ للعلوم التجريبيّة مناهج يختلف البحث فيها اختلافاً عميقاً عن المناهج المتّصلة بالنفس والأخلاق والمجتمع والإنسانيات كلّها ، وأنّ الإنسان القائم على روح ومادة لا يمكن أن يحاكم بمناهج العلوم الماديّة الصرفة أو تطبّق عليه تجارب الحيوان والحشرات.

حادي عشر: إذا كان الخلاف بين الفكرين الإسلامي والغربي واضحاً في العقائد والثقافة ومناهج البحث ، فإنّ الخلاف في الطبيعة الجغرافيّة بين أرض الإسلام وأرض الغرب أشدّ وضوحاً ، فهناك الجبال والغيوم والعواصف والليل البهيم المرتبط بالأساطير والرمزيّة ومفاهيم الظلال والأضواء، بينما الطبيعة في العالم

الإسلامي هي الطبيعة المشرقة المضيئة التي ينتشر فيها النور والشمس والضوء فتكشف الأفق تماماً . ومن هنا عجزت الأساطير والرمزيّات وأدب الظلال أن تجد لها مكاناً .

ثاني عشر: في حدود مفاهيم الفكر الإسلامي وقيمه لا تقر مفهوم الثقافة العالميّة التي تخفي أكبر عناصر التعصّب والاحتقار للثقافات البشريّة غير الغربيّة ، والتي تعني في الحقيقة سيادة الثقافة الغربيّة وحضارة الغرب وسيطرتها على ثقافات الأمم ، ولاسيما الثقافة العربية والفكر الإسلامي .

ثالث عشر: إنّ من أدقّ الفوارق وأبعدها أثراً بين الفكر الإسلامي والفكر الغربي ـ مما له أبعد الأثر في التباين بين الأدبين ـ هو التوحيد الخالص والقانون الأخلاقي والإيمان بالجزاء والغيب ، وهي قيم لا يعترف بها الفكر الغربي في العصر الحديث على الأقل .

ومن هنا نقول : نعم : في العالم ثقافتان إسلاميّة وغير إسلاميّة ، كلّ لها خصائصها ذات الأثر البعيد في تشكيل الأدب والفكر بحيث لا يمكن أن يلتقيا في إطار واحد وإن أمكن أن يتعاونا في الأصول الجامعة .

رابع عشر: هناك خلاف بين أدب يطبعه إيمانٌ بالله وأدب يطبعه تحدٍّ للطبيعة ، وأدب يصدر عن نفس مشرقة ، تعيش في جو صحو ، تحت ضوء الشمس الساطعة ، وأدب يصدر عن نفس يغلبها خوف ظلمة الليل والجبال العالية ، وتعيش في النهار بين الضباب والسحب والرعد والمطر ، وذلك كلّه له أثره على النفس الإنسانيّة وعلى التعبير. أمّا النفس العربية ، ففيها الوضوح والصراحة والإشراق ، وفيها العبارة الصريحة المضيئة كالنهار المشرق ، وفي الأدب الغربي ذلك اللون من الظلال والضباب .

ومن هنا يجيء اختلاف المشاعر ، وإختلاف في الأزمات النفسيّة ، والمشاكل والتحدّيات التي تتّصل بالنفس والقلب والوجدان .

وبالجملة فإنّ الأدب العربي يصدر عن التوحيد والأدب الأوروبّي يصدر عن

جماع من تراث الوثنيّة اليونانيّة والمسيحيّة الغربيّة والروح الرومانيّة التي طبعتها مفاهيم مختلفة كلّ الإختلاف عن المفاهيم التي طبع بها القرآن والإسلام الأمّة العربيّة.

ومن هنا يبدو مدى الخطر في تطبيق قوانين النقد والأدب الغربي على الأدب العربي، ومحاكمة هذا الأدب بنظريّات وضعت لأدب له طابعه وذاتيته ومزاجه النفسي المختلف بل المتباين أحياناً في كثير من المواقف والأحوال.

خامس عشر: لا ريب أنّ وجوه الخلاف والتباين العميق بين الفكر العربي الإسلامي وبين الفكر الغربي له أبعد الأثر في مفهوم الأدبين، فضلاً عن بروز طابع التجزئة في الفكر الغربي الأوروبّي وسيطرة طابع التكامل في الفكر العربي الإسلامي.

إنّ أبرز طوابع الفكر الغربي تتمثّل في تجزئة الأمور لا في تكاملها، فهي تفهم شيئاً واحداً وترى الآخر عكسه أو ضدّه، وهي تفصل بين الأشياء فصل العداوة أو المخالفة أو التعارض، ولا تستطيع أن تقبل المواءمة أو المصالحة أو الإلتقاء أو التكامل على النحو الذي يكاد يكون طبيعة واضحة للفكر العربي الإسلامي. فهي تقبل العلم وترفض الدين وتراه معارضاً تماماً، أو تقبل المادة وترفض الروح، أو تقبل المحسوس وترفض الغيبيّات، بينما يستطيع الفكر العربي الإسلامي أن يزاوج ويربط ويجمع بينهما[1] فبينما يرى الغرب أن هناك ثقافتين: علميّة وأدبيّة يرى الفكر الإسلامي أنّهما شقّان لثقافة واحدة: ثقافة القلب وثقافة العقل فهما يتكاملان معاً حيث يجمعهما الفكر الإسلامي كجناحين له. ولا شك أنّ أثر هذه النظرة في الأدبين العربي والغربي بعيدة المدى، ومن العسير في ظلّها أن يلتقي الأدبان على قوانين واحدة او نظريّة نقد واحدة.

سابع عشر: ذلك أنّ الأدب الأوروبّي يستمد مقوماته من الأدب اليوناني الهلّليني الاغريقي الذي يقوم على عناصر ثلاثة أساسيّة كان لها أبعد الأثر في الأدب الأوروبّي الحديث.

---

(١) أحمد الجنابي: دراسة من التاريخ الإسلامي.

(١) الوثنية. (٢) الأدب الحسّي الصريح. (٣) العبوديّة.

والمعروف أن سقراط قد طبع الأدب اليوناني والفكر الهلّليني بطابع الإباحة، كما حرص أفلاطون ومن بعده سقراط على توطيد العبوديّة وإعلاء شأن النخبة المفكّرة التي تقوم مقام السيادة وجعل بينها وبين الناس مفهوم العبيد فاصلاً عميقاً لا يستطيع أحد اقتحامه.

ثامن عشر: من الخلافات الجذريّة بين الأدب العربي والآداب الأوروبيّة. تلك العلاقة الوثيقة بين الإسلام والعروبة، بمعنى التقاء الرابطة الفكريّة مع الرابطة القوميّة، أمّا في الأدب العربي فإنّ طابع القوميّة يغلب كلّ الروابط، بل ويحطّم كلّ الروابط.

وفي الأدب فالإسلام تبرز العروبة وهي جزء من الإسلام، بل هي نتاج الإسلام. «فالإسلام هو الحركة التي جمعت العرب كلّهم على إيمان واحد، ولولا الإسلام لبقي العرب في جزيرتهم قبائل متفرّقة لا قدر لها في تاريخ الحضارة الإنسانيّة، فللإسلام على العرب فضل توحيدهم في معارج الحضارة وفي الحياة الإنسانيّة. إنّ العرب توحّدوا بالإسلام وإنّ الإسلام جعل منهم قوة عالميّة حاملة للواء الحضارة»[1].

تاسع عشر: إنّ الأدب العربي يمرّ اليوم بمرحلة يقظة وترشيد بالغة الأثر، فهو يعمل على تحطيم القيود التي كبّلتهُ بالتقليد، أو قيّدتهُ بالتبعيّة، ولذلك فهو يريد نظريّة عربيّة أصيلة في كلّ مجال، في مجال الأدب، وفي مجال الفكر، وفي مجال القوميّة، وفي مجال الحضارة.

---

(١) الدكتور عمر فروخ: القومية والفصحى.

والمثقّفون العرب الآن يتجاوزون سَارْتْر وفرويْد ومَارْكس وطه حسين وساطع الحصري وسلامة موسى وغيرهم إلى «الأصالة» المفتوحة على التجدد، وقد اصبحت مجاهرهم قادرة على فحص الأفكار الزائفة والعقائد الزائغة وإزاحتها من طريقهم: طريق تعرف ذاتهم ومزاجهم النفسي، وأصالتهم وتراثهم، وبناء مناهجهم على الإسلام في مختلف المجالات استمداداً وترابطاً وفوق الأساس.

* * * *

# الفصل السادس

## التحدّيات التي واجهت الأدب العربي في مساره الطويل

لا ريب أنّ الأدب العربي قد بدأ طريقه بعد ظهور الإسلام على نهج الأصول التي استمدّها من الفكر الإسلامي ، نبراساً لرسالة كبرى إلى العالمين تقوم على الإيمان بالله والبعث والالتزام الأخلاقي والمسؤوليّة الفرديّة والتكامل وترابط القيم.

غير أنّه لم يلبث أن أصابه انحراف دفعه عن طريقه الصحيح ، إذ سقط صريع النزعة الفارسيّة القديمة ، وتأثّر تأثّراً كبيراً بالفلسفة اليونانيّة وما طرحته على الفكر الإسلامي من نزعات الإلحاد والإباحة والتحلّل والوثنيّة.

هذه المرحلة التي اتّجه فيها الشعر إلى الخمريّات والغزل المكشوف ، واتّجه فيها النثر إلى السجع والزخرف ، لقد كانت بلا ريب أثراً من آثار هذه التبعية التي تأثّر بها الفكر الإسلامي والتي حاولت أن تسيطر عليه في القرن الثالث الهجري ، والتي رسمت دائرة خطرة لم يكن الأدب العربي خلالها ممثلاً لفكره وطابعه ومنهجه ومزاج أمّته وروحها.

وقد جاء هذا الإنحراف نتيجة لآثار حركة الشعوبيّة التي حاولت إحتواء الأدب العربي ، وعزله عن مصادره الأصيلة من القرآن والنفس العربيّة الإسلاميّة ذات الطابع الإنساني الأمثل ، وقد انحرف الأدب العربي في مجال الشعر حينما أخرجه الشعراء الفرس الذين تأثّروا بالمجوسيّة من أمثال بشّار بن برد وأبي نوّاس وغيرهما ،

حين أخرجوه من مفهومه الأصيل الى الانحراف نحو الغزل الحسّي والخمريات والغلمانيات وهو تيار بدا غريباً ودخيلاً مدموغاً بالاتهام.

ثم انحرف في مجال النثر حين انحرف إلى السجع والمحسنات البديعيّة والمقامات. وهي في تقدير المؤرّخين ليست ظاهرة أصيلة للأدب العربي، كما حاول بعض الأدباء أن يضعها موضع المقياس الذي يعيش عليه عصر بأكمله او قرن بطوله، ولكنّها كما يصفها الباحثون (فورة) تأجّجت ثم هدأت؛ ذلك لأنّها لم تكن من طبيعة الأدب العربي ولا من مزاجه الأصيل. وسرعان ما طواها طابع الأصالة حين جاء أبو تمّام الذي تألّق بعد وفاة أبي نوّاس. ولا تكاد تزيد فترة ظهور بشار الذي توفّيَ عام ١٦٨ هجريّة وأبي نوّاس الذي توفّي عام ١٩٨ عن خمسين عاماً جاء بعدها أبو تمّام.

وقد صوّر الدكتور أحمد هيكل هذه الأزمة وكيف تغلّب عليها الأدب العربي يقول: إنَّ الفورة التي تأجّجت أيّام أبي نوّاس هدأت في أيّام أبي تمّام بعد أن زالت الفاشية عن النفس العربيّة، وبعد أن انكشفت الغشاوة عن المجتمع العربي. فقد تجاوز مرحلة الانهيار بها إلى تأمّلها ونقدها واختيار الصالح منها، وحينئذ عاد الشعر العربي مع أبي تمّام وجيله إلى أصالته، ورفض كثيراً ممّا أصابه أو فرض عليه أيام الفورة ممّا يتنافى مع الطبع العربي والقيَم العربيّة فاختفى شعر الشعوبيّة والاستخفاف بالعروبة، وتقلّص شعر المجون والزندقة، حتى لم يعد له مكان، ودرست ظاهرة افتتاح القصائد على طريقة ابي نواس تقريباً، وعاد منهج القصيدة العربيّة الجادة إلى الظهور كردّ فعل لتصرّف أبي نوّاس وأصحابه. وقد بلغ اتّجاه أبي تمّام ذروته مع أبي الطيّب المتنبّي، حتى يمكن أن يعتبر هذا الشاعر الكبير أعظم من مثله قيمة[1].

* * * *

(١) من بحثه عن الاصالة في الشعر العربي.

وكذلك كان الموقف بالنسبة لأزمة السجع التي طغت نتيجة سيطرة الشعوبيّة ، فقد حمل لواء السجع أبو الفضل بن العميد والصاحب بن عباد وكانا حافظي ألفاظ وجامعي دواوين وقد نقلا إلى العربيّة تعقيد الفكر الفارسي القديم وسطحيّته ، وقد انحرفت القصة في أيديهما انحرافاً عطّل نُموّها السريع ، وأضرّ بروحها الأصيل وكانت كتابات ابن العميد والصاحب بن عباد ألفاظاً مرصوصة جامدة . ثم جاءت على أثر ذلك مرحلة المقامات : بديع الزمان والحريري وكان لهذا أثره في التحوّل من النثر المطلق السلس إلى التزام السجع ، وان ظلّ الكتاب والعلماء والمفكّرون الموضوعيون أمثال الغزالي وابن حزم وابن خلدون من بعد بنجوة من هذا الانحراف.

وقد نبّى ابن تيمية : تكلف الاسجاع والأوزان ممّا لم يكن (دأب كتاب العصر الإسلامي الأول) وكانت العناية بزخرف اللفظ انحرافاً عن مفهوم الفكر العربي الإسلامي وقيمه الأساسيّة المتسمة بالموضوعيّة وتبليغ المعنى بأوضح أسلوب.

ولم يلبث النثر العربي أن تجاوز هذه الموجة وتغلّب عليها وعاد كرّة أخرى إلى طابعه الأصيل.

* * * *

ومرّة اخرى واجه الأدب العربي مثل هذا التحدي في العصر الجديث حين جرت المحاولات لإخراجه عن طبيعته أوّلاً بمحاكمته إلى مذهب النقد الوافد الذي قد انتجه الأدب الغربي الذي يتباين معه منهجاً ومضموناً . وثانياً : بتغليب الأنواع الأدبية التي لا تتّفق مع طبعه كالأدب المكشوف وأسلوب الشكّ وتغليب العامية وآداب المهجر ، ثم تمثّلت آخر التحدّيات في طابع الرموز والرفض . وكان للترجمة أثرها العميق في اثارة عديد من الشبهات التي تتعارض مع طابع الأدب العربي ومزاجه النفسي والاجتماعي وذلك على النحو الذي تكشف عنه الفصول التالية .

# الباب الثاني

## مذاهب النقد الأدبي

أوّلاً : مذاهب تاريخ الأدب.

ثانياً : مذاهب النقد الأدبي.

ثالثاً : فساد نظريات النقد الأدبي الوافدة.

# الفصل الأوّل

## مذاهب تاريخ الأدب

إنّ أخطر ما واجه نقّاد الأدب في العصر الحديث في نظرتهم إلى الأدب العربي هو: أنّهم تحرّكوا من داخل «نظرية الأدب الأوربي ومفاهيمه ومقوّماته».

هذه النظرية التي درسوها سواء في كتب النقّاد الانجليز كهازلت وماكولي وغيرهما، أم التي درسوها في جامعات فرنسا وغيرها وفق آراء سانت بيف وتين، وكلا النوعين من النظريات الفرنسية والانجليزيّة إنّما قامت على أساس أدب موجود فعلاً هو الأدب الفرنسي والأدب الانجليزي؛ ذلك أن قوانين النقد ودراساته لا توضع قبل وجود الأدب نفسه، وإنّما تستخرج من النصوص الأدبية والنتاج الأدبي نفسه.

ولقد كان نقل هذه النظريات من الآداب الأوروبيّة لتطبيقها على الأدب العربي أمراً خطيراً يحمل الكثير من وجوه التعارض الطبيعي والعقلي بين العصور والبيئات، وقد حدث هذا بالنسبة للفلسفة وبالنسبة لدراسات الاجتماع والاقتصاد والسياسة والتربية، وكان معروفاً ان الإجراء نفسه ليس طبيعياً، وان عوامل ضخمة وخطيرة كانت تضغط لتفرض هذه التيارات، وأهم هذه العوامل هو ما تستهدفه حركة التغريب والغزو الثقافي من تذويب الأدب العربي في أتون الفكر الأوربي الكبير، وتدمير وجوده الذاتي وملامحه الخاصة ومزاجه الأصيل الذي استمدّه من بيئته وتراثه وفكره خلال خمسة عشر قرناً.

ولقد جرى نقاد الأدب وكتابه مع التيار الذي طواهم جميعاً ووضعهم داخل إطار النظرية الأدبية الاوروبية ، التي حاولت ان تكون مصدراً لصياغة الأدب الحديث ، فضلاً عن اصدار الأحكام بالنسبة للأدب العربي في مختلف مراحله السابقة للعصر الحديث.

ولقد كان بعض الكتّاب يرون أنّ هذه المناهج الحديثة من شأنها أن توجد نهضة أدبيّة حقيقية ، وكانوا يرون ذلك بصدق وبحسن نيّة . ولكن بعض الكتّاب الآخرين كانوا يعلمون الهدف الخطير الكامن وراء الدعوة ، ويتحرّكون من أجل تحقيقه وإبلاغه غايته من إفساد ذاتيّة الأدب العربي ، وتصوير الأدب العربي كلّه في مختلف العصور بصورة مضطربة ، ورميه بمختلف صور القصور والفساد والانهزاميّة والسلبية ، وذلك من خلال اختيار نصوص معيّنة ، أو مصادر معيّنة أو شعراء وأُدَباء معيّنين ، ثم يجري من خلال هذه النصوص والمصادر إصدار الأحكام العامة الشاملة على عصور بكاملها واتهامها بأنّها كانت عصور شكّ ومجون كما حدث ذلك تماماً حين أصدر الدكتور طه حسين مثل هذا الحكم على القرن الثاني الهجري وكانت مصادره هي كتاب الأغاني ، ونصوصه هي شعر الإباحيّة ، وفي مقدّمتهم أبو نوّاس وبشّار.

ولقد كان هذا المنهج الغربي المسعورد غريباً على الأدب العربي ، ولم يكن صادقاً في الحكم عليه ، وكانت قوانينه مختلفة تماماً مع جوهر مفاهيمنا بالنسبة للأدب ، ولذلك فقد أخرج هذا المنهج من الأدب كل ما عظم من تراث هذه الأمة وفكرها وأدبها ونثرها ، وركّز كثيراً على الشعر الذي كان الإسلام قد خفّف من مكانته وقلّل من أهميّته ، وفرض منهجه القرآني البياني بديلاً له بعد الإسلام ، حتى يمكن القول بأنّ حركته التي اتّسعت في العصرين الأموي والعبّاسي كانت خارجة عن مفاهيم الفكر الإسلامي واصالة الأدب العربي ؛ حين عاود النظم في إباحيّات الجاهلية وغرورها ومدائحها وأهاجيها وفخرياتها ممّا لا يتّصل بالنفس العربية التي بناها الإسلام وصاغ لها كيانها وذاتيتها ، والذي كان يصدر أساساً عن الإضافات المضلّلة التي أدخلتها الشعوبية الفارسية من تراث ساسان ومجوس ، او من تراث الهنود واليونان وغيرهما من صور وقيم هدمها الإسلام وسحقها وداسها بقدمه.

ومن عجب أنّ مناهج الأدب الحديث حين تهتم بمثل شعر أبي نواس والأخطل وبشّار وتعني بنثر عبد الحميد وابن المقفّع والصابي وابن العميد والخوارزمي والهمذاني وأبي العلاء تتجاهل في غباء شديد، وتغضي في قصد بالغ عن كتابات أساطير الفكر الإسلامي من أمثال: ابن حزم والغزالي وابن تيمية وابن خلدون والماوردي وغيرهم، وترى أن ذلك يدخل في فنون الفقه أو الفلسفة أو الكلام، وكأنّها ليست من الأدب الخالص.

بل أن تقسيم الأدب إلى عصور: أموي وعبّاسي وغيرهما هو تقسيم أجنبي ظالم، فضلاً عن وصف عصري المماليك والدولة العثمانيّة باسم (عصر الإنحطاط) بينما يحمل هذا العصر عصارة ثمرات تطوّر الأدب العربي والفكر الإسلامي ممّا يجعله خليقاً بأن يسمّى عصر الموسوعات.

ولا شك أن هذه الأسماء قد أطلقها المستشرقون ومن تابعهم من دعاة التغريب رغبة في تدمير مقومات الأدب العربي ووصمه بالضعف والتخلّف.

ولولا سيطرة مفاهيم الأدب الغربي الوافد لأمكن أن يترابط الأدب العربي في وحدة لها طابعها الأصيل المستمد من جوهره، والذي يختلف كثيراً عن التقسيم الذي طبَّقته فرنسا وانجلترا وألمانيا حين انفصلت بآدابها عن اللاتينيّة. بينما يمثّل الأدب العربي في العالم العربي وحدة متّصلة مترابطة منذ ظهور الإسلام إلى اليوم، بحيث أن كلّ خطوة فيه هي نتيجة لما سبقها ومقدّمة لما بعدها، دون أن نجد بين هذه المراحل ثمة انفصام أو توقّف أو انفصال.

ومن هنا نصل إلى الحقائق الآتية: أوّلاً: لا سبيل الى فصل حركة الأدب العربي منذ ظهور الإسلام إلى اليوم.

ثانياً: لا سبيل إلى فصل الأدب العربي عن قطاعات الفكر الإسلامي المختلفة كالاجتماع والاقتصاد والسياسة والعقائد والأخلاق، فهي تشكّل بمجموعها وحدة متكاملة.

ثالثاً: محاولة فصل الأدب العربي عن ماضيه أو فصله عن الفكر الإسلامي انّما هي ثمرة منهج دخيل لا يقرّه الفكر الإسلامي المؤمن بالترابط زمنياً. والتكامل مع قطاعات الفكر المختلفة.

(٢)

من أهم الموضوعات التي استأثرت بها مناهج الغرب وفرضت عليها نفوذها وأخضعتها لقوانينها وأساليبها.

أوّلاً: تاريخ الأدب العربي.

ثانياً: نقد الأدب.

أمّا بالنسبة للأدب العربي فقد جرى النظر الى الأدب العربي على أنّه أدب إقليمي يخص قطراً من بلاد العرب ودون قطر آخر، وقد حرص العاملون في هذا المجال أن يفرضوا أمرين:

(أوّلاً) منهج مستعار مستورد يقسم الأدب العربي إلى عصور.

(ثانياً) منهج شعوبي وافد يرمي إلى تقسيم الأدب إلى أقاليم.

ويمكن القول بأن هذه المناهج إذا كانت قد وافقت الوحدات الأوربية الصغيرة فإنّها لا تتفق مع طبيعة الأدب العربي ولا مع طبيعة الأمة العربية الواحدة؛ وإن تعدّدت أفكارها نتيجة لما فرضه الإستعمار عليها من تقسيم سياسي استعماري.

وقد ثبت حتى الآن فشل منهج العصور في الأدب العربي، وانتهت التجارب التي جرت في تطبيقه إلى الإخفاق[1] في ابراز قسماته الدقيقة ورسم صورته الصحيحة.

(١) محمد بهجت الاثرى: الى خط سير جديد في تدوين الأدب العربي.

أمّا بالنسبة للإقليمية ، فإن ذلك أيضاً في الآداب الأوربية طبيعي ومتقبّل ، ولكنّه غريب على الأدب العربي ، ففي اللغات الانجليزية والفرنسية والألمانية والأسبانية عوامل كثيرة تعمل عملها اضطراراً على إنشاء الآداب الإقليمية ، وهي عوامل لا نظير لها في بلادنا ولا وجه على الإطلاق للمقارنة بينها وبين عوامل الإتّفاق والاختلاف التي نراها في بلادها[١] .

فضلاً عن أنّ تلك الإقليمية الأوربية الغالية المصرّة على كيانها الخاص ، وما يترتّب عليه من أثر في كتابة تاريخ الأدب الفرنسي أو الألماني أو الإنجليزي أو الإيطالي وفق منهج العصور ، أو وفق روح الإقليمية ، نقول ان تلك الإقليمية توجد اضطراراً ويعترف بها أهلها ويحاولون القضاء عليها.

ومن هنا فإن كتابة تاريخ الأدب العربي على أساس العصور والاقليمية ، انّما هو متابعة خطيرة نظراً لاختلاف العوامل السياسية والاجتماعية ، بل ولاختلاف العصور والبيئات . ولقد كشفت السنوات المتولّية خلال نصف القرن الماضي عن فشل هذا الأسلوب واخفاقه . ودعت التجارب إلى اطراحه والتماس منهج آخر ، يكون أكثر أصالة وأبعد عن عوامل التغريب التي فرضت تمزيق وحدة الأدب العربي ، والحيلولة دون التقاء جوانبه كممثل لأمة عربية واحدة ، وليس كأدب مصري وسوري وعراقي ومغربي ، وتلك هي غاية الاحتلال والغزو الثقافي من تأكيد الاقليمية ؛ هذا فضلاً عن فشل التقسيم إلى عصور ، وهي محاولة أخرى لعزل الأدب العربي الحديث والمعاصر عن الأدب العربي القديم وإقامة الأدب الحديث على نحو يخرجه من طابع الأدب العربي وذاتيّته ومزاجه النفسي[٢] .

وإذا كانت الفنون المختلفة من الفكر والثقافة الغربية قد استطاعت أن تسترد شخصيتها ووجودها الحقيقي ، بعد أن مرّت بمرحلة الترجمة وأسر النفوذ الأجنبي الفكري لها ، فإنّه قد آن الأوان لأن يستطيع الأدب العربي ذلك .

---

(١) عباس محمود العقاد : يوميات.

(٢) يراجع مما يتصل بذلك فيما كتبه الدكتور محمد محمد حسين (مجلة الازهر ١٩٥٧)

ولقد توالت الصيحات في السنوات الأخيرة تدعو إلى ذلك وتصرّ عليه، وتحدث أكثر من عالِم ومُفكّر وأديب، داعياً إلى تحرير الأدب العربي من قيوده ومن السلاسل والأغلال التي كبّله بها أُدباء التمسوا مذاهب الغرب، منهم مَن التمسها بحسن نيّة، ومنهم من كان في الدعوة إليها وتركيزها والعمل لها تابعاً للنفوذ الأجنبي، وللغزو الثقافي ووليًّا للثقافات الغربية وهو لها صاحب ولاء وتبعية.

وإذا كانت الدعوة الى إيقاظ الأدب العربي كانت تحمل لواء الخروج من الخضوع لمذاهب القدماء فلماذا يكون المقابل لذلك هو الخضوع لمذاهب الغير؟ ولماذا إذا كنّا صادقين حقاً في تحرير الأدب العربي ومنحه ذاتيته، وجوهره، وطابعه ومزاجه النفسي، لماذا نأخذ ما وضعه الغربيون من مناهج وفق أذواقهم وبيئاتهم وظروفهم السياسية والاجتماعية ليدرسوا عليها أدبهم؟ لماذا نأخذها أخذاً أعمى؟ دون تقدير لأي عامل من عوامل الاختلاف في الزمن أو البيئة أو العصر أو الذوق وكلّها عوامل تحكم بالتباين بين أدب وأدب، وبالتالي بين مناهج تاريخ أدب وتاريخ أدب، ذلك لأن هذه المناهج إنمّا استمدّت وجودها أساساً، ونبعت من الآداب نفسها وعلى ضوء المادة الأدبية لها، ان خطأنا هو أنّنا تابعنا هؤلاء الدعاة الغربيين دون أن نتبين جوهر أهدافهم، وما تخفي صدورهم من غايات، فمضينا وراءهم وقد أغرتنا اسماؤهم اللامعة ودرجاتهم الرفيعة وبالرغم مما أُثيرَ حولهم من شبهات وما كَشفت الأحداث لهم من مواقف، فقد والينا المتابعة الخاصة التي أرادوا بها إغراقنا في الأممية الفكرية والعالمية الأدبية.

لقد أخذ المفكّرون ما قاله الغربيون دون أن يفكّروا في صلاحه لنا أو خطئه، ومنهم من أخذ ما قاله الغربيون باطمئنان وثقة، ومنهم من رآه أكثر قداسة، وإذا كان يعاب على أدبنا أنه جمد على مذاهب القدماء وهم منا ومن ذوقنا، فأي عذر لنا لنقبل ما يفرضه علينا من مناهج أنشأها الغربيون على مقاييس أدبهم وقدود فنونهم؟ وكيف نقبل منهم ما ليس مطابقاً لأذواقنا وبيئاتنا؟

ولماذا نكون تابعين لمدارس معيّنة في الفكر والأدب والشعر، ولا تكون لنا نظريتنا العربية الأصيلة ومدارسنا المبتكرة القائمة على أسس من قيمنا؟ لماذا نتأقلم نحن لنظريات الآخرين ولا نمتصُّ أساليب الآخرين ونخلق مذهبنا ونظريتنا الخاصة والى متى نظلّ على هذا الولاء لمذاهب الغرب في دراسة الأدب العربي؟ هذه المذاهب التي أفسدت نظرتنا ولم تستطع أن تمنحنا أصالة فكرنا، والتي كانت تستهدف — وما زالت — عزلنا في العصر الحديث عن أدبنا القديم كله وازدرائه، وإقامة مفاهيم أدبنا الحديث وفق مناهج غربية خالصة وذلك حتى تذوب في البوتقة العالمية، وتنصهر في أتون الأممية التي تأكل الأمم وتقضي على كياناتها الخاصة.

ولربّما يكون للمذاهب الأدبية أوجه خلاف ولقاء بين اللغات الفرنسية والإنجليزية والألمانية والإيطالية، أو حتى بينها وبين اللغات الهندية، والصينية، واليابانية. فإن ذلك كلّه لا يعني إلّا شيئاً واحداً، هو ان الأدب العربي من أرومة مختلفة، وقد كوّنته عوامل عميقة الأثر في اختلاف مناهجه عن هذه الآداب مجتمعة أو متفرقة.

وان انتساب الأدب العربي الى الإسلام والقرآن وحده كفيل بأن يقيم له ذاتية خاصة ومنهجاً خاصاً.

ومن ناحية أخرى وفيما يتعلّق بتاريخ الأدب وتقسيمه الى عصور، فإنّ الأدب العربي يختلف عن الأدب الفرنسي، او الايطالي، او الانجليزي، او الأمريكي بأنه أدب اللّغة العربية العريقة التي قامت قبل سبعة عشر قرناً، والتي غذاها القرآن بأضخم إضافة لغوية وفكرية في تاريخها كلّها. وأن هذا الأدب قد انتشر واتّسع مع انتشار الإسلام حتى ترامت بيئته من جنوب فرنسا الى تخوم الصين، ومن حدود تركيا الى اليمن وحضرموت. وأنه قد جمع اليه عقليات الفرس والترك والبربر والعرب جميعها، حيث تشاركت فيه هذه القاعدة العريضة للأدب العربي. إنّما يفسدها هذا المنهج الذي يقسم التاريخ الى عصور، فإذا أضفنا إليها طبيعة هذا الأدب نفسه وارتباطه بالبيئة الواسعة، وبالأسلوب القرآني، وبمفاهيم التوحيد والأخوة والعدل

الاجتماعي التي أعطاها إليه الإسلام ، بدا واضحاً أن نتاجه جد مختلف ، وغير صالح إطلاقاً ليطبق عليه منهج غربي ، قام أساساً على أدب أقليمي ضيّق ، في فرنسا ، او بريطانيا ، او ايطاليا ، واستأثر بفترة لا تزيد عن أربعمائة عام ، واستمدّ مقوّماته من مفاهيم قوامها الأدب الاغريقي الوثني ، والقوانين الرومانية الارستقراطية المستعلية باسم السيادة الرومية وعبودية ما حول روما ، وبمفاهيم المسيحية الغربية التي أخرجها الغربيون عن سماحتها وجوهرها واضافوا اليها إطارات وطوابع من الفكر اليوناني القديم ، كل هذا يشكّل فوارق بعيدة تصل بنا الى اليقين بأنّه من العسير صلاحية مناهج الأدب الأوربي للتطبيق على الأدب العربي[1] .

* * * *

وأهم ما يوجه إلى منهج تقسيم العصور من اتهامات تدمغه بالضعف ، وتباعد بينه وبين استيعاب الأدب العربي أو الاستجابة له أنه :

(أوّلاً) يوائم طبيعة الآداب الأوربية عامة بوحداتها المتعدّدة والصغيرة وانفصال كل واحدة منها عن الأخرى انفصالاً سياسياً وتاريخياً وانفصالاً لغوياً وأدبياً من حيث استقلال كل منها بلغتها[2] الخاصة وأدبها الخاص ضمن حدودها الضيّقة ، وذلك بينما يواجه الأدب العربي مساحة ضخمة تشمل عدداً من الأقطار في قارّتين واسعتين.

(ثانياً) قرب المساحة الزمنية التي يتحرك فيها هذا الأدب الأوربي ، وهي في مجموعها لا تزيد عن خمسة قرون ، أي منذ عهد النهضة ونشأة اللغات المستحدثة المنفصلة عن اللّغة اللّاتينية.

وهذه الخمسة القرون وحدها إنّما تمثل عصرا واحداً في الأدب العربي ، ولذلك فمن السهل دراستها واستيعابها ، وفق هذا المنهج ، أمّا بالنسبة لتاريخ يمتد أربعة عشر قرناً ، هو تاريخ الأدب العربي فإن الأمر يبدو غريباً وبالغ الصعوبة.

(١) راجع في مسألة العصور دراستنا عن عصر الانحطاط.

(٢) راجع هذا بتوسع في بحث السيد محمد بهجت الأثري : [مؤتمر المجمع اللغوي ١٩٦٨]

(ثالثاً) من ناحية الفصل بين العصور فالأحداث تجري متلاحقة ، كل حادث منها ينشأ وهو منفعل بأسباب وعلل تتقدمه متصلة بحادث سابق ؛ ذلك أن أي فكر إنما ينبع من أفكار تقدمته وولدته وإن خرج أحياناً مبايناً لها في الصورة والشكل ، وبذلك تنتقل مؤثرات عصر سابق الى عصر لاحق ، ثم ان الأحداث السياسية التي تقع في زمن من الأزمنة إنّما تحدث آثارها في مرحلة تالية ، ومعنى هذا أن تقاسيم العصور السياسية المفروضة على الأدب العربي تدخل عليه اضطراباً خطيراً «إذ تضيف إلى عصر لاحق نتاج عصر سابق حمل فيه نفسه كل عوامله ومؤثراته ، وخصائصه فضلاً عن أن هذا المذهب إنما يؤدّي الى تصوير هذا الأدب في معظم حالاته ذنباً وراء السياسات لاحقاً باعجازها او عبداً لها قنّاً».

ونتيجة لهذه العوامل ينكشف فساد هذا المنهج ، الذي لم يقيم على أساس من صميم الأشياء ، وإنّما كان مستورداً متكلّفاً ، وقد أثبت فشله وخطأه وعجزه عن استيعاب الأدب العربي بعد هذا الزمن الطويل. ومن ثم وجب التحول عنه ، لا الى مذهب مستورد جديد ، بل الى مذهب أصيل مستمدّ من ذاتيّة الأدب العربي ، ومن وجوده وكيانه وجوهره.

(٣)

وقد عالج الاستاذ احمد الشايب قضية تاريخ الأدب العربي بين الأصالة والزيف ، وكشف عن مخاطر الطريقة الغربية لمجافاتها روح الأدب العربي ومزاجه وذاتيته : يقول أولئك الذين درسوا الآداب الغربية ، ووقعوا على ما فيها من أصول النقد الأدبي وطرائفه وعلى هذه المذاهب السياسية والاجتماعية التي طبعت آثار الكتّاب المحدثين بطوابعها الخاصة. حاولوا ان يفرضوا هذه المذاهب والأصول على الأدب العربي فرضاً ، واجتهدوا مخلصين او عابثين ان يجدوا في نصوصه مثلاً لما حفظوا من قواعد وقوانين فإن ظفروا من ذلك بما اشتهوا حمدوا لأنفسهم مغبّة هذا الكشف الخطير، وأمّا إذا تنكّر لهم هذا الأدب العربي ، وابى عرفانه هذه الآراء

المنقولة ، والمذاهب المستحدثة ، فهو أدب متأخر فقير يستعصي على الإصلاح ولا يمت الى هذه الحضارة بأوهن الأسباب.

وعندي أن هذا الفريق أخطأ خطأين أساسيّين :

أحدهما أن الأدب العربي الذي يطالبونه بهذه المذاهب الكتابية والفنّية التي فاضت بها الآداب الأجنبية كان ولا يزال أدباً قديماً نشأت منذ عهدٍ بعيد بنيات طبعه وعقله ، واهتمامه ، تخالف هذه البنيات التي أنشأت الأدب الحديث. فليس من المعقول أن يتساوى النوعان. وليس من الإنصاف وصدق الموازنة أن يلتمس في آدابنا القديمة خواص قد لا يواتيه بها عصره الماضي ولا بواعثه العابرة.

ثانيهما أن قوانين النقد الأدبي وأصوله لا تفرض على الأدب فرضاً وتلقى عليه القاء ، وإنّما يجب أن يستنبط من نصوصه الممتازة على أنها خواص وجدت فيها فاكتسبتها القوة والجمال ، وجعلتها قادرة على التأثير والخلود.

هذا هو الوضع الطبيعي لهذا النوع من العلوم الأدبية فان قواعد النحو والصرف كانت استنباطاً من التراكيب الصحيحة والأوزان المتبعة.

ونتيجة لذلك فإن قوانين النقد الأدبي يجب أن تنشأ من دراسة أدبه ، وتؤلف من خواصه وطوابعه الممتازة ، كيف بالله نعكس الأوضاع ونتّخذ من سمات الأدب الغريب وفنونه الجديدة مطالب نتحدّى بها هذا الأدب العربي القديم؟ انا إذن لظالمون.

ومع ذلك فلست أنسى ان هناك صفات عامة هي من طبيعة الفن الأدبي القديم ، وهي حق مشترك بين الآداب العالمية يتصل بنقدها وغاياتها ، من ذلك صدق الشعور ، وصحة التفكير وجمال التصوير ، وقوّة التأثير ، ولكن هذه على قلّتها وعموميتها ميدان لتنافر الآراء واختلاف الأذواق.

إن الأدب يحمل في ثناياه بيئته التي نبت فيها وعقل صاحبه وشعوره ومزاجه وشخصيته كلّها ثم يتأثر طرداً وعكساً بقرّائه وسامعيه ــ اهـ.

# الفصل الثاني

## مذاهب النقد الأدبي

من أصدق ما يقال : ان النقاد الذين تصدوا لدراسة الأدب العربي والذين جاؤوا في الأغلب من أوربا ، قد أخذوا مناهج الأدب الغربي ومذاهبه في النقد وقوانينه المطبوعة بطابعه (جول ليمتر، سانت بيف، ابيوليت تين) ، وأدخلوا فيها الأدب العربي والقرآن ، وحاولوا اخضاع القرآن والأدب العربي لهذه المناهج ، واستعانوا بمفاهيم المستشرقين الخاطئة والمغرضة ، وذلك بحكم ضعف القدرة على تذوق الأدب العربي وتعمقه ، والمغرضة بحكم دوافع الغزو الثقافي ومحلوله صهر الأدب العربي في بوتقة الأممية العالمية ونتيجة للخلاف الطبيعي ، بين أدب وأدب ، ومزاج نفسي عربي كونته عوامل كثيرة ، مباين لمزاج نفسي غربي كوّنته عوامل مختلفة ، ونتيجة لاختلاف العقليات والعقائد.

لم تستطع مذاهب النقد الأدبي الوافد أن تمثل ميزاناً دقيقاً للأدب العربي ، وعندما طبقت هذه المذاهب على الأدب العربي الإسلامي جاءت ظالمة ، وكانت في نفس الوقت عاجزة عن استيعاب أبعاده.

وقد اعتمد النقد الأدبي في الأدب العربي الحديث مذهبين : أحدهما المذهب الفرنسي (تين وسانت بيف) والثاني المذهب الانجليزي (هازلت وماكولي) واتصل المذهب الأوّل بالنثر في الأغلب كما اتصل المذهب الثاني بالشعر.

وقد برز هذا الاتجاه خلال الحرب العالمية الاولى وبعدها على أيدي بعض العائدين من أوربا والمتصلين بالأدب الغربي بالقراءة او الدراسة في المدارس

والكلّيات . ولم يكن هذا المنهج الذي وصف بأنه منهج المدرسة الحديثة ، وان ظلّ منقسماً الى هاتين المدرستين الانجليزية والفرنسية إلاّ منهج الأوروبيين. وقد تبلور الاتجاهان إلى مدرستين يمكن وضعها تحت هذه العناوين.

مدرسة انجليزية في الشعر قام عليها شكري والمازني والعقاد اتخذت آراء (هازلت وماكولي) من النقاد الانجليز وقد تبلور هذا المذهب في خلال فترة ما بين الحربين الى ما يسمونه بالمذهب النفسي او النفساني.

مدرسة فرنسية في الأدب (شعراً ونثراً) قام عليها احمد ضيف وطه حسين وهيكل وزكي مبارك اعتمدت آراء (تين وسانت بيف) من النقّاد الفرنسيين ، وقد تبلور هذا المذهب في خلال فترة ما بين الحربين الى ما يسمّونه بالمذهب الاجتماعي.

وبذلك يمكن القول بأن الأدب العربي في دراسات تاريخه ونقده قد سقط في قبضة المذاهب الغربية. التي قام أمثال (نلينو وكازنوفا وماسينيون وغيرهم من المستشرفين) بتدريسها في الجامعة المصرية القديمة على اختلاف في المزاج النفسي والثقافي بين أدب هؤلاء المستشرقين وبين أدبنا وتاريخه ومضامينه. فضلاً عن اختلاف البيئة والذوق.

وقد كان لتعميق هذا الاتجاه ، وانتصاره على المذاهب القديمة ، ولعجز الأدباء في هذه الفترة — وحتى الآن — عن مقاومته ، او ابتداع مذهب أدبي أصيل — أسوأ الأثر في الإنتاج الأدبي العربي. ولا شك كان للأدباء المحافظين عذرهم ، فقد سيطر هذا المذهب عن طريق الجامعة المصرية التي أصبحت مؤسّسة رسمية خاضعة لوزارة المعارف التي تقع تحت نفوذ الإستعمار البريطاني ، بالإضافة إلى مختلف نظم التعليم والتربية والثقافة إذ ذاك. فضلاً عن الإطار الضخم الذي كان الأدباء الموالون للثقافة الغربية يتحركون فيه ، وهو مجال الصحافة السياسية التي كانت تقوم بالمزايدة بالأدب في سبيل كسب الأنصار في مجالها الحزبي.

لقد تركت هذه المذاهب الوافدة أعمق الأثر في الإنتاج الأدبي ، ذلك لأنّها حوّلته عن ذاتيته وجوهره ومضامينه ، ولو أن الأدباء إذ ذاك كانوا خالصي النية في

خدمة الأدب العربي لامتصوا من هذه المذاهب الأدبية خير ما فيها ثم بنوا لنا نظرية أصيلة مستمدّة من جوهر أدبنا ووفق مفاهيمه وقيمه ومناهجه، ذلك لأن الأدب العربي كانت له نظرية وقوانين معروفة نمت وتطوّرت، ثم توقّفت وجمدت، وكان في الإمكان تنميتها وتحريرها من ضعف القديم مع تحريرها أيضاً من سيطرة الوافد على الحياة الأدبية إذ ذاك. هؤلاء لم يكونوا قد تعمّقوا الأدب العربي تعمّقاً يجعله أصيلا في نفوسهم ولم يكونوا قد اعتنقوا القيم الثقافية العربية الإسلامية اعتناقاً شبيهاً في أقل تقدير باعتناق أدباء النهضة الغربية للقيم اليونانية والاغريقية والرومانية والمسيحية التي بنوا عليها مناهجهم الأدبية وصدروا عنها. فقد عرف هؤلاء الأدباء المتصدرون للأدب العربي، ثم هم لم يعرفوه معرفة صاحب الذاتية العربية الخالصة الراغب في أن يضيف الى مقوماته جديداً يدفعها الى الأمام في قوة. بل اعتنقوه اعتناقاً وآمنوا به إيمان إكبار، ونظروا من خلاله الى الأدب العربي نظرة الاحتقار والازدراء أو نظرة السخرية والعطف، وهي نظرة غير صادقة أصلاً. فلم يكن الأدب العربي وهو قطاع من جوهر الفكر الإسلامي العملاق أقل قدراً من أدب اليونان أو الأدب الفرنسي الذي ازدهى بين هؤلاء الأدباء وأكبروه ووضعوه في المقدمة، واتهموا الأدب العربي بأنّه أخذ منه وبلغوا في ذلك غاية الإساءة والطعن حين قالوا: إن خير ما في الأدب العربي إنّما جاء من الفرس واليونان.

إن مصدر هذه النظرة الخاطئة المضللة، إنّما جاء نتيجة خضوع هؤلاء الأدباء للفكر الغربي، والصدور من أحكامه، والانصهار في بوتقته ورؤية الأدب العربي والفكر الإسلامي في إطار نظرية المستشرقين، وهي نظرية مغرضة خصيمة مضلّلة، إنّما صنعت تحت لواء الاستعمار نفسه، وخضعت لنفوذ التبشير والتغريب والغزو الثقافي، وأريد بها هدم هذا الأدب بأيدي ابنائه أولياء الثقافة الغربية من الذين اتّصلوا بتلك الجامعات في الغرب او بمعاهد الإرساليات في بلادهم، ومن الحق أن الخطر الذي واجه الأمّة العربية عن طريق الأدب العربي لم يقف عند مناهج الأدب وحدها، بل اتسعت دائرته فشملت الفكر العربي الإسلامي جميعاً عن طريق الأدب، فقد كان الأدب هو الطريق السهل لضرب كل القيم وإثارة الشبهات

حولها، من خلال نظرية ماكرة لئيمة استهلّ بها الأدباء عملهم، تلك هي فصل الأدب عن الفكر الإسلامي ومنحه الحرية الكاملة في أن يصدر دون أن يربط بينه وبين المقومات المختلفة، كالأخلاق والدين والتربية. وكان هذا المنطلق وحده هو أخطر ما وجّه للأدب العربي بل للفكر العربي كلّه من عوامل التدمير، وكان الباب الخطير الذي نفذ منه دعاة التغريب والغزو الثقافي والشعوبية الى هدم كل مقومات الفكر الإسلامي والثقافة العربية.

إذن، لم يقف أمر الخطر الذي واجه الأدب العربي، عند حد المذاهب الأدبية الوافدة، والتي كانت غريبة على الأدب العربي، مضلّلة في مجال التطبيق عليه. بل تعدّت ذلك إلى أخطار كبرى تتّصل بجذور الفكر العربي نفسه.

وكان لهذا الغزو الثقافي للأدب العربي أثره في قضايا كبرى أهمّها:

أوّلاً: تقديس الأدب اليوناني والإشادة به وإعلاء أمره والدعوة إلى معرفته وفرض تدريس اللّغتين اليونانية والرومانية في الجامعات، ومحاولة القول بأن الفكر الأغريقي كان بعيد الأثر، لا في الأدب العربي وحده بل في الفكر الإسلامي كلّه.

ثانياً: وبالتالي فقد كان ذلك باباً إلى إعلاء الأدب الغربي بفنونه المختلفة، واتهام الأدب العربي بالنقص في مجالات القصة والمسرحية والأدب الملحمي.

ثالثاً: الاستهانة باللّغة العربية ومحاكمتها على نحو محاكمة اللّغة اللاتينية وإعلاء شأن العاميات والاقليميات، والدعوة الى التحرّر من البلاغة العربية للفصل بين مستوى القرآن البياني وبين مستوى الكتابة العربية.

رابعاً: امتد أثر المذاهب الأدبية الغربية الى أخطاء كبيرة في كتابة التاريخ العربي الإسلامي وفي كتابة السيرة وفي كتابة تراجم الاعلام من أدباء وغيرهم.

خامساً: استشراء الدعوة الى تحرّر الأدب العربي من القيم الأخلاقية وارتفاع الدعوة الى (الفن للفن) ودفعها الى الأمام، وفتح الباب واسعاً أمام الكتابات المكشوفة والإباحية.

سادساً : مهاجمة التراث وتحقيره والسخرية به ، والاهتمام بالجوانب الضعيفة والشعوبية منه ، واعلاء شأن المؤلفات التي تثير الخلاف وتنشر الفتنة ولا تعبر حقيقة عن روح الأمة العربية أو مقوّماتها.

سابعاً : إغراق الأدب العربي بالترجمات من الآداب الأوربية ، وهي ترجمات رُوعِيَ فيها أن تحمل كل مذاهب الإباحة والانحلال والإلحاد والفساد الى الأدب العربي وخاصة القصة المكشوفة.

أغرقت مدرسة التغريب (الأدب العربي) بمذاهب متعدّدة في النقد الأدبي : هي الرمزيّة والواقعيّة والرومانسيّة والكلاسيكيّة.

كما عرضت لمناهج متعدّدة في النقد فيها : النقد التأثري ، والنقد التقريري والنقد التاريخي ، ثم توسّعت هذه المناهج ووصفت بأنّها مدارس النقد الأدبي : وهي المدرسة التاريخية والمدرسة الاجتماعية والمدرسة الفنيّة والمدرسة اللّغوية البلاغية والمدرسة النفسيّة. وقد جرت دراسات الأدباء والنقّاد خلال هذه الفترة التي بدأت بعد الحرب العالمية الأولى من خلال هذه المذاهب والمدارس ، وانحاز كلّ أديب وناقد الى مدرسة أو مذهب اتخذ منها أسلوبه في النظر والدرس والبحث.

وبذلك واجه الأدب العربي الحديث أخطر مرحلة في تاريخه من حيث كان تطلّع حركة اليقظة الى أن تدفع الأدب العربي ليكون سلاحاً قوياً في سبيل إنماء هذه الحركة ودفعها إلى الأمام.

ولكن يبدو أن حركة اليقظة رأت أن الأدب العربي قد غرق في بحار من التغريب فمضت الحركة تشقّ طريقها في مجالات الفكر المختلفة ، تاركة الأدب العربي في قبضة خصومه الى أن يستطيع التحرّر من قيوده.

ولم يقف أثر الاضطراب الذي أصاب الأدب العربي الحديث. متّصلاً بآثاره وإنتاجه وحدها ، ولكنه كان عميق الأثر في مجال أخطر ، ذلك هو محاولة إعادة النظر في الأدب العربي منذ صدر الإسلام في ضوء هذه المناهج الوافدة التي ما كانت لتصلح لإلقاء نظرة النقد على هذا التراث ، او دراسة الأدب العربي من

داخل بوتقة المستشرقين وأُدباء الغرب ومناهجهم ومفاهيمهم للأدب من حيث أنّها هي تختلف اختلافاً واضحاً بالنسبة للأدب العربي وذاتيته ومزاجه الخاص المستمدّ من عناصر أخرى. هذا إذا حسنت النيّة في النظر، اما وهذه النظريات ترتبط بالتغريب والغزو الثقافي، فإن النظرة ذاتها ستكون خصيمة له أصلاً مليئة بالتعصّب، حافلة بالانتقاص، وهذا هو ما أثمرته الدراسات المختلفة التي قدمت عن الأدب العربي الإسلامي والتاريخ العربي الإسلامي والتراجم الأدبية والتاريخية، وفي مجال السيرة والتراث واللّغة العربية فضلاً عن مفاهيم الترجمة والنقل من الأدب الغربي وما اتّصل بها من أهواء وغايات.

* * * *

ويمكن القول بأن هذه المذاهب الأدبية جميعها قد اعتمدت أساساً على منهج أرسطو في الأدب وما يتّصل به من مفاهيم في النقد والشعر والمنطق، وأنها قد امتدّت شأن الأدب الأوربي نفسه — الذي ارتبط بالأدب الاغريقي أصلاً — امتدّت الى مدرستي النفس والاجتماع الحديثتين: المدرسة النفسية التي وضع أسسها فرويْد والمدرسة الاجتماعية التي وضع أسسها دوركايم.

وقد أشار ستانلي هايمن في كتابه (النقد الأدبي ومدارسه) الى أن النقد الأدبي الحديث قد اعتمد على مناهج خمسة من العلماء: هم دارون وماركس وفريزر وفرويد وديوي. أمّا (دارون) فقد جاءت منه الفكرة بأن الأنسان جزء من النظام الطبيعي، وان الحضارة تطوّرت (أي أن دارون قد نظر الى الإنسان على أنّه حيوان وطبق عليه علمياً كل ما يطبّق على الحيوان والحشرات).

أمّا (ماركس) فهو الذي ذهب إلى أنّ الأدب هو الذي يعكس ولو بطريقة معقّدة ملتوية أحياناً العلاقات الاجتماعية والانتاجية لهذا العصر أو ذاك.

أمّا (فرويد) فهو الذي يرى أن الأدب تعبير مقنع، وأنه تحقيق لرغبات مكبوتة قياساً على الأحلام، وأن هذه المقنعات تعمل حسب مبادىء معروفة. وفكرته أن

هناك مستويات ومدارج عقلية تقع وراء الوعي وأن بين الرقيب والرغبة في التعبير صراعاً مستمراً.

أمّا (فريزر) فهو صاحب الأفكار عن السحر البدائي والأسطورة والشعيرة البدائية، وان هذه كلها تكمن في أساس أعلى النماذج والموارد الأدبية.

أمّا (ديوي) فهو يرى أنّ قراءة الأدب وكتابته ليست إلّا صوراً انفعالية إنسانية يمكن أن تقاس بأي فاعلية أخرى وأنّها خاضعة للقوانين نفسها.

وقد اضاف ستانلي هايمن الى مقومات النقد الأدبي التي كونتها آراء هؤلاء العلماء الخمسة فكرة السلوكيين: بأن الأدب ليس إلّا رجلاً يكتب ورجلاً يقرأ، كما أضاف فكرة العقليين بأن الأدب قابل للتحليل. وقال ان النقد الحديث قد قرّر مبدأين أساسيين كانا يحتلّان مقاماً رئيسياً في الماضي وهما (أولاً) أن الأدب نوع من التعليم الأخلاقي. (ثانياً) أنه في أساسه نوع من اللذة أو المتعة.

هذا هو ما سجّله (ستانلي هايمن) مع أسس لمناهج النقد الأدبي الحديثة والتي نقلها أدباؤنا الى محيط الأدب العربي، واتخذوها أساساً لرصده ونقده، ومحاكمة الأدب العربي الإسلامي منذ فجر الإسلام اليها.

وهي تكشف في وضوح عن الأساس المادي المغرق في المادية الذي تعتمد عليه، والذي يتعارض تعارضاً كاملاً مع مختلف قيم الأدب العربي ومفاهيمه وأسسه، حتى حين يتصل هذا الأدب بأخطر انحرافاته في مجال الغزل والكشف. وأخطر ما تحمله هذه المناهج هو ازدراء أخلاقية الأدب واحتقارها والتخلي عنها، فضلاً عن الإنكار الواضح للتوحيد الذي يكاد يكون الأساس الأصيل والأكبر للأدب العربي بل للفكر الإسلامي والثقافة العربية جميعاً.

والمنهج الاجتماعي الذي كان أبرز المناهج في مجال النقد الأدبي، إنّما يقوم على مفاهيم الفيلسوف دوركايم اليهودي الأصل، والماركسي الثقافة، والمادي النزعة. وقد استمدّت نظريات تين وسانت بيف التي أغرقت الأدب العربي مفاهيمها من الفلسفة المادية الدارونية التي ترى (أن الإنسان بمواهبه ومعنوياته، ان هو إلا أثر من

آثار البيئة بمعناها الاجتماعي الواسع ولا يكاد يفترق عن الحيوان والنبات في انعدام الإرادة)[1].

فضلاً عمّا اثبته تين: أن الفضيلة والرذيلة ليستا الى حدٍّ كبير إلّا نتاجاً لعملية تلقائية مثل الأحماض والقلويات، وأنهما منتوجات مثل الزواج والسكر.

هذا بالإضافة الى أثر نظرية النشوء والتطور الواضح الأثر في هذه المذاهب الأدبية، والتي تنكر إنسانية الإنسان وإرادته وقيمته الوجدانية والروحية، ويشبّهه بالحيوان الذي لا حول له ولا قوة، والتي تنظر إليه على أنه شيء تافه جدّاً في الكون، وأنه تحت رحمة القوى المحيطة به. ومن ثم فإن الإنسانية ـــ عندها ـــ ليست إلاّ نتاجاً عارضاً للوراثة والبيئة[2].

ويرى أكثر الباحثين أن (تين) قد اشتطّ في اتجاهه المادي في مفهوم النقد الأدبي الى انه أصبح من روّاد الحتميّة التاريخيّة أو الجبر التاريخي، وهذا هو المذهب الذي قدّمه في الجامعة المصرية القديمة (نلينو وكازنوفا). وهو الذي التمسه الدكتور طه حسين عن المستشرقين وحاول تطبيقه في رسالته عن أبي العلاء: أوّل دكتوراه في الجامعة المصرية!.

إذن فإن هذه المذاهب الأدبية على هذا النحو تبدو معارضة لمفاهيم الأدب العربي وقيمه معارضة كاملة. ويبدو مدى الخطر الذي وقع فيه الأدب العربي حين اعتمد مبادىء النقد الأدبي هذه ووضع النتاج الأدبي العربي القديم والحديث داخل بوتقتها المادية.

والى هذا يرجع ذلك الفهم المضلّل للنفس العربية وللذات العربية الذي بدا واضحاً في جوانب كثيرة من انتاج هؤلاء الأدباء، فضلاً عن أن هذا المنهج لم يكن صالحاً لمحاكمة الأدب العربي أو دراسته نتيجة تلك الاخطاء والمحاذير التي بدت واضحة في كتب (الأدب الجاهلي وحديث الاربعاء ومع المتنبي وهامش السيرة).

(١) ، (٢) راجع الدكتور [حلمي علي مرزوق] في كتابه من تطور الأدب الحديث في النصف الأول من القرن العشرين.

(٢) نفس المصدر السابق

وقد أشار الدكتور محمد مندور في بحثه عن المنهج التاريخي في دراسة الأدب الى ارتباط هذا المنهج بنظرية دارون حين قال : إن نظرية دارون عن التطوّر وأصل الإنسان التي قصرها صاحبها على الأجناس الحية . لم تلبث ان امتدت الى الأجناس المعنوية فطبّقها الفيلسوف سبنسر على مبادىء الأخلاق ، ثم جاء فرديناند برونتير الناقد الفرنسي فأخذ يطبّق نظرية دارون على الأجناس الأدبية .

وهذا النص يؤكّد ما ذهبنا إليه من قيام مذاهب النقد الأدبي العربي على أساس مخالف ومعارض تماماً لمضامين الأدب العربي ، الذي يقوم على أساس ارتباط الروح والمادة معاً ، والذي يستمدّ مقوماته من التوحيد كأساس لمقومات الفكر الإسلامي ، ومصدره القرآن الكريم أساس الأدب العربي أسلوباً ومضموناً .

* * * *

ولقد كشف كثير من الأدباء عن الخطأ البالغ في التماس مفهوم الكلاسيكيّة او الرومانتيكيّة او الواقعيّة كمذاهب يحاكم عليها الأدب العربي . ذلك أن هذه الأسماء ليست في الحقيقة مذاهب ، بل هي مراحل تاريخية . فالكلاسيكيّة ظهرت في القرن السابع عشر في فرنسا بنوع خاص نتيجة لظروف سياسية معروفة في هذه الفترة .

أمّا الرومانتيكيّة فهي مظهر أدبي للفرنسيين بعد سقوط نابليون ، حيث واجه النفس الفرنسية إحساسها باليأس ، وهو ما عرف بمرض العصر ، وقوام إحساس الفرد بعجزه عن الملاءمة بين قدرته وآماله . فقد اتجهت الرومانتيكية الى الشكوى والإحساس بالغربة وهجرة المدينة والتماس الاطلال وصمت الطبيعة ، فهي قريبة من التشاؤم وشكوى الحياة .

ثم جاءت الواقعية نتيجة التطوّر السياسي الذي ارتبط بالطابع العلمي والإنتاج المادي ، وهكذا كانت الواقعية ، كما كانت الكلاسيكية والرومانتيكية بمثابة ردّ فعل أدبي لحالة نفسية سائدة .. ومن هنا يبدو ذلك الخط الذي يغرق فيه النقّاد حين يحاكمون الأدب العربي قديمه وحديثه الى مثل هذه المراحل في تاريخ أمّة واحدة أو في تاريخ الأدب الأوربي ، ويفرضونها على أنها مدارس ومذاهب .

وإذا كانت هذه المراحل الأدبية قد فقدت مكانها واحدة بعد الأخرى وأفسحت لمراحل أخرى جاءت بعدها، نتيجةً للتطوّر السياسي والاجتماعي في بلادها، فلماذا تظل تحتلّ مكان الصدارة في الحكم على أدبنا العربي، بينما يمكن للأدب العربي أن يشكل مراحل أدبية ترتبط بتاريخه وتطوّره السياسي والاجتماعي؟.

* * * *

وما تزال مدرسة التغريب الأدبي، حريصة على أن تحاكم الأدب العربي الى نظريات أرسطو كنظرية المحاكاة وغيرها.

والمعروف أن قادة الفكر العربي الإسلامي في صدر الإسلام رفضوا ان يترجموا الأدب الاغريقي او الشعر اليوناني واكتفوا بترجمة العلوم والفلسفات وذلك إيماناً منهم باستقلال المزاج النفسي العربي في مجال الأدب والفكر وضرورة بقائه حرّاً غير مقيّد بمذاهب او مناهج أخرى غريبة عنه، بينما أباحوا لأنفسهم حتى ترجمة العلوم والفلسفات. ولقد حاول كثير من الفلاسفة وكتّاب العرب ترجمة نظرية المحاكاة أمثال (متى بن يونس، ابن سينا) ولكنهم تناولوا ذلك من خلال دراسات الفلسفة.

أما في العصر الحديث، فإن المحاولة التي جرت في إغراق الأدب العربي في مناهج النقد الأوربي لم تتم بارادة قادة اليقظة، ولكنها تمّت في حالة ضعف هذه الإرادة وتسلّط بعض الأدباء الذين تولّى إعدادهم وتصديرهم قادة التغريب والغزو الثقافي من خلال حركة التبشير والإستشراق. ومن هنا فقد دفعوا هذه المناهج من مختلف الجوانب، ووضعوا قاعدتهم الأولى على أساس فصل الأدب عن الفكر الإسلامي، وفصل اللّغة عن العروبة والإسلام، وهي النظرية الفاسدة الضارة التي أذاعها الدكتور طه حسين في كتابه (الشعر الجاهلي والأدب الجاهلي) من خلال دراساته في كلية الآداب بالجامعة المصرية. وذلك حين يقول:

[ويجب حين نستقبل البحث في الأدب العربي وتاريخه أن ننسى قوميتنا وكل مشخصاتنا وننسى ديننا وكل ما يتّصل به. وأن ننسى أيضاً هذه القومية وما يضاد هذا الدين، يجب ألّا نتقيّد بشيء، ولا نذعن لشيء، إلّا مناهج البحث العلمي

الصحيح] وهكذا دعا قائد حركة التغريب الى نسيان القومية والدين، وبدأ هو فعلاً بتطبيق ذلك. ولو قد فعل ذلك وحده لكان الأمر هيّناً، ولكنه ربط نفسه وقلبه بعواطف تضاد هذه القومية وهذا الدين فاضطر إلى محاباتها وارضائها.

ودعا الى التفرقة بين العقول والقلوب في بحث الأدب، وأن على الباحثين فيه ان لا يتأثروا في ذلك بقومية ولا عصبية ولا دين.

وفتح الطريق أمام عمله الخطير الذي أحدث أبعد الآثار حين قال إنّه سيجتهد في درس الأدب غير حافل بتمجيد للعرب ولا مكترث بنصر الإسلام.

• • •

ولقد علَتْ الصيحات منذرة بخطر هذا المنهج من عدد كبير من اساطين الأدب والفكر الذين أعلنوا أن الأدب العربي لا يطمئن الى هذه المقاييس النقدية الضائعة في الآداب الاجنبية. والذين دعوا الى الاحتياط في تطبيق قواعد النقد الأجنبي على الآداب العربية، لبعد ما بين الأدبين بعداً زمنياً ومكانياً وفرعياً. وذكروا بما حاوله قدامة بن جعفر حين أراد أن يخضع الشعر العربي لنظرية أرسطو ففشل، وجاء نقده هزيلاً ممسوخاً لا روح فيه ولا أثر لجمال الطبع وطبيعة الأدب، وقال كثير من المؤمنين بأمّتهم وأدبهم إنه إذا كان لا بدّ من الانتفاع بجهود الغربيين فلْنَأْخُذ من أصول النقد القوانين الأعمّ التي هي في الحقيقة مشاكل فلسفة عامة.

ولا شك أن ارتباط الأدب العربي بالمنهج الغربي قد أبعد الأدباء العرب عن الأصالة. ذلك أنّه قد أغرقهم في مفاهيم وقيم الأدب الغربي، فصدروا عنه في كتاباتهم عن الأدب العربي وعن الفكر الإسلامي أيضاً، ذلك أنّهم إنّما تعرّفوا الى الأدب العربي ودرسوه من داخل إطار المفاهيم الغربية التي كوّنت الأرضية الأساسية لعقلياتهم وفكرهم وعقائدهم، ولذلك فقد سيطر المنهج النفسي على دراسة ابن الرومي للعقاد والمنهج الاجتماعي على دراسة المتنبي لطه حسين. فلم يدرس الرَجُلان من خلال منطلق عربي أو أرضية أصيلة قوامها جو إسلامي عربي، بل من خلال مذاهب غربية هي في ذاتها نظريات افتراضية خاضعة للخطأ والصواب، فضلاً عن فواصل البيئات والمفاهيم والمزاج النفسي والاجتماعي المتباين بين العرب والاوربيين.

. . .

وفي الجملة فإن أساس الخلاف بين مناهج النقد الغربي وبين الأدب العربي إنّما يتمثّل في اختلاف القيم الأدبية والاجتماعية أساساً :

(١) الخلاف في مفهوم الدين بين الأدب العربي والأدب الأوروبي.

(٢) الخلاف بين مفاهيم القيم الاجتماعية والروحية.

(٣) الخلاف في مدى ارتباط الأخلاق السياسية في الأدبين.

(٤) الخلاف بين الأسس الإسلامية العربية القرآنية، والأسس الأغريقية اليونانية المسيحية، ومدى أثر كل ذلك في كلا الأدبين واضح وصريح.

ومن هنا فقد كانت آثار تطبيق هذه المناهج الأوربية والغربية واضحة الاضطراب في أحكامه التي أصدرها بالنسبة إلى :

(١) فيما يتعلق بالتراجم وسيرة الرسول وتاريخ الأعلام والأدباء.

(٢) فيما يتعلق بالتاريخ الإسلامي العربي.

(٣) فيما يتعلق بتقدير مفاهيم الكشف والإباحية.

(٤) فيما يتعلق بتقدير التراث او الغض من شأنه.

(٥) فيما يتعلق بنظرية الفن للفن والفن للمجتمع.

(٦) فيما يتعلق بالنظر الى القرآن من حيث هو كتاب منزل أو نص أدبي يجوز نقده.

(٧) فيما يتعلق بعلاقة الدين بالأدب والعلم في الإسلام وهل هو دين كالمسيحية أو هو منهج حياة.

(٨) فيما يتعلق باللغة العربية كلغة امة خاصة أم باعتبارها مرتبطة بثقافة وفكر إسلامي عام.

(٩) فيما يتعلق بالترجمة من الآداب الأوربية ومدى خطر إدخال عناصر وقصص ومذاهب غريبة عليها.

(١٠) مدى الصراع بين المذهبين الأدبيين الفرنسي والانجليزي واللّغتين وأثره في الأدب العربي.

# الفصل الثالث

## فساد نظريات النقد الأدبي الوافدة

(أولاً) نظرية فصل الأدب عن الفكر (أي عن الدين والقومية).

(ثانياً) العلوم الاجتماعية والنظرية العلمانية.

(ثالثاً) نظرية أخلاقية الأدب.

(رابعاً) أسلوب الشك.

(خامساً) الأدب ومكانه من دائرة الفكر.

(سادساً) الاعتماد على المصادر الزائفة.

واجه الأدب العربي عدداً من النظريات الوافدة في مجال النقد الأدبي، قدّمها الأدباء في نطاق الدعوة الى تجديد الأدب العربي، وقد خالفت هذه النظريات منطلق الأدب العربي وجذوره، وتعارضت مع ذاتيته الإسلامية العربية الخالصة، وتصادمت مع مزاجه النفسي والعقلي. ومن هنا فقد سقطت واحدة بعد أخرى، ولم تجد مجالاً للعمل والنماء والتشكّل مع الأدب العربي، ذلك أن هذه النظريات في أصولها قد انطلقت من طوابع الآداب الأوربية وذاتيتها، وتشكّلت وفق مضامين تلك الآداب، واعتمدت أساساً على النظريات التي بدأت في دائرة العلم الطبيعي، ثم فرضت نفسها على الفلسفات والآداب. وهي النظريات التي اعتبرت الإنسان حيواناً خاضعاً لظروف البيئة خضوع مختلف الأشياء، وهي نظرية مادية خالصة لا تتفق مع روح الأدب العربي الذي يقوم على أساس ترابط واضح بين المادية

والروحية وبين العقل والقلب، والتي تعتمد قاعدة التوحيد الإسلامية أساساً لمنطلقها.

الفكر : مركب
والأدب : عنصر

(أوّلاً): نظرية فصل الأدب عن الفكر: أي عن الدين والقومية.

من أخطر النظريات التي حاولت حركة التغريب أن تفرضها على الأدب العربي للقضاء على جوهره، وعزله عن طبيعته ومقوماته هي نظرية استقلالية الأدب وانفصاله عن العناصر الأخرى المكوّنة له والمرتبطة به، وفق مفهوم أساسي في الفكر الإسلامي والثقافة العربية قوامه أن الفكر مركب والأدب أحد العناصر التي يتكوّن منها هذا المركب: ومنها الاجتماع والسياسة والتربية والفن والقانون والاقتصاد.

ولقد قام الفكر الإسلامي والثقافة العربية وليدته على هذه القاعدة العتيدة التي ليس من السهل التحرّر منها، من حيث قيام الأدب بالانفصال عن مختلف المقومات الأخرى التي تربطه بها جذور عميقة، وأصول ثابتة:

وإذا كان الأدب الغربي قد استطاع ذلك او فعل فلأنّ عوامل كثيرة قد حقّقت للفكر الغربي إقامة الفصل الدقيق بين هذه العناصر وإعطاء كل منها حق الحرية والتحرك، وذلك على أثر الصراع القوي الذي جرى في مجال النهضة الأوربية تحت ضغط عوامل مختلفة منها الصراع بين الكنيسة والنهضة، ومنها ذلك الاتصال الجذري العميق القائم بين الأدب الأوربي المعاصر (بل والفكر الأوربي الغربي) وبين التراث اليوناني الاغريقي، اتصالاً عميقاً.

كل هذه العوامل جعلت من مثل هذا الانفصال بين الأدب من ناحية وبين الدين والقوميّة في الفكر الأوربي أمراً طبيعياً، غير أن هذا كلّه الذي فرضته ظروف سياسية واجتماعية معقّدة، لم يكن ممكناً في الأدب العربي الذي كان ارتباطه بالقيم الأساسية للفكر الإسلامي وبالدين والأخلاق والعروبة عميقاً وأصيلاً وجذرياً، بحيث لم يعد في الإمكان تقبّل هذه النظرية، إلّا في ظلّ اصطناع دعوات ومذاهب

وافدة مفروضة بقوة النفوذ الأجنبي ومن ورائها التغريب والغزو الثقافي وقوام هذه الدعوة محاولة سيطرة مفهوم قوامه الفصل بين مقومات الإسلام وبين الأدب العربي او القول بأن الإسلام ليس إلّا ديناً روحياً يقوم على العلاقة بين الله والإنسان ، وهو مفهوم لاهوتي غربي مستمدّ من مفهوم الفكر الغربي للدين ، ومستمدّ من الدين المسيحي الغربي نفسه ، وليس الإسلام كذلك أبداً ، فليس هو ديناً لاهوتياً قاصراً على العلاقة بين الله والإنسان ، ولكنه دين ونظام اجتماعي وحضارة وفكر ، ومنهج شامل للحياة السياسية والاجتماعية والاقتصادية والقانونية ، وبهذا فهو يتّسم بالشمول والتكامل والترابط بين القيم المختلفة ، ومن شأن هذا استحالة الفصل بين الأدب والدين او بين القومية والدين أو الأخلاق والدين.

ولا شك ان هذه الدعوة إنّما كانت قد صيغت على نحو خطير وماكر ، وبعيد المدى في إخراج الأدب العربي عن ذاتيته ومقوماته وطبيعته ، وإغراقه في مفهوم غريب عنه يتيح لهؤلاء الدعاة حرية النقد وإثارة الشبهات حول القرآن باعتباره نصّاً أدبياً او نصّاً بيانياً ، وكذلك اطلاق حرية الأدب المكشوف وفنون الإباحة والالحاد ، اعتماداً على أن الأدب ليس له أدنى ارتباطات مع الدين او الأخلاق او القومية.

ولا شك ان كتاب (في الشعر الجاهلي) قد رسم أصول هذا المنهج الخطير الذي أذيع اول ما اذيع في كليّة الآداب ، وقد تحول هذا الكتاب الى اسم آخر (في الأدب الجاهلي). ومع ذلك فما زال يعدّ مرجعاً أساسياً لدارسي الأدب ، وما زال مفهوم هذا المنهج هو الأساس الذي بني عليه نقد الأدب العربي المعاصر والحديث. وان أغلب الأدباء والكتّاب قد اعتمدوا هذا المذهب في كتابة دراساتهم ، فأطلقوا لأنفسهم حرية الكشف عن جوانب من التصوير للعاطفة الجنسية وللنظرات الفكرية الحرّة ، دون تقيد بأي مقوم من مقومات الأدب العربي الأصيل ، والمستمدّة من القرآن ، والتي تتحرك داخل إطار التوحيد والأخلاق والمسؤولية الاجتماعية وحماية المجتمعات من اخطار الإلحاد والإباحة.

ومن هنا يبدو خطر ما ذهب اليه طه حسين وتابعه فيه أدباء التغريب من قوله :

انه في البحث عن الأدب على الباحث ان ينسى قوميته وينسى دينه وأن يدرس الأدب غير حافل بتمجيد العرب او الغض منهم ولا مكترث بنصرة الإسلام او النعي عليه.

* * * *

ولقدووجه دعاة هذا الرأي بما يدحض منهجهم وآراءهم من وجوه كثيرة فقال الأستاذ محمد أحمد الغمراوي: ان القول بأن الإنسان لا يستطيع ان يكون ذا عاطفة قومية او دينية قوية من غير أن يحابي او يداجي في العلم فهو خطأ، ذلك ان الإنسان يستطيع أن يراعي الدقة العلمية التامة في البحث، وهو متذكّر وفيه كل التذكّر ومعتقد صحّته كل الاعتقاد غير مجوز على قرآنه خطأ او على توراته، بل ان الدين الصحيح يزيد الباحث المخلص ان امكن حرصاً على الحق واستمساكاً به إذا وصل إليه.

ولا خوف عليه مطلقاً أن يخفي بعض الحق اويدلس في البحث محاباة لدينه، لأنه ليس الحق يخاف على دينه ولكنه الباطل، انه يعلم ان دينه حق، يعلم ذلك علم مستيقن، ويعلم أن العلم قائم على قاعدة استحالة التنافي بين أجزاء الحق، يعلم ذلك علم مستيقن أيضاً، فهو لا يخشى أبداً أن يكشف البحث الصحيح عن حقيقة تنافي دينه، ولذلك يمضي في أبحاثه آمناً مطمئناً متبعاً أقْوَم الطرُق في البحث والتفكير، لا لأن هذا هو الطريق الوحيد للوصول الى نتائج صحيحة فحسب، ولكن لأن هذا في اعتقاده هو أيضاً الطريق الوحيد الذي لا يؤدّي الى تخالف بين العلم الذي يبحث فيه، والدين الذي يؤمن به، فالتديّن الصحيح والتفكير العلمي الصحيح يمكن اجتماعهما اذن وكثيراً ما اجتمعا، كما ان العاطفة الدينية القومية والعاطفة العلمية القومية لا تتعارضان بل تتضافران على خدمة العلم وتبعثان على الاخلاص في البحث. ا. هـ.

* * * *

وقد عرض العلّامة فريد وجدي لهذه الدعوى الخطيرة قال: ان القرآن ينعى على

المستأثرين بالأهواء ويزيد القرآن على هذه التوصية بعدم الخوض فيما لا نعلم ، ويقرّر بأن الإنسان مسؤول عن اعتمال حواسه وقلبه في معالجة الباطل ، وقد تجاوز القرآن حدود كل مذهب فلسفي يعد الإنسان مسؤولاً عن الخواطر ، فإذا كان لديكارت منهج في البحث بأن للقرآن منهجاً نسمّيه بالمنهج القرآني ، وقد قابلناه بمنهج ديكارت فنبزه وزاد عليه ، فيكون لا محل لطلب الدكتور أن ينسى المسلم دينه أثناء البحث عن الحقيقة ، فإن ديناً يعطي الإنسان كل هذه الحرية في البحث ويهديه لهذا المنهج في التثبّت جدير بأن يجعله دستوره في كل ما يتصدّى له من أنواع العلوم ، إنّما يخشى من تأثير الدين على مثل هذا البحث في أصول الجماعات وفي درجاتها من الارتقاء ، وفي مكاناتها بين الأمم ، وفي تأثيرها العالمي ، وفي مصادر لغاتها ، وفي قيمة آدابها . ولكن إذا كان الدين الإسلامي ينصّ على أن الأمم كلّها سواء ، وأنّه لا فضل لعربي على أعجمي ولا لأبيض على أسود إلّا بالتقوى أو بعمل صالح ، وعلى أن الباحث يجب أن يتبع الحق حيث كان ، وعلى أنه يجب أن ينظر في مصادر المعرفة ليتصيّد الحق من جميع مظانه ، وعلى وجوب الحكم بالعدل ولو على النفس والأقربين ، وعلى أن كل الأمم سواء في تحمّل تبعة أعمالها فلا محاباة ولا استثناء ، وعلى أن الإنسان يجب أن يخضع لسلطان الدليل لا للموروثات أو للأوهام ، قلنا ولكن إذا كان دين كالدين الإسلامي ينصّ على هذا كله فكيف يجب نسيانه في أثناء البحث ، وهو أكمل دستور عرف عن الباحثين في الحقائق الى اليوم ، وبأي مرجع نجعل الأسلوب الديكارتي نصبَ أعيُننا في أثناء بحث ما نريد بحثه ، ونفخر بالانتماء إليه ، ولا نجعل الأسلوب القرآني نصب أعيننا في البحث ونباهي بالجري عليه .

* * * *

ولقد جرت هذه النظرية بين يدي الباحثين طويلاً ، وحاول المستشرقون ودعاة التغريب الإغراء بها وتزيينها ، وأقام كثير من الأدباء دراساتهم على أساسها ، غير أن ذلك كلّه لم يحل دون سقوطها وانكشاف فسادها ، ورفض الأدب العربي لها ، وعدم تقبّلها كأساس ، أو منهج ، لأدب ما زالت زوابطه بالفكر الإسلامي عميقة الجذور ، قوية الجواذب ، هي في حقيقتها روابط فطرية ، وعلائق عضوية ولم يلبث

الأدب العربي بعد قليل أن سار في طريقه وإن أقرّ منهجه الأصيل المستمدّ من ذاتيته ، الصادر عن مزاجه النفسي والعقلي ، فكانت أغلب الدراسات البناءة الايجابية التي هي بمثابة اضافات حقيقية ، كانت أغلب هذه الدراسات قائمة على الروابط بين اللّغة والفكر ، وبين الأدب والفكر ، مستقية من مناهل الإسلام ، صادرة عنه ، فضلاً عما هوجمت به هذه النظرية الفاسدة ، وما قدمه الباحثون في دحضها وكشفوا عن دوافعها ، وما وراءها من غايات استعمارية وشعوبية وتغريبية مضلّلة .

(ثانياً) : العلوم الاجتماعية والنظرية العلمية .

يقوم منهج النقد الأدبي الغربي الذي فرضه بعض الأدباء [بعد الحرب العالمية الأولى على الأدب العربي] على أساس مادي خالص فهو مبني على أساس النظريات التي استمدّت مناهجها من نظرية دارون عن التطوّر وأصل الإنسان ، هذه النظرية التي قامت في دائرة العلم الطبيعي ثم نقلها الفيلسوف هربرت سبنسر الى مجال المجتمع فطبّقها على مبادىء الأخلاق ثم جاء (فرديناند برونتيير) الناقد الفرنسي فطبّقها على الأجناس الأدبية ، هذا فضلاً عن أن المفاهيم التي اعتمد عليها دعاة المذهب التغريبي في النقد الأدبي إنّما استمدّوها من الناقدين الفرنسيين : تين وسانت بيف ، وهما يريان أن الإنسان ما هو إلّا أثر من آثار البيئة بمعناها الاجتماعي الواسع ، وأنّه لا يكاد يفترق عن النبات والحيوان في انتفاء الحول وانعدام الارادة ، وما يتّصل بهذا من ان الفضيلة والرذيلة ليستا الى حدٍّ كبير إلّا نتاجاً لعملية تلقائية مثل الإحماض والقلويات ، فضلاً عمّا ترتبط هذه النظرية جميعها به من أثر نظرية النشوء والارتقاء ، من حيث انزال الإنسان من مكان البطولة الى مكان الحيوان الذي يعيش تحت رحمة القوى المحيطة به ، وقد نمّى هذه النظريات الباحث الفرنسي دوركايم في مفاهيمه التي تلقاها بعض أدبائنا هؤلاء في جامعة السربون ، وجعلوا من هذا الخليط كلّه أساساً لنظريتهم في النقد الأدبي التي جرى تطبيقها على المتنبي وابن خلدون والمعرّي ، ثم جرى تطبيقها على الشعر الجاهلي وعلى أدب القرن الثاني للهجرة . وكان لها ذلك الأثر العميق من التضارب الذي أصاب القيم الأساسية للأدب العربي

والفكر الإسلامي والثقافة العربية ، والتي ذهب الباحثون في اخضاع الأدب للمنهجين الاجتماعي الذي رسمه دوركايم والذي يعترف بان الإنسان حيوان اجتماعي وأن مختلف قيم المجتمع ليست أصيلة فيه ، والمنهج النفسي الذي التقطه الأدباء من نظرية فرويد الذي يرى أن الإنسان عبد لشهواته وان الجنس هو المحرك الأول لكل تصرّفاته.

وقد غلب المذهب الاجتماعي على دراسات الأدب والتاريخ.

وغلب المذهب النفسي على دراسات التراجم والشعر.

ومن هنا ظهرت تلك الآراء الغربية التي تمسك بها بعض الأُدباء ، والتي لا تتّفق من قريب أو بعيد مع مفاهيم الفكر الإسلامي والثقافة العربية ، ومن ذلك ما قاله الدكتور طه حسين : من أن [الدين نبت من الأرض ولم ينزل من السماء] وقوله إن العالم الحقيقي هو الذي ينظر الى الدين كما ينظر الى اللغة ، وكما ينظر الى اللباس من حيث إنّ هذه الأشياء كلّها ظواهر اجتماعية يحدثها وجود الجماعة ، ومن هنا نصل الى ان الدين في نظر العلم لم ينزل من السماء ولم يهبط به الوحي وإنما خرج من الأرض كما خرجت الجماعة نفسها. ا. هـ.

ولا شك أن هذه الآراء وافدة ، وأن الدكتور طه حسين لم ينكرها ولم يصل إليها بعد بحث ولكنه نقلها نقلاً من دوركايم وغيره من الكتّاب الغربيين الذين أرادوا أن يتحركوا بمفاهيمهم هذه من خلال الفكر الغربي الذي يقف من المسيحية موقفاً معيناً وحيث له قضية وأزمة.

أمّا الأدب العربي والفكر الإسلامي فليس لهما مع الإسلام مثل هذه القضية وهذه الأزمة ، ولذلك فإنه من الظلم البيّن والخطأ الفاحش أن ننقل مكان المعركة إلى الأدب العربي بغير حاجة إليها ، إلّا حاجة واحدة في نفس يعقوب هي محاولة تغريب الأدب العربي وعزله عن ذاتيّته ومقوماته وأرضيته.

وفي نفس مجال الادعاء بأن هناك صراعاً بين الدين والعلم فإن الأمر يبدو مضلّلاً ، فليس بين العلم والدين خصومة حقيقية فضلاً عن أنه ليس بين الإسلام

والعلم خصومة ما. والنظريات العلمية الحديثة لم تثبت تناقضاً بين العلم والدين.

في هذا يقول الاستاذ مصطفى عبد الرازق: إن العلم لم يحضّ على معارضة الدين بل بالعكس، فضلاً عن ان الإسلام يدعو الى حرية البحث وصراحة التفكير والتسامح الذهني، والعلم والدين اليوم سيتكاملان، وقد أصبح العلم اليوم يسلم بوجود ما ليس قائماً أمام الحس، إذ ذهب عصر البديهيات وتغيّر وقع القواعد العلمية، وأصبح عصرنا هذا عصر يقين واعتقاد بالقوى الخفية، ويمكن القول بأن العلم في الأيام المقبلة سيخطو نحو الدين خطوات جريئة.

* * * *

وقد عرض لهذا الرأي الدكتور حلمي علي مرزوق[1] فقال:

المنهج العلمي في البحث الذي ينقد به طه حسين لا يصلح استخدامه إلّا في مجال الوقائع العلمية التي يدرسها العلماء كأصول الدراسة الكيمائية والطبيعية وما إليها، ولا يدخل في مجال الوقائع العلمية تعارف الشعوب، ولا يستطيع العلم ان يستقيل بالبحث في هذا الموضوع لأنه في مجال الرأي.

ويعوّل طه حسين في المنهج العلمي على المنهج الاجتماعي الذي ينظر إلى الإنسان على أنّه حيوان اجتماعي، ومن هنا يعوّل على دراسة البيئة والعصر، ولا يدرس البواعث النفسية للأدب التي تحفزه الى نوع من السلوك دون نوع آخر.

وقد فرق الاستاذ محمد احمد الغمراوي بين مناهج الأدب ومناهج العلم في مناقشته لهذه النظرية فقال: أمّا العلم فإنّه ميدان العقل ومتاعه، وهو لا وطن ولا قومية له، كما ان العقل لا قومية له ولا وزن، فقوانين التفكير واحدة وسبل العقل واحدة في العالمين، ثم انت لا تشعر أثناء تلقّي العلم من أجنبي انك تتلقى شيئاً خاصاً بجنس من البشر دون جنس او بقوم دون قوم، ولكن تتلقى شيئاً مشتركاً او ينبغي أن يكون مشتركاً بين الناس أجمعين اشتراك العقل بينهم.

---

(١) كتابه: تطور النقد.

وليس الأدب كذلك ، فبينما أنت في العلم لا تجد علماً انجليزياً ولا علماً ألمانياً ولا علماً فرنسياً ولكن علماً واحداً ، إذ تجد الأدب متعدّداً بتعدّد الأمم ، لكل أمّة أدبها كما لكل أمة لغتها ، وتجد أدب كل أمة مطبوعاً بطابعها طبعاً لاخفاء فيه ، او هكذا هو إذا استقلت الأمة بأدبها ونسجت لنفسها برداً من روحها وتاريخها وتقاليدها وعاداتها ، بدلاً من أن تلتف بشق من برد غيرها لا تجد فيه دفئاً ولا قوة ولا جمالاً .

* * * *

وقد واجه هذا المذهب في الأدب نقداً ومعارضة ، تستمدّ قوّتها من معارضته للذوق العربي ومضاداته لذاتية الأدب العربي الذي يعتبر الإنسان سيّد الكائنات ويعلي من قدر عقله ووجدانه ، ويحاكمه الى مقاييس تختلف اختلافاً كبيراً عن المقاييس المادية التي تراه حيواناً او خاضعاً للجنس .

وقد سقطت نظرية خضوع الأدب للمذهب الاجتماعي والمذهب النفسي على السواء ، وتبين فساد الرأي الذي أعلنه الدكتور طه حسين في العشرينات من هذا القرن ، حين قال إنه يريد أن يدرس الأدب كما يدرس صاحب العلم الطبيعي علم الحيوان والنبات .

(ثالثاً) : أخلاقية الأدب .

من أبرز ما دعا إليه المذهب الأدبي الغربي الذي حمل لواءه المستشرقون ودعاة التغريب والشعوبية هو تحرير الأدب من طابع الأخلاق . ودفعه الى تصوير الغرائز والأهواء في غير ما قيد وذلك باسم حرية الأدب التي أطلق عليها «الفن للفن» .

ولقد بدأ هذا الاتجاه بظواهر ثلاث :

(١) الإفاضة في الحديث عن حياة بشّار وأبي نوّاس وغيرهما من شعراء الإباحة في العصر العباسي ونشر الجوانب الشاذة من أحاديثهم وأسمارهم على النحو الذي كتبه الدكتور طه حسين (حديث الاربعاء) .

(٢) ترجمة القصة الفرنسية الإباحية ، والكشف عن جوانب الصراع الحسّي في العلاقات الشاذة بين الرجل والمرأة وترجمة أشعار بودلير وغيره من شعراء الأدب المكشوف .

(٣) الإذاعة بمذهب حرية الأدب والدعوة إليه والدفاع عنه وفق منهج علمي زائف، بدعوى انه منطلق إنساني أصيل.

وقد استهدفت هذه الدعوة التي اتسع نطاقها وقامت من أجلها المناظرات والمحاضرات فضلاً عن ذلك الفيض الضخم من القصص الفرنسية المكشوفة التي جرى ترجمتها وتقديمها بأسعار زهيدة وإلقاؤها بين أيدي الشباب والفتيات.

وقد حفلت كتابات هذه الفترة بالاستخفاف بالقيم الأخلاقية والغمز لكل ما يتصل بالعقائد الدينية، والسخرية بالفضائل والبطولات، والدعوة الى الإطلاق بدون حرج والجرأة على المقدّسات، بل ان ذلك قد جرى تطبيقه في بيئات مختلفة منها بيئة العلم الأساسية.

* * * *

ولقد لقيت نظرية حرية الأدب معارضة الأخلاق نقداً واعتراضاً مصدره تعارضها مع طابع الأدب العربي أصلاً، وكشف الباحثون المنصفون عن أن حرية أبي نوّاس وبشّار وغيرهما لم يكن مصدرها الأدب العربي أو مفاهيم الإسلام الاجتماعية، وإنّما مصدرها تطلعاتهم الحسية وأهدافهم الشعوبية التي ارادوا إذاعتها والجهر بها لهدم مقومات الأدب العربي الأصيلة وإعلاء المفاهيم المجوسية والإباحية التي تحرّر منها الأدب العربي بعد الإسلام. ذلك أنه ليس في مفهوم الأدب العربي أصلاً ما قال طه حسين حين قال:

«خسرت الأخلاق وربح الأدب».

وقد واجه الدكتور محمد حلمي رزق هذه النظرية حين قال:

إن حرية الأدب لا جدال في اخلاقها، ولكن الخطأ في قصرها على عاطفة دون عاطفة او وجدان دون وجدان، فضلاً عن عاطفة الهوى، ووجدان الشك والمجون، وأكبر الخطأ أن يوحي إلينا طه حسين ان الأخلاق من مواضعات الحياة الجامدة كأنها وليدة الإرادة العمياء التي نادى بها شوبنهور، فهي فرص مكررة او لزام أعمى يقتضي الحرب والإنكار.

والقاعدة الأخلاقية ليست من قبيل المواضعات العمياء ، ولا الضوابط الجامدة ، وإنما شأوها شأو الفن ، وليدة التجربة العميقة التي يقع بها صاحبها على الصلات الحقيقية من الأشياء.

وشواهد الصلة بين الفن والأخلاق شائعة معلومة في تواريخ الآداب والفنون ونراها ماثلة فيما يجري بيننا وبين شعر المتنبي وأمثال شكسبير. على أن طه حسين حينما يصرف الأدباء عن الأخلاق إنما يقع في العيب الذي يأخذهم به ، فهو يشتطّ في نفي الحجر على الشاعر ويقع هو فيه ، وأي حجر أشدّ من الوقوف بالأخلاق والفضائل موقفاً بعيداً عن الفن؟ فلا ينبغي للأديب أن يقربها وإلّا كان أدبه (قديماً من قوارير) تصطلح عليه علل الكذب وادواء التصنّع ، وتنتفي عنه سمات العصرية او الأدب الحديث او الوجدان الديني يعد شأنه في الأدب شأن غيره من الأحاسيس ومشاعر النفس ، لا ينبذه ناقد ولا يكون له في قضية الحرية نصيب ، على أنه سيظل ماثلاً في الأذهان ان الحرية قد تفضي لا محالة الى ما دعا إليه طه حسين من الخروج على الأعراف والمواضعات وتنتهي الى التعبير الحر عن الأهواء والنزوات.

وخلاصة القول : ان دعوى الاختلاف بين الفن والدين او الأخلاق نشأت من اتباع نظرية الفن للفن. ومردّ الاختلاف الى اعتبار الفن نوعاً من التعبير لا أكثر ولا أقلّ ، فلا عبرة بالموضوع ذاته ، وانّما العبرة بمقتضيات التعبير ، فالفنان لا حجر عليه في تصوير ما يشاء من المشاعر والأحاسيس ، اتفقت ومواضعات الجماعة واعراف الناس ، أم خرجت عليها ، فالفن لا يخضع لغير قانون التعبير.

ومن هنا أيضاً نشأ التضارب وسار عليه طه حسين فيما اسلفنا من القول «خسرت الأخلاق وربح الأدب» وهو موقف يوحي به ظاهر المذهب وعنه شاع هذا الخطأ حتى أصبح تبريراً لكل تبذل مقصود ، وحجة يسوقها انصاف الفنانين بين يدي الاغلال يريدون ان يضفوا عليه ثوباً من المشروعية الزائفة ينفقونه بها في سوق الغباء الفني ، فغاية المذهب الحقة تخليص الأدب من القيم الدخيلة عليه ، ولم تكن قصاراه ان يقف من الأخلاق والأديان موقف التناقض والتدابر الذي وقفه طه حسين.

والحق أن محاكمة مثل هذه النظرية الى المفاهيم العلمية إنّما هو من قبيل تحصيل الحاصل، ذلك أن الدعاة الى هذه النظرية، وهم قد طبّقوها فعلاً في كتاباتهم إنّما كانوا يستهدفون غايات بعيدة، أعمق أثراً، ولذلك فلم يكن انتسابهم الى قواعد العلم والفن في هذا إلّا محاولة للخداع وتضليل البسطاء، ولكن الأمر كان محاولة لتحقيق جوّهم الاجتماعي الخاص الذي كانوا يعيشونه فعلاً متحرّرين من قيود الخلق والدين، ذاهبين الى أبعد حدود الانطلاق، ولم يكن من المعقول أن يمارسوا هذه الحرية ثم يقفوا من الأدب موقفاً يخالف ما يعتقدون ويمارسون.

ذلك أنّهم كانوا قد قرأوا عن بلزاك وجان جاك روسو واسكندر ديماس، وما كانت تحويه حياتهم الخاصة من فساد ونزق، وكانوا يتطلعون الى أن يكونوا كذلك هم، وشاعت بين الأدباء في هذه الفترة دعوة تقول: بحرية الأدب وحق الأدباء في مقارفة كل فنون الحياة ليتمكّنوا بالتجربة من الحكم على ما يجدونه في الكتب والقصص، ومن هنا كانت تلك الدعوة الى (لا أخلاقيّة الأدب) مظهراً حقيقياً وواضحاً وصريحاً في أدب الأدباء وحياتهم في هذه الفترة.

وقد سجّل الأستاذ محمد احمد الغمراوي موقفه في هذه الفترة من هذه الظاهرة[1] فقال: ان الذين يسمون انفسهم انصار التجديد يؤمنون بالغرب كله، ويريدون أن يحملوا الناس على دينهم هذا ولو خالف الإسلام في أكثره. هؤلاء يريدون من متابعة الغرب في السفور والاختلاط لينعموا بالحب كيفما شاؤوا. ثم ان انصار الجديد يضيقون ذرعاً بالقيود الأخلاقية التي قيد الدين بها الناس فيما يعملون او يقولون، ويريدون أن يتحللوا منها فيزعموا للناس أن هذه الأخلاق وقيودها إن هي إلّا عرف وتقاليد، وأن التقيد بالعرف والتقاليد في الفن والأدب يعوق الفن ويحول دون ترقي الأدب، فيجب إذن إطلاق الفن وتحرير الأدب من تلك القيود.

وهم يدعون الى الفن العاري والأدب المكشوف، ويدّعون للفنّان والأديب حرية في القول والعقل لم يأذن الله بها لإنسان.

---

(١) رصد هذا المعنى عام ١٩٢٦ في كتابه النقد التحليلي وفصله عام ١٩٢٧ في الرسالة بمناسبة وفاة الرافعي.

ويمضي أنصار الجديد في سبيل توهين السر الإسلامي الذي يجدونه قائماً في وجوههم أينما تلفّتوا، فيزعمون للناس من طرف خفي أن القرآن من صنع عبقري لا من صنع الله، وانّه آية فنيّة، ولكن آية فنية إنسانية لا معجزة إلهية، وإذن فينبغي أن يخضع لما يخضع له كل عمل إنساني من النقد والفحص والبحث العلمي فيما يزعمون. ويهب لدرء هذا الإفك العظيم كل كريم خير من رجال الأدب، ويقاتلونهم على إعجاز القرآن وحرمته وتقديسه ويدعونهم الى خطّة انصاف ليس من انصاف بعده «إمّا أن يتركوا القرآن وشأنه لا يتعرضون له بشيء إن كانوا لا يؤمنون به، وإمّا أن يذكروه ويدرسوه إذا قدروا على دراسته، ولكن بنفس روح الاحترام والاحتياط والجلال الذي يدرس به العلماء الشمس والقمر والنجم والبحر وما إليها من الظواهر الكونية الثابتة».

ثم يعرض الغمراوي لعلاقة الفن بالخير والشر، ويقول «كيف يجوز في غريزة او عقل او علم ان يجمع الإنسان بين الإسلام والحياة الفنية او الأدبية او العلمية ان لم يكن بين الفن والأدب والعلم وبين الإسلام تمام التطابق والاتفاق؟ والتطابق التام بين العلم والإسلام ثابت لا شك فيه. فليس من الثابت في العلم شيء ينقص شيئاً من الإسلام وليس في الإسلام أصل ينقض حقيقة ثابتة في العلم.

إن الفطرة كلها منشؤها واحد، هو الله سبحانه وتعالى، والعلم والدين كلاهما قد اجمعا على استحالة التناقض في الفطرة، فإذا كانت هذه الفنون من روح الفطرة كما يزعم أهلها وجب الا تخالف أو تناقض دين الفطرة: دين الإسلام في شيء.

فإذا خالفته في أصوله ودعت صراحةً أو ضمناً الى رذيلة من أمهات الرذائل التي جاء الدين لتخليص الانسان منها حتى يبلغ ما قدّر له من الرقي في النفس والروح، إذا خالفت الفنون الدين في شيء من هذا او في شيء غير هذا، فهي بالصورة التي تخالف بها الدين فنون باطلة، فنون جانبت الحق ودابرت الخير وأخطأت الفطرة التي فطر الله عليها الناس والخلق والتي تريد الفنون أن تكون منها في الصميم.

فإذا كان من شأن بعض ما يعمل او يكتب باسم الفن او الأدب أن يتجاوز في

تأثيره ما سبق فيحول بين الإنسان وبين ربّه ، ويدخل عليه الشك في دينه بأي صورة من الصور ، ولأي حدّ من الحدود ، كان ذلك البعض المعمول او المكتوب باسم الفن او باسم الأدب زوراً او إفكاً في الفن والأدب والفطرة والدين على السواء.

فنحن حين ندعو إلى وجوب نزول الفن والأدب على حكم الدين وروحه وتحريمها التطابق العام بينهما لسنا نتعنت ولا نتجنى ولا نتحكم في الأدب والفن بما لا ينبغي التحكم به فيهما. اننا نوجه معياراً للحق والصواب والخير في الفن والأدب ، ونيسر للفن والأدب طريق التثبّت من انطباقهما على الفطرة التي فطر الله عليها الناس ، ونحقق لهما بذلك اتحادهما مع الفطرة في التصميم ، ونحن حين ندعو إليه ونقول بوجوبه نحقق بين الفن والأدب وبين الدين تلك الوحدة المتحققة بين الدين والعلم.

فالمسألة في الأدب ليست مسألة لفظ ومعني فقط ، ولكنها في صحيحها مسألة روح ، فريق يريد أن يجعل روح الأدب روحاً شهوانياً بحتاً يتمتع صاحبه بما حرم الله وما أحل ، ولا يفرق بين معروف ومنكر ، ثم يصف ما لقي في ذلك من لذّة وألم او غيرهما من ألوان الشعور ، ويخرج ذلك للناس على أنه هو الأدب.

وفريق يريد أن يحيا الحياة الفاضلة في حدودها الواسعة التي حدّها الله و بمظاهرها المختلفة في الفطرة كما أظهرها الله ، لا كما دنّسها ويريد أن يدنّسها الإنسان.

والمقياس الذي انتهينا إليه في الفن والأدب ليس من البعيد على الفن والأدب ، بل هو من روح الفن والأدب في الصميم ، أليس روح الفن والأدب «الجمال»؟ أليس الجمال الفني روح الجمال الإنساني؟ أليس روح الجمال النفسي إخباته وإخلاده وإسلامه لله؟ من هذا الاخبات والاخلاد والانقياد لله تأتي الفضيلة ، والسلامة والسعادة في الحياة ومن محبة الله سبحانه يشيع في النفس الهدى ويشعّ منها النور.

كيف يمكن أن يكون للأدب المكشوف نصيب من روح الجمال الإنساني يستهوي النفس التي فيها بقية من الفضيلة والخير.

هنا الأدب المكشوف يصدم ، اول ما يصدم مقر الفضيلة في النفس ويؤذي

أوّل ما يؤذي حاسة الجمال النفسي في الإنسان وهو في صميمه أدب غير جميل، يلذه ويستمع به من مسخت نفسه فصارت تعاف الطيب وتستمرىء الخبيث.

هذا هو منطلق النظرة الصحيحة لمفهوم أخلاقية الأدب التي تثبت أنها أساس جذري في الأدب العربي لا سبيل للخلاص منه، وأنه مهما انحرفت مفاهيمه في ظل هذا الغزو فإن طابع الأدب العربي الأصيل لا بدّ ان يغلب أخيراً ويسود. ا. هـ.

(رابعاً): أسلوب الشك.

برز هذا الأسلوب في هذه المرحلة من حياة الأدب العربي، واستشرى وهو ليس في الحقيقة من طبيعة الأساليب العربية التي تؤمن أساساً بالوضوح، والتي تشك حقاً، ولكنها تضع الى جانب الشك: «اليقين» فلا تدع الشك عائماً ولا تترك التساؤلات بدون إجابة مقنعة؛ فاليقين أصل أساسي وعميق في الأدب العربي.

وهو أسلوب ماكر من أساليب الغزو الثقافي أريد به إدارة الأبحاث الأدبية والعلمية والتاريخية كلها في دائرة اللاإدارية والتشكيك والتهكم والسخرية، بحيث يرى القارىء أنه إزاء جو مغرق في الاستهانة والاحتقار لكل ما يتناوله.

يقول الدكتور طه حسين في بحث له العبارة الآتية:

«أخضعت للشك (دون أن أمس الدين) بعض المعتقدات التي ورد ذكرها في القرآن وأحاديث الرسول».

أي اسلوب في المكر والتضليل أبعد من هذا حين يعترف بأنه أخضع بعض المعتقدات التي ورد ذكرها في القرآن للشك؟ وكيف أنه حين فعل ذلك لم يمس الدين الذي هو مصدر الاعتقاد، والذي هو منطلق كل ما ورد في القرآن؟

وقد سجل كثير من الباحثين هذه الخاصة التي عمد الى إذاعتها (طه حسين) في الأدب العربي كله فيقول الدكتور عمر فروخ: إن من أبرز معالم أدبه تردده بين المفهوم وغير المفهوم والمنحول والثابت، والممكن وغير الممكن، ولم تره في كتاب إلّا داعية للشك ولا في مقالة إلّا آخذاً بالظن، لم يثبت في حياته شيئاً، بل كان ينفي ما

يثبت نفسه بنفسه وهو يكتب (لعل ، ربما) ويقول رأيه على التأويل والدوران والتغير. ويقول فتحي غانم : إن لغة الدكتور طه لا تقطع في شيء أبداً ، بل هي مرنة تصلح للّف والمداورة ، ولا تصف شيئاً بأنّه أقرب ما يكون الى السواد أو أقرب ما يكون الى البياض.

وقد أشار العقاد الى هذا المعنى فقال ، هناك النقيضة الظاهرة في أسلوبه بين الحزم والتشكيك ، ان أخصب ألفاظ للشك ، في كلامه من أمثال : ازعم ، قد أزعم ، ولعله يكون ، ولعله لا يكون ، ربما ضحكت ، ربما بكيت ، وتحسبه في الشك لا يستقر على شيء.

* * * *

وقد حاول الدكتور طه حسين ان يعتمد على ما أسماه مذهب ديكارت في اذاعة هذا الأسلوب ، ولكن يبدو انه لم يكن يصدر عن أساس علمي أصيل ، وانما هي محاولة مظهرية خادعة لخلق أرضية لإثارة الشبهات حول كل القيم والعقائد والمفاهيم التي يقوم عليها الأدب العربي بل الفكر الإسلامي نفسه ، وقد ركّز الدكتور طه في اعتماد ما أسماه مذهب ديكارت على اعتقاد أن أحداً لن يناقشه في هذه الآراء.

ولكن الدكتور محمد احمد الغمراوي خرّيج جامعة لندن في الكيمياء قد تصدّى له بوصفه من أعلم الناس بمذهب ديكارت وكل ما يتصل بالعلوم ، وقد كشف عن أن طه حسين كان بعيداً عن الحق في اعتماده على ما اسماه مذهب ديكارت.

وقال : إنه (أي طه حسين) زعم أن (مذهب ديكارت) من الشهرة بحيث لا يجهل أحد من الناس ما اسماه القاعدة الأساسية لمنهج ديكارت ليتذرّع به الى الانسلاخ من كل قديم حتى من هذه اللغة التي هو أستاذ لآدابها ، وليتخذه ذريعة يرمي من ورائها هذه اللغة وما اتصل بها حتى إذا قيل له : لم فعلت ما فعلت ! وهل يفعل هذا عاقل ، قال فعله قبلي ديكارت.

لقد كان شك ديكارت شك الفتى الغرير لا العالم الخبير.

ولقد خلط الدكتور طه بين الشك وبين المخرج من الشك، فجهل الشك، القاعدة الأساسية للمنهج الذي ابتغى ديكارت ان يخلص به من الشك في بعض ميادين البحث الى نتائج عظيمة.

وأشار الدكتور الغمراوي الى خطأ طه حسين قال: إن القاعدة الأساسية لهذا المنهج هي أن يتجرّد الباحث من كل شيء كان يعمله من قبل، وأن يستقبل موضوع بحثه خالي الذهن مما قيل فيه خلواً تاماً.

وذلك ليس من قواعد المنهج، وإن حقيقة ما قال ديكارت هو:

(١) أن لا نقبل قط شيئاً على أنه حق من غير أن نكون على بيّنة من أنه كذلك، أي أن نتجنّب العجلة والهوى وألّا نضمن قضايانا في الحكم أكثر مما يتمثّل للعقل تمثّلاً هو من التميز والوضوح بحيث لا يبقى لدينا للشك مجال.

(٢) أن نجزىء كل مشكلة نمتحنها الى أكثر ما يمكن او الى ما يتطلبه حل المشكلة من الأجزاء.

(٣) ان نسير في تفكيرنا على ترتيب ونظام فنبتدىء بأبسط الأشياء وأسهلها معرفة لنرتقي بالتدرّج الى علم اعقدها.

هذا ما ذكره ديكارت وهو منقول من أصدق مؤرّخيه وتلاميذه، وليس فيه شيء مما ذكره الدكتور طه، ما اشترطه من نسيان الدين والقومية وغيرها، وهذا المنهج الديكارتي في الحق منهج من مناهج المعرفة الإسلامية.

يقول الدكتور الغمراوي: الواقع أن كلّاً من ديكارت وبسكال مسبوق الى ما عرف باسمه من قواعد النظر، سبقهما الغزالي على الأقل. وسبقهما قبل ذلك بقرون كما تشهد بذلك كتبه مثل (محك النظر، معيار العلم).

والغرب معذور حين ينسب بعض تلك القواعد الى ديكارت وبعضها الى باسكال فهما أوّل ما اظهراه عليها، ولكن ما عذر الدكتور طه حسين حين ينسب الى ديكارت منهجاً سبق إليه الغزالي؟ ألأنّ الدكتور يجهل مذهب الغزالي في النظر، أم لأن الغرب نسبه وهو للغرب تابع؟.

ثم يقول الدكتور الغمراوي: إنه ليس بين هذا الذي قاله ديكارت وبين ما زعمه الدكتور طه حسين من وجوب تجرّد الباحث من كل شيء كان تعلمه عن موضوع بحثه من قبل، فإن كل الذي في القاعدة الأولى من معنى هو أنه يجب علينا ألّا نقول عن شيء إنه حق، إلا إذا قام البرهان على أنه كذلك، وشتّان بين هذا المعنى والمعنى الذي زعمه الدكتور من وجوب التجرّد من كل ما قيل في موضوع البحث من قبل، إذ من الجائز أن يكون ما قيل قد قام البرهان على صحته، ثم بدهي أن تلك القاعدة ليس معناها أن يتولى كل إنسان أثبات كل شيء لنفسه بنفسه كما تقتضيه القاعدة الأساسية التي زعم الدكتور، لأن ذلك سخف لا ينتج عنه إلّا التأخر والخطأ والفوضى، ولا شك أن هذا كله يشهد على صاحب الأدب الجاهلي بألا يمكن أن يسمى إلّا جهلاً بديكارت وافتراء عليه.

(خامساً): الأدب ومكانه من دائرة الفكر.

كان من نتائج الدعوة الى فصل الأدب عن الفكر (الدين والقومية وغيرهما) أن استطال الأدب واندفع يشق طريقه الى مختلف قطاعات الفكر ليقول فيها دون دليل واضح او دراسة عميقة، فقد اتجه الأدباء الى مجال الفقه والتاريخ والفلسفة والعقائد والأخلاق ليصدروا فيها أحكاماً جريئة مستمدّة من نظرتهم الأدبية المتأثرة بمذاهب الغرب في التحلل من مختلف القيود، وكانت هذه محاولة لإفساد كل المناهج.

وقد واجه هذا الاتجاه معارضة وردا في سبيل تحديد دائرة الأدب، ودفع خطر التداخل بين دوائر النشاط العقلي المختلفة وكف عدوان بعضها عن بعض، العلامة فريد وجدي الذي تصدّى لهذا الأمر وكشف عنه في بحث عميق:

«لسنا[1] ننسى ما جره تدخل الأدباء فيما ليس من اختصاصهم في العشر السنين الأخيرة في المباحث الدينية، فقد تناولوها على طريقة الماديين وأثاروا فيها شكوكاً لا محل لها. فكان من أثر ذلك أن هاج الناس عليهم هياجاً مشروعاً.

---

(1) نشر هذا البحث عام ١٩٢٣ في جريدة الأهرام.

فقد رأيناهم يثيرون شكوكاً لا تتّجه الى الدين الذي بين أيديهم ، ويجرون في مباحثهم التاريخية والاجتماعية على غير الأسلوب العلمي من التحقق والتمحيص ، ولو أنهم تركوا هذه المباحث للأخصّائيين فيها لكان خيراً لهم ، ولكن الوهم السائد اليوم من أن الأديب له أن يتناول بالبحث كل شيء هو الذي يورطهم في بحوث لو وجدت نقاداً أقوياء لألحقوا بأدبهم ضرراً بليغاً.

وقال العلامة فريد وجدي : إن للأدب امتيازاً خطيراً منحه اياه العرف البشري منذ نشأته ولا يزال يعترف له به الى اليوم ، وهو تركه حراً يجول حيث شاء ويجري وراء الخيال في أية باحة أراد ، فبينا ترى الناس واقفين بالمرصاد للفلاسفة والعلماء يحاسبونهم على الفتيل والقطمير ، فيما يقولونه ويكتبونه ، تراهم إزاء الأدباء على أتم ما يكونون من التسامح . فهم يسيغون منهم كل المتناقضات ، جدهم وهزلهم ، تصوفهم وتهتكهم ، اعتدالهم وغلوهم ، حتى الحادهم وكفرهم ، ثم قال : إن التواضع على بذل هذه الحرية للأدباء حشر الى زمرتهم كل ثرثار مغمور ، وكل متكلف مغرور ، وكل إباحي ممرور ، ومقهور وعاهر ، ممن جعلوا الأدب مسرحاً لأخسّ الرعونات النفسية وداعيا الى أحط الميول الشهوانية.

ثم صور فريد وجدي غاية الأدب فقال : إن غاية الأدب تبليغ الناس ما في الحياة والوجود من حق وباطل ، وجميل وقبيح ، وخير وشر ، فإن الحياة والوجود مسرح كل ذلك بدليل أن كثيراً من القطع الأدبية في القديم والحديث قد بالغت في الباطل والقبح والشر الى حدّ أن أنكرت معه الحق والجميل والخير.

ثم أشار إلى دائرة الأدب ، وقال إن الأدب لو تجاوز دائرة اختصاصه كان أداة شرّ في أيدي محترفيه . وقال : في رأيي ورأي كل غيور ان الأدب يجب أن يخضع لقانون الأخلاق القائم على حراسة الاجتماع.

وعنده أن ما يخرج من دائرة اختصاص الأديب تحليل عاطفة الدين :

يقول : فما للأدباء وتحليل عاطفة الدين؟

وكيف يرجى من أديب كل همه مصروف الى تحليل عاطفة الهوى ودرس كل ثمارات الجوى وتصوير وقع الوعود الكاذبة وفضول العذال واللاحين، وعدوان المنافسين والمعاكسين ان يتناول بالبحث أعلى عواطف النفس وهي عاطفة الدين، بمثل اسلوبه الذي مرن عليه واستولى على شعوره؟ وهي تستدعي أسلوباً يجافي ذلك الأسلوب، ولا يمت إليه بصلة من درس النفس في حالة عزوفها عن الشهوات وترفعها عن الغرائز.

(سادساً) : الاعتماد على المصادر الزائفة.

من أكبر الأخطار التي واجهت الأدب العربي من خلال المذاهب والنظريات الوافدة على أيدي دعاتها وحملة ألويتها : مسألة المصادر والرأي في كتب المحاضرات وما سجّله الرواة والقصاصون من أخبار، وهل تصلح كمصادر علمية يمكن الحكم عن طريقها على الأمم والمجتمعات حكماً صادقاً لا شبهة فيه.

ومن اليقين الذي لا شك فيه أن كتب المحاضرات وروايات القصاص ليست مصادر علمية صحيحة، وإنما هي مراجع زائفة اعتمد عليها خصوم الأدب العربي والفكر الإسلامي من أجل ترويج آراء كاذبة مضلّلة، ذلك أن هذه المؤلفات لم يكتبها علماء موثوق بهم ولم تكتب وفق أصول العلم والبحث، وإنما كتبت للتسلية والترويج، وقصد بها جمع الفكاهات والنكات والاحاجي والقصص الصادقة والكاذبة لإغراق المجتمعات بالأوهام والأباطيل.

وقد ارتفع صوت العلماء المحققين في هذا العصر بالتحذير من هذه المصادر الزائفة التي تجمع أخبار الندماء والجلساء والمغنين والمضحكين أمثال ما كتب اسحق بن ابراهيم الموصلي وابن خرداذبه، والمروزي وابن المرزبان وكذلك ما كتبه أبو بكر الصولي، الذي كان من ندماء الراضي والمكتفي والمقتدر وعرف بأنه من الظرفاء الجماعين، وقد مات مستتراً بالبصرة لأنه روى خبراً عن علي عليه السلام فطلبته الخاصة والعامة لقتله، وله من الكتب كتاب الأوراق في أخبار الخلفاء والشعراء.

ومن هذه الكتب ثمار القلوب للثعالبي، فالثعالبي مهما علت منزلته في الأدب

فليست له منزلة ما في فن الحديث ، ونقد رجال الرواية وهو أديب يحبب الفكاهة ويروي النكتة ، وليس له اهتمام ما بالتمحيص والتحقيق . ولقد كان هؤلاء الكتّاب جميعاً الذين الفوا في هذا الباب من الزنادقة وعلى رأسهم « الأصفهاني » صاحب الأغاني الذي قال عنه النويتجي إنه أكذب الناس لأنه يدخل سوق الورّاقين فيشتري منها كثيراً من الصحف ثم يحملها الى بيته ثم تكون رواياته كلّها منها .

وقد ظلّت هذه المؤلفات مجهولة ضائعة حتى جاء المستشرقون والمبشرون في العصور الأخيرة ، فأعادوا طبعها وأذاعوها في العالم العربي كلّه ، وأخرجوا أغلبها في طبعات فاخرة ، وأوعزوا الى تابعيهم من دعاة التغريب الإشادة بها والنقل عنها واعتمادها مصدراً من مصادر التأليف .

وكان أخطر من تصدّى لذلك الدكتور طه حسين الذي ظلّ أكثر من ثلاثين عاماً ينقل من الأغاني ويشير إليها ويوعز إلى تلاميذه والى الأدباء باعتبارها مصدراً من مصادر البحث .

وكان لكتاب ألف ليلة نفس الأثر ، وقد أولى الاهتمام به عدد كبير من المستشرقين ووصفوه بأنه أعظم مصدر لتصوير المجتمع الإسلامي ، وكانوا في ذلك من الظالمين .

يقول أحد الباحثين : عجبت من جعل كتب الأدب التي يُقصَد بها عادة الى الفكاهة ميزاناً يوزن به رجال التاريخ وتؤخذ منه تراجم العظماء ، ودهشت من جعل ما كان يفعله خلفاء العرب وقضاتهم على فرض ثبوته آية على تجرّد العرب من الحضارة ، ولو جعل آية على تجرد أولئك الخلفاء والقضاة أنفسهم من الفضيلة لكان أقوم سبيلاً .

ولا شك أن مثل هذه المراجع والمصادر لا تكون صالحة لإصدار أحكام عامة وتاريخية وحاسمة على النحو الذي أصدره الدكتور طه — وهوليس بمؤرّخ — اعتماداً على كتاب واحد هو الأغاني وعلى مجموعة من الشعراء الماجنين أمثال : (ابي نواس وبشّار والضحاك وحماد عجرد) لأنه يقول : إن القرن الثاني للهجرة كان عصر شك

ومجون، وليس (الأغاني) في حقيقته مصدراً تاريخياً او مرجعاً علمياً يمكن عن طريقه التماس الأحكام الحاسمة، وليس مجموع الشعراء الماجنين يحكم على عصرهم في قلّة قليلة الى جوار العلماء والفقهاء والفلاسفة والصوفية والزهاد.

وقد اعتمد طه حسين في اصدار هذا الحكم على مجموعة من شعر الشعراء الماجنين يقول: إن هؤلاء الشعراء كانوا يمثلون عصرهم حقاً، وكانوا أشد تمثيلاً وأصدق لحياته تصويراً من الفقهاء والمحدثين وأصحاب الكلام.

وقد عارض هذا الرأي كثيرون حتى قال تلميذه الدكتور زكي مبارك: إنه رسم لوحة خلق معدنها من الكذب والتمويه وصنعت مادتها من الضلال والبهتان، وقال: إن شهوة الإطلاع في نفسه لاكتشاف الجوانب السيئة في حياة الشعراء والكتاب خلقت في كتابه جواً من المجون.

وقال إن الدكتور يستقي آراءه في العصر العباسي من مصدرين:

الأوّل: كتاب الاغاني والثاني شعر الماجنين من الشعراء، أما شعر الأغاني فصاحبه يحدّثنا في مقدّمته بأنه قصد من كتابه اللهو والتسلية قبل أن يقصد العلم والتاريخ. أما شعر الماجنين وحياتهم فلا ينهضان دليلاً على فساد عقيدة عصر وأخلاقه.

قال الشيخ محمد عرفة: ليس معنى الحكم على عصر بأنه عصر شك واستهتار أنه قد وجد فيه الشك والاستهتار إذ لا يخلو من ذلك عصر من العصور، وإنّما المعنى أن الروح العامة فيه الشك والاستهتار وأن غالب أفراده الشاكون والمستهزئون. وكذلك الحكم على عصر بأنه عصر يقين واحتشام.

ولقد توصلت الى حكمك العام على العصر الثاني باستقراء حال طائفة من الأدباء والشعراء المترفين فرأيت فيهم الشاك والماجن فاخذت العصر بجريرة هؤلاء وحكمت بأن العصر: عصر شك ومجون، وان تصفح طائفة ووجدانها على صفة لا يعطي منطقياً الحكم على عصرهم جميعاً بأن فيه هذه الصفة، ولو كان ذلك الاستقراء

القليل متتجاً لذلك الحكم العام لخرجنا بحكمين متناقضين على ذلك العصر وعلى غيره من العصور.

وقال : إننا إذا تتبعنا سيرة الفقهاء والمحدثين والزهاد في هذا العصر وجدناهم على مرتبة عريضة من اليقين والورع والزهد والاحتشام منهم : الحسن البصري ، وعمرو ابن عبيد ، ومحمد بن ادريس الشافعي ، ومالك بن أنس ، وابو حنيفة النعمان ، ومالك بن دينار وعبد الله بن المبارك وربيعة الرأي ، ورابعة العدوية وابن سيرين والشعبي.

وما منهم إلا من ملك نفسه وكان أنفع الناس للناس وسيرتهم في العلم والزهد والتقوى يعرفها من عني بدرس حياتهم.

فطائفة العلماء والفقهاء والمحدثين والزهاد مؤمنون محتشمون ، وطائفة الشعراء والأدباء فيهم شك واستهتار. فإذا أردنا أن نحكم على العصر يلزمنا أن نعرف : أطائفة الفقهاء والزهاد والمحدثين هم الذين يمثلون عصرهم ويعطون صورة صحيحة عنه أم طائفة الشعراء؟

إن القارىء للأغاني يخيل إليه من كثرة ما يذكر من مجون هؤلاء ، أنهم في جو يسيل فسقاً ومجوناً والحاداً ، ولكن لو تذكر أن صاحبه إنما عني بتاريخ طائفة واحدة فقط هم الشعراء والمغنون ، وليس ذلك تاريخاً لسائر العصر لحمى نفسه من التورّط في ذلك الحكم ، وإن هناك عوامل خاصة جعلت كثيراً من الشعراء المستهترين ماجنين.

ونحن نقرأ فيما نقرأ أن هؤلاء الشعراء كانوا يرون أنفسهم غرباء بتخلفهم عن ذلك العصر وأنهم شذاذ فيه ، وكانوا يسعون بكل ما لديهم المحو القالة عنهم.

* * * *

ولا شك أن اصدار مثل هذه الأحكام إنما يدخل في ذلك المنهج الجديد الوافد الذي التمس أصوله من الفلسفة المادية أساساً ، والذي اعتمد المنهج الديكارتي الاعتماد الذي صور الإنسان حيواناً أو المنهج النفسي الذي صوره متهالكاً على

اللذات ، وانه جرى وراء المذهب اليهودي الذي أذاعه «دوركايم او فرويد» والذي يهدف الى تعرية البطولة ، والسخرية بالأبطال وتلمس العورات لهم وذلك في نطاق تدمير كل مقومات الأدب العربي ، وبطولات الإسلام والعرب ، حتى لا يجد المثقفون في بطولاتهم ولا تاريخهم ولا أدبهم ما يلتمسون من مثل أعلى وبذلك يرتدّون الى بطولات الغرب فيعجبون بها.

ونحن بينما نأخذ هذا المنهج الجديد فندمر به بطولاتنا من أمثال : الغزالي والمتنبي وابن خلدون يكبر الأوربيون أبطالهم وأعلامهم.

وقد عني بهذا المعنى العلامة رفيق العظم حين قال في الردّ على طه حسين : مما يلفت النظر ويستدعي التمحيص والحذر في ذلك الحديث (يقصد حديث الأربعاء) حكمكم أن أبا نوّاس ومن في طبقته او على شاكلته من الشعراء كانوا مثالاً صادقاً للعصر الذي عاشوا فيه ، وأن الرشيد والمأمون ذهبا من الشك والاستمتاع باللذائذ في ذلك العصر مذهب أبي نواس وأخذا به من شعر المجون ، وقد سردتم طائفة من الشعر والأخبار المنسوبة إليهم واستنتجتم منها ذلك الحكم الذي يحتاج الى تمحيص كثير.

وقال : ان الحقائق التاريخية ولا سيما في تاريخ الإسلام تشبه الدر الملتى بين أشواك يحتاج من يريد استخراجه من تلك الأشواك الى أناة وروية ونظر في وجه السلامة من أذى الشوك.

والحقيقة التي ينبغي أن تقال ان التنازع السياسي بين الشيع أدخل من روايات بعض الاخبار شوائب في التاريخ الإسلامي ليست منه في شيء ، فإنّما هي من وضع المتزلفين لبيوت الإمارة والملك او المتشيعين لبعض المذاهب السياسية والدينية.

ولا أظنّني مخطئاً اذا قلت إن ما نقل من هذا القبيل عن أبي نواس وأضرابه من شعراء ذلك العصر ، ويسميه الدكتور طه عصر الشك والمجون ويتخذه دليلاً على حكمه على أهل ذلك العصر إنما هو تلفيق عفن يراد به أحد أمرين : امّا تشويه سمعة بعض الخلفاء العباسيين كالرشيد والمأمون ، وامّا سدّ تهمات العامة الى أمثال تلك

القصص المخزية والروايات الملفقة ، على أنه لو صحّ شيء لما كان لنا أن نتّخذه دليلاً على شيوع الفحش والمجون والشك بين أهل ذلك العصر ، لأنه مجون لا يجوز أن يتعدّى الماجن مهما كان ، الى النيل من سواه باسم المجون.

* * * *

ويصور الاستاذ ابراهيم عبد القادر المازني هذه النزعة التي حاول الدكتور طه حسين إدخالها في الأدب العربي الحديث كأسلوب لنقد الأدب العربي القديم ، واتخاذه وسيلة للطعن في الأمة العربية وفي تاريخها وفي الإسلام ومقوماته جميعاً فيقول :

لقد لفتني من الدكتور في كتابيه (حديث الاربعاء) وهو ممّا وضع (وقصص تمثيلية) وهي ملخصة ، أن له ولعاً بتعقب الزناة والفساق والفجرة. وقد ينكر القارىء أنه أدخل القصص التمثيلية في هذا الحساب ويقول : إنها ليست له ، وإنه كان ما له فيها أن ساق خلاصة وجيزة لها وهو اعتراض مدفوع ، لأن الاختيار يدل على عقل المرء ويشي بهواه ، كالابتكار سواء بسواء ، وإنما يختار المرء ما يوافقه ويرضاه ويحمله عليه اتجاه فكره حتى لا يسعه أن يتخطاه ولست بمازح حين انبّه الى ذلك.

« ها هو حديث الأربعاء : ماذا فيه ؟ كلام كثير عن العصر العبّاسي ؛ وللعصر العباسي وجوه شتّى ، وفي وسعك أن تكتب عنه من عدة جهات ، وأن تتناول فلسفته ، او علمه ، او شعره ، وجده أو هزله ، ولكن الدكتور طه يدع كل جانب سوى الهزل والمجون ، ويروح يزعم لك أنه عصر مجون ودعارة وإباحة متغلغلة الى كل فرع من فروع الحياة ، فلماذا بل قل لماذا لا يرى في غير الماجنين والخليعين صورة منه. ولست افتري عليه فإن القائل في الصفحة السابعة والعشرين من كتابه : ادرس هذا العصر درساً جيّداً واقرأ بنوع خاص شعر الشعراء وما كان يجري في مجامعهم من حديث تدهشك ظاهرة غريبة هي ظاهرة الإباحة والإسراف في حرّية الفكر وكثرة الازدراء لكل قديم سواء أكان هذا القديم ديناً أم خلقاً أم سياسة أم أدباً ».

ولم يكف الدكتور طه أن يعمد الى طائفة معيّنة من شعراء العباسيين، وأن يرسم من سيرتهم صورة يزعمها صورة العصر، بل هو ينكر أن غير هؤلاء من العلماء او الشعراء يمثل العصر العباسي واقرأ له قوله في ص ٥٠ من هذا الكتاب «فقد بينّا في هذا الحديث ان هؤلاء الشعراء كانوا يمثلون عصرهم حقّاً، وكانوا أشدّ تمثيلاً وأصدق لحياته تصويراً من الفقهاء والمحدّثين وأصحاب الكلام، وأن هؤلاء العلماء على ارتفاع أقدارهم العلمية ومنازلهم الاجتماعية والسياسية، وعلى أن كثيراً منهم كان ورعاً مخلصاً طيّب السيرة لم يأمنوا أن يكون من بينهم من شك كما شك الشعراء ولها كما لها الشعراء واستمتع بلذّات الحياة «في سر» كما استمتع بها الشعراء في جهرهم».

وهل يقف الدكتور هنا ويقنع بهذا القدر! كلا يا سيدي! بل يجري الى آخر الشوط ويقول في الصفحة ٣٩ من كتابه: خسرت الأخلاق من هذا التطور وربح الأدب فلم يعرف العرب عصراً أكثر فيه المجون واتقن الشعراء التصرف في فنونه وألوانه كهذا العصر، ثم كان من كثرة المجون أو بعبارة أصحّ كان فساد الخلق في هذا العصر والعصور التي وليته أن ظهر منه جديد في الغزل لم يكن معروفاً في الجاهلية ولا في صدر الإسلام ولا في أيام بني أميّة، وإنما هو أثر من آثار الحضارة العباسية، وهو أثر أنشأته هذه الحضارة الفارسية عندما خالطت العرب او عندما انتقل العرب إليها فاستقل سلطانهم في بغداد، وهذا الفن الجديد هو الغزل بالغلمان الذي سنحدثك عن خصائصه في غير هذا الفصل.

وإذا سمعت رجلاً يقول ان الاخلاق فسدت وخسرت وان الأدب ربح من وراء ذلك أفلا ينهض لك العذر إذا قلت أنه ينفح عن هذا الفساد ويسوغ هذه الخسارة؟ نعم بلا ريب، وأنت تحسّ من كلامه الرضى والارتياح. ومن الذي لا يشعر بذلك حين يقرأ قوله في عقب ما سقنا لك «إنما الذي يعنينا الآن أن هؤلاء الناس الذين وصفنا لك ما وصلوا إليه من شك في كل شيء واسراف في المجون واللهو كانوا يجتمعون ويجتمعون كثيراً أكثر مما كان يجتمع أسلافهم، وكانت اجتماعاتهم ناعمة غضة فيها اللهو وفيها الترف، وكانوا لا يجتمعون إلّا على لذّة، إلّا على كأس تدار أو إثم يقترف، وكانت اللذّة والاثام حديثهم إذا اجتمعوا، يتحدّثون فيها شعراً ونثراً

وكان الدين واللغة والفلسفة حديثهم أيضاً . ولم تكن اجتماعاتهم تخلو دائماً من النساء الخ ... »

ثم يمضي يورد سير أبي نوّاس ومن إليه مثل الوليد بن يزيد ومطيع بن اياس وحماد عجرد والحسين بن الضحاك ووالبة بن الحباب وأبان بن مروان ابن أبي حفصة ، ويقول في بيان الحكم على ذلك أنه لا يريد أن يكتفي بالقول «بأن القرن الثاني للهجرة على كثرة من عاش فيه من الفقهاء والزهاد وأصحاب الشك والمشغوفين بالجد إنما كان عصر شك ومجون وعصر افتتان وإلحاد عن الأخلاق المألوفة والعادات الموروثة والدين أيضاً.

وليس عندي شك في أن هذا العصر ، لم يكن عصر إيمان ويقين في جملته ، وإنما كان عصر شك واستخفاف ، وعصر مجون واستهتار باللذات».

ويقول المازني : إنه ما من عصر يمكن أن يكون له جانب واحد كما يريد ان يصور لنا العصر العباسي ، وإنه لم يخل زمن قديم او حديث من مثل ما يصف الدكتور.

وقد أطلنا في نقل النصوص من المراجعين لآراء الدكتور طه لنكشف عن حقيقة واضحة هي ان ما وصف بأنه منهج أدبي حديث لم يكن في الحقيقة الّا محاولة لإغراق الأدب العربي في بحار من التغريب والشعوبية ، وتدمير كامل لمقوّمات هذه الأمة من خلال السبح في بحار كتاب الأغاني واعتماذه أساساً لرسم صورة اجتماعية للأمة العربية ، وهي صورة زائفة مغرضة مضطربة بعيدة عن كل مناهج العلمية والنظرة المنصفة.

ويحاول العلامة فريد وجدي تصوير هذا الاتجاه القائم على :

(١) اقحام الأدب نفسه في مختلف دوائر النشاط العقلي المختلفة.

(٢) إخراج الأدب نفسه من الخضوع لقانون الاخلاق القائم على حراسة المجتمع فيقول : ان واحداً من الأدباء انتدب لإلقاء محاضرات عن الأدب في العصر

الأموي فكان ممّا قاله : ان الخليفة الوليد بن يزيد إنما قتل لأنه كان يودّ أن يعيش على ما يقتضيه فن الحضارة فكان جزاؤه أن لقي حتفه.

ويعلّق العلامة فريد وجدي على هذا الرأي فيقول : ان ايراد التاريخ على هذا الوجه جناية على التاريخ وعلى حقائق الاجتماع ، ويشين الدين الذي ينتمي هذا الخليفة إليه ، ويسيء الى سمعة الشعب الذي ينزل هذا العقاب الوحشي برجل لا جناح عليه إلّا أنه يريد أن يعيش عيشة حضرية ، فالذين لم يدرسوا تاريخ بني أمية دراسة علمية يصدّقون هذا الحديث ويستنكرون ما حدث له ، ويحكمون على شعبه بأنّه وحشي جاهل ، وعلى الذي يأخذ به بأنه خشن قاسٍ ، والحقيقة أن الوليد هذا كان متجرّداً للهو والبطالة ، شغوفاً بالفسوق والإباحة ، مستخفاً بالدين ، مجاهراً بالكفر ، فهل هذه السيرة المعوجّة من اهمال الرعية والانقطاع للهو والقصف والفجور ، تعتبر من مقتضيات الحضارة.

وقد استطرد الى ذكر الامين بن هرون الرشيد فقرنه الى الوليد في أنه ذهب هو أيضاً شهيداً لإيثاره الحياة الحضرية ، والواقع أن الأمين هذا كان على مثال الوليد في التجرّد واللهو والفجور ، وتعطيل مهام الخلافة ، فهل في حياة الحضارة أن يهمل الخليفة واجباته الحكومية وينغمس في حمأة الرذائل ويذهب في الاستحفاف بالأمة هذا المذهب.

إن التاريخ الإجتماعي لأمة كالأمة الاسلامية بلغت الى أوج العظمة الإجتماعية في جميع ضروب الحياة الفاضلة ، وحفظت تراث العالم من العلم والحكمة والمدنية قروناً متوالية حتى أصبحت معلمة العالم أجمع لا يصح أن يورد على أسلوب قصصي من هذا النوع.

فهذا الكلام إذا لم يكن قد سبق به على هذا الوجه بقصد الإساءة لتاريخ المسلمين الاجتماعي ، فهو يدل على خلو من روح التحقيق العلمي ، ويقيم دليلاً محسوساً على صحة ما يقول من أن الأديب لا يجوز له أن يعدو طوره ، وأن يتدخل فيما ليس من اختصاصه من المباحث الاجتماعية والشؤون الدينية.

(سابعاً) : أدب الأساطير وسيرة الرسول .

لم يعرف الأدب العربي الأساطير من حيث إن الفكر الاسلامي في أصوله الأصيلة يقوم على الحقيقة ، والوضوح . والأدب العربي يعيش في الضوء الواضح والشمس المسرقة ، والصحراء الواسعة ، والأفق المنبسط ، حيث تقوم الأساطير في اجواء بين النور والظلام وبين الظلال والأضواء ، ومن هنا لم يعرف الأدب العربي —وخاصةً بعد الإسلام— مثل تلك الأساطير التي عرفها الأدب الاغريقي وآداب الفرس واليهود والهنود .

ولقد كان دعاة التبشير والاستشراق يدعون الى أمرين : يحرّضون أعوانهم على إيجادهما في الأدب العربي وهما لم يوجدا فيه : الأول هو كتابة القصة ، والثاني إيجاد أساطير عربية إسلامية .

ولقد تصدّى الدكتور طه حسين لهذا العمل حين كتب «على هامش السيرة» تحقيقاً لهذا الهدف حيث خلط نصوص سيرة الرسول الموثقة بتلك الروايات المختلفة التي كانت تروى حول حياة العرب قبيل ولادة الرسول وبعثه ، ممّا جمعه الدكتور طه وتصرف فيه بالزيادة والنقص تحقيقاً لهذا الهدف حيث قال : أُحبّ أن يعلم الناس أنّي وسّعت على نفسي في القصص ، ومنحتها من الحرية في روايةالأخبار واختراع الحديث ما لم أجد به بأساً ، إلّا حين تتّصل الأحاديث والأخبار بشخص النبي او بنحو من الدين . وقد صور الدكتور هيكل خطر هذا العمل حين قال [ إن طه إنّما سلك في هامش السيرة طريق كتاب الغرب ممن يتحدثون عن الأساطير القديمة ، ينشرونها ويزينونها ، وطه إنما قصد الى إحياء أدب الأساطير حين أملى هذا الكتاب ] .

ويرى أن بين كتاب هامش السيرة وبين كتاب الأدب الجاهلي —وكلاهما للدكتور طه— صلة ونسب : «فكلاهما يتحدّث عن العصر الجاهلي الذي سبق مولد النبي عليه السلام ، والذي عاصر هذا المولد والكتاب الاول يهدم ما جاءت به الأساطير عن الجاهلية بل يهدم الكثير مما ينسب للجاهلية من شعر ونثر والكتاب الأخير (هامش السيرة) يجلو هذه الأساطير وينمّقها ، وقال الدكتورهيكل : إن طه

يعلم ان كثيراً من هذه الأساطير التي روى إنما هي بعض الاسرائيليات ، التي روج لها اليهود بعد عصر النبي متأثرين بحقدهم على محمد لأنه حاربهم ، وأجلى الكثيرين منهم عن بلاد العرب ، ومهّد بذلك لإجلاء البقية الباقية بعد زمن قصير من وفاته ، متأثرين بحفيظتهم على المسلمين ، حفيظة جعلتهم يروجون الألوف من الأحاديث المكذوبة عن النبي ومن القصص التي تنافي تعاليمه منافاة صريحة.

فما عسي يكون هذا الدافع القوي الذي دفع طه؟

الحق ان الدافع معروف للباحثين ، وليس في حاجة الى أن يكشف عنه الدكتور هيكل فهذا قطاع آخر من قطاعات الأدب العربي يلقي فيها الدكتور طه حسين من الشبهات والتغريبات ما يفسد جوهرها ويحطم مقوماتها.

ويقول هيكل : استميح طه العذر إن خالفته في اتخاذ النبي وعصره مادة لأدب الأسطورة. واشار الى ما اتصل بسيرة النبي ساعة مولده وما روى ، ثم قال : لهذا وما إليه يجب في رأيي ان لا يتخذ مادة لأدب الأسطورة ، فإنما يتّخذ من التاريخ وأقاصيصه مادة لهذا الأدب ما اندثر وما هو في حكم المندثر وما لا يترك صدقه أو كذبه في حياة النفوس والعقائد أثر ما. والنبي وسيرته وعصره تتصل بحياة ملايين المسلمين جميعاً ، بل هي فلذة من هذه الحياة. ومن أعز فلذاتها عليها وأكبرها أثراً في توجيهها ، وطه يعلم أكثر ممّا أعلم أن هذه الإسرائيليات إنما اريد بها اقامة أساطير ميتولوجية إسلامية لإفساد العقول والقلوب من سواد الشعب وتشكيك المستنيرين ودفع الريبة الى نفوسهم في شأن الإسلام ونبيّه ، وقد كانت غاية الأساطير التي وضعت عن الأديان الأخرى ، ومن أجل ذلك ارتفعت صيحة المصلحين الدينيين في مختلف العصور لتطهير العقائد من هذه الأوهام.

* * * *

هذا هو الخطر في ربط سيرة الرسول بأدب الأسطورة الذي هو واحد من أغراض التغريب والغزو الثقافي.

ويكشف كثير من الباحثين هدف طه في كتابه هامش السيرة فيقول واحد من مدرسة التغريب هو اسماعيل أدهم أحمد : لقد تحول طه الرجل الذي لا يخضع لغير محكمة النقد والعقل الى رجل كلف بالأساطير ، غير أن هذا التحول هو في الواقع ظاهري ، إذ إن طه وقد فشل في أن يثبت أغراضه عن طريق العقل والبحث العلمي لجأ الى الأساطير. ويقول زكي مبارك : أنا أوصي قرائي بأن يقرأوا هذا الكتاب فإن فيه نواحي مستورة من حرية العقل عرف الدكتور كيف يكتمها عن الناس بعد ان راضته الأيام على إيثار الرمز على التأليف.

ويقول مصطفى صادق الرافعي : إن هامش السيرة تهكّم صريح.

وتقول مجلة الشهاب الجزائرية تعليقاً على كتاب هامش السيرة : ألف طه حسين كتاباً أسماه هامش السيرة يعني السيرة النبوية الطاهرة فملأه من الأساطير اليونانية والوثنية وكتب ما كتب في السيرة الكريمة على منوالها فأظهرها بمظهر الخرافات الباطلة والأساطير الخيالية ، حتى ليخيل للقارىء أن سيرة النبي ما هي إلّا اسطورة من أساطير ، وفي هذا من الدس والبهت ما فيه ، ويمكن استخلاص حقيقة واضحة هي أن طه إنما أراد ان يمزج الأساطير اليونانية واليهودية ومشبهات الإسرائيليات ، وان يخلط هذا كلّه حين يكتب عن حياة الروم وحياة الفرس وما يتّصل بحياة اليهود الذين عاصروا الإسلام والذين كان لهم دورهم في دس الإسرائيليات على الإسلام ، ويحاول أن يربط السيرة بهذا كله ، مخلوطاً بأساطير اليونان وأساطير المسيحية . وهي محاولة للمزج بين تاريخ الإسلام والعرب الواضح الناصع وبين الأساطير الشرقية والغربية القديمة ممّا يجعل الحياة العربية الإسلامية على هامش المسيحية والوثنية واليونانية جميعاً.

ومعنى هذا أن محاولة الدكتور طه إنما كانت تستهدف إخراج الأدب العربي من مقوماته الأصيلة الواضحة الصريحة التي لا تعرف الأسطورة ، والتي تتميز في فكرها وتاريخها ومثلها بطابع خاص قوامه التوحيد ، وهو طابع انفصلت به عن أساطير الأمم جميعاً ، وتحررت به من قيود الوثنية وعوامل الخيال المسرف المنفصل عن العقل والحق اللذين سادا الفكر العربي الإسلامي وعزلاه عن الخيال المفرق والهوى المنطلق.

(ثامناً) : بطولات الأدب والتاريخ العربي.

كان من أخطر ما تعرّض له منهج النقد الأدبي الوافد الغض من بطولة الأسماء اللامعة في تاريخ الأدب العربي والتاريخ العربي الإسلامي ، وقد صدرت في هذا المجال دراسات متعدّدة في مقدمّتها الأخلاق عند الغزالي للدكتور زكي مبارك ، ومع المتنبي للدكتور طه حسين ، وفلسفة ابن خلدون الاجتماعية لطه حسين أيضاً.

وقد حاولت هذه الدراسات اخضاع هذه الشخصيات لأحد المناهج الغربية المستحدثة التي قامت على أساس نظريات التحليل النفسي لفرويد والتي جعلت المفهوم المادي الصرف أساساً لها ، وحاولت أن تدمر كيان شخصية البطل رغبة في تعريته والتماس العورات من حول تاريخه او نسبه او سيرته ، وقد أولى الدكتور طه حسين اهتمامه بنشر هذا المذهب والدعوة له حين قال :

لقد كان رواة العرب ومؤرّخوهم الذين عاشوا أيام مجد العرب وعزتهم لا يكرهون أن يصفوا خلفاء العرب وأمراءهم بما يتّصف به الناس من نقص ، وحسبك ان تقرأ لا أقول كتاباً بعينه وإنما أقول في أي كتاب من كتب الأدب والتاريخ لترى خلفاء العرب وأمراءهم وذوي المكانة منهم يوصفون بالخير والشر والشرف والضعة ، بما هو مشرف وبما هو مزرٍ.

وقد كشف العلماء للدكتور طه حسين خطأه هذا ، وأبانوا عنه غرضه الخفي من الاعتماد على مثل كتاب الأغاني او غيره من كتب المحاضرات لاتخاذها مصدراً تاريخياً حين يتخذ من روايتها أساساً لما يريد أن يقرره من تحقير للبطولات العربية وتدمير لعظماء الإسلام ومدى خطر الاعتماد على كتب القصاصين التي تنسب بعض الأخبار الى شيع العباسيين وبعضها الى شيع بني أمية وبعضها الى شيع علي ، وهي أخبار من أحطّ ما ينسب الى الخلفاء او الملوك ، يقول العلامة رفيق العظم :

لو سلمنا بكل ما جاء في تلك الكتب والأقاصيص واعتبرناها أخباراً صحيحة ليس فيها شائب من شوائب الكذب والأخلاق والتلفيق لكان لنا أقبح مثال من أمثلة العصور الإسلامية الأولى التي نعتبرها من مفاخر تاريخنا الغابر المجيد. والحقيقة

التي ينبغي ان تقال ان التنازع السياسي بين الشيع الإسلامية أدخل في روايات بعض الإخباريين شوائب في التاريخ الإسلامي ليست منه. ولما أنكر ابن خلدون أقوال الملفقين الذين لفقوا عن الرشيد تلك الحكايات الشائنة لم يكن في إنكاره إلّا على حق لما عرف عنه من بعد بيّن من النظر في التاريخ، وصحة بحثه في طبائع الاجتماع واخلاق الأمم ومنازعها.

أمّا القصص او كتب القصاصين فلها شأن آخر لأن واضعيها إنما وضعوها لاغراض وبواعث تجارية او سياسية او دينية. أما الأغراض التجارية فهي الكسب والانتفاع، أما البواعث السياسية والدينية فهي منع العامة من الخوض في سياسة الخلفاء والحكام والخوض في أخبار الصحابة وما شجر بينهم على ما يقال أو يظن، فأخذ بعض الأذكياء في وضع قصص تتلى في المجتمعات فيلهو بها العامة، ومن ذلك أخبار الفتوحات كفتوح الشام، وفتوح مصر، وفتوح اليمن المنسوبة الى الواقدي وهي ليست له، وكتاب قصة عنتر العبسي وواضعها مجهول، وكتاب ألف ليلة وليلة، وكاتبها مجهول أيضاً، وقد قالوا أنها مترجمة عن الفارسية «ولما استطاب الناس أمثال هذه القصص والأخبار أصبحت ضرورة من ضرورات الحياة لأن فيها نوعاً من التلهي وترويح النفس تنافس الرواة والقصاصون في تدوين الأخبار ووضعها تارة مجموعة وتارة متفرّقة في كتب الأدب كأخبار العشاق والشعراء والبخلاء والكرام وغير ذلك. وكان منها الغث والسمين، ومنها الملفّق والقريب من الصحة، وقد عانى بعض الأخباريين في ايراد اخبار المجون والتهتك والإنغماس في الشهوات مغالاة تكاد تشهد على نفسها بالغلو والتلفيق لما فيها من العبث بالأخلاق والتجرّد عن معنى الأدب الذي أخذ منه الشعراء والأدّباء المنسوبة اليهم بسبب كبير ينافي ما ينسب إليهم من أطراح رداء الحشمة والمروه[1] ولا أظنني مخطئاً إذا قلت ان

---

(١) ثم جاءت عملية التشهير والاستشراق تفتش عن وثائق ومستندات يهتم بها العرب وادابهم وتاريخهم وتضرب بها قيمهم وتشكل في مقدراتهم فلم تجد أعظم من هذه المدونات التي أخذت تنشرها وتذيعها وتهتم بها وتترجمها وتحرض تلاميذها واتباعها من دعاة التغريب على الاهتمام بها والدعوة إليها واعتبارها مصادر اصيلة هامة (انظر دفاع كتاب التغريب عن الأغاني وانظر انزعاج طه حسين عندما قام استاذه الخضري بتحريرها من الروايات الجنسية المكشوفة).

ما نقل من هذا القبيل عن أبي نواس وأضرابه من شعراء ذلك العصر إنما هو تلفيق قصصي يراد به أحد أمرين ، أما تشويه سمعة بعض الخلفاء العباسيين كالرشيد والمأمون ، وإما سد نهم العامة الى امثال تلك القصص المخزية والروايات الملفقة.

ويرى رفيق العظم وغيره من المؤرخين الأصلاء : وجوب الحيطة في الاستنتاج حين الحكم على عصر من العصور أو قائد من القادة ، وأن تكون المراجع التي تستقى منها النصوص مؤصّلة وجادة ، فهو ينكر مثلاً الاعتماد على كتاب الأغاني كمرجع من مراجع التاريخ وعنده أن الحقائق التاريخية في تاريخ الإسلام تشبه الدرّ بين أشواك يحتاج الى من يستطيع استخراجه من تلك الأشواك في اناة وروية ونظر.

ولقد جرى الدكتور طه حسين في استعراضه لابن خلدون وفق نهج غربي خالص. نهج قوامه الحطّ من قَدَر ابن خلدون واتهامه والسخرية به وانتقاص كل جهد له وتزييف كل اضافة أضافها على نحو يرضي المستشرقين والمتعصّبين من الغربيين الذين لا يريدون أن ينسب الى ابن خلدون ذلك الفضل في وضع أسس علمي التاريخ والاجتماع ، وهي مدرسة كان أحد رجالها من أساتذة طه حسين ومن ممتحنيه.

ولأدع الدكتور محمد غلاب زميل السربون يصور لنا كيف تناول زميله الدكتور طه حسين شخصية رجل من أعظم رجال الفكر العربي الإسلامي : يقول : أبان ـــ أي الدكتور طه ـــ أن ابن خلدون كان يستغل جهوده وأفكاره لمنفعته المادية الخالصة ولمصلحته الفردية وكان أنانياً يهتم بنفسه أكثر من اهتمامه بالمصالح العامة وأنه كان لا يبالي في سبيل الوصول الى اغراضه بمخالفة الأخلاق والخروج على قوانين الشرف والفضيلة ، وقال إن الدكتور طه حسين لم يقف عند حدّ دفعه الى المؤامرات والدسائس ، وتملقه الملوك والسلاطين ، وتحمله المشاق في سبيل المثول بين يدي سلطان مصر ، حتى إذا يئس حنق على سلطان مصر وظلّ يترقب فرصة ينتفع بها في الجانب المعادي لهذا السلطان.

ويتحدّث الدكتور طه عن أن الأثرة لم تقف بابن خلدون عند هذا الحدّ بل انها

دفعته الى كتابة ترجمة حياته لأنه كان يحب التحدّث عن نفسه كثيراً. ويقول الدكتور غلاب: وفي الكتاب آراء خاطئة مخالفة للحقيقة العلمية، ولست أدري أكان الدكتور مدفوعاً إليها بعامل الاقتناع بصحّتها أم بعامل آخر من العوامل التي تقتاد الناس في كثير من الاحيان الى هوة من هوى البعد عن الحقيقة.

ويتساءل الدكتور طه هل يصح أن يمنح ابن خلدون لقب اجتماعي وأن يعد بحثه باكورة لما نسميه اليوم علم الاجتماع.

ويجيب بقوله: إني أعتقد أن ذلك يكون مبالغة كبيرة.

ويعلّق الدكتور غلاب: إذاً فالدكتور طه يعتبر أن منح ابن خلدون لقب اجتماعي مبالغة، وهذا في رأينا ظلم كبير وتحامل بغيض لا نستطيع ان نقبله بل ولا أن نستسقيه من الدكتور طه على ابن خلدون.

ويقول: ولست أدري «ما هي العلة التي دفعت الدكتور طه الى التحامل على هذا الرجل، ولا أريد أن أُطلقَ العنان للتكهّن فأتّهم الدكتور طه بأنه أراد بهذا التحامل إرضاء أحد أعضاء لجنة الامتحان، لكان يرى أن ابن خلدون لا يستحق لقب اجتماعي فاندفع وراءه اتقاء لشره او لقسوته[1].

إن ابن خلدون يستحق اسم العالم الاجتماعي، وأن بحوثه جديرة بأن تكون باكورة هامة وطليعة قيمة لما يسمى الآن بعلم الاجتماع في أوربا، وان جميلوفتس وفبريرو لم يخطئا ولم يغاليا في ذلك الرأي (أي اعطاء ابن خلدون لقب رائد علم الاجتماع) وان الدكتور طه هو الذي غالى في التحامل على ابن خلدون.

وقال الدكتور غلاب: إن هناك ملاحظة أخرى هي، أن الدكتور طه يرمي عرب أفريقيا الشمالية بالهمجية والوحشية، ويستدل على هذه الدعوى (بأن

(١) من المقرر ان «دوركايم كان مشرفا على رسالة الدكتور طه حسين» ودوركايم مشهور في كتبه بالغض من شأن ابن خلدون وحقده وعقوقه للفكر العربي الإسلامي. ومن سخرية القدر ان مات دوركايم قبل ان يشهد امتحان الدكتور طه في رسالة الدكتوراه التي ملأها بالإساءة الى ابن خلدون إرضاء لرأي استاذه اليهودي.

الفرنسيين عانوا مشقة شديدة في سبيل إخضاعهم ) ويزعم ان ابن خلدون مخطىء في إسناده هذا العصيان من جانب عرب المغرب الى العزة والإباء ويقول : بل إن الفرنسيين قد عانوا ولا يزالون يعانون مشقّات فادحة في مراكش في سبيل بسط حضارتهم.

ويقسو الدكتور طه على ابن خلدون قسوة شديدة حين يقارن بينه وبين مونتسكيو في نظرية تأثير المناخ في الإنسان فيصف تعبيرات ابن خلدون بالسذاجة والطفولة وتعبيرات مونتسكيو بالدقة والعمق.

* * * *

وأشارت مجلة العالم العربي الفرنسية : الى اعنات طه حسين في تقدير ابن خلدون فقالت : إن ساعة رجحان كفة ابن خلدون أزفت وستكون فرصة سانحة لرفع أخطاء الدكتور طه حسين عندما أرّخ هذا الشيخ الجليل.

وقالت : إن نشاة ابن خلدون ونسبه العربي الذي يشك الدكتور طه في أصله وسيرته وفلسفته جديرة بأن تبحث في ضوء العلم الحديث.(1)

وقد أشار الباحثون الى أن طه حسين لم يصدر في بحثه عن روح العربي المؤمن بل انه جرى وراء آراء أستاذه دوركايم ، كما فعل في الشعر الجاهلي عندما جرى وراء آراء المستشرق «مرجليوث» واعتبرها أساساً للبحث. ودوركايم مؤرّخ يهودي من أتباع النظّرية الماركسية ورأيه في الرجل وفي العرب وفكرهم مشوب بالتعصّب.

وقد ردّ على الدكتور طه عشرات الباحثين وسفّهوا رأيه واتجاهه في شأن ابن خلدون واعترفوا ـــ حتى الغربيين منهم ـــ بسبق ابن خلدون الفلاسفة الغرب في وضع أسس الاجتماع والاقتصاد السياسي ، هذا السبق التاريخي المؤيّد بالوثائق لآدم سميث وأوغست كونت ، وبينهم وبين ابن خلدون أربعة قرون كاملة.

وقد عرض الدكتور عمر فروخ لموقف طه من ابن خلدون فقال : أليس من دواعي الأسف أن يعرف الغربيون فضل ابن خلدون قبل أن يعرف الشرقيون

(1) الأهرام ١٢/٥/١٩٢٢

أنفسهم؟ ولكن الذي يؤسف له حقاً أن يقوم بعض الشرقيين يحطون من قدر ابن خلدون بعد ان جهد الغربيون كل جهد على نشر فضائله واظهارها، وإذا لم يكن ابن خلدون مؤرّخ الحضارة الإسلامية العربية فهو بلا منازع واضع أسس تاريخ تلك الحضارة وواضع الأساس الذي يجب ان يقوم عليه كتاب التاريخ عموماً.

ولقد تابع دعاة التغريب هذه الدعوة من بعد، بالرغم مما كشفت عنه الدراسات الحديثة من عظمة ابن خلدون وكان الاتّهام هذه المرة بأن كل ما وصل إليه ابن خلدون من علم إنما استمدّه من اليونان وتلك دعوى باطلة كشفنا زيفها في كتابنا (المساجلات والمعاول الأدبية). في دراسة للدكتور طه عن المتنبي تظهر هذه الروح من التجنّي والتحامل والرغبة في تدمير شخصية هذا الشاعر الذي تعتزّ به الأمة العربية. إذ يحاول أن يدمّر شخصية المتنبي من خلال نسبه فيخلص الى القول بأن مولد المتنبي كان شاذاً وان المتنبي أدرك هذا الشذوذ وتأثر به في سيرته كلّها.

ويروي الأستاذ محمود شاكر مناقشة جرت بينه وبين طه حسين بعد أن صدر كتابه الأول عن المتنبي (ملحقاً بمجلة المقتطف[1]) فيقول:

كان من حديثه لي (أي حديث طه الى شاكر): أنت تذهب الى أن المتنبي علوي النسب وأنا وقد قرأت هذا الفصل، أوافقك على الشك في النسب ولكني لا أوافقك على أنه علوي، ثم ماذا يا فلان لو قلنا ان المتنبي لقيط! وقد دهش شاكر لما ألقاه إليه الدكتور طه: ويصور هذه الدهشة فيقول: وقد والله خيل اليّ ان الشيطان فاغر فاه بيني وبين الرجل فرجفت رجفة وعذت بالله، ثم قلت له: إن هذا رأي منقوض من وجوه، وهو على كل حال نتيجة الشك في نسب المتنبي مع التوقف عند هذا الشك قبل القول بأنه علوي او جعفي او هذا او ذاك، أخذ الشك من النسب مني وعجز عن أن يقول شيئاً في نسب جديدة يلصقه به، وهذا الرأي وحده هو سر اهتمام الدكتور طه بالكتابة عن المتنبي فلو لم يكن وقع عليه ما كتب عنه، ويقول شاكر: فلولا انه شك في نسب أبي الطيّب وانتهى الى انه لقيط لما كتب عنه حرفاً واحداً لانه لا يحب الرجل ولا فنه.

(١) عدد يناير ١٩٣٦

وقد شرح المازني سر ذلك في كتابه قبض الريح حين قال : ولقد لفتني من الدكتور طه في كتابيه (حديث الأربعاء) وقصص تمثيلية : أن له ولعاً بتعقّب الزنا والفساق والفجرة والزنادقة.

وقال شاكر: إن الدكتور طه لم يستطع أن يأتي ببيت واحد من ديوان أبي الطيّب يؤيّد به الرأي الذي ذهب اليه من انه لم يكن يعرف أباه وأنه كان يشعر بالضعة والضعف من ناحية أسرته ، وإلا فأين وجد المتنبي يشعر بالضعة او ينكر أمر نفسه وأمر أسرته ، أين هذا الأثر الذي أتاح له أن يقتنع بأن مولد المتنبي كان شاذاً وبأن المتنبيْ أدرك هذا الشذوذ وتأثر به في سيرته كلّها . لم يشر الدكتور طه في وضع واحد ، الى حكاية هذا النسب فهو بذلك عاجز من ناحيتين :

من ناحية شعر المتنبي ، وعاجز من ناحية تفسير حياة المتنبي وتحليلها على ضوء هذه الصفة وهذا المولد الشاذ وكبر مقتاً عند الله وعند الناس[1] .

ويقول أحد تلاميذ المدرسة التغريبية : إسماعيل أدهم أحمد : ان طه في كتابه مع المتنبي : (يظهر بروح الطفل الذي يلعب) وقال ان طه (مضى في تحليله مع تطرف في الاستنتاج وعدم تحول في الاستدلال فكانت نتيجته أن هوجم أعنف مهاجمة واتهم شاكر بأنه اصطنع أدلة من الشك في نسب المتنبي ووقف عندها) .

* * * *

وهكذا ينكشف خطل منهج النقد الأدبي الذي دعا إليه وحمل لواءه مجموعة من الأدباء أصحاب الولاء للفكر الغربي ، ولم يكن هذا المنهج في أيديهم إلّا سلاحاً لهدم كل مقومات الأدب العربي .

ومن الحق أن نقول هنا ، ان الدكتور طه إنما حمل على المتنبي هذه الحملة تحقيقاً لغاية واضحة كشفت عنها ابحاث المستشرقين والمبشّرين في تهديم الشخصيات البارزة في تاريخنا الأدبي والاجتماعي والسياسي في نفس الوقت الذي كانت تعلي فيه وتكرم شخصيات مضطربة لا تمثل طابع الفكر الإسلامي ولا روح الأمة العربية ، من

---

(١) راجع الفصول التي كتبها محمود شاكر في البلاغ من ١٢/ ٢/ ١٩٣٧ وما بعدها.

أمثال الحلاج والسهر وردي ومسيلمة الكذاب وكل خارج على فكرنا وقيمنا ولقد كان الدكتور في هذا المنهج جارياً وراء من سبقوه من المستشرقين ، فإذا كان في بحثه عن ابن خلدون قد نفذ أحقاد دوركايم ، فإنه في المتنبي قد ساير أحقاد بلاشير الذي ألف عن المتنبي كتاباً يطفح بالكراهية والحقد والتهديم ، حيث يبدي بلاشير انزعاجه لهذا التقدير الذي يواجه به الأدباء شخصية المتنبي[1] ويقول انهم إنما يحاولون أن يظهروه في الأدب العربي بمظهر فيني أو غوته في الآداب الأوربية ، وبعد أن نقض كل ما صور به الأدباء شخصية المتنبي ، وصفه بأنه (مدّاح أمراء القرن العاشر) ويحاول أن يرد كل ما حلّل به هؤلاء الأدباء شخصية المتنبي الى أنه هوى عاطفي يريد به هؤلاء الأدباء احياء مفاهيم القومية والوحدة العربية ، ويقول إن هذا الاعجاب بالمتنبي لدواعي قومية قد شوّه شخصية المتنبي التي يراها هو كما يراها طه حسين بعده ابن سقاء الكوفة ومداح الملوك ، ولقد اراد طه حسين من اتهامه أن يرضي المستشرقين فأضاف بأنه لقيط .

وهذه هي محاولة المنهج الأدبي الحديث في دراسة النماذج الأدبية دراسة علمية . كأنما العلم هو الهدم والتحريف والحقد واتهام الناس بالباطل وتجريدهم من كل قيمة حقيقية .

وقد كشف حقيقة الصلة بين آراء طه حسين وآراء المستشرق بلاشير الدكتور أنطون كرم في كتاب (الأدب العربي في آداب الدارسين) حين قال : إن الدراسة التي وضعها طه حسين في أبي الطيّب تمثّل بالنسبة الى الدراسات العربية أوجاً معيناً ، ومن مميزاتها أن البحّاثة قد استجمع خلاصة ما قال في الشاعر ، وتوكأ في أخص ما توكأ على النتائج التي انتهى اليها المستشرق بلاشير يتبناها حيناً او يردها على شك او افتراض آخر.

وقال فيما قال إن المؤلف اعتمد في بناء وقائعه على الحدس والتخمين كما حدث

---

(١) كتب عن المتنبي : احمد حسن الزيات ومحمد كمال حلمي ومحمود شاكر والعقاد وشفيق وجدي ومحمد الأكسر.

في حديث الأربعاء وحديث الشعر والنثر بحيث تتعدّد الافتراضات حينما لا يستجلي الغموض او يتفرّع حتى يبلغ (الظن) او (أكبر الظن) او (الترجيح).

ويقول الدكتور كرم: ونحن نعلم مخاطر الحالة الشعورية المقبلة في إثبات الحقائق الأخيرة بل انه يرد على افتراض وضعه بلاشير بافتراض آخر فيخطئه من غير طائل حتى يلتبس المراد ويموه الحق، فإننا لنرى، ههنا ذاتية الناقد تنطرح على المنحنى التاريخي الذي ينبغي أن يظل خالصاً منها مجرّداً عنها، حتى غدت الذاتية نفسها سبيلاً الى المعرة والطعن.

وهكذا تكشف الدراسات المتوالية، وما يوجه إليها من نقد، فساد مذهب النقد الأدبي الوافد الذي اصطنعه طه حسين ومدرسته وساروا به شوطاً طويلاً حاجبين عن الأدب العربي حقيقة طوابعه وذاتيته وجوهره الحقيقي في محاولة لطبعه بطابع غربي، وتذويبه في بوتقة فكر ليس فكره ومزاج نفسي يختلف عنه في مجال الآداب والنقد جميعاً.

* * * *

ويبدو الدكتور زكي مبارك أيضاً في هذا المجال وهو يتلمّس خطواته الأولى في طريق مناهج النقد الأدبي الغربي الوافد عام ١٩٢٤ فقد نصحه أساتذته من المستشرقين أن يهاجم شخصية عظيمة كشخصية الغزالي، وهو نفس النصح الذي وجه الى الدكتور منصور فهمي عندما هاجم تعدّد زوجات الرسول في رسالته التي قدّمها الى السربون.

ولقد رجع الدكتور زكي مبارك بعد سنوات طويلة عن رأيه في الغزالي وكتب يقول:

«إليك أعتذر أيها الغزالي» ويصف نفسه بأنه كان مندفعاً فأخطأ، ولكن كتابه ما زال موجوداً في أيدي الناس وما زال يطبع طبعات جديدة تنقل هذه الآراء دون أن يدري قارئها أن صاحبها تخلّى عنها من بعد. وقد كان من الضروري أن ينص على ذلك في مكانه.

ولقد حاول زكي مبارك تلميذ طه حسين الأول وتلميذ المستشرقين : أن يتهم الغزالي بأنه اتبع البدعة التي اتبعها الأحبار والرهبان ، وانه بقي غارقاً في خلوته منكباً مع أوراده ، لا يعرف ما يجب عليه من الدعوة الى الجهاد ، وقد أشار الباحثون الى أن الهجوم على الغزالي قد استقبلته الجامعة برضاء تام ، واستولت الدهشة على الجميع حين منحت زكي مبارك لقب دكتور في الأدب برسالة تحوي كثيراً من الطعن في الأديان السماوية وتنسبها الى الجهل والخرافات.

* * * *

وتتصل بهذا بعض التراجم الأدبية للشخصيات الإسلامية التي ظهرت في السنوات الأخيرة وبالرغم مما صورته هذه التراجم من ملامح لأعلام الإسلام فإن القالب الذي وضعت فيه كان قالباً غريباً وافداً ، ولم يكن غريباً أصيلاً فالذين كتبوا هذه التراجم اخضعوها لأحد منهجين : منهج التحليل النفسي ، او المنهج الاجتماعي وهما منهجان ماديان في الأساس ، لا يعترفان بالطبائع الروحية والنفسية.

وقد ربط بعض الباحثين(١) بين ديوان شعر صدر في نفس الوقت الذي صدر لنفس الكاتب ترجمة من هذه التراجم وفي الديوان شعر فيه الخيانة في الحب والتصافح بالأجسام ، بينما تناقش الترجمة قيماً إسلامية في نفس تلك الشخصية الفذّة يقول الكاتب : كيف يمكن لأصحاب هذا المذهب الأخلاقي الجديد الذي نشأ في هذا العصر السرّيالزمي ، ولهذه النفس الملتوية الصغيرة (يقصد نفس الكاتب) أن تحس جمال الفضيلة في نفس (ذلك البطل الإسلامي) وان تحيط بميزان الأخلاق عنده؟ وكيف يزعم الكاتب وهو يحمل هذه النفس العادية المفككة أنه استطاع أن يصور صورة (ذلك البطل) فتنعكس له في الذهن صورة عربية إسلامية لا صورة أوربية عصرية(٢).

ويقول الأستاذ احمد صبري في نفس المعنى : إنهم جميعاً من طبقة الذين يكتبون ما لا يفعلون ، ويفعلون ما لا يكتبون.

---

(١) راجع مجلة الأنصار م ٣ سنة ١٩٦٢.

(٢) عبقرية عمر العقاد.

وقال : هذه الكتب التي أخرجها فريق من هؤلاء الشعراء المتكسبين بمدح الإسلام عند المناسبات ، كانت أعمال هؤلاء الشعراء وأقوالهم طعناً ضمنياً في الشخصيات او الموضوعات التي تناولوها ، ذلك لأنهم صوروها على غير وجهها في الحقيقة ، وإن كانت آخذة وجهها في الظاهر، وفهموها بمقتضى الفكرة التي يمارسونها في حياتهم العملية وهي فكرة مضادة لمضمون الإسلام لا فكرة متفقة.

ويقول : من اليسير وضع يد القارىء على تقاطيع الفكر الوثني الذي خلعوا عليه الأثواب العربية وزينوا له السمات الإسلامية ثم باعوه في سوء الأدب سما زعافا وتحفا براقة.

والواقع أن هناك فارقاً واضحاً وعميقاً في مفهوم البطولة في الأدب العربي وبين الآداب الغربية او بين الفكر الإسلامي العربي وبين الفكر الغربي الأوربي. وان هذه الفوارق لم يتنبه لها هؤلاء الذين كتبوا عن تراجم الأدباء والأبطال. لم ينتبهوا لها نتيجة لأحد أمرين :

أوّلاً : اما لأنهم بدأوا حياتهم الفكرية من خلال واقع الأدب الأوربي أساساً ثم قرأوا الأدب العربي على مناهج الأدب الأوربي ومفاهيمه ، فهم يفهمونه فهماً خاطئاً لا يستطيعون الوصول الى اعماق ذاتيته ، ويظنون أن المعاني الانسانية هي قسمة مشتركة بين الآداب ، وهو ظن خاطىء فإن هناك القيم اليونانية المسيحية الأوربية التي بني عليها الأدب الغربي أسسه وذاتيته ولذلك فإن كتابات هؤلاء الأدباء بكتابات المستشرقين أشبه.

ثانياً : وإما أن بعض هؤلاء مكرة لئام وأنهم أعوان وتوابع لمدرسة الغزو الفكري والتغريب والشعوبية التي يقودها الاستعمار بواسطة التبشير والاستعمار ، وأنهم إنما يفعلون ذلك خدمة لهذا الاتجاه ، وتمثيلاً لمرحلة جديدة حققها النفوذ الأجنبي ، وهو إيجاد الكاتب العربي الاسم واللغة القادر في براعة على حمل مفاهيمهم الى الأدب العربي ، وذلك يكون أوقع في النفس وأكبر أثراً.

أما مفهوم البطولة في الأدب العربي ، والفكر الإسلامي فإنه يختلف أساساً عن

مفهوم الطقوس والتماثيل والأصنام وهو لا يخلد البطل نفسه بل يخلد عمله، وليس في فهمه البطولة العربية المفهوم المأسوي الإغريقي الذي يصور البطل وهو لا بدّ أن يموت مهزوماً وينزل عليه الستار في حالة كارثة او مأساة.

وليس في مفهوم لأدب العربي أن ينتهي البطل نهاية فاجعة، فذلك مفهوم إغريقي تبنّاه الفكر الغربي وجعله أساساً لغة القصة والمسرحية، وليس هو من طبيعة الأمور وحقائق الأشياء بالأمر الحتم الملزم، لكل بطل ولكل شخصية، وهو في الغرب مستمدّ من فكرة الخلاص والتكفير، وهي فكرة من أفكار الفلسفات اليونانية التي ثبتتها الفلسفة المسيحية، وليس لها في الفكر الإسلامي مكان ما، فليس في الفكر الإسلامي ولا الأدب العربي بالطبع (خطيئة) صنعها آدم واستحق البشر التكفير عنها، ذلك لأن الأدب العربي يؤمن بأن أي إنسان ليست له إلّا خطيئته وحده، وان كل امرىء مسؤول عن ذنبه وانه لا تزر وازرة وزر أُخرى، وان خطيئة آدم قد تاب الله عليه منها وغفر له، فلم تنحسب من بعد على أحد، ومن هنا فإن هذه النهاية المأسوية للبطولة ليست مفهوماً أساسياً في الفكر الإسلامي، وبالتالي في الأدب العربي، والبطل في الأدب العربي إنما هو ثمرة الحاجة الماسة الى التصحيح وهو الذي يحمل لواء التصحيح، ويحقق بذلك إضافة جديدة ويؤدّي دوره، فإذا ذكر فإنما يذكر على أنه عمل عملاً ما، وهذا العمل هو موضع التكريم والمفاخرة والذكر وليس الفرد نفسه، ذلك لأن الفكر الإسلامي لا يؤمن بتقديس البطل ولا رفعه عن مستوى الناس، ولقد كان الرسول وهو أعظم الابطال في مفهوم الإسلام: بشراً رسولاً، ولقد حمى الفكر الإسلامي بهذه المعاني مفهوم التوحيد والإيمان بالإله الواحد العظيم وحده الصانع الحقيقي لكل البطولات وحال بهذه الحيطة دون تحول العظماء الى انصاف آلهه أو آلهة كما حدث في الأديان والفلسفات والمذاهب الأخرى.

(تاسعاً): أقليمية الأدب.

من أخطر النظريات التي اذاعها دعاة التغريب أقليمية الأدب ومحاولة عزله في كل اقليم عن الآخر، بأعلاء العوامل التي تصوره وكأنه يحمل طابعاً مستقلاً منفصلاً

عن أدب الأقاليم الأخرى التي تجمعها وحدة اللغة والدم والعرق والثقافة وتربطها جميعاً قيم الفكر الإسلامي الأساسية ، ويوحد بينها طابع الثقافة القرآنية الأساسية .

فالأمة العربية مهما وصلت محاولات الاستعمار الى عزلها في داخل أنظمة سياسية مختلفة فإنها تتلاقى تلاقياً كاملاً من جوانب كبيرة : كاللغة والتاريخ والتراث والقيم الأساسية ، ولا تختلف بحسب الارتباط بالأقليم إلّا اختلافاً يسيراً ، وهو اختلاف مستمدّ من العوامل الجغرافيّة المرتبطة بالصحراء أو المدينة أو الاقتراب من البحار والمحيطات أو غيرها ، وهي عوامل لها أثرها الفرعي الطبيعي ، وهو أثر يسير لا يطغى على عوامل الترابط والتكامل التي نتمثّل في تلك القوى الضخمة الأخرى.

ولقد حافظ الأدب العربي على طبيعته ووحدته في مختلف العصور ، وكان في أي قطر من الأقطار مرآة للعرب في مختلف أقطارهم ، ولم تعلُ صيحة القول بأدب مصري وأدب سوري وأدب عراقي إلّا في ظل دعوة التغريب التي قادها النفوذ الاستعماري وفق أهداف واضحة هي الحيلولة دون لقاء هذه الأمة الفكري ومحاولة وضع الحدود بين أقطارها ، غير أن الأحداث الكبرى التي مرت بالأمة العربية خلال فترة الاحتلال الأجنبي قد كشفت بقوة عن فساد هذا المنهج ، ودفعته بالزيف فقد كان أي صوت يرتفع في جانب من جوانب الأمة العربية يجد صداه في مختلف الأقطار ، وقد صور هذا احمد شوقي حين قال :

وإذا أن بالعراق مريض لمس الشرق جنبه في عمان

ولقد كانت الدعوة الى نظرية دراسة الأدب العربي على أساس التقسيم المكاني أقليماً بعد أقليم هي أيضاً دعوى تغريبية خالصة شأنها شأن الدعوة الى دراسة الأدب على أساس تقسيم العصور.

ولم يثبت ما ادعاه حملة هذه الدعوة ممن اذاعوها في كلية الآداب وغيرها بأن لكل أقليم طابعه الخاص ، وكشفت نتائج الأدب العربي الذي بين أيدينا في العصر الحديث عن وحدة الأمة العربية ووحدة الأدب العربي ، ولم يكن للطوابع الأقليمية الجغرافية أثر مفرق او عازل ، يمكن أن يعطي صورة التناقض والاختلاف .

ولم تجد الأقاليم العربية في تاريخها القديم السابق على الإسلام معوقا دون طبعها بطابع واحد، فقد مضى على ذلك التاريخ القديم أربعة عشر قرناً تبلور فيها فكر الأمة العربية وروحها واتسم بطابعه العربي الإسلامي الواضح الذي لم يعد في الإمكان عزلها عنه لربطها بالفرعونية او الفينيقية او البربرية.

بل لقد كشفت الحفريات ودراسات التاريخ القديم عن آن الفرعونية والفينيقية والبربرية إنما هي سلالات عربية وموجات دفعتها الجزيرة العربية الى مصر والمغرب ولبنان منذ ألوف السنين، فهي ليست خارجة على هذه العناصر الحديثة بل مرتبطة بها، وقد واجه ساطع الحصري هذه النظرية حين قال:

إن الأدب العربي في مجموعه «وحدة» وان الآثار الأدبية التي أمامنا منوعة، ولكننا لا نستطيع أن نرجع هذه الانواع الى قطر من الأقطار او أقليم من الأقاليم.

وقال: فلنأخذ المتنبي مثلاً، نحن نعلم بأنه ولد في الكوفة ونشأ في البادية ثم عاش في بغداد وحلب ودمشق، وسافر الى القاهرة، كما قضى البعض من سني حياته في بلاد فارس. فكيف يمكن أن نربطه بإقليم من هذه الأقاليم العديدة، وبيئة من هذه البيئات المتنوعة فنعتبر آثاره محصول ذلك الأقليم وتلك البيئة؟

وقال: اننا إذا استعرضنا آثار أدباء عصر النهضة الحديثة بوجه خاص وجدنا من جهة مشابهة كبيرة بين بعض الأدباء الذين ينتسبون الى أقطار مختلفة، كما وجدنا ـــ من جهة أخرى ـــ تبايناً كبيراً بين بعض الأدباء الذين ينسبون الى قطر واحد.

ثم قال: نستطيع أن نؤكّد أن اختلاف البيئة المادية والمعنوية طوال الحياة يفسّر لنا كثيراً من خصائص الشعراء والادباء ولكنه لا يبرهن على إقليمية الأدب العربي بوجه من الوجوه.

وقال: إن الأدب العربي حافظ على صفته المَوَحَّدة والموحِّدة حتى في أسوأ عصور تفكّك الدول العربية وتفتّت شعوبها، وحتى خلال العهود التي ما كان يتيسّر فيها الاتصال بين البلاد العربية إلّا على ظهور البغال والجمال، فهل من المعقول أن

يفقد الأدب العربي هذه الوحدة العريقة في هذا العصر الذي توافرت خلاله وسائل الاتصال بالبواخر والقطارات والسيارات والطيارات؟

ثم قال: كلا. لا يوجد ولن يوجد أدب مصري وأدب عراقي أو شامي أو أدب تونسي، وإنما يوجد وسيوجد أدباء مصريون، وعراقيون وشاميون وتونسيون.

وقال: عندما أنكر الإقليمية في الأدب العربي وتاريخه، وعندما استنكر الدعوة الى الإقليمية فيه، لا أنفي «التنوع» في الأدب العربي ولا أدعو الى إفراغ الآثار الأدبية في قالب واحد.

# الباب الثالث

## إحياء الأدب العربي

(١) إحياء الأدب العربي :

(٢) القرآن والأدب العربي :

(٣) النثر والشعر في مفهوم الأدب العربي :

(٤) لماذا انحرف الأدب العربي :

(٥) انحراف الشعر عن مفهوم الأدب العربي :

(٦) السجع والزخرف.

(٧) عصر الموسوعات.

(٨) بعث التراث.

(٩) البيان القرآني في منهج النقد الأدبي.

# الفصل الأوّل

## إحياء الأدب العربي

منذ بدأت نهضة الأدب العربي الحديثة اعتمدت عملين أساسيين.

الأول : إحياء الأدب العربي.

الثاني : الترجمة والنقل عن الآداب الأوربية.

أمّا إحياء الأدب العربي فقد بدأ منذ وقت باكر فقد أخذ جمال الدين الأفغاني ومحمد عبده قبل نهاية القرن التاسع عشر يدعوان الى إحياء التراث العربي ، وقام الشيخ محمد عبده بتدريس مقدّمة ابن خلدون ، وفي الشام أعيد طبع كتب ابن تيمية وابن حجر.

ثم جرت في أواخر العقد الأوّل من القرن العشرين اول محاولة منظمة لإحياء الأدب العربي وكان أبرز العاملين في هذا الميدان : احمد زكي الملقّب بشيخ العروبة وعاونه على ذلك احمد حشمت وزير المعارف الذي اعتمد في ميزانية الدولة مبلغاً وفيراً لهذا الغرض. وقد وجدت هذه الحركة معارضة من صحيفتي الوطن ومصر، وكتب خيري ابراهيم وغيره يهاجمون المشروع ويتهمون الأدب العربي وينقدونه.

غير أن الحركة استمرت وامتدّت ، وان غلب عليها طابع منحرف ، وتدخلت فيها عناصر موالية للغرب فكان من أبرز ما اهتم بطبعه ونشره : ألف ليلة وليلة وكتاب الأغاني.

والمعروف أن بعض المرسلين الأجانب في بيروت قد عنوا بطبع ألف ليلة وليلة عام ١٨٨٨ وحفلوا بنشره وتولّى طبعه عدد من دور النشر الموجهة من الاستعمار والنفوذ الغربي ، وقد تابعت بالبحث تطور إعادة طبع ألف ليلة وليلة منذ أوائل هذا القرن فوجدت أن اليسوعيين في بيروت هم أوّل من أعادوا طبعها وتابعتهم في ذلك دار الهلال في مصر سنة ١٩٠٠ كما اهتموا بطبع الأغاني ، وجاء الأدباء التابعون للمناهج الغربية فاعتبروه مصدراً وفرضوه على تلاميذهم في الجامعات :

غير أن حركة إحياء الأدب العربي لم تلبث أن اتسعت وشملت شخصيات وكتباً متعدّدة ، وكان الجانب الإنشائي المؤمن بقيم هذه الأمة . غير أن أبرز الأخطار التي واجهت هذه الدراسات أنها وقعت في أيدي الذين حاولوا عرضها وتفسيرها من خلال مناهج النقد الغربي الوافد فانحرفت في هذا المنحى ، وعمد خصوم الأدب والفكر الإسلامي الى إعلاء جوانب ضعيفة ، والتقطوا بعض الاتهامات وبعض جوانب النقص فأذاعوها وفرضوها واعتبروها أساساً من أسس الادب العربي وطابعاً من طوابعه .

وكان أخطر هذه الشبهات تلك التي اثارها طه حسين وزكي مبارك وسلامة موسى ومحمد مندور وحنا الفاخوري ومارون عبود وجرجي زيدان فيما يتصل بالبيان القرآني ونشأة البلاغة وما يتصل بالسجع والزخرف وما يتصل بطوابع الكشف والغزل الحسّي وغيره .

وكان أبرز تلك الاتهامات وصف مرحلة ما بعد سقوط بغداد الى العصر الحديث بأنها مرحلة انحطاط بينما كانت هذه المرحلة من أخصب المراحل،حتى أن كثيراً من المنصفين وصفوها بأنها عصر الموسوعات .

وكان من أخطر ما حملته رياح التغريب محاولة قصر الأدب العربي على بعض الأسماء من الشعراء والأدباء وكتّاب السجع والبديع ، والإغضاء على عشرات من المفكّرين والباحثين والعلماء الذين أثروا الفكر العربي الإسلامي ، وذلك بتحديد مفهوم ضيق للأدب وحصره على جوانب من البلاغة والشعر والخطابة ، فلم يعد

هناك من يدرّس إلّا ابن المقفّع وابن العميد والصاحب بن عباد والخوارزمي وبديع الزمان والحريري والقاضي الفاضل الى مجموعة من الشعراء أمثال بشّار وابي العتاهية وابي نواس وابن الرومي والبحتري وابي تمّام والمتنبي.

وقد أغضى الطرف عمداً عن عشرات من أعلام الأدب العربي الذين كان لهم أثرهم الضخم من أمثال ابن تيمية والغزالي وابن حزم وابن القيم وابن خلدون ومالك والبخاري والجنيد وابن حنبل وابن الهيثم والحسن البصري والشافعي والفارابي وابي بكر بن العربي والأشعري والأوزاعي وعشرات غيرهم.

ومن هنا نجد ذلك الخطأ الذي وقع فيه الأدباء حيث استأثروا بفن واحد من فنون الأدب وهو الزخرف والشعر وأغضوا عن ذخائر الأدب العربي التي تمثلها الفنون المختلفة.

# الفصل الثاني

## القرآن والأدب العربي

لا ريب أن القرآن هو الأساس الأوّل للأدب العربي، وهو النموذج المحتذى: (أسلوباً ومضموناً). ومن قبل القرآن لم يكن يملك العرب إلّا نماذج من الشعر وسجع الكهان والخطب والرسائل تمثل المستوى العام الذي وصلت إليه اللّغة العربية والأدب العربي، فلمّا نزل القرآن أعطى —وهو كلام الله المجيد الذي لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه— أعطى أرقى مستوى من مستويات البيان والمضمون معاً. وقد شهد بلغاء العرب الذين عاشوا قبل الإسلام، وحضروا بعد ذلك نزول القرآن، شهدوا بمدى الاضافة الضخمة والخطيرة التي أضافها القرآن الى البيان العربي واللغة والأدب وسائر اطارات الفكر من اجتماعية وسياسية واقتصادية وقانونية.

وتأتي هذه الشهادة من خصوم الإسلام أنفسهم، ولكنها لا تستطيع أن تنكر مدى عظمة هذا الأثر الذي احدثه القرآن في النفس والعقل والوجدان العربي، ومما يروى عن الوليد بن المغيرة قوله: «إن له لحلاوة وإن عليه لطلاوة وإن اسفله لمغدق وإن أعلاه لمثمر وما هو بقول بشر».

ومن هنا فإن أعظم نتاج الأدب العربي إنما جاء من خلال تلك الإضافة القرآنية الضخمة وما تبعها من فنون وعلوم وآداب.

ولقد كان مفهوم الادب في النطاق الإسلامي : جامعاً للأسلوب والمضمون معاً ، ولم يكن هذا التخلف الذي أصيب به الأدب في بعض المراحل التالية من اهتمام بالأسلوب ، او انحراف منه الى سجع ، او اضطراب في المضمون ، او انحراف منه الى الحسيات من أصول الأدب العربي الأصيلة التي تشكلت في ظل القرآن والإسلام :

وإنما جاء في الانحراف الخطير نتيجة تغلّب مذاهب دخيلة ، وانحرافات خطيرة نتجت عن اتصاله بالأدب القديم الذي كانت آثاره ما تزال تعيش في مقدمتها بقايا الأدب الفارسي المجوسي القديم وبقايا الأدب اليوناني الوثني.

من خلال هاتين النافذتين اللتين فتحتا على الأدب العربي وقع ذلك الاضطراب والانحراف على طابع الأدب العربي وذاتيته التي شكلها جوهر القرآن الذي تجمعه كلمة «المروءة» وجوهر القرآن الذي تجمعه كلمة «التوحيد». وحين انصهر مزاج الأمة العربية في جوهر التوحيد فأصبحت المروءة العربية مفهوماً قرآنياً إسلامياً قائماً على أساس الايمان الخالص بالله والتحرّر من الوثنيات والتطلعات القبلية والجاهلية.

ومن هنا يبرز خطأ تصور بعض المثقفين الذين درسوا في معاهد التبشير او نقلوا مفاهيمهم في الفكر عن بيئات المستشرقين من أن الأدب العربي «ينتمي الى مجموعة الآداب القديمة اليونانية واللاتينية ، بل المصرية القديمة والصينية والهندية».

وعندما نستعرض عشرات من المذاهب البناءة في «الأدب» نجد الأدب العربي قد سبق إليها ، ودعا إليها وصاغها. وكان القرآن سابقاً إليها ، ومن هذه المذاهب القول بوحدة القصيدة وهو مأخوذ أساساً من وحدة السورة القرآنية ، والدعوة الى انكار الوعظية والتقريرية والحماسة في المساجلات وآداب البحث والمناظرة ، وهي في صميمها من مناهج القرآن وان تحول عنها الادب العربي حين اضطربت ذاتيته باستعلاء المذاهب القديمة من فارسية ويونانية.

وان نظرة عميقة الى القرآن : مصدر البيان العربي لتكذب قول الذين يدعون أن الأدب العربي نسجت خيوطه من البلاغة الفارسية في الصورة والهيئة ، ومن البلاغة

اليونانية في الملاءمة بين أجزاء العبارة ، فقد بلغ الأسلوب القرآني في مجال الصور ذروة الفن ، كما فاق كل أساليب الآداب القديمة في الملاءمة بين أطراف العبارة.

ومن الحق أن يقال ان ارتباط الأدب العربي بالقرآن هو ارتباط عضوي لا سبيل الى تجاوزه او التخلّي عنه او تغييره ، وان الصيحات التي تعلو في محيط التغريب ، والمحاولات التي جرت وتجري لفصل الأدب العربي عن جذره القرآني هي محاولة فاشلة : وإذا كانت الدعوة الى تبسيط اللغة العربية اليوم ، او خلق ما يسمونه اللغة الوسطى او اللغة المشتركة ، وهي في ظاهرها دعوة غيورة ، قد تلقى بعض الاعجاب ، فإن الهدف الأصيل لها والبعيد هو هدف خطير ماكر ، يعمل على الوصول الى غاية هامة : هي فصل مستوى الأدب العربي الحديث وبلاغته عن مستوى البيان القرآني ، وخلق هوة بينهما ، بل خلق مستوى جديد للبيان بعيد وقاصر عن مستوى القرآن ، وأقل منه درجات. وبذلك تنفصم العروة بين القرآن والبيان العربي (وهي أكبر اهداف التغريب) ولا يصدق جاك بيرك حين يرى أن هذا الارتباط بين الأدب العربي والقرآن ، من شأنه أن يكون عائقاً أمام الابداع في ميدان الأدب ، ولعله يلتمس هنا المقارنات بين الأدب العربي وبين الآداب الحديثة التي نشأت بعد انفصال أوربا عن اللغة اللاتينية الأم ، ولكن هذه المقارنة باطلة ومضلّلة لأن القرآن سيظل يربط بين ماضي اللغة العربية وحاضرها وبين الأدب العربي المعاصر والأدب العربي كلّه خلال فترة خمسة عشر قرناً ، وهو ما لم تعرفه الآداب التي لا تزيد صلاتها بماضيها الى أكثر من اربعة قرون.

ويصدق جاك بيرك حين يرى أن الأدب العربي حتى في العصر الحاضر لا يرى القرآن من الناحية الأدبية مثلاً أعلى ومعجزة بيانية ، ولذا فإن تقبله لهذا التقييم يجعل من القرآن سقفه.

وليثق جاك بيرك وغيره أن الأدب العربي مهما مرّ بمرحلة انحراف طويلة استمرت أكثر من خمسين عاماً فإنه لن يخرج عن صلته الجذرية بالقرآن.

وقد سجل جاك بيرك نفسه دهشته الفائقة بأثر اللغة العربية البليغة (الكلاسيكية) أي لغة القرآن في تحرير الشعوب حين تحدث عن تجربة الجزائر،

وبعد أن اختفت اللغة العربية او كادت وكيف استطاع القرآن ولغته الكلاسيكية أن تعيد وحدة الجزائر وأن توقظها.

وإذا كان جاك بيرك يرى أن الأصالة تفقد التجدد، وأن التجدد يفقد الأصالة، فإن هذا مفهوم ظاهر التعميم، وانه مشتق من دراسته للآداب الأوربية، ولكنه ظاهر البطلان بالنسبة للأدب العربي والفكر الإسلامي.

ذلك أن الظاهرة الفكرية الإسلامية التي منها انبثقت الثقافة العربية والأدب العربي جميعاً إنما تستمد قانونها الأصيل من ذلك التكامل والوسطية بين القيم المختلفة. ولذلك فقد عرف الفكر الإسلامي كما عرف الأدب العربي التوازن والمواءمة بين القديم والجديد، وبين التراث والتجديد، وبين الثبات والتطور، كما عرف أصلاً بين الروح والمادة، والعقل والقلب، والدنيا والآخرة.

فلا يخشين جاك بيرك نتائج هذه المحاولة الصعبة، وليثق أن الشخصية العربية على حد تعبيره لن تفقد ذاتيتها ومزاجها النفسي في حالة التقائها مع الحضارة الغربية المعاصرة ولن تذوب في العالمية، ذلك لأنها تنطوي في اعماق فكرها وأدبها على المفهوم الإنساني الأصيل الى جانب المفهوم القومي الخاص، فهي متوازنة بعين المحافظة على ذاتها وكيانها ووجدانها الخاص، وهي في نفس الوقت مفتوحة أمام التيارات العالمية. يعطيها طابعها الإنساني القدرة على الحركة والوسطية والتكامل دون أن تنحرف الى أصالة تنكر التجدد، او تجدد يقضي على أصالة الارتباط بالتراث[1].

وليثق جاك بيرك أن الأدب العربي الحديث المعاصر لن يقف أمام تلك الصور التي اختارها في كتابه:

Antoegue Leae La Litarature arabe Comuemd araine.

والتي قصد بها إبراز تيار معين، وليس هو الحقيقة: تيار الأدب العربي الأصيل، وان المفاهيم والمذاهب التي أدخلت فخراً الى الأدب العربي عن طريق

---

(١) أشار جاك بيرك الى هذه المعاني في اكثر من محاضرة وبحث، وأوردها في كتاب العرب بين الأمس والغد الصادر ١٩٦٠.

دعاة التغريب والشعوبية والغزو الثقافي لن تستطيع الصمود وستجرفها ذاتية الأدب العربي العتيدة العميقة الجذور، حين تتنبه الى أصالتها وجوهرها ومزاجها النفسي الخاص فترى زيف هذه المذاهب والمقاييس. واننا نؤكد لجاك بيرك وغيره ان هذه المحاولات في تغريب الأدب العربي، وهذاالترويج لهذه النماذج الزائفة التي يجمعها المستشرقون لن تستطيع ان تكون صورة الأدب العربي الأصيلة، وأن الأدب العربي شأنه في هذا شأن جميع جوانب الفكر الإسلامي، لا يقبل الانصهار في أي بوتقة، وان بدا لوقت ما أنه قد تشكل فيها، إلّا أنه سرعان ما يكتشف ذاته وينفض عنه هذه الزيوف، ويقف ذلك الموقف الواضح من كل ما يلقى إليه، موقف تقبّل وصهر ما يتفق مع ذاتيته، مما يزيده قوّة، والتخلّص ممّا سوى ذلك. ان الذوق العربي كان دائماً ينبذ من الآداب الأجنبية جميع العناصر التي لم يكن يألفها، وليس هذا بدعاً، فإن الأدب الغربي فعل ذلك مع الأدب العربي ذلك أن هناك فوارق أساسية لكل أدب لا سبيل الى إلغائها أو محوها.

ولقد جرت المحاولات في خلال تاريخ الأدب العربي الطويل لإعادته القهقرى الى مفاهيم الشعر الجاهلي وبيئته، وما يتصل بها من الوثنيات الأغريقيّة والفارسيّة والهنديّة القديمة. ولكن القرآن الكريم ظلّ هو المثل الأعلى للأدب العربي.

وقد سجّل هذا جاك بيرك نفسه حين قال: لقد ظلّ القرآن دائماً يرغم الدعوة الى تعظيم الشعر الجاهلي أعظم نصوص اللّغة. فالقرآن يعني الكلمة المنزلة. وهو يرى أيضاً أن قوة الكلمة المنزلة، وظلّت لزمن طويل: هي قوة الرمز الذي يقاوم ما يفرضه الأجنبي من نظام وما يدل به من مادة.

وهذا مفهوم «الاصالة» الذي هو مفهوم مفتوح غير مغلق، متقبّل لكلّ جديد، يضيف إضافة بناءة، ولا يهدم الشخصية أو يؤثر في القيم الأساسيّة.

* * * *

وقد أكّد هاملتون جب في كتابه الأدب العربي — بالرغم من الأخطاء الكثيرة التي تعمدها او وقع فيها — أكّد ذلك التمايز الواضح بين الادب العربي والآداب

الغربية والشرقية جميعاً حين قال : «إن كل مقابلة بين الآداب الاسلامية العربية وبين الآداب اليونانية اللاتينية تجد أنها لا تراعي الفرق بين هذين النوعين من الآداب ، وهو فرق ليس فقط من حيث الكمية ولكنه أيضاً من حيث النوع . بل انه يذهب الى أبعد من ذلك حين يقول كلما كان الأدب الغربي مقلّداً للأدب الشرقي ، كان أدباً شعبياً من الدرجة الثانية .

وكلما كان الأدب الغربي بعيداً عن هذا التقليد كان أدباً راقياً من الدرجة الأولى ، وهذه قاعدة من حقّنا أن نطبّقها على الأدب العربي .

ويصل جب في بحثه الى أن هناك تبايناً واضحاً بين الروح الشرقية والروح الغربية ، وبين الروح العربية وبين الروح اللاتينية اليونانية ، ونضيف نحن أن الشرقية كلمة عامة مبهمة ، ولا تمثل الأدب العربي ذي الذاتية الإسلامية القرآنية التي تختلف عن الروح الشرقية المستمدّة من فلسفات الهند وفارس القديمة وبين الروح العربية الإسلامية ذات الاستعداد الخالص المستمد من القرآن .

(٢)

أوّلاً : إن النثر العربي بعد الإسلام قد تأثر بأسلوب القرآن في أغراضه وأساليبه من حيث إنه «أفصح ألفاظاً وأسهل تركيباً وأعذب تعبيراً» ، ومن حيث إنه «أمتن سبكاً وأبرع دلالة وآنق ديباجة» .

إذ الواضح أن القرآن قد بهر العرب أصحاب البلاغة ببلاغة أشدّ عمقاً وأقوى ديباجة وأصدق منهجاً ، وبما حمل معه من العقائد والشرائع والقيم الأخلاقية والاجتماعية والسياسية والتربوية ، ولقد كان قائماً في مفهوم أدباء العرب أن القرآن كتاب منزل من عند الله ولذلك فإنه لا تجوز عليه مقاييس النقد الأدبي ، لأنه ليس من صنع أديب ولا عبقري ، ولا يخضع لما يخضع له العمل الأدبي الانساني من النقد أو البحث العلمي .

ولذلك فقد كان من أكبر أخطاء مناهج النقد الأدبي الغربية الوافدة أنها حاولت أن تنظر الى القرآن نظرة المبشرين والمستشرقين . وتكاد كل كتابات طه حسين وزكي

مبارك وعلي عبد الرازق أن تردّد هذا المعنى بأسلوب خفي ودقيق ، والقرآن كتاب الله المعجز الذي اهتز له العرب وأدهشتهم بلاغته وبيانه ، وهو الذي تحدّى المعاندين منهم والمكابرين بأن يأتوا بعشر سور من مثله أو سورة واحدة فعجزوا. واعجاز القرآن ليس اعجازاً لغوياً فحسب ، ولكنه اعجاز شامل عام : من مختلف نواحي الاسلوب والفكرة والمضمون ، ولم يكن القرآن كتاب عبادة على النحو الذي يفهمه الغربيون من الكتب المقدّسة ولكنه منهج حياة كامل (عبادة وعقائد ، وشرائع وقوانين ، وأخلاق وتربية).

ولقد حاول الدكتور طه أن يغذي نظريات المستشرقين والمبشرين ويفرضها على الأدب العربي عن طريق دراسات كلية الآداب حين قال : إن القرآن ليس نثراً ولا شعراً ولكنه قرآن ، ولعله التمس مفهوم كلمة القرآن بردها الى أصلها في اللغة السريانية وهي تعني معنى (الجهر) وذلك في محاولة من الدكتور ليقول من وراء الألفاظ إن القرآن من كتب التراتيل والعبادات ، وهذا القول وارد في كتب المستشرقين ، وكذلك ما اورده وردّده معه الدكتور زكي مبارك عن أوائل السور مثل (ص ، حم ... الخ).

حين قالا :إن هذه الحروف اشارات موسيقية أو رموز صوتية يقصد بها ذكر النغمة قبل تلاوة السور. وهذا أيضاً ممّا ردّده المستشرقون والتمسوه فيما كانت تفعله الكنائس القديمة ولا سيما في الحبشة حين كانت تفتح ترانيمها بمثل هذه الحروف[1] .

ثانياً : ان هنالك بوناً شاسعاً بين الأدب العربي الجاهلي وبين القرآن والأدب العربي الذي نشأ في ظل القرآن ، ليس في الأساليب فقط ، حيث يختلف اسلوب القرآن عن سجع الكهان وعن الشعر والخطاب القديمة ، ولكن في المضامين أيضاً فقد حمل معه مفاهيم وقيماً جديدة تتعارض مع القيم الجاهلية معارضة واضحة ؛ في مختلف المجالات. فالقرآن يدعو الى التوحيد وينهى عن القتل ، والسحر ،

(١) راجع بحث الدكتور علي الوردي في كتابه اسطورة الأدب الرفيع.

والاستكبار في الأرض ، والتفاخر بالنسب ،ولطالما أشار الرسول الى ذلك بوضوح وحدّد الفاصل بين قيم المجتمع الاسلامي ومفاهيم المجتمع الجاهلي ، ومما قال : إن الله قد أذهب عنكم نخوة الجاهلية وفخرها بالآباء ، ليس لعربي على عجمي فضل إلا بالتقوى ، وقال من قاتل تحت راية عميقة تغضب او تدعو لعصبية او تنصر عصبية فليس منا .

وقد بدا واضحاً أن يستحيل اللقاء بين فكر وفكر . ونهج ونهج ؛ بل لقد كان نهج الإسلام واضحاً في مضادة كل فكر الجاهلية ونهجها . وأبرز حقائقه : القبلية والطبقية . فدعا الى أخلاق جديدة ، ونهى عن الفخر والاستعلاء والاعتداء والاستكبار ، ونقل معاني الكرم والقتال والنجدة من مفاهيمها القديمة الى مفاهيم جديدة تدور حول نصرة كلمة الله ، وأن تكون خالصة له لا يشرك بها فخراً ولا مغنماً .

ثالثاً : كان من أكبر الأخطاء التي وقع فيها دعاة مناهج النقد الأدبي الغربي الوافد الزعم بأن الجاهلية كانت حضارة جاء الإسلام تاجاً لها ، والتخرص بالقول بأن رجلاً فرداً مثل النبي محمد لم يكن في استطاعته أن ينقل أمة كاملة من العدم الى الوجود وغير ذلك مما أورده الدكتور زكي مبارك في كتابه النثر الفني .

وكان ذلك القول في الأغلب متابعة للتغريب والغزو الثقافي وانتقاصاً من قدر الدعوة الإسلامية التي كانت معجزة في تحويل الأمة العربية في ثلاث وعشرين سنة الى أمة قائدة أنشأت حضارة جديدة وأقامت دولة كبرى[١] .

رابعاً : من الأخطاء التي وقع فيها الدكتور طه حسين : ما أورده في بعض محاضراته من القول بأن العرب لم يكن لهم نثر فني ، وأنهم لم يجيدوا الانشاء إلّا حين اتصلوا بالفرس ، وأن أول كاتب في اللغة العربية هو ابن المقفع الفارسي الأصيل .

ولقد كشف الدكتور زكي مبارك هذا الخطأ حين قال ان طه حسين سرق هذا

---

(١) راجع رد فريد وجدي على زكي مبارك «المساجلات والمعارك الأدبية» .

الرأي من مسيو مرسيه، وقال إن طه حسين كان يأمن عواقب تلك السرقة الأدبية لأن كلام مسيو مرسيه كان قد نشر في مجلة مجهولة يندر أن يهتم بها المصريون. وهي المجلة الأفريقية التي تصدر بالفرنسية في مدينة الجزائر، يقول زكي مبارك: «ولكن الدكتور أخذ يتراجع ويتقهقر فقد تنبه الى أن الشعوبية كان لهم دخل في تقديم الفرس على العرب ولو أنه شاء أن يعرف أن الشعوبية لا يزالون أحياء وأن لهم بقية تعيش في القرن العشرين، ومن بقايا الشعوبية مسيو مرسيه الذي يقول بأن العرب لم يكونوا يعرفون النثر في الجاهلية ولا في صدر الإسلام، وأن التفكير المنظم لم يجئهم إلّا عن طريق الفرس وأنت يا دكتور طه شعوبي مقلّد».

(٣)

ان هناك حقيقة هامة هي نقطة الانفصال الواضح ومناط الخلاف العميق بين فهم الأدب العربي بين أهله وبين فهمه بين المستشرقين والبيئات الأجنبية: هذه الحقيقة هي أن القرآن ليس من صنع النبي محمد ولا من كلامه. وأنه من كلام ربّ العالمين، منزل بالوحي على قلب النبي، وهنا يبدو ذلك الفارق الواسع والعميق بين كلام الله وكلام البشر، أما من حيث هو كلام الله فهو موجه الى الرسول ﷺ، وفيه احصاء لكثير من المواقف مع وجه النظر الحق لله تبارك وتعالى اليها، وفيه من العلم والتاريخ والتشريع ما لا يستطيع الرسول الإنسان الإتيان بمثله. ومن حيث إنه توجيه من الله على الرسول أن يلتزم به ويطبقه.

فحين يظن المستشرقون والباحثون من الأجانب أن القرآن من كلام محمد يتغير الموقف تماماً، وتقوم نتائج بعيدة المدى في الخطأ والانحراف على نسبة كلام الله الى النبي، وأبرز هذه النتائج أن يوضع القرآن في مجال كلام البشر بينما هو نسق مختلف كل الاختلاف عن فنون الكلام البشري. هذا من ناحية الأسلوب. أما من ناحية المضمون فإن الاختلاف أشدّ عمقاً.

ومقطع القول في القرآن: انه نسق ربّاني أعجز أهل البلاغة، وما يزال يعجزهم عن التطاول إليه أو الإتيان بآية من مثله، وهو إعجاز ما زال بعد أربعة عشر قرناً قائماً وسيظل كذلك الى نهاية الحياة.

وما يسمى البيان العربي قبل الإسلام لا يكاد يوجد في الحقيقة ، فالنثر العربي هو بالتأكيد نثر إسلامي خالص ، فلم يكن لدى العرب قبل الإسلام نثر بالمعنى الذي نعرفه اليوم من كلمة «نثر» بل كانت أسجاع كهان وبعض الحكم والأمثال ، او كلام الوفود في وصف الأعراب لبواديهم : هذا عن أول الإسلام. ولم يكن النثر العربي وليد الحضارة الفارسية او الفكر اليوناني ، ولم يكن ابن المقفع في الحقيقة اول من كتب النثر، كما يدعي بعض المستشرقين ، وإلّا فماذا نسمي كلام النبي وكلام أبي بكر وعمر وعثمان وعلي بن أبي طالب وخطبهم وبياناتهم وآثارهم وكلام عشرات الصحابة خلال القرن الأول.

ومن هنا يمكن أن يتقرّر أن القرآن ليس من جنس كلام العرب في الجاهلية : سواء شعرهم او سجع كهانهم وليس هو فناً آخر غير الشعر والنثر كما يدّعي البعض ، ولكنه هو لب لباب الأدب العربي والمصدر الأول للنثر العربي ، منه نشأ وفيه نما وامتدّ ، وهو نتاج تلك الحصيلة الضخمة التي ألقاها القرآن — كتاب الله المنزل بالحق — من الألفاظ العربية التي كانت موجودة فعلاً والتي لم تستعمل قط على هذا النحو البارع ، إلّا حين استعملها القرآن ، ويضاف الى ذلك فنون المعاني وأبعادها في السياسة والاجتماع والاقتصاد والعلم والتربية والتشريع.

ولقد كان العرب قبل الإسلام مبرزين في الشعر حتى كان عندهم بمثابة ديوان العرب ، فلما جاء القرآن تغير الوضع كلية وأصبح القرآن هو ديوان الإسلام ومصدر النثر والشعر ، وقد أكّد هذا الاتجاه أن الرسول كره ما كان من أساليب الجاهلية في الإنشاء وله عبارته المعروفة في وصف ذلك قوله ﷺ [أسجعٌ كسجع الكهان] ذلك أنّه لم يكن قبل الإسلام سوى قول مسجوع يجري على ألسنة الكهان.

وكل ما وصل إلينا حتى الآن يؤكّد هذه الحقيقة. وليس هناك دليل أكيد على ما ادعاه البعض — ومنهم الدكتور زكي مبارك — من وجود نماذج أدبية تمثل ثلاثة قرون قبل الإسلام بل هو محض افتراض لم يثبت بالدليل.

( ٤ )

وقد أعلن القرآن حقيقة أساسية : هي أن القرآن ليس شعراً وأن الرسول ليس شاعراً . فقد نزه الله القرآن عن الشعر ونزه الرسول أن يكون الشاعر ، وندّد بالشعر الذي هو في ذاته منطلق الأهواء . ورسم للأدب طريقه (شعراً ونثراً) وفق منهج القرآن : أن يقول ما يفعل وأن لا يهيم في أودية الغرض أو الغواية ، وقد أخطأ كل من حاول أن يجعل القرآن من قوالب الشعر (من أمثال موير) ، وهي محاولة لاستغلال فرض لم يثبت للادعاء بأن القرآن ليس وحياً من الله ، وقد دفع كثير من أعلام الأدب العربي والفكر الإسلامي هذه الشبهة ومنهم الجاحظ .

وموقف القرآن من الشعر يستمد مفهومه من أصل أصيل في الإسلام هو الصدق الذي ينهى عن الباطل وعن الهجاء وتمزيق الأعراض والقدح في الانساب والتشبيب والغزل وبيع الكلمة بالهوى او العصبية او المادة . فالإسلام يجعل الأخلاق أطاراً للأدب والشعر بالذات ، ويجعل الالتزام الأخلاقي ضابطاً هاماً ربما عده البعض قيداً يحول دون حرية الإبداع ، غير أن الإسلام يضحي بهذه الحرية التي هي في انطلاقها لا تمثل الخير ولا الحق ، ولقد رأينا الآفاق التي يمضي إليها الفن منطلقاً من ضوابط القيم الأخلاقية فلا تصل الى شيء إلّا لشيء واحد هو تجاوز الحق الى الهوى والعصبية ، والإسلام يضع الالتزام في مقابل حرية لا تصل الى شيء ايجابي او بناء ، ذلك أن الإسلام في أساسه يجعل الفنون الأدبية موجهة الى بناء المجتمع والفرد ولا يضحي بالأخلاق في سبيل تجاوز قدر من الحرية لا يصل الى الإبداع بقدر ما يصل الى الهوى ، ذلك أن الابداع له في الأدب العربي مفهوم غيرمفهومه في الآداب الاخرى :

وخير مثل لفهم الإسلام للشعر ما صوره الرسول ﷺ : «قولوا قولكم ولا يستخفنكم الشيطان» وكل ما يخرج الى الصنعة والإعنات والمباهاة والهوى والتشدق لا يمكن أن يكون ابداعاً في الفن ، فالإبداع في الفن يتضمن الأداء والمضمون جميعاً فينكر قول الزور والفخر بالكذب والإفراط في مديح من أعطى وذم من منع .

(٥)

ويتصل هذا بموقف الأدب العربي من الفن ، فالقرآن يضع أساس الأصالة في أن يكون الفن أخلاقياً حين يقرر ان كلاً من الفن والأدب والعلم إنما يبدأ من خلال التوحيد نفسه ، ويتحرك في إطاره ، ومن هنا فإن أي عنصر من عناصر الفكر يصبح لقيطاً إذا هو انفصل عن القاعدة الأم او لم يتواءم مع العناصر الأخرى في هدفها الأصيل وهو: بناء الفرد وبناء المجتمع من مجموع الأفراد.

فالقانون الاخلاقي أساس تتحرك كل القيم في إطاره بينما تستمد القيم الأخلاقية وجودها من التوحيد. فالفن للفن افتراض مرفوض في الفكر الإسلامي وبالتالي في الأدب العربي الذي هو ثمرة هذا الفكر ووليده الأصيل ، وهو ما يسمى في القرآن (وأنهم يقولون ما لا يفعلون) ويأتي الالتزام الأخلاقي في الفن في عبارة (إلا الذين آمنوا وعملوا الصالحات وذكروا الله كثيراً وانتصروا من بعد ما ظُلموا).

فالفن سلاح من أسلحة الفكر لبناء المجتمع الرباني ، له وظيفة في العطاء النفسي والروحي. ومن هنا فإن الفنان او الشاعر في الإسلام لا يعنى بالعبارة وحدها ولا يضحي من أجلها بالمعنى ، كما أنه لا يدع المعنى يصرفه عن الأداء وحسن البيان. ولقد التزم المجتمع الإسلامي بمفهوم القرآن في الفن ، وارتفع بيان القرآن عن الشعر فاستصغروا أمره ، كما صنع لبيد عندما سأله عمر أن يرسل إليه ما قاله في الإسلام فأرسل إليه الفاتحة وكتب له أن الله أغناه عن قول الشعر بمدارسة القرآن.

اما انحراف الشعر بعد ذلك فإنه كان خروجاً بالأدب العربي عن منهج القرآن وسيطرة مفهوم فارسي وثني او مجوسي على الأدب ، مما غلب ظواهر الخمريات وطوابع الهجاء وأعلى تقليد الفرس في أدبهم الذي يحمل طابع الزندقة والإلحاد ، وقد غلبت هذه الظاهرة فترة ما ثم عاد الأدب العربي الى مفهومه الأصيل.

(٦)

فتح القرآن للأدب العربي آفاقاً جديدة أخرجته من طوابع القبلية والفردية والإباحية ودفعته الى الافاق الرحبة : أخلاقية واجتماعية ، وكان أبرز مظاهر طابع

الأدب العربي سيطرة القرآن على الأخيلة الشعرية ، وصدق الأداء ، وإيجابية المضامين وارتباط الكلمة بالسلوك.

كما كان للقرآن اثره في التراث القديم السابق له ، فقد استبقي المسلمون منه ما ساير القرآن لغةً او مضموناً. وهذا «التوحيد» الذي قدمه القرآن كانت له يد في توحيد اللغة العربية فلولا القرآن لظل الشعر الجاهلي مختلف الصيغ والأوزان ولكان باباً الى بلبلة الذوق العربي باختلاف اللهجات والأذواق.

«والقرآن هو الذي ساق العرب على اختلاف قبائلهم ومواطنهم ولهجاتهم في تيار واحد ، وهو الذي جعل من الشعر الجاهلي سنادا لما فيه من ألفاظ وتعابير ، بحيث لم يبق من ماضي الجاهلية إلّا ما أراد له القرآن أن يعيش».

«وكان للقرآن أثره في غزو الأذواق والقلوب في البلاد التي فتحها المسلمون. فالفرس والهنود والمصريون والاندلسيون سمعوا القرآن قبل ان يسمعوا الشعر الجاهلي ، وكذلك كان القرآن أسبق في تكوين ما صار عند تلك الأمم من شمائل واذواق.. وقد تأثر المسلمون بأدب القرآن وهم يقرأون سوره في الصلوات ويتدارسونه صباح مساء».

«والقرآن هو أساس ما عرف المسلمون من المذاهب التشريعية والفلسفية وهو عندهم المرجع في الشواهد اللغوية والنحوية والبلاغية».

«والأمم الإسلامية توارثت من جيل الى جيل : أن القرآن له تأثير شديد في تكوين الذوق الأدبي. ومن المبشرين من عاش متنكراً في الأزهر بضع سنين ليتذوق بلاغة القرآن لكي يتسنى له أن يواجه الجماهير بلسان عربي مبين».

«وان القرآن هو أس الفصاحة العربية : أثر في أخيلة الكتاب والشعراء والخطباء ، ولقد حرص المسلمون والنصارى واليهود على تذوق البلاغة القرآنية لأنها بلغت الغاية في الدقة والعذوبة والجمال :

« وقد استطاع القرآن أن يؤثر في كل شيء حتى العلوم الرياضية ، فهي عند أهلها تأييد لآيات القرآن المجيد. ومن يراجع أحوال العرب والمسلمين في حياتهم العلمية

والأدبية يراهم يدورون حول القرآن في أكثر الشؤون ، فعلوم الفقه والتوحيد والصرف والنحو والمعاني والبيان والبديع يراد بها جميعاً فهم ما يشتمل عليه القرآن من أغراض علمية وأدبية ».

« ولقد نص مؤرخو لأدبين الفارسي والتركي أن القرآن أثر في هذين الأدبين تأثيراً بليغاً ».

« وللقرآن أثره في وحدة اللغة العربية » فبفضل القرآن امتدّت الحياة في لغة قريش نحو خمسة عشر قرناً ، ولو أن العرب خلت حياتهم من الدعوة الإسلامية لكان من المستحيل أن يكون في الدنيا إنسان يفهم ما اثر في لغة قريش قبل الإسلام بقرن او قرنين ، وإنما استطاع القرآن ان يحفظ وحدة اللغة القرشية لأنه كان مفهوماً في كل أرض على أنه نموذج عال للبلاغة العربية فكانت البلاد الإسلامية ترجع إليه في صيانة لسان العرب من البلبلة والانحراف.

« ولقد كان للقرآن أثر بعيد وعميق في العقلية العربية : فقد رفع النظر من الأرض الى السماء والى ما فوق السماء ، وعلم الناس أن يقرأوا كتاب الطبيعة في فصول السنة المختلفة ، من إنسان ونبات وجبال وسحاب وأمطار ونجوم وسماء ، وان يقرأوا ما بعد الطبيعة من (إله) فوق العالمين ، هو نور السموات والأرض كشف عن العيون غطاءها ، فأصبح بصرها حديداً ، فنظرت الى العالم فرأته وحدة متناسقة الأجزاء تخضع كلها لإرادة الله ، وأعلن الثورة على النظرة المادية التي كان ينظر بها أهل الجاهلية فكانت كل ضربة بالمعول في صنم ثورة على تلك النظرة. وذوت كلمة لا إله إلّا الله في جزيرة العرب تعلن ضياع الوثنية وعبادة المادية[1] .

وقد أشار كثيرون الى أثر القرآن في الأدب العربي فقال حنا الفاخوري « إن القرآن كان من عوامل توحيد اللغة وحفظها ، وهو أساس العلوم الدينية الإسلامية والعلوم البيانية العربية ، وقد فتح الإسلام للأدب العربي آفاقاً جديدة ، وأمهر اللغة

---

(١) الدكتور زكي مبارك في بحثه عن جناية أحمد أمين على الأدب العربي.

العربية بالفاظ ذات دلالة جديدة، وكان الأثر الأكبر للقرآن في أصول الدين (من أحكام وتشريع سياسي واجتماعي وديني).

وكان القرآن من عوامل توحيد اللغة وفرض لغة قريش وتوسيع دائرتها، وكان هذا من أقوى الأسباب التي عملت على حفظ اللغة العربية حية وعلى نشرها في الأمصار. وبذلك كون الإسلام من العرب أمة موحدة الروح واللغة تخضع لنظام واحد، ومعنى هذا أن الإسلام وحّد كلمة العرب».

(٧)

لا مشاحة ان القرآن هو الذي حدّد طابع الأداء العربي: أسلوباً ومضموناً وقعد قواعده: ومن طابع الإسلام استمد الأدب العربي روحه ومزاجه وذاته وذاتيته الخاصة، وأبرز هذه الملامح وضوحاً أن قدم الإسلام الفكر على الأدب وجعل الأدب (مفهوم الوجدان والخيال والشاعرية) ضمن دائرة الفكر. وبذلك أعلن الإسلام (أدب الفكرة):

وأنكر الأدب العربي المغالاة في الزينة اللفظية في ظل قاعدة، لكل مقام مقال، وفي نفس الوقت الذي حافظ فيه على الأصالة والجزالة والبيان المشرق، أنكر المحسنات اللفظية والأسلوب البديعي، واعتبره خروجاً على منهجه، وقد زيف العلماء انحراف الأدب الى السجع والزخرف، قال ابن تيمية: أما تكلف الأسجاع والأوزان والجناس والتطبيق ونحو ذلك مما تكلف متأخرو الشعراء والخطباء والمترسلين فهو لم يكن من دأب خطباء الصحابة والتابعين والعلماء منهم. ولا كان ذلك مما يهتم به العرب، وغالب من تعمد ذلك يزخرف اللفظ بغير فائدة مطلوبة من المعاني، كالمجاهد الذي يزخرف السلاح وهو جبان، ولهذا فإن الشاعر كلما أمعن في المدح او الهجو خرج في ذلك الى الإفراط في الكذب يستعين بالتخيلات والتمثيلات[1].

---

(١) ابن تيمية: منهاج السنة.

وهكذا كان القرآن رائد فكرة الاصالة في الأسلوب الجزل بعيداً عن السجع والزخرف، وغلب المعاني على اللفظ، وكان النموذج القرآني هو المثل الأعلى على ذلك.

ويقول غوستاف غرنباوم تعليقاً على ذلك «من هذا النفور، من الاستسلام لدوافع الخيال وهذه الرغبة للبقاء داخل نطاق الحادث الواقعي الحقيقي يمكننا أن نستشف بعض العلاقة بنزعات معينة بثها الإسلام حول الإنسان منذ البداية فقد اهتم الدين الجديد بأن يؤكد ان لا خالق إلا الله وأنه مطلق القدرة في كل شيء، ولم ينس أن ينكر على الإنسان كل قوة تثير فيه الغرور بكفاياته ومواهبه وتزعزع موقفه من علاقته بالله».

* * * *

ولقد أثيرت مرات ومرات قصة (الزخرف الفني) وما ردّده المستشرقون أمثال مرسيه واتباعهم من أن الزخرف الفني وصل الى العرب من الفرس، وغير الدكتور طه رأيه باخره وقال إن الزخرف وصل الى العرب من اليونان، وكانت الحجة أن المولعين بالزخرف أكثرهم من الفرس المستعربين. وحاول الدكتور زكي مبارك الدفاع عن النثر الفني فقال انه من طبيعة اللغة العربية، وأن آية ذلك هو القرآن، وتتصل هذه الشبهة مع منطلق أساسي تغريبي يقول بأن البلاغة العربية جاءت من البلاغة اليونانية مما أورده طه حسين في مقدمة كتاب نقد النثر المنسوب الى قدامة. والواقع أننا يجب أن نفرق بين مصطلحين: تفريقاً واسعاً عميقاً، بين مصطلح النثر الفني ومصطلح الزخرف. أما مصطلح النثر الفني فقد اتخذ منطلقه من القرآن، أما الزخرف بمفهوم الأسجاع والجناس والطباق والمحسنات اللفظية فذلك هو الدخيل الذي جاء من الفرس، ولم يكن أصلاً مطابقاً لمفهوم القرآن في الأدب والبيان: وفي هذا الزخرف مغالاة وخروج عن أسلوب القرآن الذي يحرص كل الحرص على تغليب أدب الفكرة مع المحافظة على الأداء البليغ الذي يحفظ للأسلوب العربي موازاته مع القرآن حتى لا يتخلف عنه، وبذلك تحدث الهوة الخطيرة التي تحول دون فهم القرآن وتذوق استمرار تأثيره في النفس والعقل الإسلاميين.

أما القول بأن الزخرف عنصر أصيل في اللغة العربية ، وأن شاهده هو القرآن ، فقول فيه تجاوز كبير ، وعجز عن التفرقة الدقيقة بين النثر الفني والزخرف. فليس في القرآن زخرف بما تحمله هذه الكلمة من معنى يغلب اللفظ والسجع والمحسنات أو يرجح الأداء على المضمون.

وهذا الزخرف الذي انحرف بالأدب العربي أسلوباً وأداء عن منهج القرآن قد ظل يسيطر حتى وصل الى أدب المقامات الذي يزري بالأدب العربي ، أما أن القرآن كان يخاطب قوماً يفهمونه ويتذوقونه ، فهذا صحيح من ناحية أن القرآن قدم للناس كلماتهم في صياغة جديدة تعلو عن ما عرفوا وتظل عالية عن الاسلوب العربي ، معجزة الى آخر الدهر ، وقد تأكد أن القرآن هو أساس المنهج الكتابي ، وأن النثر الإسلامي لم يلتزم السجع وإنما كان يقع السجع بسيطاً مقبولاً حين يقع لا تكلف فيه ولا التزام ، (والسجع في الأصل حلية يزدان بها النثر ، وهي مقبولة ما دامت تجري في حدود الاعتدال والقصد ، كما وقع في القرآن ، فالقرآن يسجع أحياناً ولكنه لا يلتزم السجع ) وتجيء هنا شبهة القول بأن النثر الفني بدأ بابن المقفع او عبد الحميد ويكون صحيحاً أن يقال إن الزخرف هو الذي بدأ بهما وهو أول مرحلة الانحراف.

أما من ناحية الأسلوب العربي الفني فإن أول أسلوب عربي قرآني هو أسلوب الرسول ، وكل الأساليب العربية متصلة به ومنها أساليب ابي بكر وعمر وعثمان وعلي والحسن البصري وعمر بن عبد العزيز ، وان الزخرف بالصور التي عرف بها كان دخيلاً على أسلوب القرآن ، وقد بدأ مع كتاب الفرس ثم استشرى مع تخلف الأدب العربي عن مفهومه الأصيل وغلبة الأداء على المضمون وتخلف المضمون عن دوره الحقيقي ومفهومه الأول.

وإذا كان السجع عنصراً من عناصر البيان القرآني فإنه ليس مقطوعاً به في نظر الكثيرين ومنهم الباقلاني الذي نفى ورود السجع في القرآن. ولقد حاول المستشرقون أن يركّزوا كثيراً على السجع وراء هدف مضلل هو القول بأن القرآن كتاب صلوات وأنه شبيه في ذلك بالكتب الأخرى ، التي احتوت على صلوات وترنيمات. ولكن

القرآن في الحقيقة ليس كتاب صلوات فحسب ولكن الصلوات جزء منه ، وهو كتاب جامع للشريعة والعبادة ومناهج العبادة والحياة جميعاً.

فالسجع والازدواج من فنون القرآن ، ولكنه ليس الفن الوحيد فقد اصطنع القرآن فنوناً من الأساليب جرياً وراء منهجه الأصيل في مخاطبة القلوب والعقول ، أما الصورة المسرفة التي عرفها الزخرف في الأدب العربي خلال أزمته فليس مما يتفق مع طابع القرآن الجامع المتكامل.

وقد كره رسول الله أن يكون الأسلوب العربي مسجوعاً كلية وقال قدامة : إنما أنكر صلى الله عليه وسلم ذلك لأنه أتى بكلام مسجوع كله وتكلف فيه السجع تكلف الكهان ، أما إذا أتى به في بعض كلامه ومنطقه ولم تكن القوافي مختلفة متكلفة متمحلة مستكرهة وكان ذلك على سجية الإنسان وطبعه فهو غير منكر ولا مكروه بل قد أتى في الحديث (ويقول العبد مالي مالي وماله من ماله إلا ما أكل فأفنى او لبس فأبلى او أعطى فأمضى).

(٨)

سيبقى (القرآن) النموذج الخالد : قمة البيان العربي وسيمضي الأدب العربي في مناخ القرآن وليس ذلك لأن القرآن هو كتاب الله الخالد وحسب ، بل لأنه ينطلق من أعماق الفطرة ويلتقي بالمزاج النفسي والاجتماعي المسلم والعربي في جمعه بين الروحي والمادي.

وقد كان من أبرز مميزات الاسلوب العربي : عنايته بالإيجاز أكثر من عنايته بالإطناب ، وكانت قاعدتهم (إنما الألفاظ على أقدار المعاني) والايجاز إنما يعني أداء حاجة المعنى ، ويختلف الأدب العربي في هذا عن الآداب الغربية التي تتميز بالإطالة في التفاصيل.

وكذلك ليس التكرار في البيان العربي بغيضاً أو منكوراً فإن البيان العربي بيان دعوة وإقناع فلا بأس من إعادة صياغة الفكرة بصورة أخرى وثالثة ، وليس معنى هذا أن الأدب العربي يكره التحليل ولكنه يؤمن بأن الجمل القصيرة المركزة المحكمة

هي التي تبقى في الأذهان والقلوب مثل قول عمر «إن كثير الكلام ينسي بعضه بعضاً».

ولقد صور ابن قتيبة هذا المعنى حين قال: القرآن جامع لكثير من المعاني في القليل من اللفظ، وانطلاقاً منه الى البيان العربي قول الرسول: «أوتيت جوامع الكلم»، ويقول أحد الباحثين: إنما يعرف فضل القرآن من كثر نظره واتسع علمه وفهم مذاهب العرب وافتنانها في الأساليب. وما خص العربية دون جميع اللغات، فإنه ليس في جميع الأمم أمة أوتيت من قوة العارضة واتساع المجال ما أوتيته العرب، وطابع القرآن في الأداء على نحو ما ذكر الباقلاني (جامع لوجوه القول من قصص ومواعظ واجتماع وأحكام ووعد ووعيد الى غير ذلك من الوجوه دون أن يكون في تأليفه تفاوت او نزول عن المرتبة العليا بينما لا نخبر لأحد من البلغاء مهما علت منزلته أدباً لا تفاوت فيه).

ومن هنا تتميز سمة القرآن، وهي تكامل عناصر الأداء في فنونه المختلفة وفي تكامل عناصر المضمون في عناصره جميعها.

ولقد دعا الكتاب في كل عصر، وفي عصرنا الحديث الى التماس طريقة القرآن في التصوير والتظليل باعتبارها أعلى طريقة للأداء ونقلها الى عالم الأدب (فإن ذلك من شأنه أن يرفع الأدب العربي الى آفاق رفيعة لم يصل إليها الى الآن).

يقول أحد الباحثين: (من العجيب أن يكون القرآن هو كتاب العرب الأول ثم لا يستفيد الأدب العربي من طريقته الأساسية شيئاً بعد نزوله وتيسيره للذكر).

وليس اسلوب القرآن في جملته تصويراً فنياً (بل إن التصوير[1] الفني هو أداة واحدة من أدوات التعبير الكثيرة في القرآن، وليست هي الغالبة ولا الكثيرة فتارة يعبر عن المعنى المراد بالتعبير المتكافىء المعنى واللفظ مستخدماً الألفاظ الوضعية وحدها، وتارة يستعير لفظاً واحداً من عشرات الألفاظ التي هي في الجملة ليحرك

(١) راجع عبد المنعم خلاف في مناقشة مع آخرين م ١٩٤٤ الرسالة.

به الخيال ويلمس الحس لمسارقيقا ، وتارة تكون الفاظ الحقيقة وملابسات الخيال متساوية وتارة تكون ملابسات التصوير وإثارة الخيال هي الغالبة ، وتارة تكون هي الكل ، ومع ذلك يحتفظ القرآن في كل أولئك بأسلوبه المتفرد وسر إعجازه ، فليس التصوير الفني هو سر الإعجاز في تعبيره) : (ففي القرآن تصوير فني ومنطق وحديث للعقل وحديث للقلب جميعاً).

* * * *

لقد خالف القرآن كل ما سبقه من أساليب في الأداء : سواء الشعر أو سجع الكهان ، خالف القرآن ذلك فلم يكن شعراً لخلوه من العنصر الاساسي في الشعر وهو الوزن والقافية ولم يكن يشبه سجع الكهان الذي يلف الغموض معناه حتى يصلح تفسيره على وجوه شتّى ، فضلاً عن قصر هذا السجع ، فقد كان لا يتعدّى جملاً معدودة . أما الخطب التي وردت إلينا من العرب فمكوّنة من جمل قصيرة مسجوعة سجعاً يكاد يكون ملتزماً قرينة المعني ليس لها هذه الأهداف القرآنية من تشريع واصلاح ، والحكم والأمثال جمل قصيرة لا يمكن أن تقاس بالقرآن في اتساع مداه وعمق معناه.

«ولهذا كان القرآن يوم نزل على الرسول مخالفاً كل المخالفة ، جميع الفنون الأدبية المعروفة عند العرب وقد اعترفوا هم أنفسهم بهذه المخالفة ، يروى أن عتبة بن ربيعة . قال حين سمع القرآن : يا قوم قد علمتم أني لم أترك شيئاً إلا وقد علمته وقرأته وقلته ، والله لقد سمعت قولاً ما سمعت مثله قط . وما هو بالشعر ولا بالسحر ولا بالكهانة . وقال الوليد بن المغيرة : قد عرفنا الشعر كله : رجزه وهزجه ومبسوطه ومقبوضه وما هو بشاعر ، وسمع أعرابي رجلاً يقرأ (فلمااستيأسوامنه خلصوا نجياً) قال أشهد أن مخلوقاً لا يقدر على مثل هذا الكلام ، وقال ابو ذر : والله ما سمعت بأشعر من أخي أنيس ، لقد ناقض اثني عشر شاعراً في الجاهلية أنا أحدهم ، وانه انطلق الى مكة وجاءني بخبر النبي : قلت فما يقول الناس قال : يقولون : شاعر ، وكاهن ، وساحر ، ولقد سمعت قول الكهنة فما هو بقولهم ، ولقد وضعته على اقراء الشعر (بحوره) فلم يلتئم ولا يلتئم على لسان أحد بعدي أنه شعر.

وهكذا أدرك العرب أن القرآن مباين في أسلوبه لفكرتهم. وأنه وإن كان موسيقياً ليس بشعر، وهو وان كان فيه السجع فهو لا يشبه سجع الكهان. ولهذا السبب عينه، وهو أنه مباين في أسلوبه لكلام العرب، ذهب بعض النقاد الى أن القرآن وإن كان من المنثور مباين لنوعيه: المرسل والمسجع، فلا يسمى شيء منه مرسلاً ولا مسجعاً وإنما هو آيات مفصلة، تنتهي الى مقاطع يشهد الذوق بانتهاء الكلام عندها، فالقرآن على هذا النحو: له نظامه الخاص به في عرض أفكاره وفي ترتيب معانيه، فيه السجع وفيه الارسال ولكنه السجع المعجز، يتبع اللفظ فيه المعنى، والعبارة فيه طيعة غير متكلفة ولا مبتسرة، ينتهي المعنى بانتهاء الآية ولا يتكلف فيها شيء من اعتصاب الكهان او التغيير في التعبير حتى يصح السجع ويستقيم).

ويقرر بعض الباحثين المعاصرين ان النسق القرآني قد جمع بين مزايا النثر والشعر جميعاً، فقد أعفى التعبير من القيود الثقافية الموحدة والتفصيلات التامة فنال بذلك حرية التعبير الكاملة عن جميع أغراضه الخاصة، وأخذ في الوقت ذاته من الشعر الموسيقى الداخلية والفواصل المتقاربة التي تغني التفاعيل والتقفية المتقاربة التي تغني عن القوافي وضم ذلك كله الى الخصائص، هو إذاً ليس شعراً، وان أخذ من الشعر خصائصه الفنية. فهو نثر، ولكن النثر الذي يرقى فيه التناسق الفني آفاقاً وراء آفاق.

* * * *

ولقد قالوا إنهم عرضوا القرآن على أوزان الشعر فلم يستقم فنفوا أن يكون شعراً، ورأوه ذا فواصل تتفق في الحرف الأخير وكان ذلك دأب الكهان في سجعهم فظنوا آيات القرآن كسجع الكهان يلزمون السجع ولا يتعدونه ،وهو سجع قصير الفقرات غامض المعنى، أما القرآن فقصير الفقرات حيناً طويلها حيناً آخر ولا يلتزمها أحياناً أخرى، وهو في كل ذلك واضح المعنى ظاهر الدلالة.

وخير ما يوصف به (القرآن) أنه (ذكر) فهو لا يشبه الشعر لأنه لا وزن له ولا قافية ولا خيال، وقد نفى القرآن عن الرسول أنه شاعر وساحر وكاهن، ولقد وصف

الرسول البلاغة بأنها السهل الذي لا تكلف فيه ولا إغراب قائلاً : إياي والتشادق ، أبغضكم الي الثرثارون المتفيهقون ، وقد قال لجرير بن عبد الله البجلي : يا جرير : إذا قلت فأوجز ، وإذا بلغت حاجتك فلا تتكلف ، وجاء هذا في المعنى الاصطلاحي : مطابقة الكلام لمقتضى الحال .

وكان نمط الرسول في كلامه هو المثل الأعلى للبيان العربي : قال «أعطيت جوامع الكلم» ، فقد خصه الله بالإيجاز وقلة اللفظ مع كثافة المعنى ، وإنا لنجد في خطبة الوداع أوجز خطاب وأعمق خطاب . ولقد وجهه الله سبحانه أن يقول عن نفسه «وما أنا من المتكلفين» ولذلك فقد عاب التشدّق واستعمل المبسوط وهجر الغريب والوحشي ، ويكاد مذهب الرسول في الأداء أن يكون بريئاً من التعقيد والتكلّف والإغراب مجرّداً من التصنّع [١] .

وقد سار الخلفاء الراشدون على نهجه ثم سار على النهج جميع المفكرين المسلمين ، ولم يخرج على هذا النهج إلا الشعوبية ودعاة الانحراف بمنهج الفكر الإسلامي . ويبدو هذا الانتقال من مفهوم القرآن الى مفهوم الزخرف واضحاً في عبارة عبد الحميد الكاتب الفارسي حين قال : (خير الكلام ما كان لفظه نحلاً) .

وكانت المؤامرة التي قام بها وأكملها ابن المقفع : فرض طابع الكتابة الفارسية على العربية لغة القرآن ، ونقل البلاغة الفارسية الى العربية وأعلاها على الأصول القرآنية التي عرفها ، ولقد تأثر الأدب العربي ثمة نتيجة السيطرة السياسية الفارسية ، ولكنه سرعان ما نفض عنه زيف الزخرف والسجع الخالص والمقامات ، وكذلك كان موقف الأدب العربي من الآداب الغربية في العصر الحديث وهو ما تنبّه له كثير من الباحثين . وقد أشار هاملتون جب الى ذلك حين أكّد أن هناك فوارق أساسية جذرية لا سبيل الى إلغائها او محوها ، وسجل ذلك في قوله : إن الذوق العربي كان ينبذ من الأدب الأوربي جميع العناصر التي لم يكن يألفها ، والحق أن الإنسان الذي شب على المثل العليا الإسلامية لا يعجب بالآداب الأخرى إلا بما هو متأثر بهذا اللون .

---

(١) عن كتاب البلاغة العربية لسيد نوفل

وهنا تجيء الكلمة الفاصلة : في أن القرآن من عند الله وليس من صنع عبقري ، وهو معجزة إلهية وليس آية فنية إنسانية ، ولذلك فإنه لا يخضع لما يخضع له العمل الإنساني من النقد ، وإن كان يمكن فهمه ودراسته على أساس طبيعته الأصيلة.

ولقد كان القرآن آية وحده منذ نزل الى اليوم والى آخر الدهر ، ومع محاولات الاقتداء به من بلغاء العربية فانهم لم يبلغوا شيئاً ، وظل القرآن مفرداً بأسلوبه وطريقة عرضه ، وإذا كان لنا أن نتساءل : ماذا أعطى القرآن للأدب العربي؟ نقول إنه أعطاه الصدق والحق ، وباعد بينه وبين الأساطير الوثنية والمبالغة : وانه قدم له ذلك التراث الضخم كله من البيان والمضامين النفسية والاجتماعية.

# الفصل الثالث

## النثر والشعر في مفهوم الأدب العربي

أولت الدراسات الحديثة الشعر اهتماماً كبيراً ، يكاد يكون أكبر من حجم الشعر نفسه في الأدب العربي ، بل وكأنما هو أبرز فنون الأدب العربي ، بينما نرى الشعر في مقاييس الأدب العربي الحقيقية ، بعد الإسلام في الدرجة الثانية بعد النثر الذي يمكن أن يقال إنه الفن الذي صنعه الاسلام في الأدب العربي ، حيث لم يكن للعرب قبل الإسلام نثر فني بالمعنى الذي نشأ بعد نزول القرآن ، ويمكن القول بأن القرآن هو أول نموذج للنثر في الأدب العربي كله ، وهو في نفس الوقت أرفع نموذج للنثر في الأدب العربي كله ، وهو في نفس الوقت أرفع نموذج وأعلاه ، من حيث هو ذروة البلاغة والبيان ، ومن الحقيقة أن يقال وباجماع الآراء ان الشعر كان ديوان العرب وكان هو الفن الأعلى في الأغلب للحياة الأدبية في الجاهلية ، وكان هناك الى جانبه قدر يسير من سجع الكهان وبعض نصوص خطابية ، غير أن القرآن حين انزل لساناً للدعوة الإسلامية أعاد تشكيل الأدب العربي من حيث أسلوبه ومضمونه أيضاً ، فقد قدم هذه الحصيلة الضخمة من البيان ومن الفكر التي أصبحت أساساً للفكر الإسلامي والثقافة العربية والأدب العربي جميعاً .

وقد أعلى القرآن طابع النثر ، من حيث إن القرآن نثر فني منزل ، يعلو عن صنعة الكاتبين ، ويجل عن تقليدهم ، ويعجز أصحاب البيان منهم ، وفي هذا يقول عمر

ابن الخطاب : كان الشعر علم قوم لم يكن عندهم أصلح منه حتى أغناهم الله بالإسلام فتشاغلت عنه العرب ولهيت عن الشعر وروايته[1] .

ولقد كان للإسلام كما سجل القرآن موقعاً واضحاً ومفهوماً صريحاً من الشعر والشعراء ، فقد شجب القرآن (وهو قاعدة المفاهيم الأساسية لكل عناصر الفكر الإسلامي ، والأدب أحد هذه العناصر بالطبع ) شجب ذلك اللون من الشعر الذي استشرى في الجاهلية : من مغالاة في المدح او الهجاء أو انحراف في الغزل ، ولم يقر إلا لوناً واحداً هو ذلك اللون المتصل بالأخلاق وإعلاء الطبائع والتسامي بالأعراض :

ولقد كانوا يقولون قبل الإسلام : أعذب الشعر أكذبه ، فدعا القرآن الى الصدق ، وأقام مفهوماً جديداً للأدب نقل به الناس نقلة جديدة من المفاخرة والهجاء وغيرها الى مجال أرحب هو مجال الدعوة الإسلامية .

ولقد التمس الأدباء منهج القرآن في الإسلوب ومثله الأعلى في المضمون فكان أبرز مفاهيم البلاغة في الأدب العربي هو « الإيجاز » ، وأن تكون الألفاظ على قُدود المعاني كما يقولون . ونشأ النثر العربي المرسل الخالي من الصنعة المتكلفة القائم على صدق الإحساس وعمق الفكرة

ولقد اتجه الأدب العربي بالقرآن اتجاهين واضحين خالف بهما الجاهلية وأرسى مفهوماً جديداً للأدب العربي مستمداً من أصالة الرسالة ومزاج الأمة التي شكّلها الإسلام بمفاهيمه وقيمه .

(اولاً) أنكر الإغراق والمغالاة والإسراف في الخيال ، وأنكر المبالغة في العاطفة ، والاعتماد على الوجدان ، واطلاقه ليقول ما يشاء :

« والشعراء يتبعهم الغاوون ، ألم تر أنهم في كل واد يهيمون وأنهم يقولون ما لا يفعلون » :

---

(١) طبقات الشعراء لابن سلام.

ومعنى هذا هو التحوّل الى العقل والى الدقة والعلمية في التعبير والى الابتعاد عن الهوى والإسراف في الخيال والإسراف في إعلاء العاطفة سواء في مجال المدح او الهجاء او التصوير الحسّي.

(ثانياً) أنه أعلى طابع الايجاز، وأنكر أسلوب التفصيل والاسراف في تصوير دقائق الوقائع واستهداف التماس العبرة الأساسية والوصول في سرعة الى الغاية والى عقدة الواقعة، او الى مضمونها دون توسّع او إطالة.

ويكاد يكون هذا هو طابع الأدب العربي المميز وذاتيته الأصيلة في مواجهة الإسراف في التفاصيل الذي يطبع الأدب اليوناني القديم والأدب الأوربي، وبهذين العنصرين الهامين غلب على الأدب العربي طابع العلم وتقهقر طابع الخيال المسرف والإغراق في العاطفة والوجدان مما يقوم على أساس التهويل.

ولقد كان نمط القرآن مطابقاً لهذا المفهوم، او بعبارة أصح ان الأدب العربي (والفكر الإسلامي كله) قد التبس هذا الأسلوب من القرآن الذي عرف به في منهجه وأسلوبه ومضامينه جميعاً.

ولقد كان الأدب العربي في هذا مطابقاً للروح العربية وللمزاج الإسلامي القائم على الوضوح والصراحة، وضوح الشمس المشرقة والأفق الساطع والصحراء الواسعة الفسيحة، والأجواء المفتوحة المنطلقة، فهو طابع وجدان ومزاج وذات لا تعرف الرمزية ولا الإخفاء ولا الظلال، ولا طابع «بين بين» بين الظلام والنور، او بين السحب الداكنة والجبال السوداء، او بين العواطف الراعدة وأصوات الوحوش في الظلام.

ومن هنا تبدو ذاتية الأدب العربي الواضحة: الخلاف والتباين للآداب الأوربية التي تقوم على الرمز والظلال والتفاصيل المغرقة، بينما يقوم الأدب العربي على الوضوح والإيمان والعقلانية من غير سرف في اعلاء الغريزة او العاطفة.

ولقد اكتسب الأدب العربي من القرآن طابع الحديث الى العقل والقلب جميعاً، فهو ليس عقلانية خالصة مسرفة في جفاف العلم ولا وجدانية صريحة مسرفة في الكشف والاستهواء.

ولقد اصطنع القرآن أساليب الوجدان وأساليب العقل وأساليب السخرية وأساليب التساؤل وأساليب التقرير كل في موقعه ووضعه.

وبذلك بَعُدَ عن أسلوب الشعر الجاهلي القديم، بالرغم ممّا حواه منَ موسيقى وفواصل وسجع يسير وتقفية وتفاعيل، وتكرار رفيق. فقد استعمل القرآن هذه الفنون جميعاً ولكنه استعملها في غير اصرار على نوع منها، واتخذ لكل موقف وحال الأسلوب الملائم، فهو إذاً ليس شعراً، وليست له خصائص الشعر، ولكنه نثر، وهو أول ما عرف من النثر العربي على وجه التحقيق، وما سبقه لم يكن نثراً وانما كان مجموعة من سجع الكهان ونماذج الخطابة.

ولقد كشف الأدب العربي عن ذاتيته في مفهوم الشعر في مواضع كثيرة أبرزها إنكاره المفهوم الجاهلي في أن للشاعر شيطاناً من الجن، وكذلك إنكاره المفهوم الاغريقي الذي يرفع الشعر الى مستوى الإلهام. كما أنكر ذلك التعريف الذي يوصف فيه الشعر والفن بعبارة «الخلق» وميز الإسلام بين الوحي الذي يختص به النبي والالهام الذي يتصف به الشاعر[1].

ولقد أشار كثير من الباحثين الى أن كلمة: الخلق الفني لا تطابق مفهوم الأدب العربي للإلهام، فالخلق هو لله وهو يخلق من العدم، ولذلك بدأوا فواتح أعمالهم باسم الله. ولذلك لم يستعمل المسلمون كلمة «خلق» في الكلام على الفنون. ولكنهم آمنوا بالالهام واستطاعوا أن يقدموا في مجال الشعر والنثر أعمالاً جديدة باهرة فليست العبرة بالعبارة نفسها ولكن بالعمل الأصيل المجود.

* * * *

ولقد خضع الشعر العربي لمفهوم القرآن زمناً، وسار في الطريق الصحيح منافحاً عن الدعوة الإسلامية مبتعداً عن الكذب والغواية، مناضلاً ضد الوثنية، عارفاً

(١) جوستاف فون جرينادم: دراسات في الأدب العربي.

بمكانه وطبيعته من الفكر الإسلامي والأدب العربي ، وهو مكان يأتي في الدرجة الثالثة بعد النثر والخطابة. ويعترف بوزنه وقدره من حيث التحرز والاحتياط منه كمصدر للأحكام او معبر عن العصر، ذلك أنه سرعان ما انحرف الشعر العربي عن مكانه ومفاهيمه التي أقرها الأدب العربي منطلقاً من القرآن وغلبت عليه مفاهيم جديدة نتيجة اتصاله بالآداب الشرقية واليونانية.

# الفصل الرابع

## لماذا انحرف الأدب العربي؟

استمدّ النثر العربي أسلوبه ومضمونه من منطلق القرآن، وقدم في خلال صدر الإسلام حصيلة ضخمة في جوانب المعرفة: فظهرت علوم الحديث والفقه والتدوين. وبدأ ذلك الارتباط العضوي بين القرآن والنثر العربي واضحاً عميقاً، وامتد نحو اللغة العربية فاتسع نطاقها بما أضاف إليها القرآن من اصطلاحات وما قدم لها من مضامين.

غير أن اتصال الأدب العربي بالآداب القديمة والمعاصرة له نتيجة التوسع والاتصال لم يلبث أن حمل معه الكثير من نتائج تلك الآداب، ثم بدأت تلك المحاولات الشعوبية الضخمة في اخضاع الأدب العربي للآداب الفارسية القديمة في أسلوبها ومضامينها، وذلك خطر لم يتعرّض له الأدب العربي وحده إنما تعرّض له الفكر الإسلامي أيضاً، وكان للآداب الفارسية القديمة طوابعها التي تمثل المزاج الفارسي الوثني القديم. ومن هنا انحرف الأدب العربي عن منهجه الأصيل المرتبط بالقرآن وظهر ذلك في الشعر والنثر جميعاً، وأما في النثر فقد ظهر في غلبة أسلوب السجع والزخرف، وأما في الشعر فقد ظهر في شعر الغزل الحسي وشعر الخمريات، ومن الحق أن هذا الانحراف قد أفسد الذوق العربي الأصيل، وأبعد الأدب العربي عن مزاجه النفسي والعقلي ومضامينه المستمدّة من جوهره وواقعه.

وقد جاء هذا نتيجة للآثار التي ترتبت على انتصار الإسلام وسيطرة فكره على الثقافات القديمة الوثنية من مجوسية ومانوية وزرادشتية وغيرها ، ثم انحراف قادة المسلمين عن منطلق الإسلام نفسه الى طوابع العصبية القبلية واعلاء العرق إعلاء يتعارض مع منهج الإسلام نفسه ، مما دفع الطوائف غير العربية الى إعلان العداء والتكتّل في الجانب الآخر مع الثقافات القديمة وخاصة الفارسية لمعارضة هذا النظام والعمل على التخلّص منه.

ومن هنا نشأت الحركة الشعوبية الخطيرة التي استهدفت القضاء على الإسلام بالقضاء على مقوماته الفكرية والأدبية ، ومن هنا فقد تصدّت هذه الحركة للأدب العربي فحاولت اخراجه عن منهجه القرآني بإعلاء السجع والزخرف ، والغزل الحسّي والخمريّات واعطاء طابع غريب من الكشف والتحلّل ليس من طبيعة الأدب العربي نفسه ، وبدأت الحركة في انبعاث مفاهيم الراوندية والبابكية والخرمية والباطنية والزنادقة والملاحدة لإفساد مضامين الأدب العربي والفكر الإسلامي. جميعاً[1] .

ومن الحق أن يقال إن الأدب العربي قد خضع لهذا الانحراف ، بينما استطاع الفكر الإسلامي أن يتحرّر سريعاً وأن يواجه حركة الغزو في قوة وصمود وأن يكشف أخطاءها ، وقد وضح في هذه الأزمة كيف أن الفكر الإسلامي في شموله وتكامله أقوى وأقدرعلى مواجهة الخطر الذي عجز عنه الأدب ، ولقد كانت كتابات الجاحظ والثعالبي والمبرد وابن قتيبة وابي علي القالي في دحض شبهات الشعوبية والكشف عن اصالة جوهر الأدب العربي ؛ من العوامل الهامة في دحر خطة الغزو. غير أن دعاة مذهب النقد الأدبي العربي الوافد قد استغلّوا هذه المعركة لغير صالح الأدب العربي الحديث ، وحاولوا أن يلتمسوا منها صورة للمجتمع الإسلامي العربي في هذه الفترة.

---

(١) لمزيد من التفاصيل حول الحركة الشعوبية راجع كتابنا «القيم الأساسية للفكر الإسلامي والثقافة العربية».

وللذلك فقد شملت المناهج الجامعية وغيرها دراسات واسعة عن أواخر العصر الأموي وأوائل العصر العباسي، وحاول طه حسين أن يتّهم هذه الفترة من عمر المجتمع الإسلامي بالإباحة والشك اعتماداً على بضعة شعراء من الماجنين لا يمثلون شيئاً في خضمّ من العلماء والفقهاء واللغويين والفلاسفة.

ومن الحق أن يقال ان الأدب العربي قد انحرف عن منهجه الأصيل وعن ذاتيته حين واجه هنا الغزو الفارسي، وان المعركة قد استمرّت طويلاً بين الأصيل والدخيل. وفي هذه الفترة غلبت مظاهر الانحراف وتركت بصماتها في آثار طائفة من الكتّاب والشعراء.

ثانياً: انحراف الشعر عن مفهوم الأدب العربي:

ان الشعر العربي بعد الإسلام قد خضع لما خضع له الأدب العربي كله فغيّر مضامينه وأغراضه عما كان يتناوله شعراء الجاهلية وان بقيت أبواب الشعر محصورة في المديح والهجاء والفخر والحماسة والغزل والرثاء.

ذلك أن الاسلام قد أعطى الأدب العربي ذاتية جديدة في مفاهيم الحياة والمجتمع وعلاقات الأفراد.

واستقام أمر الشعر على مفهوم الأدب العربي الإسلامي، فأعطي حرية التصوير وبراعته باعتباره فنا ولكنه لم ينطلق دون قيود، بل أخذ يتحرك داخل إطار أخلاقي واضح حيث يرتبط الأدب بالمجتمع، على قاعدة أساسها «الصدق الفنّي» دون أن يتعدّى الضوابط المقرّرة، كما أعطى الإسلام الأدب (والشعر جزء منه) ذلك الطابع الإنساني: القائم على إيقاظ ضمائر الناس على الحق والخير والعدل، وفي نفس الوقت احتاط الفكر الإسلامي في النظر الى الأدب على أنه أعمق معبّر عن النفس، فقد كان الأدب في الأزمات الكبرى ينطوي ويعجز عن أداء هذه الرسالة بينما يتقدّم الفكر نفسه لملء الفراغ، وقد بدا ذلك جلياً في أزمات الشعوبية والغزو الصليبي وحملات التتار وفي الغزو الاستعماري الحديث.

فهناك احتياط واضح في اعتبار الشاعر كأصدق معبّر عن العصر الذي يعيش فيه وذلك بحسبان أن الشعراء ورجال الفنون قوم عاطفيون، تقتصر نظرتهم عند الوجدان ولا يستطيعون التطلّع إلى أبعاد الصورة الكاملة، وعواطفهم دائماً تغلب عقولهم، ومن هنا كانت الصور التي يقدّمونها مبالغاً فيها، فهي أكبر من الواقع، وأكثر بريقاً، ولا تلتزم الاعتدال والانصاف دائماً[1].

* * * *

ويجمع الأدباء ومؤرّخو الأدب على ان الشعر في الصدر الأول من الإسلام من حيث الأساليب لا يختلف كثيراً عنه في الجاهلية، أما في المعاني والأغراض فقد كان الفرق بين العصرين كبيراً جدّاً، فقد هجر الشعراء المسلمون الأغراض الوثنية، كالقسم بالأصنام والكلام عن العصبيات، والفخر بالخمر والثأر الا قليلاً، ثم أخذوا مكانها المعاني الإسلامية مثل: «التوحيد والتقوى والجهاد» والمعروف أيضاً أن الشعر في صدر الإسلام تخلف عن مكانه الأول في الجاهلية وسبق النثر والخطابة التي ازدهرت كثيراً وكان «القرآن» قد أشار في موضوعية الى الشعر والشعراء فشجب مفهومها المنحرف، كما نهى الرسول الشعراء عن ذكر الأعراض واثارة كوامن الاحقاد والإشادة بالعصبيات والأنساب.

وكان من الطبيعي أن يتصدّر أسلوب القرآن البيان العربي ويشغل الناس، وقد لوحظ أن الشعر في صدر الإسلام قد تطوّر في إطار المناهج الإسلامية الجديدة فقلّت فيه جوانب المديح والمبالغة والهجاء وضعف جانب الإسراف والعنف، وجرى التحوّل واضحاً في الغزل والنسيب.

كما عمّق فن الرثاء للشهداء، والإشادة بالإسلام والدعوة الإسلامية وغلب الحكم والأمثال والحث على مكارم الأخلاق.

---

(١) تصرفنا في هذا المعنى بعد أن نقلناه من بحث الاستاذ علي أدهم.

وقد جاء ذلك كله في اطار نهي الإسلام عن المبالغة والمغالاة بصفة عامة، والمفاخرة والمناجزة بصفة خاصة، وقد كشفت كلمات الرسول وتفسيرات عمر بن الخطاب مفهوماً جديداً هو أن العصر عصر القرآن لا عصر الشعر الذي كان ديوان العرب ومناط فخارهم وابرز فنونهم الأدبية، وان على الشعر أن يتحرّر من مفاهيمه الجاهلية ويخضع لمفاهيم القرآن، وان عليه أن يكون سلاحاً من أسلحة التوحيد في مواجهة الوثنية، وقد تحوّل فعلاً شعراء من أمثال: حسان بن ثابت وكعب بن مالك وعبد الله بن رواحة فاتجه شعرهم الى مدافعة خصوم الإسلام حتى قيل إن هؤلاء النفر كانوا أشدّ على قريش من نضح النبال.

وقد نفى القرآن الشاعرية عن رسول الله نفياً باتاً، وابان الفرق الواضح العميق بين نبوة الرسول ورسالته السماوية البعيدة عن خيالات الشعراء أو الهام الشياطين كما كان يدعي شعراء الجاهلية والشعر. ودحضاً لما وقع في نفوس خصوم الاسلام من شبهة نسبة بلاغة القرآن الى النبي واتهامه بأنه شاعر. قال الله تعالى في القرآن الكريم: «وما علمناه الشعر وما ينبغي له، إن هو إلاّ ذكر وقرآن مبين» وصور القرآن دعواهم «بل قالوا أضغاث أحلام، بل افتراه، بل هو شاعر» وقال: أم يقولون شاعر نتربّص به ريب المنون، قل تربّصوا»،

وقال: «ويقولون اننا لتاركو آلهتنا لشاعر مجنون بل جاء بالحق وصدّق المرسلين»

وردّ القرآن على كل الدعاوى الباطلة في حسم: فلا أقسم بما تبصرون وما لا تبصرون، أنه لقول رسول كريم وما هو بقول شاعر قليلاً ما تؤمنون ولا بقول كاهن قليلاً ما تذكرون، تنزيل من رب العالمين»

وهكذا وضع القرآن الحدود الفاصلة بين بيان الجاهلية وبيان الإسلام بين الشعر وبين القرآن، كما أكّد القرآن أمّيّة الرسول دفعاً للإتهام الذي يقول بأنه قرأ الكتب السماوية ونسج على غرارها:

«وما كنت تتلو قبله من كتاب ولا تخطّه بيمينك»

ولم يمنع الأمر بعد وضع هذه الحدود الفاصلة الواضحة بين القرآن والشعر، وبين النبوة والشاعرية من أن يكرم الرسول الشعراء وأن يقول لحسان: اهجهم وروح القدس معك.

ولا يمنع من أن يعفو عن كعب بن زهير ويستمع الى قصيدته ويجيزه.:

فقد بلغ كعب بن زهير أن الرسول أهدر دمه لشعر قاله، فقدم على النبي متنكّراً وقال: يا رسول الله يبايعك رجل على الإسلام وبسط يده وحسر عن وجهه وقال: بأبي أنت وامّي يا رسول الله، هذا مكان العائذ بك، أنا كعب بن زهير فتجهمته الأبصار وغلظت عليه الألسنة لما ذكر به رسول الله في شعره. فأمّنه الرسول فلم يلبث أن أنشد في مدحه: قصيدته المعروفة (بانت سعاد).

* * * *

هذا هو مفهوم الشعر في الأدب العربي في صدر الإسلام، وهو مفهوم أعطى حرية القول وصدق التعبير، وعمق الاداء في داخل اطار القيم الإسلامية القرآنية، وجعل الأخلاق قيمة أساسية من قيمه، وكان الشعر العربي حرياً بأن يمضي صادق الأداء، وفي نفس الوقت مترفّعاً عن الإثم والهجاء والإفحاش والكشف.

غير أن اتصال الأدب العربي بالآداب الشرقية والغربية التي اتصلت به، وأبرزها الأدب الفارسي القديم ثم الأدب اليوناني الأغريقي قد دفعه الى الانحراف وأفسد جوهره، وضلّل ذاتيته واصاب مزاجه النفسي بالاضطراب والانحلال.

وكما فسد النثر بالسجع والزخرف، فسد الشعر بالكشف والغزل الحسّي والخمريات. ولم يكن انحراف الشعر العربي صادراً من طبيعة فيه، وإنما جاء نتيجة للعوامل الخارجية التي كانت تصاحب الحركة الشعوبية التي كانت تظهر الخصومة للعرب وتخفي هدفها الأصيل وهو هدم النظام الإسلامي كله.

ويكشف ذلك أن رؤوس شعراء المجون والخمريات كانوا جميعاً من أصول فارسية ومن الزنادقة الذين عاودوا مفاهيم المجوسية والمانوية والمزدكية وعجزوا عن

إذاعتها علناً ، فأنشأوا هذا التيار من المجون والزندقة والإباحة ، وقد اتصلت هذه العناصر الثلاثة اتصالاً واضحاً حين ظهرت جماعة (أبي نواس) واتصل ذلك بالهجاء والرفض والمجاهرة بارتكاب المحارم والدعوة إليها وتحسينها ، ومن هنا برز ذلك اللون من الشعر الذي جمعه الأصفهاني في الأغاني والثعالبي في (يتيمة الدهر).

وقد ضمّت هذه العصبة : ابا نواس وبشاراً ومطيع بن إياس ووالبة الخليج ، وهو الشعر الذي أولاه مزيد الاهتمام الدكتور طه حسين في كتابه حديث الأربعاء ، والذي فرض دراسته في كليّة الآداب ، وكان يملؤه العجب أن يرى فتاة تقوم لتقرأ شعر أبي نواس في غزل المذكر وتشرحه ؟ وقد تابع الدكتور طه حسين هذا اساتذته من المستشرقين الذين أولوا اهتمامهم الى مثل ابي نواس وبشار ، فلما جاء الشيخ الخضري فنفى الأغاني من شعر الفحش ثار طه حسين على أستاذه القديم ثورة عنيفة . ولم يكن هذا اللون من الشعر من طبيعة الأدب العربي ، ولا صادراً من أعماق النفس العربية . وقد أنكر الذوق العربي الأصيل مثل هذا الطابع المادي من المجرن والإباحة والكشف .

ولكن دعاة مناهج النقد الغربي الوافد أرادوا أن يجعلوا من هذا الشعر مقابلاً للأدب الأغريقي الغارق في معاني التحلل والشذوذ .

واطلق عميد التغريب مع دعوته تلك قوله الآثم : (ليس للأدب أن يعطل عمله ليسأل عن قواعد الأخلاق) ولقد واجه النقد العربي الأصيل هذا الاتجاه المنحرف فنفى أنه مما ينسجم مع طابع الأدب العربي وذاتيته . وكشف عن أن مثل هذا الشعر لا يمثل الشعر العربي ، ولا يمثل عصره ، وهو في الغالب من عمل اشعراء ليس لهم في الحياة مثل أعلى ينهضون إليه ولا عمل شريف يبذلون فيه جهدهم[1] .

كما كشفت وقائع التاريخ الصحيحة أن أغلب هؤلاء الشعراء من غير العرب وأنهم من زنادقة الفرس والداخلين في المؤامرة الشعوبية الضخمة ؛ كما كشفت وقائع

---

(١) خلدون الكتاني — مجلة الكتاب ١٩٤٧ م

التاريخ أيضاً عن أن أغلب الخمارين كانوا من اليهود والنصارى ، وأن أغلب القيان لم يكنّ من العرب ، بل لقد أدّى انتشار القيان والكشف الى انسحاب المرأة العربية المسلمة الحرة من الحياة الاجتماعية .

ثالثاً : الكشف والغزل :

غيّرت القيم الإسلامية مفاهيم الحياة الاجتماعية الجاهلية في مختلف جوانبها ، وأنشأت في مجال النفس الانسانية تشكّلاً جديداً ، فقد أنكر الإسلام الرهبانية والإباحية على السواء ، وأعطى الحياة الإنسانية حق الزينة والمتعة في نطاق ضوابط جديدة قوامها الحلال والأخلاق والتوسّط ، كما أذهَبَ نزعات الجاهلية في التفاخر بالآباء والعصبية والهجاء المقذع ، وكذلك وطّد في مجال العلاقات الاجتماعية بين الرجل والمرأة أسلوباً جديداً ، قوامه الحياء والخلق والتقوى ، وقرر للمرأة حقوقاً جديدة رفع بها قدرها وحرّرها من الذل والمهانة والعبودية ، فلم تعد رقيقاً او حريماً ذليلاً ، كما رفع عن المجتمع الإسلامي إصر تلك العلاقات المهينة الإباحية الذليلة .

كما أقرّ الإسلام حق النفس الإنسانية في المجال الحسّي وفق نظام كريم رفيع ، ولم يرفض الإسلام الغرائز والميول الإنسانية ، ولكنه اعترف بها وأقرّها وفتح لها أسلوباً من التنفيس والتحقيق دون أن يخرجها عن قيمها الأخلاقية وعن العفاف والشرف . وقد صوّر الدكتور شكري فيصل هذا المفهوم في براعة حين قال[١] لم تكن الحركة الاسلامية منكرة للحياة العاطفية ولا مُتَجَهّمة لها ، ولم يكن من شأنها أن تهمل هذا الجانب من حياة الإنسان مختصرة له أو مزدرية شأنه ، وإنما كان همّها دائماً أن تستثمر هذه الحياة العاطفية وأن تجعل منها قوة دافعة نحو الخير والصلاح المشترك .

ويقول : « نظر التشريع الاسلامي الى النفس الإنسانية على أنها هذه الكتلة من الأهواء والغرائز والميول ، وأنها كذلك في كل زمان ومكان تقريباً ، لذلك رأى أن خير ما يكون عمله فيها أن يسمو بهذه الميول ، لا يجاريها وانما يصعدها ، لا يقتلها ،

---

(١) تطور الغزل بين الجاهلية والإسلام.

وانما يستثمر القوى الخيرة منها ويحقق ما يمكن أن يتحقق عن طريقها من خير عام ، وأن لا يتركها في صورتها البدائية المطلقة ، ولكن يهذّبها ويصفّي خبثها ويتحول بها عن مواطن الأذى الى مواطن السلامة » ومن الحق أن يقال إن هذا المفهوم كان واضحاً في عقول علماء المسلمين ، وقد صوره أدقّ تصوير الإمام ابن القيم الجوزية في كتابه روضة المحبين حين قال : « لما كان العبد لا ينفكّ عن الهوى ما دام حيّاً فإن هواه لازم له كان له الأمر بخروجه عن الهوى بالكلية كالممتنع ، ولكنه المقدور له والمأمور به أن يصرف هواه عن مراتع الهلكة الى مواطن الأمن والسلامة ، ومثاله أن الله سبحانه وتعالى لم يأمره بصرف قلبه عن هوى النساء جملة ، بل أمره بصرف ذلك الى نكاح ما طاب له منهنّ ، فانصرف مجرى الهوى من محل الى محل وكانت الريح دبوراً فاستحالت صباً ».

* * * *

ولقد كان مفهوم الإسلام في مجال العاطفة والحس واضحاً وصريحاً وقريباً من الفطرة ، فهو لا يدافع الغرائز ويحطمها كما تفعل بعض دعوات الزهد والرهبانية واعتزال الحياة ، وهو لا يفتح لها الطريق الى الانطلاق المدمّر كما تفعل بعض دعوات الإباحة والكشف والجنس ، ولكنه يدفعها في الطريق الوسط المأمون ، القائم على ترابط بين العقل والحسّ ، بعيداً عن الإسراف والامتناع جميعاً . ويصوّر الدكتور شكري فيصل هذا الاتجاه حين يقول : ولم يقصد (الإسلام) الى كبت هذه العاطفة (أي الحب) في نفوس العرب ولم يحاول ان ينتزعها من نفوسهم ، وإنما كان أمرها هنا أمرها في العواطف الأخرى ، أن يسمو بهذه العواطف وأن يطامن من كبريائها وأثرتها في الجاهلية ، وأن يمسك بزمامها ، فلا يترك انطلاقها وتمدّدها على حساب العواطف الأخرى .

وبذلك تحول « اتجاه الحب من خارج النفس الى داخلها » ثم « دفعه الى تعمّق ذاته بأكثر مما دفعه الى أن يحقق ذاته » ومن ثم « أخذ الحب في الحياة الإسلامية يتعدّد في داخل الحياة النفسية بأكثر مما يتسلّط خارجها » مما جعلت منه « تعرفاً الى سرائر النفوس أكثر مما جعلت منه إشباعاً لغرائز النفوس » فالشاعر الإسلامي حين يتحدّث

عن عاطفة الحب ، يتحدّث عنها بأقوى مما كان من حديث الشاعر الجاهلي فهو يتعمّق هذه العاطفة ويتأمّلها ويجول بها هذه الجولات الداخلية في سرائر القلوب ومساربها . «والحياة الإسلامية نظرت الى عاطفة الحب هذه من نحو آخر ، منحتها السمو واضفت عليها التقدير ، ولكنها اشترطت بعد ذلك أن تظل هذه العاطفة في نطاقها الفردي ، وأن يظل خيرها وشرها في نطاق الحياة الفردية فلا تجاوز ذلك الى المساس بالحياة الأخرى من مثل حياة الأسرة وحياة المجتمع .

وكما قدّست هذه العاطفة وباركت عليها ما دامت عاطفة نيرة تتحسّس طريقها وتعرفه ولا تتجاوزه ولا تعدوه ، فإذا خرجت عن ذلك وقفت لها الحياة الإسلامية تحدُّها وتكفكف من غربها ، ولذلك ربط الإسلام بين الحب والعفّة ، وجعل من هذين المفهومين مفهوماً واحداً ، «وتشبه العفة في ذلك أن تكون الإطار الاجتماعي للحياة الفردية فكما أننا لا نستطيع في حياتنا الفردية أن نتجاوز حقوق الجماعة ، كذلك نحن في عاطفة الحب هذه يجب ألّا نتجاوز مقدّسات الجماعة وقيَمها» ولم يقف الإسلام في مفهوم الحب عند هذا الحدّ ، بل انه حرص على «تنويع مسارب هذا الطريق لتخفّ حدّته وتضعف شدّته ، ولا تصيب كل قوى الحب وتياراته في المرأة ، ولا تركز فيها وإنما تتخذ هذه العاطفة مجالها في نواح أخرى ، نوّع الإسلام المحبّة وشعّب طرقها ، ومنها محبّة الله ومحبة المجتمع ، ومحبة المؤمنين ، وتعشّق الجهاد ، وايثار الأهل والفناء في أهل المكارم والأمجاد ، «ولم يعد هناك اتجاه ثابت نحو المرأة كاتجاه الإبرة المغنطة دائماً نحو الشمال ، وهكذا تصرّفت هذه الحيوية المتدفّقة والفيض الداخلي» ومعنى هذا أن الإسلام «لم يهدر هذه العاطفة ولكنه خضد شوكتها ولم يحطّمها وإنما صقلها ورقق حواشيها» فقد وضع الإسلام قواعد الحيطة : بالعفّة ، والمعالجة بالزواج المبكر وتحريم الرهبانية ، وبذلك أهدر الإسلام من الحب جانبه الوحشي ليقوّي فيه جانبه الأنسي ، فأعطى هذه العاطفة حياة متوازنة ومجتمعاً سليماً «لم يغال الاسلام بهذه العاطفة ، ولم يترك لها سبيل النمّو المتضخّم الشاذ» . والإسلام خالف (الجاهلية والوثنية) في نظرته الى الحب من حيث المبدأ ، لم يكن يرى أن تقتصر هذه العاطفة السامية على إرواء الهوى وإشباع الغرض ، وإنما كان

يرى أن تكون قوة حافزة دافعة ، ليست قوة سلبية في الحياة ، بل قوة ايجابية تدفع الى الكمال وتؤثره على غيره ، وتقوي العزم وتشحذه ، فأثار بها الهمم السامية والعزمات العالية الى اشرف غايتها[1] .

* * * *

وقد وضّحت هذه المفاهيم في الأدب العرب وظهرت في نتاج عديد من الكتّاب والفلاسفة والعلماء وأهمّها : الزهرة : لأبي بكر محمد بن داود الظاهري

رسالة العشق : لابن سينا

طوق الحمامة : لابن حزم

روضة المحبين : لابن قيم الجوزية

ذم الهوى : لابن الجوزي

كما ظهرت في مؤلفات أخرى مختلطة بالانحراف الذي ساد الأدب العربي حين اضطرب المجتمع الإسلامي وانحرف عن مفاهيمه الأصيلة ، واصطبغ بصبغة الفلسفات القديمة الفارسية والهندية واليونانية وتقبل مفاهيمها المنحرفة في الإباحة والرهبنة على السواء. مخالفاً بذلك الفطرة الإنسانية التي التمسها الإسلام في مفاهيمه عن الحب والعلاقات بين الرجل والمرأة وما يتصل بها من فنون العاطفة والغزل.

وقد أشار اندريه لو شابلان ، في كتابه عن (فن الحب العف) الى ذلك الطابع العربي الإسلامي حين قال : وقد يذكر أدراكاً جديداً للحب لم يكن للأدب الاوربي به عهد ، وفيه ترفع المرأة الى مكانة لم تحظ بها من قبل في أوربا ، ويخضع الفارس لها كما يخضع التابع للسيد صاحب الإقطاع في تلك العصور ، فالفارس يضحّي في سبيل حبّها ويبكي في يسر حين يهدّده الخطر في حبّه ، ويعد ضعفه أمامها

(١) بتصرف عن الدكتور شكري فيصل في كتابه تطور الغزل بين الجاهلية والإسلام.

نبلاً وسمواً لا استكانة فيه ولا ضرر بسببه، والحب طاهر بل هو على رأس الفضائل، وهو الذي يعلم المحب الكرم، ويبعث على التمسّك بالخلق الكريم، ولا يصح للمرء أن يحب أكثر من امرأة، ولا يحب امرأة غير كريمة الخلق، فالطهر والحياء والصدق والوفاء والتضحية هي دعائم الحب النبيل، حب يكتنفه الحرمان، ويطيب للمحبّ فيه العذاب ويشق عليه الظفر بما يؤمل من غاية» هكذا صوّر شابلان طبيعة الحب العربي، بما يختلف اختلافاً واضحاً وبعيداً عن الحب في مفهوم الغرب. وفي مفهوم الوثنية الأغريقية والجاهلية العربية، ولذلك فإن مفهوم العرب للحب لم يلبث ان انتقل الى الآداب الاوربية وأثّر فيها، ولا شك أن هذا يدحض ما ذهب إليه بعض المستشرقين من قولهم إن العاطفة العربية لم تحترم المرأة ولم تكن لها فيها مكانة كريمة.

* * * *

ومن الحق أن يقال إن هذه المفاهيم الأصلية للفكر الإسلامي لم تلبث أن أصيبت بشيء من الانحراف نتيجة ما نقل الى المسلمين من الفكر اليوناني والفارسي والمسيحي، وما حمله دعاة الشعوبية من آراء منحرفة عن اللذات والجنس والإباحة مما حفلت به فلسفات اليونان والمجوسية والمانوية وغيرها من مذاهب.

وكان أن اضطرب الأدب فجنح الى الغزل الجنسي وغزل المذكر وغيره من الانحرافات التي أصيب بها في فترة من فترات الاضطراب الاجتماعي والسياسي في المجتمع الاسلامي مما تلقفه دعاة التغريب والمبشرون والمستشرقون في محاولة لتزييف طبيعة الفكر الإسلامي والأدب العربي.

ومن الحق أن يقال إن الأدب العربي قد انحرف نتيجة العوامل التي أثّرت فيه، ولكن هذا الانحراف لم يصبح طبيعة غالبة عليه، ولم تتوقف محاولات التصحيح من الكشف عن زيف هذه الإضافات التي تختلف عن جوهره وتتباين مع ذاتية الأمة العربية ومزاجها النفسي والعقلي، حتى إذا جاءت اليقظة العربية الإسلامية كان واضحاً أمامها هذا الانحراف، وكان من أكبر ما وصلت إليه أن صحّحت مفهوم

الفكر الإسلامي والأدب العربي ، وكشفت عن جوهرها وطبيعتها ودافعت ذلك الزيف وجاهدت حتى لا تلصقه بها حركة الغزو الثقافي والتغريب.

ومن الحق أن يقال إن أصحاب مناهج النقد الغربي الوافد قد حاولوا أن يضعوا نماذج الحياة والأدب في فترة الانحراف هذه كوثيقة لاستخلاص نتائج مفصّلة عن انحراف الفكر الإسلامي والأدب العربي بعد اتصاله بالآداب اليونانية والفارسية ، ولكن هذه الوثيقة كانت زائفة ، ذلك أن الأدب العربي لا يؤخذ الحكم عليه من قطاع من قطاعات ، أو مرحلة من مراحل لينسحب على الأدب كله والعصور كلها ، ولا بدّ أن يدرس الأدب العربي ككل ، ويدرس الأدب العربي من داخل نطاق الفكر الإسلامي الذي كان هو الحصن الحقيقي لمقاومة الغزو الفكري القديم والجديد. وقد دافع الفكر الإسلامي تلك الانحرافات التي أصابت الأدب والفلسفة والسياسة وردها وانتصر عليها حين استطاع في القرن الخامس اقامة (منهج أهل السنة والجماعة) بعد ان صفيت كل جيوب الغزو اليوناني والفارسي والهندي التي حاولت أن تسيطر على الفكر الإسلامي وتخرجه عن مقوماته الأساسية.[1]

ولقد انصبت محاولة الدكتور طه حسين وأعوانه من دعاة منهج النقد الغربي الوافد على هذه المرحلة وعلى شعر أبي نوّاس وبشّار وغيرهما في محاولة لرسم صورة زائفة عن مفهوم الحب والمرأة والحياة الاجتماعية في الفكر الإسلامي والأدب العربي ، ومن الحق أن يقال إن ظاهرة الإنحراف كانت واضحة ولكنها لم تكن مسيطرة ، ذلك أنها كانت تتحرك في حذر وخوف داخل محيط واسع من الفكر الإسلامي في مختلف جوانبه من فكر وفلسفة واجتماع وتربية وعلم وتصوّف ، حيث وقف هؤلاء الشعراء المجان على حافة المجتمع ، منبوذين مذمومين ، فلم يكن لهم أثر واضح ، وان كانوا رمزاً على ذلك التحرّك الشعوبي الذي عمل في أكثر من موقع لتدمير الفكر الإسلامي وهدم الدولة الإسلامية.

---

(١) راجع كتابنا (القيم الأساسية للفكر الإسلامي والثقافة العربية).

ولم يكن إذن هذا الأدب في طبيعة وضعه من خلال المجتمع الإسلامي إذ ذاك بالغاً أي مبلغ ، وإنما جاء هذا الأثر عندما انتزعت هذه الصفحات وصورت على أنها ظاهرة للمجتمع وذلك في كتب الأغاني وفي مؤلفات الدكتور طه حسين ، وواضح هدف صاحب الأغاني وصاحب حديث الأربعاء من مثل هذا التفريغ الخطير البعيد عن أي منهج علمي لنقد الأدب ، والذي قام به الدكتور طه في ظل منهج النقد الغربي الوافد الذي لم يستهدف (الحق للحق) ولكنه استهدف من كلمة المنهج والعلم وغيرهما إعادة رسم صورة لحياة المجتمع الإسلامي عن طريق الأدب (معزولاً عن الفكر الإسلامي) من أجل تشكيك الأجيال المعاصرة في تاريخها وآدابها وفكرها العربي الإسلامي ورميه بالشبهات في محاولة لإسقاط وعزل الأدب العربي الحديث عنه.

وقد وضح هذا المنهج وبرز هذا الاتجاه في ذلك الاهتمام البالغ الذي أولاه جب ومرجليوت وبلاشير وماسنيون للأدب العربي ، حين ركّز هؤلاء جميعاً على مثل هذه الجوانب وعنوا عناية فائقة بحياة أبي نوّاس وبشّار وغيرهما من الاباحيين الذين لا يمثلون عصرهم وإنما يمثلون حركة الشعوبية الزاحفة لتدمير الفكر الإسلامي. ومن عجب أن تحمل الشعوبية الجديدة اللواء الذي حملته الشعوبية القديمة وتمضي به ، ولا يكون لها هم إلّا البحث في قصائد معرقة في الإباحة او الإلحاد في هذا الديوان او ذاك كما فعل عبد الرحمن شكري في مقاله عن الدين والأخلاق[1].

* * * *

وقد صوّر هذا الاتجاه الأستاذ محمد احمد الغمراوي في نقده للكتاب (في الأدب الجاهلي) فقال : وجدنا صاحب الكتاب (الدكتور طه حسين) يخب في الميدانين (الأدب الفرنسي المنقول والأدب العربي المنقول) خبباً واحداً ، ويصدر عن نزعة واحدة ، فهو قد فتش في طول الأدب العربي وعرضه فلم يجد ما يستحق أن يبحث وينشر إلّا أخبار المجان الذين ابتلي بهم الأدب العربي ، كما ابتلى الأدب

---

(١) الرسالة ١٩٣٨ م.

الأفرنجي بأمثال أوسكار وايلد. نعني أبا نواس ووالبة والخليع ، ومن إليهم ممن قبس صاحب الكتاب أخبارهم في حديث الأربعاء ، الذي نشره في السياسة مفرقاً ، وأهداه الى الأستاذ مدير الجامعة مجموعاً ، ومن الغريب أن تلك الأخبار الأجنبية والأشعار الماجنة قد عرضها صاحب الكتاب في ثوب البحث الأدبي باسم التجديد ، وكان البحث والجديد في الآداب ستار التجارب لضرب الفضيلة ، ووسيلة في هذا الشرق للدخول الى النفوس بما لم يكن لولا تلك الوسيلة بداخل عليها .

## (٢)

## انحراف الشعر

ان مفهوم الحياة الاجتماعية وعلاقات الرجل والمرأة والزواج والحب وما يتصل به من أداء في الأدب العربي بعد الإسلام يختلف اختلافاً واضحاً عن مفهوم الفلسفات القديمة : سواء الفارسية او اليونانية او الجاهلية القديمة التي تلتقي جميعاً في مفهوم واحد قائم على الإباحة والكشف والتحلّل والانطلاق ، ومفتوح على الشهوات والأهواء واللذات على نحو يدعو الى تمجيدها والازدهاء بها وإعلائها . ولقد عصفت هذه الأهواء بالأدب العربي ، والفكر الإسلامي والحضارة والمجتمع في فترة الضعف التي هوت فيها القيم الإسلامية تحت ضربات الغزو الشعوبي الضخم الذي قاده خصوم الإسلام والعرب جميعاً ، وفق أسلوب دقيق ، اتخذ سبيله الى العقول عن طريق الفلسفات ، والى القلوب عن طريق الأدب والشعر ، فأعلى شأن الغرائز ، وفتح الطريق أمام الكشف والغزل الحسّي والخمريات . ومن خلال طابع حياة الترف والدعة حيث تجمع العواصم أعراف كثيرة فيها الفارسي والرومي والنبطي والتركي والصقلبي والهندي والصابيء والنصراني والسامري والمجوسي والبوذي ، وحملوا هذا اللواء . ومن هنا فقد انتقل الأدب العربي على أيدي الشعراء والماجنين من مفاهيمه الأصيلة وذاتيته الخاصة المستمدّة من القيم الإسلامية الى هذه المفاهيم الوافدة الدخيلة المستمدّة من فلسفات اليونان والمجوسية ، ولم يتقبّل الفكر الإسلامي

هذا الطابع المنحرف بل قامت بين هؤلاء الأصلاء المدافعين عن قيم الأدب العربي ومفاهيمه . وبين الخارجين عليها معارك ومخاصمات حفظتها كتب الأدب . فقد خاف المدافعون «ثورة الأمم وجزعوا للأسر والبيوت يصيبها الشك والزندقة والكفر» .

وعلت دعوات مستمدّة من المانوية والمجوسية القديمة تسخر من القيم ، وتدعو الى الاشتراك في امرأة واحدة ، وتدعو الى الغزل بالمذكر ، والإشادة بجمال الغلمان حيث بدأ اللفظ المذكر في الغزل حين كان الشعراء يرمزون الى المرأة بالحبيب ويصبغون الحديث فيها بالتذكير ويخففون اسمها ، فلما قامت هذه العصبية الماجنة اتخذت المذكر لفظاً ومعنى ، وانتقل الشعراء من خدر الحسناء الى ميادين جديدة مخزية ، فبرزت صور فاضحة لهؤلاء الغلمان يتزينون ويتصدّون للحب ، ويصفهم الشعراء بما يؤذي السمع السليم والذوق الصحيح ، الجواري الفتيات في خوف من التيار الجارف فتزيى كثير منهنّ بزيّ العلماء تحبّباً وتقرباً من هذه العصبية المريضة ، وفشا في النساء زيّ الغلاميات . وأحب كثير من الشعراء هذا النوع الجديد[1] ، واستخف كثير من الناس بالمحصنات علناً تشبها بالإماء» :

وقد حمل لواء هذا الانحراف جماعة من الشعراء الذين هم من أصل فارسي ولهم صلات واضحة مع أصحاب الدعوة الشعوبية وفي حياتهم الخاصة تحدّيات صريحة تجعلهم في صفوف الفساق والمجان ، وفي مقدّمتهم ابو نواس ومطيع بين أياس ، وبشّار ، وابن الضحّاك ، ومسلم بن الوليد ، وقد اجتمع إليهم حماد الراوية ، وقد هوجم هؤلاء الشعراء واضطهدوا وسيقوا الى السجون ، وضرب بشّار حتى مات ، وضرب ابو نواس في عهد الرشيد وحبس في خلافة الأمين . ولو أدرك المأمون لقتله .

وقد وصف بشّار بأن فاسق ماجن ، يرسم على عماه ما لا يراه البصراء ، ومردّ ذلك الى الحرمان والجوع ، وكان بشّار بديناً مترهلاً بشعاً كفيف البصر ، وقد حوى شعره «الوصف المبتذل والصور الجسدية والألفاظ الباردة الغثة الغليظة على حد تعبير الدكتور شكري فيصل .

---

(١) الدكتور شكري فيصل : نفس المصدر

وقد عرف بشار بسخريته من الحرائر وقذفه المحصنات ، ولعله كان يكرههن انتقاماً لنشأته وفرقاً من تربيته فهو لم يألف العربيات الحرائر، وكان هواه مع القيان والجواري.

أمّا أبو نواس (الحسن بن هانىء) فقد عرف (بحيوانية النسور الى اللذائذ الحسيّة) على حد تعبير ابراهيم المازني ، وعرف بالمجون وقذف المحصنات وسخريته من الحرائر، وقد مال الى الغلمان كل الميل فملأ ديوانه بهم ، وقد ورث ذلك عن المجوسية الفارسية كما ورثه بشار.

وقد أكّد الباحثون في حياة أبو نواس بأن لفجوره وفسقه مصادر أساسية ودوافع طبيعية من حياته الشخصية. ويرد الباحثون اضطراب حياته الى سوء تصرّف أمه التي لم تمنحه من عطفها ما كان يريد. فقد شغلت عنه بالقوت بعد أن مات أبوه ، وكانت تكسب هذا القوت من وجوه الإثم ، وكان لهذا الحرمان والفساد معاً أخطر الآثار في حياة أبي نواس الذي كره النساء جميعاً لأنه كره أمه وتحول الى الغلمة والى معاقرة الخمر.

وقد أشار المؤرخون الى إصابة ابي نواس بالشذوذ. وكان في صباه ذا شذوذ سلبي ثم انقلب في كبره الى العكس ، ولقد اتجه ابو نواس الى الحقد الشعوبي وعايش أولئك الفرس الكارهين للإسلام ، واتخذ شعره أداة لخدمتهم ، فحمل لواء الشعوبية والغض من شأن العرب ، وإذا كان قد تميّز بشأن في شعره فإنما تميّز بذلك اللون الذي لم تعرفه العرب في الإسلام ولا في الجاهلية. وهو ما عرف بغزل المذكّر.

والحسين بن الضحّاك الذي عاش خليعاً ماجناً ، نشأ مع أبي نواس في البصرة ، واختلفا الى مجالس الشراب ، وقال في الخمر واللذائذ ، وأعلن عن فسقه في أكثر شعره.

ومسلم بن الوليد كان شبيهاً بهما. من المستهترين الماجنين تقلب في هذه الأجواء حتى وصف بصريع الغواني ، والمطيع بن إياس كان واحداً من هذه الجماعة التي عني بها الدكتور طه حسين وحرص على دراستها في كتابه (حديث الأربعاء) واحيائها

والاذاعة بها بإسم التجديد، واستوحاها من كتاب الأغاني الذي عدّه مصدراً من مصادر التاريخ الأدبي، ولم يكن صاحب الأغاني في سيرته بأقل من هؤلاء فجوراً وفسقاً على نحو لا يؤهله لأن يكون مؤرخاً ولا يزكي كتابه لأن يكون مصدراً صحيحاً. وقد عني هؤلاء بوصف الأعضاء والغزل بالمذكر والغلامية والمجون الداعر والسحر الفاجر، وقد صوّر هذا الاتجاه الدكتور علي الوردي في كتابة اسطورة الأدب الرفيع حيث قال: وكان عمر بن ابي ربيعة ذا طبيعة أنثوية، وكان أبو نواس مصاباً بالشذوذ الجنسي الى درجة كبيرة، وكان في صباه ذا شذوذ سلبي، ثم انقلب في كبره فأصبح ذا شذوذ ايجابي. ويقال إنه اعترف بذلك بلا حياء أو تأثم، ويرد ابتداع الغزل المذكر في الشعر العربي لأول مرة الى هذا الشذوذ، وربما انتشر هذا النوع قبل أبي نواس، ولكن أحداً لم يجرؤ على أن يقول عن نفسه إنه (لواط) غيره وكانت العرب في الجاهلية لا تعرف الشذوذ الجنسي.

رابعاً: الخمريات:

وكانت الخمريات في الأدب العربي تابعة للغزل ومصدراً له، فقد جاء الإسلام ناهياً عن الخمر، محرّماً لها، في ضوء المنهج الذي رسمه للمجتمع الإسلامي والنفس الإسلامية، حماية لها من أخطارها. غير أن هذه النزعة ما لبثت أن ظهرت بعد أن غلبت دخائل الفلسفات والآداب القديمة الوثنية من مجوسية واغريقية وغيرها، وسيطرت حركة الشعوبية، وقادت معركتها في مختلف المجالات، وكان الخمارون جميعاً من اليهود والنصارى، وكانوا دخلاء على المجتمعات، كان كل خمّاري هذه الفترة من النصارى او اليهود او المجوس، اما المسلمون فإن أحداً منهم لم يتَّجر بها او يتكسب من بيعها وخدمة شاربيها. وقد سمحت السلطات الأموية ان تقوم فيها الحانات انسجاماً مع خطتها في التسامح مع أهل الذمة وعدم الضغط على حرياتهم الدينية والاجتماعية[1]» وتبدو صورة الخمريات «في مثل كتاب الأغاني والعقد الفريد والكامل وحلية الكميت، وكأنها نزعة مسيطرة على المجتمع الإسلامي. وهي لم

---

(١)، (٢) من بحث عن الخمر للأستاذ نبيه عاقل مجلة العربي (سبتمبر ١٩٦٣)

تكن في الحق كذلك، بل ظلّت في نظر جماعة المسلمين» رجساً من عمل الشيطان، وظلّ شاربوها أناساً خرقوا القواعد التي وضعها المجتمع للسولك الصالح، وعليهم أن يتواروا عن الناس سيما إذا كانوا من ذوي الوجاهة او المركز السياسي، وكان شاربو الخمر يعرفون أنهم حين يشربونها إنما يرتكبون إثماً، ولم يعرف من شعراء الخمر قبل ابي نواس في العصر العباسي غير الأخطل الذي كان نصرانياً وارتبطت أوامره في زعامة شعر الخمريات بالأعشى في العصر الجاهلي. أما ابو نواس فقد كان من أبرز المعاقرين لها وأبرز من نظموا فيها الى جوار ما نظمه في الغزل الحسّي والغزل بالمذكّر والغلاميّة والغلاميات، ويكاد مؤرّخو أبي نواس في العصر الحديث وهم كثرة اهتمت بهذا الشاعر، وبعثت تراثه، يبلغون عدداً كبيراً لا يكاد يقارن به من كتب عن عمر بن الخطاب او خالد بن الوليد؛ وفي مقدّمتهم الدكتور طه حسين الذي فتح لهم الباب ثم جاءوا بعده: العقاد والمازني وعبد الرحمن صدقي وأجمع المؤرخون على ان النّواسي هو شاعر الخمر في العصر العباسي وفي كل عصر سالف، وقد ذكرها بشّار وابن الهندي وابن هرمة. ونظم فيها مسلم بن الوليد، والحسين بن الخليع الضحاك، والحسين الخياط، ومطيع بن اياس، وحماد عجرد.

وحياة أبي نواس تكشف عن تصرفاته وأهوائه، فقد ولد في الأهواز من خوزستان بفارس عام ١٤٥ هـ وابوه الحسن بن هانيء كان كاتباً من أهل الشام، وقيل راعي غنم قدم الاهواز مع الجيش المرابط وزوج بامرأة تدعى «جلبان» وجلبان فارسية الأصل، وقد حملته أمه معها بعد موت والده وهو لم يتجاوز السنتين من عمره. وفيها شبّ على الطوق فاسلمته عطاراً يبري عود البخور، وقد شهد أمه على أثر ترملها وهي تؤوي طلاب المتعة والمجان، وشاهد تلك الحياة المستهترة الماجنة التي كانت أمه تعيشها، ورأى أولئك الذين كانوا يزورونها وقد أسرف الناس في ثلبها، وفاحت رائحة سيرتها العفنة. في هذه البيئة نشأ ابو نواس، يبصر المجان وهم في عرس دائم من الإباحة والفجور، فألف تلك الحياة وانطبعت في نفسه المراهقة دون أن يقوى على التحرّر منها.

وهكذا اندفع ابو نواس في ذلك الجو الصاخب من الإعلان بالفاحشة ، كأنما كان يريد أن يجعل من المجتمع كله مثيلاً لحياته وحياة أمه كما فعل الكتّاب في العصر الحديث.

وقد طبع هذا الأثر النفسي العنيف حياته فاندفع في مجالات اللهو ، وانزلق الى ميادين الصخب ، فأثارت في نفسه ما كمن من استعداد للانغماس في الموبقات ، وكثيراً ما كان يستأجر بالزهيد من المال لملازمة أصحاب المجون في نزهاتهم ناقلاً لهم أدواتهم وحوائجهم. وفي البصرة اتصل بوالبة بن الحباب الشاعر الكوفي الخليع ، ومنه تعرّف الى الخلعاء أمثال مطيع بن أياس ، وحماد عجرد ، ويحيى بن زياد فتتلمذ لهم في فنون الغواية ، وسهلوا له أسباب المجون وحرّكوا فيه القابلية الكامنة الى حياة الترف والدعة. وعندما قويت في بغداد شوكة الشعوبية تحرّكت في نفس الشاعر نزعته الفارسية فأخذ يهجو القبائل النزارية ويهجو قريشاً.

وهكذا عاش حياة عربيدة طائشة ، صرفها في السكر ، وقضاها في زمرة فاسقة بين الخمر والغناء والدعارة ، وأصيب بالسل البطيء في حنجرته بعد ان أسقمه الفجور وانحلته الخمور وحطّم الألم أعضاءه عضواً بعد عضو ، ومات عام ١٩٩ والسقام يحيط به من كل جانب ، وقد كان ميله الى الغلمان ناتجاً عن كبوته الاولى في ميدان المرأة ، فآثر ذلك الشذوذ الجنسي ، وقد استخف بالعرب وذكر الفرس باعجاب وحنين. ولم يختص ابو نواس بغزله غير اماء ، ليس لهن من الانوثة غير الابتذال وشهوة الافتضاح فانغماسه في الشهوات لم يهيئه لولوج حرم الحرائر المحصنات من النساء ، ولذلك لم يرتفع بالمرأة يوماً الى صعيد القيم الإنسانية ، وقد وصف نفسه قبل موته فقال :

دب فيَّ السقام سفلاً وعلواً وأراني أموت عضواً فعضوا

وهذا يدل على أن الفسق والفجور والخمر أدت بأبي نواس الى التلف والدمار[1].

(١) راجعنا في هذا ما كتبه عمر فروخ وجورج غريب وايليا حاوي عن الخمر وأبي نواس.

وعندنا ان ابا نواس كان ضحية الخطيئة الأولى في حياته وعيشه في كنف أمه الفاجرة، ثم اتصاله بالحركة الشعوبية وعمله فيها من أجل تدمير مقومات المجتمع الإسلامي وإثارة الفساد في مفاهيم الأدب العربي، فكان معبّراً عن فلسفة الوثنية الفارسية اليونانية، وكان دخيلاً منحرفاً على مفاهيم الأدب العربي والذوق العربي والمزاج العقلي والنفسي الإسلامي.

## (٣)

## الكشف والغزل

هذا هو الانحراف الذي أصاب الأدب العربي في العصر العباسي فنقله من مفاهيم الإسلام الى مفاهيم الفارسية والاغريق والجاهلية القديمة، ولا شك أن هذه الظاهرة تسلمنا الى عدد من الحقائق:

أوّلاً: ان الأدب العربي لم يلتزم مفهوم الإسلام وانحرف عنه تحت ضغط فئة من الشعوبيين الى مفاهيم الفلسفات الفارسية واليونانية.

ثانياً: كان هذا الصنف من الغزل الحسّي والغراميات «فنّاً طارئاً أفسد أدبنا ولكنه لم يكن كل الشعر ولم يمثل طابع الأدب العربي، ففي هذا العصر كان من الشعراء الأصلاء كثيرون من أمثال العباس بن الأحنف وعلي بن الجهم وابن الرومي وابن المعتز وابي تمام والبحتري والمتنبي وابي فراس والرفاء والصنوبري والشريف الرضي، وذلك غير أعلام الأدب والفكر في مختلف ميادين الفقه والفلسفة والعلوم.

ثالثاً: ان هذه الظاهرة المنحرفة قد رفضها الأدب العربي وهاجمها الفكر الإسلامي في قوة، ولم يلبث ان تحرر منها.

رابعاً: ظهر في هذه الفترة الغزل العذري العربي وهو غير الحب الأفلاطوني Plotoaielone والغزل العربي الأصيل شيء مختلف عن الحب الأفلاطوني الحسّي الذي عرفت به جمهورية أفلاطون حيث يقول أفلاطون:

«وقد آثرنا ان نترجم الضمائر بصيغة المؤنث وان كانت في الأصل قد وردت بصيغة المذكّر لشيوع الحب الشاذ عند قدماء الأغريق».

خامساً: لم يعرف الأدب العربي في أصالته الذاتية الوصف الحسّي المادي، الذي عرفه أدب الأغريق ولا الأدب الفارسي القديم.

والحب الأفلاطوني حب يبيح للمحب كل شيء عدا الاتصال الجنسي، بينما لم يقبل الحب العذري العربي: الضم والتقبيل واعتبره ضرباً من الزنا.

ويقول أفلاطون في وصف مدينته الفاضلة:

«سنضع قانوناً يمكن بموجبه للمحب ان يقبل حبيبته ويتردّد على مجالسها ويعانقها» أما فيما سوى ذلك فإن علاقاته لا يرقى إليها الشك.

خامساً: لم يربط العرب بين فكرة الحب وبين اللقاء الجنسي والتناسل، وفصلوا بين الفكرتين فصلاً تاماً، وكانت أقاصي أماني الحبيب مجالسة الحبيبة والتحدّث إليها، وروي أنه قيل لبعض الأعراب وقد طال عشقه لجاريته:

ما انت صانع لو ظفرت بها ولا يراكما إلّا الله.

قال: إذن والله لا أجعله أهون الناظرين، ولكني أفعل بها ما أفعل بها بحضرة أهلها، حديث يطول ولحظ قليل وترك ما يكرهه الرب وينقطع عنه الحب.

وهنا نموذج عربي رفيع: هو سلامة القس وقضيته معروفة، فقد استسلمت له حبيبته في احدى مواقف اللقاء. فأعرض عنها وقرأ عليها من آي القرآن قوله تعالى:

«الاخلاَّء يومئذ بعضهم لبعضٍ عدو، إلا المتقين»

وقال إنه لا يريد أن يكون عدوّاً لها بأن يكون خليلها بغير الحق الذي يفرضه الشرع.

سادساً: كانت المرأة العربية إذا علمت بحب رجل لها تبتعد عنه وتتستر، وكانت مبادرة الحب من الرجل دوماً. وقد اقتصر العربي على حب امرأة واحدة،

وعرفت المرأة العربية بالفناء في حب زوجها ، وقد رويت قصص كثيرة عن نساء عربيات رفضن الزواج بعد موت أزواجهن ، أو شوّهن معالم جمالهن حتى لا يتقدّم اليهنّ خاطب.

وقد ظلّ حب الزوجة أقوى ما يمثّل الروح العربية ، وكان الغزل العفيف موجها الى الحرائر ، أما الغزل الآخر فقد كان موجّهاً الى الإماء.

سابعاً : يكذب بعض المستشرقين ويغالون حتى يقول أمثال ماسنيون بأن الحب العذري مشتق من الحب الأفلاطوني.

فالحب الأفلاطوني في أغلب صوره حب الذكور للذكور ، وهو حب شاذ يدخله علماء النفس في عداد الحالات المرضية ، بينما يمثّل الحب العذري الطبيعة الصادقة ، وهو حب الرجل للمرأة دون أن يدخل إليه أي مفهوم من الهوى الجنسي او الرغبة ، ولكنه يكون عادة تمهيداً للعقد الشرعي الطبيعي.

ثامناً : صدر العذريون عن شكوى صادقة وحرارة وإيمان وتقوى وعفّة ووفاء ، وتمنوا امرأة واحدة ، اما الغربيون الإباحيون فقد كانوا يتخذون مواضيع الغزل عن النساء المتزوجات ، وعند الغواني والإماء ، وكانوا يدعون الى أكثر من امرأة ، وقد شجب منطق الذاتية العربية هذا اللون ورفضه.

تاسعاً : لم يكن الغزل بالمذكّر من طبيعة الأدب العربي الجاهلي ولكنه جاء دخيلاً من الفلسفات الفارسية واليونانية.

عاشراً : ربط الفكر الإسلامي بين الحب والعفّة ، وجعل منهما مفهوماً واحداً ، واشترط أن تظل هذه العاطفة في نطاقها الفردي فلا يتجاوزه الى المساس بالحيوات الاخرى ، وقد جرى الأدب العربي في أصالته على أن لا يذكر المحب اسم محبوبته وأصدق مثل لهذه المفاهيم كتاب طوق الحمامة للإمام ابن حزم.

* * * *

من هذا كلّه يتقرّر أن فنون الغزل الحسّي [1] والكشف كانت دخيلة على ذاتية الأدب العربي ومزاجه وقيمه ، وانها تمثل مرحلة غلبت عليها عوامل الغزو الشعوبي الباطني التي مدت رواقها الى الفكر العربي الإسلامي والحضارة جميعاً ، ومن هنا يمكن القول انها ظاهرة دخيلة تمثل انحرافاً في مجرى الأدب العربي ، ولذلك فإن اتخاذها قاعدة لإصدار أحكام عامة على الأدب العربي هو من الخطأ العلمي ، فضلاً عن أنه لم يكن إلا حيلة من أخطر مؤامرات التغريب في التركيز على هذا الجانب وإلقاء الأضواء عليه في محاولة لإحيائه وإذاعته من جديد وبعثه كعامل من عوامل تدمير القيم الأساسية للفكر الإسلامي والأدب العربي.

وهكذا فهم دعاة مناهج النقد الغربي الوافد الأدب العربي ، وهكذا فهموا البعث والتجديد وإحياء التراث العربي.

---

(١) أورد الدكتور احمد الحوفي بما لا يحتاج الى مزيد من البيان في كتابة الغزل في العصر الجاهلي كيف ان الغزل الحسي حبشي الأصل وفد على العرب ولم ينشأ نشأة عربية قبل الإسلام.

# الفصل الخامس

## السجع والزخرف

عرف العرب قبل الإسلام أسلوباً في الكتابة أطلق عليه سجع الكهان ، كما عرفوا الخطابة. وذلك بالإضافة الى الشعر الذي كان فنّهم الأول ومجتلى مفاخرهم وهجائهم حتى أطلق عليه «ديوان العرب»

فلمّا جاء القرآن أعلى شأن «النثر» وقدّم نموذجاً جديداً يختلف اختلافاً بعيداً عن أساليب الكتابة قبل الإسلام ، وتأثر الأدب العربي أسلوب القرآن ، وتمثل ذلك بأجلى بيان في أسلوب الرسول عليه الصلاة والسلام. وكان من أبرز كتّاب الصدر الأوّل الإمام علي بن أبي طالب الذي ضمّت رسائله وخطبه نماذج عالية من الأدب العربي :

كما حفظت كتب التاريخ أسلوب أبي بكر وعمر ومعاوية وغيرهم.

وقد كره الرسول (سجع الكهان) وازرى به حين تقدّم واحد أو آخر يتحدث على نمطه ، ومما يذكر أن رجلاً جاء النبي فقال :

يا رسول الله أرأيت من لا شرب ولا أكل ولا صاح فاستهل ، أليس مثل ذلك يظل.

فقال الرسول : أسجعاً كسجع الجاهلية ، وقيل أسجعا كسجع الكهان ، وقد أشارت السيدة عائشة الى اسلوب الرسول البياني حين قالت : ما كان يسرد

كسردهم هذا، ولكنه كلام لو عده العادّ لأحصاه كأنما اختصرت له الحكمة اختصاراً.

يقول ابو هلال العسكري في كتابه الصناعتين، في قول الرسول : (أسجعا مثل سجع الكهّان) أنه صلّى الله عليه وسلم علل الاستنكار بما عرف في سجع الكهان من التكلف، وان النبي كان ربما غير الكلمة عن وجهها للموازنة بين الألفاظ واتباع الكلمة اخواتها : كقوله : اعيذه من الهامَّة والسامة وكل عين لأمَّة وإنما أراد ملمة.

ولقد جاء أسلوب القرآن منوّعاً بين التوقيع والازدراج والسجع، ولكنه لم يجعل واحداً منها طابعاً له، وقد ظل أسلوب الأدب العربي منطلقاً الى غايته : جامعاً الإيجاز في الأداء مع المضمون غير منفصل عنه حتى اتصل بالآداب الفارسية القديمة، فطرأ عليه هذا الطابع الدخيل من السجع والزخرف، وتطوّر تطوراً واسعاً حتى ظهرت المقامات.

ويبدو بوضوح أن السجع والزخرف على هذا النحو ليس من طبيعة الأدب العربي، فقد قام على «الاسراف في الصنعة اللفظية مع التزام السجع في الجمل، وأقسام الجمل، ومن كثرة التضمين للأشعار والأمثال، ومن الإغراق في تطلّب التشابيه والاستعارات والتفنن في الصور الشعرية».

وقد أشار الي ذلك «فيليب حتّي» ووصعه موضعه حين قال : (اكتسب النثر العربي منذ العصر العباسي مسحة الأسلوب الفارسي بما فيه من الاسراف والتأنق والمجاز والبديع اللفظي، وكان الأسلوب العربي القديم (يعني الأصيل) يمتاز بالرشاقة والإيجاز، ولكن لم يطل به العهد حتى أخذت تلك المميزات تزول وتحل محلها الصفات المألوفة في الأسلوب الفارسي من تزويق وترصيع) اهـ.

ومن الحق أن يقال إن هذه الظاهرة الدخيلة لم تجد تقبلاً من الكتّاب الأصلاء، وقد سجّل ذلك هاملتون جب حين قال : «لم يلق البديع قبولاً عند الكتاب الكبار بشهادة المقدسي الذي نسب حب السجع والقوافي الى العامة» ولسنا في حاجة الى نقل مزيد من النصوص لتأكيد المعنى الذي ذهبنا إليه من أن هذا الأسلوب كان

دخيلاً على الأدب العربي ، فقد كان ذلك واضحاً لدى جميع الباحثين المنصفين ، وفي هذا يقول الدكتور الوردي : «في أواخر القرن الرابع ظهر بديع الزمان الهمذاني[١] فتحوّل النثر العربي على يده الى شعوذة . فالهمذاني لم يكتف باستعمال السجع المتكلف والمحسنات البديعية في كتابته ، وإنما أضاف إليها الإغراب» . ولم يقف أمر هذه الظاهرة عند هذا الحد بل ان انصارها ودعاتها من الشعوبيين لم يلبثوا ان هاجموا أسلوب الأدب العربي الأصيل فهاجم الهمذاني أسلوب الجاحظ ، وأنكر سهولة ألفاظه ووضوح معانيه ، وقال إن أسلوبه بعيد الإشارات قليل الاستعارات قريب العبارات .

كذلك حرص الباقلاني على ابعاد صفة السجع عن القرآن ، فقال انه يحتوي على فواصل لا سجع ، وفي رأيه ان السجع هو ما كان يألفه الكهان في الجاهلية ، وقد كان هذا الاتجاه المنطلق الى التكلّف والصناعة والابتعاد عن ذاتية الأدب العربي وأصالته اتجاهاً دخيلاً وافداً وكان مقدمته ظهور «المقامات» وهي فن مصطنع قائم على التأنق اللفظي حيث الاغراق في السجع والإسراف في البديع من جناس وطباق، وتزيد في المقابلة والموازنة ، والمعروف ان الذين قادوا هذا الاتجاه لم يكونوا عرباً وإنما كانوا من أصل فارسي من أمثال : (عبد الحميد ، وابن العميد والصاحب بن عبّاد ، وبديع الزمان) في السجع ، ومن بشار وابي نواس في الشعر الحسّي[٢] .

ويرى المؤرخون أن عبد الحميد[٣] هو أوّل من جنى على النثر العربي ، بإشاعة الزخرف في اسلوب الكناية مع قدر غير قليل من التصنّع .

كما أسرف في استعمال الازدواج اسرافاً كبيراً وأصبح الازدواج عنده غاية تقصد

---

(١) عاش بديع الزمان الهمزاني بين ٤٥٨ـــ ٤٩٨ هـ

(٢) كتاب اسطورة الأدب الرفيع للدكتور علي الوردي

(٣) الخفاجي في سر الفصاحة.

لذاتها ، ثم جاء ابن العميد فانحرف الى السجع ، واغرى البديع من جناس وطباق فأصبح النثر على يده تطريزاً وترصيعاً وزخرفاً[1] .

وقد جاء تلميذه الصاحب بن عبّاد (وهو فارسي ايضاً) فسار على منهج صاحبه وازداد ولوعاً بالسجع الى حد الإفراط فيه ، وكان ذلك مقدّمة لبديع الزمان في المقامات . وقد كان من الطبيعي لكي تنكشف دوافع حركة السجع وأهدافها ان يهاجم بديع الزمان الجاحظ هجوماً عنيفاً ، وأن يخصص له مقامة كاملة من مقاماته ، وينقد سهولة ألفاظه ووضوح معانيه كأنما قد أصبح هذا الانحراف أصلاً ، وأصبح الأسلوب العربي الأصيل زيفاً ودخلاً ، وهكذا أدخل في الأدب العربي ذوقاً غريباً ، ليس من مزاجه النفسي ولا من طوابعه العقلية والروحية ، وكان ذلك نتيجة التحول الذي اصاب المجتمع الإسلامي ، وغلبة طابع الترف والزينة والزخرف على الحضارة .

ولقد عرض الجاحظ لهذا الانحراف فأشار الى أن السجع والازدواج من خصائص لغة العرب ولكن دون إسراف وإفراط ، وقد اشار الخفاجي في كتابه الفصاحة في تعريف السجع : إن أراد بالسجع ما يكون تابعاً للمعنى وكان غير مقصود ، فذلك بلاغة والفواصل مثله ، وان كان يريد بالسجع ما تقع المعاني له ، وهو مقصود متكلف ، فذلك عيب والفواصل مثله ، وقد سمي ما في القرآن فواصل ولم يسم سجعاً ، وذلك تنزيهاً للقرآن عن الوصف اللاحق لغيره من الكلام المروي عن الكهنة وغيرهم ، ويقول الخفاجي : إذ قال قائل : إذا كان عندكم ان السجع محمود فهلا ورد القرآن كله مسجوعاً ، وما الوجه في ورود بعضه مسجوعاً وبعضه غير مسجوع ، قيل إن القرآن انزل بلغة العرب وعلى عرفهم وعاداتهم ، وكان الفصيح من كلامهم لا يكون كله مسجوعاً لما في ذلك من إمارات التكلّف والاستكراه والتصنّع سيما فيما يطول من الكلام ، فلم يرد مسجوعاً جرياً على عرفهم في الطبقة العالية من كلامهم[2] .

---

(١) اسطورة الأدب الرفيع : دكتور علي الوردي

(٢) سر الفصاحة للخفاجي س ٩٤.

وقد أشار الخفاجي الى أن السجع عند كتاب القرنين الثاني والثالث كان قليلاً ، وفي اليسير من المواضع ، وأنهم مالوا إليه حين أوجبه المعنى والغرض ، وعلى الجملة فان الفصيح من كلام العرب لا يكون كله مسجوعاً لما في ذلك من إمارات التكلف ، وأن القرآن انزل بلغة العرب وعلى عرفهم وعاداتهم من جنس كلام العرب وعلى أساليبهم ، ويمتاز بقوة المعنى وقوة الروح.

وقد أجمعت أغلب دراسات البيان والبلاغة على ان السجع واحد من طوابع الاسلوب العربي ، ولكنه ليس هو الطابع الوحيد ، وليس هو أعلى درجات الكلام ، وقد أشار الى هذا ابن الأثير في كتابه المثل السائر : «واعلم ان الأصل في السجع إنما هو الاعتدال عند مقاطع الكلام ، والاعتدال مطلوب في جميع الأشياء ، والنفس تميل إليه بالطبع ، ومع هذا فليس الوقوف في السجع عند الاعتدال فقط ولا عند تواطؤ الفواصل على حرف واحد ، بل ينبغي ان تكون الألفاظ المسجوعة حلوة حارة طنانة رنانة».

وقال : ولو كان السجع أعلى درجات الكلام لكان ينبغي أن يكون القرآن كله مسجوعاً ، غير أن السجع والزخرف على النحو الذي فشا في كتابات عبد الحميد وابن العميد والصاحب بن عباد وانتهى الى ظهور مقامات الهمذاني والحريري لم يكن إلّا انحرافاً خطيراً عن الأسلوب العربي وعن البلاغة العربية في مفهومها ومنطلقها القرآني ، وهو على هذا النحو إنما كان زخرفاً خالصاً عطل حركة الفكر والعقل واكتفى بالدوران حول معني واحد ، وكان عاملاً عازلاً للغة العرب عن طبيعتها الأصيلة وقدرتها الفاعلة في بناء الفكر في مختلف مجالات الاجتماع والسياسة والقانون والتربية في طلاقة وحرية ، ولذلك فقد واجه أعلام الأدب العربي هذا التيار ، ودمغوه بالمهانة والضعف والخروج عن ذاتية الأدب العربي ، وعلت الصيحة لتحرير الاسلوب من قيود التكلف ، وقالوا بأن «التأنّق المغرب آفة والتحرر المسرف آفة ، فالصواب أن تكون السيادة للمعنى ، وأن يكون له السلطان المطلق في فرض ما توجبه الألوان النفسية في مختلف الصور والأساليب» (١) .

---

(١) زكي مبارك : النثر الفني في القرن الرابع.

وإذا كان هذا التيار من السجع والزخرف قد اتسع نطاقه فإنه بقي قاصراً على مجال الأدب وحده ، ولم يصل الى الآفاق الأخرى ، فلم يسجع العلماء والفلاسفة والمفكرون وظلت الكتابة العلمية بعيدة عن هذا القيد ، ومضت في طريقها وفق أسلوب القرآن ، وتخلف الأدباء الذين خدعتهم الحلية الدخيلة . وسقطوا تحت سنابك السجع الثقيلة كما يقول زكي مبارك . وانحصرت هذه الدعوة المنحرفة في عدد قليل قوامه : بديع الزمان والخوارزمي ، والثعالبي والصابي وابن عباد وابن دريد وكشمير.

أمّا العمالقة من أمثال الفارابي وابن سينا والبيروني وابن حزم والجاحظ وغيرهم فقد التمسوا أسلوب القرآن ، وقد عرف الساجعون أنهم خرجوا عن طبيعة البيان العربي ، وأحسوا أن ما يكتبون وخاصة من المقامات إنما هو أدب الترف والرخاوة والدعة والانحلال ، وأنه يحمل طابع المجون والكشف ، وأنه بذلك يخرج عن منطلق الأسلوب العربي الأصيل ، وأنهم كانوا في ذلك تابعين للغزو الشعوبي الفارسي .

وقد صوّر «الحريري» هذا المضمون حين قال : أرجو أن لا أكون في هذا الهذر الذي أوردته كالباحث عن حتفه بظلفه فألحق بالأخسرين اعمالاً ، الذين ضلّ سعيهم في الحياة الدنيا . وإذا كان الحريري عربياً ولد في البصرة فانه عمل مع انو شروان وزير الخليفة المسترشد وهو الذي دفعه الى صنع مقاماته .

وقد ندّد الكثيرون بزيف هذا الأسلوب وبعده عن أصالة الأدب العربي . وكان ابن خلدون قد تنبّه الى خطر السجع والزخرف والمقامات فقال في مقدّمته[1] : «لقد استعمل المتأخرون أساليب الشعر وموازينه في المنثور من كثرة الأسجاع والتزام التقفية وتقديم النسيب بين يدي الأغراض . وصور هذا المنثور إذا تأملته في باب الشعر وفنه لم يفترقا إلّا في الوزن ، واستمر المتأخرون من الكتّاب في هذه الطريقة ، واستعملوها في المخاطبات السلطانية وقصروا الاستعمال على المنثور كله على هذا الذي ارتضوه وسلطوا الأساليب عليه ، وهجروا المرسل وتناسوه خصوصاً اهل الشرق» .

---

(١) المقدمة : صفحات ٥٦٧—٥٦٨ .

وهاجم ابن خلدون هذا النمط ووصفه بالبعد عن البلاغة وأنه غير مطابق لمقتضى الحال فعجزوا عن الكلام المرسل لبعدهم عن البلاغة ، وولعوا بهذا السجع يلفقون به ما نقصهم من تطبيق الكلام على المقصود ، ويجيزون بذلك القدر من التزين بالأسجاع والألقاب البديعة ، ويغفلون عما سوى ذلك».

(٢)

المقامات

ابتدع بديع الزمان الهمذاني (الفارسي الأصل) ما أطلق عليه فن المقامات فجاءت مناقضة للفطرة العربية الإسلامية في أدائها ومضمونها على السواء ، ولم تكن تمثل نفسية العربي الشجاع صاحب المروءة الذي يضحي بكل ما يملك في سبيل رعاية الضيف وحماية الذمار.

وقد عرفت المقامات الوشي اللفظي الذي صرفها عن التعمّق في التحليل والأداء الصحيح ، وقد عقت المقامات طابع الأدب العربي الأصيل المستمدّ من القرآن والمتّصل به ، في العناية باللفظ والاتكاء عليه ، والعناية بالتفاصيل — وقد تأكّدت البلاغة العربية في الإيجاز — وجاءت مغرقة أيضاً في الخيال مسرفة في التهاويل والأساطير بينما حمل الأدب العربي طابع الواقعية ، والقصة في القرآن تختلف عن القصة في كل أدب آخر ، فقد قامت على أساس الصدق والتماس العبرة والبعد عن التفاصيل والتهاويل جميعاً.

كذلك جانبت المقامات النفس العربية لأنها أسرفت في الطابع المادي والاهتمام بالمعدة ، فقد كان ابو الفتح الاسكندري بطل مقامات بديع الزمان ، وكذلك ابو زيد السروجي بطل مقامات الحريري ، كلاهما «رجل مكر واحتيال ، يصطنع جميع المهن لابتزاز الأموال تراه مرّة قراداً يسلي الناس ويعجبهم ، ومرّة واعظاً مزيفاً يعظ وينصح ، ثم تنكشف حيله فإذا هو مهرج ، ومرة مشعوذاً يحتال على الناس بشعوذته ليفتحوا كيسهم ويغدقوا عليه من مالهم» . وأبرز معالم الشخصين : «دناءة النفس». «اتخاذ الفصاحة والبلاغة وسيلة للتكري والسؤال».

وجاءت شخصية «أشعب» مبنية على جماع ما قيل عن الأكل والموائد والطمع والشره والطفيلية ووضع الخطط المحكمة لمعرفة أماكن الولائم. ونسبة كل هذا الى الأدب العربي نسبة زائفة.

وفي خلال هذه الغزوة الذوقية والفكرية الفارسية القديمة للأدب العربي استعلى طابع البديع، وأصبح فنّاً له نفوذ وظاهرة لها اتباع وأولياء، ولكنها خارجة عن الفطرة العربية والمزاج الإسلامي الأصيل، إذا كانت تتحرك من خلال الحكام الذين سيطروا والقوى الفارسية التي غزت السياسة والاجتماع وفي مقدّمتها آل برمك وغيرهم، واتسع نطاق هذا الفن لأنه كان يرضي الحكام والولاة والرؤساء الذين لم يكونوا عرباً. وفتن الناس بهذه الظاهرة وألف شمس المعالي قابوس بن وشمكير المتوفي ٤٠٣ هـ. في هذا المعنى فاخرج فنوناً من البديع منها المجتمع والمتزاوج والممثل والبلاغة، وجاء عبد الرحيم ابن شيت القرشي في كتابه معالم الكتاب في ألقاب السجع فعدد منها نحو ثلاثين نوعاً: (الرجع، والترصيع، والإيلام، والتوشيح، التميم، والتكرير، والهدم، والجحد الخ ...). وقد وصلت صناعة السجع في العصر العباسي الى مداها، ثم لم تلبث ان تحطمت كما تحطمت كل المناهج الزائفة في الفلسفة والفقه وغيرها.

ومن عجب أن تحرر المفكرون الأصلاء في هذه المراحل من سيطرة السجع وزيف البديع وسخروا منه واعتصموا بأسلوب البيان العربي الذي صنعه القرآن.

ولذلك فقد كان أخطر ما حاول دعاة المذهب الوافد من النقد في العصر الحديث أن حاكموا الأدب العربي الى غزل المذكر والسجع، وهما دخيلان وافدان. ومحاكمة الأدب العربي على أنه نثر فني لا يعد أبداً مقياساً أصيلاً للفطرة الى الأدب العربي والفكر الإسلامي، ولقد كان الفكر الإسلامي مقرراً دائماً قاعدته الأصيلة أنه لا يجد نبراسه الأصيل في الأدب العربي الذي تحرك في هذه المرحلة وإنما يجد نبراسه في مجالات الكتابة المتعددة في الفقه والتصوف والعلوم والتربية، ولقد أكّد ابن خلدون مصدر هذا الانحراف حين قال: وما حمل عليه من اهل العصر إلا

استيلاء العجمة على ألسنتهم. ولقد تحرّر الغزالي وابن تيمية وابن القيم وابن خلدون وكثيرون من هذا الانحراف لأنهم التمسوا مصادرهم الأصيلة.

ولا ريب أن المقامات ليست فناً أصيلاً من فنون الأدب العربي، وقد حرص الأدب العربي على عدم الإغراق في الوشي اللفظي وانصرف جهده الى المعنى، وكان في ذلك متوازناً بين العناية باللفظ والعناية بالمضمون. كذلك فقد عرف الأدب العربي الخيال بعيداً عن التهاويل والأساطير، وليس الأدب العربي هو نبراس الحضارة الإسلامية على نحو ما كان الأدب في الحضارات الهندية والفارسية والاغريقية ولكن نبراس الحضارة الإسلامية هو الفكر المتّصل بالعقيدة والأخلاق.

ولا شك أن صناعة السجع التي وصلت الى حدٍّ بعيد من التأنّق في العصر العباسي كانت غريبة على أصالة اللغة العربية وأدبها المتوازن المعنى بالمضمون على نحو ما عرف الجاحظ وابن حزم وابن تيمية والغزالي وابن خلدون.

# الفصل السادس

## عصر الموسوعات وليس عصر الانحطاط

من الاتهامات الظالمة التي أضفاها النقد الغربي الوافد على الأدب العربي محاولة تسمية مرحلة العصرين المغولي والعثماني باسم: مرحلة الانحطاط.

وهي كلمة شاعت في مؤلفات بعض الأدباء في لبنان وفي مصر، وأغلبهم من أتباع المدارس الأجنبية ومعاهد الإرساليات، وتتضمن هذه التسمية في الأغلب اتهاماً للعصر العثماني الذي صارع الممالك الأوربية، وانشأ ذلك الخلاف العنيف بين الغرب والشرق، فكان من أقوى الاتهامات التي وجهت إليه أن يسمى بعصر الانحطاط.

ومن الحق أن يقال أن هذا التعبير ظالم وان هذه المرحلة إذا أمكن ان توصف بالتخلّف سياسياً واجتماعياً فانها في مجال الأدب والدراسات العقلية والإنتاج الفكري كانت خصبة حافلة.

فقد اتسمت بابرز ظاهرة في تاريخ الأدب العربي كله، وهي ظاهرة التجميع الموسوعي، ومن العجب أن يطلق هذا الاسم على فترة ستمائة عام كاملة، تضم من الوجهة التاريخية عهدين مختلفين: أحدهما المغولي والآخر العثماني.

هذا بالاضافة الى خطأ ذلك التقسيم الذي جرى عليه الأدب العربي الحديث، والذي عزل كل مرحلة عزلاً تاماً عما قبلها وعما بعدها، بينما يعجز الباحث المنصف عن

عزل تاثير مرحلة في مرحلة أخرى ، فكل جيل متلق لنتائج الجيل السابق ، ومتفاعل معها ، ونتاجه أثر من أسرار الماضي وقوة واقعة في نفس الوقت للجيل الذي يليه .

وهذا التقدير يبدو واضحاً في هذه المرحلة التي تبدأ في تقدير الباحثين بعد سقوط بغداد ٦٥٦ وتنتهي بدخول الحملة الفرنسية الى مصر. ولست أدري كيف يمكن أن يوصف بعهد الانحطاط عصر ظهر فيه : الزمخشري والسكاكي ، وضياء الدين بن الأثير، وابن ابي الحديد ، وابن زيدون ، والقاضي عياض والقفطي ، وابن عساكر، والفتح بن خاقان ، وابن الأثير، والشريف الأدريسي ، وابن جبير، وياقوت الحموي ، وعبد اللطيف البغدادي ، وابن الجوزي وفخر الدين الرازي ، وابن حزم والغزالي ، والشهرستاني ، وابن العربي ، وابن رشد ، وابو بكر الطرطوشي ، والفيروز ابادي ، والقسطلاني ، وابن ابي أصيبعة ، وابن خلكان وابن حجر العسقلاني والسخاوي ، والمقريزي ، وابن تغري بردى ، وابو الفداء ، وابن كثير ، وابن خلدون ، ولسان الدين الخطيب ، والقزويني ، وابن بطوطة ، والنويري ، وابن فضل الله العمري ، وجلال الدين السيوطي ونصير الدين الطوسي ، والجرجاني ، وابن تيمية ، وابن القيم الجوزية ،ومرتضي الزبيدي ، وابن أياس ، وطا شكبري زاده ، وحاجي خليفه ، وبهاء الدين العاملي ، ومحمد بن عبد الوهاب .

* * * *

وتستطيع ان تراجع تراجم هؤلاء الأعلام وتراثهم فتجد شيئاً بالغ القدر ، جليل الشأن ، ثم يرمي هذا العصر كله بأنه عصر الانحطاط . وهو لا يقل شأناً عن الاتهام الذي وجهه هؤلاء التغريبيون الى العصر الثاني الهجري حين وصفوه بأنه عصر شك وانحلال .

ويكفي ان يظهر في هذا العصر الموصوم بالانحطاط هذه الموسوعات :

صبح الأعشى في صناعة الإنشاء : القلقشندي
نهاية الأدب في معرفة قبائل العرب : القلقشندي

| | |
|---|---|
| المستظرف في كل فن مستطرف | : الأبشيهي |
| لسان العرب (عشرون مجلداً) | : ابن منظور |
| القاموس المحيط | : الفيروزابادي |
| مقدمة ابن خلدون وتاريخه | : ابن خلدون |
| عيون الأنباء في طبقات الأطباء | : ابن أبي أصيبعة |
| وفيات الأعيان وأنباء الزمان | : ابن خلكان |
| الإصابة في تمييز الصحابة | : ابن حجر العسقلاني |
| الدرر الكامنة في أعيان المائة الثامنة | : ابن حجر العسقلاني |
| السلوك لمعرفة دول الملوك | : المقريزي |
| تقويم البلدان | : ابو الفداء |
| تاريخ الإسلام وطبقات مشاهير الاعلام | : شمس الدين الذهبي |
| البداية والنهاية | : ابن الأثير |
| الإحاطة في أخبار غرناطة | : لسان الدين الخطيب |
| عجائب المخلوقات | : القزويني |
| تحفة النظار في غرائب الأمصار | : ابن بطوطة |
| نهاية الأرب في فنون الأدب | : النويري |
| مسالك الأبصار في ممالك الأمصار | : ابن فضل العمري |
| طبقات الحفاظ المفسرين، النحويين، اللغويين | : جلال الدين السيوطي |
| فتاوى ابن تيمية | : ابن تيمية |
| الطرق الحكمية في السياسة الشرعية | : ابن قيم الجوزية |
| حياة الحيوان الكبرى | : الدميري |
| تاريخ العروس | : مرتضي الزبيدي |
| نفح الطيب في غصن الأندلس الرطيب | : المقري |
| مفتاح السعادة (أو موضوعات العلوم) | : طاش كبرى زاده |
| كشف الظنون في أساس الكتب والفنون | : حاجي خليفة |

| | |
|---|---|
| الكشكول | : بهاء الدين العاملي |
| الضوء اللامع في أعيان القرن التاسع | : شمس الدين السخاوي |
| «المحلى» في اثني عشر مجلداً | : ابن حزم الظاهري |
| كشاف اصطلاحات الفنون | : التهانوي |

وبعد فهل في عصر من العصور في تاريخ الادب العربي او الفكر الاسلامي نشر مثل هذا القدر الضخم من الأعمال الأدبية؟

الحق ان هذه الفترة كانت من أخصب فترات التحدّي التي واجهت الأدب العربي والفكر الإسلامي، هذا التحدي الذي لم يبدأ عند سقوط بغداد ٦٥٦ هـ، وإنما بدأ قبل ذلك بكثير عندما جاءت جحافل الصليبيين ٤٩٣ هـ، وأحس المفكرون المسلمون أن خطراً حقيقياً بدأ يهدد الفكر الإسلامي والأدب العربي جميعاً.

وإذا كان الأدب العربي بدأ ضعيفاً في فترة (العصرين المغولي والتركي) ولم يكن من القدرة بحيث يصور الأحداث ويستجيب لها ويواجهها، فإنما حدث ذلك لأن الأدب كان قد انحرف بفعل الدخائل التي أصابته نتيجة للأزمة الشعوبية، وصرفته عن طريقه الصحيح ومنهجه الأصيل، ولقد كان الفكر الإسلامي هو القادر حقيقة في هذه المرحلة الطويلة ان يقدم حاجة النفس العربية الاسلامية في مواجهة هذه الحملات، وان يشحن العواطف والمشاعر والعقول بالقوة والعزيمة والدعوة الى الجهاد والمقاومة، ولم يكن الأدب هو الذي قام بذلك، فإذا كان الأدب قد أصابه التخلف فإن الحياة الفكرية الإسلامية ظلت قوية قادرة على اعطاء رد الفعل والتحدّي، فقد استجاشت مقدراتها وقيمتها لتواجه الغزو الصليبي والتتري على طول الجبهات الثلاث: بغداد وسواحل البحر الأبيض وشواطيء المغرب.

ومن الحق أن يقال إنه بعد ان سقطت القدس في أيدي الصليبيين وبغداد في أيدي التتار، فإن القاهرة قد حملت لواء الفكر الإسلامي والحضارة وقادت معركة المقاومة من خلال الجامع الأزهر، ومن خلال صلاح الدين والظاهر بيبرس.

ويمكن القول أن هذا النوع من التأليف في هذه الفترة كان محاولة لاستنقاذ التراث وتخليصه من أيدي الغزاة ، وتحويله الى موسوعات ضخمة ربما لم يُتح لها حظ التحليل والتدقيق ، في هذه الفترة الصاخبة ، ولكنه اتيح لها حظ كبير من القدرة على الاستنقاذ والحفظ ، وهو خط يصور بأجلى بيان غيرة هؤلاء الباحثين وصدق ايمانهم ، فقد كتب كثير منهم بين مائتين وثلاثمائة من الرسائل وبين الف وخمسة آلاف من الصفحات.

وقد عرض كاتبان عظيمان لهذه الفترة وتراثها وكشفا عن خطأ التسمية التي اطلقت عليها ، وهما السيد محمد بهجت الأثري والدكتور شكري فيصل. يقول السيد محمد بهجت الأثري . إن هذا العصر في آماده الطويلة التي تخالفت أحداثها وأحوالها وصورها السياسية لم يكن كله ظلاماً كما تخيلوه ، وتحدثوا عن دوله المتتابعة، وهي دول تركية في الغالب ، حديثاً مجملاً متشابهاً ، او يكاد يكون متشابهاً ، ولم يحاولوا أن يميزوا بين صفاتها . وبينوا مواقف الملوك والسلاطين من العرب والإسلام واللّغة العربية من العلوم النقلية والعقلية والدخيلة . ويقول الاستاذ الأثري : إن خطأ اتخاذ منهج المذهب العربي في تاريخ الأدب العربي هو الذي أفسد النظرة الى هذه المرحلة التي تتصل الى سبعمائة عام ، وهو الذي حرمها من حقها في تقدير إنتاجها الضخم ، وإنما اسماها هذا المنهج العصر المظلم نقلاً عن اسم أطلق في أوربا على الفترة بين انهيار الامبراطورية وبداية عصر النهضة ، ولكن هذا العصر (المغولي التركي) لم يكن كله ظلاماً كما تخيلوه ، فقد تحدثوا عنه حديثاً مجملاً متشابهاً ، وعرضوا للأدب في الوطن العربي دون الأوطان الاسلامية التي لم تتخل عن الإسلام وعن لغته فنشأ عن ذلك كله أخطاء جمّة خطيرة.

أما الدكتور شكري فيصل[1] فيرى ان محاولة اتهام هذه الفترة له طابع استعماري وحملة خصوم للأمة العربية ، منها عيب التضخم والتعميم. وقال إن هذه فترة تأصلت فيها الثقافة الإسلامية ، وعنده ان هذا اللون من التراث الأدبي ، الذي

---

(١) الأدب العربي في آثار الباحثين.

يقوم على الجمع بين الأشياء ومحاولة التأليف بينها على تباعدها الذي هو ظاهرة واضحة من ظواهر هذه الفترة ، وإنما جاء أثر من آثار هذا الغنى الثقافي الذي اصطلحت عليه القرون الست الأولى ، ثم قدمته هدية كريمة سخية ، وان هذه العصور المتأخرة لم تحسن تمثل هذا التراث والتفاعل معه ، وإنما أحسنت عرضه وتقديمه في ساحة واحدة هي هذه الكتب الجامعة التي يطلق عليها اسم الموسوعات ، ويتصل بهذا ما تذهب إليه كتب الأدب العربي التي لم تتحرّر بعد من مذهب النقد الغربي الوافد حين تحاول ان تضع هذا العصر (عصر الموسوعات لا عصر الانحطاط) مع ضوء خافت شديد الظلمة والاضطراب في محاولة لربط أدب النهضة بعد ذلك بدخول الفرنسيين الى العالم العربي. يقول حنا الفاخوري في كتابه (الجديد في الأدب العربي) ج ٤ «بقي الشرق في ظلمة الانحطاط عدة قرون ولما كان القرن التاسع عشر حمل نابليون بونابرت على مصر وقد اصطحب معه رجال العلم والفن والأدب فاحتكّت مصر بثقافة الغرب ، وكان لبنان منذ أمدٍ بعيد على صلة بذلك الغرب نفسه ، وكان من احتكاك البلدين شرارة عمّت الشرق ويقظة نبّهت الشرقيين» .

وهذه ولا شك مغالطة واضحة ذلك :

(اولا) أن النهضة في الشرق والأمة العربية والعالم الإسلامي إنما بدأت على وجه التحقيق في منتصف القرن السابع عشر عندما بزغت أضواء دعوة التوحيد في الجزيرة العربية وعلا صوت يقظة العلماء في الأزهر وهم يقودون حركة التخلص من ظلم أمراء المماليك ، وكلا الحركتين سبقتا قدوم نابليون الى الشرق ، بل هما سابقتان للثورة الفرنسية نفسها التي يحاول البعض اعتبارها مصدراً لليقظة[1].

(ثانياً) إن الشرارة التي يتحدث عنها المؤلف والتي عرفها لبنان لم تكن شرارة أصيلة منبعثة من قلب الأمة العربية ومن قيمها وفكرها ، ولكنها كانت ظاهرة غريبة صادرة عن معاهد الإرساليات الاجنبية التي كانت تركز قواعد الغزو الثقافي وتدعم

---

(١) راجع كتابنا «أضواء على الفكر العربي الإسلامي»

حركات التبشير، والحق ان النهضة قد ابتعثتها الأمة العربية من اعماقها ومن قيمها الأساسية ، وهي يقظة كانت ممتدة في عروق المفكرين والعلماء منذ وقت طويل ، وليست هذه الظاهرة بالجديدة ، ولكنها واضحة في مختلف مراحل تاريخ الإسلام والعرب .

# الفصل السابع

## بعث التراث

يختلف مفهوم إحياء التراث بين الدعوة الأصيلة الصادقة اليه، التي انبعثت في العقد الأخير من القرن التاسع عشر وبين الدعوة التي حمل لواءها دعاة مدرسة التغريب والغزو الثقافي وحملة لواء منهج النقد الغربي الوافد. ولقد كانت الدعوة الى إحياء التراث قائمة منذ وقت طويل، وكانت ماضية في طريقها الصحيح قبل أن يفد المنهج الغربي بمفاهيمه التي لا تتفق مع ذاتية الأدب العربي، وبمحاولاته الخطيرة التي تظهر في صورة البعث والإحياء، وهي تستهدف إحياء جوانب معينة، هذه الجوانب ليست من صميم هذا الأدب، ولكنها جيوب منحرفة ضالة، ظهرت على أطراف هذا الكيان الضخم على مدى القرون المتوالية، نتيجة دعوات ضالة حمل لواءها خصوم العرب والإسلام، وحاولوا بها إفساد جوهر هذا الفكر، والانحراف به عن قيمه ومفاهيمه، وتغليب قيم وثنية قديمة في خطة واضحة للقضاء على الإسلام وكيانه السياسي والاجتماعي.

قد تكون هذه دعوى ندعيها ولكن الدليل الأكيد معنا. فان مدرسة النقد الأدبي الغربي لم تحرص على إحياء شيء من التراث إلّا ما اتصل بالشبهات والزنادقة وشعراء الغزل الحسّي والكتب الحافلة بالمفاهيم الوافدة سواء من الثقافات الفارسية أو الهندية القديمة او اليونانية الأغريقية، وجميعها تلتقي على مفهوم الوثنية والتدمير لقيم الفكر الإسلامي الذي قام أساساً على «التوحيد». ونظرة واحدة الى هذه المؤلفات التي ابتعثت والتراث الذي أعيد احياؤه يكشف في وضوح عن الغاية والهدف:

(١) المعتزلة : والاهتمام بها منبعث من هدف واحد هو أنها اعتمدت على منطق أرسطو وفلسفة اليونان.

(٢) ألف ليلة وليلة : المحاولة عن طريقها تستهدف رسم صورة زائفة للمجتمع الإسلامي.

(٣) الأغاني : ويعدّونه مصدراً أساسياً لدراسات الأدب والتاريخ مع انحرافه الشديد.

(٤) رسائل اخوان الصفا : وهي رسائل كتبها مجموعة من الباطنية هادفين الى تحريف الفكر الإسلامي.

(٥) ابو نواس : وهو شاعر الخمر والغزل الحسّي والغلمة الذي ألفت عنه عشرات الدراسات.

(٦) بشّار بن برد : وهو شاعر الإباحة والإقذاع والكشف.

(٧) الحلاج : وهو الرجل الذي أدخل على التصوف الإسلام فكرة الحلول والإتحاد.

(٨) محي الدين بن عربي : دعوته الى وحدة الوجود وهي ليست اسلامية الأصل.

(٩) ابن المقفع : محاولته خلق جو الشعوبية واحتقار العرب.

(١٠) حنين ابن اسحق : لأنه أفسد الترجمة وجعلها دعاية للنسطورية.

(١١) مسيلمة الكذاب : الاهتمام به على أنه بني له دعوة معارضة لدعوة الرسول.

(١٢) ابن الراوندي : لأنه هاجم الإسلام وعارض التوحيد.

(١٣) البلاذري : اعتمد عليه الدكتور طه حسين في إنكار شخصية عبدالله بن سبأ.

(١٤) ابن سينا: وضوح خضوعه للفكر الباطني ونسبته الى الفرق السرية.

(١٥) الفارابي: اهتموا به لأنه أقام الفلسفة الإسلامية على أساس الفلسفة اليونانية.

(١٦) ابن الرومي: الاهتمام به من تصور ان الدم والعنصر هو مصدر العبقرية.

(١٧) ابن رشد: اعلاؤه للفلسفة على الدين.

(١٨) الفردوسي: اعلاؤه لخصومته للعرب وإيجاد خلاف بين الفرس والعرب.

(١٩) السهروردي: نظريته الفاسدة المستمدّة من الفكر الوثني ونظريات المجوسية.

وكل هذه كتب وشخصيات هامشية وليست رئيسية في الفكر الإسلامي، ولا في الأدب العربي، وأغلبها معطوب، هذا بينما أنكر هؤلاء العاملون في مجال التغريب وابتعاث الشبهات شخصيات وكتباً من الأمهات ذات الأهمية البالغة والخطيرة في إعادة بناء الفكر الإسلامي وإحياء التراث، فوقفوا منها موقف التجاهل او السخرية او الاتهام للأعلام من أمثال:

ابن تيمية والغزالي وابن حزم (الذي إذا تحدثوا عنه لم يذكروا إلّا كتابه طوق الحمامة) وغفلوا عن آثاره الضخمة في الفقه والأدب والاجتماع وفي مقدمتها المحلى (احد عشر مجلداً) والشافعي وابن حنبل ومالك والبخاري والبيروني وابو بكر بن العربي، والخوارزمي، وابن خلدون (الذي سخر منه الدكتور طه في اطروحته لنيل الدكتوراه في جامعة السربون) والقزويني وموسى بن شاكر، والعز بن عبد السلام والأشعري، والخليل بن احمد، وابن الهيثم، والمسعودي، والشريف الإدريسي وعشرات غيرهم.

فإذا ذكر التصوف ذكروا المنحرفين فيه أمثال الحلاج وتجاهلوا أصحاب المفاهيم الحقيقية من أمثال الجنيد، وإذا ذكرت الفلسفة اهتموا بالمتابعين للفلسفة اليونانية وتجاهلوا أصحاب المناهج الأصيلة، وإذا ذكروا الشعراء تحدثوا عن ابي نواس

وبشار وأغضوا الطرف عن المتنبي. وهم حين يرفعون من شأن ابن سينا ينكسون معاصره العلامة البيروني الذي حرر الفكر الإسلامي من انحراف الفلسفة اليونانية، وهم يذكرون ابن رشد ويصفونه بالفيلسوف حتى لا يعرف الناس عنه إلا أنه لخّص ارسطو، وتجاهلوا عمداً جوانبه الأخرى العظيمة الإبداعية، وخاصة مفاهيمه في الشريعة والقضاء، وهم حين ذكروا ابن رشد لصلته بأرسطو يغضون تماماً عن ابن تيمية لأنه حطم مذهب أرسطو ونقد المذهب الأرسطي.

ولقد مضت المدرسة الأولى في إحياء الأدب العربي على منهج أصيل وتصدّر هذا العمل احمد تيمور واحمد زكي وكرد علي وعشرات معهم، ولكن المدرسة الغربية حين جاءت حققت آمال المستشرقين ونفّذت مناهج المبشرين، وحاولت ان تقول مع رينان وغيره أن التراث العربي الإسلامي إنما هو تراث يوناني فارسي مكتوب باللغة العربية. ودارت جميع تعليقات هذه المدرسة على أن هذه الكتب الصفراء تعوق تطورنا الفكري. وأنه من الخير لنهضتنا وناشئتنا ان تزول من طريقهم هذه «المخلفات العتيقة البالية بأن نقدمها طعمة للنيران»[1].

ويحاول هؤلاء الأتباع من تلاميذ المستشرقين أن يغزوا الى سادتهم أنهم هم الذين دلونا على نواحي العمق والجمال، وهم في ذلك يكذبون ويضللون، فإن المبشرين والمستشرقين لم يحفلوا إلا بشاعر داعر، او فيلسوف منحرف او بصوفي ضال، أما الأصلاء جميعاً فقد أغضوا عنهم، وهاجموهم ورموهم بمختلف السيئات. ولقد مضى تلاميذ النقد الغربي فاعلنوا اتهاماتهم وقدموا شبهاتهم، ووضعوها في ثوب علمي زائف براق ليخدعوا بها الأغرار والبسطاء، فقال طه حسين عن القرن الثاني الهجري إنه عصر شك ومجون، وأعلن سلامة موسى احتقاره للتاريخ العربي والأدب العربي، ووصفه بأنه أدب الفقاقيع، وأعلن اسماعيل مظهر ان العبقريات الفكرية والأدبية لم تكن عربية، وإنما كانت فارسية، وتحدّث عن الدم السامي

(١) مجلة الحديث في دراسة واسعة للتراث (يوليو تموز ١٩٤٠) وهذا رأي محمود اللبابيدي.

والدم الآري، ودعا أمين الخولي وأحمد ضيف وأحمد امين الى اقليمية الأدب. أعلن سلامة موسى «ان الأدب العربي القديم هو قبل كل شيء أدب القرون الوسطى ونحن نقرؤه للفائدة التاريخية فقط، ولا يمكننا أن نستضيء به في حل مشاكلنا المعاصرة، إذ هو عقيم كل العقم من هذه الناحية».

وحين عرضوا للجاحظ قدّروه في كتابه البخلاء، وهاجموا كتابه البيان والتبيين، لأنه الكتاب الذي فضح شبهات الشعوبية التي كانوا يعاودون نقلها، هاجم طه حسين وهاجم سلامة موسى وكثيرون كتاب البيان والتبيين بشراسة لا حد لها، واتهموه بكل نقيصة لأنه دل عليهم وكشف المعين الذي يغترفون منه حتى الآن شبهاتهم وأباطيلهم، وجرى البحث في التراث العربي عن شيء واحد: عن الملحدين والمنحرفين والشخصيات الغامضة والقلقة (اقرأ شخصيات قلقة لعبد الرحمن بدوي) وعن المجان والفساق من أمثال بشار وابي نواس (اقرأ حديث الأربعاء) وعن شعراء الهجاء المقذع (اقرأ ابن الرومي للعقاد والمازني وغيرهما) وأثارت هذه الدراسات التي أطلق عليها اسم احياء الأدب العربي والتي طغت على الدراسات الأصيلة التي قدّمها الجيل السابق، اثارت روح التشكيك في الأدب العربي واتهامه والتحامل عليه، واعلان أسوأ صفحاته القلقة والتوسّع فيها كأنها الأدب كله، والوقوف عند الشعراء وادباء الصنعة (وتجاهل ذلك الحصاد الضخم من الفكر والثقافة والعلوم والفقه والأدب الرفيع الذي قدمه عشرات من الأعلام النوابغ) وقالوا - من داخل مناهج الأدب الغربي الوافدة المفروضة إن هذا ليس أدباً، ولكنه شيء آخر، كأنما ليس الأدب العربي إلا الأغاني وألف ليلة وشعر بشار وابي نواس، وكانت معظم هذه الأبحاث في الأدب العربي تدار بحيث تصل الى اتهام العقل العربي بالجمود والنفس العربية بالضحالة، وحين تقرأ بحث اسماعيل مظهر عن بشار بن برد ومهيار الديلمي ترى أنه يرد عظمة شعرهما الى اصلها الفارسي، كما يردّ المازني عظمة ابن الرومي الى أجداده الروم، والواقع أن كل ما عندهما من عطاء إنما هو إسلامي المصدر.

وحين استعلت الدعوة الى أحياء الأدب العربي ، تقدم طه حسين ليعلن أن الآداب ثلاثة : اليوناني والفارسي ثم العربي ، وقال ان كل ما في الأدب العربي من نثر فنّي إنما وصله من الفرس ، ثم غيّر رأيه الى أسوأ فقال : إن أعظم الأداب هو الأدب اليوناني ، وأن الأدب العربي قد استمدّ اعظم مقوماته من الأغريق في القديم ، وان أعظم ما في الأدب العربي الحديث هو ما ترجم من الأدب الأوربي ، وكانوا يراوحون القول بين الفرعونية القديمة والفارسية واليونانية ، ثم ينتقلون الى العصور الحديثة متجاهلين أربعة عشر قرناً من تاريخ الإسلام وأثره في الأدب والفكر والعلوم والفلسفات جميعاً.

* * * *

وهكذا أخضعت مدرسة النقد العربي إحياء التراث العربي الى مقاييس الغرب ، وهي مقاييس صالحة لتراثه ، وهي حين تدعي أنها تطبّق في أفقنا العربي الإسلامي ، فإنها تتخذ ستاراً علمياً لتبرير ازدراء هذا التراث والاهتمام بالجوانب الضعيفة والمنحلة فيه ، وكذلك الاهتمام بما كتب في فترة الضعف وإبان أزمة الشعوبية او أزمة الهلينية التي قضى عليهما الفكر الاسلامي من بعد وتحرّر منهما ، وحين بدأ النظر في التراث وفق مناهج الغرب ظهرت نظرية مرجليوت ورينان ونلينو ودوركايم في انتحال الشعر الجاهلي ، والشكوك في الكتب المقدّسة وفي القرآن ، ومحاولة عزل الأدب عن دائرة الفكر الإسلامي لتحريره من قيمه الأخلاقية والقومية ، واعلاء النظرة الى من تأثروا الثقافات الوثنية القديمة من أمثال قدامة بن جعفر في نقد النثر واخوان الصفا في رسائلهم والأصبهاني في الأغاني وهكذا.

وقد وقع في مصر والبلاد العربية أن كانت الصيحات تتوالى في الغرب بالاعتراف بأثر التراث العربي في نهضتهم الأدبية وحين ظهر بلاسيوس يعلن ان كتاب

الفتوحات الملكية لابن عربي أوحى لدانتي ، ويعلن غيره ان نظرية المنفعة التي عرفتها اوربا كانت من فكر ابن القيم، وأن ابن خلدون هو منشىء علمي الاجتماع والتاريخ ، وان ابن الأثير قدم للإنسانية نظرية الضوء ، وأن آراء توماس الأكويني مستمدّة من الغزالي ، وأن الأدب الأوربي في اسبانيا (أدب التروبادور) مستمدٌ من الأدب العرب ، وكانت هذا الصيحات تخفت وتحجب بل وتقمع بشدة ، حتى تسير حركة التغريب الى طريقها المرسوم في هدف مقومات أدبنا وفكرنا.

وإذا كان المستشرقون الأوربيون حينما نقلوا هذه الألوف المؤلفة من تراثنا الى مكاتبهم وجامعاتهم ، إنما كانوا يبحثون هذا التراث بغرض ماكر لئيم ، هو محاولة ايجاد الثغرات لخدمة حركة الغزو واثارة الشبهات والبحث عن نقاط يعطونها لطه حسين ولمدرسة النقد الغربي وغيرهم يضربون بها الأدب والفكر الإسلامي ، ويشككون فيهما ويثيرون معارك يوجهونها الى محاولة تدميره ، وخلق جيل ينظر الى هذا التراث في احتقار ومهانة في نفس الوقت الذي يعلي من قدر أناتول فرانس وغوته وشكسبير وجان جاك روسو وفكتور هيجو.

ولقد كان الجيل الأول من أصحاب الدعوة الى إحياء التراث من امثال احمد زكي باشا واحمد تيمور وعبد العزيز جاويش ومحب الدين الخطيب والدكتور الدرديري ومحمد فريد وجدي ، ولكن الأجيال التي جاءت من بعد وعلى رأسها طه حسين قد كانت من اولياء المستشرقين والخاضعين لهم . وقد كشف الدكتور غلاب كيف ان طه حسين هاجم ابن خلدون في أطروحته التي قدّمها الى جامعة السربون ارضاء لاستاذه المشرف على الرسالة لأنه يكره ابن خلدون وهو «دوركايم» الذي مات مع الأسف قبل ان يمنح الدكتور لقبه الكريم.

ولقد كانت هذه المدرسة الجديدة من أتباع مذهب النقد الغربي تكره أولئك الذين انصفوا التراث العربي الإسلامي من امثال جوستاف لوبون وتوماس كارليل ، ويلتمسون لهم الأخطاء للنقص من قدرهم.

والمعروف ان التغريبيين قد قصروا همّهم في احياء التراث على شعر الشعراء وأدب الأدباء ممن وجدوا في آثارهم ما يتصل بأهدافهم وذلك استهدافاً لإعادة طرح هذه الآراء القديمة من كشف وغزل حسّي وإلحاد وزندقة على المجتمع العربي الإسلامي الجديد لخلق حاجز جديد يحجب القيم العربية الإسلامية الأصيلة، وأضافوا إلى ذلك ترجمة قصص الإباحية الفرنسية وترجمة اشعار أمثال بودلير، بل ان الدكتور طه قد ذهب الى أبعد من ذلك فأعاد نشر رأي أحد المستشرقين الغربيين (كازنوفا) في اتهام العرب بحرق مكتبة الإسكندرية، فلما ثارت عليه ثائرة المنصفين لم يجد ما يقوله غير كلام ساخر لا يدل إلّا على الاستهتار وتعمّد الإغاظة والإصرار على ضرب معاول الشبه في الأدب العربي والفكر الإسلامي ومهاجمة احمد زكي باشا، الذي كشف فضل العرب على الغرب في أشياء كثيرة[1].

وربما عني هؤلاء الدعاة التغريبيون بالتراث ليقصروه على الفنون الشعبية والعاميات مما يسمونها الفلكلور، كما عنوا بدراسة اللهجات العربية واعتبروها كذباً وبهتانا لغات، واستهدفوا من ذلك إثارة الشبهات بأن هناك لغات عامية في العالم العربي تنافس اللغة العربية، وأن هذه اللغات لها تراث من الأدب الشعبي يؤهلها لكي تأخذ مكانة اللغة وتقضي على الفصحى لغة القرآن، وبذلك يتحقق هدف من أخطر أهداف الاستعمار والتبشير والاستشراق، وهو القضاء على ذلك الترابط العربي القرآني الذي يجمع الأمة العربية والعالم الإسلامي.

وهذا هو معنى التحوّل الذي طرأ على دعاة النقد الغربي الوافد في الثلاثينات من مهاجمة التراث الى إحيائه، وتحول طه حسين من كتابة أمثال الشعر الجاهلي وحديث الأربعاء الى كتابة هامش السيرة والفتنة الكبرى، فقد كان الغرض هو تزييف التراث.

لقد وجدت حركة الاستشراق أسلوباً جديداً لهدم الأدب العربي، وذلك بالكتابة عنه والإيغال فيه، وابراز الجوانب الضعيفة منه واعادة إذاعتها في الناس

---

(١) راجع هذه التفاصيل في كتابنا «المساجلات والمعارك الأدبية».

لخلق جو من الأساطير يتصل بالسيرة النبويّة، ويدخل الى الأدب العربي لوناً دخيلاً من تاريخ اليونان والفرس القديم لا يتّفق مع ذاتية الأدب العربي وطبيعة النفس العربية الإسلامية وروحها ومفاهيمها، فقد حاولوا إعادة بعث التراث الإسلامي والعربي بروح التنكّر والاحتقار للقيم الإسلامية، ومحاولة تصوّر الإسلام على أنه دين روحاني، دين عبادة، وأنه لا صلة له بالمجتمع ولا مناهج الحياة.. وذلك هو ما ذهب إليه طه حسين في مختلف كتاباته في الإسلام التي خدع بها الكثيرين، ولم تكن في الحق إلّا ترجمات مصوغة في لغة جديدة لآراء مرجليوث ورينان ولويس شيخو اليسوعي وغيرهم.

(٢)

حين تقتصر كلمة «التراث» في عرف أصحاب مناهج النقد الغربي على إحياء بشار بن برد وأبي نواس والحريري والهمذاني والأغاني وألف ليلة سيتحدّد في أذهان المثقفين والأدباء في هذا العصر مدى أبعاد التراث العربي وأهميته ووزنه، وبالتالي تتحدّد قيمته في نظرهم، وهي قيمة هينة لا شك، حين ينتقل من صور الكشف الى الغزل الجنسي الى السجع والزخرف، والخمريات، وهنا يتحقق هدف التغريب والغزو الثقافي في أمرين:

(١) أن لا يعدو نطاق التراث حدود هذه الصور الأدبية المنحرفة.

(٢) أن تجري الاستهانة بهذا التراث الغارق مع الكشف والشهوات.

ومن هنا يستهان بهذا التراث ويصغر في نظر الأدباء والمثقفين ومن ثم تنقطع الصلة بين هذه الأمة وبين تراثها الحقيقي، او تتصل على أنه هو هذه الجوانب المنحرفة المضللة وحدها، فإذا عرض لشخصية من الشخصيات الأصيلة في التراث سلّطت عليها الشبهات ورميت بالتحقير والازدراء، كما فعل زكي مبارك وطه حسين في دراسات الغزالي وابن خلدون والمتنبي، وحيث ترى طه حسين يهاجم المتنبي العملاق، ويحاول ان يزيف نسبه، ويزدري ابن خلدون ويصفه بالبساطة ويسخر

بآرائه ، ثم تراه يتناول أبا نواس وبشاراً بمزيد من التقدير والإعجاب ويضفي عليهما من الصفات ما يرفعها فوق هام الأدب والأدباء.

ويكون ذلك كله بما فيه من مغالطة وتضليل تطبيقاً لمناهج النقد الغربي.

ومن الحق أن يقال أن التراث العربي الإسلامي خطير وجليل الشأن ، وهو تراث قد واجه حملات من التحريق والإغراق والاضطهاد كثيرة ومتّصلة ، فقد جرت محاولة ضخمة لإحراقه في ساحة مدينة غرناطة ، وكان في الأندلس أكثر من ٧٠ مكتبة ، وكان في غرناطة وحدها في عهد عبد الرحمن الثالث ستمائة الف مجلد ، وهذا كله مما حرقه الكردينال كمنيس مطران طليطلة.

وجرت محاولة لإغراق التراث العربي في نهر دجلة قام بها التتار عندما دخلوا بغداد ، وكانت هناك محاولات في كل مكان وصلت إليه أيدي خصوم العرب والإسلام ، وفي الحروب الصليبية حرقت الكتب ونقلت من جزيرة قبرص وكريت وجزائر البليار ، ونقلت من الأندلس. ثم نقلت أخيراً من الأستانة ، وكانت حملة نابليون حريصة على الحصول على أكبر قدر من هذه المؤلفات النادرة ، وفي ظل الاستعمار الغربي جرت عملية سرقة هذا التراث ونقله الى خزائن الكتب في أوربا ، بحيث لا تخلو اليوم مكتبة من مكتبات أوربا (بريطانيا والمانيا وايطاليا والفاتيكان وهولندا) وكذلك مكتبات الولايات المتحدة من مئات المخطوطات العربية.

وقد وصل إلينا من ثروتنا هذه ما يقدّر بثلاثمائة ألف كتاب في حين أن بعض المؤلفين بلغت تصانيفهم بضع مئات ، فقد كتب الكندي واحداً وثلاثين ومائتين ، والرازي مائتين ، وابن حزم اربعمائة ، والقاضي الفاضل مائة ، وعبد الله بن حبيب عالم الأندلس ألف كتاب ، ويرى العلامة احمد زكي باشا شيخ العروبة أن ما أحرق في الأندلس يمثل تسعة أعشار ونصف وثلث وربع الكتب العربية فلم يخلص لنا غير واحد في الألف ، وذكر جيبون في كتابه عن الدولة الرومانية أنه كان في طرابلس وحدها على عهد الفاطميين مكتبة تحتوي ثلاثة ملايين مجلّد أحرقها الفرنجة عام ٥٠٢ هـ. ١١٠٠ م.

وقد صور المنصفون من الباحثين الأجانب هذه الثروة فقال ول ديورانت «ان آلافاً من المخطوطات العربية في العلوم والآداب والفلسفة لا تزال مخبوءة في مكتبات العالم الإسلامي ، ففي اسطنبول وحدها ثلاثون من مكتبات المساجد لم ير الضوء من مخطوطاتها إلا النزر اليسير، وفي القاهرة ودمشق والموصل وبغداد ودلهي مجموعات ضخمة لم يعن أحد بوضع فهرس لها ، وفي الاسكوريال بالقرب من مدريد مكتبة ضخمة لم يفرغ بعد من احصاء ما فيها من مخطوطات إسلامية في العلوم والآداب والشريعة والفلسفة، وليس ما نعرفه من ثمار الفكر الإسلامي في تلك القرون الثلاثة من ٧٥٠ــ ١٠٥٠ إلّا جزءاً صغيراً مما بقي من تراث المسلمين ، وليس هذا الجزء الباقي إلا قسماً ضئيلاً مما أثمرته قرائحهم ، وليس ما اثبتناه في هذه الصحف إلا نقطة من بحر تراثهم »[1]

ومن الحق أن يقال إن في مختلف مكتبات الغرب (روما ، ميلانو، ليدن ، باريس ، لندن ، الولايات المتحدة) ألوفاً من مجلّدات هذا التراث مما لم ير الضوء بعد ، وان ما طبع ونشر هو الجانب القليل ، وأغلب ما نشر فيه هو ما يتّصل بأهداف حملة التغريب ، فالشعر مقدّم على الفكر والأدب مقدّم على العلوم ، وما تزال بعد مؤلفات ابن سينا والرازي والبيروني وابن الهيثم وجابر بن حيان لا تجد الأهمية الكافية لبعثها ، وذلك حتى لا يكشف ذلك عن عظمة الإضافة التي قدّمها الفكر الإسلامي للحضارة العالمية ، والفكر الإنساني ، وما يزال هذا التراث يوصف على أقلام البعض بالكتب الصفراء ، بينما يحوي جوانب ايجابية بناءه من الفكر العلمي الإسلامي الناصع ، القادر على منح الإنسانية في العصر الحاضر ضياء وهدى .

* * * *

وإذا حاولنا إلقاء نظرة على ما وصل إلينا من هذاالتراث وجدنا شيئاً باهراً عظيماً ، فقد اعطى المؤرخون والعلماء والمفكرون عشرات من موضوعات المعرفة ،

(١) جزء (٢) من المجلد الرابع من قصة الحضارة ص ٢١٢/٢١٣.

إذ قدّم الجاحظ وابن قتيبة والدينوري والمبرد وابن عبد ربّه ، وغيرهم عشرات من الأبحاث في مختلف الفنون ، وما تزال اسماء هذه الكتب في مقدمة المراجع العربية الأساسية : أدب الكاتب وعيون الأخبار والكامل والعقد الفريد.

وفي مجال التاريخ نجد موسوعات الطبري والمسعودي وابن مسكويه ، كما نجد ياقوت ولسان الدين الخطيب وابن خلدون والمقريزي والسخاوي وابن كُثير ، وفي مجال الفلسفة غير أبحاث الكندي والفارابي وابن سينا ، ونجد السيوطي وهو دائرة معارف وحده وجامعة كاملة فقد ألف ٣٥٠ كتاباً في الدين والتاريخ وعلوم اللّغة بقي منها ٣١٥ كتاباً ، وهناك طبقات الحفاظ والمفسرين ، والنحويين واللغويين ، هذا بالإضافة الى نهاية الأرب للنويري في التاريخ ومسالك الأبصار للعمري وصبح الأعشى للقلقشندي. وفي اللغة نجد لسان العرب لابن منظور وتاج العروس للمرتضى الزبيدي ، وهناك الدراسات الفذّة الضخمة للأشعري والغزالي وابن تيمية وابن حزم وابن القيم ، وقد كان الناس يعتمدون في دراسات الأدب على أربعة كتب : البيان والتبيين للجاحظ وأدب الكاتب لابن قتيبة ، والكامل للمبرد والأمالي لأبي علي القالي ، ولدينا عشرات الاسماء آلتي عملت في هذا المجال في مختلف فروعه وتركوا آثاراً حيّة ، ولابن قتيبة فضلاً عن كتابه الذائع مؤلفات أخرى منها : (كتاب العرب ، ومختلف تأويل الأحاديث ، وعيون الأخبار) وللجاحظ أيضاً : الحيوان ، والبخلاء ، والمحاسن والأضداد.

وهناك ابو حنيفة الدينوري صاحب كتاب الأخبار الطوال.

وهناك القاضي التنوخي (نشوار المحاضرة ، والفرج بعد الشدة) وابو العلاء في رسالة الغفران ، والثعالبي في فقه اللغة ، وابن رشيق في (العمدة) وابو حيان التوحيدي في المقايسات ورسالة الصديق والصداقة. وابن مسكويه في تهذيب الأخلاق وتجارب الأمم ، والفتح بن خاقان في (قلائد العقيان) وابن بسام في الذخيرة ، والماوردي في أدب الدنيا والدين ، والأحكام السلطانية. وجار الله الزمخشري في أساس البلاغة وابن الجوزي في الأذكياء وابن الأثير في المثل السائر ، والبغدادي في (الإفادة والاعتبار) بالإضافة الى ابن جبير الأندلسي ، وابن بطولة

وياقوت الحموي والمسعودي والشريف الأدريسي في مجال الرحلة والجغرافيا، والقفطي في أحكار الحكماء، وابن ابي أصيبعة في طبقات الأطباء، ولسان الدين الخطيب في (الاحاطة في أخبار غرناطة) والمقري في (نفح الطيب).

وفي مجال التاريخ: نجد الرسل والملوك لابن جرير الطبري، ومروج الذهب للمسعودي، والكامل لابن الأثير، والفخري لابن الطقطقي، والبدء والتاريخ لمظهر بن طاهر المقدسي، والتاريخ لليعقوبي، وتاريخ سني ملوك الأرض والأنبياء لحمزة الأصفهاني، وعجائب المقدور لابن عربشاه وريحانة الألباء للشهاب الخفاجي، والذخيرة لابن بسام، وقلائد العقيان لابن خاقان، وصبح الأعشى للقلقشندي ونهاية الأدب للنويري، وخزانة الأدب لابن حجة الحموي، وسلافة العصر لابن معصوم، والضوء اللامع للسخاوي، واسرار البلاغة للعاملي، كل هذا مما يغض النظر عنه اصحاب مذهب النقد الغربي، ولا يذكرون إلا الأغاني وألف ليلة وبشاراً وأبا نواس، ومن خلال هذه الصور المضطربة يحاولون رسم صورة للفكر الإسلامي والأدب العربي والمجتمع العربي الإسلامي.

* * * *

وقد خاضت هذه الثروة من التراث في فنون عديدة يمكن إجمالها في: التفسير، والحديث، والعقائد، والأصول، والفقه، واللغة، والصرف، والنحو، والبلاغة، والعروض، والأدب، والموسيقى، والتاريخ والتراجم، والبلدان، وسياسة الدول، والفروسية والفنون الحربية، والصيد، وتربية الخيل، والبزاة، والطب والصناعة، والحيل، وجر الأثقال، والزراعة، والطبيعيات، والرياضيات، والفلاحة.

(١) وقد استطاع ابن النديم في كتاب الفهرست ان يقدّم تقسيماً للتراث (لعصره) الى عام ٣٨٥ هـ.

الأمم من العرب والعجم.

اسماء كتب الشرائع المنزلة على مذهب المسلمين ومذاهب أهلها.

القرآن وأسماء الكتب المصنّفة في علومه.

النحويون واللغويون.

الأخبار والآداب والسير والأنساب (الأخباريون، اخبار الملوك والكتّاب وأصحاب الدواوين).

الشعر والشعراء: جاهلية واسلامية.

الكلام والمتكلّمون.

أخبار السياح والزهاد والعباد والصوفية.

الفقه والفقهاء المحدثون.

فقهاء أصحاب الحديث.

الفلسفة والعلوم القديمة، والمناطقة والأطباء والموسيقى.

المذاهب والاعتقادات.

(٢ أما صاحب كشف الظنون وهو ثانية هذه الموسوعات في احصاء العلوم فقد قدّم عرضاً لـ١٦ ألف كتاب مرتبة على الحروف الأبجدية قسمها على بضع وثلاثين علماً تضمنتها كتب العرب:

(١) علم الاحاجي والأغلوطات في فروع اللغة والصرف والنحو.

(٢) علم الاختبارات وهو في فروع علم النجوم.

(٣) علم الأخلاق.

(٤) علم آداب البحث (المناظرة).

(٥) علم الأدب.

(٦) علم الأدعية والأوراد.

(٧) علم الأدوار والأكوار.

(٨) علم الارتماطيقي.

(٩) علم اسباب النزول في فروع علم التفسير.

(١٠) علم أسباب ورود الأحاديث.

(١١) علم الاستعانة بخواص الأدوية والمفرزات.

(١٢) علم استبطان المعادن والمياه.

(١٣) علم استنزال الأرواح واستحضارها في قوالب الأشباح.

(١٤) علم اسطرلاب.

(١٥) علم اسماء الرجال.

(١٦) علم الاشتقاق.

(١٧) علم أصول الفقه.

(١٨) علم الأطعمة والمزورات.

(١٩) علم اعجاز القرآن.

(٢٠) علم اعداد الوفق.

(٢١) علم اعراب القرآن.

(٢٢) علم أفضل القرآن وفاضله.

(٢٣) علم أقسام القرآن.

(٢٤) علم الأكتاف.

(٢٥) علم الأكر.

(٢٦) علم الآلات الحربية.

(٢٧) علم الآلات الرصدية.

(٢٨) علم آلات الساعة.

(٢٩) علم الآلات الظلية.

(٣٠) علم الآلات العجيبة الموسيقانية.

(٣١) علم الآلات الروحانية.

(٣٢) علم الألغاز.

(٣٣) العلم الإلهي.

(٣٤) علم الأمثال.

(٣٥) علم إملاء الخط.

(٣٦) علم امارات النبوة.

(٣٧) علم انبساط المياه.

وإذا كان هذا ما وصل إليه حاجي خليفة في كتابه كشف الظنون عن أسامي الفنون فإنه قد رتّب تحت هذه العلوم ستة عشر ألف كتاب هي التي رآها في عصره.

(٣) وأمامنا عالم آخر ومرجع آخر يستطيع ان يعطينا ضوءاً آخر على التراث حتى نعرف أبعاده هو ( طاشكبرى زاده ) في موسوعته مفتاح السعادة، وقد ضمنت ستة عشر وثلاثمائة علم لكل علم منها أبواب وفصول لا يلحقها الحصر.

( ٤ ) وفي موسوعة اصطلاحات العلوم الإسلامية التي أسماها الشيخ المولوي محمد علي بن علي «التهاوني» (كشاف اصطلاحات الفنون) نجد أكثر من ٥ آلاف مادة، وزّع المؤلّف عليها تراث الفكر الإسلامي على نحوٍ رائع. شمل جميع فنون العلوم والآداب والفنون ومصطلحات الأديان والعقائد، واللغة والنحو والفقه، والتشريع والفلسفة والعلوم والآداب والفنون والتصوّف والبيان والبلاغة والفِرَق الدينيّة.

من خلال هذا العرض الموجز أردنا ان نقدّم صورة سريعة لأبعاد التراث العربي الإسلامي تكشف زيف ادّعاء أصحاب مدرسة النقد الغربي التي تقف عند أدباء السجع والجناس، والزخرف، وشعراء الكشف والغزل والخمريات، وتكتفي بتراجم ابن الرومي وبشار وابي نواس، والمنحرفين من الصوفية والفلاسفة، وتسمّى هذا «إحياء التراث» ولا تكتفي بهذا بل تعرض لأمثال المتنبي وابن خلدون والغزالي

بالاتهام والاستصغار ، ثم تتجاهل هذا الحصاد كلّه وتغضي عنه ، بينما يمثّل هذا التراث أعظم ثروة عرفها أدب من الآداب ، هو الأدب العربي الذي امتدّ أربعة عشر قرناً منذ ظهور الإسلام حتى اليوم ، وهو عمر لم تعرفه الآداب العالمية الحديثة التي لا يزيد عمر إحداها عن أربعة قرون.

## (٢)

## البعث الزائف للتراث

## رسائل إخوان الصفا

في العصر الحديث وفي خلال تحدّيات المنهج الوافد من النقد ، حاول بعض رجاله تحت اسم بعث التراث واحياء الفكر الذي لفظه مفهوم الإسلام الصحيح ، والذي أدخل في مرحلة طغيان الفلسفة اليونانية وغلبة التيار الشعوبي والباطني ، وفي مقدّمة الكتب التي وجدت اهتماماً كبيراً : ألف ليلة وليلة ، وكليلة ودمنة ، والأغاني ، ورسائل إخوان الصفا ، ولقد كان التركيز على هذه الرسائل هاماً وخطيراً لأنها تحمل أوّلاً : الفكر اليوناني الهليني بصيغة إسلامية زائفة . وثانياً : لأنها تمثّل خطّة المؤامرة الباطنية المجوسية التي جرى حكمها فكرياً ، وربما حاول الدكتور طه في مقدّمة إحياء هذه الرسالة أن يبرز للجماعة دوراً في الحرية والتجديد الى ما سوى ذلك ، ولكن الزمن لم يحص إلا قليلاً حتى كشف الباحثون حقيقة رسائل إخوان الصفا ، وأعلنوا زيفها كتراث إسلامي عربي ، وان كانت مكتوبة باللغة العربية :

(أوّلاً) صلتها بالباطنية ، وفي السنوات الأخيرة أصدر اغاخان كتابه[1] (فورمين حبل متين) وأعلن ان مؤلف إخوان الصفا هو واحد من الأئمة الاسماعيلية وهو (احمد بن عبد الله بن محمد بن اسماعيل بن جعفر الصادق) ، ويقول الدكتور

---

(١) راجع بحث السيد محي الدين الخطيب م ١٨ سنة ١٣٦٧ الفتح.

حسين الهمذاني أحد دعاة الاسماعيلية البهرة : إن الاسماعيلية يرون أن «القرآن» كتاب العامة ورسائل أخوان الصفا : كتاب الأئمة.

وقد أكّد المستشرق الفرنسي (كازنوفا) فيما نقل عنه نيكلسون هذه الصلة حين يقول : إنني على أتم الثقة من أن آراء اخوان الصفا هي برمتها آراء الإسماعيلية ، ومحور هذه الآراء هو الاعتقاد بعودة الإمام الذي سوف يملأ الأرض سعادة ، وقد اتهم القرامطة والحشاشون من قبل أعداءهم بالكفر ، ولكن ليس لهذه التهمة ظل من الحقيقة ، ويقول (أولياري) : هناك ما يغري بالظن في أن حركة إخوان الصفا كانت حركة اصلاح من جانب بعض الاسماعيليين الذين أرادوا الرجوع الى تعاليم الاسماعيلية القديمة.

ويؤكّد جولد زيهر هذا المعنى حيث يعتقد ان رسائل اخوان الصفا كانت الأساس الذي بنيت عليه معتقدات الإسماعيلية ، وأن أوجه الشبه بين الإسماعيلية واخوان الصفا : هو ذلك الإسلوب الذي جروا عليه في نشر دعوتهم والدعاية لمذهبهم ، وهو أسلوب الاسماعيلية المعهود (أسلوب التدرّج في بثّ الفكرة والتلطف في عرضها على الناس) ، وأن من أبواب التشابه بين الجماعتين اتفاقهما اتفاقاً كلّياً في مذهب الحلول كما هو واضح في رسائل اخوان الصفا ، كما هو في تعاليم الإسماعيلية المحور الذي تدور حوله هذه الرسائل والتعاليم[١] ويقول ماكدونالد أنه مما يثبت علاقة إخوان الصفا بالاسماعيلية ومن تفرع منهم وجود قسم من رسائلهم في كتب الحشّاشين المقدّسة[٢].

(ثانياً) تفسير القرآن تفسيراً غير ما يدلّ عليه ظاهر اللفظ ، وهذا الأسلوب هو الأسلوب الباطن.

(ثالثاً) التشيّع لآل البيت والدعوة الى الإمام المنتظر او المهدي ويرى على أن لهم به صلة ، ومن الواضح في الرسائل أن من أبرز أغراضها نشر الدعوة واعداد الأفكار لظهور أحد المهديين بالدعوة له والتعريف به.

---

(١) راجع اديب عباس الرسالة م ١٩٣٤ ص ٥٧٦

(٢) نفس المصدر

(رابعاً) من أبرز ما يثير الشبهات حولهم إخفاء أسمائهم، ورائد الحق لا يخفي نفسه، وإنما يخفيها داعية النظم السرية.

(خامسا) صنّف المستشرقون مصادر رسائل اخوان الصفا فقال أميل بريهن في كتابه عن تاريخ الفلسفة في القرون الوسطى: إن هذه الرسائل تنقسم الى أربعة أجزاء: أولها فيثاغورثي وأفلاطوني، وثانيها، أرسطاليسي الطبيعة. وثالثها: خليط من الفلسفات اليونانية الثلاث الفيثاغورسية والافلاطونية والأرسطية. ورابعها: يتناول الإلهيات وما يتصل بالديانات والشرائع والتصوف، وهو المزاج الذي التأمت فيه العناصر المؤثرة في الفلسفة الإسلامية.

وقد تناول كثير من الباحثين الشبهات التي تردّد حول رسائل إخوان الصفا وهدفهم السياسي المبيت ضد الإسلام والمتصل بالدعوات الهدامة والباطنية من ناحية، وبين النحل المعارضة للإسلام كالمجوسية وغيرها مما ذكره السيد محب الدين الخطيب (الفتح: م ١٨ عام ١٣٦٧).

نقول من الحق انه ليس في نشر رسائل اخوان الصفا واعادة اصدارها عيب في ذاته ما أسديت الى القارىء الحقيقة كاملة، ودون أن تشوّه هذه الحقيقة باخفاء صفات من البطولة على هذه الجماعة الغامضة التي عجز أصحابها ان يبرزوا اسماءهم او يكشفوا عن انفسهم، او يقفوا في صفوف العلماء والمصلحين والفلاسفة، او حتى مع دعاة المذاهب الدخيلة أمثال: ابن الروانى والحلاج والسهروردي وغيرهم. ولكي يقرأ القارىء رسائل إخوان الصفا فإن عليه ان يعرف أوّلاً من كتّبها، فإذا وثق به وعلم أنه من أهل العلم الخالص البعيد عن الضلال او الانحراف، كان له ان يقرأ ما كُتب، فإن لم تتحقّق له هذه الثقة فعليه أن يقرأ في حذر على ضوء ما عرف من أمر الكاتب وأهوائه، وقد انعقد الإجماع بين كل من كتبوا عن إخوان الصفا أنهم جماعة مشبوهة ليست من العلماء، ولكنهم من دعاة الباطنية والمجوسية والزندقة الحاقدة على الإسلام واللغة العربية، وان لهم صلات واضحة وأكيدة بالحركات المريبة التي كانت تعمل على تقويض المجتمع الإسلامي،

وقد أضفى هؤلاء الدعاة للجماعة السرية على هدفهم السياسي طابعاً علمياً، بيد أن هذا الطابع لم يخف حقيقتهم، ولم يحل دون بروز مقاصدهم من خلال عرضهم للنظريات المختلفة التي تكشف عن معارضة أكيدة لمضامين الإسلام وقيمه الأساسية، وفي مقدّمتها التوحيد: لب لباب الإسلام وفكره وقرآنه ودعوته.

وقد وجّهت الى مضامين هذه الرسائل نقدات صريحة تكشف عن مخالفتها الجوهرية لقيم الفكر الإسلامي وصفت بأنها تكشف عن إغراق في الخيال، واعتماد على الأفكار اليونانية من غير محص ولا انتقاد لمقومات هذا الفكر ففيها بحث في كل علم من غير اقناع ولا إشباع، وأبرز ما يكشف عن شعوبيتهم محاولتهم هدم المقومات الأساسية للإسلام.

ومن هنا يبدو مدى الخطر الشديد للمنهج الوافد في احياء التراث، وفصل الأدب عن الفكر الإسلامي ومحاولة عزله عن المفاهيم الأصيلة التي هي دعائم أساسية فيه، ومثل هذا حدث بالنسبة لإحياء ألف ليلة وكليلة ودمنة، والأغاني، وكلّها كتب من التّراث الزائف[1].

(١) راجع الرأي في هذه الكتب في كتابنا (الشبهات والأخطاء الشائعة).

# الفصل الثامن

## البيان القرآني في منهج النقد الأدبي

تعرّض «البيان القرآني» في ظل منهج النقد الغربي الوافد الى أخطار كبيرة ، هذا المنهج الذي حمل لواءه احمد ضيف وطه حسين وزكي مبارك وغيرهم من الباحثين وتلاميذهم الذين حملوا أفكارهم من بعد دون أن يحرروها من قيودها ، ولقد كان البيان القرآني هدفاً أسياسياً من أهداف النقد الغربي الوافد ، وكانت محاولة الدخول إليه إنما تجري من غير الابواب العامة والرئيسية ، وإنما من وراء ، ولذلك فقد كان كتاب «في الشعر الجاهلي» وفي الأدب الجاهلي ، وهو يعرض لقضية انتحال الشعر من أكبر المحاولات التي حرصت على التعرض للبيان القرآني ، ثم جاء كتاب (النثر الفنّي في القرن الرابع) فوسّع نطاق هذه المحاولة ، ثم جاءت بعد ذلك محاولات الفن القصصي في القرآن وغيرهما ، ولقد بدأ دعاة منهج النقد الغربي من حيث انتهى المبشّرون والمستشرقون ومن خلال شبهة مضلّلة وهي أن القرآن من صنع محمد وقوله : ومن هنا أباحوا النظر إليه على أنه وثيقة أدبية من إنشاء بشر، بينما هو في حقيقته تنزيل من ربٍّ العالمين لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه . وقد كان الإلحاح على هذه الدعوى من أخطر ما ألقي الى الشباب المثقّف في كلية الآداب وفي الدراسات والمحاضرات والكتابات المختلفة ، بل ان أحدهم ليذكر كيف كان الدكتور طه حسين يكلّف بعض طلبته[1] أن ينقدوا بعض آيات من القرآن يعينها لهم ويطلب

---

(١) عن الدكتور عبد الحميد سعيد : راجع محاضر مجلس النواب المصري (٧ مارس ١٩٣٢)

منهم إثبات هذا النقد في كراسات يتلونها عليه ، فكانوا يثبتون أن هذه الآية ليست من البلاغة بمكان ، وأن تلك الآية على جانب من الركاكة ، وأن الآية الأخرى مفككة لا تؤدّي المعنى المقصود منها ، وقد غاب عن هذا الرجل أنه لا يصح التصدّي لتفسير القرآن إلا لمن تتوافر فيه شروط أساسية أهمّها أن يكون ملماً بكل فروع اللغة العربية وآدابها ، وأن يكون واسع الإطلاع على أسباب النزول والناسخ والمنسوخ ، والمحكم والمتشابه ، وبحديث رسول الله واسناده ، فهل تتوافر هذه الشروط في هؤلاء الطلاّب ، كما تتوافر فيمن يتعرّض لتفسير كتاب الله ، فما بالكم بمن يريد ان ينتقده؟

وقد جاء في إحدى هذه المحاضرات : أن على الباحث الناقد والمفكّر الحر أن لا يفرّق في نقده بين القرآن وبين أي كتاب أدبي آخر ، وبدأ التشكيك بالقول بأن في القرآن (أسلوبين متعارضين) لا تربط الأول بالثاني صلة ولا علاقة ، وقال صاحب المحاضرة أن هذا التباين مما يدفع الى الاعتقاد بأن هذا الكتاب (أي القرآن) قد خضع لظروف مختلفة وتأثير بيئات متباينة.

والمحاضر في هذا يتابع ما يقوله المستشرقون والمبشرون من أن القرآن من صنع النبي وإنشائه ، وأنه تأثّر في مكة بالنصارى ، وفي المدينة تأثّر باليهود ، ويحاول طه حسين أن يقنع شباب كلية الآداب بذلك ، ويحاول أن يفرّق في صياغة القرآن ، بين القسم المكي منه الذي يصفه بقصر الآيات والخلو التام من التشريع ، وبين القسم المدني الذي ينفرد بالتشريع ، ثم يقول «ان هذا أثر واضح من آثار التوراة والبيئة اليهودية». ثم يقول المحاضر «ليس القرآن إلاّ كتاباً ككل الكتب الخاضعة للنقد ، فيجب أن يجري عليه ما يجري عليها ، والعلم يحتّم عليكم ان تصرفوا النظر نهائياً عن قداسته التي تتصورونها ، وأن تعتبروه كتاباً عاديّاً فقولوا فيه كلمتكم ، ويجب أن يختصّ كل واحد منكم بنقد شيء من هذا الكتاب ويبيّن ما يأخذه عليه[1].

---

(١) بالنص عن المضابط الرسمية للدولة من محضر الجلسة الرابعة والعشرين لمجلس النواب ٢٨ مارس ١٩٣٢ ص ٣٤٦ وما بعدها.

ويقول المحاضر أيضاً : وهنالك موضوع آخر. هو مسألة هذه الحروف العربية غير المفهومة التي تبتدىء بها بعض الصور مثل «الم ، الر ، طس ، **كهيعص** ، حم ، عسق ، الخ . فهذه كلمات ربما قصد منها التعمية او التهويل واظهار القرآن في مظهر عميق مخيف ، او هي رموز وضعت لتميز بين المصاحف المختلفة التي كانت موضوعة عند العرب ، هو مثل مما كان يواجه به القرآن في بيئة كلية الآداب . وقد شهد كتاب (الأدب الجاهلي) وليد (الشعر الجاهلي) بما يجري مع هذا النسق من التشكيك والايهام ، وذلك ثابت مما جاء في تقرير لجنة العلماء :

(١) أنكر تواتر القرآن وقراءاته وانها وحي من الله .

(٢) أنكر الاعتقاد بصدق القرآن وتنزيهه عن الكذب .

(٣) أنكر تنزيه القرآن عن مواطن التهكم والاستخفاف .

(٤) أنكر صدق القرآن والنبي فيما أخبرا به عن ملة ابراهيم وصحف اسماعيل .

(٥) أنكر براءة القرآن مما رماه المستشرقون .

وقد صوّر الاستاذ محمد طاهر نور النائب العام الذي أجرى التحقيق مع الدكتور حول آرائه منهج صاحب الشعر الجاهلي مما يطلق عليه منهج النقد الأدبي الغربي ، قال : الخطأ حيث يبدأ بافتراض يتخيّله ثم ينتهي بأن يرتّب عليه قواعد كأنها حقائق ثابتة ، كما فعل في امر الاختلافات بين لغة حمير وبين لغة عدنان ، وفي مسألة ابراهيم واسماعيل وهجرتهما الى مكة وبناء الكعبة ، بدأ بقوله : للتوراة ان تحدّثنا عن ابراهيم واسماعيل ، وللقرآن ان يحدثنا عنهما أيضاً ، ولكن ورود هذين الاسمين في التوراة والقرآن لا يكفي لإثبات وجودهما التاريخي ، فضلاً عن إثبات هذه القصة التي تحدّثنا بهجرة اسماعيل بن ابراهيم الى مكة ونشأة العرب المستعربة فيها ، الى هنا أظهر الشك بعدم قيام الدليل التاريخي في نظره كما تتطلبه الطرق الحديثة ، ثم انتهى باقرار في كثير من الصراحة (أمر هذه القصة إذن واضح ، فهي حديثة العهد ، ظهرت قبيل الإسلام واستغلها الإسلام لسبب ديني) فما هو الدليل الذي انتقل به من الشك الى اليقين؟ هل دليله هو قوله «نحن مضطرون الى أن نرى في هذه القصة نوعاً من الحيلة في إثبات الصلة بين اليهود والعرب من جهة وبين الإسلام واليهودية ، والقرآن

والتوراة من جهة أخرى ، وأن أقدم عصر يمكن أن تكون قد نشأت فيه هذه الفكرة ، إنما هو هذا العصر الذي أخذ اليهود يستوطنون في شمالي البلاد العربية ».

المؤلّف يرى ان ظهور الإسلام قد اقتضى ان يثبت الصلة بينه وبين ديانة اليهود والنصارى ، وان القرابة المادية بين العرب واليهود لازمة لإثبات الصلة بين الإسلام واليهودية فاستغلّها لهذا الغرض ، فهل له ان يبين السبب في عدم اهتمامه أيضاً بمثل هذه الحيلة لتوثيق الصلة بين الإسلام وبين النصرانية ، إن المؤلف ليعجز حقاً عن تقديم هذا البيان وكل ما استند عليه من الأدلة هو:

(١) فليس يبعد ان يكون (٢) فما الذي يمنع.

(٣) ونحن نعتقد (٤) وإذن فتستطيع أن تقول

فالمؤلف في بحثه إذا رأى انكار شيء يقول : لا دليل عليه من الأدلة التي تتطلبها الطرق الحديثة للبحث. وإذا رأى تقرير أمر لا يدلل عليه بغير الأدلة التي أحصينا له . وكفى بقوله حجة ، وسئل عن أصل هذه المسألة (مسألة ابراهيم واسماعيل) وهل هي من استنتاجه او نقلها فقال : هذا فرض فرضته ، أنا ، دون ان اطّلع عليه في كتاب آخر ، وقد أُخْبِرْتُ بعد ان ظهر الكتاب أن شيئاً مثل هذا الغرض يوجد في بعض كتب المبشرين (المبشر الذي تستّر تحت اسم هاشم العربي) ولقد كان هاشم العربي في عبارته اظرف من مؤلف كتاب في الشعر الجاهلي لأنه لم يتعرّض للشك في وجود ابراهيم واسماعيل بالذات. وإنما اكتفى بان انكر أن اسماعيل ابو العرب : وقال ان حقيقة الأمر في قصة اسماعيل أنها دسيسة لفقهاء قدماء اليهود للعرب تزلّفاً لهم ». ا . هـ.

* * * *

وهاشم العربي مترجم كتاب «ذيل مقالة في الاسلام» الذي طبع لأول مرة في مطبعة النيل المسيحية في القاهرة عام ١٨٩١ ومؤلّفه هو جرجس سال أحد كبار المبشّرين في مصر. وصاحب الذيل يجعل التوراة هي الأصل ويعرض عليها القرآن ، فان خالفها طعن فيه.

أمّا طه حسين فيكذّب بالتوراة والقرآن جميعاً ، ويؤمن صاحب الذيل بوجود ابراهيم واسماعيل فضلاً عن أبوّتهما للعرب ، ان صاحب ذيل مقالة في الإسلام صاحب الفكرة الأصيلة كان أفضل ،للأخطاء التي وقع فيها طه حسين فصدق بوجود ابراهيم واسماعيل وكذب بأبوّتهما للعرب ، ومعنى هذا أن الدكتور طه سرق من المبشرين ولم يفهم ما سرق على وجهه . أما هم فقد خدموا دينهم بما زيّفوا ، وأما هو فقد خدم أعداء دينه .

وقد واجه آراء الدكتور طه حسين في الشعر الجاهلي والأدب الجاهلي كثيرون منهم : محمد احمد الغمراوي ، محمد الخضر حسين ، لطفي جمعه ، مصطفى صادق الرافعي . وكشف الغمراوي مؤامرة تحويل كتاب الشعر الجاهلي الذي صودر الى الأدب الجاهلي ، واشار الى انه ألغى بعض ما تورّط فيه ، ولكنه في كتابه الجديد ظلّ على اتجاهه العام في التشكيك في القرآن . ويقول عبد الرازق الحسني « إذا كان قد طوى من الطبعة الجديدة يقصد كتابه (في الأدب الجاهلي) بعض الخزي الذي كان في الطبعة القديمة (يقصد كتابه في الشعر الجاهلي) كزعمه ان ما ورد في القرآن وفي التوراة عن ابراهيم واسماعيل عليهما السلام إنما هو أسطورة ، غير مستند في هذا الزعم الى دليل علمي ، فإن في الطبعة الجديدة من العداء للإسلام والعرب ومن السفسطة المستورة والمكشوفة شيئاً كثيراً ، وعنده : « ان القرآن (هو) الذي تغلّب على الأدب العربي وظهر عليه وانتصر ، هو الذيّ أوجد الثقافة العربية الحاضرة » .

ونحن نقول ان الذين يتصوّرون أن طه حسين ألّف كتابه عن الشعر الجاهلي ليناقش الشعر المنحول هم مع الأسف قصار النظر .

فالواقع أن طه حسين أراد أن يثبت آراءه المنحرفة والإلحادية جميعاً ، التي لم يجد سبيلاً لإعلانها صراحة ، فغلّف بها هذا البحث ودسّها بين ثنايا الكتّاب .

فلا علاقة للبحث أساساً باللغة او اللهجات او غيرها من المسائل ، ولكنه محاولة صريحة للهجوم على البيان القرآني من خلال اثارة الشبهات حول مسائل أدبية ، فالأدب هنا ليس إلا ظهيراً يحتمي وراءه ، ويصدق دكتور عبد الحميد سعيد فيما يراه

من ان الدكتور طه مضى وراء المستشرقين في آرائهم حول القرآن ومذاهبه وتاريخه، وان زاد على ذلك تهجّمه على القرآن وعلى الرسول إذ قال ص ١٥٤ من كتاب في الأدب الجاهلي [من يستطيع ان ينكر أن كثيراً من القصص القرآني كان معروفاً بعضه عند اليهود وبعضه عند النصارى، ولم يكن من العسير ان يعرفه النبي]. وفي هذا ترديد صريح لما يقوله المستشرقون والمبشّرون من أن القرآن من صنع النبي.

وفي اتجاه المستشرقين مضى الدكتور طه فقال ان القرآن ليس نثراً ولا شعراً، وأثار الشبهات حول لفظ القرآن ومفهومه قبل نزول القرآن، وجرى على محاولة التفرقة بين كلمة قرآن وكلمة كتاب، وحاول أن يشكّك في لفظ (قرآن) وهل تدل على القرآن نفسه ام تدلّ على شيء آخر سبق ان أعلن للبشر في شكل آخر ثم أعلن في شكلٍ عربي جديد، وردّد خلافات المعتزلة والسنّة حول القرآن وهل هو مخلوق ام منزل، وبلغ من هذا كلّه الى ان نقض كلّ شيء، وأثار الشبهات هنا وهناك ولم ينته الى شيء مقرّر[1].

(٢)

وقد جرى الدكتور زكي مبارك مجرى أستاذه وردّد في كتابه (النثر الفنّي) أغلب هذه الآراء كما ردوها في مختلف كتاباته وان اختلف في مسائل فرعيّة.

وقد كشف الاستاذ محمد احمد الغمراوي انحرافات كتاب (النثر الفني) أيضاً كما كشف من قبل انحرافات (الأدب الجاهلي)، يقول زكي مبارك في مجال الدعوة الى نقد القرآن بوصفه أثراً أدبياً، «إنما النقد أن يقف الباحث أمام الأثر الأدبي موقف الممتحن للمحاسن والعيوب، من أجل ذلك وسم أكثر ما كتب عن القرآن باسم الاعجاز، لأن النقاد اطمأنوا الى أن القرآن هو المثل الأعلى الذي تقف عنده حدود الطبيعة الإنسانية في البلاغة والبيان» قال الغمراوي: ومعنى هذا أن زكي مبارك يعيب[2] على علماء العربية أنهم حين تعرّضوا لنقد القرآن ولم يذكروا إلا

(١) راجع مجلة الحديث م ١٩٢٨

(٢) راجع فصول: ما لزكي مبارك وكتاب الله (الرسالة ١٩٤٤).

المحاسن ، فنقدهم من أجل ذلك ليس في رأيه بالنقد الصحيح ، فالنقد عنده أن يقف الباحث أمام الأثر الأدبي موقف الممتحن للمحاسن والعيوب وهذا صحيح ، ولكن في نقد كلام الناس ، لا كلام الله ، ولو كان القرآن كلام بشر لكان أثراً أدبياً لصاحبه ولجازَ أن يكون بإزاء المحاسن عيوب يبحث عنها النقد ، اما وهو كلام خالق البشر أنزله سبحانه معجزة لرسوله وتحدّى به كل شاكّ من العرب وغير العرب بل تحدّى به الجن والأنس على اختلاف العصور. فكيف يمكن أن يقف الناقد أمامه إلّا كما يقف الناقد أمام آية من آيات الله في الأرض والسماء ، حتى إذا درسوا آيات الله في القرآن العزيز الذي لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه فلم يتوقّعوا نقصاً ولم يروا عيباً ولم يجدوا إلا كمالاً وجلالاً واعجازً لمزهم وهمزهم وقال : لم يذكروا إلا المحاسن كأن هناك بجنب المحاسن عيوباً ، كان عليهم ان يذكروها وإلا كانوا غير نقاد .

إن العهد الذي كان ينظر فيه في القرآن نظر طلب العيوب قد مرّ بالفعل ، مرّ الى غير رجعة ، والذين نظروا في القرآن تلك النظرة التي يدعو إليها الآن الدكتور زكي مبارك كانوا أقدر منه ألف مرة على ادراك عيب واحد لو وجدوه ، وأبصر بنقد الكلام ؛ لأنهم كانوا أهل العربية الفصحى رضعوها ودرجوا عليها ونشأوا فيها وأحكموها شباباً وشيباً ، رجالاً ونساء ، فكانوا يصدرون منها عن بصيرة وبصر ، كما لا يمكن ان يصدر الدكتور زكي مبارك او يبصر فيهما» .

ويحاول الدكتور زكي مبارك ان يعتبر القرآن أثراً جاهلياً إذ جاء بلغته وتصويراته وتعابيره يعطي صورة للنثر الجاهلي : ويريد الدكتور مبارك أن يثبت قدم النثر الفني عند العرب ، إنكاراً لما يقوله المستشرقون من أن النثر الفني جاءهم من الفرس واليونان ، يقول الغمراوي : هل رأيت هذا الذي يريد أن ينفي عن العرب تهمة أخذ النثر عن الفرس واليونان فلا يرى سبيلاً الى هذا ، إلا أن يسلبهم القرآن كتاباً من عند الله ليرده أثراً جاهلياً يثبت لهم ذاتية أدبية ، أفترى هذا الرجل يرى القرآن من عند الله ام من عند العرب ، إذا كان من عند الله فكيف يمكن ان يثبت به للعرب ذاتية

أدبية كالذي أراد،وليس منه للعرب حرف، وإذا كان أثراً جاهلياً يثبت قدم النثر الفنّي: أي نثر الرسائل والكتب عند العرب فكيف يمكن ان يكون من عند الله؟

يقول الدكتور زكي مبارك: القرآن شاهد من شواهد النثر الفني ولو كره المكابرون. فأين نضعه في عهود النثر في اللغة العربية، أنضعه في العهد الإسلامي، وكيف، والإسلام لم يكن موجوداً قبل القرآن، ويرد الغمراوي فيقول: أرأيت استدلال الدكتور على وجوب وضع القرآن في العهد الجاهلي، الإسلام لم يكن موجوداً قبل القرآن، حتى يمكن أن ينسب القرآن الى العهد الإسلامي، إذن فالقرآن كان موجوداً قبل الإسلام ما دامت نسبة القرآن الى العهد الإسلامي غير ممكنة، هذه نتيجة منطق الدكتور، وهذا طبعاً يستلزم الربط بين القرآن وبين الإسلام، إذ لو كان القرآن والإسلام شيئاً واحداً عند الدكتور لكان القياس الذي بني عليه حجته السابقة هو أن القرآن لم يكن موجوداً قبل القرآن، وإذن فلا ينسب الى العهد القرآني، وهو قياس كما ترى لا يليق ان ينسب الى دكتور».

ويجمل ما يردده الدكتور زكي مبارك في كتابه النثر الفني أن القرآن من كلام البشر، وأنه ينكر إعجاز القرآن، وأنه يدعو الى نقد القرآن، وفي نص من نصوصه يبدو هذا واضحاً فهو يقول:

في القرآن نص صريح على ان الرسول لا يرسل (إلا بلسان قومه ليبين لهم) فكيف يعقل أن يحدث النبي قومه بما تنبو عليه أذواقهم وأفهامهم.

ويقول الغمراوي: ألا ترى أن ذلك القول منه أقرب ما يكون الى التصريح بأن القرآن من كلام النبي حدّث قومه وتجنب فيه الإغراب عليهم في الألفاظ والتعابير ولم يقهرهما عمّا يألفون، ويمضي الرجل من فرضه الذي افترضه من أن القرآن (أثر جاهلي فيزعم أن للعرب في الجاهلية (نهضة علمية وأدبية وسياسية وأخلاقية وفلسفية) كان الإسلام تاجاً لها[1] أي ان الاسلام كان نتيجة وتاجاً لتلك النهضة

(١) الجزء الأول من النثر الفني ص ٤٨.

لا سبباً لها ، اقرأ تحليله بعد أن شئت (لأنه لا يمكن رجلاً فرداً مثل النبي محمد عليه السلام أن ينقل أمة كاملة من العدم الى الوجود ، كل هذا لا يمكن ان يقوم من دون ان تكون تلك الأمة قد استعدّت في اعماقها وفي ضمائرها وفي عقولها ، بحيث يستطيع رجل واحد ان يكون منها أمة متحدة وكانت قبائل متفرّقة ، وان تنتظم علومها وأدبها بحيث تستطيع ان تفرض سيادتها وتجاربها وعلومها على أجزاء مهمة من آسيا وأفريقيا وأوربا في زمن وجيز ، ولو كان يكفي ان يكون الإنسان نبياً ليفعل ما فعله النبي محمد لما رأينا أنبياء اخفقوا ولم يصلوا لأن أممهم لم تكن صالحة للبعث والنهوض.

فانظر الى صاحب هذا الكلام كيف يسوي بين الأنبياء في كل شيء ، وبين الأديان ، وكيف يرد نهضة العرب بعد الإسلام لا الى النبوة والرسالة وما انزل الله على الرسول من دين ، ولكن الى علوم وأدب وتجارب كانت عند العرب ، كل ما فعله النبي هو أنه نظمها حتى استطاع أهلها ان يسودوا.

وتاريخ نشأة العلوم والآداب في الأمة العربية بعد الإسلام معروف ، كما ان مقاومة العرب للنبي ودعوته ومحاربتهم له معروفة ، لكن الرجل ينكر التاريخ ، ويفتري تاريخاً آخر ، ويزعم زعماً لا يجوز ولا يستقيم من منطق أو فكر إلا إذا كان القرآن كلام النبي ، كلام محمد العربي ، لا كلام الله.

عندئذٍ فقط يعقل ان يكون العرب على ما وصف الدكتور زكي مبارك من نهضة وعلم وأدب ، لأن القرآن كان أكثر من نهضة وعلم وأدب ، ولا يعقل ان كان كلام بشر أن يأتي به صاحبه في أمة جاهلة كالتي أجمع على وجودها قبل الإسلام مؤرخو اللغة العربي من شرقيين ومستشرقين ، ومؤرخو الإسلام . ويلتحق بزعمه الذي زعم لعرب الجاهلية من نهضة علمية وسياسية واجتماعية زعمه أن نشأة علوم الدين كالنحو والبلاغة والعروض قديمة أي أنها نشأت قبل الإسلام لا بعده[1] وهو في هذا الزعم على ما افترض من أن القرآن أثر جاهلي.

---

(١) ص ٤٧ ج ١ النثر الفني.

ويقول زكي مبارك : « فلننظر إذن أهو (أي القرآن) كتاب طبيعي مملوء بالزخرف والصنعة المحكمة . فمن الواجب ان يترك الباحثون ذلك الميدان الذي أولعوا بالجري فيه وهو عصر الدول العباسية ، وأن يجعلوا ميدان النضال عصر النبوة نفسه ، وان يحدثونا ما هي الصلات الأدبية والإجتماعية التي وصلت الى العرب من الخارج فأعطت نثرهم تلك القوة وذلك الزخرف اللذين تراهما مجسّمين في القرآن ، هنالك نعرف بالبحث ، أكان القرآن صورة عبقرية ام تقليدية » .

ويرد على هذا الاستاذ الغمراوي فيقول : هذا نص لا يقبل شكاً ولا يحتمل تأويلاً في أن صاحب الكتاب يرى القرآن من كلام العرب تأثر بما تأثروا أو يصح ان يتأثروا به ، وأن ما امتلأ به في زعمه « من الزخرف والصنعة والحكمة » ليس طبيعياً كالذي تراه في الزهر والشجر والشفق والسماء ، ولكنه مجذوب من الخارج ، ونسي أنه لم يقل بأن القرآن أثر جاهلي إلا لينفي عن العرب أن يكونوا (أخذوا طرائق النثر الفني عن الفرس واليونان) فهو يسلبهم ما أعطاهم حتى يشكك في عبقرية القرآن ولو كان من صنع عربي ووضعه ، كما يرى ذلك من قوله « هناك نعرف بالبحث أكان القرآن صورة عبقرية ام تقليدية ، والتقليد هنا ليس هو تقليد عربي لعربي ، ولكن تقليد عربي لأعجمي ، لأن الصلات الخارجية التي يتساءل عنها في النص السابق : هي صلات بين العرب ومن حولهم من الأعاجم ، فتشكيكه في العبقرية وتجويزه التقليد على القرآن قاطع في أن لا يرى القرآن من كلام واهب العبقرية وفاطر الإنسان ، ولكن من كلام بشر مشكوك حتى في عبقريته .

ويقول زكي مبارك : « يمكن الحكم بأن اللغة الأدبية التي سبقت القرآن لم تكن تخالف كثيراً لغة القرآن لأن التطور الكبير الذي ينقل اللغة من أسلوب الى أسلوب ومن روح الى روح لا يتم في خمسين سنة مثلاً وإنما يتطلّب مدة طويلة » اقرأ هذا واحكم ما رأى صاحبه في القرآن ، أأنزله الخالق معجزة للخلق على الدهر ، أم هو من كلام الناس ، تطور روحه واسلوبه كما يتطور الروح والأسلوب في كلام البشر .

ويذهب الدكتور زكي مبارك مستهدياً بمنهج النقد الغربي الى أن القرآن كتاب

صلوات مثل الكتب المقدّسة الأخرى يقول : والقرآن نثر جاهلي والسجع قد يجري على طريقة جاهلية حين يخاطب العقل والوجدان ، ولا ينكر متعنت أن القرآن وضع للصلوات والدعوات ومواقف العناء والخوف والرجاء سوراً مسجوعة تماثل ما يرتّله المتدينون من النصارى واليهود والوثنيين ، والقرآن وضع لأهله صلوات وترنيمات ، تقرب في صيغتها الفنية مما كان لأهل الكتاب من صلوات وترنيمات ، والفرق بين الملّتين يرجع الى المعاني ويكاد ينعدم فيما يتعلق بالصور والاشكال ، وذلك أن مهد الديانات الثلاث : الإسلام والنصرانية واليهودية يرجع الى مهد واحد هو الجزيرة العربية » .

يقول الاستاذ الغمراوي تعليقاً على ذلك : لقد صارحك صاحب النثر الفني بذات نفسه ، لا عن القرآن فقط وتقليده حتى الوثنيين في الصورة والشكل ، ولكن عن الأديان الثلاثة كيف كلها بنت البيئة ، بنت الجزيرة العربية ، والرجل بقوله هذا قد وضع في أيدي الناس المفتاح الى مذهبه في القرآن والدين ، وليس النص السابق فلتة ، فاتت الرجل ، فقد ذكر رأيه في الدين وفي القرآن ، أن يدعو الى نقد القرآن ، وان ينكر اعجاز القرآن وان يكاد يصرح بان القرآن من كلام البشر.

(٣)

وفي بحث عن (الفن القصصي في القرآن) لمحمد أحمد خلف الله يبدو استمرار منهج النقد الغربي الوافد في نقد البيان القرآني .

ومؤلف الفن القصصي في القرآن يعتمد على شبهات يبني عليها بحثه كله .

فهو يرى «أن[١] القصة في القرآن لا تلتزم الصدق التاريخي ، وأنها تتجه كما يتّجه الأدب في تصوير الحادثة تصويراً فنياً ، وان القصص القرآني لم يراع الحقيقة التاريخية ، وان المقصود منه عرض فني ، فلسنا ملزمين بتصديق حقائق هذه القصص ، وإنما نقدر فيه العناية الفنية ، وان القصص مستمدّة من مصادر أخرى

---

(١) من تقدير الدكتور أحمد أمين عن الكتاب.

غير عربية كالتوراة والأدب اليوناني والأدب الفارسي ، وأن فيه أساطير لا أساس لها ، وان القصص في القرآن عمل فني خاضع لما يخضع له الفن من خلق وابتكار من غير التزام بصدق التاريخ والواقع ، وأن الإجابة عن الأسئلة التي كان يعرضها المشركون للنبي ليست تاريخية ولا واقعية ، وإنما هو تصوير لواقع نفسي عن أحداث مضت وأغرقت في القدم».

* * * *

ولا شك أن هذه المفاهيم المغرقة في الانحراف إنما استمدّها كاتبها من منهج النقد الغربي الوافد الذي يقيم مفاهيمه في النظر الى الكتب المقدّسة بناءً على نظرته للتوراة والانجيل ، وهي كتب واجهت نقداً شديداً في الأدب الغربي ، ونظر إليها على أساس أنها اعمال فنية وليست كتباً منزلة ، ولا شك أن بين هذه الكتب وبين القرآن بوناً شاسعاً من شأنه ان يجعل النظرة تختلف ، فحيث يثبت ان التوراة والانجيل من كتابة البشر ، ويصل الباحثون في ذلك الى معرفة بعض اسماء هؤلاء الكتب ، يجيء القرآن ، وثيقة لم يصبها أي تغيير أو تحريف ، تمثل كلام الله المنزل من السماء الذي لم يكتبه بشر ، ولم يدخل إليه حرف واحد او ينقص منه حرف ، فإذا كانت مناهج النقد الغربي قد علمت طه حسين وزكي مبارك وخلف الله ان ينظروا الى القرآن نظرة الى كتاب من صنع البشر فإنها قد ظلمت الأدب العربي والفكر الإسلامي ظلماً بيّناً ، وخرجت خروجاً أساسياً عن كل مفاهيم العرب والإسلام ، وبذلك أثبت هذا المنهج فشله وفساده.

ولقد واجهت آراء مؤلف (القصص الفنّي في القرآن) نقداً وتحريراً ودحضاً لما أثار من شبهات وشكوك :

أوّلاً : ليس القرآن الكريم كتاباً أنزل للتاريخ وضبط الوقائع وترتيب الحوادث التاريخية بعضها على بعض ، ولكنه بالإجماع يستخدم التاريخ ، ويقص من هذا التاريخ حقائق واقعية ثابتة مرتّباً بعضها على بعض ترتيباً لا استنتاج فيه ، كما يستنتج المؤرخ ، ولكن ترتيب الحق والواقع ، وينزل بذلك الواقع المرتّب ترتيب الحقائق

لهداية الناس وارشادهم الى الخير والفلاح، فالقرآن يخالف كتب التاريخ في أمور ويوافقها في أمور، فالمؤرخ قد يرى من واجبه أن يتبع تفاصيل واقعة ما: من الاسماء والزمان والمكان والأحداث وتفاصيلها، لأن هذا كله قد يعين على استنتاج الحكم التاريخي الذي يحكم به على الواقع، او يتتبع به فهم العواطف الكثيرة المختلفة، من قراءة التاريخ، اما القرآن الكريم فقد لا يعنيه بعض هذا لأنه لا يستنتج الأحكام التاريخية ولكنه يصدر الحكم الفيصل فيها.

والقرآن يخالف المؤرخ، فالمؤرخ قد يتبع ليستنتج، اما القرآن فهو منزل بالواقع والحكم التاريخي في حكم العالم بالحقيقة، فهو لا يستنتج ولكن يؤثر الواقع ويذكر من الاسماء والأزمان والامكنة والأحداث ما يعيننا على فهم ذلك الحكم التاريخي وتلقيه بالقبول.

ويتفق التاريخ والقرآن في أن كل منهما يرتب الحكم التاريخي على المقدّمات التي يذكرها، وان كانا يختلفان في طريقة ذلك الترتيب.

فالمؤرخ يرتب المقدمات ترتيباً ظنياً خاضعاً لآلاف الفروض وأنواع الحدس والتخمين.

أما القرآن الكريم فيرتّب المقدّمات ترتيباً يقينيّاً لا شك فيه.

فالقرآن مصدر من مصادر التاريخ وليس كتاباً من التاريخ، والفرق بينهما واضح كل الوضوح[١].

(ثانياً): ذهب صاحب القصص الفني الى القول بأن الأصوليين عدوا القصص القرآني من المتشابه.

«وهذا القول كما يقول الاستاذ عبد الفتاح بدوي: فيه جرأة على الأصوليين، وهو قول مفترى على الشيخ محمد عبده، فلسنا نعرف أحداً من الأصوليين ولا أحداً من المسلمين يعتبر القصص القرآني متشابهاً، ولا نعرف أحداً من الأصوليين ولا من

(١) من بحث الأستاذ عبد الفتاح بدوي «الرسالة ١٩٤٦».

المسلمين لا يقول بأن ما ورد في القرآن من القصص إنما هو أحداث وقعت وحوادث هي خلاصة الحقيقة التي وقعت في سوالف الأزمان يسوقها القرآن عبرة وهدى للعالمين».

وكلام المؤلف يكذبه قول الأمام محمد عبده ومنهجه ، فالاستاذ الامام لم يقل ان القصص من المتشابه ، ولم يقل بذلك مسلم قبله ولا بعده.

والقرآن الكريم يدرس على منهجين:

الأول : منهج الباطنية وهم فرقة من الملاحدة يعطلون ألفاظ القرآن عن مدلولاتها ويسلكون بها سبيلاً تخيلية وهمية توصلاً بذلك الى تعطيل الشريعة الغراء ، فهم يدعون للألفاظ أو للجمل مراداً عاماً لا ينبني على أسس علمية ، ومذهبهم هذا مجرد دعاوى لا تنبىء عن شيء من العلم ، فهم يقولون مثلاً في تفسير قوله تعالى:

«وأقيموا الصلاة وآتوا الزكاة واركعوا مع الراكعين».

استقيموا وطهّروا انفسكم بالاخلاق الحسنة وكونوا خاضعين ، وليست هناك صلاة ولا زكاة شرعية ولا سجود ولا ركوع.

والمنهج الثاني في دراسة القرآن الكريم : منهج المسلمين وهو منهج العلم والعقل الذي تقوم عليه نواحي الحياة كلها وليس خاصاً بالقرآن الكريم وحده وذلك ان الكلام يجب ان يكون لألفاظه مدلولات حقيقية تنصرف إليها تلك الألفاظ ولا يعدل عنها إلا إذا وجدت قرينة تمنع من ارادة تلك المدلولات الحقيقية.

فأما ترك تلك المدلولات الحقيقية مع عدم وجود تلك القرينة التي تمنع من ارادة الحقيقة فإنما هو من غير القرآن خبل وجهالة ، وإذا ادعي شيء من ذلك في مقام القرآن فهو خبل وجهالة وزندقة يخرج بها صاحبها عن عداد المسلمين ، لأنها تعطيل لكلام الله تعالى الذي أنزله هداية للبشر أجمعين.

والباطنية يعطّلون الألفاظ عن مدلولاتها ، فهم لا يعتبرون (آدم) شخصاً ولا الملائكة موجودات ، ولا الجنة شيئاً ، ولا إبليس حقيقة ، وإنما يقولون في ذلك ما

يقول المؤلف ان القرآن في ذلك لم يتشبث بالواقع . ولسنا نعرف أحداً من المسلمين يقول ان القصص القرآني من المتشابه.

ثالثاً : إن المؤلف مدلس في النقل خائن للأمانة العلمية ، فهو يكذب في النقل او يبتر المنقول ولا يتمه ، بل يخفي فيه ما يبين المراد تمويهاً للحقيقة وإلباساً على الناس. (وشاهد ذلك ما نقله عن الفخر الرازي وحرفه).

* * * *

رابعاً : يظهر منهج النقد الغربي الوافد بأوفى صوره في هذه المواقف التي قدّمها الاستاذ محمود شلتوت من ان هذه الرسالة تقيس القصص القرآني بمقاييس ليست دقيقة ولا مقرّرة ، فإن خالف القرآن تلك المقاييس كان عند أصحابها كذباً وافتراء على التاريخ ، أو كان نوعاً من ذلك الفن الأدبي الذي لا يلتزم الواقع التاريخي ، ولا الصدق العقلي ، وإنما يخضع في تأليفه لهذه الحرية الفنية التي يخضع لها كل فنان موهوب ، وطبقاً لهذه القاعدة صار القرآن في هذه الرسالة يتقوّل على اليهود وينطقهم بما لم ينطقوا به ، ويقول أموراً لم تحدث ، ويقرر أمراً خرافياً او أسطورياً ثم فيعود فيقرر نقيضه ، ويغير الواقع ويبدّل ويزيد وينقص بحكم هذه الحرية الفنية.

وهكذا كانت قصة موسى في سورة الكهف ليس لها أصل تاريخي ولا أسطوري . والاجابة عن الأسئلة التي كان يوجّهها المشركون للنبي ليست تاريخية ولا واقعية ، وقصة إبليس مع آدم من الخلق الفني الذي لم يتشبّث فيه القرآن بالواقع ، ومصادر القصص القرآني هي التوراة والإنجيل والأقاصيص الشعبية ، وما امتزج بها من عناصر فارسية واسرائيلية.

وإن ما تمسّك به المستشرقون على أنه من أخطاء محمد الناتجة عن جهله بالتاريخ ليس بذي بال . والادعاء على الزمخشري والفخر الرازي ومحمد عبده بأنهم قالوا ما يؤيّد هذا الهراء[1] .

---

(١) الرسالة «٧٤٩ مجلد ١٩٤٧»

خامساً : ذهب المؤلف في هذه الرسالة دسّاً وتلميحاً الى تكذيب النبي في أن القرآن موحى به إليه من الله عزّ وجل ، موهماً انه من تأليف محمد ، وان ما فيه من القصص عمل فني خاضع لما يخضع له الفن من خلق وابتكار من غير التزام بصدق التاريخ والواقع ، وان الانبياء أبطال ولدوا في البيئة وتأدّبوا ، وخالطوا الأهل والعشيرة وقلّدوهم في كل ما يقال ويفعل وآمنوا بما تؤمن به البيئة من عقيدة ودانوا كما تدين به من رأي.

وزعم المؤلف أن القرآن متناقض فكان يقرر أولاً ان الجن تعلم بعض الشيء ، ثم لما تقدّم الزمن قرّر أنهم لا يعلمون شيئاً ، وان قصة موسى في سورة الكهف لم تعتمد على أصل من واقع الحياة بل ابتدعت على غير أساس من التاريخ[١] .

وقال «إن المؤلف ضحية من ضحايا الشعوبية»

* * * *

وجملة القول في هذا المجال ان منهج النقد الغربي الوافد قد قام أساساً على نظرة مادية صرفة منكرة لكل القيم المتصلة بالدين ، وهي بذلك لا تستطيع ان تفهم الأدب العربي الصادر عن الفكر الإسلامي ، الذي يعتمد مفهوماً مختلفاً اشدّ الاختلاف عن المفاهيم التي اعتمدها الفكر الغربي ، ولما كان الإسلام بقيمه الاجتماعية والروحية والترابط فيه بين المادة والروح ، والعقل والقلب ، ويجتمع فيه على الغيب والشهادة ، يصدر عنه أدب تتمثل فيه هذه المفاهيم ، فان منهج النقد الغربي الذي وضع على أساس الأدب الأوربي واستمداداته من الوثنية والأغريقية ، ومن النظريات المادية بادثة بداروين وفرويد وتين ودوركايم ، هذا المذهب لا يستطيع ان يفهم الأدب العربي ولا أن يقيّمه ، ومن هنا جاءت كل هذه الأخطاء وهذه الاضطرابات.

---

(١) السيد محب الدين الخطيب «السبع» م ١٠

بل لقد كشف تطبيق هذا المنهج على ان أتباعه يتحللون من المفهوم العلمي الأصيل أيّاً كان هذا المفهوم، يتحلّلون من أصول البحث والنقد فلا ينقلون النصوص نقلاً صحيحاً، وأنهم يفترضون فرضاً قبل ان يبحثوا، ثم يختارون من الأسانيد ما يؤيّد هدفهم، وينقضون النصوص، ويجهلون ما يتعارض مع اعتراضاتهم، وليست هذه الافتراضات في مجموعها إلا افتراضات القضاء على مقومات الأدب العربي والفكر الإسلامي، وأنها جميعاً تحاول أن تثبت في عقول الناس ان القرآن من صنع بشر، وأنه كتاب أدبي، ويجرئون الشباب على القرآن ووصف آياته بالجيد والرديء. ولا شك ان تعرض منهج النقد الغربي للقرآن قد كشف زيف هذا المذهب في تطبيقه على الأدب العربي الذي يعد القرآن تاجاً على مفرقه.

# الباب الرابع

## أثر المنهج الغربي الوافد في الأدب العربي

الفصل الأوّل : أثر الاستشراق في الأدب العربي :

الفصل الثاني : الترجمة من الآداب الغربية :

الفصل الثالث : أثر الأدب الاغريقي :

الفصل الرابع : الأدب المهجري :

الفصل الخامس : القصة وهل هي فن أصيل :

الفصل السادس : الأدب الشرقي الأصيل :

الفصل السابع : الأدب العربي والأساطير :

الفصل الثامن : المسرحية اليونانية والأدب العربي

الفصل التاسع : حركة الرفض في الأدب العربي الحديث :

# الفصل الأوّل

## أثر الاستشراق في الأدب العربي

للاستشراق في الأدب العربي أثران واضحان :

الأثر الأول : هو توجيه الدارسين العرب والمسلمين في معاهد الغرب إلى اتخاذ مناهج الأدب الغربي اساساً للبحث والتماس أسلوب النقد من نظريات الأدب الأوربي ، كذلك التماس اسلوب التاريخ والبحث جميعاً ، وهذا هو ما ظهرت نتائجه بوضوح مما قام بتطبيقه أحمد ضيف وطه حسين ممن درسوا في فرنسا أو عبد الرحمن شكري ممن درسوا في أنجلترا أو ما أخذه من اتصل بالمستشرقين خارج المعاهد كأمين الخولي أو مَنْ نقلوا هذه المذاهب من غيرهم كالمازني والعقاد.

ومن الأدب الفرنسي نقلت اساليب سانت بيف وبرونتير وتين.

ومن الأدب الانجليزي نقلت أساليب هازلت وماكولي.

وهي آراء خضعت في أصولها إلى نظريات التطور لداروين والتحليل النفسي لفرويد والتفسير المادي للتاريخ لماركس والعلوم الاجتماعية لدوركايم وليفي بريل [1] .

---

(١) تناولنا هذا القسم في دراساتنا خلال موضوعات هذا الكتاب.

الأثر الثاني : هو آثار المستشرقين أنفسهم ونظرياتهم في الأدب العربي التي جاءت نتيجة دراساتهم له من أمثال مرجليوث وجب وبروكلمان وبلاشير وجاك بيرك.

ويتصل بها ما كتبه العرب من الذين درسوا في معاهد الغرب من رسائل وأطروحات خضعوا فيها لمناهج أساتذتهم او تأثروا فيها بمفاهيمهم. والدكتور طه حسين لا يتوقف لحظة ولا يستحي مرة من أن يعلن تبعيته الواضحة لآراء المستشرقين وخضوعه لمناهجهم في البحث. وهو لا يخضع لمنهج واحد، وإنما تتشكل كتبه بالخضوع للمذاهب المختلفة، فهو خاضع تارة للمذهب الاجتماعي الذي يؤمن بجبرية الإنسان فلا يجعل له إرادة أو مسؤولية مطلقاً، وإنما هو خاضع خضوعاً كاملاً للبيئة والعصر، وهذه تبدو واضحة في دراسته عن أبي العلاء في القاهرة قبل أن يسافر الى باريس.

وهنالك خضوعه الواضح لبلاشير في دراسته عن المتنبي، وخضوعه لدوركايم في دراسته عن ابن خلدون.

وزكي مبارك شأنه في ذلك شأن طه حسين مع تغيير طفيف. فهو في أطروحته عن النثر الفني يخضع لآراء كثيرة للمستشرقين وخاصة في افتراضه أن القرآن من كلام النبي، وفي موقفه من الإعجاز ومحاولة تقليل دور الرسالة الإسلامية والنبوة في خلق الحضارة الإسلامية في النهوض بالعرب.

وكلها نظرات من آراء المستشرقين الذين أشرفوا على رسالته. وفي مقدّمتهم لويس ماسينيون.

ولقد فصّلنا القول في هذا وكشفنا عن هذه الآثار في كتابنا المساجلات والمعارك الأدبية، ولا نستطرد الى منصور فهمي ورسالته التي هاجم فيها تعدد زوجات النبي وكانت تحت اشراف المستشرق اليهودي ليفي بريل.

وفي أغلب ابحاث من اشتغلوا بالأدب (وأيضاً بالتاريخ) نجد تبعيتهم

للمستشرقين واضحة ، وخصوعهم ليس لمناهجهم في البحث وحدها ، بل حتى لآرائهم. وترد كل آراء الدكتور طه حسين التي أذاعها وألقاها في كلية الآداب ممّا نشره تلميذه محمود المنجوري في مجلة الحديث في حلب (ولم ينشر في مصر) وما أورده الدكتور عبد الحميد في أحاديثه أمام البرلمان المصري عام ١٩٣٢ الى محاضرات أستاذه المستشرق كازنوفا[1] عن تفسير القرآن. وهي الآراء التي يقول فيها طه حسين إن القرآن له اسلوبان: أحدهما خشن وهو في مكة. والآخر ليّن وهو في المدينة نتيجة تأثر الرسول باليهود. الخ... مما أوردناه في مكانه في المساجلات والمعارك الأدبية. كذلك في ما ردّده الدكتور طه ، وأفاض فيه من القول بأن النثر الفني في العربية فارسي الأصل. وأن اول من كتبه ابن المقفع ، وقد عارض زكي مبارك هذه النظرية في كتابه النثر الفني. كذلك ما أوصى به طه حسين وردّده من الاعتماد على ألف ليلة والأغاني لمصادر للبحث الأدبي ، مع أنها من المؤلفات التي ليست لها أهلية المراجع ، ومرد هذا كله الى توجيهات المستشرقين ، ما هو من صميم هدف حركة الاستشراق كما تعلّمه طه حسين في معهد الدراسات الشرقية في باريس.

(٢)

ويعد المستشرق مرجليوث اليهودي الدين الانجليزي الأصل أول من أثار الشك في الشعر الجاهلي. وقال انه منحول. وقد سار طه حسين على نفس الطريق. وكان مرجليوث قد نشر بحثين في هذا الموضوع في الجمعية الملكية الأسيوية أحدهما عام ١٩١٦ والآخر في يوليو عام ١٩٢٥ (أي قبل صدور كتاب طه حسين الذي صدر عام ١٩٢٦) ، وقد رجح في بحثيه أن هذا الشعر الذي يقرأ على أنه شعر جاهلي إنما نظم في العصور الإسلامية ، ثم نحله هؤلاء الواضعون المزيفون لشعراء جاهليين. ويقول الدكتور ناصر الدين الأسد في أطروحته عن مصادر الشعر الجاهلي: ان الدكتور طه حسين استقى أكثر مادته حيث يستشهد بالأخبار والروايات من العرب القدماء ، وسلك سبيل مرجليوث في الاستنباط والاستنتاج وتعميم الحكم الفردي الخاص واعتباره قاعدة عامة.

---

(١) ومن آثار كازنوفا الذي اتهم فيه العرب بحرق مكتبة الاسكندرية

وقد أشار الدكتور طه حسين في التحقيق الذي أجرته معه النيابة العامة الى أن للبحث مصادر يعرفها فقال: ان هذا فرض افترضته دون أن أطّلع عليه في كتاب آخر، وقد أخبرت أن شيئاً من هذا يوجد في بعض كتب المبشرين، ولكني لم أفكر فيه حتى بعد ظهور كتابي، وهو غير صادق في هذا كما ثبت من مراجعة النصوص.

وهنالك اشارة اخرى الى كتاب اعتمد عليه طه حسين غير كتابات مرجليوث هو كتاب مقالة في الإسلام لجرجيس سال الانجليزي بقلم من يدعى (هاشم العربي) مطبوعة في القاهرة عام ١٨٩٠ يرى فيها كاتبها ما يرى طه حسين، وقد نشر الاستاذ عبد المتعال الصعيدي ذلك في الأهرام في ١٢ مايو ١٩٢٦.

(٣)

كذلك في كتاب بروكلمان المشهور الذائع الصيت: (تاريخ الأدب العربي) نجد هذا المستشرق يقف من الرسول وبين الإسلام موقفاً شاذاً، يقوم على إنكار الرسالة وإنكار القرآن، ومثله في هذا جميع المستشرقين قاطبة وبدون استثناء، وهم درجات في الإنكار وفي الإشارة إليه، ومن أشدّهم جرأة في هذا نولدكه وبروكلمان الذي يقول في عبارته: «ولكن محمداً التاجر المكّي هو الذي ساقته ضرورة دينية أعز وأقوى الى أن يعلن صلته بالله، كما ساقته هذه الضرورة نفسها الى دعوة بني وطنه لعبادة الله وحده لا يشركون به شيئاً وقال: دعوته التي ضاهى بها في مكة أسلوب الدعوة النصرانية، ولعله كان يعرف هذه الدعوة عن طريق المبشرين النساطرة.

وعن القرآن يقول: وكان يطلق ما يدور بخلده وهو صادق الاستغراق والغيبوبة في جمل قوية يغلب عليها التقطع والإيجاز وتأخذ طابع سجع الكهان، وينقل عن نولدكه ومولر: أن قالب القرآن من القوالب الشعرية وأنه تأثر بموعظة التبشير المسيحي على لسان المبشرين العرب من جنوب الجزيرة».

وهكذا؛ غير ان الاستشراق في نظرته العامة لا يخرج عن هذه المفاهيم التي يردّدها كل تلاميذ المستشرقين ودعاة التغريب.

وهي انكار النبوة والرسالة، وإنكار الوحي وإنكار أن القرآن من عند الله،

ومحاولة القول بأن النبي صلى الله عليه وسلم رجل مصلح وزعيم في قومه. وأنه كان يعرف ما عند اليهود والنصارى ومنه ألّف القرآن ودعا الى الدين.

ولقد استمع طه حسين وزكي مبارك وعشرات من الأدباء الذين تلقوا دروسهم في جامعات الغرب الى مثل هذه الأكاذيب وصدّقها كثير منهم وردّدوها. ومن العجيب أنّ أكثر من رددوها كانوا من الأزهر، وفي مقدمتهم طه حسين وزكي مبارك وأمين الخولي.

(٤)

ويمكن ان يعد كتاب هاملتون جب عن الأدب العربي الذي أصدره عام ٩٦٣ نموذجاً صحيحاً لكل ما ردده المستشرقون الذين اشتغلوا بدراسات الأدب العربي.

ففي هذا الكتاب يقسم جب العصور تقسيماً جديداً.

أولاً: لا يصف عصر ما قبل الإسلام بمثل ما يصفه المسلمون: العصر الجاهلي.

ولكنه يصفه بأنه العصر البطولي: وذلك جرياً وراء النظرية المكذوبة في القول بأن العرب كانوا قد استعدوا للنهضة قبل مجيء الإسلام، ولم يكن عمل محمد ﷺ إلا أن قادهم الى النهضة.

وقد أشار جب الى أن المستشرقين، وفي مقدمتهم نيكلسون، رفضوا مصطلح العصر الجاهلي، وهذا الرفض مبني على انكارهم فكرة الجاهلية الضالة عابدة الوثن والصنم والتي قامت على قتل الموءودة والظلم والشرك الخ.

أما عصر صدر الإسلام فيطلق عليه عبارة عصر التوسع ارتباطاً بفكرته عن بطولة الجاهلية.

ثانياً: اعتبار القرآن الكريم من كلام محمد ﷺ. وهذه ظاهرة يشترك فيها بروكلمان ونيكلسون وغيرهما. والمستشرقون لا يقبلون ولا يريدون لأتباعهم أن يقبلوا الحقيقة الإسلامية التي تقوم على أساس ان القرآن «وحي» من عند الله.

ثالثاً: يركّز (جب) على أثر الثقافة اليونانية على الأدب العربي ويرجع إليها كل ما في الأدب العربي من تقدُّم ويرد لها تاثرات النحو والبلاغة والبيان، ويرى أن النثر الفني العربي فارسي الأصل. ويعتبر الفلسفة الإسلامية فلسفة يونانية المصدر متابعاً في هذا رينان وغيره. ويستند الى هذا التفاعل في تقدير الخطوة الكبرى التي خطاها الشعر العربي في عصره الذهبي، وهذا العصر الذهبي هو عصر أبي نواس، وبشار وغيرهما ممن أولاهم عنايته التامة الدكتور طه حسين.

كذلك فهو يركز على المأمون وأثره في ترجمة الفلسفات اليونانية والفارسية، ويقف وقفة خاصة عند أبي نواس وبشار وهو اهتمام جميع المستشرقين.

كذلك الاهتمام بالحلاج وابن عربي وغيرهما من الخارجين على مفهوم التوحيد.

رابعاً: التركيز على أن الذين رفعوا لواء الفكر والفن في العصر العباسي كانوا من أصل أعجمي، وهي المحاولة المعروفة في رد نتاج الفكر الإسلامي الى العناصر والدماء، بينما الحقيقة في أن الفكر الإسلامي قد تكون في اطار العقيدة والفكر الإسلامي والثقافة الإسلامية، وكتبه أصحابه باللغة العربية، ولم تكن تأثراتهم عنصرية أو مرتبطة بأجناسهم أو أعراقهم القومية.

خامساً: العناية بالمعتزلة وشرحها شرحاً مستفيضاً وذلك على أساس الاعتبار بأن الاعتزال مصدره يوناني تماماً:

سادساً: الاهتمام بانتصار البويهيين والباطنية ويرى أن ذلك كله هو نتيجة «الخميرة الهلينية» ويقول في هذا: إن هذا القرن شهد انتشار الشيعة في كل أجزاء الوطن العربي من شمال افريقيا الى حدود فارس الشرقية. وتحت حماية الشيعة انتجت الخميرة الهلينية «بعضاً من أجمل منجزاتها» وهكذا يرد جب والمستشرقون كل ما يرونه من المنجزات الى التأثير الأجنبي واليوناني أصلاً وليس الى الإسلام نفسه وهناك الإشادة الدائمة بتلاميذ الثقافة اليونانية في كل ميدان وفي مقدمتهم ابن مسكويه.

سابعاً: الاهتمام بالموشحات والسجع والمقامات، وهي ليست من الأدب العربي الأصيل.

ثامناً : تصوير العصر المملوكي ووصفه بأنه عصر الانحطاط بينما هو عصر الموسوعات الحافل بدوائر المعارف الكبرى.

تاسعاً : الاهتمام بالعناصر التي لا يعدها الباحثون المخلصون من أصول الأدب العربي وهي ألف ليلة وعنترة والسير الفلكلورية.

عاشراً : الإساءة التامة الى العصر العثماني ، ورد كل عوامل الضعف والتخلف الى الخلافة الإسلامية والجامعة الإسلامية والامبراطورية العثمانية ، ورد النهضة كلها الى الحملة الفرنسية والإرساليات. وهذا كله زائف ومضلل وليس صحيحاً على إطلاقه.

وهكذا يكاد يجمع «جب» في كتابه عن الأدب العربي كل منطلقات الاستشراق التي عني بها طه حسين وزملاؤه في كلية الآداب التي انشئت عام ١٩٢٦ وما تزال هذه الخيوط في أيدي اتباع المستشرقين ودعاة التغريب. ينمّونها عاماً بعد عام ويحيونها اذا تهدّمت :

(٥)

كذلك نجد اهتمام هاملتون جب بالقصة وولادتها في الأدب العربي فقد أعلن طه حسين (١٠ يناير ١٩٣٢ — مجلة الدنيا المصورة) أن المستشرق جب يرى أن الأدب العربي الحديث ما زال ضعيفاً وناقصاً لأن القصة لم تنشأ فيه ، وأنه رهن بظهور القصة فإن لم تظهر فلا أدب عندنا ولا أدباء وقد تصدّى له زكي مبارك (مجلة المعرفة — مارس ١٩٣٢) ، قال إن الدكتور طه لم يسلم من الحرص على التعلق بما يكتبه المستشرقون فأعلن حرصه على تدوين ملاحظات مِسْتِر جب ، هذه الملاحظات التي صارت عند الدكتور طه قرآناً لا ينبغي العدول عنه في تقدير الأدب الجديد. ويعلن جب اهتمامه الفائق لهذا الحدث. ويتناول الموضوع غير واحد : هيكل وعنان وغيرهما مرددين ما يريد المستشرقون قوله : يقول عنان : استطعنا ان نقطع بأن المجتمع الإسلامي لا يمكن ان يبقى محصوراً في المبادىء الإسلامية إن لم يمد

كتاب القصص العربي بمادة واسعة وكأنما يطلب الاستاذ عنان انحلال المجتمع سريعاً حتي تخرج القصص الى الوجود.

ويردد جب أقوال المعارض حين يقول : ان القصة الغربية بما تتسم به من فتنة زائفة مبهرجة و بما فيها من مناقضة للأسس التقليدية التي تقوم عليها حياة الشرق قد أدّت الى افساد الحياة الاجتماعية في مصر وتخريبها فلماذا تضع الافعى في جيبها.

ويقول زكي مبارك : إنه لا ينبغي مطلقاً أن نحرص على ظهور القصة في الأدب الحديث لأن لذلك الحرص نتائج مشؤومة أيسرها أن تغلب على أدبنا صيغة. (الافتعال) والافتعال عدو الفطرة وهو شر مستطير على الأدب والفنون.

ويتساءل من الذي ينتظر ظهور القصة؟.

الجواب حاضر: ينتظر هذه القصة أحد رجلين : مستشرق يريد أن يزن الآداب العربية بميزان الآداب الغربية وشرقي مفتون بالتقليد يريد ان يساير الاجانب في كل شيء ، الخ.

(٦)

وإذا نحن ذهبنا نبحث عن قدرة هؤلاء المستشرقين المشتغلين بالأدب العربي على فهم النص العربي وجدنا صورة مخزية عند اكثرهم شهرة وفهماً. ولكن ما عرضت له الدكتورة بنت الشاطىء في تحقيقها لرسالة الغفران فيما يتصل بفهم المستشرق نيكلسون وهو من هو لنصوص الغفران؟ قالت [١] : إن فهمه للنص فيه أخطاء كثيرة بعضها هين يمكن التجاوز عنه أما الكثرة الباقية فتعرض صوراً غريبة لفهم هذا المستشرق الكبير للنصوص العربية. ومن بين عشرات الأخطاء التي حققتها الدكتورة بنت الشاطىء ننقل هذه النماذج :

[وحدثت أنه كان إذا سئل عن حقيقة هذا القلب قال هو من النبوة (أي المرتفع عن الأرض)].

(١) ص ٩٨ — الغفران

تقول الدكتورة : قد غاب عن نيكلسون أن الحديث هنا عن المتنبي ولقبه وقد عجز عن فهم هذا الاشتقاق نظراً لالتباس الأمر عليه. وإذ وهم أن الحديث عن القطربلي وليس بينه وبين النبوة صلة ما.

(١) وهناك أخطاء كانت في الأصل العربي صحيحة فغيرها نيكلسون بأخرى غير مفهومة ولا صحيحة وأخرى لم تنشأ عن صعوبة العبارة في الغفران أو تحريفات النص وإنما نشأت عن عدم فهم الاسلوب العربي وعدم الانتباه الى الاشخاص الذين يتحدث عنهم ابو العلاء،

ومن الكلمات الصحيحة او المحرفة تحريفاً بسيطاً استبدل بها نيكلسون غيرها : ما جاء في مخطوطته : (فإذا تجرر شق باذله)

والكلمة صحيحة ولكن نيكلسون نقلها (فإذا تجرجر).

(٢) وجاء في المخطوطة : (أربع جرار يرقن المرايين ممن قربوا النايين) واضح انها المرائين والنائين تخفيف الهمزة على مألوف الخط القديم ولكن نيكلسون كتبها هكذا :

(المرابين والنابين) ولم يفسر معنى هذين اللفظين.

(٣) ومن اخطاء عدم فقه الاسلوب العربي ما نقله :

[فرحمه الخالق متوفى فقد كان اسلم وروى حديثاً منفرداً وحسيناً (به) للكلم مسردا]

وقد وهم نيكلسون ان الضمير في (به) يعود الى لفظ الجلالة وإن (الكلم) من الكلوم أي الجراح وأن التسريد هو التضمين.

ثم قالت الدكتورة عائشة : قصدت من هذا أن انبّه قومي الى واجبهم في حمل هذه الأمانة بعد أن وكّلوها الى المستشرقين وأن أدعو علماء العربية الى نشر تراث لهم هم أولى به وأقدر على فهمه.

(٧)

أما بلاشير في كتابه عن المتنبي الذي أصدره عام ١٩٢٨ فإنه يحمل على هذا الشاعر حملات عنيفة ويهاجم كل من كتب عنه في العصر الحديث.

وقد جرت كل محاولات بلاشير وماسنيون وفون كريمرودي ساس من منطق الحقد على مكانة هذا الشاعر عند العرب وعند الادباء المعاصرين إذ يعتبره العرب ابين منطقاً عن الشخصية واشدهم اعتزازاً بها وتقديراً لها وسعياً لإبانتها على حد تعبير محمود محمد شاكر.

ولا شك ان حملات المستشرقين على المتنبي تدخل في باب اعلائهم وتقديرهم للمنحرفين في تاريخ الأدب العربي ممن أولوهم اهتماماً كبيراً أمثال شعراء الأغاني.

وقد جرى طه حسين في نفس الطريق واستعان بدراسة بلاشير في كتابة بحثه عن المتنبي وأراد أن يسبق أساتذته ويبذهم في تدمير المتنبي فلم يكتف بانتقاض شعره وسلوكه بل اتهم المتنبي بأنه لقيط وكان في ذلك مسرفاً وظالماً وبعيداً عن الاسلوب العلمي في رمي الرجل بهذه الشبهة التي أثارها من غير دليل علمي او منطق صحيح.

(٨)

وما تزال طلائع الاستشراق تحاول انه تحفر في الأدب العربي مجرى زائفاً تعلي بعض التابعين من ادباء الرفض والحاقدين على العرب والإسلام وقد جمعهم (جاك بيرك) في كتابه مختارات من الأدب العربي الذي أصدره عام ١٩٦٤ حين تجاهل عمداً كل أصحاب الأصالة والنتاج المتحرر من شبهات التغريب وتبعية الانحراف نحو مناهج الاستشراق والتغريب، وهو في كتابه يجري مع منطلق جب ونيكلسون وغيره فيعلي شأن ما وصف بأنه النهضة التي قامت بها الإرساليات في بيروت، ويتجاهل ما سبقها من أصول اليقظة الإسلامية الحقيقية برجالها ودعواتها.

ويركز كعادة الاستشراق على البستاني واليازجي وجرجي زيدان والذين أوفدتهم الارساليات، ثم ينتقل الى جيل المهجر: جبران ونعيمة، ثم يصل الى طه

حسين : الذي وصفه بأنه قام بدور البطل وحمل لواء الشرعة العقلية في أدب البحر المتوسط .

ومن الحق ان نقول ان رؤيا جاك بيرك لم تكن صادقة وان الايام القليلة التي اعقبت كتابه ورؤياه كشفت عن زيف ما ذهب إليه ، وانها كانت مضللة لم تصل الى الابعاد الحقيقية ، أو أنها كانت مغرضة. متعصبة تقصد الى ما تريد من تزييف الواقع ، وتفرض على الأدب مجموعة من الشعوبيين الذين ليسوا أهلاً لتلك المكانة التي حاول ان يضفيها عليهم . وقد سقطت هذه الواجهة بمجرد ان تغيرت الظروف. لقد كان متأثراً بآداب زائفة لم تكن نابعة من البيئة ولكنها كانت مفروضة عليها ، ولم يكن صادقاً في تقديره لتطور الأدب العربي في العصر الحديث حيث اهتم بالشعر الحر وبكتابات مجلة شعر ومجلة حوار وبالواغلين في الشعوبية والانحلال ممن لا يمثلون عصرهم ولا أمتهم ، وكذلك حين أغضى عن صفحة ناصعة من الأعمال الأصيلة للكتاب الممتازين وتجاوزها عامداً .

لقد كشف جان بيرك عن الهوى وضيق النظرة حين ترك مجرى النهر وذهب مع الروافد التي ماتت .

إن هذه المؤلفات التي ركز عليها مثل كتاب النبي لجبران او مؤرخ الغساسنة أو طابع الماركسية او الوجودية او الانحلال لم يكن إلا صورة باهتة من السراب الذي يتعلق به المستشرقون ظناً أن أهدافهم قد تحققت ولكنهم لا يلبثون إلا قليلاً حتى يكتشفوا ان اصالة الأدب العربي عميقة الجذور وبعيدة الغور ، وأنها ما زالت قادرة على مواجهة أي مؤامرات جديدة أو شبهات متجدّدة لضربها .

وهكذا نرى ان الاستشراق عاجز عن استيعاب روح الأدب العربي وبيان الفصحى ، وأنه يخضع للغرض والهوى والهدف المسبق .

بل «إن ذوق المستشرقين لا يمكن أن يكون حكماً بَلْهَ أن يكون حاكماً عادلاً في تقدير قيم الآثار الأدبية لأن الذوق الأدبي عند الناقد يتكون من عوامل شتى بعضها قومي يرجع الى الجنس وبعضها نفسي يغتذي من الأماني وبعضها لغوي ينحدر من

الماضي» وليت شعري كيف يستطيع المستشرق (الغريب) أن يتذوّق البيت الواحد من الشعر وهو انما تعلم العربية تعلّماً واكتسبها اكتساباً ثم مارس النقد على كبر وبعد جهد وبين برديه روح أجنبية من أصل نشأتها. نقل المستشرق فيهم بحر القصيدة العربية ولكنه لن يتذوقها تذوقاً ولن ينفذ الى روحها وجمالها إلا بقدر ما يقيده الذوق الانساني العام وتسعفه الممارسة الطويلة الذاتية»[1] :

ويرد كثير من الباحثين قصور المستشرقين في الفهم العام ـــ بصرف النظر عن وجهة النظر الغربية المفروضة ـــ إلى اختلاف المزاج النفسي والثقافي واختلاف البيئة، وجذور الثقافة، والتباين الواضح بين طبيعة العربي وطبيعة الغربي وبين الاصول الإسلامية للتوحيد والأصول الأوربية للوثنية اليونانية والمسيحية الغربية، يضاف الى هذا الغاية والهوى.

(١) من بحث لأحد العلماء الأجلاء.

# الفصل الثاني

## الترجمة من الآداب الغربية

عني الأدب العربي الحديث بأمرين : (أحدهما) إحياء الأدب العربي القديم والثاني : الترجمة من الآداب الأوربية وغير العربية بصفة عامة.

وفي كلا الأمرين تدخل منهج النقد الغربي الوافد وسيطر وحال دون الانطلاق الصحيح والاتجاه الأصيل الى الهدف بما يحقق إغناء الأدب العربي الحديث وربطه بجذوره واستخلاص أجود ما في الآداب الأجنبية وفق قاعدة التلقي والتقبل والافصاح التي عرفها الأدب العربي والفكر الإسلامي منذ قرون ، دون أن يكون ذلك عاملاً على هدم شخصيته ، أو تذويب وجودة ، أو صهره في بوتقة آداب أخرى ، وكان قوام الترجمة والاقتباس في مفهوم الأدب العربي والفكر الإسلامي منذ قرون دوماً الحفاظ على ذاتيته أساساً واستمداده من جوهره وضميره وفق مزاجه الاجتماعي وذوقه النفسي ، ودون التفريط في قيمه الأساسية المستمدّة من الإسلام والقرآن ، القائمة على التوحيد والعدل الاجتماعي والاخلاقية التي هي القاسم المشترك الاعظم على مفاهيمه وقيمه.

وكذلك في ظل القاعدة الأصيلة لهوهي التكامل والوسطية ، والتقاء العناصر في وحدة واحدة. ومن الحق أن يقال إن حركة الاحياء قد أصابها الاضطراب نتيجة فرض منهج النقد الغربي عليها ، وهو منهج قد انبثق من الأدب الغربي نفسه واستمد مقوماته من الذاتية الغربية بكل مقوماتها ومزاجها وطبيعتها ، وارتبط بالمذاهب المادية

الحديثة من آثار داروِن وفرويد وتين وديكارت ودوركايم ، وهي في مجموعها لا تمثل النفس العربية ولا تستوعب الذاتية العربية بل تبدو غريبة عنها كل الغرابة متباينة معها كل التباين . ومن حيث إن النفس العربية قد أقامت الأدب العربي وفق قيم يترابط فيها الروح والجسد والمادة والروح والدنيا والآخرة ، وقوامها نظرة وسطية متكاملة تصدر عن طبيعة مشرقة واضحة تطلع فيها الشمس باهرة الضوء ، ومن نفس عربية عرفت بالصراحة والوضوح والإيمان العميق بالله .

وفي المجال الثاني مجال الترجمة من الآداب الأجنبية . فقد سارت الحركة في أول أمرها على نحو طبيعي التمس مفهوم الترجمة الأصيل ، وهو الإضافة البناءة للآداب والثقافات بما تحتاج إليه هذه الثقافة ، او ما يتفق مع روح هذه الآداب ، غير ان النفوذ الاستعماري الوافد ، ومعه مؤسسات التبشير ومدارس الإرساليات ومطابعها ، قد سارع فقذف الأدب العربي بقدر ضخم من الترجمات الهزيلة الأسلوب ، الفاسدة المضمون التي اغرقت القارئين بقيم ومفاهيم لا تقدم ايجابيات المجتمعات الغربية بل ترسم أسوأ مظاهرها وأخسّ جوانبها فيما يتصل بالفسق والزنا والفاحشة والإثم على نحو يحسن هذه المعاني ويرسمها كأنما هي أمور طبيعية بسيطة ، ليست محرمة ولا هي إنحراف في هذه المجتمعات نفسها . ولم يقف انحراف الترجمة عند القصة وحدها بل امتد الانحراف الى مختلف فنون الترجمات من الأدب والشعر والعلوم والمباحث النفسية والاجتماعية والفلسفية . فقد قدمت هذه الترجمات مذاهب وآراء وعقائد مختلفة مضطربة متباينة فيها القديم الذي تحول عنه اصحابه ، ومنها الجديد الذي ما زال لم يتضح بعد ، ومنها ما يتصل بالبيئات الغربية وما يتصل بالالحاد والإباحة والشك والمادية ، وقليل منها ما يحمل الطابع الإنساني . ولم تكن هذه الترجمة قائمة على الاختيار الصحيح ، ولم يكن من ورائها ضمير يؤمن بالأمة العربية وفكرها وقيمها في الأغلب ، وإنما كانت الترجمة في الأغلب تستهدف إغراق الفكر الاسلامي والأدب العربي في ذلك الركام المتباين المتضارب .

ومن شأن كل أمة ان تكون لها فلسفتها ومذاهبها ، فالأمم الغربية نفسها لا تنقل أمة فكر أمة اخرى الا بحذر ووضوح كامل ، يقوم على أساس الاقتناع بالأصل

الأصيل مع وضع المنقول موضع الاستشارة والنظر والاقتباس ، والامم الغربية تنقل الفكر الماركسي وتنقده وكذلك الدول اليسارية تفعل ذلك بالفكر الرأسمالي. أما نحن فقد جرت الترجمة عندنا على نحو غريب ، اختلطت فيه كل المفاهيم والقيم والفلسفات قديمها وجديدها ، شرقيها وغربيها ، وحرص النفوذ التغريبي الذي كان له أثره البعيد في هذا العمل والفكر الإسلامي وإذابتها في بوتقة الفكر العالمي . واذا قيس ما ترجم الى ما لم يترجم اتضحت أمور كثيرة منها :

(١) ان ما ترجم هو الجانب الحسي المتصل بالأذواق والأخلاق وهذا جانب خاص بكل امة ، وليس جانباً عاماً ، ولسنا بحاجة إليه.

(٢) ان ما أهمل كان هو الجانب الذي تتطلع إليه الأمم وهو جانب العلوم والتكنولوجيا والثقافات الخاصة بالفلك والهندسة والطب والصناعة.

(٣) ان ما ترجم عن الفلسفات والمذاهب الاجتماعية والاقتصادية والنفسية لم يعرض على انه نظريات وفروض قابلة للنقض والنقد ، أو أنها نظرية عصر وبيئة قابلة للتحول والتغير ، وأنها تصلح لأمة دون أمة وبيئة دون أخرى.

بل عرضت على أنها «علوم» قد قيلت فيها الكلمة الأخيرة وأخذها الذين قرأوها مترجمة على أنها «أصول مقررة» وقد حدث ذلك بالنسبة لمذهب فرويد في علم النفس ومذهب ماركس في الاقتصاد ومذهب دوركايم في الاجتماع ومذهب دارون في العلوم الطبيعية ومذهب سارتر في الوجودية ومذهب ديوي في التربية.

وقصر المترجمون تقصيراً فاضحاً في أنهم لم يضعوا مع هذه الترجمات تحفظات تصحيح الآراء ووضعها في مكانها الصحيح . فالأمة العربية لها فكرها القائم على قيم أساسية في مجال النفس والاقتصاد والاجتماع والتربية والسياسة ، وهو فكر نابع من طبيعتها متصل أعمق الاتصال بذاتيتها وعلى هذا الفكر أن يكون مفتوحاً لتلقي نظريات الفكر البشري ولكن بشرط أن يعرضه على قوائم فكره وأن يأخذ منه ويرفض.

أما الصورة التي حرص التغريب والغزو الثقافي على إقامتها فهي ان يفترض أساساً

أنه لا وجود لفكر الأمة العربية ، وان هذه الأمة تبدأ من نقطة الصفر بأن تتلقى الفكر الغربي في مختلف جوانبه النفسية والاجتماعية وفي مجالات السياسة والتربية والقانون، دون اعتبار لقيم الفكر الإسلامي العربي الاساسية. ومن هنا كانت خطورة الترجمة في هذه المجالات وهي أشدّ وأقسى من خطورة الترجمة في مجال القصة التي استهدفت الجانبين الأخلاقي والاجتماعي.

إن المترجمين الى الأدب العربي لم يعنوا بما تحتاج إليه الأمة العربية ، ولا ما يتفق مع كيانها وذوقها ، ولم ينصحوها ، والمترجم مؤتمن ، على أن هذا الذي ترجموه ليس إلا نظريات عرضة للصحة والخطأ ، صالحة لبعض البيئات وغير صالحة لغيرها ، متصلة ببعض العصور ومنفصلة عن بعضها الآخر.

## (٢)

## ترجمة القصة

بدأت حركة الترجمة في الأدب العربي من نقطة بنّاءة حين حمل لواءها رفاعة رافع الطهطاوي ومدرسة الألسن في الثلاثينات من القرن التاسع عشر وكانت هذه النهضة ايجابية الهدف ارتبطت الى حد كبير بالمدرسة والعلوم والفنون والثقافة والقانون واستطاعت أن تحقق عملاً ضخماً وتؤدّي الى نتائج بعيدة المدى.

غير أن هذا الاتجاه لم يلبث ان تحول ناحية الأدب والقصص تحت تأثير حركة الغزو الثقافي المبكرة في أواخر عصر اسماعيل ، وحيث تصدر الترجمة في هذه المرحلة عدد من الكتاب السوريين أول الامر.

فقد قذفت هذه المرحلة الأدب العربي بركام ضخم من القصص الفرنسية الخليعة ، وكان أن انحدرت الى مجال المجتمع والثقافة من خلال ذلك موجة هائلة من القيم والمفاهيم الجديدة التي كانت غريبة على المجتمع وثقافته وعقائده ، ومتعارضة مع أدبه وأخلاقياته المستمدّة من الفكر الإسلامي والتراث العربي الإسلامي.

ولم تكن هذه الموجة إلّا مرحلة مدروسة من مراحل التبشير والغزو الثقافي الذي

بدأ من خلال حركة المرسلين الفرنسيين والأمريكيين التي قدمت الى بيروت، وانطلقت تمد يدها الى الادب العربي كله، واعتمدت أساساً على أمرين: إعادة طبع ألف ليلة وليلة، وترجمة رباعيات الخيام وترجمة وتعريب وتحضير مئات من القصص الفرنسي، وقد قدم هذا القصص في أسلوب رديء في طباعة رخيصة.

ولا يمكن تصور حقيقة هذا الاتجاه والعاملين فيه إلّا حين نقدم رأي كاتب من أهل هذا الجيل هو كرم ملحم كرم الذي يصور زعيمهم طانيوس عبده فيقول: «إن الترجمة عنده لم تكن سوى أداء المعنى وهيهات وهو شر ما تبتلى به مستنزلات الإلهام، فقد أهمل طانيوس عبدو الصياغة المشرقة — رغم اهتمام الاصل بها — حتى كاد يكون من المؤلف على أميال رحاب، وعذره أنه يجنح الى كسب رزقه وما هو بالعذر السوي، وعنده أن ما نقل عن الفرنسية ليس من الروائع ولم يترجم في معظمه غير القصص العام البعيد كل البعد عن الأدب الرفيع، والذي لا يعتصم بمنعة البقاء. على أن العذر الصادق لا يجوز ضآلة إلمام طانيوس باللغة الفرنسية فيتعثر او يستدل مما يثب في عينيه من بيان على مرمى المنشىء ولا يلبث أن يطوي الكتاب ويميل على ترجمته مما يتراءى له منه فكتب الصفحات تلو الصفحات، دون أن يمعن النظر فيما خطّت يمينه، فلا يمحو كلمة، وليس يستطيب المحو، ولا يعتمد البلاغة وجودة العبارة وهو منها على برم، وربما على نفاذ. بل يكتب بلغة واهية إلا أنها واضحة فلا تعلو لغة العامة سوى بانطباقها على أحكام النحو. وحجته أن القصة يجب تذليل معانيها لكل ذهن لئلا يتحاماها من تقهقر عن النفاذ الى خفايا البيان. وهذه البراءة من الاصل إن تكن تجوز في بعض فصول مستفيضة — تحفز الى الملل، فليست مما يرضى عنه الإخلاص للفن في الشطر الأوفر من النقل».

وكذلك وصف سليم سركيس عمل طانيوس عبده فقال: اشتهر أنه يعرب ولا يترجم، أي انه ينقل المعاني الى العربية ولا يقيد نفسه بالأصل ويكتب في القهوات وعلى قارعة الطريق أو في الترام وعلى السطوح إذا اقتضى الأمر. وهو يحمل في جيوبه مكتبة ففي هذا الجيب ورق أبيض وفي الجيب الآخر رواية فرنسية؛ يقرأ سطوراً من الرواية الفرنسية ويكتبها في دفتره بالعربية بخط دقيق ويكتب النهار بطوله فلا يمحو كلمة ولا يعيد النظر في سطر واحد». تلك هي صورة الترجمة في أبرز أعلامها في

هذه الفترة تكشف عن نتائج هذا العمل الخطير في حياة المجتمع ، وهكذا كانت هذه المرحلة مضطربة أشد الاضطراب ، فقد اختلط فيها التعريب بالتمصير بالترجمة ، وبلغت الترجمة فيها حداً بعيداً من الهزالة والنزول . فقد كان هدف المترجمين في هذه الفترة إرضاء القارىء وتسليته . من اجل هذا عمدوا الى القصص المثير المتصل بالجنس ، ونقلوه نقلاً مشوهاً . ولم يكونوا قادرين على فهم النص ولا على أدائه باللغة الفصحى وكان سوء اختيار القصص والتركيز على الأدب الفرنسي وحده في هذه الفترة سبباً في ظهور حصيلة ضخمة من هذا القصص الذي فتحت له الصحف اليومية طريقاً الى النشر في رفافها ، كما صدرت منه سلاسل متعدّدة متخصصة في القصص والروايات . وكان طانيوس عبده ونقولا رزق الله وأسعد داغر أكثر هؤلاء المترجمين إسرافاً في الترجمة فقد ترجم طانيوس عبده وحده ستمائة قصة وكتاب ما بين أقاصيص وقصص وروايات ودواوين شعر .

وقد عنوا جميعاً بنقل القصص التافهة ، وكانت الترجمة بالنسبة لهم كسب عيش ، وليس عملاً فنياً مع جهل اغلبهم بقواعد اللغة العربية وضعفهم في اللغة الفرنسية . وقد وصفت ترجمات نقولا رزق الله وطانيوس عبده بالركاكة . وقد ذكر النقاد أنهم جميعاً لم يكونوا يأبهون للأسلوب ولا يتقيدون بالأصل ولا يدققون في التعبير ، بل إن أغلبهم كان مجافياً للأصل مع تشويه القصد .

وقد امتدّت هذه المدرسة واتسع نطاقها حتى لفتت أنظار الباحثين الأجانب فقال مرجليوث ان أكثر ما ترجم الى العربية من تأليف أهل الغرب إنما هي روايات مقصدها اللهو دون المنفعة وقلما يوجد في أعمدتها من أسماء كتب جديدة موضوعها التاريخ أو الفلسفة أو فن من الفنون .

وقال مِستِر جب إن القصص التي ترجمت لم تترجم ترجمة سليمة ولم يراع في اختيارها حالة مصر الاجتماعية ولا حالة الثقافة العامة ولا الذوق الأدبي للبلاد . كما ندّد (جب) بالترجمات التي نقلت من اللغة الفرنسية ووصفها بأنها استهدفت الإثارة دون المنفعة . ولعله كان يقصد بذلك في الأهم مترجمات الدكتور طه حسين التي

نشرها في السياسة اليومية (أيام الاثنين) عام ١٩٢٣ وما بعدها وقد حرص في هذه القصص على الإثارة ونقل الصور المكشوفة.

وقد لقيت هذه القصص نقداً عنيفاً من عدد من النقاد في مقدّمتهم الأستاذ المازني، والدكتور الغمراوي الذي يقول: خذ[1] إليك مثلاً تلك القصص الفرنسية التي لخّصها (طه حسين) من آن لآن يلهي بها كثيراً من النشء ويضل بها كثيراً. هل ترى بينها وبين روح هذه الأمة صلة، أو بينها وبين روح هذه اللغة صلة؟ وإذا لم يكن فهل فيها شيء يحدو من عناصر الفضيلة والطهارة الروحية في هذه الامة ويعينها على سبيل العزة التي تريد؟ وما نظن أحداً دخل تلك القصص وخرج منها وهو أقرب الى الفضيلة والعفاف منه قبل بدئها، وهذا أهون ما يمكن أن يقال عنها ولو كنا ضاربين مثلاً لضربنا .مثلاً بـ(الزنبقة الحمراء) التي ألفها أناتول فرانس، كان فيها من المعاني ما كنا نظن أن استاذاً يستحي أن ينقله للناس أو أن مجلة مثل (الهلال) تنشره عليهم ولكنا نأبى ان نشير بأكثر من هذا.

وصاحب الكتاب — أي طه حسين — قد دلّ على أنه ممن يرى اطلاق الفن من قيود الفضيلة فلا يكون هناك على الفنان حرج في أن يصور الرذيلة كيف يشاء بريشته أو بمنقاشه أو بقلمه ما دام يصورها كما هي، وهو مذهب شاع حديثاً في أوربا، وأعان على انتشاره أن يجد عوناً من الجانب الحيواني في الإنسان وأنه وسيلة قوية لنيل الشهرة وجمع المال.

وفيما يتصل بأثر طه حسين في الترجمة ما قام بترجمته عن بودلير الشاعر الفرنسي. والمعروف أن بودلير شاعر منحرف الذات والذوق، وان هناك عشرات من الشعراء ذوي الفن العالي والذوق الرفيع يمكن الترجمة لهم، وفي إحدى هذه القطع يقول طه حسين ناقلاً عن بودلير «كذلك نفسك التي يحرقها برق اللذة الملتهب تعدو سريعة جريئة نحو السماوات الواسعة المشرقة» وقد أثار هذا الباحث الدكتور حسين الهراوي فكتب بمناسبة ظهور مجموعة (قصص اجتماعية) لمحمد عبدالله عنان تحت

---

(١) كتاب النقد التحليلي للأدب الجاهلي ص ٤٦

عنوان (فتنة القصص الغربي) فقال: ناقشت الكثيرين من أنصار القصص الغربي بأن استفادة الشرق منه أدبياً لا تساوي ما يجره عليه من العناء الشخصي والقومي والخلقي فللشرق آدابه وقوميته. والقصص الغربي اليوم قد اندفع نحو وجهة واحدة هي وجهة الاستهتار الجنسي، والروائيون في الغرب ليس لهم في هذه الأيام مصدر إلهام غير هذا الموضوع. وقبيل الحرب بأعوام كانت الروايات الغربية تسير على نسق واحد هو تعارف فتى وفتاة بأي طريقة يبدعها خيال المؤلفين ثم تفصلها عوامل الزمن ويتخطيان العقبات بالمجازفات حتي يلتقيا بالزواج وقال الدكتور المراوي ان طغيان القسم النسوي في العالم الغربي واشتهاره جر المؤلفين الغربيين الى أن تكون فكرتهم في رواياتهم كلها عن العلاقات بين الجنسين وعن استهتار المجتمع الحاجز بروابط الزواج والأسرة.

وهكذا تغشى الغرب نوبة عصبية من تيار التأخر الى حال الإنسان الأول في ثوب منمق من العلم والمدنية هو أشبه بفعل الخمر والمخدر، على أن العالم مملوء بما هو أهم تدويناً من انتهاك الحرمات ووصف المخازي. وقال انه قد ساعد ذلك دراسات علم النفس واستخدامها في القصص مما زاد التيار اندفاعاً بعد الحرب الأولى حيث كان العالم مملوءاً بالمآسي الحقيقية والشعوب في حالة حرب».

ولقد كان هذا الانحراف في الترجمة دافعاً الى وقوع الأدب العربي تحت سيطرة الاستعمار والنفوذ الثقافي لفرنسا وبريطانيا. ولعل هذا هو السر في تحول الترجمة عن أهدافها الأساسية الى التسلية وإرضاء رغبات القراء.

لقد كان هدف الترجمة أساساً هو خدمة الأدب العربي بنقل الأعمال الأدبية الكبرى التي تحقق له قوة وايجابية وقد انحرف هذا الهدف في ظل النفوذ الغربي الى التسلية وترويج القصص المنحرفة والمثيرة. ومن هذه النقطة انحرف «منهج» الترجمة كما انحرف «مفهومها» فاصبحت تافهة غلبت عليها العامية والتصرف في النص والإضافة بالتضمين وحذف فقرات بأكملها. وبذلك غلبت ترجمة القصة على الفنون الأخرى وقد أحصى يوسف أسعد داغر عشرة آلاف قصة ترجمت حتى أوائل الحرب العالمية الثانية (١٩٣٩). وهو رقم مخيف مفزع، فقد ترجم أغلب

هذه القصص من الفرنسية أولاً ، وكان أغلبها من النوع النازل المنحرف ثانياً ، وكان أغلبها بعيداً عن الأداء السليم في الترجمة.

فقد ترجم طانيوس عبده ستمائة قصة وإلياس فياض (٢٥ مسرحية) وأبو خليل القباني (٦٠ مسرحية) وقد عني عديد من المجلات الشهرية الأسبوعية بالقصص المترجمة والأقاصيص وأولت الصحف التي أصدرها اللبنانيون في مصر أهمية كبرى لهذا العمل وأهمّها سلسلة الروايات (القاهرة ١٨٩٩) والروايات الشهرية (١٩٠٢) ومسامرات الجيب لخليل صادق (١٩٠٥) والروايات الجديدة لنقولا رزق (١٩١٠). وكانت الترجمات عن كتاب ليسوا في الدرجة الأولى وليسوا من ذوي المثل أو الفن أمثال: ميشال زيفاغو ولوتون دي تيرابل وموريس لبلان. ومن أبرز عيوب هذه الترجمة تجاهلها موقفنا التاريخي وقيمنا الأساسية وذاتيتنا كأمة عربية. فترجم مثلاً نجيب حداد قصة صلاح الدين الأيوبي لولتر سكوت وهي لا تتفق مع عظمة صلاح الدين ولا مكانته ولا حقيقة موقفه التاريخي وقيمنا الأساسية وذاتيتنا كأمة ، وهي مكتوبة بروح التعصب الأوربي. وقد استمرت هذه المدرسة وظهر لها اتباع كثيرون ، وفي السنوات الأخيرة ترجم عمر عبد العزيز أمين أكثر من ألف قصة ورواية غلب عليها ارضاء أهواء القرّاء. وكان للمسرح أثره البالغ في انحراف الترجمة حيث ظهرت فكرة التمصير والتعريب والاتجاه الى العامية والنزول الى القصص التافهة لإرضاء الجماهير.

* * * *

(٣)

## الترجمة العامة

كان مفهوم الترجمة بين ايدي أصحاب منهج النقد الغربي الوافد مفهوماً مضطرباً قد انحرف عن المفهوم الذي حدّده الفكر الإسلامي في القرن الرابع حين نقل وترجم آثار اليونان والفرس والهنود من خلال تقدير لطبيعة الفكر الأصيل

المفتوح القائم على قيمه وقواعده والمتصل لكل ما يترجم إليه من الفكر البشري دون أن يجعله مسيطراً عليه أو يترك له التأثير الذي يشوه ذاتيته ومفاهيمه.

أما في العصر الحديث، فإن الأدب العربي لم يكن قادراً على أن يفرض ذاتيته ومنهجه على حركة الترجمة الحديثة، فقد جاءت من خلال مرحلة استعمار له سيطرة فكرية وله أداة من أدوات الغزو الثقافي التي تحاول ان تفرض الفكر الغربي في كل مجال وان تزيح به الأصول النفسية والاجتماعية للأمة العربية، وأن تحل بدلاً منها مفاهيم وقيماً جديدة تضع هذه الأمة وفكرها وأدبها في بوتقة العالمية التي تصهر ذاتيتها وتدعها شيئاً ممسوخاً ليس هو من الشرق أو الغرب. وعلة ذلك معروفة واضحة فإن قيم الأدب العربي الأصيلة المستمدّة من القرآن الكريم كانت قادرة دوماً على أن تعطي هذه الأمة تلك الشخصية القوية المؤمنة بذاتها القادرة دوماً على رد كل عدوان والتحرّر من كل نفوذ مفروض أو غزو دخيل. ولقد عرف الغرب كيف قاومت الأمة العربية غزوين من أخطر أنواع الغزو هما: الحروب الصليبية وحملات التتار، وكيف استطاعت مقومات فكرها وقيمها ان تدفعها الى الجهاد والمقاومة والدفاع. ومن هنا فقد كانت أهداف الغزو الاستعماري الثقافي الوافد أن انقضّ على مقومات هذه الأمة عن طريق مسخ أدابها وفكرها وغزوها بمذاهب وفلسفات ونظريات مضطربة صاخبة بالإباحة حافلة بالإلحاد والمادية والدهرية. ولم يكن ذلك مستطاعاً إلا عن طريق الترجمة. وقد جاءت الترجمة من الآداب الأوربية (وهي الفرنسية والانجليزية في الأغلب) ومن التراث الاغريقي الوثني، وكانت دعوة التغريبيين تحتج في تعليل تقبل هذه الترجمات الوافدة بأن العرب قد ترجموا ونقلوا من اليونان والفرس، وأغفلوا أن الأمة العربية إذ ذاك كانت في أوج قوّتها قادرة على أن تختار ما تشاء وان تعرض عما لا تراه صالحاً. وقد ترجمت الأمة العربية العلوم والفلسفات ورفضت الأدب اليوناني ورأت أنه لا حاجة لها به، فالآداب مرتبطة بالأمم ارتباطاً ذاتياً، بينما العلوم لها صفة العموم وهي خالصة لكل الأمم ولكن حركة التغريب الوافدة كانت حريصة هذه المرة ونحن في مرحلة ضعف وفي ظل الاستعمار والاحتلال المسيطر الذي يؤازر حركة الترجمة ويفسح لها، أرادت هذه الحركة أول

ما أرادت أن تشوّه مزاجنا العقلي وذوقنا النفسي بأن تترجم له ما رفض العرب القدماء في أبان قوتهم وصدق فهمهم أن يترجموه فدفعت لطفي السيد وهيكل وغلاب وصقر خفاجة وعشرات غيرهم الى أن يترجموا الأدب اليوناني والأساطير الأغريقية ، بل لقد فرض التغريب على أبنائنا في الجامعة أن يدرسوا اللغتين اليونانية واللاتينية وأن يرغموهم على دراسة سوفكليس واسخيلوس وغيره من أدب مخالف للذوق العربي لإباحيته وفساده واختلاف عناصره كلها عن طبيعة أمّتنا وطبيعة أدبنا ، حيث يقوم على الوثنية وعبادة الأصنام وتقديس الأفراد والاستهانة بكل القيم الأخلاقية والاجتماعية التي تعارف عليها أدبنا ومجتمعنا وبذلك غزت ذاتيتنا الأدبية طبائع أخرى تتباين مع طباثعنا وأذواقنا . وكان هذا أخطر ما حقّقه انحراف حركة الترجمة تحت لواء دعاة المنهج الغربي الوافد. وإن المراجعة الدقيقة للآثار الأدبية الغربية المترجمة لتعطي حقيقة واضحة هي : إن هدف الترجمة لم يكن أميناً أو خالصاً لإثراء الأدب العربي ، ولكنه كان وسيلة الى غزوه وتمييعه وتذويبه في بوتقة المادية والإباحية والوثنية ، وإخراجه عن مقوماته ، وفرض مقومات أخرى عليه . وإن الذين أشرفوا على هذه الترجمة إنما كانوا يستهدفون غرضاً دفيناً خطيراً لم يعلنوا عنه صراحة ولكنه كان واضحاً في الاختيار. هذا الهدف هو تقويض عقلية الأجيال العربية والإسلامية وإنساء ثقافتهم واخراجهم عن ذاتيتهم. والدليل ان التراث الاجنبي يحوي فنوناً هامة من الآداب والعلوم والفكر، وأن هذه الالوان الجادة البناءة مع الأسف البالغ قد حجبت عنا تماماً وأبعدت ، وأن الألوان التي فرضت علينا وترجمت لنا هي الألوان التي تثير الغرائز وتدفع الى الشبهات في مجال الدين والاخلاق ، والتي تصور الحياة على أنها حرية مطلقة لا مسؤولية فيها ولا ضوابط ولا تبعات. ومن هذه الترجمات وخاصة من خلال القصة المترجمة تتبين الغاية التي يحاول التعريب أن يفرضها والفلسفة التي يراد إقناعنا بها.

والمعروف أن الآداب الأوربية والأمريكية الحديثة مرتبطة أوثق ارتباط بالآداب اليونانية والأغريقية الوثنية ، وانها تستمد منها . ومن هنا فإن قراء الترجمات في أدبنا لا يستطيعون أن يعرفوا موقفهم تماماً. أما القول بأن النفس الإنسانية واحدة في كل

عصر وقطر وجيل ، وأن ما يرسم الأدب الغربي اذا ترجم الى الأدب العربي فإنه يجد تقبّلاً لأنه يجد مشابهة عند النفس الإنسانية العربية ، هذا القول على اطلاقه غير صحيح بل هو مغالطة مسرفة . ذلك أن النفس الإنسانية لا تلتقي في الحقيقة إلا على القيم العليا ، وهي تفهمها في كل أمة وكل عصر فهماً مختلفاً . وبين هذه المفاهيم في الاداب الأوربية وبينها في الأدب العربي فوارق كثيرة وخلافات واسعة مصدرها أصول العقائد والقيم وخاصة ما يتعلق بمفاهيم التوحيد والعدل والمساواة والأخلاق ، وكلها تختلف اختلافاً واضحاً في مفهومها بين الأمم الغربية وبين الأمم العربية الإسلامية حين يبدو المعروف منكراً هناك والحق هناك باطلاً هنا .

واذا كانت القيم في الأدب العربي مستمدّة من الإسلام (وهو دين التوحيد المنزل أساساً) فإن القيم في الآداب الغربية مستمدّة من مصادر كثيرة منها : الوثنية اليونانية والقانون الروماني والفلسفة المادية واطار من المسيحية الغربية التي تختلف عن المسيحية الشرقية المنزلة . وبهذا يسقط ذلك الادعاء الباطل الذي يحاول أن يصور النفس الإنسانية متشابهة ومتلاقية في الشرق والغرب أو في الأدبين العربي والغربي . وأمر آخر له أهميته ذلك هو موقف الآداب الأوربية في أول نهضتها من الأدب العربي ، فهل هي قبلت كل ما ترجم اليها منه وأضافته الى اصولها ام انها صارعته مصارعة شديدة ولم تقبل منه إلا ما اختارته مناسباً لمزاجها النفسي وذوقها وطبيعتها ثم صاغته صياغة جديدة وهضمته هضماً لم يظهر من بعد أن له طابعاً واضحاً؟ ذلك لأن الغرب حين ترجم ما اقتبس من الأدب العربي كان قوياً وكان قادراً على الأخذ والرفض ، وأنه حافظ على ذاتيته وقيمه وطبيعته . بل لقد بلغ أبعد من ذلك في أمور اقتباس الفكر والمذاهب . بلغ أبعد من ذلك حين لم يقبل المسيحية الشرقية قبولاً كاملاً .

وتقبل ما يتفق مع طبيعته الاغريقية الوثنية ورفض منها ما يختلف عن ذلك وتخلص منه جيلاً بعد جيل حين استصفاها تماماً وشكلها من داخل ذاتيته الخاصة فلم تفرض عليه ولم يفرض عليه الأدب العربي بل العلم العربي الإسلامي ايضاً . ولذلك فإن الدعوة الى انصهار الأدب العربي في الآداب الغربية من خلال المترجمات إنما

هي دعوة غير أمينة ، وليست من اجل بناء هذا الأدب أو رفع شأن هذه الأمة ، وانما هي تستهدف تذويب الأمة العربية وأدبها وذاتيتها في بوتقة الغرب حتى يصبح تابعاً وذليلاً ومنصهراً لا قوة له ولا حياة. وان الذين حملوا لواء الانحراف بالترجمة انما كانوا يقصدون الى ذلك ، وكانوا يعملون من أجل خدمة حركة الغزو الثقافي التابع للنفوذ الاستعماري. واذا كان هناك ريب في ان لكل أدب ذاتيته وان هناك خلافات جذرية حتى في تفسير القيم الإنسانية بين الأدب العربي والآداب الأوربية ، فإننا نذكر ان هناك فعلاً خلافاً واضحاً بين ذاتية كل من الآداب : الفرنسي والانجليزي والألماني والايطالي والأمريكي بالرغم من ارتباط هذه الآداب باللغة اللاتينية ، بل بالرغم من ارتباط الادبين الانجليزي والأمريكي باللغة الانجليزية. وحين يتصل الأمر بالآداب الشرقية فإن هناك أيضاً في مجال الترجمة يبدو هذا التباين واضحاً ، فإن الإسلام صاغ النفس العربية بالقرآن صياغة جديدة ونهج للأدب العربي — كما نهج للفكر الإسلامي والثقافة العربية — منهجاً جديداً اختلف وتباين مع الآداب الفارسية القديمة والآداب الهندية بل والآداب الفرعونية فانعزلت عن ذلك التراث القديم كله من آثار زرادشت وبوذا وكونفشيوس فاختلفت عن الفيدا والمهراتا وغيرها.

وحيث تتلاقى هذه الآداب جميعاً مع الأدب الاغريقي اليوناني في اصول الوثنية وفي قيم اخرى في الاجتماع والاخلاق والتربية فهي جميعاً قيم قد قضى عليها الإسلام في نفوس معتنقيه ، وعزلهم عنها وحررهم منها وأبان لهم اسباب ذلك عن طريق العقل والعلم ، وكان بذلك دافعاً للنفس البشرية الى مجالات اعلى وأوفى في طريق الحضارة والمدنية والإنسانية.

(٤)

## شبهات في الترجمة

وقد عرض الدكتور محمد محمد حسين لأخطار الترجمة من خلال نموذجين قدّمها هما : كتاب مختارات امرسون وقصة الحضارة لول ديورانت اما امرسون فإن

كتابه يضم سموماً غاية في البشاعة ومن اخطر ما يدعو اليه امرسون: دعوته الى رفض النماذج الطيبة التي يقدسها الناس كالأنبياء والعظماء والأبطال ودعوته الى أن ينشق الناس عن السائد المألوف، فليس عنده شيء مقدّس وهو يدعو الى تحرير النفس من كل القيم الأخلاقية والدينية والاجتماعية، ومن ذلك محاربته للثبات على الرأي ودعوته الى أن يكون الناس غاية في الانطلاق دون إيمان ثابت بأي رأي وعقيدة. والمعروف أن امرسون يهودي صهيوني «يتعقب شعائر الدين كلها بالتسفيه والسخرية اللاذعة فالصلاة عنده وهم ليس فيها من الشجاعة او الرجولة بمقدار ما فيها من القداسة والتوبة، والندم عنده نوع آخر من الصلاة الزائفة ونقص في الاعتماد على النفس وعجز في الارادة، والرحمة والعطف لا يقلّان عن الندم وَضَاعة:

هذه الآراء المسمومة حين تترجم في كتب تصدر عن جهات ذات أهمية خاصة مثل جامعة الدول العربية فإنها تكون مزدوجة المخاطر، فإن القارىء العربي الذي لا يعرف من أمر الكاتب الصهيوني شيئاً قد يتعثّر في هذه الآراء وتفسد عقائده أما (ول ديورانت) كما يذكر الدكتور محمد حسين فقد عرض تاريخ اليهود عرضاً جذّاباً ومشرباً بالعطف والمحاباة (وهو يهودي اصلاً) وفي اعتماد المؤلف الشديد على المؤرخ اليهودي (يوسيفوس) وعرض تاريخ اليهود من زوايا تثير العطف والإعجاب في كل مكان من الكتاب[1] وذلك في مقابل ما يصبه (ول ديورانت) من التهم البذيئة على شخص محمد والمسيح الكريمين عليهما صلوات الله وسلامه في الجزأين (١، ١٣) وفي مقابل تهكّم امرسون اللاذع وسخريته المرّة بالمسيحية ورجالها وطقوسها.

ألا يذكرنا هذا كله بالتهم البذيئة الموجهة الى شخصي المسيح عليه السلام وأمه رضي الله عنها في «التلمود» الذي يقدسه اليهود أكثر من تقديسهم للتوراة.

ألا يذكرنا ذلك بالمادة الخامسة من خطة الصهيونية السرية التي عرفت فيما بعد باسم (بروتوكول حكماء صهيون) حيث يتحدّث عن (حكم الجماهير والأفراد عن

(١) الجزء الثالث من المجلد الثالث (الجزء الحادي عشر)

طريق عبارات ونظريات وقواعد للحياة معدة اعداداً ماهراً ، وعن طريق شتى أنواع الخداع والحيل) يقول : ويقدر ما نعلم فإن المجتمع الوحيد الذي يستطيع الوقوف في وجهنا في مضمار هذا العلم هو مجتمع اليسوعيين ، الا أننا قد توصّلنا الى الحطّ من قدرهم في نظر الجماهير الحمقاء بتوكيدنا لهم أنهم منظمة زائلة ، بينما وقفنا نحن وراء الكواليس وحرصنا على أن تبقى منظمتنا مستترة خفية.

ويقول الدكتور محمد حسين : يجب ان يتنبه المسلمون الى أن الأساليب التي استخدمتها الصهيونية في هدم المسيحية ومحو سلطانها وسلطان رجال الكنيسة من قلوب المسيحيين ، هي نفسها التي تتخذها الصهيونية الآن لمحاربة المسلمين وإفساد ناشئتهم وجماهيرهم وإضعاف سلطان الإسلام على نفوس عامتهم ، ويقوم هذا الأسلوب :

(١) على السخرية بعلماء الدين وتصويرهم بصورة الجهلاء الجامدين تارة والمنافقين المستغلين لسلطان وظائفهم تارة أخرى.

(٢) إثارة المشاكل الوهمية حول قواعد الإسلام وأحكامه ليوهموا ضحاياهم أنها لم تغد كافية لسدّ حاجات المجتمع الحديث.

(٣) يهدم أمرسون الدين والتديّن من جذوره تحت ستار الدعوة الى الحرية والى استقلال الشخصية. أما (ول ديورانت) فهو يهدمه عن طريق تجريح الرسل الأطهار ، وإثارة الغبار حول سيرهم والكاتبان يشتركان في عدم النبوات ، وإنزال الأنبياء الى مرتبة الفلاسفة والكتاب المصلحين.

(٤) أمرسون يسمي المسيحية التي انزلت على عيسى (المسيحية التاريخية) ويعدد فيما يعدد من أخطائها أنها تهتم بشخص المسيح اهتماماً مبالغاً فيه ، وأنها تبالغ كذلك في الاهتمام بالنفوس دون جوهر الروح ؛ يقول : من أجل ذلك صار الناس يتحدثون عن الوحي كأنه قد أوحي به وانتهى من عهد قديم ، كأن الله قد مات. ويستدرج امرسون قارئه الى هدم كل الديانات.

(٥) يقرن امرسون رسالات الأنبياء في كل موضع من كتابه بآراء الفلاسفة والكتّاب وبأصحاب المذاهب الضارة الفاسدة، فهي في زعمه غير منزلة من عند الله ولكنها نابعة من عقولهم بعد أن تحرروا من أسر الآراء السائدة في عهدهم، ولذلك فهو يحض على الاقتداء بهم في الخروج على كل ما هو موقر ومقدّس مما تقرره التقاليد وتقدّسه الأديان وذلك هو ما يسميه الهدام بالحرية واستقلال الشخصية، والحرية واستقلال الشخصية التي يدعو اليها هذا الهدّام هي حرية تقوم على الغلو المفرط في الفردية، وينتهي الى القول بأن يسمح كل إنسان لنفسه بأن يبني عالماً مستقلاً به من القيم لا يستوحي منه غير خياله وأوهامه.

ومثل هذا يؤدّي الى قتل الروح الجماعية التي هي أساس كل تماسك اجتماعي ولو سمح كل فرد لنفسه أن يبني عالماً مستقلاً من القيم لأضحَت مقاييس الخير والشر مقاييس فردية، وعندئذ لا يصبح هناك مجتمع[١].

أما في كتاب قصة الحضارة، فتساءل المؤلف إن كان المسيح عليه السلام قد وجد حقاً (١١ : ٢٠٢، ٢٠٥) ويثير حول الأناجيل مختلف الشبهات، ويتشكك في نسبه وفي انه ولد من عذراء (ص ٢١٤) وينكر كل معجزاته فينسبها جميعاً الى الكذب والتلفيق ويردها الى خداع الحولس والوهم أو ما سمّاه (العلاج النفسي). وفي الجزء (١٣) من هذا الكتاب خبث اساليب الكيد والدس للإسلام، فالمؤلف لا يلجأ هنا الى الهجوم الصريح كما فعل مع شخص المسيح، ولكنه يتظاهر هنا بالإنصاف بل يبدو في بعض الأحيان كأنه معجب بالنبي.

وقد تحدّث عن الرسول كما يتحدّث عن أي مصلح سياسي تصدر دعوته عن حاجات عصره وتشكلها ظروفه وينتهي الى اعتبار (النبي) واحداً من الزعماء والفلاسفة والمصلحين الذين يزخر بهم تاريخ الشرق والغرب في العصور القديمة والحديثة، وهو بهذا الأسلوب يشكك المسلمين في نبيهم فيخرجهم بذلك عن

---

(١) بتصرف عن الدكتور محمد محمد حسين مقالاته في مجلة الأزهر ١٩٥٩

إسلامهم لا شك لأنهم لا يسلمون حتى يعتقدوا اعتقاداً خالصاً لا يدخله ريب أن نبوّة محمد ﷺ كانت بوحي يلاحقه ويقوده ويصحح كل أعماله.

وقد أصبحت هذه الروح اللادينية تسود دراسات التاريخ الإسلامي في الجامعات ولا يروي (ول ديورانت) عن النبي إلا الغرائب التي يخلعها عن سياقها وظروفها حتى تبدو لغير النبي بالتاريخ الاسلامي في الصورة تثير وتدعو الى الاشمئزاز.

ويرجع الدكتور محمدمحمد حسين اختيار هذين الكتابين الى الدكتور طه حسين المسؤول عن الثقافة في الجامعة العربية ويقول: إن طه حسين الذي تشهد كتبه بأنه لم يكن الا بوقاً من أبواق الغرب وواحداً من عملائه الذين أقامهم على حراسة السجن الكبير يروج لثقافاته ويعظمها ويؤلف قلوب العبيد ليجمعهم على عبادة جلاديهم. طه حسين الذي لا يمل من الكلام عن جامعة البحر الأبيض المتوسط، والذي زعم لمصر أنها جزء من البحر الأبيض المتوسط في مقومات شخصيتها وليست جزءاً من عرب نجد واليمن والبحرين والعراق والسودان. طه حسين الذي لا يرى العرب في وهمه أمة لأن قوام الدول في زعمه: المنافع المادية، ولأن تطور الحياة الإنسانية قد قضى منذ عهد بعيد بأن وحدة الدين ووحدة اللغة لا تصلحان أساساً للوحدة السياسية ولا قواماً لتكوين الدول (مستقبل الثقافة ص ١٩). طه حسين الذي يزعم للعرب أن السبيل الى نهضتهم ليس هو ترجمة العلوم ولكن السبيل هو ان يذوبوا في الغرب وان يخلعوا من انسابهم ويقلعوا من تربتهم ليغرسوا في تربة الغرب. ولذلك فهو يهلك أموالهم في ترجمة شكسبير التي ترجمت من قبل أكثر من مرة ليحابي بها بطانته وحزبه فيغدق عليهم مما تحت يده، بل هو يهلك أموالهم في ترجمة ما لعن به اجدادهم وما سب به اسلافهم وسفّه دينهم وافترى على نبيهم. ان طه حسين الذي بدأ حياته العلمية متهماً في دينه يتوصل الى الشهرة بمخالفة كل مقدس مصون، وكل قدر ثابت حينما كان الالحاد بدعة العصر يجاهر به الملحدون ويتظاهر به صغار النفوس والعقول من الأدباء. هذا الرجل نفسه هو الذي يشرف على اختيار مثل هذه الكتب لتترجم على نفقة العرب.

ويرى الدكتور محمد محمد حسين أن ترجمة كتب الأدب والفلسفة والتاريخ والتربية والأخلاق وما شاؤوا من الثقافات الإنسانية على هذا النحو هو من سوء الاختيار وسوء القصد في كثير من الأحيان يضر مرتين: يضر بافساد أذواق شبابنا وتدمير كيانهم وتحويل شخصيتهم بحيث يصبحون غرباء بين قومهم ثم يصبح قومهم بعد قليل هم الغرباء بينهم حيث يكثر عددهم ويكثف جمعهم، ويضر مرة ثانية بتبديد الجهد والمال في غير وجهه وصرف العرب عن الطريق الصحيح الى تحررهم ثم سيادتهم.

ودعا الدكتور محمد حسين الى تعريب مراجع الطب والهندسة والعلوم والزراعة، وقال إن اختيار مثل هذه الكتب اشدّ فتكاً بالدين والأخلاق وأفعل في قتل الشخصية العربية ومحو مقوماتها وتدمير فكرها وتسميم ينابيع الثقافة فيها يقول: ومن أراد الدليل على صدق ما أقول فليرجع الى الكتابين اللذين أشرت إليهما فسيجد فيهما الكيد للإسلام والمسيحية ولكل دين صحيح ظاهراً وخفياً وسيجد ان اليهودية وحدها هي التي سلمت من كيد المؤلفين وبذاءتهما وسيجد الثناء على اليهودية واليهود تصريحاً وتلميحاً واذا كان الدكتور محمد محمد حسين قد أحصي هذين الكتابين فإن هناك عشرات من الكتب التي صدرت مترجمة عن المستشرقين في مجال الأدب والتاريخ واللغة والفكر الإسلامي وكلها تحمل السموم والشبهات والاتهامات. ومن أبرز هذه المؤلفات ما ترجم عن لويس شيخو وفنسنك وزملائه في دائرة المعارف الإسلامية وجلوب وجولد سيهر ومرجيلوث وهنري لامنس وأرنست رينان ودون داركو وهانوتو وزويمر وبلاشير وبروكلمان ودوركايم وولفرد كانتول سميث وفيلبي وفيليب حتي واميل لدوفيج وماسينيون ونولدكه وبروفنسال وجب وروم لاندو ونللينو وليفي بريل وكازنوفا وعشرات، غيرهم. وكتبهم وآثارهم وآراؤهم مترجمة الآن الى اللغة العربية، وكلها تحمل السموم والشبهات، بينما يروج لها دعاة التغريب ويتخذونها مراجع لهم في ابحاتهم يقومون بها في الجامعات أو ينشرونها في الصحف. وهي في أقل أضرارها تحمل وجهة النظر الغربية وتحاكم الأدب العربي والفكر العربي الإسلامي الى مقاييس غريبة عنه وافدة عليه وهي مقاييس وضعت للأدب

والتاريخ والثقافة الغربية ومستمدّة من أصولها وقيمها ، وهي لا تصلح مطلقاً للتطبيق على الأدب العربي والتاريخ العربي والثقافة العربية. ومن أمثال ما يورد هؤلاء المستشرقون وهم خصوم مليئون بالأحقاد للعرب والإسلام ، يتخذهم كثير من الباحثين مراجع ومصادرِ لأبحاثهم ، وسرى هذا النمط الفاسد الهدّام في دراسات الجامعات وأبحاث المفكرين والأدباء. ا.هـ.

وقد حاول دعاة الترجمة المسمومة من الآداب الأوربية أن يعلنوا عن أكذوبة يردّدونها حتى تصبح يوماً ما حقيقة في نظر الأغرار والسذج وهي أن العرب والمسلمين لن يتحقق لهم النهوض إلا إذا أخذوا فكر الغرب : جيده ورديئه ، خيره وشره. ويرد الدكتور محمد محمد حسين على هذه الشبهة فيقول : «إن العرب لم يغلبوا من ضعف في الفلسفة ولا الآداب ولا التاريخ ، ولكنهم غلبوا وضربت عليهم الذلة لأنهم متخلفون في العلوم التجريبية المادية بكل فروعها الكيميائية والطبيعية والميكانيكية النظرية منها والتطبيقية. غلبوا لأنهم لا يملكون من المصانع وأدوات القتال ما يناهضون به عدوهم. ويشير الدكتور محمد محمد حسين الى أهمية الذاتية في الأمم والشخصية في الفكر فيقول : «إن الجماعات البشرية تميّز نفسها بمختلف الشعارات حتي لا تضل في الزحام ولا تذوب في الاختلاط ولا تنحل رابطتها في المصادمة والنزال. وللعرب طابع يميزهم ولهم شخصية قد ضلّوا عنها في عصور الضعف والخمول وأضلّهم عنها المستعبدون وأذنابهم ، ولن تتحقق لهم نهضة إلا إذا أحيوا هذه الشخصية وتمسكوا بمقدماتها وتعصّبوا لرموزها وآثارها ، وميزوا أنفسهم بطابعهم الخاص وسيظلون بغير ذلك أذناباً للمستعبدين وابواقاً ينشرون ما يلقى إليهم من قول.

ويقول إن (العرب والمسلمين) لا يبتكرون حتى يحسوا في أنفسهم القدرة على الابتكار وحتى يكونوا متماسكين وهم لا يحسنون القدرة على الابتكار الا اذا استيقنوا أنهم عريقون في هذا الباب.

ولا يجتمعون ويتماسكون إلا اذا عرفوا خصائصهم الأصيلة التي تمنعهم من أن يذوبوا في غيرهم ، ويقول : لا يبلغ العرب درجة الاستاذية في العلوم الجديدة التي

أذلّهم عدوهم بتفوقه بها عليهم إلا اذا أصبحت هذه العلوم ملكاً لهم ، وهم لا يملكون هذه العلوم ولا يملكون هذه العلوم ولا يحسون انها علوم عربية إلا اذا قرأوها بالعربية وكتبوها بالعربية . وسيظلون يحسون أنهم غرباءعنها متطفلون على أصحابها طالما يقرأونها ويكتبونها بغير لغتهم ، ومن الحق أن نقول مع الدكتور محمد محمد حسين : إن هناك كتباً وضعت في الغرب خصيصاً لتترجم عندنا وتذاع في أوساطنا وهي كتب تحاول أن ترفع من شأن الغرب وتغض من قدرنا أو تغير قيمنا ومفاهيمنا بما يدخلنا في دائرة نفوذهم الفكري أو احتوائنا .

ومن غير المعقول ان تخلص دولة من دول الاستعمار فيما تنصح به للعرب في اختيار النافع من الكتب.واختيار الكتب التي نحتاج الى ترجمتها يجب ان يوكل الى مجموعة من المخلصين الصادقين لهذه الأمة الفاهمين لتيارات التغريب . والهدف من الترجمة أساساً هو استهداف مصلحة الأمة العربية واستكمال ما ينقصها وإدراك ما فاتها مما سبق إليه الغرب فكان سبب قوته وسيادته وكان مصدر ضعفنا واستعبادنا .

# الفصل الثالث

## أثر الأدب الأغريقي

كان مذهب النقد الغربي الوافد قد أولى اهتماماً كبيراً بالأدب الاغريقي (الهليني أو اليوناني)، وكان ذلك عملاً محسوباً في مخططات تغريب الأدب العربي وفصله عن جذوره الأصيلة وادخال مفاهيم غربية إليه. ولما كانت غزوة الأدب الأوربي الغربي الحديث هي العمل الأساسي فقد كانت غزوة الأدب الأغريقي عملاً مكمّلاً وعنصراً آخر يزيد من مسافة التباعد عن أصول الأدب العربي نفسها، ولذلك فقد ركز التغريبيون على هذا الأدب تركيزاً شديداً وتخصص فيه كبيرهم وحامل لوائه والداعي إليه في اصرار وموالاة ودون توقف طه حسين ثم ظهر عدد كبير من الدعاة في بيروت وفي مصر في مقدّمتهم صقر خفاجة واسماعيل مظهر ولطفي السيد وسلامة موسى وتوفيق الحكيم ولويس عوض وغنيمي هلال والدكتور غلاب (أخيراً) وغفل عن الخطر كتّاب آخرون أشادوا بأفلاطون وأرسطو دون أن يفقهوا ما يرددونه ولم يعرفوا أبعاد القضية أساساً فيما يتعلق باتصال الفكر الإسلامي والثقافة العربية بالفكر اليوناني. وقد حاول هؤلاء الدعاة أن يتخذوا من قضية الفكر اليوناني مع الفكر الإسلامي قديماً حجتهم ووسيلتهم الى تبرير عملهم في اغراق الأدب العربي المعاصر بالآثار اليونانية، ولكنهم عرضوا هذه القضية على غير حقيقتها واتخذوا من مظهرها الخارجي أداة اقناع بينما يرى المتعمق في الأمر أن الفكر الإسلامي لم يتقبل الفكر اليوناني وإن انتفع بالجوانب الصالحة ولكنه رفض وثنياته ورفض أيضاً سيطرته. أما الأدب اليوناني فإن العرب والمسلمين لم يتقبلوه اساساً ويبدو هذا واضحاً في انهم لم

يترجموا الشعر اليوناني أما مناهج النقد والشعر والبيان فإنها لم تجد طريقها فانحسرت وماتت.

ولقد استقبل الفكر الإسلامي الترجمة اليونانية اول الأمر دعوة منه ورغبة الى سبق الاتصال بالفكر البشري كله، وقد استقبلها وهو في أوج قوته وبعد أن تكاملت قيمه ومقوماته وحين استقبلها وهو في أوج قوته وبعد أن نقدها ولم يتقبل منها إلا ما وجده متفقاً مع أصوله وأهمها: التوحيد والنبوة والعدل والحق والحرية.

فلما حاولت هذه المترجمات وقد تداخلت في علوم الكلام والفلسفة التدخل في العقائد استطاع أن يناهضها ويشكّل نفسه من جديد وفق قيمه وأصوله. وبذلك نجا مما وقعت فيه اليهودية والمسيحية حين سيطر عليها الفكر اليوناني، وقد انتفع به في بعض المراحل ولكنه لم ينصهر فيه أو يغرق في بوتقته أو ينحرف عن أي من المضامين الأصيلة تحت تأثيره أو يتقبل منه قيمة واحدة يضيفها الى أصوله التي استمدّها اساساً من القرآن والتي كانت قد تكاملت في أيام النبي وقبل اختياره الرفيق الأعلى.

ومن هنا فإن المقارنة بين هذا الموقف وبين موقف الأدب الاغريقي الحديث مع الأدب العربي يختلف في مواضع كثيرة، وأهم هذه المواقف أن الادب الاغريقي نفسه لم يكن موضع الاختيار في امور الترجمة اليونانية بل كانت العلوم والفلسفات وحدها.

ومن هنا حرص النفوذ الاجنبي والتغريب والغزو الثقافي على أن يركز على ترجمة الأدب الأغريقي وإغراق الأدب العربي به، في فترة من فترات الضعف وفي ظل نفوذ استعماري قادر على فرض ما يشاء. ولا شك أن الأدب الاغريقي مخالف تمام المخالفة في قيمه وفنونه ومفاهيمه للأدب العربي بل هو معارض لها في أكثر الأحيان.

ولقد وضح هذا في أوائل القرن حين ظهرت ترجمة (الإلياذة والأوديسة عام ١٩١٣) التي قام بترجمتها سليمان البستاني فقد كتب السيد رشيد رضا يقول: الآن عرفنا موقف العرب من الشعر اليوناني ولماذا نبذوه ولم يترجموه أو يأخذوا من معانيه فلما اطلعنا على الإلياذة وهي أعلى شعر الاغريق ومفخرتهم التاريخية حكمنا بأن

اجدادنا لم ينبذوا شعرهم وراءظهورهم لا لأنهم وجدوه دون الشعر العربي في حكمه وسائر معانيه وانه على ذلك محشو بالخرافات الوثنية التي طهر الله عقولهم وخيلاتهم منها بالإسلام.

وقد حمل طه حسين لواء ترجمة الأدب الأغريقي والتعريف به على أكثر من اتجاه، وكان قد عاد من فرنسا حين اختير استاذاً في الجامعة المصرية لتدريس التاريخ اليوناني والروماني منذ ١٩٢٠ حتى ١٩٢٦ حين تحول الى الجامعة المصرية لتدريس الأدب العربي القديم.

اما في الفترة الاولى فقد عني بترجمة ما اسماه صحفاً مختارة من الشعر التمثيلي عن اليونان وكتب تلك الفصول التي اطلق عليها «قادة الفكر» والتي طبعت من بعد وقررت على طلاب المدارس الثانوية وضمت تراجم بعض فلاسفة اليونان أمثال ارسطو وافلاطون وسقراط: وكلمة (قادة الفكر) من العبارات الغامضة الماكرة التي أريد بها أن يقال هؤلاء القادة إنما هم قادة الفكر البشري كله وفي هذا توجيه خطير لشباب الأمة العربية حين يلقى في اذهانهم في مثل هذا السن أن أرسطو وأفلاطون وسقراط هم قادة الفكر دون ان يعرف انهم قادة الفكر اليوناني وحده، وان الفكر العربي الإسلامي له قادته النوابغ الذين استمدوا منهجهم من الإسلام ومن القرآن ومن النفس العربية الإسلامية ومن المزاج النفسي والاجتماعي الخاص لهذه الأمة، وأن بيننا وبين قادة الفكر اليوناني فوارق كثيرة وخلافات واسعة: أهمها الوثنية والعبودية التي أقرها افلاطون في جمهوريته وتابعها عليه أرسطو وقامت عليها الحضارتان اليونانية والرومانية فضلاً عن مذهب سقراط الأباحي الاجتماعي.

ولما ترك طه حسين تدريس التاريخ اليوناني الى تدريس الأدب العربي القديم لم يترك دعوته الى إعلاء آداب اليونان ومذاهبهم بل حمل معه هذه المعاني الى الأدب نفسه فزعم سبق الأدب اليوناني وتأثيره في الأدب العربي وفي كل الآداب. ثم كان له من النفوذ ما أتاح له أن يفرض اللغتين اليونانية واللاتينية على الدراسين في كلية الاداب وقد وجدت هذه الآراء وهذه الاتجاهات معارضة ونقضاً. بل لقد استطاع طه حسين ان يفرض أدب اليونان على مناهج المدارس الثانوية حين تولى منصب

المستشار الفني للوزارة وعدل هذه المناهج بحيث أهمل الخطابة عند العرب واختصر فصولها بينما انتقل مباشرة الى الخطابة اليونانية فوسّعها وأفاض فيها ، ومجد خطباء اليونان القديمة ، واستوعب النماذج المختلفة الواسعة من كلامهم .

وقد سجّل الباحثون هذا الانحراف في وقته وكشفوا عن هدف طه حسين جرياً وراء تغريب الأدب العربي ، ونقله عن مقوماته وقيمه وفرض ذوق غريب عليه ، هذا الهدف هو إبعاد النفوس «عن مجد اللغة العربية وسموّ أدبها بحرمان الناشئين من معرفة الوسائل المؤدية الى هذا السمو وهذا المجد ، وهذه الوسائل هي وسائل فهم القرآن وفهم الدين» على حد تعبير الأستاذ محمد المهياوي الذي يقول : «وبقدر ما يكون بعد المسلمين عن فهم لغتهم وأدبها يكون بعدهم عن فهم الدين والقرآن» .

وقد ظلت كتابات طه حسين تحمل هذا المعنى وهذا المفهوم في كل ما يعرض له من بحوث : افتتان باليونان والرومان ومبالغة في حقهم وتصويرهم على أنهم أساتذة العالم وممدنو الشعوب واسناد كل صغيرة وكبيرة من عناصر المدنية القديمة إليهم» .

بل إن طه حسين حين أراد أن يكتب حول تاريخ الإسلام كتابه (على هامش السيرة) لم يسعه إلا أن يذكر اليونان والأوديسا ، وهو في قلب هذا الكتاب «يعرض لآلهة اليونان : أبولو والمريخ وارتميس وأثينا» ويتحدث عن الوثنية اليونانية وارتباطها باليهودية والنصرانية» .

وفي كتاب صحف مختارة من الشعر التمثيلي عند اليونان يتحدث عن تاريخ اليونان ونشأة فن التمثيل ، وفي كتابه نظام الاثينيين : دافع عن موقف أرسطو من العبودية والرق .

ومن خلال منهج طه حسين وآرائه ابتعثت نظرات وأبحاث ودراسات وجرى في هذا الاتجاه عدد من الباحثين ، فيقول احمد أمين ان الوثنية العربية وثنية أرضية وضيعة ، وأن وثنية اليونان سماوية رفيعة . ثم جاءت مترجمات لطفي السيد لكتب أرسطو : الأخلاق ، والسياسة علامة على هذا الاتجاه الذي نما وسيطر وحاول

إعطاء الأدب اليوناني الذي هو أساس الأدب الغربي الحديث نوعاً من القداسة والإعلاء البعيد المدى ، وترددت اسماء أرسطو وأفلاطون وفرجيل وغيرهم على أنهم اعلام لا يرتقي الى مكانهم أحد من أعلام الأدب العربي.

ثم أصدر الدكتور محمد غلاب ، الذي هاجم مفاهيم طه حسين عن اليونان عام ١٩٣٣ مجلة (النهضة الفكرية) موسوعة في أربعة أجزاء عن الأدب الهليني وأهداها الى طه حسين بوصفه المسؤول الأول في مصر والعالم العربي عن الأدب اليوناني ، والأدب الفرنسي أيضاً : وحاول طه حسين أن يدعي دعوى عريضة ظهر بطلانها من بعد بأن قواعد البلاغة العربية إنما أسست على ما وضع أرسطو ونقله العرب عن اليونان (١) .

واتصل بهذا ما قام به أمين الخولي في محاولة فرض مفاهيم اليونان على البلاغة العربية ، واتهام الأدب العربي بأنه لم يكن شيئاً قبل الاتصال باليونان ، وغلت مدرسة منهج النقد الغربي في اليونانية ، وتردد أن أرسطو هو معلم العرب الأول ، وأنه ليس معلمهم في الفلسفة فحسب ، ولكنه معلمهم في البيان أيضاً ، وفي نفس الوقت الذي كانت فيه مدرسة منهج النقد الغربي الوافد تركز على الأدب اليوناني وتقول انه لا سبيل الى فهم الأدب الغربي الحديث (فهم كورني وراسين وملتون وجوته) إلا بدراسته ، بينما يقال هذا بالنسبة للأدب اليوناني ، يتعرض الأدب العربي الإسلامي للنقد الصارخ والسخرية العجيبة والانتقاص البالغ ، في محاولة لعزله عن الأدب العربي الحديث وإيجاد هوة واسعة بينهما ، وربط هذا الأدب الحديث بالأدب الغربي قديمه وحديثه وفصله عن جذوره من القرآن والفكر الإسلامي والأدب العربي الأصيل.

ثم جاءت بعد ذلك رياح كثيرة تحمل مترجمات من الأدب اليوناني ، وبحثت قصة المسرحية اليونانية ، ولماذا لم يكن لدى العرب مسرح وملحمة وقصة مما تعرض له بالتفصيل فيما بعد.

---

(١) مقدمة كتاب نقد النثر لقدامة

أمّا المستشرقون فإنهم ما ركزوا عنايتهم على شيء في دراساتهم : للأدب ، للفقه والتشريع ، للنحو والبلاغة ، للفلسفة ، للتوحيد ، للكلام ، الا وكان هدفهم الأساسي الادعاء بان كل ما في الفكر الإسلامي والأدب العربي من جوانب القوة إنما جاء نتيجة اتصالهم باليونان ، بل انهم ليقولون ان التراث اليوناني هو الذي أعطى الفكر الإسلامي والأدب العربي هذه القوة ، وذلك باطل أساساً لكل من يعرف كيف دارت المعركة بين الفكر الإسلامي والفكر اليوناني سنوات وسنوات حتى استطاع الفكر الإسلامي أن يحرر نفسه من آثار هذه الفلسفات الوثنية ، وأن يكشف عن أن أصالته وقوته إنما استمدّها من القرآن والقرآن وحده.

وان طه حسين وغيره من دعاة الأغريقية يحاولون مثل هذه المحاولة في مختلف نواحي الفكر والثقافة والأدب ، مستهدفين غاية خطيرة ، هي الادعاء بأن الأدب اليوناني هو الذي خلق الفكر العربي الحديث ، وهو الذي أثر في الفكر العربي الإسلامي ، ومن هنا فليس هناك ما يمنع أن يتأثر الفكر العربي الحديث بالفكر الغربي من حيث انهما التقيا من قبل وتلك شبهة طارئة وخاطئة ومضلّلة[1].

## (٥)

## وجوه الاختلاف والتباين

إن الشبهات التي أثارها منهج النقد الغربي الوافد لم تستطع الصمود كثيراً ، فقد كانت باطلة اساساً ولم يلبث الحق أن غلبها وهزمها في وقت أقل كثيراً مما كان يتوقع دعاة التغريب ، إن كثيراً من الأدباء الذين سايروا هذا المنهج دهشوا عندما انكشفت أمامهم الحقائق فتحرروا منه وعادوا الى الحق ، عادوا الى الإيمان بأن بين الأدب العربي والأدب اليوناني بوناً شاسعاً من خلال جوانب كثيرة أهمها الفوارق الذاتية والنفسية والاجتماعية. ولقد كشفت الأبحاث التي قام بها : عبد العزيز محمد

(١) اهتم (جب) في كتابه عن الأدب العربي أعظم اهتمام بدور الثقافة اليونانية في الأدب العربي وعزا إليه كل تطور في الشعر وفي النحو والبلاغة.

الزكي ومحمد مفيد الشوباشي وزكي مبارك ومحمد غلاب ممن جرو اشواطاً مع منهج النقد الغربي الوافد عن مدى فساد هذا المنهج وعجزه عن أن يكون صالحاً للتطبيق في مجال الأدب العربي ، كما قدموا الدلائل التي لا تقبل النقض في أن هناك استحالة في الالتقاء بين الأدبين العربي الاسلامي واليوناني الأغريقي.

(١)

أما محمد مفيد الشوباشي فهو يعلن صراحة ذلك الخطأ الذي جرّهم إليه طه حسين في محاولة تصويره الأدب الأغريقي بأنه أدب عالمي يسبق الأدب العربي ويتصدّر الأدب الإنساني حين يقول : «ليس[١] من عجب ان يتعصّب العنصريون الأوربيون لقارتهم فيزعموا إن أدب الاغريق وفنهم هو المنبع الأول والأخير للآداب والفنون جميعاً ، وقد لا نعجب إذا انخدع ناس منا في هذه الاكذوبة أيام كنا نتلقن أبجدية العلوم والفنون من أولئك العنصريين ونتوهم فيهم صدق العلماء ، ولكن العجب أن يظل بعضنا بعد اتساع آفاق معارفنا مخدوعاً في أراجيف المغرضين ، وأن يواصل ترديد أقوالهم بلا وعي وتدبر ، وان يحدث ذلك في نفس الوقت الذي ينتصف فيه لحق العرب المهدور أحرار شرفاء من مفكري أوربا ويعترفون بأن النهضة الأوربية الحديثة لم تتحقق إلا بعد أن تألق لألاء الأدب العربي في سماء أوربا وأخرجها من عصر الأساطير».

وأشار مفيد الشوباشي الى قصة الكترا وقصة أوديب ملكاً وهما من قمم هذا الأدب اليوناني. وعجب كيف أن هذه القصص التي لا تحوى إلا الغدر والقتل والإباحة هي موضع تقدير مثل الدكتور طه حسين وإعجابه الشديد فقصة (الكترا) التي تعبث فيها (كلينترا) بقدسية روابط الزوجية وتتخذ لها عشيقاً في غيبة زوجها (أخمين) الذي رحل على رأس الجيوش الأغريقية ليغزو (طروادة) ولم تكتف بارتكاب هذه المعصية ، ولكنها أقدمت على جريمة أشد نكراً مدفوعة بشهوتها البهيمية فقتلت زوجها البطل غدراً بالاشتراك مع عشيقها (إيجست) في أثناء حفل

(١) ك ــ رحلة الأدب العربي الى اوروبا.

ـهم لتكريمه بمناسبة عودته من حرب طروادة ظافراً ، وكان لهذه القاتلة الفا تدعى (الكترا) وطفل يدعى أورنت ، وخشيت الأخت أن تقوم أمها على الطفل أيضاً حتى تتحاشي انتقامه منها بعد اشتداد ساعده فهيأت سبيل فـ مربيته ، وعاش أورنت بعيداً عن وطنه دون ان يعلم شيئاً عن جريمة أمه ، ثم مسقط رأسه بعد أن بلغ أشدّه وتلقفته أخته الكترا التي قضت السنوات منطوية على أضغانها وأطلعته على السر الرهيب وطلبت إليه أن يقتل أمها أ- أبيه ، وما زالت تولول وتدفع أخاها دفعاً الى الجريمة حتى لوّث يديه بـ أمه » .

وهذه قصة الكترا التي تعدّ من آيات الأدب الأغريقي ، ولعل درجة ترجع الى أنها أشد مآسي الإلياذة والأوديسا اتصافاً بالوحشية ، ولذلك فقد بالنصيب[1] الأوفى من اعجاب كبار كتاب الأغريق فراح كل منهم يصـ مسرحية جديدة مقتصراً على حوير بعض حواشيها دون موضوعها الأصـ قاربت المسرحيات التي تتناول نفس القصة على ثلاثين مسرحية .

* * * *

أما القصة الأخرى التي تعد من مفاخر الأدب اليوناني والتي ترجمها الدكـ حسين نفسه فهي قصة (أوديب ملكاً) وتتلخص هذه القصة في أن أوديب قـ الملك ، وتزوج أمه ، وأن ابناءه هم في نفس الوقت اخوته لأمه ، اقتص مر وفقأ عينيه بيده ، ونفى نفسه عن المدينة وقتلت أمه نفسها خنقاً . « وقد أبدى طه إعجابه الشديد لهذه القصة وأمثالها من قصص الملاحم الأغريقية[2] وقـ منبع الآداب العالمية التي نجد لها الآن معجبين من بين أبناء حضارة هذه بحسبانها آيات فنية لا تطاولها قصص العصر الحاضر» .

---

(١) المرجع السابق ص ٢١٧.

(٢) نفس المصدر

وقد كشف مفيد الشوباشي في كتابه : رحلة الأدب العربي الى أوربا الحقائق الآتية :

(أولاً) إذا صح أن القصص الاغريقية حسنة الشكل فهي ليست حسنة المضامين، ولكن حسن شكلها في الواقع موضع جدل كبير، فقد أشار كثير من النقاد الى أن بناءها الفني مهلهل، والأفكار التي تتضمّنها بدائية ساذجة، وأن حوارها مفتعل، واسلوبها طنان أجوف.

(ثانياً) ان أغلبها يطرق موضوعات شاذة غير إنسانية، فهي تعكس حياة شعب طمست المعتقدات الوثنية عقله، وحجبته عن الحقائق الواقعية، واضعفت فيه العواطف الإنسانية النبيلة واستثارت فيه الغلظة والميل الى الشر، وله في ذلك العذر فآلهة الأغريق في الأغلب فاسدة تميل الى الانتقام، فإذا اعنّ لها ان تنصف مظلوماً او ترحم ملهوفاً اشترطت في ذلك شروطاً تجرد رحمتها وإنصافها من أية كلمة إنسانية، وهي لا تنكل بعبادها فحسب، ولكن بعضها ينكل ببعض ويفتك به، وليست المقادير الرهيبة التي يقع الناس في حبائلها ولا يستطيعون لها فكاكاً إلا من تدبير هذه الآلهة.

وقد قيل إن الوثنيين الاغريقيين فطروا على صورة آلهتهم او الأصح أن يقال إنهم ابتدعوا آلهتهم على صورتهم.

ويقول فإذا عدنا الى أدب الاغريق وجدنا كل موضوع من الموضوعات الشاذة الواردة في ملاحمه قد صيغ في أكثر من مسرحية.

(ثالثاً) ان الملاحم الاغريقية كل أمر فيها مقدور، يجري في فلك مرسوم وينتهي الى ختام محتوم، والشر في تلك الملاحم شر محض لا تكسر حدته خلجة من خلجات الخير، فحرب طروادة الضروس التي استغرق وصف أحداثها الخرافية جانباً كبيراً من الالياذة والأوديسة، والتي دامت عشر سنين دارت من أجل امرأة غادرة لا تستحق غير الازدراء.

(رابعاً) إن شعر الأغريق الملحمي يصور عالماً وهمياً، ويضيف آلهته وعمالقته

وفرساناً يتميزون بقدرات غير آدمية ويحققون الخوارق وينساقون وراء شهوات وأطماع وأحقاد وحشية ، ويأنفون أن تغلب عليهم الرحمة او يمس قلوبهم حب او حنان ، ويرتكبون في سبيل تحقيق غاياتهم آثاماً ، تتقزز منها النفوس ولا يعتدون على الأحياء فحسب ولكنهم يمثلون بالجثث ، والمرأة قاتلة كالرجل فهناك امرأة تشترك مع عشيقها في قتل زوجها والتنكيل بأبنائها . وهناك أخرى تحرض أخاها على قتل امها فيقتلها فعلاً واخرى تتزوج بابنها .

(خامساً) المرأة الاغريقية تتصف بالغدر في اغلب مآسي الاغريق وتستسلم للرذيلة دون أية مقاومة وترتكب أبشع الجرائم مدفوعة بأخطر النزوات فها هي ذي (هلينة) تخون زوجها في قصة (طروادة) وتهرب مع حبيبها دون أي تردّد أو شعور بتأنيب الضمير وتتسبب في حرب أبادت شعوباً بأسرها ودمّرت بلاداً عن آخرها .

(سادساً)إن النشاط المبذول لإحياء الأدب الغربي العتيق والتعلق به ليس الا وليد تيار رجعي من مثل تلك التيارات وليست مذاهب السريالية والوجودية واللامعقول إلا محاولة من مبتدعيها لبعث ألوان جديدة من ذلك الأدب الأثري الوهمي الذي تخطى الإنسان المتحضر المستنير مرحلته منذ عهد بعيد .

## (٢)

## زكي مبارك

حاول طه حسين ومن تابعه إقامة نظرية مستمدّة من منهج النقد الغربي الوافد قوامها تأثر الأدب العربي بالأدب اليوناني وقد تصدّى كثيرون لمعارضته وإحقاق الحق في هذا الأمر.

فالدكتور زكي مبارك يشير[١] الى أن الدكتور طه ساير الباحثين الأوربيين في القول بأن الثقافة اليونانية هي مصدر الثقافة الانسانية وأن الناس في الشرق والغرب

(١) مجلة الرسالة مجلد ١٩٤٣

في جميع الأجيال مدينون لثقافة اليونان. وأن مردّ ذلك في نظره أنه قرأ كتباً ترى هذا الرأي ثم قال: ولو أنه تريث لعرف أن هناك كتباً أجدر من تلك الكتب بالتلخيص.

واعاد الى الأذهان ما ردّده طه حسين في كتابه مستقبل الثقافة: حين قال: إن عقلية مصر عقلية يونانية وانه لا بد من ان تعود مصر الى احتضان فلسفة اليونان وقال: إن الأفضل أن يعترف الدكتور طه بأن الفلسفة اليونانية منقولة عن الفلسفة المصرية القديمة (وعنه نقول ان هذا لا يغيّر من الأمر شيئاً فان كلتا الفلسفتين اليونانية والمصرية القديمة فلسفة وثنية) ويتساءل مبارك: أفي الحق أن العقل الإنساني لم ينضج إلا في القرن الرابع قبل المسيح؟ وقال إن العقل الإنساني نضج قبل الوثنية اليونانية بأزمان وأزمان.

وقال ان اليونان بعد ظهور الإسلام لم تستطع ان تكون امة تسيطر على الشرق والغرب وهي قد جهلت تاريخها القديم وجهلت مبادىء فلاسفتها القدماء وجهلت أيضاً لغة سقراط فلم يعد مجدها رهيناً إلا بتعصب أنصارها من الأوربيين. أما مصر فقد وقفت وقفة أبيّة في ردّ الحروب الصليبية. ثم وجه النقد الى طه حسين في أنه أطنب حين تحدّث عن قادة الفكر في العصر اليوناني ثم أوجز ايجازاً مخلاً حين تحدث عن قادة الفكر في العصر الإسلامي ويرد السبب في الايجاز والاطناب الى الكتب التي كانت بين يديه وهو يؤلف كتاب (قادة الفكر) واهمها كتاب ليون رديان في تاريخ الفكر اليوناني.

ويقول مبارك: لو كانت الأقدار قضت بأن يظهر كتاب يؤرخ الفكر العربي لكان من المؤكّد أن يصول الدكتور طه صولة القادر على شرح ما قام به العرب من رفع القواعد من الحضارة الإسلامية (ومعنى هذا أن زكي مبارك يتهم طه حسين بالنقل من كتب المستشرقين، أما حين لا يجد فانه يتعثر. ونحن لا نرى ذلك في هذا الموقف ونعتقد أن طه لم يكن يفعل حتى ولو وجد كتب الغربيين عن الحضارة الإسلامية وهي كثيرة من أمثال ما كتب توماس كارليل وجوستاف لوبون وقد أغضى عن هذه الكتب عملاً لأن ذلك لا يرضي سادته المستشرقين. ويعترض مبارك

على ما أورده طه حسين حين قرر (أن الاسكندر غرس الفكر اليوناني في الهند ويقول: مع أن الاسكندر لم يلم بالهند إلا المامة الطيف، فما عساه يقول لو تذكر أن الفكر العربي تغلغل في ارجاء الهند وما زال يتغلغل بفضل المذاهب الإسلامية) واشار زكي مبارك الى أن طه حسين منذ نوفمبر ١٩١٩ حين وقف ثروت باشا يفتتح محاضرات الجامعة المصرية ويقدم طه حسين الى الجمهور وهو مصر على هذا المنهج في إعلاء شأن اليونان، وأنه قال في ذلك اليوم البعيد: إنه عزم على إحياء التراث اليوناني لأنه يؤمن إيماناً جازماً بأن مرجع الفكر في الشرق والغرب الى القدماء من مفكّري اليونان، وأنه ما زال في إصراره على هذا القول وإثباته في الكتاب المقرر لمسابقة الأدب العربي. وكان قبل ذلك مقرراً للمطالعة في المدارس الثانوية—وتعرض زكي مبارك لما قاله طه حسين في فصل عنوانه (بين الشرق والغرب) حين أراد أن يجعل القيمة العقلية من حظ الغرب وان يجعل البوارق الخيالية من حظ الشرق، وانتهى إلى أن الغرب وطن الفلاسفة وأن الشرق وطن الأنبياء. ويحاول أن يقرر أن قوة الغرب ترجع الى أنه وطن الفلاسفة وأن ضعف الشرق يرجع الى أنه وطن الانبياء.

ويشير مبارك الى الفرق بين الفيلسوف والنبي فالفيلسوف هو رجل محب للحكم (ولكنه في أكثر أقواله يؤثر السلام وقد يركن الى الخمول ومعنى هذا أن الفلاسفة لم يكن لهم فاعلية بدليل أنهم عاشوا في عزلة عن المجتمع) وعنده أن سقراط وهو أبو الفلاسفة لم يسلم عقله من الخضوع لمعبد ابولون وكان حاله عند الحكم عليه غاية في سوء المصير. فقد ظهر أنه لم يستطع خلق عصابة تحميه من القتل ولم يكن تلاميذه وحواريوه إلا أنصاراً لا يجيدون غير البكاء. أما الرسول (فهو رجل مجاهد يرى من واجبه أن يستقتل في هداية المجتمع وأن يرحب بالموت في سبيل الجهاد) وقد نجح الأنبياء المرسلون في هداية الشرق والغرب فإليهم يرجع الفضل في إقامة الدعائم للحضارة الإنسانية، وهل من القليل ان يستطيع ثلاثة من الأنبياء المرسلين أن يسيطروا بالفكر والروح والعقل على الكثير من أقطار الشرق والغرب بأضعاف أضعاف ما سيطر سقراط وأفلاطون وأرسطوطاليس؟) وخلص زكي مبارك الى

القول بأن (محمداً هو القائد الأول للفكر الإنساني) وأشار الى موقف من أعظم مواقفه حين كسفت الشمس يوم وفاة ابنه ابراهيم فوقف ينادي بأن الشمس والقمر آيتان من آيات الله لا يتأثران بموت أحد ، وإذن يكون القائد الأول للفكر هو محمداً لا سقراط .

وأشار الى أن الدكتور طه حسين : أراد أن يغض من العقلية الشرقية بحجّة أنها خضعت للكهّان والأنبياء ، وقال : أنا لا أتزيّد عليه ، فذلك كلامه وهو كلام مدون ، طبع مرتين وتبنته وزارة المعارف بعد مجلة الهلال ، والظاهر أن الدكتور طه يتوهم أن الكهانة ظاهرة شرقية لا غربية ، والدكتور طه يشهد بأن سقراط قد استلهم الكهان مع أنه في زعمه أول محرر للعقل الإنساني من أغلال الأضاليل .

ثم يقول زكي مبارك «وأقول بعبارة صريحة ان الكهانة لم تعد مهنة مقدّسة إلا في عهود الوثنية اليونانية ، فقد كانت لها معابد وسدنة وأمناء ، وكان المصير لكل معضلة فردية او قومية رهيناً برأي الصوت المتنكر في زوايا الظلام المنشور فوق معابد اليونان ، اما كهان الشرق فكان مركزهم في المجتمع أيسر وأخف لأن الشرق سبق الغرب الى استحياء العقل . وقال مبارك : ان النبوات في الشرق دانت الانسانية بديون يراها الحاضر ويذكرها التاريخ ، فالأنبياء الثلاثة موسى وعيسى ومحمد من أرومة عربية وكانوا قد شرّقوا وغرّبوا وملأوا الدنيا ضجيجاً فكرياً وروحياً في أزمان لم تعرف سوى الباهت من الآراء .

ونبه مبارك الى ان هناك دعوة فكرية من أخطر الدعوات في تاريخ الغرب ، هي دعوة لوثر ، ولكن الدكتور طه لم يشر إليها فقال : وكانت دعوة لوثر دعوة جريئة في تحرير المسيحية من العبودية الرهبانية فما مصدر تلك الدعوة ؟ مصدرها إسلامي فلوثر قوة فكرية عظيمة ، ولكن لم يخطر على بال الدكتور طه وهو يتحدّث عن قادة الفكر . لأنه لم يأخذ الفكر عن اليونان مع أن لوثر أثر في الأخلاق الأوربية تأثيراً لا يقاس إليه تأثير سقراط وأفلاطون .

* * * *

## (٣)

## محمد غلاب

ويعترض الدكتور محمد غلاب على موقف الدكتور طه من نظرية ارسطوطاليس في العبودية . فهو قد لاحظ أن الدكتور طه يحاول ان يبرىء نظرية ارسطوطاليس من تحبيذ الرق والدعوة إليه وان (ثبت أن الأمم المحدثة تمثل باستعمارها للشعوب المستضعفة أقبح صور الرق الذي كان مألوفاً في العصور الأولى ، وأنه لا فرق بين هذه الأمم وبين أهل تلك العصور) ، ويشير الى التناقض الذي وقع فيه بين هذا القول وبين ما أشار إليه في كتابه (فلسفة ابن خلدون الاجتماعية) حين رثى للفرنسيين من أجل أنهم يعانون الأمرين في حضارتهم على من اسماهم (المراكشيين المتوحشين) الذين رفضوا قبول سبيل بسط هذه الحضارة.

ويقول : كيف يعترف طه حسين بأن الرق بأنواعه ومنه الاستعمار مبين للكرامة الإنسانية ، ثم انظر كيف ينقد ابن خلدون هناك من أجل هذا الرأي ويحمل عليه بسبب هذه الفكرة عينها على المراكشيين عدم خضوعهم للفرنسيين ، ويقول غلاب : لا ريب أن في تزيينك له والدعوة إليه أمر مخجل سيتوارى منه في المستقبل تلاميذك ومحبوك حين ينسب إليك أنك دعوت الى الرق وزينت الأسلوب القاسي الذي تسلكه فرنسا بإزاء المراكشيين المظلومين.

## (٤)

ويعرض زكي مبارك لأحمد أمين الذي قال ان الوثنية المصرية وثنية أرضية وضعيفة ، وأن وثنية اليونان كانت سماوية رفيعة ، ويرد ذلك الى ان شعراء الفرنسيين والانجليز الذين جاؤوا في العصر الجديد ، هم الذين أحيوا هذه الوثنية وأعدوها من جديد وجعلوا لها هذا المظهر الخلاب . لأنها قامت في أساسها على تقديس جموح الأهواء وطغيان الأحاسيس . أما المسلمون فقد نهاهم الإسلام عن احياء الوثنية العربي ، وقد انتهوا بفضل الإسلام عن احياء الوثنية اليونانية ، ويقول زكي مبارك : ان العاملين يجهلون السر في تغني شعراء فرنسا وانكلترا وايطاليا بقلعة الأكروبول فهذا

التغنّي كان غاية أصيلة في تمجيد الأمة التي جعلت عبادة الشهوات من الشرائع ، فالكعبة ليست من هواهم لانها لم تمجد الشهوات ولانها خلت من عبادة أفروديت وأدونيس وايروس . ويرد السر في سيطرة الأدب اليوناني على الأدب العربي الحديث فيقول :

إن اهتمام الشعراء الأوربيين بالوثنية اليونانية يقوم على عبادة المرح والبهجة والايناس ، فأهواء الآلهة عندهم أهواء حادة من الوجهة الحسية بحيث يمثلون ما في الطبيعة الحية من غضب وبطش وجبروت . الشاعر الذي يعيش في رحاب الوثنية اليونانية يعيش عيش السعادة والنعيم فهو محروس بقوات خفيّة في جميع الشؤون ، فله عند الغضب إله ينصره هو إله الحرب وله في أوقات السرور إله هو إله الخمر وله عند الصبوة إله يفتح له قلوب الملاح هو إله الحب هذا هو السر في أن شعراء أوربا وجدوا في الوثنية اليونانية ما لم يجدوه في الشريعة الإسلامية مع أن الشريعة الإسلامية محملة بالطوائف عن أصول الآداب والفنون ، وتوضيح ذلك سهل فالذي ينظر في الوثنية اليونانية يواجه اصطخاب الأهواء والأذواق والأحاسيس أما الذي ينظر في الشريعة الإسلامية فيواجه بحراً هائجاً من الواجبات والتكاليف.

ومهما يكن من اضطراب مفاهيم زكي مبارك وانحرافه فإن رأيه يؤكّد ارتباك الدعوة الى الوثنية الاغريقية بالدعوة الى تحرّر الأدب من القيم الإسلامية والضوابط الأخلاقية . وهذا هو ما وصل اليه الدكتور محمد احمد الغمراوي وما ذكره ابراهيم عبد القادر المازني حين ربط بين اعتناء طه حسين بالترجمة لشعراء الإباحية من أمثال بشار وأبي نواس وترجمة القصص الفرنسية واليونانية المكشوفة.

(٥)

ويرى فخري ابو السعود من خلال دراسته للأثر اليوناني في الأدب العربي ، أنه ما يستدعي النظر أن العرب حين اتصلوا بثقافة اليونان اقتصروا على اقتباس بعض علومهم وفلسفتهم دون الآداب والفنون فدرسوا : أفلاطون وارسطو وعرفوا ابقراط وفيثاغورس ولكنهم اهملوا : هوميروس وسوفوكليس ويوربيدس وقال ان السر في

ذلك راجع الى سليقة العرب المطبوعة على البيان المفطورة على فصاحة اللسان ، فإن العرب نظراً لبيئتهم البدوية وحياتهم المتنقلة لم يكن لهم سوى اللسان أداة للتعبير عن شعورهم الفياض ، ومن ثم تأصّلت في العرب سجية البلاغة وارتفعت بهم مرتبة البلغاء وزادوا اعتداداً بعروبتهم ولغتهم بنزول القرآن ، فلم يكن في نفوسهم حافز الى الاطلاع على آداب غيرهم . ويرى فخري ابو السعود ان العرب قد اتصلوا بالثقافة اليونانية بعد أن كان أدبهم قد نضج وقوي وصار من الاعتداد بنفسه ما يثنيه عن التلمذة لغيره أما الآداب الغربية فعرفت تلك الثقافة في عهد طفولتها ...الخ .

والكاتب يغفل عن الفوارق البعيدة بين الأدب العربي وبين الآداب الأوربية وبين مدى تأثر الأدب العربي بالآداب اليونانية وبين تأثر الآداب الأوربية بها ، ذلك ان الأدب العربي في ذاتيته الأصيلةالمستمدةمن القرآن وقوامه التوحيد ما كان في إمكانه ان يستمدّ من الآداب الاغريقية ولا ان يمتزج بها ، فإن هناك فوارق بعيدة من حيث اللغة والأمة والذوق والمزاج النفسي والاجتماعي ، بينما لم تكن هذه الفوارق موجودة بين الأدب الأغريقي والآداب الأوربية الحديثة التي تعتبر نفسها امتداداً له ، والتي بدأت نهضتها بإحياء هذا التراث اليوناني .

ومن عجب أن يطالب الأدب العربي الحديث بأن يبدأ نهضته بإحياء التراث اليوناني (كأنما هو أدب أوربي) بينما لا يطلب إليه إحياء تراثه العربي الإسلامي المتصل به والمستمدّ منه استمداد أدب أوربا الحديث من الأدب اليوناني القديم ، والذي يزيد قوة عنه ، انه لم تفصل بين حاضره وماضيه فترة ألف عام هي فترة العصور الوسطى الأوربية التي عزلت الأدب اليوناني عن أدب أوربا الحديث ، بينما امتدّ الأدب العربي متّصلاً منذ خمسة عشر قرناً لم تنفصم عراه عاماً واحداً وليس ألف عام ، والواقع ان الأدب العربي لم يخسر شيئاً بانفصاله عن الأدب اليوناني قديماً وحديثاً ، فإن الأدب الذي قام على حدّ تصور الدكتور طه حسين على تقديس جموح الأهواء وطغيان الأحاسيس وافتراع الشهوات ، إنما يختلف اختلافاً واضحاً عن الأدب العربي الذي يستمد وجوده من القيم الأخلاقية والتوحيد ، حيث عرف

العرب والمسلمون الكرامة والمروءة في أمر العاطفة والعرض وإعلاء شأن المرأة عن ان تمتهن أو أن تكون أداة للشهوات والإباحة.

(٦)

وقد عرض العلّامة عبد الحميد محمد الزكي لأثر التراث اليوناني على الفكر العربي الى «الدور الخطير الذي لقيته الفلسفة اليونانية في النضال الحاد الذي قام بين المسلمين واتباع القرامطة والباطنية، وقال: لا نغالي إذا ألقينا تبعة قصور العقلية العربية عن الخلق والابتكار الى انتشار الثقافة اليونانية في الحياة الإسلامية، وقال: إن التراث اليوناني هو السبب الأوّل في عجز كثير من العلوم العربية عن وضع ابحاث مبتكرة وقال: إن جرم التراث اليوناني لا يمكن أن تغتفره له العقلية العربية فلقد غمرت أفكاره الحياة الثقافية في الاسلام فمنعت انطلاق نفثات الفكر الحر، وعرقلت تطور العلوم العربية وحالت دون اتمام نضجها، فضلاً عن أنه احتضن كل فكر طعن في تعاليم الإسلام وزوده بكل ما يحتاج إليه من ادوات المنطق ومعدات الجدل.

ودعا الكاتب الى التحرر من اخطار الثقافة الغربية حتى لا يقع الفكر العربي في نفس المحاذير وطالب الا نلقي بعقولنا في تيارات الثقافة العالمية قبل ان تنضج اتجاهاتها ونعرف السبل التي نعمل على وقفها حتى لا تستسلم لهذه الثقافات الغربية.

(٧)

أشار أحد الباحثين[١] الى أن طه حسين ذهب في بحثه الذي صدر به كتاب (نقد النثر) لقدامة الى ان قواعد البلاغة إنما أسّست على ما وضع أرسطو ونقله العرب عن اليونانية، وشايعه في ذلك عبد العزيز البشري في الهلال (يناير ١٩٣٦)، وقد وجد هذا الباحث في كتاب المثل السائر: لابن الأثير وهو من أشهر كتب البلاغة قوله:

---

(١) واسمه ع. طه الرسالة — ٤ ديسمبر ١٩٣٩

«فإن قلت ان هؤلاء وقفوا على ما ذكره علماء اليونان وتعلموا منه قلت لك في الجواب ان هذا شيء لم يكن ... الى ان قال : وهذا باطل لي أنا فإني لم أعلم شيئاً مما ذكره حكماء اليونان ولا عرفته ، ومع هذا فانظر الى كلامي (الى آن قال) ولقد فاوضني بعض المتفلسفين في هذا ، وانساق الكلام الى شيء ذكره لابي علي بن سينا في الخطابة والشعر ، وذكر ضروباً من ضروب الشعر اليوناني يسمى (اللاغوذيا) :

وقام فأحضر كتاب الشفاء لأبي علي فوقفني على ما أذكره ، فلما وقفت عليه استجهلته فإنه طول فيه وعرض كأنه يخطب بعض اليونان وكل الذي ذكره لغو لا يستفيد منه» .

ولا شك ان هذه النصوص تدمغ رأي طه حسين بالكذب والاختلاق .

(٨)

ردّد لطفي السيد في مقدمة (كتابه علم الأخلاق) لأرسطو الذي ترجم باسمه[١] ١٩٢٥ ما سطره المستشرقون ودعاة المذهب الغربي في النقد ولم يصدّق حين قال :

إن أرسطو هو المعلم الأوّل في معاهدنا الدينية وان فلسفته قوبلت عند السلف بصدر رحب ، وتألف من مجموعة بحوثهم ما يسمى بالفلسفة العربية ، ولم يصدق حين قال ان الفلسفة العربية هي في مجموعها فلسفة ارسطوطاليس .

وردّد لطفي السيد كلام المستشرقين حين قال «الواقع إن الفلسفة العربية ليست شيئاً آخر غير فلسفة ارسطوطاليس طبعت بالطابع العربي وسمّيت الفلسفة العربية ، وأن ما يعرف بالفلسفة العربية ليس فيه من العربية سوى الاسم ، فإنه فكر يوناني منظّم عبّر عنه بلغة سامية ، وصدر بالمؤثرات الشرقية وأدخل بين أهل الإسلام .

وأخطأ لطفي السيد مرة ثالثة حين ذكر ما يراه سبباً لرجوع العرب في العصر الحديث الى فلسفة ارسطو فقال : «وكما ان النهضة الأوربية الحديثة عمدت الى

---

(١) لدينا اكثر من دليل على أن القسم الإفرنجي في دار الكتب هو الذي قام بترجمة كتاب علم الأخلاق.

درس فلسفة أرسطو على نصوصها الأصلية فكانت مفتاحاً للفكر العصري الذي أخرج كثيراً من مذاهب الفلسفة الحديثة فلا جرم ان يتخذ من فلسفة أرسطو رجاء ان ينتج في النهضة الشرقية مثل ما انتج في النهضة الغربية» ومن مجمل ما قاله لطفي السيد الذي أطلق عليه «أستاذ الجيل» يتبين مدى الخطأ الذي وقع فيه هذا الجيل الذي تابع اللورد كرومر في مفاهيمه وآرائه، والذي أنشأ تيار التغريب الذي مضى فيه من بعد طه حسين وغيره.

وهذا التيار الذي يغضي إغضاء كاملاً عن أصول الفكر الإسلامي فإذا عرض لها تناولها على هذا النحو، حين اعتبرها من ثمرة الفكر اليوناني وفقاً لما ردّده المبشرون والمستشرقون، والذي أيّده الدكتور صروف في المقتطف حين عرض لكتاب علم الأخلاق الذي ترجم باسم لطفي السيد حين قال: وما قاله الأستاذ (يقصد لطفي السيد) يؤيده الكتّاب الأوربيون الباحثون في الفلسفة العربية، ويشهد بما يقوله (الاكسيس وليم ولس) ان ما يعرف بالفلسفة العربية ليس فيه من العربية سوى الاسم واللغة، فإنه فكر يوناني منظم عبّر عنه بلغة سامية وحور بالمؤثرات الشرقية وأدخل بين أهل الاسلام» وهذا الرأي باطل، وما زال يتردّد، دون أن يفقد القائلون به الأمل في التأثير به، بالرغم من أن كل الدراسات الجادة تكذّب هذا القول من حيث تقبل الفكر الإسلامي للفلسفة اليونانية، فليس هناك من دليل يؤكّد مثل هذا التقبل، فيما سوى محاولات (الكندي والفارابي وابن سينا وابن رشد) وهم يعتبرون في نظر الباحثين من التابعين للفلسفة اليونانية، وإن حاولوا التوفيق بين هذه الفلسفة وبين أصول الفكر الإسلامي الذي يختلف مع جذور هذه الفلسفة حيث يقوم على التوحيد والنبوة والعدل، بينما تقوم الفلسفة اليونانية على الوثنية، وعلى العبودية التي جعلها «أفلاطون» أكبر دعائم الجمهورية، هذه العبودية التي تفرق بين السادة والعبيد في المجتمع اليوناني والروماني، وهي التي دافع عنها أرسطو دفاعاً كبيراً، فهذان الفارقان يكشفان عن استحالة اللقاء بين الفلسفة اليونانية. والفكر العربي بالإضافة الى وجهة نظر «سقراط» القائمة على الإباحة والكشف وإقرار انطلاق اللذات. وقد تابعت هذه المدرسة التغريبية التي قادها لطفي

السيد وطه حسين وغيرهما هذا المفهوم الباطل، بينما انبعثت مدرسة أكثر أصالة وأقرب الى الواقع تلك التي قادها: الشيخ مصطفي عبد الرازق وتابعه عليها الدكتور علي سالم النشار، ومجموعة أخرى من تلاميذه، هؤلاء الذين كشفوا عن حقيقة الفلسفة الإسلامية المستمدّة من الفقه الإسلامي، والتي كشفت عن التباين الواضح العميق بين الأصول التي قام عليها المجتمع اليوناني وبين الأصول التي قام عليها المجتمع الإسلامي، ومن هنا فإن القول بأن أرسطو هو المعلم الاول للعرب، إنما هي كلمة باطلة، ليست أقل بطلاناً من كلمة (أستاذ الجيل) وعلى الذين ينظرون في هذه القضية أن لا يقفوا عند الكندي والفارابي، وإنما عليهم أن يدرسوا تطور هذه القضية حتى يصلوا الى ما كتبه علماء المسلمين في الرد على منطق ارسطو ودحضه وإثبات منطق القرآن على النحو الذي كتبه ابن تيمية وغيره من مفكري المسلمين، وكيف ان الفكر الإسلامي عارض مفاهيم أرسطو وفلسفة ارسطو وأفلاطون ومنطقهما حتى استطاع ان يتحرر منهما. هذا، ولم تتوقف هذه الصيحة الى تحرير الفكر الإسلامي من آثار النقد اليوناني. وأمامي كتاب صدر في القرن التاسع الهجري بقلم محمد بن ابراهيم الوزير الحسني اليمني الصنعاني في هذا الصدد تحت عنوان (ترجيح أساليب القرآن على أساليب اليونان). أما الخطأ الآخر الذي وقع فيه (أستاذ الجيل) فهو قوله ان العرب في العصر الحديث في حاجة الى فلسفة ارسطو لتكون لها مبعثاً للنهضة كما كانت بالنسبة للنهضة الأوربية، ذلك لأنه ليس هناك علاقة ما بين نهضة العرب وفلسفة ارسطو، وإذا كان الأوربيون قد استمدّوا نهضتهم من تراثهم القديم وهو تراث اليونان. فإن العرب يجب أن يفعلوا نفس الشيء، وان يستمدوا نهضتهم من تراثهم العربي الإسلامي فهو وحده القادر على أن يمنحهم القوة والتجدّد، أما التراث اليوناني وفلسفة ارسطو—وهي تختلف أساساً في قيمها ومزاجها وطبيعتها عن عقلية الأمة العربية وفكرها المستمدّ من القرآن والإسلام والتوحيد، فإنها لن تحقق لهم أي نهضة.

* * * *

## جذور الاختلاف

ان الاختلاف بين ذاتية الأدب العربي وذاتية الأدب الاغريقي، هي نفسها جذور الاختلاف بين الأدب العربي الحديث والأدب الأوربي المعاصر، وهي خلافات عميقة متصلة بالنفس الإنسانية والمجتمع وبالقيم التي عاشت عليها هذه الأمم خلال عصور طويلة، بحيث لم يكن من اليسير أن يصب الأدب الاغريقي في قوالب الأدب العربي، أو ينصهر الأدب العربي في أتون الآداب الاغريقية أو الأوربية المستحدثة منه.

ووجوه الاختلاف والتباين متعددة ومتصلة بالجوانب المختلفة للنفس الإنسانية والمجتمع والدين والتاريخ والتربية والأخلاق، وليس من السهل التقاؤها بل ليس من السهل الاقتباس منها.

(١) وأوّل وجوه الاختلاف والتباين: المجتمع نفسه. فالمجتمع العربي (مجتمع الصحراء) يختلف اختلافاً كبيراً عن المجتمع الأغريقي، وقد صاغه الإسلام في قوالبه التي قامت على النجدة والشجاعة والمروءة وتكريم المرأة، وعواطف الحب العذري، والرحمة بالضعيف والمظلوم، وهي كلها ملامح تكاد تكون عكسية تماماً في المجتمع الأغريقي.

وفضلاً عن ذلك فالمجتمع العربي: مجتمع مكشوف، مضيء، تطلع الشمس عليه طوال اليوم فاذا هو مليء بالضياء، وقد عاش أهله على الصراحة والوضوح والتعبير الواقعي، وقد عرف أهله بالفروسية والمقاتلة، ومقاومة العدو (وجعل رزقي تحت ظل ريحي)، وعرف العرب بمقاومة الأهوال؛ حديدية قلوبهم لا تعرف الفزع ولا تعايش الوساوس ولا الأوهام. بينما عرف الأغريقي بالخوف من الأشباح المنتشرة في الصحراء والخارجة من البحار والشياطين السابحة في الأجواء، وذلك الليل الموحش الطويل، وذلك النهار الذي تتعاوده الغيوم والسحب والظلمة والأمطار والاشباح.

ومن هنا كانت الأسطورة طابع الأغريق بكل ما فيها من خرافة وأوهام وآلهة تقاتل وأعياد تذبح فيها الذبائح ، ويجري فيها الرقص والإباحة ترضيةً للآلهة حتى لا تغضب ، وتأميناً لمخاطرها ، هذا التباين الواضح بين طابع المجتمعين ، وبالتالي بين طابع النفس العربية المؤمنة بالله وبين طابع النفس الأغريقية العريقة في الأساطير يكشف بوضوح عن الفرق بين خصائص الأدبين.

(٢) وثاني وجوه الاختلاف هو نظرة الإنسان الى الكون :

نظرة العربي التي استمدّها من الإسلام والقرآن وصاغها وفق مفهوم التوحيد ، وهي نظرة قوامها العمل والاعتماد على الله معاً ، وطابعها الكدح والطمأنينة الروحية ، وهي نظرة مشرقة آملة باسمة على أفق مضيء ، بالشمس والنور وإيمان عميق بالله.

بينما نجد نظرة الأغريقي غامضة مضطربة خائفة ، ترى في الشتاء وليله الطويل ملعب الأرواح الشريرة المختفية في المفاوز من قلب الأرض ، وفي أعماق البحار الهائمة تفتّش عن فريسة بشرية على تعبير الدكتور أنيس فريحة ، ومن هنا فهي تعمل على ترضية الارواح الشريرة التي هي في وطنهم صاحبة الأمر والنهي.

ويتمثل هذا الاختلاف حتى في طبيعة الحياة البسيطة السهلة التي يحياها العربي ، بينما تبدو الحياة الأغريقية معقّدة قوامها تهاويل ورسوم وتصاوير وبخور وشموع وألبسة مزوّقة.

(٣) وثالث وجوه الاختلاف في أمر المرأة والحب ، فالنفس العربيةموحّدة تحب امرأة واحدة وتخلص لها مدى الحياة ، ولا ترى أن تصل إليها قبل ان تزف زفافها الشرعي ، وهو حب عفيف قوامه الإيثار والبذل والتضحية ، والمرأة العربية وفيّة مخلصة رقيقة الإحساس ، وقد صوّرها ابن سينا وابن حزم وغيرهما مثالاً للطهر ، وحبّها مثالاً للسموّ. وعلاقة الرجل بالمرأة قائمة على اتصال الأرواح ، وقصة سلامة القس علامة على هذا الطابع الواضح.

وقد رسم الإسلام هذه العلاقة الكريمة فلم يعرف المسلمون في مجتمعهم الأوّل نظام الحريم. ويختلف الحب العذري في المجتمع العربي عن الحب الأفلاطوني في

المجتمع الأغريقي[1] . وقد عبرت هذه المعاني الى الآداب الأوربية من الأندلس عن طريق شعراء التروبادور ، فكشفت عن طابع جديد غريب عن الأخلاق الوثنية التي كانت مسيطرة على أوربا .

اما الحب والمرأة في الأدب الاغريقي والمجتمع الاغريقي فهي أقسى صور الكشف والإباحة والتحلل ، وتكشف عنها قصة (الكترا) وقصة (أوديب ملكاً) وغيرها[1] . فالرجل والمرأة كلاهما على السواء ، منطلق الى رغباته الشهوانية في عنف ، والآلهة في مقدّمة الناس الى هذا الاتجاه . وهي حياة قوامها انتهاك الحرمات واغتصاب كل واحد لزوجة الآخر ، او اتفاق الحبيب والزوجة على قتل الزوج ، ثم تعود الكرة فتبحث الزوجة عن حبيب آخر لقتل الزوج الجديد ، والمرأة الأغريقية فاجرة بالغة غاية السوء مستسلمة للرذيلة ، مدفوعة في نهم غريب الى اللذات والى الشهوات والى القتل والتآمر ، دون ان تعرف الحب العفيف او الغرض النبيل .

وقد صوّر كلا الأدبين العربي والأغريقي حياة مجتمعيهما وكشف عن هذه الفوارق الكبيرة بينهما .

* * * *

ومن هنا اتسم الأدب العربي بطابع الصدق والواقعية والإيجاز والبساطة ، وحفل بالتفاؤل والتطلّع الباسم الى الحياة والإيمان بالغد ، والاتصال بالحياة في صراحة دون اختفاء أو مواربة او التماس للرمزيات أو الأساطير او الخرافات . بينما لجأ الأدب الأغريقي الى الهروب من واقع الحياة الى الصور الغريبة التي تضرب في بيداء الوهم والتعلق بالآلهة : الهة الخصب والزراعة ، والهة الخمر والهوى ، والهة الحب والجمال . وهي آلهة تتصارع وتتقاتل على اللذات وتفعل الفاحشة والجريمة على السواء .

(١) راجع القسم الأول من هذا الكتاب

ويرجع ذلك النضوج والواقعية العربية الى آفاق الاسلام الذي نقل إليها العرب فأوقفهم على جادة العقل والنظر والتجربة ودعاهم الى البرهان.

وأعطى الطبيعة الإنسانية ذلك الإيمان العميق، والصدق، والصراحة، وأبعدها عن سراديب الخرافات والوثنيات والأساطير، ومنحها تلك النفس المشرقة المؤمنة العامرة بحب الخير والمروءة والشهامة، وأحياها في التجربة الواقعية فأنتج أدبها صورة حقيقية للحياة، صادقة بعيدة من الأوهام، خالية من الزخارف والطقوس والاستعراضات الحافلة بالطبول والمزامير والبخور والشموع والتهاويل.

ولم تكن وثنية الجاهلية إلّا وثنية ساذجة، قوامها الكهانة وعبادة الأصنام والأوثان. ولم تكن لها تلك الفلسفة الجريئة التي عرفها الأدب الأغريقي.

نقول هذا في مواجهة المحاولة الخطيرة التي تجري منذ أكثر من خمسين عاماً لإغراق الأدب العربي في تيارات الأدب الأغريقي، وإشاعة هذه المفاهيم المتحلّلة المنحرفة في الأدب العربي ومناهجه، وذلك في محاولة لاحتوائها. وإذا كان من طبيعة الأدب العربي أن يأخذ من الآداب المختلفة ما يضيف إليه قوة وحيوية، فإن من العسير التقاء الأدب العربي بالأدب الأغريقي في مثل هذه القيم التي يتباينان فيها تمام التباين: بين الإيمان والإلحاد وبين الأخلاق والإباحة، وبين الضياء والظلمة.

ومن الحق أن نقول إن هذه المحاولة لن تستطيع أن تحقق هدفها نتيجة لهذه المعارضة والمقاومة التي واجهتها ولا تزال تواجهها من مدرسة اليقظة الاصيلة ومن المدرسة التابعة لمنهج النقد الغربي على السواء.

* * * *

# الفصل الرابع

## الأدب المهجري

مقياس أصالة أي لون من ألوان الأدب هو اقترابه من مقومات الأمة وقيمها واتصاله بذاتيتها ومزاجها النفسي، فما موقف الأدب المهجري من هذه القاعدة؟ هل هو لون أصيل يمثل النفس العربية ويصدر عنها ويعبر عن مشاعرها ويلتمس خلفية من قيمها وجوهرها؟.

والواقع أن أدباء المهجر الثلاثة الكبار: جبران خليل جبران وميخائيل نعيمة وأمين الريحاني هم القادرون على الإجابة عن هذا السؤال.

لقد اعتمد الأدب المهجري على عناصر ثلاثة:

(أولاً) الحملة العنيفة على اللغة والدين ومقومات المجتمع العربي.

(ثانياً) استمد المهجريون أسلوبهم في الشعر من الشعر المنثور الأمريكي الذي يمثله وَيتمان، واستمدوا مفاهيمهم من «نيتشه» ومذهب وحدة الوجود واللاأدرية.

(ثالثاً) الثورة على الألوهية والإفراط في الإباحة وادخالها مرحلة التصوّف ومهاجمة القيم الأخلاقية في الحب والزواج.

(رابعاً) حاولوا تغيير قيم الأدب العربي بإدخال اسلوب جديد مستغرب يصادم مفاهيم البلاغة ويعلي عليها صيغة التوراة والمجاز الغربي.

(خامساً) تغلبت عندهم النظرة العالمية المغرقة في الأممية والتبعية على النزعة القومية المناضلة في سبيل الحرية والقوة.

(سادساً) الإسراف في الجانب الروماني المليء بالظلال والحالم المهوم الرمزي المغرق في العاطفة والخيال المضاد لطابع النفس العربية الجادة العقلانية.

ويمكن القول بأن المدرسة المهجرية الشمالية كانت ثمرة من ثمار الإرساليات التبشيرية التي وردت لبنان وسيطرت على وجوه التعليم والثقافة فيه، ثم كان لهذه الثمار اتصالها بالمدارس الغربية. وبخاصة مدينة بوسطن التي اتخذها المهجريون مقرّاً لهم، وهي من قديم مقر الإرساليات التبشيرية في الولايات المتحدة، فلما صدرت عن أدبها الجديد تلقفته أيدي رعاة الغزو الثقافي، وعملت على إذاعته والدعوة إليه بوصفه لوناً جديداً من ألوان الأدب العربي المتّسم بالعنصرية والجرأة، وذلك في مواجهة المدرسة العربية الأصيلة التي كان يقودها المنفلوطي وغيره من الأدباء.

* * * *

والواقع أن الأدب المهجري إنما يمثّل صرخة الغريب المهاجر المؤثر لقيم الغرب وفنون أدبه، وليس فيه طابع العربي المؤمن بوطنه وقيمه.

كما اتسم الأدب المهجري بطابع القلق والتمرّد والتحرر من قواعد اللغة ومن قيم المجتمع، والتقليد المغرق للآداب الأجنبية والمتأثر بالحملة الأجنبية القائمة على الكناية والاستعارة والموسيقى والخيال والرمزية.

(١)

ولعلّ أصدق ما يمثله الأدب المهجري ما كتبه جبران خليل جبران نفسه عام ١٩١٩ بعد أربعة عشر عاماً من بدء كتاباته عام ١٩٠٥ قال في خطاب الى أميل زيدان: إن فكري لم يثمر غير الحصرم، وشبكتي ما برحت مغمورة بالماء.

ومن الحق أن أسلوب جبران قد بهر كثيراً من الشباب وسرى سريان النار في الهشيم، ولكن سرعان ما انطفأ وفقد أثره، وذلك لمصادمته للنفس العربية

ومعارضته لمنهجها، وتضاربه مع مزاجها النفسي والاجتماعي. ذلك ان جبران كان إقليمياً مغرقاً في الاقليمية اباحياً مسرفاً في الإباحة، وقد حاول «في الكثير من نبراته محاكاة مزامير داود ونشيد سليمان، وسفر أيوب ومراثي أرميا وتخيلات أشعيا» على حد تعبير ميخائيل نعيمة عنه، حيث كان أسلوب التوراة هو المثال الأدبي الأول الذي تأثر به. فقد حفلت كتاباته بمجموعة من الصور والتعبيرات التي استقاها من الأسفار، فهو يقدم أشباه الجمل والظروف والأحوال، ثم يمزج ذلك بفن (ولت ويتمان) الشاعر الأمريكي.

كما أشار كثير من مترجمي سيرته الى أنه بعد حرمان الكنيسة له وهو في العشرين من عمره، على أثر قصيدته التي هاجم بها الأديان، اندفع في طريق إحياء أمجاد فينيقية وحضارة الكلدانيين.

وقد أشار في خطاب له من بوسطن ١٩٢٠ لصديقه نخلة الى هذا المعنى فقال إن القوم في سوريا يدعونني كافراً، والأدباء في مصر ينتقدونني قائلين: هذا عدو الشرائع القديمة والروابط القديمة والتقاليد القديمة وهؤلاء الكتّاب يا نخلة يقولون الحقيقة، لأني بعد استفسار نفسي وجدتها تكره الشرائع.

بل لقد صوّر جبران مفاهيمه وانحرافاته في مقال مطوّل استهله على هذا النحو:

«هو متطرّف بمبادئه حتى الجنون»

«هو خيالي يكتب ليفسد أخلاق الناشئة»

«لو اتبع الرجال والنساء المتزوجون وغير المتزوجين آراء جبران في الزواج لتقوّضت أركان العائلة وانهدمت مباني الجامعة البشرية وأصبح هذا العالم جحيماً وسكانه شياطين».

«قهراً عما في أسلوبه الكتابي من الجمال فهو من أعداء الانسانية»

«هو فوضوي كافر ملحد، ونحن ننصح لسكان هذا الجيل المبارك بأن ينبذوا تعاليمه ويحرقوا مؤلفاته لئلا يعلق منها شيء في نفوسهم».

«قد قرأنا له (الأجنحة المتكسّرة) فوجدناها سمّاً في الدسم»

«هذا ما يقوله الناس عني وهم مصيبون فأنا متطرّف حتى الجنون ، أميل الى الهدم ميلي الى البناء ، وفي قلبي كره لما يقدّسه الناس ، وحب لما يأبونه ، ولو كان بإمكاني استئصال عوائد البشر وعقائدهم وتقاليدهم لما تردّدت دقيقة ، أما قول بعضهم إن كتاباتي «سم في دسم» فكلام يبيّن الحقيقة من وراء نقاب كثيف ، فالحقيقة العارية هي أنني لا أمزج السم بالدسم بل أسكبه صرفاً غير أني أسكبه في كؤوس نظيفة شفافة.

«أما الذين يعتذرون عنّي أمام نفوسهم قائلين : «هو خيالي يسبح مرفرفاً بين الغيوم فهم الذين يحدقون بلمعان تلك الكؤوس الشفافة. منصرفين عما في داخلها من الشراب الذي يدعونه (سماً) لأن مِعَدهُم الضعيفة لا تهضمه ، قد تدل هذه المواطأة على الوقاحة الخشنة ، ولكن ليست الوقاحة بخشونتها أفضل من الخيانة بنعومتها ، إن الوقاحة تظهر نفسها بنفسها ! أمّا الخيانة فترتدي ملابس فصّلت لغيرها».

هذه الاعترافات الجبرانية تكشف بوضوح عن طابع غريب عن الأدب العربي وقيمه ومزاجه النفسي ، طابع دخيل مسرف في التحدّي والتشويه ، وهو ليس في الأغلب طابع النفس المنحرفة التي حملها جبران ولكنه طابع الغزو الثقافي الذي يدفع جبران ويرسم من وراء ذلك أهدافاً وغايات.

(ومع ذلك فقد سقط أدب جبران ولم يحقق النتائج التي عوّل عليها دعاة التغريب).

وإذا رجعنا الى حياة جبران نفسه لوجدنا تفسيراً واضحاً لاتجاهاته الأدبية ، وقد عرض لهذه الحياة أصدق أصدقائه «ميخائيل نعيمة» في كتابه عنه ، كما أفاض في ذلك كل الذين أرّخوا لحياته. فقد كان أبوه ميّالاً الى حياة اللهو والشراب سكيراً مرحاً ، وكانت أمّه مريضة ، وأخواته كنّ مرضى بنفس المرض الخبيث. وأنّه بدأ حياته بقراءات بسيطة فحفظ مزامير داود ولم يستطب قواعد اللغة العربية من صرف ونحو ، ثم قصد الى بوسطن ١٨٩٥ دفعاً لشقاء العيش وضيق ذات اليد مع اخيه

واختيه (بطرس وماريانا وسلطانة) حيث تعلّم اللغة الانجليزية ولم يكن يعرف من العربية إلا حروف الهجاء، ولم يلبث أن عاد الى بيروت للتزوّد من اللغة قال جبران «فأنا لا أكاد أعرف من لغة أجدادي إلّا أَلِفَها وباءها، ولا أعرف من بلادي غير مسقط رأسي، ومن الضروري لي أن أدخل مدرسة في بيروت لأتعلّم لغتي على الأقل».

ثم توجه جبران الى الأساطير والمثولوجيا، وكانت التوراة في ترجمتها العربية هي المكوّن الأوّل لأسلوبه الكتابي، وكانت التوراة قد ترجمت باللغة العامية. فلمّا التزم بها المهجريون لم يستطيعوا اعطاء الاسلوب العربي حقّه في البلاغة. ومن أجل قصورهم هذا هاجموا الاسلوب البليغ وماتت الأم وسلطانة وبطرس بنفس الداء وبقيت مريانا تخيط لتطعمه.

وكان مفهوم جبران بعيداً عن الوطنية قريباً الى الولاء الأجنبي:

ويقول أنطو ن غطاس كرم: إنه كان يؤمن بضرورة دولة منتدبة ينتمي إليها لبنان وسوريا، ويرى أن تكون الدولة المنتدبة هي الحكومة الفرنسية، ولم يشعر بالراحة إلا بعد إعلان الانتداب الفرنسي، وكان قد أجرى اتصالات مع الكثيرين في سبيل تشجيع فرنسا على الانتداب في لبنان».

* * * *

وكان جبران مريضا: فقد تزاحمت عليه الأمراض منذ وقت مبكر وحملت رسائله صراخاً عالياً منذ وقت مبكر في حسابه بما داهمه من الأمراض:

القلب يسارع في الوجيب، تسمم في المعدة، داء النقرس، الأنفاس تنقنق بها الرئتان.

ومثل هذه الشخصية بتلك الوراثيات والتكوين الاجتماعي، هي شخصية مهزوزة مريضة عقلياً واجتماعياً وجسدياً، ولا تصلح بتكوينها ولا بعقائدها لأن تأخذ مكان الصدارة أو التوجيه فيه، وإنما هو الغرور الذي صوّر له عندما كتب كتابه

«النبي» أنه هو النبي نفسه «وقد استنكر ميخائيل نعيمة : أن يصوّر جبران نفسه نبياً ولو تحت نقاب من التمويه الفني ، وليس يسع أحداً إلا أن يستكثر هذا الشطط ، غير أن حياة جبران تفسّره وتجعله غير مستغرب من مثله وإن كان في ذاته مما يستهين على حد تعبير المازني الذي يقول «ان جبران كان يشعر في سريرته بنقص ويتمرّد عليه» .

ومن اهتزاز شخصية جبران : أنه كان يدّعي أنه حاز شهادة الامتياز من كليّة الفنون الفرنسية وسمّي عضواً في جمعية الفنون الفرنسية ، ونال عضوية الشرف في جمعية المصورين الإنجليزية ، بينما لم ينل شيئاً من كل هذا . ويرى ناقدوه أنه يناقض نفسه في الإعلان بهذه الأكاذيب بينما يدّعي أنه يكره التقاليد التي يحرص عليها الناس ، فإذا هو أشد منهم تهالكاً ، ولما فتن بالفيلسوف (نيتشه) ظهر هذا الافتتان في كتابه (النبي) الذي قلّد فيه أسلوب نيتشه في كتابه (هكذا تكلم زرادشت) وقد بلغ أثر نيتشه في نفسه أنه صار يخجل من أن يكون مسقط رأسه بلدة صغيرة (بشري) في بلد صغير (لبنان) .

وكان يقول إن مثله يجب ان يكون قد ولد في بلد عظيم كالهند مثلاً ، ولذلك فإنه عندما طلب إليه (نسيب عريضة) بعض معلومات عن حياته لنشرها في مجلة (الفنون) قال إنه ولد في بومباي بالهند .

* * * *

لقد أشار ميخائيل نعيمة الى مدى فهمه للعلاقة مع الناس «أنه كثير الشكوك ، شديد الحرص على شخصيته ، يخشى ان تمس بأقل ملاحظة أو إشارة ما حتى أنه ليعادي صديقاً وفياً من أجل كلمة بريئة قد تخيل إليه أن فيها مساساً بكرامته ، ويصادق عدواً لدوداً إذا سمع منه او عن لسانه كلمة إطراء ، وبقدر ما يكره النقد من أي نوع كان يستعذب المديح مهما كان بصدده ويفعل المستحيل للحصول عليه» .

* * * *

كانت مفاهيمه في الحياة والمجتمع والأدب بالغة غاية الانحلال : فهو يجمع بين نظرية نيتشه في عبادة القوة ومعاداة المسيحية ، وبين عقيدة التناسخ وبين الدعوة الى الكتابات المكشوفة والصور العارية .

ويسجّل عيسى الناعوري لجبران[1] كلمة (اجنبي) ويقول إن (نعيمة) فسّرها بأنها اعتراف من جبران بحقارته النفسية وتصوير منه لنفسه بصورة الخدّاع الحقير.

ويجمع الكتّاب على أن أثر نيتشه في أدبه كان بعيد السوء ، وان كتاب نيتشه (هكذا تكلم زرادشت) قد أعطى جبران تلك المفاهيم المنحرفة التي أذاعها ، وزرادشت مؤسّس المجوسية ، يقول نعيمة : «ما عرف جبران نيتشه حتى كاد ينسى كل ما عرفهم قبله من كبار الكتّاب والشعراء ، وعلى قدر ما كان يطيب له أن يختلي به كان يلذ له في البدء ان يحدّث غيره عنه وأن يهدي أصحابه ومعارفه إليه ، حتى انه قال ان كتاب (هكذا تكلم زرادشت) في نظري أعظم ما عرفته كل العصور ، وما استأنسَ جبران بزرادشت نيتشه حتى أحسّ بوحدة أقصى من ذي قبل تكتنفه أينما سار وبغربة تفصله عن ماضيه الى حد انه صار يخجل أمام نفسه من كل ما كتبه وصوّره في ذلك الحين» .

وأشار نعيمة الى انه افتتح عهده الجديد بمقال أطلق عليه اسم (حفّار القبور) جرى فيها على نهج الزرادشتية . وبدأ جبران المتقمّص في جسد رجل يحب العزم والقوة ، لقد سكر جبران بزرادشت وسكر أكثر من ذلك بما قاله فازداد به شهرة في العالم العربي » .

## (٢)

وتتمثّل في ميخائيل نعيمة مطابقة لهذه المفاهيم او قريبة منها في خطوطها العامة ، بيد أن نعيمة كان فيلسوف هذا الاتجاه ومقننه ، فقد كان كتابه (الغربال) رمزاً الى هذا المفهوم الذي يسخر بالأدب العربي واللغة العربية والتراث العربي جميعاً .

---

(١) الأدب المهجري ص ٢٧٤

وقد اعترف نعيمة بأن أسلوبه في بداية حياته الأدبية لم يكن أسلوباً عربياً صرفاً، بل كانت تطغى عليه القوالب الأفرنجية والروحية بالأخص، يقول (فمطالعاتي كانت كلّها في لغات تختلف فيها قوالب البيان اختلافاً كثيراً عن قوالب العربية).

ومن هنا كانت تلك الاستهانة البالغة باللّغة العربية ومحاولة اخراجها من مكانها الصحيح لغة أمّة ولغة فكر، الى مفهوم اللغات الحية التي يجري عليها ما يجري على اللغات من تغيير وتحوير، وقد كانت مقالته (نقيق الضفادع) ممثلة لهذا المفهوم. وهذا الاتجاه الذي يعلي من شأن العامية ويرى أنها اللّغة المتطوّرة لأن اللّغة الفصحى قد دخلت في خطر التحجُّر. وقد تابعه في هذا جبران الذي قال: (لكم لغتكم ولي لغتي).

ويبدو ترابط العمل في هذا المخطّط من خلال كلمة فيليب حتي (أستاذ التاريخ في الجامعة الأمريكية في بيروت سنة ١٩٢٣) حين كتب الى نعيمة معلقاً على كلمة يقول: إنك حككت بها جرحي وترجمت عن فكري وعواطفي.

واذا كان جبران قد تقمّص النبوّة في كتابه (النبي) فإن نعيمة قد تقمّص شخصية شبيهة هي (مرداد) الذي أداره على الدعوة الى ما أسماه عقيدة التقمّص، جرياً وراء مفاهيم وفلسفات مغايرة للمفاهيم التي تأسّس عليها الفكر العربي. وقد حرص نعيمة على ترديد مثل هذه الآراء والدعوة لها، وخاصة في كتابه (الأرقش)، ومن بعده في كتابه (مرداد).

وقد سُئِلَ نعيمة: عن موقف هام في حياته فقال: إن هذا الموقف يوم عرف عقدة التقمُّص. فإذا أضفنا إليه مفهومه لوحدة الوجود، رأينا ذلك التشنابه واضحاً بينه وبين جبران.

أمّا موقفه من العالمية والقومية فهو واضح، إن ذلك الموقف الأممي القلق، الذي يتمثّل فيما يردّده دائماً: يريدون ان يجعلوا في الحياة عوالم، ما هو العالم العربي، إنه نقطة في بحر الإنسانية، وهو يطلق على وحدة الأمة العربية الهوس القومي ويقول: ليس وراءه إلّا تمزيق نفس الإنسان.

وهذه كلّها مفاهيم باطنية مشبوهة لا تستهدف إلّا القضاء على كيان الأمة العربية، وإغراق الأدب العربي في بحر الأمية.

يقول عيسى الناعوري: تتلخّص فلسفة نعيمة في كلمة هي وحدة الوجود، إنها تعني الفناء المطلق في الله، والفناء المطلق في الإنسان، والفناء المطلق في الطبيعة. أي فناء كل شيء. والفناء عنده أقصى درجات المحبة.

وإذا كنا نقول (الله — الإنسان — الطبيعة) فهذه كلّها تعني شيئاً واحداً، هو الحقيقة الكبرى او الوجود الأعظم، فهي مترادفات لمعنى واحد. وما دام الوجود كله واحداً غير منفصل فليس هناك الله و إنسان، فالله هو نحن ونحن الله لأننا منه الجسد وهو فينا الروح».

وهذا الكلام الذي يردّده نعيمة والناعوري وكان يردّده جبران وغيره، معارض معارضة أساسيّة لكل مفاهيم الفكر العربي والأدب العربي الذي لا يقبل ذلك المفهوم الوثني البرهمي المجوسي الذي تبثّه بعض الفلسفات والعقائد، في مفهوم الفكر العربي لا يوجد تداخل بين الله وبين الكون. فالله هو الخالق واجب الوجود والكون هو المخلوق وهو ممكن الوجود، ولو قبلنا بوحدة الوجود لا نبقي اكبر قواعد العقائد العربية الإسلامية وهي البعث والجزاء والمسؤولية الفردية.

ومن هنا يبدو مدى خطر هذه الآراء على مسيرتنا الفكرية والاجتماعية، ويبدو تباينها العميق مع القيمة التي قام على أساسها الأدب العربي، واختلافها مع المزاج والقيم والعقائد والجزاء والمسؤولية الفردية.

ومن هنا يبدو مدى خطر هذه الآراء على مسيرتنا الفكرية والاجتماعية، ويبدو تباينها العميق مع القيم التي قام على أساسها الأدب العربي، واختلافها مع المزاج والقيم والعقائد العربية الإسلامية.

وهذه هي فلسفة مدرسة المهجر المنحرفة عن أصول الأديان والأخلاق والنظم الاجتماعية.

اما الدعوة الى العالمية أو ما يسمونه الإنسانية او الأممية فإنها دعوة ضالة ، تريد ان تقضي على مقومات أمّتنا في أشد المواقف خطراً وأقسى ما مرّ بها من أزمات تجاه النفوذ الأجنبي والغزو الصهيوني ، فإن الدعوة الى الانسانية إنما تعني تقبّل الانصهار في الحضارة الغربية والفكر العالمي ، وبذلك تضيع شخصيتناوينمحي وجودناوكياننا الأصيل الواضح الممتد في التاريخ خمسة عشر قرناً.

وهذا ما يعنيه نعيمة ودعاة مدرسة المهجر.

ومعنى هذا أن المعاني التي ردّدها نعيمة وجبران لا تتّفق مع ذاتية الأدب العربي ، وأنها ممّا يرفضه مزاج الأمّة العربية وإن بلغ حماسهم له آخر مداه ، وقد أثبتت هذه السنوات الطويلة التي تزيد عن سبعين عاماً عن فشل هذه الدعوة وانهيارها.

(٣)

أمّا أمين الريحاني أحد أقطاب مدرسة المهجر فهو أول دعاة الشعر المنثور متأثراً بالشاعر الأمريكي وولت ويتمان ، هذا الأسلوب الذي تخلّى عنه من بعد وتصدّى له جبران ، ولا شك ان الاتجاه الى الشعر المنثور كان جرياً وراء أسفار المزاق والتبوعات ، وكان هدفهم هو القضاء على عمود الشعر بالخروج عن الأوزان والقافية والأبحر.

ويحمل أمين الريحاني نفس مفاهيم صاحبيه في حملته على العقائد والأخلاق ، وإن عرف برحلاته في العالم العربي ومقابلاته لملوك العرب ، والمعروف ان الريحاني حين قام برحلته الى العالم العربي كان يحمل توصيات الى القناصل الانجليز لمساعدته إذ كان يحمل لواء الدعوة الى حلف عربي يجمع ملوك الحجاز ونجد واليمن في امراطورية عربية واحدة.. وكان هذا المشروع إذ ذاك من آمال بريطانيا لمواجهة النفوذ الفرنسي الذي كان يزداد في سورية ولبنان.

وقد كان بأس المهجريين بينهم شديداً ، فقد كشف نعيمة عن حقيقة جبران وأمانيه عن نفسه :

وقد كان الريحاني كجبران : عندما سافر الى أمريكا سنة ١٨٨٨ لم يكن يعرف غير اليسير من العربية يقول (ما كان في ذهني من العرب وأخبارهم غير ما كانت تسمعه الأمهات في لبنان صغارهنّ «التخويف من الاعراب») فهاجرت من وطني وفي صدري الجوف من أن أتكلم لغتهم ، والبغض لمن في عروقي شيء من دمهم[1] .

وكان جبران على مثل هذا البغض يجحد العرب ويحتقر تراثهم كما يقول الناعوري[2] . وما كان يمكن لمثل هؤلاء أن يؤمنوا بلغتهم أو وطنهم وهم يحتقرونها كل هذا الاحتقار. والمعروف ان المهجريين اعتمدوا لغة التوراة وهي ترجمة ضعيفة حرص أصحابها على وضعها في العامية وكرهوا وضعها في الفصحى ، وإن هذا قد زحزح أذواقهم عن الديباجة العربية ، وكذلك كان الخلاف شديداً بين الريحاني وبين جبران ونعيمة : فقد كان الريحاني ينعي على جبران ونعيمة هدر طاقتهما الأدبية في فلسفات روحانية ، بينما الأوضاع العربية في حاجة ملحّة الى الإصلاح ، كما ذكر جورج صيدح في كتابه (أدبنا وأدَباؤنا في المهاجر الامريكية) . وعندما اتّجه الريحاني الى الكتابة القومية كان يركز هجومه على الاستعمار الفرنسي دون الانجليزي ، وقد اختلف معه إيليا أبو ماضي واتّهمه بالتجسُّس للانجليز (ص ١٧٩ — نعيمة : سبعون ج ٢) ولكن الريحاني متّفق مع صاحبيه في آرائهما في مهاجمة اللغة العربية والعقائد والأخلاق الاجتماعية.

وخلاف جبران والريحاني إنما كان خلافاً بين ولاء جبران للفرنسيين وولاء الريحاني للبريطانيين.

بل إن عبارة الريحاني «قل كلمتك وامش» لا تمثل المزاج العربي أو طابع الفكر العربي ، الذي يؤمن بأن يقول الكلمة ويدخلها مرحلة التنفيذ.

---

(١) من خطابه الى البرت الريحاني ص ١٥/١٦ رسائل أمين الريحاني

(٢) شعراء المهجر ص ٣٦٩.

(٤)

وأخطر ما دعت إليه النزعة المهجرية الوافدة على الأدب العربي محاولة تحويل الجنس الى نوع من القداسة وتحويل الشهوة الى صوفية فقد قام أدب جبران زعيم هذه المدرسة على ثلاث دعائم :

(لذّة الجسد ــ الحب الشهواني ــ المرأة العارية) .

وقد تأثر في ذلك على حد قول النقاد بمزامير داود والحياة في باريس ، ومن ثم أعلن سخريته بكل القيم والمثل ودعا الى الاستسلام لسلطان الغريزة والعاطفة الجنسية :

وقد راجع كثير من الأدباء آثار جبران ، وأجمعوا على أنّه يتميّز بعدم الاكتراث للأخلاق في بحثه عن لذّة الجسد والخروج عن قواعد الدين ، وقال عنه الأب الزغبي : انه يهدم صرح الديانة المسيحية وينبذ جميع الأديان ، وأنه كثير الآلهة ، ولكن ليس الله بينها ، وان يدين بمذهب عبودية العقل والآراء للشهوة الحيوانية ، وانه هادم للسلطة المدنية والسلطة الدينية والأسرة ، وانه دعا في كل كتاباته الى (الحب المحرّم ، والعشق السري ، والفحش) :

يقول : أجل : جبران ينادي بحلاوة المرأة العارية ولذة طعمها ، وما هذا سوى الشهوة الجسدية المتجسّمة . ويصرّح بأن الجنة قائمة بهذا الحب ، وانه يدعو الى احياء الغرائز ، وتغليب الحب الجنسي . ويرى الباحثون ان هذا الأدب لا يستأهل الخلود ، لعدم ترفعه عن الاستسلام للشهوة المحرمة .

ويقول الأب الزغبي : ان جبران هو مصور الأجسام العارية وكاتب الشهوة المطلقة من كل قيد ، ولا عبرة عنده بالعقل ولا بالواجب حتى يصطدم الهوى بذلك الواجب ، وليس في موسيقى الأدب الجبراني سوى طبول تدوي عن فرع اصواتها وتذيع ضجة البلاغة اللفظية ، والكلام الطنان الذي يؤثر بالأذن تأثيراً قوياً ويصل بالإنسان الى عالم الدوخة والاندهال ، ولا وجود فيه للأنغام العميقة المركّبة في كثرة

النفسيات المتشاحنة حيث تبرز واحدة من هذه النفسيات وتتغلّب على غيرها تغلّباً أخلاقياً.

فهو معجب بالزوجة التي تركت زوجها، واتبعت قلب حبيبها، طروب بالاتصال الجنسي، شفيق بالمرأة المستسلمة الى خادمها المفتري، هذا جبران الذي يسكب السم الأخلاقي في كؤوس نظيفة شفافة، على حد تعبيره. إن معظم كتّاب الغرب في موضوع الميول القلبية والشهوة الإنسانية وتكريسها لم يبلغوا من الفساد الأخلاقي والإباحة ما بلغه الأدب الجبراني فهو قد حوّل مزامير التوراة من دعاة الفضيلة الى دعاة الرذيلة، وفي كتاب (النبي) يصوّر جبران نفسه على أنه المصطفى المختار الحبيب[1].

وقلب جبران لا يعتقد إلّا بالانسان وجمال جسده العاري وشهواته وأسراره، وجبران دينه «الجسد» الذي بشّر به في العالم العصري فلاقاه أبناء العالم الجديد ريحانة فتانة وافقت ميولهم حين يقول لهم ثيابكم تحجب الكثير من جمالكم، ولكنها لا تستر غير الجميل. يا ليت في وسعكم ان تستقبلوا الشمس والريح بثياب بشرتكم عوضاً عن ثياب مصانعكم (النبي ص ٤٦) ولهذا كلّه اهتم الغرب بأدب جبران ونشره وأحاط شخص جبران بتقدير عجيب وخاصةً حين أعلن جبران صراحة أنه يكتب لنفس الناشئة، وكان لأدب جبران هذا أبعد الأثر فعلاً في جيله، وخدم به الغزو الثقافي خدمات لم يكن في مستطاع التغريب تحقيقها لولا كتابات جبران، فقد عمل في (سبيل تهديم الأخلاق ونسف أركان الدين وتحطيم قيود الشريعة) عملا ضخماً بارزاً، ولقد حاول النفوذ الاستعماري المسيطر على الأدب العربي أن يحيي جبران بعد موته، وأن يبعث حوله هالة من القداسة لتواصل آثاره طريقها في نفوس الأجيال، ولكنه عجز عن تحقيق هذا الأثر، وسرعان ما مات أدب جبران وسقط، ومن الحق ان الأدب العربي بأصالته وذاتيته الخالصة قد أسقط جبران وأحيا المنفلوطي منذ اليوم الأوّل الذي تصارع فيه الأدبان.

---

(١) أمين خالد ــ الجوهر الفرد في أدب جبران م ٣٠ ص ٤٢٥ المشرق.

فقد كان أدب جبران هو أدب التوارثية والغيبيّات والميوعة والظلال ، وهذه ألوان لا يتقبّلها الأدب العربي في بساطة ويُسْر، أمّا أدب المنفلوطي فقد كان مستلهماً من مزاج الأمة العربية والنفس العربية الإسلامية قائماً على أساس البلاغة القرآنية التي تمثّل الأصالة في مسار الأدب العربي وتطوّره عبر العصور وحتى العصر الحديث .

أسلوب جبران أسلوب الخيال والإباحة والهدم ومعارضة الأخلاق والعقائد ، فهو معارض لطبيعة النفس العربية والمزاج العربي ، أما أدب المنفلوطي فكان موازياً لهذه النفس ، حتى قيل : إن قلب جيل كامل من دمشق الى فاس قد خفق من خفقات قلم المنفلوطي .

ومهما يكن القول في منهج المنفلوطي اليوم فإنه يمثّل في هذه الفترة البعد القرآني الإسلامي العربي الأصيل الذي شدّ جماهير المثقفين والأدباء وأسقط الاتجاه المهجري المسرف في الخيال والغربة والسخرية بالقيم واللّغة والأخلاقيات .

غير أن هناك عاملاً هاماً لا يمكن إغفاله ، كان بعيد المدى في تزكية الأدب المهجري واعلانه هو أن الصحف المصرية كانت في أيدي المارونيين اللبنانيين دعاة التغريب (المقطم والأهرام والهلال والمقتطف) وكانت جميعاً تعلي من شأن المهجريين، وتزجي انتاجهم الهابط في مواكب من الإعلان والتفريط .

ولقد كان أسلوب الشاميين في مصر والمهجريين في بوسطن ، مما لا يرضي الذوق العربي ، وقد سجّل ذلك هاملتون جب في تقريره حيث قال :

إنهم لم يكن باستطاعتهم ان يفعلوا ذلك ، وعجزوا عن ان يحلّوا المشكلة النفسية لأنهم كانوا نصارى ، كما عجزوا عن ان يحلّوا المشكلة الأسلوبية ، ثم قال : ان أصول الأسلوب العروبي العربي قد صاغها العرب على غرار النماذج العربية الإسلامية ، وعلى رأسها جميعاً القرآن الكريم والحديث[1] .

---

(١) ص ٣٣٨ من كتاب (دراسات في حضارة الإسلام) (دراسات في الأدب العربي) .

وقال جب : إن المحافظة الدينية عند الجيل الأوّل من الكتّاب كانت مرتبطة ارتباطاً وثيقاً بتراث الأدب العربي بأجمعه بحيث لا يتيح أي تبسيط مهما كان نوعه.

وقد شهد (جب) لأثر كتابات المنفلوطي في جيله حين قال : ليس من العسير علينا ان نفسّر انجذاب القرّاء المصريين الى (النظرات) ذلك أن الأدب العربي لم يشهد من قبل مثل هذه المقالات ، وقد لقيت بأسلوبها وموضوعها وطريقة العرض فيها إقبالاً سريعاً من القارىء المصري[1].

وأعلن جب رأيه في الفارق بين الكتاب العرب المسلمين وبين كتّاب المهجر حين قال : من النادر أن تجد أديباً مصرياً مسلماً ذا شأن يتنكر للماضي الإسلامي تنكراً تاماً كما يفعل الكتاب السوريون المتأمركون.

* * * *

ولقد حاول الجبرانيون شنّ حملة عاصفة على المنفلوطي في حقد وشراسة ، لأنه هدم الاسلوب المهجري وأسقط جبران ، ومن ذلك ما يسوقه مارون عبود في كتابه (جدد وقدماء) حين يقول «المنفلوطي جدول يخرخر ونهر ثرثار تقطعه غير خالع نعليك ولا تشعر» ، وهو لا يجهل حين يقول ذاك أن جبران ليس إلا فتنة من فتن المعارضة للعروبة والأخلاق والأديان وكل القيم.

ونسي مارون عبود وغيره ان المنفلوطي حين أشرق قد كسف شموساً كثيرة ، ودخل تحت جناحه كثيرمن الذين أعجبهم بريق جبران الخاطف ، من الذين انفضوا عنه حين اكتشفوا معارضته للنفس العربية ومضادته للمزاج العربي.

وأن بعض اللبنانيين قد اتخذوا من مهاجمة المنفلوطي نهجاً متعصّباً للأقليمية وللفينيقية أكثر منه نقداً منهجيّاً علمياً ، وكانت خصومتهم قائمة على التعصّب ونعرة الجنس ، وهؤلاء هم دعاة لبنان الفينيقي المضاد للعروبة وفكرها.

---

(١) ص ٣٤٢ نفس المصدر.

ولقد صدق نعيمة حين قال : إن حياة جبران أقرب الى الوثنية اللبنانية العريقة منها الى المسيحية الطارئة.

(٥)

ولقد ذهب بعض أتباع مدرسة النقد الغربي الى خلق هالة من القداسة حول جبران ، وتداعت المقالات والكتابات تصل بينه في المقارنة وبين شوقي ، وتحاول أن تفضله على السابقين واللاحقين في غرور وقحة.

واني لأذكر كيف واجه أحد كتّابنا هذا المعنى حين قال : جبران بشر مثلنا ، ولد في بشري من ذكر وأنثى عام ١٨٨٣ أمه كاملة بنت الخوري اسطفان رحمة وهي أرملة لا عذراء ، إن ميخائيل نعيمة الذي عرف جبران وآكله وشاربه أراناوتراب جبران لا يزال مبلّلاً بدموع الباكين أنه رجل مادي يبيع بالمال كل شيء حتى جسده ، ويشتري بالمال كل شيء حتى الحب[١].

أما الدكتور عبد الكريم الأشتر الذي تخصّص في دراسة النثر المهجري فيرى أن جبران ابن أب سكير ورث بدوره الإدمان عن أبيه ، وكان عمّه أيضاً مدمناً كثيراً ما يغلبه السكر فيتضرج في بشري في الأقبية الممتدّة على جانبي الطريق العام فينقل الى بيته ولا يصحو إلا في صباح اليوم التالي ، وتتجوّل في الأسرة جرثومة السل التي صرعت أخته وأمه وأخاه في بوسطن.

ولقد كانت صحّته مشوّشة بشهادته في خطابه الى نعيمة ، ونظرته الى الحياة ليست نظرة الإنسان السوي ، الحياة من حوله مصفرّة شاحبة كلّها زفرات حزن متّصل ، نظرة تشاؤم ، ظلال سوداء ، غيوم كثيفة ، ضباب ، وقد عرف بالتمرّد على الدين : مع الإلحاد والشك واضطربت شخصيته بعد اتصاله بنيتشه ، كل هذا عطّل نموّه وفجّر طاقاته في مسالك مسدودة فضاع.

وقد خالط كل هذا عنده شيء من النرجسية والغرور والتعالي بكرامة موهومة.

---

(١) من بحث للاستاذ علي الطنطاوي.

لا يقبل النقد ، ويتعالى عن الرؤية الصحيحة ، وله خيال مغرق ، فيرى انه نبي مُرْسَل يحمل رسالة علوية حتى اعتقد أنه رسول بَعَث به الشرق هادياً لأبناء الغرب ، ويسميه إلياس أبو شبكة (المسيح الجديد) وكتب على قبره (هنا يرقد نبينا جبران).

وقد عاش بين واقعه الشهواني المسرف وبين الطبيعة السوية ، ولعله كان يغطي نقصه الجسدي في هذه الصورة المغرقة في تصوير عرامة الشهوات ، ولعل هذا هو سر انصرافه عن حب مَيّ ، الى حرمانه من الصلة الجنسية التي كانت تدفعه الى أن يدق أبواب الشهوات بقلمه باسم التعويض والتغطية.

وقال عنه الياس زغبي : انه يهدم صرح الديانة المسيحية وينقد جميع الأديان وانه مدين بمذهب عبودية العقل والإرادة للشهوة الحيوانية ، وأنه هادم للسلطة الدينية والأسرة.

وقالت عنه صديقته بَرابَرَة يونج : إنه كان لا يرتاح لقامته القصيرة التي لا تزيد عن ١٦٠ سنتيمتر ، وأنه لم يستجب الى اللحظة الأخيرة في فراش الموت الى الكاهن الماروني الذي أراد إقامة المراسم الدينية له . وقالت ان جُبران عندما صور «الإنسان» خلع عنه وِشاح الآلهة فهو جسد وحسب.

وقد وصف أمين الريحاني أدب جبران بانه (Namkisk sentimentaliem) اي أنه مقزز كريه المذاق «أو (عاطفة مائعة تتصنّع الرقة) أو (عاطفة مائعة كريهة المذاق) ووصفت ماري هاسكل المهجريين بأنهم جماعة من السوريين واللبنانيين العاملين على بث روح جديدة في جسم الأدب العربي ، ونحن نقول لها إن الأدب العربي قد رفض هذه الروح الضالة!

وعندما ننظر الى الأدب المهجري بعامة نجده واضح العجمة والركاكة ، بعيد عن أصالة الأدب العربي في أسلوبه وفي مضمونه حتى قال عنه الدكتور محمد صبري :

تتجلّى العجمة والركاكة في أساليبهم التي كشفت عن سقم الخيال والمعاني ، وهي ماثلة كالهيكل العظمي.

وقال كراتشوفسكي : ان لغة الريحاني ليست مما يستحسنه النقّاد العرب، والكثيرون منهم يشجبون شذوذه الظاهر بالإجمال وخضوعه لطرق التعبير الأوربية بوجه خاص.

ويقول مؤلف كتاب (تطوّر النقد والفكر) أن المهجريين قد صدروا عن معان أوربية فحرّكتهم، إلا أن ضعف مادتهم أقعدتهم عن أن يلبسوها كفأها من الأساليب العربية.

ويشير المؤلف الى كلمة جبران : لكم لغتكم ولي لغتي، لكم من اللغة ما شئتم ولي منها ما يوافق أفكاري وعواطفي فيقول : إن جبران يطرد في حديثه منتهجاً سبيل الإنجيل في موعظة الجبل ومتقمّصاً شخص زرادشت مع نيتشه في هداية الناس الى حقيقة الحياة إلّا أن الجبة التي استعارها جبران نيتشه كانت فضفاضة لا تليق به على حد تعبير نعيمة.

ويشير المؤلف الى أن جبران والريحاني يثوران على اللّغة العربية وقواعدها والعروض والأوزان والبلاغة وفنونها، ويرى أن ذلك تبرير لضعف لغتهما، وإن حاولا ذلك في نهج منطقي مخادع، وأنهم يستخفون بالقواعد وبذلك خرجت عباراتهم عن أصول اللّغة[1].

وقد ردّ الرافعي فقال ان وجودهم دليل على ان الأدب أصبح صحفياً، وأن العربية آلت الى بضع كتب مدرسية : ومن عبارته قوله «وإذا أنت لم تجد في كل علماء المتقدّمين من استطاع أن يقول إنه صاحب مذهب جديد في اللغة فإنك واجد في أهل سنة ١٩٢٣ من يقول في اللغة بعينها «لك مذهبك ولي مذهبي ولك لغتك ولي لغتي».

ويقرّر الدكتور حلمي علي مرزوق : أنه قد مات كل هذا الشعر الذي نشروه في المقتطف وغيره، وماتت النظرية نفسها، ولم يستطع الأدب العربي في أصوله ومزاجه وطابعه أن يتقبّل هذا الاتجاه بل صهره في بوتقته.

(١) تطور النقد والفكر : دكتور حلمي علي مرزوق.

ولقد كانت محاولة المهجريين والسوريين—جبران والريحاني وعخوري وجرجس شاهين وجرجي عطية ونقولا رزق الله—القضاء على طوابع المتنبي ومفاهيم الشعر ومناهجه، وإدخال هذه المفاهيم الغربية اللتمنية، وحاول شبلي شميل أن يستعمل الشعر في تصوير النظرية الدارونية او رصده للمبادىء الاجتماعية والفلسفية، وقدمت مدرسة المهجر: الغموض الصوفي والتعبيرات ذات الظلال والاضطراب والبعد عن الوضوح، وحاول جبران تأكيد القيم التي انعصر لها في وردة الهاني وفي الاجنحة المتكسّرة، وهي تحبيذ الانحراف الخلقي وتزيينه للمرأة، هذا الطابع من التمرّد والإباحة لم يلبث أن ووجه بمعارضة شديدة، واعتراف جبران بأنه يدعو فعلاً الى هذا السم الذي يدسّه في عبارات.

غير أن تنكّب الديباجة العربية والضحالة اللغوية والانحراف الفكري، كل هذا مما يرفضه الأدب العربي وتأباه ذاتيته ومزاجه.

وقد كانت مفاهيم الأصالة قائمة ترفض مثل هذا الزيف وتعلي عليه كل أصيل.

* * * *

ويمكن القول إن الأدب المهجري قد كشف عن زيفه (أوّلاً) حين انفصل عن قيم الأمة العربية والأدب العربي في البلاغة والاسلوب وموقفه من اللّغة العربية، وحاول النيل من اللغة العربية وإشاعة طوابع الظلال والأضواء والرمز، وهي بعيدة عن طابع اللغة العربية وأدبها الصريح الواضح (ثانياً) حين اتصل بقيم الأدب الغربي وفلسفته المادية والإباحية، فأعلى من شأن وحدة الوجود واللاإرادية، وفلسفة نيتشه النيو صوفية المستمدّة من الأفلاطونية الجديدة، ومذاهب الكشف الجنسي، وذلك حين أسرف نسيب عريضة في ترديد فكرة الصراع بين النفس والجسد والانتصار للجسد على الروح، ودعوة (ميخائيل نعيمة) الى فناء الذات والحلولية ودعوة (ميخائيل نعيمة) الى اللاإرادية، وقد برز واضحاً من خلال إنتاج هذه المدرسة: احتقار القيم العربية والعقائد والروحية مع الدعوة الى الكشف والعري

والإباحة والانفصال عن القيم الوطنية والقومية والهروب من الواقع ، والإيمان واتخاذ الأممية أساساً لفكرة الدعوة الإنسانية مع الاقليمية والخصومة للدين والأخلاق.

ولقد أسرف الذين تحدّثوا في مهرجان جبران وغالوا في محاولة تصوير أثره ، حيث كانت كل الدلائل والوقائع تكذبهم ، ولكنهم صدقوا حين قالوا إن جبران كان ثورة على القديم وعلى كل الأشياء التي تربطنا وتشدّنا الى الماضي (على حدّ تعبير فرنسيس وارنه مدير مسرح صمويل بكت في لندن) ومن الحق أن جبران حاول الهجوم ـــ كما حاول الجبرانيون والمهجريون الشماليون على كل هذه القيم عن طريق الثورة والتمرّد والعصيان ، ولكنها كانت زوبعة في فنجان ، لم تخلف إلا رماداً فقد احترقت هي نفسها مع النار التي أوقدتها.

لقد حاولت مدرسة المهجريين إحياء العرقية الفينيقية الوثنية ، ومهاجمة قيم الوحدة العربية وقيم الفكر العربي الأصيل الممتدّ الى أعماق التاريخ ، فأعادت وأحيت كل ما ردّدته فلسفات زرادشت والمجوسية ووثنية الهند والفرس القديمة بالإضافة الى وثنيات اليونان والرومان هرباً وراء فرويد ونيتشه وغيرهما ، وكان هذا كله مصاغاً في إطار التوراة وأسلوبها من خلال المزامير وأسفار الجامعة ونشيد الانشاد وسفر أيوب ،. ودخيلاً على الأدب العربي ، وعلى الذوق العربي ، وعلى المزاج العربي ، ومن هنا كان سقوطه واندحاره.

ولقد حاول الدكتور محمد زكي العشماوي رصد هذا حين قال : «كان الأدب المهجري مخدّراً ومغيباً للنفس العربية والعقل العربي عن الجهاد في سبيل مقاومة الغاصب وعاملاً من عوامل الاستسلام في براثن الفكر الغربي والغزو الثقافي ، ومن هنا فإن مدرسة المهجر لم تجد أثراً إيجابياً في العقل العربي أو الروح العربية ، ومن العجب ان مستر جب في تقريره عن الأدب العربي اطلق على المهجريين اسما يفصلهم عن الأدب العربي الأصيل عندما وصفهم بـ(السوريين المتأمركين) «ولقد جرى على الأسلوب بعض أتباعهم هنا في العالم العربي من أمثال :

الكاتبة مي ، وحسين عفيف ، ومحمود حسن اسماعيل :

ولكن هذا اللون لم يثبت إلا حين انصهر في البلاغة العربية وأصبح جزءاً منها. كما ظهر ذلك في شعر محمود حسن اسماعيل وابراهيم ناجي وكامل الشناوي.

وقد بلغ الأمر أن تساءل بعض النقّاد عمّا إذا كان ما يقوله المهجريون هو دين جديد له لغة وفلسفة ومفاهيم في الأدب العربي والمجتمع، وأنه أشبه بالدعوة الباطنية التي حمل لواءها (إخوان الصفا) والذين كانوا دعاة لهدم الدولة العربية الإسلامية.

وقد تبيّن أن النفس العربية بأصالتها وذاتيتها لم تتقبل من هذا الأدب الا رسوماً قليلة هضمتها، وحوّلتها الى بوتقتها وإن لم تتحوّل هي للانصهار في هذا الأدب كما كان يظن دعاة التغريب والغزو الثقافي الذين آزروا آثار هؤلاء الكتاب وأذاعوها.

ومنذ الثلاثينات ظهرت أصوات عالية هاجمت جبران ومدرسة المهجر لمحاولتهم إغراق العالم العربي في الأوهام والصور المظللة والأشباح، وإبعاده عن قضيته الأصيلة، قضية الحرية، والدعوة الى الوحدة والصدق وأدب المقاومة، وذلك بإطلاق هذه الصور المهومة الصوفية في الجنس والإباحة.

* * * *

(٦)

## الهمس في الأدب المهجري

من بين الألوان التي حاول (الأدب المهجري) المستمدّ من الأدب الأمريكي أصلاً، إدخالها الى الأدب العربي هذا اللون الذي أُطلِقَ عليه (الهمس) والذي حاول بعض الكتاب ان يعتبره ظاهرة جديدة في الأدب العربي الحديث حين عرضوا لبعض نماذج مَن كتابات: أمين مشرق ونسيب عريضة محاولين القول بأن أدباء المهجر هم شعراء اللغة العربية، وقال الدكتور مندور إن الهمس في الشعر ليس معناه الضعف.

وقد هوجمت هذه الظاهرة من الأدب المهجري على أساس:

ان «الحزن والانين» يعارض طبيعة النفس العربية والمزاج العربي الجيّاش. وان هذه النماذج التي اختيرت يمكن أن يُطلَق عليها الأدب الحنين الذي تحسُّ فيه بالحنيّة والهمس او الوداعة الأليفة.

هذا الأدبُ الحنين يكون فيه الصادق السليم وقد يكون فيه الكاذب المريض. فإذا نحن جعلنا همّنا ان نهمس فقط، وأن نكون وديعين أليفين، وأن تكون (الحنيّة) هي طابعنا فقط، فأين نذهب بالأنماط التي لا تعد من حالات الشعور وحالات النفوس وحالات الأمزجة.

فهو يسمّي شعر المتنبي شعراً خطابياً ويعني أن المتنبي لا يهمس، ويقف معجباً أمام صورة الجندي الذي تصوّره (ميخائيل نعيمة) حين يقول:

أخي إن عاد بعد الحرب جندي لأوطانه
وألقى بجسمه المنهوك في أحضان خلّانه

أي خطأ يتتظرنا حين نطالب المتنبي العارم الطبع الصائل الرجولة بأن يحدثنا في وداعة كوداعة ميخائيل نعيمة. ان المتنبي لصادق أجمل الصدق وهو يجلجل ويصلصل في شعوره وفي أدائه لأنه هو هكذا من الداخل[١].

وان جميع النماذج التي وصفت بالشعر المهموس هي من اللون الذي يشيع فيه الأسى المتهالك المنهوك.

وذلك توجيه مؤذٍ يكاد الدافع إليه أن يكون دافعاً مرضياً، وهو ما يدعو الى الحذر الشديد.

ومن ذا الذي يقول ان الهمس او الوشوشة في الطبيعة اصدق من الجأر والجهر، إن بغام الظباء، ليس آصل في الحياة من زئير الآساد، وإن خرير الجدول ليس أعمق في النفس من هدير الشلالات.

---

(١) الرسالة والثقافة مجلدات ١٩٤٣

وكل مقاييس الفنون تنكر ان يكون (الهمس) أجمل وأصدق وأعمق، بل «حالة» لا تلجا إليها الطبيعة والحياة إلّا في فترات الراحة من عناء الضجيج، وان الدنيا لحفية بالهامسين والجاهرين، وأن المزاج العربي ليس موكلاً بالأحاسيس الصغيرة الهامسة، والأطياف الباهتة، والهمسات الخافتة، والأدب المهموس قد يكون محبوباً كلون من الأدب، مع وجوب التفرقة بين الصحيح والمريض، لكن الحياة ليست مطالبة أن تحيل الفنون جميعها همساً؛ لأنها لا تستطيع أن تحيل الطبيعة كلها الى همسات خافتة او حشرجات لاهثة. فالحياة أكثر من ذلك وأعرف بقيمة الأنماط المختلفات.

وان طبيعة الأدب العربي تتعارض مع الشخصيات المهموسة التي لا تجهر مرة واحدة في حياتها والتي تتردّى دائماً وتتضاءل وتتفانى وتخنس والتي يتوافر فيها الحنان والحنين في همس واستخفاء[1].

ولا شك ان الدعوة الى الهمس وإذاعتها هي جزء من خطة «تنيير» طوابع الأدب العربي عن أصولها وقيمها، اما هذا الهمس فهو مستمدّ من الآداب الغربية ذات الأصول الأغريقية والوثنية.

أمّا الأدب العربي فقد عرف الأصالة والقوة والوضوح، كطابع عام، لا مانع من ان يستثني منه حالة او حالتين للشاعر في بعض ظروف الحياة يبدو فيها الهمس او الرمز او الغموض، ولكن ذلك لا يشكّل طابعاً عاماً في شاعر بذاته او في النفس العربية.

وقد طبع أدب المهجر بطابع مغاير لذاتية الأدب العربي لسببين:

السبب الأول: مصادر المهجريين المتصلة بالتوراة والبعيدة عن بلاغة القرآن وبيان العربية.

---

(١) بتصرف وإضافة وحذف، عن اصول المعركة الأدبية التي دارت بين الدكتور مندور وأحد محرري الرسالة (يونيو — يوليو ١٩٤٣).

السبب الثاني : هو صدوره في ظل دعوة الأدب الويتمي التي ظهرت في الأدب الأمريكي في العقد الثاني وتأثر بها أدباء المهجر.

(٧)

لا ريب كان المنفلوطي هو الوجه المقابل للأدب المهجري. ثم كان هو الوجه الحقيقي للأدب العربي الأصيل الذي انتصر في النهاية وانتهى إليه طابع الأدب العربي ، ومنه نشأت مدرسة النثر الفني الحديث التي استوعبت الرافعي والزيات والبشري وكثيرين.

ولقد كانت مؤلفات المنفلوطي تظهر في نفس وقت ظهور مؤلفات جبران ، وكانت تجري بعض المقارنات حولها ، وكانت مجلة الزهور تنافس هذه المواجهة في محاولة أن تعلي شأن المهجريين. وكان المهجريون يتهمونه بأنه يعنى باللفظ بينما يعنون هم بالمعنى ، ولكنه هو كان يصدر بأصالة عن الأدب العربي الذي يستمدّ تراكيبه من القرآن ، بينما كان يستمد المهجريون أساليبهم من التوراة المترجمة الى العامية.

ولقد حرص جرجي زيدان أن يصف المنفلوطي بالمبالغة والتعمل جرياً وراء الهدف ، وهو إنشاء اسلوب عربي توراتي ، ولكن هذه المحاولات كلها فشلت وعجزت عن أن تهزم أسلوباً أصيلاً عربي الروح والأداء.

وبالرغم من البريق الزائف الذي ظهر لكتابات جبران فإنه سرعان ما خبا وانطفأ لأنه لم يقم على أصول أصيلة من البيان العربي بل جاء معارضاً لهذا البيان.

ولقد أشار بطرس البستاني والياس أبو شبكة الى استمداد المهجريين من التوراة ، وأشار الى استمداد بولس سلامة وسعيد عقل منها جرياً وراء المباراة المعروفة لشعراء الافرنجة منذ العصور البعيدة في غزو التوراة.

ونسي هؤلاء أن ذلك كله ليس إلا رافداً يسيراً لا يلبث أن يضيع في نهر العربية الواسع العميق.

وليس صحيحاً على الاطلاق ما حاول البعض ان يصوره من ان المنفلوطي كان تلميذاً للمدرسة المهجرية بل هو تلميذ المدرسة العربية القرآنية ، وان أسلوبه القرآني عربي أصيل أحيا منهجاً جديداً في العصر الحديث ما زال حيا وقوي الأثر هو منهج النثر الفني.

# الفصل الخامس

## القصة وهل هي فن أصيل

### (١)

### (مدخل تاريخي)

لا شك ان «القصة» بمختلف اسمائها وفنونها (رواية وأقصوصة ومسرحية وملحمة ودراما وملهاة) هي فن غربي خالص مستحدث ، يختلف اختلافاً كبيراً عما عرف في الأدب العربي من فنون يمكن ان توصف بأنها قصة ، أو ما عرف عن طابع القصص القرآني.

ومصدر هذا الاختلاف يرجع الى خلافات عميقة في الذاتية والمزاج النفسي والطابع الاجتماعي بين الآداب الشرقية القديمة والآداب الغربية قديمها وحديثها ، وبين الأدب العربي الذي صاغه القرآن والإسلام.

وفي الأدب العربي الحديث يجري تتبع تاريخ ظهور القصة الى جذور مرتبطة أساساً بترجمة القصة الغربية الى الأدب العربي ، ثم جاء بعد ذلك دور «التعريب والتمصير» حيث كانت تترجم القصة ثم تغيّر معالم البلاد واسماء الأبطال ، ثم يبقى جوهر القصة وحوادثها كما هي في الأصل الأجنبي ، ثم ارتقى هذا الاتجاه حتى أصبح (قصة مصرية) أو قصة مكتوبة باللّغة العربية ، بينما ظلّ المضمون بشكل صورة لتحدّيات وأحداث المجتمع العربي ، والى وقت قريب جداً ، بل الى اليوم لا تزال القصة او المسرحية إنما تستوحي «ذوق» و«تصرف» المجتمعات الأوربية بكل

أخلاقياتها ومفاهيمها وحلول مشاكلها التي تختلف في جوهرها عن ذوق وتصرف المجتمعات العربية الإسلامية ، ولا شك أن هناك فروقاً بعيدة بين النفس العربية الإسلامية وبين النفس الغربية من جهة الأحداث نفسها ، ومن جهة الاستجابة للأحداث كالخيانة الزوجية واضطراب الأسرة ، وهناك أيضاً فروقاً وتبايناً من ناحية التصرف تجاه الأحداث ، وأقرب مَثَل الى ذلك هو : إذا كانت أسرة فيها خمس بنات ومات عائلها فما هو موقف المجتمع العربي الإسلامي منها ، ثم ما هو موقف المجتمع الغربي؟

أما القصة المكتوبة او المعروضة (في المسرح او السينما او الشاشة) فإنها تصور ذئاب البشر وهم يتهافتون على الفتيات من أجل اغرائهن والوقيعة بهنّ ، فإذا تمّ ذلك هربوا واختفوا وتركوا جرائرهم في حياة هؤلاء الفتيات بدون رحمة او جزاء.

ومن الطبيعي أن هذا التصوّر للقصة هو تصوّر غربي خالص ، لكن القصة المكتوبة باللّغة العربية ترسمه. فهل هو واقعي حقّاً!

نحن نعرف ان المجتمع العربي الإسلامي لن يقف مثل هذا الموقف من خمس فتيات وأسرة مات عائلها ، بل سنجد تصرّفاً مختلفاً تمام الاختلاف يرقى الى مستوى الرحمة والمحبةوالوفاء والأريحية التي عرف بها العرب من خلال قيمهم ومفاهيمهم وهذا هو الفرق ، وهذا هو واقع القصة.

ولقد مضت القصة المكتوبة بالعربية في هذا الاتجاه منذ ان ترجمت ثم مصرت ثم أصبحت قصة تخضع للنموذج الفني الغربي الذي فرض عليها : (حادث ثم أزمة او عقدة ثم نهاية او حل) وهو ما أطلق عليه فن بناء القصة ، وهي قصة لا يقوم عمادها إلّا على رجل وامرأة وحب وخيانة أو خداع وغدر ، وهي أساساً مستمدّة من خيال الكاتب ، أو لها أصل يسير ثم تمّت بالخيال حتى أصبحت ذات أبعاد خلقها الكاتب خلقاً ، وليست هي من الواقع في شيء ، وهي كلّما بعدت عن الواقع بالغرابة والابتكار كانت أقرب الى هوى القارىء.

وقد كانت المترجمات المكشوفة من القصص الفرنسية التي صدرت في مجموعات

كثيرة ، وفي مجلات اسبوعية وشهرية هي الرصيد الذي استمدّ منه كتاب القصة أعمالهم فيما بعد ، وما تزال هناك قصص مكتوبة بالعربية تعرف بأنها كانت ترجمات لقصص عالمية معروفة «مع التصرف بالإضافة او الحذف» ولكن العبرة من كل ما نقول هو ان (الحادث) و (التصرف)ليس مستمداً من طبيعة النفس العربية ولا من واقع المجتمع العربي ، وليس متّفقاً إطلاقاً مع القيم التي قام عليها الأدب العربي.

وقد أشار الى هذا المعنى المستشرق هاملتون جب في بحثه المستفيض عن القصة المصرية[1] حين قال «أمّا المؤثرات الغربية فقد ظهرت بوضوح فيما تلا ذلك من الأطوار» «كما أنّها استخدمت استخداما مباشراً».

والواقع ان كتاب منهج النقد الغربي كانوا يتابعون سؤال المستشرقين وفي مقدّمتهم (جب) أين القصة المصرية ، لماذا لم تكتب القصة المصرية : وقد جرى بحث هذه القضية في عدة جهات : بدأها هيكل والمازني وعنان في السياسة الأسبوعية. وكتب طه حسين في (الدنيا الجديدة).

وقال هيكل إن من أسباب الضعف في كتابة القصة يرجع الى أسباب من أهمّها :

اولاً : «فقدان المقدرة على طول الخيال» ثانياً : إن هؤلاء لم يجدوا تشجيعاً من جانب المرأة.

وقال عنان في صراحة : إن اساس القصة إنما يوضع في مجتمع تلعب فيه المرأة دوراً خطيراً.

ويكون المجتمع متأثراً بنفوذها خصوصاً في رسم مستوى الخلق والسلوك.

ويشير الى ذلك (جب) في تقريره ويكشف في صراحة «إنه لا ينتظر ان يكون للقصة مستقبل في الطور الأدبي الحديث ما دامت الحياة الإسلامية محافظة على تقاليدها الموروثة ، وردّد كلمة عنان في ذلك «استطعنا ان نقطع بان المجتمع

(١) مجلة الرسالة — ابريل ١٩٣٣

الإسلامي لا يمكن متي بقي تطوره وتقدّمه محصورين في المبادىء الإسلامية الخالدة، او في التقاليد التي كانت أثراً لهذه المبادىء ان يظفر كتاب القصص العربي يوماً بمادة واسعةاو غزيرة كالتي يقدّمها المجتمع الغربية الى كتاب الغرب او ان يغلو الأثر الذي يفسحه للمرأة ذات يوم وحياً للفن والجمال».

وهكذا تكشف مدرسة منهج النقد الغربي الوافد عن أهميّة إيجاد القصة وخلقها في الأدب الحديث، والهدف الأصيل القائم وراء كتابة القصة، وهو نفس المعنى الذي أوضحه أحد كبار كتاب القصة الغربيين وهو «واسرمان» حين قال: ما دام العنصر الشهواني خفياً فلا وسيلة لتأليف القصة.

فالقصة التي يبحث عنها التغريب ليست هي القصة الصادقة: ولكنها القصة التي تقوم على لقاء بين رجل وامرأة، ثم يقع الصراع نتيجة تنافس حبيب وآخر، او تقوم على حب رجل لزوجة رجل آخر، او إغراء امرأة لرجل او تجمع عدد من المحبين حول امرأة غانية وصراعهم معها.

والقصة في كل هذا، ليست صورة الحياة، وليست من واقع الحياة، ولكنها «أداة» من أدوات الغزو النفسي والاجتماعي للمجتمعات والشباب والفتيات الغريرات، وهي حين تقوم على ذلك البناء الفني إنما تلتمس قواعد التحليل النفسي التي أذاعها فرويد وفرضها على الأدب بعامة والقصة بالذات.

فالحب والغرائز والصراع بين الرجل والمرأة، وبين أكثر من عاشق لامرأة واحدة، وما تصل إليه القصة من نهاية هو نوع القصة التي كان الأدب العربي الحديث مطالباً بإيجادها، وقد تأخّر ذلك كما يقول جب لأن القيم الإسلامية التي كانت تحول دون وقوع مثل هذه الخيانات والآثام هي معوق القصة، ولذلك فإن العمل على إغراق المجتمع العربي الإسلامي في انحلالات المجتمعات الغربية، بواسطة عواملها المعروفة، من دور بغاء، وخمر، وأندية ليلية، والتحلل من قيم الخلق والدين، كل ذلك من شأنه أن يهيّء المجتمع لولادة «القصة». ويعد هذا في نفس الوقت امتداداً للأثر الذي أحدثته القصة الغربية الإباحية التي ترجمت بأعداد ضخمة ونتيجة لهذا التطور.

وقد انفجر فعلاً ردّ الفعل لهذه الدعوة بين العاملين في مجال الأدب العربي الذي سار بدون القصة في الماضي ولم ينقّص ذلك من قدره ، وان التطلّع الى إيجاد القصة فيه الآن ليعد مثلاً جديداً من أمثلة تقليد الأوربيين تقليداً ضاراً ينذر بتقويض دعائم الحياة الاجتماعية في الشرق. إن القصة الغربية بما فيها من نقص وتزييف وعدم ملاءمة للتقاليد الاجتماعية في الشرق قد أثرت تأثيراً هداماً في حياة مصر الاجتماعية .

وقد أشار جب الى هذه المعارضة وقال : إن الدكتور زكي مبارك وصف كتاب القصة في الأدب العربي بأنهم ينتمون الى الطبقةالوضيعة من طبقات الأدباء، ونعى عليهم قلّة خبرتهم بفنون الكتابة وعدم استقلالهم في الرأي وسطوهم على الآداب الأوربية ، وأدهى من ذلك أنهم يغرون الشباب باحتقار فنون الكتابة كالرسالة والقصيدة ، وليس من الجائز أن نحكم على الأدب العربي بما نشاهده في الأدب الفرنسي ،والانجليزي ، بل يجب ان نحكم عليه حسب ميول ابنائه ، وحسب درجة نجاحه في التعبير عن أفكارهم وأخيلتهم وأغراضهم . وقال : إن علينا نحن وارثي الماضي أن نستحضر ذلك الماضي ونحن نفكر في الحاضر، وأن ننظر بعين الاعتبار الى الأساليب والطرق القديمة في الكتابة حينما نتّجه نحو التجديد ، فإن ذلك أجدى علينا من ذلك البهرج الكاذب الذي يزيف به الأدب الحديث» .

وتعرض لذلك عدد آخر من الكتّاب من أمثال مصطفى صادق الرافعي ، والدكتور حسين الهراوي وأحمد صبري (الذي عرف من بعد باسم أحمد موسى سالم) .

وكشفت هذه المعارضات في جوهرها عن أن فن القصة على النحو الذي فرضه أصحاب منهج النقد الغربي الوافد—هو فن دخيل لا يتفق مع الذوق ولا المزاج ولا القيم العربية الإسلامية ، وأن النفس العربية قد عبّرت عن نفسها في أوعية أخرى وبأساليب مختلفة ليست القصة واحدة منها ، وأن القصة على هذا النحو أدب مستورد ، وقد أثبتت الأيام صدق هذه النظرة ونحن الآن في بداية الثمانينات نرى كيف ان القصة ماتت أو أوشكت على الوفاق !

وقد ساوق جب رأينا في أن القصة المصرية إنما هي قصة أجنبية مع تغيير أسماء الأبطال والأماكن حين عرض لنقد (إبراهيم الكاتب) للمازني ، وكشف عن أنها

ليست مصرية أصيلة ، حين قال ، إن بطل القصة عبارة عن شخصية غربية لا تكاد تنطبق إلا على القليلين من المصريين ، والقصة في ذاتها غربي في المشاعر والمثل كما هي كذلك أيضاً في المسحة الأدبية وفي الموضوع الذي تدور فيه ، ودراسة الحب قائمة على أساس غربي لا شرقي ، وحتى المظاهر الخارجية ذاتها من حيث الشكل والأسلوب تنطق بهذا الطابع الغربي ، ومن أمثلة ذلك كثرة استعمال المجازات والجمل الغربية ، وأغرب من ذلك كله جرى المؤلف على طريقة اقتباس فقرات من الإنجيل في رأس كل فصل من فصوله».

وقد تبين من بعد ان المازني قد نقل قصته نقلاً يكاد يكون كاملاً في بعض الصفحات من قصة (سانين) الروسية.

* * * *

وقد أشار طه حسين في عام ١٩٣٢ الى أنه قابل (جب) وأن حديثهما تناول الأدب العربي ، وأن جب قال له إنه ما يزال ينتظر القصة العربية الجديدة ، وجدّد طه حسين في حماسة دعوة واحد من أساتذة المستشرقين.

وقد عرض زكي مبارك لهذا الموقف من طه حسين[1] فقال : معنى هذا أن الأدب العربي الحديث رهن بظهور القصة ، فإن لم تظهر فلا أدب ولا أدباء ، إن هذا الحرص له نتائج مشؤومة أيسرها ان تغلب على أدبنا صيغة الافتعال ، والافتعال عدو الفطرة ، وهو شر مسيطر على الآداب والفنون ، وان القصة لن توجد في الأدب العربي ، إلّا إذا وجدت المرأة ، ولن يكون لكتّابنا قصص ما داموا لا يرون المرأة في حرية وصراحة ، ولا يتأثرون بجبروتها في بداية الحياة ، ولا أمل في أن نرى لكاتب قصة جيدة ما دام الكتاب بعيدين كل البعد عن المرأة ، التي تلون الوجود بشتى الألوان.

والقصة في جميع الآداب موقوفة على ظهور المرأة[1] ثم تساءل فقال : من

(١) راجع الدنيا المصورة ، المعرفة سنة ١٩٣٢

(٢) يقصد المستشرق جب

الذي ينتظر ظهور القصة : أحدهما مستشرق يريد ان يزن الآداب العربية بميزان الآداب الغربية ، وشرقي مفتون بالتقليد يريد أن يساير الأجانب في كل شيء ، ومن عجب ان نجد القصصيين عندنا في الطبقة الدنيا من آداب اللّغة العربية يندر من حظي بثقافة أدبية وافية ، وهم جميعاً عالة على الآداب الأجنبية ، يستوحونها بلا فهم ولا تبصّر ، وينقلون منها نقلاً سخيفاً مشوهاً يجرح الأذواق والنفوس.

وفي انتظار القصة خير محقق ، وهو إغراء الشبان على ان يفهموا أن الأدب إما ان يكون مثقفاً واما أن لا يكون ، وعلى ذلك تخف في وزنهم قيمة الفنون الأدبية ، وقد سرى هذا الشر الى إدارات الصحف وصار من اليسير على أي شاب أن يدخل في اقصوصة بعض الاسماء البلدية كالحاج مشحوت والحاجة عيوشة ليقال انه أتى بجديد.

ومن الخطأ أن يقاس أدبنا على أدب الانجليز والفرنسيين والألمان ، إنما يقاس الأدب على مزاج الأمم التي يصدر عنها ، وملاك الأمر في ذلك كله أن يعبر الأدب عن عقول أهله وأحلامهم وشهواتهم وما يجرى في خواطرهم.

نحن أحفاد العرب وأسباطهم . ومن واجبنا أن ننظر الى ماضيهم حين نفكر في حاضرنا ، وقد كان العرب تكفيهم اللمحة والإشارة في أشعارهم ورسائلهم ، حتى عرفوا بين الأمم بقوة الايجاز[١] .

* * * *

## (٢)

## القصة الغربية

أحصي الأستاذ يوسف أسعد داغر عشرة آلاف قصة أجنبية ترجمت الى الأدب العربي منذ بدأت الترجمة حتى أوائل الحرب العالمية الثانية[٢] . وهذا القصص

---

(١) هذا قول قاله الدكتور زكي مبارك، في موضع آخر وهو مشابه لما ذكره جب في تقريره.

(٢) [مجلة الأدب ج ٩ السنة ٦]

المترجم كان يصدر في بيروت والقاهرة ، وكان متزايداً باطراد حتى لقد لمعت بعض أسماء المصريين وقد أبرزت حصيلة الترجمة ثلاثة آثار واضحة :

(١) إفساد اللّغة (٢) نشر العامية (٣) نقل الإباحيات

وقد نقلت هذه القصص باسم التعريب او باسم التمصير.

وعرف التعريب بأنه نقل الجوهر كما هو مع وضعه في إطار عربي ، وكان للتمثيل أثره السيء في نقل هذه المسرحيات الى اللغة العامية ، كما فعل انطون يزبك فنشأت في العامّية حصيلة ضخمة في مجال المسرح والزجل.

وساهم كبار الكتاب في هذا المجال ، فدعموا بعض الانحرافات ، واهتم الدكتور طه حسين بترجمة القصص الإباحية ، وقد سجل عليه ذلك ابراهيم عبد القادر المازني حين قال « اقرأ للاستاذ قصصه التي ترجمها ، هل كان همه نقل الفصاحة الإفرنجية الى قراء اللغة العربية ، او نقل الصورة الفاضلة في ثيابها المصونة ؟ إنما كان همه مدح الخيانة والاعتذار للخونة وتصوير الخلاعة والمجون في صورة جذابة ليقضي بهذه الترجمة حق الإباحة لا حق اللغة ولا حق الفضيلة[١] .

وقد صوّر طه حسين أمره حين قال « إنه ممن خلق الله لهم عقولاً تجد في الشك لذة والقلق والاضطراب رضاء » .

وقد أشار الدكتور عبد العزيز برهام الى أمر هذه التراجم[٢] فقال : ان اكثر القائمين بأمر الترجمات لم يكن بصيراً باللغة العربية ، ولا باللغة التي ينقل عنها ، فكانت تستعصي عليه ترجمة كثير من الأساليب التي لا يجد لضعفه في العربية مثلاً لها في لغة الضاد ، فالتوت لغة الترجمة وكثيراً ما كان الناقل للأسلوب او التعبير الأجنبي ينقله بنصه دون مراعاة لروح اللّغة التي ينقل منها . فغمضت على القارىء ، وكثيراً ما دخل في اللّغة العربية من كلمات أجنبية لم يستطع المترجمون ان يجدوا لها

---

(١) ٩ مايو ١٩٢٦ الاتحاد

(٢) الرسالة ١٩٤٥/٥/١٤

مدلولاً في لغتهم فطغت على لغة الكتابة ، وقال إن ترك الترجمة فوضى شأنه اليوم يعرض سلامة اللغة للخطر المستمر ، وينقل إلينا سيلاً من الكلمات والتعابير الأجنبية التي تنخر في عظام الأساليب العربية.

بل ان الترجمة قد وجّهت إليها الاتهامات منذ وقت مبكر ، فقد كتبت مجلة سركيس عام ١٩٠٧ (١٥ نيسان) تقول : منذ سنوات يترجم كتّابنا كتب الافرنج فما الذي ترجموه منها؟ فما الذي تعلّمناه؟ تعلّمنا التاريخ مغلوطاً فيه ، تلقّينا الآداب من سبيل القصص المفسدة للأخلاق ، فمن أدب فرنسا ترجمنا ، وماذا استفدنا روايات ديماس ، وهل دوماس كل فرنسا؟ وهل الفرسان الثلاثة عنوان الأدب؟ ومن آداب الانجليز القصص الخرافية ، ومن آداب الألمان لا شيء ، وقد أشار جب في تقريره (١٩٣٣) الى ان القصص التي ترجمت لم يراع في اختيارها حالة مصر الاجتماعية ، ولا حالة الثقافة العامة ولا الذوق الأدبي للبلاد.

وقد أشار كثير من الباحثين الى أن (محمد عثمان جلال) زج باللّغة العامية على لسان أشخاص لا يعقل ان ينطقوا بها يوماً ، وقدم حواراً باللّغة العامية لأبطال لهم وقارهم فلم يحالفه التوفيق.

وأشار الكثيرون الى تلك «الطبقة التي كانت تغذّي الصحف والمجلات بالقصص والأقاصيص ، وقد احترفت الأدب وانحط أسلوبها بانحطاط أذواق القراء» وان هؤلاء كان هدفهم «التسلية» لا الثقافة ، وتقديم قصص بها روح الإثارة للطبقات المتوسطة ، وكان نوع القصص نازلاً واسلوبها ضعيفاً ، وكانت هذه القصص ذات أثر سيّء في محيط القراء لأنها لم تحرص على نقل فن مثالي يدعو الى التسامي او التوجه نحو القيم بل على العكس كان هدف هذه القصص الاثارة وتعمّد تدمير القيم في النفس العربية. فقد كان اتجاها يتعمد الى الانحراف. وان بعض هؤلاء المترجمين كانوا يؤدّون المعنى بأي عبارة مع ضعفهم في البيان العربي ، هذا بالإضافة الى سوء الاختيار ، فقد اختيرت الروايات المثيرة ذات المستوى الهابط ولم يتجه هؤلاء الى الروايات العالمية الممتازة»[1].

---

(١) راجع كتاب : الترجمة في الأدب العربي المعاصر.

ولا شك أن أهم ما في عملية الترجمة هو المادة التي يراد ترجمتها . وهي بالحق أخطر قضية واجهت الأدب العربي فإن المترجم «قد يستمد اتجاهه من دعاوة أجنبية تقصد الى بث بذور خطرة على الثقافة العربية في تلمسها لطريقها الجديد على حد تعبير سهل ادريس الذي يقول« انه لا حاجة الى التذكير بعدد من الاتجاهات المنحرفة في عدد من الكتب المترجمة في السنوات الأخيرة[1] ترصد لها مؤسسات أجنبية تنتمي الى دول أوربا الغربية والشرقية وأمريكا أموالاً طائلة تغري بها ذوي الضمائر المدخولة الذين يضعون الكسب المادي فوق الحس الوطني او القومي ، او الذين يهمهم الترويج لسياسات أجنبية معينة التماساً لمنافع شخصية او جرياً وراء اعتقاد منحرف» ، ومما يتصل بهذا الرأي الذي أبداه سهيل ادريس ، ما عرف عن دار الآداب نفسها من اهتمامها بنشر أدب الوجودية في بيروت في نفس الوقت الذي يظهر في باريس.

## (٣)

## مضمون القصة الغربية

تقوم القصة الغربية المترجمة الى الأدب العَربي على عوامل ثلاثة :

(١) الحبكة الفنية : وهي وضع الاحداث بصورة تأخذ بلب القارىء وتثير عواطفه.

(٢) الخيال : وهو المادة التي تصنع منها القصص لتكون شيئاً غير الواقع.

(٣) الإباحة : وهو أحداث صدام واحتكاك بين الرجل والمرأة قوامه الحب الجنسي القائم على دوافع الغريزة والرغبة.

والقصة بهذه الصورة ليست فنا بنّاء ، ولا عملا يدفع الى التسامي بالعواطف والمشاعر او يغذي القلوب والعقول ، وقد صور الدكتور حسين الهراوي اتجاه القصة

(١) كتب هذا في الآداب مارس ١٩٥٦

في الأدب الغربي . فقال : ان القصصي الغربي اليوم قد اتجه الى وجهة واحدة هي وجهة الاستهتار الجنسي. والروائيون في الغرب ليس لهم في هذه الأيام مصدر إلهام غير هذا الموضوع ، وقبيل الحرب (الأولى) بأعوام كانت الروايات الغربية تسير على نسق واحد هو تعارف فتى وفتاة ، بأي طريقة يبتدعها خيال المؤلفين ثم تفصلهما عوامل الزمن فيتخطيان العقبات بالمجازفات حتي يلتقيا بالزواج ، ثم أشار الى أن طغيان القسم النسوي في العالم الغربي واستهتاره جر المؤلفين الغربيين الى أن تكون فكرتهم في رواياتهم كلها عن العلاقات بين الجنسين ، وعن استهتار المجتمع الحاضر بروابط الزوجية والأسرة ، وهكذا تغشي الغرب نوبة عصبية من تيار التأخّر الى حال الإنسان الأول في ثوب منمّق من العلم والمدنية هو اشبه بفعل الخمر او المخدر ، على ان العالم مملوء بما هو أهم تدويناً من انتهاك الحرمات ووصف المخازي ، ثم أشار الى كتاب القصة الغربية فقال : إنه غلب عليهم حب المادة فشقوا الطريق إليها على أنقاض الأخلاق والكتاب الحديثون مهمتهم تسلية الجمهور وأشار الى تأثرهم بمذهب نوردو (الصهيوني اليهودي) الذي يقول : انني أقيس نجاح الشخص في الحياة بالثروة التي يجمعها ، كما أشار الى أن مما ساعد على ذلك انتشار علم النفس (يقصد مذهب فرويد) واستخدامه في القصص.

ويروي الدكتور حسين الهراوي ان القصة «بطبيعة التكلف في اختلاقها واتجاهها الى البساطة ، وتخفيف وطأة الواقع ، او للايهام بوجود ما ليس موجوداً لا تستطيع أن تعيش تحت سماء الصحراء القوية ، ووصفها بأنها حقل من حقول الألغام في طريق الآداب لعامة وهو نوع من الاستهتار العقلي يبعثه الروائيون في نفوس الجماهير السهلة الانقياد في قالب منمق يعطي فكرة ان الحياة لهو وغرور ، وأنها قربت الى الأذهان فكرة الاستهانة والتغلغل في السقوط الأدبي والتمست للمستهترين والمتحللين والساقطين اعذاراً ما كان أحدهم يستطيع ان يتلمّسها لنفسه مفرداً مثل قصص مانون ليسكر وغادة الكاميليا وغيرهما من القصص التي تلتمس الاعذار المسمومة للساقطين والساقطات تجدها قد أثرت تأثيراً بالغاً في عقول النشء فجعلتهم يستهترون ويسرقون وينتحرون ، والواقع أننا نعد فشل الجيل الحاضر معزوا الى انتشار مثل هذه

القصص النفسية الملتوية والعقلية الضعيفة التي أوحتها التجارة الرخيصة في الحكايات الغرامية والقصص البوليسية ، وأصبحت القصة الآن نوعاً من تجارة الخمور التي تتولى شركات النشر تعبئتها ، ثم توزيعها بالملايين تحت مختلف العناوين والمغريات » .

هو رأي يكاد يكون عاماً في تقدير خطر القصة الغربية ، ومن ذلك ما يرويه « ميشيل اويري » حيث يقول [1].

إن كتاب الغرب لا يخرجون عن الماديات في كل ما يؤلفون او يكتبون ، إن كتّاب الغرب او مؤلفيهم على العموم هم كتّاب ومؤلفون أقرب الى الحياة المادية منهم الى الحياة الروحانية ، وأننا قلّما نجد فيما يكتبون او يؤلفون من امثال الروحانيات التي نجدها مصورة عند الكتاب الشرقيين بأجمل صورها ، لأن الغربيين قد ولدوا في المادة وعاشوا معها ولها ، ولست أنكر أننا معشر الشرقيين قد أخذ بعضنا عن الكتّاب الغربيين حب هذه الماديات والتهالك عليها ، ولما لم يأخذنا النضوج في كل نواحي حياتنا أقبلنا على كل ما يصوره لنا الغرب إن كان من فلسفة او أدب او علم في نهم شديد دون أن ننظر الى ما يلائم أنفسنا ومصلحتنا ودون ان ننظر الى ما هو صالح ومفيد » .

واذا كان الأدب الغربي في الحقيقة يشمل عشرات المسالك فإن كتابنا قد قصدوا بامعان ولهدف بعيد وخطير أن لا ينقلوا لنا إلا ما كتبه المسرفون في الإباحة أمثال مارسيل بروست وتوماس مان وأندريه جيد والدس هكسلي ولورنس وكلها قصص تدور حول اللذة الجنسية وغيرها ، ولم يقف الأمر عند هذا ، فإن هؤلاء الموالين لمنهج النقد الغربي الوافد قد ظاهروا ذلك بفلسفة خطيرة ترمي الى القول بأن وصف نقائص الناس ومثالبهم هي طابع الأدب الصريح الحر ، وهم في ذلك قد جروا وراء دعوة فرويد ومفاهيمه التي أصبحت قاعدة للقصة وأساساً للأدب الغربي ، ولا شك أن ظاهرة القصة الغربية بالنسبة للغرب فإنها خطوة في ذلك الانحراف الذي فرضته

---

(١) جمع الحديث (اغسطس ١٩٤٦)

الصهيونية العالمية على الآداب والفنون: والذي بدأه مذهب فرويد نفسه ثم جاء كتاب القصة والتراجم فساروا وراءه.

ثم كانت الخطوة الثانية وهي نقل هذا «التراث» الى الأدب العربي، والى العقل العربي ليحدث أثره الذي قصد به، وليفتح الطريق أمام الكتّاب الذين يكتبون بالعربية لينقلوه ويقلدوه ويعتنقوا مفاهيمه، ومن هنا فقد ارتفع صوت الكثيرين بالدعوة الى التحليل النفسي في الأدب، وكان في مقدّمة هؤلاء ابراهيم عبد القادر المازني وابراهيم ناجي في القصة والعقاد في التراجم ومحمد خلف الله احمد في الدراسات الأدبية، وكان الكتّاب المارون القادمون الى مصر من الشام قد أغرقوا العالم العربي كله بسيل من القصص يطفح بالإباحة والفساد من أمثال نجيب الحداد والياس فياض وفرح انطون، وطانيوس عبده والياس أبو شبكة وخليل بيدس وأمين الحداد.

حتى بلغ عدد القصص التي ترجمت سبعة آلاف قصة حتى أوائل الحرب العالمية الثانية، وأطلق هؤلاء على أنفسهم القاباً تنم على التبعية المحضة: فهذا ديموسين الشرق وهذا موباسان مصر. وهذا جوركي النيل، وقد ألقت هذه القصص الى صغار المتعلّمين وفتيات الأسر من وراء الجدران قدراً كبيراً من الرؤى الجنسية المسرفة، وقدراً من اللذات الخيالية التي تتمثل في صور الترف وملامح القصور والرياض والعطور والخمور مما كان له ابعد الأثر في خلق ظاهرة جديدة في المجتمع: هي ظاهرة وباء الحلم الكاذب الذي يشتي ويبعد عن الواقع.

وكان لهذه الأكاذيب فعل السحر في نفوس الشباب الغرير والفتيات، مما أفسد نظرتهم الى الحياة، وحال بينها وبين رؤية الواقع او الانطلاق في طريق واضح او على حد تعبير احد الكتّاب (وقف بينهم وبين الحقائق البديهية جبل من هذه الأكاذيب القصصية) وهكذا تكون في المجتمعات العربية ما يمكن ان يسمى «المرض القصصي» هذا المرض الذي لا يزال قائماً يفتك بالأسر والشباب كل الفتك.

ولقد تبارت الصحف والمجلات في تبنّي هذه الظاهرة حتى ان بعض المجلات

الكبرى أقامت المسابقات لإغراء الكتّاب بكتابة القصة ، وقالت مجلة المكشوف : إن اظهر خلة في أدبنا العربي فقدان القصة ، لقد رمينا ونرمى من وراء ذلك كله الى تجهيز أدبنا العربي بالسلاح الذي كان يفتقر إليه ، وهو اليوم سلاح جميع الأمم في المعركة القائمة بين المعرفة والجهال . والواقع هو ان الاغراء والدافع إنما هو تغذية هذا الاتجاه الذي تحرص جهات كثيرة على تغذيته ، ولقد كان لهذه القصص أثرها الفعلي في واقع الحياة الاجتماعية مما سجله كثير من الأحداث التي وقعت في عشرات الأسر ، وقد صوّرت هذا المعنى عدد من المجلات[1] وأشار كثير من مؤرخي الأدب الى ذلك فقال أحدهم : لماذا هذا الاهتمام بالقصة؟ ما هذا التطلع الى القصة سوى مثل آخر على التقليد الأحمق للغرب ، بما فيها ذلك التقليد الذي أحدث تلك الهوة في الحياة الشرقية . ان القصة الغربية بما تتسم به من فتنة زائفة مبهرجة وبما فيها من مناقضة للأسس التقليدية التي تقوم عليها حياة الشرق قد أدّت الى إفساد الحياة الاجتماعية في مصر وتخريبها ، فلماذا تضع الأفعى في جيقها[2]؟».

وقد عرض مصطفى صادق الرافعي لظاهرة القصة الغربية فكشف عن تباين اثر القصة بين المجتمع الغربي والمجتمع العربي : «نرى ان القصة صناعة لهو ومسلاة فراغ ، وهذا قد يكون له وجه في علاج الحياة العملية في تخفيف حطمة الاجتماع في أوربا وأمريكا ، ولكن ما موضعه عندنا في الشرق والشرق إنما يعمل في نهضة لمعالجة اللهو الذي جعل نصف وجوده السياسي عدماً ، ولكن الذي يصف حياة الإنسانية موتاً ، ألا ترى أن تلك الروايات توضع قصصاً ثم تقرأ فتبقى قصصاً ، وإن هي صنعت شيئاً في قراءتها لم تزد على ما تفعل المخدرات تكون مسكنات عصبية الى حين تنقلب نفسها بعد قليل مهيجات عصبية [3].

(١) راجع مجلة الجديد (— ١ سبتمبر ١٩٢٨) تحت عنوان كيف افسدت عقول الشباب والفتيات

(٢) ص ٣٨٥ دراسات في حضارة الاسلام لجب

(٣) الرسالة مجلد ٢ ص ٥٩٦.

(٣)

وقف الأدب العربي موقفاً صريحاً ازاء تيّار القصة الغربية الدخيل (ترجمة وتعريباً وتمصيراً)، وكشف رأيه في صراحة ووضوح، وأعلن ان الفن القصصي ليس عربياً ولا إسلامياً[1] وأنه فن وثني. وأن هذا الفن قد تطوّر من الوثنية الى اليوم بتطوّر اشكالها ونظمها وتجدّد معها بتجدّد أربابها ومعابدها، وأنه ليست هناك قصة واحدة من مصوغات العالم الوثني إلّا وهي صورة لمجتمع شقي محروم حتى الصور التي يبدو فيها المدح او التمجيد لأبطال خرافيين.

والمعروف أن فن القصة الذي غزا الأدب العربي في العصر الحديث قد تشكّل من تراثين: تراث الأسطورة اليونانية وتراث الاسطورة الشرقية القديمة، وهما يقتربان من حيث إن طبيعة كل منهما تستمدّ من الوثنية، وأنهما يتصلان بالشعوب الشرقية الأوربية والشعوب الآرية، ولا يتصلان بالأمة العربية التي لم تكن لها قبل الإسلام وثنية مغرقة في الإباحة الوثنية المجوسية او وثنية فلسفية كالوثنية الأغريقية، ومن هنا فإن الخلاف بين الأدب العربي وبين القصة الغربية وليدة الوثنية اليونانية بعيد المدى، وكذلك بالنسبة للأسطورة الشرقية، ومنها ألف ليلة وليلة الذي يحاول بعض المستشرقين اعتباره أثراً قصصياً عربياً، والخلاف بين الأدب العربي وبين الأدب الغربي (الأغريقي القديم والأوربي الحديث) هو (خلاف في الجوهر والصميم لا في الشكل والخصائص اللغوية وحدها) وهو خلاف (في الدوافع التي يتولد منها الأدب العربي) وفي (الغايات التي ينتهي إليها) مخالفة تمام المخالفة لهذه الدوافع التي يتولد منها الأدب الأوربي. وأبلغ هذه الخلافات والطوابع: الإيمان والتوحيد وسماحة النظرة وصدق التوكل على الله والخلق وكلها تعطي الأدب طابعاً ملؤه الإشراق والتفاؤل والإقبال على الحياة والرضى بقضاء الله.

ومن أجل اشراق الشمس في البادية يبدو الأدب العربي واضحاً صريحاً يمكن ان يسمى بالأدب المباشر بينما يعطي الأدب الاغريقي صورة متجهّمة قوامها الرموز

(٢) صادق الحكيم مجلة الانصار ١٣٦١ هـ

والإيماءات، وتطبعه طوابع الخوف والألم والحرمان حتى يوصف بأنه أدب الثلوج والألم والشكوك، والقصة قوام هذا الأدب، لا تصور الا الحرمان، والعذاب، والغدر، وإذا استعرضنا أربعاً من أشهر القصص الأوربية هي :

| | |
|---|---|
| البؤساء | : لهيجو. |
| النور والظلام | : لتولستوي. |
| دافيد كوبرفيلد | : لدكنز. |
| الجريمة والعقاب | : لدستوفسكي. |

وجدنا «الآلام المكتوبة، النفس المضطربة، الحياة المتجهمة، الظلم للفقراء، والبرد للبؤساء، والشقاء والجزع، الأزمات العصبية، نوبات الصراع، فإذا عرضنا هذه النماذج على (الأدب العربي) وجدناها غريبة كل الغرابة، ففي المجتمع العربي الذي يستمد قيمه من الإسلام: الرحمة بديل الخوف، والسكينة بديل الشقاء، وليس في الأدب العربي جان فلجان، ولا دافيد كوبرفيلد ومن خلال عشرات القصص الغربية نجد مجتمعاً غير المجتمع، وأخلاقاً غير الأخلاق، ومزاجاً نفسياً غير المزاج، وفي هذا يقول صادق[1] الحكيم: إن القصص التي تكتبها الشعوب الأوربية ليست سوى أناتها وصرخاتها من مشاكلها المعقدة التي لا تجد لها حلا الى اليوم، إن عقدة القصة الأوربية تنحل من فورها في ضوء المجتمع الإسلامي وبمقياس القواعد والآداب الإسلامية، لأن هذه العقيدة تجمع خيوطها دائماً في ظل مشاكل لا وجود لها في عقل المسلم». ويبين الكاتب كيف ان المزاج النفسي العربي لا تزدهيه القصة الغربية فيقول: ليس من اللذات العقلية او العاطفية عند المسلمين ان يقرأوا في القصص شروحاً مفصّلة تجريدية لحياة أهل الخلاعة وما يصنعه البغايا في خلواتهم، فهذه لذّات مرضى النفوس من ذوي العقد النفسية، والحياة الإسلامية المعتدلة تقضي على هذا المرض».

---

(١) صادق الحكيم — مجلة الأنصار ١٣٦١ هـ

ويرى كثير من الكتّاب أن هدف القصة في الغرب هو إعطاء الشعوب جرعة من الخيال للتعويض عن الواقع، فحيث يعيش الناس في المناطق البارزة، بين الظلام والآلام، وبين الجبال الشاهقة، والشمس الغائمة. يحتاج الناس الى مخدّر، والى غيبوبة وان القصة الخرافية الوثنية المستمدّة من الأسطورة هي اللذة الكاذبة التي تعطي الوهم بدلاً من إعطاء الحقيقة. أما العربي فإنه يعيش في جو مختلف، ساطع، مضيء باهر، بعيد عن الظلام والوحوش والأرواح الشريرة. والعربي فارس جعل رزقه تحت ظل رمحه، فهو مقتحم، صريح، يحيا الحياة في وضوح، ولذلك فهو بطبيعته وبذوقه الفني، ومزاجه النفسي، لا يتقبل هذا الفن القصصي ولا يستجيب له.

وليس في المجتمع مثل غلظة القلب في قصص البؤساء لفيكتور هيجو او قساوة زوج الأم في قصة كوبرفيلد، لتشارلز ديكنز، ولا ظلم الأغنياء في قصة النور يضيء في الظلام، ولا يعرف ما في قصة الجوع لكنوت هامرين: التي تصف أعراض الخلل العقلي الذي يتولّد من الجوع المزمن، فذلك كلّه مصدره قسوة النفس الأوربية وشقاء الحياة في المناطق الباردة.

يقول صادق الحكيم: إن أخطر ما في الفن القصصي الأوربي أنه يقدّم للمحرومين العاجزين تعويضاً خيالياً وهمياً عن جميع حاجاتهم الرئيسية فيقتل فيهم الحافز القوي، ويميت فيهم الضمير الحي، ويضللهم في مقاييس العقل، ويرفع عنهم تكاليف الحياة . وكل ما يقال عن القصة الأوربية من الأسطورة الوثنية الأغريقية، يقال عن القصة الشرقية وإن اختلفت الصور والمناهج.

ولا يعرف الأدب العربي، مثل الخلاعة والترف والرهبانية التي تجدها مثلاً في قصة (تايس)، وحين توضع مثل هذه القصص في ضوء ذاتية الأدب العربي وقيم العقل العربي، ومقاييس الفكر الإسلامي فإنها تنهار وتسقط، ولا يقر الأدب العربي بقيمه الإسلامية: ما يجري عليه مؤلف تايس (أناتول فرانس): في إشادته بالغرائز، والابيقورية، وإسرافه في اللاإدرية، ولا يقر قوله «للجسد أن يستسلم

للشهوات وتبقى النفس طاهرة» فضلاً عن لذة الشك وصورة العهر، ومخاطبة الغريزة، والوثنية ممتزجة بالمسيحية الغربية.

ولا يقر الأدب العربي رجلاً مثل (جان فالجان) يسرق رغيفاً ليعيش، ويعجب كيف يحدث هذا في أوربا، وهو من المستحيل ان يحدث «في أمة عنوانها في الجاهلية حاتم الطائي وأبسط عطائها في الإسلام الزكاة».

وصورة طفل قصة دافيد كوبرفيلد التي تصوّر الطفل ينتقل بين قسوة زوج أمه، وقسوة الناس، وقسوة اللصوص الذين سرقوا ملابسه ونقوده، هي صورة غريبة على مجتمعنا وأدبنا.

وليس العيب في هذه القصص أنها تصور مجتمعها، ولكن العيب يكمن في ترجمتها، والاهتمام بنشرها في محيط لا يتقبلها ولا يهضمها، وقد تصل المبالغة الى أن تمصر مثل هذه القصص، وتحول وكأنها عربية، ولقد اهتم اصحاب مذهب النقد الغربي بترجمة هذه القصص وإغراق الأسواق بها حرصاً على نقل مفاهيمها، ومُثُلِها الى البيئة العربية، وتطعيم الأدب العربي بها، بينما هي مما تنفر منه النفس العربية والذوق العربي.

* * * *

ولقد حرص بعض دعاة التغريب الى ترجمة «اعترافات فتى العصر» لدي موسيه، وهي قصة منصبة على إحياء الايمان المسيحي في نفوس شباب أوربا ودعوتهم الى التشبّث بفلسفتها، وتتلخّص فلسفة دي موسيه في عدة أسس ليس واحد منها متفقاً مع ذاتية الأدب العربي، او مفاهيم الفكر الإسلامي:

يقول: ليس لغرض المرأة قيمة مادية ولا معنوية بالنسبة للمجتمع.

ويقول: إذا شعر المدمن بدوار الخمر فليملأ كأسه ثانية.

ويقول: لكي يكون الرجل مؤمناً فليساعد المخطئين بالخطأ.

ويقول: خير طريق للتخلّص من الإلحاد أن يزداد المرء إلحاداً.

وإذا كان دي موسيه يقول هذا لشباب فرنسا في تلك الفترة التي نشر فيها قصته متصوّراً أنّه دواء ناجح لداء العصر، فإن هذا لا يحقق شيئاً ما للمجتمع العربي اليوم، وإنما يقف وراء مثل ترجمة هذه القصص دعاة التبشير والغزو الثقافي والنفوذ الأجنبي.

* * * *

(٤)

جرت محاولتان خادعتان في مجال القصة: الأولى هي محاولة المستشرقين في اتهام الأدب العربي بالقصور وإرجاع هذا القصور الى أنه لم يعرف فن القصّة والمسرحية، أمّا المحاولة الثانية فهي محاولة بعض التابعين لمنهج النقد الغربي بالقول بأن الأدب العربي قد عرف القصة: وأن دليل ذلك وجود كليلة ودمنة وألف ليلة وليلة والمقامات، ومن الحق أن يقال ان كليلة ودمنة وألف ليلة والمقامات لا تمثّل القصة في مفهوم الأدب العربي، وإنما يتمثّل مفهوم القصة العربية في القرآن الكريم وحده، أما هذه القصة فهي ليست أصيلة فيه، وإنما تلتمس مصدرها من الأدب الشرقي القديم والأدب الفارسي والهندي. ولا تمثّل النفس العربية أساساً كما لا تمثّل منهج القصة كما رسمها القرآن، وان القصة بالمفهوم الغربي الذي عرفه الأدب اليوناني او الأدب الاوربي الحديث او الذي عرفه الأدب الشرقي القديم لا يمثل النفس العربية.

* * * *

أمّا القصة كما يصورها القرآن: رائد الأدب العربي فتقوم على قواعد أساسية هي:

(١) أقرّ القرآن الطريقة المباشرة الصريحة، بعيداً عن الإيحاء والرمز مع الاهتمام بجوهر الخبر لا تفاصيل الخبر، والتركيز على العبرة المستمدّة من النواميس الكونية للمجتمعات، والسنّة الطبيعية التي تحكم البشر.

وبذلك حرّر القصة من كل ما يتعلّق بالتفاصيل التي يصبح الاستطراد فيها هدفاً في حدّ ذاته، وحجاباً عن الغاية الأصيلة وهي الاتصال بالنفس الإنسانية وتقديم العبرة لها، بصرف النظر عن الحواشي المتعلّقة بالزمان والمكان.

وبذلك ارتفع القرآن بالقصة عن الارتباط بعصر أو جيل، وربطها بالحقائق الإنسانية العامة الخالدة الصالحة لكل عصر وجيل.

(٢) القصة في القرآن هي الصدق والواقع، فقد أقرّ القرآن «الصدق» كمنهج أدبي، ورفض أعذب الشعر المبالغات وصحّح الأخبار وحرّر الوقائع كلّها من الأساطير والخرافات، وأبعدها عن التهاويل والمغريات بحيث تصبح الصورة الحقيقية هي ما يقدّم بين أيدي الناس.

وبذلك ظلّ القرآن وحده الى اليوم: النص الموثق البعيد عن خطر التحريف.

(٣) إن مفهوم القصة في اللغة العربية هو الإخبار بالواقع المجرّد وتتبع آثار الحقيقة، ولا يفهم منه تأليف الحكايات او تلفيق الوقائع او اصطناع الأخبار المكذوبة التي يلفقها الكبت والظلم فتسعى سعيها لإخفاء عارها وكذبها (فنا) ثم تنتحل الصدق انتحالاً لهذا الفن فتسمّيه صدقاً فنياً»[1].

وقد سجّل القرآن على نفسه هذا المنهج «ان هذا لهو القصص الحق» «لقد كان في قصصهم عبرة لأولي الألباب»، «نحن نقص عليك أحسن القصص».

(٤) القصص في القرآن مصدر للعبرة، وكشف عن سنّة الله الثابتة في خلقه، ونواميسه النافذة في المجتمعات.

وقد نسخ المفهوم القرآني للقصّة كل مفهوم سابق له.

ومن هنا فإن العرب لم يعرفوا الرواية والتمثيليات والملاحم الشعرية، ولم يتّخذوها كوسيلة لتصوير الأسطورة او إحيائها، وإنما اتخذوا القصة كطريقة للتعبير عن

---

(١) صادق الحكيم: مجلة الأنصار.

الواقع ، فنقل العرب القصص الحقيقي : الأحداث والمواقع وخلاف القبائل والأسر والتاريخ والرحلات وقصص الحب الواقعي وسير الغزوات وتراجم الأعلام في مختلف ميادين الفكر والتصوّف والفقه. ولما كان الإسلام دين التوحيد المناهض للوثنية التي تقوم على تعدّد الآلهة ، فإنّه لم يكن يمارس التجسيم او يقرّه ، وقد حُوّلت العقيدة الإسلامية مواضع الإلهام من الطبيعة الإسلامية وصورها الى العقل وأخيلته ، فضلاً عن أن تعاليم الإسلام كانت دعوة للممارسة والتطبيق في محيط المجتمع ولم تكن مجرّد ذكر.

ولا شك أن قصص القرآن تختلف عن قصص التوراة من حيث أسلوب العرض ، كما صحّح القرآن كثيراً مما أوردته القصص الاسرائيلية من وقائع وأحداث ، ويجعل «صادق الحكيم» هذه الفروق : فيما يتعلّق بجوهر الخبر ، حيث يتألّف السياق في القصص القرآني من جوهر الخبر لا تفاصيل الخبر ، فالتفاصيل متعلّقة بزمان ومكان وقوم معينين ، امّا الجوهر فيتعلّق دائماً بكل زمان ومكان وإنسان من غير تعيين ، وهذا هو المعنى الإنساني في القرآن ، فالخبر الوارد فيه هو تطبيق للنواميس الكونية على نوع الإنسان كلّه في صورة إنسان واحد بذاته.

والقرآن يتناول أخبار الأفراد والرسل من نواحيها الإنسانية العامة فلم يعرض لحياتهم الخاصة إلا من حيث تتفتّح هذه الجوانب وحدها وتضيء.

فالحب الجنسي وتطوّراته وهما المادة الأساسية لجميع القصص (الفنية) اعتبرها القرآن في اسلوب ترتيبه من التفاصيل التي تضر ولا تفيد.

* * * *

# الفصل السادس

## الأدب الشرقي القديم

## كليلة ودمنة ، ألف ليلة ، الرباعيات

من أخطر المحاولات التي يقوم بها الغزو الثقافي والتغريب عن طريق فرض منهج النقد الغربي الوافد ، محاولة «إذابة» الأدب العربي في محيط «الأدب الشرقي القديم ، والأدب الغربي سواء ما اتصل منه بالأغريق او بالأوربي الحديث» .

وقد جرت فترة من الزمن على ان كلمة «الشرق» والأدب الشرقي تمثّل اصطلاح العالم الإسلامي أو الأمّة العربية او الشرق الأوسط ولذلك فقد كانت عائمة غير محدّدة .

ومقطع القول إن الإسلام حين جاء بالقرآن ، فصل بين الأدب العربي الإسلامي والأدب الشرقي القديم كلّه ، سواء أكان من تراث الوثنية الجاهلية او المجوسية الفارسية او الفلسفة الهندية .

ولقد ارتبط الأدب العربي منذ ظهور الإسلام به ، كما ارتبطت به الآداب الفارسية والهندية التي ظهرت من بعد ، وقد استوفى الأدب العربي مفاهيمه وقيمه قبل ان يتّصل بالآداب الشرقية القديمة او الآداب اليونانية والأغريقية أيضاً ، من حيث تحديد خصائصه وطوابعه المستمدّة من ذاتيته ، ومن المزاج النفسي والعقلي العربي .

في ضوء ذلك نرى ان نسبة كتب مثل كليلة ودمنة او ألف ليلة الى الأدب العربي أمر يجب ان يقابل بالحيطة والتحفّظ ، ذلك أن مثل هذا الأدب او مضامين هذه الكتب من فلسفات وغيرها لا تمثّل النفس العربية او الذاتية العربية ، وإنما تمثّل «الشرق» قبل الإسلام او بعده حين انحرفت بعض الأمم عن مضامين الإسلام الحقيقية وعادت الى وثنياتها.

ومن الحق أن الأدب العربي قد واجه التحدّي من ترجمات الآداب الشرقية (الفارسية والهندية) كأمثال كليلة ودمنة وألف ليلة ، على النحو الذي واجه ترجمات الآداب اليونانية والأغريقية فكلمة «الأدب الشرقي» في حاجة الى توضيح يكشف الفرق الواسع بينها وبين استعمال كلمة «الأدب العربي» فيما يتّصل بهذا المجال وغيره.

وإذا كان الأدب اليوناني قد قدم لناصورة الأساطير وتعدّد الآلهة والملاحم الوهمية وذلك الصراع العميق بين الانسان والآلهة ، فإن الأدب الشرقي قد قدم لنا (في ألف ليلة) صورة الترف البشع الذي عاش فيه الأباطرة والملوك والأمراء ، وكلاهما قد استغله «التغريب» في العصر الحديث لنقل الأدب العربي من طابعه القائم على الصدق والبساطة والوضوح الى جو من الرمزية والظلال والغموض الذي ليس من طبيعة الأدب العربي او النفس العربية أساساً.

وأمامنا نماذج ثلاثة : كليلة ودمنة ، ألف ليلة وليلة ، رباعيات الخيام.

* * * *

١ — اما كتاب كليلة ودمنة فليس من الأدب العربي أساساً ، لأنه ليس من تأليف العرب ولا ترجمتهم ، وليس فيه شيء مما يمثّل النفس العربية او يصوّر المزاج العربي ، وهو كتاب هندي الأصل ترجم الى الفارسية ، ثم ترجمه الفارسي «عبد الله بن المقفع» الى اللغة العربية ، ويحتوي على حكايات قصيرة على ألسنة الحيوانات ، فيه طابع الرمز والإيماء والغموض ، والهروب من الوضوح والصراحة.

ويرى بعض الباحثين أن ابن المقفّع وقد عرف بالزندقة ، قد اراد أن يهاجم به الدولة الإسلامية.

وقد وجّهت الى كتاب (كليلة ودمنة) اتهامات فنيّة ، تبعده عن الذوق العربي منها تداخل قصصه ، مما يصرف القارىء عن استقراء حوادث القصة وتتبعها الى الغاية التي يرتاح إليها ، وما يرى فيه من تشعّب القصة الواحدة وتداخل بعض (الحكايات) او اتهامات سياسية ، هو اسراف في الشعوبية.

٢ - أما كتاب «ألف ليلة وليلة ، فهو ليس من الأدب العربي أساساً ، فإن القصة الرئيسية فيه ترسم منهجه كله من أن ملكاً من الملوك عاد من سفره فجأة ، فاكتشف جريمة زوجته فعاهد نفسه على ان يتزوج كل ليلة فتاة ثم يقتلها في صباح الغد ، حتى تزوّج بابنة الوزير التي أخذت تقصّ له قصّة ، فلما جاء موعد قتلها استبقاها الملك ليكمّلها في الغد ، فما زالت تروي ليلة بعد ليلة ، هذا المدخل ليس عربياً أصلاً ولا يمثل المزاج النفسي العربي ، وهو قريب من الأمزجة الآرية المجوسية القديمة.

والكِتَاب مليء بالخرافات والأساطير وقصص الحب والسحر والطلاسم وصور الخمر والرقص والعود والندامى ، مما يجمع بين عديد من القصص الشعبي القديم في تراث الهنود والفرس واليهود ، وقد أضيف إليه قصص مصرية وبغدادية ، ولكن الغلبة في تشكيلة ظلّت للأدب الشرقي الوثني البعيد عن النفس العربية وطوابع الإسلام ، وقد أكّد الدارسون لأصول ألف ليلة انه من مصدر هندي فارسي قديم ، كما أن بعض حكاياته من أصل يوناني وغيرها من أصل يهودي ، وأن أصله الأوّل هو كتاب (هزارافسانة) وكلمة افسانة في اللغة الفارسية تعني «خرافة».

وقد أشار موسى سليمان في كتابه «الأدب القصصي عند العرب» الى أن ألف ليلة وكليلة ودمنة كلامها من القصص الدخيل على العرب ، وأكّد (البيروني) أصل كليلة ودمنة الهندي وقال ان ابن المقفّع زاد عليه «باب برزويه» ، والمعروف ان ابن المقفع هو الذي نقله من اللّغة الفهلوية لأغراض خاصة.

ويعد صادق الحكيم من الذين عالجوا هذا الموضوع في أفاضة وعمق ، في مجلة الأنصار عام ١٩٤٣ وهو الذي لفت النظر الى الفوارق الدقيقة بين الأدب الشرقي بعامة والأدب العربي بخاصة.

وأشار الدكتور أحمد ضيف الى مخالفة هذا الأدب لطبيعة الأمة العربية فقال : ألف ليلة ، كان أدباء العرب يعتبرونه كتاباً غثاً بارداً ، كما يروي ذلك المسعودي في مروج الذهب وابن النديم في الفهرس ، وعلى الرغم من انتشار هذا النوع فقد بقي غريباً عن القصة العربية ولم يتمكّن أسلوبه من نفوس الكتّاب ، ولم يتمشَّ مع عصور الأدب كما تمشّت أنواع الرسائل الأدبية الأخرى

وقد أكّد ابن النديم في الفهرست نسبة الكتاب الى الفارسية وأن بطل القصة هو ملك فارسي قديم ، كما ذكر ذلك المسعودي في «مروج الذهب» وقال عن ألف ليلة : إنها خرافات مصنوعة نظّمها من تقرب للملوك برواياتها : وأن سبيلها سبيل الكتب المنقولة والمترجمة لنا من الفارسية والهندية ، والرومية . وقال ان أصل الكتاب وضع في صدر الدولة العباسية ، ثم زادوا فيه بعد ذلك من الحكايات مما كانت تتناقله الأمم الشرقية.

* * * *

وقد أشار الدكتور (سيتي كمار جترجي[1]) : الى ان الايرانيين كانوا متأثرين بأساليب الهنود القدماء ، والأساطير الهندية ، وقال : إنهم ما زالوا يتناقلونه ويضيفون الى حكاياته حكايات أخرى جديدة ، تمثّل حضارة العرب المقيمين في المدن ، وقال : «ان هذا الكتاب غدا مقبحاً وساقطاً في أنظار الرجال الثقات وعلماء العرب.

* * * *

وفي العصر الحديث استغلّ «التغريب» ودعاة مذهب النقد الأدبي الوافد هذا التراث القديم المضطرب المصدر لإفساد جوهر الأدب العربي والتأثير عليه وتهديم قيمه «وقد سبقهم الى هذا جماعة المستشرقين والمبشرين ومعاهد الإرساليات ومطابع اليسوعيين في بيروت ، فاهتمّوا بهذين الكتابين واصدروا منها طبعات أنيقة محلاة

---

(١) مجلة ثقافة الهند (يناير ١٩٦٢)

بالصور» كما فعلت دار الهلال في مصر. وقد أساء المستشرقون حين اتخذوا من كتاب «ألف ليلة» مصدراً لرسم صورة المجتمع الإسلامي، وهي صورة زائفة إذا روجعت على المصادر التاريخية الصحيحة.

وقد اتكأ أكثر من مستشرق على كتاب ألف ليلة بهدف استخراج صورة لما أسموه (الحب في الشرق) مستنتجاً إياها من خلال القصص التي لا تمثل الواقع العربي ولا النفس العربية الحقيقية ولا تمثّل المجتمع الإسلامي.

فهذه الصورة هي التي تحتويها ألف ليلة سواء من ناحية الفساد والإباحة، او الترف والمجون، او الخلط بين المرأة الحرّة والغانية، والأميرة والجارية.

ومن أشدّ هذه الكتب اضطراباً كتاب المستشرق «لين» الذي كتب عن المجتمع الإسلامي اعتماداً على ألف ليلة.

* * * *

وليس معنى هذا كلّه إلا تقرير حقيقة أساسية هي أن الوثنية لها أدب، والتوحيد له أدب. وان الأدب العربي بعد الإسلام قد طبعه طابع التوحيد فعزله وعزل عنه مثل هذه الصور والخيالات والخرافات.

واذا كان التغريب قد استغلّ هذه الأساطير وبعثها وأحياها من جديد وحشد لها حشوده من المبشّرين والمستشرقين والشعوبيين والتغريبيين فإن «أدباء الأصالة» قد كشفوا أهداف هذا العمل، ولعل ذلك يصدق تماماً في عبارة «صادق الحكيم»: جاء الأوربيون حديثاً وهم يعرفون ان هذه العناصر الشرقية (من الزينة والإسراف في المتعة والتحلل، هي التي ذهبت بالأمبراطورية الإسلامية فأشادوا بها وكتبوا فيها الشعر والقصص، وجاء أبناؤنا القادمون من جامعات الشمال يحملون إلينا تقدير أوربا ذات النهضة الصناعية للجو الشرقي والأحلام الأخلاقية وسحر الشرق، وتردّد صدى ذلك عندنا فانبعثت في بلادنا (شهر زاد الغاوية) مرة أخرى وامتدّت في ظلمات حياتنا بقيّة من ليالي ألف ليلة)

والكاتب[1] في هذا يشير الى كتابات طه حسين وتوفيق الحكيم وغيرهما عن ألف ليلة وشهرزاد، وهي قصص تجري في هذا التيار الغريب عن النفس العربية، تيّار الأسطورة والخرافة التي قامت عليه الآداب القديمة الأغريقية والوثنية والمجوسية واليهودية، وقد أعجب العرب بهذه الأساطير كشيء غريب، ولكنها لم تجد قبولاً أصيلاً من النفس العربية ذات المزاج الصريح الواضح الواقعي.

والحق ان مفتاح الأدب العربي والعقلية العربية هو (القرآن).

٣ـــ أما رباعيات الخيام فإن أمرها أشدّ خطراً حتى لتبدو للناظر من الوهلة الأولى فيها صيغة التآمر والمغامرة، ذلك أن عمر الخيام الى ما قبل ظهور الرباعيات باللغة الانجليزية عن الفارسية وترجمتها لم يكن إلّا واحداً من علماء الفلك المبرزين، وفجأة نسبت إليه هذه المجموعة الضخمة من الرباعيات المسرفة في الدعوة الى الخمر والانحلال، وجنّدت لها كل القوى في الشرق وفي الغرب حتى انشئت الأندية المنحرفة في الغرب تحت اسم الخيام، وطوابع البريد، وعشرات من أساليب الدعاية الغربية التي انتقلت رياحها الى الشرق والى البلاد الإسلامية والعربية، ثم ظهر هذا العدد الوفير من المترجمين الذين تصدّوا لهذه الرباعيات فنقلوها الى اللّغة العربية (الزهاوي والصرّاف ورامي والنجفي وفاضل وتوفيق ومفرح والسباعي ووديع البستاني).

ومع كل هذا الجو الذي أحيطت به وهذا الضجيج العالي الذي لم يكن طبيعياً فإن الشكوك قد تناثرت منذ اليوم الأول حول صحّة نسبة هذه الرباعيات الى الخيام بالذات وإن كان التراث الفارسي القديم حافلاً بها.

ولقد جنّد لهذا العمل: الشاعر الانجليزي فيتز جرالد، وعشرات من أساتذة الأدب في الجامعات الانجليزية وفي مقدّمتهم (أ.ج. آريري).

غير ان المراجعات الدقيقة التي أجريت منذ اللحظة الأولى كشفت عن ان فيتز

(١) صادق الحكيم اسم رمزي كان يكتب به الاستاذ احمد موسى سالم.

جرالد حين وصلته المخطوطات الفارسية والهندية لم تكن بالوضوح الذي يركزها كلها حول عمر الخيام ، وأن هناك أخطاء بالغة في الترجمة كذلك فإن هناك إشارة واضحة الى أنه استوحى هذه النصوص ولم يترجمها ، كذلك فإن الدكتور ميلار نشر مقالاً في جريدة المورننج بوست قال فيها إن شخصية عمر الخيام محاطة بغلالة من غموض وإبهام ، وقد نسجت حوله أساطير غامضة تدعو الى الشك في وجوده ، وجاء ببراهين أنكر فيها نسبة هذا الشعر الى عمر الخيام.

وأشار همايون في مقال له ترجم في مجلة الثقافة ( ١٤ مارس ١٩٣٩ ) الى الشك في نسبة هذا الشعر الى عمر الخيام ، وان عدداً كبيراً من قصائده منسوب الى شعراء آخرين ، وكثير منهم أقدم عهداً من عمر الخيام. وهنا تبدو « دهشة » المراجعين لهذا التركيز على عمر الخيام ، بينما هناك من شعراء ايران أمثال : حافظ وسعدي والعطار لم تهيّأ لهم مثل هذه الفرصة. وبدت الشكوك تتردّد حول اتجاه هذه الرباعيات الخمسمائة المنسوبة الى عمر الخيام ، وما تحمله من دعوة الى التغزل بالخمر وحث الناس على تعاطيها والقول بأنها الدواء الناجع لآلام النفس ، بينما تكشف حياة عمر الخيام عن شخصية رجل مسلم عميق الإيمان بالله ، منصرف بكليّته الى العلوم الفلكية.

ومنذ ذلك الوقت الباكر كانت الإرهاصات كلها تشير بالشك ، وأصبح الاتهام حول هذه الرباعيات بل ان واحداً من مترجمي هذه الرباعيات وهو احمد حامد الصراف كتب تحت عنوان (هل كان عمر الخيام سكيراً) مقالاً في مقتطف ١٩٢٥ حاول من خلاله أن يصل الى مفهوم باطني زائف يختلف عن مفهوم الإسلام في فهم العقاب والجزاء والمغفرة والإرادة الجبرية ، مما تحمله فلسفات الغنوصية القديمة ، ولكنه كان شاكاً في نسبة هذا الشعر الى الخيام.

كذلك أشار لطفي جمعة (البلاغ ٨ مايو ١٩٣٢) الى أنه لم يهتد أحد بعد الى العدد الصحيح لتلك الرباعيات ، ولم يتأكّد أحد من صحة ما هو منسوب منها الى الخيام ، وان هناك مئات من الرباعيات موضوع ومنسوب كذباً الى الخيام ، وقد

استمر القاء الضوء على هذه الظاهرة سنوات طويلة لم يتوقّف حتى أشار دكتور محمد موسى هنداوي في محاضرة له ألقاها في مارس ١٩٢٨ الى ان الرباعيات تحتوي على كثير من الاختلاف والانتحال مما يجعل الخيام أكبر مفترى عليه في تاريخ الأدب، ذلك العالم الرياضي العاقل المفلسف الحكيم المتمالك لكل مشاعره، خاصة في الرباعية التي تدعو الى احتساء الخمر وتمجيد الكأس الى جوار رباعية أخرى فيها الاعتراف بالاله الواحد وفي الالتجاء إليه: النزوة الطائشة بجوار الحكمة السديدة ان الذين اتهموا اسرفوا في الاتهام حتى حاكموا الخيام عن رباعيات لم تثبت نسبتها إليه، فضلاً عن التزيد فيما نشروه.

وقد أشار الى ما أورده عبد الحق فاضل في بحثه عن الخيام قوله: «من الحق عليّ أن أنبّه الى أمر: هو أني لست على يقين من أن هذه الرباعيات التي تقرأ هي رباعيات الخيام حقاً، فما من انسان يسعه أن يجزم بأن معشار تلك الرباعيات التي تعد بالألوف والتي تكتظ بها النسخ المختلفة هي للخيام حقاً.

وللدكتور محمد عبد الهادي ابو ريدة بحث مستفيض عن الخيام يشير فيه الى أنه كان عالماً اشترك في اصلاح التقويم الفارسي، وفي بناء المرصد للسلطان ملكشاه، وأن شهرته الكبرى عند المؤرخين المعاصرين ترجع الى علو قدمه في الرياضيات، وفي كثير من فروع العلم. لذا نجد تلميذ النظامي يضعه في القسم الخاص بالمنجّمين والفلكيّين لا في القسم الخاص بالشعراء. ويصفه البيهقي المؤرخ المعاصر للخيام، والذي عرفه شخصياً بأنه الدستور الفيلسوف حجة الحق، هذان المؤرخان لا يذكران شيئاً يدل على أنه شاعر فضلاً عن ان ينسبا إليه شيئاً من الرباعيات المنشورة التي تحمل اسمه.

ولكن بعد ان انقضى على وفاة الخيام أكثر من قرنين أخذت تظهر مجموعات الرباعيات التي تنسب إليه وأخذ حجمها يتزايد مع الزمن وان كان يذكر له قبل ذلك رباعيات ذات محتوى شكي إلحادي، واذا صرفنا النظر عمّا في مجموعات الرباعيات التي ليس لدينا ما يثبت نسبتها للخيام اثباتاً يقينياً، لأن كثيراً منها كما بيّن ذلك تشوكوفسكي في بحث نقدي له عام ١٨٩٨م ينسب بحجة أقدم أو أحسن او

مساوية الى شعراء آخرين ، فإن ما في المراجع غير المباشرة من رباعيات تنسب للخيام تدعو الى الاعتقاد ان له رباعيات من التي اضيفت إليه فيما بعد.

ولعل أقدم رباعيات نسبت إليه هي التي ذكرها نجم الرازي في كتابه مرصاد العباد حوالي عام ٦٢٠ هـ. ونجم الدين ينبّه على حيرة الخيام وماديته وإلحاده ، جاء بعد ذلك المحقق جمال الدين القفطي المتوفى ٦٤٦ هـ ، فوصف الخيام بأنّه إمام خراسان وعلّامة الزمان ، وقال : لقد وقف متأخرو الصوفية على شيء من ظواهر شعره فنقلوها الى طريقتهم وتحاضروا بها في مجالسهم وخلواتهم ، ويذكر القفطي أن معاصري الخيام قدحوا في دينه. فلمّا خاف على نفسه خرج الى الحج « منافاة لا تقية » .

ولعل القفطي قد عرف بعض شعر الخيام لأنه يقول : وله شعر يظهر خفياته على خوافيه ، وتكدر عرف قصده كدر خافيه « إلّا ان القفطي لا يذكر إلا أربعة أبيات لا تحوي ما في الرباعيات من شك او مادية او الحاد ، ويقول الدكتور ابو ريده مستطرداً : ونظراً لأن المؤرخين المعاصرين لم يذكروا للخيام رباعيات فإن من العلماء من يشك بحق في نسبة الرباعيات إليه ولا أحد منهم أشد غلوا في حكمه من المستشرق الألماني هـ.هـ. شيدر في بحث ألقاه في مؤتمر المستشرقين بمدينة بون بألمانيا عام ١٩٤٣ ، ويعتمد شيدر على رأي المعاصرين في الخيام وصحتهم عن أمر الرباعيات وعلى التراجم التي كتبت في تتابعها التاريخي ، ويستند فوق ذلك الى ما في مؤلفاته العلمية من روح اليقين فيرى ذلك معارضاً كل المعارضة لما في الرباعيات وينكر بذلك كل علاقة بين الرباعيات وبين الخيام.

وهو يعتبر الخيام من كبار المتمكّنين في العلم الإسلامي ومن ممثلي العلم الحر ، ويلاحظ أن الهجوم على الخيام بدأ من دوائر الصوفية منذ أوائل القرن الثالث عشر الميلادي (السابع الهجري) .

وقال ان ما ذكر من وسم الخيام بالإلحاد والزندقة ليست من ترجمة الخيام في شيء ، والى ان الخيام التاريخي يجب ان يمحى اسمه من الشعر الفارسي ، هذا هو

(الفرق بين الخيام التاريخي والخيام الأسطوري) وهو عنوان بحثه ، اما الرباعيات المشهورة فهي عند شيدر تمثل نظرة في الحياة يمكن ان تنطبق على الشعر الفارسي غير الصوفي في عصر المغول وما بعده ، ليس بين يدي من ينكر نسبتها إليه أي سبب كان لتأكيد ان الخيام كغيره من الشعراء لم يقل رباعيات من التي تنسب إليه في المصادر غير البارزة على الأقل.

ولا بد أن قوله الرباعيات (أصلاً) هو السبب في نسبة المجموعة المتأخرة عنه كلّها إليه ، وليس ما يمنع من أن الخيام قد قال رباعيات في فلسفة الحياة وفي حكمتها وفي مسائل الدين والفكر ، ثم عرف بعض الرباعيات وصار مثالاً ينسج على منواله شعراء آخرون حتى تضخّمت الرباعيات وصارت كتاباً على هيئة كتب المجموعات. ونحس ذلك في الرباعيات التي بين أيدينا من التكرار والتناقض واختلاف الروح والأفكار ما يجعل هذا الفرض قريباً من الصواب» ا. هـ.

ونصل في النهاية الى البحث الذي قال (الكلمة الحاسمة — وليست الأخيرة — في هذا الاتهام وهو كتاب كشف اللثام عن رباعيات الخيام للسيد ابو النصر ميشر الطرازي الحسيني وهو الذي يقول انه لم تكن للخيام رباعيات تزيد على عدة رباعيات يقال انه أنشأها ترفيهاً للنفس ، وقد زاد عليها المفرضون رباعيات كثيرة وصفوها او أخذوها من هنا وهناك ونسبوها إليه ، هذه الرباعيات المتنكّرة المخزية ليست من نظم عمر الخيام لأنها لا تتفق ومكانته العلمية.

ويعجب السيد الطرازي كيف يعرف عمر الخيام لا عن طريق مكانته العلمية الحقة ، وإنما عن طريق رباعيات مزعومة عبروا عنها برباعيات الخيام ووصفوها بأنها فلسفة الخيام فمنهم من قال انه أبيقوري النزعة والميول ومنهم من سمّاه (وايلد) الشرق ومنهم من ذهب الى أنه معري المذهب ، ومنهم من رأى أنه اباحي وأنه مستهزىء بأحكام الدين ، كما طعن فيه البعض بأنه دهري ، وزعم بعض أنه تناسخي وظن بعض أنه باطني ولا أدري وتشاؤمي ، وجبري. وادعى آخر أنه ثائر على كل شيء : على الدين وعلى الأخلاق وعلى العقل أيضاً ، وليس لهم دليل على ذلك إلّا تلك الرباعيات التي نسبت الى شخصه وظنّوا أنها من الحكيم عمر الخيام النيسابوري ومقولاته وآثاره.

وقد كان عليهم ان يعرفوا الحكيم النيسابوري تحت ضوء الفحص العلمي الصحيح والنقد التاريخي الموثوق معتمدين على آثاره ومقولاته.

ويصل السيد الطرازي الى القول بانتحال تلك الرباعيات بدلائل كثيرة ولا سيما التناقض بين معانيها واتجاهاتها، ويعجب أن يعرف عمر الخيام في ضوء رباعيات مترجمة على يد شاعر انجليزي هو (ادوارد فيتز جرالد) تلك الترجمة التي قام بها عام ١٨٥٦ م ونشرها في الغرب على أوسع نطاق، وقد انساق المسلمون وراء تلك الفلسفة المزعومة الخدّاعة وتأثروا بما فيها من المعاني المثيرة والاتجاهات المغرية والتحليلات الباطلة.

وكشف الباحث ما وراء هذا من هدف حين قال: ان أوائل الغربيين الذين اهتموا بالرباعيات إنما كانت تدفعهم فكرة استعمارية معتمدين في ذلك على محض مصادفة ساقها القدر، وهو المستشرق فيتز جرالد الذي تلقّى الإشارة من قبل الساسة الانجليز.

ويقول الدكتور محمد موسى هنداوي: «أنا مع الطرازي في ان الاستعمار لا يترك وسيلة الا استخدمها ولا سلاحاً الا استعمله».

ويقول الطرازي ان يد التبشير والاستعمار كانا وراء ترجمة الرباعيات ونشرها، وأن الأغراض المقنعة وراء هذا هي اشاعة روح فن الرباعيات عن طريق شعر منسوب الى مسلم، ورباعيات مسكرة خليعة فيها دعوة صريحة وصارخة الى تناول الصهباء ومجالسة الغادة الحسناء وامرار الحياة بالعطالة والجمود والكسل والخمود والحرية المطلقة التي لا قود فيها وفي ذلك مهاجمة واضحة لتعاليم الدين الإسلامي الحنيف.

ويقول ان الذين قاموا بذلك هم خواص الغربيين الماهرين ممن لهم علاقة بالتبشير المسيحي ومنهم المستشرق النمساوي هافر برغستل الذي ترجم خمساً وعشرين رباعية منها، وكلها تخالف تعاليم الإسلام وتخدش مقدساته، وذلك في كتاب (تاريخ الدولة العثمانية).

وقد وجدوا في هذه الرباعيات بغيتهم المنشودة في الطعن على الدين الإسلامي والاستهزاء بتعاليمه المقدّسة ولا سيما الجرأة على رسول الله مستندين في ذلك الى مقولات ولو موضوعه نسبت الى رجل عظيم من عظماء الشرق وعالم من علماء الإسلام، كما كسبوا مبالغ باهظة عن طريق بيع ترجماتهم وكتبهم في الشرق والغرب.

يقول الاستاذ الطرازي: كان فيتز جرالد الشاعر الماهر الانجليزي قد لبّى الإشارة من قبل بعض ساسة الانجليز فقدم الى المستعمر المحتال خدمة مشكورة، ولكن تحت ستار الخدمة للأدب الغربي وذلك بترجمة تلك الرباعيات الى النظم الانجليزي وحذا حذوه (زوكوفسكي) المستشرق الروسي، وقد تفرّد فيتز جرالد بمزية خاصة، فقد صور الرباعيات المستنكرة المخزية الخليعة بصورة خلابة وضمنها في كلمات انجليزية منظومة جذابة. بحيث تخلب قلوب أهل الشرق ولا سيما الشباب الناشيء ورجال المستقبل وتكسب اهتمامهم نحوها من حيث طلاوتها اللفظية اولاً والشهوات والنزعات النفسية ثانياً.

وقد خدع فيتز جرالد الشرق والشرقيين بهذه الخدعة السياسية ونجح ونجح معه الانجليز بدهائهم المعروف في السياسة الاستعمارية الى نشر هذه السموم الفتاكة بين أبناء الشرق عامة وخاصة أبناء مستعمرة الهند وجارتها ايران خاصة تحت ستار الأدب، ودعاهم جميعاً الى تناول الخمور ومغازلة الحسان وملازمة السرور والغناء ومجانبة السعي والعمل وحثّهم على الإباحة والزندقة والحرية المطلقة. الأمر الذي دفع الشرق الى ما دفعه من التأخر وجعله مستعداً لقبول تدخل المستعمر في شؤونه الاقتصادية أولاً والسياسية ثانياً. ومما أدّى الى تأخر طائفة من الشرقيين وفساد أخلاقهم وابتعادهم عن كسب العلوم والفنون.

وقد تمكّنوا ونجحوا في تنفيذ خدعتهم في صفوف أبناء الشرق ودفعوهم الى التقدير والإعجاب بتلك الترجمة الخادعة للرباعيات حيث صارعوا الى ترجمتها الى العربية والأردية.

وقد بلغ الغربيون في تعريف صاحب الرباعيات على ألسنة خطبائهم وأقلام كتابهم وقرائح شعرائهم ومقدمات تراجمهم الى حد أنهم شبهوه بأبيقور اليوناني وأبي العلاء المعري ترويجاً لسوق الرباعيات وتنفيذاً لخطتهم السياسية ضد المسلمين وأغراضهم العدائية ضد دين الإسلام وتعاليمه. وقد كانت ترجمة فيتز جرالد لرباعيات الخيام مدرجة في برامج التدريس بجامعة عليكرة أعظم جامعات الهند تحقيقاً للأغراض والأهداف السياسية الاستعمارية».

ولقد حاولت الرباعيات أن تحيي بذكاء ورقّة تعاليم الباطنية واتباع حسن الصباح من إباحة شرب الخمر وجميع الملذات وانكار النبوات والمعجزات والقول بقدم العالم وأبطال القول بالمعاد والنشر من القبور، وكون الجنة هي نعيم الدنيا، ووصايا أخرى ترمي الى هدم الشرائع وتثبيت دعائم الإلحاد، ويؤكّد الاستاذ الطرازي أنه ليس هناك أي سند تاريخي او دليل علمي موثوق يثبت صدور تلك الرباعيات، ولا سيما المستنكرة الخليعة منها عن الحكيم عمر الخيام النيسابوري، وأن هذه الرباعيات التي نسبوها إليه جمعوها من هنا وهناك وطبعوها في الشرق والغرب.

وتقسم الرباعيات الى رباعيات لا بأس بها يمكن ان تكون من مقالات الحكيم النيسابوري والى رباعيات مستنكرة خليعة خمرية لا تتفق مع مكانته ومبدئه الذي ثبت عليه، ولو كان للخيام رباعيات مثل هذه الرباعيات المستنكرة الخليعة الخمرية لما سكت عن روايتها المؤرخون الأقدمون. حيث لا توجد نسخة مدوّنة لرباعيات الخيام إلّا ما دوّن بعد مرور ثلاثة قرون ونصف قرن من وفاته، وهي النسخة المعروفة بنسخة بودلين المحفوظة في اكسفورد، وهم لا يعرفون مصدر هذه النسخة التي أخذ منها صاحبها. الأمر الذي يدل على موضوعيتها الى حد كبير.

ويصل ما نسب حقيقة الى الخيام الى ستّ وستين رباعية بينما ما ينسب إليه الآن يزيد على مائتين وألف رباعية. بل يربو على ألفي رباعية، ويشير الأستاذ شفيق صاحب كتاب أدبيات ايران الى أنه لم يتوصل بعد الى تصديق انتساب الرباعيات الى عمر الخيام، بل لم يتمكّن من ابداء الرأي القاطع فيها».

* * * *

# الفصل السابع

## الأدب العربي والأساطير

## ما هو موقف الأدب العربي من الأساطير؟

إن كلمة اسطورة هي ترجمة لكلمة Historia اليونانية ومعناها خرافة، أُدْخِلَت الى العربية في عصورها الأولى فأصبحت اسطورة والأساطير نوعان: شرقية وهي سومرية وبابلية، وغربية وهي يونانية ورومانية. أمّا العرب قبل الإسلام فلم تكن لهم أساطير الا بعض ما يروى من القصص عن سدّ مأرب وعاد وثمود، أما الغرب والشرق فقد عرف عشرات من الأساطير، ويرجع ضعف الأسطورة في الأدب العربي الى طابع الوضوح والصراحة وطبيعة الصحراء المشرقة المفتوحة.

فلما جاء التوحيد: جاء بالحنيفية السمحاء ليلها كنهارها. .

وفي رأي كثير من الباحثين أن الأساطير كانت محاولة لتفسير أحداث الحياة وظواهر الطبيعة على ضوء تلك المعتقدات وينسبها الى تدخّل الآلهة وأنصاف الآلهة في شؤون البشر، وان بعضها قام بتصور أحداث خرافية بين الآدميين من ناحية وبين الجان والغيلان والعمالقة والأقزام وغيرهم.

وهذا اللون من الأدب الأسطوري لم يكن معروفاً عند العرب الذين كانوا يصورون بالشعر قبل الإسلام مجتمعهم وعالمهم الحقيقي «بما فيه من خير وشر،

وتحليل عواطفهم كما أحسّوها ووصف الأحداث على نحو ما وقعت لهم ، فإذا لجأوا الى المبالغة لم تخرج مبالغتهم عن الحد المستطاع ولم تموه الواقع[1] ، ومن هنا كان الخلاف الواضح بين عالم الأساطير عند الاغريق والفرس وعالم الشعر عند العرب قبل الإسلام ، فلما جاء الإسلام استمدّ الأدب العربي من القرآن مفهوم الوضوح والصراحة والإيجاز والنفاذ الى أعماق الأشياء دون الاهتمام بالتفاصيل.

وقد ارتبطت الأسطورة بالوثنيات القديمة : وثنيات الاغريق ووثنيات الفرس ، وقد كان لدى الاغريق أساطير كثيرة تتحدّث عن ماضيهم ، وكانت الأساطير عندهم أساساً وسيلة لتفسير الحياة والطبيعة والخير والشر ، وكانوا يؤمنون بأن هذه الأمور يحركها آلهة وإلهات ولم يكن هؤلاء الآلهة في اول الأمر إلا أبطالاً ، غير أنهم ما لبثوا أن اضافوا إليهم من الخوارق حتى ألهوا هؤلاء الأبطال.

وتدور أساطير الاغريق في أغلبها حول الحب والخمر ولا تصور إلا الجوانب الإباحية المنحلة . يقول مفيد الشوباشي : إن الحب الذي تصوره لنا ملاحم الاغريق ومسرحياتهم هو الحب الجسدي العنيف المنتقم ، الحب الذي تراق في سبيل ملذاته الدماء وتزهق الأرواح وتشعل الحروب ، الحب الذي يتجه الى القسر والأسر والاغتصاب ، الحب الذي تبثّه في الضلوع المتحرّقة إلهة الإخصاب.

أما الحب الانساني : الحب العف الوفي ، الحب الذي يبعث المروءة والنبل والنجدة ، الحب الذي عرفه الإنسان الأوّل مرة في ربوع نجد فلم تعرفه أوربا الا بعد اتصالها بالعرب ، ولم يعبر عنه الشعر الأوربي والقصص الأوربية الا منذ ذلك الحين ، وهذا وجه من اكبر وجوه الخلاف بين الأساطير والملاحم الاغريقية وبين النفس العربية والأدب العربي.

وتقوم الأساطير الاغريقية في الأغلب ومنها تنبع الملاحم والقصص على المآسي الفاجعة ، يقول الدكتور محمد غلاب «هناك منبع خطير الأهمية في نشأة المآسي : هو

---

(١) الشوباشي ـــ رحلة الأدب العربي.

عاطفة تقديس الأبطال في كل مدينة ترفع بطلها الخاص حتى تخلق منه إلهاً أو نصف إله، ومن آيات ذلك أعياد هؤلاء الأبطال بعد ان كانت في العصور الأولى اجتماعية محضة أصبحت في هذا العصر دينية تحوطها القداسة وأن القصص التي تروي مفاخرهم قد صارت نوعاً من الطقوس، وأضحى الشعب ينظر الى أولئك الأبطال في صلاتهم بالآلهة الذين يهددونهم حيناً ويضلونهم حيناً آخر. ويحمونهم تارة، ويدفعونهم الى التهلكة تارة أخرى، ومن هذه الأعياد القديمة التي قدّس فيها الأبطال (أدرستوس)[1].

وهذا الجانب من الأساطير الاغريقية غريب على الأدب العربي والعقلية العربية التي لا تؤله أبطالها ولا تجعل منهم أنصاف آلهة، بل ان أعظم أبطالها وهو محمد رسول الله لا يوصف بمثل ذلك، وإنما يوصف بما وصفه به الله في القرآن: «قل انما أنا بشر مثلكم يوحى إلي».

ومن هنا تختلف الميتولوجيا الاغريقية عن منابع الأدب العربي والفكر الإسلامي وتتعارض مع عقائد ومفاهيم المسلمين والعرب.

«فالآلهة في الميتولوجيا الاغريقية تدفعها حيوية عارمة الى كل تصرفاتها حيوية لا تعرف العدل والحق والخلق والفهم لأنها حيوانية فانية شهوانية طائشة، أما الإسلام فينبذ نهائياً فكرة الشهوة والظلم عن ذات الله».

وقد وصفت اللهجة الغالبة على الملاحم (الإلياذة والأوديسة) بأنها لهجة صائحة معولة قاتمة متشائمة، تبدو الحياة منها زخرفاً خلّاباً خادعاً، حيث البطل له جبروت ورهبوت وليس هو بطلاً انسانياً فضلاً عن خواتم الملاحم فانها مليئة بالشجن فياضة باللوعة.

ولقد كانت تحاك حول الأبطال هالات ضخمة تخفي تفاهة الأعمال التي قاموا

---

(١) الأدب الهليني للدكتور غلاب ج ١

بها ، ومن ذلك ما حشده هوميروس في (الأوديسة) من خرافات من أعمال (اوديسيوس) البطل في حرب طروادة ، ومثل هذه المبالغات نجدها في الشاهنامة وأساطير الفرس ، ونجدها في أساطير الفراعنة من قصة البحري الغريق الذي أنقذه رب على شكل ثعبان ، ثم بعثه الى أهله محملاً بالهدايا والأسماك والعطور.

وهذه التهويلات كلّها تختلف عن القصة والصورة في الأدب العربي ، مما يصوره صادق الحكيم حين يقول : في وسط هذه الأوهام التي تعلّقت فيها رؤوس الأمم كان للصدق صخرة شمّاء يعتصم بها في كينونة البشر المدلهمّة في شبه جزيرة العرب ، فلم يكن السكان الرابضون على خيولهم في هذه الصحراء إلّا أبطالاً في مجموعهم ، فرساناً غزاة ، وأجواداً كرماء ، وقد خصّهم الله باللسان الباتر كالسيف وأنبت الحكمة البالغة فيهم ، ومع ذلك لم تتألف الملاحم والالياذات لتكريم هؤلاء الأبطال بالأكاذيب والادعاء عليهم بما لم يكن فكان إظهار الحق في الرواية هو هالة المجد في حياة أبطالهم ، وكان الاسناد فنّاً عربياً خالصاً ، لم تعرفه الشعوب غير العربية ، ذلك أنها لو أسندت لافتضحت ، فلم يكن لها إذن من ذريعة الى لذاتها سوى الكذب واضاعة المعالم والتعفية على الحق في غبار من الأوهام والخرافات.

ويوافينا عصر الفتح الإسلامي بالحجة الدامغة ، أَفَلَوْ كانَ لأمّة من الأمم مثل ما كان للأمة العربية من الأبطال في هذا الفتح ، ومن طبيعة بطولتهم في نشر الإسلام وإنعاش العالم وقهر الملوك ، وتبديل القلوب اكان يغمض لها جفن قبل ان يطرزوا حول شخصيتهم البراقة ما شاءوا من تسبيح المزاعم ، وأكاليل الادعاءات والتهاويل ، ولكن العرب لم يتكلّموا عن أنفسهم إلّا بالحق المسند ، والقول الموجز وانصرفوا الى العمل الجبّار في كل نواحيه».

أما بالنسبة لأساطير الفرس فإن الدكتور أحمد ضيف يرد انتشار القصص العامية ولا سيما الأعجمية في الأدب العربي الى الفرس ، حيث (اندس بين العرب جماعة من الأعاجم وكان من بينهم من يحمل الأخبار الخرافية والأخيِلَة الغريبة التي ورثوها عن آبائهم وأجدادهم الفرس والهنود أصحاب الأخيلة العتيدة من الأساطير وينبوع كل القصص الخرافية ، وكان من بينهم جماعة من التجار الذين يتردّدون على

الهند وفارس و بلاد العرب ، وينشرون هذه الأخبار في المجالس والمجامع بين الخاصة والعامة فذاع أمر هذه النصوص بين علية الناس).

ويرد بعض الباحثين أثر الأساطير الفارسية في الأدب العربي الى سيطرة الشعوبية وسعيهم لإفساد الخلق العربي بالتهتّك والخلاعة لإنزاله عن مناعته ، وهم حين عجزوا عن محو الدولة العربية الاسلامية بالسيف ، عمدوا الى نسفها بتشويه صفاء الطبع عنها ، ورموها بأساطير الفرس والهند فانسابت في بلدان العرب كافة تستبيح كل خدر وحجاب [١].

وفي قمّة هذه الأساطير التي نقلت الى العربية : كليلة ودمنة وألف ليلة وليلة ، وقد حوت قصص ألف ليلة المواقف الإباحية والأشعار المكشوفة يرمون بها روح التماسك والرجولة في الأدب العربي.

وكان ذلك كلّه مخالفاً للسجية العربية التي تأبى التخنث والفحش ، وتتميز الأساطير الشرقية عن الأساطير الغربية بعدّة ظواهر:

أهمّها الترف والبذخ والبخور والقصور والنمارق والزخارف ، فبينما تصور الأسطورة الغربية الفقر والظلام والخوف وعمق الشعور بالألم والوحشية والغموض ، نجد الأسطورة الشرقية تصور الأطعمة الفاخرة ، والحياة المليئة بالمتعة على النحو الذي نراه في كتاب ألف ليلة ، وخاتم سليمان ، وطاقية الاخفاء.

٢ — تتسم قصص ألف ليلة بأنها أساطير ذات أصل فارسي وعليها اضافات من الأساطير اليونانية والهندية والفرعونية القديمة ، وأنها لا تمثل الذاتية العربية ولا تتصل بها إلا أنها مكتوبة باللغة العربية.

ومؤلف ألف ليلة مجهول ، وهي جماع لحكايات الرواة والقصاصين الذين تناثروا في العالم العربي في العصور المتأخرة ، وهي جماع صور متباينة بين العفاريت والطلاسم وخاتم سليمان وطاقية الإخفاء ، واعتماد الحياة على الحظ والمؤامرة ، وهي حياة قوامها

---

(١) بتصرف عن كرم ملحم كرم (الرسالة ١٩٤٦)

الشهوات والبخور والعطور والغناء والرقص، وهي قصص سلبية، فيها صور الانحلال، والتوكّل، والقدرية، وتعنى بتصوير حياة الجواري، وصور اللذات، وإسراف القصور، ومُتَع المترفين من قصور ونساء وموسيقى.

وتقوم أكثر قصص ألف ليلة على الخيانة الزوجية وحيل العجائز في الجمع بين العشاق، وقد بدأ الكتاب بخيانة زوجة الملك شهريار له، وهي تجرى في تيار جامع بين خيانة المرأة وغدر الرجل، حيث يتحرك الرجال وراء اللذات العاجلة، ويتحرك النساء وراء الحرير والذهب.

وفي ألف ليلة خنوثة الرجل وداء الغلمان، وصور الصوفية والأضرحة المزينة بالذهب والمضاءة بالشموع، والمفروشة بالبسط، وهي في مجموعها صور غريبة عن الذاتية العربية وعن النفس العربية الأصيلة.

ولقد عمدت حركة الغزو الثقافي والتغريب الى العمل على إذاعة هذه القصص وإعادة طبعها ملونة ومزخرفة، وأجرت نشرها ووضعها بين أيدي الباحثين، حتى لتد كانت أطروحة من أطروحات كلية الآداب للدكتورة سهير القلماوي وبحثاً ضافياً لأحمد حسن الزيات.

وحاول كثير من الباحثين الغربيين اعتبارها مصدراً لرسم صورة المجتمع الإسلامي. كما اعتمدوا على كتاب الأغاني، وكلاهما من المصادر الزائفة التي لا تمثل حقيقة الأمة العربية ولا الذات العربية، وليست من الأدب العربي الأصيل، وكان الجزويت والإرساليات التبشيرية في بيروت عام ١٨٨٨ هي التي أولت الاهتمام بطبع كتاب ألف ليلة ونشره.

كما استغلّت الصهيونية العالمية احياء مثل هذا الكتاب فألقى الدكتور ولفنسون استاذ اللغة العبرية بالجامعة المصرية في ١٥ مايو ١٩٣٢ محاضرة عن القصص اليهودية في ألف ليلة. فأشار الى أنه في الكتاب بعض قصص يهودية قال: ومن أهمها: السندباد البحري التي يعتقد ان موضوعها مقتبس من التلمود وقصص السائح

اليهودي ، وقال ان من الثابت المؤكّد ان السفرتين الأولى والسابعة يهوديتا الأصل بلا نزاع ، اما السفرات بين الأولى والسابعة فمستمدّة من مصادر أخرى غير يهودية .

والمثال الآخر فهو قصة (حاسب كريم الدين) وقال إنها يهودية ليس فقط بأسمائها اليهودية ، بل وبها إشارة الى تعاليم وحكم يهودية علاوة على ان ذات عنوان القصة نفسها مترجم عن اليهودية .

كما أشار الدكتور احمد ضيف[1] الى غلبة القصص الاسرائيلية على كتاب ألف ليلة وبها ذكر سليمان وداود وبيت المقدس ، وان وصف الأرض وارتكازها هو مما أخذ من كلام (وهب بن منبه) .

وحكاية بلوقنا المذكورة ضمن قصة حاسب كريم الدين بن دنيال الحكيم ، بها قسط وافر من الأساطير الاسرائيلية .

ومن أساطير القصص الاسرائيلية أنه لما توفي سليمان عليه السلام وضعوه في تابوت وعدوا به سبعين بحراً .

ويرى الدكتور ضيف أن قصص ألف ليلة هي ترجمة لكتاب (هزار افسانة) الفارسي مع اضافات اسرائيلية . وقال المستشرق البلجيكي شومان : ان القسم الذي كتب في مصر من كتاب ألف ليلة إنما كتبه جماعة من الإسرائيليين.

ولم يكف إحياء كتاب ألف ليلة في الأدب العربي الحديث وإذاعته ، بل ان بعض الكتّاب ذهب الى إحياء قصصه : فكتب توفيق الحكيم : شهرزاد ، وكتب طه حسين : أحلام شهرزاد ، وقد نشرت هذه القصص كتجديد لأساطير ألف ليلة ولخلق هذا الفن في الأدب العربي ، وقد كان لطه حسين دوره في احياء أساطير الوثنية الجاهلية ، والوثنية الاغريقية واضافتها الى سيرة الرسول : في كتابه (على هامش السيرة) الذي اعترف بأنه صاغه على نمط : كتاب (على هامش الكتب القديمة) لكاتب فرنسي :

---

(١) المقتطف مارس ١٩٣٥ .

وأنه قصد به إحياء الأساطير، وقد هاجمه في ذلك الدكتور محمد حسين هيكل وكشف عن خطر احياء الأساطير التي تجري حول حياة الرسول من حيث اهتم المسلمون بتنقية سيرة رسولهم من كل ما حاولت الاسرائيليات اضافته من أساطير وروايات غير محققة.

وقد وسّع طه حسين على نفسه في كتاب (أحلام شهرزاد) وابتكر قصصاً جديدة عن الملك طهمان ملك الجن وابنته فتنة، وأثار جوّاً من الوهم والخيال، لم يعرفه الأدب العربي ولم يتّفق مع ذاتيته ومزاجه النفسي في يوم من الأيام.

* * * *

# الفصل الثامن

## المسرحية اليونانية والأدب العربي

حاول دعاة مذهب النقد الغربي إثارة اتهام باطل لا محل له يرمي الى انتقاص الأدب العربي لخلوّه من المسرح والدراما والملاحم غافلين عن أن لكل أدب فنونه التي تشكلها طبيعته وبيئته ، وأنه ليس من الضروري لوصف الأدب العربي بالبراعة او النبوغ ان يكون مماثلاً للأدب اليوناني او الأدب الغربي في كل فنونه ، ولقد كان الشعر هو ديوان العرب في الجاهلية ، فلما جاء الإسلام شكل للأمة العربية مثلا أعلى استمد أسلوبه ومنهجه من القرآن ، وقام على التوحيد الكاشف الواضح الصريح في العبارة والأداء ، وجاءت القصة القرآنية على ذلك النحو الذي عرف عنها بعيدة عن الرموز والغموض والتفاصيل ، وبعيدة عن الكذب الفنّي والحيلة والتحوير الذي عرفته القصة اليونانية الغربية ، ولذلك فلم يكن الأدب العربي في حاجة الى المسرح الذي كان وليد المعبد والكنيسة ، والذي ظهر عند الاغريق أصلاً في أعياد باخوس إله الخمر ، ثم استعانت به الكنيسة بعد انتشار المسيحية في كنائس روما وباريس أثناء القرون الوسطى لعرض فكرتها عما ذهبت إليه في القول بصلب المسيح وآلام الشهداء .

أما المسلمون ، فلبساطة مفهومهم الإسلامي ووضوحه ولطبيعتهم التي عرفت

بالصراحة والوضوح لم توجد عندهم الحاجة الى المسرح ، ولذلك فقد انصرف العرب والمسلمون إبان حركة الترجمة عن نقل الأدب اليوناني واكتفوا بترجمة العلوم والفلسفات من حيث إنهم لم يكونوا في حاجة إليه بوصفه أداة تعبير عن النفس اليونانية والأغريقية وحدها ، ومن حيث ان لهم أداة تعبيرهم التي تحقق لهم ذلك عن طريق النثر والشعر، ولعل سبباً هاماً حال بينهم وبين ترجمة الأدب اليوناني هو أنه كان ينطوي على خرافات وأساطير لها جذورها الممتدة الى عقائد الوثنية القائمة على تعدّد الآلهة وصراع الآلهة مع نفسها ومع الإنسان ، ولتعارض هذه الصور والأفكار مع إيمان العرب والمسلمين بالخالق الواحد وإكباره وتعاليه عن مثل ما توصف به آلهة اليونان من صراع وشهوات ، وما توصف به من ذكور واناث ، وآلهة للصيد والخمر والحب ، فقد نأى الأدب العربي عن ذلك وسما بالألوهية عن مضاهاة البشر التي لا يقرها عقله ولا يرضاها مزاجه النفسي.

ولقد كان الأدب العربي واضحاً في التعبير عن النفس ، وواضحاً في العقيدة ، وضوحاً لا يقبل التأويل ولا يحتمل الشك ، ولا يقبل التجسيم وكان هذا الوضوح في العقيدة حيث لا يوجد ما يصعب فهمه ويحتاج الى مثل ما احتاجت إليه الوثنية القديمة والعقيدة المسيحية من بعد لغرضه وشرح تعقيداته وتفسيره وتعليله عن طريق المسرح حتى يمكن الاقتناع به وتقبّله ، ومن هنا فلم تكن هناك حاجة في البيئة العربية ولا في الأدب العربي ولا في العقيدة التي اعتنقها العرب والمسلمون الى المسرح.

ولقد « فرض أدب القرآن طابعه على كل ما تخرجه القريحة العربية بعد أن بهرها باعجازه في اسلوبه الكتابي وتعاليمه ، هذه التعاليم التي أنشأت بعد ذلك فلسفة إسلامية تحترم العقيدة الدينية أكثر مما تتجه لحياة الفكر المجرّد والتنقيب عن متاهات النفس واستجلاء الغامض منها ».

## (الصراع المأساوي الدرامي)

وهناك وجه آخر من وجوه الخلاف والتباين بين الأدب العربي وبين الدراما او

المسرحية اليونانية العربية ، ويتمثّل ذلك في الصراع المأساوي الدرامي الذي هو حياة الحديث في المسرح مما لا يجد بيئة طبيعية في إيمان العرب ومعتقداتهم ، ذلك ان البطل المأسوي هو دائماً في صراع مع الآلهة بالقدر ، والإنسان العربي في سلام مع الله الواحد الأكبر ، وفي إيمان بالقدر لا يحول دون السعي وإن كان يحول دون المصارعة والصراع ، ومن هنا فان العقل العربي « لا يتصوّر الصراع بين الإنسان والله على نحو ما كان يتصور اليونان الذين يؤمنون بأن الحرب مع القدر ، وان كانت نهايتها هي الهزيمة المأسوية فانها حرب تدل على شجاعة الانسان وجبروته وعلوّ شأنه .

وصراع الانسان مع الله أمر لا يفهم ولا يقبل مع التوحيد الذي هو قمة العقائد في الإسلام .

ولم يجد العرب أنفسهم في يوم من الأيام على نحو يضعهم في صراع مع القدر ، وذلك لاختلاف طبيعة البيئة الصحراوية عندهم عن طبيعة البيئة الجبلية في اليونان ، ومن هنا فإنهم لم يعرفوا هذا اللون من الصراع حتى في فترة جاهليتهم السابقة على الإسلام .

بل ان الوثنية العربية لم تكن مؤهّلة لهذه المفاهيم ، إذ لم تكن وثنية أصيلة بل كانت صورة مشوّهة من دين قائم على التوحيد ، لذلك لم يكن لها جذور عميقة أو تقاليد قديمة كما كان الشأن لدى الوثنيات الأخرى ، ومن هنا فقد ارتبط المسرح اليوناني بالأسطورة الى حدٍّ بعيد ، وجد فيها المؤلفون إطاراً يصورون فيه الصراع بين الإنسان والقوى الإلهية . ولما كانت هذه النزعة وثنية في طابعها لذلك لم يقرّها الإسلام أو يقبلها .

كذلك لم يكن من الطبيعة العربية مثل هذه الاستعراضات التي تقوم على الترانيم والأناشيد والرقص .

ولقد استعانت الكنيسة المسيحية في القرن العاشر بالمسرح أيضاً في عرض فكرتها ، بعد ان سقط المسرح الوثني مع سقوط الأمبراطورية الرومانية ، فكانت

تقدّم القدّاس الديني ثم تبعثه بصورة تمثيلية طقوسية صغيرة كان يمثلها القساوسة بعد القداس في قلب الكنيسة ، ثم تطورت الى التمثيليات الدينية الطويلة التي تمثل على أعتاب الكنيسة او في ساحتها ، وهي المعروفة بتمثيليات الأسرار عن معجزة ميلاد المسيح ثم آلامه ، وآلام الشهداء الذين أوذوا في سبيل المسيحية.

وقد كان المسرح وسيلة لتفسير نظريات المسيحية الفلسفية التي لم يكن من اليسير فهمها إلّا بعرضها على هذا النحو.

وتقوم فلسفة المأساة الغربية على (الخطيئة والقصاص والغفران) وترى ان الإنسان مرتبط بخطيئة أولية وهي خطيئة آدم ، وهناك مفهوم الصراع بين الآلهة والقدر ، وبين الإنسان والخطيئة ، ويبدو البطل في صورة المتحدّي لإرادة الله والمتحدّي للقدر.

وفي رواية (فاوست) نجد انه يتحدّى ارادة الله ويتطاول على الشجرة المحرمة ، وقد كانوا يرون أنه مجرم ومخطىء يجب ارساله الى الجحيم ، ثم تحول الرأي في المأساة مع تحوّل المجتمع الأوربي فقالوا إنه صريع القدر.

و يمكن القول جملة بأن هذا اللون من الأدب غريب على الذوق العربي والمزاج النفسي العربي ، فهو خلاصة لمفاهيم دينية وثنية او غربية مسيحية تقوم على فلسفة أساسية قوامها الخطيئة التي لا يعترف بها الإسلام ولا يقرّها ، والتي ليس لها أي صدى في الأدب العربي : فضلاً عن صراع القدر وصراع الآلهة وكلاهما غريب عن النفس العربية.

بل ان نهاية القصص وخاتمة التراجيديا في مفهوم الأدب اليوناني والغربي يجب أن تكون شريرة ، ومصدر هذا ان التراث اليوناني الغربي كله يرى ان الإنسان ثمرة الخطيئة ، وان حياته تكفير عن هذه الخطيئة ، وأنه لا قيمة لها ، بينما يرى الأدب العربي وفكره وادابه أن الإنسان كائن حي وحياته لها قيمتها الخالصة ، وأنه ليس مسؤولاً عن خطيئة غيره ، وان الخطيئة التي تتردّد في هذه الآداب هي خطيئة آدم وهذه في مفهوم الإسلام قد غفرها الله له ولم يجعلها ذنباً لأحد من بعده.

وفي مفهوم الأدب العربي المستمدّ من الإسلام ان الخير لا بدّ ان ينتصر في النهاية . وان الشر لا بدّ ان ينهزم وينسحق ، وإذا كان المسرح وليد المعبد والكنيسة فإنه يعدّ غريباً عن الأدب العربي حيث لم يعرف العرب مثل هذه الأعياد الصاخبة بمواكب باخوس ، ولا ما يتصل بها من تماثيل وأناشيد وطقوس ورقص وإباحة ، والعرب في صميم فكرهم أهل بديهة وارتجال ، وفي بيانهم أهل ايجاز واختصار ، لا يحتاجون الى التحليل الطويل ولا يهتمون بالتفاصيل التي تخرج عن جوهر الحدث او الخبر ، وقد علمهم ذلك القرآن ووضع لهم هذا المنهج ، والمجتمع الإسلامي لا يعرف التجسيم ولا يجد فيه لذته الفنية ، كما يفعل اليونان والغربيون ، والفكر الإسلامي لا يقرّ الأساطير ولا يقبل الخرافة ، ويعتمد على الحقيقة التي يعقلها العقل والصدق الذي تؤكّده طبائع الأشياء ، ويقف من الخالق سبحانه موقف التكريم ، ويسمو بمفهوم الألوهية عن مشابهة الخلق ، ولا يقر بوجود أرباب ، وقد صور زكي طليمات هذه الفوارق الدقيقة حين قال : إن العقيدة الإسلامية على وضوح أركانها وجلاء تعاليمها ومنطق أحكامها عقيدة لا يشوبها لبس ولا غموض يتطلبان تحايلاً في التفسير.

فالوحدانية لا تقبل التأويل ولا تحتمل الشرك ، ليس هناك أرباب ولا أنصاف أرباب ، كما هي الحال في الوثنية ، كذلك لا توجد عقدة يتعذّر فهمها إذ لا يوجد أب ولا ابن ولا روح قدس كما هو الحال في العقيدة المسيحية .

وشعائر الإسلام على بساطة غنية وتقشّف ظاهر ، فليس في حاجة الى عازف يعزف على آلة موسيقية او منشد ينشد نداءات كهنوتية او راقص يدور على نفسه ، مثل هذه العقيدة القوية في معنوياتها البسيطة في شعائرها القائمة على مناهضة كل مظهر من مظاهر تعدّد الأرباب وما يتّصل به من فنون السحر لأحياء طقوسه ومناسكه لا يمكن ان تتمخض عن فن تمثيلي.

فإذا أضفنا الى ذلك ان العرب بطبيعة عقلهم ينظرون الى الكليات عرفنا الى أي مدى نجد التباين الضخم بين الأدب العربي والآداب الغربية في مجال القصة والمسرح .

ومن ناحية أخرى فإن الصراع المأساوي او الدرامي الذي هو عقدة المسرحية والقصة لا يجد بيئة طبيعية في إيمان العرب ومعتقداتهم ، ذلك أن البطل المأساوي هو في صراع دائم مع الآلهة والقدر ، أما الإنسان العربي فهو في سلام مع الله الواحد الأكبر[1] لا يستطيع أن يتصور الصراع مع القدر والآلهة على نحو ما كان يتصوره اليونان .

ورؤيا العربي واضحة : غير مضببة ولا يشوبها سحاب من الغمام وليست بين بين ، وليست في صراع مع الطبيعة ، وكل هذه الرؤيا تنعكس في الأدب العربي ، وهي مضادة لرؤيا الغربي : بحكم الطبيعة الصخرية الجبلية : والضباب والغمام والظلام والصور التي بين بين ، وإذا كانت المأساة وحركتها هي خروج من الظلام الى نور بعد احتراس تدور كلها في أجواء بين بين فهي لا تلائم بشكلها طبيعة العربي .

* * * *

وإذا كانت طبيعة العربي تتعارض مع هذه الفنون (القصة والمسرحية والتراجيديا والمأساة والملهاة) فإن هناك ملحظاً آخر هو ان الطقوس في المسرحية يقوم بتمثيلها جماعة من الناس ، بينما المناسك في العبادات تقوم بتمثيل هذه الذكريات بينما يقف الباقون يتفرجون عليهم[2] .

وفي مهرجان المناسك تشترك الأمة كلها في الأدوار المختلفة .

من هذه العوامل المختلفة يتبين كيف ان أصالة الأدب العربي وذاتيته هي التي حالت دون وجود المسرح وتقبله ، وأحرى بنا أن نقول انه اذا لم يوجد المسرح عند العرب في جاهليتهم فأحرى به ألا يوجد لديهم بعد الاسلام الذي قضى على تلك الوثنية وأعاد اليهم دين التوحيد كأصفى وأنقى ما يكون .

وقد دارت مساجلات كثيرة حول خلو الأدب العربي من الملاحم الطويلة

(١) عن نص لسهير القلماوي

(٢) اورد هذا الملحظ المرحوم علي احمد باكثير.

والقصة والتراجيديا، وظن كثير من الباحثين ان ذلك قصور أو نقص في هذا الأدب، وحاولوا الدفاع عنه والاعتذار فيما يظن أنه قصور فيه.

ومما يذكر في هذا ما كتبه الدكتور زكي مبارك رداً على ما قاله احمد أمين من قصور الأدب العربي لأنه حرم من الملاحم الطويلة والقصة، قال «هذا الحكم يشهد بأن احمد امين يجهل طبيعة الأمة العربية بعض الجهل، ان العرب ليس في طبيعتهم ان يأنسوا بالمنظومات المطوّلة في القصص والتاريخ، هو يتوهم ان العرب كان يجب عليهم ان يسلكوا في الشعر مسالك اليونان وذلك خطأ فظيع.

ان عبقرية العرب ليست في القصص، وإنما عبقرية العرب في الغناء والتعبير عن الأنفاس الروحية، فإن امتازت لغات الشرق والغرب بالمنظومات الطويلة في القصص والتاريخ، فقد امتازت لغة العرب بأكرم أثر عرف الوجود وهو القرآن، وهو حجة اللّغة العربية يوم يقوم التفاخر بين اللّغات والأحساب».

وعندما أخذ توفيق الحكيم في كتابة مسرحياته واتخذ من الأساطير اليونانية مصادر لبعض هذه المسرحيات واجه من النقاد العرب غير المنتمين الى مذهب النقد الغربي الوافد معارضة تكشف عن الفوارق العميقة بين النفس العربية والأسطورة اليونانية.

ومن أوجُه الاعتراضات:

(أولاً) الآلهة في الميثولوجيا الأغريقية تدفعها حيوية عارمة الى كل تصرفاتها، حيوية لا تعرف العدل والحق والخلق والضمير لأنها حيوية عاتية باطشة فليس لديها ما يمنع من صب كل هذه اللعنة على (أوديب) لمجرد شهوة حقد (أبولون) كذلك صنعت مع هرقل، كذلك صنعت مع برموثيوس وغيرها.

أما الإسلام فانه ينبذ نهائياً فكرة الشهوة والظلم عن ذات الله، ومن هنا فان فكرة القدر في الإسلام لا تتفق مع الفكرة الاغريقية، ومعنى هذا ان الإسلام يحمل فكرة مستقلة مختلفة في طبيعتها الأصيلة عن طبيعة الفكر الاغريقي.

ومن المقرر ان مترجمي الفلسفة الاغريقية واليونانية لم يستطيعوا ان يدخلوا الاسطورة والتراجيديا الى الأدب العربي الذي كان مستعلياً بنفسه وذاتيته ، وقائماً على التفاخر والشمم الحاجز عن الاعتراف من منهل أدبي وثني ، ولكن التغريب والغزو الثقافي استطاع ان يفرض هذه الألوان على الأدب العربي بالترجمة والتأليف والتمثيل ، ومن الحق ان نقول ان النفس العربية لم تقبلها ، وان ذاتية الأدب العربي لم تتمكن من اساغتها وهضمها ، وهي ما تزال حتى الآن غريبة منعزلة لم تتمكن من الانصهار ولم يتقبّلها المزاج العربي والروح العربية الإسلامية .

* * * *

# الفصل التاسع

## حركة الرفض في الأدب العربي الحديث

تعرّض الأدب العربي في القرن الرابع الهجري لحملات ومحاولات استهدفت اخراجه من ذاتيته وخصائصه ومضامينه الأساسية، ولقد تأثرت مجريات الأدب بهذه الحملات والمحاولات التي اتصلت بالأسلوب والمضمون وحاولت دفع الأدب العربي الى منهج بلاغي غير منهجه الأصيل واخراجه في نفس الوقت من أسلوب القرآن، كما طرحت على مضمونه نزعات الإباحة والزندقة والخمريات والغزل بالمذكر.

ولقد تأثر الأدب ثمة تحت ضغط الضربات التي تحملها الأيدي الغريبة ذات السلطان والنفوذ، والتي كانت تستهدف تحريف المناهج وتزييف المفاهيم، ولم يقف الخطر عند الأدب العربي وحده، ولكنه تجاوزه الى كل ميادين الفكر الإسلامي، وواجه المجتمع الإسلامي أزمة من أخطر أزماته العقائدية والفكرية، ثم لم تلبث «الأصالة» ان لفظت الزيف وطاردت الشبهات وحررت الأدب العربي بل الفكر كله من خطر الهلينية والفارسية والهندية، واليوم يواجه الأدب العربي في العصر الحديث نفس الموقف من خلال الصراع الدائر بين (أصالة) الفكر الإسلامي بعناصره المختلفة ومنها الأدب وبين التحديات التي يفرضها خطر التغريب.

ومن عجب ان القوة الجديدة وجدت في جميع عناصر الشبهات القديمة مادة خصبة لإثارة الأزمة من جديد من منطلق عصري هو رفض الحضارة العربية الاسلامية وتغليب الرموز الدينية غير الإسلامية على الأدب العربي ، وقد اتخذت القضية منطلقها من مفهوم الفكر الغربي الوافد ، والزائف الذي يصور الإنسان تصويراً مادياً خالصاً ويتّكىء اتكا ء شديداً على نظريات فرويد وماركس وداروين وسارتر وليفي بريل ودوركايم وماركو[١] فهي تلغي الغاء كاملاً مفاهيم الترابط بين الروح والمادة العقل والقلب والدنيا والآخرة على النحو الذي يقوم عليه الفكر الإسلامي والأدب العربي ، وبذلك تقدّم للعرب مفهوماً يتعارض مع أصول ثقافتهم وجذور عقيدتهم.

والرفض الذي تفرض أشكاله على الأدب العربي ، يختلف عن مفهوم الرفض الأصيل. فهو رفض مطلق ، لا ماضي له ولا مستقبل ، ولا يرتبط بهدف معيّن ولا يرمي الى غاية ما ، ثم هو رفض شامل على مستوى كل القيم والعقائد والمفاهيم التي جاءت بها الأديان والعقائد.

ولقد يوجد الرفض في الأدب وفي الفكر عامة من خلال مخطط واضح ومنطلق أصيل يستهدف نقد الواقع وتحريكه ، ثم تحريره من عوامل الضعف والتخلف. وذلك رفض نزيه مضيء له هدف وغاية وطبيعة خيرة ، وله رباط قائم مع الواقع والحياة مع محاولة تجديدها وإصلاحها ودفعها الى الأمام والى التقدّم ، أما هذا الرفض الذي طرحته هذه الظاهرة التي عرفها الأدب العربي قبل منتصف السبعينات والتي لم تلبث ان سقطت سقوطاً مزرياً وانكشف هدفها ودافعها ، وان ظلّت لها بقايا أخذت تستشري كرة أخرى بعد النكسة. هذا الرفض الذي حملته رياح التغريب — فقد كان واضحاً من مفاهيمه ومصادره أنه ليس أصيلاً ، وليس منطلقاً من جذور عريقة ، وليس عربي الطابع ، ولكنه وافد غير صالح للتربة العربية ، غريب لا يلتقي بالنفس العربية ولا بالمزاج العربي الذي شكّله الإسلام.

(١) راجع دراستنا عن هذه المناهج الفلسفية في كتابنا (التفسير الاسلامي للفكر البشري)

ومن هنا فقد وضح تحت ضوء الأصالة العربية الكاشفة أن هذا الرفض إنما هو عداء للعربية والعروبة والأدب العربي والفكر الإسلامي والإسلام نفسه ، او انه صورة أخرى من محاولات الهدم التي حملت لواءها المناهج الوافدة ، وكما وصفه أكبر المتصدين لهذه الظاهرة والمحللين لها (الدكتور عبده بدوي) حيث يقول :

إن الرفض إنما يعني السخط على الوجود العربي لصالح الأحقاد التي تغلي في النفوس ، ورفض الحضارة الإسلامية والعمل على تقويضها من الداخل ، ومن خلال الفكر. ان الرفض هنا على مستوى الشعوبية تتحدد ملامحه في تخريب القوة العربية من الداخل عن طريق الفكر تحت شعارات التقدم والتسامح . وان الشعوبية هي المقابل القديم الرفض وكلاهما يتمثل في إبادة العرب ونسف الإسلام وزعزعة الوجود العربي والدعوة الى الانفصال والاقليمية والقوميات المحلية المتعددة ، وعدم الاعتراف بالكيان العربي الواحد.

وهكذا تحتضن حركة (الرفض) الأدبية الحديثة عوامل الشعوبية القديمة ، فهي مثلها تنادي بإعادة العلاقات الوثنية القديمة ، وإعادة احياء الصفحات الفاسدة من التاريخ التي أثارها وأوقد نارها : بشار وابن المقفع والخليع والرقاشي وابن يسير وسهل بن هارون وابو عبيدة معمر بن المثنى.

وقد كشفت دراسات كثيرة في الأعوام الأخيرة اتجاهات هذه الحركات القديمة ، وقرّبتها الى قرّاء الأدب العربي ، بل وجعلتها مادة الأدب العربي في عصور الإسلام الزاهرة ، وفي مقدّمة هؤلاء الدكتور طه حسين الذي اعلى صفحات هؤلاء الزنادقة قال : إن هذه الزندقة ليست إلّا ضرباً من السخط على العرب وعاداتهم وأخلاقهم ومحافظتهم ودينهم بنوع خاص ، ويأخذ شعراء الرفض او شعوبيو العصر بنظرية أفضلية الأجناس بل إنهم لا يختلفون كثيراً عن رينان الذي حكم على القضية السامية بجدب الخيال وعدم القابلية للخصب فنحن نراهم يقولون بانحطاط العرب وانحطاط أدبهم ، ويقولون ان حضارتهم حضارة رمال ، وانه لا أمل في شيء يكتب بالحروف العربية ، وان الحضارة العربية لا تخرج عن كونها (ساعي بريد) بين اليونانية وأوربا ، وانه لم تظهر فيها القصة والملحمة والتصوير والنحت

والموسيقى الهرمونية ، وكأن عملية القصور هذه — إنْ صحَّ قولهم — قاصرة على الأمة العربية ».

« ويقولون إن العربي لا يخرج عن كونه طفلاً او هيكلاً عظمياً ، وهم يعملون دائماً على انتقاض التراث العربي ويرون أن الإسلام أصاب المنطقة بالعقم ، ويشككون في القرآن ويقولون إنه خلاصة تركيبيّة للثقافات السابقة عليه ، ويقبلون التراث الجاهلي والمسيحي في المنطقة ، ولكنهم يرفضون التراث الإسلامي ويعتبرون المئذنة جثة يجب دفنها مع الأرض والسماء . ويدعون الى مطاردة الإسلام في المنطقة العربية ، ومن الملاحظ ان هذا كله يقال دون تبرير او نقلاً عن مصادر مغرضة ، وهم يقيمون جسراً بينهم وبين كافة الشعوبيين الذين طواهم الزمن ، فهم يعتمدون على الشخصيات المهزوزة في الإسلام ، ويركّزون على الشعراء الذين يمقتون العرب مثل بشار وابي نواس .

« وفي الوقت الذي يسخرون فيه من العرب ويعتبرونهم رمالاً وقططاً عمياء ، وفئراناً وغرباناً نجدهم يركزون على الأمور التي تقف في مواجهة الإسلام والعروبة ، فرموزهم تتحدّث عن (سدوم ، اورشليم ، بعلبك ، عين نائيل ، وعشتروت ، أوديب ، بعل ، الشار ، فينيق ، تموز ، الصلب ، الجلجلة ، الطوفان ، الوثنية ، بابل ، قبرص ، قرطاجنة ، لبنان ، أشور) .

« ونراهم يركزون على الأساليب الضعيفة في العربية ويعملون على تهشيم الجملة فنرى في شعرهم كلمات : الواحد المناك ، الخاطي الأصيب بالعمى ، في الملجأ الوراء ، (الوراء قرطاجنة) ونرى بعضهم يكتب ديوانه بالحروف اللاتينية .

« ثم يعمدون الى تشويه النغمة العربية ، وذلك يتعدّى الشعر المتجدّد ، وشعر التفعيلة الى قصيدة النثرة والى تيار آخر سموه (شعر بنثر) هـ .

« وهم ضد الوحدة العربية يدعون الى القوميات الصغيرة مثل الفرعونية والقبطية والفينيقية والبربرية ، ويسمون عصر الوحدة مع مصر عصر الحذاء الذهبي .

«وهم يقومون بعملية إعدام المقومات العربية ، فإذا كانت المنطقة العربية تؤمن بالله ، فانا نراهم يعلنون ان الله مات في المنطقة.

ويقول أدونيس عن نفسه (انني مهيار هذا الرجيم ، انني خائن أبيع حياتي ، إنني سيد الخيانة) ويقول أنسي الحاج (جسدي امرأة)[1].

(٢)

تتمثل ظاهرة الرفض في عدد من التحدّيات :

(أوّلاً) كسر عمود الشعر (ثانياً) هدم اللغة العربية

(ثالثاً) إدخال الرموز الدينية (رابعاً) معارضة العروبة والدعوة الى الفينيقية

(خامساً) الهجوم على التراث.

* * * *

أولاً : كسر عمود الشعر :

إذا كان مفهوم الرفض في اجماله هو رفض قيم الفكر الإسلامي والثقافة العربية ، فإن أخطر ظواهر الرفض هو تحطيم عمود الشعر ، وقد حمل شعراء الرفض لواء الدعوة الى تحطيم القيم الأساسية للثقافة العربية والأداء العربي الأصيل ، وطريقة الوزن وسلامة العبارة وصحّة الصياغة بما يستهدف أساساً للقضاء على الشكل التقليدي الذي عرفته العربية منذ ألفي عام. ولقد تبدو مسألة الشعر مسألة جانبية ، ولكنها في واقع الأمر قضية أساسية في بناء الوجود العربي وفي الفكر العربي الإسلامي. إذ انها تقوم أساساً على البلاغة العربية والمحافظة على مستوى البيان العربي مرتبطاً ببيان القرآن ، فهي تهدف الى إيجاد فجوة واسعة تعين على عملية التخلخل التي تحمل لواءها العامية ، وهي في نفس الوقت تحاول ان تنفي عن النفس العربية تلك الأصالة في الصورة والأداء والجرس والأثر النفسي الذي يهز ويحرك المشاعر.

---

(١) عن أبحاث الدكتور عبده بدوي في الرسالة خلال عام ١٩٦٤

ويحاول الشعر الحر فضلاً عن هدمه لبلاغة الأداء العربي إدخال مفاهيم زائفة ليست هي من طبيعة النفس العربية، ولا تتفق مع المزاج العربي الذي صنعه الإسلام، وحاول أغلب هؤلاء الشعراء تقمّص شخصيات الشعوبيين القدامى أمثال مهيار الديلمي والحلاج، وكذلك تبدو الغرابة الواضحة التي لا يقرّها الذوق العربي ولا تتفق مع المزاج العربي الإسلامي في مواجهة (الالة) بمفهوم على هذا النحو من السخرية. ومن الحق أن أصحاب هذا الشعر إنما يتحدّثون عن معبوداتهم وعما يوجد في كتبهم، أما الله سبحانه فهو متعال على ذلك كلّه علواً كبيراً، وهو في نظر المسلمين مختلف تمام الاختلاف عن ذلك الخزي الذي يتناول به هؤلاء آلهتهم. أما من دخل من شعراء المسلمين دائرة الخلاص فإنهم وشأنهم في عقيدتهم وفكرهم وستلفظهم أصالة الفكر الإسلامي.

ولما كانت القصيدة العمودية تمت بصلة كبرى الى التراث العربي فقد جاءت الحملة القاسية عليها، ومن هنا اتسمت ظاهرة الشعر الحر بالرموز والأساطير وتهشيم الجملة العربية، وفي ذلك دلالة سقوطها وهزيمتها، ذلك أن البدائل لم تكن أقوى أثراً في النفس العربية، وأصدق أصالة فإنها لن تصل الى شيء، وقد وضح ان هدف الروافض (تشويه) النغمة العربية الممثلة في البيت والتفعيلة باعتبارها وجها وملمحاً في الوجه الشعري العربي، فضلاً عن ان قصيدة النثر لا تجد قبولاً في النفس العربية مهما أُحيطت بالزخرف والبريق، وسيظل الشعر العربي يتحرك في إطار الأصالة العربية والأخلاقيات، ولن تصلح له تفعيلة غير عربية أو نبرة منقولة من الشعر الانجليزي.

* * * *

ثانياً: هدم اللغة العربية:

وتتصل حركة الرفض بالدعوة الى العامية وهدم اللغة الفصحى والقول بأن لغة الشعب هي العامية والدارجة، وهم يحاولون أن يقارنوا اللغة العربية في هذا المجال

باللغة اللاتينية التي تحولت عاميتها الى لغات اقليمية ، ويتصل بهذه الدعوة كتابة العامية بالحروف اللاتينية. وهناك من يدعو الى تحرير اللّغة من الإعراب.

ويحاول دعاة الرفض تغليب عامية معيّنة هي عامية لبنان ويردّدون بأنها وسيلة التعبير المثلى ، وكذلك فيما يحاولون من كتابة هذه العامية بالحروف اللاتينية.

ويتركز تيار التدمير في محاولة إحلال عامية الجماهير محل العربية الفصحى الموجودة ، ولا ريب ان محاكمة اللغة العربية الى تاريخ اللغة اللاتينية هو من الأمور المظلمة بالفساد والمغالطة للاختلاف البيّن بين اللّغتين ، والى تفرّد اللغة العربية بالصلة العميقة بالقرآن الذي أعطاها هذا الامتداد والعمق والسعة خلال أربعة عشر قرناً على نحو لم تعرفه لغة من اللغات في العالم كلّه.

وكذلك فان ما يقال عن القرآن من أنه خلاصة تركيبية لمختلف الثقافات التي نشأت فيه ، وأنه دين صحراوي اقليمي فان هذه الكلمات قد جرت أول ما جرت على ألسنة دهاقنة الاستعمار من أمثال كرومر وزعماء المبشرين من أمثال زويمر ، وإنها لا تمثل أي حقيقة خالصة لوجه العلم. وأعتقد أن ما حاول بعض المستشرقين من أمثال جاك برك إعلانه من فرح غامر بقيام مدرسة تموز في بيروت التي تعمل على التخلص من الفصاحة والأصالة ، اعتقد ان هذا كله قد تبدد أمام ضوء الحقيقة التي تكشفت بعد أن زال ذلك الغشاء الكاذب وأمام صلابة الأصالة العربية التي لا تُغْلَب.

فقد فشلت بما تنطوي عليه احقاد خصوم الفكر العربي الإسلامي من تحول اللهجات العربية الى ان تصبح لغات بالرغم مما يجري في مؤسسات علمية من اهتمام بالعاميات وتاريخها.

ولا ريب أن خصوم اللغة العربية هم العاجزون عن أدائها الذين لا يستطيعون ان يزاحموا أهلها ، ومن هذا العجز يبدأون حملتهم بالخصومة والحقد ، ولن تستطيع محاولات تهشيم الجملة العربية ، واستعمال الأساليب الضعيفة أن تخلق أدباً مقروءاً او مقبولاً.

* * * *

ثالثاً : ادخال الرموز الدينية :

وتجعل حالة الرفض من أبرز معالم دعوتها : إدخال مفاهيم دينية لها طوابعها الخاصة الى مفهوم الأدب العربي العام بطابعه الإسلامي على نحو من أنحاء التبشير. ومن حيث إن أكثر حملة لواء حركة الرفض في الأدب العربي الحديث من غير المسلمين والعرب ويتابعهم بعض الذين لم يتعمّقوا فهم حقيقة الإسلام وجوهره ، او الذين كانوا في موقف المعارضة منه بحكم تحديات خاصة في الطفولة او للتبعية الفكرية في مطالع الشباب ، وهذه المصطلحات والرموز يجري أغلبها حول الخلاص والتطهير والخطيئة . وربما كان لمتابعة هؤلاء لبعض الأذكياء من حملة لواء الدعوة الى الرفض هو الذي جعلهم يغفلون عن فوارق المعنى والمضمون بين البيان العربي الأصيل وبين المفهوم الديني الخاص الذي استعمله لها أمثال لويس عوض ويوسف الخال.

وترمي هذه المحاولة الى فرض طابع كَنَسي وتّوراتي على الأدب العربي .

ولقد غاب عن خاطر هؤلاء ان الأدب العربي ينكر طوابع الرمزية والغموض ، ولا يرى حاجة الى معايشتها : ذلك أن الأدب العربي إنما ولد في الوضوح والضوء والكلمة الصريحة في آفاق تطلع منها الشمس مضيئة والنهار مشرقاً والكلمة هي الكلمة في الوجه ومن بعيد.

ولقد اتسم الشعر العربي بسمة الوضوح في كل عصوره فهي سمة من سماته الفنيّة المميّزة «حتى لقد اعتبرت النماذج القليلة المتورطة في الغموض المعمى نماذج بعيدة عن بلاغة العرب ، ووضع النقّاد لتعقيداتها نعوتاً سيّئة محذّرين من التورّط في أمثالها ، وما دام العرب يفكرون بعقلية عربية أصيلة.فان الرموز لا تجد مجالها في شعرهم او ادبهم ، ولا ريب ان الأصول العربية المقرّرة تدحض هذا الغموض وترفض هذه الرموز لمنافاتها للأصالة» .

أما الخطيئة والفداء والخلاص فهي مصطلحات لاهوتيّة خاصة ليست عامة لأنها تنبعث من فلسفة خاصة وتقوم على تفسير خاص لخطيئة آدم.

ويقف الإسلام موقفاً آخر بالنسبة لها ، فالأدب العربي لا يستعمل الخطيئة وإنما يستعمل الاثم ، ولا يستعمل الفداء وإنما يستعمل الكفارة ولا يستعمل الطلب ولكنه يستعمل القتل والاستشهاد ، ولا يستعمل الخلاص ولكنه يستعمل النجاة[1] . والمسلمون لا ينظرون الى التضحية في مجال النضال على هذا النحو الفلسفي الذي يرسمه بعض شعراء لبنان.

والخطيئة في لغة العرب الجاهليين ثم في لغة المسلمين لا تحمل شيئاً من معانيها ولوازمها في مفهوم اللاهوت ، وان كان اللفظ واحداً ومعصية آدم عند المسلمين كسائر المعاصي تمحوها التوبة ، وليست متعلّقة بأي فرد من البشرية حيث لا يرث مولود خطيئة والد (وان لا تزر وازرة وزر أخرى وان ليس للإنسان إلا ما سعى وان سعيه سوف يرى ثم يجزاه الجزاء الأوفى—) كما جاء في القرآن الكريم.

* * * *

رابعاً: معارضة العروبة والدعوة الى الفينيقية :

تحاول دعوى الرفض أن تضرب كل أمجاد الأمة العربية وتاريخها ووحدتها ، وتعمل على تحطيمها والحيلولة دون قيام ترابط بينها ، وطرح شعار الفينيقية كتراث مقدّس ، ومثله دعوة الفرعونية في مصر.

وقد عمد هؤلاء الى التشكيك في قيم العرب والعربي ورميها بالإنحطاط.

ولم يثبت حتى الآن أي اتهام من هذه الشبهات التي ردّدها المبشرون والمستشرقون عن أن ضعف العرب او تخلفهم إنما يرجع الى الإسلام ، بل العكس من ذلك هو الصحيح في تحرير الرأي لدى معظم الباحثين المنصفين ، وان العرب المسلمين لم يتخلّفوا ولم يدعوا في مرحلة الضعف إلا حين تجاوزوا القيم الإسلامية القرآنية.

وان كل ما يردّد منه عن وصف العرب بالأعراب او وصف حضارة الإسلام بأنها

---

(١) من بحث للاستاذ محمود محمد شاكر «الرسالة ١٩٦٤»

حضارة رمال. كل هذا ليس إلّا مجموعة من الأحقاد التي لا تثبت أمام الحق والعلم والتاريخ الصحيح.

بل إن العرب هم الذين حملوا الى البشرية جميعاً أصدق مفاهيم التوحيد والتحرير من العبودية البشرية، وتحرير العقل والقلب من الوثنية الإباحية.

وانهم هم الذين أخرجوا من قيم امتهم الذين يلاقون مشاعر النفي والغربة والضياع والتمزّق. ولا ريب ان العرب هم الذين اهدوا الى البشرية: حضارة التمدين وحرّروها من مظالم الفرعونية والقيصرية والامبراطورية، وان الإسلام قد شكّل الأمة العربية تشكيلاً جديداً تحطّمت معه كل المفاهيم الوثنية القديمة، بل الذي أعطاها مفهوم العروبة نفسه ولم تكن من قبله إلّا قبائل متصارعة.

ولقد يدعو بعض المثقفين اللبنانيين الى الفينيقية في محيطهم فذلك شأنهم، ولكن الفينيقية مهما بلغت من مكانة فلن تفرض نفسها على شبر واحد خارج لبنان

* * * *

خامساً: الهجوم على التراث:

وعمدت الحركة أيضاً الى تحطيم التراث العربي الإسلامي وتشويهه فيما أثارت من شبهات حول أبي العلاء المعري وابن خلدون وغيرهما، وفيما زعمت من أن فضلهما وثقافتهما عائدان الى الرهبان والأغريقيين.

وقد حاول بعضهم اتهام ابن خلدون بأنه اخذ علمه من الإغريق، وثبت كذب هذه الدعوى، وجرت المحاولة الى استغلال بعض أبيات من الشعر (الزائف في نقله) للترويج لاتهام أبي العلاء.

ويجري من خلال ذلك الاهتمام بالوثنية الغربية او ابراز مفاهيم زائفة من تفسيرات الأديان التي قضى عليها الإسلام وقال فيها كلمة الحق:

ولعل من أبرز عوامل التعصب والحقد هو محاولة الدعوة الى رفض التراث الإسلامي وهو الكثرة الكاثرة والمظهر الأوسع الأعلى والأعمق للعقل العربي والنفس العربية ، بينما يلح على مفاهيم التراث الوثني والمليني وغيره مما ذهب وانتهى وتحطّم مهما كانت أدوات الحديث عنه برّاقة ولامعة.

* * * *

وقد وصل المحللون لهذه الظاهرة الى اكتشاف المخطط الاستعماري الصهيوني الذي يتستّر خلفها والذي يستهدف القضاء على مقومات العروبة والقرآن والإسلام واللغة العربية. وقد حاول هذا المخطط أن ينفذ الى غايته من نقطة جانبية لا تثير الشبهة ، كعمود الشعر، ظنا منهم أنه إذا أمكن القضاء على الفصحى فإن الأمة العربية كلّها تتشتت وتتمزق ، وقد تبين ان محاولات دعاة بعض الحركات الباطنية والشعوبية لم تستطع ان تثبت في الميدان أمام الحق ، فإن أصحاب الدعوة الى الرفض قد جهلوا طبيعة الأمة العربية وعجزوا عن فهم نفسية هذه الأمة ومزاجها الأصيل.

ولقد قامت محاولات كثيرة من قبل بمثل هذه الدعوة الى الهدم ثم لم تلبث ان سقطت وتحطمت وعلا عليها صوت الأصالة العربية الحقيقية ، سقطت دعوة الفرعونية والوثنية العربية ، والدعوة المتوسّطة وغيرها كثير.

وقد أشار كثيرون الى ان هذا التيار خائن لروح العصر، كما هو خائن للفطرة والأصالة.

وان هذا التيار في طبيعته يقوم على السخط الديني ومقاومة الأخلاق ، ومعارضة العروبة ، وضرب المفاهيم الأساسية العميقة الجذور في الأدب العربي.

ولن يستطيع تراث الوثنية وما قبل الإسلام ان يعود الى السيطرة من جديد مهما تآزرت على ذلك كل قوى التغريب لأنه بطبيعته غير صالح ،ولأن البشرية والفكر الإنساني قد تجاوزا مرحلة الطفولة البشرية ومرحلة الأساطير والوثنيات.

(٣)

ولن يضير قوة ضخمة كالأدب العربي أن يتصدّى لها بعض ذوي الغايات او بعض الموتورين والحاقدين الذين لهم غايات خاصة ، او في حياتهم تحديات معينة ، مما يجعل لخلافاتهم الشخصية حجماً أوسع بتحويلها الى خصومات كبرى ، ومن وراء أمثال هؤلاء قوى تقودهم وتحرّضهم وتحاول ان تستغل تحركهم لأهداف أبعد مدى .

وقد كشفت مجلة (الحوادث) عام١٩٧٣أي بعد مرور عشر سنوات على إثارة هذه القضية في الصحف العربية عن خلفيات الأحداث . فأشارت الى سيطرة التيار القومي السوري الاجتماعي ، وسيطرة جريدة النهار على الحركة الأدبية في لبنان وتوجيهها وجهة خاصة في مضادة العروبة والإسلام ، وذلك بقيادة تويني (جبران وغسان) ولويس الحاج ويوسف الخال .

وركزت على دور يوسف الخال الذي وصفته بأنه متأثر أشدّ التأثير بأستاذه شارل مالك الذي لم يكن معجباً بالتراث العربي ، وأبانت عن اتجاهه نحو النظريات البرجماتية والفلسفة الشخصانية الغربية وقال ان الاتجاه كله كان منصبّاً على الفكرة اللبنانية الضيقة ، وان يوسف الخال قدم اثني عشر تلميذاً في هذا المجال وهم :

أدونيس ، توفيق صايغ ، يوسف حبش الأشقر ، جبرا ابراهيم جبرا ، فؤاد كنعان ، فؤاد حداد ، أنسي الحاج ، محمد الماغوط ، شوقي ابو شقرا ، رياض نجيب الريس ، لورا غريب ، ليلى بعلبكي .

وقال الكاتب : إلّا أن التوازن اختلّ لصالح التيار الثاني وامتازت أيدلوجية تلك المرحلة تحت ستار التجديد والتحديث بتسخيف كل التراث العربي بما في ذلك ابن خلدون وابن سينا وابن الرومي وابن المقفع ، وبتقديس كل ما هو اجنبي ، سواء أكان من النوع الجيّد أم من النوع المتوسّط .

وفي شتاء ١٩٥٧ أطلق يوسف الخال مجلة (شعر) التي لعبت دوراً كبيراً وخطيراً في الحياة الثقافية ، وشكلت صفحات النهار الأدبية ومجلة شعر ثنائياً ثقافياً تحت رعاية يوسف الخال ، وكانت الأسماء التي تستقطبها (شعر) تتحول الى النهار وبالعكس.

وامتلأت صفحات النهار ومجلة شعر بترجمات موفقة للوركا واليوت وغيرهما وبمحاولات (طليعية) في الشعر لجبرا ابراهيم وفؤاد رفقة ورزوق رزوق من فوائدها ان الاستاذ جبرا مثلاً استطاع ان يتخلّص من أداة الوصل ، فبدلاً من ان يقول (أيها الشاب الذي يموت باكراً) خرج بتطبيقات لتحطيم اللغة العربية تحت بند التجديد في مثل (يالشاب اليموت باكراً) وبالصدفة مرة ثانية كان الأستاذ سعيد عقل يتابع جهوده من أجل تحديث اللغة وتطويرها عبر دعوته الصريحة الى الكتابة باللّغة العامية الدارجة (لبنان إن حكى) وبالحرف اللاتيني (يارا) فالتقى مع جماعة النهار وكان لقاءً عظيماً نجم عنه انسداد نوافذ لبنان الفكرية على المنطقة العربية ونمو انعزالية ثقافية دعمت الانعزالية السياسية في ذلك الحين.

ويمضي الباحث في الحديث عن هذا الاتجاه ويكشف خلفياته فيقول : فجأة توتر الجانب الفينيقي في شخصية يوسف الخال فقرر الدخول الى عالم المال وتفرق تلاميذه ، وكان أبرز هؤلاء التلاميذ : أدونيس وتوفيق صايغ وأنسي الحاج وحطت عين يوسف الخال على أنسي الحاج لتسليمه مفاتيح ابرشية الأدب في النهار وانحرف توفيق صايغ يميناً حتى وصل الى مجلة حوار ، ثم ثاب وانحرف أدونيس يساراً حتى وصل الى (مواقف).

وكان أنسي الحاج رجلاً غير قليل المواهب فهو كثير المطالعة خصوصاً باللّغة الفرنسية ، وعنده حاسة شم الكتب غير المعروفة كثيراً والتي يمكن الاستفادة منها الى أبعد حد ممكن ، وهو أيضاً يؤمن إيماناً شديداً بلبنان ويعتقد أنه من أعظم الدول.

وأشار الكاتب الى خطة هذه الجماعة من الرافضين وقد أطلق عليهم اسم (المافيا الأدبية) فقال : ان أهمّ شرائعهم القول بأنه لا أدب ولا شعر ولا رسم ولا نحت في

منطقة الشرق الأوسط خارج الحدود اللبنانية ، وكذلك نهش اللغة العربية كلغة وكتراث ، واستخدام الكلمات واللهجة العامية بالاضافة الى تركيب الجملة وفق الأسلوب الفرنسي ، وكذلك نهش جميع المفكرين والكتّاب الأحياء منهم والأموات والذين تجرّأوا وآمنوا إمّا بالعروبة السياسية او بالحضارة العربية ثقافياً.

وهناك استثناءات مدروسة يسمح بموجبها ذكر بعض الكتّاب من خارج لبنان إذا توفّرت فيهم بعض الشروط.

ومن اعراف المافيا الأدبية ان يقدّم الكاتب العربي الذي يزور بيروت أوراق اعتماده الى النهار.

ويشير (طلال رحمة) الى ان الشعراء في لبنان يتفاخرون بالخروج على عمود الشعر يقول : بعد حرب لا حصر لحدودها بين القدماء والمحدثين بدأت الحرب بين المحدثين أنفسهم ، واختلف حوالي عشرة شعراء على الأقل حول الزيادة في الشعر الحديث ، كل واحد منهم يؤكّد انه أوّل من خرج على قواعد الخليل بن احمد.

ويمكن أن يشار في هذا المجال الى مصدر الدعوة الرافضة التي تتمثل في مجموعة من التيارات التي تعارض العروبة والإسلام ، والتي تعارض وحدة العرب وتدعو الى الاقليمية والتجزئة وإعلاء الدعوة الفينيقية والقومية السورية وسوريا الكبرى.

ومنها التيار اليساري الماركسي الذي احتضن قصيدة النثر والشعر الحديث وكل ما يتصل بهزيمة اللغة العربية في أصالة مضامينها وبيانها القرآني.

يقول بعض الناقدين ان الشعر الحر يمتاز بطابع تراجيدي عميق وهو مغلف بدرجة من الحزن تكاد تجعله لوناً واضحاً من الفلسفة الوجودية ، وهذا الحزن يملأ شعر (هؤلاء) وسبب الحزن أنهم أصحاب حلم لم يتحقق وأصحاب فردوس مفقود ، فهم يحلمون بفينيقيا : هذا الحلم الكبير المعارض لطبيعة الأشياء ، يقتضي قدراً من الحزن والشعور بالمأساة لانه حلم غير متحقق. وهذا اللون من الشعر يمثله بوضوح شاعرهم الأول : أدونيس ، ا.هـ.

وقد واجه نقّاد الأدب العربي ظاهرة الشعر الحر مواجهة صريحة وكشفوا عن ارتباطها بالمد الشعوبي الذي تحطم ، وكيف اتصل هذا المد بكل قوى التغريب والغزو الثقافي من ماركسية وملحدة ومادية الفكر ، بل ان بعض الكتّاب الذين عرفوا بتقدير الأبعاد الخفية ربطوا بين ظاهرة الشعر الحديث وبين المخططات الصهيونية من أمثال هؤلاء «عبد الله يوركي حلاق» الذي يقسّم دعاة الشعر الحر الى فئتين : الأولى ذات نية سليمة تهدف الى نظم هذا النوع من الشعر لأنه لا يحتاج الى مجهود ، يلجأ أصحابه الى وضع اسم غريب للديوان مع وضع بعض الرسوم الرمزية التي لا يفهمها حتى صاحب الديوان نفسه .

أما الفئة الثانية فتتعمّد تشجيع دعاة هذا الشعر لتقضي على الأصالة العربية ولتسيء الى لغتنا الفصحى ، حتى ان كثيراً من الشعوبيين يروجون للهجةالعامية ، وبعضهم يروج للعامية اللبنانية بالذات او المصرية .

والغاية هي تفتيت أواصر الصلة بين الأقطار العربية وإيجاد فرقة ابدية بينها والغاية كما تبدو تتصل بمخطط صهيوني استعماري . ومن المؤسف ان نرى كثيراً من رجال الإعلام العرب هم من أصحاب هذه النظرية الغربية .

ثم يفصل الباحث القول ويركز على أدونيس وسعيد عقل .

وهما ممن لهم شعر عربي أصيل وقصائد غنائية وجدانية .

يقول عن سعيد عقل «مع الأسف فقد تبنّى منذ بضع سنوات نظرية (العامية) ثم غالى فنادى بلبننة اللغة وبإبدال الحرف العربي الجميل بالحرف اللاتيني ، وأصدر كتاباً بهذا الحرف أسماه (يارا) وأخذ يشجّع عدداً وافراً من مريديه والمعجبين بأدبه ، على أن ينهجوا نهجه هذا ، ووضع جائزة شهرية يدفعها غالباً لبعض هؤلاء المداحين .

ويقول عن أدونيس «أما أدونيس فإنه إنسان منحرف وهو الذي يتزعم هذه النزعة ، وأصدر من أجلها مجلة شعرية يصدرها حسب المواسم ، وانني أدعو جميع أصحاب العقيدة العربية الى الوقوف في وجه هذا الدعي .

اما عن رأيه في الشعر الحر فيقول :

هذا النوع من الشعر غير قابل للحياة ، لأنه غير قابل للحفظ ولا للتلحين ولا سيا الغموض والضبابية والإبهام وهي أشياء يعتمد عليها أصحاب هذا النوع من الشعر.

« ان الشعراء الأصلاء ترفعوا عن هذا الكلام الغامض المبهم لأنهم لا يريدون ان ينزلقوا الى مستوى جماعة ما سارت في هذا الطريق إلا لجهلها قواعد اللّغة وأصول النظم الصحيح . ولو كانت لديها القدرة على دخول الشعر من بابه الكبير لما انحرفت الى ذلك الطريق السهل . واعتقد ان كل الدواوين التي كانت من هذه النوعية وجدت ما تستحقّه من الاهمال والازدراء ، ذلك ان الشعر صدى واحساس وشعور لا يتقيّد بزمان او مكان . وشعراؤنا جدّدوا قديماً ، ولكن لم يتنكروا لعمود الشعر ولا خرجوا عن أوزان الخليل إلا ما ندر ، ولم يخرجوا عن إطار الشعر العربي الأصيل ، بل عزفوا على قيثاره أرق الألحان.

(٥)

كذلك واجه النقّاد وجهة النظر المنحرفة التي عرفت عن أمثال غالي شكري وغيره من أعداء اللغة العربية الفصحى متابعة لأساتذتهم من قادة التغريب ، وقد كشف خالد محي الدين البرادعي عن هذا التيار الحاد من الشعوبية حين عرض لنقد كتاب (شعرنا الحديث الى أين) الذي هاجم خصائص الشعر العربي واللّغة العربية حقداً وانكاراً وتعصّباً ذميماً . فأشار الى أن هذا الكتاب صدر بعد هزيمة حزيران ورياح الغزو الفكري تهب علينا من كل جانب حاملة معها هدفين (١) الحيلولة دون رؤيتنا أمة ذات حضارة وتاريخ . (٢) إقامة سدّ بيننا وبين التقدّم ، بما يتطلّب هذان الهدفان من أسلحة وذخيرة . فأشار الى أننا أمة شاعرة ولغتنا لغة شعر ، والشعر من أكثر فنون الكتابة تأثيراً في أرواحنا ، وان هذا الكاتب كان العمود الفقري لمجلة حوار اللبنانية ، وأنه طرح أفكار الشعوبيين امتداداً لدعوة إنهاء هذه الأمة تاريخاً ووجوداً ضمن ثلاثة خطوط :

الخط الأول : رفض التراث رفضاً مطلقاً بعصبية وانفعال لأن التراث الأدبي لأمّتنا مرتبط بالدين ان لم يكن وجد لخدمة الدين أصلاً ، وبذلك اكتسبت اللغة العربية صفة القداسة لارتباطها بقداسة الدين ، وهذه الفكرة المهلهلة المكذوبة (أصلاً وتاريخاً وتفسيراً) لا مجال لتنفيذها هنا ، بل أدعو الى مراجعة مؤلفات الأصمعي والجرجاني وابن رشيق وغيرهم من النقاد القدامى الذين نفوا ان تكون القيم الدينية مرتَكَزاً لاعطاء الشعر قيمة فنيّة وجمالية.

من خلال هذا الخط المشوّه ينفذ غالي شكري لمصافحة المنبوذين والتائهين ومعانقة الشعراء الذين من خلال عقدهم رفضوا بدورهم تراث أمّتهم واسقطوا نقمتهم على كل ما خلفه لنا الأوائل دون غربلة او تمحيص.

الخط الثاني : الذي اختاره ناقدنا كان (كسر جوهر اللغة) على حد تعبيره وتعبير أستاذه لويس عوض وهو يدعو الى ذلك دون مواربة ولا يكفي كما يقول ان يكسر الشعراء الشباب ميزان الخليل ويتخطوا التفعيلة ، بل عليهم ان يحطّموا جوهر اللغة ، وقد ترك هذه الدعوة عائمة مطاطة بلا تحديد او تأخير. ولم نفهم ما هو المقصود من كسر جوهر اللغة. هل يكون بتأنيث المذكر وتذكير المؤنث ، أم أنّ كسر جوهر اللغة هو الغاء حركات الإعراب؟ والجواب الوحيد هو تمزيق (القرآن) وإزالته من الوجود ، هذا الكتاب الذي يمدنا بالله. ولا يستطيع النوم والهدوء ما دام القرآن الماثل هو ما يشغل بالفصاحة والبلاغة وحسن التعبير وجمال الرؤية وفنية الأداء.

الخط الثالث : هو رفض الشعر المفهوم وتسمية أصحابه بالرجعيين والسلفيين ، وكل قصيدة تطرب ليست في رأيه فنا وليست شعراً ، ولذلك فهو يدعو الى كتابة الشعر بالطريقة الأحلامية : مفردات غير متراصّة ، الصفة لا علاقة لها بالموصوف ، والرمز لا علاقة له بالصورة ، والاسم لا يمت الى الفعل بصلة ، هذا مع التحلل المطلق من كل مفهوم ينقل في صورة شعرية او كل صورة تنقل لنا فكرة عن جلال الفن ، ومن هنا ينفذ الى مفاهيم السريالية : لا ترابط ولا فكر ولا وجود ، دائماً الهلوسة والهذيان والجنون المطبق ، ويقول خالد محي الدين البرعي ان غاية الكاتب

من الشك في كل ما انجبت أمتنا حتى لا نجد سبيلاً إلّا التوجّه الى الغرب. وقد خصّص لنا مدرستين ليخرجا شعراء عرباً هما إليوت وازراباوند، متجاهلاً ان الأدب نتاج بيئته، وان لكل لغة فنها وجمالها ورونقها. ودعوته الى ما اسماه «تحطيم الأصنام» التي تعوق تقدّمنا الشعري، ومنها القرآن، ونصيحته للشعراء بالتخلّي عن كل ما خلف الأوّلون وعن كل المفاهيم الشعرية السائدة في بيئتنا المعاصرة»[1].

(١) مجلة الرسالة الكويتية سنة ١٩٦٤

# الباب الخامس

## مناهج الأدب العربي
## بين التبعية والأصالة

أولاً : الأدب العربي والآداب العالمية.

ثانياً : تضييق دائرة الأدب.

ثالثاً : كتب المحاضرات.

رابعاً : الأدب المكشوف.

خامساً : خطأ نظرية التجديد المفرغة من الأصالة.

سادساً : الدعوة الى التمصير.

# الفصل الأول

## الأدب العربي بين الآداب العربية

جرت أبحاث عديدة حول مكان الأدب العربي من الآداب العالمية ، ودوره في العطاء والاقتباس ، وحاولت مدرسة التغريب ومذهب النقد الغربي الوافد أن تصور هذه المكانة على النحو الذي يوهم بأنه تابع للآداب الشرقية أو الغربية.

وقد ظلّ الدكتور طه حسين فترة طويلة يوحي برد مقومات الأدب العربي الى أصول فارسية. ثم عاد[1] بعد ذلك يقدّم الأدب اليوناني على الأدب العربي وينسب كثيراً من مقوماته الى الاغريق.

ويبدو ان الدكتور طه حسين قد وجد نقداً لموقفه ، فعاد يصحّح هذا الموقف ، او أنه لم يجد حاجة الى ان ينسب مقومات الأدب العربي الى الأدب الفارسي ، وان المخططات المتجدّدة تحاول أن تضع الأدب العربي في مجال التبعية للأدب اليوناني ، وكذلك الأدب الفارسي نفسه ، وقد صاحبت هذه المحاولة تغطية قد ترضي بعض البسطاء ، وهي قول الدكتور : إن الأدب العربي لا يمكن ان يقل عن الآداب القديمة الأربعة ، بل هو متقدّم على الأدب اللاتيني والفارسي ، ثم قال «وإذا لم

(١) محاضرة الدكتور طه حسين في نوفمبر ١٩٣٢ (يراجع البلاغ)

يكن بد من مناظر قديم ننحني أمامه بعض الشيء في إجلال فإنما هو الأدب اليوناني » ثم قال ان الأدب العربي تاثر باليونان وبالفرس والهنود والأمم الأخرى.

وهي عبارة أقل ما توصف به أنها ذليلة لا يقولها من له أقل إيمان وفهم للعروبة أو الإسلام.

وهاجم الدكتور طه ما ردّده من قبل امتداداً ومتابعةً لبعض المستشرقين مما وصف بأنه دين الأدب العربي للفرس. ثم عاد فأكّد ولاءه للأدب اليوناني حين قال إنه أرقى الآداب الأربعة ويليه الأدب العربي.

ثم حاول ان ينسب كثيراً من اتجاهات الأدب العربي الى اليونان.

وهذه دعوى غالى فيها الدكتور وأسرف حتى لم يعد أحد من الباحثين المنصفين يصدقه فيها ، ولا يرى أنه يصدر فيها عن علم يقيني او سند علمي ، وقد دلت كل اراء الدكتور طه واتجاهاته الى انه صاحب ولاء للأدب الغربي ، وان هذا الولاء لا يمكن ان يأخذ طريق الدعوة إلّا إذا ربط نفسه بالأدب اليوناني.

ولا ينكر طه حسين الأثر الفارسي ، ولكن يرى مع بعض المستشرقين الذين لهم رأي في ذلك أن تأثير اليونان أقوى ، وان العقل الفارسي أيضاً تأثر بالثقافة اليونانية الى حد أن ابن المقفع كان عظيم الحظ من الثقافة اليونانية.

وقد واجه الدكتور زكي مبارك هذا الرأي حين قال : ان من المجاملة المخدرة أن يعلن الدكتور أن الأدب العربي أقوى من الأدب الفارسي واللاتيني ، وكان لا بد من التضحية بهذين الأدبين ليستطيع الدكتور ان يواجه المتحمسين لأدبهم بتلك الحقيقة القاهرة ، وهي ان الأدب اليوناني في المكان الأول والأدب العربي في المكان الثاني وحين قال : ان الأدب اليوناني له المكان الأول من الناحية القصصية ، وإنه في هذا الباب يمتاز امتيازاً صريحاً لا يقبل الجدل والنزاع.

وان الأدب العربي له المكان الأول من الناحية الدينية ، وليس في هذا غرابة فإن البلاغة الدينية باب مهم من أبواب البلاغات في الأدب القديم والحديث ، والمطّلع

على الأدب العربي يراه يزخر ويفيض بأنواع البلاغة الدينية ، وقد شغل ثلثمائة مليون من العالم شغلاً موصولاً بأروع أثر من البلاغة الدينية ممثلاً في القرآن ، وعندنا أدب الصوفية وهو أدب عال جداً ، أفيستطيع باحث ان يزعم ان اليونان كان عندهم هذا الصفاء في الجوانب الروحية ، وقال ان هناك شبهة ينبغي تبديدها في هذا المقام ، فقد يقال إن الأدب اليوناني كان أشدّ تأثيراً في الآداب الأوربية الحديثة ، ولم يكن للأدب العربي مثل هذا التأثير البالغ .

ونحن نجيب بأن الأدب العربي سكت عنه الأوربيون عامدين لأنه يمثل الحضارة الإسلامية وهي حضارة كانت أوربا تبغي هدمها منذ أزمان ، ولأنه من جهة ثانية مصبوغ في أكثر موضوعاته بصبغة الجد الرصين واوربا فتنت بما في الأدب اليوناني من نزق وطيش وخلاعة ومجون ، ولا يخفى على الباحث المنزه عن الغرض الديني والقومي ، ان اول ما يلفت الناس الى الأدب هو ما فيه من الثورة أحياناً على التقاليد الدينية والأخلاقية والاجتماعية ، بدليل أن أكبر شاعر شرقي ، راج أدبه في أوربا هو (عمر الخيام) لأنه كان شاعر اللذة والقلق والارتياب [1] يضاف الى هذا ان يقظة أوربا الحديثة اتفق وجودها في أزمان كانت فيها الأمم الغربية منحدرة الى مهاوي الضعف والخمول فلم تستطع ان تقدم أوربا الى العالم تقديماً حسناً يصور ما كان له من روعة وجلال ، ويأتي بعد ذلك سبب آخر له أهميته : ذلك ان العقل العربي يميل الى «الايجاز» في أكثر ضروب البيان ، فالأدب العربي في جوهره أدب صادق من حيث دلالته على المعاني الانسانية ، ولكنه لا يصلح لجميع الناس لما فيه من الميل الغالب الى الايجاز.

على ان هناك فرقاً أدقّ في تقويم الآداب ، فليس الأدب الأفضل هو ما يصلح لجميع الأمم في جميع العصور ، ولكن الأفضل هو الذي يغني أهله ، كما ان المنزل الأفضل هو الذي يسع ساكنيه ، كما ان الثوب الأحسن هو الذي يوافق جسم لابسه ، كما ان الدواء الأنفع هو الذي يعود على شاربه بالصحة والعافية ، ولو نظرنا

(١) ان الشعر المنسوب الى عمر الخيام مشكوك فيه (راجع الفصل الخامس من هذا الكتاب).

الى الأدب العربي هذه النظرة لوجدناه أغني أهله كل الاغناء ، والجاحظ الذي رماه الدكتور طه بالاسراف مظلوم أشد الظلم ، فهو لم يكن مسرفاً لأنه فيما اعتقد لم يتعمد الغض من الآداب الاجنبية ولكن جرى في الطريق الذي جرى فيه أسلافه ؛ وكانوا يعتقدون ان أدبهم أصدق الآداب ، وأنه أجملها وأشرفها ، لأنه شغلهم بأنفسهم ومحاسنهم ومعايبهم ، وحدثهم عن كل ما يحبون ان يتحدثوا عنه في جميع ضروب الحديث فأغناهم بالجد وألهاهم وأقنعهم في التشريع .

وحسب الأدب العربي قوة أنه فتن أهله وفرض عليهم ان يظنوا مخطئين ان الشعر لا يوجد إلا في لغتهم ، وان الحكمة لا توجد إلا عندهم ، وأن القول الفصل لا يتيسر إلا لخطبائهم وحكمائهم ، وهذا النوع من الغرور هو دليل القوة عند جميع الناس في جميع الأجيال .

ولو نظرنا في أوربا الحديثة لرأينا مصداق ذلك ، فالألمان يرون أدبهم أفضل الآداب ، والفرنسيين يرون انفسهم أرفع الناس ذوقاً وبياناً ، والانجليز يتوهمون ان الله لم يخلق أطوع منهم قلماً ولا أقوم لساناً ، وكذلك كان العرب . فلما اطمأنوا الى أنهم في حاجة الى حضارة فارس وفلسفة اليونان نقلوا من ذلك ما شاؤوا ولكنهم رأوا أنفسهم أشعر الناس وأبلغ الناس ، والواقع ان رأي الدكتور طه هو جزء من خطته التي يستمدّها من مذهب النقد الغربي الوافد ، والتي تتخذ هذا المذهب سلاحاً لفرضها وهو تهديم الأدب العربي من الداخل ، وخلق الازدراء به في عيون أهله ، أو على الأقل خلق جو من الإعلاء بما يشبه القداسة لتراث اليونان وأدب اليونان ، وتبعية الأدب العربي له او نزوله درجة عنه ، والحق ان الأدب العربي لا يجوز أن يقارن بأدب اليونان ، جواز مقارنة الأدب اليوناني بالأدب الروماني في القديم ، او جواز مقارنة الأدب الفرنسي والانجليزي والألماني في الحديث فتلك آداب من أرومة واحدة ومصدر واحد هو اللغة اللاتينية وتمثل أمما لها طابعها وعقائدها وأديانها التي هي بالاضافة الى اللغة مصدر الأدب ومورده .

أما الأدب العربي فقد نشأ في أمة لها لغة خاصة هي العربية ، ولها دين خاص هو الإسلام ، وهو من خلال الأمة العربية واللغة والدين قد تشكل ، فهو الأول في

مكانه بين أمته وهو الأول بين الآداب لأنه أعطى أمته حاجتها وعبر عنها وصور نفسيتها.

وإذا كان مجال المقارنة هو المعنى الإنساني فقد كان الأدب العربي أكثر غنى في هذا المجال وأكثر عطاء، وإذا قيل ان الأدب اليوناني قد عرف القصة والملحمة والمسرح ولم يعرفها الأدب العربي، فإن ذلك الأمر ليس حجة يعلو بها أدب على أدب، وإنما ذاك لون من ألوان التعبير خلقته ظروف البيئة وعواملها من عقائد اليونان ولم يجد الأدب العربي حاجته الى هذا اللون، فقد اتاحت له سماؤه المفتوحة المشرقة بالضوء والشمس بالنهار وبالنجوم في الليل، وبطبيعة الفارس المحارب الصريح القوي، ان لا يحتاج الى أدب الرمز والإيماء والظلال، كما ان طبيعته الصريحة الموجزة قد حالت دون وجود هذه الألوان المعقّدة من الأساطير والخرافات.

ويطبع الأدب العربي... متميزاً عن الآداب العالمية (اليونانية والرومانية والمسيحية والفارسية القديمة) طابع التوحيد، وهو طابع بعيد الأثر في تشكيل الأدب وفي تحرير الفكر من الوثنيات وعبادة الفرد أو عبادة الجسد أو عبادة القوة، وهي المظاهر الثلاثة التي اتسمت بها هذه الآداب، وهي التي اعطت الأدب العربي عن طريق القرآن طابعه المتميز: من الوضوح والايجاز والصراحة ومنحته تلك الذاتية الخاصة التي اتسم بها واختلف بها أيضاً عن مختلف الآداب العالمية في عصره، فلم يكن في حاجة الى فنون الخفاء والرمز، او الى المبالغات والتهاويل، او الى الصور الاستعراضية، او الى الاطالة والاسهاب، وهي الفنون التي عرفت بها الآداب اليونانية وغيرها من ملاحم ومسرح وقصة وغيرها.

ويمكن القول بأن هذا الطابع: «التوحيد» قد أضفى على «الطابع الانساني» قوة وحيوية وجعله أكثر صلابة وعمقاً، وان الطابع الانساني لأي أدب لا يمكن ان يكون في غير ظل التوحيد، قادراً على التوحيد، قادراً على العطاء والنماء على النحو الذي يستطيعه في ظل أدب التوحيد.

(٢)

ومن هنا وفي ضوء هذا التفسير، نجد أن دراسات الأدب المقارن التي عني بها بعض الباحثين[١] لم تستوعب هذا الفارق العميق، ومن هنا جاءت محاولاتها غير مستوعبة، فبالرغم من تنبه الباحثين الى مواضع الخلاف بين الأدب العَربي من ناحية والآداب العالمية من ناحية أخرى فقد أولوا اهتمامهم الى جوانب اللقاء جرياً على سنة القول بان الأدب العربي لا يختلف في مجال التشابه والالتقاء مع هذه الآداب.

ومن الحق أن الأدب العربي في حاجة الى من يعالجه من موضع القوة ويكشف عن تميزه وتفرّده ويربم صور تبريزه وذاتيته من خلال مزاج الأمة العربية النفسي والاجتماعي الذي شكله القرآن والذي كان «للتوحيد» أبعد الأثر في ابراز الخلاف الواضح بينه وبين أغلب الآداب العالمية التي تصادف أنها جميعاً تكاد تكون من أرومة واحدة قوامها اللغة اللاتينية والفلسفة اليونانية، وعقائد الحضارة الرومانية القديمة في إعلاء الجنس الأبيض على الأجناس، واعتبار اهل روما سادة وما وراءها عبيد، وهو المعنى الواضح من خلال فلسفات أفلاطون وأرسطو على الرغم من اختلافها وانقسامها بين الفردية والجماعية.

فالأدب الغربي الحديث كله (والأدب الماركسي أيضاً) يصدر عن الجذور الأساسية في الفلسفة اليونانية والأدب الأغريقي، ويتصل اتصالاً طبيعياً يستمد قواعده من القواعد التي قعدها (ارسطو) للمنطق والشعر والمحاكاة مع تعديل وتطوير لا يخرجان عن الجذور الأصيلة، ولذلك فإن أوجه اللقاء بين الآداب الفرنسية والانجليزية والألمانية والايطالية تتقارب نتيجة المصدر الواحد من اللغة اللاتينية والتأثرات التاريخية من خلال اللاتينية والأغريقية والمسيحية.

ومع ذلك فإن يبدو بوضوح ذلك «اللون القومي» في ادب كل أمة من هذه الأمم فما بالك بالأدب العربي الذي خرج من أرومة أخرى لا تجمعها بالأدب الغربي

(١) أبرزهم: الدكتور ابراهيم سلامة والدكتور غنيمي هلال.

الحديث ولا بالفلسفة الأغريقية او الأدب الروماني صلة جارية ، فاللغة العربية لا يربطها باللغة اليونانية أي أصل قديم ، وكذلك الفلسفة والأدب والعقائد.

ومن هنا يبدو ذلك الفارق الكبير، والعميق الواسع للخلاف في الأصول والفروع جميعاً.

صحيح ان الآداب تؤثر وتتأثر، وتقتبس وتنقل وتترجم ، ولكنها لا تتقبل من ذلك إلا ما تستطيع إساغته وهضمه ، وما هو متفق مع طبيعتها ، ومزاجها النفسي ، وكل محاولة لفرض أدب على ادب ، او ذوق على ذوق ، هي محاولة فاشلة وان بدت في مرحلة من المراحل أنها قد لقيت قبولاً او استحساناً ، ذلك لأن الآداب الأصيلة بطبيعتها لا تعق فطرتها ولا تخرج عن ذاتيتها ، ولا يكون من السهل تزييف جوهرها ، او إفساد مزاجها النفسي بإضافة قيم او مفاهيم او طوابع مخالفة او معارضة او مضادة لطبيعتها ، ولقد كان ذلك واضحاً من خلال تجربة الترجمة اليونانية القديمة في العصر العباسي ، فلقد أبعدت (الأدب) تماماً عن مجال الترجمة ، ومع ذلك فإن ما ترجم من الفلسفات قد كان له أثره الذي اضطرب به الفكر الإسلامي بين تقبل ورفض ، في معركة ضخمة عنيفة ، انتهت بتحرر الفكر الإسلامي من نفوذ الفلسفات اليونانية والفارسية والهندية وغيرها ، ولم يكن معنى ذلك أنه الرفض الكامل هذه الفلسفات ، بل ان الفكر الإسلامي قد تقبل منها ما لا يضاد طبيعته وما لا يختلف مع جوهره ، وما تقبله منها فقد أعاد صياغته وأضافه اضافة صحيحة الى كيانه دون ان يتحول عن معالمه الأساسية وطبيعته الأصيلة.

أما في العصر الحديث وفي ظل سيطرة النفوذ الاستعماري الغربي ، فقد استطاعت الآداب الغربية ان تفرض نفوذها على الأدب العربي ، من خلال الدعاة الذين كسبهم التغريب وأولاهم من النفوذ ما مكنهم من فرض هذه الطوابع الأدبية الغربية على الأدب العربي ، وخاصة ترجمات الأدب اليوناني والأساطير الأغريقية ، وهو ما رفضه العرب في إبان نهضتهم ، وعندما كانت مقاليد الترجمة في أيديهم الحرة القادرة على القبول والرفض.

ومع هذا النصر في فرض نفوذ الآداب اليونانية الأغريقية والغربية الحديثة على الأدب العربي ، ومن فرض منهج النقد الغربي الوافد : فإن الأدب العربي قد كشف عن جوهره الصلب وذاتيته العميقة ، ومزاجه النفسي الصادق فأبعد ما لا يتفق مع طابعه او مزاجه ، ورفضه رفضاً واضحاً ، وما يزال يقوى على هذا الرفض ما ازدادت شخصيته تحريراً وازداد فهماً لطبيعته وتعمقاً لجوهر فكره المستمد من القرآن أصلاً .

أما ما يحاول أن يصل إليه (الأدب المقارن) من تحقيق العالمية للأدب العربي فإن هذه العالمية لا تتحقق بترجمة أدب هو ذيل تابع للآداب الأوربية ، وإنما يكون ذلك بتقديم أدب له طابع أمة يتميز عن طوابع الأمم الأخرى في شكله ومضمونه وجوهره ، وان كان أساسه متصلاً بالإنسانية أعمق اتصال .

اما ما يردّده بعض الباحثين من القول بأن الآداب العالمية (حين يتم تجاوبها بعضها مع بعض فإنها لن تلبث أن تتوحد جميعاً في اجناسها الأدبية وأصولها الفنية ، وغاياتها الانسانية ، بحيث لا تبقى من حدود سوى اللغة وما يمكن ان تفرضه البيئة .

هذا القول مبالغ فيه ، وهو مناف لطبائع الأشياء ، والذين يقولونه يجهلون التحديات التي تواجه الأمة العربية والفكر الإسلامي من خلال حركة التغريب والتبشير ، ومن ورائها النفوذ الأجنبي الذي يستهدف إذابة أداب الأمم الإسلامية كلها في أتون الأدب الغربي وتخليصها من مقوماتها وتجريدها من قيمها ، وان أي محاولة لخلق عالمية للأدب في ظل الظروف التي تعيشها الأمة العربية والعالم الإسلامي فإنها ستكون على حساب الأدب العربي ، ولن يستطيع أدب أن يتقابل مع أدب إلا إذا كانا على قدر واحد من حرية الإرادة ، واستقلالية الحركة ، والمساواة . فهل يستطيع الأدب العربي أن يقول إنه اليوم على هذا القدر من الحرية والاستقلال بالنسبة للآداب الأوربية او غير الأوربية حتى يمكن ان يتحرك بقوة؟

إن الدعوة الى عالمية الأدب في ظل هذه المرحلة ، إنما تستهدف ذوبان الأدب العربي في الآداب الغربية والقضاء على مقوماته وقيمه المستمدة من القرآن

والتوحيد، فلا يلبث ان يكون نسخة مهزوزة ليست لها طبيعتها الاصيلة، ولن تكون جزءاً من الآداب الغربية.

ولا شك أن الآداب الغربية تحمل طابعاً «انسانياً» يمكن ان يلتقي الأدب العربي بها من خلاله، غير ان هذه الآداب تفيض بطوابع الاستعلاء المستمدّ من العناصر: من الأوربية صاحبة الحضارة، ومن الجنس الأبيض ومن الآرية التي وُصِفَت في مئات المواضع من الآداب الأوربية بأنها ميراث سماوي، لا تتسامى إليه الأمم الأخرى، وإن الانسان الأبيض قد أُعطي بحكمة القدر السيطرة والسيادة على العالم كله، وأنه لا سبيل الى الالتقاء مع الملونين.

ولا شك أن الآداب الغربية تحمل طابع العقيدة ويمكن ان تلتقي بالأدب العربي من خلالها، ولكن هذه الآداب كشفت عن طوابع الانتقاض على الغيبيات والإيمان بالله، وكل ما يتعلق بالوحي والسماء واعتباره خرافة، ولقد قطعت الآداب الغربية مراحل طويلة متصلة في الدعوة الى تأليه الإنسان وتأليه العقل، ووصف العقل بالجبروت وإعلان أن الله قد مات وغير ذلك مما يختلف فيه الأدب العربي مع هذه الآداب اختلافاً عميقاً.

ولا شك أن الآداب الغربية تحمل طابع «الاجتماعية» ويمكن ان يلتقي الأدب العربي بها من خلالها، ولكن هذه الآداب قد كشفت عن تحررها من القيم الأخلاقية الثابتة التي جاءت بها الأديان، بل انها انكرت الاديان، وهاجمتها، وكان لمذاهب المكيافيلية والوجودية والماركسية والفرويدية والبرجماتية أثرها في تشكيل مناهج التربية والاقتصاد والسياسة، وكان لذلك كله أثره على الأدب وظله الواضح على الفنون الأدبية المختلفة.

وقد أشار الدكتور ابراهيم سلامة الى ما يمكن ان بربط بين الآداب العالمية من العواطف المتشابهة كعاطفة الحب او العلاقات الاجتماعية كالزواج والأسرة.

ونحن نتساءل هل تقف الآداب الغربية من هذه العواطف موقف الأدب العربي؟

بل أننا نذهب الى أبعد من ذلك فنسأل : هل النفس العربية ذات الطابع الإسلامي القرآني ، تواجه قضايا الحب والزواج والأسرة والمرأة على النحو الذي تواجهه به النفس الغربية : على نحو ما نرى في آثار الأدب الأوربي والأمريكي والماركسي .

الحق : أن هناك فارقاً بعيداً وخلافاً واضحاً ، فقد قامت مفاهيم في الآداب الغربية ، مستمدّة من صور المجتمع في مرحلة تمزّقه وانحلاله ومن فلسفات فرويد وسارتر وغيرهما تهزأ بكل ما لهذه العلاقات من كرامة وقداسة في الأدب العربي ، بل لقد وصل (دوركايم) الى القول بأن رابطة الأسرة والزواج ، ليست رابطة طبيعية في المجتمعات والنفوس .

والواقع أن هناك خلافات جذرية بين الأدب العربي ، والآداب الأوربية في كل ما يتعلّق بمفاهيم النفس والأخلاق والتربية .

وهناك عشرات من القصص الأوربية الشهيرة إذا ما روجعت لم نجد فيها ما يلتقي مع النفس العربية ، او المزاج العربي ، او طبائع المجتمعات العربية الإسلامية ، وخاصة في مفاهيم العلاقة بين الزوجة وصديق الاسرة ، وبين تقبل الزوج للعلاقات الحسيّة بين زوجته وبين الغير ، وتلك الصداقات التي تقوم بعد الزواج ، وذلك الصراع بين الزوجة العشيقة ، وعلاقة المرأة بأكثر من رجل ، الحق أن هناك فوارق عميقة بين المجتمعين ، ومن ثم بين الأدبين .

ولا شك ان المزاج النفسي هو أساس التقاء الآداب وتقاربها ، ولا شك ان هناك مسافات بعيدة ، وفوارق كبيرة بين الأدب العربي والآداب الغربية في مفاهيم المادية والجنس وعلاقات الحب والزواج ، وهناك خلاف واضح في ترتيب القيم حيث تعلو في الأدب العربي قيم العفّة والشرف والعرض والزواج الشرعي والحب العفيف .

وهي قيم لا محل لها تقريباً في الآداب الأوربية ، بل انها تهاجم هجوماً عنيفاً ،

ويسخر منها سخرية لاذعة ، ولا شك ان لاستعلاء مذاهب ماركس وفرويد وسارتر وديوي أثره الواضح في الأدب الغربي.

* * * *

ومن هنا يبدو أن اللّقاء بين الأدب العربي والآداب الغربية عسير وشاق وغير متقبّل إلّا على شرط واحد مرفوض ، هو ان يذيب الأدب العربي نفسه في هذه الطوابع الغربية عليه ، والتي يتسم بها الأدب العالمي ، وهذا الشرط يرفضه الأدب العربي رفضاً حاسماً ويجالد مجالدة كبرى في سبيل التحرر من سيطرته أولفوذه.

ذلك ان عالمية الأدب على هذه الصورة ، وفي ظل هذه المرحلة ، معناها خروج الأدب العربي عن طبيعته وذاتيته ومقوماته. ولقد تقدّم الأدب العربي الى الأدب الأوربي في أوائل عصر النهضة بقيمه الأصيلة وأثر فيه تأثيراً واضحاً لا شبهة فيه ، ولكن هل ذابت الآداب الأوربية التي اكتسبت منه ونقلت ، هل ذابت في الأدب العربي الحق ، ان ذلك لم يحدث ، ولكن هذه الآداب أضافت الى ذاتها قوة جديدة ثم مضت في طريقها الذي تفرضه طبيعتها ، وكذلك يجب ان يكون شأن الأدب العربي في اتصاله في الآداب الأخرى..

(٣)

ولقد شهد بأثر الأدب العربي في الآداب الأوربية (والعالم عموماً) كثير من المنصفين ، وكشفوا عن الدور الذي أداه في تحرير الخيال من الأغلال الضيقة الشديدة الوطأة ، وقيام ذلك الخيال بشق صدع في جدار التقاليد ، و«مقدرته في انبعاث ودعوة الاحاسيس الخلاقة المبدعة» وعمق أثر أدب العرب في نواحي الأسلوب والأفكار والألفاظ والتعابير ، وقد اعترف بهذا الأثر هاملتون جب في كتاب (تراث الإسلام) حين قال : ان للأدب العربي أعظم أثر في رفع شأن الرومانتيكية الأوربية ، فيندر ان تجد شاعراً او كاتباً او أديباً خلا شعره من بطل اسلامي او نادرة اسلامية.

وتجمع المصادر على ان لافونتين ، وكورني وفولتير وشكسبير وجوته ومونتسكيو وشيلي وهوجو جميعاً قد تأثروا بالأدب العربي [1] وقد كتب الباحثون فصولاً مطولة عن أثر رسالة الغفران في الملهاة الإلهية لدانتي وأثر (حي بن يقظان) في قصة روبنس كروزو ، وكان القس اسين بلاسيوس في مقدمة أصحاب هذه البحوث .

كما عرض البحث لأثر الأدب العربي في شعراء التروبادور في اسبانيا وجنوب فرنسا وفي هذا المجال يقول فخري ابو السعود :

ان الأدب العربي أعطى أكثر مما أخذ ، وأثر في آداب الأمم الأجنبية أكثر مما تأثر بها ، فقد كانت الأمة العربية منذ ظهورها أمة عطاء ، أعطت العالم ديناً وقوانين ولغة وأدباً ، ولم تأخذ الا ما يتضاءل أمام ذلك كله من حضارة الفرس المادية ونظريات اليونان الفلسفية .

وأثر الأدب العربي في آداب كثير من الأمم الشرقية كالهنود والفرس والترك واليهود ، وما يزال ذلك التأثير فاعلاً في الألفاظ والأساليب التي اقتبستها منه تلك الآداب .

وقد أدى الى اتصال تلك الآداب بالأدب العربي اتصال العرب بكل الأمم بالحرب والتجارة .

فلما اتصل الفرس بالأدب العربي واعجبوا به لم ينقلوا ما راعهم منه الى أدبهم بل انتقلوا هم إليه ، فنثروا ونظموا في لغة الدولة والدين والقرآن ، وكان منهم جملة من فحول الأدب العربي ، ثم نشأت طبقة منهم كانت تؤلف باللغتين وتساهم في الأدبين .

وكان للأدب العربي أثر كبير في آداب الأمم الغربية ، وقد تأثرت الآداب الشرقية بالأدب العربي الفصيح .

وللأدب العربي أثر ثالث عظيم الخطر عديم النظير ، لم يتأت للأدب اليوناني أن

---

(١) راجع مجلة المسلم العربي كانون اول ١٩٥٣

يأتي بمثله ، ذلك هو حلوله محل غيره في الشام والعراق ومصر وشمال أفريقيا ، حتى نسي اهل كل قطر من هاتيك ما كان له من أدب قبل ذلك.

والواقع ان الأدب العربي لم يسد تلك البقاع لمجرد قوته وحيويته ، وإنما تمكن من الإتيان بتلك المعجزة بفضل ما صاحبه من ظروف وعوامل كقوة اللغة العربية وكونها لغة الدين الجديد والدولة.

واستفادت الآداب الغربية بما وجدته في الأدب العربي من آثار الخيال الرائع ، والتصوير الصادق ، والتعبير المتعدد الأشكال عن الحياة الإنسانية المندفعة المتجدّدة.

* * * *

غير أن بعض كتّاب الغرب الذين تعرضوا للأدب العربي لم يكونوا منصفين حين اهتموا بما ليس من صميم الأدب العربي ، في ظل فهم خاطىء للشرق بأنه ليس سوى العطور والبخور ، ولذلك كان اهتمامهم وتركيزهم على كتاب الف ليلة وعلى ما نسب الى الخيام من شعر ، ولقد كان أغلب الذين زاروا العالم الإسلامي في العصر الحديث من رجال السياسة او الاستشراق والتبشير او رجال المخابرات والقناصل والتجار ، وهؤلاء كانوا بالطبع يحملون اهدافهم الخاصة التي تحول بينهم وبين كلمة الإنصاف ، والتي كانت تدفعهم الى تصور كل شيء في نطاق ما يريدون أن يثبتوه من مخططات التغريب والغزو الثقافي.

وفي مقدمة ذلك ما كتبه : هانوتو ، وداركور (وقد ردّ عليهما محمد عبده وقاسم أمين) وما كتبه فولني وسافاري ، وأسوأ من ذلك ما كتبه لين بول تحت عنوان (أخلاق المصريين المحدثين وعاداتهم).

بل ان ما أشار إليه بيرلوتي وجوته من اعجاب بالشرق في مؤلفاتهما إنما كان يصدر عن مشاعر تغذيها صور الحريم والبخور وتتراءى منها قراءات ألف ليلة وما نسب الى الخيام من شعر.

وكان ذلك كله إنما يصور فكرة خاطئة او عملاً مقصوداً لذاته ، وكل منهما كان بعيداً عن الإنصاف.

# الفصل الثاني

## تضييق دائرة الأدب

### أحد انحرافات مناهج النقد الغربي الوافد

من أبرز اخطار منهج النقد الغربي الوافد محاولة تضييق دائرة الأدب ، حتى يخرج منها أعظم الانتاج العربي من مختلف مجالات العلوم والفنون وحتى يقصر الأمر على مجموعة من أشعار الإباحيين والماجنين ودعاة الكشف من أمثال ابي نواس وبشار ، وبالاضافة الى اسجاع الصابي وابي الفضل بن العميد والصاحب بن عباد ومقامات بديع الزمان والحريري .

وكل هؤلاء في مجال الشعر والنثر لا يمثلون مفهوم الأدب العربي الأصيل ، ولا يطابقون مزاج النفس العربية ولا ذاتيتها ، وبهذا التضييق في دائرة الأدب تخرج منها كتابات الأعلام والنوابغ والفلاسفة والمفكرين من أمثال ابن حزم وابن رشد والغزالي وابن تيمية وابن القيم وابن مسكويه والمقري وابن خلدون والمقريزي والسخاوي وعشرات غيرهم .

ولقد حاول منهج النقد الغربي الوافد أن يعلي من شأن الأدب اعلاء خرج به من دائرته الحقيقية ، وفرض نفسه على الصحافة والكتابة جميعاً ، ثم ضيق دائرة الأدب حتى اوقفه عند ظواهر ثلاث ، لم تكن في الحقيقة من أصول الأدب العربي ولا

تتصل بمقوماته ، وإنما هي من انحرافاته ، فقد حاولت نظريات منهج النقد الغربي الوافد الذي حمل لواءه طه حسين حواري التغريب ان تضع قاعدة ثبت انحرافها وخطؤها هي ان عبد الحميد بن يحيى وابن المقفع هما اصل النثر الفني في الأدب العربي . وابن يحيى وابن المقفع فارسيّان ، كشفت وقائع التاريخ عن أنهما كانا شعوبيين ، وأنهما كانا يستهدفان هدم قيم الأدب العربي المرتكزة على أصول الإسلام .

وقد كان اعتبارهما مصدر البلاغة والنثر الفني محاولة آثمة لطي صفحة عريضة من الأدب العربي بدأها القرآن الكريم عندما ألقى ذلك اللون الرائع من بيانه الذي استعلى على الشعر القديم وسجع الكهان وعجز بُلغاء العرب عن الإتيان بمثله ، ثم كان هو وحده منطلق النثر العربي على وجه التحقيق ، وقد عرف ان ابن المقفع كان مجوسياً الى اول الدولة العباسية ، وأنه كتب في الزندقة كتباً كثيرة ، وان هذه الزندقة هي التي قتلت ابن المقفع .

وقد شهد له الدكتور طه حسين بأنه كان مضطرب اللغة كثير الأخطاء يقول :

« عندما تقرؤون كتابة ابن المقفع تجدون فيه شيئاً من الالتواء والدوران ، ونحس ونحن نقرأ أن الكاتب يجد مشقة في التعبير عن المعاني التي يحسّها ونحس هذا الضعف الذي تكلّفه الكاتب للعربية . وقال انه « لم يكن عظيم الحظ من الفصاحة والنحو العربي » بل لقد ذهب طه حسين في نقده الى حد قوله « انه لم يكن أكثر من مستشرق يحسن اللغة العربية والفارسية » .

ولكن طه حسين بعد هذه الوصمة التي يصم بها « ابن المقفع » يمرّ في مرحلة من مراحل حياته المتغيّرة المتقلّبة على أنه مصدر البلاغة والنثر الفني في الأدب العربي ، ثم يتحول من ذلك الى رأي آخر ، حين تحول طه حسين من تأييد الفارسية الى إعلاء اليونانية ، الى ان ابن المقفع وعبد الحميد قد صدرا عن معرفة واسعة بالفلسفة اليونانية [1] .

---

(١) من حديث الشعر والنثر لطه حسين

ولقد كانت ظاهرة تضييق دائرة الأدب ظاهرة خطيرة حقّاً أرادت أن تطمس ابرز تراث الأدب العربي وتتجاهله وتحجبه وتغضي عنه ، وقد تنبه الى هذا المعنى رجلان من ابرز رجالنا في العصر الحديث : هما الإمام ابو الحسن علي الحسني الندوي ، والعلّامة عبد الله كنون.

يقول الندوي : أصيب الأدب العربي بمحنة أصيب بها أدب كل أمة ، هذه المحنة هي تسلّط أصحاب الصناعة والتكلّف على الأدب الذين يتخذونه حرفة وصناعة ويحتكرونه احتكاراً ، ويتنافسون في تضييقه وتحبيره ليثبتوا به براعتهم وتفوّقهم ويصلوا به الى اغراضهم ، ويطغى هذا الأدب الصناعي التقليدي على كل ما يؤثر عن هذه الأمة ، وتحتوي عليه مكتباتها الزاخرة من أدب طبعي وكلام مرسل وتعبير بليغ يحرك النفوس ويثير الاعجاب ويوسع آفاق الفكر، ويغري بالتقليد ، ويبعث في النفس الثقة ، ولا عجب فيه إلا أنه صدر عن رجال لم ينقطعوا عن الأدب والإنشاء ولم يتخذوه حرفة ومكسباً ، هذا النتاج جاء تحت بحث ديني او كتاب علمي ، او موضوع فلسفي واجتماعي ، فبقي مغموراً

وقد دوّن هذا الأدب في كتب الحديث والسيرة قبل ان يدوّن الأدب الصناعي في كتب الرسائل والمقامات ، ولم يحظ بدراسته الأدباء والباحثون مع انه هو الأدب الذي تجلّت فيه عبقرية اللغة العربية واسرارها وبراعة أهل اللغة ، ولياقتهم وهو مدرسة الأدب الأصيلة الأولى.

وقال : وكتب الحديث والسيرة كمثال لهذا الأدب الطبعي ، فيقول انها اشتملت على معجزات بيانية وقطع أدبية ساحرة تخلومنها مكتبة الأدب العربي على سعتها وغناها ، وهو دليل على صحةهذه اللغة ومرونتها واقتدارها على التعبير الدقيق عن خواطر ومشاعر ووجدانات وكيفيات نفسية عميقة دقيقة ، وهي الكتب التي حفظت لنا مناهج كلام العرب الأولين وأساليب بيانهم.

وكُتُب الحديث النبوي تسدّ هذا الفراغ الواقع في تاريخ الأدب العربي وتنقل إلينا هذا الذخر الأدبي الذي اعتقد انه قد ضاع ، وتمتاز بأنها قد اتصل سندها

وصحت روايتها ، فهي أوثق مصدر للغة العربية البليغة التي كانت سائدة في عهدها الذهبي الأول .

ويشير الندوي الى ما يجد دارس الأدب في هذه النماذج من البلاغة العربية والقدرة البيانية والوصف الدقيق والتعبير الرقيق ، ومن عدم التكلف والصناعة ، ما تقف أمامه خاشعاً معترفاً للرواة بالبلاغة والتحري في صحة النقل والرواية ، وللغة العربية بالشعر والجمال ، ويلي الحديث كتب السيرة ، وقد حفظت لنا جزءاً كبيراً من كلام العرب الأقحاح ، تلك اللغة البليغة التي كانت في العصور العربية الأولى وهذبها الإسلام ورققها ، واشتملت على قطع أدبية لا يوجد لها نظير.

هكذا صان الله هذه اللغة الكريمة الأمينة للقرآن من الضياع ، وانتقلت ثروتها من جيل الى جيل ومن كتاب الى كتاب ، حتى جاء دور التأليف والتاريخ في القرن الثالث والرابع .

ثم جاء دور المتكلفين المقلدين للعجم ، ونبغ في العواصم العربية أمثال ابي اسحق الصابي ، وابي الفضل بن العميد ، وابي بكر الخوارزمي ، وبديع الزمان الهمزاني ، وابي العلاء المعري ، فاخترعوا اسلوباً للكتابة والإنشاء هو بالصناعة اليدوية والوشي والتطريز أشبه منه بالبيان العربي السلسال ، وكلام العرب الأولين المرسل الجاري مع الطبع ، وغلب عليهم السجع والبديع غلوا أذهب بهاء اللغة ورواءها ، وقيد الأدب بسلاسل وأغلال أفقدته حريته وانطلاقه وخفة روحه وجماله .

وتزعم هؤلاء الأدب العربي واحتكروه وخضع العالم العربي الإسلامي لنفوذهم وعلو ملكاتهم تارة وللانحطاط الفكري والاجتماعي الذي كان يسود العالم الإسلامي تارة أخرى ، وأصبح اسلوبهم للكتابة هو الاسلوب الوحيد الذي يحتذى ويقلد في العالم الإسلامي .

وجاء الحريري فألف المقامات وهو أسلوب الكتابة المسجعة ، وقد تهيأت لقبولها العقول فعكف عليها العالم الإسلامي دراسة وشرحا وتقليداً وحفظاً ، وتغلغلت في

مدارس الفكر والادب وبقيت مسيطرة على العقول والأقلام أطول مدة تمتع بها كتاب أدبي ، وما ذلك بفضل الكتاب ، بل لأنه قد وافق هوى في النفوس وصادف عصر الجمود والعقم الأدبي في العالم الإسلامي.

ثم جاء القاضي الفاضل مجدد اسلوب الحريري وبالأصح مقلده وهو وزير أعظم دولة إسلامية في عصرها وكاتب سر احب سلطان في عهده : «صلاح الدين» فانتشر اسلوبه في العالم الإسلامي ، وحرص على تقليده الكتاب والمنشئون في أنحاء المملكة الإسلامية.

وهكذا بقي اسلوب وحيد يتحكم في العالم الإسلامي ويسيطر على الأوساط الأدبية ، وأصبح ما خلفه هؤلاء الكتاب المتصنعون من تراث أدبي هو: المعني بالأدب العربي ، وجاء المؤرخون للأدب فاعتبروهم أئمة البلاغة وأمراء البيان وأصحاب الأساليب وقدموا ما كتبوه وعرضوه للدارسين الباحثين. وقلد بعضهم بعضاً وتناقلوه، وأصبحت كتب التاريخ والأدب نسخة واحدة ، وأصبحت الكتابة صورة واحدة من القرن التاسع الى القرن الثالث عشر لا يستثنى منها إلا عبقريان اثنان : ابن خلدون والإمام احمد بن عبد الرحيم الدهلوي صاحب (حجة الله البالغة).

وانصرف الناس عما عندهم من ذخائر الأدب العربي الثمينة ، ولم يفكر أحد ان يبحث في كتب التاريخ والسير والتراجم وفي مؤلفات العلماء عن قطع أدبية رائعة تتفوق في قوتها وسلاستها على دواوين أدبية ، وهكذا بقيت طائفة من العلماء حتى في عصور الانحطاط الأدبي ، غير خاضعين لاسلوب تقليدي في عصرهم ، متحررين من السجع والبديع والصناعة والمحسنات اللفظية ، يكتبون ويؤلفون في لغة عربية نقية ، وفي أسلوب مطبوع متدفق بالحياة إذا قرأه الإنسان ملكه الاعجاب.

هذه القطع التي طويت في اثناء كتب علمية او ادبية فجهلها الأدباء وزهد فيها تلاميذ الأدب هي من بقايا الأدب العربي الأصيل ، هي رياض خضراء في صحراء العربية القاحلة ، التي تمتد من عصر ابن العميد الى عصر القاضي الفاضل الى ان جاء ابن خلدون.

«كتب هؤلاء غير معتقدين أنهم يكتبون للأدب ولا زاعمين أنهم في مكانة عالية من الإنشاء ناسين ان هذا هو الذي يسعد العربية ويشرفها أكثر مما تشرفها كتابات الأدباء ورسائلهم وموضوعاتهم الأدبية (فانهم) لو قصدوا الأدب وتكلفوا الإنشاء لفسدت كتاباتهم وفقدت ذلك الرونق وتلك العذوبة التي تمتاز بها كتاباتهم، فقد التصقت بالأدب شروط وصفات وتقاليد هي المفسدة له الطامسة لنوره، فلا بد فيه من السجع والصناعة، ولا بد من البديع والمحسنات اللفظية، ولا بد من تقليد الطبقة الأولى «أما الكتابات العلمية والتاريخية والدينية فليست لها هذه الالتزامات وهذه الشروط المناسبة فتأتي أبلغ وأجمل.

والكاتب إذا تناول موضوعاً أدبياً وتكلف الانشاء تدنى وسفّ ولم يأت بجديد، وإذا استرسل في الكلام وكتب في موضوع علمي او ديني أحسن وأجاد.

«هكذا نرى الزمخشري متكلفاً مقلداً في أطواق الذهب وكاتباً موفقاً بليغاً في مقدمة المفصل وفي مواضع من تفسيره الكشاف، وابن الجوزي غير موفق في كتاب «المدهش» وكاتباً مرسلاً بليغاً في كتاب (صيد الخاطر). ليس السر في فضل هذه الكتابات وتأثيرها وقوتها وجمالها هو التحرر من السجع والبديع فحسب، بل السبب الأكبر ان هذه الكتابات قد كتبت عن عقيدة وعاطفة، وعن فكرة اقتناع وعن حماسة وعزم.

«اما الكتابات الأدبية فقد كان غالبها يكتب بالاقتراح من ملك او وزير او صديق، او لإرضاء شهوة الأدب او تحقيق رغبة المجتمع، او حبّاً في الظهور والتفوّق، وهذه كلها دوافع سطحية لا تمنح الكتابة القوة والروح ولا تسبغ عليها لباس البقاء والخلود. ولا تعطيها التأثير في النفوس والقلوب.

«كان هؤلاء الكتاب المؤمنون الذين ملكتهم فكرة او عقيدة، او يكتبون لأنفسهم يكتبون إجابة لنداء ضميرهم وعقيدتهم، مندفعين فتتدفق مواهبهم وتفيض خواطرهم وتحترق قلوبهم فتنثال عليهم المعاني وتطاوعهم الألفاظ وتؤثر

وقد أورد العلامة كنون في دراسته عدداً من الأعلام من أمثال : مالك بن أنيس والشافعي وعبد الله بن المبارك ومحمد بن داود الظاهري وابن حزم وابو الوليد الباجي وابو بكر العربي والقاضي عياض وابن دريد والزمخشري والشريف الأدريسي وابو حيان الغرناطي وقال الباحث : إن في عمله هذا رد اعتبار مجموعة من الأعلام البلغاء الذين أنكرهم رجال الأدب.

ويقتضينا هذا ان نسجّل نقص منهج دراسة الأدب العربي في تضبيقه وقصره على أصحاب الصناعة والتكلف، وهو انحراف مقصود، وتحريف يستهدف إخراج اعظم ذخائر الأدب العربي منه وقصره على تلك الزخارف القائمة على السجع والجناس وإغراق الدارسين فيها والدوران حولها.

ولا شك ان هذا الانحراف والتحريف كان محنة حقيقية للأدب العربي في منهج النقد الغربي الوافد، وقد صور ذلك الدكتور حسين مؤنس حين قال :

« المحنة هي : تسلط أصحاب الصناعة والتكلف على هذا الأدب الذي يتخذونه حرفة وصناعة ويحتكرونه احتكاراً، ويتنافسون في تنميقه وتحبيره ليثبتوا به براعتهم وتفوّقهم ويصلوا به الى أغراضهم، ويشتد ذلك ويستفحل حتي يصبح الأدب مقصوراً عليهم مختصّاً بهم، ويأتي على الناس زمان لا يفهم من كلمة « أدب » إلّا ما أثر عن هذه الطبقة من كلام مصنوع وأدب تقليدي لا قوة فيه ولا روح، لا جدّة فيه ولا طرافة، ولا متعة فيه ولا لذة.

« ويطغى هذا الأدب الصناعي التقليدي على كل ما يؤثر عن هذه الأمة، وتحتوي عليه مكتبتها الغنية الزاخرة من أدب طبيعي وكلام مرسل وتعبير بليغ يحرك النفوس ويثير الاعجاب، ويوسع آفاق الفكر ويبعث في النفس الثقة.

ولا عيب فيه إلّا أنه صدر عن رجال لم ينقطعوا الى الأدب والانشاء ولم يتّخذوه حرفةً ومكسباً، ولم يشتهروا بالصناعة الأدبية، ولم يشأ الأدب الصناعي ان يفتح له في مجلسه ولم يتنبه إليه مؤرخو الأدب لضيق تفكيرهم وقصور نظرهم، فينوّهوا به ويعطوه مكانه اللائق.

(وقد) دوّن هذا الأدب في كُتُب الحديث والسيرة قبل ان يدون الأدب الصناعي في كتب الرسائل والمقامات. ولكنه لم يحظ من دراسة الأدباء والباحثين وعنايتهم ما حظي به الأدب الصناعي مع أنه هو الأدب الذي تجلّت فيه عبقرية اللغة العربية وأسرارها، وبراعة أهل الفضل ولباقتهم، وهي مدرسة الأدب الأصيلة الأولى. ونأخذ كتب الحديث والسيرة كمثال لهذا الأدب الطبيعي فنقول إنها اشتملت على معجزات بيانية وقطع أدبية ساحرة، ويلي كتب الحديث كتب السيرة. فقد حفظت لنا جزءاً كبيراً من كلام العرب الأقحاح، ومثلت تلك اللغة البليغة التي كانت في عصور العربية الأولى، وهذّبها الإسلام ورفعها واشتملت على قطع أدبية لا يوجد لها حصر.

ويقول: ثم جاء دور المتكلفين المقلّدين للعجم ونبغ في العواصم العربية أمثال اسحق الصابي وأبي الفضل بن العميد والصاحب بن عباد وابي بكر الخوارزمي وبديع الزمان وأبي العلاء فاخترعوا أسلوباً للكتابة. هو بالصناعة اليدوية والوشي والتطريز أشبه منه بالبيان العربي السلسال وكلام العرب الأوّلين المرسل الجاري مع الطبع. وغلب عليهم السجع والبديع. غلوا أذهب بهاء اللغة ورواءها، وقيد الأدب بسلاسل وأغلال أفقدته حريته وانطلاقه وخفة روحه وجماله.

وجاء الحريري.

وهكذا بقي أسلوب وحيد يتحكم في العالم الإسلامي، ويسيطر، وأصبح ما خلفه هؤلاء الكتاب المصنّفون من تراث أدبي هو المعني بالأدب العربي، وجاء المؤرخون للأدب واعتبروهم أئمة البلاغة وأمراء البيان واصحاب الأساليب، وأصبحت كتب الأدب والتاريخ نسخة واحدة. وأصبحت الكتابة صورة واحدة من القرن التاسع الى القرن الثالث عشر. وتناسى هؤلاء ذخائر الأدب العربي الثمينة، ولم يفكر أحد في أن يبحث في كتب التاريخ والأدب والتراجم والسير، وفي مؤلفات العلماء عن قطع أدبية رائعة تفوق في قوتها وحيويتها وسلاستها وسلامتها، وفي بلاغتها وجمال لغتها على دواوين أدبية ومجاميع ورسائل.

وبقيت طائفة من العلماء حتى في عصور الانحطاط الأدبي غير خاضعين لأسلوب تقليدي في عصرهم متحررين من السجع والبديع والمحسنات اللفظية.

وقد أورد الدكتور مؤنس بعض الأسماء وأشار الى كتاباتهم وقال أنها كتابات قد كتبت عن عقيدة وعاطفة، وعن فكرة واقتناع، وعن حماسة وعزم».

* * * *

ويعنينا الآن من استعراض هذه الظاهرة الخطيرة ان نعاود تصحيص موقف لأدب العربي ليلتقي مع ذاتيته وقيمه المستمدّة من مزاجه النفسي، فنعيد صياغة تاريخ الأدب العربي على النحو الذي يحرر أدبنا من هذه المناهج الأدبية الدخيلة التي قصرت على الأدباء والشعراء الذين اتخذوه صناعة، والذين سقطوا عبيدا للتحريفات الدخيلة التي دخلت إليه من آداب قديمة ومذاهب تختلف عن طبيعته، مثل سيطرة السجع والزخرف وسيطرة المقامات وسيطرة شعر الإباحة والخمر والغلمانيات والغزل الفاحش، هذه الانحرافات التي كشفت عن الأدب العربي في مفهوم مؤرخي الأدب في حدوذ النماذج التي اختاروها للأدباء الذين عنوا بدراستهم. كل هذا قد أخرج الأدب عن مضمونه وقيمه، وقصره على الأسلوب وحده وأنه ضيّق دائرته واستبعد تراثاً ضخماً من الأدب الأصيل الرصين الذي تحتاج الأمة العربية إليه كوسيلة من وسائل البعث والتجديد.

* * * *

# الفصل الثالث

## كتب المحاضرات
## وهل تصلح مراجع علمية

حاول دعاة مذهب النقد الغربي الوافد اتخاذ بعض كتب المحاضرات وكتب التسلية كمراجع معتمدة في تصوير الحياة الاجتماعية للمجتمع الإسلامي في فترة من الفترات ، واتخاذها وحدها مصدراً للتاريخ والسياسة والاجتماع ، وقد كانت كتب الأغاني وألف ليلة ومحاضرات الأدباء والعقد الفريد وروضة العشاق في مقدّمة هذه الكتب التي أعلي الدكتور طه حسين وبعض التابعين له في هذا المنهج من شأنها واتخاذها مصدراً في دراسة الأدب واستخلاص نتائج من خلالها تحاول ان تفرض نفسها على الفكر الإسلامي كله ، وكان من أقصى هذه النتائج ما حاول الدكتور طه أن يعلنه في كتابه حديث الأربعاء من أن القرن الثاني الهجري كان عصر شك ومجون .

وقال محمد بن اسحق : إن أوّل من صنف الخرافات وجعل لها كتباً وأودعها الخزائن جعل بعض ذلك على ألسنة الحيوان : الفرس الأول ، ثم أغرق في ذلك ملوك الاشفانية ، ثم زاد على ذلك واتسع في أيام ملوك الساسانية . ونقله العرب الى اللغة العربية فكان أول كتاب عمل في هذا المعنى كتاب ( هزاز إفسانة ) ومعناها ألف

خرافة (وهو ما يسمى ألف ليلة وليلة) وقد وردت الى المسلمين من الفرس كتب المشعوذين والسحرة وأصحاب الحيل والطلسمات . وأورد ابن النديم اسماء كتب الفرس والهند في الخرافات والاسمار وكتب الروم وكتب ملوك بابل.

والواقع ان كتب المحاضرات لم تكن في أي عصر من عصور الأدب العربي او الفكر الإسلامي معدودة بين المراجع العلمية او المصادر الأساسية للبحث ، فقد كتبت هذه الكتب في ظروف الضعف والتدهور ، وحاول أصحابها فيها جمع أخبار الندماء والجلساء والمغنين والمضحكين.

وقد عرض ابن النديم صاحب كتاب «الفهرست» لهذا اللون من الكتب ولأنواع أخرى مما ألف في ظروف اضطراب المجتمع الإسلامي ، ومما لم يكن معدوداً في نظر العالمين من المباحث الموثوق بها او ذات الأهمية في البحث العلمي.

ولم يكبر من شأن هذه الكتب ولم يولها ذلك الاهتمام غير المستشرقين ومن تابعهم على غرض واضح هو تشويه الفكر الإسلامي والأدب العربي.

ولقد أولى المستشرقون ومن تابعهم من دعاة منهج النقد الغربي الوافد في الأدب ، وفي مجالات البحوث التاريخية والاجتماعية والسياسية ، اهتمامهم بكتب المحاضرات التي جمعت ما كان يرويه الرواة في بعض المجالس من قصص وخرافات وأخبار الصوفية والفلاسفة والمجانين والشذاذ والمنجمين وأصحاب الحيل ، وقد ألفت في الأسمار والخرافات والعزائم والسحر والشعوذة كتب كثيرة ، وهي مؤلفات نبش عنها المستشرقون وحاولوا التقاط اشياء منها لتشويه تاريخ اعلام المسلمين او إفسادمنهج التاريخ ، او إشاعة دعوى الانحلال والتهديم في المجتمع الإسلامي.

وقد شاعت في هذا المجال اسماء : اسحق بن ابراهيم الموصلي وابن خرداذبة والمرزوي وابن المرزبان وابي بكر الصولي وابي الفرج الأصفهاني.

وان المراجع لتاريخ هذه الأسماء ليجد شيئاً قليلاً مما يوصف به الرجل الكريم بينما يجد الكثير مما يوصف به الماكرون والفاسدون ، وممن لا يجوز في الأدب العربي اتخاذهم مصادر ثقة. فقد كان الفكر الإسلامي هو اول من نظم نظرية الجرح

والتعديل ووضع قواعد لتقبّل آراء المتصدّرين للعلم والبحث تقوم أساساً على سلامة شخصياتهم من ناحية الصدق والحق والاستقامة الخلقية، ونحن إذا راجعنا هذه القاعدة على هؤلاء وجدناهم من الساقطين الذين لا يجوز اعتمادهم في ان يكونوا مراجع للأدب او الفكر. فقد كانت حياتهم حافلة بالفساد والانحلال، وكانت وجهتهم معادية تماماً للعرب والإسلام مدخولة بأهواء الباطنية والمجوسية وخصوم الدولة الاسلامية، مما يمكن معه ان يوصفوا بأنهم شعوبيين زنادقة، وهؤلاء هم الذين عُنِيَ بهم بعض المستشرقين والمبشرين وحفلوا بتراثهم وأذاعوه، وحرضوا تلاميذهم من دعاة مذهب النقد الغربي الوافد على الاهتمام بهم واستخراج تراجمهم وآرائهم من هذه الكتب المدحوضة في مجال العلم والمراجع الصحيحة، ونشرها على نحو فني يثير الإغراء، ويحبب هذه الشخصيات للناس، فتسقط الخصومة معهم، ثم تصبح آراؤهم مما يجري على الألسنة والأقلام، وبذلك ينهار هذا القيد العلمي الهام الخطير.

١ — الأغاني وصاحب الأغاني:

وقد وصف المؤرخون صاحب الاغاني وصفاً فردياً، من ناحية خلقه وعقائده على نحو لا يجعل كتاباته ذات محل في نظر العلم الصحيح والبحث المجرد لوجه الحق.

ووصفه ابن الجوزي وعدد من المؤرخين وكتاب التراجم كصاحب معجم الأدباء[١] بأنه كان (من القذارة بمكان، فهو وسخ وقذر، دَنِس في نفسه وفي ثيابه، وكان بذيء اللسان لا يتورع عن دنس، ولا يتعفّف عن مكروه، وان هذه الصفات لازَمَتْهُ منذ الصغر، بل هي أثر من آثار أستاذيه القذرين: احمد بن جعفر جحظة، وابراهيم بن محمد عرفة) وأنه في رأي بعض النقاد كان غريب الأطوار والعادات فيما يقصّ صديقه التنوخي الذي يقول:

«إذا ثَقُلَ الطعام في معدته وكان أكولاً نهماً يتناول خمسة دراهم فلفلاً مدقوقاً

---

(١) م ١٣ ص ١٠٧/١٠٨.

فلا تؤذيه ولا تدمعه ، وأراه يأكل حمصة واحدة ، او يصطغ بمرقة قدر فيها حمص فيسرهج بدنه كله من ذلك ، وبعد ساعة او ساعتين يفصد وربما فصد لذلك دفعتين ، وأسألُهُ عن سبب ذلك فلا يكون عنده علم منه.

ويقول الدكتور خلف الله صاحب كتاب ابي الفرج الأصفهاني : انه لم يكن بالمتديّن ، ظاهر فيه العفاف وباطن فيه الفسق والفجور ، وكان يعيش في أجواء فاجرة داعرة تدفعنا الى التسليم بأن أبا الفرج كان من الذين يتخلعون ويتهتكون ، من الذين يشربون الخمر ويأتون الذكران من العالمين ، ا. هـ.

وابو الفرج باجماع المؤرخين حديد سريع الغضب بذيء اللسان ، يغضب لأتفه الأشياء ، ويضيق من أيسر الأمور ، ويطلق لسانه فيمن يستثير منه الغضب حتى ولو كان من أوفى الأوفياء وأخلص الأصدقاء ، يهجو صديقه القاضي الايدجي لأنه طلب منه عكازه فمنعها عنه ، يهجوه أقبح الهجاء ، ويرميه بأنذل الصفات.

وقد عُرِفَ الأصفهاني ببذاءة اللسان حتى خاف منه الناس وتحاشاه معارفه وكانوا يخشون لسانه ، ولعل حدة طبعه وبذاءة لسانه هي السبب فيما يذهب إليه النقاد من ان ابا الفرج كان مجيداً في فن الهجاء.

بل لقد ذهب المؤرخون الى أبعد من ذلك من وقائع حياة ابي الفرج ، فقد كان غلمانياً مسرفاً ، وكان يشهد مجتمعات النصارى في الأديرة.

ومن هنا يبدو الربط الواضح بين هذا الاتجاه وبين ما كان يرويه ، وقد أشار الى ذلك ابن الجوزي في ترجمته لأبي الفرج «وكان يتشيع» ، ونقله لا يوثق برواياته ، فان يصرح في كتبه بما يوجب عليه الفسق ويهون شرب الخمر ، وربما حكى ذلك عن نفسه ، وبذلك نجد عدم الثقة برواياته واضحاً ، ويرى مؤرخ ابي الفرج الأصفهاني[1] : ان كل هؤلاء المغنين والشعراء الذين ترجم لهم في كتاب الأغاني ، وصور لنا هذه الألوان من حياتهم لم يكونوا من اللاهين العابثين ، وإنما ابو الفرج هو

---

(١) الدكتور محمد احمد خلف الله.

الذي تتبع هذه الجوانب من حياتهم وحرص عليها لا لأنه يبشر بالعبث ويدعو الى الفجور، وإنما لما ذكره في مقدمة الأغاني ليكون «أشهى».

ان أبا الفرج قصد الى الهزل بشهادة مؤرخيه لعوامل نفسية وقتية، وأنه لم يقصد إليه لأنه الحقيقة التاريخية، فقد قصد الى الرواية ولم يقصد الى التاريخ، واختار من المرويات ما جعل الخبر ألذّ وأمتع، والقصة أشهر وأحلى ليكون السمر اللذيذ، وأشار الى أنه يجب أن تتحسس الأهواء الشخصية عند قراءة مرويات أبي الفرج، كما تتحسس الأهواء العربية والسياسية.

وقال ابن الأثير في تاريخه لم أجد في كتاب أغانيه إلا هزلاً او ضلالاً، او لقصص أصحاب الملاهي انشغالاً، وعن علوم أهل بيت الرسالة اعتزالاً، وهو فيما ينبغي على ثمانية آلاف بيت تقريباً مضافاً الى كون الرجل من الشجرة الملعونة في القرآن، وبالجملة فقد أجمع مؤرخوه على أنه مستهتر غير متحفّظ، تدفعه العاطفة العنيفة، يباهي بالاستهتار وشرب الخمر وحب الغلمان.

وقد شهد الكثيرون بكذب ابي الفرج وتحريفه فقال النوبختي مؤرخه: إنه أكذب الناس لأنه كان يدخل اسواق الورّاقين والدكاكين وهي مملوءة فيشتري شيئاً كثيراً من الصحف ويحمله الى بيته ثم تكون رواياته كلها منه.

وقد أوفى الدكتور زكي مبارك على الغاية في تصوير الأصفهاني وكتابه الأغاني[1]، فقد أشار الى خلقه الشخصي، وأنه كان مسرفاً أشنع الإسراف في اللذات والشهوات، وأنه كان متشيّعاً ومثله لا يوثق بروايته، فإنه يصرح في كتبه بما يوجب عليه الفسق، ويهوى شرب الخمر، وربما حكى ذلك عن نفسه ومن رأى كتاب الأغاني رأى كل قبيح ومنكر (هذا ما رواه ابن الجوزي) اما ابن شاكر في كتابه (عيون التواريخ) فقال: الشيخ شمس الدين الذهبي قال رأيت شيخنا تقي الدين بن تيمية يضعفه ويتهمه في نقله ويستهول ما يأتي به.

---

(١) كتاب النثر الفني في القرن الرابع الهجري.

وقال زكي مبارك بعد ان اورد ما أورده عنه انه ينكر على المؤرخين استنادهم الى الأغاني ، ويرى أنه ليس لروايات الأغاني قيمة تاريخية ، ذلك لأن الأصفهاني لم ينتَقِ أوثق الأخبار من مظانها ، ولم ينقلها عن أهل الخبرة.

وأشار زكي مبارك الى خطأ كل من جورجي زيدان وطه حسين في اعتمادهما على (الأغاني) في ابحاثهما عن الحياة العربية في عصر الدولة العباسية ، كما أشار الى استناد (لامانس) الى كتاب الأغاني في تاريخ بني أمية ، وكذلك ما أورده المستشرق فلهوزن في كتابه (الدولة العربية وسقوطها) بل ان بعض الذين نقدوا زكي مبارك من دعاة التغريب لما اعتبروه جرأة على مصادرهم أمثال (صاحب الأغاني) قرروا فيه ما قرّرنا ، يقول جبرائيل جبور رئيس الدائرة الغربية في جامعة بيروت الأمريكية «أريد أن أذهب الى أبعد من هذا فأزعم ان في الأغاني كثيراً من الأخبار الملفّقة التي ربما تكون قد جازت على أبي الفرج فأوردها».

ويحاول جبور عبد النور أن يدافع عن الأصفهاني فيتساءل : أَمِنَ الضروري ان كان المؤرخ فاسقاً او مسرفاً تتبّع الإسراف في اللذات والشهوات ، ان لا يكون مؤرخاً وألّا يكون صادقاً فيما يروي أو يقول أو يكتب.

ونحن نقول له : نعم ، في فكرنا العربي الإسلامي فان لم يكن في الفكر الغربي كذلك فلا حاجة لنا به ، ان فكرنا وضع قواعد البحث والنقد والعلم على أساس الارتباط الجذري بين علم الباحث وشخصيته ، فإن كان منحرفاً في حياته مضطرباً في شخصيته ، بعيداً عن الأخلاق والدين فنحن نرفضه مصدراً علمياً ولا نقبل له شهادة. والأصفهاني بشهادة الجميع من أنصاره وخصومه على السواء مهدور الرأي ، ساقط الشهادة ، وان فسقه الشخصي قد أدخل كثيراً من هواه على ما أورده ، فضلاً عن انحرافه الفكري والعقائدي والاجتماعي مما يفسد آراءه إفساداً بالإضافة الى ان كتاب الأغاني أساساً ليس مرجعاً علمياً ، ولكنه من كتب التسلية والسمر التي كتبت لترجية فراغ بعض المترفين. ومن هنا فإنه لا يصلح أساساً كمصدر للعلم او مرجعاً للبحث في الأدب والتاريخ.

* * * *

هذا عن صاحب الأغاني ، وقد وُصِفَ بقذارة الملابس : السهروردي والحلاج وابو نواس.

كما وصف المؤرخون الحريري بأنه كان مثالاً من دناءة النفس وخساسة الحرفة ، وان الهمذاني والحريري كانا يضعان دستوراً لحياة الصعلكة والتشرّد والاحتيال ، هذه هي النماذج التي أولاها الاهتمام الدكتور طه حسين ودعاة مذهب النقد الغربي الوافد ، وهي نماذج ليست أصيلة في الأدب العربي والفكر الإسلامي ، تلك النماذج التي كوّنها هذا الفكر إيماناً وخلقاً وإخلاصاً للحق والعدل.

ولقد اهتم دعاة مذهب النقد الغربي الوافد بهذه المراجع ، ليس فقط في تقديمها من جديد في إطار برّاق وإغراء الباحثين بها ، وتسويغها للقراء على المستوى الشعبي ، بل لقد ذهبوا الى أبعد من ذلك ، فدافعوا عنها وهاجموا كل من حاول انتقاصها ، كما فعل مدير دائرة الأدب في جامعة بيروت الأمريكية في مهاجمة زكي مبارك من أجل (الأغاني وابي الفرج الأصفهاني).

وقد فعل الدكتور طه حسين ما هو أشد من ذلك وأعنف ، بأستاذه الذي تلقى عليه العلم في الجامعة الأستاذ محمد الخضري عندما نقّح كتاب الأغاني وأصدره في طبعة جديدة خالية من الكلام المقذع والعبارات البذيئة ، وذلك للانتفاع بما فيه من موارد بعيداً عن هذا الفحش الذي اهتمّ به الأصفهاني.

فقد هاجم تنقيح الاستاذ الخضري للأغاني في اسلوبه الساخر العجيب ، ودعا الى ترك الكتب القديمة كما هي بما فيها من مخالفة للذوق الحديث ، وبما فيها من أشياء تنكرها آدابنا العامة يقول : رأى الاستاذ الخضري ان هذا الكتاب مضطرب في ترتيبه مخالف لنظامنا العقلي فنسخه ليلائم عقلنا الجديد ، فقال : إنهم يجدون في كتب القدماء ألواناً من الضعف والنقص والاختلاط وسوء الترتيب فيخيل إليهم أنهم يحسنون الى هؤلاء القدماء بإصلاح ما في كتبهم من عبث ، ويقول : لك ان تتحرج من رواية الفحش أو لا تتحرج ، ولكن في كتاب تضعه أنت لا في كتاب يضعه غيرك ، ويقول : إن الطغيان على ابي الفرج ان تحذف من كتابه شيئاً وضعه هو في

كتابه ، ان القوانين العامة لم تكلفك ولم تكلف غيرك من العلماء تطهير كتاب الأغاني او غير كتاب الأغاني .

وهكذا يعترف طه حسين بخطر ما في هذا الكتاب من فحش ، ولكنه يدافع عنه ويصر على بقائه غير حاسب اي حساب لقرّائه الشباب او الفتيات ، ذلك ان مذهب طه حسين هو اشاعة هذا اللون من الأدب واغراق الناس فيه محتجّاً بالمحافظة على النصوص القديمة ودون أن يطلع القارىء على خلفياتها او فساد خلق كاتبها .

وقد دافع الاستاذ الخضري دفاعاً مجيداً عن عمله وموقفه فقال :

إن ما أنقصته من كتاب الأغاني لم يعد احد اثنين :

اما فحش صدر عن الأغاني وجده كثير من أهل الأدب فكانوا يحذفونه من كتبهم ، واني معهم في ذلك . وكثيراً ما رأيت ابن هشام راوي سيرة رسول الله ﷺ ، عن ابن اسحق إذا روى شعراً يقول :

تركنا هنا بيتاً او بيتين او اكثر لقذع فيهما ، فليس الامتعاض من الفحش والاقذاع مقصوراً على أهل جيلنا بل كان لنا فيه سلف صالح نريد ان نستن بسنتهم ، وأما أشياء قلت عنها لا تفيد ادباً ولا ترقّي فكراً .

وبعد فأنا رجل خبرت الناس وعرفت ما يفيد فاستضأت بهذه الخبرة وحذفت ما حذفت » ا . هـ .

وليس كتاب (الاغاني) وحده الذي يمثل هذا الخطر بل هناك :[١]

(١) يتيمة الدهر للثعالبي وثمار القلوب وغيرهما .

وهذه الكتب لها مهمّة واحدة معروفة هي «ازجاء الفراغ» والترف الذهني ، ولكن لا يمكن بحال ان يقال إنها مراجع جادة تصلح لتكون مصدراً للعلم في مجال النقد او تاريخ الأدب او البحث العلمي الجاد ، وقد أشار الى هذا المعنى كثير من

الباحثين عجباً من ان تكون كتب التسلية والفكاهة والإضحاك ميزاناً يوزن به رجال التاريخ وتؤخذ منه تراجم العظماء ، وقد أشار الى هذا المعنى العلامة رفيق العظم وخاصة إذا كان هذا الاتجاه تكأة لاتهام الحضارة الإسلامية بالتحلّل او علامة على تجرد العرب من الحضارة.

* * * *

بعد هناك وسط او اعتدال او حرص على ضوابط معينة ، فمن الرهبانية المسرفة في كراهية الجنس واحتقاره والتنفير منه الى الإباحة المطلقة في الاندفاع نحو الجنس بغير ضوابط او حدود.

اما في مجتمعنا الإسلامي حيث اعترف بالجنس وفتحت النوافذ والأبواب نحوه وفق خطط صريحة وضوابط واضحة فإن هذه الأزمة لم تكن لتحدث أصلاً ، ومن ثم فإن الأدب العربي وهو صدى لحركة النفس الإنسانية من خلال المجتمع ، لم يكن ليواجه أدباً جنسياً صادراً من أعماقه ، ومن هنا فقد كان نقل هذا الأدب وترجمته ومحاولة الدعوة إليه ، وتبريره وفق فلسفة لا يؤمن بها الفكر الإسلامي ولا يتفق مع الطوابع الإسلامية. كان هذا عملاً تغريبياً خالصاً ، وكان منافياً للبيئة والفكر والقيم التي عرفها الأدب العربي جميعاً.

واذا حاول دعاة مذهب النقد الغربي الوافد البحث عن شيء من ذلك في الأدب العربي القديم فإنما هم الشواذ المنحرفون صرعى الحضارة وذوو المفاهيم الوثنية والمجوسية المتآمرون من دعاة الفارسية القديمة والباطنية ، وحاملو لواء الحقد والخصومة للإسلام ومجتمعه وفكره والعاملون على هدمه ، وهم في العصر الحديث كذلك لا يختلفون شعوبيةً وتحلّلاً واستناداً الى المصادر والقوى الأجنبية ، أما الأدب العربي في قيمه الأساسية وجوهره الأصيل فهو يواجه هذا الجانب من جوانب النفس الانسانية على نحو غاية في التسامي والحياء والعفة[1].

لقد اعتمد الأدب الغربي الأوربي في خلق الأدب المكشوف على عناصر طبيعية وأساسية في جوهر المجتمع الأوربي ، ومن خلال تحدّيات خاصة جاءته عن طريق ما فرضته المفاهيم الدينية الغربية من رهبانية ابتدعوها ساقت أمامها فلسفة تدعو الى اعتزال الحياة والمرأة ، ومعارضة الطبيعة الانسانية في أقوى جوانبها خطراً ، بينما لم يجد المجتمع الإسلامي ومن ثم الأدب العربي مثل هذه «الأزمة» او مثل هذا التحدّي.

ولقد أصاب هذا التيار في الأدب الغربي مزيداً من الانحراف بتغلّب عوامل

---

(١) راجع الباب الأول من هذا الكتاب.

ليست خفيّة عليه ، وأبلغها أثراً في اشتداد خطر انحداره : مذهب فرويد في التحليل النفسي الذي استطاعت قوى كبرى عاتية ان تذيعه وتفرضه بالرغم مما فيه من أخطاء اعترف بها زملاء فرويد ، وكانوا هم أكثر قرباً الى الطبيعة البشرية والواقع ، ومع ذلك فقد خفتت أصواتهم وضاعت ، بينما استعلى مذهب فرويد بانحرافة الطبيعي عن واقع الحياة واستمداد أصوله ومفاهيمه من التجارب التي أجراها فرويد على الشواذ وليس على الأسوياء في المجتمع الأوربي ، ومن خلال نفسيته المريضة ، وفي ضوء وضعه الاجتماعي كيهودي مضطهد في مجتمع يكن له ولعنصره كثيراً من الاحتقار ، فيصدر في فكره عن ذلك التعصب والتحدّي ، فضلاً عما عرف وأيدته كثير من الوثائق باتصال فرويد بالحركة الصهيونية الحاقدة على الإنسانية كلها ، والتي وضعت بروتوكولات صهيونية لتكون نبراساً لتدمير هذا المجتمع على أساس التمهيد لسيطرة اليهودية العالمية الكاملة على العالم.

هذه الحركة التي بدأها هرتزل صديق فرويد بدعوته السياسية وآزره فرويد بالدعوة الى تدمير الشخصية الإنسانية من خلال علم خالص لا شائبة فيه هو علم النفس الذي خدع العلماء اكثر من سبعين سنة حتى جاءت الصهيونية في السنوات الأخيرة فكشفت الرابطة بين مبادىء فرويد ومبادىء التلمود[1] .

ومن خلال نظرية فرويد ظهرت تلك الاتجاهات الإباحية المسرفة التي تضمنها أزهار الشر لبودلير ومدام بوفاري لفلوبير والغلامة لمرجريت وعشيق الليدي تشارلي لورنس ، ومن هنا قوي ولا أقول بدأ لأنه كان بادئاً منذ وقت بعيد — ذلك التيار الذي يدعو الى حريّة الفن المطلقة والى تغليب جانب الشر في الغزل والخمريات والعري ، كما عرف عن الروائي لورنس ، وتغليب جانب القبح ، كما عرف عن الشاعر بودلير الذي جعل من رمة حيوان موضوع مقطوعة شعرية وجّهها الى حبيبته يذكرها فيه « بذلك الصباح الجميل حين رأيا تلك الجثة يتهافت عليها الذباب وقد انتشر فيها

(١) اقرأ في هذا المعنى بتوسع كتاب الدكتور صبري جرجس (التراث اليهودي في الفكر الفرويدي).

عالم من الدود الذي عاش بموتها وبالكلب الذي هبر من ذلك الجثة هبرة ، ويذكر لحبيبته في أسف ان جمالها الفاتن سيصير يوماً مرتعاً للدود».

هذا اللون من الشعر الغربي الإباحي لا يسيغه الذوق العربي ولا تقبله النفس العربية حين يترجمه لها الدكتور طه حسين ، فهو لا يتفق مع طبيعتها ولا مزاجها النفسي. وليس هو في الأدب العربي من مفهوم الفن الجميل ، وذلك ذوق غير ذوقنا ، وفن غير فنّنا ، وهو لا يستطيع مهما ترجم منه ألوف المقاطع أن يخلق تياراً ترضاه النفس العربية او تقبل عليه لأنه يتعارض مع جوهرها تعارضاً واضحاً ، ولقد كان كتاب الجنس الغربيون هؤلاء مسرفين في الانحلال ، يتعاطون الأفيون والحشيش ويعيشون حياة شاذة غريبة الأطوار ، وان دعاة هذا المذهب من الفلاسفة والكتّاب واصحاب القصة إنما نشأوا جميعاً نشأة غير طبيعية ، وواجهوا في مطالع حياتهم تحديات اجتماعية خطيرة في بيئتهم وبين ذويهم.

ويصف الدكتور طه حسين شعر بودلير في هذه العبارات التي تكشف عن طبيعة شاذة غريبة حين يقول «وهو في ذلك حر جريء مجازف يتخيّر أبشع الصور وأقبحها وأشدها تأثيراً في النفس من هذه النواحي البشعة القبيحة ، وهو مادي التصوّر ، ولحسّه المادي أثر قوي في شعره ولا سيما حس اللمس والشم والبصر ، فهو يعرض عليك هذه الصور البشعة التي يحسّها الشم واللمس والبصر في الأجسام المتهالكة المتحلّلة ، وهو شعر بشع مخيف تضطرب له النفس وتشمئز في كثير من الأحيان. ونحن نقول للدكتور طه حسين : إذا كان شعره الى هذا الحد من البشاعة فلماذا غرقت فيه وآثرته بالترجمة واهتممت بنقله الى الأدب العربي ، وانت في نشوة الاعجاب؟ وقد سجل طه حسين أن بودلير نشأ نشأة لم تخلُ من القهر والعنف والضيق ، وكان يكره ذلك الرجل الذي خلف أباه (يعني في البيت زوجاً لأمه) ويتبرم بما له من سلطان ، وكان ذلك كافياً لأن ينشأ صبياً مبغضاً للمحافظة ميّالاً الى التطرّف ، وما ان بلغ رشده واستطاع الاستمتاع بحياته حتى اعتزل اسرته واندفع في حياة تخالف كل المخالفة ما كان يطمع فيه وليّا من المحافظة والاعتدال ، وكان

صاحبنا يصطنع الأفيون والحشيش في جماعة من أصدقائه الفنّيّن ، فلا يزيده ذلك إلّا شذوذاً وغرابة في الأطوار».

وشأن لورنس شبيه بذلك بل وأشدّ غرابة ، ويصوره لويس عوض فيقول : عرف لورنس بالالتهاب الرئوي الذي خرب صحته تخريباً ، وموت أمه كان كارثة غير طبيعية بالنسبة له فقد فكر في الانتحار ، ولم يجدوه لائقاً للخدمة العسكرية في الحرب ، وعرف عن لورنس أنه كان منحلاً ، قذر التفكير، لا يصور إلا الإحساسات الجنسية الوضيعة منها والشاذة.

كان لورنس مريضاً بمركب أوديب ، ومركب أوديب هو الذي خرب نفسه وجسمه ، وهو الذي شلّ كثيراً من قواه الحيوية ، وهو الذي ألهبه بالسياط وعذّبه عذاباً أليماً ، وأشار الى «اندماج الابن في الأم عاطفياً» مما جعل «من المستحيل عليه بعد المراهقة ان ينصرف بعواطفه الى غيرها من الإناث» . وقد «ترك ذلك في نفسه عقدة نفسية» استحال معها ان ينصرف الى حب امرأة أخرى غير امه.

ويقول لويس عوض: ان أدب لورنس أدب مريض ، وان أمه هي التي حطّمت حياته هذا التحطيم ، وقد أعلن لورنس ان أمه هي التي هدمت سعادته ، فكرهها من أعماق قلبه ولعنها في أشعاره فقال : «من أجلك لعنت الأمومة».

هذا هو ما وصفه لورنس في قصته (عشيق الليدي تشارلي) او رواية الأبناء والعشاق وسائر قصصه التي ترجمت الى اللغة العربية والأدب العربي ، فهل هي تمثل حقاً اي شعور مشترك ، أو اي طابع مشترك؟ ان مثل هذه الصور تبدو غريبة في المجتمع العربي الإسلامي ، ومن ثم تبدو شاذة وممقوتة في الأدب العربي الذي لا يستطيع ان يصدر عنها ، لأن البيئة العربية لا تحس بها ولا تقبلها.

ولقد كان أدب لورنس وبودلير وغيرهما ثمرة من ثمار المجتمع الأوربي المنحل ، وأعاد عليها مذهب فرويد في التحليل النفسي الذي أعلى من شأن الجنس ودفعته القوى التي تدفع بعض المذاهب وتفرضها — الى ان يسيطر سيطرة شبه كاملة على الأدب والقصة والفن جميعاً.

وأن يجري ذلك وفق منهج فلسفي يعتمد على الزيف واقرار التحلل ونبذ الأخلاق.

وقد جاء طه حسين ومدرسة النقد الغربي الوافد فحملوا لواء الدعوة الى عبادة الجسد وتقديس الشهوة، وترجم الدكتور طه حسين عشرات من هذه القصص وسار على نهجه كثيرون.

وجرت مساجلات بين الأدباء حول الأدب المكشوف وكان ابرزها بين سلامة موسى وتوفيق دياب الذي دعا الى ارتباط الفن بالأخلاق، وجرت الدعوة من بعد سافرة الى «إطلاق الفن من قيود الأخلاق».

ولم يكن ذلك تقليداً رديئاً لما جرى في الآداب الغربية، وإنما كان في الأغلب جارياً مع تيار الغزو الفكري والتغريب، ونقل قضية التحلل والإباحة والشك والجنس الى محيط الفكر الإسلامي والأدب العربي كإحدى وسائل تدمير مقومات المجتمعات والأمم العربيّة الإسلامية.

(٢)

من أخطر القضايا التي أثارها منهج النقد الغربي الوافد مسألة الحريّة والفن، ومسألة الفن والأخلاق، وقد استهدف دعاة التغريب إخراج الأدب العربي من قيمه ومضامينه التي تجعل الفن مرتبطاً بالخلق وتجعل الحرية ذات ضوابط، وذلك بطرح نظرية عرفتها دوائر الأدب الغربي وهي قصة الفن للفن، او اطلاق حرية الفنان في التعبير، وقد برزت هذه النظرية في الأدب الغربي بعد تطور كبير، وتحت ضغط عوامل مختلفة ابرزها (١) اتصال الأدب الغربي المعاصر بأصول الأدب الأغريقي الوثني القائم على الكشف والعري والتحلّل الكامل (٢) رد فعل للرهبانية المسيحية الصارمة التي كانت تفرض العزلة ومعارضة الطبيعة الانسانية في مسائل الجنس والمرأة (٣) الدوافع السياسية التي فرضتها الدعوات الهدّامة ذات الأطماع

الخطيرة في هدم الحضارة والأديان والمستخفية وراء الماسونية والصهيونية ، والتي كان لها أثرها في دفع نظريات فرويد وسارتر وغيرهما وإعلان شأن الجنس والإباحة.

وكان طه حسين سبّاقاً الى إذاعة هذه المذاهب حين جمع في وقت واحد بين استخراج ما يمكن ان يطلق عليه صور الكشف والإباحة من حيوات : ابي نواس وبشار وحماد عجرد وزاوج بينها وبين ترجمة القصة الفرنسية الإباحية ، وقال في الدفاع عن ذلك : «ليس للأدب ان يعطل عمله ليسأل عن قواعد الأخلاق».

وتابع ذلك توفيق الحكيم حين قال إن الإجادة في تصوير الدمامة والرذيلة لا تقل فضلاً عن الإجادة في تصوير الحسن والفضيلة ، ولم يكن هذا مما يتقبله الذوق العربي او يطابق المزاج النفسي العربي الاسلامي ، وإذا احتج احد بما ورد في بعض دواوين الشعراء فقد عرف ان هذا لم يكن من الأدب العربي الذي أصله الاسلام ، بل كان من الانحراف الذي طرأ على هذا الأدب بعد اتصاله بالثقافات الوثنية القديمة وبخاصة الفارسية المجوسية واليونانية الوثنية من أمثال الغزل المخنّث والتشبيب بالذكر.

أما الأدب العربي في أصالته فقد كان يعرف الحب العفيف والارتفاع عن الشهوات وكرامة المرأة وعظمة العرض والرجولة.

وان ما يذهب اليه الادب الغربي من تمجيد اللذة الجنسية ليس طارئاً عليه في الحقيقة ولكنه معاودة لجذوره القديمة في الأدب اليوناني — بعد ان حرره الاتصال بالأدب العربي والفكر الإسلامي فترة ما حين نشأت في اطواره مفاهيم الفروسية والحب العنيف الذي أذاعه شعراء التروبادور وغيرهم — غير ان الأدب الغربي عاد مرة أخرى الى أصول قديمة في الروح اليونانية الأغريقية المؤمنة بالعري والكشف والإباحة وعبادة الجمال وعبادة القوة.

وان ما ظهر من بعد على يد لورنس وغيره إنما كان متابعة لذلك الاستحياء الذي قام به فرويد وغيره لتلك الجذور الأغريقية ، مما ليس مضاداً للنفس الأوربية ، ولا معارضاً للمزاج النفسي الغربي ، بل مما يتصل به أساساً ويلتقي به في أعمق أعماقه ، أما في الأدب العربي الذي يستمد من النفس العربية الإسلامية التي تقوم مفاهيمها

وقيَمها على العفاف والاخلاق والنبل والمروءة فقد كان ذلك كله غريباً عليه ودخيلاً ، ولم يكن متقبّلاً منه وان أعجب الناس فترة ما ، واثار الاذهان في مرحلة ما.

وهو هنا يمتحن حقيقة النفس العربية التي تتباين في تياراتها عن النفس الغربية مما يدحض قول القائلين بان النفس البشرية واحدة في مواجهتها للجمال والحب والجنس مما تردّده تلك النظريات الوافدة التي اذاعها التغريب والغزو الثقافي لتهديم المقومات ، ومما تهدف إليه الدعوة الماسونية الصهيونية الإباحية التي تريد ان تسيطر على العالم بعد سحق مدنياته وحضاراته ومقوماته الخُلُقيّة والدينيّة.

وقد وجدت دعوى الإباحة في الأدب ردّ فعل عاصف ظهر على ألسنة أقلام كثيرة ، ليس فقط من الذين اتصلوا بالآداب العربية والاسلام وحدهم ، ولكن ممن درسوا دراسات عصرية. وقد واجه هذا الأستاذ احمد خاكي حين قال :

ان للجماعة اصولاً عامة يجب ان يكون الفن احد دعائمها ، والفن بجميع نواحيه دعوة عامة للخلق ، وقد ثار تولستوي بآيات الفن التي تحدرت من ثقافة أوربا.

ولا ريب ان كل فكرة فنية لا تستقيم مع الشعور الديني فهي ليست فناً أصيلاً ، ولقد كان عصر النهضة تحللاً من قواعد المسيحية ، لأن القسيسين والأمراء كانوا قد أساءوا استخدام الدين ، فاتخذوه ذريعة لمقاومة حرية الفكر.

في نفس الوقت تحرر الفكر الانساني من قيود الخلق حتى إذا ما أوتي المتفننون تلك الحرية اطلقوا لأنفسهم العنان فكانت من ذلك موجة من موجات الإباحة ، وقد حدث ذلك في بلاد الأغريق في أزهى عصورها ، وحدث من هذا في ايطاليا في أيام النهضة ، وقد اثرت الإباحة في الآثار الفنية التي اخرجها الكتّاب والشعراء في عصر النهضة ، وأشار الكاتب الى مسرحيات شكسبير وهي تدور حول القوة والخديعة والقتل ، والتحلل من النظرة الدينية ، فأعطت كل ما تندفع إليه النفس من شهوات وغرائز ، وكان الاعتراف بالغرائز والشهوات نتيجة الحرية في عصر النهضة.

وهكذا يرد الأستاذ خاكي ذلك الانحراف في الأدب الغربي الى عوامله الأصيلة

وهي عوامل لم يواجهها الأدب العربي. ويفصل الدكتور محمد احمد الغمراوي موقف الفكر الاسلامي من الأدب والفن، ويرى ضرورة التطابق بين الحياة الفنية والأدبية والعلمية إن لم يكن بين الفن والأدب والعلم وبين الاسلام تمام التطابق والاتفاق والتطابق التام بين الاسلام والعلم ثابت لا شك فيه، فليس من الثابت في العلم شيء ينقض شيئاً من الاسلام، وليس في الإسلام أصل ينقض حقيقة ثابتة في العلم.

ويقول: ان للفطرة كلها منشئاً واحداً هو الله، والعلم والدين كلاهما اجتمعا على استحالة التناقض في الفطرة، فإذا كانت هذه الفنون من روح الفطرة كما يزعم أهلها وجب الا تخالف او تناقض دين الفطرة، دين الاسلام في شيء، فإذا خالفته في أصوله ودعت صراحةً او ضمناً الى رذيلة من أمهات الرذائل التي جاء بها الدين لتخليص الانسان منها حتى يبلغ ما قدر له من الرقي في النفس والروح، اذا خالفت الفنون الدين في شيء من هذا او في شيء من غير هذا فهي بالصورة التي تخالف بها الدين فنون باطلة، فنون جانبت الحق ودابرت الخير وأخطأت الفطرة التي فطر الله عليها الناس والخلق، والتي يريد الفنون ان تكون منها في الصحيح، فإذا كان من شأن بعض ما يعمل او يكتب باسم الفن والأدب ان يتجاوز في تأثيره ما سبق، فيحول بين الإنسان وبين ربه ويدخل عليه الشك في دينه بأي صورة من الصور، ولأي حد من الحدود، كان في ذلك البعض المكتوب باسم الفن والأدب زوراً وإفكاً في الفن والادب على السواء، فنحن ندعو الى وجوب نزول الفن والادب على حكم الدين وروحه وتحريها التطابق التام بينهما وبينه، لسنا نعبث ولا نتحكم في الأدب والفن بما لا ينبغي التحكّم به فيهما. إننا نوجد معياراً للحق والصواب والخير في الأدب والفن حين لا معيار لذلك كله فيهما، ونيسر للفن والأدب طريق التثبت من انطباقهما على الفطرة التي فطر عليها الناس وتحقق لهما بذلك اتحادهما مع الفطرة في الصميم، ونحن بذلك الذي ندعو إليه ونقول بوجوبه نحقق بين الفن والأدب وبين الدين وتلك الوحدة المتحققة بين الدين والعلم، فتتحقق وحدة الإنسانية كلها بذلك، وتبرأ حياتها من ذلك الداء المستعصي والشر البالغ، شر

وجود التناقض والتنافر بين ما يعشق من فن ويعتقد من دين ، وجوب سيرهما مع الدين يداً بيد ، وجنبا الى جنب وروحاً الى روح ، على الطريق الذي يحققان منها رسالتهما في الناس ، رسالة الصدق والحق والخير والفضيلة والعزة والسعادة والهدى والنور» .

ذلك هو منطلق ضمير الأدب العربي والفكر الإسلامي والنفس الانسانية العربية الاسلامية في اصالتها ومزاجها . فالاتجاه الذي فرضه مذهب النقد الغربي الوافد في أن يجعل روح الأدب روحاً شهوانياً بحتاً يتمتع صاحبه بما حرم الله وما أحل ، ولا يفكر بين معروف ومنكر ، ثم يضيف الى ما بقي في ذلك من لذة او ألم ، او غيرهما من ألوان الشعور ، ويخرج ذلك للناس على أنه هو الأدب ، لا ريب ذلك لا يتطابق مع المزاج النفسي العربي ولا يلقى استجابة في الذات العربية .

ومن هنا يختلف الاستاذ الغمراوي الى ان المقياس الذي يعد روح الأدب : هو ان الجمال النفسي هو روح الجمال الانساني هو إخباته وإخلاده وإسلامه لله ، من هذا الإخبات والإخلاد والانقياد لله تأتي الفضيلة والسلامة والسعادة في الحياة ، ومن مجد الله سبحانه يشيع في النفس الهدى ويشع منها النور» .

ويرى الدكتور الغمراوي ان ما نقله الدكتور طه حسين من أخبار المجان في الأدب العربي من امثال ابي نواس ووالبة والخليع ومن إليهم «هذا النوع من الأدب ليس مما ترغب فيه أمة تطمع في الحياة وتطمع الى العزة ، وليس فيه من الجدة إلّا مخالفة ما كانت درجت عليه هذه الأمة من إكبار الفضيلة .

وليس فيه من الجديد إلا الجهر بما يستتر أهل الشهوات فيها ، وإلّا فهو قديم قدم البشر على وجه الأرض ، لأنه يصور الخبيث مما يجول في نفس الإنسان . ويقول توفيق دياب : إن التفاعل بين الأدب والأخلاق متواصل لا ينقطع ، والقول بانقطاع الأدب عن الأخلاق مذهب لا يؤيده أبسط حقائق الكون ، وفي الرد على القول باطلاع الشباب والفتيات . إنما يجيء علمهم بها عن طريق رزين يفهمهم وجوه الحاجة الى المامهم بهذه الشؤون ، اما ان يجيء علمهم عن طريق الخلاعة والمجون وهياج الغرائز الجامحة فذلك ما لا ينبغي ان نقره أو ندعو إليه .

وأشار اكثر من باحث الى ان إطلاق الفن والأدب من قيود الأخلاق لا يتفق مع نهج الأدب العربي وذاتيته ومزاج النفس العربية ، وهو مذهب تنزه عنه من أهل كل أمة عظماؤهم ، وحاربه من أهل كل فن زعماء الاصلاح فيه ، أمثال كارليل ورسكن وماثيو أرنولد.

وإن العربية وآدابها إنما قاما حول جمالها الكارم ومنبع الحياة والنور : القرآن والحديث وقد أصاب العقاد حين قال ان الأدب الذي يسمونه بالأدب المكشوف ليس بالنهضة التقدّمية التي تستحث لها خطوات الابناء والبنات ، وإنما هي عارضة من عوارض الضعف التي تنم على الحاجة الى التربية الرياضية الخلقية ، وتدل على ان الشباب مفتقر الى ضبط الإرادة في الفتنة وليس بالمفتقر الى اطلاق الارادة لاستباحة ما يباح وما لا يباح ، ومن دروسها أن نفهم حكمة النوع الانساني منذ نشأته الاولى في تدبيره المقصود او غير المقصود لإحاطة المسائل الجنسية بالضوابط والمحظورات . ويتساءل العقاد عن عملية التهافت الجنسية بالضوابط والمحظورات. ويتساءل العقاد عن عملية التهافت على المثيرات ، ويجيب بأن العلّة هي حب التعويض الخاسر والعجز عن التعويض المفيد ، فالإنسان لا يطلب المثيرات الحسيّة إلّا لأنه فقد القرار على عقيدة روحية او على فكرة مثالية او على ثقة خلقية.

ومتى فقد هذا القرار دفعه الى ان يشغل نفسه بما يثير حسّه وسيسأم المثيرات لا محالة ، لأن المثيرات تفقد معناها ولا تصبح مثيرة ولا قابلة لتنبيه الحس إذا استمر التنبيه يوماً بعد يوم وساعةً بعد ساعة.

والولع بالمثيرات تعويض خاسر عن العقيدة الروحية والفكرة المثالية والثقة الخلقية ، لأن هذه القيم الرفيعة تزود النفس بعوامل الحركة وعوامل السكون في وقت واحد ، ولا تدعها فارغة لحظة من اللحظات ، والعقيدة الروحية تزوّد الانسان ببواعث الحركة وحوافز العمل في ثقة وقوة ، وتزوّده ببواعث العزاء عن الإخفاق والخيْبة ، وتوحي إليه ان يفضل الاخفاق والخيبة أحياناً على النجاح إذا كان فيه ما يناقض عقيدته ويحمله على إهمالها والتفريط فيها . فإذا احتاج صاحب العقيدة الى

الصبر والقرار وجد في عقيدته معواناً له على التصبّر والاستقرار ، ولم يستسلم للمَلَل والسآمة كما يفعل طلاب المثيرات كلّما فقدوا ما يثيرهم .

وترى نازك الملائكة ان هذا لون من الأدب الهدّام يتستّر تحت اسم مذاهب فنية او دراسات علمية باسم الرومانتيكية والوجودية ، وأنها الوان من الأدب (شعره ونثره) طابعها الأنانية والانطواء على النفس . وأنه باسم الواقعية والتحليل النفسي ظهرت ألوان من الأدب ومن القصص خاصة تعرض خفايا العورات وتبرز كثيراً من الرذائل باسم التنفيس .

وقد ردّ عبد المنعم خلاف على ما أثاره توفيق الحكيم حول اطلاق حرية الفن ، فقال ان الفن إنما هو وسيلة للنفع والمصلحة لا لترف ولا لإطلاق عبقرية الخلق والتجسيم والتشكيل والتلوين على هوى طليق غير منسجم مع الاتجاه العام في الطبيعة كلها .

ويقرر ان تقييد الفن بقيود صالح الجماعة إنما يهدف الى المحافظة على دعائم حياتها ويقول ان الفنان إذا أصرّ على موقفه من إطلاق حريّة الفن قال له المجتمع إنك نشاز في جوقة أمّتك او هادم لوحتها او حاد على خروجها او مفسد لمثلها الأعلى او مبلبل لخواطرها .

وقال خلاف : ان الخطأ الذي نرتكبه في مختلف مجالات السياسة والأدب والاقتصاد هي أننا ننسى الفارق التاريخي العظيم بيننا وبين الأوربيين ، ونحاول ان نطلق على بيئتنا القاصرة مقاييس الحياة الأوربية الحاضرة غروراً منا بالمدنية الصناعية الآلية ، وغفلة منا عن ان نقل المكان دائماً من حضارة لأخرى أسهل واسرع من نقل السكان .

وان العقلية اللاتينية عقلية لم تحسن التتلمذ على الطبيعة في تقدير لباب الأشياء بل تشوبها حياة القشور المزوّقة والثرثرة والجدليات والاستعراضات المسرحية والانطلاق وراء النوازع والشهوات والتحلل من قيود الاجتماع بحجة الحريّة الفكريّة .

وان الصور الفنية المنحرفة تزلزل وتفسد عقلية ومشاعر الناس وايمانهم بمثُلهم العليا ، وتأخذهم الى حياة اللذة والجموح الذي لا تحتمله الحياة العلمية».

(٣)

وهناك قضية كبرى : هي علاقة الدين بالأدب وقد حاول دعاة مذهب النقد الغربي الوافد إنكار هذه العلاقة ، وهم في سبيل ذلك يستدلون بنماذج من الأدب الغربي ، وقد يكون ذلك صحيحاً بالنسبة للأدب الغربي والمجتمعات الغربية والنفس الغربية ، ولكنه ليس صحيحاً ولا ميسوراً بالنسبة للأدب العربي والمجتمعات الإسلامية والنفس العربية ، وفي هذا يقول (رشاد محمد خليل) ان هذا الفصل غير ممكن في واقع النفس الإنسانية ، لأن النفس الإنسانية وحدة لا تتجزأ ، والدين والأدب كلاهما يصدران عن هذه النفس ويتجهان الى هدف واحد هو تنظيف الوجدان الإنساني وبناء الضمير على أساس سليم».

غير أننا نجد غير واحد من أدباء الغرب يدحض ما ذهب إليه التغريبيون من القول بالفصل بين الأدب والدين في الادب الغربي على اطلاقه ، وقد كان تولستوي واحداً من هؤلاء ، ويجيء في عصرنا هذا (ت. س. إليوت).

يقول إليوت : ان إلنقد الأدبي يجب ان يكمل بوجهات نظر أخلاقية وعقائدية قام في ظلّها النقد الأدبي ، ولكن في عصر كعصرنا حيث لا يوجد مثل هذا الاتفاق العام نجد من الضروري بالنسبة للقرّاء المسيحيين ان يقوموا ما يقرأون خصوصاً ما كان منها خاصاً بالأعمال التخيّليّة بموازين أخلاقية وعقائدية واضحة ، فالأدب في معظمه لا يمكن ان يقوم بالموازين الأدبية البحتة ، هذا إذا افترضنا أصلاً مكان وجود ادب يقوم بالموازين المادية البحتة وحدها.

ويرى اليوت استحالة الفصل بين التذوق الأدبي والاعتقاد : يقول : الشخصية الانسانية تتلقى الأدب ككل وتتأثر به ككل ، ومهما حاول الانسان ان يفصل بين تذوّقه الأدبي واعتقاده فإن ذلك لن يتيسّر.

وان كل ما نقرؤه لا يتعلق فقط بما نسميه الذوق الأدبي ولكنه يؤثر مباشرة في تكويننا. ويقول اليوت: لكي نتمكن من اصدار احكام أدبية سليمة يجب علينا ان نعرف شيئين: (اولاً) ماذا نكون فعلاً: ماذا يجب ان نكون. والوعي بهما يجب ان يسير جنباً الى جنب، إن واجبنا كقراء للادب ان نعلم ماذا يجب ان نكون، ان أمنيتي الآن ان يوجد نوعان من الأدب:

أدب خاص بالعالم المسيحي وادب خاص بالعالم الملحد ويقول: اني اعتقد أنه يقع على عاتق جميع المسيحيين واجب اقامة موازين ومقاييس نقدية معينة لكل ما يزودنا العالم من أدب، يجب ان نتذكر أن معظم ما نقرؤه حالياً قد كتب بواسطة أناس ليس لهم اي اعتقاد سام.

إننا بقدر ما نكون واعين بالحواجز التي تفصلنا عن الجانب الأكبر من الادب المعاصر بقدر ما نكون في موقف أقلّ او أكثر أمناً من أذاه[1].

والذي يقصده إليوت بالنسبة للمجتمع المسيحي يجب ان يكون رائدنا في المجتمع العربي الإسلامي. أما الأدب الذي يراه دخيلاً فهو الآداب الأوربية بعد ظهور مذهب فرويد، وبعد ان أحيط مذهب فرويد بعناية خاصة ليكون بعيد الأثر في القصة والآداب وظهور تلاميذ فرويد في القصة من أمثال: لورنس وجيمس جويس وغيرهما كثيرون، ولقد تأثر الأدب العربي بمثل هذه التيارات حيناً، ثم بدأ يظهر أنه غريب عن الذاتية العربية والمزاج العربي والنفس العربية دخيّل عليها وليس بمتقبل ولا قادر على ان ينتج غراساً، بل ان التربة ترد بذوره وترفضها.

وقد واجه الباحثون توفيق الحكيم حين حاول ان يدعو الى القبح في الأدب مواجهة صارمة وخاصة في دعوة الحكم الى إعلاء الفرد وتفرّده بالجمال وحده، بينما مفهوم الأدب العربي يجمع بين الجمال والأخلاق، ويجعل الأخلاق مقدّمة على

(١) عن ترجمة للاستاذ رشاد محمد خليل.

الجمال ، ويفرق بين امرأة عفيفة وفاجرة وبين الغزل بالمرأة والغزل بالغلام ، وبين الغزل الداعر والغزل العفيف وقال احمد امين إن الغزل الفاجر هو قبيح مهما وصف بأنه فنّي وان الجمال العفيف يجمع الى الجمال الفني جمال العفة مما يزيد شيئاً من قيمته ، ويعني هذا أنه يدخل الى جانب المقياس الفني البحت مقياس الغاية والأثر والنتيجة .

* * * *

# الفصل الخامس

## خطأ نظرية «التجديد» المفرغة من «الأصالة»

هذا من اخطر الدعوات التي حمل لواءها دعاة مذهب النقد الغربي الوافد: وهو مذهب قد يستقيم في اصدار احكامه على الأدب الغربي الذي تشكل من خلاله، اما بالنسبة للأدب العربي فإنه يكبو ويخطيء، للخلافات العميقة بين الأدب العربي والآداب الأوربية، فاذا ما استغلّ هذا المذهب بأيدي دعاة التغريب، فإنه يصل الى ابعد مدى لا في الخطأ والاضطراب، بل في التحدي والإعنات.

نقول ان من أخطر هذه الدعوات، الدعوة الى التجديد دون ربط هذه الدعوة بالأصالة، مما يؤدّي الى إخراج الأدب العربي من مضامينه وقيَمه.

وقد كشف كثير من الادباء عن هذا «الخطر» من أمثال: مصطفى صادق الرافعي والدكتور محمد احمد الغمراوي الذي اطلق عليه «سوق الأدب العربي في غير طريقه وإلباسه ثوباً من غير نسجه». وقد أشار الغمراوي الى عمل شبيه بهذا قام به البعض بالنسبة للأدب الألماني، وكانت النتيجة لذلك أن ضل الأدب الألماني طريقه قرناً وبعض قرن. ولم يهتد حتى ردّه عن تلك الطريق: هلر وهاجيدون ولسنج، وان التغريبيين يسوقون الأدب العربي الآن الى طريق الافتتان بالأدب الفرنسي خاصةً والغربي عامةً.

وقد كشف الغمراوي عن أخطار «تقليد الأدب الافرنجي وخطره على الأدب العربي» الذي يقوده الدكتور طه حسين فيقول : نعيب عليه ان يحاول ان يلبس أدبنا العربي ثوباً افرنجياً وان يصبغه صبغة فرنسية من غير مراعاة بين اللغتين وأدبيهما في الفوارق. ان التقليد إذا جاز في العلم من غير قيد ، لا ينبغي ان يؤخذ منه في الأدب إلّا بمقدار ، لأن أدب الأمة روحها «فالتقليد فيه إخضاع لروح الأمة واضعاف لشخصيتها ، وعلى قدر ذلك التقليد يكون مقدار الضعف ويكون مدى الخضوع».

اما العلم : فليس له وطن ولا قومية ، إذ إن قوانين التفكير واحدة وسبل العقل واحدة في العالمين ، وليس هناك علم فرنسي او انجليزي بينما نجد الأدب متعدّداً بتعدّد الأمم ، لكل أمة أدبها ، كما لكل أمة لغتها ، ونجد ادب كل امة مطبوعاً بطابعها طبعاً الانحفاء فيه او هكذا هو إذا استملت الأمة بأدبها ونسجت لنفسها برداً من روحها وتاريخها وتقاليدها ، وعاداتها ، ودينها ، بدلاً من ان تلتف بشق من برد غيرها لا تجد فيه دفئاً ولا قوة ولا جمالا.

ويفصل الغمراوي مفهوم «الجديد» و«القديم» فيقول : كَلِمَتا القديم والجديد من الكلمات المبهمة التي يحتاج معناها الى تحديد ، ثم هما هنا من الكلمات المنقولة من مدلول مادي الى مدلول معنوي ، والخطر الذي يصحب مثل هذا النقل هو ان ينتقل مع الكلمة جوّها الذي كان يصحبها في استعمالها الاول فيصير معها في استعمالها الثاني ، فإن لأمثال هذه الكلمات أجواء تنتقل معها في تداولها ، كما للكواكب اجواء تنتقل معها في سبحها وتنقّلها ، فإذا علقت الكلمة ذات الجو بمدلول جديد علق به ما كان يحيط بها في استعمالها الأول من استحسان او استقباح ، وسرى ذلك في النفوس خفية فتستحسن او تستقبح من غير ان تدري لذلك سبباً ، فالناس يستحسنون في الماديات الجديد ويفضلونه على القديم ، ولكن إذا نقل ناقل القدم والجدة الى المعنويات (كالأدب والمدنية) كان الناس منه على خطر وبدأوا يستقبحون ويستحسنون. يستحسنون المدنية الجديدة ولعلّها شر من المدنية القديمة ، ويستقبحون الأدب القديم ولعله خير من الأدب الجديد ، وهم لا يفعلون ذلك لأنهم يرون مدنية خيرا من مدنية ، وادباً شراً من أدب . ولكن لأن الخبرة فيما ألفوا

من المحسوسات مقرونة عندهم بالتفضيل ، فيجرون المعنويات مجرى الماديات ، عفواً من غير قصد ، وقفاضلون بين الجديد والقديم في الأدب كما يفضيلون بين الجديد والقديم في اللباس ، ويقعون طبعاً في نفس الخطأ الذي يقع فيه طالب المنطق حين يستعمل في قياس واحد لفظاً مشتركاً بين معنيين مختلفين.

والناس معذورون إذا فعلوا هذا ، إذ ليس منتظراً من جمهورهم ان يكونوا مناطقة مدققين ، او ان يحذروا سوء استغلال قانون الربط او القرآن النفسي ، إنما الذي يقع عليه تبعة ذلك الخطأ الخفي البالغ ، هو ذلك الذي يستغل أمثال تلك الألفاظ على غير حق وينقلها عما ينطبق جوّها عليه الى ما لا ينطبق جوّها عليه ، وإذا كان هذا الاستغلال منتظراً ، او على الأقل لا يمكن منعه في الدعايات الحزبية حيث تراعى المصلحة ، ولا تراعى الحقيقة فإن الأبحاث العلمية والأدبية يجب أن تبرأ منه إذ يجب أن يكون للحقيقة المكان الأول.

ويتساءل الأستاذ الغمراوي : هل كان قديمنا أسوأ من قديم الغرب (بخرافاته وأساطيره) ؟ ويقطع في الأمر حين يقول : ان التجديد في الأدب كالتجديد في العلم لا يمكن ان يقوم إلا على أساس تعاون الحاضر والماضي ، سيبني العقل في حاضره على ما أسس العقل في ماضيه ، فإن الحق وحدة قائمة لا يقوم جزء منها إلّا على جزء ، فلن يقوم حق جديد إلا على أساس من حق قديم ، انها هي القاعدة البسيطة التي تمكن العلم بها من تجديد تراثه «وتنميته ، وهي القاعدة التي ينبغي ان يسير الشرق عليها فيحتفظ بتراثه الكثير القيم ، فلا يغيّر منه إلا بقدر ما يجدّده وينمّيه».

وقد هاجمت كثير من الصحف والمجلات في عواصم العالم العربي كله ، وليس في القاهرة وحدها هذه المحاولة : محاولة تفريغ التجديد من الأصالة ، فتقول مجلة المكشوف (بيروت) : يحاول الدكتور طه حسين حين يكتب ان ينقل استعارات اللغة الفرنسية وان يجري في أسلوبه على نمط تلك اللغة ، ويكفي ان تطالع صفحات من كتاباته لتتأكّد من هذا فأسلوبه الفكري الفرنسي ، وطريقته في النقد ودراسته الأدب والشعر والادباء والشعراء فرنسية ، فهو في عنوان ابحاثه في النقد (حديث الاربعاء) ناقل للعنوان الذي كان يجريه (سانت بوف) على فصوله النقدية

(أحاديث الاثنين) وهو يتبع في النقد مذهب الاحساسيين الذاتيين مقتفياً في ذلك أثر (أناتول فرانس).

ويعرض (مصطفى صادق الرافعي) لظاهرة خطيرة حاول منهج النقد الغربي الوافد وأتباعه من التغريبيين إبرازها ومحاولة فرضها: تلك هي السخرية بالقديم ومن جملته الاستخفاف بالقرآن والتراث واللغة جميعاً، ويرى أنه يجب ألا ننقل من لغات الافرنج إلا على أننا اهل لغة لها خصائصها ولا تصرفنا مدنيتهم عن أنفسنا ولا نأتي بسيوفهم لرقابنا وبنزعاتهم لقلوبنا. وأن هذه العربية لغة دين قائم على أصل خالد هو القرآن الكريم، وقد أجمع الأولون والآخرون على إعجازه بفصاحة إلا من لا حفل به من زنديق يتجاهل او جاهل يتزندق.

ثم ان فصاحة القرآن يجب ان تبقى مفهومة، ولا يدنو الفهم منها إلا بالمران والمزاولة، ودرس أساليب الفصحى والاحتذاء عليها وإحكام اللغة، والبصر بدقائقها وفنون بلاغتها والحرص على سلامة الذوق فيها.

كل هذا مما يجعل الترخص في هذه اللغة واساليبها ضرباً من الفساد والجهل، فلا تزال اللغة كلها مذهباً قديماً، وإنما يكون المذهب الجديد فيها رجل الى حين ثم يدخل مذهبه معه القبر، على أنني رأيت لأصحاب المذهب الجدّيد أصلاً في تاريخ الأدب العربي كانت جذوره ممن انتحلوا الإسلام، وهم يدينون بغيره، وممن كانوا يدينون به وتزندقوا فيه حتى قال الجاحظ في بعض رسائله يعني هؤلاء وأولئك.

«فكل شحنة عين رأيناها في أحداثنا وأغبيائنا، فمن قبلهم كان أولها».

أما الثالثة فإن الخاصة في فصاحة هذه اللغة ليست في ألفاظها ولكن في تركيب ألفاظها. وأشار الرافعي الى غرور «جبران خليل جبران» فقال: أنت واجد في سنة ١٩٢٣ من يقول: لك لغتك ولي لغتي، فمتى كنت يا فتى صاحب اللغة وواضعها ومنزل أصولها ومخرج فروعها وضابط قواعدها، ومطلق شواذها، ومن سلم لك بهذا حتى يسلم لك حق التصرف (كما يتصرف المالك في ملكه) وحتى يكون لك في هذا الإيجاد ومن الإيجاد ما تسميه أنت مذهبك ولغتك، فإنك عمر واحد في عصر

واحد بين ملايين من الاعمار في عصور متطاولة ، وان ما تحدثه على خطأ لا يبقى على أنه صواب ، ويرجع هذا الخطر أساساً الى اتصال المتصدرين للأدب العربي بالآداب الغربية قبل ان يتعمقوا أدبهم العربي ويفهموا اسراره ومناهجه وذاتيته الخاصة المستمدة ، فهم يتحركون من داخل الأدب الغربي ويقيسون كل شيء بمقاييسه ، حتى الأدب العربي نفسه . وذلك من أخطر ما يفسد جوهر الأدب العربي .

ولا شك ان الدعوة الى «التحرر من القديم» التي يحمل لواءها التغريبيون إنما تستهدف انفصال الأدب العربي الحديث عن الأدب العربي في عصوره ومراحله المختلفة منذ نزل القرآن الى اليوم ، وقد اشار كثير من الأدباء الى هذه الظاهرة الخطرة ، وكشفوا عن ان العزوف عن القرآن والادب العربي يترتب عليه العزوف عن الانماط البلاغية والبيانية الأولى والانصراف عنها الى الأساليب الحديثة ، وهي أساليب غربية ، بل ومسيحية أو وثنية ، في كثير من الأحيان عجز المنغمسون فيها والمدمنون على قراءتها وتعاطيها في كتاباتهم عن تذوق الأساليب العربية الأصيلة «بل عن تذوق بلاغة القرآن المعجزة ، بل عن فهمها آخر الأمر» .

وقد أشار شكيب أرسلان الى هذا المعنى حين قال : لا أعرف في الأدب واللغة إلّا مذهباً واحداً هو مذهب العرب» .

وقال الرافعي : المذهب القديم هو أن تكون اللّغة لا تزال لغة العرب في اصولها وفروعها ، وان تكون هذه الأسفار القويمة التي تحويها لا تزال حية ، تنزل من كل زمن منزلة أمة من العرب الفصحاء ، وأن يكون الدين العربي لا يزال هو هو ، كأنما نزل به الوحي أمس ، لا يفتننا فيه علم ولا رأي ، وأن يأتي الحرص على الدين ، إذ لا يزال منها شيء قائم كالأساس والبناء ، لا منفعة فيهما معاً إلّا بقيامهما معاً» .

وأشار الى العلة الحقيقية التي ترجع الى ضعف هؤلاء التغريبيين في لغتهم الأصلية وقوتهم في لغة اجنبية ، مما نشأ عنها نوع من العصبية للأدب الاجنبي وأهله ، «فلما ضربت هذه العصبية واستحكمت ، وجهت الذوق في الأدب وأساليبه الى تفسير

معين يحكمه المذهب والهوى» وأن «هؤلاء الذين غلبت عليهم صناعة الترجمة ورجعوا من العربية الى طبع ضعيف، فكان لا بد من ان تدخل اللغات الأعجمية الضيم على عربيّتهم».

وأشار الرافعي الى ان هذه المادة من المعاني التي تجيء من آداب الأمم في أوربا وأمريكا، تكاد تطمس أدابها وتمحقها محقاً، تذهب فيه خصائصنا ومقوّماتنا وتحتلنا عن اوضاعنا التاريخية وتفسد عقولنا ونزعاتنا وترمي بنا مراميها بين كل أمة وأمة، حتى كأن ليست منا أمة في حيزها الإنساني المحدود من ناحية بالتاريخ ومن ناحية بالصفات ومن ناحية بالعلوم ومن ناحية بالأدب، ومن ذلك اكثر كتابنا بالانحراف عن الأدب العربي او العصبية عليه او الزراية به، والسبب ان أولئك الأدباء كلهم ليس منهم واحد ترى في أساسه الأدبي تلك الأصول العربية المحضة القائمة على دراسة اللغة وجمعها وتصنيفها وبيان عِلَلِها وتصاريفها ومطارح اللسان فيها.

وأشار الى أهميّة دراسة آثار الأدب وفي مقدمتها أدب الكاتب لابن قتيبة، والكامل للمبرد، والبيان والتبيين للجاحظ والنوادر لأبي علي القالي، وكيف أنها صيغت «لحياطة هذا اللسان الذي نزل به القرآن الكريم».

ويركّز الرافعي على اللغة العربية : ويرى أهمية اتصال الأدب العربي بها مرتبطة بالقرآن على نحو يحفظ للأدب العربي في مختلف عصوره اتصاله ببيان القرآن.

وأشار الى الخطر الذي تصدر عنه الدعوة الى فصل الأدب العربي الحديث عن «القديم» وكيف أنه يستهدف الفصل بين بلاغة القرآن وبين اسلوب اللغة العربية في مختلف عصورها.

# الفصل السادس

## الدعوة الى التمصير: تمصير اللغة العربيه

كانت الدعوة الى التمصير من اخطر أعمال التغريب ، فقد كانت تستهدف أساساً إقامة حائط كثيف يعزل اللغة والأدب في مصر، ويحاول ان يوجد لها ملامح خاصة تفصلها عن اللغة العربية عامة وعن الأدب العربي ، وقد كانت جزءاً من دعوة الاقليم التي فرضها النفوذ الاستعماري ، في أوائل القرن ، وحمل لواءها لطفي السيد في (الجريدة) باسم اعطاء المصرية طابع الاستقلال والتبريز وعلى حساب الروابط الأساسية بين أجزاء الأمة العربية ، والقائمة على أساس اللغة العربية والأدب العربي .

وقد دعا لطفي السيد الى تمصير اللغة العربية ، ثم جاء بعده رعيل من الدعاة الى تمصير الأدب العربي في مقدّمته احمد ضيف وطه حسين وامين الخولي وغيرهم وقد هوجم هذا الاتجاه وكشف عن فساده وانحرافه في محاولة عزل مصر: لغةً وأدباً عن اللغة العربية والأدب العربي في الأمة كلّها بدعوى ان مصر لها طابع خاص او مزاج خاص ، وهي دعوى مضللة لم تصمد للنقد العلمي ، وانهارت امام أضواء الحقيقة [1] .

* * * *

(١) راجع ما اوردناه في كتابنا (المساجلات الأدبية) في هذا الشأن.

## أولاً : البلاغة العربية.

برزت حملة ضارية على منهج البلاغة العربية والبيان العربي في محاولة لاتهامه والدعوة الى احلال دراسة الأساليب وتاريخ تكوينها بدلاً منها، وتتصل هذه الدعوة بالهدف الواضح الذي يرمي الى الغض من بيان القرآن وأثره في الاسلوب العربي، وهكذا يتوقف مذهب النقد الغربي الوافد عند حدّ معيّن في سبيل إثارة الشبهات والشكوك، في مختلف مجالات الشعر والنثر والقصة والتراجم والتاريخ والتراث، وكانت له جولات في مجال البلاغة العربية والنحو العربي، وقد حملت هذه الجولات اسم «تمصير البلاغة» في ظل الدعوة الى الأقليمية الضيّقة التي حاولت ان تفترض أن هناك أدباً مصرياً يختلف عن الأدب العربي جملة، بل لقد ذهب لطفي السيد الى أبعد من ذلك حين دعا الى تمصير اللغة العربية.

وقد حمل لواء هذه الدعوة احمد ضيف وطه حسين وأمين الخولي وسلامة موسى وميخائيل نعيمة[1]. وقد كانت هذه المحاولة تستهدف أساساً تذويب البلاغة العربية في أتون البلاغة اليونانية والغربية، وهي محاولة قديمة حاولها «قدامة بن جعفر» في القرن الثالث الهجري، غير ان المحاولة سقطت ورفض الأدب العربي اي مداخلة الى ذوقه او طبيعته.

وكذلك سقطت هذه الدعوى الجديدة وانكشف هدفها من حيث اتصالها بالتغريب والغزو الثقافي من ناحية ومن حيث استمدادها من مفاهيم الغرب من ناحية أخرى، وقد حمل لواء الدعوة الجديدة امين الخولي وعالجها في أكثر من بحث، وحاول ان يفرض عبارة «فن القول» كبديل مستحدث لكلمة (البلاغة) وكان في هذا الاتجاه جارياً على مفاهيمه القائمة على الأقليمية الأدبية والتي سطرها في كتاب (في الأدب المصري) وحاول بها ان يقسم الأدب تقسيماً مكانياً لا زمنياً، وان يعطي لأدب كل اقليم طابعاً خاصاً يفصله عن الأقاليم الأخرى.

وقد كشف كثير من الباحثين خطأ اتجاه هذه المدرسة ومفاهيمها وأبانوا عن

---

(١) راجع الفصل القيم الذي كتبه الدكتور بدوي طبانة في كتاب (البيان العربي)

الفوارق البعيدة بين اصطلاح الغربيين وبين الاصطلاح العربي ، وهي فوارق تختلف باختلاف هذا الفن في كل من الأدبين من حيث ان علوم البلاغة قامت أصلاً في سبيل الكشف عن إعجاز القرآن الكريم ، أما في الغرب فإن فن القول ليس سوى دراسة سيكولوجيّة فنيّة ، وان المصطلح يرجع الى ارسطو وافلاطون ، وقد استهدف في الأدب اليوناني والآداب الأوربية : دراسة ما سمي (الايجاد والترتيب والتعبير) وهي أهداف تختلف عن أهداف علم البلاغة العربية الذي قام قياماً طبيعياً مستمدّاً وجوده من طبيعة الأدب العربي بعد نزول القرآن، وكذلك قام فن القول في الآداب الأوربية من خلال طبيعتها الخاصة ، ولذلك فإن الدعوة الى استبدال فن عربي أصيل بفن غربي وافد، إنما هي انحراف بالأدب العربي عن اصالته ، أما القول بأنه هناك بلاغة مصرية تستمد من النفس المصرية والطبيعة المصرية فإن هذا القول فيه كثير من المغالطة والانحراف ، كذلك ان النفس المصرية ليست الا النفس العربية ، وليست الطبيعة المصرية إلا جزءاً من الطبيعة العربية ، ولذلك فليس هناك تعارض في الأداء البياني بين مصر كجزء وبين الأمة العربية ككل وأن المطالبة بتمصير البلاغة ليس سوى هدف تغريبي واضح ، يستمد دعوته من مذهب النقد الغربي الوافد ويستهدف نفس الغاية التي ترمي الى إخراج الأدب العربي من ذاتيته وقيمه ومزاجه النفسي ، وقد أشار الاستاذ عدنان الذهبي الى هذا الاتجاه ، وقال إنه ليس إلّا محاولة «لإشعار هذا الجيل سواء بتحكيم الذوق المصري أم في الأنس الى لغة الحياة المصرية او تخير نظر البلاغيين الذي ظهرَ فيهم أثر البيئة المصرية او تتبع آثار البيئة المصرية»

وقال : ان هذه محاولة لإشعار هذا الجيل بأن هناك ذوقاً مصرياً وحساً مصرياً ادبياً له ميّزاته ، وقال : إن فكرة تمصير البلاغة لن يكتب لها الحياة ، ونحن نقول إنه ليس هناك ذوق مصري مخالف او معارض له طابعه الذي يختلف مع الذوق العربي العام ، من شأنه ان يحدث فروقاً في الأدب او البلاغة وان الذوق المصري تطبعه عوامل الذوق العربي التي قامت على أساس الإسلام واللغة العربية والمزاج العربي الخالص .

وقد هاجم هذا الاتجاه الدكتور علي العماري (وهو أحد أساتذة البلاغة) فكشف عن خطأ المنهج الذي جرى عليه دعاة تمصير البلاغة، وما أوردته كتبهم من تحريفات وقال: هؤلاء الذين يفترون على العلم ويكذبون على القدامى ويكثرون في ثلبهم وتنقصهم ليقال إنهم وحدهم هم الذين عرفوا وقد جهل الناس ووصلوا وقد قصر العلماء.

وأشار الى أن بين يديه مذكّرات في علم المعاني أملاها الشيخ أمين الخولي على طلبته في الجامعة المصرية وفيها كثير مما يستحقّ أن يناقش، ذلك «ان البلاغة فن من الفنون قبل أن يكون علماً من العلوم، وما دامت فناً فهي تتطلب ما تتطلبه الفنون من حسن العرض وجمال التنسيق، ولكن ماذا يقول حين يرى أستاذ البلاغة في الجامعة المصرية يعرض هذا الفن كما يعرض واعظ العامة موعظته في اسلوب عامي ركيك.

وهاجم الدكتور العماري: الأسلوب الذي تدرس به البلاغة العربية في الجامعة، وعتب ان يكون هذا الاسلوب العامي الركيك هو الذي يلقى على طلبتها، وقال انه اسلوب يفسد ذوق التلاميذ.

(٢)

وقد حاولت مدرسة النقد الغربي الوافد الى جوار هذه الدعوة في مهاجمة البلاغة، القول بأن مفاهيم الأدب العربي في صياغتها إنما كانت مستمدّة من اليونان وركزت كثيراً على كتاب نشره الدكتور طه حسين عام ١٩٣٢ (بالاشتراك مع عبد الحميد العبادي) تحت عنوان (نقد النثر) منسوب الى قدامة بن جعفر، وهي رسالة مخطوطة بمكتبة الاسكوريال، وقد استغلت هذه الرسالة للتأكيد بان البلاغة العربية يونانية الأصل، وان قدامة قد اخذ بعض مفاهيم الاغريق فطعم بها مفهومه، غير ان الأمور لم تلبث أن كشفت عن خطأ الدكتور طه فقد نشر (علي حسن عبد القادر) مقالاً عام ١٩٤٨ في مجلة المجمع العلمي بدمشق أثبت فيها ان هذا الكتاب الذي طبع باسم (نقد النثر) ونسب خطأ الى قدامة إنما هو جزء من كتاب البرهان في وجوه

البيان لاسحق بن ابراهيم بن سليمان بن وهب عثر عليه في بعض المكتبات الأوربية ، وان عنوان الكتاب ليس (نقد النثر) ومصنّفه ليس (قدامة).

يقول الدكتور شوقي ضيف[1] : ان المؤلف لم يكتف بالأخذ عن كتاب الخطابة والشعر لأرسطو ، فقد توسع في الأخذ عن كتابه المنطق والجدل ومزج ذلك مزجاً واسعاً لعقيدته الشيعيّة ومباحث المتكلمين وسائل الفقهاء ، وهو مزج بدا فيه الجفاف ، وقد كاد البيان العربي عند ابن وهب يريد ان يستعجم ، ونفس الوجوه البلاغية التي عرض لها واقتبسها من (ارسطو) لم يحسن تطبيقها ، ويظهر ان البلاغيين ضاقوا به ضيقاً شديداً وآية ذلك أننا لا نجد له أي ذكر في كتاباتهم ، وليس من شك في ان ذلك يرجع الى ان ابن وهب أوغل في الاستعارة من التفكير اليوناني » .

وقد فسدت هذه المحاولة وفشلت حتى أن البلاغيين لم يتجهوا بعد الى مثلها ، يقول الدكتور شوقي ضيف : لم يطرد نشاط المتفلسفة في وضع قواعد البلاغة العربية على أساس المعايير اليونانية بعد كتابي نقد الشعر (لقدامة) والبرهان في وجوه البيان (لابن وهب) وقد تكون اهم الأسباب في ذلك ان في كل لغة ملاحظات بيانية خاصة بها ، وان من الواجب تسجيلها قبل تطبيق المعايير البيانية الاجنبية عليها ، وكان تطبيق (ابن وهب) خاصة إيذاناً بأنه ينبغي التحوّل عن جلب المعايير اليونانية لما أوغل فيه من حشد قوانين المنطق والجدل عن أرسطو» .

وقال : إذا كان اللغويون قد خمد نشاطهم البلاغي فإن المتكلمين ظل لهم نشاطهم وظل يؤتي ثماره ، ذلك أنهم بحثوا مباحث واسعة في إعجاز القرآن من حيث بيانه وبلاغته ، وشغلت نظرية هذا الاعجاز بيئة الفقهاء والمحدثين ، ويمكن تسجيل هذه الظاهرة بأنها « انحراف » لم يلبث الأدب العربي ان تجاوزه ، ومن الحق أن يقال إن التراث اليوناني عندما ترجم حاول التأثير في مجال البلاغة كما حاول ذلك في مجالات كثيرة وخاصة بعد نقل كتابي الخطابة والشعر لأرسطو في المنطق والجدل .

---

(١) كتاب البلاغة تطور وتاريخ .

غير أن طابع البيان العربي لم يتقبل هذا «الغزو» في سهولة ويُسْر، وفشلت محاولة قدامة في البلاغة كما فشلت محاولة عبد القاهر في النقد الأدبي. فقد حاول قدامة «إخضاع البلاغة العربية لأصول البلاغة اليونانية» فألّف كتاب «نقد النثر» مستمداً ذلك من منطق ارسطو وفلسفته، ثم كانت محاولة معاصره (ابن وهب) حيث نقل فصولاً كاملة من كتب ارسطو في الخطابة والشعر ومن مباحثه في المنطق والجدل.

غير ان محاولته باءت بالفشل، حين كشفت عن تعمل واسع، وأشاع في الكتاب جفافاً منطقياً وفلسفياً وكلامياً جعل البلاغيين يعرضون عنه اعراضاً شديداً. ولم يلبث البلاغيون ان تجاوزوا هذا الانحراف، فظهرت أبحاث الباقلاني والجرجاني والشريف الرضي والعسكري وابن رشيق وغيرهم، ثم جاء عبد القاهر في دلائل الإعجاز وأسرار البلاغة وعلى قواعده مضى الزمخشري في الكشاف.

* * * *

اما محاولة عبد القاهر في النقد الأدبي حين حاول ان يقيم قواعده على أسس فلسفية، فلم يتابعه فيها أحد فوقفت المحاولة في خطواتها الأولى وأعلنت فشلها، وهي نفس المحاولة التي بدأها دعاة مذهب النقد الغربي الوافد ولم تجد استمرارها هذا الوقت كله إلّا نتيجة للنفوذ الاجنبي الذي ظاهرها.

ثانياً: النحو العربي:

وجّه الى النحو العربي اتهامان خطيران: الاتهام الأول أنه مستق من المنطق اليوناني والاتهام الثاني انه غير صالح للعصر الحديث.

ثم جاءت الدعوة الى انشاء النحو الجديد.

وكلا الاتهامين صادران من أصحاب منهج النقد الغربي الوافد بهدف التشكيك في مقومات الأدب العربي ومناهجه.

وقد بدأ علم النحو بما قام به (ابو الأسود الدؤلي) بتنقيط المصحف : تنقيط إعراب، واحدة فوق الحرف (الفتحة)، وواحدة الى جانب الحرف (الضمة) وواحدة الى اسفل الحرف (الكسرة) وكان هذا اول بذور المصطلحات النحوية. ثم كان عمل (الخليل بن احمد) الحاسم حين استخرج بحور الشعر العربي، وأقام علم العروض الذي أقام الشعر على أوزان قلّما تختلف وكان ذلك مقدمة لوضعه قواعد النحو، وهو عمل عربي أصيل نابع من أعماق العقل العربي الاسلامي، ولم يكن متأثراً على اي نحو من الأنحاء بالفكر اليوناني، وان ما وجه إليه من شبهات ليس لها من البراهين الصادقة ما يجعلها حتى موضع الاحتمال لا الواقع، وقد عرض الدكتور عبد العال سالم مكرم لهذا الاتهام وواجهه في علمية واضحة حين قال : ان قياس النحاة من عصر ابي الأسود الى سِيبَوَيْه لم يكن قياس منطق او جدل بل قياس فطرة وطبيعة. فقد ابتدع (معاذ بن جبل) القياس قبل ان يتصل المسلمون بالفكر اليوناني حين قال لرسول الله صلى الله عليه وسلم :

اقضي بما في كتاب الله، قال الرسول فإن لم يكن قال فبِسنّة رسول الله : قال الرسول فإن لم يكن في سنّة رسول الله قال معاذ :

«اجتهد رأيي لا آلو» :

وقد ورد عن عمر بن الخطاب فيما كتب الى قاضيه (أبي موسى الأشعري) «الفهم الفهم لما تلجلج في صدرك مما ليس في كتاب ولا سنة، اعرف الاشياء وقس الأمور عند ذلك». فهل تأثر معاذ بمنطق أرسطو او جدل فلاسفة اليونان وهل تأثر عمر؟

وقال : اكبر الظن ان بعض المستشرقين لا يسلمون بأن النحو عربي النشأة وإنما نقل الى بلاد العرب من اليونان وبذلك تسربت العلة الى بنائه، وكان القياس الأساسي الأول في كل احكامه، وهذا خطأ وقع فيه بعض من كتبوا عن النحو، وأشار الباحث الى ان هناك من الغربيين من اعترف بأصالة النحو العربي ومنهم (يوهاك) في كتابه العربية : ولقد تكتلت القواعد التي وضعها النحاة العرب في جهد

لا يعرف الكلل ، وتضحية جديرة بالاعجاب ، تعرض اللغة الفصحى وتصورها في جميع مظاهرها من ناحية الأصوات والصيغ وتركيب الجمل ، ومعاني المفردات على صورة محيطة شاملة ، حتى بلغت كتب القوانين الأساسية عندهم مستوى عالياً من الكمال لا يسمح بزيادة لمستزيد.

ويقول الدكتور مكرم : وحتى في العصور المتأخرة بعد ترجمة منطق اليونان وفلسفة سقراط وارسطو الى العربية احتفظ النحو العربي باستقلاله التام وطابعه الخاص ، واقيسته المتميزة ، ذلك لأن أقيِسَة النحاة تسير في دروب ، وأقيسة المناطقة تسير في دروب اخرى وقال : إن اقيسة الخليل جميعاً كانت من وحي الفطرة والطبيعة وقد سئل :

[ أعَنِ العرب أخذْتَ هذه التعليلات ام اخترعتها من نفسك؟

قال الخليل : إن العرب نطقت على سجيّتها وطباعها وعرفت مواقع كلامها وقامت في عقولها علله ، وان لم ينقل ذلك عنها ، وعللت انا بما عندي أنه علة لما عللته ، فإن أكُنْ أصبتُ العلة فهو الذي التمست ، وان تكن هناك على غير ما ذكرته محتمل ، ان يكون علة له.

وحسم الباحث الرأي في أمر صلة النحو العربي بالمنطق اليوناني فقال :

ان النحاة الاقدمين في عصر ابي الأسود الى عصر سيبَوَيْه لم يتأثروا بالمنطق اليوناني فتعليلاتهم وأقيِستَهم ليست يونانية الأصل او اجنبيّة المنبت ، ولكنها عربية في صميمها استخرجوها في ضوء الفطرة والطبيعة لا في ضوء المنطق والجدل ، ثم نمت هذه التعليلات على يد خلفائهم فكان البناء للنحو ، وأصبح حصناً يحرس بناء اللغة من التصدّع ، ويحافظ على كتاب الله من العامية المستبدّة والشعوبية الجائرة . وقال إن ترجمة المنطق اليوناني الى العربية لم تتم في هذه الفترة من التاريخ ، حتى يمكن للنحاة الأوائل ان يتأثروا به كما يقول بعض الباحثين.

واستشهد الباحث بما أورده (ت . ج . دي بور) في كتابه (تاريخ الفلسفة الإسلامية ) حين قال : لم يشرع في نقل كتب اليونان في الطبيعة والطب والمنطق الى

اللسان العربي إلّا في عهد المنصور (وخلافة المنصور عام ١٣٦ هـ مع ان أبا اسحق الحضرمي (الذي خلف سيبويه) توفي سنة ١١٧، فكيف يتسنى لأبي اسحق ومن عاصره ان يتأثر بالمنطق اليوناني والترجمة الى العربية لم تزدهر إلا في النصف الثاني من القرن الثالث الهجري.

وقد ظل النحو العربي مصوناً من اقيسة المنطق حين ازدهرت الترجمة، وقال دي بور: إن علم النحو اثر رائع من آثار العقل العربي بما له من دقة في الملاحظة، ومن نشاط في جمع ما تفرق، ويحق للعرب أن يفخروا به»ا. هـ.

(٢)

أما الشبهة الاخرى التي أثيرت حول (النحو العربي) فهي شبهة الصعوبة والتعقيد. وهي الشبهة التي نفذ منها الدكتور طه حسين الى محاولاته في ظل منهج النقد الغربي الوافد.

فقد تحامى الدكتور ان يخوض مع الخائضين في امر اللغة والعاميات وغيرها على النحو الذي ظل يحفظ له في تقدير الناس انه من دعاة الفصحى، ولكنه أوغل فيما يتعلق بدراسة اللهجات وركز على أمور النحو، ووقف موقفاً غير معارض لما كتبه سلامة موسى وغيره، كما أيّد موقف «عبد العزيز فهمي» في الدعوة الى الحرف اللاتيني، ودعا ابراهيم مصطفى الى تأليف كتاب «تيسير النحو» وكتب في السنوات الأخيرة مقالات بطريقته الجديدة في إدخال الشكل الى الكلمة كان يقول (طاها) بدلاً من طه، وهي دعوة سخيفة لم تجد تقبّلاً من اقرب الناس إليه وممن أيّدوه في مواقف (الشعر الجاهلي) و(مستقبل الثقافة) من أمثال العقاد وغيره، ويعرض الدكتور محمد محمد حسين لأصحاب الدعوة الى تيسير النحو، والنحو الجديد فيقول: «أصحاب النحو الجديد او ما يسمونه تيسير النحو، شعبة من تلك الفرقة الموكلة بهدم تراثنا وقطع كل صلة تربطنا به، فهم لا يهدمون لان الهدم هو وسيلتهم الى البناء من جديد كما يزعمون، ولكنهم يهدمون لأن الهدم هو هدفهم وغايتهم.

«زعم اصحاب القواعد الجديدة ان قواعد النحو التي عاشت اثني عشر قرناً سخيفة معقّدة وزعم لها صاحبها انه سيلخص لهم هذه القواعد في كلمات.

بقي ان نسأل أصحاب التيسير: كيف يصنع الناس بكتب التفسير والحديث والفقه وشروح دواوين الشعر التي تمتلىء صفحاتها باصطلاحات النحو المتداولة التي حكموا عليها بالإعدام، لأنها لا يستغنى عنها حين تعرض لتوضيح المعنى او بيان الفرق بين قراءة وقراءة ورواية ورواية. وبقي ان نسألهم أيضاً هل استشرتم العرب جميعاً فيما صنعتموه، بل استشرتم المسلمين الذين لا يستغني فقهاؤهم عن تلك الكتب التي لا تستعمل غير اصطلاحات النحو الذي يريدون أن يلحقوه بكل ما يريدون إعدامه، والقضاء عليه من (قديم) أم أنهم لا يعرفون أن هذه اللغة ليست مُلْكاً لطه حسين وابراهيم مصطفى والقوصي ومن شايعهم، وهي ليست مُلْكاً للعرب وحدهم ولا للمسلمين وحدهم من أهل هذا الجيل. وإنما هي أمانة يتحتم تسليمها للأجيال من بعدنا، كما تلقيناها ممن قبلنا، وأنا اعلم أنهم يقولون: كلّما حدّثناكم في شيء أقحمتم عليه الإسلام وقلتم القرآن، لا حجة لكم إلا هذا، لا تعلة لكم سواه، ونحن نقول: «نعم» القرآن والاسلام في تقديركم شيء هيّن يسير، وهو في تقديرنا كبير خطير، ونحن لا نبالي شيئاً تزينونه وتزخرفونه إلا أبعدنا عن القرآن، والإسلام عندكم لون من الألوان، وواحد من اعتبارات كثار، وهو عندنا كل شيء، به نَحْيا وعليه نموت. وذلك لأن الحياة عندكم نعيم وزخرف ومتاع، وثم لا شيء بعد ذلك إلا الفناء، فلا قيمة عندكم لشيء لا يتحول الى لذة او شهوة او ارقام. أما نحن، فالحياة عندنا معبر للآخرة وطريق إليها.

لذلك كان الأدب عندكم لهواً ومتاعاً وخرافات واوهاماً، لذة للشذاذ الفارغين، وكان عندنا أسمى من ذلك وظيفة وأعز مكاناً، مع ذلك كله القرآن والاسلام هو سبيلنا الى العزة في الدنيا التي تطلبونها ولا ترون سواها، لان الذي يفقدهما يفقد الضمير، ومراقبة النفس ومحاسبتها في الصغير والكبير، ويفقد الدافع القوي الصادق الى العمل المثمر النافع، ويفقد الحصانة والمتابعة التي تجعله يتماسك ولا ينهار امام الشهوات والمغريات.

أصحاب التيسير كانوا يضعون امام اعينهم : التقسيم الغربي في نحو بعض اللغات الأوربية الذي يقسم الجملة ، conplanent Supject Bredicate,

والدليل على ذلك ان أصحاب التيسير آثروا استعماله كله (تكملة) وهي الترجمة الحرفية لكلمة (complment) على اصطلاح البلاغيين المشهور وهو (فضلة)

وفات هؤلاء ان اللغات الأوربية التي نقلوا عنها هذا التقسيم كالانجليزية لا تحتاج لعلم يقابل علم النحو عندنا معربة ، اما المعرّب من لغاتهم مثل الألمانية ومثل الفعل في الفرنسية فهو لا يزال يحتاج في ضبطه الى قواعد تفوق قواعد العربية في أقسامها وفروعها.

ارجع الى اي كتاب ابتدائي في الألمانية لترى الى كم مجموعة يقسمون الاسماء ، وما يطرأ على كل مجموعة من تغير وإضافة ، في حالات الإعراب المختلفة ، التي تبلغ ثماني حالات افراداً وجمعاً.

ويرى ان علامة التعريف التي تقابل (ال) في عربيتنا تتبع الاسم الذي تلحقه في اعرابه ، وتختلف مع ذلك باختلاف نوعه بين مذكر ومؤنث وجماد ، لا سبيل الى تمييز بعضه من بعض بغير السماع ، وليرى ان الاسم الفكرة تسبقه أيضاً أداة تخضع لكل هذه التقلّبات السابقة ، وهي أداة لا وجود لها في عَرَبِيَّتِنا . وقد زعم طه حسين في تقريره عن التبشير : ان الناس مجمعون على ان تعلم اللغة العربية وآدابها في حاجة شديدة الى الاصلاح ، ورد نفور الطلبة من الدراسات العربية الى ان اللغة العربية وما يتصل بها من العلوم والفنون ما زال قديماً في جوهره بأدق معاني هذه الكلمة ، فالنحو والصرف والأدب تعلم كما كانت تعلم منذ الف سنة ويقول طه حسين : أزعم ان الوقت الذي يجب فيه ان نؤمن بأن العلوم اللسانية كغيرها من العلوم ، يجب ان تتطور وتنمو ، وتلائم عقول المعلمين والمتعلمين وبيئاتهم التي يعيشون فيها وحاجاتهم التي يدفعون إليها ، ومتى آمنا بذلك فإن التطور سيأتي وسيتحقق شيئاً فشيئاً ولكن لا بد ان نمهّد له الطريق . ا . هـ.

يقول الدكتور محمد محمد حسين : لم يمض سوى سنتين حتى صدر كتاب في

النحو نسّقه (ابراهيم مصطفى) على ما تخيله (طه حسين) من ثورة، وقدم له طه حسين نفسه، واقترح له اسماً عريضاً ضخماً فيه كثير من التبجح والادعاء فسماه (إحياء النحو) والقول بان احياء النحو هو الحلقة الثانية من سلسلة تيسير النحو.

«والمذكرة صريحة في الكشف عن نيّة صاحبها، وعن أسلوبه في استدراج الناس، والبدء بالهين اليسير الذي لا يفاجئهم، ليتدرج منهم الى الخطير، إنه لا يسقيهم السم الزعاف لساعته، لأنه يلفت الأنظار ويثير الشكوك، ولكنه يسقيهم سمّاً بطيئاً يصل الى غرضه دون أن يكشف عن الجريمة».

ويتصل بهذه الدعوات دعوات تتصل باللغة العربية منها الدعوة الى الكتابة بالعامية التي أثارها سلامة موسى وأنيس فريحة وغيرهما، ومنها الدعوة الى الكتابة بالحروف اللاتينية أثارها عبد العزيز فهمي وسعيد عقل وغيرهما. وكلّها محاولات تغريبية شعوبيّة تهدف الى إخراج الأدب العربي من ذاتيته وقيمه[١].

(٢)

## التمصير والفرعونية

كان للدعوة الى الفرعونية أثرها في مجال الأدب العربي فقد كانت عاملاً مؤثراً باسم الدعوة الى تمصير الادب وإبراز اهداف الفكرة الفرعونية في الأدب العربي، وهي في الأهم اخراجه من مفهوم (التوحيد) وإدخاله في مفهوم (الوثنية) وذلك بتقريب عبارات المومياء والطريق الجنائزي والزخارف واستعراضات المعابد والكاهن والذبيحة وتقريب القرابين.

وقد ارتفع صوت الدكتور طه حسين في فترات متعدّدة، بالدعوة الى اعتبار الفن الفرعوني مدخلاً الى الفكر العربي كله، وذلك بدعوى انه عنصر من عناصر الغذاء الروحي والعقلي للشباب، وقد كشف الاستاذ محمد محمد شاكر عن هذا المدخل الدخيل فقال: ان اعظم[٢] الآثار الفنية الخالدة التي نشأت وترعرعت

(١) عرضنا لهذه الدعوات في كتابنا (اللغة العربية بين حماتها وخصومها) لدينا بحث خاص عن (الفصحى لغة القرآن) (٢) الرسالة ١٩٤٠

وامتدّت تحت ظلال الكنيسة والعقائد المسيحية ، وكذلك تتميز الفنون الصينية والهندية بالاجتماع الوثني الذي يعيش فيه الفنان الصيني والهندي ، ونحن لا نشك في ان اعظم الفنون والآثار عامة قد كان نتيجة لازمة للعقيدة الدينية وثنية كانت أو إلهية ، وللطبيعة الجغرافية التي تمد عليها ظلالها . وان الدين والعقيدة هما عماد الاجتماع وأصله وأعظم مؤثر في توجيه أغراضه وحياطتها وتدبيرها وتوليدها .

فهما اذن اصل قائم في الحضارة التي تدين بهما مهما تطورت بعد ذلك وخرجت عليهما فأهملتهما ، ذلك ان الشعوب تحتفظ من الأديان بخصائص كثيرة لا يمكن ان تؤثر فيها تطورات الحضارة الحديثة الخاضعة للعلم والسياسة وما إليهما ، فالفن الفرعوني من غير شك ليس إلّا نتاجاً مركّباً من الوثنية المصرية الفرعونية والطبيعة المصرية الرائعة القوية .

وأثرها بيّن في هذه الأبنية الضخمة بتماثيلها الغريبة المتقنة المختلفة الدلالات على المعاني الدينية المصرية القديمة ، وعلى الأصول الاجتماعية الخاضعة للوثنية الفرعونية التي كان يعيش فيها الشعب المصري القديم ، فهذه الديانة القديمة الجاهلية التي عبدت أوثانها وتقدّست بعقائدها الباطلة وخضعت لأساطيرها الرهيبة المختلفة ، واستمدّت تهاويلها من الإيمان بجبرية هذه الأوثان والقوى الطبيعية المختلفة كالشمس والفيل والتمساح وكذا وكذا من الأوهام الغالبة هي التي انتجت هذا الفن المصري القديم بمعابده وتماثيله وكتبه الهيروغليفية المعبّرة أدق تعبير عن حقيقة المدى الفني للآثار المصرية الفرعونية .

وعلى ذلك فيجب ان نقرر ان الفن المصري الفرعوني — على دقته وروعته وجبروته — إن هو الا فن وثني جاهلي قائم على التهاويل والأساطير والخرافات ، التي تمحق العقل الإنساني . وتمثال نهضة مصر الذي اقامه (مختار) لا أرى فيه إلا تقليداً فاسداً لآثار حضارة قد دثرت وبادت ، ولا يمكن ان تعود في ارض مصر مرة أُخرى بوثنيتها وأباطيلها وسحرها وخرافتها ، نعم ، هو تقليد رائع يدل على قدرة الفنان الذي نحته ، ولكنه لا معنى له الآن في مصر الإسلامية . هل يستطيع الفنان الذي نحته وأقامه أن يعيد في مصر تاريخ الوثنية الجاهلية واجتماع الحضارة الفرعونية وما يحيط

بذلك من الأبنية الضخمة التي شادها أوائله ، والتي كانت وحياً للفنان الفرعوني الذي عبد الشمس وخضع لفرعون وأقرّ له بكل معاني الربوبية ، وآمن بالأباطيل والأساطير والتهاويل الدينية الوثنية الضخمة الهائلة المخيفة التي قذفها في قلبه أبالسة عصره من الجبارين والطغاة ، وهل يستطيع ان يجعل في شعب مصر وثنياً متعبداً للفراعنة والجبابرة بالخوف والرهبة والرعب حتى يتأثر بمعنى هذا الضرب من الفن المصري القديم.

لقد مر كل هذا ، لقد دثر ، لقد باد ، ان الأصول الفنية التي يكون فيها الفن فناً قلّما يتغيّر ، هي ممثلة ذاتية في كل الآثار على اختلاف انواعها وبلادها وأراضيها ، وأديانها ، ولكن روح الفن هي دين المجتمع وعقائده وطبيعة أرضه وسائر أسباب حضارته ، وهي التي تمنح الفنان القوة والقدرة على الإبداع ، إذن فدعوة الدكتور طه حسين الى الاستمداد من الفن الفرعوني ثم دعوته الى جعل اجتماعنا اجتماعاً اسلامياً ثم استمدادنا أيضاً من الفن الاسلامي تناقض عجيب ، في أصل الرأي ، لا يمكن ان يكون ولا ان يعمل به إلا اذا شئنا ان توجد لمصر حضارة مقلدة ضعيفة ملفقة من الأشياء ليست نتيجة ولا شبه نتيجة للاجتماع المصري الاسلامي الحديث.

(٢)

وفي مواجهة هذه الدعوة كتبت مجلة الانصار تكشف عن زيف هذه الدعوى وعجزها عن احتواء الفكر الإسلامي والأدب العربي : قال احمد صبري[1] :

استمرّ نشاط الدعاية الفرعونية ما يزيد على ربع قرن ، وكان الظن في هذا النشاط المفتعل ان ينتهي الى تحقيق المشروع القديم للفراعنة الذين طمعوا بواسطة التعاويذ في ان تعود الحياة السحرية فتسري في مومياءاتهم ومتاعهم ، وبذلك ينبعث الداء الفرعوني الخبيث في البلاد من أقصاها الى اقصاها وتعود الحياة القديمة كما كانت ، ولكن هذه السنوات التي انقضت في الصياح والتهليل حول هذه المومياءات

---

(١) مجلة الانصار م ١٩٤٠

قد عاونت على تقريب هذه الأجساد المنحلة في التلف، فما من قوة تستطيع ان ترد قضاء الله في هذه الجثث التي بليت طغياناً في ماضي عهدها والتي بليت في هذا العهد انتهاكاً من عبرة الله بالنظر إليها. إن صاحب الدعاية الفرعونية ومطيتها لم يكن في ذلك النشاط السابق المتواصل إلا واحداً من ثلاثة، فهو المترف الوصولي العاشق لذاته الذي يعتبر الفراعنة أجداده في المذهب، او هو الشعوبي الهدام الضعيف الحيلة الذي يتنكر بهذه الدعاية لينال مأرباً من العقيدة الإسلامية، او هو الساذج اللين ذو الطبيعة النسوية الذي تنبهر مشاعره من بريق الذهب وقصص المتاع وأدوات اللهو والمجون، فيلقى بنفسه القاء في احضان هذه الخرافات الذهبية.

ونحن إذا تتبعنا المؤامرات الشعوبية في الأمة الإسلامية وجدنا هذه الحركة الخزفية الأخيرة التي ظهرت في بلادنا العربية لتصوغ مادة القومية من مادة المتاحف والقبور تصل بنا الى مفترق الطرق بين اول الحق ونهاية الضلال او اول الوجود ونهاية العدم، فإما أن ترانا نلتفت فنرجع أدراجنا لنصعد مرة أخرى سلّم التماسك والتجمع والتوحّد في ضوء مقوماتنا التاريخية والثقافية والمبدئية الواحدة، وإما أن نمد قدمنا الى الدرجة الأخيرة فنهوي الى ظلمات القوميات الصغرى التي تتألف منها آلاف العصبيات والمشخصات الحزبية والطائفية، حتى ينتهي الأمر بتحلل كل فرد في نفسه دون شعوره بما حوله، كما تتحلل خلايا المومياء إذ تتساقط في صندوقها الأثري ذرة ذرة وخلية خلية. فالشعوبية إذن ليست نهاية الطريق في عالم التحلّل، وإنما هي بداية لسلسلة أخرى من العصبيات الوضيعة أشد إمعاناً في ضياع المعالم القومية والفكرية والاقتصادية.

فمن نماذج هذه الانشقاقات الفرعية في داخل المعنى القومي الفرعوني دعاية أصحاب الميول الأغريقية في شمال البلاد وهي دعاية قديمة أخذت تنتعش في ظل الحركة الفرعونية، اما بعد فنحن نعتبر عقيدتنا الاسلامية المؤلفة من عناصر الاعتراف بوجودنا الملائم في وطننا الحقيقي الذي ندافع عنه عند أقصى هذه الدائرة العربية التي هي المركز الأول لانتشار الاسلام في العالم، وبداية انتصاف الشعوب السائرة تحت لوائه، ولن نستطيع بداهة حماية هذه العقيدة التي تعيش فيها أنفسنا إلا إذا تمت وحدة الأمة العربية واتحدت اتحاداً عميقاً اجزاؤها المنفصلة» ا. هـ.

(٣)

وقد وجدت الفكرة الفرعونية من دعاتها الأول اقتناعاً بعدم صلاحيتها للبقاء في مقدّمة هؤلاء الدكتور محمد حسين هيكل الذي بعد أن قطع شوطاً طويلاً في تأييد هذه الفكرة عاد واعتذر عنها وقال:

أنا إذا دعوت الى فكرتي هذه، ودعوت إليها قومي المصريين، ودعوتهم إليها استجابة للحقيقة التي ذكرت من أن من لا ماضي له لا حاضر ولا مستقبل له. فإنما أنا أؤدّي واجباً قومياً يؤدّي الى أن يصل اهل الشام حاضرهم بماضيهم منذ عهد الفينيقيين إذا استطاعوا، والى ان يصل اهل العراق حاضرهم بماضيهم الى عهد آشور وبابل، هذه الحضارات الفرعونية والفينيقية والبابلية تتجاوز وتتصل على الزمان اتصالها على المكان، واعتقادي ان دراسات هذه الحضارات الغابرة التي قامت في مصر والشام والعراق وصور الشبه وصور الاختلاف بينها من شأنه أن يلقي كثيراً من الضياء على ما تطورت إليه الحضارة الإسلامية خلال هذه الخمسة عشر قرناً.

ويومئذ تبرز الفكرة الإسلامية او الفكرة العربية كما يحلو للبعض ان يسميها قوية ممتلئة جدة وحياة ونشاطاً وثابة الى ميادين هذه الحياة التي تحيط بنا قديرة على ان توجهها الى نواح جديدة، الى نواح ليست الفرعونية وليست العربية وليست اسلامية العصور الوسطى ولا هي اسلامية عصور الانحطاط التي تجاورنا ولا تزال تغمرنا، بل الى نواح تسبغ على الحياة الجديدة التي استمدت من العلم قوتها المادية «روح الحضارة الإسلامية» العريقة في سموّها المعنوي. ليست الدعوة لدراسة تاريخ مصر الفرعونية، مقصوداً بها اذن رد التاريخ على اعقابه ليصبّ في منبعه، ولا هي مقصود بها الى الإعراض عن دراسة تاريخ الشرق في مختلف عصوره ونجاحه في عصره الإسلامي التي تؤثر أعظم الأثر في تكويننا المعاصر» ا. هـ.

ولا ريب أن هذه النصوص تؤكّد فساد هذا الاتجاه وفشله في النهاية.

# مراجع البحث

هذا الكتاب في حقيقته هو عصارة المراجعات التي قام بها المؤلف في دراسة الأدب العربي والتي قدّمها من خلال موسوعة معالم الأدب المعاصر (٢٠ مجلداً) منذ عام ١٩٥٩ حتى الآن وأهم المراجع هي: المعارك الأدبية + المساجلات والمعارك الأدبية، وهما يضمّان أكثر من مائة معركة حول الأدب العربي الحديث ونظريات النقد الحديث وقد واجه هذه النظريات عشرات من المفكرين والأدباء على هذا المدى الطويل:

العلّامة أبو الحسن الندوي: أدب العرب.

الدكتور محمد محمد حسين: حصوننا مهدّدة من داخلها، ومقالاته الأخرى في مجلة الأزهر:

الدكتور محمد احمد الغمراوي: النقد التحليلي لكتاب الأدب الجاهلي وآثاره الأخرى.

العلّامة فريد محمد وجدي: الرد على الشعر الجاهلي وأبحاث أخرى نشرها في الأهرام.

الاستاذ محمود محمد شاكر: مقالاته في الرسالة والبلاغ في نقد: المتنبي، الفتنة الكبرى الخ...

الدكتور عمر فروخ: القومية والفصحى، والتبشير والاستعمار.

الدكتور محمد حسين هيكل: مقاله عن (على هامش السيرة) ملاحق السياسة الأسبوعية.

الدكتور محمد غلاب : مجلة النهضة ومقالاته في نقد الأدباء المعاصرين.

العلامة محمد بهجت الأثري : الى خط سير جديد في تدوين الأدب العربي.

الدكتور زكي مبارك : أبحاثه في مراجعة لآراء طه حسين في مجلة الرسالة.

السيد محب الدين الخطيب : (مجلة الفتح).

وقد راجعنا في ذلك كل انتاج الدكتور طه حسين تقريباً سواء ما نشره في مؤلفاته او ما كتبه في بطون الصحف والمجلات وخاصة (السياسة اليومية ، السياسة الاسبوعية ، الجديد ، الرسالة ، الثقافة ، الكاتب المصري).

(ترقب كتابنا طه حسين في ميزان الإسلام).

---

مؤسسة خليفة للطباعة
بولفار المدورة . البوشرية
تلفون، ٢١٥٦٢٨

الموسوعة الإسلامية العربية

(٨)

# التربية وبناء الأجيال
## في ضوء الإسلام

بقلم
أنور الجندي

دار الكتاب اللبناني - بيروت

دار الكتاب اللبناني
بيروت - لبنان
ص.ب ٣١٧٦ - برقيا (كتالبنان)
هاتف - ٢٥٧٤٧٠ - ٢٣٧٥٣٧
TELEX No 22865 K.T.L
LE BEIRUT

١٩٨٢

التربية وبنـــاء الأجيال
في ضوء الاسلام

# أبعاد البحث ومضامينه

الصفحة

بسم الله الرحمن الرحيم

# مدخل الى البحث

هناك سؤال يطرح نفسه في أُفق العالم الإسلامي بقوة ، وتلح الأحداث المتصلة في طلب الإجابة عليه ، وهي تقدمه اليوم على كل سؤال ، هذا هو :

ما هو الخنجر الذي طُعن به المسلمون ؟

لقد تحدث المصلحون عن مقاتل متعددة أُصيب بها المسلمون في كيانهم وركزوا على كل واحد منها على أنه هو الأساس والمصدر والهدف ، وترددت الإجابات بين سيطرة القانون الوضعي على الشريعة الإسلامية أو سيطرة الاقتصاد الغربي بشطريه على الاقتصاد الإسلامي أو سيطرة النظام السياسي الغربي على المسلمين أو سيطرة مفاهيم القومية والإقليمية والوطنية والعنصرية على مفهوم الإخاء الإسلامي .

ولكن امراً من ذلك كله لم يكن أشد خطراً من احتواء الركن الركين في بناء الامم : احتواء التربيــة والتعليم ، فذلك هو الخنجر الذي طُعن به

المسلمون في كل هذه المقاتل وهو الذي يتحتم عليهم اولاً ان ينزعوه من جسمهم قبل ان يعالجوا هذه المقاتل جميعاً، ذلك لأن أي علاج يسبقه سوف لا يؤدي الى أي رجاء يرتجى بالبرء والشفاء ، ما دام قائماً ينزف دماً ، ولن يكون لأمر ما من إصلاح أو تصحيح أو تحرير أو علاج ، أي أثر حاسم قبل ان يبدأ العمل من نقطة الصفر الأساسية : وهي نقطـــة الخنجر المغروس الذي ما زال ينزف بالدم .

ذلك الخنجر هو في حقيقة الأمر : التربية والتعليم التي سيطر عليها النفوذ الاستعماري واحتواها وعندما انحسر ظـله لم يسلمها الى أهلها مرة اخرى بل مضت تدار بإشراف اوليائه وتحت لواء اتباعه .

هذا هو الخنجر المغروس في الجسد الإسلامي والذي ما يزال ينزف دماً .

ولقد كان المستعمرون غاية في الدهاء والمكر والبراعة عندما بدأوا معركتهم من المدرسة وعن طريق برامج التعليم ومن خـــلال الإرساليات التبشيرية التي سبقت ووضعت منــاهج التعليم وألزمت وزارات المعارف والتعليم بأن تنقل مناهجها وتطبقها .

وقد استطاعت قوى الاستعمار ان تفرض هذه المناهج على المدارس الأميرية، ولم يسلم منها إلا قليل من المدارس الأهلية في مراحلها الاولى، ولكن ما لبث شبابها ان وضعوا في البوتقة عندمـــا وصلوا الى الدراسات العليا الجامعية التي كانت في قبضة حديدة من الاستعمار والتغريب حتى لا يفلت أحد ممن سيوكل اليهم أمر الصدارة والقيادة في المجتمعات الإسلامية .

وكانت المناهج والمقررات والكتب قد أعدت تمامـــاً ، وكانت المناهج والكتب القديمة قد أعدمت تماماً حتى لم يبق منها أي آثار للمراجعة التاريخية؛ ومن عجب ان داراً مثـــل دار الكتب المصرية وقد أنشئت قبل الاحتلال البريطاني لا تجد فيها ورقة تسجل المناهج أو المقررات التي كانت قبل الاحتلال.

هذه هي القضية كما يقولون : وإذا كنا نواجه اليوم مقاتل نازفة في مواقع خطيرة من فكرنا ومجتمعنا فإنما مردّ ذلك كله الى هذا الخنجر المدفون في اعماق الجسم الإسلامي.

وإذا كان المسلمون قد طعنوا في شريعتهم فاقصيت عن مجال التطبيق في مجتمعاتهم وحلّ محلها القانون الوضعي ، فإن مرد ذلك الى « التعليم » الذي خرج اجيالاً تحتقر الشريعة وتؤمن بعظمة قانون نابليون ، وإذا كان المسلمون قد طعنوا في لغتهم وبرزت دعوى «العاميات» في مختلف انحاء الوطن العربي وأكرهت امم إسلامية كثيرة على تغيير ابجديتها فإن مرد ذلك الى مناهج التعليم التي خدعت العرب والمسلمين بدعوى عظمة اللغات الأجنبية ودخول «اللاتينية» الى المتحف فلماذا تبقى «العربية» العجوز .

وإذا كان المسلمون قد طعنوا في مفهومهم الإسلامي للاقتصاد فإنما يرجع ذلك الى ان المسلمين والعرب درسوا في مدارس الإرساليات وفي المدارس الوطنية ايضاً ، وفي الجامعات درسوا أنظمة الاقتصاد الرأسمالي والماركسي على أنها هي وحدها الانظمة الموجودة في العالم ، وان الربا هو القاسم الأعظم على كل الأنظمة والمشروعات .

وإذا كان المسلمون قد طعنوا في مفهومهم السياسي الإسلامي فإنما يرجع ذلك الى تلك الصور البراقة التي قدمت لهم في مدارسهم وجامعاتهم عن الديمقراطية والليبرالية والجماعية وغيرها من أنظمة الغرب فخدعتهم .

وإذا كان المسلمون قد طعنوا في مفهومهم للعلم فإنما يرجع ذلك الى تلك المقررات المدرسية والجامعية التي ترد العلوم الحديثة من كيمياء وفيزياء وفلك وطبيعة وتكنولوجيا الى علماء الغرب وحدهم متجاهلة ذلك الدور الخطير الذي قام به المسلمون والعرب في بناء الطابق الأساسي الأول من مؤسسة العلم العالمية وأنهم هم الذين قدموا المنهج العلمي التجريبي الى البشرية كلها .

وإذا كان المسلمون قد طعنوا في مفاهيمهم الاجتماعية فإنما مردّ ذلك الى مناهج التعليم التي تدرس المجتمعات الغربيــة ومنهج مدرسة العلوم الاجتماعية الذي يقوم على إنكار فطرية الاسرة وأصــالة الدين وثبات الأخلاق ، وتدعو الى التطور المطلق والى الجــبرية الاجتماعية ؛ كل ذلك يدرسه أبناء المسلمين في مدارسهم ومعاهدهم وجامعاتهم على أنه حقائق مقررة لا على أنهـــا نظريات مؤقتة مرتبطة ببيئاتها وعصورها ، قابـــلة للخطأ والصواب ، لأنها من نتاج عقليات بشرية تخطىء وتصيب .

هذا هو الخطر الواضح من وراء الخنجر الذي طعن به المسلمون ؟

ومفهوم هـــذا الخطر هو ان النفس الإسلامية في العالم الاسلامي كله من حيث إنها انحسرت في بيوتها مفاهيم الثقافة الإسلامية القائمة على القرآن والسنّة وضعفت فيهـا القدوة التي تبني الشباب فإنها تسلم الى المدرسة شباباً غضّاً ، يحس بالفراغ في مجال وجدانه وعاطفته وفكره ، فلا يجد الى مفاهيم الإسلام سبيلاً ، ثم إذا بـه يلتقي بتلك المناهج التي تصور له فكر الغرب على صورة العقيدة ، وتملأ نفسه بحب تاريخ الغرب وترفع في نظره شأن الغرب ، وتقدم له العلم والاقتصاد والقــانون والاجتماع ، من نتاج مجتمعات اخرى على أنه هو الفكر الإنساني ، والثقافة البشرية .

وأين الفكر الإسلامي في ذلك كله والمسلمون لهم منهج حياة كامل، ولهم مفهوم جامع للحياة والمجتمع ، والسياسة والاقتصاد والتربية ؟

هذا كله مما لا يزال ضائعاً ، ولا يزال ناقصاً ، ولا يزال مهملاً .

ومن هنا فإن هذه النفس المسلمة التي عجزت عن ان تملأ فراغها الروحي والفكري بمقدراتها وقيمها لا بــد ان تملأه باي شيء ، ومما يقدم اليها زاهياً براقاً في كتب ملونة مزخرفة ، بينما هي تعجز عن ان تجـد من فكرها ما يرد عنها الخطر أو يصحح لها الشبهات أو يزيح عنها ظل التغريب والاحتواء.

تلك هي القضية الأولى في التحدي الخطير الذي يواجهه المسلمون اليوم في كل مكان ، ومن خلال هـــذه النقطة نصل الى كل قضية والى كل أزمة والى كل موقف .

فمن خـلال الطريق الطويل استطاعت قوى الصهيونية والاستعمار ان تحقق ما وصلت اليه لأنها استطاعت ان تبث فكرها في النفس الإسلامية وان تحتويها وان تنقلها من دائرة الإسلام المرنة الجامعة المتكاملة الوسطية الى دائرة الغرب المغلقة القاتلة .

ومن هذه النقطة بالذات نستطيع ان نصل الى كل ما نطمح فيه من وحدة وتقدم وقيام أمة الإسلام في أرضها بدورها الرباني الإنساني العالمي الذي هو فريضة محتومة والذي هو حق في أعناقنا جميعاً ، والذي يجب ان نلتقي عليه صادقين وإلا فنحن آثمون مقصرون مأخوذون بجريرة الذنب .

( ٢ )

يردّ بعض الباحثين أزمة التربية والتعليم الإسلامية الى وصول الحملة الفرنسية أو الاحتلال البريطاني لمصر أو الفرنسي للجزائر أو الى محاولات محمد علي في الجري وراء التبعية الغربية تجاوزاً للأزهر وحجباً له ، ملتقياً في ذلك مع الفرنسيين الذين عرفوا مقاومة الأزهر ، وما عرفه محمد علي من معارضة علماء الأزهر وعلى رأسهم عمر مكرم لاستبداده واهوائه .

ولكن الأمر أبعد من ذلك كثيراً وأشد عمقاً .

ونحن نعرف ان معركة حاسمة دارت بين الإسلام والغرب في مواطن مختلفة ، جاءت باسم الحروب الصليبية في قلب عالم الإسلام، عايشها المسلمون بالمقاومة والجهاد قرنين كاملين وانتهوا منها بالنصر المؤزر كما انتهى عدوهم بالهزيمة الساحقة، ولم يكن هذا نهاية الشوط بالنسبة للغرب ولم يتوقف طموحه في السيطرة على ارض الإسلام وبلاد الإسلام .

ومن قلب الحروب الصليبية وهزائم الغرب نبت جذر تلك المؤامرة على أيدي المهزومين ؛ لقد نتجت عن الهزيمة فكرة خطيرة قالت هذه الفكرة :

إذا لم يكن السيف قادراً على السيطرة على المسلمين فليكن ذلك عن طريق الكلمة... كان المعروف ان المسلمين قد غلبوا الغرب ودحروه لأنهم متقدمون حضارياً وعسكرياً، ومن خلال هذه المعارك انقض الغرب على ميراث المسلمين

ومناهجهم وعلمهم فاستوعبه ثم دك المعاقل وأخرج منها أهلها واستولى على الجامعات والمعاهد والوثائق ؛ وقطع طريق العدوة بين المسلمين وأوربا .

ومع محاولات الغرب الى ترجمة الفكر الإسلامي والسيطرة على ارض هذا الفكر في الأندلس وإخراج المسلمين منها كانت وصية لويس التاسع هي الضوء الكاشف أمام الغرب حين قرر ان تكون الحرب الموجهة الى عالم الإسلام هي حرب الكلمة وحرب الفكر، ذلك ان الغرب كان يعلم ان المسلمين لن يهزموا ولن يستوعبوا ولن يوضعوا في قبضة الغرب إلا إذا سقطت تلك المنارات العالية من مفاهيم الجهاد والمقاومة والحرية والتميز بالتوحيد والقرآن ، هذه العقيدة الراسخة كانت هي القوة الضخمة التي كونت عالم الإسلام ، وكانت ولا تزال وستظل القوة القادرة على دحر كل من يتصدى له .

إذن فلا بد ان تبدأ المعركة من هذه النقطة الخطيرة :

من نقطة تزييف العقيدة وامتصاص حيوية الدعوة ، وتفريغها من مضامين القوة والإيمان والجهاد حتى يفقد المسلمون هذا السر الخطير وحتى يصبحوا قطيعاً من السائمة التي يمكن ان تطوى وتقهر .

هكذا كانت وصية لويس التاسع بعد هزيمته في المنصورة تكشف عن هذا التحول في الحروب الصليبية من السيف الى الكلمة ؛ وهو ما يمثل الموجة الاستعمارية العصرية . لقد كانت نهاية الحروب الصليبية بداية حرب الفكر والكلمة ، ومنطلق المخطط الجديد للغزو الفكري والثقافي ومحاولة دحر الإسلام ( كفكر ) بعد العجز عن القضاء عليه كقوة سياسية وامة قائمة .

وتعدّ وصية لويس التاسع أخطر وثيقة في هذا الاتجاه فهي التي فتحت الباب واسعاً أمام معركة قوامها [التبشير والاستشراق والغزو الثقافي والتغريب] وقد قامت على أثرها مباشرة حركة أوربا المعروفة الى ترجمة القرآن والتعرف على الإسلام ومن ثم أخذت تتشكل تلك النواة في المعاهد الغربية وفي الكنائس

ترمي الى دراسة اللغة العربيـة والإسلام والقرآن للكشف عن الجوانب التي يمكن الوثوب منها والبحث عن النقـاط موضع الخلاف بين الفقهاء والمفسرين والروايات الضعيفة والشبهات وتجديد مـا أثارته الشعوبية والباطنية والقوى المعادية للاسلام وتنسيقه من جديد وإذاعته على أنه علم عصري يقوم على الدليل والبرهان .

وقد ظاهر هذه الحركة ـ لكي تتم محاصرة الفكر الإسلامي ـ عملية نقل التراث الإسلامي من البـلاد العربية والإسلامية بواسطة القناصل والتجار ، وهي عملية استيلاء مكملة لما تمّ في الأندلس من سيطرة على الجامعات والمعاهد وإخراج المسلمين منها ، على الرغم من قاعـدة المسلمين الأساسية الواضحة التي كانت تؤمن بأن العلم للجميـع ، حتى العلم التجريبي ، وليس من أسرار الأمم كما تصنع الدول الحديثـة لتحول دون المسلمين خلال قرن ونصف قرن من الحصول على أصوله ومعادلاته مع أنهم هم الذين وضعوا أسسه وقواعده وساهموا في بناء ركائزه ومقوماته .

لقد كان المسلمون في جامعات الأندلس وصقلية يفتحون كل الأبواب للعلم ولا يردون غريباً عنه ، إيماناً بوصية دينهم ، غير ان الغرب في تناهي حقده وتعصبه لم يقف عنـد حد التوصل الى مفاتيح العلوم ، بل إنه صادر الموقع الإسلامي كله وأخرج منه أهله إخراجاً ، وسيطر على كل المقدرات العلمية ثم ادعاها لنفسه وأعلن تبجحاً ولؤمـاً وخسة بأن المسلمين لم يكن لهم أي دور في بناء العلوم . وقد صادر كل ما كان في أيدي المسلمين حين أخرجوا من بلادهم الى الحد الذي أعجزهم عن ان يستأنفوا تجاربهم في الارض العربية التي هاجروا اليها .

ولقد كانت نصيحة لويس التاسع ووثيقته التاريخية تدعو الى هذا الاتجاه وترسم خطواته .

لقد بلغ لويس التاسع درجة القداسة في نظر الغرب لأنه حارب من اجل إخضاع المسلمين فهزم في مصر وقتل في تونس ، وإذا كانت الحملات الصليبية قد توقفت منذ استعاد المسلمون ( عكا ) بقيادة الأشرف خليل عام ( ٦٩٠ هجرية ١٢٩١ ميلادية ) وعلى أثر ذلك قامت الدولة العثمانية الكبرى بعدتسع سنوات من سقوط الحروب الصليبية وهزيمة أوربا وانحسارها عن بلاد الإسلام، هذه الدولة التي استمرت قائمة تحمي لواء الإسلام وتذود عن كيانه حتى عام ١٢٣٧ هجرية الموازية لعام ١٩١٨ الميلادي أي انها استمرت تحمل لواء الإسلام خمسة قرون ونصف القرن .

نقول : إذا كانت الحملات الصليبية قد توقفت منذ عام ٦٩٠ هجرية فإن أوربا لم تتوقف ، فقد بدأت حركتها كرة اخرى بعد وقت قصير حين تدافعت بعد سقوط الأندلس على الطريق الإسلامي الإفريقي من ناحية الغرب دون توقف: الاسبان والبرتغال ومن ورائهم الإنجليز والفرنسيون والهولنديون.

أما في أفق البلاد العربية فقد كان عام ١٧٩٨ هو علامة الخطر حين بدأت فرنسا في غزو مصر ولم تمر غير سنوات قليلة حتى كانت الحملة على الجزائر ، ومنها امتدت الى تونس فمصر والسودان ، ومنذ ذلك اليوم أخذت طلائع التبشير تظهر ، وطفقت حركة الاستشراق تزدهر ، وكانت بؤرة العمل هي ساحل البحر الأبيض الشرقي والجنوبي في مواجهة الشام من ناحية واستانبول من ناحية ومصر والجزائر من كل ناحية ونقلت المطابع وبدأت الإرساليات ، وتصارعت قوى البروتستانت الأمريكية وقوى الكاثوليك الفرنسية وتنافست على استيعاب أبناء المسلمين، ثم جاءت حكومات الاستعمار في كل البلاد العربية فأخذت مناهج مدارس الإرساليات ونفذتها توّاً .

وفي عديد من مصادر تاريخ اللقاء بين الإسلام والغرب نجد إشارة الى وصية لويس التاسع الذي كان أول من أشار الى تجنيد المبشرين في معركة

الكلمة لمحاربة تعاليم الإسلام ووقف انتشاره ثم القضاء عليه معنوياً واعتبار هؤلاء المبشرين في تلك المعركة جنوداً للغرب .

ومنذ ذلك الوقت اختيرت قاعدة العمل في قلب البلاد العربية واتخذت نقطة ارتكاز ومعقلاً لمعركة العقائدية والفكرية التي تستهدف حصار الإسلام والوثوب عليه، وقد اختيرت هذه الأراضي الممتدة على شاطىء البحر الأبيض الشرقي مسرحاً لهذا العمل منذ ذلك الوقت وتحركت أطراف العمل بين بيروت والقاهرة والقسطنطينية ؛ وفي نفس الوقت كان هناك عمل مماثل يتحرك في تونس والجزائر ومراكش وأعمال اخرى في مختلف اجزاء العالم الإسلامي وفي جاوه واندونيسيا والفيليبين .

ولقدسجل أحد الباحثين المشتغلين بالتبشيرفي أكبر مؤسساته هذه الظاهرة تسجيلاً صريحاً لا يدع معه مجالاً للشك الذي قد يراود بعض حسني الظن في صحة هذا المخطط وصدق الإرادة في العمل له .

ويصور ( نبيه أمين فارس ) خطة لويس التاسع ومداها في عبارات واضحة صريحة ؛ يقول :

« بينما كان الشرق الأدنى مطمحاً لأفكار بناة الامبراطوريات كان ايضاً مطمح انظار جماعة اخرى من الناس تنشد ان تنجز عن طريق الكلمة ما عجز اجدادها الصليبيون عن تحقيقه عن طريق السيف . وبعبارة اخرى تنشد احتلال مهد المسيحية وإخضاع العالم كله للمسيح. إن هذا الحلم المسيحي قديم قدم المسيحية ذاتها ، وهو يستمد وحيه الدائم من الوصية التي سجلها أول المبشرين: (القديس لويس) ولعل سبب سيطرة هذه الوصية كرة اخرى على عقول المسيحيين يعود الى اليقظة الدينية التي عمت انكلترا في اواخر القرن الثامن عشر واليقظة الدينية المقابلة لها في الولايات المتحدة التي تمثلت فيما سمي بروح انكلترا الجديدة . وعلى ذلك فقد شهدت السنوات الاخيرة من

القرن الثامن عشر والسنوات الاولى من القرن التاسع عشر ظهور كثير من الجمعيات التبشيرية التي كرست نفسها لحمل الإنجيل الى جميع البشر ، ويمكن ان يضاف الى هذين العاملين عامل آخر هو ازدياد المطامع السياسية والاقتصادية في ممتلكات رجل أوربا المريض (يقصد الدولة العثمانية الإسلامية). ومن المحتمل ان يكون لهذا العامل الأخير علاقة باختيار الشرق الأدنى ميداناً مفضلاً للنشاط التبشيري » .

وهكذا نجد نصاً صريحاً واضحاً يكشف عن آثار وصية لويس التاسع التي دعت الى استعمال الكلمة بدلاً من السيف في السيطرة على عالم الإسلام وقد كان ذلك عام ٦٤٧ هجرية تقريباً. وقد أشار كثيرون الى وصية لويس: يقول رينيه جروسيه مؤرخ الحروب الصليبية « إن الملك لويس التاسع هو في مقدمة ساسة الغرب الذين وضعوا للغرب الخطوط الرئيسية لسياسة جديدة» وان هذه السياسة تتمثل في تحويل الحملات الصليبية العسكرية الى حملات صليبية سلمية تستهدف الغرض نفسه وان يكون أحد اسلحة الحملات الجديدة هو الدس بين العرب وإثارة الخلافات والعمل على بقاء نارها مستعرة بين الأمراء المسلمين . ومن أهم أسلحة الحملة الجديدة تجنيد المبشرين الغربيين في معركة سلمية لمحاربة تعاليم الإسلام ووقف انتشاره والقضاء عليه معنوياً واعتبار هؤلاء المبشرين في تلك المعارك جنوداً للغرب ، كما دعا الى استخدام من يمكن إغراؤهم من مسلمي الشرق في تنفيذ سياسة الغرب ، وإنشاء قاعدة للغرب في قلب الشرق العربي تكون بمثابة نقطة ارتكاز له ولدعوته السياسية والدينية ؛ ومنها يمكن حصار الإسلام والوثوب عليه »[١] .

---

(١) راجع محمد علي الغتيت : كتاب الشرق والغرب من الحروب الصليبية الى حرب السويس ( المرحلة الاولى ) .

# البَابُ الأوّل

# الغزو التربويّ والتعليميّ والثقافيّ

# الفصل الأول

## مدارس الارساليات

بدأ الغزو التربوي والتعليمي والثقافي للعالم الإسلامي من نقطة واحدة هي « مدرسة الإرساليات » وامتد منهـــا الى الجامعة ، ثم امتد من الجامعة الى الصحافة ومجالات الثقافة المختلفة .

لقد اتخذت الإرساليات التبشيرية بنــاء على وصية لويس التاسع خطواتها في أوربا للعمل في مواجهة الإسلام عن طريق الكلمة ثم اختارت الموقع الذي جعلته نقطـــة ارتكاز وانطلاق لدعوتها في بيروت التي أعدت لذلك إعداداً سياسياً واجتماعياً واضحاً .

ثم تقدمت الإرساليات على خطين : خط الإرساليـــات البروتستانتية الأمريكية ، وخط الإرساليات الكاثوليكية الفرنسية ، ومن ثم وضعت فلسفة تربوية غربية تتراوح بين مذهبين مختلفين: هما في الأصل يستمدان أساسها من المسيحية الغربية ولكنها يختلفان في الطريقة ويصلان في الغـــاية الى هدف واحد هو استيعاب الشباب العربي والمسلم واحتواؤه وتعليمه على نحو يجعله يدأ من ايدي القوة الغربية وعيناً من عيونها .

ومن الناحية التاريخية يمكن القول إن بداية الغزو الغربي في مجال التربية والتعليم والثقافة بدأ في مصر بعـد الحملة الفرنسية مباشرة وفي خلال حكم محمد علي وعن طريق الخبراء الذين استقدمهم هـذا الوالي ، وكانوا من رجال الثورة الفرنسية ولهم مفاهيمهم التي صاغتها هـذه الثورة وفرضتها على فرنسا كمقدمة تفرضها على أوربا جميعاً وعلى الفكر العربي كله .

ومن انطلاقة محمد علي الى سوريا وانحساره عنها كانت القوى الراصدة قد أعدت نفسها للعمـل ، ووضعت لبنان في الظروف التي هيأته للانفصال عن الدولة العثمانية ١٨٦٠ واستقلاله ومن قبـــل ذلك كانت بعثات التبشير قـد ارتادته وأعـدت خططها ، وفي الجزائر كانت بعثات التبشير قـد بدأت مع الاحتلال ١٨٤٨ تقريباً، أما في مصر فقد جاءت فيعصر اسماعيل واستطاعت ان تحصل على الأراضي والمعونات وتركز نفسها كمقدمة لدورها بعد الاحتلال ١٨٨٢ . وهكذا انتشرت الخطة في رواق العالم الإسلامي كله وتأهلت للعمل الذي تركز اولاً واخـيراً في السيطرة على التربية والتعليم ثم الثقافة من اجل احتواء الأجيال وإعدادها .

وعندمـا سيطر الاحتلال كانت منـــاهج مدارس الإرساليات سواء في استانبول أو بيروت أو القاهرة هي الخطط الأساسية التي نقلت الى المدارس الوطنية مع تعديلات يسيرة .

وعندما خرّجت جامعـــات الإرساليات في بيروت أول افواجها بعثت هذه الأفواج الى مصر والى شمال افريقيـا كله لتحمل لواء الصحافة . وليس بعجيب ان تكون الصحافة العربية كلها من إخراج المارونيين خريجي الجامعة الأمريكية وجامعة القديس يوسف .

وحتى نقف على ارض صلبة في مجـال البحث نشير الى مـا أورده ( نبيه أمين فارس ) في وثيقته التاريخية [١] التي كشف فيها عن خطة لويس التاسع

(١) مجمع الابحاث : ايلول ١٩٥٨ م ١١ ص ٣٨٣ .

التي اتجهت اليها القوى الاستعمارية واتخذتها اسلوباً للعمل ؛ يقول :

من أهم الجمعيات التبشيرية التي ظهرت في هـــذه الفترة الجمعية التبشيرية الكنسية التي أسست في لنـــدن ١٧٩٩ والمجلس الأمريكي لمندوبي البعثات التبشيرية، وقد أرسل المجلس الأمريكي بعد تسع سنين من تأسيسه أول مبشريه الى الشرق الأدنى . و كانت المشكلة الاولى التي واجهت اولئـــك المبشرين هي اختيار مركز ملائم لهم . وقـدم سوريا عام ١٨٢٣ مبشران آخران وانتقلوا الى بيروت ، وكان غرض البروتستانتيين ان يتمكنوا بالاشتراك مع كنائس الشرق الناهضة من كسب الكفار الى دين المسيح ، غير أنهم سرعان ما وجدوا ان الإسلام لم يكن قد فقـد سيطرته على قلوب المؤمنين . وصمم المبشرون منذ البداءة على استعمال الكلمة حيث فشل استعمال السيف . وفي سبيل هذه الغاية أسسوا المطبعة الأمريكية اولاً في مالطة ١٨٢٢ ثم في بيروت ١٨٣٤ ، وأخـذوا يفتحون مدارس للبنين والبنات بصورة منتظمة حتى بلغ عدد هذه المدارس ثلاثاً وثلاثين في أقـل من هذا العدد من السنين ، وعكفوا على إنجاز تلك المهمة العظيمة : مهمة إعداد ترجمـــة عربية صالحة مقروءة للتوراة ، وعدوا فوق ذلك حمـل لواء الحرية الدينية بصورة خاصة والمطلقة بصورة عامة ا.هـ .

ذلك هو المدخل الى مخطط غزو العقل العربي الإسلامي والنفس العربية الإسلامية عن طريق الكلمة وهو مدخل إن بدا يسيرا في هذه الفترة فإنه قد اتسع من بعد حتى سيطر على مختلف اجهزة التعليم والتربية والثقافة واحتوى الجامعات العربية والمدارس بأنواعها وحول مجرى الأمة كلها الى تبعية خطيرة.

(٢)

يعدّ عام ١٨٦٥ علامة على بدء تنفيذ الخطة في بيروت بإنشاء أول مؤسسة ضخمة في قلب الوطن العربي يبدأ منها تاريخ الإرساليات :

يقول برهان الدجاني في بحثه المطول [١] : الجامعة الأمريكية في بيروت كانت تحمل اسم الكلية السورية الإنجيلية ، وكانت تعتبر عملها رسالة تبشيرية غايتها نشر المسيحية بالمذهب البروتستانتي ، ثم يقول الباحث : علمت المدرسة بالتجربة أن تأكيد الناحية التبشيرية من عملها قد ضيق حقل هـذا العمل بحيث أصبحت لا تجتذب سوى قسم من ابناء المجتمع العربي وأصبحت علاقاتها بالأقسام الاخرى تتسم بشيء من التوتر ، فالعلم يفرض ان يطلب لذاته لما في جوهره من حقيقة لا تفرض غير العلم نفسه (ومن ثم) غيرت الجامعة اسمها التبشيري وتنازلت عن مهمتها التبشيرية الخاصة مع احتفاظها ببعض الاشكال الموروثة عن ذلك العهد التبشيري ( وهي بذلك ) تتميز عن الجامعة الغربية الثانية في الوطن العربي [ جامعة القديس يوسف ] بانها بروتستانتية المذهب انكلو سكسونية الاتجاه الفكري ، بينما تلك كاثوليكية المذهب لاتينية الفكر ، اصبحت تختلف عنها ايضاً من حيث التكوين فاتجهت الجامعة الأمريكية الى المجتمع العربي كله (ومن ثم) حلّ التعليم الحر محل الرسالة التبشيرية .

---

(١) البحث نشر في صحيفة الجامعة الرسمية ( الابحاث ) ١٩٥٤ .

«فالجامعة الأمريكية مؤسسة خاصة وهـــذا سر تفوقها على المؤسسات الحكومية وقد أخذت عنها الجامعات الوطنية تراثها وايضاً مناهجها » .

ويشير نبيه أمين فارس الى تاريخ الجامعة الأمريكية فيقول : لقد رافقت الجامعة المتاعب السياسية خـلال الاستبداد الحميدي وعصبية رجال تركيا الفتاة هذا بالإضافة الى (المنافسة التي تواجهها الجامعة من قبل اختها الصغرى: جامعة القديس يوسف الجزويتية في بيروت ومن قبـل سبع جامعات وطنية في مختلف البلاد العربية منذ الحرب الاولى ) . ويقول « لقـد ظلت الجامعة الأمريكية في بيروت حتى نهاية الحرب العالمية الاولى هي المثالية الوحيدة في العالم العربي للثقافة الجامعية الغربية عامة والأنكلو سكسونية خاصة وكانت منافستها الوحيدة هي جامعة القديس يوسف » .

فمنذعام ١٨٦٥ الى ١٩١٨ وهي نهاية الحرب العالمية الاولى كانت الإرساليتان الفرنسية والأمريكية تعمـلان في بيروت أي خـلال فترة لا تقل عن خمسين عاماً وهما تقتسمان الشباب المتعـلم وتتوزعانه قبل ان تكون هناك جامعة عربية .

وقد أكدت الجامعة الأمريكية خطتها عـام ١٨٧١ على لسان راعيها (دانيال بلس) حين قال : [ إن هذه الكلية مفتحة الأبواب لكل الناس على اختلاف ظروفهم وطبقاتهم دون أي اعتبار للون أو لتـــابعية أو لجنس أو لدين ، وبإمكان كل إنسان سواء كان أبيض أم اسود أم اصفر ، سواء كان مسيحياً أم يهودياً أم محمدياً أم وثنياً ان يدخل هذه الكلية ويتمتع بكل ما تقدمه هذه المؤسسة من خدمات مـــدة ثلاث أو اربع أو ثمان من السنين ، ويخرج منها مؤمناً بإله واحـــد أو بآلهة عديدين أو غير مؤمن بأيّ إله ، ولكن يستحيل على أي إنسان ان يعيش بيننا مـدة متطاولة من الزمن دون ان يعرف ما هي الحقيقة التي نؤمن بها وما هي أدلتنا وحججنا التي نبني على أساسها إيماننا هذا » .

ثم يصل نبيه أمين فارس من إيراد هذا النص الى القول : بأن الجامعة الأمريكية هي في وقت واحد : مسيحية وأمريكية وعربية .

فهي (مسيحية) من حيث إنهـــا كانت ولا تزال تعبيراً حياً عن الخدمة والتضحية المسيحية ومن حيث سعيها لخدمة الله عن طريق خدمة عباده .

وهي (أمريكية) من حيث كون معظم ماليتهـــا تعتمد على المساعدات الأمريكية بل لكونها التعبير الحي عن خير مـــا في التراث الأمريكي من مثل عليا أساسها خدمة المجتمع وإشراك البشرية في الخيرات التي ينعم بها الأمريكي.

وهي ( عربية ) ليس من حيث وجودهـــا في بلد عربي بل لأنها كرست حياتها لكيما يكون للعرب حياة ولكي تكون حياتهم أفضل [١] .

ويشير الاستاذ نبيه أمين فارس الى ان مدارس الإرساليات التي بدأت في لبنان كانت فرصة للمنافسة الضخمة بين البروتستانت والجزويت وان إحدى ثمرات هذا العمل ( الجمعية العلمية السورية ) التي نشأت في احضـــان الجامعة الأمريكية وفيها دوت الصرخة الاولى للقومية العربية ، وسرعان ما انبرى الجزويت الى تقليد البروتستانت في ميدان الجمعيات العلمية كما قلدوهم في إنشاء المدارس فأسسوا الجمعية الشرقية وهناك كذلك ترجمة التوراة الى اللغة العربية التي بدأها الأمريكان ١٨٣٧ ونشروها كاملة عام ١٨٦٥ .

وأشار الكاتب الى ان الجامعة الأمريكية منذ ١٨٧٠ حتى ١٩٥٨ خرجت ٧٥٠٠ خريج منهم ١٤٠٠ طبيب ومنهم رؤساء وزارات واساتذة وقضـــاة وأطباء وسياسيون وصحفيون في جميع ارجاء البلاد العربية.

وان بها عام ١٩٥٨ ٣,٣٠٠ طالب يمثلون خمسين جنسية مختلفة كما يمثلون اربعين طائفة دينية وعدد الطالبات نحو عشر عدد الطلاب جميعاً .

---

(١) مجلة الابحاث الصادرة عن الجامعة الامريكية ١٩٥٨ .

ويشير الاستاذ حسن فروخ في محاضرة له عن أثر لبنان في ميدان التربية والتعليم الى أثر إنشاء المدرسة المارونيـة في روما عام ١٥٨٤ وقد تخرج فيها عدد كبير من اللبنانيين الذين كان لهم أثرهم في بناء النهضة العامـة وأشار الى ان عدد المرسلين تكاثر في لبنان بعد عام ١٨٤٠ حيث هبط بيروت عدد من الأدباء ، وقد حدث هـذا في ثلاثين سنة قبل ان يصبح لبنان متصرفية عام ١٨٦١ أما بعد ذلك والى ان أصبحت بيروت ولاية عام ١٨٨٥ فقد تطورت النهضة وبقي فضـل السبق لبيروت ، وكان الفضل في النهضة للمرسلين اولاً ثم لطائفة من الوطنيين اتصلوا بالمرسلين .

وأشار الأستاذ فروخ الى ان عدد المدارس التي انشأها المرسلون في لبنان بلغ مـائتي مدرسة مـا بين أمريكية وفرنسية وانكليزية وروسية والمانية وإيطالية وأقـدم المدارس عمراً : مدرسة عينطورة وأشار الى أهم مدرستين وهما : مدرسة القديس يوسف التي تعرف الآن بالجامعة اليسوعية وقد انشأها المرسلون اليسوعيون فيغزير عام ١٧٤٨ ثم نقلوها الى بيروت ١٨٧٤ والمدرسة السورية الإنجيلية والتي تعرف الآن بالجامعة الأمريكية وقد انشأها المرسلون الأمريكيون في بيروت عام ١٨٦٦ .

(٣)

انتشرت مدارس الإرساليات في مختلف اجزاء العالم الاسلامي بحجة أنها مدارس للنشء الأجنبي من أبناء الجاليات الوافدة ، فأصبح في كل قطر عديد من المدارس الفرنسية والانجليزية والألمانية والهولندية والإيطالية . تحت اسماء الجزويت والفرير واللاييك والأمريكان واليسوعيين .

وفي لبنان مدارس أمريكية واخرى فرنسية ، وفي مصر مدارس كاثوليكية واخرى بروتستانتية ، وقد بدأت هـذه المدارس دينية صرفة ثم تحولت الى علمانية نتيجة تحول التعليم الغربي نفسه بعـد الثورة الفرنسية من ديني الى علماني ، ولقد كانت هـذه المدارس تدرس تاريخ بلادها ولغاتها فلا يعرف التلميذ في المدرسة الإنجليزية إلا إنجلترا وجغرافيتها واقتصادياتها ، وقد تدرجت هذه المدارس من الأصغر الى الأكبر حتى أصبح لها جامعات ومدارس عليا ، وفي مصر كانت مدارس الفرير والراهبات والجزويت والليسيه ؛ وكلها تابعة لفرنسا . وقد بلغت الارساليات في فترة مـا بين عام ١٨٤٤ وعام ١٩٤٣ [ ٢٣ إرسالية ] باسم الراهبات و ٣٥ مدرسة للفرير ، بالإضافة الى كلية سانت كاترين وكلية سان مارك .

وقد ساعدهم الواليان سعيد وإسماعيل بالمال والأرض وأباحا لهم الاستيراد من الخارج دون أيّ ضرائب جمركية .

وكان ملوك فرنسا يتدخلون شخصياً من أجل دعم هذه المدارس كما حدث لإنشاء مدارس الجزويت عام ١٨٧٩ بنفوذ الملك لويس الرابع عشر فضلاً عن مساعدة نابليون الثالث الى مدارس سان جوزيف .

ولما غيرت فرنسا نظام التعليم عام ١٩٠٤ ، وأبعد عنه رجال الدين سمح لهؤلاء بالسفر الى الشرق للتبشير ، فوصـل عدد كبير منهم الى مصر والشام ودعموا مدارس الليسيه والفرير والجزويت ثم أنشىء المعهـــد الفرنسي للآثار الشرقية عام ١٩٠٨ .

وقد أحصيت مدارس الإرساليات الانجليزية فوجـدت ٢٤ مدرسة تابعة للبروتستانت والكاثوليك بالإضـافة الى كلية فكتوريا ( المعادي ) وفكتوريا (الاسكندرية) وكلية البنات الإنجليزية بالإسكندرية والكلية الأسقفية .

وبدأ النشاط الأمريكي عام ١٨٥٥ بهدف نشر المذهب البروتستانتي، وقد بلغت عام ١٩٥٨ ٨٤٧١ مدرسة وبها ١٠٩ آلاف تلميذ بالإضافة الى مدرسة البنات الأمريكية ( ١٨٦٠ ) وكلية البنات ( ١٩٠٩ ) والجامعة الأمريكية (١٩١٩) وكلية أسيوط ١٨٦٥ ومدرسة البنات بأسيوط ١٨٧٩ .

وهكذا تجمعت خيوط التعليم الأجنبي في مصر قبل الاحتلال البريطاني عن طريق الإرساليات مستهدفة تحقيق نفس الغاية .

يقول الاستاذ جرجس سلامة في كتابه تاريخ التعليم الأجنبي في مصر :

« إن الباحث في تاريخ التعليم الأجنبي في مصر منذ بدايته في القرن السابع عشر يجد ان هذا النوع بدأ لأغراض دينية بحتة ، حيث كانت البابوية تستهدف نشر نفوذها في الشرق وفي مصر خاصـة وإخضاع الأقلية القبطية الأرثوذكسية في مصر لرئاستها ، وقـد قوبلت هـــذه الإرساليات جميعاً من المسلمين بالإعراض التام. ثم نشطت الإرساليات للقيام بأعمال اجتماعية وصحية لتجتذب النـاس وتستميلهم اليهـــا فأنشأت المستشفيات والمصحات وقامت

بالخدمة – مستشفى هرمل والسبع بنـــات – .. وكانت الظروف العامة تساعد على تمكين التعليم الأجنبي في مصر ورسوخ أقدامه إذ إنـه وفد الى مصر في وقت كانت فيه الدولة العثمانية فيه ضعيفة بوجه عام، وكانت إنجلترا وفرنسا تتمعان بالامتيازات الأجنبية وعقدت أمريكا هي الاخرى معـــاهدة التجارة والملاحة مع الدولة العثمانية في بداية القرن التاسع عشر وانشأت لها قنصلية في مصر .

« ومنذ الحملة الفرنسية على مصر في نهاية القرن الثامن عشر خرجت مصر من عزلتها وبدأت انظار العالم تتجه اليها ، وبدأت الدول الغربية تطمع في زيادة نفوذها بهـا ، وساعد على ذلك ان حكام مصر كانوا يسترضون الدول الأوربية ورعـاياها بشق الطرق ، وظهرت هـذه الحقيقة بشكل واضح بعد معاهدة لندن ١٨٤٠ التي فرضت على مصر وصاية دولية .

« وقد بذل سعيد وإسماعيل جهـــداً كبيراً في إرضـاء الدول الأوربية وتشجيع رعاياها ( من اجل مركز الباشوية المصرية ) الذي لا يمكن حدوثه إلا بموافقة الدول الغربيـــة وكان من مظاهر هذا تشجيع المدارس الاجنبية ومنحها المنح والهبات .

« وبدأ المسلمون يلتحقون بهـذه المدارس بالتدريج ، خاصة الطبقة العليا التي كانت ترغب في ان ترسل ابناءها للتعلم في مدارس غير المدارس الحكومية التي يتعلم بها عامة الشعب ووجدوا في المدارس الأجنبية المجال الذي يمكنهم من تحقيق ذلك » .

## (٤)

ولقد زادت هذه الإرساليات عمقاً وقوة بعد الاحتلال البريطاني لمصر عام ١٨٨٣ ، فقد زادت الوفود الأجنبية واتسع نطاقها حتى انه بينما وفد الى مصر قبل الاحتلال خمس ارساليات كاثوليكية نسائية في الفترة ما بين ١٨٤٤ — ١٨٨١ فإنه قد وفد الى مصر بعد الاحتلال ثماني عشرة إرسالية نسائية بين عامي ١٨٨٢—١٩٤٣ ، كذلك تم إنشاء ٣٠ مدرسة للفرير بعد الاحتلال . وقد ساعد على هذا ان الاتفاقية التي وقعتها بريطانيا وفرنسا عام ١٩٠٤ والتي عرفت بالاتفاق الودي نصت على ان تتمتع المدارس الفرنسية في مصر بنفس الحرية التي كانت تتمتع بها في الماضي [١] وقد ظل التعليم الفرنسي اكثر انواع التعليم الأجنبي انتشاراً حتى بعد الاحتلال البريطاني كانت الارساليات التي تمثل التعليم الأجنبي وتعليم الجاليات في وقت واحد مستقلة ومنعزلة عن رقابة الدولة حتى أصبحت دولة داخل الدولة [٢] وظل ذلك التعليم يوجه النشء الوجهة التي يراها ويصبغهم بالصبغة التي يريدها دون إشراف فعلي من الدولة عليه ، واستقطب هذا التعليم وهذه المدارس الطبقة الغنية الأرستقراطية في البلاد [٣] التي

---

(١) تاريخ التعليم الاجنبي في مصر .

(٢) تاريخ التعليم الاجنبي في مصر .

(٣) تاريخ التعليم الاجنبي في مصر .

تستطيع ان تدفع المصاريف ؛ مما خلق طبقة ارستقراطية ثقافية تعلمت بهذه المدارس وكانت تسير امور هـذا البلد مما زاد في نفوذ هذا النوع من التعليم الى حد كبير .

وقــد سهل تحرر الإرساليات من رقابة الدولة أو إشراف الحكومة على القائمين بهذا النوع من التعليم ان يستخدموا مدارسهم للدعاية لبلادهم وتوجيه النشء وجهة خاصة دون ما رقابة من الدولة. ولذلك كانت الكتب المستعملة في هذه المدارس مليئة بالإشارات الى عظمة هذه الدولة التي تتبعها المدرسة ، بل بلغ الأمر الى حد ان اشتملت بعض الكتب المستعملة على معلومات خاطئة مضللة عن مصر والعرب والإسلام .

ومن هنا فقد ساهمت هذه المدارس في خلق جيل من أجيال الأمة له ولاء خاص لتبعية هـذه المدرسة أو تلك ، وكانت أبرز الأخطار المتصلة بمدارس الإرساليات هي :

أولاً : إغفال اللغة العربية وهي لغة البلاد القومية ، وكان من الضروري إتقان لغة أجنبية على حساب اللغة العربية ، هذا بالإضافة الى ما كانت توصم به هذه اللغة من نقص وضعف ، بينما لا توجد أي دولة في العالم تترك ابناءها يتعلمون لغة أجنبية منذ سن الرابعة قبل ان يتعلموا لغة البلاد الأصلية .

ثانياً : أسهمت هذه المدارس في تلقين ابنائنا تاريخ أوربا والدول الأجنبية المختلفة وحرمتهم في نفس الوقت من تاريخهم القومي والعربي والإسلامي .

ثالثاً : كانت هـــذه المدارس تتجاوب مع رغبات وتوجيهات سفاراتها ودولها بل إن مجالس إدارة أغلب هذه المدارس كان يرأسها السفراء والقناصل، وكان مجلس إدارة كلية فيكتوريا الإنجليزية يرأسه السفير البريطاني .

رابعاً : خلا هذا التعليم من رعــاية دين وأخلاق ابناء البلاد ، بل كان له

الاتجاه العكسي المؤدي الى الشعور بالتحلل ، كما انـه خلق نوعاً من الطبقة المستعلية على طبقات المسلمين في المدارس الوطنية ، وكانت نظرتهم الى اللغة والى الأمـة نفس النظرة « لا يختلطون بالشعب ولا يحسون بإحساس البلاد لأنهم لم يدرسوا مشاكلها ولم يتمرسوا على مشاركة الوطن مشاعره وأحاسيسه»[1].

خامساً : كان له أثره البعيد في تفكك الأسرة حيث تجد العائلة الواحدة مقسمة بين ثقافات متعددة : أمريكية وفرنسية وإنجليزية ، ووطنية ؛ ومن هنا فقد كان لكل فرد تفكيره الخـاص وفلسفته الخاصة ونظرته المختلفة الى الأمور .

ومما يتصل بتعليم مدارس الإرساليات نذكر ان هذه المدارس قد شكلت في ثقافة الطالب العربي المسلم مفاهيم خاطئة بما يتناسب مع اتجاهاتها واهوائها سواء أكانت دينية أم سياسية. وقد كانت الكتب المدرسية المقررة موضوعة بطريقة استعمارية ، وكان قوام هذه المعلومات : مصر بلد زراعي، مصر بلد مستعمر على مدى التاريخ، لا علاقة بين المصريين والعرب، الغرب هو مصدر النور وهو صـاحب الجنس الأبيض ، التعليم الإسلامي متأخر ، العرب بدو ورحل والاسلام دين صحراوي وهو سر تأخر المصريين .

الى غير ذلك من الشبهات والأكاذيب .

وقد كان التركيز في مدارس الإرساليات على ابناء الطبقة الراقية وبناتها وكانت مدرسة البنات العليا الانجليزية وبون باستور والفرنسيسكان تحفل ببنات الأعيان والوزراء وكان يتحتم على ابناء وبنات المسلمين الاشتراك في الصلاة ، وقد اشارت المدرّسة أنا مليجان الى هذا المعنى حين قالت :

في صفوف كلية البنات في القاهرة بنات آباؤهن باشوات وبكوات وليس

(١) المصدر السابق بتصرف .

ثمة مكان آخر ممكن ان يجتمع فيه مثل هـذا العدد من البنات المسلمات تحت النفوذ المسيحي وليس ثمـة طريق الى حصن الاسلام أقصر مسافة من مدرسة البنات .

وهم يستهوون الاطفال بالحلوى والكبار بشرائط الفانوس السحري، وان أول هم المدرس المبشر في مدارس الإرساليات (كما يقول الاستاذ حسين محمود) هو هدم الاعتقاد في تلميذه فيصبح الطالب مستخفاً بالمعتقدات ، أما خطوته الثانية فهي محاولة غرس تعاليم جديدة في ارض لم تعد تصلح للاعتقاد ؛ إن أشد النتائج فظاعة هو حض المبشرين للطلبة على المراءاة، فالأخلاق المسيحية كما يسميها المبشرون هي مقياس الاستقامة التي يتوقف عليها تمهيـــد الطريق أمام الشباب الراغب في النجـاح المدرسي . إن قولي ذات مرة أنا لا أوافق على الأخلاق المسيحية في مناقشة مع مدير المدرسة وكان يحثني على التمسك بها كاد يدخلني مستشفى المجاذيب لشدة الاضطهاد الذي واجهته في وقت كنت فيه تحت رحمة المدرسة [1] .

وأصعب منهذا وأشد إذا حاول التلميذ المسلم ان يجيب إجابة فيها كرامة لدينه أو امتــه فإن ذلك يقضي عليه بالرسوب عاماً بعد عام حيث يوضع في قائمة سوداء .

وقد أشار الى هذا المعنى مؤتمر التبشير عام ١٩٢٤ حيث قال :

« في كل حقل من حقول العمل يجب ان يكون العمل موجهاً نحو النشء الصغير من المسلمين وموزعاً فـيما بينهم ليحيط بهم وليكونوا منه على صـــلة مباشرة ، ويجب ان يقـدم هذا على كل عمل سواه في الاقطار الإسلامية فإن تنور روح الإسلام في الناشىء الحديث يبتدىء باكراً من عمره فيجب والحالة

---

(١) الرابطة الشرقية : ١٥ يونيه ١٩٢٩ .

هذه ان يؤتى بالنسء الصغيرمن المسلمين قبل ان يتكامل نمو عقليتهم واخلاقهم حينئذ وتستعصي على المبشر » .

وهكذا تتركز سياسة الإرساليات في توجيـه العناية الى النشء الصغير لتشكيله قبل ان يشكله أهله في إطار الإسلام ، والى بذل أقصى الجهد في إدخال البنات المسلمات في الاقسام الداخلية حتى ينعزلن عن محيطهن الإسلامي ويشكلن في اطـار الصلاة المسيحية والأدعية ولا يخرجن من المدرسة إلا بعد ان يكنّ قـد انطبعن بطابع الحياة الغربية وروح العقيدة المسيحية . هذه الفتاة هي التي ستكون زوجة مسلمة من بعد وستربي الجيل الجديد .

## (٥)

استطاعت الإرساليات في مصر في الثلاثينات ان تقوم بحركة ضخمة للتبشير بين المسلمين في مصر ، وأجبر عدد كبير من الشباب على ترك دينه ، وجرت تحقيقات قضائية حول وقائع متعددة وحوادث متصلة وصدرت احكام قضائية لم تنفذ ، واشارت الصحف المصرية الى ذلك في حينه ، واحتج وزير أمريكا المفوض في مصر على موقف الصحف المصرية إزاء حوادث التبشير ، وأشارت الصحف الى ان معاهد الإرساليات تفلت دائماً من العقوبة لأنهم أجانب لا يمتد اليهم سلطان القوانين المحلية ولأن سلطاتهم القنصلية توليهم عطفها وحمايتها ولأن معاهد التعليم الأجنبية – وكر هذه المحاولات – تتمتع في ظل الامتيازات الأجنبية بحصانة قوية (١) .

كما أشارت الصحف اكثر من مرة، الى كتب مقررة في مدارس الإرساليات تحوي طعناً في الإسلام وفي رسول الإسلام ومنها ما نشر عن كتاب الاجرومية الذي يدرس بمدارس الفرير عام ١٩٢٩ .

وأشارت الى كتاب ( Histoire Sainte ) أي التاريخ المقدس الذي يوزع على الفتيات المسلمات وفيه وصف شائن للنبي وان عقيدته هي مزيج

---

(١) الصحف ١٩٣٢/١/٢٨ .

بشع أو وحشي من اليهودية والنصرانية والوثنية وان هـــذه العقيدة ممثلة في القرآن الذي هو مجموعة إيحاءات مزعومة للنبي ، وقد كانت الصيحات تتوالى إثر كل حادث من هذه الأحداث ثم تنطفىء وتظل هذه الكتب تترك آثارها في الطلاب المسلمين والمسلمات .

وقـد أشار تقرير مطول عن التعليم في الإرساليات الى ان المؤسسات التبشيرية ( إنجليزية وإيرلندية والمانية وسويدية ودنمركية وأمريكية ) متفقة على وضع التوراة بين أيـدي الطلاب على انها كتاب تدريس أساسي وإجبار المسلمين على دخول كنيسة المدرسة مرة كل يوم .

وان العمل يجب ان يتم في مراحله المختلفة :

رياحين الاطفال هامة جداً والمدارس الداخلية تفصل المسلمين عن بيئاتهم الإسلامية وتعليم البنات له أثره الكبير . وفي المراحل الاولى يمكن التأثير على عقول الأطفال الغضة .

والتعليم العـالي يمكن من الوصول الى الطبقات المثقفة ممن سيكونون قادة الرأي في البلاد .

وهكذا يستخدم التعليم في تغيير تكوين النفس المسلمة والعقـــل المسلم وإفساد مفهوم الإسلام والعروبة والقرآن ومحمـــد وإقامة مفاهيم اخرى تعلو فيها قيم ليست هي قيم المسلمين والعرب ، وهكذا يتخـذ التعليم وسيلة الى استعباد الأفراد والامم ثم سوقهم الى التسليم بـل والإعجاب والحب للعدو الدخيل .

يقول هنري جب : إن التعليم في مدارس الارساليات المسيحية إنما هو واسطة الى غاية، هذه الغاية هي قيادة الناس الى المسيح وتعليمهم حتى يصبحوا افراداً مسيحيين ، وإن المدرسة شرط أساسي لنجاح التبشير ، وإن المدرسة

قوة لجعل الناشئين تحت تأثير التعليم المسيحي اكثر من كل قوة اخرى ، ثم ان هذا التأثير يستمر حتى يشمل اولئك الذين سيصبحون يوماً قادة في اوطانهم .

ويقول مستر بنروز رئيس جامعة بيروت : لقد أدى البرهان الى ان التعليم هو أثمن وسيلة استغلها المبشرون الأمريكيون في سعيهم لتنصير سوريا ولبنان .

ونشر لدفيك بزنهارد عام ١٩٠٥ مقالاً صور فيه الكلية السورية الانجيلية على أنها محاولة مدروسة لتمهيد الطريق أمام المصالح الأمريكية التجارية منها خاصة .

وقد احتضنت هذه الإرساليات الدعوة الى اللغة العامية مكتوبة بالحروف اللاتينية بالإضافة الى الأحلاف .

ويقول جون موت : إن مدارس الإرساليات لها رسالة وغاية قصوى ، هي ان تجعل الشعوب كلها في المستقبل تابعة للغرب وأوربا والكنيسة ، وإن المقصود الأول بالتبشير من طريق التعليم هم المسلمون .

وإنه يتحتم عند عرض الأديان ان يعرض الإسلام عرض عداء وخصومة واتهام للرسول والقرآن ، ولا نقف عند هذا ، بل نحاول ان نوقع الخصومة بين المسلمين والمسيحيين في الشرق باثارة حديث الحروب الصليبية وموقف كارل مارتل ، وينتهي بالإشارة الى ان قوة الهلال تقهقرت أمام راية الصليبيين وانتصار الإنجيل على القرآن .

وأن يشار دائماً الى ان الارساليات هي سبب النهضة الحديثة .

وقد وجه كثير من خريجي هذه الإرساليات الى ترجمة هذه الكتب المليئة بالأخطاء والأحقاد والشبهات لإذاعتها في عالم الإسلام ووضعها بين أيدي

الطلاب في مدارس الإرساليات والمدارس الأجنبية ثم سمح بها في الجامعات . ولطالما أذاعت الصحف أنباء عن كتب صودرت ثم اكتشف انها كانت بتوصية من تابعي معاهد الإرساليات وخريجيها .

ويتصل هذا بمن توفدهم الإرساليات الى بلاد الغرب ، وقد أوصى لويس ماسنيون على هؤلاء الطلاب حين قال : ان الطلاب الشرقيين الذين يأتون الى فرنسا يجب ان يلونوا بالمدنية المسيحية .

( ٦ )

في عام ١٩٠٦ عقد المؤتمر التبشيري في بيت احمد عرابي في القاهرة تحدياً وصلفاً وكان من ابرز قرارات المؤتمر : إنشاء مدرسة جامعة نصرانية تتولى كل الكنائس المسيحية الإنفاق عليها لتتمكن من مزاحمة الأزهر ، وأشارت التوصية إلى ما يأتي :

« ربما كانت العزة الإلهية قد دعتنا الى اختيار مصر مركز عمل لنا لنسرع بانشاء هذا المعهد المسيحي لتنصير الممالك الإسلامية » .

يقول الاستاذ جرجس سلامة في كتابه تاريخ التعليم الأجنبي في مصر :

« تكونت الجامعة الأمريكية في القاهرة على أساس الاتصال بالإرسالية وليس على أساس مستقل ، وذلك أنه لأسباب فنية أدخلت هيئة الإرساليات الأجنبية الجامعة الامريكية بالقاهرة في ميزانية [ Now World Movement Budget ] لتتمكن من إنجاز المشروع ، وبذلك ألحق مركز الدراسات للتدريب رجال الإرسالية بالجامعة الامريكية ، واصبح يسمى ( مدرسة الدراسات الشرقية ) حيث كان اثنان من رجال الإرسالية يدرسان بها .

وفي عام ١٩٢٢ رؤي أن تكون الجامعة مستقلة عن الإرسالية وأصبح لها كيانها الخاص . وقد تخرّج من الجامعة ثلاثة حصلوا على الليسانس عام ١٩٢٨ والتحقت أول طالبة حصلت على الليسانس ١٩٣١ وبدأ التعليم المختلط بالجامعة » .

وقد أشار التقرير العالمي الذي تقرر بنـاء عليه إنشاء الجامعة الأمريكية في القـاهرة إلى أهمية وجود هـذه الجامعة في مواجهة الأزهر الشريف ، كما أشار الى ذلك جرجس سلامة في كتـابه حين قـال : إن مجموعة من الرجال الخبراء قد طافوا العـالم عام ١٩١٦ للدراسة واستقر رأيهم على أن القـاهرة مركز استراتيجي هام لإنشاء هذه الجامعة ، ( ويذكر وطسون لماذا كانت القاهرة مركزاً لهـذه الحضارة فيبين كيف أن الأزهر له القيـادة الفكرية والاسلامية في العالم العربي ، ويقول إن شهادة من الأزهر بين العرب توازي شهادة الدكتوراه في اكسفورد أو باريس أو هارفارد في العـالم الغربي ( ثم يقول ) إن القاهرة هي مركز الصحافة العربية ، وإن أكثر من مـائة مليون نسخة من المجلات والجرائد تصدر سنوياً في القـاهرة ، وإن مصر هي مركز اللغة العربية الفصحى التي تعد لغة جميع الدول العربية ، وعلى هـذا الأساس استقر الرأي على إنشاء الجامعة الأمريكية بالقاهرة ) .

أما الدكتور وطسون فقد كانت له آراء خطيرة في مواجهة الاسلام ، وله كتاب كان مقرراً في الدراسة على الطلاب المسلمين تحت عنوان :

**( حروب صليبية مسيحية في مصر )**

ويعني بهذه الحروب الحملة التبشيرية ، وقد كتب في صدره :

أهديه لأمي وأبي اللذين قضيا حياتهما مبشرين في مصر .

ومن آرائه الخطيرة قوله : إننا نراقب سير القرآن في المدارس الاسلامية ونجد فيه الخطر الدائم . إن القرآن وتاريخ الاسلام همـا الخطران العظيمان اللذان تخشاهما سياسة التبشير » .

وكانت له دعوته الى هدم القيم الاسلامية في نفوس الطلاب ، وقد سجل له محاولة الى ازدراء المبادىء الاسلامية والمعتقدات والقيم الاخلاقيـة ، وقد

أشار الى أنها آخذة في الانحلال والتفكك ، ودعا الأجيال الناشئة الى تجاهلها وعدم الاهتمام بها ؛ ولقد كان يصور وجهته وعمله حين قال :

« إن الجيـل الناشىء الذي نتصل به نراه مهتمـاً كل الاهتمام لا بالاسلام ولكن بالمسائل المادية والإلحاد » .

ثم يقول : « ونحن نسر حين نستطيع أن نجعل فتى مسلماً يقبل مبادىء المسيحية ووحي المسيح » .

هكذا كانت مشاعر الارساليات واضحة صريحـة تصدر في الصحف وتقال علناً .

وقد كشف عنهـا الطلاب المسلمون مرات ومرات .

في الجامعة الامريكية في بيروت عـام ١٩٠٩ عندما اصدرت منشوراً رداً على احتجاج الطلاب المسلمين لإجبارهم على الدخول يومياً الى الكنيسة ، قـال المنشور :

« إن هذه كلية مسيحية أسست بأمـوال شعب مسيحي . هم اشتروا الأرض وأقاموا الأبنية وهم انشأوا المستشفى وجهزوه ولا يمكن المؤسسة أن تستمر إذا لم يسندها هؤلاء . وكل هـذا قد فعله هؤلاء ليوجدوا تعليماً يكون الانجيـل من مواده فتعرض منـافعه الحقيقية المسيحية على كل تلميذ ، وكل طالب يدخل مؤسستنا يجب ان يعرف سابقاً مـاذا يطلب منه . إن الكلية لم تؤسس للتعليم العلمـاني ولا لبث الاخلاق الحميدة ولكن من أولى غاياتهـا أن تعلم الحقائق الكبرى التي في التوراة ، وأن تكون مركزاً للنور المسيحي وللتأثير المسيحي ، وأن تخرج بذلك على الناس وتوصيهم به » .

ومثل هذا حدث عـام ١٩٣٢ عندما وقف ( عبد القادر الحسيني ) بعد تخرجه من الجامعة الأمريكية في القـاهرة فأعلن أن الطلاب يلزمون بالصلاة في الكنيسة وتقرر كتب تتهم الاسلام ورسوله والقرآن بتهم خطيرة . ولمـا

تصدى له رجال الجامعة واخرجوه نشر ذلك فى الصحف ( وفي جريدة البلاغ ) التي نقلت صفحات بالزنكوغراف عما تحتويه هذه الكتب المقررة على التلاميذ المسلمين .

وإذا كان المسلمون قد كشفوا أخطار الارساليات والتعلم فيها فإن المسيحيين ايضاً قد تنبهوا لهذا الخطر وفي ما يصوره جبران خليل جبران مثل واضح لذلك . يقول :

« فى سوريا كان التعليم يأتينا من الغرب بشكل الصدقة ، وقد كنا ولم نزل نلتهم ( خبز الصدقة ) لأننا جياع متضورون ولقد أحيانا ذلك الخبز ولما أحيانا أماتنا ، أحيانا لأنه أيقظ ( بعض ) مداركنا ونبه عقولنا (قليلاً) وأماتنا لأنه فرّق كلمتنا وأضعف وحدتنا وقطع روابطنا وأبعد ما بين طوائفنا حتى أصبحت بلادنا مجموعة معسكرات صغيرة مختلفة الأذواق متضاربة المشارب ، كل مستعمرة منها تشد في حبل إحدى الأمم الغربية وترفع لواءها وتترنم بمحاسنها وأمجادها ، فالشاب الذي تناول لقمة العلم من مدرسة أمريكية قد تحول بالطبع الى معتمد امريكي ، والشاب الذي يجرع رشفة من العلم من مدرسة يسوعية صار سفيراً فرنسياً ، والشاب الذي لبس قميصاً من نسيج مدرسة روسية اصبح ممثلاً لروسيا الى آخر ما هنالك من المدارس ومما تخرجه كل عام من الممثلين والمعتمدين والسفراء وأعظم دليل على ما تقدم اختلاف الآراء وتباين المنازع ، فالذين درسوا بعض العلوم باللغة الانجليزية يريدون أمريكا أو انجلترا وصية على بلادهم والذين درسوها بالفرنسية يطلبون فرنسا لتتولى أمرهم . وقد يكون ميلهما الى الأمة التي تتعلم على نفقتها دليلاً على عاطفة الجميل في نفوس الشرقيين ولكن ما هذه العاطفة التي تبني حجراً في جهة واحدة وتهدم جداراً من الجهة الأخرى ؟ ما هذه العاطفة التي تستنبت زهرة وتقتلع غابة ؟ ما هذه العاطفة التي تحيينا يوماً وتميتنا دهراً ؟ »

ويصور ميخائيل نعيمة خطر الإرساليات فيقول :

« لقد عرفت سوريا غزاة كثيرين فلم يكن من شنار عليها وهي الضعيفة أن ترضخ لقوة فوق قوتها ، إلا انها منذ اواسط القرن الماضي اخذت مهداً لغزاة ما ألفت من قبلهم غزاة جاؤوا لا ليملكوا أجسامها بل ليقبضوا روحها فقد شنوا عليها الغارة بالتوراة والانجيل والريالات والعقاقير ، فكانوا اشد ضربة عليها من كل ما سبقهم ، افتتح هؤلاء سوريا باسم الدين ، كان على المبشرين ان يزينوا مدنيتهم للسوريين كا لو أنها صفوة الكمال فحملوهم على احتقار مدنيتهم واحتقار أنفسهم ، ومن ثم فقد صوروهم للغرباء الذين أرسلوهم في حالة تقارب الهمجية فسلمهم جاهل ونصرانيهم وثني وكلهم كذبة ضد الديانة » .

وهكذا نجد ان الإرساليات كانت خطراً شديداً في نظر المسلمين والعرب والاسلام والمسيحية على السواء .

وقد صوّر بعض الباحثين نتائج جهود المبشرين فى مدارس الإرساليات فقال : « إن [١] هذه المدارس والمعاهد التبشيرية استطاعت ان تحدث في قلب المجتمع الاسلامي آثاراً خطيرة من حيث توجيهها لأخلاق تلاميذها من المسلمين وكذلك لعاداتهم وتفكيرهم الى انواع عديدة اهمها طابع أجنبي خاص اذا لم تكن روحه نصرانية واضحة فلا ريب أنه تمهيد لبث هذه الروح لأن إضعاف الروح الأصلية وتحطيم التعاليم والتقاليد القومية هو دائماً أول خطوة في سبيل إدخال روح وتعاليم جديدة » .

---

(١) مجمع الرابطة الشرقية — ١٥ يونيه ١٩٢٩ .

(٧)

كشف (شاتليه) عن مهمة الإرساليات في البلاد المحتلة فركز على أنها تستهدف نزع الاعتقادات الاسلامية وتثبيت الأفكار الأوربية ، وأنها تعمل على هدم اللغة العربية وجعل اللغات الأوربية في المقدمة حتى يمكن بث الأفكار التي تتسرب مع سيطرة اللغات الأجنبية .

وإن نظرة الى الآفاق المختلفة تكشف عن أبعاد هذا الخطر الساري في كل مكان في بلاد الاسلام ، وفي قلب أفريقيا تبدو الصورة شديدة الخطر ، يقول احمد سيكوتوري :

« لقد تعلمنا نحن المثقفين الافريقيين في مدارس الاستعمار تاريخ فرنسا وحروب الغال وحياة جان دارك . لقد قدم لنا الاستعمار من العلم والثقافة القدر الذي يرى أنه يخلق منا آلات ترتبط مصالحها بعجلة الاستعمار . لقد أراد المستعمرون للمثقفين الأفريقيين ان يفكروا بديكارت وبرغسون ولم يسمح لهم بالتفكير في قيمهم وثقافتهم وتراثهم الافريقي . لهذا لا يعرف كثير من شبابنا فلسفة المفكرين الافريقيين أمثال الحاج عمر بن سعد تال واحمد ساموري توري » .

● ● ●

وفي السودان يقول الدكتور عون الشريف قاسم :

السودان كثغرمن ثغور العروبة والاسلام فيافريقيا يعيش تحدياً له اهميته، فالوثنية لا تزال ضاربة في بعض اجزائه وكثير من المسلمين في اصقاعه النائية لا يجدون العناية اللازمة . ونحن في سباق مع الزمن فإن تخطيط اعدائنا يضع للسودان مكانة مميزة في استراتيجية كبرى من اجل السيطرة على القارة الافريقية وقد قسموا السودان الى ثلاث مناطق :

(الحزام الشمالي): وسيكون من الشمال المسلم وخطهمفي ذلك انيشككوا المسلمين في دينهم والتأثير عليهم عن طريق المدارس والمستشفيات وما اليها .

(حزام الوسط) : حيث تعيش اقليات غير عربية خاصة في جنوب شرق السودان وبعض مناطق الغرب . والفكرة هنا ان يثيروا هذه الأقليات عن طريق النعرات العنصرية وبث إرسالياتهم في جميع هذه المنطقة لتعطيل حركة الوعي الأسلامي من الانتقال من شمال القاهرة الى وسطها وجنوبها .

( الحزام الجنوبي ) وخطهم هـذا ان يوقفوا كل تيار عربي إسلامي وفي جنوب السودان اربعة ملايين أغلبهم وثنيون لا دين لهم » .

وفي إحصاء رسمي حديث ان عـدد معاهد اللاهوت التي تعد المبشرين والقسيسين والرهبان في أفريقيا الآن ٤٨٩ معهـداً وان في افريقيا ٥ ملايين طالب تحت سيطرة الارساليات ورجالها من المبشرين والرهبان .

ويقول الباحث : إن التعليم وهو أخطر وسائل التبشير وأعمقها أثراً هو مهمة الارساليات التبشيرية التي تقوم بدورها في أفريقيا أكمل قيـام وتنشر اجهزتها الدقيقة ابتداء من دور الحضانة ورياحين الاطفال والمدارس الابتدائية والمتوسطة بالاضافة الى الجامعات والكليات ومعاهد تخريج المبشرين وانتهاء بالمستشفيات وملاجىء الايتام والمكفوفين والجمعيات الخيرية .

وإن اخطر وسائل التبشيرهي دور التعليم حيث يتاح لأعضاء الارساليات من مدرسين ومدرسات تلقين الناشئة الاسلامية من بنين وبنات تعاليم دين المسيح وتراث فكره وتقاليد حضارته مشوباً ذلك كليـــة بصور من الكيد والدس والتشويه لعقائد الاسلام مثل ما يقال من ان الاسلام دين الوثنية أو أداة في يد الشيطان، وان نبيه الكريم رجل مجهول النسب لأنه محمد ( ابن عبد الله ) وقد جرت عادة العرب على اطلاق اسم ( عبد الله ) على كل من لا يعرف له نسب الى آخر هذه المزاعم والاباطيل، وما تزال كتبهم ونشراتهم وابحاثهم تسمم عقول الفتيـة والفتيات الأغرار ، وتعمق شقة الخلاف بينهم وبين أهليهم وتحول دون إنماء صلات المودة والإخاء . وهي تهدف جملة الى طمس كل تصور إسلامي في ذاكرة الشباب وقطع كل صـــلة متينة لهم بالله سبحانه وتعالى .

وإن ذلك يجيء تحقيقاً لوصايا مؤتمر المبشرين في القدس ١٩٢٤ حين أشار ( صمويل زويمر ) الى مهمة الإرساليات التي تستهدف إخراج المسلم من الإسلام ليصبح مخلوقاً لا صلة له بالله ، وبالتالي لا صـــلة تربطه بالأخلاق التي تعتمد عليها الأمم في حياتها ؛ وبذلك تكون هـذه الإرساليات ورجالها « طليعة الفتح الاستعماري » في الممالك الاسلامية .

يقول زويمر : لقد قبضنا منذ ثلث القرن التاسع عشر الى يومنا هذا على جميع برامج التعليم في الممالك الإسلاميـــة ، ونشرنا في تلك الربوع مكامن التبشير والكنائس والجمعيـات والمدارس المسيحية الكثيرة التي تهيمن عليها الدول الأوربية والامريكية .

وطبقاً لذلك جـاء النشء الاسلامي طبقاً لما أراده الاستعمار المسيحي لا يهتم بالعظائم ويحب الراحة والكسل ولا يعرف في دنياه نهمة إلا الشهوات ؛

فإذا تعـــلم فللشهوات ، وإذا جمع فللشهوات ، وإذا تبوأ أسمى المراكز ففي سبيل المال يجود بكل شيء .

• • •

وحين يراجع الباحث كتاب تاريخ الإرساليات التبشيرية الذي صدر عام ١٩٦٤ في ٦٠٠ صفحة لمؤلفه ( ستيفن نيـــل ) وهو مبشر مارس العمل في آسيا عشرين عاماً وحصـل على الدكتوراه الفخرية وعين استاذاً للتبشير في كلية اللاهوت بجامعـــة هامبورج بألمانيا ، عندما نتصفح هذا الكتاب نجد مؤلفه يعترف بالدور الخطير الذي لعبته الارساليات في استعمار العالم الآسيوي الافريقي ، ويحاول ان يبرز المخازي المعيبة التي اقترفها المبشرون ومنها عمليات إفساد الضمائر وشراء الاطفال .

كما يكشف البحث عن مـــدى تدخل المبشرين في السودان في الحركات السياسية والانفصالية في الجنوب وتحريضهم ابنـــاء الجنوب من الوثنيين على الثورة وتقتيل ابناء الشمال ، وكذلك في موقفهم من إسرائيل وتعاونهم معها.

كذلك فهم يرون ان اندحار الدولة العثمانية أرخ لنهـاية الحكم الاسلامي بالسيطرة على العـالم ، وان الحقيقة الكبرى الحديثة في العالم الاسلامي هي وجود إسرائيل ( وهذا وكثير مثله يكشف عن مدى صـــلة الارساليات وجامعاتها الكبرى بأهداف الصهيونية العالمية ) .

كذلك أشار الباحث الى ما ابتدعته مؤسسات التبشير في السنوات الاخيرة مما اسمته فكرة الحوار التي دعـــا اليها ( لويس جارديه ) بديلاً عن فكرة التبشير في بعض المناطق وهي تقوم على أساس ما يراه المبشرون من ان هناك أموراً مشتركة يمكن ان تكون اساساً للحوار بين المسلمين والمسيحية كوجود الإله والوحي وواجبات الإنسان وذلك مما عهد لقيام مناقشة مفتوحة حرة .

ويشير البحث الى ان الارساليات في جنوب السودان استطاعت تدريب عدد من أبناء الجنوب المتنصرين للقيام بأعمال التبشير في خلال ستين عاماً حيث استطاعت الكنيسة الانكليكانية تعميد ٣٢ قسيساً ومبشراً افريقياً ، وقد حلّ هؤلاء محل المبشرين المائة الذين طردتهم حكومة السودان » .

• • •

ولا ريب ان هذه الوقائع الحديثة كلها تعطي نذر الخطر المستمر المتصل وخاصة بالنسبة للمستقبل . فإذا راجعنا موقف الارساليات في السنوات الاخيرة في اندونيسيا وجدنا ان تحدياً خطيراً يقع هناك ، كذلك بالنسبة لدولة صغيرة كالأردن ، وقد أشار الاستاذ يوسف العظم الى هذه الظاهرة بالنسبة لبلد صغير كالأردن توجد فيه مائتا مدرسة من مدارس الارساليات « تلتقي في هدف واحد وعند غاية مشتركة » ان تخرج الجيل الجديد الذي لا يحترم عقيدته ولا يؤمن بتراثه أو يحس بوجوده ، وإذا علمنا ان عدد سكان الأردن لم يبلغ المليونين بعد أدركنا أيّ أثر يتركه هذا الحشد من القلاع الفكرية التي يخطط لها فتنفذ اشنع جريمة ضحيتها جيل بريء غافل ، ومن هذه المدارس : الفرير والتراسنطا والمطران والكلية الأهلية وهانوميان بوزباستيان والارمن الأرثوذكس والسالزيان وراهبات الوردية ، وراهبات صهيون والبيلار والادفنستست الخ .. الخ .

كذلك فإن اندونيسيا في السنوات الاخيرة تعرضت لحملات تبشيرية ضخمة قوامها مدارس الارساليات . وتشير التقارير الى ان حملة التنصير اليوم أشد وأقوى في اندونيسيا مما كانت عليه ايام الحكم الهولندي .

وتشير التقارير الى ان الفاتيكان قد عين كاردينالاً و ٢١ اسقفاً للابقاء على حركة الارساليات التبشيرية ونشاطها وقد استطاعت الكنيسة الكاثوليكية

ان تشن حملة مدعومة بقوى هائلة من السند والعون الماديين في البلدان الغربية تستمر عشر سنوات كاملة على النحو الذي فصله كتاب (واجبنا في اندونيسيا اليوم ) الذي صدر يحمـل مخططات الغزو الموجهة الى اندونيسيا عن طريق الإرساليات .

وتقرير الاستاذ علال الفاسي : ان هـذا النشاط لا يقتصر على اندونيسيا وحدها وإنما هو جزء من خطة تشمل العالم الاسلامي كله .

(٨)

وقد سجلت الصحافة العربيــة الدور الذي تقوم به الارساليات على أنه مشروع مرتبط بالنفوذ الأجنبي ، ففي مقال نشرته جريدة المقطم في ( ١ — مارس ١٩٢٤ ) تحت عنوان (المدارس الأجنبية في الشرق) يتكشف للباحث مدى الخطر الكامن وراء الارساليات واعمالها يقول :

للمدارس الأجنبية المسيرة في أقطار الشرق الأدنى والمنبثة في مدنه وقراه يد كبيرة على النهضة الشرقيــة الحاضرة لا ينكرها منصف ولا يجحد فضلها جاحد ، وغني عن البيـــان ان كلمة المدارس الأجنبية تشمل جميع المدارس والمعاهد العلمية التي أنشأتهافي ربوع الشرق الأدنى الجمعيات الدينية أو بعثات التبشير أو حكومات أجنبية أو شركات اخرى بقصد الربح .

لهذه المدارس صبغات وجنسيات مختلفة منهـــا الفرنسوي والأمريكي والإنجليزي والايطالي والالماني والروسي، وبين المدارس الفرنسوية ما هو ديني وما هو علماني، ولئن كانت خدمة العلم ونشر التهذيب هي المحور الذي تدور عليه أعمال المدارس كلها والغاية التي تنشرها فإن لكل بعثة منها غرضاً خاصاً ينطوي عليه برنامجها وتسير نحوه وهو نشر لغـة قومها بين ظهراني الشرقيين وتلقينهم تاريخها وسير أبطالها وتحبيبها اليهم بقـدر الامكان ، وربما كان بينها من يعمل عمداً وبغير عمد لتنفير الشرقيين من لغتهم وتاريخهم وطبعهم بطابع الأمة التي تمت اليها المدرسة بصلة النسب .

وقد كانت البعثات الفرنسوية اكثرهذه البعثات نشاطاً وحركة، فكثرت مدارسها وازدادت معاهدها زيادة تستوقف الأنظار ولا سيما في سوريا ولبنان والقطر المصري فلا تكاد تخلو مدينة أو بندر من مدرسة أو مدرستين لهذه البعثات التي وقفت نفسها بشهادة جميع العارفين على خدمــــة النفوذ الفرنسي ونشر الآداب واللغة الفرنسية .

وهناك من يعتقد ان الاحتلال الفرنسوي الحاضر لسورية ولبنان هو نتيجة من نتائج عمل البعثات إذ توسل الفرنسيون لصيانة مصالحهم في سورية ولبنان بهذا الاحتلال بالمعنى الصحيح . ونظن ان هذه المصالح لا تتعدى دائرة هذه المدارس التي تعد بالمئات علاوة على ما أعدته هذه المدارس من الأنصار لفرنسا من خريجيها وتلاميذها السابقين وذوي قرباهم . ولليسوعيين ايضـــاً مدارس عديدة في منطقة كيكيلية التركية ولهم مدارس في الآستانة وضاحيتها وفي إزمير وغيرها من المدن التركية ، وقد نافس الأمريكيون الفرنسيين في لبنان وسوريا في اواسط القرن المـــاضي منافسة مثيرة ، وإذا كان الأمريكان قد نافسوا اليسوعيين فبزوهم في لبنان وتفوقوا عليهم بذلك الصرح العلمي (جامعة بيروت) الذي أخرج للمشرق العربي طائفة من علمائه وزعماء نهضته فإن رجال البعثات الفرنسوية عملوا بنشاط في مصر والأناضول والآستانـة نفسها حيث المزاحمة شديدة .

ونشط الإيطاليون في السنين الاخيرة لإنشاء المدارس في معظم انحاء تركيا وهم يرمون بذلك الى نشر لغتهم وتعميم آدابهم ومزاحمة البعثات الفرنسوية . وبين الفرنسيين والايطـاليين من التنافس على سواحل البحر الأبيض لأن كلاً منهما تطمع في للسيادة عليه .

وكانت هذه المدارس تتخذمن أدوار الضعف التي تتعرض لها الامبراطورية العثمانية وسيلة لتوطيد نفوذها وتوسيع دائرة اختصاصها » .

وهذا في مجموعه اعتراف كامل بالدور السياسي الخطير الذي قامت وتقوم به الارساليات .

وقد أشار كتاب الغارة على العالم الاسلامي الذي ألفه شاتليه ومجموعة من المبشرين بأن الفرصة الكبرى التي أتيحت للارساليات إنما جاءت بعد سقوط السلطان عبد الحميد عام ١٩٠٨ حيث أمكن منذ ذلك الوقت تفسيخ الدولة العثمانية وتوسيع بعثات التبشير على النحو الذي حقق تنفيذ مناهج التعليم على النحو الذي رسمته مخططات الغزو حيث يسجل الدكتور زويمر زعيم المبشرين وكبيرهم في الشرق في هذه المرحلة ما يأتي :

إن السياسة الاستعمارية لما قضت منذ نصف قرن –أي منذ عام ١٨٨٢– تقريباً على برامج التعليم في المدارس الابتدائية أخرجت منها القرآن ثم تاريخ الاسـلام ؛ وبذلك أخرجت ناشئة لا هي مسلمة ولا هي مسيحية ولا هي يهودية . ناشئة مضطربة مـادية الاغراض ، لا تؤمن بعقيدة ولا تعرف حقاً ، فلا للدين كرامة ولا للوطن حرمة .

ومن ذلك قوله الذي صار حكمة ومنطلقاً للعمل التبشيري كله في معاهد الارساليات وعلى ضوئه يمكن النظر بوضوح الى المناهج والأهداف والاتجاهات يقول: «إن مهمة التبشير الذي ندبتكم دول المسيحية للقيام بها في البلاد المحمدية ليست هي إدخال المسلمين في المسيحية وإنمـا مهمتكم ان تخرجوا المسلم من الاسلام ليصبح مخلوقاً لا صلة لا بالله وبالتالي لا صلة تربطه بالأخلاق التي تعتمد عليها الامم في حياتها » .

وليس بعد هذه الوثائق صراحة ولا وضوح في الكشف عن غاية الارساليات وأهدافها .

## (٩)

والآن نستطيع ان نتساءل مـا هو الهدف الحقيقي للارساليات التعليمية في العالم الاسلامي ؟

وأن نجيب بأن الهـدف في الحقيقة هو السيطرة على الجيل المسلم الجديد منذ مطالعه لاعـداده على النحو الذي يكفل له عندما يصبح في مقام العمل السياسي والاجتماعي والثقافي في وطنه ان يكون صاحب ولاء فطري وثقافي قوامه الحب والاعجاب والتقدير للذين علموه ونشّأوه .

ومن هنا اهتمت الدول المستعمرة خلال فترة ما بين الحربين بتثقيف أبناء العظماء وكبار رجال السياسة ونقلهم الى المعاهد الاجنبية ، وذلك لخلق هذه الطبقة وإعدادها . وقـــد كان إغراؤهم عجيباً لكثير من أصحاب المراكز العالية حتى بعض كبار المسؤولين في مجال الاسلام على تعليم ابنائهم في معاهدهم، وقد أشارت تقاريرهم الى ذلك بما أسمته :

« نزوع أهل الطبقة الراقية الى المدارس الأجنبية » .

وقد أكد المراقبون النتائج الخطيرة التي حققها تعليم المسلمين في الارساليات من تقريب المسافة بين الاستعمار وأهل الأوطان الاسلامية وما حققة من حل كثير من القضايا الجوهرية بمـــا يوافق رغبات المستعمرين . وأهم هذه القضايا

المسألة الشرقية وقيام إسرائيل في قلب الوطن العربي ، وليس أدلّ على اهمية ذلك من ان الذين حملوا لواء التشهير بالدولة العثمانية والسلطان عبد الحميد وعملوا على تمزيق الرابطة بين العرب والترك وتمكين الدول الأوربية من تقسيم الغنيمة فيما بينهم كانوا من الذين تعلموا في معاهد الارساليات التبشيرية وهؤلاء الذين خدموا النفوذ الاجنبي في مصر وكانوا مخلصين لكرومر وغيره من قادة الاستعمار وأصحاب الصحف ومحرروها كانوا جميعاً من خريجي معاهد الارساليات وخاصة في بيروت ومنهم من دعا عام ١٩٣٥ الى إنشاء دولة يهودية في فلسطين ودولة مسيحية في لبنان، ومنهم من أعادوا الدعوة عام ١٩٤٥ الى ان يكون لبنان وطناً قومياً للنصارى في الشرق الأدنى ومنهم حملة لواء الدعوة الى العامية والحروف اللاتينية وهم قادة كل الدعوات التي عملت وتعمل على تعميق الاقليمية وبث روح الشعوبية وتمزيق وحدة العرب والمسلمين الفكرية وإيقاع الخلاف بين العرب وبين العرب والمسلمين .

وترجع خطورة مدارس الارساليات التبشيرية الى أنها لا تدرس الاسلام ولا اللغة العربية كلية ولكنها تدرس اللغات الأجنبية المختلفة والثقافة المسيحية المستمدة من التوراة والانجيل في أبواب الأخلاق ، وبعضها علماني محض ينظر إلى الأخلاق والأديان والعروبة والاسلام والتاريخ الاسلامي نظرة تشكيك وازدراء ويتناوله تناول النقد المشوب بروح الازدراء .

وقد راجع كثير من الباحثين أخطار الارساليات على الشباب المسلم فأشاروا الى ان أول همّ المبشر هو هدم الاعتقاد في تلميذه فيصبح الطالب مستخفاً بالمعتقدات ، أما الخطوة الثانية فهي محاولة غرس تعاليم جديدة في ارض لم تعد صالحة للاعتقاد ، وذلك يؤدي الى أخطر النتائج ، وهو حض الطلبة على النفاق والمراءاة .

وقد أشار الدكتور عمر فروخ الى ان هناك مُسلَّمات تدرّس في معاهد

الارساليات منهـا ان نصارى لبنان هم الذين بعثوا النهضة العربية الحديثة ، وهو غير صحيح وان الفلسفة العربيـــة ليست إلا الفلسفة اليونانية مكتوبة بحروف عربيـة ، وهو من أقوال المتعصبين أمثال رينان . ذلك ان هناك فلسفة عربية إسلامية تختلف عن الفلسفة اليونانية والغربية جملة .

ومما قاله عمر فروخ ان مثل هـــذا السؤال عندما يوجه في الامتحانات العامة للتلميذ المسلم يكون الاجابة عليه علامة ودليلاً على مـــدى استسلام الطالب للأهداف ، فإذا انتصر للفلسفة العربيـة انتصاراً ظاهراً فإنه سوف يجرب حظه في دورة تالية ، أي أنه لا يعطى درجة تمكنه من النجاح .

## الفصل الثاني

# التعليم الوطني

إذا كانت صورة التعليم في معاهد الارساليات قد كشفت عن هذه المحاذير الخطيرة فإن التعليم الوطني في البلاد المستعمرة قد مر بتجربة أشد خطورة وأبعد أثراً في هدم شخصية الطالب المسلم وتدميره وجعله أداة طيعة للنفوذ الغربي، ومواليا مستسلماً للأجنبي المحتل. ولا ريب ان التعليم الوطني قد جاء صورة من التبعية والولاء في برامجه وأعماله واتجاهاته لما خططه الاستعمار في معاهد الارساليات التي سبقت الاحتلال وتمرست سنوات طويلة بالعمل قبل السيطرة الثقافية التي فرضها النفوذ الاستعماري.

ففي مصر منذ عام ١٨٤٤ بدأت الارساليات ممهدة للاحتلال الذي وقع عام ١٨٨٢ حيث كانت تجربة ستين عاماً كفيلة بأن تمد النظم التعليمية التي وضعها المحتل خبرة في العمل ومجموعة كافية من المناهج والدراسات التطبيقية.

والأمر كذلك بالنسبة للاحتلال الفرنسي لسوريا ولبنان والجزائر وتونس والمغرب وبالنسبة للاحتلال الغربي بصفة عامة، وفيما يتعلق بتركيا فقد سبقت

معاهد الارساليات في العمل جميع المخططات التي فرضتها حكومة الاتحاديين بعد عام ١٩٠٨ وما رسمته حكومة الجمهورية التركية بعد انتهاء الحرب العالمية الاولى .

وقد أكد دكتور زويمر رئيس المبشرين في البلاد العربية في الثلاثينات ما هدفت اليه السياسة الاستعمارية وما حققته حين أعلن تصريحه الذي قال فيه:

« إن السياسة الاستعمارية لما قضت من نصف قرن على برامج التعليم في المدارس الابتدائية أخرجت منها القرآن ثم تاريخ الاسلام وبذلك أخرجت ناشئة لا هي مسلمة ولا هي مسيحية ولا يهودية. ناشئة مضطربة مادية الأغراض لا تؤمن بعقيدة ولا تعرف حقاً فلا للدين كرامة ولا للوطن حرمة » .

وأكد هاملتون جب هدف خطة التعليم في المدارس الوطنية واعتذر عما وصلت اليه من نتائج خطيرة حين قال :

نفذت خطة إنماء التعليم العلماني بإشراف الإنجليز في مصر والهند، ولعل هناك نصيباً من الحق في التهمة التي ترمى بها هذه المدارس من أنها مفسدة لقومية التلاميذ ، والذي فعلته لا ريب فيه أنها ربت في التلاميذ خروجاً على الأنظمة الاجتماعية وعلى السياسة الى حد ما في أوطانهم الأصلية بإضعافها من هذه الوجوه لسلطان النزعة الاسلامية القديمة على التلاميذ وأدخلت في بناء المجتمع الاسلامي آراء هدمته وقطعت بعض الأواصر التي كانت تحفظ تماسكه».

ولم يكن مثل هؤلاء يصرحون بما صرحوا به إلا بعد ان تم تنفيذ الخطة وآتت ثمارها ، هذه الخطة ذات الشقين المتتاليين : مدارس الارساليات ترسم الطريق والمناهج ثم يجيء الاستعمار فيفرض هذه المناهج على المدارس الوطنية مع تغييرات طفيفة .

يقول ليوبولد فايس ( محمد أسد : المستشرق المسلم ) :

إن الايمان والإلحاد في الأغلب ينتقلان الى الانسان من بيئته الثقافية .

إن النشأة الغربية لأحداث المسلمين ستفضي حتماً الى زعزعة إرادتهم .

يجب علينا ان لا نتردد في درس العلوم الرياضية والطبيعية حسب الأسس الغربية ، ولكن يجب ان لا نتنازل للفلسفة الغربيـة عن أيّ دور من أدوار تنشئة أحداث المسلمين ، ولا ريب في ان بعضهم قـد يستطيع ان يقول إنه من الصعب في كثير من الاحيان ان نجعـل فاصلاً بين العلم التجريبي والفلسفة النظرية ، وذلك حق ولكن من الناحية الثانيـة : تلك هي النقطة التي يجب على الثقافة الاسلامية ان تثبت نفوذهـا عندها ، وسيكون من واجب علماء المسلمين ومن الفرص السانحة لهم ايضـاً إذا وصلوا الى حدود البحث العلمي ، ان يستخدموا نظرهم العلمي مستقلين فيه عن النظريات الفلسفية الغربية ، وانهم من طريق اتجاههم العقلي الخـاص الاسلامي قد يصلون على الأرجح الى نتائج في المعقولات تختلف كل الاختلاف عن تلك التي وصـل اليها العلماء الغربيون المحدثون .

ثم قال : إن تعلم الأدب الاوربي على الشكل الذي يسود اليوم الكثير من المؤسسات الاسلامية يقود الى جعـل الاسلام غريباً في عيون الناشئة المسلمة ومثل هذا — ولكن الى حـــد بعيد — يصدق على التعليل الاوربي للتاريخ العام إذ لا يزال الموقف القديم « رومانيون وبرابرة » يظهر بجلاء ، ثم إن براهينهم تقوم على الزعم ايضاً بأن تطور العالم لا يمكن ان ينظر إلا على أساس تجارب الثقافة الأوربية .

ويشير الكاتب الى ان المدارس الرسمية كالمدارس التبشيرية لا تعنى بتدريس الدين الاسلامي للناشئة بل تتركه حراً فينشأ المتعلمون كارهين لدينهم أو غير مهيئين لتقبل التعاليم الدينية مطلقاً بحسب تربيتهم .

(٢)

عندما سيطر الاحتلال في مصر ١٨٨٢ كانت هنـاك مدارس الارساليات وكان هناك التعليم الوطني الحر القائم على مناهج عربيـــة إسلامية شاملة . فكانت خطة الاحتلال مزدوجة ، قوامها القضـاء على التعليم الوطني وخلق تعليم بديل له يستمد مناهجه من نظم مدارس الارساليات ، ودفع مدارس الارساليات الى استيعاب أبنـاء الطبقة الراقية . ولم تمض سنوات قليلة حتى اختفت معالم التعليم الوطني الأصيل وحلت بدلاً منه نظم معاهد الارساليات، وفي نفس الوقت توسع التعليم في مـدارس الارساليات وتضاعف وفتحت له الابواب على نحو أكثر قوة وأشد عمقاً مما كان في أيام سعيد وإسماعيل .

ويعد تقرير اللورد دوفرين هو نقطة البدء في هـذا التحول الخطير وقد وصفه بعض الساسة الاجانب وصفاً صحيحاً حين قـال : إن تقرير اللورد دوفرين عن التعليم يرمي الى ان يكون المصريون أحسن الاصدقاء والنصحاء لبريطانيا والغرب دون ان تفرضوا عليهم آراءكم أو تجعلوهم تحت وصاية تستثير حفائظهم .

وقـد أشار تقرير اللورد دوفرين الى حـالة التعليم القائمة في مصر وفي مقدمتها الأزهر الشريف : وقـد وصفه بأنه مدرسة جامعة يدرس فيها علم الكلام والفقه والنحو والمنطق وآداب اللغـة العربية وبه من الطلبة نحو ٨

.آلاف طالب على ثلاثمائة أستاذ .

أما مدارس الحكومة فقـــد وصفها بأنها مدارس بسيطة عددها ٥٣٧٠ تحتوي على ١٣٧٥٥٣ طالباً وتعلم فيها القراءة وحفظ القرآن غيباً .

ومدارس أولية عالية ويوجد بها نحو ٢٧ تحتوي على ٤٦٦٤ طالباً (والاولى هي المدارس المجانية والاخيرة هي المدارس ذات المصروفات) وقال إنها تعلم القرآن الشريف واللغة العربية وعـــلم الحساب ومبادىء الجغرافيا والتاريخ ومبادىء لغة أجنبية ويترقى الطالب في هـــذه المدارس الى المدرسة العليا التجهيزية في القاهرة ومن هـذه يتدرج الى مدرسة الصنائع والفنون ، وأشار الى المدرسة العليا وقال إنها تحوي ٢٩٢ طالباً .

أما مدارس الصنائع والفنون : فمنها الطب ١٧٦ طالباً وسائر الفنون ٥٠ طالباً والمساحة ٣٩ طالبـــاً والفنون والصنائع ٥١ طالباً والشرع ٣٧ طالباً ومدرسة اللغات ٢٣ طالبـاً ومدرسة الأساتذة ٦٠ طالباً والفعلة ٧٩ طالباً ومدرسة العميان والخرس ٧٥ طالباً والبنات ٣٠٠ طالبة والمدرسة العسكرية.

وأشار الى أنه يوجد في أوربا ٤٩ شاباً مصرياً مرسلون.

وأشار الى المدارس التي انشأها المرسلون الاجانب ونحلهم ويبلغ عـددها ١٥٣ مدرسة تحتوي ١٣٣٤٧ طالباً منهم ٥٣ في المائة من المصريين .

وأشار التقرير الى ان طريقة التعليم في الجامع الأزهر جافة ودروسها في العقيدة عقيمة لا تثمر فائدة ولا نتاجاً .

وأشار دوفرين في توصياته الى ما يلي :

« أخال ان أمل التقدم ضعيف طالما ان العامة تتعلم اللغة الفصيحة العربية لغة القرآن كما في الوقت الحاضر حالة كونها لا تتعلم اللغة العربية الدارجة لأن نسبة اللغة المصرية الدارجة الى لغـــة القرآن كنسبة الايطالياني الى اللاتيني

والاغريقي القديم ، وعربية الفلاح لغة قائمة بنفسها وقواعدها خاصة بها ، وإذا لم توجد هذه الاحتياطات الضرورية للحصول على النتائج الفعلية في المدارس العديدة التهذيبية التي اشرت اليها يستمر الجيل الجديد كسابقه غير صالح لخدمة وطنه سواء كان للقيادة العسكرية أو في الصنائع أو في الخدمات، وتظل عبارة مصر للمصريين كما كانت اسماً بلا مسمى »[1] .

وهكذا وضع دوفرين الجرس في رأس القط . وجاء كرومر ودنلوب منفذين إقصاء القرآن واللغة العربية ، وهذا ما أشار اليه « زويمر » وكشف عن أنه لم يلبث ان تحقق ، وفرغت مناهج التعليم من أقوى دعائم بناء أبناء المسلمين وأقصي الأزهر مرة اخرى بعد ان أقصاه محمد علي بإنشاء وزارة المعارف .

وقد دفع هذه الحقيقة كل من أرخ لمصر وهي لم تفت اللورد لويد في كتابه ( مصر منذ أيام كرومر ) حيث قال :

إن التعليم الوطني عندما قدم الإنجليز كان في قبضة الجامعة الأزهرية الشديدة التمسك بالدين والتي كانت أساليبها الجافة تقف حاجزاً في طريق أيّ إصلاح تعليمي ، وكان الطلبة الذين يتخرجون من هذه الجامعة يحملون معهم قدراً كبيراً من غرور التعصب الديني . فلو أمن تطوير الأزهر لكانت هذه خطوة جليلة الخطر فليس من العسير ان يتصور لنا أي تقدم طالما ظل الأزهر متمسكاً بأساليبه هذه ولكن إذا بدا ان مثل هذه الخطوة غير متيسر تحقيقها فعندئذ يصبح الأمل محصوراً في إيجاد التعليم اللاديني الذي ينافس الأزهر حتى يتاح له الانتشار والنجاح » .

ونحن نعرف ان مناهج الأزهر كانت جامدة ولكنها لم تكن بالصورة التي

---

(١) المقتطف ص ٦٦٨ م ٧ .

تعارض بنـــاء المسلمين على أساس من قوة العقيدة وسلامة العقـل ، ولكن الاستعمار لم يكن يريد بقاء مثل هذه الشخصية القادرة على مقاومته ومعارضته، فلا بد من تحطيم وجودهـا بالتعليم اللاديني . كذلك فإن الدعوة الى تطوير الازهر كانت خطوة اخرى على الطريق جاءت نتائجها من بعد حين أذعنت الامة لمطلب الانجليز ومزقت الازهر الى تخصصات ثم دمرت أسلوبه العلمي القديم، فلم يعد من شيء يستطيع ان يقف أمام شبهات الاستشراق ومغالطات دعاة التغريب .

( ٣ )

ويستطيع هـذا النموذج الحي أن يعطينـا صورة التعليم الوطني في مصر وكيف تطور بعد الاحتلال تنفيـذاً لخطة دوفرين ومنهج كرومر وأسلوب دنلوب بما يحقق هدف الاستعمار من تخريب العقول والنفوس .

يقول الاستاذ محمد لطفي جمعة :

إننا تعلمنا في المدرسة الثانوية ( وكانت الخديوية التجهيزية بدرب الجماميز ) في أوائل هذا القرن ( ١٩٠١ — ١٩٠٢ ) وكان استاذنا في التاريخ المستر هيل ويعلمنا باللغة الانجليزية أن اثنين من رجـال أوروبا أنقذا المدنيـة الغربية من السقوط على أيدي البرابرة المتوحشين : أولهما تمستو كليس اليوناني الذي هزم قورش أو ( زاجزيز ) الفارسي في موقعة سلاميس الشهيرة والرجل الثـاني ( شارل مارتل) الذي هزم العرب في موقعة بواتيه : الأولى حصلت في ٤٨٠ قبل المسيح والثـانية حصلت ٧٣٢ بعد المسيح أي أن بينهما ألف ومائتين واثنتي عشرة سنة، وقد كتبنا هذا بأنفسنا وبأيدينا بإملاء استاذنا الانجليزي، الذي مثل لنا أمة العرب التي أنجبت مئات الألوف من رجال العلوم والفنون والآداب والذين علموا أوروبا وهذبوهـا، في وحشية وقسوة تعادل وحشية الفرس الوثنيين قبل الميـلاد بخمسة قرون فصدقنا هذا وآمنـا به وتعلمناه وحفظناه وأدينا فيه امتحانات عشرة .

ثم قال الكاتب في موضع آخر :

إن دنلوب العظيم العبقري أعظم من أنجبتـه انجلترا لقتـل مصر والشرق

تمكن في عشرين عاماً من تخريب العقول والنفوس والضمائر والعواطف مما لو جندت بريطانيا مليون جندي على مصر فإننا لما دخلنا المدارس التحضيرية في أوائل هذا القرن وجدنا أساتذة التاريخ من الانجليز أمثال مستر هيل ومستر فرنسكروفت فأخذوا يملون علينا مقطعات بالانجليزية عن تاريخ الدولة الرومانية والقرون الوسطى وحروب الأديان والنزاع بين الكاثوليك والبروتستانت وسلطة البابا وفردريك الأكبر وكاترين العظمى ، كل ذلك في فصول مختصرة مختلة سقيمة الأسلوب عقيمة المعنى . وكان امتحاننا يدور حول هذه المسائل ، ولم نعط كتاباً ملماً بهذه الموضوعات لا جيداً ولا رديئاً أما تاريخ الشرق والعرب ومصر فلم نأخذ منه كلمة واحدة إلا سطراً واحداً كأننا نشأنا من العدم وإلى العدم نعود ، ودائماً اذا ذكر الشرق كان يذكر في مجال الانحطاط والسقوط والفشل والحروب التي فاز عليه الغرب فيها مثل صد اليونان للفرس والفرنسيين للعرب والنمسويين للترك وسقوط العرب في الاندلس وانحلال الدولة العثمانية بعد تغلب روسيا عليها .

أما مصر القديمة ومجدها وحضارتها فداخلة في منطقة الصمت وكذلك الحروب الصليبية لم يعرف منها إلا ما كان ماساً بقهرنا .

وإن الانصاف يحدوني أن أذكر رجلاً واحداً هو مستر جونز من بلاد ويلس عين استاذاً للتاريخ ( ١٩٠٤ — ١٩٠٥ ) في المدرسة الخديوية بدرب الجماميز ، وكان له اسلوب وفكر وضمير ، وأملى علينا بضعة دروس في تاريخ مصر والعرب فعزل في آخر العام الدراسي ولم يعد الى وادي النيل .

وهذه الخطة التي أراد الانجليز ان يحرمونا بها من ضمائرنا ويسرقوا وجداننا القومي ويقطعوا الحلقة التي تربطنا بالماضي هي نفسها الخطة التي اتبعوها ونفذوها في الهند ، وهي نفسها التي اتبعتها ونفذتها فرنسا في تونس والجزائر ومراكش ، وهي التي يتبعها كل مستعمر وكل متغلب وفاتح [١] .

---

( ١ ) البلاغ الاسبوعي ١٩٣٢/٢/٧ .

تلك هي صورة التخطيط الذي رسمه الاحتلال في مصر وطبقه الاستعمار في مختلف أجزاء العالم الاسلامي. وكان كرومر هو الرائد الذي سار عليه كل من جاء بعده ، فالمارشال ليوتي والكردينال لافيجري في المغرب هما كرومر ودنلوب في مصر تماماً .

جاء كرومر الى مصر بعد الاحتلال بعام أو عامين ١٨٨٤ تقريباً ، وعين دنلوب سكرتيراً عاماً لوزارة المعارف عام ١٨٩٧ ثم مستشاراً عامـاً لها عام ١٩٠٦ وكان في أول أمره قساً مبشراً عمل في وظيفة مدرس للغـة الانجليزية والخط الافرنجي في مدرسة رأس التين الثانوية ثم لفت نظر كرومر فدفعه الى العمل في نظارة المعارف وما زال يترقى حتى اصبح مسيطراً سيطرة كاملة على شؤون التربية والتعليم .

ويعـد ( دنـلوب ) واضع المخطط الاساسي لتغريب التعليم والتربيـة وإقصاء الاسلام وتاريخه واللغة العربية عن برامج التعليم في المدرسة المصرية ، وهو أيضاً منفذ هذا المخطط والمشرف عليـه سنوات طويلة حتى بعد انتهـاء الحرب العالمية الأولى . وقد عمـل دنلوب على محـاربة اللغة العربية والاسلام والازهر واضطهد معلمي القرآن واللغة العربية من الازهريين ونشر لواء اللغة الانجليزية وأهّلها للسيطرة الكاملة على كل شؤون التعليم وقضى على نفوذ اللغة العربيـة .

كما أنشأ جيشاً ضخماً من الانجليز حملة الشهادات الأهلية للعمل بالمدارس المصرية وفق خطة ماكرة لخلق شعور عـام بكراهية تاريخ المسلمين ولغتهم وإثارة الشكوك حولها وطعن روح الوطنية في الشباب المصري والقضاء على حماستهم ، وقد داسوا على كل عاطفة وطنية واضطهدوا كل شاب أظهر ميلاً أو عاطفة نحو دين او وطن ، وأنشأوا نظاماً للتجسس في المدارس يطاردون به الشباب الوطني ،وحرموا على كل مدرس مصري ان يتحدث عن تاريخ مصر او تاريخ العرب او تاريخ الاسلام بما يبرز عظمة أمتنا ، وكان أهم مـا يقـال

إن مصر بلد زراعي ، وإنها ظلت محتلة طوال تاريخها بالفرس والرومان والأتراك ، وإنها لن تحكم نفسها أبداً ، وإن جيشها قد هزم في التل الكبير، وإن الجنود المصريين ذبحوا ليلة ١٤ سبتمبر ١٨٨٢ التي كانت قمرية ذبح الخراف وكان محرماً على أي طالب مصري أن يقرأ جريدة وطنية .

وقد قاوم كرومر ودنلوب نشر التعليم العالي في مصر وسجل ذلك كرومر في تقريره حين قال عام ١٩٠٧ :

إن انجلترا لا تريد نشر التعليم العالي في مصر وإنها لا تريد إلا إعداد جمهور من طبقة الأفندية ليشغلوا الوظائف الثانوية في الحكومة، وإن المصريين لا يصلحون للعلوم العالية ، وإن زيادة التعليم تصرف عن فلاحة الأرض وتعود على مصر بالإفلاس .

وقد حرص دنلوب بتوجيه كرومر وبريطانيا على تنفيذ خطة واضحة المعالم للعمل على وقف انتشار التعليم أو ترقيته وسبيلهم الى ذلك تقليل اعتمادات المعارف وصرف اغلب المبالغ على بناء القصور المشيدة واقتناء الاثاث الفاخر للمدارس ، وكان دنلوب يعمل على قلب المدارس الابتدائية الى أولية راقية اكتفاء بالمدارس الأميرية في كل مديرية كما شجع انتشار المدارس الأجنبية وفق غايات سياسية تسير في نفس الاتجاه الاستعماري وهو تحطيم كيان الأمة وإفساد معنويتها .

وحرص دنلوب على معاملة الطلبة الوطنيين بمنتهى القسوة فعدل عام ١٩١٠ المادتين ٨٨ و ١٠٠ من قانون نظام المدارس بفرض عقوبات على التلاميذ وفصل كل تلميذ لا يحصل على ٢٠ درجة في السلوك واتخذ من ذلك سبيلاً الى خنق الشعور بالحرية .

وقد سجل مسيو ( ادوار لامبير ) ناظر مدرسة الحقوق في تقريره الذي نشره في جريدة الطان ١٩٠٧ بعد أن أبعده كرومر ودنلوب لأنه فرنسي ،

سجل صورة الصراع بين الفرنسيين والانجليز على المناصب الكبرى في التربية والتعليم وكشف عن الخطة التي رسمها كرومر ونفذها دنلوب في إقصاء الفرنسيين عن المناصب الكبرى في المدارس العالية وتعيين أساتذة إنجليز بدلاً منهم ، دون ان يكونوا في مستواهم من الناحية الفنية وانه قد أخرج الأساتذة الفرنسيين من القضاة من مدرسة الحقوق واستبدل بهم شباناً من الانجليز عينوا بمجرد تخرجهم من الكليات البريطانية دون ان يكون لهم أي قدر من الكفاية التي تمكنهم من دراسة القانون. كما أشار الى الأنظمة الاستبدادية التي اتخذها بالنسبة للطلبة وكيف عاملهم بقسوة متناهية واضطهدهم وجرح كرامتهم مما احال مدرسة الحقوق معقلاً للوطنية المصرية بحيث أصبح كل طلابها الاربعمائة تابعين للحزب الوطني .

وإن كرومر قد اضطر تحت ضغط الرأي العام الى تعيين (سعد زغلول) ناظراً للمعارف وعمل على سلب سلطته الفعلية ، وأشار الى الخطط التي كان دنلوب يدبرها مع نظار المدارس وكبار الموظفين للاتصال به شخصياً وتلقي أوامره وتعليماته قبل ان يكتبوا تقاريرهم الرسمية ، وقال لامبير في تقريره :

إن الموظف القابض على الإدارة الحقيقية لوزارة المعارف هو دوجلاس دنلوب وفي الفترة الطويلة التي قضاها دنلوب في وزارة المعارف وقد تبعه خليفة له سار على نفس الخط تحقق تنفيذ خطة التغريب الكاملة للتعليم على النحو الذي استمر يشق طريقه من بعد والى وقت قريب وما تزال آثاره باقية .

وكان هدف هذا المخطط أساساً هو تغريب الثقافة العربية وتدمير الذاتية الاسلامية وإحالتها الى مزيج مضطرب من نتف الثقافات المختلفة ومحاولة التشكيك في كل مقومات فكرنا وأمجادنا وتاريخنا الحافل بالمواقف الحاسمة والمواقع الخالدة في الدفاع عن الحرية والحق ومقاومة الغالب والمشاركة في الحضارة البشرية وحماية آثارها .

ولقد أبطـــل دنلوب عديداً من الكتب التربوية التي كانت تبني الذاتية الاسلامية في الشباب ، وقد كشفت جريدة المؤيد ( ٢٥ يوليو ١٨٩٩ ) عن نماذج من هذا العمل وقالت إن هذه الكتب كانت معارضة لهدفه من الوجهتين الدينية والسياسية وذلك بإيرادها قواعـد الاسلام وأركانه مصحوبة بالحكم والآيات والقرآن والأحاديث التي تحث على حب الوطن والتعاون وإصلاح ذات البين ، وفي سبيل إعدام هذه الكتب أعلن دنلوب ان مثل هذه الكتب غير وافية بحاجـات التعليم وأوعز الى بعض المدرسين الموالين له بأن يضعوا كتباً بديلة لها تضم خرافات لافونتين وقصص مترجمة لا تمثل الروح العربي وتتعارض مع الذوق الاسلامي ، وقد قدمت هـــذه الكتب في اسلوب نازل وعبـارة سقيمة . وأشارت المؤيـد الى ان الشيخ حمزة فتح الله ناضل في سبيل إحباط رأي دنلوب فأعلن الاخـير ان كل كتب المطالعة يجب ان تخلى تماماً من كل ما له صلة بالدين .

ومثل هذا حدث مع الشيخ عبـد العزيز جاويش الذي عاد من بريطانيا بعد ان تعلم في كمبردج وقد كانت له الجرأة في مناقشة دنلوب في منهج مدرسة المعلمين إذ كان يرى ان يكون المنهج عاماً واحداً ، فاعترض جاويش وقال إن في مدرسة المعلمين ببريطانيا برنامجاً في أربع سنوات فأشار دنلوب الى ان مدرسة المعلمين في مصر إنمـا تهدف الى تخريج مدرسين يؤدون واجباً محدوداً لا يزيد عن إعداد الموظفين ، وكان ذلك متمشياً مع خطة كرومر المعروفة : « عقل بريطاني ويد مصرية » وقد واجهت مؤلفات عبد العزيز جاويش نفس مصير مؤلفات علي مبارك وعبد الله فكري وقد اقصيت جميعاً وألفت بدلاً منها كتب اخرى تحقق هدف دنلوب وهدف التغريب أساساً .

ولقد حاولت ان أحصـل على بعض نماذج هذه الكتب مما أودع في دار الكتب الخديوية ومع الأسف لم أجـــد شيئاً إذ يبدو أنها انتزعت ايضاً من هناك ، وقد قرأت في حديث للأستاذ ابراهيم ابراهيم يوسف نشره في إحدى

المجلات أن دنلوب أقام حرائق كبيرة لهذه الكتب وباع كثيراً منها في المزاد وأخلى منها مخازن وزارة المعارف حتى تنعدم نهائياً .

ولقد كانت لدنلوب سلطة ضخمة ونفوذ عجيب حتى ان ناظر المعارف لم يكن يجرؤ على ان يتخطاه في أمر فإذا فعـــل ألغاه دنلوب ، وكان رؤساء المدارس ومعلموها في مختلف أنحـاء القطر المصري يعرفون أنه هو المسؤول الحقيقي ويخشونه .

وقد بلغ من عسفه أنه كان يرسل احياناً خادمه الخاص ( الجاويش محمد علي ) الى إحدى عواصم الأقاليم في صباح أيّ يوم يحمل معه عليه طربوشه الذي كان يلبسه عندما يدخل أي مدرسة ثم يخلعه بعد ذلك، فلا يكاد يظهر طربوش دنلوب على باب أيّ مدرسة حتى تهتز المدرسة كلها والمدارس المجاورة ويسري الخبر سريان النار في الهشيم فتجري حركة تنظيف وتوضيب واستعداد لأن جناب المستشار قادم للتفتيش . والكل يرتعـــد فرقاً ويتلقى الجاويش محمدعلي الأمر بالانتقال من طنطا الى الزقازيق الى نبهـا وفيها تتكرر الرواية عينها ، ومن الغريب ان دنلوب كان في الأغلب لا يحضر ويجري عملية تفتيش بواسطة جاويشه وطربوشه .

ولكن ذلك كله لم يكن ليوقف حملات الصحافة الوطنية على دنلوب ونقد تصرفاته ولم تتوقف صحف الحزب الوطني عن التصدي له ومهاجمته .

قـالت اللواء في ٩ اكتوبر ١٩٠٧ إن المصريين يعلمون ان دنلوب هو أقوى آلة وضعها اللورد كرومر لتعطيل التعليم في مصر وأكبر مقاوم لرقي البلاد من باب المعارف ومحاولة سد الطريق التي يرقى بها وأنه يستعمل كل ما اوتي من سلطة وقوة لمحاربة المصريين حتى بالسطو على ذمم الموظفين معه لتجد من ضعفها قوة ومن التلاعب بها السلاح القاتل للأمة .

ويجمع المؤرخون والباحثون على ان القسيس دنلوب هو مؤسس الاستعمار التربوي والعقلي والتعليمي في مصر .

ولذلك فقد عمد الحزب الوطني الى إنشاء المدارس الأهلية وقامت الجمعية الخيرية الاسلامية بإشراف الشيخ محمـــد عبده على فتح المدارس لتعليم أبناء المسلمين وتحريرهم من هذه الأنظمة التي تحطم معنوياتهم .

وعقد مصطفى باشـــا كامل زعيم الحزب الوطني وصاحب اللواء مؤتمراً للتربية كان له دوي شديد في ١٥ مايو ١٩٠٧ عرض لعديد من المسائل الخطيرة والهامة في هذا الصدد منها جعل التعليم في المدارس باللغة العربية وكيفية إزالة الصعاب التي تقول بهـا نظارة المعارف عن طريق إحلال اللغة العربية محل اللغة الإنجليزية، وتأمين مصلحة الأمة بأن يقوم التعليم في المدارس الأهلية على خطة من شأنها تخريج رجـال يستطيعون البروز في معترك الحيـاة أقوى من غيرهم ( أي تلاميـذ المدارس الوطنية الذين يشكلهم النفوذ الاستعماري ) وكذلك وضع قواعد ثابتة لترقية التأليف ونقل العلوم الحديثة الى اللغة العربية وتسهيل السبيل على القراء بتقليل أثمـان الكتب ودراسة نظام التعليم في الجامعة وما إذا كان التعليم الديني هو أساس لتعاليمها .

ولا ريب ان هـذه القضايا كلها كانت تمثل حاجة الأمة في مواجهة خطر دنلوب، بالإضافة الى الخطر الذي تضاعف بتعيين سعد زغلول ناظراً للمعارف فكان أول وأخطر مقرراته اعتماد مادة اللغة الانجليزية للتعليم في جميع المواد ومعارضة قرار أعضاء مجلس الشورى باتخاذ اللغة العربية أساساً للتعليم .

( ٤ )

أما في الارساليات فإن الأمر كان أشـد خطراً فقد أغرى الاحتلال البريطاني وفود الإرساليات الى مصر بالتوسع فزادت مـدارسهم زيادة كبيرة إذ تضاعف عدد الارساليات وخاصة النسوية .

وكان لاتفاقية ١٩٠٤ بين انجلترا وفرنسا أثرها فقـد نصت على ان تتمتع المدارس الفرنسية في مصر بنفس الحرية التي كانت تتمتع بها في الماضي .

« كذلك عمل الاحتلال على إحـلال اللغة الانجليزية محل اللغة العربية في المدارس المصرية وجعلها لغة التدريس في المرحلتين الابتدائية والثانوية وجعل التعليم في المرحلتين بمصروفات لا يحتمل دفعها إلا الموسرون القادرون، وقد ساعد ذلك على تكوين صنفين متميزين في الثقافة والاتجاهات لا تكاد إحداهما تؤمن بالاخرى أو تقوم بالتفاهم الجدي » .

وقد أدى هذا العمل في مجال التعليم العام الى تشجيع المدارس الأجنبية على دعم اتجاهاتها الخطيرة وخلق طبقة تتسم بالأرستقراطية في ثقافتها الأجنبية .

وقد زاد استقلال المدارس الأجنبية خـلال الاحتلال واتسع أمامها مجال

العمل بغير أي إشراف أو مراجعة مما مكنها من توجيه تلاميذها الوجهة التي قصدوا اليها .

وقد كان خطاب المندوب السامي البريطاني في كلية فيكتوريا بالاسكندرية كل يوم يمثل اتجـــاه بريطانيا نحو الارساليات ودعم الغاية التي يتطلع اليها الاستعمار .

ويكفي هـذا النموذج للتدليل على أهداف بريطانيا في تعليم الارساليات وهو من خطاب اللورد لويد في مايو ١٩٢٦ قال :

قد يهمكم ان تعلموا ان أبنـاء الكلية السابقين من ثمانية أجناس أو تسعة أجناس مختلفة وان من الطلبة الآن ٣٠ في المـائة مصريون و ٢٠ في المائة انـكلوسكسون ومنهم يونان ويهـــود وإيطاليون وأرمن وسوريون وأحباش وغيرهم .

كل هؤلاء لا يمضي عليهم وقت طويل حتى يتشبعوا بوجهة النظر البريطانية بفضل العشرة الوثيقة بين المعلمين والتلاميـذ فيكونوا قادرين على ان يفهموا أساليبنا ويعطفوا علينا .

وأود كثيراً ان أشعر بأن كليـة فيكتوريا تنجب نفراً من نخبة الموظفين والمعلمين والتجار ، هـذه الكلية تنمي فيهم من الشعور الانجليزي ما يكون كافياً لجعلهم صلة للتفاهم بين الشرقي والغربي .

هذه المشاكل ( التي بـين بريطانيا ومصر ) تحل إذا تعلم كل من الانجليز والمصريين ان ينظر الى رأي الفريق الآخر نظراً مقروناً بالفهم والعطف[١] .

وقد أشارت الصحف الى ان كليـة فيكتوريا قد أنشأها الانجليز لمقاومة نفوذ الثقافة الفرنسية في مصر وأن (جورج لويـد) المندوب البريطاني عندما

---

(١) الصحف ١٩٣١/١٢/٢١ .

ضاق صدره بتفوق المدارس الفرنسية في مصر ذهب واستنهض المالية الانجليزية بالاسكندرية وجمع منها مائة الف جنيه في جلسة واحدة ليقوي كلية فيكتوريا وذلك مع وزير مصري مسؤول فخطب بالانجليزية لتعضيد ذلك المشروع[1].

وإذا كانت بريطانيا قـــد وافقت فرنسا عام ١٩٩٤ على حرية عملها في مجال الارساليات فإن بريطانيا تعهدت بعد توقيع معاهدة ١٩٣٦ وفي مؤتمر مونترو ١٩٣٧ بأن تحمي معاهد الارساليات لا لفرنسا وحدها ولكن لجميع الدول . وكانت فرنسا قد طلبت في مؤتمر مونترو بلسان مسيو لاجارد حماية الكاثوليك والهيئات الدينية اللاتينية في مصر وتسجيل ان لفرنسا امتيازات في هذه الحماية .

وقال ساطع الحصري : إن النظم العديدة التي وضعت في سوريا في عهد الانتداب الفرنسي إنمـــا كانت قد وضعت تنفيذاً لسيـاسة مرسومة بوضوح واتفاق ، غاية هذه السياسة تأمـين سيطرة الثقافة الفرنسية والنظم الفرنسية على معارف البلاد سيطرة مطلقة من غير التفات الى ما تتطلبه أصول التربية السليمة » .

ولا ريب أنه كان من أهم الأحداث التي يؤرخ بها في مجال احتضان الاستعمار للارساليات وحمايتها : أحـداث ٢٥ يناير ١٩٣٢ عندما توسل المبشرون الى تنصير يوسف عز الدين عبـد الصمد الطالب بالجامعة الأمريكية بالقاهرة عن طريق التنويم المغناطيسي وأن طبيباً قساً كان يعمد الى تنويمه والعبث بإرادته وأنهم اخيراً اقتادوه الى منزل بضاحية المعادي واعتقلوه هنالك فاقد الإرادة والرشد تحت تأثير هذه الوسيلة المجرمة .

وعلق الدكتور هيكل في جريدة السياسة على هذا الموقف الخطير فقال :

---

(١) الصحف ١٩٣١/١٢/٢١ .

إننا لم نطمئن في وقت من الأوقات الى قيام هـذه المعاهد والى غاياتها المريبة وما زلنا على يقين من أنهـا ليست تعمل لغاية بريئة، وان بث العلم والثقافة إن هو إلا ستـار لجهود وأعمـال تأباها مبادىء التربية الصحيحة وتنكرها قواعد الأخلاق والمدنية .

وان انكشاف هذه المعاهد وتعريتها قد جاءا نذيراً للآباء ونذيراً للطلبة الذين تجذبهم دعواتها الخادعـة باسم الثقافة والرياضة والتعليم الحر فيدخلونها آمنين وهم لا يعلمون أنهم ينتظمون في سلك ممترك من الدسائس والمؤامرات البشرية الدنيئة ويتعرضون لأنواع التأثير والغواية الشائنة .

## (٥)

سيطر التعليم الاستعماري الوطـني في مصر وسوريا والعراق والسودان وليبيا وتونس وفلسطين والجزائر ومراكش من الأقطار العربية .

كما سيطر تعليم الإرساليات الأجنبي في هذه الأقطار أيضاً وسيطر بصفة واضحة في تركيـا وإيران والهند واندونيسيا والملايو وكانت أبرز مراكزه في بيروت واستانبول والقاهرة .

وقد حقق الاستعمار اهدافـه في السيطرة على العـالم الإسلامي عن طريق التعليم عندمـا لم تمر سنوات قليـلة حتى خرج ثماره ممن تولوا أمور البـلاد وقيادتها السياسية والاجتماعية والاقتصادية .

وقد أشار البـاحثون في شؤون التعليم [١] في المستعمرات الى النظم التي تستخدمها الدولة المحتـلة لتعليم أولاد الأهلين فيهـا ، وأقدم هذه النظم هي عدم تعليم أحد من أبنـاء الأهلين ، ولكن المستعمرين وجدوا أنفسهم في حاجة شديدة الى الاستعانة بأهالي البلاد لاستغلال المرافق الاقتصادية والثروة الطبيعية وكان العامل الأساسي لتأسيس هذه المعاهد تخريج طائفة من أهـالي المستعمرات يخدمون المستعمر .

---

(١) ساطع المصري : فصول عن الاستعمار والتعليم ( الرسالة ١٩٣٦ ) .

وفكر بعض المستعمرين بأنــه يجب أن يرافق الفتح السياسي فتح معنوي بحيث يتقرب أهالي المستعمرات من المستعمرين الى أن يندمجوا فيها اندماجاً ، وقد فكروا في سبيل تحقيق هــذا الغرض اولاً بنشر لغــة المستعمر ، فيتعلم أهالي المستعمرات تعليمـــاً ينشىء في نفوسهم حب المستعمر فيستسلمون له طواعية .

وقد برز النوع الاول من سياسة الاستعمار اكثر وضوحــاً في الهند في ظل الاستعمار الانجليزي كما تجلى النوع الثاني في الجزائر بالاستعمار الفرنسي . وكان الفرنسيون يأملون في سياستهم تقريب المستعمرين اليهم ، وظنــوا أنهم بنشر لغتهم بينهم وإشرابهم ثقافتهم يغرسون حبهم في قلوب الأهلين،ولذلك جعلوا اللغة الفرنسية محوراً لكل درس في مناهجهم، وقالوا بصراحة : إن المدرسة يجب أن تكون قبل كل شيء معهداً لتعليم اللغة الفرنسية ، كما اهتموا بمناهج الأخلاق في المدارس لتعليم أولاد المستعمرات مــا يحبب الأهلين بالفرنسيين فنجد من مناهج الأخلاق في مدارس الجزائر قسماً خاصاً في واجبات الأهلين نحو فرنسا .

ومما جــاء في هذا المنهج : ما يترتب على اهــل الجزائر من الواجبات نحو فرنسا مقابل الحماية التي تسديها اليهم والعدل الذي أدخلته في بــلادهم والأمن الذي نشرته في ربوعهم ونعم التعليم والحضارة التي اغدقتها عليهم ، الاحترام الذي يجب ان يشعروا به نحو من يدير البــــلاد باسم فرنسا والاحترام الذي يجب أن يظهروه نحو العلم الفرنسي .

وهذا هو ما سمي « التعليم لتسهيل عمل الاستعمار » .

وقد اسفرت تجارب هذا النوع من التعليم عن نتائج سيئة إذ مــا عتمت أن أحدثت رد فعل عند أولاد المستعمرات ، فقد تغيرت احوالهم بعــد مدة قليلة أو كثيرة من تخرجهم من المدارس ، وبدلاً من أن يكونوا مطبوعين على حب المستعمر يتفــانون في خدمتــه أصبحوا على نقيض ذلـــك يكرهونه

ويكافحونه ، فأسقط في ايدي المستعمرين ، وفكر علماء المستعمرين في هذه المعضلة فوجدوا أن هذه نتيجة طبيعية لأن ابن المستعمرات إذا ما قرأ تاريخ الأمة المستعمرة ودرس الثورات ووقف على مطالب الشعب من الحكومة يتحمس لهذا الحس فيشب راغباً في تطبيق ما درسه .

ومن هنا لجأوا الى طريقة جديدة في سياسة التعليم : هي « التعليم بغير تثقيف » فاتجهوا الى تعليم أولاد المستعمرات من غير تثقيفهم، تعليمهم تعليماً ضيقاً جداً يجعلهم آلات صماء في أيدي الاستعمار .

وقد بذلت الدول المستعمرة جهودها في وضع نظام للتعليم على هذا الأساس يجعل التعليم وسيلة ميكانيكية بحتة ، إذ تكون لغايات محدودة معينة بدون أن يدخل على هذا التعليم أي عنصر من عناصر الثقافة العامة ومضوا في ابتكار طريقة خبيثة لتدريب أبناء المستعمرات على أن يكونوا مسامير في صفحة خشبية أو عجلات في آلةٍ ميكانيكية مجردين من أي لون من ألوان الثقافة العامة .

ومن التعليم بدون تثقيف ، الى فصل الأقطار عن بعضها لجعلها مختلفة اللغة وحتى لا ينتقل أبناؤها الى الأخرى ليبثوا آراء جديدة .

وأخذ الفرنسيون في المغرب يفرقون بين العرب والبربر وغيرهم بحرمان البربر من تعلم اللغة العربية حتى يجعلوهم بعيدين عن التأثر بالمدارس التي تدرس العربية أو ما يكتب بهذه اللغة في الأقطار الأخرى .

ومن ذلك فكرة نشر اللغة العامية وهو الوسيلة التي تباعد بين الأقطار العربية وتسهل على المستعمرين أغراضهم ، وقد بثوا لهذه الفكرة دعايات خدع بها أبناء البلاد المستعمرة وروجوا لها ، وقد طلا المستعمر هذه المكيدة تحت عنوان نشر التعليم بين طبقات الشعب ومـا دام الجمهور في الأقطار العربية لا يعرف اللغة الفصحى غالباً فيجب تعليمه بلغته المحلية العامية .

وهكذا نجد أن خطة الاستعمار في التعليم قد حققت كل اهداف الاستعمار في السياسة والتاريخ والاجتماع :

عزل كل قطر عن الآخر ، وعزلت جماعـــات مختلفة في كل قطر عن الأخرى ولقد حرصت الغايات العليـــا لمناهج التعليم الوطني في ظل النفوذ الاستعماري على الفصل بين كل قطر وتعزيز اقليميته الخاصة ولهجته العامية ، وإقناع كل قطر بأنه صاحب وجود وكيان منفصل عن القطر الآخر الذي هو جزء منه عربياً وإسلامياً .

أفسد التعليم الاستعماري على الشباب عناصر رجولته وجعل اكبر همهم العناية بالزينة والمرآة وزجاجة العطر وجعل ولعه بالشيء الأجنبي والغريب والعامي والمتحلل من قيود الأخلاق .

حرص على ثنائية التعليم الديني والمدني لإيجاد طبقتين متميزتين مختلفتين متصارعتين وقد ارتبطت ثنائية التعليم بامتياز طائفة واحتقار الأخرى وقد عمق ذلك الفرق بين الطبقتين وأقام بينهما عوامل الصراع والاحتقار .

وانهى ذلك بقيـــام طبقة الاقطاعيين والأجراء واستهدف بذلك إقامة طبقة القـــادة الذين يتولون أمور البلاد من أولئك الذين شكلهم وفتح لهم الطريق .

جعل الشخصية الغربية هي المثل الأعلى ، وجعـــل نهضة الغرب وبيئته وأبطاله هم المصدر الأصلي لما تحشى به عقول الشباب ، بل إن الاستعمار بنى مناهج دروس الدين والتاريخ على الأساس الغربي ، فالدين الاسلامي يعلم في المدارس الوطنية مادة روحية أخلاقية ويعلم على وجه بعيد جداً عن الحياة وعن حقيقة مبادئه ، فحياة الرسول ﷺ تدرس لأبنائنا منقطعة الصلة عن حياتهم وبيئتهم بينما تدرس حياة نابليون وبسمارك وشكسبير بأسلوب مبهج ، كذلك فإن مادة العبادات والأخلاق تعـــلم من وجهة النظر النفعية ، أما

التاريخ الإسلامي فإنه مجموعة من المثالب التي تصور حكام المسلمين وخلفاءهم على أنهم سياسيون محترفون يغلب عليهم سوء النية أو سوء الفهم . ونبتت نابتة من المسلمين المثقفين تعلم التاريخ وتؤلف فيه وفق الأسلوب التبشيري والمنهج الاستشراقي .

« وهكذا كافة البرامج قد وضعت كلها على أساس الفلسفة الغربية ووفق مناهج الغرب . وقد أخلص هؤلاء الرواد إخلاصاً تاماً لهذه الثقافة حملهم على تقديس الاجنبي وحب حضارته ، وانطبع كثيرون بطابعه ، وصاروا يمقتون الإسلام والثقافة الإسلامية كما يمقتها الغربي ، ويحملون للاسلام وللثقافة الاسلامية العداء كما يحمله الغربي ، وصاروا يعتقدون ان الإسلام والثقافة الإسلامية هي سبب تأخر المسلمين كما أوحي اليهم أن يعتقدوا ذلك ، وبهذا نجحت الإرساليات والحملات التبشيرية نجاحاً منقطع النظير من حيث ضمت اليها الفئة المتعلمة من المسلمين وجعلتها في صفوفها تحارب الإسلام والثقافة الإسلامية » .

## (٦)

ولقد قام رجال الاحتلال في الأقطار المستعمرة على مهمتهم حتى استطاعوا حين انفكوا عنها أن يكونوا قد أعدوا « الركيزة » الحقيقية من أبناء البلاد أنفسهم ، وكرومر في مصر بعد أن مضى ربع قرن وغادر مصر عام ١٩٠٧ كان قد أحس تماماً بأنه ركز ركيزة صالحة للعمل سنوات طويلة ، وقد كان يدعو الشباب المتعلم في المدارس الوطنية وفق منهج الغرب أن يتقدم ليتسلم أمانة الحكم في بلده ويتصور المستقبل وقد جاء وفق ما خطط ورسم .

يقول في تقرير عام ١٩٠٣ : في مصر اليوم جيـــل جديد يختلف عن أجداده في أمور كثيرة ، فيمكن أن تحدثه نفسه يومــاً أن يمد الى تلك الأركان القديمة يداً لا تعرف حرمة القديم فتكون أشد عليها من يد حكومة تمدها اليوم طبعاً لإرشاد قوم لا شأن لهم في الأمر ( يعني الانجليز ) لأنهم لا يدينون بالدين الإسلامي ، فإذا كان لهذا الحساب نصيب من الصواب فالأجدر بأبناء اليوم ان يشرعوا في الإصلاح ويتلافوا الأمر قبل حلوله .

وقد تحقق هدف دنلوب وجـــاء كثيرون مدوا للقديم الذي هو الإسلام يداً ، وكان بعض هؤلاء ليسوا من رجـال المدارس التبشيرية والإرساليات ، ولكن من معاهد التعليم الوطني الذي وضع مناهجه الاحتـــلال ، ومن الأزهر ايضاً .

ويقول أحد الباحثين : ظل يتخرج هـذا العـدد من المدارس الدنلوبية الجيل بعد الجيل حتى صار للاسلام في مصر معنيان :

١ – المعنى الذي فهمه الشيخ محمد عبده من ينابيـع الإسلام مباشرة وكان مؤمناً بأن الأخذ به على وجهه الصحيـح يحول الأمة من الضعف الى القوة ومن اليأس الى الرجاء ومن الخمول الى النشاط .

٢ – والمعنى الذي فهمه تلاميذ دنلوب ولم يتلقوه عن الاسلامنفسه بل عن حالة المسلمين المنحطة المنافية للاسلام وعن اقوال فلاسفة أوربا فيما كانت عليه الكنيسة في القرون الوسطى فظنـوا أن مـا قاله الأوربيون عن غير الاسلام ينطبق على الاسلام .

وهكذا وضعت المنـاهج بأيـدي أصحاب البرانيط غـير حاسبين للروح الاسلامي حساباً ؛ ويقول السيد محب الدين الخطيب :

إن مناهج التعليم لا تزال تلف وتدور حول المحور الذي وضعه دنلوب ، وإصلاح هـذه المناهج يجب أن لا تكون بأيـدي أناس عرفوا بالتعصب على الإسلام سواء أكانت اسماؤهم إسلامية أم كانوا من الذين حضروا الىهذه الديار للسعي في إخراج أهلها من ربقة الدين المحمدي . كان الغرض الدنلوبي تخريج طبقة من الشبان تصلح لأن تكون في دواوين الحكومة آلات ميكانيكية تديرها رؤوس انجليزية وتسير بها في خطط لم يكن معروفاً الى أين تؤدي ، والواقع أنها تؤدي الى جعل مصر بلداً دولياً ( انترناشيونال ) .

هذه الطريقة الدنلوبية كانت لا تعنى بتخريج أبنـاء مصر العربية المسلمة تخريجاً عربياً مسلماً ، إن الطريقة الدنلوبية علمت شباب مصر أن العروبة والاسلام شيء أجنبي طرأ على مصر واحتلهـا كاحتلال الفرس والبطالسة والرومان والانجليز ، مع ان العروبة والاسلام هما روح مصر وكيان مصر بل هما مصر منذ نحو اربعة عشر قرناً الى الآن .

إن التعليم الدنلوبي في المدارس الثانوية أهمل آداب الإسلام وتاريخ الاسلام وأمجاد الاسلام ، فخرج لنا أبناء مجردين من سلاح الفضائل الإسلامية .

وقد بحث كثيرون في سر ابتعاد الذهن المصري عن الاتصال بالشرق والبلاد العربية وعدم اهتمامه بما يجري في البلاد المجاورة،وقال محمد علي الطاهر ان سبب كل ذلك رجل انجليزي واحد هو مستر دنلوب مستشار وزارة المعارف المصرية بعد الاحتلال البريطاني لمصر ، فقد استطاع بسيطرته على المعارف ان ينزع من برامج التعليم الدينية وروح الأدب العربي وتاريخ العرب وصلة مصر بالعرب والعربية ، ثم أدخل في برامج المدارس ان مصر مصرية فرعونية وأن أجداد المصريين هم فرعون وهامان ولا صلة لمصر بعدنان وقحطان، فلما نبت ابناء هذا الجيل وكبروا تولوا السيطرة الآن على المدارس والصحف .

وذلك حق كله فإن مناهج الدراسة في المدارس الوطنية وضعها رجال التعليم التبشيري ورجال الإرساليات خلاصة لتجربتهم بها وهم رجال دهاة يعرفون غايتهم وكيف يسلكون السبيل اليها في صمت وأناة .

ومن خير ما يمثل ذلك ما كتبه احد الباحثين عن دنلوب حين قال :

« إن المستر دنلوب سلك طريقاً اطول فأراد أن يكتسب اولاً قلوب الأطفال وانتظر ثلاثين عاماً يضع في رؤوس التلاميذ ما يريده ويمنع عنها ما يريده الى ان تخرج من وزارة المعارف الجيل الأول والجيل الثاني، فلما صارت مقاعد الوزارات وكراسي النيابة والحكم ممتلئة بالذين رباهم مستر دنلوب انقلب الى وطنه واطمأن قلبه على أنه صار لأوربا في كل بيت مصري من يكمل برنامج دنلوب » .

وهكذا دفع المفكرون المسلمون هذه الخطة في إبانها ولم يتوقفوا عن معارضتها .

ويصور السيد محمد رشيد رضا منشىء المنار أخطار مناهج التعليم الغربية بعد الاستقلال .

أما تربية المدارس فروحها تفرنج وتقتل الإسلام قتلاً بتفضيل كل ما هو افرنجي على مـــا يخالفه من عقائد الإسلام وشعائره وعاداته وأخلاقه وآدابه ومشخصاته. وحسبك ان الصلاة التي هي عمود الإسلام غير واجبة على أساتذة هذه المدارس ولا على تلاميذها فلا يطالب بها أحد .

هذه المدارس قد وضع الانجليز نظمها وعينوا لها وجهتها وغايتها كما شاءوا، ومن مقاصدها ان لا يكون لمن يتعلم فيها أدنى شعور بأن لقومه ملة إسلامية لها من المزايا في دينها وتشريعها وحضارتها ما تعلو به .

وقد اتفق ان جيء لمدرسة البنات السنية في عهد القسيس الشهير دنلوب المسيطر على وزارة المعارف بناظرة إنجليزية ممن تربين تربية حرة عالية . فلما كتبت تقريرها آخر السنة الدراسية اقترحت على وزارة المعارف إلزام جميع من يتعلم فيها من البنات ان يتعلمن عقائد الدين الإسلامي وأحكامه ويؤدين عبادته من صلاة وصيام وعللت ذلك بأن عاقبة هؤلاء البنات ان يكن امهات مربيات لنشء الأمة ولا يصلح للتربيــة إلا الأم المتدينة الصالحة لأن تكون قدوة . ولذلك أجمعت الأمم كلها على تربية البنات تربية دينية عملية علمية ، قالت ؛ ولما كان في هذه البلاد ثلاثة أديان كلهــا تأمر بعبادة الله والتحلي بالفضائل واجتناب الرذائل وهي الإسلام والنصرانية واليهودية ، ولمــا كان اختلاف التعليم الديني مضراً بالتربية ومخلاً بوحدة الأمة وكان الإسلام هو دين الأكثرية الغالبة وجب جعــله الدين الذي يبنى على أساسه نظــام التعليم والتربية في هذه المدرسة ولذلك فقد اقترحت جعله رسمياً إلزامياً فيها .

وقد عزل دنلوب هذه الناظرة عزلاً وأحفظه تقريرها فمزقه تمزيقاً .

وأشار السيد رشيد رضـــا الى ان جميع المدارس التي تسمى إسلامية في

مصر تسير وراء وزارة المعـــارف في تربيتها وتعليمها حتى مدارس الأوقاف الملكية ومدارس الجمعية الخيرية الإسلامية التي كان غرضها الوحيـد على عهد رئيسها الأستاذ الإمام ومـديرها حسن عاصم تربية أولاد الفقراء من المسلمين تربية إسلامية خالصة وتعليمهم ما لا بد لكل مسلم من عقائد دينية وأحكام.

وقد أصاب هـذه المدارس من الانتكاس والارتكاس ، حسبك ان تعلم ان الجمعية أنشأت مدرسة للبنات لتمرينهن على الرقص دون تمرينهن على الصلاة والثمرة مـا ترى من النساء في الاسواق والشوارع والمحافل والجامع والملاعب والمراقص والمسارح والحمامات البحرية والجمعيات النسائية ، وقـــد بلغن من الخلاعة والرقاعة والإباحة دركاً صار يستقذره الكتاب الإباحيون الذين دعوا اليه من قبل .

وإذا كان هـــذا شأن من يتعلمن ويتربين في المدارس الإسلامية فماذا عن مدارس جمعيات التبشير وراهبات الكاثوليك؟ إن هؤلاء يحتقرون الإسلام وكل من ينتمي اليه ويحتقرون لغته ايضاً [١] .

(١) م ٣٤ سنة ١٩٣٣ المنار .

(٧)

وقد تساءل كثيرون خلال هذه المرحلة الطويلة التي سار فيها التعليم إبان الاحتلال حتى نهايته: إلى أين وإلى متى تسير مدارسنا وراء مدارس الغرب ؟

وقد عرض لهذا الأستاذ الإمام حسن البنا فقال : لنا ان نأخذ من مدارس الغرب ومناهجه عنايتها بالعلوم الطبيعية والمواد العملية والمعارف الحيوية التي ترمي الى إدراك سر الوجود ومعالجة مشاكل الحياة وعنايتها باتجاهات التربية الحديثة ومراعاة مطالبها بتربية الجسوم وغرس الفضائل الوطنية .

ولكن : هل نجعل مدارسنا خلواً من الدين والاهتمام بشأنه لأن مدارس الغرب كذلك ؟ كلا والف مرة كلا . فان أسباب ذلك وموجباته إن توفرت في الغرب فهي معدومة عندنا ، وإن أخطأ الغربيون في شيء فلسنا ملزمين بتقليدهم في خطأهم على ان مدارسهم أسست في وقت كان النزاع بين العلماء والمتدينين على أشده وكانت موجة الإلحاد تغشى أوربا من أقصاها الى أقصاها، وكانت المدارس هي السلاح الماضي للقضاء على مزاعم الكهنوتيين وأراجيفهم، ولكن الشأن الآن غيره فيما مضى .

ليس هناك وسيلة لتربية الخلق إلا الدين بل الدين وحده فالعلم والفلسفة لا يجديان في تربية النفوس وتزكية الأرواح إلا إذا استندا الى الوازع الديني القوي السلطان العظيم الأثر .

ومن هنا يمكننا ان نفهم السر في اتجاه السياسة الانجليزية نحو جعل التعليم في مصر مجرداً من الدين والأخلاق لأن هذا هو ما تقضي به مصلحتها ويؤدي الى تسلط شعب بدين بدين آخر .

ويقول الإمام حسن البنا : منذ امتدت اليد الأجنبية الى مناهج التعليم أخذت العناية بالقرآن تضعف وتتضاءل . وأخذ رجال التربية والتعليم – وجلهم من الأوربيين أعداء الاسلام وكتاب الإسلام – يرون شبحاً مخيفاً يناوىء مطامعهم وآمالهم يعملون على إقصائه تدريجياً من المناهج بحجة ان المدارس علمانية وساعدهم على ذلك روح التعليم الأوربي التي عمت وطمت فاستطاعوا ان يحذفوه من التعليم العالي والثانوي ثم الابتدائي تقريباً وحصروه في دائرة ضيقة هي مكاتب الإعانة والمكاتب الأولية .

ولم يقف هذا التيار ضد القرآن عند هذا الحد بل أخذ يقوى ويشتد فإذا بمكاتب الاعانة تطاردها المدارس الالزامية وليس من منهاجها حفظ القرآن ، ولئن كان هناك قسم للحفاظ كما يقال فإن طبيعة نظامها يجعل الوصول الى هذه الغاية مستحيلاً ، وصارت البقية الباقية من هذه المكاتب تغلق تباعاً أمام عدم الاقبال عليها ، وتضييق الوزارة وحظرها فتح مكاتب جديدة رغبة في تعميم التعليم الالزامي .

والنتائج الخطرة الملموسة لهذا كله هو استحالة حفظ كتاب الله على النشء الحديث ، ومعنى هذا انقراض الحفظة بموت من يحملون القرآن من العلماء والمرتزقة والعباد الصالحين ، وكذلك ضياع اللغة العربية التي ما كانت العناية بها يوماً من الأيام إلا نتيجة من نتائج العناية بالقرآن الكريم ، وبذلك ينسى المسلمون أصل دينهم وتنقطع الصلة الحقيقية بينهم وبين كتاب الله وينهدم أعظم ركن من أركان حياتهم الدينية والعلمية .

ويشير الامام الجليل الى مصدر الخطر فيقول :

إن الفكرة التي تسود عقول رجـــال وزارة المعارف هي وجوب إبعاد العنصر الديني عن العقول والأذهان حتى تكون المدارس علمانية فقط ، وإن كان الكثير لا يستطيع المجاهرة بهذا الرأي والدافع لهذا الرأي هو الاعجاب بتقليد أوربا ونظمها إعجاباً يدفعنا الى السير وراءها .

والمتتبع لخطوات القضاء على التعليم الديني عندنا يجدها شبيهة بالخطوات التي اتبعتها فرنسا لمثل ذلك ، فقد كانت الخطوة الاولى هي إلغاء مادة الدين من المناهج والاستعاضة عنها بدرس في الأخلاق .

## ( ٨ )

ومنذ الثلاثينات ركز رجال الحركة الاسلامية جهدهم على مصدر الخطر وحددوه ، وقالوا إن التعليم هو الأزمة الحقيقية الحاضرة في عالم الاسلام .

وإن طريقة التعليم التي جرت عليها الحكومات الاسلامية والمسلمون في هذا العصر ، « تعني ان ينشأ الحدث المسلم بدون عقيدة من الصغر تنقش في لوح صدره ، وأن لا يكون له نصيب من حفظ القرآن ولا من قواعد العربية فالمسلمون اليوم يشتكون من ثورة الأفكار وفشو المبادىء الضـــارة كالالحاد والاباحــة ، والانصراف عن كل شيء روحي والطاعة لكل شيء مادي ، وعندما عاد ويليـام مارتين الكاتب السويسري من سياحة في الشام والعراق ١٩٣٠ قال : إن الناشئة الحديثـة في العراق حسبما لحظ في بغداد ليست على على شيء من الدين الاسلامي وأهل مصر يئنون من مظاهر عداوة الدين التي كانت أحياناً تصـــل الى مجلس النواب والتي لولاها لم تكن الجامعة المصرية نفسها بؤرة شبهات باسم حرية التفكير ، وسورية نفسها منطوية على كثير من سل اللادينية الساري بسرعة » .

ويقول الأمير شكيب أرسلان صاحب هذا العرض: ماذا تأمل من الشاب الذي أرسـله أبوه الى أوربا وهو ابن ( ١٤ سنة ) لا يعرف شيئاً من عقيدة قومه ، ولا من البراهين التي يقوم عليها الاسلام فوصل هناك «خاماً» كما يقال

وحشا دماغه في أوربا بكل ما يحقر الإسلام ويصغره ويزدريه ، وقيل له إن أمته من التأخر والجمود والضعف إنما هو بأجمعه أثر الإسلام ، أفيكون من العجب بعد هـذا أن تنشأ عن هذا الفوج الجديد هذه الكراهية للدين الإسلامي وهذه النفرة من الثقافة الإسلامية. والخطأ ليس هو خطأ أوربا التي تريد أن تبث تعاليمها مما هو طبيعي والتي لو وجد عندها الميل الى الإنصاف لم يوجد عندها العلم بحقيقة الإسلام ، إنما الخطأ هو خطأ الحكومات الإسلامية التي كانت ترسل الناشئة للتحصيل في فرنسا وإنجلترا والمانيا وبلجيكا وسويسرا وتظن أنها ربت فيها رجالاً والحقيقة أنهـا أرسلتهم غير مجهزين بشيء من السلاح المعنوي الذي يمكنهم من أن يـذبوا به لو هوجمت عقيدتهم فكانوا معرضين لكل خطر .

إن التعليم في أوربا لازم بـل ضروري ولا سيما العـلوم الطبيعية والميكانيكيات والاقتصاد والزراعة والتجارة ، ولكن تلقننا هذه العـلوم في أوربا لا يستلزم أن ننسلخ عن عقـائدنا وعاداتنـا وأخلاقنا وأذواقنا ومشخصاتنا القومية ومقوماتنـا الاجتماعية .

ولقد سبق لغيرنا من الشرقيين مثل اليابانيين أن تلقوا هذه العلوم وبرعوا فيها وضارعوا فيها الأوربيين وسبقوهم في كثير منها ولبثوا على ما كانوا عليه من عادة وعقيدة وذوق ومشرب وكتابة وأدب .

وأغرب من هذا أن الأبنـاء يعودون من أوربا وقد امتـلأت ادمغتهم من احتقار المدنية الشرقية والثقافة الإسلامية فيهزأون بآبائهم ويزدرون أهلهم ويجادلونهم في الدين وينكرون أمامهم الوحي ، ويقولون لهم إن هذه العقائد ما هي إلا خرافات واساطير . ولا أريـد أن اطلق القول وأحكم على جميع الذين حصلوا العلوم في اوربا بفساد العقيدة بل هنـاك من الناشئة من استفاد وعاد الى بلاده فأفاد وبقيت مبادئه طاهرة ، وإنما أريد ان اقول إن إرسال الولد الى أوربا قبل ان يبلغ أشده معناه إرساله لينشأ تنشئة اوربية ليس

فيها شيء من الإسلام ومبادئه ، فإذا عـاد الى قومه عاد إما عدواً لقومه او محتقراً لهم ونشأ هـــذا التنافر الذي نراه الآن . والخلاصة اننا من فوضى التعليم في خطر وان من عدم تجانس التعليم سيكون في العـالم الإسلامي فتن وشدائد بين أبنـائه (١) .

• • •

وهذه هي قضية البعثات من شباب المسلمين الى أوربا والغرب وهي بمثابة خطر شديد كان للاستعمار في توجيهـه دور وأثر حتى لقـد بلغ ان ارسل من مصر بعثات من شباب في السابعة من العمر والعاشرة حتى يمكن تشكيلهم من جديد دون ان يبقى لجذورهم الإسلامية العربية أثر ما ، ولقد كانت اخطار ابناء البعثات من أكبر الأخطار التي عرفتها بلادنا وأمتنا .

والمعروف أن اغلب المنح الدراسية المقدمة من البلاد الغربية للجامعات بما في ذلك الجامعة الأزهرية مع الأسف هي منح مقدمة من مؤسسات التبشير والاستشراق والإرساليات ، وان الطالب يحاط به تمامـــاً إذا ما وصل الى اوربا ويفرض عليه موضوعه ووجهة النظر التي يتحرك فيهـا ، ولا بد أن تكون في إطـار كتب استاذه الذي كثيراً ما يكون يهودياً ؛ واليهود الآن يشرفون على الدراسات الإسلامية والعربية في اغلب جامعـات الغرب ، ومن السخرية البالغة ان يدرس طه حسين في فرنسا تفسير القرآن بعـد ان عجز عن تحصيله في الأزهر او يدرس اللغـــة العربية وهي موضوعات ذات أصل عربي ولا تحتاج الى السفر الى الغرب والاقامة من أجل دراستها إلا من حيث ان تكون وجهة نظر الاساتذة المستشرقين .

---

(١) الفتح – ١٧ – ابريل ١٩٣٠ .

## (٩)

وإذا كانت هذه هي وجهة نظرنا كمسلمين في اخطار التعليم الوطني في ظل النفوذ الاستعماري وتحدياته وهو خطر امتد في البلاد الإسلامية بعد الاستقلال وبعد الجلاء نقول إن الجانب الآخر لم يكن يحس بأن ما قــــام به قد حقق تماماً كل ما يتطلع اليه في حدود رسالة القديس لويس ، وإنما كان يرى ان الأمر ما يزال محتاجاً الى جهود جديدة ، بل إن عدداً من المستشرقين تواصوا على دراسة الخطوات التي تمت واطلقوا عليها اسماً عجيباً هو «تغريب الشرق» ودفعه في طريق الخروج من إسلاميته وعروبته الى ان يكون غربيــاً وجاء كتاب ( وجهة الإسلام لجب وخمسة من المستشرقين عام ١٩٣٠ ) ليصور الى أي مدى وصل ذلك التغريب وما هي الخطوات التي تمكنه من تحقيق غايته كاملة .

وتقرير جب في هذا الصدد وثيقة خطيرة تدفع جميع العاملين في حقل التعليم الإسلامي والعربي وستظل كالسيف مشهورة في وجوههم حتى يتحرروا من نفوذ الغرب في مجــال التعليم :

« التعليم اكبر العوامل الصحيحة التي تعمل على الاستغراب . والحق أنه العامل الوحيد إن فهمنا من كلمة التعليم ما تدل عليه ، ولا نستطيع الحكم على مدى الاستغراب في العالم الإسلامي إلا بمقــــدار دراسته للفكر الغربي

والمبــادىء والنظم الغربية . ولكن هذا التعليم ذو انواع كثيرة وتقوم به جهات متعددة وبالطبع لأن هنـــاك بالفعل قليلاً من التعليم على الأسلوب الأدبي في المدرسة وفي الكلية الفنية وفي الجامعة وعلى هذا التعليم يتوقف كل ما عداه . إن انتشار التعليم سيبعث بازدياد في الظروف الحاضرة على توسيع تيار التغريب وتعميقه ولا سيما لاقترانه بالعوامل التعليمية الأخرى التي تدفع الشعوب الإسلامية في نفس الطريقة » .

ويقول جب: إن إدخال طرائق جديدة في الفكر – في البلاد الإسلامية – كان يتطلب نظاماً جديداً في التربية من عهد الطفولة في المدارس الابتدائية والثانوية قبل الانتقال للدراسات العالية . وإن إصلاح التعليم على هذا النحو لم يكن في ذلك الوقت يخطر على بال السلطات المدنية الإسلامية، ولكن هذا الفراغ ملأته هيئات أخرى ، فقد انتشرت في منتصف القرن التاسع عشر شبكة واسعة من المدارس في معظم البلاد الإسلامية ولا سيا تركيــا وسوريا ومصر وذلك يرجع غالباً الى جهود جمعيات تبشيرية مسيحية مختلفة ، وربمـا كان اكثرها عـــدداً المدارس الفرنسية ، فقد كانت المدارس الانجليزية في الامبراطورية العثمانية أقل منها في الهند ، وكانت المدارس الهولندية قاصرة على جزر الهند الشرقية.هذه المدارس صاغت اخلاق التلاميذ وكونت ذوقهم، والأهم أنهـا علمتهم اللغات الأوربية التي جعلت التلاميذ قادرين على الاتصال المباشر بالفكر الأوربي فصاروا في مستقبل حياتهم مستعدين للتأثر بالمؤثرات التي فعلت فيهم فعلها أيام الطفولة ( أي التعليم على الطرق المسيحية ) .

وفي اثناء الجزء الأخير من القرن التاسع عشر نفذت هذه الخطة الى ابعد من ذلك بإنماء التعليم العلمـــاني تحت الاشراف الانجليزي في مصر والهند ، ولعل هناك نصيباً من الحق في التهمة التي ترمى بها المدارس الاجنبية من أنها مفسدة لقومية التلاميذ، وإن كنا لا نستطيع القول بأن التطورات السياسية

التي أعقبت ذلك في البلاد الإسلامية أيدت هذه التهمة ولكن الذي فعلته بلا ريب أنها ربت في التلاميذ خروجاً على الأنظمة الاجتماعية وعلى السياسة الى حد ما في اوطانهم الأصلية . وأضعفت من هذه الوجوه سلطان النزعة الإسلامية القديمة على التلاميذ وأدخلت في بناء المجتمع الاسلامي أداة هادمة قطعت بعض الأواصر التي كانت تربطه وتحفظه .

ويقول جب : لقد استطاع نشاطنا التعليمي والثقافي عن طريق المدارس العصرية والصحافة أن يترك في المسلمين ولو من غير وعي منهم أثراً يجعلهم في مظهرهم العام لا دينيين الى حد بعيد ، ولا ريب ان ذلك خاصة هو اللب المثمر في كل ما تركت محاولات الغرب لحمل العالم الاسلامي على حضارته من آثار .

هذه كانت الرؤيا عام ١٩٣٠ : الخنجر الذي طعن به المسلمون ما زال ينزف ومع ذلك فإن هناك من يدعو الى غرسه الى أبعد مدى ، ويقول جب كنتيجة لهذا العمل :

« إن الاسلام كدين لم يفقد إلا قليلاً من قوته . أما كنظام للحياة الاجتماعية فقد نزل عن عرشه وقامت الى جانبه او من فوقه قوى جديدة لها من السلطان ما يتعارض في بعض الاحيان مع تقاليده وتنظيماته الاجتماعية وبذلك خفت سلطة الاسلام فى الحياة الاجتماعية وتراجعت شيئاً فشيئاً » .

ويرى جب ان الهدف من هذه الخطة في مجال التربية والصحافة كانت ترمي الى التفرقة بين الحياة الزمنية والحياة الروحية الدينية : فليس شيء في الحياة يصح ان يسبغ عليه الطابع الديني » .

وهكذا نجد الطعنة النجلاء تضرب الاسلام في الصميم وتقضي على قاعدته الاساسية وعموده الفقري : تكامل الدنيا والدين في نظام الاسلام .

والصورة التي رآها جب وحاول ان يدعمها لتمضي الى غايتها هي الصورة التي اشار اليها بيجمن فيلبي في محاضرة له بالجامعة الأمريكية في ١٩٥٧/١٠/٢٠ حين قال :

« لعبت الإرساليات (في بيروت والقاهرة والقسطنطينية) الدور الرئيسي في تنمية الفكر الشخصي عند طلابها الذين تمكنوا من قيادة الحركة القومية ، ومن المهم أن نعرف ان النفوذ التربوي الوحيد الذي تعرض له الطلاب العرب في القرن الماضي : كان النفوذ الغربي » .

وقد أشار الى هذا السيد محب الدين الخطيب معلقاً فقال :

إنما أتينا من قبل المدرسة والصحافة ، ومن قبل الثقافة التي تثقف بها قادة الأمة ، فالمصانع التي يتخرج منها قادتنا ليس لها غاية واحدة معينة .

فالنظرية الصحيحة في التعليم في العالم الإسلامي أن يكون ابن الزمان وابن المكان أي ان يكون عصرياً وإسلامياً ، فإذا كان عصرياً فقط كما هي الحال في مدارسنا المدنية خرج لنا شباب يجهلون أنفسهم ومحيطهم وكيانهم وكانوا سماسرة لأقطار أجنبية ومقاصد أجنبية وعقائد أجنبية ، وإذا كان التعليم ابن المكان فقط ولم يراع فيه معارف العصر خرج لنا شبان جاهلون أحوال زمانهم مجردون من الأسلحة التي يقاتلهم بها اعداؤهم .

والسبيل هو القضاء على التعارض في طريق التثقيف في العالم الإسلامي وإزالة هذه الهوة الواسعة بين المتعلمين تعليماً مدنياً عصرياً والمتعلمين تعليماً دينياً إسلامياً ولا يكون ذلك إلا بسلخ الصبغة الأجنبية عن التعليم المدني العصري ، وإعطائه صبغة أخرى من لون محيطه الإسلامي تكون ملائمة لتقاليد الأمة وعقائدها ويكون القسط الادنى لإعلان مفاخرها وتنوير تاريخها وإحياء ماضيها وربط الحاضر به .

كذلك تعليمنا الاسلامي يجب أن يجهز بأساليب العصر ومعارفه ليكون

أئمة المسلمين من أعرف الناس بزمانهم وأدواته وأسباب معالجتها . إن مناهج التعليم في مصر لا تزال تلف وتدور على المحور الذي وضعه دنلوب ، وإصلاح هذه المناهج يجب ان لا يكون بأيدي أناس عرفوا بالتعصب على الاسلام سواء أكانت اسماؤهم إسلامية أم كانوا ممن حضروا الى هذه الديار للسعي لاخراج اهلها من ربقة الدين المحمدي ، بل بأيدي رجال من أهل الفضل عرفوا بالوفاء للاسلام .

ويركز الدكتور محمد حسين هيكل على نقطة الخطر الأساسية وهي وزارة المعارف ودورها ومناهجها وخضوعها الذليل في وجه النفوذ الاجنبي فيقول في ١٩٣٢/١/١٢ : « إن وزارة المعارف تخضع اليوم وأمس وستخضع غداً وبعد غد إلى ان يتاح لنا النصر السياسي الذي نعمل له الى السياسة التي كانت تخضع لها ايام كان مستر دنلوب مستشاراً لها مع فوارق في عدد المدارس وعدد الأساتذة وعدد التلاميذ اكثر منها في أساليب التعليم وفي الغاية منه .

إن سياسة التعليم في وزارة المعارف ستظل اليوم وغداً كما كانت بالأمس وقبل الأمس خاضعة للسياسة الغربية وللحضارة الغربية في روحها فالحضارة الغربية بالمعنى الذي يفهمه مفكرو الغرب ومؤسسو هذه الحضارة الحقيقيون حضارة علمية بالمعنى المفهوم من العلم في العصر الحاضر، بالمعنى الذي يفهمه ساسة الغرب الذين ينشرون لواء هذه الحضارة في ربوع العالم : حضارة استعمارية عدوة للعلم على خط مستقيم ، وهي كذلك حيثما ذهبت حاربت العلم وحاولت حصره في طبقة ضيقة وفي حدود ضيقة لتتخذ من هذه الطبقة بطانة لها تروج للاستعمار أي لاستغلال البلاد التي تنزل فيها استغلالاً مادياً يذهب كل خيره للغرب صاحب هذه الحضارة الاستعمارية .

ولذلك وضعت هذه الحضارة يدها على وزارات المعارف حيثما ذهبت وعملت دائبة على إفساد هذه المقومات النفسية والخلقية والقومية مكتفية بطائفة من المعلومات العملية التي تحتاج اليها إدارة الحكم .

ولست بحاجة لأضرب الأمثال على هذا فهي مما تلمسه اليد في كل ناحية من نواحي التعليم الابتدائي والثانوي أو العالي أو الجامعي ، وحضارة الغرب في هذا غير حضارات الشرق جميعاً، فقد كان لكل واحدة من حضارات الشرق كتاب تدعو اليه وإيمان تعمل على تثبيته في النفوس ، ومبدأ إنساني سام تريد غرسه في الأفئدة والقلوب ، كانت كلها حضارات إنسانية سامية القصد لا تقف عند الفرد ومتاعه المادي الوضيع بل تسمو فوق ذلك الى إخاء الإنسانيه كلها ، لذلك نرى في تاريخ الاسلام أدباء وعلماء من غير العرب ومن غير المسلمين بل إن اكبر أدباء الحضارة الإسلامية وعلمائها من غير العرب وبعضهم من غير المسلمين .

أما هذه المدنية الغربية التي نعجب بها فمدنية أنانية تتحدث عن الإخاء حديثاً شهياً ، ولكنها تقتله حيثما ذهبت ، وتدعو الى العلم حديثاً رائعاً بديعاً ولكنها تطؤه بالأقدام عند الشعوب التي تستعمرها ، وتترنم بأحاديث الحرية ولكن على أن تكون حرية الغرب ، فأما الأمم التي يحكمها الغرب فيجب أن يعتبر أهلها السجن مثل الحرية الأعلى لأنه وحده هو الذي ينجو فيه الإنسان من تحكم الغربي الحاكم أو الشرقي الذليل الذي يقوم في الحكم تحت لواء الغرب ليقتل في نفس أمته كل المعاني السامية التي ورثتها من حضارات الشرق القديمة مقابل ما يناله من فتات مائدة الغرب السعيد المجرم .

هذه السياسة التي يسير عليها الغرب وتقرها حضارته هي التي نحاربها » .

( ١٠ )

اللغة العربية هي أكبر أهداف النظام الاستعماري للتعليم : ولذلـك فقد وجهت اليها حرب عوان عن طريق مدرسة الإرساليات بالانتقاص والمدرسة الوطنية بالتجاهل والثقافة بالانتقاد . وتصور هـــذا دكتورة نفوسة زكريا سعيد فتقول : كان هم الاستشراق ان يبحث لأوربا الناهضة عن سلاح غير أسلحة القتال ليخوض المعركة مع هـذا « الكتاب » الذي سيطر على الأمم المختلفة الأجناس والألوان والألسنة ، وجعلها أمة واحدة تعد العربية لسانها وتعد تاريخ العرب تاريخها. وبدأ الغزو المسلح وسار الاستشراق تحت رايته ، فمن كان له لسان غير اللسان العربي أعدت له سياسة جديدة لإغراقه في لسان الغازي الاوربي حتى يسيطر عليه ، ومن كان لسانه عربيـاً اتخذت له سياسة أخرى لإغراقه في تخلف مميت ، هذه الخطة لخصهـا وليم جيفور في كلمته المشهورة :

« متى توارى القرآن ومدينة مكة عن بلاد العرب تمكنا حينئذ ان نرى العربي يتدرج في سبيل الحضارة ( يعني الحضـــارة المسيحية ) التي لم يبعده عنها إلا محمد وكتابه » .

وقد تبين أن لا وسيلة الى إقصاء القرآن من الارض المفتوحة إلا بالسيطرة على وسائل التعليم شيئا فشيئاً حتى لا تتمكن الأمة من السيطرة عليه فتقيمه

على طريق سويّ يفضي الى نهضة صحيحة ، وكان من قدر الله ان منارة العالم الإسلامي كله كانت في مصر وهي الأزهر فصار من الحكم المقطوع به أن تكون سياسة الغزو الأوربي موجهة الى مصر قبل أي مكان في العالم الاسلامي .

وهكذا كانت الدعوة منذ اللحظة الأولى الى العامية : وكان تقرير الخبير البريطاني ( دوفرين ) يدعو الى استعمال العامية ، ثم جاءت برامج التعليم في المدارس الوطنية هادمة للغة العربية معلية عليها اللغات الاجنبية ، ثم جاءت الدعوات الثقافية المتعددة والمتوالية والتي بدأها ويلكوكس ووليمور بالإضافة الى صيحة ( ولهلم سبتا ) مدير دار الكتب الخديوية . وكلها تنصب على العامية وعلى الحروف اللاتينية وامتدت هذه الدعوة بعد في اسماء مصرية : لطفي السيد وقاسم أمين وسلامة موسى وعبد العزيز فهمي وغيرهم . وكانت أخطر تحديات هذه الدعوة هو التعليم باللغة العربية في الجامعة .

وكان لمدرسة الطب دور في الدعوة الى دراسة الطب باللغة العربية وجدت من يعارضها ويحاول ان يعرقلها بدعوى عدم وجود المراجع او باتهام اللغة العربية بالعجز عن الأداء .

وقد وقف كثيرون من المنصفين في الدفاع عن اللغة العربية وأعلنوا قدرتها الفائقة وإمكانياتها الضخمة في دراسة العلوم . ولقد كان لطفي السيد في الجامعة صنواً لسعد زغلول في وزارة المعارف في مقاومة هذه الدعوة .

ولقد وقف زكي مبارك يهاجم لطفي السيد ويدافع عن اللغة العربية فيقول :

«أليس من العجيب أن يشير الأساتذة بتعليم بعض المواد باللغة الانجليزية ليتقوّى الطلبة في تلك اللغة ثم ينسى مدير الجامعة ان يقبل اللغة العربية حين يأبى أن يجعلها لغة التعليم في اكثر اللغات .

« أيغار الانجليز على لغتهم وهم أجانب فيسوقوننا سوقاً الى جعلها لغة التعليم ونتغافل نحن عن لغتنا ونحن في بلادنا فنقصيها عن ميادين التعليم .

إن من المكابرة ان يزعم الزاعمون ان لغة التعليم في كلية الطب وكلية العلوم إنما كانت لغة الانجليز بسبب عجز اللغة العربية ، فقد كانت اللغة العربية لغة العلوم والطب أجيالاً طوالاً ولم يقل أحد بعجزها إلا منذ خلق أبناؤها العجزة الذين يسترون ضعفهم بمحاربتها من غير تحرج أو استحياء . وقد كتب الله ان يفضح هذه الدسيسة على لسان رجل من أقطاب الجامعة المصرية هو الدكتور علي إبراهيم فقد قال في المؤتمر الطبي في دمشق « إنما نعلم الطب باللغة الانجليزية لأسباب سياسية » وعندنا بحمد الله كثير من المتحذلقين الذين يسترون ضعفهم بالتحامل على اللغة العربية فقد كانوا يقولون إن لغة العرب تعوزها المصطلحات العلمية والطبيعية ولكن الدكتور علي باشا ابراهيم عجز عن التمسك بأهداب هذا الاحتيال .

إن مدير الجامعة بين اثنين : إما ان يصدر أمره عاجلاً بجعل اللغة العربية لغة التعليم في جميع الكليات وإما ان يستقيل .

إن قصر هذا المنصب على الأستاذ لطفي السيد كان مزاحاً ثقيلاً أريد به ان يلقي في روع الشعب ان مصر لا تزال متأخرة وان هذا المنصب حين يخلو لا يجد من يشغله عن جدارة واستحقاق ، هي العوبة سياسية وليست ضرورة تعليمية ، وما هي المزايا التي ينفرد بها هذا الرجل حتى يكون وحده الصالح لإدارة الجامعة المصرية ، وما هو الأثر الذي تذكره به الجامعة حين يستقيل ما دام عاجزاً عن إقامة القواعد التي تنهض بها الجامعات ؟

أتريدون الحق ؟ إن لهذا الرجل المفضال مزية واحدة ، ولكنها بألف وهي قدرته على الغض من قيمة اللغة العربية باسم العلم وزعمه أنها لا تصلح

للدراسات العالية وتجاهله الحقيقة الأصيلة التي جهر بها الدكتور علي ابراهيم حين صرح بأن الطب إنما يدرس في مصر باللغة الانجليزية لأسباب سياسية .

هل يوجد في العالم كله جامعة واحدة جعلت لغة التعليم فيها لغة أجنبية؟

إن التعليم بلغة أجنبية يهدم الاستقلال من الأساس ، ولم تكن مصر ولن تكون مستعمرة إنجليزية . أتحتجون بأن اللغة العربية تعجز عن التعابير العلمية ؟ إن احتججتم بذلك فأنا أسألكم : ما هي القوة السحرية التي جعلت لغات الغرب أقدر من غيرها على التعابير العلمية . وهل تخلق اللغات كاملة مكملة لا تحتاج الى زيادة ولا يعتورها نقص؟ إن المصطلحات العلمية في اللغات الأوربية تنحت نحتاً من اللاتينية واليونانية ومع ذلك لم يقل أحد بفقر الفرنسية أو الإنجليزية ، فما الذي يمنع ان تؤخذ المصطلحات العلمية مرة واحدة وتنقل الى اللغة العربية ويسد هذا الباب في وجوه من يريدون ان نظل اتباعاً أبد الدهر لأبناء اللغات الاجنبية ؟

أليس من العجب العاجب ان يدرس الطب باللغة الانجليزية في بيروت ويدرس بالانجليزية في القاهرة . أليس من موجبات الأسى ان يتمكن أهل سوريا ولبنان الى وضع المصطلحات العلمية باللغة العربية ونعجز نحن ؟

وتصدى زكي مبارك مرة اخرى الى لغة التعليم في كلية العلوم فقال :

أحب ان ألفت الغيورين من طلبة كلية العلوم الى وهن ذلك التعليل الذي يلجأ اليه العجزة حين يصرون على تدريس العلوم باللغة الانجليزية ، فهم يزعمون ان اللغة العربية ليس فيها مصطلحات علمية وهذه علة لا قيمة لها على الاطلاق لأن اللغات المشهورة في أوربا كالفرنسية والانجليزية لم تكن فيها ايضاً مصطلحات قبل نهضة العلوم ، ولا أكاد اصدق ان كلية الحقوق تريد ان تعود من جديد الى فرض اللغة الفرنسية على الطلاب ، فقد قامت الدلائل على

صلاحية اللغة العربية لشرح القوانين، وكيف لا يكون كذلك وهي من أغنى اللغات في مؤلفات الفقه والتشريع » .

ولقد كشف الذين شاركوا فيهذه المعركة الى الهدف الأساسي للاستعمار تجاه إقصاء اللغة العربية عن التعليم فركزوا على ان الهدف هو القضاء على ما تحمله من إيمان بالشخصية والروح القومية وما يؤدي القضاء عليها على عزل الأمة عن مقومات كيانها .

## (١١)

إن إنشاء الجامعة كانت في العالم الإسلامي خطة جديدة لتوسيع قاعدة الغزو والسيطرة الثقافية بالرغم من ان مشروع الجامعة بدا عملاً وطنياً للتحرر من قصور الوطنيين عند مجالات التعليم المتوسط أو ارتمائهم في أحضان الجامعات التي أقامتها الإرساليات ، وتعد تجربة إنشاء الجامعة المصرية علماً على خطة الاحتواء التي قام بها النفوذ الأجنبي ، وهي نموذج لكل الجامعات التي انشئت من بعد في مختلف أنحاء العالم الإسلامي .

فمنذ اليوم الأول لإنشاء الجامعة الأهلية اشترك المستشرقون : نلينو وجويدي وسانتلانا فيها وبدأوا في استقطاب الطلاب وكانت تجربتها مع طه حسين ومحمود عزمي وزكي مبارك ومنصور فهمي معروفة ذائعة وهم ممن اتصلوا بها في مصر ثم سافروا الى أوربا .

تقول الأهرام عام ١٩٢٥ عندما ضمت الجامعة المصرية الى الحكومة : إن سلطات الاحتلال البريطاني سمحت بأن تضم الجامعة المصرية الى الحكومة خوفاً من نفوذ الإرساليات الأمريكية ، فقد لاحظت اللجنة التي شكلت لذلك وغالبيتها من الانجليز ان الإرسالية الأمريكية جمعت تبرعات ضخمة في أمريكا لإنشاء جامعة أمريكية في القاهرة على غرار جامعة بيروت ، ومما يذكر ان الإرسالية الأمريكية قدمت الى مصر عام ١٨٦٥ حيث انشأت الكلية

الأمريكية في اسيوط أول مدرسة للبنات .

ولقد واجهت الجامعة المصرية منذ اليوم الأول معارك الغزو الثقافي والصراع بين مستشرقي فرنسا ومستشرقي إنجلترا، وكانت أولى معاركها حول استقدام المبشرين الذين يلبسون ثيـــاب المستشرقين حيث يكلفون بإلقاء دروس عن اللغة العربية والإسلام والقرآن ، وكان موقع الاعتراض ان هـــذه العلوم لا تحتاج الى أساتذة أجانب يكلفون الدولة مبالغ طائـــلة ليحدثوا الطلاب عن علوم يوجد من يبرع فيها ويفوق المستشرقين من أساتذة الازهر وعلمائه .

وقد دافع طه حسين عن استقدام المسيو كازنوفا وقال :

« اريد ان يعلم الناس أني سمعت هذا الاستاذ يفسر القرآن الكريم تفسيراً لغوياً خالصاً فتمنيت لو أتيح لمنــاهجه ان تتجاوز باب الرواق العباسي ولو خلسة ليستطيع علماء الازهر الشريف ان يدرسوا على طريقة جديدة نصوص القرآن الكريم من الوجهة اللغوية على نحو مفيد حقاً .

ورد الشيخ محمود ابو العيون فهاجم هذا الاتجاه [1] وقال إن كازنوفا وضع كتاباً في تخطيط مدرسة الفسطاط ولكن هل وضع كتاباً في فقه اللغة وتاريخها وآدابها أو مناهج تدريسها يرجع اليه علماء اللغة والادب فيما جهلوه وهل وضع تفسيراً للقرآن لغوياً خالصاً ، ان كان فعل هذا ليكونن له شأن كبير عندنا.

ثم هاجم طه حسين وقــال : الآن قد عرفنا مذهب الدكتور طه حسين ورأيه في كل تعاليمنا ، وإذا كان قــد رأى إيثار استاذه على كل عالم وأديب في مصر فيا ضيعة العلم في مدارسنا العالية : العلم الديني الذي يدرسه لأبنائنا أساتذة أوربيون كالمسيو كازنوفا .

ثم ذكر أبو العيون كيف ان جامعــات المانيا وإنجلترا وفرنسا استعانت

---

(١) الاهرام: ٤ سبتمبر ١٩٢٣.

بشيوخ اللغة العربية في الماضي والحاضر وكان في مستشرقيها الكفاية وان حسن توفيق العدل والدكتور حـــامد والي وعبد العزيز جاويش ومحمد جاد المولى ومنصور سليمان كانوا من هؤلاء الاعلام .

ثم هاجم الغزو الثقافي التغريبي الذي تحمل لواءه الجامعة وقال :

نحن بلينا بالتقليد الضار وهو في الحقيقة مسخ وتغيير وتنازل منا طوعاً واختياراً عن كل مميزاتنا ومشخصاتنا الى الغير ولو دام الحـال على مثل هذا لأصبحنا مثل كندا واستراليا وبعض جنوب أفريقيا وسواحل تونس والجزائر ومالطة » .

وكانت المشكلة الثانيـة في معركة الغزو الثقافي هي المحاضرات التي القاها الدكتور طه حسين عام ١٩٢٦ عن الشعر الجاهلي في كلية الآداب ودعا فيها الى إقصاء عنصري القومية والدين من مجـــال البحث العلمي وهاجم الاسلام وأنكر ما ورد في القرآن من اخباره عن إبراهيم واسماعيل وطعن في نسب النبي وأنكر ان للاسلام أولية في بلاد العرب وأنه دين ابراهيم .

كما كشفت الاحداث عن دروسه التي كان يلقنها لتلاميذه وفيها يحثهم على نقد القرآن ويذكر لهم ان في القرآن اسلوبين مختلفين كل الاختلاف ، كما حث الطلاب على ان ينظروا الى القرآن كأيّ كتاب عادي يجري عليه من النقد ما يجري عليها وان يغضوا النظر عن قدسيته .

وهكذا مضت الجامعة في احتضان التغريب الى أبعد مدى .

(١٢)

كان من اخطر تحديات التعليم الوطني الصراع بين التعليم الانجليزي والتعليم الفرنسي في مصر فقد عمـد الانجليز بعد الاحتلال الى إحلال لغتهم وثقافتهم محل اللغة والثقافة الفرنسيتين تدريجياً وخاصة في المعاهد والمدارس العليا التي كان الفرنسيون يسيطرون عليها مثـل مدرسة الحقوق ، وأخرج الاساتذة الفرنسيون الذين كانوا يسيطرون عليها ، واحتل الاساتذة الانجليز مكانهم ، وقد استبدلت اللغة الانجليزية في جميع المدارس باللغـة الفرنسية واعتبرت اللغة الانجليزية لغة أصلية والفرنسية إضـافية . وهاجم كرومر أسلوب التعليم الفرنسي وقال : إن اساتذة مدرسة الحقوق لا يلاقون على ما يرى في التلاميذ من قلة ما يميزهم بعضهم عن بعض لأنه ليس في أسلوب التعليم الفرنسي ما يدعو الى هذا الامتياز ودعا الى أفضلية الاسلوب الانجليزي لأنه يجعل التلميذ يعتمد على نفسه .

ويقول رسل جوست : إن الفرنسيين بذلوا خطوات واسعة منذ عهد محمد علي ، وكانوا يعرفون ان شباب مصر إذا ما تعلم اللغة الفرنسية فسيتبع طرق التفكير الفرنسية وكان رسل فرنسا لهذه الغاية في الاغلب رهباناً كاثوليك » .

وهكذا عاش التعليم الوطني على الصراع بين الثقافتين الفرنسية والانجليزية ثم جاء بعد الحرب العالمية الثانية صراع بينهما وبين الثقافة الامريكية وعاشت

مصر على استعارة الأذواق والعقليات الغربية المختلفة .

والإطار كله وافد وتوضع فيه المعلومات على نحو سيىء، وهو إطار قديم لم يتغير بعد الاستقلال ولا بعد انتهاء الاحتلال إلا في جزئيات بسيطة ، وهو في مجموعه لا يلتزم برسالة أو بهدف .

وكان من أخطر ما فرض عليه المنهج الامريكي الذي يطلق عليه نظرية ديوي ، وأبرز مظاهر مذهب ديوي في التربية هو إبعاد الدين في مجال التربية، وكان في الغرب يستهدف إبعاد المسيحية ، وقد قصد الاستعمار الى فرض هذا المذهب في دراسات مدارس المعلمين العليا التي كانت مجالاً لتخريج رجال التربية في مصر ورأى في هذا عوضاً عن الإشراف البريطاني على التعليم الذي كان يقوم به دنلوب ( ١٩٠٦–١٩١٩ ) فأصبحت نظرية ديوي هي عماد المنهج التربوي بعد ذلك وكان اسماعيل القباني حامل لواء هذه الدعوة ، وقد اتيحت له الفرصة لإنشاء معهد التربية الذي كان المكان الاول لجعل هذه النظرية فلسفة عامة للتعليم المصري والعربي فيما بعد .

وقد ظل لأتباع ديوي سيطرتهم الكاملة على أنظمة التربية والتعليم الى وقت بعيد وبذلك استطاعت نظريتهم ان تبعد الاسلام عن مجال التعليم والتربية مع حملات مستمرة على اساليب التعليم الاسلامية وإبعاد خريجي الازهر عن مجالات التربية بحجة ما أطلق عليه النقص في مستوى الكفاية الفنية للتعليم وذلك جرياً مع الهدف التغريبي الواضح ، كما حرصت هذه المناهج على حجب الدراسات الوطنية والتاريخية التي تعمد الى بث امجاد الامة وعظمة الشخصية العربية فينفوس الطلاب . وهذا الاثر من اخطر آثار التبعية للثقافات الغربية وخاصة الثقافة الامريكية .

# الباب الثاني

## واقع التربية الوافدة في العالم الإسلامي وآثارها

# الفصل الأول

## اوجه الخلاف بين المناهج

عندما غزا الغرب (العالم الاسلامي) : عسكرياً وسياسياً كان مخططه في الغزو الفكري والثقافي قد أوفى على درجة عالية من القدرة والتمكن. ذلك ان الغزو الفكري بدأ قبل الغزو السياسي بأكثر من ربع قرن ومكن لنفسه مناهج أخـــذها الاحتلال ورجالاً قاموا على اعمال التربية والتعليم والثقافة والصحافة فعندما بدأت الإرساليات عملها في بيروت ومصر واستانبول قبل ١٦٨٠ كان ذلك إرهاصاً بإعداد الركائز الحقيقية لولادة قوى الاحتلال وبناء الجيل الذي سوف يؤازر المحتـل بالسيطرة على الثقافة والتعليم والصحافة في نفس الوقت الذي يبدأ فيه الاحتلال .

يقول الدكتور أنيس صـــايغ (١) ثم نزل الانجليز الى مصر والسودان ، وانتقل الحكم الى ايديهم واحتـاج الانكليز الى موظفين أكفاء يتقنون لغتهم ويقبلون أن يتعاونوا معهم ، ومرة اخرى ( والاولى ايام الخـديو اسماعيل ) سد اللبنانيون والسوريون الفراغ ، وقـد وصفهم اللورد كرومر في مذكراته بأنهم «منحة من السماء» وأنهم «خميرة البلاد» ولم يكن كل السوريين المتعاونين

---

(١) في كتابه : الفكرة العربية في مصر .

مع الاحتلال موظفين ومرابين، فمنهم من انشأ صحفاً وأشهرها صحيفتا المقطم والمقتطف اللتان أصدرهما فارس نمر ويعقوب صروف واسكندر مكاريوس ، وكانت الصحيفتان اللسان النـاطق لسلطات الاحتلال باللغة العربية . فأيدتا ذلك الاحتلال وهاجمتا الحركات الوطنية بكل ما في لفظي تأييد ومهاجمة من معان ، ونستطيع ان نضيف الى ذلك بكل بساطة جرجي زيـدان وسليم سركيس وفرح انطون وشبلي شميل واديب اسحق وكل من دعـا الى أسلوب العيش الغربي .

ومن اجـل ذلك وصفت الارساليات ووصف التبشير بأنه بمثابة الطلائع ففي عهد اسماعيل وقبل اكثر من ربع قرن من الاحتلال البريطاني لمصر كانت الارساليات قـد ركزت نفسها وأعـــدت برامجها ولم يبق إلا ان تسلمها الى المسؤولين عن الاحتلال لتطبيقها في دوائر التعليم ثم في الجامعات .

ولذلك فقد كان اكبر معاوني الاحتـــلال البريطاني لمصر من خريجي الارساليـات ، وكانوا هم اصحاب الصحف التي كانت تقود حركة الفكر في صف تأييد الاستعمار والتغريب في هذا الوقت ، وقد تمكنت بعد ذلك كثيراً واستقطبت الكتاب المصريين والعرب الموالين لهذا الاتجاه .

وكانت تدافع عن كل منـاهج الغرب في الثقافة والتعليم والتربية وتهاجم بشدة كل من يتصدى لها أو يحاول معارضتها وتتهمه بالرجعية والجمود والتخلف والخيانة .

ويمكن القول بأن بيروت كانت بؤرة العمل للغزو الفكري والتغريب في العـــالم الاسلامي يتوزعها على الارساليـة الفرنسية الكاثوليكية والارسالية الامريكية والانجليزية البروتستانتية ، ومن وراء الاولى الفـاتيكان ومن وراء الثانية الماسونية والصهيونية العالمية .

وكانت بيروت بذلك مؤهلة للتصدير وكانت القاهرة هي ملتقى كل مخططات التغريب وموزعتها عن طريق الصحافة والثقافة والتعليم في العالم الاسلامي كله.

(٢)

في إبان إعداد هذا العمل الذي أوصى به القديس لويس للاستيلاء على عالم الاسلام عن طريق الكلمة كانت مناهج الغرب في التعليم قد تخلصت تحت تأثير الثورة الفرنسية من نفوذ الكنيسة واتجهت نحو العلمانية بمعنى اللادينية .

غير ان اغلب الذين أشرفوا على مدارس الارساليات كانوا من الرهبان والقساوسة الذين يحملون قدراً كبيراً من الحماسة لدينهم ورغبة جارفة في تحقيق السيطرة الغربية عن طريق التعليم ، وقد مضى التعليم في المدارس الوطنية قسمة بين المناهج الفرنسية والانجليزية كما رسمتها أنظمة الارساليات وعلى شاكلة مناهجها حتى اوائل الحرب العالمية الثانية ، ثم سيطرت عليه بعد ذلك مناهج التعليم الأمريكية ونظرية ديوي على وجه أخص .

وقد كانت هذه المناهج الثلاثة الفرنسية والانجليزية والامريكية قد وضعت في بيئاتها وطبقاً لظروف هذه البيئات وأوضاعها ثم تطورت وتغيرت مرة بعد مرة في مواجهة ما كان يواجهها من تجارب ، ثم نقلت هكذا الى أنظمة التعليم العربية دون مراعاة فوارق البيئة أو تباين العصر ، أو اختلاف الثقافة والعقائد .

ولقد ظل العرب والمسلمون يخضعون لهذه المناهج خضوعاً شديداً ويحاول البعض التخلص من هذه التبعية وهذا النفوذ بعد ان ثبت فشل هذه المناهج

في تكوين الطالب العربي والمسلم وعقـدت عشرات المؤتمرات التربوية لإجراء تعديلات وتغييرات تتناسب مع ظروف العرب والمسلمين، ولكن أمراً واحداً لم يكن ليكون موضع الدراسة والاهتمام وهو ذلك الفارق الخطير من ناحيـة العقائد واللغة والتاريخ؛ ذلك ان هـــذه المناهج افترضت اساساً أنها خارج نطاق الاسلام واللغة العربيـــة وأنها تدرس علوم الغرب كأنمـا هي في بيئة غربية خالصة .

لقد سيطرت النظريات الغربية الثلاث(الفرنسية والانجليزية والامريكية) على المدرسة ، وفرضت اسلوبها ، وتجاهلت تماماً أي اعتبار للعربي أو للمسلم، وإنما حاولت ان تشكل هذا الدارس وكأنه غريب تماماً عن بيئته وثقافته . وكانت ظاهرة الانفصال عن الدين والاخلاق هي أبرز معالم المناهج الدراسية.

وإذا كان الغرب قد أقام نظرية في التربية والتعليم على أساس إبعاد الدين عن التربية وفق تجربته مع المسيحية الغربية فإن الامر كان مختلفاً مع الاسلام الذي هو ليس ديناً فحسب ، ولكنه فكر وحضارة ومجتمع ، والذي لم يقف موقف الصدام مع معطيات العلم أو حركة التقدم ، فلظروف خاصة بالغرب انفصلت مناهج التربيـة والتعليم عن الدين الغربي ، ولكن هذه الظروف لم تواجهها المجتمعات العربية ـ الاسلامية ، ولم تكن مناهج التربية والتعليم الاسلامية قادرة على ان تنفصل عن الاسلام الذي هو بمثابة الأساس المكين لكل مقومات المجتمع والعلم .

والتربية الاسلامية تقوم أساساً على بنــــاء الشخصية الانسانية على أساس الايمان بالله والمسؤولية الفردية والالتزام الاخلاقي ، وهـــذا يعني ان فصل مقومات الخلق والعقيدة عن التربية من شأنه ان ينشيء شخصيات هشة ضعيفة لا تعرف مسؤوليتها إزاء مجتمع يواجه التحدي الخطير الدائم من قوى الاستعمار الغربية المتسلطة بالغزو العسكري والسيطرة الاقتصادية .

ولا ريب ان الغرب حين يسيطر على مقدرات العـــالم الاسلامي في مجال

التربية والتعليم والثقافة إنما يحاول ان يحجب عن المتعلمين هذا التحدي الخطير الماثل الذي هو بمثابة الرأس من الجسد والذي لا يمكن للعرب والمسلمين ان يتجاوزوه في مرحلة من أخطر مراحل حياتهم التاريخية .

ومن هذا التحدي وحده نواجه ذلك الخلاف الكبير بين أساليب التربية ومناهجها في الغرب وفي عالم الاسلام ونحتاج الى امتلاك الإرادة القادرة على بناء مناهج تربوية إسلامية عربية قادرة على بناء الشخصية الانسانية الصامدة.

ومن العجب ان هذه التجربة الخطيرة التي استمرت اكثر من مائة عام لم تزل عاجزة عن ان تدفع أولي الرأي في العالم الاسلامي الى كسر هذا القيد وبناء منهج تربوي إسلامي أصيل قادر على إعداد الاجيال القادرة على مواجهة الأخطار، وما نزال غارقين في التبعية لأساليب التربية الغربية نتيجة لسيطرة الرجال الذين أعدهم التغريب والغزو الثقافي لتولي مناصب القيادة الثقافية والفكرية .

وما تزال أنظمة التربية والتعليم في الغرب تنحدر عاماً بعد عام ومرحلة بعد اخرى تحت سيطرة الأهداف التلمودية الصهيونية ، وما زلنا ننقل آخر مودات التعليم، ذلك ان آخر الصيحات التربوية الغربية التي تدعوا الى التعليم الحر والداعية الى مذهب افعل ما تشاء ليست بمناهج أصيلة، وإنما هي مراحل متتابعة من هزائم الفكر الغربي وانحداره وسقوطه في براثن الأساليب التلمودية التي هدمت الاسرة وأثارت موجات التحلل والهيبية والتحرر من الضوابط التي يقاسي منها المجتمع الغربي . فكيف يمكن لمجتمع نامٍ في طريقه الى البناء ان يتخذ من أنماط مجتمع منهار أسلوباً لحياته وتكوينه ؟

( ٣ )

إن أخطر الخلافات بين الفكر الإسلامي والفكر الغربي إنما تنصب على مفهوم التربية نفسه ، فالغربيون يرون ان التربية هي إعداد الأجيال لمواجهة المجتمعات المتغيرة على نحو يمكنهم من ان يلائموا بين أنفسهم وبين هذه المجتمعات ، وتلك هي أحدث نظريات التربية الغربية ، ولا ريب أننا في عالم الاسلام والأمة العربية نفهم التربية على نحو أعمق وأوسع وأكثر وفاء لأمتنا وعقائدنا.

ونحن نعرف ان النظريات الغربية في أيّ ميدان من الميادين إنما تستمد وجودها من أساسين: (الاول) هو المادية التي لا تجعل للمعنويات أو الروحانيات أو ما يتصل بالدين والأخلاق أساساً .

( الثانيــة ) هي التخصص والتجزئة والانشطارية من حيث ان تقوم كل مجموعة من الباحثين في مجال النفس أو الأخلاق أو الاقتصاد أو التربية بالانفصال عن الطائفة الاخرى .

أما في مجال الفكر الاسلامي فإن الأمر يختلف كثيراً ، فالفكر الاسلامي يقوم على قاعدة التكامل بين القيم المختلفة لا الانفصال بينها أو الصراع ، فالتربية مرتبطة بالمجتمع وبالأخلاق وبالاقتصاد وبالنفس على قدر واضح تتصل به وتتكامل معه ، ثم تأخذ طابعها الخاص دون ان تنفصل .

كذلك فالفكر الإسلامي يزاوج بين الثابت والمتغير ، وبين القديم والجديد

وبين الروح والمـــادة وبين الإلهي والبشري وبين الكلي والجزئي في تناسق واضح وتوازن رتيب .

والمناهج الاسلامية سواء في التربية أم في الأخلاق أم في الادب لا تنفصل عن الأصول كما أنهـا لا تنفصل عن الحركة الدائمة ، فهي توائم بين الارتباط بالأصل الذي هو بمثابة الإطار الثابت وبين الحركة التي هي من طبيعة الظروف المتغيرة دون ان يجعلها ذلك مجمـدة وعاجزة عن التطور ودون ان تفلت من إطارها ذاهبة الى أبعاد بعيدة مغايرة لإطارها وأطولها وقيمها الأساسية .

وفي مجال التعليم تقوم المناهج الاسلامية على أساس تأكيد الرابطة بالارض وهي رابطة الوطن ، وتأكيد الرابطة بالأمة وهي رابطة العروبة ، ولكنها لا تدعها تتحرك في فراغ وإنمـا في إطار من مقومات الاسلام نفسه الذي هو الأصالة والجذور فلا تمكن لطوابع الوطن أو الأمة ان تعلو على القيم العليـا التي جعلها الاسلام اساساً ومنطلقاً من حيث هو نظام ومنهج حياة .

ولقد تقول المناهج الغربيـــة بتطور نظرية التربية بين حين وحين ، وهو تطور جذري غامر يتحرك دون قيد ضابط الى آماد بعيدة من غير ان يلقي بالاً الى أي روابط بالتاريخ أو الجذور أو القيم أو العقائد .

أما موقف الفكر الإسلامي من التربية فإنه يقبل بتطويرها دون ان تخرج من أطرها الأصيلة وقيمها الثـــابتة ، فتظل متصلة بالجذور وفي نفس الوقت قادرة على المعاصرة والحركة والتقدم .

ولقد نجد بين نظريات الغرب في التربيـــة وبين المنهج الاسلامي فوارق وخلافات كثيرة نتيجه هـــذا الخلاف الجذري في النظرة العامة في عشرات المواضع والمواقف .

( ٤ )

تقوم نظرية ديوي في التربية على مصادر ثلاثة :

[ الديمقراطية الليبرالية + الداروينية + البرجماتية ] .

أما الديمقراطية الغربيــة فهي تعتمد النظرية الفردية واستعلاء الانسان وتحرره من كل عوامل السيطرة ، وهي في هـــذا الطريق تقوم على سيطرة الانسان الابيض صــانع الحضارة وعبوديته غيره ، وتمضي في طريق مفاهيم الاستعمار والعنصرية ، وتقف من الانسان بصفة عامة موقف الفكرة اليونانية الرومانية القديمة : سيادة الغربي وعبودية من سواه .

أما الداروينية فهي تؤمن بالتطور المطلق كما جاء به خلفاء دارون وبذلك لا تؤمن بأن هناك قيماً ثابتة مطلقة، وهي بذلك تتجاوز الدين وتؤمن بتطور الأخلاق .

أمــا البرجماتية فهي لا ترتكز على حقائق ثابتــة لذاتها ولكنها ترى القيم وسائل تعين على الوصول الى غــايات ، فالفلسفة البرجماتية تنظر الى النتائج العملية الفعلية للعمل .

ويرى ديوي ان الأفكار أدوات وآلات يستخدمها الانسان ليكون علاقة فعالة مع بيئته، والعقل مجرد آلة يستخدمها في البحث؛ ولهذا تجعل البرجماتية

هدفها الإجابة عن السؤال : ماذا سنجني من العمل ؟

ويرى ديوي ان القيم الصالحة –ليست هي التي تحتوي على مضمون معين– وإنما هي التي تساعد الفرد على تكوين علاقة فعالة مع المجتمع ومع الناس ولذلك فهي في تغير مستمر وان قيم عصر سابق لا تصلح ليومنا هذا .

ولذلك فإن المدرس في نظره لا يجب ان يعلم القيم بل يجب ان يساعد الطفل على اكتشاف القيم بنفسه .

وبذلك يرفض ديوي كل ارتباط بين نظم التربية وبين الدين والأخلاق والقيم .

وكل هذه المصادر التي قامت عليها نظرية ديوي في التربية تقوم على تعارض مع مفهوم الاسلام أساساً ومع مفهومه في التربية ، فهو لا يرى أية حاجة لأن يعلم الحدث ديناً أو خلقاً أو قيماً ، وإنما يعلمه شيئاً واحداً هو أنه يعيش في مجتمع متغير وعليه ان يجد الوسائل لكي يستطيع ان يعيش في هذا المجتمع ويتوافق معه أياً كان اتجاهه وتطوره . فهو قبول بالواقع الذي تسير فيه الحضارة الحديثة والمجتمع الغربي دون ان يتخذ إلا الوسائل البرجمانزمية التي تستخدم الأفكار والقيم كأدوات فقط .

وديوي ومذهبه في التربية لا يؤمن بالترابط بين العقل والجسم ، ولا بين الروح والمادة ، ويدعو الى قبول الواقع لا تغييره .

فديوي ومذهبه هو ثمرة آخر مراحل التحول الخطير الذي يمر به الفكر الغربي والمجتمع الغربي تأثراً بالمادية وبالماركسية ، ويمضي في نفس الطريق الذي ترسمه المخططات التلمودية فيقرر ان الروابط الاسرية قدتحطمت وكذلك الروابط الاجتماعية .

ومن هنا فإن الطفل يجب ان ينشأ في هذه الصراعات ويشترك فيها ويستسلم لها دون ان يعارضها أو يغيرها .

ولا ريب ان هـــذا الاتجاه وهذا المفهوم يتعارض تماماً مع اتجاه التربية الاسلامية التي تحاول إنشاء أجيـال قادرة على التغيير والإصلاح ، وقائمة في عملها وحياتها على أساس الايمان بالله والمسؤولية الفردية والالتزام الأخلاقي .

ومن هنــا فان مذهب ديوي ليس مقبولاً ، لا كلياً ولا جزئياً مع منطلق التربية الاسلامية بل معارض لها ، ومن هنا كان خطره منذ فرض على مناهج المربين في البلاد العربية والاسلامية .

## (٥)

إن مفهوم التربية وفلسفتها بصفة عامـــة في الغرب يتعارض مع مفهوم التربية الاسلامية ، ذلك أنها تحاول ان تقدم للحدث المفاهيم الأولية للحياة مستمدة من نظريات الفكر الغربي ، فالانسان حيوان كما تقول نظرية التطور. وتنطبق عليـه تشريحات الحيوانات والحشرات ، والجنس هو مصـدر كل التصرفات كما تقول نظرية فرويـــد ، والتطور حركة مطلقة كما تقول نظرية التطور بدون حـدود أو ثوابت ، والأخلاق نسبية لأنهـا مرتبطة بالعصور والبيئات ، فهي متغيرة والانسان جسد فحسب وليس هناك نفس أو روح ، والدين من مخلفات العصور البالية سواء أكان أفيوناً للشعوب كما تقول الماركسية أو ســلاح الإقطاعيين والأمراء كما تقول الديمقراطيه ، والجنس الابيض تاج الخليقة وصانع الحضارة وهناك جبرية في التاريخ أو حتمية في المادة .

هذه هي الخطوط العامــة التي تقوم عليها تربية النشء وهي مضادة تماماً لمفهوم الاسلام ، فالانسان في الاسلام سيد الكائنات وهو مستخلف في الارض ولكنه ليس سيداً مطلقاً بـل مسؤولاً ، وليس حيواناً مطلقاً ولكنه روح ومادة ونفس وجسم ، ولا تطبق عليـه تشريحات الحيوانات والحشرات لأنه يتميز بالعقـل والارادة . والجنس ليس مصدر كل التصرفات وليست المـادة مفسرة وحدها للتاريخ ولكن الجنس والمادة عاملان من بين عدة عوامل منها الدين والعنصر والمناخ .

فإذا قامت فلسفة التربية على المادية وعلى إنكار الجوانب الروحية والمعنوية فقد أقامت من الانسان مفهوماً ناقصاً وقاصراً . وإذا قامت على أساس ان الانسان حر الطبيعة والمسؤولية فقد تجاوزت مفهوم الاسلام الذي يعطي الانسان حرية الارادة ولكنه يجعله موضع المسؤولية ، وإذا رأت ان تجعل بين الله والانسان حلولاً أو اتحاداً فقد عارضت مفهوم الاسلام وأنكرت المسؤولية الفردية التي هي أساس الجزاء .

كذلك فان مفهوم التربية الغربية يعارض مفهوم التربية الاسلامية في أمور عديدة منها الإلحاح على اعتبار الدين قضية شخصية لا علاقة لها بالدولة ولا بالمجتمع ، وهذا ما لا يقره الاسلام ولا يقول به ، فالدين أساساً منهج حياة ونظام مجتمع . ولذلك فإن نظرية فصل الدين عن الدولة نبات غربي لا ينمو في بيئة المجتمع الاسلامي ، كذلك فالاسلام لا يعتبر الدين عائقاً في سبيل النهضة أو التقدم بل يعتبره معيناً ومساعداً ، كذلك ترى التربية الغربية ان ضوابط الاخلاق تعيق التقدم بينما يفرق الاسلام بين الاخلاق والتقاليد التي تبدو جميعاً في نظر الغرب وكأنها من صنع المجتمع ، أما قيم الأخلاق فإنها ثابتة ومتصلة بالانسان وليس بالمجتمعات كالخير والشر والحق والباطل وهي مما لا يقبل التطور أو التغير ، أما التقاليد التي هي من صنع المجتمع فهي تتبدل وتتحول ، ومن هنا لا يقر مفهوم التربية الاسلامي ان القيم الخلقية تتطور بتطور المجتمعات أو وسائل الانتاج .

## (٦)

تؤمن التربية الاسلامية اساساً بالأخلاقية. فأخلاقية التربية دعامة حقيقية لا سبل الى تجاوزها . وتستمد أخلاقية التربية عنصرها من حركتها في إطار الدين نفسه ، وليس خارجاً عنه ومن هنا تركز التربية الاسلامية على الاسرة كقاعدة ثابتة للأمة . وتنمي في الأم مسؤولية واضحة ، وفهماً واسعاً يمكنها من تكوين النشء الجديد ، ويجعل لهـــا وللأب مسؤولية أساسية في إعداد الجيل القادم .

والفرد المسلم ليس في صراع مع مجتمعـــه ولكنه في مواءمة ، وليس في صراع مع الجنس ولكنه في توازن مع حاجاته وقدراته . ولقد أقام الاسلام للجنس مفهوماً قريباً الى الفطرة فأباح الاتصال بين الرجـل والمرأة ، ولكنه نظمه ووضعه في إطاره الصحيح الذي يعلي من شأنه ويكرم المرأة ولا يذلها، ثم جعل هذه الإباحة قائمـــة ثابتة ليس فيها خلاف وليست موضع صراع ، ولكنـه سمح لكل من يستطيع ان يقيم الاسرة ولمن لا يستطيع ان يؤجلها ويعليها حتى يتاح له ذلك .

كذلك فالاسلام يرى الاسرة دعامة ويرى الزواج فطرة ويرى تنظيم ذلك كله في إطار الدين شريعة تحقق سلامة المجتمع وتحفظ كيان الافراد .

فالأخلاق ليست قيـــداً ولكنها ضوابط تمكن من قيـام المجتمع الكريم والاسرة السليمة .

ولقد جاءت إطلاقات الغريزة الجنسية في الغرب نتيجة إنكار الدين الغربي لها وإنكاره لطبيعتها ، فكان لا بد من التحول من النقيض الى النقيض وما يقاسيه المجتمع الغربي الآن من ثورة جنسية وانفجار في العلاقات بين الرجل والمرأة إنما هو رد فعل الحرمان الذي أطلقته الكنيسة للعلاقات الطبيعية بين الرجل والمرأة .

أما المسلمون فإنهم لم يصادفوا هذه الأزمة لأن دينهم اعترف بحاجات الجسد وأباحها ووضع لها الاطار الذي تتحرك فيه والضوابط التي تحفظها من الاضطرابات .

وإذا وصفت المفاهيم الغربية الأخلاق بأنها عادات اعتادها الشخص في الاغلب ، ولذلك فهي ليست ثابتة وهي في نفس الوقت ترتبط بالمجتمعات والعصور ، فإن ذلك موضع خلاف عميق مع المفاهيم الاسلامية وربما يرجع في الاغلب الى مادية النظرة الغربية التي لا تفرق بين الاخلاق المرتبطة بالدين وبين العادات والتقاليد المرتبطة بالمجتمع ، والاولى ثابتة والاخرى متغيرة ، ومن شأن ذلك فإن المسلمين يرون في الاخلاق قيماً أساسية لا تتبدل على مدى العصور أو اختلاف البيئات ، بينما يرون في العادات والتقاليد قيماً متغيرة يصيبها الضعف والتفسخ .

ونحن حين ننظر الى المفهوم الغربي للأخلاق الذي يراد طرحه في أفق الفكر الاسلامي وبناء منهج التربية في العالم الاسلامي على أساسه نذكر جيداً مصدر ذلك الذي تشير اليه بروتوكولات صهيون حين تقول في إحدى موادها الأساسية :

« يجب ان نعمل لتنهار الاخلاق في كل مكان فتسهل سيطرتنا. إن فرويد منا . وسيظل يعرض العلاقات الجنسية في ضوء الشمس لكي لا يبقى في نظر الشباب شيء مقدس ويصبح همه الاكبر هو إرواء غرائزه الجنسية وعندئذ تنهار أخلاقه » .

ونحن نعرف ان فرويد دعـا الى نسبية الاخلاق ووصف الاخلاق بطابع القسوة حتى في درجتها العادية، وقال إن التسامي بالنفس هو نوع من الشذوذ.

ولقد هوجمت هـذه الآراء في الغرب قبل ان تهاجم في الشرق ، ولكن القوى الخفية مـا زالت تدفعها وتقدمها في كل مكان حتى في مجال دراسات التربية الحديثة وفي الغرب حقيقة قائمة الآن تزري بهذا الاتجاه وتقول بأن العالم تضخم جسمه وضعفت روحـه ، وان الاخلاق لم تتقدم بالسرعة التي تقدمت بها الصناعات ، وان تقدم العلوم لم يضمن ارتقاء الاخلاق .

وإن هذه الفلسفات المادية مـا تزال تهدم الايمان القديم ولكنها لم تشأ ان تكون إيماناً جـديداً فهي تثير الشبهات والشكوك وتدع الاجيال الجديدة حائرة ، وذلك هو أسلوب التلمودية الصهيونية .

ولا ريب ان التزاوج بين انتهازية مذهب البرجماتية وتحلل مذهب فرويد من شأنه ان يجعل التربية الغربية فاسدة فساداً شديداً لأنهـا لا تتحرر من الاخلاقية فحسب ، بل هي تعارض هذه الاخلاقية وتزدريها وتصفها بالجمود والتخلف .

## (٧)

من وجوه الاختلاف البعيدة المدى حرص الجامعات الاجنبية في البلاد الاسلامية على ان تقدم دراسات عن العلوم الانسانية التي تتصل بالتاريخ وعلم النفس والاخلاق والعلوم الاجتماعية والفنون الى جانب دراساتها عن العلوم الطبيعية والرياضية وغيرها، أما العلوم الانسانية فإن للعرب والمسلمين مفاهيم فيها تختلف عن مفاهيم الغرب، مستمدة من ثقافتهم وقيمهم وعقائدهم ولذلك فإن إصرار هذه الجامعات التي هي إرساليات تبشيرية في الاساس على تدريس هذه المواد من شأنه ان يخرج اجيالاً لا تفهم مجتمعها وقيمه إلا من وجهة نظر الغرب وطبق مقررات الاستشراق ، وهي وجهة نظر مخالفة تماماً لمفهوم العرب ومعارضة تماماً لأصالتهم ولأهدافهم .

وتدعي هذه الجامعات أنها تقدم هذه الدراسات بأسلوب علمي ، هذا الاسلوب العلمي لا يصلح كثيراً لدراسة العلوم الانسانية لأنه يقوم على قواعد الاسلوب التجريبي الذي يطبق في دراسات المادة والجماد والطبيعة بينما الدراسات الانسانية المتصلة بالنفس والاخلاق والمجتمع لا يصلح لها إلا اسلوب آخر .

ونحن حين نقدم للدارس المسلم والعربي نظرية دارون على أنها مسلمة علمية ونقيم عليها مفهومه عن الانسان فيتقرر في نفسه أنه حيوان ثم نعلمه مفاهيم سبنسر في التطور المطلق للمجتمعات استمراراً من نظرية دارون في التطور

البيولوجي ، فإننا حينئذ نفصله عن أساس عميق وأصيل في الفكر الاسلامي تضطرب معه كل النظريات والمفاهيم والقيم .

ذلك ان الاسلام والفكر الاسلامي لا يقر مـا طرحته نظرية داروب من فروض بأن الانسان حيوان ولا ما فرضه سبنسر من تطور المجتمعات الى غير ما نهاية ، وكان الأولى بهذه الجامعات إذا درست هذه المواد ان تدرسها على أنها نظريات وفروض قد تصح وقد تخطىء ، وان هناك بين باحثي العلوم من عارض نظرية داروں ونظرية سبنسر وكذلـك الامر في فروض « فرويد » التي تدرس على أنهـــا مسلمات في علم النفس ، بينما توجـد عشرات المدارس ووجهات النظر في هذا المجال .

ونحن نعرف ان النظريات تتغاير ، وتختلف ، وتتحول سريعاً سريعاً حتى ما يصدق منها في زمن ما أو فترة ما لا يصدق في زمن وفترة اخريين. فلماذا نقدم للدارس المسلم والعربي مثل هذه النظريات والفروض التي هناك معارضات كثيرة لها في إطار البحث العلمي فضلاً عن معارضات الفكر الاسلامي لهـا وفق مقرراته الاساسية .

ولا ريب ان تقديم هذه الفروض على أنها مسلمات تبنى عليها نظرة الدارس الى الانسان والى المجتمع والى الحيـــاة من شأنه ان يؤدي الى فهم مغاير تماماً لفهم الاسلام . وهذا ما تقصد اليه هذه الجامعات بتدريسها العلوم الانسانية التي ليس المسلمون والعرب في حاجة اليها من الغرب ، وإنما هم في حاجة الى العلوم الطبيعية والتجريبية التي تنقصهم اساساً. كذلك فإن جامعة الارساليات تعلم الشباب المسلم والعربي مادة التـــاريخ ما قبل الاسلام وما بعده والعصر الحديث على نمط مضطرب اشد الاضطراب مغاير لوجهة النظر العربية الاسلامية تماماً ذلك ان مـا يعرض عليه هو وجهـة نظر الغرب في مفهوم التاريخ من حيث إن الغرب صاحب السيادة الحالية على الحضارة والمسيطر بالاستعمار على

عوالم كثيرة منها عالم الاسلام .

كذلك فإن للغرب وجهة نظر بالنسبة لتاريخ اليونان والرومان تختلف ايضاً عن وجهة نظر العرب والمسلمين، فنحن كمسلمين وعرب نواجه المجتمعات السابقة للاسلام بفهم يقوم على ضوء ما قدمته رسالات الأنبياء للأمم وما عارضت به الأمم رسالات الانبياء من مفاهيم وفلسفات وفكر بشري وكيف جاء الاسلام ليصحح هذه المفاهيم ويحررها من الزيف ويعيد تقديم الفكر الرباني الاصيل للانسان من جديد .

هذا المفهوم الاسلامي وهذا الموقف يخالف تماماً بل ويعارض تماماً موقف الغرب ، فنحن حين ندرس مادة التاريخ في الجامعات الارسالية إنما نتبنى وجهة نظر الغرب الى الاسلام والعرب والاديان ، وهي وجهة نظر مغايرة تماماً وتعني ان يكون الدارس غربي الفكر ، فهو لا يصلح مطلقاً لأن يكون قائداً لأمته ، فإذا قادها أودى بها الى مهاوي الهلاك .

كذلك الامر فيما يتصل بدراسة العصر الحديث والحضارة الغربية فإن المفهوم الاسلامي لها مختلف تماماً ، فإن الغرب في العصر الحديث زحف على بلاد العرب والمسلمين فاحتلها وأقام فيها استعماراً خطيراً استنزف مواردها وسيطر على مقدراتها وفرض عليها نظماً وفكراً ، وحال بينها وبين حرية الحركة والارادة ، وعارض مصلحيها وقاوم مجاهديها ، وما زال يفرض نفوذه الاقتصادي والثقافي عليها .

أما من وجهة نظر الغرب فسوف تسيطر على الباحث المسلم والعربي دعوى العمل الضخم الذي قام به الغرب في سبيل تمدين هذه الشعوب التي توصف بأنها كانت متخلفة ومتأخرة ، ثم كان الغرب مصدر تقدمها .

هذه هي وجهة الخطر من دراسات الجامعات الاجنبية في بلاد المسلمين ، وهو خطر لا يتوقف عند هذه الجامعات ولكنه يمتد الى مختلف مناهج

الجامعات الوطنية ايضاً على نحو أو آخر ، فالدارسون في الجامعات العربية لا يدرسون إلا علوم الغرب في الاجتماع والاقتصاد والسياسة وغيرها على أنها العلوم العالمية دون ان يعرفوا ان للاسلام وجهة نظر في هذه القضايا عليهم باعتبارهم أبناء هذه البلاد ان يعرفوها، وان للاسلام أوليات في جميع مجالات العلم التجريبي والعلم الانساني لا يذكرها الذاكرون في مجال البحث مما يشعر الباحث العربي المسلم بأنه عالة على هذه الحضارة الحديثة وان قومه وفكره لم يكن له أي نصيب من الجهد والعمل في بناء هذه الحضارة .

وفي مجال دراسة الحضارة تحاول مناهج الجامعات الارسالية ان تكشف عن الحضارة الغربية سيدة العالم وتحاول ان تصور الحضارة الاسلامية وكأنها رافد من روافدها ، وكل ما قام به المسلمون من جهد في مجال البحث العلمي والعلوم الانسانية يختزل في أنه كان حفاظاً على ترجمات الفلسفة اليونانية ليس إلا ! ومن شأن هذا كله ان يخلق نظرة استصغار واحتقار من الدارسين المسلمين والعرب لأمتهم وحضارتهم ونظرة تمجيد وإكبار للغرب فلا يجدون مفراً من تبني الآراء القائلة بالتبعية والانصهار .

# الفصل الثاني

## اوجه النقص في الاقتباس

أبرز أوجه النقص التي تعانيها التربية في العالم الاسلامي نتيجة فرض المناهج الغربية على المدرسة الوطنية هو ظهور طابع الازدواجية في التعليم وفي الثقافة .

ذلك ان الاسلوب الاستعماري في التعليم استهدف الانفصال عن المنهج القديم دون القضاء عليه وإنشاء منهج آخر مستقل ، ومن هنا سار المنهجان معاً في وقت واحد ، حمل الاول طابع الدراسة الدينية واللغوية واستأثرت به المعاهد الاسلامية كالأزهر والقرويين والزيتونة ومعاهد الحديث وغيرها ، وهذه أقصيت عن النفوذ السياسي والاجتماعي ، وعزل خريجوها تماماً عن الحياة ، بينما ركزت الوظائف الرئيسية والقيادات العملية في أيدي خريجي النوع الآخر من التعليم الذي أطلق عليه التعليم الوطني أو القومي والذي فرض الاستعمار مناهجه ونظمه وصاغه على نحو معين لتخريج مجموعة من المواطنين ذوي الولاء للغرب وللفكر الغربي وهم في نفس الوقت يحملون بذور الكراهية وجذور الخلاف لخريجي التعليم الديني ، وبذلك تعمقت هذه

الازدواجية ، وترسبت نتيجة لامتدادها آثار بعيدة المدى وكان هذا كله وفي مجموعه خطراً شديداً على حياة المسلمين ومستقبلهم .

يقول الدكتور ظفر احمد الانصاري : هذان النظامان المتنافران ينتجان نوعين من الناس ذوي نظرتين مختلفتين الى الحياة وغير قادرين على إدراك وجهة نظر كل منهما .

ويشير الدكتور الأنصاري الى أثر النظام الوافد في التعليم فيقول : إن العقول التي شكلها هذا النظام التعليمي قد غلب عليها الإعجاب المطلق الذي لا تحفظ فيه، والتقليد الكامل لكل ما هو أجنبي، وهي بشكل عام عاجزة عن التمييز بين التقدم العلمي من ناحية والمثل الثقافية من ناحية اخرى . وانها كانت سبباً في نشأة جيل مجتث الاصول الثقافية ، مما ترتب عليه :

اولاً : ان النزعة الجامحة نحو التمدن لا تستدرج جماهيرنا للعمل الصبور في المختبرات العلمية بقدر ما تستدرجهم الى حانات الخمر وصالات الرقص .

ثانياً : ان الاعجاب المسرف بشعب ما والتقبل الأعمى لمذاهبه وآرائه وحتى طبائعه الفطرية يؤدي الى قتل القدرة على التفكير الأصيل ولا ينتج إلا عقولاً مقلدة .

ومعنى هذا : ان النظام الاجنبي الذي استقدم الى بلادنا يشكل تهديداً أكيداً لقدراتنا على التحيز بذاتيتنا وتهديداً لقدرتنا على الارتباط بديننا وتهديداً لما نؤمله من ان نكون شعباً يحترم ذاته .

وان الازدواجية قد خلقت اتجاهين متناقضين وأوجدت قوى هائلة من النزاع الداخلي تهدد كياننا كشعب ذي عقيدة ورسالة محددة .

وان هذا يستدعي – كما يقول الدكتور الانصاري – الى التفكير جدياً في إيجاد نظام آخر جديد .

(٢)

ترتب على هذه الازدواجية آثار بعيدة المدى أهمها : الانشطار والثنائية في الكيانِ الاجتماعي والفكري للأمة ، وقد صور هـذا دكتور محمد فاضل الجمالي حين قال :

« لا شك ساعدت التربيـــة الغربية كثيراً على توسيع آفاق اختبارات الشعوب الاسلامية وذلك بتوعية هذه الشعوب وجعلها تدرك موقعها في عالم اليوم ، ولكن التربيـــة الغربية تحمل في طياتهـا جراثيم التفسخ الاجتماعي والاخلاقي والروحي للعالم الاسلامي ، ولذا وجب دراستها دراسة انتقادية .

فالمشاكل والاخطار التي تحملها لنــا التربية الغربية تتأتى إما عن طريق اقتباسنا التربية الغربيـــة اقتباساً مستعجلاً دون ان تنسجم انسجاماً كاملاً وتتلاءم مع احتياجات الشعب وتقاليده الروحية ، أو لأن هـذه المشاكل والاخطار كامنة فعلاً في التربية الغربية ذاتها . (ذلك) ان اقتباس التربية الغربية بدون ربط كاف لهذه التربية بالقواعد التربوية التي تشمل دين الشعب ولغته وتاريخه القومي والفنون والآداب المحلية ، قد أوجد انشطاراً وثنائية في الكيان الاجتماعي والفكري للشعب . إذ ان وجود جماعـة يفكرون ويتحدثون بلغة عربية وتعابير جديدة بينما هناك جماعة اخرى من ابناء الشعب ذاته تفكر وتتحدث في تعابير قديمة مما يسبب فقدان الوحدة والانسجام .

وهذا مـا حدث في عدد من البلاد الاسلامية الأمر الذي يشكل مشكلة ثقافية واجتماعية وسياسية كبرى .

ويرى الدكتور الجمالي ان هناك سبعة آثار خطيرة للاقتباس الفاسد :

اولاً : إن التربية الغربية ولا سيما تلك التي تقدمها المدارس الاجنبية أو المدارس الوطنية التي تقلدالغرب قد تهمل احياناً اللغة القومية فتكون النتيجة ان الطبقة المتعلمة تستعمل فيما بينها لغة أجنبية .

ثانياً : في اقتباس التربية الغربية تتجه العناية فيالغالب الى القالب والمظهر أكثر من الحقيقة والجوهر فالطالب المسلم اليوم قد يعنى ويقلق من اجل الشهادة واللقب العلمي اكثر من اهتمامه بالضبط العلمي .

ثالثاً : اقتباس التربيـــة العربية يؤكد عادة على عملية الحفظ اكثر من التأكيد على التفكير والفعالية والبحث ( الشكل والقالب في التربية الغربية أكثر من الروح والجوهر ) .

رابعاً: إن الذين ينالون قشرة من الثقافة الغربية يصيبهم الغرور والادعاء والبعض الآخر يعوزهم التكييف ، ويصدق هـذا حينما يتأخر انتشار الثقافة العامة بين ابناء الشعب .

خامساً : التأكيد حتى الآن على النوع الأكاديمي في التربية الغربية وذلك على حساب التربية العلمية والتقنية .

سادساً: الكثير ممن ينالون الثقافة الغربية لا يعرفون شيئاً كافياً عن دينهم ولا عن حضارة أمتهم وجذورهم الروحية قد قلعت من تربة بلادهم .

سابعاً : فضلاً عن اعتيادهم على المشروبات الكحولية والانغماس في التمتع بالشهوات والتحلل الخلقي .

( ٣ )

يكاد أغلب دعاة الفكر الغربي والثقافة الغربية والمتأثرين بالتربية الغربية ان يجمعوا على فساد عملية الاقتباس من التربيـة الغربية ، لأنها حرصت على ان تنقل المحاذير والسلبيات واوجـه النقص بينما تركت الايجابيات والقواعد العامـة الصالحة لكل الامم والعصور كأنما كان هؤلاء الدعاة أعداء لأممهم وخصوماً لأوطانهم . يقول ساطع الحصري :

إن نظام التعليم في أي بلد لا يكون نظاماً قائماً بذاته ، يعمل بمفرده مجرداً عن النظم العائلية والقومية السائدة في البيئة التي ينتسب اليها وإنمـا يكون جزءاً من مجموعـة النظم الاجتماعية والخاصة بتلك البيئة ، وهو يعمل معها ويؤثر فيها ويتأثر بهـا على الدوام ، ويتبين من ذلك ان النظام التعليمي القائم في بلد من البلاد إذا انتقل الى بلد آخر ، بما انه ينتقل بمفرده وينفصل عن سائر النظم التي ترافقه في منشئه الأصـلي لا يمكن ان يعطي نتائج مماثلة للتي يعطيها في بيئته الاصلية وهذا هو نتيجة ضرر الاقتباس بدون تأمل وتكييف (١) .

ويواصل تفسير وجهة نظره هذه فيقول :

---

(١) كتاب حول الوحدة الثقافية العربية .

إن البلاد العربية تسير في شؤون التعليم على طرق تخالف المبدأ ، فبعضها يتجه نحو النظم الافرنسية وحـــدها ، وبعضها يسير نحو النظم الانجليزية ، وبعضها يستلهم النظم الأمريكية ، ويقوم جــدال وكفاح بين مؤيدي هذه الأنظمة بصورة علنية أو خفية .

وعلى العرب ان يعدلوا عن الاستمرار في هذه الخطط .

فقد لاحظ زعماء الإصلاح فياليابان ان الطلاب الذين يدرسون في بلد من البلدان الغربية يبقون تحت تأثير تلك البـلاد بصورة لاشعورية ، فقرروا ان يفرضوا على كل طالب يدرس في بلد من تلك البـــلاد ان يقضي سنة في بلد آخر قبـــل ان يعود الى اليابان ليستطيع ان يوسع أفق انظاره ومطالعاته ويصبح أكثر إدراكاً لمقومات الحضارة الغربية منغير ان يبقىمبهوراً بإحدى البلاد الغربية على وجه الانحصار .

ويعود مرة اخرى الى الغاية فيقول :

إن الاقتباس من نظم التربيـــة والتعليم يجب ان لا يرتكز على نظام أمة من الامم على وجـــه الانحصار ، بل يجب ان يقوم على دراسات شاملة على استعراض كل النظم القائمة في البلاد الناهضة .

ونضيفالى ما يراه ساطع الحصري: وان تجرى دراسة هذه النظم وعملية الانتقاء في ضوء الأصول الأساسية للتربية الإسلامية نفسها بحيث لا يقبل ما يتعارض مع قواعدها الأصيلة وهي: التوحيد والإيمان بالله والمسؤولية الفردية والالتزام الأخلاقي والجزاء الأخروي .

( ٤ )

أكد أكثر الباحثين في التربية ان معايب النظم التربوية الغربيـة الوافدة فقدان المثل الاجتماعية العليا ، يقول دكتور بانيكار :

كانت التربيـة في ظروف الوضع الاستعماري محافظة جامدة لأنه لم يكن من مصلحة الاجنبي المستعمر الذي يبغي استغلال البلاد ان تروج تربية حيوية تدعو الى الانطلاق ، والنفسية التي كان يراد خلقها لدى النشء كانت تميـل بالطبع الى التقليل من قيمة الثقافة الوطنية مع تمجيد فضائل السيد الاجنبي ، وكانت أبرز أهـداف التربية الاستعمارية إثارة الروح الانهزاميـة في نفوس المواطنين لتتمكن من التحكم بهم وبخيراتهم دون عناء كبير .

والآن وقد تخلى الاستعمار عن أغلب بلاد العالم الاسلامي فهل زالت هذه الروح من مناهج التعليم ؟ صحيح انهـا زالت من حيث الإطار العـام ولكنها لا تزال باقية مسكنة في أعمـاق البرامج والمناهج تقديراً للغرب وللحضارة الغربية وإيماناً بهـا وولاء لها ، ودون مـا قدرة على إثارة الروح الاسلامي ومفاهيمه وقيمه وبناء أجيال جديدة عليه .

فما زالت البلاد الاسلامية عاجزة عن ذلك نتيجة تلك الطلائع التي ما زالت تسيطر على أنظمة التعليم وتحول دون تغييرها .

فالأساتذة فؤاد جلال وعبد العزيز القوصي واسماعيل القباني وطه حسين كانوا حريصين تمام الحرص على السير في نفس الإطار الذي تجري فيه مناهج التربيــة ، وكان خلافهم على الولاء الفرنسي أو الامريكي ولكن فلسفة ديوي كانت مقبولة لديهم جميعاً .

كان ارتباط التعليم بالنظم الغربية قاعدة مقررة .

وكان إبعــــاد الدين عن مناهج الدراسة والبحث أمراً مفروغاً من إعادة بحثه أو النظر فيه .

ولقد توالى في السنوات الماضية انعقاد مؤتمرات التعليم وأصدرت «شارات» براقة خــادعة ، ولكنها كانت تخفي من وراء ذلك إمعانها في الاستمرار فى نفس الطريق الذي تسير فيــه وتعميقه ، وهي ممعنة في توجيه مناهج التعليم وجهة غربيـــة صرفة أي وجهــة علمانية لا دينية «تؤدي الى ضياع الجيل القائم والجيل القادم ضياعاً لا تقوم معه نهضة في هذه المنطقة مما يمكن لليهود ولشيعتهم الذين يتولونهم من دول الاستعباد الغربي وذلك بترويج بعض الآراء والاساليب التربوية والنفسية الفاسدة » وكلها مذاهب هدامة تحمل اسم العلم الحديث . وخاصة في مجال العلوم الاجتماعية والانثروبولوجيا .

وقد ثبت تمامــاً ، ان كل المخططات التي تسير فيها نظم التعليم في البلاد العربية لن تؤدي الى تحرير هذه الأمة لأنها تستمد مناهجها من أنظمة مدارس الارساليات ومنها التعليم في لبنان وانها بعد ان تحررت من نفوذ الاستعمار لم تستطع حتى الآن ان تتحرر من سلطانه على التربيــة والتعليم الذي يستخدمه الآن من أجل حماية نفوذه استبداداً واستعماراً في آن .

وما تزال الحقيقة التي لم تتغير تصك الآذان بأن استمرار اللجوء الى تبني الطريقة الغربيـــة في صوغ مناهجنا التعليمية سيجعلنا تابعين وعبيداً للغرب وسيفقدنا شخصيتنا .

يقول أحد كبار مربي هذه الأمة وائمتها :

« إن الفكرة التي تسود عقول رجال المعارف هي وجوب إبعاد العنصر الديني عن العقول والأذهان حتى تكون المدارس علمانية فقط وإن كان الكثير منهم لا يستطيع المجاهرة بهـــذا الرأي ، الدافع لهذا الرأي هو تقليد أوربا ونظمها إعجابا يدفعنا الى السير وراءها » .

ومن أبرز عوامل امتداد هذا الخطر بالرغم من محاولات الإصلاح والتغيير الكثيرة هي ان بعض القادة والمتصدرين في مجالات السياسة والحكم في البلاد الاسلامية كانوا نتاج نظام التعليم الغربي، فهمما زالوا يدينون له بالولاء ويبقى بعد ذلك ان يدمغهم دكتور عمر فروخ بهذا الحكم :

« وجـــدت بعد ثلاث واربعين سنة من التعليم ان طلابنا وتلاميذنا وهم مجموع الأجيال المقبلة قـد فقدوا كثيراً من الخلق الديني الذي كان لا يزال موجوداً في التـــلاميذ الذين عرفتهم في عشر العشرين وعشر الثلاثين وعشر الاربعين ، ثم وجـــدت في السنوات الاخيرة بين الطلاب حركات واتجاهات مؤسفة ، وحالات لا تعكس النقص في التربية الدينية فحسب ، بل تنعكس على الوجود الاجتماعي والطبيعي للأمة كلها » .

## (٥)

إن مسألة فصل الدين عن مناهج التربية والتعليم هي من أخطر المحاذير وهي من أسوأ الاقتباسات للتي تدل على سوء النية والتبعية المغرضة ، فقد أساء هذا الى الاجيال المتوالية إساءة شديدة .

وحين يراد منا ان ننفصل في العالم الاسلامي عن عقيدتنا نجد الامم جميعاً تربط بين التربية والعقيدة. والعقيدة عندنا ليست ديناً عبادياً فحسب ولكنها نظام اجتماعي كامل والتربية نفسها جزء منه.

يقول العلامة أبو الحسن الندوي في هذا الصدد (١) :

في الغرب لا يسمح للمواد التي تبذر بذور الشيوعية والماركسية وتستهزىء بفكرة الملكية وتثمير الثروة وتنظيمها على غير أسس الشيوعية والماركسية ولا يسمح ولا يفكر في استيراد أقل عدد من الأساتذة السوفييت مهما بلغوا من البراعة والإبداع والتفوق في العلوم والفنون .

كذلك : لا يسمح قادة التربية والتعليم في الغرب «باستيراد» منهج تعليمي من بلد الى بلد ولو كانا يلتقيان في العقيدة والفكرة الأساسية في الاجتماع

(١) نحو التربية الاسلامية الحرة .

والنظرة الواحدة الى الانسان والحياة والكون .

وبالرغم من اللقاء في اللغة والثقافة بين أمريكا وإنجلترا ، وفي المذهب البروتستانتي فإن الموجهين لسير التربية والتعليم لا يرون استيراد مناهج التعليم من بريطانيا . ومن رأيهم ان نظام التعليم ليس من البضائع التي تستورد من بلد الى بلد .

ويقول الدكتور كاننت : إن عملية التربية ليست تعاطياً وبيعاً وشراء ، وليست بضاعة تصدر الى الخارج أو تستورد من الداخل ، إننا في فترات التاريخ خسرنا أكثر مما ربحنا باستيراد نظرية التعليم الإنجليزية أو الأوربية الى بلادنا الأمريكية .

ويعاود الأستاذ الندوي القول : إن التربية في نظر هؤلاء القادة الذين يغارون على شخصية وذاتية بلادهم « لباس » يفصل على قامة هذه الشعوب وملامحها القومية وتقاليدها الموروثة وآدابها المفضلة وأهدافها التي تعيش لها .

إنه «لباس» يجب ان ينسجم مع اجوائها وبيئاتها التي تعيش فيها والآداب التي تحتضنها والتاريخ الذي تغار عليه .

وإذا كان الغرب يفعل هـذا في مثل هذه الدقائق التفصيلية والفرعية في جو تحكمه لغة واحدة وثقافة مشتركة فكيف بنا وبيننا وبين الفكر والثقافة واللغة والعقيدة والآداب والاخلاق الغربية فوارق عميقة .

ولماذا يراد لنا ان نكون تابعين ، ومحتوين ، وساقطين في احضان التغريب والسيطرة الثقافية .

ويتحدث الباحثون عن شؤون التعليم والتربية ان الشاعر فخته عند هزيمة ألمانيا لفرنسا نابليون ، دعا الى إعادة النظر في طرائق التربية والتعليم وعمل الى تحرير المناهج من الإسفاف والإباحة فكان نتيجة ذلك النصر في معركة (سادو) وغيرها من معارك السبعين .

ويردد علماء الاجتماع ان الدول التي تجتاحها هزات عنيفة فإنها تتنبه تواً الى ان مصدر الخطر هو فساد نظام التعليم فتعيد النظر فيه .

فلماذا لا تهزنا ضربات الصهيونية العالمية وغزوها الظاهر والمقنع وسيطرتها على مناهج التعليم الغربية وما اقتبس منه في بلاد الإسلام ؟

إن الصهيونية العالمية قد سيطرت على التعليم الغربي وجردته من كل القيم والمثل وحررته من الاخلاق والدين لهدف معروف، وهي تسعى الآن لتطبيق ذلك في أفق التربية الإسلامية .

ونحن نعرف ان المدرسة هي التي تستطيع ان تغير نظام المجتمع بما لا تقدر عليه سائر المؤسسات الاجتماعية ، وان طريقة الاصلاح تكمن في عبارة (ارسموش) التي يرددها الغربيون ونأخذ منهم كل شيء عمياناً مصفدين ولا نصغي الى الحقائق التي يمكن ان تنير لنا الطريق .

يقول ارسموش : « سلمني إدارة التربية ردحاً من الزمن ، أتعهد لك بأن أقلب وجه العالم بأسره » .

لست أدري كيف نعرف هذه الحقائق ثم يصر رجالنا على عزل الاسلام عن مقومات مناهج التربية والتعليم ويخدعوننا بأن يجعلوا الدين مادة تدرس.

إن الاسلام ليس ديناً عبادياً لاهوتياً كي يدرس ، إنما الاسلام هو روح الفكر والثقافة والتربية والقيم الاجتماعية والسياسية والقانونية جميعاً وهو قوامها .

إنه ذلك الطابع الذي يطبعها جميعاً بروح الإيمان بالله والالتزام بشرعته وإقامة حدوده وتنفيذ ضوابطه .

ولقد آمن بذلك أكثر من كانوا متابعين للنظرة الغربية وعرفوا مدى خطر ذلك على أمتنا وعلى كياننا .

يقول الدكتور الجمالي : إن الشاب المسلم الذي يرتاد مدرسة أجنبية لا يتعلم شيئاً عن دينه عادة . وهو لا يدري بأن للشاب الغربي مدرسة دينية في

البيت أو في الكنيسة ان لم تدرسه في المدرسة . إن التربية الأجنبية تقصر كثيراً في مهمتها التربوية حين تترك الشباب المسلم محروماً من معرفة أصول دينه ، فهو بذلك يخسر الأسس الضرورية لأي شكل من أشكال التربية الاخلاقية والروحية على أسس قوية راسخة ، والشباب المسلم ذو الجذور المقلوعة والنفس القلقة بسبب حرمانه من التربية الروحية قد يكون شخصاً متشائماً وقد يصبح عنصراً مشاغباً في المجتمع الذي يعيش فيه .

ولقد نقلنا نحن منهج مدرسة الارساليات الى المدرسة الوطنية دون ان نقدر الفارق البعيد العميق بين منهج التربية الاسلامي ومنهج التربية الغربي .

ذلك ان نظم التعليم الغربية قد تكون في الغالب مبنية على فلسفات ذات صفة ثنائية ، أو انشطارية Dualists فهي فلسفات تفصل الدين عن الدولة والروح عن الجسد والفرد عن الجماعة ، فالدراسات العلمانية مثلاً قد تؤدي بسهولة الى اتجاهات فكرية مشككة أو مادية أو ملحدة أو عدمية ، وفي نشأة الشباب المسلم على هذا الطراز من التفكير ينشأ غريباً عن مجتمعه ويعيش في فراغ روحي .

ونحن نعتقد ان الفلسفة الانشطارية — أو الثنائية — في التربية الغربية تصبح لعنة في حياة الانسان حين نفصل الدين عن الدولة والروح عن الجسد والفكر عن العمل والعلم عن الدين .

ذلك « ان الاسلام لا يفصل الدين عن الدولة ، ولا الدين عن العمل ولا العلم عن الاخلاق فالدولة والعلم والاخلاق والعمل ، يجب ان تتفاعل كلها وتتحد وفق قوانين طبيعية واخلاقية ذات مصدر إلهي .

والمسلم الذي لا يتفهم دينه على الوجه الكامل قد يقع فريسة للفلسفة الانشطارية ( الثنائية ) التي تمارس في الغرب .

ولقد سقط فعلاً عدد من الشبان المسلمين ضحايا لتربية غربية ذات فلسفة انشطارية [١] » .

---

( ١ ) آفاق التربية الحديثة للدكتور محمد فاضل الجمالي .

( ٦ )

إن اقتباس اساليب التربية في شؤون التـاريخ والادب والعلم قد أحدث أخطاراً بعيدة المدى في النفس العربية والاسلامية .

إن تدريس مادة التاريخ على النمط الغربي إنما تفرض النظريات المادية الاصل التي تفسر التاريخ بالمادة أو الاقتصاد أو الجغرافيا ، والتي تنظر الى العالم كله نظرة واحدة ، فلا تفرق بين أمـة وأمة أو دين ودين ، ثم هي تحاكم العالم على وضعه القائم: بحسبان ان الغرب صاحب الجنس الأبيض هو المسيطر الآن والسيد الحاكم وان الشعوب الملونة هي المستعمرة والمتأخرة .

ولا ريب ان هذا الوضع هو وضع مؤقت وليس وضعاً طبيعياً ، فقد كان العرب المسلمون سادة العالم لألف عـام متصلة ، وان مرحلة الضعف التي تمر بهم الآن لا يمكن ان تتخذ ذريعة للحكم على تاريخهم كله .

ومن شأن تقبل هذه الاساليب في دراسة التاريخ ان يجعل الدارس المسلم والعربي يحتقر ماضيه وتاريخه وقيمه وأمته ويقف موقفاً يائساً بالنسبة للمستقبل ، بينما يلزم ان تكون التربية الاسلامية موجهة لهذا الشباب الى الايمان بمستقبل أمته متى عادت الى نهجها الحق وإيمانها بعقيدتها ورسالتها .

كذلك فإن تعلم الأدب على النمط الأوروبي يقود الى جعل الاسلام غريباً في عيون الناشئة المسلمة ، فهو يفصلهم عن أساس البيان ومصدر الأدب وهو

القرآن الكريم ، فإذا عرض له عرض له عن طريق مذاهب لا تؤمن بالوحي والنبوة ، فهي لا تراه منزلاً من عند الله بل تراه من كلام البشر ، فهي تحاكمه وفق مناهج النقـــد الأدبي كما يحاكم الغربيون التوراة والإنجيـل مع الفارق البعيد بـــين كتب بشرية فقدت أصولها السماوية وبين القرآن الذي هو النص الموثوق الذي لم يصبه أي تحريف .

كذلك فهناك خطر المناهج الغربية في الدعوة الى الفنون والمبالغـــة في الاهتمام بها ومدى خطر ذلك على نقل الأمم من جادة الحق الى التحلل والرخاوة.

يقول الاستاذ أبو الحسن النـدوي : لقد أثبت التاريخ مرة بعد مرة ان الشعوب التي تتخذ الوسائل غايات والعلوم والفنون آلهة تعبد ، ويقوى فيها النظر والجدل على حساب الخلق والعمل ، ويكثر فيها الافتتان بالفنون الجميلة ، وتضعف فيهـا الإرادة وقوة المقاومة للمغريات ووسائل الترفيـــه والتسلية وتضعف فيها الغيرة والحميـــة ، وتعشق الحياة والملذات وتنتشر فيها البلبلة الفكرية ، وينتشر فيهـــا التشكيك الشامل للعقائد والآداب والاستخفاف بجميع التقـــاليد والعادات التي كان فيها الشيء الكثير من القوة والصلاح ، ويتطاول فيها الريب الى مصادر الدين ومراجع التـــاريخ والى الشخصيات القديمة والحوادث التاريخيـة والى الأعراف والعادات يقود هذه الحملة كبار الاساتذة وحـذاق الأدباء ونوابغ الباحثين وحملة الأقلام ومنشئو الصحف ، وينتشر هذا السم في كل طبقة من طبقات الأمة ، ويتسرب الى عقول الشباب ونفوسهم ، ويتغلغل في أحشائهم ؛ فإن هـذه الأمة لا تثبت أمام أيّ عدو زاحف أو قوة مهاجمـــة ، ولا تثبت في معركة يوماً واحداً ؛ وهذه قصة اليونان وقصة الرومان .

(٧)

يدمغ الدكتور محمد فاضل الجمالي نظام التربية الغربي بأمرين خطيرين : عجزه عن خلق روح الوحدة والترابط وإهماله للنواحي الروحية والاخلاقية.

أما عن الأول فيقول : إن التربية الغربية تعوزها الوحدة والترابط ، ويعوزها الانسجام والتوفيق بين نواحي الوجود ، ذلك ان الغرب قد أنجب علماء عظاماً وأخلاقيين كباراً وفنانين مبدعين وأدباء مجيدين وإداريين قديرين ، كل واحد يمتاز في حقل اختصاصه ولكن الواحد منهم قلما يعنيه التوافق والانسجام مع المجموع. وكل واحد يتعمق في حقل اختصاصه بدرجة متناهية بدون ان يكون له تماس مع الاختصاصات الاخرى أو اكتراث بوجهة نظر أصحابها ، فالعالم مثلاً قد لا يهمه كثيراً مصير القيم الاخلاقية ، والسياسي أو الإداري قد يصوغ مقاييسه الاخلاقية العملية الخاصة به .

وتربية الفكر قد لا تسير جنباً الى جنب مع بناء الاخلاق الفاضلة وتقديم الذوق الجميل . كذلك ففي التربية الغربية اللادينية خطر جسيم ينجم عن نسيان خصائص الانسان الروحية والاكتفاء بالتأكيد على نواحي حياته الجسدية والاجتماعية وبالجملة فإن أهم نقص في التربية الغربية هو فقدان الانسجام بين المتطلبات الزمنية للانسان والمتطلبات الخلقية والروحية .

ونحن نعرف مدى الخطر الذي ترتب على اقتباس هذا الطابع في مجال

التربيـــة الاسلامية ونعرف كيف يقيم الاسلام التخصص في دائرة الشمول والتكامل فلا يجعله منفصلاً انفصالاً يذهب به الى الاستعلاء أو التفرد حتى لا يفقد المسلم روح الوحدة ولا يفقـد الفكر الاسلامي طابع الترابط الجامع بين القيم والعناصر .

الى أيّ حد كان اقتباس هـــذا الطابع في مجال التربية الاسلامية خطيراً وما ترتب عليه من آثار جلى !

يقول الدكتور الجمـالي : إن الإهمال النسبي للنواحي الروحية والاخلاقية في التربية الغربية قد تسرب الى أنظمة التعليم الحديثة في العالم الاسلامي .

فأصبح من نتائجه ان هناك تقصيراً في التأكيد على نشوء الانسان روحياً وخلقياً في تربية الجيل الاسلامي الجديد ، ولا سيما إذا قارنا ذلك بالتأكيد الحاصل على النواحي العلمية والفكرية والجسدية للحياة الانسانية .

والنتاج التربوي لهـــذا التوجيه الناقص : هو إنسان منحط في إنسانيته احياناً ، إذن فتربيـة الإنسان كل الإنسان كما يوحي بذلك كل فلاسفة التربية العظام لا يزال حلماً يجب تحقيقه في الشرق وفي الغرب .

ذلك ان فقدان الوحـدة والانسجام في التربية قد يؤدي الى الإفراط أو التفريط في معالجة بعض الأمور على حساب أمور أخرى . فالانحياز الى جهة دون الجهات الاخرى يصبح من الاخطار التي تفقد الحياة اتزانها واستقرارها، فالمرء قد ينحاز إما الى هذه الفلسفة أو تلك وإما الى هذه الجهة أو تلك .

أما إذا كانت الحقيقة بين بين أي توجد بين النهايتين فلا يعبأ بها ، فقـد نشاهد البعض يتطرف في (فلسفة العقلانية) والآخر يغالي في (فلسفة المادية) أو نرى هذا يتحمس للفلسفة المادية وآخر يتحمس للفلسفة الروحية .

وهذا متطرف في الفردية وهذا متطرف في الجماعية .

وهذا متعصب للقومية وهذا مدفوع للأممية .

وهذا مفكر تمكن في حياة التأمل ، وهذا عامل يدوي لا صلة له بالحياة الفكرية .

هذه الانقسامات والانشطارات التي نتيجتها إما هذا وإما ذاك حيث لا تلاقي ولا توفيق ، سببها عدم الأخذ بالوسط الذهبي الذي يجمع الحقيقة من كل الاطراف ومن المركز الوسط بين القوى المتضاربة .

إن الإفراط والتفريط وعدم الأخذ بفلسفة الوسط الذهبي قد فرق الانسان عموماً بما في ذلك العالم الاسلامي الى معسكرات متنافرة ، وها هي الإنسانية منقسمة على نفسها اليوم من أدنى الارض الى أقصاها .

إن فقدان التوحيد والانسجام قد أدى الى التطرف والتحيز ، بما جعل من التربيـــة أداة للتعصب والفكر المغلق وقد يبرر العنف كوسيلة للعمل السياسي أو الاجتماعي ، والمرء قد يلجأ الى الطعان بدل الحوار ويمارس البغضاء والكراهية بدل الأخوة والمحبة .

أما التربية المؤسسة على التوحيد والانسجام فإنها تعنى بروح الإيمان المؤدي الى الاعتدال والوسط الذهبي والتفكير المعقول المتزن وضبط النفس ، وهذه هي الصفات التي يؤكـد عليها القرآن الكريم ولكن بعض النظم المقتبسة من الغرب قد حملت معها : « منهجاً عقائدياً متحزباً » تعوزه في الغالب المحبـة والمنطق والاعتدال .

هذه الصورة من أثر اقتباس ( نوع ) من أنواع التربية الغربيـة الى العالم الإسلامي والمجتمع الإسلامي ، وقد رأينـــا مثل هذه الآثار واضحة وعميقة وبعيدة المدى والأثر فيما أصيب به المسلمون في السنوات الأربعين الاخيرة من نكبات ونكسات .

# (٨)

وإذا كانت بعض الأنظمة التربوية الغربيـة المقتبسة قد قدمت لنـا هذا النموذج من العقـائديين المتعصبين والمتحزبين الذين « لا يمارسون التسامح والاعتدال » فإن هناك أنظمة تربوية غربية اخرى – ونحن في العالم الاسلامي خاضعون لنظامين تربويين يتصارعان بيننا – هـذه النظم الاخرى قدمت لنا – على حد تعبير الدكتور الجمالي – تطرفاً في التراخي الأخلاقي والحرية غير المسؤولة فهي : « تقود الناشئة الى نوع من اللامبالاة الأخلاقية، فيصبح تناول الكحول واستعمال المخدرات والتهاون في العفة من الأمور المتسامح فيها وتصبح القيم الاخلاقيـة نسبية وعرضة للتقلبات والشهوات الفردية وليذهب ضبط النفس الى حيث ... » .

هذا وان الشباب الغربي قد يمارس شيئاً من الاعتدال وضبط النفس حتى في جو الحرية المطلقة ، أما الشاب المسلم الذي ينشأ في محيط اجتماعي ضيق، إذا ما تعرض الى هذا الجو فقد يصبح عرضة لخطر فقدان ضبط النفس بحيث يصبح إباحياً؛ وليس قليلاً عدد ضحايا الانهماك في المسكرات والشهوات البهيمية بين الشباب المسلم نتيجة تربية تتمسك بفلسفة أخلاقية رخوة .

# لباب الثالث

# التربية والتعليم والثقافة في إطار الإسلام

# الفصل الأول

## التربية الاسلامية

لا بد للباحث المسلم ان يفرق تفرقة واضحة عميقة بين التربية والتعليم والثقافة . حيث تختلط هذه القيم في مفاهيم التربية الغربية وتتداخل كثيراً ولا سيما ذلك التداخل المبهم بين التربية والتعليم .

فالفهم الإسلامي للتربية أنها الإعداد الروحي والنفسي للفرد بحيث يكون مؤهلاً لتلقي التعليم والثقافة على نحو موجه فيأخذ ما هو أساسي وبناء وما هو بسبيل ان يمده بالقدرة على أداء رسالته في الحياة والمجتمع ، هذه الرسالة الجامعة بين هدفي الدنيا والآخرة ، من حيث البناء والعمل والسعي الى آفاق التقدم ، دون ان يكون ذلك على حساب القيم الخلقية أو المسؤولية الفردية بل لحسابها ودعماً لها .

فليس من مفهوم الاسلام ان يكون العلم للعلم منفصلاً من غير غاية، ولا ان يكون العلم للدنيـا وحدها ، ولا ان يكون للآخرة وحدها انفصالاً عن الدنيا والسعي فيها . فالمسلم يسعى في الحياة من أجل العمل والكسب ليقيم المجتمع الاسلامي القوي بالعزة والتمكن والكرامة ثم يجعل هذا المجتمع القوي

الكريم خادماً للغايات الإنسانية العليا التي تجمع بين الإخاء البشري والطابع الاخلاقي ومرضاة الله والتي تتوقف عن معارضة حدود الله أو تجاوز ضوابطه.

في هذا الضوء يكون الهدف الاول والأساسي من التربية هو :

« بناء شخصية المسلم »

الذي سيبني المجتمع الاسلامي القوي الكريم القادر على مواجهة أخطار أعداء الإسلام ، والعامل على نشر كلمة الله في الارض ، فالشخصية المسلمة لها رسالة وعليها تبعة وهي تحمل التزامين أساسيين : الإرادة الحرة القادرة ذات المسؤولية الفردية والجزاء الاخروي ، والالتزام الاخلاقي الذي يطبع كل التصرفات في كل الميادين والقطاعات والقيم ؛ وهو التزام قائم بالنسبة للسياسة والاجتماع والاقتصاد والقانون والتربية جميعاً .

ومن شأن الإسلام وهو دين جامع بين العقيدة والشريعة ، وبين العبادة وبناء المجتمع ان يحول دون قيام الازدواج الذي يعرفه الغرب في صور مختلفة :

الثقافة الدينية — والثقافة العلمية .

الثقاقة الادبية — والثقافة العقلية .

أو بين الإلهي والبشري .

فهو يجمع بين هذه جميعاً ويوازن ، ولا يفصل بعضها عن بعض إيماناً بأن الإنسان نفسه جامع بين المادة والروح ، والعقل والقلب ، ومطامح الدنيا وأشواق الآخرة .

ومن أجل هذا فإن منهج التربية في الإسلام منهج متكامل يعنى بتربية الجسم والروح والعقل حتى لا تطغى ناحية من النواحي على الاخرى وبذلك ينشأ المسلم سوياً قوي الصلة بالله محققاً لرسالته في الحياة .

ومن أجل تكامل النظرة الإسلامية الى الحياة والوجود والمجتمع ، جمعت

التربية الاسلامية بين تأديب النفس وتصفية الروح وتثقيف العقل وتقوية الجسم ، فهي تعنى بالتربية الدينية والخلقية والصحية والجسمية دون إعلاء لأيّ نوع منها على حساب النوع الآخر [1] .

وقد لفت هذا المعنى نظر البعض من حيث المقارنة فقال : إن التربية الاسلامية تعمل على إعداد الإنسان لا المواطن ، الإنسان المستخلف في الارض على مفهوم وحدة الدين ووحدة الجنس وتوحيد الله .

وحين تأخذ التربية الاسلامية «الفرد» ككل تمده بألوان مختلفة من الإعداد : بالمحاكاة بالقدوة ، والموعظة ، وبالعادة ، والتوجيه .

وهي حين تبدأ معه تعمل على ان تصله بالله سبحانه وتعالى ، وتحسن هذه الصلة وتعمقها في ضوء التوحيد ، فإذا ثبت في أعماقه ان الله سبحانه وحده هو الذي يعطي ويمنع ويضر وينفع ارتفع (الفرد) عن طبيعة الإذلال لأي من البشر ، واستطاع ان ينظر الى الحياة نظرة أكثر عمقاً وأكثر قدرة على الاقتحام وقول كلمة الله دون ان يخشى في الله لومة لائم ، ولم تجد وسائل الإغراء الى قلبه سبيلاً إيماناً منه بأن الله يرزقه ، وان الطريق الحق لا يقطع هذا الرزق مهما تألب عليه فيه الخصوم أو الأعداء .

وحين تركز التربية الاسلامية على بناء الأخلاق بعد بناء عقيدة التوحيد إنما تعمل على تمكين «الفرد» من مقاومة المغريات فلا يضحي شرفه أو عرضه في سبيل أي مطمع ، ذلك ان محك تربية الأخلاق هي الارتفاع بالنفس عن المطمع والهوى .

ولا ريب ان لتربية العقيدة والأخلاق أثرها العميق في تكوين الشخصية ، فالغرائز قائمة في النفوس تعدل نفسها وتضبط اتجاهاتها وفق ما تدعوها اليه

---

(١) احمد فؤاد الاهواني .

العقيدة وحسب مـا توجهها اليه من سمو وكمال ، والخطر هو في تركها دون توجيـــه وضبط ، والخوف الأكبر هو في إطلاقها على النحو الذي تدعو اليه التربية الحديثة في مفاهيم : ديوي وفرويد .

والإسلام في مجال الغريزة يأخذ بالضبط لا بالإطلاق، وبالتبريد لا بالإثارة.

والاسلام يعترف بالغرائز وغاياتها، ولكنه لا يطلقها ، ويدعو الى ضبطها والسير بها في نطاق « التقوى » والخوف من الله والجزاء فلا تكون قوة ضـد الخير أو الحق ، ولا تتجاوز الحدود التي أقامها الدين الحق في سبيل حمـــاية الإنسان نفسه أولاً من أخطار التمزق والانهيار .

وكيفما يكن أثر الوراثـــة أو أثر البيئة في تشكيل الانسان فان التربية الإسلامية من شأنها ان تعيـد تشكيل الفرد بحيث يقوم من أخطاء النفس أو تجاوزاتها .

ويرجع الاسلام الأخطاء كلهـــا والأخطار كلها الى ضعف العقيدة الدينية وتراخي مفهوم التقوى والمسؤولية والجزاء .

ومن هنا يوجه الإسلام الفرد منـذ الطفولة الباكرة الى فهم هذه الحقائق من الايمان بالله الى المسؤولية الفردية الى الالتزام الاخلاقي الى الجزاء الاخروي ليستطيع تحمل مسؤوليته في الحياة .

ولا ريب ان التربية الإسلامية في أسسها تقوم على الفطرة وتنمي القدرة على التفرقة بين الخير والشر والحق والباطل بحيث يستطيع الانسان ان يهتدي الى ذلك دون توجيه خارجي :

«الاثم ما حاك في النفس وكرهت ان يطلع عليه الناس» .

فالتربية الاسلامية هي تهذيب الشخصية وتزويدها بكل ما يمكن قواها الفكرية والبدنية من تحمل مسؤولية السعي والعمل والنضال .

وهي تعنى بقوة البدن وقوة الروح معاً متصلين لا منفصلين .

(٢)

أول ما تعنى به التربية الاسلامية هي تخلية نظرة الاسلام الى الانسان .

فالاسلام ينظر الى الانسان نظرة تكريم وتفضيل ، فقد أوتي أمانة الاستخلاف في الارض ، ووضعت كل معطيات الحياة وخيراتها له ليقوم عليها وينشىء بها المجتمع الرباني المصدر الإنساني الطابع بالإخاء والعدل والعمل الصالح .

والاسلام ينظرالى الانسان نظرة متكاملة جامعة (روحه وجسمه وغرائزه وعقله) وكلها قوى متلاقية ، وقد اعترف بميوله وغرائزه وأشواقه ، وأباح له حرية الممارسة لكل ما يرغب فيه وفق إطارات تنظم حركته وضوابط تحول بينه وبين التمزق أو الانهيار وفي ضوء الفهم الكامل للحقائق الأخلاقية الثابتة التي لا تتغير : الخير والشر ، الحلال والحرام ، الفضائل والرذائل ، المباح والممنوع .

وقد انشأ الله الإنسان من تراب الارض ونفخ فيه من روحه ، فهو جامع بين مادية الارض وأشواق الروح ومتمرجح بينهما فلا يستطيع ان يشعر بالطمأنينة النفسية إلا إذا وازن بينهما ، فإذا انحرف الى أحداهما عاش حياة الاضطراب والتمزق .

وعلى ضوء طبيعة الإنسان الجامعة بين المادة والروح صاغ الاسلام منهجه

التربوي الجامع المتكامل الذي يختلف بالطبع اختلافاً جذرياً عن مناهج التربية المختلفة سواء الغربية منها أو الشرقية المرتبطة منها بالمفهوم المادي الخالص أو الروحي الصرف .

لقد أعلن القرآن ان النفس الإنسانية قد ألهمت الفجور والتقوى فأوجب تزكيتها بالتربية على النحو الذي يهذبها ويربيها ويجعلها سوية صالحة ، وجعل هذه التزكية بالتربية أمـــانة في أعناق الوالدين والمدرسين والمسؤولين عن الأجيال .

وأقام هذه التزكية على أساس إنساني في الأساس لا يعرف فوارق الوطن أو اللغة أو الجنس أو العقيدة : كل بني آدم من تراب .

وجعــل أساس التزكية التهذيب لا الكبت ، فالإسلام يعترف بالطاقات الحيوية في الانسان ولا يعطلها عن الممارسة ولا يلغيها ، ولكنه ينظم عملها بما يحقق الخير والايجابية ويؤدي الى إقامــة المجتمع الصالح من غير عدوان من إنسان على حق إنسان .

وهو في ذلك يجمع بين ضرورات الجسد وأشواق الروح ويعطي كلا منها نصيبه المعقول ويقيم للمراوحة بين ذلك ضوابط وحدوداً .

ومن هنا لا تنشأ لدى المسلم تلك التحديات التي تصيب شخصيته بالاضطراب سواء عن طريق الكبت والانغلاق أم الاندفاع والانطلاق وكلاهما مرت بـه المجتمعات الغربية .

ومن هنا تستهدف التربية الاسلامية بناء شخصية الفرد السويّ القادر على احتمال أمـانة الإنسان المستخلف في الارض بالحق ، والقادر على التعرف على الخير والشر والعامل في سبيل إقامة المجتمع الرباني المصدر الإنساني الطابع ، ليس المجتمع الإقليمي المنغلق ، ولا المجتمع الأممي المنفتح ، هذا الفرد المسلم هو القادر على تزكيــة النفس وضبط الغرائز ، والمسؤول بالإرادة الحرة عن نتائج عمله وهذا الهدف الذي دعت اليــه التربية الإسلامية من بناء الشخصية

هو العامل الوحيد القادر على الحفاظ على القيم والعقائد والارض بالمرابطة في الثغور ، والوقوف على خطوط المواجهة دوماً ، وجيلاً بعـــد جيل ، يحمي أرض الاسلام ، ويدافع عن كيان الأمة ، ويحمل رسالتها للعالمين .

ولقد كان الغرب الاستعماري يعرف ذلك ، وقد واجهه مواجهة صريحة في الحروب الصليبية ، ورأى لويس التـاسع كيف كان الاسلام قادراً على ان يملأ هذه النفوس بالقوة والعزيـة وبالعتاد القليل استطاع المسلمون ان يهزموا اعلى الجيوش .

ومن هنا نبتت عنـده تلك الفكرة الخبيثة الماكرة التي كتبها في وصيته والتي أصبحت من بعد نبراساً للغزو الغربي : وهي القضاء على هذه القوة ومحو تلك الشخصية وإزالة ذلك الانسان وإحـــلال بديل منه شخصية مضطربة ممزقة ، تحب الترف وتهوى إطلاقات الأهواء والجنس والغرائز ، وكذلك عملت الإرساليات التبشيرية على بناء هذه الاجيال التي واجهت الهزيمة والنكسة سنوات بعد سنوات ، دون ان يدفعها ذلك الى التنبه الى مصدر الخطر :

ذلك الخنجر المغروس في أحشائها : خنجر التربية الوافدة .

إننا نستطيع ان نستفيد من تجارب كل الأمم في التربية والتعليم والثقافة ولتكن : على شريطة ان نبني أساس التربية الاسلامية اولاً ثم نقبل في ضوئه أو نرفض ولتكن قاعدتنا هي :

« خذ ما صفا ودع ما كدر » .

« إن التنشئة الغربية لأحداث المسلمين ستفضي حتماً الى زعزعة إرادتهم في ان يعتقدوا أو ان ينظروا الى أنفسهم على أنهم هم ممثلو الحضـارة الربانية التي جاء بها الاسلام .

(٣)

إن التربية في مفهوم الاسلام هي إنشاء الانسان إنشاء مستمراً من الولادة حتى الوفاة. هذا على الامتداد الأفقي ، أما الامتداد الرأسي فهي تربية كاملة متوازنة : عقلية بالمعرفة ، وجسمانية بالرياضة ونفسية بالإيمان .

وهي جامعة من حيث إنها حين تغرس القيم الخلقية والاجتماعية التي تحمي الانسان من أخطار الاضطراب والتمزق، تربي في الانسان الإرادة الحقة، حباً للناس ، وإيثاراً وبعداً عن الأنانية وتجنباً للرذائل .

فالتربية الاسلامية في طبيعتها إيجابية بناءة ، تقوم على مدافعة الاخطار لا الإستسلام ، وتستهدف المقاومة لكل محاولات هدم الشخصية لا التراخي والاباحية .

ولقد كانت التربية الغربية المسيحية لأنها تستمد مصادرهامن دين، تحاول بناء الشخصية ولكنها ضلت الطريق مرتين :

المرة الأولى حين انحرفت عن رسالة الدين الحق ، فأعلت من شأن قيم لم يأذن بها الدين ، وهي معـارضة غرائز الجنس أو التقليل من شأن المسؤولية الفردية والجزاء الأخروي تأثراً بنظريات الحلول والاتحاد .

المرة الثانية حين سيطرت عليها الأيدلوجية التلمودية فدفعت المجتمع الغربي الى التفريط والانطلاق ، وكان ذلك بطبيعته هو رد فعل المرحلة الاولى التي قامت على الانغلاق والكبت .

أما الاسلام فإنه يعترف بالغرائز ويدعو الى ممارستها في اعتدال، ووفق ضوابط وحدود تحول دون الانحراف أو الجمود ، ولذلك فقد حال ذلك دون وقوع المجتمعات الاسلامية في أخطار الاضطراب النفسي الذي تعانيه المجتمعات الغربية .

(٤)

لم يقع فهم التربية الاسلامية في محاذير التربية المسيحية الغربية التي كانت تستهدف إعداد الفرد للآخرة ، وذلـك بالقسوة عليه في مجال الجنس والمال بما تدفعه الى تطليق الحيـاة والهروب منها والعيش في الأديرة . وفق فلسفة تقول :

« العمل على نيل رضا الله بإذلال النفس وتعذيب الروح » .

ولقد كان هذا الهدف مما اطلق عليه النظرية الطبيعية للتربية من العوامل التي دفعت المفكرين الغربيين الى تجاوز الجانب الديني في التربية كلية ، أول الأمر، الى الدعوة للأخلاق منفصلة عن الدين كما حملت لواءه الفلسفة المثالية، ثم جاءت المرحلة التاليـة للتي تهاوت فيها قيم الدين والاخلاق جميعاً بظهور الفلسفات المادية والبرجماتزمية .

هذه المحاذير لم يعرفها منهج التربية الاسلامية حتى يقال إن الذين يدعون الى منهج التربية الغربية إنمـا يريدون ان يحررونا من مثل هذا الخطر ، فلم يكن الاسلام في يوم من الايام دعوة الى رضـــا الله بإذلال النفس وتعذيب الروح ، فقد دعانا الحق تبارك وتعالى الى السعي في الارض :

(فامشوا في مناكبها وكلوا من رزقه) .

وهو الذي دعانا الى التماس نعماء الحياة ( قل من حرم زينة الله التي أخرج لعباده والطيبات من الرزق ) بـــل انه الحق تبارك وتعالى حمل على الذين يعرضون عن نعم الحياة ( لا تحرموا طيبات ما أحل الله لكم ) .

فلقد دعا الاسلام الى العمل والسعي والكسب وأقـام ذلك كله في إطار الحلّ والخير والتقوى .

## (٥)

حين يفتح الاسلام للتربيـة الاسلامية مجال « التكامل » والنظرة الجامعة يحرر الانسان من ذلك التمزق والاضطراب الذي تفرضه المناهج الغربية التي تتناول الكائن البشري تناولاً مجزءاً متقطعاً ، فرجال التربية يعالجونه بعيداً عن رجال الاخلاق ، ورجـال الدين يعالجونه روحياً ويغفلون عن جوانبه الاخرى ، والماديون ينظرون اليـه نظرتهم الى الحيوان ، والبعض يحاكمه بفلسفة المحسوس فيسقط مـا لا تدركه الحواس، والبعض يحاكمه على أساس العقل فيغلق جانب الوجدان والروح، أما الاسلام فإنه يعالج الكائن البشري ككل متكامل .

ولذلك فإن أبرز ما يتميز به منهج التربية الاسلامية هو : وحدة الاتجاه وتكامل النظرة ، استمراراً من الفطرة ، والتقاء بالروح والعقل جميعاً .

فمنهج التربية الاسلامية وحـده هو الذي يصل الانسان بخالقه ، ويصله بالارض ، ويصله بالانسان والمجتمع والحيـاة ، فلا يدعه يترك الحياة والارض ولا يدعه يتهالك عليهما ، وهو حين يدعوه الى عبادة الله يؤمن بأن العبادة لا تمنع من الضرب في الارض وعمارتها ، ومعنى العبادة ان يكون أخلاقياً في كل عمله ربانياً في كل اتجاهه ومن هنا تكون تربية الروح والعقل والنفس والجسم.

« فتربية الروح » تفتح بصيرة الانسان على آيات الله في الكون فيستشعر

من ورائها القـــدرة القادرة الخلاقة المبدعة ، لتوقظ النفس من غفوتها وتجدد اللقاء بين ظاهر الانسان وباطنه : من داخل النفس وفي صفحة الكون، حيث يقرأ كتاب الله الناطق (القرآن) وكتابه الصامت (الطبيعة) .

والعبادة وسيلة بناء الروح والتقوى هي قاعدة البناء كله و «تربية العقل» بالعلم ، والعلم هو كل العلم ، وليس العلم الديني فحسب ، وبذلك تنمو العلاقة بين العقل والروح، وتتجه مادة العلم في الاسلام الى الخير والى الرحمة وتكون خالصة للبشر جميعاً .

وإذا كان الانسان قد كشف أسرار العلم فإن معرفته بهذه المفاتيح والسنن لا تغنيه عن معرفة الله تبارك وتعالى الذي فتح له هذه الآفاق ، وهو القائم من وراء كل هذه القوى والسنن مدبر لها وصانع وخالق من العدم .

فلا تنفصل العلوم عن مصدر العلم ، ولا تتجه العلوم الى الطغيان والظلم والإبادة ، بل تتجه الى ما وجهه اليها خالقها : الرحمة بالانسانية وإسعادها .

«وتربية النفس»: تكون بالزكاة والصدقة والبذل والصوم والكلمة الطيبة وتكون بالاستعلاء على السوء والظلم والحرام ، وبالتضحية والتنازل الى الفقير والى الجماعة . وقد حرص الاسلام على تربية القوة الضابطة في المسلم وتنميتها منذ الصغر، وأبرزها الصبر وأداته الصوم حتى يكون المسلم قادراً على الامتناع عن كثير من اللذات والرغبات المباحة ، فتحقق بذلك إرادته وقوة ذاته .

« وتربية الجسم » : تكون ببناء الجسم القادر على الجهاد ، القوي الصامد في الشدائد ، الخشن المفطوم من الشهوات، بعيداً عن القمع والكبت. والاسلام يقرر ان المسلم لكي يستطيع أداء وظيفته وتحمل مسؤولياته يجب ان يكون قوي الحواس . ولذلك كان المؤمن القوي خـــيراً وأحبّ الى الله من المؤمن الضعيف . وقد دعـــا الاسلام المسلم الى بناء جسمه بالسباحة والمصـارعة والفروسية ، وان يتعود الخشونة ولا يستسلم للترف : « اخشوشنوا فإن النعم لا تدوم » .

## (٦)

تبدأ التربية الاسلامية في البيت عن طريق المحاكاة والقدوة والتلقين ، ذلك ان الطفل ينشأ فيعمل ما يعمله أبواه ، فإذا كانا يقيمان الصلاة ويقرآن القرآن فعل مثلهما وانطبعت في ذهنه تلك الصورة وتأثر بها مدى الحياة .

وقد حرص الاسلام على العناية بالطفل قبل ان يولد بإعداد الإطار الذي يتحرك فيه ، فدعا الرجل الى اختيار الزوجة الصالحة ، وفضل اختيار الزوجة ذات الدين على ذات الجمال والمال والنسب والحسب ، لأنها هي القادرة على حمل المسؤولية .

وفرض على الأبوين حق تسمية ابنهما وحسن رعايته منذ اللحظة الاولى بأن يكون أول ما يسمعه هو اسم الله تبارك وتعالى .

وقد أعلن الإسلام ان كل مولود يولد على الفطرة ثم يوجهه أبواه الوجهة التي يختارانها له . ومن هنا كانت مسؤولية الآباء نحو الأبناء وهي مسؤولية أساسية :

( فالرجل في بيته راع وهو مسؤول عن رعيته والأم في بيتها راعية وهي مسؤولة عن رعيتها ) وإن الآباء مسؤولون عن فساد أبنائهم واخطائهم ،

وعليهم في ذلك عقوبة التقصير وعـــدم بذل الجهد في تنمية هذه الثمرة على الوجه الأحسن .

والطفل [١] أمانة عند والديه وقلبـه الطاهر جوهرة نفيسة ساذجة يجب حمايتها ويجب [٢] البـــدء بتهذيبه منـــذ فطامه لئلا تثبت في نفسه الأخلاق الذميمة فيصعب بعـد ذلك نزعها من نفسه ، وليكن تهذيب الولد بالحمد مرة وبالتوبيخ اخرى وبالإيناس مرة وبالإيحاش مرة ثانيـــة ، وإن الطفل [٣] المستحي لا ينبغي ان يهمل بل يستعان على تأديبه بحيائه وتمييزه ، ولا يؤخذ الطفل بأول هفوة بل يتغافل عنه ولا يهتك ستره ، ولا سيما إذا ستره الصبي واجتهد في إخفائه .

ويقول الامام الغزالي : إن الطفـل يأتي الى الحياة ونفسه صحيفة بيضاء خالية من كل نقش وتصوير وإن المربي أباً ومعلماً هو الذي ينقش على هـــذه الصحيفة ما يشاء من خـير وشر ، والصبي قابل لكل ما ينقش عليه ومائل الى كل ما يمال به اليه ويجب تعويده الاخشيشان في المأكل والملبس ، ويحبب اليه القصد في المطعم والقناعة بالخشونة ، ويستعان في تأديب الصبي بحيائه ، فالحياء بشارة من الله تعالى تدل على اعتدال الخلق وصفاء القلب ، والرياضة البدنية تقوي جسم الطفل .

وليعود مكارم الاخلاق ويجنب سيئها ويمنع من لغو الكلام وفاحشه ويمنع من قرناء السوء ويقتصد في التعنيف عند وقوع الذنب لأن كثرة العتاب تهون عليه سماع الملامة وتخفف وقع الكلام في نفسه .

---

(١) الغزالي .

(٢) ابن سينا .

(٣) الغزالي .

وفي سن التمييز لا يسمح له بترك الصلاة والطهارة ولا يؤخذ الغلمان بطريقة واحدة ، بل يختلف علاجهم باختلاف أمزجتهم وطباعهم وأسنانهم وبيئاتهم .

ولقد دعا المربون المسلمون الى اتخاذ قاعدة القدوة والمحاكاة أساساً للتربية :

«فالاطفال يأخذون بالتقليد والمحاكاة أكثر مما يأخذون بالنصح والارشاد قال عيينة بن أبي سفيان لمعلم ولده : ليكن أول إصلاحك لولدي إصلاحك لنفسك فإن عيونهم معقودة عليك فالحسن عندهم مـا صنعت والقبيح عندهم ما تركت » .

## (٧)

أعلنت أصول التربيـة الاسلامية حقيقة خالدة : إن العلم لا يكفي ولا ينفع بدون الاخلاق ولذلك فإن الخطوة الاولى للتعليم والثقافة هي«التربية».

وكل تربية لا ترقى الى ترقيـة الخلق السامي وتقويته ليست جديرة بأن تسمى بهذا الاسم ، والاخـلاق ليست كلمات تلقن تلقيناً ولا عبارات تعرف مباشرة من الكتاب . فالعلم وحده لا يغني بدون الاخلاق، والتربية الخلقية هي في الواقع تربية اجتماعية، ويجب ألا ينظر الى الخلق وكأنه شيء شخصي محض لا يهم سوى صاحبه ، وإنمـا ينبغي ان ينظر اليه من الناحية التربوية الاجتماعية اكثر من النظر اليه من الجهة الفردية .

ولا ريب ان مسؤولية الآباء والأمهات بالغـة في تنشئة الطفل وفي الآثار المترتبة على ذلك في مستقبل حياته كـله . وقد دعا الاسلام الآباء الى ان يختاروا لأبنائهم اسماء جميلة ، فالاسم الجميل بعيد الأثر في نفسية الطفل، وعلى الآباء اختيار مرضعـة الطفل بحيث لا تكون مشوهة نفسياً أو ضعيفة عقلياً « فاللبن يعدي » والخطر ان تنقل صفات المرأة وخصائصها العقلية والنفسية الى الولد . وإن النبي نهى عن استخدام «الظئر» المجنونة وعلى الطفـل ان يرضع ما أمكن من لبن أمه ، وعلى الأم ان تمـارس حنانها ورعايتها للطفل في السنوات الأولى ما أمكن فإن محاذير الانصراف عن ذلك لا حد لهـا .

ولقد أشار المربون المدون الى ذلك منذ ألف عام ويزيد فدعوا الى ان يرضع الطفل من لبن أمه ما أمكن فإنه أشبه الأغذية بجوهر ما سلف من غذائه وهو في الرحم، وقد كشف العلم الحديث عن هذه الحقائق اليوم وبين مدى خطر الرضاعة الصناعية وانصراف الأم الى تربية أبنائها عن طريق دور الحضانة وخطر ذلك على مستقبل الأبناء .

كذلك دعا الاسلام الى تعليم الأطفال الرياضة وهي في عود طري ليكون قادراً على الحركة السريعة والنشاط ، وفي الوقت الذي دعا فيه الى التكوين الخلقي في سن باكره ، واستعمال الوسائل المختلفة من الترهيب والترغيب ، دعا الى خلق جو من الإيناس حول الطفل ، حتى يشعر بالطمأنينة والأنس والبهجة ، ولقد أولى المربون المسلمون ذلك غاية الاهتمام حتى قال قائلهم : إن أبرز مميزات التربية الاسلامية عنايتها بالنص على الرفق في معاملة الأطفال وعلاج زلاتهم .

أما الأم فقد حملت التربية الاسلامية لها مسؤولية كبرى وأمانة عظمى.

فقد حرص الاسلام على إعداد الأم : بوصفها المدرسة التي ستبني الأجيال الجديدة نفسها ، ولذلك أعدّ لها تربية خاصة منفصلة عن تربية الرجل وفقاً لتكوينها ولرسالتها ولمسؤوليتها . ودعا الى بناء فكر المرأة على أساس فهمها لوظيفتها في الحياة أساساً ومسؤوليتها على تنشئة الأجيال وإعداد مناهج الدراسة لها على هذا النحو مع الايمان بحقها الكامل في المساواة التامة التي لا تتنافى مع قوامة الرجل .

ولقد كانت التربية الاسلامية للمرأة عامل قوة ودافع حماية لها من أخطار المجتمعات الفاسدة وأهواء الرجال ومطامعهم ووفقاً لرسالتها الأساسية في بناء الأسرة ورعاية الرجل وتربية الأبناء .

ومن هنا فقد ركزت التربية الاسلامية في مجال الأسرة وفي إطار القدوة،

وفي هذا يقول الكسس كاريل في كتابه الانسان ذلك المجهول :

« لقد ارتكب المجتمع العصري غلطـة جسيمة باستبدال تدريب الأسرة بالمدرسة استبدالاً تاماً ، ولهـــذا تترك الأمهات أطفالهن لدور الحضانة حتى يستطعن الانصراف الى أعمـالهن ومطامعهن الاجتماعية . انهن مسؤولات عن اختفاء وحدة الأسرة واجتماعاتها التي يتصل فيها الطفل بالكبار فيتعلم منهم أموراً كثيرة لأن الطفل يشكل نشاطه الفسيولوجي والعقلي والعاطفي طبقاً للقوالب الموجودة في محيطه » .

ولقد عاشت الأم المسلمة تربي أولادها وتنشئهم على أغاني الكرم والقوة والشجاعة ترويها لهم في قصص التاريخ وفي نماذج الرجال .

وحين دعا الاسلام الى ان طلب العلم فريضة على كل مسلم ومسلمة كان يستهدف مسؤولية الأم التي يجب ان تعلم القرآن والسنة وتاريخ الاسلام .

والتي كانت تربى تربية خاصة منفصلة عن تربية الذكور .

وكان يحرم عليها الشعر الفاحش والكلام المقذع . وكانت توجه من نافذة أنها أم الاطفال وعون الزوج وراعية البيت .

## (٨)

وفي محيط الأسرة المسلمة تتكون الثمرة الطيبة :

فالرجـل والمرأة يعملان معاً في سبيل بناء الفرد المسلم العابد ، المتحرر من كل التحديات الضاغطة ، فيكون الأب للابن قدوة والأم للبنت نموذجاً طيباً ولا ينسى الأبوان لحظـــة أنهما موجهان ومرشدان وان أي تصرف لهما سيؤثر في هذا النتاج إيجاباً وسلباً .

ومن أهم ما يجب ان يتحرر منه الطفل [١] وجدانياً وعملياً وواقعياً :

الحرمان والخوف والجهـل . فالجاهلية تعمل على تعميق الخوف في نفس الانسان وتجعله شاملاً وعاماً ، تجعله يخاف مما يحيط الانسان سواء كان مادياً أو معنوياً ، فلا ينظر الى الحياة إلا نظرة خوف من المصير والموت والمجهول وخوف من الجوع والفقر وخوف من المسؤولية .

فالتربية الاسلامية تستهدف تحرير الانسان المسلم من الخوف : فلا يخاف إلا الله وحده ، اطمئناناً الى ان صلته بالله تحميه من كل الاخطار .

وكذلك «التحرر من الجهل» وذلك بعدم إدخال الخرافات والاعتقادات

---

(١) من بحث للاستاذ محمد العربي الناصري .

الفاسدة الى عقل الطفل فتبعده عن الرؤية الحقيقية للكون والحيـــاة كلما نما وكبر ، ويتحقق ذلك بتكوين التصور الإسلامي للكون والحياة والانسان .

وكذلك تقويم الطفـــل على الفطرة : ومعناه تحرير نفسيته من الرواسب الدنيوية لتنشأ وتنمو قوى نفسه وهو مستعلي الهمة خـــال من العقد موجه توجيهاً يهيئه لخلافة الله في الارض .

ويرى المربون المسلمون ان النمو يمتد في ثلاثة ابعاد : النمو النفسي والنمو الجسمي والنمو الروحي ، وإن هـــذا النمو الأخير هو أوسع وأكبر يقوم على أساس التقوى أي الاتصال بالله في الرجاء والخوف وكلما نما هذا المحور وترعرع في نفس الانسان ارتقى روحياً من الاسلام الى الايمان الى الاحسان .

والإحسان هو ان تعبـــد الله كأنك تراه فإن لم تكن تراه فإنه يراك ، وأساس هذه التربية التي تجعل الناشىء المسلم قوياً محصناً إزاء موجات التحلل والتمزق هو الصلاة تبدأ في السابعة ويضرب عليها في العاشرة فتصبح جزءاً لا يتجزأ من حيـاته فتنهاه عن الفحشاء والمنكر وتصبح بينه وبين الله باباً ، فإذا حزبه أمر لجأ الى الصلاة .

وبذلك تتحقق الغاية المثلى من التربية الاسلامية وهي تحرير المسلم من الذل والخوف ووساطة الوسطاء وشفاعة الشفعاء .

فالعمل كله موجـه الى الله لا يطلب به هوى خاص ولا مطمع فردي ، والأمور كلها خالصة لله فلا خوف من التحديات ولا الاسواء .

فإذا كان الأفراد كذلك فإن الأسرة تقوم على دعائم ثابتة والمجتمع مجموعة الافراد المؤمنين والاسرة الثابتة .

ولقد حث الاسلام على الزواج من أجل بناء الاسرة دعامة المجتمع ، ومن أجل التحرر من أهواء الجنس وموجات الإباحية .

ويؤكد الاسلام تكوين الاسرة وبناءها (جعل لكم من أنفسكم أزواجاً) .

والزواج ليس شركة مادية ، ولكنه تمازج روح بروح ، وقيام مودة ورحمة، والاسلام حين يحث على الزواج ينهى عن العزوبة لأنهـــا تحلل من المسؤولية وهروب من تبعة بناء الاسرة. وقد دعا الى حسن اختيار الزوجة حتى تكون الاسرة مستقرة منيعة ، وحصر أفضل النماذج في صاحبة الدين، ودعا الرسول الى تزويج من ترضون دينه وخلقه حتى لا تكون فتنة في الارض وفساد كبير ، فالطابع الديني في المرأة ( دون المال والجمال والحسن والنسب ) هو الدعامة التي تحطم كلها كل أخطار الاسرة وأزماتها .

ولقد وضعت الشريعة الاسلامية لهذه العلاقة أسساً وضوابط حتى لا تخضع لأهواء الرجال، ثم جعل للطفل من بعد ذلك نظاماً كاملاً في الرضاعة والحضانة والنفقة والتربية حتى لا يجري الامر وفق رغبات متماوجة ، وقد شرع هذه القوانين والنظم لحماية الطفل حتى يبلغ سن الرشد .

فالتربية القائمة على أساس معرفـة الله وتقواه هي التي تهيء النشء المسلم لحمل رسالته ومسؤوليته . كذلك فقد جعل الاسلام الأبوين بعد ذلك حقوقاً قبل الأبناء وجعل العقوق من أكبر الكبائر .

## (٩)

في ضوء مفهوم التربيـــة الاسلامية نرى مجتمعنا الحاضر الذي اعتمد على أساليب التربية الغربية الوافدة مضطرباً غاية الاضطراب فيحاجة الى تصحيح كثير والى إعـــادة النظر في أساليبه ووسائله ، فقد ضعفت مسؤولية الآباء والأمهات وتراخت ، وحـــل التهاون محل الحزم عجزاً من الآباء عن تقدير تبعتهم الخطيرة حتى بدأ الأب منكوراً من أبنائه وليس موضع ثقتهم فهم لا يستمعون اليه لأنه هو نفسه ليس نموذجـاً صالحاً ، فالآباء يغيبون عن أسرهم ولا يتابعون أحوال أبنائهم ويتركونهم ومعهم أسئلتهم الحرجة ليتلقوا الاجابة عنها من الصحف أو من دعاة الانحلال .

والأم تقضي أغلب أوقاتها خـــارج البيت مع صديقاتها في مواطن اللهو واللعب، وقد تحولت البيوت الى فنادق. وأصبحت أفلام السينما والمسرحيات هي التي تعطي مفاهيم الاجتماع وعلاقات الرجـل والمرأة ، والآباء يتركون أبناءهم وبناتهم بغير رقابة من حيث اختيار أصدقائهم ورفقائهم، وقد استهانوا بالصغائر وعجزوا عن فهم علاقـــة الملابس والزينة بتكوين رجولة الرجل وأنوثة الانثى .

ولقد عجزت التربيـة الحديثة عن تحقيق بنـاء الفرد المسلم والفتاة المسلمة والاسرة المسلمة وذلك حين جردتها من مفهوم التربية الاسلامية الكامل الذي

رسمه لها القرآن مترابطاً في مصادره الثلاثة : (تربية الجسم والروح والعقل) بما يحقق التوازن والتكامل بين العناصر الثلاثة التي تكون فيمجموعها الشخصية الانسانية ، وذلك حتى لا تطغى ناحية من هـذه النواحي بالاستعلاء فتفقد النواحي الاخرى حاجتها ، وبذلك يحدث «التمزق» الذي هو اخطر آفات انعدام التكامل الانساني ومصدر كل الأزمات التي تواجهها البشرية حين أعلت من شأن العقل أو الجسم وتجاهلت تكامل العناصر وترابطها .

ذلك ان التربية الحديثة التي استشرى منهجها فيالمدرسة الاسلامية حرمت الشباب المسلم من عنصري الايمان والخلق وحاولت ان تدفعه في طريقه مجرداً منهما مستهيناً بهما عاجزاً عن استيعاب الآثار البعيدة المدى لممارستهما .

كذلك كان لهـا خطرها حين عجزت ان تفصل بين الرجولة والانوثة في فهم وجهة الحياة وهدفها ، وفي الزي والملبس والزينة .

كذلك كان إطلاق التربية من الضوابط وتجاهـل الموازنة بين الترهيب والترغيب بعيـد الأثر في حرمان الشباب المسلم المعاصر من تكامل الشخصية ومن الحـذر من الوقوع في الاخطار التي من شأنها ان تدمر الشخصية وتهدمها وتعرض الشباب الى التمزق والانحلال .

كذلك عجزت التربيـة الحديثة عن ان تقدم للانسان المسلم أساليب الرجولة والقوة وبناء مفهوم المروءة والاريحية ، فلم تجد الشباب الحدث يخف الى عون الضعيف أو الفقير أو العـاجز أو يستشعر في نفسه ذلك الحنان أو الشوق أو الخوف ، ولقد نجد في مناهج التربية الحديثة الرياضية وكنا لا نجد لها هدفاً واضحاً مستمراً من غرضها الحقيقي ، فهي تجري كعملية بناء للجسد دون ان تكون مكملة لنمو العقل أو الروح بحسبان أنها جميعاً تتكامل في بناء الانسان . وفي الاسلام إنمـا تكون الرياضة موجهة الى بناء شخصية الرجل القادر على الجهاد وعلى المساهمة في الاعمال الجادة وتكون الوجهة فيها خالصة لله أساساً .

كذلك عجزت التربية الحديثة ان تمنح المسلم الشاب فهم الدور الحقيقي للانسان في الحياة: رسالة ومسؤولية وإرادة حرة وجزاء أخرويا، إن وجهة الانسان المسلم هو الله وهدفه هو الحق وغايته هي الخير وتحددت وجهته خالصة واضحة :

« تلك الدار الآخرة نجعلها للذين لا يريدون علواً في الارض ولا فساداً »
وأبرز ما تحاول التربية الحديثة تجاوزه والإغضاء عنه الدعامة الاخلاقية في التربية ، وهي تمثل اساساً هاماً ، فقد جعل الاسلام من الاخلاق قاعدة البناء كله والقاسم المشترك على مختلف القيم ، وجعل أساس الاخلاق (التقوى) وهي قمة الدين والمجاهدة وهي رأس الامر كله بمعنى مقاومة تيارات الاهواء والمطامع والرغبات المذلة والقدرة على مواجهة الاحداث والازمات بصبر وطمأنينة وصمود وذلك في مواجهة الاخطار التي تحيط بالمسلمين دوماً وفي كل عصر وحتى يكونوا قادرين على حماية كيانهم ووجودهم من الغزو والانهيار . ولقد ربط الاسلام بين المنهج والتطبيق وبين الخلق والسلوك .

وجعل التطبيق مناظر الايمان فلا يتحقق الايمان حتى يصبح سلوكاً مؤثراً في واقع الحياة وحيث يكون الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر قضية اساسية في المجتمع الاسلامي .

والمسلمون اليوم وهم يرون كيف وصلت بهم نتائج تطبيق مناهج التربية الحديثة وآثارها حين التمسوها أو فرضت عليهم ، يجب ان يعودوا الى منهجهم التربوي الاصيل المستمد من قيمهم الاساسية وهو الذي يصلح لهم وحده دون غيره .

( ١٠ )

من أبرز وجوه الخـلاف بين أصول التربية الاسلامية وبين آخر صيحات التربية الغربية في تحولاتها المتعددة والتي لا تنتهي : فكرة « حرية التربية » بمعنى إطلاق الحرية للناشىء بدون رقابة أو توجيه سواء في مجـــال الغرائز أو الملابس أو التصرفات أو المعارف والاصدقاء أو غيرها من شؤون الحياة ، هذه الحرية المطلقة لا يقرها مفهوم التربية الاسلامية ويراها محنة تمر بها المجتمعات الغربية وخطراً داهماً بعيـد الاثر فيما يواجه الشباب في الغرب اليوم من تحلل وانهيار وفساد وتمزق نفسي .

ولسنا في حاجة الى ان نحتكم الى غـــير الغربيين أنفسهم في جرائر هذه الدعوة وأخطارها وفي مصادر هذه الدعوة وخلفياتها .

والشباب الناشىء في أول الامر قليـل الخبرة والمعرفة ولا يحسن اختيار طريقه ، فإذا تركناه مطلق الحرية عجز عن النجاح وكبا وفشل وتساقط ، لأنه أصبح خاضعاً لأهوائه في فترة لم تتشكل فيها ثقافته ولا تجربتـه وحيث توجد مغريات الانحراف في كل مكان .

وضبط الحريات ووضع القواعد لهـــا ليس مصدر تسلط أو استعباد أو دافع الى الحيلولة دون حق الاجيال الجديدة في الحركة ، بل على العكس من ذلك فهو بمثابة وضع الانوار الكاشفة على الطريق الطويل المظلم الكثير العقبات .

ولقد كانت رعاية التربية الاسلامية للنشء بالغة الرفق والاحسان، ولكنها حاسمة في حمايته من الاخطار وتجنيبه المزالق وخاصـــة في فترة المراهقة التي تغلب فيها النظرة البارقة والتصرف المندفع .

ولنعلم ان الدعوة الى حرية التربيــة أو إطلاق التربية ليس قانوناً حتمياً نافذاً ، ولكنه وجهة نظر ومحاولة مفترضة من بعض المربين ، أخذ بها دعاة مذهب معين ، ورفضها الكثيرون ، والذين قبلوا بهـا عادوا فتحلل أغلبهم منها بعد ان ظهرت نتائجها السيئة ، ولم يبق متمسكاً بها إلا اتباع المذاهب المتحللة والمنحرفة من دعاة الإباحية والإلحاد ومن اتباع الدعوات المادية وحملة ألوية الدعوة التلمودية الصهيونية في محـاولة لتحقيق أهدافها في تدمير الشباب مقدمة لتدمير المجتمعات .

ولقد تعالت هـــذه الصيحات من رجال التربية الذين اعتمدوا المذاهب المادية وتابعوا فرويد ظناً منهم ان التوجيه ووضع الضوابط من شأنها ان تؤثر في كيان الفرد فتحول بينه وبين القدرة على الحركة والنمو ، ولقـد ترددت أقوال عن ما يسمى بأخطار الكبت ومـا يـترك في النفس من آثار ، وثبت بالتجربة التي أجراها العلماء ان ذلك كله محض توهم وان لا حقيقة له بل لقد ثبت ان التربية الموجهة أصدق أثراً في إنشاء الافراد عامة. كذلك تبين زيف دعوى كراهية الأب ، وتبين ان الحمـلة عليه في الغرب لها جذور في العقائد والفلسفات القديمة ، وأنه يراد بها تدمير الاسرة اساساً .

كذلك ثبت كذب ما ادعاه اتباع المذاهب المادية من كراهية الفتاة للأم فقد أثبت الباحثون ان أغلب رسوم الاطفـال تحتوي اهتماماً واضحاً بتكبير حجم الأم بعكس مـا تقول به نظرية فرويد ( عقدة الكترا ) من ان الطفلة تتعلق أكثر بأبيها ، وان هذه الرسوم كما يقول الباحثون أبرزت حقيقة بالغة الاهمية وتساؤلات تثير الشك في مصادر نظرية فرويد التي اعتمدت في كراهية

الابن لأبيه على أسطورة أوديب ومـــا يماثلها بالنسبة للفتيات من الاعتماد على اسطورة الكترا ، وذلك في محاولة لإيجاد الصراع داخل الاسرة بين الأم والاب وبين البنت والولد .

كذلك فان الحرية التي تدعو اليها التربيــة الاسلامية هي حرية منضبطة تستهدف تقويم النشء وحمايته في هذه الفترة من العمر ، وهي فترة التكوين بحيث ينشأ فيها الابن أو البنت في محيط من الرعاية وفي قدوة سليمة وفي فهم عميق لمهمة الرجل ومهمة المرأة ودور الاب ودور الام ، حتى إذا مـــا بلغ الناشئون رشدهم أعطيت لهم الحرية في الاختيار والتفضيل لما يرونه صالحاً لهم على ضوء ذلـك التكوين الواعي الدقيق ، ولا ريب أنه من الجرم الكبير في حق المجتمع وحق الآباء والامهات ان يترك النشء في هـــذه السنوات الاولى دون توجيه ورعاية وحماية ، وإن من شأن الدعوة الى إطلاقه وعدم تقييده إنما يستهدف تحطيمه وتدميره وهو ما حدث فعلاً في مجتمعات الغرب إذ كشفت عشرات الاحصائيات والابحاث الميدانية عن ان ما يقاسيه الشباب في الغرب الآن من تصدع وتمزق وإغراق في الاباحة والمارجوانا وغيرها جـــاء نتيجة هذا الاسلوب التلمودي الخطير ، وان ما دعا اليه الاسلام هو الاسلوب الأمثل وان الدعوة الى تكريم الانسان ليست في دفعـــه الى المخاطر بغير سلاح أو تجربة ، وإنما في حمايته وبنـائه وإعداده ليكون صالحاً لحمل أمانة المستقبل في أمته .

ولا ريب ان نظرية الاطلاق من شأنها ان تدفع النشء الى ان يكون عبداً لأهوائه وشهواته ، فضلاً عن أنه يعجز عن اختيار الاصلح إذا ما اتيحت له حرية الاختيار لأنه لم يوجه عقلياً ولا نفسياً الى ما يصلحه والاولى ان يعطى مفاتيح الامور فيعرف الخير والشر والحق والباطل وما يصلحه ومـا يضره قبل ان يعطى حق ممارسة حريته .

ومن حقنا في ضوء هـذا التحليل ان نحكم على التربية الغربية بأنها تربية

قاصرة وان عوامــل كثيرة تتحكم فيها تستهدف تدمير الامم المنقولة اليها ، فعلينا ان لا ننظر اليها على أنها الدواء الوحيد ولا الدواء الصحيح ، وقد رأينا نتائجها في وطنها وبيئتها ولنعرف أنهــا نبت غريب عنا وأنها قد أدت في النشء الذي طبقت فيـــه الى الزيغ والالحاد والميوعة والتحلل والاضطراب والتشكك ولنعرف ان لنا طبيعة اخرى خاصة لها وجهتها .

ووجهتها في التربية بناء الشخصية المسلمة وعلاج النفس الانسانية وصياغة النموذج الكريم من الانسان على نحو يمكن الانسان المسلم من تأدية رســـالة الاسلام . ولما كان العلم لا يكفي لتكوين الفرد والثقافة لا تكفي ولا قيمة لأيّ علم ولا أي ثقافــة بدون قاعدة أخلاقية وهدف عقائدي لذلك كانت التربية الاسلامية هي الرجــــاء الذي تتطلع اليه البشرية لإعادتها مرة اخرى الى جادة الحق والى الطريق المستقيم .

( ١١ )

إن أبرز معالم منهج التربية الاسلامي هي أنه :

(أولاً) : منهج متكامل يعنى بتربية الجسم والروح والعقل جميعاً بما يحقق التوازن والتكامل بين العناصر الثلاثة التي تتكون من مجموعها الشخصية الانسانية ، وذلك حتى لا تطغى ناحية من النواحي بالاستعلاء فتفقد النواحي الاخرى حاجتها وبذلك يحدث التمزق الذي هو اخطر آفات التكامل الانساني ومصدر كل الازمات التي تواجهها البشرية حين أعلت من شأن الجسم وتجاهلت تكامل العناصر كلها وترابطها .

(ثانياً) : وحدة الاتجاه أو وحدة الفكر بمعنى ان تصوغ قاعدة عامة للنفس الانسانية تلتقي فيها الامة كلها على ارض الواقع ، ولا يمنع هذا من الاختلاف في الفروع .

(ثالثاً) : يرى الاسلام ان الانسان يولد وفيه عاملا : الخير والشر . والتربية هي التي توجهه الى أحدهما : ( قد أفلح من زكاها وقد خاب من دساها ) ومن هنا يتحتم بناء الفرد وتوجيهه ودفعه الى الطريق الصحيح ببناء إرادته ودفعه الى تحمل المشاق ومواجهة الشدائد والانفطام عن الشهوات .

(رابعاً) : جعل الاسلام التربية منهجاً وقدوة وجعل المنهج تطبيقاً في القدوة : ( لقد كان لكم في رسول الله اسوة حسنة ) .

والقـدوة تتمثل في الابوين ثم في المعلم ثم في الاصدقاء والمعارف فإذا لم تتحقق في هـذه النماذج عجزت التعاليم والمناهج عن ان تقدم شيئاً ذا بال لأنها تظل قائمة في حدود النظرة المجردة .

ويقول المربون : إن الطفل يتقبل من آبائه اكثر مما يتقبل من معلمه وإن ناشىء الفتيان فينا ينشأ على ما كان عوده أبوه .

ومن هنا تأتي مسؤولية الآباء وما يرتكبه البعض في حق ابنائه من تقصير في التوجيه والمتابعة يوماً بعد يوم .

(خامساً) : الطبيعة الانسانية مرنة ويمكن تشكيلها وهي اساس بنـــاء الامم والمجتمعات ويمكن عن طريقها تغيير العرف العـام ، ولذلك فقد عمد اليها المصلحون لبناء مجتمعات ناهضة ، ولا بد من إعداد البيئة الصالحة للتربية الحقـة التي تقوم على أساس التقـاء المناهج بالواقع والتي لا يوجد فيها تناقض بين ما يعلن وما يقدم .

(سادساً) : اهمية دور الام البالغ في إمداد الابناء بالحنان والرحمة والحب والعاطفة ومدى خطر نقصان ذلك أو تلاشيه .

(سابعاً) : الحرص على كمال الذاتيـة والطابع والنوع ، فالابناء لا بد ان يكون لهم تربية خاصة وزي خاص ومنطلق خاص لفهم الحياة وتعلم امورها يختلف عن منطلق الفتـــاة وكذلك تباين الملابس والزينة ، وانه من الخطر امتزاج ذلك لأنه يفسد الفوارق العميقة القائمـة بين شخصية الفتى وشخصية الفتاة والتي يجب ان نحرص على بقائها وتعميقها .

(ثامناً) : إقامة أساس التربيـــة على الترهيب والترغيب معاً على طريقة الحزم الممزوج بالرفق والربط بين الايئـــاس والايحاش على ألا يؤخذ الطفل بأول هفوة بل يتغافل عنـه ولا يهتك سره ولا سيما إذا ستره الصبي واجتهد في إخفائه .

(تاسعاً) : تربية الابناء على الرجولة والخشونة :

(علموا أولادكم العوم والرماية ومروهم فليثبوا على الخيل وثباً) .

(عاشراً) : القرآن هو مدخل الفكر واللسان والذكر في كيان كل مسلم فهو المصدر الاول للتعليم والتربية والاخلاق ، وقد قدم لنا القرآن منهجاً كاملاً للمعرفة : عالم الطبيعة وعالم الغيب وعالم الآخرة ورسم لنا صورة كاملة عن نشأة الحياة وعن سر خلقنا .

( حادي عشر ) : منحنا الاسلام فهم دورنا الحقيقي في هذه الحياة ومسؤوليتها بها .

(ثاني عشر) : جعل الاسلام العبادات هي علامة الاتصال الدائم بالمصدر الاكبر وجعل ممارستها في اوقات معينة مرتبطة ببناء الارادة وإعداد النفس الانسانية للترقي الى الملأ الاعلى .

(ثالث عشر): جعل الاسلام(الالتزام الاخلاقي) قاعدة البناء كله والقاسم المشترك على مختلف القيم والاوضاع .

(رابع عشر) : دعا الاسلام الى الفكر والذكر ونعى على الغافلين .

# الفصل الثاني

## التعليم الاسلامي

لا بــــد لكي يقوم منهج التعليم الاسلامي من ان تكون قوائم « التربية الاسلامية » قد أعدت وانه لا سبيل الى نجـــاح رسالة التعليم إلا إذا قامت وفق منهج تربوي صحيح ، فالتربية للفرد والتعليم للمجتمع . والتربيــــة هي الطريقة التي تطبع بها الفرد بطابع معين لإعداده لتلقي التعليم الذي هو مجموعة المعارف التي تزود الفرد بالخبرات . والتعليم وحده لا يغني ولا يكفي دون ان تمهد امامه الطرق من الاخلاق والقيم والاهداف الواضحة السديدة ، والخلق ليس شيئاً فردياً فحسب ولكنه فردي وجماعي ، والعلم بعـــد ذلك رسالة وليس وسيلة لكسب العيش ، فإذا ضاق أفقه الى هذا الحد حرم الناشىء من الترقي الصحيح . ولا ريب ان العـــلم والقدرة على كسب المال إذا لم تكن مقرونة بالخلق والهـدف أصابت صاحبها بالاضطراب والفساد مما يفسد عليه قدرته ومهارته ويجعل وجهتها الى الشر والانحلال .

فالتربية هي إعـــداد للنشء من ناحية إعداد الاطر النفسية والاجتماعية القادرة على حمل أمانة رسالة العلم على أساس نظرية الحياة التي يؤمن بها الناشىء

والهدف الذي يتجه اليه فرداً وأمة وجماعة وفي إطار الامانة المنوطة به والمسؤولية القائمة في عنقه .

إذن فلا يمكن إطلاق التربية أو إطلاق التعليم ، لأن ذلك الاطلاق من شأنه ان يتجه بالناشئين الى غير الغاية التي تراد بهم أو يستهدفها مجتمعهم أو أمتهم . والتربية والتعليم ليسا غاية ولكنهما وسيلة لغاية : وسيلة التربية لبناء الانسان القادر على حمل رسالة الامة وعقيدتها ووسيلة التعليم حماية الامانة وتنميتها وإذاعتها ودعم العقيدة وتطبيق الشريعة وإقامة الحجة بالمنطق والدليل على صدقها وصحتها .

فالتعليم ليس من اجل منطلق حر لا ضابط له ولكن من اجل دعم نظرية الحياة لأمة . ذلك ان الامة صاحبة الرسالة يجب ان تقوم على الصغار بالتربية والتعليم ليكونوا ورثة صالحين لهدف حياتها ولنظام مجتمعها، وعليها من اجل ذلك ان تصوغهم في قوالب عقائدها ومناهج حياتها .

ويصدق في هذا قول تربوي غربي لا أدري لماذا لم يعرفه دعاة التعليم الحر أو مدرسة ( افعل ما تشاء ) يقول : مهما قيل في تفسير التربية فمما لا يختلف فيه أنها سعي للاحتفاظ بنظرية سبق الايمان بها وعليها تقوم حياة الامة وجهاد في سبيل تخليدها ونقلها الى الاجيال القادمة .

ولعل في هذا إجابة عن التساؤل الذي يتردد : عن التربية والتعليم وهل هما وسيلة أم غاية ؟ إن المعرفة لا تصلح بدون إطار الخلق والمعرفة وسيلة الى هدف هو بناء منهج الحياة الصحيح ودعمه وتحريره مما يصيبه على مدى الايام من الاضطراب أو الانحراف .

ولا ريب ان الله هو المثل الاعلى للمسلمين وهو الغاية القصوى التي يجب ان تنتهي اليها كل غايات التربية والتعليم وان القرآن الكريم هو نقطة الانطلاق لبناء النفس الانسانية في الفرد وبناء الاسرة ثم بناء الجماعة الاسلامية القائمة

على شرعة الله بالحق وإقامة نهجه الرباني المصدر الانساني الهدف على هذه الارض.

فأين هذا من مناهج المدارس الوطنية والجامعات القومية التي يزخر بهـــا العالم الاسلامي اليوم ؟ وكيف يمكن ان يكون تدريس مادة (الدين) وسيلة لتحقيق هذه الغاية وكل مــا يتعلمه المسلم متصل بالاسلام من قريب حتى علوم التكنولوجيا والفلك والطب والطبيعة وغيرها ؟

إن هدف التربية والتعليم كما يقول الدكتور الجمــالي : هي كيف يمكن مساعدة الانسان ليؤدي مهمته كمستخلف لله في الارض وهي المهمة التي نص عليها القرآن الكريم ، وهــل تستطيع انظمة التربية الغربية سواء المسيحية منها أم المادية ان تحقق ذلك ؟

محال : فالتربية المسيحية تقوم على أساس فلسفة مختلفة تماماً لأنها تستمد وجودها من نظرية الخطيئة الاصلية التي تبنى عليها عمــد التربية والاخلاق وفلسفة الحياة البشرية كلهـــا ، وهي نظرية منقوضة تماماً في الاسلام ؛ هذا بالاضافة الى الخلاف بين الجزاء الاخروي الذي هو في الاسلام حسي ومعنوي وفي المسيحية معنوي ، وهناك الخلاف الاكبر مع مفاهيم التربية المادية وهي مستمدة اصلاً من مفاهيم التلمود حيث تهدم عمادين اساسيين في التربية الاسلامية المسؤولية الفردية وما يتبعها من الالتزام الاخلاقي والجزاء الاخروي . فضلاً عن نظرتها الى الانسان على نحو مــادي حيواني وعلى نمط جزئي انشطاري مادة وليس روحاً ، جسداً وليس نفساً .

من شأن هذا كله ان يعمق الفوارق بين النظرية الغربية والنظرية الاسلامية في أدق مفاهيم العلم والتعليم فضلاً عن مفاهيم التربية والاخلاق .

ونحن في مفهوم الاسلام قد حققنا بالتربية بناء الانسان أما بالتعليم فنقيم بناء المجتمع الذي هو مجموعة من الافراد تسعى الى غاية كريمة هي إقامة شرعة العدل والإخاء والرحمة .

أمـــا وقد غرست التربيـة روح المسؤولية والشعور بالواجب والارادة القادرة على التغير والإخلاص في العمل فإن التعليم يبدأ لكي يشحن هذه النفس وهذا العقل بالقدرات التي تمكنه من العمل الصحيح في اتجاه الغاية المثلى وبكل الملكات والقدرات في اتجـاه الاستجابة للعصر ودون مجاوزة قواعد العقيدة وضوابط الشريعة .

فإذا كان التعليم هو الحركة فإن التربيـــة هي إطار الثبات الذي يحقق طابع الاخلاقية وصـدق الوجهة الى الغاية وتصحيح المسار مرحلة بعد اخرى حتى لا تتجاوز الامـــة اهدافها الحقة وغاياتها الاساسية حين تحاول المطامع والاهواء ان تجرفها عن الطريق المستقيم .

(٢)

إذا كان مفهوم التربية في الاسلام هو الترابط بين تربية العقل والقلب والجسم فإن التعليم هو بمثابة إعداد العقل إعداداً سليماً ليكون قادراً على الفهم والاستجابة ولذلك فقد عني قادة التربية الاسلامية في ذلك بعدة أمور:

(اولاً) : إعطاء الفرصة الحدث للاختيار في مجال التعليم بما يتناسب مع رغبته وذوقه وقدرته دون ان يفرض عليه علم معين فيجعل أساس التربية مراعاة ميول الاطفال واستعدادهم حتى لا يرهق الاطفال بأعمال يصعب عليهم أداؤها ، لأنها لا تجري مع رغباتهم ، فالتربية الاسلامية تحترم الميول مهما كانت متواضعة . (ثانياً) أذنت التربية الاسلامية للطفل بعد الانصراف من المكتب ان يلعب لعباً جميلاً يستريح اليه من تعب التعليم بحيث لا يتعب في اللعب ، وقررت أنه إذا منع الصبي من اللعب وأرهق بالتعليم مات قلبه وبطل ذكاؤه وتنغص عليه العيش . ( ثالثاً ) : دعت التربية الاسلامية الى الرفق في التعنيف عند وقوع الذنب لأن كثرة العتاب تهون على الحدث سماع الملامة وتخفف وقع الكلام على نفسه . وان يكون التأديب بالحزم الممزوج بالرفق ؛ ذلك ان الشدة على المتعلمين مضرة بهم فإن إرهاق الحد في التأديب مضر بالتعليم سيما في أصاغر الولد ، ومن كان مرباه بالعسف والقهر من

المتعلمين سطا به القهر وضيق على النفس في انبساطها وذهب بنشاطها [١] .

(رابعاً) : أرست التربية الاسلامية قواعد جلى لإعداد المعلم نفسه فدعته الى الشفقة على المتعلمين ، وان يجريهم مجرى بنيـه ، وان يفيـد الآخرين من غير ان يطلب على ذلك أجراً ، وألا يلقي على التلاميذ ما لا تحتمله عقولهم ، وان يبدأ بالأهم والاساسي والبدء بالقريب الملموس قبل البعيد المجهول ومراعاة الفروق العقلية والميول الفردية بين الاطفال .

ويجب على المعلم ان يتجنب كل ما يثير الشك في نفوس الضعفاء والاقتصار على العام المتداول المألوف .

وان يحرص المتصدي لعـلم من العلوم ان لا يقبح في نفس المتعـلم العلوم الاخرى وان يراعي التدريج في ترقية المتعلم من رتبة الى رتبة ، وان يكون المعلم عاملاً بعلمه فلا يكذب قوله فعله .

(خامساً) : حرصت التربيـة الاسلامية ان تدعو المتعلم ان لا يتكبر على العلم ولا يتآمر على المعلم بل يلقي اليه زمام أمره ويذعن لنصيحته ويتواضع لمصلحته مع الاصغـاء والإدراك والاطلاع ، وعلى الطالب ان لا يدع فناً من العلوم المحمودة ولا نوعـاً من أنواعه إلا نظر فيه ، ولمـا كان من غير الممكن الالمام بكل العلوم فالحزم ان يأخـذ من كل شيء أحسنه ، وان لا يخوض في فن حتى يستوفي الفن الذي قبله، وان يحرص المتعلم على شرف الثمرة ووثاقة الدليل وليعلم ان أشرف العـلوم هو العلم بالله عز وجل وملائكته وكتبه ورسله ، وان يكون قصد المتعلم تحلية باطنه وتجميله بالفضيلة .

ومن يراجع آراء رجال التربية الغربيين (فروبل وهربرت سبنسر وجان جاك روسو) وغيرهم يجد ان الاصول الاولى للتعليم في الغرب كانت مستمدة من هذه القواعد .

---

(١) هذه مجموعة من آراء ابن خلدون والغزالي وابن سينا .

وقد أشارت الدكتورة علية الكبارة في رسالتها عن التربية والتعليم الى المصادر التي أخذمنها هؤلاء المربون الاجانب نظرياتهم التربوية والتعليمية وردتها تفصيلاً الى ابن عبدون وابن خلدون والعبدري والغزالي شيخ المربين .

أما مناهج التربية والتعليم المعاصرة فإنها قد اختلفت عن ذلك كثيراً ، ووقعت في الاحتواء التلمودي الصهيوني بعد سيطرة مفاهيم الثورة الفرنسية التي عمدت أساساً الى هدم جانبين اساسيين في التربية الغربية هما : الدين والاخلاق .

( ٣ )

إذا كانت التربية تستهدف تكوين شخصية الفرد ، فإن التعليم يستهدف تكوين شخصية الامة ، فهل استطاع التعليم الوطني في العالم الاسلامي خلال هذه الاجيال الاخيرة ان يحقق هذا الهدف وان يخرج الجماعة الفاهمة لدورها ورسالتها ، القادرة على حمـــل هذه الرسالة في العالمين ، المستطيعة ان تحمي نفسها من غـارات المعتدين وغزوات الآخرين ؟ ذلك مـا تجيب عنه وقائع التاريخ بالنفي البات ، وهـذا ما قصدت اليه القوى الاستعمارية ، وما حققته حـين أخرجت المسلمين والعرب من إطـار نظامهم التربوي والتعليمي الذي خرج اولئك الأعلام النوابغ في مجالات الحرب والسلم والحكم والعلم والفكر مما تزدهي بأسمائهم واعمالهم صفحات التاريخ .

لقد أخرجت الأمة كلها من إطارها وهدفها لتكون باحثة عن القوت ، متصارعة على الدرجة ، متطلعة الى المطامع القليلة .

وإن نظرة على الشباب المسلم في آخر مراحله التعليمية في الجامعة ليكشف عن ان مراحـل التعليم كلها عجزت عن ان تقدم له هـدف بناء نفسه أو هدف بنـاء أمته ، وأنهـا شغلته بمعلومات ومناهج من شأنها ان تجعله شاكاً متردداً ، حالماً ، مضطرباً ، ممزقاً ، فلا أجابت هـذه المناهج عن حاجاته النفسية ولا هي قدمت اليه هدف أمته الحقيقي في الحياة .

وأخطر ما قدمته هـذه المناهج أنها جعلت دراسة العلوم الطبيعية بديلاً لمفاهيم دينه فمزقت الوحدة بين قلبه وعقله، ذلك أنها قدمت له تلك النظريات والفروض المتغيرة التي لم تثبت على أنهـا حقائق ، فإذا به يقارنها بما جاء في مفاهيم الاسلام ، فلا يعرف كيف يلائم بينها . ولمـا كان أساتذته الطبيعيون هم القدوة فقد قبل وجهة نظرهم ، وغفل عن مصدر قوانين الطبيعة الاول ، الخالق الذي هو الحقيقة الاساسية في علوم الطبيعة نفسها ، فجرى وراء الفهم بأن الطبيعة تعمل تلقائياً وان العالم وجد صدفة وان المادة خالدة وغير هذه من الفروض التي لم تثبت والتي تحاول المدرسة أو الجامعة ان تقدمها اليه على أنها حقائق العلم .

ومن هذا المنطلق ركز المنهج العلماني في التعليم على إنكار مقومات التوحيد وأصول العقائد التي إن درست في مادة الدين فهي تدرس على نحو لا يملأ بها النفس ولا يحل الإشكال بينها وبين ما تقدمه علوم الطبيعة .

كذلك ففي دراسات الفلسفة وعلم النفس والعلوم الاجتماعية يحس الطالب المسلم ان هناك قوانين تحكم المجتمعات والامم مخالفة لتلك القوانين التي رسمها القرآن فهي معارضة حقيقية لكل ما جاء به الاسلام .

فإذا اتصل الامر بعلوم القانون والاقتصاد والسياسة وجد الطالب المسلم مناهج معارضة تماماً لمفاهيم الاسلام تدرس على أنها هي نظم المجتمعات .

وهكذا أقام المنهج العلماني (اللاديني) في التعليم نظاماً كاملاً شاملاً مضاداً لمفهوم الاسلام نفسه يستهدف إخراج الشباب المسلم من كل المقومات الاساسية لعقيدته وللنظـام الاسلامي نفسه الذي هو أولى النظم بالدراسة والتطبيق في بيئات العالم الاسلامي ومجتمعاته .

ومن هنا تتشكل لدى الطالب المسلم نظرة مادية خالصة للكون والحياة، وتنبني بينـه وبين الفكر الاسلامي حواجز صفيقة ، فلا يعرف عن الاسلام

إلا أنه دين عبادة وصلاة ومسجد وأنه ليس له صلة ما بالحياة والمجتمعات ، وليس له وجهة نظر واحدة في شؤون الاقتصاد أو القانون أو التربية .

ويعين على هذا ان دراسة الجغرافيا والتاريخ تقوم على الاقليمية البحتة ، وعلى تعميق الفواصل بين الاقطار ، وعلى إعلاء شأن التاريخ الاقليمي بما يتصل به من آثار فرعونية وإطارات إقليمية وكيانات خاصـــة ، فإذا عرف شيئاً عن البلاد العربية فمعرفته بها أو علاقته بها لا تعدو ان تكون رابطة تاريخية أو جغرافية بحكم خطوط الطول والعرض والجوار أو تبعاً لوحـــدة البحر الابيض المتوسط .

وتغيب عنه تلك الرابطة العميقة الواسعة : رابطة الاسلام وامته ودولته الضخمة الواسعة التي كانت جامعـة هذه الاقطار وهي وحدة فكر وعقيدة ولغة فإذا فكر في شؤون علاقات الامم لم يعد ان يفكر في إطار القوميات التي يدرسها على نمط القوميات الغربية وبمفاهيمها ، قوميات تحـاول ان تقوم على المصالح ولا ترتبط بالتاريخ أو العقيدة أو وحدة الفكر .

وفي مجـال علوم النفس والاخلاق والاجتماع تسيطر النظرة الجبرية وطابع العلوم الحديثة في الاستسلام للواقع وتقبله ومجاراة روح العصر دون نظر الى مدى صلاحيتها للنفس الانسانية أو المجتمع الاسلامي ، فيعجز المتعلم المسلم عن بناء التكوين النفسي والخلقي القادر على مواجهة اخطار التحلل والترف والإباحيات .

كذلك فإن هـذه المناهج لا تفرق بين خواص الرجال وخواص النساء ، فلا تقيم تعليماً منفصلاً للفتاة بحكم تكوينها النفسي والاجتماعي والبيولوجي ، وبحكم مسؤولياتها ورسالتها وعملها ، ولكنها تشترك مع الرجـــال في برنامج واحد فلا تعرف لها مهمة خاصة ولا هدفاً محدداً .

وبذلك تقصر مناهج المدرسة والجامعة الوطنيين عن بنـــاء المسلم القادر على معرفة هدفه وغايتـه ، فيعجز عن ان يعرف ان للاسلام وجهة نظر في

مختلف قضايا الاجتماع والاقتصاد والقانون والسياسة وعلوم النفس والاخلاق ، وان له منهجاً كاملاً مستقلاً مختلفاً عن هـذه الدراسات ، وهو أولى بأن يلم به لأنه يعيش في بيئة عربية إسلامية الأصلح لها ان تطبق ما يصلح لها وما يتصل بكيانها ومزاجها وذوقها وعقائدها .

كذلك فإن هذه العلوم المختلفة للاسلام فيها دور ، وقد أرسى جذورها وقواعدها وأقـام المنهج العلمي التجريبي الذي تنبني عليه العلوم الحديثة ، ودوره في الفلك والطب وغيره بالغ الاهمية ، كل هذا لا يعرفه المتعلم المسلم فيظل مليئاً بإحساس الانتقاص لأمتـه والإكبار للغرب ، بيـنما لو اتيحت له الفرصة لعرف دور أمته في بنـاء هذه العلوم وعرف وجهة نظر فكره الاسلامي فيهذه النظريات التي يدرسها علىأنها علوم ثابتة ومسلمات لا مراجعة فيها، بينما هي تتغير كل يوم وبينما هي عرضة للخطأ والصواب وبينما يجد أهلها من نتائجها كثيراً من الاضطراب وهي من نتاجهم الخاص فكيف بها لتطبق في بيئة اخرى مختلفة تمام الاختلاف .

ومن شأن مناهج المدرسة الحديثة في البلاد الاسلامية أنها لا تبني شخصية المتعلم المسلم منحيث إيمانه بلغته ولا تاريخه ولا عقيدته ولا مقومات فكره، ولا تكشف له عنالدور العظيم الذي قامت به أمته وعقيدته فيبناء الانسانية نفسها خلال الف عـام تقريباً ، وتطلعه على ان المرحلة التي يمر بها الآن هي مرحلة تخلف ، وان التخلف إنما جاء من الغفلة والانفصال عن القيم الاساسية التي دفعت الأولين بقوة .

ولذلك نجد في المدرسة الوطنية إهمالاً للغة وغلبة للعامية ، ونجد استعلاء للغـة الاجنبية ، وفي الجامعات تدرس العلوم باللغات الاجنبية ليظل الشباب على إحساس دائم بالتبعية والولاء والعبودية للغات التي يتعلم بهـا بينما أصبح ميسوراً الى حدبعيد ان تنقل العلوم كلهافي وعاء اللغة العربية وان تدرس بها.

(٤)

كانت ازدواجية التعليم من اخطار التحديات التي حرص النفوذ الاستعماري على بقائها وتعميقها، وذلك حتى يقع المجتمع الاسلامي في هوة الصراع الدائم. ذلك ان التعليم الذي عرفه العالم الاسلامي قبل الاحتلال كان تعليماً جامعاً، وكان طابعه عقائدياً، ولكنه لم يكن دينياً بالمعنى الذي يحاولون ان يصفوه به تشويهاً واحتقاراً، فقد عرف الازهر في السنوات الماضية علوم الفلك والطبيعة والرياضيات ولم يتوقف عنها إلا في سنوات قليلة، وكان مفهوم العلم عند المسلمين في مختلف كتاباتهم هو العلم الجامع لعلم الدنيا والآخرة. غير ان النفوذ الاستعماري كان يرى مدى الخطر في هذا النوع من التعليم فوصفه بالجمود رغبة في إقامة رأس جسر للتعليم الاجنبي والمدني المستمد من المدرسة الغربية في مناهجها وفي علومها ايضاً، ومن خلال هذا العمل أتيح له ان يوسع قاعدته وان ينشيء اجيالاً تبناها وحماها ووكل اليها العمل والقيادات وحجب اجيال التعليم الاسلامي القديم وعزلهم عزلاً تاماً ولم يسمح لهم بالاندماج إلا بعد ان أصبحت له الاغلبية المطلقة وبعد ان اهتز التعليم الاسلامي وانتقص من اطرافه وتمزق على قاعدة التخصص التي هي بمثابة التجزئة، وكانت هذه اول هزيمة له وأكبر نصر لأصحاب المناهج الوافدة، حيث استطاعوا ان يخضعوا المنهج الاسلامي الجامع المتكامل الى اسلوب التخصص دون ان يكون ذلك على قاعدة الاستيعاب الواسعة التي تضع الجزء في مكانه من الدائرة

الكلية فلا يتجاوزها ولا يقصر دونها .

وسيطر التغريب حتى جاء الوقت الذي دعا فيه خصوم الاسلام الى ان يلغى التعليم الاسلامي في السنوات الاساسية ويصبح دراسة تخصص في السنوات العليا .

وقد سقطت هذه الدعوة وعجزت عن ان تحقق وجودها، وبقيت الثنائية وظل الازدواج قائماً مستمراً ، على اساس وجود نظامين تعليميين مختلفين في في الغاية والمنهج والتقاليد والظروف بينما تحتاج أمتنا الى منهج أصيل مستمد من اللغة العربية والاسلام مساير للعصر ملتق به يحول دون انقسام القوم على أنفسهم أمام عدوهم ، ذلك ان إيجاد وحدة الشعور ووحدة العقلية هو اساس وحدة الامة والمقدمة الحقيقية لبناء هذا الكيان العربي الاسلامي قوياً شامخاً.

ولقد ثبت ان الثنائية قد حالت دون وحدة الامة ، وأصبحت خطراً على وحدة الفكر وإن السبيل الوحيد لهذا هو ان يقوم اساس التعليم إسلامياً اصيلاً ثم يستمد ما يحتاج اليه من الانظمة المختلفة دون الخضوع لها وان يكون ما يقتبس منها بمثابة ( مواد خام ) يؤخذ منها ما يلزم دون ان تفرض أي تبعية أو تحول دون فقدان الروح الاصيل .

ومن غير الانطلاق من مقدمة القرآن نفسه كأساس للتربية والتعليم فإن كل محاولة باطلة وكل جهد ضائع بمحاولات الترقيع والحذف والإضافة .

لا بد ان يقوم الاساس على الايمان بالله والنبوة وللقرآن منزلاً من عند الله ودستوراً للحياة والمجتمع ومنهجاً كاملاً للميتافيزيقا وللغيب ولعالم الشهادة ، وان يكون القرآن أساس جميع العلوم ومصدرها ليس بأنه يحمل مادتها المتطورة بل على اساس انه المنهج الذي يرسم الحركة والإطار الذي تجري الحركة داخله لا تجاوزه .

وان ننطلق على أساس ان نأخذ العلوم الطبيعية والرياضية والتكنولوجيا

أخذاً مباشراً بأن ننقل مادتها الى اللغة العربية، أما في نظام العيش ومقاييس الاخلاق والنفس والاجتماع فلا نلتمس إلا مفاهيمنا الاساسية . أما في شؤون القانون والاقتصاد والسياسة فتجري المقارنة الواسعة بين منهج المسلمين ومنهج الغربيين ليكشف للدارس المسلم حقائق الامور على ان يكون منهج الاسلام ونظامه شيئاً قائماً بذاته منفصلاً تماماً عن التاريخ الذي هو محاولة نجحت في مراحل ولم تنجح في اخرى ، وهي ليست محسوبة على اصول الاسلام وإنما محسوبة على الحاكمين الذين عملوا بالاسلام أو تجاوزوه.

لتعقد مناهج التعليم العربية الاسلامية المقارنات بين العلوم الانسانية والاجتماعية الغربية وما وصلت اليه وبين العلوم الاسلامية في هذا المجال لنكشف للبشرية مدى أصالة الاسلام في مواجهة الانسان والحياة والمجتمع .

أما في العلوم التجريبية فعلينا ان نبين دورنا في إعداد هذه المناهج والمرحلة الضخمة للتي قطعها المسلمون في الطريق الى الطب والفلك والكيمياء والبحث العلمي ثم نتابع الدراسة بروح الاسلام التي هي روح الأخوة الانسانية التي تجعل العلم رحمانياً لا عدوانياً وتجعله للبشرية كلها وليس حكراً لقلة من أصحاب النفوذ والثروات .

## (٥)

كشف الدكتور محمد البهي خطر سيطرة مناهج الغرب التربوية في مقدمها: سبنسر البريطاني وديوي الامريكي فأشار الى مدرسة المعلمين العليا التي انشأتها بريطانيا والتي دربت فيها جيـــل القادة التربوية في مصر وقال : لقد خلت براجها من الثقافة الوطنيـــة وهي الثقافة الاسلامية العربية وإن أخذ التاريخ الاسلامي في صورة متواضعة مكاناً متواضعاً فيها ، ولكنه على كل حـــال لا يمثل الثقافة الاسلامية في كمها ولا في نوعها . ومع تعدد اقسام التعليم فيها ، كان هناك قدر مشترك ضروري بين هــــذه الاقسام هو علم «التربية» وورد الاستعمار البريطاني لفن التربية في هذه المدرسة العليا كتب سبنسر الانجليزي، ثم بالإضافة اليها كتب ديوي الامريكي وكلاهما من دعـــاة مذهب ( الواقعية ) في التعليم أو بعبارة اخرى من دعاة إنكار الدين (أي المسيحي) ومن دعاة إبعاده عن مناهج التعليم .

وتعلم الطلبة في مدرسة المعلمين العليا في القاهرة حجج سبنسر وديوي ضد الدين ، ومقصود سبنسر وديوي من الدين ( وهو المسيحية ) وعلى الأخص الكثلكة .

ولكن المتخرجين من هذه المدرسة طبقوا هذه الحجج أو نقلوها الى مجال الدين الاسلامي، إذ اعتقدوا ان ما يوجه الى أي دين يصح ان يوجه الى دين

آخر وبالأخص وهم خلو منذ نشأتهم التعليمية الاولى في مدارس التقدم المدني – وهي المدارس الحكومية – من أية صورة عن الاسلام كدين وثقافة ، إذ ذاك وهي حياة تبعد كثيراً أو قليلاً عن ان تمثل الاسلام تمثيلاً صحيحاً .

وكان هؤلاء المتخرجون معلمين ثم أصبحوا بعد ذلك ذوي إشراف فني تربوي في وزارة المعارف المصرية وصحبتهم في حالتهم الاولى كما رافقتهم في حالهم وهم مشرفون على التربية والتوجيه في وزارة المعارف صورة إبعاد الدين عن مجال التربية .

وترددت في نفوسهم نفس العوامل التي أثارها (سبنسر) و ( ديوي ) ضد المسيحية وعلى الاخص : ان معرفتها وتعاليمها ضرب من خيال الانسان يقع تحت الظروف السيئة في الحياة وهي لذلك أولى ان تكون خرافة من ان تمثل الواقع ويشترك معها في الضعف وعدم تمثيل الواقع ما يسمى بفلسفة المثل والقيم الاخلاقية ، وزاملت هذه العوامل في نفوسهم خفة وزن رجال الدين كما زاملتها في نفسي سبنسر وديوي ولكن رجال الدين هنا في مصر ليسوا قساوسة إنجلترا وأمريكا ، وإنما هم علماء الأزهر ، لأنهم حملة الثقافة الدينية الاسلامية . وألحقوا بعلماء الأزهر في الاستخفاف بقيمتهم أبناء دار العلوم لأنهم أزهريو النشأة ، ولأنهم لا يخرجون عن كونهم حملة الثقافة الوطنية الاسلامية والعربية .

واختفى الاحتلال البريطاني رسمياً في سنة ١٩٢٢ وظهر الاتجاه التقليدي لفكرتي سبنسر وديوي في التربية المصرية منذ عام ١٩٢٥ أي منذ حاولت وزارة المعارف ان تستقل عن المشورة البريطانية في التعليم والتربية . ولكن هذا الاتجاه التقليدي تبلور تبلوراً واضحاً عندما انشأت وزارة المعارف المصرية معهد « التربية العالي » وتزعم التوجيه التربوي فيه الاستاذ إسماعيل القباني ، وعرف القباني وتلاميذه المدرسون تحت زعامته في معهد التربية العالي بأصحاب المدرسة ( الديوية ) وازداد تشبثهم بديوي بعد انتهاء الحرب

العالمية الثانية وبعد ان دخلت أمريكا كمساهم في السياسة العالمية الدولية واحتلت ثقافتها في الشرق مكاناً مرموقاً بما تقدمت به الى بلاد هذا الشرق بما سمته (مساعدات فنية) واقتصادية وتبادل ثقافي بين الطلاب والعلماء .

وعن طريق المساعدات الفنية الأمريكية والتوسع في تبادل الزائرين من العلماء المصريين، نمت عظمة ديوي في نفوس أتباعه من موجهي التربية فيمصر وأخذ بها مكان القداسة .

وتولى القباني وزارة التربية فنقل نظم مراحل التعليم المختلفة في أمريكا الى التعليم المصري ، وحرص هو ومعاونوه من أتباع مدرسة ديوي في مصر ان تتحقق أفكار ديوي في التعليم ، كما حرصوا على إبعاد أبناء الأزهر والاستخفاف بأبناء دار العلوم وعلى التخلص منهم ومن إشرافهم ؛ والسبب أنهم حملة الاسلام ولغته [1] » ا.هـ .

ثم كانت بعد ذلك خطة التعليم الخطيرة التي حاولت القضاء على اللغة العربية العظمى وهي طريقة ( شرشر ) التي استقدمها أتباع ديوي في مصر والتي كانت بعيدة المدى في خلخلة نظام تعليم اللغة العربية .

---

(١) مستوى الكفاية الفنية للتعليم في مصر : الدكتور محمد البهي .

## (٦)

كانت كليـــة الآداب من أخطر كليات الجامعة أثراً في دعم المنهج الغربي الوافد في التعليم ، ذلك ان هذه الكلية بفروعها ( فلسفة واجتماع وعلم نفس ولغة ) «هي التي تختص بدراسة شخصية الأمة في تاريخها وفلسفتها وحضارتها وطبيعة إقليمها وآثارها وأدبهـــا القديم والحديث وما تلتقي فيه من روافد حضارية شرقية وغربية قديمـة ومحدثة » ولذلك فإن سيطرة مناهج التغريب عليها كان بعيد الأثر في تكوين الاجيـــال التي نشأت وهي تنظر الى مصر والعرب والعربية والاسلام والقرآن نظرة استخفاف بينما تعلو في نفسها أمجاد الغرب وفلسفاته وحضارته .

ولقد دعا كثيرون الى إطلاق الجامعة لدراسات الغرب دون أي قيـــد يربطها بالأمة أو عقائدها أو قيمها وعمل في سبيل ذلك كثيرون في مقدمتهم لطفي السيد وطه حسين وأحمد أمين وأمين الخولي وغيرهم .

وقد واجهت حركة اليقظة الاسلامية هذا التيار وحـددت مهمة الجامعة فقالت :

« إن الجامعـة المصرية وكل جامعات الدنيا مطالبة في البيئة التي نشأت فيها بأمرين اثنين : أولها ان يتنزه القائمون بها عن كل موجدة نحو دين البلاد ومقدساتها وحقوقها فلا يتخذوا من البحث العلمي وحرية الرأي وسائل لتوهين

رابطـــة النشء المثقف ، بدينه وقوميته ومقدساته ، لا سيا إذا كان دينهم صديقاً للعلم وداعياً الى الحق وآخذاً بيد المعرفة ينشطها ويرفع مقامها .

وفي مصر أناس نعرفهم بأعيانهم ويعرف أتباعهم بسيماهم لا يفتأون يعملون على توهين رابطة النشء بالدين ، وتهوين أمره عليهم وتشكيكهم فيه وتنفيرهم منه ، وما فتئوا يحاولون إقناعهم بأن الحقائق تخالفه وانه وقف حجر عثرة في طريقها . والواقع انهم لم يتحرروا من مؤثرات بيئتهم إلا ليتدثروا بمؤثرات اجنبية عنهم ، ولم تتحرر افكارهم من قيود التقاليد الاسلامية إلا ليصفدوها بأغلال تقاليد اخرى غريبة عنهم ، فسدنة هيكل الجامعة يجب ان يحرصوا على ان يعرفوا في أمتهم بأنهم مجردون من الضغن لمقدساتها ويجب ان يتنزهوا عن ان تحفظ عنها كلمـة أو حركة تدل على ان لهم هوى يميل بهم الى جهة معينة ويصبغهم بلون يعرفون به ، أما الذي يقنع أمته بأنه منغمس في هذا الهوى الى أذنيه ، مصطبغ باللون الخاص الذي يجافي به الإنصاف والاعتدال ولا يغسل وجهه عنه ، فليعذر النـــاس إن اعتبروه من أعداء الحقيقة لا من سدنتها وانصارها .

(ثانياً) الأمر الذي تطالب بـه الجامعة هو ان تقوم بمهمة البعث لعناصر هذه البيئة ، وان تجـــدد حياتها المعنوية ، فالجامعات الايطالية اليوم تنحو بالفعل نحو إحياء مجـــد الرومانيين وإقناع الطلبة الجامعيين بأن من واجبهم إكمال سلسلة التاريخ التي ابتدأها قياصرة روما، كذلك فإن الجامعات الألمانية تعلم ان لها وظيفة روحية لا تتنافى وطبيعتها نحو حقائق العلم .

إن لمصر مكانة في المجتمع الاسلامي والأمـــة العربية ومن شأن ذلك ان يكون الجيل القـــائم الآن في مصر والأجيال التي ستخلفه حلقات في سلسلة التاريخ الاسلامي ، وهي لا تكون كذلك عن جـــدارة واستحقاق إلا إذا اعترفت الجامعة المصرية بأنها الهيكل العلمي والثقافي في بلاد عربية إسلامية.

وإن من واجبها للاسلام الذي هو دين المصريين والعربية التي هي لغة المصريين ان تحمل لون محاسنها وأمجادها كما تحمل لواء العلم المجرد والعقل الحر والفكر المطلق ، وإن هذا لا يتنافى مع هذا ، ومن زعم أنه ينافيه فهو غشاش .

كما ان الاسلام لا يقف في طريق العلم في مصر ولا في غير مصر فيجب على هيكل العلم في مصر ان لا يقف في طريق الاسلام ، نريد نشئاً مثقفاً عالماً ولكنا نريد نشئاً مسلماً عربياً .

وكلما ابطأ القائمون على أمر الجامعة في هذه الحقيقة تأخروا عن ان تأخذ مكانها الذي تستحقه ، وكانوا بذلك مسيئين الى وطنهم [1] » ا.هـ .

ولقد تداولت الابحاث المتعددة تلك الاخطار التي واجهتها الجامعة في العالم الاسلامي كله ، ومن كلية الآداب أصدر طه حسين مفاهيمه التي جعلها اساساً للبحث الادبي وهي مضادة لحقائق القرآن وأصول الاسلام وقد سيطرت مناهج المستشرقين على مفاهيم الأدب والفلسفة والاجتماع والأخلاق والنفس منذ اليوم الاول ، ولم تتناول الدراسة إلا مذاهب فرويد ودوركايم وليفي بريل ورينان الذي أقامت له كلية الآداب احتفالاً مهيباً عام ١٩٢٧ بمناسبة مرور مائة سنة على ولادته القى فيه الشيخ مصطفى عبد الرازق محاضرة طويلة ردد فيها ما أورده رينان من تحقير للعرب وانتقاص للمسلمين .

ولا ريب عندما بدأت الجامعة المصرية كانت الآمال معلقة بها ، وقد رأى القائمون بها من الوطنيين خروجاً عن ذلك القيد الذي وضعه ( كرومر ) في عنق التعليم المصري بسياسة الكتاتيب ، ولكن هل استطاع الغيورون والمؤمنون بهذا

---

(١) مجلة الفتح : محب الدين الخطيب مجلد ١٩٣٧ .

الوطن ان يمحوا هذه النبتة ، لقد واجه كثير من الباحثين هذا التحول الخطير فقال صاحب فتى العرب الدمشقية عام ١٩٣٠ :

« أنشئت الجامعة فتهلل القوم في جميع انحاء الشرق العربي وتفاءلوا منها خيراً وباتوا يعلقون عليها الآمال الطوال والأماني الكثيرة وما هي إلا عشية أو ضحاها حتى حصحص الحــق ووضح الصبح لذي عينين فتبين لهم أو كاد ان تلك الجامعـة تبث الآراء الشاذة التي يريدها الاستعمار الاوربي في الشرق وأنها إنما اتخذت آلة هدامة للكيان العربي عن طريق الأدب والعلوم. وها نحن نرى الجامعة المصرية أو بعض القائمين بأمر الجامعة يعلنون الحرب على العرب والعربية ، فقد اتضح لأبناء الأقطار العربية بعد الإشكال السبب الذي دعيت به الجامعة المصرية ولم تدع الجامعة العربية في مصر وشارتها الفرعونية ، وكل هذا يقوم على الدعاية على ان مصر فرعونية بحتـة وان الآداب العربية واللغة العربية دخيلة بل محتلة بقوة الفتح ، والدين في الآداب المصرية واللغة الفرعونية ، وإن السياسة (الجريدة) قد اتخذت ثكنة حربية يرابط فيها مجاهدو القومية الفرعونية بقيـادة أشخاص لا يستطيعون ان يبرهنوا على ان مصريتهم ترتفع الى اكثر من خمسة أجداد أو عشرة » .

وفي هــذه الفترة كان هناك صراع شديد على من يحل محل الأزهر : هل الجامعة المصرية أم الجامعة الامريكية في القاهرة ، وفي هــذا تقول جريدة السياسة في ٢٦ فبراير ١٩٢٧ ( إن الجامعة المصرية أرادت أم لم ترد ، رضي القائمون بالأمر فيها وفي الدولة المصرية أم لم يرضوا ، صائرة لا محالة الى حيث تحل من ناحية النفوذ خارج الحدود المصرية محل الجامع الأزهر ونفوذه الكبير في تلك العصور التي مضت ) .

وقد علق على هــذا السيد محب الدين الخطيب فقال إن الأزهر للاسلام والجامعة للثقافة الجديدة التي تقوم على إنكار الدين أو على تجريدها من الدين

أو الى عدم الحاجة اليه، فالتقابل بين الازهر والجامعة تقابل بين الشيء وضده.

ولقد أحس طلاب الجامعة في فترة ما بأن دراستهم لا تعطيهم ما يطمحون اليه من فكر ومن إجابة لقضايا النفس والحياة فطالبوا ان تجدد مناهج الجامعة وان يكون الاسلام حضارياً وعقائدياً مادة اساسية في دراساتها ، كذلك طالبوا بدراسة خاصة للبنات في كلية الآداب .

وقالت مذكرتهم (مارس ١٩٣٧) إن الفتاة المصرية في مسيس الحاجة الى تربية الروح ، فهي في حاجة الى دراسة خاصة بها لأنه مهما يكن من الأمر فليس كل المواد التي تدرس في كلية الآداب تتفق ومستقبل الفتاة ، دراسة تتفق وكونهن أمهات المستقبل ، إن الاختلاط في صورته الحالية في جميع الكليات يتنافى والشرع الاسلامي ، إن الدراسة الخاصة بالفتاة لخير تحديد لمصيرها وخير معين على حياتها المقبلة .

كذلك أشار الطلاب الى أسفهم « ان تنتهي مراحل التعليم في الجامعة وما يعلم الطالب فيها من أمر دينه شيئاً ، بينما يعرف أرسطو وديكارت ، وحيث يكون الدين في هذه المرحلة الوازع الاكبر للشباب » .

سجل الطلاب هذا وما زال مطلبهم قائماً الى اليوم .

وقد أشار الكثيرون الى الجامعات الغربية وكيف تلتصق بها معابد بينما لا يوجد في الجامعات الوطنية في العالم الاسلامي أي إشارة الى هذا المعنى .

ولقد كان حرص التغريبيين الى الدعوة الى حرية الفكر حتى يجدوا منها وسيلة الى تقديم كل سموم الفكر الغربي وفلسفاته المادية والملحدة والإباحية الى الطلاب دون رقيب وكذلك تقرير الكتب الشهيرة لأمثال برناردشو وغيره وفيها نقد للاسلام ورسوله ، ولكن الدكتور طه شهد كيف وضعه الطلبة بين المطرقة والسندان وفرضوا عليه الاستقالة بعد ان كادوا يقتلونه ،

وكانت الجامعــة بذلك قد عرفت كيف تتحرر من قيود التغريب ولكنها لم تلبث ان تراجعت .

والجامعة في الحقيقة ليست داعية أو مسخرة لإحــــدى مدارس الفكر الغربي سواء الليبرالي منه أو الماركسي . ولا يجوز ان تكون كذلك ، وإنما هي مسخرة لفكر أمتها اساساً تقف على قاعدته الاساسية وتدرس كل المذاهب والنظريات ، فتأخذ منها وترفض في استقلالية وأصالة .

## (٧)

لكي نكشف الى ايّ حـــد كان نظام التعليم الغربي بعيد الخطر في أفق المجتمع الاسلامي نقدم هذه المجموعة من الحقائق :

(اولاً): إن دراسة اللغة الاجنبية هي ولاء فكري إذا لم تدرس في إطار اللغة الاصيلة التي يجب ان تكون قد وضعت أمام اهلها بصورة خليقة بالتقدير. واللغة العربية الفصحى لغة قد شهد لها عشرات من الاجانب ، وتميزت بهـا لغة قوم ولغـــة فكر في آن ، وقد نزل بها القرآن فأضفى عليها طاقات من البقاء والامتداد ، ولكن ما تزال اللغات الاجنبية في موضع التفضيل .

يقول هاميون كبير: إن التغير الذي حدث في تكويننا الفكري والروحي نتيجة سيطرة اللغة الانجليزية كان تغييراً بعيد الأثر ، إننا ننظر الى العالم كله بمنظار إنجليزي ولا نتصل بالحيـاة الفكرية إلا عن طريق إنجلترا ولا نتذوق الآداب الاجنبية إلا كما يتذوقها الإنجليز بل إننـــا ننظر الى الآداب الشرقية بمنظار انجليزي » .

ومن هنـــا كانت تلك المحاولات المستمرة الى انتزاع الدراسة العربية من حضارة الدين والقرآن ، وذلك بمحاولة انتزاع حرمة اللغة العربيـة وعزلها تماماً ووصفها بأنها لغـة أمة من حقها ان تتصرف فيها ، وهو غير الحق تماماً

لأن العرب وحدهم أو اي قطر من اقطارهم لا يملك حق التصرف في اللغة العربية التي يحكيها سبعمائة مليون من المسلمين .

ومع ذلك تجري محاولات متعددة لانتقاص الفصحى بدراسة اللهجات والآداب الشعبية وتطبيق نتائج دراسات اللغات الاجنبية عليها .

ثانياً : حرصت المدرسة العصرية على إهمال العلوم العلمية والمعارف الكونية وصرف الأوقات وتضييع الجهد في فلسفات نظرية عقيمة وعلوم خيالية سقيمة ، وذلك لتفويت الفرصة على الاجيال من ان تعرف جذورها ، أو تعرف بديلاً عنها علوم الغرب ، فهم لا يدرسون في التاريخ إلا الخلافات الدينية والمذهبية والخصومات التي وقعت بين الحكام والأمراء ، وذلك كله بعيد عن أصول دراسات التاريخ . وهم لا يدرسون إلا الفلسفات الاغريقية وصراع الايدلوجيات ولا يفرقون بين الفلسفة والعلوم بينما تفرق النظرة الاسلامية بين العلوم التجريبية والعلوم الانسانية وتجعل لكل منها منهجها الخاص ، وهي تقبل بمعطيات العلوم التجريبية وفق نظرة الاسلام الشاملة التي تؤمن بأن هناك حقيقة كبرى وراء كل القوى هي الحق تبارك وتعالى أساس التفسير الاصيل للحياة والكون والمجتمع وهي نظرة تقوم على الايمان بالله والنبوة والوحي والبعث والجزاء .

ذلك انه ليس من اليسير ان نفصل بين الاسلام وبين دراسات اللغة أو التاريخ أو العلوم ، فالاسلام بوصفه الاساس للتربية والموجه للتعليم في مجال الدنيا اولاً يتطلب ان تكون روحه واضحة بارزة في كل هذه العلوم ولا بد ان تكون العلوم الطبيعية والتجريبية قائمة على حقيقة التوحيد الاسلامي ، وعلى أساس الايمان بأن الله هو الخالق والصانع ، وأنه واضع القوانين وصاحب النواميس التي تحكم قوى الكون والتي تحكم نظم المجتمعات ، وان كل مجتمع يخرج عن طبيعة هذه النواميس يهلك ويدمر ، وان الله سبحانه وتعالى هو الذي يمسك

هذا النظام كله ويديره بعد ان صنعه من العدم ، وأنه لا تخفى عليه ذرة من الذرات أو شيء من الاشياء فهو محيط بـــه وعليم ومدبر . ومن شأن العلوم الطبيعية كما هو من شأن العلوم الاجتماعية ان تثبت التوحيد وتؤكد إرادة الله العليا على البشرية جميعاً كوناً وطبيعة وإنساناً ومجتمعات .

ثالثاً : يرد المستشرق جب والمستشرق ولفرد كابتول سمث : الإباحيـــة والإلحاد اللذين يسودان الشباب المسلم الى مناهج المدرسة العصرية ، يقول جب : إن النشاط التعليمي والثقافي ( عن طريق المـــدارس العصرية والصحافة ) قد ترك في المسلمين من غير وعي منهم أثراً جعلهم يبدون في مظهرهم العام لادينيين الى حد بعيد ، ثم يعقب بقوله « وذلك خاصة هو اللب المثمر في كل ما تركت محاولات الغرب لحمل العالم الإسلامي على حضارته من آثار » .

ويقول : إن التجدد والتفرنج في الشرق إنما همـــا خاضعان لمقياس نظام التعليم الغربي ومدى سيطرته وتغلغله في المجتمع الاسلامي الشرقي ، والسبيل الحقيقي للحكم على مدى «التغريب» أو الفرنجة هو ان نتبين الى أي حد يجري التعليم على الاسلوب الغربي وعلى التفكير الغربي .

والاساس الاول في كل ذلك هو ان يجري التعليم على الاسلوب الغربي وعلى المبادىء الغربية ، وهـــذا هو السبيل الوحيد ولا سبيل غيره . وقد رأينا المراحل التي مر بهـــا طبع التعليم بالطابع الغربي في العالم الاسلامي ومدى تأثيره على تفكير الزعماء المدنيين وقليل من الزعماء الدينيين .

أمـــا كابتول سميث فيقول : إن أهم أسباب حركة الحرية والإباحية التي تسود العـــالم الإسلامي اليوم ومن اكبر عواملها نفوذ الغرب ، وقد حازت قصب السبق في هـــذا المضمار تلك المعاهد الثقافية التي قامت بتربية جيل بأكمله على النمط الغربي الحديث . وكان مما صدره الغرب الى العالم الاسلامي تلك الأفكار المتعددة الجديدة التي تقع من الأهمية والدقة بمكان ، والاتجاهات

العقلية الدقيقة والميول الحديثة التي كان في نشرها أوفر نصيب لنمط التعليم الغربي الحديث ، ويفوقهـــا في ذلك تأثير معاهد الغرب الحقوقية والسياسية والاجتماعية الجديدة ونفوذها الزائد .

ومنها ما يسلط اجيالاً ومـــا يحاول تسليطه ، وبينما قام بعض المسلمين لمقاومة هـذا التيار رحب به البعض الآخر ، ان بعضهم قد وقع تحت تأثير هذه التربية رسمياً وبعضهم قـد رحب بهذا التيار بدافع من أنفسهم ، وانتج ذلك ان كثيراً من المسلمين اعترفوا بهـــذه النظريات والمعاهد كحقيقة ثابتة وخضعوا لها بالتدريج وهكذا استمر عمل التغريب بسرعة وقوة بالغتين. ولقد صرف تيـار نظام التعليم الغربي الشباب الاسلامي في البلاد العربية والعجمية (الذين كانوا زبدة أمتهم وزهرة بلادهم) وغيّر عقليتهم الى حد ان عقولهم أصبحت لا تستطيع ان تسيغ الاسلام الصحيح وأصبحوا لا يندمجون في المجتمع الاسلامي : «ان سحر الافرنج أذاب الصخور وأسالها ماء » .

ومن هنا نعرف الى أي حد أضعف النظام الغربي في التعليم الروح المعنوية في الشباب المسلم وجنى على رجولته «فأصبح شباباً رخواً رقيقاً مائعاً لا يستطيع الجهاد ولا يحتمل المكروه» وكيف فتح له الطريق الى الأهواء في عالم الفكر والبحث والى الترف والإباحية في محيط الحياة ، وكيف يحمل الدارس المسلم للغرب في ذهنه صورة رائعة بينما يحمل صورة ساخرة لمجتمعه وأمته .

وفي الجانب الآخر من هـذه الصورة نرى الرجل الغربي المسلم : ليوبولد فايس«محمد اسد» يطلع المسلمين على الحقائق للتي أخفاها المزيفون من التغريبيين فيقول : إن التعليم الغربي يحمـــل روحاً مستقلة وضميراً منفرداً تتجلى فيه عقيدة مؤلفيه وعقلية واضعيه وهو نتيجة التقدم الطبيعي في آلاف السنين وتعبير أفكار أهل الغرب ومجموع اقدارهم وقيمهم[1]» فإذا طبق في بلاد إسلامية

---

(١) نقلا عن العلامة ابو الحسن الندوي .

أو مجتمع إسلامي يحدث بـــه قبل كل شيء صراع عقلي ثم يتدرج الى تعزيز العقيدة والردة الفكرية والدينية .

ذلك «ان الاسلام والمدنية الغربية يقومان على فكرتين في الحياة متناقضتين تماماً ، لا يمكن ان تتفقا ، فإذا كان ذلك كذلك فكيف نستطيع ان نتوقع ان تظل تنشئة أحـداث المسلمين على أسس غربية ، تلك التنشئة القائمة في مجموعها على التجارب الثقافية الأوربية وعلى مقتضياتها خالصـــة من شوائب النفوذ المعادي للاسلام . إن التنشئة الغربية لأحداث المسلمين ستفضي حتماً الى زعزعة إرادتهم في ان يعتقدوا أو ان ينظروا الى أنفسهم على أنهم هم ممثلو الحضارة الإلهية الخاصة التي جاء بها الاسلام ، وليس ثمة من ريب في ان العقيدة الدينية آخذة في الاضمحلال بسرعة بين المتنورين الذين نشأوا نشأة غربية ».

رابعاً : تستطيع التربية الاسلامية ومنهجها في التعليم ان تقدم للبشرية ذلك الطموح الذي طالمـــا تطلع اليه المصلحون والطوبيون ، وهو مساهمة البشرية جميعاً في بنـاء المجتمع الرشيد ، وذلك عن طريق اعتناق نظرتها الى الانسان ككل موحـد ، بعيداً عن محاولات تمزيقه بين الحيوانية والتأليه ، وبوصفه مستخلفاً في الارض ، له إرادته الحرة وعليـــه مسؤوليته الكاملة ، وامامه الضوء الكاشف الذي جاء به الوحي ليملأ نفسه بالطمأنينة والسكينة والسلام ويفتح له آفـــاق العمل والسعي في الحياة الدنيا خالصة لله ولإقامة الإخاء البشري بين الناس جميعاً .

وصدق الدكتور الجمـــالي حين قال إن اسس الاسلام في التربية والتعليم يمكن ان تفتح الطريق لكل اساس صحيح وثابت لبناء تربوي قويم يقوم على:

(١) الايمان بالخالق .

(٢) العمل الصالح لخدمة الانسان والاسرة والأمة والانسانية .

(٣) التواصي بالحق : والسعي وراء الحقيقة وتحري العلم والمعرفة الصحيحة ونشرها بين الناس .

(٤) التواصي بالصبر : ويشمل العمـــل على ضبط النفس والتغلب على الشهوات والاندفاعات العنيفة الهوجاء ، فإن ضبط النفس يعد المفتاح لكل سلوك أخلاقي كريم وسورة «العصر» فيها تلخيص كل فلسفة تربوية صحيحة.

إن كلاً من الايمـان والعمل الصالح والعلم والاخلاق يجب ان تسير معاً وبصورة موحدة منسجمة .

ويقول : ومن المؤسف ان التربية الغربية قد أظهرت ضعفها في هـــذه النواحي سواء في التطبيق في الغرب ذاته أو مما اقتبسه العالم الاسلامي من الغرب .

خامساً : إن نظريات الغرب سواء في العلوم أو الآداب أو التربيـة هي مجموعة من المحاولات والفروض التي تعرض على مجال البحث والتطبيق فتصدق أو تفشل، فعلى المسلمين ان ينظروا اليها كذلك ولا يرونها حقائق أو مسلمات وإنما هي « تجارب بشر يخطىء ويصيب ويمشي ويتعثر ، ولا نأخذها على أنها اشياء قد بلغت نها يتها، بل انها مواد خامة ونصنع منها ما نشاء وفق حالتنا وحاجتنا وتفرعها في قالبنا ونجردها مما اقترن بها من عوامل الإلحاد والإفساد والاستخفاف بالقيم الخلقية ثم نطبعها بطابع الايمان بالله والنظر العميق »[١].

ولعل من اخطر ما يواجه الجامعات الغربية ويحاولون نقله الى أفق التعليم الاسلامي ذلك الخلاف العميق بين الثقافتين : ثقافة العلم وثقافة الأدب . فإن العالم الغربي يعيش في صراع عميق بين جو العلم وجو الفلسفة وجو الفن وجو الأدب ويقولون : إن العلم الطبيعي والأدب قد شق الناس شقين فإذا اجتمع أحدهما بالآخر فكأنما اجتمع غريب من الناس بغريب وأهل العلم الطبيعي هم أهل الجفاف وأهل العلم الانساني هم أهل الطراوة .

---

(١) من نص للعلامة ابي الحسن الندوي .

ونحن في أفق التعليم الاسلامي لا نحس بهذه الظاهرة الخطيرة لأن مفهومنا للحياة جامع ومتكامل ولا يجعل بين العلم والأدب أي نوع من الصراع . أما في الغرب فكلاهما مخدوع ، العـالم الذي يظن أنه عرف كل شيء ، وهو لم يعرف إلا تفسير ظواهر الاشيـاء ، والأديب الذي يجري في أودية الأهواء والرغبات النفسية الجائحة ، لمـاذا لا يلتقي طرفا الصراع في منهج التربية الاسلامي الذي يجعل من العلم والأدب طرفين متكاملين لا عدوين متعارضين.

سادساً : لا سبيل الى قيام نهضة عربية إسلامية في مجال العلم التجريبي إلا في إطار اللغة العربيـة ، وكل دعوة الى قبول العلم في لغات الغرب هو تعويق لهـذه النهضة ومحاولة لحجب المسلمين عن اللحـاق بركب العلوم والتكنولوجيا ، وكل ما يذاع عن اتهام اللغة العربية بالتقصير خطأ وادعاء . فإن تجربة تعليم العلوم باللغـة العربية قد قامت فعلاً في اخطر المجالات وهي الطب وحققت نجاحاً كبيراً . فمـا زالت اللغة العربية قادرة كأقوى لغات العالم على الاشتقاق والتعريب والتصريف ، وإن تجربة دراسة الطب فيجامعة دمشق أثبتت بالحجج الدامغة نجـاح التجربة وأوردت ما يفحم المعارضين وما يوضح ان اللغة العربيـة قادرة على الاطلاع بأعباء التعليم الطبي والعلوم الاخرى [1] .

وقد سقطت تماماً الآن الحجة التي يتذرع بها خصوم العرب والمسلمين وهي مسألة المصطلحات العلمية والأسماء الجديدة فقد أوفى ما اعد منها على اكثر من خمسين الف مصطلح . ويحذرنا الأستاذ محمد أسد من خطر احتوائنا داخل بوتقة الفكر الغربي إذا مـا أردنا نقل العلم التجريبي : « وإذا كان المسلمون قد أهملوا فيما مضى البحث العلمي فإنهم لا يستطيعون ان ينتظروا إصلاح هذا الخطأ اليوم عن طريق قبول للتعليم الغربي من غير وازع مـا ، إن كل تأخرنا

(١) دكتور عزة مريدن : عميد كلية طب جامعة دمشق (العربي نوفمبر ١٩٧١) .

العلمي وكل فقرنا لا يوزنان بذلك التأثير المميت الذي سيحدثه تقليدنا الأعمى لنظـام التعليم الغربي في قوى الاسلام الدينية الكامنة . وإذا أردنا ان نحفظ حقيقة الاسلام الدينية الكامنة على أنهـا عنصر ثقافي فيجب علينا ان نحترس من الجو الفكري للمدنية الغربية؛ ذلك الجو الذي أصبح على وشك ان يتغلب على مجتمعنا وعلى ميولنا، وبتقليد عادات الغرب وزيه في الحياة يصبح المسلمون تدريجياً مضطرين الى الأخذ بوجهة النظر الغربية » .

ومن هنا نفهم أننـا لا بد ان ننقل العلوم الى اللغة العربية اولاً ونحركها في دائرة فكرنا .

سابعاً : إن كل محاولة لرتق الثوب الخلق بقطعة من هنا أو من هناك هي محاولة باطلة ، فلا بد من إعادة بناء منهج التربية والتعليم الاسلامي على اساس قرآني إسلامي أصيـــل ، وفق مفهوم الاسلام نفسه ، وبذلك وحده يمكن تحرير التعليم من آثار مختلف المذاهب الغربية المـــادية المتغايرة المتضاربة التي حملت على مدى العصور المختلفة والبيئات المتباينة فوضعت داخل إطار التعليم حتى لا يصل أصحابها إلا الى الاضطراب الفكري والازدواج التربوي والتمزق النفسي وحتى لا يستطيع الدارس المسلم ان يجد وجهاً لرؤية الحق أو الاهتداء الى الطريق .

فهناك العقلانية والمـــادية والماركسية والوجودية والفرويدية والبرجماتية والديوية ، كلها تتضارب وتتعاكس وتفسد كل شيء ، ويقف الاسلام منها في أصوله القليلة المنثورة هنا وهناك موقف الحيرة كأنه شيء غريب أو منبوذ .

والسبيل الاصيل هو ان يكون للعلوم التجريبية منهج وللعلوم الإنسانية منهج آخر وان لا يدرس الانسان في دائرة المادة أو دائرة الحيوان .

وللمسلمين قانون هو الشريعة الاسلامية وفيه نظام السياسة ونظام الاقتصاد ونظام الاجتماع ونظـام الحقوق . ولهم وجهات نظر في كل أمور الحياة هي

الآن بعيدة تماما أو مستبعدة ، وكذلك فإن للمسلمين علماً للنفس والاخلاق ومفهوماً متكاملاً يختلف عما تقدمه مدرسة التحليل النفسي ومدرسة دوركايم ومدرسة العلوم الاجتماعية، ونظرة الاسلام للانسان وللحياة وللمجتمع مختلفة اساساً مع نظرة الغرب، فهي نظرة جامعة فيها الروح والمادة والعقل والقلب، بينما تنشطر النظرة الغربية نحو شطر واحد هو المادة، ونظرة الاسلام اخلاقية الجذور بينما تقوم النظرة الغربية على الحرية الأخلاقية ، ونظرة الاسلام تجمع بين الثوابت والمتغيرات بينما النظرة الغربية متغيرة مطلقة . كل هـذا له أثره البعيد في ضرورة بناء منهج التربية والتعليم من جديد .

ثامناً : نحن نجـد ان جميع الأمم تربط علومها بعقيدتها وتربط تعليمها بمذهبهـا وتجربة الدولة الشيوعية مثال يقدم في هـذا الصدد باعتبارها دولة عقائدية فهذه «روسيا لم تأخذ بمبدأ التعليم والتربية من حيث هو مبدأ إنساني عالمي وتراث بشري مشاع ، ومـاء صافٍ سائغ ولم تسمح باستيراد منهج من مناهج التعليم خارج المعسكر الشيوعي ولا بإدخال العلوم والآداب التي نشأت في حضـانة المربين البرجوازيين أو الأرستقراطيين والتي طعمت بأفكارهم ونزعاتهم وطرق تفكيرهم ويخاف منها إضعاف العقيدة الشيوعية أو التشكيك فيها. لقد اخضعت روسيا جميع العلوم والآداب النظرية فيها والتطبيقية حتى علوم الطبيعة والجغرافيا والتاريخ لمبادئها الشيوعية ولنظرات قادتها ومؤسسي دعوتها : ماركس وإنجلز ولينين ، وربطت بين هذه العلوم وبين اسس اولئك القـادة رباطاً وثيقاً مقدساً تغار عليه غيرة المؤمنين القدامى على عقائدهم وحرماتهم ، يقول جورفن العالم الطبيعي السوفييتي : « إن العلم الروسي ليس قسماً من اقسام العلم العـالمي ، إنه قسم منفصل قائم بذاته يختلف عن سائر الاقسام كل الاختلاف ، فإن سمة العلم السوفييتي الأساسية انه قائم على فلسفة واضحة متميزة ، إن التحقيقات العلمية لا تزال في حاجـة الى اساس وإن اساس علومنا الطبيعية هو «الفلسفة المادية» التي قدمها ماركس وإنجلز ولينين وستالين . إننا نريد ان نخوض وفي ايدينا هذه الفلسفة في معترك العلم

الطبيعي ونصارع جميع التصورات الأجنبية التي تناهض فلسفتنا المادية والماركسية بكل حزم وقوة » .

وبذلك استطاعت ان توفق بين العلوم التي احتاجت اليها والمبادىء التي آمنت بها وجعلت منها وحدة متناسقة ولم تترك فجوة بين الحياة التي تعيشها او تسعى اليهـا وبين المبادىء التي تؤمن بها وتدعو اليها في حماسة وبذلك سلمت من الاضطراب الفكري والقلق النفسي الذي يسود عالماً تتوزعه القوى المتناقضة ويسوده النفاق والتناقض »[1] .

وكذلك نجد في إسرائيل بعد الاتحاد السوفييتي نظرية التعليم من اجل دعم نظرية الحيـاة لأمة ، فهي تتمسك بمبدأ تقديم الفكرة الدينية واللغة العبرية التي تعبر عنهـا رغم جميع الاتجاهات التقدمية ، ويرى المربون اليهود ان التقاليد الدينية اليهودية هي النبراس الذي تهتدي به نظم التعليم ويحتم على المعلمين ان يكونوا تقليديين، اي ان يحرصوا على التقاليد اليهودية الأصولية[2].

---

١ و ٢ الاستاذ الندوي : نحو تربية إسلامية حرة .

# الفصل الثالث

# الثقافة الاسلامية

« الثقافة » هي الشطر الثالث من بناء الأجيال : فإذا كانت ( التربية ) لاعداد النفس والعقل الإنساني معاً للتلقي في إطـــار الدين والخلق والرسالة القائمة للأمة وللفرد معاً، وإذا كان(التعليم) هو بناء القدرات وتكوين الأطر، وتلاقي العناصر في الكل المتكامل فإن (الثقافة) هي الثمرة الناتجة التي تمثل جوهر الفكر وأصالة الأمة وروح الجماعة .

ولقد كان النفوذ الغربي حريصـاً على تغريب الثقافة لأنها هي الحصيلة الكبرى والنتاج الأعلى لكل معطيات التربيـة والتعليم ، ولذلك فقد ركز عليها تركيزاً خاصاً ، واستطاع ان يضربها من خلال إفساد مناهج التربية والتعليم وصولاً الى تمييعها وصهرها في بوتقته واحتوائها .

ولذلك فقدجرت المحاولة الى تزييف اجيال الثقافة بالقول بأنها نتاج عالمي لا يخضع لما تخضع له القيمالقومية والوطنية، كما جرت المحاولة لربطها بالحضارة فنودي ان من يصطنع الحضارة الغربية لا بد ان يصنع الثقافة الغربية ، وكان ذلك من محاولات تتبيع الثقافة الإسلامية للغرب في محاولة للقضاء عليها .

ولا ريب ان ثقافة اي امـــة من الامم تعتمد اساساً على عقائدها وقيمها الاخلاقية والاجتماعية التي تكونت عليها وسارت بهـا وانها تقوم في الأساس على المثل العليا للأمـة ، وتنطبع بطابع ذاتيتها الخاصة . ولقد تلتقي الأمم في مجالات العلم التجريبي والمعارف العامة ولكنها تتباين تماماً في مجال الثقافة ، فإن النظرة الاجتماعية والأخلاقية والتربوية في كل أمـــة تتشكل على أساس وجدانها ومزاجها النفسي وذاتيتها المنبعثة من عقيدتها وقيمها .

وذلك هو أساس الخـلاف بين الثقافة الاسلامية وبين الثقافات المختلفة : شرقية أو غربية ، ولا ريب ان هناك عناصر مشتركة بين الثقافات هي العناصر الإنسانية العامـــة ولكن اخطر ما تحاذر منه الأمم ان تحتوى في ثقافتها بحجب طابعها العقائدي أو تزييفه ، وهذا ما حاولته حركة الغزو الفكري والتغريب التي واجهها العالم الاسلامي منذ ان بدأت المعركة بينه وبين الغرب .

والمحاولة الطارئة تريد ان تحجب الثقـافة الاسلامية عن طابعها العقائدي من ناحيـــة وان تعزلها عن تاريخها وقديمها وعن تراثها ، وذلك بتصور ان الثقافة الحديثة بدأت مع الحملة الفرنسية وان كل ما سبق ذلك يدخل في عداد الماضي ، فلا يؤذن له بالسيطرة أو التأثير على التكوين الجديد للثقافة أو الفكر أو الأدب .

وتلك نظرية مسمومة حـــاربتها حركة اليقظة الإسلامية بقوة وقاومتها مقاومة صامدة مريرة حتى كشفت زيفها .

ونحن نعرف أنه لا سبيل الى انتزاع أي أمـة تحت اي تقسيم سياسي ، على اساس الوطنية أو القوميـــة أو التجزئة أو الاقليمية عن ذلك الكيان الفكري والروحي والنفسي المتكامل الذي عرفه المسلمون جميعاً خلال اربعة عشر قرناً .

وإن هـذه التقسيمات التي فرضها الاستعمار لن تستطيع ان تغير الحقائق الثابتة أو تحطم القيم الأساسية، وإن المسلمين مهما قسمتهم الظروف السياسية الى أقطار ودول وكيانات فإنهم لا ينفكون مرتبطين برباط وحـــدة الفكر والثقافة التي تقوم في الأساس على القرآن وتستمد وجودها من كلمة التوحيد.

وقد ارتبطت الأمم بعقائدها وتراثها وتاريخهـا وماضيها ارتباطاً عجزت كل القوى عن الإدالة منه . أما المسلمون فقد قامت هذه الروابط بينهم خلال اربعة عشر قرناً فأصبحت هذه الأوطان «إسلامية التاريخ والسياسة والمجتمع والثقافة» الى ان جاءت نظم التربية الحديثة فأرادت ان تنزع عنها هذا اللون المميز لها عن جميع الثقافات الاخرى .

(٢)

واجهت الثقافة الاسلامية في ظل النفوذ الأجنبي محاولة احتوائها وفرض مفاهيم غريبة عليها بغية تدمير مقوماتها وكان ذلك جرياً مع المحاولات التي وجهت الى التربيـة والتعليم ، فكان ابرز الشبهات التي أثيرت مـا دعي بعالمية الثقافة ، وتفتح الثقافات والتقائها بل وامتزاجها .

وهي دعوى باطلة لم يثبت صدقها ، بل ثبت على العكس من ذلك تصميم الباحثين عن الثقافة في كل آفاق الفكر العـالمي على التمسك بذاتية الثقافة وارتباطها بالأمة وانتمائها العقائدي والتاريخي .

فالثقافة في إجمـاع الباحثين هي موقف فكري وعمل من تراث البشرية وهي تحقيق للقيم الثابتة في أمة معينة ، وهي نسيج وحده من النظم والأفكار والعقائد والأهداف والآمال والمثـل العليا . كذلك فإن لكل مجتمع ثقافته التي يتسم بها ولكل ثقافة مميزاتها وخصائصها التي تحدد شخصيتها ، بل لقد رأى البعض ان الثقافة ليست مجموعة من الأفكار ولكنها نظرية في السلوك . وان الحضارة والعـلم ينتقلان من امة الى امة لقابليتهما للانتشار ، أما الثقافة فتبقى خاصة بكل امة على حـدة وإن أثرت ثقافات الأمم بعضها في بعض قليلا أو كثيراً ، وفي نظر سينـكلر ان الثقـافة هي القوة الروحية المخصصة الوجود في الأمة بالصورة الحسية بمعنى ان هذه القوة الروحية المتصلة بها آثار

النشأة الدينية والعلمية مزاج يختلف عن مزاج . بل إن (تايلور) وهو باحث غربي ايضاً يقرر ان الثقافة هي الكل المركب الذي يتضمن المعارف والعقائد والفنون والاخلاق والقوانين والعبادات وأي قدرات وخصال يلمسها الانسان نتيجة لوجوده كعضو في المجتمع .

كذلك فقد حاولت الشبهات ان تفصل الثقافة عن العقيدة ، بينما يؤكد الباحثون جميعاً بأن الثقافة تكاد تكون هي العقيدة نفسها . وان الرابطة بين الثقافة والدين هي رابطة جذرية بحيث لا يمكن لأي ثقافة من الثقافات ان تظهر أو تنمو إلا إذا كانت لها صلة بدين من الأديان . وقال اليوت : إن الثقافة مظهر من مظاهر الدين ، فإذا نظرنا الى علاقة الاسلام بالثقافة وجدنا الاسلام نظاماً اجتماعياً شاملاً يعد الدين جانباً من جوانبه فقد رسم لمعتنقيه اسلوب العيش وطريق الحياة. وليس من ريب في أهمية عنصر الدين في الثقافة الاسلامية من حيث إنه العامل المسيطر على حياة المجتمع كله حتى لقد أشار بعض الباحثين الغربيين بأنه من العسير على الغربي ان يفهم حياة الشرق الاجتماعية دون ان يفهم الاسلام وهو الدين الذي تدين به الجماعة ، ولعل من أكبر اخطاء الغربيين وقصور نظرتهم وبعدها عن الإنصاف هو النظر الى الاسلام على أنه دين عبادي لاهوتي .

وفي ضوء هذه المحاولة الخطيرة نحن في حاجة دائمة الى المحافظة على الخصائص والمقومات الجوهرية للثقافة الاسلامية مع القدرة على الحركة والأخذ والعطاء .

وليست الثقافة الاسلامية كما يظن البعض شرقية وليست غربية وليست مركباً للثقافتين الشرقية والغربية ، ولكنها ثقافة مستقلة استمدت وجودها من منهج القرآن الكريم ومفهوم الاسلام الذي قام على التوحيد الخالص ، في إطار اللغة العربية .

وهي ثقافة تنفرد وتتميز عن ثقافات الشرق والغرب بأنها تقوم على

التكامل الجامع بين القوى المختلفة : الروح والمادة ، العقل والوجدان ، الدنيا والآخرة وان توازن بين هذه القوى وتوائم بينها في اتساق عجيب يعجز عن فهمه اصحاب الثقافات الانشطارية .

وتتسم الثقافة الاسلامية بسمات تكاد تكون خصائص مميزة لها :

فهي توازن بين الروحي والمادي ، وتجعل أولية « الخلقي » على الجمالي وتقرر طابع الإنسانية والشعور بكرامة الانسان وتعمل على إقامة الأخوة الانسانية .

وهي تطبع حركتها بطابع الأخلاق ، وتقيم منهجها على أساس الالتزام الأخلاقي في السلوك والعاطفة ، وفي ضوابط الشهوات وفي الإيثار للغير .

وهي ترمي الى إقامة العدل ، وتتسم بالنظر العقلي، فيها البيان والوضوح بعيداً عن الغموض والرمز ، كما تتسم بالاتزان ، والإحاطة والشمول .

والثقافة الاسلامية هي ثقافة عربية من حيث الوعاء فبقدر ما دخل الإسلام من الفرس والترك والهنود فإن كل منجزات الثقافة كتبت باللغة العربية إلا القليل، فقد جرى التفكير في دائرة الاسلام وإطاره ، وكانت اللغة العربية : لغة القرآن هي أداته ، كتب بها الفارابي التركي وابن سينا الفارسي وابن الرومي .

فهي ثقافة إسلامية المضمون عربية اللسان ، شاركت في نشأتها شعوب مختلفة الأجناس انطبع فكرها بروح الاسلام التي استعلت على العنصريات والدماء والألوان ولأن الثقافة الإسلامية قامت على التوحيد فقد تحررت تماماً من الخرافات والوثنيات والأساطير والعصبيات .

وكان لها موقفها الواضح الصريح إزاء الثقافات الشرقية والغربية التي واجهتها ، فهي لم تنصهر في هذه الثقافات ولم تصهر هذه الثقافات في بوتقتها، بل أخذت منها ما يتفق مع روحها وطابعها ثم صهرت ما أخذت ونفت عنها كل ما عارض مقوماتها الأصيلة .

وقـــد رفضت الثقافة الاسلامية منطق اليونان وأقامت منطق القرآن كما تجاوزت منهج النظر العقلي الى منهج التجريب العملي وفتحت الطريق أمـام التقدم العلمي في مجـال الطب والفلك والعلوم الطبيعية والرياضية ، فقد بدأ المفهوم العلمي عنـــد المسلمين مستمداً من القرآن الكريم اساساً ومن دعوته الصريحة الى النظر في الكون والاهتمام بالعلم وآية ذلك ان كلمة علم وردت في القرآن (٨٥٠ مرة) وان أول أمر استخدم في القرآن هو كلمة « اقرأ » وان أول أداة ذكرت في القرآن هي (العلم) والاسلام هو الذي أمر معتنقيه باتباع المنهج العـــلمي والقرآن هو الذي أطلعهم على ان للكون سنناً وقوانين ليس فقط في مجال الطبيعة بل وفي مجال المجتمعات والحضارات .

وقد تبين للباحثين المصنفين خطأ الرأي الذي حمل لواءه (أرنست رينان) والذي ساد بين دعاة التغريب سنوات طويلة وتابعه كثير من المتعصبين واعداء الاسلام وهو القائل بأن الفلسفة الاسلامية هي فلسفة يونانية مكتوبة بحروف عربية وتأكد ان للاسلام منطلقاً الى فلسفته هو ما قدمه الامام الشافعي في علم أصول الفقه وثبت أنه لا منطق أرسطو ولا الفلسفة الهلينية أو الفارسية أو الهنـــدية قد خلقت أو حولت الفكر الاسلامي والثقافة الاسلاميـة عن مسارها القرآني ، وإنمـا بقي الفكر الاسلامي والثقافة الاسلامية ثمرة أصيلة للتوحيد الاسلامي وأنه قد تجاوز الفكر اليوناني الى إنشاء المذهب التجريبي الذي هو نتاج إسلامي خالص بشهادة مختلف علماء الغرب المنصفين .

( ٣ )

إن اخطر قضايا الثقافة الاسلامية هو قضية الازدواجية :

وقد ناقش العلامة الاستاذ محمد المبارك هذه القضية في بحث ضافٍ أشار فيه الى ان الثقافة التي تكون الجيل المسلم في البلاد الاسلامية في العصر الحاضر مزدوجة المصدر ومؤدية بالنتيجة الى عقليتين مختلفتين .

فهناك ثقافة تلقن في المدارس التي أنشأتها الحكومات في البلاد الاسلامية على نمط المدارس المنشأة في البلاد الأوربية من ابتدائية وثانوية وعالية ، وهذه الثقافة بشكلها الحاضر وجميع ملابساتها أخذت واقتبست من الثقافة الاجنبية وهي محتوية على مواد علمية خالصة : كالرياضيات والطبيعيات بفروعها المختلفة وعلى أفكار وعقائد ومفاهيم مأخوذة من العقائد والمفاهيم السائدة في أوربا أكانت مادية إلحادية أم دينية وعلى أساليب للتعلم وطرائق للبحث وهي نتيجة لتجارب طويلة واختبارات متوالية ، وقد ألصق احياناً بهذه الثقافة رقعة متميزة عنها هي ( مادة الدين ) وفيها يعلم الاسلام وأحكامه وعقائده وهي مادة في كثير من البلاد الاسلامية تختلف في طريقة عرضها وتعليمها وفي مفاهيمها ومنطلقها اختلافاً كبيراً عن بقية المواد الثقافية ولذلك لا يكون أثرها قوياً بل قد يحدث التنافر بين هذين اللونين من الثقافة نتائج سيئة في عقول الطلاب ونفوسهم .

إن هذه الثقافة المقتبسة من بـلاد تختلف عن البلاد الاسلامية في عقائدها وأفكارها وفي عاداتها ونظام حيـــاتها بقيت هي الأسس للنظام الثقافي في البلاد الاسلامية وفي جميع درجات التعليم من ابتدائي وثانوي وجامعي وولدت في أبناء المسلمين عقلية مشابهة للعقلية الأوربية في مفاهيمها وأفكارها ونظرتها للحياة ، ولا قيمة بعد هـذا لبعض المظاهر الاسلامية أو الشعائر الدينية التي قد يحافظ عليها بعضهم لأن الاساس الفكري ليس اساساً إسلامياً سليماً ولا يولد تفكيراً ولا سلوكاً إسلامياً في الحياة الفردية والاجتماعية ، ذلك لأن الجو العام لهذه الثقافة هو جو فلسفة خاصة مغايرة للاسلام ، لأن الثقافة حتى في المواد العلمية الخالصة منها كالكيمياء والفيزياء شحنت بأفكار لا علاقة لها بها في الاصل ولا هي من مستلزماتها ولكنها دست فيها وخالطت نظرياتها وتجلت في تعابيرها حتى كان هنالك اقتران بين هذه العلوم التي تدرس الطبيعة والمادة والمذاهب الفلسفية الطبيعية والإلحادية التي عاشت معها وعاصرتها في أوربا .

إن هذه العلوم الطبيعية ضرورية جداً ولكن يجب تحريرها مما علق بهـا وصياغتها صياغة جديدة تتفق مع العقيدة الإسلامية أو لا تعارضها على الاقل. كما ان هذه الثقافة الحديثة يجب ان يستفاد مما تشتمل عليه من اساليب العرض الحسنة ومناهج البحث الصحيحة ، ففيها الكثير النافع مما وصلت اليه تجارب الانسان في تقدمه الفكري والحضاري .

أما المصدر الثاني للثقافة في البلاد الاسلامية فهو الثقافة الاسلامية الموروثة وهي التي تعلم في حلقـات العلماء والمدارس الدينية القديمة التي استمر بعضها والمعاهد العالية كالأزهر والزيتونة والقرويين .

إن هذه الثقافة إسلامية الاساس ولكن تعاقبت عليها القرون واختلطت فيها المذاهب والآراء وتشعبت بهـــا الطرق والمسالك حتى غدت خليطاً من تعاليم الاسلام في كتـابه الكريم وسنته النبوية ، ومن طرائق المتكلمين على

اختلاف منازعهم ومذاهبهم وما شاب الكلام من الفلسفة اليونانية وافكارها ومن مذاهب الفقهاء ولا سيما في العصور التي ضعفت فيها المدارك وانحط فيها التأليف ، وضاقت فيهـا مذاهب التفكير وابتعدت عن مصدري الاسلام الأساسيين « الكتاب والسنة » وسد باب الاجتهاد ، والتزمت فيهـا أقوال الشيوخ ، دون النظر الى دليل الكتاب والسنة وأقوال الصحابة وكبار الائمة المجتهدين ، أضف الى ذلك كله مـا خالط الثقافة الاسلامية من علوم اخرى لا تزال تدرس كما كانت في العصور السالفة ، مع ان تقدماً كبيراً طرأ عليها وتغيرت نظرياتها وحقائقها تغـيراً أساسياً : كالفلك وسائر العلوم الطبيعية وليست هي في الاصل من العقائد حتى لا تتبدل أو من العبادات حتى يتوقف عندها ، بل هي من تجارب الانسان في هذا الكون ومن علمه وتأمله فيما خلق الله ( الذي يزداد يوماً بعد يوم ) .

إن العقلية التي تكونها هذه الثقافة الاسلامية القديمة تختلف اختلافاً كبيراً عن العقلية التي تكونها الثقافة الحـديثة ومن هنا ينشأ الصراع في المجتمع بين عقليتين ويظهر هذا الصراع في مجالات كثيرة في التربية والتعليم وفي المجتمع والسياسة وفي غيرها من المجالات . وهو صراع له نتائجه سواء أكانت الجبهة المنتصرة هذه أو تلك، لأن الصراع بني على اساس فاسد ولأنه صراع خاطىء يصور الاوضاع على غير حقيقتها ويجعل المسلمين فيجبهتين وهم ليسوا كذلك، وليس كل مـا في الثقافة القديمـة واجب الالتزام اسلاميـاً وليست كل عناصره إسلامية حتى يجب الدفاع عنها وكذلك الثقافة الحديثة ليست كلها منافية للاسلام حتى توضع موضع الخصومة .

ولذلك يقترح العلامة محمـد المبارك وضع نظام ثقافي إسلامي موحد غير مزدوج الروح والمصدر يستهدف صبغ التعليم في جميع درجاته وألوانه بالصبغة الاسلامية أي ان يكون الجو العام للثقافة والتعليم هو جو العقيدة والمفاهيم الاسلامية مع اختيار الطرق والاساليب الصالحة المناسبة لتعليم الدين وإدخاله

في النفوس ووصل ما بين الدين والحياة بعرض المشكلات الحاضرة على اختلاف أنواعها على أساس الاسلام ونظرته وسد حاجات المجتمع الاسلامي عن طريق التعليم بمختلف تخصصاته ودرجاته .

والوقوف أمـام الأنظمة الثقافية الاخرى التي غزت العـالم الاسلامي بإحداث وعي إسلامي عام بحيث يكون هذا الوعي -العقلي والنفسي- وعياً لمبادىء الاسلام وتعاليمه وقضـايا الاسلام الكبرى في العصر الحاضر ووعياً لوحدة العالم الاسلامي ومصادر قوته وما يجابهه من أخطار .

(٤)

إن النظرة الفاحصة لوجوه الالتقاء والاختلاف بـــين الثقافة الاسلامية والثقافات الغربية تجد محاذير كثيرة جديرة بأن تكون واضحة أمام الباحث المسلم :

(أولاً) لا ترى الثقافات الغربية ان الدين جزء اساسي من تكوين فكرها وثقافتها وترى ان المسيحية الشرقية كانت عارضـاً من العوارض التي التقت بها وأصابتها بالانحراف لأنهـا نقلت اليها « روح النسك » الآسيوية ، ولكن الثقافة الغربيــة استطاعت امتصاص هذا الرافد وصهره في روحها الاساسية التي تدين للوثنية اليونانية وحضارة روما القديمة .

بينما تؤمن الثقافة الاسلامية بالدين جزءاً اساسياً لا ينفصل عن المجتمع.

(ثانياً) تؤمن الثقافة الغربية بأن محتواها العلمي والأدبي والفني والصناعي إنما يهدف الى خدمة الانسان الأوربي قبـل غيره وعلى حساب غيره ، وليس الى خدمة الانسان بصفة عامة أو من حيث هو بشر .

بينما تؤمن الثقافة الاسلامية بالطابع الانساني وترى ان قيمها إنما هي لخدمة البشرية جميعاً .

(ثالثاً) تؤمن الثقافات الغربيــة بحلول للمشاكل والقضايا على قاعدة القوة

وأسلوب الميكافيلية التي تنفصل فيه الاخلاق عن السياسة وعلى قاعدة الغاية التي تبرر الواسطة .

بينما تؤمن الثقافة الاسلامية بالحلول الأخلاقية ولا تبرر الوسيلة عنـــدها الغاية ، بل لا بد للغايات الشريفة من وسائل شريفة .

(رابعاً) تقوم الثقافة الغربية على أساس انفصال الضمير عن العلم وسيادة المادة على الضمير ، بينما تؤمن الثقافة الاسلامية بأن الضمير أساس العلم والحضارة.

(خامساً) تنطلق الثقافات الغربية من نظرة تحاول ان تصور الانسان بأنه عبد لغرائزه ونزواته وان العقل الباطن هو العامل المسيطر في توجيه حياته، وبهذه النظريات أدخلت الانسان الى حظيرة الحيوان، وهذه المفاهيم تتعارض تماماً مع مفاهيم الثقافة الاسلامية التي ترى للانسان كرامة تعلو على المخلوقات جملة وترى له سيادة تحت حكم الله ترفعه بالعقل وتكرمه بالايمان .

(سادساً) تعلي الثقافات الغربية العنصريات والأجناس والدماء ، وتحاول ان تجعل البيض والغربيين امتيازاً على الأجناس الملونة. وتحاول بهذا الإعلاء ان تجعل لها حق السيطرة والقيادة .

وهذا المفهوم يختلف تماماً مع مفهوم الثقافة الاسلامية التي ترى ان الناس سواسية وإخوة ، وأنه لا فضل لعربي على أعجمي ولا لأبيض على أسود إلا بالتقوى والعمل .

الموسوعة الإسلامية العربية

٩

أنور الجندي

# الثقافة العربية

## إسلامية أصولها وانتماؤها

الناشر

دار الكتاب اللبناني

الموسوعة الإسلامية العربية

٩

# الثقافة العربية

## إسلامية أصولها وانتمائها

بقلم
أنور الجندي

دار الكتاب اللبناني مكتبة المدرسة
بيروت - لبنان

دار الكتاب اللبناني
ومكتبة المدرسة
بيروت - لبنان
ص.ب ٣١٧٦ - برقيا (كتالبنان)
هاتف - ٢٥٧٤٧٠ - ٢٣٧٥٣٧
TELEX No 22865 K.T.L
LE BEIRUT

الطبعة الأولى
١٩٨٢

بسم الله الرحمن الرحيم

# المقدمة

## ( ١ )

إن أكبر حاجة أمتنا في مجال الفكر والثقافة أن نستكشف ذاتنا ونسبر شخصيتنا ، ونصحح مفاهيم قيمنا ، ونعيد النظر في المصطلحات والكلمات في ضوء الحقائق التي كشفت عنها السنوات الاخيرة ، والوثائق التي رفع عنها الستار ، والتي تدعو العرب والمسلمين إلى التعرف على أبعاد حملة الغزو والتغريب والحرب النفسية التي تشنها القوى الاستعمارية والصهيونية من أجل القضاء على ذاتية العرب والمسلمين ، ومقومات فكرهم المستمدة من الفكر العربي الإسلامي .

إن الوثائق الكثيرة التي ظهرت في السنوات الأخيرة ( وخاصة ما كشفت عنه بروتوكولات صهيون ، وموقفها من الثقافات والنظريات الفكرية والاجتماعية المطروحة ) كل هذا قد أوضح مدى خطورة المخطط التي يحاول الأعداء إغراق العرب والمسلمين فيه رغبة في تدمير كيانهم ، وتحطيم معنوياتهم وشخصيتهم حتى لا يستطيعوا مواجهة حركة الغزو التي تنشب أظفارها بقوة في فلسطين ، وتتخذها رأس جسر إلى محنة كبرى للأمة العربية والعالم الإسلامي .

من هذا المنطلق تجيء الدعوة إلى محاولة تصحيح القيم والمصطلحات وتحريرها من الزيف الخطير الذي يراد صبغها به حتى يتحقق هدف الاستعمار والصهيونية من داخل دائرة الفكر الإسلامي والثقافة العربية .

وهذا هو أخطر ما يحفز الهمم نحو إعادة صياغة المفاهيم الأساسية في ضوء الأصول الأصيلة لها المستمدة أساسا من الإسلام والقرآن الكريم

إن حركة الغزو الفكري والتغريب تقوم على اساس تزييف الحقائق، وتمويهها، وإفساد مضامينها. ولقد تنبه المفكرون المسلمون منذ وقت بعيد إلى هذه المحاولة، وعملوا على الكشف عن الحقائق. ولقد أصيبت هذه الموجة بضربات متعددة، ولكنها ما زالت تضيف وقوداً جديداً، وتتحرك في أساليب جديدة، وأعتقد أنها هي كبرى قضايانا التي لا ينفد الجهد في العمل لها مهما اتسع وتشعب، واستمر جيلا بعد جيل.

وإذا لم يكن من اليسير القضاء على هذه الموجة، فلا أقل من العمل الدائب للوقوف في وجهها، وتصحيح ما تزيفه، ورفع الأغشية عما تموه به، ودحض الشبهات عما تحاول إسباغ صفة الطابع العلمي عليه.

إن الغزو الثقافي هو قضية هذا الجيل وهذا العصر، لأنه المحاولة الباقية للقضاء على قوة المقاومة النفسية القادرة دوماً على إعلان الحذر واليقظة إزاء مخططات الاستعمار والصهيونية.

إن آية الجهاد أن لا تجد موجة التغريب العاصفة الكاسحة، استسلاماً أو قبولاً. ولكن تجد دوماً معارضة ومقاومة ومواجهة وكشفا عن خططها.

وإذا كان الفكر والثقافة هما أخطر مجالات الغزو. فإن هذا الميدان وحده هو أكبر ميادين المقاومة والصمود فهذه هي خطوط المواجهة الواسعة، والثغور العديدة التي تحشد لها القوى، وتجند لها الأقلام بالمرابطة، وهذا هو خط الدفاع الفكري الذي يوازي تماماً خط الدفاع العسكري الصامد.

(٢)

من المعتقد أن مرحلة التبعية الفكرية القائمة على عقدة الأجنبي، أو الجري وراء بريق الفكر الغربي وتقليده والإعجاب به، والدعوة إلى نقله كاملاً قد انتهت، وأن مرحلة من الرشد الفكري والاستقلالية، وبروز

الذاتية والقدرة على التماس قاعدة أساسية مستمدة من الأصول والقيم الأساسية التي عرفها العرب والمسلمون منذ وقت بعيد. وأقاموا عليها كيانهم وحضارتهم، هذه المرحلة قد بدأت فعلاً.

لقد بلغنا مرحلة التشبع والامتصاص، ومضى دور التقليد والمتابعة، وبدأ دور الوضوح، والرشد، واكتشاف المزاج النفسي الاجتماعي الأصيل

ولقد كشفت حركة اليقظة العربية الإسلامية المتصلة عن مخططات الاستعمار والتغريب والتبشير والغزو الثقافي وعملت على ردها، ودحض زيفها، وإبراز ذاتية الفكر الإسلامي، والثقافة العربية القادرة على إمداد العرب والمسلمين بأسباب القوة والحركة والتقدم.

وإذا كان الاستعمار والتغريب قد حرصا على تشويه الفكر الإسلامي، والثقافة العربية كوسيلة للحط من شأن العرب والمسلمين، فإن ظاهرة واضحة قد أثبتت وجودها وأكدت ظهورها هي: بروز طابع اليقظة والحيطة والحذر من هذه التيارات المسمومة، بعد أن انكشف أمرها، وعرفت الدوافع الخفية والخلفيات التي تدفع إليها، فقد كان للصيحات المتوالية أثرها العميق في العقل العربي الإسلامي، والنفس العربية الإسلامية للتعرف إلى هذا الخطر الكامن من وراء نظريات كثيرة ومذاهب متعددة ما تزال تطرح في أفق العالم العربي الإسلامي، وكلها تحاول تدميره والقضاء على مقوماته.

ومن خلال مظاهر الثقافة والأدب، والقومية، والفلسفة، والحضارة، واللغة. وفي مجالات الاجتماع والاقتصاد والقانون، والتربية، والسياسة، تطرح مفاهيم متعددة متضاربة لتصارع المفهوم الأصيل الذي يستمده العرب والمسلمون من قيم فكرهم الأساسية.

ولقد طرحت نظريات وافدة في هذه المحاولات جميعا، جرت معها الثقافة العربية شوطا حتى استوعبتها، ثم كشفت عن زيفها ومعارضتها للقيم الأصيلة التي بنيت عليها أسس الفكر الإسلامي والثقافة العربية منذ أربعة عشر قرنا. ومن هنا فقد كان من الضروري إعادة تقييم هذ

المصطلحات والمفاهيم، والنظر فيها من جديد في ضوء أصولها الأصيلة، وفي مواجهة هذه التحديات التي فرضها الغزو الثقافي والتغريب. وذلك لوضعها في الصيغة المحررة بعيداً عن تشويهات التبشير والاستشراق، أو مغالطات التغريب والشعوبية.

هذا التحرر من مفاهيم الغرب والشرق، والتماس المنابع الأصيلة لفكرنا في مختلف هذه القضايا هو الطريق الوحيد لنهضة العرب والمسلمين ويقظتهم، وأمامنا كل الحقائق التاريخية تؤكد أن الأمم لم تنهض نهضة البناء إلا بالتميز والتفرد عن غيرها. ذلك هو الطريق الذي يشكل للأمم وجودها وحضارتها.

أما التشبه والتبعية والغرق في أتون الأمم، والتماس مفاهيم الثقافات والحضارات، فإنه هو العامل الأساسي للبقاء في مرحلة الانتقال التي لا تنتهي، والتي تحول دون أن يصل العرب والمسلمون إلى مكانهم الحق الذي أقامتهم فيه قيمهم، أو أن يستأنفوا دورهم التاريخي في مجال الحضارة.

(٣)

وأولى الحقائق التي تكشف ذاتية الفكر الإسلامي والثقافة العربية. هي ذلك التباين الواضح بين العوالم والأمم، فهنا عالمان منفصلان لكل منهما قيمه ومقدراته وفلسفته وذاتيته. قام عالم الغرب على مفاهيم الفلسفة اليونانية، والحضارة الرومانية في إطار المسيحية الغربية، وقام عالم العرب والإسلام على مفاهيم القرآن الكريم وحدها. وعندما نقل الغرب الفكر الإسلامي رفض أن يقبله كاملاً، وصاغه في قوالبه الأصيلة المستمدة من اليونان والرومان.

فقد أخذ عصارة العلم الإسلامي متمثلا في المنهج التجريبي، ولكنه رفض أن يأخذ إطار الإسلام القائم على التوحيد والأخلاق، وظل أكثر من أربعمائة عام وهو ينكر هذا الأثر، وهذه الصلة، ولا يرى أن في العالم حضارة غير حضارة الرومان التي انطفأت منارتها في القرن الرابع،

وحضارة اوروبا التي أوقدت أضواءها في القرن الخامس عشر، في تجاهل عنيد متعصب للدور الضخم الذي قدمه الإسلام للحضارة والعلم حتى جاء في السنوات الأخيرة من يعترف بالفضل، ويحاول أن يكشف هذه الصفحة الفاخرة. ومن حقنا أن نعرف دورنا في الحضارة والعلم والفكر الإنساني كله ليكون ذلك قوة لنا على مواجهة التحديات في محاولة إقامة أساس وطيد للثقافة العربية.

ومن الحقائق التي لا سبيل إلى تجاوزها، أن الإسلام ليس دينا على مفهوم الأديان أو على مفهوم اصطلاح كلمة «دين» التي يعرفها الفكر الغربي بأنها تمثل اللاهوت أو العلاقة بين الله والإنسان. والإسلام بهذا المفهوم ليس دينا، ولكنه دين ومنهج حياة ومجتمع وحضارة. والثقافة العربية لا تنفصل عن الإسلام. كما أن مفاهيم الإسلام مترابطة بأصول الثقافة العربية. وقد جاء الإسلام بنظام كامل، ولم يقتصر على التوحيد والعبادات.

ومن الحقائق الهامة أن طريقتنا في النظر إلى الأمور، وأسلوبنا في الفكر تختلف في مجال الأدب والتاريخ جميعا. فإن النظرة العربية الإسلامية هي: نظرة جامعة شاملة لا ينفصل فيها المجتمع عن العقيدة، ولا السياسة عن الأخلاق، ولا الروح عن المادة، ولا القلب عن العقل، ولا الدنيا عن الآخرة.

ومن هذا المنطلق تختلف طريقتنا في النظر إلى الأمور عن أسلوب الغرب القائم على الفصل بين القيم، وصاحب النظرة المادية الخالصة إلى التاريخ والإنسان والحياة. والطابع الأخلاقي هو القاسم المشترك الأعظم لمختلف القيم والمقومات يستمد وجوده من التوحيد، ولا ينفصل عنه. وهذا عامل آخر يوسع شقة الخلاف والنظر بين الفكر الغربي والفكر العربي.

وليس في الثقافة العربية كلها لغة دينية، أو نظرة دينية، أو حركة دينية. فالنظرة الإسلامية تتسم بالشمول بين ما هو ديني، وما هو

دنيوي، ولا تنفك عنه.

ويقوم الفكر في الإسلام على الحرية ذات الضوابط. ومن ناحية العقيدة، فإن الإسلام يقرر أنه «لا إكراه في الدين». ولحرية الفكر والرأي مناطق لا يجوز اختراقها محافظة على كيان الأمة ووجودها. ومحافظة على الشخصية الإنسانية وتماسكها.

(٤)

ولعل أخطر ما واجه الفكر الإسلامي والثقافة العربية في ظل النفوذ الاستعماري هو عدم القدرة على امتلاك الإرادة الحرة في الاقتباس والنظر في الثقافات والحضارات، وانعدام فرصة الحرية الكاملة للإذاعة بأيديولوجية الفكر الاسلامي،وكشف جوهره، وإبراز حقائقه، ومدافعة الشبهات عنه، أو تطبيقه. وذلك إزاء مزاحمة الفكر الغربي له، وفرض المناهج الغربية في السياسة والاجتماع والاقتصاد والتربية. فقد كانت قوى التغريب في مراكز القوة والنفوذ، وكانت قادرة على مهاجمة كل صيحة صدق. غير أن تراخي الزمن قد كشف عن زيف المعطيات الاستعمارية الغربية، وعجزها عن أن تقدم العطاء الصادق للنفس العربية الإسلامية. ثم كان رفض المزاج العربي الإسلامي لها شهادة دامغة لها، ومن هنا فقد بدأت عودة الفكر الإسلامي إلى التماس قيمه. لقد حال التغريب دون قيام امتزاج فكري شامل، تذوب فيه الخلافات، ويلتقي العرب والمسلمون على «وحدة فكر» تصهر العناصر المختلفة، وتعيدها إلى فطرتها الصادقة النقية. ولكن ضوءاً جديداً يبدو اليوم من وراء الأفق يؤذن بقرب انهدام الفواصل الفكرية والروحية. وذلك في مواجهة التحديات الاستعمارية والصهيونية.

إن الطريق الوحيد أمام العرب والمسلمين هو طريقهم الأصيل (وأن هذا صراطي مستقيما فاتبعوه ولا تتبعوا السبل فتفرق بكم عن سبيله) إنه هو المنطلق الوحيد الذي عرفه العرب والمسلمون صادقا لهم كلما مروا

بالأزمات، ومراحل الضعف، وواجهوا التحديات والغزو، لا طريق ولا سبيل سواه.

إننا في الواقع لسنا في حاجة إلى أن يصرعنا هذا الفكر الغربي، وليس من مصلحتنا أن نذوب فيه، وأن نتمزق مع ألوانه وتياراته المختلفة، بل إن علينا أن نستمد من قيمنا أساساً، ونتفتح لكل وسيلة، والوسائل مواد خام تشكل وتسبك في قالب ذاتيتنا وشخصيتنا. ولقد كان الفكر العربي الإسلامي دوماً ثابت الجوهر، متغير الصورة، قابلاً لكل المعطيات التي تزيده قوة دون أن تفقده كيانه وقيمه الأساسية. وإذا كنا قد قطعنا مرحلة في طريق اليقظة إلى النهضة، فإذا ما أريد لها أن تستكمل الطريق وتؤتي ثمارها، فلا بد من بناء الأساس على القواعد التي صمدت أربعة عشر قرنا دون أن تهتز للأحداث والأزمات.

إن الفكر الإسلامي هو الذي صنع هذا المجتمع العربي الإسلامي وبدأه من نقطة أولية. ولذلك فقد كان امتزاج الروح والمادة فيه من نسيج البناء الذي لا سبيل إلى عزله، إلا إذا أعيد البناء من جديد، وهو في حد ذاته أكبر عوامل التباين بين الثقافة العربية والثقافات الشرقية والغربية جميعا.

# الباب الأول
# مقوّمات الثقافة العربيّة

## الفصل الأول

# مَدخَل إلى مَفْهُوم الثقَافَة

# مَدخَل إلى مَفْهُوم الثقَافَة

- ١ -

من أعظم القضايا وأخطرها في تاريخ الأمم قضية « الثقافة » من حيث أصالتها واحتفاظها بمقوماتها في مواجهة التحدي بغزو ثقافة أمة أخرى لها في ظل ظرف من ظروف الضعف أو التخلف التي قد تفرض فيه الأمة الغازية ثقافتها وسيطرتها الفكرية.

والأمة العربية قد وقعت تحت النفوذ الأجنبي قبل منتصف القرن الماضي، ثم أخذت تتحرر من هذا النفوذ منذ منتصف هذا القرن. ومن هنا فإن بقايا هذا النفوذ وآثاره ما تزال لم تنحسر بعد، لا سيما وقد ترك الاستعمار جذوراً وقواعد ومؤسسات ما تزال تعمل تابعة له في محاولة لاستمرار نفوذه، بعد أن تخفى عن هدفه الأصيل، وتحول من الغزو العسكري والسياسي إلى الغزو الثقافي والفكري.

وفي مرحلة ما بعد الاحتلال الأجنبي وانحسار النفوذ الاستعماري، وفي مطالع مراحل التحرر والاستقلال يبدو من أهم الأمور وأجلها خطراً العمل على تحقيق التحرر الثقافي والاستقلال الفكري من نفوذ الاستعمار المنسحب. فإذا عرفنا أن الأمة العربية ما زالت تواجه بالرغم من تحررها السياسي خطرا استعماريا جاثما هو (الصهيونية وإسرائيل واحتلال فلسطين والقدس) كان من الأهمية بمكان أن تظل على يقظة كاملة، وهي في مرحلة المواجهة والمقاومة، لما تروجه الدعايات المغرضة وما تكتبه الأقلام المسمومة، مما يدخل تحت اسم « الحرب النفسية » التي

أعلنها العدو، والتي ما زالت معلنة على الأمة العربية كلها بعد النكسة في محاولة لتشكيكها في مقدرتها على الصمود ضد هذا الخطر الذي تواجهه الأمة العربية ممثلا في الاستعمار الثقافي والحرب النفسية جميعا. إذن فقد تحتم علينا إعادة النظر في أمور كثيرة، وأصبح بالضرورة أن ننتقل إلى مرحلة جديدة لا شك فيها ولا سبيل إلى الفكاك منها. تلك هي مرحلة: «تحرير الثقافة من كل محاولات الغزو الثقافي الغربي ممثلة في أكاذيب المبشرين وأباطيل الصهيونية وتحريفات الماسونية وترّهات التغريب، ومفاسد الشعوبية بالإضافة إلى وثنيات اليونان والمجوسية ودعوات الإلحاد والإباحة».

فمن حق الأمة العربية، شأن كل أمة، أن يكون استقلالها الثقافي عن الثقافات الأجنبية أكيداً. وأصبح عليها أن تستمد ثقافتها من كيانها ومواريثها وإيمانها وأمجادها. ولا بد لكل أمة تحررت من الاستعمار العسكري والسياسي أن تتحرر من الاستعمار العقلي والثقافي، وأن تكون لها ثقافة قومية مستقلة تستمدها من آدابها وتراثها العقلي والفكري.

ومن هنا تتجدد الدعوة إلى اليقظة إزاء محاولة الاستعمار التي ترمي إلى إضعافنا بتقديم آراء منحرفة مضللة في ثوب علمي وتحت أسماء براقة وهي آراء لا تخرج عند الفحص الدقيق، والمراجعة العلمية عن الشبهات والأكاذيب التي هوجمت بها الثقافة العربية والفكر الإسلامي دوما، وفي مراحل مختلفة متعددة من تاريخنا. فقد كانت أهداف الغزو الذي حاول الاستعمار فرضها في سبيل تأكيد وجوده وتثبيت بقائه، العمل على تقديم مفاهيم تتعارض مع مفاهيمنا، وقيم تتعارض مع قيمنا عن طريق النفوذ الذي يفرضه باسم المدرسة والصحيفة والكتاب. حيث أخذ الاستعمار يقذف الأمة العربية بفيض غلمر لا نهاية له من هذه المذاهب والنظريات والدعوات في محاولة للقضاء على وحدة الأمة العربية والفكرية، ودفعها خارج نطاق قيمها ووجودها وذاتيتها. وفي مقدمة هذه المحاولات:

بدع الإلحاد في العقيدة، والعامية في اللغة، والتبذل في علاقات المجتمع. هذا بالإضافة إلى حملات الهجوم والتشكيك الزاحفة على ثقافتنا وعقائدنا ونظمنا بالهدم وإثارة الشبهات، حتى لا يكون هناك سدّ يقف داخل نفوسنا يحول دون احتوائنا في مناطق النفوذ.

إن سلامتنا من النفوذ الاستعماري ليس لها إلا وسيلة واحدة هي: تحررنا الثقافي، وصمود عقائدنا وقيمنا.

من هنا فإن من حق كل ثقافة أن تعرف مقوماتها وخصائصها المستمدة من وجودها وكيانها وشخصيتها ومصادرها الأصيلة، وأن تحافظ عليها في وجه الغزو الذي يحاول تذويبها أو احتواءَها، أو إزالة معالمها، أو التأثير عليها بحيث تفقد جانبا من مقوماتها لتنصهر في الثقافة الغازية المسيطرة.

هذه هي أخطر قضايا الثقافة العربية اليوم؛ هذه الثقافة ذات الأصالة الواضحة في طوابعها المميزة.

- ٢ -

اشتق اسم الثقافة من «ثقف». وهو لفظ قرآني أساسا لم يكن من اشتقاق أحد ممن يدعون اشتقاقه من غير القرآن. والثقافة كلمة عريقة في لغتنا بمعنى صقل النفس، والمنطق، والفطانة. وهو بمعنى تثقيف الرمح أي تسويته وتقويمه[١].

ثم استعمل للدلالة على الرقي الفكري والأدبي والاجتماعي للأفراد والجماعات. ولكي يكون معنى الثقافة متميزاً يجب التفريق بينها وبين الحضارة والعلم والتربية والتعليم، فهي ليست مجموعة من الأفكار، ولكنها نظرية في السلوك، وبها هي طريق الحياة إجمالا فيما يتمثل عليه الطابع العام الذي ينطبع عليه شعب من الشعوب. أو هي الوجود المميز

---

(١) في القاموس المحيط للفيروزابادي: ثقف ككرم وفرح، وثقف ثقفا وثقافة: صار حاذقاً خفيفاً فطناً، وثقفه تثقيفاً سواه.

لمقومات الأمة، أو هي الإيديولوجية التي تميز جماعة من الناس عن الجماعات الأخرى بما تقوم به من العقائد واللغة والقيم والمبادىء والسلوك والمقدسات والقوانين والتجارب. ومن هنا فلكل مجتمع ثقافته التي يتسم بها، ولكل ثقافة مميزاتها وخصائصها التي تحدد شخصيتها. وبالجملة فإن الثقافة طريقة خاصة تميز أمة معينة عن أمم أخرى وتتمثل في العقائد والنظم، وكل ما هو اجتماعي وخلقي[٢].

ويخلق الإنسان شبيهاً بكل إنسان في شكله وتركيبه البيولوجي، ولكن يختلف إنسان عن إنسان بما يؤمن به كل منهم من عقيدة، وما يتكلم من لغة، وما يعتنق من مبادىء وقيم. فالثقافة القومية موقف فكري وعملي. هو تحقيق للقيم الثابتة في أمة معينة. ويمكن القول انه قد تركزت في ضمير الأمة العربية أصول ثقافة قومية واحدة تتفتح على مشكلات الإنسان.

(٢) ـ لا بد من التمييز بين عنصرين في المدنية:

(أ) العلوم والمعارف والاختراعات والصناعات والوسائل المادية. وهذه هي «الحضارة».

(ب) العقائد والآداب والتقاليد واللغة والقوانين والنظم «أو ما يطلق عليه الجوانب الخلقية والاجتماعية والفكرية» وهذه هي «الثقافة».

فالعنصر الأول عالمي لا يختص به قوم دون قوم، أو أمة دون أمة،

---

(٢) يعرف هنري لاوست (الثقافة) بأنها مجموعة الأفكار والعادات والموروثات التي يتكون منها مبدأ خلقي لأمة ما، ويؤمن أصحابها بصحتها، وتنشأ منها عقلية خاصة بتلك الأمة تمتاز عن سواها. وجميع الثقافات تتكون وتتطور بعوامل داخلية، وتتأثر ببعض المؤثرات الأجنبية. ويعرف أرنست باركر (الثقافة) بانها «ذخيرة مشتركة من الأفكار والمشاعر لأمة تجمعت لها وانتقلت من جيل إلى جيل خلال تاريخ مشترك، وتغلب عليها بوجه عام عقيدة دينية مشتركة هي جزء من تلك الذخيرة المشتركة من الأفكار والمشاعر والعقيدة الدينية واللغة هي من العناصر الأساسية للثقافة» ويقول (تايلو) إن الثقافة هي الكل المركب الذي يتضمن المعارف والعقائد والأخلاق والقوانين والعادات والفنون.

بل هو ميراث الإنسان بوصفه إنسانا. أما العنصر الثاني فهو قومي خاص، لأنه يختلف باختلاف الشعوب والأمم.

( ٣ ) - لما كانت «الثقافة» تنحصر في الأمور الذهنية والمعنوية وحدها فإنها تختلف عن «الحضارة» التي لها طابع الانتشار والانتقال بين الأمم، بينما تبقى الثقافة خاصة بكل أمة على حدة. وإن أثرت ثقافات الأمم المختلفة بعضها في بعض قليلا او كثيرا.

( ٤ ) - ومن هنا يبدو الفارق الواضح بين الثقافة والعلم.

«فالعلم» بطبيعته عالمي، تتعاون فيه جميع الأمم بدون تحفظ. أما «الثقافة» فليست من الأمور التي يمكن اقتباسها ونقلها من الخارج نقلا، بل هي من الأمور التي لا بد من تكوينها في النفوس تكوينا.

( ٥ ) - وكذلك «المعرفة» لا تختص قوما دون قوم، ولا أمة دون أمة، لأنها كالعلم إنسانية أسهمت جميع الأمم والشعوب على مر التاريخ في تشكيلها، فهي ميراث الإنسان بوصفه إنسانا. وذلك بخلاف النظم الاجتماعية التي هي «قومية» خاصة لأنها تختلف باختلاف الشعوب والأمم، والتي هي من صنع ظروف كل أمة، ولأنها نتيجة للعملية التاريخية التي اجتازها كل شعب، وما يصلح منها لقوم لا يصلح للآخرين، وما يكون منه شفاء لناس يكون سما زعافا لغيرهم.

( ٦ ) - وكذلك «الحضارة» فهي تتمثل في العلوم والصنائع بوجه عام. حين تنحصر الثقافة في الأمور الذهنية والمعنوية وحدها.

( ٧ ) - والثقافة أيضا من الأمور المعنوية فهي لا تتبع الروابط الجغرافية، ولا تتقيد بقيود المسافات. ومن هنا فمن الخطأ أن يقال إن هناك ثقافة تسمى باسم «البحر المتوسط» مثلا.

ومن الحق أن يقال: إن هذه المنطقة التي نبتت فيها الأديان على ترابط واضح بين الروح والمادة قد انتظمتها فطرة واحدة كونتها العقيدة واللغة والقيم المشتركة. وهي من أجل هذا تجتمع على مثل عليا للحياة موحدة.

( ٨ ) - ومن هنا كان لكل ثقافة مزاجها الخاص الذي يختلف باختلاف الأمم. «فالثقافة» اللاتينية مثلا لها ذوق ولون ومنحى يختلف عن السكسونية والجرمانية والصقلية. بل إن الثقافة اللاتينية تختلف في البلاد اللاتينية نفسها، فتراها في إيطاليا ذات ملامح تفترق عن الثقافة الفرنسية والبلجيكية والسويسرية والإسبانية. بل إن انجلترا وأميركا مع أن أساس ثقافتهما لغة واحدة، وآدابهما متقاربة، فإن ثقافة هذه تختلف عن ثقافة الأخرى. وهكذا تختلف الثقافات والأساليب الفكرية، ومناهج التعليم في ألوانها ومقاصدها وتوجيهاتها باختلاف الأمم الصادرة عنها.

ولكن ربما تتلاقى ثقافات فرنسا وانجلترا وإيطاليا وألمانيا لوحدة غالبة في أصولها. ولكن هذه الثقافات بمجموعها تختلف عن الثقافة العربية التي كونتها عوامل خاصة تختلف. ولا شك أن هذه العوامل قد أعطت للفلسفة والفن والأخلاق طوابع خاصة مميزة.

وبالجملة فإن الثقافة تشمل كل نواحي النشاط والاهتمام التي تميز شعبا عن شعب. وأمة عن أمة.

( ٩ ) - والثقافة العربية: عربية اللسان، إسلامية المضمون والتاريخ. وهي كائن حي يضم العناصر الثلاثة: الوطنية والقومية والإسلامية. وهي في جملتها واقعية، عملية، متحررة، تقدمية، إنسانية.

ويمكن القول مع القائلين بأن الثقافة العربية ليست ثقافة غربية، ولا ثقافة شرقية، وليست مركّبا لهاتين الثقافتين، بل هي ثقافة متميزة واضحة الذاتية لها طابعها الخاص [١] المختلف عن ثقافات الشرق والغرب جميعاً.

---

( ١ ) أشار إلى ذلك تشارلز مالك في كتابه: (tne near east and the great poners) ويقول الدكتور عبد القادر يوسف في كتابه «مستقبل التربية في العالم العربي»: إذا أردنا تصنيف الفلسفة الأساسية للثقافات نستطيع أن نضع الثقافة العربية في الموقع الذي يمثل الموقع الوسط بين ثقافة الغرب وثقافة الشرق، فهي لا شرقية ولا غربية كما انها ليست مركباً للثقافتين وليست حلقة اتصال تربط بينهما، بل هي ثقافة تسمى ما بين الثقافتين.

## - ٣ -

هل تكون ثقافة الأمة مغلقة أمام الثقافات الأخرى أم متفتحة؟

من الحق أن يقال إن تحديد مقومات ثقافة الأمة ضرورة. وإن حماية هذه المقومات أمر لا سبيل إلى تجاوزه. ولكن هذا لا يمنع أية ثقافة عالمية كالثقافة العربية من الانفتاح على الثقافات الأخرى على النحو الذي تقوم الأمم في استيراد فسائل النباتات الغريبة وتجريب زراعتها في تربتها. فإن صلحت وتأقلمت وانصهرت في بيئة هذه الأمم فقد نجحت وإلا فقد رفضتها البيئة حيث لم تستطع جذورها أن تمتد إلى أعماق التربة، ومن هنا فلا تكون ثقافة أية أمة مغلقة أمام الثقافات الأخرى إلا بقدر ما تحتفظ بجذورها وأصولها. هذه الجذور التي يجب أن تكون ثابتة أمام الوافد بحيث لا يستطيع هذا الوافد اقتلاعها.

وليس معنى اختصاص الثقافة للأمة أن تظل جامدة أو أن تنغلق دون أن تتطور. ولكن معناه أن أسسها وقيمها هي أنسب شيء لها. والقاعدة هي عدم انعزال الثقافة أية ثقافة، فهي تأخذ وتعطي، ولكن عليها أولا أن تحتفظ بمقوماتها الأساسية.

## الفصل الثاني

# مَا هِيَ مُقوِّمَات الثقَافَة العَربيَّة ؟

إن الثقافة العربية ـ شأن كل ثقافة ـ تتكون من مقومات أساسية قوامها :

( ١ ) العقيدة : فكرية وروحية هي : « الإسلام »
( ٢ ) اللغة العربية وآدابها
( ٣ ) التاريخ العربي الإسلامي
( ٤ ) التراث
( ٥ ) القومية ( الأمة ) والوطن ( الأرض )
( ٦ ) وحدة العقلية والمزاج النفسي

## ١ - العَقيــدَة

«لكل ثقافة جذور من فكر إنساني، أو دين له جذوره الأصيلة في الأمة بما يرسم من أسلوب العيش عند المؤمنين به» والعقيدة التي تمثل أهم مقومات الثقافة العربية هي «الإسلام» والإسلام دين وزيادة. أي أنه يقوم مقام اللاهوت في الثقافات الأجنبية، ويضيف جانبا آخر واسع المدى في مجال الفكر والحياة والمجتمع والحضارة وهذا الجانب ليس موجودا في الأديان الأخرى.

فالإسلام ليس دينا فحسب، ولكنه دين ونظام مجتمع له منهج كامل في الحياة الاجتماعية والسياسية والاقتصادية.

١ - قد تأكد أنه لا يمكن لأية ثقافة من الثقافات أن تظهر أو تنمو إلا إذا كانت ذات صلة بدين من الأديان. فالدين وحده هو الذي يكسب الحياة الاجتماعية معناها ويمدها بالإطار الذي تصوغ فيه اتجاهاتها وآمالها، ويحمي الجماهير البشرية من اليأس والملل. ولما كانت حياة الإنسان إنما تحكمها القوى الروحية، والقوى المادية معاً، ولا سبيل إلى الفصل بينهما فإن الإيمان الديني السليم لا يتعارض مع الفكر الإنساني الحر. بل إن الدين في مفهوم الإسلام يدفع الإنسان إلى التفكير الحر ويصده عن الجمود الفكري والتعصب [١].

كما أن الدين هو الذي يضع القيمة الخلقية للمجتمع.

٢ - أبرز ما يمثله الإسلام: التوحيد وكون الإسلام ديناً ومجتمعاً.

---

(١) بتصرف - عن محمد محمود «وحدة الثقافة العربية».

هاتان المزيتان تمثلان أعمق الفوارق بين الثقافة العربية والثقافات الغربية. وتكشفان عن التباين الواضح بين وجهة نظريها بما يصل إلى التعارض أحياناً بين الثقافتين في كثير من المواقف والقضايا.

٣ ـ يتمثل «التوجيه» في أمرين:

( ١ ) الإيمان بأن الله واحد لا شريك له، وتنزيه الله عن كل صفة يتصف بها خلقه، فلا ينسب إلى خلقه شيء من صفاته ( إلا مع التأويل الصحيح ).

( ٢ ) الإيمان بالرسل والكتب والبعث والجزاء.

٤ ـ «القرآن» هو مصدر القيم الأساسية للإسلام. وهو النص الموثق، والكتاب المعجز بمبادئه وأسلوبه. فليس في التاريخ كتاب بقي كيوم نزل معنى ونصاً، ثم كان له من الأثر في جميع ميادين الحياة كالقرآن. فقد دعا القرآن الى المعرفة عن طريق العقل والفكر والاستنباط.

والإسلام دين دعوة ودين أمة ( عبادات ومعاملات وأخلاق ) وهو لا يفرق بين الدين والأخلاق، والنظام الاجتماعي جزء من الإسلام.

وقد نظم الإسلام صلة الإنسان بربه، وصلة الانسان بالبشر. وأقر نظام الأسرة بالزواج وحقوق الجماعة، ورفع مكانة المرأة، وأبطل الرق، فكل رقيق يصبح بالإسلام حرّاً كما يصبح حرّا بالعتق. ونظم الإسلام كذلك الجانب الاقتصادي بالزكاة، وجعل السياسة شورى، وحث على العلم وكرم العقل والفكر.

«والسنة» هي تفصيل ما جاء مجملاً في القرآن، وهي التطبيق العملي للإسلام ممثلا في تصرف الرسول وقوله.

٥ ـ وقد استمدت الثقافة العربية مقوماتها من الإسلام وتشريعه، قاعدة وأساساً لحياة المجتمع الأخلاقية والاقتصادية والاجتماعية والسياسية. وتقوم هذه الثقافة على فلسفة في الحياة والاجتماع تتميز بتوفيقها بين

سلطة الحاكم وحرية المحكوم، واحترامها للملكية الفردية، وتوجيهها للتعاون بين الغني والفقير، وعدم تفريقها بين الألوان والأجناس، وإصرارها على إقرار قسط معين من الأخلاق والآداب في حياة الجنسين (الرجل والمرأة) والتسوية بينهما إلا في حالات معدودة.

٦ ـ أكد الباحثون المنصفون حقيقة واقعة هي: أن في الأمة العربية والعالم الإسلامي ما يثبت أن الدين ينفذ إلى كل نشاط اجتماعي وعقلي للشعوب. بل إنه ـ أي الدين ـ في الواقع: العامل على حياة الشرق ونسائه[١].

وقد أخطأ الغربيون الذين حاولوا دراسة الإسلام، على أنه «دين فقط» والذين حاولوا أن يتعرفوا إليه كما يتعرفون على أديانهم، وجهلوا أو حاولوا تجاهل الحقيقة الواقعة من أن الإسلام حركة اجتماعية كان الدين جانبا من جوانبها، فهو عقيدة وعبادة وإصلاح اجتماعي، ومبدأ أخلاقي وحكومة.

٧ ـ من أبرز معالم الإسلام ذات الأثر في الثقافة العربية أنه يجمع بين المثالية والواقعية، وأنه يحتفظ بالعمل في صميم الحياة العامة وهو لا يطلب من أتباعه أن يعرضوا عن الدنيا أملا في الحصول على الآخرة، بل على أن يحسنواالعمل في الدنيا أملا في الفوز في الآخرة.

٨ ـ طبع الإسلام حياة العرب في الماضي ولا يزال يطبعها وسيظل يطبعها إلى مئات السنين. لذلك فإن كل حركة فكرية واجتماعية في العالم العربي تتجاهل هذا الواقع البديهي، فهي تتجاهل الإطار الطبيعي الذي يجب أن تنشأ ضمنه، والأساس العملي الذي يجب أن تستند إليه.

فهي إذن يجب أن تكون في داخل الإسلام[١]. ويرجع ذلك إلى

---

(١) يراجع ما كتبه الدكتور عبد القادر يوسف في كتابه «مستقبل التربية في العالم العربي» الحقيقة أن الإسلام كان ولا يزال القوة المكونة، والعنصر الفعال الأساسي في الثقافة العربية.

(٢) جورج طعمة.

الحقيقة التي لا مرية فيها. وهي أن الإسلام كان أكثر من مجرد دين فقد كان طريقة في الحياة، ومنهاجاً واضحاً عني بكل ناحية من حياة الفرد ليحدد سلوكه الاجتماعي والخلقي والديني [٣].

٩ - اتسمت الثقافة العربية باستعدادها الدائم للنمو، عن طريق الثورة أو التطور، وقدرتها على تمثل ما تأخذ بحيث يصبح هذا المأخوذ جزءاً أصيلاً من حياتها. فقد تمثل العرب فكر الأقوام التي اتصلوا بها، ولكنهم فرضوا فكرهم بلغتهم وروحهم، وكان الإسلام هو الإطار الأساسي لكل ما تقبلوه من الفكر البشري، ورفضوا كل ما يتعارض مع التوحيد من الفكر اليوناني والفارسي والهندي القديم.

١٠ - إن موقف الإسلام من الأقليات ومن الأديان يكشف عن حقيقة واضحة، هي توفير حرية الفرد كي يختار الدين الذي يرتضيه لنفسه، وتقدير الإسلام للأديان جميعاً، وإفساح المجال لها في حرية، وإعطاء أصحاب الأديان المختلفة حقوقهم الاجتماعية، وحماية الحرية الدينية. وقد أثبت التاريخ الطويل مدى تكريم الإسلام للأديان السماوية الموحدة وإعطائها حق المواطنة وحق الحماية. وقد انطبع هذا المفهوم على الثقافة العربية، فأتاح الفرصة لبقاء وحرية أقليات كثيرة في الوطن العربي منها: الصابئة، والطائفة السامرية في الأردن، والأرمن في سوريا ولبنان، والمسيحيين.

١١ - كان الإسلام روح جميع حركات النهضة واليقظة، والمقاومة تحت اي اسم سواء أكانت حركات إسلامية صريحة، أم وطنية أو قومية. وقد اعترف بهذه النظرة (هاملتون چب) حين قال: «لم تقم في بلادهم أية حركة وطنية إلا كانت الروح الإسلامية أساسها» ويردد كانتول سميث هذا المعنى حين يقول مثل هذا.

١٢ - إن أساس كيان المجتمع العربي الذي تكون في أحضان الأديان

---

(٣) الدكتور عبد القادر يوسف «مستقبل التربية في العالم العربي».

يقوم على اعتقاد يبعث في النفوس الإيمان بالله والنبوات والروح والحياة الآخرة، وبالجزاء فيها على الأعمال. يعتقدون هذا في نفس الوقت الذي يطلقون لعقولهم العناية لتتعلم وتعرف وتخترع وتكتشف وتسخر هذه المادة الصمّاء وتنتفع بما في الموجودات من خيرات وميزات. والمجتمع العربي في هذا يختلف عن المجتمع الغربي الذي يعيش حياة مادية النزعة لا تعترف بغير المادة، ولا تحس بوجود غيرها على نحو ضعفت في نفوس أبنائه عواطف الرحمة الإنسانية.

١٣ ـ مفهوم الإسلام في الثقافة العربية يقوم على أساس أن الإسلام ليس عقيدة صوفية، ولا فلسفة لاهوتية ولكنه نهج في الحياة وفق قوانين الطبيعة التي سنّها الله لخلقه، وأبرز معالمه: التوفيق التام بين الوجهتين الروحية والمادية في الحياة الإنسانية. الالتقاء بينهما على نحو يحول دون وقوع أي تناقض أساسي في حياة الإنسان الجسدية وحياته الأدبية، والإسلام يؤكد تلازم الوجهتين وعدم افتراقهما. ويرى ذلك أساساً طبيعياً للحياة. وفي هذا تختلف الثقافة العربية عن الثقافات الغربية التي تقوم على أساس الفصل بين اللاهوت والحياة، وبين الأمور الروحية والأمور الجسدية (كما يفعل اللبّان حينما يمخض الحليب ليستخرج زبدته) وهم لا يفهمون بسهولة أن الحليب الصريح في الإسلام يجمع العنصرين، مع انهما متميزان ويعيشان معاً متجانسين[١].

وإن مبدا التوحيد في الثقافة العربية هو الذي يحول دون التمزق والتشطير والانقسام بين الشرق والغرب، والمادة والروح، والأبيض والأسود، والمثالية والطبيعية، وبين الحرية والانضباط. هذه الحواجز التي تقيمها هذه الانقسامات هي مصدر الأزمة النفسية والروحية التي تعانيها البشرية اليوم، وهي أزمة غير موجودة في الثقافة العربية والفكر الإسلامي.

---

(١) بتصرف عن ليوبولد فانابس «الإسلام على مفترق الطرق».

١٤ ـ تقوم الثقافة العربية على أساس الإيمان بأن الأصل في الإنسان: «الخير» وذلك على خلاف ما تقول به الثقافات الغربية التي تستمد من الأديان المختلفة، من أن الإنسان خلق خاطئاً أو ما تراه التعاليم الهندوكية من أن الإنسان كان أول أمره دنساً فهو من أجل ذلك محمول على أن يتخبط في سلسلة من التقمص نحو هدفه الأقصى من الكمال. بينما يقرر القرآن أن الانسان خلق طاهراً وخلق كاملاً. وأن ليس على الإنسان مسؤولية خطأ أي فرد سبقه،وأن آدم قد تلقى من ربه كلمات فتاب عليه.

١٥ ـ التوحيد في الثقافة العربية هو الفكرة. فإذا غربت الفكرة بزغ الصنم وسيطر مفهوم الوثنية.

١٦ ـ اتسمت الثقافة العربية بالحركة والتشكيل والمواءمة مع العصور المختلفة والبيئات المتشابهة. وهي تستمد هذه الميزة من الفكر الإسلامي الذي يؤمن بقاعدة الاجتهاد. ولما كانت النصوص متناهية والوقائع غير متناهية، ولما كان ما لا يتناهى لا يضبطه ما يتناهى، فإن الاجتهاد هنا يصبح واجب الاعتبار.

١٧ ـ منح الإسلام الثقافة العربية عامل الإيجابية والتحرر والطلاقة. حيث لم يكن الدين معوقاً ولا مصدراً من مصادر الجمود أو التخلف أو الحرمان، أو فرض الوساطة بين الله والعبد، أو القسر بالتوجه إلى الرهبانية، أو الانقطاع عن الدنيا أو السلبية أو الجبرية، بل كان دائماً في جوهر مفهومه قادراً على دفع الإنسان كإنسان وكجزء من المجتمع إلى العمل والحركة، ومنحها القوة والحيوية. وكان وفق مفاهيمه تقدمياً متلاقياً مع العصور المتوالية، والبيئات المختلفة وبذلك لم ينشأ في الثقافة العربية ما تعرضت له الثقافات الغربية من كون الدين يتعارض مع العقلانية نتيجة للنظم الكهنوتية، والإسلام لم يعرف الكهانة.

١٨ ـ منح الإسلام الثقافة العربية الانفتاح على الثقافات ذات

الأصل الإسلامي، فلم يعمل على فرض قومية على قومية، بل نشر صيغة إنسانية للحضارة.

وكانت معتقداته عاملا هاما في إقرار حرية الأمم والأقوام والمساواة بينها، واتساع المجال للغاتها وإنتاجها على أساس التعارف والتعاون.

بل إن التراث الحضاري والفكري والإسلامي كله ليس تراثاً عربياً من حيث اللغة، ولكن شاركت فيه كل العناصر والأجناس.

وكان هذا الانفتاح على الثقافات الإسلامية عاملاً هاماً. فإن الثقافة العربية هي أمّ هـذه الثقافات، لأن القرآن الكريم - حجر الأساس في بناء الفكر الإسلامي - نزل بالعربية، وأثره واضح في مختلف جوانب هذه الثقافات.

يقول الفيلسوف محمد إقبال:

أنا أعجمي الدن ولكن خمرتي صنع الحجاز وروضها الفينان
إن كان لي نغم الهنود ولحنهم لكن هذا الصوت من عدنان

فاللغة العربية بشعرها ونثرها وقواعدها ومفرداتها أثرت في جميع لغات الشعوب الإسلامية على تفاوت بينها، فهي الأصل الذي استمدت منه ما تحتاج إليه من ألفاظ للتعبير عن المعاني الجديدة التي انتقلت إلى الأوردية والفارسية والتركية بمفهومها العربي، كما اتخذت بعض الشعوب الحروف العربية لكتابة لغاتهم، وما تزال اللغة العربية هي اللغة الثقافية في تركيا وباكستان وأندونيسيا وأفغانستان وإيران.

١٩ - استطاع الإسلام أن يمد الثقافة العربية بكل علامات القوة والحيوية، وكذب بذلك كل دعاوى التغريبيين والشعوبيين من اتهامها بالجمود وعجزها عن متابعة الحضارات والنهضات.

٢٠ - من خلال دراسة ابن خلدون العميقة للتاريخ العربي الإسلامي، يبين أن هناك قوة واحدة لا توجد غيرها. هي القادرة وحدها على مقاومة الانحلال الناتج عن مختلف أسباب الضعف هي قوة

الإسلام. فقد نجح الإسلام بالفعل في ربط الناس في مجتمع واسع، ساوى بين أفراده، فلم يبق أي تميز على أساس العرق أو اللون أو على أساس القدم والحداثة في اعتناق الإسلام والإيمان به. وأصبح المسلم يشعر بأن الأمة الإسلامية وحدة لا تتجزأ. وأنه أينما حل في ديارها، فهو في بيئته وبين اهله. وقد استطاعت الشريعة الإسلامية المستندة إلى القرآن الكريم والسنة أن توجد نظاما في الحقوق والواجبات فيه مكان لكل مسلم، ومتسع لليهود والمسيحيين الذين تركوا احراراً في العيشِ تحت سلطة شرائعهم وزعمائهم.

## ٢ - اللغــة

١ـ « اللغة العربية » مقوم أساسي من مقومات الثقافة العربية. فاللغة العربية ليست « لغة أداة » ولكنها لغة أداة ولغة فكر أساساً. ولقد كانت اللغة رابطة بين المسلمين قوامها « القرآن » ثم هي رابطة بين العرب عن طريق الثقافة.

فاللغة العربية لغة قومية ولغة فكر إنساني عالمي هو الإسلام.

والواقع أن كل اللغات هي أداة لنقل الأفكار، بينما تتميز اللغة العربية بأنها إلى ذلك « لغة فكر » من حيث هي لغة القرآن الكريم الذي ألقى إلى اللغة العربية وإلى الفكر الإنساني كله أضخم شحنة من القيم والمبادىء ولذلك فإن محاولات تقريب اللغة من العامية إنما تفصل بينها وبين القرآن الكريم، وتقضي على مهمة خطيرة من مهمتيها الرئيسيتين. والمعروف أنه بفضل القرآن الكريم بلغت العربية من الاتساع مدى لا تكاد تعرفه أية لغة من لغات الدنيا[١] وبفضل القرآن عاشت خمسة عشر قرناً حيث لم تعرف أية لغة في العالم مثل هذا العمر المديد.

٢ ـ ولقد كانت اللغة العربية عاملاً هاما في مقاومة الاستعمار. وقد كشف التاريخ عن مدى أهمية اللغة العربية في الحفاظ على كيان الأمة

(١) راجع بروكلمان.

العربية وعلى مقومات الثقافة العربية. وفي الجزائر حيث تعرضت العربية لمحنة استعمارية خطيرة، فقد استطاعت اللغة العربية الكلاسيكية «الفصحى» بالذات أن تحول دون ذوبان المغرب العربي في فرنسا. وفي ذلك يقول «جاك بيرك» إن الكلاسيكية العربية هي التي بلورت الأصالة الجزائرية. وقد كانت هذه الكلاسيكية العربية عاملاً قوياً في بقاء الشعوب العربية.

٣ ـ امتازت اللغة العربية بخصائص أكفل بحاجة العلوم. وقد كانت قادرة دائماً ومتسقة دائماً لتقبل كل حاجات الفكر والحضارة، ومثالاً لذلك أن كلمات اللغة الفرنسية (٢٥ الفاً) وكلمات اللغة الإنجليزية (١٠٠ ألف) أما العربية فعدد موادها لا كلماتها (٤٠٠ ألف مادة) ومعجم لسان العرب يحتوي على (٨٠ ألف مادة) لا كلمة، ومواد اللغة العربية تتفرع إلى كلمات. فإذا فرضنا أن نصف مواد المعجم منصرفة، بلغ عدد ما يشتق منها نصف مليون كلمة، وليس في الدنيا لغة اشتقاقية أخرى غنية بكلماتها إلى هذا الحد.

٤ ـ لقد كان للغة العربية أثرها البعيد المدى في عمق الثقافة العربية وثرائها. ويرجع ذلك إلى عدة عوامل هامة، منها أنها أضخم اللغات ثروة ومقاطع وحروفا وتعبيرات. فهي أكثر اللغات العالمية أصواتاً. وإذا أردنا مقارنتها باللغة الإنجليزية التي يتحدث بها معظم سكان العالم، فإننا نجد تفوقها في الأصوات وفي الألفاظ. ففيها ٢٨ حرفاً في حين أن اللغة الإنجليزية ٢٦ حرفاً. وليس في هذه الحروف الثمانية والعشرين حرف يدل على أصوات مكررة بخلاف حروف الأصوات في الإنجليزية، وهناك في اللغة العربية حروفاً لأصوات لا توجد في كثير من اللغات الأخرى مثل الحاء والخاء والضاد والطاء والظاء والعين والغين والقاف. أما غنى اللغة العربية بالألفاظ فلا جدال فيه. فقد استطاع الأوائل أن يشتقوا منها مترادفات متعددة، وتنوع الأساليب والعبارات في اللغة العربية هو خير دليل على ذلك. فالمعنى الواحد يمكن أن يؤدى

بتعبيرات مختلفة: كالحقيقة والمجاز والتصريح والكناية الخ[١].

بل إن الإسناد في اللغة العربية يكفي فيه إنشاء علاقة ذهنية بين الموضوع والمحمول، والمسند إليه، والمسند دون حاجة إلى التصريح بهذه العلاقة نطقاً وكتابةً في حين أن هذا الإسناد الذهني لا يكفي في اللغات الأجنبية إلا بوجود لفظ صريح يشير إلى هذه العلاقة:

فنقول «فلان شجاع» دون حاجة إلى أن نقول (فلان موجود شجاعاً) ولا تحتاج العربية في طبيعة تركيب الجمل الجذرية فيها إلى أن تثبت ما يسمى في اللغات الغربية فعل الكينونة (to be).

٥- اللغة العربية هي لغة أمة واحدة تحمل فكراً ما يزال حياً متفاعلاً لم يتوقف أو يتجمد، وإن هذه الأمة تمتد من المغرب الأقصى إلى حدود إيران، وهي في هذا الزمن الطويل قد ارتبطت بالتاريخ والقيم أوثق ارتباط، وقد أثمرت ذلك التراث الذي تضمه ألوف الكتب والمجلدات والمخطوطات المنثورة في مختلف مكتبات العالم. وإن هذا الفكر الذي هو قوام حياتنا وثقافتنا وتاريخنا إنما يقوم على «القرآن» الذي هو الرابطة الكبرى، وإن الدعوة إلى تغليب اللهجات الإقليمية من شأنها أن تقضي على هذا التراث الحي كله، وأن تفرق هذه الأمة. وبذلك يضيع تاريخ متصل امتد خمسة عشر قرناً.

٦ - تعرف مدى أهمية اللغة في حياة الأمم بأنها هي علامة الحياة، وأن الحرمان من اللغة هو علامة الموت «وأن الأمة التي تدخل تحت حكم دولة أجنبية تفقد استقلالها وحريتها، وتصبح مستعبدة لها، ولكنها لا تفقد حياتها ما دامت محافظة على لغتها. أما إذا فقدت اللغة فتكون قد فقدت الحياة وتكون اندمجت في الأمة المستولية عليها.»

٧ - استطاعت اللغة العربية في خلال تاريخها الطويل أن تحقق عنصر الحياة والاستمرار، ولم تعجز عن التعبير والاستيعاب للنهضات

---

(١) بتصرف عن بحث للأستاذ عبد الستار دياب.

والحضارات، ولم تكن لغة دينية بالمعنى الذي عرفت به اللغة اللاتينية، فهي ليست لغة دين كهنوتي محدود بدور العبادة، ولكنها لغة دين هو في ذات الوقت دين، وحياة، ومجتمع، وحضارة. ولم تعجز في عصر من العصور عن الوفاء بحاجات عصرها وبيئتها.

٨ ـ كشفت اللغة العربية عن فارق كبير بينها وبين اللغات الأخرى كاللغة اللاتينية مثلا التي ماتت وسكنت المتاحف، وتفرعت منها لغات أخرى، بحيث إن أي فرنسي أو إنجليزي أو ألماني لا يستطيع اليوم أن يتابع تراث لغته لأكثر من ثلاثة أو أربعة قرون، بينما يستطيع العربي أن يتابع تراثاً يمتد إلى خمسة عشر قرناً أو يزيد. ذلك أن اللغة العربية قد حماها «القرآن» من التفكك إلى لهجات ونماها وهي لغة أمة واحدة هي الأمة العربية التي تمتد من المغرب الأقصى إلى العراق، وبوجود القرآن فليس لهذه اللهجات استطاعة في أن تكون لغات مستقلة لهذه الأقاليم. إذ ارتبط التاريخ كله بالتراث الفكري كما ارتبطت القيم الثقافية باللغة العربية بأوثق اتصال، ومن وراء ذلك الفكر الإسلامي الذي تضمه ملايين الكتب والمجلدات المكتوبة باللغة العربية ـ هذا الفكر وهو قوام حياتنا وثقافتنا وتاريخنا، إنما هو يقوم في أساسه على القرآن الكريم الذي يعد بمثابة الرابطة الكبرى فضلاً عن أنه ليس هناك من شبه بين اللغات المشتقة من اللاتينية الميتة وبين اللغات العربية الفصيحة التي هي لغة حية منذ خمسة عشر قرناً والتي لم يستطع شيوع اللهجات العامية الكثيرة من عزلها عن مكانتها.

فاللغة العربية هي مركز فكر العالم الإسلامي، وإن حال الاستعمار دون انتشارها في السنوات المائة الأخيرة وأوقف نموّها[١].

٩ ـ «إن القرآن الكريم هو الكتاب الوحيد الذي احتفظ بلغته

---

(١) راجع كتابنا «اللغة العربية بين حُماتها وخصومها».

الأصلية وحفظها على قيد الحياة، وسيحفظها على مرّ الدهور، وستموت اللغات الحية المنتشرة اليوم في العالم كما ماتت لغات حية كثيرة في سالف العصور إلا العربية، فستبقى بمنجاة من الموت، وستبقى حية في كل زمان مخالفة النواميس الطبيعية التي تسري على سائر لغات البشر، ولا غرو فهي متصلة بالمعجزة القرآنية الأبدية، فالكتاب العربي المقدس هو الحصن الحصين الذي تحتمي به اللغة العربية وتقاوم أعاصير الزمن وعواصف السياسة المعادية ودسائسها الهدامة».

١٠ ـ تتسم اللغة العربية في تقدير كثير من الباحثين بظاهرة عجيبة لا تتحقق لكثير من اللغات. ذلك هو استمرار تطورها منذ ظهور اللسان العربي من عصر القرآن الكريم إلى عصرنا الحاضر. هذا التطور الذي لم يغير منها أي شيء من وحدتها، بل بقيت على صيغتها الأولى، وهي صيغة لغة تكونت على الوحدة. بينما إذا درسنا اللغة الفرنسية لاحظنا أنها قد تطورت عبر العصور بحيث نجد لها أطواراً، فإذا ما قارنا حالة اللغة الفرنسية في العصور الوسطى نجد أنها مغايرة كل المغايرة للغة المستعملة في القرن السابع عشر وهي مختلفة أيضاً عن اللغة المستعملة اليوم. أما وحدة اللغة العربية فهي تتضح للقارىء ولو كان أجنبياً لأول وهلة. أما وحدة اللسان الفرنسي فلا تتضح إلا بالبحث. لغة القرآن لا تزال هي لغة اليوم. وهذا ما تتميز به العربية عن اللغات الأخرى(٢).

١١ ـ إن أهمية اللغة العربية أنها الوجه الاخر للفكر، ومن هنا أهميتها في الثقافة، فالفكر واللغة شيء واحد كما يقول (ماكس مولار) وهو يشبههما بقطعة النقد، ويقول ان ما نسميه بالفكر ليس إلاّ وجهاً من وجهي النقد، والآخر هو الصوت المسموع.

١٢ ـ تنحصر خاصية اللغة العربية في:

---

(٢) بلاشير.

( ١ ) إظهار الأفكار بطريقة موجزة دون استدراج السامع إليها .

( ٢ ) في الاستناد إلى المقابلة لتوضيح الغرض المقصود كاستعمال الاستثناء أو التعارض الجدلي .

( ٣ ) في إضافة الحوادث إلى الفعل أكثر من إسنادها إلى الفاعل بخلاف اللغات الأوروبية .

( ٤ ) في أن الألفاظ العربية تعود غالباً إلى أصل ثلاثي ( لويس ماسينيون ) .

وتتميز اللغة العربية بوفرة المفردات وبالفرق الدقيق في المعنى بين كلمة وكلمة . وإلى غناها بالمفردات ، فهي غنية أيضاً بالصيغ النحوية ، وتهتم العربية بربط الجمل بعضها ببعض . وهي تمتاز ـ فضلاً عن ثلاثية الحروف الصوتية ـ بكثرة الحروف الساكنة ، وأصالة الحروف المتحركة ، ولها خاصيتها العجيبة في تعريب الكلمات الأجنبية .

١٣ ـ بقيت اللغة العربية لغة عقيدة ولغة ثقافة ولغة خطاب بين المتعلمين من ابنائها . ولم تترك لغة من اللغات الأوروبية إلا ولها فيها أثر . وهي قد امتدت في رقعة من ملتقى ثلاث قارات . أصهرت إلى لغات آسيا وأفريقيا ، فأنشأت بذلك أسرة من أسر أول اللغات . تلك أسرة اللغات الإسلامية . ولذلك فهي لم تسقط كما سقطت اليونانية واللاتينية وأبعدت . وكان الإسلام سنداً هاماً أبقى على روعتها وخلودها . فلم تنل منها الأجيال المتعاقبة والعصور المتباينة ، واللهجات المختلفة على نقيض ما حدث أول اللغات القديمة المماثلة كاللاتينية حيث انزوت تماماً بين جدران المعابد .

## ٣ ـ التاريخ

التاريخ العربي الإسلامي مقوم أساسي من مقومات الثقافة فهو الذي يعطي الرؤيا الواضحة ، ويسجل الصفحات الخالدة للأمة ونضالها من أجل

أداء رسالتها الخالدة وهي إسداء الضياء الإسلامي إلى العالمين.

ومفهوم الثقافة العربية للتاريخ مفهوم إيجابي وبناء. قوامه الطابع الإنساني الداعي إلى الإخاء بين البشر، القائم على الإيمان، والثقة بالله. وتقوم روح الثقافة العربية في فهم التاريخ على أساس وحدة الكون، وانسجام قوى الطبيعة واتساقها مستمدة ذلك من مفهوم الإسلام الذي يجمع بين الروح والجسد في نظام الإنسان، والعبادة والعمل في نظام الحياة، والدنيا والآخرة في نظام الدين، والسماء والأرض في نظام الكون[١].

والثقافة العربية في هذا تختلف في مفاهيمها عن الثقافات الغربية التي تقوم على تجزئة الكون والطبيعة، والفصل بين العلم والدين.

وهناك خلاف آخر بين الثقافة العربية والثقافات الغربية هو: إيمان الثقافة العربية بوجود عناصر التطور، في كل مجالاتها من الفكر والحياة. بينما تقوم الثقافات الغربية على الإيمان بالتطور إيماناً مطلقاً، ونفي فكرة الثبات على الإطلاق. وهنا يقع خلاف بعيد المدى بين الثقافتين. فالثقافة العربية استمداداً من الفكر الإسلامي لا تقر فكرة التطور المطلق لكل الأوضاع ولكل القيم، وترى أن هناك قيماً أساسية ثابتة، وأن هناك فروعاً متطورة، أو متغيرة حسبما تجري حركة الزمن أو اختلاف البيئات.

وفي الثقافة العربية ضابط من فكرة ثابتة وعقيدة أساسية يفسر التاريخ على أساسها وهو في نظرها أمر ضروري لضبط الحركة البشرية، ووجود مقوم للفكر الإنساني.

وفي مجال التاريخ من المستحيل إمكان دراسة المجتمع العربي دون ربطه بالعقيدة الإسلامية إيماناً بأن التاريخ العربي الإسلامي قد انبعث من هذه العقيدة.

---

(١) عن بحث لأحمد نصيف الجنابي.

هذا فضلاً عن أن العرب قد ارتبط تاريخهم بالإسلام ارتباطاً عضوياً، وأن صفحات تاريخهم مندمجة في الإسلام اندماجاً كاملاً بحيث يصبح من العسير الفصل بينهما.

ومن هنا فإن التاريخ لا يمكن تفسيره في الثقافة العربية إلاّ على أساس النظرة الإسلامية للحضارة الإنسانية. وكذلك فإن كل محاولة لتفسير التاريخ وفق منهج غربي وافد، إنما يوقع الباحث في أخطاء أصيلة ناتجة عن التباين العميق بين مناهج البحث بين الثقافة العربية والثقافات الغربية.

١ ـ كان المؤرخون والباحثون الذين ألّفوا في الملل والنحل من أصدق الناس وأشدهم إنصافاً في دراسة عقائد الأمم والشعوب «كانوا ـ على صديقين، مستر چب ـ واسعي الصدر تجاه العقائد الأخرى، فقد حاولوا أن يفهموها، وقد حصنوا آراءهم بالحجة والبرهان»

٢ ـ يمثل «التاريخ» في الثقافة العربية عنصراً هاماً من عناصر القوة والبناء، فقد حفل التاريخ العربي الإسلامي بصفحات مشرفة، ومواقف خالدة في مجالات متعددة أهمها:

(١) نشر كلمة الله وإذاعتها في الآفاق.
(٢) نشر رواق العدل والكرامة والإنصاف.
(٣) اتخاذ أسلوب كريم في معاملة الحرب وفي محاورة السلام.
(٤) المقاومة والدفاع والاستشهاد في سبيل حماية الذمار والعقيدة.
(٥) لا يحارب المسلمون والعرب إلا اضطراراً للدفاع، أو في سبيل فتح الطريق أمام رسالتهم إلى الآفاق.

٣ ـ إن الثقافة العربية تجد في معرفة الماضي وتقصّي حوادثه ضوءاً كاشفاً يهدي في الحاضر والمستقبل، باعتبار أن حياتنا العقلية امتداد لذلك الماضي. والتاريخ يعلمنا أن نستخلص المميزات الخاصة التي تشكل منها كل أمة ثقافتها.

وعلينا: أن نحلل تاريخنا وفق أهدافنا ومثلنا العليا، في أصالة وذاتية

واضحتين، دون أن نعتمد على تفسير دخيل أو غريب، وأن يكون لتاريخنا المكان الأول من ثقافتنا لا أن يكون تاريخ الأمم ذات النفوذ الاستعماري مفروضاً علينا مؤثراً في طبيعة فكرنا.

٤ - إن تاريخنا - كتاريخ كل الأمم - بعيد الأثر في ثقافتنا ومجتمعنا الذي يربط بين الجانبين الروحي والمادي في توافق وتكامل، باعتبارهما يؤلفان وحدة الحياة الإنسانية، وإيماناً منه بأن الأمجاد والأعمال الخالدة، والصفحات الباهرة للأمم في تاريخنا قادرة على أن تمنحها أعظم القوى الدافقة، والحوافز القادرة على إعطاء خطط التقدم أنبل المثل وأشرف الغايات.

٥ - لم يكن التاريخ في مفهوم الثقافة العربية هو تاريخ الملوك والأمراء، ولكنه كان تاريخ المجتمع كله. بمختلف عناصره وقواه، وأبطاله وعناصره (طبقات الأطباء، وأخبار الحكماء، والنحاة والأدباء، ورجال المذاهب، وأعيان كل عصر، وطبقات الشافعية والحنابلة والمالكية والحنفية) فالتاريخ بصفة عامة هو تاريخ العقول والأفكار، وجماع السياسة والدين والاقتصاد، وحصيلة الحركة العقلية والأدبية. والمعنى الوطني مرتبط بالمعنى القومي. وكلاهما مرتبط بالدائرة الفكرية الأوسع المستمدة من الإسلام والقرآن.

٦ - نظرة الثقافة العربية إلى التاريخ أنه قوة دافعة، بل هو نقطة بدء في الاتجاه إلى الأمام، ومن هنا يستطيع التاريخ أن يعطي الثقافة العربية الإيمان بحيوية هذه الأمة، وبحصولها على مجد جديد لتلعب دورها الحيوي في العالم البشري.

٧ - ليس تاريخنا دوائر منفصلة، ولا حلقات مستقلة، ولكنه نسيج كامل. والثقافة العربية تنكر قصور النظرة والزاوية الواحدة، المحدودة، إيماناً منها باستحالة فهم أي حدث إلا بإدراك تفاعله مع الأوضاع الاجتماعية والاقتصادية، فالخيوط كلها لا بد أن تتجمع لتمثل وحدة كاملة.

٨ - لا سبيل لفصل تاريخ العرب عن تاريخ الإسلام منذ فجر الإسلام وإلى اليوم. فمنذ بزوغ الإسلام فقد ارتبط بتاريخ العرب أوثق رباط. لقد ظهر في الأمة العربية أولاً في حياة الرسول نفسه فدانت الجزيرة به، ومنها امتدت روافده وفروعه، كما انبعثت منها الموجات المتوالية المختلفة التي تحركت شرقاً وغرباً وشمالاً. والأمة العربية هي التي حملته إلى العالم أجمع، وكانت اللغة العربية أداة فكره وثقافته وحضارته. فالفكر الذي كونته الأمة العربية من خلال جوهر الإسلام كان حصيلة مشتركة للمسلمين والعرب جميعاً، بحيث لا يمكن أن يوصف بأنه فكر عربي خالص أو فكر إسلامي. وكذلك الحضارة فهو فكر عربي إسلامي وحضارة عربية إسلامية شارك فيها الجميع وانصهرت فيها مختلف الثقافات الإنسانية. فارسية ومصرية ويونانية ورومانية وهندية، وتبلورت في (إطار الإسلام) وفق مفهومه ومضمونه. وقد شارك في هذا التشكيل الأساسي: العرب وغير العرب. شاركوا في الحضارة والفكر وبناء الثقافة والمجتمع جميعاً. وقد رسم الإسلام مفهوم الوحدة بين معتنقيه والمرتبطين به على أساس الفكر لا على أساس العرق. ووسع دائرة الإخاء الإنساني وأسقط العصبية والتفرقة العنصرية، وجعل أساس التبرير والتفوق والتفاضل قائماً ومستمداً من العمل لا من اللون، ومن الشخصية لا من الوراثة.

٩ - إن فلسفة التاريخ في مفهوم الثقافة العربية لا ترضى مذهباً من مذاهب التفسير التاريخي منفصلاً سواء التفسير المادي، أو التفسير الروحي، أو التفسير الجغرافي أو التفسير المناخي، فكل هذه النظرات مستقلة لا تستطيع أن تعطي تفسيراً صحيحاً للتاريخ. فقد قام التاريخ في الثقافة العربية على أساس التكامل والترابط والشمول وحدة واحدة بين المادة والروح، والماضي والحاضر، والدنيا والآخرة، على قاعدة التوحيد والإيمان بالإنسان سيداً للكون تحت حكم الله، وهي تحذر أيضاً من النظر إلى علة واحدة دون العلل الأخرى.

## ٤ - التراث

للثقافة العربية جذور بعيدة من التراث، وهو تراث حي متفاعل ما زال يعمل ويؤثر في الحاضر بصورة حقيقية. وليس مفهوم التراث في الثقافة العربية رجوعاً إلى الحاضر أو استدارة للحياة، وإنما هو إحساس صادق بأنه قاعدة عريضة لفكرنا تشكل الجانب الثابت منه. ونحن في مواجهة النقل والاقتباس والانفتاح على الثقافات الحديثة المعاصرة والعلوم والمعارف الإنسانية. إن هذا التراث هو الضوء الكاشف أمام حركة ثقافتنا فهو يمثل (الأصالة) إزاء طوابع التقدمية والعصرية التي تتسم بالحركة السريعة بما يؤمنها العثار، ويحفظ لها قاعدة أصيلة من النظرة العميقة، ومن المستحيل أن تستطيع الثقافة العربية القدرة على الحركة دون هذا الترابط الحقيقي بين الأصالة والتجدد، الذي يحول دون التميع والانحراف.

(١) - ولقد أحيا الأوروبيون تراث اليونان والرومان الميت الذي انفصلوا عنه ألف عام، وأقاموا عليه أساس نهضتهم بينما يقف تراث الثقافة العربية حياً متفاعلاً لم ينفصل عن الحاضر. ولقد أحيا اليهود لغتهم وثقافتهم القديمة، وجعلوها أساس الصهيونية، وفكر إسرائيل بعد قرون متعددة من التوقف والانفصال.

(٢) - إن الثقافة العربية تؤمن ببعث القديم وصياغته من جديد في قوالب عصرية. وهي ترى أن ذلك البعث عنصر هام من عناصر وجودها. فقد مضى وقت طويل على هذه الكنوز مدفونة تحت الرماد. وقد آن لها أن ترى النور وأن تعمل لخير الإنسانية غير أن الثقافة العربية لها مقاييسها في إحياء التراث وبعثه، وهي تختلف عن مقاييس الغرب وأساليبه التي يحاول بها التركيز على جانب مضطرب من تراثنا، يراد بإحيائه وبعثه إفساد مقومات فكرنا. وذلك حين يركز على الجوانب المضطربة من التراث التي ارتبطت بمراحل الضعف والتخلف والتي تنحرف أساساً عن مقومات التوحيد، وخاصة ما يتعلق بالزيوف التي دخلت إلى

الثقافة العربية نتيجة استيلاء تراث اليونان وفلسفة الهنود، ووثنيات الفرس القديمة.

(٣) ـ لقد تأكد الارتباط بين الماضي والحاضر على نحو لا سبيل إلى التشكيك فيه. وقد أشار المستشرق (هاملتون جب.) إلى هذا المعنى حين قال: «ليس في وسع العرب أن يتجردوا من ماضيهم الحافل كما تجرد الأتراك وسيظل الإسلام أهم صفحة في هذا السجل الماضي إلى درجة لا يمكن أن يغفل عنها الساعون إلى إنشاء مثل عليا». وقال كامفيار: «لن ينفصل العرب عن الماضي المجيد في التاريخ الإسلامي. وإن استعارة هذا الماضي وتجدد الحديث عنه هو أحد العوامل القوية في حركة البعث الوطني والديني، وإن حركة بعث الإسلام لا يمكن أن تنقطع أو تتوقف، لأن الناس في حاجة إليها. فهي إحدى مقومات نهضتهم الوطنية» ولنا عبرة فيما يقرره أهل الثقافات المختلفة لتراثهم، وأمامي نص لنهرو يقول فيه: «إن علينا أن نتطلع إلى المستقبل، وأن نعمل له جاهدين عن قصد يحدونا الإيمان القوي، وأن نحتفظ في الوقت عينه بتراثنا الماضي أمامنا لكي نستمد منه القوة والعزيمة. إن التغيير أمر لا بد منه ولكن استمرار الحياة من غير اضطراب أو تقطع أمر لا يقل عن ذلك أهمية، وخير مستقبل هو ما كان قائماً على الحاضر والماضي على السواء. أما أن نتنكر للماضي وننزع أنفسنا منه فمعناه اقتلاع أنفسنا من تربتنا، فيخرج منا، وقد يبس عودنا وجف ما فيه من عصارة الحياة الحقة».

ويقول سيمون وايل في كتابه الحاجة الى الجذور (The Sead For Roots) «ان تراث الماضي في عنق الحاضر مسؤولية قدسية، فإذا انهزم الماضي فإن عودته ضرب من المحال، وإن أعظم الجرائم قسوة أن يهدم الناس ما ورثوه عن أسلافهم من تراث، فما علينا إلا أن نجعل هذا الاحتفاظ الأكبر بما تبقى لنا من تراث الماضي.»

إن الدور المهم الذي يمارسه التراث الروحي (وهو الجزء الأهم من

تراث الماضي ) في سلوك الناس ومبلغ الإيحاء والقوة الدافعة التي توفرها الذخيرة الروحية للذين يتسلحون بفنون العلم.

ويقول باسكال: كل نسل لا بد أن يستعين أولا من الكنز الذي تركه من سبقوه. ثم يزيده إن كان عنده استعداداً لذلك.

( ٤ ) - يقول قسطنطين زريق: لا يعرف أحد منكم ما يريده البعض من أن الثقافة العربية قد ماتت واندثرت، وأنه لا سبيل لإحيائها. فالثقافة العربية التي سادت على العالم عصوراً طويلة، التي لم تمحها أجيال من الإرهاق والاضطهاد لها من القوة والحيوية ما يضمن لها البقاء، ولن يضيرها أن تتصل بالثقافة الغربية وتأخذ عنها. والغريب أن هؤلاء الداعين إلى نبذ التراث العربي أو إهماله، إنما يردّدون ذلك في عصر نرى الأمم النازعة إلى حياة جديدة تعمد إلى ثقافتها القديمة فتحييها، وتجعلها عنوان مجدها وقبلة آمالها، ففي الوقت الذي تسعى كل أمة نشيطة من أمم الشرق والغرب إلى تقديس تقاليدها، وتمجيد حضارتها، لا يسع الأمة العربية إلا أن تعمل على بعث تراثها القديم وروحها التي ولدت تمدنها التالد، فكل من لا ماضي له لا حاضر له، ولا مستقبل. والأمة التي لا تعنى بروحها لا يمكنها أن تؤدي رسالتها إلى التمدن البشري.

( ٥ ) - يقوم مفهوم الثقافة العربية للتراث على أن الماضي هو المبدأ أو القاعدة والأرضية - والماضي يعين على فهم الحاضر وتهيئة المستقبل، وليس معنى هذا هو إعادة الماضي أو تقليده، وليست صورة الماضي هي صورتنا الآن. فإن المثل الأعلى يتطور، ولكن على قاعدة من القيم الأساسية الثابتة.

إن في الماضي بطولات ومواقف وقيم حاضرة للإبداع، والتماس العبرة، وعلينا أن نؤمن بأنفسنا وتراثنا، حتى لا نحس بالقصور أمام الخصوم والغزاة. ونحن نستفيد من التراث ما يزيدنا قوة، وما يدفع عنا أخطاء السابقين، وذلك حين نعيد النظر فيه، ونفسره تفسيراً جديداً.

وفي هذا يقول عمر فروخ: إن حياة الأمة رهينة بحياة تراثها، فإن

الأمة التي لا تراث لها لا تاريخ لها. وإن الأمة التي لا تاريخ لها ليست إلا كتلاً بشرية لا وزن لها في ميزان الأمم، ولم نعلم في تاريخ الإنسانية أن ثقافة ما هوجمت تمثل العنف الذي هوجمت به الثقافة العربية.

(٦) - قلما تجد أمة من الأمم لها ما للأمة العربية من تراث خالد، فقد خلّفت آثاراً مجيدة في ميادين العلم المتعددة. ولولا نتاج القرائح العربية لتأخر سير المدنية عدة قرون. فقد أقاموا وجهة نظر للكون والحياة تختلف عن وجهات نظر الثقافات الأخرى قوامهـا التوحيد هادفة إلى الوحدة الإنسانية والعدل والإخاء.

(٧) - إن الثقافة العربية تؤمن بأن شجرة ضخمة لا يمكن أن تقوم بغير جذور، وإنه لا بناء ضخم يقوم دون أساس راسخ ذاهب في أعماق الأرض مدعم بالصلب والإسمنت على قدر ما يحتاج له من الارتفاع في السماء. كذلك ثقافتنا العريقة ذات الأصالة التي عاشت العصور لم تكن في مقدرتها هذا البقاء الطويل وهذا التأثير البعيد في الثقافات المختلفة دون تلك الجذور.

وفي هذا يقول علال الفاسي: إن الذي ينظر في تاريخ الحركات العامة في الدنيا كلها يجد أنه لم تعم ثورة معينة في بلد ما، إلاّ وسبقتها دعوة للرجوع للماضي البعيد، ذلك أن هذا الرجوع الذي يظهر في شكل تقهقر إلى الوراء، هو نفسه تحرر كبير من أشياء كثيرة وضعتها الأجيال العديدة، والعصور المختلفة، والتحرر منها، هو تخفيف يسهل السير إلى الأمام بخطى واسعة، وإزالتها من الطريق يفتح أفقاً عالياً يهدي السائرين للغاية الصحيحة التي يجب أن يوجهوا أنفسهم إليها.

## ٥ - الأمـــة

### من أهم مقومات الثقافة العربية أنها «ثقافة أمة».

١- أمة لها خصائص ومميزات أصيلة واضحة المعالم. وهي أمة عريقة بعيدة الجذور في التاريخ، كانت قبل الإسلام موجودة وقائمة على نحو من الأنحاء،

تجمعها اللغة العربية ذات الجذور العميقة، ثم كان الإسلام عامل وحدتها وتجمعها، وهي أمة صانعة للتاريخ، مؤثرة فيه، أتاح لها الإسلام أن تنطلق إلى أوسع مدى في العالم القديم من حدود الصين إلى حدود فرنسا، وهي أمة موجودة اليوم كما كانت قبلاً بفعل الإرث الطبيعي والاجتماعي، وإذا كان الإسلام قد وحدها فإنه قد دعم كيانها، وحفظ ماهيتها، وأبقى على وجودها.

وهي أمة لها إستعداد فطري للتمسك بالعقيدة والدين والروحية، ولها إيمان بالمثل العليا الجامعة التي كانت موجودة فيها. ثم جاء الإسلام فصقلها ونماها ووجهها وجهة خالصة لله، ورفعها من الأهداف القريبة إلى الأهداف البعيدة، ودفعها من الأغراض الذاتية إلى الأغراض الإنسانية.

فقد عـرف العرب الصبر والجرأة والعزم والقوة والحمية والمروءة، وكانوا مثلاً عالياً قبل الإسلام، فلما جاء الإسلام ربط بين قيم العقائد والشرائع والأخلاق، وبين هذه المظاهر فامتزجت به ونماها ودعَّمها، وحول أهدافها إلى الخير والحق، ورفعها من الأغراض والأهواء إلى الإنسانية والعدل الاجتماعي.

وللأمة العربية خصائص أساسية أهَّلتها لتلقي رسالة الإسلام التي كانت مصدر قوتها ونموها. ومن هنا تكونت لها ثقافة ذات طابع واضح عميق مميز، تختلف به عن الثقافات الشرقية والغربية، وتلتقي به مع الثقافات ذات المصدر الإسلامي في جوانب كثيرة بحسبان أن الإسلام هو العنصر الأقوى لها، وهو العامل المؤثر، والجامع بينها جميعاً.

( ٢ ) ـ والامة العربية «تعلم أن لا حياة لها إلا بالإسلام الذي بوأها مكانتها في التاريخ، وهو الذي أعاد إلى بلاد العرب وحدتها القومية واللغوية، فكان منها هذا الوطن العربي الممتد من البحر الهندي جنوباً إلى جبال الكرد في الشمال ومن فارس شرقاً إلى بحر الظلمات في أقصى الغرب. وبالإسلام أوجد العرب أعظم نهضة وأرحم إرادة، وأعدل تشريع، وبالإسلام صدّ العرب طغيان الصليبية وردوها. فالأمة العربية: أمة ذات

شخصية تاريخية مستقلة، ولون واضح، ومزاج خاص، وروح متميز، لا حياة إلا به. وقد واجه هذا التشكيل تحديات خطيرة وأزمات متعددة، وغزو متعدد المراحل من قوى مختلفة كالتتار والصليبيين والفرنجة في بغداد ودمشق وفلسطين وشواطىء مصر والمغرب جميعاً. ولكن هذه القوة الذاتية القائمة وراء شخصية هذه الأمة كانت قادرة على دحر الغزو، وتأكيد الكيان والحفاظ عليه دون أن يدمر أو يباع أو تحتويه القوى الأخرى. ولا تزال هذه المعركة هي معركة الأمة العربية.

(٣) - وفي العصر الحديث وفي مواجهة الغزو الغربي الاستعماري، فقد تشكلت حركات المقاومة على مستويات متعددة: إسلامية خالصة. وطنية خالصة، وقومية خالصة.

ولكنها جميعاً كانت تستمد من المصدر الأول: «شخصية الأمة» الجامعة بين المروءة العربية والتوحيد الإسلامي، ولم تكن الحركات الوطنية أو القومية مجافية لهذا المعنى، بل كانت مطابقة له على حد تصوير كثير من المنصفين لها، يقول كانتول سميث: هذه الحركات القومية تهدف إلى التخلص من النفوذ الأجنبي، ولم تكن هذه الحركات مطابقة للإسلام فحسب. بل هي جزء لا يتجزأ من فكرة بعث الإسلام. فنضال الأندونيسيين المسلمين للتخلص من الهولنديين، وكفاح السوريين ومسلمي المغرب للتخلص من الفرنسيين، ونضال مسلمي الهند ضد البريطانيين. كل ذلك كان جزءاً من حركة المسلمين لبناء مجتمع إسلامي في العصر الحاضر، ومن هذا القبيل قيام الأتراك بطرد اليونانيين عام ١٩٢٢، والإيرانيين للقضاء على منطقة النفوذ الروسية الإنجليزية، فكانت جميعها خطوات نحو إحياء الإسلام. فكل المسلمين مسلمون اجتماعياً وسياسياً. وإن كان ثمة اختلاف بين الزعماء الوطنين والزعماء الدينيين فهو خلاف لم يتخذ مظهر النضال والكفاح.

(٤) - وإذا كانت الأمة العربية قد قاومت على كل المستويات. فإن النفوذ الأجنبي كان يواجه جميع هذه المستويات. يقول محمد علي

العنتيت: إن أهداف الغرب التي عمل من أجلها منذ الحروب الصليبية هي القضاء على البعث العربي، والحيلولة دون بعث القومية العربية على أية صورة من صورها. باعتبار أن ذلك رأي الغرب بالإضافة إلى أنه يشكل خطراً جسيماً على سياسته، فإنه متى تحقق كان المقدمة التي تجر وراءها حتماً وتلقائياً البعث الإسلامي. فإن بعث القومية العربية في نظر ساسة الغرب هي الطاقة القوية التي متى انبعثت كان من المحتم أن تدفع المسلمين أمامها إلى التجمع من جديد على الصورة القومية التي لا يمكن أن تتحقق في ظل القومية العربية دون سواها من مختلف الحركات الإسلامية، ولم يجد الغرب عن هذه العقيدة منذ الحروب الصليبية الى الآن. بل إنه يجد فارقاً بين القومية العربية وبين التجمع الإسلامي، أو بين العروبة والإسلام، والغرب دائماً يتهيب خط التجمع الإسلامي، ويراه كامناً في العروبة حيث كانت لا في الإسلام حيث كان. فقوة القومية في البلاد الإسلامية غير العربية لا يرى فيها الغزب إلا مجرد حركة قومية فحسب، لا تتصل إطلاقاً بالتجمع الإسلامي الذي يخيفه، والحركات التي يقوم بها المسلمون غير العرب لا تعدو أن تكون في نظر الغرب حركات سياسية في حين أن مثل هذه الحركات في البلاد العربية حيثما كانت حركات منطوية على البعث القومي والديني الذي عرفه الغرب بالتعصب. وحرصوا على تزويد هذا التفكير كلما واجه الغرب هذه الحركات في الشرق العربي.

(٥) ـ الوحدة العربية تمثل عودة إلى واقع، وهي على فطرتها الأصيلة، وقبل تعقيدات أصحاب المذاهب الفلسفية والنظريات المستوردة كانت مفتوحة على الإسلام فكراً وأساساً، وعلى العالم الإسلامي شعوباً وأمماً، انفتاح النواة أو البؤرة والقلب الذي كان واسطة العقد للعالم الإسلامي كله منذ بزوغ فجر الإسلام إلى اليوم. ولم يكن هدف تجمع الأجزاء العربية في وحدة عربية يعني أي مفهوم من مفاهيم التعصب الجنسي أو التفرقة العنصرية أو الاستعلاء بالدم أو العرق

(الجنس) على الأجناس المختلفة، ولم تكن وحدة مغلقة مخاصمة أو معارضة على نحو ما عرفنا في الوحدات الأوروبية بل كانت الأمة العربية وحدة «أمة» تسعى إلى التجمع لتكون منطلقاً إلى وحدة فكر.

وإن الإسلام وإن كان عربي اللغة فهو داعية تفاهم ومساواة بين الداخلين فيه عرباً وعجماً. ولقد كان العرب يذكرون عروبتهم، ولكنهم لم يكونوا يستعلون بها على الأجناس، بل كانوا يعلّون من شأن الأخوة التي تجمعها وحدة الفكر.

ولقد كانت وحدة الفكر التي أقامها الإسلام وبناها القرآن مصدر الالتقاء والتجمع والتكامل، دون أن تفقد الأمم عناصر حيويتها كأمم. وقد اختلط تاريخ العرب بتاريخ الإسلام والمسلمين، وامتزجت ثقافتهم بالثقافات الإسلامية المختلفة، وارتبطت اللغة العربية باللغات الإسلامية، وكانت حروفها عاملاً مشتركاً بين الكثير منها.

وبذلك كانت «وحدة الفكر» أعظم قوة من عصبية العرق وقوته.

(٦) - مفهوم «العروبة» في الثقافة العربية مفهوم سمح كريم، عبر عنه عمر بن الخطاب حين قال «إنما العربية باللسان فمن تكلم بالعربية فهو عربي» ومن هذا المنطق يمضي الإمام ابن تيمية فيقول:

إذا تقرر بأن من تكلم بالعربية فهو عربي، وبأن من دان بالإسلام فهو عربي، وبأن من تحلى بأخلاق العرب الذين خوطبوا: «كنتم خير أمة أخرجت للناس تأمرون بالمعروف وتنهون عن المنكر وتؤمنون بالله» كان عربياً. يقول: اجتمع للعرب الكمال بالقوة المخلوقة منهم، والكمال الذي أنزل الله إليهم، وأن فضل الجنس لا يستلزم فضل الشخص، وليس سبب فضل العرب عند ابن تيمية لما ورد فيهم من نصوص في القرآن والحديث قط، أو خصوا به من أحكام في الفقه، بل هم ذوو فضل في ذلك لما اختصوا به من فطرة ومعدن في عقولهم وألسنتهم وأخلاقهم

وأعمالهم[1] وابن تيمية يجعل معرفة الإسلام متوقفة على معرفة لسان العرب فلا سبيل إلى ضبط الإسلام إلا بضبط العربية. فاللسان شعار الإسلام وأهله. يقول: «واعلم أن اعتياد اللغة يؤثر في العقل والخلق والدين تأثيراً قوياً بيناً.»

والقرآن لا يجوز عنده أن يقرأه أحد بغير العربية. فالعروبة عند ابن تيمية تثبت باللغة وبالنسب وبالوطن فمن تكلم بالعربية فهو عربي. والفقه العربي لا يتعلم إلا بلسان العرب والتعايش مع العرب والتخلق بأخلاقهم، وعنده أن اللغات أعظم شعائر الأمم، واللغة العربية للإسلام ليست لغة فحسب، ولكنها عقل وخلق ودين - واعتياد لغة ما يؤثر في عقل المتحدث بها وفي خلقه ودينه، وكل لغة لا تنقل إلى عارفها ألفاظها، وصيغ الكلام بها، ولكنها تنقل إليه عادات أهلها وأخلاقهم وعقليتهم وطرائق تفكيرهم ودينهم مع كل ذلك».

ونستطيع أن نضيف إلى ذلك مفهوم الإمام الشافعي الذي خلص من بيان أن القرآن عربي إلى حكم فقهي. هو فرض تعلم اللغة العربية وجوباً على كل مسلم ليشهد الشهادتين، ويتلو الكتاب العزيز وينطق بالذكر. وقال: «إنما خاطب الله بكتابه العرب بلسانها على ما تعرف من معانيها» ورتب على ذلك ما يربط الشريعة الإسلامية كلها باللغة العربية. وقد وجهه الإدراك العميق لأسرار اللغة والفقه الشامل إلى أن ينظر النظرة الأصيلة فيرفع معرفة اللغة إلى مستوى الدين ويصيرها واجباً على المسلمين، وعلى اللغة وعلى العرب وعند المسلمين: أن جعل الإسلام عربي اللسان مهما تعددت أجناس المسلمين. يقول: وأولى الناس بالفضل من اللسان من لسانه لسان النبي. ولا يجوز - والله أعلم - أن يكون أهل لسانه أتباعاً لأهل غير لسانه في حرف واحد بل كل لسان يتبع لسانه، وكل أهل دين قبله، فعليهم اتباع دينه، وكان مما عرف الله نبيه من

---

(١) من بحث عن ابن تيمية بقلم محمد المنتصر الكتاني - حضارة الإسلام - حزيران ١٩٦١.

إنعامه أن قال: «وإنه لذكر لك ولقومك» فخص قومه بالذكر معه في كتابه وقال «لتنذر أم القرى ومن حولها» وأم القرى مكة، وهي بلده وبلد قومه، فجعلهم في كتابه خاصة، وأدخلهم مع المنذرين عامة، وقضى أن ينذر بلسانهم العربي. لسان قومه منهم خاصة، فعلى كل مسلم أن يتعلم من لسان العرب ما بلغه جهده حتى يشهد به أنْ لا إله إلا الله وأن محمداً عبده ورسوله، ويتلو كتاب الله وينطق بالذكر فيما افترض عليه من التكبير وأمر به من التسبيح والتشهد وغير ذلك [1] وهكذا نرى أن «الأمة» في الثقافة العربية، والأمة العربية بالذات تحمل معنىً مختلفاً عن مفاهيم «الأمة» في الثقافات الأخرى.

(٧) - يرى الباحثون أن أية يقظة في العالم الإسلامي تبدأ من نقطة يقظة الأمة العربية، وأن وحدة العرب إنما هي مقدمة لعملين: أحدهما: وحدة الفكر الإسلامي، والثاني وحدة العالم الإسلامي، وهذا خلاف جذري في تكوين القومية العربية والقوميات الأوروبية هذه القوميات التي تشكلت من أجل القضاء على سلطان الوحدة البابوية.

(٨) - تبين ان الأمم والشعوب بعد مرحلة الغزو الاستعماري تمر في مراحل ثلاث: الوحدة الوطنية وهي (وحدة الأرض)، والوحدة القومية وهي (وحدة الأمة)، ثم الوحدة الفكرية وهي (وحدة الجماعة) التي تربطها قيم أساسية إنسانية تعلو على الجنس والعنصر. ولقد كان المسلمون يشكلون «وحدة الفكر الإنسانية» غير أن هذه الوحدة لم تقض على وجود الأمم والشعوب. وإنما كانت هذه الأمم والشعوب تتعامل على أساس اللقاء والإخاء والتكامل والتضامن النفسي والاجتماعي والسياسي، فكانت محاولة النفوذ الاستعماري هي القضاء على هذه الوحدة كمقدمة لتعميق مفاهيم الأقلية والدعوات الجنسية والعنصرية حتى تتضارب الأمم والشعوب وتتصارع. غير أن وحدة الجذور الفكرية

---

(١) من بحث للأستاذ عبد الحليم الجندي عن «الامام الشافعي ناصر السنة وواضع الأصول»

والروحية والاجتماعية بين الشعوب الإسلامية، قد حالت إلى حد كبير دون قيام قوميات عنصرية تقف موقف العدوان مع العناصر والأجناس الأخرى. وكان مفهوم العرب للوحدة هو مفهوم استئناف يقظة إسلامية عن طريق يقظة العرب. وكان مفهوم المسلمين في كل مكان أن وحدة العرب ويقظتهم هي ضرورة ومقدمة لكل يقظة شاملة. وقد رفض المفكرون العرب والمسلمون الشبهة التي تقول بأن الإسلام عقيدة لا تساعد على نمو القومية، والحقيقة أن الإسلام عقيدة لا تساعد على نمو العصبية الجنسية أو الإقليمية الضيقة العدوانية.

(٩) - لم تكن فكرة العروبة واضحة طوال التاريخ المشترك (الإسلامي العربي) في المراحل الماضية، على النحو الذي ظهرت به في التاريخ الحديث. وذلك يرجع إلى أن التحدي الاستعماري الزاحف قد استطاع أن يزيل أكبر وحدة تجمع حولها العرب وغيرهم لمواجهة خطر الغزو الخارجي وهي (الخلافة العثمانية). ومن هنا فقد ظهرت (الوحدة العربية) بهذه الصورة كبديل في محاولة لتجميع قوة أعمق ترابطاً وأقل اتساعاً لنفس الهدف وهو المواجهة للاستعمار والمقاومة للنفوذ الأجنبي. ومن هنا نرى أن دعوة الوحدة لم تكن صدى لحركات قومية أخرى. بل إنها تعبير عن حاجة أساسية وتحد خارجي واضح.

(١٠) - كل محاولة تصور وحدة الأمة العربية على أنها وحدة عنصرية مستقلة مناهضة للشعوب التي تجمعها معها وحدة الفكر، هي محاولة مغلوطة. وكذلك كل محاولة لتطور الحضارة العربية الإسلامية على أنها حضارة دينية أو تطور الثقافة العربية على أنها ثقافة دينية، أو النظر إلى الفكر العربي الإسلامي على أنه فكر ديني أو إلى لغة العرب على أنها لغة دينية. كل هذه التصورات مغلوطة وخاطئة ومصدرها قصور في فهم مضمون الفكر الإسلامي ومقوماته الإنسانية التي هي أصل أصيل للثقافة العربية. لذلك فإن هذا الفكر يقوم على نظرة متكاملة شاملة: قوامها الدين واللغة والتاريخ والاجتماع والاقتصاد والتربية والسياسة في وحدة واحدة، ولا سبيل إلى تطور حضارة أو ثقافة أو

فكر عربي منفصل عن الإسلام. فالإسلام هو الذي حقق وحدة العرب. والقرآن هو الذي حقق وحدة اللغة، وثبت هذا الأساس الجذري لتكوين الأمة [1] (إنّا أنزلناه قرآناً عربياً لعلكم تعقلون ـ وما أرسلنا من رسول إلا بلسان قومه ـ لو جعلناه قرآناً أعجمياً لقالوا لولا فصلت آياته ـ) ولقد تعلم أنهم يقولون إنما يعلمه بشر لسان الذي يلحدون إليه أعجمي وهذا لسان عربي مبين. الفرق بين الأمة العربية والأمة الإسلامية يختلف من حيث أساس الوحدة، فوحدة الأمة العربية وحدة جنس وعرق، ووحدة الأمة الإسلامية هي وحدة فكر وقيم، ولقد انطلق الإسلام فوسع دائرته بينما توقفت اللغة.

ولم تكن الشعوب تميز في البدء بين العروبة والإسلام، بل بقي المفهومان مترادفين حتى أن الداخلين في الإسلام من الشعوب الأخرى اعتبروا عرباً.

(١١) ـ ما تزال فكرة القومية العربية على النحو الذي عرف في مؤلفات الباحثين المتأخرين: فكرة أكاديمية جامدة أخذناها من الغرب، حاول أصحابها إملاءها بمفاهيم وقوالب فكرية. وجاءوا بهذه المفاهيم الغربية فأقحموها إقحاماً على الواقع العربي لتطبيقها، وكان ذلك خطوة في طريق طويل منذ الاحتلال الأجنبي أخذت فيه البلاد العربية النظم السياسية الأوروبية تقليداً أو إملاء دون البحث عن تناسبها أو نفعها. وقد أثبتت هذه الأنظمة فعلاً فشلها في التطبيق على الأمة العربية.

(١٢) ـ تردد كثيراً القول: «بأن الرابطة الدينية» وحدها لا تكفي لتكوين القومية. وهذا حق إلى حد ما، ولكن هل الإسلام دين ينطبق عليه هذا القول كما هو بالنسبة للأديان الأخرى؟

من الحق أن الإسلام نظام اجتماعي كامل، وأنه مصدر من مصادر

---

(١) عبد العزيز الدوري: الجذور التاريخية للقومية العربية.

الوحدة والالتقاء والتقارب والتجمع وأنه حين يعترف بالأجناس والشعوب (يا أيها الناس إنّا جعلناكم شعوباً وقبائل لتعارفوا. إن أكرمكم عند الله أتقاكم) يجعل هذا اللون من القومية مفتوحاً، مرناً، لا يعرف التعصب الجنسي أو التفرقة العنصرية، بل يجعل للأساس الأكبر الأعمق وهو الوحدة الفكرية أكبر عوامل وجوده فإن الوحدة في مفهوم الثقافة العربية هي مفهوم التماثل النفسي والعقلي الذي يتجلى في وحدة الثقافة.

(١٣) - أصدر الفقهاء للعروبة شروط تفضيل: قوامها منزلة القيادة والإمامة يعطيها المسلم غير العربي لأخيه المسلم العربي عن طيب نفس. فالعربي في نظر إخوانه المسلمين غير العرب أقوى وأعمق وأقدر وذلك إيماناً بقول عمر: «إذا ذل العرب ذل الإسلام».

(١٤) - يقول اشبنجلر: إن فكرة الأمة عند العرب تقوم على أساس من الروابط الروحية المجردة. ولذلك فالشعوب العربية في وحدتها تريد من زعيمها أن يتمتع بصفات النبي ومؤهلاته. لأن الأمة العربية ذات وجود روحي يكاد يكون مطلقاً. فإذا أردت أن تستفز العربي فعليك أن تتوجه إلى وجدانه لا إلى معدته. ولذا تلعب النخوة والمروءة والبطولة أدواراً هامة في السلوك الأخلاقي للفرد العربي، كما أن للإيمان لا للعقل المركز الأول والممتاز لديهم.

(١٥) - لا تقر الثقافة العربية هذا اللون من المبالغة الضبابية المحملة بالظلال والأضواء عن مفهوم الأمة العربية كأن يقال: إن الأمة تجربة رحمانية، أو إن الأمة عقيدة، أو محاولة إعطاء المعنى القومي طابعاً فلسفياً لاهوتياً صوفياً على نحو رحماني ومثالي. أو من نحو قول القائلين «ظهور الأمة على مسرح التاريخ كظهور الإلهام في مسرح الوجدان».

ذلك أن الثقافة العربية في جوهرها: عقلانية وجدانية معاً. فهي واضحة الرؤية لكل المفاهيم، وإيمانها بوجود الأمة هو في مفهومه داخل إطار الفكر الإسلامي أقوى وجوداً وأعمق أثراً من هذا التصور المهموم

الخيالي الذي يحاول أن يسبغ على القومية قداسة الدين، في محاولة لإحلالها محله، أو في سبيل اتخاذ هذا التصور الفلسفي عقيدة كبديل لعقائد الأمة العربية ذات الجذور العميقة في وجدانه وروحه ومزاجه. وقد تبين أن القائمين بهذه الدعوة إنما يحاولون عزل الأمة العربية عن مضامين قيمها الإنسانية، وخلق مضامين جديدة بدا أنها مرفوضة أصلاً. ومن العجب أن الذين حملوا لواء الدعوات العازلة لمفهوم القومية العربية عن الإسلام، أو محاولة اتخاذ القومية بديلاً عن الإسلام (هؤلاء) إما ليسوا على عقيدة غالبية هذه الأمة، أو من الفرق الإسلامية ذات المفاهيم المنحرفة، أو من توابع المذاهب السياسية التي نمت في أواخر أيام الإمبراطورية العثمانية وكان لها دورها في القضاء على الوحدة العربية التركية، أو تأريث الخلاف بين العرب والترك كالاتحاديين مثلاً.

ومفهوم الثقافة العربية الأصيل لا يقبل قول بعضهم إن نهضة العرب لا تتم إلا إذا أصبحت العروبة ديانة لهم يتعصبون لها تعصب الصليبيين لدعوة بطرس الناسك [1] ذلك أن للعرب ديانة أعمق وهي لا ترفض الوجود القومي والاتحاد إلا إذا تجاوز مفهومه في الانفتاح على الأمم والشعوب والثقافات، وإلا إذا حمل لواء التعصب والاستعلاء.

(١٦) ـ وتحاول بعض هذه الدعوات أن ترسم للأمة العربية صورة ماض قبل الإسلام له طابع من القداسة، ونحن نعترف بأن للعرب ماضياً قبل الإسلام، ولهم قيم وشمائل. ولكن صورة إمامة العربية ذات القوة الذاتية الموحدة لم تقم ولم تتشكل إلا بالإسلام نفسه، ولم تكتمل في صورتها العملية إلا بعد الإسلام. ومن خلال تاريخ الإسلام حيث اللغة هي لغة القرآن، والعرب هم القوة التي تحمل اللواء، وحيث خضعت شمائل العرب وقيمهم إلى هدف، وتحررت من الوثنية والجاهلية، وانطبعت بطابع الإنسانية والإيثار وإخلاص العمل له، وبالجملة فإن

---

(١) عمر الفاخوري: كيف ينهض العرب.

( التوحيد ) هو عقدة الوحدة العربية الأولى، ولا يزال عقدتها. فالتوحيد والوحدة هما شقا ثمرة واحدة.

( ١٧ ) - ومن هنا فإن أسس الأساس في تكوين وبناء القومية العربية ليست وحدة اللغة والتاريخ، ولكنها « وحدة الثقافة » التي هي أساس لوحدات اللغة والتاريخ، والمشاعر والمزاج العقلي والنفسي. ولقد كانت وحدة الفكر هي أساس المجتمع الإسلامي، ولم تكن الأجناس ( الرسوس ) لقد بقيت الشعوب والأجناس، ولكنها لم تكن ذات طابع يحمل الاستعلاء أو العدوان للأجناس والشعوب الأخرى، بل كانت الوحدات القومية إنما تمثل طبقة ومرحلة مهيئة إلى التقاء أكثر عمقاً وأوسع مجالاً. أما في الغرب فإن فكرة القومية قد ارتبطت بالعنصرية وتغليب الجنس.

ففي إيطاليا مثلا حين ظهرت الدعوة إلى الفاشية أو النازية في ألمانيا اعتمدت أساساً على العنصرية وتغليب الآرية وعبادة الفرد مع تمكين فكرة السيادة والتوسع الاستعماري.

( ١٨ ) - وكذلك يخطىء الذين يتصورون أن أثر الإسلام في الأمة العربية، إنما يمثل مرحلة تاريخية انطوت. فإن الإسلام بالنسبة للأمة العربية عامل جذري عضوي لا ينفك عن الأمة العربية، ولا تنفك عنه عصراً بعد عصر وجيلاً بعد جيل.

وليس صحيحاً ما يحاول تصوره دعاة الغالية عن أثر العروبة في الإسلام أو أثر الإسلام في العروبة. كل منفصل عن الآخر. فالإسلام منهج وفكر ومجتمع، وليس ديناً لاهوتياً فقط. ومن هنا فلا تنطبق عليه مطلقاً النظريات الغربية التي ترى تعارضاً بين الدين والقومية، وهو إلى ذلك الأرضية الفكرية، والإطار العقلي والروحي للأمة العربية صاغ لها وجودها وكيانها ووحدتها منذ أربعة عشر قرناً، فهي لا تنفك عنه ولا ينفك عنها.

ومن هنا فإن علاقة الأصل بالفرع هنا واضحة « الإسلام فكر،

والعروبة أمة » ولكل أمة مقومات فكر تستمدها من العناصر المختلفة منها: اللغة والدين والتاريخ والتراث، فإذا ذهبنا ننظر في اللغة أو الدين أو التاريخ أو التراث جميعاً لرأينا كلمة واحدة جامعة تربط هذه العناصر هي الإسلام بطابعه وأثره في اللغة والتاريخ والتراث.

( ١٩ ) - يختلف مفهوم « الأمة » في الثقافة العربية عن مفهومه في الثقافات الغربية وغيرها بظاهرة الارتباط بالتراث والدين والتاريخ دون أن ينفصل عنها - ويعبر هذا ( زيفلين وسيلوفكس ) في كتابهما ( الشرق الأوسط المعاصر ) فيقولان:

إن أول ركائز الاجتماع والثقافة في الشرق الأوسط هو « الدين » الذي يحدد العلاقات بين أفراد المجتمع. ففي مجتمعات الشرق الأوسط خلافاً للمعهود في المجتمعات الغربية وحدة وثيقة بين الدين والمجتمع، ولا انفصال بين ما هو دنيوي وما هو أخروي. والروح الدينية منبثّة في جوانب الحياة كلها، وفي مواصفاتها ولغاتها ولهجاتها.

( ٢٠ ) - ليس هناك تعارض بين الوحدة العربية أو العروبة، أو بين الدعوة الإسلامية، فتكتل العرب هو أمر طبيعي لهم كأمة، بشرط ألا يفقد مقوماته في الاتصال الجذري والعضوي بالفكر الإسلامي، ودون أن ينزع منها قيم الثقافة العربية الأصيلة، تحت ضغط النفوذ الأجنبي وعوامل الغزو الثقافي التي تريد أن تجعل مفهوم القومية غربياً مستورداً علمانياً منفصلاً عن الإسلام.

وتكتل العرب أيضاً هو غاية من غايات الدعوة الإسلامية، وقد نوه القرآن بشأن العرب ومكانتهم في نهوض المسلمين، وتكريم اللغة العربية أيضاً بنزول القرآن الكريم بها. فالإسلام هو الباعث الرئيسي إلى توحيد العرب وانسياحهم في الأرض. ولم يعد لفظ العرب يطلق على الجنس، وإنما يطلق على الجماعة التي وحدتها الثقافة العربية، وأركان العروبة في رأي الدكتور إسحاق الحسيني هي عروبة اللسان، وعروبة العقل، وعروبة القلب. وإن إسقاط ركن من هذه الأركان يخل بالعروبة

ويفسدها . وعنده أن عروبة اللغة مصدرها اللغة التي كانت في أول نشأتها وسيلة التفاهم لقضاء الحاجات . ثم أصبحت وسيلة للتعبير عن النتاج العقلي والروحي والأدبي والحضارات ، فهي اليوم جماع الأدب والعلوم والنظر الفلسفي والروحي . واللغة إلى ذلك صورة مرئية لتاريخ حافل بالأحداث .

وفي مجال القول بأن العروبة هي عروبة اللسان والعقل والقلب ، يقف على قمتها مثل شوقي الكردي الأصل ، المصري الجنسية ، كما يقف في التاريخ القديم كثيرون .

الغزالي ،وابن سينا ، والفارابي . ويطابق هذا المنطق عبارة الرسول : « إنما العربية اللسان ، فمن تكلم العربية فهو عربي »[1] .

لقد جمعت الثقافة العربية ( اللسان ، التاريخ ، الدين ، التراث ) بين جماعة أكبر من العرب بمفهوم العرق وحده ، وبجماعة أكبر من المسلمين بمفهوم الدين .

## ٦ - وحدة العَقْليّة وَالمزَاج النفْسِي

إن الأمة العربية بتكوينها الجامع بين الوجود العربي والعقل الإسلامي قد صنعت بناءً ضخماً لا سبيل إلى انتقاضه يمكن أن ينطلق عليه .

فالعرب مسلمون ومسيحيون ، وعديد من العناصر التي تتكلم العربية وتعيش داخل الأمة العربية ، إنما تلتقي في وحدة عقلية ، ووحدة نفسية تتمثل في تشابه العرب في النظرة إلى مختلف أمور الحياة وفي الاستجابة للمؤثرات الخارجية . وهم مسلمون وغير مسلمين متشابهون في نظرتهم إلى قيمة الشخصية الإنسانية وإلى العمل الإنساني ، وإلى الوقت وإلى المرأة

---

( ١ ) راجعنا في هذه الدراسة بحثاً للأستاذ نبيه أمين فارس تحت عنوان ( هذا العالم العربي ) .

وإلى مفاهيم الشرف والشهامة، وقضية العرض والوفاء والكرم والضيافة وحماية الجار وما إلى ذلك من القيم والعادات.

وكذلك النفسية العربية لها طابع واحد، وإن كانت تتكيف وتتشكل بأشكال مختلفة، وتكتسب صفات إضافية تحت الظروف المختلفة.

وترجع هذه الوحدة العقلية والنفسية إلى تشابه مصدر الثقافة العربية وترابط شمائل الأمة العربية واقترابها بمفهوم «القيم الإسلامية» كما رسمها القرآن( عقلياً ونفسياً، مادياً وروحياً، دنيوياً وأخروياً) ويرجع هذا إلى أن الأرض العربية كانت مصدراً للديانات السماوية الكبرى الثلاث.

يضاف إلى هذا عمل اللغة العربية بآثارها من شعر وقصص وأمثال وحكم وبأساليبها في التعبير. وأثرها في تكوين القالب الفكري للعرب، وتوجيه أذواقهم. والأدب العربي ثمرة اللغة العربية مشبع بالروح الإسلامي.

ولا شك أن تشابه نفسية العرب تجعلهم متشابهين في خصائصهم الأصلية، والإنسان دائماً يعيش في لغة وتاريخ أمته. ولا شك أن ترابط الأفراد في عقلية واحدة تسود أفراده، هو أرقى أنواع الوحدة وأعمقها وأبعدها أثراً. ولما كانت الأمة العربية قد اشتقت قيمها العقلية والروحية من العقيدة الإسلامية، فإن الوحدة العربية إذا جاءت منفصلة عن التجربة الإسلامية في الحكم وأسلوب العيش والقيم الأخلاقية، وعن التاريخ الإسلامي العربي إنما تمثل مفهوماً مبتوراً، فثورة الإسلام على الأصنام باسم التوحيد هي تجسيد لإرادة الله في تحرير النفس البشرية من الأوهام والعبودية. والأصنام في مفهوم الإسلام هي التماثيل التي تعبد، والطبقة الغنية التي تستعبد الإنسان. وقد قاوم الإسلام البداوة، وحارب الرذيلة والظلم الاجتماعي والتفرقة. فكان بذلك ثورة تقدمية ضد كل رجعية تريد إفساد المجتمع أو الرجوع به إلى أخلاق البداوة وسلوكها في العيش، هذا مع الدعوة إلى العدل وحث الأفراد

على طلب العلم وفتح الأبواب للإبداع، ولا يمكن التحدث عن العربي إلا ويذكر معه تراثه وثقافته وحضارته. ومن هنا فإن وحدة العقلية والمزاج النفسي للأمة العربية هما أكبر مظهر من مظاهر شخصيتها وذاتها المتميزة عن غيرها. ومن حق هذه الأمة أن تذود عن طمس معالمها وعن محاولة تمييع مقوماتها أو تذويب ذاتها في أتون العالمية والأممية. ولا شك أن رأس مال العروبة الفكري هو الإسلام وتعاليمه التي تدعو إلى التحرر من التعصب والتبعية والتقليد، والتي تستطيع أن تواجه موجات الإلحاد والإباحة والتفسخ الخلقي والمفاخرة بالرذيلة [1]. ومن هذه العوامل يتكشف الفارق الواضح بين العقلية العربية والعقلية الغربية وهي التي تحاول اليوم السيطرة بالغزو والتغريب للقضاء على مقومات الذات العربية (عقلاً ونفساً).

فالعقلية العربية واضحة في تشكلها الإسلامي الجامع بين المادة والروح والدين والدنيا والعقل والقلب. وهو تشكل متكامل ملتزم، عميق الجذور، مخالف كل المخالفة للطابع الذي تتسم به العقلية العربية التي تقوم على إعلاء مفاهيم المادة والعلم والتكنولوجيا إعلاءً مباشراً تفسر به مختلف ظواهر الحياة والكون، وتقف به عند حدود معينة لا تتعداها حين تنكر الغيبيات وتتجافى عن طوابع الروح والإيمان، وكل ما ليس حسياً ملموساً.

والثقافة العربية بتركيبها الإسلامي الجامع بين الروح والمادة لا ترى في منجزات التكنولوجيا العلمية مانعاً من الترابط بين حقائق العلم وحقائق الروح، ولا تغالي في الانحياز إلى الروحيات وحدها، أو الماديات مما يخلق ذلك التمزق الواضح في الحضارة الغربية، والثقافات الغربية وما وجد ما أطلقوا عليه أزمة الإنسان المعاصر، فالثقافة العربية لا تسجل تناقضاً بين الإيمان والعلم، ولا بين العقل والقلب، بل تمزج بينهما في توازن وتكامل، ولا ترى في ذلك ازدواجية أو تعارضاً، وهي في نفس

(١) الدكتور يس خليل (الأيديولوجية العربية).

الوقت تطبع هذه النظرة الجامعة بالطابع الأخلاقي الذي ينتظم كل جوانب الفكر والثقافة: اجتماعية وسياسية ودينية وعلمية واقتصادية حيث يقدم قانون أخلاقي ثابت يحكم كل هذه الجوانب. يميز بين الحق والباطل، والحلال والحرام، والخير والشر، ويرفع من شأن العقل الإنساني إلى مكان الكرامة، ويعلي من شأن النفس الإنسانية إلى مجال الثقة بالله.

الفصل الثالث

# معالم الثقافة العربية وخصائصها

من حيث إن الثقافة العربية ثقافة متميزة، تختلف عن ثقافات الغرب والشرق، وتتسم باتصالها بالفكر الإسلامي والقرآن، وتقوم على أساس «اللغة العربية الفصحى» وميراثها، وتستمد من التاريخ العربي الإسلامي، فإن معالمها وخصائصها مما لا يقع تحت حصر. ويمكن أن نستوعب أبرز خطوطها في نقاط رئيسية:

(١) التوحيد
(٢) التكامل
(٣) الأخلاقية
(٤) استقلال الطابع
(٥) التوازن بين الروحي والمادي
(٦) الترابط بين الماضي والحاضر
(٧) النظرة العقلية المؤمنة
(٨) الجمع بين الدنيا والآخرة
(٩) الحرية المنضبطة
(١٠) القدرة على التطور
(١١) القدرة على التصحيح
(١٢) الطابع الإنساني
(١٣) مفهوم التقدم
(١٤) الوسطية

## ١ - التوحيد

يعد التوحيد من أبرز العناصر المميزة للثقافة العربية، ومن أعمق العوامل المخالفة للثقافات الغربية، ولذلك فهو عامل أساسي في وجود الفوارق وعوامل التباين في كثير من وجهات النظر لعديد من القضايا الكبرى.

فالعرب يعتقدون أن الله واحد لا أول لوجوده، ولا آخر لأبديته. ومن هذه النقطة نشأ الإيمان بوحدة المعرفة والحقيقة ووحدة الدين والفلسفة، فالمعرفة والحقيقة متفقتان لأن العقل واحد، والحكمة والشريعة متفقتان لأن الحقيقة واحدة [١] وقد تختلف صورة الحقيقة من عصر إلى عصر، ولكن جوهرها يظل واحداً لا يتغير.

وهم حين نقلوا الفلسفة اليونانية، حاولوا أن يخضعوها للتوحيد، وأجروها في إطاره. وتظهر تلك المحاولات واضحة في كتابات ابن سينا والفارابي، فقد رفضا منها ما خالف التوحيد، وبالأخص رفضا الثنائية وقدم العالم.

وحاول الفارابي الجمع بين رأي افلاطون ورأي أرسطو حتى لا يناقض التوحيد. وقد ظل «التوحيد» هو العامل الجوهري في الثقافة العربية، شأنه في ذلك شأنه في الفكر الإسلامي إيماناً بوحدة العقل ووحدة النفس، والثقة بأن الطبيعة الإنسانية واحدة في جميع الناس، ومن الإيمان بالوحدة انطلق الإيمان بالمساواة والحرية والعدل الاجتماعي.

---

(١) انتفعنا في هذا الفصل ببحث للدكتور جميل صليبا (منازع الفكر العربي)

وكان هذا مصدر انفساح العالم الإسلامي أمام العناصر المختلفة وطناً واحداً أمام القادم من المغرب إلى المشرق أو الذاهب من المشرق إلى المغرب.

يقول أرنست رينان: إن الصفة الأساسية التي تميز العرب عن غيرهم هي: الإيمان بالتوحيد. وكان «التوحيد» منطلقاً للثقافة العربية إلى «الوحدة»: وحدة اللغة، وحدة المنازع، وحدة المشاعر، وحدة التاريخ، وحدة المثل العليا.

ولقد كان مفهوم الوحدة العربية منبعثاً من الثقافة العربية كمصدر من مصادر القوة والمقاومة في مراحل الغزو الاستعماري وكان مفهوم الوحدة العربية بعيداً عن التعصب والتمييز العنصري، وكان دوماً مفتوحاً مع العالم الإسلامي انفتاح الثقافة العربية على الفكر الإسلامي أصلاً واستمداداً منه. وقد عجزت محاولات الاستعمار المختلفة عن فصل وحدات الأمة العربية عن إيمانها بوحدتها.

ولقد كانت الثقافة العربية قادرة دوماً على أن تعطي الأمة العربية القدرة والعمق والوضوح في مجالات المقاومة باللغة والشعر والفن على نحو جعلها قادرة على التغلب على أشد النكبات.

وما يزال عامل وحدة الثقافة مصدراً لوحدة الأمة، وسيظل.

## ٢ - التكامل

أبرز ما يميز الثقافة العربية هو «التكامل»: الذي يجمع بين الروح والمادة، والقلب والعقل، والدنيا والآخرة. بينما تتسم الثقافات الغربية بالتقسيم والتوسيع. ولا تستطيع أن تقتنع بهذا المزيج بسهولة.

وعندنا أن مميزات «الثقافة العربية» وأبرز الفوارق بينها وبين العلاقات المختلفة هي الوحدة والتكامل. ولقد نرى بعض الباحثين الغربيين حين يعرض لهذه الميزة لا يستطيع أن يهضمها هضماً كاملاً،

فيقول ( جوته ) : إن العقل العربي يحب الجمع بين الأضداد والأشباه فيضعها بعضاً إلى جانب بعض في نظام بسيط ، وينتقل فجأة من ضد إلى آخر .

ومن الحق أن يقال عن الثقافة العربية إن هذا التكامل ليس من قبيل تقريب الأضداد ، ولكنه إيمان بأن الشخصية الإنسانية لا تتكامل إلا بالجمع بين جوانبها المختلفة الدينية والعلمية والعقلية والروحية والسياسية والاجتماعية والاقتصادية ، فما دام الإنسان نفسه ( مادة وروح ) فكذلك ثقافته لا تفرق بين العقلي والوجداني ، وإنما تجمع بينهما .

والتكامل طابع من التوحيد ينسحب على مجالات كثيرة ، فوحدة الثقافة العربية من شأنها أن توحد الأمة والمجتمع ، وتقيم بين المواطنين أخوة عميقة . ومن صور التكامل ذلك الانسجام بين المسجد والقصر والبيت على حد تعبير بعض الكتاب . وقد أعطى هذا الإيمان بالكامل طابعاً خاصاً للعلماء العرب والمسلمين هو تبريزهم في مختلف العلوم ، فلسفية واجتماعية وقانونية وطبيعية ، فكان منهم من جمع بين الفلسفة والعلم والرياضيات والكيمياء والأدب والفن ، بينما لم يعرف ذلك في تاريخ الرومانيين أو الغربيين المحدثين .

ولم يكن ذلك موضع الغرابة في الثقافة العربية بينما هو موضع الغرابة في الثقافة الغربية ، فكان أحدهم كالجاحظ عالماً وأديباً . وكانت ظاهرة التوفيق في الفلسفة والدين ، أو بين الحكمة والشريعة من أبرز ظواهر التكامل في سبيل تحقيق الانسجام بين معطيات العقل ، ومعطيات العقيدة .

### ٣ - الأخلاقية

طبعت الثقافة العربية سمة أخلاقية عميقة ، انتظمت مختلف فروعها وخصائصها ، ولم تنفك عنها ، وكانت في الحق عاملاً جذرياً ، وطابعاً عضوياً . قوامها التماس أساليب الصدق والرحمة والحب والوفاء وإنكار

أساليب الغدر والكذب. فإذا كان التعامل في المجال السياسي كان تعاملاً شريفاً كريماً، واضح المعالم، قوامه مفهوم الإسلام: «وإما تخافن من قوم خيانة فانبذ إليهم على سواء».

وفي المجال الاجتماعي تبدو علامات التجمل والحياء والبعد عن الجهر والكشف مع ضبط الرغبات الحسية، فالشاعر إذا عبر عن كوامن حبه لم يذكر اسم محبوبته جهراً، مفرقاً بين الجواري والحرائر.

وتفرض الثقافة العربية على أهلها قدراً من السلامة في السلوك والعاطفة والتحرك داخل الضوابط التي ما تزال قائمة تكريماً وحماية للشخصية الإنسانية وبعيداً عن الحيوانية والانهيار والتحلل والرخاوة.

«وسيظل العنصر الأخلاقي ثابتاً، باقياً لا يأتيه التحول ويعتريه التطور». وستظل الشهامة والنجدة والمروءة أصولاً ثابتة وقيماً باقية مهما تغيرت مظاهرها، فهي طوابع عربية أمدها الإسلام بالأصالة، فعمق معانيها وحرر اتجاهاتها فجعلها خالصة لله بعد أن كانت في سبيل الفخر والمباهاة.

ولقد كانت السمة البارزة للثقافة العربية في هذا المجال، والمخالفة للثقافات العربية هي: «أولية الخلقي على الجمالي» فالأخلاق عامل جامع وقاسم مشترك أعظم على مختلف القيم، والأخلاقية فيه مقدمة على الجمالية، وحيث جعل الإغريق الجماليات مقدمة، أولى العرب بالإسلام الأخلاق أولية مطلقة، ولقد سارت الثقافات الغربية وراء مفاهيم الإغريق في تقديم الجماليات على الأخلاقيات، فأطلقوا الجسم الإنساني للعري وعبدوا الجمال على حساب الخير.

ومن هنا يجيء الخلاف في كثير من المواقف بين الثقافة العربية والثقافات الغربية، فالثقافة العربية تجعل السيادة الكاملة لقيم الأخلاق والخير، وتجعل لها الانتصار النهائي في كل صراع.

## ٤ - استقلالية الطابع

اتسمت الثقافة العربية باستقلالها وتميزها وبروز ذاتيتها الخاصة، ويظهر هذا المعنى في أوضح منهج في حركة الترجمة التي عرفها الفكر الإسلامي والثقافة العربية حين نقلت آثار اليونان وفلسفات الرومان والفرس والهنود. وقد استطاعت الاحتفاظ بذاتيتها، ووقفت وقفة صارمة أمام ما يخالف عقائدها وقيمها. فقد أغضت الثقافة العربية عما صدر عن اليونان من شعر غنائي مسرحي وملحمي قوامه معتقدات دينية وثنية، وخرافات ميثولوجية. وفي نفس الوقت الذي صدرت فيه عن ما يخالف عقيدة التوحيد، سمحت للفلسفات والعلوم، وإن وقفت من بعض مفاهيم الفلسفة موقف النقد، وعارضت ما خالف قيمها.

وفي مجال العلم لم تقبل كل ما ترجم ولم تجعله أساساً تبني عليه. ولكنها راجعته ونقدته وكشفت عن زيف الزائف منه، وقبلت العناصر الصالحة منه ليس على علاتها، بل اعادت صياغتها من جديد وفق منهج الفكر الإسلامي المنطلق أساساً من مفهوم القرآن فاستطاعت بذلك أن تحرر العلوم من شبهات كثيرة وأخطاء كثيرة وقع فيها اليونان، واستطاعت أن تقيم أساس المنهج العلمي التجريبي الذي صدرت عنه النهضة العلمية الحديثة.

## ٥ - التوازن بين الروحي والمادي

تجمع الثقافة العربية بين (الروحي والمادي) كما يجمع بينهما الإنسان نفسه فهما متلاقيان ممتزجان، فليست الثقافة العربية روحانية خالصة تغرق في الغيبيات والتهاويم اللامحدودة، ذات الغيبيات والظلال، ولا هي مادية خالصة تؤمن بكثافة المادة وجفاف المحسوس، وإنما هي جماع الروحي والمادي في توازن ومواءمة واتساق «أبداً ما حجب ما وراء الوجود عنا الوجود، ولا محا عالم الغيب عالم الشهادة، وما منعتنا جنات عدن تصيير نعيم من مثلها على الأرض، فنحن روحيون روحية إيجابية،

وماديون ما كانت المادة إنسانية خلاقة [1]» .

### ٦ - الترابط بين الحاضر والماضي

وميزة أخرى في مجال «التكامل» هي جمع الثقافة العربية بين الماضي والحاضر، وليس في ذلك تعارض أو جمع للأضداد، ذلك أن الحاضر إنما هو حلقة تالية للماضي، ووليد طبيعي له، وليس في الاستطاعة فصل الحاضر عن الماضي، وليس في الإمكان أن تخطو الأمم خطواتها إلى الأمام من فراغ، منفصلة عن المراحل السابقة لها، خاصة إذا كانت من مثل الأمة العربية ذات الماضي العريق والتاريخ الحافل.

«إننا لا ننظر في الماضي إلا لننشر منه دعائم قوية تصلح لبناء مجتمعنا الجديد، ولا نعتز بأمجادنا القديمة إلا في سبيل إصلاح حاضرنا وبناء مستقبلنا».

والتراث في الثقافة العربية تراث حي والارتباط بالماضي إنما هو امتداد زمني، وليس اتصال تكرار وتشابه، والمستقبل ليس ثمرة الحاضر ولكنه تتمة له، والتتمة لا تنفصل عن ما قبلها ولا تنقطع عما بعدها، بمعنى أن هناك تلازماً بين الماضي والحاضر والمستقبل، يلتقي فيه طرفا الزمن الماضي والمستقبل في بؤرة الحاضر والواقع.

### ٧ - النظرة العقلية المؤمنة

تتسم الثقافة العربية بظاهرة واضحة هي: الإيمان بقدرة الإنسان في الكشف عن الحقيقة عن طريق العقل المؤيد بالإيمان. فقد دعا الإسلام العقل البشري إلى النظر والتأمل فيما حواه الكون من موجودات، واختلاف الليل والنهار، وتحريك الرياح، وإثارة السحاب لإنزال المياه وإحياء الأرض، وإنبات النبات، والوصول من هذه النظرات إلى الإيمان بأن للكون صانعاً عالماً حكيماً قادراً. ولقد قدم

---

(١) حق بحث للدكتور شاكر مصطفى

القرآن آيات بينات تحث على التفكير، وتدعو إلى استعمال العقل وإقامة هذه النظرة العقلية المؤمنة «واعتبروا يا أولي الأبصار» وتقدم الشريعة الإسلامية على اعتبار أن العقل للدين أصلاً وللدنيا عماداً، فعلقت الدين الصحيح على كمال العقل، وجعلت الدنيا مدبرة بأحكامه، وألفت به بين خلقه مع تباين أغراضهم ومقاصدهم. وفي أحاديث الرسول أمثلة كثيرة لهذا المعنى في مقدمتها قوله: «لا دين لمن لا عقل له» وتقديم الرسول لفضل العلم على فضل العبادة. وتضم آثار المفكرين المسلمين أقوالاً كثيرة تدل على شرف العقل وعلوّ منزلته.

«كل عز لا يوطده علم مذلة، وكل علم لا يؤيده عقل مضلة»

ومن خلال النظرة العقلية نشأ المنهج العلمي التجريبي، وجاء دعاة كالمعتزلة ذهبوا إلى القول بأن العقل نور في القلب يعرف الحق من الباطل، والخير من الشر، والحسن من القبيح. وجاء الفلاسفة الذين قالوا: إن سعادة الدنيا والآخرة لا تنال إلا بالعقل. وعندما ذهب العقليون في الإسراف بالعقل وحده جاء من صحَّح هذه النظرة كالحسن الأشعري الذي وضع العقل في رابطة واحدة مع الإيمان، ووضع ابن حزم مفهوم المعرفة في الثقافة العربية جامعاً بين العقل والقلب.

وكان مفهوم الثقافة العربية دوماً قائماً على التجربة والمشاهدة والبرهان لم يجنح إلى الغيبيات أو يتوقف عند الأوهام. وفي مجال العلوم نقلتهم النظرة العقلية المؤمنة إلى الحس والتجريب فاتسعت آفاقه وقامت أبحاث الطبيعة والكيمياء والطب والفلك على الملاحظة والتجربة، وقام الأطباء بالتجارب عن طريق العمليات الجراحية وعلماء الطبيعة والكيمياء قاموا بالتجارب وعلماء الفلك صنعوا الزيجات، وقاسوا أبعاد الكواكب في المراصد، وقام علماء الجغرافيا بالرحلات والأسفار.

كما عرفت لهم آثار واضحة في مجال الأغذية والأدوية والتوليد والعدوى ودورة الدم وأمراض العين، وأضاف الرازي وابن سينا وابن

النفيس إضافات جادة في هذه المجالات على أساس الملاحظة والتجريب. ووصل (البتاني) إلى معرفة الكشوف، وحدد طول السنة كما حدد (البيروني) خطوط الطول والعرض، وبحث في دوران الأرض حول محورها.

وأوصلتهم هذه النظرة إلى نتائج إيجابية في مجال الفكر أيضاً، فاعتمد الجاحظ وابن خلدون على الملاحظة والاستقراء، فنشأ النظر العقلي، والدليل البرهاني في تمحيص الأخبار. وكان علماء الفقه قد مهدوا السبيل في هذا المجال بتعليل الأحكام الشرعية، ووضع علماء الحديث قواعد التعديل والتخريج، وكانت النظرة العقلية المؤمنة في مجال العلم وفي مجال الفكر مقدمة للنتائج التي حققت قيام المنهج العلمي التجريبي، والتي ورثتها أوروبا، واتخذت منها قاعدة بناء الحضارة، وستظل الثقافة العربية مؤمنة بفضل العلم على العبادة، والعلم على إطلاقه.

## ٨ - الجمع بين الدنيا والآخرة

والثقافة العربية ترى ترابطاً عضوياً بين الحاضر والمستقبل، وترى الدنيا طريقاً إلى الآخرة، وتؤمن بأن تعمل للدنيا كأنك تعيش أبداً، وتعمل للآخرة كأنك تموت غداً، فلا يصرفها الإقبال عن الدنيا عن حق الآخرة، ولا تنصرف إلى الآخرة انصرافاً يمنعها من أداء حق الدنيا. بل يجمع بينهما في موازنة واتساق (ليس خيركم من ترك الدنيا للآخرة ولا الآخرة للدنيا، ولكن خيركم من أخذ من هذه وهذه).

وقد أباح الإسلام زينة الحياة الدنيا، ومتعها في نظام دقيق، ووفق تحوطات تحمي من الانهيار والإسراف. وأقامها على الاعتدال والاقتصاد والتوسط، وبذلك ربط الفكر الإسلامي بين الروحي المثالي والحيوي الدنيوي، وكذلك طلب العلم في نظر الفكر الإسلامي والثقافة العربية بمفهوم العلم الدنيوي والأخروي معاً، وليس الأخروي وحده، وذلك في اتساق واضح قوامه: علم وذوق، وعقل وقلب، وفكر ووجدان.

## ٩ - الحرية المنضبطة

اعتبرت الثقافة العربية (الحرية) أساساً من أسسها وقاعدة من قواعدها، وجعلت طابع الحرية مشوباً بالتسامح، كما أفسح الإسلام للناس فرصة الدفاع عن عقائدهم، وأباح لهم حرية الاعتقاد والفكر إيماناً بسلامة قيمه وأسسه وقدرتها على مواجهة المساجلة والنقد والمناظرة، وكان أعلامهم يناظرون المسلمين واليهود والمجوس على السواء.

والحرية في الثقافة العربية لها ضوابط تمنعها من الاعتداء على حقوق الغير، أو التماس ما ليس بالحق. وستظل الثقافة العربية متحررة من استعباد العقل والجسم والروح، ومن عبودية المال والآلة، وعبودية الفرد للفرد، ومن العبودية لغير الله وهي في نفس الوقت تحرير الإنسان من الخوف والقلق والجوع والعور. وفي الثقافة العربية لا تقضي حرية الفكر أن يكون الإنسان غير متدين إذ إن الإسلام بمعنى الدين لا يقف حائلا أمام الحركة والفهم والبحث والإبتكار.

ولا شك أن أكبر التحرير للفكر هو تحريره من قيود المادة،وتجريده من قيود الوثنية، وعبادة غير الله. ولقد شهد بهذا المعنى كثير من المنصفين حين قال أحدهم: «العرب أول من علم العالم كيف تتفق حرية الفكر مع استقامة الدين. والعقيدة الإسلامية أساس الثقافة العربية ومصدرها لا تقف عقبة في سبيل حرية الفكر بل هي عون لها وسندها الكبير».

## ١٠ - القدرة على التطور

تؤمن الثقافة العربية بضرورة التطور، وتتمثل هذه القاعدة دوماً فهي منفتحة أبداً على الثقافات المختلفة تأخذ منها وتترك، وتتدرج إلى الرقي والعمق، وتسعى دوماً نحو تحقيق الكمال وتمضي في طريقها الصاعد، مؤمنة بالتقدم والنمو، وتعميق حركتها في أصالة وحيوية.

فهي لا تعيش في عصر بمزاج عصر سابق، ولا تتقبل مزاجاً أجنبياً تنصهر فيه ولكنها تجعل من جذورها مرآة لاندفاعها نحو الكمال ونحو الأمام.

وتؤمن الثقافة العربية بناموس التطور، وأن التوقف والتجمد ضد طبيعة الحياة. وتملك الثقافة العربية القدرة على التطور دون أن تفقد عامل الوحدة والارتباط بالماضي، وستظل الثقافة العربية قادرة على تشكيل نفسها حسب حاجات العصر، واختلاف البيئات دون أن تتخلى عن قيمها ومقوماتها الأساسية.

وسوف تصل الثقافة العربية إلى غاية الغايات في مجال العلم والتكنولوجيا ويظل مجرى العقل العربي مع ذلك كله قائماً على أساس الترابط بين العلم والروح والمادة.

## ١١ - القدرة على التصحيح

وتؤمن الثقافة العربية بقانون التصحيح إلى جانب قانون التطور، فهي حيث تنفتح على الثقافات المختلفة تأخذ منها ما يزيدها قوة وترفض ما يتناقض مع روحها وذاتها ومزاجها وهي تؤمن بأصولها الأصيلة وتحرص على ألا تنصهر في الثقافات الأخرى.

وهي حين تؤمن بقانون التطور تؤمن بأن كل مسار هو إلى أفق جديد. وذلك أمر طبيعي لا بد أن تصحبه ضوابط تحول بينه وبين الانحراف. فالتحرر من الانحراف والحاجة إلى تعديل المسار لا يخرج عن القيم والهدف وإنما هو قانون مواز تماماً لقانون التطور. ذلك هو قانون تصحيح المفاهيم. ولقد كان الفكر الإسلامي والثقافة العربية قادرين دائماً على التحرز من الانحراف بعد الكشف عنه، والعودة إلى التماس المفاهيم الأساسية والقيم الأصيلة.

## ١٢ - الطابع الإنساني

يتمثل في الثقافة العربية: «الطابع الإنساني» الأصيل. ومن حيث إن الثقافة العربية تستمد من الفكر الإسلامي، فإن الإسلام يبني العدالة الاجتماعية على ثلاثة أسس:

١ - الحرية الكاملة في العبادة
٢ - المساواة التامة بين جميع الناس.
٣ - المسؤولية الدائمة والمتبادلة للمجتمع.

والإسلام يؤكد أهمية الإنسان وقيمة الإنسان بصرف النظر عن لونه وعنصره وديانته. وقد طبق الإسلام المعنى بأنه أتاح للملونين ورجال الطبقات المختلفة والأديان المختلفة أن يصلوا إلى المراكز العليا، والخطيرة في مجالات السياسة والعلم والثقافة.

ومن هنا بدأ في وضوح، مفهوم الإسلام في تأكيد كرامة الإنسان، فالإنسان في الثقافة العربية ليس حيواناً ولا هو سيد فوق الكون كله، ولكنه سيد تحت حكم الله.

وإنسانية الثقافة العربية تعني أنها تتسم بالكرامة والرحمة والإخاء. والثقافة العربية في هذا المعنى تختلف اختلافاً عميقاً عن الثقافات الغربية، هذه الثقافات التي تطبق على الإنسانية مفاهيم الحيوان والحشرات، أما نحن فالإنسان ما هو بحيوان في ثقافتنا.

ويتمثل الطابع الإنساني في الثقافة العربية إيماناً بكرامة الإنسان وحريته، ومقاومة الاسترقاق والعنصرية وإنكار استعباد الجسم أو الفكر أو الروح.

## ١٣ - مفهوم التقدم

تتمثل الثقافة العربية في أعماقها مفهوم التقدم، على أنه تقدم مادي ومعنوي معاً في وقت لا ينفصل فيه التقدم المادي عن التقدم المعنوي.

وهي في هذا تختلف في النظرة إلى مفهوم التقدم عن الثقافات الغربية التي تقوم على أساس النظرة المادية وحدها. وترى الثقافة العربية أن التقدم المادي وحده تقدم قاصر، وأن حتمية نجاح التقدم هو أن يرتبط بالضمير الأخلاقي فالتقدم المادي لا ينفصل عن التقدم الروحي، وبدونه لا يصل إلى الكمال.

و«النظرة المادية» إلى التقدم قد فشلت لأن فيها افتئاتاً على الحق. ويقوم مفهوم التقدم في الثقافة العربية على أنه كل ما يوصل إلى الحق والعدل، وليس ما يرضي الغايات الفردية لبعض النفوس.

وتقاس فكرة التقدم في الثقافة العربية بمقاييس إنسانية أساساً فالتقدم ارتقاء نحو الكمال واقتراب من الحرية دون أن ينفصل عن الأخلاقية [1].

ومفهوم الثقافة العربية دوما فيه تطلع إلى مستقبل أكثر حيوية وقوة.

## ١٤- الوسطيّة

تتمثل الوسطية في الثقافة العربية من حيث يبدو منطلق النظرة أي تكون بعيدة عن التطرف ناحية الجمود أو الانطلاق غير المنتظم.

فالثقافة العربية تؤمن بالحركة، وتؤمن في الوقت نفسه بالقواعد الثابتة، والقيم المستقرة التي تتحرك في داخلها. فهي تطور وثبات في نفس الوقت، وهي في هذا تختلف عن الثقافات الغربية التي تؤمن بالتطور والحركة والتغير إلى غير مدى. فالتطور بمفهوم الانفصال عن القواعد والأصول الثابتة لا تقره الثقافة العربية التي تتحرك في نطاق واسع.

---

(١) بتصرف عن الدكتور عادل العوا.

## الفصل الرابع

# مُعطيات الثقافة العربية

## مُعطيَات الثقَافَة العَربيَّة

إن أصدق ما تمثله « الثقافة العربية » أنها كيان مستقل، وأنها تشكل « أنموذجاً » له طابعه ومعالمه، وأن القيم التي تنطوي عليها تتسم بالوضوح والتكامل والوسطية والقدرة على الحركة والتجاوب مع مختلف البيئات والعصور وأنها لا تتوقف عن العطاء ولا تنغلق عن التلقي والاقتباس من مختلف الثقافات والمعارف شرقية وغربية، قديمة وحديثة، فهي تنتفع بمختلف المفاهيم الإيجابية البناءة، وهي تصوغ هذه المفاهيم في بوتقتها وتبلورها في كيانها دون أن تتحول معها أو تفقد ذاتيتها أو تتحول عن أسسها ومناهجها الثانية، فهي ثقافة تؤمن بثبات الإطار وتطور العناصر. وهي تقدمية في نظرتها، مرنة في حركتها، متقبلة معطية، واضحة صريحة، وهي في مختلف أدوارها يقظة كل اليقظة، قادرة على مواجهة الأخطار والغزو، وحركات التغريب التي تحاول أن تخرجها عن ذاتيتها ومضامينها وقيمها. وهي في كل معركة من هذه المعارك تصل إلى نتيجة أكيدة، هي أنها تأخذ كل ما يزيدها قوة وترفض ما يحول دون ثباتها وحركتها، وما يخرجها عن وسطيتها وتكاملها.

وفي هذه النماذج السريعة القليلة التي نقدمها عن معطيات الثقافة العربية التي تستمد كيانها أساساً من الإسلام واللغة العربية والقرآن. نجد ذلك الطابع الواضح الصريح المختلف كل الاختلاف عن ثقافات الشرق وثقافات الغرب، والذي يتسم بميسم التوحيد، وتحرير الإنسان وتكريمه، والقائم على المسؤولية الفردية، والجزاء والبعث، والذي تنظمه القيمة الأخلاقية، وتحوطه مفاهيم التقوى والعدل والمساواة والإخاء في

مختلف ميادينه السياسية والإجتماعية والقانونية والإقتصادية[1].

### ١ - في مجال الاجتماع

تتمثل في « المجتمع » البوتقة التي ينصهر فيها « الإنسان والفكر » وتتشكل الأسرة والجماعة ( من القبيلة إلى الأمة ) حيث تنصهر فيها كل مقومات الثقافة المختلفة : السياسة والقانون والدين والاقتصاد.

* * *

ثم هي « البيئة » التي تتشكل فيها « الحضارة » منبثقة من الثقافة والعلم معاً. ومن هنا كان « الاجتماع » مقوماً من المقومات الهامة في العلاقة بين الإنسان والثقافة من ناحية، وبين المجتمع والحضارة من ناحية أخرى.

* * *

ومن هنا تبرز أهمية لا حد لها للترابط والتكامل والتوازن القائم بين مقومات الثقافة كلها وفق مفهوم الثقافة العربية المستمد من الفكر الإسلامي بحيث لا يمكن الفصل بين وحداتها، أو الاستقلال بمقوم منها لينمو نمواً خالصاً منفصلاً عن الثقافة ككل. وبحيث يستحيل عرض قضية من القضايا والفصل فيها من وجهة نظر مقوم من هذه المقومات وحده دون ارتباطه بالمقومات الأخرى ككل. ومن شأن هذا الانحراف أن يفقد كل من المجتمع الإنساني والثقافة طابعه في التكامل والتوازن. ومن خلال المجتمع ( حيث يرتبط الفرد بالجماعة ) تبرز أضخم قضايا المجتمع والاجتماع، حيث تتلاقى نظريتان تتجاوران منذ أقدم العصور هما : « الفردية والجماعية ».

---

( ١ ) هناك تفصيلات واسعة لهذه المعطيات : راجع كتابنا القيم الأساسية للفكر الإسلامي.

وفي مفهوم الثقافة العربية: يتكون المجتمع من الأفراد. فالأفراد لهم كيانهم الخاص ولهم كيانهم كمجموعة وهم مؤثرون في المجتمع، متأثرون به. الفرد في خدمة المجتمع، والمجتمع في خدمة الفرد، ففي دائرة (الفرد) هناك روابط الأخوة والزمالة والصداقة والعداوة، وفي دائرة (الجماعة) هناك النظم الاجتماعية، والاستجابات العامة للتطورات والأحداث.

ليس هناك تنافس وتصارع بين الأفراد بعضهم مع بعض، ولا بينهم وبين المجتمع، ولكن هناك تعاون ومواءمة وتكيف بين الحقوق الخاصة والحقوق العامة، وبين حدود حق الفرد بالنسبة للفرد وبين حقوقه بالنسبة للمجتمع.

فلا يغنى الفرد في المجتمع ولا يغنى المجتمع في الفرد، ولكنها أخوة بين الأفراد وتماسك لبناء المجتمع بأفراده.

ومن شأن الثقافة أن توحد تصور الأفراد أو تقربه وفق مفاهيم لها قيمها الأساسية. ومن هنا تكون الاستجابة بطريقة واحدة، وتكون المصلحة المشتركة هي القاسم المشترك الأعظم للجماعة.

ومن مقومات الثقافة العربية في علاقات الفرد «الإيثار» وفي علاقة الأفراد بالجماعة: «التضحية بالحقوق الفردية من أجل استمرار ونماء المجتمع».

والثقافة العربية تذهب إلى اعتبار أن المجتمع «كائن حي» الأفراد خلاياه، والنظم والروابط والجماعات أعضاؤه. هذا الكائن له عقل، هذا العقل بقيمه ومقوماته يتمثل في عقول الأفراد.

ولا شك أن الثقافة السائدة في المجتمع هي العامل الأكبر والأول في تشكيل النظم الاجتماعية، وهي في مدى تأثيرها أبعد أثراً من عوامل السلالة والوراثة. فهي القادرة على أن تصوغ أفراد المجتمع بوحدة فكرية تعلو على فوارق السلالات والوراثات.

ولا يمنع أثر الثقافة في وحدة الفكر، من عمليات التنافس والتمايز والخلاف في الفرعيات والمسائل الجزئية حيث لا ترى الثقافة العربية «صياغة قوالب صماء متشابهة» بل إن الاختلاف في الفروع لا بأس به. لأنه في تـوسع وحيوية ما دامت المقومات الأساسية سالمة ثابتة.

* * *

وتؤكد الثقافة العربية اهتمامها بالفرد، وإطلاق حرية إرادته إطلاقاً لا يجعله خاضعاً إلا لعقله وإرادته في مختلف تصوراته وتصرفاته. ومن هنا كانت قدرته دائماً على الإبداع والتجويد، وإحداث التقدم للمجتمع. فليست روابطه الدينية والروحية بمقيدة إياه أو معطلة له، بل هي عامل قوة وعامل حرية، ذلك أن الإختيار والإرادة - دون عامل القهر والجبرية - هو العامل الأساسي للثقافة العربية. فإذا فرض عامل القهر والجبرية نفسه في مرحلة من مراحل التاريخ فإن ذلك لم يكن صادراً بالتأكيد عن جوهر الثقافة العربية، وإنما كان دخيلاً عليها من جملة مفاهيم تسربت إليها.

وليس في الثقافة العربية ما في الثقافات الأخرى (شرقية أو غربية) ذلك الخضوع لمفاهيم جبرية أو لمؤسسات خاصة أو لطبقة معينة من ذوي النفوذ الفكري المتسلط.

وحين كانت هذه المفاهيم واضحة، استطاعت الثقافة العربية أن تبدع وأن تبتكر وأن تضيف إضافات إيجابية في حقل الفكر الإنساني.

* * *

ولا شك أن للثقافة أثرها في استقلالية المجتمع وبروز طوابعه الخاصة المختلفة عن المجتمعات الأخرى، نتيجة للقيم والمقومات التي تتحرك بها في عقول أفراده، وفي كيانه العام.

وفي مفهوم الثقافة العربية أن المجتمعات في حركة دائمة، حركة

تطور. لكنها ـ وفق نواميس الكون التي لا تتبدل ولا تتغير ـ ليست دائماً حركة إلى الأمام، أو في طريق التقدم، وإنما هي بين تقدم وركود وتأخر ثم تقدم تجري في دوامات متعاقبة وترتبط بعوامل مختلفة، أهمها ارتباطها بالقيم الأساسية للثقافة أو انفصالها عنها، أو غلبة قيم أخرى ومفاهيم غريبة عليها. ولقد كانت الثقافة العربية قادرة دائماً أن تتمثل جوهرها، وتنفض عنها غبار الدخائل والبدع والإضافات التي قد تصل إليها من الثقافات الأخرى، وتكون في نفس الوقت متعارضة مع القيم الأساسية لها، رغبة في القضاء عليها أو تحويرها. وكانت تعتمد في مقاومة ذلك على النوابغ من المجددين والمصلحين، الواسعي الأفق، الذين يكشفون هذا الخطر ويزيلون هذا الغشاء، ويردون الأمم والمجتمعات إلى الجوهر الأصيل للمقومات الأساسية.

ولا تؤمن الثقافة العربية بالعامل الواحد في تفسير المجتمعات: سياسياً أو اقتصادياً أو مناخياً أو سلالياً، ولكنها ترى أن هذه العوامل كلها مجتمعة في صورة (الثقافة) هي التي تحدث الأثر قوة وضعفاً، وبها ككل (شمولاً وتكاملاً) تفسير الأحداث والوقائع.

* * *

وفي مفهوم الثقافة العربية أن المجتمعات تمر بدورة مضطردة تبدأ من اليقظة إلى القوة إلى الانحلال والضعف، ثم تعود سيرتها الأولى، وتكون الثقافة هي العامل المؤثر في هذه المراحل قرباً أو بعداً من قيمها الأساسية. وقد تنهار الحضارة ولكن الثقافة لا تموت بل تذبل ثم تتجدد مرة أخرى لتحدث أثرها مستأنفاً في سبيل إعادة بناء المجتمع والحضارة.

غير أنها في مجموعها هي حركة إلى الأمام وإلى التقدم فلا يعود التاريخ القهقرى أو يرجع إلى الخلف، ولا تؤمن الثقافة العربية بتقديس الماضي في نظرة المجتمع إلى التطور. بل ترى الارتباط الذي لا ينفصم

بين الماضي والحاضر والمستقبل كحلقات طبيعية للتاريخ الطويل المضطرد .

* * *

والدين ظاهرة اجتماعية ضرورية لحياة المجتمع ، لا يستطيع المجتمع الحياة بدونها ، وهي تتصل بالأخلاق اتصالاً وثيقاً ، كما تتصل بالتربية والتعليم والفن .

وفي الثقافة العربية يكون الدين مقوّماً أساسياً للجماعة ، والأخلاق جزء منه . والدين مقوّم لا يمكن إغفاله ، أو تخطيه في تطور الجماعة وحركتها ومختلف قضاياها ، وهو دعامة أكيدة من دعائم الاجتماع الإنساني . فالإنسان في نظر الثقافة العربية هو سيد الكون تحت حكم الله ، لا ينفصل فيه العقل عن الروح ، ولا الفكر عن البصيرة .

فالإيمان بالله والخلق ( الضمير الديني ) هو عامل أساسي في بقاء المجتمع وتماسكه وتعاونه . والإيمان بالجزاء والآخرة عامل هام في إعطاء الخلفية الدينية وظيفتها وعامل حيوي في إيمان الإنسان وعمله . والأخلاق من شأنها أن تدفع الإنسان إلى حسن السلوك والاستقامة والتعاون والتآخي بين الأفراد .

والمجتمع القائم على مفهوم الثقافة العربية يجد دائماً قوة ذاتية دافعة في أفراده قوامها الخلق ، تتمثل في سلطان الضمير ، هذه القوة من شأنها أن تعين على تنفيذ سلطان القانون . أو تكفي دونه ، ومن شأن هذا المجتمع أن لا يخشى سلطان القانون المفروض من الخارج على أساس المحاسبة عن ظواهر الأمور إذ انه يرضى بما هو أكبر وأوسع وأعمق وهو سلطان الضمير .

ومن ثم يتوازن عامل الخلق مع حركة المجتمع وتطوره وبنائه عن رغبة ذاتية وتقبل طبيعي .

وسلطان الضمير في الفرد يستمد قوته من الإيمان بالله ويتسامى إلى

الغيرة والكرامة، بينما يقوم سلطان القانون على الخوف من السلطة التي تملك العقاب.

٢ - *في مجال الأخلاق*

في مفهوم الثقافة العربية يقوم بناء المجتمع وتكوين الإنسان على الأخلاق. فالأخلاق قاسم مشترك لمقومات السياسة والتربية والاجتماع والأدب والفن.

والأخلاق غير منفصلة عن الدين، وهي في نفس الوقت متكاملة مع قيم التوحيد والحرية والعدل، ولا يتم مفهوم الأخلاق إلا حين يقوم على أساس الإيمان بالله، وخلود النفس، والإيمان بالجزاء.

والأخلاق في مفهوم الثقافة العربية «عملية» وليست «مثالية» وهي من صميم واقع الإنسان باعتباره أحد أفراد المجتمع.

وتقوم الأخلاق على حرية الإنسان وإرادته في الاختيار، وتحمل المسؤولية. فالفرد مسؤول عن عمله، وإذا كان القانون للأعمال المادية، فالأخلاق لكل ما غير ذلك. ولا بد للأخلاق من تربية وتطبيق، وبدون ذلك تصبح مجرد كلمات ومثل. ويستهدف التطبيق تحقيق النفع العام للمجتمع بأسره.

والأخلاق في مجال التطبيق ترتبط بالمجتمع والسياسة والقانون كمقومات للمجتمع، وترتبط بالتوحيد والعدل والحرية. ومفهوم الأخلاق في الثقافة العربية: يقتضي تعميم تطبيقها على الإنسان والمجتمع، فيكون الإنسان فردياً في الفكر، اجتماعياً في العدل.

وتفرق الثقافة العربية بين التقوى والرهبنة. فهي تدعو إلى العمل، وتجعل العمل في دائرة الخلق، ولا تقبل الزهد والنسك المنفصلين عن المجتمع والعمل. والتقوى هي اجتناب الحرام: وهي غير الرهبنة والتقشف.

وهدف الأخلاق في مفهوم الثقافة العربية هو السمو بالغرائز وترويضها

وتصعيدها وتزكيتها وليس القضاء عليها. والأخلاق «ضوابط» منظمة وليست قيوداً. والثقافة العربية لا تدعو إلى مجتمع الغرائز والشهوات، ولكنها تنظمها في وسطية وتعادل تحفظ للجسد والعقل والروح قواها وحيويتها وهي لا تحرم متع الحياة، ولكن تدعو إلى تناولها في اعتدال. والنفس الإنسانية: تحمل الخير والشر. والأخلاق المستمدة من الدين وسيلة لتزكيتها والسمو بها.

وصدق الله العظيم: «ونفس وما سواها. فألهمها فجورها وتقواها. قد أفلح من زكاها. وقد خاب من دساها».

والأخلاق العربية المستمدة من الإسلام: أخلاق تقوى، وليست تستهدف ما تطلق عليه الفلسفة اليونانية «السعادة أو اللذة» ولا تقر الثقافة العربية مفهوم الوسطية الأخلاقية فهذا ليس أصيلاً في مصادر الإسلام، بل هي من الفكر اليوناني الوافد الذي جرى العرب شوطاً في الخضوع له ثم تحرروا منه بعد. والتقوى هي تجنب الحرام والإقبال على الحلال.

والأخلاق في مفهوم الثقافة العربية عملية تطبيقية وليست نظرية، وتشمل التكوين الفردي (الذي يعنى بالفرد في نفسه وعلاقته بربه) والتكوين الاجتماعي (الذي يعنى بمعاملات الأفراد مع بعضهم البعض). وتتصل الأخلاق بالعقيدة ولا تنفصل عنها.

وفي مفهوم الثقافة العربية أن الخير عام للجميع. ولذلك فإنه أقرب إلى منازعها من السعادة التي هي حال خاصة بالفرد فعلى الإنسان أن يفعل الخير للخير لا لينال به أجراً، ولا يتم الخير للناس إلا بتعاونهم.

وتقر الثقافة العربية نوعين من الأخلاق: أخلاق إيجاب، وأخلاق سلب.

ومن أخلاق الإيجاب الوفاء بالعهود، وأداء الأمانة، والقوامة بالقسط ولو على النفس والوالدين أو الآخرين، والإعراض عن اللغو، وبالوالدين إحساناً، وبذي القربى واليتامى والمساكين، والجار ذي

القربى، والجار الجنب، والصاحب بالجنب، وابن السبيل، وما ملكت أيمانكم.

ومن أخلاق السلب: تحريم القتل والزنا والربا وتحريم شهادة الزور والخمر والميسر وتحريم الرشوة والفساد واللغو، وتحريم تزكية النفس والتفاخر وتحريم السخرية بالناس والمنابزة بالألقاب.

* * *

والقرآن هو مصدر الأخلاق التي تصدر عن الثقافة العربية.

ومجموع مفاهيم القرآن: تمثل أخلاقاً إجماعية لا أخلاقاً فردية، فالقرآن «ينظر إلى الفرد في ضوء مصلحة المجتمع، فإذا تضاربت المصلحتان: يؤثر الفرد مصلحة المجتمع، ويضحي بنفسه في سبيله».

وصورة التطبيق لهذا المنهج القرآني إنما تتمثل في سلوك الرسول وشمائله، وترسم الثقافة العربية للحرية مفهوماً عميقاً فهي تحيطها بقدر كبير من الحماية، قوامها التبعة والمسؤولية الاجتماعية،فحرية الإنسان تنتهي عندما تصبح اعتداءً على حرية الآخرين. فالإنسان كفرد إنما هو جزء من المجتمع، وإطارات الأخلاق في مفهوم الثقافة العربية: رحبة متسعة، وليست مغلقة أو ضيقة. قوامها الحرية الشخصية وتحقيق الجهود الفردية.

وتقيم الأخلاق في مفهوم الثقافة العربية: حواجز متينة ضد الفوضى والظلم والشر عامة. وتبقى هذه الحواجز مرنة لكي تحقق للأجيال المتعاقبة اختيار الأساليب التي توفق فيها بين المثل القرآنية الثابتة، وبين تطور عصورها واختلاف بيئتها.

### ٣ - في مجال القانون

هدف القانون في مفهوم الثقافة العربية: تحقيق العدل والمساواة بين أفراد المجتمع وتنظيم الروابط الاجتماعية بما يحقق المساواة والعدالة.

ويعمل القانون «التشريع» كقطاع من قطاعات الثقافة العربية متكاملاً معها في سبيل بناء مجتمع سليم متقدم قادر على الحياة والتطور وفق مفهوم الأخلاق وبطبعه أساساً بطابع إنساني.

وترسم الثقافة العربية مهمة القاضي في مجال القضاء على نحو واضح بيِّن فالقاضي:

(١) يفهم إذا أدلي إليه فإنه لا ينفع تكلم بحق لا نفاذ له.

(٢) يواسي بين الناس في وجهه وعدله ومجلسه حتى لا يطمع شريف في حيفه، ولا ييأس ضعيف في عدله.

(٣) البينة على من ادعى، واليمين على من أنكر، والصلح جائز بين الناس إلا صلحاً أحل حراماً أو حرم حلالاً.

(٤) لا يمنعه قضاء قضاه، ثم راجع فيه عقله أن يرجع إلى الحق، فالحق قديم، ومراجعة الحق خير من التمادي في الباطل.

(٥) على القاضي أن يكون فاهماً لما يتلجلج في صدره مما لم يرد فيه نص. وعليه أن يقيس الأشباه والأمثال، ويعمد إلى أقربها من الحق.

(٦) عليه أن يجعل لمن ادعى حقاً غائباً أو بينة أمداً ينتهي إليه، فإذا أحضر بينته أخذ له بحقه. وعليه ألا يقلق أو يضجر، أو يتأذى بالخصوم أو يتنكر عند الخصومات فإن الحق في مواطن الحق يعظم الأجر.

فالمساواة أمام القانون هي القاعدة الأساسية، والإباحة هي طابع القانون في الثقافة العربية بحدود تحول دون الظلم والتعدي. والمبادىء القانونية على تعدد أشكالها تؤول على غاية واحدة هي الرفاهية العامة، وهي ما يسمى «المصلحة».

* * *

وقد طبعت الثقافة العربية مفهوم القانون بطابع السماحة الذي يقوم على إلغاء القيود الصارمة والمحرمات المختلفة التي عرفتها القوانين السابقة ومسايرة الطبيعة البشرية، على قاعدة «التيسير»: (لايكلف الله نفساً إلا وسعها). وحيث لا تحرم طيبات الرزق وزينة الحياة، وحيث لا تعذيب للنفس لا إماتة لها بالتقشف، وحيث لا كبت للغرائز البشرية الطبيعية، شريطة الاعتدال، والوقوف عند «الضوابط» الحامية للشخصية الإنسانية من الانحلال والتدهور.

* * *

وقد حقق القانون - في مفهوم الثقافة العربية - رعاية مصلحة الجماعة، حين حرم الربا وأباح العتق والوصاية والزواج وصلة الرحم.

والحرية هي أولى القواعد في مفهوم القانون، حيث تجد الحرية حدودها في طبيعتها نفسها وفق قانون ثابت هو: أن الحرية المطلقة معناها فناء البشرية. والحدود التي تقف عندها الحرية هي ما اصطلح على تسميته بالقواعد القانونية، وليس في هذه الحدود شطط أو غلو، لأن الغاية المتوخاة من إقرارها هي المنفعة والصلاح والخير بأعظم ما يستطيع الفرد أو المجموع أن يجني ثمارها منها.

ومن أهم حقوق الفرد حقه بوصفه فرداً في السلامة والحرية. فالحرية هي الحق الطبيعي لكل مخلوق بشري، أما الرق فهو استثناء لهذه القاعدة. واللقيط المجهول الأصل ترجح حريته على عبوديته، وترجح حالة الحرية عند وجود الشك، والحرّ المشكوك في حريته لا يجبر على إثبات حريته.

«والحرية [1]» في مفهوم القانون في الثقافة العربية معناها: قوة التصرف الذاتي. والحر لا سيد له إلا الله، فالحرية لا يمكن أن تباع أو

(١) راجع سانتلانا (القانون والمجتمع).

تشترى، والعبودية التي يختارها المرء بملء رغبته لا يعترف بها قانوناً قط، وعلى هذا يحرم الانتحار. وللمرء أن يقتني ما يشتهي ويصنع بماله ما يريد لأنه متاع الحياة الدنيا جميعه خلق لاستعمال البشر وانتفاعه ولكن الله مقرر حق الملكية والحيازة وضع لهذا الحق حداً. وأتاح الفرصة لكل امرىء في معرفة المقدار المخصص له من مصادر الثروة العامة صيانة للنظام الاجتماعي.

وفي كل صرف يجب أن لا يكون تبذير والمبذر آثم بالنتيجة. فالسفه في القانون وفق مفهوم الثقافة العربية: نوع من الخلل العقلي يحجر على صاحبه. والقاعدة هي الحرص على الاعتدال، والقسط في كل شيء، واتباع الوسطية في إنفاق الثروة. (والذين إذا أنفقوا لم يسرفوا ولم يقتروا) وقد وضعت «الضوابط» لحماية صغار السن والمعتوهين والزمنى والمفاليس. وفي مفهوم القانون في الثقافة العربية أن لكل امرىء أن يستعمل حقوقه الخاصة بمطلق حريته بشرط ألا يرمي بهذه الممارسة الإضرار المطلق بالغير في الوقت الذي ينال منفعة شخصية من وراء ذلك، ويمنع المرء من ممارسة حقوقه عندما يسبب ذلك ضرراً فاحشاً لغيره على حساب منفعته الخاصة. وقد رسم «القانون» في مفهوم الثقافة العربية «ضوابط» أساسية لكل ناحية من نواحي الحياة لصيانة وجود الفرد في المجتمع، كما حرم الربا بأي شكل كان، ونفَّر من كل أنواع المضاربة، وأعلن بطلان أي عقد غير مؤكد النتيجة.

وقد انبثقت كل هذه المميزات من أصل المبدأ العام «المساواة» وبهذا يتمثل القانون في مفهوم الثقافة العربية: كفاح دائب متواصل لغرائز الإنسان المنحرفة، ووضع حد لتفرقات البشر التي ترمي إلى تحقيق سعادتهم مع عدم الإضرار بالمجتمع وأفراده.

وهدف القانون أساساً هو الطمأنينة والأمن الاجتماعي وسعادة المجموع في نطاق قواعد عامة:

(١) الناس جميعاً سواسية: لا فضل لأبيض على أسود.

( ٢ ) توزيع العدالة بالقسطاس على الجميع بلا تفضيل .
( ٣ ) لا ينتفع أحد بمال آخر ما لم يجزه .
( ٤ ) على كل إنسان أن يفي بالعهود التي يقطعها على نفسه .

ويعلق القانون في مفهوم الثقافة العربية أعظم الأهمية على القصد القانوني ، لا على النص الحرفي ، وفق قاعدة : إن إرادة البشر كافية مهما كانت لخلق رابطة قانونية .

وتكون العدالة رائدة المساواة في كل مرحلة من مراحلها .

وقد ساير القانون في مفهوم الثقافة العربية في جميع الأطوار سنن تطور المجتمعات ، وعايش الحضارات في كل زمان ومكان فهو مبني دوماً على المصلحة العامة ، والخير العام . وقد استهدف بناء الأحكام على المقاصد والمصالح وتغيرها بتغير الزمان والمكان ، وأقام قاعدة أن ( لا تعارض بين العقل والنقل ) وان صحيح المنقول موافق دائماً لصريح المعقول .

## ٤ - في مجال السياسة

ترسم الثقافة العربية مفهوم « السياسة » على نحو كبير من الوضوح والأصالة وفق قيمها الأساسية . فالأمة والجماعة سواسية كأسنان المشط ، لا تفرقة ولا تمييز « الضعيف قوي حتى يؤخذ الحق له . والقوي ضعيف حتى يؤخذ الحق منه » . ولا طاعة لمخلوق في معصية الخالق ( أطيعوني ما أطعت الله فيكم ، فإن عصيته فلا طاعة لي عليكم ) .

وأبرز مفاهيم السياسة « الحرية » : « متى استعبدتم الناس وقد ولدتهم أمهاتهم أحراراً ؟ » كما تقرر حقوق الإنسان في عقيدته وتفكيره وشخصيته ومعيشته ، وتوجه الاهتمام إلى جوهر الإنسان من روح وعقل وخلق وفضيلة . والتهوين من شأن الفوارق المادية التي تتصل بهذا الجوهر .

وقد أولت الثقافة العربية مفهوم المساواة طابعاً جديداً، هو طابع المساواة في الإنسانية، حيث كانت المجتمعات تقوم على فوارق الشرف والضعة، والغنى والفقر، ورد الاعتبار الإنساني إلى الطوائف المستضعفة «المرأة والرقيق» والقضاء على الرق تدريجياً.

كما اعتدّت بمبدأ الشورى «إدارة الناس أمورهم بأنفسهم» مع التجرد من الهوى والتزام جانب الحق والعدل: «فاحكم بين الناس بالحق ولا تتبع الهوى». وللمرأة الحق أن تشارك بالرأي في الشؤون العامة، ولم تقتصر الشورى على الرجال، بل للأرقاء حق المساهمة في الرأي والشورى.

والسيادة حق للأمة وحدها، وهي التي تمنحها للحاكم.

والعدل أساس من أسس الثقافة العربية في السياسة: «كونوا قوامين بالقسط شهداء لله ولو على أنفسكم أو الوالدين أو الأقربين».

والمساواة بين أفراد المجتمع فهم سواسية لا فضل لأحد على الآخر إلا من جهة الكفاية الشخصية، والسجايا الذاتية. ولكل فرد من أفراد المجتمع أن يترقى إلى ما شاء الله.

وحرية الفكر مفهوم واضح من مفاهيم الثقافة العربية للسياسة: وهي حرية تطلق الفكر من عقاله وتدعو إلى التدبر ونبذ كل ما لا يقبله العقل، وعلى الإنسان ألا يؤمن بشيء إلا بعد أن يقتنع به عقلياً. وتغض من شأن تعطيل الفكر أو إلغاء العقل بالتقليد أو التمسك بالعلاقات والتقاليد - دون تمحيص.

وكذلك الحرية في مجال الدين، فلا إكراه في الإعتقاد. لكل إنسان أن يعتنق ما شاء، وليس لأحد أن يحمله على ترك عقيدته.

وقد بلغ من تسامح الثقافة العربية في هذا المجال أن أولت الملل والنحل دراسة متسعة.

## الأخلاق في السياسة

وحين تربط الثقافة العربية بين مقوماتها في عقد متكامل فهي لا

تفرق بين عناصر الاجتماع والسياسة والدين والاقتصاد، وتجعل الأخلاق قاسماً مشتركاً عليها. فالأخلاق في مجال السياسة عنصر فعال في السلم والحرب، وفي علاقات الأفراد بالجماعة، وفي علاقة الحاكمين بالمحكومين، وهي منطلق إلى الطابع الإنساني في الثقافة العربية.

فالثقافة العربية تؤمن بترابط تكاملي بين أعمال وسلوك الإنسان، وبين الخير والنفع مما يحقق إسعاد المجتمع ورقيه ودوامه. ومن هنا تختلف اختلافاً جذرياً عن مفهوم السياسة الغربي الذي يقوم وفق نظرية مكيافلي حين نادى بالانفصال بين السياسة والأخلاق، وقال بأولوية السياسة على الأخلاق، وأن من حق الدولة أن تنفض يدها من مفهوم الأخلاق المتعارف عليه بين الناس.

السياسة مقوم من مقومات الثقافة العربية متميز ولكنه غير منفصل عن وحدة الثقافة العربية في مجال الدين والاقتصاد والقانون، وقد قدمت الثقافة العربية في مجال الفكر السياسي مبادىء هامة قوامها:

١ ـ العدالة الاجتماعية.

٢ ـ المساواة أمام القانون.

٣ ـ تكافؤ الفرص في مجال السياسة والاقتصاد.

٤ ـ مبدأ الأغلبية.

ويقوم مفهوم السياسة في الثقافة العربية على دعائم ثلاث: العدالة والترابط بين العدل والمسؤولين والشورى.

١ـ فالعدالة شرط أساسي من شروط الحكم وإن الهناء لتظل ملازمة للأمة ما بقيت تحكم بالحق والعدل.

والعدالة (في مجال الثقافة العربية) لا تعني جانباً واحداً من جوانب الحياة، وإنما تشمل كل جوانبها: الاجتماعية والاقتصادية والسياسية والقانونية. ولا شك أن الدولة التي تقوم ـ وفق تعبير ابن خلدون ـ على العدل لها أن تأمل الرقي والحضارة. والدولة التي تقوم على الظلم لها

أن تأمل الانحطاط السريع والموت.

٢ ـ الترابط بين العدل والمسؤولية.

٣ ـ مبدأ الشورى ويعني تبادل الرأي، ويعني جماعية علاج المشاكل (الماوردي). ومبدأ الشورى من الوجهة السياسية هو: طلب نصح ومشورة أهل الحل والعقد.

* * *

كما قدمت الثقافة العربية في مجال السياسة مفهوم «الكفاية» الذي يقوم على تقدير الكفايات ذات الدراية في المجالات السياسية والمسؤوليات وإتاحة الفرص لها بالإنابة عن الأمة.

* * *

يقوم المفهوم السياسي في الثقافة العربية على أساس:

١ ـ تحقيق أكبر قدر من سعادة المجتمع.

٢ ـ توفير الأمن والاستقرار والسعادة للأمة.

٣ ـ إعطاء الحرية للأفراد للكشف عن آرائهم.

٤ ـ الترابط العضوي بين المفهوم السياسي والمفاهيم الاجتماعية والاقتصادية والقانونية بحيث تشكل الثقافة العربية كياناً عضوياً مترابط الأجزاء.

٥ ـ عدم وجود خط فاصل بين السياسة والأخلاق.

ويتلاقى مفهوم السياسة في الثقافة العربية مع النظرية الديمقراطية في كون كليهما يضع السيادة في يد الأمة، ويؤكد على المساواة أمام القانون، وتكافؤ الفرص السياسية والاقتصادية للمجتمع، بينما يتميز المفهوم العربي بالارتباط بين ما هو مادي وروحي، والاستمداد من القواعد الخلقية، فهناك مقياس خلقي لكل عمل سياسي، وحيث

يرتبط مفهوم السياسة في الثقافة العربية بالقيم الأساسية لها فهي بعيدة دوماً عن التطرف والإكراه والتسلط.

كما يتسم مفهوم السياسة في الثقافة العربية بالتكامل والوسطية. ووفق تكامل الثقافة العربية وشمولها ووسطيتها ترتبط فكرة الحرية بالمسؤولية، فليس من سيد على الرجل الحر إلا (الله) والحرية إذا أسيء استعمالها حطمت نفسها، وحدّ الحرية هو الخير الأسمى للفرد والمجموع.

* * *

والمجتمع ضروري لدوام حياة الأفراد، والدولة ضرورية لدوام المجتمع لا يستقيم بدون وجود سلطة تلقى إليها مسؤولية تحقيق التقدم والاستقرار. وحاجة الفرد إلى المجتمع طبيعية، بل ضرورية. والإنسان في حاجة دائمة إلى تعاون الآخرين. ولا بد من قيام التعاون بين عدد كبير من المتخصصين بالحرف والصناعات، وإن هذا التعاون بين الجماعات من شأنه أن يؤدي إلى التطور وإلى قيام الفنون والصناعات. (الغزالي وابن تيمية).

«والدولة قوة منظمة لحياة الإنسان في المجتمع» «ابن رشد»

والقوانين المنظمة للمجتمع لا يمكن أن تكون فعالة إلا إذا اكتسبت صفة التطبيق. وعلى الدولة تحقيق الاستقرار والحفاظ على وحدة الأمة بأجمعها ومراقبة سلوك الأفراد، وعليها مسؤولية الحفاظ على التعاليم والأهداف السامية، وان الهناءة تظل ملازمة للأمة ما بقيت تحكم بالحق والعدل.

ولا تعترف الثقافة العربية بمفهوم «الثيوقراطية» فالثيوقراطية: نوع من النظام الذي عرفه الغرب، ولم يعرفه العالم الإسلامي قط، وهو يخضع لسيطرة طبقة رجال الدين، وقد طبق مثل هذا النظام في أوروبا في العصور الوسطى.

وليس في الثقافة العربية وفق مفهوم الإسلام منظمة كهنوتية دينية

تقوم بممارسة نفوذ سياسي. وليس في الإسلام رجال دين، بل علماء دين يفسرون النصوص. ولكل إنسان مثقف بالغ الحق في الحديث في الدين. لم يقم في تاريخ الإسلام حكم يمكن أن ينطبق عليه مفهوم الثيوقراطية.

## ٥ - في مجال التربية

مفهوم التربية في الثقافة العربية يتصل بالقيم الأساسية، والمقومات المختلفة والسياسة والاجتماع والأخلاق. والتربية مفهوم إيجابي في الثقافة العربية من شأنه بناء شخصية الإنسان وإعداده ليكون عضواً فعالاً في المجتمع. وهي تعمل على «تكييف» العلاقة بين الفرد والبيئة ودعمها، وإقامة التوازن الكامل بين الفرد والمجتمع على نحو يعمل على تحقيق السعادة والسمو، فهي تدعم الرباط الذي يربط الفرد بالمجتمع، فلا تنفصل غايات الفرد عن مجتمعه، وإنما تتم تنمية فاعلية الفرد داخل المجتمع.

وليست التربية ثقافة عقل أو تربية إحساس، بل هما معاً. فهي بناء العقل والضمير والجسد جميعاً وفق مفهوم (الثقافة العربية) في تكامله وشموله، وكما يتكامل العقل والروح والجسد في الفرد الواحد، فإن هذه القوى تتكامل بين الأفراد، وبين الأفراد والمجتمع. فالفرد له أهميته بالنسبة للمجتمع، وللمجتمع أهميته بالنسبة للفرد وكلاهما يؤثر في الآخر ويتأثر به حيث لا كيان للفرد بدون المجتمع، ولا حياة للمجتمع بدون أفراده.

وتربية العقيدة وتعميقها في نفس الفرد جزء هام في مفهوم التربية، وفي تكوين شخصية الإنسان فهي العامل القادر على تعديل الغرائز المختلفة، (غرائز حب البقاء، الخوف، المقاتلة، السيطرة...) والاتجاه بها إلى السمو والكمال. ولا شك أن هناك خطراً قائماً في ترك الغرائز دون تهذيب. فلا بد من إعدادها حتى تصبح قوة في جانب الحق والخير. والتربية في مفهوم الثقافة العربية: تعد الإنسان ككل (في مجال

الروح والعقل والجسم) بالقدوة، والموعظة، والتثقيف. وهي عملية دائمة لتعديل الخبرة بشكل يزيد في قوتها وفي قدرتها.

وقد جمعت الثقافة العربية في مفهوم التربية بين النظريتين اللتين عرفتهما الثقافات المختلفة: إصلاح النفس وإصلاح المجتمع. وتعمل في مجال يربط بين الواقعية والمثالية وفق مفهومها من التكامل والشمول، فهي تستهدف السمو بروح الفرد وعقله وجسمه. ومن هنا تبنى التربية على:

أولاً: العقل، فتكون رياضة روحية وغذاءً للنفس.

ثانياً: الدين مصدر الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر.

ثالثاً: والأخلاق التي ترتفع بالطبيعة الإنسانية نحو مواطن الحق.

وتربط الثقافة العربية بين التربية والتعليم، وتجعل أهمية التربية في بناء نفس الفرد أساساً للتعليم بوصفه بناء لعقل الفرد، وتجعل للقدوة في البيت أكبر أهمية، وتجعل اختيار المعلم الذي هو المثل الأعلى للطفل أساساً هاماً. وتشترط أن يكون المعلم عاقلاً ذا دين، بصيراً برياضة الأخلاق، حاذقاً بتخريج الصبيان، وقوراً رزيناً بعيداً عن الخفة والسخف [١].

«والتعليم الجماعي أبعد أثر. فالصبي عن الصبي ألقن، وانفراد الصبي الواحد بالمؤدب أجلب الأشياء لضجرهما، ومن مميزات التعليم الجماعي ما تفيده المناقشة والمحادثة من انشراح للعقل. وفي ذلك تهذيب للأخلاق وتحريك للهمم».

وإرهاف الحد بالتعليم مضر بالتعليم، فمن كان مرباه بالعسف والقهر من المتعلمين أصاب نفسه الضيق، فدعاه ذلك إلى الكسل وحمله على الكذب والخبث والتظاهر بغير ما في ضميره [٢].

---

(١) راجع مفاهيم ابن سينا في التربية.
(٢) ابن خلدون في مقدمته.

وتقوم التربية في مفهوم الثقافة العربية على مراعاة ملكات النشء وميوله الفطرية حيث لا يجوز قهر الناشىء على علم لا رغبة له فيه.

وتقرر «الثقافة العربية» أن العلوم كلها شريفة، ولكل منها فضيلة، والإحاطة بجميعها محال. فإذا لم يكن إلى معرفة جميع العلوم سبيل وجب صرف الهمة إلى أهمها، والعناية بأولاها وأفضلها. ولا يمنع كبر السن من التعلم استحياء، لأن العلم إذا كان فضيلة فرغبة ذوي الأسنان فيه أولى. والابتداء بالفضيلة فضيلة، وليس الكبير أقل شغلاً وأكثر تواضعاً. وعلى المتعلم أن يتجنب الحفظ دون فهم للمعنى حتى لا يروي بغير روية، ولا يخبر عن غير خبرة.

وتقرر الثقافة العربية قاعدة اصلية. «كونوا للعلم رعاة ولا تكونوا له رواة».

وعلى المعلم ألا يكتفي بما تعلم، بل عليه أن يزداد منه، وليكن مستقلاً للفضيلة منه ليزداد منها ومستكثراً للنقيصة فيه لينتهي عنها. ولا يقنع من العلم بما أدرك. لأن القناعة فيه زهد، والزهد فيه ترك، والترك فيه جهل. وعلى المعلم أن يرفق بالمتعلمين ولا يعنفهم ولا يحقرهم ويبذل النصح لهم [1].

* * *

وتقيم الثقافة العربية قواعد التربية على أسس سبعة: الإيمان بالله، بالمثل الأعلى، بالأمة، بالعلم، بالحرية، بالعمل. والتربية العربية شمولية متكاملة الأسس: فردية وجماعية وقومية وإنسانية. وأخلاقية التربية العربية: تجنب نقائص الكبر والعجب والحسد والمنافسة وتزكية النفس وحب الحياة.

وتقرر أصول التربية العربية حقائق أساسية:

«على المعلم الشفقة والرأفة بالمتعلمين، وأن لايقصد بعمله جزاءً ولا

---

(١) الماوردي: في أدب الدنيا والدين.

شكراً، وعليه أن يمنع المتعلم من التصدي لرتبة قبل استحقاقها، والتشاغل بعلم خفي قبل الفراغ من الجلي، مع التنبيه على الغرض من دروس العلوم، وأن يزجر المتعلم من سوء الأخلاق بطريقة التعريض ما أمكن دون التصريح، وبطريق الرحمة لا بطريق التوبيخ. فإن التصريح يهتك حجاب الهيبة، ويورث الجرأة على الهجوم بالخلاف، ويهيج الحرص على الإصرار وعلى المتكفل ببعض العلوم أن لا يفتح في نفس المتعلم العلوم الأخرى، وأن يراعي التدريج في ترقية المتعلم من رتبة إلى رتبة، وأن يقتصر بالمتعلم على قدر فهمه، فلا يلقي إليه ما لا يبلغه عقله، فيكلم الناس على قدر عقولهم، فإن المحدث إذا حدث قوماً بحديث لا تبلغه عقولهم كان فتنة على بعضهم».

«وعلى المعلم أن يكون عاملاً بعلمه فلا يكذب قوله فعله، لأن العلم يدرك بالبصائر والعمل، فإذا خالف العمل العلم منع الرشد». وعلى المتعلم أن يكون نقي النفس عن رذائل الأخلاق، وعليه أن يمتنع عن أهم الصفات. الرديئة: الغضب والشهوة والحقد والحسد والكبر والعجب، وعليه ألا يتكبر على العلم ولا يتآمر على المعلم، بل يلقي إليه زمام أمره بالكلية في كل تفصيل، ويذعن لنصيحته، ويتواضع لمصلحته، ويطلب الثواب والشرف بخدمته، حيث لا ينال العلم إلا بالتواضع وإلقاء السمع. مع الإصغاء والإدراك والاطلاع. وعلى المتعلم ألا يدع فنّاً من العلوم المحمودة، ولا نوعاً من أنواعه إلا وينظر فيه نظراً يطلع به على مقصده وغايته، طالباً التبحر لأن العلوم متفاوتة، وبعضها مرتبط ببعض. وعلى المتعلم أن لا يخوض في فن من فنون العلم دفعة واحدة.

بل يراعي الترتيب ويبتدىء بالأهم. فإن العمر إذا كان لا يتسع لجميع العلوم، فالحزم أن يأخذ من كل شيء أحسنه. وعلى المتعلم ألا يخوض في فن حتى يستوفي الفن الذي قبله. فإن العلوم مرتبة ترتيباً ضرورياً وبعضها طريق إلى بعض [1].

---

(١) الإمام الغزالي: إحياء علوم الدين

وفي مفهوم الثقافة العربية أن التربية ترمي أساساً إلى ترقية الخلق السامي وتقويته. والعقل منبع العلم، ومطلعه وأساسه. والعلم يجري مجرى الثمرة من الشجر والعلم وحده لا يغني بدون الأخلاق.

والتربية الخلقية هي في الواقع تربية اجتماعية. والخلق ليس شيئاً شخصياً محضاً، إن ان قيمة تربية الأخلاق تبرز كلما كانت علاقتها بالمجتمع أكثر، وروابطها أقرب. فإذا كان غرض العلم كسب العيش وحده ضاق الأفق العقلي وحرم المرء الترقي الصحيح. والمهارة في فن ما إذا كانت مقرونة بفساد في الخلق وضعف في النفس لا يكسب صاحبها راحة البال، ولا تجعل الناس تثق في علمه أو مهارة فنه. أما إذا سمت أخلاقه وعلت نفسه كان عمله أكثر أثراً وإيجابية.

* * *

وتربط الثقافة العربية بين ثقافة الفكر وثقافة الخلق، فالمعرفة تكون ثقافة الفكر، والتربية تكون ثقافة الخلق. والعلم وحده لا يكفي، ولا بد معه من التربية. ولا بد أن تتم الرابطة بين البيت والمدرسة بالقدوة والثقافة معاً. وتربية الفضائل تكتسب بالقدوة في البيت وتنمى في المدرسة، والمتعلم يحتاج إلى جهد الأب والمعلم وتدريب العقل. واستيعاب الحقائق وحدها لا يكفي، ولا بد أن يرفدها، ويشترك معها تهذيب النفس، وتقويم الأخلاق. ولا بد من تثقيف العقل وتأديب النفس وتزكية الروح وتقوية الجسم، حيث يتمثل في التربية مفهوم الثقافة العربية متكاملة: دينياً وخلقياً واجتماعياً، ممتزجة. لا يبنى نوع منها على حساب الآخر.

والإيمان بالله هو حجر الزاوية، والتمييز بين الحلال والحرام، والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، والبر بالمحتاج، ومساعدة الضعفاء، وخلوص النية، وطهارة النفس، والاعتماد على النفس، والكرامة، وحسن الظن بالناس، وحرية الإرادة والجرأة الأدبية، والصراحة، والصدق، والاستقامة في الرأي والعمل.

وهذه المفاهيم في مجموعها تتمثل في قدرة المعلم على السؤال والبحث عن الحقيقة والرفق بالمتعلمين وتعليمهم بالقدوة وتقديس حرية الرأي وتفهم الأحكام تفهماً صحيحاً، وفقاً للقاعدة: «علموا ولا تعنفوا، فإن المعلم خير من المعنف، لا يعنف متعلم ولا يحقر ناشىء، ولا يستصغر مبتدىء».

والأخلاق ليست قيوداً، ولكنها وسائل لتنظيم الحرية، وهي لاتعيق النمو والحركة بقد ما تحفظ الشخصية الإنسانية من الانهيار والضعف والرخاوة حيث تتاح الطيبات والزينة بالاعتدال المتوازن بين الاندفاع والجمود، فلا يؤخذ شيء بغير حقه، ولا يجري السرف في هذا الأخذ، وليس هناك انفصال بين العقيدة والخلق. بل بينهما امتزاج وتكامل ولا يمكن أن تبقى الأخلاق صالحة إذا وقع الانحراف عن العقيدة.

* * *

وفي مفهوم الثقافة العربية: العلم حق وفريضة على كل رجل وامرأة، ثم هو رسالة من المهد إلى اللحد.

والتعليم حق كل صبي وصبية، واجب على الدولة، وهي مكلفة به إذا لم يكن أهله قادرين.

* * *

وإن الصبي يجب البدء بتهذيبه عند فطامه لئلا تثبت في نفسه الأخلاق الذميمة فيصعب بعد ذلك نزعها من نفسه. والطفل أمانة عند والديه، وقلبه الطاهر جوهرة نفيسة. والطفل المستحي لا ينبغي أن يهمل، بل يستعان تأديبه بحيائه وتمييزه. ولا يؤخذ الطفل بأول هفوة، بل يتغافل عنه، ولا يهتك ستره، ولا سيما إذا ستره الصبي واجتهد في إخفائه. وعلى المربي أن ينظر في حال سنه ومزاجه، وما يحتمله في نفسه من الرياضة، ويبني على ذلك أسس تربيته.

ومن أسس التربية في الثقافة العربية مراعاة ميول الأطفال واستعدادهم. ومن القواعد الأساسية للتربية: أن بناء الشخصية للفتى والفتاة يتم أساساً في البيت، وبقدوة الآباء والأمهات. على أن يتم التأديب بالحزم الممزوج بالرفق. وعلى الصبي أن يتجنب معايب الأخلاق بالترهيب والترغيب، والإعراض والإقبال. وعلى المربي أن يبيح للأطفال الفرصة بعد المكتب في اللعب حتى يذهب عنهم آثار التعب والملل. وعلى الأطفال أن يرجعوا إلى بيوتهم للغذاء، حتى لا يتألم الطفل الفقير الذي لا يمكنه مجاراة الموسرين في مظاهر يسرهم عندما يحملون غذاءهم معهم إلى المكتب. ومن كان مرباه بالعسف والقهر سطا به القهر، وضيق على النفس في انبساطها، وذهب بنشاطها، ودعا إلى الكسل، وحمل على الكذب والخبث خوفاً من انبساط الأيدي بالقهر عليه. وعلى الآباء أن يعلموا أولادهم العوم والرماية، وأن يثبوا على الخيل وثباً.

* * *

وليس هناك انفصال بين التربية والتعليم. والتعليم لا ينفصل من مهمة تقويم النفس، ضمن حدود الحق والبر، وينتهي بها إلى تكوين الإنسان الممتاز، الروح مرتبطة بالجسم. ولا شك أن التربية الكاملة هي (تربية الروح، تربية العقل، تربية الجسم) هي الوسيلة الصادقة المثلى لفهم العلاقة بين الله والإنسان والمجتمع، وهي أبرز مفاهيم الثقافة العربية.

ولا شك أن أعظم أهداف التربية في الثقافة العربية هي خلق فرد مؤمن بالله، مدرك لحقوقه وواجباته عامل للمصلحة العامة، متمسك بمبادىء الحق والخير، يستهدف المثل العليا في سلوكه الفردي والاجتماعي، ويملك إرادة النضال المشترك، وأسباب القوة والعمل الإيجابي [1].

(١) راجعنا في هذا الفصل آراء ابن سينا والغزالي والعبدري وابن خلدون.

في مفهوم الثقافة العربية يمثل «الاقتصاد» عنصراً هاماً يتكامل مع العناصر الأخرى، ولا يمتاز عليها. له أهميته وضرورته الأساسية في حياة الإنسان والمجتمع، ولكنه يتكامل تكاملاً أساسياً مع مقومات السياسة والقانون والدين وفق القيم الأساسية للفكر الإسلامي.

فالاقتصاد ليس مقوماً مستقلاً، وليس له إرادة غالبة، ولا نفوذ مفروض على المقومات الدينية والاجتماعية والخلقية وهو مطبوع في الثقافة العربية بطابع الحرية والخلق والإنسانية.

ولما كان مفهوم الثقافة العربية هو التكامل والتوازن والوسطية بين الفردية والجماعية، فإنه لا يقر إذابة الأفراد في بوتقة الجماعة ولا إذابة الجماعة في بوتقة الأفراد. بل يقر التعاون بينهما والالتقاء.

وهو حين لا يعارض الفطرة، يجعل من النظام القانوني نظاماً أخلاقياً يقوم على تزكية النفوس، ويعترف بالكفايات والمواهب.

وقد استهدف المفهوم الاقتصادي أساساً: تحقيق العدل الاجتماعي، وتكافؤ الفرص للمجتمع، ومنع الاستغلال الاقتصادي للضعفاء من جانب الأقوياء، ومنع استغلال طبقة لطبقة من الناس، أو استغلال فرد لفرد. ويقوم المقوم الاقتصادي في الثقافة العربية على مراعاة الوسطية والأخلاق. والاقتصاد في معناه اللغوي إنما يعني التوسط بين الإسراف والتقييد حيث لا ينفصل الأساس الأخلاقي عن المفهوم الاقتصادي في حدود الأمانة والإخلاص والعدل.

وتقدم الثقافة العربية مفهوماً واضحاً وفق طابعها المتكامل، وقوام هذا المفهوم: الحض على التجارة وأداء الزكاة، وتحريم الربا، والاحتكار، وإقرار حق الملكية الفردية بمفهومها الأصيل، وهي أنها وظيفة اجتماعية. والعمل في الإسلام فريضة، وهو حق مكفول لكل مواطن، ويلتمس مفهوم الاقتصاد قيمة أساسية أخرى: هي الحد من أرباح الوساطة، وتحريم التطفيف «الأخذ أكثر مما يستحق، الإعطاء أقل مما يحق».

ومن أهم معالم الاقتصاد في مفهوم الثقافة العربية: التفرقة بين الحلال والحرام، وتحريم الربا، والاحتكار والعقود الباطلة.

وإقامة التداول الاقتصادي على أساس الخلق والإيمان، والوازع الديني الشريف، واعتبار مشاكل الفرد والجماعة مشاكل إنسانية بالدرجة الأولى، ثم مادية بعد ذلك، وأن لا يغفل هدف أساسي هو توثيق أواصر الأخوة الإنسانية بين البشر.

والاقتصاد في مفهوم الثقافة العربية: يقر الكسب الحلال، ويوجب عمل المرء بيده، ويقر البيع المبرور، ويقر البيع إلى أجل بثمن المثل النقدي، ويقرر أنه في كل ذي عسرة نظرة إلى ميسرة، ويدعم حقوق من لا يستطيعون الإنتاج ويكفلها ويقر الإنفاق للوالدين والأقربين واليتامى والمساكين وابن السبيل، ويحرم الخمر والمسكرات والمخدرات كوسائل للكسب، ويشجب كل المكاسب التي تضر بالآخرين: كالرشوة والسرقة والميسر وصنوف المقامرة وجميع المعاملات التي يخالطها الغش والغبن، ويحرم احتكار الحبوب والأغذية والأمتعة طمعاً في ارتفاع الأسعار، كما يحرم طرق الكسب التي تقضي إلى النزاع والخصام، ولا يقر وسائل الكسب الغامضة المجهولة.

كما يحظر التعامل على أساس الربا، وأكل أموال الناس بالباطل، وبخس أشياء الناس كما يحظر استغلال حاجة الناس إلى المال.

* * *

وتقر الثقافة العربية الملكية الفردية، ولكنها لا تدع الفرد حراً طليقاً في استهلاك ماله، والتصرف في ثروته. بل تحدّ له حدوداً هي إحدى طرق ثلاث: إما أن يستهلكه في مرافقه، أو يستعمله في تجارة أو صناعة تعود عليه بالربح، أو يدَّخره. وفي كل حالة من هذه الحالات تجب عليه زكاة أو صدقة.

* * *

والزكاة ضريبة تجبى على الأرض المملوكة ملكاً خاصاً. تكون نسبة ثابتة من ثروة المكلف، وتشمل إنتاج الأرض والذهب والفضة والبضائع والحيوانات.

وللإنسان أن ينفق المال ويتصرف في الثروة، بشرط الاعتدا والتوسط في المعيشة. وكل نفقة ينفقها المرء فيما يفسد الأخلاق أو يضر المجتمع محرمة، أو كل ما يؤدي إلى السرف، ويحرض كل من له فضل مال بعد استيفاء حوائجه أن ينفقه في سبيل الصالح العام.

* * *

والثقافة العربية تؤمن بإعادة توزيع الثروة بوسيلتين: نظام الزكاة، ونظام المواريث. فمن يدخر يأخذ المجتمع منه ٢,٥ في المائة سنوياً لتوزع لمن يعجزون عن كسب معاشهم. ومعنى الزكاة في اللغة التطهير. وهي ليست صدقة ولكنها حق للأمة في مال الغني، وللدولة خزنة (بيت المال) يكفل العون للفقراء أو العاجزين عن كسب الرزق. بل إن حق الفقراء في مال الأغنياء ليس مقصوراً على الزكاة.

وبالنسبة للتوريث فإن الثروة يعاد توزيعها كل جيل، بعد وفاة صاحبها الأصلي. فإن لم يكن للمورث أقارب من عصبه، قسم ماله على الأباعد من ذوي رحمه، فإذا لم يكن آل إلى بيت المال. وعلى الموسر أن يقرض من له حاجة، ولا يستوفي منه أكثر من رأس ماله.

وكل مال في مفهوم الثقافة العربية يؤول إلى التجزيء، ولا يلبث أن ينقسم إلى أجزاء صغيرة.

* * *

وتؤمن الثقافة العربيةبضرورة تدبير وسائل الحياة الكريمة للطبقة الفقيرة من غذاء وكساء ومسكن.

وتقر الثقافة العربية في مجال الاقتصاد: حق الملكية الفردية (الملكية

الخاصة ) . والملكية في الثقافة العربية وظيفة اجتماعية . والملكية الخاصة تلتزم بوظيفتها الاجتماعية بحسبان أنها أمانة وليست حقاً مقدساً .

ولا يجوز أن تنفصل الملكية عن العمل . فالعمل فريضة ، فإذا قصرت الملكية الخاصة في وظيفتها الاجتماعية ، وتحولت إلى أداة استغلالية وجب مصادرتها أو تحويلها إلى ملكية عامة .

والملكية الخاصة خاضعة للقوانين الأخلاقية ، واعتبارات المصلحة العامة . وتقدم المصلحة العامة إذا اصطدمت مع مصلحة الفرد . والملكية الفُردية على الجملة حق اجتماعي لا حق طبيعي .

**المال :**

وللمال وظيفة اجتماعية غير فردية ، وهو لا يقصد لذاته ، وإنما يقصد لأداء خدمات اجتماعية عن طريقه . ويشترط لتحصيله وجوه الكسب السليمة : الفلاحة والصناعة والتجارة .

وعلى المال التزامات كالزكاة والصدقات ، وإنفاق المال في سبيل المصلحة العامة ، والذود عن الوطن . وعلى مالك المال توجيه نشاطه وكفايته إلى استثمار ماله في نطاق الوجوه المشروعة للاستثمار وبغير عدوان على مصلحة الجماعة . ومن أحيا أرضاً ميتة فهي له . ومن عطل أرضاً ثلاث سنين لم يعمرها فجاء غيره فعمرها فهي له . ومن أخلاقية الإستثمار أنه يتعين على صاحب الأرض أن يتركها دون استثمار ولا يستثمرها استثماراً ضعيفاً . وعلى كل إنسان أن يحسن استثمار ماله . فإذا تضخمت الثروة بين يدي فئة قليلة من الناس ـ وكانت هذه الثروة من مصادر الانتاج التي عليها قوام المجتمع ـ ثم ثبت عجز هذه الفئة عن استثمارها ، وأدى هذا العجز إلى حرمان المجتمع من منافع الاستثمار ، كان لولي الأمر أن يتدخل بما يدرأ عن المجتمع هذا الضرر العام .

وتقرر الثقافة العربية توازن المجتمع في كيانه الاقتصادي كما هو متوازن في جميع جوانبه الأخرى ، فتوزع القوى الاستثمارية على مصادر الإنتاج المختلفة . ولا يركز استثمار الأموال في تملك الأرض الزراعية

وفلاحتها دون المصادر الأخرى للتوظيف كالصناعة والتجارة.

والمال أساساً: هو مال الله، والإنسان وكيل عليه. ولذلك لا بد من تقديم حق الفقراء والسائلين والمحرومين. ولا يجوز أن تترك الأموال تتجمع في أيدي قلة مميزة إلى الحد الذي يمكنها من ممارسة السيطرة على الآخرين واستغلالهم. ومن شأن تجمع المال لدى قلة مميزة أن يؤدي إلى الترف والتبذير والضياع. وعلى المجتمع أن يستخدم المال، وأن يجعله وسيلة للإنتاج، فلا يكون إلهاً ومعبوداً، وإنما يكون في خدمة الإنسان بحيث لا يصبح رأس المال له قوة وسيطرة على المجتمع، ويصبح صاحب المال صاحب استغلال وإقطاع في المجتمع.

* * *

وتقر الثقافة العربية في مجال الاقتصاد قاعدة هامة هي: قاعدة الإنفاق للحيلولة دون تكديس الثروة.

و«الإنفاق» من وسائل الرواج، وانتعاش الأموال. حيث يؤدي الإمساك إلى الكساد، وإلى ركود الاقتصاد، وإلى البطالة. ويتم ذلك بفرض الزكاة والدعوة إلى الإنفاق في أوجه المصلحة العامة وعن طريق نظام الإرث وتحريم الربا. ويشكل الإنفاق حركة يطلق عليها «دورة الإنفاق» المربحة، وهي تطبق في أوقات الرخاء والكساد معاً. فالإنفاق يحقق الخير للمجتمع، ويحكم قاعدة الإنفاق مقوم أخلاقي هو مصلحة المجتمع قبل مصلحة صاحب المال ومن شأن الإنفاق تحقيق قاعدة إعادة توزيع الدخل القومي.

وتؤكد أحداث النظريات الاقتصادية أهمية الإنفاق في أوقات الأزمات: هو ما يسمى «الإنفاق في الضراء» فالأزمة الاقتصادية ترجع إلى قلة مدخول الإنفاق مما يؤدي إلى نقص الطلب وعجز الاستهلاك بالتالي، مما يتحتم معه زيادة في أوقات الكساد بالتوسع في المشروعات العامة لكي يزداد حجم المدخول، وتزداد القوة الشرائيه، فينتعش

الاستهلاك، الأمر الذي يعجل بالعودة إلى الرخاء [1].
ويحقق الإنفاق الجماعي ثمرة سريعة، فيولد دورة الإنفاق المربحة.

* * *

وترفض الثقافة العربية «الربا» رفضاً باتاً وترى أن الواقع القائم ما هو إلا اضطرار لنظم فرضها الاستعمار والرأسمالية العالمية.

والربا هو كل فائدة تنتج عن قرض المال أو المنتوجات الغذائية في التبادل التجاري. ومن أخطار الربا أنه يؤدي إلى تركيز الثروة في أيدي فئة قليلة من الناس، وحرمان المجموع منها بالتدريج، ووقوع الملايين تبعاً لذلك في العبودية، ويحرم الربا مهما كان مقداره إلا للمدين المضطر، الاضطرار الذي يدفع للهلاك، ويحلّ الله البيع ويحرم الربا. ومن المقبول تعادل القيمتين المتبادلتين، ويحرم ما عدا ذلك.

(١) انتفعنا في هذا الجانب بكتابات مصطفى السباعي وعبد المغني سعيد.

# الباب الثاني

# الثقافة العربيّة

# في مواجهة الثقافة الغربيّة

# الفصل الأول

# الثقافة العربية في مواجهة الثقافة الغربية

عاشت ( الثقافة العربية ) حياتها على قاعدتين :
الأولى : النمو والحركة من خلال مصادرها ومقوماتها .
الثانية : الانفتاح على الثقافات المختلفة شرقية وغربية .

وقد واجهت عديداً من التحديات في تاريخها الطويل ، وهي تحديات المذاهب الفلسفية ، والأديان والمذاهب المختلفة التي كانت تدخل بها بلاد العالم الإسلامي من بوذية ومجوسية ووثنية وفلسفات هيلينية وهندية وفارسية . وقد تحولت هذه المذاهب والفلسفات إلى قوى غازية تمثلت في دعوات الباطنية والمانوية والقرامطة وغيرها من الدعوات التي واجهها كل من الفكر الإسلامي ، والثقافة العربية ، والتي كانت بمثابة غزو فكري شديد المراس . له مدارسه ودعاته وقواه . وأبرز مظاهره « الشعوبية » التي كانت تريد تحطيم الفكر الإسلامي بإثارة الشبهات ومحاولة تحريف القيم الأساسية . ومن هذه النظريات : محاولة إعلاء العقل إعلاءً يقضي على قيم أساسية الفكر الإسلامي هي : تكامل المعرفة القائمة على التوازن بين ثقافة القلب وثقافة العقل ، ومحاولة إدخال مفاهيم وحدة الوجود والحلول والاتحاد إلى نظرات المعرفة والتصوف ، ومحاولة فرض المنطق اليوناني ونظرية أرسطو على الفكر الإسلامي .

وقد استطاع المفكرون المسلمون العمل على تحرير الفكر الإسلامي والثقافة العربية من مثل هذه الشبهات .

واليوم تواجه الثقافة العربية مثل هذا التحدي في ظل ظروف أشد عنفاً. فقد كانت الثقافة العربية في فترة نقل الفلسفات اليونانية والهندية والفارسية تملك حريتها الكاملة في هذا المجال، وكانت قادرة على الاختيار والنقل لكل ما تراه من هذا التراث صالحاً له ونافعاً ومضيفاً إلى فكره أسلوباً ومنهجاً ومادة، وقادرة أيضاً على الرفض لما تراه معارضاً لقيمها الأساسية. ومع ذلك فقد واجه الفكر الإسلامي والثقافة العربية من جراء هذه المحاولة أخطاراً لا حد لها، وتحولات وشبهات غاية في الخطورة. وقام المجددون والمصلحون ومصححو المفاهيم من الأئمة الأعلام أمثال ابن حزم والغزالي وابن خلدون بجهد ضخم في سبيل إزالة النتائج التي ترتبت على هذه الآثار، والتي اتخذها خصوم الفكر الإسلامي والثقافة العربية وسيلة لمحاولة تدمير القيم الأساسية، وإثارة الشبهات حولها، وهي قضية ضخمة يجب أن تعرض لتكشف عن هذه الأخطار التي واجهتها الثقافة العربية ثم استطاعت التحرر منها بعد وقت ليس بالقصير.

أما اليوم فإن الثقافة العربية تواجه هذا التحدي الجديد في جو أقل تماسكاً وقوة وصموداً ـ لأنها ما تزال خارجة من مرحلة ضعف وتخلف استمرت قرنين من الزمان ـ ولأمر آخر أشد خطراً. وذلك أن يد الثقافة العربية ليست منطلقة بالحرية في أن تأخذ ما تشاء أو تدعُ ما تريد، وأن هناك قوة قاهرة تفرض عليها هذا الفكر العربي وتحميه وتدافع عنه. وقد أقامت هذه القوة القاهرة لذلك مؤسسات ثابتة لن تزول في عهد قريب. كما أقامت له وسائل حماية ضخمة من صحف ومجلات ذات شهرة، ومن كتّاب مغتربين لهم مراكز ضخمة في المجالات الثقافية والتربوية، ولهم صوت مسموع في كل ناد. هذا بالإضافة إلى ضعف جبهة المواجهة، وقوى تصحيح المفاهيم والرد على الشبهات حيث لا يجد صوتها الصدى، ولا يكاد يصل إلى الجموع العامة، وليس له مثل ذلك النفوذ. ومن هنا يبدو مدى الخطر الذي تواجهه الثقافة العربية في عصرنا الحاضر وفي ظل قوى الاستعمار ونفوذه

الاجتماعي والسياسي والثقافي المتمثل في بعض قواعد الغزو الفكري في العالم الإسلامي والبلاد العربية .

ولا شك أن هذه القوى الفكرية الغازية باسم الاستعمار الثقافي ، والغزو الفكري ، والتغريب والشعوبية ، قد بدأت تحول دون قدرة الثقافة العربية على التكامل والمقاومة ، واستكمال نفوذها وقوتها وأثرها الذي يجب أن يكون بعيد المدى في تحرير الفكر والثقافة ، والتماسها مقوماتها الأساسية القادرة على أن تمكنها الحرية والمواجهة في جو أشد ما يكون خطراً بعد نكسة حزيران ١٩٦٧ حيث يقوم النفوذ بحملات ضارية من حملات الحرب النفسية والغزو الثقافي ، وحيث تصدر اليوم صحف لامعة وكتب باهرة تحمل تلك السموم الخطيرة والبعيدة الأثر في جيلنا وأمتنا . ومن هنا كان لابد من صيحة قوية تدعو إلى تحرير الثقافة العربية من مفاهيم التغريب والشعوبية ، وشبهات المبشرين والمستشرقين ، وأباطيل الصهيونية ، وتحريفات الماسونية ، ومفاسد الشعوبية ، بالإضافة إلى وثنيات اليونان والمجوسية ، ودعوات الإلحاد والإباحة .

★ ★ ★

إن أخطر ما يواجهنا به الغزو العثماني المؤيد بالنفوذ الأجنبي الاستعماري يتمثل في عدة محاولات :

أولاً : انتزاعنا من جذورنا ، وفصلنا عن ماضينا ، وذلك بالدعوة الصاخبة إلى مخاصمة التراث الماضي والجذور ، وذلك على النحو الذي يفصلنا عن قيمنا الأساسية .

وفي هذه الحملة تتجلى جماعة التغريب في اتهام الماضي واحتقاره وإثارة الشبهات حوله ، والدعوة إلى التخلي عنه نهائياً ، وهو ما لم تفعله الثقافة الغربية التي لم تجد سبيلاً إلى بعث النهضة إلا بإحياء التراث القديم الهليني . وإعادة بعثه واعتماده أساساً عميقاً لكل ما وصلت إليه

الثقافة من تطور وحركة.

ولكن النفوذ الاستعماري لا يؤمن بالمنهج العلمي المجرد من الهوى، فيتعامل مع تراثه بإيمان وقداسة، ويعتبره مصدراً رئيسياً لنهضته بينما يحاول معنا إتهام تراثنا، وإثارة الشبهات حوله، ودعوتنا إلى إهماله والتحرر منه.

ثانياً: إثارة الدعوى القائلة بأن الثقافة إنسانية، ولذلك فليس هناك ضرورة لقيام ثقافات قومية. لذلك فإن القول بأن العالم كله يجري نحو الوحدة الفكرية العالمية من أخطر دعوات التغريب والغزو الثقافي.

والحق أن قيم الثقافة العربية تختلف اختلافاً واضحاً عن قيم الثقافات الأخرى مستمدة جذورها من القرآن واللغة العربية والإسلام والتاريخ العربي الإسلامي، والتراث، ومن الذاتية العربية الواضحة المزاج النفسي والعقلي. وكذلك قيم الثقافة الغربية ذات الطابع الخاص المختلف، بل المتباين أحياناً عن قيم الثقافة العربية، هذه التي قامت على أسس مستمدة من المجتمع الأدبي. وقد شكلتها عوامل تاريخية مختلفة تتمثل في ذلك اللقاء بين التراث اليوناني والقانون الروماني، والديانة المسيحية. ثم تشكلت في ذلك المزيج الذي وصف بأنه «إطار مسيحي ومضمون يوناني روماني» ثم كانت حركة لوثر وكالفن واستمدادها من الفكر الإسلامي ومحاولتها تحرير المسيحيين من نفوذ الكنيسة، ثم ظهور الثورة الصناعية في أوروبا مستمدة من المنهج العلمي التجريبي الإسلامي، ثم قيام الثورة الفرنسية، كل هذا قد خلق نزعات أدبية وفلسفية كونت عناصر الثقافة الغربية، فكانت الفلسفة المادية وليدة هذا التطور.

في ضوء هذا كله تكونت للثقافات الغربية قيم ومفاهيم تختلف كل الاختلاف عن قيم ومفاهيم الثقافة العربية، فإذا قيل إن الثقافة «إنسانية» كان معنى هذا أن الثقافة الغربية صاحبة النفوذ الأقوى سياسياً وعسكرياً، والمسيطرة والمحتلة للعالم العربي، هي القادرة على أن تفرض

نفوذها وتصهر في بوتقتها الثقافة العربية، ولما كانت الثقافة العربية عميقة الجذور، ذات تاريخ عريق وماضٍ أصيل، ولما كانت هذه الثقافة ممتدة لم تتوقف ولم تنفصل عن واقع الأمة العربية، فإنه من العسير أن تنصهر في ثقافة أخرى أو تذوب في بوتقتها.

## الفصل الثاني

# وجوه التباين والاختلاف بين الثقافتين

## ٢ ـ وجوه التباين والاختلاف بين الثقافتين

تتباين طوابع الثقافات الغربية، وتختلف اختلافاً واضحاً عميقاً عن طوابع الثقافة العربية في عدد من القيم الأساسية أهمها: أولاً ـ لا ترى الثقافات الغربية أن «الدين» جزء أساسي من تكوين فكرها وثقافتها. وترى أن المسيحية الشرقية كانت عارضاً من العوارض التي التقت بها وأصابتها بالانحراف، لأنها نقلت إليها روح النسك الآسيوية، ولكن الثقافة الغربية استطاعت امتصاص هذا الرافد وصهره في روحها الأساسية التي تدين للوثنية اليونانية وحضارة روما القديمة.

بينما الثقافة العربية تؤمن بالدين جزءاً أساسياً لا ينفصل عن المجتمع.

ثانياً ـ تؤمن الثقافة الغربية بأن محتواها العلمي والأدبي والفني والصناعي إنما يهدف إلى خدمة الإنسان الأوروبي قبل غيره، وعلى حساب غيره، وليس إلى خدمة الإنسان بصفة عامة أو من حيث هو بشر.

بينما تؤمن الثقافة العربية بالطابع الإنساني، وترى أن قيمتها لخدمة البشرية جميعاً.

ثالثاً ـ تؤمن الثقافات الغربية بحلول للمشاكل على قاعدة القوة وأسلوب الميكيافيلية الذي تنفصل فيه الأخلاق عن السياسة، وعلى قاعدة الغاية التي تبرر الواسطة.

بينما تؤمن الثقافة العربية بالحلول الأخلاقية، ولا تبرر الوسيلة عندها الغاية.

رابعاً ـ تقوم الثقافة الغربية على أساس انفصال الضمير عن العلم، وسيادة المادة على الضمير. بينما تؤمن الثقافة العربية بأن الضمير أساس العلم والحضارة.

خامساً ـ الثقافات الغربية تتشكل في صورتين: صورة الفردية الرأسمالية، وصورة الجماعية الماركسية، وهما مذهبان يتنازعان ويتصارعان، بينما تقوم الثقافة العربية على أساس الجمع بين الفردية والجماعية في تناسق وتكامل وتوازن وامتزاج.

وحيث يؤمن الغرب بقداسة الفرد والشخصية الإنسانية، يؤمن الفكر الماركسي بقداسة الجماعة، ويرى الفرد ترساً في آلة.

هذا بينما تؤمن الثقافة العربية بالإنسان سيداً للكون تحت حكم الله، وعضواً مؤثراً في الجماعة، فهي لا تنكر مكانته كإنسان، ولا تنسى دوره في الجماعة.

سادساً ـ تحاول بعض المذاهب في الثقافات الأوروبية إثبات أن الإنسان عبد نزواته وغرائزه الجنسية، وأن العقل الباطن هو المسيطر الفعال في توجيه الإنسان. وبهذه النظريات أدخل الإنسان إلى حظيرة الحيوان.

وهذه المفاهيم تتعارض مع مفاهيم الثقافة العربية التي ترى للإنسان كرامة تعلو على المخلوقات جملة، وترى له سيادة تحت حكم الله ترفعه بالعقل وتكرمه بالإيمان.

سابعاً ـ تفصل مختلف مذاهب الثقافات الغربية بين الروح والمادة، والعقل والقلب، وبين الدين والحياة.

بينما تؤمن الثقافة العربية بالوحدة بين هذه العناصر والالتقاء والتوازن فيها.

كما تنكر الثقافات الغربية الغيبيات وتؤمن بمادية الحياة وبالمحسوس والملموس، بينما تؤمن الثقافة العربية بأن هناك جانباً من الحياة لا يصل إليه الحس أو النظر، ولكنه يفهم بالعقل والإيمان.

ثامناً ـ تعلي الثقافات الغربية من شأن الجنس، وتحاول أن تجعل

للاريين والبيض والغربيين استيلاءً على الساميين والملونين والشرقيين، وتحاول بهذا الإعلاء أن تجعل للاستعمار سيادة على الأمم التي وقعت تحت سيطرة الاحتلال الأجنبي. وفي هذا تختلف الثقافات الغربية عن الثقافة العربية التي ترى أن الناس سواسية كأسنان المشط. وأنه لا فضل لعربي على أعجمي، ولا أبيض على أسود إلا بالتقوى والعمل.

تاسعاً - تنظر الثقافات الغربية إلى الإسلام على أنه «دين» مثل الأديان الأخرى اللاهوتية التي تقف عند العلاقة بين الله والإنسان، بينما تنظر الثقافة العربية إلى الإسلام نظرة أكثر عمقاً وواقعية حين تراه (ليس ديناً فقط) ولكنه دين ونظام حياة وحضارة.

عاشراً - تؤمن الثقافات الغربية بما يسمى سيادة أوروبا وسيادة الغرب، وأن باقي الأجناس والقارات في الدرجة الثانية، وأن هناك حقاً مقدساً على البيض أصحاب الحضارة في السيادة على الأجناس والأمم، وحق تمدينها. وهذا هو التفسير الفلسفي للوجود الاستعماري، بينما تؤمن الثقافات العربية بأن الحضارات ليست استعماراً أو سيطرة، ولكنها إخاء ومساواة وحرية.

حادي عشر - تدعو الثقافات الغربية إلى إطلاق الحياة وتحريرها تحريراً كاملاً من كل القيود. وقد أصبحت هذه الإباحة طابع المجتمعات بالإضافة إلى الإلحاد الذي هو طابع الفكر، ويستتبع ذلك تعرية كاملة للنفس الإنسانية وإعلاء جانب الغرائز والملذات، وإطلاقها إلى آخر مدى، والعمل على كشف الجوانب الحيوانية والمادية والغريزية والجنسية، وتبرير حريتها، وتوجيه كافة المفاهيم والقيم لخدمة هذا الاتجاه.

وتختلف الثقافة العربية مع الثقافات الغربية في هذا المعنى، وترى أن لكل حرية ضوابط، وأن المجتمعات لا تستطيع أن تخرج عن مقومات أساسية قائمة على الأخلاق. وترى أن في ذلك حماية للإنسان من الانهيار

والانحلال، وترى أن الإنسان القوي الصادق هو إنسان الثقافة العربية. إن نظرة الثقافة العربية هي نظرة منفتحة منطلقة، ولكنها لا تطلق العنان للغرائز، ولا تفتح الطريق إلى الملذات والشهوات. هذه النظرة التي تؤكد للباحثين والفلاسفة الغربيين المنصفين جميعاً حاجة الإنسانية إليها اليوم في مواجهة أزمة القيم ونمو مجال الماديات مع تجاهل حاجة النفس الإنسانية إلى الضمير والروح والأخلاقيات.

## الفصل الثالث

# أصول الثقافة الغربية ومصادرها

**تستمد الثقافات الغربية مصادرها ومنابعها من قوى متعددة :**

( ١ ) الإغريقية الوثنية .
( ٢ ) المسيحية الغربية .
( ٣ ) الإسلام .
( ٤ ) الماسونية الصهيونية .
( ٥ ) الماركسية .

## ١ - الإغريقيّة الوثنيّة

١- أما الإغريقية الوثنية فهي المصدر الأساسي لهذه الثقافات، ومنها تنطلق أغلب التيارات الجديدة، وتؤكد الثقافة الغربية عراقة صلتها بثقافة اليونان القديمة، وحضارة روما. ويؤكد رجال الثقافات الغربية أنهم يستمدون غذاءهم الفكري من مآثر اليونان والرومان، وأنهم يعملون على الوفاء بما وضعته من القيم، وتؤكد الثقافة الغربية أصالتها اليونانية باعتبارها المصدر الأول والأعظم.

وتقف من المسيحية الشرقية موقفها من رافد أصابها بالانحراف، إذ اعتبرت أنها كانت دخيلة على الروح الأوروبي، وأنها نقلت إلى أوروبا (روح النسك الآسيوية). وكيف أن الثقافة الغربية استطاعت أن تنتصر عليها بعد قليل، وأن تتحرر من مفاهيمها، وكيف تمكنت الثقافة الأوروبية من ابتلاع المسيحية وامتصاصها وتمثلها. وكان في ذلك التحرر لمنطق الغرب من روح النسك الآسيوية، والتخلص من روح اللاهوت الكنسي، وكيف أن أوروبا لم تكن متدينة في وقت من الأوقات [١]. ولكن هل كان هذا حقاً؟ وأن المسيحية لم تؤثر في الثقافة الغربية تأثيراً جذرياً بعيد المدى؟ وأن المسيحية الغربية تلاقت مع الوثنية اليونانية في كثير من القيم، وخاصة في نظرية التثليث التي كانت موجودة بالفعل في الفكر الإغريقي، والفكر الفرعوني، والفكر الهندي القديم.

وقد كان يمكن أن تنصهر الثقافة بعاملي الإغريقية الوثنية والمسيحية الغربية. ولكن عاملاً خطيراً بعيد المدى - ربما لم يكشف عنه بوضوح حتى الآن - كان له أثره البعيد في تشكيل الثقافات الغربية ذلك هو روح (الفكر اليهودي الماسوني الصهيوني) الذي يمكن القول بلا مبالغة إنه كان مصدراً خطيراً وهاماً في تحول الثقافات الغربية عن مفاهيمها،

(١) راجع ما أورده (إسماعيل أحمد أدهم) في «عن الشرق والغرب» (الرسالة ١٩٣٦).

ثم كانت الماركسية في العصر الحديث عاملاً جديداً في الثقافة الغربية بعيد المدى.

* * *

٢ ـ ويمكن القول بأن النهضة الأوروبية في فجرها إنما قامت على أساس إحياء الروح الإغريقي بكل مقوماته، بعد أن كانت قد انفصلت عنه أكثر من ألف عام. إذ المعروف أن الدولة الرومانية قد سقطت حوالى ٤٠٠ م. وأن المسيحية قد استطاعت أن تسيطر إذ ذاك بنفوذها الغلاب إلى أن بدأت النهضة في القرن الخامس عشر عندما أرادت استحياء التراث الإغريقي، وإزاحة النفوذ المسيحي المتمثل في الكنيسة، حتى قال البعض وبحق: إن النهضة الأوروبية إنما كانت في الواقع ثورة على الكنيسة من أجل الإنسان في التفكير والحياة، وحرية الرأي [١]. ويقول (برتراند راسل) إنه في الوقت الذي كان الناس يؤمنون فيه إيماناً حقيقياً بالدين المسيحي في جميع تعاليمه وطقوسه أنشيء ديوان التفتيش، بتعذيباته فأحرقت جثث ملايين من النساء التعسات كأمثلة للعيان، واستخدم اسم الدين في كل أنواع القسوة ضد جميع صفوف الناس، ويمكن القول بأن تاريخ الفكر الأوروبي مشحون بالمصادفات وبمظاهر الطغيان على رجال الدين وتنظيم الكنيسة.

* * *

٣ ـ ويقدم الباحثون التراث الإغريقي القديم في بناء الثقافات الغربية ويضعونه في الدرجة الأولى، والمعروف أن الإغريق شعوب شمالية جاءت إلى الجنوب، فقوضت حضارة قديمة لتبني على أطلالها مدنية جديدة، ويعد من أهم مفاهيم الإغريق نظرتهم إلى الألوهية، والخالق، فإنهم تخيلوا آلهة تسرح [١] وتمرح على أولمبوس، وتتصرف تصرف البشر. ولم يشعر اليونان أمام الآلهة بنوع من الخضوع أو التطلع إلى

(١) دكتور البهي ـ الفكر الإسلامي والمجتمع المعاصر.

الرحمة، بل تعاملوا مع الآلهة وفق أسلوب الصراع، والغلب في غطرسة واستعلاء وإيمان بالسيادة على الأرض. وهم في هذا يختلفون اختلافاً بعيداً عن المسلمين الذين يؤمنون بالعبودية لإله واحد، كما أنهم يؤمنون بتأليه العقل، ويختلفون في ذلك عن المسلمين الذين يجمعون في منهج المعرفة بين العقل والإيمان. ويختلفون عن بعض الأديان التي عمدت إلى إماتة الجسد والانصراف إلى الروح الخالص. ومن هنا بدأ التناقض بين المسيحية والإغريقية في ذلك الصراع حقيقتين تتناقضان.

الأولى: تدعو إلى الزهادة الكاملة والانعزال عن الحياة، ونفض اليد عن متاع الحياة كله، بينما الإغريق يقدسون الجسد وجماله، ويندفعون إلى الغناء والرقص والشعر والتمثيل والنحت والتصوير.

٤ ـ ولعل أبرز ما يتميز به ذلك التراث الإغريقي هو قداسة الإنسان وإبراز كيانه، وإهدار جانب الروح، وقيام جو من العداء والصراع بين الآلهة والبشر، وانتقام الآلهة للبشر، وصراع الإنسان مع الآلهة، ومحاولة الانتصار عليها، وهم يتطلعون على هذا الجانب: صراع الإنسان لإثبات ذاته.

فالآلهة في مفهوم الإغريق: كالبشر تماماً. وهذه الآلهة تلهو وتعبث وتغضب وتحب وتكره، وتقترف الموبقات، ولا ترتفع عن مستوى البشر في دوافعها وأطماعها.

وقد ارتبط بالقيم الإغريقية إنكار وجود الإله الواحد، وإنكار النبوات، وإنكار الميعاد والميل إلى الحرية المنطلقة إلى درجة الإباحة والتعطيل. والفلسفة اليونانية بهذه المفاهيم تتنافى مع عقائد الإسلام وتعارضها منذ النقطة الأولى.

فالآلهة المتعددة، لا الإله الواحد، لا تميز عن البشر، وهي كعامة الناس تماماً، حتى في هيئاتها الطبيعية. والمثل الأعلى يمجد الجسم وإعلاء

---

(١) دكتور أنيس فريحة (مجلة الأبحاث ـ المجلد الأول).

شأن صاحبه الإنسان. وبذلك يقوم الفن اليوناني على تمجيد وتأليه الجمال الجسمي، وتشير إلى ذلك أسطورة بجماليون الذي جد في صنع تمثال، ثم ما زال يمنحه كل ما في نفسه من صور التمثال حتى نفخ فيه الحياة فهام به، وتقطعت نفسه عليه حسرات.

كما درج الإغريق على تصوير الرجال عراة، بالإضافة إلى شغفهم بالمصارعة، حتى ليعدون الرقص من آلهتهم الكبرى، فكانوا يرقصون رجالاً ونساءً في مجتمعاتهم العامة.

٥ ـ وقد تمثلت القصة الإغريقية [١] هذه الملامح جميعاً، ملامح المثل الأعلى الإغريقي الذي امتصته الثقافات الأوروبية واعتبرته أساساً لها، حيث تقوم المسرحية الإغريقية على الشر المحض الذي لا تلطف حدته خلجة من خلجات الخير.

وأبرز هذه الملامح: حرب طروادة الضروس التي شغل وصف أحداثها جانباً كبيراً من (الإلياذة والأوديسة) والتي طالت عشر سنوات واشتعلت نارها دون مبرر معقول. فقد اجتمعت كلمة زعماء الإغريق بعد تفرق على شن تلك الحرب الشعواء. لأن هيلانة زوجة منيلاس، وهو من سادة القوم عشقت باريس أمير طروادة وهربت معه إلى بلده دون أن تحفظ لزوجها عهداً «وهكذا دارت هذه الحرب المدمرة في سبيل امرأة غادرة لا تستحق غير الازدراء والإهمال واصطلت الشعوب بسعيرها دون أن يكون لها فيها مصلحة أو يحفزها إليها حافز» وفي مفهوم القيم الإغريقية: أن مشكلات الإنسان الرئيسية تتولد من وقوعه فريسة لمتناقضات حياته، وتصادم تيارات مجتمعه، وتضارب علاقاته الاجتماعية، وتوزيع نفسه بين الواجب وعجزه عن أدائه وبين الثورة على الظلم وعجزه عن دفعه أو وقوعه في مهب مختلف الميول والأهواء، والمرأة الإغريقية تتصف في القصة الإغريقية بالغدر في أغلب مآسي الإغريق، وتستسلم للرذيلة دون أية مقاومة، وترتكب أبشع الجرائم مدفوعة بأحط

(١) من بحث للأستاذ مفيد الشوباشي: الأدب العربي في رحلة إلى أوروبا.

النزوات. وها هي (هيلانة) تخون زوجها في قصة طروادة وتهرب مع حبيبها دون أي تردد، أو شعور بتأنيب الضمير، فكانت سبباً في حرب أبادت شعوباً بأسرها، ودمرت بلادا عن آخرها.

وهناك قصة (الكترا) التي تعبث فيها (كلتنمرا) بقدسية الروابط العائلية، وتتخذ لها عشيقاً في غيبة زوجها (أخمن) الذي رحل على رأس الجيوش الإغريقية ليغزو (طروادة) وينتقم من أميرها، ولم تكتف (كلتنمرا) بارتكاب هذه المعصية، ولكنها أقدمت على جريرة أشد نكراً مدفوعة بشهوتها البهيمية، فقتلت زوجها البطل غدراً بالاشتراك مع (ايجست) ومن أمثلة هذه القصص الوحشية التي لا تزال تجد معجبين من بين أبناء حضارة هذه الأيام قصة: (أوديب ملكاً) التي ترجمها الدكتور طه حسين في كتابه الأدب التمثيلي اليوناني، وأبدى إعجابه بها، وقال إنها وغيرها منبع الآداب العالمية.

وقصة (أوديب ملكاً) تتلخص في أن الملك هو عدو الشعب وهو قاتل الملك. وقد تزوج أمه، وأن أبناءه في نفس الوقت هم إخوته لأمه، ثم اقتص من نفسه وفقأ عينيه بيده ونفى نفسه من المدينة، وقتلت أمه نفسها خنقاً. هذا هو طابع الأدب الإغريقي. والقصة الإغريقية تقوم في الأغلب على موضوعات شاذة غير إنسانية، ولو صح أن القصة الإغريقية حسنة الشكل، فهي ليست حسنة المضامين، وليس حسن شكلها من المقطوع به، فقد أحصى كثير من النقاد عليها تفكك بنائها الفني، وكشف عن أن أفكارها بدائية ساذجة، وأن حوارها مفتعلٌ مملٌّ، وأسلوبها طنانٌ أجوف، فهي تعكس حياة شعب طمست المعتقدات الوثنية عقله، وحجبت عنه الحقائق الواقعية، وأضعفت فيه العواطف الإنسانية النبيلة، واستثارت فيه الغلظة والميل إلى الشر، ولعل له العذر في ذلك. فإن آلهة الإغريق على الأغلب قاسية تميل إلى الانتقام، فإذا عنّ لها أن تنصف مظلوماً أو ترحم ملهوفاً اشترطت في ذلك شروطاً تجرد رحمتها وإنصافها من أية سمة إنسانية، وتحول دون تحقيق الغاية منها. وهي لا تنكل بعبادها فحسب، ولكن بعضها ينكل

ببعض، ويفتك به. وليست المقادير الرهيبة التي يقع الناس في حبائلها ولا يستطيعون منها فكاكاً إلا من تدبير هذه الآلهة. وقد قيل إن الوثنيين الإغريق فطروا على صورة آلهتهم أو على الأصح أنهم ابتدعوا آلهتهم على صورتهم.

والأدب الإغريقي يمثل كل موضوع من الموضوعات الشاذة الواردة في ملاحمه صيغ في أكثر من مسرحية (قصة الكترا) وهي أعنف مآسي الإلياذة والأوديسا، وأشدها اتصافاً بالوحشية ظفرت بالنصيب الأوفى من إعجاب كبار الكتاب الإغريق، فراح كل منهم يصوغها على طريقة مسرحية جديدة مقتصراً على تحرير بعض حواشيها دون موضوعها الأصلي. وهناك أسطورة شذت عن هذا الاتجاه، هي أسطورة بينلوب. وهذه القصة لم تحظ من المسرح الإغريقي بالاهتمام الذي حظيت به قصص الخيانة والغدر والشذوذ والقتل.

هذا هو جوهر التراث الإغريقي الذي التقى بالمزاج الأوروبي، فأصبح المصدر الأول للثقافات الغربية. ويتعصب الغربيون للأدب اليوناني ولهذه القيم ويرونها المنابع الأصيلة والأخيرة لآدابهم وفنونهم.

وقد ساقت ريح التغريب والغزو الثقافي هذه القيم إلى الثقافة العربية، وجرت محاولات ضخمة متعددة من أتباع المبشرين وأدوات الغزو الثقافي في ترجمة هذه الآثار، ومحاولة تطعيم الثقافة العربية بها على أنها تراث الأمم الناهضة التي تحمل مشعل الحضارة والتقدم. وعقَّ كثير من أدبائنا فطرتهم العربية، وانقادوا وراء هذه القيم والمفاهيم، وحاولوا غزو الثقافة العربية بها، وحاول هؤلاء أن يثيروا حول هذه المفاهيم البعيدة عن القيم الإنسانية العليا جواً من الإعجاب والقداسة والادعاء بأنها منبع الآداب العالمية.

(وللثقافة العربية موقف من الفكر اليوناني والتراث الإغريقي تضمه دراسة خاصة في الفصول القادمة) ولكننا الآن بصدد أثر هذا التراث اليوناني والإغريقي في الثقافات الغربية الحديثة باعتبارها مصدراً أولاً

وأساسياً لها .

٦ ـ والتراث الروماني هو الآخر أعطى الثقافات الغربية قيماً واضحة الدلالة في المجتمع الأوروبي والحضارة الغربية المعاصرة فقد اتجهت روما إلى عبادة القوة ووضعت شعارها المعروف « روما سادة وما حولها عبيد » وعرفت بذلك النظام العسكري الوحشي ، القائم على إهدار الدماء وضروب التعذيب والأطماع الخسيسة ، والوثنية والظلم والتحكم والطغيان والاستبداد . وقد استخدموا الرقيق ليقوم لهم بالعمل ، واكتفوا هم بأعمال السيادة ، وكذلك فعل الفراعنة والإسرائيليون . وعرفت المجتمعات اليونانية والرومانية التهتك والخلاعة والفسق والانغماس في الترف والملاذ .

وقد ورث الرومان الاغريق وأغرقوا في الإيمان بالمادة ، واللذائذ الجسدية ، وتضخيم عالم الحس وإراقة الدم والقتل والتمثيل والتعذيب . أما كلمات العدل والحرية والمساواة ، فهي تنطبق عليهم وحدهم . أما غيرهم فعبيد ليست لهم حقوق ولا حريات ، والوجود عندهم هو الوجود المادي .

ولم تكن المفاهيم الروحية عندهم إلا مجموعة الطقوس والتراتيل التي تطورت إلى فن تمثيلي وثني .

٧ ـ وبالجملة فإن أساس المثل الأعلى الإغريقي والروماني « وثني خالص » . وقد اعتبرت الثقافات الغربية هذه القيم أساساً أصيلاً إلى درجة أن يقول أحد مؤرخي هذا الفكر : إن الفكر الهِليني وحده هو الذي كون العقلية الأوروبية كافة ، وإن المؤلف أو الكاتب الغربي الذي لم يتأثر بالخيال الهِليني في كتابته وتفكيره تعد منتجاته ضرباً من ضروب العامية الجافة المبتذلة . لأن المفكرين في أوروبا يؤمنون تمام الإيمان بأن ما يستمتعون به من أدب رائع وثقافة خصبة ليس له إلا منبع واحد هو التراث الهليني ..

وقد تمثلت الوثنية في عبادة الصنم وعبادة الطبيعة، وفي التثنية والتثليث. وقد وجد التثليث في الديانات القديمة: (الفرعونية والهندية واليونانية).

والوثنية هي عبادة غير الله من حجارة أو أصنام أو قوى طبيعية، أو اتخاذ البشر آلهة أو أنصاف آلهة (وقد كان اليونان والإغريق يحولون عظماءهم إلى طور الألوهية غافلين عن صفات الإله الواحد الحق الذي لا يشاركه فيها أحد) فكان عندهم من الآلهة: أفروديت لدى اليونان، ڤينوس لدى الرومان، عشتروت لدى الفينيقيين، آستر لدى البابليين، وإيزيس لدى الفراعنة.

ومن مفهوم الوثنية في الثقافة الغربية: إشراك أشياء مع الله كافتراض أن لبعض المخلوقات خواص من صفات الله، وأن لهذه المخلوقات صفة الأبدية أو القدرة والعلم، أو أن ثمة خالقاً للشر أو خالقاً للخير، أو أن للمادة والروح صفة الأبدية، أو أنها واجبة الوجود، أو اتخاذ بعض الناس بعضهم أرباباً. وقد حرر الإسلام الفكر البشري من العبودية لغير الله من جماد وحيوان ونبات وأجرام سماوية، وقوى طبيعية وارتفع بالإنسان من ذل العبودية لأخيه الإنسان، ولم يخص إنساناً بمرتبة الألوهية، ولا بمنزلة الخلود.

وبذلك حل الإسلام العقود التي طالما رسف العقل البشري فيها، والتي أعادها الفكر الغربي مرة أخرى منذ عصر النهضة، واعتبرها أساساً له، ومضى بها، ثم حاول من بعد ذلك عن طريق الاستعمار والنفوذ الأجنبي لعالم الإسلام أن يفرضها على الفكر الإسلامي والثقافات العربية والفارسية والتركية والهندية مرة أخرى.

وقد كان مفهوم الإسلام والثقافة العربية أن أول عوامل التحرر في طريق النهوض هو التحرر من الوثنية، وانطلاق العقل الإنساني من قيوده التي كبلتها بها بحسبان أن هذه الحرية هي أولى شروط النهوض بالمستوى البشري. تحرير العقل من عبودية الوثنية وإقامة قيمة عليا

أساسية هي «توحيد الله» الذي ينطوي على وحدة النوع البشري ذلك أن الاعتقاد بوحدانية الله من شأنه أن يرفع عن العقل البشري ظلم الجهل، ويزيح عن كواهله نير العبودية، ويمهد أمامه سبيل الترقي، وينطوي على معنى سام هو وحدة النوع البشري.

وقد كان كفاح الإسلام قوياً في مواجهة عبادة الأشخاص أو الذوات الشخصية[1] هادفاً إلى إشعار الإنسان بكرامته وبقيمته الذاتية. كما امتد هذا المعنى في الإسلام إلى مكافحة انقياد الفرد لفرد آخر لذاته دون رعاية لما يحمله من مبادىء عالية وافكار مثالية، وجعل حب المسلمين للرسول حباً لما يحمله من رسالة، وليس لذاته كفرد من الأفراد[2]. «قل إن كنتم تحبون الله فاتبعوني يحببكم الله» وهكذا وجّه الإسلام الإنسان نحو المبدأ دون الشخص. وقد جاء الإسلام حرباً على هذه الوثنية، وهي وثنية تختلف عن وثنية العرب التي كانت قائمة على عبادة الأصنام وبعض الكواكب. وإنما عنى الإسلام وثنية الإنسان على العموم، وهي تقديس المشخص دون رعاية للمبدأ أو المثال.

وقد هاجم الإسلام الوثنية، وهاجم تعدد الآلهة. ودعا الإنسان إلى عبادة إله واحد لا يعرف شخصه، ولا تحد حقيقته لأنه فوق الطبيعة وفوق ما فيها من أشخاص وجزئيات محدودة وقد أراد أن يكون خضوع الإنسان وطاعته لغير من يجوز عليه التغير والفناء.

والوثنية تعدد للمعبود وتشخيص له، أما الإسلام فهو يرفع الفرد من عبادة الشخص المحدود إلى عبادة إله واحد. فالصراع بين الإسلام والوثنية صراع عميق الغور. ومن هنا فإن مفاهيم الثقافة العربية المستمدة من الإسلام تختلف اختلافاً جذرياً عن مفاهيم الثقافات الغربية التي تستمد جوهرها من الوثنية.

---

(١) بتصرف عن بحث للدكتور محمد البهي (الرسالة ١٩٤٥).

(٢) يراجع بحث البطولة في كتابنا (الشبهات والأخطاء الشائعة).

ولذلك فمن العسير في مفهوم الثقافة العربية قيام ما يدعى بوحدة الثقافة أو وحدة الفكر البشري.

٨ - لعل من خير ما يصور مفاهيم الوثنية اليونانية الرومانية، وأورده العلامة «درابر» في عبارته الجامعة يقول: لما بلغت الدولة الرومية في القوة الحربية والنفوذ السياسي أوجها، ووصلت في الحضارة إلى أقصى الدرجات هبطت في فساد الأخلاق وفي الانحطاط في الدين والتهذيب إلى أسفل الدركات كان مبدؤهم أن الحياة إنما هي فرصة للتمتع ينتقل فيها الإنسان من نعيم إلى ترف، ومن لهو إلى لذة. ولم يكن زهدهم وصومهم في بعض الأحيان إلا ليبعث على شهوة الطعام، ولم يكن اعتدالهم إلا ليطول به عمر اللذة. كانت موائدهم تزهو بأواني الفضة والذهب مرصعة بالجواهر، ويحتفي بهم خدام في ملابس جميلة خلابة، وغادات رومية حسان، وغوان عاريات كاسيات، غير متعففات تدل دلالاً. ويزيد في نعيمهم حمامات باذخة، وميادين للّهو واسعة، ومصارع يتصارع فيها الأبطال مع الأبطال أو مع السباع ولا يزالون يتصارعون حتى يخر الواحد منهم صريعاً يتخبط في دمه. وقد أدرك هؤلاء الفاتحون أنه إن كان هناك شيء يستحق العبادة فهو «القوة» لأنه بها يقدر الإنسان أن ينال الثروة التي يجمعها أصحابها بعرق الجبين وكد اليمين، وإذا غلب الإنسان في ساحة القتال بقوة ساعده فحينئذ يمكن له أن يصادر الأموال والأملاك، ويعين إيرادات الإقطاع.

هذا من ناحية (المجتمع) أما من ناحية (الدين) فيقول (ليكي) في كتابه «تاريخ الأخلاق في أوروبا»: «إن الدين الرومي كان أساسه على الأثرة، ولم يكن يرمي إلا إلى رفاهية الأفراد، وسلامهم من المصائب والمتاعب. وقد ظهر في روما مئات من الأبطال والعظماء، ولكن لم ينهض فيها زاهد في الدنيا عزوف عن ملذات الحياة، ولا تسمع في تاريخ الروم مثالاً للتضحية والإيثار إلا وتجده لا تأثير فيه للدين، ولكن

مبنيا على الوطنية » .

ويجمع الباحثون والمؤرخون على ان الظاهرة البارزة في حياة الروم، والتي أصبحت لها ديناً وشعاراً هي روح الاستعمار والنظر المادي البحت إلى الحياة، وذلك ما ورثته أوروبا المعاصرة من سلفها الروميين وخلفتهم فيه .

ويقول الراهب أوعسطين : إن الروم الوثنيين كانوا يعبدون آلهتهم في المعابد ويهزأون بهم في دور التمثيل، ومن هنا تجرأ الناس على الآلهة وأهانوها .

وأبرز مظاهر التراث الإغريقي الروماني هو الحرية الشخصية التي لا تعرف قيداً، ولا تقف عند حد . وهي التي أثرت تأثيراً سيئاً في أخلاق اليونان ومجتمعها فانتشرت الفوضى في الأخلاق، والجري وراء الشهوات العاجلة وانتهاب المسرات والتهام الحياة . والمعروف أن نظام أرسطوطاليس ـ ليس الأخلاقي ـ مبني على التمييز بين اليوناني وغير اليوناني . قال أرسطو : إن اليونانيين ينبغي لهم أن يعاملوا الأجانب بما يعاملون به البهائم .

والرومان كاليونان إيماناً بالمحسوس وغلواً في تقدير الحياة، وشكّاً في الدين واضطراباً في العقيدة، واستخفافاً بالنظام الديني وطقوسه، واعتداداً بالقوة، واحتراماً زائداً لها يبلغ درجة التقديس، وإنكار الحق للآلهة في التدخل في أمور الدنيا . ولعل مما حملهم على الاستخفاف بالنظام الديني الوثني الذي كان سائداً في روما هو أنه قائم على الخرافة والأساطير(١) .

هذه هي مجموعة المفاهيم والقيم التي ورثتها الثقافات الغربية الحديثة عن التراث الإغريقي الروماني الوثني . وقد حرص دعاة التغريب على نقل هذه القيم والفلسفات والأفكار فيما ترجموا من آثار، وفي تلك

(١) عن بحث للسيد أبي الحسن الندوي : ماذا خسر العالم بانحطاط المسلمين .

الدعوة الملحة إلى الاهتمام بالتراث اليوناني والإغريقي، وتعليم اللغة اللاتينية في الجامعات. والهدف هو نقل هذه القيم إلى محيط الثقافة العربية وإغراقها بها حتى تكون مؤهلة للتخلي عن مقوماتها الإنسانية، وحتى تفتح ذلك الطريق إلى خلق مجتمع له نفس الطابع من التحلل الخلقي والديني، واطراح القيم العربية الإسلامية في مجال الثقافة والحياة.

## ٢ - المسيحيّة الغربيّة

والركن الثاني للثقافات الغربية الحديثة: هي المسيحية الغربية.

فالمعروف أن المسيحية - وهي الديانة السماوية التي أنزلت على السيد المسيح عيسى بن مريم في فلسطين - قد انتقلت نحو الغرب على أيدي المبشرين والدعاة إلى روما، وصارعت طويلاً حتى استطاعت أن تجد مكانها إلى جانب الوثنية اليونانية الرومانية التي كانت تمثل طابع المجتمع الروماني.

لقد وصلت المسيحية إلى أوروبا «منهجاً روحياً وإرشاداً خلقياً» حيث وجدت مجتمعاً له نظامه وأسسه من تشريع وسياسة واقتصاد. ومن ثم فقد أصبحت بمثابة إطار لهذا المضمون، وهي بطبيعتها التي تقوم على أنها «وصايا». وفي ظل نظام قائم وعميق في الغرب، لم تجد سبيلاً إلا أن تنصهر في هذا النظام دون أن تغيره.

ولقد بدا عندئذ أن هناك تقارباً واضحاً بين الوثنية الإغريقية والوثنية الفرعونية، وبين المسيحية المتحولة لا المسيحية المنزلة. وقد أشار إلى ذلك (أرنولد توينبي) حين قال: إن شخصيتي إيزيس وسيبيل تظهران في المسيحية مرة أخرى والمعروف أن إيزيس في الديانة الفرعونية وسيبيل في الديانة الإغريقية تتجليان في السيدة مريم في شخص أم الإلٓه الكبرى، كما نشاهد تقاطيع إله الشمس في الصورة ذات الطابع الحربي التي يبدو فيها المسيح في بعض الأحيان.

ومعنى هذا أن المسيحية السماوية المنزلة الشرقية قد تحولت حين عبرت إلى روما من ديانة بسيطة توحيدية إلى ديانة وثنية تتركب من الأفكار اليونانية والبوذية والفرعونية، وذلك على يد داعيتها الكبير: بولس (١٠ ـ ٦٥م) وقد أشار إلى ذلك أرنست دي بنسين في كتابه: المسيحية والاسلام.

قال: إن العقيدة والنظام الديني الذي جاء في الإنجيل ليس هو الذي دعا إليه السيد المسيح بقوله وعمله وان مردّ النزاع القائم بين المسيحية اليوم وبين اليهود والمسلمين ليس إلى المسيح بل إلى دهاء (بولس) ذلك اليهودي والمسيحي وشرحه للصحف المقدسة على طريق التجسيم والتمثيل، وملئه هذه الصحف بالنبوءات والأمثلة.

وقال: إن بولس في تقليده لاسطفانوس داعي المذهب الإنساني قد ألصق بالمسيح التقاليد البوذية. إنه واضع ذلك المزيج من الأحاديث والأقاصيص المتعارضة التي يحتوي عليها الإنجيل اليوم، والتي تعرض المسيح في صورة لا تتفق مع التاريخ أصلاً، ليس المسيح بل بولس، والذين جاءوا بعده من الأحبار والرهبان الذين وضعوا تلك العقيدة والنظام الديني الذي تلقاه العالم المسيحي كأساس للعقيدة المسيحية الأرثوذكسية خلال ثمانية عشر قرناً» .ا هـ.

★ ★ ★

وقد كان لأولئك الرجال المتشبعين بالفكر الإغريقي أبعد الأثر في صبغ الديانة المسيحية بلونها الوثني الأسطوري، ومع ذلك فقد هاجم الفكر الأوروبي والثقافات الغربية (المسيحية) أشد هجوم وأعنفه.

ومع أن المسيحية الغربية في تقدير الباحثين والمؤرخين هي الركن الثاني للفكر الغربي، فقد ثار الفكر الأوروبي على الكنيسة وسيطرتها، وتعسف كهنتها وإن ظلت الروح المسيحية تشيع في الحياة الأوروبية.

وأما المثال الأعلى المسيحى كما يصوره واحد من الدارسين المتعمقين

فهو[1] «إن الطبيعة البشرية فاسدة أفسدتها (الخطيئة) منذ نشأتها» وما يزال الغربيون يؤمنون بالنسب الاغريقي الوثني، ويرون أن المسيحية كانت دخيلة عليهم، وأنهم لم يخضعوا لها، وإنما أخضعوها.

يقول إسماعيل أدهم[2] «قامت المدنية الرومانية على تراث الإغريق غير أن المسيحية سرعان ما غزت روما، وذهبت إليها حاملة معها نزعات المنطق الآسيوي والروح الشرقية، إلا أن الحضارة الرومانية ابتلعت المسيحية وامتصتها وتمثلتها. وكان في هذا الابتلاع والامتصاص والتمثيل بعض الخلاص لمنطق الغرب من روح النسك الآسيوية. ولو لم تكن المسيحية ديانة روحية صرفة قابلة للكثير من التفاسير مرنة بطبيعتها غير حاملة في طياتها منطق حياة اجتماعية معينة ونظم وشرائع مخصوصة لقام النضال بين منطق الغرب وأصول مجتمعه وبين روح الشرق وشرائعه التي هبت بها على أوروبا».

ويقول: «إن أوروبا[3] » اعتنقت الديانة المسيحية التي وفدت إليها من الشرق بعد أن حولتها من عقيدة تحكم ضمير الإنسان وسلوكه إلى مجرد طقوس تعبدية يلجأ إليها الإنسان ليكفر عن خطاياه أو يستدر عطف الآلهة. ولم يجعلوا للدين قط تلك الفعالية اليقظة التي تيسر أعمال الإنسان كما هو الشأن في الإسلام.

«وقد حاولت الكنيسة الكاثوليكية في العصور الوسطى بواسطة الباباوات، أن تمكن للدين في قلوب الناس وتصرفاتهم فقيدت ذلك بقيود تعسفية، لم يلبث العقل الأوروبي حين تفتح في عصر النهضة أن رفض الدين المسيحي كله. وهكذا عادت أوروبا من جديد إلى حالتها الأولى من الوثنية، وخلقت آلهة جديدة تسميها تارة العقل وأخرى العلم، وأخيراً الإنسان. وعادت عقلية أوروبا وحضارتها إلى جذورها الأرضية، وقطعت علاقاتها الروحية بالسماء».

---

(١) من بحث للدكتور محمد مندور.

(٢)و(٣) مجلة الرسالة م ١٩٣٥

وهذه شهادة منصف لأوروبا، وموقفها الحق من المسيحية الإلٰهية.

ويقول روبرت بالمر في كتابه (تاريخ العالم الحديث): أخذت المسيحية تحت زعامة (بولس) الذي ينتمي إلى ميلاد يهودي وجنسية رومانية وثقافة إغريقية تحصل على أتباع جدد، وكان هؤلاء يدخلون في هذا الدين الجديد غير مكترثين بدينهم القديم.

وقد انتشرت المسيحية في البداية بين الفقراء والمحرومين من بهاء الحياة الإغريقية وزهو الحياة الرومانية أو من المستعبدين الذين لم يكن لهم إلا رجاء المسرة على الأقل في العالم الباقي، ثم أخذت تنتشر شيئاً فشيئاً بين أفراد الطبقات الأخرى. وقد لقيت موجة عارمة من الاضطرابات والفتن حتى القرن الرابع (٣١٢ م) حينما دخل الإمبراطور قسطنطين في الديانة المسيحية، ولم يكد يحل القرن الخامس حتى أصبح جميع العالم الروماني يدين بالمسيحية رسمياً. وقد دخل في المسيحية المفكرون والرجال الذين أخذوا على عاتقهم توحيد المعتقدات المسيحية مع الفكر الإغريقي الروماني التقليدي وفلسفته التي مر عليها ألف عام «وكانت أهمية المسيحية في المجتمع الروماني أنها جلبت مفهوماً جديداً للحياة البشرية، فبينما قاد الإغريق الإنسان إلى عقله، فإن المسيحية دلته على روحه، وعلمته أن الأرواح قيم متساوية في نظر الله. وأن كل نفس بشرية مقدسة وطاهرة، وبينما عرف الإغريق جمال الجسد عرفت المسيحية جمال الروح، وآمن المسيحيون بأن الله هو الحب، ودعا المسيحيون إلى التحسس بالألم على أساس أنه صفة آلهية لأن الله نفسه (أي المسيح) قاسى الآلام بهيئة الإنسان على الصليب[1].

ولم يلبث المسيحيون أن استبدلوا القناعة الذاتية بثمرات الأعمال البشرية التي كان يؤمن بها الإغريق والوثنيون بأن أخذوا يعلمون الناس الخشوع والتواضع لله. وقد اختفت بفضل المسيحية عقائد الوثنيين في آلهتهم المحلية أو القبلية، أو القومية، وأصبح على جميع العالم أن يعتقد

(١) في مفهوم الإسلام: إعلاء للسيد المسيح النبي المرسل عن الصلب.

بإله واحد وطريق واحد للخلاص من الآثام.

ولم يكن في نظر الوثنيين فارق واضح بين الآلهة والناس، فبعض الآلهة يتصرفون كالناس، وبعض الناس أكثر شبهاً بالآلهة من غيرهم. فالإمبراطور كان يعد في الحقيقة إلهاً: «الآله قيصر». وقد أقيمت العبادة للقيصر على أنه ضرورة لإدامة الدولة التي كانت هي العالم نفسه، وقد رفض المسيحيون ذلك بشدة، وامتنعوا عن قبوله.

وقد عرض القديس أوغسطين العقيدة المسيحية بصورة منظمة وواضحة في كتابه مدينة الله (٤٢٠ م) قال المسيح: أعط لقيصر ما لقيصر، وما لله لله. وكان لهذه العقيدة أثرها في تطور الحضارة الغربية. كان العالم: عالم القيصر في عهد القديس أوغسطين قد أشرف على الانهيار، فقد نهب البرابرة الوثنيون روما نفسها عام (٤١٠ م) وكتب أوغسطين كتابه في ظل هذه الحادثة ليطلع الناس بأنه وإن كان العالم قد تلاشى، فإن هناك عالماً آخر أكثر خلوداً وأهمية. وقال: إنه يوجد في الحقيقة مدينتان: المدينة الأرضية والمدينة السماوية،. فمدينة الإنسان زائلة، ومدينة الله هي الخالدة. والمدينة الأرضية هي ملك الدولة والإمبراطورية. وقال إن الإمبراطور إنسان. والحكومة ليست أزلية ومطلقة التصرف، وأنها تقاضي وتصلح، وهي خاضعة في الواقع بطريقة ما إلى قوة روحية عليا، وأن هذه القوة تقع في مدينة الله، ونجا العالم الغربي بهذه الثنائية المسيحية من البابوية والقيصرية. (cacsarpopism) التي يجمع فيها شخص واحد سلطتي الحكم والبابا، أي السلطتين المدنية والدنيوية. ولم تلبث السلطة الروحية والسلطة السياسية أن انفصلتا إحداهما عن الأخرى وأسقطتا وبدأ الخلاف بين البابوات والملوك.. اهـ.

لقد حاول (روبرت بالمر) أن يصور مدى تأثير المسيحية في الوثنية، والوثنية في المسيحية، وهو ما عرف من بعد (بإطار من المسيحية ومضمون من الوثنية اليونانية الرومانية) على النحو الذي أصبح يمثل

ركيزة أساسية في الثقافات الغربية الحديثة. وهذا هو ما حاول تصويره «توينبي» حين قال: لقد كانت المسيحية لامتزاج الحضارتين: اليهودية واليونانية، حيث لم تستطع المسيحية أن تصبح دولة خلال عمر المسيح أو بولس، لأنها نشأت داخل تخوم دولة عالمية موجودة آنذاك هي الامبراطورية الرومانية. وقد استغرق تمسيح هذه الإمبراطورية من الكنيسة الكاثوليكية مدة ثلاثمائة سنة.

ويكاد الباحثون جميعاً والمتخصصون منهم يجمعون على أن المسيحية الغربية هي منظومة خاصة جامعة بين المسيحية الشرقية والوثنية الفرعونية والتراث الإغريقي.

يقول سلامة موسى «الديانة المسيحية مؤلفة من عنصرين»:

أحدهما خاص باللاهوت، والآخر خاص بالأخلاق. فالأول: وهو اللاهوت يرجع الفضل فيه إلى المصريين. فإن النظريات الخاصة بالثالوث المقدس أو التجسد أو البعث هي نفسها النظريات التي كانت شائعة عند المصريين. فإن الربة (السيس) هي العذراء التي تلد «هورس» من رب الأرباب «أوزوريس» ويمكن أن تتبع تطور الفن المسيحي من مصر إلى روما حتى تصير «السيس» وابنها (هورس) كلاهما مريم وابنها المسيح. هذا من حيث اللاهوت. أما من حيث الآداب المسيحية فالفضل يرجع إلى الإغريق، فإن من يقرأ مجادلات الرسل يشعر بالروح الإغريقية التي كانوا متشبعين بها في تبشيرهم الأمم الوثنية. ويكشف البحث عن علاقة واضحة بين الفرعونية والوثنية اليونانية، وبين المسيحية الغربية.

فقد حملت المسيحية كثيرا من الروح المصرية القديمة نتيجة لأن الكنيسة الأولى للعهد الأول للمسيح استمدت تعاليمها من مصدرين: إنطاكية والإسكندرية. ويبدو هذا التشابه في مواقف عديدة.

(أولا) في التثليث يقول جوستاف لوبون: إن أغلب آلهة المصريين في شكل الثالوث الأقدس. هذا الثالوث يتألف من الأب والأم

والابن، وكل مدينة تعبد خاصة أحد هؤلاء الثلاثة. ولكن هناك ثالوثاً واحداً بينها كانت ديانة عامة في وادي النيل هي (أوزيوريس وإيزيس وهورس)

١ ـ الإكليروس: كان نظام الإكليروس أو توظيف رجال الدين قائماً في الفرعونية كما هو في النصرانية. وكان للمعابد الكبيرة ولرؤساء الكهنة حرس خاص وفق نظام الميليشيا لتنفيذ أوامره. كما كان موجوداً عند بابوات القرون الوسطى كما لا يزال موجوداً في الفاتيكان.

٢ ـ نظام الطبقات: يقوم في الديانة الفرعونية على أساس ١ الكهنة والأسرة المالكة ٢ الكتاب والمشائين.

٣ ـ الجنود ورجال الجيش.

٤ ـ الفلاحون والعمال وصغار الموظفين.

وكان هذا مشابهاً للنظام المسيحي الأوروبي. فقد كانت طبقات أوروبا في القرون الوسطى وعهد الإقطاعات تنقسم إلى طبقتين: الأشراف ورجال الدين، ثم الأجراء والعبيد.

٥ ـ صكوك الغفران: كانت معروفة في وثنية الفراعنة، ثم عرفت في النصرانية.

٦ ـ المرأة والوظائف الدينية: الفرعونية والنصرانية اشتركتا في إدخال المرأة في حظيرة المهام الدينية فتولت الكثير من الأعمال في معابد آلهة المصريين القديمة.

٧ ـ القربان والمعابد: اتفقت العقيدتان في مسألة القربان وقداسته وهو نوع من الوسيلة والوساطة.

٨ ـ الموسيقى والأناشيد.

٩ ـ الخمر والخنزير: كانت مباحة عند المصريين القدماء.

١٠ ـ توابيت الموتى: كانت توابيت الموتى من أنظمة ديانات قدماء المصريين.

١١ ـ العلامات والرموز: أشار الدكتور جورجي إلى أن الفنون تظهر العلاقات الشديدة بالفن المصري القديم.

١٢ ـ اللغة: ظهر ارتباط لا ينفصم بين الديانة القديمة وبين النصرانية في مصر هو اللغة (الهيروغليفية العامة). ويصدق في هذا قول العلامة توينبي: إن المسيحية التي لا يمكننا أن ننازع في حيويتها كانت تركيباً متألقاً جسوراً بين اللاهوت اليهودي والفلسفة الإغريقية.

* * *

ولعل أبرز مفاهيم المسيحية الغربية هي (الخطيئة) ويتلخص هذا المعنى في العقيدة المسيحية أن الله تعالى لما خلق آدم من تراب، وأسكنه وزوجه الجنة أذلها الشيطان بالمعصية. هذه المعصية كما يقول الإسلام تطلق عليها في المسيحية كلمة «الخطيئة». وعندهم أن البشر واقعون جميعاً منذ آدم إلى اليوم تحت سلطان هذه الخطيئة، وأن فداء هذه الخطيئة هو المسيح الذي افتدى البشرية بالموت على الصليب مكفراً عن هذه الخطيئة.

أما الإسلام فلا يرى هذا المفهوم، ويصور عمل آدم بأنه معصية، وأن الله قد تاب على آدم وغفر له معصيته التي لا ذنب للبشرية فيها، ولا عقوبة عليها نتيجة لها. فليس في الإسلام خطيئة موروثة في الإنسان قبل ولادته، يحتاج في التوبة عنها إلى كفارة من غيره.

ولا شك أن ألفاظ ومفاهيم: الخطيئة والصلب والفداء والخلاص لا تحمل في مفهوم الثقافة العربية نفس المفهوم الذي تحمله في عبارات المسيحية الغربية.

من أهم معالم المسيحية الغربية الكنيسة، ولها دورها التاريخي في الثقافات الأوروبية. ويرى الأب لويس شيخو اليسوعي في كتابه (خلاصة الدين المسيحي[١]) أن معنى كلمة(church) في المسيحية ليس مقتصراً على دور العبادة المسيحية فقط، بل تفيد «المجتمع المسيحي» بأسره بعلاقاته المادية والمعنوية، إذ يرتبط أعضاء ذلك المجتمع بالسيد المسيح رأس الكنيسة الأوحد عن طريق الإيمان. أما كلمة كاثوليكية فيقصد بها الرسالة العالمية. ولم تكن التسمية الأخيرة مقتصرة على كنيسة روما في بداية الأمر إلا أنها أصبحت كذلك تمييزاً لرومان الكنائس الشرقية خاصة كنيسة القسطنطينية الأرثوذكسية منذ عام ١٠٥٤ بشكل قاطع.

ويرتكز الدين المسيحي بصورة عامة على ما جاء في العهدين القديم والجديد، وعلى ما تناقلته الألسنة مما لا يكتب. وتدور العقيدة المسيحية حول الخطيئة الأولى خطيئة آدم حينما عصى ربه فعوقب بالسقوط إلى الأرض، وتعرض لغضب الله فعوقب بالأمراض والموت، ثم شمل الغضب ذرية الإنسان. وهكذا أصبحت خطيئة آدم متوارثة في نسله. هذا ويعتقد أن كافة الأنبياء والرسل الذين جاءوا قبل المسيح مهمتهم الإعداد لإنقاذ البشرية من الخطيئة والتمهيد لظهور المسيح.

وتعتمد الكنيسة في عملية الإنقاذ على رموز دينية تشاركها بالاسرار السبعة(Sacranents) وسميت بالأسرار لأنها صلات الوصل الخفية التي توطد الرابطة بين المسيح وأتباعه.

والأسرار السبعة قد تبلورت نهائياً في العالم الغربي في منتصف القرن الثاني عشر حين عالجها (بطرس لمبارد) أحد أساتذة اللاهوت في باريس ١١٦٤ م في كتابه الآراء وعن طريق ممارسة تلك الأسرار تختص الكنيسة، وجعلت هذه الأسرار سبعاً حددها المسيح نفسه، ولأن حياة

(١) عن كتاب العصور الوسطى الأوروبية: د. عبد القادر أحمد يوسف.

الإنسان الروحية كحياته الجسدية تتطلب هذا العدد . وأهم هذه الاسرار التعميد وهو السر الذي قصد به إزالة الخطيئة الأولى ، ومنح الولادة الروحية الثانية ، ويتم ذلك عن طريق الماء عادة بالرش أو الغسل أو التغطيس .

ويصور المؤرخون الكنيسة الكاثوليكية في العصر الوسيط بأنها أشبه بحكومة ملكية حيث يقف البابا على قمتها ، وهو السيد المطلق في الشؤون الروحانية والمشرّع الأعلى . وليس هناك من مجلس مهما سمت منزلته له حق أن يشرع قوانين ضد إرادته ، وأن كل تشريع يعتمد على موافقته ، ويمكن للبابا إلغاء أي قانون مهما كان قديماً لم يشر إليه في الإنجيل ويساعد البابا مجلس من الكرادلة ( جمع كردينال ) .

وللكنيسة مجموعة شرائع قانونية استندت على مقررات المجالس الدينية العالمية منذ مؤتمر نيقا عام ٣٢٥م وما بعده وعلى القرارات البابوية . ويمكن للبابا أن يصدر عقوبة التحريم (Excommunication) يقاطع بموجبها من صدرت بحقه دينياً ودنيوياً . وقد يفرض البابا عقوبات التحريم ضد مدن وأقطار بكاملها . وقد بلغت الكنيسة الغربية درجة كبيرة من القوة في أواخر القرن الثاني عشر وأوائل القرن الثالث عشر حيث توضحت في سياسة البابا ( أنوسنت الثالث ) وظهور فرقتي الفريسيسكان والدومنيكان ونشاط الأديرة النسائية ومحاكم التفتيش . وفي عهد أنوسنت الثالث ( ١١٩٨ - ١٢١٦ ) بلغ نفوذ الكنيسة أعلى مراحله حيث تمكنت من فرض سطوتها على عدة ملوك في أوروبا ، وأصبحت ممالكهم تابعة بالمعنى الإقطاعي للبابوية وهم ملوك (إنجلترا - البرتغال - الأراغون)

ولم يكن يعترف بأية سلطة دنيوية مساوية لسلطة الكنيسة إقرار بالقاعدة التي تقول : إن المسيح ترك لبطرس الكنيسة والسلطة على كافة العالم ، وإن البابا هو وريث صلاحيات كل من القديس بطرس وقسطنطين الكبير .

ومن المعترف به إذ ذاك أن السلطة البابوية أسمى من السلطة

السياسية. وقد اتخذت قرارات هامة تتعلق بوحدة العالم المسيحي، ومحاربة البدع الدينية دون هوادة. وكان من أبرز أعمال البابوية والكنيسة: الدعوة والإعداد والدعم للحملات الصليبية التي شنت على العالم الإسلامي خلال مائتي عام تقريباً تحت شعار« ما جئت لألقي على الأرض سلاماً بل سيفاً ».

ويجمع المؤرخون أن المسيح لم يفكر في إنشاء كنيسة، وإقامة كهنة عليها وإنما جاءت هذه الفكرة من « بولس » حتى يصلوا إلى القول بأن المسيحية الفاشية الآن ومنذ القرن الأول المسيحي هي « مسيحية بولس »: على حد قول التعبير السائد « الدين للمسيح والكنيسة لبولس ». وأصبح البابوات خلفاء المسيح. وهناك شبه إجماع على أنه لما ظهرت المسيحية دخلتها طائفة كبيرة من العقائد الفاشية في ذلك الوقت. ومنها فكرة الثالوث (الأب - الإبن - الروح القدس) التي كانت فاشية عند الوثنيين، وعنهم أخذها المسيحيون.

وقد جرى خلاف واسع وعميق حول القول بطبيعة وحدة المسيح، حتى اصطدم القائلون بمدرسة الإسكندرية، فالتقى التفكير السامي القائل بالطبيعة الواحدة مع التفكير الروماني الوثني القائل بألوهية البشر، فتلقحت بفكرة التثليث أخذاً من الوثنيين الفرعونية (إيزيس - إيزوريس - هورس). وكان الراهب أثناسيوس (٣٢٦ - ٢٧٣) هو الذي نشر فكرة التثليث. وكان نصارى الساميين يكرهون التماثيل، وقد ظل الأمر كذلك خلافاً على طبيعة المسيح حتى تقرر بأن للمسيح أكثر من طبيعة واحدة، ثم تقررت ألوهية المسيح في هذه المجامع المتعددة التي فرضت مقرراتها دون مناقشة، كما تقرر أن تعاليم الدين لا يمكن أن يتلقاها الناس من كتب المسيحية رأساً ولا بد من تلقيها من أفواه رجال الكنيسة.

بل إن الإمبراطور قسطنطين منع الكتب التي تخالف ذلك، وأمر بحرقها. ثم برز بصورة واضحة أن الفكر المسيحي الغربي يجري في ضوء ما ترسمه الكنيسة.

على ضوء هذه الآراء يرى الكثيرون: أن المسيحية (المسيحية الغربية بالطبع) جاءت متممة للحضارة الهلينية، وامتداداً لها. يقول أنسي الحاج[1]: إن المسيحية كما طبقت كانت إغريقية رغم ما فيها من عبريات وإن المسيحية لم تكن ثورة، وإنما كانت امتداداً وإنعاشاً لحضارة سابقة. لذلك لم تر مانعاً من أن تقتبس الكثير من الوثنية.

ويقول الدكتور علي العناني: إنه نشأ مع العقيدة المسيحية في أول ظهورها الخلاف الطبيعي في الرأي، ودخلت عليها التأويلات في المسائل، والتحليلات في الآراء اليهودية واليونانية. وكان من نتيجة ذلك تلك الاضطهادات الدامية والحملات الفتاكة

ويقول العلامة (درابر في كتابه: النزاع بين الدين والعلم) امتزجت الوثنية بالنصرانية. ونشأ من ذلك دين جديد تتجلى فيه النصرانية والوثنية.

وهنا يختلف الإسلام عن النصرانية. إذ قضى الإسلام على منافسة الوثنية قضاءً تاماً، بينما عمل قسطنطين على مزج الوثنية بالمسيحية لمصلحة الحزبين المتنافسين: النصراني، والوثني في التأليف بينهما، حيث كانوا يعتقدون أن الديانة الجديدة ستزدهر إذا طلعت بالعقائد الوثنية القديمة.

ولقد كانت الشريعة في المسيحية الأوروبية يحكمها القانون الروماني. أما الكهنة فقد احتجزوا لأنفسهم ملكوت السماء وفرضت الكنيسة ضرائب مالية وعقلية وروحية فادحة، ثم كان التعذيب والحرمان لكل دعاة العلم النظري والتجريبي (جرادنو برونو - كوبر نيكوس - جاليلو) هذا بالإضافة إلى صكوك الغفران.

يبدو أن العقلية الأوروبية لم تتقبل المسيحية تقبلاً كاملاً، أو

---

(١) مجلة أدب: (ج٧) ١٩٦٣.

تقبلاً صحيحاً بالرغم من أنها لم تظهر بصورة صحيحة. وذلك أن الروح الإغريقية الرومانية الوثنية لم تلبث أن قاومت المسيحية والكنيسة جميعاً.

يقول إسماعيل إبراهيم أحمد: كانت العقلية الغربية رازحة تحت كاهل اللاهوت الكنسي الذي قام بروما رقيباً على النفوس والعقول محملاً بكل سيئات روح النسك الآسيوية. غير أن العقلية الجرمانية لم ترَ في رقابة روما، وتسلط البابا إلا روحاً آسيوية بعيدة عن طبيعة الذهن الغربي، فعملت الجهد على تقطيع أوصالها. وبدأ الصراع بين الذهنية الجرمانية الخاصة ممثلة العقلية الأوروبية، وبين العقلية البابوية التي تحمل في طياتها شيئاً من روح النسك الآسيوية. يقول درايبر: دخلت الوثنية والشرك في النصرانية بتأثير المنافقين الذين تقلدوا وظائف خطيرة، ومناصب عالية في الدولة الرومية لتظاهرهم بالنصرانية. ولم يكونوا يحتفلون بأمر الدين، ولم يخلصوا له يوماً من الأيام. وكذلك كان قسطنطين قد قضى عمره في الظلم والفجور، ولم يتقيد بأوامر الكنيسة الدينية إلا قليلاً في آخر عمره ٣٣٧ م.

إن الجماعة النصرانية، وإن كانت قد بلغت من القوة بحيث ولّت قسطنطين الملك، فإنها لم تتمكن أن تقطع دابر الوثنية، وتقتلع جرثومتها. وكان نتيجة كفاحها أن اختلفت مبادئها، ونشأ من ذلك دين جديد تتجلى فيه النصرانية والوثنية سواء بسواء. هناك يختلف الإسلام عن النصرانية. وإن هذا الإمبراطور الذي كان عبداً للدنيا، والذي لم تكن عقائده الدينية تساوي شيئاً. رأى لمصلحته الشخصية، ولمصلحة الحزبين المتنافسين: النصراني والوثني. أن يوحدهما ويؤلف بينهما حتى أن النصارى الراسخين أيضاً لم ينكروا عليه هذه الخطة، ولعلهم كانوا يعتقدون أن الديانة الجديدة ستزدهر إذا طعمت ولقحت بالعقائد الوثنية القديمة، وأن الدين النصراني سيتخلص آخر الأمر من أوزار الوثنية وأرجاسها.

ويصور سلامة موسى دور الكنيسة بأنه كان دور تسلط وحجز. يقول: كلما ذكر الإنسان القرون الوسطى خطر للذهن تسلط الكنيسة على التفكير، وحجزها على الحرية الذهنية. وليس من شك في هذا التسلط وهذا الحجز فمنذ القرون الأولى للمسيحية أخذ الناس يدرسون لغاية واحدة هي: خدمة الدين. وعندئذ أصبح الرجل المثقف راهباً، وهو يفعل هذا لأن الكنيسة تمنعه من درس الطبيعة او العلم.

مهدت المسيحية لفصل الأخلاق عن السياسة، لأنها جعلت حياة الإنسان الحقيقية ليست في هذه الدنيا وإنما في العالم الآخر. فالحياة الدنيا زائلة فانية، والحياة الأخرى هي الخالدة الباقية. وحياة الإنسان الدنيوية هي بمثابة إعداد وتجربة وقيمها رهن بالعناية التي يتم بها هذا الإعداد.

**ومنذ عصر إحياء العلوم قطعت الصلة بين التفكير السياسي، والتفكير الأخلاقي، وصار ما كان يراه اليونان وحدة لا تنفصم عروتها فرعين مختلفين من فروع التفكير. وقد حرص الفكر اليوناني على استدامة العلاقة بين الأخلاق والسياسة والإبقاء عليها. ولكن مجيء المسيحية وجعلها أساس الحياة في الحياة الأخرى، وذهابها إلى أن مدينة الله هي منزل القدس. ولتهوين الروح أمر المدنية السياسية، كل ذلك مهد السبيل لهذا الاتصال ثم ظهرت البروتستانتية فأتمته وتوفرت الفلسفة الأخلاقية على بحث معنى الخير والشر، ومقياس السلوك الحسن، والخلق الفاضل.**

## ٤ - النهضة

بدأت النهضة الأوروبية بالثورة على المسيحية، والعودة إلى الديمقراطية، وإعلان أن المسيحية الغربية كانت عائقاً يجب التخلص منه، وإزاحته من طريق الثورة العلمية.

وقد صور ليكي في كتابه (تاريخ أخلاق اوروبا) هذا التحول فأشار

إلى أن المسيحية الغربية حين دخلت على الحياة الأوروبية أثارت تأثرات جديدة قوامها الزهادة الروحية التي جعلت قوامها الرهبانية وأقامت مفاهيمها على أساس تعذيب الجسم كوسيلة لمقاومة شره المادية الرديئة، أو كبح جماحها وغلوائها. وقد جاءت المسيحية الرومية بنظام مخالف للفطرة، مما حمل النفوس ما لا طاقة لها به. وقد دفعت مفاهيم الرهبانية الناس إلى كراهية الحياة والانصراف عنها، وزلزلت القيم الطبيعية للمجتمعات الإنسانية. فقد كانوا يعدون حرية الجسم وحقوقه منافية لنقاء الروح. وأصبح في نظرهم أن أزهد الناس هم أبعدهم عن الطهارة والنظافة. ومضى الرهبان ينشرون شعرهم الطويل، ويمشون على أيديهم وأرجلهم كالأنعام. وزاد عدد الرهبان زيادة عظيمة، وعظم شأنهم، واستفحل أمرهم، فاسترعوا الأنظار، وشغلوا الناس وكان يجتمع في أيام الفصح منهم أكثر من خمسين ألفاً.

وكان هذا هو أحد مصادر رد الفعل العنيفة التي دفعت الأوروبيين إلى التخلص من المسيحية وتغليب المادة الطاغية. هذا فضلاً عن أن حركة الزهد هذه لم تحقق نتيجة ما للمجتمع إذ كانت تعتزل في الصحارى والخلوات، بينما كانت تعج بالفجور والإباحة. هذا ومن ناحية أخرى فقد أدخل رجال الدين في كتبهم المقدسة معلومات[1] بشرية ومسلمات عصرية عن التاريخ والجغرافيا والعلوم العصرية، ربما كانت أقصى الكنيسة الكاثوليكية، ولا تعترف بها الكنيسة البروتستانتية، وهي الأسفار الأبوكريفية. وقد كتبت التوراة أول ما كتبت باللغة العبرية القديمة، واللغة الكوئينية أي الإغريقية، إلا أنه عاش أكثر ما عاش في الترجمة. وقد وصفت الترجمات كلها بأنها ناقصة قاصرة، وكانت طريق المترجمين محفوفة بالمخاطر والصعوبات. ويجمع الباحثون على أن تأليف التوراة يرجع إلى ما قبل المسيح، وأن أسفار التوراة من شعر وقصص وأمثال وتاريخ وتعليم ديني، كانت في بادىء أمرها روايات

(١) الندوي: ماذا خسر العالم.

شفهية متداولة جيلاً بعد جيل، إلى أن قيض لها أن تدون في حدود عام ٤٤٠ م قبل الميلاد، ولكن الذين دونوها لم يرتبوا المواد ترتيباً زمنياً.

ويصور الكتاب (التوراة) بأنها أشبه بملحمة كتبها العبرانيون[١] من وجهة نظرهم الخاص.

ويقول الدكتور صروف[٢] انه لا يعلم من كتب التوراة أول مرة، ولا الزمن الذي كتبت فيه أولاً. ويقول: والظاهر أن موسى كتب بعض فصولها. وقد كانت الكتابة معروفة في عهده، فإنه وجد في الآثار المصرية درج من البردى في عهد الدولة الحادية عشرة التي كانت قبل عهد موسى بمئات السنين. أما الإنجيل فالظاهر مما قاله الأسقف (پابيناس) الذي كان في النصف الأول من القرن الثاني المسيحي أن مرقص كان يكتب ما رواه بطرس فيكتب بالتدقيق كل ما يذكره مما قاله المسيح أو فعله من غير أن يراعي في ذلك الترتيب التاريخي، وكان ذلك باللغة الآرامية. ثم ترجم ما كتبه باللغة اليونانية، ونشأت من ذلك الأناجيل الأربعة، والظاهر أنها كتبت في عهد الرسل. وكان استعمال ورق البردى قد شاع حينئذ، وكتب عليه اليونان بلغتهم، فلا يبعد أن يكون الإنجيل كتب على ورق البردى أولاً، ولكن رقوق الجلد استعملت قبل ذلك للكتابة. وأقدم ما يوجد من نسخ الأناجيل إنما كتب في القرن الرابع المسيحي.

وقد تبين من جميع النصوص والدراسات التي رجعنا إليها أن التوراة كتاب بشري، كتبته أقلام القديسين. ولا تشير هذه النصوص ولو على سبيل الشك إلى أن الكتاب المقدس الموجود في أيدينا اليوم منزل من السماء.

وقد أدت الدراسات التي أجراها المفكرون الغربيون وعلماء اللاهوت إلى اكتشاف كثير من الأغلاط والتغيير والتحريف، وإضافة هوامش

---

(١) أنيس فريحة ـ مجلة الأبحاث ١٩٥٩.
(٢) المقتطف أغسطس ١٩٢٤.

المعلقين، وحشرها في المتن - ١ - هـ.

ويقول الدكتور أنيس فريحة: إن التوراة لم تعد في نظرهم كتاب علم وتشريع، بل ترك العلم والتشريع للإنسان، وتخلص الأوروبيون من تقديس الحرف، وأشار إلى التناقض الواضح بين ما أثبته العلم وما جاء في التوراة، مما أثار شكاً وقلقاً روحياً عند المؤمنين، وكان تطبيق قواعد النقد الأولى على التوراة ذات أثر مباشر للثورة الإنجيلية ضد الكنيسة البابوية، التي كانت تهدف إلى التخلص من شريعة التقليد الكنسي.

وأشار الدكتور أنيس إلى أن أحد أسفار التوراة وهو سفر (نشيد الإنشاد) هو قصة غرامية عنيفة بطلها راع يخطف فتاة لترسل إلى قصر الملك، وهو رمز لزواج يهودي من شعب إسرائيل. وعند ظهور المسيحية عزي الرمز إلى زواج المسيح من كنيسته.

أما المزامير فهي مجموعة من الشعر الديني العميق العاطفة ينسبونها إلى داود، وهناك شك في صلتها بروحه أو كلامه. ويقول الدكتور أنيس: إن التوراة اعتبرت «أدباً» في نظر الباحثين، أو قسماً كبيراً منها. ويرى بعض النقاد أنها دراما بطلها يهوه. ويبدأ الفصل الأول بقضية الخليقة، وظهور الإنسان الأول، فيقع في الخطيئة، ويطرد من الفردوس. ويرى قسم منها أنها أقرب إلى الملحمة، ملحمة الخلاص. وقال إنه من نتائج الدراسات النقدية للتوراة أن أخذ الإنسان في إعادة النظر في نشأة الدين، وأشار إلى أن دراسات التوراة والكتاب المقدس قد وقعت تحت تأثير علماء التلمود. وأنه قد ظهر رد فعل على تهويد هذه الدراسات.

وأرجع الكاتب الاضطراب في النص التوراتي إلى صعوبة الحرف العبري، وتشابكه وأشكاله «فإن حروفاً كثيرة تختلط أشكالها على الناسخ إذا كان الكاتب الذي ينسخ عنه لم يحسن رسم الحرف. هذا بالإضافة

إلى هوامش المعلقين والشراح التي كانت تحشر أحياناً في المتن. ولم ينج نص التوراة من كل هذه الآفات فجاء نصاً مشوهاً قلقاً غامضاً في كثير من الأسفار.

وقال: إن التناقض الواضح بين ما أثبته العلم، وما جاء في التوراة قد أوجد شكاً وقلقاً روحياً. فقد قالت التوراة إن الأرض ثابتة.

وأشار أنيس فريحة إلى ما أصاب التوراة من تغيير وتحريف. وقال إن هناك أغلاطاً مصدرها السهو والكسل والملل، أو ضعف النظر. وإذا كان الناسخ غير أمين في عمله عندما تعرض كلمة لا يستطيع قراءتها فإنه يعمد إلى تغيير الكلمة أو تحوير النص بكامله ليستقيم المعنى [1].

* * *

أما بالنسبة للأناجيل بعد (إنجيل متى) أقدم الأناجيل، فقد كتب سنة ٦٠ بعد الميلاد باللهجة الآرامية الفلسطينية. والأناجيل كلها تختلف عن ما أشار إليه القرآن الكريم، مما يوصف بأنه إنجيل عيسى. فالقرآن الكريم يقرر أن إنجيل عيسى كتاب سماوي منزل عليه، ولكن هذه الأناجيل أسفار ومذكرات كتبها أناس من البشر أقدمها كتب بعد المسيح [1].

وقد أشار الدكتور أنيس فريحة في بحث له عن (يهوه - إيل) إلى الخلاف القائم بين الباحثين عن دين السيد المسيح وإلهه، وهل هو يهوه إله اليهود أم (إيل) إله الآراميين.

وقد أشار إلى أن بعض الباحثين يرون أن المسيح مجرد إنسان عظيم قدير، وأن إلهه هو يهوه. ويقول: كان يسوع الإنسان يهودياً في بيئته وتعليمه ونظرته إلى الكون والإنسان، ولم يأت يسوع لينقض الناموس والأنبياء بل ليكمل. ويسوع جاء إلى خراف إسرائيل الضالة. ثم أشار

---

(١) راجع بحث التوراة ص ٢٨٠ م ٤ مجلة الأبحاث.

(١) راجع مجلة المعرفة (٤٥) تشرين الثاني ١٩٦٥ (جورج طعمة).

إلى الخلاف الذي وقع حول طبيعة المسيح. وقال إن نظرة بولس اليهودي الهيليني هي التي انتصرت.

وأشار إلى أن المسيحية بعد بولس حاولت طمس معالم اليهودية، واقتبست عناصر هيلينية. ولكن بالرغم من ذلك فإن المسيحية قامت على أنقاض اليهودية المتحجرة، حتى أن المصادر اليهودية تعتبر يسوع يهودياً.

## ٥ - التوراة

تعد التوراة المصدر الأساسي للفكر الديني المسيحي، وبالتالي فهي بعيدة الأثر في بناء الفكر الغربي المعاصر، والثقافات الغربية الحديثة.

وقد أجمعت المصادر على أن التوراة هي أوسع الكتب انتشاراً، وأنها كتاب كتبه[(١)] الإنسان، وأن مؤلفيها يحملون أسماء ذائعة الصيت مثل: (يساياه، ايزيكبيل، جريمياه، القديس بول) ولكن أغلب كلماته كتبها أشخاص آخرون لا يعرف أحد من هم، ولا يمكن معرفتهم في يوم من الأيام. لقد ظل الوحي الإلهي إلى الإنسان ينتقل من الأب إلى الإبن ألف سنة تقريباً بعد إبراهيم من غير أن يكتب، وبعد ذلك بدأ اليهود في تدوينه. وكان ذلك قبل ألف سنة تقريباً من ميلاد المسيح، فأخذوا يسجلون القصص والقصائد القديمة، وأضافوا إليها قصصاً وقصائد أخرى جديدة، ثم استلزم الأمر أن تعاد كتابة لفائفهم عدة مرات، وأن تنقل وتنسخ، مما أوجد فرصاً عديدة لا تحصى لتغييرات لا حدّ لها، بعضها مقصود، وبعضها الآخر غير مقصود. ولما بدأت المسيحية تنتشر بسرعة ازدادت الحاجة إلى عمل نسخ جديدة، لا سيما العهد الجديد. وأخذ كثير من المؤمنين يضعون نسخاً لأنفسهم بأنفسهم. ولذلك فإنه لا يوجد اليوم أي نص (أصلي) لأي جزء من (الكتاب) وربما حوى

---

(١) بحث في مجلة لايف م ٨٣ عدد ٧ (ابريل ١٩٦٥) ترجمة الدكتور أمير رضا عن مجلة الوعي الإسلامي مايو ١٩٦٦.

العهد الجديد تغييرات أكثر وأبلغ من العهد القديم .

* * *

والكتاب المقدس يتكون من جزأين أو عهدين .

الأول ـ هو العهد القديم ، وهو مشترك بين اليهود والنصارى ، إلا أن ترتيب الأسفار يختلف عند كل من الطائفتين .

الثاني ـ هو العهد الجديد ، وهو مشترك بين الكاثوليك والبروتستانت ، إلا أن ( الكتاب المقدس ) البروتستانتي يستبعد أحد عشر سفراً يعترف بها ما وصلوا إليه من العلم في ذلك العصر ، وأقصى ما وصل إليه العلم الإنساني ، ولكنها كانت لا تؤمن بالتحول والتعارض مع ترقي العلم ، وكان هذا تحدياً جعل الدين في مواجهة العلم الحديث ، بحقائقه الجديدة ، التي عارضت ما دونوه ، وخلقت أزمة تاريخية هي أزمة الخلاف بين الدين والعلم ، وحققت للدين الهزيمة بفعل ما أضيف إليه من معلومات كذبتها حقائق العلم . وبذلك سقط رجال الدين سقوطاً دفعهم إلى الانتقام . فلم تلبث الكنيسة أن اضطهدت العلم ، ووقفت في وجه الكشوف العلمية ، وقام رجالها بصيحات خطيرة في أنحاء أوروبا استحلوا بها دماء العلماء وأموالهم ، وأنشأوا محاكم التفتيش التي دعت إلى معاقبة هؤلاء الملحدين والزنادقة الذين انتشروا في المدن والبيوت . وأحصيت على الناس الأنفاس ، وقد عاقبت هذه المحاكم ( ٣٠٠ ألف ) أحرق منهم اثنان وثلاثون ألفاً أحياء ، منهم العالم الطبيعي ( برونو ) وعوقب العالم الطبيعي ( چاليلو ) بالقتل لأنه كان يعتقد بدوران الأرض حول الشمس . ولقد كان من أثر ذلك أن اصطبغ الفكر الغربي والثقافة الغربية لآماد طويلة بتلك الكراهية وذلك الحقد ، وتلك الخصومة التي عرفتها الفلسفات والمذاهب والدعوات . ومن ثم أعلن الفكر الغربي شجب كل ما يتصل بالكنيسة .

وتقرر أن العلم والدين ضرتان لا تتصالحان ، واتجه الغرب إلى المادية

بكل معانيها. ومن هنا علينا أن نلاحظ أن مثل هذه المعركة التاريخية لم تقع مطلقاً في تاريخ الإسلام أو الثقافة العربية، وإن كانت كلمات الصراع بين العلم والدين ما تزال تتردد، والمقصود بها ليس الإسلام بأي وجه من الوجوه، فإذا نظرنا إلى الإسلام وجدناه على طرف نقيض من ذلك، فهو ذلك الذي أعان على النهج العلمي، ودعا إليه، وكان من ثمرة دعوته إبداع المسلمين والعرب للمذهب العلمي التجريبي الذي قام عليه العلم الحديث.

أما النهضة الغربية الحديثة فقد استمدت قيمها من الإسلام والفكر الإسلامي، وكان سلطان الكنيسة قد طغى وفرض نفسه على الحياة حتى لم تتمكن أوروبا من أن تتقدم فكراً أو ثقافة أو علماً أو اقتصاداً إلا بعد أن ثارت على سلطان الكنيسة وتحررت تحرراً تاماً من نفوذها.

وكان أبعد الآثار الإسلامية في الفكر الأوروبي أهمية ما تجلى في دعوة مارتن لوثر، وكالفن. فقد حمل (لوثر) على بيع صكوك الغفران، والوساطة بين الله والإنسان عن طريق الرهبان. ونادى (كالفن) بأن العلاقة بين الله والإنسان هي السبيل الوحيد للغفران، وأنه لا قوة إلا بالله، وأنكر أن البابوية معصومة لا تخطىء.

وكانت هذه التعاليم التي حملها لوثر، وكالفن غريبة عن طبيعة الفكر الأوروبي في ذلك العصر، وكانت مستمدة من ذلك التراث الإسلامي الذي تسرب إلى أوروبا عن طريق الأندلس وإيطاليا.

وقد هاجت حركة الإصلاح الأوضاع الإقطاعية أيضاً، ودعت إلى تحرير المعذبين من الفلاحين والكادحين، كما حاربت حركة كالفن في غير هوادة الانحلال الذي كان قد تفشى في أوروبا، والذي كان من مظاهره الإباحة في الحمامات العامة المختلطة التي كان يتردد عليها شباب الجنسين والأغاني التي تدور ألفاظها ومعانيها حول المسائل الجنسية، والملابس الخليعة التي ترتديها السيدات. وقد أمعن كالفن في خطته، فأصدر الأوامر بتعقب كل فرد في حياته الخاصة ومسائله عما يبدو له

من تصرفات أمام محكمة أقيمت لهذا الغرض اسمها محكمة الأخلاق.

والمعروف أن هذه الحركة قد أراقت الدماء في أوروبا، وأوقعت الصدام المسلح العنيف بين البروتستانت أعوانها، وبين الكاثوليك الذين هم أساس الكنيسة المسيحية، فعاشت أوروبا منذ السنوات الأخيرة من القرن الخامس عشر إلى منتصف القرن السابع عشر، أو على وجه التحديد حتى عام ١٦٨٤ في هذا الجو الديني المحموم والمتزمت، والذي قام على أساس الحروب الدينية التي خضبت أوروبا بالدماء حيث كان يحرق المتهمون بمخالفة المذهب الديني الرسمي للدولة احياءً، تنفيذاً لأحكام محاكم التفتيش الصارمة، فضلاً عن القوائم التي كانت تنشر على الملأ متضمنة أسماء الكتب وسائر المطبوعات المحظورة.

وكان أخطر هذه المصادمات موقعة سانت بارتلمي (٢٤ أغسطس - ١٥٧٣). وقد أحصي عدد القتلى فيها فوجد أنه ٢٥ ألفاً. وكانت الكنيسة الكاثوليكية هي التي قادت المعركة ضد خصومها ففتكت بالبروتستانت. كانت وقائع هذه المعركة التي استمرت ثلاثة أيام غاية في العنف والمرارة والوحشية مما لم يشهده تاريخ البشر على حد تعبير المنصفين من المؤرخين. وكان الفكر الإسلامي بعيد الأثر في هذه المرحلة حيث ترجمت آثاره، وبدأ نفوذه العملي والعلمي معاً في جانبين كبيرين:

الأول: جانب البحث العلمي.

الثاني: جانب الدراسات الإنسانية والاجتماعية.

وكان من آثار هذا الفكر أشياء كثيرة أهمها: ذلك التحرر في مفاهيم الكنيسة والمسيحية الرومانية، عن طريق دعوات لوثر وكالفن وغيرهما، كما سبقتهما الدعوة إلى تحطيم التماثيل، وإزالة الصور من الكنائس. هذه الدعوة التي حققت إصدار بيان إمبراطوري عام ٧٢٦ م بتحريم تقديس الصور والتماثيل، وأن القيام به يعد من أعمال الوثنية. وكان

( كليوديوس ) أسقف تورين يحرق الصور والصلبان، وينهى عن عبادتها. كذلك وجدت طائفة من النصارى شرحت عقيدة التثليث بما يقرب من الوحدانية، وأنكرت ألوهية المسيح عليه السلام.

كما كان للإسلام أثره في تاريخ أوروبا الديني، وتاريخ الكنيسة في نزعات المصلحين والثائرين على النظام الأسقفي السائد. وكانت هذه كلها مقدمات لحركة لوثر وكالڤن التي انبثق عنها المذهب البروتستانتي، والتي أدت أيضاً إلى إصلاحات قام بها المذهب الكاثوليكي.

وقد كان لوثر قد ألصق نشرة من خمس وتسعين مادة على باب كنيسة القلعة في جيتنبرج استعرض فيها سر الاعتراف المقدس الكاثوليكي.

وأعلن أن الآثم يتحرر بعد الاعتراف من ثقل الإثم بالرحمة الإلهية التي تنبعث من قرارة نفسه، وبالإيمان وحده وليس بغفران القسيس.

كما أعلن أن رجال الإكليروس لا يؤدون وظيفة مهمة ذات علاقة بين الله والإنسان. وقال لوثر: إن كل شخص باستطاعته أن يقرأ الإنجيل وهو حر يفسره حسب فهمه له، وإدراكه إياه. وكان هذا الرأي بالنسبة إلى الكنيسة كما لو تجرد اليوم المحكمة العليا من حق تفسير دستور الدولة. كما أعلن أن الادعاء باختلاف طبقة الإكليروس عن العامة مجرد كذب وبهتان، ورجا الناس أن يبحثوا عن الحقيقة المسيحية في الإنجيل، والإنجيل وحده. ( وهذه الآراء مستمدة استمداداً مباشراً من مفاهيم الإسلام ) كما أنقص عدد الأسرار المقدسة من سبعة إلى اثنين: وهما التعميد والقربان المقدس. ورفض القول باستحالة المادة إلى لحم المسيح ودمه، وأعلن أن على رجال الدين أن يتزوجوا، وأنب الكرادلة على حياة البذخ والرفاهية التي يحيونها، كما طالب بإزالة الرهبنة.

فلما أعلن البابا في نشرة مكتوبة حرمان لوثر. أحرق لوثر هذه

النشرة علانية وبصورة رسمية أمام الناس بكل ثقة وثبات.

ولم تلبث «اللوثرية» أن انتشرت في جميع ألمانيا، واعتبرت حركة معادية للكنيسة الرومانية، وأسهمت إلى حد ما في الحركات الثورية، والقومية، وشاركت في جميع الثورات السياسية والاجتماعية.

أما كالڤن فقد أيد انتقادات مارتن لوثر للكنيسة الرومانية .ومعظم آرائه الدينية، وأضاف إضافات جديدة إلى دعوة الإصلاح، أضاف الإيمان بفكرة القضاء والقدر، كما رفض الاعتراف بخضوع الكنيسة للدولة، أو بحق أي حكومة أو بحق الملك أو المجلس النيابي بسنّ القوانين الخاصة بالدين. ورفض الاعتراف بنظام الأساقفة، فأزيلت الصور التي تمثل القديسين مريم والمسيح، ثم حطمت، واستهجن استعمال الآلات الموسيقية في الكنائس. وكذلك الشموع والبخور والغناء والترتيل، وحاول أن يوجد كنيسة وفق تعاليم السيد المسيح.

واستطاعت (البروتستانتية) أن تمنح القسيس حق الزواج، ولم يعد هناك رهبان، كما استبدلت جميع الكنائس البروتستانتية اللغة اللاتينية باللغة المحلية كالإنجليزية والفرنسية والألمانية. وتخلى الجميع عن الاعتراف الإجباري وما يتبعه من غفران يتحقق على يد الإكليروس لذنوب المعترف وخطاياه، والتخلي عن فكرة المطهر أو الاعتراف، كما تخلوا عن عبادة القديس، وعبادة مريم العذراء، ولم يعد البروتستانت يطلبون وساطتها من السماء، وأعلنوا أن المصدر الوحيد الحقيقي للعقيدة المسيحية هو الكتاب المقدس.

# الفصل الرابع

# الإسلام

# الإســـلام

وصف عصر النهضة بأنه مرحلة الانتقال من الفترة التاريخية المسماة بالعصور الوسطى إلى ما يسمى بالعصر الجديد ويرجع المؤرخون والباحثون عوامل النهضة إلى انحطاط الكنيسة والإمبراطورية - وكانتا تحكمان في العصور الوسطى - انحطاطاً شاملاً، ويرون أن هدف النهضة كان الإعداد لتحرير النفس البشرية من أغلال الكنيسة التي كانت تشل حركتها، وكان لحركة إحياء الدراسات العربية والترجمة من الفكر الإسلامي أبعد الأثر في هذه النهضة، حيث بدأ ما يسمى (الدراسات الإنسانية) على قلم (بترارك) الذي حاول الاكتشاف المضاعف للإنسان والكون. وقد قامت هذه الحركة على أساس الفهم لكرامة الإنسان مخلوقاً ومفكراً ذا إرادة تريد وتختار وقوة تحس وتتذوق وتجرب (وهي المعاني الأساسية التي حملها القرآن إلى الفكر الإنساني عامة، وحملها المسلمون إلى الاندلس الذي تربى في جامعاته جميع قادة النهضة) غير أن هذه الحركة قد صاحبتها حركة أخرى، هي إحياء التراث الإغريقي. ومن هنا فإن هذه الحرية الإنسانية بدت وثنية في مظهرها غير مصطبغة بالدين، بل لقد قام كثيرون وفي مقدمتهم توماس الأكويني بالعمل على تفريغ الفكر الإسلامي من إطاراته، ونقله إلى الفكر الغربي على أنه فكر غربي منفصل عنه تماماً. وقد ظلت صيحة الإنكار والتجاهل لأثر الإسلام (هذا الأثر العميق في الفكر الغربي) قائمة ومستمرة منذ ذلك الوقت حتى سنوات قريبة حيث قام أمثال توماس كارليل، وجوستاف لوبون وغيرهما بالكشف عن هذه الحقيقة وإعلانها.

غير أن الذي لا شك فيه أن الإسلام قدم للثقافات الغربية أعظم ما قامت عليه النهضة الحديثة والحضارة المعاصرة في مجالين هامين: مجال العلوم الإنسانية الاجتماعية، ومجال العلم التجريبي.

ولقد ظل الغرب وكتابه وأتباعه في العالم الإسلامي ينكرون أثر الإسلام، ويتجاهلونه، ويتخطون هذه المرحلة المضيئة (ما بين ٦٠٠ ميلادية إلى ١٥٠٠ ميلادية) وهي فترة ظهور الإسلام في مجال العلوم، ووقفوا عند هذا الحد، وإذا كان لنا أن نضيف شيئاً هاما في هذا المجال. فإن مختلف النظريات السياسية والاجتماعية والاقتصادية والتربوية، ودراسات علم النفس والأخلاق والفنون وغيرها كانت لها أصول إسلامية أساسية. غير أن نمو هذه النظريات لم يلبث أن انحرف عن مفاهيم الإسلام تحت عدة عوامل أهمها: التمويه الخطير الذي حمل لواءه الأب توماس الإكويني وغيره في محاولة نقل نصوص بأكملها عن ابن رشد، والغزالي، ثم تحريفها. ورفع الإطار الإسلامي عنها حتى تبدو وكأنها غربية الصنع[١]. والأمر الثاني الخطير هو ذلك الانحراف الذي أصاب الفكر الغربي نفسه في مرحلة (المنحنى الخطير) عندما سيطرت أفكار التلمود والماسون والصهيونية العالمية على الفكر الغربي، وهي مرحلة متقدمة جدا بدأت في الأغلب في أوائل عصر المسيحية، ولكنها بدأت تأخذ خطوات خطيرة قبل الثورة الفرنسية التي كانت من أعظم ثمارها.

فمن اليقين أن النظريات الفكرية في الثقافات الغربية لها أصول إسلامية، وجذورها واضحة لا سبيل إلى تجاهلها، نعم. لم يقف أثر الفكر الإسلامي عند الجانب العلمي وحده. الذي كان من أعظم ثماره «المنهج العلمي التجريبي» بل امتد إلى مختلف نظريات الفكر السياسي والاجتماعي الحديث.

---

(١) هناك ظاهرة أساسية في الفكر الغربي بدأت في الفكر الإغريقي، هي إنكار الروابط التي تربط الفكر الإنساني في مراحله المختلفة. فالفكر الإغريقي يحاول في تعنت شديد وتضليل كبير أن يفصل نفسه عن الفكر الديني والفلسفي السابق له، والذي كان هو أثراً من آثاره وكذلك فعل الفكر الغربي الحديث.

## ( ٢ )

## المنهج الحسّي التجريبي

١ ـ المنهج العلمي التجريبي أهم ما قدمه الفكر الإسلامي للثقافة الغربية .

٢ ـ إضافات العلماء المسلمين في الرياضيات والفلك .

٣ ـ اضافات العلماء المسلمين في العلوم الاجتماعية والسياسية .

بدأ المفهوم العلمي عند المسلمين مستمداً من القرآن الكريم أساساً، ومن دعوته الصريحة إلى النظر في الكون والاهتمام بالعلم. وآية ذلك أن كلمة « علم » وردت في القرآن ( ٨٥٠ مرة) وأن أول أمر استخدم في القرآن هو كلمة « اقرأ » وأن أول أداة ذكرت في كتاب الله هي « القلم » .

والإسلام هو الذي أمر معتنقيه باتباع المنهج العلمي، والقرآن هو الذي أطلعهم على أن للكون سنناً وقوانين ليس فقط في مجال الطبيعة، بل وفي مجال المجتمع ايضاً. ومن هنا فقد انفتح المسلمون على الثقافات القديمة (إغريقية وفارسية وهندية ) ونقلوها ودرسوها، ووقفوا منها موقفاً واضحاً صريحاً: هو موقف الاستقلال والإنصاف، فلم يرفضوها جملة ولم تلتهمهم. ولكنهم أخذوا منها، وتركوا على ضوء من قاعدة قيمهم الأساسية .

لقد كانت الفلسفة اليونانية أشبه بالغول الخطير. فقد اقتحمت المسيحية ومن قبلها اليهودية، ولم تلبث أن سيطرت عليها واحتوتها. ولكنها حين ترجمها المسلمون ونقلوها إلى لغتهم وتعاملوا معها، عجزت عن أن تصهرهم أو تبتلعهم، وإن أصابتهم بخطر كبير، وأزمة بعيدة المدى. ولكن الإسلام وقادة فكره، بقدرتهم على التماس مفاهيمه وقيمه الأساسية قد استطاعوا أن يردوها على أعقابها، وأن يتخطوها محتفظين بمقوماتهم إذ امتصوا منها ما شاءوا، ثم بنوا منهجهم الفكري والعلمي على أسس رصينة من قيم الإسلام نفسه .

وقد تبين للباحثين المنصفين أخيراً خطأ الرأي الذي حمل لواءه «أرنست رينان» وتابعه كثير من المتعصبين وأعداء الإسلام والثقافة العربية، ودعاة التغريب، والنفوذ الأجنبي، وهو الرأي القائل بأن الفلسفة الإسلامية هي: (فلسفة يونانية مكتوبة بحروف عربية) وقد تأكد أنه (لا منطق أرسطو ولا الفلسفة الهيلينية أو الفارسية أو الهندية قد خلقت أو حولت الفكر الإسلامي العربي عن مساره القرآني، وإنما بقي كما هو ثمرة أصيلة للتوحيد الإسلامي الصريح) فقد بدأ من القرآن الكريم، والتقى في طريقه بتراث اليونان، فامتص عصارته الصالحة في سبيل إبداع منهج أصيل مستمد من قيم الإسلام توصلاً إلى ما حققه الفكر الإسلامي فعلاً من إنشاء «المذهب التجريبي».

لقد تمثل الفكر الإسلامي من الثقافات الروافد، والحضارات المختلفة ما يتفق مع طبيعته، وما يتفق مع احتياجاته، ثم طبع ما أخذ بطابعه الخاص. ولم يكن الفكر الإسلامي هو مجرد تأثر بهذه الثقافات المختلفة أو مجرد توفيق بينها وبين العقيدة الإسلامية، بل هو فكر أكثر إبداعاً وأصالة من هذا، فقد تجاوز منطق أرسطو الذي لم يكن هو العامل الأكبر في بناء الثقافة الإسلامية العربية، وتجاوز غيره من قوائم الفلسفات القديمة. ولذلك كله لم يكن الفكر الإسلامي في الحق امتداداً للفكر اليوناني، بل كان إضافة جديدة للفكر الإنساني، ونواة للمنهج العلمي التجريبي، وانطلاقاً امتد بعد ذلك إلى نشأة العلم التجريبي الحديث. فالفكر الإسلامي إبداع حقيقي في التفكير العلمي، وفلسفة شاملة يطل منها على الكون العريض، ونظام اجتماعي مستقل قوامه التوحيد.

لقد كانت فلسفة أفلاطون وأرسطو تعبر بدقة وعمق عن طبيعة المجتمع اليوناني في مرحلة انهياره. وكان مجتمعاً قوامه طبقة السادة،

وطبقة العبيد. فالفكر والتأمل والمتعة هي من نصيب «السادة» والعمل والفاقة من نصيب العبيد. وكانت فلسفة أفلاطون وأرسطو تعبر عن هذا الوضع تعبيراً دقيقاً.

وهي فلسفة تقوم على التأمل الخالص غير العملي، وتفرق بين الصورة والمادة تفرقة جادة. السادة هم الصورة، والعبيد هم المادة [1].

ولكن الفكر الإسلامي كان يختلف عن الفكر اليوناني في قيمه ومقوماته، وأبرز المقومات التوحيد. وكذلك المجتمع الإسلامي الذي يختلف اختلافاً بيّناً عن المجتمع اليوناني، فلم يكن أساساً يقوم على طبقتين: «سادة ـ وعبيد» ولكنه كان يقوم على ترابط عميق بين الفرد والمجتمع. وكانت حضارته حضارة علمية وعملية داخل إطار الإسلام من حيث أن الإسلام دين وعبادة ونظام مجتمع معاً.

لقد درس الفكر الإسلامي: الفلسفة اليونانية، وحاول أن يوفق بينها وبين إطار التوحيد الإسلامي، وهي فلسفة وثنية عبودية أساساً. غير أن المحاولة التي أجراها: الكندي، والفارابي، وابن سينا لم تحقق شيئاً. فقد تبين أن جوهر الفلسفتين مختلف تمام الاختلاف. فالفكر الإسلامي له طابعه الجامع المتكامل القائم على النظرة العقلية، والممارسة العملية التي تختلف كل الاختلاف عن الفكر اليوناني القائم على التأمل النظري ويقف عنده.

لقد كان الفكر الإسلامي في جوهره فكراً تجريدياً تجاوز حدود التأمل الإغريقي، وخطا خطوة أبعد إلى مجال العلم التجريبي، والممارسة العملية، ودخل آفاقاً أوسع. وبذلك بدا متميزاً كفكر له خصائص ذاتية مستمدة من جوهر يختلف عن الفكر اليوناني.

---

(١) راجع أمين العالم في بحثه عن العلم عند العرب، والدكتور النشار في كتابه: مناهج البحث عن مفكري الإسلام.

لقد كان أبرز مظاهر الفكر الإسلامي، أنه بلغ خطوة أكبر، وأضاف إضافة واسعة حين راجع النصوص اليونانية ونقدها، وكشف عن خطأ ما بها من نظريات، ثم تجاوز ذلك كله إلى التجربة العملية، واتخذها مصدراً لعلمه وفلسفته. وكان هذا هو منطلق الحضارة العربية الإسلامية في توسعها وتطورها. فالفكر العربي العلمي بهذا المفهوم ليس امتداداً للفكر اليوناني، بل هو إبداع جديد له طابعه التجريبي الذي كان نقطة انطلاق إلى نشأة العلم التجريبي الحديث.

« بهذا المنهج التجريبي، وبهذه القيم العلمية، والكمية، وبهذا التوحيد بين النظر والعمل، وبهذه النظرة المتطورة للكون والإنسان، بهذا كله اختلف الفكر الإسلامي العربي اختلافاً كبيراً عن الفكر اليوناني المترجم، وتناقض معه في مختلف فروع الثقافة من علم أصول وفقه وفلسفة عقلية، ونظرة إلى الإنسان. ولم يكن هذا الاختلاف عابراً أو طارئاً أو مصادفة أو عفوياً ».

وعندنا أن ذلك إنما جاء نتيجة للخلاف الجذري بين الإسلام القائم على التوحيد والرسالة المنزلة، والنظرة القرآنية العلمية، وبين التراث اليوناني الوثني القائم على العبودية للغالبية العظمى، والسيادة للقلة القليلة، ويكشف منهج البيروني وجابر بن حيان عن هذا الخروج المباشر عن منطق أرسطو، كما يكشفه خروج رجال الأصول والفقه على المفهوم الأرسطي للحد والتعريف، وإنشاء نظرية جديدة للتعريف، مستمدة من الواقع الإسلامي، فقد أصبحت عملية التجريب العملي لا عملية استخلاص المنطق هي سبيل المعرفة الإسلامي.

وقد نقد ابن خلدون قياس أرسطو حين قال: إن الأقيسة المنطقية أحكام ذهنية، والموجودات الخارجية متشخصة، فالتطابق بينهما غير يقيني، لأن المادة قد تحول دونه. اللهم إلا ما يشهد له الحس من

ذلك، فدليله شهوده لا تلك البراهين المنطقية.

وميزة الفكر الإسلامي هي: «إدراك عميق بأهمية [1] الرابطة العليا بين الأشياء، كأساس للمعرفة العقلية، وعلى هذه الرابطة العلية تقام التجارب، وتتحقق النظرة الموضوعية إلى الظواهر الطبيعية والاجتماعية على السواء».

وقد بدأت المعارضة لفلسفة أرسطو واضحة بعد فترة قليلة من ترجمة آثار الإغريق، وهي معارضة نابعة من منابع الفكر الإسلامي نفسه، المستمدة من القرآن الكريم، أساسها خلاف واضح بين الوثنية والتوحيد، وبين مجتمع العدل الاجتماعي في الإسلام، ومجتمع العبودية في اليونان.

وقد وصل علماء المسلمين: (فيما عدا الشراح الذين اعتبروا امتداداً للفكر اليوناني نفسه) من المتعلمين وعلماء الأصول إلى رفض المنطق الأرسطي رفضاً قاطعاً منذ وقت مبكر، وأخذوا في إقامة منطق جديد مستمد من القرآن الكريم.

وكان علماء الطب والرياضة والبصريات أقرب هؤلاء إلى الخروج من حدود التأمل إلى التجربة. وكان الرأي قد تبين أن منطق الاستدلال [2] الأرسطالي اليوناني قاصر عن استيعاب أسرار الذات الإلهية، وتفسير قدراتها.

وكان ابن تيمية هو قمة الأئمة الذين وصلوا إلى كشف «منطق إسلامي مستمد من القرآن الكريم» دحضاً لمنطق أرسطو، ورفضاً للقول بالكليات المجردة، وتوصلاً إلى جعل المحسوسات والجزئيات أساساً للمعرفة. وبالجملة: فالفكر الإسلامي قد رفض المنطق الأرسطي الذي

(١) أمين العالم: ك: معارك فكرية.

(٢) الدكتور علي سامي النشار: مناهج البحث في مفكري الإسلام.

يقوم على القياس والاستدلال النظري وأقام منطقاً جديداً أكثر تعبيراً عن خصائصه هو:

## المنهج الحِسّي التجريبي

ففهوم الإسلام يتفق مع منهج منبثق من جوهره هو: المنهج الاستقرائي التجريبي، وينكر أشد الإنكار المنهج البرهاني القياسي.

ومن هنا عدة أمثال: الكندي، والفارابي، وابن سينا، وابن رشد، مجرد امتداد للروح الهِلينية في العالم الإسلامي. وقد تبين فشل منطق أرسطو من اللحظة الأولى، ولكنه تأكد من بعد على ضوء الملابسات الموضوعية لنمو الحضارة الإسلامية.

ومن هنا تكشفت حقيقتان أساسيتان لا ريب فيهما:

١ ـ إن الفكر الإسلامي في جوهره «فكر تجريبي».

٢ ـ إن منطق أرسطو منطق قاصر من وجهة النظرة الإسلامية.

ذلك ان منطق أرسطو «بنية يونانية» وخاصة من خواص الفكر اليوناني وحده. وهو تعبير عن وجود يوناني قائم على العبودية والوثنية معاً. وبذلك فهو غريب على الفكر الإسلامي غربة كاملة.

وبذلك يكون الفكر الإسلامي بحق هو مبدع «المنطق التجريبي» وكان وضوح موقفه من الفكر الإغريقي تمزيقاً وهدماً للمنطق الأرسطي الذي هدمه الغرب بعد ذلك بأكثر من أربعمائة عام. والقول بالاستقراء والتجربة هو في مفهوم الباحثين المنصفين جميعاً خاصية الفكر الإسلامي، بينما القول بالقياس والاستدلال هو خاصية الفكر اليوناني.

ومن هنا بدأت النهضة الأوروبية بالتماس منطق المسلمين، وبدأ تأخر

المسلمين بالتماس منطق اليونان. ولقد كان التجريب والاستقراء مرحلة على طريق الوصول إلى «المنهج العلمي التجريبي» الذي هو قوام الحضارة الحديثة المعاصرة.

ومن هنا فإن أثر الإسلام والثقافة العربية في بناء أساس الحضارة الغربية جوهرها ومضمونها، واضح وأكيد وبعيد المدى.

(٣)

## المنهج العلمي الإسلامي

كان إيمان المنهج العلمي في سبيل بناء «حضارة إنسانية» هو سيادة الخلق والمبادىء الشريفة وتغليب معاني العدل والإخاء، والتكامل الاجتماعي. وكان الرقي في نظر الفكر الإسلامي هو تغليب الإنسان على المادة وعلى أهوائه في نفس الوقت.

وإن الإسلام في أسسه الأولى التي أوردها القرآن الكريم، قد دعا إلى «البرهان» في كل قضية: «قل هاتوا برهانكم». ومن هنا نشأ في مجال الفكر العربي الإسلامي ما يسمى بالبحث عن الدليل، والنهي عن التقليد، وعدم الثقة بالنص إلا بعد مطابقته للعقل وإقرار مصدره.

وقد وصل الفكر الإسلامي في ذلك إلى غاية النضج والقوة، وعندما ترجمت آثار الاغريق لم يأخذها المفكرون المسلمون قضايا مسلماً بها، ولكنهم ناقشوها وراجعوها وقبلوا منها ورفضوا.

فابن سينا يخالف أرسطو وأفلاطون وغيرهما من فلاسفة اليونان في كثير من النظريات والآراء، فلا يتقيد بها. يأخذ منها ما يقتنع به، ويوافق مزاجه الإسلامي ويزيد عليه. وعنده أن الفلاسفة يصيبون ويخطئون كسائر الناس، ولذلك فهو لا يتقيد بآراء من سبقه، بل يبحث فيها ويدرسها، ويعرضها على المنطق والعقل، ومختلف خبراته.

وقد جعل للتجربة مكاناً واضحاً فيما قبله، واعتقد به. ومن قوله: «حسبنا ما كتب من شروح لمذاهب القدماء. وقد آن لنا أن نضع فلسفة خاصة بنا».

وابن رشد يمضي في طريق البحث العلمي خطوات أكثر عمقاً واتساعاً حيث يقول: «يجب علينا إذا ألقينا لمن تقدمنا من الأمم السابقة نظراً في الموجودات واعتباراً لها بحسب ما اقتضته شرائط البرهان، أن ننظر في الذي قالوه عن ذلك، وما أثبتوه في كتبهم، فما كان منها موافقاً للحق قبلناه منهم وسررنا به، وشكرناهم عليه. وما كان غير موافق للحق نبهنا عنه، وحذرنا منه وعذرناهم. وعلينا أن نستعين على ما نحن بسبيله بما قاله من تقدمنا في ذلك، وسواء كان هذا الغير مشاركاً لنا في الملة، أو غير مشارك إذا كانت فيها شروط الصحة.

«وابن الهيثم» له في مجال تقنين أصول البحث العلمي رأي واضح، ونظرية كاملة يقول: يبدأ في البحث باستقراء الموجودات، وتصفح أحوال (المبصرات) وتميز خواص الجزئيات، ويلتقط باستقراء ما يخص البصر في حال الإبصار، وما هو مطرد لا يتغير، وظاهر لا يشتبه في كيفية الإحساس، ثم نترقى في البحث والمقاييس على التدريج والتدريب مع انتقاد المقدمات، والتحفظ في الغلط في النتائج، ونجعل غرضنا في جميع ما نستقرئه ونتصفحه استعمال العدل، لاتباع الهوى، ونتحرى في سائر ما نميزه وننتقده طلب الحق الذي به تثلج الصدور ونصل بالتدرج واللطف إلى الغاية التي عندها يقع اليقين، ونظفر مع النقد والتحفظ بالحقيقة التي يزول معها الخلاف وتنحسم بها مواد الشبهات.

«والبيروني» يصور مذهبه العلمي في مقدمة كتابه: (الآثار الباقية عن القرون الخالية) وعنده أن أقرب الأسباب (لمعرفة التواريخ التي تستعملها الأمم): هو معرفة أخبار الأمم السابقة وأنباء القرون الماضية،

لأن أكثرها أحوال ورسوم باقية من رسومهم ونواميسهم، ولا سبيل إلى التوسل إلى ذلك من جهة الاستدلال بالمعقولات، والقياس بما يشاهد من المحسوسات سوى التقليد لأهل الكتب والملل، وأصحاب الآراء والنحل المستعملين لذلك، وتعتبر ما هم فيه أساساً يبنى عليه بعده، ثم قياس أقاويلهم وآرائهم في إثبات ذلك بعضها لبعض بعد تنزيه النفس عن العوارض المرئية لأكثر الخلق والأسباب المعمية لصاحبها عن الحق، وهي كالعادة المألوفة، والتعصب والتظاهر، واتباع الهوى، والتغالب بالرئاسة وأشباه ذلك.

وفي رسالة القاضي عياض عن «علم المصطلح» من الدقة والتفكير والاستنتاج تحت عنوان «تحري الرواية والمجيء باللفظ» ما وصفه الدكتور أسد رستم: بأن ما جاء فيه يضاهي أدق ما ورد في الموضوع نفسه في أهم كتب الإفرنج: ألمانيا، وفرنسا، وأميركا، وإنجلترا. هذه الآراء التي سبقت كتابات الغربيين بخمسة قرون، والفكر الإسلامي هو السابق لإقرار هذه النظريات. ويقول الدكتور رستم «إنه على الرغم من مرور سبعة قرون عليها، فإنه ليس بإمكان رجال التاريخ في أوروبا وأميركا أن يكتبوا الآن أحسن منها».

وقد أشار (قدري حافظ طوقان) في كتابه (العلوم عند العرب) أن العلامة النظام سار في كتاباته على الشك والتجربة. وهما الركنان القائمان في النهضة الحديثة، فاعتبر الشك أساساً للنجاح. وقال: «الشاك أقرب إليه من الجاحد، ولم يكن يقين قط حتى صار فيه شك، ولم ينتقل أحد من اعتقاد إلى اعتقاد غيره، حتى يكون بينهما حال شك».

ويقول أبو هاشم البصري: الشك ضروري لكل معرفة.

ويقول الجاحظ: «تعلم الشك في المشكوك فيه تعلماً، فلو لم يكن إلا تعرف التوقف، ثم التثبت. لقد كان ذلك مما يحتاج إليه».

ودعا جابر بن حيان إلى إجراء التجربة حين قال: «إن واجب المشتغل في الكيمياء هو العمل وإجراء التجربة، وإن المعرفة لا تحصل إلا بها.».

وقد شك «الجاحظ» فيما أورده أرسطو من أن هناك طائراً قديراً على الاهتداء والطيران البعيد، يبني عشه في منطقة الجبال التي هي شرقي العراق بأوراق شجر (الدارصيني) التي نبتت على حدود الصين. وقال: ولست أدفع خبر صاحب المنطق (يعني أرسطو) عن صاحب الدارصيني. وإن كنت لا أعرف الوجه في أن طائراً ينهض من وكره في الجبال بفارس أو اليمن، ويعمد نحو بلاد الدارصيني، وهو لم يجاوز موضعه، ولا قرب منه، فكيف يقطع بطون الأودية، وأهضاب الجبال بالتدويم بالأجواء، وبالمضي على السمت يطلب ما لم يره، ولم يسمعه ولم يذقه بعد. فإن شجر الدارصيني ليس بالوطيء ولا بالوثير، ولا هو لهذا الطائر بطعام.

ويواجه ابن حزم نظريات أخرى يونانية من نظريات الفلك والجغرافيا، ويدحضها على أساس البرهان، وتقدير العقل يقول: زعم قوم أن الفلك والنجوم تعقل، وأنها ترى وتسمع. وهذه دعوى بلا برهان واضح الحكم بأن النجوم لا تعقل أصلاً، وأن حركاتها أبداً على رتبة واحدة. وهذه صفة الجماد. ويقول: زعم بعض اليهود والعامة أن أنهار النيل، وجيحان، ودجلة، والفرات تخرج من الجنة وتسقي جميع المعمور، والواقع أن لهذه الأنهار منابع معروفة في أرضنا.

* * *

وقد رسم ابن حزم نظرية المعرفة الإسلامية على أسس ثلاثة:

(١) شهادة الحواس (أي الاختبار).

(٢) بأول العقل (أي بالضرورة وبالعقل من غير حاجة إلى استعمال الحواس الخمس).

(٣) ببرهان راجع من قرب أو بعد إلى شهادة الحواس وأول العقل.

* * *

وأعتقد أن هذه الأسانيد تعطينا الدليل القطعي على سبق الفكر الإسلامي العربي للغرب في وضع أسس المنهج العلمي على نحو تطبيقي لا نظري. قوامه: الاستقراء، والقياس، والتمثيل. ثم انتقاله انتقالاً سريعاً مدعماً إلى التجربة والممارسة العملية على نحو واضح.

أولاً - قصر البحث العلمي على المشاهدة والتجربة، وجمع المشاهدات، ونتائج التجربة وربطها وتبويبها.

ثانياً - تمحيصها، وربط تلك الحقائق على النحو الذي يجعلها تصبح قانوناً طبيعياً أو نظرية علمية.

ثالثاً - استنباط النتائج التي تفضي إليها، وبحث صحة تلك النتائج ومطابقتها للواقع.

وقد يتضح هذا المنهج على يد ابن الهيثم (٩٣٥ - ١٠٣٩ م) سابقاً به فرنسيس بيكون (١٥١٦ - ١٦٢٦ م) فقد جمع ابن الهيثم بين الاستقراء والقياس، وقدم الاستقراء على القياس، وحدد الشروط الأساسية في البحث العلمي وهي طلب الحقيقة دون أن يكون لرأي سابق أو نزعة أو عاطفة مهما كانت داخلة في الأمر. وعنده أن كل مذهبين مخالفين. إما أن يكون أحدهما صادقاً، والآخر كاذباً. وإما أن يكونا جميعاً كاذبين، والحق غيرهما جميعاً. وإما أن يكونا جميعاً يؤديان إلى معنى واحد هو الحقيقة.

ويرى قدري طوقان، ومصطفى نظيف وغيرهم أن ابن الهيثم لم يسبق (بيكون) فحسب، ولكنه سما عليه. فقد كان أوسع منه أفقاً وأعمق تفكيراً.

وابن رشد الذي أخذ عنه الغربيون يؤمن بمبدأ العقل عند البحث، وعدم الاعتماد على الروايات التقليدية. تبدو في فكره وبحثه النزعة الاستقلالية واضحة. فبالرغم من أنه شارح أرسطو، فلقد كان واضحاً أن شروحه في الأغلب كانت تكشف عن شخصيته وآرائه الاستقلالية.

وقد أشار الدكتور محمود قاسم في أبحاثه الكثيرة عن أصالته الإسلامية، وعن اقترابه من الغزالي في كثير من مفاهيمه، وأن الخلاف بينهما الذي يردده خصوم الإسلام فيما يتعلق بتهافت الفلاسفة، وتهافت التهافت - وبينهما مائة عام تقريباً - ليس خلافاً جذرياً، وأنهما يلتقيان معاً في بوتقة الإسلام باختلاف الظروف والأزمنة، ولكنهما على التقاء في عشرات القضايا الأساسية في الفكر الإسلامي.

والحق أن هذه الوقائع الأساسية عن مكانة الفكر الإسلامي قد أشار إليها بعض الباحثين المنصفين. فإن الأستاذ: بريفولت يقول: إن ما يدين به علمنا لعلم العرب ليس فيما قدموه إلينا من كشوف مدهشة لنظريات مبتكرة، بل يدين هذا العلم إلى الثقافة العربية بأكثر من هذا. إنه مدين لها بوجوده نفسه. فالعلم القديم لم يكن للعلم فيه وجود، وعلم النجوم عند اليونان ورياضياتهم كانت علوماً أجنبية استجلبوها من خارج بلادهم وأخذوها عن سواهم، ولم تتأقلم في يوم من الأيام، فتمتزج امتزاجاً كلياً بالثقافة اليونانية.

وقد نظم اليونان المذاهب، وعمموا الأحكام، ووضعوا النظريات. ولكن أساليب البحث وجمع المعلومات الإيجابية، والمناهج التفصيلية للعلم، والملاحظة الدقيقة المستمرة، والبحث التجريبي، كل ذلك كان غريباً تماماً عن المزاج اليوناني. ولم يقارب البحث العلمي نشأته في العالم القديم إلا في الإسكندرية في عهدها الهيليني. أما ما ندعوه «العلم» فقد ظهر في أوروبا نتيجة لروح من البحث جديدة، ولطرق التجربة والملاحظة والمقاييس ولتطور الرياضيات إلى صور لم يعرفها اليونان، وهذه الروح وتلك المناهج العلمية أدخلها العرب إلى العلم الأوروبي.

ولم يقف الأستاذ بريفولت عند إقرار دور الفكر الإسلامي وأصالته وإضافته الموضحة المبتكرة، بل ذهب إلى أبعد من ذلك حين قرر: «أن روجر بيكون نقل مذهب العرب في البحث العلمي يقول: إن روجر بيكون درس اللغة العربية، والعلم العربي، والعلوم العربية في مدرسة اكسفورد على خلفاء معلميه في الأندلس. وليس لروجر بيكون ولا لسميه «فرنسيس بيكون» الذي جاء بعده الحق في أن ينسب إليهما الفضل في ابتكار المنهج التجريبي، فلم يكن روجر بيكون إلا رسولاً من رسل العلم والمنهج الإسلامي إلى أوروبا المسيحية، وهو لم يمل قط من التصريح بأنه يعلم معاصريه أن اللغة العربية وعلوم العرب هما الطريق الوحيد لمعرفة الحق.

وعند بريفولت أن المناقشات التي دارت حول واضعي المنهج التجريبي هي طرق من التجديف الهائل لأصول الحضارة الأوروبية. وقد كان منهج العرب التجريبي في عصر بيكون قد انتشر انتشاراً واسعاً، وأكب» الناس في نهم على تحصيله في ربوع أوروبا [1].

## (٤)

### إضافات الفكر الإسلامي في مجال العلم

أضاف الفكر الإسلامي إضافات بعيدة المدى في مجالات العلوم المختلفة: في الطب، في الفلك، في الكيمياء، في الصيدلة، في الملاحة، في الجغرافيا، في علوم البحار، في الصوت، والضوء، في نظريات النشوء والترقي، في الأرقام والحساب، في البحر، في المراصد وآلات الأسطرلاب، في صناعة الورق.

ففي الطب عرفوا طبيعة كثير من الأمراض: كالجدري، والحصبة، واستعملوا الأمصال في معالجة الأمراض، ووصفوا تشريح الجسم الإنساني وصفاً دقيقاً.

(١) راجع شهادات أخرى للفكر الإسلامي في كتابنا «أضواء على الفكر العربي الإسلامي».

وعرفوا العقاقير فسجل ابن البيطار ١٤٠٠ عقاراً لم تعرف اليونان منها غير ٤٠٠ عقار والألف اكتشفها العرب، وحددوا منافعها ومضارها.

وألف أبو القاسم الزهراوي كتابه «في الطب والجراحة» في عشرين مجلداً. وأطباء الإسلام هم أول من فتت الحصى في المثانة، وسدوا الشرايين النازفة، وعرفوا كثيراً عن الجذام، والحصبة، والجدري، وعدوى الطاعون، واستعملوا المرقد (المخدر) في العمليات الجراحية. والأطباء المسلمون هم أول من كشف النقاب عن الدورة الدموية ودودة الانكلستوما كما صحح الأطباء العرب آراء بقراط وجالينوس في التشريح ووظائف الأعضاء [١].

وقد ترجم كتاب ابن سينا (القانون في الطب) في خمس عشرة طبعة إلى اللاتينية، والعبرية، والانجليزية. وقد بحث عن العقاقير والأدوية في سبعمائة وستين نوعاً. قال الدكتور ردينستون: إنه يحتوي على ما يزيد على مليون كلمة. وقد عالج القرحة الدرنية، والقولنج الكبدي والكلوي، والتهاب الرئة، والجنب، والتهاب الدماغ. وقد ظلت مؤلفاته أساساً للمباحثات الطبية في جامعات فرنسا وإيطاليا ستة قرون. ولم تعرف جامعة لوفان حتى القرن السابع عشر مرجعاً للطب والعقاقير أوفى من كتب الرازي وابن سينا وابن الهيثم.

وعرّف الفكر الإسلامي التطعيم ضد الجدري، واستخدموا عفن البنسلين، وعين الغراب كمراهم. «أما طب العيون فهو من صناعة العرب. وظلت تذكرة طب العيون تستخدم حتى القرن ١٩ [١]، بل لقد احتل المسلمون المركز الأول في مجال الطب فترة تزيد على خمسمائة عام.

* * *

(١) راجع كتابنا «مقدمات العلوم والمناهج».
(١) ربيتّه جارودي «بحثه في القاهرة نوفمبر ١٩٦٩».

وفي المجالات الأخرى نجد إضافات باهرة، فقد اخترع المسلمون الساعات الدقاقة والزوالية، واكتشفوا قوانين ثقل الأجسام، وعرفوا تركيب النار اليونانية، واستخرجوا قوة البارود الدافعة، واستعملوا الآلات القاصفة، واتقنوا فن تسقية الفولاذ. وهم أول من استخدم البوصلة في الملاحة. واكتشفوا الإبرة المغنطيسية التي انتقلت إلى أوروبا في القرن الثاني عشر، ونقلوا القمح الأحمر، ومشاتل النخيل من اسبانيا وافريقيا إلى فرنسا. واستخرجوا مادة القطران التي يطلى بها قاع السفن. وعرف فضلهم في تحسين نسل الخيل. وكانوا أول من حاول قياس خط النهار. ووصفوا أصول علم الجبر، وحساب المثلثات. وبسطوا علم الحساب الإغريقي. ونقلوا القطن إلى الأندلس. وأخذوا من الصينيين زراعة القصب، واستخراج السكر منه، وأدخلوهما إلى مصر وصقلية والأندلس. وكانت علوم المسلمين في الجغرافيا والفلك هي صاحبة الفضل الأكبر في الكشف عن الأميركيتين. وعلل المسلمون ملوحة البحر، وعذوبة المطر، واستحالة الحطب في الاحتراق، واستحالة الزيت في المصباح، وصعود الهواء، وانحدار الماء لا بالجاذبية والثقل النوعي، بل بانجذاب بعضها إلى بعض.

وعرف موسى بن شاكر مائة تركيب ميكانيكي، كما علل علماء المسلمين صعود الماء في العيون والفوارات، وتجمع الماء في العيون والقنوات. واستعملوا السيفون وسموه (السمارة) وعرفوا كثافة الذهب والرصاص، وبحثوا في الصوت وحصوله، وعللوا حدوث الصدى، وكتبوا في الأوتار واهتزازها. وعرفوا ما بين طول الوتر، وغلظه وتأثره من علاقة. كما عرفوا خاصة الجذب في المغناطيس، وخاصة اتجاهه. وهم أول من استعمل بيت الإبرية (البوصلة) في البحار. ودرسوا نظرية النشوء والارتقاء في مدارسهم، وطبقوها على المواد غير العضوية والمعادن. والحسن بن الهيثم هو أول علماء البصريات. كما اقتبسوا الأرقام الهندية وشذبوها. وأوجدوا طريقة مبتكرة وهي الإحصاء العشري باستعمال الصفر واستعملوا الرموز في الرياضة، فسبقوا

الأوروبيين إلى ذلك، ومهدوا للكشف عن اللوغاريتمات وعن التكامل والتفاضل. وأنشأوا المراصد العديدة، ووضعوا الأزياج الدقيقة الكبيرة الفائدة. وهم أول من عرف الأصول التي تقضي إلى الرسم على سطح الكرة. وأول من أوجد عملياً طول الدرجة من خط نصف النهار. وقالوا باستدارة الأرض ودورانها على محورها، واخترعوا آلة الإسطرلاب الدقيقة. وحققوا مواقع كثير من النجوم، وحسبوا طول السنة الشمسية، وبحثوا في كف الشمس قبل الأوروبيين، ووضعوا جداول دقيقة عن النجوم الثوابت، وصوروها في الخرائط. وصححوا أخطاء بطليموس، وخطأ الرومان القائلين بتسطح الأرض، ورسموا خرائط بلادهم. وأكد أبو الفداء: أن الأرض كروية، وأنها في الوسط. وهم أول من وضع أساس الكيمياء. وقد مارسوا أعمال التقطير والترشيح والتصعيد والتبلير (البلورة) والتذويب والإلغام والتكليس. وهم الذين استحضروا الكحول والقلي والبورق والزرنيخ والبوتاس، والإثمد، وزيت الزاج (حامض الكبرتيك) والزاج الأخضر، وماء الفضة، (حامض النتريك) وحجر جهنم (نترات الفضة) وملح البارود (نترات البوتاس) والسليماني والراسب الأحمر (اكسيد الزئبق) وروح النشادر وملح الطرطير، وماء الذهب والبارود. والقلويات كلها في الكيمياء معروفة باسمها العربي. وماء الفضة لم يوصف في كتاب غربي قبل كتاب: جابر بن حيان. وملح البارود من تحضير تلميذ المسلمين روجر بيكون. وأول من اخترع رقاص الساعة هو: أبو الحسن العباسي المشهور بابن يونس، والساعة الدقاقة اخترعها علماء المسلمين وأهداها هارون الرشيد إلى شارلمان ملك فرنسا، فكانت وغيرها من الهدايا موضع دهشة عظيمة. وأول مصنع للورق بدأ في سمرقند عام ٧٥١ - ثم في بغداد في زمن الرشيد، ثم في دمشق الرشيد. ثم في دمشق ودمياط ومراكش وصقلية وأسبانيا. والمرايا والبلور بدأت في سوريا، ومنها انتقلت إلى البندقية. وقد عرف المسلمون (الصفر) ولم يعرفه الغربيون إلا في القرن الثاني عشر عن طريق المسلمين. وقال العلامة إير: إن فكرة

الصفر تعتبر من أعظم الهدايا العلمية التي قدمها المسلمون. وكان المسلمون قد استعملوا الصفر في الحساب، ورسموه على هيئة حلقة. ثم شرح الخوارزمي طريق استعماله في بحث ترجم إلى الكتب الأوروبية في الربع الأول من القرن الثاني عشر.

وأبرزت هذه النهضة العلمية عدداً كبيراً من العلماء في مقدمتهم: جابر ابن حيان، والخوارزمي، والرازي، والبتاني، والبيروني، وابن الهيثم، وابن خلدون، وأبو الثناء الأصفهاني، والفرغاني، والقزويني، والزهراوي، وابن يونس وابن ماجد، وحسن المراكشي، وعمر الخيام، والفارابي، والإدريسي، وغيرهم [1].

ومما يذكر في هذا المجال أن الطبيب ابن النفيس (علي بن حزم القرشي) كبير أطباء مصر ١٢١٠ - ١٢٨٨ م. عارض رأي جالينوس الذي ظل مهيمناً على عقول الأطباء أكثر من عشرة قرون، ونقد نظرية جالينوس، وعارض قوله في الدم، وقال كيف يمكن أن ينتقل الدم من البطين الأيمن إلى الأيسر خلال حاجز ليس له منافذ، ودحض نظرية جالينوس، وأخرج للعالم لأول مرة نظرية الدورة الدموية الصغرى، إذ قال: إن الدم لا يمكن أن ينتقل من البطين الأيمن إلى البطين الأيسر مباشرة خلال الحاجز. وإنما يسير من البطين الأيمن إلى الرئة إلى البطين الأيسر. وهذه هي الدورة الدموية الصغرى.

وقد ظلت آراء ابن النفيس قائمة، حتى ترجمت كتبه إلى اللاتينية في عصر النهضة. وجاء سرفيتو وكولمبو: فأيدا ما ذهب إليه ابن النفيس، وذلك في القرن السادس عشر، فهو قد سبقهما بأكثر من مائتين وخمسين سنة. أما وليم هارفي: فقد جاء بعده بأكثر من أربعماية سنة، وقام بتجاربه في ضوء أبحاث ابن النفيس ومن تلاه وانتهى إلى كشف الدورة الدموية الكبرى.

---

(١) راجع تفاصيل أكثر في هذا المجال في كتابينا: أضواء على الفكر الإسلامي، وصفحات من أمجادنا.

## ١ - ابن حزم : نظرية المعرفة

نستطيع أن نقول إن أبرز دعائم للفكر الإنساني الحديث في مجالات الاجتماع والسياسة والاقتصاد والتربية والقانون، وخاصة في مجال الخطوط العامة لها جميعاً إنما بدأها الفكر الإسلامي وأرساها، ثم نماها الفكر الغربي واتجه بها وجهة أخرى.

وتكاد تكون نظرية المعرفة التي صاغها «ابن حزم» من أهم هذه الدعائم. وقد سبق بها «كانْت» بسبعة قرون، وقد بلغ ابن حزم الغاية في ذلك، فهو يعد بحق مؤسس المنهج العلمي في المعرفة في الفكر العربي الإسلامي.

يقول: لا يجوز لمن لا يملكون أدوات الاجتهاد والعقل أن يقلدوا إماماً في كل ما يقول، أو كل ما قال وقرر، من غير ترجيح دليل على دليل.

وطالب الحق لا يصح أن يعميه التعصب لقوله عن التماسه، حيث يكون. وهو في إخلاصه للحق لا يبغي له الغلب، ولكن يبغي بعد نصر الحق المجرد، وهو مستعد لترك قوله هو إلى قول غيره إن رأى عند غيره الحق السائغ، الذي لا يشوبه باطل. وكذلك يقول فيما لم يصح عندنا حتى الآن، فيقول مجد بن مقرين: إن وجدنا هدى منه اتبعناه وتركنا ما نحن عليه، فلا نأخذ رأياً إلا بعد أن نمحصه ونسلط عليه العقل والبرهان.

والمعرفة تكون:

١ - بشهادة الحواس.

٢ - بأول العقل . أي بالضرورة، وبالعقل من غير استعمال الحواس.

٣ ـ ببرهان راجع من قرب أو بعد إلى شهادة الحواس.

وهكذا حلّ ابن حزم أعظم مشكلة في تاريخ نظرية المعرفة. هذه المشكلة التي زعم مؤرخو الفلسفة الحديثة أن حلها كان من نتاج عبقرية الفيلسوف الألماني «كانت» المتوفى ١٨٠٤.

## ٢ ـ الغزالي: علم النفس الإسلامي

أولاً: أوجد الإمام الغزالي «علم النفس الإسلامي» حين قرر أن السلوك الإنساني يقوم على شهوة للطعام، ويمتد من شهوة الطعام إلى سائر الشهوات، وهو نفس المصدر الذي استمد منه علماء النفس في العصر الحديث أول مفاهيمهم. ويعد الإمام الغزالي بحق: مؤسس علم النفس الإسلامي. وقد فسر مظاهر سلوك الإنسان بأربعة دوافع أساسية. هي شهوة الطعام، والجنس، والمال، والجاه. وعنده أن أساس هذه الدوافع كلها غريزة الطعام وأن الاعتدال هو الميزان الصحيح لجميع أنواع السلوك والخروج عن حد الاعتدال إلى التفريط، والإفراط هو سبب الأمراض النفسية، والعلاج هو الارتداد إلى حد الاعتدال الواجب.

ثانياً: البراهين التي جاء بها الإمام الغزالي للدفاع عن الإيمان تبناها القديس توما الأكويني من بعد، وحولها للدفاع عن المفاهيم المسيحية دون أن يذكر أولية الغزالي.

## ٣ ـ ابن خلدون: منهج التاريخ

١ ـ أما ابن خلدون فقد قدم لعلماء الغرب سبقاً حاسماً في وضع أسس ثلاثة علوم: التاريخ، والاقتصاد السياسي، والاجتماع. وبه سبق آدم سميث وأوجست كونت بأربعة قرون كاملة. فقد درس ابن خلدون الظواهر الاجتماعية على أساس علمي، وقرر أن الظواهر العمرانية في تزاحمها وتواليها تحكمها قوانين. وكانت وسيلته في الدراسة الاستقراء والقياس. وقد أكّد

المنصفون أن آراءه جاءت كعمل مرتب منظم ينطبق عليه العلم في معناه الدقيق .

٢ ـ اكتشف ميدان التاريخ الحقيقي وطبيعته ، ولم يقل أحد قبل ابن خلدون أن التاريخ علم خاص موضوعه بحث الظواهر الاجتماعية في حياة الإنسان . وبذلك يعتبر بحق مؤسس علم الاجتماع .

٣ - سبق في آرائه أقطاب علم الاجتماع المحدثين .

( ١ ) اكتشف نظرية الأجيال الخاصة بظهور الأسر ونهوضها من قبل أن يعرفها « أوتوكار لونتس » في أواخر القرن التاسع عشر .

( ٢ ) عرف قانون التشبيه بالوسط قبل أن يعرفه العالم الطبيعي ( دارون ) بخمسة قرون .

( ٣ ) اكتشف مبدأ وجود المادة قبل أن يكتشفه العالم الفيلسوف الألماني أرنست هيكل بأكثر من خمسة قرون .

( ٤ ) اكتشاف مبادىء العدالة الاجتماعية قبل نوتسبدران ، وماركس ، وباكونين .

( ٥ ) عرف مبدأ الحتمية قبل رجال الفلسفة الإثباتية وعلماء النفس بقرون عديدة .

### ٤ ـ ابن مسكويه : نظرية التطوّر

سبق ابن مسكويه وإخوان الصفا ، دارون في نظريتي أصل الأنواع والتطور ، فقد ذكر ابن مسكويه في كتبه أن النباتات أسبق في الوجود من الحيوان . وقال ابن مسكويه ، بنشوء الحيوان من النباتات ، وأن الإنسان ناشيء من آخر سلسلة البهائم ، وأنه بقبول الآثار الشريفة من النفس الناطقة وغيرها يرتقي حتى أعلى رتبة من مراتب البشر .

وقد ورد « لفظ التطور » في الطبقات الكبرى للسبكي ، وفي مقدمة ابن

خلدون، وفي كتاب البدر الطالع للشوكاني. قال السبكي: ومن كرامات هذه الأمة التطور بأطوار مختلفة وهذا الذي تسميه الصوفية بعالم المثال، وتثبت عالماً متوسطاً بين عالم الأجسام وعالم الأرواح.

وقال ابن خلدون في المقدمة: إن أهل الدول أبداً يقلدون في طور الحضارة، الدولة السابقة قبلهم، فأحوالهم يشاهدون، ومنهم في الغالب يأخذون، ومثل هذا وقع للعرب لما كان الفتح، وملكوا فارس والروم، فما استعبدوا أهل الدول فعلهم، واستعملوهم في مهنهم وحاجات منازلهم.. إلى أن قال: فبلغوا الغاية من ذلك وتطوروا بتطور الحضارة، والترف في الأحوال.

وقال الشوكاني في سيرة أبي الفضل المشير إلى: أنه ولد عام كذا ورحل الى تلمسان، وفتحت على ابن مرزوق وعلى سائر علمائها في عدة علوم، ثم رحل نحو المملكة المصرية وتطور على أنحاء مختلفة.

## ٥ ـ أبحاث الاقتصاد الإسلامي

وضع المفكرون المسلمون أسس النظرية الاقتصادية العصرية قبل أن يعرفها الفكر الأوروبي بألف عام على الأقل. وظهر التخصص العلمي المصحح في المؤلفات الاقتصادية الإسلامية واضحاً خلال القرن الثامن الميلادي، فهناك كتاب (الخراج) ليحيى بن آدم القرشي ظهر عام ٢٠٣ هجرية أي حوالى ٧٨٥ ميلادية.

وكتاب الاكتساب في الرزق المستطاب للإمام محمد بن حسن الشيباني صاحب أبي حنيفة عام ٢٣٤ هجرية ـ ٨١٢ ميلادية. وكتاب الخراج للإمام أحمد بن حنبل.

ثم تلا ذلك في مقدمة ابن خلدون في القرن ١٣ ميلادية ـ وذلك قبل كتاب ثروة الأمم ـ إنجيل الاقتصاد الحديث الذي كتبه أبو الاقتصاد الغربي آدم سميث قبل عام ١٧٧٦ بخمسة قرون من الزمان.

وقد بحث ابن خلدون الحضارة ونشوءها، وإنتاج الثروة، وصور

النشاط الاقتصادي، ونظريات القيمة والتوزيع والسكان.

ثم كتب المقريزي كتاباً في النقود، وكتاباً في دورات الأعمال الاقتصادية سماه (إغاثة الأمة بكشف الغمة). بحث فيه أسباب الأزمات الاقتصادية، واقترح أوجه علاجها.

ومثل هذه الدراسات لم تظهر في الاقتصاد الحديث إلا في القرن التاسع عشر، كما ظهر كتاب (الفلاكة والمفلوكون) أي الفقر والفقراء لأحمد بن علي الدلجي، وهو نوع جديد من الدراسة الاقتصادية لم تظهر دراسته وأبحاثه إلا في أوائل القرن العشرين [١].

### ٦ ـ ابن رشد: نظرية المعرفة

١ ـ كان من أول من قرروا نظريات التحرر من الجمود، وعنده أن النظر البرهاني لا يؤدي إلى مخالفة الشرع، فإن الحق لا يضاد الحق، بل يوافقه ويشهد له.

٢ ـ قال إن الزمان معنى ذهني لا وجود له في الحقيقة، والزمان شيء يفعله الذهن في المعركة، لأن الزمان ليس شيئاً غير ما يدركه الذهن من هذا الامتداد المقدر للحركة. فالزمن ليس بذي وضع.

وهذا المعنى هو ما ردده «كانت» الألماني المتوفى ١٨٠٤ حين قال: إن المكان والزمان ليسا شيئاً في ذاتهما، بل هما وعاءان كبيران يحتويان على جميع الحقائق المحسوسة والعقلية، وإنهما وعاءان بلا قعر ولا جوانب. ثم قال: إنهما في الحقيقة فكرة خالصة تمكننا من تخيل الأشياء مرتباً بعضها قرب بعض. وهذا الذي قال به في أواخر القرن ١٨ كان قد قرره ابن رشد قبل ذلك بثلاثة قرون.

٣ ـ أعلن وحدة العقل البشري ومؤدى ذلك أن أشخاص الناس لا تخلد بعد الموت، وإنما الخلود للعقل المطلق فقط. وكان لهذه النظرية

---

(١) عن دكتور زكي شبانة في كتابه عن الاقتصاد الإسلامي.

أثر بعيد المدى على الكنيسة والدين . على أن الأمر في المسيحية غير ذلك فالكنيسة تقول : إن القديسين يأتون بالعجائب وهم موتى كما كانوا يأتون بها وهم أحياء . إنهم يشفون المرضى ويمنحون البركات ، ويطهرون الناس ، من أجل ذلك قاومت الكنيسة رأي ابن رشد في وحدة العقل وضياع الشخصية الفردية بالموت .

٤ ـ أعلن ابن رشد نظرية العقل الفعال . وهي النظرية التي استحوذ عليها توماس الاكويني في القرن الثالث عشر ، وارتضاروس الإنجليزي في العصر الحديث[١] .

وكل ما فعله توماس الاكويني ، أنه أخذ آراء ابن رشد في هذه المسألة . وزعمها لنفسه ، كما أخذ مختلف آراء ابن رشد بحذافيرها ، فنسبها لنفسه ، ثم فصلها في كتابه الضخم المسمى ( الخلاصة اللاهوتية ) فبدا في نظر قومه أنه هو المجرد الأكبر في المسيحية .

٧ ـ الإضافات الاجتماعية

( ١ ) الشافعي : قدم نظرية للتعايش السلمي . هي الأصل الذي لا يختلف في الشكل أو في المضمون عن النظرية الحديثة[١] .

٢ ـ توصل الشاطبي إلى نظرية تسمى في القوانين العصرية نظرية التعسف في استعمال الحقوق ، فأثبت بعد تحليل وتفصيل أنه يجب منع الفعل المأذون به شرعاً إذا لم يقصد فيه فاعله إلا الإضرار بالغير .

٣ ـ سبق أبو العلاء المعري الفيلسوف العربي ( دانتي ) إلى كتابه

---

( ١ ) راجع الدكتور محمود قاسم في كتابه : النفس والعقل .
( ١ ) قدم هذا البحث الدكتور عز الدين فودة إلى مؤتمر لاهاي للعلاقات الدولية عام ١٩٦٦ .

قال: أسين [1] بلاسيوس عام ١٩١٩ إن دانتي استقى ملحمته الكوميديا الإلهية من مصادر عربية، وإنه في تصويره للجحيم والجنة استمد مادته من كتب الإسلام عن معراج النبي ﷺ ورسالة الغفران لأبي العلاء المعري.

٤ ـ سبق أبو بكر محمد الطرطوشي: الفيلسوف ميكيافللي في وضع أسس السياسة في كتابه: الأمير. وذلك بكتابه: سراج الملوك، الذي كتبه قبل خمسة قرون من صدور كتاب: الامير.

٥ ـ أثر البخاري وعلماء الحديث في بناء منهج التاريخ الأوروبي الحديث، وبعد وفاة البخاري بحوالى عشرة قرون بدأت فكرة تحديد منهج للتاريخ تظهر في أوروبا، ونقله الشرقيون على أنه أمر جديد. والحق أنه مأخوذ من منهج المحدثين المسلمين، وشيخهم البخاري [2].

يقول الدكتور محمود قاسم في كتابه: المنطق الحديث، ومناهج البحث العلمي، تحت عنوان مراحل البحث التاريخي الأوروبي: لم يتبع القدماء من الأوروبيين منهجاً سليماً في دراسة التاريخ، فكانوا يخلطون بينه وبين فن القصص وكانوا يجمعون الوثائق والروايات، كيفما اتفق، ويصهرونها ويصبونها في قالب أدبي جذاب.

٦ ـ سبق الفكر الإسلامي علماء الغرب في مجال كتابة المكفوفين التي عرفت بالحروف البارزة، فقد عرف العلماء المسلمون هذه الطريقة، وسجلها عليّ بن أحمد بن يوسف المشهور بزين الدين الآمري.

٧ ـ سجل الباحثون أن الفارابي سبق آنشتاين إلى بعض النظريات في نطاق نظريته في النسبية. وأن الغزالي سبق هربرت سبنسر في تخطيط الدولة والمدينة، وقارن بين كل منهما وبين جسم الإنسان. فالغزالي يشبه الملك بالقلب، وأصحاب المهن الحرة بأعضاء الجسم، والشرطة بعصب الإنسان، والوزراء بحس الإدراك، والقضاء بالشعور.

---

(١) راجع كتابنا: أضواء على الفكر العربي الإسلامي.

(٢) الحسيني محمد هاشم: كتاب البخاري ص ٢٥٥.

## الفصل الخامس

# المُنحنى الخَطِر في الثقافة الغربيّة

استطاع الفكر الإسلامي أن يقدم للثقافات الغربية في مختلف مجالات البحث العلمي والعلوم الكونية والإنسانية معطيات ضخمة، بعيدة المدى، قام عليها الانطلاق العلمي، والتطور الاجتماعي والفكري (سياسياً واجتماعياً واقتصادياً) على نحو كاد أن يحقق للإنسانية (مدينته الفاضلة) التي كانت حلم الفلاسفة والمصلحين.

غير أن الفكر الغربي الذي كان بطبيعته إغريقي الجذور، وثني الملامح، والذي استطاع أن يسيطر على المسيحية الوافدة، فيصبغها بصبغته، ويصوغها في قوالبه لم يستطع الفكر الإسلامي أن يخرجه من طبيعته العنيدة، فقد امتص كل القيم الإسلامية البناءة في مجال العلم ومجال الفكر والمجتمع والحياة، ثم تخلى عن الجوهر الأساسي القائم على التوحيد، وأعاد صياغتها في إطاره وطوابعه. ثم لم يلبث أن أعلن مجافاته للفكر الإسلامي، وحمل عليه حملة عنيفة، وأنكر فضله وأثره في نهضته. بل وأنكر أن هذه المضامين جميعاً ذات جذور إسلامية نماها الفكر الغربي الحديث، وأضاف إليها. والواقع أن الفكر الغربي قد وقع تحت تأثير خطرين كبيرين.

الخطر الأول: خطر الجذور الوثنية الإغريقية الرومانية البعيدة المدى في تشكيل مزاجه وطوابعه، وهو مزاج ليس الدين جزءاً منه، ولا ارتباط له أساساً بالمفاهيم الغيبية، أو الروحية، أو مفاهيم التوحيد، والنبوة وما إليها حيث تقوم أساساً على فكرة الصراع بين البشر والآلهة.

الخطر الثاني: خطر اليهودية وقيمها التي يسجلها التلمود والمشنا وهو ما

كشف عنه في أواخر القرن التاسع عشر بما سمي (بروتوكولات حكماء صهيون) والدعوات الصهيونية والماسونية والبهائية، والمذهب النفسي الفرويدي والروحية الحديثة، والثيوصوفية. والمعروف أن اليهودية حاربت المسيحية منذ فجرها الأول، وحورت مفاهيمها، ثم كان لها دورها الخطير بالنسبة للحضارة الأوروبية في مجال السيطرة عليها.

ومن هنا برز تيار خطير في الهجوم على الدين والمسيحية والحضارة الغربية بصفة عامة. لقد كانت النهضة الأوروبية «وثنية في ثورتها غير مصطبغة بالدين، أهدرت أكثر ما في العصور الوسطى من الحسنات، وضحت بكثير من الفضائل. فقد كانت تترصد تحت مظهر الثقافة اللامعة شهوة عارمة، ورغبات وحشية لم تكبح جماحها في هذا العصر نزعة دينية، ولا هذبتها تجربة كتجربة العصر الحديث، فوجدت في ايطاليا الشهوة والخيانة والسم والاغتيال بجانب التهذيب الفني والأدبي، وبدت الكنيسة ناشزة عن مبادىء المسيحية بأعمالها الدنيئة المفضوحة، وفقدت سيطرتها على الأخلاق والأمانة السياسية».

وعندنا أن «اليهودية» كانت من وراء هذا التحول الخطير، التحول نحو الانحراف في مختلف قيم الحياة، ظهر ذلك بوضوح شديد في آراء «نيتشه» و «دارون»، وفي الدعوة الماسونية التي كانت تخفي هدفها الأساسي في هدم المسيحية، وبناء هيكل سليمان.

فقد كشفت بروتوكولات حكماء صهيون، كيف دبرت اليهودية العالمية القضاء على الحضارة المسيحية الأوروبية، والعمل على تحطيم الديانة المسيحية تحطيماً كاملاً.

يقول المستشرق الاسباني فيلاسبازا: لقد حجب الغرب أنوار المسيحية الأولى وبدل ما في المسيحية السامية من مواساة، وحوّل فلسفتها إلى أحاج ومعميات. ويقول فيلكس فارس: بالرغم من أن الغرب قد بدّل فلسفته المسيحية، فإنه لم يتمكن من إيصال الإسلام إلى ضميره،

كما أنه امتنع عليه أن يبلغ بالمسيحية إلى فطرته، وبقي النزاع مستحكماً فيه بين الفطرة والضمير، لأن ثقافته المسيحية لم تزل متأثرة بالأحاجي والمعميات.

ويردد هذا الكلام كاتب شرقي، وكاتب غربي، كلاهما مسيحي. ولعل هذا الاتجاه قد استمد وجوده من تراث ضخم واجه المسيحية الغربية بالنقد، وكان وراءها خصومها التقليديون اليهود، المتأهبون لتدمير الحضارة، ووراثه السيادة العالمية، وقد تركزت هذه الحملة على الإشارة إلى مواقف الكنيسة ضد التقدم وإثارة قضايا إعدام المفكرين، وإحراق العلماء، والإيماء إلى مسؤولية المسيحية والكنيسة عن فظائع سان برتلمي، وهي مذبحة البروتستانت التي أمر بها شارل التاسع ليلة ٢٤ أغسطس ١٥٧٢ والتي استمرت ثلاثة أيام قتل فيها مائة ألف إنسان.

ومذبحة «الاليجواه» وهي طائفة دينية انتشرت في القرن الحادي عشر بجنوب فرنسا. وقرر البابا إينو سانت الثالث إبادتها عن آخرها فأبيدت (١٢٠٨ م).

وحرب الكاثوليك البروتستانت (الأنابا ينسيت) وقتل فيها ١٦٠ ألفاً، أو محرقة توركادا الدومنيكي الاسباني (١٤٢٠ - ١٤٩٨) والتي قضت على ستة آلاف إنسان بالنار.

وتبدو صورة هذا المنحنى الخطير من خلال «موقف أقطاب الفكر الغربي من المسيحية المنحولة» فإن (هكسلي) قد رفض المسيحية رفضاً قاسياً، ورأى أنها لا تصلح مطلقاً لأن تكون عاملاً مدنياً، ورد جميع النظريات المسيحية كما حارب (رينان) ما أسماه المسيحية التاريخية. وقال: إن الكتاب المقدس عنده ليس إلا أثراً من تكامل الخرافات والأساطير، وقد هاجم المسيحية ووصفها بالسلبية. وكذلك (شفيترز) في كتابه عن المسيح. كما وصف «كارل ماركس» المسيحية بأنها «ديانة الكلاب الضالة».

وقال (برتراند رسل) إنه لم يعتنق المسيحية منذ نشأتها سوى فرد

واحد، وهذا الفرد مات على الصليب. وكتب (أوجست كونت) فصولاً عن الفلسفة الواقعة هاجم فيها الكنيسة الكاثوليكية. وأعلن كثير من الفلاسفة أن الأوروبي لم يتمكن من الخلق والابتكار إلا بعد أن تحرر من قيود تعاليم المسيحية الصارمة في الروحية وانطلق في جو الثقافة اليونانية.

ويعد ميكيافلي [1] أخطر من قاوم الفكر الغربي المسيحي، فقد دعا إلى التخلص من سلطان الكنيسة، وقال إنه لا يرى في الفضائل الخلقية أساساً للفضائل السياسية، وجعل أسس الفضائل عند الرجل السياسي هي قدرته على إقامة حكومة قوية مهيبة الجانب، نافذة السلطان، وأباح ميكيافلي للأمير الاتصاف بالخديعة والنفاق حتى يحتفظ بسلطانه السياسي.

وقال: يجب على الأمير أن يظهر مثال الاستقامة والإخلاص، ومثال العطف على الإنسانية، ومثال التقوى أمام الناس، ولكن عليه أن يعوّد نفسه ويمرّنها على أن يهمل الوسيلة إذا كانت هذه الغاية هي الاحتفاظ بالسلطة والنفوذ.

وهكذا جعل ميكيافلي الأخلاق وأسسها خاضعة للعوامل السياسية، ودعا إلى نظرية الغاية تبرر الوسيلة، إذا كانت هذه الغاية هي الاحتفاظ بالسلطة والنفوذ. وقال إن كل وسيلة توصل إلى الغرض المنشود محمودة وشريفة.

وهاجم الخلق المسيحي وقال إنه خلق ضعيف.

أمّا نيتشه، فقد كان من أخطر من حملوا على الدين بصفة عامة، وعلى المسيحية الغربية بصفة خاصة فقال: إنها تلجأ إلى عدم الصدق للتأثير على الناس، ولإثارة انفعالاتهم حتى أصبحت الوسائل المتبعة وسائل غواية أكثر منها وسائل لنشر الدعوة. إذ إنها ترفض كل ما يمكن أن يثير المقاومة مثل العقل والفلسفة والحكمة والشك، واصرَّ إصراراً

(١) ١٤٦٩ - ١٥٢٧.

عنيداً على أن العقيدة من عند الله، وأنه لا مجال فيها للنقد والفحص، بل للتسليم والاعتقاد، وإنها تبث روح التعصب والغرور لدى الفقراء وتصفهم بأنهم (ملح الأرض) على ما يقول الإنجيل، وأنها تتعامل مع المتناقضات، وكل ما يثير الغرابة والدهشة، وتمجد الاضطهاد وخدمة الآخرين.

ويرى أن التناقضات الموجودة في المسيحية هدامة لا بناءة، وأنها قضت على الإمبراطورية، وحدت من انتشار الإسلام حتى جاء لوثر: فاضاع مكاسب عصر النهضة.

وقال إن التصور التراجيدي للحياة (الصعود والهبوط) ليس تصوراً مسيحياً صرفاً، ولكن عرفه الشعراء اليونان من قبل، كما عرفته الأساطير اليونانية، وبعض الفلسفات مثل فلسفة أفلاطون، وعرفه الرومانيون في عواطفهم وانفعالاتهم.

ويرى أن النظرية المسيحية المشهورة عن الخطيئة والفداء، هو تصور موجود قبل المسيحية، ثم تسرب إلى المسيحية في تصورها للكون. وهو التطور الأفلاطوني للكون بحركتي الهبوط الذي تمثله الخطيئة، والصعود الذي يمثله الفداء!. وهو التصور الذي خلد أوغسطين في (مدينة الله). هذا التصور ليس مسيحياً بالضرورة، بل هو التصور القديم للتاريخ قبل المسيحية.

ويرى نيتشه: أن المسيحية عدو العلم. إذ إنها لا ترتكز على الواقع الذي يصدر العلم عنه كما يرى أن الإيمان المسيحي معارض للعلم خاصة لعلمي التفسير والطب.

(٢)

وهكذا نشأ تيار عنيف في الفكر الغربي يعارض «المسيحية» فإذا كانت تدعو إلى الزهد والرهبنة، فقد اتجه الغربيون إلى الإباحة في اقتحام الحياة، وإذا كانت المسيحية تحرم العنف والقوة، فقد وصلوا

إلى أقصى درجة في الانتقام والدمار. وقد جاء ذلك في نطاق ما عرف من الدعوة إلى تهويد المسيحية أو تدميرها من الداخل. لقد كان من الحق أن يقال أن الكنيسة في القرون الوسطى قد جمدت الفكر، ووقفت في وجه التقدم. ولقد ثار الفكر الأوروبي على الكنيسة والمسيحية الغربية، ولكن في استطاعة هذا الفكر أن يهضم الفكر الإسلامي، ويجري في طريقه، لولا أن هناك قوة استطاعت أن تدفعه حتى يربط نفسه بالوثنية الإغريقية، ولو كان هذا الاتجاه في ذاته سلبياً. فلقد امتص العرب في منهجهم العلمي خير ما في الفكر الهِليني والفارسي والهندي بعد أن صححوه، ثم نموه أو صهروه.

لقد استطاعت هذه القوة الغامضة أن تجعل حركة الإصلاح المسيحي التي كانت تستمد مفاهيمها من الإسلام أن تتحول إلى صراع دموي، وانقسام وخلاف عنيد، فقد نقلت الفكر الغربي نقلة ماكرة من جذوره المسيحية التي هي شرقية أصلاً قبل انحرافها. ومن معطيات الفكر الإسلامي إلى الهِلينية الإغريقية، ونمت فيه ذلك العداء القوي لكل شيء ما هو ديني أو روحي أو خلقي. ودفعته إلى عبادة الإنسان، أو عبادة المادة، وصبغته بالصبغة اللادينية المنكرة للغيب والميتافيزيقا.

ومن هنا نشأ ذلك الاتجاه الذي نما من بعد نمواً كبيراً، والذي وصل الآن إلى أخطر نتائجه في التحول إلى فهم الإنسان على أنه «حيوان» واتجاهه إلى التحليل النفسي على أساس الجنس كما صوره (فرويد) أو إنكار كل العوامل غير العامل الاقتصادي في تطور التاريخ كما رسمه (ماركس) وإنكار وجود الأسرة كخلية طبيعية في بناء المجتمع كما نظرية (دوركايم). ومن ثم حل التعبد للرقي المادي، وللذة، وللحرية المطلقة، وسرت عقيدة تقول بأنه ليس في الحياة هدف سوى الاستمتاع بهذه الحياة نفسها.

«إن هياكل هذه الديانة إنما هي المصانع العظيمة، ودور السينما

والمختبرات الكيماوية التي أباحت الرقص وكهنة هذه الديانة هم الصيارفة والمهندسون وكواكب السينما ».

ومن ثم جرى تحوير مفاهيم الدين والأخلاق، ومختلف القيم الاجتماعية في أضواء هذا الاتجاه الذي أوجده خصوم المسيحية، والحضارة الغربية. فقد رددوا القول بأن الفضائل ليست قيماً ثابتة، ولكنها متطورة ومتصلة برفاهية المجتمع المادية، وأعلنوا إنكار وجود الحب الأبوي، وإنكار العفاف والإحصان والسخرية بهما، وأخذت الفضائل القديمة التي يؤيدها الدين تتخلى عن مكانها بالتدريج للفضائل الغربية الجديدة التي تدعو إلى حرية فردية للجسد البشري غير مقيدة. وبدأ تغيير كامل في قيم السياسة والاجتماع والاقتصاد والتربية.

★ ★ ★

ومن ثم تبلورت مفاهيم الفكر الغربي في صورة تغلب عليها طوابع التحرر من القيم الروحية والأخلاقية في مجال المجتمع مع غلبة طابع الحس والمادة، وأصبح الدعاة الجدد يرددون القول بأن الحقائق إنما هي وسائل لفهم الدنيا (وليم جيمس) والأخلاق ترجع إلى أسباب حيوانية بيولوجية (فرويد) والكتب المقدسة موضع الشك.

والتوراة كتاب بشري، وليس كتاباً سماوياً (نيتشه).

والدين نظام اجتماعي قابل للتطوير مثل الجماعة نفسها (أوجست كونت)

والجنس الأبيض سيد الأسياد (جوبينو).

ولقد أسقطت هذه المفاهيم: قيم التوحيد والألوهية والنبوة، ثم لم تلبث أن أسقطت قيمة الإنسان نفسه في محاولة خطيرة ترمي إلى إثبات أن الإنسان هو عبد نزواته وغرائزه الجنسية، وأن العقل الباطن هو المسيطر الفعال في توجيه الإنسان. وبهذه النظرية أدخل الإنسان في

حظيرة الحيوان، استمداداً من أن الإنسان سليل الحيوان، وأنه ينتمي إلى فصيلة القرود.

ثم استمدت من هذه القواعد الخطيرة أصول الفلسفات والنظريات المختلفة في مجال الاجتماع والتربية والاقتصاد. ثم اتسع نطاق هذه الاتجاهات، فكان القول بأنه ليست هناك قوانين مطلقة، وليست هناك قيم ثابتة، وأعلنت الدعوة إلى تحرير الإنسان من كل القيود، حتى يتمتع بوجوده، ويطلق لحريته العنان، ووجهت إلى المثل الأخلاقية والقيم الروحية أسوأ الاتهامات، وأنكر مفهوم الحق والخير. كان هذا الاتجاه في مجمله ثمرة عمل تلك القوة العاتية التي فرضت نفسها على الفكر الغربي المسيحي وحولته عن طريقه الطبيعي، الطريق الإنساني الجامع بين الروح والمادة إلى الإباحية والإلحاد.

يظهر هذا واضحاً في نصوص بروتوكولات حكماء صهيون، أو الإنسان البلشفي، كما أطلق عليه (سرجي تيلوس) أول من نشره في العالم قبل خمسين عاماً باللغة الروسية.

وتستطيع بعض هذه النصوص أن تلقي الأضواء الكاشفة لهذا المنحنى الخطير، فقد تبين أن (بروتوكولات حكماء صهيون) إنما هو مخطط سيطرة (الصهيونية) على العالم باستخدام كل الوسائل، وأهمها الدعوة إلى الإباحة وإشاعة الأدب الزائف المنحرف.

يقول البروتوكول الثالث عشر: «سننشر بين الشعوب أدبا مريضا قذراً تغثى له النفوس، ويساعد على هدم الأسرة، وتدمير جميع المقومات الأخلاقية للمجتمعات المعادية لنا، وسنستمر في الترويج لهذا الأدب وتشجيعه حتى بعد فترة قصيرة من الاعتراف بحكمها».

فالدعوة إلى الإباحة المطلقة بهدم الأسرة، وتدمير أخلاق المجتمع، وإشاعة الانحلال في الفرد والأمة والدولة هو هدف هذا المخطط. وتقصد (بروتوكولات صهيون) بالمجتمعات المعادية لها: المجتمعات

المسيحية في الغرب والإسلامية في الشرق، فهي تقوم أساساً على العداء للمسيحية، والعداء للإسلام، وهي لا تتصدى للعقيدة مباشرة، وإنما تهدم العقيدة بهدم الأخلاق والأسرة، ولا شك أن هدم الأسرة وتدمير أخلاق المجتمع، إنما هو تحطيم لمناعة الأمة ضد المقاومة، ودون القدرة على رد التحدي، إذ يجدون في هذا التهديم الاجتماعي قوة فاعلة أكثر من التهديم الأيديولوجي الذي يروجون له في الحركات الفلسفية والاقتصادية والعلمية، وهناك شبه إقرار بين الباحثين المستوعبين للتيارات والمخططات بأن إصبعا من الأصابع الصهيونية كامنة وراء كل دعوة تستخف بالقيم الأخلاقية، وترمي إلى هدم القواعد التي يقوم المجتمع الإنساني عليها. ومن هذه البروتوكولات نماذج خطيرة تكشف جوانب هامة، مما يقع تحت أبصارنا دون أن يفهم تفسيره أو مصدره.

(بروتوكول ١٧)

وقد عنينا عناية كبيرة بالحط من كرامة رجال الدين عند الأميين في أعين الناس. وبذلك نجحنا في الإضرار برسالتهم التي يمكن أن تكون عقبة كؤودا في طريقنا. وإن نفوذ رجال الدين ليتضاءل يوماً بعد يوم.

★ ★ ★

ومنها العمل على تحطيم «الدين» عامة، والنيل منه. تقول البروتوكولات:

«لقد خدعنا الجيل الناشىء، وجعلناهُ فاسداً متعفناً بما علمناه من مبادىء ونظريات يجب أن تحطم بكل عناد الإيمان، وتكون النتيجة الموقنة لهذا، هي إثمار ملحدين يجب أن تكتسح كل الأديان والعقائد الأخرى. وإن كان هذا يؤدي إلى وجود ملحدين ينكرون وجود الخالق، واليوم تسود حرية العقيدة في كل مكان، ولن يطول الوقت

إلا سنوات قليلة حتى تنهار المسيحيةانهياراً تاماً».

وهناك إشارة صريحة إلى مدى التدبير وراء النظريات الفلسفية ذات الدويّ، ومدى تأثيرها.

يقول البروتوكول الثاني: «ليعتقدوا أن هذه القوانين النظرية التي أوحينا إليهم ذات أهمية قصوى، يجب أن لا يكون هنا اعتقاد في أن مناهجنا كلمات جوفاء، لاحظوا أن نجاح دارون، وماركس، ونيتشه، قد دبرناه من قبل، سيكون واضحاً على تأكيد الأثر الأخلاقي لاتجاهات هذه العلوم في الفكر الأممي، ولم يفتنا تقدير الآثار السيئة التي تركتها هذه النظريات في أذهان غير اليهود». وبالإشارة إلى «الحرية»، يقول أحد البروتوكولات: إن الأثر الهدام للأخلاق الذي تنشئه علومهم في الفكر غير اليهودي واضح لنا بكل تأكيد «إن لفظ الحرية يجعل المجتمع في صراع مع جميع القوى. بل مع قوة الطبيعة، وقوة الله نفسها. فإذا أردنا أن نعرف مدى أثر هؤلاء الفلاسفة لقلنا: إن دارون هو أول من استغلت نظريته لتخريج فلسفة تحتقر الإنسان، وتنكر أنه سيد الخلق. تقول البروتوكولات: إن دارون ليس يهودياً. وكلنا عرفنا كيف ننشر آراءه على نطاق واسع، ونستغلها في تحطيم الدين.

أما فرويد فقد أنكر الحب والقلب، وحاول أن يصور النفس البشرية على أنها مجموعة من الرذائل تتحكم في قواها وتسيطر على مشاعرها. وأن الإنسان عبدُ نزواته وغرائزه.

أما ماركس فهو صاحب الدعوة إلى التفسير المادي للتاريخ.

أما نيتشه: فصاحب الحملة العنيفة على المسيحية، والقائل بفكرة الإنسان الأعلى، وموت الإله، وإعفاء الإنسانية من التقيد بالأخلاق المسيحية، لأنها أخلاق الأذلاء.

ويرى دوركايم: أن الدين والزواج والأسرة ليست نزعات فطرية في الإنسان، وأن القواعد الخلقية لا وجود لها في ذاتها. ويمكن القول

بأن هذا «المنحنى الخطير» الذي حاولت قوى الصهيونية العالمية توجيه الفكر الغربي إليه إنما كان يرمي إلى إغراق الإنسانية كلها في حمأة الرذيلة.

وبالرغم من أن الفكر الغربي قد سادته نظريات أخرى معارضة لنظريات: فرويد وماركس ونيتشه وتفسيرات خلفاء دارون من اليهود. فإن قوة النفوذ المسيطرة على دور النشر والصحف والإذاعات وغيرها قد مكنت لهذه النظريات بأن تنمو وتتسع وتخترق جدران الجامعات والمعاهد، ودوائر المعارف حتى أصبحت في نظر الأجيال التالية لها، وكأنما هي حقائق علمية. ثم كانت الخطورة البعيدة المدى في أن هذه القوى قذفت العربية بذلك السم كله، وفرضته عليها عن طريق التغريب والغزو الثقافي، وسلطان الاستعمار والنفوذ الأجنبي.

ولقد كانت دائماً للثقافة العربية قيمها ومفاهيمها تجاه كل هذه القضايا والنظريات والفلسفات التي أثارها الفكر الغربي، فلم تتقبلها كقضايا مسلم بها، ولكنها نقدتها وأخذت منها ورفضت وكشفت عن أخطائها ومخالفتها لجوهر الذات العربية، والمزاج العربي الإسلامي والقيم الإنسانية أساساً، وليست الإسلامية وحدها. ويمكن القول بأن الفكر الغربي خرج من الكهنوتية والنسك والزهادة والغيبيات التي كانت قد بلغت أقصى حدودها إلى تحول جذري في الوجه المقابل. قوامه التحرر المطلق من مختلف القيم الدينية والخلقية والإنسانية. وهو تحول مفتعل وموجه، وليس تطوراً طبيعياً للفكر الغربي الذي بدأ بإقامة مناهجه أساساً على مفاهيم الفكر الإسلامي، وهي ذات طابع إنساني وأخلاقي.

غير أن القوى القاهرة استطاعت أن تعود به إلى مفاهيم الوثنية الإغريقية، وأن تجرده تماماً من مقومات المسيحية والإسلام على السواء رغبة في تدميره، وتدمير الجوانب القوية في الحضارة حتى تسقط البشرية محطمة في قبضة المطامع الاستعمارية الصهيونية، وكان أبرز

مفاهيمها هو نفي القداسة عن الدين والأخلاق والقيم والتشكيك في بقائها.

ولعل هذا هو مصدر الإحساس الذي يسود فكر المصلحين من أن الفكر الغربي تسوده سحابة من المادة والتحلل، على نحو يفهم منه نمو الجانب المادي دون الجانب الروحي، فقد نما جسم الحضارة وتباطأ نمو عقلها حتى اختل التوازن بين قواه الفاعلة، وقواه المنفعلة، وهو ما يعبر عنه باختلال التوازن بين الحضارة والثقافة. وقد ضاعت صيحات هؤلاء المخلصين الداعين إلى تحرير الفكر الغربي من قيوده في ضجيج هذه الدعوات ودويها المفتعل المتعالي. وقد تكشف أن ماركس، ونوردو، وفرويد، وبرجسون، واسبينوزا، ودوركايم كانوا جميعاً من اليهود، وأن لبعضهم صلة وثيقة بالحركة الصهيونية التي أقامها (هرتزل) في أواخر القرن الماضي وأن هذه المخططات الفكرية والفلسفية، إنما تمثل جوانب من العمل الضخم الذي قامت به الصهيونية في غير الميادين السياسية والاقتصادية لفرض نفوذها على العالم.

الفصل السادس

# تطوّر الفكر العربي بين الفرديّة والجماعيّة

# تطور الفكر الغربي بين الفردية والجماعية

يمكن القول بأن تطور الفكر الغربي قد مر بخمس مراحل:

أولاً: هدم سلطان الكنيسة ونفوذها وفكرها.

ثانياً: بناء النهضة على أساس المنهج العلمي التجريبي الإسلامي.

ثالثاً: المغالاة في عبادة الفرد، وتقديس الإنسان والانحراف به إلى مفهوم الوثنية من إطلاق الحريات العقلية والاجتماعية، وإنكار العقائد الدينية، والقيم الأخلاقية، وإعلاء شأن العنصر الأبيض، وعبودية سائر الأجناس.

رابعاً: انبثاق الدعوة الماركسية الغربية، والثورة على الفردية، ونفوذ الرأسمالية، وقيام الصراع بين الرأسمالية والاشتراكية.

خامساً: انبثاق الدعوة الصهيونية وارتباطها بالرأسمالية، ونموها في ظل الاستعمار، وإقامة حاجز بشري في قلب العالم الإسلامي والأمة العربية، ومحاولة صبغ كل مقدرات الفكر الغربي بمفاهيمها وقيمها لإلقائها تحت السيطرة العالمية.

وقد عاش الفكر الغربي، وما زال بين صراعات المذاهب جميعها، دون أن يصل إلى وحدة فكر أساسية، إلا أن تكون هذه القاعدة هي «المادية» التي تحكم الفكر الغربي الرأسمالي والماركسي جميعاً. والتي تعد مصدراً أساسياً للمذاهب الفكرية والاجتماعية والسياسية التي انبثقت منها

البراجماتية والماركسية على السواء مع خلاف بين الفردية والجماعية، وبين الرأسمالية والاشتراكية. وما زال النظامان الرأسمالي والاشتراكي يتصاعدان.

أما الصهيونية فهي قد ظلت حركة فكرية حتى حققت وجودها بقيام «إسرائيل» في قلب فلسطين. عندئذ بدأت تكشف مخططاتها التي تضمنتها أيديولوجية تعمل على وراثة الاستعمار الغربي كله، وإقامة إمبراطورية في قلب العالم العربي، وإعادة بناء هيكل سليمان في مكان المسجد الأقصى.

ويربط الفكر الغربي بين الثورة الفرنسية (١٧٨٩) وبين الثورة البلشفية (١٩١٧). ويرى أن الثورة الأولى هي رد فعل لاستبداد الأمراء، ونفوذ الكنيسة. وأن النظام الديمقراطي كان وليد الثورة الفرنسية، وأن الثورة الثانية هي رد فعل استعلاء رأس المال وجشع الرأسمالية، وتحكمها في جوانب الحياة الإنسانية وقضائها على الحرية الفردية، وأن النظام الاجتماعي هو وليد الثورة البلشفية.

فالفردية الغربية تعلي من شأن الفرد، وتجعل له السيادة الكاملة، والحرية المطلقة. بينما الجماعية الاشتراكية تعلي من شأن المجتمع، وتجعل له السيادة الحقيقية ويحاول بعض المؤرخين أن يعزي إلى الصهيونية العالمية دوراً في إقامة الثورتين. فالثورة الفرنسية هي التي أخرجت اليهود من الجيتو إلى حق المواطن، والمشاركة في مختلف مجالات السياسة والمناصب والتمثيل النيابي. ومن هنا انطلق اليهود للسيطرة على مقاليد الصحافة، والمال والعلوم الكيميائية على نحو حقق لهم تقدماً بعيد المدى في هذا المجال.

ثم كانت لهم مشاركتهم وتأثيرهم البعيد المدى في الفلسفات الاجتماعية والسياسية التي هدمت ضوابط الدين والأخلاق، وإعلاء شأن الغرائز والإباحة والدعوة إلى التحرر من العقائد والقيم والمقدرات الروحية والنفسية المتصلة بالرسالات السماوية، وإعلاء شأن المفاهيم المادية الخالصة،

وتفسير التاريخ تفسيراً مادياً.

غير أننا إذا نظرنا إلى الفكر الغربي نظرة منصفة مجردة تصورناه فكراً قد حرر نفسه من قيود كادت تحول بينه وبين التقدم والنمو، ولكنه في اندفاعه إلى هذا التحرر لم يستطع الاحتفاظ بالتوازن بين المادة والروح، أو بين العقل والبصيرة. فتنكر للروح والبصيرة تنكراً كاملاً، ربما كان ذلك بفعل «عوامل» وافدة قسرته على هذا الانحراف، وأن هذه العوامل كانت حريصة على أن تخرجه من الأثر العربي الإسلامي القائم على «العلم مع الضمير» في اندفاع لبناء حضارة إنسانية وقف بها المسلمون، عند حد محدود. وكان على الغرب أن يواصل تنميتها وبناءها. هذا الانحراف، دفع الفكر الغربي إلى التماس قيم الوثنية الإغريقية، والتنكر للدين جملة، ومن بينها الإسلام الذي كان ديناً ومنهج حياة. ثم كان هذا الإغراق العاصف في الرأسمالية، وتقديس الفردية على النحو الذي وصل إلى العلمانية الإلحادية التي جهرت برفض أية صورة للإيمان بالله، والتي أخرجت الدين من التربية، وفصلت الأخلاق عن السياسة.

ثم ارتبط هذا الاتجاه بالإعلاء للجنس والعنصر، وسيادة الجنس الأبيض صانع الحضارة، واستباحة الحق في الاستعمار والاستعباد للأجناس الملونة المتخلفة، واعتبارها مصدراً لخاماته وأسواقاً لتجارته، واعتبار قيم الحرية والعدل والمساواة حقوقاً لجنسه وحده، لا للإنسانية كلها. ثم مجد الإنسان ذاته، وأباح لنفسه كل حرية دون قيم أو ضوابط، وتنكر لله. واستغلت الرأسمالية العاملين، وشرعت الربا والرشوة والمقامرة والاحتكار. وكان لا بد للمستضعفين من ثورة على الطغاة، ولا بد من دعوة عالية إلى الجماعية في مواجهة الفردية العاصفة، فكانت الإشتراكية داعية إلى إعادة تشكيل المجتمعات وفق عمل البشر وإنتاجهم.

فانبثاق الاشتراكية الغربية هو تطور طبيعي للمجتمع الغربي، وضرورة

لا شك في تحركها في مجتمع غلت فيه الرأسمالية والفردية، فكان لا بد لها من رد فعل. فلما قامت الثورة البلشفية انقسم المجتمع الغربي إلى صراع طويل مرير بين الجماعية والفردية ما زال مستمراً وقائماً، وسيظل إلى وقت بعيد. وما زال بعيد المدى في الفكر والثقافة والاقتصاد والسياسة للمجتمع البشري كله.

وقد ارتبطت الرأسمالية الغربية الفردية بالاستعمار، كما ارتبطت الاشتراكية بالدعوة إلى التحرر من الاستعمار. وقد هاجمت الماركسية الأديان، وهي في نظرها الدين الغربي الذي أدار عليه ماركس قضية اوروبا وأزمتها الرأسمالية في ضوء دور المسيحية الغربية، والكنيسة في الصراع بين الطبقات. بل لقد كانت هذه النظرة هي نقطة التحدي أمام كل الذين هاجموا الدين. ولم يكن الإسلام قد دخل بعد في صراع مع المجتمع الأوروبي، ولم يكن له موقف ما من الحضارة أو الرأسمالية أو العلم.

ويقول هكسلي في كتابه (دين بغير وحي) Re!igion without Renelation إن الشيوعية الماركسية أكثر تنسيقاً وملاءمة. لكن أساسها المادي المحض حد من فاعليتها، فقد حاولت أن تنكر حقيقة القيم الروحية. وهذه القيم موجودة قائمة، لذا كان على الشيوعية أن تقبل نتائج هذا الخطأ الإيديولوجي فأقبلت على فتح أبواب الكنائس للجموع المتعطشة إلى القيم الزوحية.

ويرى توينبي أن الماركسية طريقة لتفسير السياسة والاقتصاد والحياة والنزعات، وهي نظرية ودعوة لعمل ما، وفلسفة تتناول جميع نواحي النشاط الإنساني، ومحاولة لجعل التاريخ بماضيه وحاضره ومستقبله نظاماً منطقياً يحمل في طياته مصائر محتومة كالقدر.

ويقول سارتر: إن الماركسية فلسفة المرحلة المعاصرة، وستظل فلسفة المرحلة المعاصرة طالما أن الظروف الموضوعية التي أوجدتها قائمة.

ومن الحق أن يقال ان الماركسية كانت ضرورة طبيعية، ورد فعل

لا مفر منه نتيجة لتطور المجتمعات الأوروبية، واستعلاء الرأسمالية والفردية. ولما كانت الرأسمالية قد ارتبطت بالكنيسة، واستمدت مفهومها من اللاهوت المسيحي الذي يعلي من شأن الفردية (راجع توينبي) فقد أخذت الماركسية الجانب المعاكس تماماً، وأعلنت خصومتها للمسيحية الغربية، والكنيسة والدين بصفة عامة.

وقد تمثلت دعوتها في إعلاء شأن الطبقات الكادحة، للقضاء على الرأسمالية الغربية، ممثلة في الشركات والاحتكارات والبنوك الكبرى.

فتلك الإيديولوجية من نتاج المجتمع الغربي الصناعي المسيحي. فالإيديولوجية الغربية والإيديولوجية الماركسية تمثلان الصراع بين نظريتي الفردية والجماعية. وعندما بلغت الرأسمالية أعلى صور الاستغلال كانت الماركسية بمثابة رد فعل طبيعي للثورة الصناعية الأوروبية، وللمجتمع الرأسمالي الصناعي، ودعوة لتحرير الطبقات العاملة من ربقة أصحاب رؤوس الأموال.

هذا هو ضمير الاشتراكية الحقيقي بعيداً عن الفلسفات والمذاهب المتصارعة، وهو تطور طبيعي للمجتمع الأوروبي الذي أخذ يصنع أيديولوجياته واحدة بعد واحدة من أجل تحقيق قيام المدينة الفاضلة أو «أيتوبيا العدل والحرية». وإذا كانت الثقافة العربية تؤمن بالعدل الاجتماعي، فإنها تختلف مع النظرية المادية، ومع النظرة اللادينية، ومع المادية التاريخية، ومع الرأسمالية نفسها. وتجد في جذور فكرها الإسلامي نظرات سمحة اهتدى بها العالم في مجال الحرية. والديمقراطية والاشتراكية. ولذلك فإن للثقافة العربية أسساً عميقة، قوامها الإيمان بالحرية والشورى والعدل الاجتماعي التماساً من قيمها، وظروف مجتمعاتها وحاجاتها وفي ظل مفاهيمها الجامعة بين الروح والمادة والعقل والضمير والدين والدنيا والآخرة.

وهي قيم أساسية مفتوحة أمام التطور التاريخي، وأمام حاجة المجتمعات، وتمثل إطاراً مرناً الذي يسمح بقيام أنظمة سياسية واجتماعية

واقتصادية في ضوئها، وعلى هداها تتفق مع تطورات العصور، واختلاف البيئات.

وفي هذا يبدو عمق القيم الأساسية للثقافة العربية التي لا تتعرض للإهتزازات والتحولات التي تتعرض لها الإيديولوجيات الوضيعة التي فرضها على الغرب المفهوم القائل بأن عقائدها أساساً لا تقيم نظاماً إجتماعياً، وإنما تقف عند حدود القيم اللاهوتية الخالصة.

وفي ظل ذلك ما تزال النظريات الغربية من ليبرالية وديمقراطية وماركسية تتطور وتتغير وتضيف وتحذف مجاراة لتطور الزمن، واختلاف البيئات. بينما تقدم الثقافة العربية أصولاً ثابتة لنظام مجتمع في مضمون واسع قادر على التكيف في كل عصر وبيئة.

وأبرز ما تتميز به الثقافة العربية أنها تستطيع أن تقدم للإنسانية ما في النظرتين الفردية والجماعية، فهي تجعل الفرد للمجتمع، والمجتمع للفرد، وتحقق لكل طبقة حقها تجاه الطبقات الأخرى، وتحرر الطبقة العاملة والفقيرة من سيطرة طبقة أخرى، وتزيل الفوارق بين الطبقات وتوزيع الثروة على أفراد المجتمع بالعدل، وذلك دون صراع أو حقد، وفي تكافل اجتماعي وأخوي.

الفصل السابع

# أثرُ الصّهيُونيّة في الفِكر الغَربي[1]

# أثر الصهيونية في الفكر الغربي

كان لمخططات الصهيونية العالمية ممثلة في الماسونية خلال الفترة السابقة لإعلان الدعوة الصهيونية ١٨٩٧ - وفيما بعدها أثرها بعيد المدى في الفكر الغربي، فتحول من طريق إلى طريق، وكان أبرز المفكرين اليهود تأثيراً في الفكر الغربي.

فرويد: علم النفس ونظرية الجنس (خلق الإباحة الحديثة على نمط الوثنية اليونانية) ومجد الغريزة ودعاوى إطلاق الشهوات البشرية.

ماركس: نظرية التفسير المادي للتاريخ.

دوركايم: نظرية التفسير المادي للمجتمع.

أميل لودفيج: تعرية البطولة وردها إلى الماديات.

برجسون: نظرية النسبية.

اسبينوزا: إنكار الألوهية.

ماركس نوردو: حلل المبادىء والنظم التي تدعم المدنية، وأظهر فسادها وتعفنها.

أندريه مورا: السيطرة على الأفكار، وتحويلها إلى الإثم عن طريق الأدب.

اسبنجلر: أنذر بقرب زوال الحضارة المسيحية.

هذا بالإضافة إلى هويتمان، وتوماس مان، ودامنسكي، ودزرائيلي.

والوقع أن الفكر اليهودي الصهيوني قد حدد مفاهيمه وأهدافه منذ وقت بعيد، وعمد إلى السيطرة على الفكر الغربي، واحتوائه وتوجيهه إلى أهداف الفكر الصهيوني، وتصفيته من مفاهيم المسيحية والقيم الإنسانية، واستغلال كل وسائل الثقافة والحضارة ( الجامعة ، والكتاب ، والصحيفة ) في تحقيق هذه الأهداف.

وأول أهداف الصهيونية السيطرة على النظم الدينية والأخلاقية من أجل السيادة على العالم، والسيطرة عليه، وتسخيره. فلا بد من تخريب العالم أولاً قبل السيطرة عليه. وذلك عن طريق الجمعيات السرية المسماة بالماسونية وذلك بمحاربة الأديان جميعاً، والكثلكة بنوع خاص، والعمل المنظم على بث روح الإلحاد في العالم. ويرى كثير من الباحثين أن «الصهيونية» مهدت لاستيعاب الرأي العام، والمسيحي والغربي ابتداء من ظهور الكثلكة (منذ ٤٥٠ سنة). وقد استخدمت الصهيونية أسلحتها الدعائية في أعقاب حركة الإصلاح الديني. وعمدت الى السيطرة على مجالات العلوم والفكر، ووقفت وراء الزعامات العلمية، وحولت مفاهيم (دارون) ونقلت مذهبه الى مجال تشكيك المجتمع الإنساني في طبيعة الخلق، وكانت من وراء (فرويد) في نظرية الجنس و (دوركايم) في قوله بأن نظام الأسرة نظام مصطنع، ووراء (نيتشه) وهو ينادي بسياسة القوة وسحق الضعفاء بدون رحمة.

وهكذا شق الفكر الصهيوني طريقه للسيطرة على الفكر العالمي عن طريق التعليم والإعلام والقضاء على القيم وزرع الشك والريبة، للوصول بالفكر البشري إلى مرحلة الحيرة، ومن ذلك قول البروتوكولات:

«لاحظوا أن نجاح دارون وماركس ونيتشه نحن الذين رتبناه من قبل».

ومن يراجع تاريخ الفلسفة يجد دور اليهود فيها واضحاً، فهم وراء الفلسفات التي تعمل على تحطيم وتدمير القيم الإنسانية.

وقد وصلت الصهيونية إلى قدر كبير من تحقيق غاياتها بتدمير القيم

الأخلاقية في دور الغرب، وفي احتواء الفكر الغربي بمختلف نزعاته، والسيطرة عليه.

وبذلك سيطر الفكر اليهودي على قلب الفكر الغربي مؤثراً فيه، ومتفاعلاً معه، ومحركاً إياه في مختلف جوانب علوم النفس والاجتماع والاقتصاد.

واستطاعت أن تكسب كثيراً من الكتّاب الغربيين أمثال: سارتر، وبرتراند رسل. كما سيطرت على دوائر المعارف وكتب التاريخ لتصوير فكرة خطرة تسري الآن في مختلف مجالات الدراسات الثقافية والتاريخية والاجتماعية في مختلف جامعات الغرب التي تكون الأغلبية الساحقة من هيئات التدريس فيها.

هذه الفكرة، تقول بأن الفكر اليهودي سيد العالم، وأنه سيسيطر على العالم، ويحكمه. وقوام هذا الفكر اليهودي أنه ليس ثمة شيئاً ثابتاً في هذا الوجود حتى العقيدة، مع احتقار الدين، وتحطيم الأخلاق، والقول بأن الإنسان حيوان، وأن الدين ناشيء عن الكبت، والزواج ليس من الفطرة والأسرة من صنع العقل الجمعي الذي لا يثبت على حال، والأخلاق مجرد انعكاس للوضع الاقتصادي.

وهدف هذه الدعوة تحطيم المعتقدات، وإثارة الشبهات حول الأديان الإسلامية والمسيحية، وسحق القيم المعنوية، وخلق فلسفات التشكيك، وإقامة النهضة على أساس لا ديني، وعزل الدين عن كل عناصر الفكر والحياة.

وتحقيقاً لهذه الأهداف عمدت الصهيونية إلى نشر صحف المجون والفسق، وأشد وأقبح الكتب المحظورة على أذهان الشبيبة، ونشر الصحف الكاشفة القناع على أسرار الجرائم تحت ستار التحقيق الجنائي، وتحريض خفي لاقترانها بطريقة الإيحاء التي يجيد اليهود توجيهها نحو الجماعات، بالإضافة إلى استحياء السحر القديم والمخدرات ودعوات

الهيبز والأزياء. وما زالت الصهيونية وراء كل مذهب وفلسفة ونظرية. وما ظهر مذهب فكان مؤدياً إلى مسهم بالأذى إلا قتلوه. وعمدوا إلى ترويج كل فكر يعمل على إفساد الناس، ورفع شأن اليهود. وهم الذين روجوا لمذهب التطور وأولوه تأويلات ما خطرت لدارون واستخدموه في القضاء على الأديان والقوميات والقوانين والفنون، باعتبار أن كل شيء بدأ ناقصاً شائناً يثير السخرية والاحتقار، ثم تطور، فلا قداسة لدين، ولا لوطنية، ولا لقانون، ولا لفن، ولا لمقدس من المقدسات وسخروا علم مقارنة الأديان لمصلحتهم، وإفساد الآداب والنظم والثقافات والعقول بدراسات نظريات براقة لا يفطن إلى زيفها إلا القليل. وهم وراء كل زي من أزياء الفكر والعقيدة والجنس والسلوك. وهم وراء كل دعوة تستخف بالقيم الأخلاقية، وترمي إلى هدم القوانين الاجتماعية. وأبرز ما يهدف إليه الفكر الصهيوني هو دعم الاتجاه الإباحي والإلحادي في الفكر الغربي، وإخراج الفكر البشري كله من مفهوم الدين والأخلاق[1].

وقد دعا فرويد إلى تحطيم احترام الإنسان لنفسه تحطيماً كاملاً، وجاء فكره يضم الجنس البشري كله بأنه جنس متحلل ينطوي على أسوأ النوايا، وأخس الرغبات، حتى أنه اتهم الجنس بأن الطفل يعشق أمه، ويريد أن يقتل أباه. وبنى فلسفته ومذهبه على هذه الحقيقة الرئيسية حتى جعل الناس جميعاً يشكون في كل فضيلة وفي أمر كل عاطفة رقيقة. وقد حقق فرويد الإباحة الحديثة على نمط الوثنية الإغريقية، ومجد الغريزة بحيث أطلق عنان الشهوات البشرية، ورخص للرجل والمرأة أن يفعلا بجسدهما ما شاءا. فالهتك الجنسي لا حد له. أما توماس مان: فقد برر عشق الذكور في قصته (الموت في البندقية) ووصف مرضى الصدر بأنهم حيوانات متعاشقة تتخذ من يأس الشفاء عذراً للتسافد. وقال إن مصحات الجبال مواخير للمرضى تحت مراقبة الأطباء الذين لا

---

(١) راجع مقدمة بروتوكولات صهيون لخليفة التونسي.

يملكون منعهم (قصة الجبل المسحور).

ولم يقف أثر الفكر الصهيوني عند هذا الحد. بل إنه عمد إلى تنظيم جماعات الناس في سلك التحرر بحيث لا يخجلون من أعضائهم التناسلية حيث يجتمعون في نوادي العراة.

من أجل هذا تتخذ الماسونية من المدنية المسيحية موقفاً عدائياً. وترى أن المسيحية تقف في وجهها عائقاً أخلاقياً يحول دون نجاح دعوتها، فعندما أرادت الماسونية أن تلقن الشباب في طفولتهم أسس دعوات الجنس والانحلال، وتلقنهم مبادىء تقديس أعضائهم التناسلية وقفت آداب المسيحية في وجههم، ولذا فقد صنعوا برجال الدين المسيحيين الأعاجيب من قتل وتخويف.

وقد جعلت اليهودية العالمية من عقيدة الماسونية خلقاً وأسلوب عمل. يهدد مجتمعات الدنيا بالدمار الأخلاقي، وتحولها إلى مرحلة سحيقة من التخلف. وقد انكشفت للعالم كله في الفترة الأخيرة بأن جذور هذه الأفكار منبعثة أساساً من التراث اليهودي الصهيوني (التوراة والتلمود وبروتوكولات صهيون) والمتجهة أساساً إلى تقويض الأسس التي تقوم عليها حضارة الغرب بسيطرتها على الأدب والفن على نحو يغري الناس بالتحلل وييسر لهم سبيله [١].

* * *

وكانت المرحلة الأخيرة من تطور الفكر الغربي هو ما بلغته نظريات البراجماتزم في الفكر الأميركي، ومذهب ديوي في التربية، وهي مناهج تعزل الدين، والمثل الأعلى، والأخلاق، والقيم الروحية عن الحياة عزلاً تاماً، وتحاول أن تهتدي بالمصلحة والمنفعة. وقد قامت هذه المذاهب من خلال أثر الصهيونية في الفكر الغربي بعامة، ولم تجد تقبلاً كثيراً في بيئاتها نفسها.

---

(١) راجع كتاب التراث الصهيوني اليهودي لعلم النفس. للدكتور صبري جرجس.

## الفصل الثامن

# التحدّيات في وجه الثقافة العربيّة

## ١ ـ تحدّيات الفكر الغربي للثقافة العربيّة

فرض المستعمر فيما فرض على الأمة العربية بالدرجة الأولى ثقافته بأسلوب مسيطر عنيف لم يتح للثقافة العربية أن تحقق معه حريتها وانطلاقتها في بناء مجتمعها من ناحية، وفي قدرتها على الاختيار والاقتباس من الثقافات الغربية. ذلك أن النفوذ الاستعماري قد جعل من فرض النفوذ الثقافي أساساً لبقائه، وعول عليه أهمية أكبر من أهمية الاحتلال العسكري والسياسي، إذ اعتبره وسيلته الأساسية لخلق أجيال تتقبله وترضى به.

ولذلك فقد عول منذ البدء على دعم مؤسسات تربوية وتعليمية عن طريق الإرساليات التبشيرية لدوام استمرار تخريج أجيال جديدة وفق مفاهيم تعلي من شأن الغرب وحضارته وبطولاته، وتثير الشبهات حول العرب والإسلام وثقافتهم ولغتهم وتراثهم.

ومن خلال مؤسسات التعليم والصحافة والثقافة الغربية كان الحرص على صياغة عقولنا صياغة من شأنها أن تجعلنا تابعين أو مستعبدين. ومن خلال البقاء الاستعماري في العالم الإسلامي كله، والبلاد العربية، فرض المستعمر ثقافته بأساليب يغلب عليها القسر والاحتواء الغاصب، والخداع والمغالطة والغموض، واستعمال الأساليب العلمية على نحو منحرف بعيد عما توصل إليه من حقائق، مع تعصب واضح، وبعد عن التسامح أو العدل. ذلك أن الثقافة العربية قد ألفت أسلوب الوضوح واليسر والنظر المفتوح إلى الحق والرجوع عن الرأي إذا تبين أنه باطل. ومن هنا نشأ ذلك الإحساس العميق بأن الثقافات العربية لا تصدق مع ادعاءاتها بأن

لها منهجاً علمياً خالصاً مجرداً. وتبين أن الهوى هو الذي يحكم، وأن الهدف الاستعماري القائم من وراء البحث العلمي هو صاحب الرأي الأخير، وأن خصومة الاستعمار للثقافة العربية إنما هي هدف أصيل يرمي إلى تدمير هذه الثقافة بحسبانها القوة الوحيدة القادرة على منح هذه الأمة قوتها وحيويتها في مواجهة الاستعمار والاحتلال ومقاومة الغزو على النحو الذي قاومت به كل غزو وجه إليها طوال تاريخها المليء بالصراع الذي يفرضه الغرب على الإسلام والعرب.

وفي أكثر من معركة استطاعت الثقافة العربية استمداداً من أصالتها وقيمها الأساسية الصامدة أن تحفظ وجودها دون أن تنصهر. وكان أكبر معاركها مع التراث الهليني الإغريقي الوثني، الذي انصهرت فيه الثقافة المسيحية من قبل. أما الثقافة العربية فقد احتفظت باستقلاليتها وذاتيتها عن أن تذوب أو تنصهر. كانت قدرة الثقافة العربية في أنها أخذت ورفضت، ثم صهرت ما أخذت وأدخلته في إطارها التوحيدي.

ومن الحقائق الواضحة التي كشفت عنها الثقافة العربية، أنها لا تنمو إلا من خلال جذورها، وباستحياء قيمها، وأن الثقافات الغربية مهما بلغت من قوة فإنها لا تستطيع أن تنضج العقلية العربية التي تختلف في مقوماتها النفسية والعقلية عن مقومات العقلية الغربية، وهي تستطيع أن تستهدي بأساليب الفكر الغربي ومناهجه، دون جوهره وقيمه، وبغير أن تترك له أن يسيطر عليها أو يحتويها.

والمعروف أن الفكر الغربي لم يعرف طريق القوة إلا بعد أن تحرر من قيود الوثنية، وامتص مفاهيم الفكر الإسلامي. وهي قيم الحرية والعدل: والقوة التي أخرجته من الأديرة والرهبانية والانعزال عن الحياة. لقد كانت تعاليم الفكر الإسلامي هي العامل الحيوي الذي جعل الفكر الغربي ينفض عن نفسه قيود الجهـل. فلما نجحت الثقافة الغربية في بناء فكرها العلمي على أساس المنهج العلمي التجريبي الإسلامي، وأقامت حضارتها، عادت تحت ضغط قوى مؤثرة، هدفها السيطرة عليه وتدميره. فأرادت العودة

إلى التماس قيم اليونان والإغريقية والوثنية المادية، والتماس طبيعتها القديمة التي لم يكن الدين جزء من تكوينها، وعادت حثيثاً إلى التحرر الكامل من قيم الدين والأخلاق. فهي ترى «التقدم» قائماً على المفهوم المادي وحده. بينما ترى الثقافة العربية استمداداً من الفكر الإسلامي، أن الرقي المادي والرقي الروحي، هما شقا حقيقة واحدة لا يعارض أحدهما الآخر، فهما وجهان من الحياة الإنسانية، فهي تقبل بوضوح إمكان الرقي المادي للإنسانية في مجموعها لا لجنس منها دون جنس أو أمة دون أمة أخرى. ولا ترى ما تراه الثقافة الغربية من سيادة الجنس الأبيض أو سيطرته أو تميزه بالنفوذ والسلطان على غيره من الأجناس.

وقد أخذ الفكر الغربي هذه النظرة من التراث الروماني الذي كان يرى أن روما وحدها هي صاحبة الامتياز والسيادة، وأن كل ما حولها عبيد. أما الثقافة العربية استمداداً من الفكر الإسلامي فقد جعلت إطارها «إن أكرمكم عند الله أتقاكم».

ولقد كان من أكبر المغالطات التي روجها التغريب والغزو الثقافي، أن لا فرق بين العقل العربي، والعقل الغربي، وأن العرب والمصريين غربيون بالفكر نتيجة لارتباطهم بالثقافة اليونانية القديمة، أو أنهم تجمعهم والعرب وحدة ثقافة البحر الأبيض المتوسط، وهي وحدة وهمية غير صحيحة، أو أن تشابه الأجسام والجماجم والرؤوس أو إلى غير ذلك من الادعاءات التي رددها دعاة التغريب في محاولة للتعمية عن الفوارق الذاتية والنفسية، والعقلية الواضحة بين الثقافة العربية، والثقافة الغربية، وبين المزاج النفسي الذي كونته جذور أساسية مستمدة من الإسلام في الأمة العربية، ومن الوثنية الإغريقية في الغرب.

ولقد رددت هذه المؤسسات القول بأن الثقافة عالمية، واكدت كل المراجعات الأصيلة أن العلم عالمي، والمعرفة عالمية، ولكن الثقافة قومية، لأنها تستمد قيمها من جذور الأمة ولغتها ودينها وتاريخها. ولذلك فهي لا تتلاقى الا لقاء الاختيار، تأخذ وتترك وفق قاعدتها. ولقد كانت

الثقافة العربية متفتحة على الثقافات العالمية الإنسانية دوماً، ولكنها احتفظت دائماً بمقوماتها وذاتيتها ومزاجها النفسي الخاص.

وإذا كان من حقنا النقل والاقتباس، فإن علينا دوماً أن نحتفظ بقيم الأساس نبني عليها ونتحاكم إليها، وإن الحاضر هو امتداد الماضي ومقدمات المستقبل، فلا انفصال بين الماضي والحاضر، والمستقبل إلا من حيث مراحل النمو والاستمرار، والتطور. ومن هنا فقد أخفقت كل دعوة إلى الانفصال عن الماضي، أو امتهان التراث. فقد كانت معرفة الماضي ضرورية لبناء الحاضر.

* * *

ومن الملامح الواضحة للتغريب أنه يقود حركة لإخراج الوطنيين من قيمهم وثقافتهم، ويدفع أمامهم موجات تتلوها موجات من الإقليمية، وأخطار التحلل والإلحاد، ثم لا يلبث أن يحصي عليهم هزيمتهم أمام غزوه. ومن مثال ذلك، ما كتبته إحدى الصحف البريطانية تتساءل عن هذه العزلة التي تعيشها الأمة العربية عن قيمها فتقول: ما هي حقيقة الحركة القومية المصرية وما قيمها إذا كانت تتجاهل التقاليد القومية، ولا تظهر شعورها نحو ماضي بلادها الحر، فالمصري العصري بدون استثناء تقريباً يفضل المظهر الكاذب المموه، وهو عادة مظهر فرنسي كاذب، ويؤثره على تقاليده الثقافية. ومصر بلد إسلامي متعلم، وبها حركة وطنية. ومع ذلك فإن وطنيتها تستنكر كل مظهر للروح الإسلامي. والمصري يحاول اليوم بإدراكه وشعوره أن ينسى طبيعته الإسلامية، فتراه يقطع نفسه وينفصل عن أصوله الأدبية والثقافية، في الحين الذي يستسلم فيه عن عجز وضعف إلى العوامل العصرية الخالية من الحياة الحقيقية.

لقد رأى اللورد كرومر: الخطر الكامن في توسيع الشقة بين مصر الإسلامية، ومصر السياسية. ولا ريب أن مصر السياسية تفتقد تراثها شيئاً فشيئاً، وهكذا فإن الوطني المصري بالحكم الذاتي المطلق الذي

يطلبه، لا يجد لديه شيئاً من التقاليد الأدبية والفنية والثقافية يستطيع أن يستخدم هذا الاستقلال السياسي لفائدتها.

إن الوطنية دون الشعور بالتقاليد أو الجنس لا تصلح لأن تكون قاعدة تستطيع الطبقة المستقيمة أن تستمد منها أيّ ثبات أو تشريع له قيمته[١].

وقد علق على هذا الرأي السيد محب الدين الخطيب فقال: الغريب في الشرقيين أنهم يتظاهرون بعدم التمسك بقيمهم تقرّباً إلى الإفرنج، واسترضاءً لهم، والإفرنج يبتسمون لذلك في سرهم ابتسامة الاستخفاف. ولا يخفى على المثقفين الغربيين أن سياسة الاستعمار جاهدت طويلاً لإفراغ سياستها في القوالب بما لها من السلطان على منهج التعليم والتربية، وعلى حياة الصحافة التي تكون العقائد السياسية والأدبية في رؤوس قرائها، وبما لسياسة الاستعمار من الأساليب في ترقية من يرون من المتعلمين إلى المناصب ذات التأثير في حياة الشرق، فساسة الشرق وقادته هم تلاميذ هؤلاء العاملين من الفرنسيين في الغالب.

وواضح أن هدف الغزو الفكري هو مسخ شخصية الأمة، ومنابع الأصالة والإبداع منها حتى تتوقف عن النمو، وذلك عن طريق إشعار المواطنين بالتخلف.

وقد عمدت قوى التبشير والتغريب والإرساليات التبشيرية إلى هدف واضح هو «تحريف المقومات العلمية[١] والحضارية». حيث كتب الكثيرون صفحات زائفة مضللة عن التاريخ العربي والحضارة العربية الإسلامية محاولين توجيه البحث توجيهاً استعمارياً. فأنكروا على علماء المسلمين والعرب القدامى الأصالة الفكرية، واعتبروا أن كل ما قاموا به هو ترجمات من علوم الحضارات القديمة. وكان الهدف هو إسقاط مرحلة هامة من مراحل التطور الحضاري الإنساني، وذلك بإغفال شأن

---

(١) مجلة الفتح م ١٩٣٥.

(١) للتوسع في هذا البحث راجع التسلل الفكري للدكتور ابراهيم العدوي.

الحضارة الإسلامية العربية صاحبة الفضل على نهضة أوروبا في مطالع العصور الحديثة.

ثم تسلل العلماء الأوروبيون للبحث عن العاميات، ولبس ملابس التجار والدبلوماسيين والمبشرين، وصاروا يعملون بشتى الوسائل لإثارة العجز في نفوس المواطنين.

ثم مضى الهدف إلى خلق «تبعية غربية» وحملت لواء هذا الهدف معاهد التعليم في البلاد العربية التي عمدت إلى تقديم التجارب التي من شأنها الإبقاء على تبعية المتعلمين للمراكز الاستعمارية في أوروبا، ونشر المعارف التي تجعل أصحابها حيارى في خضم الحياة.

ومن أخطر مخططات التبعية هي: أن يحتقر المواطنون لغتهم القومية، وإعلاء لغة المستعمر، ثم الدفاع عن لغة المستعمر على حساب اللغة القومية، واتصل هذا بعمل آخر هو: التفتيت، رغبة في القضاء على قوة الأمة في وحدتها وتضامنها بحسبان أن سلاح التفتيت أخطر سلاح شهره أعداء الأمة العربية.

وكان ما حرص عليه التغريب هو البحث في أصول المجتمعات قبل أن يوحدها الإسلام، ثم اندفع الاستعمار إلى تمزيق هذه المجتمعات على أساس الطوائف الدينية والعنصرية، فأحيا الاستعمار الفرعونية والفينيقية والبربرية، وخلق الوطنيات الضيقة ليحول بين الأمة العربية وبين التضامن. وأشاع استخدام الأسماء المحلية كالمصرية واللبنانية، فوقفت هذه الوطنيات الضيقة في وجه الاستعمار منفردة.

ثم كان عمل الاستعمار هو تقديم قشور الحضارة وجوانبها غير الإبداعية والأصيلة، وحجب جوانب القوة عن العرب والمسلمين. ثم عمل هؤلاء الدعاة بالإغراء إلى هذه الجوانب الانحلالية باعتبارها هي الحضارة نفسها. وكان السخط دائماً منصباً على حركة يراد بها إيقاظ البلاد عن طريق الفكر الأصيل، والمحافظة على الرباط الأساسي وهو

الإسلام واللغة العربية. وعمد الفكر الغربي إلى إبعاد الفكر الإسلامي، والثقافة العربية عن مجال الحياة ومناهج التربية.

ومن هنا نشأت تلك الأزمة حيث وضع النفوذ الاستعماري، الثقافة العربية في مجال التبعية والولاء الغربي، وسلط عليها تلك القوى الضخمة من التبشير والتغريب والشعوبية. فالنظرة إلى الإسلام التي تحملها الثقافة الغربية إلى الثقافة العربية هي نظرة بعيدة كل البعد عن واقعنا. وإن تلك الأزمة من العلم والدين هي في الواقع أزمة غربية صرفة، ولم تتعرض الثقافة العربية لشيء منها أساساً على اعتبار أن الفكر الإسلامي ـ وهو مصدر الثقافة العربية ـ هو مبدع «المذهب العلمي التجريبي الحديث».

لقد كانت للغرب ظروف خاصة نتج عنها ذلك الصراع بين الدين والعلم نتيجة لما التبس بالمسيحية الغربية من انحراف عن طبيعتها، من وثنية ورهبانية، وتأييد الكنيسة للأمراء والإقطاع.

من هنا كان موقف الفكر الغربي من «الدين» بصفة عامة ـ استمداداً من تلك التحديات ـ موقف الخصومة والهجوم والنقد اللاذع. فإذا نقل التغريب والغزو الثقافي هذه المعركة إلى ساحة الثقافة العربية، كان الأمر غريباً كل الغرابة، مختلفاً كل الاختلاف للفوارق البعيدة بين الإسلام وبين الأديان الأخرى، وبين مفهوم الدين نفسه، وبين الإسلام باعتباره ليس ديناً فحسب، ولكنه دين ومنهج حياة. وأبعد الفوارق أن الإسلام هو الذي صاغ التيار العلمي الإسلامي الذي بَنتْ عليه الحضارة الحديثة أمجادها، بينما واجه العلم في أوروبا موقفاً مغايراً.

وكذلك قذف الفكر الغربي للثقافات العربية بدعوات متعددة: منها المذهب الطبيعي، والمادية الجدلية، والتفسير المادي.

وجرت المحاولات لفرض مفهوم غربي للقومية في محاولة لإقامة أسوار حصينة من العنصرية، والعداء المتصل بالأجناس والدماء والشعوب بين

العرب، والشعوب الإسلامية التي يجمعها بها تاريخ طويل، وفكر أصيل، وقيم أساسية في مجال النفس والعقل والذوق لا سبيل إلى انفصام عروته. وكانت النظرة الغربية لهذه الدعوة التي حملتها إلى الثقافة العربية تتمثل في ذلك الصراع بين القوميات الغربية.

والثقافة العربية لا تنكر حق الشعوب في وحدتها، وبناء كيانها، ولكنها لا تجعل من هذا البناء خصومة وصراعاً للقوميات الأخرى خاصة تلك التي يربطها بها فكر وتاريخ وتراث ضخم، ومقومات أساسية واحدة.

ومن ذلك محاولة تفريغ مفاهيم العلم والسياسة والاجتماع والاقتصاد من الطابع الأخلاقي الأصيل الجذور في الثقافة العربية.

(٢)

وقد ركز دعاة تحرير الثقافة العربية من غزوة الوثنية والتغريب، والقومية على دعم مفهوم «الذاتية الثقافية» العربية، والحرص على كيانها الخالص واستقلالها على أساس واضح.

أولاً: الذاتية الثقافية لا تعني الانغلاق عن ثمار الثقافات الأجنبية، وإنما تعني التخلص من السيطرة الأجنبية، إيماناً بأن جوانب كثيرة من هذه الثقافات لا تلائم حاجات هذه البلاد، وأنها تحول دون تقدم ثقافتها تقدماً سوياً.

ثانياً: إن عدم الانتباه والتكيف يولد نتائج خطيرة، فإن النظم التعليمية أو الثقافية في أي بلد من بلدان العالم لا تكون أنظمة قائمة بذاتها تعمل منفردة، محررة من النظم العائلية، والقومية السائدة في البيئة التي تنتسب إليها. وإنما تكون جزءاً من مجموعة الأنظمة الإجماعية الخاصة بتلك البيئة. معنى هذا أن النظام التعليمي القائم في بلد من البلاد إذا انتقل إلى بلد آخر، فإنه ينتقل بمفرده وينفصل عن سائر النظم التي

ترافقه في منشئه الأصلي، وإن من شأن ذلك أنه لا يعطي نتائج مماثلة للتي يعطيها في بيئته الأصلية [1].

ومن هنا يبدو خطر الأضرار التي تتولد من الاقتباس بدون تأمل، وتكيف. لأن الاقتباس قد يؤدي إلى نقل النقائص التي كان يشكو منها، ويسعى لإزالتها المفكرون في البلاد التي أنشأت ذلك النظام. وهذه النقائص عندما تنتقل إلى بيئة جديدة قد تصبح أشد ضرراً مما كانت في بيئتها الأصلية.

ثالثاً: لا يجوز لنا أن نقتبس أي نظام بهيئته الأصلية، بل نضع لأنفسنا نظاماً خاصاً مستنيرين فيه بتجارب جميع الأمم التي سبقت في مضمار التقدم والرقي دون أن نرتبط بنظام إحدى الأمم على وجه الانحصار.

رابعاً: في كل ثقافة من الثقافات العالمية بعض العناصر الإيجابية، وبعض العناصر التي لا تتفق مع تكويننا الاجتماعي، ومزاجنا النفسي. وعلينا أن نقتبس من الثقافات ما يساعدنا على النهوض والتقدم دون أن نتقيد بإلزام معين، ثم نصهر هذا الذي نقتبسه في بوتقة ثقافتنا فيتحول إلى طبيعتها كما تنصهر البذور المستوردة في التربة الجديدة فتصبح نباتاً قومياً، وتصاغ وفق حاجتنا الروحية والعقلية فإذا لم تصلح هذه البذور للنماء والتشكل، فهي غير مطابقة لحاجتنا.

خامساً: إن أبرز الخلافات بين الثقافتين العربية والغربية هي أن الفكر الغربي يحل مشاكله على قاعدة القوة، ويفضل الضمير عن العلم، ويقر السيطرة من الجنس الأبيض منشىء الحضارة على الشعوب الملونة. كما يقر تسخير هذه الأمم للخدمة والعبودية، دون إيمان بالقانون الأخلاقي أو الإنساني، ويتجاهل القيم الروحية، والحقوق الضيقة. بينما تقف الثقافة العربية في الموقف المخالف إيماناً بالحق بديلاً للقوة، واعتباراً

---

(١) راجع ساطع الحصري في بحث الاستقلال الثقافي.

بالقاعدة الأخلاقية مرتبطة بالسياسة والاجتماع، والضمير مرتبطاً بالعلم.

سادساً: إن الخلاف بين الثقافتين واسع واضح عميق، وجذري لأنه خلاف عقلي ونفسي، يصل إلى الحد الذي يشكل في كل منهما مثلاً أعلى مختلفاً متبايناً.

وقد صور الدكتور هيكل هذا المعنى حين قال: «أعتقد أن الشرق قد ضل طريقه في هذه العصور الأخيرة متأثراً بتعاليم الغرب، فأصبح مثله الأعلى مادياً يحسب الحرية التي تسمو بها النفس إلى المكانة الأرفع أن ينال الجسم، وأن تنال الشهوات كل مبتغاها. وقد يكون للبيئة الطبيعية في الغرب ما يدفع إلى التطلع إلى هذا المثل الأعلى. ولكن بيئة الشرق الطبيعية، وتاريخه منذ العصور الأولى، وتاريخه بنوع خاص منذ انتشرت الحضارة الإسلامية في ربوعه، يجعل هذا المثل الأعلى الذي يتخذه الغرب أمامه دون ما تتطلع إليه النفس الشرقية. فهذه النفس تؤمن بوحدة الوجود، وترى في هذه الوحدة والاتصال بها، والفناء الروحي فيها غاية ما ترجو. لذلك كانت «أمثال» هذا الشرق تجري بأن من اعتز بغير الله ذل، ومن افتقر لغير الله هان. ولا تعرف شيئاً في الحياة ما يعادل بقوة الله. وقد أثر هذا في الغناء والنفس والموسيقى والأدب.

## (٣)

يجمع الباحثون على تأكيد واجب المثقفين في كل وطن، ومسؤوليتهم في الدفاع عن مقومات ثقافتهم، وذلك بالتصدي للتيارات الأجنبية بقدر وافر من الإيمان والنشاط.

يقول الدكتور عمر حليق: إن الثقافة العربية مهددة بأدب اللذة والمجون الذي أصبح يؤلف الجزء الأكبر من الثقافة الغربية المعاصرة، ويفرض ديكتاتوريته على الثقافات الأخرى.

أما الثقافة العربية فقد ساهمت في جوهر الفكر الإنساني، وحافظت

على كثير من خصائصها على ممر السنين. وتعداد القرون وحاضرها يشمل ٧٠ أو ٨٠ مليوناً، ويتصل بأربعمائة[١] مليون مسلم يحتلون قطاعاً هاماً في مجالات السياسة والاقتصاد والسلم والحرب، ويتساءل لماذا يقف المثقفون العرب موقفاً سلبياً، ويتعلقون بأذيال لندن، أو نيويورك، أو موسكو، أو باريس.

والقول بأننا في فترة (هضم واستيعاب) لا يبرر الانشقاق نحو التعلق والمحاكاة. ويصف هذا بأنه الاستعارة الضالة، وأن المستعير حين يكون سطحي الثقافة لن يستطيع أن يبدل طبيعة الوضع، فيبقى الشيء المستعار «غريباً» يفرض على ثقافة لا قبل لها بتحويله أو طبخه من جديد.

ومن هنا تكون النتيجة أن تصاب الثقافة الأصلية بالتفكك والانحلال، وتفقد الأمة طابعها الأصيل.

ويقول: إن الاقتراض من الثقافات الأخرى دون قيد أو شرط، أو دون مراقبة أو محاسبة سيولد في المجال الثقافي والاجتماعي حالة تجد عناصر الثقافة القومية نفسها قاصرة عن مناقشة العناصر الدخيلة أو المستعارة، أو عاجزة عن هضمها ووضعها في قالب قوي أصيل. حين تفقد تلك الثقافة الأنصار من أهلها يكون مصيرها مصير الطفل لم يجد من يرعاه ويحنو عليه، فيشب ضعيف البنية، ناقص التغذية، مشلول النشاط.

ويرى الدكتور عمر حليق: أن الشرقيين في نظر الغربيين علم عن الانحطاط والضعة، وكل ما في قاموس اللغة من صفات ونعوت سيئة. وهذا التحامل ليس مقصوراً على فئة دون فئة، فحضارات الشرق عند الغربي أمر عفى عليه الزمن، فهو جزء من الماضي، ولا مكان له في حضارة العالم الجديد، بالرغم مما في الثقافة الشرقية، من عناصر خالدة

---

(١) تقدير المسلمين اليوم لا يقل عن ٧٠٠ مليون، وتعداد العرب ١٠٠ مليون.

تصلح لكل زمان ومكان.

هذا الخلاف في وجهات النظر يتبعه اختلاف في طبيعة المجتمع العربي عن طبيعة المجتمع الغربي، وهو اختلاف جوهري في التطور التاريخي والصناعي، وفي العواطف والإحساسات والمشاعر. وما تزال الثقافة العربية في جوهرها أصيلة عريقة حساسة وخاصة بالنسبة للمجون واللذة.

ويرى الدكتور عمر حليق: أن على الثقافة العربية أن تسلك سلوكاً قومياً فتحتفظ لنفسها بالقيادة الفكرية، والسيادة الثقافية بحيث تهيء للمفكر والفنان، ورجل الدين أن يقوموا بوظائفهم.

وإن عامل الحياة والنمو في الثقافات لا يكون بالاستعارة الضالة، والمحاكاة والتقليد الأعمى، بل باستيعاب الأسس العريقة لثقافات الأمم واختيار الأخرى ما يستسيغه الذوق، وما يهضمه العقل، فيطعم بها، ثم إلى ثقافته الوطنية مساغة منقحة، كما فعل بناة الثقافة العربية حين اتصلوا بثقافات الإغريق والهند والفرس والرومان.

وكما فعل بناة الثقافة الأوروبية حين اتصلوا بالثقافة الإسلامية في القرون الوسطى. والخطر كل الخطر أن تفقد الثقافة أصولها ومقوماتها إزاء التقليد، وما أطلق عليه «الحول».

يقول: «فقدان الحول لا يمكن إلا بواحدة من اثنتين: إما أن تكبت ألمعية المفكرين وحفظة الدين وأهل الفن كبتاً كما فعل أتاتورك، فأفقد ثقافتهم طابع الحياة والنمو، وإما أن يقف المثقفون موقفاً سلبياً أمام نشاط المقلدين يتركونهم يعبثون بالثقافة القومية وخصائصها».

ويرى الدكتور عمر حليق: أن الدفاع عن الثقافة واجب وطني، وأنه من أهم أنواع الالتزامات القومية شأناً، فهي المصدر الذي يستمد منه السياسي دهاءه، والاقتصادي كفايته، والجندي معنويته واستعداده، والمصلح الاجتماعي مواده الخام.

ويقول: إن في عنق الكتّاب والباحثين من أهل الثقافة أمانة مضاعفة

إزاء موجات العبث والتحدي، وإنه من الضروري مواجهة التيارات الغربية التي تعصف بثقافات الأمم في قوة ومناعة. فالثقافة لا تحفظ طابعها ومقوماتها العريقة إلا إذا صمد لها العارفون بها، والمؤمنون بعزتها.

ويرد على الذين لا يعترفون بأن للفن والفكر حدوداً ومعالم جغرافية وزمنية. ويقول: إن هذا مناقض لطبيعة السلوك الإنساني، فعلم الاجتماع ينفيه، وعلم النفس لا يقره، والمرء حيوان اجتماعي، وهو يألف الجماعة التي تبادله مشاعره وتشاركه طبائعه وتبادله المحبة والإلفة.

ويرى أن من حق الثقافة العربية أن تتحدى التيارات الدخيلة، وأن تمحصها، وأن تختار منها ما تستسيغه، وما يتفق وثقافتها القومية. وأن الثقافة العربية اليوم، وهي تمر في عهد إحياء وتجديد أكثر ما تكون تعرضاً للخطر، خطر التيارات الدخيلة [1].

(١) مجلة الرسالة. (م ١٩٥٠).

## الفصل التاسع

# الثقافة العربيّة في مواجهة الثقافة الغربيّة

## موقف الثقافة العربيّة من الحضارة

# الثقافة العربية في مواجهة الثقافة الغربية

## موقف الثقافة العربية من الحضارة

من شأن كل ثقافة أن ترتبط بحضارة، وأن يكون لها موقف من الحضارة الأخرى. والثقافة العربية لها ذاتيتها، ولها موقفها من الثقافات المختلفة شرقية وغربية، كما أن لها موقفاً من الحضارة المعاصرة، ولها أيضاً ارتباطها بالحضارة الإسلامية العربية.

وللحضارة في الثقافة العربية مفهوم واضح، يختلف في أسسه عن مفهوم الثقافات الغربية للحضارة، ويقوم كل مفهوم تبعاً لمقومات كل ثقافة، والقيم الأساسية التي تخضع لها.

والسؤال الأول: ما هي الحضارة؟.

وإذا كان لنا أن نفرق بين مفهوم الحضارة ومفهوم المدنية، قلنا إن مفهوم المدنية أوسع، وهو أشمل للثقافة والحضارة معاً. وهو مجموع العقائد والأفكار والفنون والمؤسسات والعادات والنظم التي يقيمها المجتمع البشري. أما الحضارة فقد جرى العرف على أنها تمثل ذلك التقدم المادي، وطرق المعيشة والأدوات التي يستخدمها أفراد المجتمع، وهي تمثل بالجملة الجانب الاجتماعي الصناعي المتصل بالحياة والمجتمع، وهو غير ما يتصل بالفكر والفلسفات والأدب.

وإذا كانت الثقافة ذاتية وقومية، فإن الحضارة إنسانية وعالمية. وإذا كانت الثقافة خاصة لأمة ما، فإن الحضارة عامة وملك مشاع للبشرية.

وليست هناك حضارة واحدة، ولكن هناك حضارات متعددة. والحضارة العربية الحديثة لا تنفي وجود حضارات أخرى ما تزال حية،

من بينها الحضارة الإسلامية الغربية، وهي مدينة في جذورها وأصولها للمنهج العلمى التجريبي الإسلامي. ومن شأن الحضارة الإسلامية العربية أن تقتبس وتأخذ من الحضارة العصرية، ولكن ليس من شأن هذه الحضارة أن تحتوي الحضارة الإسلامية أو تذيبها في بوتقتها، وذلك للخلافات الأساسية الواضحة والعميقة بين كل حضارة وحضارة. ولقد ذاع رأي تغريبي يقول بالترابط بين الثقافة والحضارة في مجال الاقتباس. وأن على الشرق إذا أراد أن يصطنع الحضارة الغربية أن يصطنع الثقافة الغربية أيضاً. وبطلان هذا الرأي ظاهر، فإن الغرب عندما نقل من العرب والمسلمين لم ينقل إلا العلوم، وما نقله من الثقافة إنما صاغه في بوتقته، وأضافه إلى أصول فكره، وجرده من طابع الفكر الإسلامي العربي. وهو في ذلك يجري مع طبيعة الاقتباس بين الثقافات. ومن شأن الثقافة العربية أن تفعل ذلك، فالعلوم وهي معارف عامة لا حظر على نقلها. ولكن مفاهيم الثقافة تختلف بين ثقافة وثقافة. ولذلك فلا تستطيع الحضارة الغربية، ولها مالها من سلطان في العالم كله، وما لها من نفوذ مرتبط بالاستعمار أن تفرض مفاهيم فكرها وثقافتها على الثقافة العربية، والحضارة العربية الإسلامية.

هذا هو مقطوع الرأي في مجال التفريق بين الحضارة والثقافة في الاقتباس. أما في واقع الأمر فإن بين كل ثقافة وحضارة ترابطاً لا سبيل إلى تجاوزه أو إنكاره. فالحضارة هي تنفيذ للتصميم الذي تتمثله الثقافة وبناء الحضارة إنما يبدأ في الثقافة أولاً تخطيطاً ومشروعاً. ولذلك فإن أية حضارة إنما تستمد مقوماتها من ثقافة لها أسسها ومقوماتها. وهدف الحضارة والمدنية أيضاً هو: الرقي، والارتفاع عن مفهوم البداوة والارتقاء بالإنسان في السلوك، وأساليب المأكل والمشرب والهندام، والتغلب على المادة. وفي مفهوم الثقافة العربية أن الرقي مادي وروحي. وأن هدف الحضارة الإسلامية أن توجد إلى جانب التقدم المادي: التقدم الروحي، وسيادة الأخلاق النبيلة، والمبادىء الشريفة، وتغليب معاني العدل والإخاء والتكامل الاجتماعي.

ولعل الحضارة الغربية قد وصلت إلى مفهوم أساسي هو: أنها تقوم على ترقية الماديات والصناعيات دون اعتبار كبير للجانب المعنوي أو الروحي، وأن نمو الحضارة أصبح يهدد البشرية بسيادة الآلة، وعبودية الإنسان لها. فضلاً عن أن النمو المادي إلى جوار التوقف عن النمو الروحي قد خلق هوة سحيقة بين العقل والقلب، وبين المادة والروح، فنما جسم العالم، بينما ضمرت روحه، ويرجع ذلك في الأغلب إلى أن الحضارة انحرفت عن اتجاهها الإنساني، وآثرت الاتجاه الوثني الإغريقي القديم المرتبط بالتحلل والانطلاق الغريزي والجسدي.

وقد كان من شأن هذين الخطرين أن وجدا ما أطلق عليه «أزمة الحضارة» وهو أمر تناوله بالدراسة كثيرون منهم سوركان واشبنجلر وتوينبي وغيرهم.

### ١ - الحضـــارة

اشتقاق من تحضر، والتحضير هو التهذيب البطيء المتدرج. ويجمع الباحثون أن لكلمة حضارة مفهومين: مفهوماً يعني الانتقال من وضع اجتماعي معين إلى وضع آخر أكثر تطوراً. وهو ما وصفه ابن خلدون بالعمران، وعرفه بأنه مجموع الأحوال التي تنجم عن الاجتماع الإنساني مثل التوحش والتأنس والعصبيات والتقلبات المختلفة للبشر، وما يتصل بأعمال الناس ومساعيهم من الكسب والمعاش والعلوم والصنائع.

والثاني: وهو ما يعني حالة خاصة لجماعة من الجماعات البشرية في وقت معين، وهو ما أسماه ابن خلدون الحضارة وعرفه بأنه غاية العمران ونهاية أمره.

وقد فرق إشبنجلر بين المدنية والحضارة نفس تفريق ابن خلدون، فجعل المدنية علماً على المعنى الحركي الديناميكي وجعل الحضارة تعني المعنى الثابت (ستاتيك).

* * *

ويجمع الباحثون على عدة حقائق:

أولاً: إن الحضارة تصدر عن ثقافة، أو عن دين. وإن الحضارة العربية الإسلامية تصدر عن الإسلام، وإن حضارة الغرب المعاصرة تصدر عن العلم، وإن حضارات الشرق تستمد من البوذية والهندوكية.

ثانياً: إن التطور البشري الحضاري يشتمل على شقين:

(أولهما) المادي: أي الخاص بالحالة الاقتصادية التي يلائمها.

(ثانيهما) الروحي: أو الفكري الذي يتصل بالمعتقدات والقيم الخلقية والمعنوية.

ثالثاً: إن مستلزمات الحضارة الصحيحة أن يقترن التقدم المادي بالتقدم الخلقي، ويسايره جنبا إلى جنب.

رابعاً: إن الحضارة الصالحة هي التي ترتفع بالحياة الإنسانية جملة، من نواحيها الفكرية والمادية والمعاشية والنفسية والخلقية والاجتماعية الفردية. وإنها هي التي تفسح المجال لنمو العقل وتفتحه واكتشاف آفاق الوجود، والتي تزيد من تماسك الأفراد في المجتمع وارتباطهم وتضامنهم وتكاتفهم.

وإن مهمة المدنية ترمي إلى نشر تعاليم الإنسانية وتعميمها على وجه الأرض. وقد ربط توينبي ومالك بن نبي الحضارة بالفكرة الدينية، فالحضارة عندهما تبدأ حين تدخل التاريخ فكرة دين معين، أو مبدأ أخلاقي معين، وتنتهي حين تفقد الروح نهائياً الهيمنة التي كانت لها على الغرائز.

ويرى توينبي أن الحضارة الحديثة الغربية قد قامت على الدافع الروحي أساساً.

وقد أشار بعض الباحثين [1] إلى أن الحضارات لا يتميز بعضها عن

(١) جان لاو وجان بنس (الثقافة والحضارة) ترجمة عبد اللطيف شرارة.

بعض بعناصرها المادية، ولا حتى الثقافية، وإنما أكبر ما تتميز به هو الفكرة الدافعة، أي القوة المحركة التي ينبعث منها النشاط من الداخل وتسيرها في سبل معينة. وإذا كانت الحضارات الشرقية تقدم التأمل على العمل، أو تغلب القدرية. وإذا كانت الحضارات الغربية تغلب النظرة المادية، أو تجعل من الإنسان سيداً مطلقاً للكون، فإن الحضارة الإسلامية تقيم نظرة متكاملة جامعها الروح والمادة، وتجعل الإنسان سيداً للكون تحت حكم الله وكيلاً متصرفاً في سبيل قيام نظام الإسلام ومنهج القرآن.

وإن عقلانية الحضارة الإسلامية ليست عقلانية الحضارة الهلينية، وليست هي عقلانية مطلقة، وإنما هي عقلانية روحية بحسبان أن المعرفة الإسلامية جامعة للروح والعقل معاً.

### ٢ ـ مفهوم الثقافة العربية للحضارة بعامة

١ ـ يقوم مفهوم «الحضارة» في الثقافة العربية على أساس من الفكر الإسلامي الذي يستمد مقوماته من القرآن الكريم. فأول مقومات الحضارة الإسلامية الجوهرية أنها تستمد من وحي رسالة سماوية تمدها بالقوة والتماسك، وتربط بين عناصرها عقيدة التوحيد التي تقوم على الموازنة بين الروح والمادة، والعلم والدين، والقلب والعقل، والدنيا والآخرة. ويقوم نظامها السياسي على الشورى والمساواة، واحترام حقوق الإنسان. وتقوم الأسرة في مجتمعها على المودة والرحمة. ويقوم اقتصادها على تبادل المنافع، واتخاذ المال وسيلة لا غاية، واحترام الملكية الفردية غير المستغلة أو المعطلة للصالح العام، والتشريع القائم على أسس مرنة، وخطوط عامة تتيح الفرصة للاجتهاد والتطور مع ظروف الأزمنة وعوامل البيئات. والإيمان بطلب المعرفة من كل وجه، واستخدام العقل في كسب المعارف، وتسخير الطبيعة لسعادة الفرد والجماعة. وتربط هذا كله قيم خلقية هي ضوابط الحضارة وإطارها، قوامها خلوص النية، ونقاء الضمير، والتمسك بقيم الحق والخير.

أولاً: حضارة جامعة إنسانية: لا حضارة الجنس السائد.

ثانياً: حضارة وسطى تقوم على التوازن بين الروح والمادة، فلا هي حضارة الزهادة ولا حضارة الغرائز.

ثالثاً: حضارة فكر مفتوح متقبل لتيارات الفكر والحضارات المختلفة تأخذ منها، وتترك وفق قاعدتها الأساسية.

رابعاً: حضارة لها أسس ومقومات تستمدها من القرآن الكريم: أساسها التوحيد، وقوامها العدل والحق والإخاء والحرية.

خامساً: حضارة تكرم العلم وتشرف العقل، ولكنها لا تنسى حاجة القلب والروح، وتجعل قانون المعرفة فيها: قائماً على العقل والوجدان معاً.

٣ - ربط الإسلام بين الارتقاء الروحي، والارتقاء المادي، وفتح بابهما على مداه، فلم يحرم علماً نافعاً، ولم يضع للعلوم حدوداً. وبذلك ربط بين المدنية والدين. حيث يظن في الحضارة العصرية، وبعض الحضارات القديمة أنهما متعارضين. بل لقد بلغ الإسلام بالأمر أن ربط بينهما ربطاً عضوياً. فأعلن أن الدين هو ذروة المدنية. فالمدنية التي تستحق هذا الاسم بنزاهة أصولها هي غرض الدين الحق الخالص. فالمدنية الصحيحة لا تنافي الدين الحق، والعلم الصحيح لا يخالف الدين الحق في شيء [(١)].

٤ - جعل الإسلام للأخلاق المكان الأرفع من عنايته لكل الاعتبارات، وهو إعداد النفس البشرية لتكون قادرة على حمل مسؤوليته المهمة التي ناطها الإسلام بكل مسلم، فوضع الأخلاق في مستوى لم تضعها فيه أية فلسفة في الأرض على شدة عناية هذه الفلسفات بها. ويتمثل ذلك في قول الرسول (ص): (إنما بعثت لأتمم مكارم

(١)و(٢) محمد فريد وجدي.

الأخلاق ) فالإسلام يعتبر مكارم الأخلاق غاية الدين الحق، وثمرة لوسائله المختلفة. وقد عمد الإسلام إلى حياطة الدعوة إلى حسن الخلق بعملين هامين: تحريم الينابيع الثلاثة للشرور( الخمر والميسر والزنا ) تحريماً لا هوادة فيه . إيجابه الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر. وقد أباح الإسلام لكل إنسان أن يستعمل حقه الطبيعي في كل ما لا ينافي القانون العام. وما لا يجافي ناموس الأخلاق، فكان من أكبر معالم مفهوم الإسلام للحضارة حماية الأخلاق في الأمم. وقد جعل آحاد الأمة قواماً بعضهم على بعض، فقرر أنه لا يحل لمسلم أن يرى منكراً فيهز كتفيه، ويمضي في سبيله .

٥ ـ ارتباط الحضارة بمنهاج اجتماعي متميز، قوامه الحرية والعدل والإخاء الإنساني، بحيث تكون الحضارة عامل تقدم وسعادة للبشر جميعاً، ولا يكون خيرها وقفاً على مجموعة خاصة، ويكون للباقين الذل والكدح والعبودية وحماية الفرد من قسوة الطبيعة، أو سلطان الأعمال. وبذلك قضى على التفرقة العنصرية، والصراع بين الطبقات، وأقام أنظمة الرحمة والعدالة. ويمكن أن يوصف هذا بأنه سماحة الحضارة وإنسانيتها، فهي ثمرة جهد مشترك لكل من عاش في المجتمع الإسلامي مسلمين وغير مسلمين، وتوفير الحرية لغير المسلمين، واحترام شعائرهم، وإعطاء المرأة حقها وحريتها. فالحضارة في الثقافة العربية ليست قاصرة على طبقة دون طبقة، ولا أمة دون أمة.

٦ ـ الموازنة بين مقاصد الروح، ومطالب البدن، والبعد عن الزهد المعطل للطاقات، وعن المادية الجامدة المفسدة لإنسانية الحياة، وقوام هذا المفهوم الحضاري.

٧ ـ ليس هناك انفصال بين القيمة الدينية، والقيم الاجتماعية والسياسية والاقتصادية في مفهوم الثقافة العربية للحضارة، وإنما تتمثل القيم مجتمعة ككل في تقدير كل موقف.

٨ ـ الحضارة الإسلامية تؤمن بوحدة البشرية، لأنها تؤمن بوحدة الله وبوحدة الإنسانية، وبوحدة الحقيقة، وهي بالتالي تتوجه إلى العالم كله وإلى الإنسانية. ومن هذه الإنسانية في الحضارة الإسلامية تنشأ الوحدة الثقافية والوحدة الاجتماعية المستندة إلى نظرة إلى الكون واحدة، ونظرة إلى الحياة واحدة. وقد أكدت حلقات التاريخ الإسلامي أن الحضارة في مفهوم الثقافة العربية هي حضارة إنسانية تجمع عليها الشعوب والأقوام في صعيد واحد مشترك من المفاهيم الفكرية، ونظم الحياة التي تتحقق فيها المساواة بين البشر، وإقامة العدل، وسائر المثل العليا التي تتقدم بالبشرية مادياً ومعنوياً. وقد كان الإسلام هو جماع هذه المثل العليا، وهو أساس الحضارة المثلى. فإن الحضارة هي الموقف الذي تتخذه أمة من الأمم من الحياة والكون ويتبع هذا الموقف تباين واضح في مجالات كثيرة منها: الفن، والأدب، وذلك واضح في اختلاف الفن الإسلامي عن الفن الصيني والأوروبي. وكذلك في الفرق بين فهم الإغريق للديمقراطية وفهمنا لها.

## حقائق أساسية(١)

### وهناك حقائق أساسية في بحث الحضارة أهمها:

اولاً: إن الحضارة الغربية الحديثة استمدت مقوّم نمائها من التراث اليوناني الذي حرره الفكر الإسلامي، وأضاف إليه من المنهج العلمي التجريبي الذي هو ثمرة الفكر الإسلامي.

ثانياً: إن الحضارة على هذا المفهوم ملك للبشرية، وليس للغرب وحده، فهي ثمرة جميع الحضارات التي سبقتها وأبرزها اليونانية (البذور الأولى للعقل). والمسيحية (تربية النفس) والعربية الإسلامية (تمام نمو العقل والارتقاء بالنفس).

ثالثاً: إن الحضارة الصحيحة تجمع بين التقدم المادي، والتقدم

(١) عن بحث للأستاذ محمد المبارك.

الخلقي جنباً إلى جنب، وأن يكون الخلق هو قوام الحرية. وهذا هو الفارق بين الثقافة العربية والثقافات الغربية في مفهوم الحضارة، حيث يرى الغرب مفهوم الحرية في إطلاق الغرائز والحريات أقصى مدى للحرية. أما في الثقافة العربية فالحرية مرتبطة بالأخلاق، ولها ضوابطها.

ويقول لامارتين: أما الحضارة المادية، فإن علماء الأخلاق يخشونها، والفلاسفة يزدردونها، والإقتصاديين يمجدونها، ولكنهم جميعاً بعيدون عن أن يتفاهموا على وسائل رقيها، وأن يضبطوا انحرافاتها، وأن يدرأوا مفاسدها.

رابعاً: لكل حضارة «شخصية» متميزة بخواصها وصفاتها الملازمة، ولهذه الشخصية ارتباط بمصادرها من ثقافة أو أمة أو دين أو تاريخ.

## ٣ ـ موقف الثقافة العربية من الحضارة الغربية

إن مفهوم الثقافة العربية للحضارة يختلف اختلافاً أساسياً عن مفهوم الثقافة الغربية. ولذلك: فإن الأمة العربية والعالم الإسلامي ـ بحسبان استمدادهما من الفكر الإسلامي ـ يقفان من الحضارة المعاصرة موقفاً صريحاً يكشف عن «ذاتية» قيم الثقافة العربية، وطابعها الاستقلالي الواضح، ومفاهيمها المستمدة من تاريخها ولغتها ومزاجها النفسي والعقلي. وإن كانت هذه الثقافة مفتوحة أمام الثقافات البشرية المختلفة، إلا أنها تقف دائماً على قاعدتها الأساسية، وتتعامل مع هذه الثقافات من خلال قيمها الأساسية حفاظاً على كيانها وشخصيتها.

وتستمد الثقافة العربية مفهومها للحضارة من جوهر الإسلام نفسه، الذي يتمثل مفهومه للحضارة في أنها تقوم:

أولاً: على أساس تحقيق توازن سليم بين الفرد والمجتمع. فالإسلام يعترف بالفرد كوحدة اجتماعية، وتعترف به على أنه صاحب إرادة تشكل الوضع الأساسي في المجتمع في حدود المبادىء التي وضعها

الإسلام، وهي تعطي للفرد أيضاً حق الملكية، وحق التمتع بثمرات ملكه. ولكنه مع ذلك يضع قيوداً وحدوداً على إرادة الفرد، وعلى مباشرته لملكيته بحيث يحقق توازناً سليماً بين الفرد وحقوقه، وبين وجود المجتمع ومستلزماته[1].

ثانياً: حرم الإسلام جميع طرائق الكسب التي تقوم على الرشوة، واستغلال النفوذ أو الغش، أو أكل أموال الناس بالباطل، حتى يحول دون الأرباح الفاحشة، والثروات الضخمة، وإلغاء الربا كلياً.

ثالثاً: جعل للأسرة نظاماً حكيماً يقوم على المودة والرحمة، ورعاية الواجب، وشرع للميراث نظاماً فريداً حكيماً يتضمن تقسيم تركة المتوفى بين عدد من ذوي قرابته حتى لا تتضخم الثروات وتتجمع في أيد قليلة، وحرم على كل مالك أي تصرف في ملكه يؤدي إلى إضرار بالغير، أو ينطوي على اعتداء على حقوق الآخرين.

رابعاً: الاهتمام بالفقراء والمعوزين، وإقرار حق معلوم لهم في مال الأغنياء مع إشاعة روح التعاون والإيثار وبناء المجتمع على أساس أن المؤمن للمؤمن كالبنيان. واعتبار التقوى - وليس المال والنسب والجاه والحسب - ميزان التفاضل بين الناس.

خامساً: إقامة الحدود والقصاص، والنهي عن أكل الربا وأموال الناس بالباطل والوفاء بالعقود، وتنظيم أمر الكيل والوزن، وكتابة الديون، وإقرار مبدأ العمل.

سادساً: اعتبار القيم الأخلاقية محوراً أساسياً لبناء الحضارة والجماعة والربط بينها بحيث تكون هناك قواعد يرعاها الجميع، ويعترف بها الخارجون عليها (هذه القيم توجد عن طريق الأسرة والمسجد

* * *

---

(١) بحث للدكتور محمد شقير.

والمدرسة[1]) .

تكشف هذه المفاهيم عن «ذاتية» واضحة «للحضارة» في مفهوم الثقافة العربية، يختلف اختلافاً بيناً، وعميقاً عن مفهوم الحضارة في الفكر الغربي، وعن طبيعة الحضارة الغربية المعاصرة، في قيم أساسية كبيرة، وعديدة أبرزها:

١ ـ السمة الأخلاقية التي تعتبر قاسماً مشتركاً على الاجتماع والاقتصاد والسياسة.

٢ ـ رفض الربا كأساس للنظام الاقتصادي.
٣ ـ الترابط بين الفرد والجماعة، والجماعة والفرد.
٤ ـ العدل الشامل.
٥ ـ الإخاء.
٦ ـ التطبيق العادل للناس جميعاً لا لفئة خاصة.

بهذه السمات تمتاز عن الحضارة العربية، بينما تشترك معها في مختلف الجوانب الإيجابية، والحية، وأهمها التفكير العلمي، واحترام العقل.

* * *

وإذا قال أندريه سجفريد: إن حضارة الغرب تتميز بقدرتها على الإختراع في عالم الآلة. فإن مصدر هذا مستمد من الحضارة الإسلامية التي ابتدعت المنهج العلمي التجريبي. أما الميزة التي اعتبرها سجفريد ذات قيمة هي: أن الإنسان سيد مصيره. فإن الثقافة العربية تؤمن بسيادة الإنسان تحت حكم الله، ولا ترى له مطلق التصرف أو الاستعلاء. وترى أن السيادة لله وحده، وأن منطلق الحضارة هو تحقيق إرادة الله في الكون، وأن الحضارة الإسلامية حضارة علمية أخلاقية، بينما الحضارة الغربية حضارة مادية. وأن الحضارة الإسلامية عندما تمتلك وسائل العلم

---

(١) تاريخ الحضارة الإسلامية: أبو زيد شلبي.

الحديث والتكنولوجيا تستطيع أن تقدم للإنسانية حضارة جامعة بين المادة والروح. وانه لا سبيل إلى ما يقوله بعض قصار النظر من إعطاء حضارة الغرب المادية مدداً من روحانية الشرق. فإن تركيب الحضارة الغربية هو تركيب متكامل على النحو الذي تقوم به الآن، وأنه لا سبيل إلى تطعيم أي حضارة في مقوماتها الأساسية بقيم حضارة أخرى، وخاصة بالنسبة لمفهوم الترابط بين الدين والعلم الذي تتسم به الحضارة الإسلامية وحدها.

ومن الحق أن يقوم مفهوم الحضارة الإسلامية متكاملاً، كما يقوم مفهوم الحضارة الغربية متكاملاً. وحيث تتجه الحضارة الإسلامية إلى مفهوم الإيثار والإنسانية والإخاء تقف حضارة الغرب عند الفردية، وحب السيطرة والنفوذ والاستعلاء. ولذلك ارتبطت الحضارة الغربية بالتحرر من القيم الأخلاقية، وإقرار مذهب اللذات، والمتعة الفردية، والتفرقة في المعاملة بين الجنس الأبيض صاحب الحضارة والأجناس الملونة. وبذلك انبثقت من الحضارة هذه الحركة الاستعمارية القائمة على أساس الاستغلال والاستعباد للأجناس الأخرى.

وإذا قيل إن حضارة الإسلام تقوم على جماع المادة والروح والعقل والوجدان والدنيا والآخرة، فإن حضارة الغرب يمكن أن توصف بأنها حضارة مادية صرفة، طغت فيها المادة على كل شيء، ولوّنت كل القيم الوجدانية، والعاطفية، وأخضعت السلوك والمعاملات والأخلاق لمفاهيم المادة، وخضع لذلك الفن والاقتصاد، وقامت السياسة على مفهوم أن موطن الرجل الملون يبدأ من كاليه «الثغر الفرنسي المقابل للشاطىء الإنجليزي على المانش [1]». وأنذر الإمبراطور غليوم في أوائل القرن الحالي إلى أوروبا بالخطر الأصفر على الشعوب البيضاء، وبأن إنهاء سلطان أوروبا على العالم سيأتي من الشرق.

وتتأكد الدعوة في كل وقت بأن الجنس الأبيض يريد الاحتفاظ بحقه

(١) عبارة أندريه سجفريد.

في السيطرة والسيادة، وتجري الدعوة إلى وحدة الشعوب البيضاء، وأن مهمة الجنس الأبيض هي تدعيم الثقافة الأوروبية في البلدان المستعمرة.

وبدا أن الشعب الأوروبي الذي كان يعلن حقوق الإنسان في أوروبا ويطالب بالحرية والإخاء والمساواة كان يذهب متحمساً إلى إفريقيا، يسلب سكانها أبسط حقوق الإنسان. وفي أوروبا يقولون إن الناس ولدوا أحراراً، ولكنهم في أرض آسيا كانوا يقولون: إن الناس عبيد، وإن الرجل الأبيض وحده هو الذي له الحق في حمل أمانة حكم هذه البلاد.

* * *

وتتميز الحضارة الإسلامية بأنها:

أولاً: ليست حضارة السادة دون العبيد.

ثانياً: الاندماج في الشعوب، لا السيادة عليها.

ثالثاً: الترابط بين الدين والعلم، وبين المجتمع والأخلاق. بالإضافة إلى تباين نظرة الحضارة الإسلامية عن الحضارة الغربية إلى الكون والحياة والعقائد والعادات والقيم والآداب والفنون.

وهناك خلاف أساسي قوامه: التكامل بين الدين والمجتمع في الحضارة الإسلامية، بينما تقوم الحضارة الغربية على أساس الفصل بين الكنيسة والدولة.

* * *

وتتسم الحضارة الإسلامية بالإبداع والذاتية التي أقامت لها طابعاً مميزاً ومنهجاً خاصاً. هذه الذاتية المستمدة من جذور فكرها، والذي أعطاها وقفة الصمود إزاء خطر جسيم تهدد اليهودية والمسيحية قبلها. ذلك هو

خطر الفلسفة اليونانية الوثنية الذي سيطر على اليهودية، وابتلع المسيحية، وأذابهما في بوتقته، ولكنه عجز عن ذلك بالنسبة للإسلام، والفكر الإسلامي والثقافة العربية بعد صراع طويل شاق، ولولا الأصالة العميقة الجذور لاستحال ذلك، ولخضع الإسلام لما خضعت له اليهودية والمسيحية، ولاستحال إبداع حضارة إنسانية امتدت على الزمن أجيالاً، وامتدت على هذا الكوكب فغطت مساحة كبرى منه في قلب قاراته الثلاث الكبرى، أثرت بالعطاء كل حضارة قامت من بعد، وطبعتها بطابعها أو أمدتها بأصولها ومقوماتها. فالحضارة الإسلامية نسيج تام الصنع، قام على ما قام عليه الفكر الإسلامي والثقافة العربية من تكامل ووسطية ووحدة «فهي ليست مزيجاً، بل مركباً فيها وحدة. والوحدة هي أس القوة والإبداع في الحضارات، كما هي أصل في حياة الأفراد والجماعات».

لقد اقتبست مما سبقها كأمر طبيعي لكل حضارة أن ترتبط بما تقدمها، ولكنها صهرت ما استقبلت في بوتقتها وحولته إلى مادة قوة، وطبعت كل ما أخذت بطابعها، وظل كل من طابعها وجوهرها وذاتيتها واضحاً قائماً، حتى في إبّان مرحلة ضعفها وأزمتها بعد دورة ألف عام من التاريخ.

يقول الباحث (أدلارد) وهو واحد ممن تثقف على أيدي العرب في الأندلس: «إن الإبداع الذي عرفت به الحضارة العربية الإسلامية كان نتيجة دافع روحي، ونظرة عالية من إيمان راسخ بوجدانية الحق».

«إنني والعقل رائدي تعلمت شيئاً من أساتذتي العرب أن الله أعطى الناس العقل ليكون هادياً، فيميز الحق من الباطل».

إن أثمن الخدمات العلمية الملموسة التي قدمتها الحضارة الإسلامية، وكانت مصدر بعث الفكر الغربي، وقيام الحضارة الغربية المعاصرة هما: روح البحث والاعتماد على العقل.

أولاً: قامت الحضارة الإسلامية على روح واحد، وأصل الأصول فيها: «فكرة التوحيد». وبالتوحيد تفسر عناصر الإسلام جميعاً. والإسلام لم يبتدع فكرة التوحيد، ولكنه سما بها إلى أبعد درجاتها، حيث جعلها محور كل شيء، وصاغها أدق صياغة، وحررها من كل عائق أو معاكس. والتوحيد هو شجب عبادة ما سوى الله، فلا يؤمن بسلطان غير سلطانه. والأصل في الوحدانية: التحرر من عبودية غير الله، ومن كل سلطان غير سلطان الله، فلا تفرقة بين الناس. دين واحد هو: دين الله. والناس أمة واحدة. وفي هذا معنى العالمية بأصفى أشكالها، وأسمى صورها.

والوحدانية الكاملة تقوم على أصول أربعة:

١ ـ التحرر من عبودية غير الله.
٢ ـ التوحيد أو العالمية.
٣ ـ الروحانية الخالصة، المثالية الخلقية.

ثانياً: الإسلام يرمي إلى تحرير العقل من كل سلطان غير سلطان الله، فهو لا يتقيد بنظر المجتمع والرأي السائد فيه، إلا إذا كان من عند الله. يضرب عرض الحائط ما يبديه المشعوذون من تأثير القوى الخفية التي من حق العقل أن يكفر بها، وأن يتحرك دون حساب لهذه القوى. والعقل من خلق الله، ويخضع له، فلا يشترك معه في الألوهية. وقد أودعه في الإنسان، لا ليعبده الإنسان ويخلص له من دون الله، بل ليعرف الكون، ويكتشف ما يلزمه منه، ويهتدي به في الظلمات التي ليس للدين أن يكشفها له. والعقل في مفهوم الإسلام واسطة لا غاية. وهو آلة تتكسر على ما يتعدى ميدانها. ولا يستطيع أن يتحدى ما يقوله الله. والعقل ليس إلهاً كاملاً يخطىء، وإنما هو نور مصباح يكشف في الظلمات، ولكنه ينكشف أمام نور الله. والعقل لا يستطيع أن يكشف

سر الخلق والكون، وأن يضع مبادىء المعرفة بل الله يفعل ذلك. والفلاسفة المسلمون يرون أنه مادام نور العقل أضأل من نور الله فلماذا لا يتخذ نور الله كاشفاً في ميدان الفلسفة يسير نور العقل وراءه؟.

والعقل في الإسلام يحرر من الخرافات، ومن عبودية غير الله، ويفتح أمام المسلمين المجال في الجبر والحساب والهندسة والكيمياء والطبيعة.

لقد قيد الإسلام العقل في النظرة الفلسفية العامة الشاملة، وأطلق له الحرية فيما سوى ذلك من مشاهدة وتجربة واختبار، وعدم خضوع للقوى الخفية. وهذه هي الوحدانية التي حررت العقل من غير سلطان الله.

وقد أقر الإسلام وجود حقيقة واحدة هي من خلق واحد أحد. فالعقول يجب أن تقبل جميعها إلى فهم هذه الحقيقة واكتشافها مهما اختلفت في أمزجتها وقوة إدراكها. ومن شأن وحدة الحقيقة أن تؤدي إلى وحدة العقول. والعقل الإسلامي يتفق مع نتائجه وطريقه مع الأخلاق.

فهو الذي يدل على الخير ويهدي إليه. أما المكر والخديعة والدهاء المؤدية إلى السوء، فليس من صنع العقل، وإنما من صنع النفس الأمارة بالسوء، ولو رجع الإنسان إلى عقله رجوعاً سليماً لأباها.
وبالجملة فالعقل الإسلامي نور محرر من الشعوذة والسحر والقوى الخفية، والخضوع لغير الله [1].

ثالثاً: تهذيب النفس أصل من الأصول في الحضارة الإسلامية.

وتقوم روح الإسلام على تحرير الإنسان من شهوات النفس، والتحرر من عبودية الناس.

وقد وضع الإسلام طرائق للتطهر النفسي كالعبادات والصوم. ومن

---

(١) يوسف العشي عن مجلة الحضارة الاسلامية.

المعروف أن النفس غير الجسم، والميول النفسية غير الاتجاهات العقلية.

وقد اتخذ الفلاسفة والصوفية من دراسة أحوال النفس وسيلة لرفعها، فوصلوا في ذلك إلى درجات عالية، وبنوا بحوثهم على التجربة النفسية عن مجاهدة النفس، فقالوا إنهم وصلوا إلى معرفة السعادة، بل إلى الحصول عليها عن طريق المجاهدة والتهذيب.

والإسلام دعوة إلى أن يتحرر الإنسان من ميول النفس ورغباتها وأهوائها وخضوعها لغير الله[٢].

رابعاً: المادة: يرى الإسلام التحرر من عبودية المادة وطغيانها. وذلك بتوجيه المال إلى صالح الأعمال، فالمال واسطة لا غاية. والمال ملك لله، وهو رهين يسترد، ويبقى لأجل معلوم. ومبدأ الزكاة يقوم على توزيع واحد من أربعين من ثروة الموسرين، فينفق في حياته خلال «أربعين سنة» ما يعادل أقصى ما جمع لديه من المال، وبذلك تنتقل الثروة في كل أربعين سنة من أيدى أناس إلى أيدي آخرين. وقد حرم الإسلام كنز المال: «والذين يكنزون الذهب والفضة».

وليست الزكاة تكرماً ولا صدقة بل «حق معلوم». وقد أقر الإسلام للسلطان أن يأخذ من مال الأغنياء ما يراه لازماً للفقراء[١].

خامساً: مهما أوغلنا في البحث والتنقيب فيما سلف من الحضارات، فلن نجد توقيتاً معيناً نستطيع أن نحدده بدءاً لحضارة ما، أو تاريخاً لمولدها، ولا أن نعين حداً فاصلاً يميز بين حضارة ولّت، وأخرى أشرق عليها النور وتبدت في الوجود، ولكن هناك استثناءً واحداً هو الحضارة الإسلامية. فلم يذكر تاريخ البشر فيما عرفه الناس من حضارات سوى حضارة واحدة برزت إلى الوجود من عالم الغيب دفعة واحدة، واستوت للناظرين قائمة على أصولها في فترة محددة من تاريخ البشر، تلك هي

(٢) يوسف العشي: نفس المصدر.

(١) يوسف العشي: نفس المصدر.

حضارة الإسلام .

فقد انفردت حضارة الإسلام وحدها بانتمائها إلى الحياة دون سابق عهد أو انتظار . وقد جمعت من فجر نشأتها كل المقومات الأساسية كحضارة مكتملة شاملة، قامت في مجتمع واضح المعالم، له نظرته الخاصة إلى الحياة، وله نظامه التشريعي الكامل . ولم يكن قيامها ثمرة تقاليد زخر بها الماضي ، ولا وليد تيارات فكرية متوارثة . ولقد كانت هذه الحضارة وليدة حدث تاريخي فريد، هو تنزيل القرآن الكريم، وكان مردها إلى رجل فذ في التاريخ هو محمد رسول الله .

جاء الإسلام نظاماً شاملاً للحياة قد افتتح حقاً حضارة جديدة(٢)

سادساً : تحدث القرآن الكريم قبل أن يدور بخلد إنسان بشيء عن نظرية التطور والارتقاء بأمد طويل . إن الحياة ليست سلّماً من قفزات لا رابط بينها، ولكنها عملية عضوية حية مستمرة . ومما يسر هذه النظرة إلى الحياة الإنسانية في وحدتها واستمرارها أن يأتي الإسلام بكل فذ فريد مستحدث من أصول الفكر، وأن يضم إلى ذلك بعض الأصول العقلية التي حواها الفكر القديم كذلك (١) .

سابعاً : تتمثل حضارة الإسلام في تلك النظرة الخاصة إلى المنهج الاجتماعي المتمايز، والنظرة الخاصة إلى الفضائل الأخلاقية، وهذا الأسلوب الذي رسمه الإسلام لحياة البشر . فقد استهلت حضارة الإسلام عهدها كاملة العناصر والأركان وقد وصلت إلى تمام شكلها ونمائها دفعة واحدة، لأنها لابد أن تنمو، وأن تتطور كما تنمو الكائنات الحية .

ولهذا كان من الطبيعي أن تتصل حضارة الإسلام خلال الزمن ببعض العناصر والمقومات الخارجية عنها، والتي جاءتها من حضارات أخرى .

لقد بدأت حضارة الإسلام رغم كل العوامل والظروف والمؤثرات

(١) عن بحث محمد أسد عن الحضارة الإسلامية .

(٢) عن بحث محمد أسد عن الحضارة الإسلامية .

كائناً حياً متكاملاً متمايزاً انبثق نجمها، فكان ظهورها في توقيت تاريخي محدد[٢].

ثامناً: نقل الإسلام النظرة إلى الحياة، والكون من النظرة الخرافية والميتافيزيقية، والمجزأة إلى النظرة الشاملة الجامعة الموضوعية والتجريبية المنتظمة في سنن وقوانين. وفتح آفاق التفكير العلمي، فسار البحث العلمي في طريق جديدة. وانتقلت العلوم الطبيعية من المرحلة العقلية النظرية عند اليونان إلى المرحلة التجريبية منذ القرن الثاني للهجرة. وانتهت الكيمياء والفيزياء والفلك إلى مرحلة التجربة، واكتشاف القوانين وظهر أمثال الجاحظ وابن الهيثم والبيروني والرازي وأولاد موسى بن شاكر.

ولم يقتصر الأمر على الطبيعة الجامدة، بل تناول الإنسان والحياة الاجتماعية. فقد انبثقت عن النظرة الإسلامية نظرة علمية إلى المجتمع أنتجت لأول مرة في تاريخ الفكر البشري تفكيراً علمياً كتفكير ابن خلدون في مقدمته، والشاطبي اللذين سبقهما مؤلفون في حياة الأقوام والمجتمعات كالبيروني في الآثار الباقية، والمسعودي. هذا إلى جانب الأفق الجديد الذي شق المسلمون إليه الطريق إلى معرفة النفس الإنسانية ونزعاتها وخواطرها ورغباتها، وما تعانيه من صراع وتبدل وتطور مما نراه في آثار الصوفية التي يعد الكثير منها بحق من أروع ما سطر في العالم، في تصوير النفس والروح[١].

تاسعاً: أنتجت نظرة الإسلام إلى البشر فكرة المساواة الحقيقية، بل الشعور بالمساواة. كما ولدت أيضاً فكرة العدالة بين البشر والشعور بمسؤولية إقامتها في العالم دون اعتبار الفوارق الجنسية أو الدينية أو غيرها. لذلك لم تكن نظرة الشعوب إلى العرب المسلمين الذين دخلوا بلادهم نظرة الفاتحين المستعمرين، بل نظرة من يحملون لهم الخير،

---

(١) محمد المبارك: نظرة الاسلام العامة الى الوجود وأثرها في الحضارة.

ويقيمون موازين الحق، والعدل، ويشعرون بالأخوة الإنسانية، والمساواة بين عباد الله. وهذا هو السبب في أن البلاد التي دخلوها بقيت فيها آثارهم خالدة شاهدة عليهم.

عاشراً: حررت الفكرة الإسلامية الشعوب من الخضوع المطلق للملوك والرؤساء، إذ جعلت نظرتهم إليهم نظرة إلى أفراد من البشر مثلهم. عباد لا يمتازون عنهم بشيء إلا ما حملوا من أمانة، وما يجب عليهم من أدائها. وأعظم من ذلك كله ما بعثته النظرة الإسلامية في النفس البشرية من يقظة الضمير الإنساني وانتعاشه، وحيويته، ذلك الضمير الذي يتألم للشر، ويحنق على الظلم، ويتلهف لإقامة الحق، وإشاعة الخير ويشعر بالمسؤولية أمام الله عن التقصير في أداء الأمانة في هذه الحياة والاطّلاع بما أوجب الله من العمل والجهاد [(١)].

حادي عشر: حرر الإسلام الإنسان من الخرافة، والشهوة، والعصبية الخاصة، وربطه بالكون والوجود والبشرية عن طريق ارتباطه بالله العالم الخبير، وبالحياة الآخرة الباقية. إن هذه النظرة تجمع في نسق واحد: روحانية الدين، وعقلية العلم، وفعالية العمل، وخلقية الغايات [(٢)].

## ٥ - الحضارة والاستعمار

ارتبطت الحضارة الغربية المعاصرة ارتباطاً عضوياً بالاستعمار، والتوسع، والفتح، والسيطرة على المناطق المختلفة في قارتي آسيا وأفريقيا. وذلك أن هذه الحضارة إنما نمت في قارة أوروبا، وهي قارة لا تملك جميع وسائل الصناعة التي هي دعامة الحضارة. ومن هنا كان اندفاعها للسيطرة في العالم التماساً للخامات التي هي أدوات الصناعة، وللأسواق التي هي مصادرها. وقد أقامت الحضارة الغربية فلسفة تبرير لهذا الغزو تقوم على دعوى عريضة، هي أن الغرب وأوروبا والجنس الأبيض، والحضارة تحمل أمانة «تمدين» الشعوب الملونة والمختلفة، وأنها في سبيل ذلك

---

(١)(٢) محمد المبارك: نفس المصدر.

ترتاد هذه الأقطار لتحمل معها المدنية والنور والحضارة، وتعد هذه الأمم والدول للنهضة.

وقد كشف الزمن وحده عن بطلان هذه الدعوى، بعد أن أمضى الاستعمار أكثر من مائة عام منذ ظهوره إلى اليوم، دون أن يحقق لهذه الأمم والبلاد التي استعمرها أي تقدم يذكر، بل إنه حال دون تقدمها الذاتي الذي كانت قد شقت الطريق إليه، وذلك بتعطيل كل مقومات نموها، وتعميق أوجه الخلاف بين عناصرها وتجميد لغتها ودينها وثقافتها، وإثارة الشبهات حولها، وإعلاء لغته وثقافته وتاريخه.

وتبين بالحق أن الإستعمار كان يقوم بعمل بعيد الخطر في احتواء هذه الأمم والشعوب والسيطرة عليها وتذويبها في كيانه عن طريق الغزو الثقافي الذي بدأه ببعثات التبشير لنقل أهالي الأوطان من أديانهم إلى دينه، وصبغ الحياة الثقافية والاجتماعية جميعاً بصبغة نفوذه السياسي والفكري. كما تبين أن الاستعمار إنما كان حريصاً على إبقاء نفوذه وإدامته، وذلك بتحويل هذه الأفكار والأمم إلى أجزاء من إمبراطورياته الشاسعة، وقد بدأ ذلك فعلاً حين فرض ضم أقطار شاسعة في إفريقيا وآسيا إلى بلاده، ومثال على ذلك هذا القرار الذي أصدرته فرنسا باعتبار الجزائر جزءاً منها، وأطلقت عليها «فرنسا الجنوبية».

وقد كان الإسلام واللغة العربية، والثقافة العربية هي الأخطار الأساسية التي عمد الاستعمار إلى محاربتها رغبة في القضاء عليها، وإزاحتها من طريقه، وفرض لغته وثقافته ودينه على هذه البلاد المستعمرة.

ومن الحق أن يقال: إن العالم الإسلامي كان أحط هذه المناطق إزاء الاستعمار، وقد وجه إليها ضغطاً أكبر، ولكن من الحق أيضاً أن يقال: إن العالم الإسلامي استمداداً من قيمه ومقوماته وفكره، كان أكثر صموداً وأكثر مقاومة لهذا النفوذ.

ولم تكن محاولة الغرب في فرض نفوذه على العالم الإسلامي والأمة العربية، عن طريق الاستعمار، والحضارة هي المحاولة الأولى، ولكنها كانت أضخم هذه المحاولات، وأعظمها أثراً. ويمكن القول بأن الحضارة قد ارتبطت بالاستعمار، واتجهت إلى المشرق، وعبرت البحر الأبيض المتوسط من جوانبه المختلفة في سبيل تطويق هذه المنطقة. وقد بدأت هذه المحاولة منذ القرن السادس عشر الميلادي، واصطبغت هذه الحملات بالطابع التبشيري المسيحي، وربطت نفسها بالحروب الصليبية القديمة، واعتبرت نفسها امتداداً لها. وظل هذا المعنى قائماً في ضمير الحضارة والاستعمار الغربيين طوال هذه القرون، حتى صرح به اللورد اللنبي في العقد الثاني من هذا القرن حين قال عندما دخلت القوات البريطانية الغازية مدينة القدس: «الآن انتهت الحروب الصليبية».

ومن أعظم ما ركّز عليه الاستعمار لإدامة السيطرة العمل على تمزيق الكيان الفكري والاجتماع، وكانت الحضارة الغربية عاملاً هاماً في تأكيد السيطرة والاستعمار.

وقد التمست الحضارة الغربية مفهومها في الاستعمار من النظرية الرومانية التي كانت تقول إن في العالم فئتين: «نحن والبرابرة».

يقول جان بول رو: لقد تغيرت العبارة وأصبحت أقل فظاظة، ولكنها لا تزال أقل وضوحاً. أما معناها فهو: الغرب هو قبل كل شيء وطننا، والبرابرة في نظرنا أو الشرق هو كل آسيا وكل أفريقيا.

ويمكن القول إن مفهوم الحضارة والاستعمار قد ارتبطا ارتباطاً عضوياً وفق مفهوم واضح، هو أن أوروبا هي أرض الجنس الأبيض المسيطر على العالم كله، وأفريقيا وآسيا أرض الأديان والثقافات ويجب أن توضع تحت الحماية، وتظل مصدراً للموارد، وأسواقاً لبيع منتجات الحضارة.

ومن ثم فقد وضعت خطة أساسية ما تزال موضع التنفيذ: هي

امتصاص ثروات هذه البلاد واستنزاف كل ما تملك أولاً بأول بكل الوسائل والأساليب، سواء بالتجارة أم بالسرقة.

وقد سيطر على هذا النفوذ الاستعماري والاقتصادي، نفوذ اليهودية العالمية المسيطر على شؤون المال والاقتصاد في أوروبا، ثم في أمريكا بعد ذلك، واتصل ذلك بتأسيس وطن قومي لليهود في فلسطين، كمقدمة لإقامة امبراطورية استيطانية استعمارية في قلب العالم الإسلامي كبديل للاستعمار نفسه.

وقد ارتبط الاستعمار بإيديولوجية الفكر الغربي القائم على «نظرية الأمير» التي نادى بها ميكيافلّي، والتي سيطرت على السياسة الغربية، والحضارة الغربية. وذلك باصطناع كل وسائل الخديعة والتآمر في سبيل تحقيق الغايات، وإنكار الأساليب الأخلاقية في مجال السياسة أو الاقتصاد. ومن ذلك قامت مؤامرات الوقيعة بين المسلمين والمسيحيين والعرب والبربر والسنة والشيعة. والدروز والموارنة.

وكان للقوى التغريبية ذات النفوذ الفكري كالماسونية والبهائية والتبشير أثرها البعيد المدى في عمليات الهدم والتمزيق والتآمر، ومقاومة الثقافة العربية أساساً، وذلك بإثارة الشبهات، وحياكة المؤمرات والوقيعة بين العناصر المختلفة.

وكانت محاولة إخراج العرب المسلمين من مفاهيم الإسلام، وقيم حضارتهم وثقافتهم ولغتهم وتراثهم وزعزعة عقائدهم وتشكيكهم في مقومات فكرهم كمقدمة لاستيعابهم وتذويبهم في أتون الحضارة الغربية العالمية، وخلق طابع غربي في أسلوب الحياة أقرب إلى الانحلال والإباحة والإلحاد.

( ٢ )

هناك وجهة نظر غربية لمفهوم الاستعمار والحضارة يعرضها ليوناردولف في كتابه «الاستعمار والحضارة» فهو يرى أن الحضارة الأوروبية الحديثة هي شيء مختلف كل الاختلاف عن كل الحضارات التي سبقت القرن التاسع عشر بعد أن تحطمت الحضارات التي كانت ترتكز على المملوكية والأرستقراطية، وأنه لما تضخمت الصناعة في أوروبا اضطرت الحضارة أن تبحث عن أسواق جديدة لصناعتها، وجلب المواد اللازمة للإنتاج والعمل. ومن هنا شعرت أوروبا بحاجتها إلى سائر العالم إن كان لها أن تنجح في نظمها الجديدة، فتنافست الدول الأوروبية في الاستئثار بالأقطار الآسيوية والأفريقية لتجعلها ملاحق لتجارتها وصناعتها، وساعدها على ذلك سرعة المواصلات. وقد كانت صعوبة المواصلات تحول بين أية حضارة مهما كانت قوية ممتازة أن تجتاح بقية الحضارات أو تجبرها على الأخذ منها، فكانت العزلة تامة بين آسيا وأفريقيا من حيث أساليب العيش، وسبل الحياة.

ويرى ليوناردولف: أن التطور الذي وقع في أوروبا بين ١٧٥٠ - ١٨٥٠ هو تطور عظيم هائل لم تشهد مثله البشرية في كل تاريخها المعروف، ولعله أعظم قفزة قفزها الإنسان.

وعنده أنه لما كانت الحضارة الراهنة حضارة صناعية في صميمها كان الاستعمار الحديث اقتصادياً صناعياً في دوافعه وموجباته، ولم تستطع آسيا أو أفريقيا له رداً، لأنه أتاهما فجأة، وبقوة ووسائل ليست في طاقتهما، ولا هي تدخل في دائرة معرفتهما واختيارهما، فهي في الواقع حضارة استعمارية غازية بمقدراتها الحربية، وطرق مواصلاتها السريعة. ويرى ليوناردولف أن حادث الاستعمار هذا لعله أعظم حادث عرف في التاريخ من حيث السرعة والشمول. ففي خلال مائة عام ١٨١٤ - ١٩١٤. استطاعت أوروبا أن تخضع القارتين الآسيوية والأفريقية وجنوب أمريكا لسلطانها الذي لا ينازع.

ويعتقد ليوناردولف أن مشكلة الاستعمار الحديث إنما هي مشكلة نزاع بين حضارة صناعية آلية لا بد لها من الاستعمار في نجاحها، وبين حضارات لا تريد الفناء في هذه الحضارة الحديثة. وأن مناهضة الاستعمار وقيام حركات التحرر إنما كان مصدرها: «تصادم الثقافات» ذلك أن من خصائص الحضارة الأوروبية الراهنة أنها تطغى على كل النظم والمؤسسات الاجتماعية في الحضارات الأخرى، ولا تعرف التساهل أو الهوادة في فرض امرها، واتباع سيطرتها، وهي تقوم على القوة الحربية في أساليبها، والتنافس الاقتصادي العنيف.

ويرى ليوناردولف: أن النزاع الحالي بين الحضارة الحديثة وبقية العالم ليس نزاعاً جنسياً أو دينياً أو وطنياً، وإنما مصدره طغيان الحضارة الأوروبية وأساليبها في الاستعمار والاستغلال. فالحضارة الغربية الراهنة في مظهرها الاستعماري الحربي الاقتصادي قد هددت حياة تلك الشعوب ورخاءها، وسبل عيشها، وعلاقاتها الاجتماعية بالزوال، وإن كيان الحضارة الغربية الراهنة يقوم على التنافس الاقتصادي الذي لا يعرف سوى مبدأ الربح المادي.

وعنده أن آوروبا لا تحس بوطأة مساوىء حضارتها، ولكن آسيا وأفريقيا تحسان بها إحساساً يهدد حياتها ويكاد يفنيها. فالحضارة الراهنة التي أنجبت الاستعمار في آسيا وأفريقيا، وخلقت مشكلاته هي بعينها التي خلقت مشكلات الحروب البشرية والاقتصادية بين الدول الأوروبية نفسها.

ولذلك فإن المشكلة ليست جنسية ولا دينية ولا قومية، وإنما هي مشكلة من صميم الحضارة الراهنة. وفكرة الوطنية نفسها هي نتاج الحضارة الأوروبية الحديثة، فهي غير معروفة في آسيا وأفريقيا بمعناها الحديث.

والشعوب الآسيوية والأفريقية إنما تستعمل وسائل هذه الحضارة

وسبلها كأسلوب للتحرر منها.

* * *

ويعلق ليوناردولف على الفارق الشاسع بين الاستعمار الروماني، وبين الاستعمار الحديث. ففي ذلك الاستعمار لم ترغم روما بقية العالم على أخذ حضارتها بمقتضاها، وإنما كانت تترك لهم كامل الحرية في معظم طرق عيشهم وحياتهم، لأن حاجة الرومان إلى الفتح لم تكن اقتصادية صناعية، وإنما كان دافعها الأول هو حب الفتح ومطامع الملوك في السلطان والتوسع الحربي. وليس معنى هذا أن الحضارة الرومانية لم تمتزج بالحضارات الأخرى أو تؤثر فيها، وإنما كل ذلك جاء تدريجياً في رفق وهوادة، حتى أن الرومان أخذوا من الحضارة الإغريقية الشيء الكثير مع أنهم كانوا من الغزاة الغاشمين. وقد بلغت هذه الحضارة الإغريقية في أوج مجدها مستوى رفيعاً من الاجتماع والنظم السياسية والاقتصادية والفنون، وفتحت معظم شعوب العالم، فكان لها فارس في الشرق ومصر في الجنوب والشعوب اللاتينية، وفينيقيا في الغرب. واتصلت بحضارة تلك البلدان، وأثرت فيها، غير أنه لم يقم نزاع عنيف بينها وبينهم، ولم تتلاش أية حضارة من تلك الحضارات من جراء هذا الاختلاط. ذلك لأن الإغريق لم يحاولوا توحيد إمبراطوريتهم الواسعة المختلفة الأشكال

(٣)

لقد نقل الاستعمار إلى العالم الإسلامي الجوانب الضعيفة والإباحية من حضارته، ومرافق اللذات والمتعة، والخمور والمسارح والملاهي والقصص الماجنة، وأباح في البلاد المستعمرة ما لا يبيحه في بلاده، بعد أن سيطر على مقدرات البلاد. أباح الربا والخمر والميسر، ودعا إلى التهافت على اللذة والتفنن فيها، ودعا إلى إطلاق الغرائز من عقالها، وتجهيز المرأة بكل صنوف المفاتن واللذات.

وبذلك خلق الفساد الاجتماعي القائم على ضعف الأخلاق، والتناحر

والاختلاف. وكانت هذه الحضارة قد أثبتت عجزها في بلادها عن تأمين المجتمع الإنساني، أو إقرار الطمأنينة والسلام في ربوعه. وقد اعتمد الاستعمار في نقل هذه الجوانب من الحضارة إلى العالم الإسلامي، والأمة العربية أسلوباً عنيفاً من أساليب الغزو الاجتماعي، الذي نجح نجاحاً لا حدّ له، وكان أعمق أثراً من الغزو العسكري والسياسي. وتغالب الأمم المستعمرة في احتضان هذه الجوانب من الحضارة.

يقول الدكتور هيكل: «لقد نشر الغزب حيث ذهب حضارة استعمارية قامت على إضعاف الروح المعنوي في الشعوب التي نزل فيها، وعلى قتل معنى الاعتماد على النفس في تلك الشعوب، كما نشر بينها روحاً مادياً قتالاً للإيمان بكل المعاني السامية، أو المثل العليا موطداً للاستعمار وآثاره. هذا الروح المادي هو ما يعمل المستعمرون لنشره أنّى ذهبوا لأنهم يرونه الصلة الوحيدة التي تربط الحاكم والمحكوم».

فالحضارة الأوروبية التي دعت نفسها حضارة العلم قد اصطبغت منذ زمن بعيد بلون أعطاها صبغته فجعلها حضارة الاستعمار، وجعل العلم، وجعل العقل، وجعل النفس، وجعل كل ما في الحياة من قوى في خدمة هذا الاستعمار الذي لا يبغي إلى نشر العلم أو الدعوة إلى عقيدة جديدة، وإنما يبتغي استغلال ما سوى أوروبا استغلالاً مادياً بحتاً. والاستعمار على هذه الصورة أناني بطبعه، أناني حتى ليستهين بالقتل، وباستئصال الأجناس، وبكل ما يقف في سبيل غايته المادية الصرفة. هذا الاستعمار قد استطاع أن يخفي لونه الحقيقي، وأن يزعم لنفسه غايات هي تحضير الشعوب القليلة الحضارة، فلما وقعت الحرب بتأثير أرباب المال في العالم، زادت العواصف الأنانية نمواً في نفوس تنطوي على حظ غير قليل منها.

لقد كان حرص الاستعمار أن يقدم للعرب والمسلمين الجوانب المتحللة الاستهلاكية والإباحية في محاولة للقضاء على القيم الأساسية لهم، وذلك بإباحة القوانين الوضيعة، وإباحة الزنا والخمر، والتحلل

الخلقي، وتنازع المذاهب والأحزاب، على مدى الخلاف الواسع العميق بين المزاج النفسي والعقلي العربي والغربي. ولا شك أن الاستعمار يحرص على أن يبقى العرب والمسلمون في حالة لا تمكنهم من مزاحمته في مجال الحضارة. وهو يهدف إلى أن تظل هذه القوة معطلة عن النمو، تابعة، مستهلكة، وليست منشئة أو مؤثرة.

ومن هنا كانت دعوة الاستعمار إلى ما أطلق عليه «وحدة الثقافة العالمية». وهي دعوة مشوهة، ترمي إلى أن تنصهر ثقافة العرب وحضارة المسلمين في بوتقة الفكر الغربي، والحضارة الغربية، وما هذه الأساليب والوسائل التي يتخذونها إلا وسائل لاحتواء الثقافة العربية، ومحاولة تذويبها في كيان غربي.

هذه الغاية هي الهدف الأساسي لحملات التغريب، والغزو الثقافي والشعوبية، وإذاعة دعوات الإلحاد والإباحية، وإحياء الشبهات، ومحاولة والثقافات في شؤون السياسة الاقتصادية أو النظم الاجتماعية الأخرى، فقد كانت الحضارة الإغريقية كثيرة التساهل مع الشعوب الأجنبية التي دانت لها، وكذلك كان استعمار عصر الأحياء والنهضة (الرنيسانس) كان غايته التبادل التجاري في المحصولات، وفتح الأسواق الأجنبية، وأخذ المواد الخام.

أما قصة الاستعمار الحديث في آسيا، فهي معروفة مشهورة، ابتدأت أولاً بالمعاهدات التجارية بين الدول الأوروبية والأمم الآسيوية كما حدث في الهند. ويتضح تصادم الثقافات جلياً ناصعاً في الحركة التي بدأت تشتد في أوائل القرن العشرين، فهي في الواقع ثورة واسعة ضد الحضارة الأوروبية، ونظمها الاستعمارية.

أما استعمار أفريقيا فقد ابتدأ عام -١٨٨٠- وكانت الدوافع اقتصادية من غير شك. وكان الرحالة الاوروبي أو الوكيل التجاري، لشركة من الشركات يذهب إلى أواسط أفريقيا ومعه ألوان من الهدايا

والمنح التي يقدمها للأمير الإفريقي ثم يطلب منه إمضاء معاهدة مع الشركات التجارية لا يفهم لغتها، ويفهم أن هذه المعاهدة ستدر على شخصه وبلاده الرخاء والثروة. وتم استعمار معظم بلدان إفريقيا الوسطى على هذه الطريقة الخادعة.

فاستانلي حين قام بالنيابة عن ملك البلجيك بإمضاء مثل تلك المعاهدة أصبحت الكونغو مستعمرة بلجيكية. وبهذه الطريقة استولت إنجلترا وفرنسا على مستعمرات في أواسط إفريقيا. ولما نشب النزاع بين الدول الأوروبية على تحديد أراضي مستعمراتها اتفقوا فيما بينهم على أن كل من أمضى معاهدة مع أمير من أمراء أفريقيا على جزء من الشاطىء الإفريقي من حقه الأرض الموازية لذلك الشاطىء في داخل القارة الإفريقية.

ويقول: «إن الطريقة التي اتبعت في الاستيلاء على تلك الأراضي الأفريقية كانت في معظم الحالات وحشية موغلة في الوحشية، وأن تلك الطرق المبتذلة قد تركت من غير شك أثرها السيء في العلاقة الراهنة بين سكان أفريقيا وأوروبا. فإن تلك السبل الدنيئة إن دلت على شيء فهي تدل على أن الحضارة الأوروبية تعامل الرجل الإفريقي مثل معاملتها لأي حيوان أبكم. ذلك لأن الرجل الأوروبي يعتقد أن له الحق في الإستيلاء على أرض الأفريقي بالقوة والخداع»[1].

ومن الحق أن يقال: إن الاستعمار أعطى الحضارة طابع الغدر، وأبعدها عن الطابع الإنساني الذي عرفته الحضارة الإسلامية في انتشارها، فضلاً عن أن الحضارة الغربية لم تنقل إلى العالم إلا الجوانب البراقة والاستهلاكية والخاصة بالترف والمتعة المادية. بينما حجزت عن هذه الأمم والشعوب عوامل القوة، وحالت بينها وبين الوصول إلى مقدرات العلم والاختراع والتكنولوجيا، ومنعتهم من إقامة أسباب الصناعة أو

---

(١) من ملخص لكتاب ليونارد ولف (الاستعمار والحضارة) لمعاوية نور (المقتطف ابريل ١٩٣٤).

القوة العسكرية في أرضها لتجعلها دائماً ضعيفة في حاجة إلى حمايتها، وتجعلها دائماً أسواق إنتاج، وأرض خامات، وشعوباً استهلاكية.

وبذلك ينفرد الغرب والجنس الأبيض وحده بأسرار الصناعات والاختراعات وأدوات الإنتاج والصناعات الثقيلة وأسباب القوة العسكرية والصواريخ والذرة. وقد قام ذلك على مخطط استعماري دقيق هو أن يظل العالم مقسوماً إلى قسمين:

الأول: صناع الحضارة وهم دهاقنة الاستعمار في نفس الوقت الذي يظلون دوماً السادة.

الثاني: هي شعوب آسيا وأفريقيا التي تظل دائماً أرض الاستعباد ومصادر الثروة التي يمتصها الاستعمار لبناء الحضارة.

إثارة العصبيات والقبليات والإقليميات، والفرق المذهبية والعنصرية القديمة، والانتقاص من القيم الأساسية للثقافة العربية والفكر الإسلامي، والحملة على الإسلام واللغة العربية والتاريخ. والهدف هو تحويل الثقافة العربية عن قاعدتها وقيمها، رغبة في ابقاء هذه الأمة في موضع الضعف والتخلف، كيانـاً مستعبداً، خاضعاً للاستغلال البشري والاقتصاد يدور في فلك التبعية للفكر الغربي والثقافات الاستعمارية.

ومن هنا كانت الدعوة إلى تحرير الثقافة العربية من الغزو الثقافي، ومن آثار الوثنيات والشعوبيات والتغريب بالتماس قيمها الأساسية ومفاهيمها الأصيلة التي لا حياة للمسلمين والعرب، ولا نهضة ولا قيام لهم إلا بها.

ومن حق أن يقال إن الثقافة العربية كانت دائماً قادرة على مقاومة تذويبها في كيان الفكر الغربي، ولم تزل قادرة.

## ٦ ـ أزمة الحضارة الغربية

هل نحن بمقاييس الثقافة العربية، نرى أن الحضارة الغربية المعاصرة صالحة لنا؟.

وهل هذه الحضارة اليوم في دور العطاء حتى تبهر النفوس، وتستولي على العقول، وتثير الإعجاب في نفوس أصحاب الثقافة العربية، والحضارة الإسلامية العربية؟.

وهل هي حقاً أعطت، وما تزال تعطي غير الظواهر المادية والاستهلاكية والترفيهية؟ وهل استطاعت أن تعطي أهلها مفهوم الطمأنينة النفسية الذي بحث عنه الفلاسفة، وتطلعوا إليه في مختلف نماذجهم من «المدن الفاضلة» التي حاولوا فيها تصوير المجتمع الأفضل والأمثل؟.

الحق أننا قبل أن نجيب على كل هذه الأسئلة، لنصل إلى رأي الثقافة العربية في الحضارة الغربية المعاصرة يجب علينا أن نستعرض آراء عمالقة المفكرين الغربيين أنفسهم في حضارتهم «لنكشف عن أزمة الحضارة».

هذه الأزمة التي تتلخص في مدى الإغراق الذي وصلت إليه الحضارة من جوانبها المادية، بينما بقيت جوانبها العقلية والنفسية متخلفة مما احدث بها ذلك الصراع العجيب الذي يدفعها إلى الهاوية بخطى وئيدة. فالذين يتنبأون بأنها في طريق التحلل والزوال يرجعون ذلك إلى ما اشتملت عليه من ألوان التناقض، وضروب التعارض مع القوانين الإنسانية، ومن أن ثقافتها لم تعد ثقافة حضارة، بل استحالت بتأثير الاستعمار والعنصرية إلى ثقافة إمبراطورية.

(١) ـ ويقول فون باين السياسي الألماني في مذكراته:

نحن الآن على حافة الهاوية، ذلك لأننا تقدمنا في العلم حتى صرنا عبيد العلم. وتقدمنا في الاختراع، وتمادينا في استخدام الآلة إلى أن

حكمتنا الآلة. ولم يبق إلا بارقة أمل ضعيفة، لا أظن أننا سنهتدي إليها. هذا الأمل الوحيد في النجاة، هو أن نؤمن بأن هذا الكون له خالق، وأن هذا الخالق قد وضع له قوانين، وما على الإنسان إلا أن يسير طبقاً لهذه القوانين، فإن فعلنا ذلك تحررنا من العبودية، واستطعنا نحن أن نحكم العلم والاختراع.

(٢) - يقول أرنولد توينبي: نحن البشر بكل تقدمنا العقلي، وقدراتنا الفنية نبدو وكأننا قد ورثنا نفس العناصر الحيوانية والآلية التي كان يملكها أجدادنا البدائيون دون أن يطرأ عليها تغيير مذكور، فلم تستطع القوة الآلية للعلم بكل ما أتت به من أعاجيب أن تقضي على شهواتنا الحيوانية، ومكنتنا عن طريق الكهرباء والقوة الإشعاعية أن نخترق الأركان المظلمة للطبيعة المحيطة بنا، ولكن الظلام ما زال يخيم على كياننا الداخلي، فنحن نتحكم في قوى الطبيعة، ولكن طبيعتنا الحيوانية تتحكم فينا.

(٣) - تقول الكاتبة الفرنسية مدام سنت بوانت:

إنني أتهم المدنية الغربية بأنها قصرت عن القيام بالمهمة التي تزعم أنها ألقيت على عاتقها في الأجيال الأخيرة، أعني المهمة التي ترمي إلى نشر تعاليم الإنسانية وتعميمها على وجه الأرض، وتؤدي إلى الاتحاد. ويمكن للإنسان أن يعبر عن هذه المهمة العظيمة بوسيلتين لا غير، وهما: وسيلة حب الذات، ووسيلة حب الخير. أما الغرب فإنه لم يقع اختياره إلا على الوسيلة الأولى - وسيلة الأنانية وحب الذات - وكان اختياره لها جريمة، وكان ذلك سبب ضياعه، واضمحلال نفوذه، لأن الوسيلة التي لجأ إليها قذرة ملعونة. إن الأنانية تقضي على الخير وتلتهم كل بر.

لقد أراد الغرب أن يوحد العالم، ولكن تحت سلطانه ولمصلحته، والعالم لا يساس إلا بالعدل وبالحب والإخاء، وبرد الحقوق لأهلها. ولكن الغرب لجأ إلى القوة الغاشمة. نعم لقد اعتمد على القوة وحدها، وتعدى حدود الله، وعبث بالشرائع الدينية، وخالف تعاليم المسيح عيسى

عليه السلام الذي أمر بمحبة الناس أجمعين.

لقد أضاء الشرق دياجير أوروبا بنور تعاليمه، وما هذه العلوم التي يفخر بها الغرب إلا من علوم الشرق.

ليس الذي يحجب النور عن الأنظار هو مدنية الشرق القديم، بل الوحشية الغربية ودين القوة، وحب الذات والأنانية التي يعمل بها الغرب. إن الغرب يجرم وقد اختار الرذيلة على الفضيلة، وإنه بالتجائه إلى الوسائل التي لا تقرها الإنسانية قد أثبت أن مدنيته أفلست.

(٤) - يقول الفيلسوف جود: إن الداء الذي أصاب مدنيتنا ناشيء عن الهوة الفاصلة بين قوتنا وحكمتنا، ولتخطي هذه الهوة وسيلتان. أولاهما: وقف تقدم العلوم الطبيعية التي تزيد قوة الإنسان، وتوجيه العناية إلى العلوم النفسية التي تصلح من روحه. والوسيلة الثانية هي جمع شتات العالم كله، ولا سبيل إلى سد هذه الثغرة إلا بإحياء هذه القيم الأخلاقية العليا، وليس ثمة وسيلة إلى إحياء هذه القيم إلا بإحياء العقيدة الدينية في النفوس.

(٥) - يقول شفايستر: إن أوروبا صرفت اهتمامها إلى «معرفة» العالم إلى العلوم والتطبيقات العلمية لمختلف الأفكار التي تنهيها التجارب والأحداث إلى الذهن البشري، وليس في هذه جميعاً ما يحتم أفضلية سلوك على سلوك، أو يقرر الأخذ بفضيلة دون مراعاة النفع الذي ينجم عنها، وما من أخلاق يمكن اكتسابها عن طريقة معرفة العالم.

(٦) - يقول بول هازار في كتابه: «ازمة الضمير الأوروبي» خيل إلى الناس أنه لا شك في وصولهم المقرر بفضل العلم إلى السعادة، وأن الإنسان قد ينظم هذا العالم المهزوم في سبيل راحته ومجده.

(٧) - يقول الدوس هكسلي: إن العالم الآن يشبه قبيلة تعبد الشيطان، وتعيش في ظل قوانين جديدة قائمة على الشر والحقد، والمادية

البحتة التي تجرد الإنسان من كل مشاعر الإنسان بلا حب ولا تعاطف، وإنها تتبادل الاتصال الجنسي على نحو ما تفعل السائمة. إن العالم يمارس الحياة بطريقة غريزية لا تقوم على منطق أو تفكير. وإن المجتمع الذي أخذ يتحلل من قيود الزواج، ولم يعترف بالأمومة، إنما يستهلك مائة سنة في خمسين سنة بالعقاقير والاجتهاد العصبي، والخروج عن الطبيعة، وخاصة من يكبت انفعالاته، ويتظاهر بالكذب والنفاق.

إن أزمة الإنسان متعددة الجوانب، فهي أزمة ناجمة من المفاهيم الخاطئة، والوعي الناقص. إن الخيبة والخراب إنما ترد إلى تمرد الناس على حياة الروح، واندفاعهم وراء المادة وقصر جهودهم على الربح والشهوات وإعراضهم عن المثل العليا[1].

( ٨ ) - ويكشف دكتور ماري المير بارتس مواطن النقص في الحضارة المعاصرة فيقول:

لم يحدث في عصر سابق مثل هذا التوتر الذي يشهده اليوم بين الفن الصناعي والنظم الاجتماعية. لدينا علوم جديدة. حضارتنا المادية متشعبة متعددة النواحي، وذات كفاية ترتفع كثيراً عن مستوى مثيلاتها في العصور السابقة. وعلى عكس هذا فإن أنظمتنا وأوضاعنا العقلية وتفكيرنا الاجتماعي (وهي التي نحاول بها جميعاً) أن نسيطر على الحضارة المادية والانتفاع بها، إنما هي عبارة عن مركب عتيق مما ظفرت به الإنسانية منذ العصر الحجري حتى مطلع القرن الثامن عشر. ويتمثل أهم سبب لانهيار حضارتنا في النمو العظيم الذي ما كان يخطر بالخيال

---

( ١ ) يرى هكسلي أن فساد العالم يتركز في الاتجاه الحاث على الاستمتاع. وقد شاع هذا الاتجاه في أقوال المؤلفين والشعراء والخطباء والممثلين داعياً إلى التمادي في سبيل الدعاية للحياة المستهترة والإباحية. وقد بالغوا في مدح الحرية والتوسع فيها حتى أصبحت مرذولة مبغوضة كالسهم الذي ينقلب داء بعد أن كان دواء. ويرى هكسلي أن المثل العليا حقائق زاهية لا شك فيها، لأنها ضرورية للعالم، وهي الوسيلة للقضاء على الفلسفة المادية التي أعجب بها هواة الملذات والباحثون عن مسرات الحياة بأنواعها. وأن النفوس البشرية لتضيع في سبيل هذه الملذات، وتفقد الثقة بالفضائل. وقد أجمعت أرقى العقول في سائر الأزمنة والأمكنة على أن غاية الإنسانية هي السلام والمحبة والعدل. ومن المحبة الأخوية نشأت فكرة الوطنية وهي فكرة إذا لم تفهم على حقيقتها جلبت الشقاء على جميع الأوطان.

للعلوم والفنون في العصر الحاضر من ناحية، وفي قصور نظم حياتنا وتفكيرنا الاجتماعي من الناحية الأخرى.

إن الفجوة الآخذة في الاتساع بين العلوم والفنون الديناميكية من ناحية، وبين أنظمتنا وتفكيرنا الاجتماعي من ناحية أخرى هي المظهر الأهم الفاصل لما نسميه التأخر الحضاري. والحرب اليوم أشد خطر يهدد الحضارة، وهي منافية تماماً لقواعد الأخلاق.

(٩) - اعترف تشارلز فرنكل (رئيس دائرة الفلسفة في جامعة كولومبيا) بأن الإنسان الجديد يمر بأزمة عنيفة وأن المجتمع الغربي حافل هذه الأيام بالمشكلات الاجتماعية والأخلاقية على الرغم من بحبوحة العيش التي يتمتع بها.

والسؤال عنده هو: هل ترجع المعضلة الحضارية إلى طبيعة الحضارة ذاتها، أم إلى فساد القيم والمثل التي ترافقها؟ ويقول: إن الأزمة هي انقطاع الاتزان بين ما يخلق الإنسان وبين الأهداف المثلى التي يترتب على البشر التزامها فيما وراء الاختراعات العظمى، والكشوف الجبارة. هذه الأزمة هي أزمة خوف وحيرة وقلق وهلع. إنها أزمة انخلاع القلب والعقل، والخوف من الموت بالذرة.

وهذا هو تمزق وجود الإنسان في المجتمع الحديث، ويمثل أكبر تحدي يواجه الحضارة. لقد نجح الإنسان في التغلب على الطبيعة وتسخيرها عارية عن طريق العلم والصناعة، فأخذته عزة الخلق، وكبرياء الإبداع، ونمت قدرته على حساب إيمانه وأصيبت القيم الدينية والأخلاقية بالجمود والتخاذل.

(١٠) - ويعرض (جاتيان بيكون) في بحثه عن انهيار القيم وأزمة الحضارة فيقول: منذ السنوات الأخيرة من القرن التاسع عشر أخذ التطور الذي طرأ على أوضاع الحياة والفكر يتزايد حتى بلغ من شدته أنه اليوم يوحي إلينا بتحول حقيقي، لا مفر لنا إزاءه من إعادة النظر في

جملة المبادىء التي توجه الوجود الإنساني، والتي بالقياس إليها تصدر الأحكام على أفعالنا. وقد أصيب من جراء هذا التحول ما نسميه بالفلسفة الإنسانية والأخلاق والحضارة والثقافة. أي تلك القيم التي تضبط تصرفاتنا، وتخلع على سلوكنا صفات معينة.

لقد جلب لنا التراث اليوناني اللاتيني فيما وراء الثقافة مغزى أخلاقياً هو: الشعور بتفوق الإنسان على كل ما في الكون وبامتياز ذاتي يتمثل في عقل الإنسان وإرادته وذكائه المجرد. أي في كل ما يتيح له الإفلات من الغرائز ومن حتمية الطبيعة.

والإنسان في نظر الفلسفة الإنسانية يثبت امتيازه بانفصاله عن الطبيعة وسيطرته عليها. فإن الخلق المسيحي يصبو إلى الوصول إلى حالة التزهد والنسك التي تنطوي على إنكار الغريزة وجميع القوى البيولوجية، ولا سيما الجنس. ومنذ القرن الثامن عشر فقد الإيمان المسيحي مكانه في بعض القلوب.

وقال الملحدون من أتباع المذهب العقلي في القرن التاسع عشر بإمكان وجود أخلاق لا علاقة لها بالدين، ولأسباب شتى وجدت هذه القيم منذ أواخر القرن التاسع عشر، مهددة وتزعزعت، ثم ما لبثت أن تقوضت.

وقد فرضت العلوم الطبيعية علينا نظرة الحتمية، ودعتنا إلى الشك في حقيقة الشعور بالحرية والمسؤولية، وهما دعامة الأخلاق التقليدية. وتوصل فرويد إلى الجنس، وقال: إن قوى غير خلقية تسيطر على الإنسان. ورأى ماركس في قيم الفردية والحرية والعدالة التي وضعتها البرجوازية مصالح رأسمالية مقنعة. وبعد نظام خلقي قائم على التقشف جاء مذهب ينادي بالحرية الفردية، وبالتطور وبتحقيق كلي للذات.

(١١) ـ ويقول ليوبولد فابس: إن الرجل العادي في أوروبا: ديمقراطياً، فاشياً، رأسمالياً، إشتراكياً، مفكراً، عاملاً، إنما يعرف ديناً

واحداً هو عبادة الرقي المادي، والاعتقاد بأنه لا غاية في الحياة غير أن يجعلها الإنسان أسهل. وكنائس هذا الدين هي المصانع الضخمة، ودور السينما، ودور الرقص. وكهنتها هم رؤساء المصارف، والمهندسون، والممثلات، وكواكب السينما، وأقطاب التجارة والصناعة.

إن الحضارة الغربية لا تجحد الله في شدة وصراحة، ولكن ليس في نظامها الفكري موضع لله في الحقيقة، ولا تعرف له فائدة، ولا تشعر له بحاجة.

(١٢) - ويقول برتراند رسل: إن عناصر الحياة ثلاثة: الغريزة والعقل والروح، وإن الحضارة الحديثة قد اهتمت بالعنصرين الأولين، وهما الغريزة والعقل، ولكنها لم تهتم مطلقاً بالروح. إن العقل يرينا أنه من الخير أن نفعل كذا، ولكن عنصر الروح وحده هو الذي يمكننا من أن نشعر شعوراً إنسانياً عاطفياً، وأن نحس إحساس الآخرين. فالغريزة والعقل لا يحلان المشكلة، ولا بد من انسجام العناصر الثلاثة: الغريزة والعقل والروح، وتنميتها تنمية قائمة على الانسجام حتى تسير الحضارة في طريقها السوي.

(١٣) - ويقول كارل باسيرز في كتابه «مستقبل الإنسانية» بدعتان طاغيتان من بدع العصر هي الماركسية والفرويدية في عالم محروم من الله. ظهر كارل ماركس نبياً، واتخذ القوالب التي يستطيع هذا العالم أن يقنع بها، وأن يهلل لها، وكان طبيعياً أن تسيطر على النفوس أساليب فرويد ومدرسته في منهج مهزوز مكدود، في عالمنا المقلوب. هذا قد أحس الناس بحاجة شديدة إلى التحرر. وجاء التحليل النفسي فزودهم بذلك الوهم، إننا بصدد عملية جبارة من عمليات الاستهواء الذاتي، الذي هو نتاج صادق، لهذا العصر المفتون، والذي يسير جنباً إلى جنب مع أساليب السحر والتعاويذ التي استولت على عقول الناس.

ومن الموجودات ما لا تبلغه المعرفة العلمية. ثم إن العلم لا يفسر لنا

القيم، إذا فرضنا أن العلم لا يستطيع أن يفسر لنا الكون كله، **فهناك** أشياء لا يمكن أن تفسر: هي شخص العالم نفسه.

( ١٤ ) - ويرى البرت اشفيتسر في كتابه «فلسفة الحضارة» أن السبب في انحلال الحضارة هو سبب أخلاقي لأن الحضارة تنهار إذا أعوزها العامل الأخلاقي حتى حيثما تكون العناصر الخلاقة الأخرى من الحضارة مزدهرة ناشطة. وازدهار الحضارة تصحبه دائماً آداب توقير الحياة. ونظرة شاملة إلى الكون تبرر هذا الاتجاه الأخلاقي، وتعمل على الأخذ به في النظم الاجتماعية وسلوك الأفراد وتفكيرهم. وفي الأزمنة التي سادت فيها هذه النظرة إلى الكون مصحوبة بهذا الاتجاه الأخلاقي ازدهرت الحضارة ونمت.

واليوم أصبحت وجهة النظر الأخلاقية للكون مسلوبة القوة، ولذلك أخذ العالم يتخبط في الظلام الدامس. ومن العوامل التي آزرت الانحلال وزادت من خطورته موقف الإنسان الاقتصادي، فإنسان العصر الحاضر مرهق بالعمل، وهذا الإرهاق يحول بينه وبين القدرة على التأمل وحصر الذهن في التفكير.

إن مشكلة الحضارة مشكلة أخلاقية. إن الإنسان لن تكون له قيمة حقيقية بوصفه شخصية إنسانية إلا من خلال كفاحه، ليكون ذا خلق، وخلال حسنة، وإذا أعوز الأساس الأخلاقي تداعت الحضارة.

ولن تستطيع البشرية المشاركة في التمتع بخيرات الرقي المادي ما لم تكن في الوقت ذاته متطلعة نحو غايات أخلاقية يتقي بها الإنسان شر الأخطار التي تقترن بالرقي المادي. إن طبيعة فلسفة الحياة التي تعتمد على التوفيق بين التقدم المادي والرقي الأخلاقي في التأكيد الأخلاقي على معنى الحياة والكون.

والتقدم الأخلاقي هو جوهر الحضارة، حيث تتجه الإرادة الإنسانية نحو الخير المادي والروحي، للأفراد والمجاميع التي تضم هؤلاء الأفراد،

والخير للجزء والكل بمعنى أن تكون أعمالهم أخلاقية. أما التقدم المادي فلا يعد الجوهر الخالص للحضارة، إذ يحتمل الشر والخير على السواء.

وتتمثل الأخلاق عنده في إعلاء كل ما هو روحي أو متصل بالسلوك الخيّر للإنسان.

(١٥) ـ ويقول: (أوزفالد اشبنجلر) في كتابه «أفول الغرب»: إن الحضارة دستور أخلاقي يتمثل في العقيدة، وقوة النفس، وتلازمه بساطة الظواهر. وإن الدستور الحضاري لا يعتمد العقل أبداً، ولكنه يعتمد على الوجدان. هذا الوجدان المتمثل في الشعور لا الحس.

والعقلانية في شتى مذاهبها هي فلسفة مدنية لا حضارية. لذلك عندما تدخل الحضارة الطور العقلاني من تطورها، تبلغ خريف عمرها، وتهوي إلى درك المدنية، ثم تتابع انحدارها إلى الانحلال.

إن الحضارة الغربية مشرفة على عهد انحطاط وتدهور وفناء.

ويبدأ عهد الاضمحلال عندما يختفي الإلهام الجياش القوي في الأدب والفن. والفلسفة الوحيدة التي يفهمها الناس في هذه الظروف هي فلسفة: كل واشرب، فإنك ميت في الغد.

والمدنية الغربية يشع منها اليوم الاضطراب والقلق في نفوس أبنائها. وقد أخذت تنقل القلق والاضطراب إلى الشرق.

(٢)

ويرى «جود» في بحث عن انحطاط الحضارة: إن سم الانحطاط هو خطأ الإنسان في فهم حقيقة مكانته في الكون، وإقامة مستقبله على دعائم هذا الخطأ. ومصدر هذا الخطأ هو مقصد الإنسان في الاعتراف بوجود العنصر غير الإنساني ولا الطبيعي. هذا العنصر هو عالم القيم الذي لا يملك الإنسان سوى الخضوع له، والاعتماد عليه. وسبب انحطاط العصر في رأي جود هو: إنكاره هذا العالم، وتأبيه عليه، وإسقاطه

«عالم القيم الذي يشمل قيم الخير والحق والجمال».

فالعالم اليوم يفرط في الذاتية. والإسراف في الذاتية مدعاة إلى الشك في عالم القيم، بل وتدرجه إلى إنكارها إنكاراً تاماً، ومتى أنكرنا عالم القيم اختلت موازيننا، وأصبحنا في ليل من الشك مظلم.

ويرى ماكس نوردو في كتابه «الانحطاط»: إن أهم أعراض هذا العراء النفسي هو عدم الشعور بفروض الآداب، فالمصابون به لا يعرفون ما يسميه الناس قانون الحشمة واللياقة، فتراهم لأقل باعث من شهوة أو هوى يقترفون الإثم والجريمة.

ويقول: ولا يتحتم أن يكون المصاب بداء الانحطاط خلواً من النبوغ والعبقرية. وعنده أن منشأ هذا الداء (الانحطاط) هو ضعف الأعصاب وانتهاك القوى، وهما نتيجة لسببين رئيسيين: أولهما: الانهماك في الشهوات والملذات. وثانيهما: ما كابدته أوروبا في القرن السالف، وما تكابده الآن من الثورات والحروب. وإن تفشي الغلظة والوحشية في الشعوب عقب الحروب قد أصبح من البديهيات التي لا تحتاج إلى دليل. وقد عرف الناس أن الشعوب المتحاربة تخرج من الحرب أسوأ أخلاقاً، وأخشن طباعاً مما كانت عليه.

ولما كان هذا الداء (الانحطاط) شاملاً لم يخل منه فريق من المفكرين والكتاب والشعراء والمصورين والموسيقيين، فقد خرج جانب عظيم من مؤلفات الأجيال الحاضرة بعاهات هذا الداء ومشوهاته ومقاذره، وهو على ذلك الروح من الكتب السليمة النقية القيمة. وقامت الجماهير المصابة العليلة، فأجلست على أريكة دولة الآداب والفنون رجال أدهشوا القراء ببدائع الخيال وروائعه، ولكنهم أصفار من الآراء الناضجة، والأفكار المنتجة الخصبة، مجردون من المبادىء القويمة والمذاهب السليمة، منحرفون عن سنن الحق والمنطق والطهر والفضيلة، يشحنون مؤلفاتهم بأصناف الباطل والخرافات والخزعبلات ويصمونها فوق ذلك بأفانين الفسق والفجور والإثم، والرذيلة. والجماهير الحمقى

السخيفة تسميهم قادة الدنيا وأعلام الهدى، ومصابيح المستقبل، وما هم إلا فئة من المرضى المصابين، ولولا مزية الخيال القوي والأسلوب الرائع لكان المستشفى أولى بهم من غرفة الكاتب والمؤلف. ويصف (ماكس نوردو) وجه أوروبا في أواخر الحرب العالمية الأولى (١٩١٨) ويتنبأ بما تصل إليه من بعد فيقول: إن أوروبا قائمة في حومة داء ذهني قتال، أدنى إلى حومة موت أسود من الانحطاط فلا جرم إذا تساءلنا ماذا يكون بعد ذلك، إذا كان هذا الداء لم يبلغ بعد أقصاه، وأنه سيزداد شدة وعمقاً واتساعاً. فلا بد أن يأتي زمن تفتح فيه الظواهر المقصورة اليوم على سكان مستشفيات المجاذيب فقط. فقد شاعت في المجتمع الأوروبي، وصارت من أحواله وصفاته العادية، وإذ ذاك نرى الحياة وقد أخذت الصورة الآتية أو نحوها.

* بدلا من الحانات تنشأ أماكن لتعاطي الأثير والكحول والأفيون، ويزداد عدد المصابين بفساد حاستي الذوق والشم.

* تؤسس أندية الانتحار في كل مدينة، وإلى جانبها تقام أندية التذابح. أي قتل الأعضاء عن اتفاق وتراض.

* تفسد العلاقة الجنسية بين الذكور والإناث فساداً يستدعي تغيير النواميس المشروعة، والعادات المألوفة ملاءمة للحالة المستجدة، فترى المخنثين الذين يصبحون يومئذ السواد الأعظم من الناس، يلبسون أزياء نسائية لوناً وتفصيلاً. أما النساء فلا يستطعن إذ ذاك إرضاء الرجال إلا إذا لبسن أزياء رجالية، أحذية طويلة غليظة بمهاميز ونظارات على أعينهن، وعصى وسياط في أيديهن، وسيجار طويل في أفواههن.

وتشرع القوانين القاضية بتزويج الرجل بالرجل، وإباحة مواطأة الأخوات والأمهات، ومواطأة الحيوانات. وبذلك يصبح العفاف والتقى من خرافات الماضي، ويعد الشغف بسفك الدماء مرضاً بسيطاً، ويشتد ضعف العقل، وينسلخ الناس عن الأديان المعروفة، ويتكون عدد عظيم

من الشيع الروحانية والسحرة، وتشتد مبالغة الشعراء والمصورين في تعميم أغراضهم وإخفاء مقاصدهم، واستعمال الرموز الغامضة والكنايات المبهمة بدلا من الجمل الواضحة، والعبارات الصريحة.

ونرى العالم المتمدن قد استحال إلى ساحة مكتظة بالمرضى، يملأون الجو بعويلهم المؤلم، ويتلوون متأثرين بجميع صنوف الأوجاع[1].

ويقول هذا الفساد للفطرة الإنسانية، هذا الهرب الوقتي من وجه الواقع، قد زاد عدد المنتحرين يوماً بعد يوم على نسبة ما يستهلك من الخمر، ومن المواد المخدرة الأخرى في كل مكان.

ويشكو الناس اليوم من ضياع الأخلاق، فهل يسمح الإلحاد بها وقد زال الإيمان من القلوب، وزالت معه المبادىء الصالحة. الإلحاد نفسه قد أصبح مرضاً شائعاً ليس في حقيقته إلا وجهاً من وجود عدم الارتياح في كل ما هو موجود. فالقول بأن كل شيء باطل، وبأن ليس في الوجود شيء جدير بالطلب ولا بالمحاولة. ويعتبر ناقصاً. ا. هـ.

* * *

ويرى أرنولد توينبي: أن الحضارة الغربية تعاني اليوم أحد الأزمات، فهي حضارة علمانية لاحقة بالمسيحية تعيش على بقايا مختلفة من المبادىء المسيحية المشوهة، وهي فوق ذلك مأخوذة ببدعة تقديس الفرد بفكرة الإنسان الجماعي بحده في أنظمة الدول الفاشية والنازية والشيوعية والقومية الإقليمية. وقد حسب هيجل أزمة العالم سياسية، فحاول حلها بالدعوة إلى تحقيق الدولة المثلى. واعتقد ماركس أنها أزمة اقتصادية، فحاول حلها بالدعوة إلى تحقيق النظام الاشتراكي. أما توينبي فعنده أن الأزمة روحية.

ويرى توينبي أن الحضارة الغربية المتدهورة لا يمكن إنقاذها إلا

---

(١) «ماكس نوردو» متنبىء من أكبر قادة الماسونية الصهيونية.

بالدين، ذلك لأنها مصابة بالخواء الروحي الذي يحول الإنسان إلى قزم مشوه يفتقد عناصر وجوده الإنسانية، ويعيش الحد الأدنى من حياته، وهو حد وجوده المادي فحسب، مما يصيبه بأمراض السأم والروتينية، وفقدان الهدف من كل ما يأتي به، ويحول حياته إلى جحيم مشوب بالقلق والحيرة الذهنية، والتمزق النفسي، خواء روحي، يحول المجتمع إلى قطيع يركض بلا هدف كما يركض القطعان، دونما تفحص لمعنى مسيرته الهوجاء. كما يضطر المدركون أحياناً إلى إعلان انشقاقهم (لانتمائهم إليه) وبذل جهود الحياة من أجل الوصول إلى النظام والهدف اللذين يخلصانهم من المأساة ويقول: لم تعن الحضارة مطلقاً بالإنسان وحضارته من حيث تكامل وجودهما بشقيه الروحي والمادي.

والأزمة في نظر توينبي «أزمة روحية» والإنسان بما هو فعل وحرية مسؤولية وإيمان ومحبة، وبما هو جوهر إنسانيته. تلك الطائفة الروحية الخلاقة القادرة أن تولد وأن تسخر بالتالي جميع ما يتعلق بها من النشاطات العقلية والمادية في سبيل تحقيق الغاية المثلى من وجودها.

ولذلك يلح توينبي على الإنسان ويبصره ويدله على طريق الحق والحياة وطريق الله ليسلكها ويرتقي عبر القلق، وعبر التناقض إلى الغاية من وجوده ومن وجود العالم معه.

* * *

ويرى سوركن في كتابه (أزمة عصرنا) أن كل مظهر من مظاهر الثقافة الغربية يعاني أزمة حادة غير مألوفة، وأن الثقافة الغربية مريضة معتلة سقيمة الجسم والروح، ويرى أن الثقافة الحسية التي نعيشها اليوم قد غربت، وأن الثقافة الغربية الآن تضرب في الظلام حتى تصدع فجر الثقافة الروحية، فتملأ أضواء الآفاق. وفي الظلام تلم بالإنسان الأحلام المزعجة، وتداني له الأشباح الرهيبة، ولكن متى طوي الظلام زالت المخاوف واطمأنت النفوس. وعنده أن الأزمة ليست أزمة وضع أو

نظام اقتصادي أو سياسي فاسد، وإنما هي تشمل حياة الغرب من جميع أقطاره، فهي أزمة في الفن والعلم والأدب والفلسفة والدين والقانون والاقتصاد والسياسة والاجتماع. وهي أزمة تغلغت في كل ناحية، ومشت في جميع نواحي الحياة. وهي اليوم تنقض كل ما أبرمته الثقافة التي عاشت وازدهرت خلال أربعة قرون.

وهو يرى أن كل ثقافة هي جماع تام موحد له طابعها وشخصيتها وملامحها، ولها قيمها الخاصة ومعابدها، ولها ديانتها وفلسفتها وعلمها وفنها وقوانينها وآدابها. فإذا طرأ عليها تغيير شمل هذه النواحي جميعاً.

فالثقافة الغربية في العصور الوسطى كانت فكرة الاعتقاد بالله هي الغالبة عليها المستأثرة بها، ففنها المعماري ونحتها وتصويرها كان يعبر عن فكرتها الدينية. وكانت فلسفتها متمشية مع الفكرة الدينية ملائمة لها. وكان علمها خاضعاً لفكرة الله مؤيداً لها دائراً حولها. وكانت أخلاقياتها وقوانينها وآدابها متأثرة بالوصايا المسيحية الأخلاقية. وكان نظام الأسرة خاضعاً للنظم الدينية، فالزواج رباط مقدس لا تنفصم عروته. وحتى تنظيمها الاقتصادي كان متأثراً بوجهة النظر الدينية. وكانت أساليب الحياة على اختلاف أنواعها ترمي إلى تأكيد الصلة بين الله والإنسان، وتجعلها أسمى الأهداف، وغاية الغايات ومعقد آمال الإنسانية في الخلاص والنجاة.

وعنده أن ثقافة العصور الوسطى كانت ثقافة موحدة، ولم تكن خليطاً من الثقافات المختلفة، وكانت تسيطر عليها الفكرة الدينية، وكان (الله) في رأي هذه الثقافة هو الحقيقة والفكرة الصادقة، وما عداها باطل زائل. وهذه هي الثقافة الروحية.

وقد أدت هذه الثقافة مهمتها، وبلغت رسالتها، واستنفذت قوتها، وبدأت تنتابها بوادر الضعف في القرن الثاني عشر الميلادي (السادس الهجري) وبدأت جذور جديدة في النمو والاستطالة كانت تختلف عن

الثقافة القديمة اختلافاً شديداً.

فالحقيقة الكبرى في نظر هذه الحضارة هي: الحس والعالم المنظور، فما نراه وما نسمعه وما نشمه وما نلمسه وما نتذوقه هو الحقيقي. والواقع لا حقيقة وراء ذلك، وكل ما تجاوز الحس لا قيمة له. فإذا فرض أن وراء الحس شيء فلا قيمة له، ولا سبيل إلى إدراكه، فكأنه بالقياس إلينا غير موجود، ويمكن إهماله، وعدم التعويل عليه. وكان هذا هو المبدأ المغاير للمبدأ السابق. ولم تقف الحركة، واستمر الجانب الثقافي الروحاني في الانهيار، وألح عليه الضعف في حين أن الجانب الحسي أخذ يقوى ويستحصد حتى تمت له الغلبة وخلا له الجو. وساد في القرون التالية، وبدأ سلطانه التام في القرن السادس عشر، وبلغ الذروة في القرنين: ١٨ و ١٩ - ويسمي سوركن هذه الثقافة بالثقافة الحسية الخالصة، لأنها تقوم على الاعتقاد بالحس وحده، ولا تؤمن بغير الواقع المحسوس، فهي حسية تجريبية أرضية دنيوية، ويبدو الإيمان بالواقع الملموس في كل ناحية من نواحيها: في الفلسفة والدين والأخلاق والقانون والاقتصاد والسياسة.

فأزمة الثقافة الراهنة في رأي سوركن سببها انحلال الثقافة الغربية الحسية الخالصة. وقد سادت هذه الثقافة قروناً عدة، وفرضت نفسها على كل ناحية من نواحي الحياة حينما يدركها الخلل يسري الداء إلى مختلف أجزائها، وتشيع الفوضى بنواحيها المختلفة.

فليست الأزمة الراهنة أزمة أوضاع وصور وأشكال، وإنما هي انهيار عام، وتحلل شامل. هذه الأزمة هي أزمة انهيار الثقافة الحسية. وستخلفها ثقافة أخرى، ولكن هذا الدور هو دور الاضطراب الذي تنهار فيه الثقافة القديمة البالية، وفيه تشتعل الحروب والثورات والأزمات. كل هذه إرهاصات بالثقافة القادمة.

ويرى سوركن أن الانتقال من مرحلة ثقافية إلى مرحلة ثقافية

أخرى رغم ما فيه من الآلام والأحداث الجسام لا يستوجب فناء الحضارة، والاعتقاد بأنه سيتدركها الوفاة، ويطيح بها الموت، والأزمة الراهنة تكشف عن انحلال الصورة الحسية لثقافة المجتمع الغربي، وبدء مرحلة يطلق عليها المرحلة الحسية الروحية المختلطة Indealistic [١].

## (٣)

هذه الآراء إذا حللناها وجدنا أمامنا عدة حقائق هامة لا بد للثقافة العربية أن تضعها في اعتبارها في مواجهة الحضارة الغربية:

أولاً: الحضارة الغربية تعاني أزمة حادة بسبب نمو الجوانب المادية، وبطء نمو الجوانب الروحية، فقد نما جسم الحضارة، وتباطأ نمو عقلها، حتى اختل التوازن بين القوى الفاعلة والقوى المنفعلة، وهو ما يعبر عنه باختلال التوازن بين العقل والقلب.

ثانياً: انفصال الضمير عن العلم وتجريد العلم من الضمير.

ثالثاً: أزمة الحضارة تصدر عن سبب أخلاقي، فالحضارات لا تنهار إلا إذا فقدت العامل الأخلاقي حتى حينما تكون العناصر الخلاقة الأخرى من الحضارة مزدهرة ناشطة.

رابعاً: انحسار المسيحية وتقهقرها أمام هذه الوثنية الجديدة. فقد كانت تعاليم المسيحية الروحية والخلقية تخفف كثيراً مما عند الأوروبيين من ضراوة وشراسة. فقد شوهت الحضارة الكثير من معالم المسيحية، وعكست عليها وثنيتها القديمة، وغلبت عليها طبائعها الوحشية غير المصقولة.

---

(١) ما يراه سوركن واشبلنجر وماكس نوردو هو من تنبؤات بروتوكولات صهيون. أما بالنسبة لأزمة الحضارة فالعرض صحيح، وأما بالنسبة لأحلام الغد فالنصر للفكرة الإنسانية الأصيلة، ولن يكون النصر للحلم الصهيوني الماسوني أبداً.

خامساً: أولت الحضارة اللذائذ الحسية، والمنافع المادية المرتبة الأولى، وجعلت العقل خادماً لها، ووسيلة لريادتها. ولقد ارتقى العقل حتى اغتر بنفسه، وتمرد حتى خيل إليه أن الوجود الذي اكتشفه من صنعه هو.

سادساً: أصبحت غاية الفرد اللذة والمنفعة، وغايته الجماعية كثرة الإنتاج وزيادة المال.

سابعاً: التقهقر بالتوجيه والاتجاه نحو الوثنية، وانصراف الناس عن عبادة إله واحد إلى عبادة آلهة موضوعية كالطبقة الاجتماعية، أو الفرد أو الأمة.

ثامناً: كان لنظرية النسبية التي دخلت مجال العلم وتسربت إلى جميع حقول الفكر أثرها في انتقاء الحتمية العقائدية وزرع الشوك في كل مطلق.

تاسعاً: يرى الكثيرون أن أزمة العالم هي أخلاقية قبل كل شيء، وأن تجديد الفكر السياسي في أوروبا والعالم إنما يتحقق بإخضاع السياسة لمقتضيات الشرف والأخلاق والعدالة.

## ٧ - مقارنات بين الحضارتين

تكشف الحقائق الصريحة عن فوارق جوهرية بين مفهوم الحضارة في الثقافة العربية وتطبيقاتها في الحضارة الإسلامية، وبين مفهوم الحضارة في الفكر الغربي وتطبيقاتها في الحضارة المعاصرة.

أولاً: أبرز هذه المفاهيم: الارتباط بين العقل والروح في المفهوم الثقافي العربي، والحضارة الإسلامية والخلف بين العقل والروح في الفكر الغربي والحضارة المعاصرة.

ومن هنا يبدو الخلاف واضحاً في «أخلاقية الحضارة» التي تعنيها

الثقافة العربية والحضارة الإسلامية على نحو واضح صريح أكيد يكاد أن يكون قاسماً مشتركاً على الجوانب الفكرية والاجتماعية المختلفة.

فإذا تميزت الحضارة اليونانية بعبادة الجسد، والحضارة الرومانية بحلبات المبارزة الوحشية، والحضارة الهندية بنظام المنبوذين، وتخصيص بغايا لخدمة المعابد، والحضارة المصرية الفرعونية بعبادة فر ن، والحضارة الغربية بالإيمان بالتقدم والعصرية بديلاً عن الدين، فإ. ميزة الحضارة الإسلامية هي أخلاقية العلم، والمجتمع والسياسة والاقتصاد.

ومن هنا تبدو أزمة الحضارة المعاصرة واضحة وصريحة، وهي الحيرة الذهنية والروحية بعد أن كبرت عقد العالم وصغر عقله.

وليس هناك لذلك علاج بأن تطعم الحضارة الغربية نفسها بروحانية الشرق، كما دعا إلى ذلك بعض الفلاسفة وحاول أن يختار روحانية الهند. إن التركيب الوثني العازل بين المجتمع والدين هو من طبيعة تكوين هذه الحضارة ومجتمعاتها، ولا سبيل إلى إجراء تطعيم لها إلا أن تعاد صياغتها من جديد.

وسيرة الحضارة الإسلامية في هذا أنها حضارة متكاملة تجمع بين الدنيا والآخرة، والعقل والقلب، والعلم والدين، وتجعل من الدين سياجاً للمجتمع كله.

وقد أثبت هذا التكامل والشمول في الحضارة الإسلامية قدرته على البقاء، وملاءمته للعصور، ونفوذه إلى المجتمعات الوثنية ونجاحه في تشكيلها، وقربه إلى الطبيعة الإنسانية والفطرة.

ولقد منح هذا التكامل للحضارة الإسلامية معنى العمل في الحياة دون رهبانية أو نسك، وتوجيه العمل لله في انتظار البعث والجزاء، فارتفع العمل عن المعنى الذاتي الضيق، وأصبح عملاً واسع المجال، اجتماعي الأثر والاتجاه.

وكان ارتباط الروح بالمادة عاملاً على قيام مفهوم « التوحيد » والإيمان بإله واحد، خالق لهذا الكون ومدبر له، وكان هذا التوحيد عاملاً هاماً في منح النفس الإنسانية تلك الثقة التي دفعتها إلى العمل دون خشية من الغد أو قلق من المجهول. وهذا هو ما أعطى الحضارة الإسلامية تلك النماذج الصادقة، التي تدافعت في مختلف ميادين البطولة: العلمية، والحضارية.

فقد مكن هذا المفهوم للمسلمين من مواجهة حقائق الحياة وتجاربها بصبر وشجاعة.

ولقد رفع مفهوم الأخلاق في الحضارة الإسلامية النفس الإنسانية - عن رغبة لا عن رهبة - فأعطاها القدرة على البذل والعطاء واحتمال الألم والتضحية إيماناً بالغايات الكبرى. واستطاعت هذه المفاهيم أن توفق بين حياة الروح وحياة الجسد في الإنسان والمجتمع الإسلامي على النحو الذي دفعه للعمل دون انحراف نحو الرهبانية أو الترف.

وكان للإسلام والشريعة الإسلامية أبعد الأثر ليس كالأديان الأخرى مقصوراً على أصول العقائد والأخلاق، بل يتناول تفاصيل الحياة ودقائقها، ويضع القواعد للعمل والزواج والميراث.

ثانياً: ومن أبرز القيم التي قامت عليها الحضارة الإسلامية، وتختلف فيها عن الحضارة الغربية اختلافاً جذرياً (الكرامة - الإنسانية - الإخاء) حيث لا فضل لعربي على أعجمي إلا بالتقوى، ولا فضل لحاكم على محكوم إلا بالعمل الصالح.

أما الحضارة الغربية فقد قامت على مفهوم الحضارة اليونانية. هذا المفهوم الذي أقره « أفلاطون في جمهوريته ». وهو المجتمع المنقسم إلى سادة وعبيد. وقد أقر أرسطو فخر الفكر الغربي الحديث - هذا التقسيم إلى سادة وعبيد. فجعل العبيد عبيداً بالطبع، حيث العلم مقصور على

طبقة معينة، والرفاهية مقصورة على طبقة خاصة.

أما الإسلام فقد دعا إلى الإخاء، ودعا إلى العلم حين افتدى أسرى بدر بتعليم عشرة من أبناء المسلمين القراءة والكتابة، وحين صفّى الإسلام الرق والاستعباد، حيث حرض على الفداء، وأحسن معاملة الأسرى، وحين دعا الإسلام إلى تمجيد العمل، ورفع شأن الإنسان العامل الذي يسعى في الأرض، بينما أقرت الحضارة الغربية تلك التفرقة بين الجنس الأبيض، والأجناس الملونة في ادعاء لم تؤكده وقائع التاريخ، أو حقائق العلم بتفوق الأجناس الآرية عقلاً وجسماً. هذا التفوق الذي جعل من حقها السيطرة والاستعمار باسم تمدين الشعوب المتأخرة في مراوغة تستهدف استغلالها، وامتصاص خاماتها واتخاذها أسواقاً لصادراتها.

وحيث نادت الحضارة الغربية بالإخاء والمساواة والحرية، وقصرت هذه المفاهيم على بلادها وأهلها، بينما اصطنعت الإذلال والعبودية للإنسان في كل مكان سوى أوروبا. فضلاً عما اعتبرته الحضارة الأوروبية من حق في أن تكون مناهجها آراء زاهية يجب أن يتقبلها الناس كاملة، والقول بأنه لا مكان اليوم لغير قيم هذه الحضارة.

بينما لا تقر الثقافة العربية هذا الادعاء، وذلك لأنه من العسير أن يتحقق لهذه الحضارة احتواء الحضارات والأمم والمجتمعات، بما هي عليه من تمزق واضطراب يعترف به أهلها وحكماؤها. وبينما هي أقل قدرة على العطاء من الحضارة الإسلامية التي قدمت للإنسانية الحرية والإخاء والعدل على نحو لم تستطع الحضارات الجديدة أن تصل إليه.

ومن العسير على الجماعات البشرية، وخاصة المجتمع العربي ربيب الحضارة الإسلامية أن يتحطم في وقت قريب أو بعيد، أو أن يستسلم أمام تيار الحضارة الغربية، أو يعتنق مفاهيم الغرب أو قيمه، فقد أخذت الحضارة الإسلامية، ورفضت من الحضارات المختلفة، كما

أعطت أيضاً، ولكنها أجرت هذا العمل كله على قاعدتها، ووفق مقوماتها الأساسية، وجعلت من هذه المقومات سياجاً لوجودها الاجتماعي. والمسلمون والعرب اليوم أكثر يقظة إلى حملة الاستعباد الفكري التي يحاول الغرب سوقهم إليها، وهم أقدر على المقاومة والعمل على تحرير ثقافتهم من عوامل الغزو.

ومن حق الثقافة العربية، ومن ورائها المجتمع الإسلامي أن يقف صفاً مرصوصاً في وجه كل طغيان حضاري أو ثقافي غربي، وأن تكون قادرة على كشف هذا الغزو الفكري والاستعمار الثقافي، ودحض هذه الحملة التغريبية الضخمة التي تحاول أن تذل الثقافة العربية لهذه التيارات التي تناقض جوهر فكرها ومنابع ثقافتها. ولتكن قيمها الأصيلة أساساً للاقتباس والنقل، وفق المقياس العربي الإسلامي الأصيل.

ثالثاً: انفصال الضمير عن العلم، وابتعاد الضمير عن التوجيه والقيادة، وتجريد العلم من الضمير، واعتماد مبدأ القوة بدلاً من الحق في حل المشاكل هو: خلاف جذري عميق بين مفهوم الحضارة الغربية والحضارة الإسلامية. والقاعدة الأخلاقية مصدر من مصادر الحضارة في الإسلام، فقد حدد في القرآن الكريم «الضمير المسلم» تحديداً جوهرياً، قوامه: الإخاء والسلام وعدم العدوان أو التسلط. (تلك الدار الآخرة نجعلها للذين لا يريدون علواً في الأرض ولا فساداً).

# الفصل العاشر

# موقف الثقافة العربية من الفكر الغربي

# مَوقِفُ الثقافَة العَربيَّة مِنَ الفِكر الغَربي

## ( ١ )

قبل أن تقبل رياح الفكر الغربي مع الغزو الاستعماري الغربي، كانت الثقافة العربية التي تستمد جذورها من الفكر الإسلامي قد حددت منذ وقت بعيد خطوطها العامة، وشكلت قيمها الكبرى التي أقامت عليها من بعد وجودها ومفاهيمها. ذلك أن الأمة العربية كانت خلال خمسة عشر قرناً متصلة اتصالاً عقلياً وروحياً وتاريخياً لا ينقطع بالإسلام في قيمه العليا القائمة على التوحيد.

ولذلك فقد بدأ الصدام في اللحظة الأولى لوصول أولى رياح الفكر الغربي إلى ساحل البحر الأبيض المتوسط الجنوبي. فقد كانت هذه الرياح تحمل مفاهيم وقيماً مغايرة تمام المغايرة للقيم العربية الإسلامية، وإن بدا أن هناك من ناحية الاصطلاح تشابهاً كالحرية والعدل. غير أن مفاهيم القيم كانت مختلفة بين الإسلام والغرب. ذلك أن الفكر الغربي كان يستمد مقوماته الأساسية من مصدرين أساسيين هما:

الفكر اليوناني الهليني الإغريقي الوثني المتشكل في إطار من المسيحية التي حرفتها أوروبا ولم تقبلها كرسالة سماوية. وإنما أخذت منها وتركت وفق مزاجها النفسي وتركيبها الحضاري الاجتماعي الذي عرفته الحضارة الرومانية، وورثته النهضة الأوروبية الحديثة من بعد.

أما العطاء الإسلامي، فقد قام أساساً في مجال العلوم والطبيعيات والفلك والطب. أما الجانب الإنساني الإجتماعي والسياسي، فإن أوروبا لم

تأخذه ككل، وإنما عمدت إلى جوهره الإسلامي ففصلته عنه، ثم أضافته إلى تراثها اليوناني المسيحي فتشكل على نحو آخر.

ولذلك فقد كانت استطلاعات أمثال رفاعة الطهطاوي وغيره تحاول أن تستكنه أبعاد الدستور والحرية والحياة النيابية وغيرها مما هو قائم في الغرب، وتجد له جذوراً مستمدة من الفكر الإسلامي(١).

ولا شك كان للفوارق العميقة بين فكر يقوم أساساً على التوحيد، ويستمد مفاهيمه من القرآن الكريم، ويواكب النفس العربية الإسلامية في تشكيلها الذاتي، ومزاجها النفسي، ويتصل بالفطرة اتصالاً وثيقاً محرراً من قيود التأليه والتثنية، وعبادة الفرد، وعبادة الجسد، والتماس الحق والعدل. كان كل هذا المفهوم وهو أساس الفكر الإسلامي، وجذره الأعلى، لا بد أن يتعارض ويختلف مع مفهوم الثقافات الغربية المستمد من الوثنية اليونانية، والقائم على مفاهيم تعلي من شأن الفرد والطبيعة، وترفض الغيبيات والقيم العليا، ورسالات السماء وما حوته من مضامين وقيم.

ولقد كان التغريب والغزو الثقافي الغربي، وهو جزء أساسي من رسالة الاستعمار والسيطرة الغربية يعمد إلى فرض هذه الفلسفات والمذاهب الغربية بما فيها من تعارض واضطراب وزيف. وذلك حتى يصيب الثقافة العربية بالتمزق والانهيار، ويجعلها غير قادرة على التماسك أمام تلك التيارات التي تهز العقيدة، وتضلل العقل، وتبعث الحيرة والشك والارتياب.

وقد جرى هذا الغزو في نفس الوقت الذي عمد فيه النفوذ الغربي عن طريق سيطرته على الثقافة والتعلم، والتربية إلى إقصاء القيم الإسلامية العربية، وعزلها عن نطاق التعليم، أو عرضها عرضاً هامشياً مشوهاً، مع إبعاد كل ما يتصل بها من جوانب القوة أو البطولة، أو عظمة الأثر

(١) إذا أردت التوسع في هذا الصدد فراجع كتابنا (يقظة الفكر العربي)

التاريخي الممتد. وذلك رغبة في تذويب الأجيال الجديدة في بحار واسعة من الفكر الغربي، وحصرها في دائرة واحدة لا تتعداها. ومن ثم لا يرى بعد غيرها، ولا يفكر من خارجها كما جرى تغييب التراث الإسلامي، والتاريخ الإسلامي، فإن عرض فمن جوانب الضعف والتشكيك والاضطراب حتى يبدو في نظر الشباب الجديد، وكأنه شيء قد انتهى أمره، وأن البديل الإيجابي له، إنما هو الفكر الغربي وحده.

ولقد استطاعت الثقافة العربية أن تواجه هذا الصراع، وأن تتجاوز هذه المرحلة، وأن تفرض وجودها ومكانها، وتزيل كثيراً من الشبهات، وتصحح كثيراً من الأخطاء المعتمدة.

وقد صحب هذا الغزو الفكري غزو تربوي تعليمي عن طريق الإرساليات التبشيرية التي انطلقت في العالم العربي كله، وتركزت في بيروت والقاهرة، وكان لها دورها الخطير في تنشئة أجيال تحمل الإمامة للغرب وتعارض مفاهيم الثقافة العربية، وتعمل على إعلاء القيم الغربية، ومحاولة إذابة الفكر العربي الإسلامي فيها.

(٢)

استطاعت قوى الثقافة العربية أن تكشف عن الزيوف التي فرضها الفكر الأوروبي، وعملت على تحرير ذاتها من قيودها، وأعلنت وجوب إعطاء الثقافة العربية طابعها الإسلامي المميز لها. ومما قاله في ذلك أحد قادة الفكر المبرزين:

إن تاريخ كل أمة يكسبها آخر الأمر مزاجاً خاصاً لا فكاك لها منه. وقد ظلت مصر منذ أربعة عشر قرناً إسلامية التاريخ والسياسة والمجتمع والثقافة إلى أن جاءت نظم التربية الحديثة، فأرادت أن تنزع عنها هذا اللون المميز لتميل بمزاجها إلى الشيوع في جميع الثقافات الأخرى.

ولما كانت التربية الإسلامية على ضوء المنطق وضوء العلم الحديث

تشتمل في جميع أحكامها ومنابعها الثقافية والاجتماعية على جميع عناصر التربية الكاملة، أصبح لزاماً أن نخلص من هذا الخلط في سياستنا التعليمية، وأن نتخذ سياسة جديدة أساسها هذا المزاج الإسلامي، ودعامتها هذه الروح الإسلامية، مع تأكيد قابلية المزاج الإسلامي الفريدة في نوعها لكل تطور، واحتفالها بالعلم وتقديسه.

فالصلاة وهي فريضة واحدة، وركن من أركان العبادات، لم تخرج عن النسق الكامل الذي جاء به الإسلام جملة وتفصيلاً: تربية الجسد، تربية العقل، تربية الروح، هذه العناصر الثلاثة في التربية هي بعينها ما يصفه العلماء بأنه التربية الكاملة.

إن مصر بتاريخها الإسلامي الباهر تدحض كل زعم بتأثرها بغير هذه العقلية. كما كشف كثير من الباحثين أهداف النظام التربوي الغربي الذي فرض على مدارسنا وجامعاتنا، والذي استهدف «إنشاء أجيال تتنكر لشخصيتها الإسلامية وتبغض دينها، وتنظر إلى تاريخها الحافل بالأمجاد نظرة الاحتقار، وتعتبر حضارتها الرائعة شيئاً أكل عليه الدهر، وتؤمن بأن نظام حياتها للفكر والعمل أصبح بالياً».

وعارض الباحثون ما وصف بأنه «النموذج الإنساني الغربي» الجدير بالاحتذاء. وذلك انطلاقاً من القاعدة التي تقول: «إنه لا يمكن أن يكون هناك ثقافتان متماثلتان كل التماثل. لأن كل ثقافة هي تاريخ مستقل لا يتأثر بتاريخ أية ثقافة أخرى، وإذا ما تأثر فهو لا يغير أبداً من جوهره، وكل ما يبدو نجاحاً لها، إنما يمثل أشكالاً كاذبة تتنافى مع أصالته الحقيقية.»

وقد استطاع الباحثون أن يلتمسوا من الفكر الغربي نفسه ما يدلون به على صدق موقفهم، وعلى زيف دعوى الاستعماريين والتغريبيين، فقد أشار إشبنجلر إلى هذا المعنى في التفرقة بين الحضارة والثقافة فقال: إن الثقافة تولد وهي تحمل معها صورة وجودها، وهي على صلة عميقة

بالمكان الذي وجدت فيه، ولا يمكن أن يقوم بنيانها إلا بالمبادىء التي قامت من أجلها، والأسس التي شيدت عليها صروحها، وإنما يضطرب مفهومها حين تنشأ ظروف تحدّ من حريتها، لكن هذه النفس الأولية المحدودة الحرية تسعى حتى في مثل هذه الظروف إلى طبع الثقافة المتأثرة بها بطابعها كما هو الواقع. وفي ضوء هذا كله علت الصيحة التي تقول:

*يجب ألا ننخدع ببريق الثقافات الغربية الحديثة، ونقبل عليها إقبالاً أعمى.

*يجب ألا نغفل عن أن الثقافات الغربية بما بلغته من رفعة وعمق لا تستطيع أن تنضج العقلية العربية التي تختلف في مقوماتها عن العقلية الغربية.

*يجب أن نستهدي بالفكر الغربي دون أن نترك له أن يسيطر على عقولنا، أو يتحكم في أهوائنا[١].

وقد أشار العقاد في سجال بينه وبين عبد الرحمن الرافعي حول (هل التراث الشرقي يكفي) فقال: إذا تكلمنا عن التراث الشرقي والتراث الغربي خرجت من حسابنا العلوم الطبيعية, التجريبية، لأنها حقائق إنسانية عالمية. إذن فالتراث الشرقي هو التراث الذي عليه صبغة الشرق وينتمي إليه. أما العلوم الطبيعية فليس عليها صبغة شرقية ولا غربية، والواقع أن الشرقيين لا يمكن أن تنضج لهم حياة عقلية من غير تراثهم الذي ينتمي إليهم ويصطبغ بصبغتهم.

والتراث الشرقي الذي لا يشاركهم في خصائصه مشارك من العالمين هو: التراث المشتمل على ما لهم من أشعار ومواعظ وأمثال وحكايات وآداب وقواعد وسلوك، وفي طليعته روح العقائد الدينية والحكم النفسية والفكرية وما يصاحب ذلك من فقه وشريعة ودين.

---

(١) بتصرف عن نصوص للأستاذ عبد العزيز محمد الزكي.

أما التراث الغربي الذي يمكن أن ينقل الى الشرقيين فهو قسمان:

قسم يمكن أن يمتزج بحياتهم، وهو من نوع تلك الحياة.

وقسم لا يمتزج بحياة الشرقيين، ولا يدخل لهم في عقل ولا روح، وهذا غريب عنهم وهم غريبون عنه[١].

وفي مجال استعراض قضية الاقتباس كان الرأي دائماً هو: أن الاقتباس قاصر في مجال الحضارة وحدها. أما الثقافة فهي من الأمور التي لا يمكن اقتباسها أو نقلها من الخارج. بل هي من الأمور التي لا بد من تكوينها في النفوس تكويناً مع الاستفادة من ثقافات الأمم الأخرى[٢]. أما الإسلام فلا ينتسب إلى أمة من الأمم. والمكتسبات والمكتشفات العلمية تنتقل من بلد إلى بلد دون أن تحتاج إلى تحوير أو تكييف، فهي بمثابة ثروة بشرية عامة، أما الثقافة فهي بعكس ذلك، تختص بكل أمة على حدة، وترتبط قبل كل شيء، وأكثر من كل شيء بلغة الأمة وآدابها لأن اللغة (واسطة التفكير) فضلاً عن كونها واسطة لنقل الآراء والأفكار، ولتبليغ الأحاسيس والانفعالات (التفكير بمثابة التكلم سرّاً والتكلم بمثابة التفكير جهراً).

وقد حمل هؤلاء الدعاة التغريبيون لواء الدعوة إلى:

أولاً: مهاجمة الدين بصفة عامة، ومهاجمة الإسلام بوصفه ديناً، ومحاولة وضع العلم في مواجهته.

ثانياً: إثارة الشبهات حول الشريعة الإسلامية وقدرتها على تحقيق أنظمة كاملة للمجتمعات الحديثة وتغليب القانون الغربي عليها.

ثالثاً: إثارة دعوى الأجناس والفروق العنصرية، وإثارة دعوات الإقليميات والقوميات الضيقة لتمزيق وحدة العروبة والإسلام، والدعوة

---

(١) الرسالة م ١٩٤١.

(٢) بتصرف عن ساطع الحصري (الثقافة العربية وثقافة البحر المتوسط).

إلى العالمية في الفكر والحضارة.

رابعاً: إذاعة الدعوة إلى العامية بديلاً عن اللغة الفصحى، والهجوم على البيان العربي، ومحاولة نقد آي القرآن.

خامساً: إثارة الشبهات حول التاريخ الإسلامي العربي، والدعوة إلى إقليمية التاريخ ومصيريته.

سادساً: طرح قضايا الفلسفات اليونانية والغربية بما تحمل من وثنيات وتعدد، تخالف مخالفة صريحة للفكر الإسلامي والثقافة العربية القائمة على التوحيد.

سابعاً: إذاعة القيم الغربية في التعليم والتربية.

ثامناً: محاولة إقامة المجتمعات العربية على أساس الأنظمة الليبرالية والديمقراطية الغربية.

تاسعاً: إثارة النظريات الاجتماعية المختلفة.

عاشراً: التبشير بالبهائية والصوفية وغيرها من المذاهب المنحرفة.

### ١ - التحدي في وجه الإسلام

بدأت الحملات التغريبية توجه إلى الثقافة العربية من خلال أرسخ الحصون وأقواها، وهو الإسلام نفسه. ولكي تكون الحملة بارعة، فقد أريد لها أن توجه إلى الدين بصفة عامة جرياً وراء القول بأن الأديان قد انتهى عهدها، وأن العلم الحديث قد أزاحها من مكانها، وذلك بعد أن جمدت الأديان وتوقفت عن أن تحقق ما يراد منها من تجاوب في مواجهة الحضارة ومكتشفات العلوم.

وكان ذلك كله مما ردده خريجو معاهد الإرساليات الأجنبية من اللبنانيين غير المسلمين جارياً في نطاق الحملة الضخمة على الدين،

والمستمدة من كتابات الأوروبيين بالنسبة للمسيحية وموقفها من النهضة الأوروبية، وما يتصل بذلك من موالاة الكنيسة للإقطاع والأمراء، ثم معارضتها لثمرات العلوم والحضارة. بينما لم يكن هناك مجال مطلقاً لمثل هذه المعركة في العالم الإسلامي، ولا في مواجهة الإسلام نفسه الذي كان بطبيعته دين العلم، وفي أحضانه نشأ المنهج العلمي التجريبي الذي هو أساس الحضارة الغربية الحديثة.

غير أن الحملة كانت بارعة وعنيفة وهدامة، وكانت تتحرك من خلال إثارة قضايا كثيرة، في مقدمتها حرية الفكر، ومحاولة تصوير بعض المواقف التاريخية مما حدث لابن رشد وغيره، على أنه مصادرة للفكر في الإسلام، وكان على رأس هذه الدعوة جميعها النفوذ الأجنبي الاستعماري في مصر بقيادة اللورد كرومر، الذي حمل لواء الهجوم على الإسلام، واتهمه بالقصور والتراجع في عصر العلم، وجرى في هذا المجرى الدكتور شبلي شميل وكانت مجلات المقتطف والهلال وجريدة المقطم، وكتابات فرح أنطون، وجرجي زيدان، وصروف، وفارس نمر كلها تجري في هذا المجرى، وكان شبلي شميل. وقد ترجم نظرية داروِن من خلال أقسى كتابها وأعنفهم مادية وظل يجادل على صفحات المقتطف والمقطم في سبيل تحويل نظرية داروِن إلى دعوة عامة إلى المادية لا يقف في وجهها شيء، وخاصة ما يتعلق بالدين والأخلاق وقيم المجتمعات وغيرها.

وقد تصدى لكرومر، وداروِن، وشبلي شميل، وفرح أنطون كتاب كثيرون في مقدمتهم الشيخ محمد عبده، وفريد وجدي، ورشيد، رضا، وعلي يوسف في الطور الأول، ثم عبدالعزيز جاويش، ومحمد أحمد الغمراوي، وتوفيق البكري، ورفيق العظم وغيرهم كثيرون، ففندوا ما ما أثاروا من الشبهات وردوا الأمور إلى مكانها الحق، وكشفوا عن وجه الزيف في هذه الحملات التي أريد بها تنحية الإسلام عن مكان الصدارة، وضرب حركة اليقظة العربية الإسلامية للإفساح لدائرة التغريب الضيقة المغلقة، لكي تسيطر وتقود حركة الفكر.

ولقد تبين من بعد أن حركة الماسونية إحدى القوى العاملة في الدولة العثمانية من أجل تحقيق أهداف اليهودية العالمية، كانت تطرح هذه النظريات والأفكار. وكان هؤلاء جميعاً من خريجي معاهد الإرساليات التبشيرية في لبنان هم أيضاً من أعضاء المحافل الماسونية، وأنهم كانوا الطلائع التي أرسلت إلى مصر لتقود حركة الصحافة والفكر والثقافة تحت لواء الاحتلال البريطاني، والتي كان من ثمرتها بعد ذلك مدرسة لطفي السيد.

ولقد كشف رجال اليقظة الفكرية الإسلامية حقيقة الإسلام وجوهره، وكيف أنه ليس ديناً لاهوتياً فحسب، وإنما هو دين ودولة ونظام ومجتمع، وأنه لم يقف أمام تطور العلم بل أعان عليه، وأنه كان مصدر النهضة واليقظة، وهو الذي قدم للإنسانية أولى ثمراتها.

أما الفكر الغربي فقد استبعد الدين استبعاداً كاملاً في نهضته، نتيجة لموقف الكنيسة منه إزاء العلم وإزاء الحريات الاجتماعية. ولقد كانت المسيحية الغربية ديناً روحياً خالصاً. وقد دعت إلى الرهبانية، ولم تكن بنظام مجتمع. ومن هنا غلبت فلسفة الرومان ووثنية اليونان، ومن ثم فقد انفصل الفكر الغربي عن المسيحية والكنيسة جميعاً، ودعا إلى اعتناق دعوات أخرى كدعوته إلى عبادة الفرد أو عبادة القوة.

أما الفكر الإسلامي فقد غني عن مثل هذه المواقف نتيجة للشمول والتكامل الذي عرف به الإسلام، وحيث لم يكن هناك من حاجة للمسلمين والعرب في أن يعتنقوا مناهج الغرب، أو يواجهوا الإسلام بمثل ما واجهوا المسيحية.

ولم تكن حاجتهم إلى أكثر من تنقية المنابع، وتحرير المصادر، والتماس الأصول العامة للإسلام في مفاهيم الصدر الأول منه نقياً صافياً مستمداً من القرآن الكريم نفسه ومن السنة النبوية الصحيحة.

وهذا ما دعا إليه المصلحون من أمثال: محمد بن عبد الوهاب، وجمال

الدين الأفغاني، ومحمد عبده، حيث بدأت حركة اليقظة من داخل الأمة نفسها، ومن خلال فكرها. ولم تكن قد تأخرت حتى جاء الغرب فأيقظها ذلك أن حركة اليقظة بدأت فعلاً قبل اتصال الغرب بالمشرق العربي بأكثر من خمسين عاماً، ومن قلب الجزيرة العربية.

كما دحضت حركة اليقظة ما ذهب إليه دعاة التغريب وخصوم الإسلام والفكر الإسلامي العربي من أن الإسلام هو مصدر الضعف والتخلف الذي مر بالمسلمين في القرون الأخيرة، وكشفوا عن حقيقة أساسية، وهي أن انصراف المسلمين والعرب عن الإسلام، وتخلفهم عن أصوله ومفاهيمه ومقاصده، إنما هي السبب الحقيقي في تخلفهم، وأنهم لو استمسكوا بمقوماته في مجال السلم والحرب والاجتماع والسياسة، وأعدوا ما أمرهم به قوة دائمة، وحصانة للثغور، وحماية ورهبة وهيبة لعجز الاستعمار الغربي عن السيطرة عليهم والإدالة منهم، وأن هذا منطلقهم نحو الحرية والقوة والعزة أن يعودوا مرة أخرى إلى التماس مفاهيم الإسلام ومقوماته.

٢ - التحدّيات في وجه الشريعة الإسلاميّة

كما وجهت حركة الغزو الثقافية التغريبي حملة ضارية إلى الشريعة الإسلامية، واتهمتها بأنها شريعة صحراوية ظهرت في عصور قديمة، وأنها لا تصلح للعصر الحاضر، ولا تحقق للمجتمعات الحديثة ما تقصد إليه من حضارة ورفاهية، كما حاولت بعض الأقلام اتهام الشريعة الإسلامية بالنقل من القانون الروماني. وقد أشار دعاة التغريب فيما بعد أن الاستعمار الغربي، وحركة التغريب إنما تستهدف أن ينزل القرآن الكريم من فوق عرشه في أنظمة الحكم والاجتماع والاقتصاد والتربية والتعليم، وذلك من أجل تغليب القانون الأوروبي القائم على أساس فصل الدين عن الدولة. وقد جرت على الحملات في ظل الإجراءات الاستعمارية التي قامت فعلاً بفرض القوانين الأوروبية على أنظمة السياسة والقضاء

والمعاملة بين الناس وإقصاء الشريعة الإسلامية عن مجال الحكم والمجتمع، كما فرضت في مجال الجامعات دراسة القوانين الأوروبية التي أصبحت نظاماً مطبقاً في المحاكم ودوائر القضاء مع دراسة يسيرة للشريعة الإسلامية التي انحصر نطاقها في أضيق مجال.

غير أن كتاب اليقظة الفكرية الإسلامية من رجال الفقه والشريعة والقانون، واجهوا هذه التحديات بقوة، وكشفوا عن فساد ما ذهب إليه اللورد كرومر وغيره من المستشرقين، وأبانوا عظمة الشريعة الإسلامية وخلودها وقدرتها على التجاوب مع مختلف المجتمعات في مختلف العصور.

وكان من أكبر ما ركز عليه الباحثون خطأ الادعاء بأن للشريعة الرومانية أثراً في الشريعة الإسلامية، وأبانوا كيف أن الشريعة الإسلامية تقوم على قواعد العدل المطلق، ومقتضيات العقول، والشريعة الرومانية تقوم على المصالح والمنافع الدنيوية مما ينبني عليه أن الشريعة الإسلامية تمثل مصلحة الفرد في الدنيا والآخرة، بينما تمثل الشريعة الرومانية مصلحة الجماعة وحدها. فضلاً عن أن القانون الروماني قد بدأ بمثابة عادات، ونما وازدهر عن طريق الدعوى والإجراءات الشكلية، بينما الشريعة الإسلامية بدأت كتاباً منزلاً، ووحياً من الله، ونمت وازدهرت عن طريق القياس والأحكام.

وإن الشريعة الإسلامية وجدت كاملة دفعة واحدة لم يزد فيها الفقهاء شيئاً قط. أما الفقه الروماني فإنه حديث لم يعمل به إلا في القرن الثاني عشر أو الثالث عشر بعد الميلاد. أما قبل القرن الحادي عشر، فإنه لم يكن معروفاً عند الرومان أنفسهم. ومعنى ذلك أن الفقه الإسلامي قد قرر وصنف قبل ظهور الفقه الروماني بقرون، وأن مالكاً والشافعي وأحمد بن حنبل وأبا حنيفة درسوا وألفوا وصنفوا قبل أن توجد القوانين الرومانية للرومان أنفسهم. وهناك من يرجح أن الفقه الروماني إنما جاء مقتبساً من الفقه الإسلامي، والدليل هو أن الفقه

الإسلامي قد ألف وصنف قبل أن تبرز القوانين الرومانية [1].

ولقد تحطمت مختلف الادعاءات التي وجهت إلى الشريعة الإسلامية على صخرة عاتية بعد أن كشفت نصوص الشريعة الإسلامية مدى ما تحمل من أسس تشريعية صالحة للمجتمع الإنساني بشهادة المنصفين من رجال القانون الغربي أنفسهم. وكان أقوى هذه الاعترافات ما أبرزه مؤتمر القانون الدولي المقارن المنعقد في لاهاي عام ١٩٣٢، والذي أكّد مركز الشريعة الإسلامية كمصدر للتشريع. وقد قرّر أن الشريعة الإسلامية مصدر من مصادر القانون المقارن، وهي صالحة للتطور، ومسايرة للمدنية الحديثة، وأنها جديرة بأن تشكل مصدراً ممتازاً من مصادر القانون المقارن مع استقلالها الكامل عن التشريع الروماني.

كما كشفت بعض النظريات القانونية الحديثة عن مصادر لها في الشريعة الإسلامية، ومنها نظرية الاعتساف التي ابتكرها القانون المدني الألماني عام ١٧٨٧.

يقول العلامة كهلر الألماني: إن الألمان كانوا يتيهون عجباً على غيرهم في ابتكار نظرية الاعتساف والتشريع لها في القانون المدني الألماني الذي وضع عام ١٧٨٧. أما وقد ظهر كتاب الدكتور محمود فتحي، وأفاض في شرح هذا المبدأ عن رجال الشريعة الإسلامية، وأبان أن رجال الفقه الإسلامي تكلموا عنه طويلاً ابتداءً من القرن الثامن للميلاد، فإنه يجدر بالعلم القانوني الألماني أن يترك مجد العمل بهذا المبدأ لأهله الذين عرفوه قبل أن يعرفه الألمان بعشرة قرون وأهله هم حملة الشريعة الإسلامية.

وكان المؤلف قد توصل إلى نص فقهي للإمام الشاطبي يقول بمنع استعمال الفعل المأذون به شرعاً إذا لم يقصد منه فاعله إلا الإضرار

(١) راجع اراء صالح بن علي الحامدي العلوي، دكتور عبد الرازق السنهوري. فارس الخوري في كتابنا الإسلام والثقافة العربية ص ٢٨٨/٢٩٠.

بالغير. وهذا هو عين نظرية التعسف في استعمال الحقوق التي لم تعرف في الغرب بمعناها التحليلي الواسع إلا مؤخراً.

وقد تناولت الأبحاث الرد على ما ادعاه المستشرقون والمبشرون، ودحض ما ذهبوا إليه. ومما قاله الدكتور صبحي محمصاني إن ما زعمه بعض المستشرقين من أن الشريعة الإسلامية مقضي عليها بالخمول قول فاسد، ذلك أن أبرز ملامح الشريعة الإسلامية:

أولاً: إن الإجتهاد واجب فيها، والتقليد الأعمى محرم.

ثانياً: إن الشريعة الإسلامية ليست مذهباً واحداً بل مجموعة مذاهب.

ثالثاً: إن توسيع الفقهاء في أولية التشريع ومصادره، والأخذ بمبادىء الإنصاف المطلق بطريق الاستحسان والاستصلاح، كل ذلك كان له أثر في جعل الشريعة الإسلامية من أعدل الشرائع وأقربها إلى المثل الاجتماعية العليا.

رابعاً: إن قاعدة تغيير الأحكام تطبق في جميع المسائل التي لا يوجد فيها نص من القرآن الكريم والسنة.

هذا ولم تلبث أن تعددت المؤتمرات الغربية التي أعلنت تقديرها للشريعة الإسلامية، وكانت بعد مؤتمر لاهاي عام ١٩٣٢ أربعة مؤتمرات:

١ ـ مؤتمر القانون الدولي في لاهاي ١٩٣٧ ـ الذي أعلن اعتبار الشريعة الإسلامية مصدراً من مصادر التشريع العام، واعتبار التشريع الإسلامي قائماً بذاته، مستقلاً وغير مأخوذ من التشريع الروماني.

٢ ـ مؤتمر المحامين الدولي في لاهاي ١٩٤٨.
٣ ـ جمعية القانون الدولي العام.
٤ ـ أسبوع الفقه الإسلامي في باريس ١٩٥١. وقد قرر المؤتمر:

أولاً: اعتبار مبادىء الفقه الإسلامي ذات قيمة تشريعية لا يمارى فيها.

ثانياً: اختلاف المذاهب يحوي ثروة تشريعية هي مناط الإعجاب، ومنها يستجيب الفقه الإسلامي لجميع مطالب الحياة.

### ٣ - التحدّيات في وجه القوميّات والاقليّات

كانت الدعوة إلى عزل البلاد العربية عن العالم الإسلامي، وعزلها عن بعضها البعض من أخطر الدعوات التي صاحبت النفوذ الأجنبي والاحتلال الغربي. ففي مصر ارتفعت الدعوة إلى مصر للمصريين، والدعوة إلى الفرعونية. وفي الشام ارتفعت الدعوة إلى سوريا للسوريين وارتفعت كذلك دعوة الآشورية في سوريا والفينيقية في لبنان. وفي المغرب ارتفعت دعوة البربرية. ثم طرحت دعوات متعددة إلى البحر المتوسط، وإلى الرابطة الشرقية، وإلى القوميات المحلية، وإلى القومية العربية بمضامين مختلفة معزولة عن أصول الثقافة العربية ذاهبة إلى الماضي البعيد السابق للإسلام، أو بمضامين علمانية منتزعة نفسها من الوجود العربي بمقوماته الإسلامية الأصيلة ومتصلة بالغرب، وجرت الدعوة إلى وحدة الثقافة العالمية، ووحدة الحضارة العالمية، وكلها دعوات يراد في مجموعها شيء واحد، هو عزل الأمة العربية عن وجودها وعن ماضيها وعن تراثها وإذابتها إذابة كاملة في أتون الفكر الغربي، وذلك تمهيداً لاحتوائها وابتلاعها.

وقد فشلت دعوات الإقليميات فشلاً ذريعاً، فلم تصلح لأن تجد لها طريقاً إلى نفوس المسلمين والعرب بعد أن عزلتها أربعة عشر قرناً كاملاً من الفكر الإسلامي والثقافة العربية بما لها من ذاتية خاصة ومزاج نفسي له طابعه ومقوماته.

وقد حاول دعاة الفرعونية والآشورية والفينيقية إيجاد سند من التاريخ أو التراث أو اللغة يستطيع أن يربط العرب والمسلمين بذلك الماضي

السحيق، فعجزوا عن ذلك تماماً، وتبين أن الشقة بعيدة، وأن النفس العربية الإسلامية قد تحولت تحولاً كاملاً بحيث لم يعد في الاستطاعة ردها إلى الوثنية القديمة بأساطيرها وخرافاتها بعد أن تحررت منها بالتوحيد، وبلغت ذروة البلاغة بالقرآن.

وجرت الدعوة إلى فكرة «مصر للمصريين» التي كانت تحمل هدف فصل المصريين عن الأمة وعن العالم الإسلامي، وكان أبرز حملة لواء هذه الدعوة: لطفي السيد. ثم جاءت فيما بين الحربين مدرسة «التمصير» التي دعت إلى تمصير اللغة والفكر والتاريخ والقانون والثقافة، وحاولت أن تربط بالفرعونية القديمة والأهرام والنيل الهيروغليفية، فعجزت عن أن تجد من ذلك كله مقوماً واحداً صالحاً لعقد عروة واحدة بين الحاضر، وبين ذلك الماضي السحيق بمعابده وهياكله، وكتاب الموتى، ثم كانت الدعوة المتفرعة منها إلى أن المصريين هم من أبناء البحر الأبيض المتوسط، وهم من الغرب لا من الشرق، وأن صلتهم بأوروبا أوثق من صلتهم بالجزيرة العربية، وأنهم مع الغرب في العقلية والثقافة التي ارتبطت في ظل اليونان والرومان. وامتدت هذه الدعوة إلى سوريا ولبنان وتونس والجزائر ومراكش. وقد كانت الدعوة في دوافعها السياسية ترمي إلى الارتباط بالجامعة الفرنسية، وهي دعوة تقول إن لحوض البحر الأبيض المتوسط وحدة جغرافية وتجارية واجتماعية وفكرية قوامها: الفكر اليوناني، والنظام الروماني، والدين السامي، وأن الذين ساهموا في إبداع هذه الحضارة: الفينيقيون أصحاب الفضل في استنباط الحروف الهجائية، ومن نماذج مصرية ويونانية ورومانية. وقد حاول الاستعمار الفرنسي أن يذيع دعوى أن اللبنانيين ليسوا عرباً، بل فينيقيين، وأن حضارتهم هي حضارة البحر الأبيض المتوسط، وأنهم لا يمتون للعرب بصلة وقربى إلا باللغة.

وقد واجه الفكر الإسلامي، والثقافة العربية هذه المعركة، كما واجه أفكار التجزئة الأخرى، وأعلن زيفها، وأكد خطلها واضطرابها وعجزها

عن الأصالة الطبيعية المستمدة من روح الفكر الإسلامي. وقال إن الثقافة أمر معنوي، ولا يمكن ربطه بالعوامل الجغرافية.

بل إن البحوث ما لبثت ان كشفت عن حقيقتين بارزتين كانتا السهم الأخير في مصير هذه الدعوات. ذلك أن الفرعونيين كانوا فرعاً من فروع الأمة العربية، وأنهم جاءوا أساساً من الجزيرة العربية. وقد أشارت نظريات كثيرة مستحدثة منصفة أن أوائل المصريين الأقدمين قد هبطوا من أرض آسيا إلى وادي النيل من أمثال بروكس الألماني، وأبيرث، ولوث، وليبلن النرويجي، وكان أول من أثبت هذه النظرية: هومل الألماني حيث ذهب إلى أن الحضارة المصرية بحذافيرها كلها، إنما هي مشتقة من الحضارة البابلية. أما الاخصائيون فيقولون بمجيء أوائل المصريين إلى هذا الوادي من صحراء لوبيا.

واستطاع أحمد كمال باشا الأثري أن يصل في أبحاثه إلى إثبات أن اللغة العربية، واللغة المصرية القديمة من أصل واحد، وأن اللغة المصرية ما هي إلا لغة قبائل الأعناء التي سكنت مصر وما جاورها من الأقاليم، وهي أصل اللغة العربية بلا مراء.

وقد أرجع كل كلمات اللغة المصرية القديمة إلى اللغة العربية، وأكد نظرية مجيء المصريين الأقدمين من بلاد العرب من باب المندب، فالحبشة، فالسودان، فمصر. وقال في النهاية إن العنصرين المصري، والعربي يرجعان إلى أصل واحد ولغة واحدة.

وقد أورد في قاموسه ألوفاً من الكلمات الهيروغليفية الموافقة للغة العربية الحضرية، إما موافقة تامة أو موافقة بضرب من التحريف أو القلب والإبدال.

ومن ناحية أخرى تكشف أيضاً أن الفينيقية موجة من موجات الهجرة العربية. وقد واجه أحمد زكي باشا الملقب شيخ العروبة هذه الدعوة في

إبان ظهورها، فكشف عن زيفها، وأشار إلى ما يؤكد ارتباطها بالأمة العربية.

فقد كشفت الحفريات والأبحاث على أن الفينيقيين هم الكنعانيون، والآراميون القدماء، وهم من الجنس العربي يقيناً. وقد أشار هيرودوت إلى هذه الحقيقة عندما قال: إن الفينيقيين كانوا يقطنون ساحل بحر أرتيريا أحد سواحل بحر العرب قبل سكناهم ساحل البحر الأبيض المتوسط.

وقد أكدت أبحاث عدد من الباحثين أن بلاد العرب كانت الموطن الأصلي للبابليين (الكلدان) والكنعانيين (الفينيقيين) والآراميين (السريان) وأنهم خرجوا من بلاد العرب فوجاً بعد فوج[1].

* * *

ولم تكد ريح الإقليمية تخفت حتى كانت الدعوة إلى تمزيق وحدة العروبة والإسلام بالدعوة إلى القوميات الضيقة المبتورة عن ماضيها واصولها، والمنعزلة عن كيانها الفكري العربي الإسلامي الأصيل.

وهي دعوات متعددة متضاربة تعتمد على الأرض، ويعتمد بعضها على العنصر السامي، ويعتمد بعضها على اللغة وهي في مجموعها تجري على النسق الذي خرجت عليه الدعوة الطورانية التركية. بل إن بعض الذين شاركوا في هذه الحركة حملوا لواء الدعوة إلى القومية العربية. وقد حاولت هذه النظريات أن تبتعد تماماً عن الواقع العربي الأصيل، وأن تعتمد على النظريات الوافدة التي استقدمها هؤلاء الدعاة كالنظرية الألمانية والنظرية الروسية، والنظرية الإيطالية، والنظرية الفرنسية، وكل منها يعتمد على فكرة تباين ما يعتمد عليه الآخر وكل منها يستمد نظريته من وجوده وظروفه ومقوماته.

(١) راجع (اتجاه الموجات البشرية في جزيرة العرب) للسيد محب الدين الخطيب.

غير أن حركة اليقظة العربية الإسلامية كانت قد قدمت فعلاً: النظرية العربية الأصيلة، وهي نظرية «وحدة الفكر» التي هي أقوى وحدة من وحدة اللغة والأرض، وأصدق تعريفاً بجوهر الأمة العربية والثقافة العربية من نظرية المشيئة، أو أية نظرية أخرى.

غير أن النفوذ الغربي في مجال الفكر، والمسيطر على حركة التغريب والغزو الثقافي كان حفياً بأن يؤيد نظريته الوافدة التي خرجت أساساً من معاهد الإرساليات التبشيرية، ومحافل الماسونية، والتي تستهدف عزل لبنان في كيان خاص، وضرب كل تقارب بين البلاد العربية حتى تبقى مفرقة مضطربة بين النظريات والبيانات الإقليمية، فضلاً عن محاولة عزل القومية العربية عن أمرين يلح التغريب والاستعمار عن عزلها عنهما.

الأول: هو التراث والماضي، والتاريخ والقيم الأساسية المستمدة من الإسلام.

الثاني: هو الانغلاق والعدوان والخصومة مع القوميات الأخرى، والاستعلاء بالجنس أو باللغة أو بغيرهما.

وينسى الحريصون على تأكيد هذه الخطوات الغربية أن الأمة العربية لم تكن أمة إلا بفضل الإسلام، وأنها لم تكن أمة قبل ذلك، وأن الإسلام هو الذي حفظ اللغة العربية، وأقامها لغة أمة ولغة فكر، وأن الفكر الإسلامي هو الأساس الثقافي والفكري والاجتماعي والقانوني للعرب جميعاً.

وأنه إذا كانت أوروبا قد استبعدت الدين عن مفهوم القومية، فإن لها ذلك لظروفها وأوضاعها الخاصة. أما الإسلام فهو ليس ديناً لاهوتياً كدين أوروبا، وإنما هو منهج حياة ونظام مجتمع، وهو حضارة وفكر، وأنه ليس للعالم الإسلامي من مصادر ثقافية غيره للعرب والترك والفرس والهند، كما للمسلمين والمسيحيين واليهود، وأرباب الأديان

الأخرى جميعاً. فقد امتصت الحضارة الإسلامية منذ أربعة عشر قرناً ثقافات الأمم وفلسفاتها ومثلها، وصاغتها من جديد بحيث أصبحت ثقافة عامة لكل من يعيشون في هذه المنطقة، وإن رسمت بالثقافة العربية أو الفكر الإسلامي.

وإذا كان الإسلام دين للمسلم، فهو ثقافة وفكر وحضارة لأصحاب الأديان الأخرى، وذلك أمر قد كشفت عنه جميع الأبحاث والدراسات وأكدته.

فعلاقة الإسلام بالعروبة ليست كعلاقة أي دين بأية قومية «وسوف يعرف المسيحيون العرب عندما تستيقظ فيهم روحهم الكامنة، ويسترجعون طبعهم الأصيل أن الإسلام لهم ثقافة قومية يجب أن يتشبعوا بها حتى يفهموها ويحبوها فيحرصوا على الإسلام حرصهم على أثمن شيء في عروبتهم»[1].

والواقع أن العروبة لاتصارع الإسلام، ولا تقف في الوجه المضاد، وأنها حلقة من حلقات الترابط الفكري الواسع الجامع لكل من استظل بالثقافة العربية من أجناس وأديان.

وليست اللغة إلا طابع الوحدة الفكرية، فلماذا نأخذ بنظرية وافدة تقول باللغة، ولا نستمد نظريتنا من الواقع العربي الإسلامي الذي يقوم فيه «الفكر» مقام الوحدة الأساسية.

وهكذا فشلت كل دعوات التغريب الثقافية الغربية في مجال الإقليميات والقوميات.

(١) عبارة لكاتب مسيحي معروف.

## ٤ - التحدّيات في وجه اللغة العربية

واجهت اللغة العربية أقسى ألوان التحدي في سبيل القضاء على وحدتها، وتغليب العاميات الإقليمية عليها. وقد بدأت الحملة من منطلق مقارنة اللغة العربية باللغة اللاتينية التي دخلت المتاحف مخلية الطريق للغات الإقليمية واللهجات المحلية لترتفع إلى مكان اللغات في أوروبا بعد ظهور البروتستانتية، وترجمة الإنجيل إلى اللغات المحلية. وحاول الدعاة أن يربطوا بين القدرة على الاختراع والإبتكار في الأمم، وبين هذه اللهجات على النحو الذي أعلنه «ويلكوكس» في مصر وما ردده كولون في المغرب، وماسينيون في سوريا، وكلها محاولات تستهدف القضاء على اللغة العربية الجامعة للعرب بوصفهم «أمة» والجامعة للمسلين على أساس وحدة الفكر التي يعد القرآن سندها الأعظم والأقوى.

ولما كانت حركة التغريب الموالية للاستعمار والنفوذ الأجنبي تستهدف تمزيق وحدة المسلمين والعرب، فقد كان التركيز على «اللغة» عاملاً هاماً. وقد جرى هذا التركيز بوسائل متعددة،وأساليب كثيرة، فقد عمدت القوى الاستعمارية إلي إيقاف نمو اللغة العربية في البلاد الإسلامية، وخاصة في أفريقيا، وجنوب شرق آسيا، وغلبت اللغات الغربية والإقليمية كما فعلت ذلك في مصر وسوريا والسودان والمغرب جميعاً حيث غلبت لغة المحتل، وسيطرت على التعليم والثقافة، ولونت الفكر والثقافات والعقليات بآثارها التي حملت الولاء للغرب. ومن ناحية أخرى شجع الاستعمار العاميات في البلاد العربية، وحاول كثير من المستشرقين والمبشرين خلق سند تاريخي من التراث كالأغاني والأمثال لتعزيز دعوى العاميات والإقليميات، وجرى التغريب في ذلك شوطاً طويلاً.

وكان الدعاة المتصدرون يحملون لواءً براقاً يطلق عليه «تمصير اللغة» كما فعل أحمد لطفي السيد في مصر ومن بعده سلامة موسى. ثم كانت

الدعوة إلى كتابة العربية بالحروف اللاتينية، وهي الدعوة التي تبناها عبد العزيز فهمي وسلامة موسى، ولم تكن غريبة على مختلف أجزاء البلاد العربية. وفي لبنان جرى التركيز على العامية اللبنانية، وكتابتها بالحروف اللاتينية، ومضى سعيد عقل وغيره من دعاة الإقليمية الضيقة شوطاً طويلاً في سبيل عزل لبنان عن الفكر الإسلامي والثقافة العربية.

وامتدت الأبحاث إلى محيط له طابع علمي زائف، وذلك بالحديث عن مقدرة اللغة العربية على مجاراة العصر واحتواء المصطلحات الجديدة، ومحاولة وصمها بالعجز عن ذلك، والمطالبة بإدخال المصطلحات الأجنبية بأعيانها دون تعريبها.

ودعا كثيرون إلى تحرير اللغة العربية من كل قيد وتقريبها من العامية، وخلق لغة وسطى، والانصراف عن الأسلوب العربي البليغ.

ومما أذاعه بعض خصوم اللغة العربية دعوى أن العامية المصرية والسورية إنما هي لغة قديمة هي: البونية أو الكنعانية. وأن هذه هي أصل لغة الحديث، ولا صلة لها بالعربية الفصحى، وأنها دخلت مصر قبل أن تدخلها الفصحى بألفي سنة «وأنها هي أخت العربية، وليست العربية نفسها (١)».

وقد دحضت الأبحاث العلمية الصحيحة هذه الادعاءات الباطلة. كما تبين أن الهدف من هذه المحاولات جميعاً هو:

أولاً: إيقاف اللغة العربية عن النمو في المناطق الإسلامية التي هي لغة الفكر والثقافة والعبادة لدى سبعمائة مليون من المسلمين.

ثانياً: منافسة العامية لها منافسة واسعة بما أضفي عليها من محاولات تاريخية مضلّلة، ومن عمل جمع الفلكلور والأمثال والقصص الساذجة القديمة.

ثالثاً: خلق لغة وسطى بين العامية والفصحى، وذلك لإنزال مستوى

---

(١) انظر ولكوكس ورسالته في كتاب (الدعوة إلى العامية وآثارها في مصر).

الثقافة العامة إليها، وعزل اللسان العربي والثقافة عن مستوى القرآن الكريم من الفصاحة. ومن وراء ذلك كله هدف خطير هو: إقصاء القرآن عن اللغة، وعزل العالم العربي، وتفتيت وحدته. ولم يتوقف الأمر عند هذا الحد، بل لقد دخلت أخطار العامية وسمومها إلى مجامع اللغة العربية التي كان إنشاؤها بمثابة مقاومة لأخطار هذه الحملة، فقد تبنت بعض المجامع تعديل (مناهج النحو) وتبديل الخط العربي، وما يسمى «تطوير» قواعد الصرف والبلاغة. وهي محاولات استهدفت هدم اللغة العربية على المدى البعيد من خلال حصونها الأساسية، وتجرى هذه المحاولات على نهج الأبحاث الغربية التي تنقل نقلاً دون تقدير للفوارق البعيدة العميقة وبين لغات الغرب كلغات مستحدثة لا تزيد أعمارها عن أربعمائة عام، وبين اللغة العربية التي تبلغ خمسة عشر قرناً من الزمان. وقد أغضت هذه الدعوة الطرف عن عامل هام وخطير في محاولات التطور واستحالتها بالنسبة للغة العربية، وهو القرآن الكريم الجامع لأصول هذه اللغة، والحافظ لها. ذلك أن اللغة العربية ليست ملك العرب وحدهم ليتصرفوا فيها على هذا النحو أو غيره، ولكنها ملك لأصحاب الفكر الإسلامي أنفسهم.

وفي هذا يقول العلامة مصطفى صادق الرافعي: «إن في العربية سراً خالداً هو هذا الكتاب المبين (القرآن) الذي يجب أن يؤدى على وجهه العربي الصحيح، ويحكم منطقاً وإعراباً بحيث يكون الإخلال بمخرج الحرف الواحد فيه كالزيغ بالكلمة عن وجهها، وبالجملة عن مؤداها، وبحيث يستوي فيه الخفي واللحن الظاهر. ثم هذا المعنى الإسلامي (الدين) المبني على الغلبة، والمعقود على أنقاض الأمم والقيم على الفطرة الإنسانية، حيث توزعت وأين استقرت.

فالأمر أكثر من أن تؤثر فيه سورة حمق أو تأخذ منه كلمة جهل. إنما القرآن جنسية لغوية تجمع بين أطراف النسبة إلى العربية، فلا يزال أهله مستعمرين به متميزين بهذه الجنسية حقيقة أو حكماً. ولولا هذه العربية التي حفظها القرآن على الناس، وردهم إليها، وأوجبها عليهم لما

اطّرد التاريخ الإسلامي، ولا تراخت به الأيام إلى ما شاء الله، ولما تماسكت أجزاء هذه الأمة.

### ٥ - التحدّيات في وجه الأدب العربي

وكذلك واجه الأدب حملة تغريبية، لإخراجه عن خصائصه ومقوّماته، وتحكيم مناهج النقد الغربي فيه، وسيطرتها عليه. وبذلك جرى إبعاد أعظم فصوله، وأبرع قيمه في ظل المقاييس الأوروبية الوافدة، وحجزه في دائرة شعر الغزل والمجون وأدب المحسنات اللغوية من بديع وجناس، وإدارة مضامينه وتاريخه وتطوره حول هذه الفنون وحدها بعد إبعاد الأدب الرصين الأصيل من كتابات الغزالي وابن تيمية وابن حزم وابن القيم وعشرات غيرهم، ووصف هذه الآثار بأنها فقه أو فلسفة أو علم. ولقد أدخلت حركة التغريب في مجال الأدب العربي عديداً من النظريات الوافدة والمفاهيم الدخيلة غير المحررة بما يخالف طابع هذا الأدب وذاتيته ومزاجه النفسي وكان من أبرز هذه الدعوات الضالة (محاولة عزل الأدب عن الفكر العربي الإسلامي جملة وإعطائه الحرية في الحركة خارج دائرته) وذلك باسم المنهج الغربي الذي يسمح للأدب أن يقارف أساليب الكشف والإباحة دون أن يرى في ذلك حرجاً على قيم المجتمعات، وهو ما يتعارض تماماً مع منهج الأدب العربي المستمد من الفكر الإسلامي. وقد كانت نظرية (لا أخلاقية الأدب) من أخطر النظريات التي فرضت على الأدب العربي الحديث مستمدة من الأدب الأوروبي ذي المصادر اليونانية الوثنية الإباحية، مما لا يتفق مع طبيعة النفس العربية، وليس في مجتمعنا، وبالتالي في أدبنا صورة (تأسيس) مثلا في المتاجرة بالغرائز في ظل الرهبانية، أو تمجيد الوثنية والأبيقورية واللاأدرية.

ومما أدخلته أساليب الأدب الغربي الوافدة وضع القرآن الكريم تحت سلطان النقد، والقول في أساليبه في الضعف والقوة على النحو الذي عرفه الغرب بالنسبة للتوراة. وقد فشل الدعاة إلى مثل هذا اللون. فقد

كانت التوراة في نظر نقاد الأدب تراثاً شعبياً ولم تكن كتاباً منزلاً، بينما القرآن الكريم ليس كذلك، بل هو النص الموثق المنزل الذي لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه، والذي ليس هو بمثابة «أدب» كتبه قلم من أقلام البشر حتى يمكن أن يخضع لمناهج النقد.

ولقد كان الأدب العربي دائماً هادفاً وواقعياً وأخلاقي النظرة، وكان واضحاً في دلالاته بعيداً عن الغموض أو الرمز. فقد نشأ في آفاق مفتوحة، بعيداً عن الظلام والأضواء والغيوم والعواصف التي لوّنت الآداب الأوروبية بألوان الخيال والأساطير، وأبعدتها عن الواقعية والوضوح الذي عرف به الأدب العربي. ولقد سقطت مختلف النظريات التي حاولت أن تصور النفس العربية من خلال الكتب الزائفة التي كتبت تحت سلطان الشعوبية الفكرية التي أثارتها الباطنية الفارسية القديمة والمجوسية، ومختلف فلسفات الهند واليونان. وسقطت دعوى المدعين في جعل أمثال ألف ليلة وليلة أو الأغاني أو الشعر المنسوب إلى عمر الخيام من مصادر النفس العربية أو المجتمع الإسلامي [1].

كما سقطت فكرة عزل الأدب العربي عن الفكر الإسلامي أو محاكمته بعيداً عن الشمول والتكامل بحسبانه جزءاً من أجزاء هذا الفكر ينبع في مجموعة من القيم الأساسية، ويتجاوب معها، ولا ينفصل عنها أو ينحرف.

وقد كان العلامة محمد أحمد الغمراوي من أبرز من تصدوا لمثل هذه النظريات الوافدة، فدعا إلى أن تتحقق بين الفن والأدب وبين الدين (أي الإسلام) تلك الوحدة المتحققة بين الدين والعلم. ذلك أن العلم والدين اجتمعا على استحالة التناقض في الفطرة. فإذا كانت (الفنون والآداب) من روح الفطرة وجب ألا تخالف أو تناقض دين الفطرة: دين الإسلام في شيء، فإذا خالفته في أصوله ودعت صراحة أو ضمناً إلى رذيلة من أمهات الرذائل التي جاء الدين لمحاربتها، وعاقت الإنسان

(١) حررنا هذه الشبهات بتوسع في كتابنا (خصائص الأدب العربي).

أن يعمل بالفضائل التي جاء الدين لإيجابها على الإنسان حتى يبلغ ما قدر له من الرقي في النفس والروح، إذا خالفت الفنون الدين في شيء من هذا أو غير هذا فهي بالصورة التي تخالف بها الدين فنون باطلة، فنون جانبت الحق وأخطأت الفطرة التي فطر الله عليها الناس والخلق.

وإذا كان من شأن من يعمل أو يكتب باسم الفن والأدب أن يتجاوز في تأثيره ما بيّنا، فيحول بين الإنسان وربه، ويدخل عليه الشك في دينه في أية صورة من الصور، ولأي حدّ من الحدود، فكان ذلك البعض المعمول أو المكتوب باسم الفن أو باسم الأدب زوراً وإفكا. ولذلك لا بد أن يكون بين الفن والأدب وبين الإسلام تمام التطابق والاتفاق.

### ٦ ـ التحدّيات في وجه التاريخ العربي الإسلامي

جرت المحاولات على صياغة مناهج لنقد التاريخ العربي الإسلامي تختلف عن طابعه وجوهره الأصيل. فقد حاول دعاة التغريب عرض التاريخ الإسلامي على مذاهب مادية واقتصادية بعيدة كل البعد عن التعرف إلى مضمونه ومداه. ولذلك فقد عجزت هذه المذاهب عن أن تفهم التاريخ الإسلامي العربي فهماً صحيحاً. وكانت في نفس الوقت عاملاً سيئاً في انتقاص هذا التاريخ، ووضعه موضعاً بعيداً عن حقيقته.

والواقع أن التاريخ الإسلامي يجب أن يفسر على أساس النظرة الإسلامية. وكل تفسير يقوم على غير هذا الأساس ضرب من الخطأ العلمي لا يجوز أن يرتكبه باحث جاد أو مؤرخ يبتغي وجه الحق وحده.

والواقع أن منهج البحث الغربي يقوم على أساس تجزئة الكون والطبيعة، والفصل بين العلم والدين، ويبرز ذلك في مؤلفات مشاهير الغرب من أمثال: كولن ولسن وغيره. أما منهج البحث الإسلامي

فيقوم على أساس وحدة الكون وانسجام قوى الطبيعة واتساقها. وأن الإسلام هو النظام الوحيد الذي يحقق هذا الانسجام لأنه يجمع بين الروح والجسد في نظام الدين، والسماء والأرض في نظام الكون، ويسلكها في طريق واحد هو: الطريق الى الله، وأن الإسلام وحده هو الذي يجمع بين العلم والدين في وحدة تامة غير متنافسة [١].

ويكشف الباحث الغربي المسلم (ليوبولد فابس) الفرق بين وجهة النظر الإسلامية والغربية فيقول: إن وجهة النظر الإسلامية مخالفة على كل حال لوجهة النظر الغربية الآلية. إذ إن الإسلام يعتبر وجود الإمكان الروحي لمجموع البشر بصفة كاملة. أي أنه شيء وضع في بناء الطبيعة البشرية، ولا يسلم أبداً كما يفعل الغرب بأن الطبيعة تخضع لعملية تبدل ارتقائي كالذي يحدث للشجرة في نموها، ذلك لأن أساس تلك الطبيعة (أي النفس الإنسانية) ليس كمية عضوية فحسب. والخطأ الأساسي في التفكير الأوروبي الحديث ناتج عن اعتبار التزايد من المعرفة المادية، ومن الرفاهية مرادفاً للترقي الإنساني الروحي والأدبي. وذلك يقوم على جحود الغربيين لنفس مفارقة للمادة منفصلة عنها ومخالفة لها. أما الإسلام الذي بني على أوجه من الإدراك المطلق، فإنه يعتبر وجود النفس حقيقة لا تقبل النقاش.

ويظهر أهم أوجه الخلاف بين المنهجين، في أن الفكر الغربي يبعد إبعاداً كاملاً الجانب الروحي، ويكتفي بالمادي فقط، بينما يجمع الفكر الإسلامي بين الروح والمادة، وبالإضافة إلى هذا الانحراف فإن الغربيين ينظرون إلى أنفسهم أنهم محور العالم.

ويقارن (الفرد كانتول سميث) في كتابه «الإسلام في التاريخ الحديث» بين إحساس المسيحي والهندي والماركسي والمسلم تجاه التاريخ فيقول بالنسبة للمسلم: «التاريخ في نظر المسلم هو سجل المحاولة البشرية الدائمة لتحقيق ملكوت الله في الأرض، ومن ثم فكل عمل، وكل

(١) عن بحث للأستاذ أحمد نصيف الجنابي.

شعور فردياً كان أو جماعياً ذو أهمية بالغة، لأن الحاجز هو نتيجة الماضي والمستقبل متوقف على الحاضر. فالمفهوم الإسلامي واضح الإيجابية».

ويرى أليان وايد غراي أن وجهة نظر المسلمين للتاريخ هي نظرة بناءة، وهي قائمة على التطابق بين إرادة الإنسان وإرادة الله.

ويعارض كثير من الباحثين النظرية الأوروبية في تفسير التاريخ الإسلامي، وفي مقدمتهم العلامة: تريتون في كتابه (الإسلام: عقيدته وعبادته) فيقول: «إذا صح في العقول أن التفسير المادي يمكن أن يكون صالحاً في تعليل بعض الظواهر التاريخية الكبرى، وبيان أسباب قيام الدول وسقوطها، فإن هذا التفسير المادي يفشل فشلاً ذريعاً حين يرغب في أن يعلل وحدة العرب وغلبتهم على غيرهم، وقيام حضارتهم، واتساع رقعتهم، وثبات أقدامهم، فلم يبق أمام المؤرخين إلا أن ينظروا في العلة الصحيحة لهذه الظاهرة الفريدة، فرأوا أنها تقع في هذا الشيء الجديد ألا وهو الإسلام».

والواقع أن الذين يعملون في حقل التاريخ الإسلامي في الغرب، في الأغلب هم كتاب استعماريون، أو خصوم في العقيدة، أو من الصهيونيين، وكل هؤلاء لا يرون في التاريخ الإسلامي إلا أنه شر كبير. ومن هنا تجيء محاولاتهم لإثارة الشبهات حوله وربطه بالنظريات التي لا تحقق تقديره تماماً.

ويقول الدكتور عبد العزيز الشناوي في هذا الصدد: إن من أعلام المؤرخين (الأوروربيين) من يكمن في كتاباتهم روح التعصب والحقد والكراهية لكل ما هو شرقي، ولكل ما هو غير مسيحي، وهؤلاء لا يكشفون في معظم الأحوال عن هذه الروح جهازاً، ولكنها تبدو من ثنايا السطور.

ولقد حاول جرجي زيدان في مجال تاريخ التمدن الإسلامي أن يثير

عدداً من الشبهات التي رددها المستشرقون من أجل تزييف التاريخ الإسلامي، وهدم جوانبه القوية مع الإعراض عن أسباب العظمة فيه، والتوسع في جوانب الضعف. ومن أخطر ما ردده اتهام العرب بحرق مكتبة الإسكندرية. وقد واجهت كتابات جرجي زيدان نقداً صريحاً علمياً كشف أخطاءها وأهواء صاحبها.

وكذلك جرى كثير من المؤرخين على إعلاء النزعة الإقليمية التاريخية بتمجيد صفحات التاريخ القديم الوثني كالفرعونية والفينيقية وغيرهما، ومحاولة إعلاء طابع الوطنية منعزلا عن وحدة التاريخ العربي الإسلامي. وقد كان للاستعمار والنفوذ الغربي في ذلك أبعد الأثر في محاولة تجزئة العالم الإسلامي وإثارة الخلافات بين شركاء اللغة والثقافة والجنس.

كما ذهب كثير من المؤرخين إلى إثارة النقد للجوانب القوية في التاريخ الإسلامي، وانتقاص كثير من أعلام الإسلام والعرب وبطولاتهم، وإشاعة الريبة، وتوسيع شقة الخلاف بين الصحابة والتابعين، وإنكار شخصيات تاريخية لها دورها الخطير مثل إنكار طه حسن لشخصية عبد الله بن سبأ، ودوره في تمزيق جبهة المسلمين. وكذلك الاعتماد على مصادر زائفة أو مشكوك فيها[٢].

### ٧ - التحديات في وجه الفلسفات

منذ بدأ الغزو الاستعماري حملت الصحف لواء الدعوة إلى الفلسفة اليونانية القديمة، والفلسفة الغربية الحديثة، وحاولت أن تربط بين الإسلام وفلسفة اليونان. وعندما بدأت الدراسة في الجامعة المصرية وضع المستشرقون تعريفاً للفلسفة العربية أو الإسلامية بأنها الفلسفة اليونانية مكتوبة باللغة العربية، واستعملوا في ذلك نصوصا لرينان وغيره كان الهدف منها تصوير المسلمين والعرب، وليس لهم فلسفة خاصة أو منهج فكري معين، وإنما هم مرحلة من مراحل الفلسفة اليونانية القديمة كانوا

(١) راجع ذلك بتوسع في كتابنا (المساجلات والمعارك الأدبية).

حفظة هذه الفلسفة اليونانية حتى أسلموها للفلسفة الغربية الحديثة، فلم يزيدوا عن أن يكونوا مرحلة انتقال في العصور الوسطى التي توقفت فيها الحضارة الأوروبية بين سقوط روما سنة ٤٠٠ ميلادية، وظهور النهضة ١٥٠٠ ميلادية.

ثم جاء لطفي السيد بعد الحرب العالمية الأولى، فتصدر ترجمة الفلسفة اليونانية، وترجم لأرسطو. وردد ما قاله الغربيون عن شأن العرب والمسلمين في الفلسفة إلى أن ظهرت الحقائق الساطعة. وانكشف زيف هذه الدعوى بظهور المدرسة المنصفة التي حققت هذا الأمر، وأعلنت موقف الفكر الإسلامي من الفلسفة اليونانية، ودوره في إنشاء فلسفة خاصة تستمد وجودها وكيانها من الإسلام نفسه متصلا بالنفس العربية وقائمة على مفهوم الحضارة الاسلامية ومضمونها الذي يختلف كل الاختلاف مع الفلسفة اليونانية والغربية على السواء.

ولقد جاء ذلك أيضا رداً على ذلك الاتهام الذي روجته دوائر التغريب والغزو الثقافي بإنكار أثر الفكر الإسلامي في الحضارة الغربية، حيث لم يلبث أمثال جوستاف لوبون وتوماس كارليل، وعشرات غيرهم أن أعلنوا في صراحة ذلك الدور الضخم البارع الذي قام به الفكر الإسلامي في بناء منهج المعرفة وإنشاء المنهج العلمي التجريبي الذي صاغت عليه أوربا الحضارة الحديثة.

ولقد أوضحت الدراسات المنصفة كيف أن الفكر الإسلامي قد تشكل في طابعه الأصيل المتكامل من خلال القرآن نفسه، وأنه تعرف إلى الفلسفة اليونانية بعد أن قعدت قواعده، وأقيمت قوائمه، فهي لم تضف إليه شيئا، وإن كانت قد حاولت أن تخرجه عن مضمونه وجوهره القائم على أساس التوحيد، ولما كان القرآن هو أساس الثقافة العربية، والفكر الإسلامي، فقد رفض من الفكر الهليني الوثنية، والتماثيل والصور وتعدد الآلهة.

كما رفض الفكر الإسلامي رأي أرسطو في الله، واعتبر ما قام به

ابن سينا والفارابي والكندي مجرد محاولات للتقريب بين أصول الفكر الاسلامي، وبين الفكر اليوناني. غير أن هذه المحاولات لم تحقق شيئاً ولم يلبث المفكرون المسلمون أن أقاموا مفهومهم الفكري الكامل بعيدا عن منطق أرسطو. بل لقد بلغوا أبعد من ذلك عندما هاجموا هذا المنهج الفلسفي، وعارضوه بمنطق القرآن الكريم، كما فعل ابن تيمية.

ولقد واجه الفكر الإسلامي تراث اليونان، فنظر فيه نظرة النقد والمراجعة، فقبل من نصوصه ورد، ثم شكل هذه النصوص مرة أخرى وفق جوهره ومنطقه، وفي ضوء آيات القرآن الكريم الداعية إلى النظر في الكون حتى استوى عملهم. هذا منهج جديد لم يعرفه اليونان، قام أساسا على أساس التجربة التي لم يعرفها اليونان أصلا. وقد أشار المفكرون المسلمون إلى أن الخلاف كان جذريا بين الفلسفة اليونانية والفكر الإسلامي في نقاط كثيرة أهمها أن معرفة اليونان بالنجوم كانت خرافات في الأكثر، ومحاولات في الأقل. وقد شكل المسلمون من النظر في النجوم علماً صحيحاً، وأنكروا خرافاته. وإذا كان المسلمون قد أخذوا (الجبر) من اليونان في درجته الأولى. فقد بلغوا به إلى (الدرجة الثانية) وأن المسلمين هم الذين استعملوا الأرقام الحسابية بما فيها الصفر، فتمكنوا من بناء المعادلات البسيطة والمركبة.

وقد انتقد الجاحظ أرسطو، وأنكر الغزالي على اليونان أن يكون في السماء حيوان، وأن تكون للكواكب أنفس. ولقد بلغت فتنة (الإغريقية اليونانية الهلينية) مدى بعيدا في الفكر الإسلامي والثقافة العربية، ودعا دعاتها من التغريبيين إلى تدريس اللغتين اللاتينية واليونانية في الجامعات، وحرضوا على ترجمة القصص اليونانية. وذلك في محاولة خلق علاقة ولاء تاريخية بين المسلمين والعرب، وبين الثقافات اليونانية الوثنية الملحدة. غير أن المدرسة التي بدأها مصطفى عبد الرازق، وامتدت في تلاميذه، وعلى رأسهم الدكتور سامي النشار قد استطاعت أن تحرر الثقافة العربية والفكر الإسلامي من هذا الزيف، وأن ترد

الأمور إلى أصولها.

وترى هذه المدرسة أن ما يطلق عليهم فلاسفة الإسلام (الكندي والفارابي وابن سينا وابن رشد) ليس إلا امتداداً فكرياً للمدرسة اليونانية للفلسفة، وأنهم كانوا دوائر منفصلة عن تيار الفكر الاسلامي الأصيل، لفظهم المجتمع الإسلامي، وأعلن أنهم لا يمثلونه في شيء، وأن الفلسفة الإسلامية الحقيقية إنما تتمثل في كتابات علماء أصول الدين (المتكلمين) وعلماء اصول الفقه (الاصوليين) وأن الفكر الإسلامي عامة لم يقبل المنطق اليوناني على الإطلاق، وكان له منهجه الخاص في العلوم العقلية واللغوية. بل والعلوم العلمية أيضاً هي التي تشكلت في صورة «المنهج التجريبي الإسلامي» الذي سبق المسلمون به الأوروبيين. وقد تأكد في ظل هذا التحقيق العلمي كله دور المسلمين في الحضارة والفكر الإنساني بأنهم لم يكونوا عالة على اليونان، ولم يكن فكرهم الفلسفي موصول الوشائج بالفكر اليوناني، ولم يكن المسلمون أبداً صورة من صور اليونان حقيقة أو مشوهة. بل كان لهم الكيان المستقل والينبوع الذي تفجر منه النورالمشرق الذي سطع في أوروبا عبر أسبانيا وصقلية هذا النور العظيم الذي انبعث أساساً من الأصل الإلهي العظيم (القرآن) على يد الرسول الأعظم محمد بن عبد الله.

* * *

ولقد كان للثقافة العربية موقفها من تحديات التغريب في إنكار دور العرب والمسلمين في بناء الحضارة والعلم. فقد استطاعوا أن يصلوا إلى مقطع الحق في ذلك بعد أن برز علماء غربيون حملوا لواء المؤاخذة لكتابهم المتعصبين الذين أنكروا فترة الألف عام الإسلامية بين سقوط الحضارة الرومانية، وظهور الحضارة الحديثة مما أطلق عليه في الغرب «العصور الوسطى المظلمة» وفي ذلك يقول العلامة بريفولت:

«إن ما يدين به علمنا لعلم العرب ليس فيما قدموه إلينا من كشوف مدهشة لنظريات مبتكرة، بل يدين هذا العلم إلى الثقافة العربية بأكثر

من هذا » .

## « إنه يدين لها بوجوده نفسه »

فالعالم القديم لم يكن للعلم فيه وجود ، وعلم النجوم عند اليونان ورياضياتهم كانت علوما أجنبية استجلبوها من خارج بلادهم، وأخذوها عن سواهم، ولم تتأقلم في يوم من الأيام، فتمتزج امتزاجا كليا بالثقافة اليونانية . وقد نظم اليونان المذاهب، وعمموا الأحكام، ووضعوا النظريات . ولكن أساليب البحث وجمع المعلومات الإيجابية والمناهج التفصيلية للعلم والملاحظة الدقيقة المستمرة والبحث التجريبي، كل ذلك كان غريبا عن المزاج اليوناني، ولم يقارب البحث العلمي نشأته في العالم القديم إلا في الإسكندرية في العهد الهليني .

أما ما ندعوه العلم فقد ظهر في أوروبا نتيجة لروح من البحث جديدة، ولطرق من الاستقصاء مستحدثة لطرق التجربة أو الملاحظة والمقاييس، ولتطور الرياضيات إلى صور لم يعرفها اليونان . وهذه الروح وتلك المناهج العلمية أدخلها العرب إلى العالم الأوروبي .

« إن روجر بيكون درس اللغة والدين والعلم العربي والعلوم العربية في مدرسة اكسفورد على خلفاء معلمين في الأندلس، وليس لروجر بيكون، ولا لسميه ( فرنسيس بيكون ) الذي جاء بعده الحق في أن ينسب إليهما الفضل في ابتكار المنهج التجريبي، فلم يكن روجر إلا رسولاً من رسل العلم، والمنهج الإسلامي إلى أوروبا المسيحية، وهو لم يمل قط من التصريح بأنه يعلم معاصريه أن اللغة العربية وعلوم العرب هما الطريق الوحيد لمعرفة الحق » . هذه الشهادة ليست الأولى، وليست هي الأخيرة فقد فتح باب الكشف عن دور المسلمين والعرب حتى لم يعد لتلك الشبهات المخزية التي رددها بعض كتابنا التابعين للفكر الغربي، والموالين للتغريب لم يعد لها إلا أن تكشف عن خديعتهم وتضليلهم .

لقد كان التعليم وكانت التربية من أخطر المناهج الثقافية التي تعرضت لخطر التغريب والتزييف، فقد كان الاستعمار يعرف أنها الباب الأول والأكبر لتركيز نفوذه. ولذلك فقد عمد إلى إنشاء المدارس الأجنبية، وسمح للإرساليات التبشيرية بأن تركز نفوذها، وتحتوي أبناء المسلمين والعرب في معاهدها التي كانت قد أعدت مناهج غاية في الخطورة، ثم انتقلت هذه المناهج بفضل النفوذ الاستعماري إلى المدارس الوطنية التي كانت تحت إشراف الاستعمار.

وكان الهدف هو القضاء على اللغة العربية والتاريخ والإسلام والقرآن وتزييف كل معالم هذه الثقافة العربية الإسلامية، والغض من قدرها وإثارة الشبهات حولها، وتغذية الشباب المتعلم العربي الإسلامي بجوانب معينة من الثقافة الغربية أعدت على نحو خاص تستهدف أمرين:

الأول: إخراج الشباب المسلم العربي من قيمه ومجتمعه، وتحقير كل صور هذا المجتمع العربي الإسلامي وتراثه ولغته.

الثاني: إعلاء شأن الدولة المحتلة وتاريخها وبطولاتها ولغتها، وخلق جو من التبعية والولاء الفكري والروحي بين أبناء الأوطان العربية الإسلامية، وبين الدول المحتلة المستعمرة، ومحاولة تصوير هذه العلاقة بأنها صداقة في ظل وحدة الفكر العالمي، أو وحدة الثقافة البشرية إلى غير ذلك من أساليب المغالطات والتمويه. وكان الهدف من وراء ذلك تذويب الثقافة العربية في بوتقة الفكر الغربي المستعمر وإزالة عوامل القوة والمقاومة والإيمان بحق الأمم في حرياتها وقيمها ومفاهيمها.

ولقد قاست الثقافة العربية نتيجة هذه التحديات التي واجهت التعليم والتربية نتائج بعيدة المدى كان أشدها خطراً اعتماد أساليب التربية الغربية والتنكر لأساليب وأصول التربية العربية الاسلامية القائمة على الدين

والخلق، وعلى الإيمان وعلى كلمة القرآن وعلى البلاغة العربية والقيم الروحية والفكرية والاجتماعية الإسلامية.

ولقد ترددت دعوة المصلحين، ورجال حركة اليقظة العربية الإسلامية، ولم تتوقف لتحرير مناهج التربية والتعليم من خطر الزيف الغربي الوافد الذي أفسد معالم النفس العربية والعقل العربي إفساداً شديداً إذ ربطه بفكر آخر له مقوماته وذاتيته وطبيعته المختلفة بل المتباينة.

ودعت هذه الصيحات إلى الاستقلال الثقافي الذي لا يعني كراهية الثقافات الأجنبية، ولكن يدعو إلى الاقتباس منها على ضوء حاجة الأمة، وشخصية الإنسان العربي ومقومات فكره. ذلك أن التقليد الغربي في مجال التربية والثقافة من شأنه أن يقضي على الشخصية والذاتية، ويفنيهما في الطابع الأجنبي. ولقد أشار المصلحون إلى أن نظام التعليم في أي بلد لا يكون نظاماً قائماً بذاته يعمل بمفرده مجرداً عن النظم الاجتماعية السائدة في البيئة التي ينتسب إليها، وإنما يكون جزءاً من مجموعة النظم الاجتماعية الخاصة بتلك البيئة، وهو يعمل معها، ويؤثر فيها ويتأثر بها على الدوام.

فإذا انتقل هذا النظام التعليمي إلى بلد آخر، منفصلاً عن سائر النظم التي ترافقه في منشئه الأصلي فإنه سوف لا يعطي أية نتائج إيجابية أو مماثلة(١).

ولقد تصارع نفوذ التعليمين الفرنسي والانجلو أميركي في البلاد العربية، وأحدث انقساماً فكرياً مزعجاً بين المثقفين. بل أحدث ولاءً مزدوجاً خطيراً، فضلاً عن أنه أبعد اللغة العربية، وأحيا على حسابها اللغتين الإنجليزية والفرنسية، مما أعان دعاوى المستشرقين والمبشرين في الهجوم على اللغة العربية ومحاولة إذاعة العاميات في العالم العربي.

وكانت مدارس الإرساليات في معظم أجزاء البلاد العربية خاضعة

---

(١) بتصرف عن رأي بعض خبراء التربية والتعليم.

لنفوذ الاستعمار، متحررة من الرقابة بحكم سطوة الامتيازات الأجنبية. ومن هنا فقد استطاعت أن توجه خريجيها توجيهات مسمومة خاضعة للاستعمار والصهيونية.

وقد شهد هاملتون جب المستشرق الإنجليزي المعروف أن إنماء التعلم تحت الإشراف الإنجليزي في مصر والهند، جعل نصيباً من الحق للتهم التي ترمي بها المدارس الأجنبية من أنها مفسدة لقومية التلاميذ فقد ربت في التلاميذ خروجاً على الأنظمة الاجتماعية.

وأشار سير بانيكار إلى هذا الأثر في كتابه (مشكلات الدول الآسيوية والأفريقية) حين قال:

لم يكن من مصلحة الاستعمار أن تروج تربية حيوية تدعو إلى الانطلاق، كان يراد التقليل من قيمة الثقافة الوطنية، وتمجيد فضائل السيد الأجنبي، وإبراز أهداف التربية الاستعمارية، وإثارة الروح الانهزامية في نفوس المواطنين لتتمكن من التحكم بهم وبجيرانهم دون عناء كبير.

غير أن المسلمين والعرب واجهوا هذه المدارس بعمل ضخم في مجال التعليم، وهو إنشاء المدارس الأهلية والوطنية الإسلامية العربية، وكانوا قادرين على استيعاب أكبر قدر من الشباب، واستطاعت الأصالة العربية الإسلامية أن تتحكم في نفوس عدد كبير من الذين تلقوا دراساتهم في الغرب وفي هذه المعاهد ليفهموا الحقائق، ويعودوا إلى المنابع، ويلتمسوا ذاتيتهم وفكرهم الأصيل، وأن يتحرروا من سلطان الغرب وسلطان التغريب، ويعملوا على خلق فكر عربي حر قائم على الأسس العربية والأمجاد والقيم الإسلامية، وتحطمت إلى حد كبير محاولة الغزو الثقافي في تدمير الذاتية العربية الإسلامية عن طريق التربية والتعليم.

## ٩ - اتخاذ النظام الديمقراطي الغربي أسلوباً سياسياً للبلاد العربية

كانت دعوة التغريبيين منذ بدأ الاحتلال الغربي هي: اتخاذ النظام الليبرالي الديمقراطي الغربي أسلوباً سياسياً للبلاد العربية.

وكان لطفي السيد وسعد زغلول وعبد العزيز فهمي على رأس هذا النظام. وذلك بإنشاء الدستور والنظام البرلماني الذي أثبت فشله فشلاً ذريعاً بعد ثلاثين عاماً. وهو النظام الذي ما زالت بعض أقطار العالم العربي تأخذ به، وتسير عليه، وليس من ريب أن هذه الأنظمة الوافدة قد بدت متعارضة مع طابع النفس العربية، والمزاج الاجتماعي الإسلامي.

وكذلك بدت التحديات في مجال علم النفس والأخلاق والنظريات الاجتماعية والاقتصادية بحيث استوعبت مختلف فروع الثقافة العربية والفكر الإسلامي، واستجاشت النفس العربية بالدليل الصحيح، ووجهة النظر الصائبة في مواجهة كل هذه النظريات، فلم تدع قضية من هذه القضايا دون أن تقول فيها الرأي الصحيح، ووجهة النظر العربية الأصيلة المستمدة من مضامين الفكر الإسلامي.

وعجزت كل هذه المحاولات عن استيعاب العربية أو احتوائها أو إذابتها في أتون الفكر العالمي الذي يتطلع الاستعمار إلى إذابة الأمم فيه، وخاصة الأمة العربية الإسلامية ذات المنهج الأصيل المفرد المختلف في جوهره اختلافاً بيناً عن جميع الفلسفات البشرية المعروفة، والذي يقوم أساساً على التوحيد، ويستمد منهجه من القرآن الكريم: النص الموثق الذي لم يحرف، ولم يأته الباطل.

وسيطول الصراع بين تحديات التغريب، وبين أصالة الثقافة العربية، ولكن حركة تصحيح المفاهيم ستظل قادرة دوماً على تحرير القيم الأساسية من كل زيف.

# البِنَاء عَلىَ أسَاسٍ

## ١ - البناء على الأساس

ما يزال الفكر العربي متميزاً بقيمه ومفاهيمه وأسسه الواضحة منذ أن استكمل هذا الفكر تكوينه، وقد كونته وصنعته: الأمة واللغة والإسلام، وسيظل كذلك واضح الشخصية، مستقلاً، تعجز كل القوى عن أن تذيبه أو تنفيه أو تقضي عليه.

وترجع هذه القدرة على البقاء إلى أصالته ومرونته وحيويته وانفتاحه على الحركة والأخذ والعطاء، وطبيعته السمحة غير المعقدة، التي تلتقي بالثقافات والحضارات، فتأخذ منها وتدع، وتتجاوب معها، دون أن تفقد مقوماتها الأصيلة أو تنحرف أو تنحاز، أو تنطوي، أو تصهرها بوتقة أية ثقافة أو حضارة. وقد أكد تاريخه الطويل هذه الظاهرة، وأصبحت بالتجارب المتعددة من لقاء الثقافات والحضارات المتوالية خلال أكثر من ألفي عام تكاد تشبه الحقائق الخالدة التي لا تختلف. ومن طبيعة الثقافات الغالبة دائماً أن تسيطر، وأن تستوعب ثقافات غيرها من الأمم في باطنها بغية أن تطوي هذه الأمم في نطاقها، ولكم انطوت ثقافات أمم مغلوبة في ثقافات غالبة، وضاعت مقومات فكر هذه الامم يوم هزمت لغتها وفكرها، إلا الفكر العربي. فقد كانت خصائصه قادرة دائماً على أن تتصل بالثقافات دون أن تفنى فيها. ولقد تزول الدولة والكيان السياسي بقدرة الغالب وسلطانه، ولكن لا تزول قيم الفكر ولا تنهار، وإن غلب عليها مع نفوذ المستعمر تحول وقتي في المفاهيم، ولكنها تظل مع ذلك تقاوم ولا تستسلم. وقد تضعف، ولكنها لا تموت.

ومن هنا سارع إلى تجديد أساليبه، وإبراز جوهره، وإعادة صياغة

قيمه على نحو جديد قوامه بعث المفاهيم الأصيلة، والكشف عن قدرتها على الالتقاء مع الحضارة والتطور والحياة.

ولقد واجه النفوذ الغربي هذا الفكر العربي في مرحلة من مراحل الضعف، ومن هنا استطاع وهو المسيطر بسلطانه السياسي والعسكري ونفوذه الفكري أن يؤثر في بعض المفاهيم، وأن يضعف بعض القيم، وأن يثير بعض الشبهات. ومن عجب أن الضربة لم تفقد الفكر العربي الوعي، بل كانت حافزاً له على الحركة ورد الفعل.

كان الغرب قد هاجم العالم العربي محتلاً مستعمراً، وفق خطة واسعة بعيدة المدى تهدف إلى السيطرة. وكانت خطته الجديدة في أوائل القرن التاسع عشر بديلاً لخطة الحروب الصليبية التي انتهت قبل ذلك بثماني قرون (١٢٩١ م) بهزيمة الغرب واندحاره. كان الباعث الظاهر هو البحث عن الخامات والأسواق، ومن وراء هذا الباعث التسلط الغربي وفق نظرية الرجل الأبيض ممدن العالم، وصاحب الحضارة، وعلى أساس نظرة الحضارة الرومانية بأن ما سوى أوروبا عبيد ومناطق استغلال.

ومن هنا كانت خطة الغزو الاستعماري تحمل طابع التفوق الحضاري واستعلاء الجنس، والتفرقة بين الشرق والغرب. وكان هناك إلى جانب مفهوم خاطيء متعصب. ذلك إيمان في أعماق النفس الغربية بإجلاء العرب والمسلمين عن مناطق كانت تابعة للغرب وللرومان ولأوروبا سيطر عليها العرب، وهي كل ما سوى الجزيرة العربية. وكان هناك إحساس عميق بأن هزيمة الحروب الصليبية، إنما كان مصدرها الفكر العربي أساساً. هذه القيم المؤمنة بالحرية والكرامة، والقادرة على المقاومة، ورد العدوان، ودحر الغاصب، والتي لا تقبل أبداً أن تذوب في غيرها من الثقافات، أو تعيش خاضعة مهما طال بها المدى. ومن هنا وضعت مخططات إخضاع العالم العربي بإخضاع فكره وتحويله عن مفاهيمه الأساسية، والقضاء على قيمه الأصيلة. وكانت هذه المعركة أشد ضخامة من المعركة في ميدان الحرب والسياسة، ذلك لأن معركة

القضاء على مقومات الفكر العربي كانت تعني بقاء النفوذ الأجنبي وسيادته، وسيطرته بعد انتهاء السلطان السياسي والعسكري جميعاً.

ومن هنا بدأت الحملة الضخمة التي شنها النفوذ الغربي ممثلاً في دعاته أمثال: كرومر، ودنلوب، ولا فيجري، وليوتي، وغورو. وعشرات غيرهم من ممثلي الاستعمار في العالم العربي، ومن ورائهم ويلكوكس ووليمور، وزويمر ممن حملوا لواء دعوات التغريب والشعوبية والتبشير، وأثاروا عشرات الشبهات حول العرب والإسلام واللغة العربية والقرآن الكريم والتاريخ والتراث.

ولقد واجه الفكر العربي ممثلاً في أقلام أعلامه ودعاته هذه الحملة البعيدة عن منهج العلم والقائمة أساساً على التعصب والتحدي وراءها ذلك الهدف البعيد الذي صورنا. واجهها الفكر العربي في سعة أفق وسماحة طبع واستعلاء عن الهجاء والحقد والتعصب، وكشف عن حقيقة موقفه من كل شبهة تثار. غير أن معركة التغريب لم تتوقف، وهي تتحول بمضي الزمن في صور مغايرة، وتصطنع أساليب جديدة، ومن حق الفكر العربي أن يواجهها دائماً، ولا يتوقف عن «تصحيح المفاهيم» التي يريد التغريب والشعوبية فرضها في ظل تطور الأمة العربية القوي الناهض المندفع اليوم إلى آفاق القوة والحرية.

ورسالة تصحيح المفاهيم في اعتقادي هي اليوم عمل أساسي، ما دام يقوم على أساس مستنير، يستهدف الغاية العليا التي ترمي إلى وحدة الأمة العربية، والتقائها في طريق فكري واضح المعالم، بعيداً عن شبهات التغريب وأهواء الشعوبية. ذلك أن من أكبر الأعمال التي تحمي نهضتنا اليوم، هي حماية الفكر العربي من حملات تحويله من «مقوماته الأساسية» في ظل اندفاعنا القوي في ركب الحضارة العالمية، أن إيماننا بالحركة والتطور والتجدد لا حدّ له، وإيماننا بثورتنا التحررية العربية التقدمية أكيد وصادق.

هذا إيمان نابع من مفاهيمنا الأصيلة، فنحن لا نتخلف ولا نتوقف في ركب الحياة. والحضارة في مفهومنا: إنسانية الأصل والطابع، وهي حظ مشترك بين الأمم، تخلفنا عنها فترة، ثم نحن نعود اليوم فنشارك فيها ونحمل أمانتها. ولقد كان لنا في ركبها دور، وفي بنائها أثر، وفي تطويرها عمل إيجابي واضح، ونحن اليوم لا ننكرها وإنما ننكر انحرافها، وحين نأخذها لا نأخذ فكرها، وإنما نأخذ ما يزيد شخصيتنا قوة وحياتنا إيجابية.

## ٢ - النقل والاقتباس

ونحن لا نقف إزاء التطور، بل نمضي معه في وعي بكياننا ومكاننا وشخصيتنا وقيمنا. كل شيء نقبله نستطيع أن نصوغه في بوتقتنا، فنحن أولاً نفرق بين الثقافة والحضارة، فالثقافة فكر، والحضارة مادة، وليس ضرورياً أن نمارس الثقافة إذا مارسنا الحضارة. وفكر الغرب (بجزئيه الغربي والماركسي) يتسم بالمادية، ولعله اتخذ الطابع المادي نتيجة لامتزاج مفاهيم الكهنوت مع وثنية الإغريق، ووقوف الكنيسة إزاء النهضة دون فهم حقيقي لمدلول الدين، أو طبيعة المسيحية الأصيلة. أما فكرنا (العربي الإسلامي) فلم يقف أمام أي تطور. وبه استطعنا في الماضي أن نقبل ما نشاء من الثقافات العالمية ونرفض. وهذه القدرة الديناميكية الحية لم تكن لنا إلا لأن لنا «أساس فكري» نؤمن به، ويملأ أعماق نفوسنا.

القاعدة في هذا الأساس أننا أمة لها طابعها وكيانها وشخصيتها ومقوماتها، وهي لا تتوقف عن النمو والتطور. وتفتح نوافذها على كل الثقافات لتأخذ منها، ولكنها تأخذ بحكمة وبصيرة ما يزيد شخصيتها قوة لا ما يمحو هذه الشخصية. إذا لم يكن هذا إيماننا فلا أقل من أن نقلد الغرب الذي جعله الكثيرون موضع القدوة فهو عندما نقل ثقافتنا العربية حولها إلى مجال فكره ولم يتحول معها.

إن نظرتنا إلى ثقافة الغرب، يجب أن لا تكون مقدسة، بل قابلة

للنقد . إن علينا أن نؤمن بشخصيتنا في مواجهة كل ثقافة أو حضارة، فنحن نؤمن بأنفسنا أولاً، وفي ظل هذا الإيمان نقبل أو نقتبس دون حرج، ولكن بوعي وحصافة. لن نكون تابعين، أو صورة منقولة للآخرين، فإننا إذا فعلنا ذلك فقدنا شخصيتنا بطابعها الواضح، ولم نصل إلى شخصية الآخرين، سنكون (لا إلى هؤلاء ولا إلى هؤلاء).

من حق إيماننا باستقلال شخصيتنا أن نأخذ ما نريد من أية ثقافة ونحوله إلى كياننا.

إن أساس قيمنا هو ارتباط الروح بالمادة، وامتزاج الدين بالفكر، وثقافتنا منذ ثلاثة عشر قرناً هي ثقافة مزدوجة فيها الإيمان والعلم، وهذا سر عظمة شخصيتنا، وقوة حيويتها وإيجابيتها. فإن الذين فصلوا الروح عن المادة، وأسقطوا حجاباً كثيفاً بينهم وبين هذا المزيج، واكتفوا بالقيم المادية قد غلبت على مجتمعهم الحيرة والقلق والاضطراب، وما زالوا يصارعون بين المذاهب من ماركسية ووطنية وعلمية وعنصرية وفوضوية ورأسمالية وجماعية وفابية وفاشية وفردية ودولية ليجدوا نموذجاً كاملاً لمجتمع ونظام، فلم يجدوا منذ القرن الخامس عشر شيئاً إلا مزيداً من الاضطراب والتجارب التي لا تنتهي إلى شيء. ذلك لأن عنصراً أساسياً ينقص الفكر الغربي والثقافة الغربية (بجزئيها الغربي والماركسي) ذلك العنصر هو ما عبر عنه كثيرون من الفلاسفة والمفكرين أمثال: اشبنجلر وهيجل وتوينبي: الروح، الدين.

وهذه أزمة الإنسان المعاصر، وأزمة الحضارة، ولا شك أن الحيرة والاضطراب الفكري الذي يمر به الفكر في الشرق هو نتيجة لهذا الصراع بين جزئي الفكر والحضارة، ومزيج الروح والمادة.

وليس اعتمادنا على قيمنا الأساسية معناه انفصالنا عن دائرة التطور أو الحركة الحية، إنما يقوم هذا العمل على «أساس» أن مقوماتنا كاملة

عريقة ذات تاريخ وفكر وحضارة، وهي التي ستعطي النور لطريقنا في رحلة الحياة، فإن هذه القيم لم تعقنا أبداً إزاء التطور والنهضة طوال القرون الأربعة عشر، بل لعلها هي التي أعطتنا القوة على الاستمرار والحياة، فلم نمت قط. فإن ضعفنا فترة أو جمدنا عن الحركة، فإنما كان مصدر ذلك تخلينا عن «مقوماتنا الأساسية».

* * *

فإذا عرفنا مدى ما يدبر لفكرنا «العربي الإسلامي» من مؤامرة للقضاء على مقوماتنا كأساس للقضاء على كيانها، استطعنا أن نعرف حاجتنا الكبرى إلى اليقظة والوعي، فإن كانت الجيوش الأجنبية قد جلت عن معظم أجزاء وطننا الأكبر، فإن جيوشاً ما تزال حية تصارع قد خلفها الاستعمار السياسي، وأعطاها قوة الحياة خلال فترة حكمه الطويلة التي استمرت منذ ١٨٣٠ تقريباً إلى اليوم.

هذه المؤامرة التي رسمها الغرب إنما تهدف إلى استمرار بقاء نفوذه في صورة أعوانه، ولا يبقى هذا النفوذ إلا إذا تحطمت القيم الأساسية لأمتنا، وحلت محلها قيم أخرى لن تجعلنا غربيين، بل خلقاً ممسوخاً لا هو من الشرق ولا من الغرب.

وتبدو صورة هذا العمل تحت لواء حركة «الشعوبية الفكرية» الجديدة في وطننا العربي الإسلامي. وهو غزو جديد ثقافي يقيم دولة «الاستعمار الفكري» وأساسها «تغريب الشرق» وتحمل هذه الحركة دعاوى: الحرية والتجديد والتقدمية. مثل هذه الألفاظ المطاطة التي لم تتحدد بعد دلالتها، وهي تسلك طريقاً سهلاً هو: تحطيم الماضي واعتباره تراثاً يدخل المتحف. وهذا رأيها في اللغة الفصحى والكتابة بالعامية والسخرية من القيم الروحية والدين، وهذا هو التحرر. وليس من شك في أن هذه الدعوة سهلة، تجد من يستجيب لها من شبابنا الذي لم يجد تكويناً روحياً في أسرته ولا مدرسته، والذي لم تتح له مناهج

التعليم «تربية» أصيلة. ومن هنا تستطيع هذه الصيحات المغرية بكلماتها البراقة - وقد أتيح لها البروز، وأعطتها الصحف في بعض عواصم العالم العربي فرصة الذيوع - أن تصل إلى الكثيرين، بينما لم يتح مثل ذلك للكلمة الموجهة. فالصحافة قد عرفت طريقها بعد الحرب العالمية الثانية، على أنها أداة إرضاء القارىء تعطيه ما يرغب فيه من متع وتسلية، وهي تفهم أن تلك وظيفتها، وأن ليس من عملها التوجيه أو التوعية الفكرية والثقافة إلا بقدر ميسور، ربما كان هذا التحديد بالذات لعملها مخالفاً لما كانت عليه من قبل، أو نتيجة لثقافات محرريها واتجاهاتهم ومفاهيمهم المرتبطة بالفكر الغربي في الأغلب، مع حساب دقيق للتوزيع، وإغراء القارىء بشراء الصحف على اساس أنها سلعة تجارية. ولا شك أن هذا الفهم قد تحول اليوم في ظل يقظتنا الجديدة ومضى يشق طريقاً جديداً ولكن الذي يعنينا هو آثاره ونتائجه (في الفترة الماضية) فلا شك أن الصحافة اليومية إذا توفر لها عمق الوعي بهذا الخطر الجديد الذي يواجه أمتنا وفكرنا، كان دورها هاماً، ونتائجها بعيدة المدى في تعميق «المفاهيم الأساسية» لأمتنا.

* * *

اقول هذا وأمامي فكر غربي ينظر إلى أمتنا وقيمنا، فيصدقنا القول، لست أورده إلا لأني أعرف قدر ما يفعل ذلك في نفوس ألفت إلى فترة بعيدة أن ترى في فكرها رأي الأجنبي عنها، فإذا كانت تهتدي به في جانب تدمير شخصيتها، فما أولاها، وهي بصدد تكوين طبيعة استقلالية لها، أن لا تأخذ كل شيء، ولا تترك كل شيء، أن تفهم وجهة النظر الأخرى.

يقول جوستاف لوبون: إن تهذيب الشرق بالمعارف العصرية الأوروبية لن ينفعهم إلا إذا كان ضمن دائرة عقيدتهم وقوميتهم، وإن العلوم العصرية لا تفيدهم إلا إذا اقترنت بتربيتهم الروحية، وسارت

جنباً إلى جنب مع أوضاعهم وعقائدهم أما إذا مضت خارجة عن دائرة تقاليدهم وعقائدهم، فإنها تزيدهم انحطاطاً وفساد أخلاق. « ولا شك أن جوستاف لوبون كان يعرف تماماً تجربتنا في أوائل هذا القرن إزاء الغزو السياسي والفكري من الغرب » والطريق الذي اضطررنا إلى أن نسلكه مرغمين دون أن تتاح لنا القدرة على مقاومة التبعية للفكر الغربي إلا بعد عدة عقود من هذا القرن.

وفي نطاق هذا الرأي نرى الشيخ محمد عبده يحادث الفيلسوف البريطاني « سبنسر » فنجد أن رأي هذا الفيلسوف (المادي) في الفكر في الغرب واضح الدلالة. يقول: محي الحق من عقول أهل أور با بالمرة، واستحوذت عليهم الأفكار المادية، فذهبت الفضيلة. وهذ الأفكار المادية ظهرت في اللاتين أولاً فأفسدت الأخلاق، وأضعفت الفضيلة، ثم سرت عدواها إلى الغربيين.

وهنا تبدو حقيقة « القلق » والحيرة التي تضطرم في الفكر الغربي كله، وهو ما اعترف به الفلاسفة من بعد وحاولوا جاهدين في سبيل الوصول إلى حل له ينقذ الحضارة من الانهيار.

وقد صور « لاسكي » أزمة الحضارة فعزاها إلى انفصال المادية عن الروحية، وهما ممتزجان في الفكر العربي امتزاجاً يحول دون الوقوع في هذه الأزمة التي يعانيها الغرب منذ عدة قرون.

يقول « لاسكي » لقد أطفأ العلم أنوار السماء، ولا طريق للخلاص إلا في ظل الحاضر العاجل. منذ قرن مضى رأى الناس بارقة أمل في الصناعة الجديدة والآن وبالرغم من مزاياها الهائلة يتضح أن الطاقة المادية التي تستطيع أن تشكل الطبيعة لخدمة أغراضنا، دون أن يساندها مبدأ ما لن يصلح لها أي معنى، إلا إذا كان لهذه الطائفة هدف معروف.

وقد التمست في بعض المذاهب الشاملة شيئاً يكون ديناً أو كالدين. ولم تستطع القومية أو الديمقراطية أو الفاشية أو الماركسية أن تسد في

قرن أو قرنين مسدّ الدين الذي أشبع العقول والقلوب من قرون وقرون. وعالجت الحضارة العربية بعض أزماتها في ميدان علم النفس محاولة أن تسد الثغرة الروحية في بناء الحضارة المادية بعلم يسير على مناهج العلوم التجريبية المادية. ونجح علم النفس حين تواضع وأخفق حين جمح ينشد فلسفة نفسية كاملة أو ديناً جديداً. وأشار في نجاحه وإخفاقه إلى الضمير الغائب (إلى الدين). هذا النموذج ونماذج كثيرة تستطيع أن تعطينا رأي الغرب في ثقافته وفكره، وتكشف عن مصدر حيرته وقلقه، وتصور أزمة الحضارة، هذه الأزمة التي لا يعرفها فكرنا العربي الإسلامي في أسسه وقيمه، والتي أخذت تتسرب إليه اليوم نتيجة لخطأ في النقل والاقتباس. خطأ مصدره القصور عن بناء التطور الفكري والثقافي على أساس المقومات الأصيلة لأمتنا وشخصيتنا وفكرنا، وستزداد هذه الحيرة كلما بعدنا عن الجذور والأصول.

والرأي أنه يتحتم علينا ألا نوغل في الرحلة وراء الفكر الغربي المستورد إلا مسلحين بقيمنا، وأن نتنبه إلى مؤامرة «الشعوبية» التي تستهدف تمييع المفاهيم، وتحويلنا إلى شخصيات ممسوخة ليست شرقية ولا غربية، فإذا وعينا مكانتنا وشخصيتنا وما يراد بها، أمكن أن ننقل ما نشاء، ونأخذ وندع، ونكون أكبر من أن يغمرنا طوفان أي فكر أو تجرفنا رياح الشعوب.

تلك هي قضية أمتنا اليوم. وأما أمتنا في هذا الجيل، فقد انفصمت فيها العقيدة التي كانت تقول «إننا نعيش على هامش الحضارة، ولذلك فنحن نتشبث بتراثنا القديم» لم يعد لهذه العقيدة مكان اليوم. فنحن نعيش في عصر الصناعة والعلم العربي، وقد وصلنا إلى أول الطريق في مجال التكنولوجيا والبناء الحضاري في عوالم الماكينة والذرة.

غير أننا نجدنا في هذا المجال أحوج ما نكون إلى أن لا يجرفنا فكر الحضارة المادية تابعاً (للآلة) فنحن نأخذ الآلة، ولكن لا نأخذ فكرها. ولكن نبدع أيديولوجيتنا النابعة من أعماق ثقافتنا وفكرناوقيمنا

وقد قطعنا على أنفسنا العهد ألا نستورد أو نكون تابعين للآخرين.

هده هي مهمة جيلنا المفكر اليوم، وهذه أمانته. أن ندفع «الشعوبية الفكرية» فلا ندعها تدمر قيمنا وشخصيتنا ومقوماتنا الأساسية. ندفعها باليقظة والفهم لجوهر فكرنا. وبعد فهذا إجمال له تفصيل.

### ٣ - الاستعمار الفكري

لقد تحررنا من عبودية الاحتلال الأجنبي، وبقي أن نتحرر من عبودية الفكر. جلت الجيوش عن بلادنا، ولكن بقيت قوى الغزو الفكري مقيمة. إن أقوى هذه القوى هي «الشعوبية» وإن أقسى ما نواجهه الآن أننا لم نزل غير قادرين على أن نفكر على مستوى الأمة الكبرى. ما يزال تفكيرنا في أغلب أجزاء العالم العربي إقليمياً رغم إيماننا بالوحدة. ما نزال نقدس الحدود الموهومة التي وضعناها. ما نزال نواجه أنفسنا مجردين من شعور الثقة بأنفسنا وشخصيتنا وأمتنا، وقدرتها على أن تأخذ مكانها الإنساني. مرجع هذا إلى ذلك النقص في تكويننا الفكري حين نواجه قيمنا ولغتنا وتاريخنا. هذا التراث نحن لا ننظر إليه بعين الفخر أو الغرور التي تخدرنا أو تصرفنا عن واجبنا في معركة الحياة والتطور والواقع، ولكنا ننظر إليه كعامل دافع يعطينا إيمانا بأننا أهل لأن نأخذ مكاننا الحق على وجه هذا الكوكب.

لقد خرج المستعمر من وطننا، ولكنه خلف لنا «بذوراً» لم نواجهها بعد مواجهة جادة، ربما كان لبقية من «عقدة الأجنبي» في نفوسنا أثر في الزهو باعتناق آراء الغير. وهذا هو النظر السطحي للأمور. وإذا كنا لا نمتنع عن قبول كل ما تقدمه الثقافات والحضارات العالمية، ولا نغلق أبوابنا إزاءها، فإن علينا أن نواجهها، ونحن على درجة عالية من القوة والكفاءة والرشد الفكري، فليس هناك من يرمينا بالنقص عندما نقوّم ما يقدم لنا. بل هو النقص كله أن نقبل ما يميع شخصيتنا، أو يدمر مقوماتنا. كذلك فعل الغرب عندما واجه حضارتنا وثقافتنا،

ونحن في أوج القوة، وهو على أعتاب النهضة. إنه لم يأخذ كل ما عندنا، ولكنه أخذ ما يزيده قوة ويحفظ كيانه وشخصيته، أفلا نفعل كما فعل؟ أفلا نكون أقدر وأرشد حصافة وذكاء من أن تدمر مقوماتنا؟

وقد تنبه المفكرون والكتاب منذ وقت بعيد إلى قضية الاحتلال الفكري والغزو الثقافي. غير أن هذه الصيحات كانت تتوقف كثيراً، فلا تصل إلا إلى عدد قليل. أما اليوم فقد حق أن تتصل وأن تصل إلى كل الأسماع. إن فكرة الغرب في سيطرته على الشرق تهدف أساساً إلى الإخضاع الفكري لا المادي والاقتصادي والسياسي وحده، وشعارهم في هذا (من يحتل أرضك يحتل فكرك ومن يسلب بلدك يسلب روحك). فإذا كان الاحتلال العسكري قد انتهى أو اوشك على النهاية، فإنه قد خلف الإحتلال الفكري الذي لا يمكن إجلاؤه إلا بعد فهم عميق لدقائقه وقدرة واعية على التحرر منه.

وهدفنا هو أن لا تصبح العقلية العربية عقلية قومية غربية بحال. إننا لن نغلق النوافذ ولن نوقف النظر والاقتباس من الفكر الإنساني، فنحن شركاء فيه أساساً، ولكننا لا ندعه يجتاحنا، ويفرض مقوماته علينا، فيقضي على قيمنا الأساسية.

إن مكونات فكرنا الأصيلة التي تعتمد أساساً على اللغة العربية وروح الدين وتاريخنا وشخصيتنا ذات الملامح الواضحة، يجب أن تكون أساساً لكل علاقات (الأخذ والعطاء) في دنيا الفكر والثقافة.

أما إذا انهارت هذه المقومات، فمعنى ذلك هو أن نصبح «شيئاً متميعاً غامضاً» ليس هو نحن أساساً، ولا هو غيرنا.

هذا هو مصدر الخطر، أن نقبل كل شيء دون أن يكون منسوجاً على أحجامنا. لا بد من هذا التحفظ في مواجهة الفكر الغربي، وليس هذا أمراً ينقص من قدرنا. بل إنه على العكس سيعطينا قيمة ووزناً في

نظر غيرنا. إن كل شجرة من أشجار الفكر الإنساني لنا في جذورها بذرة، ولنا في تكوينها أثر، ولكنها حين قامت في حضانة الغرب، إنما قامت على أساس مقومات تتفق مع ثقافته وبيئته وتراثه . والفكر الغربي يقوم أساساً كما أجمع على ذلك أغلب كتابه على مقومات هي:

١ - التراث الروماني واليوناني.
٢ - المسيحية الغربية (الخاصة) وهي غير المسيحية.
٣ - المفهوم المادي الصناعي.

وهذه مقومات تختلف أشد الإختلاف مع مقومات فكرنا. ولذلك فإن القول بالتقاء الفكر العربي الإسلامي مع الفكر الغربي التقاءً كاملاً أمر عسير. وإذا كان الغرب حين اتصل بالفكر العربي الإسلامي في أوائل النهضة لم يتميع أو يضع فيه، ولم يتحول إليه، وإنما أخذ منه وأعطى ما كون له بناء حياته على أساس من مقوماته الفعلية، فما أحرانا أن نقلده في هذا الأساس.

على أننا اليوم بعد أن قطعنا مرحلتين من أضخم مراحل التطور، وذلك بالتحرر من النفوذ الأجنبي العسكري والسياسي، وإنشاء العمل الصناعي والعلمي والتكنولوجي الواسع على نفس القيم التي يقف عليها الغرب، وصلنا إلى الطائرة النفاثة التي تسبق سرعة الصوت، وتفجير الذرة، وصناعة الصواريخ. فما عاد موقفنا هو موقف المغلوب والغالب بقدرما أصبح موقف دعم أسس البناء في مجال الفكر، مؤكدين لمنابعنا وقيمنا أساساً حتى لا تنهار، ونحن في طريق الثورة الصناعية.

ومن حقنا أن نأخذ حضارة الغرب دون تحفظ، وأن نأخذ فكره في تحفظ كما فعل هو من قبل، وكما فعل أسلافنا العرب في القرن الرابع الهجري. ذلك أن مقومات فكرنا الأساسية تختلف عن مقومات فكره في جوانب فعالة كانت وما تزال بعيدة الأثر في طريقنا الطويل وطريقه. فنحن نمزج الروح بالمادة والضمير بالعقل، بينما يجنح الغرب

إلى المادة وحدها، والعقل وحده، ويجعل هدفه السيطرة على العالم، وفرض سلطانه السياسي ونفوذه الفكري، ولا يقبل تقديم الحضارة إلا مغلفة بالفكرة الاستعمارية الوثنية والمادية.

وخطأ الغرب يتركز في اعتقاده أن الحضارة الغربية هي كل شيء، وأنه لا شيء هنالك غيرها، بينما نؤمن نحن بامتزاج قوى الروح والدين والضمير مع قوى المادة والعقل، ونجد من مفاهيمنا ما يعطينا من هذا المزاج حياة أكثر أمناً وإشراقاً وإيجابية. ولم يكن هذا الفهم معيقاً لنا يوماً عن العمل والإنتاج والتطور.

وإذا كان الغرب يطمع في أن يفرض فكره على الإنسانية، فإنه سيجد مقاومة كبرى مارستها أمم العالم العربي الإسلامي وهي مكبلة بالقيود، فهي أكثر استطاعة لها اليوم بعد أن انكشفت عن جيوب الاستعمار الفكري في عالمنا المتمثلة في دعوة «الشعوبية» الفكرية التي تنشر رأيها في حذر ودقة، وتتخذ من بعض القضايا الغامضة سبيلها إلى بث سمومها. ومن ورائها قوى تعينها بالأموال وتفتح لها أبواب الصحف الأنيقة التي تصدر في بعض أجزاء العالم العربي.

* * *

وإذا كنا في خلال سنوات الاحتلال الأجنبي قد فرض علينا الفكر الغربي في مناهج التعليم وبرامج البحث، وفي مجال الصحافة والتأليف، وقام من كتابنا من دافع عنه، ودعا إليه. فإن ذلك إنما كان يمثل «مرحلة الاضطرار» هذه التي دافع عنا خلالها كثير من الأبرار، ممن عرفوا الفكر الغربي، وارتادوا مناهله، وهاجموا فرضيته علينا في ظل سلطانهم ونفوذهم. وإذا كنا في فترة الاحتلال الأجنبي قد قاومنا، فما أجدرنا اليوم أن لا نستسلم للصورة الجديدة «دعوى الشعوبية» التي أحلها النفوذ الأجنبي كحلقة جديدة في عملية الغزو الثقافي والفكري.

وعلينا أن لا نستسلم في ظل اقتناع بأننا قد تحررنا من الاحتلال

والسلطان السياسي والعسكري للغرب، فإن استمرار الغزو الفكري على هذا النحو الذي يقوم به الآن، وفق مخطط شعوبي تغريبي، إنما يرمي إلى أبعد من الاحتلال. إنه يرمي إلى القضاء على مقومات هذه الأمة وفكرها وشخصيتها جميعاً وإسقاطها نهائياً.

### ٤ - الشعوبية الفكرية الحديثة

حلت «الشعوبية» مكان «الاحتلال» فالغزو الثقافي الذي مارسه الاستعمار خلال إقامته في وطننا في مدى قرن تقريباً، قد خلف قوى قائمة بعد جلائه العسكري والسياسي. هذه القوى تعمل ليبقى النفوذ الأجنبي، ويقضي على مقومات أمتنا حتى لا تستطيع أن تتجمع فكرياً، وتتوحد لتواجه الحياة قوة ضخمة ذات نفوذ، ولتبقى له بعد ذلك سيطرته الاقتصادية.

والشعوبية الفكرية الحديثة إنما تحاول القضاء على:

(١) - شخصيتنا (٢) - قيمنا الفكرية والروحية (٣) - تراثنا (٤) - لغتنا العربية الفصحى (٥) - تاريخنا.

وقد تشلكت هذه الشعوبية منذ الثلاثينات من هذا القرن في صورة أحزاب وهيئات وجماعات ذات طابع براق على مستويات مختلفة: قومية ضيقة، وإقليمية سياسية، وشعوبية فكرية، حاولت أن تشق طريقها وتجمع حولها الشباب الغض تصنعه وفق مخطط دقيق مدروس.

وقد مهد الاستعمار لها الطريق بدعوات مختلفة:

(أولاً) العودة إلى الثقافات والحضارات القديمة كالفينيقية، والفرعونية، والبابلية، والآشورية.

(ثانياً) التفرقة بين عناصر الأمة الواحدة والدين الواحد، فابتعث قضايا الصراع بين الأجناس والمذاهب والأديان.

(ثالثاً) الكشف عن الآثار القديمة واستغلالها في هذه الدعوات.

(رابعاً) رفع صوت الآداب الإقليمية واللهجات الإقليمية والتراث الإقليمي.

وليس كيد الشعوبية موجهاً إلى العرب وحدهم أو إلى الإسلام كدين، ولكنه موجه أساساً للقضاء على مقومات «الفكر العربي» الذي هو المصدر الأول للحياة العقلية والروحية لهذه المنطقة في محاولة لإثارة الشكوك وخلق التفرقة والانتقاص من التاريخ والتراث، وتشويه الماضي، وهدم اللغة، والإغضاء من فضل العرب، وأعلام العرب وأبطالهم في مجال السياسة والفكر والاختراع، والعمل على تجزئة الفكر العربي الإسلامي، والقضاء على روح وحدته، والفصل بين الماضي والحاضر، وفرض النظريات الغربية في مجال القومية ودراسات التاريخ والأدب، وتقييم التراث، وإذاعة الفلسفات والنظريات والمذاهب العربية المتعددة المتضاربة التي انطوت في الغرب، أو ماتزال موضع النظر والشك، فهو يعرضها علينا كأنما هي قضايا مسلّم بها. وأبرز المذاهب والفلسفات التي يدفعها بقوة إلى فكرنا: النظريات المتصلة بالتشكيك في القيم الروحية، والمثل الإنسانية، والتي تحاول تعرية الإنسان، وإبراز حيوانيته وتصويره في صورة المندفع وراء غرائزه. وذلك في سبيل تحقيق هدف خطير، هو القضاء على القيم الأساسية للفكر العربي الأخلاقي القائم على تكريم الإنسان، والتسامي به، ودفعه إلى مجال «الإنسان الكامل والأعلى معاً».

* * *

وقد اعتمدت الشعوبية الفكرية الحديثة ـ وهي تستهدف القضاء على المقومات الأساسية لفكرنا العربي الإسلامي ـ اعتمدت على تراث قديم لها محاولة إعادة بعثه من جديد. وكان الشعوبيون القدامى قد جروا في محاولة ضخمة لتزييف قيمنا، وأثاروا عديداً من الشبهات حول مختلف القضايا، ثم جاءت الشعوبية الحديثة المتحركة في حضانة الاستعمار

والغزو الفكري، فاستغلت هذه الآراء، وأخذت تبعثها من جديد. كما وجد المستشرقون والمبشرون - الذين يسمون باسم العلماء في آراء الشعوبية القديمة - زاداً ضخماً استعانوا به في حملتهم الضارية.

وقدساير كثير من كتابنا ومفكرينا هذا الاتجاه على غفلة منهم، أو متابعة ورضا ،لقاء نفوذ وجاه ومال. كما مكن النفوذ الأجنبي للقائمين بالحركة الشعوبية - الشعوبية الحديثة في العالم العربي - فرصة السيطرة على بعض منابر الصحافة والجامعات، ونوافذ التوجيه للرأي العام.

* * *

والرأي أننا لسنا في حاجة إلى مراجعات علمية أو قاموسية لتحديد معنى «الشعوبية». فنحن نعتقد أن كل من يهاجم مقومات فكرنا وشخصيتنا، ويزدري تاريخنا ولغتنا، أو يحاول القضاء على مقوم من هذه المقومات بالتشكيك فيه أو نقضه أو انتقاصه، إنما هو شعوبي يتحرك في فلك التغريب والغزو الثقافي.

وكل محاولة لتغليب العامية، أو هدم عمود الشعر أو انتقاص التاريخ والتراث والدين إنما تجري في هذا التيار.

ولسنا نريد أن ندخل في مجادلات حول القضايا المثارة كالعروبة والإسلام، أو الدين والعلم، أو حرية الفكر، أو تقييم التراث. فليس هناك ما يمنع أن يمارس الباحث حقه كاملاً في النظر، والبحث ما استقامت مفاهيمه أصلاً على نفس الأصول التي ارتضتها هذه الأمة أساساً لقيمها ومفاهيمها، ولا بد أن يتوفر صدق النظرة وإخلاص النية والإيمان الأكيد بقيم هذه الأمة.

ولسنا في هذا ندعو إلى تقديس تراثنا، أو المبالغة في تقدير فكرنا، أو النظر إليه نظرة الاستعلاء أو المبالغة، وإنما نحن نتطلع من خلاله إلى قدر واضح من الثقة بأمتنا وشخصيتها وقيمها. هذا القدر لا يسمح

بازدراء مواريثها ومقوماتها. وعلى هذا القدر وحده نحكم على سلامة الرأي الفاحص والرأي المثار. أما المبالغة في التقدير - فهي كالغلو في الانتقاص - كلاهما منبوذ مكروه بعيد عن مقاييسنا على أساس مفهوم «وسطية» الفكر العربي، في نظر نظرة (لا إفراط فيها ولا تفريط ولا تقديس فيها ولا ابتذال). فكلاهما بعيد عن الحق والواقع.

فإذا لم تكن النظرة على هذا النحو، اتهمت بأنها شعوبية وعدت من أعمال التغريب والغزو الثقافي، في محاولة لتدمير قيمنا وشخصيتنا، ومقومات فكرنا.

ونحن نعرف أن الدعوة «الشعوبية» تنبعث من مصدرين أكيدين:

١ - خصومة الغرب للفكر الإسلامي العربي، والأمة نفسها، في محاولة لمنعها من القوة والوحدة والغلبة.

٢ - حقد عناصر كثيرة مختلفة في داخل وطننا العربي لهذا التيار الجديد القوي محاولة لمقاومته والغض منه.

وإذا كان من المؤكد أن هذه اليقظة الفكرية التي تشرق في عقل الأمة العربية والعالم الإسلامي ستجد طريقها الأصيل عندما تؤمن بقيمها الأساسية، وتتخذها قاعدة لها، فإن الشعوبية تعمل جاهدة على التأثير في هذا الخط، وتضليل السارين إليه، وإثارة الشبهات والعقبات حوله، إبقاءً على النفوذ الأجنبي ووجودها الشخصي.

## ٥ - مقوّمات الفكر العربي الإسلامي

الفكر العربي فكر قومي يدخل فيه تاريخ العرب وحدهم. والفكر الإسلامي وحده يتمثل فيه فكر المسلمين وثقافتهم. أما الفكر العربي الإسلامي «فهو اصطلاح جديد يجمع في مضمونه المقومات الأساسية لروح أمتنا وضميرها» وقد اتخذناه في مقابل اصطلاح الفكر الغربي

( بشقيه ) حتى لا نقع في الخلط لو أننا اكتفينا بعبارة الفكر العربي[1].

وليس أدل على أصالة مقومات فكرنا العربي الإسلامي من قدرته على الحياة خلال اربعة عشر قرناً دون أن يموت بالرغم من فقدان القوة السياسية والعسكرية، واضطهاده بهذا العنف في حملات ضارية تمثلت في:

١ - إخراجه من الأندلس.
٢ - إخراجه من شرق أوروبا وجنوبها.
٣ - حملات التتار.
٤ - الحملات الصليبية.
٥ - الغزو الغربي الحديث.
٦ - الحملة الصهيونية القائمة.

ولا شك أن لفكرنا العربي الإسلامي رسالة وهدفاً وطريقاً مفتوحاً قادراً على الحركة والتطور، ومواجهة الأحداث والأزمنة والبيئات والحضارات المختلفة.

كما أن لكل فكر مقومات واضحة تفرق بينه وبين غيره، وتكشف عن استقلاليته وطابعه المميز. وأبرز هذه المقومات في الفكر العربي الإسلامي اللغة والعقيدة والأخلاق والتاريخ والقيم والتراث والثقافة والشريعة الإسلامية.

فالفكر العربي الإسلامي يقوم على مقومات اللغة العربية، والعقيدة كمصدر إنساني « روحي ومادي » جامع. والإسلام بحسبانه فكراً وحضارة ونظام مجتمع، والتاريخ بانتصاراته وهزائمه، والقيم التي رسمتها هي عصارة اللغة والعقيدة والتاريخ والتراث الذي تستمد منه الأمة جذور حياتها، وما يتصل بذلك من الثقافة في مجالاتها المختلفة.

ومن هنا يبدو الخلاف واضحاً بين مقومات فكرنا، ومقومات الفكر

( ١ ) عالجنا في الفصول الأولى من هذا البحث العلاقة بين الفكر الإسلامي والثقافة الغربية.

الغربي التي تتكون من عناصر تختلف عن هذه العناصر، وتكون طابعاً متميزاً. هذا الخلاف في الأسس ليس مانعاً من الأخذ والعطاء، والامتصاص والنقل، والتلقي لثمرات الفكر البشري، وهضمها، وتحويلها إلى كياننا ما دمنا نقيم هذا الإلتقاء على قاعدة واضحة من مقومات فكرنا وشخصية أمتنا. تتمثل هذه القاعدة الأساسية في خصائص واضحة. وأبرزها التوحيد وامتزاج المادة والروح والعقل والعاطفة، والدين والعلم وفق طابع إنساني وعالمي واضح، وفي بساطة ووضوح، مع مرونة قادرة على الحركة، ووحدة الفكر والفهم.

وفي فكرنا طابع العلم والتجربة والبرهان، مع حرية العقل وسعة الأفق والقدرة على الهضم والتمثل والامتصاص، والانفتاح أمام مختلف الثقافات والأفكار، وفي فكرنا طابع الوسط والقصد. حيث يقوم بين المحافظة والتطرف، ويجمع بين التحليل والتأليف، ويمزج بين الواقعية والقيم، ويتسم بجرأة الفكر وحرارة الشعور، مع اعتدال في الملكات المتعارضة.

وتبدو هذه الخصائص في أسس خمسة:

أولاً: طلب العلم في فكرنا فريضة، والوضوح مظهر.

ثانياً: النأي عن الإِمَّعِيَّة قانون: (لا يكن أحدكم إمعة، يقول اذا أحسن الناس أحسنت، وإذا أساءوا أسأت).

ثالثاً: القدرة على قول كلمة الحق: (أحب ممن سامه الخسف أن يقول: «لا»).

رابعاً: مقاومة كل عدوان على أرضنا أو فكرنا، وحماية مقوّماتنا.

خامساً: امتداد الرأي بالروح (إن موتاً في الحق لهو عين البقاء، وحياة في ذلة هي عين الفناء).

* * *

في ظل هذه الأسس الواضحة الثابتة لفكرنا نتحرك ونتطور ونتلقى ونعطي دون أن نتخلى عن مقوماتنا. وبها ننظر إلى خطين واضحين: (داخلي وخارجي، قديم وحديث) ونتحاكم بها في أمرهما.

أولاً: الماضي والتراث.

ثانياً: الفكر العالمي الوافد.

فكل ما اتصل بهذه المقومات من ماضينا وتراثنا فهو خيط ممتد لا ينقطع. وكل ما يضيفه الفكر العالمي الوافد من قوة، فنحن نقبله ونمتصه ونحوله إلى كياننا.

ونحن بهذا لا نجمد. نتحرك في قوة فوق قاعدة عريضة هي: ضمير أمتنا، وملامح شخصيتها التي لا تتخلف ولا تزول، والتي امتدت على الأجيال حية نابضة بالقوة، وبقيت صامدة عندنا رغم أنه زال سلطاننا السياسي وسقطت الدولة الكبرى.

وإذا كان هناك من سبب جوهري لزوال هذا السلطان وسقوط الدولة، فإنما هو التفريط في هذه المقومات والالتقاء بالحضارة والفكر والحياة من دونها.

ولا سبيل لنا اليوم إلى أن تقوم نهضتنا وتنبعث إلا على قاعدة أساسية من فكرنا ومقوماتنا الواضحة، كذلك فعل الغرب أول نهضته. لم تبدأ من الجديد الوافد، وإنما امتدت إلى القديم، وارتبطت به حتى بلغ في ذلك حد التعصب عندما أكد الغرب أن فكره الحديث يرتبط بالفكر اليوناني والروماني على الرغم من انفصال دام ألفي عام بين أفلاطون وديكارت (٤٣٠ ق.م - ١٦٥٠ م).

لقد عاد الفكر الغربي الحديث فبعث الفكر اليوناني والروماني، وارتبط به، واتخذه مقوماً أساسياً بعد أن انفصل عنه أكثر من ألف عام. أما الفكر العربي الإسلامي فإنه لم ينفصل عن قاعدته منذ أربعة عشر قرناً،

وما تزال مقوماته هي مصدر قوته، فإذا انفصل عنهـا سقط وذبل. فإذا عاد إليها استيقظ من جديد، ودار في الفلك دورة جديدة.

## ٦ - إسلاميّة الفكر العربي

« الفكر العربي الإسلامي » الذي هو عصارة مفاهيمنا وقيمنا، ومقومات وجودنا الروحي والمعنوي هو فكر عربي اللغة، إسلامي المضمون، بما يحقق صدق القول بـ (إسلامية الفكر العربي) وهذه الكلمة لا تعني العقيدة الدينية، وإنما تعني الجوانب الأخرى في عالم الثقافة والعقل والضمير.

فالإسلام في جوهره يختلف عن الأديان التي وضعت مفاهيمها موضع المقارنة به، فهو أوسع منها أفقاً. وليس هو عقائد دينية لاهوتية فحسب، وإنما هذه العقائد جزء منه، ولكنه بالإضافة إلى ذلك فكر وحضارة ونظام مجتمع.

وإذا كان جانب العقائد الدينية هو ما يخص المسلمين وحدهم، فإن الجانب الآخر، وهو ما أطلقنا عليه كلمة « إسلامية » إنما يعني كل من عاش في هذه المنطقة ويعيش. لأنه عصارة ميراثه الحي الممتد المتصل بالحياة، النابض بالحياة. والذي لم يكن تراثاً ( ligeea) بالمعنى العربي الذي يعني « المتخفية ».

فالإسلامية التي أضاءت للإنسانية طريقها في ظلمات العصور الوسطى ليست من صنع المسلمين وحدهم، وإنما هي عصارة فكر المجموعة التي عاشت في هذه المنطقة بكل ما تملك من ثقافات مسيحية ويهودية وهندية وفارسية ويونانية وحضارات فينيقية وفرعونية ورومانية. إذن فليست هذه الثقافة وهذا الفكر ملكاً للمسلمين وحدهم،وإنما هو ملك للعرب والفرس والأتراك والهنود. وكل من استظل بلواء هذه الثقافة ممثلة في الأديان والحضارات والثقافات المختلفة. وهذا الفكر كله هو الذي صور ضمير المنطقة وأعطاها سمة واضحة هي ما نطلق عليه

« الشرق الإسلامي » أو « العروبة الحنيفية » . وقد حظي العرب منها بنصيب كبير حين حفظت لغتهم هذا الميراث ، واحتضنته . فقد كانت العربية الفصحى هي لغة هذه الثقافة . ومن هنا صح ما ذهبنا إليه من « إسلامية الفكر العربي » .

وقد أعان على خلق هذا الميراث ولا أقول « التراث » حتى لا أقع في المفهوم الغربي لكلمة ( legace) التي تعني بالتراث كل ما مات من آثار الفكر القديم ، والذي يتمثل أساساً في آثار اليونان والرومان الفكرية التي امتصتها الثقافة الغربية الحديثة ، وطوتها في أعماقها ، وجعلتها عنصراً أساسياً من عناصر تكوينها .

أقول : إن الذي أعان على خلق هذا الميراث هو سماحة الإسلام الذي أفسح لكل الملَل والنحل من جناحه ، وأتاح لكل العناصر أن تتعايش تحت لوائه ، وأن تتفاعل مع قيمه الأساسية . ولقد عاش في هذا النطاق أحرار في معتقداتهم مفكرون وفلاسفة كبار وفقهاء وعلماء أبدعوا خيوط هذا الميراث الذي تكوّن واكتمل وأصبح يمثل « ضمير » هذه الأمة تصويراً يتشابه فيه المسلم والمسيحي على السواء ، لأنه من صنع الأجيال كلها متضافرة مجتمعة بعقلياتها وثقافاتها . فلا ضير أن يطلق عليه « الفكر العربي الإسلامي » .

ثم هو من بعد هذا خلاصة وجداننا ، وعصارة مزاجنا الذي يختلف اختلافاً واضحاً عن الوجدان الغربي والمزاج الغربي . لقد كان قوام فكرنا دائماً مستمداً من مفهوم الإسلام الجامع بين الروح والمادة . فهو إنساني الطابع ، وليس روحياً خالصاً ولا مادياً خالصاً .

* * *

هذه هي « وحدة الفكر » الأساسية التي تقوم عليها مفاهيمنا . وبها يتميز طابع أصيل في الفكر العالمي والإنساني الحديث ، وبها ننظر إلى الفكر الغربي ( بشقيه ) فنأخذ منه أو ندع .

والفكر العربي الإسلامي مازال يستطيع أن يعطي، فإن آفاقه لم تنفتح بعد، وما تزال ذخائره مطوية ولم تجد من يكشف عن جوهرها، ويقدمها بصورة عصرية كما أتيح ذلك لتراث اليونان والرومان. ولذلك فهناك عدد كبير للجانحين، أو ذوي الظن السيء. هذا الظن الذي يكون لديهم في ظل شكوك وشبهات ألقيت إليهم، ووجدوها مبسوطة ومطبوعة على ورق فاخر، ومظهر حديث دون أن يجدوا من يدلهم على ما يدحض شبهاتها، أو يكشف زيفها بتقديم ذخائر فكرنا العربي الإسلامي ويبرز فيه من نظريات وآراء هي قوام «ضمير» أمتنا في مجالات الحياة والمجتمع.

والعيب في هذا أن الاستعمار الفكري هو الذي فرض علينا منهج العمل في مجال إحياء التراث عندما وجدنا نتجه إليه. فما أحببنا من التراث إنما كان بتوجيهه. وكان أبرز ما أحببنا كتاب «الأغاني» الذي أعطي أهمية ضخمة لا حدّ لها، وكتابات ابن عربي، والسهروردي، وشعر أبي‌نواس، وبشار بن برد. وكان لهذا قصد مدبر. فالأغاني كتاب يحاول فيه أن يعطي للمجتمع الإسلامي صورة عصر شك وفسق ومجون. وقد اعتمد عليه الدكتور طه حسين في إصدار هذا الحكم وأذاع به. ومؤلفه أبو الفرج الأصفهاني (٣٥٦ هـ) كان شعوبياً منحرف المذهب، أراد بكتابه بث روح التدمير في فكر الأمة العربية، كما عرف بأنه كان مسرفاً أشنع الإسراف في اللذات والشهوات. وكان لهذين الجانبين من تكوينه الفكري والخلقي أثر في كتابه، فقد حفل هذا الكتاب بأخبار الخلاعة والمجون، فهو لا يعني إلا الجوانب الضعيفة من أخلاق من ترجم لهم مع الإغضاء عن جوانبهم الجادة.

ولقد أثار هذا الكتاب (٢١ مجلداً) اهتمام المستشرقين، واهتم به تلاميذهم في العالم العربي، واعتمد عليه كثيرون منهم في كتابة تاريخ الإسلام، وتاريخ الأدب العربي كما فعل جرجي زيدان وطه حسين وغيرهما.

وإذا كان المؤلف قد أعلن في مقدمة كتابه أنه إنما يعني به إمتاع النفوس وأن مؤلفه ألفه كتاب أدب لا كتاب تاريخ وأنه حاول جمع ما تناثر في الأندية من الأسماء والنوادر. فإن ذلك لم يحل دون فرض هذا الكتاب كمصدر علمي في أبحاث الكتاب والعلماء.

وقد ذكر الدكتور زكي مبارك في كتابه النثر الفني كيف أن المسيو ماسينيون المستشرق الفرنسي وجهه إلى الإستفادة من كتاب الأغاني في تصويره لحياة الحجاز في القرن الأول للهجرة، وكيف تحرر هو من ذلك.

والعجب أن هذا المؤلف الشعوبي قد نقل أخبار الفسق والمجون معنعنة كالأحاديث النبوية. وساق الأخبار الماجنة المتداولة كأنها حقائق علمية تاريخية لا تقبل الشك مروية بالسند. فظن الناس أن كل ما يروى بالسند يكون علماً دقيقاً. فاطمأن الناس إلى الأغاني، وحاول المستشرقون أن يعطوه أهمية كبرى، ليس في أبحاث الأدب وحدها، بل في أبحاث التاريخ أيضاً.

* * *

وكذلك كان الاهتمام بدراسات المنحرفين في كل مجال من مجالات الفكر العربي الإسلامي. كان الاهتمام بالسهروردي وابن عربي لأنهما دعوا إلى مذهب ليس أصيلاً في فكرنا، بل مفترضاً. والاهتمام بأبي نواس وبشارهو محاولة لتصوير العقل العربي قاصراً عن إعطاء مثل هذا الفن الوافد، وإنهما بمفاهيمهما المحسوبة قد بلغا القمة. وكذلك جاء إبراز جوانب اضطراب العقيدة في المعري، ومحاولة هدم المتنبي والشك في أبوته وأصله. كل هذا من محرفات القول ومحاولات الهدم.

## ٧ - وَسطيّة الفِكر العَربي

أبرز مميزات الفكر العربي الإسلامي: وسطيته التي أعطته طابع «وحدته» ووسطية الفكر مرتبطة بوسطية الأمة من حيث المناخ والمكان والبيئة، فضلاً عما يتسم به فكرنا من الجمع والمزاوجة بين الدين والدنيا، والمادة والروح والعقل والضمير حيث لا يجنح إلى التطرف، ولا يذهب غاية المدى في الجمود أو الطفرة، ولا في الرخاوة أو العنف.

في تلك المرونة والحيوية، والقدرة على الحركة، والملاءمة والالتقاء بالحضارات والثقافات وأفكار الأمم، فيه مرونة الحركة مع ثبات القاعدة، وهذه القاعدة الثابتة هي مصدر قوته ومدار حيويته.

فنحن لا نقف عند الماضي ، وننظر دائماً إلى الخلف، ولا نندفع وراء الفكر المستورد ، فنغرق فيه. وإنما نأخذ من ماضينا القوة التي تدفعنا إلى الحركة والحياة مؤمنين بشخصيتنا وقدرتنا الدائبة على العمل.

ولعل أبرز جوهر فكرنا الأساسي أننا لسنا إمّعات، ولا تابعين، ولا نسير خلف الركب، ولا نتمثل فكر الآخرين، إيماناً منا بأننا نملك خير ما تعطي الإنسانية من زاد، ولكن هذا الإيمان بذاتنا وقيمنا وتاريخنا الحافل بالبطولات لا يدفعنا إلى التوفيق، ولا يحملنا على التخلف، ولا يملأ قلوبنا بالغرور، وإنما هو يدفعنا إلى مزيد من تأكيد قدرتنا على الحركة أو التطور والحياة حتى نكون مؤثرين متفاعلين.

وإذا كانت دورة التاريخ قد وضعتنا موضع التخلف في خلال ثلاثة قرون من عمرنا الطويل، فإننا نحطم الآن أغلال القيود التي ظلت تكبل حريتنا أياً كانت هذه القيود. حطمنا قيود الاحتلال السياسي والعسكري، ومهمتنا الآن تمزيق أغشية النفوذ الفكري، والغزو الثقافي ممثلاً في الشعوبية ودعاة التقليد.

ونحن إذا كنا لا نقلد الماضي فنحن أيضاً لا نقلد الآخرين. وإذا

كنا لا نتخذ من التراث وحدة منهج حياة، فنحن لا نستورد فكر الآخرين.

إن قوة شخصيتنا واستقلالها، وقدرة فكرنا الخلاق المتحرك تجعله قادراً ما دام محتفظاً بقواه الأساسية أن يمتص عصارة كل فكر، ويصوغه ويحوله إلى كياننا. كل ما هو جدير بأن نتنبه له: هو أن نكون على وعي كامل بالمؤامرات التي تدبر لفكرنا، ومواجهة الشعوبية، وكشف خطواتها، وموالاة إيقاظ جيلنا وتنبيهه، وكشف الحقائق الخافية عنه ليعرف خصوم فكره، وخصوم أمته، وحتى لا ينخدع بأساليبهم البراقة، وكلماتهم المعسولة. ونحن إذ لا نأخذ آراء القدماء قضايا-مسلمة، فنحن لا نأخذ آراء الغرب قضايا مسلمة أيضاً.

* * *

وتبدو وسطية الفكر العربي الإسلامي في ذلك الالتقاء والامتزاج بين العناصر التي يراها الفكر الغربي متعارضة. فالمادة والروح والعقل والوجدان والإنسانية والإقليمية والعلم والدين، والواقعية والقيم، تلتقي جميعها في الفكر الإسلامي وتمتزج.

وإذا كان فكر الشرق قد اتسم بدعوة الروح المطلقة، وعرف فكر الغرب بدعوة المادية المطلقة. فقد عرف الفكر العربي الإسلامي بذلك المزاج العجيب الرائع من المادية والروحية على حرية في العقل وسعة في الأفق، ومجاراة للزمن والبيئة، وبساطة مع وضوح ومرونة، وقدرة على الحركة مع الحيوية، وانفتاح على الآفاق. والثقافات تعطي يسر الأخذ والعطاء.

وهذا معنى «الوسط» في فكرنا العربي الإسلامي.

والوسط في اللغة اسم لما بين طرفي الشيء. وإن أوسط الشيء أفضله وخياره. فوسط القلادة الدرة، وهي أنفس خرزها. وفلان أوسط نسباً

أي أرفع مجداً. ولا تتصل عبارة «الوسط هنا، بما يتردد عن اليمين واليسار في مجال السياسة» وإنما الوسط هنا لقاء بين الطرفين البعيدين. وهو ليس لقاء «هيجل» الذي ينتهي إلى التحلل والسقوط ليبدأ يمين متطرف، ويسار متطرف، وينشأ منهما وسط، وإنما هو «وسط» متجدد قائم على قاعدة أساسية يتسم بها الفكر العربي الإسلامي صادراً من مزاج الأمة وضميرها، وجهر عقائدها ومناخها.

وإذا كان هناك ما يختلف به الفكر العربي الإسلامي في أسسه عن الفكر الغربي، فإنه يتمثل في هذه المزاوجة بين الروح والجسد، والمادة والروح، والعقل والضمير.

ومن أوضح الأزمات التي تمر بالفكر المعاصر بعامة الآن أزمة هذا الفصام بين القوى المتلاقية، وغلبة المادية. ولقد كشف كثير من المفكرين جوهر هذه الأزمة في امتداد العقل، وتقلص الروح. فقد نما عقل العالم، وتقلص ضميره، نتيجة تخليه عن القيم الإنسانية والروحية التي تعد أساساً من أسس الفكر العربي الإسلامي، ومصدراً من مصادره. فأبرز معالم الفكر العربي الإسلامي هو «الوسط بين المحافظة والتطرف، والمثال والواقع، والجمع بين التحليل والتأليف وبين الجمود والطفرة».

ومن هنا جاء إيماننا بالانفتاح على الداخل والخارج معاً، وارتباطنا بالقديم والوافد معاً، دون أن نقدس الماضي أو نحرفه، ودون أن نستسلم للجديد الوافد أو نرده.

ذلك أن لنا قيمنا الأساسية، ومن فوقها نبني ونتحرك، ونأخذ وندع، وفق مفاهيم واضحة، وفي ظل شخصية لها طابعها. وفي أعماقنا تلك القوة الاستقلالية التي تؤمن بالتراث، فلا نستورد نظريات الآخرين، ولا نستسلم للماضي ولا نتوقف جامدين إزاء التطور. وهذه القيم تأخذ من القديم والجديد، والداخل والخارج في مزاج قادر على

البعث (القديم) والامتصاص للفكر الوافد، وأمامها عبرة الماضي في التخلف، وعبرة الفكر الوافد في أرضه. هذا الفكر الذي لم يعطِ أهله القدرة على الاستقرار والطمأنينة النفسية، والذي مازالَ يرسم حولهم هالات القلق والاضطراب.

ومازالت لنا قدرتنا على الحركة، وإيماننا بأننا نستطيع أن نعطي ونأخذ. وعلى حد قول جورج سارتون عنّا: إن الهزائمَ السياسية التي منينا بها لم تزعزع ثقتنا بأنفسنا ومكاننا ودورنا.

* * *

وإذا كنا اليوم نعود مرة أخرى لنقاوم انحرافنا عن «وسطية» فكرنا، ونبعث مقوماتنا الأساسية كمنار نهتدي به في الطريق الطويل، فليست هذه ظاهرة جديدة على فكرنا وإنما كنا هكذا دائماً، ما إن ينحرف بنا الطريق حتى يظهر من يكشفه لنا، ويرفع الرماد الكثير الذي غطى مجراه الأصيل.

وعندما نقل الفكر اليوناني في القرن الثالث جرى المسلمون طويلاً في مجاريه، فلم تلبث أن قامت الدعوة إلى المنابع الأولى، ورد الانحراف والاندفاع.

وعندما تفشت الشعوبية الفكرية، وأخذت تبلبل الفكر العربي الإسلامي برزت حركة المقاومة واضحة، فلم يلبث الرأي الأصيل أن قضى على الرأي الدخيل.

### ٨ - ثقافتان وحضارة واحدة

يبدو أن هناك ضرورة حتمية لتحديد مفاهيم الألفاظ التي يجري تداولها كثيراً هذه الأيام. أول هذه الألفاظ اختلاطاً على الفهم «الثقافة والحضارة» فقد جرى استعمال كلمة «الحضارة» بدلاً من كلمة

« الثقافة » عند كثير من الكتاب على أساس أنها أوسع مدى وأشمل، وأن الحضارة تضم الثقافة تحت جناحها. غير أن هذا جرى دون تعمق لمعنى اللفظين اللذين يجب التفريق بين مفهومها ومضمونها حيث تبدو اهمية لا حدّ لها لتحديد معنى كل منهما توقياً للخلط بينهما، واستعمال كل منهما في مكانه.

ولا ضرورة لإعادة ما قاله عشرات الباحثين في التفرقة بين مفهوم الثقافة ومفهوم الحضارة وغاية ما يجمع عليه المفكرون في هذا هو أن الثقافة فكر، والحضارة مادة ومجتمع.

ولا شك أن الحضارة نتيجة الثقافة، وأن كل حضارة بدأت فكرة أولاً، ثم انبثقت منها الحضارة. غير أن تطور الحضارات على مدى العصور قد بلغ درجة من النضج البشري، فلم تعد هناك حضارات منفصلة ترتبط بإقليم دون إقليم، أو أمة دون أمة. وهذه الحضارة التي نعيشها اليوم لا يصح إطلاق لفظ الحضارة الغربية عليها، وإنما هي حضارة بشرية انصبت في بوتقتها مختلف الحضارات والثقافات القديمة والمتوسطة كحضارات مصر وبابل وآشور، وحضارات اليونان والرومان والعرب والمسلمين. ومن عصارة هذه الحضارات وتجاربها الواسعة المتعددة المراحل قامت هذه الحضارة في القرن الخامس عشر، واستمرت إلى اليوم، وشملت العالم كله. والحضارة هنا في تقديرنا هي الآلة والماكينة والعلوم التكنيكية والاختراعات والكشوف والذرة والصواريخ عابرة القارات.

أما الثقافة فهي الفكر بقطاعاته المختلفة من لغة ودين وأدب وتاريخ. وهنا تبرز أمامنا ثقافات متعددة لها طابعها المستقل المختلف في كل ثقافة عن الثقافة الأخرى.

وابرز ما يبدو هذا الاستقلال واضحاً في ثقافة الشرق والغرب، ثم

في ثقافة الشرق تبدو ثقافة الفكر العربي الإسلامي التي لها طابعها المتميز عن ثقافات الهند والصين، وإن اتسمت ثقافة الشرق بالطابع الروحي.

وتبدو ثقافات الغرب متميزة أيضاً ممثلة في ثقافة الغرب والثقافة الماركسية، والثقافة اليهودية، ولكلٍّ طابعه الواضح، وإن اتسمت ثقافة الغرب بالطابع المادي.

ومن بين هذه الثقافات تبدو «الثقافة العربية الإسلامية» ولها طابع مزدوج واضح الملامح في الارتباط بين الروح والمادة، والعقل والمادة والضمير. ومن هنا يبدو أن هناك ثقافتين وحضارة واحدة.

(١) ثقافة الغرب (بشطريها الغربي والماركسي) وهما يقومان على أساس واضح، وقاعدة واضحة هي: مادية الفكر.

(٢) الثقافة العربية الإسلامية: وهي تقوم على قاعدة الربط بين الروح والمادة. ومن المعتقد أنه لا سبيل إلى تغيير الأساس أو القاعدة في كلتا الثقافتين، ولا سبيل إلى حل أية ثقافة منهما إلى تبني قيم الثقافة الأخرى. وليس معنى هذا هو التوقف عن الأخذ والعطاء، وهو بين الثقافات ظاهرة حتمية وناموس أزلي. هذا الأخذ والعطاء الذي لا يفقد كلتا الثقافتين طابعها الأصيل. ليس معناه جموداً، ولكنه يعني التحرر عن الإذابة. وفي تجربتين قديمتين تم هذا في حرية كاملة، وسلامة تامة، في القرن الرابع الهجري (العاشر الميلادي) عندما نقل الفكر العربي الإسلامي وترجم آثار اليونان والرومان، واختار منها ما وافق مضامينه وقيمه الأساسية. وفي القرن الرابع عشر الميلادي نقل الفكر الغربي آثار الفكر الإسلامي، وقد لوّنها بطابعه، وأضاف إليها وحذف منها. وفي كلتا التجربتين لم يفقد كلٌّ من الفكر الغربي أو الفكر العربي الإسلامي طابعه وشخصيته.

ثم قامت الحضارة على هذه الأسس التي صنعتها الحضارة الإسلامية التي كانت في أرض الغرب (الأندلس). وفيها بدأ الامتداد الحضاري

متصلاً. أخذ العرب فكر اليونان والرومان، مضافاً إلى ثقافات الفرس والهنود والمصريين، وانصهر كله في كيان واضح، ثم أفضى إلى الغرب في عصر النهضة، فصنع الحضارة البشرية الحديثة، التي هي في الواقع جامعة التكوين، بحكم اشتراك الأمم والشعوب كلها في بناء أساسها، وإن تحولت إلى طابع لا إنساني في توجيهها مرتبطة بالاستعمار والقيم الفكرية الغربية التي آمنت:

(١) بالمادية - (٢) والعنصرية - (٣) وتمييز الرجل الأبيض - (٤) واستنزاف الشعوب والسيطرة عليها.

ومن هنا مضت الحضارة في طريق مفتوح، وامتدت إلى العالم كله الذي يعيش الآن في آلاتها وأدواتها. ولكن هل امتدت الثقافة الغربية فسيطرت على الفكر الإنساني؟ هذا هو ما نشك فيه، فإن تجربة اليابان في أوائل القرن كانت واضحة وضوحاً تاماً، حيث اقتبست الحضارة، ورفضت الثقافة الغربية. وتجربة الهند أيضاً التي مضت في طريق الحضارة، وحافظت على قيمها الثقافية وطابعها الأساسي.

ونحن في عالمنا «الشرق الإسلامي» وفي قلب الأمة العربية، نجد أن الغرب قد حاول خلال مرحلة الاحتلال لأرضنا منذ ١٨٣٠ تقريباً إلى ١٩٥٤ الجلاء عن المغرب إلى ١٩٥٦ (الجلاء عن مصر) ١٩٦٢ - الجلاء عن الجزائر أن يفرض هذا الفكر عن طريق المدرسة والصحيفة والكتاب والفيلم السينمائي.

وفي ظل قوى غاصبة وقوى حاكمة مؤيدة للاحتلال استطعنا أن نقاوم ولم نستسلم حتى إذا أتيح لنا أن نتحرر من الاحتلال العسكري والسياسي بدأت مواجهتنا لهذه القوى تأخذ طابعاً جديداً.

فقد خلف الاستعمار العسكري السياسي جيوباً في وطننا تمثل الغزو الفكري والثقافي، وتحمل أمانتها للقيم الغربية. وهي تحاول أن تخفي

اليوم هدفها، فتتأقلم في قوة متجمعة يمكن أن يطلق عليها « الشعوبية الفكرية » وتجد من بعض صحف العالم العربي ما يفسح لها إذاعة آرائها وبث سمومها.

وعندي أنه ما دمنا قد أخذنا بعض جوانب الحضارة أساساً مفروضاً علينا في ظل النفوذ الأجنبي فقد استطعنا بعد التحرر من هذا النفوذ أن نأخذ الجانب الأقوى، جانب الصناعة والآلة والذرة والصواريخ عابرة الفضاء. هذا الجانب الذي حرص الغرب أن يحول بيننا وبين بناء مصانعه، أو القدرة على السيطرة عليه.

وكان هذا التحول في واقعنا بعد التخلص من النفوذ الأجنبي بالغ الأهمية والخطورة، فلم يعد هناك ترف وملابس وعطور وإرضاء للغرائز - وهو الجانب الوحيد الذي قدمه لنا الغرب من الحضارة خلال فترة احتلاله - والرأي أننا قد حققنا بذلك استكمال موقعنا من الحضارة التي هي ملك بشري مشاع.

بقي الأمر في مجال الفكر وهو ما لا سبيل إلى نقله أو اقتباسه، وإنما يجري الأمر فيه وفق قانون أساسي، وناموس أزلي، هو أن لكل أمة مقوماتها الأساسية. هذه المقومات التي تمثل قيم فكرها، وملامح شخصيتها، وهو ما لا سبيل إلى التخلص منه، وهو ما حاول الغرب خلال أكثر من مائة عام أن يقضي عليه دون جدوى. هذا الأساس يجب أن يبرز ويتضح ويصبح أساساً معترفاً به في مواجهة الفكر الإنساني. أما النظرية التي كانت سارية ومعترفاً بها، وهي أخذ خير ما في القديم، وخير ما في الجديد، فهذا تمويه شعوبي يراد به القضاء على مقوماتنا الأساسية، أو وضعها في كفة ميزان مع الجديد الوافد.

فإذا تحدد هذا الأساس واتضح أمكن محاكمة (القديم والتراث) من ناحية (والوافد من فكر الأمم إلينا) من ناحية أخرى محاكمة واضحة للأخذ والرفض والإبقاء والحذف.

ونحن في هذا كله نؤمن بالفكر المفتوح المتطلع إلى ثمرات الفكر الإنساني من الشرق والغرب والقديم والجديد. وقد كنا ولا نزال دائماً قادرين على الحركة والتطور في مرونة وحيوية. ولسنا نخشى أن يغلب فكر على مقوماتنا المعطلة لخير ما في الفكر الإنساني أساساً، والتي عاشت عمرها كله لم تواجه أزمات القلق والاضطراب أو التجمد والتحجر أو التميع والانفراط.

ولا شك أن بين الفكر العربي الإسلامي، وبين الفكر الغربي أبعاداً واضحة واختلافاً صريحاً في أسس كل منهما. وليس معنى هذا أن التقارب والالتقاء لا يقع. فذلك أمر مقبول لدى الفكر العربي الإسلامي المنفتح المتطور المرن، القابل للثقافات الإنسانية، والفكر العالمي على أساس من قيمه ومقوماته. ولكن الأمر العسير الذي لا نعتقد أنه يقع هو امتزاج الفكر العربي الإسلامي والفكر الغربي في فكر واحد، وينسى دعاة هذا الامتزاج أنه لا بد له لكي يتحقق أن «يذوب» أحدهما في الآخر، وينصهر، وهذا أمر جد عسير.

ولقد جرت المحاولات لهذا، ودعا دعاة التغريب والشعوبية من قبل إلى أن نأخذ فكر الغرب. وجاء من يدعو إلى أن نأخذ فكر الماركسية، وفشلت كلتا الدعوتين وإن أخذنا من الفكرين على نحو معين وهو ما ندعوه «بالامتصاص» وهو غير النقل والاقتباس.

وليس من شك أن بين الفكرين والثقافتين فروقاً، ولن يلتقي الاثنان التقاء انصهار وإذابة. أما في مجال الحضارة فإن الامتزاج قائم وكائن، ويسير، ودائرة النقل والإقتباس مفتوحة وجائزة.

هذا هو الفرق بين الثقافة والحضارة. فالفكر يقوم أساساً على مقومات ثابتة، تتطور فروعها وتتحرك ويدخلها التجديد والتحول والتغيير. أما الحضارة فهي نمط من الحياة يمكن تغييره دون تحول أسس الفكر. فقد أخذت اليابان حضارة الغرب ولم تأخذ فكره، وكذلك

فعلت الهند .

ونحن لا نستطيع أن نأخذ لغة الغرب ولا مفاهيمه الروحية، ولا تاريخه، ولا مثله، ولا قيمه، وإنما نستطيع أن نأخذ حضارته في البيت والشارع، وفي الماكينة والآلة والصناعة والحضارة التكنيكية. أي أننا نلبس أثواباً عصرية، فنحن لا نستعمل الآن الجمل أو الناقة، أو نأكل أو نشرب، أو نقيم في مساكننا، أو نتحرك على النحو الذي كان يتحرك عليه القدماء، ولكنّا حين نفكر لا بد أن نعرف أن لنا أسساً أصيلة وقيماً واضحة هي قاعدتنا في تكوين شخصيتنا ومجتمعنا وفكرنا.

ومن الميسور أن يمتزج العالم كله في مجال الحضارة، ولكنه لا يمتزج في مجال الثقافة والفكر. ليس معنى هذا أن «الإنسانية» لا تستطيع أن تلتقي على «وحدة فكر». وإنما معناه أن فكر الغرب سيظل بارزاً بقيمه ومفاهيمه المستمدة من الفكر اليوناني، والثقافة الرومانية والمسيحية والمادية، وكلها أسس أكيدة لفكر الغرب الحديث لا سبيل إلى تخليه عنها. بينما يقوم الفكر العربي الإسلامي على أساس ترابط الروح والمادة، والتقاء العقل والضمير متمثلة في جوانب السياسة والاجتماع والقانون.

### ٩ - القاعدة قبل الاحياء والاقتباس

هل أتيح للشرق سبيل الاختيار حين واجه الحضارة الغربية، والفكر الأوروبي، أم فرض الغرب حضارته ومفاهيمه فرضاً على الشرق بقوة الاحتلال والاستعمار؟

وهل لو كانت قد أتيحت الفرصة للعرب والمسلمين، وكانت لهم القدرة التي تمكنهم من الموازنة، هل كانوا يقبلون فكر الغرب كله؟

إن للشرق الإسلامي مع الغرب تجربتين في «اقتباس» فكره: الأولى في عصر الترجمة ووقتها كان العالم الإسلامي قادراً على أن يأخذ ويدع.

وقد أقبل على تطعيم فكره بالثقافات الشرقية والغربية بمحض اختياره وبقوته الذاتية القادرة على الاستيعاب دائماً، والمدفوعة إلى امتصاص عصارات الفكر الإنساني وتحويله إلى كيانها. لم يتوقف عن ذلك إلا بعد أن أتم دورته كاملة في فلك الإنسانية في مدى (٨٦٠ عاماً). (٦٥٦ - ١٥١٨ م).

أما التجربة الثانية وهي تجربتنا التي نعيشها اليوم، فقد بدأت إثر حملة الغزو الاستعماري الحديث عام ١٨٣٠ تقريباً. حيث لم تكن عملية الاقتباس فيها بالخيار أو بالإرادة الذاتية. ومن الحق أن يقال: إن الشرق الإسلامي كان قد صحا قبل ذلك على صيحات من أعماقه بالتجدد واليقظة والعودة إلى المنابع الأولى، والتحرر من الأغشية والقشور التي أضافتها عصور التخلف. غير أن الغرب كان في انقضاضه ظالماً لم يترك له حق المفاضلة في أن يأخذ أو يدع لأنه كان حريصاً على تنفيذ مخطط معين هو أن يثير حوله عواصف وأعاصير متشابكة، ويفتح أمامه طريقاً له تيارات متعددة، ليضطرب فكره، فيعجز عن أن يختار. ثم يقف من ماضيه موقف المستهين به، فيرفض تراثه كله، ويتحول، ويتحول إلى صورة مظهرها غربي وقوامها شيء متهافت هش لا قيمة له.

غير أن هذه المؤامرة لم تفتك به لأنه رفضها. وإن اضطرب معها ثمة، غير أنه استطاع أن يواجهها ويصمد أمامها بإحياء مصادر فكره الأصيلة، وتجديد روافده. غير أن الخطة التي وضعت إذ ذاك للمقاومة كانت مبتورة، ولم تكن ناضجة كاملة. فقد كانت خطة حرب سريعة لم تقم على التدبير الواسع أو التقدير العميق، هذه الخطة التي كانت تقول:

«نأخذ من الغرب أحسن ما عنده، ونحيي من ماضينا خير ما فيه، ونخلق مزيجاً من الشرق والغرب والماضي والحاضر».

تلك كانت القاعدة التي عاش عليها فكرنا طوال مائة عام تقريباً.

غير أننا اليوم نجدنا في حاجة إلى إعادة النظر في هذه القاعدة بعد أن ثبت عدم قدرتها على الحياة مع تطور تيارات التغريب. وتوسع قاعدتها، وتحولها من «التغريب» الصريح إلى دعوات «الشعوبية» المحتجبة وراء مظاهر القيم والمفاهيم، وهي حركة أدق وأخفى من حركات التبشير والإلحاد والتغريب، لذلك كان علينا أن نكشف عن خطأ هذا المخطط وقصوره. فالواقع أنه ليس الأمر أن نأخذ من الفكر الغربي أو نحيي من الفكر العربي الإسلامي، ولكن الأمر الذي يسبق هذا أهمية هو أن «نتعارف» على «الأساس» الواضح الصريح لفكرنا وأمتنا وشخصيتنا. وأن نؤمن بقيمنا الأساسية التي نبني عليها، تطورنا الفكري وأمتنا. فإذا وحّدنا هذا الأساس - وهو موجود - إتفقنا عليه، فقد تحققت لنا «وحدة الفكر» التي تحول بيننا وبين البلبلة والاضطراب في تيه نظريات الغرب (بشقيه) فإذا وجدنا أنفسنا في مجال وحدة الفكر كان من السهل علينا مواجهة تيارات الفكر العالمي كله دون أن تقتلعنا أو تمسخنا.

ولا شك قد ثبت بعد مرور خمسة عقود على ظهور نظرية التسوية بين الإحياء والاقتباس: أنها نظرية قاصرة، وأن هناك وجوهاً كثيرة لنقضها وضعفها. وآية ذلك أنها لم تحقق النتائج المرجوة منها، فإلى أي حد يمكن الأخذ من القديم أو نقل الحديث، وما هو القانون المعترف به الذي يقرر صلاحية القديم أو الجديد أو الناموس الذي ينظم عملية المزج؟.

وعلى هذا فقد اضطربت أمور التقاء القديم بالجديد، وذهبت نظريات إلى التطرف في النظرة العامة فأنكر قوم القديم كله ودعوا إلى التخلص منه لأنه لا يوائم التطور، ودعا آخرون إلى نقل الفكر الغربي كلية دون تحفظ، ووقفت أقوام إزاء القديم موقف المحافظة أو الجمود أو الاعتدال.

بدراسة هذه النظرية ونتائجها، أمكن الحكم عليها بالسقوط لاضطرابها

أساساً، ولأنها تركت دون قانون ينظمها لها، أو يحدد لها مفهوماً واضحاً.

ولهذا أعتقد أنه آن الأوان لالقاء نظرة جديدة قوامها عمق الفهم، والانتفاع بالتجربة، واتساع الأفق. تدعونا لذلك عدة أمور:

أولاً: أننا منذ عقد كامل من الزمن نواجه مفاهيم متجددة في الفكر العربي تقوم على أساس التقاء المفاهيم، ورفع الحواجز، واتحاد الأجزاء في ظل تطور حركة اليقظة العربية. من هنا بدأت النظرة الإقليمية الضيقة التي كانت تمثل أساس الدراسات والأبحاث. بدأت هذه النظرة تتوقف وتبدو متخلفة، وبدأ حملة لوائها يوسمون بالشعوبية.

ثانياً: بدا الأفق مفتوحاً للبحث المنطلق والحر في مجالات الدراسات التاريخية والفكرية، وأصبح في استطاعتنا اليوم أن ننظر في حرية إلى تاريخ المنطقة في العصر الحديث كله نظرة النقد والتقويم دون ضغط أو قيد بعد سقوط النفوذ السياسي المحتل، والنفوذ الحاكم المرتبط به.

ثالثاً: انتهاء «عقدة النقص» التي عايشت الفكر العربي في فترة الاحتلال الطويلة منذ عام ١٨٣٠ وذلك بعد دخول الأمة العربية مرحلة البناء الحضاري بالماكينة والآلة والأسلحة والعلوم التكنيكية وكشوف الفضاء.

وإذا كنا قد فرضت علينا خلال فترة الإحتلال من ثقافة الغرب وحضارته ما شاء الغرب المحتل أن يفرض، وبنفس الأساليب والوسائل وعن طريق أجهزته الممثلة في التعليم والصحافة، وكتابات المستغربين.

وإذا كنا قد جرينا شوطاً طويلاً في هذا المجال المضطرب، فقد آن لنا أن نحرر مفاهيمنا ليس من مضمون فكر الآخرين، بل ومن وسائل وصول هذا الفكر إلينا.

وإذا كنا في الماضي قد اضطررنا إلى قبول مضامين هذا الفكر بحكم فرضها علينا. فقد أصبح من حقنا اليوم ـ وقد انتهت قوة الاحتلال الفارضة ـ أن نقف موقفاً استقلالياً واضحاً إزاء ما نقبله أو نرفضه.

ومن هنا كان لا بد من إلغاء النظرية القديمة التي وضعت في ظل النفوذ الأجنبي المسيطر بقوى الاحتلال ونفوذه، وأن يقوم مفهوم جديد للتعامل مع الفكر المستورد. وإذا كانت عقدة النقص في حياتنا الفكرية قد انتهت، هذه العقدة التي صورها ابن خلدون في قوله: «إن المغلوب دائماً مولع بتقليد الغالب». فقد حق لنا أن نتحرر في النظرة إلى كل تيارات الفكر الإنساني.

وقاعدتنا هي أننا نعيش دائماً بفكر مفتوح قابل لتلقي كل ما يقدمه الفكر الإنساني، كذلك كنا، وكذلك نحن الآن، ولنا تجربة سابقة غير أننا نقف من هذا الأمر موقف الإرادة القادرة على حرية الأخذ والعطاء وفق نظرة استقلالية منبعثة من أعماق ذاتنا المريدة.

فنحن أولاً أمة لها شخصيتها ولها كيانها ولها مقوماتها الأساسية منذ وجدت، ولا تزال تصادم التيارات والأحداث، وتواجه الغزو العالمي ممثلاً في القوى العسكرية والحشود الحربية طوال تاريخها، ولا تستسلم. وتواجه الغزو الفكري والثقافي ممثلاً في الآراء والمذاهب والدعوات والقيم دون أن تغرقها هذه الموجات أو تقضي عليها.

ولقد كانت أمتنا دائماً قادرة على الحياة، طالما استمسكت بمقوماتها، وحافظت على شخصيتها. ولقد أكدت هذه الأمة دائماً حيويتها وذاتيتها وقدرتها على الحركة والعمل والتطور في مواجهة عوامل التجمد والتخلف والتوقف من ناحية الداخل وعوامل التطرف والغزو والسيطرة من الخارج. وكانت دائماً قادرة على المضي في موكب الحياة مزودة بقيمتها الأساسية التي لم تكن مصدر تخلف. بل كان التخلف نتيجة فعلية لانصرافها عن هذه المقومات، ومحاولتها مواجهة الحياة بدونها، وتكشف

كل الأحداث في تاريخها عن أن مصدر التخلف في حياة هذه الأمة وفكرها إنما جاء نتيجة لاندفاعها بعيدة عن مقوماتها، أو عندما خالفت ناموسها الأساسي . وقد أداها ذلك إلى العجز عن الحركة، وتوقف مقدرتها عن الأخذ والعطاء .

فالأساس الحقيقي لقيام فكر جديد هو مواجهة القديم والمستورد على أساس قاعدة أساسية تتمثل في مقوماتنا الحقيقية، وفي ظل شخصيتنا الأصيلة . هنا تصبح النظرة إلى التراث وإلى الوافد من الفكر الغربي صادقة وسليمة . فإن هذا الأساس هو الميزان الصادق والقانون الجديد لإقرار ما يبقى من التراث وما يقبل من الفكر الوافد .

## ١ ـ النظرة الى التراث

القول بأن «التراث» هو الشيء الميت اصطلاح غربي، فليس كل التراث فكراً ميتاً، وإنما يعني التراث جذور الحي، وقوائم الواقع وقواعد المنارات السامقة . فالتراث هو الأساس الذي حمل المقومات الحية التي ما تزال تتفاعل في مجتمعنا وفكرنا وحياتنا ألوف السنين، والتي لا سبيل إلى التخلي عنها .

ولو أننا تخلينا عن فكرنا كله للزم أن نستعين بتراث من ننقل منهم لنجعله قاعدة للفكر الجديد . والغربيون أنفسهم عندما أقاموا فكرهم الحديث، وثقافتهم المعاصرة التمسوا أسسها في مصادر ثلاثة هي: التراث اليوناني، والفكر الروماني، والمسيحية .

وما تزال هذه الأسس تحكم تطور الفكر الغربي، وتتصل به . وما من نظرية جديدة أو مذهب جديد إلا وله بهذه الجذور صلة .

لا يستطيع مثقف أو باحث فيلسوف أن يقدم نظرية جديدة دون أن يكون قد استوعب كل التراث، وامتصه، واتصل به اتصال الفرع بأصله . وما من نظرية في عالم الفكر الغربي، ولا فلسفة ولا مذهب إلا وهي استيعاب وتطوير للنظريات السالفة لها، الممتدة واحدة بعد أخرى

إلى الثقافات الثلاث اليونانية والرومانية والمسيحية. ولقد بلغ الغرب في تقديره للجذور مبلغاً لا حدّ له، بلغ حد التقديس حتى لقد اضطر الغربيون في سبيل الحفاظ على مقوماتهم الأساسية، والإصرار على ينابيعهم الخالصة أنهم أنكروا فضل الحضارات الشرقية القديمة على الفكر اليوناني، وعدّوا رحلة علمائهم وأدبائهم إلى الشرق ليس لها صلة مطلقة بالاقتباس من الفكر الشرقي القديم القائم على مواريث بابل وآشور والفراعنة.

والتراث العربي الإسلامي أولا ملك العقل الذي عاش في الشرق منذ بزوغ فجر هذا الفكر. شاركت فيه كل الثقافات الفارسية واليونانية والهندية، وتركت عصارتها في مضمونه بعد أن امتصها، وخلق منها على أساس من قيمه الذاتية، وملامحه الأصيلة فكراً عرف بهذه المنطقة وعرفت به.

فلا سبيل إلى التعصب في نسبة هذا التراث إلى المسلمين وحدهم، حتى يكون ذلك مصدراً لإنكاره وازدرائه. ويمكن القول بأن هذا التراث يتشكل من فصيلتين: فصيلة حية نابضة. هي كل ما يتصل بتكوين «الإنسان» وما يتصل بالاجتماع والضمير والأخلاق من دين وشرائع وقيم، في صورة نصوص يمكن الرجوع إليها، وبحثها. ولكنها إذا كان يصح القول يمكن أن تسمى بالتراث السائل المتحرك المتطور النابض بالحياة، المتفاعل مع الفكر والثقافة والمجتمع، والذي ما زال بالرغم من سقوط الشرق الإسلامي والأمة العربية تحت براثن الاستعمار حياً متفاعلاً.

أما الفصيلة الثانية المتصلة بالفنون والآداب والعلوم وما يتبعها من موسيقى وبناء ونحت وشعر وأبحاث في الفلك والكيمياء والجراحة والرياضيات. فهذه لا تمثل إلا علامة على دورنا في حلقات تطور الحضارة. ونحن إزاءها لا نطلب أكثر من الاعتراف بها وبأثرها وإيجابيتها، وبأنها لم تكن قط مرحلة نقل، وإنما كانت مرحلة بناء

وإضافة وتطور وإبداع .

ومن هنا كانت استحالة اعتبار الفصيلة الأولى من التراث ماضياً يمكن أن ينطوي ويموت وتسقط الحجب عليه، فتزيحه عن حياتنا الفكرية اليوم. إذ لا سبيل إلى ذلك عقلاً ولا جدلاً .

ونحن لا نقف من هذا التراث موقف الجمود، وإنما نتطور به، ونفتح آفاقه لكل مظهر جديد من مظاهر الحياة. لذلك إن سعينا أساساً. إنما نسعى لنواكب ركب الحضارة، ولا نتخلف عنه. غاية ما في الأمر أننا نواليه على صورتنا الأساسية، وبمقوماتنا التي لا تحول بيننا وبين الخطو الواسع إلى الآفاق المفتوحة .

ونحن ننظر إلى التراث بروح «طليقة» مرنة . وما دمنا لا نرفضه ولا نكرهه ولا نحتقره، فإننا نستطيع في حرية أن نأخذ منه وندع، وننقده، ونقول رأينا فيه صريحاً واضحاً: هذا الرأي الذي لا يتسرب إليه التحامل إذ العبرة بالرأي الأساسي في كل شيء . ذلك أن الشعوبية تحتقر تراثنا وتزدريه أساساً مهما حاولت أن تضفي على رأيها صفة العلمية، أو تداري موقفها منه بعبارة مجاملة، فهي لا تستطيع أن تخفي موقفها. أما نحن فلا ننكر تراثنا ولا نحتقره، بل نقف منه موقف الجزء الحي من كياننا. ومن هنا تكون نظرتنا له مرنة طليقة.

كذلك موقفنا من تاريخنا فهو في كثير من صفحاته مفخرة من مفاخرنا، وفي صفحات أخرى يرسم صورة فرقتنا وهزائمنا، ولكنا نقف منه جميعاً موقف التقدير والإعجاب بانتصاراته، والعبرة من هزائمه .

ونحن في هذا نرفض النظريتين: النظرية «القديمة» التي تؤمن بالتراث إيماناً أعمى. والنظرية «العصرية» التي تنكره إنكاراً تاماً، ونتخذ مذهباً وسطاً بين النظريتين، قوامها التقدير الكامل لتراثنا، والنظر إليه في طلاقة ومرونة. وليس من شيء في عالم الفكر القديم والحديث يمكن أن يؤخذ كله أو يترك كله .

والذين يدعوننا لأن نأخذ التراث كله كالذين يدعوننا أن نأخذ الفكر

الغربي كله. كلاهما مسرف في دعواه. ونحن في هذا نؤمن بالمدرسة الوسطى التي تقيم فكرها على أساس أصيل، وتأخذ من كل شيء بقدر ما يعطي شخصيتنا قوة النماء والتطور والحياة.

وليست هناك قوة تستطيع أن تنتزع أمتنا من روابطها الماضية، ومن تراثها. وليست هناك قوة تستطيع أن تفرغ أمتنا في قالب الثقافة الغربية، والفكر الغربي الخالص، فذلك أمر يخالف طبائع الأشياء ونواميس الكون. وللروابط بين القديم والجديد، وللحركة من الماضي إلى المستقبل قوانين لا تتخلف.

ونحن لا نعادي النزعة السلفية، ولا نرفض النظرة العصرية، ولكننا لا نقبلهما قبولاً أعمى، وإنما نعرضهما جميعاً على المقومات الأساسية التي ارتضيناها لفكرنا وشخصيتنا في رحابة صدر، صادقين في التقدير للسلفية والعصرية جميعاً، فهما وجهان لحقيقة واحدة.

وأمامنا في هذا تقدير كامل لتطور الإنسانية، فعجلة التاريخ ماضية لا تتوقف، وصورة الماضي لا يمكن أن تعود، ولا سبيل إلى أن يكون إعجابنا بمجتمع ما سبيلاً إلى إعادة تطبيقه. ولكن الصورة تستطيع أن تعطينا من ذخيرة التراث ما يضيف إلى حاضرنا قوة، خاصة، ونحن نقدر أن المقومات الأساسية متصلة مستمرة لم تنقطع ولم تتوقف.

ونحن لا نستطيع أن نتجاهل الماضي كلية في فكرنا العربي الإسلامي المعاصر، وإلا فإننا نفقد شهادة الميلاد وصحة النسب. والفكر الغربي المعاصر يقوم دائماً على شهادة ميلاده المتصلة باليونانية والرومانية والمسيحية.

فنحن في فكرنا المعاصر لا شك أننا نمثل حلقة من حلقات الفكر العربي الإسلامي الممتد. لم نفصل عنه، ولم نتحول عن أصوله الجوهرية. فإذا بلغنا فمه النهضة، فلا يكون هذا ميلاداً جديداً، وإنما يكون مرحلة جديدة في خط متصل. وإذا امتصصنا اليوم عصارة من الفكر الغربي

(بشقيه) فإن هذا ليس غريباً عنا، فقد فعلنا ذلك من قبل، ولم يحولنا هذا عن ملامحنا الأصيلة، أو يفقدنا شخصيتنا أو مقوماتنا الأساسية.

وموقفنا من الفكر الغربي يقوم على أساس إيماننا بالأخذ والعطاء. فلقد أعطينا من قبل، فلا ضير علينا أن نأخذ، فقط نأخذ ونحن مسترشدين. لنأخذ ما نريد، لا ما يفرض علينا، وبمحض إرادتنا واختيارنا، وما نحتاج إليه وما يزيد شخصيتنا قوة، وحياتنا قدرة على الحركة والتطور.

## ١١ - وحدة الفكر

إن بناء أمتنا اليوم ليتطلب في الأهم الألزم تحديد مقوماتنا الأساسية، وذلك حتى نلتقي على وحدة الفكر التي هي لباب العمل وقاعدته حيث يستطيع البناء أن ينمو قوياً. إن أمتنا اليوم قد تحررت من الاحتلال العسكري والسياسي، وتخلصت من عقدة «النقص» فانطلقت في مجال الصناعة والعلم التجريبي، وأخذت تنظم مجتمعها على أقرب الأنظمة السياسية والاقتصادية انبعاثاً من واقعها. وقد التقى المشرق والمغرب العربيين، وتحطمت القيود التى كانت موضوعة للتفرقة بين غرب آسيا وغرب أفريقيا. وبدا للأمة العربية صوت جهير وواقع واضح.

ومن هنا فقد جاء الوقت الذي لا بد أن تحدد هذه الأمة مقوماتها الأساسية، وتؤمن بها إذ لا بد من الالتقاء على وحدة الفكر أساساً كأمر بعيد الأهمية في بناء وحدة الأجزاء.

وليس الالتقاء على وحدة الفكر صعباً وعسيراً. بل هو يسيرٌ غاية اليسر إذا أخرجنا من تقدير تيارات الشعوبية التي تحاول أن تثير الشكوك والشبهات. فقد أثبت تاريخ الأدب العربي المعاصر منذ أوائل الاحتلال حتى الآن لمن تناوله ككل في العالم العربي من المحيط إلى

الخليج أن هناك التقاءً كاملاً على أسس واضحة، وأن الاستعمار بقواه وفكره ونفوذه، والاحتلال بسلطانه وغزواته وتياراته، ودعوة التغريب بسلطانها المبثوث في مناهج التعليم، ونفوذ الصحافة والتأليف لم تستطع أن تغير شيئاً كثيراً.

فنحن نلتقي حتماً على أسس واضحة قوامها الربط بين العروبة والإسلام بين الوحدة في مجال من يتكلمون اللغة العربية، والأخوة في مجال من يدينون بالإسلام. والإسلام هنا هو تلك القيم الفكرية والروحية، والاجتماعية التي عاشت عليها هذه الأمة بجميع عناصرها وأديانها، وتمثلت في جوهر ضميرها، ولم تكن هذه القيم مستوردة أو منقولة أساساً، ولكنها كانت نابعة من أعماق النفس والعقل العربيين معاً وهي عصارة التقاليد والعادات والقيم والمفاهيم التي تعارفت عليها هذه الأمة.

ونحن إذا تحررنا قليلاً من تلك المظاهر الغالبة، ورجعنا إلى الفطرة لوجدنا هذا الالتقاء واضحاً في عناصر فكرنا القائم على الدين والتاريخ واللغة والتراث، وعلى ذلك الامتزاج الواضح الذي يزاوج فيه بين الروح والمادة والعقل والضمير والعلم والدين.

هذه الوحدة تبدو واضحة في مضمون الفكر العربي الإسلامي، وفي الأمة العربية لا تتخلف ولا تتوقف.

وهي الأساس الأصيل لبناء وحدة الأمة، فنحن نؤمن بقيمنا الأصيلة أساساً لشخصيتنا ذات الطابع الواضح، وفكرنا ذي الملامح الصريحة القائمة على عناصر الدين والتاريخ واللغة والتراث ممتزجة متجمعة. هذا الفكر المفتوح المرن القادر على مواجهة الفكر الإنساني المعاصر في مختلف تياراته ومفاهيمه ودعواته مؤمناً بقدرته على «الامتصاص» لخير ما فيه دون أن يكون مستذلاً أو مستورداً مع رفض التبعية والولاء، متحرراً من كل سيطرة لثقافة أخرى عليه. فهو يمتص ما يزيده قوة، وما يدفعه إلى الحياة والتطور. ولقد كان فكرنا دائماً قادراً على ذلك.

متمسكاً من الحركة في ظل قاعدته الأساسية ومفاهيمه الأصيلة.

وعندي أننا لن نستطيع أن نقيم هذا البناء الوحدوي لأمتنا، إلا إذا التقينا على قاعدة أساسية نرتضيها مهما اختلفت الثقافات والمفاهيم في عملية المواجهة بالحضارات والثقافات العالمية.

ونحن إذ نحاول أن نلتقي على قاعدة وحدة الفكر نعرف تماماً اختلاف الثقافات في الوطن العربي وتضارعها، وكيف امتدت تيارات متعددة، ومذاهب مختلفة إلى أمتنا. ففي العراق ومصر والسودان غلبت الثقافة الإنجليزية، وفي المغرب كله وسوريا ولبنان غلبت الثقافة الفرنسية، وهناك كثيرون عرفوا الثقافة الأميركية. ثم انفتح الفكر الماركسي على الفكر العربي الإسلامي في أواخر الأربعينات، فأضاف تيارات جديدة. وقد تعلق كثير من شبابنا في العالم العربي بهذه المذاهب، وارتبطوا بها نتيجة للمعاهد الأجنبية التي تعلموا فيها، أو البعثات التي أرسلوا إليها فقد تصادف أنهم فعلوا ذلك دون أن يتزودوا بقوة قادرة تحفظ عليهم كيانهم الفكري، وذلك هو التعرف أولاً إلى المقومات الأساسية لفكرنا وأمتنا. ولو أن شبابنا تعرّف إلى هذه المقومات فآمن بها واعتنقها عقيدة فكرية وروحية ثابتة لما انزلق إلى هذا المذهب أو ذاك، أو اضطرب إزاء نظريات الفكر الغربي بشقيه. وعندي أن الذي ينقصنا أن يلتقي شبابنا منذ مطالع حياته بأصول فكرنا المستمدة من القرآن الكريم، ويؤمن بأن أمتنا لها شخصية ذاتية، خاصة، لا تمتزج بغيرها ولا تذوب، وأن يصدق الحب لها، ويؤمن بها. هنالك تقوم وحدة الفكر التي تجعلنا في حصانة إزاء التيارات والمذاهب والدعوات الغربية التي تتناوشنا من كل طريق، والتي لا نستطيع أن نغلق نوافذنا دونها، وإنما نواجهها غير متخلفين ولا تابعين، فنرى فيها على ضوء «قاعدتنا الأساسية» الرأي فنأخذ منها وندع ونحول خيرها إلى كياننا فنزداد به قوة. وبذلك نمتص ما في الفكر الإنساني من ذخائر وروائع وآيات دون أن نتحول عن قاعدتنا، هذه

القاعدة التي قامت أساساً على المقومات حية فيها قدرة على المرونة وفيها طابع الإنسانية، وفيها حيوية التطور والالتقاء من جميع البيئات وخلال كل العصور[1].

(١) بدا البحث عن علاقة الفكر الإسلامي بالثقافة العربية بهذا الفصل أساساً عام ١٩٦٤. وأوردناه هنا لتسجيل مراحل التطور في دراسة هذه القضية (١٩٧٠).

# خَاتـمَة

# خاتمة

# قيم الفكر الإسلامي

## أساس بناء الثقافة العربية

لكي تضع الأمة العربية خطة أساسية لإنشاء جيل قادر على حمل أمانة النهضة والسير بها إلى أبعد مدى، لا بد من فهم لمعاني هذه الكلمات التي يتحتم تجديد معانيها أساساً وهي:

١ - شرق وغرب ٢ - ثقافة وحضارة ٣ - تربية وثقافة وتعليم.

### (أولاً)

١- (في الغرب) تقوم الثقافة على أسس ثلاثة: أدب اليونان - وحضارة الرومان - والمسيحية.

وقد كانت المسيحية بالنسبة له مستوردة «ليست من نبت بلاده. ولذلك قد صنعها على طريقته، ثم نحاها حين وقفت في وجه نهضته. وقد اعتمدت أساساً على روح «الوثنية» في الأدب والثقافة االيونانية والرومانية التي لا تؤمن بالتوحيد أساساً. وترى العلاقة بينها وبين الإلّه علاقة صراع، وتضع نفسها في موقف تحدي الله والطبيعة والحياة في معركة متصلة. ثم جاءت الحضارة الغربية قائمة على أساس النظرة العلمية المادية الأساس، منكرة الجانبين الروحي والغيبي إنكاراً تاماً. ومن الفكر الغربي المادي الأساس انبثقت الماركسية، فإذا كان الغرب هو مادية الفكر، فإن الماركسية هي مادية الحياة».

٢ - أما الشرق: فهناك الشرق المقابل للغرب. الشرق الروحي

الصرف في مقابل الغرب المادي الصرف. وهو شرق: الهند والصين واليابان المعتمد على مذاهب الكنفوشيوسية والبوذية والهندوسية. أما الشرق «العربي الإسلامي» فهو هذه المنطقة التي تتسم بروح الإسلام وطابع اللغة العربية. فإن فكرها عصارة مزيج الروح والمادة، والنفس والجسم، والدين والعلم، والعقل والقلب. ولذلك فإن انصهار الفكر العربي الإسلامي في الفكر الغربي أمر مستحيل لا سبيل إليه إلا في حالة واحدة. هي أن يتجاوز الفكر العربي الإسلامي عن مقوماته الأساسية.

## (ثانياً)

١- من هنا تبدو ضرورة التفريق بين الثقافة والحضارة. فالثقافة هي (ضمير الأمة)، أما الحضارة فهي مظاهر حياتها. ولقد امتدت الحضارة الإنسانية منذ بابل وآشور ومصر الفرعونية في رحلة طويلة إلى اليونان والرومان، فالعالم الإسلامي من الأندلس إلى الهند. وقد شارك المسلمون والعرب في هذه الحضارة الإنسانية مشاركة فعلية بإنشاء المذهب العلمي التجريبي الذي كان أساس التطور الأخير للحضارة التي عرفت فيما بعد بالحضارة الغربية.

وقد بلغت الحضارة الآن ذروتها في الترف والرفاهية والمتاع المادي. وهي على هذا النحو ملك مشاع للأمم والشعوب والبشرية كلها تأخذ منها ما تشاء. وقد استطعنا بعد أن رفضنا الاستعمار أن نأخذ جانب القوة منها، وأن نصل إلى المدى في اقتباس الحضارة.

٢ - أما الفكر فلا سبيل لاختلاف المقومات الأساسية للأمم والشعوب. وقد اقتبست اليابان الحضارة منذ أواخر القرن الماضي دون أن تقتبس الفكر، وكذلك فعلت الهند. والواقع أن الفكر العربي الإسلامي يقوم على قيم ومقومات لها طابعها المخالف، والمتميز لوجهات النظر الغربية. وأبرز هذه المخالفات والمميزات: التوحيد وموقف الانسان بالنسبة للكون والحياة، ورعاية العرض والكرامة والشرف والفضيلة في مجال الروابط بين الرجل والمرأة.

٣ - ومن هنا تبدو روح «المادية الغربية» في التحرر من القيم الروحية، وإطلاق الغرائز، وإعلاء القيم المادية، وتعرية الإنسان، واعتبار دوافعه كلها مرتبطة على نحو مفاهيم «فرويد»، أو اعتبار أن الدين نبت من الأرض، ولم ينزل من السماء كما يقول: «دوركايم»، أو تغليب المصالح على القيم كما تقول فلسفة (الذرائع - البرجماتزم - وليم جيمس) وفصل الدين عن التربية والتعليم كما تقول فلسفة ديوي، أو أنه (لا إله والكون مادة) كما تقول فلسفة «ماركس».

٤ - كل هذه المقومات للفكر الغربي وشقه الماركسي، تختلف اختلافاً واضحاً عن مفهوم القيم الأساسية للفكر العربي الإسلامي. ومن هنا لم يكن ميسوراً أن نقتبس الفكر أو ننقله، وإنما يمكن أن ننظر فيه وندرسه ونناقشه على أساس أن تكون هناك أرضية فكرية للأمة قائمة على قاعدة من مقوماتها الأساسية في مفاهيم الدين والحياة. فإذا قامت هذه القاعدة أمكن إطلاق النظرة إلى الفكر الإنساني، والامتصاص منه بما يزيد شخصيتنا قوة، وفكرنا انطلاقاً، فنحن لا نغلق الأبواب أمام الفكر الإنساني، ولكنا نفتحها. ونحن معتمدون أساساً على قاعدتنا التي تحول دون انصهارنا في ثقافات الأمم أو تمييع هذه القاعدة بما يضعف من مقومات فكرنا وملامح شخصيتنا. وهو هدف التغريب والغزو الثقافي الذي يعمل جاهداً من أجل القضاء على هذه المقومات.

## (ثالثاً)

١ - على ضوء هذه المفاهيم نستطيع أن ننظر إلى موضوع بناء الأمة العربية، وإنشاء جيل قادر على أمانة النهضة، وحماية البناء، وهنا تبرز ثلاثة مفاهيم أساسية هي: التربية، والتعليم، والثقافة بتركيبها الطبيعي.

«فالتربية» هي بناء التكوين النفسي والروحي والفكري للإنسان وتبدأ عادة من البيت.

«والتعليم» وهو بناء المفاهيم التي تؤهل هذا الإنسان للعمل العقلي أو

اليدوي أو الوظيفي في شتى مجالات الحياة: العلوم والآداب والقانون.

« والثقافة » هي توسيع مجالات الفكر والعلم والفن، وترقيتها وتعميقها بحيث تتيح له القدرة على المشاركة في تطويرها وإنمائها.

٢ ـ ومن هنا تتضح أهمية توجيه النشء في الميادين الثلاثة من أجل بناء جيل جديد قادر على حماية النهضة وحمل أمانتها.

ولن يتحقق هذا إلا بإتاحة الفرصة للجيل القائم الذي يشرف على الجيل الجديد بتقديم أكبر قدر من التوجيه والرعاية في هذا المجال.

## ( رابعاً )

وفي مجال « التربية » وهو المجال الأساسي والأعمق لبناء الإنسان تبدو الأسوة أو « القدوة » وهي الوسيلة الكبرى للعمل. فإذا لم تتوافر كانت هناك صعوبة كبرى في بناء الشخصية القوية القادرة. وإذا كانت البيئة لا تحقق صورة طيبة فيها مقومات الدين والخلق والفضائل والاستقامة والصدق كانت مراحل التعليم والثقافة أعجز عن أن تقدم ذلك.

٢ ـ وليس من شيء يستطيع أن يعطي الناشىء في هذا المجال، كما تعطيه « روح الدين » التي يمكن أن تقدم في صورة بسيطة يسيرة. وإذا نظرنا إلى شخصية الإنسان الذي نطمح في تشكيله، وجدنا أن أبرز ما نتطلبه فيه هو القدرة على مقاومة وسائل الإغراء حتى لا يتحول إلى الترف والمتعة، وينزلق إلى الشهوات والأهواء. وكل النهضات والحضارات التي عرفتها الأمم قد تحطمت تحت تأثير الانزلاق، فإذا أعطى الحضانة بالتربية الإسلامية لم تستطع مؤامرات الهدم أن تقضي عليه. واستطاعت شخصيته المتماسكة أن تقاوم، ولا شيء يستطيع أن يصنع هذا الجيل غير التماسك الروحي والخلقي، وأن يتم ذلك بغير الانقطاع عن الشهوات ليس قطعاً هو إلغاء جانب الرفاهية في حياة الجيل. فذلك ليس مما يمنع، بل مما يجب أن يبقى، وإنما يحميه ولا يجعله غاية وجود ـ روح

الدين - فالدين يعطي قوة الروح ويدفعها في سمو عن الإغراء واللذات العارضة، ويحمي من الانزلاق أو الرخاوة، ويعطي تلك الطبيعة القادرة على التماسك والصلابة.

٣ - وبناء الشخصية على أساس القيم الروحية والفكرية والاجتماعية النابعة من الفكر العربي الإسلامي يستطيع أن يعطي هذه القوة، ليس فكر الانعزال والسلبية، ولكنه الفكر الذي يجمع بين العقل والروح، والعاطفة والعقل والدين والعلم. فهو يؤمن بحقه في الحياة، ولكنه لا يجعل المادة غايته، وهو يرى له حقه في الحياة، وحفاظه على ما يملك من مقدرات، وإيمانه بأن الاستشهاد في سبيل عرضه وماله وأرضه، كل هذه دعائم تدفعه إلى حماية الأمانة وحمل لواء النهضة.

## (خامساً)

والحق أنه عندما تطلعت الأمة إلى فجر اليقظة كانت تحمل أملين كبيرين:

الأول: بناؤها من جديد، وإعطاؤها قوة للحركة والاندفاع في مجال الحضارة حتى تصل إلى مستوى الأمم الراقية.

الثاني: بناء شبابها على نحو يمكنه من حمل أمانة النهضة والقدرة على مواجهة كل التحديات.

ذلك أن النفوذ الأجنبي الذي سيطر على هذه المنطقة إنما كان يهدف إلى جعل هذه الأمانة تابعة لأسواق الغرب ومصانعه واقتصادياته. ولما كان ذلك عسيراً بالدرجة الأولى لما تملك هذه الأمة من مقومات فكر وشخصية وتاريخ وتراث، فقد كانت حملته الكبرى موجهة نحو القضاء على هذا الكيان والتشكيك فيه، وإذابته وتمييعه، وإحلال قيم جديدة غربية في مكان قيمه الأساسية.

ولقد كانت هذه الأمة بمقوماتها قادرة على صد كل عدوان، والدفاع

عن نفسها ضد كل مغير، لا تقبل أبداً السيطرة أو العبودية، فقد أعطتها «قيمها الأصيلة» معيناً نابضاً بالحيوية من الحرية والقوة والكرامة. كما منحتها كل هذه المقومات القدرة على الحركة في حيوية مكنتها دائماً من تقبل الجديد فلم تقف يوماً موقف الجمود إزاء التطور، ولم تتخذ موقف التخلف أمام الفكر الإنساني الوافد من الشرق أو الغرب. بل كانت لها القدرة على مواجهة هذا الفكر وتقويمه، وامتصاص ما يزيدها قوة على الحياة والحركة دون أن تكون مستوردة أو تابعة.

وقد كانت دائماً تأخذ مكانها في الصدارة والقيادة، وتستمر فيه ما حافظت على مقوماتها الأساسية. هذه المقومات التي مزجت في دقة وقوة بين الروح والمادة والعلم والدين، والعقل والوجدان. وكان هذا طابعها الواضح الذي يعطيها «ملامح شخصيتها» المتميزة عن غيرها، فإذا ما تخلت عن مقوماتها الأساسية واجهت الأزمة والتجميد والانهيار.

ومن هنا كانت مؤامرة «التغريب» التي فرضها النفوذ الأجنبي على هذه الأمة من أجل القضاء على مقوماتها. هذه المقومات التي تحمي الأمة من الموت أو الانسحاق أو التبعية. فلقد كان الغرب يصر دائماً على أن هذه الأمة لا تستطيع أن تصبح في مصاف الدول الراقية، إلا إذا أخذت «حضارة الغرب» وكان الغرب حريصاً على ألا يعطيها هذه الحضارة إلا مرتبطة بثقافته وفكره ومفاهيمه. وكان يظن أن الحضارة ملزمة لنا بفكرها وثقافتها، وأن على الأمة أن تأخذ قيم الغرب في الفكر حين تعد نفسها لحضارته.

غير أن هذه الأمة كانت مؤمنة أساساً بأن «الحضارة» ليست ملكاً للغرب وحده» وإنما هي ملك للإنسانية كلها. وقد شاركت فيها من قبل، وبنت في كيانها حائطاً عريضاً. بل إن جذور هذه الحضارة كانت من صنعنا، وان دورنا في إنشائها كان كبيراً، فضلاً عن أنها ليست حضارة الغرب وحده، بل هي عصارة الثقافات والحضارات التي صنعتها مصر وبابل وآشور واليونان والرومان والعرب والمسلمون جميعاً.

وان هذه الحضارة باعتبارها: تلك النهضة العلمية في مجال التكنولوجيا والآلة والكشف والصناعة والذرة، فإنها تستطيع أن تنتقل من مكان إلى مكان دون أن يترتب على ذلك استيراد المذاهب والنظريات والمقومات الفكرية، وان لكل «أمة» فكرها ومفاهيمها، وقيمها ومقوماتها الأساسية التي تستطيع بها أن تصنع نهضتها، وتقيم عليها بناء حضارتها. وقد فعلت ذلك اليابان من قبل وكذلك فعلت الهند.

## (سادساً)

كان هذا الفهم القائم في ضمير أمتنا في مطالع اليقظة وفجرها. وكان ذلك تماماً هو المعنى القائم في روح فكرها، هذا الفكر القائم على ذلك المزيج المتسق من الروح والمادة، والعلم والدين، والعقل والوجدان. كان هذا هو التحدي الأول ليقظتنا، تحدي النفوذ الغربي الذي كان حريصاً على العمل للقضاء على القاعدة الأساسية لأمتنا.

وقد استطعنا بناء الحضارة الجديدة على المقومات الأساسية لفكر الأمة وروحها. وبذلك حطمنا النظرية الكاذبة التي عاشت على أقلام دعاة «التغريب» سنوات وسنوات وهي أن استيراد الحضارة لا بد أن يمتزج به استيراد الفكر والثقافة.

ونحن نرى اليوم أننا قد أصبحنا في مجال النهضة العلمية والصناعية، وفي مجال الآلة، والكشف والصناعة والذرة والصواريخ التي تسبق سرعة الصوت على قدم المساواة مع الحضارة الغربية.

ومع ذلك فقد أقمنا ذلك البناء الحضاري على مقومات «فكرنا العربي الإسلامي» الواضحة المعالم دون أن نستبدل قيمنا الروحية والفكرية والاجتماعية بقيم الغرب.

وهذه هي معجزة مقوماتنا القادرة على أن تأخذ «الحضارة» في أعلى درجاتها، ثم تبني حياتها على أساس قاعدة عريضة من فكرنا وقيمه.

ولقد حقق هذا تحررنا من «العقد النفسية». فلقد كنا ننظر إلى

الغرب نظرة الإكبار، وننظر إلى أنفسنا نظرة القلة. وكنا نجري وراء الغرب نقلده في سذاجة على قاعدة ابن خلدون التي تقول: «إن المغلوب مولع بتقليد الغالب».

أما اليوم فقد انحلت هذه العقدة. فقد أخذنا «الحضارة» وأصبحنا نقف فيها على نفس المستوى الذي تقف فيه الأمم المتحضرة، ولم يعد هناك سبيل لذلك الإحساس بالقصور الذي كان يدفعنا إلى «التقليد» ولنا من مقومات فكرنا فيض غزير من «القيم» التي تنشىء الأجيال، وتصنع الرجال وتبني القيادات في مختلف المجالات.

وليس معنى هذا أننا وقد بلغنا مكان الأمم المتحضرة أن نغلق فكرنا، فما كان ذلك شأننا أبداً خلال تاريخنا الطويل الخصب، بل كنا دائماً نأخذ ونعطي بفكر مفتوح، قادر على أن يواجه في ظل قاعدته ومقوماته الأساسية كل فكر، فيأخذ منه ما يزيده قوة وحياة، ويمده بالقدرة على الحركة والتطور.

وبذلك تبدو الصورة واضحة «أمة تبنى على أساس من قيمها ومقوماتها» لتكون مناراً عالياً يعلو فيه من جديد صوت الشرق واسمه. ومن هنا كانت المرحلة القادمة من البناء غاية في الأهمية.

## (سابعاً)

ذلك هو بناء «الإنسان» الذي يعطي هذه النهضة «قوة الاستمرار» وقوة الروح الإنساني الذي سيحمي هذه الحضارة. ولطالما كان بناء «الإنسان» هو الصعب العسير. هذا الجيل الجديد، سيكون أحوج بالدرجة الأولى إلى مفاهيم أمته وقيمها الروحية والفكرية والاجتماعية لتكون أساساً وقاعدة لنظرته إلى الأمور، وتقويم المذاهب والنظريات، حتى لا يكون مستورداً أو تابعاً، أو ضائعاً في متاهات الرؤى والطوبيات، فهو إذا عرف قدر ميراثه وتراثه وقيمه أحس بكرامته، وعرف أثره في بناء الحضارة، وتطوير الإنسانية، فلا يعتوره الشعور

بالنقص ولا القصور، ولا يجده مضطراً لأن يندفع وراء بريق الفكر الوافد من الشرق أو الغرب الذي لن نغلق أمامه الأبواب، وسيظل بين أيدينا نأخذ منه وندع حسب حاجتنا، ووفق مفاهيمنا، وعلى ضوء ملامح شخصيتنا الأصيلة. إن بناء «الإنسان» سيعطي هذه النهضة قوتها على البقاء والاستمرار. هذا الجيل الجديد الذي سيحمل على أكتافه أمانة الحضارة الجديدة، لا بد أن يكون قائماً على قاعدة ضخمة عالية من الإيمان بالله ووطنه وأمته وقيمه، مفطوماً على الشهوات، محرراً من المفاهيم الخاطئة مبرأ من شبهات الفكر وشكوك العقيدة، طامحاً مؤمناً. إن المقومات الأساسية التي اتخذناها قاعدة لبناء أمتنا، ستكون نفس المقومات التي تكون قاعدة بناء الإنسان. وإن شباب هذه الأمة في ضوء مفاهيم فكرنا العربي الإسلامي سيكون متحرراً من «أزمة الفكر». كما تحررت الأمة من «أزمة الحضارة». سيجد من مفاهيمه الأساسية ما يهديه إلى بناء كيانه قوياً حياً قادراً على حمل الأمانة وحماية النهضة. سيتحرر هذا الشباب من الانحلال والترف والمادية، ويسترد ثقته بالقيم الفكرية والروحية والاجتماعية.

## ( ثامناً )

والتربية أصلاً هي تنمية الكائن الحي حتى يستكمل جميع خصائصه. وذلك بتهيئة العوامل الضرورية لنموه. والتربية علم غايته النهوض بالإنسان إلى مرتبة تمكنه من الكمال من حيث سلامة جسمه، وتفتق عقله واتساع تجاربه. وفي فكرنا العربي تتميز التربية بطابع خاص أبرز ملامحه تأديب النفس، وتزكية الروح، وتثقيف العقل، وتقوية الجسم، فهي تربية دينية خلقية صحية جسدية، ممتزجة متكافئة لا يبنى نوع منها على حساب الآخر. والتربية في الفكر العربي هي تهذيب الشخصية، وتزويد قواها الفكرية، والبدنية بكل ما يصلحها للعمل والعلم، فتجمع قوة البدن إلى قوة الروح. وتقوم التربية الحقة أساساً على الاعتماد على النفس والكرامة، وحرية الإرادة، والجرأة الأدبية، والصراحة والصدق،

والاستقامة في الرأي والعمل. وتتمثل آداب المعلمين في الفكر الإسلامي في عدة مقومات:

(١) قدرة المتعلم على السؤال والبحث عن الحقيقة.

(٢) الرفق بالمتعلمين وتفهيمهم بالقدوة.

(٣) تقديس حرية الرأي وتفهم الأحكام فهماً صحيحاً.

وفي الأثر: علموا ولا تعنفوا فإن المعلم خير من المعنف.

وقد أشار عمر بن الخطاب إلى حرية الرأي في حديثه مع القاضي حين دعاه إلى الفهم لما يتلجلج في الصدور ومعرفة الأمثال والأشياء، وقياس الأمور عليها دون أن يمنع ذلك من مراجعة النفس في أي رأي إن وجد من الحق ما يرده عنه.

ونظرة الفكر العربي الإسلامي إلى التربية منطلقة غير مترمتة. فالأخلاق ليست قيوداً، ولكنها وسائل لتنظيم الحرية، وهي لا تعيق التطور بقدر ما تحفظ الشخصية الإنسانية من الانهيار والضعف والرخاوة. وليس في فكرنا العربي زهادة ولا انعزال ولا موانع تحول دون المتعة بحقها، ولكن جوهر فكرنا يؤمن بالاعتدال، فهو لا يبيح الاندفاع ولا العنف، ولا أخذ شيء بغير حقه، ووسائطه الطبيعية المشروعة.

وليس صحيحاً في قيمنا الانفصال بين العقيدة والأخلاق، فليس من المنطق أن يستجيب الناس للعقائد، ثم لا يتحقق التطبيق في مجال الالتزام الأخلاقي. والإنسان السليم في نظر فكرنا العربي مزيج متوازن من العقل والروح والعاطفة والغريزة لا يطغى فيه جانب على جانب.

لا «ميكيافيلية» في سلوكنا المستمد من مقومات فكرنا العربي، فنحن لا نخدع ولا نقول بالغاية التي تبرر الواسطة. إن نظرية «لا أخلاقية السياسة» نظرية وافدة وفكرنا لا يقبلها.

وقد أشار كتاب «التربية الإسلامية في العصور الوسطى» إلى مفهوم التربية في الفكر العربي فقال: إن التربية العربية تهدف إلى نشدان الحقيقة والخير لذاتها. وعندما ندرس سير العلماء المسلمين الذين انقطعوا للعلم نعجب بالتصوف العلمي والجلد اللذين كانا يتجليان. فلا غرض مادي، ولا هوى سياسي، ولا سعي لشهرة زائلة، بل وقف العقل والنفس للوصول إلى الحقائق والسعي إليها. وإن التربية في مفهوم الفكر العربي كانت تعنى بالأخلاق والفضائل. وقد أدرك المربون بالبداهة أن تدريب العقل، واستيعاب الحقائق إنما هي جزء من عملية تدريب الطالب، ولكن الغاية القصوى هي تهذيب النفس وتقويم الأخلاق.

وقد كان فهم العلماء والمربين في الفكر العربي أرضية لأحدث النظريات العالمية في التربية. وليس غريباً أن يقال إن الفكر الإنساني يحاول اليوم الاهتداء بالنظرية العربية والانتفاع بها بعد أن لم تحقق تجارب «ديوي» الغاية من بناء الشخصية الإنسانية. فديوي لا يرى «الدين» إلا نتاجاً للظروف السيئة من الحياة. فلا يذكر الإنسان ربه إلا في الأزمات، وحالات الضعف، وعنده لذلك أن الدين لا يصلح لأن يكون من مقومات المدنية ولا التربية.

وقد جرى في ذلك على مفهوم الإغريق الذين دعوا إلى تحرير التربية من العقيدة. وبالرغم من أن نظرية ديوي لم تحظَ بالإقرار من دوائر التعليم والتربية في مهادها وبلادها، فإنها نقلت إلى العالم العربي في ظل فترة احتلاله، وسيطرة النفوذ الأجنبي عليه. والمعروف أن شعار الجامعات في أوروبا وأمريكا «الدين والمعرفة» وأنه قلما تخلو جامعة هناك من كنيسة تقام بها صلاة الصباح، وهي ما تسمى صلاة التوجه إلى الجامعة.

وقد واجهت نظرية «ديوي» في التربية معارضة ونقداً في بيئتها الأساسية فنشرت مجلة تايم نيو مجازين في (١٩٤٨/٣/٣١) بحثاً

أشارت فيه إلى فشل نظرية ديوي القائلة بأن الله والفضيلة كلها غايات قابلة للنقاش والجدل، ومن ثم فلا جدوى من مناقشتها وفي مكانها يجب أن تحل غايةأخرى هي «الانسجام مع الحياة». وقالالكاتب إن الطلبة قد انقطعت صلاتهم بتقاليدهم، وأن هناك حاجة كبرى إلى التفكير في الأهداف السليمة للتربية، وأنه لا بد أن يكون هدف التربية الأول تزويد الفرد بثقافة صحيحة تقنعه بأن هناك تاريخاً وأهدافاً وراء هذه التربية.

## (تاسعاً)

فالفصل بين التربية وأبرز مقومات الفكر العربي هي نظرية الاستعمار. ومعنى عزل مقومات فكرنا عن التربية والتعليم هو: بناء شخصية هشة طرية لا تملك القدرة على حمل أمانة النهضة، أو مقاومة الأخطار التي تراد باليقظة، أو مواجهة وسائل الإغراء، أو مؤامرات القضاء على الحريات.

ولقد كان النفوذ الغربي قادراً على أن يدمر الأمم التي يسيطر عليها عن طريق واحد هو: إباحة الترف والمتع والشهوات والأهواء دون أن يكون لهذه الأمم من مقومات ما يدفعها إلى التماسك، أو يردها عن الانزلاق. وإن مؤامرات القضاء على نهضات الأمم تأتي من طريق واحد هو: تدمير عناصر التماسك في شخصية شبابه، ودفعه إلى مغريات الغرائز والملذات. ومن هنا يعجز عن مواجهة الخطر. والأمة العربية اليوم حين تصنع نهضتها الجديدة في مواجهة تحديات الغزو الثقافي الأساسية لا تكون محتاجة إلى شيء قدر حاجتها إلى الارتباط بمقومات فكرها لتخلق ذلك التماسك الروحي والخلقي الذي يحقق الانفطام عن الشهوات. ولا يعني هذا إلغاء الرفاهية أو المتعة، وإنما الحماية من الانحراف والانحدار، وألا تكون هذه المتعة هي غاية الغايات. فجوهر القيم الأساسية لفكرنا العربي تعطي قوة الروح وتدفع النفس للسمو عن الإغراء واللذات العارضة، وتحمي من الانزلاق والرخاوة، وتعطي

الطبيعة القادرة على التماسك والصلابة ، لا عن قوة البدن أو معدات المقاومة ولكن عن قوة الإيمان .

## ( عاشراً )

فالتربية في مفهوم الفكر العربي الأصيل على هذا النحو تعطي « الوسطية » المعتدلة دون أن تذهب النفس الإنسانية وراء الزهد والسلبية ، ولا تندفع وراء المادة واللذة الخالصة ، وتجمع بين العقل والروح . ولقد عاد الفكر الغربي ليلتمس من الفكر العربي مفهومنا في التربية ، فتقول جريدة التايمز اللندنية في مجال إعادة النظر في أمر التربية « إن اساس تكوين المواطن الصالح هو : شخصية صحيحة متسقة ، ولكن كيف تكون شخصية الفرد دون اعتبار لآرائه ومعتقداته ؟ إن الدين هو أسمى أنواع المعرفة ، ينبغي أن يعطى ـ في صراحة وفي غير مواربة ـ أسمى مكان في التربية » .

ومن حقنا هنا أن نصحح بعض المفاهيم . فقد حاول كثير من كتاب الغرب أن يصوروا أنهم أول من دعا إلى مجانية التعليم . والواقع أن الفكر العربي الإسلامي هو الذي أعلن هذا الحق مبكراً قبل أربعة عشر قرناً ، كما حاولوا أن يكونوا أصحاب القول (بالعلم من المهد إلى اللحد) وهي عبارة نبي الإسلام محمد ﷺ « اطلبوا العلم من المهد إلى اللحد » . وفي القرن الرابع للهجرة كتب العلامة : « أبو الحسن القابسي » دراسته في التربية والتعليم المسماة « رسالة أحوال المعلمين والمتعلمين » ونادى فيها بأمرين سبق فيهما علماء التربية في العصر الحديث وهما :

( أولاً ) أن التعليم حق لكل صبي ، واجب على الدولة ، وهي مكلفة به ، فإذا لم يكن أهل الصبي قادرين على الإنفاق عليه ، ودفع أجر معلم الكتاب ، كان لا بد أن ينفق عليه من بيت مال المسلمين .

( ثانياً ) تعليم البنات : تمثلاً بقول الرسول محمد عليه الصلاة والسلام « طلب العلم فريضة على كل مسلم ومسلمة » .

وقد تناول عدد من أعلام الفكر العربي الإسلامي موضوع التربية، فوضعوا أسسها التي ما تزال مناراً يهتدي به كل باحث. وبذلك سبق الفكر العربي الإسلامي إلى «تقنين» أصول هذا الفن، وفي مقدمة هؤلاء: ابن سينا، والغزالي، والعبدري، وابن خلدون. فقد دعا ابن سينا إلى أن يكون أساس التربية مراعاة ميول الأطفال واستعدادهم، وأن يكون التأديب بطريقة يتجلى فيها الحزم الممزوج بالرفق، وأن يجنب الصبي معايب الأخلاق بالترهيب والترغيب، والإعراض والإقبال. ويرى الغزالي أن كل تربية لا ترمي إلى ترقية الخلق السامي وتقويته ليست جديرة بهذا الاسم، والعلم وحده لا يغني بدون الأخلاق، والتربية الخلقية هي في الواقع تربية اجتماعية، ويجب أن لا ينظر إلى الخلق على أنه شيء شخصي محض، لا يهم سوى صاحبه. وإذا كان الغرض من العلم كسب المعيشة وحده، فإن ذلك يضيق الأفق العقلي، ويحرم المرء الترقي الصحيح، فالمهارة في فن ما إذا كانت مقرونة بفساد الخلق وضعف في النفس لا تكسب صاحبها راحة البال، ولا تجعل الناس تقدره قدره.

## (حادي عشر)

ومن هنا يبدو بوضوح أن إحداث نظريات التربية الحديثة هي من منهج الفكر العربي الذي كان له أصالة إقرار منهج «البحث العلمي الحديث».

ومنذ وقت طويل ونحن نسمع صيحة تدعونا في العالم العربي إلى اصطناع المنهج العلمي الحديث الذي اتخذه الغرب، وذلك لتطبيقه على الفكر والتاريخ والأدب العربي. وتقول هذه الصيحة: إن المنهج العلمي الحديث له قواعد أصيلة أساسها البحث والملاحظة والاستقراء ويقتضي المذهب أن تمحو من نفسك كل رأي، وكل عقيدة سابقة على البحث، وأن تبدأ بالملاحظة والتجربة بالموازنة والترتيب، ثم الاستنباط القائم على المقدمات العلمية للوصول إلى نتيجة علمية خاضعة للبحث والتمحيص.

والواقع أن الغرب لم يكن هو الذي دعا إلى هذا المنهج، وإنما كان قد اتخذ أساساً له من مذهب الفكر العربي الإسلامي في البحث الذي دعا إلى العقل والبرهان: «قل هاتوا برهانكم». والإقناع بالحجة، وتقديم العقل على ظاهر النص. وقد جرى الإمام الغزالي على هذه الطريقة. حيث أعلن في كتبه أنه جرد نفسه من جميع الآراء، ثم فكر واستدل، حتى وصل إلى ما وصل إليه من رأي على أساس الدليل والبرهان.

ولذلك فإن ما ادعاه الغرب من إيمان المسلمين والعرب بالعقلية الغيبية محض افتراء لا أساس له. فقد وصفت العقلية العربية بأنها جزئية تنتقل من الجزء إلى الجزء الآخر، دون أن تربط بين الأجزاء، ولا تبحث في المقدمات والنتائج، ولا تعنى بالتحليل. وهذا ما لا يتفق في الحق مع مقررات العقل العربي الإسلامي، ولا الفكر العربي عامة الذي أثبت على طول القرون علميته وبراعته في الشك والنقد، والبحث على البرهان للوصول إلى الحقائق على أساس المنطق والمقدمات والنتائج، ووفق أسلوب التحليل. ويصور ابن رشد منهج البحث العلمي العربي فيقول: يجب علينا إذا ألقينا ممن تقدموا من الأمم السالفة نظراً في الموجودات، واعتباراً لها بحسب ما اقتضته شرائط البرهان أن ننظر إلى هذا الذي قالوه من ذلك، وما أثبتوه في كتبهم، فما كان منها موافقاً للحق قبلناه منهم وسررنا به وشكرناهم عليه، وما كان منها غير موافق للحق نبهنا عليه، وحذرنا منه وعذرناهم. إن كل ما أدى إليه البرهان والعقل وخالفه ظاهر الشرع، فإن ذلك الظاهر يقبل التأويل.

ويقول الإمام الشافعي في تصوير منهج البحث العلمي: إن هذا العلم دين فانظروا عمن تأخذون منه. لقد أدركت سبعين ممن يقولون: قال رسول الله عند هذه الأساطين، فما أخذت منهم شيئاً. وإن أحدهم لو اؤتمن على بيت المال لكان أميناً، إلا أنهم لم يكونوا من أهل هذا الشأن[1].

---

(١) اقرأ هذا البحث بتفصيل أوسع في كتابنا (أضواء على الفكر العربي الإسلامي).

وهذا كله يعني أن يقوم البحث العلمي على أساس تقدير أهمية من يحمل العلم والقدرة على فحص النصوص ومطابقتها للحق على أساس البرهان والعقل. وبذلك وضع الفكر الإسلامي العربي قواعد البحث العلمي وأصول التفكير وحصرها في الملاحظة والاستقراء وتحكيم العقل.

## (ثاني عشر)

وقد أعلن الفكر الإسلامي نظرية المعرفة قبل الفكر الغربي بسبعة قرون. هذه النظرية القائمة على أساس الاختيار المحسوس والاستقلال والتجربة دون التقليد.

قال ابن حزم: إن المعرفة تكون أولاً بشهادة الحواس. أيّ باختيار لما تقع عليه الحواس، وما يقول العقل. أي بالضرورة من غير حاجة إلى استعمال الحواس الخمس، وببرهان راجع من قرب أو بعد إلى شهادة الحواس، وأولها العقل.

وقال ابن حزم: «إن التقليد حرام» وعلى أساس نظريته التي هي من صميم الفكر العربي خالف كثيراً من الأقوال التي كانت معتمدة في زمنه. وهو القائل بأن الغرض من الفلسفة والشريعة، إنما هو «إصلاح النفس».

وفيما يتصل بهذا، يضاف ما عرف الفكر الإسلامي من أصول النظريات السياسية المستقلة عن الفكر الإغريقي والروماني. وقد سبقت ما أنتجه العقل الأوروبي.

وقد صور الغزالي في كتابه «المنقذ من الضلال» أسلوبه العلمي في فهم الإسلام فأشار إلى أنه لم يقتنع بالدين التقليدي، واتجه إلى أن يعلم حقائق الأمور، وأن يبني دينه على يقين: ولذلك بدأ بالشك في كل ذلك، حتى يقوم البرهان على صحته. وقال بالنص: كل ما أعلمه على هذا الوجه، ولا أتيقنه هذا النوع من اليقين، فهو علم لا ثقة به، ولا

أمان معه. وكل علم لا أمان معه فليس بعلم يقيني. وتطبيقاً لنظرية «المنهج العلمي الإسلامي» نقد الفيلسوف «النظام» آراء أرسطو كما نقدها «الجاحظ» أيضاً ونقد «البيروني» نظريات اليونان والهند في الرياضيات. ووقف ديكارت موقف «الغزالي» في كتابه «المنقذ من الضلال».

وقد تحدث العلامة (بريفليف) في كتابه «البحث العلمي» عن دور العرب. فأكد أن الطريقة التجريبية هي من صنع العرب وحدهم لم يسبقهم إليها باحث أو مفكر. وقال إن كل ما علمه «بيكون» أنه كان تلميذاً مخلصاً للمسلمين، فتلقى أفكارهم، كما تلقى منهم الطريقة التجريبية التي ابتكروها، ونقلها إلى أوروبا المسيحية، وظل يعترف بهذا دون ملل، وكان يؤكد أن علوم المسلمين كانت له ولمعاصريه الطريق الوحيد للثقافة الصحيحة. وقال (بريفليف) إن محاولة إسناد الطريقة التجريبية لغير العرب ليست إلا حلقة من حلقات التضليل، وليست إلا تصحيفاً في فهم المصدر الحقيقي للحضارة الأوروبية. ومن المؤكد أن (بيكون) لم يبتكر الطريقة التجريبية كما يدعي المتأخرون. وقال: إنه لا يوجد جانب واحد في الحضارة الأوروبية دون أن تكون ثقافة المسلمين واضحة التأثير فيه. وان تأثيراً أخطر وأوضح في الروح العلمية، وفي الدراسات التي تحتاج إلى التجارب لإثباتها.

## (ثالث عشر)

وبعد: فهل طبق الغرب منهج البحث العلمي الحديث عندما بحث تاريخ الإسلام وفكره وأدبه ولغته؟ وهل تجرد كتاب الغرب، ومحوا من أنفسهم أحقادهم وخصوماتهم عندما نظروا إلى هذا الفكر الغني الخصيب؟ لقد عجز العلماء والكتاب الغربيون عن أن يطبقوا هذه النظرية التي نقلوها من المسلمين ثم ادعوها لأنفسهم عجزوا عن تطبيقها في كل ما يتصل بالعرب والمسلمين والقرآن، واعتمدوا على الأهواء،

وفرضوا فروضاً ثم بحثوا عن أدلة عنها.

يقول الدكتور «حسين الهراوي»: إني لأعلم أن المستشرقين ينقصهم في مباحثهم عن الإسلام الروح العلمية، وأن لهم في الاستقصاء طريقة لا تشرف العلم، وهي أنهم يفرضون فرضاً، ثم يلتمسون الدليل عليه. فإذا وجدوا في القرآن ما يهدم نظريتهم تجاهلوه، والتمسوا الآيات التي تناسب المعنى المراد. ولا مانع من بترها إذا اقتضى الحال، أو تحريف معناها حسب الرغبة، فيخرج القارىء من كلٍ منهم وهويتهم الإسلام بالتلفيق.

والحق أن الغرب كان ظالماً مرتين:

أولاً: عندما ادعى انه صاحب المنهج العلمي.

ثانياً: وعندما عجزت أهواؤه عن أن ترده إلى الحق في تطبيق المنهج العلمي على الفكر الإسلامي.

## (رابع عشر)

يقودنا هذا إلى مراجعة قضية البحث عن الجذور والارتباط بأسس قيمنا ومفاهيمنا. فقد كان من أبرز الدعوات الوافدة على عالمنا العربي منذ الاحتلال الغربي في الربع الأخير من القرن التاسع عشر، دعوى أن الاتصال بالماضي مذمة، وأن الأمم الناهضة قد انفصلت عن ماضيها، وأن استمرار الارتباط بالماضي يعوق التقدم، ويحول دون بلوغ الأمة المكانة المرموقة في ركب التطور.

وقد حملت هذه الفكرة أقلام دعاة التغريب، والحادين في ركبه ممن يكتبون باللغة العربية. ومضت تزين الدعوة، وتحاول أن تعززها بأكاذيب خادعة، حتى خلقت في الجيل الذي نشأ في ظلها عقدة الاتصال القديم كأنما هو شيء مزدرى.

وبذلك نشأ في الأمة العربية جيل سطحي يجري وراء البريق، ويأخذ

بالقشور ويحاول أن يقلد الغرب. فإذا قرأ لم تمتد يده إلى تلك الكلمات الساخرة بأمجاد أمتنا، المحاولة بث الشكوك والأوهام بالأديان والقيم والمثل العليا الجارية وراء الأهواء والأوهام والخرافات والأكاذيب الخادعة.

وعلا صوت موجة الانفصال عن الماضي والتنكر للقديم على كل صوت، فقد كانت تحملها صحف ضخمة الاسم، ذائعة، تدخل كل قطر من الأقطار العربية تكتب بها أقلام شهيرة. فكان للدعوة في نفوس الشباب المتطلع أثر عميق.

كان ذلك في الثلاثينات من هذا القرن. ودعوة «التغريب» التي يقوم بها مفكرو الغرب على أشدها. غير أن الوقائع كذبت هذه الدعوة وأنكرتها.

فقد تبين أن الغربيين الذين يحملون هذه الدعوة إلينا لا يؤمنون بها في بلادهم. وأنهم هم أنفسهم لم ينفصلوا عن ماضيهم، ولم يقطعوا علاقتهم به. بل إنهم حينما بدأوا حياتهم الجديدة في عصر النهضة (الرينسانس) جعلوا من التراث اليوناني في (الأدب) والروماني في (القانون) قاعدة أصيلة أكدوها، ووقفوا عندها طويلاً، وجددوا أساطيرها القديمة التي علاها الغبار فأحيوها بأسلوب حديث، وعلى نحو مثير يأخذ بالألباب في إخراج جميل، وإعداد يسير، وصور وأغلفة جميلة، وأذاعوا ذلك في الصحف والأندية، وأدخلوه كتب المدارس، وأشادوا به، وبلغوا في ذلك مبلغاً لا حدّ له. ثم جاءوا فأنشأوا أدبهم الجديد على هذا الأساس، وربطوا بين فكرهم الجديد، وبين هذا القديم برباط وثيق، حتى أنهم ليغضون الطرف عن أي أدب لا يتصل فيه الحديث بالقديم، ولا الحاضر بالماضي. وإن أي كاتب لا يفعل ذلك، فهو في نظرهم مقصر عاجز، جدير بأن يقصى عن مكان الشهرة والتبريز.

وليس هذا التراث اليوناني في حقيقته إلا بعض القصص والأساطير

القديمة التي أغضى عنها العرب حين ترجموا التراث اليوناني في الفلسفة والعلم، لأنهم لم يجدوا فيها فناً جديداً أو ثقافةً نافعة. بل مزيجاً من الخيال المغرق، ونداء الغريزة وألاعيب الحواة.

وبينما يفعل الغرب هذا نقف نحن هذا الموقف الشائن، تحت ضغط سيطرة «عقدة الأجنبي» الذي دعا بيننا دعوته الباطلة فصدقناها وأخذنا بها.

وقع هذا بالنسبة لتراثنا العربي الإسلامي الضخم الحافل بالآثار الحية النابضة بالقوة والإيجابية. هذا التراث المتصل بالحياة نفسها في جميع فنونها الروحية والعقلية والقانونية والاقتصادية والعلمية. هناك حيث تجد العشرات، بل المئات من أعلام الفكر والأدب أمثال: ابن خلدون والمتنبي وابن حزم والجاحظ والغزالي وابن تيمية وابن القيم، وعشرات لهم آثار حية باقية على الزمن مرتبطة بالحياة لا تنفصل عنها، وهي ما زالت تنبض قوة وتجري مع التطور والزمن.

## (خامس عشر)

يحدث هذا بينما نجد الغرب في بدء نهضته يقوم على أساس هذا التراث فيترجمه ويبدأ به، ويأخذ منه، ثم يمضي على هواه. ويعترف بذلك أعلام منصفون من كتاب الغرب وفلاسفته أمثال: سيديو وجوستاف لوبون وتوماس أرنولد.

فنحن الذين حملنا «أمانة الحضارة» إبان العصور الوسطى المظلمة التي عاشتها أوروبا. عندما كانت تمضي في ظل ليل الجمود، كانت منارات الأندلس والمغرب والقاهرة وبغداد ودمشق تشع حضارة وثقافة، وتحمل لواء التطور والنهضة، وتنشىء المنهج العلمي التجريبي.

ومن ثم كانت دعوى الانفصال عن الماضي خدعة كبرى، أذاعها الغرب بيننا ليفصلنا عن شخصيتنا الأصيلة النابضة بالحياة، وحتى يجعلنا صورة مشوهة من الغرب. كان الهدف هو فصلنا عن اللغة العربية،

وعن القرآن الكريم، وعن الإسلام، وعن الأمة العربية، وعن تراث أربعة عشر قرناً لم تستطع أن تفنيه مؤامرات هولاكو في بغداد حين أقام بالكتب جسراً على نهر الفرات، ولا النار التي أوقدها الكردينال في ساحات الأندلس حيث حرق بها آلاف الأسفار والكتب.

وما تزال الكتب الباقية بعد هذا تكون تراثاً ضخماً حياً، ليس منعزلاً عن الحياة، وليس هو من الأساطير والخرافات، وإنما هو قوة كبرى تحمل فكراً حياً نابضاً يضع الحلول للأزمات البشرية، وقضايا الإنسان في معركة التطور، ويحمل مع ذلك القيم والمثل العليا الهادية إلى حياة أفضل. ما أجدرنا اليوم أن نجعلها أساس نهضتنا، وأن نعيد بعثها على النحو الذي صنع به الغرب أساطير اليونان المغرقة في الجنس والخيال.

## (سادس عشر)

واليوم يعود الغرب ليعلن في صراحة أن حضارته المادية قد بلغت غايتها في العنف والعسف، وأنها في حاجة إلى «سند» من ثقافة غير مادية. هذه الثقافة العربية المستمدة من الإسلام والتي تميزت عن ثقافة الشرق «الهند والصين» المتسمة بالروحية الخالصة، وثقافة الغرب (أوروبا وأمريكا) المتسمة بالمادية الصرفة. هنا في هذه (الأمة الوسط) يجد الغرب ثقافة تمتزج فيها الروح بالمادة، وحاجة الدنيا بحاجة الروح والعقل والمصير، ثقافة الإنسانية والتوحيد والإلتزام الأخلاقي.
وبعد فإن القاعدة هي أن الانفصال عن الماضي هو علامة الهزيمة والانهيار. فكل حاضر لا ماضي له، ولا مستقبل له.

والحق أن بناء الشخصية العربية الجديدة في ظل اليقظة، والثورة والبناء الصناعي على أسس قيم الفكر الإسلامي العربي هو مصدر القوة التي تحمي البناء. ذلك أن قيم هذا الفكر تجمع بين المادة والروح، والدنيا والآخرة، والعقل والقلب، وتمزج بينها جميعاً، ولا تذهب وراء المادة واللذة الخالصة، كما لا تذهب وراء الزهد والانعزال والسلبية.

فهو فكر يؤمن بحق الحياة، ويدعو إلى التفوق والصدارة، وبناء على الحق والعدل، ولكنه لا يجعل المادة غايته.

* * *

وبناء الشخصية العربية وفق أصول فكرها يقوم أساساً على مفاهيم أساسية واضحة:

* نحن أمة لها فكر حي متحرك متطور قادر على التجاوب مع الحضارات في مختلف الأزمنة، وفي كل مكان على هذا الكوكب.

* ولنا «شخصية» ذات طابع مميز لا يذوب في شخصية أخرى، وهي لا تتعالى بمكانها، وإنما تحافظ على مقوماتها مع فكر مفتوح على العالم تأخذ منه وتعطي.

* ولنا «تاريخ» عريض مليء بالأمجاد أبرز صوره هي قدرتنا على مقاومة الغزوات المتتابعة، وهزيمتها وإعطاء «الإنسانية» نماذج من النوابغ والأعلام في مختلف مجالات الفلسفة والفقه والفكر والفن والعلوم.

* لنا «لغة» خصبة قادرة على مواجهة الحضارات والثقافات، عاشت متطورة قادرة على الحياة، لا تموت ولا تتجزأ، لأنها لغة الأمة ولغة القرآن الكريم.

* لنا «تراث» من الفكر العربي الإسلامي الحي، ما يزال متصلاً بالحياة تتمثل فيه مفاهيم رائدة قادرة على أن تعطي الإنسان قيمه ومثله، وتحل قضاياه ومشاكله، وترسم علاقاته بالله والكون والناس.

# المصادر والمراجع


دكتور محمد البهي — الفكر الإسلامي الحديث وصلته بالاستعمار الغربي

محمد المبارك — ذاتية الإسلام

دكتورة بنت الشاطىء — قيم جديدة للأدب العربي

الدكتور علي سامي النشار — مناهج البحث عن مفكري الإسلام

الدكتور عمر فروخ — التبشير والاستعمار

الدكتور محمد حسين

هيكل — الشرق الجديد

الدكتور محمد أحمد

الغمراوي — النقد التحليلي لكتاب الشعر الجاهلي

مالك بن نبي — الصراع الفكري في البلاد المستعمرة

محمد عبده — الإسلام بين النصرانية وبين العلم والمدنية

محمد أسد — الإسلام على مفترق الطرق

دكتور محمد محمد حسين — الحضارة الغربية والفكر الإسلامي

محمد بهجت الأثري — الاتجاهات الحديثة في الإسلام

جلال مظهر — مآثر العرب على الحضارة الأوروبية

عبد المنعم خلاف — المادية الإسلامية وأبعادها

محمد الغزالي — التعصب والتسامح بين المسيحية والإسلام

فتحي عثمان — أضواء على التاريخ الإسلامي

| | |
|---|---|
| محمد خليفة التونسي | الخطر اليهودي |
| أنور الجندي | معالم الفكر العربي المعاصر |
| | الإسلام وحركة التاريخ |
| | القيم الأساسية للفكر الإسلامي والثقافة العربية . |

# الفهرس

# الموسوعة الإسلامية العربية

# ١٠

# الفصحى لغة القرآن

بقلم

أنور الجندي

دار الكتاب اللبناني
بيروت - لبنان

مكتبة المدرسة
بيروت - لبنان

دار الكتاب اللبناني
ومكتبة المدرسة
بيروت - لبنان
ص.ب ٣١٧٦ - برقيا (كتالبنان)
هاتف ٢٥٧٤٧٠ - ٢٣٧٥٣٧
TELEX No 22865 K.T.L
LE BEIRUT

١٤٠٢ هـ
١٩٨٢ م

الموسوعة الإسلامية العربية

# آفاق البحث

صفحة

بسم الله الرحمن الرحيم

# مدْخل
## خصائص الفصْحى

قال الخليل بن أحمد في كتاب العين : إن عدد أبنية كلام العرب المستعمل والمهمل (١٢،٣٠٥،٤١٢) كلمة وهو يعني ما يمكن تكوينه بتركيب أحرف الهجاء على كل شكل من الثنائي والثلاثي والرباعي .

ويقول الحسن الزبيدي : إن عدد الألفاظ العربية (٦،٦٩٩،٤٠٠) لفظ لا يستعمل منها إلاّ ٥٦٢٠ لفظاً والباقي مهمل .

ويقول آخرون : إن اللغة العربية تتألف من ثمانين ألف مادة المستعمل منها عشرة آلاف فقط والمهجور من ألفاظها سبعون ألف مادة لم تستعمل إلى اليوم . وهذه الإشارات على اختلاف أرقامها وتعدد مصادرها تكشف عن طبيعة اللغة العربية وتاريخها دون حاجة إلى أي قدر من الإشادة أو المبالغة ، وهي في مجموعها تعطي صورة الثراء والغنى في الحصيلة وتكشف عن البعد التاريخي والنمو والحيوية في نفس الوقت .

(ثانياً) إذا كانت اللغة العربية هي اللغة القومية لمائة مليون من العرب فإنها لغة الفكر والثقافة والعقيدة لألف مليون من المسلمين ، وهي لم تتراجع عن أرض دخلتها لتاثيرها الناشيء من كونها لغة دين ولغة مدنية ، وساعدها على النماء أنها كانت لغة السياسة والتجارة ولغة العلم والفكر قرابة ألف سنة وقد كان لها أثرها الواضح في الفارسية والتركية والهندوستانية والجاوية والملاوية وبفضل (١) القرآن بلغت ذلك الاتساع وبفضل الإسلام حققت هذا النمو بما لم تعرفه لغة أخرى من لغات العالم .

ولم تبق لغة أوربية (٢) واحدة لم يصبها شيء من اللسان العربي المبين ، حتى اللغة اللاتينية الأم الكبرى فقد صارت وعاء لنقل المفردات العربية إلى بناتها .

ولقد كانت كل اللغات أداة لنقل الأفكار ، بينما تميزت اللغة العربية بأنها كذلك ، وأنها بالإضافة إلى ذلك لغة فكر من حيث هي لغة القرآن الكريم الذي ألقى إلى العربية وإلى الفكر الإنساني كله أضخم شحنة من القيم والمبادىء .

(ثالثاً) إن اللغة العربية لغة اشتقاق تقوم على أبواب الفعل الثلاثي التي لا وجود لها في جميع اللغات الهندية والجرمانية ، وهي اللغات التي تكتب بالحروف اللاتينية ، فإذا قابلنا العربية باللغات الاشتقاقية كالإنجليزية والفرنسية نجد أن العربية امتازت بخصائص أكفل بحاجة العلوم ، فمن ذلك سعتها فعدد كلمات اللغة الفرنسية ٢٥ ألفاً وكلمات اللغة الإنجليزية مائة ألف ، أما العربية فعدد موادها ٤٠٠ ألف مادة ، ومعجم لسان العرب يحتوي على ٨٠ ألف

---

(١) بروكلمان .

(٢) ميلين : اللغات في أوربا الحديثة .

مادة ( لا كلمة ) ومواد اللغة العربية تتفرع إلى كلمات ، فإذا فرضنا أن نصف مواد المعجم منصرفة ، بلغ عدد ما يشتق منها نصف مليون كلمة ، وليس في الدنيا لغة اشتقاقية أخرى غنية بكلماتها إلى هذا الحد . وبسبب غنى العربية وسعتها تجد فيها للمعاني الشديدة التقارب كلمات خاصة بكل معنى مهما كانت درجة التفاوت(١) وبالمقارنة بينها وبين اللغة الإنجليزية التي يتكلم بها معظم سكان العالم الآن فإننا نجدها تفوقها في الأصوات وفي الألفاظ ، ففيها ٢٨ حرفاً في حين أن في اللغة الإنجليزية ٢٦ حرفاً وليس في هذه الحروف الثمانية والعشرين حروف تدل على أصوات مكررة ، بخلاف حروف الأصوات في الإنجليزية .

وفي اللغة العربية حروف لأصوات لا توجد في كثير من اللغات الأخرى مثل الحاء والخاء والضاد والطاء والظاء والعين والغين والقاف .

( رابعاً ) تتميز اللغة العربية بتنوع الأساليب والعبارات . فالمعنى الواحد يمكن أن يؤدى بتعبيرات مختلفة : كالحقيقة والمجاز والتصريح والكناية .

وهي تحسب حساب الفكرة والخاطر والمثال .

ومن(٢) أهم خصائصها : قدرتها على التعبير عن معان ثانوية لا تعرف الشعوب الغربية كيف تعبر عنها ، فالفرنسية مثلاً لا تعنى إلا بالتعبير الواحد ، أما في العربية فمذاهب وأساليب تعرب عن مختلف الأحاسيس فضلاً عن استعمال العربية للحركات

---

(١) إبراهيم مصطفى – مجلة الأزهر ١٨٩٢ .

(٢) عن نص لريجستير بلاشير .

الطويلة والقصيرة في بقية اللفظ فتحصل على مشتقات لأنها عديدة مختلفة المعاني مع بقاء الأصل ثابتاً واضحاً للعين .

(خامساً) تتميز اللغة العربية بأنها أقرب لغات الدنيا إلى قواعد المنطق بحيث إن عباراتها سليمة طيعة تهون على الناطق الصافي الفكر أن يعبر بها عما يريده من دون تصنع أو تكلف .

وإن العربية تكتب كما تقرأ ، بحيث إن الذي يتعلم حروفها وحركاتها يهون عليه بدون مشقة أن يقرأ حيثما شاء ، وليس فيها من شذوذ الخط إلاّ ما لا يحتفل به ، وهذه الخلة لا تجدها في لغة أخرى فإن أكثر اللغات تحتاج ممن يتعلمها بعد أن يتعلم أوائل كتابتها يلتزم أن يتعلم أيضاً قراءتها كلمة كلمة . وهي غنية بنفسها عن كل ما يحتاج الإنسان إلى نطقه فلا يحتاج إلى لغة أعجمية والعرب لم يتركوا شيئاً إلاّ استنبطوا له اسماً من لغتهم كالمعدة والهواء والجوهر والشخصي والأفق وخسوف القمر وكسوف الشمس والصدى وما إلى ذلك(١) .

(سادساً) ضربت اللغة العربية رقماً قياسياً في الكمال حيث تقدمت للفكر بكل المخططات الصوتية الممكنة وميزت مفاصل الفكر تمييزاً واضحاً مبيناً وقد توصل علم اللغات المقارن إلى حقيقة ثابتة بالنسبة للغة العربية هي أنها معبرة بسيكولوجيتها العلوم الباطنة والظاهرة(٢) .

(سابعاً) من خصائص العربية أن جميع مشتقاتها تقبل التصريف إلاّ فيما ندر ، وهذا يجعلها طوع أهلها أكثر من غيرها وأوفى بحاجة المتكلمين ، وقد وضع علماء اللغة العرب باجتهادهم أبنية اللغة

---

(١) المطران يوسف داود (مقدمة كتابه في الأصول النحوية) .

(٢) من نص للأستاذ محمد أديب السلاوي .

الكلاسيكية وكذلك مفرداتها في حالة كمال تام .

وليست اللغة العربية غنية بالمفردات ولكنها غنية أيضاً بالصيغ النحوية ، وتهتم العربية بربط الجمل بعضها ببعض .

وللفعل العربي صيغ تبلغ الاثنتي عشرة صيغة كل منها يمتاز بمعنى خاص متصل بمعنى الفعل الأصلي

والإسناد في اللغة العربية يكفي في إنشاء علاقة ذهنية بين الموضوع والمحمول ، أو المسند إليه دون حاجة إلى التصريح بهذه العلاقة نطقاً أو كتابة في حين أن هذا الإسناد الذهني لا يكفي في اللغات الأجنبية إلا بوجود لفظ صريح يشير إلى هذه العلاقة .

نقول : فلان شجاع دون حاجة الى أن نقول « فلان موجود شجاعاً » ولا تحتاج العربية في طبيعة بنيتها وتركيبها إلى الجمل الخبرية فيها إلى ما يثبت ما يسمى في اللغات الغربية فعل الكينونة ( to be ) .

وأسباب الترادف في اللغة العربية أعمق مما يتصور بعض الباحثين ، بل إن هناك من علماء اللغة كابن فارس وابن علي الفارسي من أنكر المترادفات أصلاً ، واعتبرها ألفاظاً جديدة لها معان تختلف في قليل أو كثير بعضها عن بعض ، وكان الإمام الرازي يرى وجوب تحديد الترادف بعدم التباين في المعنى .

وتتميز اللغة العربية بخاصية إظهار الأفكار بطريقة موجزة دون استدراج السامع إليها كما تتميز في إضافة الحوادث إلى الفعل أكثر من إسنادها إلى الفاعل بخلاف اللغات الأوربية ، وفي أن الألفاظ العربية تعود غالباً إلى أصل ثلاثي(١) وللعربية . خاصية

---

(١) من بحث كتبه لويس ماسينيون .

عجيبة في تعريب الكلمات الأجنبية تدل على استقرار نظام الصرف في هذه اللغة بحيث لا يؤثر فيها نظام صرف اللغة المأثورة ، فإذا كانت الكلمات الطارئة من أصل سامي شديد الشبه بالعربية تضاعفت صعوبة القول بما إذا كانت دخيلة أم أصيلة .

(ثامناً) سعة اللغة العربية بالنسبة لجميع اللغات أمر واضح ويذهب الباحثون إلى أن من يتتبع جميع اللغات لا يجد فيها لغة تضاهي اللغة العربية في سعتها ، ويضاف إلى جمال الصوت ثروتها المدهشة في المترادفات كما تزينها الدقة ووجازة التعبير ، وليس لها ضريب من اليسر في استعمال المجاز فضلاً عما فيها من كنايات ومجازات واستعارات وهي مع هذه السعة والكثرة أكثر اللغات اختصاراً في إيصال المعاني وفي النقل إليها . وإن الصورة العربية لأي مثل أجنبي أقصر في جميع الحالات ، وقد أشار الخفاجي عن أبي داود المطران وهو عارف باللغتين العربية والسريانية أنه إذا نقل الألفاظ الحسنة إلى السرياني قبحت وخست وإذا نقل الكلام المختار من السرياني إلى العربية ازداد طلاوة وحسناً (١) .

(تاسعاً) إن خزائن المفردات في اللغة العربية غنية جداً ويمكن لتلك المفردات أن تزاد بلا نهاية ، ذلك أن الاشتقاق يسهل إيجاد صيغ جديدة من الجذور القديمة بحسب ما يحتاج إليه كل إنسان على نظام معين .

لنأخذ مثلاً : الجذر ( س ل م ) سَلِمَ معناها : نجا ؛

سلم : حيا ، ألقى السلام والتحية ،

سالم : دخل السلم .

أسلم : انقاد وخضع .

---

(١) عن بحث لـ ( جوستاف جرونيباوم ) .

ومنها : الإسلام : الخضوع لله .
تسلم : أخذ شيئاً من يد غيره .
السلام : التحية .
السلم : خلاف الحرب .
سليم : صحيح ، غير مريض .
التسليم : الرضا والقبول .
الاستلام : لمس الحجر الأسود بالشفة أو باليد ( التقبيل ) .
وهناك مسلم ومتسلم ومسالم وغيرها مما يعيا على الحصر(١) .

( عاشراً ) في اللغة العربية نحو مائة ألف كلمة مستقلة ومعظم هذه الكلمات تولدت بالاشتقاق : منها ألفاظ كثيرة بنفس المعاني أو بمعان مختلفة .

وبعض الاشتقاقات كالتفاعل والتفعل والانفعال والافتعال والاستفعال والمفاعلة مثلاً لا يمكن التعبير عنها في اللغات الأعجمية عادة إلاّ بلفظة أو أكثر ، زد على ذلك أنها تحتفظ بالألفاظ البدائية الرسمية الأولى إلى جانب الألفاظ الراقية الحضارية المتفرعة منها(٢)

وللمصدر في كلمات اللغة العربية نيف وثلاثون صورة ، ومثل المصدر الصفة فإن لها من الصور ما يزيد عن صور المصادر أو يساويها على الأقل ، ومن قبيل الاشتقاق في الاسم الأبواب : وهي باب المثنى والجمع والمكسر والسالم وباب النسبة والتصغير ، والاشتقاق في الأفعال في اللغة العربية له أربع عشرة صورة ومن هذا القبيل تفوق كل لغة من لغات الغربيين والشرقيين لا أستثني لغة أصلاً .

---

(١) من بحث لجورج سارطون .
(٢) عن بحث لعبد الحق حامد .

(حادي عشر) غاية ما أخذته العربية من غيرها من اللغات بعض ألفاظ مفردة من باب الأسماء لا يتجاوز بعض المئين ، وأكثرها من الأسماء الجامدة كخز وديباج واستبرق وترياق وفالوذج ، مما وجدوه عند غيرهم من أمتي فارس والروم ولم يوجد عندهم .

أما علماء هذه الأمة الذين ظهروا فيها بعد الفتوحات العربية الأولى ونقلوا العلم إليها من الفارسية أو اليونانية أو السريانية ، فلم يحتاجوا إلاّ إلى بعض أسماء حكمها حكم الألفاظ التي ألمعنا إليها سابقاً .

(ثاني عشر) إن علماء العربية حين أخذوا علم المنطق من اليونان إما راساً أو نقلاً من السريانية لم يأخذوا ألفاظ هذا العلم كما هي عند اليونان بل قالوا : موضوع ومحمول وقضية وقياس واستنتاج ومقدمة صغرى ومقدمة كبرى ونتيجة والمقولات العشر والقول الشارح والتصوير والتصديق وكلي وجزئي ، وقضية كلية وقضية كلية مهملة وقضية كلية مسورة وهلم جرا .

وبذلك استغنت العربية عن اصطلاحات اللغة اليونانية بألفاظ من ألفاظها أدت معانيها تمام التأدية من غير صعوبة ولا التباس .

(ثالث عشر) وما قيل في المنطق يقال في علوم الفلسفة فإن علماء العربية أخذوا هذا العلم عن غيرهم ، أما لغتهم فلم تحتج إلى لغة القوم ، ورأت فيها من الألفاظ ما يؤدي معاني ألفاظ ذلك العلم ، فقالوا : موجود ومعدوم وعرض وجوهر وحال وكسر وانكسار وتأثر وأثر وماهية وهوية ومقتضى ومانع ومعارض وقالوا : الماهيات مجعولة بجعل جاعل ، وغير مجعولة ، والعقل الأول والمبدأ الفياض ، وغير ذلك من مصطلحات الفلسفة كثير .

وهكذا الأمر في العلوم الطبيعية : كالطبيعيات والطب

والكيمياء والفلك والنبات والحيوان ، فإن اللغة العربية لم تحتج في كل هذه العلوم إلاّ إلى الألفاظ التي تستعار استعارة لأن مسمياتها من نبات وحيوان لم تكن معروفة .

( رابع عشر ) أعطت اللغة العربية حروفها الهجائية لملايين ملايين من الشعوب في بلاد الترك والهند وجزائر البحر ، فإن المورو في جزائر الفيليبين يكتبون بالحروف العربية إلى هذه الساعة .

وأعطت نفسها لكثير من الأمم الذين تغلبوا على أهلها أو تغلب أهلها عليهم مئات من السنين ، فكانت لهم ما كانت اللغة اللاتينية لشعوب أوربا ، فإن الأتراك والتتر والفرس ما زال علماؤهم يؤلفون مؤلفاتهم باللغة العربية .

كذلك أعطت لغات الأتراك والتتر والفرس والأردو المئات والألوف من ألفاظ المعاني ومئات الألوف من الجمل التامة ، بل أعطت أكثر هذه اللغات ولا سيما التركية كل مصطلحات علوم اللغة والبيان والبديع والعروض وأكثر مصطلحات العلوم والفلسفة حتى بدء القرن التاسع عشر .

كما أعطت لغات أوربا الأرقام العربية وكثيراً من أسماء المعاني والمصطلحات العلمية .

وقد هضمت علوم اليونان والفرس والسريان دون أن يظهر فيها عجز أو ضعف (١) :

( خامس عشر ) من أبرز خصائص اللغة العربية أن أبناءها اليوم وبعد ألف وخمسمائة سنة يفهمون أسفار الجاهلية والمخضرمين كما يفهمون أشعار أبي تمام والبحتري والمتنبي أو كما يفهمون أشعار أبي العلاء والشريف الرضي ويفهمون أشعار فحول المتقدمين ؛

(١) من بحث لجبر ضومط .

يقول بلاشير : إن وحدة اللغة العربية هي وحدة أخلاقية ودينية قبل كل شيء ، مؤسسة على وحدة تاريخ اللغة . وإننا كلما درسنا اللغة الفرنسية لاحظنا أنها تطورت عبر العصور بحيث نجد لها أطواراً فإذا قارنا حالة اللغة الفرنسية في العصور الوسطى وجدنا أنها مغايرة كل المغايرة للغة المستعملة في القرن السابع عشر ، وهذه أيضاً مختلفة عن لغتنا اليوم ، هذه الوحدة في اللغة الفرنسية لا تتضح إلا بالبحث والمقارنة في حين أن وحدة اللغة العربية تتضح للقارىء ولو كان أجنبياً لأول وهلة : نعم ، لغة القرآن هي لغة اليوم وهذا ما تتميز به العربية عن اللغات الأخرى .

(سادس عشر) جمعت اللغة العربية بين أربعة عناصر تتكامل معاً في كل متسق تبدو واضحة في إظهار الأفكار بطريقة موجزة دون استدراج السامع إليها ، وفي الاستثناء إلى المقابلة لتوضيح الغرض المقصود كاستعمال الاستثناء أو التعارض الجدلي ، وفي إضافة الحوادث إلى الفعل أكثر من اسنادها إلى الفاعل بخلاف اللغات الأوربية وفي أن الألفاظ العربية تعود غالباً إلى أصل ثلاثي (١) .

(سابع عشر) حققت اللغة العربية سيطرة كاملة على الفكر الإسلامي وأصبحت هي لغة العلم والثقافة ، فتلاشت الآرامية في مناطق الشام والعراق ، وتخلت الفارسية لوقت ما عن مكانها للغة العربية وانمحت القبطية واليونانية والبربرية واضطر رجال الكنيسة إلى تعريب مجامعهم وصلواتهم ، وقد رفع القرآن من شأن اللغة العربية حتى صارت إحدى اللغات الرئيسية الهامة في العالم ، غنية في مفرداتها ، غنية في صيغ قواعدها ، بلغ المهجور من ألفاظها

---

(١) عن بحث للويس ماسينيون .

سبعين ألف مادة لم تستعمل إلى اليوم ، وسعت كل ما ترجم إليها من الفلسفة والحكمة والطب والكيمياء والمنطق والفلك ،
وقد ترك اللسان العربي أثره واضحاً في اللغات الإسلامية الأخرى .

(ثامن عشر) للغة العربية طريقة عجيبة في التوليد والاشتقاق ، جعلت آخر هذه اللغة يتصل بأولها في نسيج ملتحق من غير أن تذهب معالمها أو ينبهم ما خلفه السلف من تراث على الأجيال بعدهم ، فإذا أخذنا مثلاً كلمة « كتب » واشتققنا منها كاتب وكتاب ومكتبة ومكتوب ومكتب وجدنا أن الحروف الأصلية موجودة في كل كلمة من هذه الكلمات المشتقة ، وأن معنى الكتابة موجود كذلك ، على عكس اللغات الأوربية حيث لا توجد في كثير من الأحيان صلة ما بين كلمات الأسرة الواحدة ، فكتب في الإنجليزية ( Write ) والكتاب ( Book ) ومكتبة ( Library ) ولا علاقة بين حروف هذه الكلمات ، وهذا ما جعل لغة مثل الإنجليزية تختلف من جيل إلى جيل ولا توجد تلك الصلة اللغوية بين ماضيها وحاضرها ، فلغة شكسبير وهو من أدباء القرن السابع عشر لا تكاد تفهم عند جمهرة المثقفين اليوم ، اللهم إلاّ المتخصصين في الأدب الإنجليزي ، وهذا يرجع إلى اختلاف النطق وتطوره من جيل إلى جيل وإلى نمو اللغة بطريقة غير طريقة الاشتقاق العربي وانقطاع الصلة بين كلمات الأسرة الواحدة في غالب الأحيان (١) .

---

(١) من بحث لعمر الدسوقي .

# الكتابُ الأوّل

# اللغةُ العربيّةُ : لغةُ القرآن

## البابُ الأوّل

## تاريخ اللغةِ العربيّة

# الفصل الأول

## ما قبل الاسلام

من بين ثلاثة آلاف لغة تستعمل اليوم في العالم حسب آخر تقديرات الباحثين تبدو اللغة العربية نتاجاً متميزاً وشيئاً مختلفاً من العسير أن يخضع في دراسته للقوانين التي وضعت لدراسة اللغات .

وإن نظرة واحدة على تاريخ نشأتها قبل أن تتصل بالقرآن الكريم لتكشف عن ذلك الإطار الذي احتواها منذ عصرها الأول والظروف والأوضاع التي أحاطت بها والتي ظهر من بعد كيف كانت تعدها لأخطر مهمة ولأكبر رسالة : لأن تكون لغة الكتاب الخاتم المنزل من السماء ورسالة الدين الذي جاء للعالمين وللناس كافة .

ولا يعني هذا أن اللغة العربية لغة مقدسة أو لها طابع غامض أو سحري أو نحو ذلك ، ولكن يعني هذا أن تركيبها الأساسي كان غاية في القوة بحيث استطاعت أن تحمل رسالة السماء وكلمات الله وأن تؤدي ذلك كله للبشرية على نحو غاية في القدرة والاقتدار .

ولكن اللغة العربية بعد هذا تجري عليها سنن الأمم والحضارات من

ضعف وقوة وامتداد وتقلص ، وقد مرت في القرون الأخيرة بفترة تحدٍّ غاية في الخطورة ولا تزال تواجه التحدي في صلابة وقوة بعد أن استمرت أكثر من عشرة قرون لغة العلم والفكر والسياسة في العالم كله .

واللغة العربية فرع من مجموعة اللغات التي ظهرت في الموطن العربي (ولا أقول إنها فرع من فروع اللغات السامية) كما ذهب الكثيرون بعد أن ثبت خطأ النظرية السامية وفسادها وارتباطها بالدعوة الصهيونية التلمودية في العصر الحديث في محاولة اتخاذ العهد القديم أساساً لتاريخ اللغات والأجناس ، مما جرى عليه البحث الغربي الوافد وتابعه دعاة التغريب والمبشرون والمستشرقون جميعاً دون تدبر أو اعتبار للحقائق التاريخية .

وهي أخت اللغات التي كان يتكلم بها الكلدانيون والآشوريون في العراق والسريانيون والفينيقيون في الشام والحبشة فيما وراء الساحل الغربي من البحر الأحمر (بحر القلزم) ، ولها صلة عظيمة جداً بلغة قدماء المصريين .

« وكانت هذه اللغات في العصور الأولى متشابهة بحيث يعتبرن كلهن لهجات لغة واحدة » : هي اللغة الأولى القديمة التي انصهرت في هذه اللغات من بعد .

« ومن هنا استطاع سيدنا إبراهيم الخليل عليه السلام أن ينتقل بين العراق والشام ومصر والحجاز وأن يتفاهم مع جميع سكان تلك الأقطار ، إذ لم يكن يومئذ بين لغاتها من فرق إلاّ كما يوجد الآن بين لهجات العربية في المغرب ومصر والشام وسائر هذه البلاد » (١) .

ويرجح الباحثون أن اللغة الأم « التي ترجع إليها كل هذه اللغات ذابت فيهن » .

ومن الواضح نتيجة الدراسات المختلفة التي أجريت على مأثورات اللغات التي ظهرت في الموطن العربي قبل الإسلام « تحمل على القول بكل حزم وتأكيد أن العربية أرقاهن ، ومعنى هذا أنها أعرقهن في القدم ، فلا تبعد أن تكون البنت البكر لأمها الأولى » (٢) .

---

(١ و ٢) السيد محب الدين الخطيب : الزهراء م١ .

## ٢

كانت اللغات التي اتصلت بالعربية من ناحية الأم هي السريانية والعبرية والفينيقية والآشورية والبابلية والحبشية ، وفي وقت ظهور الإسلام ونزول القرآن كانت القبطية في مصر والبونيفية في الشمال الإفريقي والنبطية في العراق واللاتينية في الشام ، وكانت القبطية في مصر تطوراً من اللغة المصرية القديمة والبونيفية لغة القرطاجيين وغيرهم في شمال أفريقيا . وكانت هناك اللغة الفارسية القديمة في فارس والرومية في الشام .

ومن مقارنة هذه اللغات بالعربية ( كالكلدانية والآشورية والفينيقية والعبرية ) يظهر الفرق البعيد المدى والبون الشاسع بين كمال العربية ووضوحها وفقر اللغات الأخرى وغموضها . ويرجع سبب ذلك إلى « عراقة العربية وقدم تطورها حتى بلغت مرتبة الكمال والنضج ، عندما كانت اللغات السامية الأخرى في أوائل مراحل التطور (١) » .

وإذا كانت اللغة العربية هي أرقى لغات اللغة الأم أو البنت الكبرى على حد تعبير أغلب الباحثين فإن لغة قريش كانت أرقى لهجات اللغة العربية وهي التي بها نزل القرآن الكريم ، ويرجع ذلك إلى أن القبائل العربية كانت تتوارد إلى مكة في موسم الحج ، وكان القرشيون يختطلون بهم فيأخذون من لغاتهم ما رقّ وسهل ، فأصبحت لغتهم من أعذب اللهجات العربية ألفاظاً وأشملها لجميع المعاني والتصورات (١) ، ويرجع مؤرخو اللغة هذا التطور إلى ثلاث مراحل :

( التهذيب الأول ) : يرجع إلى عهد إسماعيل عليه السلام فقد حدث اختلاط بين العربية والعبرية فترقت العربية .

---

(١) مجلة الأزهر م ٢٨ سنة ١٩٥٦ .

( التهذيب الثاني ) : عهد تشعب القبائل العدنانية من ذرية إسماعيل ، فإن هذه القبائل لما تباعدت بطلب العيش كثرت علاقاتها واتسعت دائرة معاملاتها وطاوعتهم اللغة بما فطرت عليه من قبولها للترقي وصلاحها للاتساع .

( التهذيب الثالث ) : اختصت قريش بتهذيب اللغة ، فإنها لما كانت قائمة على سدانة الكعبة ومثابة للقبائل العربية كافة ، كانوا يجتمعون في موسم الحج فيتعارفون ويتعاملون ، وكانت قريش تقوم منهم مقام المضيف ، فتسمع من لهجاتهم ما لم يتسن لسواها فكانت تأخذ ما رقّ من مشهور تلك اللغات ، وكانت قريش ترحل إلى الشام واليمن وفارس والحبشة للاتجار مما سمح لها بدوام التهذيب لأسلوبها ، ومن العوامل التي أثرت في تهذيب اللغة في هذا الدور : الأسواق التي كانت تقيمها العرب للتعامل والتفاخر وتناشد الأشعار .

ولسوق عكاظ بين نخلة والطائف تاريخه الحافل (١) .

## ٣

كل هذا كان له أثره البعيد في إعداد لهجة قريش لتلقي رسالة وحدة العرب الفكرية واللغوية . يقول السيد محب الدين الخطيب :

« أرى أن من معجزات سيدنا محمد صلى الله عليه وسلم التي لم يذكرها العلماء في جملة معجزاته أنه أعاد للبلاد السامية وحدتها القومية واللغوية بعد أن فرق بينها كرّ الأزمان وترامي الأوطان ، فأصبحت اللغة العربية لغة الأمم ( السامية ) كما كانت أمها اللغة ( السامية ) الأولى لغتهن قبل التشتت والانقسام »

---

(١) محمد فريد وجدي ، دائرة المعارف ج ٦ .

ويرى الباحثون « أن اللغة الأم قد بلغت قبل ألوف السنين الطور الذي جعلها تتفرع إلى لهجات صارت فيما بعد لغات مختلفة وهكذا كانت ( العربية العدنانية ) هي بنتها الكبرى تتحول رويداً رويداً إلى لهجات يتباعد بعضها عن بعض » (١) .

« كانت العربية عند ظهور دين التوحيد لغة قبائل : لربيعة في شمال جزيرة العرب لهجة ، ولتميم وقيس ومن انضاف إليهم في وسط الجزيرة لهجة . ولكنانة وهذيل وثقيف وخزاعة وأسد وضبة وألفافها من عرب الحجاز وتهامة لهجة ، فضلاً عن لغة اليمانيين في جنوب الجزيرة ، وكانت لهجة القبيلة الواحدة تفترق عن لهجة غيرها في مادة اللغة وفي كيفية النطق بها » .

وهذا ما وحد العرب مرة أخرى بعد أن اختار القرآن لهجة قريش . وما تزال العربية في جميع الدراسات التي تناولتها قبل الإسلام تشهد بسبقها وامتيازها . يقول المطران يوسف داود مطران السريان في الموصل في كتابه التمرنة في الأصول النحوية :

ومع أن السريانية لغة الأصل الذي يرجع إليه المطران والعبرانية لغة الدين والكتب المقدسة التي تتقيد بها ، فإنه خرج من تلك المقارنة بنتيجة واضحة صريحة هي أن العربية أعرق في الأصالة من جميع اللغات التي تكلم بها الساميون وأنها اكملهن وأجمعهن لما فيهن من محاسن ، ولذلك تمكنت العربية من اكتساح العبرية والسريانية وإبادتهما منذ أجيال واستولت على جميع بلاد العبران والسريانية .

---

(١) محب الدين الخطيب ، المصدر السابق .

## ٤

قرر علماء اللغات في الشرق والغرب على أن اللغة العربية هي أحدث اللغات المنتمية إلى اللغة الأم ظهوراً ، ومع ذلك فإن فيها من الخصائص وعوامل النمو والاكتمال ما أعانهم على تفهم اللغات الأخرى من ذات الأرومة ، وما فيها من المخلفات اللغوية ، وقد أجمعوا — لوجود التشابه في الكلمات وتركيب الجمل والمخلفات اللغوية بين هذه اللغات ذات المصدر الواحد واللغة العربية — على أن ما سمي بالشعوب السامية قديماً قد هاجروا شرقاً وشمالاً وغرباً من جزيرة العرب واستوطنوا العراق والشام ومصر والحبشة ، وأن سيل الهجرات لم ينقطع على مدى العصور وأن كثيراً من القبائل العربية ظلت تنتجع الوديان الخصبة المجاورة للجزيرة قروناً طويلة ، وتقيم فيها إقامة دائمة إلى أن جاءت موجة الهجرة الكبرى بعد الفتح الإسلامي . ومن ثم يصح أن نطلق على هذه الهجرات اسم الهجرات العربية ، وقد قرر إجماع العلماء أن الجزيرة العربية هي مصدر هذه الشعوب جميعاً ، وأنها قد خرجت في موجات متتابعة ، وأن اللغة العربية هي أدنى هذه اللغات إلى اللغة الأم ، حيث لم تتعرض الجزيرة العربية للغزو الخارجي وبقي للغة نقاؤها وخلوها من الدخيل والتأثيرات الأجنبية التي لحقت أخواتها في مهاجرها حيث اختلطت باللغات التي وجدتها ثمة وحيث اختلطت بها البيئات العديدة، فدخل فيها من الكلمات وطريقة النطق ما جعلها لغات مستقلة ، وإن ظل اشتقاقها وطريقة نموها وهندسة جملها والجزء الأعظم من مفرداتها واحداً » (١) .

---

(١) عمر الدسوقي : وحدة اللغة ( ملامح المجتمع العربي ) مجلة المجتمع العربي .

# ٥

ويذهب إلى هذا الرأي بالنسبة لأولية اللغة العربية صاحب كتاب التاريخ العام للغات السامية (أرنست رينان) :

« من أغرب المدهشات أن تنبت تلك اللغة القوية: (العربية) وتصل إلى درجة الكمال وسط الصحارى وعند أمة من الرحل ، تلك اللغة التي فاقت أخواتها بكثرة مفرداتها ودقة معانيها وحسن نظام مبانيها ، ولقد كانت هذه اللغة مجهولة من الأمم ، ولكنها من يوم علمت ظهرت لنا في حلل الكمال وإلى درجة أنها لم تتغير أيّ تغير يذكر ، حتى أنها لم تعرف لها في كل أطوار حياتها ، لا طفولة ولا شيخوخة ، ولا نكاد نعلم من شأنها إلاّ فتوحاتها وانتصاراتها التي لا تبارى ولا نعلم شبهاً لهذه اللغة التي ظهرت للباحثين كاملة من غير تدرج وبقيت حافظة لكيانها خالصة من كل شائبة » .

ويقول رينان :

« لقد استفاض انتشار اللغة العربية فاستولت على أوسع المسافات وأبعد البلدان ، أجل لقد كان لليونانية واللاتينية مثل حظها في أن تصبحا لغتين عالميتين تذيعان عقيدة دينية وتنشران أنظمة سياسية تغلبت على تباين الشعوب والأجناس والمشارب في توحيد الكلمة وتعريف الغاية ، فشاعت اللاتينية في كمبانيا إلى الجزر البريطانية ومن نهر الرين إلى جبال أطلس ، وشاعت اليونانية من صقلية إلى شواطىء دجلة والفرات ومن البحر الأسود إلى بلاد الحبشة ولكن ما أضأل هذا الانتشار إذا قوبل بانتشار اللغة العربية التي تناولت اسبانيا والقارة الأفريقية حتى خط الاستواء وسيطرت على آسيا الجنوبية حتى جاوة واقتحمت من الروسيا ما اقتحمت شاملة كاسوفيا »

## ٦

يرد الباحثون « نشأة (١) اللغة العربية إلى هجرة بعض القبائل اليمنية إلى الحجاز وإقامتهم به ومنها قبيلة جرهم ، ثم وفد إسماعيل وأمه هاجر المصرية وأقاما بمكة مع جرهم وتزوج إسماعيل منهم وترعرع بنوه يأخذون من لغة أمهم القطمانية ولغة أبيهم (وهي ليست العبرانية لأن العبرانية لغة نشأت بعد ذلك بوقت طويل) . وكانت اللغات متقاربة الأصل في ذلك الوقت . ولغة جدتهم المصرية فكانوا نواة العرب المستعربة على نحو ١٩٠٠ قبل الميلاد وكشفت البحوث والكشوف على أن اللغة القطمانية أصل من أصول العربية ، وأن مئات الكلمات فيها تتفق مع العربية نطقاً وتركيباً ، كذلك فقد ثبت صلة المصرية القديمة باللغة العربية مما كشفه الباحث احمد كمال باشا :

يقول : إن أصل اللغة المصرية القديمة واللغة العربية واحد وإن الاختلاف الظاهر بينهما ليس إلاّ نتيجة إسقاط بعض الكلمات في الجزيرة العربية وبقائها في وادي النيل ، أو العكس ، ثم نتيجة لما يعتري الكلمات من القلب والإبدال ومما يطرأ على اللغات من تغيير بمعاملة الأجانب وخاصة أثناء الامتزاج بالجنس الحامي (٢) .

كذلك فقد أجمع الرأي على وحدة اللغات أخوات العربية وكشف عن خصائص تؤلف بينها منها اعتماد هذه اللغات على الحروف الصامتة دون الأصوات ، وأن أغلب الكلمات ترجع في اشتقاقها إلى ذي حرفين أو ثلاثة ، كذلك فإنه ليس في هذه اللغات كلمات مركبة أو معنى مركب نتيجة إدماج كلمتين في واحدة (٣) .

ويشير الباحثون إلى اندماج اللغة اليمنية في اللغة العربية بعد انهيار سد

---

(١) عمر الدسوقي : وحدة اللغة .

(٢ و٣) محمد عزة دروزة ، تاريخ الجنس العربي .

مأرب ١١٥ ق م ، وهجرة اليمنيين بلسانهم وحضارتهم إلى مكة والمدينة وتغلغلهم في بلاد العدنانيين ومخالطتهم ، وقد حملوا معهم لغتهم السبئية والحميرية وما بها من كلمات جديدة ليس للعدنانيين بها عهد ، وقد اختلطوا بالعدنانيين اختلاطاً شديداً فأدى ذلك إلى اندماج اللغتين وتكوين لغة واحدة يفهمها الجميع .

وقد ظلت اللغتان تتفاعلان مدى خمسة قرون ثم تكونت منهما لغه واحدة أصبحت لغة الشعر والخطابة وهي التي نزل بها القرآن الكريم .

فقد انتشرت هذه اللهجة الموحدة في جميع أنحاء الجزيرة قبل الإسلام وروي بها الشعر الجاهلي كله ، وصار يفهمها حتى أهل اليمن أنفسهم وذلك لتمام نضجها وكمالها وقدرتها الفائقة على التعبير وخلوها من النقائض القبلية ثم لقوة المتكلمين بها من أهل الشمال وسيطرتهم التامة على شؤون الجزيرة .

ومن أسواق عكاظ وذي المجنة وغيرها تأخذ قريش خير ما في لهجات العرب ، وكان لذلك الأثر البالغ في صقل اللغة وتهذيبها (١) ويشير بروكلمان في وصف اللغة العربية قبل الإسلام : إلى أنها « تتميز بثروة واسعة في الصور النحوية ، وتعد أرقى اللغات السامية تطوراً من حيث تراكيب الجمل ودقة التعبير ، أما المفردات فهي فيها غنية غنى يسترعي الانتباه ، ولا بدع فهي نهر تصب فيه الجداول من شتى القبائل حتى بهر ثراؤها علماء اللغة ومؤلفي المعاجم وصار هذا البدوي القوي الملاحظة قادراً على أن يصور بلغته كل دقائق الحياة الصحراوية والصفات والحيوان إلى غير ذلك من الأمور .

ولقد كانت اللغة العربية قادرة على الإيضاح عن أرقى عواطف الحب والشوق وما ماثلها ، وعلى الرغم من نزعتها الواقعية فلها روعة شعرية فتانة » .

---

(١) بتصرف عن عمر الدسوقي ، وحدة اللغة .

# الفصل الثاني

## اثر القرآن في اللغة العربية

كانت اللغة العربية القرشية قد تأهبت لتلقي هذا الحدث العظيم من خلال الأحداث التي جرت من حولها خلال قرنين كاملين استمداداً من اللغات ذات الأصل الواحد وانتقاءً من أسواق العرب واندماج لغات الجنوب فيها حتى ليصح لباحث من الباحثين أن يقول : إننا « إذا ما قارنا لغة الشعر الجاهلي بلغة القرآن الكريم أدركنا أن الله سبحانه وتعالى قد خاطب العرب في كتابه العزيز بأصفى لغاتهم وآمن أساليبهم وأبلغ تشابيههم واستعاراتهم وألطف كناياتهم وأوجز تعابيرهم ، من أجل ذلك لم يكن أثر القرآن قاصراً على وقف تقهقر العربية الفصحى فحسب ، بل كان عاملاً على ترقيتها بردها إلى ما كانت عليه من الصفاء والمتانة » .

ويقول ابن جني في الخصائص : نزل القرآن بلغة العرب التي كانوا ينظمون فيها شعرهم ويلقون فيها خطبهم ويتخاطبون بها فيما بينهم ، ومصداق ذلك قوله تعالى في سورة إبراهيم . [ وما أرسلنا من رسول إلاّ بلسان قومه ليبين لهم ] وجاءت صفة (مبين) نعتاً للسان العربي والقرآن وللكتاب والرسول

---

(١) من بحث لعمر فروخ .

اثني عشرة مرة في القرآن الكريم [ وهذا لسان عربي مبين ] .

ولا ريب أننا « إذا أخذنا في الاعتبار وجود لغات عدة وقت التنزيل بدا لنا فضل العربية وشرفها على سائر اللغات وتكريم الله باختيارها لغة لكتابه الأخير [ إنا جعلناه قرآناً عربياً لعلكم تعقلون ] .

[ فإنما يسرناه بلسانك ] .

[ كتاب فصلت آياته قرآناً عربياً ] .

كل هذه الآيات الكريمة دلائل بينات على وجوب جعل الله العربية لغة المسلمين كافة : ومن ثم فقد أخذت اللغة العربية تمتد مع نمو الإسلام واتساعه حتى غدت اللغة الأولى في العالم الإسلامي كله ، بحسبانها لغة الثقافة والفكر ولغة الصلاة والعبادة ، ولقد ارتبطت العربية بنزول القرآن بها بالإسلام رباطاً محكماً حتى أصبح على كل مسلم في كل مكان أن يعرف العربية وأن يفهم بيانها ليفهم القرآن وليكون دينه صحيحاً وقد أشار الإمام الشافعي إلى هذا المعنى في كتاب الأم حيث قال :

« إذا كانت الألسنة مختلفة بما لا يفهمه بعضهم عن بعض فلا بد أن يكون بعضهم تبعاً لبعض ، وأن يكون الفضل في اللسان المتبع على التابع ، وأولى الناس بالفضل في اللسان من لسانه لسان النبي ( صلى الله عليه وسلم ) ولا يجوز والله تعالى أعلم أن يكون أهل لسانه أتباعاً لأهل لسان غير لسانه في حرف واحد بل كل لسان تبع للسانه وكل أهل دين قبله فعليهم اتباع دينه » .

« فعلى كل مسلم أن يتعلم من لسان العرب ما بلغه جهده حتى يشهد بأن لا إله إلا الله وحده لا شريك له وأن محمداً عبده ورسوله ويتلو به كتاب الله تعالى وينطق بالذكر فيما افترض عليه من التكبير وأمر به من التسبيح والتشهد وغير ذلك ، ما ازداد من العلم باللسان الذي جعله الله لسان من ختم به نبوته وأنزل به آخر كتبه ، كان خيراً له كما عليه أن يتعلم الصلاة والذكر ».

## ٢

### ما هي المزية التي تفرد بها القرآن دون الكتب المنزلة في أمر اللغة :

يقول فيليب دي طرازي : أصبح المسلمون بقوة القرآن أمة متوحدة في لغتها ودينها وشريعتها وسياستها فقد جمع شتات العرب ، ومن المقرر أنه لولا القرآن لما انتشرت اللغة الفصحى في الخافقين ، ولولا القرآن لما أقبل الألوف من البشر على قراءة تلك اللغة وعلى كتابتها ودرسها والتعامل بها ، ولولا القرآن لظل أهل كل بلد من البلدان التي انضمت للإسلا م ينطقون بلهجة يستعجمها أهل البلد الآخر، وقد حفظ القرآن التفاهم بالعربية بين الشعوب الإسلامية وبين العرب .

ولما تقهقرت الدولة العربية وتقهقرت معها الحضارة الإسلامية خشي أن تندثر لغة تلك الدول وتندمج في لغة الشعوب المغلوبة على أمرها ، غير أن اللغة العربية قد استعصت على نكبات الدهر بفضل القرآن .

ومن روائع تأثير القرآن أن اتجه المسلمون من غير العرب يرتلونه بلغته العربية ويحافظون على تجويده ويشرحونه لأبناء لغاتهم .

تلك مزية تفرد بها القرآن دون غيره من الكتب المنزلة فالتوراة مثلاً لا يقرأها بلغتها العبرية إلاّ أحبار اليهود ونفر ممن تفرغوا لدرسها ، أما سائر اليهود فإن كلاً منهم لا يقرأ التوراة إلاّ بلغة سكان البلاد التي يعيش فيها ، وقس عليهم كل المسيحيين في أنحاء العالم بأسره ، فإنهم يقرأون الكتاب المقدس مترجماً إلى اللغة الجارية بالاستعمال لدى كل شعب أو كل ملة منهم ، فلا يقرأه بلغاته الأصلية أعني بالعبرية والسريانية واليونانية إلاّ العلماء فقط ، وفئة من نصارى الشرق الأدنى وفريق من نصارى الملبار في الهند .

« والقرآن هو الذي جمع كلمة المسلمين على اختلاف مذاهبهم ولغاتهم وأوطانهم ، وأحدث انتشاره تأثيراً كبيراً في أخلاق الشعوب التي دانت بالإسلام وفي عقولهم وآرائهم وميولهم ، فأدمجوه في كل شأن من شؤونهم دينية ودنيوية ، واتخذوه مصدراً لقضائهم ودعامة لمنازعهم السياسية وسائر أمورهم ، وتتجلى الصبغة القرآنية في مؤلفي الإسلام ومؤلفاتهم ولئن كتبوا في مواضيع لا صلة لها بالدين ، تشهد على ذلك مصنفاتهم في الفلاحة والفلك والهندسة والجبر والكيمياء والطب والفلسفة والتاريخ حتى الصرف والنحو .

« وخلاصة القول أن للقرآن في لغة العربية البحتة تأثيراً عميقاً جداً ، وقد حرص المسلمون بقوة القرآن وما برحوا يحرصون على سننه وفرائضه ونوافله واعتنوا غاية الاعتناء بضبط سوره وآياته وأجزائه وأحزابه وألفاظه وحروفه ونقاطه وحركاته وسكناته ، وتوافروا على استقصاء حقائقه ومجازاته وتصريحاته وكناياته ودقائقه ونكاته » (١) .

## ٣

وقد تأكد أن القرآن الكريم « هو الكتاب الوحيد الذي احتفظ بلغته الأصلية وحفظها على قيد الحياة وسيحفظها على مر الدهور . وستموت اللغات الحية المنتشرة اليوم في العالم كما ماتت لغات حية كثيرة في سالف العصور ، إلاّ العربية ، فستبقى بمنجاة من الموت وستبقى حية في كل زمان مخالفة النواميس الطبيعية التي تسري على سائر لغات البشر ، ولا غرو فهي متصلة بالمعجزة القرآنية الأبدية ، فالكتاب العربي المقدس هو الحصن الذي تحتمي به اللغة العربية وتقاوم أعاصير الزمن وعواصف السياسة المعادية ودسائسها الهدامة » .

---

(١) فيليب دي طرازي : تاريخ المصاحف .

ولا ريب أن القرآن هو مصدر تلك الظاهرة الخطيرة الغريبة وهي أننا « نفهم الآن لغة امرئ القيس وقد مضى عليها خمسة عشر قرناً بينما لا تستطيع أية لغة أن تبقى على إهابها أكثر من ثلاثة أو أربعة قرون ثم تتقمص صورة جديدة أما لغتنا فهي وحدها اللغة الخالدة » (١) .

يقول الدكتور عمر فروخ : نحن نقرأ القرآن الكريم اليوم باللفظ والصوت والأداء والوصل والفصل والوقف التي كانت في أيام الرسول لا نخل بلفظة أو كلمة أو حرف من حركة أو همسة أو نبرة ، بهذه العناية البالغة بالقرآن الكريم عاشت اللغة العربية الفصحى في ثوبها الذي كان لها قبل ستة عشر قرناً أو تزيد . ومضى المسلمون بعد ذلك يتقنون ألسنتهم بلغة القرآن ويقومون كلامهم بكلامه ويطبقون أساليبهم على أساليبه تضميناً واقتباساً وحفظاً ، لا محاكاة وتقليداً ، حتى أصبح القرآن سوراً للغة العربية الفصحى يدفع عنها كل أذى ، ويرد عنها كل عادية ، وبذلك حفظت اللغة العربية الفصحى مما خضعت له سائر اللغات من التقهقر والتشعب والضياع والاندثار . ومن هنا أصبح الطفل العربي اليوم في المدرسة يقرأ نماذج من الشعر الجاهلي فلا يتعثر في لفظها ولا يتردد في معناها ، وإن أثر القرآن الكريم لم يقتصر على العرب وحدهم بل تعدى إلى غير العرب » .

ومن هنا أيضاً نعرف أن لغات ماتت عندما ماتت أممها كالسنسكريتية واللاتينية والسريانية والآشورية . أما اللغة العربية فقد امتازت بمزية ضمنت لها البقاء ألا وهي القرآن .

وكذلك هناك اللغات التي غيرها الإسلام وأثر في تركيبها وكيانها وصاغها من جديد ومنها اللغة الفارسية التي تحولت إلى اللغة الفارسية الجديدة ، وأصبح

---

(١) ادوار مرقص ، مجلة النور ( اللاذقية ) م ١ .

نصف معجمها وأساليبها وأوزانها مما جاءها من العربية حتى صارت لساناً آخر غير اللسان الجاهلي ، كذلك الأمر في لغة الترك والأكراد وسائر اللغات في آسيا وأفريقيا فقد « فقدت كل لغة من هذه اللغات أكثر خصائصها الجاهلية وألزمت نفسها الدخول في عربية القرآن » .

٤

وخاصية أخرى من آثار القرآن في بناء اللغة العربية هي ثبات لفظ القرآن العربي ثباتاً ارتبط بالشريعة والأحكام .

وفي هذا يقول أحد الباحثين : « إن لفظ القرآن وهو كلام الله المنزل على رسول الله كما هو ، وكما انحدر إلينا بالتواتر والتوارث الذي منع عن أي لفظ أن يدخله تغيير أو تبديل مرتبط أشد ارتباط لا بعقائد المسلم وعباداته فحسب ، بل بتشريعه واقتصاده وعلمه وفلسفته وحروبه وجهاده بل بتفاصيل حياته اليومية وخطرات نفسه وآداب معاشرته ، فلا يكاد يوجد شيء في حياة الإنسان المسلم إلاّ وله في القرآن هدى هو نص ، أو هدى هو استنباط ولا في خاص أمره ولا في عام أمر المسلمين ولا في علاقة المسلمين بالأفراد من غير أهل ملتهم ، أو الأمم التي لا تدين بدينهم . ويستنبط من النص أحكام للوقائع الحادثة التي تجدّ في حياة الناس وللاستنباط أصول ضابطة بها يتبين الناس كيف يختلفون وأي شيء من أحكامه المستنبطة هو الذي يقبل فيه الاختلاف وأيها الذي لا يقبل فيه الاختلاف ، لأن لفظ القرآن العربي يأباه ، وكذلك الشأن في حديث رسول الله إذا صح عندنا من الوجوه التي يصح بها الحديث وعلم تصحيح الحديث وموقفه من العلوم التي انفرد بها المسلمون وجاوزوا فيها بما لم تأت بمثله أمة من الأمم إلى يوم الناس هذا » .

ومن هنا فإن الدعوة إلى تيسير النحو تحول دون فهم القرآن والأحاديث النبوية والشعر الجاهلي وكلام الأقدمين .

ويكشف المستشرق براون عن وجوه الخلاف بين القرآن والكتب المقدسة فيقول : « نحن نختلف مع المسلمين في كوننا نعتبر الإنجيل إنجيلاً سواء أقرأناه في اللغات الأصلية التي كتب بها أم في لغتنا الحالية ، أما المسلمون فيعتبرون القرآن كلمة الله وأنه تنزيل من رب العالمين وأن الله هو الذي يخاطبهم وليس النبي محمد ، لذلك فإن القرآن لا يمكن ترجمته إلى لغة أخرى لأن المترجم مضطر أن يورد في ترجمته قدراً من التفسير يستعين به على إظهار معانيه .

« بالإضافة إلى هذا . فإن المسلم سواء أكان فارسياً أم تركياً أم هندياً أم أفغانستانياً أم من أهل الملايو فإنه يؤدي القرآن باللغة العربية فضلاً عن أن يتلفظ بالشهادتين باللغة العربية .

« يضاف إلى هذا أننا نجد أن لغات الشعوب التي اعتنقت الإسلام قد غمرها منذ البداية سيل من الألفاظ العربية يتكون من العبارات الفنية المتعلقة بالدين والفقه .

« ولو أن أحداً أراد أن يكتب شيئاً بالفارسية بحيث تكون كتابته خلواً من الألفاظ العربية لتعذر عليه الأمر كما يتعذر على الذي يريد أن يكتب شيئاً بالإنجليزية بحيث تكون كتابته خالية من كل كلمة يرجع اشتقاقها إلى أصل يوناني أو لاتيني » .

وهكذا تبين مدى عجز اللغة التي يترجم إليها القرآن من استيعابه فالقرآن قد نزل باللغة العربية ولها طابعها البياني الخاص . فإذا ترجم إلى لغة أخرى فقد هذه الخاصية ولم يبق إلاّ أن يسمى ترجمة معاني القرآن لا القرآن نفسه ، أما القرآن نفسه ( أصل الإسلام ) فإن الأسلوب العربي بخصائصه الثابتة هو جزء لا ينفصم عن جوهره ولا يمكن التجاوز عنه البتة ، ومقتضى هذا أن العرب هم الذين وكل إليهم فقه الرسالة :

﴿وكذلك أنزلناه حكماً عربياً﴾ .

والعربي كل من يفقه اللغة العربية ولو كان من الزنوج » (١)

## ٥

ومن الحق أن يقال دون تردد أنه لا يعرف في تاريخ البشر كلام قارب القرآن في قوة تأثيره في القلوب والعقول ، أو بريء من التناقض أو الاختلاف .

[ ولو كان من عند غير الله لوجدوا فيه اختلافاً كثيراً ] .

وإعجاز القرآن قائم « بأسلوبه ونظمه وبلاغته وبما فيه من علم الغيب ولسلامته من الاختلاف وبعجز الزمان عن إبطال شيء منه وبتحقيق مسائل كانت مجهولة للبشر فضلاً عن مخالفة نظم القرآن لنظم العرب » .

هذا فضلاً عن بلاغته المعجزة « وحد البلاغة أن يبلغ المتكلم به ما يريد من نفس السامع بإصابة موقع الإقناع من العقل ، والوجدان من النفس ولم يعرف في تاريخ البشر كلام قارب القرآن من قوة تاثيره في العقول والقلوب » .

وقد أثر القرآن في وحدة اللغة العربية فبفضل القرآن امتدت الحياة في لغة قريش نحو خمسة عشر قرناً ، ولو أن العرب خلت حياتهم من الإسلام لكان من المستحيل أن يكون في الدنيا إنسان يفهم ما أثر من لغة قريش قبل القرآن بقرن أو قرنين .

ولقد أثر القرآن في الشعر الجاهلي فلم يستبق منه غير ما كان بلغة قريش، والأشعار التي شرقت وغربت بعد الإسلام هي الأشعار التي تساير القرآن من الوجهة اللغوية والنحوية .

---

(١) الشيخ محمد الغزالي ، ظلام من الغرب .

ولولا القرآن لظل الشعر مختلف الصيغ والأوزان والأشكال .

والقرآن هو الذي ساق العرب على اختلاف قبائلهم ومواطنهم ولهجاتهم في تيار واحد بحيث لم يبق من ماضي الجاهلية غير ما أراد القرآن أن يعيش » (١)

بل « إن من الشعراء من كان يقيد نفسه حتى يحفظ القرآن وإن أبا إسحق الصابي وهو من غير الملة الإسلامية كان يقرأ سوراً من القرآن قبل أن يشرع في النظم والإنشاء حتى صح القول بأن بلاغة القرآن كانت تجري على سنان قلم أبي إسحق(٢) .

كذلك فإن القرآن وحد لهجات اللغة العربية وأحيا قاعدة التضمين لآيات القرآن في الكتابة وكذلك حفظ القرآن اللغة العربية من صروف الزمان وسيظل يحفظها إلى آخر الدهر ، وهو الذي جعل كثيراً من المنصفين يعرفون فضل محمد ومنهم رشيد سليم الخوري وإلياس فرحات ووصفي قرنفلي .

وقد كان القرآن وسيظل وسيبقى سفير اللغة العربية إلى مختلف الشعوب .

كذلك فتح الإسلام أمام اللغة العربية آفاقاً جديدة ونقلها إلى ميادين واسعة من الفكر والبحث بعد أن كانت تدور في فلك المشاعر الساذجة والعواطف اليسيرة من خلال حياة البادية وطبيعة القبيلة ومطامح الصحراء المحدودة . فقد جاء القرآن ليقدم للبشرية رسالة ضخمة واسعة الآفاق في مختلف مجالات السياسة والاجتماع والتربية والاقتصاد والشريعة .

ولا ريب أن القرآن « غيّر العرب تغييراً تاماً حيث نسخ عنهم ظل الجاهلية وأثار نفوسهم وألان قلوبهم وما جاءهم به « من صروف قول لم يعهدوها وفنون كلام لم يعرفوها مشتملة على أمتن قواعد الاجتماع وأصح أصول الشريعة » .

---

(١ و ٢) من نص للدكتور زكي مبارك .

وفي هذه المعاني يقول بروكلمان إنه « بفضل القرآن بلغت العربية من الاتساع مدى لا تكاد تصل إليه أي لغة من لغات الدنيا ، والمسلمون جميعاً مؤمنون بأن العربية هي وحدها اللسان الذي أحل لهم أن يستعملوه في صلواتهم وبهذا اكتسبت العربية منذ زمان طويل مكانة رفيعة فاقت جميع لغات الدنيا الأخرى » .

أما جاك بيرل فيرى أن القرآن إنما يعني الكلمة المنزلة ويقول : إن هناك إجماعاً على سمو الأسلوب القرآني الذي لا يمكن الإتيان بمثله ، أما نولدكه فيؤمن بأن كل كلمة وحرف في القرآن اليوم هو كما كان في أيام محمد .

أما الدكتور ستنجاس فيتساءل :

ماذا كان مصير هذه اللغة العربية لو لم يكن محمد ولو لم يكن القرآن ؟ ويقول في الإجابة : إنه لولا القرآن لذهبوا وذهب معهم لسانهم وشعرهم المليء بالغزل والحرب ولكان للسائح المجازف مجال البحث والمخاطرة في سبيل جمع ما باد من هذا الكنز . ولما جاء القرآن أبقى بطبيعته على هذا التراث وأوجد من مختلف اللهجات العربية لغة موحدة مكتوبة ، هي لغة الأدب العربي إلى اليوم .

## ٦

جاء القرآن مخالفاً لكلام العرب في الطريقة والمذهب وإن جانس لغتهم في المادة والتركيب وكان تحدياً للعرب وكان حافظاً للعربية مخرجاً لعلومها .

«كذلك فقد وصل إلينا النص القرآني كاملاً خالياً من التحريف أو التغيير سالماً من التناقض الذي أصاب ما سبقه من الكتب المقدسة بحيث اختلط من هذه الكتب ما كان من كلام الله بما هو من حكايات البشر ووضع الكهان وتخيلات أصحاب الأهواء » .

والقرآن من عند الله وليس من كلام النبي ، وإن أسلوب القرآن ومحتوياته لبرهان قاطع على أن القرآن من عند الله ، إذ لم يكن بين عقائد أهل مكة وطقوسهم وبين تعاليم القرآن أي شبه أو اتصال . وقد تميز القرآن تميزاً واضحة عن جميع الأساليب الأخرى ، واختلف عن أسلوب النبي نفسه .

يقول العلاّمة محمد عبد الله دراز :

« أسلوب القرآن لا يعكس نعومة أهل المدن ولا خشونة أهل البادية ، وزن المقاطع في القرآن أكثر مما في النثر وأقل مما في الشعر ، وإن نثره ينفرد ببعض الخصائص والميزات ، فالكلمات فيه مختارة ، غير مبتذلة ولا مستهجنة ، ولكنها رفيعة رائعة معبرة ، الجمل فيها ركبت بشكل رائع حتى أن أقل عدد من الكلمات يعبر عن أوسع المعاني وأغزرها ، إن تعابيره موجزة ، ولكنها مدهشة في وضوحها حتى أن أقل الناس حظاً من التعلم يستطيع فهم القرآن دونما صعوبة وهناك عمق ومرونة في القرآن مما يصلح أن يكون أساساً لمبادىء وقوانين العلوم والآداب الإسلامية ومذاهب الفقه وفلسفة الإلهيات » .

وفي أسلوب القرآن نجد أنه وضع لبعض الألفاظ معاني جديدة وخاصة ما اتصل منها بالفقه الإسلامي كما استحدث ألفاظاً جديدة وأعرض عن ألفاظ فمنع استعمال مدلولاتها وأعاض عنها بغيرها وخاصة حوشي اللفظ .

كذلك أبطل سجع الكهان وطوابع الوثنية وأضعف فنون الفخر والاستعلاء والهجاء وطبع الحوار بطابع السماحة واقامة الحجة والبحث عن الدليل ، وأحل الإيجاز محل الإسهاب والحكمة مكان الإطالة وترك في الأسلوب العربي طابعه الوسيط السمح وأعطاه جزالة وسلاسة وعذوبة ووضوحاً . ذلك أن القرآن رقق القلوب وأفسح للعقول مجال النظر والفكر (١) .

---

(١) عن بحث للدكتور عبد المنعم خفاجي عن اللغة ( جريدة الدعوة ) .

# ٧

إن ارتباط اللغة العربية بالقرآن وأثره فيها هو التحدي الخطير الذي واجه الاستشراق والتغريب والغزو الثقافي والتبشير والاستعمار في العصر الحديث، فقد كانت الخطة ولا تزال موضوعة على أساس فصم هذه العلاقة وقطع هذه الصلة وعزل القرآن عن اللغة العربية ودفع اللغة العربية إلى الطريق الذي سارت فيه اللغات من قبل ان تتطور وتتغير ويجرفها تيار العصر ودعوات الهدم حتى ينتهي أمرها إلى مجموعة من اللهجات؛ فالخطر كله من لغة القرآن والهدف كله هو الفصل بين اللغة والقرآن حتى تفقد اللغة ذلك المستوى المرتبط بالقرآن وبيانه، فقد وضح من دراسة تاريخ اللغة كيف كان القرآن هو الحافظ لها من الضياع حتى في أشد عصور انحطاط اللغة التي بدأت باكتساح المغول والتتار وامتدت إلى آخر القرن الثالث عشر الهجري.

إن الهدف هو القضاء على قاعدة الثبات الوطيدة في الفكر الإسلامي التي تربط القيم كلها بها من ناحية وتدعها للحركة والتطور من ناحية أخرى دون أن تفلت أو تنعزل. والقرآن الكريم هو قاعدة الثبات الصامدة التي يرتبط بها الفكر الإسلامي واللغة العربية وكذلك الشريعة والتربية والاقتصاد والاجتماع.

ولا ريب أن المسلمين والعرب يعلمون جيداً هدف الغزو، وغرض الحملة، ويثقون تماماً «بأن زوال اللغة العربية لا يبقي للعربي أو المسلم قواماً يميزه عن سائر الأقوام ولا يعصمه أن يذوب في غمار الأمم فلا تبقى له باقية من بيان ولا عرف ولا معرفة ولا إيمان».

ويعلمون أن اللغة العربية ليست كسائر اللغات، وأن صلتها بالإسلام وارتباط القرآن بها قد منحها طابعاً ووضعاً مختلفاً أشد الاختلاف وأن هناك فرقاً واسعاً عميقاً لذلك كله بينها وبين اللغات الأخرى، يتمثل فيما يطلق

عليه (روح اللغة) ويعبر عن هذا المعنى رجل غربي اتصل بالإسلام واللغة العربية (١) .

فيقول : « ولكل لغة مجموعة من الرموز التي تعبر عن الإحس الخاص لشعب ما بقيمه الحياتية وعن طريقته الخاصة في التعبير عن تصوره للحقيقة » . وإن الفرق بين الاصطلاحات العربية وأية اصطلاحات أوربية ليس فقط مسألة قوالب نحوية أو صرفية ، كما أنه لا ينحصر في الطريقة التي يعبر بها عن الأفكار ولا في الحقيقة المعروفة عن اللغة العربية ونعني بها المرونة العجيبة التي تتميز بها قواعدها ونظامها الفريد في الاشتقاق الكثير من مصادر الأفعال ولا حتى تلك الثروة الضخمة من المفردات التي تحتويها العربية .

« إن الفرق في روح اللغة هو في إحساس أصحابها بالحياة وهو الإحساس الذي ينعكس بطبيعة الحال على اللغة باعتبارها وسيلة للتعبير .

« وما دامت لغة القرآن العربية هي اللغة التي بلغت نضجها الكامل في الجزيرة العربية منذ ١٤ قرناً فإنه من الطبيعي أنه لكي يستوعب المرء روح هذه اللغة بصورة صحيحة فلا بد أن يسمع هذه اللغة وأن يحس بها تماماً كما سمعها وأحس بها العرب في الوقت الذي نزل فيه القرآن الكريم وأن يفهم المعاني التي أعطوها هم للرموز اللغوية » .

ومن هنا يدرك المسلمون والعرب أن أعداءهم كلما أدركوا مدى الصلة بين الأمة ولغتها ازدادوا ضراوة في الهجوم عليها ومكراً في الكيد لها .

إن الهدف هو القضاء على القاعدة الثابتة الأصيلة التي تتصل بها القيم والمقومات حتى تسقط اللغة العربية والعرب والمسلمون في هوة التمزق والانهيار.

---

(١) هو : ليوبولد فايس الذي أسلم وتسمى ( محمد أسد ) .

## ٨

« أجمع المسلمون على أن القرآن بنصه العربي المنزل المحفوظ حتّى يومنا هذا هو وحده القرآن وأن ترجمته إلى لغة أخرى لا تسمى قرآناً وليس لها أحكامه فلا يكون مصدراً للاستنباط ولا يتعبد بها بل لا يجوز ترجمته ، ولكن ترجمة معانيه بحيث تعتبر الترجمة تفسيراً له باللغة الأجنبية وبناء على هذا الأساس حرص المسلمون على تعلم القرآن بنصّه العربي حفظاً وفهماً وبقدر الطاقة وأكثروا من تلاوته تعبداً بحروفه العربية الّتي اضطروا إلى تعلمها فكان ذلك عاملاً هاماً في تقوية هذه الصلة بين الإسلام واللغة العربية وفي انتاج النتائج الكثيرة .

# الفصل الثالث

## اثر الاسلام في العربية

يؤكد الباحثون في تاريخ اللغة العربية أنها كانت في قبيل نزول القرآن تمر بمرحلة الخطر حيث بدأ انحدارها ، « وأخذت تفقد منطق الاعراب جملة وتختلط فيها الصيغ ويعوج التركيب » فلما نزل القرآن « وقف تقهقر اللغة العربية حيث كان قد وصل ، ثم أخذت تستعيد صفوها وجزالتها وتهذبت حواشيها » .

« حدث ذلك لأن القرآن اكتسب في نفوس المسلمين قداسة وحرمة ، فكان هم المسلم أن يحافظ على كل صورة ، بل كل آية وحرف وحركة ، وهكذا أصبح منتهى أمل البلغاء والأدباء أن يطبعوا أساليبهم بأساليب القرآن إذ كان محرماً عليهم أن يعارضوه ، ثم كانوا بطبيعة الحال عاجزين عن مجاراته ، منذ ذلك الحين قدر للغة العربية أن تظل فصحى على الرغم من عوادي الزمن ومن سنة الهرم التي تنزل بالأشخاص والأمم والمؤسسات واللغات »(١) .

---

(١) القومية الفصحى ، عمر فروخ .

وقد نزل القرآن بلسان عربي « مبين » وورد لفظ مبين في القرآن نحو خمسة وخمسين مرة « مما يدل على أن اللغة العربية في الجاهلية كانت قد بدأت تغمض في التخاطب بنشأة اللهجات المختلفة ، وأصبحنا نسمع بلغة قريش ولغة تميم ، أما لغة اليمن فكانت قد انفصلت تماماً عن لغة أهل شمالي بلاد العرب » .

## ٢

بانتشار الإسلام شقت اللغة العربية طريقها إلى الآفاق ، وأخذت مكانها الصحيح ، عندما أخذ غير المسلمين في تعلمها ورغبوا في نقل كتبهم المقدسة إليها ثم نقلت إليها سائر العلوم ، « وبينما كانت لغات الشعوب المفتوحة في فقر مدقع ، كان اللسان العربي في ذروته ، فقد كانت الفارسية مهملة والقبطية مضطهدة ، والسريانية والعبرانية في مركز ضعف » .

أما في الشام فقد عرب عبد الملك بن مروان الدواوين فأصبحت العربية اللغة الرسمية .

ويرجع بعض الباحثين هذا الاتساع والنمو إلى ارتباطها بالقرآن ، فقد كانت سائر الأديان تقرأ كتبها في لغات مختلفة ، ولا يختص بمعرفة الأصل إلاّ طائفة قليلة من رجال الدين ، « أما المسلمون فقد اعتقدوا بحق أن لغة القرآن جزء من حقيقة الإسلام لأنها كانت ترجماناً لوحي الله ولغة لكتابه ومعجزة لرسوله ولساناً لدعوته » .

ومنذ اليوم الأول لانتشار الدعوة الإسلامية : خطا القرآن بالعرب خطوات في سبيل توحيد اللغة شأنه في توحيد العقيدة .

ولقد «كان للتوحيد اللغوي والاجتماعي في الإسلام نوعان من التأثير في لغة العرب، أحدهما داخلي والثاني خارجي.

« فتوحيد الأمة العربية نفسها جعل لغة قريش التي ظهر الإسلام فيها تحت تأثير لهجات من اختلطت قريش بهم من سائر العرب، كما أنها هي نفسها قد كتب لها الغلبة عليهن لأن الله اختارها لكتابه وحكمة رسوله صلى الله عليه وسلم، ولأن الدولة الإسلامية مدة الراشدين وبني أمية وصدر من بني العباس كان كبار رجالها وذوو التأثير فيها من قريش وبني عمومتهم من مضر، فذهب ذلك بلغات القبائل الأخرى ولم يبق منها إلاّ ما حفظه شعرها وما اندمج في لغة قريش فصار منها.

« أما التأثير الخارجي فقد تجلى في اختلاط العرب بسائر الأمم فنشر فيها لغة الضاد وأعاد إلى سلائل الأمم السامية وحدتهم اللغوية.

« غير أن اللغة العامية كانت قد انفرجت مسافة الخلف بينها وبين الفصحى فكان ذلك مما حمل علماء القرن الثاني للهجرة وما بعده إلى جمع مادة اللغة العربية من أفواه عرب البادية وفصحائها وشعرائها ممن لم يصل تأثير الأعاجم إلى بيئتهم ولم تشب ألسنتهم شائبة.

« وكان عملهم هذا من أعظم ما خدم به علماء أمة قوميتهم أنهم حفظوا مادة هذه اللغة ذات الأسرار العجيبة والتكوين المعجز، ولو تأخروا في جمعها قرناً واحداً لكان ذلك الإهمال كارثة لا يقوى الزمان على تلافيها »(١).

## ٣

حقق علماء اللغة العربية في القرنين الثاني والثالث الهجريين ما يمكن أن يطلق عليه « تقنين اللغة العربية ».

---

(١) السيد محب الدين الخطيب، بحثه في الزهراء م ٢ .

وجمع ما تفرق من تراثها الشعري ووضع الأسس لموازين شعرها وقواعد نقدها الأدبي .

فنشأ المعجم وكان الخليل بن أحمد أول من فكر في وضع المعجم في اللغة العربية على النحو الذي رسمه في كتاب ( العين ) وتابعه عليه كثيرون من أمثال أبي منصور بن الأزهر في معجمه ( تهذيب اللغة ) ثم أبي الحسن بن سيده الضرير الأندلسي في معجمه ( المحكم ) .

وتطورت الطريقة على أيدي أمثال العلامة إسماعيل بن نصر بن حماد الجوهري الذي نظر إلى أواخر الكلمات المجردة لا إلى أوائلها ثم ظهرت طريقة النظر في الترتيب إلى أوائل حروف الكلمات المجردة وهي التي عمل بها أبو الحسن بن فارس في معجمه ( المجمل ) ثم نشأت علوم اللغة والفقه والكلام واتسع نطاق اللغة العربية اتساعاً بعيد المدى ،

وكان للقرآن أثره في اللهجات العربية في مختلف أنحاء الجزيرة فإنها لم تلبث أن تحولت بقوة إلى لغة القرون وتوحدت في لهجة الحجاز .

ثم استوعبت اللغة العربية ما ترجم إليها من الحكمة والطب والكيمياء والمنطق والفلك ومختلف العلوم .

وقد علل ابن خلدون انتشار اللغة العربية بقوله :

« كما هجر الدين اللغات الأعجمية وكان لسان القائمين بالدولة الإسلامية عربياً هجرت كلها في جميع ممالكها فصار استعمال اللسان العربي من شعائر الإسلام وطاعة العرب ، وهجر الأمم لغاتهم وألسنتهم في جميع الأمصار والممالك ، وصار اللسان العربي لسانهم حتى رسخ ذلك لغة في جميع أمصارهم وصارت الألسنة الأعجمية دخيلة فيها وغريبة » .

يقول كردعلي : « هذا اللسان على سعته وسلاسته لم يقف ولم يجمد فنقل

ألفاظاً من الفارسية والرومية والسريانية والعبرانية والحبشية والقبطية والهندية وترك ألفاظاً عربية كانت مألوفة في الجاهلية واصطلح على كلمات عربية كانت تؤدي معاني أخرى قبل الإسلام » .

## ٤

قدمت اللغة العربية في ظل الإسلام مئات المصطلحات والاصطلاحات في مختلف الميادين :

(١) الاصطلاحات الدينية والشرعية والفقهية .

(٢) الاصطلاحات الفنية ( كالإيلاء والظهار والعدة والحضلة ) الخ .

(٣) الاصطلاحات اللغوية التي اقتضتها علوم النحو والعروض والشعر والأدب والإدغام وغيرها من أسماء البحور .

(٤) المصطلحات النحوية .

(٥) مصطلحات الحضارة والعلم والفلسفة والطب والكيمياء والطبيعة والرياضة والفلك والجبر والمقابلة .

## ٥

استطاعت اللغة العربية بوصفها لغة الثقافة والعلم والفكر والبيان أن تكسب عدداً كبيراً من أعلام المسلمين غير العرب فعملوا في محيطها وكتبوا آثارها بها من أمثال سيبويه ونفطويه والحسن البصري وابن سيرين وابن سلام والزمخشري والفارابي والفيروزابادي .

ولقد أحب هؤلاء اللغة العربية وربطوا أنفسهم بها رباطهم بالإسلام إيماناً بتلك العروة الوثقى بين الإسلام واللغة العربية .

ومن أمثال الصور الرائعة في هذا المجال شهادة الزمخشري في مقدمة كتابه ( المفصل في علوم العربية ) :

« الحمد لله الذي جعلني من علماء العربية وجبلني على الغضب للعرب والعصبية لهم وإيماني أن أنفرد عن صميم أنصارهم وامتاز وانضوي إلى لفيف الشعوبية وانحاز ، وعصمني عن مذهبهم الذي لا يجبه عليهم إلاّ الرشق بألسنة اللاغبين » .

لقد آمن هؤلاء أن الإسلام دين وجنسية وأنه أضاف الأمم إلى عربية القرآن كما جمعها على كلمة التوحيد .

ولقد ظهرت عشرات من الترك والفرس والأفغان والهنود والروس والأفريقيين من غير العرب ممن احتفظوا بإسلامهم ودانوا للعربية بالمقام الأول على لغاتهم الأصلية .

ومن هنا حق للدكتور عمر فروخ أن يقول : لا نعرف لغة كانت قبل العربية أو معها ثم استمرت مثلها مقروءة مكتوبة كما كانت قبل ألف وخمسمائة عام أو أكثر .

## ٦

يقول سير دنسون ردس في بحثه عن أثر اللغة العربية في العالم الإسلامي :

إن أثر اللغة العربية في تلك الممالك التي تتكلم لغات أخرى لا يقوم على أنها واسطة لفهم العقائد وإقامة الشعائر الدينية بل لأنها عامل منتج في الثقافة العامة ، وليس ثمة دين عالمي آخر قامت فيه اللغة الأصلية للكتب المقدسة بذلك الشأن الخطير كما هو في الإسلام .

فإذا اعتبرنا البوذية والمسيحية وهما ديانتان تقومان بالدعاية فإننا نلاحظ

أن كتبهما المقدسة إذا أذيعت في ممالك أخرى فإنها تذاع بلغة تلك الممالك . وقل مثل ذلك عن التوراة والإنجيل فإنهما يقرآن في الأمم المسيحية بلغة كل منها ؛ إن دخول الشرق الأدنى والأوسط والهند تحت نفوذ العرب قد أدى إلى ثورة عظيمة في الأدب والثقافة . ويرجع هذا في أساسه إلى ذلك التأثير المعجز الذي أحدثه القرآن في نفس كل من اعتنق الإسلام .

« فإن القرآن الذي هو كلام الله الذي أنزله على رسوله قد قوبل من المسلمين قاطبة بالاحترام والإجلال ( أولاً ) من أجل عبارته ذاتها لأنها تنزيل من الله ( ثانياً ) لما اشتمل عليه من الآيات البيّنات ، من أجل ذلك كان لزاماً على من يقبل الإسلام أن يقبل معه اللغة العربية : تلك اللغة التي نزل بها القرآن وأرسل بها الرسول .

« ومن هنا لا نجد لغة عربية غير مستعملة لا يفهمها إلاّ عدد محصور من العلماء كما كان الحال في ديانة زرادشت والديانة الهندية بل نجد لغة حية يتكلمها أولئك القوم الذين دعوا سكان الممالك التي فتحوها إلى الدخول في الدين الجديد .

ولقد أمدت العربية المستنيرين في أواسط آسيا بثقافة تعتبر جديدة من جميع الوجوه ، وبثت في قلوب هؤلاء أفكاراً طريفة وفتحت أمام عيونهم عوالم جديدة ، كما أمدت العربية الفرس والأتراك والهنود بلغة جديدة ، كذلك أمدت العربية بلاد فارس بخزائن من العلم إلى جانب لغة مكتوبة منظمة ، أو قل أمدت الفرس ببعث قومي جديد مع ثقافة جديدة ، فعلت هذا بينما الإغريق وقد حكموا الفرس نحو قرنين لم يتركوا فيها أي أثر أدبي كما أنهم لم يتركوا شيئاً في الهند ولم يترك الفارسي في مصر أي أثر » (١) .

---

(١) بتصرف ، مجلة الرسالة ( المجلد الأول ) .

# ٧

أجمع الباحثون على أن سعة اللغة العربية ترجع إلى مصادر ستة (١) : هي الارتجال والاشتقاق والقلب والإبدال والنحت والتعريب .

الارتجال : هو وضع ألفاظ جديدة للدلالة على المعاني الطارئة .

الاشتقاق : هو أخذ كلمة من كلمة أخرى مع تناسب بينهما في المعنى وتقارب في اللفظ .

القلب : ويسمى الاشتقاق الكبير وهو أن يكون بين اللفظين تناسب في المعنى واللفظ دون الترتيب .

الإبدال : ويسمى الاشتقاق الأكبر وهو أن يكون بين اللفظين تناسب في المعنى والمخرج .

النحت : وهو نوع من أنواع الاشتقاق وهو أن نعمد إلى كلمتين أو جملة كلمات فننتزع من مجموع حروف كلماتها كلمة واحدة تدل على ما كانت تدل عليه الجملة كلها .

التعريب : تحويل كلمة أعجمية إلى عربية وقد جرى العرب في هذا السبيل شوطاً كبيراً فعربوا كثيراً من الكلمات الحبشية واليونانية والفارسية والهندية » .

ونستطيع أن نرى كيف تكون مادة ( علم ) في الاشتقاق :

علمنا ، أعلم ، يعلم ، نعلم ، اعلمْ ، اعلمي ، علم ، نعلم ، تعلم ، تعالم ، علم ، يعلم، علم ، علامة ، علماء ، عالمون ، فتعلم ، معلم ، معالم ، معلم ، معلوم ، عالم ، عالمون ، عالم ، عوالم .

---

(١) فريد وجدي ، دائرة المعارف مادة ، اللغة العربية .

وهذا ما لم تصل إليه أي لغة أخرى .

ومن يراجع لسان العرب لابن منظور الإفريقي يجده محتوياً على ستين ألف مادة فإذا كانت كل مادة تخضع للاشتقاق وما يتفرع منه على هذا النحو وجدنا أن مفردات اللغة العربية لا تكاد تدخل تحت حصر .

وقد كشف ابن جني في الخصائص ، وابن سيده في المخصص ، والثعالبي في فقه اللغة وأبو منصور محمد الأزهري في تهذيب اللغة عن أمثال بعيدة المدى في هذه الفنون الستة المختلفة .

هذا فضلاً عن أسماء السيف والأسد والمطر والريح والناقة والماء والبئر وغيرها .

## ٨

ويرد الباحثون إلى القرآن المرجع الأول الأساسي لرواة اللغة فقد اعتمدوه كنقطة استقرار واستنتاج .

« وقد أثبتت جميع الدراسات اللغوية في وضوح أن سبب نشأة اللغة العربية ونموها واتساعها وشمولها وتبلورها هو القرآن الكريم قبل غيره ، وذلك أن ألفاظاً كثيرة يرددها القرآن كانت مثار أسئلة المسلمين منذ عهد الرسول » .

وكذلك يرجع إلى القرآن نشوء علم القراءات التي كانت ذات ارتباط وثيق بالنحو .

ويعد الشعر من المراجع الأساسية لحفظ اللغة وقد جمع منه كثير في كتاب الحماسة لأبي تمام والأغاني ، وتشكل الألفاظ اللغوية التي حفظتها القصائد ثروة ضخمة .

وكذلك تعد (الأمثال) من المصادر الأصيلة للغة العربية « وهي ذات أهمية بالغة من حيث ارتباطها اجتماعياً وأدبياً بحياة العرب » .

وقد اشتملت مصادر كثيرة لغريب الألفاظ كالأمالي لأبي علي القالي ، والبيان والتبيين للجاحظ .

٩

من خصائص اللغة العربية « ثبات الحروف الأصلية الثلاثة في كل مادة مهما يطرأ على الكلمة من تبدل في اشتقاقها وصيغتها كحروف (ع ل م) فإن جميع الألفاظ التي اشتقت أو يمكن أن تشتق من هذه المادة كالعلم والعلوم والعلماء والاستعلام والمعلومات والمعالم والتعليم والإعلام وغيرها من الألفاظ المشتقة من هذا الأصل تشتمل على جميع الحروف الثلاثة ، ويقابل ثبات الحروف الثلاثة ثبات المعنى الأصلي والمفهوم المشترك بين الألفاظ ، وهكذا تبدو خاصية ثبات الأصول في صورتها اللفظية ودلالتها المعنوية .

« وهذه الخاصة هي التي يتطلبها الإسلام لإمكان تثبيت المفاهيم التي يريد تثبيتها في مبادئه وأحكامه مع بقائها واستمرارها في اللغة الشائعة المستعملة عند أبنائها دون أن تحدث فجوة واسعة بين الأصل اللغوي المستعمل وما انتهى إليه في صورته ومعناه ، وهكذا يبقى أبناء العربية على صلة وثيقة وفهم صحيح للنص القديم مهما بطل العهد به » أما اللغات الأخرى فإن الألفاظ فيها يعتريها التبديل والتحويل في صورتها حتى تتغير حروفها وأصواتها فلا تكاد تعرف أصلها ولا دلالتها المعنوية كذلك .

« وبهذا يصبح بين ألفاظ النص القديم وما انتهت إليه هذه الألفاظ في تطورها بون كبير ، يؤدي إما إلى جهل المعنى القديم أو الوقوع في خطأ جسيم .

« فألفاظ الحق والمدعي والقضاء والحكم واليمين والبينة والشاهد والرهن والأجل والعقد والشرط والخصم وغيرها كذلك من ألفاظ العقائد والعبادات ثابتة المعنى ولا تزال مستعملة ومفهومة من الناس إلى يومنا هذا » (١) .

## ١٠

لا ريب أن القرآن هو الذي حمل اللغة العربية معه إلى مختلف الأقطار المفتوحة وفسرها وأذاعها ، فلما انحسرت العربية عن بعض هذه الأقطار بقي القرآن علامة واضحة وبقيت العربية لغة ثقافية وفكرية لا سبيل إلى تخلفها واندثارها ، فالقرآن هو الذي جمع الأقطار الآسيوية والأفريقية على وحدة الفكر ، ثم هو الذي جمعها على وحدة التعبير والكتابة بالفصحى .

كذلك فإن لغة القرآن فرضت على العربية التزامها الإعراب الذي لم يكن شائعاً ولا مستعملاً على نحو ما التزمته نصوص القرآن . « فلغة التنزيل هي التي جعلت الإعراب سمة لازمة للعربية » كما أنها هي التي ابتكرت المجازات الدقيقة اللطيفة : من مثل « واخفض لهما جناح الذل من الرحمة » ، وقد قام المجاز بدور كبير في تطور اللغة وفي مسألة الدلالة » (٢) .

وعندما تعرضت اللغة العربية إلى محنة التتار وأزمة الغزو وما تبعها من تفكك سياسي وتخلف ثقافي اعتصمت بالمساجد والمعاهد ، وصمدت في وجه المحنة ، وكان مصدر صمودها القرآن الذي بقي يتلى ويقرأ في الصلوات والمجامع ، « لقد وقف القرآن سداً منيعاً أمام هذه الأخطار الجسيمة وحال دون استشراء التفكك وذلك لكونه عربياً ولكون الإسلام يفرض على جميع المسلمين حفظ طائفة من آياته وتلاوتها »(٣) .

---

(١) من بحث للأستاذ محمد المبارك عن خصائص العربية .

(٢) من أبحاث مجلة اللسان العربي عن اللغة العربية والإسلام. (٣) ساطع الحصري.

وبذلك حماها القرآن من خطر التفكك التام وأنقذها من أخطر أزماتها .

وبالجملة فقد كان « الإسلام هو القوة الواقية التي أكسبت اللغة العربية نوعاً من المناعة ضد عوامل التفرع والتفتت » .

## ١١

وليس يستطيع الباحث تقويم اللغة العربية حقيقة إلا إذا كانت له تجربة ضخمة في اللغات الأخرى قديمها وحديثها ، ومن أبرز هؤلاء سليمان البستاني الذي ترجم إلياذة هوميروس إلى اللغة العربية ، يقول :

« إن اللغة العربية أطول اللغات الحية عمراً وأقدمهن عهداً والفضل في ذلك راجع إلى القرآن ، فالإلياذة وبلاغتها وسائر منظومات هوميروس وهسيورس على علو منزلتهما لم تقم للغة اليونانية دعامة ثابتة حتى في بلادها ولم تقو على مقاومة التيار الطبيعي . ولكن القرآن وطد لغة قريش في بلادهم وأذاعها في جميع البلدان العربية وفي سائر البلاد ،أو حيث كثرت مخالطة العرب للضاربين في أقطار الأرض للجهاد والتجارة .

« لا الماهابهارتا السنسكريتية ، ولا كتاب تاو للاوتسة ولا كتابات كونفوشيوس في اللغة الصينية ، ولا التوراة ولا الأناجيل قامت اللغات التي كتبت بها مقام القرآن للغة العربية ، فلولا القرآن لكان العرب اليوم يتخذون لهجاتهم وسائل إلى التعبير عن وجدانهم وأفكارهم ومجتمعاتهم ، ولكانت أمتنا العربية أصبحت شعوباً تتكلم لغات مستقلة كالألمانية والفرنسية والإسبانية والبرتغالية والإيطالية .

## ١٢

« إن الواقع التاريخي للشعوب الإسلامية يؤكد التلازم بين اللغة العربية والإسلام ، فاللغة العربية سارت في ركاب الإسلام وحلت حينما حل ، ثم مضى الإسلام وحده إلى كثير من الأرجاء التي لم تتمكن اللغة العربية من اقتحامها أو انحسر مد اللغة وبقي الإسلام » .

وكذلك فإن أهل البلاد الناطقة باللغة العربية كانوا ولا يزالون « أقدر على فهم الإسلام لقدرتهم على فهم القرآن والحديث وهما المصدران الأساسيان لتعاليم الإسلام » .

وكذلك فإنه « بدون اللغة العربية لا ينتشر الإسلام لأن القرآن الكريم — الذي أنزل على النبي العربي في غاية البلاغة والفصاحة ولا يمكن للغات الأجنبية أن تعبر عما جاء فيه — قد تحدى الأمم بأسرها :

[ قل لو اجتمعت الإنس والجن على أن يأتوا بمثل هذا القرآن لا يأتون بمثله ولو كان بعضهم لبعض ظهيراً ] ، كذلك الأحاديث النبوية . « فالإسلام كان أكثر ذيوعاً وانتشاراً في البلاد التي تحمل طابع العربية أو تتكلم بالعربية أو إن الإسلام يكون أكثر انتشاراً عندما ينفر المرشدون والموجهون العالمون باللغات الأجنبية بالإضافة إلى اللغة العربية .

« إن الإسلام ثقافة مبتكرة مستقلة ؛ تستمد نورها من وحي القرآن الكريم والسنة المطهرة دون أن يكون لأي أمة من أمم الأرض على المسلمين يد فيها .

« وقد أراد الله تعالى اللغة العربية لهذا الدين لما فيها من طاقة فذة في التعبير والبيان، ولما فيها من المرونة والاتساع ، وهي أقدر اللغات على الأداء واقواها على الاشتقاق والنحت والتصريف وأغناها في المفردات والصيغ والأوزان ،

ومع ذلك كله فهي مرنة غاية المرونة تتسع لتعريب أسماء الأشياء التي تجد في حياة الإنسان » .

ولقد وصف الرسول صلى الله عليه وسلم العلاقة بين العربية والإسلام على نحو واضح صريح : إنما العربية اللسان فمن تكلم بالعربية فهو عربي، ووصف عمر اللغة العربية فقال إنها تثبت العقل وتزيد في المروءة .

وكتب علي إلى أبي موسى الأشعري : أما بعد فتفقهوا في السنة وتفقهوا في العربية وأعربوا القرآن فإنه عربي ، وتعلموا العربية فإنها من دينكم .

« إن العربية من الدين لا تنفصل عنه ولا ينفصل عنها وهما من تفاعلهما كشجرة خضراء ممتدة الأغصان وارفة الظلال طيبة الأكل ومن هنا استمد الفقهاء أحكامهم التي تقرر أنه لا يجوز للمسلم أن يتعبد لله في الصلاة إلاّ باللغة العربية .

يقول ابن تيمية : إن اللسان العربي شعار الإسلام وأهله ، واعلم أن اعتياد اللغة يؤثر في العقل والخلق والدين تأثيراً قوياً بيناً. وإن اللغة العربية من الدين، ومعرفتها فرض واجب ، فإن فهم الكتاب والسنّة فرض ولا يفهم إلاّ بالعربية وما لا يتم الواجب إلاّ به فهو واجب ، ويكره التخاطب والتعاقد بغير العربية إلاّ لحاجة »

وكذلك أعطى القرآن اللغة العربية معنى أكثر من كونها لغة والدعوة إلى القرآن هي التي تحمي الفصحى .

والعربية لا تدين للإسلام بانتشارها فحسب ولكنها تدين له كذلك بكل عواملها الأصيلة التي نشأت أساساً لخدمة كتاب الإسلام (١) .

---

(١) بتصرف عن العدد الخاص عن اللغة العربية والإسلام ( مجلة البيان العربي ) .

## ١٣

يرجع الباحثون أسباب رقي اللغة العربية إلى ثلاثة مصادر :

(أولاً) القرآن الكريم وما جاء به من صورة النظم البديع ، والتصرف في لسان العرب على وجه يملك العقول فإنه جرى في أسلوبه على منهاج يخالف الأساليب المعتادة للفصحاء قاطبة وإن لم يخرج عما تقتضيه قوانين اللغة .

(ثانياً) ما تفجر من أقوال رسول الله صلى الله عليه وسلم من ينابيع الفصاحة وما جاء في حديثه من الرقة والمتانة والإبانة عن الغرض بدون تكلف .

قال أبو بكر الصديق : يا رسول الله ، لقد طفت في أحياء العرب فما رأيت أحداً أفصح منك .

قال النبي : وما يمنعني وأنا قرشي وأرضعت من بني سعد ، وبنو سعد أفصح قبيلة في العرب بعد قريش .

(ثالثاً) ما أفاضه الإسلام على عقولهم بواسطة القرآن والحديث من العلوم السامية وما نتج عنه من تعارف الشعوب والقبائل (١) .

## ١٤

أشار السيوطي في المزهر إلى أفضلية اللغة العربية وجمعها في عدة عناصر :

* كثرة المفردات والاتساع في الاستعارة والتمثيل .
* قلب الحرف مثل قولنا ميعاد بدلاً من موعاد وكذلك الإدغام وتخفيف الكلمات بالحذف .
* الإعراب : وهو الفارق بين المعاني المتكافئة في اللفظ وبه نستطيع التمييز

---

(١) بتصرف عن العدد الخاص عن اللغة العربية والاسلام ( مجلة البيان العربي )

بين الفاعل والمفعول وبين التعجب والاستفهام . والنعت والتأكيد ،

* التعويض : وهو إقامة الكلمة مقام الكلمة كإقامة المصدر مقام الأمر ، والفاعل مقام المصدر ، مثل ( ليس لوقعتها كاذبة ) .

* التقديم والتأخير : كما هو الحال في تقديم الخبر على المبتدأ والمفعول على الفاعل .

* زادت على الأصوات في أخواتها السامية :

الثاء — الذال — الغين — الضاد .

* إن مجموع أصوات حروفها لسعة مدرجها الصوتي سعة تقابل أصوات الطبيعة في تنوعها وسعتها .

* الحروف العربية تندرج وتتوزع في مخارجها بين الشفتين من جهة وأقصى الحلق من جهة أخرى .

* من أوسع أخواتها السامية في قواعد النحو والصرف وأدقها ، فقد انفردت بصيغ التصغير دون أخواتها مع كثرة مفرداتها .

## ١٥

عقد المطران يوسف داود مطران السريان في الموصل دراسة دقيقة مقارنة تحت عنوان ( تفوق العربية على جميع لغات الدنيا ) في كتابه ( التمرنة في الأصول النحوية ) مقارناً بين العربية والسريانية والعبرانية : ومما جاء منه :

( أولاً ) غناها واتساع ألفاظها أصلا وفرعاً واشتقاقاً حتى أننا بغير خوف الخطأ يسوغ لنا أن نقرر أن اللغة العربية أوسع لغات الدنيا المعروفة .

( ثانياً ) إنها أقرب سائر لغات الدنيا إلى قواعد المنطق بحيث إن عبارتها

سلسة طبيعية يهون على الناطق الصافي الفكر أن يعبر بها عما يريده من دون تصنع أو تكلف باتباع ما يدله عليه القانون الطبيعي .

وهذه الخاصة إن كانت اللغات السامية تشترك فيها مع العربية من وجه من الوجوه ، فقلما تجدها في اللغات المسماة (الهندية الجرمانية) ولا سيما الإفرنجية منها .

قال قريع الدهر في علم الأدب العربي (أحمد فارس الشدياق) في كتابه (منتهى العجب) « إن لغات الإفرنج لم تزل في ذلك – أي في ضم الكلام بعضه إلى بعض – في حالة الطفولية ، أعني أنهم يوردون جملة بعد جملة اقتضاباً من دون حرف عاطف ، وكثيراً ما يوردون الجمل من دون مناسبة أو ارتباط ، فمن ثم كانت الترجمة من العربية إلى الإفرنجية أسهل من الترجمة من هذه إلى تلك .

فأما نسق الكلام وتأليفه فعندهم من الشذوذ والخروج فيه كثير ، من ذلك عدم ذكر أداة السبب ووجه التعليل والتفريع .

ومن ذلك عدم المطابقة ومن ذلك المعاظلة (وهو تشبث الكلام بعضه ببعض) ومن ذلك إطلاق المقيد وتقييد المطلق من الظروف والأحوال .

ومن ذلك النعت المقتحم والابتداء بالمعرفة اقتضاباً وأشياء أخرى كثيرة.

(ثالثاً) الفصيلة الثالثة : إن العربية تكتب كما تقرأ ، بحيث إن الذي تعلم حروفها وحركاتها يهون عليه بدون مشقة أن يقرأ حينما شاء ، وليس فيها من شذوذ الخط إلا ما لا يحتفل به ، وهذه الخلة قلما تجدها في لغة أخرى فإن أكثر اللغات من أراد أن يتعلمها فبعدما يتعلم أوائل كتابتها يلتزم أن يتعلم أيضاً قراءتها كلمة كلمة،وقد أفرط في هذه الشائبة الفرنسيون والإنجليز حتى أن كتابة لغتي هاتين الأمتين مع تقدمهما في المعارف ومراتب الحكمة وسمو العلوم تحسبها اختراع صبيان .

ومن الشوائب المستهجنة غاية ما تكون في لغات الإفرنج على العموم اختلافهم في كثير من الحروف الهجائية التي هي عامة لكلهم ، فإن الأمم الإفرنجية مع أنها قد اصطلحت على قواعد ورسوم مضطردة عامة شاملة فيما يختص بالأكل والشرب واللباس وسائر ما يتعلق بالمعيشة الإنسانية والعمرانية مما لا بأس في اختلافه لم يمكنهم للآن أن يدبروا هذا الأمر العظيم المهم وهو أن يتفقوا على طريقة واحدة لتصوير مقاطع الحروف بعلامات عامة لكلهم ، فإن اللفظة الواحدة مثل *Chuce* يلفظها الإيطاليون ( كوجا ) بالإمالة ، والجرمانيون ( ختسا ) بالإمالة أو ختسى ، والفرنسيون ( شوسْ ) بضم الشفتين والإنجليز ( تشوش ) وغيرهم غير ذلك .

ومن ذلك أن أغلب الألفاظ الأعجمية كالصينية والهندية والأمريكية وغيرها المصورة بالحروف الإفرنجية قد ضاعت حقيقة لفظه وصارت كل أمة تنهج تلفظه بلفظ لغته ، وبذلك صار اسم المدينة الواحدة مثلاً مع كونه مصوراً بحروف واحدة لا تتغير ، يختلف لفظه باختلاف الأمم التي تقرأه .

ومع ذلك فإن اللاتينية وهي اللغة العلمية لجميع الأمم الإفرنجية لا يلفظونها لفظاً واحداً ، بل كل أمة منهم تلفظها لفظاً مختصاً بها حتى أنه ربما لا يفهم أحدهم عن الآخر .

( رابعاً ) الفضيلة الرابعة أن العربية غنية بنفسها في كل ما يحتاج الإنسان إلى نطقه ، فلا تحتاج إلى لغة أعجمية ولو أراد أهلها لنفوا جميع الألفاظ الأعجمية التي دخلت فيها بنوع الخلسة واستغنوا عنها بغيرها من بحر لغتهم الزاخر .

ومما يستحق الذكر أن العرب لم يتركوا شيئاً إلا استنبطوا له اسماً في لغتهم كالمعدة والهواء والجوهر والشخص والأفق وخسوف القمر وكسوف الشمس والصدى والعرش والشعر والشاعر والقصيدة إلى غير ذلك . فإن

هذه الأشياء مع كون أكثرها طبيعياً ومحسوساً وباقيها من أخص ما يتعلق بعيشة الناس العمرانية لا تجد لها أسماء في كثير من اللغات المعروفة ، فاضطر أصحابها إلى أن يسموها بأسماء أعجمية ، فإن اللاتين والسريان والجرمانيين وسائر الأمم الإفرنجية يسمون تلك الأشياء بأسماء يونانية إلاّ واحداً أو اثنين اتخذوه من اللاتينية .

هذا عدا الألفاظ الاصطلاحية المختصة بالعلوم والصناعات فإن هذه كلها إلاّ قليلاً قد أخذتها جميع الأمم من اليونان ما عدا العرب ومما يبين فضل العرب وإنفاذ ذهنهم غاية ما يكون ، أنهم أول ما باشروا فنون أدب لغتهم ، في القرن الأول من تملكهم على بلاد المشرق ، نالوا في قليل من الزمان الغاية من ذلك ، ومنذ أول مباشرتهم وضعوا أصول علم النحو ورسموا اصطلاحاته وتوغلوا فيه وتفننوا في دقائقه حتى أنهم في قليل من السنين أوصلوه إلى غاية الكمال . وفي كل ذلك لم يحتاجوا إلى كتب أجنبية ولا إلى ألفاظ أعجمية في هذه الحلة قد فاقوا سائر أمم العالم .

كذلك عرف للعربية ثباتها وعدم تقلبها ، فكم بعث بها تعبير معتبر منذ ألفي سنة وهو بعد ذلك من مظاهر كمالها » .

هذا موجز ما أورده المطران يوسف داود وقد خلص من ذلك كله إلى القول بأنه مع أن السريانية لغة الأصل الذي يرجع إليه المطران والعبرانية لغة الدين والكتب المقدسة التي يتعبد بها فإنه خرج من هذه المقارنة بنتيجة واضحة هي أن العربية أعرق في الأصالة من جميع اللغات التي يتكلم بها الساميون وأنها أكملهن وأجمعهن لما فيهن من محاسن ، ولذلك تمكنت من اكتساح العبرية والسريانية وإبادتهما منذ أجيال واستولت على جميع البلاد .

# الباب الثاني

# اللغة العربية والعالم الإسلامي

(١) أثرها في اللغات المعاصرة لظهور الإسلام
(٢) العربية في مصر
(٣) » في إيران
(٤) » في البلاد التركية
(٥) » بين مسلمي الهند
(٦) » في جنوب شرق آسيا

# الفصل الأول

## اثرها في اللغات المعاصرة لظهور الاسلام

كانت اللغة العربية بعيدة الأثر في اللغات المعاصرة لظهور الاسلام : شرقية وغربية ، وكان هذا الأثر بالإحياء والاستمداد كما حدث للغات التركية والفارسية والسواحلية ، أو بالإفناء والإبادة كما حدث للغات القبطية والسريانية والعبرية ، أو بدخول مئات الألفاظ إليها كما حدث للغات الغربية : الانجليزية والفرنسية والإسبانية .

ويمكن القول بوجود الظواهر الآتية :

أولاً : قضت على اللغة الإغريقية العالمية في بعض بلاد الشام والعراق وخرجت من الصراع سالمة ولم تكد تتأثر بشيء من خصائص اللغة الإغريقية إلا عدداً محدداً من الكلمات الإغريقية .

ثانياً : قضت على لغة عالمية أخرى كانت على ألسنة الناس في العراق والشام بل وفي بعض جهات مصر وهي اللغة الآرامية . وكانت قد تمكنت من ألسنة المفكرين في تلك المناطق وعاشت مع الإغريقية قروناً .

ثالثاً : قضت على اللغة القبطية حتى أنه لم تنقض عدة قرون على حكم العرب لمصر حتى اندثرت القبطية وانزوت في الأديرة والكنائس واضطرت الكنائس المسيحية في البلاد العربية إلى جعل العربية لغة الصلوات والمواعظ وترجم البروتستانت الإنجيل إلى اللغة العربية .

رابعاً : تقهقرت البربرية في شمال أفريقيا أمام العربية وانعزلت في بعض مناطق الصحراء فلم تكد تبرك البربرية على ألسنة المتكلمين بالعربية في هذه المناطق إلاّ آثاراً ضئيلة .

## ٢

ظهر أثر اللغة العربية واضحاً في اللغات الشرقية : كالفارسية والأفغانية والهندستانية ، وقد جاء أثرها في لغات الشعوب الإسلامية من ناحيتين :

أولاً : من ناحية المعاملات الفقهية والتنظيمات السياسية والمفاهيم الأخلاقية والمدنية .

ثانياً : من ناحية الحرف العربي باعتباره أداة لكتابة لغات الشعوب الإسلامية فأصبحت اللغة الفارسية والتركية والأوردية والجاونية ( لغة أندونيسيا والملايو ) وغيرها تكتب بالحروف العربية .

كذلك أصهرت إلى اللغات الأفريقية السواحلية والهوسا .

ومع وجود هذه اللغات فقد كانت اللغة العربية هي لغة المعاملات الدينية ولغة العلم والشريعة ، وقد اشترك أبناء هذه الأمم جميعاً في الكتابة بها حتى فاق بعضهم كتاب العرب وعلماءهم .

ويرجع ذلك إلى (١) حقيقة التلازم بين انتشار الإسلام وانتشار اللغة العربية ، (٢) نزول القرآن باللغة العربية ، (٣) الحقيقة القائمة في نفس كل

مسلم وعقله عربياً كان أو غير عربي أن القرآن كلام الله وأن على المسلم أن يتعلم لغة القرآن ليفهمه .

واللغة العربية بذلك ليست لغة دينية بالمعنى الذي تعتبر به اللغة اللاتينية لغة دينية ، ولكن بمعنى يختلف عن ذلك كثيراً ، ذلك أن العربية هي الرباط الذي يربط العرب كافة والمسلمين كأصحاب فكر واحد ، ولقد تأكد أن العلم بالعربية عند المسلمين كالعلم بالسنن عند أهل الفقه .

وإن الإيمان بوحدة الفكر هو الذي دفع عديداً من المسلمين غير العرب إلى إنهاض العربية والمدافعة عنها والكتابة بها .

## ٣

لا توجد لغة من اللغات الشرقية ( الأوردية والفارسية والتركية ) تعتمد على موادها وحدها دون الالتجاء إلى العربية ، ولا تجد سطراً من سطور اللغة التركية إلاّ وهو مزدحم بالكلمات العربية والفارسية ، وكذلك بالنسبة للغتين الفارسية والأوردية وقد انتشرت الحروف العربية بانتشار الحضارة الإسلامية وكتبت بها اللغات التركية والفارسية والأوردية والأفغانية والكردية والترية والمغولية والبربرية والسودانية والزنجية والساحلية كما كتبت بها لغة أهل الملايو ، حدث هذا منذ ألف سنة ودونت به آدابها وعلومها وفنونها .

فقد استعمل الفرس الحروف العربية لكتابة لغتهم الفهلوية ، كذلك استعملها الأفغان لكتابة لغتهم ( البامرية ) وكذلك المسلمون الهنود في كتابة اللغة الأردية وسكان أرخبيل الملايو في كتابة لغاتهم الخاصة والمسلمون الصينيون في كتابة لغاتهم المحلية والأمم الترية والتركية في كتابة لغاتهم الخاصة في المناطق الكائنة بين سيحون وجيحون الممتدة طوال بحر قزوين شمالي البحر الأسود وجنوبي الأورال وجنوبي الروسيا .

ولم يقف الأمر عند الأبجدية العربية وحدها بل تعدى ذلك إلى استعارة الكثير من الكلمات والعبارات والجمل ، حتى يقال إن نحو نصف ألفاظ اللغة الفارسية اليوم عربي . وثلاثة أرباع الكلمات في اللغة الأوردية عربي أيضاً .

كذلك تأثرت بالكلمات العربية اللغات البربرية في أفريقيا والسودان الجنوبي واللغة العربية في السنغال اليوم هي لغة المسلمين ، وتعتمد بقية اللغات الوطنية على الحروف العربية في كتابة لغتها .

وما تزال اللغة العربية شائعة في السودان الفرنسي وفي شاطىء العاج ، وفي النيجر يعتمدون على الحروف العربية ، وفي نيجيريا تكتب اللغات الوطنية بحروف عربية ، وكذلك اللغات الأربع التي يتكلم بها أهل موريتانيا وأكثرها استيعاباً للكلمات العربية : اللغة الحسانية .

ومن هنا تكونت ما أطلق عليها أسرة اللغات الإسلامية في آسيا وأفريقيا التي تشكلت بعد مرور قرنين على ظهور الإسلام حين غلبت العربية على الجماعات الناطقة بالفارسية واللاتينية واليونانية والقبطية والآرامية

وحيث نقلت إلى لسان العرب على حد تعبير ( البيروني الفارسي ) العلوم من أقطار الأرض فازدانت وحلت في الأفئدة وسرت محاسن اللغة منها في الشرايين والأوردة . وإن الهجو بالعربية أحب إلي من المدح بالفارسية .

وقد وقف من اللغة العربية هذا الموقف كثيرون في مقدمتهم سيبويه الفارسي والبخاري الفارسي والزمخشري وأبو حنيفة .

وقد جرت مقارنات كثيرة حول أثر اللغة العربية في لغات التتر وأخواتها التركية في الشمال ولغة الملايو وأخواتها الهندية في الشرق وفي لغة الأكراد وغيرها من اللغات الفارسية ولغة السواحل وغيرها من اللغات الأفريقية فوجد أن ما دخلها من الألفاظ العربية ــ بالإضافة إلى الحروف العربية كثير .

ويقول (ا. ابيان) في بحث له عن مقارنة اللغتين العربية والأرمنية إنه وجد أن بين ٢٠ ألف كلمة هي مجموع كلمات اللغة الأرمنية يوجد ١٥٠٠ كلمة عربية (١) .

ولم يقف عطاء اللغة العربية عند حد الحروف الهجائية مئات الألوف من الألفاظ والمعاني بل وألوف الجمل التامة ، فقد أعطت مصطلحات اللغة والبيان والبديع والعروض وأكثر مصطلحات الفلسفة والعلوم كما أعطت اللغات الأوربية الأرقام العربية وكثيراً من أسماء المعاني والمصطلحات العلمية .

وقد أشار الباحثون إلى أن كثيراً من التعابير والآيات القرآنية تمازجت مع اللغات المحلية واللهجات الإقليمية للمسلمين في مشارق الأرض ومغاربها حتى غدت جزءاً من هذه اللغات واللهجات .

## ٤

قضت العربية على الآرامية والسريانية في سورياوالقبطية في مصر والفهلوية في فارس . كما حررت مصر وسوريا وشمال أفريقيا من آثار اليونانية واللاتينية أما اليونانية فقد كانت سائدة في مصر والشام والجزيرة،وأما اللاتينية فقد كانت سائدة في شمال أفريقيا دون أن تقهر إحداهما اللغات الوطنية . ولكن اللغة العربية جاءت فقهرت اللاتينية واليونانية وقهرت معهما اللغات الوطنية وعربت اللغة الفارسية أربعة قرون .

أما اللغة الآرامية فقد ذاعت في القرن الثامن قبل الميلاد وتمزقت إلى لهجات في القرن الثامن بعد الميلاد (أي في القرن الثاني الهجري) وكانت لغة ذائعة ، تمتد من البحر المتوسط إلى نحو إيران ومن طور سينا إلى جزيرة العرب ،

---

(١) م ١٢ مجلة المجمع العلمي العربي ص ٤٣٩ .

وقد أطلق على الآرامية بعد المسيحية « السريانية » وكان لهذه اللغة ذات الاسم المستجد أدب زاهر استمر من القرن الثالث إلى القرن السادس بعد الميلاد وتلاشت بعد مضي قرن على الفتح الإسلامي ، ولم تستعمل إلاّ أداة لنقل المترجمات الفلسفية من الأدب اليوناني إلى اللغة العربية .

وقد بقي اليونان في سوريا نحواً من ٢٧٠ عاماً والرومان ٧١٢ سنة ولكن لغتهم عجزت عن محو اللغة السريانية واللغة العربية التي يتكلم بها العرب الغساسنة ، وكذلك الفرس في العراق ، وبقي الترك في الأستانة نيفاً وأربعة قرون فلم تقدر لغتهم على مزاحمة اللغة الرومية .

أما اللغة الرومية فإنها لم يمض على طرد الروم من سوريا والفرس من العراق زهاء قرن حتى تلاشت اللغات الرومية والفارسية والسريانية .

## ٥

وفي الأندلس نسي الأندلسيون لغتهم بعد دخول العرب فما انقضى ثلاثون عاماً على الفتح حتى أصبح الناس ينسخون الكتب اللاتينية بحروف عربية ، وبعد خمسين عاماً أصبح الناس كلهم يتكلمون بالعربية وتحرر بها العهود والمواثيق حتى بين الاسبان أنفسهم ، واتخذ النصارى من اللغة العربية ترجماناً لعواطفهم ومشاعرهم وأقام الرهبان شعائرهم الدينية في الكنائس باللغة العربية .

وكان من الضروري على كل من يحب الاطلاع من أهل القرن السابع الهجري في الأندلس على آثار عصره أن يتعلم اللغة العربية ، وقد تعلمها روجر باكون وغيره ، وكان ملوك الأندلس يفاوضون جيرانهم باللغة العربية وهؤلاء يجيبونهم بها على لسان مترجمين لهم يجيدون العربية ، وأصبح من الضروري على أكثر شعراء الإفرنج عند ملوك الأندلس أن يلموا ولو إلماماً خفيفاً بلغة العرب .

## ٦

لا يزال سكان داغستان في روسيا يتكلمون باللغة العربية ويستخدمونها في التخاطب والكتابة ونظم الشعر وفق الأوزان العربية الأصيلة ، وقد أشار (محمود رشاد) في كتابه (سياحة في روسيا) أن للداغستان لغة لها قراءة وكتابة خاصة بها وحروفها هي نفس الحروف العربية وأن العربية في الداغستان هي لغة العلم والثقافة العامة ولغة الكتابة الغالبة .

وما يزال القرآن يقرأ بالعربية في جزر الفيليبين ووراء هملايا والصين وسومطرة .

# الفصل الثاني

## العربية في مصر

يردد المؤرخون أن لغة مصر قبل الإسلام كانت اليونانية في دوائر الحكومة والقبطية لغة الكنيسة والحكومة بعد اليونانية .

« وسارت(١) اللغة القبطية إلى جنب اللغة اليونانية التي بقيت لغة البلاد الرسمية بعد الفتح زمناً ليس بالقصير ، وعلى الرغم من نهوض القبطية فإن أهلها لم ينتجوا بها أدباً ينافس الآداب اليونانية التي ظلت صاحبة الغلبة والنفوذ ، وإلى جانب اليونانية والقبطية ، وما كان لهما من أدب خاص، كان هناك لغة ثالثة هي لغة السريان الذين هاجروا إلى مصر تحت ضغط الغزو الفارسي على بلدان آسيا الغربية ، وأصبحت السريانية لغة العلم ولا سيما العلم الطبي » غير أنه لم تلبث هذه اللغات بعد انصرام القرن الأول الهجري أن تلاشت أمام قوة اللغة العربية ونفوذها .

« ولم ينقض القرن الثالث الهجري حتى وجدت سبيلها إلى الكنائس القبطية فوعظ بها رجال الدين وكتبوا بها سير الآباء المسيحيين وخطوا بها الإنجيل » وفي القرن الرابع للهجرة قام الأسقف ساديرس بن المقفع بمعاونة

---

(١) من بحث لمجلة الثقافة ١٩٤٣ .

نفر من رجال الدين الأقباط بنقل ما وجدوه بالقلم القبطي والقلم اليوناني إلى القلم العربي .

ولم تقو اليونانية أو السريانية أو القبطية على الوقوف في سبيلها « وكان الإسلام دافعاً لمعتنقيه إلى تعلم العربية حتى يتمكنوا من قراءة الكتاب والسنة وتفهم أصول الدين .

« وجاءت حركة الاستعراب الكبرى فذهب القبط فيها إلى إهمال كثير من مظاهر قوميتهم وسارعوا إلى اعتناق الدين الجديد واتخاذ لغته في أمورهم الخاصة ومعاملاتهم ، وأصبحت اللغة القبطية في المحل الثاني من اللغة العربية التي غدت لغة الحكومة منذ عربت الدواوين في ختام القرن الأول الهجري ، ولغة الأفراد منذ زمن أكثر تبكيراً من ذلك .

ولم تلبث اللغة القبطية أن أصبحت لغة كمالية لا يحذقها إلا المثقفون » .

## ٢

تضم اللغة المصرية القديمة أربع لغات هي الهيروغليفية وهيراطيقية وديموطيقية والقبطية . وتسمى لغة قدماء المصريين وقد دخلها بعض التغيير والتبديل بمرور الزمن وكتبت بحروف يونانية بعد دخول الديانة المسيحية إلى مصر ؛ يقول أرمن العالم الأثري الألماني : إن اللغة المصرية القديمة قريبة من اللغات السامية كالعبرية والعربية ومن لغات سكان أفريقيا الشرقية كصومالي وجالا ومن لغات البربر الواقعة شمالي أفريقيا ، ولا بد أن يكون منشؤها من بلاد العرب لما انتشر بنو سام في بلاد بين النهرين وإن حروفها ساكنة كاللغات السامية .

ويشير أنطون ذكرى في بحث له إلى أن اللغة المصرية القديمة أهملت في

أواخر القرن الرابع بعد الميلاد حين حرم الأمبراطور ثيودوس الديانة الوثنية على المصريين واستمر الأقباط يتكلمون بهذه اللغة بيد أنهم أبطلوا إشاراتها المصورة التي سماها اليونان الإشارات الهيروغليفية أي المقدسة واستعملوا لكتابتها الأحرف اليونانية وسميت باللغة القبطية .

« وبقيت اللغة المصرية القديمة مجهولة حتى جاء العرب وسموها لغة العصافير » .

وكان للمصريين ثلاثة خطوط : الهيروغليفي والهيراطيقي والديموطيقي وهي شبيهة بالخط الكوفي والرقعي والنسخي والثلث في اللغة العربية .

وقد اكتشفت اللغة المصرية القديمة في أوائل القرن التاسع عشر عندما استعان الأثري شامبليون بآراء مجموعة من الباحثين الأجانب وراجع ما كتب على حجر رشيد باللغتين اليونانية والقبطية

## ٣

وقد أكد هذه الرابطة بين اللغتين العربية والمصرية القديمة العلامة أحمد كمال باشا الذي ألف قاموساً ضخماً أورد فيه ألوفاً من الكلمات الهيروغليفية الموافقة للغة العربية المصرية في الغالب ، إما موافقة تامة ، أو موافقة بضرب من التحريف أو القلب والإبدال .

ويرى أحمد كمال باشا أن العربية أصل للغة المصرية القديمة المدونة بالقلم الهيروغليفي ومن لوازم هذا أن أصحابها كانوا من العرب .

وقد وجد نص منقوش في الدير البحري ( الأقصر ) من زمن الدولة الثامنة عشرة ( ١٦٠٠ — ١٣٨٠ ) ق.م وفيه أن المصريين الأولين اشتهروا باسم الاعناء ولم يبين النص أصلهم ، ولا من أين جاؤوا ولكنهم استعمروا

الجهة الجنوبية من مصر وأسسوا المدن بأسمائهم ، وفيه أن بعضهم هاجر إلى القيروان وتونس والجزائر وبعضهم إلى أواسط أفريقيا والصومال وبعضهم قطع البحر الأحمر إلى بلاد العرب وانتشر فيها وسار من هناك إلى جنوب فلسطين وأطلق كلمة (عنو) من أولئك الأعناء المهاجرين اسم مركب تركيباً إضافياً فصار يقال (أعناء كذا) . ولفظ أعناء عربي معناه الاخلاط من الناس يكونون من قبائل شتى. هؤلاء الأعناء هاجروا من جزيرة العرب وهنا يلتقي في الرأي مع (رونسن) الذي رجح كون المدنية المصرية الأولى جاءت من بلاد العرب والعراق .

# الفصل الثالث

## في ايران

يقول الدكتور عبد الوهاب عزام : لقد نشأت اللغة الفارسية وترعرعت في رعاية العربية وكفالتها ، وهي اللغة الفهلوية التي كانت لسان الدولة ولغة العلم أيام الساسانيين ، ولكن كتبت بالخط العربي واشتملت على ألفاظ عربية كثيرة . فقد استعمل شعراء الفرس الأوزان العربية والقوافي ولكن تصرفوا فيها بعض التصرف كما أخذ الأدب الفارسي موضوعات الأدب العربي كذلك فهو يستمد من الإسلام وتاريخه ومن تاريخ العرب ويزيد موضوعات مستمدة من تاريخ الفرس .

ويجد قارىء النثر الفارسي أحياناً ألفاظاً عربية متوالية ليست للفارسية فيها إلا التراكيب والصلات ، ولا تزال العربية تمد الفارسية بألفاظ جديدة .

ولقد كتب كبار المسلمين من الفرس باللغة العربية :

ابن سينا والبيروني والغزالي والرازي والبيضاوي والطوسي ، كما كتبوا بالفارسية ، ولكن كتبهم الخالدة بالعربية .

فالرازي له ثلاثون كتاباً بالعربية بينما له كتاب واحد بالفارسية (١)

---

(١) م ٢١ مجلة المجمع العلمي العربي ١٩٤٦ .

واللغة الفارسية الحديثة التي ظهرت بعد الإسلام والتي أصبحت لغة التدوين في القرن الثالث الهجري وعرفت باسم الفارسية الإسلامية ، وهي اللغة التي ما زالت مستعملة في إيران إلى اليوم، هي مزيج عجيب من الألفاظ والمصطلحات العربية والفارسية .

وهي غير التي كانت شائعة في إيران قبل الإسلام .

فقد انقرضت الفهلوية تماماً أمام اللغة العربية بسبب الفتح العربي (١) وحلت محلها اللغة الفارسية الحديثة التي نشأت في الإسلام وسرت إليها التأثيرات اللغوية العربية الإسلامية ، ولا سيما على أثر قيام الدولة العباسية إذ انخرط الفرس في تلك الدولة سياسة وعلماً وأدباً ، وذهبت الفهلوية وخطها الفهلوي الذي استبدل بالخط العربي للكتابة الفارسية الحالية التي نشأت من إدغام اللغة الفارسية بالألفاظ العربية (٢) .

هذه الفارسية الحديثة أثرت فيها العربية بعد الإسلام أيما تأثير ، فقد ظل شعراء الفرس لا يقولون الشعر نحو قرنين إلاّ بالعربية ، ثم هي رقت الفارسية من السذاجة التي كانت عليها الفهلوية والفارسية إلى أواخر القرن الرابع فأصبحت الآن ثلث كلماتها عربي الأصل (٣) .

وقد أشار (نولدكه) إلى أثر اللغة العربية على اللغة الفارسية فقال : إن اللغة اليونانية لم تؤثر في الحياة الفارسية إلاّ تأثيراً سطحياً ، ولكن العربية قد أثرت فيها كل التأثير ، فقد تبنت إيران الإسلام والأخلاق والعادات العربية .

وإذا كانت اللغة الفارسية قد استقلت عن العربية بعد القرن الرابع ، فإن الخط العربي ما زال هو خط الكتابة الفارسية الحالية وقد كتبت به الأعمال الأدبية الجديدة التي حرصت على استقلال اللغة الفارسية عن العربية وخاصة

---

(١) براون : تاريخ الأدب في إيران .

(٢ و٣) دكتور إبراهيم محمد الشواري : تاريخ الأدب في إيران للمستشرق براون

ما كتبه الفردوسي وعمر الخيام وما زالت هي حروف الكتابة إلى اليوم .

وكان الفردوسي قد قصد في كتابه الشاهنامه إلى إحياء الكلمات الفارسية البحتة ولم يستعمل في قصيدته أكثر من خمسين ومائتين من الكلمات العربية ، غير أنه لم يخرج عن العروض العربي ، فالعروض العربي كان قد أمات الأساليب الفارسية القديمة موتاً نهائياً .

وبالرغم من هذه المرحلة التي بدأها الفردوسي فإن اللغة العربية ظلت تشكل مكاناً هاماً في آداب الفرس (١) .

يقول الدكتور محمد أسعد طلس : لقد شهدت بعيني في بلاد إيران منذ سنوات قليلة أناساً يتكلمون باللغة العربية في أقصى بلاد إيران بلهجة عربية فصيحة وما ذلك إلاّ بفضل القرآن المعجز ، ودين الإسلام العظيم ، كما رأيت القوم يؤلفون كتبهم بها ويحرصون على تدريسها في مدارسهم حرصهم على العناية بلغتهم القومية .

لقد حافظت إيران على التأليف بالعربية في عصور الظلمات وما تزال خزائن الكتب في إيران حافلة (٢) .

---

(١) في عهد ملوك الدولة الصفارية ٣٠١ هـ وملوك سامان ٣٨٩ هـ أعاد هؤلاء اللغة الفارسية وأخذ الشعراء ينظمون بها فانقرضت حثيثاً اللغة العربية من البلاد ولكن نشأت لغة جديدة من بعض الكلمات العربية والكلمات الفارسية .

(٢) م ٤٧ مجلة العرفان .

# الفصل الرابع

## في البلاد التركية

امتدت اللغة العربية إلى كل البلاد التي اعتنقت الإسلام ، ووصلت إلى ما وراء النهر وكان لها أثرها في مختلف اللغات التركستانية وخاصة لغة تركستان الشرقية موطن الأتراك العثمانيين ، وتركستان الغربية التي تسمى اليوم تركستان الروسية (وكان نهر جيحون في العصور المختلفة هو الحد الفاصل بينها وبين إيران) .

أما لغة الثقافة والتأليف في هذه المناطق فكانت العربية .

ولما قامت الدولة العثمانية شرعت تستعمل التركية في رسائلها مع استعمال الفارسية والعربية .

وتؤلف العربية القسم الأكبر من الأقسام الثلاثة التي تتألف منها اللغة التركية العثمانية (١) فقد دخلها من الألفاظ العربية أكثر من خمسين في المائة من مجموع ألفاظها بل إن قواعد صرفها ونحوها هي الأصول المتحصلة من القواعد التي اقتبسها العجم من العرب .

---

(١) عبد الفتاح عبادة ، الهلال ١٩١٥ .

ولما كانت اللغة الفارسية هي لغة الأدب والسياسة عند السلاجة ، فلما اقتبس الأتراك آدابهم من الفارسية اقتبسوا معها كثيراً من آثار اللغة العربية وآدابها التي كان الفرس قد اقتبسوها قبلهم ، وذلك غير الذي اقتبسه الأتراك من اللغة العربية رأساً من الألفاظ والآداب الدينية ، ولذلك كانت الألفاظ العربية في اللغة التركية أضعاف الألفاظ الفارسية فيها ، أو بمعدل لفظ تركي مقابل ثلاثة ألفاظ عربية .

أما التأليف في العلوم العقلية والشرعية واللغوية فقد غلبت عليه اللغة العربية شأنها في إيران وتركستان ولم يخل عصر من التأليف بالعربية في بلاد الترك العثمانيين على اختلاف أطوار العربية والتركية على مر العصور ولم يخل أديب أو شاعر من معرفة العربية قليلاً أو كثيراً حتى عصرنا هذا (١) .

وقد أشار كثير من الباحثين إلى تأثير اللغة العربية في اللغة التركية « حين صارت لغة كتابة وأداة لتسجيل العلم والأدب منذ القرن الثامن الهجري » . فقد أثرت في التركية تأثيراً مباشراً وبواسطة اللغة الفارسية إذ كانت الفارسية بعد العربية هي لغة الأدب والعلم في تركستان ، والقول باستئثار العربية بأمهات كتب العلم في البلاد التي تتكلم التركية كالقول في استئثار العربية بالعلم في اد ان ، إلا أن التركية لم تصر لغة علم وأدب إلا بعد الفارسية بخمسة قرون .

---

(١) عبد الوهاب عزام م ٢١ المجتمع العلمي العربي

# الفصل الخامس

## بين مسلمي الهند

دخلت اللغة العربية الهند مع دخول الإسلام واتخذها مسلمو الهند كسائر مسلمي العالم لغة علم وأدب على مر العصور .

« وكان دخول العربية إلى الهند عن طريقين : الأولى في ثنايا اللغة والآداب الفارسية ، فالفارسية قد أخذت من العربية ثم صارت لغة الدولة ولغة التدوين في الهند منذ عهد الغزنويين ولا سيما في عهد الدولة المغولية .

وقد عد الشيخ شبلي النعماني في كتابه ( شعر العجم ) واحداً وخمسين شاعراً فارسياً جاؤوا إلى الهند في عهد السلطان جلال الدين ( ٩٦٣ — ١٠١٤ هـ ) وعد المدائني أكثر من هؤلاء . كما عدد من العلماء والفلاسفة والأطباء الذين عاشوا في كنف هذه الدولة أكثر من مائة وخمسين .

ومن الهندية المشوبة بالعربية والفارسية نشأت اللغة الأوردية بالخط العربي ونبغ شعراؤها وكتابها في القرن الثاني عشر الهجري(١) وقد ألف بالعربية كثيرون منهم ولي لله الدهوي ( حجة الله البالغة ) شبلي النعماني ، كرامت حسين ، عبد العزيز الميمني .

---

(١) مراحل تاريخ دخول الإسلام الهند .

## ٢

والأردية منسوبة إلى كلمة (أردد) التركية ومعناها المعسكر أو الجيش وهي لغة نشأت من اختلاط الهنود بجيوش المسلمين فتكونت لغة هندية في أساسها النحوي ولكن تكثر فيها الألفاظ العربية والفارسية والتركية، ثم أخذت تقوى تدريجياً عند استعلاء نفوذ المسلمين وتأسيسهم الأمبراطورية المغولية في الهند على يد أحفاد تيمورلنك، حتى أصبحت أوسع اللغات انتشاراً في شبه القارة الهندية.

ويؤكد الباحثون أن احتلال اللغة الأردية لمكان الصدارة بين اللغات المحلية في الهند والباكستان إنما يرجع إلى غزارة مادتها وذخائر أدبها وانتشارها المذهل. وقد استمدت الأردية هذه المكانة بسبب اختلاطها مع الثقافة الإسلامية قرابة تسعة قرون.

وتوجد في شبه القارة (١) الهندية التي انقسمت إلى الهند والباكستان نحو اثنين وثلاثين لغة كل منها مستقلة عن الأخرى لأنها لغة إقليم لا يعرفها إقليم آخر، غير أن اللغة الأردية هي اللغة السائدة بين المسلمين وهي لغة حديثة أقرها المغول عام ١٣٢٨ هجرية للاتصال والتفاهم بين السكان الأصليين وهي مزيج من العربية والفارسية والسنسكريتية وليست كما يزعم بعض المستشرقين فرعاً من فروع الهندية الغربية (٢).

## ٣

واللغة العربية لها مكانها في المجتمع الهندي على أنحاء مختلفة، فهناك تأثيرها الواضح في اللغات الهندية بوجه عام وفي اللغة السندية بوجه خاص، عن

---

(١) مبارك الباكستاني م ٢٩ المجمع.
(٢) عبد الستار ست، م ١٩٥٠ الرسالة.

طريق الجيوش العربية التي دخلت السند بقيادة محمد بن القاسم عام ٩١ هجرية وتوسع سلطانهم فيما بعد إلى ملتان وما جاورها ، حتى أصبحت العربية في السند لغة التخاطب ، وما تزال السندية حتى الآن تكتب بالخط العربي وتضم مفردات عربية قد تتجاوز الحصر .

« ويرجع تأثير اللغة العربية غير المباشر في اللغات الهندية عن طريق الفارسية التي هي أيضاً لم تستطع أن تقاوم تيارها خلال الفتوح الإسلامية وقد غمرتها العربية مادة واشتقاقاً وغلبتها نفوذاً وانتشاراً . وهذا النوع من التأثير حصل عن طريق الفاتحين المسلمين من الأتراك والمغول والفرس والأفغان الذين كانوا تحت سيطرة اللغة العربية من ناحية الدين .

« والكلمات العربية تكاد تكون أكثرية غالبة بين اللغات التي تضمها الأردية ، حتى فاقت الكلمات الفارسية عدداً وتتراوح نسبتها بين عشرين وستين بالمائة وذلك مما يدل على قوة انتشار اللغة العربية وسيطرتها على اللغات .

« هذه الكلمات على قسمين : قسم طرأت عليه تطورات جردته من عروبته حتى أصبح كالكلمات الأعجمية وقسم دخل عن طريق مباشر باستيلاء المسلمين على السند وعن طريق غير مباشر بواسطة الفارسية التي كانت لغة البلاط في عهد المغول (١) .

ويرد البعض الألفاظ العربية في جميع لغات باكستان المحلية بين ٣٠و٦٠ في المائة وهي الأردية والسندية والبنغالية والبلوشية والكشميرية والتيجانية والبشتمية ومعظمها تكتب بالخط العربي .

ويمكن معرفة أثر اللغة العربية في اللغة السندية مما قاله الرحالة الشهير الاصطخري الذي زار السند في القرن الثامن من أن اللغات الدارجة في منصورة وملتان هي العربية والسندية .

---

(١) مبارك الباكستاني م ٢٩ المجمع ١٩٥٤ .

ويرجح أن عدد الكلمات العربية في الأردية تبلغ عشرات الألوف ولا تزال اللغة الأردية تستمد من لغة القرآن وتأخذ من ألفاظها ويؤثر علماؤها الألفاظ العربية فيما يحتاجون إليه من المعاني .

## ٤

الأثر الثاني هو نمو اللغة العربية نفسها في مجتمع المسلمين وانشغال الكثيرين بالكتابة بها وهم يعدون بمئات الألوف ، وقد نشأت ركائز ضخمة للغة العربية من أهمها ندوة العلماء في لكنو التي تدارست كتب الأدب العربي للجرجاني والدينوري والجاحظ وأبي هلال العسكري .

ولا ريب أن هذا الرعيل الذي يجيد اللغة العربية ويحسن الخطابة والكتابة ويحفظ أشعارها هؤلاء قد حملوا دوماً الدعوة إلى أن تكون اللغة العربية هي اللغة العامة في باكستان .

وتجري الدعوة إلى نشر اللغة العربية في باكستان لأنها لغة القرآن . أو كما توصف بأنها ( اسبرانتو الشرق ) .

ويرى مسلمو الباكستان أن معرفة اللغة العربية أمر ضروري جداً حتى تتخذ الوحدة الفكرية الإسلامية صورتها العملية ، وأنه ليس في مكنة العالم الإسلامي أن يدعم روابطه إلا إذا اتخذ اللغة العربية لغة مشتركة أتقن دراستها كما جرت الدعوة إلى اتخاذ الحروف المطبعية العربية حروفاً تكتب بها اللغات الإسلامية (١) .

---

(١) من محاضرة للأستاذ حسين الهمزاني .

# الفصل السادس

## في جنوب شرق آسيا

يتكلم المسلمون في جنوب شرق آسيا لغة تسمى لغة الملايو منتشرة في شبه جزيرة الملايو نفسها وفي الجزر التي تقع في شرقها خاصة ما يعرف اليوم بأندونيسيا ، هذه اللغة هي لغة السياسة ولغة العلم والتجارة ولغة الملايو تكتب بالحروف العربية ما عدا في أندونيسيا .

وقد انتشرت اللغة العربية عندما اعتنق أهل البلاد الإسلام وكانوا من قبل على ديانات الهند البوذية والبرهمية .

وتضم اللغة الملاوية لغة البلاد (القومية) ألوفاً من الكلمات العربية، وقلما يتكلم إنسان في الملاوية جملة واحدة دون أن يلفظ بكلمات عربية .

وتأثير اللغة العربية في الملاوية أكثر وأقوى من تأثيرها في اللغات الجاوية والسوندانية .

وقد استعملت الحروف العربية حروفاً لكتابة اللغة الملاوية بعد الإسلام وتقدمت دراسة اللغة العربية فألف بها علماء الحديث والفقه (١) وفي مقدمتهم العالم السومطري الشيخ خطيب فنانكبو والشيخ محفوظ .

---

(١) م ٩ الفتح ، عبد القهار مذكر .

# الباب الثالث

# أثر اللغة العربية في اللغات الأوروبية

# الفصل الأوّل

## في الاسبانية

كان من الطبيعي بعد أن دخل الإسلام القارة الأوربية أن تدخل اللغة العربية إلى عديد من اللغات الأوربية كالإسبانية والبرتغالية والإيطالية والفرنسية والإنجليزية والألمانية .

وقد دخلت اللغة العربية أوربا حين فتح العرب صقلية والأندلس ، ولا تزال كلمات اللغة العربية موجودة في مختلف قواميس اللغات الأوربية .

يقول العلاّمة محمد كردعلي : إنه لم يمض على فتح الأندلس أكثر من خمسين سنة حتّى اضطر رجال الكنيسة أن يترجموا صلواتهم بالعربية ليفهمها النصارى ، لأن هؤلاء زهدوا في اللغة اليونانية ونشأ لهم غرام بالعربية ، فأخذوا ينقلون آدابها ويتغنون بأشعارها ويكتبون بها كأبنائها ، وأصبح أهل البلاد يتكلمون بالإسبانية والبرتغالية والعربية على السواء ، ثم أخذوا لا يتعاقدون بينهم إلاّ باللغة العربية ؛ وقد وجد من عقودهم نحو ألفي صك كتبها المستعربة من الوطنيين الأصليين باللغة العربية (١) .

## ٢

ألف أنكلمان ودوزي معجماً بالكلمات الإسبانية والبرتغالية التي من

---

(١) الإسلام والحضارة العربية .

أصل عربي أو اشتقت من أصل عربي . كما ألف (اغرويلز – يانغواز) كتاباً في هذا المعنى ، وفي سنة ١٩٢٠ نشر (دلغادو) معجماً بالكلمات التي هي من أصل شرقي .

واكتشف داوين لويس أستاذ العربية في جامعة لشبونة وعضو المجمع العلمي : [العجمية البرتغالية] وهي كتابة البرتغالية بحروف عربية .

أما العجمية الإسبانية فكانت معروفة منذ زمن بعيد لأن العرب الذين كانوا في إسبانيا كانوا على جانب من العلم والفضل (١) .

كذلك ألف أنطون الياس أحد أدباء العرب في الأرجنتين كتاباً باللغة الإسبانية ذكر فيه الكلمات الإسبانية الكثيرة التي هي من أصل عربي ، وقد انتهى به البحث إلى الحكم بأن العربية أقدم لغة حية ، وقد أرجع كثيراً من الكلمات الإنجليزية واللاتينية واليونانية إلى أصلها العربي ، وبرهن على أنها ليس لها من غير العربية تحليل ولا تركيب ، فهي في غير العربية غريبة ، وفي العربية ذات نسب ودلالة .

وأكد صاحب مجلة الشمس أن نصف اللغة الإسبانية من أصل عربي (٢) .

## ٣

ويقرر الباحثون أن اللغة اللاتينية ماتت بعد أن ولدت اللغات الفرنسية والإيطالية والإسبانية والبرتغالية والرومانية ، ولم تكن اللغة اللاتينية هي لغة الغرب كله ولم تستطع التغلب على اليونانية ، وكانت اللاتينية لغة ارستقراطية لا يمارسها ولا يحسنها إلاّ النخبة الممتازة ولم تتغلغل في طبقات العوام .

---

(١) عن بحث للويس نوفا . (٢) م ٣ الزهراء .

## ٤

ولما كان العرب قد استوطنوا إسبانيا وأسسوا فيها حضارة راقية استمرت ما يقرب من ثمانية قرون فكان من الطبيعي أن تؤثر اللغة العربية في الإسبانية تأثيراً كبيراً فاقتبست منها بعض الأصوات التي لم يكن في اللغة اللاتينية ما يماثلها كما اقتبست آلاف الكلمات اليومية التي تختلف عن الكلمات اللاتينية اختلافاً جوهرياً .

ومن هنا تغلبت العربية على اللاتينية في الأندلس حتى بعد زوال دولة العرب اتخذت الحروف العربية للكتابة الإسبانية ، وبها كتب القشتاليون كتب الحديث والفقه والتصوف والقرآن ،

يقول كردعلي : لا يستغرب أن نرى في الإسبانية كثيراً من الألفاظ العربية كأسماء البلاد والأنهار والنواحي وبعض المرافق والمصطلحات وكل كلمة عندهم تبدأ بال التعريف العربية : هي عربية لا محالة ومن الأسماء ما يبدأ ببني ومنها ما يبدأ بوادي .

ويؤكد (لانجلمان) أن العربية ظاهرة كل الظهور في اللغتين الإسبانية والبرتغالية ، بل ليس في الأرض لغة تقرب بتعابيرها ومترادفاتها وجمالها وأمثالها من اللغة العربية كاللسان الذي يتحدثون به اليوم في البرازيل والبرتغال ، والبرتغاليون أجداد البرازيليين . وقد دخلت اللغة البرتغالية ثلاثة آلاف كلمة عربية ، وربع الإسبانية مأخوذ من اللغة العربية (١) .

وقد أشار بعض الباحثين إلى أنه بالرغم من القوانين التي صدرت بتحريم استعمال الألفاظ العربية في الإسبانية لا تزال اللغة الإسبانية اليوم أكثر من سبعة عشر بالمائة من مفرداتها عربي الأصل وهو يشكل أكثر من أربعة آلاف كلمة ولم يقتصر التأثير العربي على المفردات يل تعداه إلى تركيبات وتعبيرات لغوية كثيرة ترجمت حرفياً من العربية لتعبر عن نفس المعنى بالإسبانية .

---

(١) الإسلام والحضارة العربية ، عن لانجمان .

# الفصل الثاني

## في الفرنسية والايطالية

ومن اللغة الإسبانية سرت اللغة العربية إلى اللغات الجرمانية والسكسونية فنجد ألفاظاً عربية في الإنجليزية والغالية القديمة والألمانية واللغات الجرمانية الأصل كالهولندية والاسكندنافية في شمال أوربا وفي الروسية والبولندية واللغات الصقابية الأخرى (١) وفي الإيطالية وفي بعض لهجات فرنسا وإيطاليا .

ويرجع ذلك إلى ما ترجمه الأوربيون عن مسلمي الأندلس ونقل علومهم إلى اللاتينية ودخولهم جامعات الأندلس ، هذا كله لم يترك لغة من لغات غرب أوربا إلا وللعربية أثر فيها تقريباً .

* * *

أما في فرنسا فإن أثر اللغة العربية بعيد المدى :

يقول هنري اوسيل : إن الدارس للغة العربية يجد تركيبات مختلفة كل الاختلاف عما يجده في الفرنسية أو في اللاتينية أو في اللغات الأوربية فهو

---

(١) كرد علي : الإسلام والحضارة .

يتعلم الكتابة من اليمين إلى الشمال ، ثم هو يكتشف نظاماً لغوياً أصيلاً داخل الكلمة لا يعتمد على الإضافات في بداية الكلمة أو نهايتها ، واللغة العربية تسمح أيضاً بنوع من التركيب المجرد والذي نجده في الوقت نفسه رقيقاً جداً كما تسمح بتغيير وتبديل الأسلوب ، وهذا الأسلوب نجده رقيقاً وبسيطاً في الوقت نفسه .

« كما أن اللغة العربية تسمح بنظام في تعريف الأفعال ذي بساطة ولكنه أقرب إلى المنطق ، هذه المميزات وغيرها تعطي الطفل أو المدرس المبتدىء فكرة عن نوع من التعبير الإنساني جديد وفني بكل تأكيد .

وإن اللغة العربية تسهل بشكل عجيب التكيف الصوتي السريع مع حروفها ».

هذه آثار اللغة العربية في علم اللغات المقارن كما رآه هنري لوسيل والمعروف أن العربية أقامت في جنوبي فرنسا مدة مائتي سنة ، وكذلك في جزائر صقلية واقريطش .

## ٢

ويقول رينالدي : لقد ترك المسلمون عدداً عظيماً من كلماتهم في اللغة الصقلية والإيطالية . وانتقل كثير من الكلمات الصقلية التي من أصل عربي إلى اللغة الإيطالية ثم تداخلت في اللغة الإيطالية الفصحى ، ولم تكن الكلمات فقط هي التي دخلت إيطاليا وإنما تسربت أيضاً بعض جداول من الدم العربي في الجالية العربية التي نقلها معه إلى مدينة لوشيرا الملك فردريك الثاني .

« ولا يزال الجزء الأعظم من الكلمات العربية الباقية في لغتنا الإيطالية التي تفوق الحصر ، دخلت اللغة بطريق المدنية لا بطريق الاستعمار .

« إن وجود هذه الكلمات في اللغة الإيطالية يشهد بما كان للمدنية العربية من نفوذ عظيم في العالم المسيحي .

# الفصل الثالث

## في اللغة الانجليزية

أما أثر اللغة العربية في اللغة الإنجليزية فهو بالغ الخطر ، ذلك « أن اللغة الإنجليزية تحوي ألف كلمة عربية الأصل ، وهناك سبع ومائتي كلمة من أصل عربي تستعمل في اللغة الإنجليزية يومياً منها كلمة أمير أو أمير البحر التي أصبحت ( أميرال ) .

« إن عدداً كبيراً من هذه الكلمات لم تجد طريقها رأساً من اللغة العربية إلى اللغة الإنجليزية بل اندمجت في الإنجليزية عن طريق اللغة اللاتينية ثم الإفرنسية والإسبانية .

« والكلمات التي اندمجت مباشرة من العربية إلى الإنجليزية لم تتجاوز ٣٤ في المائة .

« ويرجع بدء تسرب الكلمات العربية إلى اللغة الأنجليزية نحو عام ١١٥٠ م وكان ذلك عن طريق اللغات اللاتينية ثم الإفرنسية والإسبانية والبرتغالية والإيطالية ، وفي ذلك القرن ترجمت مؤلفات عربية كثيرة إلى اللغات الأوربية ، وكانت غاية المترجمين طلب العلم والاستفادة من العرب .

« أما هذه الكلمات العربية التي انضمت إلى اللغة الإنجليزية فقد تغيرت

وتقلبت في قالبها وشكلها وأحياناً في معناها أيضاً على مر الزمن ولكثرة استعمالها .

وقد أورد جرجس فتح الله عدداً من هذه الكلمات والمفردات التي أصبحت جزءاً لا يتجزأ من اللغة الإنجليزية (١) .

## ٢

وقد وجد بعض العلماء في لغات الهنود في أمريكا كلمات عربية ترجع إلى القرن السادس الهجري ( ١٢٩٠ م ) أي إلى قرنين قبل وصول كولمبس إلى أمريكا ، ويرجعون ذلك إلى أن أصحاب هذه الكلمات قد اتصلوا بها قبل ذلك بقرنين آخرين وهناك مستعمرات عربية وجدت بين ١١٥٠ و ١٢٠٠م

وقد شوهدت آثار عربية على شاطىء الخليج المكسيكي خاصة . وتدل الدلائل على أن العرب كانوا يتجرون مع أمريكا قبل كولمبس بزمن طويل وثبت أن سفن العرب أقلعت من جزيرة كناريا ومن هنا إلى ازوارد وسط الأطلنطي ونزلت أيرلاندا وجزائر إنجلترا الغربية .

وكان في لشبونة مصور لبلاد أمريكا من صنعة العرب .

ويقول محمد بن عمار الورتناني في كتابه كشف الحجب : ولنا أن نقول إن التجارة بين العرب وهنود أمريكا كانت قبل موافاة كولمبس لها بخمسة قرون ، ولما أبحر كولمبس من أوربا كان مزوداً بمصورات وخرائط للعرب ، وبها اهتدى إلى تلك الأرض واستصحب رجلين من العرب كانا قد عبرا إلى أمريكا قبل ذلك وعرفا الطريق كما عثر أحد علماء الأثريات على ألواح مكتوبة بحروف عربية ولغة عربية (٢) .

---

(١) راجع المجمع العلمي العراقي م ٣ سنة ١٩٥٥ .
(٢) راجع محمد كرد علي الإسلام والحضارة العربية .

# ٣

وقد صدر عام ١٣٤٢ م في أمريكا كتاب عنوانه أفريقية وكشف أمريكا تأليف ليووينر Leowiener من علماء جامعة هارفرد ، أثبت فيه وجود كلمات عربية في لغات هنود أمريكا . وهذا المؤلف يعرف ٢٦ لغة وقد شرع في تعلم لغات هنود أمريكا ليرى ما فيها من الكلمات والتعابير .

وقد أشار إلى أنه يوجد فيها كثير من الكلمات الإنجليزية والإسبانية والفرنسوية والبرتغالية وأقدم من هذه كلها : كلمات عربية . وقال إنه يرجع أقدم هذه الكلمات إلى ١٢٩٠ م أي إلى قرنين قبل وصول كولمبس إلى أمريكا ، وقد يكون أصحاب تلك الكلمات اتصلوا بها قبل ذلك بقرنين آخرين .

وذهب بعض الباحثين إلى أن عمران ( الأزدوالمايه ) عمران عربي محض وأنها مستعمرات عربية وجدت في أمريكا بين سنتي ١١٥٠ ـ ٢٠٠٠ م والعمران العربي بلغ أوجه في أفريقيا في القرن التاسع المسيحي وامتد جنوباً إلى مندنجو في غرب أفريقيا ومن هناك وصل إلى شداكان على شاطىء خليج المكسيك ، لأن آثار العرب في لغات أمريكا ترد كلها إلى هذا المكان وإلى مندنجو وهي الكلمات التي تنتقل عادة من لغة الغالب إلى لغة المغلوب كالكلمات الطبية والسياسية (١) .

كذلك أثبت عالم الأجناس الأمريكي جيفريز ١٩٥٥ في أبحاثه عن أصل الشعوب الأمريكية القديمة فأكد أن العرب كانوا على صلة بشواطىء الأمريكيين قبل مجيء كولمبس بأربعة قرون ، ومما استدل به على صحة رأيه أن الأذرة وهو نبات أمريكي قد انتشر في العالم القديم منذ ذلك الزمن على أيدي العرب .

---

(١) المقتطف ( أغسطس ١٩٢٦ ) .

وفي كتب العرب (نزهة المشتاق للشريف الإدريسي) أشار إلى محاولتين عربيتين عبر أمواج المحيط الأطلسي ، كما أشار إليها مسالك الأبصار لابن فضل الله العمري وصبح الأعشى للقلقشندي .

٤

ويشير أحد الباحثين إلى أثر اللغة العربية في اللغات المختلفة فيقول :

لو أخرجت من قواميس الأسبانيول والبرتغيز وسكان أمريكا الجنوبية والوسطى جميع المفردات العربية والحلى التي اكتسبتها رطانتهم من العرب لما عرفت تلك الأمم أن تبدي فكراً سامياً ومن ذلك ما ذكره جول فيرن في إحدى قصصه تقديراً للغة العربية فقد كتب أن سياحاً في أجواف الأرض تحت قعر البحر العميق ، اخترقوا طبقات القرى الأرضية حتى وصلوا إلى وسطها أو ما يقرب من ذلك ولما أرادوا الرجوع إلى وطنهم فكروا في ترك أثر يحفظ ذكرهم إلى أبد الآبدين ، إذا وصلت علماء الأجيال المستقبلة إلى محط رحالهم فاتفقوا فيما بينهم أن ينقشوا في الصخر كتابة باللغة العربية ، ولما سئل جول فيرن عن سبب اختياره اللغة العربية قال إنها لغة المستقبل ولا شك في أن يموت غيرها وتبقى حية حتى يرفع القرآن نفسه .

* * *

ومما يضاف إلى ذلك أن انتقال اللغة العربية إلى اللغات الأوربية بمصطلحاتها وتعابيرها ليس وحده ما نقل ، بل لقد انتقل إلى الغرب استعمال الأرقام العربية والكسور العشرية وبقيت أسماؤها مع ما لحقها من التعديل .

# الكتاب الثاني

# اللغة العربية في مواجهة التحديات

(١) في مقاومة نموها وتوسعها

(٢) حرب اللغة العربية

(٣) الدعوة إلى العامية

(٤) الاستشراق ومقاومة الفصحى

# البَابُ الأوّل

## مُحاوَلاتُ مُقاوِمَةِ نموِّها وتوسُّعِها

# الفصل الأول

## محاولات ايقاف نموها وتوسعها

منذ أن قدم الاستعمار إلى عالم الإسلام وكان في مخططه عمل واضح متكامل الخطة في مواجهة نمو اللغة العربية وتوسعها وذلك بتجميدها وإيقافها : واتخاذ الوسائل كل الوسائل إلى تحقيق هذا التجميد وهو عمل مكمل لتحقيق غاية أساسية هي هدم قيمها ومفاهيمها .

وإن نظرة إلى تطور اللغة العربية في السنوات الثلاثين والمائة الأخيرة يكشف عن علامات واضحة وأدلة صادقة .

فقد استطارت في ظل الاستعمار الدعوة إلى العامية واللهجات المحلية واللغات القديمة والحروف اللاتينية ، وظهرت كتابات مختلفة تحاول أن تجدد ما اندرس من اللغات القديمة كالقبطية في مصر مثلاً إذ ظهر من يهتم بجمع الكلمات العربية العامية التي لها أصل قبطي ، وتعالت الصيحات بدعوة المصريين إلى التماس لغتهم القديمة ، وعمد البعض إلى وصف اللهجة العامية المصرية بأنها لغة مستقلة سابقة للغة العربية ، ومنهم من قال إن اللغة العربية لغة أجنبية ، وأنه يجب أن تحول لتعود مصر إلى لغتها القديمة .

وقد واجه كثير من الباحثين هذه المحاولة المؤيدة بالنفوذ الأجنبي فقال

الدكتور زكي مبارك : إن أهل مصر تكلموا اللغة العربية نحو ثلاثة عشر قرناً فهل تعرفون أن المصريين تكلموا لغة واحدة ثلاثة عشر قرناً قبل أن يتكلموا اللغة العربية . إن التاريخ يؤكد أن المصريين قبل الإسلام كانت لهم لغة في الشمال ولغة في الجنوب ويؤكد أنهم عرفوا لغة ثالثة هي اللغة اليونانية ، وكانت لهم لغة رسمية في بعض العهود ، وربما استطاع التاريخ أن يقول إن مصر كان فيها ثلاث لغات : لغة لأهل مصر الوسطى ولغة لأهل الجنوب ولغة لأهل الشمال .

والتشابه بين اللغة المصرية واللغة العربية أثبته كثير من الباحثين منهم المرحوم أحمد كمال باشا .

« إن مصر — لحكمة أرادها الله بالعرب والمسلمين — هي البلد الوحيد الذي انقرضت لغاته القديمة لتحل محلها اللغة العربية ، وهذا حظ لم تظفر بمثله أمة عربية . فالأقطار الشامية تحيا فيها اللغة السريانية واللغة العبرانية والبلاد العراقية تحيا فيها اللغة البابلية واللغة الكردية . والجزيرة العربية تحيا فيها لهجات مختلفات والبلاد المغربية فيها ما تعرفون من لغات متنافرة بعضها قديم وبعضها حديث » وقد عصفت الظلمات بلغة القرآن في كثير من الممالك فاضطرت بغداد وكانت عروس العروبة إلى أن تتكلم الفارسية بضعة قرون ثم قهرها الظلم بعد ذلك إلى أن تتكلم التركية زمناً غير قليل .

والشام في مختلف أقطاره تعرض كارهاً لأمثال تلك الخطوب ، ومع هذا لطف الله بمصر فظلت موئل اللغة العربية وكانت المساجد في القاهرة وفي سائر الحواضر المصرية مدارس جامعة لنشر علوم اللغة والدين ، وما يزال الناس يذكرون كيف حفظ الأزهر الشريف مخلفات الفرس والهنود والعراقيين والشوام والمغاربة والأندلسيين في ميادين المعقول والمنقول .

« فالذين يهمسون بأن اللغة العربية في مصر لغة أجنبية : هم قوم مجرمون

يستأهلون التأديب ، وكيف تكون لغة أجنبية وقد تغلغلت في دمائنا وأرواحنا نحو ثلاثة عشر قرناً وكنا الدرع الذي يصد ما يوجه إليها من سهام ونبال .

« إن اللغة العربية في مصر أرسخ من اللغة الفرنسية في فرنسا ومن اللغة الألمانية في ألمانيا ، لأن تلك اللغات بصورتها الراهنة لم تعش في بلادها ربع المدة التي عاشتها اللغة العربية في بلادنا ، والفرق بيننا وبينهم أنهم سلموا من الدسائس وابتلينا نحن بالدسائس .

« وهل في الدنيا لغة عاصرت القرآن وبقيت مفهومة لأهلها على نحو ما يفهم القرآن في جميع البيئات العربية .

« إن مصر هي التي حفظت لغة القرآن بلا جدال ولا نزاع فمن العار أن يوجد في أبنائها من يقول إنها لغة أجنبية .

« إن اللغات المصرية القديمة لن تعود أبداً ، ولو أنفقنا في سبيلها غاليات الأنفس والأموال ، فهل ترون أن نتكلم بعض اللغات الأوربية وهي أجنبية أجنبية .

« وهل يدعو إلى هذا الرأي غير مخلوق جهول ، هل تستطيع مدينة في الشرق أن تقول إنها أدت للدراسات العربية والإسلامية ما أدت القاهرة ، وهل أذيعت تفاسير القرآن في أي بلد عربي قدر ما أذيعت في القاهرة ، وهل نشرت عيون المؤلفات العربية إلاّ بفضل مطابع القاهرة .

## ٢

أما في الهند فقد جرت محاولة خطرة لإيقاف اللغة العربية وتجميدها والحيلولة دون أن تكون لغة المسلمين في شبه القارة ، وقد قاد ( غاندي ) هذه المواجهة حين أعلن صيحته المشهورة بمعاداة اللغة العربية فقال :

إن من الخير لسكان الهند ألا يلجأوا إلى اللغة الأردية لأنها تكتب بأحرف القرآن وهو كتاب المسلمين وحدهم ، وعلينا أن نختار اللغة المحفوظة عن الأمهات فقط وهي اللغة السنسكريتية .

وقد رد عليه أحد زعماء الفكر الإسلامي ( محمد حسن الأعظمي ) فقال : إن المسلمين ليس لهم أمهات سوى أزواج نبيهم ، ولغة أولئك الأمهات هي اللسان العربي المبين .

فالمسلمون في الهند يعتبرون اللغة العربية : لغتهم الأولى .

غير أن القضية بدأت قبل ذلك بوقت طويل ، فقد اتخذ الاستعمار البريطاني للهند أسلوباً خطيراً للقضاء على اللغة العربية حين اتخذ في كلية فورت . ( وليم ) لغتين ( أولاهما ) الأردية وهي للمسلمين والهندية للهندوس ، واتخذ من ذلك ذريعة لإحداث الفرقة بين الهندوس (١) والمسلمين وبث السموم التي ترمي إلى القول بأن الأردية لا تصلح لأن تكون لغة مشتركة إلا للمسلمين فقط لأنها حافلة بالفكر الإسلامي ، أما الهندوس فعليهم أن يشقوا طريقاً مستقلاً عن نفس اللغة وذلك عن طريق شطب الكمية الكبيرة من الكلمات العربية والفارسية وحروفها من ناحية وإخراجها من اللغة وإدخال كلمات سنسكريتية وحروفها من ناحية أخرى .

« وبذلك تكونت في مستهل القرن ١٩ لغتان ، مع أنها لغة مشتركة واحدة وقد انتهى ذلك إلى اشتداد الخلاف بين أنصار كلتا اللغتين وزيادة هوة الخلاف بينهما عمقاً واتساعاً اثر قيام دولتي الهند وباكستان ،

وكلية فورت أنشأها الإنجليز في كلكتا عام ١٨٠٠ واستهدفت منذ اليوم الأول القضاء على اللغة العربية وتضييق شقة اللغة الأردية وجعلها لغة ثقافية بينما أتيحت الفرصة للغة الإنجليزية لتكون اللغة الأولى بين المسلمين والهندوس

---

(١) دكتور محمد إسماعيل الندوي : مجلة الثقافة سنة ١٩٦٥ .

وعندما استقامت للهندوس لغة خاصة بدأت المحاولات للنفور من الآثار الإسلامية المتلبسة باللغة الأردية ، كما أخرجوا جميع الكلمات والحروف العربية والفارسية التي كانت تستخدم في اللغة الأردية ووجهوا عنايتهم إلى الأدب الهندي القديم وإحيائه وجعله نبراساً لمستقبل اللغة الهندية بل لقد حاول الهنود فرض اللغة الهندية لغة مشتركة .

ولما قامت دولة الباكستان عام ١٩٤٨ تجددت الجهود لمقاومة توقف اللغة العربية ومحاولة إعادة الحروف العربية إلى اللغة البنغالية وقامت جمعية لهذا الغرض أطلق عليها جمعية حروف القرآن الثقافية .

غير أنه من الناحية الأخرى فقد اتجه دعاة الغزو الثقافي إلى استعمال الحروف اللاتينية في كتابة اللغة الأردية بدلاً من الحروف العربية .

وقد توالت الجهود التي قام بها صفوة من أعلام الفكر الإسلامي الهندي وفي مقدمتهم عبد الستار ست . إلى إعادة اللغة العربية إلى مكانها مما نتج عنه قرار المؤتمر الإسلامي في كرتشي عام ١٩٥١ باتخاذ اللغة العربية لغة دولية في العالم الإسلامي تتفاهم بها الدول الإسلامية في كتاباتها الرسمية ( باكستان — إيران — تركيا — أندونيسيا ) وافتتح على أثر ذلك معهد لتعليم اللغة العربية في باكستان وأندونيسيا .

وقد جاء قرار مؤتمر الدراسات العربية والإسلامية في جامعة يشادر ( باكستان ) برئاسة خوجة شهاب الدين ( ١٩٥٤ ) هاماً حيث جاء فيه .

إذا كانت اللغة العربية هي المعين الأساسي للثقافة الإسلامية ، وإذا كانت هي العروة الوثقى للتقريب بين المسلمين في كافة أنحاء العالم ، فإن المؤتمر يوصي الحكومة المركزية والحكومات الإقليمية أن تعيد اللغة العربية إلى مكانها الصحيح في النظم والمناهج التعليمية ، وأن تجعلها مادة إجبارية تدرس في كل المدارس .

كذلك إنشاء مدارس لتحفيظ القرآن للأطفال الصغار وهم بعد في سن الطفولة والقدرة على الاستيعاب والحفظ فليس أقوى من القرآن وسيلة لتقويم الألسنة على العربية وإذا كانت انجلترا قد استطاعت مدة استعمارها للهند أن تجعل اللغة الإنجليزية هي اللغة السائدة بين الباكستانيين وبين المثقفين منهم خاصة وعلى اختلاف لغاتهم القومية يتفاهمون معاً باللغة الإنجليزية فإن الباكستان تستطيع أن تصل إلى نفس النتيجة باللغة العربية وأن تحقق أثراً سريعاً لأن اللغة الأوردية هي لغة غالبة في الباكستان الغربية تحتوي على نسبة كبيرة من الألفاظ والمفردات والتعابير العربية .

وعندما أصدر البرلمان في أبريل ١٩٥٤ قراراً باتحاد لغتين قوميتين هما الأوردة والبنغالية تجددت الدعوة إلى لغة واسعة هي اللغة العربية باعتبارها لغة القرآن والثقافة الإسلامية .

ذلك أن اللغة الأردية ليست غنية في تعبيراتها أو في قواعدها بحيث يمكن أن تكون لغة حية في النواحي العلمية والاقتصادية ، أما اللغة البنغالية فهي خليط من اللغات العربية والفارسية والسنسكريتية (الهندية القديمة) فاللغة العربية أكثر شمولاً واستيعاباً .

ولقد كانت كل هذه المحاولات لمعارضة اللغة العربية كسباً لتوسع اللغة الانجليزية والاعتماد عليها . وفي الوقوع تحت سيطرتها متابعة وولاء للفكر الذي تحمله .

## ٣

وتتمثل المؤامرة الكبرى الثانية في تركيا حين أعلن مصطفى كمال إقصاء الحروف العربية وكتابة اللغة التركية بالحروف اللاتينية ، وقد انطوت هذه الخطوة على حملة ضخمة مركزة على اللغة العربية ، بدا ذلك عام ١٩٢٧ ثم

جرى تصفية اللغة من الكلمات العربية حيث عقد عدد كبير من المؤتمرات التي قامت بإخراج ١٣٦٥٠ كلمة عربية حلت بدلاً منها كلمات تركية حيث اعتبرت الكلمات العربية كلمات أجنبية . ولا ريب أن استعمال الأتراك للحروف اللاتينية قد أفقدهم تراثاً ضخماً يتمثل في مئات المجلدات من الأدب والفن والثقافة التي كتبت باللغة القديمة ، فضلاً عن أن استعمال الأتراك للحروف اللاتينية أفقدهم تصوير الأحرف المتشابهة كالفاء والحاء والصاد والضاد والخاء والطاء والعين ، فإن هذه الأحرف لا يمكن أن نجد في اللاتينية ما يصورها بحرف واحد يقوم مقامها .

٤

وقد حاولت حملة التغريب على اللغة العربية أن تمتد إلى فارس وغيرها ، أما في فارس فقد توقفت وعجزت عن تغيير الحروف العربية ، قال عبد الحميد إيراني صاحب جريدة جهرنماء الفارسية : إن بعض المستشرقين حاول إقناع أولي الأمر في طهران بتغيير الحروف العربية والالتجاء إلى اللاتينية في كتابة اللغة الفارسية فاعترض على ذلك رجال إيران .

ومع ذلك فقد عمد الإيرانيون إلى الاستعاضة عن الكلمات العربية في لغتهم بكلمات إيرانية فلما أساء هذا العمل بعض المقامات قال مسؤول : إن الرغبة في إصلاح اللغة الإيرانية ليس بدافع لأي صبغة سياسية ، أو دينية أو مذهبية ، وليس بدافع الخصومة للعرب . وإنه ليس المطلوب تجريد اللغة الإيرانية من جميع الألفاظ العربية لان ذلك غير ممكن وكل ما نريد تركه هو ألفاظ وعبارات أجنبية لسنا بحاجة إليها ونرمي إلى عدم تغلب العناصر الأجنبية على لغتنا وسنسعى لنحافظ على أسلوب اللغة الفارسية حتى لا تخرج عن الأسلوب الصحيح (١) .

---

(١) الأهرام ٣١ / ١٢ / ١٩٣٥ .

## ٥

وجرت في أندونيسيا محاولة ضد اللغة العربية ، فقد عمد الاستعمار الهولندي إلى تغيير كتابة اللغة الملاوية بالحروف اللاتينية .

وقد أوجد هذا الإجراء حزبين أحدهما يعارض الحروف اللاتينية ويكشف عن خطرها بالنسبة لتراث الحروف العربية التي كتبت بها اللغة الملاوية منذ دخل الإسلام جاوة وسومطرة .

## ٦

وفي عدد كبير من أقطار أفريقيا وآسيا جرت المحاولة ضد اللغة العربية عن طريق إعلاء اللهجات الإقليمية أو كتابة الحروف باللغة اللاتينية وذلك لقطع الصلة بين المسلمين وبين اللغة العربية .

وقد أشارت الأنباء إلى أن الصومال حين حاولت أن تتخذ اللغة العربية لغة رسمية لبلادها حيل بينها وبين ذلك واتفقت الإدارة الإيطالية مع هيئة اليونسكو الدولية بمحاولة وضع أحرف أبجدية لاتينية بلغة الصومالية ، وقد عارضت القوى الوطنية في الصومال هذا الاتجاه .

وتجري تلك المحاولة في مختلف أقطار أفريقيا حيث يعارض الاستعمار في اختيار اللغة العربية وحشد القوى لمقاومتها ومعارضة نموها يشترك في ذلك بلجيكا وفرنسا وبريطانيا والحبشة .

# الفصل الثاني

## حرب اللغة العربية

ونقصد بها حرب الاستعمار للغة العربية عن طريق القوى الرسمية التي يمتلكها أو يسيطر عليها، عن طريق التعليم والمدرسة فقد كانت خطة الاستعمار في العالم الإسلامي كله طرد اللغة العربية من المدارس والجامعات وإقامة الدراسات كلها باللغات الأجنبية وإحياء اللهجات ودفعها بقوة حتى تصبح لغة عن طريق الصحافة.

وفي مصر صور هذا الموقف الأستاذ محمود أبو العيون تصويراً دقيقاً :

فأشار إلى الدور الذي قام به القس دوجلاس دنلوب المستشار الإنجليزي في وزارة المعارف وكيف اضطهد مدرسي اللغة العربية ورجالها وهاجم لابسي العمائم وحرص على إلغاء كل المقررات والكتب التي كانت تدرس قبل الاحتلال واستبدلها بأخرى تختلف من حيث القضاء على روح الوطنية والرابطة العربية والإسلامية، واستهدف من ذلك إضعاف اللغة العربية توطئة للقضاء على القرآن.

وأشار لورد دوفرين في تقريره عام ١٨٨٢ إلى هذا الاتجاه فقال :

إن أمل التقدم ضعيف ( في مصر ) طالما أن العامة تتعلم اللغة الفصيحة

العربية — لغة القرآن كما في الوقت الحاضر .

وفي نفس هذا العام كان مهندس الري وليم ويلكوكس يحاضر عن أهمية اللغة العامية في إيجاد روح الابتكار عند المصريين ، ويشتري مجلة عربية لينشر فيها محاضرته ويفتح باب الحوار حول ذلك .

غير أن الموقف لم يلبث إلاّ قليلاً حتى انفجر في عام ١٩٠٧ وطالب الشعب بإعادة التدريس باللغة العربية ( لغة البلاد ) ووقف وزير مصري هو سعد زغلول يدافع عن تدريس العلوم باللغة الإنجليزية .

واضطر الإنجليز أن يعيدوا بالتدريج تدريس بعض العلوم باللغة العربية :

لقد تعلم المدرسون الإنجليز اللغة العربية ليعلموا بها هذه المواد .

وأشار الشيخ محمود أبو العيون في تقريره الضافي إلى أن الإنجليز ألغوا المجانية في جميع المدارس ( عاليها وثانويها وابتدائيها ) وحرموا الفقراء من الدخول إلى تلك المدارس قتلاً لمواهبهم الفطرية .

وأعلن يعقوب أرتين باشا ( وكيل المعارف ) ذلك بصراحة حين قال : إن وجود المجانية في المدارس الابتدائية في مصر أمر غير عادل .

وقال اللورد كرومر في تقريره عام ١٩٠٠ ما يأتي :

في ١٨٧٩ كانت نسبة المجانية في مدارس الحكومة ٩٥ ٪ أما في السنة الماضية ( أي ١٨٩٩ ) فإن نسبة الذين يدفعون مصروفات مدرسية كانت ٩٨,٥ ٪ في المائة وفي المدارس الثانوية ٨٩ ٪ وأنا واثق من أن هذه السياسة ستظل متبعة بثبات حتى تلغى طريقة التعليم المجاني كلية .

وفي سنة ١٩٠٤ كان هناك تلميذ واحد فقط يتعلم مجاناً في المدارس الابتدائية وقد كتب سعيد أبو حمزة في المقتطف ( أغسطس ١٩٠٢ ) قال :

كيف ترقى العربية وقد طردتها الإنجليزية من القصر العيني بمصر عن

يد القوة الحاكمة فيها ، وكيف ترقى وقد دحرت في الكلية السورية ببيروت منذ نيف وعشرين سنة ؟

وأشار جرجس سلامة في كتابه التعليم الأجنبي في مصر إلى هذا المعنى حين قال : إن جميع المدارس الأجنبية دون استثناء قد أسهمت بنصيب كبير في إضعاف اللغة العربية ، فهي تلقي في خضم الحياة المصرية كل عام من ينظرون إلى غيرهم من طبقات المتعلمين وإلى اللغة العربية نظرة متعالية .

وكانت قاعدة الاستعمار البريطاني في مصر قول بلجران أوكرومر أو من تشاء من أساطين الغزو الثقافي إنه (متّى توارى القرآن يمكننا أن نرى العربي يتدرج في سبيل الحضارة . وإن القرآن لا يتوارى حتّى تتوارى لغته) وقد أكد هذا الخطر في نظر الاستعمار كبير المبشرين دكتور زويمر حين قال : إن اللغة العربية هي الرباط الوثيق الذي يجمع ملايين المسلمين على اختلاف أجناسهم ولغاتهم وإنه لم يسبق وجود عقيدة مبنية من التوحيد أعظم من عقيدة الإسلام الذي اقتحم قارتي آسيا وأفريقيا الواسعتين وبث عقائده وشرائعه وأحكم عروة الارتباط باللغة العربية .

## ٢

ولقد تردد القول بأن العثمانيين قد حاولوا تغليب اللغة التركية في المدارس والدواوين ، والواقع أن إطلاق هذا القول مما عمد إليه التغريب من داخل خطته للوقيعة بين العرب والترك ، والحقيقة التي لا ريب فيها أن هذه المرحلة جاءت بين عام ١٩٠٩ و ١٩١٨ وهي المرحلة التي حكم فيها تركيا جماعة الاتحاد والترقي الذين شكلتهم المحافل الماسونية وكانت خطتهم مرتبطة بالصهيونية العالمية بعد أن أسقطوا السلطان عبد الحميد الذي وقف في وجه اليهود وحارب الدونمة سنوات طويلة حتّى لا تقع فلسطين في أيديهم ، وكان

موقفه الواضح الصريح هذا هو مصدر القضاء عليه . في هذه الفترة حاول الاتحاديون قطع آخر خيط بين الأتراك والعرب بهذه المحاولة التي باءت بالفشل وظهر تمسك العرب بلغتهم والإصرار عليها ، غير أن الخطر الكبير هو خطر الغزو الغربي بلغاته الأربع للعالم الإسلامي: الإيطالية في ليبيا والفرنسية في المغرب وسوريا والإنجليزية في مصر والعراق والهند والسودان والهولندية والإنجليزية في جنوب شرق آسيا .

وقد اقتضى طوال مدة الاحتلال والسيطرة إلى تثبيت أقدام هذه اللغات وتشكل أجيال بعد أجيال عليها وخاصة بين مسلمي الهند ومسلمي أندونيسيا وجاوة والفيليبين .

ولا ريب كان لمدارس الإرساليات والمدارس الأجنبية بصفة عامة أكثر الأثر في تمكين هذه اللغات وفي حرب اللغة العربية وإقصائها عن مجال التعليم والتوجيه والثقافة .

وقد انتشرت هذه اللغات الأجنبية عن طريق فرضها على مدارس الحكومات في العالم الإسلامي بحيث أصبحت هي أداة التعليم لمختلف مواد المنهج، وكانت اللغة الإنجليزية في مصر مثلاً لهذا النوع ، فقد فرضها الاستعمار البريطاني على المدارس الابتدائية ثم جعلها الوسيلة للمرحلتين الثانوية والعالية .

وكان للغة الفرنسية خطوة خاصة لدى بعض الحكام في العالم الإسلامي وقد نافست اللغة الإنجليزية وسابقتها ، إذ كان النفوذ الفرنسي قد تقدم على النفوذ الإنجليزي في مصر وتركيا أكثر من سبعين عاماً .

وكان الصراع بين اللغتين في التعليم الثانوي والعالي سنوات طويلة على حساب اللغة العربية ، ولقد آزر الاستعمار البريطاني لغته وفرضها وفتح لها مدارس خاصة هي مدارس المعلمين العالية التي خرجت مجموعة ممن يدينون بالثقافة الإنجليزية ويصارعون خريجي المدارس الفرنسية وخاصة مدرسة الحقوق.

وقد واجهت حركة اليقظة الإسلامية هذا الموقف في سداد وحسم فأنشأت المدارس الأهلية في مختلف بلاد العالم الإسلامي للتدريس باللغة العربية وإحياء القرآن .

ولا ريب أن الصورة التي حققتها جمعية العلماء في الجزائر : هي مثل تاريخي من أعظم الأمثلة وأروع النماذج فقد استطاع الإمام عبد الحميد بن باديس وصحبه بعد أن ألغت فرنسا العربية تماماً من التعليم إعادتها عن طريق إنشاء ثلاثمائة مدرسة في المساجد .

وفي مصر قامت الجمعية الخيرية الإسلامية وجمعية العروة الوثقى بدور كبير وكان للشيخ محمد عبده ومصطفى كامل ومحمد فريد أثر وافر في هذه المقاومة .

## ٣

ولم تكن اللغة الأجنبية تسيطر على مقدرات الأمة في مجال التعليم وحده بل في مجال الاقتصاد ( البورصات ) ومجال المحاكم ( المختلطة ) وكانت اللغة الأجنبية مقررة في المحاكم المختلطة منذ عام ١٨٧٥ وكانت أحكامها تكتب وتصدر باللغة الفرنسية وعندما حاول أحد القضاة ( عبد السلام ذهني ) أن يتحرر من هذا القيد عام ١٩٣٣ ويصدر أحكامه باللغة العربية ثارت إنجلترا واهتزت فرنسا ، وأوقف عن العمل . وحيث لا تسيطر اللغة الأجنبية الوافدة تسيطر اللهجة العامية ، وخاصة في مجال الإذاعات والمسرح والسينما .

ولقد كانت محاولات الاحتلال الأجنبي لمختلف أقطار العالم الإسلامي العمل على تجميد نمو اللغة العربية وامتدادها في المناطق التي أسلمت ، وإلغائها في مناطق نفوذها بتغليب لغة المستعمر وإحياء اللهجات ودفعها حتى تصبح لغات منفصلة يكتب بها ويعلم .

ورغم أن هذه السياسة لم تحقق نتائجها التي كان يرجوها الاستعمار — إلا أنها تركت مشاكل ومواقف غاية في الخطورة، وقد أشار مؤتمر المفكرين الآسيويين الأفريقيين في لاهور (شباط ١٩٦٥) إلى هذه الأزمة حين قال :

إنه في كل قطر لغة استعمارية تستخدم كوسيط ثقافي ، كما في الهند والباكستان حيث يؤدي الاستغناء عن الإنجليزية إلى خلق مشكلات مختلفة منها تهيئة اللغة المحلية للتكيف مع المتطلبات الثقافية والحضارية والعلمية المعاصرة ومنها احتجاج الأقليات اللغوية التي تجد نفسها مضطرة لتعلم لغة غير لغتها وقد رأينا الهند مشغولة بمشكلة اللغة القومية تصطرع فيها آراء ومجالات تتخذ طابع الحدة والعنف » .

## ٤

وفي شمال أفريقيا كانت الأزمة عميقة وخطيرة إلى الحد الذي ما تزال عقابيلها قائمة حتى الآن . فقد حرص الاستعمار الفرنسي خلال أكثر من مائة وثلاثين عاماً في الجزائر وثمانين عاماً في تونس والمغرب إلى فرض اللغة الفرنسية وتعميم اللهجات وإقامة الصراع بين العرب والبربر وإحياء لغات البربر القديمة السابقة للإسلام وجعل اللغة الفرنسية هي لغة التعليم والثقافة والمحكمة والديوان .

يقول عبد الكريم غلاب : لقد كانت لغة المستعمر هي الوسيلة الأولى للغزو الفكري الاستعماري ، دخلت بلادنا لا على أنها لغة فكر وحضارة وثقافة ولكن على أنها لغة رفع الأمية ولغة حديث ولغة غازية تحل محل اللغة القومية في الحديث والكتابة والمعاملة .

دخلت المدرسة والإدارة وغزت السوق والمعمل والمصنع والمزرعة والمنزل وطاردت العربية في كل مجال يمكن أن تتنفس فيه نسيم الحياة وإن لم تستطع

القضاء على لغتنا القومية نهائياً . فقد كانت آثار مطاردتها قوية عنيفة وخاصة في الجزائر حتى أصبحت اللغة العربية متخلفة وغريبة في كل مجال فكري أو حضاري .

وأصبحنا نتكلم بلغة ونفكر وندبر ونتعامل بأخرى .

بل إن اللغة الغازية احتفظت بمكانتها فلا يكاد يخرج المتعلم منا من مجال الحديث العادي حتى يلتجيء إليها لتساعده على التعبير عن أفكاره ، ولو كانت أفكاراً مجردة لا علم فيها ، واللغة ليست أداة ولكنها فكر وروح ، وليست أسماء وأفعالاً وحروفاً ولكنها تحمل كل مقومات الأمة التي نبتت فيها وسايرت تاريخها وكل تطوراتها الاجتماعية والفكرية والاقتصادية والحضارية ، وإذا استغلت كأداة للغزو فإنها بالإضافة إلى قضائها على اللغة القومية فإنها تحمل معها طابع الأمة الغازية وفكر الأمة الغازية .

ولهذا كان الغزو اللغوي مركباً في مقدمته احتقار اللغة القومية .

## ٥

ولقد كانت قنبلة إلغاء الحروف العربية من اللغة التركية عام ١٩٢٣ من الأحداث الكبرى التي هزت حركة اليقظة الإسلامية ودفعتها إلى العمل والتنبه لهذا الخطر مما دفع الكثيرين إلى الكتابة عن اللغة العربية الإسلامية ولغة الإسلام ، ومنهم السيد محمد رشيد رضا(١) الذي دعا إلى جعل اللغة العربية لغة المسلمين في كل بقاع آسيا ، والذي قال إن اللغة العربية مفروضة فرضاً على المسلمين ونعى على الأتراك ( تطهير ) لغتهم العثمانية من لغة القرآن العربية .

وقال إن علماء الترك والفرس والأفغان والهند والصين والملايو يعرفون

(١) الأهرام ٢٩ أغسطس ١٩٢٣ .

اللغة العربية ويخاطبون بها ، وإن اللغة العربية هي لغة الدين الإسلامي ، وهي اللغة التي يتعين على جميع المسلمين أن يتلقوا بها دينهم في جميع الأقطار فلا يوجد بلد يقام فيه الدين الإسلامي إلاّ ويوجد علماء يعرفون هذه اللغة .

وحث رشيد رضا المسلمين إلى استعمال لغة واحدة بينهم أسوة بالقاعدة المتبعة في استعمال اللغة الفرنسية في مسائل القانون والسياسة . وقال : أما برهان العقل فلا يتطرق الشك فيه من تفضيل اللغة العربية على التركية أو العثمانية بكونها لغة هذا الدين بل لغة شطر القارة الأفريقية الشمالي من الغرب إلى الشرق ، وشطر آسيا ، الشرقي من البحر الأحمر إلى خليج فارس ، وهي اللغة التي يتعبد بها هؤلاء المسلمون ويتلقون دينهم في جميع الأقطار .

وقال : ولما كان الإسلام دين التوحيد : ديناً عاماً لجميع البشر وكان من مقاصده أن يؤلف بينهم ، فرض عليهم توحيد اللغة فخرجت هذه اللغة عن أن تكون لغة شعب واحد منهم ، ولولا ذلك لم تؤثرها جميع الشعوب الإسلامية على لغاتها حتى عم انتشارها في المشرق والمغرب مع الإسلام

## ٦

أشار كثير من الباحثين إلى الهدف من حرب اللغة العربية وتجميدها وتوقيفها عن الانتشار ، وإعلاء اللهجات القومية ولغة المستعمر وتغليبها على مختلف مناهج التعليم والبنوك والمحاكم والدواوين ومختلف المعاملات .

وكان من الواضح أن الهدف هو الفصل بين العرب والمسلمين ، ورفع شأن الثقافات القومية الإقليمية وعزلها عن الفكر الإسلامي ، المتصل بالإسلام والقرآن .

يقول المبشر زويمر : في كتابه جزيرة العرب : مهد الإسلام .

« يوجد لسانان لهما النصيب الأوفر في ميدان الاستعمار المادي ومجال الدعوة إلى الله وهما الإنجليزي والعربي ، وهما الآن في مسابقة وعناد لا نهاية لهما لفتح القارة السوداء مستودع النفوذ والمال ، يريد أن يلتهم كل منهما الآخر وهما المعضدان للقوتين المتنافستين في طلب السيادة على العالم البشري : أعني النصرانية والإسلام » .

وهكذا نعرف خطر المحاولة وهدفها ونحس بأحقاد خصوم الإسلام من هذه المقارنة : « إذا قلنا إن اللاتيني لسان العبادة في الكنائس الكاثوليكية فلسان الإسلام أعم في مساجد المشرقين والمغربين بين أهل التوحيد جميعاً . والصلاة به متواصلة تواصل ساعات الزمن ، ألا ترى المؤذن يدعو المؤمنين إلى صلاة الفجر في جزر الفيليبين في أقصى الشرق باللسان العربي المبين ، فتتبع تكبيراته تكبيرات المئات والألوف من أهلها يتردد صداها من مئذنة إلى مئذنة ومن جبل إلى جبل ، ومن واد إلى واد . فإذا قضيت صلاته في تلك الجزر تنقل الأذان منها إلى غيرها تنقل الفجر في مطالعه فسمعته في الصين وسيبيريا ثم في الهند وفارس ثم في مكة والمدينة والقدس والقسطنطينية ثم في مصر ثم في تونس ثم في الجزائر والسودان ثم في المغرب الأقصى ثم يصل إلى الأقيانوس حتى شواطىء الأمريكان .

## ٧

وفي أفريقيا : حيث تعمل البعثات التبشيرية من أجل معارضة نمو الإسلام واللغة العربية نجد صورة دامية للحرب والمقاومة .

فقد كانت لغة العرب لها السيادة في مختلف أقطار أفريقيا قبل أن يعمد الاستعمار إلى زحزحتها عن مكانها وإعلاء لغاته الغربية ولهجاتها الساذجة ، فقد جعل الاستعمار اللغة العربية إحدى فرائسه كما جعل التبشير سلاحه لمحو الإسلام من أفريقيا .

يقول الأستاذ محمد مسعود (١) لقد كان للغة العربية الحظ الأوفى في الانبثاث في اللهجات الصومالية والزنجبارية أولاً لرجوع الصلة بين شرق أفريقيا وجزيرة العرب إلى أقدم عصور التاريخ وهو ما يتبين مثلاً من وجود كلمة ( باريهو ) منقوشة على جدران الدير البحري بطيبة . السبب الثاني لتغلغل اللغة العربية في اللهجات الصومالية والزنجبارية يرجع إلى أن أهل الصومال وزنجبار كانوا على أثر شيوع الإسلام بينهم في عهد بني أمية وهجرة الزيديين إلى تلك الأصقاع في حاجة إلى تفهم معاني القرآن والأحاديث وأقوال الأئمة ، على أن رطانتهم بلهجاتهم تلك ظلت على الرغم من توفرهم على درس اللغة العربية غالبة على ألسنتهم ففشا بينهم لجمعهم بينها وبين اللغة العربية لحن جديد عرف في شمال خط الاستواء باللغة الصومالية وفي صوته باللغة السواحلية وصارت كلتاهما من ناحية تأثير اللغة العربية فيها مزيجاً من كلمات زنجية بحتة .

وقد طرأ التشويه والتحريف على اللغة السواحلية باستيلاء البرتغاليين على حوض المحيط الهندي وسواحل شرق أفريقيا أما لغة التفاهم في زنجبار فهي خليط من لغات الزنوج والعرب والبرتغاليين بما يخص كل لغة من لحون مختلفة وكلمات تسربت من لهجات البلاد الحافة بالبحر الأحمر كمصر والحبشة واليمن .

ويقول محمد رأفت جمالي : إن اللغة السواحلية يتكلمها أكثر من ثلاثين مليوناً من الأنفس ولها جرائد وقواميس وهي لغة التفاهم في شرق أفريقيا كله بين جميع السكان من أوربيين وآسيويين ووطنيين ، ولها سلطان خاص ، ويتعلمها الإنسان بسرعة مدهشة ، وهي عبارة عن لهجات متنوعة وأصحها لهجة أهل زنجبار عاصمة شرق أفريقيا قديماً وحديثاً .

---

(١) الأهرام ، ٦ سبتمبر ١٩٣٢ .

وقد عمد الاستعمار إلى إحلال اللغة الإنجليزية محل اللغة السواحلية في زنجبار وكينيا وتنجانيقا وأوغندا ، وكذلك محل اللغة العربية ، وقد دافع (مبارك هناوي) عن حق العرب في اللغة العربية .

ويشير الكاتب الداهومي (ألبير تبغود) إلى عمق الخطة التي اصطنعها الاستعمار الفرنسي ، فقد كان يحاول أن يثبت في عقول الأطفال أنهم من الغال الفرنسي .

يقول : لقد ضحكنا كثيراً عندما كنا نسمع ونحن أطفال أن أجدادنا غاليون ، وقد فرضت فرنسا على الطلاب أن يعتبروا الفرنسية لغتهم القومية .

أما في ساحل العاج فقد كانت الأوامر تقضي بمنع التلاميذ من استعمال لغتهم الأم منعاً باتاً ، بينما كانوا لا يفهمون كلمة واحدة من الفرنسية وكانت تفرض العقوبات على المتمردين الذين لا يستطيعون أن ينصهروا في البوتقة .

وفي نيجيريا كان الإنكليز قد حالوا بين المسلمين والتعليم ، وكانوا يشترطون أن يغير المسلم اسمه إلى اسم لاتيني ويحضر الصلوات في الكنيسة ويدرس التاريخ الاستعماري .

وعمد الاستعمار إلى نقل حروف اللغات المحلية من العربية إلى الحروف اللاتينية ، كذلك هناك ظاهرة القضاء على التراث الإسلامي . أشار إليها نعيم قداح فقال : لقد التهمت نيران الجيوش الاستعمارية كل التراث الإسلامي والثقافي الموجود في المكتبات والمدارس ، وقضي على كل أثر علمي عندما قطع التيار الحضاري العربي القادم من شمال أفريقيا ومصر ، فقد بدأ الاستعمار الفرنسي في غرب أفريقيا ١٩٥٧ يقضي على الإسلام واللغة العربية .

ولم يحاصر الاستعمار الفرنسي اللغة العربية في شمال أفريقيا والجزائر وحدها ، بل في قلب أفريقيا أيضاً ، وانقرضت المدارس الإسلامية لأنها لم تستطع الحصول على إعانات ولم تبق إلا الزوايا لتعليم القرآن ، وقد كان

تعليم القرآن هو المنطلق الأول في التعليم العربي هناك ، والذين تعلموا في الأزهر أنشأوا عندما عادوا إلى بلادهم ( السنغال ومالي ) عدداً من المدارس الإسلامية وقد سرق المستعمرون الكتب ونقلوها إلى بلادهم وأغلقوا المدارس فسادت الجهالة بين المسلمين » .

حدث هذا بعد أن بلغت اللغة العربية ( على حد تعبير توماس أرنولد في كتابه الدعوة إلى الإسلام ) في أفريقيا كل وصف حتى أصبحت لغة التخاطب بين قبائل نصف القارة .

وليس أدل على مدى انتشار اللغة العربية مما ذكره نعيم قداح من أن السلاطين كانوا يتكلمونها ومنهم السلطان موسى الأول سلطان مالي وقد كان يتكلم اللغة العربية بطلاقة عندما قابل في القاهرة السلطان قلاوون ١٣٣٤ هجرية في طريقه إلى مكة .

وقد أرسل هذا السلطان الأفريقي البعوث العلمية إلى القاهرة وفاس ، وعاد المتعلمون وأصبحوا نواة لظهور حركة الثقافة الإسلامية في نياني ( *Niani* ) عاصمة مالي، وكومبي صالح عاصمة غانة القديمة ووالاتا وتومبوكتو ودينية في النيجر الأوسط . وأشار المؤرخ السوداني محمود كاتي إلى أنه كان في تومبوكتو نحو مائة وثمانين مدرسة تعلم القرآن والعربية .

وإن الأمراء الأفريقيين في القرن الثامن عشر والقرن التاسع عشر يعرفون العربية ويستعملونها في مكاتباتهم الرسمية وعقدوا مع الفرنسيين معاهدة بالعربية والفرنسية (١) .

هكذا كانت العربية في أفريقيا في أوائل الاستعمار فقد كانت اللغة العربية لغة الثقافة والتخاطب والمراسلات الرسمية مع الدول الأفريقية والإسلامية بالإضافة إلى أنها كانت اللغة المستعملة في التجارة التي كانت بأيدي العرب .

---

(١) نعيم قداح ، المعلم العربي ( مارس ١٩٦١ ) .

# ٨

لما كانت اللغة العربية قد شاركت بحروفها وألفاظها في كل اللغات الأساسية في أفريقيا وهي الهوسا والماندنجو والوولوف والسواحلية والصومالية ولغات النيجر والدناكل في أثيوبيا واريتريا ، فقد كانت خطة الاستعمار والتبشير إزاءها مختلفة الاتجاهات وإن كانت موحدة الغاية .

ويصور هذا الأستاذ جلال عباس بعد دراسة متعمقة وإقامة وافية في هذه المناطق حين يقول(١) :

رأى الإنجليز أن الوسيلة الوحيدة لوقف تيار الثقافة العربية وتأثيرها هو إحياء الثقافات الإفريقية الأصلية وصبغها بصبغة قبلية إقليمية تساعد على إثارة التعصب وإقامة القومية المحلية المحدودة في نطاق قبلي، ليستغلوا هذه الروح في إقامة سد في وجه انتشار الثقافة العربية التي يخشون منها على مركزهم ومصالحهم الاستعمارية .

وكانت خطة السياسة البريطانية هي التسلل التدريجي لنشر الثقافة واللغة الإنجليزية لتحقيق الاستعمار الثقافي الكامل .

(١) تشجيع دراسة اللغات المحلية على يد المبشرين وعلماء اللغات .

(٢) العمل على تكوين لغات جماعية لمواجهة احتياجات التعليم بحيث توضع لغات جديدة مختارة تطعم ببعض الألفاظ من لغات أخرى قريبة منها أو لهجات في نفس اللغة ، كما تم وضع المجموعات اللغوية لجنوب السودان .

(٣) لما قامت محاولات إيجاد لغات أفريقية شبه موحدة ، اتجه الرأي إلى اختيار إحدى اللهجات في كل مجموعة لغوية لإحيائها وتغليبها على سائر اللهجات الأخرى بترجمة الكتاب المقدس إليها وتعليمها في المدارس في الابتدائي.

---

(١) مجلة الأزهر ، ١٩٦٠ .

(٤) تشجيع اللغة الإنجليزية المحلية ( Piag in English ) للتمهيد لسيادة اللغة الإنجليزية .

وعلى طول هذه المراحل كانت اللغة الإنجليزية هي لغة التعليم في المراحل العالية تدرسها تلك الصفوة التي يختارها المستعمر ليعدها لشغل الوظائف البسيطة في المصالح والإدارات والشركات .

(٥) إدخال اللغة الإنجليزية كلغة أساسية في مراحل التعليم المختلفة حتى نهاية التعليم الابتدائي ، ويتم ذلك تدريجياً حتى يقضي تماماً على الثقافات المحلية ويحل محلها الثقافة الإنجليزية .

* * *

أما الفرنسيون فقد اتخذوا سياسة مباشرة في القضاء على اللغات المحلية واللغة العربية على حد سواء ، وفق مذهبهم الاستعماري الذي يهدف إلى امتصاص الشعوب وفرنستها ، فأهملوا المحلية والعربية مع قصر التعليم على الفرنسية في المدارس ، وجعل اللغة أيضاً لغة رسمية في المصالح والشركات وقصر الانخراط في الوظائف على المتعلمين بالفرنسية .

كذلك اتبعت بلجيكا والبرتغال ذلك في مستعمراتهما .

يقول هلال عباس : إنه بالرغم من هذا الاختلاف في الأساليب فقد كان الموقف المباشر من اللغة العربية موحداً ويتلخص في صرف الأنظار عن تعليم اللغة العربية بعدم قبول الذين يتخرجون من المدارس العربية في الدراسة الثانوية والفنية ، إلى جانب موقفهم السلبي من التعليم العربي وعدم تقديم أي عون للقائمين عليه وعدم الاعتراف به ، وكل ذلك للتقليل من شأن هذه اللغة ولاضطرار المسلمين إلى الاتجاه إلى المدارس التبشيرية والمدارس الحكومية

---

(١) مجلة الأزهر ، ١٩٦٠ .

حتى يقعوا فريسة للاتجاهات الاستعمارية التي تعمل هذه المدارس على إشباع تلاميذها ليبتعدوا بكل الوسائل عن الثقافة العربية .

وكانت النتيجة أن هناك تعدداً لغوياً يحول دون وحدة الفكر ، فهناك أفريقي يتكلم الإنجليزية وآخر يتكلم الفرنسية وثالث يتكلم البرتغالية أو الإسبانية ومع هؤلاء جميعاً أفريقيون لا يعرفون إلا لغاتهم القبلية أو يعرفون العربية .

ولما كانت اللغات الأفريقية الوطنية من التعدد لدرجة يصعب التفاهم بها بين شعوب القارة وكانت اللغات الأوربية دخيلة على القارة، وقد أصبح من الضروري العودة إلى لغة جامعة لتحقيق وحدة الثقافة بين أقطار القارة .

وهذه هي المشكلة التي تقف في وجه الوحدة الأفريقية وتوجد للاستعمار مجالاً للاحتفاظ بسيطرته الثقافية على عقول الأفريقيين واتجاهاتهم عن طريق لغاته المنتشرة بين المسلمين، ولذلك فإن اللغة العربية أصلح اللغات لتحقيق وحدة الفكر الأفريقية .

# الفصل الثالث

## الدعوة الى العامية

لم تقف محاولات تحدي نمو اللغة العربية عند إيقافها عن التوسع والحيلولة دون حركتها مع انتشار الإسلام خاصة في قلب أفريقيا وجنوب شرق آسيا وفي المناطق الجديدة التي وصل الإسلام إليها ، وإنما جرت المحاولات إلى ضرب اللغة العربية في مواطنها وهدمها في معاقلها حيثما وصل نفوذ الاستعمار وسلطانه ، حيث فرضت لغة المحتل واعتبرت اللغة الأولى في المدارس والمعاهد التعليمية وأزيحت اللغة العربية أساساً ، ثم جاءت الخطوة التالية مباشرة وهي الدعوة إلى العامية وتشجيعها والاهتمام بها وبثها في مختلف جوانب الحياة من حديث وكتابة وإذاعة ومسرحيات وقصص . كما تقدم التبعيون بالدعوة إلى انتقاص اللغة الفصحى ومحاولة وصفها بالتعقيد ووصف العامية باليسر .

وتقدم جماعة من الغربيين ما بين مهندسين وقضاة للتأليف بالعامية وجمع الأزجال والفكاهات والكلمات الدائرة على الألسنة بين العامة ومحاولة تصوير تراث وهمي زائف من هذا كله حتى تنتقل الدعوة من الكلام عن اللهجة العامية إلى ما يطلق عليه لغة عامية كانت موجودة في هذه المناطق قبل الإسلام وهو من الشبهات الكاذبة التي لم تجد من التاريخ الصحيح دليلاً عليها .

فقد تقدم جماعة من المستشرقين في مقدمتهم المهندس وليم ويلكوكس ١٨٩٣ وسبيتا الألماني مدير دار الكتب ١٩٠٢ وويلمو القاضي عام ١٩١٠ ووليم تمبل جردنر ١٩١٧ بتأليف دراسات وكتب عما أطلق عليه اللغة المحكية أو العامية المصرية .

كما شجعت حكومات الاحتلال على إنشاء جرائد باللغة الدارجة صدر منها عام ١٩٠٠ وحده سبع عشرة جريدة .

وكان لورد دوفرين الوزير البريطاني الداهية قد سبق هذا المخطط كله بتقريره الذي رفعه إلى وزير خارجية بريطانيا بعد زيارة مصر في أول سنوات الاحتلال ١٨٨٣ حين دعا إلى ضرورة معارضة اللغة الفصحى لغة القرآن وتشجيع لهجة مصر العامية كحجر الزاوية لبناء منهج الثقافة والتعليم والتربية في مصر .

وفهم أصحاب الشأن أن الهدف هو إقصاء القرآن أساساً ، ولا يتم إقصاء القرآن حتى تتوارى اللغة العربية ، وإن ذلك لا يتم إلا عن طريق وسائل التعليم ، ولذلك وجهت سياسة الغزو نحو الأزهر أساساً وفصل عنه نظام التعليم كله الذي بدأ يجري السيطرة عليه عن طريق مستشار وزارة المعارف القس دنلوب من داخل الوزارة يعاونه في خارجها الدكتور زويمر رئيس جماعات التبشير في البلاد العربية من ناحية والمهندس ولكوكس من ناحية أخرى .

## ٢

وكان ولكوكس أول من افتتح الحملة بخطابه المشهور في نادي الأزبكية عام ١٨٩٣ ودعا فيه إلى نشر العامية والتأليف بها ، ثم خطبته بعد ذلك في ترجمة بعض فصول من مسرحات شكسبير إلى اللغة العامية وترجمة بعض

فصول من الإنجيل . وقد أطلق على خطبته اسماً خطيراً هو :

لماذا لا توجد قوة الاختراع عند المصريين ؟

وكان ويليام ولكوكس قد قدم إلى مصر عام ١٨٨٢ من الهند وكان موظفاً بمصلحة الري بها وقد ظل بمصر حتى توفي عام ١٩٣٢ دائباً على العمل لدعوته في مهاجمة اللغة العربية ، وللتبشير .

وقد اشترى من أجل غايته تلك مجلة خاصة كانت تصدر من قبل وحوّلها إلى وجهته هي مجلة الأزهر(١) التي عاونه فيها (أحمد بك الأزهري) .

تقول جريدة الأهرام في مناسبة وفاته (٢٩ – ٧ – ١٩٣٢) وقد قاوم الرأي العام فكرته فأبطل تلك المجلة ولكنه ظل يؤلف باللغة العامية المصرية فكتب في ذلك حياة المسيح وأعمال الرسل وترجم كتاب العهد الجديد إلى اللغة العامية المصرية وكان ينظم الزجل .

ولما كانت محاضرته تمثل أهمية خاصة في تأريخ حركة الانقضاض على اللغة العربية ، فقد كان من الضروري الإشارة إلى ما جاء بها مما يحدد هدفه وأسلوبه الماكر في الترغيب بالعامية :

« إن من جملة العوامل في فقد قوة الاختراع عند المصريين استبقاءهم اللغة العربية الفصحى ، لذلك لا بد من إغفالها واستبدالها باللغة العامية اقتداء بالأمم الأخرى وخاصة الأمة الإنجليزية التي استفادت إفادة كبيرة بإغفال اللغة اللاتينية التي كانت لغة الكتابة عندها واستبدالها باللغة الإنجليزية الحاضرة » .

وقد واجهت هذه الدعوة معارضة شديدة ومقاومة واسعة وتصدت لها صحف كثيرة وهيئات علمية مختلفة ، وفي مقدمة من تصدى له جريدة المؤيد

---

(١) أنشأ المجلة الدكتور حسن رفقي وإبراهيم مصطفى عام ١٨٨٦ وتنازلا لويلكوكس عنها في أول يناير ١٨٩٣ واشترك معه الشيخ أحمد الأزهري .

ومجلة الهلال . غير أن الحملة بدأت فعلاً واستمرت ، ولم يتوقف ويلكوكس عن العمل حتّى أعاد محاولته مرة أخرى عام ١٩٢٦ حين أصدر كتابه الذي زعم فيه أن سوريا ومصر وشمال أفريقيا وإيطاليا تتكلم البونية لا العربية .

قال جرجي زيدان : عندنا أن المستر ويلكوكس لم يصب المرمى في رأيه من هذا القبيل لأن ما صدق على اللغة الانجليزية لا يصدق على لغتنا لأسباب كثيرة منها أن الانجليز استبدلوا باستبدالهم اللاتينية بالإنجليزية بلغة وطنية ، وليس الحال كذلك في اللغة العربية ، فإن الفرق بين لغة الكتابة ولغة التعليم عندنا ليس بالشيء الكثير وقد لا يكون أكثر من الفرق بين لغة كتاب الإنجليز ولغة عامتهم . وان استبدال اللغة العربية الفصحى بالعامية إذا أنقذنا من شر فإنه يوقعنا في شر أعظم منه ، لأن الناطقين باللغة العربية تختلف لغتهم العامية باختلاف الأصقاع . والفرق بين لغة مصر والشام ليس بأقل من الفرق بين الفصحى والعامية فاستبدالنا الفصحى بالعامية المصرية يحرم أبناء بر الشام وبلاد المغرب من فائدة ما نكتبه في تلك اللغة ، وهكذا لو استبدلنا باللغة العامية الشامية أو المغربية أو الحجازية ، وإذا لم نخسر بذلك إلاّ الجامعة العربية لكفى بها خسارة .

هذا فضلاً عن أن اللغة في كل آن وآن تتبع حالة عقول الناطقين بها ارتقاء وانحطاطاً ، فلغة العامة منحطة بنسبة انحطاط أفكار الناطقين بها وليس لها أن تقوم مقام اللغة الفصحى ولا سيما العربية لأنها أرقى لغات العالم وفيها من أساليب التعبير ما تعجز لغة العامة عن القيام به .

وإن الجامعة العربية قائمة بالمحافظة على اللغة الفصحى إذ لولا القرآن الشريف والمحافظة عليه منذ صدر الإسلام وعودنا إليه في إصلاح ما تفسده الطبيعة من لغتنا لتشتت شمل الشعب العربي وأصبح كل قطر من الأقطار العربية مستقلاً عن الآخر لا يفهم لغته كتابة وتكلماً .

كذلك فإن إغفال اللغة الفصحى يستوجب إغفال كل ما كتب فيها من العلوم على أنواعها منذ ألف وثلاثمائة سنة وهي خسارة لا تعوض .

* * *

ولما عاد ولكوكس إلى الحديث عن العامية مرة أخرى بعد ربع قرن من دعوته الأولى على لسان سلامة موسى الذي أحياه مرة أخرى في الهلال(١) تصدى له أصحاب الأقلام المؤمنون بلغتهم قال ويلكوكس على لسان سلامة موسى : هذه اللغة التي نكتبها ولا نتكلم فهو يرغب في أن نهجرها ونعود إلى لغتنا العامية فنؤلف فيها وندون بها آدابنا وعلومنا .

وقد أشار المعلقون إلى مغالطة ويلكوكس في الحديث عن لغة الكتابة ولغة الكلام من حيث إنها ظاهرة طبيعية في كل اللغات ، وإن كل بلد أوربي فيه اللغة وفيه اللهجات ، ولكن الجميع يستعملون الفصحى في الكتابة ، أما استعمال العامية أو اللهجة الخاصة فهو نادر وغير متفق مع طبيعة الأشياء .

## ٣

كانت محاولة سبيتا أن يوجد للعامية تراثاً أو أدباً ليدعي أنها لغة ، وقد عجز عن ذلك تماماً ولما كان (ولهلم سبيتا) مديراً لدار الكتب المصرية فقد حاول أن يندمج في الأحياء المصرية ويدرس العامية ، وقد ألف نتيجة لذلك كتاب (قواعد اللغة العامية في مصر) عام ١٨٨١ .

وقد أشار في كتابه إلى ما أسماه الخلاف الواسع بين لغة الحديث ولغة الكتابة . ودعا إلى الكتابة بلغة (إن لم تكن لغة الحديث الشائعة) فليست العربية

---

(١) هلال يوليو ١٩٢٦ .

الفصحى على كل حال وهي دعوة اللغة الوسطى التي حملها من بعد سلامة موسى وتوفيق الحكيم ولويس عوض .

وكان لهذا المستشرق موقف مزرٍ في مؤتمر المستشرقين عام ١٩٠٥ حين حمل على القرآن واللغة العربية وواجهه الشيخ عبد العزيز جاويش وفند أباطيله واضطر المؤتمر حماية للمستشرق إلى شطب كلام كل منهما .

وقد استهدف سبيتا أن يجعل للعامية تراثاً فقام بجمع ونشر العاميات من الأحاديث والفكاهات والكلمات وجعلها مقدمة لعمل من جاء بعده ، كما عمد إلى وضع حروف إفرنجية للعامية المصرية لأجل إحيائها ، وألف في صرفها كتاباً ، كما ألف في أمثالها وقصصها العامية ، ونشر ذلك باللغتين الألمانية والفرنسية لترغيب أوربا في تنفيذ مشروع تعليم اللغة العامية بالحروف الأجنبية وجعلها لغة العلم والتعليم ، وقد لقيت الدعوة رواجاً فانتدب بعض أغنياء الإفرنج لذلك له مالاً جماً ، ونشرت كراسة في الحث عليه وترغيب الأخذ بالمال ووزعت هذه الكراسة مع الجرائد اليومية الكبرى حتى المؤيد (١)

## ٤

وتعد محاولة القاضي ولمور من أقوى هذه المحاولات وأهمها ،

وقد دعا إلى استعمال العامية بدلاً من العربية الفصحى .

وقد أطلق على كتابه اسم (لغة القاهرة) أصدره عام ١٩٠٢ ، وقد وضع للعامية القاهرية قواعد واقترح اتخاذها لغة للعلم والأدب كما اقترح كتابتها بالحروف اللاتينية ؛ ومما قال ولمور :

« العربية الآن مهملة كما كانت اللاتينية مهملة في أواخر القرون الوسطى ،

---

(١) المنار م ٥ و ٦ .

ولو لم تنشط أمم آوربا لاستعمال لغاتها الخاصة لما تقدم العمران في أوربا « إني أتأسف جداً إذا نسيت العربية الفصحى في هذه البلاد وأرى أنه يجب أنه تدرس في مدرسة جامعة مع غيرها من اللغات السامية كما تدرس اللغة الميتة . والظاهر أن شمس المعارف اللغوية كادت تزايل ديار الشرق فقد أخبرني أستاذي منذ سنين كثيرة أن العلماء الكبار حقيقة صاروا يعدون على الأصابع » .

وقد جبهت ولمور ردود الكتاب وأفسدت سعيه وكشفت عن زيف ما ادعاه فقالت المؤيد : إن مسألة اللغة العربية هي مسألة الدين الإسلامي بعينه ، فإذا فرط المسلمون في لغتهم الفصحى : لغة القرآن والحديث والشريعة أضاعوا دينهم بأقرب مما يتطلبه المرسلون المسيحيون منهم .

وذكرت صحف أخرى القاضي ويلمور بأن ما حصل في اللغة اللاتينية لا يمكن حدوثه في اللغة العربية لاختلاف النسبة بين اللغتين ، فإنه لما قام ديكارت وخالف العادة التي جرى عليها علماء عصره في التأليف باللغة اللاتينية وجد لغته الفرنسوية لغة صحيحة فصيحة فيها كثير من كتب الأدب ، ولكن ماذا يجد كاتب العامية اليوم إذا أراد التأليف بها : أتكفيه لغة الحمارة والتجارة (وهما صحيفتان) للتعبير عن أشرف عواطف القلب وأسمى خطرات الفكر .

« لا خوف على لغتنا من ولمور ومن أمثاله لأنهم لا يحاربون اللغة العربية بهذا الاقتراح ، وإنما يحاربون النواميس الطبيعية أيضاً .

« وإن اللغة التي قتلت الآرامية واليونانية في سوريا وفلسطين واكتسحت لغة المصريين قبل الإسلام وانتشرت أوسع انتشار في أفريقيا ، والتي لا تزال تتغلب حتى اليوم على لغات الهند في عهد الاحتلال الإنجليزي نفسه ، لهي لغة نافذة كالسيف فلا تؤثر سطور كتاب إنجليزي فيها » .

وقد حاول ولمور في بحثه في عامية مدينة القاهرة أن يضع خطأ في افتراض يقوم على شبهة ليفتح به الطريق إلى مستشرق آخر ليأخذ به من بعد على أنه حقيقة ، فأشار إلى أن هناك عبارات وألفاظاً ترجع إلى أصول قديمة كالأصول الآرية والسامية والعبرية ، وقال : هذه اللغة يسمونها العامية لأنها لغة العامة والشعب وكل الناس ولا معنى لأن توجد لغة للكتابة ولغة أخرى للكلام ، وهذا هو الخيط الذي التقطه ويلكوكس مرة أخرى من بعدُ حين تحدث عن اللغة البونية المدعاة .

وقالت الهلال في الرد على ويلمور :

هم يشيرون علينا أن نتخذ العامية بدلاً من الفصحى في الكتابة فأي العامية يريدون أن نتخذ : لغة مصر أم لغة الشام أم لغة العراق أم لغة الحجاز أم اليمن أم نجد أم المغرب فإن لكل من هذه البلاد لغة خاصة لا يفهمها عامة البلاد الأخرى .

فإن قالوا : ألفوا لغة تشترك بين هذه اللغات قلنا إن اللغة لا تتألف بالتواطؤ وإنما هي جسم ينمو نمواً طبيعياً على مقتضى ناموس الارتقاء ، وأسهل منه أن يبقى على اللغة الفصحى وهي أم لغاتنا العامية وأقرب إلى أفهامنا من لغة جديدة ملتقطة من أفواه الأمم ، فإن قالوا : إن لكل أمة من هؤلاء لغتها فالسوري يكتب بلغة عامية الشام والمصري بلغة عامية مصر كان ذلك رأي القائلين بانحلال العالم العربي وتشتيت شمل الناطقين بالضاد . زد على ذلك أن المسلمين لا يستغنون عن تعلم اللغة الفصحى لمطالعة القرآن والحديث .

## ٥

كذلك برزت مؤلفات تحاول أن تجمع الأمثال العامية المصرية .

وسرعان ما تصدت مجلة المقتطف لهذه الدعوة فآزرتها وخطت معها

خطوات واضحة : وقد دعت إلى ما أسمته باباً للنظر في أمر اللغة العامية ، وفيما إذا كان تنقيحها ممكناً كما فعل اليونان بلغتهم الرومية ، واعتمدوا عليها في كتاباتهم بدل اللغة اليونانية القديمة أو فيما إذا كان العود إلى اللغة المصرية أولى حتى تصبح لغة التكلم كما هي لغة الكتابة »

بدأت المقتطف ذلك عام ١٨٨٢ وهو عام الاحتلال نفسه وعادت تقيم الخطة عام ١٨٩٢ في نفس اللحظات التي بدأ فيها ويلكوكس دعوته ثم سايرت الحركة في تطورها بعد ذلك .

والمهم هو إثارة الشكوك وخلق روح الحيرة حول مكانة اللغة العربية واقتدارها .

وقد انطلقت هذه الدعوة الأجنبية إلى دراسة العاميات في العالم الإسلامي كله حتى إذا مضى ربع قرن تقريباً وجدنا هذه الدراسات :

دراسة عامية مصر : للدكتور نللينو الإيطالي وسيانكوفسكي الروسي.

دراسة عامية مصر والشام وفلسطين : لفيليب وولف الألماني .

دراسة عامية المغرب وتونس لبعض علماء فرنسا برئاسة أحدهم (ماشويل)

دراسة عامية الجزيرة وبين النهرين : لياس برازين الروسي .

دراسة عامية حلب : ليوريال الفرنسي :

الكلمات الآرامية الدخيلة في العربية : لفرانكل .

دراسة عامية الجزائر : هوكداس .

وذلك بالإضافة إلى كتابات برنيه وكوش دي برسفال وسونسين وغيرهم(١)

* * *

(١) إحصاء الهلال م ٢٥ ص ٢٨٠ .

وقد اضطرت المقتطف بعد أن سايرت هذه الحركة طويلاً أن تتحرر منها وأن تتحفظ في موقفها حتى يقول يعقوب صروف : إن ضبط اللغة المحكية جاء بعد أوانه وإن أرباب الصحف هم أحرص الناس على اللغة المعربة .

واستشهد برسالة أمين فداي – إلى مؤتمر اللغات الشرقية في بلاد أسوج التي أشار فيها إلى أن اللهجات العامية العربية لا يسهل تنقيحها والاعتماد عليها لتباينها في مصر والشام وبلاد المغرب .

ورغم هذا فإن محاولات المستشرقين لم تتوقف بل تتابعت فرأينا ما أشير إليه من أن الأستاذ فنسك الأمريكي ما زال دائباً على نشر الرسائل المكتوبة بحروف أوربية في المصرية العامية وقد كتب للمقتطف رسالة أسماها ( أجرومية مصري مكتوبة ( بل لسان المصري ومعها أمسلة ) .

ومنها ما أشارت إليه الهلال من مشروع كتابة العامية المصرية بالحروف الإفرنجية ، وقالت الهلال إنه مشروع غير طبيعي إذ لا يعقل أن من يتكلم لغة شهيرة ذات حروف منتشرة اقتبستها عنها عشرات الأمم العظمى يترك حروفها هذه ليكتب بحروف غريبة. إن ما ينفقه أصحاب هذا السبيل إنما هو ذاهب سدى .

ولقد كانت الصحف الأجنبية في مصر توأزر هذه الخطوات وكانت أمثال جريدة الاجبشيان غاريت وغيرها توالي اهتمامها بهذه الصيحات الغربية وتفرضها وتدفعها إلى الأمام .

من مثال ذلك ما تقول الهلال : عثرنا على رسالة نشرتها الإجبشيان غاريت الإنجليزية على لسان كاتب يقبح رأي القائلين بالمحافظة على اللغة الفصحى ، ويظهر منها ومن أمثالها أن العمدة في برهانهم على وجوب استبدال الفصحى بالعامية أن بقاء الأولى ( العربية ) حاجز حصين بين العلم وقراءة العربية وأن التمدن لا ينتشر إلاّ إذا كتبوه بالعامية (١) .

---

(١) فبراير ١٩٠٧ .

# الفصل الرّابع

## الاستشراق ومقاومته للفصحى

كانت تلك الحفريات التي قام بها ويلكوكس وويلمور وسبيتا وجردنر وغيرهم مقدمات لمخطط الاستشراق بالنسبة للغة العربية الذي لم يلبث أن ظهر واضحاً على أيدي جماعة المستشرقين في العالم كله والذي تكشف صريحاً في الدعوات التي دعا إليها لويس ماسينيون وكولان وبروكلمان . وإسرائيل ولفنسون والتي انتظمت مصر والشام من ناحية والمغرب العربي كله من ناحية أخرى وقد كانت هذه الخطوة تستهدف أمرين : إعلاء شأن اللغة العبرية وعقد المقارنات بينها وبين اللغة العربية بينما هي لغة ميتة منذ ألفي عام وذلك عن طريق إعادة دراسة ما أطلق عليه اللغات السامية .

والأمر الأخطر هو إعداد هؤلاء النفر الذين حملوا لواء الخصومة والحرب للغة العربية تحت أسماء براقة زاهية أهمها الإصلاح والتمصير وتيسير النحو ودراسة اللهجات ، وقد جمعت باقة من أخطر الدعاة في مقدمتهم طه حسين ولطفي السيد وقاسم أمين وسلامة موسى والخوري غصن ولويس عوض وأمين الخولي ومحمود تيمور وعبد العزيز فهمي .

وقد أتيح لعدد من هؤلاء الالتحاق بالمجامع اللغوية وبعثوا سمومهم في

أبحاثها ومكن لهم المشرفون عليها باسم علم اللغة وعلم اللغات المقارن وعلم اللهجات . وقد تبين أن وراء هذا الخطوة حملة جبارة تغريبية وهدف من أهداف الصهيونية العالمية .

ومن الوجهة التاريخية البحتة نجد محاضرة لويس ماسينيون الشهيرة عام ١٩٣١ في بيروت للدعوة إلى العامية وإلى كتابة هذه العامية بالحروف اللاتينية وكان قد ألقاها قبل ذلك في جمع من شباب العرب في باريس عام ١٩٢٩ ، هذه المحاضرة هي مفتاح الطريق وقد كشف الدكتور زكي مبارك وهو في باريس في ذلك الوقت هذه الدعوة وكتب عنها في صحف مصر مبيناً خطرها وأثرها ، وكان مما قال :

هناك غاية خفية هي الباعث على خدمات المستشرقين للغة العربية ، تلك الغاية معروفة أيضاً لمن يفهمون من أهل الشرق فليس بغريب إذن أن نقول إن اهتمام المستشرقين باللغة العربية كان يراد به التمهيد للحملات الاستعمارية . لقد كان للمستشرقين الألمان عناية فائقة باللغة العربية قبل الحرب يقصد (الحرب العالمية الأولى) وكانت للألمان مطامع بعيدة في الشعوب الشرقية فكانوا لذلك يستعدون لفهم الشرق الإسلامي من جميع نواحيه وقد قلت عناية الألمان بدراسة العلوم الإسلامية بعد الحرب بعد أن صرفوا أبصارهم عن الشرق ، وجاء دور فرنسا فهي اليوم الدولة التي تعنى أكثر من غيرها بالدراسات العربية ، ففرنسا لها في الوقت الراهن مستعمرات عربية ، وهي تريد أن تدرك أسرار الأمم التي تحكمها وذلك لا يتم بغير درس اللغة العربية والعلوم الإسلامية ، غير أن الفرنسيين يريدون أن يختصروا الطريق فهم يريدون أن يستريحوا من اللغة العربية ومن الإسلام ، وسبيلهم إلى ذلك أن يقنعوا بعض الأنذال من أهل الشرق بأن اللغة العربية أصبحت في عداد اللغات الميتة وأن الإسلام لا يصح أن يكون أساساً لمدنية جديدة ، وأنه لا يليق بالرجل المصري أن يكون متديناً لأن الديانات لم تكن إلا لهداية الرعاع . ومن المحزن أن هذه

الدعايات يقوم بها رجال كنا نظنهم من أهل المروءة والشرف ، فإني أفهم أن يكون الرجل من طلاب الملك والفتح والسيطرة ولكني لا أفهم كيف يتفق لرجل قضى خمسين عاماً في التعرف إلى اللغة العربية والإسلامية أن يزعم أن لغة العرب لا تستطيع وعي العلوم الحديثة . وهم يقولون بذلك حرصاً على منفعة أتباعهم في المستعمرات الفرنسية فيما يزعمون ، ولكن الغرض المشهور هو القضاء على التقاليد العربية والإسلامية ليخلو الجو للغة المستعمرين الأبرار .

ولقد وقف ماسينيون يخطب في بيروت وكان همه أن يبث سمومه في الشباب السوري فزعم لهم أن كرامة اللغة العربية توجب أن تتفرع إلى لغات عديدة كما تفرعت اللغة اللاتينية ، فيا سعادة الشرق العربي عندما تصير اللغة العربية إلى ما صارت إليه اللغة اللاتينية . فقد ماتت لغة الرومان إلى حيث لا رجعة .

وقال هذا المستشرق في محاضرة له في الكوليج دي فرانس : إنه لا حياة للغة العربية إلاّ إن كتبت بحروف لاتينية .

ولم يبق إلاّ أن القوم يريدون أن ينحدر العرب إلى مثل ما انحدر إليه الترك ليضيع جزء منهم من شخصية اللغة العربية وليسهل قطع ما بيننا وبين أسلافنا من الأواصر الأدبية والروحية .

وهنا مستشرق قوي جداً في اللغة العربية ويمدحها ولكنه يرمي إلى قتلها في المستعمرات الفرنسية ، وسبيله إلى ذلك أن يزعم أن اللغة العربية ترجع إلى لغتين : اللغة الفصيحة وهي لغة الكتب العلمية والصحف وفي رأيه أن هذه اللغة ميتة لأن الناس لا يتكلمونها في محاوراتهم اليومية ، واللغة الثانية هي لغة التخاطب ، وهي لغة حية ولكن الناس لا يحترمونها بدليل أنهم لا يودعونها ذخائر أفكارهم .

ويرى ذلك المستشرق هجر اللغة الفصيحة مرة واحدة لأنها غير متصلة بأذواق الناس ، أما العامية فينبغي أن تترك للهمج لأنها لغة فقيرة » .

ونحن من جانبنا ننظر في حزن إلى طغيان أولئك الباحثين .

لن يدوم لفرنسا هذا النفوذ الذي مكن لها من زلزلة قواعد الإسلام في بلادالمغرب ولن تواتيها الظروف على متابعة الكيد للغة العربية ، وما ربك بغافل عما يعمل الظالمون ، ويا ليت قومي يعلمون قيمة ما يملكون من نصر لهذه اللغة الكريمة ، ففي فرنسا عناية كبرى باللغة العربية فهي تريد أن تدرك أسرار الأمم التي تحكمها وذلك لا يتم إلاّ بدراسة اللغة العربية والعلوم الإسلامية (١) .

« إن المثقفين المصريين يعلمون كيف نبتت فكرة تشجيع العامية في مصر ، وكيف كان دعاتها مسيرين بنزعات سرية خطيرة ، وكيف عمل المبشرون على بثها في مختلف الطبقات لتصبح مصر غريبة عن الأمم العربية وليصبح في الشرق مئات من اللغات والقوميات ليسهل ابتلاعه وهضمه بلا مشقة ولا عناء » .

## ٣

وإذا كان الاستشراق عدو اللغة العربية أساساً لما يرتبط من هدف باستبقاء النفوذ الاستعماري فإن المستشرقين من ناحية أخرى يعجزون عن فهم البيان العربي وهم يخطئون في فهم البلاغة العربية . تقول الدكتورة بنت الشاطىء .

إن اللغة العربية بالنسبة للمستشرقين لغة أجنبية عنهم ، ومهما أتقنوها وأجادوا تعلمها فهم يعجزون عن تذوق بعض أساليبها ويحول تركيبهم

(١) جريدة المساء : ٢٧ — ٢ ١٩٣١ .

الاجتماعي وتكوينهم الحضاري دون النفاذ إلى ما وراء الكلمات والحروف من شفافية وحسن وأسرار مبثوثة ، وهذا أوقع بعضهم في أخطاء دفعتهم إلى إصدار أحكام مجحفة سجلوها ظلماً على بعض مفاهيم الإسلام .

فادعى فيليب فونداس أن الأموال عند المسلم من أصل شيطان نجس استناداً على الآية الكريمة [ خذ من اموالهم صدقة تطهرهم وتزكيهم بها ] .

وادعى آخرون أن الحكم الديني الأسس كان ينظر إلى المحكومين الأعاجم كقطيع من الغنم ويستنبط هذا الاكتشاف من فهم لمعنى الراعي والرعية وان بعضهم ينظر إلى الأجواء العربية التاريخ من خلال انفسهم وطبيعتهم الخاصة ونسوا أن هناك فروقاً أساسية بين الجو التاريخي الذي يدرسونه والجو الحضاري الذي يعيشون فيه .

وإن كثيراً من المستشرقين كانوا مدفوعين بالطابع الديني بل إن الاستشراق بدأ تاريخه بالرهبان الذين قصدوا الأندلس وتعلموا في مدارسها وترجموا القرآن » .

## ٣

وإذا كان المستشرقون يعادون العربية من حيث هي دين ومن حيث هي معارضة لنفوذ الاستعمار فإنهم وجهوا إليها الحرب بأسلوب دقيق هو أسلوب البحث الذي يحمل طابعاً علمياً براقاً ويحاول أن يخضع اللغة العربية لما خضعت له اللغات المختلفة غاضين الطرف عن الفارق العميق والواسع والبعيد المدى الذي يحكم اللغة العربية ولا يحكم لغات العالم كله وهو القرآن .

وتركزت معارضتهم في عدة كلمات رددها رجالهم ثم جاء أتباعهم من كتاب العرب فأعادوا ترديدها وما يزالون :

اللغة ملك لنا ونحن أصحاب التصرف فيها وليس رجال الدين .

لماذا يوجد في اللغة العربية لغة كلام ولغة كتابة . إحلال العامية للتعبير عن مشاعر الشعب .

اللغة العربية غير علمية ، وصعبة التعليم وعلاجها استبدال الخط العربي باللاتيني .

وقد ظلت هذه الدعوات تطرح في أفق الأدب العربي والفكر الإسلامي منذ اليوم الأول حين حمل دعوتها ويلكوكس وولمور وسبيتا في مصر وكولان في الجزائر وماسينيون في دمشق ، وجاء الكتاب الأتباع من العرب فدعوا إليها وحملوها إلى الجامعات والمدارس ومجامع اللغة .

وهذه الدعاوى كلها مردود عليها وزائفة وسطحية وانفعالية وليست لها وجهة نفسية إلا الحقد على اللغة العربية وليس لها هدف إلا القضاء على الجامعة التي تربط أمة القرآن بالقرآن .

لتحقيق رسالة كرومر ومن جاء معه من المستعمرين العتاة الذين عرفوا أن اللغة العربية هي حجر الزاوية في وحدة هذه الأمة وكيانها كله .

ونحن نعرف أن حركة الاستشراق بدأت في القرن الثاني عشر من أسبانيا بترجمة القرآن إلى اللاتينية تمهيداً للتشكيك في صحته وانطلقت إلى جامعات روما وأكسفورد وباريس وبولونيا أعوام ١٣٠٠ م وما بعدها لدراسة العربية وعلوم المشرقيات لهدف واضح :

لترجمة القرآن والتشكيك فيه ، لإيجاد الشبهات حول اللغة العربية ، للتبشير لمضاهاة اللغة العربية بالعبرية القديمة التي ماتت منذ ألفي عام ومحاولة إحيائها .

وقد أمكن في هذه المرحلة سرقة ألوف المخطوطات من العالم الإسلامي ونقلها إلى الجامعات ودور الكتب ودراستها والتحكم في تقديمها للعرب والمسلمين مرة أخرى من خلال مخطط استشراقي تغريبي خطير .

ثم تدخل اليهود في الاستشراق فبدأت خطة جديدة هي علم اللغات المقارن الذي يقول في أول مادة فيه : إنه لا يعرف امتيازاً ولا فضلاً للغة على أخرى أو للهجة على أخرى أو للهجة على لغة وأن اللغة لا تختلف عن اللهجة إلاّ من ناحية مستوى الاستخدام .

ومن ثم بدأت تلك الحملة الضخمة المشبوهة لدراسة اللغات السامية في صورها المختلفة : المدونة والمنطوقة وكان الحرص الشديد على دراسة اللهجات العربية ونقوشها القديمة .

وذلك تحت اسم تطور اللغات السامية وعلاقة كل واحدة منها بالأخرى ، ومن هذه الحصيلة وجد الدكتور طه تلك المادة الزائفة التي اعتمد عليها في كتابه (في الشعر الجاهلي وفي الأدب الجاهلي) لرمي اللغة العربية بالانتقاص ومحاولة طرح مفاهيم تلمودية يهودية في أفق الفكر الإسلامي،وقد بدا أن جميع الذين اشتغلوا في هذا المجال لم يكونوا على قدر وافر أو دراسة عميقة للغة ولكنهم كانوا من أتباع الاستشراق ومن ذلك .

إلياس بقطر باريس ١٨٢٠ — فارس الشدياق ١٨٠٥ — ميخائيل صباغ — ستر اسبورغ .

وبدا ذلك الاتجاه إلى ما يسمى معجم العامية المصرية (لاندبرج) .

وجاءت دراسات اللهجات العربية الجنوبية ولهجات البدو وحضرموت وظفار وعمان والقصص الشعبي والأمثال والحكايات .

كما جرت دراسة لهجات السنغال وموريتانيا .

وجاء ادعاء ويلكوكس بأن هناك لغة هي البونية كانت لغة سوريا ومصر وشمال أفريقيا قبل الإسلام ، وإدعاوه أن اللهجات العربية الحديثة هي امتداد للبونية .

وهدف كل هذه الدعوات تخفيض روح التقدير والإعزاز للفصحى

وتوطئة الأقلام والأذهان للعامية تمهيداً لإصلاحها في مخطط طويل المدى حتى يتقطع المسلمون والعرب في مقدمتهم عن رابطتهم بالفصحى أي رابطتهم بالقرآن ، ومهما قيل إن من هدف الباحثين هو دراسة العاميات لتمكين رجال الاستعمار العاملين في هذه البلاد من فهم لهجات الكلام لاستعمالها فإن الأمر يبدو في صوره الواسعة الملحة العميقة المتكررة أكبر من هذا بكثير .

ولم يتوقف هذا العمل بالرغم من فساده وبالرغم من كشف زيفه ، بل ما يزال اصحابه يصرون عليه ويجددونه مرة بعد اخرى ، فقد أشار صلاح البكري أنه ذهب إلى حضرموت عام ١٩٣٧ وقابل بها الدكتور سرجنت أحد أساتذة معهد الدراسات الشرقية بجامعة لندن جاء يحمل رياح السموم اللافحة ويكافح المتاعب في الصحارى والقفار يجمع الأمثال العامية وفي ١٩٥٠ قابل المستشرق الهولندي الدكتور مانسنج وقد بدأ جولة طويلة لجمع الأمثال العامية واللهجات المختلفة في البوادي وتسجيلها (١) .

وبالجملة فإن علاقات الاستشراق باللغة تكشف عن شبهات ضخمة وعداء كبير .

## ٥

ويمكن تقديم مثال واحد في هذا السبيل كنموذج لهذا العمل الخطير الذي يقوم به الاستشراق ذلك هو بروكلمان في كتابه ( وحدة اللغات السامية ) وهو عمل يستهدف خدمة اليهودية التلمودية الصهيونية على نحو خطير من خلال دراسة عامة لجميع اللغات السامية .

وبركلمان من رجال هذا العلم الخطير : علم اللغة المقارن ؛ هذا العلم الذي استهدف أساساً إحياء اللغة العبرية القديمة .

وقد اصطنع اليهود لذلك من قبل بروكلمان كثيراً في مقدمتهم نولدكه،

---

(١) قافلة الزيت ، رجب ١٣٧٨ .

وبراتوريوس ، وهاويت ، وتسمرن لندنبرغ وحيزينبوس وقد قدم هؤلاء ابحاثاً في نحو اللغة العبرية ومعاجم للعهد القديم كما سجل بعضهم المفردات المقابلة في اللغات السامية .

أما بروكلمان فقد أولى اهتمامه للعبرية الإسرائيلية التي وصلت من العهد القديم بأقسامه المختلفة ، ويرجع أقدم أقسامه إلى مرحلة دخول قبيلة إسرائيل أرض فلسطين .

كما عمل على تدوين سفر سيراخ بالعبرية .

وهو أول من آثار تلك الشبهة الزائفة التي اعتمد عليها الاستشراق والتبشير وهي الادعاء بقسمة اللغة العربية إلى جنوبية وشمالية (١) .

وقد عرض لهذه الشبهة كثيرون في مقدمتهم العلامة دروزة في كتابه عن الأنساب العربية .

---

(١) مجلة الكتاب العربي ، أبريل ١٩٦٩ .

# الباب الثاني

## محاولات هدم قيمها ومفاهيمها

(أولاً) بدعة إصلاح اللغة .

(ثانياً) اللغة والتعليم .

(ثالثاً) الشبهات المثارة حول أصالة اللغة العربية .

(رابعاً) أعداء الفصحى .

(خامساً) الرد على أعداء الفصحى وتزييف دعواهم .

# الفصل الأول

## بدعة اصلاح اللغة

كانت المرحلة الطبيعية بعد التمهيد الذي قام به رجال الاستعمار مما ضمنوه تقاريرهم الرسمية أو قدمه رجاله ممن ليست لهم صفة استعمارية واضحة أمثال ويلكوكس وسبيتا وويلمور وما نظمه المستشرقون من مخططات وما قدمه الصهيونيون من دراسات باسم علم اللغات المقارن ، مقدمة لخطوة لها طابع عربي وبأسماء عربية ، باسم الحفاظ على اللغة والغيرة عليها والدفاع عنها والرغبة في إعدادها لتكون أهلاً لنقل مصطلحات الحضارة والعلوم ومن هنا بدأت موجة عاصفة من الأبحاث في هذا الصدد باسم الاستفتاءات والتساؤلات : هل اللغة العربية كذا ، هل هي كذا ، ضعيفة ، عاجزة ، قادرة ، وحفلت بذلك المقتطف والهلال واشترك فيها العشرات .

وكانت هذه بمثابة الطليعة المتقدمة التي تدق أبواق الحرب ، ثم كانت مقالات لطفي السيد وقاسم أمين باسم التمصير وإصلاح النحو .

ثم جاءت مرحلة ما بعد الحرب العالمية الأولى تحمل معها أسماء سلامة موسى والخوري مارون غصن في المقدمة ثم لم يلبث صاحب اسم ضخم من مثل « عبد العزيز فهمي باشا » أن تقدم للمجمع اللغوي في مصر بمشروع كتابة العربية بالحروف اللاتينية .

ثم توالت الخطوات في صورة دراسات علمية وجامعية وفي مقدمتها ما كتبه أنيس فريحة وإبراهيم أنيس وسعيد عقل وغيرهم كثيرون .

## ٢

استهل هذه الدعوة ونقلها من أن تكون حركة استشراقية واضحة الدلالة يفهم الناس هدفها في بساطة ويسر ، إلى أن تكون مفهوماً مرتبطاً بالوطنية والسياسة والمجتمع المصري والبلاد العربية : أستاذ الجيل والرجل الذي رأس مجمع اللغة العربية أكثر من ثلاثين عاماً : أحمد لطفي السيد .

بدأ ذلك بمقالات في جريدة الجريدة عام ١٩١٣ ( نشرت من ١٦ أبريل إلى ٤ مايو ) وجمعت في كتاب المنتخبات الجزء الثاني وكانت تحمل شعار :

تمصير اللغة ، وهو شعار استشرى في هذه الفترة وامتد في داخل دعوة المصرية التي بدأها أستاذ الجيل ، واستطاعت أن تستوعب كثيراً من الدعوات : تمصير القانون ( أي إخراجه عن الشريعة الإسلامية ) .

تمصير الأدب ( أي قطع علاقته بالأمة العربية وبالفكر الإسلامي ) .

تمصير اللغة ( أي فصلها عن اللغة العربية ) .

ولقد كانت دعوة لطفي السيد ماكرة ولئيمة ، فقد أخفاها تحت ستار اللقاء بين الفصحى ولغة الكلام ، وفي خلال ذلك أثار الشبهات المتعددة ووصل إلى غرضه كاملاً فقال عن الإعراب إنه ليس من أصول اللغة بل هو أمر عرض لها بعد الإسلام خشية التحريف في أواخر الكلمات ، ومدح العامية وقال إنها لا ينقصها إلاّ أداة التعريف .

واستطاع لطفي السيد المصري العربي المسلم أن يصل إلى للنفوس بالزيف مما ما لم يستطع أن يصل إليه ويلكوكس وسبيتا وولمور .

ولكن دعوة لطفي السيد لم تمر دون عقاب فقد تصدى له صاحب [ تحت

راية القرآن ] : مصطفى صادق الرافعي .

يقول مؤلف كتاب المعارك الأدبية :

لقد كانت مداخل البحث عن لطفي السيد بارعة دقيقة فهو لم يفاجىء القارىء في هذا الوقت المبكر بالحملة على اللغة العربية أو الدعوة إلى ترك الكتابة بها إلى العامية وإنما تسلل إلى ذلك بطريقة فيها كثير من المداورة .

ولقد وقف عبد الرحمن البرقوقي ومصطفى صادق الرافعي لهذه الدعوة موقفاً حاسماً حملا فيه لواء الاتهام مؤمنين بأن القضاء على اللغة قضاء على مقدسات الفكر العربي الإسلامي .

## ٣

لقد ابتكر أحمد لطفي السيد جرياً على التيار التغريبي الإقليمي الذي كان يحمل لواءه في حضانة النفوذ الاستعماري : بين حزب الأمة وكرومر اسم : تمصير اللغة . يقول الرافعي : نريد بهذا التمصير ما ذهبت إليه أوهام قوم من الفضلاء يرون أن تكون هذه اللغة التي استحفظوا عليها مصرية ، بعد أن كانت مضرية ، وأن تطرد لهم مع النيل بعدد الترع وعداد القرى حتى ترسل الكلمة من الكلام فلا يجهلها في مصر جاهل ، ويصدر الكتاب من الكتب فيجري في أفهام القوم على طريقة واحدة ويأخذ منهم مأخذاً معروفاً غير متباعد بعضه مع بعض ولا ملتو على فئة دون فئة .

ومن ثم يزين لهم الرأي أنه لا يبقى في هذا الحجم الغفير من علمائنا وكتابنا وأدبائنا من لا يعرف أين يضع يده من ألفاظ اللغة ومستحدثاتها إذا هو كتب أو مصر عن لغة أجنبية ، ولا نقول عرب فإن هذه بالطبع غير ما نحن فيه — بل يأخذ من تحت كل لسان ويلقف عن كل شفة ولا يعد في التناول إلى مضطرب واسع ولا يمضي حيث يمضي إلا مخففاً عن هذه القواعد وتلك الضوابط العربية إذ تتهادن يومئذ العدوتان : هذه العامية وهذه

الفصحى ، ، وتصلحان بينهما صلحاً إذ لا ترفع أحداهما في وجه الأخرى قلماً ولا لساناً .

وعلى أن تبيح كلتاهما للثانية حرية الانتفاع بما يشبه التجارة إلا في المواد المضرة التي يعبر عنها دعاة السياسة اللغوية بالألفاظ العامية المبتذلة والألفاظ العربية الغريبة — ثم على أن لا تحفل إحداهما ما تركت الأخرى مما سوى ذلك فتستمر العامية على ما هي وتذهب الفصحى على وجهها .

إنما تلك آراء كان يتعلق بها بعض فتياننا إفراطاً في الحمية ومبالغة في الحفيظة لمصر وأملاً مما يكبر في صدورهم على ما ترى من تهافتها وضعف تصريفها . فكان ذلك عذر العقلاء إذا مروا بها لماماً وتروحوا بالإعراض عنها سلاماً حتى تناولها الأستاذ مدير الجريدة فحذفها وسواها وأخرج منها طائفة من الرأي تصلح أن تسمى عند المعارضة رأياً فقال بالإصلاح بين العامية والفصحى على طريقة تجعل هذه تغتمر تلك . وتحياها إليها ، فعسى أن يأتي يوم لا تكون العامية فيه شيئاً مذكوراً .

إن مجم هذا الرأي ومستجمه أن الأستاذ يرى ( أخذ أسماء المستحدثات من اللغة اليومية ) وامرارها على الأوراق العربية بقدر الإمكان فإن لم يكن لها ثمة أسماء فمن معاجم اللغة وكتب العلم ، إن هذه عنده دون اللغة اليومية فإن لم يصب ذلك في هذه أيضاً وضع لها الواضع ما شاء ، وإن استعمال مفردات اللغة وتراكيبها إحياء للغة الكلام وإلباسها لباس الفصاحة .

هذا هو مجمل رأي الأستاذ ، فإن طال عليك ذلك السر وبرمت به جملة فإن لك أن تدمجه في كلمتين : ذلك أن الأستاذ يرى تمصير اللغة لأننا إذا تابعناه فإنما نلمس كل ما أشار إليه من العامية المصرية وحدها ، ونعطي هذه العامية سعة أنفسنا وبذل أقلامنا فنلبسها الفصيح ونخلط منهما عملاً صالحاً وآخر سيئاً ، ولعل هذا الرأي أن يشيع من ناحيتنا ، ويطمئن في كل أمة

عربية فتأخذ مأخذها في عاميتها ، وتنزع إلى ما تذعن إليه ، فإذا أمكن أن يتفق ذلك وأن تتوافى عليه الأمم ، كان لعمري أسرع في فناء العربية وجد عليها شؤم هذا الرأي ما لم يجد تألب الأعداء لو استأصلوا أهلها وبلغ منها ما لا يبلغه الفاتحون ولو ملكوا تلك الأرض كلها .

ثم نحن نتسامح في استعمال المفردات والتراكيب العامية ، وسينقاد لذلك من بعدنا ، ثم من بعدهم إلى أجيال بعيدة يتراخى بعضنا عن بعض فيوشك أن يأتي يوم تكون فيه تلك اللغة الفصحى ضرباً من اللغات الأثرية من كتابها الكريم ، لأننا لا ننظر في أن نترخص من الآن من كلمات معدودة صدرت بها (قرارات الأمة) أن لا تزال على وجه الدهر عامية ، ولكننا ننظر إلى الأصل في قاعدة التسامح والترخيص ، فإذا ثبتناه وأخذ به غيرنا ولم يكن عندنا لذلك نكير في أخذ الشيء القليل ثم ينتهي بالتسامح في كل شيء .

(ونحن) لا نفهم كيف يكون إحياء العربية باستعمال العامية وكيف نرضي لغة القرآن التي تأبى إلا أن تتقيد بها اللهجات الأخرى كما محت من قبل لغات العرب جميعها على فصاحتها وقوة الفطنة في أهلها وردتها إلى لغة واحدة هي القرشية ثم نرضي من جهة أخرى هذه اللهجات العامية التي تأبى أن تتقيد بشيء .

وإذا حاولنا مذهب الإصلاح العامي فليت شعر ي أي لهجة نأخذ وأي لهجة في مصر هي غير مصرية فننبذها .

نحن لا نماري في وجوب الإصلاح اللغوي ووجوب أن يكون للغة في هذه النهضة مجمع يحوطها ويضع لها ولو على الأقوال كمصلحة الكنس والرش ولا نقول إن هذه اللغة كاملة في مفرداتها .

إنه لا يقتضينا من اللغة شيء وهي على ما هي من إحكام الأوضاع والتراكيب والاتساع للمفردات ، ولو أقبلت كأعناق السيل ، ولكن يقتضي

هذه اللغة رجال يعملون ويحسنون إذا عملوا على أنه إن يكن في رأي التمصير خير فليس يقوم خيره بشؤمه ، وهب أن أمراً من ذلك كائن ، وأننا أجرينا التراكيب العامية في الفصيح ، وأقحمنا مفردات القوم في اللغة ، ومكنا للعامة على ما يتوهمون من مقاليد الكلام وأتبعناه مقادتهم ، فما أجداه ذلك عنهم وماذا يرد على الأمة !

لا سبيل لتمصير العربية واعتبار هذه المصرية أصلاً لغوياً مجمعاً عليه إلاّ بتمصير الدين الإسلامي الذي يقوم على هذه العربية ، فإن بعض ذلك سبب طبيعي إلى بعضه ، فمن كشف لنا عن الوجه الذي يكون به الدين مصرياً وطنياً وبصرنا بأسباب ذلك ونتائجه قلنا له أخطأنا وأصبت « وكذلك أخذ ربك إذا أخذ القرى وهي ظالمة »

## ٤

وعلى طريق بدعة إصلاح اللغة ، وتمصير اللغة ، جرت الأبحاث في المقتطف والهلال والصحف اليومية وشارك فيها كثيرون من مصر والشام ، وكان يقوم من الشام جرأة عجيبة لأنهم لا يرون في اللغة إلاّ أنها أداة وأنها ملك لهم ومن حقهم أن يجروا فيها مشرط الجراح ، وكان أجرأ القوم على هذه الدعوة : أولئك المهجريون أصحاب الغربال ،

لقد كانت كلمة الإصلاح هي كلمة السر لكل من يريد أن يدخل المعركة وهي الراية التي حملها سلامة موسى ومحمود تيمور ، وقاسم أمين ، والخوري مارون غصن ، ظناً أنها ستار لا يكشف الغايات والنوايا والأهواء .

ولقد تحول هذا المصطلح من بعد فأطلق عليه اسم : « تطوير اللغة » ، وفي كل مرحلة من هذه المراحل كانت تعلو نبرة الدفاع عن اللغة العربية ، وهي نبرة زائفة مكشوفة .

ولقد تعدد توقيع الأعلام على مصطلح واحد هو القول بأن اللغة لخدمتنا ولسنا لخدمتها ( سلامة موسى ) لي لغتي ولكم لغتكم ( جبران خليل جبران ) اللغة ملك للأمة وليست ملكاً لرجال الدين ( طه حسين ) .

وهكذا توالت الصيحات التي تريد أن تثبت في نفوس الناس وفي عقولهم : حق هؤلاء في تغيير اللغة وزوال صفة الثبات عن العربية ، والفصل بينها وبين القرآن ومقارنتها باللغة اللاتينية البائدة .

كذلك جرى هذا المجرى المتحدثون عن تمصير اللغة وتعالت أصواتهم في الدعوة إلى لغة منفصلة عن العربية : « أي جعلها لغة مصرية خالصة توضع لها أسسها وقواميسها ، وعلى هذه الأسس يسير تطورها ، إذ قد يكون هذا التمصير ما يسهل على مصر الاستفادة من بعض المعقول من اللغة العامية من أساليب ومصطلحات غير عربية » (١)

* * *

كذلك وجدنا المهجريين يعلنون اختصار اللغة العربية وتغليب الأسلوب التوراتي عليها على النحو الذي كان يكتب به :

جبران ، ونعيمة ، والريحاني .

وقد واجه الرافعي هذه الحملة أيضاً وكشف عن زيفها فقال : « إنك لواجد في أهل ١٩٢٣ من يقول في هذه اللغة : لك مذهبك ولي مذهبي ، ولك لغتك ولي لغتي فمتى كنت يا فتى صاحب اللغة وواضعها ومنزل أصولها ومخرج فروعها وضابط قواعدها ومطلق شواذها .

من مسلم لك بهذا حتى يسلم لك حق التصرف ( كما يتصرف المالك في

---

(١) الأهرام ، مايو ١٩٢٩ ( عبد الله حسين ) .

ملكه ) ،حتى يكون لك من هذا حق لإيجاد ما تسميه أنت مذهبك ولغتك .

لأهون عليك أن تولد ولادة جديدة فيكون لك عمر جديد تبتدىء فيه الأدب على حقه من قوة التحصيل وتستأنف دراسة اللغة بما يجعلك شيئاً فيها ـ من أن تلد مذهباً جديداً أو تبتدع لغة تسميها لغتك ، فإنك عمر واحد في عصر واحد بين ملايين من الأعمار في عصور متطاولة ، وإن ما تحدثه على خطأ لا يبقى على أنه صواب ولا يبقى أبداً إلا كما تبقى العلة على أنها علة فلا يقاس عليها أمر الصحيح ، ولا يحكم بها فيمن لم يقبل » .

## ٥

واجه الكثيرون هذه الحملة الماكرة على اللغة العربية تحت اسم بدعة إصلاح اللغة ، ومن ذلك ما كتبه الدكتور علي العناني تحت عنوان :

هل اللغة العربية في حاجة إلى الإصلاح : السؤال خادع بسوء النية .

قال : إصلاح اللغة ، يتناولها في طريقة كتابتها وفي تكوين ألفاظها ووصفها والتواضع عليها وفي تكييف تراكيبها وتنويع أساليبها وفي العقلية المدونة لها .

١ ـ أما الإصلاح في الألفاظ والتراكيب والأساليب فإنما يكون بتغيير قواعد أبنيتها ( الصرف ) وتحوير ضوابط إعرابها والأحوال العارضة على الألفاظ باختلاف الوضع في الجملة ( النحو ) وتبديل الوضع اللفظي في المفرد والمركب من حيث الحقيقة والمجاز والاستعارة والكناية ( البيان ) وبتغيير وإهمال ضوابط الفصاحة والبلاغة ( المعاني ) والتفنن الجديد في التنسيق اللفظي في المفردات والجمل ( البديع ) .

٢ ـ وإصلاح العقلية المدونة بالفعل في اللغة لو صح وأمكن إبرازه إلى حيز الوجود أن نستأصل منها كل هذه العقلية أو ناحية بعينها منها أو جملة نواح مجتمعة جديدة ، ويدعي بأن هذا الذي فرض فرضاً على العقلية

المدونة ووضع وضعاً مكان ما استؤصل منها وهو العقلية التاريخية المدونة بهذه اللغة منذ بدء نشأتها إلى آخر عهد الإصلاح .

٣ - إصلاح قواعد الصرف : إن إصلاح اللغة العربية في تكوين ألفاظها إنما هو التغيير في صيغ أبنيتها المتنوعة الصعبة كاختزال عدد المشتقات وتبسيط أنواعها بعدم تنوع الصيغ وتعددها وكتقليل أوزان الجامد وإلغاء ضوابط الإعلال والإبدال ، وإجراء الألفاظ في صورة بسيطة لا تؤثر فيها أنواع الإعلال وضروب الإبدال وكاختزال علامة النسب في صورها العديدة إلى حرف واحد يلحق الكلمة مع الاحتفاظ بصورتها الأصلية . ومعنى هذا وغيره وإن كان في الواقع يعد انتقالاً من الصعب إلى السهل أننا نهدم علم الصرف من أساسه وننسخه نسخاً تاماً لتعدد قواعده وتنوع ضوابطه وتفرع صوره وثقله على العقل والفكر وصعوبته على الذهن والفهم كما يظن .

وبعد أن يتم الهدم يبني المصلحون على أنقاضه صرفاً جديداً محدود القواعد قليل التنويع خفيفاً على العقل والفكر سهلاً على الذهن والفهم .

٤ - إصلاح قواعد النحو : يقولون : الإعراب ثقيل وتعدد حركات البناء أثقل وتنوع اسم الموصول صعوبة ليس بعدها صعوبة وصرف الكلمات ومنعها من الصرف تعسف ، واللغات تؤدي كل المعاني على تنوعها بدقة بدون إعراب أفلا يمكن أن تكون أواخر الكلمات في اللغة العربية ساكنة لابناء ولا إعراب فيها تأسياً بتلك اللغات المتحللة من ثقل البناء والإعراب ؟ أفلا يمكن أن يتخذ لاسم الإشارة صيغة واحدة يتواضع عليها للواحد والمثنى والجمع في المذكر والمؤنث والقريب والبعيد؟وأن نفعل مثل ذلك في الاسم الموصول فنرده إلى كلمة واحدة شاملة؟

وأن نرد قواعد النحو الكثيرة المتشعبة إلى أصول وجيزة سهلة جامعة كما هو الشأن في نحو بعض اللغات السامية ؟

٥ - الإصلاح في علوم البلاغة : يدعي مدع أن من الإسراف في اللغة العربية والتعقيد في فهم معاني ألفاظها وجود كلمات متضادة المعنى وأن من الإسراف والتعقيد في فهم معاني الألفاظ أيضاً وجود الكلمات الكثيرة المترادفة في دلالتها على منهج واحد كأسماء الليث والسيف والكلب وغيرها من الكلمات مع عجز هذه اللغة عن أن تضم إليها عدداً من المفردات لمعان موجودة فيها بالفعل ، وكان من جراء ذلك أن اضطرت آخر الأمر إلى استعمال اللفظ الواحد في مدلولات مشتركة مثل العين في الباصرة والجارية وغيرهما . ومن الإسراف أيضاً ازدحام اللغة بتلك الكلمات العديدة والمترادفة من عجز اللغة عن التعبير عن آلاف المعاني ، وقد نتج عن ذلك بحكم الضرورة أن لجأ أصحابها إلى استعمال المجاز والاستعارة والكناية .

كذلك الدعوة إلى تحرير اللغة من نكتة المجاز وفوضى الاستعارة وخفاء الكتابة فيها بأن يختصر المتكلمون بها على الدلالة الواقعة الصريحة بمعنى تعويض علم البيان الجدير بأن يسمى علم الخفاء .

٦ - إن الإصلاح في اللغة = التغيير بمعنى الإزالة والوضع ، وكل تغيير لا يكون بهذين العاملين معاً لا يسمى إصلاحاً وإنما هو شيء آخر ، ومعنى هذا : نسخ العقلية العربية وما فيها من ثقافة نظرية وعملية .

* * *

ويصل الدكتور علي العناني إلى القول بأن الإصلاح في اللغة العربية غير جائز ، سواء في طريقة الكتابة أو قواعد الصرف ، أو ضوابط النحو ، أو علوم البلاغة أو العقلية المدونة في لغة العرب .

وإن ذلك كله يرجع إلى طبيعة النواميس الاجتماعية وروح الدين الحنيف ،

وشرط الإصلاح أن لا يخرج عن مدونات أدبنا العربي وعلومنا الإسلامية وأسفار حياتنا العقلية على العموم وينبوعها الأول المقدس هو الكتاب العربي المبين بنوع خاص .

ثم خلص الباحث إلى النتائج الآتية :

( أولاً ) إن تغيير قواعد اللغة العربية صرفاً ونحواً بالوضع فقط أو بالوضع والإزالة معناه إحداث لغة جديدة بقواعد جديدة وهذه اللغة العربية الجديدة إن صح اتصالها بالعربية الحالية المعروفة اتصال اللهجة بالأم فإنها تبعد عنها شيئاً فشيئاً حتى تختفي معالم الصلات بينهما أو تكاد .

عندئذ تكون اللغة العربية الحالية من اللغات الميتة ، وماذا يكون الأمر في حياتنا العقلية المدونة ومدنيتنا العربية وديننا العربي الإسلامي إذا تم هذا « الإصلاح » ؟

تصير المدنية الإسلامية والحضارة والأدب العربي والعقيدة والشريعة بمعزل عنا في لغتنا العربية الأصيلة . ولم يبق لنا إلا أن ندرسها في لغتنا الجديدة كما تدرس الآن مدنية قدماء المصريين نقلاً عن الهيروغليفية .

وإذا صح أن ننقل التراث العلمي الأدبي القديم إلى اللغة العربية بعد تغيير قواعدها فماذا نصنع في شأن : « التنزيل » : الكتاب العربي المبين وحديث الرسول وبأسلوبهما ووصفهما وضعت القواعد العربية ، فإذا تغيرت القواعد فبماذا نعرف القرآن والحديث وبأي كيفية نستنتج منهما أحكام الدين عقيدة وشريعة .

إن إصلاح قواعد اللغة (نحواً وصرفاً) معناه خلق لغة جديدة غير لغة القرآن والحديث وغير لغة الشعر المروي والنثر المهذب ، وغير لغة العقلية العربية الإسلامية في العموم ، وفي كم جيل يتم لنا نقل العقلية العربية الإسلامية إلى اللغة الجديدة . وفي كم جيل نتمكن من ترجمة العقلية الإنسانية العامة إلى هذه اللغة ؟

(ثانياً) إن قواعد اللغة العربية وضعت طبقاً لنصوص القرآن والحديث والمسموع عن العرب ، فالتغيير في هذه القواعد هجر للقرآن والحديث والمسموع ، ومحال أيضاً أن نهجر لغة حية كانت لها السيادة العقلية العالمية قروناً طويلة ونخلق لنا رطانة جديدة في قواعد ساذجة خالية من كل مجهود عقلي وبعيدة كل البعد عن معنى الإصلاح .

ومن ذلك فإن القول بإصلاح اللغة العربية ظاهرة من ظواهر الانحلال القومي وفتنة في الدين .

(ثالثاً) لا تقبل اللغة العربية إصلاح قواعدها بالإزالة والوضع فيها ، أو الوضع فقط ، لأن هذا التغيير يخرجها عن لغة القرآن والحديث والأدب العربي والعقلية العربية الدينية والفلسفية والعلمية .

ومحال أن نرضى بلغة القرآن لغة أخرى يدفعنا إليها المبشرون من وراء حجاب ويزينها لنا أعداء العرب والعربية والإسلام .

(رابعاً) كل ما تقرر في شأن إصلاح قواعد الصرف وضوابط النحو من حيث عدم مساسها بأي تغيير ، يسري بالطبع على مسائل علوم البلاغة ، ومن هنا خطر التغيير في قواعد البلاغة وإصلاحها بالإزالة أو الوضع .

(خامساً) بالنسبة للشريعة الإسلامية ذاتها ؛ الدين الإسلامي وهو عقيدة وشريعة قد استنبطت أحكامه فيما يختص بالعقيدة والتشريع في العبادات والمعاملات من الكتاب والسنّة وعمل الرسول والقياس والاجتهاد ، وكل هذه الأركان والينابيع لا يمكن أن يستنبط منها حكم إلاّ بوساطة مبادىء خاصة وقوانين معروفة بعلم الأصول .

وأساس هذه المبادىء والقوانين الراسخ أو دعائم علم الأصول إنما هي فهم لغة العرب : لغة القرآن والرسول بما وضع لها من القواعد الصرفية والنحوية وضوابط علوم البلاغة ، وإذا صلحت هذه الضوابط وتلك القواعد

بالإزالة والوضع ، انهدم أساس علم الأصول ، وتداعت دعائمه ، وإذا انهدم الأساس وتداعت الدعائم انهدم أيضاً ما يرتكن عليها وهو هذا العلم .

وإذا وصل هذا العلم الأساسي في استنباط أحكام العقيدة ومسائل الشريعة إلى التداعي تداعت معه أيضاً طريقة الاستنباط وفهم ما استنبط ودون بالفعل ، وضاعت العقيدة واحتجبت الشريعة وعدنا إلى الجاهلية الأولى .

(سادساً) العقلية العربية : ليس من الممكن عقلاً أن تكون العقلية المدونة في لغة حتى الآن أو أي عقلية أخرى في أية لغة من اللغات خاضعة لناموس الإصلاح بمعنى التغيير بالإزالة والوضع . وإنما هي ككل العقليات متأثرة طبعاً بنواميس الرقي والإحياء والإنهاض والتهذيب والتجديد والفتور والركود والإجداب والفناء .

وتنتقل العقلية بأي مؤثر من هذه المؤثرات إلى طور جديد آخر ، ونحن إذا أردنا أن نصلح هذه العقلية المدونة هجوماً فيها بأن نزيل كل هذه من بطون الأسفار ونضع الضد فهل يمكن أن يكون هذا العمل ميسوراً أو ممكناً على الأقل .

وإذا تيسر بالنسبة إلى مؤلفات اللغة العربية فهل يكون ميسوراً أو ممكناً بالنسبة إلى مدونات اللغات الحية الأخرى ، التي نقلت إليها عقلية اللغة العربية بما فيها من خير وشر .

نستنتج من كل ما تقرر :

أن العقلية العربية المدونة ليست محلاً مطلقاً للإصلاح بالإزالة والوضع بالطبيعة . أما العقلية المتجددة فهي خاضعة بطبيعتها لناموس الإصلاح وعوامل التغييرات الأخرى ، والإصلاح الذي يتناولها إنما هو أثر التجارب التي تمر بها .

وخير طريق للنهوض أن يعمد الناهضون إلى نقل المجهود العقلي الإنساني في جميع أدواره قديماً وحديثاً إلى لغتهم مع الاستمرار في تجديده ورقيه

والاحتفاظ بالمثل الأعلى الذي تتجلى فيه قومية الأمة وعظمتها

(سابعاً) لنفترض أن قواعد الصرف من الصعوبة والثقل ، ولكن لأسباب جوهرية حكمنا بخطر الإصلاح فيها .

إن جميع صور الصعوبة ليس في الواقع صعوبة بمعناها الثقيل ، وإنما تلك الصور وأمثالها « ضرورة » من ضرورات الكشف والإيضاح في اللغة العربية الواسعة في مادتها الغزيرة الناضجة في تكوينها .

كما أن فنون البلاغة مرجعها الذوق والشعور ولا تحكم بذوق جيل من الأجيال أو بيئة من البيئات دون جيل آخر وبيئة أخرى .

وخلاصة ذلك :

* ان الإصلاح في أبنية الألفاظ وأحوال الإعراب وكيفية وضع الألفاظ وأساليب التركيب غير جائز بالفعل لأسباب ترجع إلى القومية العربية العامة والأدب العربي والحياة العقلية وطبيعة اللغة العربية نفسها .

* اصلاح العقلية المدونة مستحيل بطبيعته ، وبناء على ذلك لا يدخل تحت حكم الحظر أو الجواز ، أما العقلية المتجددة فإنها محل الأصل ، وحكمها الجواز بل الوجوب الأدبي » (١) .

---

(١) مجلة النهضة الفكرية م ١٩٣٣ .

# الفصل الثاني

## اللغة والتعليم

بدأت حرب اللغة العربية في التعليم منذ اليوم الأول للاحتلال في كل أقطار العالم الإسلامي ، أما في مصر فقد تم التخطيط لذلك عن جدارة وكفاية ، فقد كان التعليم هو الوسيلة الأولى للقضاء على اللغة العربية بتغليب لغة المحتل ، ثم امتدت إلى الدواوين والشركات والمحاكم .

وفي الفترة الأولى عمد « دنلوب » إلى تصفية المناهج الدراسية من آثار الفصاحة والبيان ومن مفاهيم الإسلام وآثاره في كتب المطالعة ، فلما تقدم الاستعمار خطوة نحو احتواء المصريين أنفسهم ليكونوا يده العاملة ، عين سعد زغلول (ناظراً) للمعارف في أكتوبر ١٩٠٦ فمضى في تنفيذ مخطط الاستعمار الذي كان دوفرن قد وضعه عام ١٨٨٢ والذي ينص على ما يأتي :

« إن الأمل في نجاح تهذيب العامة في مصر لا يزال ضعيفاً ما دام الصبيان لا يتعلمون اللغة العربية بدلاً من تعلمهم لغة القرآن الشريف كما يفعلون الآن ، فإن نسبة العامية إلى الفصحى في اللغة العربية هي كنسبة اللغة الإيطالية الحديثة إلى اللغة اللاتينية القديمة » .

ولما ارتفعت الأصوات بالمطالبة بإقرار اللغة العربية لغة أولى للتعليم عارض ذلك ناظر المعارف .

تقول الأهرام في ٤ مارس ١٩٠٧ :

بدأت المناقشة ( في الجمعية التشريعية ) بين الحكومة والجمعية على تلقين العلوم باللغة العربية فدامت نحو ساعتين لأن سعادة ناظر المعارف انبرى للجدال وإقناع الجمعية بأن ذلك فوق الإمكان الآن ، لأنه ليس في البلاد معلمون يستطيعون القيام بهذه المهمة ، وليس في اللغة العربية كتب تشتمل على هذه العلوم ، وليس بالإمكان إيجاد ذلك سريعاً حتى يجاب طلب الجمعية والتعليم بالعربية أمنية ولكن . . .

وقال سعد زغلول : « إذا كنتم توافقون على الاقتراح المقدم لكم عن تعلم العلوم باللغة العربية كنتم كمن يحاول الصعود إلى السماء بغير سلم .

وقد رد يوسف صاحب ( المؤيد ) على سعد زغلول فقال : « إن مافعلته نظارة المعارف من نسخ التعليم باللغة العربية وجعله باللغات الأجنبية لم يكن لحاجة البلاد وليس سببه إقبال الأمة على المدارس التي كانت تعلم باللغات الأجنبية كما يقول ناظر المعارف بل الأولى أن يقال إن إقبالها على مثل مدارس الجزويت والفرير كان منشوءه ضعف التعليم من حيث هو في مدارس الحكومة .

هذا وقد وافق المجلس على التعليم باللغة العربية ، غير أن ناظر المعارف وضع عبارة مآلها أنه لا يمكن تنفيذ المشروع الآن للصعوبات الموجودة » .

وقد هاجمت كبريات الصحف الوطنية سعد زغلول واتجاهه ولم تدافع عنه إلاّ صحف الاستعمار .

وكانت من نتائج ذلك حركة سنة ١٩٠٧ المعروفة التي قادتها دار العلوم .

## ٢

حيث تألفت جماعة من الأدباء لخدمة اللغة العربية وتوالت اجتماعاتها تمهيداً لعقد موٌتمرها الكبير في ٣٠ يناير ١٩٠٨ حيث تكلم عديد من الأعلام

في مقدمتهم الشيخ محمد الجفري وأحمد الاسكندري وأحمد فتحي زغلول وأحمد زكي وحفني ناصف ، وانتهى الأمر إلى اتخاذ قرار في ٢٠ فبراير ١٩٠٨ في موضوع تسمية المسميات الحديثة وقرر نادي دار العلوم أن يكون العمل قائماً على البحث في اللغة العربية عن أسماء المسميات الحديثة بأي طريق من الطرق الجائزة لغة ، فإذا لم يتيسر ذلك بعد البحث الشديد يستعار اللفظ الأجنبي بعد صقله ووضعه على مناهج اللغة العربية . ويستعمل في اللغة الفصحى بعد أن يعده المجمع الذي سيؤلف لهذا الغرض ، ثم أعلن نادي دار العلوم أنه أعد على هيئة مجمع برئاسة حفني ناصف .

* * *

وقد تجددت الدعوة إلى عقد مجمع للغة العربية عام ١٩١٧ وكان حفني ناصف في مقدمة الداعين له وقد انضم له أحمد كمال باشا وإسماعيل رأفت وعلي بهجت وأحمد عيسى وأمين واصف وأحمد تيمور وأحمد زكي ولطفي السيد وعبد العزيز فهمي وأقر قانون بوضع معجم واف بحاجة الزمن شامل اصطلاحات العلوم والفنون والصناعات ...

وفي أواخر عام ١٩١٩ اجتمع جمهور من أئمة اللغة وصفوة كتاب الصحف في مصر في دار إسماعيل عاصم وكان بينهم عدلي يكن وزير المعارف إذ ذاك . وقد تم عقد بضع وعشرين جلسة وتولى رئاسة المجمع الأستاذ سليم البشري شيخ الأزهر ثم الشيخ أبو الفضل الخيراوي .

وقد نصّ قانون المجمع على أن للمجمع أن يزيد في اللغة للضرورة ، ويراعي في الزيادة دفع الحرج فيستبدل بالكلمة العامية أو الأعجمية التي لم تعرب قبل غيرها من الألفاظ العربية الموضوعة للدلالة على معناها ، فإذا لم يهتد المجمع إلى كلمة عربية أقر الكلمة العامية أو عرب الكلمة الإفرنجية ، ويكون وضع الكلمات بطريق المجاز أو الاشتقاق أو النحت .

وفي عام ١٩٢١ عقد المجمع اللغوي الثاني برئاسة عطوفة إدريس راغب بك وضم إلى الأعضاء السابقين أسماء :

سيد علي المرصفي ، وعبد المحسن الكاظمي ، والشيخ محمد بخيت والمنفلوطي ومحمد المهدي وإبراهيم رمزي وعبد الفتاح صبري وحافظ إبراهيم وعبد العزيز البشري ومصطفى عبد الرازق ونور الدين مصطفى وأحمد العوامري وصالح جودت وأنطون الجميل ومنصور فهمي والعناني وأحمد ضيف وطه حسين واميل زيدان وعبد الفتاح عبارة .

## ٣

وبعد انتهاء الحرب العالمية الأولى تجددت كذلك الدعوة إلى التعليم باللغة العربية وخاصة في كلية الطب ، وقد حمل لواء هذه الدعوة رجال الحزب الوطني وصحفه .

وقد أشارت (اللواء) في ١٠ يوليو ١٩٢٢ إلى ما أسمته النزاع القائم في مصر بين أنصار التعليم باللغة الإنجليزية وأنصار التعليم باللغة العربية وقالت إنه « نزاع بين قضيتين كبيرتين وسياستين متناقضتين : هما سياسة الحكم الأجنبي وسياسة الحكم الأهلي ، وكل ما يقال في تبرير التعليم باللغة الأجنبية ليس إلاّ نذيراً في الواقع لبقاء النفوذ الأجنبي في البلاد ، يدلك على ذلك الاهتمام العظيم الذي علقه الموظفون البريطانيون في مصر على استبدال اللغة الانجليزية كأداة للتعليم باللغة العربية في كل مدارسنا الابتدائية والثانوية ، ذلك الاستبدال الذي اعتبر بحق أعظم انتصارات الوطنية المصرية بجهادها الطويل .

« نحن نريد أن تكون لغتنا العربية أداة التعليم بكل أنواعه لأن اللغة أعظم مظاهر القومية ولأننا نبغي الاستقلال الفكري كما نبغي الاستقلال السياسي ،

ولا سبيل إلى الاستقلال الفكري إلاّ بالاستقلال اللغوي الذي هو عنوانه ومظهره الأكبر ، وتاريخ القوميات الناهضة في أنحاء العالم أقر أن اللغات الأهلية قامت بهذا النهوض .

وقد وجه أحمد وفيق ردوداً حاسمة إلى الاعتراضات التي وجهت إلى اللغة العربية في مواجهة قرار مجلس المعارف الأعلى الذي صدر في أكتوبر ١٩٢٢ ، والذي يقضي بأن يبدأ تعليم العلوم الطبيعية باللغة العربية ، وأن يستعاض بها عن الانجليزية سنة بعد أخرى .

قال : ذكرنا ذلك بعام ١٨٨٩ الذي كان مبدأ الهدم الحقيقي للغة البلاد ، عمل الإنجليز على محو لغة البلاد وفي عام ١٨٨٩ انتهى وزير المعارف بالتسليم لهم

ولكن الأمة أرادت أن تقاوم العدوان وأن تعيد للبلاد سيرتها الأولى حيث تتلقى العلم باللغة العربية ، فقامت الجمعية العمومية ١٩٠٧ بمطالبة الحكومة بإعادة التعليم بها ، غير أن السياسة تمكنت وقتها من انتحال المعاذير .

وقد أوجدت السياسة طريقة جهنمية تحقق أغراضها وهي تدريس العلوم البشرية بواسطة أساتذة إنجليز يضم إليهم مصريون .

وهم يحتجون بالكتب فبئس الاحتجاج ، ألم يدروا أن تاريخ البلاد حافل بمن درسوا علوم الطب باللغة العربية ؟ ألم يدروا أن عثمان غالب باشا كان يدرس علم النبات ومحمد علي باشا علم الإكلينيك وسالم باشا الباتولوجيا الداخلية وعوف باشا الرمد وحسن هاشم بك الولادة وعبد السميع أفندي علم قانون الصحة والطب الشرعي وبدوي أفندي علم المادة الطبية ، وعبد الرحمن الحصاوي علم الفسيولوجيا ، وأحمد حمدي الجراحة ، وعلي رياض علم تحضير المواد الطبية وزينب أفندي وجليلة أفندي الجراحة الصغرى وأمراض النساء ؟ وفي كلية الحقوق تدرس المرافعات وتحقيق الجنايات وعلم العقوبات باللغة العربية ، ألم يقم عمر لطفي بك وقمحة بك وأبو هيف بك ونشأت بك

وأحمد أمين بك وعبد الحميد بدوي بك والغزالي بك بتدريس تلك العلوم ؟

ويذكر في هذا المجال الدكتور حسين الهراوي ( فقد أنشأ المجلة الطبية ) وعاونه كثير من أساتذة مدرسة الطب لترجمة الكلمات والمصطلحات الطبية العربية الصالحة وقد اتفق مع الشيخ حمزة فتح الله وبعض الثقات في اللغة العربية . وممن عملوا معه فيها علي إبراهيم وسليمان غربي وأحمد عيسى ومحمد عبد الحميد وكلهم من الأطباء الأعلام الذين عرفوا من بعد في مجال الطب والعلم .

## ٤

يقول وليم جيفور دبلجراف :

« متى توارى القرآن ومدنية مكة عن بلاد العرب يمكننا حينئذ أن نرى العربي يتدرج في سبيل الحضارة التي لم يبعده عنها إلاّ محمد وكتابه .

ولا يمكن أن يتوارى القرآن حتى تتوارى لغته » .

ومن هنا كانت نقطة الانطلاق إلى أن اقصاء القرآن إنما يتم عن طريق وسائل التعليم ومن ثم فإنه منذ ذلك اليوم وقد مضت الخطة مرحلة بعد مرحلة خرجت أجيال قاصرة في فهم اللغة قصوراً كبيراً بعد أن أبعد القرآن من طريق دراساتها الأولى تلاوة وحفظاً .

وقد خلق دنلوب في وزارة المعارف شعاراً لعله لم يتعثر كثيراً : هو احتقار اللغة العربية والقائمين عليها وخاصة رجال الأزهر . ومن ثم كانت تلك الحملة الشديدة على اللغة العربية وابتداع السخريات والفكاهات حول المحافظين على اللغة والدعاة إليها ، ومن ذلك ما وجه إلى الشيخ حمزة فتح الله، وقد كانت المجلات الساخرة تفيض فيه وتحاول أن تصوره مضروباً في نقطة

بوليس وهو يتحدث بالفصحى أو داخلاً في معركة مع حوذي وهكذا . . .

كما أثار دنلوب ورجاله ومن بعده عدد كبير من المثقفين حملة على ما يطلق عليه بالفقيه أي الرجل المعمم ، وظلت دعوى الهجوم على الرجل الأزهري من ناحية اللغة والفقه ، وهي محاولة الهجوم على الإسلام والفصحى : لغة القرآن .

## ٥

وقد دافع كثيرون عن تعليم العلوم في الجامعة باللغة العربية ومن هؤلاء زكي مبارك الذي دعا إلى أن تصير اللغة العربية لغة الدرس في كلية الطب وكلية العلوم ، كذلك هاجم الشيخ محمود أبو العيون فكرة استيراد علماء أجانب ليدرسوا اللغة العربية في الجامعة المصرية ، وكان طه حسين قد دعا بعض المستشرقين لهذا الغرض في صيف ١٩٣٣ ، وقال إن مجلس الجامعة قد اتخذ قراراً باستقدام علماء أجانب لتدريس فقه اللغة العربية في الجامعة المصرية ، واستقدم فعلاً المستشرق كازنوفا الفرنسي . وكتب الشيخ محمود أبو العيون يقول : إن في علماء مصر الغناء والكفاية وفوق الكفاية ، وقد أصبحنا في بيئة أغرق أهلها في تقليد الإجانب إغراقاً ، وأغرموا بالمدنية الغربية ، وتنازلوا ، طوعاً عن مشخصاتهم الثلاثة : اللغة والدين والعادات والتي لا تشخص الأمة إلا بها .

وقال إن عندنا : سيد علي المرصفي وحسين والي وأحمد تيمور والمهدي زيكو وحسن السكندري ومصطفى العناني وعلام سلامة ومحمد عبد المطلب ومحمد شريف ومحمد الغمراوي والعمراوي وعبد العزيز جاويش والبشري وحسن نجاتي وأصناف : أفليس عجيباً أن يكون فينا مثل أولئك ثم نؤثر عليهم مستشرقاً يدرس أصول اللغة العربية في جامعة عربية لغير ضرورة ؟

# ٦

ولقد كانت للغة العربية وقفة تاريخية في المحاكم المختلطة فقد قدم عام ١٩٣٤ المستشار عبد السلام ذهني لأول مرة في تاريخ هذه المحاكم منذ إنشائها أحكاماً باللغة العربية وامتنع رئيس الدائرة السويسري (هوربيه) عن النطق بها ، وقد أثار هذا الحادث ضجة كبرى في دوائر الاستعمار الفرنسي والبريطاني ، فقد ظلت اللغة العربية غير معترف بها منذ إنشاء المحاكم المختلطة عام ١٨٧٦ مع أن قانون هذه المحاكم ينص على جواز صدور الأحكام فيها باللغة العربية كان عملاً مخجلاً بوصفها لغة البلاد الرسمية .

قال عبد السلام ذهني : لم يدفعني إلى عملي غير ضميري وواجبي ، ويكفي أن يكون من بين الأسباب التي تدفعني إلى تدوين هذه الأحكام باللغة العربية أنني أحيي هذه اللغة التي عدت في المحاكم المختلطة وكأنها ميتة لا وجود لها وأنا أريد أن تكون لغتنا القومية موجودة وهي أحق من غيرها بالشيوع والاستعمال » .

وقد تبعت هذه المعركة في مصر معركة أخرى حول الكتابة باللغة العربية في الشركات والبنوك واللافتات ، فقد حملت الصحف على أثر هذه المعركة على اللغات الأجنبية التي تكتب بها مصالح الحكومة والشركات وأشارت كذلك إلى أن المصارف والشركات الأجنبية تقدم لعملائها المصريين كشوف الحسابات والعقود باللغة الأجنبية ، كذلك أشارت الصحف إلى أن وزارة المالية (المصرية) تقدم بياناتها الإحصائية بلغة أجنبية .

ودعت هذه الحملة إلى المطالبة بالاحتفاظ بأعظم مظهر من مظاهر القومية ، وهو اللغة العربية لغة البلاد الرسمية وقد تحقق في عام ١٩٤١ بنص على أن تمسك دور الأعمال في مصر حساباتها باللغة العربية وأن تكون جميع مكاتباتها الخاصة والتزاماتها بهذه اللغة .

# الفصل الثالث

## الشبهات المثارة حول أصالة اللغة العربية

بدأت معركة العامية على أيدي الغربيين الذين جندوا أنفسهم لحمل لواء الدعوة إليها وتكوين جيل من أبنائها لمتابعتهم على الطريق .

وقد بدأت الدعوة من نقطة واحدة أشار إليها تقرير اللورد دوفرين ، وأكدها كرومر ، وتابعها دنلوب وهي نقطة القرآن . وكان رئيس وزراء بريطانيا ( غلادسون ) قد حمل المصحف في مجلس العموم البريطاني وأشار بأن الانجليز لا يستطيعون البقاء في الأرض طالما يوجد هذا الكتاب ، ومن هذه النقطة قال كرومر إن الارتقاء في مصر والعالم الإسلامي يبدأ من اختفاء القرآن والكعبة .

وكانت الخطة لتحقيق ذلك تتركز في القضاء على اللغة الفصحى : لغة القرآن وإحلال العاميات المختلفة في كل بلد عربي بديلاً لها وبذلك تذهب الفصحى إلى المتحف كما ذهبت اللغة اللاتينية .

وقد كانت محاولات المستشرقين منصبة على محاولة إيجاد تراث للعامية

يؤهلها للادعاء بأنها لغة وليست لهجة ومن هنا كان حرص الكثيرين على جمع الأمثال والأزجال والكلمات المختلفة ومحاولة تشكيل أبجدية لها وأجرومية أيضاً .

وظل ويلكوكس يعمل منذ اليوم الأول حتى اليوم الأخير في سبيل الغاية ، وكان ختام أعماله رسالة نشرها عام ١٩٢٦ حاول فيها أن يفترض أن سوريا ومصر وشمال أفريقيا وإيطاليا كانت تتكلم قبل الإسلام البونية لا العربية .

كما زعم أن اللغة البونية التي هي أساس لغة الحديث عندنا لا صلة لها بالعربية الفصحى فقد دخلت مصر قبل أن تدخلها الفصحى بألف عام .

وكان هدف ويلكوكس من ذلك أن تصبح العامية لغة خاصة . ثم جاء بعد ذلك جيل تابع المستشرقين في مقدمتهم : لطفي السيد وقاسم أمين وسلامة موسى والخوري مارون غصن ومحمود تيمور .

ثم توالت أفواج الدعاة ممثلة في رجال احتضنتهم مجامع اللغة العربية ، وكانوا حرباً على اللغة العربية ثم أصبحوا قادة هذه المجامع ورؤساءها .

ثم جاء دعاة يعلنون أنهم يطالبون بكسر جوهر اللغة ويدعون إلى لغة وسطى حتى لا يكتب بلغة القرآن أي صاحب قلم ، وتنحصر الفصحى في شعائر الدين والصلاة ويتصل بهذا ما دعا إليه البعض من ترجمة القرآن إلى العامية .

## ٢

إن جميع المحاولات التي جرت في سبيل إعلاء العامية قد باءت بالفشل : عجزت العامية أن تستوعب العقل العربي والنفس الاسلامية ، وأكدت أنها لا تستطيع أن تصل إلى أعماق القلوب أو ترضي الأذواق العالية أوتعالج الموضوعات الدقيقة ، كذلك من الناحية الأخرى عجزت المحاولات التي

وجهت إلى الفصحى باتهامها بالجمود أو الصعوبة ، أو عدم القدرة على استيعاب المصطلحات العلمية .

وقد عمدت حركة العامية إلى خلق جو عام وذلك بنشر عديد من كتب الأزجال والمواويل والقصص العامية ، والأحدوثات ، والأغاني الشعبية ، ولكن ذلك كله كان كالهشيم لم يلبث أن انطوى .

ثم جرت المحاولة إلى ترجمة الإنجيل إلى العامية على النحو الذي حاوله ويلكوكس ، غير أن المحاولة لم تجد تقبلاً من المسيحيين .

ثم جرت المحاولة إلى تضمين القصص والكتابات العربية كلمات توراتية كما حاول ذلك المازني وجبران ونعيمة .

وقد تلاشى ذلك كله ولم يجد أي صدى في النفوس .

بل لقد وجهت الدعوة إلى بعض الكتاب للكتابة بالعامية ، ففضح هؤلاء الكتاب قصد الدعاة ، وقد أشار مصطفى صادق الرافعي إلى أن إحدى الصحف الأمريكية اقترحت عليه أن يترك الجملة القرآنية وإن ذلك من شأنه أن يكسبه شهرة كبرى :

ولقد ذهب دعاة العامية إلى آخر الشوط في العجز أنهم لم يستطيعوا أن يدافعوا عن حركتهم إلاّ باللغة الفصحى وعجزوا عن أن يتقدموا إلى الناس بكتابات عامية ، ومن حاول ذلك وجد سخرية وانتقاصاً كشف من عورته .

« إن دعاة اللهجة العامية في الكلمة المقروءة الذين أثاروها حرباً مقدسة ضد الفصحى أو ضد اللسان العربي المبين الذي هو لغة القرآن الكريم قد خسروا حربهم مع الجولة الأولى ، بل إنهم لم يستطيعوا أن يستخدموا في معركتهم ذلك السلاح المفلول فلجأوا إلى الفصحى في ذيادهم عن العامية المتهالكة » .

بل إن المقارنات التي عقدت لمقارنة اللغة العربية باللغة اللاتينية وجدت

من الحقائق التاريخية ما يدفعها ويردها في قوة .

كذلك فإن إثارة شبهة التناقض بين لغة الكلام ولغة الكتابة كانت زائفة بدليل بسيط هو أن جميع لغات العالم فيها لغة للكلام ولغة للكتابة ، ولما دعا لطفي السيد إلى إحياء الفصحى باستعمال العامية وتابعه في ذلك أمين الخولي سخر منهما المثقفون سخرية مرة وكشفوا زيفهما وعوارهما .

ولقد تطاول الزمن بالدعوات إلى العامية منذ دعوة ويلكوكس ، جيلا بعد جيل ، دون توقف ، في أساليب ومحاولات ودعوات لم تذهب يوماً مذهب العلم أو الأصالة أو الإصلاح ، وإنما حملت معها الأهواء والشبهات والأغراض الضالة المضلة .

## ٣

كشف الباحثون عن مخطط حرب اللغة العربية عن محاذير متعددة :

( أولاً ) إلغاء اللغة الفصحى وحصرها بالجوامع كما تحصر السريانية في الكنائس والاستعاضة عنها باللغة العامية الدارجة .

وهو أمر لم يمكن تحقيقه .

والذين يعتنقون هذه الفكرة يوهمون الناشئين وغيرهم أنه ليس في الغرب لغة عامية دارجة ، بل يكتب الغربيون ما ينطقون به ، وهذا خطأ متعمد ، ذلك لأن لكل من اللغات الغربية أكثر من لهجة عامية فضلاً عن الفصحى ، والمعروف أن عامة الشعب يتفاهم باللهجة الدارجة والعلماء والشعراء والكتاب وسائر المؤلفين هم الذين يكتبون بالفصحى .

وقد أورد الأستاذ ساطع الحصري في هذا الشأن صورة دقيقة لذلك في كتابه في اللغة والأدب .

(ثانياً) إلغاء الحرف العربي والاستعاضة عنه بالحرف اللاتيني تقليداً لما فعله الأتراك . وهي دعوى جريئة تقدم بها بعض المستشرقين ثم تابعهم فيها فريق من خصوم اللغة العربية وأعدائها ثم تورط فيها قاض كبير هو عبد العزيز فهمي .

وقد واجه القاضي الكبير معارضة ضخمة وفصلت آراؤه ورد عليها وكشف عن زيف هذه الدعوى .

وليس أدل على فساد دعوى كتابة اللغة العربية بالحرف اللاتيني من أن بعض الباحثين الغربيين عارض هذا الاتجاه ، وفي مقدمتهم سير إدورد بنسون مدير مدرسة اللغات الشرقية في لندن الذي أدلى بتصريح قال فيه :

حذار من هذا (أي من استعمال الحروف اللاتينية في كتابة اللغة العربية) لأن الحروف العربية هي حروف لغة القرآنو إذا مسستم الحروف العربية مسستم القرآن بل هدمتهم صرح وحدة الإسلام . إن الإسلام أساسه اللغة العربية فإذ ضاعت ضاع الإسلام .

كما أشار إلى هذ المعنى (كارلو نلينو) حين قال :

قامت الحكومة الكمالية منذ سنوات بانقلاب خطير إذ اختارت الحروف اللاتينية بدلاً من الحروف العربية في الكتابة التركية ، وهذا ما لا أرى له مبرراً في نظري على الإطلاق في اللغة العربية ، وما يقال من كتابة العربية بالحروف اللاتينية فهذا ما لا أراه ولا أقول به ، فالحروف العربية ضرورة لازمة لا يمكن العدول عنها . والحقيقة أن الخط العربي حفظ للآن وحدة اللغة اللغة العربية ، وإن كان النطق يختلف من قطر إلى قطر . أما الحروف اللاتينية فهي مبنية على أساس أن صوت الحرف واحد غير متبدل أما في العربية فهناك أصوات لكل حرف ولا سيما فيما يختص بالحركات .

وإذا تغير الخط العربي بالخط اللاتيني أصبحت النتيجة خطيرة للغاية ،

فكيف يكون مصير الكنوز العظيمة التي خلفتها الآداب الإسلامية في الدين والفقه والفلسفة والعلوم والآداب والفنون وكلها مدونة بالخط العربي .

(ثالثاً) دعوى صعوبة اللغة .

وهي دعوى باطلة أريد بها التشكيك في قدرة اللغة العربية على الأداء .

وقد أجاب الكثيرون بأن اللغات الأوربية بالنسبة للغة العربية أشد صعوبة : واللغة الألمانية أصعب من اللغة العربية وإعرابها أشد من إعراب اللغة العربية ، ومع ذلك فإن هذه اللغة تتكلمها دولتان هما ألمانيا والنمسا ونحو الثلثين من سويسرا ، ولم يفكر أحد منهم في تسهيلها بترك الإعراب ، ولا يتبرم أحد بهذه اللغة بل يحبونها ويفخرون بها ، والعاميات عندهم محرم أن تدخل المدرسة من الابتدائية إلى الجامعة ومحرم أن تدخل المحكمة أو البريد أو الصحافة أو الإذاعة .

وصعوبة اللغة إنما يرجع إلى عدم التكلم بها وعدم سماعها منذ القرن الثالث الهجري إلى اليوم فضلاً عن الأساتذة والمدرسين في الجامعات الذين يتكلمون العامية .

وإذا راجعنا أمر اللغات الأوربية وجدنا فيها إعراباً وتصريفاً وثلاث أدوات للتعريف ومثلها للتنكير وجموع تكسير وغالب هذه الأمور خارجة عن القياس ولا تدرك إلا بالحفظ .

(رابعاً) الاهتمام بدراسة اللهجات

وهذه محاولة خطيرة شجع عليها الغزو الفكري ووضعها موضع المسائل العلمية ؛

يقول الدكتور عمر فروخ : « لقد استغلت الدول المستعمرة في العصر الحديث نفراً من العرب في الأقطار العربية وبوسائل مختلفة ليدعو إلى تدوين اللهجات العربية بالحرف العربي آناً وبالحرف اللاتيني آونة ، وقد استجاب

هذا النفر إلى تلك الاستمالة الاستعمارية بدافع من مصلحته طمعاً في مال أو بدافع آخر لست الآن في سبيل تحليل بواعثه فشنوها حرباً لا هوادة فيها على اللغة العربية تحت ستار تسهيل اللغة مرة والحفاظ على الآداب الشعبية مرة أخرى وتحت ستار التمشي مع التقدم في الحياة لأن اللغة كائن حي يجب أن يتطور ويتقدم » .

ومن العجيب أن هذه المحاولات لا تجري في الطريق الصحيح ولا تعمل على خدمة اللغة العربية بهدف تعريب هذه اللهجات إلى الفصحى وإنما هي تغالي في تقدير ما يوجد في هذه اللهجات من أزجال وكلمات شعبية بما يسيء إلى اللغة الفصحى .

ولا ريب أن الاهتمام بدراسة اللهجات الدارجة ومخصصاتها يسيء إلى اللغة الفصحى ويؤثر عليها تأثيراً عميقاً ويلفت النظر إلى أهمية هذه اللهجات وبقائها واستمرارها .

ولا ريب أن هذه اللهجات قد أقامت نوعاً من الحواجز ، وأن الاهتمام بها والتركيز عليها يعمق هذه الحواجز بينما يهدف دعاة الفصحى إلى إلغاء هذه الفوارق وخلق اللغة الجامعة للأمة العربية على مستوى البيان القرآني .

ولا شك يستهدف النفوذ الأجنبي من وراء حركة التغريب هذه غايات كبرى لإيقاف التكامل والامتزاج بين أجزاء الأمة فكرياً ولغوياً .

ويجري هذا مع الهدف الذي تسعى إليه الصهيونية العالمية كما صرح به ليفي أشكول « إننا لن نسمح بوجود لغة واحدة وشعب واحد ودين واحد في الشرق الأوسط » (١) .

ولا ريب في صدق القائل : إن استخدام العامية عمل منهجي ظلم

---

(١) جريدة الأخبار ١٥ يوليو ١٩٦٤ .

لإضعاف اللغة الفصحى وتقييد لأدبنا في إطار ضيق .

وهناك حقيقة أساسية هي أن الأمة العربية كلما اقتربت من بيان القرآن توحدت وانصهرت لهجاتها في اللغة الفصحى الجامعة وفي هذا يقول أحد الباحثين :

«إن القرآن كان له أثره في حفظ اللغة العربية من الانقراض وفي الحد من تطور اللهجات الإقليمية العامية وبذلك حفظ الإسلام عاملاً هاماً من عوامل التقارب بين العرب بحيث لم تتمكن هذه اللهجات من أن تتطور إلى لغات مستقلة قائمة بنفسها . وذلك أن وحدة الأمة الروحية القائمة على القرآن بقيت سليمة بعد أن تجزأت الأمة سياسياً . ولقد استمر العرب المسلمون في عهد انقسامهم السياسي كما كانوا في عهد وحدتهم يتلون القرآن كل يوم خمس مرات في صلواتهم ، وظل القرآن وبقيت الفصحى » (٢) .

خامساً : شبهة الترادف .

من بين الشبهات التي وجهت إلى اللغة العربية ، وهوجمت من أجلها هجوماً شديداً : شبهة الترادف والمترادفات .

وقد أنكر أئمة اللغة القدامى والمحدثون شبهة الترادف في اللغة العربية وفي مقدمتهم أبو علي الفارسي والمبرد وأبو منصور الثعالبي في فقه اللغة ، وابن فارس في الصاحبي وأبو الهلال العسكري في الفروق اللغوية .

وقد حملوا عليه حملة قاسية وكتبوا مؤلفات وبحوثاً في بيان اختلاف الدلالات باختلاف الالفاظ المقول بترادفها .

« والقرآن الكريم يحسم قضية الترادف حيث يشهد التتبع الدقيق لألفاظه في سياقها بأنه يستعمل اللفظ بدلالة محدودة منضبطة ولا يمكن معها أن يقوم لفظ آخر في المعنى الذي تحشده له المعاجم » .

---

(١) بتصرف عن نص ، لنبيه أمين فارس .

ومن ذلك أن القرآن استعمل مادة حلف وأقسم وهو بمعنى واحد في كتب التفسير ومعاجم اللغة ولكن استقراء مواضع استعمالها في القرآن كله يمنع هذا الترادف حيث تأتي مادة حلف دائماً في مقام الحلف باليمين » .

* * *

والعلماء الأوربيون الذين تعمقوا اللغة العربية وفهموا أسرار بيانها وصلوا إلى هذه الحقيقة نفسها ومنهم ( ج . ويدمار السويسري ) الذي يقول « إن الذي يعيب على اللغة العربية كثرة مترادفاتها لا بد أن يكون جاهلاً لها ، فمعظم هذه المترادفات في نظري ليست مترادفات لمعنى واحد ، بل هي في الحقيقة وفي الأصل ألفاظ لمعان مختلفة ولم يجمعها في باب المترادفات إلا الإهمال والنسيان ، والشاهد على ذلك أننا إذا حللنا ودرسنا كل لفظ من هذه الألفاظ المترادفة وجدنا اختلافاً أصيلاً في المعنى بين هذه الألفاظ » .

( سادساً ) بين العربية واللاتينية

لمعرفة أبعاد الفوارق بين اللهجات واللغات في الغرب يجب معرفة الفرق بين اللغة العربية واللغة اللاتينية . ذلك أن منطلق التعمية التي تحاول أن تسود بالتمويه في أفق دراسات اللغة العربية فيما يتعلق باللهجات واللغات تنطلق من مفهوم غربي خالص ، هو أن اللغات القائمة حالياً في الغرب كانت قبل بضعة قرون لهجات تستمد حروفها ومضامينها من اللغة اللاتينية .

ذلك أن اللغات الأوربية الحالية هي مجموعة لهجات نمت ثم استقلت عن اللغة الأم ، ثم لم تلبث هذه اللهجات التي أصبحت لغات ان ا رتقت إلى مرتبة اللغات ذات الآداب الراقية .

ولكن هذا التحول الذي حدث في أوربا يختلف تماماً عما يمكن أن يحدث في الأمة العربية ، من حيث انفصال اللهجات العامية عن اللغة العربية وقيامها

بذاتها . ذلك أن هناك عوامل كثيرة تحول دون حدوث هذا التطور الذي يظن الغربيون أنه سهل وميسور ، وأنه يمكن أن يقع بأن تتحول اللهجات العراقية والسورية والمصرية والمغربية إلى لغات .

هناك عدة عوامل تحول دون ذلك مهما بدا أنه سهل ميسور ، هذه العوامل ترجع إلى الفرق بين طبيعة اللغة العربية وطبيعة اللغة اللاتينية من ناحية ، ومن ناحية أخرى ترجع إلى رابطة القرآن التي حسمت الموقف فحالت دون انحدار المتكلمين باللغة العربية إلى الكتابة باللهجات العامية التي يتكلمون بها .

وقد أجمل الأستاذ ساطع الحصري هذه الفوارق في خمس نقاط هامة :

( أولاً ) يتميز تاريخ اللغة العربية عن تاريخ اللغة الفرنسية من جهة العوامل والأحداث ، فإن اللغة العربية بعد أن استقرت في العالم العربي الحالي لم تتعرض إلى هجمات وغزوات لغات جديدة كما تعرضت لها اللغة الرومانية من جراء استيلاء القبائل الجرمانية واستيطانها مختلف أنحاء البلاد .

( ثانياً ) إن البلاد العربية لم تبتل بتفتيت سياسي وإداري واقتصادي مثل ما ابتليت به البلاد الرومانية في عصور الإقطاع الطويلة .

( ثالثاً ) إن الأمية المطلقة لم تتفش في بلاد العربية في وقت من الأوقات بقدر ما تفشت في العالم الغربي خلال العصور الآنفة الذكر .

( رابعاً ) إن البلاد العربية لم ينعزل بعضها عن بعض انعزالاً يشبه الانعزال الذي حصل في البلاد الرومانية ، بل ظل الاتصال بين مختلف أقطارها قائماً بفضل القوافل التجارية التي لم تنقطع عن الازدهار من ناحية وقوافل الحج التي ظلت تنقل جماعات كبيرة من المسلمين كل سنة من مختلف الأنحاء إلى الحجاز .

( خامساً ) إن الديانة الإسلامية التزمت العربية الفصحى التزاماً تاماً وظلت تساندها وتؤازرها دون انقطاع ولم تتخل عنها للهجة من اللهجات في وقت

من الأوقات . ذلك لأنها لم تعهد بمهمة تلاوة القرآن إلى أئمة المساجد وخطباء الجوامع وحدهم كما فعلت الديانة المسيحية في العالم الروماني ، بل فرضت ذلك على كل مسلم ومسلمة فصار لزاماً على كل فرد أن يتلو طائفة من الآيات القرآنية كل يوم خلال الصلوات الخمس .

( كذلك ) فإن هذه الأحكام الدينية استوجبت إنشاء مدارس وكتاتيب كثيرة لتعليم القرآن — قراءة وحفظاً — إلى جميع الأطفال وهذه المدارس والكتاتيب عمت جميع أنحاء البلاد ولم تنقطع عن العمل في أسوأ عصور الانحطاط .

وكل ذلك حال دون انقطاع صلة العرب بالعربية العظمى التي ظل يذكرهم بها ويوصلهم إليها على الدوام عن طريق السماع المستمر والتلاوة المتتالية .

سابعاً — لغة الكلام ولغة الكتابة

ونستطيع أن نقول إن فكرة التعليم العام التي ظهرت في العالم العربي مع ظهور البروتستنتية في القرن السادس عشر للميلاد كانت قد تولدت في العالم العربي منذ ظهور الإسلام وصارت تنفذ فيه بصورة فعلية وبمقياس أوسع منذ القرن الأول للهجرة ولذلك عم تعليم القرآن في جميع الجهات بسرعة كبيرة ، ومن المعلوم أن لغة القرآن هي اللغة العربية الفصحى .

أما اللهجات الأوربية فإنها ظلت تنفصل عن اللغة اللاتينية حثيثاً حتى قامت بنفسها كلغات في بلادها ( فرنسا وإيطاليا وإسبانيا ) لأنه بالإضافة إلى هذه العوامل لم يكن هناك ثمة رابط جامع .

وإن هذه اللهجات التي أصبحت لغات من بعد كانت قد وصلت إلى أقصى حدود التعدد والتنوع خلال العصور الوسطى من جراء تأسيس النظم الإقطاعية في مختلف أنحاء البلاد وتفشي الأمية بين الخواص فضلاً عن العوام .

يقول الأب صالحاني : إن اللغة اللاتينية ماتت كلغة للشعب بموت الدولة وبقيت لغة الكنيسة والعلماء ، أما الشعب فكانت اللغات على لسانه تتكيف بكيفيات مختلفة حسب الأمكنة والأزمنة والعناصر ، ولم تكن « اللاتينية » لغته الأصلية وإنما كانت لغات أخرى كالصقلبية والسكوتية والجرمانية الهندية امتزجت بلغة اليونان فلم تثبت تلك اللهجات إلاّ بتمادي الزمن وتنوع الكتبة وفتح المدارس وتأليف الكتب(١) .

هذا فضلاً عن أن اللغة اللاتينية لم تستطع التغلب على اليونانية لأن اللغة اليونانية ارتبطت بحضارة أرقى من حضارة اليونان فلما انشطرت الأمبراطورية إلى شطرين : الأمبراطورية الشرقية والأمبراطورية الغربية كانت اليونانية في الشرق واللاتينية في الغرب .

ويمكن أن تصور تجربة ( اللغة الفرنسية ) ونموها من لهجة إلى لغة صورة أشد وضوحاً لهذا الموقف الذي يستغله دعاة التغريب وأعداء العربية ، وهم يعلمون الفوارق البعيدة بين العربية واللاتينية ولكنهم يحاولون خداع المسلمين والعرب بتزييف المواقف والتفسيرات .

لقد تكونت(٢) اللغة الفرنسية كما تكونت اللغات الأدبية الحالية من اللهجات الأولى ، وفي فرنسا كانت هناك لهجتان :

لهجة الأويل في الشمال ولهجة الأول في الجنوب .

وكان تأثير اللاتينية واضحاً في الجنوب كما كان تأثير الجرمانية واضحاً في الشمال ، واللهجة التي انحدرت منها اللغة الفرنسية كانت في بادىء الأمر لهجة خاصة بالمنطقة التي تحيط بمدينة باريس الحالية ، وقد خرجت العامية

(١) الأب صالحاني مجلة المشرق م ١٩٢٥ .
(٢) ملخص عن بحث لساطع الحصري ( في اللغة والأدب ) .

الفرنسية من طور العامية وتحولت إلى لغة كتابة وأدب ، وازدهر هذا الأدب في بدء عصر النهضة والانبعاث ولا سيما في القرنين ١٦ ، ١٧ .

ومع انبعاث هذا الأدب الراقي لم تندثر جميع اللهجات الرومانية وغير الرومانية التي كانت دارجة في مختلف أنحاء البلاد الفرنسية .

وقد كان خليقاً بلهجة تحولت إلى لغة أن يقضي ذلك على الفروق بين لغة الكلام ولغة الكتابة ، ومع هذا لم يحدث بل حدث العكس ، « ذلك أنه في العصر الكلاسيكي الزاهر وفي القرن ١٨ كان معظم الفرنسيين يرطنون لهجات كثيرة تختلف عن اللغة الأدبية بخصائص عديدة » .

ولدينا وهناك لغة خالدة مديدة العمر ، ولهجة ، يتكلم بها الناس هي في حد ذاتها قريبة جداً ، وبتوالي اقترابها من الفصحى ، تثور الأهواء وتتعالى أصوات المضللين ، ليصوروا هذا الموقف الطبيعي بصورة الأزمة والقضية والمشكلة التي تهز الدنيا .

وهدف ذلك كله هو إثارة الغبار في وجه اللغة العربية التي يقرأ أصحابها ما كتب منذ خمسة عشر قرناً بينما يعجز غيرهم عن قراءة ما كتب منذ خمسة قرون !

وفي تأكيد زيف هذه الفرية : لا بد أن نتحدث عن الراهب جريجوار الذي قدم تقريراً عام ١٧٩٠ وقدم فيه حقائق خطيرة عن الفوارق العميقة بين اللغة الفرنسية (التي هي كانت قد نمت من لهجة قريبة) .

هذه الحقائق هي أن سكان فرنسا وهم وقتئذ نحو ٢٥ مليوناً ،

يوجد نحو ستة ملايين منهم لا يعرفون شيئاً عن اللغة القومية ،

وستة ملايين آخرين إذا عرفوا منها شيئاً فإنهم لا يستطيعون أن يواصلوا التحدث بها ، وإن من يحسنون التكلم بالفرنسية بفصاحة لا يتجاوزون الثلاثة

ملايين ، أما الذين يستطيعون كتابتها على وجه الدقة فهم أقل من ذلك بكثير

يقول ساطع الحصري : فإذا قيل لنا الآن « لا فرق بين لغة الكلام ولغة الكتابة في فرنسا وجب أن نعلم علم اليقين بأن ذلك إنما تم بفضل الأحداث التي توالت من مدة تزيد على ثمانية قرون والجهود التي تبذل منذ الثورة الفرنسية للقضاء على اللهجات العامية .

« ومع هذا كله يجب أن نلاحظ بأن القول بأنه لا يوجد في فرنسا فرق بين لغة الكتابة ولغة الكلام لا يخلو من المغالاة .

« فإن ذلك إن كان صحيحاً بالنسبة إلى معظم المدن والقصبات الكبيرة فإنه بعيد عن الصحة بالنسبة إلى كثير من القرى في بعض الإيالات » فإنه من الثابت بأن هناك ملايين من الفرنسيين لا يزالون في طور ( ثنائية اللغة ) فاللهجات العامية في فرنسا لم تندثر تماماً وإن كانت قد تضاءلت كثيراً » .

وعلى وجه المقارنة فإن التقارب بين اللغة الفصحى ولغة الكلام في الأمة العربية قد تقارب بصورة فعالة في العقود الأخيرة وتغلب على اللهجات العامية ، وما يزال يزداد قوة يوماً بعد يوم .

* * *

ومن الحقائق ذات الدلالة في المقارنة بين اللغات المبنية على اللهجات أنها دائمة التحول وأن أهلها لا يستطيعون أن يقرأوها بعد عدة قرون إلا عن طريق القواميس . « وأن اللغة الفرنسية كانت تكتب في العصور الوسطى بغير ما صارت تكتب به في القرن السادس عشر وهي الآن تكتب بغير هذا وذاك مع المحافظة على الأدوار الثلاثة على كيانها الأصلي وحروفها اللاتينية ، فإن هناك تغيراً ظاهراً بين رسم الكلمات وقواعد اللغة في القرن الحادي عشر

والرسم وقواعد اللغة في القرن السادس عشر ثم الرسم والقواعد مع أن اللغة واحدة والحروف واحدة (١) .

* * *

ومن أهم ما يتصل بالمقارنة بين اللغتين العربية واللاتينية أو في الدعوة إلى توحيد طريقة الكتابة بين اللغتين ، ذلك العسر الواضح في ذلك بين لغة قوم « تقوم على الاشتقاق ويتوقف فيها المعنى على حركات التصريف وحركات الإعراب وبين لغة تقوم على النحت ولصق المقاطع بعضها إلى بعض بغير دلالة لاختلاف الأشكال والحركات » .

« وقد تفردت اللغة العربية — حتى بين اللغات السامية باطراد الأوزان وقواعد التصريف وقواعد الإعراب فلا مشابهة بينها وبين اللغات الأخرى في هذه الخاصة ولا داعي إلى محاكاة اللغة العربية لتلك اللغات مع كثرة العيوب الهجائية في تلك اللغات .

(ثانياً) الحروف اللاتينية

ولقد حملت رياح التغريب الدعوة إلى كتابة اللغة العربية بالحروف اللاتينية وكشفت الدراسات عن أخطاء ومحاذير شديدة الخطر منها :

(أولاً) إن كتابة اللغة العربية بالحروف اللاتينية ليست تنقيحاً لها ولا تخفيفاً لما فيها من الثقل ، وإنما هي تضييع لها بتضييع اثني عشر حرفاً من حروفها الهجائية فحرف (الثاء) لا يعرفه الفرنسيون في أبجديتهم ، والإنجليز يركبونه من حرفين فإذا كتبت بالحروف اللاتينية اختلط بحرف السين فضاع بعد قليل من الزمن وبقي هذا الأخير ، وحرف (الجيم) غير معروف بنطقه العربي في الأبجدية اللاتينية ، وحرف (الحاء) ليس له مقابل في الإنجليزية

---

(١) البلاغ ، أول يونيه ١٩٢٨ .

اللاتينية وهو فيها يختلط بحرف الهاء فيضيع ، وحرف ( الذال ) غير معروف في الأبجدية اللاتينية ، ولذلك لا تعرفه اللغة الفرنسية وتؤديه اللغة الإنجليزية بحرفين ، فإذا كتبت بالحروف اللاتينية اختلط بحرف الزاي فضاع ، وحرف ( الصاد ) لا مقابل له في الانجليزية اللاتينية ، وهو فيها يختلط بحرف السين فيضيع ، وحرف ( الضاد ) لا وجود له في الأبجدية اللاتينية ولا يمكن أن يؤدى بها وهو حينئذ يختلط بحرف ( الدال ) فيضيع ، وقد مثل ذلك في حرف ( الطاء — والظاء — والعين — والغين — والقاف ) فإنها لا وجود لها في الأبجدية اللاتينية ، وهي حينئذ تختلط بحرف التاء والزاي والألف والجيم ( الجيم الإفرنجية لا الجيم العربية ) والكاف فتضيع وتبقى هذه الأخيرة .

فهذه اثنا عشر حرفاً في الأبجدية العربية إذا أديت بالحروف اللاتينية اختلطت بغيرها رسماً ونطقاً فضاعت بعد قليل من الزمن . وقلّ أن توجد كلمة ليس فيها حرف من هذه الحروف فتضييعها هو تضييع لجزء عظيم من اللغة ، إذا لم نقل إنه تضييع للغة برمتها ، وإذ ذاك لا ينفعها بشيء أن يكون لها تلك الميزات التي رأى ماسينيون أنها تمتاز بها على اللغات الآرية وعلى كثير من اللغات الأخرى .

يقول الأستاذ عبد القادر حمزه (١) — صاحب هذا العرض — فأولى إذن للذين يقولون بالحروف اللاتينية أن يكشفوا القناع عن وجوههم وأن يقولوا إنهم يريدون في الحقيقة هدم اللغة العربية .

على أن اقتراحهم هذا لا يبيح النتيجة التي يصلون بها ويقيمونه عليها ، إذ هم يقولون إن قصدهم منه تسهيل اللغة على المتعلم وهذه السهولة لا تتحقق لأن المتعلم لا يقرأ فقط بل يكتب أيضاً ، وهو إذا قرأ صحيحاً بعودة الحروف المرسومة أمامه فلن يستطيع أن يكتب صحيحاً إلاّ إذا تعلم الأجرومية العربية فعرف حركات الحروف والعوامل النحوية والصرفية التي تؤثر فيها ، وهذه الحركات والعوامل هي معظم ما يشكو منه الشاكون .

---

(١) البلاغ ، أول يونيو ١٩٢٨ .

# أعداء الفصحى

| | |
|---|---|
| لطفي السيد | : عام ١٩١٣ : كتب عدة مقالات في الجريدة يدعو فيها إلى استعمال الألفاظ العامية وإدخالها حرم اللغة الفصحى . |
| قاسم أمين في عام ١٩١٢ | : أعلن تصريحه عن الإعراب وتسكين أواخر الكلمات . |
| الخوري مارون غصن | : كتاب (حياة اللغة وموتها : اللغة العامية) ١٩٢٦ . |
| عبد العزيز فهمي | : مشروع مقدم إلى المجمع اللغوي المصري في ٢٤ يناير ١٩٤٤ لاتخاذ الحروف اللاتينية لرسم الكتابة العربية . |
| الزهاوي | : مقال في المؤيد سنة ١٩١٠ لغة الكتابة ووجوب اتخاذها باللغة المحكية |
| سلامة موسى | : (١٩٢٦) الدعوة إلى اللغة العامية وكتابة البلاغة العصرية . |

| | | |
|---|---|---|
| طه حسين | : | ١٩٣٩ ــ كتاب مستقبل الثقافة ــ وموقفه في المجامع العربية ودعوته إلى تطوير النحو وقوله : ( اللغة ملك لنا ولاحق لرجال الدين أن يفرضوا وصايتهم عليها ) . |
| سعيد عقل | : | ( ياره ــ شعر ) ١٩٦١ . |
| أنيس فريحة | : | نحو عربية ميسرة ــ ١٩٥٥ . |
| لويس عوض | : | ديوان بلوتولاند ــ ١٩٤٧ ودعوته إلى كسر عمود الشعر وكسر اللغة . |

● كذلك دعا أمين الخولي إلى إهمال اللغة الفصيحة واستخدام العامية كلغة للكتابة وقال إن اللغة الفصيحة تشبه اللغة اللاتينية . ويضاف إلى هذا الثبت الأستاذ أحمد أمين الذي قال : ( مذهبي أن اللغة ملك لنا ولسنا ملكاً للغة ) .

## ١

## لطفي السيد والعامية المصرية

ملخص دعوة لطفي السيد أن يحتضن الكتاب المفردات العربية الموجودة في اللهجة العامية ، فيردوا ما تشوه منها إلى أصله العربي ، ويستعملوها استعمالاً صحيحاً ، وإن أقرب الطرق إلى إصلاح العربية باستعمال الكلمات العامية ، فإذا استعملناها في الكتابة اضطررنا إلى تخليصها من الضعف وجعلنا العامة يتابعون الكتاب في كتاباتهم .

* * *

وقد واجه هذه الحملة الأستاذ مصطفى صادق الرافعي فقال : حيثما قلبت أمر اللغة من حيث اتصالها بتاريخ الأمة واتصال الأمة بها وجدتها الصفة الثابتة التي لا تزول إلا بزوال الجنسية وانسلاخ الأمة من تاريخها واشتمالها جلد أمة أخرى . فلو بقي للمصريين شيء مميز من نسب الفراعنة لبقيت لهم جملة مستقلة عن اللغة الهيروغليفية .

وإن في العربية سراً خالداً هو هذا الكتاب المبين ( القرآن ) الذي يجب أن يؤدى على وجهه العربي الصحيح ، ويحكم منطقاً وإعراباً ، بحيث يكون الإخلال بمخرج الحرف الواحد منه كالزيغ بالكلمة عن وجهها وبالجملة عن مؤداها ، وبحيث يستوي فيه اللحن الخفي واللحن الظاهر ثم هذا المعنى الإسلامي ( الدين ) المبني على الغلبة والمعقود على أنقاض الأمم والقيم على الفطرة الإنسانية حيث توزعت وأين استقرت فالأمر أكبر من أن يؤثر فيه سورة حمق أو تأخذ منه كلمة جهل .

إنما القرآن جنسية لغوية تجمع أطراف النسبة إلى العربية فلا يزال أهله مستعربين به متميزين بهذه الجنسية حقيقة أو حكماً ، ولولا هذه العربية التي حفظها القرآن على الناس وردهم إليها وأوجبها عليهم لما اطرد التاريخ الإسلامي ولا تراخت به الأيام إلى ما شاء الله ، ولما تماسكت أجزاء هذه الأمة . الخ الخ .

## ٢

### عبد العزيز فهمي والحروف اللاتينية

لم يكن عبد العزيز فهمي هو أول من حمل لواء هذه الدعوة ولكنه أول عربي تبناها في إطار مؤسسة اللغة وعلى رؤوس الأشهاد في مجمع اللغة العربية .

وكان المستشرقان الفرنسيان : ماسينيون وبنيار (رئيس البعثة العلمانية في الشرق) قد نصحا أصدقاءهما العرب بكتابة لغتهم بالحروف اللاتينية عام ١٩٢٩ .

كما نشرت المقطم في ١٠ تموز ١٩٢٩ مقالاً لمستشرق هولندي اقترح على الحكومة المصرية كتابة العربية بالحروف اللاتينية .

وقد وصلت هذه المعركة إلى ذروتها عندما قدم عبد العزيز فهمي إلى المجمع اللغوي في القاهرة ( ٢٤ يناير ١٩٤٤ ) مشروعاً يرمي إلى اتخاذ اللاتينية لرسم الكتابة العربية وقد ردد في تقريره عبارات معروفة سبقه إليها لطفي السيد وقاسم أمين وسلامة موسى ، بل وسبقه إليها ولمور وويلكوكس وغيرهم من أن اللغة كائن حي ينمو ويهرم ويموت مخلفاً من بعده ذرية لغوية .

وهي القاعدة التي قدمتها اللغة اللاتينية وأصرت اللغة العربية على أنها قاعدة باطلة :

وقال عبد العزيز فهمي إن أهل اللغة العربية مستكرهون على أن تكون

العربية الفصحى هي لغة الكتابة عند الجميع وأن يجعلوا في قلوبهم أكنة وفي آذانهم وقراً ، وقال : إنه فكر في هذا الموضوع منذ زمن طويل فلم يهده تفكيره إلاّ في طريقة واحدة هي اتخاذ الحروف اللاتينية وما فيها من حروف الحركات بدل حروفنا العربية كما فعلت تركيا .

وقد أثارت دعوته عدداً كبيراً من الكتاب بالرد عليه ومعارضة وجهة نظره في مقدمتهم عبد الوهاب عزام وإسعاف النشاشيبي وعباس العقاد ومحمود محمد شاكر ومحب الدين الخطيب وغيرهم (١) .

ومن هذه الردود : رد الأستاذ محمد كردعلي الذي قال :

إن قول زميلي إنه يوشك أن تغزونا اللغات الأجنبية فنترك لغتنا ونستعيض عنها بلغة من لغاتهم ، هذا خوف لا محل له ، لأن العربية تزداد كل يوم رسوخاً في نفوس أهلها بفضل النهضة التي نهضناها وبفضل توفر أسباب التعليم والنشر .

كذلك قوله إن لغتنا كانت سبب تخلفنا في مضمار الحضارة .

وما أظن شيخ القضاة إلاّ ويعرف أن لانحطاط الشعوب الإسلامية في بعض مظاهرها عوامل أخرى لا علاقة لها بحروف الكتابة وقواعد الرسم ، وأن برهانه هذا ضعيف لا يصح الاستدلال به على ما هو بصدده .

إنه يعرف أننا أنشأنا مدنية شهد لعظمتها كل من قاموا بعدنا وما حال هذا الخط ومن قبله الخط الكوفي دون الانتفاع بما آل إلينا من علوم القدماء وما وضعناه نحن وما قدمته قرائحنا من علوم وآداب . أما تبرمه باللهجات العربية فأنا أبشره بأن هذه اللهجات يقل عددها ولا يزيد وهي تقترب كل

---

(١) نقلنا بتوسع نصوص هذه المعركة في كتابنا . ١ – المعارك الأدبية ٢ – المساجلات والمعارك الأدبية .

يوم من الفصحى بفضل المدرسة والجريدة والخطبة والمذياع ، أي أن اللهجة الدارجة تتضاءل أمام اللغة الأدبية والفصحى تتغلب على العامية اليوم بعد اليوم. إن الصعوبة الموهومة في لغتنا ما وقفت في سوريا دون تعليم الرجال البالغ من ابن العشرين إلى ابن الخمسين في المدارس الليلية التي أنشأها بما أخرجناه به في أربعة أشهر من الأمية .

إذن فالعربية ليست من الصعوبة بخطها على ما يزعم ، والعرب إذا قصروا في التصوير فقد عوضوا عنه هذا الخط الجميل والمنقوش .

* * *

وقد أشار إدوارد دنيسون روس مدير مدرسة اللغات الشرقية في لندن معارضاً هذه الدعوة فقال : لا شك أن مصطفى كمال باشا من أكبر العبقريين في العالم فإنه أراد إدخال إصلاح يحق قانوناً مفروضاً على الناس : خذ مثلاً مسألة الحروف لو ألفت لجنة لبحثها لقضت عشر سنوات بعد سنوات دون أن تصل إلى نتيجة .

أما كمال باشا فإنه جلس مع آخر أظنه وزير المعارف ووضع معه الحروف التركية اللاتينية ثم قال : غداً تكون هذه حروف البلاد .

وفي الغداة فرض الغازي على الناس تعلمها .

أما بالنسبة لاستبدال الحروف العربية باللاتينية فإياكم وهذا الأمر ، إني أفهم اقتباس الحروف اللاتينية في بلاد مثل تركيا وإيران ، أما في مصر فالحذر من هذا لأن الحروف العربية هي حروف لغة القرآن وإذا مسستم الحروف العربية مسستم القرآن بل هدمتم صرح وحدة الإسلام .

## ٣

### الخوري مارون غصن (سوريا)

دعا الخوري مارون غصن إلى العامية .

نشر في بيروت ١٩١١ كتابه بستان السلوى ، وفي عام ١٩٢٤ نشر كتابه درس ومطالعة وتحدث فيه عن حياة اللغة وموتها وعن اللغة العامية وعن تحسين اللغة العربية بإدخال علامات الوقف عليها .

ثم توسع في البحث فأصدر كتاباً عنوانه (حياة اللغة وموتها : اللغة العامية) عام ١٩٢٦ .

ينطلق الكتاب من افتراض (أن كل لغة سائرة إلى الفناء قياساً على ما عرفه تاريخ اللغتين اليونانية واللاتينية) .

وأشار إلى تعلق الشعب باللغة العامية . ودعا إلى قاعدة العامية : وهي اللهجة العامية السورية ،

ودعا إلى إحلال العامية محل الفصحى ،

وقال : نعم إن العربية الفصحى يحتمل بل يرجح بقاؤها في القرآن إلى منتهى الأزمان ، ولكن لا ينتج عن ذلك بقاؤها في البلاد العربية اللهجة كما هي الآن .

## ١

رد عليه الأب لويس شيخو اليسوعي قال :

نشر الخوري غصن كتاباً (درس ومطالعة) كتب فيه فصلاً عنوانه (حياة اللغة وموتها) أيد فيه الدفاع عن اللغة الدارجة منتصراً في قوله لحقوقها

المهضومة ، وأنذر بهبوط اللغة العربية الفصيحة وبتبوء اللغة الدارجة سدة الشرف بدلاً منها .

وقال إن الكثير يأنفون : من استعمال اللغة العامية لنشر أفكارهم وترويج مقاصدهم وعرض نموذجاً مما كتب الحوري :

أمي : لا تحسبوا أن الزمان بيقدر دايمن يمحي الجمال ولا البكا والهموم بيقدروا دايمن يروحولو نضارتو : هيدي أمي عمرا ستين سنة وكل ما نظرت ليها وتطلعت فيها بشوفا عمال تزيد جمال بنظري وإذا التفتت أو ضحكت أو حكيت بتأسر قلبي ألطف تأسير .

ثم قال : أترى أن هذه الرطانة ستصبح يوماً اللغة الفصيحة ؟

وقال : لقد قصر الكلام في كتابه على لغة سورية ، وفي قوله هذا نظر فإن قواعده او ثبتت لما صحت إلا على لغة لبنان (مع اختلافها من قرية إلى قرية) فهيهات أن تطلق على لغة حلب وحمص وحماه والقدس ومصر والعراق والمغرب فأي لغة من هذه اللغات العامية يريد لها الحكم فكيف لم يفطن إلى ذلك فيثير روح الشقاق بين تلك البلاد . ولو ذكرنا أمثلة من لهجات كل قطر لتأكد ما بينها من الاختلاف الذي ينفي كل وحدة بينها .

وقال : اللغة العربية الفصيحة ليست لغة ميتة وهي على مثال اللغات الحية تنمو وتتسع وتنال من أحوال البلاد وعناصر الشعوب التي تتكلم بها سواعد تتصل بها وتتكيف بكيفيتها وتصبح معها جسماً واحداً .

وإن الألفاظ الدخيلة والتعبيرات اللغوية لم تمس جوهر اللغة ، ولم تؤثر في أصولها والدليل هو ما نشر من التآليف القديمة والدواوين الراقية . وقد وقفت هذه اللغة بإزاء اللهجات العامية وقفة الحكم العاقل ولم تأنف من أن تستعير منها بعض ما رأت فيه صلاحية للدلالة على المخترعات الحديثة : هذا الدخيل الذي يغنيها دون أن يفسدها

وإذا عارضنا اللهجات العامية باللغة الفصيحة وجدنا أن تلك اللهجات هي التي تترقى إلى اللغة الفصيحة وتتقرب منها مع الزمان فتنال من فضلها أكثر مما تكتسب اللغة الفصيحة من لغات العموم .

## ٢

### رد الأب صالحاني على الخوري مارون غصن :

إن السبب الذي أوقع الكاتب في الخطأ هو أنه افترض في العربية لغتين ، الواحدة فصيحة والأخرى عامية . وليس هذا بصحيح لأن اللغة العربية هي واحدة ، أما ما يسميه لغة عامية فليس في الحقيقة إلاّ الألفاظ والعبارات التي يستعملها الكتاب والأدباء ، فالعامية نستعملها ممزوجة بالأغلاط . وللعامة أيضاً لهجات في الحركات عند التكلم ، تختلف باختلاف البلدان شرقاً وغرباً وجبلاً وسهلاً ومدناً وقرى .

ولا قاعدة لهذه الأغلاط واللهجات تسير العامية بموجبها .

وتستعمل العامة ألفاظاً أجنبية لا وجود لها في الأمهات اللغوية وذلك إما لجهلها اللغة أو لعدم معرفتها ما يقابل الألفاظ الأجنبية في العربية وهذا وإن كان لا يستحسن لا يمس سلامة اللغة وصحيحها لأنه يسير بالنسبة إلى غنى اللغة العربية .

نحن لا نسلم بالنتيجة التي استنتجها ولا بوفرة الألفاظ الأجنبية التي تدخل اللغة العربية وننكر قدرتها على تحويل اللغة الفصيحة إلى عامية .

* * *

ثم إن المبدأ الذي قرره بقوله : إن اللغة آئلة إلى الفناء لأنه محتم على كل

حي أن يموت هو مبدأ لا يصدق في اللغات ، لأنه يفترض أن اللغات تحيا كالأجسام وهذا ليس صحيحاً .

أما اللغة فنراها غالباً بعد انحطاطها لإهمال الآداب وموت الأدباء تنهض من كبوتها وتنتعش بعد ضعفها ، فاللغة لا تموت كما يموت النبات والحيوان ، بل يموت الشعب الذي ينطق بها ، فإذا بقي الشعب العربي في الحياة تحيا لغته ويتجدد شبابها ولا تنحط بل تترقى بترقي آدابه . وإذا انقرض الشعب العربي (لا سمح الله) وابتلعه غيره من الشعوب تموت لغته العربية ، وهذا ما حدث في البلاد السورية فإنه لما كثر العرب الفاتحون لها وقويت شوكتهم وصارت السلطة إليهم أبادوا اللغة اليونانية في المدن السورية واللغة السريانية في القرى . فمن المقرر أن اللغات لا تموت إلاّ بانقراض الشعوب ، فما دام الشعب حياً فلغته هي أبداً شابة .

* * *

ولو كانت اللغة في نشوئها لأمكن القول إنها ستتحول ، لكن لا من الكمال إلى الانحطاط بل من النقص إلى الكمال ، أما إذا كانت بلغت أشدها أي كمالها فقلما يطرأ عليها تغيير أو قلما يؤثر فيها ، لا بل متى عمت اللغة الفصيحة في الأمة فإنها تبيد كل اللغات الخصوصية وتميتها سواء كانت في فرنسة أم في ألمانيا أم في غيرهما من الممالك .

* * *

ولنا مثال آخر في اللغة العربية وهي من أثبت اللغات ، فإنها في العصر الجاهلي كانت تختلف معاني كثير من ألفاظها باختلاف القبائل ، ولكن بعد أن كتب القرآن (والمسلمون دائبون على تلاوته في الأقطار) وبعد أن أخذ العلماء يفسرونه وانتشرت الكتب في الحديث والتاريخ والطب والرياضيات

وغيرها من العلوم ، وضبطت قواعد العربية وأنشئت المدارس وشاعت المخطوطات ثبتت العربية كما ثبت البناء المشيد بالحجارة والكلس فنفهم اليوم كتباً ألفت منذ ألف ومائتي سنة ويكتب أدباؤنا اليوم كما كتب العرب لفائدة العامة في جزيرة العرب والبلاد الشامية وبلاد ما بين النهرين وفارس ومصر وتونس والجزائر ومراكش وطرابلس الغرب ، ويتكلم دأباؤنا كما يتكلم أولئك مع اختلاف يسير في اللهجة واستعمال بعض الألفاظ فإذا قام اليوم من يتكهن بانحطاط العربية الفصيحة واندثارها وتغلب العامية عليها لا أحد يلتفت إليه أو يصغي إلى أقواله بل يهز عطفيه مبتسماً ويقول :

(سراب يريه واضمحل !)

وقد كان الكاتب يعتقد أن الألفاظ الأجنبية تدخل في العربية كل سنة بالمئات والألوف فتحول اللغة العربية من هيئة إلى هيئة ، فها قد مضى زمن على الشعب العربي يعيش الفرنج بين ظهرانيهم وينتقل كثير منهم إلى البلاد الأوربية والأمريكية فليحص لنا حضرته المئات من الألفاظ الأجنبية التي أدخلوها في العربية فأثرت في فصاحة اللغة . فهذه مجلات المقتطف والهلال والمشرق وجرائد الأهرام والمقطم ولسان الحال والبشير وغيرها كتابها منشئون بالعربية الفصيحة مقالات ضافية الذيول فلا تستعصي عليهم الألفاظ العربية لتأدية ما تحتاج عقولهم من المعاني في كافة العلوم القديمة والحديثة من علم الفلسفة والإلهيات إلى علم الهيئة ووصف الأرض ، وقد يضطرون إلى اقتباس بعض الألفاظ الأجنبية فيكسونها ثوباً عربياً ويخضعونها لقواعد اللغة العربية أو يرصعونها في إنشائهم كفص ياقوت في خاتم ذهب ملامسه فلم يعترض أحد ليقول إن لغتهم عامية .

* * *

إنه اقتبس بعض أفكار كأشباح لاحت له في غلس الظلام ، فجمعها

وأنفها كما يرسم المصور المازح الماجن فيضم رأس رجل ذي لحية إلى عنق فرس ويكسو بالريش الأعضاء المختلفة وينهي الصورة بجسم سمكة فيكون المجموع صورة مسخ .

متى يحق لحضرته أن الشعب اللبناني لا يفهم إلاّ ما يكتب باللغة العامية ؟

إذا كان حضرته قد انخدع بكتاب فنيانوس المكتوب باللغة العامية فليعلم أن هذا الكتاب وضع لغاية خصوصية توخاها مؤلفه .

## ٤

## الزهاوي ( العراق )

كتب الشاعر جميل صدقي الزهاوي مقالاً في ٩ أغسطس ١٩١٠ في جريدة المؤيد بعث به من بغداد عن ما أسماه :

[ لغة الكتابة ووجوب اتحادها باللغة المحكية ] .

يقول : إني فتشت طويلاً عن انحطاط المسلمين فلم أجد غير سببين : أولهما الحجاب الذي عددت في مقالتي الأولى مضاره لو كانت هناك آذان واعية . والثاني : هو كون المسلمين ولا سيما العرب منهم يكتبون غير اللغة التي يحكونها .

وواضح أن الزهاوي قد تابع في هذه الدعوة كتابات المقتطف وولمور وويلكوكس ومن لف لفهما وأنه لم يكن يصدر عن الأصالة بل كان يصدر عن التبعية التي عرفت عنه في كثير مما اتجه إليه ، وقد صفق له دعاة التغريب وأعجبوا به وأطلقوا عليه لقب المجدد والمحقق والعالم الكبير .

رد الشيخ علي يوسف على الزهاوي فقال :

إن مسألة اللغة الكتابية في العربية ذات وجهين : لكل أصحاب وجهة

منهما براهين وأدلة على صحة مذهبهم وبطلان مذهب مخالفيهم . وأكبر الاعتراضات التي ترد على حضرة الفاضل الزهاوي أن لغة التخاطب ليست واحدة عند الأمم العربية بل هي تكاد تكون لغات متعددة ، وبين لغة كل أمة من هاته الأمم دخائل مجهولة عند الأمم الأخرى ، فأهل المغرب الأقصى يختلفون في النحت والمزج اختلافاً كثيراً عن أهل العراق مثلاً في تخاطبهم ويكثر في كلامهم الدخيل من لغة البربر ، وأهل الجزائر في الغرب يختلفون كثيراً عن أهل اليمن في تخاطبهم مزجاً ونحتاً ودخيلاً .

كذلك يوجد بعض الاختلاف بين أهل الشام ومصر وهي أهل الوسط في اللسان العربي كما يوجد اختلاف بيّن كثير بين بعضهم والأمم العربية الأخرى بحيث إو صيرت لغة التخاطب : لغة كتابة لجهل قارئو العربية بين الأمم ما لا يجهلون الآن .

وعسير أن توجد لغة الكتابة لسان الأمم العربية من هاته الألسن البابلية ، أما اللغة الفصحى التي يتحفنا بها السيد الزهاوي كل كاتب عربي فهي مقروءة مفهومة عند كل قراء العربية ليس الخاصة فقط ، بل الذين ارتفعت عنهم الأمية .

وكلما ارتفع إحصاء القارئين الكاتبين في الأمم العربية اتسع ميدان اللغة الفصحى لأهلها ، وهي لا تأبى الدخيل الجديد من أسماء المخترعات والمكتشفات.

ولعل السيد الزهاوي يراجع مذهبه ثانياً ليرى أن ما يسميه معطلاً للعرب ليس هو بالقدر الذي يعبر عنه بيانه ، وهناك محاذير أخرى يجرها على الأمم العربية اتخاذ لسان التخاطب لساناً كتابياً ، منها جعل لغة القرآن بمعزل عن القارئين والكاتبين الذين سيذهب بهم التجدد بعد ذلك كل مذهب .

ومنها أن تجعل بيننا وبين الكتب العربية المرقومة باللغة الفصحى من فقه وحديث وسيرة وتاريخ وعلوم حاجزاً كلما تقدم الزمان وصار صفيقاً حتى تعود اللغة العربية الفصحى كاللغة اللاتينية عند الأمم الإفرنجية

# ٥

## سلامة موسى ( مصر )

دعا سلامة موسى إلى استعمال العامية المصرية

تابع في ذلك ويلكوكس أول داعية إلى العامية وأذاع له في ١٩٢٦ حديثاً في الهلال جدد فيه الدعوة وتولى قيادتها بعد أن اختفت أربعين عاماً ، له كتاب مسموم هو : البلاغة العصرية واللغة العربية .

وجه إليه أكثر من نقد وكشف زيفه وادعاءه (١) .

## العامية المصرية وسلامة موسى

وتساءلت الأقلام في مواجهة سلامة موسى فقالت :

لماذا لا يكتب سلامة موسى بالعامية التي يدعو إليها : أليس لأنها قاصرة لا تؤدي إلاّ المعنى العامي الضئيل في اللفظ القلق المضطرب فلا يقرأ إلاّ بالجهد ولا يفهم إلاّ بالتأويل ( الزهراء جمادى الثانية ١٣٤٦ هـ ) .

* * *

يقول العلامة عزة دروزة في الرد على سلامة موسى :

المعروف أن وجود لغة عامية إزاء لغة فصحى ليس خاصاً باللغة العربية فالعامية موجودة إزاء الفصحى في كل لغة وفي كل بلد ، بل إن اللغة الفصحى بينما هي واحدة في التعليم والتدوين والأداء العلمي في قطر من الأقطار نجد

---

(١) راجع كتابنا المساجلات والمعارك الأدبية .
رد العقاد وأحمد الحوفي وزكي مبارك على افتراءات سلامة موسى .

اللغة العامية متعددة سواء في الألفاظ أو الأساليب أو في الأداء واللهجة .

ويقول : كيف تستقيم العامية : لغة تعلم وكتابة ما دامت العامية في ناحية مغايرة للعامية في ناحية أخرى منه ، فاللغة العامية ليس لها طابع العمومية حتى تصلح لأن تكون عامة في وجوه استعمالات اللغة .

ثم إن اللغة العامية من حيث هي لا ضابط لها تقف عنده ، ويجعلها صالحة لأن تكون لغة تعلم وتدوين وذات وحدة علمية ثابتة في قالبها على الأقل قلما تتقيد بقاعدة حرفية أو نطقية وقلما تكون كاملة الأداء .

إن الآداب التي تؤدى بلغة عامية كالروايات والأغاني والمسرحية والأهازيج الشعبية لا يمكن أن تكون خالدة . بسبب تحول وتبدل اللغة العامية .

إذ لا تلبث أن يبتعد عنها العامة رويداً رويداً ولا تبقى لها إلا قيمتها التاريخيةللدلالة على نفسية الأمة وآدابها في زمن من الأزمان .

أما القول بأن اللغة العامية أوفى بالمقصود من اللغة الفصحى فليس صحيحاً ، وأرجح أن هذا غلط أتى من ناحية قدرة المتعلمين على التفاهم والتعبير عن آرائهم التي تسمو عن العامية بلهجة قريبة من العامية . ولكن يجب أن نلاحظ أن هذه القدرة إنما أتت للمتعلمين بسبب أنهم استعاروا ويستعيرون دائماً مفردات وأساليب كثيرة من اللغة الفصحى ويصقلونها في مخاطباتهم ومحاوراتهم فالأصل في هذه القدرة هي اللغة الفصحى وانتشارها ، أما العامية فلا يعقل أن تحتوي على مفردات كثيرة تتسع للتعبير عن كل ما يريده الإنسان من أفكار علمية واجتماعية وأدبية .

## ٦

## عامية لويس عوض

يعد لويس عوض من أعدى أعداء اللغة العربية ، وقد وضح ذلك في مختلف كتاباته ، وفي دراساته الغربية حتّى في رسالته التي أحرز بها الدكتوراه من جامعة لندن .

وقد كشف عن ذلك في وضوح في مقدمة ديوانه (بلوتولاند) الذي طبعه عام ١٩٤٧ .

فأعلن حربه على الفصحى ودعوته إلى العامية وكسر عمود الشعر .

وادعى بأن استخدام العامية سيؤدي بعد قرنين إلى ترجمة القرآن إلى العامية ، وأعلن أنه لم يقرأ خلال صدر شبابه باللغة العربية وأن حساسيته للعربية ضعيفة وأجنبية معاً .

وقد واجه الأستاذ محمود محمد شاكر ادعاءات لويس عوض عن العامية والفصحى فقال :

إن التجربة التي مر بها لويس عوض في مسألة الدعوة إلى العامية : تجربة هو مسبوق إليها ، وغير معقول أن لا يكون عرف عنها شيئاً . وينبغي أن أقول لماذا هو غير معقول لا استنباطاً ولكن بنصوص كلام . فقد تبين أيضاً أن الأفكار الثلاثة التي دارت في تجربته كلها منقولة نقل مسطرة من كتب كان يتوهم هو أنها غير موجودة إلاّ في بعض الخزائن العميقة المظلمة التي لا تصل إليها الأيدي بسهولة ووضوح . ما دام مسبوقاً إليها حرفاً حرفاً وخطوة خطوة وتشبيهاً تشبيهاً . فهو لا شك مدعٍ وكاذب في تجربته بل هو يعيش في أحلام لا حقيقة لها .

وأشار إلى أنه حين ترجم لنفسه عام ١٩٤٧ في ديوانه بلوتولاند وقصائد أخرى فحدد اتجاهه تحديداً واضحاً فقال :

حطموا عمود الشعر ، لقدمات الشعر العربي ، مات عام ١٩٣٣ ، مات بموت أحمد شوقي ، مات ميتة الأبد . مات .

وقال : كان لويس عوض عام ١٩٣٧ يتعلم مبادىء اللغة الإيطالية بين الحشائش السحرية التي تملأ الفلاة بين كامبردج وجرانشستر واسترعى انتباهه أن البعد بين اللغة اللاتينية المقدسة ولهجتها المنحطة الإيطالية أقل من البعد بين اللغة العربية المقدسة ولهجتها المنحطة المصرية . . . فعجب لإصرار المصريين على اللغة المقدسة ، وكان يحدث أصدقاءه بخلاصة فكره ، فوجد منهم إعراضاً رقيقاً مؤدباً فعجب ، فلما عاد إلى مصر سنة ١٩٤٠ وجاهر برأيه فلم يصادف إعراضاً ، وإنما صادف غلظة ، فازداد عجبه ولكن سرعان ما فهم من بعض أصدقائه أن المسألة حساسة ، لأنها تتصل بالدين رأساً ، لأن استخدامه اللغة المصرية كأداة للكتابة قد ينتهي بعد قرن أو قرنين بترجمة القرآن إلى اللغة المصرية كما حدث للإنجيل أن ترجم من اللاتينية إلى اللغات الأوربية الحديثة ، فزال عجبه .

وهو يفهم كذلك أن الاعتراف باللغة المصرية لا يتبعه بالضرورة موت اللغة العربية إذا احتاط الناس لذلك فليس هناك ما يمنع من قيام الأدبين جنباً إلى جنب .

وأنه عاهد الثلوج الغزيرة المنشورة على حديقة مد سمر في خلوة مشهودة بين أشجار الدردار عند الشلال بكمبردج ألا يخط كلمة واحدة إلاّ باللغة المصرية (يعني العامية) .

وقد بر بعهده الأول في العام الأول بعد عودته فكتب شيئاً بالمصرية سماه مذكرات طالب تعبة ولكنه استسلم بعد ذلك وخان العهد وأشار أن إحساسه

باللغة ضعيف بالفطرة ، وقد اعترف بأنه لم يقرأ حرفاً واحداً بالعربية بين سن العشرين والثانية والثلاثين إلاّ عناوين الأخبار في الصحف السيارة وبعض المقالات الشاردة ألزمته الضرورة السياسية بقراءتها ، فإحساسه باللغة أجنبي جداً على كل حال .

وقال محمود محمد شاكر : لويس عوض ملأه مالئه منذ دهر ثم تركه ، وضبطه إلى أهداف بعينها ثم أطلقه ، فانطلق يجوس خلال الآداب عامة ثم الآداب العربية خاصة وهو لا يكاد يرى إلاّ ما ركب لاجله ، لا يكاد يرى إلاّ اليونان والروم والقرون الوسطى والمثقفين والحضارة الحديثة والحروب الصليبية والصلبان والخلاص والفداء والخطيئة وكسر رقبة البلاغة وكسر عمود الشعر العربي واللغة العامية والفتح الإنجليزي لمصر . هذا التركيب الموجه لا يكاد يرى ابن خلدون إلاّ مقروناً بأورسيوس ، ولا المعري إلاّ مقروناً براهب دير الفاروس وبالحروب الصليبية . وبالصلبان التي غصت بها حلب ولا يكاد يرى مكرم عبيد وعرابي إلاّ مقرونين بالمعلم يعقوب رئيس الخونة المظاهرين للفرنسيين الغزاة أيام نابليون ولا توفيق الحكيم ونجيب محفوظ وصلاح عبد الصبور إلاّ مقرونين بعقائد الخلاص والفداء والخطيئة .

ولا يكاد يرى القرآن العظيم إلاّ مقروناً بترجمته إلى اللغة العامية كما ترجم الإنجيل إلى اللغات الحية وهي عامية اللاتينية وإلاّ مقروناً بكسر رقبة البلاغة وكسر عمود الشعر العربي .

# ٧

## سعيد عقل وعامية لبنان بالحرف اللاتيني

دعوة سعيد عقل الى خلق لغة جديدة يسميها اللغة اللبنانية لإحلالها محل العربية تعتمد على عنصرين اللهجة العامية مكتوبة بالحرف اللاتيني بدلاً من

العربية وقد تفضل فقدم رموزها وشتيتاً من نماذجها التي كان قد وصفها عدد من المستشرقين والمبشرين لغايات علمية ومآرب سياسية معروفة . وقد أصدر أول كتاب لبناني بالحرف اللاتيني عام ١٩٦١ باسم (ياره ــ شعر) وهذا الكتاب مطبوع بأحرف الأبجدية اللاتينية مضافاً إليها سبعة رموز جديدة وأحد عشر حرفاً لاتينياً زيد عليها إشارات خاصة حتى تؤدي أصواتاً مكان الحرفين الذين يؤديان في اللهجة اللاتينية صوتاً واحداً .

ويتابع سعيد عقل الدعوة المضطردة التي حمل لواءها : ميشال الفغالي وجبور عبد النور وأنيس فريحة .

وتجري هذه الدعوة في نطاق عزل لبنان عن الأمة العربية وإحياء الإقليمية وضمن المخطط التبشيري الاستشراقي المرسوم الذي سار فيه كثيرون من قبل مستهدفة قطع الماضي عن الحاضر وتحطيم الوحدة اللغوية في الأمة العربية . وقد لخص سعيد عقل دعوته في عبارات موجزة حين قال :

« علينا أن نترك لغة الكتب لنأخذ لغة الحياة وعلينا أن نترك فرع الهجاء الفينيقي المعروف بالحرف العربي ونعتمد فرعاً آخر منه كاللاتيني أو ما أشبه لا تعوزه تلك الحروف .

إن بقينا على لغة الكتب نكون قد استنكفنا عن مجاراة الناموس العام : الأخذ بما هو شاب وترك ما قد شاخ .

## الدكتور عمر فروخ

إن الدعوة الى اللهجة العامية مكتوبة بالحرف اللاتيني قديمة وقد حاول وضع رموزها وشيئاً من النماذج مستشرقون كثيرون لغايات علمية أو لمآرب سياسية .

وتأتي محاولة سعيد عقل مختلفة من ناحيتين :

في أن الرموز التي اعتمدها تختلف عن الرموز التي كان أولئك قد اعتمدوها ، أما الناحية الثانية فهي أن سعيد عقل قد دون برموزه لهجة هي لهجته الشخصية وقارىء الكتاب لا يستشعر أنه يقرأ لهجة قطر من الأقطار ، كما كنا نقرأ في جريدة الدبور البيروتية أو في مجلة المضحك المبكي الدمشقية أو في مجلتي الفكاهة والبعكوكة المصريتين ، أو في مجلة جيز نور البغدادية .

وكان أحدنا يقرأ أحياناً ويضحك لنكتة عامية أو تعبير محلي ، وكان الغالب على هذه المجلات العامية وما يكتب فيها أن يقرأها أشباه الأميين الذين تعالج هذه المجلات مشاكلهم التي يعانونها على مستوى يتفق مع قدر مداركهم اللغوية والأدبية .

وكان كل جماعة من هؤلاء يقرأون المجلة التي تصدر في صقعهم ، ولم يكن العامي المصري يقرأ جريدة الدبور أو مجلة جيز بوز ولا كان العراقي . الخ

ويأتي الآن سعيد عقل ليشق في حياة الأمة طريقاً جديداً : طريقاً له وحده لا يشركه فيه أحد ، كنا نقرأ شعر سعيد عقل باللغة الفصحى وبالحرف العربي فنجده أحاجي وألغازاً فما قولك بنا ونحن نقرأ شعره العامي بالحرف اللاتيني .

يبدو أن سعيد عقل شعر بهذا الحاجز بينه وبين الناس فلف كتابه الجديد برباط كتب عليه بالحرف العربي :

**( أول كتاب لبناني بالحرف اللاتيني )**

إن غير اللبناني لن يقرأ هذا الكتاب إذ ليس في مكنته ولو كان يعرف الأحرف اللاتينية الخمسة والعشرين ثم حفظ الرموز العشرين التي زادها سعيد عقل على الأبجدية اللاتينية أن يصل الى تلك الرموز المطموسة .

إن اللبناني العامي من أهل الجنوب ومن أهل بيروت أو طرابلس أو صيدا لن يقرأ فيما أظن هذا الكتاب . إن هذا الكتاب موضوع بلهجة لا تهز فيهم

حماسة ولا تدخل في قلوبهم متعة ، فالمتعة الأدبية كالمتعة الفنية : جو اجتماعي قبل أن تكون حروفاً ورموزاً .

إنني أدرك أن جهات خاصة ستصفق لصدور الكتاب لا على أنه إنتاج أدبي جديد ، بل على أنه محاولة من المحاولات التي يحبونها في ميدان النشاط الذي يقومون به ، ذلك أن الدعوة الى اللغة العامية بالحرف اللاتيني جاءت أولاً من الخارج .

إن هذا الكتاب سيمر أمام عيون أناس لا يرون فيه أكثر من محاولة لا تذهب الى أبعد من الكتاب الذي وضعت فيه ، ولكن هذا الكتاب امتحان قاس لأنصار العامية ولأنصار العامية بالحرف اللاتيني ولأنصار الأدب العامي أيضاً .

هذا الكتاب سيثير ضجة مصطنعة وراءها مآرب، تأخذ ما بين المشرق والمغرب من كل شيء إلاّ من القيمة الفنية للموضوع .

ذلك شيء هو آخر ما يفكر به أولئك الذين يحبون أن يروا مثل هذا الكتاب ماثلاً في الأسواق . لقد جاؤوا بمزحة فطبعوها بالحبر الأسود على ورق نفيس .

## ٨

### أنيس فريحة ( لبنان )

ينصب اهتمام ( الدكتور أنيس الخوري فريحة ) استاذ اللغات السامية بالجامعة الأميركية على دراسة اللهجة العامية والدعوة إليها مكتوبة بالحرف اللاتيني وقد بدأ نشاطه الجدي في اللهجة العامية بكتابه : معجم الألفاظ العامية في اللهجة اللبنانية عام ١٩٤٧ وفي عام ١٩٥٠ كتب مقال الأمثال العامية ( مجلة

الأبحاث م ٣ ) . وفي عام ١٩٥٢ نشر كتابه تبسيط قواعد اللغة العربية وتبويبها على أساس منطقي جديد .

وفي ١٩٥٥ كتب موضوعه المشهور :

هذا الصرف وهذا النحو : أما لهذا الليل من آخر

تمنى فيه أن يرى حاكماً عسكرياً سياسياً يفرض العامية على العرب ثم ألقى عام ١٩٥٥ محاضرات في معهد الدراسات العربية عن اللهجات وأساوب دراستها وأتبع ذلك محاضرة عن اللهجة اللبنانية .

وكتابه ( نحو عربية ميسرة ) حملة مركزة على اللغة العربية الفصحى وعلى الأدب العربي ، وتحدث بصفة خاصة عن صلة اللغة العربية بالقرآن الكريم .

## رأي الدكتور عمر فروخ

إن الخوري مارون غصن دعا إلى إحلال العامية مكان اللغة الفصحى . أما أنيس الخوري فريحة فدعا فوق ذلك الى إحلال الأحرف اللاتينية مكان الأحرف العربية .

ومع أن للدكتور أنيس فريحة نشاطاً أدبياً متعدد الجوانب الى حدٍ ما ، فإن اهتمامه الأول منصب على دراسة اللهجة العامية والدعوة إليها مكتوبة بالحرف اللاتيني ، ويستشعر القارىء من دعوة الدكتور فريحة نقمة شائعة وخصومة شديدة لمخالفيه في الرأي . نقمة وخصومة تبرزان حيث لا مبرر لبروزهما ولا لظهورهما .

بدأ الدكتور أنيس فريحة نشاطه الجدي في اللهجة العامية بكتابه :

( معجم الألفاظ العامية في اللهجة اللبنانية )

جمعها وفسرها وردها الى أصولها ، وقد صدر عن الجامعة الأمريكية

في بيروت عام ١٩٤٧ . إن مأخذنا على معجم الدكتور فريحة يتبدى في ناحيتين أساسيتين :

( أولاً ) قلقه النفسي الذي يتجلى في مقدمته فليس من حاجة في تقديم قاموسه الى أن يقول :

( ومسألة توحيد اللهجات في الجاهلية إنما هي خرافة إسلامية ( إن الدكتور فريحة يقصد أن الرأي القائل بأن العرب كانت لهم لغة واحدة في الجاهلية رأي نشأ بعد الإسلام ، ولكن الرجل طغى عليه قلقهُ النفسي وشيء من النقمة والخصومة ، فعبر عن فكرة قد تكون صائبة وقد نوافقه فيها الى حد كبير ، تعبيراً غير دقيق .

ب – قلة تقيده بالدقة التي يدعو إليها ، يقول الدكتور فريحة في المقدمة ( إن الشعراء والأدباء ورجال الدين كانوا ، عن وعي ، يغايرون القوم في لغتهم للظهور بمظهر خاص ، يعلو على مستوى العامة ، فكانوا يتخلون عن لهجاتهم المحلية الإقليمية ليقرضوا شعرهم أو ينثروا خطبهم باللغة الأدبية التي كانت لغة أدباء الجزيرة وشعرائها قبل أن تكون لغة قريش بالذات . وكان على هذه اللغة الأدبية التي نزل بها القرآن ان تكافح وتنازع غيرها من اللهجات واللغات ، ولم تنتصر انتصارها الباهر الكلي حتى قارب القرن الهجري الأول الزوال ) .

إن الذي يقوله الدكتور فريحة مخالف للواقع التاريخي . إن القرآن الكريم نزل باللغة التي كان يتكلمها العرب فعلاً وجَمَعَ لغاتهم .

وذلك بيّن جداً في القرآن الكريم في قوله تعالى :

( وما أرسلنا من رسول إلاّ بلسان قومه ليبين لهم ) سورة ابراهيم . والآيات على نزول القرآن الكريم باللغة التي تبين للناس يعيا عنها العد والحصر فنظرية الدكتور فريحة في هذا الشأن خاطئة من أساسها .

ثم إننا نلاحظ أن معجم الدكتور فريحه تنقصه مفردات كثيرة جداً وليس هذا بمستغرب ، ولكن المستغرب أن يكون الدكتور فريحة قد اعتبر جانباً واحداً من اللهجة التي يسميها لبنانية وكان الخوري مارون غصن — يسميها اللهجة السورية . هناك عشرات من الكلمات ومن معاني الكلمات التي أهملها الدكتور فريحة وليس من المعقول أن يكون جاهلاً بجريانها على الألسن ولكن في إحدى زوايا ذاكرته أمراً آخر وفي عام ١٩٥٠ كتب الدكتور فريحة مقالة عنوانها ( الأمثال العامية ) ودرس الأمثال العامية أمر ممتع مفيد ، ولا ريب في أن الأمثال مثل غيرها من الأشياء تحفظ وتنسى وتنبه وتخمل ، ولكن ما المرجح لهذه النقمة والخصومة اللدودة اللتين تدفعان باحثاً في سبيل موضوع في مجلة إلى أن يقول ( إن الكثرة الساحقة من الأمثال العربية التي حفظها لنا الأدب العربي قد ماتت ، ماتت لأن الحياة نبذت الكثير منها وما تنبذه الحياة لا رجعة له.

وفي نقده لقاموس الشيخ عبد الله العلايلي يقول :

( إنما نخالفه الرأي في ليونة اللغة العربية وطواعيتها وذلك لأنها تتصف بصفات بدائية احتفظت بها من شأنها أن تقف حاجزاً في سبيل كونها لغة الحياة اليومية وأشدها خطراً الإعراب الذي اتصفت به اكثر اللغات القديمة ، ولكنه سقط عنها عندما اصبحت هذه اللغات لهجات تعبر عن الحياة . وكل لغة ، كي تكون لغة صالحة حية تعبر عن الحياة ، يجب أن تسير سيرها الطبيعي ، ومتى سارت سيرها الطبيعي فإن إسقاط مالا قيمة بقائية له يصبح أمراً محتوماً ) .

والمفروض أن القاموس لا يتعرض للنحو ولا للإعراب وما كان للدكتور فريحة أن يستطرد الى ذكر ذلك لو لم يكن في نفسه ما يطغى على لسانه .

وفي عام ١٩٥٢ قدم الدكتور أنيس فريحة للطبع كتاباً عنوانه ( تبسيط قواعد العربية وتبويبها على أساس منطقي جديد ) .

وهو يعبر عن التيسير بأنه : هو التيسير الذي فرضته الحياة ( لو أن العرب

الأحياء أجمعوا على أن قواعد العدد هي قواعد العدد كما هي في عامية الناس لكان هذا تيسيراً حقيقياً بمعنى آخر التيسير هو ما يمس الجوهر (في اللغة العربية الفصحى) وها إن العامية مثلاً أسقطت الإعراب وبسطت التركيب ولنا في الأمر رأي سننشره قريباً للناس، لا ليأخذوا به، لأنهم لن يأخذوا به الآن وإنما ليكفوا عن هذه المحاولات الفاشلة.

وفي عام ١٩٥٥ انفجر الدكتور فريحة بمقال في مجلة الأبحاث عنوانه :

(هذا الصرف ! وهذا النحو ! أما لهذا الليل من آخر).

فحواها معروف من عنوانها، إن معظمها تهكم سمج، غير أن الدكتور فريحة يتمنى هنا أن يرى عاملاً عسكرياً سياسياً يفرض اللغة العامية على العرب.

وأنا أذكر أن الدكتور أنيس فريحة كان يعلم التاريخ القديم أو الحديث في الجامعة الأميركية، ولعله يذكر أن البلاد العربية عرفت جميع أنواع العوامل العسكرية : الإنجليز والإفرنسيين والطليان، وعرف لبنان الأسطول الأمريكي عام ١٩٥٨، ولقد كان عدد الذين تعلموا العربية من الفرنسيين مثلاً أكثر من الذين تعلموا الفرنسية من العرب.

وألقى الدكتور أنيس فريحة في معهد الدراسات العربية العالية التابع لجامعة الدول العربية محاضرات عن اللهجات وأسلوب دراستها. المحاضرات، في الحقيقة، هي ملخص لكتبه ومقالاته السابقة مع شيء يسير من التوسع والتحليل والاستطراد طبعاً.

وفي العام ١٩٥٥ نفسه أعاد الدكتور أنيس فريحة ترتيب المواد التي جاءت في كتبه ومقالاته السابقة وأخرجها للناس في كتاب جديد سماه (نحو عربية ميسرة).

وفي هذا الكتاب حملة مركزة على اللغة العربية الفصحى وعلى الأدب

العربي . وليس من جديد في هذا الكتاب سوى الكلام على صلة اللغة العربية الفصحى بالقرآن الكريم .

قال الدكتور فريحة : ونعتقد أن المجتمع الإسلامي الأول نسبة لإعجابه بهذه اللغة ونسبة لمقام القرآن الكريم في نفوسهم ، جهدوا في أن يجعلوا من هذه اللغة التي نزل بها القرآن الكريم لغة الناس اليومية ، يدلك على ذلك مبلغ الجهد الذي أنفق في سبيل ضبط أحكام هذه اللغة ، وفي محاربة اللحن ، وفي إصرار المقامات العليا على أن تكون هذه اللغة الدواوين والكتاب والمنشئين » .

إننا نعلم أن الذي يزعج الدكتور فريحة ليس اللغة العربية الفصحى وحدها ، بل يزعجه فيما يبدو لنا بقاء القرآن وبقاء الإسلام ببقاء القرآن — وهذه شكوى تبشيرية واستعمارية قديمة . ونحن لا ننسب شيئاً من ذلك الى الصديق الدكتور فريحة لأننا نعلم من تاريخ النقد أن اتفاق اثنين على قول واحد ليس من الضروري أن يكون أحدهما قد أخذه عن الآخر ، بل يمكن أن يكونا قد أخذاه من مصدر واحد سابق عليهما كليهما كما يمكن أن يكون توارد خواطر أصيلاً منهما وحدهما . ويبدو أن القرآن الكريم هو الذي يسد على الدكتور فريحة مذاهبه فنراه يصرخ بما كان قد كتمه طويلاً فيقول : ولكن للناس أن يسألوا : ماذا سيحل بالقرآن الكريم ، وماذا سيحل بالأدب القديم ، وجوابنا هو أن القرآن الكريم سيخلد وسيبقى على ما هو عليه كما بقيت كتب دينية عديدة رغم انحراف لغة الناس عن لغة هذه الكتب . وها هي الكنيسة الكاثوليكية ، فإنها تعتبر الترجمة اللاتينية للتوراة لغة الكنيسة الرسمية ولا يكون القداس إلاّ باللغة اللاتينية ، ومثل هـذا في الكنيسة الأرثوذكسية التي حافظت على اللغة اليونانية التقليدية ، والكنيسة المارونية التي احتفظت باللغة السريانية والكنيسة المسيحية الحبشية التي احتفظت باللغة السامية القديمة المعروفة بالجفر .

« على أن الفارق بين الكنائس التي احتفظت بلغاتها القديمة وبين الإسلام

عظيم جداً ، وذلك لأن العامية (العربية) المهذبة المحكية لا تختلف عن لغة القرآن الكريم اختلاف السريانية عن العربية أو الاغريقية عن العربية أو اللاتينية عن الفرنسية ولقد تكون لغة القرآن الكريم غريبة على أفهام الناس وسيظل الناس يتلونه ويحفظونه غيباً ويدرسون صرفه ونحوه وسحر بيانه كما يفعلون اليوم ، وسيظلون يقرأونه ويستظهرونه تبركاً ، هذا فيما يتعلق بالمستقبل القريب ولكن ما سيحدث في المستقبل البعيد بعد مئات السنين ، هنا ندخل في نطاق الحدس والتخمين » .

بمثل هذا الغرور يتكلم الدكتور أنيس فريحة عن اللغة والأدب والإسلام والقرآن ، ولكن الدكتور فريحة يعلم علم اليقين أن كتبه ليست الحجارة الأولى التي تساقطت على العرب والعروبة وعلى القرآن الكريم والإسلام . نحن مع الدكتور فريحة في أن اللغة لا يضيعها شخص ولا جماعة ، ولكن عليه أيضاً أن يعلم أن اللغة لا يبدلها شخص ولا جماعة ما دام هناك قوانين طبيعية تعمل في كل كائن حي . فما باله يريد أن يتدخل في القوانين الطبيعية ؟

ويستشهد الدكتور فريحة دائماً بما آلت إليه اللغات القديمة في أوربة ثم يتمنى أن يطبق على اللغة العربية ما صار إليه أمر اللغة اللاتينية ، وأنا أعتقد أن الدكتور فريحة يعلم أن نشأة اللغات الحديثة في أوربة على أنقاض اللغة اللاتينية كان مرتبطاً الى حد بعيد بالثورة الدينية على البابوية وبالثورة السياسية على سلطة الكنيسة فالألمانية والإنكليزية والإسوجية والنرويجية كانت ترتبط بتينك الثورتين.

ولم تكن نشأة الفرنسية والإيطالية والإسبانية بعيدة عن ذلك كثيراً .

ثم يتجاهل الدكتور فريحة أمراً في غاية الخطورة أن الإسوجيين والنروجيين والدنماركيين والألمان والفرنسيين والإسبانيين والبرتغاليين والإنجليز لم يكونوا لاتيناً ولا كانت اللاتينية يوماً لغة لهم ، وإنما كانت لغة جيوش محتلة نزلت في أراض غريبة ثم تشوهت في تلك الأراضي حيناً ثم ماتت .

أما أهل الشام والعراق فعرب تكلموا هذه اللغة من زمن قديم وحينما كان حسان بن ثابت والنابغة الذبياني يأتيان إلى الشام والعراق يمدحان الغساسنة والمناذرة فإنما كانا يمدحانهم باللغة العربية لا باللغة السريانية .

واللغات اليونانية واللاتينية والفارسية كانت لغات عربية في الشام والعراق ، أما الآرامية ، أو السريانية في أحد أوجهها فكانت أيضاً لغة احتلال قديمة ثم لغة مذهب جرت به سنة الطبيعة وجاء العرب من الجزيرة ينقذون إخوتهم الذين سبقوهم في الهجرة من نير الفرس والروم البيزنطيين فجمع الله الشمل ورأب الصدع ثم عاد الجميع يتكلمون لغتهم الأولى الصافية فليس من الحق يا أخي أنيس أن تتنكر للغة التي تأكل بها خبزك وحرام أن يجزى الإحسان بالإساءة والنعمة بالكفران .

# الفصل الخامس

## الرد على أعداء الفصحى وتزييف دعواهم

استثارت قضية العامية أقلام المؤمنين باللغة العربية ودفعتهم الى كشف الزيف وإقرار الحقيقة وإبراز الآثار العميقة المترتبة على الدعوة الى العامية والخلفيات القائمة وراءها .

### ١

### الرافعي والجملة القرآنية

نبهتني إحدى الصحف العربية التي تصدر في أمريكا عندما تناولت الكلام على ( رسائل الأحزان ) بقول جاء في بعض معانيه ، إني لو تركت ( الجملة القرآنية ) والحديث الشريف لكان ذلك أجدى علي وملأت الدهر ثم لحطمت في أهل المذهب الجديد حطمة لا يبعد في أغلب الظن أن تجعلني مذهباً وحدي .

وقد وقفت طويلاً عند قولها ( الجملة القرآنية ) فظهر لي في نور هذه الكلمة ما لم أكن أراه من قبل .

وإذا أنا تركت الجملة القرآنية وعربيتها وفصاحتها وسموها وقيامها في

تربية الملكة وإرهاف المنطق وصقل الذوق مقام نشأة خاصة في أفصح قبائل العرب وردها تاريخنا القديم إلينا حتى كأننا منه وصلتنا به حتى كأنه فينا ، وحفظها لنا منطق رسول الله صلى الله عليه وسلم ومنطق الفصحاء من قومه حتى لكأن ألسنتهم هي عند التلاوة تدور في أفواهنا ، وسلائقهم هي تقيمنا على أوزانها ، إذا أنا فعلت ذلك ورضيته أفتراني أتبع أسلوب الترجمة في الجملة الإنجيلية ، وأسفّ الى هذه الرطانة الأعجمية المعربة وأرتضخ تلك اللكنة المعوجة وأعين بنفسي على لغتي وقوميتي وأكتب كتابة تميت أجدادي في الإسلام ميتة جديدة وتنقلب كلماتي على تاريخهم كالدود يخرج من الميت ولا يأكل إلاّ الميت وأنشىء على سنتي المريضة نشأة من الناس يكون أبغض الأشياء عندها هو الصحيح الذي يجب أن يكون أحب الأشياء إليها .

كنت أعرف أن الكاتب البليغ المدقق الشيخ إبراهيم اليازجي لما أرادوه على تصحيح ترجمة الأناجيل رغب إليهم أن يصرّف قلمه في الترجمة وينزلها منزلتها من اللسان ويتخير ألفاظها ويزيل عجمتها ويخلصها من فساد التركيب وسوء التأليف ويفرغ عليها جزالة ويجعل لها حلاوة ، فأبوا عليه كل ذلك ومنعوه منه وأقاموه فيها بمنزلة من يعرب آخر الكلمة فعليه أن يترك الكلمة إلا آخرها .

كنت أعرف ذلك وما فطنت يوماً الى سببه ، حتى كانت قولة ( الجملة القرآنية ) كالمنبهة عليه . فرأيت القوم قد أثمرت شجرتهم ثمرها المر وخلف من بعدهم خلف أضاعوا العربية بعربيتهم وأفسدوا اللغة بلغتهم ودفعوا الأقلام في أسلوب ما أدري أهو عبراني الى العربية أم عربي الى العبرانية ولا يعرفون غيره ولا يطيقون سواه . وترى أحدهم يهوي باللغة الى الأرض وانه عند نفسه لطائر بها في طيارة من طراز زبلن .

ومرجع هذا البلاء كله : أن عربية الجملة الإنجيلية تغزو عربية الجملة القرآنية من حيث يدري أولئك أو لا يدرون فما أشبه هذه الأساليب الركيكة

في مقرها من الآداب العربية بالمرض الموروث الكامن في الجسم الصحيح يتربص غفلة أو علة أو تهاوناً فيظهر فإذا هو مشغلة للصحة ثم يستشري فإذا هو مفسدة لها ثم يضرب فيتمكن فإذا هو مزاج جديد ثم إذا هو الموت بعد .

على أني لا أعرف من السبب في ضعف الأساليب الكتابية والنزول باللغة دون منزلتها إلاّ واحداً من ثلاثة : فإما مستعمرون يهدمون الأمة في لغتها وآدابها لتتحول من أساس تاريخها الذي هي أمة به ولن تكون أمة إلاّ به ، وإما النشأة في الأدب على مثل نهج الترجمة في الجملة الإنجيلية والانطباع عليها وتعويج اللسان بها ، وإما الجهل من حيث هو الجهل أو من حيث هو الضعف فإنه ليس كل كاتب ينبغ ولا كل من ارتهن نفسه بصناعة نبغ فيها ، وإن هو نسب إليها وإن عد من طبقة أهلها والكتابة صناعة لها أدواتها وفيها النمط الأعلى والأوسط وما دون ذلك .

إن هذه العربية بنيت على أصل سحري يجعل شبابها خالداً عليها فلا تهرم ولا تموت لأنها أعدت من الأزل فلكاً دائراً للنيرين الأرضيين العظيمين : كتاب الله وسنة رسول الله صلى الله عليه وسلم ومن ثم كانت فيها قوة عجيبة من الاستهواء لا يملك معها البليغ أن يأخذ وأن يدع ، وأنا أتحدى كل أصحابنا الذين أشرت إليهم أن يأتوني بكاتب واحد تنقل في منازل البلاغة وأطاق أساليب الكتابة العالية ثم نزل منها الى الركاكة أو المذهب الجديد أو ما شئت من الأسماء ولزمها مذهباً وجعلها طريقة .

فأما أن لا تقدر يا أبا خالد وتزعم العفة ، وتعجز ثم تجنح الى الرأي ، وتضعف ثم تتمدح السلامة ، فهذه أساليب ابتدعها من قبلك ثعلب من أذكياء الثعالب وزعموا أنه اقتصر على القول بأن العنقود حامض .

وكيف تريد ممن عجز عن الفصيح أن يثني عليه وهو لو أثنى عليه لطولب به . ولو طولب به لبان عجزه وقصوره ، ولو ظهر الناس منه على العجز

والقصور لما عدوه في شيء ولذهب عندهم قليل ما لا يحسنه بالكثير الذي يحسنه (١) .

## ٢

## شكيب ارسلان

علق الأمير شكيب أرسلان على الجملة القرآنية فقال :

نعم إن وراء الأكمة ما وراءها ، وإن هناك دسائس خفية تظهر بعض أطرافها في هذه الجملة ، ولكن دعني أقول لك إنه ليس مرادهم العدول الى الركاكة ولا مناصبة القرآن العداوة لمجرد كونه فصيحاً . وليس الأمر من قبل ما ذكره أحمد فارس في ( الفارياق ) من أن بعض خدمة الدين ممن كان يتكلم عنهم يتبركون بالركيك من القول ويستوحشون من العربي الجزل البليغ ولا هو من نمط ما رواه في (كشف المخبا في فنون أوربا ) من أنه كان يعرب التوراة وهو في انكلترا فكان يقف على الترجمة العربية قسيس انجليزي شدا شيئاً من العربية فكان كلما رأى لأحمد فارس جملة شم فيها رائحة الفصاحة مسخها واستبدل بها جملة ركيكة ، فكان الشدياق يعجب من أمره ؛ وقد نقل عنه من هذا النسق جملاً يستغرب لها الإنسان من الضحك إذ كيف كان القسيس يتعمد قلب العالي بالساقط والجيد بالرذل تعمداً ويتهافت على الركيك تهافت الذباب على الحلواء ويصرح بأنه إنما يتوخى بذلك إبعاد الكلام عن شبه القرآن

إن هذه الفئة لا تمج الفصاحة من حيث هي ولا تدين بالركاكة التي كان

---

(١) إن الذين عنوا بنقل العهدين القديم والجديد إلى العربية زمن الدولة العباسية كانوا يختارون لترجمتها أقلاماً بليغة تلبس معانيها ديباجة من القول تليق بأسفار يكثر سواد الناس من تلاوتها ، فتنطبع في ذاكرتهم أساليبها وتتربى ألسنتهم على ملكاتها ولو كان للذين تولوا هذا الأمر في القرنين الأخيرين غيرة اليازجي على هذه الأسفار لكان لهم مثل رغبته في غير ألفاظها ووشي ديباجتها .

يدين بها قسوس أحمد فارس فيسخر بهم ما يسخر ولا تحارب اللغة العربيّة نفسها ولكنها تحارب منها القرآن .

إن هذه الفئة تحارب القرآن والحديث وجميع الآثار الإسلامية وتريد أن تتبدل بها كلام الجاهلية وكلام فصحاء العرب حتى المخضرمين والمولدين ، وكل كلام لا يكون عليه مسحة دينية وهذه الفئة قد تعددت غاياتها في هذا المنزع ولكن قد اتفقت في الوسائل ، فمنها من لا يجهل بلاغة القرآن وجزالته وكونه من العربية بمنزلة القطب من الرحى ولكنه يدس الدسائس من طرف خفي لإقصائه عن دائرة الأدب العربي وتزهيد الناشئة فيه بحجة كونه قديماً وأن كل قديم فهو بال .. حتى إذا تم لهم ما يبغون من غض مكانة القرآن في صدور الناس يكونون قد طعنوا الإسلام طعنة سياسية في أحشائه ، على حين يزعمون أن الموضوع موضوع أدبي لغوي لا مدخل للسياسة فيه فيزلقون بهذه الدعوى المدحاض كثيرين ممن لو تفطنوا لما وراء هذه الدعاية البارزة في زي لغوي أدبي في المآرب السياسية الخبيثة لكانوا منها على حذر بل لانقلبوا عليها وصاروا قرآنيين .

هذه الدسيسة التي ظهر لكم مكنونها جملة واحدة إن هي إلا حلقة لغوية من سلسلة دسائس مقصود فيها الإسلام لا القرآن من حيث كونه قرآناً ولا الفصاحة من حيث كونها فصاحة .

إن الوجوه الثلاثة متوفرة في السبب ولكن الوجه الأول هو أقواها وأصحاب هذا الوجه منهم من يريدون هدم الأمة في لغتها وآدابها خدمة لمبادىء الاستعمار الأوربي ومنهم من يشير باستعمال العامية بحجة أنها أقرب الى الأفهام ولكن منهم من لا يحاول هدم الأمة في لغتها وآدابها ، لا حباً باللغة وبالآداب ، ولكن علماً باستحالة تنصل العرب من لغتهم وآدابهم ، ولذلك نرى هؤلاء دعاة إلى اللغة والآداب على شرط ألا يكون ثمة قرآن ولا حديث وأن تكون الصبغة لادينية .

وحجتهم في ذلك حب التجدد وكون القرآن والحديث كلمات السلف من القديم الذي لا يتلاءم مع الروح العصرية في شيء ، وآخرون حجتهم في ذلك النزعة القومية التي بزعمهم تناقض النزعة الدينية . وهؤلاء يقولون إن الدين والمعاصرة نقيضان لا يجتمعان ، فأما إذا سألهم سائل قائلاً : إنكم وأنتم من دعاة التجدد ومن قراء الآداب الأوروبية لا تنكرون أن كتاب أوربا آدابهم كلها مأخوذة من اللغات القديمة كاليونانية واللاتينية وأن آيات التوراة والإنجيل تدور على ألسنتهم وأقلامهم جارية فيها مجرى الأمثال لا يكاد يخلو منها خطاب ولا كتاب .

وإنما نريد أن نثبت كون التجدد والمعاصرة لم يمنعا بقاء لغات أوربا وآدابها على صيغتها القديمة ومآخذها من التوراة والانجيل ومن شعراء يونان وخطباء رومــــة .

يتدر العربي أن لا يكون صحيح العقيدة ولا مسلماً ويكون نصاب اللغة عنده القرآن والحديث وكلام السلف لأنها هي الطبقة العليا التي يصح أن تكون مثالاً ، ولكن ليس هذا مراد هذه الفئة التي تريد حرباً وتوري بغيرها ، تبغي نقض قواعد القرآن التي هي السد الأمنع الحائل دون الاستعمار والثقافة الأجنبية بفروعها ، ويأتي ذلك عن طريق نبذ القديم والبالي والأخذ بالجديد والحــــالي .

ولا يوجد من يتنبهون لذلك ويعلمون مرمى الدعاية بل إن كثيراً من ناشئتنا ومن عامتنا هم من فخ الى فخ . ومن جملة الأشراك أن القرآن حائل دون القومية العربية لا يفسح لها مجالاً ، فتراهم يبيتون له العداوة ؛ وأمراض العقول كثيرة ، ولكن أمراض القلوب هي التي لا حيلة فيها ، وإنما هم يؤثرون الشيء إذا علموا أن بعض الأمم الإفرنجية أخذت به .

## ٣

## حقي المحتسب

( الشبهة الأولى ) :

إن اللغة ليست إلاّ مجرد وسيلة للتفاهم وليست غاية في ذاتها .

ونحن لدى إمعان النظر نتبين أن تأييد هذا المستند لدعواهم لا يقوم إلاّ إذا حصرنا الموضوع في حدود ضيقة من الزمان والمكان ، أما إذا نظرنا الى القضية من خلال زوايا متعددة وفي نطاق واسع فسوف نجد أن حجتهم الأساسية يمكن استخدامها لنقض دعوتهم من أساسها ، وبهذا تنقل الحجة من يدهم وتتحول سلاحاً في جانب خصومهم وبذلك تحمل تلك الدعوة في كيانها عوامل موتها وفنائها .

ولكي يظهر لنا ما في حجة أولئك الدعاة من التهافت والتناقض وما في دعوتهم من الخطأ والضرر يجدر بنا أن نلم ببعض خصائص العامة وما يقابلها من خصائص الفصحى واللغات الأخرى ثم نوازن بين هذه الخصائص .

## ٤

الكلام على بعض خصائص العامية والفصحى واللغات الأخرى :

(ا) إن أبرز ما يلفت نظر الباحث في أحوال اللغة العامية مظاهر اختلافها تبعاً للأمكنة وسرعة تحولها تبعاً للأزمنة .

ذلك لأنها لغة غير مقيدة بأصول مدونة ثابتة مشتركة ، وإنما تخضع في ألفاظها ومصطلحاتها ومدلولاتها وقواعدها لطوارىء الظروف الاعتباطية

والمصادفات العفوية كالتأثر باللغات الأعجمية المتعددة التي صادفتها العربية إبان الفتوحات الإسلامية أو التأثر بلغات الأعاجم الذين سيطروا على البلاد العربية إبان ضعفها أو الذين أتوها مهاجرين من بلادهم الأصلية .

وقد أدى ذلك الاختلاط اللغوي الى فساد السليقة الصافية التي كانت مصونة ضمن الجزيرة العربية قبل مخالطة الأعاجم ، فلما تشوهت تلك السليقة الصحيحة ظهرت العامية تمثل العربية الممسوخة .

وقد نشأ من تفاعل اللغة العربية مع اللغات الأجنبية المتباينة لغات عامية كثيرة العدد متمايزة اللهجات في مختلف الأقطار العربية .

وهذه العاميات لا تختلف بين قطر وقطر فحسب ، بل إنها تختلف في القطر الواحد اختلافاً محلياً من مدينة الى مدينة ومن قرية إلى قرية وقد تتباين الفروق بين اللهجات والمصطلحات العامية تبايناً كبيراً حتى إذا التقى الرجلان العاميان من بيئتين عربيتين مختلفتين تعذر عليهما التفاهم في حديثهما .

(ب) وكما تختلف العامية بحسب المكان تختلف كذلك في المكان الواحد بحسب الزمان فليست المصطلحات العامية التي يألفها اليوم عوام دمشق مثلا هي في جملتها المصطلحات التي كانت معروفة لديهم قبل حين من الزمن ولن تدوم هي نفسها بعد حين .

فالعامية في تغير مستمر سريع نسبياً ، ولكن إلى أين يتجه هذا التغير ! إن هذه اللغات تولدت تدريجياً من أم واحدة ، أخذت كل منها تتجه نحو الاستقلال بنفسها وتكوين شخصية لها قائمة بذاتها لها خصائصها ومميزاتها ، وستكون كل لغة منها بالنسبة للأخرى كأنها لغة أجنبية خاصة . كما هي الحال مثلاً في اللغات اللاتينية التي انحدرت من أصل واحد وتفرعت في بيئات أوربية مختلفة حيث استقلت عن أصلها بالتدريج كما استقل بعضها عن بعض فغدت كل منها لغة أجنبية بالنسبة لسائر أخواتها وأمها .

وليس معنى ذلك أن تلك اللغات الفرعية قد وصلت في وضعها الراهن الى طور نهائي ثابت لا يتغير بعده ، بل إنها لا تزال تتغير ألفاظها ومفاهيمها ومصطلحاتها وقواعدها جيلاً بعد جيل حتى انه ليتعذر على أهل الجيل الحديث منهم أن يفهموا آثار كتابهم وشعرائهم المتقدمين إلاّ بعد الاستعانة بالمفاهيم التاريخية وترجمة النصوص الأدبية والفلسفية والعلمية من لغتها القديمة الى لغتها الحديثة .

(ج) وإذا أردنا الموازنة بين مميزات اللغة العربية واللغات الأجنبية نلحظ أن العربية تتميز بوضع خاص دون سائر اللغات في العالم .

* * *

والآن نتساءل :

ما هي النتائج الحسنة والسيئة التي تنجم عن استعمال العامية للتأليف والكتابة وهل تكون مشكلة اللغة قد انحلت نهائياً بهذا الاستبدال . وما مقدار النسبة بين الربح والخسارة لدى احتلال العامية مكان الفصحى ، ومن يكون الرابح الحقيقي أخيراً من هذا الاحتلال .

والإجابة :

( أولاً ) : اتخاذ اللغة العامية للحديث والكتابة يتيح التفاهم موقتاً في بيئة محدودة وزمان محدد .

( ثانياً ) : إن التفاهم في البيئات العربية المختلفة يحتاج في المستقبل الى تأليف معاجم للغات العامية كما هي الحال في اللغات الأجنبية . وإذا أراد الرجل العربي في مقتبل الأيام أن يقرأ صحيفة أو كتاباً صادرين من غير بيئته وجب عليه الاستعانة بالمعجم لترجمة اللغة العامية الأجنبية الى اللغة العامية المحلية وهو بحاجة الى عدد من المعاجم يساوي عدد اللغات العامية التي يترجم منها وإليها .

(ثالثاً) : بما أن كل لغة : عامية ثابتة في أوضاعها فهي في حاجة الى معجم تاريخي خاص بها يبين تغير معاني ألفاظها ومصطلحاتها وقواعدها بحسب الزمن كي يستطيع الخلف أن يفهم ما كتب السلف ويترجم لغة آبائه العامية الى لغة العصر الذي يعيش فيه ، وبغير هذه الترجمة لا تتصل الوحدة الفكرية بين الأجيال المتعاقبة .

وكذلك الأمر في اللغات الأجنبية الحية في عصرنا الحاضر ، تلك اللغات التي ليس لها مرجع ثابت يصونها من التغير والاختلاف . قال أحد المستشرقين الألمان : إن اللغة العربية تتميز على سائر اللغات بثبات عجيب لا مثيل له في غيرها ، فهي خير وعاء لحفظ الفكر على مر الزمن دون أن يتشوه بالترجمات المتوالية وينااله التحريف .

ولذلك يدعو قومه الى استخدام العربية لتدوين الآثار الفكرية التي تبنى عليها الحضارة وتستحق الخلود .

(رابعاً) : إن الأخذ باللغة العامية يقطع حاضر العرب ومستقبلهم عن ماضيهم ، فلا يمكن الأجيال القادمة أن تتفهم تراث الماضي المدون باللغة الفصحى إلاّ إذا نقل هذا التراث الى مختلف اللغات العامية ، على أن ذلك النقل يتطلب من الأوقات والجهود والنفقات ما لا قبل لأحد به ولا سيما إذا علمنا أن التراث الإسلامي العربي ضخم جداً لأنه نتاج أربعة عشر قرناً في ظلال امبراطورية واسعة الأرجاء .

ثم لنر اذا تم النقل من العربية الفصحى الى اللغات العامية برغم العقبات الاقتصادية والعلمية والفنية والزمنية التي تعترض سبيله .

— نرى أن ذلك النقل يحتاج إلى تجديد في كل وقت تأخذ فيه اللغات العامية طوراً جديداً مما يستلزم العودة الى بذل الأموال والجهود والأوقات عند كل نقل حديث .

وتلك خسارة لا بد من تكرارها للإبقاء على الاتصال الفكري مستمراً بين حلقات الأجيال .

والنقل المتكرر لا بد أن يشوه روح النصوص ، ويبعدها بالتدريج عن أصلها الصحيح ، فإذا أراد الدارس أن يتأكد من صحة النقل فلا مناص له من الرجوع الى الأصل أو الأصول المنقول عنها يدرسها بلغاتها العامية القديمة .

( خامساً ) : لم تبلغ العامية من النضج والضبط والإحكام مستوى اللغة الفصيحة ، ولا يمكن أن نعدها لغة علم وفكر ، وإنما هي لغة بدائية ( خام ) بعيدة عن الصقل ، وذلك لأنها لم تتمرن على النهوض بأعباء الحياة العملية والفكرية بينما كانت ( الفصحى ) حاملة رسالة العلم والأدب والفلسفة أعقاباً طويلة فاكتسبت من ذلك صقلاً ومرونة وتجاوباً مع الفكر والشعور في مظهرها الرفيـــع .

فالعامية أعجز من أن تقفز الى المستوى الذي تحتله الفصحى منذ دهر طويل ؛ زد على ذلك أن العامية لا مناص لها من الانحصار في بيئة ضيقة محلية فلن يتاح لها ما أتيح للعربية من الرقي والنضوج في شيوعها إذ إن شيوع العقيدة الإسلامية كان سبباً في شيوع العربية التي تحمل العقيدة فاشترك في الإنتاج بلغتها أمم مختلفة ، وهذا الشيوع اللغوي أدى الى زيادة طواعية اللغة ومرونتها للتعبير عن كل مطالب الفكر الإنساني .

فقد هضمت اللغة العربية إبان الازدهار كل ما أمدتها به الحضارات الأخرى من آثار العلم والأدب والفلسفة فأحاطت بها إحاطة محكمة ، وعبرت بطلاقة وبراعة عن كل مطالب الحياة المادية والنفسية والروحية .

وبالجملة فإن مزايا العربية (١) المرونة العجيبة ومطاوعة الاشتقاق وقابلية الحياة . (٢) القدرة على مجاراة كل ظرف . (٣) ملابسة كل زمان ومكان .

( سادساً ) : قد تكون في العربية بعض المصاعب التي لا تخلو منها لغة

من اللغات الأخرى ، بل إن بعض اللغات الحية الغربية تعاني من المصاعب في اضطراب القواعد وكثرة الشذوذ وفوضى الإملاء مالا نجده في العربية . ومع ذلك لم نسمع تلك الأمم التي تخدم قوميتها تضج بالشكوى والتذمر والثورة على لغتها القومية .

إن كثيراً من الصعاب التي تصادف المبتدىء في تعلم العربية ترجع الى فساد الطرائق المتبعة في التعليم وعدم التبسيط في كليات شاملة مضطردة ، أما الصعوبة الناجمة عن نقص اللغات في المسميات الحديثة فهذا أمر يمكن تداركه ، وليس هو نقصاً في جوهر اللغة : ولكنه « عرض » وشقة الخلاف بين العامية والفصحى تأخذ بالضيق بقدر ما تنتشر الثقافة بين أفراد الأمة فتقرب العامية من أصلها العربي وليست الفصاحة تناقض معنى السهولة والبساطة .

ولا ينبغي أن يحملنا التساهل الى درجة التفريط في اللغة والأخذ بالنظرية المتطرفة القائلة : ( الخطأ المشهور خير من الصواب المهجور ) .

والخلاصة :

( ١ ) إن العامية لا يمكنها أن تحقق « التفاهم » الذي هو الغرض من اللغة بل إنها تحول دون التفاهم بين أبناء الأقطار العربية أو أبناء القطر الواحد : والتفاهم بين أهالي الأقطار حجة للغة لا للعامية .

( ٢ ) ليس في اتخاذ العامية توفير للوقت والجهد كما يتوهمون إذ يضطر الناس في المستقبل الى دراسة أطوار العامية لكي يفهموا النصوص المكتوبة في عهد سابق ، كما يضطرون الى دراسة العاميات المجاورة لهم كما ندرس نحن اليوم اللغات الأجنبية .

وتشمل مكان دراسة قواعد اللغة الفصيحة الواحدة ، دراسة قواعد العاميات المتعددة ، وبذلك تزداد الدراسة اللغوية تعقيداً وارتباكاً وصعوبة من حيث يظن التسهيل وتوفير الوقت والجهد .

( ٣ ) إن فضل اللغة الفصحى وأياديها البيضاء على الحضارة العربية والثقافة البشرية خلال ما تنتج مجيد مما يجعل العامية أضأل شأناً من أن تقاس إلى الفصحى ، وإن المزايا اللغوية التي تتمتع بها العربية لا يمكن أن تقاس بها مزايا العامية .

( ٤ ) إن وراء هذه الدعوة خطراً وضرراً على الأمة العربية هو أنها تؤدي الى إضعاف أواصر الوحدة القومية بين أجزاء الوطن العربي ، كما تؤدي الى إضعاف الوحدة الروحية بين أتباع العقيدة الإسلامية .

وهذا التهديم في القومية والعقيدة هو ما يهدف إليه شياطين الاستعمار من وراء مؤامراتهم ودعواتهم المدسوسة يؤازرهم في ذلك أعوانهم من المبشرين والمستشرقين والإرساليات والمنظمات الثقافية ، ينفثون سمومهم في النفوس البريئة باسم العلم والإصلاح فيصرفون الناشئة عن التمسك بكل ما من شأنه أن يضعف سيطرة الاستعمار الثقافي والاقتصادي في البلاد التي يطمع المستعمرون في إخضاعها لنفوذهم .

وإن رواج هذه الدعوات السامة ربح كبير لأعداء العروبة والإسلام وخسارة فادحة على العرب والمسلمين .

( ٥ ) لقد وجدنا للعربية وصفاً خاصاً يميزها عن سائر لغات العالم قديمها وحديثها ، وهذا الوضع المتميز قد أحنق المستعمرين وغاظهم وجعلهم ينقبون في ابتكار وسيلة لتهديمه وتحطيمه .

( ٦ ) إن القرآن الكريم هو الكتاب الديني الوحيد الذي احتفظ بلغته الأصلية وحفظها على قيد الحياة وسيحفظها على مر الدهور وستموت اللغات الحية المنتشرة اليوم في العالم ، كما ماتت قبلها لغات حية كثيرة في سالف العصور ، إلاّ العربية فسوف تبقى بمنجاة من هذا الموت وستبقى حية في كل زمان مخالفة النواميس الطبيعية التي تسري على سائر لغات البشر . ولا غرو فإنها متصلة بالمعجزة القرآنية الأبدية ، فالكتاب العربي المقدس هو الحصن الحصين

والملجأ الثابت الأمين الذي تحتمي به اللغة العربية ، ويصون وحدتها ويجعلها تقاوم أعاصير الزمن وعواصف السياسة المعادية ودسائسها الهدامة .

إنه الكتاب الأول للعربية والعروبة ، كما أنه الكتاب الأول للرسالة الإنسانية الخالدة التي حملت أمانتها العربية والعروبة(١) .

## ٤

دكتور محمد محمد حسين : مجامع اللغة وحربها للفصحى ودعوة طه حسين

لقد تشكلت مجامع اللغة في مواجهة التحديات التي بدأها أنصار العامية سواء من المستشرقين أم من أتباعهم ، ولكن مع الأسف استطاع خصوم اللغة العربية أن يثبتوا إلى هذه المجامع وأن يسيطروا عليها ، وأبرز خصوم العربية طه حسين ، أحمد لطفي السيد، عبد العزيز فهمي وأمين الخولي ، كانوا من أبرز رجال هذه المجامع وتولى بعضهم شؤون الرئاسة سنوات طويلة .

وقد كشف الدكتور محمد محمد حسين مخططات مجامع اللغة وكيف أنها تابعت الدعوة إلى العامية حين عرض لمؤتمر المجامع الذي عقد في دمشق وأشار إلى أن هناك عدداً من الموضوعات التي طرحت كان كلها يجري في اتجاه (١) الدعوة إلى العامية .

(٢) تبديل الخط العربي .

(٣) وقواعد النحو والصرف والبلاغة .

وأهمها مقال أحمد حسن الزيات (مصر) وعلي حسن (الأردن) وأحمد عبد العليم (تونس) واقتراح إبراهيم مصطفى في كتابه الهمزة والألف اللينة

---

(١) المعلم العربي ، آذار ١٩٥٤ .

ومبحث طه حسين عن تسيير القواعد في اللغة ومنير العجلاني في أثر اللغة في وحدة الأمة .

وقد رفض المؤتمر الأخذ بشيء من هذه الآراء المعوجة والدعوات الشعبية فقد دعا الزيات إلى تسهيل وتطوير الفصحى حتى تقترب من العامية والشروع في دراسة عاميات الأقطار العربية المختلفة لإقرار ما هو مشترك منها وإباحة استعمال المولّد . ودعا إلى تقريب الخلاف بين العامية والفصحى بفتح باب الوضع .

ونقد ما قدمه أنيس فريحة في محاضراته عن اللهجات وأسلوب دراستها وقال إنه يفكر للغة العربية باللغة الإنجليزية ، ويريد أن يلبس لغتنا أثواباً لم تجعل لها . وقال : إن منير العجلاني لا يعرف أن الإسلام رحم وصلة بين المسلمين وأنه جامعة من أوثق الجامعات ، لأنه يجري في تعريف القومية العربية على قياسها بمقاييس أوربا اللاتينية التي روجها اليهود منذ الثورة الفرنسية اليهودية . وذلك حين يقول ( أي العجلاني ) :

كان الدين في العصور الوسطى يجمع الشعوب ويفرقها ولكن أثره في تكوين الأمم تضاءل في الزمن الحاضر وربما أسقطه غلاة القومية من حسابهم .

يقول الدكتور حسين : هذا في الغرب ، أما في الشرق العربي فالدين أوسع أفقاً من مدلوله في الغرب ، والعروبة أكثر تعاوناً مع الاسلام في ماضيها وحاضرها .

ويقول : إن تعبير العصور الوسطى تعبير أوربي يقترن في أذهان أصحابه بالتخلف والهمجية لأنه يقترن بالظلام والنظام الإقطاعي وبالرق وباستبداد الكنيسة وطغيانها . فالعصور الوسطى تقابل عندنا عصر الرسالة المحمدية وأزهى عصور الإسلام وهو بالقياس إلى العربي وإلى المسلم : عصر النور والمجد والعدل .

ويقول في الإشارة إلى إبراهيم مصطفى :

إنه ألف منذ عشرين عاماً كتاباً ميتاً في النحو سماه (إحياء النحو) وإن طه حسين ألقى محاضرة دعا فيها إلى العدول عن قواعد النحو الثابتة المتدارسة التي اجتمع عليها العرب والمسلمون زاعماً أنها لم تعد صالحة وأنها هي السبب في ضعف الطلاب وتخلفهم .

ويقول الدكتور محمد محمد حسين : إنهم يعتمدون دائماً على أن الناس إذا تكرر سماعهم للباطل أو شكوا أن يصدقوه، فهم يكررون القول حيناً بعد حين وفترة بعد فترة ولا ينصب لهم معين في إلباس مقالهم أليق الأثواب بالمقام وعرضه من جوانب جديدة تقربه من نفوس الناس ، وهم لا يسأمون من هذا التكرار لأنهم يعرفون أنهم يخاطبون في كل مرة جيلاً جديداً غير الذي سمعهم من قبل ، وقد ينجحون في إغواء بعض من ضاقت عنه حيلهم من قبل . وهم يعتمدون في ذلك كله على أفراد عصابتهم ممن وصلوا إلى مراكز تسمح لهم بمد يد العون في ترويج هذه الدعاوى وفي وضعها موضع التنفيذ ، وفيهم من يشغل مراكز خطيرة تسمح لهم بالسيطرة على الصحافة والإذاعة ووزارات التعليم والجامعات . لذلك كان فرضاً لازماً على كل عارف بحيلهم أن لا يمل من تكرار الرد عليهم ركوناً إلى أنه قد أذاع الرد من قبل حتى لا تنفرد دعاياتهم المفسدة بالشباب فتستأثر به ثم لا تجد من يصححها وينتشله من تيارها ويبطل فعل سمومها .

ومن ذلك دعوة مجامع اللغة العربية ومجمع القاهرة منها خاصة . .

هذه الدعوات المريبة إلى تطوير اللغة وقواعدها ورسمها ، وهو تطوير يختلف أصحابه في تسميته ولكنهم لا يختلفون في حقيقته فهم يسمونه : (تهذيب – تيسير – إصلاح – تجديد) .

وهم يعنون شيئاً واحداً هو التحلل من القوانين والأصول التي صانت

اللغة خلال خمسة عشر قرناً ، فضمنت لجيلنا وللأجيال المقبلة أن تسرح وتمرح في معارض فنون القول وآثار العبقريات الفنية والعقلية .

فإذا تحللنا من هذه القوانين والأصول التي صانت لغتنا خلال هذه القرون المتطاولة تبلبلت الألسن وأضاف كل يوم جديد ، مسافة جديدة توسع الخلف بين المختلفين ، حتى يصبح بين الشامي والمغربي ما بين الإيطالي والإسباني . وتصبح قراءة القرآن والتراث العربي والإسلامي كله متعذرة على غير المتخصصين من دراسة الآثار ومفسري الطلاسم . وعندئذ يصبح كل جهد سياسي أو حربي أو أدبي مما يبذل اليوم في جمع شمل العرب وتدعيم القومية عبثاً لا طائل تحته .

ليس ( الخطر ) في الدعوة إلى العامية ولا في الدعوة الى الحروف اللاتينية ولا إلى إبطال النحو وقواعد الإعراب أو إسقاط نحوها .

ليس لهم خطر العتاة ممن يعرفون كيف يخدعون الصيد بإخفاء الشراك . إن الخطر الحقيقي هو في الدعوات التي يتولاها خبثاء الهدامين ممن يخفون أغراضهم الخطيرة ويصوغونها في أحب الصور إلى الناس ولا يطمعون في كسب عاجل ولا يطلبون انقلاباً كاملاً سريعاً .

الخطر الحقيقي هو في قبول ( مبدأ التطوير ) نفسه ، لأن التسليم به والأخذ فيه لا ينتهي إلى حد معين أو مدى معروف يقف عنده المتطورون ولا ريب أن التزحزح عن الحق كا لتفريط في العرض .

يقول طه حسين في كتابه مستقبل الثقافة .

« وفي الأرض أمم متدينة كما يقولون وليست أقل منا إيثاراً لدينها ولا احتفاظاً به ولا حرصاً عليه ولكنها تقبل من غير مشقة ولا جهد أن تكون لها لغتها الطبيعية المألوفة التي تفكر بها وتصطنعها لتأدية أغراضها ، ولها في الوقت نفسه لغتها الدينية الخالصة التي تقرأ بها كتبها المقدسة وتؤدي بها صلواتها.

« فاللاتينية مثلاً هي اللغة الدينية لفريق من النصارى واليونانية هي اللغة الدينية لفريق آخر والقبطية هي اللغة الدينية لفريق ثالث والسريانية هي لغة الدينية لفريق رابع » .

وليس هذا الكلام من صنع طه حسين ، فهو ترديد لما قاله القاضي الانجليزي ( ولمور ) من قبل في كتابه :

*(The spoken Arabic of Egypt)*

طه حسين : وبين المسلمين أنفسهم أمم لا تتكلم العربية ولا تفهمها ولا تتخذها أداة للفهم والتفاهم ولغتها الدينية هي اللغة العربية ومن المحقق أنها ليست أقل منها إيماناً بالإسلام وإكباراً له وذياداً عنه وحرصاً عليه » .

الدكتور محمد حسين : إذا وعى القارىء هذا القول وما وراءه فليلق بكل ما سواه بوجه صاحبه لأنه ضرب من النفاق وأسلوب من الكيد .

« على أن تقديس لغة القرآن والتزام أصولها وقواعدها وأساليبها لم يكن في يوم من الأيام داعياً إلى تحجر اللغة وجمود مذاهب الفن فيها ووقوفها عند حد تعجز معه عن مسايرة الحياة » .

فليس التطور نفسه هو المحظور ، ولكن المحظور هو أن يخرج هذا التطور عن الأساليب المقررة المرسومة ، وذلك يشبه تقيد الناس في حياتهم الاجتماعية بقوانين الدين والأخلاق ، فليس ذلك يعني أنهم قد استعبدوا بهذه القوانين ، أو أنها قد أصبحت تحول بينهم وبين مسايرة الحياة .

كذلك اللغة: وضع اللغويون والنحاة والبلاغيون لها حدوداً طابقوا بها مذهب القرآن وكلام العرب ، وتركوا للناس بعد ذلك أن يستحدثوا ما شاؤوا من أساليب وأن يتصرفوا فيما أرادوا من أغراض . ولكن ذلك لا ينبغي أن يخرج بهم عن الحدود المرسومة . وهل عاق ذلك عرب بغداد أو عرب الأندلس عن الافتنان في القول وفي مذاهب الفن ، وهل ضاقت عربية البدو عن الاتساع لما نقل العرب وما استحدثوا من معارف وعلوم .

إن من أعجب العجب أن يعين في مركز القيادة في ذلك الحصن ( المجمع ) رجل يشهد ماضيه الثابت المسجل فيما نشر على الناس من صحف أنه كان حرباً على الجامعة الإسلامية وعلى الجامعة العربية لايراهما إلا وهماً من الأوهام ، وأنه كان أول من رفع صوته بالدعوة إلى تمصير اللغة العربية .

ولقد أخطأ علي حسن في القول بتوحيد العامية والفصحى وجعلهما لغة واحدة ، ليس مطلوباً أن تصبح لغة الحديث ، والأسواق والتعامل بين الناس هي نفسها لغة الشعر والأدب والعلم (١) .

تطوير اللغة يجب أن يكون بالقدر الذي لا يقطع صلتنا بالماضي ، وبالقدر الذي لا يخشى معه أن يتطور إلى قطع صلة الأجيال المقبلة بالجيل الماضي بحيث يتحول قرآننا وحديث نبينا وفقه فقهائنا إلى طلسم لا يقرؤه إلا طيقة من الكهان يحتكرون تفسير الإسلام .

## إلى الدكتور طه حسين

وطه حسين يذهب إلى أن هناك خطراً على العربية الفصحى أن يهجرها الناس إلى العامية إذا لم تخضع لما يريدون من تطور .

(وهو نفس التهديد الذي هدد به من قبل لطفي السيد ) وما أظن أن أحداً سيخدع بما يبدو في ظاهر قوله (طه حسين ) من البراءة حين يتظاهر بأنه معارض في استعمال اللغة العامية للكتابة الأدبية وحين يشترط في المعاجم المقترحة أن لا تتضمن إلا الألفاظ العربية الفصيحة . فالمهم أن معاجم اللغة العربية سوف تختلف باختلاف بلاد العرب وأقطارهم ، وأن المعجم التونسي المصري ، الشامي ، الحجازي ، سوف تصبح حقيقة واقعة ، هذه المعاجم

(١) يراجع م ٣٠ ، مجلة الأزهر ص ٢٥٥ .

نفسها سوف تصبح بدورها موضع تنقيح وتغيير ، وسوف تنأى في كل تنقيح جديد عن أصلها الأول ، حين يتناكر المتعارف ويتفرق المجمعون ثم لا يرجى لصدعهم رأب .

هذا هو المصير المظلم لدعوة خلابة براقة بريئة الظاهر إلى دراسة اللهجات والعناية بما يسمونه ( تمويهاً على الشعوب ) بالآداب الشعبية .

وقد اعتمد طه حسين على هذا الأسلوب نفسه في الدعوة إلى تبديل النحو والخط حين قال :

( إن أبينا إلاّ أن نمضي كما كان النحو وكما كانت الكتابة فلا بد أن تنشأ عن هذه اللغة العربية الفصحى القديمة لغات مختلفة كما نشأت الفرنسية والإيطالية والبرتغالية عن اللغة اللاتينية القديمة ) .

ويخدع الناس حين يقول :

( وبعد فلا أدعو أن تهجروا القديم مطلقاً ، ولكن لماذا لا يكون النحو والبلاغة كله متطوراً كما تطورت اللغة يحفظ قديمه لدرس المتخصصين في الجامعات والمعاهد ويبيح للملايين البائسة من الشباب أن يتعلموا تعليماً قريباً سهلاً .

( ثم عرض الدكتور محمد حسين إلى أبعاد دعوة التطوير في العادات والتقاليد والزي والمثل والشريعة وقال :

من أجال النظر في هذا كله وقرن بعضه إلى بعض عرف أن أصل هذه الفروع واحد ، وأن روح الدعوة فيها واحدة جميعاً ، وأن أصحابها لا يقنعون إلاّ بقطع كل ما يربطنا بإسلامنا وعروبتنا وشرقيتنا من وشائج وصلات. عندئذ نفقد طابعنا الذي يميزنا بوصفنا جماعة أو قوماً أو أمة ، وإذا فقدنا طابعنا فقدنا كتابنا وفقدنا القدرة على التكتل والتجمع ، وأصبح من اليسير على الشرق أو الغرب أو كائناً من كان من خلق الله أن يلحقنا به ويجعلنا تابعين له ندور في فلكه ونسبح بحمده من دون الله .

والقائمون على ترويج هذه الدعوات كالجراثيم تكمن حين تأنس في الجسم السليم مقاومة ولكنها تتحين حتى تجد فرصة أخرى ملائمة للظهور فتثور .

فإذا نظرنا إلى مصدر الدعوة وكيف بدأت عرفنا أن الدعوة لم تنشأ إلاّ في ظل استعباد الغرب لبلاد العرب والمسلمين وفي حمايته من ناحية وفي حضانة التبشير من ناحية أخرى . سبيتا ، فولار ، فاول ، فبلوت ، بوريان ، ماسبيرو الذين قادوا هذه الدعوة في مصر منذ ١٨٨٠ فظهر صداها في صحيفة المقتطف الشهرية أولاً ١٨٨٢ ثم اتصل إلى بقية السماسرة ومنهم فارس نمر : وكان المستر سمارت مستشار السفارة الانجليزية زوجاً لابنته .

جميع هؤلاء المؤلفين ، وكلهم ممن شغل وظائف عامة في ظل الاحتلال طائفة من الحكايات المتداولة بين طبقات العمال الكادحين في مصر ونادوا باتخاذ اللهجة التي كتبت بها هذه الآثار لغة للتدوين والتأليف والأدب الرفيع ووضع بعضهم كتباً استنبط منها قواعد للهجة المصرية العامية واقتصر معظمهم على لهجة القاهرة محاولاً إقناع المصريين بأن لهجتهم هذه لها كل مقومات اللغة الراقية .

ولاك كلامهم بعد ذلك كل بوق وكل سمسار وكل فاسد العقيدة مزعزع الإيمان : لطفي السيد وطه حسين ليس لهما فكرة جديدة فكل ما قالوه ويقولونه ترديد لما قاله هؤلاء حتى أن الذين أكثروا من الكلام فأسموه الأدب والشعر وادعوا أنهم جمعوا منه ما جمعوا لم يكونوا إلاّ ناقلين لما جمعه أمثال ماسبيرو وبوريان، بل لقد اعتمدوا عليهم في تصنيف ما جمعوه وفي ترتيبه وتبويبه .

# ٥

## عمر فروخ : الفصحى ولبنان

أراد الاستعمار منذ مطلع هذا القرن تحطيم وحدة العرب فحاول أن يطل على ذلك من ثغرة في لغتهم وقوميتهم ، فبعث الأشورية في العراق والفرعونية في مصر والبربرية في المغرب ، ولكن الأحداث في تلك البلاد والوعي في أهلها قضت على جميع الدسائس في مهدها .

ومنذ أيام الانتداب الفرنسي على لبنان نشأت ناشئة التدوين للعامية . ثم توسعت المطامع إلى جعل هذا التدوين بالحرف الفرنسي ، ثم خمدت هذه الدعوة زمناً ، ثم عادت إلى الهبوب ثم خمدت من جديد ، ومنذ عام ١٩٥٨ عادت هذه الدعوة إلى رفع رأسها .

إن عدداً من الشعوب الأوربية كانت معذورة لما دونت لهجاتها العامية بالحرف اللاتيني ذلك لأنه لم يكن لها قبل ذلك لغة مدونة ولا أحرف تكتب بها وكذلك كان قد نشأ في بلاد تلك الشعوب قبل ذلك شقاق ديني ونزاع سياسي أديا حقاً أو باطلاً إلى الانفصال لغوياً وأدبياً عن شعوب كان لها على البلاد التي اتخذت لغات جديدة بأحرف جديدة سيطرة وعسف ، أما نحن اليوم فلسنا من ذلك في شيء ، إننا نتمتع بلغة من أرقى اللغات وأوسعها ، وبأدب من أروع الآداب وأقدمها وبحرف من أجمل الأحرف في كل شيء .

ودعاة العامية والحرف اللاتيني يزعمون أن العامية والحرف اللاتيني أهون تعلماً . من قال لهم إن اللغة العربية أصعب من الألمانية والنروجية والأسوجية والروسية والبولونية . من ذا الذي قال لهم إن اللغة العربية أصعب من الانجليزية في هجائها ، من قال لهم إن الخط العربي أصعب من الخط النروجي ، حتى لا نذكر الخط الياباني والصيني .

إذا لم يكن للغة العربية والخط العربي من فضل سوى أنهما يجمعان العرب من أقصى الشرق الأدنى إلى أقصى المغرب الأقصى لكان ذلك منهما كافياً ، ولكانت كل صعوبة فيهما — إن صح أن فيهما من الصعوبة ذلك القدر الذي يتوهمه دعاة العامية والحرف اللاتيني — محتملة .

ولكن هؤلاء لا يكرهون من اللغة الفصحى ومن الخط العربي إلاّ هذا العامل الجامع الوحيد إني أعجب من الذين يدرسون اللغات الميتة من العبرية القديمة والسريانية ثم يريدون أن يميتوا لغة حية كالعربية الفصحى . تلك أمانيهم ، ولكن للكائنات الحية من البشر واللغات والحركات قوانين تشبه أن تكون طبيعية ، وهذه القوانين تعمل ولكن لا تخضع لأماني الافراد ولا لأماني الجماعات .

أما أغرب ما يمكن أن يمر في تاريخ أمة من الأمم ، فهو أن يكون في بلادنا دعاة إلى العروبة ثم ينشأ في بلادنا نفر يحاربون اللغة العربية ويدعون إلى الحرف اللاتيني فلا يحرك أولئك الدعاة إلى العربية والقومية ساكناً ، بل هناك ما هو أشد غرابة ، هو أن أحد هؤلاء الدعاة كان يتولى معهداً للدراسات العالية فدعا أحد أولئك النفر إلى إلقاء محاضرات في اللغة العامية ، لا محاضرات بحث وعلم ، بل محاضرات هي في واقعها دعوة سافرة إلى اللهجات العامية مكتوبة بالحرف اللاتيني. إن الدفاع عن اللغة دفاع عن الأمة التي تتكلم تلك اللغة.

أما من الناحية العملية فإن تدوين اللهجات العامية بالحرف اللاتيني قد أدى إلى تعقيد في اللغات الأوربية لا يرجى معه إصلاح ، وكلما استأنف أهل تلك اللغات الإصلاح للنحو والصرف أو للتهجية زاد التعقيد في لغاتهم حدة . في اللغة العربية ثلاثة مدود تأتي طويلة ( ا ، و — ي )

وتأتي قصيرة ـُـ ، ـَـ ، ـِـ .

أما إذا اجتمع بعضها مع بعض فإن الحرف الأول منها يعامل معاملة

الحرف الساكن في نحو (أي ، أو يا) ينطوي الخ .

وهذه لا تحتاج في اللغة العربية إلى قاعدة ولا إلى ملاحظة على أن الألف تأتي مرققة بعد أحرف معينة من أحرف الأبجدية أو مضخمة بعد الأحرف الباقية من الأبجدية .

ولا نرى قاعدة الترقيق والتضخيم هذه تخل بحال من الأحوال . أما في اللغات الأوربية فإن التهجئة في الانجليزية مثلاً لا تجري على قاعدة معينة . وندرك ما في التهجئة الفرنسية من الشذوذ هذا فضلاً عن الأحرف الخرس في اللغتين ، تلك التي تكتب ولا تلفظ ، ومع ذلك فإن اللغتين الفرنسية والانجليزية تعدان في هذا الباب لغتين قياسيتين بالإضافة إلى الأسوجية والنروجية والبرتغالية.

* * *

إننا نحن العرب قد كفينا هذا السوء بما قام به أسلافنا من ضبط لغتنا ضبطاً محكماً دقيقاً ، أنا لا أنكر أن اللغة العربية تحتاج إلى جهد في إتقانها ولكن الجهد الذي تحتاج إليه في ذلك لا يكاد يعد شيئاً بالإضافة إلى الجهد الذي تحتاجه أهون اللغات في الغرب .

ويحسن أن نعلم هنا أن اللغة الإفرنسية الدائرة بين المثقفين هي لهجة أهل باريس ، وأن لهجة ابن مرسيليا ولهجة ابن الالزاس ولهجة ابن بريتاني ولهجة ابن المقاطعات الشمالية الغربية تختلف كلها عن لهجة ابن باريس ، ويختلف بعضها عن بعض اختلافاً كبيراً حتى أنها لا تعد في اللهجات المتآخية بل في اللغات المتباعدة ، وهذا أمر طبيعي في الحياة اللغوية .

يقول العالم اللغوي أنطون مايه في كتابه :

*Méthode Comparative*

« إن أبرز ما يسترعي الانتباه هو ذلك الذي يعترضنا في كل مكان في

أوربا تقريباً . إن في كل منطقة مجموعاً من اللهجات المحلية ترجع إلى أصل واحد ثم لغة مكتوبة : هي لغة الحضارة تصلح لجميع أوجه الاستعمال العامة فيما يتعلق بمجموع البلاد ( التي تتكلم تلك اللغة ) ثم هي لغة الحكومة ( الرسمية ) ولغة المدرسة ولغة الدواوين ( الحكومية ) ولغة الصحافة الخ .

وفي مثل هذه الأحوال يكون للغة المكتوبة أثر بالغ في اللهجات المحلية » .

إن العالم اللغوي الفرنسي يعد من الطبيعي ومن حسن الحظ أيضاً أن يكون لكل منطقة لغة مكتوبة بينما نحن العرب نكتب ونقرأ ونتفاهم كلنا من الخليج العربي إلى المحيط الأطلسي بلغة واحدة ، ولقد مكننا الإسلام من أن نتفاهم مع عدد كبير من المسلمين من غير العرب في الصين وتركستان والهند وباكستان والأفغان وإيران وتركية والبلقان وفي الملايو وأندونيسية وسيلان ثم في أواسط أفريقية : في السنغال ومالي وغينيا وغانة — ونيجيريا وما حولها .

ولكن بينما نجد العالم متجهاً إلى التوحيد في السوق الأوربية وفي الأمم المتحدة وفي البحث عن لغة تاريخية أو مصنوعة يتفاهم بها أكبر عدد من البشر ، نجد نفراً يعيشون بيننا وهم منا ، يريدون أن يخرقوا الوحدة التي صنعتها لنا اللغة العربية الفصحى .

ليست المعركة بين العامية والفصحى أول معركة تعرضت لها العروبة ، ولا هي آخر معركة ستخرج العروبة منها ظافرة ، إن الثقة بالظفر آتية من أننا نعلم أن المعركة تدور على أرض العرب ، ولكن أركان حربها يقبعون في عواصم الدول المستعمرة في وشنطن ولندن وباريس .

* * *

إن سبب الخيبة في الدعوة إلى حلول اللهجات مكان اللغة العربية الفصحى يرجع إلى جهل الداعين عدداً من الحقائق في تاريخ اللغة العربية وفي تاريخ اللغات الأجنبية أو إلى تجاهل ذلك على الأصح .

إن نشأة اللغات الأوربية الحديثة مرتبط إلى حد بعيد بنقل التوراة والإنجيل من اللغة اللاتينية إلى اللهجات التي كانت سائدة في الأقطار الأوربية المختلفة . كذلك كانت نشأة اللغة الإيطالية والألمانية والاسوجية والنروجية . وكذلك تبدلت لغات كثيرة بعد هذا النقل كثيراً أو قليلاً . ونسي الداعون إلى اللهجات العربية أن مثل هذا الأثر قديم في اللغة العربية وأن التاريخ لا يعيد نفسه بالمعنى الذي يتخيلونه ، وأن العرب قبل الإسلام مروا بمثل هذا الدور المحزن ثم رأب الله الصدع وجمع الشمل ورد العرب إخواناً ومواطنين إن فرقت الحدود المصطنعة أجسامهم فإنها لم تفرق قلوبهم .

## ٦

## دكتور علي عبد الواحد وافي : العامية في الكتابة في مواجهة لويس عوض

التفريط في جنب العربية الفصحى :

لقد كانت الفصحى موضع إهمال كبير طوال الفترة التي كانت الانجليز في أثنائها مشرفين على شؤون مناهجنا الدراسية . وضع هذه الأسس مفتش إنجليزي يدعى دنلوب كان يعمل حينئذ مستشاراً في نظاره المعارف المصرية وكان مسيطراً على شؤون التعليم في مصر ، ثم تولى هذه الشؤون من بعده ومن بعد خلفائه من الانجليز ثلة من المصريين نشئت في هذه المدارس وتعهدها الإنجليز وصنعوها على أعينهم وأعدوها لتكون حرباً على الثقافة العربية الإسلامية ، وكانوا يزهون بأنهم يلوون ألسنتهم برطانة أسيادهم الإنجليز . وخلف من بعد هذه الثلة خلف تربى على يديها وترسم خطاها ، ونظر هؤلاء وأولئك إلى هذه السياسة الفاسدة التي وضعها ( دنلوب ) نظرة إجلال وتقديس ولم يحاولوا أن يغيروا شيئاً من الأسس القائمة عليها ولا من الأغراض التي تستهدفها . ولا من المناهج الجوهرية التي سنتها وإنما داروا في فلكها وانصرفت

جهودهم إلى عبث من التغييرات السطحية التي لا تمس الجوهر في شيء . وكانت العربية أهم هدف سددت إليه سهام السياسة الخبيثة فعملوا على إضعاف هذه اللغة في المدارس المصرية والحط من شأنها .

وكانت كلمة (خوجه) عربي تعتبر قريبة من كلمات الشتائم والسباب وكانت معظم الروايات الهزلية تدور حول السخرية بمدرس اللغة العربية .

* * *

ويقترح البعض أن يهبط بلغة الكتابة والآداب إلى لغة الحديث فيستخدم العامية في الشؤون التي تستخدم فيها الآن العربية الفصحى ، ويقضي بذلك على هذا التعدد في أداة التفاهم .

وكان من المنظرين لهذا المذهب الكونت كولودي لندنبرج الأسوجي في تقريره الذي تلاه في مجمع اللغويين في مدينة ليدن ١٨٨٣ .

واللورد دوفرن السياسي الإنجليزي في تقريره الذي رفعه إلى وزير خارجية انجلترا بشأن لهجة مصر العامية ومن هؤلاء ولهلهم سبيتا الألماني (أمين دار الكتب بالقاهرة) المتوفي ١٨٨٣ وقد مهد لتحقيق هذا المشروع باستنباط حروف أجنبية تكتب بها لهجة مصر العامية وتأليف كتاب ألماني في قواعد الصرف والاشتقاق التي تسير عليها هذه اللهجة .

وقد ارتضى جماعة من موظفي وزارة التربية والتعليم العامية في تعليم الأطفال الهجاء فابتدعوا طريقة سموها (طريقة شرشر) وألفوا كتبها باللهجة العامية المستخدمة في القاهرة وضواحيها ، بل لقد جنح إلى هذا الاتجاه قدماء الباحثين ومنهم ابن خلدون .

ويحمل لواء هذا الاتجاه الآن ويدعو إليه بحرارة وحماس يبعثان على الريبة في الدافع له إلى دعوته : كاتب محدث عهد إليه بالإشراف على البحوث

الأدبية في صحيفة مصرية يومية (١) .

ويبدو لنا أن الداعين إلى هذا الاتجاه لا يخرجون عن أحد فريقين :

إما شعوبيون مسيرون بالرغبة الآثمة في القضاء على أهم دعامة من دعائم الوحدة العربية والقومية العربية والثقافة العربية ، وإما غافلون عن الأضرار البليغة التي تنجم عن تحقيق ما يظنون أنه ضرب من ضروب التبشير .

والعامية التي يرى أصحاب هذا الاتجاه استخدامها في الشؤون التي تستخدم فيها العربية الفصحى لغة فقيرة كل الفقر ، في مفرداتها فلا يشتمل متنها على أكثر من الكلمات الضرورية للحديث العادي وهي إلى ذلك مضطربة كل الاضطراب في قواعدها وأساليبها ومعاني ألفاظها .

وأداة هذا شأنها لا تقوى مطلقاً على التعبير عن المعاني الدقيقة ولا عن حقائق الآداب والعلوم والانتاج الفكري المنظم .

ومن أهم أخطارها الحيلولة دون الانتفاع بالتراث .

والعامية في لغة ما غير ثابتة على حال واحدة بل هي عرضة للتطور في أصواتها ودلالاتها ومفرداتها وقواعدها .

والعامية تختلف باختلاف الشعوب العربية وتختلف في الشعب الواحد باختلاف مناطقه .

واختلاف لغة الكتابة عن لغة الحديث لا ينطوي على شيء من الشذوذ حتى يلتمس علاجاً لها بل هو السنة الطبيعية في اللغات ، واستخدام العامية في تدريس العلوم والآداب يؤدي لا محالة إلى تخلف كبير في الثقافة العلمية والأدبية نفسها .

وقد ظلت اللغة اللاتينية لغة كتابة حتى نضجت لهجات محادثتهم وكمل

---

(١) يقصد لويس عوض وجريدة الأهرام .

نموها فاستطاعت أن تنحي اللاتينية عن وظيفتها وتحتل مكانها ، فأصبحت الفرنسية والإيطالية والإسبانية والبرتغالية والرومانية التي كانت لهجات عامية تستخدم في المحادثة فقط ، أصبحت لغات كتابة وآداب .

تم ذلك حوالي القرن السابع عشر الميلادي ، ولكن خاصية الازدواج القديمة لم تلبث أن انبعثت مرة أخرى ، ذلك أن لهجات الحديث في هذه البلاد كانت في المبدأ متفقة مع لغات الكتابة فيها ، ثم أخذت تتطور شيئاً فشيئاً وتنحرف عن أصولها الأولى ، بينما ظلت لغة الكتابة فيها جامدة على حالتها القديمة أو ما يقرب منها ، وبذلك أصبحت لهجات الحديث في هذه البلاد تختلف اختلافاً غير يسير عن لغات الكتابة .

* * *

ومن الأخطار التي تواجه اللغة العربية : أنه يندر أن تجد بين مدرسي اللغة العربية نفسها من يستخدمها في شرح ما يريد إنما يستخدمون اللهجة العامية ، وكذلك محاكاة الكثير من الصحفيين الأساليب الأجنبية في تسلسل أجزاء الجملة وربط عناصر العبارة بعضها ببعض ، كذلك في محاكاة الأسلوب الافرنجي في الخروج عما يسير عليه الأسلوب العربي في ترتيب عناصر الجملة وربطها بعضها ببعض وتنسيق أجزاء العبارة ، فيأتون بعبارات عربية المفردات والقواعد ولكنها أعجمية التركيب والنظم .

## ٧

**العلامة صلاح الدين السلجوقي** : ليست لغة العرب وحدهم

**اللغة العربية** ليست محصورة في العرب : إنها لغة يصلي ويدعو بها أكثر من خمسمائة مليون مسلم ؛ إنها لغة القرآن الكريم الذي أنزل إلى المسلمين كافة أنزل إليهم وهداهم إلى صراط مستقيم . كما أن على جميع المسلمين واجبات

نحو لغة القرآن ، فإن لنا حقوقاً عليها لأننا معشر الأعاجم خدمناها أكثر من العرب ، ولا حاجة بي إلى أن أسرد أسماء كرسوا حياتهم في خدمة اللغة العربية وثقافتها .

إن الأكثرية الساحقة من العلماء الذين بنوا حضارة الإسلام هم من الأعاجم حتى علمي الصرف والنحو في اللغة العربية لم يفكر فيهما أي شخص عربي سوى الأعاجم . خرج من الأفغان عدد كبير من الفقهاء ، أمثال الإمام الأعظم أبي حنيفة والإمام أحمد بن حنبل والبخاري والترمذي ومن الفلاسفة الرئيس أبو علي بن سينا والفارابي ومن اللغويين أمثال التفتازاني والسكاكي وعبد القاهر . وكذلك أخرجت أفغانستان عدداً من كبار المجاهدين أمثال عمرو بن ليث الصفاري الذي عمم الدين الحنيف في سائر أنحاء أفغانستان .

والدين والقومية ليس لهما مظهر أجل من اللسان . فهو القرآن وهو الصلاة التي تجمعنا حول كعبة قدسية من الدين والمثل العليا .

علينا أن نجاهد لكي يبقى القرآن ولغة القرآن الخيط الذهبي الذي يؤلف بين قلوبنا ديناً وثقافة ، كي لا تنفصم العروة التي كنا معتصمين بها والتي جاهد في سبيلها الآباء .

فهذا القرآن — معاشر العرب — يجمعنا وإياكم كما حفظ كيانكم وحمى اللغة العربية من الاندثار في حين أن اللغتين الشقيقتين : السريانية والعبرية اللتين كانتا أوسع نطاقاً من العربية قد ماتتا وانقرضتا منذ أمد بعيد .

* * *

إن المركز اللغوي الثقافي هو بين العرب لابين العجم ، فإذا ما فقد المركز جاذبيته ونقطة ارتكازه فلا شك أن المحيط يتلاشى بتلاشي المركز .

إن أول ما يجب علينا أن نفعله أن نقضي على العامية في اللغة العربية ،

هذه العامية تنزل بمستوى اللغة العربية المبين ، وتقضي على ما فيها من عذوبة وسعة نطاق ونظام ، وتخلق برزخاً واسعاً بينكم وبين القرآن ، وبينكم وبين ثقافتكم والألوف من علمائكم والملايين من كتبكم التي كتبها لكم آباؤكم الكرام من العرب وإخوانكم الأعزة من العجم .

وفضلاً عن هذا ، فهذه العامية توسع الهوة بين الأمة العربية يوماً فيوماً إلى أن تنقسم إلى أمم متباينة في الفهم والإفهام كما هو واقع الآن بين الأمم الآرية .

وإذا اختلف اللسان فليس هناك شيء يربط بين البلاد العربية .

وقد يزعم البعض أن هذه النقيصة تزول بنشر المعارف ، وأقول إن هذا ليس بصحيح ، لأني أستمع إلى العلماء وهم يتكلمون بالعامية وأقرأ مسرحيات لكبار الكتاب باللغة نفسها ، كما أقرأ بعض الأحكام القضائية وأستمع إلى مناقشات المحاكمات باللهجة نفسها ، زد على ذلك أن أعمدة المجلات مملوءة بها وأفلام السينما على اختلافها ناطقة بها .

ويسوغ البعض استعمال هذه اللهجة بأنها لسان الشعب ، ولكن هناك فارقاً بين الشعب وبين الطبقة العامية ، فالشعب مفهوم عام يشمل جميع الطبقات ، كما أن هناك فرقاً بين الرأي العام والذوق العامي .

قد تنزل الطبقات الممتازة عن مطامعها الخاصة لمصالح الشعب ، ولكن ليس على هذه الطبقات أن تنزل عن فضائلها ومعارفها ، بل عليها ألا تفعل ذلك ، بالعكس عليها أن تبذل المحاولات والجهود لكي ترفع الشعب إلى مستواها العالي الممتاز .

* * *

إن جميع المصطلحات العلمية في أفغانستان وتركيا باللغة العربية ولكن

مع شيء قليل أو كثير من الانحراف ، وهذا الانحراف أكثر ما يكون ظهوراً في الهند وباكستان ، لأن هذه المصطلحات وضعت بجهود أشخاص لم يكونوا يتقنون اللغة العربية .

فإذا لم تؤلف هذه القواميس والمعجمات ولم تصل إلى الديار الإسلامية فإننا نخشى أن تحاول الدوائر العلمية في هذه الديار اختراع كلمات عربية من عندها ، أو أن ترجع كل واحدة منها إلى لغتها الوطنية أو تضطر إلى استعمال المصطلحات الأوربية ذاتها وفي جميع الحالات تقع الخسارة على اللغة العربية والثقافة والإسلامية .

فاللغة العربية في ديار الإسلام شأنها كشأن اللغة اللاتينية في أوربا خلال القرنين السابع عشر والثامن عشر ، والفارق بينهما أن اللغة العربية ستدوم وستظل دعامة العلم والأدب في هذهالديار ما دام القرآن والدين والصلاة وملايين الكتب تؤيدها من بين يديها ومن خلفها .

## ٨

## تجربة الدكتور كمال يوسف الحاج

تجارب ثلاث توالت في حياتي : حدتني على الاعتقاد بغائية اللسان — أعني بفاعلية اللغة — الأم في تكوين شخصية الإنسان ، فرداً ومجتمعاً ، لقد وضح لي أنه لا فكر خلاقاً في معزل عن ديباجة شريفة ، لا حرية صادقة لشعب يزدري لغته القومية ،

أما التجربة الأولى فإنها تعود إلى اليوم الذي كنت فيه ناعم الأظفار ، وليداً بعد أحصل العلم ، وكان هذا القدر ذاته قد كتب على ورقتي إذ ذاك بضعة أسطر من نور هي تنزيل حكيم في سبائك الفؤاد ، لقد نقش حب

العربية في لوحة صدري ، رحم الله والدي ، وأطال بعمر والدتي ، اللذين اقاما لها معبداً في حنايا نفسي لقد ضرباني وأنا صغير بعد على قوالبها السليمة بين هذين الوالدين العربيين لساناً ترعرعت وكبرت .

لقد وضع الأساس الأول في حياتي منذ البداية على حب اللغة العربية وعلى إجلالها وتقديسها وعلى مزاولتها قبل سواها ، وعلى إعطائها حق الصدارة في أبهاء نفسي .

ثم دخلت إحدى المدارس الأجنبية الكبرى حيث كان على الوليد أن يلسن وقت العلم واللعب ، بغير اللسان العربي ، لقد أنخنا كلنا يومئذ لذلك المنطيق ، ولتلك المشيئة الظاهرة بحد ذاتها وقد دعمها شيئان : انتداب سياسي ونظرة تربوية .

وهكذا فرضت علينا السياسة يومذاك مفاهيم تربوية — من بينها اللسن بغير العربية — لا تتفق أصلاً مع أسانيد النفس البشرية . وقد أنخنا كلنا لتلك المفاهيم فأرغمنا على الخيانة باعتبار أنها فضيلة . أما الوليد الذي يعطى منطيق تلك السياسة فقد كان العقاب نصيبه والعقاب على ضروب منها الحرمان عن الطعام ومنها الإسقاط في الامتحان ومنها الحرمان عن الطعام ومنها الحجر عن اللعب ومنها التشهير أمام الأتراب.

وكلها أسباب تذليلية تخلق في النفس عقد التصاغر والدونية ، ثم تبدأ المأساة في قلب الوليد الذي كنته ، كنت من الناجحين كثيراً ، ولكني لم أكن من المجلين في لسان الأغيار . لقد ركزت على العربية وكان هذا عيبي في نظر الانتداب .

عقدة تصاغر إزاء الذين يلسنون بغير العربية ، لم أستطع أن أجمع بين لسانين ، وأخذت المأساة تلعب دورها في قلبي : سيف العربية مسلط فوق رأسي في بيت أبي وسيف غيرها مسلط فوق رأسي في المدرسة مستحيلان يتجاذبان وليداً .

لقد كانت العربية تنتصر في كل حلبة من تحصيلي .

وفي باريس ، حدثت لي التجربة التي أماطت اللثام أخيراً وبصورة نهائية وساقتني إلى الاعتقاد التام بغائية اللسان القومي ، أما تلك التجربة فهي جد عادية بحد ذاتها ، عايشها دون ريب كل عربي اللسان طلب العلوم الكبيرة في رقعة الغرب وهي تقوم على أني تأرجحت تأرجحاً مضغوطاً بين لسانين : العربي والفرنسي ، ولم أستطع أن أتحكم فعلاً بالفرنسية على غرار أبنائها الذين يتكلمونها عفواً ، ولم أستطع أن أحافظ على نقاء لغتي — الأم في مناخ لا عربي يحيط بي من كل جانب .

ولعب في قلبي شيطان الغرور قلت : عليك بلغة الفرنسيس غاية ، هي فرصة موأتية لك ، أنت تعيش بين ظهرانيهم وتنساق في مضمارهم عن كثب ، وهكذا اندفعت في مسالك اللغة الفرنسية .

هنا بدأت المأساة . . لم أتنبه ، أول بدء ، أني جنحت عن الواقع البشري اني في منزلق خاطىء ، لقد طمس الغرور على بصيرتي وأضلني جهلي بفلسفة اللغة : قلت وما ضرني لو امتلكت لسانين حق الامتلاك وركبت متن هذا العمل . أما النتيجة فكانت عكس المرتقب ، كانت نتيجة سلبية من جهة اللسانين معاً ، شعرت بأني بعدت عن نقاء العربية ، بعدت عن سليقتها الرفيعة في القلم ، بعدت عن مجراها السريع في الأداء ، وشعرت من جهة أخرى ، أنني لم أدن من نقاء الفرنسية . لم أدن من سليقتها الرفيعة في القلم . وهكذا تأرجحت مضنوكاً بين لسانين مبتورين فيّ . أجل ، لقد بعدت عن صفاء اللغة العربية ، عن بداهتها في اللسان ، ورشاقتها في الكتابة ، بعدت لأني هجرتها كتابة وقراءة ومشافهة ، واللغة الأنيقة تعق ، عند الأديب إذا أبطأ في مزاولتها ، إن الكلمة المصقولة عزيزة الجانب ، هي ذات عفاف لا تريد أن ينخدش ، إنها غيرى ، معنى كل هذا أن التحكم باللغة — الأم ، لا ينفصل عن التحكم بالطبيعة — الأم ، أقصد الوطن — الأم ، أو بما يذكّر الوطن .

الإنسان لا يتعلم لغة أجداده ، أو في ما هو مثيل لوطن أجداده من حيث المناخ الروحي . فمن أراد أن يتقن لغة ما إتقاناً فيه زخم الألمعية والأريحية والعبقرية ، كان عليه أن يعيش بين ظهراني أبنائها الذين يتكلمون عفواً أو أن يحيط نفسه بشعب منها يتكلمها عفواً . اللغة حياة ، وقد صادف أن انقطعت عن محيطي ، العربي اللسان ، فجفت لغتي في العروق ، واستمسك القلم بين الأصابع وحرنت الديباجة الأنيقة ثم غلظت ، لقد أصابني الرصاص ، فوقعت في الأحبولة . لم أعد أديباً في لساني القومي .

أما الفرنسية التي خنت لساني من أجلها فلم أركب متن عفويتها ، لأنني لم أستطع ذلك، بقيت خارج بهوها الفسيح، على أن الكد في سبيلها لم ينقض.

لقد كنت استمحر بالنية الصافية ، والعزم الفتي ، كي أقطع رحابها كي أصبح ذا سليقة فيها كسليقة أبنائها ولكنه حلم ضائع ، بل خيانة وجريمة ، لم أعلم أن الإنسان ذو مجرى لغوي واحد ، ذو عفوية لسانية واحدة ، ذو تاريخ واحد ، وأمة واحدة ، لم أعلم أن هذه الآحاد الواحدة هي التي تنقل الإنسان إلى الكثرة المتكاثرة ، إلى المطلق ، لم يكن ممكناً لي أن أدرك عفاف اللسان الفرنسي أي عبقريته ، لقد بقيت قزماً حيال أقزم الفرنسيين لغة ،

لا شك أن الذين يجهلون ما للكلمة من وزن انطولوجي ومن خطوة ما ورائية ، تتساوى عندهم الأساليب التعبيرية ، ولكن الأديب الذي يحس بعظمة اللغة وبهول ألفاظها لا يقف من الكلمة هذا الموقف ، اللغة عنده أكثر من وسيلة ، هي غاية ، إذ بدونها لا تكون الفكرة جميلة ، ومن هنا حرص الأديب على الديباجة التي تصبح لديه جزءاً من الفكرة ، بل الفكرة ذاتها ،

لقد تصارعت العربية والفرنسية في قرارة ذاتي ، أجل ، تعادلتا ، صرفاً ونحواً ، في اللسان والقلم ، ولكنهما لم تتعادلا عبقرية ، وهكذا فقدت عبقرية لغتي ولم أدرك عبقرية لغتهم .

لقد ابتلينا في هذا البلد بجهل فلسفة اللغة ، ابتلينا باحتقارنا للعربية ، بغرورنا أن سواها أعف وأبهى ، وأقرب إلى مقومات الحضارة المدنية ، فابتلينا بعقدة التكابر حيال لسانا وبعقدة التصاغر حيال لسانهم والنتيجة صغرنا في أنفسنا دون أن نكبر في أنفس الحاكمين .

إن المستعمر يفرض لغة كي تتصارع مع اللغة الأم ، وبذلك تتفسخ ذاتية الوجدان وتضعف ، من هنا كان الإنسان لا يتدنس قومياً أول ما يتدنس إلاّ من لغته ولا يتنقح قومياً أول ما يتنقح إلاّ من لغته .

إن الإنسان مجبر أن يتمسك بلغته تمسكاً كينونياً ذلك لأن اللغة في نظري غاية لا واسطة .

لقد شعرت أن مدى اللغة الفرنسية مقفل علي لأنني لم أتناولها من المهد ولم أعش في محيط فرنسي صرف ، بينما اللغة العربية هي مركوزة في صميم وجداني وقد أوقفها القدر عليّ ولم يفتح لي باب العبقرية إلاّ من جهتها .

ليعلم اللبنانيون أن باب العبقرية في الغرب مقفل عليهم إطلاقاً ، ومهما أتقن اللبناني اللغة الفرنسية مثلاً فهو لن يستحق رغم ذلك أن يتربع في مقعد من مقاعد الأكاديمية الفرنسية .

إن رسالة لبنان هي رسالة عربية اللسان .

والسؤال : هل يوجد فكر معزول عن اللغة ؟

والجواب : لا وجود لهذا الفكر ، إن الفكر دائماً فكر ملسون .

# الباب الثالث

# الفصحى تقبل التحدي

# الفصل الأول

# اللغة والفكر

لا ريب أن خصوم اللغة العربية يعلمون أن الفصحى قد قبلت التحدي منذ وقت بعيد ، وأن الدعامات الكبرى التي مكنتها من البقاء هذه الأجيال المتوالية ترجع إلى أنها لغة فكر قبل أن تكون لغة أمة معينة هي الأمة العربية : إنها لغة فكر عالمي إنساني ضخم المعطيات والآثار متشعب الفروع متصل بكل قضايا الإنسان والحياة والمجتمع ، ذلك هو الفكر الإسلامي الذي يشكل الدعامة الأولى فيه : القرآن الكريم .

ولا ريب أن هذه الظاهرة تفرد اللغة العربية بين اللغات بطابع خاص وتجعلها نموذجاً وحدها فلا تنطبق عليها قوانين علم اللغات انطباقاً كاملاً . هذه القوانين التي صيغت ووضعت من خلال اللغات الأوربية متصلة باللاتينية أو منفصلة عنها . وتلك ظاهرة أخرى لا تنطبق على اللغة العربية التي انفردت بعد نموها الطبيعي القوي خلال ثلاثة آلاف سنة بأن نزل بها القرآن الكريم فأصبحت تحمل الآن وراءها قدرة على النمو والحركة والعطاء تجعلها قادرة على نقل هذا الفكر القديم إلى المعاصرين من وراء سبعة عشر قرناً حتى اليوم . هذا هو وجه الخلاف وهذه نقطة التبرير التي تجعل اللغة العربية ولها ذاتية

خاصة لا تخضع لقوانين اللغات الأوربية التي تغيرت مرات ومرات حتى باتت اليوم ولا تحمل من تاريخها الحي أكثر من ثلاثة أو أربعة قرون .

ولعل من أكبر ركائز اللغات وعوامل ثباتها ارتباطها بالفكر ، حتى ليمكن القول بأن بين اللغة والفكر آصرة أشبه بالارتباط العضوي . ومن هنا تبرز ناحية أخرى من نواحي قصور المناهج الغربية الوافدة عن محاكمة اللغة العربية نتيجة لهذا البعد العميق : بعد فهم البيان العربي ومقايساته بالنسبة للباحثين الغربيين والمستشرقين .

وتؤكد الأبحاث الحديثة كلها ذلك الارتباط الوثيق بين اللغة والفكر ، وأن لسان الأمة جزء من عقليتها فيرى ( و . فون همبلت ) في كتابه المشهور :

*Ueber die Kamiosprache*

أن كل لسان يؤلف حول الشعب الذي يتكلم به دائرة لا يمكن للمرء أن يخرج منها إلا إذا دخل في نطاق دائرة أخرى ، وأن لغة شعب ما هي إلا روحه كما أن روح الشعب لغته .

ويرى همبولت أن كل لغة تؤلف نظاماً مترابطاً متضافراً محدوداً ، تعرب عن عقلية الشعب الذي يتكلم بها ، ومن المستحيل التعبير عن هذه العقلية بأدوات هي خاصة بعقلية أخرى .

ويقرر الباحث الغربي سابيرون تأثير اللغة في تكوين العقلية ويرى أن اللغة تحمل معها تصوراً للعالم أو شكلاً له . وتحمل القدرة على تبديل العقلية وتحويلها وتعبد سبل المعرفة ، وعنده أن فكرتي الزمان والمكان لا تبدوان دائماً في تجارب الناس بصورة واحدة بل يتفاوت نصيب الناس في إدراكهما ، فهما يرتبطان بطبيعة اللغة التي يتكلمونها أو بطبائع اللغات التي نشأت هاتان الفكرتان وتكاملتا معها .

كذلك يشير الباحث ( ورف ) إلى تأثير اللغة العميق في المعايير الحضارية

ويرى أن متيافيزياء اللغة هي التي تبرز إلى حد كبير روح الأمة ومعايير سلوك أفرادها . وعنده أن لكل لغة متيافيزياء خاصة بها .

وإن بعض نظريات متيافيزياء اللغة تقتضي نفي كل ترجمة أدبية ولا سيما ترجمة الشعر .

وتقرير وورف : ان العالم الفكري يتداخل في المجموعة اللغوية ليؤلف معها كلاً مترابطاً ومتضافراً لا تنفصل أجزاؤه بعضها عن بعض ، وأنه لا يمكن لهذا الكل الملتحم أن ينتقل إلى نظام لغوي آخر ملتحم أيضاً بألفاظه ومعانيه ، ذلك أن اللسان يجسد روح الأمة فلا يسع المرء الوصول إلى مقاصده بدقة تامة على طريق أدوات وتعابير لغوية مأخوذة من لسان آخر (١) .

ولا ريب أن هذه الحقائق تكشف أمامنا ذلك المخطط الخطير الذي يحاول احتواء اللغة العربية بإدخال أدوات وتعابير لغوية من الألسنة الأخرى ، أو تطبيق مقايسات وافدة كما تكشف عن ذلك الخط الخطير الذي يتابع الدعوة بإلحاح إلى تعلم اللغات الأجنبية لأبناء العالم الإسلامي قبل أن يستكملوا هضم وتمثل القيم الأساسية للغتهم أو يفهموا أبعادها .

كذلك فإن هناك محاذير أخرى تتصل بالترجمة يجب وضعها موضع التقدير من أجل حماية التشكيل النفسي والعقلي للغة العربية عند المسلم والعربي وحتى لا يتعرض للأخطار التي تحاول أن تحتويه في بوتقة اللغات الأخرى ومن ثم تصهره في فكرها .

وإذا كان لنا أن نفيد من تجربة خصوم اللغة العربية فإنهم يفهمون أبعاد العلاقة بين اللغة والفكر على هذا النحو :

يقول نبيه أمين فارس :

---

(١) مجلة المعرفة ( السورية ) آب ١٩٧٢ .

« اللغة ليست مجرد مجموعة اعتباطية من الرموز كونتها الصدفة المحض فاللغة تاريخية في جوهرها ، فهي على مرور الزمن تجمع معاني وتخلق ارتباطات وتثير ذكريات . إن معرفة لغة من اللغات إذا أريد لها أن تكون معرفة عميقة حقاً لا تعني فقط مجرد المقدرة على ترجمة الفكر إلى لغة أخرى ، وإنما تعني أن كل كلمة تستعمل يجب أن تعبر تعبيراً دقيقاً عن التصور القائم في ذهن مستمعيها .

وإن كل كلمة يجب أن تفهم ليس فقط في فحواها المباشر الواضح وإنما في معناها التاريخي أي جذورها وكيفية استعمالها في الماضي .

ليست دراسة اللغة في معناها الصحيح ، هي دراسة قواعد النحو والإعراب وتركيب الكلام وإنما هي دراسة أفكار الناس الذين يتكلمونها وحضارتهم »ا.هـ.

وبعد : فما أحرانا أن نطبق هذا على اللغة العربية ونفهم أبعاد المحاولة التي تراد باللغة العربية لإخراجها عن فكرها باسم التطوير أو باسم التجديد أو بأسماء أخرى براقة .

ولقد تنبه لهذه الأغراض كتاب ومفكرون من العرب والمسلمين منذ وقت بعيد ، ويجب أن تكون صيحتهم وكلمتهم قائمة في أذهاننا وأنفسنا أبداً ،

يقول العلاّمة علال الفاسي في استعراض للتحديات التي تواجه اللغة العربية في المغرب نتيجة لأخطار الاستعمار الفرنسي وبقاياه في مجال الفكر والثقافة .

« إن التضحية باللغة العربية هي تضحية بالدين الإسلامي لأن الكلمة الفرنسية تردنا مسيحيين ، كل الذين يتمسكون باللغة الفرنسية إنما يرغبون في التعامل مع الأجنبي وفي الحفاظ على مصالحه هنا ، لذا فإننا ننادي بالتعريب من أجل التحرر من سيطرة الأجنبي ومن تبعيته . وإن الاستعمار الحقيقي هو الاستعمار الاقتصادي الذي لا يتحقق لأصحابه إلاّ عن طريق استعمار فكري بواسطة

اللغة والقانون . ولا يخرج المستعمر من البلاد ما لم يخرج من القلوب والأفكار » .

ويقرر العلاّمة علال الفاسي أن اللغة تكون الفكر ، ويقول : فاللغة الأجنبية تكون الفكر الأجنبي ، ويقول : إن الفكر هو الذي يكون الكلام وهذا يذكرنا بقول الأخطل :

إن الكلام لفي الفؤاد وإنما جعل اللسان على الفؤاد دليلا

ويقول : إن شكل اللغة ليس شرطاً في النقل بل هو أولاً شرط في تكوين الفكر فإذا لم تكن اللغة لا يتكون الفكر والتفكير كلام صامت لأننا لا نكون فكرة إلاّ بإطار اللغة وبغير هذا لا تكون إلاّ شيئاً غامضاً منحلاً .

ويقول إن التضحية باللغة تضحية بالدين وإن الاستعمار الفكري هنا واضح فاللغة الأجنبية تخلق منا أناساً على صورة اللغة وصاحبها في عقيدته وأفكاره وما توحي به تلك الأفكار .

وقد قال غوستان لوبون : إذا استعبدت أمة ففي يدها مفتاح حبسها ما احتفظت بلغتها » .

ويقول : إن لكل جماعة معجمها الخاص بالكلمات التي تصنعها عبقريتها لتكون أداة اتصال روحي بينها وبين أمثالها وتفاهم وتبليغ . ولكل عقيدة ومذهب كلمات تخرجها من معناها اللغوي الأصلي إلى معناها الجديد الذي يستغني بكل ما في العقيدة والمذهب من سر ومن حرارة ، إن حرب الكلمات هي أولى حرب النظريات ، إننا عرب ومسلمون فيجب أن لا نخرج في كتاباتنا وأعمالنا عن المعجم الذي يتفق مع عقيدتنا وديننا . لا تستعملوا كلمات ليست في معجمكم ، تعلموا تعبيرات القرآن وتقاليد اللغة التي بها تدركون . ولا تجعلوا الكلمة الإسلامية مدلولاً خارجاً عن ما تريدون أنتم وعن ما هو لها بالطبع : « فكروا بلغتكم » .

ولقد تقرر هذا المعنى في كتابات أعلام الفكر الإسلامي منذ وقت بعيد ،

وقد بدت حاجتنا إليه اليوم في مواجهة محاولة إخراج اللغة العربية من فكرها واحتواء الفكر الغربي لها . يقول ابن تيمية « إن اللغة العربية للإسلام ليست لغة فحسب ولكنها عقل وخلق ودين » .

وتردد هذا في كتابات كثير من الباحثين فقال أحدهم :

« العربي ليس من يتكلم عربياً بل من يفكر عربياً » .

ويقول « فخته » الألماني : إن اللغة هي الرابطة الوحيدة الحقيقية بين عالم الأجسام وعالم الأذهان . ويقول الدكتور عثمان أمين : إن هذه العبارة تصدق على لغتنا العربية . إن هذه الوحدة تقوم في صميمها على الوعي القومي النابع من تلك المشاركة الروحية العميقة فإن للغتنا العربية أثراً بالغاً في تكوين عقليتنا وفي تدبير فكرنا وهداية سلوكنا .

ويقول فخته : إن اللغة هي جهاز الاجتماع في الإنسان : اللغة والأمة أمران متلازمان ومتبادلان . اللغة التي ترافق وتجدد وتحرك الفرد حتى أعمق أغوار تفكيره وتجعل من الحلوق البشرية التي تتكلم بها جماعة متلاصقة يديرها عقل واحد ،

٣

« الفكر » الإسلامي إذن وليست اللغة هي التي صبغت تفكير العرب والمسلمين ووجهت أذواقهم ، وما اللغة إلا تمثلاً لهذا الفكر في مختلف قيمه ومظاهره .

ولذلك فقد كان من الضروري أن تعمق صلة المسلم والعربي باللغة ليفهم أسرارها وأساليبها فيكون قادراً على الاستجابة لفكرها وأداء فرائض الإسلام عليه .

ذلك أنه لا يمكن بحال من الأحوال لمسلم أو لغير مسلم يريد أن يعرف حكم الشريعة الإسلامية من مصادره الأصيلة إلاّ إذا كان عالماً بلغة العرب وبأساليبها ومنطقها وكل ما يتعلق بها . ومن أجل هذا فهم المسلمون الأوائل أهمية اللغة العربية على وجهها وقاموا بنشرها بكل ما أوتوا من قوة ، فكانوا إذا فتحوا البلدان نشروا الدين ونشروا معه لغتهم لأنها مفتاح هذا الدين »(١) .

ولذلك فإن حملات التغريب حين تريد أن تفرض العامية إنما تريد أن تقيم فاصلاً صفيقاً بين المسلمين والعرب وبين معرفتهم شريعتهم وفكرهم ، حيث يؤدي شيوع العامية إلى صعوبة فهم الكتاب والسنة والاطلاع على كنوز التراث الإسلامي التي خلفها لنا فقهاء المسلمين في شتى مناحي العلوم والفنون على مدى الأجيال (٢) .

وقد أشار الشيخ محمد عبده إلى هذا المعنى حين قال : إن جهل المسلمين بلسانهم هو الذي صدهم عن فهم ما جاء في كتب دينهم وأقوال أسلافهم ، ففي اللغة العربية الفصحى من ذخائر العلم وكنوز الأدب ما لا يمكن الوصول إليه إلاّ بتحصيل ملكة اللسان ، ولا تحصل هذه الملكة فيها قولاً وكتابة حتى يتكلم بها غالب أهلها ويكتبوا بها بالطريقة الصحيحة لأن في انحطاط لغتنا انحطاطاً لنا ولديننا وعقائدنا وأخلاقنا وانحطاط ذلك مفسد لجميع أمورنا » .

ويرى الشيخ محمد أبو زهرة أن الإسلام لا يمكن فهمه إلاّ باللغة العربية الفصحى والقرآن كذلك ، كذلك فإن الصلاة لا تجوز إلاّ باللغة العربية وإن ما أجازه أبو حنيفة في هذا الشأن كان على سبيل الترخيص وحتى لا يحرم المصلي من مناجاة ربه ودعائه ، وقد عدل عن هذا الرأي بعد أن تبين له صواب غيره ، واتفق الفقهاء على أن من يعجز عن قراءة القرآن — وهو عربي

(١ و ٢) من بحث للدكتور عبد العزيز عامر .

كما أنزل الله في كتابه ــ بالعربية يصلي ساكتاً مناجياً ربه بقلبه لأنه عجز عن ركن القراءة الواجب عليه بقوله ( فاقرأوا ما تيسر منه ) .

كذلك قرر الفقهاء اشتراط اللغة العربية لصحة الخطبة يوم الجمعة ،

كذلك قرر المذهب الشافعي وغيره عدم صحة الزواج بغير اللغة العربية للقادر عليها ، بل أوجب الفقيه الحنبلي أبو الخطاب تعلم اللغة العربية لصحة الزواج كما روى ابن تيمية عن الأئمة الثلاثة : مالك والشافعي وأحمد أنه يكره التخاطب بغير العربية إلاّ لحاجة ، وأنه فهم ذلك من كلامهم ولا عجب فاللغة العربية هي أساس الوحدة الإسلامية العربية » .

هذا الجانب الخطير من علاقة اللغة بالفكر والعقيدة كان واضحاً أمام محاولات التغريب والغزو الثقافي ، وهو هدف مبيت يراد القضاء عليه بإعلاء العاميات أو بإقامة ما يسمى باللغة الوسطى حتى لا يفهم القرآن ويقع الفصام بين العرب والمسلمين وبين أسس فكرهم وقواعد شريعتهم فتندثر كما اندثرت شرائع الأمم الأخرى .

ولا ريب أن تأكيد هذه العلاقة بين اللغة والفكر وبين اللغة والعقيدة يجعل للكلمات مفاهيم خاصة ، فلا تفهم المصطلحات الغربية على نحوها الشكلي من أمثال كلمات Religion بأنها ( دين ) أو Charité بأنها ( زكاة ) ، فالمفهوم الإسلامي للكلمات يختلف في اللغة العربية عنه في اللغات الأخرى فالدين في الإسلام جماع من عبادة وشريعة وأخلاق ، وهو ليس كذلك في المصطلح الغربي وكذلك الزكاة التي تعني في العربية إشراك الفقير في مال الغني بصفة إجبارية وليس بمفهوم الصدقة الغربي (١) .

فالإسلام في الحقيقة ( فكره وعقيدته وشريعته ) هو عامل التكوين النفسي

(١) راجعنا في هذا بحثاً للأستاذ علال الفاسي .

والعقلي المشترك الذي تقوم عليه اللغة العربية على نحو لا يمكن معه فصل اللغة عن الثقافة وحيث يكون الدين بمفهوم الإسلام جزءاً من الثقافة لا يتجزأ .

ولعل تعبير ماكس مولر عن علاقة اللغة والفكر مما يجدر النظر إليه فهو يشبههما بوجهي قطعة النقد الواحدة ويقول : إن ما نسميه الفكر ليس إلاّ وجهاً من وجهي قطعة النقود ، أما الوجه الآخر فهو الصوت المسموع .

ويصدق صادق عنبر حين يقول : لقد علمنا أن لكل أمة شاهداً من لغتها على ما فطرت عليه من دين ودون لها من تاريخ وعرف عنها من نسب ومدنية وفنون .

# الفصل الثاني

## العربية واللغات

من التحديات التي تواجه اللغة العربية وتحاول أن تنال منها علاقتها باللغات الأجنبية ، فهي من ناحية تحاول تطبيق قوانين اللغات عليها وهذا من شأنه أن يعجز عن استيعاب أبعادها الذاتية والتاريخية ويحولها إلى إحدى اللغات الضيقة بالوطن والأرض من ناحية والضيقة بالزمن من ناحية أخرى ، بينما اللغة العربية ليست لغة وطن وزمن وإنما هي لغة فكر إنساني عالمي هو الفكر الإسلامي ولغة سبعة عشر قرناً أو يزيد ، ما تزال حية تربط أولها بآخرها .

وهناك في علاقتها باللغات الأجنبية تحدٍّ آخر جدّ خطير هو محاولة غزو اللغات الأخرى لها عن طريق الترجمة إليها وعن طريق فرض مصطلحات الحضارة عليها . ومن ذلك ما حاولته القوى الاستعمارية من تجميد اللغة العربية في المدارس والتعليم وفرض لغتها الأجنبية من ناحية ومن السيطرة على حركة الترجمة ودفعها على نحو فيه كثير من الطغيان على اللغة الأصلية من حيث هي لغة وأسلوب ومن حيث هي مضامين وفكر .

ولقد كشف كثير من الباحثين هذا الخطر فأعلن أن الغاية من إحلال اللغات « ليست هي إحلال كلمات محل أخرى ولكن إحلال فكرة محل أخرى ،

لأن الكلمة هي التي تشتمل على كثير من الاعتبارات والنظريات، وهي التي تلهم المتكلم أساليب من النظر ومن الفهم ومن السلوك لا يستطيع غير المتكلم أن يفهمه إياها، وقد نجح المستعمرون في هذا نجاحاً كبيراً حتى أنهم استطاعوا أن يجعلوا في الشباب من يقدر على التفكير بلغتهم ولو تكلم أو كتب بلغته هو. فاللغة الأجنبية مهدت للمستعمر سبيل السيطرة على فكر المستعمر ( بالفتح ) وتوجيهه الوجهة التي يريدها الأجنبي ولو في أثناء مقاومته لها ومحاربته إياها، لقد أصبحت الكلمات العربية مثلاً فارغة من معانيها الأصلية في نظر العرب أنفسهم، ولكنها عامرة بالمعاني التي تشتمل عليها الكلمات الأجنبية التي تقابلها عادة في الاستعمال، ونشأ عن ذلك تحول في مدلولات القيم، وفي مفهومات العقائد والديانات وهكذا تغلغل الاستعمار في صميم حياتنا، في أفكارنا وديانتنا ومبادئنا، فنزع عنها ما هي قائمة به في أعناقنا وإذا بنا نجدها خارجة عن وجودنا وغريبة عنا، فنحكم عليها بما يحكم به الأجنبي، ونبني عليها ما يبنيه الأجنبي من أحكام ونظريات طبقاً للتصورات التي حصل هو عليها والظروف التي تفاعلت في نفسه هو حولها».

ونحن نعرف اليوم أن ظاهرة السيطرة باللغات الأجنبية من داخل اللغة العربية قائمة فعلاً في أجزاء كثيرة من البلاد العربية، وأن هذه السيطرة «أحدثت وتحدث في وسطنا خسارة لا حدّ لها» واننا «لا يمكن أن نعتبر أنفسنا أحراراً بمعنى الكلمة الحقيقي إلاّ إذا حررنا فكرنا من اللغة الأجنبية وحررنا كلماتنا القومية من المدلولات الأجنبية عنها».

## ٢

وتجيء تجربة الجزائر بين استلاب اللغة واستلاب الدين واضحة الدلالة، فقد حاول الاستعمار الفرنسي إحياء البربرية وفرض الفرنسية ومع ذلك فقد

كان ارتباط العربية بالإسلام له أثره العميق في رحلة العودة :

يقول عمار وزقان في كتابه « الجهاد الأفضل » : إن تعلم اللغة العربية هو إحياء للتربية الطبيعية والعقلية التاريخية التي تتيح أن تكشف السبب في أن جبل الجرجرة ( الجبل الحديدي ) الروماني الذي لم تصله المسيحية قد سمي أعلى قمم الأطلس في منطقة التل باسم ( لالا خديجة ) الزوجة الأولى للنبي العربي وأم المؤمنين .

وهو إيجاد تفسير لهذا اللغز ، لماذا تغلبت اللغة العربية على اللاتينية في أفريقيا التي طبعت بطابع روماني ، وهو الاكتشاف العلمي القائل بأن اللهجة البربرية ليست غريبة إلى الحد الذي يظن أنها بعيدة عن اللغة العربية » .

نعم لقد حاول الاستعمار أن يعلن وجود لغة بربرية في المغرب ليقضي على العربية ، وحاول أن يوقظ في مصر اللغة الهيروغليفية ليضعف العربية ، ثم كشفت أبحاث العلماء بأن العربية هي أم لهذه اللغات وشقائق ، وأن هذه اللغات كانت مراحل على طريق الفصحى الطويل اتصالاً به لا انفصالاً عنه وباءت دعوات الاستشراق والتبشير بالفشل الذريع .

ومن ذلك نجد في المغرب من يقول : إن اللغة ليست وسيلة من وسائل التعبير ، ولكنها غاية لأن الكلمة هي مصدر الإلهام وهي إذا لم تخرج ممتزجة بالروح التي تصنعها فلن تكون إلا كلمة لا محتوى لها وصدى لطبل أجوف يرن في الفضاء ثم يغيب في العدم المحض الذي ليس له ثبات » .

ذلك هو قول العلامة علال الفاسي الذي يحذر من خطر اللغات الأجنبية على المسلمين والعرب في هذه المرحلة وقبل استكمال خطط الأصالة وسبل الترشيد فيقول :

« إن اللغة الأجنبية تأخذ الإنسان ولكنها لا تستطيع أن تعطيه نفسها ، فهو يظل مأسوراً بين من لا يرغب فيه ولا يمتزج بوجوده .

« إنه يظل في عالم المقعدين الذين يأنسون من أنفسهم القوة على النهوض فلا تعينهم الآلة ، لا يجدون الآلة التي هي لغتهم الأصلية ولا تقوم (الآلة العوض) إلاّ بما تقوم به الأرض الصناعية في النهوض .

« إننا سنظل بدون ثقافة ما دمنا لا نتعلم ونتثقف باللغة الأم » .

ولقد وصف هذا الاتجاه منذ وقت بعيد بأنه : « الاستعمار باللغات » .

فالفرنسية هي لغة التفاهم في المغرب وقد كان المستعمرون يبثون في أذهان النخبة من رجالهم وطلبتهم أن الفرنسية ضرورية ولا يمكن الاستغناء عنها ، وفي مصر والهند كانت اللغة الانجليزية هي لغة التفاهم .

وقد عمد الاستعمار إلى المدرسة فأغلق باب اللغة العربية تماماً ، فكانت العلوم كلها تعلم بالانجليزية ، بل إن الاستعمار الانجليزي في مصر كان يعلم اللغة العربية بواسطة أساتذة إنجليز في بعض الأحيان . وهذا هو معنى التفكير باللغة .

ولم يكن هناك كتاب يؤلف في العلوم الحديثة باللغة العربية لأن جميع الذين تعلموا هذه العلوم إنما تعلموها بالانجليزية (١) .

ومن ناحية أخرى فقد اقترن وجود غالبية اللغات الأجنبية في مصر بحركات تبشير أو شعوبية ، فقد ثبت ثبوتاً قاطعاً « أن بعض الهيئات الأجنبية التي وفدت إلى مصر في بداية القرن التاسع عشر كانت تتخذ من مدارسها وما تقيمه من مستشفيات ومستوصفات ستاراً تخفي وراءه أغراضاً دينية وأهدافاً سياسية كانت مناهضة لدين البلاد وماسة بمشاعر المصريين القومية (٢) .

« وقد شجع الولاة من أسرة محمد علي من أولياء الاستعمار تعلم اللغات

---

(١) الأهرام ، ١٧ – ١١ – ١٩٣٣ .
(٢) دكتور نعمة محمدعبيد في كتابة اللغات الأجنبية ودورها ؟

الأجنبية بشتّى الوسائل المادية والأدبية في الوقت الذي هان فيه أمر اللغة العربية على أيديهم » .

وقد حملت اللغة الفرنسية إلى مصر النظام المدرسي الحديث إلى جانب النشاط الفرنسي للبعثات التبشيرية ، ولما احتل الانجليز مصر تفوقت اللغة الانجليزية على اللغات الأخرى بحكم نفوذ الانجليز في شتّى قطاعات الدولة وخاصة التعليم الحكومي ، وقد فرض الاستعمار الانجليزي اللغة الانجليزية فرضاً على مراحل التعليم المصري .

وقد واجهت حركة اليقظة هذه الظاهرة فعمل محمد عبده ومصطفى كامل ومحمد فريد على إيجاد التعليم الوطني والقومي الذي يقوم على اللغة العربية وأنشئت مدارس تابعة للجمعيات الأهلية كالجمعية الخيرية الإسلامية وجمعية العروة الوثقى حيث كان التعليم مجانياً وكانت المواد جميعها تدرس باللغة العربية.

ومن خلال مقررات المدارس الحكومية التي كانت خاضعة للنفوذ الأجنبي كان أثر اللغات الأجنبية مزدوج الخطر ، فهو فضلاً عن خلق عقلية غريبة ، فقد كانت مواد هذه الدراسات تعمل على القضاء على روح الوطنية والقومية وتنتقص البلاد وأهلها وتاريخها وقيمها ، فقد كانت كتب الجغرافيا مثلاً تصف مصر بأنها بلد زراعي لا يصلح لإقامة الصناعة فيه ، وكانت كتب التاريخ تقيم حاجزاً من الاقليمية ضد الأمة العربية والعالم الإسلامي وتصور مصر بأنها بلد عاش على مدى التاريخ مستعمراً باليونان والرومان ، وتصف علاقة العرب والإسلام به بأنها نوع من الاستعمار .

ولقد كان من أثر هذا التعليم أن خرج قيادات سياسية وحاكمة ثقافتها أجنبية ولغة أفرادها واحدة من ثلاث ( الفرنسية أو الانجليزية أو التركية ) وبذلك هان على هذه الطبقة ذلك الإيمان القوي بالعقيدة أو الفكر أو الوطن .

وقد عمل هذا المخطط الاستعماري وفق هذا النموذج في مختلف الأقطار

العربية والإسلامية واستهدف قتل اللغة القومية وتثبيت اللغة الأجنبية وجعلها اللغة الأساسية لكافة المواد . وتعليم الطبقة لا تعليم الأمة : الطبقة التي تحكم وستحكم في المستقبل . وقصر الدراسة على كتب مستوردة من بلاد الغرب فيها توجيه ثقافي معين يغض من قدر بلادهم وأوطانهم ويعلي من شأن البلاد الأجنبية وتاريخها وحضارتها ، وكانت هذه المواد تدرس على أيدي مدرسين أجانب يحتقرون الأوطان وأهلها ويشيدون بالاستعمار ومآثره (١) .

ولكن هذه الخطة ما لبثت أن تحطمت بعد استقلال البلاد العربية والإسلامية ولكنها ظلت قائمة في المعاهد والمدارس والجامعات التي أقامتها الإرساليات التبشيرية في مختلف أجزاء العالم الإسلامي والتي تضم أعداداً ضخمة من شباب المسلمين والعرب .

وفي مراحل التحرر من النفوذ الأجنبي السياسي ظلت كثير من مفاهيم ( التغريب ) قائمة من خلال برامج التعليم والتربية وخاصة فيما يتعلق باجتزاء المفاهيم الإسلامية وعزلها في مادة الدين وحدها بينما يمثل الفكر الإسلامي القاسم المشترك الأعظم لمختلف مواد التعليم في المعاهد والجامعات وله أرضيته وأولياته في مختلف مواد العلوم والدراسات الإنسانية والاجتماعية والسياسية والقانونية ، ومن ثم ركز النفوذ الأجنبي سيطرته على الصحافة والثقافة من أجل عزل اللغة المكتوبة في الصحف عن لغة البيان العربي الأصيل وعن اللغة الفصحى ، وجرى تشجيع العاميات ودعمها في القصة والمسرحية والسينما والإذاعة ، وكان للبعوث التي أرسلت إلى البلاد الغربية أثرها الخطير فقد اختيرت من مجموعات من الشباب لم تتكون لديها القاعدة النفسية والروحية والثقافة الإسلامية ، ومن ثم خضعت بعد عبورها البحر للتيارات الإلحادية والفكر الغربي ذلك لأن هذه البعوث كلها كانت تسقط في أيدي القوى التبشيرية ومعاهد الإرساليات الغربية الملحقة بالجامعات الكبرى والتي يشرف عليها

---

(١) استفدنا في هذا بما جاء في كتاب ( اللغات الأجنبية ودورها) .

مستشرقون يهود ومسيحيون متعصبون وطامعون في خلق خلائف لهم في البلاد الاسلامية من هذا الشباب . ومن ثم فقد كان العائدون من البعثات الأجنبية — إلا قليلا منهم — مصدر خطر كبير في تأكيد ولائهم للفكر واستهانتهم الأجنبي الوافد باللغة العربية والفكر الإسلامي العربي .

## ٣

ويتصل بهذا ما جرى فرضه على مناهج الجامعات من تعليم اللاتينية واليونانية ومحاولة إدخالها في مناهج المدارس الثانوية وكان الدكتور طه حسين في مقدمة الداعين لذلك . وذلك من الأمور التي من شأنها أن تضعف مكانة اللغة العربية وفكرها في نفوس الأجيال المثقفة ، بالإضافة إلى سيطرة اللغتين الفرنسية والإنجليزية ، ولقد يمكن أن يقال إن اللغات الحديثة أداة طيعة إذا أحسن استخدامها للربط بين الفكر الإسلامي العربي وبين الفكر الحديث ، ولكن فرض اللغتين القديمتين الميتتين من شأنه أن يحدث أخطاراً لا حد لها لأنه سيكون بمثابة خلق جبهتين تضعف بينهما اللغة العربية ومكانتها النفسية والاجتماعية في العقل العربي الإسلامي ضعفاً بالغاً خطيراً .

وإذا كانت أوربا قد أخذت في مناهج جامعاتها بتدريس هاتين اللغتين فإنما جرى ذلك من أجل الربط بين اللغات الحديثة وأصولها القديمة وحتى يمكن للمثقف أن يراجع التراث القديم الذي انفصل عنه عندما اتحدت اللغات الحديثة ، ومع ذلك فإن في الغرب كثيرين يعارضون هذا الاتجاه ويرون أن اللغتين اللاتينية واليونانية « من اللغات الميتة التي ترجع إلى العهود البائدة وأن الحضارات والثقافات التي تتمثل في هاتين اللغتين أصبحت مدفونة في أغوار التاريخ » (١) هذا فضلاً عن أن أغلب الآثار الهامة في الأدبين قد ترجمت إلى اللغات الحديثة .

---

(١) ساطع الحصري ، آراء وأحاديث في التربية والتعليم .

فضلاً عن أن «معرفة اللاتينية واليونانية التي يمكن الحصول عليها خلال الحياة المدرسية لا تستطيع أن ترفع الطالب إلى درجة تمكنه من تذوق مضامين تلك الآثار الفكرية والأدبية ومزاياها في لغاتها الأصلية » .

ومن هذه التجربة الغربية نستطيع نحن أن نجد العبرة ، فإذا كانت اللغة اللاتينية أو اليونانية وهي ذات الصلة الوثيقة باللغات الأوربية تجد مثل هذا النقد والتهوين من قدرها في مجال الدراسة فما بالنا نحن وليست لنا بهاتين اللغتين مثل هذه الصلة نقبل عل تعليمهما . وهل يجوز « التوسل بتعليم لغة ميتة إلى تثقيف العقل » .

ويقول الأستاذ ساطع الحصري في مواجهة هذا الاتجاه ويرد على قول القائلين بأن تعليم اللاتينية واسطة ضرورية لتثقيف العقول ما يلي :

« إن هذه الفكرة قد ثبت خطؤها كل الثبوت ، إذ قد أصبح من المسلم به في علم التربية أنه لا يوجد موضوع مدرسي ( مثقف ) في حد ذاته ، كما أنه لا يوجد موضوع مدرسي يحتكر قابلية التثقيف لنفسه .

فعندما نود أن نجعل الثقافة هدفنا الأسمي يجب علينا أن نعلم حق العلم أن الوصول إلى هذا الهدف لا يتم إلاّ بالبحث عن أوفق « طرق التدريس » لضمان التثقيف والسير على تلك الطرق على الدوام ، أما إضافة لغة أو لغتين من اللغات الميتة إلى مناهج الدراسة فلا يمكن أن يضمن لنا شيئاً من أهداف التثقيف بوجه من الوجود » .

« وإذا جاز للأوربيين أن يخيروا أولادهم بين دراسة اللغات الميتة ودراسة اللغات الحية ، فلا يجوز لنا نحن أن نفكر في مثل هذا التخيير » .

## ٤

وفي مجال الترجمة من اللغات الأجنبية إلى اللغة العربية تفرض نفسها محاذير كثيرة وأخطار كبرى . ذلك أن محاولة ترجمة الفكر الغربي إلى العربية في العصر الحديث قد مر بعدة مراحل استطاعت الأهواء والمطامع التي تفرضها حركة الغزو الفكري والتغريب من خلالها أن تحقق أهدافها وأن تجعل عملية الترجمة سلاحاً جديداً من أسلحة ضرب اللغة العربية والفكر الإسلامي العربي وتزييفه وإفساده .

لقد بدأت حركة الترجمة في العصر الحديث على نحو سليم ثم انحرفت تحت تأثير النفوذ الأجنبي الذي سيطر على العالم الإسلامي ، بحيث لم تكن حرية الاختيار والإرادة الحرة مكفولة في اختيار المترجمات .

كانت حركة الترجمة التي بدأهـا رفاعة الطهطاوي حكيمة وإيجابية فقد ارتبطت بترجمة العلوم والفنون والقانون وكل ما تحتاج إليه البلاد الناهضة من نتاج الفكر الغربي ، وقد نجحت مدرسة الألسن ورجالها في ترجمة نحو ألفي كتاب بين مطبوع وغير مطبوع في مختلف العلوم والفنون كالتاريخ والقانون المدني والرياضة والطب والهندسة والصحة والحيوان والفلسفة والجغرافيا ، وعرفت نماذج الترجمة بالأصالة كما وضع لهذه المؤلفات مقدمات تكشف عن أهميتها وأجزاء تكميلية فيما يتعلق بمصر والبلاد العربية أو بما ينقصها من مادة في مجالها .

غير أن هذا الاتجاه لم يلبث بعد قليل أن تحول بدخول طائفة من الكتاب السوريين المسيحيين الذين انحرفوا بالترجمة إلى مجال القصص والمسرحيات وفي مقدمتهم نجيب الحداد وإلياس فياض ، وطانيوس عبده ، وخليل بيدس ، وغيرهم .

فقد كانت هذه المرحلة مضطربة أشد الاضطراب ، وقد اختلط فيها

التعريب بالتمصير بالترجمة ، وبلغت فيها ديباجة الترجمة حداً بعيداً من الهزال والنزول ، فقد كان هدف المترجمين إرضاء القارىء وتسليته ، من أجل ذلك عمدوا إلى القصص المثيرة المتصلة بالجنس والغوايات ونقلوها نقلاً مشوهاً .

وكان سوء اختيار القصص والتركيز على الأدب المكشوف والماجن في هذه الفترة سبباً في ظهور حصيلة ضخمة من القصص التي فتحت لها الصحف اليومية والمجلات الأسبوعية طريقاً إلى النشر ، كما صدرت سلاسل متعددة متخصصة في القصص والروايات ، وكان طانيوس عبده ونقولا رزق الله وأسعد داغر أكثر هؤلاء إسرافاً في هذا اللون الهابط من الترجمة ويحصى لطانيوس عبده وحده أكثر من ستمائة قصة ورواية من هذا النوع ، وقد كانت الترجمة بالنسبة له — كما ذكر نقاده ومترجموه — كسب عيش وليست عملاً فنياً ، هذا بالإضافة إلى جهله بقواعد اللغة العربية وضعفه في اللغة الفرنسية وقد وصفت ترجماته وترجمات نقولا رزق الله با لركاكة المتناهية .

وقد ذكر النقاد أن لغة طانيوس عبده « لم تكن تنال ما تستحقه من التهذيب والتشذيب ، فقد كان لا يأبه إلا لأداء المعنى ولا يتقيد بالأصل ولا يدقق في التعبير » وأشار مؤرخه كرم ملحم كرم أنه كان حريصاً على مجافاة التقيد بالأصل مع تشويه القصد ، وكان يقرأ الفصل في لغته الأصلية ثم يكتبه من عنده ويعطي لنفسه الحق في إدخال أشياء كثيرة إلى الأصل .

وقد امتدت هذه المدرسة واتسع نطاقها حتى لفتت نظر الباحثين الأجانب فقال ( مرجليوث ) : « إن أكثر ما ترجم إلى العربية من تأليف أهل الغرب إنما هي روايات مقصدها اللهو دون المنفعة وقل ما يوجد في أعمدتها من أسماء كتب جديدة موضوعها التاريخ أو الفلسفة أو فن من الفنون ، وقال ( جب ) : إن القصص التي ترجمت لم تترجم ترجمة سليمة ولم يراع في اختيارها حالة مصر الاجتماعية ولا حالة الثقافة العامة ولا الذوق الأدبي للبلاد ، كما نذد

(جب) بالترجمات التي نقلت من اللغة الفرنسية والتي استهدفت الإثارة دون المنفعة .

وهكذا اختفى الطابع العلمي والرصين من مجال الترجمة مخلفاً هذا الاتجاه الذي اتسع بعد الحرب العالمية الأولى حين بدأت الترجمة تأخذ طابعاً أشد إمعاناً في الغزو الثقافي ، وفي مقدمتها المترجمات التي قدمها الدكتور طه حسين في جريدة السياسة اليومية أيام الاثنين وكلها قصص حسية مكشوفة .

وقد لفت هذا الاتجاه الأستاذ إبراهيم عبد القادر المازني فأشار إلى أخطاره ، كذلك أشار إليه الأستاذ محمد أحمد الغمراوي حين قال :

« خذ إليك مثلاً تلك القصص الفرنسية التي لخصها (طه حسين) من آن لآن يلهي بها كثيراً من النشء ويضل بها كثيراً ، هل ترى بينها وبين روح هذه الأمة صلة أو بينها وبين روح هذه اللغة صلة ؟

وقد فتح الدكتور طه حسين بذلك باباً لم يغلق : باب ترجمة قصص الجنس والأدب المكشوف الغربي وقصص اليونان القديمة المسرفة في الإثارة والإباحة ، فمضى بعده الكتاب إلى أبعد مدى . كما ترجم شعر بودلير وهو شاعر منحرف الذات والذوق .

وقد أثار هذا بعض الباحثين وسجلوه كظاهرة خطيرة بالنسبة لحركة الترجمة وبالنسبة للغة العربية وآدابها ، وقد أثار الدكتور حسين الهراوي هذا الأمر بمثابة ظهور مجموعة (قصص اجتماعية) لمحمد عبد الله عنان فكتب تحت عنوان (فتنة القصص الغربي) فقال : «ناقشت الكثيرين من أنصار القصص الغربي بأن استفادة الشرق منه أدبياً لا تساوي ما يجره عليه من العناء الشخصي والقومي والخلقي ، فللشرق آدابه وقوميته . والقصص الغربي اليوم قد اندفع نحو وجهة واحدة هي وجهة الاستهتار الجنسي ، والروائيون في الغرب ليس لهم في هذه الأيام مصدر إلهام غير هذا الموضوع » .

ولا ريب كان هذا الانحراف في الترجمة دافعاً إلى وقوع البلاد العربية والإسلامية تحت سيطرة الاستعمار والنفوذ الثقافي لفرنسا وانجلترا وغيرهما ، ولعل هذا هو السر في تحول الترجمة عن أهدافها الأساسية وإرضاء رغبات القراء .

لقد كان هدف الترجمة الأساسي هو إغناء الفكر الاسلامي والأدب العربي بنقل الآثار النافعة التي تحقق قوة وإيجابية ، وقد استطاع النفوذ الأجنبي القائم على التغريب والغزو من إحداث انحراف خطير حول هذا الاتجاه نحو التسلية وترويج القصص المنحرفة والمثيرة .

ثم استشرى هذا الاتجاه بعد الحرب الثانية فأوغل في ترجمة الفلسفات المختلفة : من مادية ووجودية وبرجماتية ، كذلك اتسعت اتجاهات ترجمة المذاهب السياسية والاجتماعية والاقتصادية من كلا المعسكرين .

وبذلك ألقيت إلى الفكر العربي الإسلامي حصيلة ضخمة مختلفة متضاربة مما عرفته أوربا خلال أكثر من ثلاثمائة سنة على نحو تاريخي متسلسل بعضه إثر بعض .

ثم انتقل إلينا هذا الركام كله دفعة واحدة ، فكان له أثره البعيد في بلبلة الأفكار واضطراب المشاعر والعزلة عن أصالة فكرنا العربي الإسلامي (١) .

لقد انحرف منهج الترجمة في غياب الضوابط القادرة والمفهوم المحدد للنقل من اللغات المختلفة . وقد غلبت عليه القصة والملحمة الإغريقية في فترة ما بين الحربين ثم غلبت عليه في الفترة الأخيرة ترجمة المذاهب والفلسفات .

وقد أحصى الأستاذ يوسف أسعد داغر حتى أوائل الحرب العالمية الثانية أي عام ١٩٣٩ تقريباً ( ١٠ آلاف ) قصة ترجمت ، وهو رقم مخيف مفزع ،

---

(١) سنتناول هذا البحث في مجال آخر غير بحث اللغة العربية .

فقد ترجم أغلب هذه القصص من اللغة الفرنسية أولاً وعني بترجمة اللون الجنسي والمكشوف والنازل والمنحرف ، وكان أغلبها بعيداً عن الأداء السليم في الترجمة . ومن بين هذا ستمائة قصة ترجمها طانيوس عبده .

وقد طغى على هذه الترجمات اللون الرخيص الزائف من كتابات ميشال زينكو وبونسون دي تيرايل وموريس لبلان وقد ترجمت قصص تخالف مفاهيمنا وقصص تزري بتاريخنا وتحرف مواقفه الضخمة كترجمة مؤلفات أجنبية عن صلاح الدين مما كتبه ولتر سكوت وغيره (١) .

وقد أحصى النقاد على هذه الترجمات عوامل نقص وتقصير مختلفة من أهمها :

أولاً : عدم التقيد بالأصل المترجم .

ثانياً : مسخ القصة وإضافة ما ليس منها .

ثالثاً : اللغة الركيكة المبتذلة .

ولقد بلغ من ضعف المترجمات أن أصحابها عجزوا عن استيعاب الكلمات في أصولها العربية فترجمت كلمة ( الحمراء ) باسم ( الهميرا ) وقد أشار إلى هذا الدكتور عبد العزيز برهام حين قال: «إن أكثر القائمين بأمر الترجمات لم يكونوا بصراء باللغة العربية بصرهم باللغة التي ينقلون منها ، فكانت تستعصي عليهم ترجمة كثير من الأساليب التي يستطيعون إيجاد مثيل لها في العربية لضعفهم فيها فالتوت لغة الترجمة ، وكثيراً ما عمد الناقل إلى الأسلوب أو التعبير الأجنبي فنقله بنصه دون مراعاة روح اللغة التي ينقل منها ، وكثيراً ما أدخل في اللغة العربية كلمات أجنبية لم يستطع المترجمون أن يجدوا لها مدلولاً في لغتهم فطغت على لغة الكتابة » (٢) .

---

(١) راجع بحثنا عن تطور الترجمة في الأدب العربي المعاصر .

(٢) الرسالة ١٤ / ٥ / ١٩٤٥ .

وهكذا نجد أن اللغة العربية في ديباجتها العامة قد تأثرت بالمترجمات تأثراً سيئاً واصبحت لغة هابطة ركيكة .

## ٥

وفي السنوات العشرين الأخيرة خرجت حركة الترجمة عن كل قيد وسارت بقوة في خطا التغريب والغزو الثقافي فقدمت نتاجاً غلب عليه الضعف والانحلال . ذلك أن حرص كثير من المترجمين على ترجمة الآثار الأدبية الأخيرة في الآداب الأوربية قد نقل إلى الأدب العربي واللغة العربية ما لسنا في حاجة إليه لأنه يصور المجتمع الغربي الآن في طور انهياره وتخلفه وتحلله .

فالغرب الآن يمر بمرحلة بطالة وترف بالغين ويخلد إلى لون من الحياة الرخيصة الخامدة التي سيطرت عليها عوامل التحلل والإسراف ، ومن هنا كان الإنتاج الغربي إنتاجاً يعكس القلق والتمزق واليأس والتشاؤم ، وهو يمثل في الأغلب في كتابات كامو ومارلو وسارتر وبرندلو وموارفيا وكفكا ، وجميع هؤلاء منحرفون عن الجادة قد اعتصرتهم الفكرة الوجودية المشوبة بالإلحاد والتحلل والقائمة على لون عجيب من الغثيان والرعب والإحساس بالوحدة والخوف ، وهي تتجه إلى معاداة المجتمع واحتقار أنظمته ، وتسخر من القيم الأخلاقية ، وتتنكر للعفة والشرف والرحمة ، وتهزأ بفكرة الأسرة والعائلة .

وقد وصلت الآداب الأوربية إلى ذلك بعد مراحل طويلة من التحول استمدت مفهومها الأساسي من الطابع المادي الحسي الذي يختلف مع طابع الأدب العربي والفكر الإسلامي الجامع بين الروح والمادة والعقل والنفس والذي لا يقبل المفهوم المادي الحسي الصرف ، ومن هنا فنحن نتقدم إلى هذه النماذج من الأدب الغربي في تحفظ كبير ، ونحن في نفس الوقت نواجه نهضة من نوع خاص يتميز بالكفاح والنضال ، ومن هنا فإن نقل طوابع الترف

والانحلال تفسد عزيمته وتضعف حركته .

ولا ريب أن نقل الآداب في هذه المرحلة له أخطاره وكذلك نقل الدراسات الفلسفية ، فإن له محاذيره وليس لنا إلاّ نقل العلوم التجريبية وحدها . فنحن نؤمن بأن المعرفة والعلم عامان وأن الثقافة والآداب والفنون خاصة لأنها ترتبط بالنفوس والأخلاق والقيم .

وليست النظرة العربية الإسلامية إلى الحياة نظرة مادية ولا إباحية ولا تشاؤمية ولكنها نظرة جادة متكاملة مضبوطة أخلاقية الطابع . ولا ريب أن قذف الأدب العربي والفكر الإسلامي العربي بهذه الموجات المتلاطمة من المترجمات إنما هو خطوة في طريق التغريب والغزو الثقافي الذي يحاول أن يطرح في أفق العرب والمسلمين هذه النماذج المتشائمة المتحللة حتّى لا تستقيم إرادة الحياة .

ولقد تعالت صيحات كثيرة تدعونا إلى أن نتحكم في تيار الكتب المترجمة إلى اللغة العربية ، وإلى أن نضع في يدنا إرادة الترجمة كما كانت في أيدي رجالنا في العصر العباسي ، وذلك حتّى نحمي اللغة العربية والأدب العربي والفكر الإسلامي والثقافة من محاذير وأخطار نتيجة تعسف الترجمات وتجاهلها للمزاج والعقلية والعصر ، ومن حقنا أن نقول إنه ليس كل مشهور يجب أن نترجمه بل نترجم النافع ، ولا ريب أن استنكار مسرحية أو كتاب ما هو إلاّ دليل على قوة شخصيتنا وأصالة ذهننا وليس العكس ، وعلينا أن نقدم هذه الآثار المترجمة بمقدمات ضافية تكشف عنها ، وقد استوعبت هذا المعنى الكاتبة العربية ( نازك الملائكة ) في بحث عنها قالت فيه : إن هناك طرقاً كثيرة تتحاشى بها الأمم أن تفقد شخصيتها في غمار ما يترجم من آداب الأمم الأخرى ، وإن القانون الأول للترجمة هو « الانتقاء » : انتقاء ما يلائم الحاجة العربية والظروف القائمة ، ونحن نعرف أن المسلمين والعرب في القرن الثالث حين ترجموا الفلسفات اليونانية وغيرها حذفوا منها الفلسفة الإلهية

وما يتعلق بالشرك وتعدد الآلهة وترجموا الرياضيات والمنطق كذلك فإنهم تركوا المسرح الإغريقي وشعر الملاحم لأنه لا يتفق مع طبيعتنا ومزاجنا النفسي والأدبي .

وتقول الكاتبة : إن مقاييس أمتنا الشخصية هي المقاييس ومصلحتها هي المصلحة ، أن لا نترجم إلاّ ما نحتاجه وما يتفق مع روحنا وأن علينا أن نخضع التراث الغربي كله للضرورة والحاجة وليس لأهواء المترجمين . لندرس ما يصنعه الأثر المترجم في الروح العربية ونتوسع فيما يهمّ ونغضي عما يضر .

ولا نقدم المترجمات إلاّ وهي مسبوقة بمقدمات ضافية تكتبها أقلام عربية رصينة متمكنة من الأدب العربي تشرح معاني هذا الأدب الوافد كما تشرح صلته بحياة الغرب وتياراته الفكرية ، وعلينا أن ندرس كل أثر غربي من وجهة النظر العربية ، فإذا كان فيه خروج على قيمنا وتقاليدنا وقفنا عنده وناقشناه ونقدناه وأثبتنا المفهوم العربي ، أما أن نقدم آداب الغرب بلا مقدمات فإن ذلك يبلبل قراءنا .

# الفصل الثالث

## العربية والعروبة

لعبت اللغات في العصر الحديث دوراً خطيراً في مجال الروابط السياسية للأمم تحت اسم الوطنية والقومية ، واستطاعت أن تثير حروباً وتسقط دولاً وتغير جغرافية القارات ، وذلك عندما تصاعدت الدعوات العنصرية والإقليمية في العصر الحديث وخاصة في أوربا لتعيد تشكيل الدول على أساس القوميات فكانت اللغة هي المصدر الأول والمنطلق الأساسي لهذه الحركات جميعاً .

ولقد امتد هذا التيار واتصل بالعالم الإسلامي بعد أن تعالت صيحات القوميات وخاصة القومية الطورانية في تركيا واستتبعت الدعوة إلى العروبة ثم جاءت نظريات القوميات الغربية وإيديولوجياتها المتعددة لتلقي بظلها في أفق العالم الإسلامي حتى لقد وضع دعاة نقل المفاهيم القومية الغربية اللغة العربية في موضع اللغات الأوربية مع الفارق البعيد بين مفهوم العروبة المرتبط بالإسلام وبين مفهوم القومية الغربية ، وبين دور اللغة العربية التي ربطت بين العرب والمسلمين منذ أربعة عشر قرناً بالقرآن وبين اللغات الأوربية المستحدثة التي ظهرت بعد أن تحرر الأوربيون من اللغة اللاتينية وترجموا الإنجيل إلى لغاتهم الوطنية .

لقد كانت هناك في الغرب مؤامرة اتخذت من اللغة مدخلاً إلى العنصرية والإقليمية وصراع الأجناس والعناصر وهذا غيرما يمكن تصوره بالنسبة لدور اللغة العربية في الرابطة العربية الإسلامية الجامعة . وإذا كانت بعض الأمم الغربية تسقط إذا زالت لغتها فإن ذلك لا ينطبق على الأمم الإسلامية فإن الجزائر قد زالت لغتها العربية أو كادت ، ومع ذلك فقد استطاعت الاحتفاظ بشخصيتها التي تقوم على الفكر والعقيدة والدين ، كما تقوم الشخصية في مختلف بلاد العالم الإسلامي . كذلك فإن اللغة العربية إذا كانت لغة العرب القومية فإنها لغة المسلمين قاطبة : لغة فكرهم وثقافتهم وتراثهم وعقيدتهم ، فهي ليست بالنسبة لعلاقة الأمة العربية مع المسلمين من مختلف الأمم علاقة صراع ولكنها علاقة تقارب وامتزاج ، فقد جمع بين العرب والمسلمين ذلك الفكر الإسلامي العميق الواسع المتصل بكل أسباب الحياة من خلال لغة أعلى وأكبر من اللغة العربية هي لغة القرآن نفسه الجامعة التي تربط المسلمين جميعاً بما لا يربطهم به الحرف العربي .

## ٢

ولقد جرت محاولات دعاة نقل مفهوم القومية الغربية لتطبيقه على العروبة إلى القول بأن اللغة أساس من أسس الوحدة ، والواقع أنها ليست اللغة بمفهوم الحرف ، ولكنها اللغة بمفهوم الفكر ، فالفكر هو الجامع وهو علامة الوحدة النفسية والعقلية والاجتماعية . فالفكر وليس اللغة هو اساس الوحدة ولذلك فإن النفوذ الاستعماري التغريبي إنما يستهدف تحطيم وحدة الفكر الإسلامي بإدخال لغاته وترجماته .

ولذلك فإن المفهوم في إطار الإسلام يختلف عن المفهوم في إطار الفكر الغربي ، فإن اللغة عندما تضيع لا تضيع الأمة لأن الأساس هو الفكر وليست اللغة

ونحن نعرف جميعاً أن التركيز على اللغة كأساس من أسس القوميات

الغربية هو ما أورده ماكس نوردو في كتابه (روح القومية) وقد كان ذلك مقدمة للدعوة إلى القومية اليهودية وإحياء اللغة العبرية .

وقد قامت النظرية الألمانية (في القومية) (فون هيردر وهيجل وفخته ونيتشه) على اللغة واعتبرت أنها الأساس الأول في البناء القومي ، وهي نظرية مستفادة أساساً من الفكر الإسلامي ، وقد أشار إليها الإمام الشافعي .

ولقد كانت أوربا وهي تتحول — بجهود الصهيونية العالمية المختفية في ذلك الوقت تحت لواء الماسونية — من الوحدة السياسية المسيحية الخاضعة للكنيسة إلى الصراع القومي قد اتخذت من اللغة منطلقاً لها إلى هذه الدعوة ، فقد بدأت بترجمة الإنجيل إلى لغاتها القومية وأخذت تبتعث تاريخها الاقليمي الخاص وفي ظل حركة الاستعمار العالمي المندفعة أخذت الحروب والصراعات تنشب في كل مكان لتعويض المجتمع الغربي المسيحي الموحد وإحياء القوميات وقد تناهت في ذلك الوقت الامبراطورية النمساوية وروسيا القيصرية وما كان للدولة العثمانية في أوربا من سلطان .

وأقيمت على أنقاضه قوميات جديدة هي ألمانيا وإيطاليا وبولندا ويوغسلافيا وفنلندا والنرويج والسويد وبلجيكا وهولندا واليونان ورومانيا وبلغاريا وألبانيا وتشيكوسلوفاكيا .

والموقف هنا يختلف اختلافاً واضحاً عن موقف البلاد العربية الإسلامية .

ولذلك فقد جاءت الدعوة إلى إعلاء اللهجات الإقليمية ومحاولة دفعها لتصبح لغات محاولة لتحقيق خطوة شبيهة بالخطوة التي اتخذتها دول أوربا حين اتخذت لغاتها الإقليمية مصدراً للدعوة القومية ، وكذلك جرت المحاولات للمقارنة بين اللغة العربية واللغة اللاتينية ، وبين هذه اللهجات ولغات أوربا عند انفصالها عن اللغة الأم ، ودعانا ويلكوكس إلى أن نعرف سر عظمة أمم الغرب فقال إن ذلك يرجع إلى أنها استقلت بلهجاتها وبدأت منها نهضة علمية

وطالبنا بأن نفعل ذلك ، وفي هذا الطريق جرت الدعوة إلى ترجمة القرآن وهي دعوة أحبطت منذ اللحظات الأولى حين استجاشت القوى التي كشفت عن زيفها وخطلها ، والتي أعلنت أنه لا سبيل إلى ترجمة القرآن نفسه وإنما يمكن ترجمة معاني القرآن فحسب .

ولقد كانت محاولة إسقاط الدولة العثمانية وإعلاء الدعوة الطورانية بذلك الأسلوب الصارخ من العنصرية والمغالاة واستحياء تاريخ قديم بائد ، وليس الدعوة إلى القومية التركية وحدها ، من الأعمال التي أريد بها نقل مفاهيم القوميات الغربية وصراعها في عالم الإسلام فقد قام فعلاً دعاة الطورانية العنصرية من الاتحاديين فعلقوا العرب على المشانق على نحو أريد به إثارة الفتنة بين العرب والترك الذين تجمعهم وحدة فكر أساسية ورابطة القرآن في لغته الأساسية . ثم لما أخذ العرب يتخذون الوحدة العربية سلاحاً للتجمع بعد أن عزلتهم الدعوات الإقليمية الصارخة كالفرعونية في مصر والفينيقية في لبنان والآشورية في العراق ، لم تلبث قوى الغزو الفكري أن تدخلت عن طريق رجال يكتبون باللغة العربية لتفرض مفهوماً للعروبة مبتعثاً من مفهوم القومية الأوربية ، وكان ساطع الحصري علامة بارزة على هذا التيار .

ولقد ركز هؤلاء الدعاة على اللغة وعلى التاريخ ، وحاولوا أن يوجدوا للغة مفهوماً وتاريخاً ومساراً منفصلاً عن الإسلام والقرآن ، ولكنهم عجزوا عن تمثل ذلك في النفس العربية الإسلامية ، وقد تعالت الصيحات من كل مكان تدحض هذا المفهوم الجزئي وتقول إن اللغة وحدها لا تكفي لأن تصور جوهر الوحدة وأن التاريخ لا يستطيع أن يشكل كياناً أو مقوماً ، ربما تكون اللغة ويكون التاريخ في واقع أوربا يستطيع أن يكون كذلك ، أما في أفق عالم الإسلام وفي مفهوم العروبة فإن الأمر يختلف اختلافاً عميقاً ، ذلك أن أبرز ما تتمثل به الثقافة العربية وهي وليدة الفكر الإسلامي هو تكامل العناصر .

وقد أشار إلى هذا المعنى باحث غربي ومستشرق هو « ألبرت حوراني »

حين قال : « انطلقت القومية (وهو يعني العروبة) من الشعور الإسلامي إذ إن الثقافة العربية والتاريخ العربي هما وثيقا الارتباط بالإسلام ، ولذلك فإن الشعورين العربي والإسلامي لا يمكن أبداً فصلهما فصلاً كاملاً .

« والإسلام بشكل عام لا يعترف بوجود أجزاء منقسمة بشكل حاد في داخل الأمة وليس فيه تمييز واضح ما بين الأمور الزمنية والروحية ، وعلى هذا فإن الحركات القومية في جميع البلاد الإسلامية تحتوي عنصراً إسلامياً مستتراً لا يلبث أن يطفو في أوقات الشدائد والأزمات » (١) .

ولن تستطيع نظرية القومية الوافدة أن تقدم مفهوم العلاقة بين العروبة وبين عالم الإسلام لأنها تقوم على التجزئة في المفاهيم وفي فصل اللغة عن تاريخها ومؤثرها الأول والأكبر وهو القرآن والإسلام ، ثم إنها تستمد مداولاتها من مفهوم القومية الغربية الذي يقوم على الخلاف والخصومة والصراع مع القوميات الأخرى بينما نجد اللقاء الواضح المتكامل بين العروبة وبين الأمم الإسلامية كالفرس والترك والهنود وغيرهم .

إن العرب من حيث تقوم مفاهيمهم على وحدة الفكر الإسلامي ينفتحون مع البربر والفرس والترك والزنوج وليس الأمر يقف عند حدود الانفتاح بل يصل إلى حدود التكامل .

إن الفكر الإسلامي لا الأجناس والعروق والدماء هو أساس وحدة الأمة الإسلامية ، والفكر الإسلامي الذي استمد وجوده من القرآن أصلاً لم يصنعه جنس معين ، وهو ليس للعرب وحدهم فلا عبرة بما يقال من تقدم جنس على جنس في هذا الميدان أو ذاك ، ذلك أن القرآن هو الذي صنع الفكر الإسلامي وأقام دعائمه .

ولا ريب أن هذه اللهجات العامية في البلاد العربية لن تستطيع مهما حاول

---

(١) ألبرت حوراني كتابه ( النهضة العربية الحديثة ) .

الذين يقفون وراءها أن تتحول إلى لغات ذلك لأن وحدة الفكر الإسلامي القائمة على القرآن المستمدة منه تقف سداً مانعاً دون هذه التجزئة .

ولقد كانت رسالة الإسلام في الوحدة ولا تزال تقوم على تعريب المسلمين لا على ترجمة القرآن إلى لغات المسلمين ، أي أن كل مسلم عليه أن يصبح عربياً فكراً باللغة والقرآن وما بعدهما ، ومن هنا ساق أئمة الفكر الإسلامي الدعوة متصلة إلى المسلمين لتعلم اللغة العربية كأساس لإقامة وحدة الفكر الإسلامي (١) .

---

(١) راجع رأينا في علاقة القوميات الغربية بالعروبة في كتابنا ( العروبة والإسلام ) .

# الفصل الرابع

## مستقبل العربية الفصحى

إن البحث في مستقبل العربية الفصحى مرتبط إلى حد بعيد بمكانة هذه اللغة ومقدرتها الفائقة على حمل الرسالة التي وكلت إليها عبر الأجيال على النحو الذي يكشف عنه تاريخها خلال المراحل المختلفة من حياتها ومن حياة عالم الإسلام.

فهي قد امتدت واتسعت وأصبحت لغة العلم والسياسة والحضارة خلال أكثر من ألف عام لم تستطع اللغات المختلفة أن تنازعها هذه المكانة ، وتركت خلال ذلك بصماتها في كل قواميس اللغات العالمية ، بل إنها ذهبت إلى أبعد من ذلك فقد ظلت المصطلحات التي أقامها أهلها تتحرك في كل مكان بوصفها مصطلحات عالمية وخاصة في علوم الكمياء والفلك وعلوم البحار .

وقد أكد الباحثون أن الغالبية العظمى من أسماء النجوم وضعها العرب غير قسم ضئيل منها احتفظ بالأسماء اللاتينية والإغريقية ، فقد استطاع العلماء الفلكيون الغربيون أن يسترجعوا هذه الأسماء بعد أن أخذوا علمهم كله عن العرب ومثال ذلك الشعرى الميانية والعيوق والسماك ( أو الرامح ) والنسر الواقع وقلب العقرب والدب والمنزر والمعرق والفخذ والنجم القطبي والفرقد ومجموعة العقرب والحاوي والحية والدب الأكبر والدب الأصغر(١)

---

(١) راجع مبحث الدكتور عبد الرحيم بدر ( العربي – أكتوبر ١٩٦٢ ) .

## ٢

بل إن الأبحاث العلمية الدقيقة قد أكدت مكانة اللغة العربية بالمقارنة إلى اللغات المختلفة وتغلغلها في كل اللغات العالمية . يقول عبد المجيد شوقي السكري في كتابه ( أم اللغات وعلم الاشتقاق والمقابلات ) ما يلي : لقد قمت بإجراء مقابلات واضحة مدة عشرين سنة .

وقد وفقت إلى وجود ١٦٥٠ كلمة قرآنية في ٢٢ لغة من لغات العالم الحية : : وهي الانجليزية والفرنسية والروسية والإيطالية والفارسية والكردية واللاتينية والتركية والألمانية والإسبانية والبرتغالية والأفغانية واليهودية ( أي الكنعانية التي يتكلم بها اليهود الآن ) والسريانية السورية والآرامية والآشورية والحبشية واليونانية والأرمنية والألبانية والكرواتية والرومانية البلقانية .

وبالنسبة للغة الانجليزية أكثر من ٣٤ طائفة من اللغة الانجليزية تشكل العمود الفقري للغة وهي بعض أسماء : البدن والعائلة والقرابة والبيت والملابس والأواني والحيوان الأهلي والبري والنبات والأثمار والطعام والأدوات والجو والطبيعة الأرضية والسلاح والأعداد والإشارة والضمائر والأماكن والدين والحاصلات والأوصاف والصناعات والألوان وأسماء بعض العلوم والفلك » .

## ٣

ولقد تردد القول في السنوات الأخيرة بالدعوة إلى ترشيح اللغة العربية لتكون اللغة العالمية المرتجاة ، أشار الباحثون إلى أحقية اللغة العربية لذلك دون لغات العالم جميعاً نتيجة اتساعها (١) الزمني حيث عاشت أكثر من ١٥٠٠ عام « ولا تزال نابضة بالحياة حافلة بالقوة والنماء ، كذلك امتازت عن جميع

(١) من مبحث الأستاذ علي عبد العظيم ( عن عالمية اللغة العربية ) مجلة الأزهر سنة ١٣٩١ / ١٣٩٢هـ.

لغات العالم بامتدادها المكاني حيث فرضت وجودها من حدود الصين إلى شواطيء المحيط الأطلسي ولا يزال تراثها معروضاً للبحث والدراسة في جميع جامعات العالم الكبرى مما يرشحها لتكون اللغة العالمية التي يتطلع إليها العالم كله » ويؤهلها لذلك أنها « كانت اللغة العالمية الأولى منذ القرن الثامن إلى القرن الخامس عشر الميلادي ، وكانت جامعاتها الكبرى قبلة طلاب الثقافة العالمية في أنحاء الأرض » .

كذلك أشار الباحثون إلى أحقية اللغة العربية في ذلك حين تقوم المقارنة بين اللغة العربية واللغات ذات الصفة العالمية الآن ، ولقد استطاعت اللغة الفرنسية أن تأخذ مكانة واضحة في العقود الأولى من القرن العشرين ، ثم انفردت اللغة الانجليزية بذلك بعد الحرب العالمية الثانية .

واليوم تعترف هيئة الأمم المتحدة بأربع لغات الدول الكبرى ذات المقاعد الدائمة في مجلس الأمن ( الانجليزية – الروسية – الفرنسية – الصينية ) بالإضافة إلى الإسبانية التي تتحدث بها إسبانيا وأمريكا اللاتينية .

كما اعترفت باللغة العربية .

غير أن العالم ما يزال يتطلع إلى لغة واحدة موحدة له .

ولا نعتقد أن هناك لغة تصلح لذلك غير اللغة العربية التي يجب أولاً أن تكون اللغة الأولى للعالم الإسلامي وذلك يؤهلها لأن تتصدر دعوة العالمية غير أن هناك محاولات متعددة تقف دون تمكين اللغة العربية من أن تكون لغة موحدة للعالم الإسلامي ولا ريب أن هذه المحاولات مرتبطة إلى حد كبير بدعوى التغريب والغزو الثقافي والنفوذ الاستعماري وكذلك النفوذ الصهيوني الذي أعلن أنه يقاوم وجود لغة واحدة في العالم الإسلامي .

غير أن المستقبل يؤكد صلاحية اللغة العربية لأن تكون لغة عالمية بعد أن تكون اللغة الأولى للعالم الإسلامي نفسه ويرجع ذلك إلى أسباب عديدة تميز

اللغة العربية وتجعلها أهلاً لهذا المكان الفريد .

أما الدول الإسلامية فهي لا تتردد في قبول اللغة العربية لغة عامة لها لأنها ترتبط بها ارتباطاً عضوياً بالفكر والعبادة والثقافة ، وقد كان لبعض الدول الإسلامية مطالبات واضحة بأن تكون العربية هي لغتها الأساسية لولا نفوذ اللغات الأجنبية بها وعمل الاستعمار على إدامة هذا النفوذ وترسيخه .

غير أن من أكبر الأعمال التي تمكن للغة العربية في الأرض وتؤهلها لأن تأخذ مكانتها الصحيحة هو أن تقتحم هذه اللغة الفكر الغربي العلمي التكنولوجي وتنقله إليها فلا تكون عالة عليه ولا يجري في بلادها بلغة غيرها ، وإن هذه العقبة هي من أوليات الأعمال التي يجب أن يقتحمها المسلمون والعرب في طريق تقدمهم الحثيث للدخول في عصر العلم الواسع بالاصالة والحق .

## ٤

ونحن إذا تعمقنا النظرة إلى المستقبل وجدنا أن هناك خطين منفصلين يفرضان وجودهما إزاء عالمية اللغة العربية الفصحى ومكانتها :

الخط الأول : هو خط نموها وتخطيمها الدائم للحواجز في سبيل الوصول إلى مكانتها الصحيحة .

والخط الثاني : هو خط مقاومتها ومعارضتها والعمل الدائب على إيقاف نموها وهدم قيمها .

(١) أما بالنسبة للخط الأول فإن محاولات تقويم اللغة العربية وقياس آثارها العميقة في مجال الفكر والآداب في العالم الإسلامي ما زالت مستمرة بنفس القوة كما كانت في العقود الأولى من هذا القرن وما تزال تتجدد هذه الأبحاث على أيدي باحثين مختلفي اللغة والجنس :

وفي السنوات الأخيرة ( العقد السابع من القرن العشرين ) ما نزال

نرى أبحاث جاك بيرك المستشرق الفرنسي وتوينبي المؤرخ الانجليزي و...

وهي أبحاث ما تزال تقايس أثر اللغة العربية ونفوذها على النحو الذي سارت عليه من قبل أبحاث لويس ماسنيون ونولدكه وبروكلمان وكثير غيرهم .

ذلك أن اللغة العربية التي انحسرت في منتصف القرن التاسع عشر وتوقف نموها وامتدادها في المناطق التي سيطر عليها الاستعمار الفرنسي والانجليزي والهولندي وخاصة في مناطق جنوب شرق آسيا والأقطار الإفريقية ، هذا الانحسار قد بدأ ينفك قليلاً قليلاً مع منتصف القرن العشرين ، بعد أن بدأت تتحرر أقطار كثيرة في أفريقيا وتعاود النظر إلى روابطها القديمة وتتصل باللغة العربية من جديد .

ولقد كشفت هذه السنوات الطويلة التي تزيد على المائة من الأعوام قدرة اللغة العربية على البقاء وصمودها بالرغم من كل ما وجه إليها من ضربات قاتلة :

فقد قاومت اللغة العربية في معركتها العنيدة في ميدانين :

(أولاً) قاومت العاميات التي حاولت أن تفرض عليها الانحدار .

(ثانياً) قاومت اللغات الأجنبية الزاحفة مع الاحتلال لتفرض عليها الانحسار .

فقد كانت حركة الاستعمار والنفوذ الغربي تستهدف التجزئة والتفرقة بتشجيع اللهجات العامية ومحاولة فرضها لغات وإتاحة السيطرة الفعلية للغات الأجنبية .

وقد حاول جاك بيرك أن يصور هذه الحركة حين قال :

« إن العرب في ظل الاستعمار لجأوا لحماية هويتهم وأصالتهم

إلى اللغة العربية التي ناضلت بنجاح لا ضد غزو اللغات الغربية المسلحة بقدرة عملية على الاتصال وحسب ، وإنما كذلك ضد اللهجات التي حاول الاستعمار تغذيتها لزرع الفرقة والتجزئة .

« وواضح أن اللغة العربية قد تمكنت من مقاومة لغات عالمية كالفرنسية والانجليزية بسبب ما تتمتع به من إمكانيات تفوق حد مهمة الاتصال والإعلام وتصل إلى حد وظيفة الإيحاء والإثارة .

« وهذه الخصائص هي التي تجعل من كل لغة وبوجه خاص اللغة العربية منزلاً وبيتاً للكائن البشري » .

كذلك يشير (أرنولد توينبي) إلى أهمية اللغة العربية الفصحى وأنها (١) الرباط الوثيق الذي يمنع البلاد العربية من التفكك من شواطىء الأطلسي إلى شواطىء الهادي .

كما أشار الباحث الغربي (دورا باسيسو) إلى « الأهمية المتزايدة للغة العربية في مجال التفاهم الدولي سياسياً واقتصادياً وثقافياً بالإضافة إلى دورها التاريخي وكفاءتها واستيعابها لمختلف المعارف الإنسانية وكونها لغة البلاد العربية ولغة القرآن والدين الذي يعتنقه العالم الإسلامي الممتد من المغرب على المحيط الأطلسي غرباً إلى أندونيسيا على المحيط الهادي شرقاً » .

ومن أحدث ما نشر في الحديث عن العربية الفصحى ما نشرته جريدة لوموند (٩ يوليو ١٩٦٨) بقلم (هنري لوسل) تحت عنوان :

(اللغة العربية والحضارة العربية تزودان الدارس لهما بنظرة جديدة إلى العالم) يقول : إن التلميذ أو الطالب (الغربي) يجد في العربية معاني لغوية تختلف اختلافاً كبيراً عن معاني الفرنسية أو اللاتينية أو أي لغة أوربية أخرى ، وعن طريقها يتعرف المتكلم على عقلية العرب .

---

(١) عبارة محمود محمد شاكر عن كتاب العالم والغرب لأرنولد توينبي .

« يجد نفسه أولاً أمام الأبجدية العربية ، وربما كان فيها بادىء الأمر موضع للنقد ، ولكن سرعان ما يجد لها جاذبية خاصة ويستوقف نظره في الوقت نفسه سير الكتابة العربية من اليمين إلى الشمال . ولكن هذا السير يبدو مطابقاً لحركة فيزيولوجية هي أكثر اتفاقاً مع الطبيعة ثم إذا به يكتشف كلمات ذات أصول ملحنة واضحة ونسقاً (مرفولوجياً) مبتكراً داخل الكلمات يستبعد كل إضافة خارجية من المقاطع لأوائل الكلمات وأواخرها وينتج ثروة من الاشتقاق عن الأصل الواحد .

« وتقدم العربية أيضاً نسقاً من قواعد الإعراب بسيطاً وفيه قدر كبير من المرونة كما تقدم أساليب في تركيب الكلام تجمع بين السذاجة والدقة ونسقاً من الأفعال يتسم بالبساطة ويحير الناظر لأول مرة ، لكنه مع ذلك قد بلغ من التمام في منطقه ما بلغه النسق الفرنسي ، هذه الخصائص وغيرها تزود المتعلم من غير وعي منه بتصوير للتعبير الإنساني الجديد حقاً فيه خصوبة وثراء » الخ .

ولا ريب أن تمتع اللغة العربية بقدر ضخم من الحيوية والنفوذ والانتشار هو الذي فرض اتخاذها لغة رسمية في المنظمات الدولية .

(٢) أما الخط الثاني فإن محاولاته لم تتوقف . فما تزال الحملات على اللغة العربية مستمرة وما تزال قاسية وما تزال كتابات المستشرقين في محاولة انتقاصها وتصويرها بأنها لغة دينية (كما يقول توينبي) أو لغة تقليدية (كما يقول جاك بيرك) هذه المحاولة ما تزال مستمرة تغذيها القوى التي لا تريد لهذه الأمة ولا فكرها أن تحقق وجودها .

وقد ظل الاستعمار البريطاني والفرنسي يغذيان هذا الاتجاه ، حتى إذا انحسر ظلهما قامت بدلاً منهما قوى أخرى منها الصهيونية العالمية والنفوذ الأمريكي .

يقول الأستاذ محمد جبر : تسلم الأمريكيون علم محاربة اللغة

العربية عام ١٩٤٥ ودعوا البعض إلى زيارة أمريكا فعاشوا فيها عاماً أو أكثر ثم عادوا يدعون إلى التعليم باللغة العامية وداعين إلى التخلي عن التعليم بالعربية . في كتاب ( شرشر ) وغيره بما فيه من عبارات .

( البط كل الفت ، الوز كل الرز )

وكان هذا سبباً في أن الجيل الذي تلقى تعليمه منذ عام ١٩٤٥ بهذه الطريقة لا يكاد يكتب كلمة واحدة صحيحة . ولعل هذا هو السبب في انصراف هذا الجيل عن القراءة الأدبية إلى قراءة التافه من الكتب العامية » ا . هـ .

أما الصهيونية العالمية فقد عمدت في السنوات العشرين الأخيرة إلى محاولة خلق جو من الاحتقار للغة العربية بتحقير القائمين بها وهي نفس الخطة التي سار عليها ( دنلوب ) قبل ثمانين عاماً . فقد كان الاستعمار يسعى إلى إعلان حقده على اللغة العربية بازدراء القائمين بتعليمها ( كذلك سعى إلى محاولة الغض من شأن الإسلام بالعمل على الغض من قدر القائمين بدراسته والدعوة إليه)

## ٢

وقد كان للمحاولة التي قامت بها تركيا بكتابة لغتها بالحروف اللاتينية منذ عام ١٩٣٠ وما بعدها أثرها البعيد في مصر ، فقد تعالت مثل هذه الصيحات غير أننا نرجو أن تكون عبرة ما حدث في تركيا أصبحت كافية الآن لرد هذه الدعوة وتقليص ظلها ، فقد قطعت تركيا نفسها عن التراث الإسلامي قطعاً تاماً ، وبعد أن كانت مصدراً في نهضة التراث من فقه وعلوم انقطع ذلك انقطاعاً تاماً ، وأصبحت لا تستطيع أن تصل إليه الآن إلا عن طريق القواميس والترجمة .

وفيما يتصل بهذه الحرب المعلنة المستعرة نجد ( مؤسسة اليونسكو ) وهي

تواجه اللغة العربية بشيء كثير من الإنكار والغض من مكانتها الحقة ( والمعروف أن موسسة اليونسكو تسيطر عليها بعض العناصر الصهيونية ) فقد أشارت في إحدى أبحاثها بصدد استخدام اللغة العربية كلغة عمل في المنظمة إلى أن هناك صعوبات عديدة تقف حائلة دون استخدام اللغة العربية وأن الترجمة إلى العربية تتطلب ضعف الوقت اللازم للترجمة إلى أي لغة أخرى وأن حجم الترجمة العربية يزداد عن بعض اللغات .

ولما كانت هذه الشبهات غير قائمة حقيقة فقد أثبت مجمع اللغة العربية في رده عكس ما ذهبت إليه منظمة اليونسكو وكشف عن أن اللغة العربية لغة إيجاز على عكس كثير من اللغات الأجنبية وأن هذا الإيجاز من شأنه أن يتيح النص العربي أن يأخذ حيزاً في الطباعة أقل بكثير مما يأخذه النص الأجنبي .

كما أثبت معهد الألسن أن اللغة العربية لغة إيجاز معنى وتركيباً ، وأن اللغات الغربية تستعمل سوابق للكلمات ولواحق الدلالة على معان جديدة على حين تكتفي اللغة العربية بالاشتقاق والتصريف ، ولا يزيد هذا عن تغيير ترتيب الحروف أو إضافة حرف أو حرفين إلى بناء الكلمة العربية .

وإن اللغة العربية لا تستعمل الأفعال المساعدة إلاّ نادراً على حين أنها شائعة شيوعاً كبيراً في اللغات الأجنبية .

## ٣

وما تزال المحاولات التغريبية الاستعمارية التي هي في حقيقتها مخاصمة صريحة للغة العربية ومحاولة لهدمها ، ما تزال هذه المحاولات تتشكل في صور رقيقة ناعمة في محاولة لخداعنا وللوصول إلى أول الطريق لتحقيق ما يسمونه ( كسر رقبة اللغة ) وهذا ما نراه واضحاً في عبارات أمثال ( جاك بيرك ) وما دعا إليه توفيق الحكيم وغيره مما يطلقون عليه لغة وسطى أو خلق عامية راقية

أو تطوير اللغة العربية . وكل هذه الدعوات لا يخدعنا ظاهرها البراق عن هدفها الخفي .

فلسنا مطالبين بأن ننحدر باللغة الفصحى إل لغة وسطى أو لغة عصرية ، وإنما نحن نطالب بأن نرتفع بالثقافات إلى مستوى البلاغة العربية والبيان العربي الأصيل فنقترب نحن من لغة القرآن لا أن نباعد بيننا وبينها ، وليست اللغة الفصحى هي لغة تقليدية كما يسمونها ، بل هي القاعدة الأساسية التي نتحرك حولها والتي يؤدي انتشار التعليم والثقافة إلى الوصول إليها . وإن جميع الناس الذين يقرأون الصحف ويستمعون إلى الإذاعات يفهمون هذه اللغة الفصحى لأنها قريبة منهم جداً حيث تتردد آي القرآن الكريم بين أيديهم صباح مساء وهي أعلى نموذج في البيان العربي .

## ٤

وإذا كان بعض وزراء المعارف في الماضي قد طالبوا بتبسيط اللغة العربية في هجائها وإملائها على النحو الذي يورده أحمد شفيق باشا في كتابه (أعمالي(١) بعد مذكراتي ) فإن هذا القول مردود على أصحابه لأنهم يعلمون أن مناهج وزارة المعارف قد تغيرت بالنسبة لتعليم اللغة العربية التي كانت تبدأ بتحفيظ القرآن ، وهو المنطلق إلى اللغة وإلى النحو وإلى الهجاء وإلى الإملاء ، وقد فرض النفوذ الاستعماري على وزارة المعارف في عهود الاحتلال التخلي عن هذا الأسلوب ، ومن ثم عجزت مناهج التعليم عن توصيل اللغة العربية إلى الطلاب .

---

(١) أورد شفيق باشا ما أسماه قضية اللغة العربية وأشار إلى تصريح لبهي الدين بركات وزير المعارف يتحدث عن غرابة اللغة العربية عن الطلاب ( ١٩٣٨م ) .

# ٥

كذلك جرت المحاولات في خلق أسلوب توراتي عامي حين عمد دعاة التبشير الغربي (الأمريكيون البروتستانت واليسوعيون الكاثوليك) في منتصف القرن التاسع عشر إلى ترجمة الكتاب المقدس إلى اللغة العربية (فقد حرص الفريقان على أن تكون لغة الكتاب المقدس ولغة الأناجيل خاصة قريبة جداً من العامية بألفاظها وتراكيبها ، وقد فضلوا الأسلوب القريب من العامية في نقل الأناجيل ظناً منهم أنهم سيكسبون العامة ونسوا أن سليقة العربي تقوم على الجزالة والإيجاز والمتانة وهي بالفصحى ألصق منها بالعامية (١) .

ولقد حاول ناصيف اليازجي وكان من الذين يعملون معهم في هذا المجال إلى تحرير اللغة فحالوا بينه وبين ذلك ، وهكذا مالت دوائر التبشير والإرساليات عن اللغة الفصحى لأنها لغة القرآن واستهدفت دعم العامية وخلق تيار عامي في الأسلوب الغربي ، ثم جاءت المرحلة التالية حيث أخذ كتاب المهجر (جبران وميخائيل نعيمة) يستخدمون هذا الأسلوب التوراتي العامي ويتخذونه منطلقاً لهم فاتكأوا على أسلوب الأناجيل في التعبير في محاولة للتأثير في أسلوب اللغة العربية الفصحى ، وتبعهم في هذا الاتجاه قلة قليلة ، ثم جاء بعض كتّاب لبنان في الخمسينات فاصطنعوا هذا الأسلوب في النثر وفي الشعر الجديد وتابعهم بعض كتاب العرب وما يزال أسلوبهم يكشف عن هويتهم ، ولقد كان هؤلاء وأولئك أداة محاولة بناء أسلوب عربي زائف ولكن هدفهم لم يتحقق فقد واجه المنفلوطي أسلوب جبران ونعيمة واستطاع بسياقه القرآني البليغ أن ينتصر عليه وأن يهزم ذلك التيار ، وبعثت مدرسة النثر الفني بعد المنفلوطي بالرافعي والبشري والزيات .

---

(١) بتصرف عن نص لأحد الكتاب .

## ٦

كذلك ظهر من دعاة التغريب من يقول : ادعوا إلى قتل الفصاحة والبلاغة ، وهي صيحة علت حين أخذت الشعوبية تقرع طبولها في الستينات ولكنها لم تلبث أن خفتت وعجزت عن المتابعة لأن تيار البيان العربي كان أكبر منها . وقد غاب عن هؤلاء حقيقة أصيلة هي أن (١) الإفصاح هو منهج واضح من مناهج اللغة العربية في أدبها الذي يعرف لها من العصر الجاهلي حتى هذا العصر . وأن الشيء الذي لا يمكن أن يمتد إليه طموح المجددين ، هو تلك الميزة التي لا تفارق اللغة وبيانها وذلك هو الإفصاح الكاشف لكل ما يختبيء في الفكرة من دقيق المعاني وخفيها ، إذ لا سبيل أن يتولى أدب الغموض شيئاً من ذلك لأنه يعتمد غالباً على الإحالة في البيان على أشياء مجهولة تحتاج هي نفسها إلى شرح وإفصاح ، والدقيق الخفي — كما هو معلوم — لا يفسره غموض أو إخفاء .

« واللغة العربية من أدق اللغات وأبرعها في استخدام كل ما يحرك النفس ويهيج الخاطر ، ولها في الإيحاء المفصح مسالك يدركها من درس أسلوبها البلاغي . « إن الإفصاح روح اللغة وجوهرها مهما دق المعنى أو بعد » .

## ٧

كذلك فإن الدعوة إلى التزام البساطة في الإنشاء هي من مخططات إهمال اللغة الفصحى واستخدام العامية كلغة للكتابة . فإن الأسلوب العربي الأصيل قادر على استيعاب كل دقائق المسائل وسردها في يسر دون الالتجاء إلى هذا النوع من البساطة التي يدعو إليه خصوم اللغة العربية ، وإن ثراء اللغة العربية

---

(١) دكتور عبد الرحمن عثمان

من حيث المفردات وغناها في التراكيب كل ذلك مما يؤهلها للأداء الصحيح .

وقد كذبت كل الوقائع تلك الدعوى الباطلة التي تقول بصعوبة اللغة العربية . يقول العالم الفرنسي ( مارس ) إنَّ الفعل العربي لعبة أطفال إذا قيس بالفعل اليوناني أو بالفعل الفرنسي ، فليس هناك صعوبة بالاشتقاق ، أما النحو فهو لا تعقيد فيه مطلقاً ، وذو الذهن المتوسط يستطيع تحصيل اللغة العربية في أشهر قليلة وبجهد معتدل .

## ٨

ونستطيع أن نصل في نهاية البحث إلى استخلاص الحقائق التالية :

أولاً : ليست اللغة العربية قاصرة عن التعبير عن المفاهيم في أي مادة من مواد العلوم كالدين والفلسفة والتاريخ والقانون والجغرافيا والاجتماع والنفس والأخلاق ، وفي إمكان العربية الفصحى أن تستوعب كل العلوم والفنون الحديثة وأن تهضم كل ما يستجد من أفكار ومخترعات ، في وسعها أن تصبح أدق لغة علمية إلى جانب كونها لغة فكر وعقيدة .

ثانياً : ليست اللغة العربية لغة دينية أو لغة وطنية قومية ، ولكنها لغة عالمية . . . لغة فكر ومجتمع وثقافة ، وليس في اتصالها بالإسلام ما يجعلها توصف بأنها لغة دينية ، ذلك أن الإسلام نفسه ليس ديناً بالمفهوم الغربي اللاهوتي ، ولكنه منهج حياة ونظام مجتمع وحضارة كاملة الدين جزء منها .

وهي لكونها مرتبطة بالقيم الإنسانية والمعنوية والروحية ليست ملكاً لرجال الدين ، ولكونها مرتبطة بالعرب فهي ليست ملكاً لرجال القوميات والوطنية ولكنها لغة جامعة ترتبط بالقرآن من ناحية فتضفي وجودها الفكري على ثقافة ٧٠٠ مليون مسلم وتضفي وجودها القومي على مائة مليون من العرب .

فهي بهذا تختلف عن علاقات اللغات الغربية بأممها أو علاقة اللغة اللاتينية

بالكتاب المقدس . وما قيست به هذه العلاقات لا ينطبق عليها .

ثالثاً : ليست هناك لغتان : إحداهما فصحى والأخرى عامية ولكن هناك لغة واحدة هي اللغة الفصحى ، أما العامية فهي ليست لغة ولكنها لهجة .

وإن تعويق اللغة العربية وعزلها عن التوسع بين مسلمي العالم هو هدف أساسي من أهداف الاستعمار ، والاستعمار هو الذي قطع الطريق على توسع اللغة العربية بفرض لغته وإحياء اللهجات ، وقد اهتم الاستعمار باللهجات المحلية لتشجيع الإقليمية وتمزيق وحدة المسلمين الفكرية ووحدة العرب القومية . ولقد تمثلت عمليات الهدم التي حاولها النفوذ الاستعماري في الدعوة إلى العامية وإلى نبذ الحروف العربية وإلى نبذ الإعراب وإلى محاولة اتهام الفصحى بالقصور وإلى تحطيم عمود الشعر .

واللهجات العامية هي في حد ذاتها تحريف عن الفصحى وتشويه لها ولن تقوى على اقتحام أسوار التراث العربي المنيع الأصيل ، ولا توجد لغة في العالم تخلو من العامية والفصحى تبعاً لاختلاف طبائع الشعوب ومستواها الثقافي والاجتماعي .

رابعاً : معرفة اللغات الأجنبية أمر ضروري في هذا العصر شريطة أن يتم في دائرة اللغة العربية ومن خلال الفكر الإسلامي العربي نفسه ، ذلك أن هذه الدعوة إلى تعلم اللغات الأجنبية بدون احتياط إنما تستهدف القضاء على مقومات الفكر العربي الإسلامي وإحلال فكر اللغات الأجنبية مكانه في نفس العربي والمسلم .

خامساً : اللغة العربية باعتراف مختلف الباحثين أقدر اللغات على التوالد والاشتقاق وأغنى اللغات بالمترادفات ، وقد استوعبت جميع مفردات الكلمات العلمية القديمة في اليونانية وقد امتصت حوالي ٥٠ ألف كلمة من مختلف اللغات ودمغتها بالطابع العربي وأسبغت عليها الصفة العربية الأصيلة .

سادساً : أثبتت الأبحاث التي قدمها علماء أجانب منصفون في علم اللغات المقارن أن العربية أسهل من الانجليزية في هجائها ، وأن الخط العربي أسهل من الخط النرويجي والأسوجي ، ولا نذكر صعوبة الياباني والصيني ، ومع ذلك فقد رفض الصينيون تغيير حروفهم المعقدة بحروف لاتينية ، والمعروف أنه إذا أراد الإنسان أن يكتفي من اللغة الصينية بفهم اللغة الصحفية أو مبادلة الرسائل في الضروريات فإنه يستطيع أن يكتفي بألف ومائتي علامة واللغة الصينية يتكلمها ٦٠٠ مليون من البشر .

سابعاً : « اعتقد المسلمون بحق أن لغتهم جزء من حقيقة الإسلام لأنها كانت ترجماناً لوحي الله ولغة لكتابه ومعجزة لرسوله ولساناً لدعوته ثم هذبها النبي الكريم بحديثه ونشرها الدين بانتشاره وخلدها القرآن بخلوده ، فالقرآن لا يسمى قرآناً إلاّ منها والصلاة لا تكون صلاة إلا بها » (١) .

ثامناً : ليس في العربية كلمة بمعنى Faith وكلمة بمعنى Credat فالإيمان دائماً يقين واليقين دائماً معرفة لا نقل .

تاسعاً : من قصور النظرة وانشطاريتها (وهي طابع الفكر الغربي) النظر إلى اللغة من زاوية الدين أو النظر إليها من زاوية القومية . والمفكرون المسلمون ينظرون إلى اللغة نظرة جامعة متكاملة . فالعقيدة والقومية مرتبطتان لا تفترقان .

عاشراً : بالإسلام فقدت أكثر اللغات خصائصها الجاهلية وألزمت نفسها بالدخول في عربية القرآن (لغة فارس ولغة الترك ولغة الأكراد) .

ولقد قدمت عربية القرآن إلى هذه اللغات آلاف الألفاظ والمصطلحات .

حادي عشر : إن الغربي لا يستطيع أن يقرأ من تراث لغته أكثر من قرنين أو ثلاثة . وشكسبير الآن لا يقرأ في اللغة الانجليزية إلاّ بقاموس مع أنه

---

(١) هذا النص منقول من أحد الكتاب النوابغ .

توفي عام ١٦١٦ وكذلك يفعل الفرنسيون مع راسين وهيجو .

بينما نحن العرب نقرأ الآن لعمرو بن كلثوم وعنترة وامرىء القيس وهم يسبقون عصرنا بألف وخمسمائة عام .

ولقد نالت العربية إعجاب أمم غير العرب ، شاركوا في الكتابة بها وفضلوها على لغاتهم الأصلية ومنهم البيروني والغزالي .

ولقد كانت العربية في عصرها الزاهر جواز سفر لكل مسلم وعربي فكان الرحالة يتنقلون من جبال البرانس في شمال إسبانيا إلى أواسط أفريقيا إلى مصر والسودان إلى فارس والهند وجزر الهند الشرقية والصين لا يتفاهمون إلاّ بالعربية ومن هؤلاء ابن جبير وابن بطوطة .

ثاني عشر : العربية ليست لغة العرب وحدهم وهي لغة فكر سبعمائة مليون من المسلمين وهي مدينة للإسلام باستمرارها ونموها ، وهي دعامة الفكر الإسلامي والثقافة العربية وليس لغير المسلمين ثقافة غير الثقافة العربية الإسلامية . والعروبة في هذا معنى واسع فإن كل من تكلم بالعربية فهو عربي واللغة فكر قبل أن تكون ألفاظاً .

# ملحق

## مجموعة من آراء كتاب الغرب عن اللغة العربية الفصحى

**(١) عبد الكريم جرمانوس :**

إن في الإسلام سنداً هاماً للغة العربية أبقى على روعتها وخلودها فلم تنل منها الأجيال المتعاقبة على نقيض ما حدث للغات القديمة المماثلة ، كاللاتينية حيث انزوت تماماً بين جدران المعابد .

ولقد كان للإسلام قوة تحويل جارفة أثرت في الشعوب التي اعتنقته حديثاً ، وكان لأسلوب القرآن الكريم أثر عميق في خيال هذه الشعوب فاقتبست آلافاً من الكلمات العربية ازدانت بها لغاتها الأصلية فازدادت قوة ونماء .

والعنصر الثاني الذي أبقى على اللغة العربية هو مرونتها التي لا تبارى فالألماني المعاصر مثلاً لا يستطيع أن يفهم كلمة واحدة من اللهجة التي كان يتحدث بها أجداده منذ ألف سنة بينما العرب المحدثون يستطيعون فهم آداب لغتهم التي كتبت في الجاهلية قبل الإسلام .

**(٢) لويس ماسينون :**

استطاعت العربية أن تبرز طاقة الساميين في معالجة التعبير عن أدق خلجات الفكر سواء كان ذلك في الاكتشافات العلمية والحسابية أو وصف المشاهدات أو خيالات النفس وأسرارها .

واللغة العربية هي التي أدخلت في الغرب طريقة التعبير العلمي . والعربية من أنقى اللغات ، فقد تفردت بتفردها في طرق التعبير العلمي والفني والصوفي . إن التعبير العلمي الذي كان مستعملاً في القرون الوسطى لم يتناوله القدم ولكنه

وقف أمام تقدم القوى المادية فلم يتطور .

أما الألفاظ المعبرة عن المعاني الجدلية والنفسانية والصوفية فإنها لم تحتفظ بقيمتها فحسب بل تستطيع أن تؤثر في الفكر الغربي وتنشطه .

ثم ذلك الإيجاز الذي تتسم به اللغة العربية والذي لا شبيه له في سائر لغات العالم والذي يعد معجزة لغوية كما قال البيروني .

**(٣) يوهان فك الألماني :**

إن العربية الفصحى لتدين حتى يومنا هذا بمركزها العالمي أساسياً لهذه الحقيقة الثابتة ، وهي أنها قد قامت في جميع البلدان العربية والإسلامية رمزاً لغوياً لوحدة عالم الإسلام في الثقافة والمدنية . لقد برهن جبروت التراث العربي الخالد على أنه أقوى من كل محاولة يقصد بها زحزحة العربية الفصحى عن مقامها المسيطر ، وإذا صدقت البوادر ولم تخطىء الدلائل فستحتفظ العربية بهذا المقام العتيد من حيث هي لغة المدنية الإسلامية .

**(٤) المستشرق اربري :**

إن اللغة العربية لغة حية ، وحضارة العرب هي حضارة مستمرة فهي حضارة الأمس واليوم والغد ، وعن طريق العرب عرفت أوربا الحضارة ، فقد كانت أوربا تغط في سباتها العميق حين كان العرب يصنعون الحضارات ، وكانت جامعاتهم تخرج كثيراً من العلماء في حقل الآداب والعلوم والفنون والطب والهندسة .

**(٥) وليم مرسيه .**

أما في العربية فللعبارة من المتانة ما لا يبقى منه شيء يحجب مصدرها عن الناطق بها .

فالعبارة العربية كالمزهر إذا نقرت على أحد أوتاره رنت لديك جميع الأوتار وخفقت وهي تبعث في نفسك – زيادة عما لها من صدى خاص – جميع الأصداء الخفية لكل ما ينتسب إليها من مفردات أو يلحق بها ، ثم تحرك في أعماق النفس من وراء حدود المعنى المباشر موكباً من العواطف والصور . لقد كان نشوء هذه اللغة وتطورها مبنياً على أعظم قسط من مفرداتها على التداول بين المقاطيع المقصورة والمقاطيع الممدودة .

**(٦) الدكتور زويمر ( كبير المبشرين ) :**

يوجد لسانان لهما النصيب الأوفر في ميدان الاستعمار ومجال الدعوة إلى الله وهما الانجليزي والعربي وهما الآن في مسابقة وعناد لا نهاية لهما لفتح القارة السوداء : مستودع النفوذ والمال ، يريد كل منهما أن يلتهم الآخر وهما المعضدان للقوتين المتنافستين في طلب السيادة على العالم البشري : أعني النصرانية والإسلام

**(٧) الدكتور فرنباغ ( الألماني ) :**

ليست لغة العرب أغنى لغات العالم فحسب ، بل إن الذين نبغوا في التأليف بها لا يكاد يأتي عليهم العد ، وإن اختلافنا عنهم في الزمان والسجايا والأخلاق أقام بيننا نحن الغرباء عن العربية وبين ما ألفوه حجاباً لا يتبين ما وراءه إلاّ بصعوبة .

**(٨) الأستاذ ميليه :**

إن اللغة العربية لم تتراجع عن أرض دخلتها لتأثيرها الناشىء من كونها لغة دين ولغة مدنية ، وعلى الرغم من الجهود التي بذلها المبشرون ولمكانة الحضارة التي جاءت بها الشعوب النصرانية لم يخرج أحد من الإسلام إلى النصرانية

ولم تبق لغة أوربية واحدة لم يصلها شيء من اللسان العربي المبين حتى اللغة اللاتينية الأم الكبرى ، فقد صارت وعاء لنقل المفردات العربية إلى بناتها .

**(٩) جاك بيرك ( الفرنسي )**

إن أقوى القوى التي قاومت الاستعمار الفرنسي في المغرب هي اللغة العربية ، بل اللغة العربية الكلاسيكية الفصحى بالذات فهي التي حالت دون ذوبان المغرب في فرنسا . إن الكلاسيكية العربية هي التي بلورت الأصالة الجزائرية ، وقد كانت هذه الكلاسيكية العربية عاملاً قوياً في بقاء الشعوب العربية .

**(١٠) ريجستير بلاشير ( الفرنسي ) :**

اللغة العربية مبنية على المفاهيم على خلاف لغتنا مثلاً لذلك ينبغي أن تبقى المعاجم اللغوية على حالتها القديمة لأنها الأساس .

إن من أهم خصائص العربية هي قدرتها على التعبير عن معان ثانوية لا تعرف الشعوب الغربية كيف تعبر عنها ، فالفرنسية مثلاً لا تعنى إلا بالتعبير الواحد ، وفي العربية مذاهب وأساليب تعرب عن مختلف الأحاسيس ، فضلاً عن استعمال العربية للحركات الطويلة والقصيرة في بقية اللفظ ، فتحصل على مشتقات لأنها عديدة مختلفة المعاني مع بقاء الأصل ثابتاً واضحاً للعين .

وإني أشد الناس حفاظاً على وحدة اللغة العربية ، ولي حجة تغاير بعض المغايرة ما عندكم وما في أفكاركم فيما يتعلق بمعنى الوحدة العربية ، إني ألاحظ أن هذه الوحدة ، هي لغة لغوية أخلاقية دينية ، ولكنها قبل كل شيء مؤسسة على وحدة تاريخ اللغة ، إننا كلما درسنا اللغة الفرنسية لاحظنا أنها قد تطورت عبر العصور بحيث نجد لها أطواراً ، فإذا قارنا اللغة الفرنسية في القرون الوسطى وجدنا أنها مغايرة كل المغايرة للغة المستعملة في القرن السابع

عشر ، وهذه مختلفة أيضاً عن لغتنا اليوم ، هذه الوحدة في اللغة الفرنسية لا تتضح لنا إلاّ بالبحث والمقارنة . في حين أن وحدة اللغة العربية تتضح للقارىء ولو كان أجنبياً لأول وهلة ، لغة القرآن لا تزال هي لغة اليوم وهذا ما تتميز به العربية عن اللغات الأخرى .

## (١١) بروكلمان :

بفضل القرآن بلغت العربية من الاتساع مدى لا تكاد تعرفه أي لغة من لغات الدنيا ، المسلمون جميعاً يؤمنون بأن العربية هي وحدها اللسان الذي أحل لهم أن يستعملوه في صلواتهم وبهذا اكتسبت العربية منذ زمان طويل مكانة رفيعة فاقت جميع لغات الدنيا الأخرى .

## (١٢) جورج سارطون :

إن الوحي نزل على الرسول باللغة العربية ، وهكذا كانت العربية لغة الله ولغة الوحي ولغة أهل الجنة ، وقد أكد الرسول وجوب قراءة القرآن باللغة العربية فكان من نتائج هذا : ذلك الاتجاه العقلي الواحد في التأكيد على الصحة المطلقة للغة العربية ، أن أصبحت اللغة العربية من اللغات البارزة في العالم وإحدى الوسائل الأساسية للثقافة في العصور الوسطى ، وهي اليوم لم تزل لغة أمة موزعة في جميع بقاع الأرض . ولقد اتفق أن اللغة الوحيدة التي عرفها رسول الله كانت من أجمل اللغات في الوجود ، إن خزائن المفردات في اللغة العربية غنية جداً ويمكن لتلك المفردات أن تزاد بلا نهاية ، ذلك لأن الاشتقاق المتشابك والأنيق يسهل إيجاد صيغ جديدة من الجذور القديمة بحسب ما يحتاج إليه كل إنسان على نظام معين .

ولغة القرآن على اعتبار أنها لغة العرب ، كانت بهذا التجديد كاملة ، وها نحن هنا أيضاً أمام اتفاق عجيب ، فإن الرسول مع أنه أمّي كان يملك

ناصية اللغة إذ آتاه الله بياناً ووهب اللغة العربية مرونة جعلها قادرة على أن تدون الوحي الإلهي أحسن تدوين بجميع دقائق معانيه ولفتاته وأن يعبر عنه بعبارات عليها طلاوة وفيها متانة ، وهكذا يساعد القرآن على رفع اللغة العربية إلى مقام المثل الأعلى في التعبير عن المقاصد ، وهكذا جعل القرآن الكريم من اللغة العربية وسيلة دولية للتعبير عن أسمى مقتضيات الحياة .

## (١٣) جوستاف جرونيباوم :

عندما أوحى الله رسالته إلى رسوله محمد أنزلها « قرآناً عربياً » والله يقول لنبيّه « فإنما يسرناه بلسانك لتبشر به المتقين وتنذر به قوماً لدّاً » وما من لغة تستطيع أن تطاول اللغة العربية في شرفها ، فهي الوسيله التي اختيرت لتحمل رسالة الله النهائية وليست منزلتها الروحية هي وحدها التي تسمو بها على ما أودع الله في سائر اللغات من قوة وبيان ، أما السعة فالأمر فيها واضح ومن يتبع جميع اللغات لايجد فيها على ما سمعته لغة تضاهي اللغة العربية ويضاف جمال الصوت إلى ثروتها المدهشة في المترادفات ، وتزين الدقة ووجازة التعبير لغة العرب ، وتمتاز العربية بما ليس له ضريب من اليسر في استعمال المجاز ، وإن ما بها من كنايات ومجازات واستعارات ليرفعها كثيراً فوق كل لغة بشرية أخرى ،و للغة خصائص جمة في الأسلوب والنحو ليس من المستطاع أن يكتشف لها نظائر في أي لغة أخرى ، وهي مع هذه السعة والكثرة أخصر اللغات في إيصال المعاني ، وفي النقل إليها ، يبين ذلك أن الصورة العربية لأي مثل أجنبي أقصر في جميع الحالات ، وقد قال الخفاجي عن أبي داود المطران وهو عارف باللغتين العربية والسريانية انه إذا نقل الألفاظ الحسنة إلى السرياني قبحت وخست ، وإذا نقل الكلام المختار من السرياني إلى العربي ازداد طلاوة وحسناً . وإن الفارابي على حق حين يبرر مدحه العربية بأنها من كلام أهل الجنة وهو المنزه بين الألسنة من كل نقيصة والمعلى من كل خسيسة ولسان العرب أوسط الألسنة مذهباً وأكثرها ألفاظاً .

### (١٤) أرنست رينان :

إن من أغرب ما وقع في تاريخ البشر وصعب حل سره : انتشار اللغة العربية فقد كانت هذه اللغة غير معروفة بادىء بدء فبدأت فجأة في غاية الكمال سلسة أي سلاسة غنية أي غنى كاملة بحيث لم يدخل عليها منذ يومها هذا أي تعديل مهم . فليس لها طفولة ولاشيخوخة ، ظهرت لأول أمرها تامة مستحكمة ، ولم يمض على فتح الأندلس أكثر من خمسين سنة حتى اضطر رجال الكنيسة أن يترجموا صلواتهم بالعربية ليفهمها النصارى، ومن أغرب المدهشات أن تنبت تلك اللغة القومية وتصل إلى درجة الكمال وسط الصحارى عند أمة من الرحل ، تلك اللغة التي فاقت أخواتها بكثرة مفرداتها ودقة معانيها وحسن نظام مبانيها ، وكانت هذه اللغة مجهولة عند الأمم ، ومن يوم أن علمت ظهرت لنا في حلل الكمال إلى درجة أنها لم تتغير أي تغير يذكر حتى أنه لم يعرف لها في كل أطوار حياتها لا طفولة ولا شيخوخة.

### (١٥) فتيجو :

على العرب أن يقاوموا الدعاية المؤلمة التي تطالبهم بالتخلي عن شرفهم وتقاليدهم وإبائهم وأن يستسلموا إلى القوى المستعمرة ورؤوس أموال البنوك وأن يخضعوا طريقتهم في التفكير والعمل إلى تلك المدنية الزائفة التي لا تؤمن بالله ، وتطمح إلى إخضاع العالم لجو من المختارات الأمريكية المكتوبة بلغة إنجليزية سقيمة وستسقط جميع هذه المصنوعات المقلدة الزائفة في وقت قريب وليقاوم العرب ويثابروا فالعالم في حاجة إليهم ، وعلى العرب أن يتمسكوا بلغتهم : تلك الأداة الخالصة من كل شائبة والتي نقلت الإنتاج الفكري العالمي من غير محاولة نقصه أو خفضه .

**(١٦) جورج بوست :**

لغة العرب تفوق كل لغة في الانتشار إذا نظرنا إلى اتساع الأقطار التي لها فيها سلطان ، وهي تفوق أيضاً كل لغة إذا نظرنا إلى التأثير في مستقبل الأعمال البشرية .

**(١٧) كارلو نلينو :**

اللغة العربية تفوق سائر اللغات رونقاً وغنى ، ويعجز اللسان عن وصف محاسنها .

**(١٨) فان ديك :**

العربية : أكثر لغات الأرض امتيازاً ، وهذا الامتياز من وجهين : الأول من حيث ثروة معجمها والثاني من حيث استيعاب آدابها .

**(١٩) فيلا سبازا :**

إن الذين حولوا كل قواهم إلى التعلم باللغات الأجنبية جاعلين لغة أجدادهم في المنزلة الثانية أو في طيّ الإهمال قد سدت دون مواهبهم منازل الألمعية . إن ما أتمناه لهذا الوطن هو سيادة لغته . أما لغات أوربا فيجب أن تكون لنا البحر الذي نستخرج منه الدرر المشاعة لكل مستخرج لأنها ملك للناس جميعاً .

واللغة العربية من أغنى لغات العالم بل هي أرقى من لغات أوربا لتضمنها كل أدوات التعبير في أصولها في حين أن الفرنسية والانجليزية والإيطالية وسواها قد تحدرت من لغات ميتة ولا تزال حتى الآن تعالج رمم تلك اللغات لتأخذ من دمائها ما تحتاج إليه .

إني لأعجب لفئة كثيرة عدوها من أبناء هذا الشرق العربي تنفرط من عقد قوميتها ويتظاهر أفرادها بتفهم الثقافات الغربية تفهماً تاماً ، فهم يعجزون بابتعادهم عن لغة قومهم وغرائزهم ولكم رأيت في هذه البلدان العربية أناساً يخدعون أنفسهم ليقال عنهم إنهم متمدينون راقون متعالون إلى أسمى درجات المدنية .

# الموسوعة الإسلامية العربية

# ١١

# الإسلام في مواجهة الفلسفات القديمة

بقلم

أنور الجندي

الشركة العالمية للكتاب

دار الكتاب اللبناني - دار الكتاب العالمي

# الإسلام في مواجهة الفلسفات القديمة

الشركة العالمية للكتاب ش.م.ل.

طباعة - نشر - توزيع

دار الكتاب اللبناني — مكتبة المدرسة

دار الكتاب العالمي — المركز العربي

دار العالم الاسلامي — دار الكتب الاسلامية

دار الكتاب للجميع — الدار الافريقية العربية

الادارة العامة

الصنائع - مقابل الاذاعة اللبنانية

هاتف ٢٤٩٠٥٥-٢٤٩٣٧٠ - ص.ب ٣١٧٦

تلكس LE ٢٢٨٦٥ - برقياً، كتالبان

بيروت - لبنان

المستودعات

هاتف ٣٥١٤٣٢



١٩٨٧

بسم الله الرحمن الرحيم

# مدخل إلى البحث

منهجان لا ثالث لهما يتحرك فيهما الفكر الإنساني في هذا العصر.

أحدهما هو المنهج الفلسفي بشطريه: أما الشطر الأول فيعتمد على العقل وظواهر العلم، ومقايسات المنطق. وهذا يقف عند المحسوسات وحدها لا يتعداها، وينظر إلى ما وراء ذلك نظرة الإنكار والتجهيل، وطريقه النظرة المادية الخاصة. أما شطره الثاني فيعتمد على القوى الغيبية كالقلب والبصيرة والروح والوجدان، يعتبرها وسيلة المعرفة، ويتخذ النسك والزهادة منطلقها العلمي.

أما المنهج الثاني: فهو المنهج القرآني الرباني القائم على التوحيد، والجامع لأسلوب المعرفة العقلي والروحي معاً، والمستمد كيانه كله من منهج القرآن.

ولقد كان المنهج الفلسفي قائماً قبل ظهور الإسلام يحاول أن يفسر الحياة والكون والخالق والإنسان وفق المنطلق العلمي أو المنطلق الوجداني. ومن ثم نشأت الفلسفتان الوثنيتان: الهيلينية الغربية، والغنوصية الشرقية. وقد جرت كلتاهما شوطاً طويلاً بين إنكار الاله، أو ثنائيته، أو تعدده من ناحية، أو تصوره وفق مفهوم وحدة الوجود والحلول.

ثم جاء المنهج القرآني حاسما، بعد أن استشرى الصراع بين شطري المذهب الفلسفي: العقلي والوجداني ـ وكان في هديه ملتمساً أصول الفطرة، وقائماً

على الوحدانية، ومقرراً طوابع الطبيعة البشرية، وتركيب الإنسان ودوافعه الجسمية والنفسية والروحية، وقابلا لتحقيقها وممارستها بعيداً عن الزهادة والنسك أو الانحراف والتحلل. وفي حدود ضوابط أساسية للتسامي واتقاء الأخطار في نفس الوقت.

ومنذ وضع الإسلام هذا المنهج الواضح الصريح المتكامل. فقد تحدد الموقف فاصلاً قاطعاً بين الفكر البشري وبين الفكر القرآني الذي لم يكن في أصوله العامة جديداً على البشرية. إذ جاء عصارة رسالات الأنبياء والرسل المتجددة على مدى التاريخ، رسالة بعد رسالة، والذي امتد ولم يتوقف حتى ختم بالإسلام، مصححا على حين فترة من الرسل، كل ما تضطرب فيه البشرية أو تحرفه من الفكر الرباني المصدر، الإنساني المفهوم، حين تسلم نفسها إلى أهوائها ومطامعها وقصورها من أجل إقامة منهج بشري متحرر من هدي النبوات والرسل.

ومنذ ذلك اليوم الذي أتم الله فيه رسالته الخاتمة، قام ذلك الفيصل الواضح الصريح الذي أنشأ خطاً عريضاً بين الفكر الرباني والفكر البشري، كما أصبح له رأيه الحاسم في مقرراته وعناصره.

ولقد سارت البشرية مع رسالة التوحيد خطوة أو خطوات، ثم عادت فابتعثت فكرها القديم، وأخذت تصارع به فكر القرآن، وأقامت له في عديد من أقطار الشرق والغرب دعاة يحملون لواءه، ويدافعون عنه، ويجددونه في صور وقوالب براقة، وأغرت الكثير فاعتنقوه، دون أن يجدوا في طاقتهم القدرة على المراجعة والمقارنة، أو لأنهم خضعوا عن طريق الضعف البشري لما في الفكر البشري من دعوة إلى التحلل والتحرر من القيود والضوابط والحدود التي أقامها الله لعباده، ورغبوا في فك عرى القيم الإنسانية والأخلاقية والاندفاع وراء الأهواء بأفكار الغيب كله، ربّاً وأدياناً وكتباً وبعثاً وجزاء،

وهو قرارة ما ذهب إليه الفكر البشري، وحاول التبشير به، وجمع الناس عليه.

ثم جاء الوقت الذي استطاع الفكر البشري فيه أن يغلب بالاستعمار والصهيونية والشعوبية، وأن يطرح نفسه في أرض الأديان، وأن يصارع عقائد السماء في ظل غزو القوة المتغلبة.

ومن هنا فقد تشتتت وجهات النظر ومذاهب الفكر بين قوم دعاة إلى اعتناق الفكر البشري، والسير مع الأمم القوية التي سارت به، وبين من رأى أن يقبل من الفكر الإسلامي تفسيره فلسفياً أو عقلياً أو نسكياً على أساس واحد من هذه المناهج السائرة، سواء منها مناهج التماس المحسوس، وإنكار الغيب، أو إقامة ما يسمى بسلطان العقل، أو التماس منهج البصيرة والوجدان والإشراق، وكلها محاولات تخرج خروجاً صريحاً وكاملاً على (التفسير الإسلامي) الذي يقوم على منهج متكامل: مصدره التوحيد، وقوامه الإيمان بعالم الغيب، جامعاً بين العقل والقلب في وحدة متكاملة.

ولا ريب أن التماس الفكر الإسلامي في أي من هذه المناهج هو: خروج عن طبيعته، ذلك أن للإسلام منطلقه الخالص وذاتيته المطبوعة بطابع الفطرة والتوحيد والأخلاق المستمدة من القرآن الكريم، أساساً ومنهجاً وأسلوباً للعرض والتفسير.

فإذا ما أريد إخضاعه لمنهج آخر غير منهجه، تعرض لفقدان ذاتيته وطبيعته. وقد جرت المحاولات لإخضاعه طويلاً. ولكنه كان قادراً على مقاومة التبعية، والتماس أصالته، والعودة إلى المنابع كلما اضطربت الأجواء من حوله، أو قامت التحديات والأخطار بالغزو العسكري أو الفكري أو بهما جميعاً.

ولقد كان التماس منهج القرآن الكريم هو منطلق التصحيح والتحرر

واليقظة في كل مراحل تاريخ المسلمين وتاريخ الإسلام. ولا ريب أن منهج القرآن الكريم هو غاية الغايات التي تسعى إليها دعوات الإصلاح والتجدد والبعث والنهضة جميعا، وأنها المنطلق الوحيد كلما غاب أسلوب الفكر البشري، واستشرى في حالة غياب منهج القرآن الكريم.

ولقد وجه الإسلام أنظار معتنقيه إلى ضرورة التماس هذا الأسلوب وحده، ووردت عن رسول الله ﷺ كلمات تكشف عن أهمية هذا الاتجاه، وضرورة الإصرار عليه، وخطر التهاون فيه. بما يفتح الباب أمام استشراء الأسلوب البشري. وقد جاءت هذه البينات على نحو يفهم منه أن ما جاء في القرآن الكريم هو وحده أسلوب المسلمين في عقائدهم وحياتهم، وأنه يفضل كل أسلوب وتصور ومفهوم سابق له أو لاحق به.

## حقائق أساسية

في سبيل إلقاء أضواء صريحة على الروابط والفواصل، التي تربط بين الفكر الإسلامي والفكر البشري، أو تفصل بينهما. نضع هذه الحقائق الأساسية بين يدي البحث.

والمعروف أن البشرية كانت قد استجمعت قبل نزول القرآن الكريم من عند الله بمنهج الإسلام (عقيدة ومنهج حياة) حصيلة ضخمة من النظريات والمفاهيم والقيم التي حاولت استخلاصها خلال العصور، وقد تضارب خلال هذه الحصيلة بعض أصول الفكر الذي جاءت به الكتب المنزلة مختلطاً بالفكر البشري الذي هو نتاج عقليات الفلاسفة.

وقد تعددت وجهات هذه الحصيلة على نحو خطير من التدافع والتضاد، وحملت معها عصارات الأهواء والمطامع، والرغبات التي صدرت عن العقول والغرائز والعواطف على مدى العصور وعلى اختلاف البيئات، واختلطت معها

منطلقات الحس والغريزة والإشراق والزهد، على الجبهة الجغرافية من الهند إلى اليونان مروراً بفارس والعراق والشام ومصر. فقد كانت هذه المناطق تضطرم بعشرات المذاهب والمدارس والدعوات من ثنائية وتثليث وتعطيل وزندقة.

فلما جاء الإسلام، والعالم يضطرب بهذا الركام، ووقف منه موقفاً صريحاً واضحاً، وكشف عن كل جوانب الزيف والشبهات والأهواء، وجلا الحق واضحاً صريحاً. إذ قدم بالقرآن للمسلمين منهجاً واضحاً صريحاً كاملاً في مختلف جوانب العقيدة والشريعة والأخلاق. وصور العلاقة الصحيحة القائمة بين الإنسان من ناحية وبين الله سبحانه وتعالى والكون والحياة.

ومن هنا ونحن على منطلق البحث في هذا كله، فقد وجب أن نضع هذه الحقائق الأساسية بمثابة أضواء كاشفة تهدي إلى الطريق.

( **اولا** ) ليس الإسلام مجرد دين قائم على العبادة، على أساس الصلة بين الله والإنسان. بل هو طريق في الحياة، ومنهج كامل يربط الإنسان بالله ويربطه بالإنسان والمجتمع، ولذلك فقد أقام نظاماً كاملاً يستوعب حياة الفرد والجماعة من مختلف أقطارها الاجتماعية والسياسية والتربوية والقانونية والدينية. وهو في صميمه منهج أخلاقي يربط الحياة الدنيا بالآخرة، ويقرر إرادة الفرد والتزامه بالمسؤولية الأخلاقية والجزاء. كما يربط العلم بالعمل.

وقد أكد الإسلام قيمة الإنسان بصرف النظر عن لونه وديانته. وقد قدم الإسلام للبشرية (عقيدة ومنهج حياة) تقوم على أساس التوحيد الخالص، وتحسم الرأي في مختلف القضايا والمعضلات التي تشغل العقل والنفس في مجال المعرفة والعقيدة ونظام الحياة، وهو في مجموعه إنما يمثل المنهج الرباني المنزل على الناس من رب العالمين بواسطة أنبيائه منذ خلق الإنسان. والذي تبلور في صورته النهائية والحاسمة في دين الإسلام.

**( ثانيا )** إن منهج الفكر الإسلامي كان قد تشكل وتكامل قبل ترجمة الفلسفة اليونانية، وان الفلسفة التي ترجمت لم تكن هي الفلسفة اليونانية، بل هي مفاهيم السريان المسيحيّة التي أرادوا إدخالها، والتبشير بها. ولا ريب أن هناك تعارضاً بين مفهوم الإسلام ومفهوم الفلسفة اليونانية في التوحيد والأخلاق. فضلا عن تعارض الإسلام مع المذهب العبودي الذي هو حجر الأساس في الفلسفة اليونانية بعامة.

كذلك فإن الفكر الشرقي الهندي الفارسي المجوسي يتعارض مع فكر الإسلام، ويختلف من حيث الأساس في المسؤولية الفردية، والالتزام الأخلاقي، والبعث والجزاء.

**( ثالثا )** جاء الإسلام بعد خمسة قرون ونصف قرن من ظهور المسيحية التي كانت رسالة سماوية أنزلت على السيد المسيح لتصحيح مسار رسالة موسى التي سبقتها بخمسة عشر قرناً. وكان الفكر البشري عند ظهور الإسلام قد مر بأطوار كثيرة. أبرز مقوماتها التوحيد الذي دعت إليه جميع الأديان السماوية، ثم جاءت الفلسفات فطرحت على الأمم والمجتمعات مفاهيم مختلفة، بل ومتعارضة بين التوحيد والوثنية. فكانت في مواجهة الإسلام عند ظهوره فلسفات ثلاث كبرى هي:

الفلسفة الغنوصية الشرقية، والفلسفة الإغريقية، والفلسفة اليهودية المسيحية الغربية التي تشكلت خلال القرون الخمسة السابقة للإسلام.

ولما كان الاسلام ديناً ومنهج حياة، ونظاماً متكاملاً للفرد والمجتمع والعقل والقلب. فقد كان من الضروري، وقد انطلق في طريقه يزحف كالإعصار تجاه المدن القديمة، ويواجه الحضارات الفرعونية والفارسية والهندية والرومانية وفكرها. كان لا بد أن يقف موقفاً واضحاً من الفلسفات الشرقية والغربية على السواء، ليكشف عن جوهره الأصيل ومفهومه الحق في مختلف

القضايا والمسائل التي يطرحها العقل الإنساني في كل العصور.

وهذه هي المحاولة التي نريد أن تحققها هذه الدراسة: أي بعبارة مختصرة أن نضع هذه الفلسفات القديمة جميعاً في ضوء الإسلام، ثم ننتقل بعد ذلك إلى المرحلة الثانية. تلك هي مرحلة الدور الذي قام به الإسلام في بناء الفكر الإنساني، ثم كيف صدر عنه الفكر العربي الحديث بمذاهبه وفلسفاته ونظرياته، وما هو موقف الإسلام اليوم من هذا الفكر الفلسفي الحديث والمعاصر [١].

**(رابعا)** جاء الإسلام بعد أن تشكلت للوثنية المادية فلسفة ومنهج وأيدلوجيا كاملة، واستفاقت على يد طائفة لها تراث محرف منذ الموجة الأولى. وقد كان التحريف تحدّياً حقيقياً لرسالة التوحيد التي نزلت على جميع الأنبياء والرسل. وقد جاء القرآن الكريم تصحيحاً لكل المفاهيم والقيم التي احتوتها النبوات، وقد ظلت رسالة الإسلام منذ نزوله إلى اليوم ـ وإلى قيام الساعة ـ هي تحرير البشرية من زيف الفكر البشري القائم على الوثنية والهوى والضعف الإنساني.

ولقد يبدو في بعض العصور أن المادية الوثنية تسيطر سيطرة عامة على مختلف وجوه الفكر والرأي، ومن خلال المدرسة والصحافة والثقافة. بينما يبدو فكر التوحيد في غير مكان الصدارة، كما يحدث في عصرنا هذا. ولكن أصالة هذا الفكر وصلابته، وربانية مصادره تعمل جميعاً على تثبيت قوائمه في الأرض، وتجعل النفس البشرية في تطلع دائم إليه استمداداً من فطرتها الأصيلة. وما يزال دعاة الإسلام يعملون على تحرير الفكر البشري من أخطائه وأوهامه وزيفه، ويدحضون شبهاته، ويصححون المفاهيم، لا يتوقفون

---

(١) الحلقة التالية من هذه الدراسة عن الإسلام والفلسفات الحديثة.

عن ذلك ولا يتراجعون مهما أدلهم الخطب، واستشرى الانحراف والزيف، مؤمنين بأن تحرير القيم وإنقاذها من ضباب الوثنية وزيف المادية وردها إلى الحق هو أول الطريق إلى ضياء الحقيقة، وأول الخطو إلى الطريق الأصيل. وأول علامة على دخول حركة اليقظة إلى مرحلة الرشد الفكري: وما الرشد الفكري إلا الإيمان بالله.

**(خامساً)** أبرز ما يمثل الفلسفة اليونانية: جمهورية أفلاطون القائمة على النظام العبودي، ورأي أرسطو في الرق، ومفهوم سقراط الأخلاقي القائم على الإباحية. وهذه الأصول الأساسية تكشف عن التعارض الكامل بين الفلسفة اليونانية والإسلام، من حيث دعوة الإسلام إلى تحرير الفرد، وأخلاقية الحياة، والقضاء على الرق والعبودية. فضلاً عن هذا فقد عرف الإسلام (التجريب) بينما احتقر اليونان التجربة والتجريب.

وقد كان منطق أرسطو أكبر معبر عن روح اليونان. أما القرآن الكريم فقد أعطى المسلمين منهجاً مبايناً ومنطقاً مختلفاً في كل خصائصه عن منطق أرسطو. فضلا عن أنه أعطاهم تصوراً ميتافيزيقياً كاملاً يكفيهم مؤونة البحث العقلي الذي لا يستطيع الوصول إلى حقيقة ما وراء الكون الظاهر.

**(سادسا)** رفض المسلمون التسليم بمنطق اليونان، وأقاموا منهجاً خاصاً مستمداً من القرآن الكريم، وأعلنوا في صراحة ووضوح أن منطق أرسطو يقوض أساس الفكر الإسلامي، ويهدم ما تبناه المسلمون من أحكام، ولا سيما في نطاق الإلهيات.

ويعتبر ابن تيمية في رده على منطق اليونان، ومن تابعه أكبر ممثل لروح الإسلام تجاه الفلسفة اليونانية، وبذلك أيضاً أصبح ابن تيمية رائداً لكل الاتجاهات الحديثة في نقد منطق أرسطو من أرجانون فرنسيس باكون إلى المنطقية الوضعية. وقد واجه الفكر الإسلامي منطق أرسطو بالدراسة،

وسرعان ما مزقه تمزيقاً. وأنشأ بدلا منه منهجاً مختلفاً يعبر عن خصائصها هو المنهج التجريبي.

ودحض ابن تيمية اتهامات التبعية، وكشف عن أن الفكر الإسلامي لم يكن تابعاً لأيّ فكر. وإنما كانت له ذاتيته الخاصة. وقد رفض ابن تيميه القول بالكليات والمفاهيم العامة المجردة، وجعل من المحسوسات والجزئيات أساساً للمعرفة.

وبالجملة فقد رفض الفكر الإسلامي المنطق الأرسطي الذي يقوم على القياس والاستدلال النظري، وأقام منطقاً جديداً أكثر تعبيراً عن خصائصه هو المنطق الحسي التجريبي. فالفكر الإسلامي فكر تجريبي أصلا.

واعتبر الكندي والفارابي وابن سينا مجرد امتداد للروح الهيلينية في العالم الإسلامي. وأن علماء المسلمين هم علماء الأصول والفقهاء وعلماء الكيمياء والطبيعة والطب.

وهكذا استطاع الفكر الإسلامي أن يتخطى منطق أرسطو ويتجاوزه، وأن يستوعب آفاقاً من التجربة البشرية يقصر دونها المنطق الشكلي[1].

**(سابعا)** عارض التفسير الإسلامي قول الفلاسفة بقدم العالم وقدم المادة. وأن العالم أزلي، وكشف عن أن العالم حادث مخلوق خلقه الله تبارك وتعالى من العدم بإرادته واختياره في الزمن الذي أراده، وعلى الهيئة التي أرادها، وأن الله خلق الزمان والحركات أيضا. وليس العالم أزلياً (قديماً) ولكن الله يستطيع أن يبقي العالم إلى الأبد إذا شاء، ويستطيع أن يفنيه إذا شاء. وعارض التفسير الإسلامي قول الفلاسفة بأن الله يعلم الكليات ولا يعلم الجزئيات، وكشف عن أن الله يعلم الكليات والجزئيات، وأدق الجزئيات.

---

(١) عن أبحاث الدكتور علي سامي النشار.

وعارض التفسير الاسلامي القول بإنكار حشر الأبدان، وأعلن أن الحشر والبعث والنشور حقيقة واقعة مرتبطة بالحياة الدنيا وبالمسؤولية والجزاء. وكشف التفسير الإسلامي عن وجود المعجزة بأسباب يعرفها هو، وليست مرتبطة بالأسباب الظاهرة التي نقيس عليها الأمور.

**( ثامنا )** كشف خطر الفلسفة والفلاسفة حين أرادوا أن يزنوا كل شيء بميزان العقل، بينما العقل شطر من منهج المعرفة في الإسلام، وهو نظراً للدائرة المحدودة التي يتحرك فيها لا يستشرف النظرة الكلية إلى الكون أو الحياة. ثم كانت الفلسفة والفلاسفة خطراً على الدين والأخلاق، عندما اعتقد الفلاسفة في أنفسهم التميز على أترابهم ونظرائهم فرفضوا فرائض الإسلام والعبادات، واحتقروا شعائر الدين، واستهانوا بالشرع وحدوده.

أما خطر الفلاسفة على الأخلاق فيرجع إلى أنهم أهملوا أحكام الشريعة، فشربوا الخمر وأعرضوا عن الصلاة. وقالوا مع ذلك أنهم أدركوا حقيقة النبوة، وعلموا أن حاصلها يرجع إلى الحكمة والمصلحة، فإذا ما ترفع الإنسان عن طبقة العوام سقط عنه التكليف، وكشف عنه الغطاء. ومن هنا كانت حملة الغزالي وابن تيمية. وقد أعلن الغزالي أن الفلاسفة عجزوا في الإلهيات عن الوفاء بالبراهين التي اشترطوها في المنطق، وكان هدم آرائهم مؤكداً عجز العقل وحده عن حقيقة المعرفة في مسائل ما بعد الطبيعة. ومع ذلك فقد أعلن أن أحكام العقل صادقة في مسائل الرياضيات. أما في مسائل ما بعد الطبيعة، فالعقل المحض قاصر عن الوصول إلى اليقين [1].

ومن هنا يتقرر أن التصورات الفلسفية، سواء العقلية منها أو الصوفية ليست هي التفسير الإسلامي الرباني القرآني الأصيل.

---

(١) الفلسفة اليونانية. دكتور محمد عبد الرحمن مرحبا.

(**تاسعا**) لم تصل فلسفة ما إلى ما وصل إليه الإسلام من تحرير عقل الانسان، وتحطيم الأغلال الموروثة، فهو يخاطب العقل والقلب معاً. وقد أكد وحدانية الله وكرامة الإنسان. «والقرآن يدعو إلى أسهل العقائد وأقلها غموضاً، وأبعدها عن التعقيد بالمراسم والطقوس، وأكثرها تحرراً من الوثنية الكهنوتية. فقد أبطل القرآن سلطان الأحبار والرهبان والوسطاء بين العبد والرب، ولم يفرض على الإنسان قرباناً يسعى به إلى المحراب بشفاعة من ولي، فلا ترجمان بين الله وعباده، يملك التحليل والتحريم، والغفران، ويقضي بالحرمان أو بالنجاة».

«فالخطاب إنما يتجه في القرآن إلى عقل إنسان حرّاً أو طليقاً من سلطان الهياكل والمحاريب وسلطان كهنتها وسدنتها. وكل هذا من شأنه أن ينمي في الفرد الإحساس بالمسؤولية، ويفتح في ضميره منفذاً واسعاً إلى الألوهية، ويربطه بها ربطاً مباشراً محكماً يرفع كل حجر على وجدانه».

ولقد علم القرآن أتباعه أن يواجهوا الحياة بواقعية ورباطة جأش لا مثيل لها في الأديان الأخرى، وحثهم على الإقبال عليها، والزهد بها في آن واحد في توازن مدهش لا تفريط فيه ولا إفراط. «شعاره الدين والدنيا».

«وليس في الكتب التي توصف بالقداسة وتنسب إلى السماء كتاب كالقرآن يدعو أتباعه على الدوام أن يكونوا أعزة أقوياء. ولم يفلح في هذه الدعوات كتاب آخر كما أفلح القرآن الكريم».

# الكتاب الأول

# ما قبل الإسلام

**الفكر اليهودي**
**الفلسفة اليونانية**
**الفلسفة الغنوصية**
**الفلسفة الغربية المسيحية**
**الوثنية العبرية**

# الباب الأول

# ما قبل الإسلام

## الفصل الأول ـ ما قبل الإسلام

كي ندرس الفكر البشري في تطوره وامتداده على العصور قبل الإسلام لا بد أن نضع خريطة تحدد المراحل التي مر بها هذا الفكر من ثنايا الأديان المنزلة.

ذلك أن الحقيقة التي لم يعد هناك ريب في صدقها أن البشرية بدأت موحدة، وأن الإنسان الأول فيها كان نبياً، وأنها ظلت على مدى العصور تنتقل بين التوحيد والشرك، وبين الايمان والإلحاد، وبين مفهوم السماء والمفهوم البشري. وليس صحيحا ما تذهب إليه دراسات الأديان المقارنة المعاصرة، وجلها يقوم على أساس تأكيد غاية واحدة معروفة لخدمة الفكر البشري وإعلائه على الفكر الأصيل المتصل برسالات السماء.

وأمامنا نقاط اربع مضيئة على طريق طويل: هي الحنيفية دين إبراهيم، واليهودية دين موسى، والنصرانية دين عيسى، والإسلام دين محمد. وفيما بينها تحرك الفكر البشري حركته التي نشأت عنها المذاهب والدعوات التي حملت مختلف الشبهات والتحديات التي عادت فطرحت نفسها مرة أخرى، وبقوة في وعاء الإسلام بعد أن جاء حاسماً وقاطعاً وفاصلاً بين عهدين: عهد الفكر البشري باضطرابه وتضاربه وخلطه بين الحقائق والأباطيل، والهدى والزيف. وبين عهد الفكر القرآني الرباني الخالص الذي بسط مختلف الحقائق، ورسم منهجا كاملا للعقيدة والمجتمع، وأعطى الإنسانية دستوراً كاملا واضحاً

مجيبا عن كل الأسئلة الحائرة، والشبهات المضببة حول القضايا الكبرى التي شغلت وما تزال تشغل الإنسان.

الحقيقة الإلهية: حقيقة الكون: حقيقة الحياة: حقيقة الإنسان. وعلاقة هذه الحقائق بعضها ببعض. لقد كشفت الأديان المنزلة عن هذه الحقائق، وقدمت للإنسان إجابات صريحة واضحة وساطعة في هذا المجال. بعد أن وضعت أمامه تفسيراً صحيحاً لمدى مقدرته في فهم عالم الغيب عن طريق عقله وحواسه ووجدانه. وبذلك أعفته من جهد لا طائل تحته في مجال الميتافيزيقيا كلها، ووجهته إلى مجال الحياة والبناء والانشاء، وحشدت له كل جهده وعقله.

ولكن «الإنسان» لم يشأ أن يتقبل هذا المنهج الرباني تقبلا كاملاً، وأباح لنفسه الحق في أن يصل عن طريق أدواته القاصرة إلى فهم هذه الحقائق. فنشأ بذلك هذا (الفكر البشري) الذي تجاوز كثيراً حدود قدراته، وحدود معطياته التي قدمتها له الأديان المنزلة.

ولقد كان في استطاعة العقل البشري اهتداءً بالوحي ورسالات السماء أن يصل إلى ما قررته هذه الأديان. وأن يجد ما استطاع استخلاصه مطابقا لما جاء به الرسل والأنبياء. ولكن الأسلوب الذي سلكه الإنسان: ببشريته وأهوائه ومطامعه وعجزه عن التحرر من عواطفه وغرائزه، لم يصل به إلى الحقيقة. وإنما وصل به إلى محاولات للتحرر من حدود الله. والتخلص من الضوابط التي وضعها منشيء الإنسان لتكون قوة له، وحماية لوجوده، ودفعا له إلى الطريق الأسمى، طريق التقدم مادياً وروحياً، لتحقيق الهدف الأسمى من وجوده على الأرض خليفةً لله، وسيداً للكون، ومسيطراً على كل هذه المعطيات تحت حكم الله، في إطار شريعته.

ولكي ننطلق من مدخل واضح. فإن علينا أن نبدأ من نقطة متقدمة هي:

بعثة نبي الله إبراهيم عليه السلام بحسبانها ملتقى الديانات الثلاث الكبرى التي ما تزال قائمة في العالم اليوم، وبوصفه أبا اليهود والمسيحيين والمسلمين. وأبا الأمم القائمة في هذه المنطقة كلها، ومن بينها العرب.

وفيما بين دعوة إبراهيم: «الحنيفية السمحة» وبين رسالة الإسلام الخاتمة على يد محمد ﷺ نجد المرحلة الحافلة بالأديان السماوية من ناحية، وبالفكر البشري من ناحية أخرى. ونجد ذلك الخلط والإضافة والحذف والتمزيق والتشكيك.

فإبراهيم (أولاً) هو نقطة الارتكاز التي ارتبط بها الإسلام، واعتبر نفسه متصلا بها ومكملا لها. (قولوا آمنا بالله وما أنزل إلينا وما أنزل إلى إبراهيم وإسماعيل وإسحاق ويعقوب والأسباط وما أوتي موسى وعيسى وما أوتي النبيون من ربهم لا نفرق بين أحد منهم ونحن له مسلمون).

فإبراهيم هو ابو التوحيد الخالص في أمة تشكلت بين العراق حيث ولد، وفلسطين ومصر حيث رحل، والجزيرة العربية حيث رفع القواعد من البيت وإسماعيل، وأنشأ أمة العرب العدنانية القرشية الهاشمية التي أنبتت محمد بن عبدالله خاتم الأنبياء.

ومن إبراهيم: جاء إسماعيل جد العرب والمسلمين، وإسحاق جد اليهود والنصارى. وفي هذه الأمم جميعاً نزلت رسالات السماء، ولأمر ما أصبحت هذه المنطقة التي تحرك فيها إبراهيم بين العراق والشام ومصر والحجاز هي أرض الأديان. ففي الشمال نزلت اليهودية والنصرانية. وفي الجزيرة نزل الدين الخاتم: الإسلام.

وما تزال اليهودية والنصرانية والإسلام هي الأديان الكبرى ذات الصلة بالسماء القائمة على الأرض. بينما كل ما سواها هو من أديان الأرض وفلسفاتها وعقائدها البشرية.

وإذا كانت اليهودية والنصرانية قد أصابها من الغير ما انحرف بدعاتها عن الحقيقة الأصيلة، أو اختفت كتبها السماوية أو اضطربت مفاهيمها، فإنما جاء ذلك نتيجة اتصالها بالجذور الوثنية والأثنينية والمعددة من فلسفات الهند واليونان ومصر القديمة. أي الفكر الشرقي ذي الجذور الغنوصية والفكر الهيليني ذي الجذور المادية والمعددة مما أخرجها عن طابعها الرباني الذي جاء به موسى وعيسى عليهما السلام.

وقد أشار القرآن إلى ظاهرة التحريف، والخروج على الأصول التي جاءت بها الأديان عن علم، ووصف هذا التحريف بالبغي حين جاءهم العلم بغياً بينهم. ومن هنا نشأ الفكر البشري.

ولقد تجمعت هذه القوى الضاربة من الفكر البشري مرة أخرى بعد الإسلام واقتحمت حرمه، وحاولت أن تدمره، وأن تخرجه عن أصالته وربانيته وتوحيده، وشكلت في أعماقه بضعاً وسبعين فرقة. غير أن رسالة الإسلام كانت قد صيغت صياغة خاصة تحميها من الزيف وترد عنها الدخيل، وتحميها من الاحتواء، وتجعل لها القدرة على أن تدفع عن نفسها، وتتجدد من داخلها، وتعيد تشكيل نفسها بالتماس جذورها وينابيعها الأولى، وظهر على المدى الطويل عشرات من مجددي الإسلام، ومصححي مفاهيمه. والأئمة الهداة الذي صادموا هذا الفكر الدخيل ودمروا دعائمه، وكشفوا عن زيفه، ومزقوه شرّ ممزق.

وكانت جولة ضخمة عاصفة، ثم لم يلبث الإسلام من خلال فترة ضعف شديدة، وأزمة عنيفة أن واجه نفس الحملة الضارية في عصرنا هذا. ومنذ قرن أو يزيد. وما يزال الإسلام قادراً على أن يكشف جوهره ويزيل عن نفسه كل زيف، ويدفع عن حقيقته المضيئة المشرقة الغبار والسحب والشبهات.

* * *

كان نبي الله إبراهيم علامة على المرحلة التي بدأت به وختمت برسول الله محمد . وكان علامة على المنطقة والأمة وأرض الأديان.

ولا ريب أن دين إبراهيم والأنبياء من أبنائه جميعاً كانوا يحملون أصول الفكر الإنساني المنزل من السماء والموحى به من عند الله، والقائم على الحق والعدل. هذا الفكر الذي تبلور من بعد في صورة عالمية ـ بعد أن كانت قومية ـ وفي صورة كاملة، في الإسلام خاتم الرسالات السماوية، وحفظها القرآن خاتم الكتب السماوية. وجاء بها محمد ﷺ خاتم الأنبياء والمرسلين.

ولا ريب أن هذه الأديان الأرضية، والفلسفات والعقائد والمذاهب المتعددة التي ظهرت بين اليهودية والمسيحية وبين المسيحية والإسلام، وقد استمدت خير ما فيها وأصدقه وأقربه إلى الفطرة والتوحيد والعدل من رسالات السماء. غير أنها ـ أي هذه الأديان الأرضية والفلسفات قد شابها اضطراب كبير، ودخل عليها زيف كثير، شكل منها ما أطلق عليه اسم « الفكر البشري » وهو ما تعارض في بعض أصوله وفروعه مع الفكر القرآني الذي يعد بمثابة الصورة النهائية للوحي الرباني، والذي يحمل في تضاعيفه « المنهج الإنساني الأمثل » للحياة والكون والمجتمع: عقيدة وشريعة وأخلاقاً.

لقد اصطرعت البشرية طويلا من خلال فكرها قبل الإسلام، فلما جاء بالحق وضع الحدود والفواصل، ورسم النقاط على الحروف، وأجاب عن كل الأسئلة، وشفى الصدور من كل زيغ وانحراف وخطأ. وقدم للنفس الإنسانية فطرتها الخالصة القائمة على التوحيد والأخلاق والإيمان بالغيب.

غير أن الفكر البشري لم يستسلم إزاء هذه الموقعة الفاصلة بين عهدين في تاريخ البشرية، عهد جاهليتها وعهد إسلامها لله. لم يستسلم الفكر البشري بوثنيته وأثنينيته وتعدده وإلحاده وإباحيته، وعاد يتجمع من جديد ليضرب الإسلام والفكر القرآني في أعماقه، فظهرت عشرات الفرق والدعوات

والمذاهب من داخل الإسلام تحاول من خلال إطار زائف أن تحتضن هذه الفلسفات والوثنيات، وتزاحم بها منهج التوحيد الخالص، وتتخذ من أسلوبي المنطق العقلي، أو الإلهام الروحي سبيلاً إلى إعلاء مفاهيم التحلل والإباحة، والخروج عن حدود الله، واطراح الأخلاق والتوحيد والاندفاع إلى زيف ما أطلق عليه إسقاط التكليف، أو إلغاء البعث والجزاء، إلى غير ذلك مما حملته الفلسفتان اليونانية والغنوصية إلى الفكر الإسلامي من حطام الشكوك وركام الأوهام.

وإذا كان الفكر «القرآني الإسلامي» قد استطاع أن يدافع هاتين الفلسفتين، فإن لونا آخر من ركام الفكر البشري قد حاول أن يلتمس له مكاناً داخل الإسلام.

ذلك هو فكر الأديان البشرية، ويتمثل في جماع انحرافات الأديان السماوية، وتحللها من أصولها الأصيلة وامتزاجها بالفلسفات الهيلينية والغنوصية على السواء، والذي تشكل من بعد في بيئة الفكر الغربي.

وقد أشار القرآن إلى ظاهرة التحريف في الأديان السماوية والخروج عن الأصول التي جاءت بها من شرائع وعلم ووصف هذا التحريف بالبغي.

وقد كان الناس قبل هذا التحريف أمة واحدة، ثم اختلفوا حين جاءهم العلم بغياً بينهم. ومن هنا نشأ الفكر البشري. القائم على الوثنية والتعدد والإباحة. بقول الله تعالى في سورة البقرة (٢١٣). ﴿كَانَ ٱلنَّاسُ أُمَّةً وَاحِدَةً فَبَعَثَ ٱللَّهُ ٱلنَّبِيِّينَ مُبَشِّرِينَ وَمُنذِرِينَ وَأَنزَلَ مَعَهُمُ ٱلْكِتَٰبَ بِٱلْحَقِّ لِيَحْكُمَ بَيْنَ ٱلنَّاسِ فِيمَا ٱخْتَلَفُوا۟ فِيهِ وَمَا ٱخْتَلَفَ فِيهِ إِلَّا ٱلَّذِينَ أُوتُوهُ مِنۢ بَعْدِ مَا جَآءَتْهُمُ ٱلْبَيِّنَٰتُ بَغْيًۢا بَيْنَهُمْ فَهَدَى ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لِمَا ٱخْتَلَفُوا۟ فِيهِ مِنَ ٱلْحَقِّ بِإِذْنِهِۦ وَٱللَّهُ يَهْدِى مَن يَشَآءُ إِلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ﴾.

كان نبي الله إبراهيم علامة على المرحلة التي بدأت به، وختمت برسول الله محمد. وكان علامة على المنطقة والأمة وأرض الأديان، ومن خلاله تشكلت مرحلتان:

(١) - مرحلة اليهودية: وقد امتدت منذ رسالة موسى عليه السلام إلى رسالة عيسى عليه السلام في فترة لا تقل عن ألف وخمسمائة عام.

(٢) - مرحلة المسيحية: وقد امتدت من رسالة عيسى عليه السلام إلى مجيء محمد ﷺ في فترة لا تقل عن ستمائة عام.

١ - جاء موسى عليه السلام إلى بني إسرائيل بالتوراة: فيها هدى ونور، وهي شريعة كاملة: وتعد التوراة أول كتاب نزل من السماء. أما ما أنزل على إبراهيم وغيره من الأنبياء، فما كان يسمى كتباً بل صحفاً [1].

والديانة الموسوية المنزلة بالتوراة تقوم على أساس التوحيد والإيمان بالله الواحد، رب العالمين، ولها شريعتها التي تضمنتها الألواح ﴿وكتبنا له في الألواح من كل شيء وموعظة وتفصيلاً لكل شيء﴾ الاعراف ١٤٥

غير أن هذا الدين لم يلبث أن تغير، ولم تعد التوراة المنزلة الصحيحة هي مصدره الوحيد. ولكن أصبح هناك توراة مكتوبة: أشار إليها القرآن الكريم فيما أشار إليه من تحريف الكتاب، وما نص عليه من أنهم يكتبون الكتاب بأيديهم ثم يقولون هو من عند الله، وجعله «قراطيس» يبدونها ويخفون فيها الكثير.

ثم نشأ لهم مصدر آخر هو التلمود الذي كتبه أحبار اليهود حوالي عام ١٥٠ بعد الميلاد. ثم جاء كتابهم المشنا والجمارا. ثم جاءت بروتوكولات

---

(١) الشهرستاني في «الملل والنحل».

صهيون في العصر الحديث إضافة إلى هذه المصادر.

وأبرز الانحرافات التي أصابت اليهودية: أنها أصبحت بالحذف والإضافة عن المصدر الأصيل.

( أولا ): ديانة عنصرية مقفلة على أهلها، تقوم على شعب خاص ترفض غير أهلها وتحتقرهم: فالديانة اليهودية ليست ديناً تبشيرياً ولا إنسانياً عاماً.

( ثانيا ): اعتبار اليهود أنفسهم «شعب الله المختار» ومن سواهم من البشر (جوييم) أي (أميون) يحل خداعهم وسرقتهم وقتلهم.

( ثالثا ): إنكار الآخرة والبعث: والقول بأنه ليس فيما وراء هذا العالم عوالم، وأن الجزاء (ثواباً وعقاباً) يقع في الدنيا، والحياة الدنيا في كتابهم هي عالم الإنسان، وربما كان البعث عندهم هو عودة دولتهم.

( رابعا ): الإله عندهم: «يهوه» إله الحرب والانتقام، وهو إله خاص بهم وحدهم، وليس إله الناس جميعاً، وهو إله قاس مدمر متعصب لشعبه، لأنه ليس إله كل الشعوب. بل إله بني إسرائيل وحدهم، وهو بهذا عدو للآلهة الآخرين، كما أن شعبه عدو للشعوب الأخرى[1].

وهو ليس بمعصوم، وكثيراً ما يقع في الخطأ. وقد وقف موسى منه موقف الناصح. وإلى هذا المفهوم ترد كل صور الوحشية والقسوة في معاملة غير اليهود في السلم والحرب.

ولا يقر مفهومهم الإله الواحد: إله الخلق أجمعين، وإنما يعبدون ما يسمى بإله إسرائيل.

( خامسا ): اتجه الفكر اليهودي إلى التجسيم والتعدد وعبادة الأصنام

---

(١) عن تعريف الدكتور أحمد شلبي: اليهودية.

والاعتقاد في السحر والأرواح والشياطين، وهم لم يتخلوا عن عبادة العجل الذهبي حتى بعد رسالة موسى.

**( سادسا ) :** لليهود مسيح ينتظرونه، وهو غير المسيح عيسى عليه السلام، وهو ملك وليس نبيا.. ملك فاتح من نسل داود يسمونه ابن الله. والمنقذ الذي يعيد مجد إسرائيل، ويجمع أشتات اليهود في فلسطين.

أما التوراة فقد ثبت أن النصوص الموجودة الآن ليست هي التوراة المنزلة على موسى عليه السلام، وهناك عشرات من النصوص تؤكد هذا المعنى. وأهمها:

دائرة معارف لاروس التي تقول بالنص: (موسى ولد ١٥٧١. وتوفي ١٤٥١. أسس مدنية وديناً. ولا نملك الكتاب الحقيقي لشريعته. فقد نسبت إليه التوراة أو الكتب الخمسة الأولى من الكتاب المقدس. ولكن هذه التوراة حاملة لآثار لا نزاع فيها من الحواشي والتنقيحات. ومن علامات أخرى تدل على أنها ألفت بعد الزمان الذي مات فيه موسى بعهد طويل) اهـ.

★ ★ ★

وفيما بين اليهودية والمسيحية مسافة ألف وخمسمائة عام، ظهرت خلالها أديان بشرية ومذاهب ونحل وفلسفات متعددة.

كانت البرهمية موجودة في الهند قبل اليهودية، أو موازية لها. فقد ثبت أن كتابها (الفيدا) قد وضع قبل الميلاد بألف وخمسمائة سنة. ثم تجددت البرهمية في القرن الثامن قبل الميلاد.

وفي القرن السابع قبل الميلاد ظهر (زرادشت) في فارس مجدداً للمجوسية.

وفي القرن السادس قبل الميلاد ظهر في الهند (بوذا) (٥٦٠ ق.م)

معارضاً للبرهمية. وفي نفس القرن السادس قبل الميلاد ظهر (كنفوشيوس) في (٥٥٢ ق.م).

وقد حمل هذا القرن السادس مطلع الفلسفة اليونانية في أثينا، ثم بلغت غايتها في القرن الرابع - ثم ظهرت الأفلاطونية الحديثة في القرن السابق لميلاد السيد المسيح.

* * *

والمسيحية أو النصرانية هي الدين الذي أنزله الحق تبارك وتعالى على سيدنا عيسى بن مريم، وكتابه الإنجيل. وقد جاءت النصرانية مكملة لليهودية، ومصححة لبعض ما انحرفت إليه من أخطاء، ومخففة لبعض ما جاء بها من قيود، وكما جاءت اليهودية إلى بني إسرائيل، فقد جاءت المسيحية أيضاً إليهم بعد ألف وخمسمائة عام. ومن خلال ركام ضخم من الانحراف والزيف والتغيير والتبديل.

وإذا كانت اليهودية في عقائدها الأصلية تقوم على ما قامت عليه جميع الأديان المنزلة.

(١) - توحيد الله الواحد إله الناس جميعا.
(٢) - والبعث والجزاء والحساب.
(٣) - إقامة شريعة الله في الأرض.

فإن المسيحية وهي من عند الله لم تكن تختلف عن اليهودية، ولا عن الأديان المنزلة قبلها، فهي دين توحيد مطلق يعترف بالله الواحد الأحد، وإن عيسى نبي مرسل من عند الله.

كذلك أجمعت اليهودية والمسيحية، وأجمعت التوراة والإنجيل على التبشير بمحمد ﷺ خاتماً للأديان والرسل، داعية معتنقيها إلى الإيمان به.

وهناك حقيقة أساسية في الرسالة المسيحية، انها جاءت لتصحيح مسار الديانة اليهودية. ولذلك فهي ليست ذات شريعة خاصة، وإنما هي وصايا وأخلاق. وان هذه الوصايا إنما قصد بها تخفيف جشع اليهود وانصرافهم إلى المادية الخالصة، فهي دعوة إلى التحرر من المادة والزهد في الدنيا، والتطلع إلى الجوانب الروحية القائمة على الرحمة والخير والسماحة والحب، وهي في مجموعها تنقض اليهودية في واقعها بعد أن خرجت عن أصلها الأصيل.

وقد جاءت حياة عيسى في مجموعها معجزة كبرى: وحفلت بالآيات، فقد ولد من غير أب، واختلف الناس في أمر مولده وأمر موته.

وفي عديد من مواقف حياة عيسى وموته تنكشف الحقائق عن تزييف الفكر اليهودي الذي خرج عن رسالة السماء. فخلق عيسى من غير أب هو دحض للنظرية الفلسفية التي تقول بالعلة والمعلول التي لا تستطيع أن تحيط بمفهوم قدرة الله القادر على أن يخلق بغير علة سابقة، وأنه هو الذي وضع النواميس التي تربط الأسباب بمسبباتها، وهو القادر على أن يمزقها ويتجاوزها فيوجد المسبب دون أن يوجد السبب.

وكان الفكر اليهودي البشري الذي انحرف عن أصوله قد أنكر الروح، واعتقد أن الإنسان مادة خلقت من مادة. فأراد الله أن يخلق إنساناً دون أن تكون المادة أساساً له [1].

ومن الحق أن يقال: إن النصرانية كانت تصحيحاً مباشراً لانحراف اليهودية. فقد حرف بنو إسرائيل شريعة موسى، وجعلوا همهم جمع المال، وامتد هذا التفكير المادي إلى العلماء والرهبان، فأخذوا يحرضون العامة على تقديم القرابين والنذور للهيكل رجاء أن يحصلوا على الغفران، وربطوا

(١) أبو زهرة وأحمد شلبي: محاضرات في النصرانية للأول وكتاب المسيحية للثاني

الغفران برضا الرهبان ودعائهم. وتعمقوا في المادية، وبعدوا عن الروحية، فأنكر فريق منهم القيامة والحشر، ومن ثم أنكروا الحساب والعقاب، فانغمس الكثيرون منهم في متاع الحياة الدنيا غير خائفين من عاقبة، ولا متوقعين حسابا [1]. ولذلك قاومت المسيحية هذه المادية الغالبة ووساطة الأحبار.

★ ★ ★

غير أن النصرانية لم تلبث أن انحرفت بعد أن عبرت إلى أوروبا فاستقرت في الدولة الرومانية ذات الحضارة الوثنية والفكر الهليني والقانون الروماني. وفي هذا الجو بكل قيوده وتحدياته سيطرت المسيحية على أوروبا وسيطر عليها الفكر البشري القديم، واحتوتها الفلسفتان اليونانية والغنوصية جميعاً، فأخرجتاها عن الرسالة السماوية المنزلة. وكان أخطر ما أصابها من تحريف أفكار ثلاثة:

**( أولا )**: فكرة التثليث وألوهية المسيح.

**( ثانيا )**: فكرة الخطيئة والصلب باسم التكفير عن خطيئة البشر.

**( ثالثا )**: الرهبانية والإقامة في الصوامع.

---

(١) شلبي (نفس المصدر).

# الباب الثاني

# الفكر اليهودي

( ١ ) أصول الفكر اليهودي
( ٢ ) تزييف التوراة
( ٣ ) عناصر التحريف

# الفصل الأول

## أصول الفكر اليهودي

« يقوم الفكر اليهودي » على أساس المفاهيم التي أقرها الحاخامات اليهود على مدى القرون مغايرة للتوراة المنزلة، ومنصبة أساساً على الاتجاه الذي حددته اليهودية لانطلاقها كحركة في المجتمع البشري. ومن خلال التحديات التي واجهتها وتصدت لها.

والمعروف أن اليهودية قد تشكلت أساساً وفق مفهوم التوراة: الكتاب المنزل على النبي موسى بن عمران، وهي دين سماوي يقوم على أساس الإيمان بالله الواحد، ويحقق شريعة الله في أمور الدنيا، والاعتراف بالجزاء واليوم الآخر والجنة والنار. وهي الرسالة الأولى التي نزل معها كتاب هو التوراة التي وصفها القرآن بأن فيها هدى ونور. أما ما قبلها فكانت صحفاً. وقد جاءت رسالة موسى إلى اليهود واحدة من سلسلة رسالات السماء إلى الأمم والأقوام، وتميزت بأنها إحدى الرسالات الكبرى الثلاث التي ما تزال أديانها قائمة: اليهودية والمسيحية والإسلام.

★ ★ ★

غير أن هذا الدين السماوي بمقرراته الربانية القائمة على التوحيد والأخلاق والايمان بالغيب والبعث (ورسالة أديان السماء واحدة بوحدة مصدرها) هذا الدين لم يلبث أن أصابه اضطراب كبير، وأصاب كتابه (التوراة) تحريف خطير، وجرى زيف بالغ بالحذف والإضافة في النص الأصيل.

وقد اتصل هذا التحريف بأصول الدين ومقاصده وقيمه، وجرى الاتجاه إلى التغيير مع أهواء اليهود الأصيلة القديمة القائمة في النفوس والأهداف، واستهدف صياغة منهج له صفة القداسة الدينية يبرر المطامع والأهواء، ويصبغ الغايات المادية البالغة العنف بصبغة الرسالة السماوية.

ومن هذا كان ما كشفته الوثائق من أمر إعادة كتابة التوراة من جديد وفق هذه المقاصد، حتى ليمكن القول بأن (العهد القديم) الموجود الآن ليس هو التوراة رسالة السماء، وإنما هو من وضع الأحبار والحاخامات، وأنه قد كتب على النحو الذي يرسم أهداف اليهودية كما أرادها قادتها، لا كما أنزلت.

وتبدو هذه الحقيقة واضحة من أدنى مراجعة لمقررات العهد القديم الماثل في الأيدي الآن. حيث ينكشف هذا الانحراف والزيف والمخالفة الواضحة للمقررات التي رسمها الدين الموحى به من عند الله إلى رسول الله موسى عليه السلام. وهنا تبرز نقطة التحول الخطير التي تفصل فصلا تاماً بين دين الله وكتابه التوراة، وبين اليهودية التي أقامها قادتها من وحي مطامعهم، وأنشأوا من أجلها كتاباً آخر هو: (العهد القديم).

# الفصل الثاني

## تزييف التوراة

تكاد المصادر المختلفة التي كتبها الغربيون أن تجمع على أن (العهد القديم) ليس هو التوراة المنزلة، ومن خلال عشرات الأبحاث التي ترجمت إلى اللغة العربية كانت هذه الحقيقة واضحة ليس فيها لبس ولا ريب، بل نستطيع أن نجزم بأنه لا يوجد هناك من يقول إن (العهد القديم) هو التوراة المنزلة. وهاتان وجهتا نظر في هذا الأمر. إحداهما غربية، والأخرى شرقية.

(١) - في مقدمة من عرض لهذه القضية الكاتب اليهودي المعروف (ول ديورانت) فهو يتساءل في الجزء الثاني من كتابه قصة الحضارة (ص ٣٦٦ وما بعدها) فيقول:

« ترى ماذا كان كتاب شريعة موسى: كيف كتبت هذه الأسفار، ومتى كتبت وأين كتبت ». ويجيب بقوله: ذلك سؤال بريء لا ضير فيه، ولكنه سؤال كتب فيه خمسون ألف مجلد، ثم يصل إلى القول بأن « العلماء مجمعون على أن أقدم ما كتب من أسفار التوراة هما القصتان المتشابهتان المنفصلة كلتاهما عن الأخرى في سفر التكوين تتحدث إحداهما عن الخالق باسم (يهوه) على حين تتحدث الأخرى عنه باسم (الوهيم) وإن هذه القصص وتلك قد امتزجت في قصة واحدة بعد سقوط السامرة. وفي هذه الشرائع عنصر ثالث يعرف بالتثنية، أكبر الظن أن كاتبه أو كتابه غير كتاب الأسفار السابقة، وثمة عنصر رابع يتألف من فصول أضافها الكهنة فيما بعد، وكانت أساطير الجزيرة العربية هي المعين الغزير الذي أخذت منه قصص الخلق والغواية والطوفان التي يرجع عهدها في تلك البلاد إلى ثلاثة آلاف سنة أو نحوها قبل الميلاد ».

ولعل اليهود أخذوا بعضها من الأدب البابلي أثناء أسرهم، ولكن أرجح من هذه أنهم أخذوها قبل ذلك العهد بزمن طويل من مصادر سامية وسومرية قديمة كانت منتشرة في جميع بلاد الشرق الأدنى[1].

(٢) - يقول الدكتور أنيس فريحة: أسفار التوراة (العهد القديم) المعترف بها ٣٩ سفراً لا تعرف أسماء مؤلفيها على وجه الدقة، وهي أشبه بملحمة كتبها العبرانيون من وجهة نظرهم الخاص، فيها شعر وقصص وأساطير وروح دينية عميقة، وإيمان راسخ بإله واحد يسير الكون بمشيئته، ويعتني بصورة خاصة بشعب خاص هم العبرانيون القدماء.

« كانت أسفار التوراة من شعر وقصص وأمثال وتاريخ وتعليم ديني في بادىء أمرها روايات شفهية متداولة جيلا بعد جيل، إلى أن قيض لها أن تدون في حدود ٤٤٠ ق. م. ولكن الذين دونوها لم يرتبوا المواد ترتيباً زمنياً ».

السؤال الثاني: من ألف هذه الأسفار، ومن جمعها في شكلها النهائي؟

وقلنا إننا لانعلم أسماء المؤلفين، وأصحاب الروايات معرفة يقينية. ولهذا اصطلح علماء التوراة على تسميتهم برموز، فهناك الكاتب اليهودي. الألوهيمي الكهنوتي، التشريعي. وأخيراً الكاتب الموفق بين الروايات اليهودية، والروايات الألوهمية.

في (٨٥٠ ق. م) حاول كاتب أو راوٍ أو محدث عبري أن يجمع من الفلوكلور الكنعاني ما كان شائعاً بين الناس من قصص وأساطير وروايات عن الآلهة (إيل، ومردوك، والبعل). وطبيعي أن يعزو هذه القصص والأخبار إلى « يهوه » لأنه كان يعتبر أن إله العبرانيين منذ زمن أنوش حفيد آدم كان

---

(١) جـ ٢ ـ قصة الحضارة. ول ديورانت.

يهوه. ثم أنه حاول أن يجمع تاريخ قومه بادئاً بقصة الخليقة كما كانت عند البابليين (أي الإصحاح الثاني من سفر التكوين) ثم بآدم وحواء والجنة وسقوط الإنسان في الخطيئة، وتغير الإنسان والخليقة بعد سقوط الإنسان، ثم الطوفان، ثم أخبار العبرانيين: موسى وهارون وإبراهيم وإسحاق ويعقوب.

« هذا الكاتب سبق الإغريق في محاولته كتابة التاريخ بشكل ملحمة رائعة ».

وقال الدكتور أنيس فريحة: إن « يهوه » كما تصوره الكاتب اليهودي مجرد إنسان عظيم قدير ينزل إلى الفردوس ليتحدث إلى آدم ويأمر قابيل وهابيل أن يقدما قرابين فيقبل قرابين الواحد منهما، ويرفض قرابين الآخر.

ويقول الدكتور أنيس فريحة: إن تقدم العلوم ساعد على نقد التوراة. وفي مقدم العلوم ثار التناقض الواضح بين ما أثبته العلم، وما جاء في التوراة شكاً وملقاً روحياً.

وأشار أنيس فريحة إلى ما أصاب التوراة من تغيير وتحريف وقال: إن هناك أغلاطاً منشؤها السهو والكسل والملل، أو ضعف النظر. وإذا كان الناسخ غير أمين في عمله عند ما تعرض كلمة لا يستطيع قراءتها يعمد إلى تغيير الكلمة أو تحوير النص بكامله ليستقيم المعنى. وقال إن ذلك يرجع إلى صعوبة الحرف العبري وتشابكه وأشكاله، فإن حروفاً كثيرة تختلط أشكالها على الناسخ إذا كان الكاتب الذي ينسخ عنه لم يحسن رسم الحرف. وقال: إن هوامش المعلقين والشراح كانت تحشر أحياناً في المتن، ولم ينج نص التوراة من كل هذه الآفات. فجاء أيضاً مشوهاً قلقاً غامضاً في كثير من الأسفار.

★ ★ ★

ولليهود كتابان مقدسان: (التوراة، والتلمود).

والتلمود هو الروايات الشفوية التي تناقلها الحاخامات من جيل إلى جيل. جمعت في كتاب عام ١٠٥ ميلادية. وأضيفت إليها شروح وزيادات.

ويضم التلمود: المشنا والجيمارا.

وقد تعددت نسخ التلمود. وكتب التلمود الأخير في القرن السادس الميلادي. وإذا كان العهد القديم مخالفاً للتوراة تجاوزاً إلى أهواء اليهود. فإن التلمود هو خطوة أخرى أشد عنفاً وتجاوزاً، ويعتقد اليهود أن العهد القديم (أي الناموس المكتوب) ناقص ومبهم في كثير من المواضيع، ولا يكون اليهودي عندهم مؤمناً إيماناً كاملاً إلا إذا صدق بالتلمود.

والتلمود المكون من المشنا وحواشي المشنا (الجمارا) عبارة عن الوصايا التي كتبها الأحبار، والتعاليم الشفوية. وهم يضعونه في منزلة التوراة، وبعضهم يجعلها أسمى من التوراة. أو أن من يقرأ التوراة بدون المشنا والجمارا فليس له إله

وقد حاول ول ديورانت إحصاء مصادر الفكر اليهودي، فلم يكد يغادر أسطورة أو فكرة وثنية مما سبق تاريخ دينهم، أو عاصره من أساطير بابل، وأساطير الجزيرة العربية، والمصادر السومرية، والقصص الشعبي في مصر والهند وفارس واليونان، والفكر الفرعوني والفكر الفارسي، وشريعة حمورابي.

وقال إنها جميعاً كانت منبعاً غزيراً لأسفار العهد القديم.

ويقرر ول ديورانت: أن أسفار العهد القديم جمعت لأول مرة في بابل، وظهرت في القرن الخامس قبل الميلاد. ويظهر إسم الكاهن عزرا مرتبطاً بتدوين التوراة.

★ ★ ★

وقد أقر الدكتور هوبري لوي اليهودي في كتاب أديان العالم الكبرى: « إن هناك عقائد دخيلة انسابت إلى اليهودية عن فارس وبابل والإغريق لا سند لها في اليهودية بالذات ».

ويرد كثير من[1] الباحثين انحراف اليهود عن التوراة إلى ما بعد عهد سليمان، وضياع التوراة. حيث ارتد اليهود إلى عبادة الأوثان، وعبادة آلهة الأقوام المجاورين. فقد ذهبوا إلى أبعد مدى حين بني مذبح للأصنام في فناء بيت المقدس. ويؤكد بعض المؤرخين أن الكاهن حلقيا كتب سبعة عشر عاماً ما أسماه أسفار التوراة حوالي ٦٢٩ ق. م. ويربط بعض المؤرخين ضياع[2] التوراة التي أنزلت على موسى إلى العهد الذي حرق فيه بختنصر الهيكل حيث فقدت التوراة سندها الأصلي الذي كانت ترجع إليه بعد حرق أورشليم وسبي اليهود إلى بابل، ثم عبدوا العجل من بعد ذلك. ولا ريب أن هذه النصوص وغيرها تؤكد ما قرره القرآن، وما ذهب إليه علماء المسلمين من أن « اليهود عمدوا آثمين إلى تحريف الكتاب » وأن النص الصحيح لما جاء في التوراة هو ما أورده القرآن. فليس هناك رأي واحد يجرؤ على القول إن العهد القديم الذي في أيدي الناس الآن هو التوراة التي أنزلت على موسى بن عمران.

★ ★ ★

وجملة قول الباحثين في تزييف التوراة:

**( أولاً )** إن العهد القديم الموجود الآن مكتوب بأيدي أناس متعددين من المؤلفين. وان هناك شكاً فيما إذا كانت هي شخصيات تاريخية، أم أسماء وهمية.

---

(١) الدكتور أحمد شلبي: اليهودية.

(٢) الدكتور محمد وصفي: الارتباط الزمني.

**( ثانياً )** إن العهد القديم مليء بأخطاء ترجع إلى اختلاط الحروف ودخول هوامش الشراح في المتن مما جعلها مشوهة قلقة.

**( ثالثاً )** التوراة الموجودة الآن ضمن الكتاب المقدس ليست المذكورة في القرآن بحال، وفي الأرض توراتان أو ثلاث ذكرت التواريخ فيها مختلفه من آدم إلى المسيح.

★ ★ ★

## لماذا أجرى اليهود التحريف؟

إن أبسط إجابة على هذا السؤال هو: أن اليهود كانوا يستهدفون إقامة منهج فكري واجتماعي يحقق لهم طريقهم الذي سلكوه منذ آلاف السنين إلى اتخاذ (الربا) للاقتصاد والتجارة والتعامل في العالم كله. فذلك هو عملهم الأول الذي حاربته الأديان، والذي جاءت التوراة ناقضة له نقضاً تاماً.

ولذلك فقد كان لا بد من تزييف التوراة على النحو الذي يرسم منهجاً يحقق هذا الهدف من خلال تحريف النصوص. لقد أدخل اليهود منهجهم الخاص إلى الدين، والتوراة. وذلك بالحذف والإضافة والتحريف. ثم عملوا من بعد على جعله منهجاً عالمياً حاولوا أن يدخلوا فيه المسيحية وأهلها، كما حاولوا ذلك بالنسبة للمسلمين أيضاً.

وقد جمع هذا المنهج كل ما ورثوه من أوضاع الفكر البشري المعارض للأديان من تراث فارس وبابل والصين والهند وأشور، من وثنية وإلحاد وإباحية، وتعدد واحتقار للأخلاق وإنكار للبعث والجزاء والحساب لكي يشيدوا منهج (عبادة المال) والسيطرة على الذهب، وإقرار الربا، وجعل ذلك كله نظاماً عاماً للعالم كله، وقد كان من الطبيعي لإقرار مثل هذا النهج أن تحارب اليهودية التوحيد، وأن تحارب الأخلاق وأن تحارب مختلف القيم والضوابط التي جاءت بها الأديان، لأنها تقف عقبة في سبيل تحقيق هدفهم

بالسيطرة المالية والاقتصادية على العالم كله. (امبراطورية الربا). وهي سيطرة تتطلب إزاحة كل من يقف في سبيلها بالإغراء أو القتل. ولقد كانت حقيقة (البعث والحساب والجزاء) في الأديان وفي اليهودية بالذات هي أخطر الحقائق التي تقف في وجه هدفهم، لذلك فقد حاربوها حرباً عنيفة دامية، وابتكروا من أجلها فلسفات ومذاهب للإباحية والإغراء وإسقاط التكليف ودفع الناس دفعاً إلى إهلاك أموالهم وأرضهم. وبذلك سيطر اليهود على الفكر البشري كله، وكان لدورهم في تحريف المسيحية من بعد، وكل دعوة حق. أثر في استشراء دعوتهم. وبذلك سيطر على العالم منهجان منفصلان:

★ منهج القرآن الذي تبناه الإسلام.

★ والمنهج البشري الذي احتضنه اليهود، وعملت في سبيله المنظمات الماسونية والصهيونية وغيرها.

★ ★ ★

وهناك رأي قوي بين الباحثين: أن اليهود إنما غيروا التوراة من أجل إقرار مطامعهم ودعوتهم إلى السيطرة العالمية عن طريق الربا والذهب، وهو ما عرف في العصر الحديث بالصهيونية العالمية.

ذلك أن منهج التوراة الرباني الذي جاء به موسى ما كان يرضي هذه الأطماع التي تملأ القلوب طموحاً إلى إذلال الأميين والشعوب من غير اليهود. انتقاماً من حملات التنكيل والاضطهاد التي سقتهم كؤوس العلقم على مدى القرون. فذلك هو تحديهم الخطير.

وفي هذا المعنى يقول الدكتور أحمد شلبي: وحقيقة القول ان اليهود بعد أن انحرفت اعتقاداتهم وطباعهم تخلصوا من أسفار موسى الحقيقية لأنها كانت تختلف عما أرادوا من طباع وخلق، وكتبوا سواها مما يتناسب مع ما يريدون من تاريخ وعقيدة.

# الفصل الثالث

## عناصر التحريف

أعاد اليهود كتابة التوراة على النحو الذي رسموه في منهجهم واخلاقهم، وخرجوا بها عن أصولها السماوية، وغذوا مضمونها بالوثنيات القديمة فجمعوها إليها، وشكلوا منها فكراً يستهدف تحقيق الغاية، وجعلوها منطلقاً لهذا الهدف معارضاً أساسا للتوراة الموحى بها. غاية السيطرة على العالم واعتصار ثرواته.

وهذه المفاهيم في مجموعها تمثل وجهة نظر اليهود في الإنسانية كلها: ويمكن القول إن أبرز المفاهيم التي أعلاها العهد القديم هي:

**(أولاً)**: العنصرية في مواجهة الإنسانية. وهي تقوم على كراهية الشعوب، وكراهية الأمم، وتأخذ موقف العداء لكل من اختلف معهم في التاريخ كله.

ومن خلال هذه «العنصرية» ينطلق مفهوم «شعب الله المختار» المستعلي على كل الشعوب، الذي يرى الأمم كلها من الجوييم أي الأميين، ويتصل بهذا المعنى إقامتهم العهد القديم على أساس عصري.

وترتبط عنصرية «اليهودية» كما شكلها علية الحاخامات بالدعوة إلى العنصرية، ومقارنة الأديان التي انبعثت في العصر الحديث، والتي أرادوا بها إحياء الأديان الوثنية القديمة التي أخذوا منها وشكلوا منها فكرهم، وهي أديان الهنود والمجوس القائمة على التعدد وإنكار البعث.

وقد تعـدت حدود النزعة العنصرية مداها حين حول اليهود الوصايا العشر (لا تقتل ـ لا تسرق ـ لا تزن...) إلى وصايا تطبق بين اليهود أنفسهم. أما الجوييم من الأميين فلا تنطبق عليهم. وتبـدو رائحـة الوثنيـة خـالصـة في العقيدة الجديدة (الهيكل ـ التابوت ـ والطقوس).

**(ثانياً)**: إنكار البعث كقاعدة أساسية للفكر اليهودي معارضة للأديان، ورسالات السماء وقد جاءت دعوة موسى عليه السلام بالتأكيد والتركيز على: عقيدة اليوم الآخر، والبعث، والجنة والنار، والخلود فيهما.

وقد جاء ذلك في أول نقطة في دعوة موسى: ﴿إنني أنا الله لا إله إلا أنا فاعبدني وأقم الصلاة لذكري. إن الساعة آتية أكاد أخفيها لتجزى كل نفس بما تسعى. فلا يصدنك عنها من لا يؤمن بها واتبع هواه فتردى﴾.

ومن خلال الفكر اليهودي لا يوجد حديث عن خلود الروح بعد الموت أو القول بالحساب بعد البعث. وعندهم أن المكافأة هي في هذه الحياة الدنيا، والعقاب في هذه الدنيا.

وفي هذا يقول سفر الجامعة: «ليس للإنسان مزية على البهيم لأن كليهما باطل يذهب كلاهما إلى مكان واحد. كان كلاهما من التراب وإلى التراب يعود كلاهما».

وقضية الآخرة والبعث هي أكبر قضايا الفكر اليهودي، فقد حاولت اليهودية أن تكون منهج حياة من غير عقيدة عبادة، بينما استقرت المسيحية على أنها عقيدة من غير منهج حياة. ومن هنا فإن مجال اليهودية هو هذا العالم وحده، العالم الحاضر. بينما تجعل المسيحية من العالم الآخر، وما وراء هذا العالم مجالاً لها.

يقول الدكتور هربرت لوي اليهودي: اليهودية ليست بحاجة إلى عقيدة إيمان بغض النظر عن العالم الآتي، ومجال اليهودية ليس فيما وراء هذا العالم، أي عالم الروح. مجالها الحياة الدنيا دون نظر إلى ما وراء ذلك، وهذا هو الفارق بينها وبين المسيحية.

ومن هنا يقرر الفكر اليهودي أن الجنة على الأرض، وأن كل ثواب وعقاب في الدنيا، وأن الجنة الأرضية خاصة بهم دون شعوب الأرض.

وفي دائرة المعارف العبرية: يقرر كوهلر: « إن اليهودية ليست عقيدة أو نظاماً من العقائد يتوقف مع قبولها الفداء أو الخلاص في المستقبل، ولكنها نظام للسلوك البشري ». ومن هنا لا تتكلم اليهودية عن الآخرة. والبعث والحساب، ولا تشير اليهودية إلى حياة أخرى بعد الموت، ولم يرد في دينهم شيء عن الخلود وهم يرون (الجزاء حسب الأعمال لا حسب الاعتقاد). وبذلك تبدو عظمة الاسلام الجامع بين العقيدة ومنهج الحياة. من ناحية، وبين الحياة الدنيا، والحياة الأخرى.

**(ثالثاً): « الإله ».**

أما الإله الذي اختاره اليهود فهو « يهوه » إله يعلو البشر كله لحساب إسرائيل، وهو إله الحرب، ورب الجنود، وبنو إسرائيل شعبه المختار، الذي من أجله سيفني جميع الأمم. وإن سائر مدن الأرض تصبح يبابا وخرابا، وتنضب مياهها. ولقد كانت سمة القتل واستباحة أعراض النساء من أبرز مفاهيم الفكر اليهودي المعارض للدين الحق الذي أنزل على موسى.

وتحفل أسفار العهد القديم (يوشع ـ صمويل ـ الملوك) بمئات الألوف من الرجال والنساء والأطفال الذين ذبحوا، والمدن التي خربت، والحيوانات التي لم تسلم من غضب اليهود [1].

---

(١) أحمد حسين: الاسلام ورسوله بلغة العصر.

وفارق كبير بين إله إسرائيل، والله الحكيم العليم، الرحمن الرحيم الذي يغفر الذنوب جميعاً، والقريب الذي يجيب دعوة الداعي إذا دعاه.

ويصور ول ديورانت مفهوم اليهود في الإله فيقول: يبدو أن اليهود الفاتحين (لفلسطين) عمدوا إلى أحد آلهة كنعان فصاغوه في الصورة التي كانوا هم عليها وجعلوا منه إلهاً صارماً ذا نزعة حربية صعب المراس. وهذا الإله لا يطلب من الناس أن يعتقدوا أنه عالم بكل شيء. كذلك لا يعتبر نفسه معصوماً من الخطأ. ويرى أن أشنع ما وقع فيه من الأخطاء، هو خلق الإنسان. ولذلك تراه يندم بعد فوات الوقت على خلق آدم، وعلى ارتضائه أن يكون شاول ملكاً. وتراه من حين لآخر شرهاً غضوباً متعطشاً للدماء متقلب الأطوار، نزقاً نكداً.

ويشير بعض الباحثين إلى أن أبرز ما أصابته اليهودية من تزييف هو عقيدة التشبيه، وهي مشابهة الإله للإنسان.

**(رابعاً)**: فكرة السيطرة على العالم. يمكن القول إن هذه الفكرة مما حرفه اليهود في العهد القديم عن نبوءة لنسل ابراهيم الذي يجمع بين أبناء إسماعيل وإسحاق عن الانتشار والاتساع في هذه المنطقة التي ساح فيها إبراهيم من العراق إلى الشام إلى مصر إلى الجزيرة العربية. غير أنهم زيفوا هذا المعنى وقصروه على اليهود وحدهم. بينما إبراهيم في التاريخ الصحيح هو أبو اليهود والعرب والنصارى والمسلمين جميعاً.

ومن جرائر هذا التحريف ما حاولوه في دوائر المعارف الحديثة. وخاصة دائرة المعارف الإسلامية من إنكار رحلة إبراهيم إلى الجزيرة العربية، ومن حديث عن إسماعيل وإعادة بناء الكعبة.

ومن خلال هذا المفهوم تشكلت الفكرة الصهيونية القائلة بالسيطرة على

العالم، وإخضاعه لليهود، ودعوة البروتوكولات إلى تدمير قيم المجتمعات توطئة لاحتوائها.

ومن خلال هذا المفهوم تتكشف شهـوة المال والجشـع وتعـاطـي الربـا، وتنكشف طبيعة الأثرة والقسوة التي عرف بها اليهود على مدى التاريخ. وقد كانت بضـاعتهـم هـي جمع رؤوس الأمـوال، وإقـراض النـاس، وإفسـاد عقائدهم. وقد وصف حكيم جورجي اليهود بأنهم سيف ذهبي مشهور على رأس أوروبا مهد المسيحية.

ولقد صور القرآن الكريم في وضوح عدوان اليهود واجتراءهم على الله وافتراءهم وتشويههم للعقيدة، وجرائمهم ضد البشرية، وسجل عليهم الزيغ والانحراف. وما يزالون سلطاناً مسلطاً على العالم وسيف نقمة على الأديان والإنسانية جميعا.

# الباب الثالث

# الفلسفة اليونانية

(١) أصول الفلسفة اليونانية
(٢) محاذير الترجمة وأخطارها
(٣) حقيقة دور اليونان
(٤) المدرسة الفلسفية الإسلامية
(٥) مواجهة الفلسفة اليونانية
(٦) وجوه التعارض بين الفلسفة اليونانية والفكر الإسلامي
(٧) منطق الفكر الإسلامي
(٨) للمسلمين ميتافيزيقاهم
(٩) منهج البحث التجريبي الإسلامي
(١٠) ما قدمه الإسلام: الحكمة وليس الفلسفة
(١١) كلمة الفصل في الفلسفة اليونانية

إن نظرة واحدة إلى أصول الفلسفة اليونانية تحكم حكماً جازماً بأن هناك تعارضاً عميقاً في الجذور الأساسية لكلا الفكرين: الإسلامي والهليني.

# الفصل الأول

## أصول الفلسفة اليونانية

ماذا كان مفهوم اليونان للكون والطبيعة الذي شكل فلسفتهم.

لا ريب أن استعراض مفهوم اليونان الذي شكل فلسفتهم يكشف في وضوح عن الفوارق البعيدة بينه وبين مفاهيم الإسلام مما يصل إلى درجة التباين والتغاير.

**( أولاً )**: كانوا يعتقدون بوجود آلهة متعددة تسكن فوق السحاب، وعلى قمم جبل الأولمب في اليونان. وكان كل إله مختصاً بنوع من الظواهر الكونية، فالشمس وشروقها ومسيرها نحو المغيب من فعل الإله أبولو. وهطول المطر من فعل الإله جوبيتر.

وهناك آلهة للحب والجمال والحكمة والحرب. وهذه الآلهة لا تتورع عن الشر والحسد والغيرة والصراع على ملذات الحياة. وكان جوبيتر إله الآلهة يستخدم سلطته في سبيل أهوائه، وكان ينتحل صور الآلهة الأخرى، لكي يخدع فريسته، ويجرها للوقوع في الفخ. وقد أقاموا لهذه الآلهة هياكل وتماثيل.

والإله عند أرسطو هو المحرك الذي لا يتحرك وهو عقل محض.

**( ثانياً )**: كان الفكر اليوناني فكراً نظرياً شكلياً قائماً على التأمل الذهني الخالص. وقد وقف عند حدود المنطق القياسي الشكلي.

**( ثالثاً )** : يرتكز المثل الأعلى اليوناني على أن الإنسان هو مقياس كل شيء في هذا العالم، ومن هنا كانت عبادة الفرد وعبادة الأجساد. ومن هنا توجهت عنايتهم إلى الإعجاب بالجسم الإنساني، والاحتفال بالأجساد العارية، وأعطوا الآلهة هذا الجسم، وقامت مفاهيمهم على تمجيد وتأليه الجمال الجسدي.

**( رابعاً )** : إيمان الفلسفة اليونانية بالعقل وحده، حتى لقد ذهبت الفلسفة الإغريقية في تقديس العقل إلى حدّ تكذيب ما لا يتفق معه ولو أيده الحس، فالمنطق أصدق من الواقع (١).

**( خامساً )** : دعا أفلاطون إلى مشاعية النساء فقال في جمهوريته: « يجب أن يكون النساء بلا استثناء أزواجاً مشاعاً لأولئك الحكام، فلا يخص أحد نفسه بإحداهن. وكذلك الأولاد يكونون مشاعاً، فلا يعرف والد ولده، ولا ولد والده ».

**( سادساً )** : إقرار المجتمع العبودي الذي يقوم على طبقة السادة وطبقة العبيد مع التفرقة الواضحة بينهما. ومع استحالة ارتقاء أحد من العبيد إلى طبقة السادة. وقد حبذ أرسطو في كتابه: نظام الأثينيين الرق ودافع عنه، ودعا إليه وأكد أنه لا سبيل إلى ملاشاته.

**( سابعاً )** : إقرار الحرية الجنسية، وخاصة ما يتصل بالشذوذ الجنسي، واحتقار جسد المرأة، وإعلاء جسد الرجل. وقد كانت دعوة سقراط التي قتل من أجلها هي تحرير هذا المفهوم الذي ترك ظله العميق على الحضارتين اليونانية والرومانية. فقد استولى الشذوذ الجنسي على الحضارة الإغريقية كلها مئات السنين، ولم يكن يستنكره أحد، وكان سقراط يرى أن المرأة هي حسّ

---

(١) راجع عبد الرحمن مرحبا.

فقط، وجنس فقط. وقد استبعدها من دنيا الحياة العقلية.

ولا شك أن هذه المفاهيم جميعاً تتعارض مع مفاهيم الإسلام الذي تشكل عليها منذ اليوم الأول لظهور دعوته، واستكمل شريعته قبل التحاق الرسول بالرفيق الأعلى، كما استكمل منهجه قبل الاتصال بالفلسفة اليونانية.

ومن هنا كان ذلك الجهاد العجيب الذي واجه الفكر الإسلامي به مقررات الفلسفة اليونانية، حتى أولئك الذين حاولوا صياغة الفكر اليوناني داخل إطار الإسلام. فقد كانت محاولتهم واضحة الاضطراب والقسر والتأويل، وأنها لم تجد سبيلا صحيحاً للالتقاء بين فكرين هما ضدان على الأرجح في المقررات الأساسية التي تتصل بالتوحيد والإله. وبالمثل الأعلى، وبالمجتمع والنظرة إلى المرأة، وقضايا الحس والنظرة إلى العقل.

ولا شك أن [1] الفلسفة اليونانية تعبر تعبيراً دقيقاً عن المجتمع اليوناني العبودي، وانقسامه إلى سادة يتأملون، وعبيد يعملون. الساده هم الصورة، والعبيد هم المادة، وعلى رأس هؤلاء إله يحرك، ولكنه لا يتحرك. فالفكر الإسلامي لم يقر النظرة اليونانية: نظرة التأمل والمنطق القياسي الشكلي، ولكنه بحكم دعوة القرآن الكريم إلى النظر في الكون جاوز المسلمين هذه المرحلة إلى التجريب العلمي. من خلال التطبيق والتشريح. ومن هنا اتجه العلماء المسلمون إلى اكتشاف الأحماض والممارسة العملية

وكان ذلك خروجاً وتجاوزاً عن الفلسفة اليونانية، ومفهوم أرسطو. ومن هنا اهتدى المسلمون إلى المنهج التجريبي الإسلامي. وبالإضافة إلى هذا. فقد شكل الإسلام مجتمعاً موحداً معارضاً تمام المعارضة في مفاهيمه وتشكيله لنظرية المجتمع العبودي اليوناني. وإذا كانت الفلسفة هي نتاج المجتمع، فإنه

---

(١) الدكتور سامي النشار

من الاستحالة أن يتقبل هذا المجتمع القائم على الإخاء والمساواة مفهوم الفلسفة اليونانية ومنطقها العبودي.

ومن هنا رسمت مقررات الفكر الإسلامي فلسفة أخرى تختلف في مقاييسها ومنطقها عن الفلسفة اليونانية العبودية.

وفي مجال العقائد، كان الاختلاف أشد عمقاً ووضوحاً، فالإسلام أقام مفهوم التوحيد الخالص الذي لا يعترف بتعدد الآلهة. ولا بالثنائية أو التثليث، أو إعلاء شأن الأبطال، ورفعهم إلى مصاف الآلهة، أو أنصاف الآلهة، وله في البطولة مفهوم واضح[1].

أما الإنسان في الفكر الإسلامي فهو أعظم المخلوقات حقا. ولكنه قائم تحت حكم الله، فهو ليس السيد المطلق، ولكنه سيد الكائنات فحسب، ولذلك فهو عابد، وليس معبوداً، وأعماله هي مصدر تقديره. والحكم عليه، ليس لونه أو شكله أو جسمه. وقد ارتفع الإسلام عن عبادة غير الله، وعلا عن عبادة البطولة أو الأجساد، وحرر الإنسان من الوثنية والإباحة جميعا، فرفض مشاعية النساء، وحطم الشذوذ الجنسي، وأعطى العقل مكانه الصحيح جناحاً من أجنحة المعرفة، وليس كل شيء، وأكمل وجوده بالوحي والبصيرة.

وبعد فإذا كانت أصول الفلسفة اليونانية تكشف عن التباين الواضح بينها وبين مفاهيم الإسلام. فإن أمراً آخر هو أشد خطراً، ذلك هو زيف الترجمة نفسها، وما اتصل بها من محاذير.

---

(١) راجع كتابنا (الشبهات والأخطاء الشائعة).

# الفصل الثاني

## محاذير الترجمة وأخطارها

**( أولاً )** : حركة الترجمة :

كان هدف حركة الترجمة إسلامياً أصيلاً ، ولكنه انحرف في المرحلة الثانية . فقد كان الغرض أساساً هو : استقصاء التراث العلمي للأمم القديمة . ولذلك فقد عمدوا إلى الفلسفات الطبيعية والرياضية ، وأعرضوا عن نقل :

( ١ ) ـ الآثار الدينية .
( ٢ ) ـ الملاحم والأساطير والتاريخ والفنون .

ولذلك فقد رفض العلماء المسلمون ثنائية أرسطو ، وأعرضوا عن مفهوم قدم العالم ، وجرى علمهم أساساً في إطار التوحيد الذي هو المنطلق الأساسي للفكر الإسلامي ، وكانت فكرة التأهب والحرص واضحة منذ اللحظة الأولى في القدرة على مواجهة كل ما يتعارض مع أصول الفكر الإسلامي .

وكشفت اللغة العربية عن اقتدار بعيد المدى في استيعاب هذه العلوم ، وتمخضت عن مصطلحات أصيلة . وكانت نظرتهم العلمية الواضحة هي الإعراض عن كل ما يتصل بالعقائد والأدب والفن ، والاقتصاد على ترجمة العلوم وحدها . فالآداب اليونانية كانت تقوم على الأساطير والخرافات ، وهي مبنية على الإلحاد والإباحية مما كان يستهجنه الذوق العربي ، ولا يقبله . ولذلك أعرض علماء المسلمون عن ترجمة هذه الفنون .

أما في الموجة الأخيرة فقد ترجمت هذه الألوان المتصلة بالعقائد والآداب والفنون من الفلسفة اليونانية والفلسفة الغربية الحديثة على السواء ، دون تقدير

لأثرها. ومع احتجاب العلوم التي كانت أولى بالترجمة.

ومن هنا فالمعروف أن الإلهيات والأخلاق لم تترجم إلا في أيام المأمون، وأن حركة الترجمة منذ خلافة أبي جعفر المنصور حتى وفاة هارون الرشيد (١٣٦ - ١٩٣) كانت مقصورة في الأغلب على الكتب الطبيعية والمنطق والهندسة. أما في أيام المأمون فقد بدأت مرحلة الخطر التي تجاوزت المنهج الذي كان مرسوماً لحركة الترجمة. ومن هنا ترجمت إلهيات اليونان، وعقائد الفرس، وأفكار الصوفية الهندية، وبدأت تظهر هذه المحاولة الخطيرة التي تبناها المأمون في آخر أيامه، وهي فتنة خلق القرآن.

**( ثانياً ) :** أخطاء الترجمة.

ولقد تأيد نتيجة المراجعات الكثيرة أن الفلسفة اليونانية التي نقلت إلى العربية، قد قام بترجمتها النساطرة الذين استعانوا بها في تأييد المسيحية، وأنها ليست هي الفلسفة اليونانية الأصيلة، وإنما هي فلسفة لعبت بها النصرانية، وعبثت حتى شوهتها، وبعدت بها عن أصلها اليوناني. وقد أثبت ذلك إسماعيل مظهر في كتابه (تاريخ الفكر العربي). حيث قال: إن النساطرة من النصارى لما اضطهدهم قياصرة الروم انتشروا في قلب آسيا، وبلاد العرب ينشرون المسيحية بين أهلها، وبخاصة مذهبهم في طبيعة المسيح الذي اضطهدوا من أجله. وقد وجدوا في فلسفة أرسطوا أكبر نصير لهم، وقد كشف الجاحظ عن هذا المنحنى الخطير، وأشار إلى ما أحدثه النساطرة من تحويل الفلسفة اليونانية إلى ملتهم، كما شهد بذلك الإمام أبو الحسن علي المسعودي صاحب كتاب «مروج الذهب» حين قال «لم تزل العلوم قائمة السوق قوية المعالم، حتى أن تظاهرت ديانة النصرانية في الروم فعفوا معالم الحكمة، وأزالوا رسمها، وطمسوا ما كانت أبانته، وغيروا ما كانت القدماء أوضحته.

كما ذكر محمد بن إسحاق (ابن النديم) في كتابه (الفهرست) أن الفلسفة كانت ظاهرة في اليونان والروم قبل شريعة المسيح، فلما انتصرت الروم منعوا بعضها، وأحرقوا بعضها، وخربوا البعض، ومنعوا الناس من الكلام في شيء من الفلسفة.

ومعنى هذا أن العرب والمسلمين لم يخدعوا بتزوير تراجمة النصارى للفلسفة اليونانية إلا ما كان من أوليائها: كالفارابي وابن سينا. هؤلاء هم الذين بذلوا جهدهم في نشرها بين المسلمين، فلم ينخدع بهم أحد من جمهور المسلمين، وكانوا بين فئتين: فئة رفضتها جملة (الإلهيات والطبيعيات - والرياضيات) وفئة قبلت الصحيح من علومها الطبيعية والرياضية، ورفضت الإلهيات التي شوهها النساطرة.

وقد أشار (باول كراوس) إلى أن حنين بن إسحاق ترجم أفلاطون إلى اللغة السريانية، وقام تلميذه عيسى بن يحي بالترجمة الى العربية من عير أن يستطيع الرجوع إلى الأصل اليوناني. إذ كان لا يعرف اليونانية. وفي بعض المواضع لم يفهم النص السرياني الصحيح الذي كان أمامه.

★ ★ ★

١ - أشار الكثير من الباحثين إلى فساد النقل، وأشاروا إلى أن «الانتحال» كان بضاعة رائجة عند القدماء في القرون الوسطى على السواء، وأثبتوا أن هناك كتباً نقلت إلى العربية باسم أفلاطون. وهي ليست له، وأخرى باسم أرسطو وهي ليست له. ومن الكتب المنسوبة لأفلاطون كتاب الروابيع.

ومن المنسوب لأرسطو كتب: التفاحة الربوبية - الإيضاح - سر الأسرار. أما كتاب (الربوبية) المعروف باسم أثولوجيا أرسطاليس، فليس إلا مقتطفات من تاسوعات أفلوطين، جمعها مؤلف سرياني قديم. أما كتاب

(الإيضاح) فهو نصوص مقتبسة من كتاب الإلهيات لأفروقلوس[1] وكتاب الربوبية جمعه مؤلف سرياني مجهول، وترجمه إلى العربية عبد الملك بن ناعم الحمصي المتوفي سنة ٢٢٠ هـ ـ وأصلح الترجمة فيلسوف العرب الكندي.

«ونجد في هذا الكتاب مذهب الأفلاطونية الحديثة ممزوجاً بتعاليم الاسكندر الأفروديسي، وقد تلقاه المسلمون على أنه لأرسطو. ومن ثم فقد حدث لديهم خلط كبير بين مذاهب أرسطو وأفلاطون وأفلوطين بالإضافة إلى مذاهب الشراح، ونشأت مشائية إسلامية مزعومة يظن أصحابها أنهم تابعون لأرسطو، وحقيقة الأمر أنهم أتباع الأفلاطونية المحدثة[2]».

ومن العجيب أن هذه الكتب المنسوبة لأفلاطون وأرسطو، وهي ليست لها. كان لها تأثير كبير في الفكر الإسلامي.

٢ ـ وقد وجهت إلى بعض النقلة اتهامات خطيرة أبرزها التبشير بأديانهم. أو الكسب بترجماتهم جرياً وراء المال لاحباً بالعلم.

وهناك إجماع على أن «أكثر هؤلاء النقلة لم تكن غايتهم البحث عن الحقيقة، فهم إذ كان جلهم من النصارى النساطرة أو اليعاقبة. فقد كان شغلهم الشاغل، وأكبر همهم الدعوة إلى شيعتهم، وتزيين أهوائهم الدينية. ولذلك يغيرون ويبدلون في النصوص التي بين أيديهم خدمة لأغراضهم الدينية وعقائدهم المذهبية، ويتصرفون فيها بالزيادة والحذف تبعاً لأهوائهم، ونصرة لمذاهبهم. وقد أكد هذا أكثر من باحث من أولياء الفلسفة اليونانية أنفسهم.

ويشير الدكتور عبد الرحمن مرحبا، على ما به إجلال للفلسفة اليونانية إلى

---

(١) من الفلسفة اليونانية ـ الدكتور محمد عبد الرحمن مرحبا.

(٢) راجع بول كراوس ـ أفلوطين عبد الغرب.

هذا المعنى فيقول بالنص: « إن الترجمة من لغة يونان إلى العبرانية. ومن العبرانية إلى السريانية. ومن السريانية إلى العربية. قد أخلت بخواص المعاني في ابداء الحقائق إخلالاً لا يخفى على أحد، كانت الترجمات تكسباً للمال لاحبّاً بالعلم، بالإضافة إلى استغلال الترجمة في الدعوة إلى نحلتهم ونصرة مذاهبهم».

هذا فضلاً عما عرف من محاذير الترجمة التي كانت تجري على ثلاث مراحل من اليونانية إلى العبرانية، ثم من العبرانية إلى السريانية، ثم من السريانية إلى العربية. وأن هذه الترجمة في ذاتها لم تكن من الدقة بحيث تؤدي غايتها. بل لقد وصفت في أغلب المصادر بأنها أخلت بخواص المعاني في إبدا الحقائق [1].

والمعروف أن القسم الأول من النقلة كانوا من السريان. وأن الأقل القليل كانوا من اليهود. وقد نقلوا ما نقلوه، إما عن التراجم السريانية القديمة أو تلك التي أصلحها السريان. وإما عن اللغة اليونانية مباشرة [2].

★ ★ ★

وهناك رأي آخر يؤكد أن المترجمين السريان لم يكونوا يعرفون اللغة اليونانية القديمة، بل كانوا يعرفون لغة تجمع بين الفصحى والعامية. ومن كان يعرفها لا يصل في ثقافته إلى التمكن من فهم الفلسفة بلغة أرسطو أو أفلاطون بخاصة وهو أصلا عاجز عن إدراك الفلسفة نفسها.

ويؤكد هذا المعنى ما ذهب إليه الدكتور عمر فروخ الذي أشار إلى أن اللغة اليونانية كانت لغة ثانوية في ثقاقة هؤلاء النقلة، وأن الكتب اليونانية في الفلسفة خاصة لم تصل إلى العرب على النحو الذي كانت عليه أيام مؤلفيها، وإنما وصل إليهم شروح على تلك الكتب، شروح زاد فيها أصحابها،

---

(١ و ٢) نفس المصدر ـ مرحبا ـ من الفلسفة اليونانية

ونقّصوا وبدلوا أيضاً. فقد أضاف الناقلون أشياءهم جهلاً ونقصاً.

كما أشار الدكتور عمر فروخ إلى أن عملية النقل من اليونانية إلى العبرية إلى السريانية إلى العربية، زادت التشويه في تلك النقول اتساعاً وخطراً (١).

ويرد الدكتور فروخ اضطراب الترجمة إلى أن معظم الناقلين كانوا نصارى (يعاقبة ونساطرة) وكان تعصبهم الديني فوق أمانتهم العلمية، من أجل هذا كان هؤلاء يحرفون من الأصول التي بين أيديهم ما كان مخالفاً في رأيهم للنصرانية، ثم كان أهل كل فرقة من النساطرة أو اليعاقبة يتصرفون فيما بين أيديهم، يزيدون وينقصون في النصوص، او يبدلون فيها ميلاً مع اهوائهم، ونصرة لمذهبهم. كذلك كانت معرفة هؤلاء باللغة اليونانية قاصرة، فوقعوا في أخطاء لغوية بدلت المعاني قليلاً أو كثيراً فوق ما كان قد تبدل منها عن عمد من قبل، فترك ذلك غموضاً في عدد من المواضع.

★ ★ ★

ولا ريب أن تعدد الوثائق حول هذا المعنى من شأنه أن يدحض كل شبهة في وجه القول بأن الفلسفة اليونانية التي وصلت الى المسلمين كانت فلسفة زائفة، وأن المترجمين لها كانوا غير أمناء علمياً، ولم يكونوا على أي قدر من خلق العلماء فهماً أو ضميراً.

ويضيف خليل الجر في كتابه (منقولات أرسطو في العقول السريانية العربية) بالفرنسية أسباباً أخرى. منها قصور اللغة السريانية عن أداء المعاني اليونانية. لأن خصائص اللغة اليونانية تختلف، ثم يقول إن الذين تولوا نقل كتب الفلسفة إلى العربية كانوا في ذلك كله أشد قصوراً، وانهم كانوا لا

---

(١) عمر فروخ ـ العرب والفلسفة اليونانية.

يملكون نصوصاً خالصة لكتب أرسطو بل ـ على حد قول خليل الجر ـ نصوصاً مشوهة.

ومن ثم فقد وجد المسلمون أمامهم نصوصاً مشوهة من كل جانب وآراء منحولة في كل باب. قوامها التناقض والتلفيق. ويزيد هذا خطراً أنهم وثقوا في ترجمات السريان ومترجيهم، ومن هنا فقد وقعوا في محاذير غاية في الخطر حملتهم على التأويل لنصوص زائفة حتى في نسبتها إلى أصحابها.

ويشير الدكتور عمر فروخ إلى « فلسفة الفارابي » ويصفها بأنها الفلسفة المستغلقة الكثيرة التناقض، ويرد ذلك إلى جهل النقلة السريان باللغة اليونانية أحياناً وقلة أمانتهم في النقل.

ويقول: إن هؤلاء الناقلين اتخذوا من ثقة العرب في ائتمانهم على التراث الفلسفي وسيلة للدعوة إلى نصرة مذاهبهم وتزيين أهوائهم الدينية.

ويؤكد الدكتور فروخ: أن أخطاء النقلة السريان (المقصودة والعفوية). كانت في الفلسفة الماورائية خاصة أكثر منها في العلوم الرياضية والطبيعية.

٣ ـ ظهرت في مرحلة الترجمة موجة ضخمة من المعارضة في نقل كتب الفلسفة، وكان قوام رأيها أن هذه الفلسفة قد ظهر بطلانها بالإسلام، وأن بطلانها يرجع إلى أنها وثنية المصدر، وأنها نظرية بحتة، بينما كان مفهوم الإسلام قائم على التوحيد، وعلى النظرة العملية.

وقد أكد هؤلاء العلماء الشبهات التي لحقت برواد الترجمة بعد النساطرة أمثال: سرجيس، والرهاوي، وحنين بن إسحاق. وإسحاق بن حنين، ومتى ابن يونس، ويحيى بن عدي من أنهم أولوا المترجمات تحريفاً لصالح المسيحية.

٤ ـ يمكن القول بأن أكبر محاذير الترجمة وأخطارها قد تمثلت في أمور ثلاثة:

**أولاً :** الكتب المنحولة .

**ثانياً :** فساد الترجمة فنياً .

**ثالثاً :** تحريف النصوص خدمة لهدف آخر .

وقد أحدث هذا آثاراً بعيدة المدى ، يمكن أن نتصورها من خلال تجربة الفيلسوف الفارابي الذي وقع في اضطراب خطير نتيجة واحد من هذه المؤلفات المنحولة ، وهو كتاب أثولوجيا أرسططاليس المعروف بكتاب الربوبية وهو ليس له ، ولكنه منقول من أفلوطين .

ففي كتابه (الجمع بين رأي الحكيمين: أفلاطون وأرسطو) أورد آراء لأرسطو تعارض آراء أخرى له ، نتيجة هذا المصدر ، وكان عليه أن يحاول التوفيق بين الآراء المتعارضة رغما منه ، لأنه لا يعقل أن فيلسوفاً كبيراً كأرسطو يناقض نفسه .

يقول الأستاذ محمد علي أبو ريان: والحقيقة أن الفارابي كان يعارض بين نصوص تلقاها من كتاب الحروف (الميتافيزيقا) لأرسطو ونصوص أخرى تلقاها من كتاب (أثولوجيا أرسطاليس) والأولى نصوص حقيقية لأرسطو . أما الثانية فهي ليست له ، ولم يكن الفارابي على علم بذلك ، فأخذ يحتال في تعسف للتوفيق بين الآراء المتناقضة .

ثم انه كذلك يقرأ لأرسطو نقداً شديداً موجهاً لنظرية أفلاطون في المثل ، ثم يجد موافقة منه لهذه النظرية في كتاب الأثولوجيا المزعوم ، فيحتال للتوفيق بين الرأيين على ما بينهما من خلاف شديد .

# الفصل الثالث

## حقيقة دور اليونان

إن محاولة اليونان الادعاء بأنهم أبدعوا فلسفتهم دون أن يتأثروا فيها بأحد قول تنقصه كل الأدلة. فقد جاءت حركتهم بعد نزول الأديان والكتب السماوية، وكلها تحمل من أسباب المعرفة ما يهدي الإنسانية إلى الحق. هذه الأديان التي وضعت في الأرض الحقائق الكبرى للتوحيد والحق والعدل، غير أن البشرية لم تلبث أن صارعتها دعوات الإلحاد، والإباحة والشك، فانقسمت إلى فريقين. وعلت دعوات الإلحاد والإباحة في مناطق كثيرة من العالم، ونمت مفاهيمها، واستخدمت أساليب عديدة في الدعوة إليها، ومنها إعلاء العقل وإطلاق الحرية.

والقول بأن الفلسفة اليونانية فريدة في بابها قول مردود، فقد كانت الفلسفات المصرية والبابلية والآشورية، قد سبقت إلى مثل ما دعت إليه الفلسفة اليونانية، والتي ورثت فكر بابل والفراعنة الذين سبقوها بأكثر من ألف وخمسمائة عام. غير أنهم استطاعوا في ذكاء ومهارة أن يصوغوا هذه المفاهيم في أساليب جديدة براقة. وقد أنكر كثير من الباحثين دعوى أن اليونان سبقت العالم في هذا المجال، فقال جورج سارطون في كتابه: تاريخ العلم: « من سذاجة الأطفال أن نفترض أن العلم قد بدأ في بلاد الإغريق. فقد سبقت اليونان آلاف الجهود العلمية في مصر وفي بلاد ما بين النهرين وغيرهما من الأقاليم، والعلم اليوناني كان إحياء أكثر منه اختراعاً. وقد سبق اليونان المصريون والكلدانيون والفرس ».

ويقول ول ديورانت في كتابه: « قصة الحضارة. جـ ٢ ». إن ما ورثه

اليونان من الحضارات أكثر مما أبدعوه، وكانوا الوارث المدلل المغترف لذخيرة من الفن والعلم مضى عليها ثلاثة آلاف من السنين، وجاءت إلى مدائنهم مع مغانم التجارة والحرب.

وقد صاغ عبد الرحمن مرحبا هذا المعنى في عبارة هي فصل المقال حين قال: أقبل اليونان على أصول حضارة سبقتهم ينهلون ما وسعهم أن ينهلوا. إذ لم ينشئوها إنشاءً. وإنما هي وليدة أقطار سابقة مرت بمراحل متعددة من التلاقح والتفاعل والتطور حتى تمخضت عنها تلك الخلاصة.

# الفصل الرابع

## المدرسة الفلسفية الإسلامية

كان هدف المدرسة الفلسفية الإسلامية وضع نظرية تامة للميتافيزيقيا من خلال الربط بين العقل والدين، والفلسفة والوحي. وقد حرصوا فعلاً على جذر التوحيد كأساس لنظريتهم، وهي محاولة خرج بها هؤلاء عن مفهوم الإسلام نفسه، ولكنها عجزت عن أن تحقق شيئاً، وعلت عليها موجات الفكر الإسلامي الأصيل.

ولقد عاودت هذه المحاولة نفسها في العصر الحديث، عندما حاول بعض المفكرين دراسة الإسلام من خلال الفلسفة، وقد واجهوا نفس المصير.

ذلك أن هناك منهجاً قرآنياً. قوامه الفطرة، ومنطلقه أسلوب المعرفة الإسلامي الذي يمزج بين العقل والقلب، وهو المنطلق الوحيد لتكوين مفهوم إسلامي صحيح لمختلف الجوانب من عقيدة وشريعة وأخلاق.

وأن أي أسلوب غيره قد يخطو خطوة أو خطوتين، ثم لا يلبث أن يتعثر لأنه مخالف لطبيعة تركيب الإسلام ومنطلقه القرآني الخالص.

لقد رفض الفلاسفة المسلمون القدامى ثنائية أرسطو، ومفهومه في قدم العالم، وحاولوا بعد ذلك صهر مفهوم الفلسفة اليونانية داخل إطار توحيد الله، وتنزيهه عن ملابسة المادة، ولم يقفوا عند أرسطو وحده. بل حاولوا الربط والتوفيق بينه وبين أفلاطون وأفلوطين والرواقيين.

وحينما رسم الفارابي مدينته الفاضلة. كان طابع الإسلام واضحاً عليها، ومخالفاً كل المخالفة لجمهورية أفلاطون في أبرز مفاهيمها. مع التحفظ على

تبعيته وباطنيته هو وابن سينا.

ولكن الثمرة التي وصل إليها الفارابي وابن سينا والكندي، كانت ثمرة معطوبة لم تزد عن أن تكون شرحاً مشوهاً للمذاهب الفلسفية اليونانية، مع محاولة التأليف بينها وإدخالها في إطار التوحيد الذي يضادّها مضادّة كاملة للخلاف الجذري في توحيد الله، وفي الإقرار بالألوهية والنبوة، والبعث.

★ ★ ★

ومهما يكن من إعجاب الفلاسفة الاسلاميين بالفكر الإغريقي، فإنهم لم يقبلوا كل ما قدمته الفلسفة اليونانية. بل بدلوا فيه، وعارضوه، وعارض ابن سينا رأي أفلاطون في النفس، وكشف جابر بن حيان والجاحظ كثيراً من أخطاء أرسطو.

★ ★ ★

بدأت الفلسفة من نظرة المعتزلة، بالكندي الذي قال بالعدل والتوحيد، والكندي يمثل الانتقال من علم الكلام إلى الفلسفة، ثم جاء الفارابي فحاول الجمع بين أرسطو وأفلاطون من ناحية، وبين منطلقات الفلسفة اليونانية وتوحيد الإسلام من ناحية، ثم جاء ابن سينا فأعلى من شأن الجوانب الأفلاطونية القائمة على الإشراق وغيره.

ولقد خالف الفلاسفة المسلمون الفلسفة اليونانية في أمور كثيرة، وفرق الفارابي بين النبي والفيلسوف. وحين رسم مدينته الفاضلة، جعل المنطلق الإسلامي أساسها، وعوّل كثيراً على الخليفة، وخالف جمهورية أفلاطون في أغلب مفاهيمها. وحرص الفلاسفة المسلمون على توحيد الله وتنزيهه عن المادة، وإعلائه سبحانه عن الثنائية التي وقع فيها أرسطو في المقابلة بين الله والمادة الأزلية

وجرى الفلاسفة المسلمون شوطاً مع بعض وقائع الفلسفة اليونانية. لكنهم

حرصوا على التوحيد والتنزيه، وأكدوا أن الإسلام في جوهره إقرار لله بالتفرد والوحدانية والهيمنة على الكون، وأقروا النبوة التي يهبها الله لمن يشاء من عباده. ومع هذه المحاولات كلها، فإن هذه التجربة بكاملها قد فشلت فشلاً ذريعاً في أن تربط نفسها بالفكر الإسلامي، لأنها لم تنطلق أساساً من قيمه وأسسه، وإنما حاولت المواءمة بين الفلسفة اليونانية والفكر الإسلامي فصدمتها الجذور الأساسية الكبرى التي تكشف عن التباين الواضح بين التوحيد والوثنية.

وفي هذا قول أحد الباحثين: كانت الحضارتان الإسلامية واليونانية حضارتين مختلفتين تمام الاختلاف. فالأولى دينية موحدة. والثانية وثنية تقول بتعدد الآلهة.

إحداهما صادرة عن عقل إنساني يتناول قضايا الحياة والكون والطبيعة. والثانية: صادرة عن كتاب سماوي عظيم وضع للحياة والعقيدة أسساً راسخة. إذن لم تكن وجهة إحداهما هي وجهة الأخرى، لاختلافهما في الأصل والمنهج والغايات والوسائل. فلما التقتا وقع الصدام الذي كان من نتيجته شيوع الإلحاد والزندقة.

ومن هنا بدأت المعارضة، وكانت المعارضة نابعة من اختلاف القيم والمفاهيم. ومن جوهر المجتمع الإسلامي العربي نفسه في تشكيله القائم على المساواة ورفع قيود العبودية التي فرضتها الامبراطورية الرومانية، وأقرتها فلسفتها في أصولها، ودافع عنها أفلاطون وأرسطو. ومن هنا بدأ يظهر للمسلمين قصور مذهب أرسطو الشكلي. وبان عواره في أنه لم يهتم بالتجربة. أما المسلمون فكان منطلق فكرهم العمل والتجربة، وفرق بين المنهج النظري التأملي، ومنهج العمل والتجربة.

ومن شمول الإسلام وتكامله أنه قرر التأمل والتجربة معاً. وأنكر التفرقة

بينهما. كما ربط بين العقل والوحي معاً وأنكر فصلهما. ومن هنا انطلق تياران: تيار المواجهة للفلسفة اليونانية. وتيار بناء المنهج العلمي التجريبي.

أما تيار المواجهة للفلسفة اليونانية فقد حمل لواءه: ابن حنبل والشافعي والأشعري، ثم ابن حزم والغزالي وابن تيمية. ثم ابن خلدون من بعد. وكانت المعارضة تلتمس منهج القرآن كأساس ومصدر.

وترى أن منهج القرآن دعوة للعقل والقلب معاً. وأن الفلسفة اليونانية تأليه للعقل، مع قصوره عن الفهم إلا في دائرة محدودة.

أما منطلق المنهج العلمي فقد بدأه الشافعي بعلم الأصول. ورسم المسلمون بعد ذلك منهج المعرفة الإسلامي، وفي مقدمتهم ابن حزم. ثم اتجه المسلمون إلى المنهج التجريبي الذي برز في أعمال البيروني، وجابر بن حيان.

يقول الدكتور النشار: هذا الإتجاه إلى الكم والتجربة، كان خروجاً مباشراً على مفهوم أساسي من منطق أرسطو هو التعريف. فقد خرج المفكرون المسلمون عن المفهوم الأرسطي للحد والتعريف، وخاصة رجال الأصول والفقه، وانتهوا إلى نظرة جديدة للتعريف تقربه إلى حركة الواقع.

ونقد ابن خلدون قياس أرسطو وقال: إن الأقيسة المنطقية أحكام ذهنية ـ وكشف المسلمون الرابطة العلمية بين الأشياء كأساس للمعرفة العقلية. وعن طريق الرابطة العلمية بين الأشياء تقام التجارب وتتحقق النظرة الموضوعية إلى الظواهر الطبيعية، والاجتماعية على السواء.

وعلى أساس رابطة العلة فسّر ابن خلدون حركة التاريخ وتطور العلاقات البشرية، وعلى هذه الرابطة العلية أقام البيروني والرازي وجابر بن حيان وابن سينا تجاربهم.

هذا المنهج التجريبي القائم على التوحيد بين النظر والعمل هو فلسفة

الإسلام الحقيقية، وبهذه النظرة للكون والإنسان، اختلف الفكر الإسلامي اختلافاً كبيراً عن الفكر اليوناني المترجم وتناقض معه.

* * *

وبعد فإذا كانت الفلسفة الإسلامية المتابعة للهلينية اليونانية قد سقطت. فإن أعمال الفارابي وابن سينا في مجال العلوم الطبيعية والكيمائية والطب ما تزال حية تشهد لهم على المنطق الأصيل للفكر الإسلامي، وما يزال ابن رشد القاضي والفقيه قائماً على خلاف ابن رشد المتأثر بالفلسفة اليونانية.

# الفصل الخامس

## مواجهة الفلسفة اليونانية

إن الفكر الإسلامي بطبيعته الخاصة، وتشكيله المفرد، وذاتيته الخالصة القائمة على التوحيد، والرابطة بين العقل والوحي، كان متفتحاً أمام الفكر البشري كله، ولكنه كان قادراً في نفس الوقت على التماسك دون الانصهار في أي بوتقة، ومن هنا كان موقفه من الفلسفة اليونانية، واستحالته على التبعية أو الاحتواء فيها، وهي تتعارض مع مقرراته الأساسية، سواء في أصلها الوثني أو مجتمعها العبودي، أو إعلاء العقل، أو عبادة الجسد. هذا فضلاً عن أن الفلسفة التي ترجمت لم تكن هي الفلسفة اليونانية، فقد أصابتها محاذير كثيرة نتيجة فساد الترجمة، وانتحال الكتب، وتحريف النصوص خدمة لهدف التراجمة السريان.

ومن هنا فقد قامت المعارضة لها منذ اليوم الأول، وامتدت من خلال مختلف دوائر الفكر الإسلامي، خاصة بعد أن عجزت مدرسة الفلسفة الإسلامية عن أن تحقق شيئاً، ولم تلبث مدرسة الأصالة، وتصحيح المفاهيم، وتحرير القيم أن غلبت، واتسع نطاقها حتى أصبحت تمثل ضمير الفكر الإسلامي كله، وانعزلت الفلسفة، ومعها دعاوى إطلاق العقل كالمعتزلة وغيرهم.

وكانت هذه المعارضة مقدمة للشجب الكامل للمفاهيم الفلسفية اليونانية التي تتعارض مع أصول الإسلام، وخاصة التوحيد والنبوة والأخلاق، وتتعارض مع بناء المجتمع الإسلامي نفسه القائم على الأخوة. بينما قام المجتمع اليوناني الروماني على العبودية.

* * *

بدأ النزاع بين الإسلام والفلسفة اليونانية منذ اللحظات الأولى لحركة الترجمة، ولم تخمد جذوته إلا بعد أن بلغ أوجه بمنهج ابن تيمية في الكشف عن منطق القرآن، ومروراً بموقف الغزالي في مواجهة الإلهيات اليونانية ـ وموقف الإمامين الشافعي وابن حنبل من قبل.

يقول الدكتور النشار: لما جاء منطق أرسطو أكبر معبر عن روح اليونان لفظه المسلمون، ووصل الأمر إلى تكفير من يشتغل به، ولم يكن هذا الإعلان ناشئاً عن ضيق أفق أو تزمت مذهبي. وإنما كان إعلاناً صادراً عن روح الحضارة الإسلامية، وروح القرآن الإلهي الذي دعا إلى وضع منهج ومنطق مختلف في كل خصائصه عن منطق ارسطو روح الحضارة اليونانية ـ كما عمد الأصوليون من مدرسة الإمام الشافعي إلى نقض أصول منطق أرسطو.

## (١) ـ موقف الإمام أحمد بن حنبل

وكان موقف الإمام أحمد بن حنبل هو الصدمة الأولى التي واجهت الفكر الإسلامي نتيجة غلبة منطق اليونان في مجال العقائد، عندما اندفع المعتزلة إلى إعلاء العقل على النحو الذي دعا إليه الإغريق غير حاسبين حسابا للخلاف الجذري الواضح بين منهج الإسلام الجامع بين العقل والوحي، ومنهج الهلينية القائم على العقل وحده حتى إنه لينكر الحس في سبيل إعلاء المنطق الشكلي.

فلقد صمد الإمام أحمد بن حنبل ستة عشر عاماً في وجه صيحة «خلق القرآن» خلال خلافة المأمون والمعتصم والواثق حتى انجابت عن الفكر الإسلامي هذه الدعوة وانحسر خطرها، وعاد المسلمون مرة أخرى إلى مفهوم السنة، وكانت صلابة الإمام أحمد بن حنبل في مواجهة هذا التحدي مثلاً عالياً للصمود، فقد رفض قبول هذا «المنطلق» الذي لا يستمد مصدره من الإسلام، ولا من القرآن، وكانت كلمته الحاسمة: «القرآن كلام الله» فإذا جادلوه قال: اعطوني شيئاً من كتاب الله أو سنة رسوله. وقبل في سبيل ذلك

السجن والتعذيب والهوان، ووقف وحده بعد أن أقر العلماء والمشايخ والفقهاء بما فرضه المأمون، وكان معه ثلاثة تصدع اثنان منهم، ومات الثالث ـ وتركز التحدي كله في الإمام أحمد بن حنبل الذي صمد صموداً عجيباً. ووقف سداً منيعاً في محاولة إخراج هذه الأمة عن مقررات فكرها وطبيعته وفطريته إلى التفكير الفلسفي، وبذلك حسم الإمام أحمد بن حنبل موقفا خطيراً، واتجاهاً كان له ما بعده لو أنه هدم، وقد اعترف معاصرو ابن حنبل بأن صموده في الدفاع عن منهج القرآن الكريم إزاء مفاهيم الفلسفة اليونانية كان عظيماً، وأنه سد ثلمة كبرى كادت تحدث في الإسلام [1]

## ( ٢ ) ـ موقف الإمام الشافعي

ويجيء موقف الإمام الشافعي تابعاً ومكملاً لموقف «ابن حنبل» ويمكن القول إن الإمام الشافعي وضع لبنة ضخمة حين حقق المعنى الكبير الذي ربط اللغة العربية بالإسلام في مواجهة فكر الفلسفة في اللغة اليونانية. وحين كشف عن أن منطق أرسطو مو منطق اليونان. بينما علم الأصول الذي أقامه هو منطق الفكر الإسلامي ومنطلقه. وكان بذلك راسم أول خطوة لمنهج الإسلام العلمي وللمنهج العلمي التجريبي.

## ( ٣ ) ـ موقف الإمام الغزالي

عندما واجه الغزالي الفلسفة: أقر مفاهيم الفلسفات الرياضية والطبيعية، ولم يعترض إلا على الفلسفة الإلهية. وقد حارب الغزالي الفلسفية الإلهية، لأنها من وجهة نظر الإسلام أخطأت في ثلاث مسائل:

**( أولاً )**: القول بقدم العالم.

---

(١) أبو الحسن الندوي: رجال الدعوة والفكر.

**( ثانياً )** القول بأن الله لا يحيط علماً بالجزئيات، ولا يعلم إلا الكليات.

**( ثالثاً )** : إنكارهم بعث الأجساد.

أما الفلسفة الرياضية فقد أشار الغزالي إلى أنها تتعلق بعلوم الحساب والهندسة. وعلم هيئة العالم « وليس يتعلق شيء منها بأمور الدين نفياً أو إثباتاً. بل هي أمور برهانية، ولا سبيل إلى مجاحدتها بعد فهمها ومعرفتها »(١) وهنا يبدو أن رأي الغزالي في معارضة الفلسفة ليس على إطلاقه، وإنما هو قد فرق تفريقاً واضحاً بين الإلهيات والطبيعيات.

وقد عارض الغزالي ما يصطدم بالشرع، وركز هجومه على الفلاسفة الذين « جحدوا الصانع وزعموا أن العالم لم يزل موجوداً، وقالوا بقدم الأنواع الحيوانية » وهم الدهرية والزنادقة. وكذلك طائفة الفلاسفة الطبيعية الذين قالوا إن النفس تموت ولا تعود، وأنكروا الآخرة والثواب والعقاب. وعارض الغزالي مغالاة من أنكروا علوم الرياضيات، وما بني عليها من الظواهر الفلكية. وقال إن الطبيعيات ليس من شرط الدين إنكارها إلا في مسائل ذكرها:

يجب أن يعلم الإنسان أن الطبيعة كلها مسخرة لله، لا شيء منها يفعل بذاته عن ذاته. وأن التلازم بين الأسباب والمسببات غير حتمي بحيث يمكنه خرق مجرى الطبيعة وقوانينها بإرادة الله التي أوجدها. ويمكن حصول المعجزات. أما الفلسفة الإلهية فقد عارضها معارضة واضحة. إذ إن فيها أكثر أغاليط الفلاسفة، ولم يقدروا منها على الوفاء بالشروط التي اشترطوها في المنطق. والغلط في عشرين مسألة. وقد أشار في كتابه: تهافت الفلاسفة إلى أنه لا يريد إلا هدم الفلسفة الإلهية وإظهار ما فيها من تناقض وعجز وتلبيس،

---

(١) المنقذ من الضلال.

« ويريد [1] لإظهار فساد مذاهب الفلاسفة، وقصور أدلتهم أن يقرر قلة بضاعة العقل في معرفة مسائل الربوبية، وذلك ليمهد نفوس الناس إلى الإقبال على الدين » ويرى الغزالي أن للتجربة شأناً كبيرا، وان أدلـة العقـل وحدها لا تكفي لإثبات نبوة الأنبياء.

وقد أكد الامام الغزالي الفارق بين منهج القرآن ومنهج أهل الكلام حين أشار إلى أن القرآن كالماء، وعلم الكلام كالدواء [2]. وقال إن على المسلمين أن يكتفوا بالحجج المأخوذة من القرآن. وقد جمع الغزالي في كتابه (جواهر القرآن) ما يناهز خمسمائة آية تختص بمعرفة الخالق، وبه يعرف العامة عظمة الله وعزته، وليس بحجج المتكلمين. وقال: إن مقدمات المتكلمين وتقسيماتهم وحججهم المعقدة إنما تحدث اضطراباً في القلوب الهادئة عوضاً عن أن تقنعها، أما البراهين المأخوذة رأساً من القرآن الكريم فتقنع عقولهم، وتسكن أرواحهم، وتربي فيهم إيماناً راسخا. ومنطلق الإمام الغزالي في هذا هو حديث الرسول: « كل مولود يولد على الفطرة ».

## (٤) ـ موقف الإمام ابن تيمية

إن موقف ابن تيمية يمثل خطوة أوسع مدى، وإضافة أكبر من موقف الغزالي. فقد كشف ابن تيمية عن أن الفكر الإسلامي منطق خاص مستمد من القرآن والسنة يختلف عن منطق أرسطو والفلسفة اليونانية، ويسمى المنطق الإسلامي، « هذا المنطق الذي كان فيه غنى للمسلمين عن العقلية الغربية في الحكم على الاشياء وفي الإستبصار والتأمل الفلسفي. وقد استخلص هذا « المنطق الإسلامي » مـن القرآن الكريم بحيث أغنى المسلمين في قضايا الفكر

---

(١) رجال الدعوة والفكر ـ أبو الحسن الندوي.

(٢) راجع النص في مكان آخر.

والحكم الصحيح عن المنطق اليوناني وعن أقيسته وأساليبه ومسمياته، وتطبيقاته.

وعنده أن ما عند أهل الكلام والفلسفة من الدلائل العقلية الإلهية قد جاء القرآن بما فيها من الحق، وما هو أكمل وأبلغ منها على أحسن وجه منزه عن الأغاليط الموجودة عند هؤلاء.

يقول الدكتور النشار: «إن ابن تيمية يستند الى روح إسلامية خالصة. من حيث استطاع أن يلتمس في منطق أرسطو خصائص العقلية اليونانية التي تباين الفكر الإسلامي تماماً.

وقد أشار ابن تيمية إلى أن المسلمين لم يقبلوا المنطق الارسطي منذ اليوم الأول، وعلل ذلك تعليلا دقيقا حين قال: وما زال نظار المدارس يعيبون طريقة أهل المنطق، ويثبتون ما فيها من العي واللكنة، وقصور العقل، وعجز المنطق، ويثبتون أنها إلى فساد المنطق العقلي واللساني أقرب منها إلى تقويم ذلك، ووضعوا بجانب هذا منطقاً مخالفاً للمنطق الأرسطي.

## (٥) ـ مواقف أخرى

وقد تتابعت مواقف علماء المسلمين، ففي القرن التاسع كتب محمد بن إبراهيم الوزير الحسني اليمني الصنعاني كتابه: (ترجيح أساليب القرآن على أساليب اليونان) الذي دحض شبهات الباطنية والشعوبية في عصره. يقول في مقدمة كتابه: «نبغ في هذا الزمان من عادى علوم القرآن، وفارق فريق القرآن، وصنف في التحذير من الاعتماد على ما فيه من التبيان في معرفة الديان، وأصول قواعد الأديان، وحث على الرجوع في ذلك إلى معرفة قوانين المبتدعة واليونان، منتقصاً لمن اكتفى بما في معجز التنزيل من البرهان» ثم فصل القول في مختلف هذه الشبهات وخاصة «في بطلان ما ادعاه من قصور القرآن عن الوفاء بالدلالة على الربوبية والتوحيد والنبوات».

★ ★ ★

وقفت هذه المدرسة في مواجهة (الكندي ـ والفارابي ـ وابن سينا) في المشرق. فلما أعاد ابن رشد فلسفة أرسطو وأحياها في المغرب تصدى له ابن خلدون من المغرب أيضاً فهاجم الفلسفة اليونانية، وجرى مجرى الغزالي وابن تيمية معاً.

## سقوط الإعتزال

ولقد كان الاعتزال أبرز منطلقات الفلسفة اليونانية. بدأ من أصالة الإسلام، ثم انحرف عنها، ثم جاء أحمد بن حنبل، ثم الأشعري من مصححي مسار الفكر الإسلامي.

ويمكن القول تاريخياً بأن الاعتزال سبق الفلسفة، وأنه الخطوة الأولى للفلاسفة المسلمين. فقد استعان المعتزلة بالفلسفة اليونانية في سبيل دعوتهم ودفاعهم عن الإسلام، وجرى علماء الكلام على نفس المنهج. ومن الحق أن يقال إن دعوة المدافعين عن التوحيد في مواجهة الأديان الأخرى (معتزلة ومتكلمين) قد بدأت قبل الاتصال بالفلسفة اليونانية واستهدفت الدفاع عن الإسلام بأسلوب العقل، وقياس المسلمين المعروف، في مواجهة القوى المسلحة بالفلسفة اليونانية، ومنطق أرسطو من المسيحيين واليهود.

وقد كشفت الدراسات من بعد، عن أن الاعتزال والكلام يمثلان منهجاً مؤقتاً، احتاج إليه المسلمون في فترة معينة من تاريخهم، ثم لم يعد له بعدها ما يبرره، غير أن دعاة الاعتزال بلغوا غاية الشوط، وخرجوا عن غايتهم حين وصلوا إلى فرض نفوذ معين على الفكر الإسلامي كله عن طريق الدولة على النحو الذي وقع بالدعوة إلى خلق القرآن وامتحان الناس بها.

ذلك ان منهج الكلام هو في حقيقته منهج مؤقت مرحلي، ظهرت الدعوة إليه في مواجهة خطر ماثل، ثم انتهت مهمته. ومن هنا كان بقاؤه واتساعه

وبلوغه إلى المراحل التي وصل إليها من بعد، من المحاذير التي وقع فيها رجاله واحتاجوا الى معارضة وشجب كاملين من المصلحين أمثال ابن حزم وابن تيمية والغزالي.

والمعتزلة فرقة من فرق الكلام. قامت في المرحلة الأولى بجهد واضح، ثم لم تلبث أن انحرفت عن مفاهيمها عندما أعلت من شأن العقل إعلاء اليونان له في غفلة عن فهم جوهر المنهج الإسلامي للمعرفة، الجامع بين العقل والوحي معاً. ومن هنا كان انحراف الاعتزال الذي صادر حرية الرأي، وبلغ ذروته في معركه الإمام أحمد بن حنبل حين رفض مصطلح «خلق القرآن».

ولقد لاحظ الدارسون للاعتزال والمعتزلة ذلك الانحراف، وشجبه أكثر كتاب العصر الحديث فقال أحمد أمين[1]: إن نقطة الضعف فيهم ـ أي في المعتزلة أنهم أسرفوا في تمجيد العقل والإيمان بقوته واقتداره، (فقد) رأى المعتزلة أن العقل البشري قد منح من السلطة والسعة ما يمكنه من إقامة البرهان حتى على ما يتعلق بالله، فلا حدود للعقل إلا براهينه، والرأي أن العقل أضعف من ذلك، وأن استطاعته محدودة بإدراك ما يتعلق بشأنه هو، وأنه منح القدرة على أن يدرك البرهان على وجود الله والنبوة العامة ونبوة محمد خاصة، ولم يمنح القدرة على كنه الله وصفاته.

«ولعل نقطة الضعف فيهم ـ أي في المعتزلة ـ أنهم أفرطوا في قياس الغائب على الشاهد، أعني في قياس الله على الإنسان، وإخضاع الله تعالى لقوانين هذا العالم، وقد ألزموا الله مثلا بالعدل كما يتصوره الإنسان ـ وكما هو تظلم دنيوي، وفاتهم أنه معنى العدل ـ حتى في الدنيا ـ معنى نسبي يتغير بتغير الزمان، ونحن في أعمالنا ننظر إلى عالمنا. والله تعالى رب العالمين قد ينظر في

---

(١) ضحى الإسلام جـ٣ ص٣٩ وما بعدها.

أعماله إلى جميع العالم، ما نعلم منها وما لا نعلم، فكيف نخضع الله لتصور العدل الذي نتصوره نحن في عالمنا».

وعند كثير من الباحثين[1]. أن في هذه المحاولة التي تزعمها المعتزلة، والتي تقوم على تمجيد العقل وتأليهه. واخضاع النظام الديني بما فيه من عقائد وحقائق له، وعلى قياس الغائب على الشاهد، اتجاهاً خطراً على الإسلام، وفتح باب فساد عظيم في المجتمع الإسلامي.

لقد كان هذا تحويلاً للدين البسيط العملي الذي جاء به الرسول، يستسيغه العقل البشري بكل سهولة إلى فلسفة نظرية دقيقة تعجز من يفهمها.

وأن هذا الاتجاه من المعتزلة كان «تنمية للعقل على حساب العاطفة والوجدان. وإضعافاً للإيمان وإثارة للشكوك والشبهات، وعدم الثقة بما يقوله النبي، ويعجز العقل عن تعليله، وإقامة الدليل على وجوده».

والواقع أن هنا مفرقاً خطيراً: هو محاولة تحويل الإسلام إلى منهج فلسفي عقلي. بينما الإسلام منهج عقلي روحي متكامل قوامه الوحي والعلم معاً. وأن محاولة دراسة الإسلام بمنهج فلسفي من شأنه أن يعجز العامة والبسطاء، وأن يدخل الإسلام في نفس المتاهات التي دخلت فيها الأديان الأخرى، فحرفتها وأخرجتها عن طبيعتها وفطرتها.

وهذا ما وصل إليه أحمد أمين حين قال: «ربما أخذ عليهم ـ أي على المعتزلة ـ أنهم في سيرهم هذا وراء السلطان العقلي قد نقلوا الدين (أي الإسلام) إلى مجموعة من القضايا العقلية والبراهين المنطقية. والدين خلاف الفلسفة، الدين يتطلب شعوراً حياً أكثر مما يتطلب قواعد منطقية. فالدين ليس بالمسائل الرياضية ولا كالنظريات الهندسية يتطلب من العقل حلها، وفي

---

(١) رجال الدعوة والفكر ـ أبو الحسن الندوي.

ذلك كل العناء، بل الدين أكثر من ذلك يتطلب شعوراً يدعوا إلى العمل، وحرارة إيمان تبعث على التقوى.

ونظام المعتزلة وهو الذي جرى عليه المتكلمون بدورهم ـ نظام جيد التفكير، ضعيف الروح، غالى في تقدير العقل وقصر في قيمة العاطفة. أ هـ.

★ ★ ★

وفي المرحلة التالية من النظرة التاريخية، نرى المعتزلة يصلون إلى درجة بالغة الخطر حين يفرضون مذهبهم بسلطة الدولة، ويفرضون نظرية معينة، لم يقررها القرآن والإسلام، كقانون ملزم يمتحن فيه الناس ويجازون بالقتل والتعذيب إذا عارضوه، ويرفعون من أماكنهم، ويزاحون من مناصبهم إذا لم يقرروه.

وهم بذلك قد أشاعوا في العامة شكوكاً وأدخلوهم في متاهات فلسفية خطرة، وكان حمل المأمون الناس على هذه الدعوى من أكبر أخطائه وأخطاء خلفائه، لولا تلك المواجهة الصامدة الجبارة التي وقف دونها أحمد بن حنبل ستة عشر عاما يتحمل التعذيب والإهانة، حتى انكشفت الغمة، وثبت فساد هذه الدعوى.

وحين بلغ «الاعتزال» هذه المرحلة الخطيرة كان ذلك علامة على انحطاطه وسقوطه، وكان آية ذلك ظهور (أبو الحسن الأشعري) الذي أعاد تصحيح مسار الفكر الإسلامي في هذه الناحية، ورفع من طريقه تأليه العقل، وأعاد التوازن بينه وبين الوحي، وهاجم أخطاء الاعتزال بعد أن أمضى أربعين عاماً من دعاته وأوليائه.

وكان ذلك خطوة ثالثة على نفس طريق الأصالة: أصالة الفكر الإسلامي في مواجهة تحديات تدميره من الداخل، وأبطال هذه الخطوات هم: ابن

حنبل، والشافعي، والأشعري. ثم جاء بعد ذلك ابن حزم، والغزالي، وابن تيمية، وكلهم جروا من منطلق واحد هو: منطلق الفطرة، المتمثلة في بساطة الإسلام وسماحته واستمداده من المنابع الأصيلة، القرآن والسنة، وكانت تلك ضربات صادعة للهلينية، والفلسفة اليونانية، ومنطق أرسطو.

ومن ثم تحررت خطط الدفاع عن الإسلام من الاستسلام لمنطق أرسطو، أو لإعلاء العقل، أو فرض أسلوب مجافٍ للقرآن.

# الفصل السادس

## وجوه التعارض بين الفكر الإسلامي والفلسفة اليونانية

هناك وجوه للتعارض بين الفلسفة اليونانية، والفكر الإسلامي يمكن أن توصف بأنها جذرية، لأنها تتصل بصميم الأعمدة الأساسية التي تقوم على الإسلام، وهي التوحيد، والنبوة، وأخلاقية المجتمع الإسلامي ومقوماته.

١ ـ تتركز أبرز وجوه الخلاف في فهم «الله» سبحانه وتعالى وكنهه، وفي التوصل إلى هذا الفهم.

فالفلسفة اليونانية التي تعتمد على العقل وحده في الفهم تقف من فهم الله سبحانه وتعالى موقف مضطربا غامضا. فالله في تقدير أرسطو (عقلا صرفا) ليس له إرادة، وهو يحرك العالم باعتباره معشوقاً لا كقوة فاعلة، وهو عنده يجهل الجزئيات. وهو في محاولته يهدف للوصول إلى هذا الفهم عن طريق بحث الجوهر. ولذلك تخطىء الفلسفة اليونانية في هذا المجال، وتضطرب لأن وسائل العقل القاصرة لا تستطيع أن تصل إلى شيء مقنع.

أما الإسلام فقد أعطى الله سبحانه وتعالى مفهوماً كاملاً واضحاً سمحاً، وأعلن في نفس الوقت قصور العقل الإنساني عن التوصل إلى الماهية والكنه. فقد حدد القرآن موقف المسلمين من أمور (ما بعد الطبيعة) وطلب إليهم عدم الخوض فيما خلفها، ودعاهم إلى ترك بحث لجوهر الذي لا يستطيع العقل أن يصل إليه وحده، ووجههم إلى بحث (الخصائص). ويتمثل هذا في مفهوم الرسول ﷺ. «تفكروا في خلق الله ولا تفكروا في ذات الله».

٢ ـ من أوجه الخلاف الكبرى أيضاً مفهوم المجتمع.

فأفلاطون وأرسطو يرسمان فلسفة لمجتمع عبودي قائم على طبقة السادة

القائمة في القمة، ولا تفعل شيئا. غير التأمل والمتعة، وطائفة العبيد، وكل من أفلاطون وأرسطو قد دافعا عن هذا الوضع واستمدا منه مفاهيمهما فأفلاطون في فلسفته في النفس والدولة أقر هذه الحدود وأكدها، فهو يجرد الفرد من قيمه الفردية، ليجعل منه أداة مسخرة لخدمة السادة، ويوجه أفلاطون مناهج التربية كلها إلى السادة. أما عامة الناس الذين يعملون في الزراعة فهو لا يعنى بهم، ولا يضع لهم أي منهج، ثم هو يقرر شيوعية الملك والنساء والأولاد. ويقول بالنص «لا يخص أحدهم نفسه بامرأة معينة، بل يجب أن يكون جميع النساء حقا مشاعاً للحكام، لا يستأثرون بامرأة دون أخرى استئثاراً يجعل منهم أرباب أسر ،لا رجال حكم». بل ويذهب إلى أبعد من ذلك، حين يقرر أنه «يجب أن لا يعرف والد ولده، ولا مولود والده حتى لا يُبْذَل جهد في غير مصالح الدولة، ولا تتكون عواطف وميول خارج مصلحة الدولة».

وأرسطو يدافع عن الرقيق والنظام العبودي، وإن كان يؤكد حرية الفرد خلافاً لأفلاطون، فإنه إنما يعني به الفرد من السادة.

ويذهب في تقدير مذهب السادة مذهباً غالياً، فيقول: إن السادة لا يجوز استرقاقهم، لأنهم جمعوا بين الروح العالية والشجاعة. أما العبيد فلا يجوز لهم أن يكونوا سادة، وهم يقومون بالأعمال المنافية للمواطنين الإغريق الأحرار، ويذهب إلى أبعد من ذلك غلوا حين يقول: إن الحر حر رغم ما ينزل به من عسف. والعبد عبد رغم ما يحققه من نصر. وعنده أن الناس مقامات ودرجات، وعلى الأعلى أن يسيطر على الأدنى. كما أن على الأدنى أن يخضع للأعلى ويطيعه.

ولا شك أن هذه المفاهيم تتعارض تمام التعارض مع مفهوم الإسلام للمجتمع، ومع دعوته إلى الإخاء والمساواة. ومن تحديده الموقف تحديداً

واضحاً أنه لا فضل لعربي على أعجمي، ولا أبيض على أسود إلا بالتقوى. فضلا عن دعوته إلى تحرير الرقيق وعتقه بالتعليم والمكاتبة وغيرهما.

★ ★ ★

وفي هذين الأمرين الكبيرين يبدو التباين الواضح بين مفاهيم الفكر الإسلامي، ومفاهيم الفلسفة اليونانية، وهو تباين جذري لا يدع مجالاً لأيّ لقاء بعده، لأنه يتصل بالعقيدة والشريعة.

أما مذهب أرسطو الذي أخذ أولياء الفلسفة اليونانية في إعلائه، والمبالغة في مكانته العلمية، فإنه قد تعرض لنقدات كثيرة من الغربيين أنفسهم، حتى أكثر الناس إعجاباً بأرسطو لم ينكروا قصوره.

فالمستشرق هورتن (دائرة المعارف الإسلامية) يؤكد أن أرسطو لم ينجح في وضع نسق شامل للعالم كله منظوراً إليه من خلال صورة ذهنية واحدة، فهو لم يرد جملة العالم إلى مبدأ واحد، إنما هي (اثنينية) يتقابل فيها الهيولي القديم مع الله.

ويقول عبد الرحمن مرحبا: إن أرسطو ترك في مذهبه نقاطاً كبيرة معلقة دون أن يتصدى لحلها، كما أن في مذهبه نقاطاً غامضة حيناً، ومتعارضة بعضها مع بعض حيناً، وأنه لم يكلف نفسه مؤونة توضيحها، وإزالة ما فيها من تناقض، وأخيراً فإن مذهب أرسطو معارض للإسلام في كثير من جوانبه، كما أن في الإسلام قضايا كثيرة لا يقرها أرسطو. وفضلا عن هذا فإن أرسطو لم يخرج في فلسفته إطلاقاً عن وثنية اليونان، وإيمانهم بآلهة كثيرة لكل إله منها منطقة خاصة.

ومن أخطر ما يواجه الفلسفة اليونانية تقديمها المعقول على المحسوس، وعندهم أن المعرفة التي يجيء بها الحس إنما هي ظنية فحسب، أما المعرفة

الحقيقية فهي العقل، بينما يرى الإسلام أن العقل جناح من أجنحة المعرفة، وأن الوحي هو الجناح الآخر، وأن كلاهما يكمل الآخر، وأن المعرفة لا تكون صحيحة إلا بهما معاً.

وهناك فوارق أخرى بين الفكر الإسلامي والفلسفة اليونانية أهمها: الفرق العميق بين مفهوم القرآن لوحدة الله وفاعليته، وبين مفهوم الفلسفة اليونانية. فالله في الإسلام خالق كل شيء، وأنه خلق كل شيء من لا شيء. وأوجد العالم من العدم، وأعلن بدء الزمان، وأعلن نهايته.

أما الفلسفة اليونانية فتقول بقدم المادة وعدم فنائها. فضلا عن أن القرآن لم يترك مفاهيمه مطلقة هائمة. بل وضع أصولها كاملة. ولا شك أن مفاهيم الإسلام في هذه الأمور جميعاً أكثر قبولا في العقل وأقرب إلى الفطرة.

# الفصل السابع

## منطلق الفكر الإسلامي

إن منطلق الفكر الإسلامي في مجال العلم والحكمة، إنما يمثله كثيرون، ولكنه يتبلور في تجربة الإمام الشافعي وإنشائه «علم أصول الفقه» واعتبار علم الأصول بالنسبة إلى الفقه كاعتبار المنطق بالنسبة إلى الفلسفة، فقد أقام الإمام الشافعي علم الأصول، وهي أول محاولة لوضع فهم أصولي عام يحدد للفقه الطرائق التي يسلكها في استنباط الأحكام.

ونشأت في ظل العمل الرائد مدرسة الأصوليين الإسلاميين الذين كشفوا عن الفوارق البعيدة بين القياس الإسلامي، والقياس اليوناني.

وقد عمل الأصوليون الذين لم يقبلوا المنطق الارسططاليسي إلى اكتشاف منطق جديد يعارضه. وقد نقد الأصوليون المبادىء الأساسية لمنطق أرسطو (قانون الذاتية، وقانون النقيضين) ثم جاء بعد ذلك بأكثر من خمسمائة عام المناطقة المعاصرون في القرن العشرين الذين نقضوا هذه الأصول لمنطق أرسطو بما لا يخرج عما نقده به الأصوليون المسلمون.

★ ★ ★

ولا شك أن الإمام الشافعي وضع الحجر الأساس في بناء الفكر الإسلامي (فقد[1] قدم «مباحث الأصول») لأول مرة كعلم منسق الأجزاء، له منهج عام، يحدد للفقه الطرائق التي يسلكها لاستنباط الأحكام. وقد صدر الإمام

---

(١) راجع كتابات الدكتور النشار، وجريدة الأخبار شعبان ١٣٩١.

الشافعي في ذلك المنهج الذي خالف به بصراحة المنهج الارسططاليسي عن فكر الإسلام ذاته، وليس عن اتجاهه الخاص، هذا الفكر الذي لا يتطابق معه أشد التطابق، لا المتكلمون، ولا الفلاسفة ولا المتصوفة، ولكن علم أصول الفقه، والفقهاء وعلى رأس هؤلاء جميعاً الإمام الشافعي.

يقول مصطفى عبد الرازق: إن هذا الاتجاه من الإمام الشافعي هو اتجاه العقل العلمي الذي لا يعني بالجزئيات والفروع. بل يعني بضبط الاستدلالات التفصيلية بأصول تجمعها.

(ولقد دعا ذلك إلى اعتبار الإمام الشافعي في العالم الإسلامي، وفي الدراسات الإسلامية مقابلاً لأرسطو في العلم الهليني والدراسات اليونانية).

(وكان الامام الشافعي يعرف اليونانية. وقد هاجم المنطق الأرسطي مهاجمة شديدة، لا من الجانب السلبي فقط بل إيجابياً بوضع منهجه في الأصول الذي كان أساساً للمنهج الاستقرائي والتجريبي الذي تميزت به الثقافة الإسلامية وحضارتها، والذي لولاه لسقط العلم في العالم الإسلامي، ولتأخرت نهضة أوروبا العلمية الحديثة).

كان الإمام الشافعي يرى فكر الدين في اللغة العربية، وفكر الفلسفة في اللغة اليونانية، كما يرى أن المنطق الذي يستند إلى اللغة اليونانية مخالف للمنطق الذي كشف عنه علم الأصول، والذي يستند إلى اللغة العربية وخصائصها. ولقد تبين له أن تطبيق منطق اللغة اليونانية على منطق اللغة العربية يؤدي إلى كثير من التناقض. ولذلك هاجم المنطق الأرسطي الذي أخذ به بعض علماء المسلمين كالفارابي، وابن سينا، والغزالي، وابن رشد إلى حد التحريم، وتابعه في ذلك فريق كبير من فقهاء المسلمين وعلى رأسهم ابن تيمية.

ولا ريب أن علم الإمام الشافعي الذي وضع به الأصول هو أساس المنهج

العلمي التجريبي في مواجهة المنطق الذي هو أساس المنطق الفلسفي التجريدي. هذا المنهج ملأ طباق الأرض، وأبعد من طباقها حيث تنزل أدوات العلم على القمر.

ولا ريب أن المنهج الاستقرائي العلمي والتجريبي هو المعبر عن طبيعة الإسلام [1]. والإسلام في آخر تحليل هو تناسق بين النظر والعمل يقيم نظرية فلسفية في الوجود، ولكنه يرسم أيضاً طريقاً للحياة العملية. وهذا المنهج بما فيه من روح الإسلام ونظرته قد أدخله العرب إلى العالم الأوروبي، وبذلك فإن المسلمين هم مصدر هذه الحضارة القائمة على المنهج التجريبي.

ولا شك أن الومضات الأولى لهذا المنهج العلمي خرجت تلخيصاً لمنهج القرآن الكريم في رسالة الإمام الشافعي الذي هو المخطوط الثاني في القدم بعد مصحف عثمان

---

(١) الدكتور علي سامي النشار: عن كتابه مناهج البحث عند مفكري الإسلام.

## الفصل الثامن

### للمسلمون ميتافيزيقاهم

كان من أكبر ما قدم القرآن الكريم للمسلمين ذلك المنهج الواضح في فهم عالم الغيب « الميتافيزيقا » أو ما وراء المادة، فلم يشغل المسلمون بالجوهر أو الماهية أو الكنه.

كان مفهوم المسلمين المستمد من القرآن الكريم، هو تجاوز البحث عن « الشيء في ذاته » فقد التزم ذلك الصحابة فلم يتحدثوا في المسائل الاعتقادية. ثم جرى مجراهم أئمة الإسلام من بعد.

« فقد تجنبوا الخوض في المسائل الغيبية معلنين أنها مراء في الدين، وأنها أورثت من قبل الأمم السابقة العداوة والبغضاء، ومزقت وحدة أديانهم وتماسكها ».

وقد رسم القرآن الكريم للمسلمين ميتافيزيقا كاملة لها ذاتيتها الخاصة، وهي مخالفة كل المخالفة للميتافيزيقا اليونانية، وأبرز مميزاتها أنها « لم تترك للعقل مجالا للاجتهاد في أكثر نواحيها، وحدد معالمها تحديداً كاملاً، ونهى أشد النهي عن تجاوز تلك المعالم ».

وهذا وجه الخلاف بين ميتافيزيقا الإسلام، والفلسفة اليونانية التي هي: بحث مطلق في الوجود من حيث هو وجود. من هنا يبدو اختلاف جذري للطبيعتين: اليونانية والإسلامية: مما يؤكد استحالة القول القائل بالتطابق بين الفكر الإسلامي والفكر الهليني، ومن هنا عد فلاسفة الإسلام الذين ساروا على طريقة اليونان بمثابة امتداد لفلسفة هؤلاء، وأنهم مراكز إسلامية للفلسفة اليونانية القديمة في عالم جديد، عالم لم يعقل فلسفتهم. بل اعتبرها خارجة عليه.

# الفصل التاسع

## منهج البحث التجريبي الإسلامي

كان من أكبر وجوه التعارض بين الفلسفة اليونانية والفكر الإسلامي، ذلك الطابع التجريبي الذي دفع القرآن الكريم إليه المسلمين في مواجهة الطبيعة والحياة، بينما كان اليونان يحتقرون التجربة والتجريب.

ولقد كان تحررهم من الدوران في فلك النظريات الخاصة بالكون أكبر معين لهم على الانطلاق نحو إنشاء المنهج العلمي التجريبي. ذلك أن « طبيعة عمل المسلمين الذي رسمه القرآن لهم هو تحقيق الأفعال الإنسانية. وتجنب المسائل الاعتقادية الجدلية.

ولذلك لم يشغل المسلمون بالبحث عن الجوهر أو الماهية أو الكنه، وإنما اتجهوا مباشرة إلى دراسة « الخواص » وعملوا على إدراجها في نسق منهجي متكامل.

ولقد كان منطلق المسلمين العلمي مستمداً أساساً من دعوة القرآن الكريم إلى النظر في الكون، ولذلك فإن المسلمين لم يجدوا (المنطق القياسي اليوناني) القائم على ميتافيزيقاهم معبرا عن مفهوم الإسلام. ومن أجل هذا أزاحوه من طريقهم، واتجهوا إلى بناء مفهوم منبثق من فكرهم القائم على التوحيد، ومن مجتمعهم القائم على الإخاء والعدل، وهو ما أطلق عليه المنهج الاستقرائي أو المنطق التجريبي الإسلامي الذي استند إلى القرآن الكريم والسنة.

ومن هنا تبين زيف ما يردده التغريبيون والمستشرقون من أن المسلمين تابعوا المنهج القياسي في اتجاههم. وقد ثبت ثبوتاً قاطعاً بما حققه الباحثون

المنصفون، وخاصة مدرسة الأصالة (التي اشتقها مصطفى عبد الرازق، وسار فيها النشار وغيره، أثبتوا إثباتاً قاطعاً عدم قبول مفكري الإسلام للمنطق الأرسطاليسي، ومحاربتهم له ونقدهم لجميع عناصره [١]، فقد تأكد ـ وهذا هو ما يذهب إليه علماء الغرب أمثال: درايبر، وبريفولت وغيرهما من أن المسلمين وضعوا المنهج الاستقرائي كاملاً. وقد نبه العالم التجريبي الأول «روجر بيكون» إلى هذا.

فقد أدرك مفكرو الإسلام تمام الإدراك أنه لا بد من وضع منهج في البحث يخالف المنهج اليوناني، حيث إن هذا المنهج الأخير، إنما هو تعبير عن حضارة مخالفة، وتصور حضاري مخالف.

وأهم خصائص المنهج التجريبي الإسلامي:

**أولا:** إنه منهج إدراكي أو تأملي، وليس نظرة مجردة.

**ثانياً:** اختلف المنهج الإسلامي عن المنهج اليوناني في كبريات المسائل: وفي مقدمتها الحد، والقضية الكلية، والمنطق الشكلي.

**ثالثاً:** استخدموا كلمة «القياس» وهي الكلمة التي استعملها أرسطو. ولكن القياس الإسلامي يختلف عن قياس أرسطو تمام الاختلاف «فبينما القياس الأرسطاليسي هو حركة فكرية ينتقل فيها العقل من حكم كلي إلى أحكام جزئية. أو من حكم عام إلى حكم خاص ينتقل قياس المسلمين من حالة جزئية إلى حالة جزئية أخرى لوجود جامع بينهما بواسطة تحقيق علمي دقيق».

«فعلماء المسلمين اعتبروا «القياس»: قياس الغائب على الشاهد موصلا إلى اليقين. بينما أرسطو توصل فقط إلى الظن».

---

(١) راجع كتاب «مناهج البحث عند مفكري الإسلام» للدكتور سامي النشار.

وقد استكمل المسلمون منهجهم في المراحل المختلفة التالية للقياس كالدوران وتحقيق المناظر [1]. على النحو الذي أعطاهم منهجاً إسلامياً خالصاً، ابتدأ من القرآن الكريم والسنة، وانتقل من الفقه إلى العلم، ومن القانون إلى التطبيق، وعرف المسلمون فيه كل ما عرفه المحدثون عن فكرة القانون الطبيعي، وقد استخدم المسلمون طرق البحث التجريبي في كافة أبحاثهم. وقد عبر هذا المنهج إلى أوروبا عن طريق أسبانيا وجزيرة صقلية، ثم نقله الى انكلترا روجر بيكون الذي أعلن أن معرفة العرب وعلمهم هي الطريق الوحيد للمعرفة الحقة لمعاصريه.

وقد أثر المنهج الاسلامي تأثيراً واضحاً على كثيرين من علماء الغرب، وما من شك ان روجر بيكون وفرنسيس بيكون وهما أول التجريبيين في العصور الحديثة قد اعتمدا على المنهج التجريبي الإسلامي.

★ ★ ★

ولكن هل كان المنهج التجريبي الإسلامي قد قام في الأساس على علوم اليونان، وهل كان لجهد اليونان أثر فيه على حدّ قول بعض أصحاب الولاء للفلسفة اليونانية؟.

إن كل النصوص التاريخية الصحيحة تؤكد غير ذلك. أما بالنسبة للفلك فقد كانت معرفة اليونان بالنجوم خرافات في الأكثر، وإن ما كان بعض منها صحيحاً ثابتاً فلم يكن يعدو مثله مما كان عند المصريين والبابليين، فلما جاء المسلمون جعلوا من النجوم علماً صحيحاً، وأنكروا خرافاته، وأصلحوا مقدماته.

أما بالنسبة للجبر فقد أخذه العرب من اليونان في درجته الأولى،

---

(١) راجع البحث مفصلا كما نسقه الدكتور النشار.

فارتفعوا به إلى الدرجة الثانية. كما أخذ العرب الكيمياء من اليونان «محاولات» لتحويل العناصر الخسيسة إلى عناصر شريفة. أما العرب والمسلمون، فهم الذين وضعوا أسس المختبرات العلمية للكيمياء.

والعرب هم الذين استعملوا الأرقام الحسابية بما فيها «الصفر»[1]. كما صحح كثير من العلماء المسلمين أخطاء علماء اليونان في المجالات المختلفة، صحح الجاحظ عدداً من أخطاء أرسطو (وفي كتابيه: البيان والتبيين وكتاب الحيوان أمثلة لذلك).

كما كشف العلماء المسلمون أخطاء أفلاطون في الفلسفة أيضاً. ومن ذلك ما عارضه ابن سينا لرأي أفلاطون في النفس. بل ذهبوا إلى أبعد من ذلك فكشفوا عن أخطاء بطليموس وأقليدس في الرياضيات، وأبقراط في الطب.

وكانت أعمال العلماء المسلمين والعرب بارزة في مجال الحساب والهندسة والمثلثات وعلم الهيئة (الفلك). والعلوم التجريبية في الطبيعيات والكيمياء والطب. وهم الذين أوجدوا المصطلحات العلمية في لغة عربية صحيحة. وقد وضع أبو النصر الفارابي أصول علم الموسيقى، وسمي المعلم الثاني لأنه وضع التعاليم الصوتية كما وضع أرسطو المنطق.

ويؤكد الباحثون أن المسلمين قد قلبوا العلم اليوناني والفلسفة اليونانية في بعض وجوههما رأسا على عقب[2]. وليس أصدق تقرير لدور المسلمين من عبارة بريفولت في كتابه بناء الإنسانية: Making of Humanity «إن ما يدين به علمنا لعلم العرب ليس فيما قدموه إلينا من كشوف مدهشة لنظريات مبتكرة فحسب، بل يدين هذا العلم إلى الثقافة العربية بأكثر من هذا: انه مدين لها بوجوده نفسه».

(١) دكتور عمر فروخ ـ العرب والفلسفة اليونانية.

(٢) عن نص لعمر فروخ

# الفصل العاشر

## ما قدمه الإسلام: الحكمة وليس الفلسفة

إذا كان منطلق الفلسفة هو البحث عن الحقيقة. فإن الإسلام قد قدم للإنسانية أصولا أساسية ومنهجاً كاملاً يفتح الطريق إلى هذا البحث، على النحو الذي يحقق السلامة والأمن، ويحول دون الوقوع في المحاذير الكثيرة التي يعجز العقل الإنساني عن النظر فيها. أو الآفاق التي لا يستطيع تجاوزها. ومفهوم الإسلام في هذا المجال هو الحكمة.

وقد أورد العلامة فريد وجدي أصول الحكمة القرآنية على هذا النحو:

( **الأصل الأول** ): الإنسان لم يحصل من العلم إلا قليلاً.

( **الأصل الثاني** ): يجب على الإنسان أن يتعلم لمصلحته المادية ومصلحته الروحية.

( **الأصل الثالث** ): العلم لا يحصل إلا بالنظر في الوجود والموجودات لا بالظنون والأوهام.

﴿قل انظروا ما في السموات والأرض﴾.
﴿وفي الأرض آيات للموقنين وفي أنفسكم﴾.
﴿وكأين من آية في السموات والأرض يمرون عليها وهم عنها معرضون﴾.

( **الأصل الرابع** ): إقامة سلطان العقل، والالتجاء إلى حكمه في كل خلاف، والبعد عن الأهواء والجنوح إلى الأباطيل. ﴿أفلا تعقلون ـ لعلكم

تعقلون - ولا تتبع الهوى فيضلك عن سبيل الله - بل نقذف بالحق على الباطل﴾.

**(الأصل الخامس)**: الاعتماد على تحقيق المسائل التي تقرر العلم المحصن، لا الأوهام ولا المقررات الموروثة. ﴿إن يتبعون إلا الظن﴾.

**(الأصل السادس)**: عدم متابعة الخيالات فيما ليس وراءه علم ﴿ولا تَقْفُ ما ليس لك به علم﴾.

**(الأصل السابع)**: وجوب التثبت في العلم، وعدم الأخذ بدون دليل ﴿قل هاتوا برهانكم - يثبت الله الذين آمنوا﴾.

**(الأصل الثامن)**: تحريم التقليد للآباء في العلم والتعصب لآرائهم.

**(الأصل التاسع)**: عدم الجمود على المعلومات المخترعة، وضرورة سماع كل رأي، والأخذ به إن كان حقاً. ﴿فبشر عبادي الذين يستمعون القول فيتبعون أحسنه﴾.

**(الأصل العاشر)**: وجوب الحذر من الظنون والأوهام، فإنهما كانا السبب في تضليل الناس، وإفساد عقولهم في جميع الأجيال ﴿فما بعد الحق إلا الضلال﴾ - ﴿وما يتبع أكثرهم إلا ظنا﴾.

هذه هي أصول الحكمة الإسلامية، ومنطلق المفهوم الإسلامي. وهي تقوم على أساس: عدم الخوض في الظنيات حتى فيما يتعلق بفهم القرآن. وقد أشار القرآن إلى نوعين من الآيات: محكم ومتشابه.

(١) - المحكم: وهو الذي يشمل الحلال والحرام، وأصول الشريعة والأخلاق.

(٢) - المتشابه: وهي أمور تعلو متناول العقل البشري، ولو عولجت به اختلفت عليها الآراء.

وقد فرض على الآخذ به. النظر في الأولى، والعمل به، وحرم عليهم الجدل في الثانية، ومحاولة تأويلها.

ويرى العلامة فريد وجدي أن خلاصة القول: إن الحكم القرآنية تأبى قبول أي فلسفة تستند على مجرد الظنون فهي تشترط للأخذ بها أن تكون قائمة على علم ﴿نبئوني بعلم إن كِنْتُم صادِقِين﴾. ﴿بل اتبع الذين ظلموا أهواءهم بغير علم﴾.

# الفصل الحادي عشر

## بين الإسلام والهلينية ( بين التوحيد والوثنية )

كان اليونان شأنهم شأن الأمم الأخرى التي سيطر عليها الفكر البشري، وقامت فيها حضارات ضخمة ثم سقطت، يعتقدون بوجود آلهة متعددة. وكانوا يفسرون الظواهر الطبيعية بأنها من فعل الآلهة، وكانوا يصلون بالفرد إلى مقام البطولة، ثم إلى مقام العبادة.

وقد تعددت العبادات في الوثنية بين الاحجار والحيوانات والناس والكواكب. ومن أخطر ما تمثله الهلينية عبادة الفرد وتأليه الإنسان، وإقامة ذلك المجتمع العبودي الذي يقسم الناس إلى سادة يعبدون وعبيد أذلاء. ومن هنا فإن الإسلام حين أعلن التوحيد. إنما أعلن كرامة الإنسان، وارتفاعه عن الخضوع للإنسان فالتوحيد تأكيد لمعبود واحد هو الحق تبارك وتعالى الذي لا يعبد أحد سواه. وبذلك أبطل الإسلام سلطان الوسطاء، وأسقط نظرية تحول الإنسان إلى إله. وفصل بين البشرية والألوهية من ناحية، وبين الألوهية والكون من ناحية أخرى، وأعطى العقل مكانه الصحيح، ووظيفته المحدودة بعد أن دفعته الهلينية إلى حد التقديس والاستعلاء على كل مناهج المعرفة. فقد أقر الإسلام منهجاً متكاملاً فيه القلب والعقل، وعبرة التاريخ، ونقل البشرية من مفهوم الهلينية القائم على المنطق والاستنباط إلى منهج جديد يقوم على الاستقراء والتجريب، ويختلف اختلافاً بيناً عن منهج أرسطو.

ولقد ترجم المسلمون منهج أرسطو، ولكنهم سرعان ما تخلو عنه، لأنه إنما كان يستمد مقوماته من حضارة اليونان القائمة على المفهوم العبودي، وعلى إقامة مجتمع السادة في القمة، ومجتمع العبيد في الحضيض.

وهو ما حطمه الإسلام ودمره، وأقام بديلا عنه مفهوم الإخاء البشري. ومن هنا فقد كانت فلسفة اليونان ومنطق أرسطو مختلفة تمام الاختلاف، بل متعارضة تمام التعارض مع منهج الإسلام من كل النواحي.

وأبرز هذه النواحي التي تشكف عن التباين الواضح بين الإسلام والهلينية هو التوحيد الذي حرر العقل البشري من الوثنية، ومن عبادة عدد من آلهة متعددة، ومن عبادة الفرد، ومن تقديس الأبطال، ومن الطواف حول بيوت النيران.

وهكذا كشف الإسلام عن هويته الحقيقية: وهي: أنه يرمي إلى تحرير العقل من كل سلطان إلا سلطان الله. ولذلك فقد واجه أخطر ما دعت إليه الفلسفة اليونانية، وقامت عليه، وهو تأليه العقل وتقديسه، فأعلن أن العقل واسطة لا غاية وهو آلة تنكسر على ما يتعدى ميدانها، ولا تستطيع أن تتحدى ما يقوله الله، وأن العقل ليس أداة كاملة، ولكنه نور مصباح يكشف في الظلمات، ولكنه ينكشف أمام نور الله. فالعقل لا يستطيع أن يكشف سر الخلق والكون، وأن يضع مبادىء المعرفة. بل الله يفعل ذلك.

ومن هنا أخذ الفكر الإسلامي بمبدأ (التوحيد) واعتبره نقطة الالتقاء والاقتران إزاء كل معطيات الفكر البشري. ولذلك رفض رأي أرسطو في الله، وهو رأي ناقص وقاصر، ورفض مبدأ الجمع والاتحاد، ورفض مبدأ الحلول والتناسخ، وحرر الفكر البشري من كل نظرية تصور الحق تبارك وتعالى بغير صورته الحقيقية. وأعلن التحرر من عبودية غير الله. وأقر وجود حقيقة واحدة هي من خلق واحد أحد.

وهكذا ولد التصور الإسلامي الرباني ـ المعارض والمخالف للغنوصية الشرقية والهلينية اليونانية ـ في مفهوم متكامل، مخالف في أصل تكوينه، وفي خصائصه كل التصورات البشرية. ومن هنا فقد قام على الحركة والثبات معاً.

والحركة قانون من قوانين الكون، ولكنها ليست حركة مطلقة، ولكنها حركة في إطار ثابت وحول محور تدور فيه.

وبذلك كشف الإسلام عن خطأ أرسطو وأفلاطون في تصور علاقة الخالق بالمخلوقات. وقد جاء قياسها قاصراً لأنه اعتمد على العقل في مجال ليس من وظيفة العقل النظر فيه. وطبيعة تكوين العقل إنما ترتبط بوظيفة الإنسان في الأرض - ومن هنا يعجز هذا العقل إذا استخدم في البحث عن مجال آخر أكبر منه، ومجاله إدراك قوانين المادة وتسخيرها. أما ادراك سر الحياة والموت وحقيقة الألوهية، وحقيقة الكون، فقد جاء به الوحي، وفصلته رسالات السماء بما يكفي حاجة الإنسان الروحية بما يتجه إلى عمل العقل الحقيقي في عمارة الأرض وكشف ذخائرها وأسرار علومها[1]. وأبرز ما كشف عنه الإسلام في مواجهة مناهج الفكر البشري هو: التحرز من الأهواء في الحكم على الأشياء، وأن الإنسان لم يحصل من العلم إلا قليلا، وأن العلم لا يحصل إلا بالنظر في الوجود والموجودات لا بالظنون والأهواء. وبإقامة البرهان، وعدم متابعة الخيالات فيما ليس وراءه علم يسنده، وتحريم تقليد الآباء في العلم، ووجوب الحذر من الأوهام.

---

(١) التصور الإسلامي

# الفصل الثاني عشر

## كلمة الفصل في الفلسفة اليونانية

١ - إن الفلسفة التي ترجمت لم تكن هي الفلسفة اليونانية

٢ - لم تكن الفلسفة اليونانية المترجمة. بل فلسفة الإسلام الحقة، إنما هي أصول الفقه.

٣ - إن منهج الفكر الإسلامي كان قد تشكل قبل ترجمة الفلسفة اليونانية.

لقد ثبت زيف الرأي القائل بأن الفكر اليوناني، هو الذي شكل الفكر الإسلامي. وان هناك حقائق عدة تدحض هذه النظرية التي طرحها التغريب والنفوذ الاستعماري ليجعل منها مدخلاً إلى خلق جو من تبعية الفكر الإسلامي للفكر اليوناني الذي يوصف بأنه أساس الفكر الأوروبي الحديث، فإذا وجدت هذه الشبهة قبولاً أمكن أن يبني عليها القول اليوناني الذي يوصف بأنه اساس الفكر الأوربي الحديث، فاذا وجدت هذه الشبهة قبولاً امكن أن يُبنى عليها القول بأنه إذن لا مانع من أن يتابع الفكر الإسلامي في حاضره للفكر الأوروبي، والفلسفة الحديثة.

والحقائق العلمية التاريخية تؤكد أن مقومات الفكر الإسلامي قد صيغت وتشكلت قبل الاتصال بالفكر اليوناني أو الفكر الوافد على إطلاقه. وأن مناهج المعتزلة والصوفية، ورجال الفقه وغيرهم قد تشكلت قبل ترجمة الإلهيات، والفلسفة. فقد بدأت الترجمة بالطب والرياضيات والطبيعيات. ثم توقفت عندها ثمة، فقد كانت هذه هي الغاية التي قصدت إليها إرادة الفكر الإسلامي في ترجمة الفكر اليوناني.

غير أن قوى مختلفة منها قوى الشعوبية والنفوذ الوثني والفارسي القديم، ودعاة الباطنية وغيرهم من أولياء المجوسية قد ضغطت ضغطاً شديداً في أيام المأمون (وهي أخطر مراحل انتفاضة النفوذ الباطني القديم)[1]. واستطاعت توسيع نطاق الفلسفة إلى مجال الإلهيات والأخلاق.

وفي هذه المرحلة بدأ الانحراف الذي لم يكتشف إلا بعد وقت طويل، حين تبين أن النصوص الفلسفية التي ترجمت إلى اللغة العربية في هذه المرحلة لم تكن هي النصوص الفلسفية اليونانية الأصيلة «وإنما كانت مزيجاً من المفاهيم السريانية المسيحية، فقد عمد رجال الترجمة من اليونانية والنساطرة إلى استغلال هذه المترجمات لنشر معتقداتهم النصرانية. وقد أكد هذا المعنى غير واحد من الباحثين المعاصرين، وفي مقدمتهم إسماعيل مظهر والدكتور النشار وعبد الرحمن مرحبا. فقد أكد إسماعيل مظهر أن الثقافة التي نقلت إلى العرب لم تكن ثقافة إغريقية صحيحة، بل كانت صورة من «النصرانية» تلونت بلون إغريقي عن طريق اليعاقبة والنساطرة الذين بشروا بمعتقداتهم النصرانية في الشرق متخذين من الفلسفة اليونانية سبيلا إلى التبشير بآرائهم.

وقد ترتبت على ذلك أخطار كثيرة، وأخطاء صعبة، حملت من تصدوا لتفسير هذه النصوص إلى كثير من التلفيق، فقد تبين أن كتباً ترجمت عزيت إلى أفلاطون وهي لغيره، وقد أفسدت هذه الترجمات ما حاوله «الفارابي» من التوفيق بين آراء أفلاطون في هذه الكتب وفي غيرها، وتبدو المشقة التي بذلها الفارابي في هذا الصدد، بينما لم تكن هذه النصوص لأفلاطون.

ومن هنا يتبين مدى الأخطار التي تعرض لها الفكر الإسلامي في هذه المرحلة. هذه الأخطار التي كانت تكون أشد وأقسى لو لم تكتمل للفكر الإسلامي مناهجه الأصيلة قبل الاتصال بالفلسفة اليونانية.

---

(١) راجع فصل انتفاضة النفوذ الباطني القديم.

وقد أعلن تشكيل المنهج الإسلامي ـ بذاتيته واستقلاليته وطابعه الخاص القائم على التوحيد ـ على صدق المواجهة لما طرحته الفلسفة اليونانية، فأعطت قوة كبرى للمقاومة، وحالت دون انصهار الفكر الإسلامي في الفلسفة اليونانية على النحو الذي وقع بالنسبة للفكر اليهودي والفكر المسيحي من قبل.

كان الفكر الإسلامي قد شكل منهجه المستمد من القرآن الكريم، وأقامه في مختلف جوانب الفقه والأصول، وتحقيق الحديث، منهجاً قرآنياً. توحيدياً له ذاتيته الواضحة، وأصالته الخاصة، ومن ثم فقد كان له موقفه الاستقلالي من حركة الترجمة، وما قام بعدها مما أطلق عليه حركة الفلسفة الإسلامية التي قادها الفارابي وابن سينا والكندي.

وقد عدت هذه المدرسة حلقة من حلقات الفلسفة اليونانية، واعتبرها الكثيرون من الباحثين متداداً إغريقياً لا صلة له بالفكر الإسلامي، وعدها آخرون محاولة سمحة للتوفيق بين الفكر الإسلامي والفلسفة اليونانية، وإدخال الفكر اليوناني الإغريقي في إطار من التوحيد الإسلامي.

والواقع أن الإسلام الذي تم بناؤه قبل اختيار الرسول محمد ﷺ للرفيق الأعلى، كان قد وضع للمسلمين مختلف الإجابات الصريحة والواضحة إزاء كل المسائل التي تخصصت الفلسفة في النظر إليها أو محاولة بحثها، وخاصة فيما يتعلق بعالم الغيب، أو ما وراء المادة الذي أطلق عليه «الميتافيزيقا».

فقد رسم الإسلام صورة كاملة لهذا العالم (ولم يترك للعقل مجالا للاجتهاد فيها، وحدد معالمها تحديداً كاملاً، ونهى أشد النهي عن تجاوز تلك المعالم).

كما نسق منهجاً متكاملاً عن حقائق الله والوجود والموت والبعث والجزاء،

لم يكن المسلمون مع وضوحه وصدقه في حاجة إلى تفسيرات أخرى تأتيهم من خارج عقيدتهم.

* * *

ويرجع الدكتور سامي النشار موقف الإسلام في تقديم منهج كامل للغيبيات، وما بعد الطبيعة دون ما حاجة إلى إصطناع المسلمين للبحث الفلسفي إلى عدة أسباب منها: (قصور العقل الإنساني عن التوصل إلى شيء ذاته وإلى الكنه (الماهية)، فقد حدد القرآن مسائل ما بعد الطبيعة تحديداً خاصاً، وطلب عدم الجري فيما خلفها، وتوجيه البحث في الكون وآفاقه دون البحث في الجوهر الذي لا نصل إلى حقيقته بمعنى البحث عن الخصائص دون البحث عن الماهية. ومنها أن الميتافيزيقا هي من نتاج الذات، والإسلام ينكر العقل الخاص إنكاراً باتاً. ذلك أنه دين اجتماعي لا يوافق على تصوير الكون صوراً خاصة ذاتية مخالفة لما وصفه في صورة عميقة.

ومن هنا فقد ألهم (القرآن) المسلمين ميتافيزيقاهم، ولم يرد شيئاً وراءها، وحدد لهم دائرة البحث الكلامي فوصلوا في ضوئه إلى أدق المعاني الفلسفية، ثم إن الإسلام أيضاً وضع من أوضاع الحياة العملية أسسها. فدعا المسلمين إلى العلم والتجريب.

وقد حررت هذه المفاهيم الواضحة المسلمين من عوامل الزيغ والشك والاضطراب النفسي وأسلمتهم إلى إنشاء عدد من المناهج العلمية منها علم أصول الفقه، ومنهج المعرفة الإسلامي، وانتهت بهم إلى إنشاء المنهج العلمي التجريبي. وقد كشف هذا المعنى بوضوح ـ في مواجهة الشبهات المثارة حول تبعية الفكر الإسلامي للفلسفة اليونانية ـ الشيخ مصطفى عبد الرازق على رأس مدرسة ما تزال تتابع عملها في صدق وقوة حين قال:

إن للفلسفة الإسلامية كياناً ممتازاً عن الفلسفة اليونانية، والفلسفة الإسلامية

لا يمكن أن يقال إنها مجهود العلماء الإسلاميين في دائرة الفكر اليوناني (يقصد الكندي والفارابي وابن سينا) بل هي هيكل خاص له مميزاته وخصائصه، ومهما يكن من أثر الفلسفة اليونانية وغير الفلسفة اليونانية. فإن له حظاً عظيماً من الشخصية والابتكار[1]. ويصل الباحث من هذا إلى القول بأن الفلسفة الإسلامية تتمثل في علم أصول الفقه الذي أنشأه الإمام الشافعي، ويصور الدكتور سامي النشار علم أصول الفقه بأنه إدراك القوانين التي توصل إلى استنباط الأحكام الشرعية الفرعية من أدلتها التفصيلية، أو هو نفس القواعد الموصلة بذاتها إلى استنباط الأحكام، وبمعنى أدق هو منهج الفقه أو منطقه مقابلا في ذلك لمنـهج الفيلسوف ومنطقه.

وإن هذا المنهج قد وضع قواعده الصحابة حين تكلموا في نقد الأخبار وعن القياس، وأضاف إليه التابعون بعد ذلك عناصر متعددة، ثم وضعه الإمام الشافعي وتلاميذه في صورة كاملة، ثم تناوله المعتزلة والأشاعرة بعد ذلك بالتعديل حتى اقاموه «علماً كاملاً» في صورة بارعة.

---

(١) مصطفى عبد الرازق (ك) تمهيد للفلسفة الإسلامية.

## الباب الرابع

# الفلسفة الغنوصيّة

١ ـ أصول الفلسفة الغنوصية

٢ ـ أثر الغنوصية في العقيدة والشريعة

(١) الباطنيّة

(٢) إخوان الصفا

(٣) القرامطة

٣ ـ أثر الغنوصية في التصوف

(١) وحدة الوجود

(٢) الاتحاد

(٣) الحلول

(٤) الإشراق

٤ ـ مواجهة الفلسفة الغنوصية

٥ ـ حركة الانتقاض والمؤامرة على الإسلام

# الفصل الأول

## أصول الفلسفة الغنوصية

سبقت الإسلام حصيلة متضاربة من الفكر البشري يمكن حصرها في ثلاث روافد.

**أولاً:** الهلينية اليونانية الوثنية.

**ثانياً:** الغنوصية الشرقية الثنائية.

**ثالثاً:** الدين البشري.

والغنوصية مصطلح للفلسفة الشرقية التي تقوم على أساس الكشف والتذوق، ولا تستند على الاستدلال أو البرهنة العقلية. وذلك في مقابل الفلسفة اليونانية القائمة على البرهان والمنطق.

وقد تنازع هذان المفهومان العالم قبل الإسلام بالإضافة الى الدين البشري المنحرف عن أديان السماء.

وتقوم الهلينية على فهم بشري يشكل فطرية معارضة كل المعارضة لمفاهيم الإسلام والأديان المنزلة القائمة على أساس التوحيد الخالص المستمد من الفطرة.

وقد تلاحمت في الغنوصية عشرات من المذاهب والعقائد، وصيغت منها دعوات كثيرة وأديان بشرية (المجوسية، والمانوية، والزرادشتية، والديصانية، والمزدكية، والمندائية، والمرقونية). وتقوم الغنوصية في مجموعها على ركائز خمسة:

**( أولاً )** : عبادة اثنين أحدهما : النور . والآخر الظلمة ، وإقامة الوجود على أصلين : أو إلهين : إله خير ، وإله شر .

**( ثانياً )** : عبادة النار وتقديسها .

**( ثالثاً )** : استباحة المحرمات ، والدعوة إلى شيوعية النساء والأموال ، وإباحة نكاح الأخوات والبنات ، والإغتسال بالبول .

**( رابعاً )** : رفض الذبائح ، ورفض إراقة الدماء والزهد في أكل اللحوم وعدم مس الماء الطهور .

**( خامساً )** : خلط الخالق بالمخلوقات في مفهوم وحدة الوجود أو الحلول .

وقد نشأت بعد الاسلام من خلال مفاهيم « الغنوصية » فلسفات أبرزها « الدعوة الباطنية » التي تشكلت في دعوات القرامطة والحشاشين ، وبعض الفرق الغالية من الشيعة ، وبعض دعاة التصوف الفلسفي ، وكلها حاولت أن تخضع الإسلام لمفاهيم الفكر البشري ، أو تخرج الإسلام من مفاهيم التوحيد ومنهجه الرباني الفطري الاصيل .

وإذا كانت الغنوصية قد أثرت على الديانتين السماويتين : اليهودية ، والمسيحية . فإن محاولتها للتأثير على الإسلام قد ووجهت منذ اليوم الأول مواجهة صحيحة حالت دون سيطرة مفهوم الغنوصية الذي يتعارض تعارضاً كاملاً مع الإسلام من حيث مخالفته للإسلام عقيدة وعملاً .

ولقد استطاع مفهوم أهل السنة والجماعة أن يعارض الغنوصية ويطاردها مطاردة صحيحة على مختلف المستويات العلمية والإجتماعية ، كما طارد الهلينية من حيث إنهما يتعارضان تعارضاً كلياً مع مفهوم الإسلام القائم على التوحيد . ولا ريب انه كان وراء محاولات طرح الغنوصية في أفق الإسلام مؤامرة شعوبية كبرى ، خاصة إذا تبين أن الغنوصية ذات جذور يونانية في فلسفة أفلاطون . ثم نمت بعد ذلك في مفهوم الأفلاطونية الحديثة .

ويمكن القول إن فلسفة فارس القديمة كلها ممثلة في زارادشت وماني قد حملت مع ثنائية الآلهة عبادة النار مع استباحة المحرمات والدعوة إلى شيوعية النساء، كما حملت فلسفة الهند مفهوم وحدة الوجود والحلول والإتحاد.

هذه المفاهيم كلها التي كانت قبل الإسلام مختلفة متعددة على تفاوت واضطراب، قد تجمعت من جديد بعد الإسلام لتشكل قوى معارضة تنقض على الإسلام ودولته ومجتمعه، وتعمل من وراء هدف واضح صريح للقضاء على الإسلام بضربة من الداخل، فقد دخل في الإسلام هؤلاء الدعاة إلى هذه المذاهب، وحاولوا أن يصوغوا فكرهم من داخل قشرة إسلامية حتى يتمكنوا من إغراء ذوي الفهم المحدود به، وخاصة في تلك الجولة الضخمة التي عرفت باسم « الباطنية » والتي ادعت أن للشريعة ظاهراً وباطناً، وعمدت إلى إنكار المفاهيم القرآنية الأصيلة التي تقوم على عقيدة الإسلام ومناهجه، وتفسر هذه المصطلحات حسب الأغراض. وكان الهدف الأغلب من هذا هو ما صرحوا به حين قالوا [ إن الشريعة قد دنست بالجهالات، واختلطت بالضلالات. ولا سبيل إلى غسلها وتطهيرها إلا بالفلسفة ].

والدعوة الباطنية مؤسسة على مفاهيم الغنوصية التي لها تقارب واضح، وأصل متصل باللاهوت اليوناني والطبيعيات الإغريقية. وقد استخدموا مصطلحات الفلسفة اليونانية وأفكارها وعقائدها في أدبهم.

وقد ارتبطت هذه الفروع بالترجمة التي طرحت في المجتمع الإسلامي الفلسفة اليونانية، والتي بدأت أساساً بترجمة الطب والعلوم الطبيعية والكيمائية، ثم جنحت إلى ترجمة علم الأصنام عند اليونان، وهو ما يطلق عليه فلسفة الإلهيات والميتافيزيقا.

ومن هنا يمكن القول إن الحصيلة السابقة للإسلام كلها من هلينية وغنوصية ودين بشري. إنما تلتقي جميعاً في مفاهيم متقاربة خروجاً عن

التوحيد بين الثنائية والتثليث، وخروجاً عن الشريعة الإسلامية في الإباحية، والخروج عن أصول الإسلام بالزهد في اللحوم، ومس الماء الطهور بخلط الخالق بالمخلوق أو استلهام الوجدان كاسلوب واحد للمعرفة تحت اسم الاشراق، وكل ذلك يعارض الإسلام في مفاهيمه معارضة شاملة.

وقد كانت هذه الدعوات قائمة قبل الإسلام، ثم جددت نفسها بعد الإسلام بدافع من الحملة التي قادها الشعوبيون وأهل المجوسية القدامى والمتآمرون على تقويض الإسلام من الداخل، والعاجزون عن مهاجمة الإسلام مهاجمة صريحة مكشوفة. وقد بدا ذلك في صور متعددة، ودعوات كثيرة منها.

(**أولاً**): ما ذهب إليه ابن عربي والحلاج وغيرهما من رجال التصوف الفلسفي في القول بوحدة الوجود والحلول والاتحاد وهو فكر وافد من الفلسفات الهندية القديمة.

(**ثانياً**): ما ظهر من دعوات القرامطة، والزنج، والحشاشين، والمزدكية المتجددة، والمانوية، والمندائية، والديصانية، والمرقوبية.

(**ثالثاً**): ما ظهر من مفكرين وشعراء من أمثال: عبدالله بن المقفع، وصالح بن عبد القدوس، وعبد الكريم بن أبي العوجاء، وبشار بن برد، وحماد عجرد، وأبي العتاهية.

(**رابعاً**): ما ظهر في العصور الأخيرة في إيران والهند من دعوات إلى البابية والبهائية والقاديانية.

ويمكن القول بأن هذا الخطر بدا واضحاً صريحاً في المفاهيم التي طرحها اليهودي عبدالله بن سبأ. وكانت مصدراً للفتنة الكبرى بين المسلمين، والخلاف الذي أدى إلى مقتل الخليفتين: عثمان بن عفان، وعلي بن أبي طالب، وظهور الفرق، وخاصة الفرق من دعاة التأليه، وعبادة الملوك، والحق

الإلهي الموروث، وغير ذلك من دعوات ظهرت باهرة في منتصف القرن الهجري الأول، ثم ظلت تسري كالنار في الهشيم حتى إختلطت من بعد بالمفاهيم الإسلامية الصحيحة، وحاولت أن تشكل فرقاً سياسية متعددة.

ثم كان عبدالله بن المقفع المجوسي الأصل من أخطر من دعا إلى هذه المفاهيم، وأدخلها في اللغة العربية والإسلامية بالترجمة من الفارسية، وهي خطة أخرى مساوية لخطة ترجمة الإلهيات من اليونانية.

وقد مضى ابن المقفع بعد أن أسلم ظاهراً لا يكف عن مفاهيمه المجوسية، وعبادة المجوسية أيضاً. وقد خلط الزرادشتية بالمانوية والمزدكية، وقام على ترجمة كتاب مزدك الذي يعد أساساً لدعوته والمعروف باسم (ديستا) كما كتب «الدرة اليتيمة» في معارضة القرآن، وكتب فصلا أضافه إلى ترجمته لكتاب «كليلة ودمنة» هو باب برزويه. وهو أخطر ما كتب عن نقد الأديان والقول بتعارضها، وعدم التوصل إلى اليقين فيها. ثم الدعوة إلى «العقل» والعقل وحده كأعظم وسيلة للمعرفة وأفضلها، وهو في هذا يجمع بين الغنوصية والهلينية معاً.

وقد تنبه (البيروني) منذ وقت باكر في كتابه: «تحقيق ما للهند من مقولة» إلى هدف ابن المقفع في نشر الإلحاد والتحلل من الإسلام، وأنه قصد بذلك تشكيك ضعيفي العقائد في الدين[1]. ومن خلال دعوة ابن المقفع تشكلت تلك المجموعة التي أولاها اهتماماً كبيراً الدكتور طه حسين، وأرخ لها، وعدها علامة على المجتمع الإسلامي، وأن فكرها إنما يعني أن عصرها كان عصر فسق ومجون وشك. وهم حماد عجرد، وبشار بن برد، وصالح بن عبد القدوس، وعبد الكريم بن أبي العوجاء، وأبو العتاهية.

(١) دكتور النشار: نشأة الفكر الفلسفي في الإسلام.

وهناك وقائع ثانية تؤكد أن هذه المجموعة كانت تحاول تزييف الاسلام، وتلقي إليه بمفاهيم منحرفة، وليس أدل على ذلك مما رواه البيروني في كتابه (الآثار الباقية) عن عبد الكريم بن أبي العوجاء الذي أعلن عندما قتله محمد بن سليمان والي الكوفة عما أحدثه من زيف واضطراب حين قال:

أما والله لئن قتلتموني لقد وضعت أربعة آلاف حديث أحرم فيها الحلال، وأحل فيها الحرام. وقد فطرتكم في يوم صومكم، وصومتكم في يوم فطـركم، وما ذكره أبو نواس عن حماد عجرد حين قال: كنت أتوهم ان حماد عجرد إنما رمي بالزندقة لمجونه في شعره حتى حبست في حبس الزنادقة معه، فإذا (عجرد) إمام من أئمتهم، وان له شعراً مزاوجاً بيتين بيتين يقرأون به في صلواتهم.

وقد أشار إلى عقيدة هذه الجماعة الخليفة المهدي في رسالته لابن موسى الهادي كما أوردها الطبري في أحداث عام ١٧٩ هجرية حين قال:

انهم يدعون الناس إلى ظاهر حسن كاجتناب الفواحش والزهد في الدنيا، والعمل للآخرة، ثم يخرجونهم بعد ذلك إلى تحريم اللحوم ومس الماء الطهور. ثم يخرجونهم بعد ذلك إلى عبادة اثنين أحدهما: النور، والآخر الظلمة، ثم يبيحون لهم بعد ذلك نكاح الأخوات والبنات، والإغتسال بالبول، وسرقة الأطفال من الطرق لينقذوهم من ضلال الظلمة إلى هداية النور.

وقد ظهرت هذه المفاهيم المجوسية في شعر بشار بن برد، وأبي العتاهية، ويحي بن زياد، ومطيع بـن إيـاس. وذلـك بعـد أن انتشرت كتـب مـاني ومرقبون مما نقله ابن المقفع، وترجمت من الفارسية والفهلوية إلى العربية. وما أضيف إليه من آراء المزدكية والمندائية والخرمية وغيرها من فرق يجمعها كلها جامع واحد هو الغنوصية. وقد قامت الصلة بين المزدكية والقرامطة، فأخذ القرامطة شيوعية الأموال التي دعا إليها مزدك.

ولقد واجه المسلمون هذه الدعوة وأولوها اهتماماً كبيراً وصححوا مفاهيمها، وكشفوا عن دخائلها التي تسربت إلى التفسير والحديث.

وقاوم العلماء الغنوصيات والأفلوطينيات في مختلف فروع العلوم، وقاوم المتكلمون الأوائل الطوائف الغنوصية مقاومة عنيفة.

وأقام الفقهاء باباً في الفقه يحدد العلاقة بين المسلمين وهذه الفرق، ويحرمون نكاح نسائهم وأكل ذبائحهم.

# الفصل الثاني

## أثر الغنوصية في العقيدة والشريعة

### أولاً - الباطنية

تقوم مفاهيم الباطنية على الرفض والتعطيل، وإبطال النبوة والعبادات، وإنكار البعث، والقول بأن للقرآن والأحاديث بواطن تجري مع الظواهر مجرى اللب من القشر.

وقالوا: إن اللغة والأدب علوم لا تراد لنفسها بل لغيرها.

وقد قامت دعوتهم على أساس تأويل آيات القرآن الكريم. وقالوا إن الشرائع تلزم العامة دون الخاصة، ودعوا الخاصة إلى رفع الفرائض، وأباحوا لهم المحظورات، وبلغ من أمرهم أنهم أولوا الصلوات الخمس وصيام رمضان والحج. وقدأخذت الباطنية بآراء مزدك في شيوعية الأموال والنساء. وقالت الباطنية بعظمة الإمام وإنكار الميعاد، والإباحة المطلقة، واستباحة المحظورات.

قامت آراء الباطنية على أساس الفلسفة اليونانية، وتعاليم مزدك وزرادشت وماني، واتخذت من حب آل البيت ستاراً لها، ومن الصوفية والشعوذة والتقشف وسيلة لها، واستهدفت من وراء ذلك كله استعادة دولة الأكاسرة(١). وعمدت إلى الهدم عن طريق تحطيم عقيدة الإسلام وإثارة الشكوك فيها.

---

(١) أشار الدكتور زاهد علي في كتابه: ديانتنا الإسلامية ونظامها مما نقله عنه أبو الحسن =

وقد ساعدهم على نشر هذه الآراء جماعات من العلماء كإخوان الصفا. وعدد من الشعراء الماجنين. وبعض الشخصيات المنحرفة التي حملت لواء ذلك بالتأليف والكتابة. ومنها ابن المقفع والحلاج وحيدر بن كاوس.

حاولت الفلسفة الباطنية تحريف معاني الكلمات الإسلامية العقائدية والشرعية، ككلمات النبوة والرسالة، والملائكة، والمعاد، والجنة، والنار، والشريعة، والفرض، والواجب، والحلال والحرام، والصلاة، والصوم، والزكاة، والحج.

هذه الكلمات عمدت الفلسفة الباطنية إلى تغيير مفاهيمها الإسلامية الأصيلة. كانت هذه المحاولة تجعل لكل كلمة ظاهراً وباطناً. أما الظاهر فهو ما قررته الشريعة الإسلامية، وأما الباطن فهو ما أقامته الفلسفة الباطنية [1]: وقالوا: إن لظواهر القرآن والأحاديث بواطن تجري من الظواهر مجرى اللب من القشر، وإنها بصورتها توهم الجهال صوراً جلية، وهي عند العقلاء رموز وإشارات إلى حقائق خفية. وان من تقاعد عقله عن الغوص في الخفايا والأسرار والبواطن والأغوار، وقنع بظواهرها كان تحت الأغلال التي هي تكليفات الشرع، ومن ارتقى إلى علم الباطن سقط عنه التكليف، واستراح من أعبائه.

يقول الدكتور زاهد علي: لقد كان الأئمة والدعاة يفهمون تلاميذهم من الطبقة العليا أن الظاهر متناقض ومعوج: إنه علم كثيف، وإنه تقليد محض لا دليل عليه، وأهل الظاهر هم أهل الكفر وأهل الشرك، ويقول إن لب تعليماتنا الإسماعيلية ولبابها: ان الغاية من الشريعة التأويل الذي هو من الجسد

---

= الندوي: قوله: لقد اعتقدنا أن جميع النظريات التي جاءت في علم الهيئة القديمة، وفي علم الطبيعيات وعلم الإلهيات صحيحة لا يتطرق إليها الشك، فاستعنا بها في إثبات دعوتنا.

(١) تلبيس ابليس لابن الجوزي.

كالروح، وأن التنزيل ليس جسماً.

ولقد كشفت كثير من الأبحاث عن اتجاه هذه الفلسفة التي حاولت إخراج المسلمين من مفاهيم الإسلام عن طريق إنشاء مفهوم آخر للكلمات الواضحة التي قام عليها الإسلام أساساً استمداداً من القرآن والسنة الصحيحة.

يقول السيد أبو الحسن الندوي[1]: أدركت الباطنية ان الصلة القائمة بين الكلمات والمصطلحات الدينية ومعانيها أساس تقوم عليه الحياة الإسلامية، والهيكل الفكري والعلمي في حياة المسلمين، هذه الصلة التي يمتاز بها المسلمون تربطهم بما فيهم ومنابعهم الصافية. فإذا انقطعت هذه الصلة بين الكلمات والمعاني، وأصبحت الكلمات لا تدل على معنى خاص. ومفهوم معين أو تسرَّب الشك إليها أصبحت هذه الأمة فريسة كل دعوة وفلسفة، وساغ لكل أحد أن يقول ما يشاء.

فمثلاً كلمة الصلاة: إذا أطلق لفظها انتقل الذهن إلى هيئة عبادة خاصة فيها قيام وركوع وسجود وقراءة وتسليم، فإذا هم يضيفون للعبادة معنى آخر هو قولهم: الصلاة: هي الدعاء للإمام.

أما الزكاة فهي عندهم بث العلوم لمن يسمعها يتزكى بها. أما الصوم فهو كتمان العلم عن أهل الظاهر.

أما الحج فهو طلب العلم الذي تشد رحائل العقل إليه. وهكذا تنهدم في مفاهيمهم أصول الإسلام الحقيقية. وهكذا يذهبون إلى تزييف معاني الكلمات المختلفة. وقد أسرفوا في ذلك حتى قالوا إن معنى (لا إله إلا الله) هو (لا إمام إلا إمام الزمان).

★ ★ ★

(١) أبو الحسن الندوي من كتابه: رجال الدعوة والفكر.

ولم يقف أمرهم عند هذا الحد، بل أخذوا يعلنون استخفافهم بالظاهر، ووصفوه بالتناقض والعوج، وأنه قائم على التقليد، ولا دليل عليه، بل بلغ بهم الأمر أن قالوا: إن أهل الظاهر هم أهل الكفر والشرك.

وقد وصف الباحثون الفلسفة الباطنية بأنها ثورة على النبوة المحمدية [1]. وأن هدفها الحقيقي هو تدمير دولة الإسلام وإقامة دولة المجوس.

لقد قامت الفلسفة الباطنية أساساً على الإلحاد في العقيدة، والإباحية الأخلاقية. ومن خلال الفلسفة الباطنية قامت دعوات عديدة، ولم تزل، كلها تعتمد الفلسفة اليونانية والفلسفة الغنوصية معاً أساساً لها، وخاصة الأفلاطونية المحدثة، وجرت كلها على التأويل الفلسفي والاستناد على مفاهيم أفلاطون من ناحية، والحق الإلهي في المجوسية الفارسية من ناحية أخرى، وتخالف في ذلك مفهوم الإسلام مخالفة تامة، وتعارضه في أدق مفاهيمه.

فليس في الإسلام وسيط بين الله والعباد، ولا إنسان له صفة العصمة إلا الرسول محمد ﷺ المؤيد بالوحي، والذي وصفه ربه بأنه بشر ورسول.

فليس لعلم الله وريث خاص، ولم يوص الرسول إلى أحد بالإمامة من بعده. وليس هناك قانون ملزم للمسلمين غير الشريعة الإسلامية التي جاء بها القرآن الكريم، والتي اكتملت قبل أن يختار الرسول الرفيق الأعلى.

ولقد فصل الإسلام تماماً بين الألوهية والبشرية والنبوة فلا يمكن أن يرقى الإنسان إلى مرتبة الألوهية [2]. كما تقول بعض العقائد والفلسفات. وكذلك نظريات (القطب). فليس من حق زعيم أي طائفة أن يدعو قومه إلى عبادته، بينما هو في الأغلب عبد لدولة أجنبية.

---

(١) نفس المرجع.
(٢) محمد علي أبو ريان. الثقافة سنة ١٩٥٢.

## ثانياً ـ إخوان الصفا

لم تلبث حصيلة الفكر البشري المعارض للشريعة الإسلامية والتوحيد أن تبلورت في مذهب ومنهج هو رسائل إخوان الصفا.

وتعد جماعة إخوان الصفا من أخطر الجمعيات السرية التي ظهرت في منتصف القرن الرابع الهجري في البصرة كمنطلق للفكر الشرقي القديم الذي حاول أن يتحرك من جديد من خلال الفكر الإسلامي والمجتمع الإسلامي لبثّ هذه الآراء وتحويلها إلى حركة تمثلت في حركة القرامطة من بعد.

وإن أكبر الريب والشكوك التي تتصل بهذه الجماعة السرية إنما يتمثل في إخفاء أصحابها أسماءهم في أشد عصور حرية الرأي والفكر وإنطلاق دعوات الإلحاد والإباحة على ألسنة بشار وأبي نواس وغيرهم.

فقد عرف أن خمسة[1] من أتباع المجوسية القديمة ومن أتباع ماني ومزدك ممن أعلنوا الإسلام تقية هم الذين كتبوا هذه الرسائل. وفرضوا فيها منهجاً زائفاً يحمل الدعوة لقلب المجتمع الإسلامي، وضرب الإسلام من الداخل، وجعلوا قوامه خلط الشريعة الإسلامية بالفلسفة اليونانية والغنوصية، وقوامه الفلسفة الباطنية.

يصفهم أبو حيان التوحيدي في كتابه الإمتاع والمؤانسة فيقول: كانت هذه العصابة قد تألفت بالعشرة. وتصافت بالصداقة فوضعوا مذهباً زعموا فيه أنهم قربوا به الطريق إلى الفوز برضوان الله. وذلك أنهم قالوا: إن الشريعة قد دنست بالجهالات، واختلطت بالضلالات، ولا سبيل إلى غسلها وتطهيرها إلا بالفلسفة. لأنها حاوية للحكمة الاعتقادية والمصلحة

---

(١) هؤلاء الخمسة هم أبو سليمان محمد بن معشر البستي، المعروف بالقدسي، وأبو الحسن علي بن هارون الزنجاني، وأبو أحمد المرجاني، وأبو حسن العوفي، وزيد بن رفاعة.

الاجتهادية، وزعموا أنه متى انتظمت الفلسفة اليونانية، والشريعة الإسلامية فقد حصل الكمال. ووضعوا خمسين رسالة (٥١ رسالة) في جميع أجزاء الفلسفة، وعلميها وعمليها، وأفردوا لها فهرساً وسموها رسائل إخوان الصفا. وكتبوا فيها أسماءهم وبثوها في الوراقين ووهبوها للناس، وحشوا هذه الرسائل بالكلمات الدينية، والأمثال الشرعية، والحروف المحتملة والطرق الموهمة.

وقال أبو حيان التوحيدي: إن هذه الرسائل مبثوثة من كل فن بلا إشباع ولا كفاية ينكرون فيها البعث بالأجساد (جـ ٣ ص ٧٨ وجـ ٤ ص ٤٠) ويفسرون الجنة والنار خلافاً لما تواتر عن المسلمين، وفهمهم من النصوص الدينية القطيعة، وينكرون الشياطين على الصورة التي يفهمها معظم المسلمين، ويقولون: هي النفوس الشريرة الهائمة فيما دون فلك القمر مع إخوانها من النفوس التي جهلت ذواتها في الحياة الدنيا، ويفسرون الكفر والعذاب تفسيراً باطنياً فلسفياً. وتشمل على كثير من الآراء الخيالية بعضها متلقف من اليونان، وبعضها وليد الأذهان، وبعضها تراث الكهان كالأسرار والأعداد والتنجيم والفأل والزجر والسحر والعزائم والإيمان بطوالع النجوم وتأثيرها، وموسيقى الأفلاك ونغماتها وألحانها. وتشتمل كذلك على عقيدة الوحي، والإمام المستور، والتقية. وفيها إعداد النفوس والعقول لدولة جديدة، تقوم على إمامة أهل البيت، وإخطار بانتهاء الدولة العباسية وزوالها [1].

وبالاختصار فهي مجموعة غريبة من الحكمة والديانة والشعوذة والكهانة والسياسة، تقوم على أساس الفلسفة اليونانية الطبيعية والإلهية ونظرياتها وأوهامها، وتنهار بانهيارها. وليست لها أهمية كبيرة، لولا الاضطراب الفكري الذي كان يسود العالم في القرن الرابع والخامس، ومعنى هذا أن هذه

---

(١) كتاب الإمتاع والمؤانسة.

الرسائل قد حاولت أن تشكل من الفكر البشري المتعارض، المتداخل بين الفلسفة اليونانية بماديتها ووثنيتها، والفكر الغنوصي بإسرافه في الخيال، وأهواء الإشراق والاثنينية وغيرها منهجاً يخرج بالاسلام عن طريقه القويم فقد جمعت هذه الدعوة مزيجاً من الأفلاطونية المحدثة والفيثاغورية الجديدة وإلهيات اليونان، وباطنيات المجوس.

وقد جاءت هذه الحصيلة القديمة السابقة للإسلام لتتشكل من جديد في إطار الظاهر من الإسلام لترسم منهجاً يخرج الإسلام عن أبرز مقوماته، وهي التوحيد والنبوة والأخلاق والإيمان بالبعث والجزاء.

وقد جاءت لتمثل ذروة ما وصلت إليه محاولة انبعاث الفكر البشري مرة أخرى بعد الإسلام في صورة جامعة بين الهلينية والغنوصية تغذي كل الدعوات الهدامة، والفرق الضالة.

وقد أشار المستشرق دي بور إلى ذلك حين قال: إن آراء إخوان الصفا ظهرت في جملتها من جديد عند فرق كثيرة في العالم الإسلامي كالباطنية والإسماعيلية والحشاشين والدروز والقرامطة بالبحرين، والدواعي بطبرستان، والديلم، والاطروسن.

ولا ريب أن هذه الحركة الفكرية لانبعاث الفكر البشري القديم من جديد، وانفجاره على هذا النحو، إنما ترجع أساساً إلى الخطر الذي بدأ بترجمة الإلهيات اليونانية، وما جرى من محاولات أتباع الفلسفة اليونانية (ابن سينا والفارابي) محاولة التوفيق بينها وبين الشريعة الإسلامية، وهو أمر من الاستحالة بمكان.

ومن هنا يمكن القول إن الهلينية على الصورة التي تشكلت بها في منهج إخوان الصفا بالفكر وبالحركات الهدامة بالتطبيق هي المرحلة التالية الطبيعية لخروج الترجمة عن أصولها الحقيقية التي كانت تهدف أساساً إلى ترجمة

الطبيعيات والرياضيات والطب والفلك.

وإذا كان الفلاسفة في العهد الأول قد حاولوا أن يوفقوا بين الإسلام والفلسفة. فإن إخوان الصفا قد حاولوا أن يصهروا الشريعة الإسلامية داخل الأديان والعقائد والفلسفات «زاعمين أن مذهبهم يستغرق المذاهب كلها، فكأنهم أرادوا بذلك أن يضعوا ديناً عقلياً».

وقد تزيد دعاة إخوان الصفا تزيداً شديداً حين ظنوا أنهم قادرون على صهر الشريعة الإسلامية في بوتقة الفكر البشري، أو احتوائها مما هو من المستحيلات لاختلاف النهج والاتجاه والقيم الأساسية التي يفرق بينها فارق واحد هو: التوحيد «طابع الإسلام» العميق الجذور.

ومن خلال مراجعة آرائهم يتبين فسادها وضعفها وعجزها عن إرضاء العقل الإنساني أو النفس الإنسانية، لبعدها عن الفطرة، ومعارضتها للمزاج الإسلامي، والروح الأصيل والذات البشرية.

وقد صور بطرس البستاني تضارب آراء إخوان الصفا فقال: إنها آراء متراجفة مفككة، فيها عود وتكرار ومزج غريب اختلطت فيه الفلسفة التقليدية والعلوم الرياضية والطبيعية بخرافات السحر والتنجيم، وأسماء ألف ليلة وليلة وحكايات كليلة ودمنة.

ووصفها أبو حيان التوحيدي بأنها خرافات وكتابات، وتلفيقات وتلزيقات. وقال إنه حملها إلى شيخه أبي سليمان المنطقي السجستاني، وعرضها عليه، فنظر فيها أياماً وتبحرها طويلاً، ثم ردها إليه وقال: تعبوا وما أغنوا، ونصبوا وما أجروا، وحاموا وما وردوا، وغنوا وما أطربوا، ونسجوا فهلهلوا، ومشطوا فغلغلوا.

* * *

ومن الحق أن يقال إن كل الظنون التي ساورت من جددوا هذا الفكر في العصر الحديث، وأعادوا طبعه من أن هذا عمل إسلامي أو فكري أصيل قد تبددت عندما نشرت عشرات الوثائق التي اكّد فيها أصحابها نسبة إخوان الصفا إلى الفرق الغالية، والباطنية. حتى لينعقد الإجماع الآن تماماً على أن إخوان الصفا، جماعة مشبوهة ليست من العلماء، ولكنها من دعاة الباطنية والمجوسية والزنادقة الحاقدين على الإسلام واللغة العربية والدولة الإسلامية. كما تأيدت صلاتهم الواضحة الأكيدة بالحركات المتآمرة على النظام الإسلامي، والتي كانت تعمل على تقويض مجتمعهم.

ظهر هذا وانكشف بالرغم من زيف القناع الذي وضعه هؤلاء الدعاة من الجماعة السرية على هدفهم السياسي ليظهروا أمام الناس على أنهم من أهل الفكر الخالص، فقد كشفت الدراسات المختلفة عن حقيقتهم، وأبانت عن مقاصدهم، وعن حقيقة انتساب أفكارهم، ودعوتهم لمضامين الفكر البشري الوثني الغنوصي، كما أبرزت معارضة ما ذهبوا إليه لمضامين الإسلام وقيمه وشريعته. وفي مقدمتها «التوحيد» لب لباب الإسلام وفكره وقرآنه ودعوته. وأبرز ما تكشف عنه شعوبيتهم ومحاولتهم لهدم المقومات الأساسية للإسلام. هذا الخلط العجيب المقصود بين أنبياء الله المرسلين، وبين أمثال اليزدان وغازيمون وأرسطو وأفلاطون. ومحاولة خلق نسب واحد لمحمد وموسى وعيسى، مع هؤلاء يخرج بهم عن حقيقة أساسية هي: أنهم رسل الله المؤيدون بالوحي والمنزل عليهم الكتاب، والذين يحملون الفكر الإنساني الرباني المصدر، المعارض تمام المعارضة للفكر البشري الوثني المضطرب، وهو نفس الفكر الذي تجدد من بعد في العصر الحديث من خلال دعوة من أخطر الدعوات هي الماسونية، ووليدتها البهائية. ولنا أن نتساءل لماذا حرص الدكتور طه حسين على تجديد رسائل إخوان الصفا؟.

وقد أشار الدكتور جبور عبد النور في دراسته عنهم: انهم من الفرق

الضالة التي عمدت إلى الاحتماء كذباً بأهل البيت، وان أكبر مصدر لإدانتهم أسلوبهم الرمزي، وإخفاء أسمائهم، والتحرز من ذكر الأعلام الذين يصدرون عن آرائهم وفكرهم تحفظاً من أن يكشف مذهبهم أو هواهم السياسي. وان في كتاباتهم إشارات غامضة يستشف منها ميل خفي إلى المجوسية المعدلة بالوثنية الإغريقية، وهم يرون أن عليا هو إلى طبقة الأنبياء أقرب، ويفرقون بينه وبين الصحابة، ويحاولون وصفه بالتفوق على الخلفاء الراشدين.

وأشار الدكتور جبور عبد النور إلى اتسام رسائلهم بالنقمة على الدولة الإسلامية، والسعي إلى تحطيمها، وكشف عن أن كتاباتهم تبرز مفاهيم الباطنية والإسماعيلية والفيثاغورية والأفلاطونية والمجوسية جميعاً في خلط على غير وفاق، وأن في نصوصهم فقرات كثيرة، ولكنها مموهة تشير الى أن في قرارة نفوسهم ميلاً إلى الوثنية. والوثنية (إغريقية وبابلية وأشورية). وأنهم حين يوازنون بين الأديان السماوية وبين الأديان الأرضية، يسرفون في تمجيد مفاهيم الأديان الأرضية اسرافاً واضحاً.

ومن الحق أن يقال إن وقائع التاريخ أثبتت فشل هذه الدعوة وإخفاقها وعجزها عن تحقيق نظام أو عقيدة او منهج، أو أن تنشىء مجتمعاً يقوم على أساسها لأنها خالفت جوهر الفطرة، ونهج التوحيد الذي قام عليه الإسلام، كما بعدت عن المزاج الإسلامي والملامح الذاتية التي تشكلت عليها هذه الأمة.

وقد أكدت هذه التجربة عجز أية محاولة من محاولات الفكر البشري بعد نزول الإسلام عن تحقيق تصور فكري أو منهج عملي ترتضيه الجماعة الإسلامية أو الإنسانية بعامة، كما أكدت عجز المحاولات المتصلة عن دمج الفكر الإسلامي القائم على التوحيد، أو تذويبه أو احتوائه داخل أي فلسفة وثنية. وقد تحقق عجزهم الكامل عن مثل هذه المزاوجة أو التذويب بين فكر

قائم على التوحيد الخالص فيه الفطرة، ورسالة السماء معاً، وبين مثل هذه الأفكار البشرية المتضاربة القائمة على الوثنية، والتعدد والثنائية والتثليث والإباحية والإلحاد.

لقد فشلت هذه المحاولة، كما فشلت كل المحاولات التي سبقتها في خلط الإسلام بغيره أو إضافة أجزاء منه إلى مذاهب وفلسفات أخرى.

واستطاع الإسلام أن يكشف عن ذاتية أصيلة تقبل الانصهار داخلها دون أن تنصهر هي في أي فكر، أو تذوب في أي دعوة أخرى. وقد أعطتها أصالة تشكيلها وتركيبها قدرة على الاحتفاظ بجوهرها حتى في أشد الفترات ضعفاً وتخلفاً.

ولقد كان من أخطر أعمال التبشير والاستشراق في تشويه الحقائق، وإعادة طرح مثل هذه الزيوف أن عمد بعض دعاته إلى إحياء هذه الرسائل وطبعها وتقديمها على أنها مثل أعلى من الفكر الحر.

وقد أولى الدكتور طه حسين اهتمامه بمثل هذه الرسائل وإصدارها في صيغة تعمد فيها نفس الهدف الذي كتبت له من قبل، غير أن هذا العمل لم يجد تقبلاً واضحاً. بل وجد على العكس من ذلك تفنيداً ونقداً انتهى إلى الرفض، وكشف الزيف، وكما أخفقت هذه المحاولة إخفاقاً تاماً في إقامة منهج فكر، أو إنشاء مجتمع داخل الإسلام. فإنها قد أخفقت مرة أخرى في محاولة إعادتها. بعد أن أصبحت أثراً تاريخياً عتيقاً لا يؤثر في حياة المسلمين ولا في فكرهم، وبعد أن كشفت الوثائق صلة هؤلاء الدعاة بحركات الهدم والانتفاض على الإسلام والمسلمين.

ومن خير ما كتب في ذلك ما أورده المستشرق الفرنسي كازنوفا حين[1]

---

(١) الرسالة: ص٥٧٤ سنة ١٩٣٤.

أشار إلى نزعة الاعتقاد الواضحة في هذه الرسائل، وهي وحدة الوجود (البانتيزم) وصلتها بفكر القرامطة والحشاشين والإسماعيلية والغلاة، وأنها عمدت إلى تفسير القرآن تفسيراً غير ما يدل عليه ظاهر اللفظ وهو الأسلوب الباطن الذي جرت عليه بعض الفرق.

وذلك في قولهم «اعلم أن للكتب الإلهية تنزيلات ظاهرة، وهي الألفاظ المقروءة المسموعة. ولكن لها تأويلات خفية باطنية، وهي المعاني المفهومة المعقولة».

وغاية ما يقال ان خطة إخوان الصفا هي امتداد لعبد الله بن سبأ، ومن بعده عبد الله بن المقفع، وفي رسائلهم دلائل واضحة وإشارات لا تخفى عن هذا الارتباط.

## ثالثا ـ القرامطة

إذا كانت عصارة الفكر البشري الوثني المؤيد بـالغنـوصيـة قـد عـادت لتتشكل من جديد في ظل الإسلام، وبعد نزول الشريعة الإسلامية في فكر موحد هو: رسائل إخوان الصفا (وغيرها كثير من الدعوات، ولكنها تمثل أرقى صياغة لهذا الفكر). فإن محاولة هذا الفكر لم تلبث أن دخلت في عديد من محاولات العمل بالتآمر على هدم الجماعة الإسلامية، وإقامة جماعة الفكر البشري الوثني الغنوصي.

وقد تعددت هذه المحاولات في تاريخ الإسلام. وكانت أبرزها حركة القرامطة التي تعد ثمرة حقيقية لانتقاض الفكر البشري في قلب الإسلام. وقد كشفت التجربة بعد الوقت الطويل عن عجزها عن تحقيق أي ثورة أو نهضة أو إصلاح، ودمغت القائمين بها بالفشل، ورسمت نموذجاً حيًّا واقعاً عن فساد أي تجربة تخرج عن أصول الإسلام وجوهر قيمه.

ولقد تصاعدت أصوات مريبة في العصر الحديث تحاول أن تجعل من القرامطة فكرة إسلامية أو ثورة إسلامية، وصفت بالاشتراكية الإسلامية، أو العدل الاجتماعي، كما حاولت هذه الاتجاهات الزائفة وصف ثورة الزنج أيضاً على هذا النحو.

ومن عجـب أن ينسب إلى الإسلام عمل من أعملوا السيوف في رقاب أهل البصرة، واستباحوا المدينة ثلاثة أيام، وفعلوا مثل ذلك في عبادان والأهواز.

ولا ريب أن العلاقة معقودة وثابتة بين هذه الحركات، وبين الباطنية ودعوتهم المجوسية المجددة، ومطامعهم في الإدالة من دور الإسلام على النحو الذي رسمته وثائقهم الثابتة والأكيدة، وأبرزها «رسائل إخوان الصفا».

وقد أشار المستشرقون إلى هذه الرابطة، وأكدها كثير منهم من أمثال بلاشير الذي أكد أن حركة القرامطة حركة سياسية وليست ثوباً روحياً.

كما اعترف الكثيرون بأن القرامطة إحدى حركات الباطنية، وامتداد للخطة الواسعة للانتفاض على الاسلام، التي حملت لواءها اليهودية والمجوسية، وأن الباطنية (ومنها القرامطة) كانت ثمرة الدعوة التي حمل لواءها عبدالله بن سبأ والتي تقول بالعصمة، وكان ميمون القداح الثنوي الديصاني أول من ركز مناهج الدعوة فكرياً. وقد استمد مفاهيمه من تعاليم الفلسفة اليونانية، وتعاليم مزدك وزرادشت وماني. وأقام ذلك الخليط كله تحت اسم حب آل البيت، والدعوة لهم وكانت دعوته في الباطن تعمل على اعادة دولة الأكاسرة، ولما كان قد أدرك ان دعوته لن تلقى إلا المحاربة لو ظهرت على حقيقتها فقد استتر ومن معه بالتصوف والشعوذة والتقشف والزهد.

ولم يلبث عبدالله بن ميمون القداح، أن وضع يده في يد حمدان قرمط تحت اسم الباطنية، وفي ظل مفاهيم مزدك في شيوعية الأموال وإباحة النساء. ومن الحق أن يقال إن حركة القرامطة «كانت حركة انفصالية» وكانت استمراراً لثورة الزنج التي قامت قبل منتصف القرن الثالث الهجري، كما ثبت أن الحلاج كان من أكبر الدعاة لتحطيم الدولة العباسية أو كان على صلة بالقرامطة.

ومن ثم كانت حركة القرامطة حركة طائفية، وليست ذات طابع عالمي. فضلا عن عدائها الصريح للإسلام وقيمه ومقدساته. وآية ذلك اعتداؤهم على الكعبة، وانتزاعهم الحجر الأسود، ومهاجمة موسم الحج بقتل أكثر من ثلاثين ألفاً.

## الفصل الثالث

## أثر الغنوصية في التصوف

كان للفكر الغنوصي أثره البعيد المدى في مفاهيم النسك والإيمان، ومفاهيم الزهد والتصوف ذلك أن المعاني والأصول التي قام عليها دعاة النسك والزهد الإسلامي، إنما استمدت أصولها الأولى من القرآن الكريم ومن سيرة الرسول ﷺ، ومن مناهج التربية الإسلامية الاصيلة. غير أنه لم يمض غير قليل بعد أن ترجمت الفلسفات اليونانية والفارسية والهندية حتى دخلت إلى هذه المفاهيم القرآنية الأصيلة تفاسير زائفة، وقيم وافدة، من حواشي الفكر البشري الوثنية الهلينية أو الإشراقية الغنوصية، وكان أبرز هذه المفاهيم الوافدة: وحدة الوجود، والاتحاد والحلول، والإشراق.

والإسلام لا ينافي التصوف القائم على مكارم الأخلاق، وإنما فسد هذا المفهوم بدخول الفلسفتين اليونانية والهندية عليه، إذ تحول من تطهير النفوس وإعدادها لعبادة الخالق، وأصبح مذهبا يرمي إلى فناء الفرد واتحاده مع معبوده أو ادعاء حلول الخالق في الكائنات.

وقد أكد المتصوفون الأولون موقفهم من الإسلام، فقال الجنيد: مذهبنا هذا مقيد بالأصول (الكتاب والسنة) وهو يجري في حدود الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، ومن يدعي مع الله حالة تخرجه عن حد علم الشرع فلا نقر به. وقد تأثر التصور الصوفي بمفاهيم الغنوصية والفلسفات اليونانية والهندية والمسيحية عليه، وكلها خارجة عن مفهوم التوحيد الخالص، وبعيدة عن التصور الإسلامي، وقيم الإسلام الأصيلة. ففي الفلسفة اليونانية مذاهب تقول بالشمول وبأن جميع أوجه الطبيعة مظاهر للألوهية، وأن الوجود كله في

الحقيقة هو الله (المذهب الأيوني)[1].

ويقوم الدين الهندي والفلسفة الهندوكية على وحدة الوجود وعلى التناسخ (مجيء النفس الواحدة إلى الحياة مرات متعددة) وقد ذهبت الهندوكية والبوذية إلى ما يسمى بالزفانا، وهو ما يوصف بفقدان الشعور بتخلص النفس من الآلام واتصالها بالأجسام. وقد أسماه بعض الصوفية (الفناء) وقالوا إنه تجرد النفس من رغباتها وميولها وبواعثها حتى تتعطل إرادتها وتموت.

ومن العناصر النصرانية والهندوكية استمدت هذه المذاهب: «تعذيب النفس بالحلول هو قول مأخوذ من النصرانية». والواقع أن أفكار الإشراق ووحدة الوجود والاتحاد والحلول مستمدة كلها من فلسفات الهند ومصر واليونان.

فوحدة الوجود مذهب هندي برهمي، والأدلة على وجوده ماثلة في كتب الهنود الدينية وفي أفكارهم[2] الفلسفية، ومذهب الإشراق مذهب يوناني مستفاد من الأفلاطونية المحدثة.

ولا ريب أن وحدة الوجود والتناسخ مستمدة أساساً من الفكر البرهمي، وليست معروفة في الفكر الإسلامي الأصيل. ولا يقر الإسلام الفناء الذي تتجرد فيه النفس من رغباتها حتى تتعطل إرادتها وتموت، ولا يقر الإسلام تعذيب النفس، ولا الرهبانية بالاعتزال عن الحياة وهجرانها، وقد دعا الإسلام إلى عبادة الله، ولكنه أنكر الانصراف عن الحياة كلية، أو تعذيب الجسم بالعزوف عن الدنيا. وقال الرسول في هذا كلمته الحاسمة:

---

(١) عمر فروخ: تاريخ الفكر العربي.

(٢) محمد لطفي جمعة: البلاغ ١٩٣٤/١١/٢٠.

«ألا وإنني أعبدكم لله وأنا أنام وأقوم، وأصوم وأفطر، وآتي النساء»، ودعا الإسلام في أكثر من موضع في القرآن إلى أن الله لا يكلف نفساً إلا وسعها. وقال الرسول: إن هذا الدين متين فأوغل فيه برفق، وأن الله لا يمل حتى تملوا. وكانت هذه التوجيهات تستهدف الحيلولة دون المسلمين والسقوط في الفناء وتعذيب النفس: هذا الفكر البشري القديم الذي محاه الإسلام ودمغه بالفساد قد حمله إلى المسلمين مرة أخرى عدد من أتباع الفلسفات من أمثال: محي الدين بن عربي والحلاج والسهروردي.

وكل هؤلاء قد خرجوا تماماً عن مفهوم الإسلام الصريح الواضح البسيط إلى مفهوم فلسفي معقد مدخول.

وقد جرى هؤلاء وغيرهم على هذا النحو من تزييف بضاعة التوحيد الخالص. بادعائهم أن لآيات القرآن وجهان: ظاهر وباطن، وأنهم هم وحدهم الذين أدركوا المعنى الباطن. بينما وقف غيرهم عند معنى الظاهر.

وتقوم كتابات الكثيرين على الألغاز والتعمية خوفا من مصير مثل مصير الحلاج والسهروردي، ويذهب بعضهم إلى القول بأن القرآن لا يفسره إلا أهل الله العالمون به، وفي هذا محاولة لخلق طبقة لم يخلقها الإسلام، قريبة إلى نظرية العصمة أو تخصص رجال الأكليروس واللاهوت. وليس في الإسلام مفهوم غير ما يعلمه المسلمون جميعا. ولم يحتفظ الرسول عند أحد بسر خاص أو امتياز خاص في تفسير القرآن.

ومن هنا كان خطر ما ادعاه بعض الصوفية من سر لا يفشى لأهل الظاهر ـ وهذا قريب مما قال به الباطنية في جماعاتهم السرية ـ كذلك ليس من مفهوم الإسلام الأصيل تلك التعبيرات الغامضة التي استحدثتها هذه الفلسفات كالقول بالحقيقة الوجودية، والحقيقة المحمدية، وهي نظريات وافدة من البرهمية والأفلاطونية، وهو تقسيم لم يعرفه المسلمون الأولون،

وهو مستمد من الفكر البشري الوثني والغنوصي.

## أولا ـ وحدة الوجود

تقوم وحدة الوجود على مفهوم معارض تمام المعارضة لمفهوم الإسلام الذي ينزه الله سبحانه عن الاتحاد ويقول بوحدانية الله الخالق، كما يقول باسم الله واجب الوجود، منزه عن وجود الكائنات التي خلقها. ذلك أن وجود الله أزلي لا بداية له، ولا نهاية. أما وجود العوالم فهو «وجود حادث» له بداية ونهاية. فضلا عن أن وجود العوالم مسبب عن الله تعالى.

ولقد رفض الإسلام بمفهوم العقل والشرع فكرة وحدة الوجود التي تعني تأليه المخلوقات، واعتبار الكون هو الله أما مفهوم الإسلام فهو صريح وواضح بأن الوجود اثنان: واجب الوجود، وممكن الوجود. واجب الوجود هو صانعها الواحد الفرد الصمد، وممكن الوجود هو هذه الكائنات كلها التي ندركها بحواسنا الخمس مباشرة.

والاسلام لا يقبل وحدة الوجود، لأن فيها انتقالا من عقيدته الأصيلة «لا إله إلا الله» إلى ما يقوله بعض الصوفية. «لا موجود في الحقيقة إلا الله» وسياق كل منهما ينتهي إلى نتائج مختلفة أشد الاختلاف.

ولا ريب أن مفهوم وحدة الوجود من دخائل الغنوصية، وهو غير أصيل في الإسلام، ولا في فكره، ولا في عقيدته القائمة على التوحيد الخالص. إن أصحاب مذهب وحدة الوجود يقولون: إن الله والكون كلاهما واحد. ومعنى هذا أن الكون هو الله. وقد أنكر الإسلام ذلك إنكاراً شديداً. أنكر حلول الخالق في المخلوق، أو استغراق المخلوق في الخالق، وهو يميز طبيعة كل منهما. ولذلك أنكر الإسلام هذا المفهوم.

( ١ )

وقد استشرت هذه النظرية [١] في الفكر العربي الحديث عن طريق الفلسفة اليهودية والفلسفة المسيحية، وأصبح لها دعاة ومذاهب.

ثم نشأت في الغرب مذاهب ترى في وحدة الوجود ما يراه الإسلام من أنها تتضمن إنكاراً لله. وقد ذهب (شبنهور) إلى القول بأن مذهب وحدة الوجود «ليس إلا صورة مهذبة لمذهب الإلحاد. لأن حقيقة مذهب الوجود ينحصر في أنه يهدم التعارض الثنائي الموجود بين الله والكون، وأنه يقرر أن الكون موجود بفضل قواه الباطنية الموجودة فيه. وأن المبدأ الذي يقول به أصحاب وحدة الوجود من أن الله والكون شيء واحد، إنما هو وسيلة مهذبة للاستغناء عن الله، أوتعطيل عمله» [٢].

( ٢ )

واجه المفكرون والكتاب المسلمون هذه الدعوة ودحضوا شبهة اتصالها بالاسلام. وقد أشار عبد المنعم خلاف في صدر مناقشة هذه الآراء إلى أن مذهب وحدة الوجود. قد غزا عقول بعض الفلاسفة والصوفية الذين أهمهم أن يدركوا الله وما وراء الطبيعة بالحواس التي يدركون بها الطبيعة، وبالعقل البشري المخلوق لإدراك النسب بين كائنات الطبيعة وحدها أولاً. فلما عجزوا عن رؤية الله تعالى وادراكه، ذهبوا إلى أنه لا بد أن يكون الله هو هذا الوجود الظاهر، وأنه يحل فيه، وليس له وجود منفصل عنه، وهكذا تجد الوثنية التي حاربتها الأديان والفلسفات سنداً عظيماً من هذه الفلسفة، وهكذا تتحول كل الطبيعة إلى أصنام آلهة. وإن النظرة الأولى تهدي إلى أن الله غير

---

(١) حبور دانوبرونو الايطالي. وسبينوزا اليهودي.

(٢) دريني خشبة: الرسالة.

الطبيعة، وان هناك انفصالاً بين الخالق والمخلوق، وان انفصال الله عن الكون هو النظرة البديهية التي تحل أكبر مشكلات الوجود، وبها نضبط تقدمنا البشري، وتحدد المسؤوليات والتبعيات، ولا تختلط الحدود، ولا تسقط التكليفات، ولا تهدر قيم الأشياء. أما اعتناقنا مذهب الوجود، فمعناه الاختلاط والتشويش والفوضى، والتباس المقاصد، وذهاب الاختيار بين الخير والشر. وان الإنسان بهذا المذهب سيكون إله نفسه، لأنه جزء من الخالق، وستكون الآلهة بعدد المخلوقات وبعدد الناس « كما أشار الدكتور محمد يوسف موسى » إلى قول محي الدين بن العربي: « أن ليس هناك إلا وجود واحد هو الله. وأن العالم كله مظاهر له » معنى هذا أن الحقيقة التي هي الوجود الحق هو ذاته تعالى. هي في عالم الحيوان حيوان، وفي عالم النبات نبات. ثم قال: إن هذه النظرية الغامضة الصعبة التطور العسيرة الفهم، بعيدة عن العقل والدين. وقال: إن الله والعالم متباينان في كل شيء، ومنفصلان تمام الانفصال. أحدهما وجوده رهن بإرادة الآخر، ولا يتفق كذلك معه بحال ما دام الدين ينزه الله عن أن يكون أشرف مخلوقاته مجلى ومظهراً له.

وان هذا لا يتفق مع العقل الذي يرفض أن يؤمن بشيء يعجز عن إدراكه على أي نحو كان. ولعل رفض العقل والشرع لفكرة وحدة الوجود، هو الذي جعل بعض المفتونين بابن عربي يبرئونه من القول بها أو الذهاب إليها.

ويقول نقولا حداد: إن الأديان السماوية الثلاث ترفض هذه النظرية الفلسفية رفضاً تاماً، وهي مجمعة على أن الله والوجود المادي شيئان مختلفان، وأن لكل منهما ذاتية قائمة بذاتها منفصلة عن الأخرى، وأن الله الواجب الوجود الذاتي هو خالق الوجود المادي ومسيره، وهذه النظرية مقررة في تعاليم الأديان لا تقبل النقض ولا التنقيح ولا التعديل.

ويقول الأستاذ البشبيشي في معارضة هذا المذهب: إن القول بوحدة

الوجود مذهب أحدثه في الإسلام متأخرو الصوفية المتكلمون فيما وراء الحس، وخلاصته أن الله تعالى هو الوجود المطلق، وأن غيره لا يتصف بالوجود أصلاً، فلو قيل إن الإسلام موجود، فمعنى ذلك عندهم أن له تعلقاً بالوجود، وهو الله تعالى، وأن جميع العوالم سواء اختلفت أنواعها وتباينت أجناسها وشخوصها أم لا موجودة من العدم. وأن وجودها هذا محتفظ عليها بوجود الله تعالى، وليس بنفسها، لأنها معدومة، من جهة نفسها لعدمها الأصلي. ومن ثم فوجودها الذي هي به موجود في كلمة هي وجود الله تعالى، وهو واحد لا ينقسم ولا يتبعض ولا يتجزأ ولا ينتقل ولا يتغير ولا يتعدد أصلاً، ثم هو مطلق عن الكيفيات، والأماكن والأزمان، « إننا لا ننكر كون العالم موجود بقدرة الله وإرادته. ولكن يجب أن نفرق بين وجود الله، وهو وجود أزلي لا بداية له، ولا نهاية، ووجود العوالم وهو وجود حادث له بداية ونهاية. ثم إننا أيضاً نسلم بأن وجود العوالم مسبب عن الله تعالى. ولكن لنا أن نقرر أن هناك فرقاً كبيراً بين السبب والمسبب، والعلة والمعلول ».

## ثانياً ـ الاتحاد

هو القول بأن العبد صار هو الرب، وهو قول فاسد كل الفساد، وقد واجهه مفكرو الإسلام، وأوضحوا زيفه بالبرهان. وقد أورد الإمام الغزالي ثلاثة احتمالات للاتحاد، وهي إما أن تظل كل ذات من الذاتين موجودة. وإما أن تفنى إحداهما، وتبقى الأخرى، وإما أن تفنيا معاً. وفي الحالة الأولى لا يكون اتحاد، وفي الثانية كيف يمكن الزعم بأن هناك اتحاد بين موجود ومعدوم. وفي الثالثة لا يكون هناك محل للحديث عن الاتحاد، بل الأولى أن يتكلم عن الانعدام[1]. فالتناقض واضح في جميع الاحتمالات، والعقل لا

(١) الرسالة: ص ـ ٦٤٠ م ١٩٤٤.

يستسيغ قبول هذا التناقض بعد أن جاء الشرع يبين فساد فكرة الاتحاد عند النصارى. يقول الأستاذ البشبيشي في هذا المجال: أنه كما تنزه واجب الوجود عن الحلول، فهو يتنزه عن الاتحاد، لأنه لو حدث أن اتحد الواجب بغيره، نتج عن ذلك حالتان. إما أن يبقيا موجودين، وإما يدركهما العدم معا، ويخرج منهما ثالث، أو يدرك العدم أحدهما ويبقى الآخر. ففي بقائهما موجودين، فهما إذاً في هذا الحال اثنان متمايزان متباينان. وهذا التمايز ينافي الاتحاد، لأن الاتحاد يستلزم أن يصبحا واحداً. وفي عدمهما معا يبطل الاتحاد، لأن المعدوم لا يتحد بمعدوم، وفي حالة عدم أحدهما فقط، فإن الاتحاد لم يتحقق أصلاً.

## ثالثاً ـ الحلول

يقولون إن لله قدرة على الحلول في الأشياء والتشكل بها. وهي فكرة مستقاة من الفلسفة اليونانية، وتكاد تكون عنصراً رئيسياً في الفلسفة الهندية، وهي على كل حال مهدمة لوحدة الله حسب رأي القرآن.

والفرق بين الحلول ووحدة الوجود، أن الحلول هو وجود حقيقتين مختلفتين (الإلهية والبشرية) وقيام الأولى بالثانية تحت ظروف خاصة، بينما يرى أصحاب الوجود وحدة الوجود ذاتية لجميع الأشياء مع تعدد مظاهرها.

إن القول بالحلول ينافي وحدة الوجود كل المنافاة لأنه يقتضي حالا ومحلولا فيه، ويكون الوجود وجودين لا وجوداً واحداً، فكيف يكون الله (سبحانه) حالا في العالم، ويكون ليس شيئا غيره. والقائلون بوحدة الوجود ينكرون الحلول. والحلول باطل بالشريعة وبالنظر العقلي جميعا.

يقول الإمام الغزالي: إن الحلول لا يمكن تصوره بين عبدين، فكيف يمكن تصوره بين العبد والرب، ومهما بلغت روح التصوف من الصفاء، فكيف

يمكن أن يدعى أن تكون هي هو. ولئن سلم أحد بإمكان ذلك بالنسبة إلى نفس واحدة فكيف ليسلم به لجميع النفوس، وعندئذ يصبح العالم كله آلهة. فمن المحال أن يحل الله في النفس، وأن ينطبع فيها انطباع الخمر في اللبن. فإن ذلك من صفات الأجسام[1].

يقول الاستاذ البشبيشي في دفع هذه الشبهة: إن لله واجب الوجود، ومتنزه عن صفات الحلول، وان الحلول محال على الله لأسباب كثيرة. ذلك لأن القديم يختلف عن الحادث لاختلاف الماهية في كل منهما، وهذا الاختلاف يوجب استحالة حلول القديم في الحادث. ثم إن الله واجب الوجود، وهذا الوصف ينفي الحلول، لأنه في حالة حدوثه يصبح الحال تابعاً لما حل فيه، كما يصبح محلولاً لهذا المحل ومتأثراً به. بل إنه ليصبح في غير الإمكان تصور الحال إلا بتصور المحل، إذن ينتفى الحلول في هذه المرة، كما استحال في الأولى.

ثم إن الله واجب الوجود، والواجب ليس عرضاً أو ليس جوهراً، فإذا كان الحلول حلول عرض في جوهر، فلا يمكن بالنسبة لله تعالى، لأنه ليس بعرض، وإذا كان حلول جوهر في جوهر، فلا يمكن أيضاً. لأن الله تعالى ليس بجوهر.

## رابعاً ـ الإشراق

ويمثل الإشراق مفهوماً خارجاً عن أصول الإسلام ومعتقده الواضح القائم على التوحيد الخالص، وفق منهج الإسلام في المعرفة الذي أورده القرآن، فهو يدعو إلى التحرر من كل أساليب المعرفة، ولا يرى إلا وجهاً واحداً.

والمعرفة الإنسانية في هذا المذهب تقوم على إلهام من العالم الأعلى يصل

(١) عن بحث للدكتور محمود قاسم.

بواسطة عقول الأفلاك، وهو يعبر عن الله وعالم العقل بالنور. وقد قال بذلك من اليونان هرمس وفيثاغورث وأفلاطون.

وقد نسب هذا المذهب إلى السهروردي، وهو في الأصل مستمد من الفلسفات اليونانية والفارسية، وخاصة مذهب الأفلاطونية الحديثة، وهو فرع من نظريات الفلسفة والكلام والتصوف، وترجع المذاهب الإشراقية أساساً إلى أصول فارسية قديمة.

وقد وصف الدكتور علي سامي النشار هذا المذهب بأنه في جملته مذهب أفلاطوني يحمل في جوانبه ما اشتملت عليه التيارات الفلسفية الإسلامية السابقة عليه، فتأثر بنظرية الفيض المشائية، ويدور حول فكرة الإشراق. فالأول (أو نور الأنوار) تفيض عليه أنوار طولية، وأنوار عرضية، وهي أنوار تدبر شؤون الأنواع الموجودة في العالم الحسي، فضلاعن أن السهروردي ابتدع عالماً (اوسط) بين العالم الحسي، والعالم العقلي أسماه (البرزخ) وهو نفس وضع الرياضة المتوسطة عند أفلاطون.

وقال الدكتور النشار: إنه مهما قيل عن التأثير الفارسي في مذهب الإشراق، إلا أننا نؤكد بطريقة حاسمة أن هذا المذهب هو استمرار الفلسفة اليونانية بالصورة الأفلاطونية المتأثرة بتيارات الفكر الفلسفي التلفيقي الذي راجت تعاليمه عند السريان، وانتقلت هذه الصورة إلى المسلمين في عصر الترجمة.

أما الألفاظ الفارسية القليلة التي تشيع في مؤلفات السهروردي، فهي ليست سوى أدوات استخدمها المؤلف لإيهام القارىء بالأصل الفارسي للمذهب. وذلك انقياداً مع نزعة الفرس الشعوبية. وكان السهروردي منهم.

# الفصل الرابع

## مواجهة الفلسفة الغنوصية

لقيت الفلسفة الغنوصية مواجهة صحيحة حاسمة من رجال الدعوة والفكر الإسلامي، كما لقيت الفلسفة الهلينية. ذلك أن كلا منهما تمثل مجموعة من بقايا الفكر البشري القديم السابق على الإسلام المعارض للمفهوم القرآني والرباني والإنساني بصفة عامة.

أما الفلسفة الغنوصية فهي في مجملها تخالف الإسلام والدين المنزل بصفة عامة في أنها تفرض منهجاً للمعرفة قائماً على الكشف أو المشاهدة والذوق. بينما تفرض الهلينية منهجاً للمعرفة قائماً على المنطق والعقل. وكلاهما منهجان ناقصان في مفهوم الإسلام الذي يجمع بين العقل والقلب في إطار الوحي، وعلى قاعدة التوحيد.

أما منهج الكشف والمشاهدة والذوق الذي عرفته الغنوصية، وقام على أساسه الإشراق، ودخل في نطاق كل الدعوات الباطنية، فإنما يتصل أساساً بمفهوم المجوسية القديم ـ ويرتبط بالنتائج والاتحاد والحلول، ووحدة الوجود وكلاهما يعارض مفهوم الإسلام.

أما منهج العقل والمنطق الذي عرفته الهلينية، وقام على أساسه فكر أرسطو وأفلاطون وغيره في نطاق الفلسفة الإغريقية فهو ينكر أساساً الوحي والغيب، ويفهم الله سبحانه فهماً ناقصاً أو قاصراً.

ومن هنا فقد كان لا بد أن تشرع أقلام كتاب المسلمين لمواجهة انتقاض الغنوصية وما طرحته من مفاهيم ومذاهب ونظريات للرد عليها، ونقض

شبهاتها في إطار التحدي الخطير الذي عرف عنها، والخلفية القائمة وراءها، والتي تحمل لواء حركة خطيرة لهدم الإسلام من الداخل كمقدمة للقضاء على الدولة الإسلامية خاصة بعد أن أثبت أن جميع الذين شاركوا في هذه الحركة كانوا من أبناء المجوسية.

وقد نهض بذلك واصل بن عطاء، وأبو الهذيل العلاف، وبشر بن المعتمد، وإبراهيم النظام، كما تصدى لها الأشعري والباقلاني، ورد عليهم الغزالي في كتابه: فضائح الباطنية والقسطاس، وابن الجوزي.

واستطاعت العقيدة الإسلامية بأصالتها وصلابتها أن تدحض زيف الغنوصية وتعاليمها الباطلة، وكشف أهدافها الرامية إلى تدمير الإسلام.

ولقد عرض العلماء المسلمون لشبهات الباطنية والغنوصية في أسلوب علمي ومنهج قرآني خالص، وتخصص كثير منهم في الانكباب على منهج واحد للقضاء عليها نهائياً.

فانصرف واصل بن عطاء إلى مناقضة إلحاد بشار بن برد، وألف كتاباً فيه ألف مسألة للرد على المانوية، وجادل أبو الهذيل العلاف الشاعر صالح بن عبد القدوس.

وألف الحسين بن عثمان الخياط «كتاب الانتصار في الرد على ابن الراوندي الملحد فيما قصد به الكذب على المسلمين والطعن عليهم».

وكان القاضي أبو بكر بن العربي من أبرز من تنبه لأخطار الزنادقة والرد عليهم. وقد دعا إلى اليقظة، وأنحى باللائمة على المؤرخين، وحذر الناس مما يكتبون، ووصفهم بأنهم يشوهون الحقائق ويطمسونها في أغلب الأحيان، وأكثرهم لم يتوفر على الأمانة العلمية، وقد أعلن عداءً صريحاً لمن خلطوا بين الدين والفلسفة. وتعرض في كتابه «العواصم من القواصم» إلى الفلاسفة

السفسطائيين، والطبائعيين والإلهيين، وناظر الباطنيين، والحلـوليين، وأربـاب الإشارات من غلاة الصوفية، وظاهرية الأحكام، والفرق التي أظهرت بغضها للأشخاص باسم الإسلام.

وكتب أبو الفرج الجوزي في كتابه (تلبيس ابليس) فكشف كثيراً من شبهات الغنوصية والباطنية. وكشف ابن الجوزي عن أن المزدكية والخرمية والبابكية والإسماعيلية حركة واحدة. وقال إن فكرة التأويل مانوية، وان فكرة الحلول والرجعية والتناسخ من آراء الغلاة، وان الثنوية من تعاليم مزدك الداعي إلى استباحة الأموال والأعراض.

وقال إن حركة إخوان الصفا على نفس الخط وهي محاولة للتآمر على القيادة السياسية عن طريق نشر مفاهيم تجمع بين المزدكية والبابكية. وقال إن الباطنية قد قصدوا إلى سلخ الناس عن الأديان، وترك مراسيم العبادة الإسلامية (أي رفض الظاهر).

* * *

ويمكن إجمال مخالفات الغنوصية: (في صورها المختلفة التي تفرعت من الباطنية) للإسلام في عدة قضايا هامة.

**(أولاً)**: مجاراة المجوسية والمانوية في القول بقوى الطبيعة (السماء والضوء والهواء) وبالقول بالنور والظلام والخير والشر.

**(ثانياً)**: التأويل والقول بأن للقرآن ظواهر وبواطن. وأن الظواهر تجري مجرى القشر من اللب.

**(ثالثاً)**: رفع التكليف، وحط أعباء الشرع عـن المتعبـديـن، وإبـاحـة الملذات والمحرمات، وطلب الشهوات، وإسقاط فرائض الإسلام.

**(رابعاً)**: إباحة النساء والأموال.

**(خامساً)**: القول بالتناسخ بين الأرواح.

**( سادساً ) :** تحريم صيد الحيوان، وتحريم ما أباحه الله من لحم الطير، والتضرر من الصيد، والدعوة إلى رحمة العصفور.

**( سابعاً ) :** إنكار البعث والجزاء والجنة والنار.

وقد استتبع طرح هذه المخالفات استشراء خطر كبير، هو غاية الغايات من وراء هذه الدعوات، وهو التحلل من الالتزام الأخلاقي، والجزاء الأخروي، والعبث بفلسفة الأخلاق الإسلامية، ودعوة الناس إلى الحرية المطلقة من غير قيد، وإلغاء التكليف.

وقد اتخذ أسلوب التأويل أو علم الباطن أداة لتخريج النصوص من أصولها الأصيلة إلى تفسيرات رمزية فاسدة وخاطئة. وتعد مسألة التأويل الباطني من أخطر الأساليب التي قدمتها هذه الدعوات وأكبرها أثراً في جماعات الناس.

وقد وجدت هذه الدعوة قبولاً كبيراً لأنها فتحت باب إرضاء الشهوات، فهم «يقولون» إن لكل ظاهر باطناً، ولكل تنزيل تويلاً. وان الظاهر بمنزلة القشور، والباطن بمنزلة اللب، وقد تأولوا آيات القرآن، وسنن النبي. وقالوا إن من ارتقى إلى علم الباطن انحط عنه التكليف، وان جميع ما استعبد الله به العباد في الظاهر من الكتاب والسنة أمثال مضروبة. وقد قصد (التأويل) إلى تفسير النصوص تفسيراً يخرجها من مدلولاتها الأصيلة إلى مدلولات ومفاهيم محرفة من هذه العقائد. وقد كان من وراء هذه النظريات هدف واحد هو: إحياء الزندقة والإباحية، وتفشي دعوة اللهو والمجون، وتحسين الخمر والميسر للناس، والاستهزاء بالأديان كلها، وإنكار الوحي المنزل على الرسول، ومحاولة هدم مكانة الأنبياء.

ولم يكن هذا كله من طبيعة الإسلام نفسه، ولا مما يتقبله في مفهومه الصريح الواضح البسيط القائم على التوحيد والأخلاق، والإيمان بالغيب.

وقد انطلقت أصوات الدعاة تنبح بالتحريض على الخمر والإباحة

والخلاعة في الشعر والأدب والفلسفة جميعاً. وكان من أخطر هذه الدعوات محاولة إلغاء ما بين الطبيعة الإلهية، والطبيعة الإنسانية من تمايز. والقول بأن الله يحل في الأشخاص الحسنة، أو أنه يتحد مع الكون أو القول بتتابع الأرواح، واتصالها من جسد الميت إلى جسد الحي.

★ ★ ★

وقد واجهت العقيدة الإسلامية الصلبة هذه الشبهات جميعاً بالنقض نقضاً يقوم على أساس العقل، وعلى أساس الفطرة في نفس الوقت، فاندحرت هذه المذاهب وفشلت في أن تحقق شيئاً، وانتصر الإسلام على المجوسية، وانطوت المجوسية واعتنق معظم أهلها الإسلام.

وقدم الإسلام في مواجهة الباطنية نماذج من الأعلام والفقهاء والتقاة والأبرار من أمثال عبدالله بن المبارك، وسفيان بن عيينة، وسفيان بن الثوري، والفضيل بن عياض وغيرهم هربوا من الأمراء، ورفضوا المناصب، وعاشوا نماذج للتقوى والورع، فأعطوا نماذج للتطبيق الإسلامي الصحيح.

كما واجه ابن حزم، والشهرستاني، وابن تيمية، وابن القيم، والغزالي، هذه النظريات وكشفوا زيفها. ومن خلال الرد على هذه الشبهات تشكل مفهوم أهل السنة والجماعة، وتوضحت عقيدة الإسلام الناصعة الخالصة من شوائب الوثنية والإلحاد والأثنينية.

★ ★ ★

ويمكن تلخيص هذا المفهوم في مواجهة زيف الباطنية، وشبهات الغنوصية على النحو الآتي [1].

---

(١) هذا النص مستقى من ملحق أورده عبد القادر البغدادي في كتابه (الفرق بين الفرق) ونقله عنه عمر فروج في كتابه الفكر العربي إلى أيام ابن خلدون.

(١)

صانع العالم: (الحق تبارك وتعالى) له صفات ثابتة استحقها لذاته، وأن الحوادث كلها لا بد لها من محدث صانع، وهو قديم لم يزل، وليس له صورة ولا أعضاء، ولا يحويه مكان، ولا يجري عليه زمان، ولا تلحقة الآلام واللذات، وهو غني عن خلقه، وأنه واحد أحد.

والله سبحانه وتعالى قادر على كل شيء بالاختراع (من العدم) وعلمه واحد يعلم به الموجودات بتفاصيلها من غير حس، ولا بديهة، ولا استدلال، وسمعه وبصره محيطان بجميع المسموعات والمرئيات، وهو لم يزل رائياً لنفسه، سامعاً لكلام نفسه. والله سبحانه يراه المؤمنون في الآخرة، ولا يحدث شيء في العالم إلا بإرادته، ما شاء الله كان، وما لم يشأ لم يكن. والله سبحانه حي بلا روح، ولا اغتذاء. وكلام الله صفة أزلية وهو (كلام الله) غير مخلوق ولا محدث ولا حادث. وأسماء الله وصفاته معروفة من القرآن والحديث الصحيح، وإجماع الأمة. ولا يجوز إطلاق اسم عليه عن طريق القياس[١]. وأسماء الله تسعة وتسعون، وهي صفات أزلية نحو (واحد ـ أول ـ صمد) وصفات أزلية قائمة بذاته نحو (حي ـ قادر ـ عالم ـ مريد ـ سميع)، وصفات مشتقة من أفعاله (خالق ـ رازق ـ عادل).

(٢)

والعبد مكتسب لعمله، والله خالق لكسبه، والإنسان يصح منه اكتساب الحركة والسكون والإرادة والقول والعلم والفكر، ولكنه لا يصح منه اكتساب الألوان والطعوم والروائح والإدراكات.

والهداية من الله على وجهين: إبانة الحق، والدعوة إليه، ونصب الأدلة

(١) مثل ما تقوله الماسونية عن الله «مهندس الكون الأعظم» مثلا.

عليه، والله يخلق الهداية في قلوب عباده، ومن مات أو قتل، فإنما مات بأجله الذي جعله الله له، والله قادر على إبقائه، والزيادة في عمره.

وإذا أكل أحد شيئاً أو شربه فإنه تناول رزقه حلالاً أو حراماً. ولو أن الله كلف خلقه فوق ما كلفهم من العبادة والأعمال والمشقات، أو خلقهم كلهم في الجنة، أو لم يخلقهم البتة، أو خلق الحيوان فقط، أو خلق الجماد أو النبات دون البشر لكان ذلك كله عدلا منه، ولا يعد خروجاً على الحكمة. ذلك لأن له وحده الأمر والنهي والقضاء يفعل ما يشاء ويحكم بما يريد.

(٣)

إثبات الرسل من الله إلى عباده، فمن نزل عليه الوحي من الله على لسان ملك، وكان مؤيداً بنوع من الكرامات الناقضة للعادة، فهو نبي، فإذا حض بشرع، أو بنقض شريعة كانت قبله فهو رسول، والأنبياء كثيرون، والرسل منهم ثلاثمائة وعشرة اولهم آدم ـ وآخرهم محمد. وعيسى نبي مرسل أراد خصومه قتله، فرفعه الله إليه. وكل مدع للنبوة أو الألوهية لنفسه أو لغيره كافر. والأنبياء أفضل من الملائكة، وكل نبي أفضل من أولياء أمته، والأنبياء معصومين عن الذنوب بعد نبوتهم. وقد يبدو منهم قبل النبوة زلات يسيرة.

(٤)

المعجزة أمر يظهر بخلاف العادة على أيدي الأنبياء، إذا تحداهم قومهم، فإذا أظهر النبي معجزة واحدة ثم عجز قومه عن معارضته فقد لزمتهم حجة التصديق بما جاء به، وللأولياء كرامات، والقرآن معجز بنظمه (أسلوبه) ولرسول الله معجزات. منها: انشقاق القمر له، وتسبيح الحصا بين يديه وغير ذلك.

(٥)

والإسلام بني على خمس: شهادة أن لا إله إلا الله وأن محمداً رسول الله، وإقام الصلاة، وإيتاء الزكاة، وصوم رمضان، وحج البيت لمن استطاع إليه سبيلاً. وصلاة الجمعة واجبة، فمن أنكر واجباً من هذه كان كافراً، والجهاد واجب، والبيع جائز، والربا حرام، ومن تأول المحرمات (حللها لنفسه على وجه من الوجوه، أو حجة من الحجج) كان كافراً.

وأصول أحكام الشريعة الكتاب والسنة وإجماع السلف.

فمن أنكر هذه وقال: إن العلم يؤخذ من الإمام وحده فهو كافر، وأفعال المكلفين والبشر البالغين العاملين، خمسة أقسام:

(١) ـ واجب (أمر الله به يثاب الإنسان على فعله، ويعاقب على تركه).
(٢) ـ محظور (نهى الله عنه، ومن فعله عوقب عليه).
(٣) ـ مسنون (يثاب فاعله ولا يعاقب تاركه).
(٤) ـ مكروه (يثاب تاركه ولا يعاقب عليه).
(٥) ـ مباح (لا ثواب ولا عقاب عليه).

(٦)

إن الله يعيد في الآخرة الناس والحيوانات التي كانت في الدنيا، وسيخلق لهم الجنة والنار، ثم إن عذاب القبر، والحوض، والصراط، والميزان حق، وشفاعة رسول الله والصالحين من أمته للمسلمين والمذنبين حق.

(٧)

الخلافة أو الإمامة فرض على الأمة لنصب امام (خليفة) يقيم القضاء،

ويضبط الثغور (الحدود ـ التخوم) ويحارب العدو، ويكون نصب الخليفة بالاختيار (الانتخاب) من قريش، ويشترط أن يكون عالماً بالأمور الدينية والأحكام الشرعية، عادلاً، حسن التصرف في إدارة الدولة، غير مرتكب للكبيرة، ولا مصر على صغيرة، وتنعقد الخلافة باجتهاد أهل الحل والعقد.

ولا تصح في وقت واحد إلا لشخص واحد إلا أن يكون هناك قطران مسلمان متباعدان، وبينهما بحر حاجز، أو عدو لا يطاق، فيجوز حينئذٍ نصب خليفتين. أما الصحابة الذين قتلوا في معركتي الجمل وصفين، فقد اجتهدوا وأخطأوا ولكن لم يكفروا بخطئهم في الاقتتال.

## (٨)

أصل الإيمان المعرفة، والتصديق بالقلب، والايمان لا يزول بذنب دون الكفر. ولا يحل قتل امرىء مسلم إلا بإحدى ثلاث: ردة ـ أو زني بعد إحصان أو قصاص بمقتول هو كفؤه.

والملائكة معصومون، ومن المسلمين الأولين عشرة مبشرون بالجنة: أبو بكر ـ وعمر ـ وعثمان ـ وعلي ـ وطلحة ـ والزبير ـ وسعد ـ وسعيد بن نصر ابن عمرو بن نفيل ـ وعبد الرحمن بن عوف، وأبو عبيدة عامر بن الجراح.

ثم الذين شهدوا بدراً وأحداً مع الرسول، والذين شهدوا بيعة الرضوان بالحديبية إلا رجلا اسمه قزمان شهد أحداً وكان من المنافقين.

أما الكفار فهم الذين أنكروا وجود الله أو أشركوا به إلـهاً آخر، وعبدوا آلهة من دونه، ومن عادى المسلمين جهراً أو سرّاً. وأهل الأهواء والبدع من خالفوا الأصول التي مر ذكرها.

(٩)

المعرفة وإثبات الحقائق تكون بالحس والبداهة والاستدلال والوحي والخبر والإجماع.

(١٠)

العالم حادث وهو متناه، وفناء العالم، وبقاء الجنة والنار، وأهلها أبداً.

★ ★ ★

وقد جاء هذا المنهج مفسراً وموسعاً ومفصلاً في عشرات من الدراسات والكتابات التي قدمها علماء المسلمين للرد على ما تعرض له الفلاسفة الهلينيون والإغريقيون، أو أصحاب دعوة بشرية الأديان، وفي مختلف القضايا التي اثارها أصحاب الشبهات، من نقد النبوة أو التشكيك في المعجزة، أو إنكار الوحي، أو اعلاء العقل أو اعلان الإشراق.

# الفصل الخامس

## حركةالانتقاض والمؤامرة على الإسلام

قادت الفرق التي اعتنقت الفكر البشري (من مانوية، ومزدكية، وباطنية، ومجوسية) والحركات التي تشكلت في ظلها (الزنج والقرامطة وبابك والأفشين) خطة المؤامرة على الإسلام، والانتقاض عليه. قادها خصوم الإسلام من مجوس ويهود وأصحاب النفوذ القديم من الفرس، ولم يكن هدفها العودة إلى الوثنية والمجوسية والثنوية والمانوية. ولكن هدفها الحقيقي هو إخراج المسلمين من توحيد الإسلام وعقائده، وإخراج المسلمين من الفكر القرآني الرباني، الذي يمثله الإسلام كعصارة له إلى الفكر البشري الوثني المادي.

ولا ريب كان بعض رجال اليهودية والنصرانية والمجوسية، يضمر الكيد للإسلام منذ اللحظة الأولى التي واجه عوالم فارس والروم، فكانت الحركة الأولى الباكرة التي قادها عبدالله بن سبأ، والتي مهدت الطريق لحركة الانتقاض، ووضعت بذور الغنوصية والوثنية والتجسيم، والحق الإلهي، وكل معالم الفكر البشري السابق للإسلام، والمعارض للتوحيد.

وكان عمل عبدالله بن سبأ: هو الجانب الفكري للمؤامرة التي برزت في أقوى صورها في عمل ابي لؤلؤة المجوسي، ومقتل عمر بن الخطاب، وما تبع ذلك من فتن كقطع الليل المظلم، وتشكلت تلك البذرة التي أثمرت حركات الملاحدة والقرامطة والباطنية، وكل مؤامرات إخراج المسلمين من فكرهم القرآني الموحد إلى الفكر البشري الوثني، والهليني والغنوصي، وفتح باب التأويل والوضع، والقول بأن للقرآن ظواهر وبواطن، وإضافة البدع

والمحدثات إلى العقائد والعبادات، وإشباع الأذهان بالخرافات والأساطير والإسرائيليات، وإفساد الشريعة والتصوف والأخلاق بوحدة الوجود والاتحاد والحلول والإشراق.

(١)

أدخل عبدالله بن سبأ اليهودي الأصل إلى الإسلام في نطاق دعوته التي دعا إليها أشياء كثيرة. فقال في المآل، وفي الرجعة وفي الوصية وفي الغلو في حب علي بن أبي طالب بما يخالف أصول الإسلام مخالفة صريحة. وكان أخطر ما دعا إليه عبدالله بن سبأ هو (تأليه علي) وكان هذا هو مقدمة اقتحام الفكر البشري القديم لمعاقل الإسلام.

وقد مضى ابن سبأ ينفث سمومه في الكوفة ومصر والبصرة. قال إنه وجد في التوراة أن لكل نبي وصياً، وأن علياً وصي محمد. وأن عثمان أخذ الخلافة بغير حق. وقوله: عجيب من يقول برجعة المسيح، ولا يقول برجعة محمد. وقوله: إن محمداً خاتم الأنبياء وعلياً خاتم الأوصياء.

وكل هذه أفكار زائفة لا يقرها الإسلام.

وقد وجد في مصر جواً صالحاً وتربة حسنة. فإذا سأله أتباعه ماذا يعملون قال: ابدأوا بالطعن في أمرائكم وحكامكم، وأظهروا الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر تستميلوا الناس إليكم.

وكانت دعوته إلى خلافة علي وصي الرسول، والطعن في عثمان وولاته. وحرض على الشكوى من كل ناحية تصل إلى المدينة والتمرد على الولاة.

ومضى عبدالله بن سبأ يوقد نار الفتن عن طريق الفكر، وإدخال المفاهيم الزائفة من وثنية ومجوسية إلى الإسلام، وكان يضع الكلام في تعظيم الرسول

وأهل بيته، ويضع أقوالاً في سيدنا علي تسمو به إلى درجة فوق النبوة. بل لقد وضعه موضع الألوهية، وسماه صاحب الحق في الخلافة. وأذاع الإشاعات الكاذبة، والأراجيف الباطلة، وأخذ يطعن في أمراء عثمان، ويكاتب أعوانه في الأمصار، ويحدث كل جماعة بلغة.

وعندما ذهب الثوار إلى المدينة كان ابن سبأ معهم يدير لهم الخطط، ويرسم لهم سبيل الفتنة.

يقول محمد أحمد جاد المولى: استطاع ابن سبأ الذي ليس له في الإسلام سابقة ولا فضل أن يزعزع الدولة من أطرافها وهو حر طليق.

ولم يكن عبدالله بن سبأ وحده، ولكن كان هناك كعب الأحبار، ووهب بن منبه. وقد جعلوا أول همهم أن يضربوا المسلمين في صميم دينهم فيدسوا ما يريدون من أساطير وخرافات وأوهام، وكانوا يزعمون أن هذه المفتريات من كتابهم.

(٢)

كان (روزبة بن داذويه) الذي تسمى من بعد باسم عبدالله بن المقفع هو الذي فتح باب ترجمة الكتب الفارسية واليونانية في العقائد الوثنية، فترجم كتاب مزدك والتاج في سيرة أنو شرون، وله كتاب معارضة القرآن. وكان يكتب باسم النور الرحمن الرحيم. وقد قال الخليفة المهدي بحق: (ما وجدت كتاب زندقة إلا وأصله ابن المقفع) وترجم روزبة عن الفارسية والفهلويه كتب ماني وابن ديصان ومرقيون. وسار تحت راية ابن المقفع كثيرون: منهم ابن الراوندي والحلاج وأبو العتاهية وبشار بن برد وعبد الكريم بن أبي العوجاء، وأبو نواس.

وقد نشط كتاب الفرس من أمثال: آل نوبخت والحسن بن سهل

والبلاذري، وزاردويه بن هاشويه. فترجموا من الفارسية الفلسفة وكتب المجوسية والخرافات.

ومن خلال هذه الحركة ظهرت كتب الأباطيل والخرافات في ثوب براق يستهوي الناس. وهي في مجموعها حافلة بالشبهات والمغالطات. ولم يقف الأمر عند الترجمة وحدها. بل جعلوا الشعر من وسائلهم، ووجدوا في مهاجمة العروبة مدخلاً إلى مهاجمة الإسلام، فعملوا على انتقاص قدرها، وألفت كتب تمجد العجم، وتحاول الانتقاص من العرب، واستتبع ذلك تزييف التاريخ العربي بالزعم والافتراء. وكان غيلان الشعوبي الفارسي، وأبو عبيدة في مقدمة هؤلاء. كما عملوا على تزييف الرواية. وقاد حماد الرواية، وخلف الأحمر حملة ضارية في هذا المجال حتى قال المؤرخون (وفي مقدمتهم السيد المرتضى في الأمالي)، إن حماداً أفسد الشعر لأنه كان رجلاً يقدر على صنعته فيدس في شعر كل رجل منهم ما يدسه. وقد أضافوا إلى ذلك مهاجمة اللغة العربية من حيث إنها وعاء الثقافة العربية مع إعلاء شأن اللغة الفارسية.

وفي مجال التعبير والحديث والفقه جرت محاولات للتزييف والوضع. وأمامنا اعتراف (عبد الكريم بن أبي العوجاء) بوضع أربعة آلاف حديث.

## (٣)

كانت أخطر المراحل في عصر المأمون فقد «عج بلاطه بالوافدين عليه من كل حدب وصوب من مختلف المذاهب والنحل لتشجيعه العلوم الدخيلة، والعمل على انتشارها، وإباحة الجهر بمختلف الآراء حتى أصبحت هذه الحرية مضرب المثل، وأصبح عمله هذا مشجعاً وشاداً لأزر أناس ما كانوا ليظهروا لولا استهتاره وتهاونه، فشاع في زمنه الشك وراج الباطل، وهبت الرياح الصفراء من وراء هذه الإباحية تحمل في طياتها جراثيم المذاهب المختلفة

والنحل المتعارضة، وظهرت الفرق التي كانت تؤلف بآرائها وعقائدها أدياناً جديدة».

فلم تلبث الدولة إلا قليلاً حتى انحطت عليها جحافل المغيرين من التتر والمغول فقوضت دعائمها. وكان الكثيرون من أتباع هذه الفرق أعواناً للمغير على تحقيق هذه الغاية. وكانت هذه الخاتمة أقصى ما يشتهيه أولئك الدخلاء الذين بثوا جرثومة الفلسفة باسم العلم والمعرفة ليقضوا على يقين الأمة ويمزقوا وحدتها.

تلك هي أخطر المراحل التي اندس فيها كثير من مقررات الفكر البشري الوثني، المستمد من النظرية اليهودية المحرفة والمجوسية إلى الفكر الإسلامي، واندمجت فيه، وتلونت بلونه مع الزمن.

وظهر في المجتمع دعاة الإباحية والانحلال الاجتماعي، وفي مقدمتهم الحمادون الثلاثة (حماد الرواية ـ وحماد عجرد ـ وحماد الزبرقان) كما ظهرت عصبة المجان: يحيى بن زياد ـ ومطيع بن إياس ـ وبشار بن برد ـ وأبو نواس، وقد أظهروا (زندقة تحمل في أعماقها طابع الشعوبية).

ودعا بشار إلى المجون والإباحة، ودعا في شعره صراحة إلى عبادة النار الفارسية، ودعا أبو نواس إلى شرب الخمر جهاراً، وحرض على الإباحة والخلاعة.

وتسربت الإسرائيليات إلى كتب التفسير وكتب الملاحم والمغازي، فالتبس الحق بالباطل، والواقع بالخرافة. حتى قال الإمام أحمد بن حنبل إن (التفسير والملاحم والمغازي) لا أصل لها، وليست لها أسانيد صحيحة متصلة.

وكانت أخطر الدعوات: تلك التي دعت إلى تقسيم الإسلام: إلى شريعة وحقيقة، وإلى تقسيم أتباعه إلى أهل ظاهر وأهل باطن. وإلى علماء رسوم،

وعلماء إلهام. وبالغ بعضهم في ذلك مبالغة شديدة، حيث دعا إلى إسقاط التكاليف والعبادات، فضلاً عن التهام الثعابين، والمشي على السيوف، والرقص على نقرات الدفوف، وغير ذلك من أساليب الشعوذة والتدجيل.

وظهرت أحاديث زائفة نسبت إلى الرسول من وضع دعاة الأفلاطونية الحديثة مثل قولهم: أول ما خلق الله العقل، فقال له: أقبل فأقبل ـ ثم قال له: أدبر فأدبر ـ وقد هاجم الأمام أبن تيمية هذا النمط من الاحاديث هجوماً شديداً واثبت وضعه وصلته بالفلسفة اليونانية، وكذلك أحاديث (كنت كنزاً مخفياً) و (كنت نبياً وآدم بين الطين والماء) وأكد أنها أحاديث غنوصية. وقد أخذت فرق الباطنية في القديم، والبابية، والبهائية مثل هذه الأحاديث الباطلة، فأشادوا عليها بناءً زائفاً.

وكان أخطر ما حملت هذه الدعوات ـ ولا تزال تحمل مثيلاتها مجدداً ـ إلغاء التكليف والالتزام الخلقي. فقد صيغت هذه النظريات الغنوصيه من وحدة وجود واتحاد وحلول واشراق على نحو يجعلها تستهدف اسقاط المسؤولية والجزاء الأخروي وإنكار البعث، وفتح الباب للشهوات والمطامع، فهي تلغي ما أقره الإسلام من حدود أكيدة ثابتة بين الخير والشر، والتقوى والإباحة، والزهد واللذة، والفضيلة والرذيلة.

وقد رد ابن حزم والشهرستاني وابن تيمية وابن القيم على هذه النظريات الزائفة.

وكانت موجة التشبيه والتجسيم من أخطر ما حمل لواءه السبئية (أتباع عبدالله بن سبأ) امتد بها الزمن ونفذت إلى كل نظريات الرافضة والغلاة والباطنية.

( ٤ )

لا ريب أن جميع الدعوات الضالة، والحركات الهدامة التي قامت في ظلال تاريخ الإسلام كانت جميعها تستمد تعاليمها ووقودها من هذه الحصيلة الضخمة التي قامت قبل الإسلام، وتجددت من داخله مرة أخرى لتجد من ذلك سلاحاً للانتقاض عليه، وهي في مجموعها من تراث الوثنية والهلينية والغنوصية والتثنية والتثليث والإباحة والتعدد. وقد رمت في مجموعها إلى تمزيق واجهة الإسلام الناصعة القائمة على التوحيد والأخلاق والإيمان.

وقد قامت مجمعات القرامطة والحركات الباطنية كلها من خلال هذه المفاهيم، ومن أجل تحريف مفاهيم الإسلام ذات المنهج الإنساني الخالص لله.

ويرى بعض الباحثين في تاريخ الحركات الهدامة [1] أن حركة التفكير الحر في الإسلام (ترجع في الأصل إلى نشاط الدعوة اليهودية التي قصد بها الدعاة اليهود أن يثأروا لدينهم ولأنفسهم بهدم النصرانية والإسلام).

إن حركة الهدم والإلحاد التي وثبت بادىء بدء في فارس. وكان قوامها: ابن ديصيان وولده عبدالله دبرها دعاة (الكابالا اليهودية): أي التعاليم العبرية السرية، ثم تعهدوها بالنصح والمال.

ويقولون تأييداً لذلك إن عبيدالله المهدي مؤسس الدولة الفاطمية الشيعية. إنما هو يهودي تظاهر بالإسلام، وانتحل النسبة إلى آل البيت.

«إن دعاة (الكابالا) دبروا مثل هذه المؤامرة في أوروبا لمحاربة النصرانية. وأنشأوا لذلك عدة جمعيات سرية تعمل في الخفاء لبث الإلحاد والتعاليم الحرة».

---

(١) محمد عبدالله عنان: الحركات الهدامة.

**( لحق )**

**( أولاً )** : أتباع الغنوص في العقيدة والشريعة.

**( ثانياً )** : أتباع الغنوص في التصوف.

**( ثالثاً )** : مصادر الغنوصية.

## أتباع الغنوص في العقيدة والشريعة

انضمت جماعات كثيرة من ذوي الأهواء إلى فلسفة الغنوص: وقد تمثلت هذه المجموعات في خصوم الإسلام ممن أضمروا المجوسية، وأعلنوا الإسلام تقية. ومن أصحاب النفوذ القديم. ومن الطامعين في مجال الأهواء واللذات، ومن ثم فقد برزت «جماعات كثيرة ذخرت بهم أسواق الأدب، ومجالس الأمراء، وقصور الخلفاء، وانبثوا في الحانات والأديرة والأندية يتغنون بشعرهم، ويثيرون آراءهم دون تحفظ أو خجل».

«وتابعت جماعات المجان والزنادقة الذين يستهزئون بالقرآن والصلاة والحج وينكرون البعث والحساب والملائكة والجنة، ويعتقدون بتناسخ الأرواح، وإرجاع الأشياء الى أصلين: هما النور والظلمة، ومنهم من يميل الى أكل النبات، ويمتنع عن أكل اللحوم».

(١)

وكان ابن المقفع (روزبة بن دازويه) في مقدمة حملة هذه الدعوات، وقد بقي أميناً لعقيدته المجوسية إلى زمن الدولة العباسية. حيث أسلم على يد عيسى ابن عليّ عمّ المنصور، وترجم كتب مزدك. وابن ديصيان ومرقيون، وألف في الطعن في القرآن وفي طريقه سار بشار بن برد الذي عرف بإفحاشه في الهجاء والغزل القبيح. وقد واجهه الخليفة المهدي وقال له: أتحض الناس على الفجور، وتقذف المحصنات والمخبآت. وكان يدين بالرجعية، ويكفر جميع الأمة، ويصوب رأي إبليس في تقديم النار على الطين، وينكر البعث

والحساب، ويفضل شعره على القرآن. وكان متعصباً لقومه على العرب، وكذلك ظهر (أبو العتاهية) الذي يكشف شعره على الأثنينية المجوسية في الخير والشر. والنور والظلمة. وقد أخذها من المانوية. وعندما مال إلى الزهد قوى ذلك اتهامه بالزندقة لما انتشر في شعره من معاني الوثنية والتعدد. بل إن هذا الزهد الذي عرف به. إنما هو مبدأ أصيل من مبادىء المانوية.

وكان أبو نواس من أبرع هؤلاء الدعاة. وقد أولى الخمر والغلمان اهتماماً كبيراً، يستخف بالعقيدة، وينشر الضلال والزندقة. وهو من كبار الثنوية. وقد ثبت تأثره بالمانوية والمزدكية. وقد حمل الدعوة إلى التحرر من القيود والتمتع بالملذات، وأعلن إنكار البعث، ولم يؤمن إلا بما يقع عليه الحس.

أما الغزل بالمذكر فقد كان جزءاً أساسياً من المانوية، كما ذكر ذلك البيروني. وقد أكد الباحثون (ومنهم حمزة الأصبهاني جامع ديوان أبي نواس) أن أبا نواس هو الذي ابتدع الغزل بالمذكر، وهو الذي أدخل إلى الأدب العربي افتتاح القصائد بالخمر بعد أن كانت تفتح بالتغني بالأطلال.

وشهد الباحثون أن في شعره مظاهر واضحة من المانوية والمزدكية من حيث إثارة الشك في العقيدة، ومهاجمة الدين والإباحية المطلقة والغزل بالمذكر. ومن هؤلاء الدعاة صالح بن القدوس وابن الراوندي.

(٢)

وابن الراوندي يهودي الأصل. وقد كان ابوه يدين باليهودية، ثم أسلم، وقد كشفت الوقائع خطره وعمله، فقد روي أن بعض اليهود قال لبعض المسلمين «ليفسدن عليكم هذا كتابكم، كما أفسد أبوه التوراة علينا».

وكان أبوه قد انشق لأمر ما عن أهل طائفته، ثم أخذ يثير عليهم عجاج الجدل والمشاغبة (كما فعل ابنه من بعده). فلما لم يتم له ما أراد انقلب مسيحياً

نكاية في بني دينه اليهود.

وقد حذق ابن الراوندي أساليب المعتزلة في الكلام، ثم استغلها للهجوم على الإسلام. قال البلخي: «إنه كان في أول أمره حسن السيرة، حميد المذهب، ولم يلبث أن انسلخ عن الدين، وأظهر الالحاد والزندقة، وطردته المعتزلة فوضع الكتب الكثيرة في مخالفة الإسلام.

ومن ثم ظهرت معارضاته للقرآن الكريم، ومهاجاته للكتب المنزلة، ثم وضع التأليف للرافضة ضد أهل السنة والاعتزال. قال أبو العباس الطبري: إن ابن الراوندي كان لا يستقر على مذهب، ولا يثبت على حال، حتى إنه صنف لليهود كتاب (البصيرة) رداً على الإسلام لأربعمائة درهم، أخذها فيما بلغني من يهود سامرا. فلما قبض المال نقضه حتى أعطوه مائة درهم أخرى فأمسك عن النقض[1].

وقال آخرون: إن طريقة ابن الراوندي في حياته المذهبية هي التلاعب بالفرق، وبالملل وبأهل كل منها، يمدح مذهباً ويحقر آخر.

ومن كتبه الملعونة: كتاب «التاج» يحتج فيه على قدم العالم. وكتاب «الزمردة» وكتاب «القرنة» في الطعن على النبي. وكتاب «اللؤلؤة» في تناهي الحركات. وفي مختلف كتبه أثبت الإلحاد. وأبطل التوحيد، وجحد الرسالة.

يقول سليم خياطة في ختام بحثه عن ابن الراوندي[2]. «نسجل إعجابنا بهذه المدنية الإسلامية السمحة التي كانت تأذن لأمثال ابن الراوندي بهذا الاجتراء على عقائدها. وبهذا التهجم والتنقص من تفكيرها. وهي ساكنة هادئة تؤلف الكتب رداً عليه، ودحضاً لما انهال به عليها من (زيف).

(١) كتاب معاهد التنصيص: عبد الرحمن العباسي.

(٢) المقتطف: ابريل ١٩٣١.

وإن تاريخ المدنيات القديمة لا تروي لنا سيرة أي جريء متهور بلغ به تهوره إلى الحد الذي بلغ بصاحبنا.

★ ★ ★

ونستطيع أن نضيف إلى هؤلاء: هذا الحشد من وضّاع الكتب في الانتحال والترجمة من أمثال: أبي عبيدة، وعلان الشعوبي، وحماد الراوية، وخلف الأحمر، وأبان بن عبد الحميد اللاحقي، والفضل بن إسماعيل. وكل هؤلاء كانوا من الزنادقة الثنوية ينتمون إلى المانوية والمجوسية.

## أتباع الغنوص في التصوف

### (١)

هوجم ابن عربي من أجل القول بوحدة الوجود.

وقد رد عليه ابن الخياط، والحافظ الذهبي، وابن تيمية، وابن إياس، والتفتازاني. وقد تأثر ابن عربي بالفكر اليوناني والفكر الغنوصي. وكانت نظريته في مظهرها وجوهرها غريبة عن طبيعة الإسلام القائمة على الفطرة والتوحيد، والبعيدة عن تعقيدات الهيولي والصدور وغيرهما من مصطلحات لم يعرفها صدر الإسلام، ولم تجر على لسان الرسول ﷺ. وهي نظرية لا تتفق مع ظاهر الشرع، ولا مع العقل الذي يأبى أن يجعل الله حالاً في العالم كله. (تعالى الله عن ذلك علواً كبيراً). هذا فضلاً عن أن القول بوحدة الوجود لا يتفق مع إقامة الأخلاق على أساس وثيق.

فإن وحدة الوجود تنكر المسؤولية الفردية التي هي أساس الجزاء الأخروي.

ومن آراء ابن عربي الخاطئة المعارضة للإسلام. قوله: إن من وصل إلى درجة معينه في العبادة يباح له أن يتجاوز حدود ما أنزل الله.

وقد تابع ابن عربي في هذا الرأي كثير منهم: الشعراني الذي نقل مثل

هذه الآراء في كتابه (اليواقيت والجواهر). ويعلق السيد محمد رشيد رضا على هذا الاتجاه فيقول:[1] إن لشذاذ الصوفية القائلين بوحدة الوجود أقوالاً كثيرة مخالفة لعقائد الإسلام القطعية المعلومة من الدين بالضرورة كقول بعضهم (ما الكلب والخنزير إلا إلهنا) وقول عبد الكريم الجيلي: إن النصارى إنما كفروا بحصر الألوهية في المسيح وحده لا في إثباتها له.

وقال: إن ابن عربي يتكلم عن حظ المؤمن من النبوة، ووحدة الإلهام في الرؤيا واليقظة دون وحدة التشريع للأنبياء الذي هو من كلام الله. وقد اختلف الرأي في ابن عربي لعبارته الرمزية التي حاول بها إخفاء مقصده وإبهامه من ورائها. فاعتقد قوم بضلاله، وَعُدَّ مبتدعا ـ اتحاديا. وشك قوم في أمره، وفوضت جماعة أمره إلى الله.

وقد أشار الدكتور عبدالله عفيفي إلى المصادر التي استقى منها ابن عربي فلسفته الصوفية، فردها إلى الهلينية والغنوصية. وكشف عن الفرق بين ابن عربي والحلاج. فقد أخذ ابن عربي بمذهب وحدة الوجود. وأخذ الحلاج بمذهب الحلول ـ وكلاهما خارج عن الإسلام ـ هذا بفرضه وحدة الكون، والله تبارك وتعالى. والثاني بأثنينيته (القائلة بأن هناك حقيقة إلهية، وحقيقة بشرية).

وأشار الدكتور عفيفي إلى أن كتبه حافلة بما استعار من ألفاظ أفلاطون وأرسطو وأفلوطين.

ويقول لويس ماسنيون إن عقيدة الحلاج كانت شديدة الصلة بالمسيحية والفلسفة الهندية واليونانية.

وقد ذهب الحلاج مذهباً غريباً، فحاول أن يؤيد نظريته الوافدة بتأويل

---

(١) جـ ٣ ـ تفسير المنار ص ٣١٦.

القرآن والحديث. ولا ريب أن التعمل واضح فيما ذهب إليه، لأنه حاول أمراً لا تقبله الفطرة، ولا يقره العقل، وهو أن يجعل الله تبارك وتعالى هو العالم كله [1]. وقد أثارت فكرة وحدة الوجود، وخاصة في كتابات ابن عربي رد فعل عنيف لتعارضها مع أصول الإسلام، واعتبرها المحدثون والمفسرون والفقهاء وعلماء الكلام والصوفية السنيون عقيدة متناقضة مع العقيدة الإسلامية تناقضاً مطلقاً، بحيث لا يمكن التوفيق بينهما بأي وجه من الوجوه.

ولقد سمى (اسين بلاسيوس) كتابه عن ابن عربي «الاسلام المتنصر» Eslam Cristiani Zada وأخطر آراء ابن عربي قوله بما تقول به الباطنية من أن للقرآن وجهان: ظاهر وباطن، وان الفقهاء وقفوا عند الظاهر دون أن يدركوا المعنى الباطن الذي أدركه هو وأداه إلى هذا القول الزائف. كذلك تتسم كتاباته بالألغاز والتعميات.

وقد ادعى أن علم الصوفية سر لا يفشى لأهل الظاهر، وذهب مذهب رجال الكنيسة، وكانت أفكاره في مجموعها قريبة من أفكار اللاهوت المسيحي. ولا ريب أن ابن عربي ثمرة من ثمار جماعة إخوان الصفا، ومفاهيم القرامطة والباطنية والفلاسفة الذين انتحلوا مذهب أرسطو ممزوجاً بالأفلاطونية الجديدة.

يقول الدكتور أبو العلا عفيفي: مذهب ابن عربي ينظر إليه من ناحيتين: الفلسفة البحتة، وناحية الصوفية. فهو من الناحية الفلسفية لا شك من أتباع المذهب الأفلاطوني الجديد الذي عرفه لا في أصله، بل عن طريق إخوان الصفا. أما في الناحية الصوفية فهو يشارك الحلاج في أسلوبه ومنهجه، ويختلف عنه في عاطفته.

---

(١) دكتور محمد يوسف موسى: فلسفة الأخلاق.

ويقول إن ابن عربي استمد الكثير من مادة مذهبه من رسائل إخوان الصفا، ولا سيما الأجزاء التي لها أصلها من الأفلاطونية الجديدة، والتي أدخل عليها إخوان الصفا عناصر غريبة من مذاهب أخرى: إغريقية أو مسيحية أو فارسية الأصل.

هذه العناصر منها مذاهب الإغريق على اختلاف طبقاتهم تتخللها عناصر مستمدة من المذهب المانوي أو الزرادشتي ممزوجة بشيء من التصوف الإسلامي وآراء المتكلمين مضافاً إليها قليل أو كثير من القرآن والحديث (١).

(ويشير الدكتور أبو العلا إلى أثر إخوان الصفا في شهاب الدين السهروردي المقتول) وعبد الحق بن سبعين الأندلسي. كما تأثر ابن عربي في نظريته بفلسفة فيلون اليهودي الاسكندري، وفلسفة الرواقيين.

ويختم رأيه في الحلاج فيقول: لم يكن الحلاج فيلسوفاً بأي معنى من معاني الكلمة، ولكنها شطحات تعبر عن وجدان عميق عتيق. وإن العبارات وقعت في نفس ابن عربي موقعاً خاصاً فأولها. ومعنى هذا أن التأويل هو أبرز مفاهيمه. وبالجملة فإن الحلاج من نتاج الفكر البشري الوثني الهليني الغنوصي. ولقد واجهه الكثيرون ودحضوا زيف آرائه، وفي مقدمتهم السراج البلقيني والسيوطي.

## (٢)

أما الحلاج فقد كان سابقاً على ابن عربي: وهو رجل مجوسي الأصل، اشتغل بالمخارق والحيل، وادعى العلم بالأسرار، ثم تناهى إلى ادعاء النبوة ثم الربوبية، واستغوى غلمان قصر المقتدر بالله العباسي لينفذ بهم إلى تحقيق غايته في قلب الدولة وتسليمها للقرامطة، فأدى ذلك إلى قتله.

---

(١) م ١/جـ ١ مايو ١٩٣٣ مجلة كلية آداب القاهرة.

وذكر إمام الحرمين في كتابه (الشامل) أنه كان بين الحلاج وبين الجنابي رئيس القرامطة اتفاق سري على قلب الدولة. وأن هذا هو السبب الحقيقي في قتل الحلاج.

وقد أجمع المؤرخون على أن سبب قتله هو اتهامه بالقرمطية. فقد ثبت أنه كان وكيلا لهم، والقرامطة سفكوا الدماء وخربوا البلاد، وأنشأوا لهم عاصمة في هجر، وحملوا إليها الحجر الأسود، فظل بها نحو ثلاثين عاماً.

(٣)

حمل السهروردي لواء فكرة الإشراق، واستمدها من الفلسفة الهلينية والغنوصية واخذ مادتها من المجوسية والمانوية وغيرهما. وقد عرف السهروردي بأنه فارسي من أذربيجان من دعاة الباطنية المعروفين بالتأويل. وقد وصفه صاحب النجوم الزاهرة بأن زيه كان زرياً منكراً رزي الخلقة، دنس الثياب، وسخ البدن لا يغسل له ثوباً ولا جسماً ولا يداً. ولا يقص ظفراً ولا شعراً. وزادوا على ذلك فقالوا: إن القمل كان يتناثر على وجهه، ويسعى على ثيابه، وأن كل من يراه يهرب منه. وقد وصفه تلميذه السهروردي: في كتابه: نزهة الأرواح: أنه كان مستوي القامة يضرب شعره ولحيته إلى الشقرة. وكان يميل إلى السماع، ويبدي احتقاراً شديداً لكل مظاهر السلطان والأبهة، ثيابه مهلهلة، وصف بأنه الحرنبدا (كلمة فارسية: معناها مكاري) (أي حمار). وقد أشارت كتب كثيرة إلى قذارته منها (آثار البلاد وأخبار العباد للقزويني) (وأعلام النبلاء بتاريخ حلب الشهباء جـ ٤).

ولا ريب أن هذه الصورة لا يقرها الإسلام الذي دعا إلى النظافة، وكان نبيه أنظف الناس، وكان يعرف بريح المسك.

## مصادر الغنوصية

استقت «الغنوصية» مفاهيمها من عقائد وفلسفات ومذاهب متعددة عرفها الفكر البشري قبل الإسلام، وكلها فرق تحركت في إطار الوثنية، وعارضت مفهوم التوحيد.

١ ـ البوذية والبرهمية والمانوية والمزدكية والدهرية والأفلاطونية الحديثة.

فقالت **«الدهرية»**: بقدم العالم، وأن العالم بلا إله ولا صانع، وهم ينكرون وجود الخالق جل وعلا. وأن الدهر قديم، ويقولون بأن الأشياء ليس له أولا البتة، وإنما تخرج من القوة إلى الفعل. فإذا خرج ما كان بالقوة إلى الفعل تكونت الأشياء من ذاتها، لا من شيء آخر.

وقال **«الطبيعيون»**: بأن التراب والماء والنار والهواء هي أصول كل شيء.

وقالت **«الثنوية»**: ان صانع العالم اثنان: الخير والشر، والنور والظلام وهما قديمان لم يزالا.

وقالت **«البرهمية»**: (ومنها دهرية وثنوية) بتعظيم النار والنهي عن القتل والذبائح. وإباحة الفاحشة، وعبادة البقر. وقامت (أي البرهمية) على التناسخ (انتقال النفس من جسد إلى جسد) والتثليث (براهما، فتشوا، سيفا) والتجسد وإنكار وجود الله، والآخرة لأنهما غير محسوسين.

وقالت **«الصابئة»**: بعبادة الملائكة، واعتبروها آلهة، وقالوا: إن العالم لا يفنى.

وقالت **«المجوسية»**: بعبادة النار، والصلاة إلى الشمس، ومنعوا الاغتسال تعظيماً للماء، واستعملوا بدلا منها بول البقر، ولا يرون ذبح

الحيوانات، كما أحلوا أكل الميتة. وقالوا إن الأرض لا نهاية لها.

وقالت «**المزدكية**»: بشيوعية المال والنساء. وقد أدت دعوتهم إلى انتشار الإباحة والفوضى الأخلاقية. وقد اعتنقها آلاف الناس إرضاء لشهواتهم.

وقالت «**المانوية**»: بأن خالق الكون هو إله الشر

ودعت «البوذية» إلى تجريد النفس، وقمع الشهوات، ورفض متاع الحياة. وقالت بالتجسد والتقمص والتناسخ.

وقد اتسم طابع الفلسفات الشرقية (الغنوصية) بصبغة شعرية، لا صبغة عقلية، ورضيت في كثير من مواقفها بالتعبير الشعري المملوء بالمجازات والاستعارات والخيالات.

وان من يقرأ عصارة الفكر البشري، وحصيلة التراث القديم يرى كيف تراكمت آراء ونزعات متضاربة فاسدة غاية التضارب والفساد، تقوم على الإباحة والشك والضلال والاضطراب. وأين هي من ذلك الدين القيم «الاسلام» القائم على التوحيد.

وقد أخذ القرامطة شيوعية الأموال التي دعا إليها مزدك، وأدخلت في التصوف وحدة الوجود والحلول والاتحاد والإشراق.

# البَابُ الخَامِسُ

# الفَلسَفَةُ المَسِيحِيَّةُ الغَربِيَّة

(١) أصول الفلسفة المسيحية الغربية
(٢) مسيحية بولس
(٣) المسيحية والدولة الرومانية
(٤) تداخل المفاهيم وانحراف التفسيرات
(٥) الأناجيل
(٦) الكنيسة
(٧) الرهبانية

# الفصل الأول

## أصول الفلسفة الغربية المسيحية

١ ـ لم تكن رسالة المسيح عيسى بن مريم التي جاء بها من عند الله إلا إحدى ديانات بني إسرائيل التي توالت بعد رسالة موسى عليه السلام، وهي رسالات خاصة باليهود، ومكملة للرسالة الأم، أو محررة لمفاهيمها، أو منقية لعنصر من عناصرها من فساد أصابه. وقد توالى أنبياء بني إسرائيل بالرسالات خلال هذه الفترة التي سبقت رسالة المسيح عيسى ابن مريم (ومنهم طالوت، وداود، وسليمان، وإلياس، واليسع، ويونس، وزكريا، ويحيى) ثم جاء المسيح عيسى بن مريم رسولاً إلى بني إسرائيل في ختام هذه الرسالات المكملة، وكانت رسالته تركز بالأهمية على الزهد في مواجهة العسف، والتكالب المادي الذي وصل عند اليهود إلى أقصى مدى، وتركز على التسامح في مواجهة التحدي والانتقام الذي عرفوا به. ومعنى هذا أن رسالة المسيح عيسى بن مريم هي ديانة قومية تعد حلقة في سلسلة ديانات ورسالات أرسلها الحق تبارك وتعالى إلى بني إسرائيل، وتحمل طابع الأخلاقيات والروحيات، وهي في جملتها مجموعة من الوصايا التي تصحح الجوانب التي أصابها الاضطراب من الديانة اليهودية.

وقد سجل المسيح عيسى بن مريم عليه السلام ذلك حين قال: ما جئت لأنقض الناموس، ولكن جئت لأكمل. فلم تكن رسالة المسيح عيسى بن مريم رسالة مستقلة، ولا ديناً عالمياً، ولكنها كانت عملا مكملا خاصا لليهود في

ظل تحديات خطيرة انحرفت عنها الرسالة الأصيلة حين غلب تكالب اليهود على المال، وبلغ الربا أقصى مداه، وبلغ اليهود غاية الظلم والعسف والانتقام، فكانت رسالة المسيح عيسى بن مريم هي عملاً مكملاً ومصححاً لا تنقض الديانة الاصيلة (الناموس)، ولا تخرج عنها، ولا تستن شريعة خاصة.

ومن هنا فإن المسيح وأتباعه الذين أطلقوا على أنفسهم النصارى أو المسيحيين، قد وجدوا معارضة شديدة من اليهود، ومقاومة لا حد لها عرضت السيد المسيح نفسه للخطر على النحو الذي عرف من تألب رؤساء الدين عليه حتى صدر أمر الحكومة الرومانية بطلبه فطلبوه ليوقعوا عليه حكم الصلب فنجاه الله منهم برفعه إليه كما ورد في القرآن.

٢ ـ كما تعرضت حياة أتباعه الحواريين للخطر والاضطهاد سنوات طويلة. ومن هنا فالمسيحية السماوية المنزلة التي دعا إليها السيد المسيح كانت ديانة موحدة تدعو إلى الزهد في الدنيا، والتطلع إلى الآخرة، وتجنح إلى التخفيف من قسوة المادية التي وصل إليها اليهود في هذه المرحلة من حياتهم.

فالمسيح عيسى بن مريم في الحقيقة التي تكشف عنها وقائع التاريخ، والدراسات الصحيحة، والمصادر الأصيلة، وفي مقدمتها القرآن الكريم هو آخر أنبياء بني إسرائيل، أرسل إليهم خاصة ليذكرهم بالتوراة التي أنزلت إليهم، والتعاليم التي جاء بها من سبقه من الرسل والأنبياء، وليبين لهم العقائد الصحيحة التي تركوها، واعتنقوا غيرها من العقائد الباطلة الفاسدة.

وقد شملت رسالة عيسى كما جاءت في القرآن الكريم جميع العقائد الأساسية في الدين: الإيمان بالله الواحد الأحد، والايمان برسالة الأنبياء والمرسلين، والتصديق برسالة موسى، والبشارة برسالة محمد.

(إني رسول الله إليكم جميعاً مصدقاً لما بين يدي من التوراة ومبشراً برسول يأتي من بعدي اسمه أحمد). وهي إلى ذلك تقوم على الإيمان بالبعث

والقيامة والجزاء والجنة والنار.

٣ ـ وتعاليم السيد المسيح تركز بالأخص على الحب والتسامح والصبر، وعدم الإيذاء أو التفكير في الانتقام. وقد صور السيد المسيح مفهومه هذا في قوله المشهور: «قد سمعتم أنه قيل أحبب قريبك وأبغض عدوك. أما أنا فأقول أحبوا أعداءكم، وباركوا لاعنيكم، وأحسنوا إلى مبغضيكم، لا تقاوموا الشرير، بل من لطمك على خدك الأيمن فحول له الآخر. ومن أراد أن يخاصمك ويأخذ ثوبك فخل له رداءك أيضاً. ومن سخرك ميلاً فامش معه ميلين».

٤ ـ يمكن القول إن رسالة السيد المسيح المكملة للناموس إنما جاءت محررة للمجتمع اليهودي والروماني من الانحراف الذي أصابه، ومن إيغاله في الوحشية. والمادية، والقسوة والترف.

ومن المقطوع به أن عيسى لم يجيء بأمر جديد من أصول الدين، ولا بأمر من امور العبادات التي لم تكن معروفة من قبل. وإنما ركز على عناصر معينة هي من أصل الدين اليهودي، ثم انحرف اليهود بها عن أصولها، فجاء ليعيد لها مكانها الصحيح. وهي أمور التسامح والزهد والأخلاق والحب ودفع الشر، كما أنه جاء ليحلّ لليهود بعض الذي حُرِّم عليهم.

# الفصل الثاني

## مسيحية بولس

في العام الثامن للميلاد ظهر أحد دعاة المسيحية الذين كان لهم في تاريخها أبعد الأثر، ذلك هو (شاؤول) اليهودي الروماني الذي كان في أول عهده من أعظم أعداء المسيحية، ومن أنشط المضطهدين لفئة الحواريين القليلة العدد، فأنزل بهم ألواناً من الاضطهاد والقتل والتعذيب، ثم تحول فجأة إلى المسيحية وغير اسمه فجعله (بولس)، وهو الذي يعد في الحقيقة مؤسس المسيحية الغربية المعروفة. وذلك بعد أن وضع النهاية لرسالة المسيح عيسى بن مريم التي جاءت من السماء، والتي كانت إحدى ديانات بني إسرائيل، والمكملة لرسالة موسى. فقد أخرجها بولس من أصولها جميعاً، وأنشأها خلقاً آخر.

ذلك أن بولس كان على إلمام كامل بالفلسفة اليونانية في عصره، وكان عالماً باليهودية، والميثرائية، وديانة ذلك الزمان الذي تعتنقها الإسكندرية. ومن ثم فقد نقل إلى المسيحية خيوطا مختلفة من هذه الفلسفات والأديان، وصاغها على النحو الذي شكل به هذه العقيدة الجديدة التي لم يقل بها المسيح، والتي ابتعدت عن دعوته الربانية السماوية المتصلة برسالة التوحيد الأساسية، وشكلت تلك الصورة المعقدة التي تكمن في «التثليث» و «الفداء» و «الصلب». وفي عديد من النصوص التي أثبتها الباحثون نجد هذه الحقيقة واضحة.

* * *

يقول بيري:[1] «وكان عيسى يهودياً. وقد ظل كذلك أبداً، ولكن شاؤول كون المسيحية على حساب عيسى. فشاؤول الذي سمي فيما بعد (بولس) هو في الحقيقة مؤسس المسيحية، وهو يمتاز بأنه صاحب دراية في السياسة والابتكار.

«أدخل بولس على ديانته بعض تعاليم اليهود ليجذب إليه العامة من اليهود، وأدخل صوراً من فلسفة الإغريق ليجذب إليه أتباعاً من اليونان».

فبدأ يذيع أن عيسى منقذ ومخلص وسيد (Lord) استطاع الجنس البشري بواسطته أن ينال النجاة، وهذه الاصطلاحات التي قال بها بولس كانت شهيرة عند كثير من الفرق اليهودية فانحازوا إلى ديانة بولس، وعمد كذلك ليرضي المثقفين اليونان فاستعار من فلاسفة اليونان فكرة اتصال الإله بالأرض عن طريق الكلمة، (فيلون) أو ابن الإله أو الروح القدس. بدأ بولس ديانته في أنطاكية حيث نشأ لأول مرة التعبير الشهير (المسيحية Crristian) وبدأت تنتشر هذه الديانة في المدن حيث تكثر الحاجة والفقر. فبولس هو المؤسس الحقيقي للديانة المسيحية، وقد طور فكرة «المسيح» من الناحية اللاهوتية، والناحية الإنسانية، وجعلها تتناسب مع فكرة الإنقاذ القديمة. فقدم آداباً مستحدثة في طابع قديم مألوف. وبهذا فصل دعوة عيسى عن اليهودية.

ولم ينفر بولس من الطقوس الوثنية. بل على العكس اقتبس كثيراً من هذه الطقوس ليضمن نشر ديانته بين الوثنيين، وليبعد ديانته عن أن تذوب في اليهودية. ومنها أن جعل عطلة الأسبوع يوم الأحد، وأهمل يوم السبت، وهو اليوم المقدس عند اليهود، كما غير أيام الأعياد «وعيسى أصبح ابن الله، حملت به أمه العذراء بشكل غير طبيعي، واحتلت صورة العذراء والمسيح

---

(١) الأديان العالمية: بيري Berry.

مكاناً مقدساً » كانت تحتله قديماً صورتا: حورس. وأوزيريس، ووضعتا في كل الكنائس.

« وعلى الرغم مما أخذت المسيحية من الوثنية لم تصر المسيحية وثنية في روحها. بل ظلت متمسكة بتحفظها الديني الذي ورثته عن اليهودية، كما حافظت على ابتعادها عن الناحية الجسمانية والشهوانية ».

٢ ـ ويقول: هـ. ج. ولز: كان القديس بولس من أعظم من أنشأوا المسيحية الحديثة، وهو لم ير عيسى قط، ولا سمعه يبشر الناس، وقد أوتي ذلك الرجل قوة عقلية عظيمة كما كان شديد الاهتمام بحركات زمانه الدينية، فتراه على علم عظيم باليهودية والميثرائية. وديانة ذلك الزمان الذي تعتنقها الاسكندرية، فنقل إلى المسيحية كثيراً من فكراتهم، ومصطلح تعبيرهم، ولو لم يهتم بتوسيع فكرة عيسى الأصلية وتنميتها وهي فكرة ملكوت السماء، ولكنه علّم الناس أن عيسى لم يكن المسيح الموعود فحسب، ولا زعيم اليهود الموعود فقط، بل إنه ابن الله. نزل إلى الأرض ليقدم نفسه قرباناً، ويصلب تكفيراً عن خطيئة البشر، فموته كان تضحية مثل ممات الضحايا القديمة من الآلهة في أيام الحضارات البدائية من أجل خلاص البشر. وقد استعارت المسيحية أشياء كثيرة من هذه الديانات كالقسيس الحليق، وتقديم النذور والهياكل والشموع والترتيل والتماثيل، وتبنت عباراتها وأفكارها اللاهوتية.

وراح القديس بولس يتقرب إلى عقول تلاميذه بالفكرة القائلة: إن شأن عيسى كشأن أوزيريس: كان رباً مات ليبعث حياً وليمنح الناس الخلود [1].

★ ★ ★

(١) مختصر تاريخ العالم: هـ. جـ. ولز.

ومن هذين النصين ونصوص أخرى كثيرة مماثلة يتكشف تحول الدين الذي جاء به المسيح عيسى بن مريم إلى دين جديد أقامه بولس، وأخرجه عن جميع الملامح والصلات والقيم التي كان قائماً عليها.

**( أولاً )**: حول المسيحية من دين مكمل للرسالة التي جاء بها موسى إلى دين عالمي. فقد كان بولس أول من فصل المسيحية عن اليهودية، وقال بعالميتها والانتقال بالمسيحية من بساطتها الأولى إلى الفكرة الفلسفية المعقدة[١].

**( ثانياً )**: دعا بولس إلى دعوة مخالفة للأصول الحقيقية لدعوة السيد المسيح، ومعارضة لها فقال بأن المسيح هو ابن الله الحي الذي بعثه الله ليكون فداءً للبشرية، وكفارة عن ذنوبها وخطاياها منذ ما أسماه خطيئة آدم، وبأن المسيح ابن الله قد ظهر وتجسد على الأرض، وصلب ومات ليكون موته كفارة عن ذنوب البشر.

**( ثالثاً )**: قال بولس بالتثليث.

**( رابعاً )**: وضع رسائل تعد الآن مصدر التشريع في المسيحية، فقد شرع قوانين للمسيحيين يتبعونها في حياتهم العامة، فهو الذي اوصى بما نراه اليوم في الكنائس من التسابيح والأغاني الروحية، والمزامير والتراتيل، وهو الذي قال بعدم وجوب الختان.

★ ★ ★

يرد الكثير من الباحثين عمل بولس إلى مخطط اليهود القائم على تحريف الأديان، وتبني الفلسفات المادية والوثنية على مدى العصور من أجل تأكيد خطتهم الأساسية في السيطرة على العالم واخضاعه للربا والإباحية، وهي رسالة قديمة عاشوا لها، وظلوا يتعاورونها على مدى العصور. وقد جاءت نبوة موسى

(١) أحمد شلبي ـ وفريد وجدي ـ وأحمد حسين ـ وعمر عناية.

عليه السلام لتحريرهم منها. غير أنهم لم يلبثوا قليلاً حتى حرفوا الرسالة، وزيفوا الكتاب، (التوراة) وأدخلوا فكرهم في التوراة نفسها بعد تحريفها، ورفع ما يتعارض مع أهوائهم: (تجعلونه قراطيس تبدونها وتخفون كثيرا).

ثم كانت المشنا والتلمود تفسيراً وتأكيداً لهذا الاتجاه. وفي العصر الحديث ظهرت البروتوكولات، وكما زيف اليهود التوراة والدين الذي أرسل به موسى، وأفسدوا كل ما جاء به الأنبياء الذين أرسلوا من بعد موسى إليهم، كذلك فعلوا برسالة المسيح عيسى بن مريم، وكان بولس (الحبر اليهودي شاؤول) هو الذي حمل لواء هذا التغيير على النحو الذي نقل دعوة عيسى من حيث هي رسالة تكميلية إلى بني إسرائيل إلى ديانة عالمية، ثم نقلها من حيث هي دعوة إلى التوحيد إلى التثليث. ومن حيث ان المسيح رسول الله إلى القول بألوهيته، ومن حيث ان صلب المسيح إنما هو محاولة انقذ الله منها نبيه عيسى إلى عمل وقع من أجل الفداء والتكفير عن خطيئة البشر.

ولم يقف بولس عند هذا. بل إنه أضاف وحذف كثيراً من أصول الدين الذي جاء به المسيح عيسى بن مريم على النحو الذي انحرف به انحرافاً كاملاً عن مصادره وقيمه بما اصبح ديناً جديداً باسم المسيحية الغربية.

وقد كسب اليهود القائمون على فلسفة الربا والإباحة من هذا العمل كسباً كبيراً. فقد عزلوا ذلك الرباط القائم فعلاً بين دعوة موسى بالتوراة، وبين دعوة عيسى بالإنجيل كآخر أنبياء بني إسرائيل. كما نقلوا المسيحية من دين توحيدي سماوي له سماته البسيطة الفطرية الى فكرة فلسفية معقدة. فضلاً عن أن كل ما دعا إليه بولس لم يقل به المسيح، ولا أحد من أصحابه وحوارييه.

وقد اتجه بولس بالمسيحية على النحو الذي صاغها عليه إلى شعوب الامبراطورية الرومانية بعد أن لم يقبل بها أهل الشام. وفي نطاق الامبراطورية

الرومانية تحرك بولس على النحو الذي حقق به انتشار دعوته، فقد عمل على إرضاء مختلف الطوائف الوثنية، والقادة والحكام. بإضافات مختلفة اختارها من الفلسفة القديمة والأديان الوثنية.

« وطلب من العبيد الذين اعتنقوا المسيحية أن يطيعوا سادتهم، وأن يخدموهم في أمانة وإخلاص مهما عذبوهم أو قسوا عليهم، وأنه يخضع الكل للسلاطين والحكام من غير تذمر أو احتجاج »[١].

وقد كان هذا عاملاً من العوامل التي جعلت السلطات تترك له حرية العمل. كما أعفى المسيحيين الجدد من فريضة الختان التي كان اليهود يفرضونها على أنفسهم، كما أعفاهم من كل الطقوس والعبادات.

★ ★ ★

وقد أهمل بعض الباحثين « إضافات بولس » إلى المسيحية وتحريفاته لها. وفق الخط الذي أراده لتغيير جوهرها على هذا النحو[٢].

( ١ ) - جعلها دعوة مفتوحة لغير اليهود من جميع الأمم، ولو أدى ذلك إلى التساهل في بعض التشريعات والطقوس التي تضايق الوثنيين كالختان والسبت وتحريم الخنزير.

( ٢ ) - إخراج المسيحية من البساطة اليهودية إلى تعقيدات الفكر اليوناني، وهو أول من أتاح للمسيحية امتصاص الكثير من المعتقدات والطقوس الوثنية، وخصوصاً اليونانية.

( ٣ ) - جعل اللاهوت المسيحي قائماً على أن كل إنسان مذنب منذ ولادته، ووارث لخطيئة آدم، ومستحق للعذاب الأبدي. وإن الله أرسل ابنه

---

(١) دكتور أحمد شلبي.

(٢) عبده فراج: معالم الفكر الفلسفي.

المسيح إلى العالم ليكفر عن خطيئة الناس بموته على الصليب فداءً لهم.

(٤) ـ أدخل بولس في المسيحية عقيدة الكلمة (اللوجوس) التي كان يقول بها فيلون اليهودي في الاسكندرية. كما أدخل عقيدة التجسيد. والواقع أن عقيدة الخلق بالكلمة من أقدم العقائد، ويمكن الرجوع بها إلى كهنة ممفيس.

(٥) ـ انتهى إلى عقيدة جديدة تمزج المسيحية بالأفلاطونية الجديدة، وكذلك بالمعتقدات المصرية والفارسية والهندية. وقولهم بإلهين. أحدهما إله الخير. وهو إله المسيحية في (العهد الجديد) لأنه يدعو إلى الحب والسلام والصفح عن الأعداء. والآخر إله الشر. وهو يهوه إله اليهودية في (العهد القديم) لقسوته وحبه للانتقام، وحكمه بأن العين بالعين.

★ ★ ★

ويربط بعض الباحثين بين بولس في المسيحية وعبدالله بن سبأ في الإسلام ـ وكلاهما يهودي دخل ديناً جديداً لإفساده وضربه من الداخل وتحريفه[1].

ويردون دخول بولس في المسيحية إلى عداوته التي عرفت من قبل، والتي اتخذت نفس الطريق الذي يتخذه اليهود عامة من الانتقال الى الدين الذين يريدون تخريبه، والعمل من داخله. وقد اتخذ بولس هذا الأسلوب ووجد فرصة متاحة في فترة وصلت فيها المسيحية الى حالة بعيدة من الضعف، فاستعمل سلاح التزييف، فأتى على خصائصها الأساسية، وحرف معالمها ومظاهرها.

يقول الدكتور أحمد شلبي الذي أجرى مقارنة بين بولس وعبدالله بن سبأ: إن أفكار عبدالله بن سبأ لم تستطع أن تعيش وتنمو كما عاشت ونمت

---

(١) الدكتور أحمد شلبي: المسيحية.

أفكار بولس، وذلك لأن القرآن الكريم كان محفوظاً ومكتوباً. وهو خير حارس للإسلام، أما إنجيل عيسى فكان قد ضاع بين طيات الأحداث. فلم يكن للمسيحية عماد يحميها من الصدمات العنيفة.

وقد سارت آراء بولس في العالم الغربي خلال النصف الثاني من القرن الأول الميلادي بعد أن مزجها بالفلسفة اليونانية. وقد عكس هذه الصورة « إنجيل يوحنا ».

# الفصل الثالث

## المسيحية والدولة الرومانية

ولدت المسيحية في أورشليم من فلسطين في آسيا، ثم لم تلبث أن عبرت إلى أوروبا فاستقرت في الدولة الرومانية ذات الحضارة العريقة، وذات النظام الاجتماعي الذي شكلته الفلسفة اليونانية الوثنية والقانون الروماني. وفي هذا الجو بكل قيوده وتحدياته عبرت المسيحية إلى أوروبا، وتشكلت في داخل هذا الفكر على النحو الذي قام به بولس منحرفاً بها عن نهجها الرباني المنزل من السماء. حتى ليمكن القول بأن المسيحية الغربية هي مسيحية بولس، وليست مسيحية المسيح. وفي ظل هذا التشكل نشأ الفكر الغربي والفلسفة الغربية.

ومر في ثلاث مراحل:

**( المرحلة الأولى ) :** منذ عبرت المسيحية إلى الدولة الرومانية إلى أن أعلن قسطنطين اعتناقه للمسيحية.

**( المرحلة الثانية ) :** منذ أعلن قسطنطين اعتناقه المسيحية سنة ٣١٦ م حتى ظهور دعوة لوثر، وانقسام الكنيسة.

**( المرحلة الثالثة ) :** منذ ظهور الدعوة إلى التحرر من الأديان ونقدها، وهي المرحلة التي بدأها نيتشه. وما تلاها من غلبة الطوابع الفلسفية الجديدة.

حين امتدت المسيحية إلى أوروبا وصلت إليها نظاماً روحياً، وإرشاداً خلقياً، ولكنها لم تضع لها أسساً للتشريع والاقتصاد والسياسة. فقد كان هذا المنهج الاجتماعي قد تشكل وتكامل قبل وصول المسيحية، ولذلك فقد ارتضت المسيحية أن تكون عنصراً من العناصر الثلاثة المشكلة للفكر الغربي.

وقد ظلت المسيحية منذ وصولها إلى أوروبا حتى أعلن قسطنطين تنصره عام ٣١٦م وهي تواجه اضطهاداً شديداً وصراعاً قوياً من الوثنيين أصحاب القوة والنفوذ في الدولة الرومانية.

وظلت إلى ذلك الوقت وما بعده بقليل تحمل في أعماقها وجه الخلاف بين القائلين بأن المسيح نبي مرسل، والقائلين بأنه ابن الله. ولقد اختارت المسيحية الغربية أن تقف مع التثليث وألوهية المسيح.

ولقد كان للفكر الغربي بوثنياته وفلسفاته اليونانية والبابلية والهندية والفارسية أكبر الأثر في تحريف المسيحية عن أصلها الأصيل حتى ليقول (برنارد لويس): إنه لم يعتنق المسيحية منذ نشأتها سوى فرد واحد هو المسيح. وإن كنا نرى أن أجيالاً قد اعتنقت المسيحية الحقيقية حتى جاء الإسلام.

وقد أشار إلى ذلك العلامة أرنست دى بنسين حين قال: إن العقيدة والنظام الديني الذي جاء في الإنجيل ليس الذي دعا اليه السيد المسيح بقوله وعمله، وإن مرد النزاع القائم بين المسيحية اليوم وبين اليهود والمسلمين ليس إلى المسيح. بل إلى دهاء بولس. ذلك اليهودي والمسيحي وشرحه للصحف المقدسة على طريقة التجسيم والتمثيل، وملئه هذه الصحف بالنبوءات والأمثلة. إن بولس في تقليده لاسطفانوس راعي المذهب الإنساني قد ألصق بالمسيح التقاليد البوذية. انه واضع ذلك المزيج من الأحاديث والأقاصيص المتعارضة التي يحتوي عليها الانجيل اليوم، والتي تعرض المسيح في صورة لا تتفق مع التاريخ أصلاً. ليس المسيح، بل بولس والذين جاءوا بعده من الأحبار والرهبان الذين وضعوا تلك العقيدة، والنظام الديني الذي تلقاه العالم المسيحي كأساس للعقيدة المسيحية الأرثوذكسية خلال ثمانية عشر قرناً. في خلال الفترة من دخول بولس بالمسيحية إلى الدولة الرومانية حتى دخول قسطنطين

فيها سنة ٣١٦ م. واجهت المسيحية صراعاً جباراً مع الوثنية في الأمبراطورية الرومانية. فقد ظلت الفلسفة اليونانية، والفكر الروماني يعارضان المسيحية معارضة شديدة رغم ما أصابها من تحريف.

ذلك أن أوروبا اعتنقت الديانة المسيحية التي وفدت إليها من الشرق بعد أن حولتها من عقيدة تراقب ضمير الانسان وسلوكه إلى مجرد طقوس تعبدية يلجأ إليها الإنسان ليكفر عن خطاياه أو يستدر عطف الإله.

ولم يجعلوا للدين قط تلك الفعالية اليقظة التي تسير أعمال الإنسان كما هو الإنسان في الإسلام.

حاولت الكنيسة الكاثوليكية في العصور الوسطى بواسطة البابوات أن تمكن الديـن في قلوب الناس وتصرفاتهم عندما قيدت ذلك بقيود بغيضة، لم يلبث العقل الأوروبي حين تفتح في عصر النهضة أن رفض الدين المسيحي كله [1].

ذلك أن المسيحية حين وصلت إلى أوروبا لم تكن هي فعلاً المسيحية الشرقية الربانية المنزلة على المسيح عيسى بن مريم، ولكنها كانت جماعاً من الوثنية والفكر اليوناني والغنوصية مجمعاً في إطار باسم المسيحية. فهي حين واجهت الاضطهاد في أول الأمر كانت تجد من بعض مفاهيمها الباقية من الرحمة والمحبة وغيرها عاملاً مؤثراً في الأمم التي اضطهدتها الدولة الرومانية وكانت سلاحاً في مواجهة النفوذ الروماني بمطالبه القاسية. ولا ريب أن الاضطهاد أفقد المسيحية مراجعها الأصلية، ومكن بولس من الاقتباس من الفلسفة الإغريقية دون أن يخشى مراجعاً.

فلما دخلت الدولة في المسيحية، واعتنقتها، واتخذتها ديناً لها لم تلبث أن

---

(١) اسماعيل أدهم أحمد: (ك) لماذا هو ملحد.

تحولت على أيدي الكهنة والكنيسة تحولا خطيراً، وأصابها تعقيد بالغ رفضه العقل البشري، وعارضته طبيعة النفسية الأوروبية التي عاشت في أعماق الوثنية اليونانية، وكرهت كل قيد. ذلك أن المسيحية ذهبت إلى أبعد مدى في الدعوة الى الزهادة، واعتزال الحياة، وتحريم طيبات الدنيا.

## (٣)

استمر اضطهاد المسيحية أكثر من ثلاث قرون حتى سنة ٣١٣.

وفي مؤتمر نيقة تغلب مفهوم التعدد على مفهوم التوحيد.

وكان مفهوم التعدد مفهوم قساوسة الرومان. أما قساوسة المشرق فقد قالوا بأن المسيح نبي وليس إلهاً.

وكان أريوس المصري هو حامل لواء الدعوة إلى التوحيد، والقائل: (ان الأب وحده الله، والابن مخلوق. وقد كان الأب إذ لم يكن الإبن).

وقتل أريوس مع بعض من أيدوا رأيه، ونجح رأي كاهن روما.

«ثم فرض القرار فرضاً على الناس، وحرق كل ما سواه[1]. وصودر وأفني كل ما كتب متجهاً غير ذلك الإتجاه».

ومن المعروف أن تحول المسيحية من دين توحيدي إلى دين مثلث، ومن دين يهودي إلى دين عالمي كان نتيجة لدخول الافكار اليونانية والفلسفة الإغريقية، وبذلك انتقلت المسيحية من دين شرقي إلى دين غربي. ولكن هذا التحول لم يمض دون صراع طويل. فقد قام الخلاف بين بولس وأنصاره من جهة، وبين المسيحيين الحقيقيين من جهة ثانية. وامتد قروناً بعد وفاة بولس.

---

(١) أحمد شلبي: المسيحية.

ولما انتصرت فكرة الرومان المعددة على فكرة المسيحيين الموحدين، قضي على كل كتابات الموحدين، وقبرت وأعدمت نهائياً. ولقد كان بولس يتخذ مع مخالفيه في الرأي أسلوباً غاية في العنف والحدة، بل والتحقير والازدراء. وكان ذلك مقدمة لسلوك تابعيه وقومه معهم، حتى قضوا نهائياً على كل مجال للمعارضة أو إبداء الرأي.

وبالجملة فقد كان بولس يهودياً ورومانياً. وكان الهيكل الذي صنعه للمسيحية متصلاً بمزاجه النفسي، وثقافته الغربية ولم يكن يتصل بروح الشرق أو طوابع الدين الموحى به أقل اتصال. وقد سار على نهجه كثيرون منهم واحد من كتبة الأناجيل الأربعة (لوقا). فلوقا هو تلميذ بولس، وإنجيله هو فكر بولس.

ومختلف آراء بولس التي ضمنها المسيحية هي آراء الفكر الوثني اليوناني الذي تطور في مدرسة الإسكندرية على يدي أفلوطين، ثم فيلون اليهودي.

وقد استمرت مدرسة الإسكندرية التي قامت على الفكر الهليني، وأنشأت من بعد الفكر الهلسنتي، استمرت بعد المسيح فأنجبت أفلوطين ٢٧٠ م الذي جدد مذهب أفلاطون، ونمّى نظرية الفلسفة في الفيض والعقل والنفس.

ومن خلال هذا التطور الذي يحمل طابع اليهودية في بولس، والهلينية في الفكر الدخيل، وطابع أوروبا والرومان في تشكيل الصورة وبنائها وامتدادها بعد بولس الذي مات سنة ٦٥ ظهرت جبهة تحمل الدعوة إلى تأليه السيد المسيح، وتصفه بأنه الابن. وقد ظل الصراع قائماً بين الشرقيين حملة المسيحية الحقيقية، وعلى رأسهم أريوس، وبين الغربيين حملة المسيحية الغربية حتى انعقد مؤتمر نيقة (٣٢٥ م) حيث تغلبت الاقلية القائلة بألوهية المسيح على رأي الاغلبية القائلة بالتوحيد فانعقد المؤتمر وبهذه الأقلية فقط واتخذ قراراً بذلك فرض من بعد على المسيحيين في كل مكان.

ثم أصبح لهؤلاء القائلين بألوهية المسيح كل النفوذ والسيطرة، وأصبح للأناجيل التي اختاروها الطابع الرسمي المقرر. بينما قضوا على كل ما عداها مما يعارض رأيهم بالفناء. وفي مقدمتها إنجيل برنابا. وكان برنابا قد أنشأ إنجيله للرد على ما أسماه ضلالات بولس[1].

وكان ذلك كله مقدمة لنفوذ الكنيسة الذي سيطر على أوروبا سيطرة كاملة بعد سقوط الامبراطورية الرومانية سنة ٤٧٦ م.

---

(١) أحمد شلبي: المسيحية.

# الفصل الرابع

## تداخل المفاهيم وانحراف التفسيرات

إن أكثر ما أصاب المسيحية من اضطراب وتداخل في المفاهيم. إنما جاءها من الفلسفتين اليونانية والغنوصية. وقد صور هذا المعنى المؤرخ: ليون جونيه. حين قال: « إن المسيحية تشربت كثيراً من الآراء والأفكار من الفلسفة اليونانية، فاللاهوت المسيحي مقتبس من نفس المعين الذي كانت تقتبس منه الأفلاطونية الحديثة. ولذلك نجد بينهما مشابهات كثيرة ».

وتكاد تجمع مراجعات الباحثين على أن « المسيحية مجموعة من الاقتباسات من الوثنية واليهودية، والحياة الشرقية، والرومانية، وفيها عناصر أجنبية كثيرة بارزة بها كاملة أو محرفة ».

ومن اليهودية اقتبست المسيحية فكرة الأبوة بين الله والناس، أي أبوة الإله للخلق، ومن الحياة الشرقية اقتبست المسيحية الفنون والرسوم التي ازدانت بها الكنائس، كما اقتبست استعمال الفسيفساء والصور والبخور والأنغام.

ومن الفلسفة الإغريقية اقتبست المسيحية (الكلمة) وهي ترادف (الإله) عند الإغريق، لأن الكلمات لا تفنى بالاستعمال. وعندنا أن أخطر ما واجه المسيحية هي ديانة الإله مترا، أو الديانة المترائية، وهي إحدى الديانات البشرية المنتشرة في ذلك الوقت في حوض البحر الأبيض المتوسط، وخاصة في أوروبا. ذلك أن معظم الأقطار التي انطوت فيها كانت من هذه الديانة. وأبرز معالم (عبادة الاله مترا) هي أن الإله مترا بين الله والبشر، وأنه مات ليخلص البشر من خطاياهم، ودفن، ثم عاد إلى الحياة، وقام من قبره مخلصاً ومنقذاً، ويعمد ابناءه، وله عشاء مقدس.

ويكاد يكون الإله مترا هو الصورة التي نقلها بولس إلى المسيحية، ووضع في إطارها السيد المسيح.

أما فكرة ابن الإلٰه، «فقد كانت تسود العالم المصري القديم» وتقوم عليها الديانة الفرعونية البشرية: (ايزيس، وأوزيريس، وحورس) وفي الهند كانت البرهمية تقوم على التثليث أيضاً (براهما - فنشو - سيفا) وصورة العذراء الأم وهي تحمل المسيح هي صورة إيزيس الأم، وهي تحمل الإلٰه الابن حورس.

★ ★ ★

وإذا كانت أبرز انحرافات المسيحية وهي كثيرة هي:

**(أولاً)**: التثليث: وألوهية المسيح.

**(ثانياً)**: تجسد الإبن وظهوره بمظهر البشر ليصلب تكفيراً للخطيئة التي ارتكبها آدم أبو البشر.

**(ثالثاً)**: عالمية المسيحية.

فإنما هي في مجموعها قد جاءت مقتبسة من الفكر البشري الذي عاش موجات تتضارب من خلال الأديان السماوية التي انحرفت عن أصولها. فأخذت وأعطت، وربما كانت الفلسفة اليونانية، والفارسية، والمجوسية. والفلسفة الهندية، وهي بين عقلية وغنوصية هي المصادر التي استمدت منها اليهودية أولاً انحرافها عن الدين المنزل على موسى، ومنها استمدت المسيحية أيضاً إنحرافها.

أما اليهودية فقد انحرفت على النحو الذي استوعب فكر اليهود ومفاهيمهم في الربا، والاستيلاء على العالم. وأما المسيحية فقد تدخلت اليهودية في تحريفها لإخراجها من أصلها السماوي الذي أنزلت به لإصلاح دين بني إسرائيل إلى ديانة بشرية خالصة.

( ١ )

## التعدد = التثليث

أخذت المسيحية (مسيحية بولس) التثليث من الثقافات المحيطة بها. (تعدد الآلهة موضوع يكاد يكون عاماً في جميع الثقافات القديمة، قال به المصريون القدماء، وقال به الأشوريون، والبابليون، والفرس، والهنود، والصين، واليونان، على اختلاف في عدد الآلهة، ومكانهم واختلاف في تصور الآلهة بعضهم من بعض أو صلتهم بالبشر)[١].

ولقد ظهرت فكرة التعدد في الأديان البشرية والوثنية. ففي الهند كانت البرهمية مثلثة، وكانت المجوسية ثنائية. ويذهب كثير من الباحثين إلى أن القول[٢] بتحديد الآلهة بثلاثة عمل له صلة بعبادة الأبطال. تلك العبادة التي بدأت منذ فجر التاريخ، والتي لا تزال لها بقايا في عالمنا الحاضر، وارتباط التثليث بعبادة الأبطال مرجعه أن الجماهير كانت تعبد البطل لعمل رائع، قام به. ثم يتخذ البطل له زوجة فتحتل معه مكان الألوهية، وتسجد لها الجماهير، ثم يصل إلى البطولة أكبر أبنائه فيتم الثالوث.

ويرجح الكثيرون أن البابليين أول من قال بالثالوث في الألف الرابع قبل الميلاد، وكان البابليون يدينون بالتعدد، وقد جعلوها أثلاثاً. كل مجموعة ثلاثة (السماء والأرض والبحر) ثم (القمر والشمس والعدالة) الخ.

ثم تطورت فكرة التعدد وتفلسفت وظهرت بدعة التعدد في وحدة. والوحدة في تعدد. وقال بها الهنود قبل المسيح بألف عام. وفي الإسكندرية أقام بطليموس الأول معبداً عظيماً. هو معبد السرابيوم، كان يعبد فيه نوع من

---

(١) عن نص لإبراهيم بيومي مدكور (تاريخ الفلسفة).

(٢) أحمد شلبي: المسيحية.

ثالوث الأرباب مكون من سرابيس وإيزيس وحورس. وقد سجلت دائـرة معارف القرن التاسع عشر الفرنسية هذا الموقف. فقالت: عقيدة التثليث، وإن لم تكن موجودة في كتب العهد الجديد (الإنجيل) ولا في أعمال الآباء الرسوليين، ولا عند تلاميذهم الأقـربين. إلا أن الكنيسـة الكـاثـوليكيـة، والمذهب البروتستانتي مدعيان أن عقيدة التثليث كانت مقبولة عند المسيحية في كل زمان، رغما عن أدلة التاريخ التي ترينا كيف ظهرت هذه العقيدة، وكيف نمت، وكيف علقت بها الكنيسة بعد ذلك.

إن (بولس) خالف عقيدة التلاميذ الأقربين لعيسى. وقال إن المسيح أرقى من إنسان، وهو نموذج إنسان جديد ذي عقل سام متولد من الله، وكان موجوداً من قبل أن يوجد هذا العالم. وقد تجسد هنا لتخليص الناس، ولكنه مع ذلك تابع للإله الأب.

وكان الشأن في تلك العصور أن عقيدة (إنسانية عيسى) كانت غالية مدة تكون الكنيسة الأولى من اليهود المتنصرين، فإن سكان مدينة الناصرة، وجميع الفرق النصرانية التي تكونت من اليهودية اعتقدت أن عيسى إنسان بحت مؤيد بالروح القدس، وما كان أحد يتهمهم إذ ذاك بأنهم مبتدعون.

وقال جوستين مارشير: وهو مؤرخ لاتيني في القرن الثاني انه كان في زمنه في الكنيسة مؤمنون يعتقدون أن عيسى هو المسيح ويعتبرونه إنساناً بحتاً وإن كان أرقى من غيره من الناس، وحدث بعد ذلك أنه كلما نما عدد من تنصر من الوثنيين ظهرت عقائد جديدة لم تكن من قبل.

ولا شك أن «التثليث» طارىء على الأديان والعقائد التي كانت كلها موحدة، فالتوحيد في الأصل دين كل الرسل «غير أن الأمم[1] بعد وفاة

---

(١) محمد فريد وجدي: دائرة المعارف.

الرسل تدخل إلى تعاليم الأديان جميع أهوائها الموروثة لها من الوثنية الأولى، فترد الأمر لأصله من التشبيه والتجسيد والتعديد في ذات الخالق الأقدس. أما الأديان في مبادئها فكانت بريئة من ذلك كله. وكان أتباعها الأولون على غير ما عليه أتباعها الآخرون.

## (٢)

## الخطيئة والفداء

قال بها بولس، ولم تلبث المجامع أن اعتبرتها جوهر الإيمان المسيحي: وقد صورها بولس على هذا النحو: أن الله لم يغفر لآدم خطيئته. بل ان غضبته لم تقف عن حد آدم، بل تناولت كل ذريته من بعده، فقضى عليهم أن يعيشوا في الخطيئة أبداً، وأن يلاحقهم الموت بالتالي.

ويرى: هـ. ج. ولز: أن فكرة أن المسيح ابن الله نزل إلى الأرض ليقدم نفسه قرباناً، ويصلب تكفيراً عن خطيئة البشر. هذا المفهوم كان معروفاً في الحضارات البدائية، وأنه شبيه بمهات الضحايا القديمة من الآلهة من أجل خلاص البشرية. وليس في الإسلام أن الخطيئة موروثة في الإنسان قبل ولادته، ولا أنه يحتاج في التوبة عنها إلى كفارة من غيره. أما خطيئة آدم فقد تاب عنها وغفر الله أمرها. وهي لا تنسحب مطلقاً على غيره، ولن يكون البشر كلهم خطأة بخطيئة واحد منهم، وكل خطيئة تمحوها التوبة، وخطيئة آدم كسائر خطايا الناس تغسلها المغفرة ممن يملك المغفرة وهو الله تبارك وتعالى. وقد سجل القرآن الكريم دحض هذه الفرية في عبارات واضحة صريحة: ﴿فتلقى آدم من ربه كلمات فتاب عليه إنه هو التواب الرحيم﴾ وبذلك انمحت معصية آدم بتوبته دون أن تستتبع عقوبة لأحد، وأن الله سبحانه وتعالى قد كتب (في صحف إبراهيم وموسى. أن لا تزر وازرة وزر

أخرى). فلا يرث مولود خطيئة والد، وأنه ليس للإنسان إلا ما سعى [1].

★ ★ ★

ومن فكرة «الخطيئة» جاءت فكرة «الخلاص» وهي زائفة زيف الخطيئة.

(٣)

## أسرار الكنيسة السبعة

وهنا ما يسمى بالأسرار السبعة التي لا يعرفها إلا رجال الكنيسة، وفيها تتمثل سلطتها: وهي: المعمودية، والميرون والتناول والتوبة أو الاعتراف. والمسحة والزواج والكهنوت، والمعمودية هي الولادة الجديدة التي يتطهر فيها الفرد من خطيئة آدم، وهذه النعمة تمنحها الكنيسة في صورة رش الماء والتغطيس فيه، والميرون هو حلول روح القدس في الإنسان الذي نال المعمودية، والتناول هو العشاء الرباني، حيث يتناول المؤمن جسد الرب ودمه الأقدمين. والاعتراف هو مبدأ الحصول على المغفرة، والمسحة سر ينال به المؤمن الشفاء الجسدي بعد تلاوة الصلاة، ثم يدهن بالزيت المقدس، أما الزواج فهو ربط الزوجين برباط لا ينفصم، والكهنوت هو السر الذي ينال به الإنسان النعمة التي تؤهله، لأن يؤدي رسالة المسيح بين البشر.

(٤)

## عالمية المسيح

حول بولس المسيحية من ديانة يهودية مكملة لرسالة موسى، وقاصرة على بني إسرائيل إلى ديانة عالمية، مفتوحة لكل الأمم، ويقول المؤرخون: ان عالمية

---

(١) محمود محمد شاكر ـ من بحث له بمجلة الرسالة سنة ١٩٦٤.

المسيحية كانت نقطة تحول في تاريخها، فدخلها الوثنيون الأوروبيون واليونانيون، وأتباع ديانة ميتراس. وبذلك تحولت من دين شرقي إلى دين غربي. كما جعل طاعة السادة، والطبقة الحاكمة من طاعة المسيح.

## السيد المسيح

## بين مفهوم المسيحية ومفهوم اليهودية

انحرف التصور الوافد إلى المسيحية بمفهوم السيد المسيح أكثر من انحراف: فقال رأي بأن السيد المسيح نبي الله المرسل إلى بني إسرائيل ليس إنساناً عادياً. بل هو إنسان سماوي، وكائن معجز خلقه الله قبل الدهور، وهو يحمل لقب ابن الإنسان. أي أنه يظهر في صورة إنسان وإن كانت طبيعته تجمع بين الله وبين الإنسان. وهذا الوصف اقتبسه المسيحيون من اليهود وأسندوه إلى عيسى بن مريم. وقال رأي بأن السيد المسيح شخصية أسطورية وهمية لم تتحقق أبداً، ولم تدخل مجال التاريخ الصحيح. وكان اليهود يقولون بانتظار المسيح المنتظر قبل أن يرسل الله سيدنا عيسى، وكانوا يذكرونه كلما حاقت بهم الأزمات، فلما ظهر المسيح عيسى بن مريم، وأعلن أنه هو المسيح الذي ينتظره اليهود أنكروه ورفضوا دعوته، وألقوا القبض عليه، وحكموا عليه بالموت صلباً لولا أن نجاه الله، وقالوا إنهم إنما ينتظرون مسيحاً آخر ليس نبياً، بل ملكاً. وقد قدم التلمود سيدنا عيسى في صورة فاسدة تخالف ما جاء في القرآن الكريم مخالفة كاملة عندما قال: إن يسوع الناصري موجود في لجات الجحيم بين القار والنار. وقد أتت به أمه عن طريق الخطيئة.

وما تزال صورة السيد المسيح عيسى بن مريم في الإنجيل قريبة مما جاء في القرآن: ﴿فهو إنسان نبي جاء لهداية البشر﴾. وتكشف نصوص إنجيل متّى عن انسانيته ونبوته ورسالته، وهي توحيد الله، والدعوة إلى سبيله، وهي

بذلك مختلفة كل الاختلاف عن الصورة التي رسمها بولس، والتي اعتمدتها مجامع نيقة وغيرها من بعد، وخرجت بها عن إطار إنسانية المسيح عيسى بن مريم.

* * *

وبالإضافة إلى هذا صورة السيد المسيح في نظر اليهودية، وهي صورة قاسية بشعة، فيها إنكار، وفيها تصوير خاطىء، وجرأة على الحقائق التاريخية.

وهناك آراء أخرى تنكر وجود السيد المسيح أصلاً، وتعتبره أسطورة. وكل هذه الآراء تختلف مع المفهوم الحقيقي للمسيح كما جاء به القرآن الكريم.

# الفصل الخامس

## الأناجيل

### (١)

يمكن أن توصف الأناجيل بأنها خلاصة لسيرة المسيح عيسى بن مريم رسول الله ودعوته، وهي بهذا تختلف اختلافاً أساسياً عن الإنجيل بوصفه الكتاب الذي أنزل من السماء.

وقد كتبت الأناجيل الموجودة جميعها بعد وفاة المسيح وإنجيل متّى أقدم الأناجيل كتب عام ٦٠ بعد الميلاد باللهجة الآراميه الفلسطينية (أي بعد عيسى بثلاثين عاماً).

والإنجيل كلمة يونانية معربة بمعنى البشارة،، وهو اسم أطلق على الكتب التي وضعت بعد زمن المسيح، والتي تروي أحواله وأعماله وأقواله ومواعظه ومعجزاته. ويعرف «الانجيل» بالعهد الجديد تمييزاً له عن التوراة التي تسمى العهد القديم. وقد قام بكتابة هذه الأناجيل تلاميذ المسيح، ومن جاء بعدهم من تلاميذهم. وقد بلغت نيفاً ومائة من الأناجيل، غير أن الكنيسة لم تعترف إلا بأربعة منها. واعتبرت الأخرى منحولة، وهذه هي: متّى، مرقس، لوقا، يوحنا. وهذه الأناجيل هي التي أقرتها الكنيسة، واعتبرتها وحياً مقدساً.

★ ★ ★

أما الانجيل بمفهوم الإسلام فهو الكتاب الذي أنزله الله على رسوله عيسى بن مريم عليه السلام. والقرآن الكريم يقرر أنه كتاب سماوي منزل.

أما هذه الأناجيل فهي أسفار كتبها أناس من البشر .

وقد كتب متّى إنجيله باللسان العبراني في بلاد العبرانيين، وتركه للمؤمنين من اليهود ، ويرجح الكثيرون[1] أن متّى ألفه باللغة الآرامية ، ثم ترجم إلى اللغة اليونانية .

وتكاد الأناجيل الثلاثة (متى، ومرقص، ولوقا) أن تجمع على أن الله واحد هو خالق الكل، والمهيمن على الكل. وأن المسيح بشر سوي ومبعوث إلهي جاء يبشر بالرحمة والمحبة وطهارة النفس والجسد ، ولا توجد فيها أية إشارة من قرب، أو بعد لهذا التثليث الذي هو رمز مسيحية اليوم، وشعارها وجوهر عقيدتها[2] .

أما إنجيل يوحنا فهو مكتوب تحت تأثير (بولس) ولذلك فقد استقى مصادره من فلسفة اليونان، وبدأ مختلفاً أشد الاختلاف مع الأناجيل الثلاثة الأخرى. ذلك أنه هو الإنجيل الوحيد الذي يتحدث عن ألوهية المسيح، وأنه ابن الله كما ينطوي على عقيدة التثليث، ويشير إلى ما يصفه بقصة صلب المسيح، وأنه صلب ليفدي العالم، ويطهره من خطيئة آدم. « بذلك يخالف كل المخالفة الإنجيل الذي يذكر القرآن الكريم أنه كتاب مقدس أنزله الله على عيسى. وقد أشار القرآن الكريم في أكثر من موضع إلى أن هذا الإنجيل قد حرف وبدل وزيد عليه ».

وإذا كانت الأناجيل الثلاثة متقاربة في تاريخ تأليفها . فإن إنجيل يوحنا يختلف عنها إذ تأخر تأليفه أكثر من ربع قرن بهذا الاتجاه الذي حمل لواءه بولس. ويحددون لوضع إنجيل يوحنا أواخر القرن الأول المسيحي.

---

(١) الدكتور علي عبد الواحد وافي في كتابه عن اليهود .

(٢) أحمد حسين.

ويرى فيه الباحثون « انعكاساً »[1] لآراء الفلسفة التي كانت سائدة في العالم الهليني في هذه الفترة كما يعبر عنها الفيلسوف اليهودي فيلون ونظرية الكلمة وهي آراء حاول بها فيلون التوفيق بين الفلسفة الأفلاطونية والعقيدة اليهودية ، ثم انقلب إلى المسيحية بعد ذلك .

وقد ألفت جميع أسفار العهد الجديد باللغة اليونانية ـ ما عدا إنجيل متّى الذي ترجم إليها ومن اللغة اليونانية ترجمت أسفار العهد الجديد إلى اللغة اللاتينية ، وعن اليونانية واللاتينية ترجمت هذه الأسفار إلى معظم لغات العالم قديمها وحديثها .

## (٢)

هنـاك إجماع بين البـاحثين الأوروبيين على أن الكتـاب المقـدس كتبـه الإنسان ، وأن أغلب كلماته كتبها أشخاص مجهولون لا تعرف أسماؤهم ، وأن تدوين اليهود للكتاب المقدس بدأ قبل ألف سنة من ميلاد المسيح . ومن ثم أخذوا يسجلون القصص والقصائد القديمة ، وأضافوا إليها قصصاً وقصائد جديدة ، وقد استلزم الأمر أن تعاد كتابة لفائفهم عدة مرات ، وأن تنقل وتنسخ ، مما أوجد فرصاً عديدة لا تحصى لتغييرات كثيرة لا حدّ لها ، بعضها مقصود ، والبعض الآخر غير مقصود .

وأن ذلك انتهى إلى أنه لا يوجد نص أصلي لأي جزء من الكتاب ، وأن العهد الجديد ربما حوى تغييرات أكثر وأبلغ من العهد القديم[2] .

★ ★ ★

---

(١) علي عبد الواحد وافي في كتابه عن اليهود .

(٢) مجلة لايف عدد ٧ إبريل ١٩٦٥ ترجمة الدكتور أمير رضا ـ الوعي الاسلامي مايو ١٩٦٦ .

وقد وجه الباحثون الغربيون إلى الكتاب المقدس ملاحظات مختلفة، وكلها تقريباً تجمع على أنها كتبت بأيدي أناس مختلفي الأزمنة والبيئات.

ومما جاء عن الإنجيل أن سبعين إنجيلاً كانت رائجة في القرون الأولى من المسيحية (آدم كلرك) وأن النصارى لا يعتقدون كون هذه الأناجيل عن المسيح، وكونها من تصنيف الحواريين (لاردنر) وأن المسيحيين بدلوا أناجيلهم ثلاث أو أربع مرات بل أزيد تبديلاً غيّر مضامينها (أكهوف) وأشار كثير من المؤرخين: أن نسخ الأناجيل الأصلية وقتها كانت مفقودة لا أثر لها، لأنها كانت قد أحرقت مع كتب النصارى في عهد القيصر دقلديانوس. وأن الأناجيل الحاضرة مجموعة روايات مختلفة ببعض آيات مأخوذة من كتب يختلف بعضها عن بعض كما يقول (أيرونيموس) الذي اعترف بأنه أضاف وغيّر ونقح ما شاء وبدل منها ما عنّ له، وما ظن أنه يوافق مذهب البابا وينصره على مخالفيه.

وتكاد تجمع مراجع كثيرة على أن (أيرونيموس) هو المنشىء الحقيقي لهذه الأناجيل.

## (٣)

من الأناجيل التي أبطلها البابا في القرن الخامس للمسيح: إنجيل برنابا ـ وبرنابا هذا يهودي دان بالنصرانية. وكان من أتراب بولس، وطاف آسيا الصغرى، وسوريا، وبلاد اليونان، وقتل في قبرص نحو عام ٦٣ للمسيح. وقد وجدت نسخة من إنجيل ينسب إليه في مكتبة فينا كتب كما رجح العارفون في القرن السادس باللغة الإيطالية القديمة.

ويشير بعض مؤرخي برنابا إلى أنه حواري من أنصار المسيح الذين عاصروا بولس. بل كان هو الذي عرف التلاميذ ببولس بعد أن اهتدى ورجع إلى أورشليم.

ولما كانت الكنيسة قد اعتمدت نظرية بولس التي جاءت مخالفة لما تلقاه الحواريون عن المسيح. فقد اعتبر إنجيل برنابا غير قانوني أو غير صحيح.

وفي هذا الإنجيل أمر يستنكره الباحثون أشد الاستنكار، وهو تصريحه باسم النبي محمد قائلين إنه لا يعقل أن يكون ذلك كتب قبل ظهور الإسلام.

وقد نقل محمد بيرم عن رحالة انجليزي أنه رأى في دار الكتب البابوية في الفاتيكان نسخاً من الإنجيل مكتوبة بالقلم الحميري قبل بعثة النبي، وفيها يقول المسيح (ومبشراً برسول يأتي من بعدي اسمه أحمد)

وأبرز ما تضمنه إنجيل برنابا: التوحيد؛ وأن المسيح رسول الله، وأن المسيح لم يصلب، ونبوة محمد [1].

---

(١) المنار م ١١ ص ١١٤ و١١٥.

# الفصل السادس

## الكنيسة

تركزت المسيحية منذ تشكلها الذي عرفت به ديانة مستقلة عن اليهودية في مؤسسة خاصة حملت لواء الدعوة ونشرها وتفسير النصوص وإصدار القرارات الخاصة بالعقيدة. ومن ثم أصبح للكنيسة نظام خاص يخضع له كل من يدين بالمسيحية، كما أصبح لها أسرارها الخاصة.

يقول الأستاذ أحمد حسين: إن الكنيسة في المسيحية لا تقابل المسجد، وهي شيء يكاد يعز على التصور والتصديق، فهي ليست كما يتصور الكثيرون مجرد هذا المبنى المعين الذي تقوم فيه الطقوس على سبيل التخصص والتحديد، ولكنها في معناها العام تشمل مجموع المسيحيين. بل إنها المسيح نفسه، إنها جسده ولحمه ودمه، وهم يستندون في هذا على ما جاء في إنجيل يوحنا [٢].

ويتصل بالكنيسة المسيحية ما يسمى بالمجامع المسيحية: هذه المجامع التي وضعت العقيدة والتعاليم التي تطبقها الكنيسة. وفي هذه المجامع تقرر تأليه المسيح، وإقرار التثليث والخطيئة والفداء، وصلب المسيح. وقد اختصت الكنيسة نفسها بأسرار سبع هي: المعمودية، المسيح بالميرون المقدس، العشاء الرباني، التوبة والاعتراف، الكهنوت. المسح على المريض، الزواج [١].

وقد أقامت الكنيسة نظاماً كاملاً على رأسه البابا. والبابا هو الرئيس

---

(١) أحمد حسين: الاسلام ورسوله بلغة العصر. ص ١٢٦.

(٢) راجع تفصيل ذلك في (ك) المسيحية للدكتور شلبي ولأحمد حسين في المصدر السابق.

الأعلى للكنيسة، وممثل المسيح في العالم. وتعتقد الكنيسة الكاثوليكية منذ القرون الأولى أن البابا معصوم من الخطأ في أمور الإيمان وآداب الدين.

والكنيسة الكاثوليكية هي كبرى الكنائس في العالم، وهي ذات التاريخ الطويل في الدين والسياسة، وهي التي حملت لواء الحروب الصليبية التي استمرت مائتي عام على العالم الإسلامي. وهي حاملة لواء محاكم التفتيش.

ويعتقد أتباع الكنيسة الكاثوليكية أنهم وحدهم ممثلو الدين الذي بشر به المسيح، وأخذه عنه الحواريون. ويقول الأب لويس شيخو اليسوعي: إن أصل الكثلكة: تلك الجماعة الأولى التي أنشأها السيد المسيح بذاته، فكانت كنيسة ألفها من الاثني عشر رسولاً، ثم من الاثنين والسبعين تلميذاً. ثم شاع إسمهم فعرفوا بالمسيحيين[1].

★ ★ ★

ويشير الباحثون إلى أن نظام الكنيسة وسلطة رجل الدين قد بدأ واضحاً في القرن الرابع. حيث عدّ بابا روما رئيساً للكنائس كلها. وقد أصبح للبابوات نفوذ ضخم مع تدهور الإمبراطورية الرومانية في الغرب، وبرز منهم رجال مشهورون منهم جوليان الأول، وغوريغوريس.

وقد احتضنت الكنيسة الفلسفة الإغريقية والطقوس الوثنية القديمة. فأصبحت تزدان بالنقوش والفسيفساء والصور والزجاج الملون، وكثرت بها الأبنية المرصعة بالأحجار الكريمة.

كما أذاعت الكنيسة معجزات نسبتها إلى القديسين لتثبت بذلك حقها اللاهوتي. وقد استعارت الكنيسة من الرومان أوضاع رجال الدين، وتوزيع السلطات. وأصبح للكنيسة رجال منقطعون لها، ولا عمل لهم سواها أطلق

---

(١) م ٢٥ المشرق سنة ١٩٢٧.

على هؤلاء رجال الدين للتمييز بينهم وبين غيرهم من المتعقبين.

ومن أبرز البابوات الذين تصدوا للنفوذ السياسي جريجوري رئيس أساقفة روما الذي استولى على السلطة السياسية في روما. وقد عمل من ٤٤٠ ـ ٤٦١ ـ وظل السلطان في يد البابوات اثني عشر قرنا.

وقد برز استيلاء البابا جريجوري على السلطان السياسي عندما بدأت الامبراطورية الرومانية تنشطر. هنالك استولت الكنيسة على الأمور السياسية والروحية، وكونت دولة، وادعت الحق في أن تمد حكمها فتشمل جميع المسلمين في كل البقاع. وفرضت للبابا السيادة العليا في القضاء والإدارة، واعتبر المشرع والمفسر النهائي للكتاب المقدس. وعد رجال الكنيسة أنفسهم ممثلين لله.

★ ★ ★

ولقد كان لهذا التطور الخطير في مفاهيم الكنيسة ونفوذها أبعد الأثر في الدعوات التي ترددت بالإصلاح خلال مرحلة طويلة ظهرت خلالها البروتستانتية، ثم لم تلبث في مرحلة بعدها أن واجهت خصومة عنيفة حين وقفت في وجه العلم وقاومت حركته إلى الاكتشاف وبناء الحضارة.

وقد احتضنت الكنيسة في هذه المراحل طغيان الأمراء، ثم زادت بتعذيب العلماء، وفرضت مفهوماً مقدساً غير قابل للنقد أو البحث أو المعارضة. وقد وصل ذلك إلى غايته في الطغيان معارضاً للنهضة، ومؤازراً للنفوذ الاستبدادي للملوك والأمراء، فكانت ثورة أوروبا على الكنيسة والتحرر منها تحرراً كاملاً، وعزلها عن ميدان السياسة والاجتماع، وإيقافها في حدود أسوارها، والفصل بينها وبين الدولة.

## البروتستانتية

## (١)

تعد حركة الإصلاح الديني التي قام بها مارتن لوثر التي بدأها عام ١٥١٧ ـ وامتدت إلى وفاته ١٥٤٦ ثورة ضد فساد الكنيسة في روما، ومحاولة لتصحيح ما أصاب العقيدة المسيحية من ضعف واضطراب.

فقد هاجم الكنيسة الكاثوليكية وهاجم قوانينها، ووصفها بأنها تخرج عن تعاليم الكتاب المقدس، وركز كثيراً على فساد البلاط البابوي، وانغماسه في الترف والبذخ، واستئثار رجال الكنيسة من الرومان دون غيرهم بالمناصب الكبرى، هذا إلى فساد النظام القضائي، وتفشي الرشوة فيها، كما هاجم الامتيازات التي منحها رجال الكنيسة لأنفسهم.

وأنكر لوثر حق البابا في بيع صكوك الغفران، بل وأنكر عليه حق منح الغفران بأي وجه من الوجوه، وهاجم احتكار الكنيسة لقراءة الإنجيل وتفسيره، وعمل على ترجمته إلى اللغة الألمانية، وأعلن حق كل مسيحي في تفسير الإنجيل ومطالعته. ومن هنا أطلقت الكنائس البروتستانتية على نفسها اسم الكنيسة الإنجيلية.

كما رفضت دعوة لوثر التي كانت نواة الحركة البروتستانتية فكرة العشاء الرباني، ورفضت عبادة الصور والتماثيل وأنكرت حق الكنيسة في غفران الذنوب.

وكان من أهم أعمال لوثر ترجمة الإنجيل، ووضعه بين يدي المؤمنين به.

وكانت حركة (كالفن) خطوة أخرى في هذا الاتجاه إلى الإصلاح، وإن اختلف مع لوثر في بعض التفاصيل. فقد أعلن عداءه للصور والأيقونات في الكنائس، لأنها تشغل عن العبادة، واستهجن استعمال الآلات الموسيقية في الكنائس.

ولم تكن دعوة كالفن ولوثر هي الأولى من نوعها في تاريخ الكنيسة، فـقد سبقتها محاولات متعددة منها محاولات وكليف في انجلترا، وهوس في بوهيميا، وإن لم تحقق ما حققته هذه الحركة التي وصفت بأنها حررت العقول من الرق وخلصت النفوس من شوائب الأوهام. وان أخذ على لوثر عنفه وشراسته في معاملة البابا والكنيسة الكاثوليكية، وإن كان الفريقان قد تبادلا أساليب الهجاء في أشد صوره قسوة. وقد مضى لوثر إلى أبعد الغايات فأحرق خطاب البابا بحرمانه من الكنيسة علانية.

(٢)

ومن خلال دعوة لوثر وكالفن انقسمت الكنيسة في أوروبا، وانشطر المسيحيون إلى كاثوليك وبروتستانت. وكان ذلك عاملاً هاماً في قيام المذابح والفتن والمعارك التي استمرت من أوائل القرن السادس عشر إلى منتصف القرن السابع عشر. وقد حاولت الكنيسة الكاثوليكية على أثر ذلك اجراء حركة إصلاح واسعة، لمواجهة سيطرة البروتستانتية على بعض أقطار أوروبا (ألمانيا وانجلترا) غير أنها لم تستطع أن تخطو مثل خطواته، فقد أنقص لوثر أسرار الكنيسة السبعة إلى اثنين وهما: التعميد والقربان المقدس، كما رفض استحالة المادة إلى لحم المسيح ودمه، ورفض حق الكنيسة في تفسير الإنجيل، كما أعلن حرية رجال الدين في الزواج، ودعا إلى إزالة الرهبنة، وأنكر الاعتراف وما يتبعه من غفران والتخلي عن عبادة القديسين، وعبادة مريم العذراء.

ومن هنا فقد اكتسحت البروتستانتية أوروبا، ووجدت في خصومة بعض الملوك للكنيسة الكاثوليكية فرصة لاحتضانها ودفعها إلى الأمام.

★ ★ ★

ويمكن رد هذه الحركة الإصلاحية أساساً إلى تعاليم الإسلام، التي كانت قد وصلت إلى قلب أوروبا، وكان لها أثرها في الداعيتين لوثر وكالفن. ويبدو ذلك واضحاً في الدعوة إلى فهم الإنجيل دون وساطة الكنيسة، وهو مفهوم إسلامي. وكذلك يبدو أثر الإسلام في محاربة الصور والموسيقى، وفي الدعوة إلى التحرر من نظم الزواج والرهبنة وغيرها.

* * *

غير أن هذه المحاولة التي قامت بها البروتستانتية لم تستطع أن تخرج المسيحية عن انحرافها الأصيل الذي بدأت به حين فرض عليها بولس مفاهيم الفلسفات اليونانية والغنوصية، ومهما بدت هذه الفوارق بين الكاثوليكية والبروتستانتية واضحة، فإنها ليست فوارق جوهرية. إذ إن المذهبين كليهما يعتقدان بالتثليث وألوهية عيسى وكونه جاء ليفدي البشر من خطيئة آدم. والخلاف بينهما ينحصر في تقرير حرية البحث، والنظر في الأمور التي فرضتها الكاثوليكية كعبادة الأولياء والصور والرسوم والرهبنة. ومن هنا فإن الخلاف بين الكاثوليكية البروتستانتية ليس في الأمور الجوهرية كالتثليث وألوهية عيسى التي خضعت لها البروتستانتية، ولم تستطع التحرر منها [١].

(١) راجع فريد وجدي مادة (نصرانية) دائرة المعارف.

# الفصل السابع

## الرهبانية

ظهرت الرهبانية في القرن الثالث الميلادي من خلال نظام الكنيسة، وعدها المؤرخون تطوراً في الحياة الروحية. وقد وضع نظامها في الشرق القديس باسليوس، وفي الغرب القديس مارتان. وقد كانت تطوراً لمفهوم العبادة في المسيحية في إطار نهج بولس، ومن خلال مفاهيمه، وليس شأن الرهبانية في المسيحية إلا شبيهاً بشأن ألوهية المسيح، والتثليث، والخطيئة والصلب وغيرها من مفاهيم جاءت إليها من الأديان الأخرى، فقد عرفت في البوذية وغيرها من الأديان الأرضية قبل المسيحية. وكان الرومان يرغمون العذارى على عدم الزواج لكي يكرسْنَ حياتهن لخدمة النار المقدسة. وقد بدأت الرهبانية المسيحية في المشرق حين أقامها القديس باخوميوس في مصر. وقد تطور نظام الرهبانية في الغرب فأنشئت الأديرة حول الكنائس، وأصبحت نظاماً عاماً حتى هاجمته البروتستانتية في البلاد التي سيطرت عليها. وترتبط الرهبانية بمفاهيم العزلة والانفصال عن المجتمعات، والإقامة في أديرة خاصة، وهي في هذا تتعارض تماماً مع مفهوم الدين كما أنزله الله.

ولما كانت المسيحية قد انحرفت عن مفهوم الرسالة المنزلة. فقد أخذت تنقل من الأديان والمذاهب والفكر البشري القديم، وقد عرفت الرهبانية منذ أجيال قبل أن تنقلها المسيحية إليها، وعرفتها الديانات الهندية القديمة، كما عرفها اليهود قبل المسيحية، وعرفتها أقاليم آسيوية أخرى، ثم ظهرت ثانية في المسيحية عندما امتنع الرجال والنساء عن الزواج، وأكل اللحوم، ووقفوا أعمارهم على العبادات، ثم عاشوا ناسكين منعزلين. وانتشرت دعوتهم في غرب

أوروبا في عهد القديس أثناسيوس، ثم القديس بيركيوس الذي وطد دعائم هذا النظام في الغرب. وقد تأثرت الكنيسة القبطية بعقائد قدماء المصريين، وربطوا بين زوال الجسد بعد الموت، وبين احتقار متاع الحياة. ومن هنا نشأ مفهوم الزهد والرهبنة والرحيل إلى الصحراء، وقد تركزت الأديرة في وادي النطرون، (مائة دير) وجزيرة سيناء.

وقد اتخذ اللفظ اللاتيني Monastieism من مفهوم المكان المنقطع أو المنفرد، وهي تعني النظام الخاص الذي اتبعته جماعات دينية مراعية فيه شرائط الفقر والعزوبة والطاعة العمياء، والعزلة عن الناس، ومجافاة متع الحياة كالزواج والزينة وغيرهما.

وقد وصفها القرآن الكريم بعبارة واضحة تكشف عن أنها لم تكن من أصول المسيحية «ورهبانية ابتدعوها ما كتبناها عليهم إلا ابتغاء رضوان الله فما رعوها حق رعايتها فآتينا الذين آمنوا أجرهم وكثير منهم فاسقون»

ويتعارض مفهوم الرهبانية مع مفهوم الإسلام، أو مفهوم الدين السماوي الحق، ذلك أن الله تبارك وتعالى لم يشأ للإنسان أن يعتزل الحياة من أجل العبادة، ولكنه رضي له أن يمارس الحياة ويتصل بأهلها، ويقارف متاعبها، ويتمتع بما أحله له من زينة ومتاع. وأن يقف عند حدود ما حرم عليه.

وان عبادة المؤمن إنما تكون بالعمل، والاتصال بالناس، ومجاهدة الحياة، ومواجهة الصعاب أقوى منها بالهرب منها بالعزلة والاعتكاف والزهادة.

ويرجع بعض المؤرخين قيام نظام الرهبنة في الغرب واستشراءه فيه إلى الاضطهاد الذي لقيه المسيحيون خلال حكم الامبراطور الروماني (دنسيوس) مما اضطر المسيحيين إلى الهرب إلى الجبال، والإقامة في الصوامع.

وقد تكاثر هؤلاء في القرن الثالث الميلادي حتى ملأوا البراري الجبلية

بآسيا الصغرى، وسوريا، ومصر. وظهرت رهبنة للأناث. وقد ضم وادي النطرون خمسة آلاف راهب، وضم أحد الأديرة عشرة آلاف راهب، وخمسة عشر الف راهبة. غير أن الباحثين يرون [1] أن الإفراط في الاعتزال والتقشف والزهد جلب على كثيرين الدعارة والمجون واليأس والانتحار، وجعل بعض الرهبان أداة خطرة في يد رجال ذوي مطامع.

وقد أشارت دائرة لاروس إلى الرهبانية، فقالت: إن الرهبان لم يرعوا الرهبنة حق الرعاية.

كما هاجم هذا النظام كثير من القسس: فقد كتب القس شيروتليان في القرن الثالث المسيحي على ما ترويه دائرة معارف لاروس.

لسنا من البراهمة ولا من معتزلة الهنود، فلا نعتزل الناس في الغابات، بل نعمل لإصلاح المجتمع الإنساني..

وأشارت دائرة لاروس إلى أن الفساد لم يلبث أن تطرق إلى نظام الأديرة، وأصابها الخلل، وأصبحت بعيدة عن المبادىء التي أنشئت لأجلها.

وقالت إن الرهبان الذين أخذوا على أنفسهم أن يعيشوا بلا زواج لم يقوموا بما تعهدوا به من العفاف بين رجال الدين من الجنسين.

فقد قال (دويرتو) بعد أن زار الأديرة في النمسا، وفي الممالك الأخرى التابعة للملك فرديناند الأول أنه رأى مائة وعشرين ديراً تحتوي على ٤٣٠ راهباً و١٦٠ راهبة و١٩٩ سرية و٥٥ امرأة متزوجة و٤٤٣ طفلا. وقال إنه يخشى أن يتكلم عن راهبات زمانه تفادياً من أن يظن أنه يتكلم بإسهاب ومجون. وندد بالأديرة، وسرد بعض جمل شديدة الطعن على أديرة زمانه.

---

(١) السياسة الأسبوعية في ١٩٢٨/١١/٢٤

وأشارت دائرة المعارف إلى أن هذا الفساد ليس مرتبطاً بزمن دون زمن. ففي الأزمنة القديمة لام القديس (سيريابين) والقديس (بازياها) عذارى زمانهما اللائي وقفن حياتهن على الله ما يظهر من عدم عفافهن، ورأى جان كريزوستوم أنه لا يكفي قتل الراهبة التي تخون عفافها. بل رأى أن تقطع إلى نصفين أو تدفن حية مع شريكها في الإثم.

★ ★ ★

وقد هاجمت البروتستانتينية نظام الرهبنة وأبطلته، وسمحت لرجال الدين بالزواج، وبقيت المذاهب المسيحية الأخرى على موقفها من إقرار الرهبنة وتطبيقها معارضة بها الطبيعة الإنسانية، ومفاهيم الدين الحق. وقد كانت الرهبانية إحدى التحديات الكبرى التي واجهها الفكر الغربي الحديث حين انتقل من النقيض إلى النقيض، فدعا إلى الإباحة والكشف، وأقام مذاهب الجنس والتحليل النفسي. بل إن فرويد يذهب إلى أن مذهبه إنما كان رد فعل لمفاهيم الحرمان والكبت، ومعارضة الطبيعة البشرية والوقوف في وجه حاجات الجسد وطاقاته.

وليس أدل على فساد نظام الرهبنة من أنه كشف عن معارضته لفطرة الإنسان من حيث حاجاته وقدراته. ومن حيث عجز الكثيرين عن التقيد بالرهبانية وتنفيذها لمنافاتها للطبيعة البشرية التي أعطيت قوى ذاخرة في أعماقها لا يجوز القضاء عليها أو تجاهلها أو قتلها. ولذلك فقد كان موقف الإسلام من الرهبانية ومن إذلال الجسد، ومن تحريم الطيبات واضحاً وصريحاً. فقد رفض هذه المغالاة ودعا إلى إطلاق حاجات الجسد وفق نظام كريم هو نظام الزواج.

ولذلك فقد أنكر الإسلام مثل هذا الزهد، أو هذا التصوف، ونهى عن الرهبانية. وقال إن رهبانية المسلمين هي الجهاد. وقد حاول بعض المسلمين

نقل مثل هذه المفاهيم إلى الإسلام، فأنشأت بعض الفرق التكايا التي تعلم فيها الزهاد بعيداً عن متاع الحياة الدنيا. غير أن هذه الفرق لم تلبث أن انحرفت وضلت، لأنها لم تستطع الحفاظ على روح الإسلام في مفاهيمه للنفس البشرية وحاجاتها وقواها.

وكانت أغلب هذه الدعوات تقوم على أيدي أقوام يضمرون المفاهيم المجوسية والهندية القديمة، ويحاولون بدعوتهم تدمير الإسلام من الداخل.

# الباب السادس

# الوثنية العربية

تختلف الوثنية العربية عن الوثنية الإغريقية في أمرين هامين:

**(الأول)**: أن العرب كانوا موحدين منذ دين إبراهيم وإسماعيل، ثم انحرفوا عن التوحيد. فقد عرف العرب حنيفية إبراهيم، وبقيت منها بقايا امتدت إلى زمن البعثة المحمدية. وقد عرف العرب في الجزيرة أنبياء مثل شعيب وهود (وهم من الأنبياء العرب) دعوهم إلى التوحيد. غير أنهم لم يلبثوا مع مرور الزمن أن التمسوا أصناماً وأوثاناً يتخذونها وسيلة إلى الله ﴿ما نعبدهم إلا ليقربونا إلى الله زلفى﴾.

**(الثاني)**: أن الوثنية العربية كانت قريبة الأمد. فلم تبلغ أكثر من قرن ونصف قرن في تقدير أغلب المؤرخين. وهي لذلك لم تكن لها فلسفة كالفلسفة اليونانية.

فالوثنية في الحجاز وجزيرة العرب ـ على حد تعبير السيد محي الدين الخطيب:[1] كانت مرضاً أجنبياً طارئاً عليها من شرق الأردن وبلاد كنعان، حمله منها عمرو بن لحي في بعض الوقت الذي تولت فيه خزاعة الحكم في الحجاز قبل الهجرة بنحو أربعمائة سنة، فهي أقصر وثنيات العالم عمراً. ولأنها كانت قصيرة العمر في بلاد العرب، فلم تقم لها عندهم هياكل، ولا تهاويل ولا أنظمة ولا أساطير كالتي كانت للوثنية العريقة في الهند والصين، ومصر الفرعونية، وأثينا، وروما.

(١) الرعيل الأول ـ محي الدين الخطيب عن كتاب الأصنام للكلبي.

يقول الكلبي[1]: كان الذي سلخ بهم إلى عبادة الأوثان والحجارة أنه كان لا يظعن عن ملكه ظاعن إلا احتمل معه حجراً من حجارة الحرم تعظيماً للحرم، وصبابة بمكة، فحيثما حلوا طافوا به كطوافهم بالكعبة. وكان بعض هذه الأحجار مربعة مثل اللات أو لوحاً من الحجر الأبيض كذي الخلصة أو صخرة طويلة، أو نتوءاً في الجبل كأنه تمثال إنسان.

وذكر ابن الكلبي أن الأصنام التي كانت العرب تعبدها تماثيل على صورة إنسان مثل هبل (وكان من عقيق أحمر على صورة الإنسان مكسور اليد اليمنى أدركته قريش فجعلوا له يداً من ذهب) ومنها أساف وقد زعموا أنهما كانا رجلاً وامرأة من جرهم دخلا الكعبة فوجدا غفلة من الناس، فأتيا المنكر فمسخا حجرين.

وقد فرق ابن الكلبي بين انواع الأوثان: فما كان من حجارة تعبد فهي الأنصاب، وما كانت تماثيل فهي الأصنام والأوثان. والمصنوع من خشب أو ذهب أو فضة على صورة إنسان فهو الصنم. فإن كان من الحجارة فهو الوثن. وقد وجد في الكعبة يوم فتح مكة ثلثمائة وستون صنماً.

ولما دخل النبي الكعبة بعد الفتح والأصنام منصوبة حول الكعبة جعل يطعنها بشباة قوسه في وجوهها وعيونها. ويقول: (جاء الحق وزهق الباطل). ثم أمر بها فكفئت على وجوهها، ثم أخرجت من المسجد فحرقت.

★ ★ ★

وقد فرق صاحب كتاب الأساطير العربية قبل الإسلام بين الأصنام فقال: إن أعظمها اتخذت شكل الإنسان وصورته وقد كانت الآلهة من أبناء آدم، ولكن مرور الزمن رفع شأنهم إلى درجة الآلهة، والأول مظهر للدين

---

(١) كتاب الأصنام للكلبي.

عبادة القبيلة (الرب والأمير) كان ودّ وسواع ويغوث ويعوق ونسر قوماً صالحين، فصنعوا أصناماً على صورهم.

والواقع أن الجاهلية العربية لم تعبد الأصنام وحدها، ولكنها عبدت آلهة متعددة: عبدت الطبيعة ممثلة في الكواكب، والنجوم واتصل ذلك بالسحر والكهانة والعرافة.

وقد أشار القرآن الكريم إلى عبادة الكواكب فقال: « لا تسجدوا للشمس ولا للقمر » ولما كانت العرب تفخر بكوكب الشعري لضخامته قال « وأنه هو رب الشعرى ».

وكانت الصابئة تعبد الكواكب. وقد عرف عن العرب الجنوبيين عبادة القمر بينما عبد الشماليون الشمس. وكان السحر والكهانة من أعمال رجال الدين، وكان للكهانة شأن خطير في نفوس الجاهليين. وقد ظل الناس على اعتقادهم في الكهانة حتى أبطلها الإسلام. وكانت الكهانة تعني التنبؤ بالغيب. وكان الكهان بمثابة الأحبار عند اليهود، والرهبان عند النصارى. وكان لكل قبيلة كاهن. وعرف العرب العيافة والاستقسام بالأزلام، وهي أسهم مكتوب عليها جمل الفعل والنهي عن الفعل.

وكانت العرب تعرف الطيرة: وهي أن يفزع الطائر بعصاه، فإذا تيامنت تفاءل. ولقد ألغى الإسلام هذه المفاهيم جميعاً وأنكرها. وقال الرسول: لا طيرة ولا فأل.

وكان السحر من أخطر مفاهيم الجاهلية، وللسحر أصول وثنية قديمة. وكان اليهود هم القوامين عليه، وهو يتصل بالأرواح واسترضائها يدفعون به شر الأرواح الخبيثة.

وقد عد السحر والكهانة في الإسلام من الموبقات مثل الشرك حتى قال الرسول: اجتنبوا الموبقات: الشرك بالله والسحر.

★ ★ ★

وكان بعض أهل الجاهلية على مذهب الدهريين. وقد وصفهم القرآن الكريم حين قال: «وقالوا ما هي إلا حياتنا الدنيا نموت ونحيا وما يهلكنا إلا الدهر». وقد عرف العرب في الجاهلية عبادة الأرواح وعبادة الأموات.

كما أبطل الإسلام عادات النفث في العقد، وهي من أعمال السحر (عقد عقد والنفث فيها). وقال الرسول: لا عدوى ولا هامة ولا صفر. وحسم القرآن الأمر. فقال: «قل الروح من أمر ربي وما أوتيتم من العلم إلا قليلا».

ويمكن القول بأن الجزيرة العربية حفلت بصنوف عديدة من العبادات الدينية. منها: عبادة آباء القبائل - وعبادة الظواهر الطبيعية، وتقديس الأحجار والأشجار والآبار والمياه، وعبادة الجن والأرواح، وعبادة الأسلاف. وقد عرفت العرب تعدد الآلهة والشرك والتوحيد، وكان منها الحنفاء الذين كانوا على دين إبراهيم، ولم يكونوا يهوداً ولا نصارى.

وقد ركز الإسلام على أن أكبر عبادات الجاهلية الشرك: وهو اتخاذ آلهة أخرى مع الله، أو أولياء من دون الله، (الذين اتخذوا من دونه أولياء ما نعبدهم إلا ليقربونا إلى الله زلفى).

وقد عرفت الجزيرة العربية اليهودية والنصرانية، ولكنها لم تعتنق إحداهما. ويمكن القول على الجملة إن وثنية العرب قشرية، وان الأساطير العربية قبل الإسلام قليلة مما حمل بعض المستشرقين إلى القول بأن العرب لم تكن لهم أساطير دينية. وذهب رينان الى ان العرب موحدون بطبعهم، وأن ديانتهم هي من ديانة التوحيد.

وقد أشار الإسلام إلى «الشرك» بحسبانه أخطر أخطار الوثنية العربية. وقد جمع الشرك:

(١) - عبادة غير الله من حجارة أو أصنام أو قوى طبيعية.

(٢) ـ اتخاذ البشر آلهة أو أنصاف آلهة.

(٣) ـ إشراك أشياء مع الله كافتراض أن لبعض المخلوقات خواص من صفات الله كالاعتقاد والتثليث. وأن الابن وروح القدس لهما صفة الأبدية والقدرة والعلم وهي من صفات الله وان ثمة خالقاً للشر وخالقاً للخير أو أن للمادة والروح صفة الابدية.

(٤) ـ اتخاذ بعض الناس بعضهم أرباباً.

(٥) ـ طاعة الإنسان لهوى نفسه، فلا يهوى شيئاً إلا اتبعه. وإنما كانت طاعة هوى النفس شركاً. لأن الايمان يوجب طاعة الله وحده. وعلى ذلك فطاعة غير الله مما لا يرضى به تعالى كاتباع هوى النفس يعد شركاً.

★ ★ ★

وفي مقابل الشرك جاء الإسلام ليجدد دعوة الأنبياء ودعوة إبراهيم عليه السلام إلى التوحيد. فقد حرر الإسلام الفكر البشري من العبودية لغير الله من جماد وحيوان ونبات واجرام سماوية وقوى طبيعية، وارتفع بالإنسان من ذل العبودية لأخيه الإنسان، ولم يختص إنساناً بمرتبة الألوهية، ولا بمنزلة الخلود. (قل إنما أنا بشر مثلكم يوحى إلي أنما إلهكم إله واحد). وبذلك حل الإسلام القيود التي طالما رسف العقل البشري فيها.

ولا شك أن توحيد الله ينطوي على وحدة النوع البشري، وأن الاعتقاد بوحدانية الله يرفع عن العقل البشري ظلام الجهل ويزحزح عن كاهله نير العبودية، ويمهد أمامه سبل الترقي.

### الفرعونية

أما النحلة الفرعونية التي فشت في مصر. فقد عبدت آلهة كثيرة، وعرفت أدياناً، كثيرة، وتشابهت مفاهيمها مع الأديان الوثنية القديمة، ومفاهيم الفرس

والهند وبابل واليونان، كما عرفت التثليث فعبدت (أيزيس وأوزوريس، وحورس) وكانت إيزيس هي إلهة الخصب والنماء. وكانت أختا للإله أوزوريس، وكان أبوهما هو (حب) أي الأرض وأمهما (توت) أي السماء، وقد تزوجا وأنجبا الإله حورس، فكون ثلاثتهم في الديانة المصرية القديمة الثالوث المقدس. وقد غزت أسطورة إيزيس الديانة المسيحية فأبدل بهما المسيح والسيدة العذراء.

وقد احتك المصريون بمدرسة عين شمس، ومدرسة الإسكندرية، وأثر فيهم الفكر الإغريقي تأثيراً شديداً، فتشكل خليط من الفكر الشرقي الغنوصي إلى جانب الفكر الوثني اليوناني.

كما عرف الفراعنة الطقوس المختلفة في المعابد، وكان الكهنة من أصحاب الإقطاعات والنفوذ. وقد عرفت الفرعونية إلى جوار التثليث الأكليروس. وأقامت معابد الفراعنة حرساً خاصاً على نظام المليشيا لتنفيذ أوامر رؤساء الكهنة.

كما عرفت الفرعونية نظام الطبقات على أساس الاستبداد والظلم جعلت على رأسه الكهنة أو الأسرة المالكة وفي نهايته الفلاحين والعمال.

وعرفت صكوك الغفران التي تسمى تعاويذ القلب التي يؤثر بها الكهنة على قلوب الموتى. وأشركت المرأة في معابد آلهة المصريين القدماء.

وعرفت الديانة الفرعونية القربان على مفهوم الوسيلة والوساطة، كما عرفت الموسيقى والأناشيد والخمر والخنزير وتوابيت الموتى، والعلامات والرموز، كما عرفت تقديس الحيوانات: العجول والكباش والأوز وقد عبدت الأحياء من أمثال: هورس ذي العينين، وألهت فرعون حياً وميتاً. وقد اقتبست المسيحية عن الفرعونية عديداً من هذه النظم وارتبطت بها.

# الكتاب الثاني

# ما بعد الإسلام

عصر النهضة
عصر التنوير
الماسونية
الثورة الفرنسية
بروتوكولات صهيون

# الباب الأول

# ما بعد الإسلام

**( ١ ) ما بعد الإسلام**
**( ٢ ) اليهودية في إطار الفلسفات**
**( ٣ ) عصر النهضة**
**( ٤ ) ضوء الإسلام في الفكر الغربي**

# الفصل الأول

## ما بعد الإسلام

## ( ١ )

سيطرت المسيحية الغربية [ نتاج المزج بين الفلسفة اليونانية ، ومفاهيم الإله مترا على النحو الذي صاغها به القديس بولس ] على الحضارة الرومانية وعلى أوروبا بعد أن أعتنقها قسطنطين، وعقدت المجامع لإقرار مفاهيمها في التثليث والخطيئة والفداء والصلب، وكلها مفاهيم دخيلة على الدين الذي أنزل على المسيح عيسى بن مريم، فقد نقلت المسيحية من الأسطورة ديانة مترا نقلاً مباشراً فمتراً هو إله الخلاص، والمسيح هو إله الخلاص، والمتراوية تحوي المعمودية والعشاء الرباني، والمتريون يمارسون عبادتهم في المغاور والكهوف والمسيحية هي عبادة مترا في ثوب جديد. فقد دخلت الوثنية والشرك في النصرانية بتأثير المنافقين الذين تقلدوا وظائف خطيرة، ومناصب عالية في الدولة الرومانية بتظاهرهم بالنصرانية ولم يكونوا يحفلون بأمر الدين، ولم يخلصوا له يوماً من الأيام.

وكذلك كان قسطنطين قد قضى عمره في الظلم والجور، ولم يتقيد بأوامر الكنيسة إلا قليلا في آخر حياته ٣٣٧ م.

إن الجماعة النصرانية كانت قد بلغت من القوة بحيث ولت قسطنطين الملك، ولكنها لم تتمكن من أن تقطع دابر الوثنية، وتقتلع جرثومتها، وكان نتيجة كفاحها أن اختلطت مبادئها، ونشأ من ذلك دين جديد تتجلى فيه النصرانية والوثنية سواء بسواء. هناك يختلف الإسلام عن النصرانية. إذ قضى

على منافسة الوثنية قضاءاً باتاً، ونشر عقائده خالصة.

وأن هذا الامبراطور الذي كان عبداً للدنيا، والذي لم تكن عقائده الدينية تساوي شيئاً رأى لمصلحته الشخصية، ولمصلحة الحزبين المنافسين: النصراني والوثني. أن يوحدهما. ويؤلف بينهما، حتى أن النصارى الراسخين لم ينكروا عليه هذه الخطة. ولعلهم كانوا يعتقدون أن الديانة الجديدة ستزدهر إذا طمعت ولقحت بالعقائد الوثنية القديمة، وسيخلص دين النصرانية في نهاية المطاف من أدناس الوثنية وأرجاسها [1].

★ ★ ★

أما معطيات المسيحية الجديدة للفكر الغربي. فقد امتدت من القرن الرابع حتى القرن الخامس عشر، وغلب عليها الطابع الفلسفي.

ويرى رابوبرت مؤلف مبادىء الفلسفة أن الفلسفة المسيحية تنقسم إلى عصرين كبيرين: ابتداء من العصور المسيحية الأولى، وفيه كان كثير من آباء الكنيسة فلاسفة قبل أن يكونوا رجال دين، فرؤا من الضروري أن يؤيدوا أنفسهم وعقائدهم أمام الوثنيين. وقد ختم هذا العصر عملياً في الحقيقة بـالأب أوغسطينوس ٣٥٤ ـ ٤٣٠ م. غير أن بعض الكتاب الكنائسيين الذين هم في المرتبة الثانية ساروا على هذا النمط إلى القرن التاسع (عصر الآباء) ومن القرن التاسع إلى القرن الخامس عشر، ويلقب بالعصر المدرسي. لأن التعليم كان يقوم به جماعة الرهبان في مدارس الكنائس. وقد أنشأ شارلمان كثيراً من هذه المدارس في جميع أنحاء فرنسا، وكانوا يرمون إلى إلباس مآرب الكنيسة لباساً فلسفياً. ويطلق هذا الإسم على ذلك العصر في القرون الوسطى الذي كانت فيه الفلسفة تدرس تحت سلطان الدين، وكان الغرض تطبيق التعاليم

(١) ماذا خسر العالم: أبو الحسن الندوي.

المسيحية على العقل (وقد استمر هذا العصر من القرن التاسع إلى ظهور النهضة في القرن الخامس عشر) وقال رابوبرت: ان مباحث المسيحية الفلسفية استمرت أكثر من خمسمائة سنة. وأن فلسفة العصر المدرسي هي فلسفة أوروبا التي انتشرت بين الكنائس في شكل لاهوتي. وقد أشار هيجل إلى هذه المرحلة فقال: إن اللاهوت في العصر المدرسي لم يكن مقصوراً على ما يختص بالله من العقائد. بل كان يشمل أدق الأفكار عن فلسفة أرسطو والأفلاطونية الحديثة. وكانت الفلسفة توفق بين العقل والدين، وبين الطبيعة وقدرة الله.

وقال رابوبرت: ان المسيحية تأثرت أولا بآراء أفلاطون، ثم أخذت تخضع لنفوذ أرسطو منذ القرن الثالث عشر، وأن آراء الكنيسة في العصر الأول استمدت من آراء اليونان والرومان.

كذلك أكدت أغلب الدراسات الفلسفية[1]. عن هذا العصر امتزاج الفلسفة اليونانية بكثير من أصول النصرانية، ولاسيما مسألة التثليث. وقد وقع الخلاف حول شخصية المسيح. وهل هو رسول الله كما يقول الإسلام. أم أن الله تجسد في المسيح (سبحانه وتعالى عما يقولون علوا كبيراً) وقد استعان كل فريق من الفريقين بالمذاهب الفلسفية المختلفة. وقد ادى استمرار النزاع قروناً متتابعة الى إراقة الدماء، ووقوع الفتن. وكان مصدراً من مصادر التفرقة بين السلطتين المدنية والروحية.

ويرد [2] بعض الباحثين موقف المسيحية حين عبرت إلى أوروبا ومواجهتها للفلسفة اليونانية الوثنية إلى أحد أمرين: إما أن تطغى المسيحية وتكتسح أمامها جميع المذاهب الفلسفية، وإما أن تتودد إليها وتجعل منها سنداً وتستمد منها في تأييد العقائد الدينية. وقد اختارت الطريق الثاني.

---

(١ ـ و ٢) تاريخ الفلسفة: محمد علي مصطفى، وأحمد عبده خير الدين.

وذلك لأن كثيراً ممن اعتنقوا الدين الجديد كانوا فلاسفة قبل أن يكونوا مسيحيين.

ولهذا أخذ رجال المسيحية يدرسون الفلسفة ويمزجونها بالدين. ويجعلون للعقائد الدينية سنداً منها. وبذلك أخذت الفلسفة اليونانية تدخل في المسائل الدينية لتحديد ماهية الله وكنهه، وطبيعة المسيح، وهل هو إله أم إنسان. وكانت المبادىء التي اشتملت عليها المسيحية قريبة الصلة بتعاليم أفلاطون والرواقيين من بعدهم.

(٢)

هذه الدخائل التي أصابت المسيحية على يدي بولس، ونتيجة لاتصالها بالفسلفة اليونانية في مهدها مباشرة قد صاغت من المسيحية نهجاً عجباً بعيداً عن الفطرة والطبيعة البشرية، معقداً أشد التعقيد، وفرضت عليها مفاهيم غريبة غاية الغرابة.

**(أولاً)**: تذهب المسيحية إلى أن الطفل شرير بطبعه، وأنه يولد محملا بكثير من الشرور والآثام، فيجب أن يقمع ذلك بالشدة والعنف، وأن يسلك به سبيل التعذيب والإيلام، بينما يقرر الإسلام أن كل مولود يولد على الفطرة. وقد استمد (روسو) و (جون لوك) هذا المعنى فقال: روسو أن الطفل خير بطبعه، وأن عقليته كالصحيفة البيضاء يسطر فيها المرء ما يشاء.

**(ثانياً)**: تنص التعاليم الأخلاقية المسيحية على نبذ الجسد وعلى الغلو في كبح شهوات البدن الطبيعية مما أدى إلى إفساد أخلاق الأفراد، وإرغامهم على مخادعة المجتمع والظهور بمظهر الفضيلة.

**(ثالثاً)**: المسيحية تعتبر الإنسان دنساً مذنباً خاطئاً. وأن الإنسان يولد حاملاً ما تسميه الخطيئة الأصلية التي ورثها عن أبيه آدم.

**( رابعاً ) :** تقوم العقيدة المسيحية على الاعتقاد بتجسد الله في البشر والإيمان بأنه ( جل وعلا عما يقولون علواً كبيراً ) . يلبس جسد الإنسان ، وأنه أرسل ابنه افتداء للبشر من خطاياهم ، فمات من أجلهم على الصليب .

وقد أثار هذا المفهوم شكوك أمم كثيرة ، وخاصة الصين واليابان . وقد اتفق تركيب المسيحية الغربية مع الفكر الأوروبي لأنه استمد أصوله من الوثنية والهلينية ، واكتفى بالمسيحية إطاراً له .

**( خامساً ) :** غلبة طابع الإغريق المشبع بالفجور والحب الجسدي العنيف والوثنية .

**( سادساً ) :** المسيحية عقيدة مكملة لدين موسى وشريعتها في التوراة ، فلما انتقلت إلى أوروبا كانت الشريعة في الإمبراطورية الرومانية هي القانون الروماني ، ومن هنا احتجز الكهنة لأنفسهم ملكوت السماء ، ففرضت الكنيسة ضرائب مالية وعقلية وروحية فادحة ، وصكوكاً للغفران ، كما فرضت التعذيب والحرمان لكل دعاة العلم النظري والتجريبي ( جرادنو برونو ـ كوبر نيكوس ـ جاليلو ) .

**( سابعاً ) :** فصلت المسيحية الإنسان عن الحياة : اعتماداً على قول : « لا تهتموا لحياتكم ولا لأجسادكم ، أو قول منسوب للمسيح : إن مملكتي ليست في هذا العالم » .

**( ثامناً ) :** لم تقدم المسيحية الأوروبية للنهضة طريقاً ، ولكن النهضة بدأت بعيداً عن المسيحية والكنيسة . وقامت على أساس غير ديني ، وارتكزت على محور يباعد بينها وبين الدين . وقد عادت إلى منابعها قبل المسيحية فاستمدت من التراث اليوناني والروماني القديم ، وتنكرت للمسلمين أصحاب المنهج العلمي التجريبي الذي قدمه المسلمون بعد أن أخذته واعتمدت عليه .

وعاشت قروناً كاملة بشخصية مـزدوجـة: مسيحيـة الظـاهـر، ووثنيـة المضمون.

**(تاسعاً)**: اهتزت المسيحية في نفوس الغربيين نتيجة أمرين. أولها عدم اتفاقها مع العقل الذي يجرب ويحلل ويستنبط. وذلك لتعقيد فكرة التثليث، ولإنكار فكرة الانصراف عن الدنيا، ونتيجة تحكم الكنيسة في عقول وقلوب المسيحيين فضلاً عن تأييد الكنيسة للحكم الإقطاعي.

**(عاشراً)**: كانت المسيحية الغربية هي التي نادت بمحاربة المسلمين، واحتلال بيت المقدس، وشن الحروب الصليبية على الشام وفلسطين ومصر ـ وعلى المغرب كله.

**(٣)**

نتج عن انحراف المسيحية عن أصولها الطبيعية أمور خطيرة كان أشدها خطراً أن «ادعى رجال الدين أن الله اختصهم بين عباده ليكونوا وسطاء بينه وبين الناس» وطلبوا من الناس الخضوع والطاعة العمياء، وحالوا بينهم وبين الكتاب المقدس، وحرموا عليهم النظر في الكائنات، وفهم أحداث العالم، ولم يسمحوا لأحد بحرية الفكر، وتعصبوا للنصوص الدينية، وفسروا كل شيء على مقتضاها، وتعددت تقاليد الكنيسة رغبة في التعمية على العامة، واقتحم الدين في كل شيء حتى لم يبق للفكر منزع، ومن ثم ساد الجهل، وعم الاعتقاد في الخرافات، وشغل الناس بأمر الآخرة، ونسوا نصيبهم من الدنيا. وأصبح التعليم مقصوراً على تلقين العقائد المسيحية، فالبابا في روما خليفة المسيح يكره العلم والتفكير في خلق السموات والأرض.

وفصلت الكنيسة في جميع المسائل الجوهرية كخلق الإنسان وطبعه، والغاية من حياته، ووضعت أصول العلم وفروعه على نحو ما تأسس فكرها بأن المسيح

أرسل ليضحي بنفسه، ويخلص الناس من الخطيئة الأولى، وتحمل الأفراد أينما كانوا لخطيئة آدم وخلاصهم بموت المسيح.

وقالت الكنيسة ان الإنسان مؤلف من عنصرين: النفس والجسم، وان هناك نزاعاً مستمراً بينهما. وان الكمال الروحي الذي ينشده الإنسان لا يتم إلا إذا فارقت الروح الجسد.

وقولهم إن العقائد المسيحية لا يأتيها الباطل من بين يديها ولا من خلفها. ومن ثم فلا بد من الإيمان بهذه العقائد إيماناً أعمى، ولو لم يفهمها الناس.

وقولهم ان الكتاب المقدس جمع كل شيء، ولم يبق للنظر والبحث مجالا بعد النصوص الدينية. ومن هنا جاء اضطهاد الكنيسة للعلم.

فقد قدمت الكنيسة معلومات جغرافية ـ وتاريخية ـ وطبيعية. وعدّتها من أصول الدين. فلما عارض رجال العلم هذه المعلومات قامت قيامة الكنيسة فأنشأت محاكم التفتيش لمعاقبة الملحدين والزنادقة، وعاقبت ثلاثمائة ألف أحرق منهم اثنان وثلاثون ألفاً وهم أحياء منهم برونو وجاليلو.

وكان هذا مقدمة لدفعة عنيفة من الفكر الأدبي لمعارضة المسيحية، ثم مغايظتها. وانتقل الفكر الغربي انتقالاً خطيراً من مفاهيم الزهادة إلى الوثنية. ومن جحود الكنيسة إلى الانحلال. ومن تسلط رجال الدين إلى الإباحة.

ولم تكن تلك المعلومات الكنسية في الواقع حقائق إلهية، ولكنها كانت اجتهادات أخذت طابع القداسة (مثل عمر الأرض وعمر الإنسان) فكانت سبباً في قيام الصراع بين الدين والعلم. وقد «انهزم فيها الدين وسقط رجال الدين».

## (٤)

وكانت محاكم التفتيش من أسوأ صفحات الفكر البشري الذي أدخلته المسيحية أوروبا.

فقد اتجهت الكنيسة إلى الانتقام العنيف من معارضيها. ويعد البابا كوبلوري التاسع (١٢٢٧ - ١٢٤١) المسؤول عن إيجاد محاكم التفتيش التي ملأت قلوب الناس رعباً في العصر الوسيط. وقد اعتمدت البابوية في ذلك على «الدومينكان» الذين شبهوا أنفسهم بكلاب الله في اصطياد «الهراطقة» للمحافظة على الكنيسة.

وقد ظلت محاكم التفتيش تعمل ثلاثة قرون، وكانت مصدراً لانفراط عقد الوحدة في المسيحية، وتذرعت بالتعذيب لإجبار المتهمين على الاعتراف.

وحملت الكنيسة باسم المسيحية الغربية فظائع (سانت بارتملي) وهي المذبحة التي قامت بين البروتستانت والكاثوليك. وأمر بها شارل التاسع في ليلة ٢٤ أغسطس ١٥٧٢. وقد استمرت ثلاثة أيام أنحى فيها الفرنسيون على رفات البروتستانت بجميع نواحي فرنسا.

وتعد مذبحة (الأليجواه) من أشد هذه المعارك سوءاً. وقد قامت للقضاء على طائفة دينية انتشرت في القرن الحادي عشر بجنوب فرنسا.

وقد أمر البابا أنيوسان الثالث بإبادتها عن آخرها. فأبيدت وقتل في حرب الكاثوليك على البروتستانت ١٦٠ ألفاً. كما قتل توركمادا الدومنيكي الأسباني (١٤٢٠ - ١٤٩٨) ستة آلاف إنسان بالنار.

## (٥)

وكانت بدعة الرهبانية من أخطر ما أدخلت الكنيسة المسيحية إلى الدين الخالص. وقد وصفت هذه الرهبانية على لسان بعض المؤرخين بأنها أخطر من إباحة روما الوثنية.

وقد رسم ليكي في كتابه تاريخ أخلاق أوروبا صورة بشعة لهذه الرهبانية التي استفحل أمرها. وزاد عدد أتباعها على عدد أهل مصر في نهاية القرن الرابع.

وأبرز أخطاء الرهبانية: تعذيب الجسد فمنهم من يقف على قدم واحدة ثلاث سنوات، أو يحمل قنطاراً من الحديد، أو ينام في المستنقعات. ومنهم من يتستر بشعره الطويل، أو يمشي على يديه ورجليه كالأنعام. ومنهم من يسكنون مغارات السباع والآبار النازحة والمقابر يأكلون الكلأ والحشائش. ويعدون طهارة الجسم منافية لنقاء الروح، ويتأثمون من غسل الأعضاء، ويبقون على ما هم فيه من النجاسات والدنس[1]. منهم من لم يمس الماء وجهه طوال عمره. ومنهم من لم يمس وجهه ولا رجله الماء خمسين سنة، وهم يخطفون الأطفال ويهربونهم إلى الصحراء والأديرة التي كان لها تاريخ طويل. وكانت أخطر الأديرة: الأديرة النسائية، والنسوة المكرهات على دخول الدين، ومن نتيجة حياة العزوبة التي كان الرهبان يزينوها للناس لم يتضاعف سكان القارة الأوروبية في ألف سنة.

وكان للرهبانية أثرها السلبي في أخلاق الأوروبيين. فقد اختفت الفتوة والمروءة والشجاعة والسماحة. وكان الرهبان يتركون الأمهات والأزواج عالة يتكففون الناس، ويتوجهون قاصدين الصحراء. إلى غير ذلك من الإسراف

---

(١) أبو الحسن الندوي: ماذا خسر العالم.

في الرهبانية والزهد على ما فيه من مخالفة الفطرة، وعلى ما كان من أثره ب إباحية الفجور والشهوات حتى قال الراهب جيروم ان عيش القسوس ونعيمهم كان يزري بترف الأمراء الأغنياء المترفين. فقد انحطت أخلاق البابوات انحطاطاً شديداً، وفشت فيهم الرشوة والربا.

(٦)

في ظل هذه الصورة القائمة، ومن تضاعيف هذا الاضطراب العنيف الذي بلغت به المسيحية الغربية حدها في الانحراف، بزغ ضوء الإسلام صافياً نقياً مجدداً للفكر الرباني، ماحياً كل تخرصات الوثنية والإباحية والتثنية والتثليث، كاشفاً بالحق كل الشبهات والضلالات التي حاول دعاة الفكر البشري السطو بها، والسيطرة عن طريقها على مقررات الأديان، وحقائق الألوهية، وانطلق الإسلام يكتسح الأقطار، وفي أقل من قرن وصل إلى أوروبا، واقتحم الأندلس، ونشر لواءه وقدم للفكر البشري حقائق جديدة من ضياء التوحيد، ووضع أصول المنهج العلمي التجريبي.

ومن ضوء الإسلام انطلقت صيحة الحرية التي غيرت وجه أوروبا والفكر الغربي كله إلى الآن. فإن انطلاقة الحرية والمعرفة والعدل والأخلاق والإيمان بالغيب. كان ذلك كله ثمرة من ثمار الإسلام.

# الفصل الثاني

## اليهودية في إطار الفلسفات

## (١)

عندما فتح الأحبار باب التحريف لدين موسى سقطت اليهودية، سقطت في براثن الفلسفات القديمة، وخاصة الفلسفة اليونانية الوثنية، كما احتوتها الفلسفة الغنوصية.

« فقد قام حاخامو اليهود بتفسير الفلسفة اليونانية، وادعوا أنها قطعة متكاملة من الشريعة اليهودية » يقول أحد الباحثين اتضح أخيراً أن المعارف اليونانية تخفي في طياتها شخصية يهودية على أمل إقرار السيادة على الشعوب بواسطة تلك المعارف. ولكن انقلبت آية سياستهم المذكورة. إذ إن قسيساً يدعى أوزيب نشر في أحد كتبه بعض الفصول من كتاب (نومي نوسي) القائلة بفكرة أخذ فيلسوف اليونان أفلاطون كثيراً من أفكاره عن موسى عليه السلام، وزعم أن أفلاطون هو نفس موسى عليه السلام.

وكان عدد من الحاخامين يدعون بأن الفلسفة اليونانية مقتبسة من عقائد يهودية. وأن فيلسوفاً يهودياً يسمى (توراة أرستوبول) قد ادعى مطابقة أفكار بعض فلاسفة اليونان أمثال أفلاطون وسقراط مطابقة تماماً لقواعد اليهودية وأوامرها. وأن حاخام اليهود وفيلسوفها المشهور (فيلون) يقول: إن النظريات هي نفس ما جاء في دين اليهود تماماً. ويرد هذا الباحث التحول الذي حدث في الفكر الغربي إلى هذه المفاهيم. ويقول: فإن حقيقة الفلسفة العلمانية التي سادت مدينة الغرب، وغذت الحركات المعادية للقومية والدين

والتاريخ هي من (اليهوا) أي من اليهود وشريعة التوراة. وأن الحاخامين كانوا يضعون خيوطهم لجر المدنية الغربية النصرانية نحو اليهودية، وعندنا أن هذا هو سر تعلق الفكر الصهيوني اليهودي الذي سيطر على أوروبا بالهلينية ودعوته الحارة إلى العودة إليها والتحرر من معطيات الإسلام التي انتقلت إلى أوروبا. وكذلك من بقايا المسيحية.

(٢)

وفي هذا يقول الدكتور علي سامي النشار: «أثرت الغنوصية في اليهودية وسيطرت على فيلسوفها الكبير (فيلون) وقد مهد فيلون لظهور المسيح فقد كان له أكبر الأثر في القديس يوحنا الإنجيلي. وكل ما ذكره يوحنا الإنجيلي إنما هو مأخوذ من فيلون». وقد أثار فلاسفة المسيحية الغنوصية في القرن الثاني الميلادي وجه الخلاف بين إلٰههم (إلٰه العهد الجديد) وبين إلٰه يهود (إلٰه العهد القديم) وفكرتهم العامة أن هناك إلٰهين. إلٰه العهد القديم، وهو إلٰه قاس جبار منتقم، وإلٰه العهد الجديد، وهو إلٰه طيب خير. الأول رئيس الملائكة الأشرار. والثاني رئيس الملائكة الأخيار. الأول صانع العالم المجوسي. والثاني صانع العالم المعقول. وقرروا أن هذا هو الحل الوحيد لتفسير التعارض الكبير بين التوراة والإنجيل [1].

(٣)

وأشار الدكتور علي العناني إلى هذه الصلة بين اليهودية والفلسفة الهلينية، فقال: اكتشف الدين الإسرائيلي في الوقت الذي امتزج فيه مع الفلسفة الدينية

---

(١) ذكره دكتور علي سامي في كتابه: الفكر الفلسفي في الإسلام.
وقد أنشأت الماسونية في العصر الحديث تفسيراً معاكساً لذلك فادعت أن الشيطان هو إله الرحمة. وأن الله (جل وعلا) هو غير ذلك.

اليونانية هذه العوامل. تمزيق الوحدة الإسرائيلية، سقوط إسرائيل، السبي المتكرر، الهجرة، المظالم التي حلت بالشعب المختار.

وكانت الإسكندرية نقطة الاتصال بين النظر الفلسفي الهليني الجديد، والعقائد الإسرائيلية التي أحست بالصلة والقرابة بينها وبين الأفكار الدينية والإغريقية الحديثة. ونتيجة لهذا شاع هذا الاتجاه بمدرسة الإسكندرية. وأخذ شكله النهائي عند (فيلون) الفيلسوف اليهودي بهذه المدينة. وقد أراد فيلون أن يوجد تلاقياً بين النظريتين اليهودية واليونانية باسم حكمة الإسكندرية.

ويخلص الدكتور علي العناني إلى إقران «الفلسفة اليونانية الدينية، والديانة الإسرائيلية الفلسفية».

## (٤)

من هذه النصوص وغيرها يتبين «أن اليهودية مسخت التعاليم السماوية المقدسة ومزجتها ببعض المفاهيم الوثنية. فقد تأثر اليهود بالديانات البابلية القديمة. وقبل سبي بابل لم يكن المعبد اليهودي قد أخذ شكله القائم على التعصب والغدر والخيانة. إلا أن اليهود مسخوا الكثير من العقائد البابلية، وحولوها إلى قوى شريرة، وحولوا الكثير من القيم الخيرة إلى أفكار تحث على التعصب، وتؤكد على أن المعبد بحاجة إلى إراقة الكثير من دماء القرابين لكي تنتشي الآلهة العطشى التي لم تكن في حقيقتها إلا ردود الفعل لدى بعض المتعصبين، وإعادة كتابتها بشكل يجعل من بني إسرائيل قوماً مفضلين على غيرهم تسري في عروقهم دماء التعصب في الوقت الذي ينظرون فيه إلى غيرهم من أهل الأرض نظرة وضيعة.

وانقلبت التعاليم الدينية الخيرة لدى اليهود إلى مخططات سياسية واقتصادية استخدمت القيم الدينية الخيرة كغطاء لإضفاء نوع من القدسية والشرعية على

ما تُرتب من جرائم القتل والاستباحة والابتزاز والاغتصاب. وبذلك انقلب الدين اليهودي إلى ما نسميه باليهودية، وهي نزعة ميكافيلية قبل أن يوجد ميكافيلي.

فقد ضربت اليهودية بكل القيم الدينية عرض الحائط، واستغلت المصاعب التي من الممكن أن يتعرض لها كل شعب خلال مروره في أدوار التاريخ المختلفة، فصاغت من بعض تلك الصعوبات سياسة بنيت على الحقد والكراهية. ففرضت عليهم أن يتكتلوا، وأن يكونوا عصبة لا بدافع الحفاظ على جماعتهم وروحهم الجماعية، ولكن لكي يعملوا على تدمير العالم المحيط بهم توهما منهم بأن قوى العالم تسعى إلى تدميرهم [١].

---

(١) عن باحث مسلم كبير.

# الفصل الثالث

## عصر النهضة

## (١)

ثمرة من ثمرات الإسلام في جناحيه: الإصلاح الديني ـ والمنهج العلمي.

كان الإسلام بنظرته الحاثة على البرهان، والنظر في الكون منطلق عصر النهضة بعد أن ترجمت آثار الإسلام، فكان لها أثرها في مجالات عدة.

١ ـ الإسلام ومفاهيمه هو مصدر الإصلاح الديني الذي قام به لوثر وكالفن. فالإصلاح الديني علم الناس أن من حقهم الحكم الشخصي على الأشياء، ومن ثم تحررت أفكارهم من القيود التي قيدها بها رجال الدين [1].

٢ ـ الإسلام ومفاهيمه هو مصدر المنهج العلمي التجريبي الذي نقل البشرية كلها، وليس أوروبا وحدها من الفلسفة اليونانية النظرية إلى المنهج العلمي التجريبي الذي أنشأه المسلمون تطبيقاً لدعوة القرآن إلى النظر في الكون.

٣ ـ الإسلام ومفاهيمه صاحب أكبر الأثر في بناء منهج المعرفة القائم على العقل والقلب معاً، والقائم على البرهان المتحرر من التقليد ومن وراثيات الآباء، والناظر إلى الأمور نظرة محررة خالصة من أوهام الأساطير والوثنية.

★ ★ ★

كان هذا أثر الإسلام إلى الحد الذي يمكن أن يقال معه أن النظرة

(١) رابوبرت: مبادىء الفلسفة.

القرآنية الإسلامية التي طرحها على البشرية كلها هي مصدر ذلك التحول الخطير الذي واجه الجمود والقيود والقسر العجيب الذي فرض من وراء الأسرار المقدسة، التي لا يجوز أن تدرس عقلياً، وإنما يؤمن بها دون بحث ولا تحقيق.

ويصور رابوبرت نتيجة هذه الأطروحة الإسلامية القرآنية التي وصلت إلى أوروبا والفكر الغربي فيقول: أصبح الحق في نظر الناس ليس ما اعتبر حقا منذ قرون، ولا ما قال عليه فلان انه حق سواء القائل أرسطو، أو توماس أكونياس، أو غيرهما. إنما الحق ما برهن لي عليه، واقتنعت بكونه حقا.

لقد تميز هذا العصر بحرية الفكر واستقلاله، وبكسر القيود التي كبله بها رجال الدين، فتداعت عقائد القرون الوسطى الجافة، ونبذت آراؤها، وأهمل الجدل في عالم الغيب [١].

كان هذا هو المنطلق الخطير الذي كسر قيود العصور الوسطى، وفتح آفاق عصر النهضة إلى بناء العلم والتجريب على نفس الأسس التي أقامها المسلمون في الأندلس، والتي تسربت إلى أوروبا، ثم امتلكتها أوروبا ملكية خالصة بعد أن أخرجت المسلمين والعرب من أوروبا، وحرمت عليهم البقاء وراء صخرة طارق.

وإذا كانت هذه الحقيقة قد أغمضت أوروبا عنها العين، وأنكرتها سنوات طويلة، فإن الحقيقة لم تلبث أن أعلنت وتكشفت على أيدي أمثال: جوستاف لوبون، وكارليل وغيرهما حتى بدت مشرقة كفلق الصبح في السنوات الأخيرة، عندما قدمت الدكتورة هونكه كتابها: « شمس الله تشرق على الغرب ».

---

(١) ص ٩٥ ـ مبادىء الفلسفة.

ذلك أنه لا ريب في أن الإسلام: ذلك الضياء الذي ألقاه الله إلى البشرية في أحلك فترات حياتها هو الذي هداها إلى الحق كله: التوحيد، والعلم التجريبي، والبرهان، ومنهج المعرفة. وهو الذي حطم كل الأصنام، ودمر كل الأساطير، ودحض كل الشبهات التي تجمعت يوما تحت اسم الفكر البشري: الهليني، والغنوصي، والوثنية العربية.

كان ضوء الإسلام أقوى من ظلام هذه المذاهب ـ وكان صوت القرآن الكريم أعلى من كل أصوات الفلسفات.

لقد كان فكر الإسلام هو الذي دفع الغرب على طريق النهضة والحضارة. غير أن أوروبا قبلت من الإسلام هذه الجوانب وحدها. ثم أعرضت عن العقيدة نفسها، ولم تدر أنها كانت على خطر الوقوع فريسة في أيدي القوى الشريرة في المراحل التالية مباشرة. تلك هي مرحلة عصر التنوير، عندما تكالبت قوى اليهودية مرة أخرى على توجيه الفكر الغربي وجهة الوثنية اليونانية، وهدم كل ما أعطته المسيحية الشرقية من عناصر الرحمة، وما أعطاه الإسلام من عناصر القوة والعدل.

## (٢)

ولا ريب أن الإسلام هو الذي هز الفكر الغربي اللاهوتي كله، وكشف أخطاءه وجموده ووثنيته، وفتح الطريق بالفكر الرباني الأصيل لهزيمة الفكر البشري الوثني المادي الإباحي، وتحقيق عديد من خطوات التحرر كان أبرزها سقوط عبادة الصور والطقوس، وإعلاء مفاهيم الفروسية الاسلامية، والمروءة والنخوة ونصرة الضعيف ـ هذا في المجال العام. أما في مجال العلم فإنه قدّم منهجاً علمياً أصيلاً يتمثل في تصحيح مفاهيم اليونان في العلوم والفلك. ومقدمات الطب وتحريرها من الطابع النظري. فكان المسلمون أول

من وضع أسس المختبرات العلمية في مجال الكيمياء، وأول من استعمل الأرقام الحسابية بما فيها الصفر، حتى أمكنه بناء المعادلات البسيطة والمركبة. واستطاع عديد منهم أن يكشف أخطاء أرسطو وجالينوس. أما في مجال علم النجوم فقد حرروه من خرافات اليونان وحولوه علماً صحيحاً ما تزال آثاره باقية إلى اليوم في مجال الفلك والبحار. وما تزال أغلب أسماء النجوم في قواميس اللغات الأوروبية قاطبة عربية كما وضعها المسلمون.

ولا ريب كانت إنشاءات المسلمين في مجال المنهج العلمي التجريبي بعيدة المدى، كانت هي الأساس الذي قام عليه البحث العلمي والتجريبي في أوروبا من بعد مع الإنكار الشديد، والتجاهل لهذه الأصول. ولهذا الأساس في مختلف مجالات الحساب والجبر والهندسة والمثلثات وعلم الهيئة (الفلك) والفلسفة التجريبية، وفي الطبيعيات والكيمياء والطب. وقد أخذ هذه الأصول عشرات من الباحثين وبنوا عليها.

- أخذ دافيد هيوم نظرية الغزالي في أن الأمور تتم بإرادة الله لها لا بالأسباب الظاهرة.
- أخذ سميث وهيجل وأوجست كونت نظريات ابن خلدون في علميّ الاجتماع والاقتصاد السياسي الذي سبقهم بأربعة قرون.
- سبق المعري دانتي في وضع أصول الكوميديا الإلهية.
- سبق ابن مسكويه دارون في إعلان نظريتي أصل الأنواع والتطور.
- سبق الطرطوشي ميكافيلي في التأليف في سياسة الملوك وأخلاق الأمراء.
- سبق زين الدين الآمدي الغرب في إعداد طريقة بريل.

(٣)

ظلت أوروبا تتجاهل الأصل الإسلامي والأساس القرآني في بناء المنهج

العلمي الحديث حتى جاء بريفولت في كتابه بناء الإنسانية (Making of Humanity)، فسجل هذه الحقيقة. وكشف هذه الصفحة.

يقول بريفولت في كتابه: لم يكن روجر بيكون إلا رسولا من رسل العلم والمنهج الاسلاميين إلى أوروبا المسيحية، وهو لم يمل قط من التصريح بأنه تعلم على معاصريه اللغة العربية وعلوم العرب، وهو الطريق الوحيد للمعرفة الحقة. وكان المنهج التجريبي في عصر بيكون قد انتشر انتشاراً واسعاً وانكب الناس في لهف على تحصيله في ربوع أوروبا. لقد كان العلم أهم ما جادت به الحضارة العربية على العالم الحديث، ولكن ثماره كانت بطيئة النضج. وان العبقرية التي ولدتها ثقافة العرب في أسبانيا لم تنهض في عنفوانها إلا بعد مضيّ وقت طويل على اختفاء تلك الحضارة وراء سحب الظلام، ولم يكن العلم وحده هو الذي أعاد إلى أوروبا الحياة. بل إن مؤثرات أخرى كثيرة من مؤثرات الحضارة الإسلامية بعثت باكورة أشعتها إلى الحياة الأدبية، فإنه على الرغم من أنه ليس ثمة ناحية من نواحي الازدهار الأوروبي إلا ويمكن إرجاع أصلها إلى مؤثرات الثقافة الإسلامية بصورة قاطعة. فإن هذه المؤثرات توجد أوضح ما يكون وأهم ما يكون في نشأة تلك الطاقة التي تكون ما للعلم الحديث من قوة متمايزة ثابتة. وفي المصدر القوي لازدهاره: أي العلوم الطبيعية وروح البحث العلمي.

إن ما يدين به علمنا لعلم العرب ليس فيما قدموه إلينا من كشوف مدهشة لنظريات مبتكرة فحسب. بل يدين هذا العلم إلى الثقافة العربية بأكثر من هذا: «إنه يدين لها بوجوده نفسه».

## (٤)

هاجمت أوروبا تحت ضوء الإسلام الساري إليها الكهنوتية والنسك

والأساطير، ووجهت النقد إلى الكتب المقدسة. وكشفت عن عجز الديانة المسيحية كما صورها الكهنة أن تتفق مع العقل الواعي الذي يجرب ويحلل ويستنبط. فكانت ثورة أوروبا على الكنيسة البابوية.

وكان مارتن لوثر قد قرأ أصول الإسلام وألم بها، وكانت دعوته كلها مستمدة من القرآن الكريم. وقد كانت مواقف الكنيسة ضد التقدم والعلم مشهورة حتى لقد تأكدت حقيقة لا ريب فيها: إن الأوروبي لم يتمكن من الخلق والابتكار إلا بعد أن تحرر من هذه القيود، وواجه الفكر الإسلامي في يسره وإشراقه وفطريته استمداداً من التوحيد، واعترافاً بالإنسان عقلاً وروحاً وجسداً، وبكل غرائزه ونزواته، واستجابة لها في حدود وضوابط تحت ضوء الحق والإيمان والاعتدال.

وإذا كانت المسيحية قد عجزت أن تعطي أوروبا شيئاً حتى جاء الإسلام فإن هناك من يرى أنها كانت مصدراً لانهيار الدولة الرومانية.

فقد شهد جيبون في كتابه سقوط روما بأثر المسيحية الغربية في الحضارة فقال: إن مسؤولية انهيار الحضارة الرومانية ترجع إلى المسيحية. وإذا كان أرنولد توينبي يعيب على جيبون رأيه هذا ويؤمن بدور الدين في مجريات التاريخ، فإنه ينسى أن جيبون حين يكل إلى المسيحية أثرها في سقوط الحضارة الرومانية لا يعني الدين في أصله الأصيل، وإنما يعني ذلك الشكل الذي جمع بين إطار المسيحية الشرقية ومضمون الفكر اليوناني الوثني والقانون الروماني القائم على العبودية واعتبار كل ما خارج روما عبيداً.

# الفصل الرابع

## ضوء الإسلام في الفكر الغربي

بزغ ضوء الإسلام على عالم مضطرب بين الوثنية والإباحية، وبين مفاهيم البشرية، وفلسفات الأديان المنزلة التي تحولت من مفاهيمها الأصيلة إلى مفاهيم مختلطة، فيها الحق والباطل، والأصيل والزائف، وكانت آخر المراحل لهذه القضية ذلك الاضطراب والزيف الذي أصاب اليهودية، ثم أصاب المسيحية نتيجة لسلطان الفلسفة اليونانية عليها.

هذه الفلسفة اليونانية التي هي من صنع اليهود أساساً لإفساد الأديان، فضلا عن اقتحام اليهود للمسيحية السمحة وإفسادها من الداخل، وتحويلها من دين خاص جاء لليهود وحدهم إلى دين عالمي، وتحريف مفاهيمها بإدخال مفاهيم الفلسفات والأديان البشرية من تثليث وخطيئة وصلب وفداء.

وبعد خمسة قرون من صراع عجيب بين اليهودية والمسيحية، وبين الغنوصية والهلينية، وبين الوثنية والشرك. وبين التثنية والتثليث، وبين الإباحية والإلحاد. من خلال ركام ضخم من ضلالات الفكر البشري وأهواء البشرية في صراعها واضطرابها، جاء القرآن صادعاً بالحقيقة الكبرى: في أمر الإله الواحد الأحد، الفرد الصمد، وفي أمر البعث والجزاء، وفي مختلف قضايا الألوهية والإنسان والكون والحياة على نحو واضح صريح، سمح كريم في حدود الطبيعة الإنسانية ومقدرتها، مع السماحة والغفران والعفو.

ولقد تناول القرآن مختلف الشبهات التي لصقت بمعنى الألوهية والإنسان والأديان والوجود والحياة فدحضها وأبان فيها عن وجه الحقيقة.

وقدم للبشرية منهجاً نقياً خالصاً، وفق قدراتها، وفي حدود الله التي رسمها للناس ضابطاً لوجودهم ومقرباً لهم من المنهج الرباني في الحياة لإقامة المجتمع الصالح.

وقد بنى الإسلام مجتمعه من نقطة أولى هي محمد ﷺ، الذي كون الجماعة الأولى، وبناها على المفاهيم الربانية الخالصة. وجاء القرآن خلال ثلاثة عشر عاماً، يهدي هذه الجماعة إلى الحق في كل أمورها، ويرد على تساؤلاتها في مختلف شؤون الحياة والكون والتاريخ والحضارات القديمة، والأديان السابقة، وكل دقيق وجليل من قضايا الإنسان، حتى قال أبو بكر: لو ضاع مني عقال لوجدته في كتاب الله. كذلك وكشف القرآن الكريم عن حقيقة أساسية هي أن الأديان كلها من أصل واحد ومنبع واحد، وأنها جميعها من الله، وأنها دعت إلى توحيد الله، ورسمت للبشرية منهجها في الحياة، وأن رؤساء الأديان حرفوا أديانهم، وأدخلوا أهواءهم وأفسدوا مقرراتها الأصيلة السمحة، حتى انحرفت عن طبيعتها. فجاء الإسلام مقراً بهذه الأديان جميعاً، والرسل جميعاً، مطابقاً لما بين يديه من الكتاب، ومهيمنا عليه. فالإسلام هو دين الله الخاتم للإنسانية جميعاً. والقرآن الكريم هو كتاب الله الخاتم الذي اعترف بكتب الله جميعاً، والتوراة والانجيل. ومحمد رسول الله ونبيه خاتم الأنبياء والرسل جميعاً.

ولقد قص الله تبارك وتعالى في القرآن الكريم كل ما اختلف فيه اليهود والمسيحيون عن أديانهم، وما حرفته الفلسفات والمذاهب من آراء وأفكار. وهو بهذا كله قد وضع الإنسان على عتبة عهد جديد، بحيث جعل كل ما سبقه يمثل عصر الجاهلية السابق للدين الخاتم.

وقد وقف الإسلام من الفكر البشري منذ بزوغ فجره موقفاً حاسماً صريحاً انتهى بالتفرقة الواضحة بين الفكر البشري بكل فساده وضلاله، وبين الفكر القرآني والرباني الخالص.

# الباب الثاني

# عصر التنوير

# الفصل الأول

## عصر التنوير

## أو سيطرة اليهودية التلمودية على الحضارة والفكر الغربي

(١)

كان عصر التنوير هو نقطة التحول في الفكر الغربي ومقدرات العلم والحضارة لتحقيق الأهداف التي رسمتها اليهودية التلمودية من أجل السيطرة على العالم، وتحقيق غايتها عن طريق تخطيط طويل المدى يستهدف احتواء المسيحية والكنيسة والفكر الغربي كله.

وقد قام عصر التنوير على أسس واضحة رسمتها الفلسفة الماسونية من خلال محافلها وتصدر رجالها لقيادة الفكر الجديد في أوروبا.

**( أولاً ):** مواجهة صاخبة عنيفة للمسيحية ونقد قاس للكتاب المقدس قام به عدد كبير من الكتاب، وعلى رأسهم: نيتشه.

**( ثانياً ):** استغلال واضح لمفاهيم دارون البيولوجية، وتحوير لنظرية التطور، وتوجيهها إلى نظرية اجتماعية عامة.

**( ثالثاً ):** ظهرت فكرة الموسوعة التي قام عليها رجال من أتباع الفكر اليهودي التلمودي وعلى رأسهم روسو وديدرو.

(٢)

لخص كثير من المؤرخين مفهوم عصر التنوير على أنه الاحتواء اليهودي

التلمودي للفكر الغربي. فقد أزالوا مفهوم الدين الحقيقي من الغرب لفرض مفهومهم الذي يحقق لهم قيام دولتهم، وورثوا الحضارة الغربية وتسلموها، ولم يكونوا قد شاركوا فيها أساساً. ثم فرضوا أنفسهم على الفكر الغربي وسيطروا عليه سيطرة كاملة، وأباحوه للّادينية واللاأخلاقية، والإلحاد والإباحة وفق مناهج فلسفية ذات طابع علمي براق. فاليهودية التلمودية هدمت الفكر الغربي أولا، ثم سربت هذا الحطام إلى الفكر الإسلامي والمجتمع الإسلامي مستهدفة من ذلك تحقيق غاياتها في إقامة الدولة اليهودية، لقد حطمت الفكر الغربي الذي كان قد قام أساساً على أصول الإسلام، ومعطياته، ودفعتها إلى الفكر اليوناني الإغريقي الوثني لتجعلها محتواة داخل فكرها وأهدافها بعد أن تأكد أن الفكر الهليني إنما هو يهودي المصدر، وكان من ثمرات ذلك ثورات متعددة وانقلابات كبرى في العالم كله. منها الثورة الفرنسية والانقلاب العثماني.

ويرى بعض الباحثين أن اليهودية التلمودية كانت تحاول احتواء المسيحية والفكر الغربي كله كمقدمة لطرح هذه الفلسفة التي عرفتها الماسونية في صورة سياسية من خلال بروتوكولات حكماء صهيون. ويرى توينبي أن من أخطر ذلك محاولة تقبل المسيحية فكرة اليهودية عن الإله الغيور، وهي فكرة قادت المسيحيين إلى التعصب الأعمى عوضاً عن فكرة المسيحية. (الله محبة). ومن رأيه أن هذه الردة قد كبدت المسيحية خسارة روحية جسيمة، ويعني هذا أن المسيحية قد واءمت بين فكرتين متناقضتين.

**الأولى:** فكرة البطش وعدم التسامح، وهي صفة إله اليهود (يهوه) ومن سماته الغضب والقسوة والغيرة.

**الثانية:** فكرة المحبة والتسامح التي تقوم عليها دعائم المسيحية. فكان أن ضعف الوازع الديني، وخبا ضياء الدين في نفوس المسيحيين فأقبلوا على عبادة نظم شاذة مثل النازية والفاشية.

( ٣ )

كان كتاب الموسوعة هم طلائع المحافل الماسونية، والفلسفة اليهودية والتلمودية، وقد أصبحت كلمة الموسوعة علماً على تقويض دعائم المجتمع الأوروبي، وتحطيم الفكر الذي كان يبثه رجال الكهنوت. وقد دعا ديدرو إلى الارتياب في كل القيم، وقاد فلسفة الشك. ودعا (هو لباخ) إلى الإلحاد صراحة وإعلاء شأن العقل إعلاء يكاد يصل إلى حد التقديس.

وظهر والمبير، وفولتير، ومونتسكيو. وكانت كلمة الحرية هي « كلمة السر » في المحافل الماسونية وفي الدعوة التي حملها عصر التنوير، وكانت كلمة المفكر الحر علامة واضحة على الاتجاه الصريح نحو الإلحاد والإباحية: فكانت الحرية وثنية في منطلقها، قائمة على أساس عبادة الجسد، وإحياء الغرائز وتبريرها. والخروج عن نطاق المسيحية كلية. ويصور ذلك أحد الباحثين الغربيين فيقول: « كان يرقد تحت مظهر الثقافة اللامعة شهوة عارمة ورغبات وحشية لم تكبح جماحها في هذا العصر نزعة دينية، فوجدت في إيطاليا الشهوة والخيانة والسم والاغتيال بجانب الفن والأدب. وبدت الكنيسة ناشزة عن مبادىء المسيحية بأعمالها الدينوية المفضوحة.

( ٤ )

هناك شبه إجماع على أن فولتير في القرن الثامن عشر هو أول حامل للواء نزعة التنوير. وقد كان فولتير بالتأكيد من أقطاب المحافل الماسونية، ومن أول من وضع موضع التبريز والشهرة من دعاة الشك والإلحاد. وهدم ما يطلق عليه الفكر الديني. ثم جاء من بعده أميل زولا، وأصحاب الموسوعة.

ويلتقي معنا الدكتور « إسماعيل راجي الفاروقي »[١] على هذا المعنى فيقرر

---

( ١ ) كتاب الملل المعاصرة في الدين اليهودي.

أن اليهود عند ما عادوا إلى أوروبا ولم يكونوا بها في عصر النهضة سرعان ما حملوا لواء مفهوم التنوير، ووصفوا به عصراً جديداً بعد عصر النهضة كانوا هم أصحاب القيادة فيه لكل منجزات الأوروبيين المسيحيين الذين قاموا بحركتهم مستقلين.

وسرعان ما استطاع اليهود أن يجندوا لدعوتهم الكثيرين، وسرعان ما سرت هذه العقيدة في الفكر الأوروبي سريان اللهب في الهشيم على حد تعبيره، فاعتبر من آمن بها كل إنسان آخر متساويا معه في العقلانية، إذاً فلا فرق بين البشر، وكل ما اصطنع من تفرّقة بينهم يجب أن يزول سريعاً. وهكذا تداخل اليهود في المجتمع المسيحي بعد أن انقطعوا عنه طوال قرون.

والمعروف أن ثمرة ذلك هو ما حققته الثورة الفرنسية التي قادتها المحافل الماسونية من أجل كسر قيود المسيحية والكنيسة والمجتمع الأدبي التي كبلت بها اليهود وقسرتهم على التزام (الجيتو).

يقول الدكتور الفاروقي: جاء دخول اليهود في الحياة السياسية والفكرية والاجتماعية الأوروبية متقطعاً وبطيئاً إلى أن قامت الثورة الفرنسية، وتبعها ما تبعها من حملات نابليون. عندئذ انهدم الجدار الفاصل تماماً، وراح اليهود يمركزون أنفسهم في شتى المجالات.

وذلك هو سر عصر التنوير، ودعوة الموسوعة. فاليهود هم أصحاب الدعوة العقلانية، والدعوة العلمانية، والحملة على المسيحية وعلى الدين، ودعوة الفصل بين الدين والدولة جميعاً. وعندنا أن هذه السيطرة التي تمت في عصر التنوير هي بداية التحول الكامل بالسيطرة اليهودية التلمودية على الفكر الغربي، واحتواء الفكر الديني المسيحي إلا من تيارات قليلة كانت تظهر بين حين وآخر لتفرض وجهة نظر الغرب أو المسيحية أو معارضة التيار الضخم الذي فرض نفوذه باسم الربا عنواناً على الاقتصاد، أو المادية عنواناً على

الفكر، أو الإباحية عنواناً على السلوك.

كانت دفعة عصر التنوير ترمي إلى التحرر من القيم التي قدمها الإسلام وبقايا مفاهيم المسيحية الأصيلة. وكان المؤشر قد اتجه إلى إحياء الفكر الهليني القديم الذي ينضح بالوثنية من كل جانب[1]. ومن ثم انتشرت الوثنية في الأفكار والأخلاق، وتكونت في الغرب المسيحي نظرية جديدة في الإنسان تقنع بما يسمى الطبيعة، وتستغني عما فوق الطبيعة، وتسمى المذهب الإنساني. ثم «كان أن تسرب المذهب الإنساني إلى المسيحية نفسها، وأخذ يعمل على تقويضها من الداخل»[2].

فما كانت البروتستانية في البدء إلا احتجاجاً على الغفرانات، ودعوى إصلاح الكنيسة والعبادة. ثم زعمت أن الدين يقوم على الفحص الحر. أي الفهم الخاص للكتاب المقدس، وعلى التجربة الشخصية بغير حاجة إلى سلطة تحدد معاني الكتاب.

★ ★ ★

وقد ظهرت مبادىء التنوير التي شكلتها الفلسفة الماسونية أصلاً، ثم حملت لواءها الفلسفة الجديدة في عدة عوامل:

(١) ـ التشكيك في أصول الأخلاق ومبادىء المعرفة[3].

(٢) ـ إذاعة الإلحاد.

(٣) ـ الدعوة إلى الدين الطبيعي (أي الدين القائم بالفعل بعقائده وطقوسه ومؤسساته وهيئاته).

(٤) ـ إنكار الميتافيزيقا (الغيب).

---

(١) يوسف كرم: تاريخ الفلسفة الحديثة بتصرف.

(٢) نفس المصدر.

(٣) نفس المصدر.

ولا ريب أن كل هذه المفاهيم واردة من قبل في الفلسفة اليهودية التي حلت محل دين موسى. وأبرزها مفهوم الإله الخاص: إله الحرب، وإنكار البعث والغيب.

غير أن عصر التنوير حاول أن يطرح مفهوماً لله (تبارك وتعالى جل شأنه عما يقولون) ليس جديداً، ولكنه منقول من فلسفات الوثنية والغنوصية والهلينية. وذلك ما أطلق عليه المذهب الإلهي: الذي يتصور الله سبحانه وليس له صلة بالكون بعد خلقه. وقد واجه القرآن الكريم من قبل هذا المذهب. وأكد رابطة الكون بالله في أكثر من موضع وآية منها قوله تعالى ﴿إن الله يمسك السموات والأرض أن تزولا ولئن زالتا إن أمسكهما من أحد من بعده﴾.

فالحق تبارك وتعالى يدير هذا الكون لحظة بعد لحظة، ويوماً بعد يوم. وهو الذي لا تأخذه سنة ولا نوم.

وفي ضوء حركة التنوير بدأت توضع أسس لتلمذة الحضارة الغربية، والفكر الغربي تحاول أن تنكر صلتها بالمسيحية الشرقية، وبالإسلام جميعاً، وتحاول أن ترد النهضة كلها أصلاً إلى الفكر اليوناني الوثني، وتصور في عداء شديد للمسيحية كيف أن الحضارة الرومانية ابتلعت المسيحية وامتصتها وتمثلتها، وأن هذا كان تحرراً لمنطق الغرب من روح النسك الآسيوية.

وكذلك تصور كيف استطاع الغربيون بنجاح شارل مارتل من انقاذ العقلية الغربية من النفوذ الإسلامي وأن التحرر الذي استطاعته اوروبا، والفكر الغربي. إنما كان عن طريق ابتعاث الوثنية الإغريقية [1].

* * *

---

(١) راجع اسماعيل أدهم أحمد ـ الرسالة م ١٩٣٨

ويحاول الكثيرون فرض هذا التصور. فيقول أحدهم: إن الأسس الفكرية الحقيقية في الغرب يجب أن تطلب «في فهم الرومانيين القدماء للحياة». وأن نسبة نتاج المدنية الغربية الحديثة إلى النصرانية كان خطأ تاريخياً عظيماً. وأن الروح الأوروبي ظل زمناً طويلاً يرزخ تحت عبء ديني يطوي في نفسه احتقار الطبيعة.

«ولقد ثار الفكر الأوروبي أكثر من مرة، ولكن الكنيسة كانت تقهره مرة بعد مرة. وان تاريخ العصور الوسطى مليء بهذا الكفاح المرير بين عبقرية أوروبية وبين روح الكنيسة».

ويؤكد هؤلاء المؤرخون التابعون لتيار التنوير على أن العقل الأوروبي حين تحرر من «عبودية الكنيسة» تخطى الحدود ووطد عزمه تدريجياً على العداء لكل شكل من أشكال السلطان الروحي على الإنسان. ومن ثنايا هذا الخوف الباطن ولئلا تعود تلك القوى التي تدّعي السلطان الروحي مرة ثانية إلى التغلب. أقامت نفسها زعيمة بكل ما هو ضد الدين. لقد رجعت أوروبا إلى إرثها الروماني.

ولذلك فإن الرقي هو أثر من آثار مقاومة أوروبا لكل مبدأ من مبادىء الكنيسة. وأن أهم الأسباب التي كانت بها مدنية أوروبا مناهضة للدين هي «ثورة الطبيعة الإنسانية على احتقار النصرانية للدنيا، وعلى كبت الرغبات الطبيعية، والجهود المشروعة للإنسان».

ويكاد الأمر أن يصل عند بعض الكتاب إلى تحميل المسيحية والكنيسة نتيجة ذلك التحول الخطير الذي وقع في أوروبا، والفكر الغربي النقيض إلى النقيض: من التشكك والزهد والقيود إلى التحرر والكشف والإباحية. وقد تم ذلك على مراحل طويلة متعددة.

ولم تكن المسيحية في الحقيقة مسؤولة عن ذلك بقدر ما كان رؤساء الدين

الذين حرفوه عن مفهومه الأصيل وأدخلوا إليه ذلك المزيج العجيب من أهواء البشرية، والفكر الوثني الهليني والغنوصي، حتى إذا ما استفاق العقل البشري بعد أن صدمه الإسلام بصيحته المدوية الى حرية الفكر الحقيقية، وإلى التماس البرهان، والى النظر في الكون.

كان هذا الاضطراب العنيف الذي واجهته أوروبا بالخطأ حيث كان في استطاعتها أن تلتمس الطريق الصحيح بالإسلام، ولكنها اندفعت بفعل عناصر القوى الضخمة المسيطرة عليها، وأوهمها دعاة عصر التنوير من يهود المشنا والتلمود إلى ردة عاصفة نحو الوثنية اليونانية التي كانت اليهودية قد حملتها كل فكرها وأهوائها.

كان هدف اليهودية التلمودية في دحر المسيحية والكنيسة ونفوذهما، ورد البشرية إلى الوثنية هو العامل الأول في ذلك الهجوم بالتطويق الذي وقعت فيه أوروبا في فخ حركة التنوير، وما تزال إلى اليوم مرحلة بعد مرحلة. فإذا كان الأوروبيون المسيحيون هم الذين حملوا لواء المنهج العلمي التجريبي الإسلامي، ودفعوه مرحلة بعد مرحلة. فإن اليهود التلموديين هم الذين سيطروا على تحريك هذه الحضارة في إطارها: إطار الربا والعنصرية، وصراع الأجيال والامم، وتمزيق الجبهات، وطرح الدعوات والفلسفات والمذاهب في مختلف مجالات السياسة والاجتماع والتربية وغيرها على النحو الذي يدفع البشرية كلها إلى أن تصل مرحلة التدمير والمواجهة بما يحقق لهم السيطرة العالمية التي يعملون لها منذ أقدم العصور.

# الفصل الثاني

## المفاهيم الماسونية
## ( ثمرة عصر التنوير )

انطلقت حركة التنوير التي قادها يهود التلمود من الفلسفة الماسونية السرية التي ظلت تتداولها المحافل، ولا يكشف عنها إلا للذين يصلون إلى أعلى درجاتها، والتي تتخلص أساساً في عبارة واحدة قالها اليهودي. « راكتشت » إن الماسونيين الأحرار هم أولئك الذين يبنون المملكة اليهودية العالمية. وقد ظل هذا السر خفياً على الناس عامة، وعن المتصدرين خاصة في الشرق، فكانوا يخدعون بما تحمله الفكرة الماسونية من مظاهر براقة تحت شعار كاذب مضلل هو (حرية وإخاء، ومساواة).

والماسونية هي الحركة الأولى لتطبيق (اليهودية التلمودية) حاملة لواء الجنس المختار بين الأمميين صاحب النبؤة في السيطرة على العالم والسيادة على الجوييم، وهي حركة أحكمت أساليبها السرية حتى تستطيع خداع السذج والبسطاء لينضموا تحت لوائها، ثم يقعوا فريسة لنفوذها الدموي الرهيب وهي بالرغم من ظاهرها البراق تحمل في تضاعيفها فلسفة مظلمة حاقدة تستهدف بها تشكيل طليعة أو نخبة تتصدر في كل الأقطار، ولم يكن الأمر في أساسه يهدف إلا إلى عمل خطير.

وكلمة الماسون أو الفرماسون، وتدلان على الجمعية السرية الماسونية مأخوذة من اللفظ Macone ومعناه البناؤون الأحرار. ولا شك أنه كان يهدف إلى الارتباط ببناء هيكل سليمان.

وقد أشارت بروتوكولات صهيون إلى الماسونية ودورها في البندين السابع والحادي عشر من البروتوكولات. وقد كان للماسونية دور ضخم حققت به

ثلاثة أعمال كبرى: الثورة الفرنسية والانقلاب العثماني والانقلاب الروسي. ثم توارت قليلاً حيث برزت الحركة الصهيونية.

ولا ريب أن العمل الخطير الذي تصدت له الماسونية كطليعة المخططات (اليهودية التلمودية) كان في حاجة إلى مؤامرة ضخمة لتحويل المجموعات الضخمة من معتقداتها الأساسية والأصيلة وإغراقها في مفاهيم جريئة لهدم القيم والفضائل الأخلاقية ومختلف العناصر الإيمانية، وذلك عن طريق طرح عقائد جديدة، والإغراء بالمال والجنس والتخويف بالقتل والاغتيال.

ولذلك فإن الحقيقة الأولى في الفلسفة الماسونية هي هدم الفضائل المسيحية والإسلامية وغيرها، وتقويض الأنظمة الإجتماعية، واتخاذ الإباحية كوسيلة للإستيلاء على أصحاب النفوذ. وفي عديد من نشرات ووثائق المحافل الماسونية المختلفة تتكشف هذه الحقيقة واضحة. ويتضح أن الغاية هي القضاء على كل اعتقاد ديني، وأن هذا يتناول كل الأديان على السواء. ومن عشرات النصوص التي أوردها الباحثون نجد الهدف واضحاً، والقصد صريحاً.

(١) - يقتضي على الماسون أن يقيموا نفوسهم فوق كل اعتقاد بالإله أياً كان.

(٢) - إذا قال الماسون بوجود الإله أرادوا به الطبيعة وقواها المادية، فهم يجعلون الله والإنسان كشيء واحد.

(٣) - كل شيء هو مادي، فالله والعالم ليسا إلا شيئاً واحداً.

(٤) - جميع الديانات خيالية، غير ثابتة، اخترعها ذوو المطامع.

(٥) - إن العلم هو الأساس الوحيد لكل معتقد.

(٦) - رفض أي عقيدة تقوم على أساس الوحي.

(٧) - إن الديانات خرافات.

(٨) - الماسونية مندوبة لسحق الرؤوس الثلاثة: الدين والسلطان

والعسكر. وتجعل العالم كله واحداً يصنع كل إنسان ما شاء كهمل الحيوانات والضواري في الغابات[١].

وقد صدرت هذه المخططات عن نفسية اليهود التي تقوم على الحقد والقسوة على الجنس البشري والرغبة في السيطرة على القدرات العالمية وفق منهج وحشي عنصري يستمد تحركه من تركيبهم النفسي.

ولا ريب أن هذه الأفكار هي جماع الفكر البشري القديم: من وثني وغنوصي وهليني وباطني، وأنها تضم وحدة الوجود وأساطير الأولين. والإلحاد والتعدد وكل التحديات التي واجهت الأديان المنزلة. فالفلسفة الماسونية هي عصارة المذاهب الفلسفية المادية والإباحية التي حاولت من بعد تشكيلها (بالاشتراك مع اليهودية التلمودية) والصهيونية في صياغة مذاهب هدامة متعددة منها: الصوفية، والبهائية، والروحية الحديثة.

وتكشفت الوثائق والمصادر الصحيحة عن الانتماء الصحيح للفلسفة الماسونية فيقول: (ز. فورستين[٢]). إن الطقوس الماسونية تظل مشتهاة لأن مبتدعيها قد اغترفوا من الأساطير والشعائر القديمة جميع بقايا الأديان المنقرضة، فأشركوا اليهودية ومصر واليونان والكلدان وبحثوا في النصوص القديمة ليبنوا بناءً غير متلاحم الأجزاء.

ويؤكد أندرسون أن للماسونية انتماءً واضحاً إلى زرادشت معلم المجوس الأكبر. ويؤكد هدف الفلسفة الماسونية المطروحة عن طريق المحافل نص أورده الدكتور متعب مناف[٣] حيث يقول: إن الماسونية عصابة دولية قصد

---

(١) هذه النصوص أوردها مع أسماء مراجعها: الأب لويس شيخو اليسوعي في كتابه (شيعة الفرماسون)

(٢) في كتابه هذه الماسونية

(٣) الواقع الفكري والمجتمع العربي.

منها إلى إماتة الشعور القومي والخلقي لدى أعضائها وإيقاعهم فريسة الخوف والطلاسم حتى يبقى كل منهم مشدوداً الى الجمعية، وعلى استعداد للتضحية بقيمه الدينية والخلقية والقومية في سبيل الأهداف التي تتطلبها رغبات هذه الطغمة.

وقد فسروا هذه المعميات بالشكل الذي ضرب كل القيم الدينية والقومية. وللتأكد من ضرب القيم لا بد من انتزاع كرامة بني الإنسان عن طريق إيقاعهم تحت عالم الخوف بجو رهيب يجمع بين الهياكل العظيمة ومناظر الموت.

إن كشف انتماء الماسونية إلى اليهودية أمر يكاد تجمع عليه كل المصادر من حيث إنها أداة من أدواتها. ومن أبرز الأدلة على ذلك الانتماء، هو أن مصطلحات الماسونية، وكلماتها وإشاراتها ورموزها وتعابيرها كلها تقريباً عبرية اللغة يهودية الدلالة، مما يقطع بأن لليهود اليد الطولى في تأسيسها.

ولا ريب أن الفلسفة الماسونية، كما وضعها دهاقين اليهودية التلمودية، إنما تستهدف نسف جميع المدنيات والحضارات، وإزالة الأديان السماوية لتحل محلها مفاهيم «التلمود».

# الفصل الثالث

## أصول الماسونية

## (١)

(أولاً) تحطيم العقيدة الدينية في نفوس معتنقيها. وذلك بالدعوة إلى عدم التفرقة بين دين ودين أو عقيدة وعقيدة. لأنها بذلك تنسف الدعائم الأساسية للاعتقاد في نفس صاحبها «لأنه ما دام قد اعتقد أنه لا فرق بين دين ودين آخر، حتى ولو كان في نظره باطلاً، فليس هناك ما يدعوه إلى الإعتزاز بدينه أو التمسك به [1]».

ومن هنا يبدو ذلك الاهتمام الواضح، والتركيز الدائم في الماسونية على التراث الوثني القديم وإحيائه وبعثه، وخاصة ما يتعلق بالعقائد المنحرفة عن الدين الحق: كالمجوسية والبرهمية والزردشتية وعبادة الحيوانات.

وهي من ناحية أخرى تحاول أن تجعل من كتب اليهودية المحرفة المضادة للدين السماوي الذي أنزل على موسى مصادر أساسية للفكر البشري مع إيحاءات متعددة تلقي في العقول ادعاء زائفاً بأن الدين من صنع البشر، وليس من وحي الله.

وقد كشفت وثائق كثيرة عن المحافل الماسونية والشرق الأعظم، وزعماء الماسونية، وفي مقدمتهم أستاذها الأكبر. «ويستهويت» وسائر قادتها أمثال: فولتير، ورينان، وكولفين، وروسو، ودلمبار، وبرودون. كشفت عن مفهوم الدين في عرف الماسونية وفي تعاليمها قوامها إنكار صحة الأديان والوحي

---

(١) دكتور أحمد الشرباصي: يسألونك.

والكتب المنزلة، وإثارة الحرب العوان على الأديان وأتباعها، وإقرار الدين الجديد الذي يراه الماسون.

فالماسون أساساً يعتبرون هذه الأديان كلها خرافة متساوية، ويعلنون حرية الأديان وإله العقل، وحرية البحث بانتقاد عقائد الدين، والقول بأن العلم هو الأساس الوحيد لكل معتقد، فهم يرفضون كل عقيدة بنيت على أساس الوحي (١).

وهذه جملة من الوثائق والتصريحات والنصوص تصور هذا المعنى.

١ ـ إننا إذا سمحنا ليهودي أو مسلم أو كاثوليكي أو بروتستانتي بالدخول في أحد هياكل الماسونية، فإنما يتم ذلك على شرط أن الداخل يتجرد من أضاليله السابقة، ويجحد خرافاته وأوهامه التي خدع بها شبابه، فيصير رجلاً جديداً، فلو بقي على ما كان عليه لا يستفيد البتة في محافلنا الماسونية.

٢ ـ لا توجد إلا ديانة واحدة عمومية تحتوي قمتها كل الديانات الخصوصية في العالم. فتلك هي الديانة التي نعتقدها. وإليها نضم أولئك الذين يتمذهبون بمذاهب خصوصية. وهي الديانة التي تعلن بها الدول إذا نادت بحرية الأديان (٢)

٣ ـ لا نريد إلا أمراً واحداً هو تقويض أركان الديانة الكاثوليكية. فإنا نحن الماسون لا يمكننا أن نكف عن الجهاد، وما دامت الكثلكة حية، فإن الحرب بيننا وبينها حرب دموية لا مناص من ظفرها او ظفرنا، ولا بد من موتها أو موتنا (٣).

---

(١) م ١٣ ـ مجلة المشرق. ص ٥٤٣.

(٢) كولفين في محفل ممفيس في لندن ـ م ١٢ المشرق ص ٩٣٧

(٣) النثرة النشرة الرسمية للشرق الأعظم ـ تموز ١٨٥٦ ـ نفس المصدر.

## (٢)

أما مفهوم الإله في الفلسفة الماسونية فهو لا يستقر على مذهب واحد. ولكنه يجمع بين أغلب ما قالت به الوثنية، والمجوسية والفلسفات القديمة.

يقول برودون: « إذا قال الماسون بوجود الإله أرادوا به الطبيعة وقواها المادية، أو جعلوا الإنسان والله كشيء واحد [١].

ويقول ويستهويت: منشىء الماسونية: كل شيء مادي. فالله والعالم ليسا إلا شيئاً واحداً، وجميع الديانات خيالية غير ثابتة اخترعها الرجال ذوو المطامع.

وتصف الماسونية الله جل جلاله بأنه مهندس الكون الأعظم: وقد اختاروا له إسماً لم يتسمّ به، ولا يوجد بين أسمائه الحسنى العديدة. ومعنى مهندس الكون الأعظم في عرف الماسونية: أنه لم يخلق كل الكائنات من العدم، وإنما هو مهندسها فقط ومنظمها.

ويذهب بعض الماسون إلى تأليه الشمس ـ يقول رينان أحد كبار الماسون في مجلة العالمين: ليس في العالم عبادة موافقة للعقل السليم، ولمبادىء العالم كعبادة الشمس.

ويقول آخر: إن الماسونية هيكل عظيم كهيكل روما القديم (البانثيون) يحفل بجميع الآلهة، ويتألف من مجموعهم كلهم، فإله الماسون هو إله الصين، والهند، وبرابرة إفريقيا.

ويذهب بعضهم إلى أن إله الماسون هو (أدونيرام) الذي هو أوزيريس إله المصريين. أو ميترا إله الفرس، أو باخوس إله اليونان، أو أحد الآلهة المتعددين الذين كانوا في سالف الزمان يمثلون الشمس [٢].

---

(١) نشرة الماسون ١٥ / اكتوبر / ١٨٦٦ نقلا عن المشرق. م ١٢.
(٢) مجلة المشرق م ١٢.

ويقول (فراندفور) كل اعتقاد ديني أساسه ما وراء الطبيعة (كالإله غير المنظور) إنما هو ضعف في عقل الإنسان. ويقول آخر: علينا أن نرقى فوق طبقات كل الأديان، بل ونتحرر أيضاً من كل اعتقاد بوجود إله أيّاً كان. لم يوجد أحد يؤمن بالله، وبخلود النفس غير البله والحمقى. إن تصور الله سبحانه وتعالى هو ينبوع وركن كل استبداد وكل ظلم. وقولهم: إذا ذكرت إلهاً، فإنما هو الطبيعة ومجموع الكائنات.

**(ثانياً)**: التركيز على الأجناس والعناصر بهدف إعلاء الجنس اليهودي الذي تحيطه دعاية مضللة بأنه شعب الله المختار. وإن دعواها في معارضة التفريق بين الأجناس والألوان والأديان إنما تريد أن تهدم كل الحواجز التي كانت بين اليهود وبين السيطرة على المجتمعات عن طريق الانتماء الديني او السلالي.

ومن هنا كانت دعوتها إلى هدم الوحدات الكبرى في أوروبا وإعلاء القوميات الضيقة، وإثارة نزعات الحقد والكراهة بينها مما يمكنها من السيطرة والتسلط.

وفي هذا المجال تركز الماسونية على محو كل امتياز مصدره الدين أو الوطن:

يقول كلافل: إن مسعى الماسونية العظيم بأن تمحو بين البشر كل تمييز يفرق بينهم كشرف الأصل أو الأديان والمذاهب والأوطان.

وكذلك الدعوة إلى العالمية للقضاء على الدعوات الوطنية. ويقول زعماء الماسونية في عشرات النصوص: ان الوطن خيال باطل، وكذب محض، وأن الوطن هو كل ما يغتصبنا وما يجب علينا بغضه كما يقولون: «الرايات الوطنية هي آية الظلم والإستبداد، فيجب ان تلقى في المزابل». كما يهاجمون الجندية وشرف العسكرية.

٣ ـ التركيز على الإنحلال الروحي، والفساد الخلقي، وذلك بتشويه القيم الخلقية والمقدسات الدينية، وذلك باستحياء الفكر الوثني القديم، وبعثه، والانتفاع بالمذاهب الهدامة، ووضعها في ثوب جديد براق وزائف.

وذلك بإرضاء الغرائز واستشارة الشهوات عن طريق الإقناع بالتحرر من الأديان والقيم والضوابط الخلقية والعامة، حتى يكون الإنسان مهيـأ للخضوع لسلطان الهدف الغامض، وذلك بالسرقة والقتل والتجسس وغيرها.

ومن ذلك إباحة الربا والغش في المعاملات التجارية، والتزوير في العقود، والاغتصاب، وابتزاز الأموال. ومن أبرز أهداف الماسونية محاربة كل شيء اسمه «الأخلاق».

ويشير إلى ذلك مؤلف كتـاب الماسونية وأسرارها (١) فيقول: إن الماسونية تعتبر الإنسان كبهيمة عجماء خالية من النطق فهو على مذهبها آلة صماء بلا نفس عاقلة. وان غاية الماسونية القصوى أن تسوق البشر إلى فك كل قيد يضبط شهواتهم، ليخلعوا كل سلطة، وينبـذوا كـل ديـن، فيعيشـوا عيش الحيوانات غير الناطقة، وينقادوا إلى أوامر زعماء الماسونية انقياداً أعمى.

ويقول ويستهويت مؤسس الماسونية: إن أقصى غاية الماسونية أن تجعل الناس همجاً وهملاً يعيشون كالحيوانات في البراري والقفار. وتركز الماسونية على «خراب الألفة البشرية، ومحاربة الأسرة والهجوم على رب العائلة»:

ويقول أحد زعمائهم: «إن الأمر الجوهري في استمالة الناس إلى جماعتنا إنما هو إفراد الرجل عن عائلته، وإفساد أخلاقه، وترغيبه في العيشة الحرة». ويقول: إن الخلاعة باب واسع لسن الزواج المدني، ويبرر فولتير في المجمع

---

(١) راجع م ١٢ من المشرق سنة ١٩٠٩.

الفلسفي الزنا. ويقول بأنه ليس بإثم في شريعة الطبيعة. ويحرض على مشاركة الرجال في النساء.

أما المرأة فقد أفردت لها الماسونية مخططا خطيرا: يهدف إلى اجتذابها واخراجها من الدين والأسرة، ودفعها إلى المراقص والإجتماعات المختلفة، وذلك بفتح المحافل الأنثوية: تقول نشراتهم: «إن النساء من أقوى العوامل للفوز ونسف الدين ونشر الفساد».

«ولسنا بمنتصرين على الخرافات «الدين» إلا يوم تشاركنا فيها المرأة بالعمل» «والمرأة رسول لمبادئنا الحرة يخلصها من نفوذ الكهنوت» ومن تعاليم فلسفتهم: دفع الأبناء إلى نبذ السلطة الوالدية، وقد كتب ديدرو في هذا في الأنسكلوبيديا داعياً إلى إلغاء خضوع البنين لوالديهم. وقال دالمر: ليست معرفة الجميل واجباً لازماً على البنين لوالديهم، وليست السلطة الأبوية تدوم.

ودعا فولتير في قاموسه الفلسفي «عماد الفكر الماسوني» إلى الكذب وقال: «لا يكون الكذب رذيلة إلا إذا أضر بصاحبه. أما إذا أفاده فهو فضيلة».

وقد عمد الماسون إلى توفير أسباب الفساد: واستطاعوا عن طريق نفوذهم نفي اسم الله وخلود الروح من كتب التعليم في المدارس، كما عمدوا إلى نشر عديد من روايات المجون والصور الخلاعية والأغاني المكشوفة، وهم أصحاب القول بأن العفة المطلقة مرذولة، لأنها ضد ميل الطبيعة، وهم الذين حملوا لواء الدعوة إلى جعل المدارس علمانية، وحرضوا بشدة على إخراج الأبناء من رعاية الآباء [1].

وتقول النشرة الماسونية: إن تهذيب الأحداث حجر زاوية بنائنا الحر، فيقتضي أن ننفي من لائحته كل تعليم ديني، وأن لا يهتم التعليم بالديانة، وأن

---

(١) نشرة الماسونية ١٨٦٦ م ١٣ ص ٧٥٨ المشرق.

ينفي كل تعليم ديني.

وقد حققوا ذلك في المدارس الجديدة من حيث إلغاء مادة الدين فيها، ونشر الفساد والخلاعة، والإلحاح الشديد على اقتلاع العفة من عقول الفتيات [1].

وكانت أهم دعواتهم: الدعوة إلى الزواج المدني العقيم الذي يهدف إلى استنزاف قوة الأمة. ومن ذلك دعوتهم إلى تحديد النسل ومنعه في البلاد التي يريدون السيطرة فيها.

وقال دالمار: إن الماسونية بنشرها أسباب الفساد والخلاعة قد أضرت بفرنسا أكثر من الحرب السبعينية، وأفقدتها عدداً وافراً من الرجال، هذا بالإضافة إلى التعليم اللاديني الذي يفسد قلوب الشباب ويقوض كل مقومات الخلق والفضيلة.

وبالاضافة إلى ذلك أذاعوا المضاربات والمقامرة وألعاب البورصة والقتل والسرقة والانتحار والخرافات الباطلة [2].

٤ ـ التركيز على ما سمي بالفكر الحر وإعلاء شأن التحرر من قيود القيم والعقائد، وإباحة النظر في الأديان ونقدها، ونقد النصوص المقدسة، واعتبارها أدباً وفناً [3]. وذلك باسم حرية البحث، ويقولون: إن العلم هو الأساس الوحيد لكل معتقد ويرفضون كل عقيدة تنبت على أساس الوحي.

وما زلنا نذكر كيف قال طه حسين لتلاميذه عندما أخرج من الجامعة

---

(١) م ١٣ ـ المشرق

(٢) راجع م ١٢ و١٣ سنة ١٩٠٩ وسنة ١٩١٠ من مجلة المشرق.

(٣) وقد حمل لواء ذلك عندهم الدكتور طه حسين في مصر منذ عام ١٩٢٦ عند ما دعا إلى نقد القرآن الكريم والنظر فيه كأثر أدبي.

[ عهد بيننا أن يكون العلم وحده هو رائدنا ] وقد سار في هذا الطريق أمين الريحاني وكثيرون.

وكانت دعوتهم في الأدب إلى الأدب العلماني أي الخالي من كل دين المحرر من الاعتقاد بوجود الله، والذي يقوم على اعتبار أن الإنسان سيد نفسه.

ويقوم الفكر الحر على المادية والإلحاد: يقول الأب لويس شيخو اليسوعي: إن أول ضربة سعت الماسونية بأن توقعها بالهيئة الاجتماعية هي نشرها المبادىء الفاسدة بخصوص أصل العمران البشري. وتجعل الماسونية «المادة» أبدية تترقى من تلقاء نفسها بمرور الدهور كآلة عمياء إلى أن يتمخض جمادها، فيلد النبات ويتحول النبات إلى حيوان، ويتحول الحيوان إنساناً همجياً ذا عقل ضعيف يقوى بالتجربة والاحتكاك [1].

٥ ـ التركيز على الشباب، ومحاولة تطويقه بالفكر الوثني البشري المنحرف. حتى ليقول أحدهم: إن حرية الآباء لا تتفق مع مصالحنا وغاياتنا أبداً. يجب تربية الأطفال وفق منهاج مقرر من قبل.

ومن هنا فإن السيطرة على الشباب من أولى غايات الماسونية وأهدافها. ومن ذلك قولهم: دعوا الكهول والشيوخ جانبا وتفرغوا للشباب. بل تفرغوا حتى للأطفال.

لا بد من تربية الأطفال بعيداً عن الدين. وان الماسونية تستعين بالفرق والأندية الرياضية، والمجمعات الموسيقية، والرحلات المشتركة لاستدامة نفوذها على أوساط الشبيبة

ومما يتصل بهذا دعواهم المحمومة التي يحملها رجالهم في كل مكان إلى

---

(١) ص ٦٧٨ م ١٣ المشرق

صراع الأجيال، وإلى القول بأن الشباب فوق التوجيه وانه جيل لا أساتذة له، وأن وصاية الآباء قاسية. وأن الأب هو أسوأ شخص في الأسرة، وغير ذلك مما رتبته الماسونية لتلاميذ الأسرة، وإقامة الصراع بين الأجيال القديمة والجديدة.

ومن دعواهم إلى تمزيق الروابط بين الأسر والمجتمعات ما يقسم به المتنورون، وهم طلائع الماسونية، على قطع الروابط التي تجمع بين الماسوني، وبين أي كان من البشر كالأب والأم والاخوة والزوج والأقارب والرؤساء.

٦ ـ تدمير القوى البشرية، ومعنويات الأمم واستذلالها واستعبادها.

★ ★ ★

من خلال هذه النصوص المستقاة من المصادر الماسونية الأصيلة يثبت بوضوح أن كل الفلسفات المادية الحديثة، إنما قد استمدت أصولها من الفلسفة الماسونية أصلا، وفي مقدمة ذلك الفرويدية، والوجودية، والمادية، والتفسير المادي للتاريخ، ونظريات دوركايم وسارتر، وكل ما تقدمه المدارس الاجتماعية والفلسفة، والصحافة والثقافة في بلادنا.

وقد لخص أحد الباحثين أثر الماسونية في الحضارة الأوروبية فقال: دلت التجارب الاقتصادية والاجتماعية على أن البلاد التي ازدهر فيها الربا فقدت التعاطف والتراحم، وحلت القسوة منها محل الحنان والعدل.

وقد صبغت الحضارة الأوروبية بألوان البنفسج اليهودية، ففشت فيها الأطماع المادية حتى صاروا ولا همّ لهم إلا جمع المال.

وأشار إلى أبرز ما تعنى به اليهودية التلمودية: إقامة بوتقة تفكك الأخلاق بتسهيل سبل الشهوات وأشرطة الصور المتحركة، والحث على الجرائم

وعلى الشهوات، واختراع الرقص الخليع بأنواعه، ومسابقات الجمال، واختيار ملكات المحاسن في الغرب والشرق، وعبادة المادة في كل شيء، ونشر صحف المجون والفسوق مثل جاذبية الجنس، ونشر أشد الكتب المحظورة على أذهان الشبيبة، ونشر الصحف الكاشفة عن القناع عن أسرار الجرائم تحت ستار التحقيق الجنائي، وما هي إلا تحريض خفي لاقترافها بطريقة الإيحاء التي يجيد اليهود توجيهها نحو الجماعات.

# الفصل الرابع

## الثورة الفرنسية

كانت الثورة الفرنسية هي أول ثمار الفلسفة الماسونية والتخطيط الماسوني. وكانت مقدمة للثورة العالمية التي عمت أوروبا جميعا. واستهدفت في الأساس تحقيق غاية كبرى هي تحطيم الجدار الذي يفصل المسيحيين عن اليهود في أوروبا، وتقليص نفوذ الكنيسة، وتحطيم المقررات التي فرضتها على عزلة اليهود في إحياء الجيتو، وإقامة الدولة العلمانية التي ينفصل فيها الدين عن المجتمع، وإلغاء المدارس الدينية، وإقامة المدارس العلمانية كمقدمة لاستيعاب أوروبا والسيطرة عليها سيطرة كاملة.

وقد اختارت الماسونية فرنسا بالذات لإقامة أول حركة باعتبارها حصن الكاثوليكية الأكبر. وقد أشار أحد دهاقين الماسونية إلى هذا العمل فقال: إن الثورة الفرنسية ما هي إلا وليدة الماسونية.

★ ★ ★

وقد تكشفت في السنوات الأخيرة حقائق كثيرة تؤكد أن الثورة الفرنسية في مضمونها ومفاهيمها للعلوم قامت على أساس الفلسفة الماسونية، فضلا عن دور المحافل الماسونية البارز في تنفيذها.

١ ـ تؤكد الكاتبة نستاويستر في كتابها (لويس السادس عشر وماري انطوانيت) أن الثورة الفرنسية ترجع إلى جهود الجمعيات السرية الخفية. ولا سيما محافل البناء الحر (الماسونية) وأن هذه الهيئات السرية قد لعبت من وراء الستار دوراً عظيماً لإضرام نارها.

وترى الكاتبة أن المساعي الخفية التي قامت بها الجمعيات السرية وراء الستار كانت كالأسباب الاقتصادية والاجتماعية والسياسية عاملاً خطيراً في نشوب الثورة الفرنسية.

٢ - وتؤكد مصادر متعددة أن الشعب الفرنسي سار خلال الثورة في الطريق الذي رسمته له الماسونية لخدمة اليهودية العالمية. فقد يسر اليهود للفرنسيين الانغماس في حياة الترف والفجور، وجعلوا باريس مدينة الأزياء وأصناف الخمور وملاهي الدعارة والانحلال والإباحة.

٣ - ويؤكد هذا المعنى الكونت دي طوجفتشي **de Tougwitz** أحد أعيان الماسونية الألمانية في مقال كتبه عام ١٨٨٢ حين يقول: [١]

وقد تأكدت وعرفت حق المعرفة أن الاعمال الفظيعة التي جرت أيام الملك لويس السادس عشر، انما كانت نتيجة اعمال المحافل الماسونية.

ولما جرت سيول الدماء بعد ذلك في كل أنحاء فرنسا حتى صارت أرضها أشبه بمستنقع دم صرح رئيس الماسونية الألمانية في خطاب أملاه ١٧٩٤ مهنئاً فرنسا لسبقها بقية الأمم على طريق الثورات وقال إن جماعتنا الماسونية قد أضرمت في الشعوب الأوروبية نار الفتن. فهيهات أن يخبو لظاها قبل أجيال متعددة. وكان من نتيجة ذلك الشرائع الجديدة التي أنتشرت في فرنسا منذ ١٨٨٠ ضد الدين والكنيسة، ونفي الرهبان وإبطال مدارسهم، وفصل الكنيسة عن الحكومة. كل ذلك قد سبقت الماسونية وقررته في محافلها السرية، ثم أمرت النواب الماسون بأن يؤيدوه في تصويتهم بعد أن التجأت إلى كل الدسائس والمكائد.

وقد قال لويس شيخو في كتابه السر المصون في شيعة الفرمسون ما كانت

---

(١) م١٣ المشرق - لويس شيخو

الثورة الفرنسية غير لهيب تلك النار الآكلة التي أججها الماسون في محافلهم، ثم أضرموها في أنحاء أوروبا حتى التهمت أقاصي البلاد.

٤ - ويقول القائد التركي جواد رفعت في كتابه: الخطر المحيط بالإسلام: كان اليهود من وراء الثورة الفرنسية التي جاءت بالشعار الزائف: (حرية - مساواة - إخاء) ذلك الشعار الذي اخترعته الماسونية اليهودية لتخدع به العالم، وتقضي على مقومات بقاء الدول، وتتحكم في مصائرها.

في العهد الذي قامت به الثورة الفرنسية ١٧٨٩ كان حكام الدول الأوروبية وقادتها بما في ذلك روسيا وبولندا يتبادلون أنظمة التعليم العلماني، وأفكار الإصلاح التي روج لها اليهود.

وحين قامت الثورة كان المحفل الماسوني الأكبر في باريس مركزاً لتجمع قادة الثورة. وقد وضعت القوانين والأنظمة للثورة الفرنسية في ذلك المحفل.

وتعترف دائرة المعارف الماسونية أنه منذ القرن ١٦ والبناؤون الأحرار في مقدمة القائمين بحركات اجتماعية سليمة كانت أو عنيفة قلبت الأوضاع القديمة، ووضعت الأسس الديمقراطية الحديثة، وكانت الثورة الفرنسية في مقدمة هذه الحركات الإصلاحية القوية العنيفة.

وتضيف دائرة المعارف الماسونية إلى اعترافها. قال (لامرتين) أن اعتقادي ثابت بأن الماسونية أخرجت الأفكار العالية التي تأسست عليها الثورات الكبرى سنوات ١٧٨٩/ ١٨٣٠/ ١٨٤٨.

وقال المؤرخ السياسي الاقتصادي لويس ربلان بأن الماسونية كانت معملا للثورة. وكان أثرها فيها أعظم من أثر موسوعة الأنسكلوبيديا.

وحقا قال فقد مكثت الماسونية نحو نصف قرن تعد محافلها أفكار الشعب الفرنسي للقيام بثورته الكبرى، ولا غرابة في الأمر فالماسونية قد اتخذت لها

شعاراً كلمات ثلاث: (حرية ـ إخاء ـ مساواة). «اتخذتها قبل أن تتخذها الثورة الفرنسية شعاراً».

وتقول دائرة المعارف: حين اندلعت الثورة الفرنسية كان وجهها يهودياً توراتياً تلمودياً. إذ لم يعرف التاريخ كالغوغاء الذين نظموا وتآمروا وثاروا ضد كل طبقة من الناس، وكانت غايتهم تدمير النظام ومقوماته من الملك إلى النبلاء ورجال الدين، وطمس القوانين، وتغيير العملة، وعلم البلاد، والتقويم الرسمي.

ولوحظ أن الثورة لم يقم بها فرنسيون لحماية فرنسا، وخيرها. بل قام بها أجانب يستترون وراء قوة سرية ترمي إلى هدم كل شيء في فرنسا.

ولم يكن أولئك الأجانب سوى اليهود الذين خططوا للثورة، ومهدوا لها بخلق فراغ كبير بين الأسر الحاكمة وبين الشعب. ثم بإثقال كاهل البلاد بالديون اليهودية، فظهر الملك الحاكم أمام شعبه مبذراً أنانياً طاغياً. وسرعان ما شرع اليهود يزيفون التاريخ، ويصورون الثورة الفرنسية بذلك العمل التاريخي الذي خدم الإنسانية، وأعطى وثيقة حقوق الإنسان، وهي لعمري فرية يهودية انطلت على ملايين البشر الذين انخدعوا بالأكاذيب اليهودية كما انخدعوا بالتاريخ المزيف الذي كتبه اليهود. نقول «وما تزال فرنسا في إطار التلمودية تحتفل بهذه الأكذوبة، ولا تنكشف لها أبعادها».

فالثورة الفرنسية غدت في حقيقتها من أسباب شقاء العالم، وإذلال الشعوب وتسخيرها لخدمة اليهودية العالمية التي خططت للثورة ومولتها ونفذتها، وجنت أرباحها، ويكفي أن نذكر الحقيقة المرة، وهي أن فرنسا منذ ثورتها اليهودية الماسونية ١٧٩٨ قد تحولت تدريجياً إلى مزرعة يهودية بمالها وثقافتها وعلمها وسياستها واقتصادها.

## الثورة العالمية

وكانت الثورة الفرنسية مقدمة للثورة العالمية في كل أنحاء أوروبا. حيث كانت الماسونية قد استهدفت تغيير الأسس الفكرية وفق فلسفتها التي تبثها تمهيداً لتغيير الحكومات المسيحية الأوروبية، وإقامة حكومات علمانية لا دينية مكانها. ويعزى إلى الماسونية أغلب الثورات الأوروبية والحروب المختلفة منذ حرب السبعين الألمانية والفرنسية إلى الانقلاب العثماني إلى الحرب الكبرى الأولى إلى ثورة الانقلاب الروسي إلى الحرب العظمى الثانية. يقول الأستاذ محمد عبدالله عنان: إن الثورة الفرنسية التي هي وثبة من أعظم وثبات الهدم في العصر الحديث ترجع إلى نشاط هذه القوات الخفية ومهارتها في استغلال سخط الجماعات أكثر مما ترجع إلى الأسباب والحوادث المادية التي ينسب انفجارها إليها عادة.

وقال: إن اليعقوبيين أعظم دعاة الهدم في الثورة الفرنسية كانوا ينتمون إلى جمعيات سرية كانت تعمل في الخفاء لسحق الملكية الفرنسية.

والثورة الفرنسية أبادت نظم الإقطاع، وحطمت الملكية، وسحقت سلطان الكنيسة: هذه الروح الهادمة تجلت في الثورة الروسية.

ثم يقول: يقولون ان الثورة العالمية والخطر اليهودي اسمان لمسمى واحد، وان دعاة الثورة العالمية هم دعاة السيادة اليهودية العالمية، وان الفكرة اليهودية القديمة في سحق المدنية الحاضرة هي التي تحكم وراء الثورة العالمية. وأكد الباحث «كون اليهودية» تقصد بالهدم والمحو كل النظم الحاضرة، وتقصد بالأخص إلى هدم التعاليم الدينية والأخلاقية نصرانية كانت أو إسلامية، وقال: إن هذا الأمر لا ريب فيه [1].

---

(١) السياسة الأسبوعية ١ مايو ١٩٢٦.

## خلاصة

ما نريد أن نصل إليه أن الفلسفة الماسونية هي جماع الفكر البشري القديم، انبعثت مرة أخرى بعد الإسلام في قوة وأعادت تشكيل نفسها بأسلوب جديد، ووفق روح العصر، وأخذت تتحرك من جديد إلى مثل الغايات التي تحركت إليها القوى الخفية، والدعوات الباطنية، ودعوات المجوسية والمزدكية والمانوية قبل الإسلام وبعده.

وقد حققت هذه الفلسفة غايتها، واستطاعت عن طريق القوى التي تساندها أن تسيطر فعلا على الفكر الغربي (الأوروبي ثم العالمي كله) وأن تحوله من الاتجاه الذي سار عليه في عصر النهضة، ومن خلال المعطيات التي قدمتها الحضارة الإسلامية والفكر الإسلامي.

وان عصر التنوير كان مقدمة لسيطرة الفلسفة الماسونية واستيعابها للفكر الغربي وتطويقه واحتوائه على مراحل متصلة. ظل فيها الصراع قائماً بين الفكر الغربي المرتبط بالمسيحية أو بالدين على وجه العموم، وهو ما أطلق عليه من بعد الفلسفة المثالية، وبين الفكر الوثني الهليني الغنوصي الذي استمد إطاره وهدفه من اليهودية التلمودية وعمل لحسابها. وهو ما أطلق عليه الفلسفة المادية.

وقد كانت أهداف اليهودية العالمية واضحة وراء هذا التحول على النحو الذي تحقق من بعد في السيطرة الكاملة على جميع فروع الفلسفة، والسيطرة على الفكر البشري كله، ومحاولة دفعه حثيثاً للسيطرة على الفكر الإنساني الذي جاءت به الأديان المنزلة، والفكر القرآني.

# الفصل الخامس

## المفاهيم الصهيونية

### (١)

لا ريب أن الفكر الصهيوني مستمد من فكرة الصهيونية ذاتها، محاولاً إقرارها. والدعوة إليها، والدفاع عنها، واستخدام كل أساليب البراعة في سبيل الإقناع بها، وكسر العقبات التي تقف أمام تحقيقها.

وتقوم الفكرة الصهيونية على « نبوءة » وليست على حقيقة تاريخية. وهذه النبوءة إن صحت فهي بالمفهوم الإنساني والتاريخي، ومن منطلق الأديان والأمم قد تحققت فعلاً في أبناء إبراهيم [ وإسماعيل منهم ]. هذه النبوءة هي قيام الدولة الموعودة لإبراهيم وأبنائه، وهي دولة توحيد الله الخالق، وقد قامت فعلا من خلال الأديان التي حملها ابناؤه وأحفاده فانتشر دين المسيح عيسى بن مريم، حتى عبر البحر المتوسط إلى الغرب. وانتشر دين الإسلام، فأقام دولة بين الصين وفرنسا.

غير أن اليهودية التلمودية، من خلال تاريخها كله ترفض المسيحية كجزء من ميراث إبراهيم كما ترفض الإسلام، ولا ترى في التوراة إلا رسالة أمة خاصة: هي شعب الله المختار، ولا ترى في السيد المسيحِ مسيحَ اليهود، بل هي تنتظر مسيحاً آخر، ولا ترى إسماعيل جد العرب والمسلمين جزءاً من نبـؤة إبراهيم عليه السلام، وتقيم مفهوماً تاريخياً خاصاً يعزل مجرى التاريخ عن منبعه، ويحاول أن يشكل تحديا خطيراً لكل القيم والمقررات والحقائق التي لا سبيل إلى تجاوزها أو إنكارها. فاليهود ـ استمداداً من مفاهيمهم الموروثة

الخاصة ـ التي زيفوا بها التوراة المنزلة، وأقاموا بها دعوة التلمود قد رفضوا رفضاً تاماً منطلق التاريخ الممتد بالمسيحية، ثم بالإسلام وبالتاريخ الذي عرفته البشرية، وشادوا من خلال فلسفتهم اليهودية، والماسونية، ثم الصهيونية تاريخاً خاصاً يريدون فرضه على الفكر البشري كله، وعلى فكر الأمم، ومناهجها وآدابها. ولا ريب أن في هذا رفضاً لحركة التاريخ الانساني منذ ما قبل المسيح إلى الآن على مدى ألفي سنة، وللتطورات الهائلة التي حدثت في العقليات والنفسيات والعلوم والحضارات، وقربت ما بين الأجناس والألوان والأفكار.

ومن هنا تقوم الصهيونية على تزييف التاريخ في جميع مصادره، ودوائر معارفه، وكتبه لتصور فلسطين، وبيت المقدس وكأنما هي أرض يهودية خالصة، وكأنما تاريخ العرب قبل اليهود، وتاريخ العرب والمسيحية والإسلام بعد اليهود لم يكن شيئاً حقيقياً. وان أرضاً استولى اليهود عليها بالغزو والاحتلال، وأقاموا عليها دولة لم تمتد أكثر من سبعين عاماً. وخرجوا منها منذ عام ٧٠ ميلادية، وحتى اليوم. يراد أن يقال إنها قد ظلت يهودية، أو ظلت إرثاً يحق لهم أن يعودوا إليه بعد ثمانمائة وألف عام تحت اسم مضلل هو «الحق التاريخي». فالفكر الصهيوني يقوم أساساً على محاولة تغيير التاريخ كله وتحريفه[١] في حركة واسعة ضخمة والتشكيك في المسيحية، ثم محاولة إفساد الأمم وتدميرها أخلاقياً حتى تستسلم وتخضع لتحقيق هذه النبوءة: نبوءة إقامة الدولة الكبرى.

وليس الفلسفة الصهيونية في حاجة إلى استقصاء كثير. فإن البروتوكولات التي كتبها اليهود قد كشفت عن ذلك في وضوح، وحددت أبعاد الأيدلوجية الفكرية في أدق تفاصيلها.

---

(١) عبد المنعم خلاف: بحثه عن الصهيونية.

وإذا كانت الماسونية هي الواجهة السرية العالمية للحركة اليهودية التلمودية منذ ظهرت حتى حققت أخطر نتائجها في أوروبا بالثورة الفرنسية، وإسقاط الحكومات العلمانية، والقضاء على نفوذ الكنيسة مما أتاح لليهود القدرة للخروج من الجيتو، والسيطرة على الحياة الاجتماعية والثقافية والأدبية في أوروبا. فإن الحركة الصهيونية جاءت لتكون منطلقاً جديداً في العلن دون السر إلى مرحلة جديدة في السيطرة، وتزييف الفكر الغربي انطلاقاً من نفس المؤثرات التي وضعها اليهود في العهد القديم، والمشنا، والجمار، والتلمود. وهي التي صيغت في الفلسفة الماسونية، ثم تبلورت من جديد في البروتوكولات.

وقد كتبت هذه البروتوكولات عام ١٨٩٧ ـ وترجمت ونشرت في العالم كله سنة ١٩١٠ ـ ولم يطلع عليها العرب والمسلمون قبل عام ١٩٥٠.

ومن ذلك التاريخ استطاعت اليهودية تحقيق خطوات ضخمة على طريق هدفها الكبير في الانقلاب العثماني ١٩٠٨، والثورة الروسية ١٩١٧، وقيام إسرائيل ١٩٤٨.

## (٢)

إن تزييف الحقيقة التاريخية التي جاء بها اليهود في التوراة التلمودية اعتمد على مفهوم «العنصرية» التي هي سمة (اليهودية العالمية) وعليها قام التحريف الأساسي في النصوص. ومن أجلها جرت المحاولات المتعددة لتزييف التاريخ، وفرض مفهوم يختلف عن الحقيقة والواقع. وقد جاء القرآن الكريم بالمفهوم الأصيل القائم على الحق.

أراد اليهود إقامة مفهوم شعب مختار له نبوة خاصة بالسيطرة، وإقامة الدولة العالمية من خلال إعلاء للجنس والعنصر. بينما أقام القرآن الكريم مفهوم الأمة الحنيفية التي بدأت بملة إبراهيم وامتدت في أبنائه على نطاق

العراق والشام والجزيرة العربية ومصر، وتشكلت في دين موسى، ودين عيسى، ودين محمد. وفي أبناء إبراهيم: إسماعيل جد العرب والمسلمين، وإسحاق جد اليهود والنصارى.

ومن أجل تحريف هذا النص، وإقامة المفهوم القائم على العنصرية في مواجهة المفهوم القائم على الحنيفية العربية امتدت حركة اليهود التلمودية لتعارض مجرى التاريخ، وتحاول أن تفسر منطلقه الطبيعي. وذلك بفرض العنصرية في مواجهة العروبة الحنيفية.

« ويتمثل الوجه الحقيقي للصهيونية في التعصب العنصري، وفرض نظرية الجنس المتفوق على جميع الشعوب، واستغلال أساليب الخداع والمبالغة ».

وقد أشار إلى هذا المعنى الدكتور الفاروقي حين أشار إلى أن « خلاصة ما تقوله التوراة هي العنصرية. وقد ركزت التوراة هذه العنصرية في اصطفاء يهوه لإبراهيم اصطفاء بدون سبب.

ومن ذلك ما تحاول به أيدي الصهيونيين من المؤرخين فرضه على دوائر المعارف العالمية من إنكار رحلة إبراهيم إلى الجزيرة العربية. وإلى هذا يشير الدكتور الفاروقي: إن الأسفار الخمسة قدمت لنا هذا التاريخ من حيث راية العنصرية فجعلت لها فيه مركز الثقل. أما القرآن الكريم وهو صوت الحق. فقد رأى هذه الأحداث من حيث رايتها الحنيفية الأخلاقية العقلية العالمية، فجعلت لهذه الفلسفة مركز الثقل في التاريخ.

ويقول: كانت التوراة كتابا إلهياً عزيزاً، إلا أن اليهود حرفوها وراغوا بها عن أهدافها الأصيلة، ومراميها الأخلاقية العالمية، فجعلوا منها كتاباً تعصبياً عنصرياً. حتى إسم الاله. فبدل أن يدعى باسم الحق، وهو إله للعالمين، ورب البشر، جعلته العنصرية اليهودية (إله إبراهيم، ويعقوب، وإسرائيل) فحسب.

« أدخل عزرا الحقد والتشفي والكراهية والإنتقام، فأخذ يتغنى بأعمال العنف والقتل والتخريب. بل ويختلق هذه القصص اختلاقاً لتمجيد العنصرية اليهودية [1] ».

## ( ٣ )

تهدف الصهيونية إلى بناء ركيزة تاريخية في مخطط اليهودية العالمية، تنطلق منها الحركة كلها بالقضاء على المعوقات الجغرافية والتاريخية والثقافية الثابتة الممتدة خلال أربعة عشر قرناً في أرض العرب وجوداً وفكراً. ومن أجل تحقيق هذا الهدف تجري المحاولات المتعددة.

**( أولاً )**: تزييف التاريخ، وفرض أكاذيب ووقائع غير صحيحة بما يتفق مع دعوى الحق التاريخي الباطل في بيت المقدس وفلسطين. ويمتد هذا حتى يصل إلى بعض المواقع التي أقام فيها اليهود قبل ألفي سنة في بابل والجزيرة العربية.

**( ثانياً )**: محاولة إثارة الشبهات حول الحقائق التاريخية الثابتة في القرآن والتاريخ الإسلامي في مساق هذه الخطة، وذلك بتحريف القرآن، ووضع كتب تاريخية ونصوص في دوائر المعارف وغيرها.

**( ثالثاً )**: محاولة التأثير في مناهج التعليم لإفساد منطلقات المسلمين والعرب في مفهوم الجهاد والمقاومة، وإذاعة دعوات تحمل طابع السلام والوحدة العالمية وغيرها.

**( رابعاً )**: محاولة التأثير في أخلاق الأمم بطرح مفاهيم الإلحاد والإباحة والتحريض على اللذات والشهوات.

**( خامساً )**: التشكيك في مفاهيم التوحيد والعدل والغيب والايمان بالله.

---

( ١ ) اصول الصهيونية في الدين اليهودي، اسماعيل راجي الفاروقي.

**( سادساً ) :** إثارة الفرق والنحل القديمة، وابتعاثها لخلق أجواء من الصراع والانقسام والتمزق.

**( سابعاً ) :** إثارة النعرات الإقليمية والدعوات العنصرية لخلق تضارب في الأمة الواحدة التي جمعها القرآن والإسلام.

**( ثامناً ) :** خلق معوقات تحول دون استئناف المسلمين والعرب حياتهم الاجتماعية وفق مقررات الإسلام وإغراقهم بالمذاهب والمفاهيم السياسية والإجتماعية الوافدة.

**( تاسعاً ) :** القضاء على التنظيمات الدينية والأخلاقية من أجل السيادة على العالم وتسخيره وفقاً للقاعدة المقررة لديهم وهي أنه لا بد من تخريب العالم أولا قبل السيطرة عليه.

**( عاشراً ) :** إفساد الجوييم (غير اليهود) والتلاعب بقوانينهم، والقضاء على إيمانهم بالله، وإسقاطهم تحت سيطرة عوامل الضعف والملذات كالخمر وغيره.

**( حادي عشر ) :** سيطرة رأس المال اليهودي على الدول والأمم، ووضع أسس الاقتصاد العالمي على أساس الذهب الذي يحتكره اليهود، وإيقاع الأمم تحت سيطرة الإقراض بالربا، واستنزاف الثروات، وسيطرة رأس المال اليهودي على الدول والأمم، وإحداث الأزمات الاقتصادية العالمية على الدوام.

**( ثاني عشر ) :** إلقاء بذور الخلاف والشغب والصراع بين مختلف الدول عن طريق الجمعيات السرية والدينية والمحافل الماسونية.

**( ثالث عشر ) :** وضع كل وسائل الطبع والنشر والصحافة والسينما والجامعات والمسارح في أيدي اليهود.

**( ٤ )**

البروتوكولات هي الصياغة العصرية لأحكام التوراة المحرفة والتلمود،

وقد استهدفت في نصوصها إخضاع الشعوب المسيحية وغيرها في العالم، وتأسيس أمبراطورية صهيون يرأسها ملك ليكون امبراطوراً للعالم كله على أساس القدرة بالسيطرة على الصحافة والذهب والإعلام.

والبروتوكولات هي منطلق الحركة الصهيونية ودستورها. وهي في مجموعها تستمد مقوماتها الأساسية من طبيعة اليهودية التلمودية. ولذلك فإن البروتوكولات تقوم على أساس واضح: الدعوة إلى هدم الديانات في محاولة للقول بأن الأديان لم تعد تسد حاجات العصر الحديث، وإلى تشجيع الانحلال في المجتمعات غير اليهودية ليعم الفساد والتمزق، وتضعف الروابط الاجتماعية التي تعتبر أهم مقومات الشعوب مما يسهل السيطرة عليها، وتوجيهها الوجهة المرجوة، وإلى تذويب القوميات والعصبيات الوثنية والعنصرية والوطنية من أجل الدعوة إلى العالمية، ونبذ التعصب القومي والديني، وإلى اعتبار الإنسان بمثابة مواطن في العالم كله، وإيجاد الصراع بين الدين والقومية، وخلق التناقضات بين الإسلام والعروبة.

وتدعو البروتوكولات إلى إشعال نيران ثورة عالمية بعد إخضاع العالم كله للسيطرة الصهيونية، وتطالب بالالتجاء إلى التآمر والخداع والتضليل والتجسس والتسلل في صفوف الجماعات.

## (٥)

يحاول بعض الباحثين التقليل من شأن البروتوكولات، ويتخذ في سبيل الشك فيها دليلاً واحداً، ذلك رفض اليهود لها، وإعلانهم براءتهم من صلتهم بها، واتهامهم من يتخذها وثيقة ضدهم بأنه يحمل لواء العداء للسامية، وليس أدل على صدق نسبة هذه البروتوكولات إلى الصهيونية العالمية من هذا الدفاع والتشكيك.

غير أن الأسلوب الذي يكشف عن حقيقة صحة نسبة البروتوكولات إلى

الصهيونية إنما هو ما سجلته من نبؤات وتوقعات، ومدى صدق هذه الإشارات. وقد حفلت البروتوكولات بنوايا كثيرة صدقت. وأبرز هذه النوايا تقسيم العالم إلى معسكرين متناحرين.

ويستطيع من يقرأ البروتوكولات ويكون على إلمام بمخططات اليهودية العالمية، ومفاهيم التلمود، وفلسفة الماسونية أن يجد ذلك واضحاً ومطابقاً لها تمام المطابقة.

وأبرز ما تحمله البروتوكولات من أهداف اليهودية العالمية هو محاربة الأديان والأخلاق والعمل على تدميرها، وما صاحب ذلك من تصريحات متعددة لعشرات من الحاخامات في حملة صادقة على الأديان بعامة، وعلى المسيحية بخاصة. وتضم البروتوكولات إشارات متعددة لهذا العداء الخطير حتى ليرد بعض الباحثين أصول الصهيونية كلها إلى الكره اليهودي للحضارة المسيحية مضطهدة الشعب المختار أو القول بأن الصهيونية تحمل لواء مناهضة المسيحية والملايين من أتباع المسيح.

وتشير البروتوكولات إلى الآثار الخطيرة المترتبة على عملية تدمير القيم الأخلاقية في المجتمعات.

لقد أصبح الشعب المسيحي متبلد الذهن تحت تأثير الخمر، كما أن الشباب قد انتابه العته لانغماسه في الفسق المبكر الذي دفعه إليه أعواننا من المدرسين والخدم والنساء اللواتي يعملن في أماكن اللهو، ونساء المجتمع المزعومات اللواتي يقلدنهن في الفسق والترف.

(٦)

تتركز اهداف الصهيونية، كما ركزت عليها البروتوكولات على هدف واحد: هو تحطيم الأخلاق، فهي تعتمد على إذاعة فلسفة أخلاقية تقوم على

دفع البشرية كلها إلى التحرر من جميع الضوابط والتحلل من كل القيم والإستهانة بالمثل العليا ومبادىء الفضيلة وكرامة الإنسان.

ولقد شهدت نصوص البروتوكولات على أن النظريات والمذاهب التي طرحتها الصهيونية، انما استهدفت إخراج أجيال يتصارع فيها الإيمان والإلحاد كخطوة إلى تحطيم عناصر الإيمان في النفوس، وأن هذه النظريات والمذاهب قد فتحت الطريق إلى الإلحاد واكتساح كل الأديان والعقائد الأخرى.

وقد وضع هذا المخطط تحت عنوان «حرية الأديان» وأعدت له أساليب في طرح مفاهيم الأديان الوثنية القديمة، وأعادت صياغتها من جديد، وعرض مضامينها التي تعارض مفاهيم التوحيد والأخلاق والإيمان بالغيب، ويسير البروتوكول الثالث عشر إلى دعم هذا المخطط بنشر الأدب المكشوف الذي وصف بأنه «أدب مريض» يؤثر على النفوس، ويساعد على هدم الأسرة وتدمير جميع المقومات الأخلاقية للمجتمعات المعادية (للصهيونية) يقول النص: «ومن هذا الأب المريض القذر تنطلق الدعوة إلى الإباحية المطلقة لهدم، وتدمير الأخلاق في المجتمع».

ومن شأن هذا الإتجاه الايديولوجي الذين يروجون له في عديد من المذاهب والدعوات أن يحطم مناعة الأمم فيفقدها قدرتها على المقاومة، ويعجزها عن المواجهة.

وقد أشارت البروتوكولات إلى أن «الأدب والصحافة» هما في طليعة القوة التوجيهية الهامة، وحددت مهمة الصحافة في عبارة تحتاج إلى تأمل طويل.

يجب أن تكون الصحافة تافهة كاذبة بعيدة عن الحق، تعمل لتحريض وإثارة المشاعر. هذا ما ركّزت عليه البروتوكولات من أجل «الحط من

كرامة رجال الدين عند الأمميين في أعين الناس » وذلـك عملا على إزالة مـا وصف بأنه عقبة كؤود في طريق الصهيونية.

وفي البروتوكولات إشارة واضحة إلى تبني الصهيـونيـة العـالميـة لبعـض النظريات الفلسفية، وإعلائها، واذاعتها، ودفعها لتكون مناهج علمية تدرس في الجامعات والمعاهد. وفي أحد البروتوكولات إشارة واضحة إلى هذا: « لاحظوا أنه نجاح دارون وماركس ونيتشه قد دبرناه من قبل، وسيكون واضحاً على التأكيد الأثر الأخلاقي لاتجاهات هذه العلوم في الفكر الأممي ».

وهناك ترجمة أخرى لهذا النص تقول: نحن الذين هيأنا لنجاح دارون وماركس ونيتشه، ولم يفتأ تقدير الآثار السيئة التي تركتها هذه النظريات في أذهان غير اليهود.

★ ★ ★

ويتصل هذا الإتجاه بالعمل على تحطيم نظام الأسرة، والقضاء على الروابط العائلية. وقد وجهت نقدات كثيرة لهذا النظام، ووصفه أحد فلاسفتهم بأنه مضاد للفطرة. وقد عملت الصهيونية على دفع نظام الأسرة إلى التفكك، وإلى تضارب أفراد الأسرة، ووقوع الريبة بينهم، وخلق أسباب الصراع. وهناك إشارة واضحة إلى أن أكبر عوامل تدمير الأسرة الرذيلة والترويج للحانات والملاهي.

وقـد أشـارت البروتـوكـولات إلى هـذا الاتجاه: « الصحـافـة والمسرح والمضاربة والعلم والشريعة، يجب أن تكون تحت تصرف من في قبضتهم كل ذهب الأرض، وهو أقوى سلاح لإثارة الرأي العام، لإفساد أخلاق الشبيبة، ولتهييج عمومي إلى الرذيلة لملاشاة كل ميل إلى التهذيب المسيحي، ولتشييد عبادة المال والشهوة الكلبية للملاذ.

★ ★ ★

وقد كشفت المذاهب الفلسفية التي صاغها اليهود على محاولة تركيز هذه الخطط، ودعمها وتحويلها إلى آثار عملية في المجتمعات. وذلك بفرضها أولا في قالب علمي براق زائف.

يقول بلاكنهيم: إن فرويد خلق الإباحية الحديثة على نمط الوثنية الإغريقية، ومجد الغريزة بحيث أطلق عنان الشهوات البشرية ورخص للرجل والمرأة أن يفعلا بجسدهما ما شاءا. فالتهتك الجنسي لا حد له في رأيه، والولد يغار على أمه من أبيه.

كما برّر (توماس مان) عشق الذكور في قضية الموت في البندقية.

## الباب الثالث

# بين الفكر الغربي والتلمودية

( ١ ) بين الفكر الغربي والمسيحي واليهودية التلمودية
( ٢ ) بروتوكولات صهيون
( ٣ ) معارضة الأديان .

# الفصل الأول

## بين الفكر الغربي المسيحي واليهودية التلمودية

كان عصر التنوير بكل مقوماته مقدمة للصراع بين الفكر الغربي المسيحي الأصل، واليهودية التلمودية، ذلك أن مقومات الفكر الغربي الحديث كانت تقوم أساساً على المصادر الأخلاقية المسيحية.

فقد دخلت المسيحية إلى بيئة الحضارة الرومانية، وهي مشكلة فعلا من آثار الفلسفة الهلينية الوثنية والقانون الروماني بمفهومه العبودي.

واستطاعت المسيحية بالرغم مما أصابها من انحراف «لتفسير بولس والمجامع لها» أن تحمل معها طابع الدين المسيحي كعبادة وأخلاق، فكان من أثرها أن هذبت كثيراً من طوابع الوثنية والهمجية التي عرفت عن قبائل الهون المتبربرة التي زحفت من الشمال وسيطرت على روما وما حولها.

وقد بدأت حركة النهضة من خلال أوروبا المسيحية، وكانت رسالة الإسلام هي الضوء الكاشف الذي فتح لأوروبا مقاليد المنهج العلمي التجريبي، وطرحت فكرة التوحيد تحديات خطيرة استهدفت إصلاح المسيحية كما ظهر ذلك واضحاً في مختلف مفاهيم لوثر وكالفن. غير أن عودة اليهود إلى أوروبا مرة أخرى بعد خروجهم منها كانت عاملاً هاماً في تحويل هذا التيار عن سبيله الصحيح، وقطع الطريق عليه، وإعادة الفكر الأوروبي إلى الوثنية اليونانية، ودفع الحملة على المسيحية دفعاً شديداً، ونقلها إلى مجال التحدي الخطير، ومقاومتها مقاومة عنيفة بدفع عديد من مفكري الماسونية

إلى مكان الصدارة، وإطلاق صيحات اللا دينية، وتأليه الإنسان والعقل على الوجه الذي بلغ بذلك إلى حد احتواء الفكر الغربي كله، حتى لم يعد لصوت الفكر الغربي المسيحي أثر يذكر، وإن ظل هنا او هناك دون أن يكون له أثر عملي كبير، بينما استطاع الفكر الغربي المستمد من مصادر التلمود أن يسيطر سيطرة كاملة.

وحين نراجع تاريخ أوروبا نجد أن أوروبا أخذت تخرج اليهود منها منذ القرن الثالث عشر. بعد أن أصدرت الكنيسة الكاثوليكية قيوداً ضخمة عليهم كانت الغاية منها كبح احتكارهم التجاري، فأخرجوا من انجلترا وفرنسا. ثم أخرجوا من أسبانيا ١٤٩٢.

وما إن أطلّ عام ١٥٠٠ حتى كانت أوروبا الغربية بأسرها باستثناء شمالي إيطاليا وأجزاء من ألمانيا قد تخلصت من الغزوة اليهودية وعاشت أوروبا فترة من الزمن حرة من اليهود الذين لم يعودوا إليها بكثرة إلا عام ١٦٥٠.

ويشير كثير من المؤرخين إلى أن فترة ازدهار الثقافة والعلوم التي وصفت بعصر النهضة من ١٣٠٠ إلى ١٦٥٠ كانت أوروبا فيها خالية من اليهود، ومن هنا فلما عادوا أخذوا يعدون حركة استيعاب خطيرة للفكر الغربي، وسيطروا فيها على ما حققته أوروبا، وأطلقوا على هذا العصر: عصر التنوير، وكان ذلك مقدمة لما حققوه عن طريق الثورة الفرنسية. وثورات الدول الأوروبية من بعدها. وقد حققت هذه الثورات هدفها بإسقاط الحكومات المسيحية، وإسقاط كل الأنظمة التي تحول بين اليهود وبين الاشتراك في المجتمع الأوروبي، ومن ثم فقد أخذ اليهود يسيطرون سيطرة واضحة على مجالات الفكر والمجتمع والإقتصاد. بينما تركوا للأوروبيين المسيحيين أغلب أمور السياسة.

ثم جرت عملية الاحتواء الفكري عن طريق محافل الماسونية، وفرض

فلسفتها على من يغرونهم باعتناقها، ثم يمهدون لهم الطريق لتسلم المواقع الهامة في الدول والحكومات والبرلمانات. ومن ثم أخذوا ينفذون أهدافهم في سرية وصمت. فلما استوى هذا الإتجاه وأخذ مداه وحقق نتائجه طرحت اليهودية فكرة الصهيونية، واستطاعت أن تجد لها من مختلف القوى السياسية الأوروبية نصيراً ومؤيداً. حتى استطاعوا الحصول على وعد بلفور.

وفي خلال ذلك كان التركيز شديداً على الدولة العثمانية لإزاحتها من طريق بناء أول أحجار الصهيونية العالمية بفتح طريق الهجرة إلى فلسطين.

وقد كان للماسونية دورها الضخم في السيطرة على الحركة الإصلاحية التي ظهرت في الدولة العثمانية باسم الإتحاديين واحتوائها وتحويلها نحو مفاهيم الماسونية، والعمل لها، بحيث استطاعت الصهيونية العالمية تحقيق هدفها في نفس اللحظات الأولى لسيطرة الإتحاديين على الحكم في الدولة العثمانية[١]. عام ١٩٠٨.

وهكذا استطاعت اليهودية العالمية أن تحتوي الفكر الغربي كله، وأن تسيطر عليه سيطرة كاملة عن طريق الفلسفة الماسونية. ومحافلها كمرحلة أولى لتحقيق هدف تحرير اليهود من قيود الكنيسة ثم كانت هذه الخطوة سبيلا إلى الخطوة الثانية، وهي استعلان الحركة الصهيونية، وكانت الحركة الثالثة هي إسقاط الدولة العثمانية لفتح الطريق إلى بيت المقدس وهو الهدف الكبير.

غير ان اليهودية العالمية في سبيل تحقيق هذه الخطوات، وما بعدها مما كشفته الوثائق عن الفلسفة الماسونية ومخططات الصهيونية من خلال بروتوكولاتها كانت تستهدف عملا أضخم بكثير مما وصلت إليه: ذلك هو إقامة الحكومة اليهودية العالمية. ومن أجل هذا كان لا بد من أن يقع الصدام

---

(١) راجع ذلك بتوسع في كتابنا: العروبة والإسلام.

قوياً بين الفكر الغربي المسيحي الذي كونته عوامل مختلفة من أهمها المسيحية والمنـهج العلمي التجريبي الإسلامي، وبين الفكر اليهودي التلمودي الذي يتطلع إلى إزاحة المناهج الإسلامية والمسيحية من عقائد وأخلاق وشرائع لفرض فكره وايديولوجيته الوثنية الهدامة.

وإن إلقاء نظرة إلى خطوط الفكرة «اليهودية التلمودية» لتكشف عن قدرة عجيبة على استيعاب عصارة الفكر البشري القديم من وثني وهليني وغنوصي، ومن إباحي ووثني، ومن بقايا المسوجية والزرادشية بكل ما تضعه هذه المذاهب من هدم للتوحيد والأخلاق، وإثارة لعوامل الجنس والغرائز، وإفساد الأمم وإغراقها في الشهوات، وتدمير مقوماتها الأخلاقية والروحية والنفسية.

وبالجملة فإن اليهودية العالمية حملتها كل الفلسفات الهدامة القديمة التي جاء الإسلام ناقضاً لها وقاضياً عليها. حملتها إلى العصر الحديث، وابتعثتها في أساليب عصرية حديثة وعلمية براقة، وفرضتها بقوتها الذاتية حتى استوت علوماً، فرضت على الجامعات ودوائـر الثقـافـة، واستمـدت منهـا الآداب والقصص والشعر والفنون مضامينها ومفاهيمها وطرحت من جديد كأنما هي حقائق واقعة.

وقد حملت اليهودية العالمية النظريات ونقيضها، وعمل بعضهم مع الأصل ونقيضه لتوسيع رقعة المباراة، وشغل العالم بها، ودفع الأفكار إلى درجة عالية من العراك والجدل.

وبذلك تستطيع اليهودية العالمية أن تستوعب كافة الاتجاهات، وإرضاء كل النزعات. ومن هنا ظهرت النظرية المادية. وفي نفس الوقت ظهرت نظرية الروحيـة الحديثـة، وجـاءت دعـوة الإقليميـة الضيقـة، وإعلاء الأجنـاس والعنصرية. وجاءت في نفس الوقت دعوة العالمية، ووحدة البشرية. وجاءت

البهائية لتصهر الأديان كلها في بوتقة واحدة، وجاءت الثيوصوفية لاستيعاب دعاة وحدة الوجود والاتحاد والحلول.

وأحيا فلاسفة اليهود امثال سبينوزا وغيره: وحدة الوجود بهدف هدم الألوهية، كما تهدمها دعوات الإلحاد والعدمية تماماً.

وقد مضى العقل اليهودي الهدام وراء كل الحدود في محاولة للسيطرة على الفكر البشري كله، واحتوائه، وعزل الفكر الإنساني الرباني الذي جاءت به الأديان، وتوجيه أعنف الحملات عليه بالتشكيك والانتقاض، وإثارة الشبهات وتحريف النصوص. وقد اتخذت اليهودية العالمية أسلوب طرح المذاهب الاجتماعية والسياسية والفكرية والبيولوجية وسيلتها لهدم الأديان وعزلها. وقد ظهر ذلك من خلال مذهب التطور والتفسير المادي للتاريخ والوجودية والسريالية، وما أطلق عليه علوم النفس والاقتصاد السياسي والاجتماعي والأديان المقارنة. وهدفهم الواضح من خلال هذه الدراسات هو إعادة إحياء الفكر السابق للأديان السماوية (التي أنزلت على الأنبياء: عيسى وموسى ومحمد عليهم السلام). وذلك حتى تجد مفاهيم التوراة التلمودية طريقها إلى الشعوب والأمم.

وتحتوي هذه الفلسفات والنظريات زيف كثير، وسوء نية، وهدف واضح «يغطيه اليهود بالصبغة العلمية التي لا يفطن إليها إلا أهل العقول الراجحة».

وقد اتخذت نظرية «الفكر الحر» عقيدة جديدة اعتنقها أولياء الأيديولوجية اليهودية الصهيونية الماسونية بهدف تشكيك الناس في الديانات عن طريق النقد الحر.

ومن الحق أن يقال إن «المتتبع لحركات اليهودية العالمية (الصهيونية والماسونية) يدرك تمام الإدراك أن الصهيونية لا تخلق حركة اجتماعية على

إطلاقها، ولا قدرة لها على خلقها، ولكنها ما تكاد ترى حركة تنبع إلا سارعت إلى استغلالها واحتوائها بما يخدم مصالحها».

ومن هنا يجيء انتفاعهم غير المحدود بآراء نيتشه، ونظرية دارون. وقد سجلت البروتوكولات هذا المعنى. أما آراء نيتشه فقد اتجهوا بها إلى محاربة المسيحية من ناحية، ومحاربة عقيدة الألوهية من ناحية أخرى، ومن ابتعاث نظرية العنصرية من ناحية ثالثة، وكثير مما يتصل بالإلحاد، وتجديد الفكر البشري القديم المتمثل في آراء زرادشت والوثنية وغيرها.

أما نظرية دارون فقد انتفعت بها اليهودية العالمية في تشكيل النظرية المادية كلها، واستغلت فكرة التطور البيولوجية لبناء نظرية التطور الاجتماعي التي أقامها سبنسر وغيره، وبلغت غاية الغايات في النفع للأيديولوجية الماسونية والصهيونية والفكر اليهودي التلمودي، وكان من ثمارها: ماركس وفرويد ودوركايم.

★ ★ ★

ولقد سجل كثير من المفكرين والسياسيين العالميين دور اليهودية العالمية على نحو واضح، وخاصة فيما أورده هنري فورد في كتابه: اليهودي العالمي. فقد أشار إلى الأخطار التي ترتبت على سيطرة اليهود على الصحافة والمسرح والسينما بغية توجيه الذوق العام. والتأثير في الجماهير على النحو الذي حدث فعلا في أوروبا الغربية وفي الولايات المتحدة حتى ليقول أمريكانوس.

في وسع الإنسان أن يقول بسهولة: إن الثقافة الأمريكية في مجموعها اتخذت صوراً يهودية معينة.

يقول هنري فورد: لعل من الغريب أنك حيث التفت للتحري عن الخطوط التي توصل الاساءة إلى الناس والتي تسري في المجتمع تجد جماعة من

اليهود خلفها ، في لعبة الكرة جماعة من اليهود ، ووراء الاستغلال المالي جماعة من اليهود ، ووراء الدعاية للمشروبات الروحية جماعة من اليهود ، والسيطرة على السياسات القومية الحربية في أيدي جماعة من اليهود ، والسيطرة على الصحافة عن طريق الضغط المالي والتجاري في أيدي جماعة من اليهود ، وثمانون في المائة من مستغلي الحروب هم من اليهود ، ومنظمو المعارضة الفعالة للقواعد والعادات المسيحية هم من اليهود ، والموسيقى الشعبية الرخيصة هي احتكار اليهود ، وليست موسيقى الجاز إلا احتكارية يهودية ، وليست هذه الحركات المثيرة بما فيها من قذارة ، والتي تتسق مع النغمات التي تبعث الغرائز إلا من عمل اليهود ، وفي هذا التعفن المسمى بالموسيقى الشعبية التي تجمع بين تفاهة التفكير وبين الفجور الجنسي ترى أن اليد العاملة هي اليد اليهودية .

هذا في أمريكا . أما في ألمانيا فأدولف هتلر يصور انطباعه في كتابه « كفاحي » .

لقد اكتشفت مع الأيام أنه ما من فعل مغاير للأخلاق ، وما من جريمة بحق المجتمع إلا ولليهود فيها يد ، واستطعت أن أقيس مدى تأثير الشعب المختار في تسميم أفكار الشعب وتخديره ، وشل حيويته بأثر نشاطه في الصحف ، وفي ميادين الفنون والآداب والتمثيل ، فقد امتد الأخطبوط اليهودي إلى هذه الميادين جميعاً ، وفرض سيطرته عليها ، وطبعها بطابعه ، فمعظم المؤلفين يهود ، ومثلهم الناشرون والفنانون ، وهذا التغلغل في كل ميدان من ميادين النشاط التوجيهي يشكل طاعوناً خلقياً أدهى من الطاعون الأسود وأشد فتكاً .

ذلك أن تسعة أعشار المؤلفات والنشرات والمسرحيات واللوحات الفنية التي تروج للإباحة المطلقة وللماركسية من صنع اليهود . وقد طالعني الشارع بحقائق لم تخطر لي على بال : منها الدور الذي يؤديه أبطاله بمهارة لم ينته إلى خطورته الشعب الألماني إلا في الحرب العالمية الكبرى .

★ ★ ★

ولا شك أن دور اليهودية العالمية في صناعة السينما واضح، ومشروع هوليود الضخم المتصدر في العالم كله يكاد يكون مشروعاً يهودياً بحتاً. وهو يحرك جميع قضايا الإلحاد والإباحة والعنصرية، وتدمير القيم الإنسانية.

ومن بين الاهتمامات البالغة الخطر، تركيز الفكرة الصهيونية في أذهان العالم كله، والإلحاح عليها، وتخرج هوليود في كل عام عدداً من الأفلام للدعاية العنصرية، الغاية منها « تهييج شعور الأقليات بتوجيهها إلى الاعتقاد بأنها مضطهدة ومهانة، وهي دعاية سافرة لنشر الكره العنصري موجهة إلى الزنوج والمكسيكيين، وسائر الأقليات، والقصد منها تعزيز دعوتهم العنصرية اليهودية الصهيونية.

ومن خلال السينما والمسرح والقصة والأدب والشعر تجدد اليهودية العالمية الفكر الوثني القديم كله، من الأفكار البالية التي هزمتها رسالة الأديان ومفاهيم التوحيد، ودمرها الإسلام تدميراً. فهناك عشرات من قصص عشتروت وقلقميس، وتراث بابل وأشور والمجوسية، وأساطير اليونان وفارس والهند. وكل ما ضمه ركام الفكر البشري الوثني الإباحي القديم من قصص مغايرة للأخلاق، أو معارضة للعقيدة الإلهية، واستغلال مختلف الجاهليات القديمة وانبعاثها عن طريق دراسة الأنثروبولوجيا والآثار وغيرها.

وتحويل ذلك كله إلى خطوط متصلة تخدم اليهودية العالمية، وتحقق أهدافها. ومن خلال ذلك يجري إقناع الشعوب والأمم بالباطل بأن اليهودية منبع الأديان وقمة الحضارات والثقافات، وترويج الزعم بأن كل ما تم من أعمال كبرى في التاريخ كبناء الأهرام، أو اختراع الاصطرلابات، إنما كان بفضل رجالهم.

* * *

كما عمدت اليهودية العالمية إلى « السيطرة على معامل الملابس والمساحيق والعطور وما سواها من مستلزمات (المودة) »[1]. وهم بذلك يتوصلون الى تحقيق الغرضين فيسيطرون على المال ويفسدون الدين والأخلاق. إنهم يعملون على بيع أكبر مقدار ممكن من الملابس ومنتجات الأزياء إلى نساء العالم، فكلما غيروا الأنماط زادوا النساء شراءً وإنفاقاً، وتسربت الأموال إلى جيوب اليهود، وهم يحققون أيضاً قتل الأخلاق القومية للشعوب فيشيعون التفسخ وينشرون الشهوات.

وان الملابس القصيرة ابتكار يهودي. فقد رفعوا أزياء النساء فوق الركبة ليزول الحياء، وتنتشر الرذيلة، ويشيع الاختلاط غير البريء بين الشبان والشابات، وتضيع طهارة الفتاة، وتنهزم الأسرة، وتنتشر الأمراض الجنسية، وينشأ جيل ضائع موبوء مريض.

ويحاول بعض أدعياء التغريب، وخدام الماسونية الادعاء بالفصل بين الأخلاق والملابس، وهو عمل مضلل من حيث الرابطة القوية العميقة بينهما، وأثر أحدهما في الآخر.

ويتصل بهذا العمل على إذاعة طوابع معينة في الزينة، وخاصة فيما يتعلق بتصفيف الشعر، وإطالة السوالف، وفي السيطرة على مودات الشعر للرجال والنساء، ويستهدف تقليب هذه المودات، وإطالتها وتقصيرها إلى تأكيد السيطرة اليهودية على الأزياء والملابس والزينات في العالم كله. ومن ورائها القدرة على تحريك المجموعات البشرية كلها نحو هدف واحد. هو إزالة الفوارق بين الرجل والمرأة بما ينتهي إلى ترجيل المرأة وتأنيث الرجل.

★ ★ ★

---

(١) راجع كتاب عبدالله التل: خطر اليهودية العالمية على الإسلام والمسيحية.

# الفصل الثاني

## بروتوكولات صهيون

صور مترجم بروتوكولات صهيون مخططات اليهودية العالمية في مجال الفكر والآداب فقال:

« حيثما ظهر مبدأ أو دين أو مذهب علمي أو فلسفي هب اليهود ليكونوا من ورائه، ويتصرفوا معه بما ينفعهم. وقد أفلحت الدعاية في طبع كثير من العقائد والنحل بما يحقق مصلحتها فنرى روح الولاء والتهليل لبني إسرائيل ومقدساتهم تهيمن على بعض المقدسات المسيحية.

وما ظهر مذهب فكان مؤذناً إلى أن يسهم بالأذى لهم من قريب أو بعيد إلا قتلوه أو أولوه بما يفسده، وما كان مؤدياً إلى خير لهم روجوه في كل أنحاء العالم. كذلك يروجون لكل قلم ما دامت آثاره عن قصد أو غير قصد تساعد على إفساد الناس، ورفع شأن اليهود كما فعلوا مع نيتشه الذي يتهجم على المسيحية وأخلاقها، ويقسم الأخلاق قسمين: أخلاق سادة كالعنف والاستخفاف بالمبادىء، وأخلاق عبيد كالرحمة والبر، مما يتفق وروح اليهودية وتاريخها، ويمهد لها في الأذهان، ويجعلها سابقة على نيتشه. وكذلك روجوا لمذهب التطور وأولوه تأويلات ما خطرت لداروين، واستخدموه في القضاء على الأديان والقوميات والفنون، وهم يعبثون بعلم الاقتصاد والاجتماع، وعلم مقارنة الأديان ويسخرونها لمصلحتهم، وينشئون الآداب والنظم والثقافات والعقول في كل أنحاء العالم، ويدسون فيها نظريات مبهرجة لا يفطن إلى زيفها إلا الموهوبون ذوو العقول المستقلة، وهم وراء كل زيّ من أزياء الفكر والعقيدة والملبس والسلوك ما دام ينفعهم. لا سيما إذا كان

يفسد غيرهم إلى جانب ذلك[١]. ولن تفهم المدارس الحديثة في أوروبا هذه الحقيقة التي لا شك فيها، وهي أن اصبعاً من الأصابع اليهودية كامنة وراء كل دعوة تستخف بالقيم الأخلاقية، وترمي إلى هدم القواعد التي يقوم عليها مجتمع الإنسان في جميع الأزمان[٢]. فاليهودي دوركيم وراء علم الاجتماع الذي يلحق نظام الأسرة بالأوضاع المصطنعة، ويحاول أن يبطل آثارها في تطور الفضائل والآداب، واليهودي أو نصف اليهودي «سارتر» وراء الوجودية التي نشأت معززة لكرامة الفرد، فجنح بها إلى حيوانية تصيب الفرد والجماعة بآفات القنوط والانحلال.

ومن الخير أن ندرس المذاهب الفكرية، بل الأزياء الفكرية كلما شاع منها في أوروبا مذهب جديد. ولكن من الشر أن تدرس بعناوينها وظواهرها دون ما وراءها من عوامل المصادفة العارضة، أو التدبير المقصود. وقل مثل ذلك في فرويد اليهودي الذي هو وراء علم النفس الذي يرجع كل الميول والآداب الدينية والخلقية والفنية والصوفية والأسرية إلى الغريزة الجنسية، كي تبطل قداستها، ويخجل الإنسان منها ويزهد فيها، ويسلب الإنسان الإيمان بسموها ما دامت راجعة إلى أدنى ما يرى في نفسه. وبهذا تنحط في نظره صلاته بأسرته، ومجتمعه، والكون وما وراءه.

وقل مثل ذلك في علم مقارنة الأديان التي يحاول اليهود بدراسة تطورها، ومقارنة بعض أطوارها ببعض، ومقارنة عملها في غيرها أن تمحوا قداستها، وتظهر الأنبياء بمظهر الدجالين.

وكذلك حركة الاستشراق التي تقوم على بعث الكتب القديمة. فهي في العربية تزحم مكاتبنا بأتفه الكتب التي لا تفيد علماً، ولا تقوم خلقاً، ولا

---

(١) محمد خليفة التونسي.

(٢) عباس محمود العقاد.

تهذب عقلاً، فكأنما تؤسس المكاتب لتكون متاحف لحفظ الموميات الخالية من الحياة، والتي تغري الإنسان لتفاهة محتوياتها وكثرتها وتفككها بالنفور منها إذا كان سليم الطبع والعقل، أو التمسك بتفاهتها فتورثه الغرور والعناء والكبرياء. وكذلك يروج اليهود لكل المعارف التافهة التي تتمثل في المجلات والقصص والكتب التي تثير الشهوات وتهيج الجوانب السيئة من الغرائز، وتحبب الرذائل، وتنشر الانحلال [١].

يقول برانت ليتفنتون في كتابه (شعب غريب): ان اليهود احتكروا تجارة الثقافة والإعلام، وأنشأوا الصحف (نيويورك ورلد - نيويورك تيمس - واشنطون بوست) وزحفوا على المدارس والجامعات، واحتكروا صناعة السينما (متروجولدين. مابر. وارنر. برامونت. فوكس. نيوفرسال. كولومبيا) والتليفزيون.

ومن أهم صفات اليهود أنهم لا يتركون هيئة أو مذهباً لا يتسللون إليه، ويتعصبون له كأنهم أصحابه. وهم الذين مزقوا ملابس الشباب تحت شعارات مختلفة: الوجودية. الإباحة. الحرية العارية. وهم الذين يصدرون كل الصحف والمجلات العارية، وهم الذين يسيطرون على تجارة الدعارة، ويملكون ويديرون الكباريهات، وهم الذين يسيطرون على تجارة النساء في أمريكا وأوروبا، وهم الذين نشروا الخنافس في أوروبا وأمريكا، وهم الذين اخترعوا الهيبز. والطبيب الذي أعد تركيب حقن الهلوسة أستاذ جامعي يهودي. وهو الذي أقام مستعمرات ومحطات لتدخين الحشيش. وهم أصحاب القول: (من الذي قال إن أختك وأمك وابنتك حرام عليك).

وقد اتجه اليهود بعد الحرب العالمية الثانية إلى كتابة تاريخ المسيحية،

---

(١) عباس محمود العقاد نقلا عن كتاب الخطر اليهودي للتونسي.

وتأكيد أن الدين وليس التفكير الحر هو الذي جعل المسافة بين اليهود والمسيحيين عميقة، وظهرت أفلام تمجد اليهودي، وكثيراً ما رأينا بطلاً يقول: لي الشرف اني يهودي. وكان الأدباء والشعراء أكثر وضوحاً وإلحاحاً في المباهاة بأنهم يهود أمثال: سالنجر. ونورمان مايلر. وبيلو. وبالمود.

وعادت اليهودية إلى برج بابل مرة أخرى عدة ألوان وعقائد ومذاهب وتناقضات.

★ ★ ★

وأشار أحد الباحثين.... إلى هذا المعنى فقال: إن جميع أنظمة الغرب التي كان لليهود اصبع في وضعها أو تعديلها أو في تفسيرها ونشرها، قد وضعت إما لمصلحة أصحاب رؤوس الأموال، أو لمصلحة طائفة أخرى من أهل القوة والتأثير. أو لترويج نزعة من النزعات التي يرتاح لها فريق، ويسخط عليها فريق. والنظام اليهودي قائم على تبادل المنفعة، وافق هذا التبادل الفضيلة أم خالفها. والحق عندهم هو الذي يمشي مع القانون، ولا تعاقب عليه المحاكم. أما النظام الإسلامي فهو قائم على مبدأ «الإيثار المتقابل».

يكشف الفكر اليهودي هدف اليهودية العالمية الماثل في السيطرة على العالم عن طريق حصر المال والجنس، والقوة والسياسة في أيدي حفنة من اليهود، وجعل هذه القوى الخاصة بين البشر وسائل تتحكم عن طريقها الاجتماعية اليهودية من أجل تغيير تركيب العالم الإسلامي والاقتصادي والفكري بما يتفق مع المخططات اليهودية.

ومن هنا كانت السيطرة على التراث الوثني القديم، والانطلاق منه إلى المذاهب المادية. وقد استغل اليهود نقطة الاختلاف بين الحضارة الغربية، وبين الديانة المسيحية، فأوغلوا فيها إيغالاً شديداً، واتخذوها نقطة وثوب إلى

غايتهم، فأثاروا فكرة الروح الأوروبي الوثني الذي أفسدته المسيحية، ورمتـه بالضعف حين دعت إلى الرحمة، وجعلوا من سيطرة الكنيسة منطلقاً إلى الخروج عن الدين بعامة إلى المادية الخالصة، ثم أنشأوا فكرة التعبد للرقي المادي. ثم كانت الدعوة إلى كسر ضـوابـط الأخلاق، ووصفهـا بـالآداب القديمة، ثم « أخذت الفضائل القديمة التي يؤيدها الدين تخلي مكانها بالتدريج للفضائل الغربية الجديدة التي تدعو إلى حرية فردية للجسد البشري غير مقيدة[١].

★ ★ ★

وهنا يبرز سؤال هام طالما شغل الباحثين: هل كان لليهود حضارة على مدى التاريخ. وتجيب كل الدراسات المنصفة أن اليهود لم يكن لهم حضارة، ولم يساهموا في بناء الحضارات. وإنما كانوا هادمين لها.

وقد استغلوا دور الانحلال الذي تمر به الحضارة الأوروبية، فوجهوها لخدمة أغراضهم المعروفة في السيطرة والتوسع. وأكدت مختلف المصادر على أن اليهود دخلوا هذه الحضارة عن طريق المال والربا والانحلال الخلقي. وليس عن طريق المجهود العلمي بما يوصف بـأنـه « سرقـة الحضـارة الأوروبيـة، والسيطرة عليها ».

ولقد أثارت اليهودية العالمية عدداً من القضايا لخدمة أهدافها، منها قضية العنصرية والأجناس.

والمعروف أن اليهود قد ساحوا في الأرض منذ عام ٧٠ م بعد استقرار في فلسطين لم يدم طويلا. ومنذ ذلك التاريخ إلى اليوم لم يبرز لهم فكر أو حضارة، بل عاشوا في صراع الزمن، ومن وراء كل الدعوات الهدامة.

---

(١) عن نص للعلامة محمد أسد.

ولقد ارتبطت الحضارات كلها بالأديان وبالقيم الإنسانية العليا، وبالأخلاق. أما اليهود فقد عاشوا يحملون كل الفكر القديم المتصل بالتعصب والعنصرية، والإباحة والسحر، ليعيدوا صياغته من جديد، ويطرحوه في أفكار الأمم لتدميرها. ومن أخطر مفاهيمهم أنه لا حياة أخرى بعد الموت، «وليس في تعاليمهم الدينية، ولا شريعتهم ذكر للروح، ولا اعتراف بحياة أخرى بعد الموت، ولم يرد في دينهم شيء عن الخلود، وهم يؤمنون بالإله يهوه وهو إله خاص بهم وحدهم دون الآخرين، وهكذا تطغى المادية على عقيدتهم طغياناً عجيباً»[1].

وهم حملة الدعوة إلى المتعة واللذة في حياة ليس بعدها جزاء، يقولون: ليس للإنسان خير من أن يأكل ويشرب. وليس من جزاء للانسان بعد أن يموت وينسى ذكره. أن من الجنون أن تضحي بالساعة الراهنة في سبيل أوهام باطلة.

★ ★ ★

وإلى جوار الإباحة تأتي الدعوة إلى العلمانية، وإقصاء الدين عن السياسة والاجتماع والاقتصاد. ذلك لأن ربط الدين بالمجتمع يحطم هدفين من أهدافهم.

**(الأول)**: وضوح الفارق بين اليهود وغيرهم من الأمم ذات الأديان.

**(الثاني)**: إسقاط نظام الربا الذي هو عصب فكرهم وحياتهم.

ومن هنا كانت دعوتهم إلى إعلاء دعوة العنصرية والأجناس، وإحلال الجغرافيا والاقتصاد محل الدين في تكوين الجماعات.

يقول الدكتور الفاروقي: علينا أن نذكر أن تحرر اليهود لم يأت إلا نتيجة

---

(١) العربي - ٩ - ١ (ديسمبر ١٩٦٧).

لنمو العلمانية في التنظيم السياسي الاجتماعي. إذ ان إقصاء الدين عن السياسة والاجتماع والاقتصاد أدى إلى اعتبار المنفعة العامة والانتاج والخبرة والأهلية كأساس لجميع المعاملات والتنظيمات. ومن هنا جاء قبول اليهود على أساس كفاءتهم الشخصية، وتماسك أفراد الأمة الواحدة بما فيهم اليهود. لا على أساس الدين. بل على أساس وجودهم في الوطن.

ومعنى هذا أنهم حققوا ذلك التحول في الفكر الأوروبي من أجل أهدافهم. فهم الذين فرضوا على الفكر الغربي إقامة حواجز عالية بين مفاهيمه وقيمه، ووضع دوائر بين العائلة والأخلاق الشخصية والدين والاقتصاد والسياسة والاجتماع يؤلف كل منها على حد تعبير الدكتور الفاروقي «ملكوتاً مستقلاً» فالويل إذا سمح الغربي لمبادىء الدين أن تتعدى حدودها للتأثير في الاقتصاد.

يقول الدكتور الفاروقي: الواقع أن العلمانية ليست سوى الاعتراف بأن ليس هناك مبدأ عام يشمل حياة الناس بكاملها كما هو الحال في النظرة الدينية، فأصبح لكل دائرة من دوائر الحياة ميدانها الخاص[1].

★ ★ ★

تصدّر لصياغة الفلسفة اليهودية التي عرفتها الآداب والدراسات الحديثة عدد من رجال المحافل الماسونية، وفريق من كتاب اليهود: وأبرزهم ماركس وفرويد ودوركايم.

ماركس الذي قال ان الدين أفيون الشعوب، وانه مجموعة من الأساطير ابتدعها الإقطاعيون والرأسماليون لتخدير الجماهير الكادحة.

وفرويد الذي قال إن الدين ناشىء عن الكبت.

---

(١) الملل المعاصرة في الدين اليهودي.

ودور كايم الذي قال إن الدين ليس فطرة.

ويرى كثير من الباحثين أنه كان من المستطاع أن تشق الفلسفة طريقها حتى تصل إلى العلم من ناحية، وإلى الدين من ناحية أخرى، ولكن تداخلات الصهيونية، واليهود منذ ابينوزا حالت دون ذلك، وحولت دفة الفلسفة إلى المادية والالحاد. ويقول بوكهارت: ان الأدب العالمي قد يكون مديناً لبعض كتاب اليهود، ولكن شرهم أكثر من نفعهم، وإثمهم اكبر من خيرهم، فإن (هينه) أفسد أخلاق باريس (ونوردو) حلل المبادىء والنظم التي تدعم المدنية، وأكد فسادها وتعفنها. و (أوزوالد) أنذرنا بقرب زوال الحضارة. أما (فرويد) فقد خلق الإباحية الحديثة على نمط الوثنية الإغريقية. ومجد الغريزة بحيث أطلق عنان الشهوات البشرية، ورخص للرجل والمرأة أن يفعلا بجسدهما ما شاء الشبق الكامن في حنايا ضلوعهما. فالتهتك الجنسي لا حد له في رأيه، والولد يغار على أمه من أبيه، ويود لو يموت ليحل محل مركب أوديب.

أما الأحلام فلا تفسير لها إلا الاغتلام وعلاقة الجنس و (توماس مان) برر عشق الذكور في روايته (الموت في البندقية).

★ ★ ★

وفي أحضان الماسونية ونفوذ الصهيونية نشأت مختلف الأعمال التي وجهت حركة الإلحاد باسم الفكر الحر. وما انتشر على يد البارون دي هولباخ في كتابه: (System of nature) الذي أنكر فيه وجود الله وخلود الروح. وقد أجمعت النظريات الفكرية التي قادها ماركس وفرويد ودوركايم وسارتر ولورنس على أن الإنسان حيوان، وأنه لا غاية لوجوده، ولا هدف. ولذلك فلا معنى للحياة الانسانية، ولا للمثل العليا الانسانية. وأن الحياة تخبط خبط عشواء في تطورها بما في ذلك الإنسان. وأن الحياة وهم باطل ليس فيها إلا المتاع والجنس.

ويشير كلبان دوبليكس في كتابه: (حرب اليهود في العالم) إلى دور اليهود في العمل على «تفكيك الأخلاق بتسهيل سبل الشهوات في المصايف وملاعب القمار والملاهي، وصنع أشرطة الصور المتحركة المحركة للشهوات المنحطة، والحث على الجرائم واللذات البهيمية، واختراع أنواع الرقص الخليع بأنواعه: الشارلستون والكاريوكا. وإعداد المغاني والغواني والقيان والقناني للراغبين، وإبداع مسابقات الجمال والاتجار بها، واختيار ملكات المحاسن في الشرق والغرب. وعبادة المادة في كل شيء، ونشر صحف المجون والفسوق مثل جاذبية الجنسين وما لا يجوز تلاوته إلا بين عاشقين.

وهم الذين نشروا المجلات العارية وما فيها من الصور التي هي أقبح وأخطر من الكتب المحظورة على أذهان الشبيبة ونشر الصحف الكاشفة القناع عن أسرار الجرائم تحت ستار التحقيق الجنائي. وما هي إلا تحريض خفي لاقترانها بطريقة الإيحاء التي يجيد اليهود توجيهها نحو الجماعات والأفراد بفضل شيخ الطريقة المضللة: «فرويد».

ويقول: دلت التجارب الاقتصادية والاجتماعية على أن البلاد التي ازدهر فيها الربا فقدت التعاطف والتراحم من بينها، وحلت القسوة فيها محل الحنان والعدل. ويرى أن الحضارة الأوروبية قد صبغت بألوان النفسية اليهودية ففشت فيها الأطماع المادية حتى صاروا لا همّ لهم إلا جمع المال.

# الفصل الثالث

## معارضة الأديان

تعد ظاهرة «معارضة الأديان» من أبرز ظواهر الفكر، خلال مرحلة التطور الخطيرة التي بدأت بعصر التنوير، والتي امتدت إلى العصر الحاضر، وفرضت وجودها على التيارات المختلفة للاجتماع والسياسة والأخلاق والتربية والاقتصاد. وقد انطلقت ظاهرة معارضة الأديان من موقف الكنيسة والمسيحية الغربية إزاء النهضة، وإزاء الكشوف العلمية. غير أن هذا الاتجاه إنما كان في مصدره الحقيقي يراجع إلى عبور الفكر الإسلامي إلى أوروبا والغرب. هذا الفكر الذي صنع حركة الإصلاح الديني، وقدم المنهج العلمي التجريبي الذي قامت على أساسه النهضة العلمية.

ولقد كان في الإمكان أن يتحرر الفكر الأوروبي من جموده وانحرافه، لو أنه سار في طريقه الصحيح، ملتمساً الضوء الكاشف من الإسلام. غير أن محاولات ضخمة وبعيدة المدى قامت من أجل الحيلولة بين الفكر الغربي المسيحي، وبين هذا الاتجاه، ورده مرة أخرى إلى الفكر اليوناني الوثني، ودفعه إلى معارضة الدين المسيحي معارضة شديدة، والتنكر للمنطلق الإسلامي للفكر الغربي، وإقامة المنهج العلمي على أساس الفصل الكامل بين المقررات العلمية المحضة، وبين الأصول الأخلاقية والفكرية التي ترتبط معها.

وبذلك تحرر الفكر الغربي من الانتماء الإسلامي، ثم مضى يعارض الدين معارضة كاملة، ويعلي من شأن الطبيعة وقدرة العقل وعظمة الإنسان.

ومن الحق أن يقال ان دور الكنيسة والمسيحية الغربية كان بعيد الأثر في خلق هذه المعارضة. وان الحملات التي وجهت إلى الدين، التي كانت

تستهدف ديناً واحداً، ليس هو الدين السماوي المنزل على المسيح عيسى بن مريم، ولكنها المسيحية الغربية التي صاغها بولس، وأعطتها الكنيسة ذلك الطابع الواضح من الأسرار والقداسة.

ولقد كان هدف اليهودية العالمية بتحريك هذه القضية على هذا النحو هو: معارضة المسيحية، واقصاؤها من مكان النفوذ والسيطرة في مجالات السياسة والاجتماع، وإفساح الطريق أمام مفاهيم الوثنية واليونانية والغنوصية الشرقية وكل مفاهيم بابل وأشور والمجوسية والمزدكية والمانوية، وإحيائها من جديد، وصياغتها على نحو أو آخر بما يمهد لسيطرة الفكر اليهودي الذي رسمته الفلسفة الماسونية والصهيونية.

ثم نقلت هذه المفاهيم في معارضة الأديان ونقدها إلى اللغة العربية لضرب الفكر الإسلامي، وإثارة الشبهات فيه، بحسبانه ديناً، وقد استطاعت هذه الشبهات أن تؤثر في الكثيرين ممن كانوا قد غفلوا عن حقيقة الإسلام الذي يختلف في أصالة مصادره، وفي تكامل مفاهيمه دينا ومنهج حياة عن ذلك النموذج الذي عرفته أوروبا والغرب عن المسيحية، فكان مصدراً من مصادر الحملة على الأديان عامة (فضلا عن أن هذه الحملة على الأديان من أبرز أهداف الصهيونية العالمية). ذلك أن المفاهيم التي طرحتها المسيحية الغربية عن التثليث، وعن العزوف عن الدنيا والرهبانية، وما ضمنته الكتب المقدسة من معلومات عن الجغرافيا والتاريخ، واختلفت فيه عما كشفت عنه العلوم. كل هذا كان في الحق مصدر هذه الحملة الضارية التي شنها أمثال نيتشه، ورينان، وإن كانت تشوبها في الحقيقة ريح تحامل تعزي إلى مخططات اليهودية التلمودية العالمية التي تعارض المسيحية معارضة شديدة، وتكشف عن ضغنها بعبارة قاسية [ راجع بروتوكولات صهيون ].

## آراء نيتشه

فقد دعا نيتشه إلى « نقض المسيحية » لأنها تقول بالرحمة والتعاون والإخاء البشري وحماية الضعيف، ووصفها بالسلبية. وقال إن أخلاق المسيحية تعارض بقاء الأقوياء والصقور، وتصدهم عن حقهم الذي تنطق به الطبيعة، وهو أن الصقر يجب أن يأكل العصفور، وأن على الإنسان ألا يتقيد بالأخلاق المسيحية، لأنها أخلاق الأذلاء. وأن المسيحية حين جاءت استبدلت بالرجولة والبطولة ضعفا مزرياً نرى نتائجه في شعوب أوروبا الحاضرة.

★ ★ ★

ويصور نيتشه مفاهيمه على هذا النحو:

كانت الآداب في أوروبا قبل المسيحية ناشئة عن غرائز طبقة الأقوياء، فجاءت المسيحية وقلبتها، وجندت الضعف بجميع ضروبه، والمسيحية نشأت بين اليهود فعبرت عن غريزة البقاء فيهم، ومثلت أنانيتهم، وهم إذ ذاك أمة ضعيفة مقهورة مهانة مغضوب عليها. فكان حتما على النبي الذي يظهر بينها أن يجند كل من شأنه أن يعين أفرادها على الحياة والبقاء. لقد جعلوا من العجز وعدم استطاعة أخذ الثأر حياة فاضلة، وجعلوا من الذلة والخور تواضعا. ومن الخضوع لأولئك الذين يكرههم الإنسان طاعة، ووضعوا هذا الكلام على لسان الله. فأصبح حتى الضعيف وقناعته وجبنه ووقوفه على الأبواب ذليلا ـ كل ذلك فضائل ـ والعجز عن الثأر يمسي عندهم تسامحاً.

قال البعض ان اليهود ثأروا من أوروبا المسيحية. وقد صدق في ذلك. فإن المسيحية وهي من بنات أفكارهم قد حمتهم من ظلم الحكام وجور الأحكام، حتى انتشروا في جميع البلدان المسيحية، وتسودوا عليها، وملكوا ناصيتها، وقبضوا أموالها. ولو بقيت الآداب الرومانية أو اليونانية عائشة للآن

تعمل على إبادة الضعف، ونشر آداب العظماء والأقوياء لفني اليهود من العالم.

فالمسيحية أفادت اليهود، ولكنها أضرت الأوروبيين، ولا عبرة بالاضطهادات والمذابح المنقطعة التي كان يفاجئهم بها المسيحيون من وقت لآخر، فإنها صغيرة تافهة لا أهمية لها بجانب الاضطهاد الصحيح المتواصل الذي تفعله الآداب المغايرة المنافية لمصلحة أمة من الأمم، فإن الأوروبيين أفنوا بآدابهم سكان الهند الأصلية.

★ ★ ★

ويصور باسبرز في كتابه عن نيتشه موقفه من المسيحية فيقول:

يرى نيتشه أن المسيحية عدو العلم، إذ انها تركز على الواقع الذي يصدر العلم عنه، ويرى أن الإيمان المسيحي معارض للعلم خاصة لعلمي التفسير والطب اللذين يمكن بواسطتها القضاء على كل الخرفات في النصوص الدينية.

ويقول نيتشه: إن المسيحية استخدمت في سبيل دعوتها وسائل غواية أكثر منها وسائل لنشر الدعوة. إذ انها ترفض كل ما يمكن أن يثير المقاومة مثل العقل والفلسفة والحكمة والشك، وتصر إصراراً عنيداً على أن العقيدة من عند الله، وأنه لا مجال إذن للنقد أو للفحص، بل للتسليم والاعتقاد، وتثبيت روح التعصب والغرور لدى الفقراء، وتصفهم بأنهم (خبز الأرض وملحها) على ما يقول الإنجيل، وتتعامل مع المتناقضات، وكل ما يثير الغربة والدهشة، وتمجد الاضطهاد وخدمة الآخرين، والعجيب أن الأقوياء قد تمثلوا أيضاً هذه القيم، لأنها تصلح لكل مظاهر الجبن، ولكل مظاهر الغرور على السواء، يجد فيها الضعيف التعويض والسكينة، ويجد فيها القوي الغلبة والسلطان، وبه يصارعها الضعيف إن أرادت الإبقاء على حالته، ويصارعها القوي إذا أرادت الحد من قوته.

ومن هذه النصوص وغيرها يكشف نيتشه عن طابع الأوروبي الوثني العريق الذي رأى في الأخلاق المسيحية معارضة لمزاج أمته. وهذا هو الخط الذي ركزت عليه اليهودية العالمية في الحملة على المسيحية. ومنه جاءت منطلقات العنصرية، وإعلاء الجنس الأبيض وإعلاء الجنس الآري.

ويتسم فكر نيتشه بكل مقومات الفكر الإغريقي الوثني من الفردية والأنانية والعبودية، وإنكار القيم الأخلاقية التي جاءت بها الأديان عامة.

وقد إختار فيلسوفاً وثنياً غالياً هو زرادشت، فتحدث باسمه، ومن خلال مفاهيمه. ومن مفاهيمه عمق ذلك التيار الذي غذته اليهودية العالمية من بعد.

يقول الدكتور أحمد زكي: أن نيتشه نظر في أسباب الجمود والهمود، فعلم أنه جمود قديم منذ كانت المسيحية. وإن قيم الأشياء التي سنتها المسيحية هي السبب في وقف التقدم، ورأى أن معاني المسيحية في مجال الخير والحق والجمال. سبب للضعف، والضعف ليس سبيل الرقي. وقال إنها معان كواذب لا تمت إلى طبيعة الإنسان بسبب. وقال: (أي نيتشه) أن معايير المسيحية معايير يهودية أوجدها اليهود لما ضعفوا.

والرأي عند نيتشه ان هذه (اليهودية السامية) هي التي نشرها الدين المسيحي في الأرض، وقام عليها قساوسته بالدعاية، كما يقوم دعاة السياسة، فساد الضعف والخزلان، وتراجع الإنسان عن غايته الكبرى.

وقال أحمد زكي: ان نيتشه استمد فلسفته من الإغريق وفق المبدأ الداروني الحديث.

★ ★ ★

ويقف نيتشه على رأس المنطلق الجديد الذي إتجه إليه الفكر الغربي في

ردته إلى الإغريقية وانفصاله عن المسيحية ومقاومته للدين بعامة.

ولعل أقسى ما سجلته الأبحاث عن نيتشه هو قوله بموت الإله. غير أن حملة نيتشه في جملتها كانت موجهة إلى مفاهيم واضحة، هي مفاهيم المسيحية التي شوهها الغرب عن أصلها، وأن الحملة على الرهبنة والبعد عن الدنيا هي حملة على أشياء أضيفت إلى الدين الحق، ولم تكن منه أصلا.

وان هذا هو ما دفع نيتشه وغيره إلى الإنتقال إلى مفاهيم المجوسية وغيرها.

★ ★ ★

## آراء رينان

ويمضي أرنست رينان في نفس الطريق ويشير تاريخ حياته إلى أن الشك في المسيحية اشتد في نفسه نتيجة عناصر ثلاثة: الأخلاق واللاهوت (العقيدة واسرار المسيحية) والعنصر التاريخي في نشأة المسيح وحياته. ومن ثم دعا إلى إله جديد: هو العلم.

وقد آثر مذهب الدهريين؛ وقدس الطبيعة في جميع مظاهرها، كما آمن بوحدة الوجود.

ويصور كامل محمود حبيب أثر كتابه عن حياة المسيح فيقول:

ظهر كتابه فأجج ثورة جامحة، كانت هي حدثاً من الأحداث التاريخية في عالم الأداب والفلسفة في القرن الثامن عشر. فقد رأى صدى خبره في أرجاء العالم المسيحي، لأن المفكرين من ذوي العقول الحرة الجريئة كانوا قد راحوا يتهجمون على رجال الكنيسة، ويدفعون سيلا جارفاً من النقد الصارم على ما كان يحترمه رجال الدين في ذلك الوقت. ودوت الصيحة في كل مكان

فانقلب رينان من كرسيه في كوليج دي فرانس بتهمته الإلحاد والكفر.

وقال: إن أبحاثه ما زالت تتصل بسبب المأساة الروحية التي نزعته من العقيدة الكاثوليكية، وبمذهب الدهريين الذي صبا إليه بما يكتب عن تاريخ الإسرائيليين والمسيحيين.

## آراء فولتير

أما فولتير فقد كانت مفاهيمه ترجمة كاملة لمفاهيم الماسونية وفلسفتها. فقد كان يقول: إن الديانات عدوة للإنسانية، لأنها سبب الاضطهاد وسفك الدماء، وإنها مخالفة للعقل، لأن فيها أسراراً لا يستطيع العقل أن يفهمها، وثالثاً لأن الديانات عنده ديمقراطية، وهي من خصائص الطبقات المنحطة، ولا تتصل بالطبقات العليا.

★ ★ ★

قام الصراع بين المسيحية واليهودية في أوروبا. وكان الفكر الغربي مسرح هذا الصراع. وهو صراع بين نقيضين، فالمسيحية تدعو إلى الأخلاق الرهبانية، واليهودية تدعو إلى إزالة كل قيد على الحرية البشرية، وتدعو إلى حب الحياة والإستمتاع بها، والمسيحية تحرم الربا، واليهود يقومون بتجارة المال. والمسيحية تدعو إلى الزهد، واليهود يدعون إلى امتلاك مطامع الدنيا.

وقد حملت اليهودية حملات صارخة على المسيحية في محاولة للسيطرة عليها عن طريق طرح المذهب المادي كأساس للفكر الغربي. ومنه انطلقت الدعوات المختلفة، والإيديولوجيات المتعددة كالليبرالية والإشتراكية في الإجتماع، والفرويدية والوجودية في الأخلاق، والنفس والعلمانية في الفصل بين الدين والتربية، واستهدفت هذه المذاهب جميعاً تحول الفكر الغربي والمجتمع الغربي عن طابعه المسيحي، والقضاء على الجوانب الروحية والأخلاقية التي شكلتها

المسيحية والحضارة الغربية.

وكذلك شجب مفاهيم الإخاء الإنساني بخلق مفاهيم العنصرية والقوميات والأقليات المتصارعة. وقد بلغ ذلك غايته على نحو وصفه الدكتور أمير بقطر في دقة حين قال:

« ضاعت من نفوس الكثيرين الثقة بما يسمونه في أوروبا وأمريكا الخلق المسيحي، فقد انهار هذا الخلق في كثير من البلدان ».

وحتى قال الدكتور وليم سليمان: إن الدين في نظر الغربيين لم تعد له قيمة في ذاته، وانه شيء يمكن الاستفادة منه لتحقيق الأهداف الدنيوية التي ينشدها الغرب في شتى أنحاء العالم. وقال: في الغرب استطاع اليهود أن يحرفوا المسيحية. وانتشر تيار فكري يجعل نقطة بدايته « موت الإلٰه » وينادي بمسيحية لا دين فيها، وينادي بهذه الأفكار. (بنهوفر وبليمان والأسقف الانجليزي جون روبنسون) ويصف هذا الإتجاه بقوله: « المسيحية انتحرت في أوروبا، نتيجة انضواء رجال الكهنوت تحت راية الصهيونية، وتسابق شتى الكنائس لإرضاء إسرائيل، وتملق اليهود »(١).

ويقول الدكتور إسحاق موسى الحسيني: لقد آزرت المسيحية الغربية (ولا سيما طوائف البروتستانت، والفرق المسيحية المشهورة كالسبتيين وشهود يهوا) إسرائيل مؤازرة المستميت.

★ ★ ★

ومن الحق أن يقال: إن اليهودية العالمية عملت على تحطيم المسيحية أولاً وآخراً. أولا عن طريق هدم المسيحية من الداخل على يد القديس بولس. والثانية عن طريق بناء الحضارة والفكر على أساس لا ديني، على أساس

(١) كتاب وليم سليمان.

حيوانية الإنسان، وفصل الدين عن كل عناصر الفكر والحياة، وتمثل بروتوكولات صهيون موقف العداء الصريح لليهود من الحضارة المسيحية الغربية، وكيفية احتوائها.

ويقول إميل الخوري في كتابه: مؤامرة اليهود على المسيحية: إن اليهودية قد وجهت عنايتها إلى القدح والذم وتلطيخ المسيحية بأقبح الصور، ثم أخذت تحارب المسيحية بالمذاهب الإجتماعية والسياسية والاقتصادية التي تهدم الروح المسيحية والمبادىء القومية، وتقوض أركان الدول المسيحية فيتحقق لها غرضها بصورة غير مباشرة دون أن تصطدم بها وجهاً لوجه. وقد نجحت اليهودية بهذه الخطة إلى حد بعيد.

## نقد التوراة

وفي الوجه المقابل اتجه الباحثون المسيحيون إلى نقد التوراة التي هي المصدر القائم لديانة اليهود، وكشف الكثيرون عن التعارض الواضح بين العهد القديم والعهد الجديد، وكيف أن النصوص تدل بوضوح على إلٰهين مختلفين: إلٰه اليهود إلٰه الحرب، وإله النصارى (الأب والابن والروح القدس)، كما تكشف عن طابع العهد القديم في العنصرية الغالبة. كما كشف الكثيرون عن دخائل العهد الجديد بعد تسلط بولس والفلسفة اليونانية على المسيحية.

ولقد استطاعت اليهودية العالمية أن تكسب كثيراً من مفكري المسيحيين إلى صف العهد القديم، وإلى مجال فكرها. وخاصة رجال إرساليات التبشير البروتستانتي. ومن أبرز هؤلاء الدكتور أنيس فريحة الذي عقد مقارنة بين الإله في اليهودية والإلٰه في المسيحية.

وقد وضع الكتاب المسيحيون العهد القديم (التوراة) الموجودة في الأيدي الآن بأنها لا يعرف من كتبها أول مرة، ولا الزمن الذي كتبت فيه.

كما إتجه النظر في القرنين الأخيرين إلى اعتبارها نصاً أدبياً يجري نقداً لفظياً، كما قام رجال اللاهوت والدين المقارن بنقدها نقداً معنوياً. وقد أثبت النقد اكتشاف كثير من الاغلاط والتغيير والتحريف، كما تبين أن هوامش المعلقين كانت تحشر أحياناً في المتن.

يقول الدكتور فريحة: انه نتيجة للدراسات النقدية للتوراة أن أخذ الإنسان في إعادة النظر في الدين وإن التوراة لم تعد في نظرهم كتاب علم وتشريع، بل ترك العلم والتشريع للإنسان، فتخلص الإنسان من تقديس الحرف. وقد جاء هذا الإنصراف عن التوراة ونقدها نتيجة «التناقض الواضح بين ما أثبته العلم. وما جاء في التوراة».

ذلك أنه عندما اتجهت أنظار الأوروبيين إلى الأدب الإغريقي والروماني ظهر رد فعل ضد الكنيسة، وبالتالي ضد اليهود واليهودية على أساس أن المسيحية قامت على اليهودية.

ويقول إن الدراسات النقدية للتوراة تقدمت للدفاع عن اليهود، وتراثهم من ناحية ولدحضه وهدمه من ناحية أخرى. وقال إن العوامل التي مهدت لدراسة التوراة هي: تقدم العلوم، وتطور أساليب النقد والعداء ضد اليهود وفلسفتهم. وأشار إلى أن سفر نشيد الإنشاد هو قصة غرامية بطلها راع يخطف فتاته لترسل إلى قصر الملك: وهو رمز لزواج يهوه من شعبه إسرائيل. وعند ظهور المسيحية غيروا الرمز إلى زواج المسيح من كنيسته.

أما المزامير فهي مجموعة من الشعر الديني العميق العاطفة ينسبونها إلى داود. وقد اعتبرت دراسات كثيرة التوراة كتاب أدب. وأنها دراما بطلها يهوه.

وقد أذاع اليهود في العالم كله دراسات تقول: إن التوراة كانت مستوحى

كتاب العالم، وإن توماس مان، وملتون،وجوته، وكيلنج،وفكتور هيجو قد تأثروا بالتوراة.

★ ★ ★

ولعل أخطر ما يتصل بخطة اليهودية العالمية نحو التوراة. هو ما ركزت عليه منذ القرن الماضي في ترجمتها إلى مختلف لغات العالم. وخاصة ترجمتها إلى اللغة العربية.

وقد اعلن عام ١٩٠٨ أن التوراة ترجمت إلى أربعمائة لغة، ويعدون النسخ التي وزعت في نحو ٣٠ مليون نسخة. وقد جرى ترجمتها إلى العربية من مصدرين: مصدر الإرساليات الأمريكية واليسوعية.

وقد كونت التوراة مدرسة في الأدب العربي قام على رأسها ميخائيل نعيمة، وجبران خليل جبران. وقد حاولا نقل نصوص في كتاباتها من المزامير، وسفر الجامعة، وسفر أيوب. ونشيد الإنشاد.

وقد حاول ابراهيم اليازجي أن يضع الترجمة العربية في أسلوب عربي فصيح، فعارضته الارساليات الذين حرصوا على وضع الترجمة في أسلوب عامي.

ولم يكن للتوراة أثر في الأدب العربي. فقد غلبت عليها لغة القرآن الكريم وطوابعه. فلم تلبث هذه المحاولة أن انطوت.

## خاتمة

ثلاثة أخطار تواجه أصالة الفكر الإسلامي المستمد من القرآن الكريم:

١ ـ تفسيره فلسفياً.

٢ ـ تفسيره صوفياً.

٣ ـ تفسيره عقلياً.

ذلك إن للإسلام منطلقه الخاص، وذاتيته مطبوعة بطابع الفطرة والتوحيد المستمد من القرآن الكريم أساساً ومنهجاً وأسلوباً للعرض والتفسير. فإذا أريد إخضاعه لمنهج آخر غير منهجه فقد ذاتيته. وقد جرت محاولات كثيرة لإخضاعه، ولكنه كان قادراً ـ دائماً ـ على مقاومة التبعية والتماس الأصالة، والعودة إلى المنابع. ولا ريب أن أبرز الأخطاء التي يقع فيها الباحثون هو الخلط بين مفهوم الفكر البشري. وبين مفهوم الإسلام أو الجمع بينهما.

وكل المحاولات التي جرت للمزج بينهما أو المواءمة محاولة باطلة أساساً ولم تستطع أن تحقق على أيدي الجهابذة أي نتيجة ما. وكل محاولة اليوم للربط بين الفكر البشري، وبين الإسلام باطلة وخاطئة، ولا تحقق شيئاً إلا مزيداً من الوقوف في التيه والإضطراب زمناً آخر.

ذلك أن عناصر الفكر البشري ومداخله وأصوله تختلف اختلافاً واضحاً عن عناصر الإسلام ومداخله وأصوله. ولذلك فإن محاولة إجراء التركيب بينهما عسير ومستحيل. وليس علمياً على الإطلاق.

والمعروف أن عمليات التركيب والمواءمة إنما تكون بين عنصرين من أصل واحد، أو بين نوعين يلتقيان في جذر واحد. أما إذا كانا مختلفين متباينين. فإن أحدهما لا بد أن يسقط ضحية للآخر، ويفنى فيه، ويخضع له خضوعاً

كاملاً. ومن ثم تزول عنه ملامحه وطوابعه وذاتيته. ثم يندمج اندماجاً كلياً، وينصهر انصهاراً كاملاً.

أما الإسلام فمن المستحيل أن يندمج أو ينصهر، لأن طبيعة تركيبه وذاتيته الخاصة وطوابعه المميزة وأصالته من حيث ارتباطه بالفطرة، والتماسه للمعنى الإنساني، وارتباطه بالله الواحد الأحد، كل ذلك يجعل من الطبيعي على الفكر البشري الذي صنعه الإنسان أن يذعن له إذا شاء التماس الحقيقة.

وما يزال الفكر البشري منذ أن انفصل عن الحقائق الأصيلة التي جاءت بها أديان السماء يتخبط ويضطرب ويذهب المذاهب، وينشىء الايديولوجيات محاولا إيجاد بدائل من صناعة العقل البشري. وهو في العصر الحديث، وفي خلال أربعة قرون، ومن خلال محاولات عديدة قد بدا عاجزاً عن تحقيق شيء ما. بل يمكن القول انه انحرف عن الغاية انحرافاً كبيراً، وإنه اتجه تحت ضغط قوى ذات نفوذ وجهة مادية. تكاد تسيطر على كل مفاهيمه ودوافعه، وتحيله فكراً وثنياً خالصاً بعيداً كل البعد عن مفاهيم الفطرة والإنسانية التي تقوم أساسا على الإيمان بالله.

★ ★ ★

وقد كشفت هذه الدراسة موقف الإسلام، وتفسيره للفكر البشري في مرحلة ما قبل الإسلام وما بعده حتى العصر الحديث الذي كان لا بد أن تقوم عليه دراسة خاصة تتناول الفلسفات والأيديولوجيات والمذاهب والدعوات الحديثة، وتعرض لها في ضوء الإسلام.

وهذا هو موضوع الحلقة التالية: بإذن الله.

: (الفلسفات المعاصرة في ضوء الإسلام)

# الفهرس

## الباب الخامس



## الباب السادس



## الكتاب الثاني

## الباب الأول

## الباب الثاني



## الباب الثالث

الموسوعة الإسلامية العربية ١٦

# التربية وبناء الأجيال في ضوء الإسلام



بقلم
أنور الجندي

دار الكتاب اللبناني - بيروت

Jindī, Anwar

# الموسوعة الإسلامية العربية

(١٦)

al-Tarbiyah wa-binā'

# التربية وبناء الأجيال

## في ضوء الإسلام

بقلم

أنور الجندي

دار الكتاب اللبناني - بيروت

دار الكتاب اللبناني
برقيا : كتالبان - بيروت
ص - ب : ٣١٧٦
بيروت - لبنان

الطبعة الاولى ١٩٧٥

# أبعاد البحث ومضامينه

بسم الله الرحمن الرحيم

# مدخل الى البحث

هناك سؤال يطرح نفسه في أفق العالم الإسلامي بقوة ، وتلح الأحداث المتصلة في طلب الإجابة عليه ، وهي تقدمه اليوم على كل سؤال ، هذا هو :

ما هو الخنجر الذي طعن به المسلمون ؟

لقد تحدث المصلحون عن مقاتل متعددة أصيب بها المسلمون في كيانهم وركزوا على كل واحد منها على أنه هو الأساس والمصدر والهدف ، وترددت الإجابات بين سيطرة القانون الوضعي على الشريعة الإسلامية أو سيطرة الاقتصاد الغربي بشطريه على الاقتصاد الإسلامي أو سيطرة النظام السياسي الغربي على المسلمين أو سيطرة مفاهيم القومية والإقليمية والوطنية والعنصرية على مفهوم الإخاء الإسلامي .

ولكن امراً من ذلك كله لم يكن أشد خطراً من احتواء الركن الركين في بناء الامم : احتواء التربيـة والتعليم ، فذلك هو الخنجر الذي طعن به

المسلمون في كل هذه المقاتل وهو الذي يتحتم عليهم اولاً ان ينزعوه من جسمهم قبل ان يعالجوا هذه المقاتل جميعاً، ذلك لأن أي علاج يسبقه سوف لا يؤدي الى أي رجاء يرتجى بالبرء والشفاء ، ما دام قائماً ينزف دماً ، ولن يكون لأمر ما من إصلاح أو تصحيح أو تحرير أو علاج ، أي أثر حاسم قبل ان يبدأ العمل من نقطة الصفر الأساسية : وهي نقطة الخنجر المغروس الذي ما زال ينزف بالدم .

ذلك الخنجر هو في حقيقة الأمر : التربية والتعليم التي سيطر عليها النفوذ الاستعماري واحتواها وعندما انحسر ظله لم يسلمها الى أهلها مرة اخرى بل مضت تدار بإشراف اوليائه وتحت لواء اتباعه .

هذا هو الخنجر المغروس في الجسد الإسلامي والذي ما يزال ينزف دماً .

ولقد كان المستعمرون غاية في الدهاء والمكر والبراعة عندما بدأوا معركتهم من المدرسة وعن طريق برامج التعليم ومن خلال الإرساليات التبشيرية التي سبقت ووضعت مناهج التعليم وألزمت وزارات المعارف والتعليم بأن تنقل مناهجها وتطبقها .

وقد استطاعت قوى الاستعمار ان تفرض هذه المناهج على المدارس الأميرية، ولم يسلم منها إلا قليل من المدارس الأهلية في مراحلها الاولى، ولكن ما لبث شبابها ان وضعوا في البوتقة عندما وصلوا الى الدراسات العليا الجامعية التي كانت في قبضة حديدة من الاستعمار والتغريب حتى لا يفلت أحد ممن سيوكل اليهم أمر الصدارة والقيادة في المجتمعات الإسلامية .

وكانت المناهج والمقررات والكتب قد أعدت تماماً ، وكانت المناهج والكتب القديمة قد أعدمت تماماً حتى لم يبق منها أي آثار للمراجعة التاريخية؛ ومن عجب ان داراً مثل دار الكتب المصرية وقد أنشئت قبل الاحتلال البريطاني لا تجد فيها ورقة تسجل المناهج أو المقررات التي كانت قبل الاحتلال.

هذه هي القضية كما يقولون : وإذا كنا نواجه اليوم مقاتل نازفة في مواقع خطيرة من فكرنا ومجتمعنا فإنما مردّ ذلك كله الى هذا الخنجر المدفون في اعماق الجسم الإسلامي.

وإذا كان المسلمون قد طعنوا في شريعتهم فاقصيت عن مجال التطبيق في مجتمعاتهم وحلّ محلها القانون الوضعي ، فإن مرد ذلك الى « التعليم » الذي خرج اجيالاً تحتقر الشريعة وتؤمن بعظمة قانون نابليون ، وإذا كان المسلمون قد طعنوا في لغتهم وبرزت دعوى «العاميات» في مختلف انحاء الوطن العربي وأكرهت امم إسلامية كثيرة على تغيير ابجديتها فإن مرد ذلك الى مناهج التعليم التي خدعت العرب والمسلمين بدعوى عظمة اللغات الأجنبية ودخول «اللاتينية» الى المتحف فلماذا تبقى «العربية» العجوز .

وإذا كان المسلمون قد طعنوا في مفهومهم الإسلامي للاقتصاد فإنما يرجع ذلك الى ان المسلمين والعرب درسوا في مدارس الإرساليات وفي المدارس الوطنية ايضاً ، وفي الجامعات درسوا أنظمة الاقتصاد الرأسمالي والماركسي على أنها هي وحدها الانظمة الموجودة في العالم ، وان الربا هو القاسم الأعظم على كل الأنظمة والمشروعات .

وإذا كان المسلمون قد طعنوا في مفهومهم السياسي الإسلامي فإنما يرجع ذلك الى تلك الصور البراقة التي قدمت لهم في مدارسهم وجامعاتهم عن الديمقراطية والليبرالية والجماعية وغيرها من أنظمة الغرب فخدعتهم .

وإذا كان المسلمون قد طعنوا في مفهومهم للعلم فإنما يرجع ذلك الى تلك المقررات المدرسية والجامعية التي ترد العلوم الحديثة من كيمياء وفيزياء وفلك وطبيعة وتكنولوجيا الى علماء الغرب وحدهم متجاهلة ذلك الدور الخطير الذي قام به المسلمون والعرب في بناء الطابق الأساسي الأول من مؤسسة العلم العالمية وأنهم هم الذين قدموا المنهج العلمي التجريبي الى البشرية كلها .

وإذا كان المسلمون قد طعنوا في مفاهيمهم الاجتماعية فإنما مردّ ذلك الى مناهج التعليم التي تدرس المجتمعات الغربيـة ومنهج مدرسة العلوم الاجتماعية الذي يقوم على إنكار فطرية الاسرة وأصـالة الدين وثبات الأخلاق ، وتدعو الى التطور المطلق والى الجـبرية الاجتماعية ؛ كل ذلك يدرسه أبناء المسلمين في مدارسهم ومعاهدهم وجامعاتهم على أنه حقائق مقررة لا على أنهـا نظريات مؤقتة مرتبطة ببيئاتها وعصورها ، قابـلة للخطأ والصواب ، لأنها من نتاج عقليات بشرية تخطىء وتصيب .

هذا هو الخطر الواضح من وراء الخنجر الذي طعن به المسلمون ؟

ومفهوم هـذا الخطر هو ان النفس الإسلامية في العالم الاسلامي كله من حيث إنها انحسرت في بيوتها مفاهيم الثقافة الإسلامية القائمة على القرآن والسنّة وضعفت فيهـا القدوة التي تبني الشباب فإنها تسلم الى المدرسة شباباً غضّاً ، يحس بالفراغ في مجال وجدانه وعاطفته وفكره ، فلا يجد الى مفاهيم الإسلام سبيلاً ، ثم إذا بـه يلتقي بتلك المناهج التي تصور له فكر الغرب على صورة العقيدة ، وتملأ نفسه بحب تاريخ الغرب وترفع في نظره شأن الغرب ، وتقدم له العلم والاقتصاد والقـانون والاجتماع ، من نتاج مجتمعات اخرى على أنه هو الفكر الإنساني ، والثقافة البشرية .

وأين الفكر الإسلامي في ذلك كله والمسلمون لهم منهج حياة كامل ، ولهم مفهوم جامع للحياة والمجتمع ، والسياسة والاقتصاد والتربية ؟

هذا كله مما لا يزال ضائعاً ، ولا يزال ناقصاً ، ولا يزال مهملاً .

ومن هنا فإن هذه النفس المسلمة التي عجزت عن ان تملأ فراغها الروحي والفكري بقدراتها وقيمها لا بـد ان تملأه باي شيء ، ومما يقدم اليها زاهياً براقاً في كتب ملونة مزخرفة ، بينما هي تعجز عن ان تجـد من فكرها ما يرد عنها الخطر أو يصحح لها الشبهات أو يزيح عنها ظل التغريب والاحتواء .

تلك هي القضية الأولى في التحدي الخطير الذي يواجهه المسلمون اليوم في كل مكان ، ومن خلال هـــذه النقطة نصل الى كل قضية والى كل أزمة والى كل موقف .

فمن خـلال الطريق الطويل استطاعت قوى الصهيونية والاستعمار ان تحقق ما وصلت اليه لأنها استطاعت ان تبث فكرها في النفس الإسلامية وان تحتويها وان تنقلهامن دائرة الإسلام المرنة الجامعة المتكاملة الوسطية الى دائرة الغرب المغلقة القاتلة .

ومن هذه النقطة بالذات نستطيع ان نصل الى كل ما نطمح فيه من وحدة وتقدم وقيام أمة الإسلام في أرضها بدورها الرباني الإنساني العالمي الذي هو فريضة محتومة والذي هو حق في أعناقنا جميعاً ، والذي يجب ان نلتقي عليه صادقين وإلا فنحن آثمون مقصرون مأخوذون بجريرة الذنب .

# ( ٢ )

يردّ بعض الباحثين أزمة التربية والتعليم الإسلامية الى وصول الحملة الفرنسية أو الاحتلال البريطاني لمصر أو الفرنسي للجزائر أو الى محاولات محمـد علي في الجري وراء التبعية الغربية تجاوزاً للأزهر وحجباً له ، ملتقياً في ذلك مع الفرنسيين الذين عرفوا مقاومة الأزهر ، وما عرفه محمد علي من معارضة علماء الأزهر وعلى رأسهم عمر مكرم لاستبداده واهوائه .

ولكن الأمر أبعد من ذلك كثيراً وأشد عمقاً .

ونحن نعرف ان معركة حاسمـة دارت بين الإسلام والغرب في مواطن مختلفة ، جاءت باسم الحروب الصليبية في قلب عالم الإسلام، عايشها المسلمون بالمقاومة والجهـاد قرنين كاملين وانتهوا منها بالنصر المؤزر كما انتهى عدوهم بالهزيمة الساحقة، ولم يكن هذا نهاية الشوط بالنسبة للغرب ولم يتوقف طموحه في السيطرة على ارض الإسلام وبلاد الإسلام .

ومن قلب الحروب الصليبية وهزائم الغرب نبت جـذر تلك المؤامرة على أيدي المهزومين ؛ لقد نتجت عن الهزيمة فكرة خطيرة قالت هذه الفكرة :

إذا لم يكن السيف قادراً على السيطرة على المسلمين فليكن ذلك عن طريق الكلمة... كان المعروف ان المسلمين قد غلبوا الغرب ودحروه لأنهم متقدمون حضارياً وعسكرياً، ومن خلال هذه المعارك انقض الغرب على ميراث المسلمين

ومناهجهم وعلمهم فاستوعبه ثم دك المعاقل وأخرج منها أهلها واستولى على الجامعات والمعاهد والوثائق ؛ وقطع طريق العدوة بين المسلمين وأوربا .

ومع محاولات الغرب الى ترجمة الفكر الإسلامي والسيطرة على ارض هذا الفكر في الأندلس وإخراج المسلمين منها كانت وصية لويس التاسع هي الضوء الكاشف أمام الغرب حين قرر ان تكون الحرب الموجهة الى عالم الإسلام هي حرب الكلمة وحرب الفكر، ذلك ان الغرب كان يعلم ان المسلمين لن يهزموا ولن يستوعبوا ولن يوضعوا في قبضة الغرب إلا إذا سقطت تلك المنارات العالية من مفاهيم الجهاد والمقاومة والحرية والتميز بالتوحيد والقرآن ، هذه العقيدة الراسخة كانت هي القوة الضخمة التي كونت عالم الإسلام ، وكانت ولا تزال وستظل القوة القادرة على دحر كل من يتصدى له .

إذن فلا بد ان تبدأ المعركة من هذه النقطة الخطيرة :

من نقطة تزييف العقيدة وامتصاص حيوية الدعوة ، وتفريغها من مضامين القوة والإيمان والجهاد حتى يفقد المسلمون هذا السر الخطير وحتى يصبحوا قطيعاً من السائمة التي يمكن ان تطوى وتقهر .

هكذا كانت وصية لويس التاسع بعد هزيمته في المنصورة تكشف عن هذا التحول في الحروب الصليبية من السيف الى الكلمة ؛ وهو ما يمثل الموجة الاستعمارية العصرية . لقد كانت نهاية الحروب الصليبية بداية حرب الفكر والكلمة ، ومنطلق المخطط الجديد للغزو الفكري والثقافي ومحاولة دحر الإسلام (كفكر ) بعد العجز عن القضاء عليه كقوة سياسية وامة قائمة .

وتعدّ وصية لويس التاسع أخطر وثيقة في هذا الاتجاه فهي التي فتحت الباب واسعاً أمام معركة قوامها[التبشير والاستشراق والغزو الثقافي والتغريب] وقد قامت على أثرها مباشرة حركة أوربا المعروفة الى ترجمة القرآن والتعرف على الإسلام ومن ثم أخذت تتشكل تلك النواة في المعاهد الغربية وفي الكنائس

ترمي الى دراسة اللغة العربيــة والإسلام والقرآن للكشف عن الجوانب التي يمكن الوثوب منها والبحث عن النقـاط موضع الخلاف بين الفقهاء والمفسرين والروايات الضعيفة والشبهات وتجديد مــا أثارته الشعوبية والباطنية والقوى المعادية للاسلام وتنسيقه من جديد وإذاعته على أنه علم عصري يقوم على الدليل والبرهان .

وقد ظاهر هذه الحركة ـ لكي تتم محاصرة الفكر الإسلامي ـ عملية نقل التراث الإسلامي من البـــلاد العربية والإسلامية بواسطة القناصل والتجار ، وهي عملية استيلاء مكملة لما تمّ في الأندلس من سيطرة على الجامعات والمعاهد وإخراج المسلمين منها ، على الرغم من قاعـدة المسلمين الأساسية الواضحة التي كانت تؤمن بأن العلم للجميــع ، حق العلم التجريبي ، وليس من أسرار الأمم كما تصنع الدول الحديثـــة لتحول دون المسلمين خلال قرن ونصف قرن من الحصول على أصوله ومعادلاته مع أنهم هم الذين وضعوا أسسه وقواعده وساهموا في بناء ركائزه ومقوماته .

لقد كان المسلمون في جامعات الأندلس وصقلية يفتحون كل الأبواب للعلم ولا يردون غريباً عنه ، إيماناً بوصية دينهم ، غير ان الغرب في تناهي حقده وتعصبه لم يقف عنـد حد التوصل الى مفاتيح العلوم ، بل إنه صادر الموقع الإسلامي كله وأخرج منه أهله إخراجاً ، وسيطر على كل المقدرات العلمية ثم ادعاها لنفسه وأعلن تبجحاً ولؤمــاً وخسة بأن المسلمين لم يكن لهم أي دور في بناء العلوم . وقد صادر كل ما كـان في أيدي المسلمين حين أخرجوا من بلادهم الى الحد الذي أعجزهم عن ان يستأنفوا تجاربهم في الارض العربية التي هاجروا اليها .

ولقد كانت نصيحة لويس التاسع ووثيقته التاريخية تدعو الى هذا الاتجاه وترسم خطواته .

لقد بلغ لويس التاسع درجة القداسة في نظر الغرب لأنه حارب من اجل إخضاع المسلمين فهزم في مصر وقتل في تونس ، وإذا كانت الحملات الصليبية قد توقفت منذ استعاد المسلمون ( عكا ) بقيادة الأشرف خليل عام ( ٦٩٠ هجرية ١٢٩١ ميلادية ) وعلى أثر ذلك قامت الدولة العثمانية الكبرى بعد تسع سنوات من سقوط الحروب الصليبية وهزيمة أوربا وانحسارها عن بلاد الإسلام، هذه الدولة التي استمرت قائمة تحمي لواء الإسلام وتذود عن كيانه حتى عام ١٢٣٧ هجرية الموازية لعام ١٩١٨ الميلادي أي انها استمرت تحمل لواء الإسلام خمسة قرون ونصف القرن .

نقول : إذا كانت الحملات الصليبية قد توقفت منذ عام ٦٩٠ هجرية فإن أوربا لم تتوقف ، فقد بدأت حركتها كرة اخرى بعد وقت قصير حين تدافعت بعد سقوط الأندلس على الطريق الإسلامي الإفريقي من ناحية الغرب دون توقف: الاسبان والبرتغال ومن ورائهم الإنجليز والفرنسيون والهولنديون.

أما في أفق البلاد العربية فقد كان عام ١٧٩٨ هو علامة الخطر حين بدأت فرنسا في غزو مصر ولم تمر غير سنوات قليلة حتى كانت الحملة على الجزائر ، ومنها امتدت الى تونس فمصر والسودان ، ومنذ ذلك اليوم أخذت طلائع التبشير تظهر ، وطفقت حركة الاستشراق تزدهر ، وكانت بؤرة العمل هي ساحل البحر الأبيض الشرقي والجنوبي في مواجهة الشام من ناحية واستانبول من ناحية ومصر والجزائر من كل ناحية ونقلت المطابع وبدأت الإرساليات ، وتصارعت قوى البروتستانت الأمريكية وقوى الكاثوليك الفرنسية وتنافست على استيعاب أبناء المسلمين، ثم جاءت حكومات الاستعمار في كل البلاد العربية فأخذت مناهج مدارس الإرساليات ونفذتها توا .

وفي عديد من مصادر تاريخ اللقاء بين الإسلام والغرب نجد إشارة الى وصية لويس التاسع الذي كان أول من أشار الى تجنيد المبشرين في معركة

الكلمة لمحاربة تعاليم الإسلام ووقف انتشاره ثم القضاء عليه معنوياً واعتبار هؤلاء المبشرين في تلك المعركة جنوداً للغرب .

ومنذ ذلك الوقت اختيرت قاعدة العمل في قلب البلاد العربية واتخذت نقطة ارتكاز ومعقلاً لمعركة العقائدية والفكرية التي تستهدف حصار الإسلام والوثوب عليه، وقد اختيرت هذه الأراضي الممتدة على شاطىء البحر الأبيض الشرقي مسرحاً لهذا العمل منذ ذلك الوقت وتحركت أطراف العمل بين بيروت والقاهرة والقسطنطينية ؛ وفي نفس الوقت كان هناك عمل مماثل يتحرك في تونس والجزائر ومراكش وأعمال اخرى في مختلف اجزاء العالم الإسلامي وفي جاوه واندونيسيا والفيليبين .

ولقد سجل أحد الباحثين المشتغلين بالتبشير في أكبر مؤسساته هذه الظاهرة تسجيلاً صريحاً لا يدع معه مجالاً للشك الذي قد يراود بعض حسني الظن في صحة هذا المخطط وصدق الإرادة في العمل له .

ويصور ( نبيه أمين فارس ) خطة لويس التاسع ومداها في عبارات واضحة صريحة ؛ يقول :

« بينما كان الشرق الأدنى مطمحاً لأفكار بناة الامبراطوريات كان ايضاً مطمح انظار جماعة اخرى من الناس تنشد ان تنجز عن طريق الكلمة ما عجز اجدادها الصليبيون عن تحقيقه عن طريق السيف . وبعبارة اخرى تنشد احتلال مهد المسيحية وإخضاع العالم كله للمسيح. إن هذا الحلم المسيحي قديم قدم المسيحية ذاتها ، وهو يستمد وحيه الدائم من الوصية التي سجلها أول المبشرين: (القديس لويس) ولعل سبب سيطرة هذه الوصية كرة اخرى على عقول المسيحيين يعود الى اليقظة الدينية التي عمت انكلترا في اواخر القرن الثامن عشر واليقظة الدينية المقابلة لها في الولايات المتحدة التي تمثلت فيما سمي بروح انكلترا الجديدة . وعلى ذلك فقد شهدت السنوات الاخيرة من

القرن الثامن عشر والسنوات الاولى من القرن التاسع عشر ظهور كثير من الجمعيات التبشيرية التي كرست نفسها لحمل الإنجيل الى جميع البشر ، ويمكن ان يضاف الى هذين العاملين عامل آخر هو ازدياد المطامع السياسية والاقتصادية في ممتلكات رجل أوربا المريض (يقصد الدولة العثمانية الإسلامية). ومن المحتمل ان يكون لهذا العامل الأخير علاقة باختيار الشرق الأدنى ميداناً مفضلاً للنشاط التبشيري » .

وهكذا نجد نصاً صريحاً واضحاً يكشف عن آثار وصية لويس التاسع التي دعت الى استعمال الكلمة بدلاً من السيف في السيطرة على عالم الإسلام وقد كان ذلك عام ٦٤٧ هجرية تقريباً. وقد أشار كثيرون الى وصية لويس: يقول رينيه جروسيه مؤرخ الحروب الصليبية « إن الملك لويس التاسع هو في مقدمة ساسة الغرب الذين وضعوا للغرب الخطوط الرئيسية لسياسة جديدة» وان هذه السياسة تتمثل في تحويل الحملات الصليبية العسكرية الى حملات صليبية سلمية تستهدف الغرض نفسه وان يكون أحد اسلحة الحملات الجديدة هو الدس بين العرب وإثارة الخلافات والعمل على بقاء نارها مستعرة بين الأمراء المسلمين . ومن أهم أسلحة الحملة الجديدة تجنيد المبشرين الغربيين في معركة سلمية لمحاربة تعاليم الإسلام ووقف انتشاره والقضاء عليه معنوياً واعتبار هؤلاء المبشرين في تلك المعارك جنوداً للغرب ، كما دعا الى استخدام من يمكن إغراؤهم من مسلمي الشرق في تنفيذ سياسة الغرب ، وإنشاء قاعدة للغرب في قلب الشرق العربي تكون بمثابة نقطة ارتكاز له ولدعوته السياسية والدينية ؛ ومنها يمكن حصار الإسلام والوثوب عليه »[1] .

---

(١) راجع محمد علي الغتيت : كتاب الشرق والغرب من الحروب الصليبية الى حرب السويس ( المرحلة الاولى ) .

# البَابُ الأوّل

# الغزو التربويّ والتعليميّ والثقافيّ

# الفصل الأول

## مدارس الارساليات

بدأ الغزو التربوي والتعليمي والثقافي للعالم الإسلامي من نقطة واحدة هي « مدرسة الإرساليات » وامتد منهـــا الى الجامعة ، ثم امتد من الجامعة الى الصحافة ومجالات الثقافة المختلفة .

لقد اتخذت الإرساليات التبشيرية بنـــاء على وصية لويس التاسع خطواتها في أوربا للعمل في مواجهة الإسلام عن طريق الكلمة ثم اختارت الموقع الذي جعلته نقطـــة ارتكاز وانطلاق لدعوتها في بيروت التي أعدت لذلك إعداداً سياسياً واجتماعياً واضحاً .

ثم تقدمت الإرساليات على خطين : خط الإرساليـــات البروتستانتية الأمريكية ، وخط الإرساليات الكاثوليكية الفرنسية ، ومن ثم وضعت فلسفة تربوية غربية تتراوح بين مذهبين مختلفين : هما في الأصل يستمدان أساسها من المسيحية الغربية ولكنهما يختلفان في الطريقة ويصلان في الغـــاية الى هدف واحد هو استيعاب الشباب العربي والمسلم واحتواؤه وتعليمه على نحو يجعله يداً من ايدي القوة الغربية وعيناً من عيونها .

ومن الناحية التاريخية يمكن القول إن بداية الغزو الغربي في مجال التربية والتعليم والثقافة بدأ في مصر بعد الحملة الفرنسية مباشرة وفي خلال حكم محمد علي وعن طريق الخبراء الذين استقدمهم هذا الوالي ، وكانوا من رجال الثورة الفرنسية ولهم مفاهيمهم التي صاغتها هذه الثورة وفرضتها على فرنسا كمقدمة تفرضها على أوربا جميعاً وعلى الفكر العربي كله .

ومن انطلاقة محمد علي الى سوريا وانحساره عنها كانت القوى الراصدة قد أعدت نفسها للعمل ، ووضعت لبنان في الظروف التي هيأته للانفصال عن الدولة العثمانية ١٨٦٠ واستقلاله ومن قبل ذلك كانت بعثات التبشير قد ارتادته وأعدت خططها ، وفي الجزائر كانت بعثات التبشير قد بدأت مع الاحتلال ١٨٤٨ تقريباً، أما في مصر فقد جاءت فيعصر اسماعيل واستطاعت ان تحصل على الأراضي والمعونات وتركز نفسها كمقدمة لدورها بعد الاحتلال ١٨٨٢ . وهكذا انتشرت الخطة في رواق العالم الإسلامي كله وتأهلت للعمل الذي تركز اولاً واخيراً في السيطرة على التربية والتعليم ثم الثقافة من اجل احتواء الأجيال وإعدادها .

وعندما سيطر الاحتلال كانت مناهج مدارس الإرساليات سواء في استانبول أو بيروت أو القاهرة هي الخطط الأساسية التي نقلت الى المدارس الوطنية مع تعديلات يسيرة .

وعندما خرّجت جامعات الإرساليات في بيروت أول افواجها بعثت هذه الأفواج الى مصر والى شمال افريقيا كله لتحمل لواء الصحافة . وليس بعجيب ان تكون الصحافة العربية كلها من إخراج المارونيين خريجي الجامعة الأمريكية وجامعة القديس يوسف .

وحتى نقف على ارض صلبة في مجال البحث نشير الى ما أورده ( نبيه أمين فارس ) في وثيقته التاريخية [١] التي كشف فيها عن خطة لويس التاسع

---

(١) مجمع الابحاث : ايلول ١٩٥٨ م ١١ ص ٣٨٣ .

التي اتجهت اليها القوى الاستعمارية واتخذتها اسلوباً للعمل ؛ يقول :

من أهم الجمعيـات التبشيرية التي ظهرت في هـــذه الفترة الجمعية التبشيرية الكنسية التي أسست في لنــدن ١٧٩٩ والمجلس الأمريكي لمندوبي البعثات التبشيرية، وقد أرسل المجلس الأمريكي بعد تسع سنين من تأسيسه أول مبشريه الى الشرق الأدنى . و كانت المشكلة الاولى التي واجهت اولئـــك المبشرين هي اختيار مركز ملائم لهم . وقــدم سوريا عام ١٨٢٣ مبشران آخران وانتقلوا الى بيروت ، وكان غرض البروتستانتيين ان يتمكنوا بالاشتراك مع كنائس الشرق الناهضة من كسب الكفار الى دين المسيح ، غير أنهم سرعان ما وجدوا ان الإسلام لم يكن قد فقــد سيطرته على قلوب المؤمنين . وصمم المبشرون منذ البداءة على استعمال الكلمة حيث فشل استعمال السيف . وفي سبيل هذه الغاية أسسوا المطبعة الأمريكية اولاً في مالطة ١٨٢٢ ثم في بيروت ١٨٣٤ ، وأخــذوا يفتحون مدارس للبنين والبنات بصورة منتظمة حتى بلغ عدد هذه المدارس ثلاثاً وثلاثين في أقــل من هذا العدد من السنين ، وعكفوا على إنجاز تلك المهمة العظيمة : مهمة إعداد ترجمــــة عربية صالحة مقروءة للتوراة ، وعدوا فوق ذلك حمــل لواء الحرية الدينية بصورة خاصة والمطلقة بصورة عامة ا.هـ .

ذلك هو المدخل الى مخطط غزو العقل العربي الإسلامي والنفس العربية الإسلامية عن طريق الكلمة وهو مدخل إن بدا يسيرا في هذه الفترة فإنه قد اتسع من بعد حتى سيطر على مختلف اجهزة التعليم والتربية والثقافة واحتوى الجامعات العربية والمدارس بأنواعها وحول مجرى الأمة كلها الى تبعية خطيرة .

## (٢)

يعدّ عام ١٨٦٥ علامة على بدء تنفيذ الخطة في بيروت بإنشاء أول مؤسسة ضخمة في قلب الوطن العربي يبدأ منها تاريخ الإرساليات :

يقول برهان الدجاني في بحثه المطول [١] : الجامعة الأمريكية في بيروت كانت تحمل اسم الكلية السورية الإنجيلية ، وكانت تعتبر عملها رسالة تبشيرية غايتها نشر المسيحية بالمذهب البروتستانتي ، ثم يقول الباحث : علمت المدرسة بالتجربة أن تأكيد الناحية التبشيرية من عملها قد ضيق حقل هـذا العمل بحيث أصبحت لا تجتذب سوى قسم من ابناء المجتمع العربي وأصبحت علاقاتها بالأقسام الاخرى تتسم بشيء من التوتر ، فالعلم يفرض ان يطلب لذاته لما في جوهره من حقيقة لا تفرض غير العـلم نفسه (ومن ثم) غيرت الجامعة اسمها التبشيري وتنازلت عن مهمتها التبشيرية الخاصة مع احتفاظها ببعض الاشكال الموروثة عن ذلك العهد التبشيري ( وهي بذلك ) تتميز عن الجامعة الغربية الثانية في الوطن العربي [ جامعة القديس يوسف ] بانها بروتستانتية المذهب انكلو سكسونية الاتجاه الفكري ، بينما تلك كاثوليكية المذهب لاتينية الفكر ، اصبحت تختلف عنها ايضاً من حيث التكوين فاتجهت الجامعة الأمريكية الى المجتمع العربي كله (ومن ثم) حلّ التعليم الحر محل الرسالة التبشيرية .

---

(١) البحث نشر في صحيفة الجامعة الرسمية ( الابحاث ) ١٩٥٤ .

«فالجامعة الأمريكية مؤسسة خاصة وهــذا سر تفوقها على المؤسسات الحكومية وقد أخذت عنها الجامعات الوطنية تراثها وايضاً مناهجها» .

ويشير نبيه أمين فارس الى تاريخ الجامعة الأمريكية فيقول : لقد رافقت الجامعة المتاعب السياسية خـلال الاستبداد الحميدي وعصبية رجال تركيا الفتاة هذا بالإضافة الى (المنافسة التي تواجهها الجامعة من قبل اختها الصغرى: جامعة القديس يوسف الجزويتية في بيروت ومن قبـل سبع جامعات وطنية في مختلف البلاد العربية منذ الحرب الاولى ) . ويقول « لقـد ظلت الجامعة الأمريكية في بيروت حتى نهاية الحرب العالمية الاولى هي المثالية الوحيدة في العالم العربي للثقافة الجامعية الغربية عامة والأنكلو سكسونية خاصة وكانت منافستها الوحيدة هي جامعة القديس يوسف » .

فمنذعام ١٨٦٥ الى ١٩١٨ وهي نهاية الحرب العالمية الاولى كانت الإرساليتان الفرنسية والأمريكية تعمـلان في بيروت أي خـلال فترة لا تقل عن خمسين عاماً وهما تقتسمان الشباب المتعـلم وتتوزعانه قبل ان تكون هناك جامعة عربية .

وقد أكدت الجامعة الأمريكية خطتها عـام ١٨٧١ على لسان راعيها (دانيال بلس) حين قال : [ إن هذه الكلية مفتحة الأبواب لكل الناس على اختلاف ظروفهم وطبقاتهم دون أي اعتبار للون أو لتــابعية أو لجنس أو لدين ، وبإمكان كل إنسان سواء كان أبيض أم اسود أم اصفر ، سواء كان مسيحياً أم يهودياً أم محمدياً أم وثنياً ان يدخل هذه الكلية ويتمتع بكل ما تقدمه هذه المؤسسة من خدمات مــدة ثلاث أو اربع أو ثمان من السنين ، ويخرج منها مؤمناً بإله واحــد أو بآلهة عديدين أو غير مؤمن بأي إله ، ولكن يستحيل على أي إنسان ان يعيش بيننا مـدة متطاولة من الزمن دون ان يعرف ما هي الحقيقة التي نؤمن بها وما هي أدلتنا وحججنا التي نبني على أساسها إيماننا هذا » .

ثم يصل نبيه أمين فارس من إيراد هذا النص الى القول : بأن الجامعة الأمريكية هي في وقت واحد : مسيحية وأمريكية وعربية .

فهي (مسيحية) من حيث إنها كانت ولا تزال تعبيراً حياً عن الخدمة والتضحية المسيحية ومن حيث سعيها لخدمة الله عن طريق خدمة عباده .

وهي (أمريكية) من حيث كون معظم ماليتها تعتمد على المساعدات الأمريكية بل لكونها التعبير الحي عن خير ما في التراث الأمريكي من مثل عليا أساسها خدمة المجتمع وإشراك البشرية في الخيرات التي ينعم بها الأمريكي.

وهي ( عربية ) ليس من حيث وجودها في بلد عربي بل لأنها كرست حياتها لكيما يكون للعرب حياة ولكي تكون حياتهم أفضل [١] .

ويشير الاستاذ نبيه أمين فارس الى ان مدارس الإرساليات التي بدأت في لبنان كانت فرصة للمنافسة الضخمة بين البروتستانت والجزويت وان إحدى ثمرات هذا العمل ( الجمعية العلمية السورية ) التي نشأت في احضان الجامعة الأمريكية وفيها دوت الصرخة الاولى للقومية العربية ، وسرعان ما انبرى الجزويت الى تقليد البروتستانت في ميدان الجمعيات العلمية كما قلدوهم في إنشاء المدارس فأسسوا الجمعية الشرقية وهناك كذلك ترجمة التوراة الى اللغة العربية التي بدأها الأمريكان ١٨٣٧ ونشروها كاملة عام ١٨٦٥ .

وأشار الكاتب الى ان الجامعة الأمريكية منذ ١٨٧٠ حتى ١٩٥٨ خرجت ٧٥٠٠ خريج منهم ١٤٠٠ طبيب ومنهم رؤساء وزارات واساتذة وقضاة وأطباء وسياسيون وصحفيون في جميع ارجاء البلاد العربية.

وان بها عام ١٩٥٨ ٣,٣٠٠ طالب يمثلون خمسين جنسية مختلفة كما يمثلون اربعين طائفة دينية وعدد الطالبات نحو عشر عدد الطلاب جميعاً .

---

(١) مجلة الابحاث الصادرة عن الجامعة الامريكية ١٩٥٨ .

ويشير الاستاذ حسن فروخ في محاضرة له عن أثر لبنان في ميدان التربية والتعليم الى أثر إنشاء المدرسة المارونيـة في روما عام ١٥٨٤ وقد تخرج فيها عدد كبير من اللبنانيين الذين كان لهم أثرهم في بناء النهضة العامـة وأشار الى ان عدد المرسلين تكاثر في لبنان بعد عام ١٨٤٠ حيث هبط بيروت عدد من الأدباء ، وقد حدث هـذا في ثلاثين سنة قبل ان يصبح لبنان متصرفية عام ١٨٦١ أما بعد ذلك والى ان أصبحت بيروت ولاية عام ١٨٨٥ فقد تطورت النهضة وبقي فضـل السبق لبيروت ، وكان الفضل في النهضة للمرسلين اولاً ثم لطائفة من الوطنيين اتصلوا بالمرسلين .

وأشار الأستاذ فروخ الى ان عدد المدارس التي انشأها المرسلون في لبنان بلغ مـائتي مدرسة مـا بين أمريكية وفرنسية وانكليزية وروسية والمانية وإيطالية وأقـدم المدارس عمراً : مدرسة عينطورة وأشار الى أهم مدرستين وهما : مدرسة القديس يوسف التي تعرف الآن بالجامعة اليسوعية وقد انشأها المرسلون اليسوعيون فيغزير عام ١٧٤٨ ثم نقلوها الى بيروت ١٨٧٤ والمدرسة السورية الإنجيلية والتي تعرف الآن بالجامعة الأمريكية وقد انشأها المرسلون الأمريكيون في بيروت عام ١٨٦٦ .

(٣)

انتشرت مدارس الإرساليات في مختلف اجزاء العالم الاسلامي بحجة أنها مدارس للنشء الأجنبي من أبناء الجاليات الوافدة ، فأصبح في كل قطر عديد من المدارس الفرنسية والانجليزية والألمانية والهولندية والإيطالية . تحت اسماء الجزويت والفرير واللاييك والأمريكان واليسوعيين .

وفي لبنان مدارس أمريكية واخرى فرنسية ، وفي مصر مدارس كاثوليكية واخرى بروتستانتية ، وقد بدأت هـذه المدارس دينية صرفة ثم تحولت الى علمانية نتيجة تحول التعليم الغربي نفسه بعـد الثورة الفرنسية من ديني الى علماني ، ولقد كانت هـذه المدارس تدرس تاريخ بلادها ولغاتها فلا يعرف التلميذ في المدرسة الإنجليزية إلا إنجلترا وجغرافيتها واقتصادياتها ، وقد تدرجت هذه المدارس من الأصغر الى الأكبر حتى أصبح لها جامعات ومدارس عليا ، وفي مصر كانت مدارس الفرير والراهبات والجزويت والليسيه ؛ وكلها تابعة لفرنسا . وقد بلغت الارساليات في فترة مـا بين عام ١٨٤٤ وعام ١٩٤٣ [ ٢٣ إرسالية ] باسم الراهبات و ٣٥ مدرسة للفرير ، بالإضافة الى كلية سانت كاترين وكلية سان مارك .

وقد ساعدهم الواليان سعيد وإسماعيل بالمال والأرض وأباحا لهم الاستيراد من الخارج دون أيّ ضرائب جمركية .

وكان ملوك فرنسا يتدخلون شخصياً من أجل دعم هذه المدارس كما حدث لإنشاء مدارس الجزويت عام ١٨٧٩ بنفوذ الملك لويس الرابع عشر فضلاً عن مساعدة نابليون الثالث الى مدارس سان جوزيف .

ولما غيرت فرنسا نظام التعليم عام ١٩٠٤ ، وأبعد عنه رجال الدين سمح لهؤلاء بالسفر الى الشرق للتبشير ، فوصل عدد كبير منهم الى مصر والشام ودعموا مدارس الليسيه والفرير والجزويت ثم أنشىء المعهد الفرنسي للآثار الشرقية عام ١٩٠٨ .

وقد أحصيت مدارس الإرساليات الانجليزية فوجدت ٢٤ مدرسة تابعة للبروتستانت والكاثوليك بالإضافة الى كلية فكتوريا ( المعادي ) وفكتوريا (الاسكندرية) وكلية البنات الإنجليزية بالإسكندرية والكلية الأسقفية .

وبدأ النشاط الأمريكي عام ١٨٥٥ بهدف نشر المذهب البروتستانتي، وقد بلغت عام ١٩٥٨ ٨٤٧١ مدرسة وبها ١٠٩ آلاف تلميذ بالإضافة الى مدرسة البنات الأمريكية ( ١٨٦٠ ) وكلية البنات ( ١٩٠٩ ) والجامعة الأمريكية (١٩١٩) وكلية أسيوط ١٨٦٥ ومدرسة البنات بأسيوط ١٨٧٩ .

وهكذا تجمعت خيوط التعليم الأجنبي في مصر قبل الاحتلال البريطاني عن طريق الإرساليات مستهدفة تحقيق نفس الغاية .

يقول الاستاذ جرجس سلامة في كتابه تاريخ التعليم الأجنبي في مصر :

« إن الباحث في تاريخ التعليم الأجنبي في مصر منذ بدايته في القرن السابع عشر يجد ان هذا النوع بدأ لأغراض دينية بحتة ، حيث كانت البابوية تستهدف نشر نفوذها في الشرق وفي مصر خاصة وإخضاع الأقلية القبطية الأرثوذكسية في مصر لرئاستها ، وقد قوبلت هذه الإرساليات جميعاً من المسلمين بالإعراض التام. ثم نشطت الإرساليات للقيام بأعمال اجتماعية وصحية لتجتذب الناس وتستميلهم اليها فأنشأت المستشفيات والمصحات وقامت

بالخدمة – مستشفى هرمل والسبع بنـــات – .. وكانت الظروف العامة تساعد على تمكين التعليم الأجنبي في مصر ورسوخ أقدامه إذ إنـه وفد الى مصر في وقت كانت فيه الدولة العثمانية فيه ضعيفة بوجه عام، وكانت إنجلترا وفرنسا تتمعان بالامتيازات الأجنبية وعقدت أمريكا هي الاخرى معـاهدة التجارة والملاحة مع الدولة العثمانية في بداية القرن التاسع عشر وانشأت لها قنصلية في مصر .

« ومنذ الحملة الفرنسية على مصر في نهاية القرن الثامن عشر خرجت مصر من عزلتها وبدأت انظار العالم تتجه اليها ، وبدأت الدول الغربية تطمع في زيادة نفوذها بهـا ، وساعد على ذلك ان حكام مصر كانوا يسترضون الدول الأوربية ورعـاياها بشق الطرق ، وظهرت هـذه الحقيقة بشكل واضح بعد معاهدة لندن ١٨٤٠ التي فرضت على مصر وصاية دولية .

« وقد بذل سعيد وإسماعيل جهــداً كبيراً في إرضـاء الدول الأوربية وتشجيع رعاياها ( من اجل مركز الباشوية المصرية ) الذي لا يمكن حدوثه إلا بموافقة الدول الغربيـــة وكان من مظاهر هذا تشجيع المدارس الاجنبية ومنحها المنح والهبات .

« وبدأ المسلمون يلتحقون بهـذه المدارس بالتدريج ، خاصة الطبقة العليا التي كانت ترغب في ان ترسل ابناءها للتعلم في مدارس غير المدارس الحكومية التي يتعلم بها عامة الشعب ووجدوا في المدارس الأجنبية المجال الذي يمكنهم من تحقيق ذلك » .

(٤)

ولقد زادت هذه الإرساليات عمقاً وقوة بعد الاحتلال البريطاني لمصر عام ١٨٨٢ ، فقد زادت الوفود الأجنبية واتسع نطاقها حتى انه بينما وفد الى مصر قبل الاحتلال خمس ارساليات كاثوليكية نسائية في الفترة ما بين ١٨٤٤ – ١٨٨١ فإنه قد وفد الى مصر بعد الاحتلال ثماني عشرة إرسالية نسائية بين عامي ١٨٨٢–١٩٤٣ ، كذلك تم إنشاء ٣٠ مدرسة للفرير بعد الاحتلال. وقد ساعد على هذا ان الاتفاقية التي وقعتها بريطانيا وفرنسا عام ١٩٠٤ والتي عرفت بالاتفاق الودي نصت على ان تتمتع المدارس الفرنسية في مصر بنفس الحرية التي كانت تتمتع بها في الماضي [١] وقد ظل التعليم الفرنسي اكثر انواع التعليم الأجنبي انتشاراً حتى بعد الاحتلال البريطاني كانت الارساليات التي تمثل التعليم الأجنبي وتعليم الجاليات في وقت واحد مستقلة ومنعزلة عن رقابة الدولة حتى أصبحت دولة داخل الدولة [٢] وظل ذلك التعليم يوجه النشء الوجهة التي يراها ويصبغهم بالصبغة التي يريدها دون إشراف فعلي من الدولة عليه ، واستقطب هذا التعليم وهذه المدارس الطبقة الغنية الأرستقراطية في البلاد [٣] التي

---

(١) تاريخ التعليم الاجنبي في مصر .

(٢) تاريخ التعليم الاجنبي في مصر .

(٣) تاريخ التعليم الاجنبي في مصر .

تستطيع ان تدفع المصاريف ؛ مما خلق طبقة ارستقراطية ثقافية تعلمت بهذه المدارس وكانت تسير امور هـذا البلد مما زاد في نفوذ هذا النوع من التعليم الى حد كبير .

وقـد سهل تحرر الإرساليات من رقابة الدولة أو إشراف الحكومة على القائمين بهذا النوع من التعليم ان يستخدموا مدارسهم للدعاية لبلادهم وتوجيه النشء وجهة خاصة دون ما رقابة من الدولة. ولذلك كانت الكتب المستعملة في هذه المدارس مليئة بالإشارات الى عظمة هذه الدولة التي تتبعها المدرسة ، بل بلغ الأمر الى حد ان اشتملت بعض الكتب المستعملة على معلومات خاطئة مضللة عن مصر والعرب والإسلام .

ومن هنا فقد ساهمت هذه المدارس في خلق جيل من أجيال الأمة له ولاء خاص لتبعية هـذه المدرسة أو تلك ، وكانت أبرز الأخطار المتصلة بمدارس الإرساليات هي :

أولاً : إغفال اللغة العربية وهي لغة البلاد القومية ، وكان من الضروري إتقان لغة أجنبية على حساب اللغة العربية ، هذا بالإضافة الى ما كانت توصم به هذه اللغة من نقص وضعف ، بينما لا توجد أي دولة في العالم تترك ابناءها يتعلمون لغة أجنبية منذ سن الرابعة قبل ان يتعلموا لغة البلاد الأصلية .

ثانياً : أسهمت هذه المدارس في تلقين ابنائنا تاريخ أوربا والدول الأجنبية المختلفة وحرمتهم في نفس الوقت من تاريخهم القومي والعربي والإسلامي .

ثالثاً : كانت هـذه المدارس تتجاوب مع رغبات وتوجيهات سفاراتها ودولها بل إن مجالس إدارة أغلب هذه المدارس كان يرأسها السفراء والقناصل ، وكان مجلس إدارة كلية فيكتوريا الإنجليزية يرأسه السفير البريطاني .

رابعاً : خلا هذا التعليم من رعـاية دين وأخلاق ابناء البلاد ، بل كان له

الاتجاه العكسي المؤدي الى الشعور بالتحلل ، كما انـه خلق نوعاً من الطبقة المستعلية على طبقات المسلمين في المدارس الوطنية ، وكانت نظرتهم الى اللغة والى الأمـة نفس النظرة « لا يختلطون بالشعب ولا يحسون بإحساس البلاد لأنهم لم يدرسوا مشاكلها ولم يتمرسوا على مشاركة الوطن مشاعره وأحاسيسه»[1].

خامساً : كان له أثره البعيد في تفكك الأسرة حيث تجد العائلة الواحدة مقسمة بين ثقافات متعددة : أمريكية وفرنسية وإنجليزية ، ووطنية ؛ ومن هنا فقد كان لكل فرد تفكيره الخـاص وفلسفته الخاصة ونظرته المختلفة الى الأمور .

ومما يتصل بتعليم مدارس الإرساليات نذكر ان هذه المدارس قد شكلت في ثقافة الطالب العربي المسلم مفاهيم خاطئة بما يتناسب مع اتجاهاتها واهوائها سواء أكانت دينية أم سياسية. وقد كانت الكتب المدرسية المقررة موضوعة بطريقة استعمارية ، وكان قوام هذه المعلومات : مصر بلد زراعي، مصر بلد مستعمر على مدى التاريخ، لا علاقة بين المصريين والعرب، الغرب هو مصدر النور وهو صـاحب الجنس الأبيض ، التعليم الإسلامي متأخر ، العرب بدو ورحل والاسلام دين صحراوي وهو سر تأخر المصريين .

الى غير ذلك من الشبهات والأكاذيب .

وقد كان التركيز في مدارس الإرساليات على ابناء الطبقة الراقية وبناتها وكانت مدرسة البنات العليا الانجليزية وبون باستور والفرنسيسكان تحفل ببنات الأعيان والوزراء وكان يتحتم على ابناء وبنات المسلمين الاشتراك في الصلاة ، وقد اشارت المدرّسة أنا مليجان الى هذا المعنى حين قالت :

في صفوف كلية البنات في القاهرة بنات آباؤهن باشوات وبكوات وليس

---

(١) المصدر السابق بتصرف .

ثمة مكان آخر ممكن ان يجتمع فيه مثل هـذا العدد من البنات المسلمات تحت النفوذ المسيحي وليس ثمـة طريق الى حصن الاسلام أقصر مسافة من مدرسة البنات .

وهم يستهوون الاطفال بالحلوى والكبار بشرائط الفانوس السحري، وان أول هم المدرس المبشر في مدارس الإرساليات (كما يقول الاستاذ حسين محمود) هو هدم الاعتقاد في تلميذه فيصبح الطالب مستخفاً بالمعتقدات ، أما خطوته الثانية فهي محاولة غرس تعاليم جديدة في ارض لم تعد تصلح للاعتقاد ؛ إن أشد النتائج فظاعة هو حض المبشرين للطلبة على المراءاة، فالأخلاق المسيحية كما يسميها المبشرون هي مقياس الاستقامة التي يتوقف عليها تمهيــد الطريق أمام الشباب الراغب في النجــاح المدرسي . إن قولي ذات مرة أنا لا أوافق على الأخلاق المسيحية في مناقشة مع مدير المدرسة وكان يحثني على التمسك بها كاد يدخلني مستشفى المجاذيب لشدة الاضطهاد الذي واجهته في وقت كنت فيه تحت رحمة المدرسة [١] .

وأصعب منهذا وأشد إذا حاول التلميذ المسلم ان يجيب إجابة فيها كرامة لدينه أو امتــه فإن ذلك يقضي عليه بالرسوب عاماً بعد عام حيث يوضع في قائمة سوداء .

وقد أشار الى هذا المعنى مؤتمر التبشير عام ١٩٢٤ حيث قال :

« في كل حقل من حقول العمل يجب ان يكون العمل موجهاً نحو النشء الصغير من المسلمين وموزعاً فـيا بينهم ليحيط بهم وليكونوا منه على صـــلة مباشرة ، ويجب ان يقــدم هذا على كل عمل سواه في الاقطار الإسلامية فإن تنور روح الإسلام في الناشىء الحديث يبتدىء باكراً من عمره فيجب والحالة

(١) الرابطة الشرقية : ١٥ يونيه ١٩٢٩ .

هذه ان يؤتى بالنسء الصغير من المسلمين قبل ان يتكامل نمو عقليتهم واخلاقهم حينئذ وتستعصي على المبشر » .

وهكذا تتركز سياسة الإرساليات في توجيـه العناية الى النشء الصغير لتشكيله قبل ان يشكله أهله في إطار الإسلام ، والى بذل أقصى الجهد في إدخال البنات المسلمات في الاقسام الداخلية حتى ينعزلن عن محيطهن الإسلامي ويشكلن في اطـار الصلاة المسيحية والأدعية ولا يخرجن من المدرسة إلا بعد ان يكنّ قـد انطبعن بطابع الحياة الغربية وروح العقيدة المسيحية . هذه الفتاة هي التي ستكون زوجة مسلمة من بعد وستربي الجيل الجديد .

## (٥)

استطاعت الإرساليات في مصر في الثلاثينات ان تقوم بحركة ضخمة للتبشير بين المسلمين في مصر ، وأجبر عدد كبير من الشباب على ترك دينه ، وجرت تحقيقات قضائية حول وقائع متعددة وحوادث متصلة وصدرت احكام قضائية لم تنفذ ، واشارت الصحف المصرية الى ذلك في حينه ، واحتج وزير أمريكا المفوض في مصر على موقف الصحف المصرية إزاء حوادث التبشير ، وأشارت الصحف الى ان معاهد الإرساليات تفلت دائماً من العقوبة لأنهم أجانب لا يمتد اليهم سلطان القوانين المحلية ولأن سلطاتهم القنصلية توليهم عطفها وحمايتها ولأن معاهد التعليم الأجنبية – وكر هذه المحاولات – تتمتع في ظل الامتيازات الأجنبية بحصانة قوية (١) .

كما أشارت الصحف اكثر من مرة، الى كتب مقررة في مدارس الإرساليات تحوي طعناً في الإسلام وفي رسول الإسلام ومنها ما نشر عن كتاب الاجرومية الذي يدرس بمدارس الفرير عام ١٩٢٩ .

وأشارت الى كتاب ( Histoire Sainte ) أي التاريخ المقدس الذي يوزع على الفتيات المسلمات وفيه وصف شائن للنبي وان عقيدته هي مزيج

---

(١) الصحف ٢٨/١/١٩٣٢ .

جشع أو وحشي من اليهودية والنصرانية والوثنية وان هـــذه العقيدة ممثلة في القرآن الذي هو مجموعة إيحاءات مزعومة للنبي ، وقد كانت الصيحات تتوالى إثر كل حادث من هذه الأحداث ثم تنطفىء وتظل هذه الكتب تترك آثارها في الطلاب المسلمين والمسلمات .

وقـد أشار تقرير مطول عن التعليم في الإرساليات الى ان المؤسسات التبشيرية ( إنجليزية وإيرلندية والمانية وسويدية ودنمركية وأمريكية ) متفقة على وضع التوراة بين أيـدي الطلاب على انها كتاب تدريس أساسي وإجبار المسلمين على دخول كنيسة المدرسة مرة كل يوم .

وان العمل يجب ان يتم في مراحله المختلفة :

رياحين الاطفال هامة جداً والمدارس الداخلية تفصل المسلمين عن بيئاتهم الإسلامية وتعليم البنات له أثره الكبير . وفي المراحل الاولى يمكن التأثير على عقول الأطفال الغضة .

والتعليم العـالي يمكن من الوصول الى الطبقات المثقفة ممن سيكونون قادة الرأي في البلاد .

وهكذا يستخدم التعليم في تغيير تكوين النفس المسلمة والعقـــل المسلم وإفساد مفهوم الإسلام والعروبة والقرآن ومحمـــد وإقامة مفاهيم اخرى تعلو فيها قيم ليست هي قيم المسلمين والعرب ، وهكذا يتخـذ التعليم وسيلة الى استعباد الأفراد والامم ثم سوقهم الى التسليم بـل والإعجاب والحب للعدو الدخيل .

يقول هنري جب : إن التعليم في مدارس الارساليات المسيحية إنما هو واسطة الى غاية، هذه الغاية هي قيادة الناس الى المسيح وتعليمهم حتى يصبحوا افراداً مسيحيين ، وإن المدرسة شرط أساسي لنجاح التبشير ، وإن المدرسة

قوة لجعل الناشئين تحت تأثير التعليم المسيحي اكثر من كل قوة اخرى ، ثم ان هذا التأثير يستمر حتى يشمل اولئك الذين سيصبحون يوماً قادة في اوطانهم .

ويقول مستر بنروز رئيس جامعة بيروت : لقد أدى البرهان الى ان التعليم هو أثمن وسيلة استغلها المبشرون الأمريكيون في سعيهم لتنصير سوريا ولبنان .

ونشر لدفيك بزنهارد عام ١٩٠٥ مقالاً صور فيه الكلية السورية الانجيلية على أنها محاولة مدروسة لتمهيد الطريق أمام المصالح الأمريكية التجارية منها خاصة .

وقد احتضنت هذه الإرساليات الدعوة الى اللغة العامية مكتوبة بالحروف اللاتينية بالإضافة الى الأحلاف .

ويقول جون موت : إن مدارس الإرساليات لها رسالة وغاية قصوى ، هي ان تجعل الشعوب كلها في المستقبل تابعة للغرب وأوربا والكنيسة ، وإن المقصود الأول بالتبشير من طريق التعليم هم المسلمون .

وإنه يتحتم عند عرض الأديان ان يعرض الإسلام عرض عداء وخصومة واتهام للرسول والقرآن ، ولا نقف عند هذا ، بل نحاول ان نوقع الخصومة بين المسلمين والمسيحيين في الشرق باثارة حديث الحروب الصليبية وموقف كارل مارتل ، وينتهي بالإشارة الى ان قوة الهلال تقهقرت أمام راية الصليبيين وانتصار الإنجيل على القرآن .

وأن يشار دائماً الى ان الارساليات هي سبب النهضة الحديثة .

وقد وجه كثير من خريجي هذه الإرساليات الى ترجمة هذه الكتب المليئة بالأخطاء والأحقاد والشبهات لإذاعتها في عالم الإسلام ووضعها بين أيدي

الطلاب في مدارس الإرساليات والمدارس الأجنبية ثم سمح بها في الجامعات . ولطالما أذاعت الصحف أنباء عن كتب صودرت ثم اكتشف انها كانت بتوصية من تابعي معاهد الإرساليات وخريجيها .

ويتصل هذا بمن توفدهم الإرساليات الى بلاد الغرب ، وقد أوصى لويس ماسنيون على هؤلاء الطلاب حين قال : ان الطلاب الشرقيين الذين يأتون الى فرنسا يجب ان يلونوا بالمدنية المسيحية .

( ٦ )

في عام ١٩٠٦ عقد المؤتمر التبشيري في بيت احمد عرابي في القاهرة تحدياً وصلفاً وكان من ابرز قرارات المؤتمر : إنشاء مدرسة جامعة نصرانية تتولى كل الكنائس المسيحية الإنفاق عليها لتتمكن من مزاحمة الأزهر ، وأشارت التوصية إلى ما يأتي :

« ربما كانت العزة الإلهية قد دعتنا الى اختيار مصر مركز عمل لنا لنسرع بانشاء هذا المعهد المسيحي لتنصير الممالك الإسلامية » .

يقول الاستاذ جرجس سلامة في كتابه تاريخ التعليم الأجنبي في مصر :

« تكونت الجامعة الأمريكية في القاهرة على أساس الاتصال بالإرسالية وليس على أساس مستقل ، وذلك أنه لأسباب فنية أدخلت هيئة الإرساليات الأجنبية الجامعة الامريكية بالقاهرة في ميزانية [ Now World Movement Budget ] لتتمكن من إنجاز المشروع ، وبذلك ألحق مركز الدراسات للتدريب رجال الإرسالية بالجامعة الامريكية ، واصبح يسمى ( مدرسة الدراسات الشرقية ) حيث كان اثنان من رجال الإرسالية يدرسان بها .

وفي عام ١٩٢٢ رؤي أن تكون الجامعة مستقلة عن الإرسالية وأصبح لها كيانها الخاص . وقد تخرّج من الجامعة ثلاثة حصلوا على الليسانس عام ١٩٢٨ والتحقت أول طالبة حصلت على الليسانس ١٩٣١ وبدأ التعليم المختلط بالجامعة » .

وقد أشار التقرير العالمي الذي تقرر بناء عليه إنشاء الجامعة الأمريكية في القاهرة إلى أهمية وجود هذه الجامعة في مواجهة الأزهر الشريف ، كما أشار الى ذلك جرجس سلامة في كتابه حين قال : إن مجموعة من الرجال الخبراء قد طافوا العالم عام ١٩١٦ للدراسة واستقر رأيهم على أن القاهرة مركز استراتيجي هام لإنشاء هذه الجامعة ، ( ويذكر وطسون لماذا كانت القاهرة مركزاً لهذه الحضارة فيبين كيف أن الأزهر له القيادة الفكرية والاسلامية في العالم العربي ، ويقول إن شهادة من الأزهر بين العرب توازي شهادة الدكتوراه في اكسفورد أو باريس أو هارفارد في العالم الغربي ( ثم يقول ) إن القاهرة هي مركز الصحافة العربية ، وإن أكثر من مائة مليون نسخة من المجلات والجرائد تصدر سنوياً في القاهرة ، وإن مصر هي مركز اللغة العربية الفصحى التي تعد لغة جميع الدول العربية ، وعلى هذا الأساس استقر الرأي على إنشاء الجامعة الأمريكية بالقاهرة ) .

أما الدكتور وطسون فقد كانت له آراء خطيرة في مواجهة الاسلام ، وله كتاب كان مقرراً في الدراسة على الطلاب المسلمين تحت عنوان :

( حروب صليبية مسيحية في مصر )

ويعني بهذه الحروب الحملة التبشيرية ، وقد كتب في صدره :

أهديه لأمي وأبي اللذين قضيا حياتهما مبشرين في مصر .

ومن آرائه الخطيرة قوله : إننا نراقب سير القرآن في المدارس الاسلامية ونجد فيه الخطر الدائم . إن القرآن وتاريخ الاسلام هما الخطران العظيمان اللذان تخشاهما سياسة التبشير » .

وكانت له دعوته الى هدم القيم الاسلامية في نفوس الطلاب ، وقد سجل له محاولة الى ازدراء المبادىء الاسلامية والمعتقدات والقيم الاخلاقية ، وقد

أشار الى أنها آخذة في الانحلال والتفكك، ودعا الأجيال الناشئة الى تجاهلها وعدم الاهتمام بها؛ ولقد كان يصور وجهته وعمله حين قال :

« إن الجيل الناشيء الذي نتصل به نراه مهتماً كل الاهتمام لا بالاسلام ولكن بالمسائل المادية والإلحاد » .

ثم يقول : « ونحن نسر حين نستطيع أن نجعل فتى مسلماً يقبل مبادىء المسيحية ووحي المسيح » .

هكذا كانت مشاعر الارساليات واضحة صريحة تصدر في الصحف وتقال علناً .

وقد كشف عنها الطلاب المسلمون مرات ومرات .

في الجامعة الامريكية في بيروت عام ١٩٠٩ عندما اصدرت منشوراً رداً على احتجاج الطلاب المسلمين لإجبارهم على الدخول يومياً الى الكنيسة، قال المنشور :

« إن هذه كلية مسيحية أسست بأموال شعب مسيحي . هم اشتروا الأرض وأقاموا الأبنية وهم انشأوا المستشفى وجهزوه ولا يمكن للمؤسسة أن تستمر إذا لم يسندها هؤلاء . وكل هذا قد فعله هؤلاء ليوجدوا تعليماً يكون الانجيل من مواده فتعرض منافعه الحقيقية المسيحية على كل تلميذ، وكل طالب يدخل مؤسستنا يجب ان يعرف سابقاً ماذا يطلب منه . إن الكلية لم تؤسس للتعليم العلماني ولا لبث الاخلاق الحميدة ولكن من أولى غاياتها أن تعلم الحقائق الكبرى التي في التوراة، وأن تكون مركزاً للنور المسيحي وللتأثير المسيحي، وأن تخرج بذلك على الناس وتوصيهم به » .

ومثل هذا حدث عام ١٩٣٢ عندما وقف ( عبد القادر الحسيني ) بعد تخرجه من الجامعة الأمريكية في القاهرة فأعلن أن الطلاب يلزمون بالصلاة في الكنيسة وتقرر كتب تتهم الاسلام ورسوله والقرآن بتهم خطيرة . ولما

تصدى له رجال الجامعة واخرجوه نشر ذلك في الصحف ( وفي جريدة البلاغ ) التي نقلت صفحات بالزنكوغراف عما تحتويه هذه الكتب المقررة على التلاميذ المسلمين .

وإذا كان المسلمون قد كشفوا أخطار الارساليات والتعلم فيها فإن المسيحيين ايضاً قد تنبهوا لهذا الخطر وفي ما يصوره جبران خليل جبران مثل واضح لذلك . يقول :

« في سوريا كان التعليم يأتينا من الغرب بشكل الصدقة ، وقد كنا ولم نزل نلتهم ( خبز الصدقة ) لأننا جياع متضورون ولقد أحيانا ذلك الخبز ولما أحيانا أماتنا ، أحيانا لأنه أيقظ ( بعض ) مداركنا ونبه عقولنا (قليلاً) وأماتنا لأنه فرّق كلمتنا وأضعف وحدتنا وقطع روابطنا وأبعد ما بين طوائفنا حتى أصبحت بلادنا مجموعة معسكرات صغيرة مختلفة الأذواق متضاربة المشارب ، كل مستعمرة منها تشد في حبل إحدى الأمم الغربية وترفع لواءها وتترنم بمحاسنها وأمجادها ، فالشاب الذي تناول لقمة العلم من مدرسة أمريكية قد تحول بالطبع الى معتمد امريكي ، والشاب الذي يجرع رشفة من العلم من مدرسة يسوعية صار سفيراً فرنسياً ، والشاب الذي لبس قميصاً من نسيج مدرسة روسية اصبح ممثلاً لروسيا الى آخر ما هنالك من المدارس ومما تخرجه كل عام من الممثلين والمعتمدين والسفراء وأعظم دليل على ما تقدم اختلاف الآراء وتباين المنازع ، فالذين درسوا بعض العلوم باللغة الانجليزية يريدون أمريكا أو انجلترا وصية على بلادهم والذين درسوها بالفرنسية يطلبون فرنسا لتتولى أمرهم . وقد يكون ميلها الى الأمة التي تتعلم على نفقتها دليلاً على عاطفة الجميل في نفوس الشرقيين ولكن ما هذه العاطفة التي تبني حجراً في جهة واحدة وتهدم جداراً من الجهة الأخرى ؟ ما هذه العاطفة التي تستنبت زهرة وتقتلع غابة ؟ ما هذه العاطفة التي تحيينا يوماً وتميتنا دهراً ؟ »

ويصور ميخائيل نعيمة خطر الإرساليات فيقول :

« لقد عرفت سوريا غزاة كثيرين فلم يكن من شنار عليها وهي الضعيفة أن ترضخ لقوة فوق قوتها ، إلا انها منذ اواسط القرن الماضي اخذت مهداً لغزاة ما ألفت من قبلهم غزاة جاؤوا لا ليملكوا أجسامها بل ليقبضوا روحها فقد شنوا عليها الغارة بالتوراة والانجيل والريالات والعقاقير ، فكانوا اشد ضربة عليها من كل ما سبقهم ، افتتح هؤلاء سوريا باسم الدين ، كان على المبشرين ان يزينوا مدنيتهم للسوريين كما لو أنها صفوة الكمال فحملوهم على احتقار مدنيتهم واحتقار أنفسهم ، ومن ثم فقد صوروهم للغرباء الذين أرسلوهم في حالة تقارب الهمجية فمسلمهم جاهل ونصرانيهم وثني وكلهم كذبة ضد الديانة » .

وهكذا نجد ان الإرساليات كانت خطراً شديداً في نظر المسلمين والعرب والاسلام والمسيحية على السواء .

وقد صوّر بعض الباحثين نتائج جهود المبشرين في مدارس الإرساليات فقال : « إن [1] هذه المدارس والمعاهد التبشيرية استطاعت ان تحدث في قلب المجتمع الاسلامي آثاراً خطيرة من حيث توجيهها لأخلاق تلاميذها من المسلمين وكذلك لعاداتهم وتفكيرهم الى انواع عديدة اهمها طابع أجنبي خاص اذا لم تكن روحه نصرانية واضحة فلا ريب أنه تمهيد لبث هذه الروح لأن إضعاف الروح الأصلية وتحطيم التعاليم والتقاليد القومية هو دائماً أول خطوة في سبيل إدخال روح وتعاليم جديدة » .

---

(١) مجمع الرابطة الشرقية – ١٥ يونيه ١٩٢٩ .

## (٧)

كشف (شاتليه) عن مهمة الإرساليات في البلاد المحتلة فركز على أنها تستهدف نزع الاعتقادات الاسلامية وتثبيت الأفكار الأوربية، وأنها تعمل على هدم اللغة العربية وجعل اللغات الأوربية في المقدمة حتى يمكن بث الأفكار التي تتسرب مع سيطرة اللغات الأجنبية .

وإن نظرة الى الآفاق المختلفة تكشف عن أبعاد هذا الخطر الساري في كل مكان في بلاد الاسلام، وفي قلب أفريقيا تبدو الصورة شديدة الخطر، يقول احمد سيكوتوري :

« لقد تعلمنا نحن المثقفين الافريقيين في مدارس الاستعمار تاريخ فرنسا وحروب الغال وحياة جان دارك . لقد قدم لنا الاستعمار من العلم والثقافة القدر الذي يرى أنه يخلق منا آلات ترتبط مصالحها بعجلة الاستعمار . لقد أراد المستعمرون للمثقفين الأفريقيين ان يفكروا بديكارت وبرغسون ولم يسمح لهم بالتفكير في قيمهم وثقافتهم وتراثهم الافريقي . هذا لا يعرف كثير من شبابنا فلسفة المفكرين الافريقيين أمثال الحاج عمر بن سعد تال واحمد ساموري توري » .

● ● ●

وفي السودان يقول الدكتور عون الشريف قاسم :

السودان كثغرمن ثغور العروبة والاسلام فيافريقيا يعيش تحدياً له اهميته، فالوثنية لا تزال ضاربة في بعض اجزائه وكثير من المسلمين في اصقاعه النائية لا يجدون العناية اللازمة . ونحن في سباق مع الزمن فإن تخطيط اعدائنا يضع للسودان مكانة مميزة في استراتيجية كبرى من اجل السيطرة على القارة الافريقية وقد قسموا السودان الى ثلاث مناطق :

(الحزام الشمالي): وسيكون من الشمال المسلم وخططهمفي ذلك انيشككوا المسلمين في دينهم والتأثير عليهم عن طريق المدارس والمستشفيات وما اليها .

(حزام الوسط) : حيث تعيش اقليات غير عربية خاصة في جنوب شرق السودان وبعض مناطق الغرب . والفكرة هنا ان يثيروا هذه الأقليات عن طريق النعرات العنصرية وبث إرسالياتهم في جميع هذه المنطقة لتعطيل حركة الوعي الاسلامي من الانتقال من شمال القاهرة الى وسطها وجنوبها .

( الحزام الجنوبي ) وخططهم هذا ان يوقفوا كل تيار عربي إسلامي وفي جنوب السودان اربعة ملايين أغلبهم وثنيون لا دين لهم » .

وفي إحصاء رسمي حديث ان عدد معاهد اللاهوت التي تعد المبشرين والقسيسين والرهبان في أفريقيا الآن ٤٨٩ معهداً وان في افريقيا ٥ ملايين طالب تحت سيطرة الارساليات ورجالها من المبشرين والرهبان .

ويقول الباحث : إن التعليم وهو أخطر وسائل التبشير وأعمقها أثراً هو مهمة الارساليات التبشيرية التي تقوم بدورها في أفريقيا أكمل قيام وتنشر اجهزتها الدقيقة ابتداء من دور الحضانة ورياحين الاطفال والمدارس الابتدائية والمتوسطة بالاضافة الى الجامعات والكليات ومعاهد تخريج المبشرين وانتهاء بالمستشفيات وملاجىء الايتام والمكفوفين والجمعيات الخيرية .

وإن اخطر وسائل التبشير هي دور التعليم حيث يتاح لأعضاء الارساليات من مدرسين ومدرسات تلقين الناشئة الاسلامية من بنين وبنات تعاليم دين المسيح وتراث فكره وتقاليد حضارته مشوباً ذلك كليـة بصور من الكيد والدس والتشويه لعقائد الاسلام مثل ما يقال من ان الاسلام دين الوثنية أو أداة في يد الشيطان، وان نبيه الكريم رجل مجهول النسب لأنه محمد ( ابن عبد الله ) وقد جرت عادة العرب على اطلاق اسم ( عبد الله ) على كل من لا يعرف له نسب الى آخر هذه المزاعم والاباطيل، وما تزال كتبهم ونشراتهم وابحاثهم تسمم عقول الفتية والفتيات الأغرار ، وتعمق شقة الخلاف بينهم وبين أهليهم وتحول دون إنماء صلات المودة والإخاء . وهي تهدف جملة الى طمس كل تصور إسلامي في ذاكرة الشباب وقطع كل صلة متينة لهم بالله سبحانه وتعالى .

وإن ذلك يجيء تحقيقاً لوصايا مؤتمر المبشرين في القدس ١٩٢٤ حين أشار ( صمويل زويمر ) الى مهمة الإرساليات التي تستهدف إخراج المسلم من الإسلام ليصبح مخلوقاً لا صلة له بالله ، وبالتالي لا صلة تربطه بالأخلاق التي تعتمد عليها الأمم في حياتها ؛ وبذلك تكون هذه الإرساليات ورجالها « طليعة الفتح الاستعماري » في الممالك الاسلامية .

يقول زويمر : لقد قبضنا منذ ثلث القرن التاسع عشر الى يومنا هذا على جميع برامج التعليم في الممالك الإسلاميـة ، ونشرنا في تلك الربوع مكامن التبشير والكنائس والجمعيات والمدارس المسيحية الكثيرة التي تهيمن عليها الدول الأوربية والامريكية .

وطبقاً لذلك جاء النشء الاسلامي طبقاً لما أراده الاستعمار المسيحي لا يهتم بالعظائم ويحب الراحة والكسل ولا يعرف في دنياه نهمة إلا الشهوات ؛

فإذا تعلم فللشهوات ، وإذا جمع فللشهوات ، وإذا تبوأ أسمى المراكز ففي سبيل المال يجود بكل شيء .

• • •

وحين يراجع الباحث كتاب تاريخ الإرساليات التبشيرية الذي صدر عام ١٩٦٤ في ٦٠٠ صفحة لمؤلفه ( ستيفن نيل ) وهو مبشر مارس العمل في آسيا عشرين عاماً وحصل على الدكتوراه الفخرية وعين استاذاً للتبشير في كلية اللاهوت بجامعة هامبورج بألمانيا ، عندما نتصفح هذا الكتاب نجد مؤلفه يعترف بالدور الخطير الذي لعبته الارساليات في استعمار العالم الآسيوي الافريقي، ويحاول ان يبرز المخازي المعيبة التي اقترفها المبشرون ومنها عمليات إفساد الضمائر وشراء الاطفال .

كما يكشف البحث عن مدى تدخل المبشرين في السودان في الحركات السياسية والانفصالية في الجنوب وتحريضهم ابناء الجنوب من الوثنيين على الثورة وتقتيل ابناء الشمال، وكذلك في موقفهم من إسرائيل وتعاونهم معها.

كذلك فهم يرون ان اندحار الدولة العثمانية أرخ لنهاية الحكم الاسلامي بالسيطرة على العالم ، وان الحقيقة الكبرى الحديثة في العالم الاسلامي هي وجود إسرائيل ( وهذا وكثير مثله يكشف عن مدى صلة الارساليات وجامعاتها الكبرى بأهداف الصهيونية العالمية ) .

كذلك أشار الباحث الى ما ابتدعته مؤسسات التبشير في السنوات الاخيرة مما اسمته فكرة الحوار التي دعا اليها ( لويس جارديه ) بديلاً عن فكرة التبشير في بعض المناطق وهي تقوم على أساس ما يراه المبشرون من ان هناك أموراً مشتركة يمكن ان تكون اساساً للحوار بين المسلمين والمسيحية كوجود الإله والوحي وواجبات الإنسان وذلك مما عهد لقيام مناقشة مفتوحة حرة .

ويشير البحث الى ان الارساليات في جنوب السودان استطاعت تدريب عدد من أبناء الجنوب المتنصرين للقيام بأعمال التبشير في خلال ستين عاماً حيث استطاعت الكنيسة الانكليكانية تعميد ٣٢ قسيساً ومبشراً افريقياً ، وقد حلّ هؤلاء محل المبشرين المائة الذين طردتهم حكومة السودان » .

• • •

ولا ريب ان هذه الوقائع الحديثة كلها تعطي نذر الخطر المستمر المتصل وخاصة بالنسبة للمستقبل . فإذا راجعنا موقف الارساليات في السنوات الاخيرة في اندونيسيا وجدنا ان تحدياً خطيراً يقع هناك ، كذلك بالنسبة لدولة صغيرة كالأردن ، وقد أشار الاستاذ يوسف العظم الى هذه الظاهرة بالنسبة لبلد صغير كالأردن توجد فيه مائتا مدرسة من مدارس الارساليات « تلتقي في هدف واحد وعند غاية مشتركة » ان تخرج الجيل الجديد الذي لا يحترم عقيدته ولا يؤمن بتراثه أو يحس بوجوده ، وإذا علمنا ان عدد سكان الأردن لم يبلغ المليونين بعد أدركنا أيّ أثر يتركه هذا الحشد من القلاع الفكرية التي يخطط لها فتنفذ اشنع جريمة ضحيتها جيل بريء غافل ، ومن هذه المدارس : الفرير والتراسنطا والمطران والكلية الأهلية وهانوميان بوزباستيان والارمن الأرثوذكس والسالزيان وراهبات الوردية ، وراهبات صهيون والبيلار والاذفنستست الخ .. الخ .

كذلك فإن اندونيسيا في السنوات الاخيرة تعرضت لحملات تبشيرية ضخمة قوامها مدارس الارساليات . وتشير التقارير الى ان حملة التنصير اليوم أشد وأقوى في اندونيسيا مما كانت عليه ايام الحكم الهولندي .

وتشير التقارير الى ان الفاتيكان قد عين كاردينالاً و ٢١ اسقفاً للابقاء على حركة الارساليات التبشيرية ونشاطها وقد استطاعت الكنيسة الكاثوليكية

ان تشن حملة مدعومة بقوى هائلة من السند والعون الماديين في البلدان الغربية تستمر عشر سنوات كاملة على النحو الذي فصله كتاب (واجبنا في اندونيسيا اليوم) الذي صدر يحمـل مخططات الغزو الموجهة الى اندونيسيا عن طريق الإرساليات .

وتقرير الاستاذ علال الفاسي : ان هـذا النشاط لا يقتصر على اندونيسيا وحدها وإنما هو جزء من خطة تشمل العالم الاسلامي كله .

## (٨)

وقد سجلت الصحافة العربيــة الدور الذي تقوم به الارساليات على أنه مشروع مرتبط بالنفوذ الأجنبي ، ففي مقال نشرته جريدة المقطم في ( ١ – مارس ١٩٢٤ ) تحت عنوان (المدارس الأجنبية في الشرق) يتكشف للباحث مدى الخطر الكامن وراء الارساليات واعمالها يقول :

للمدارس الأجنبية المسيرة في أقطار الشرق الأدنى والمنبثة في مدنه وقراه يد كبيرة على النهضة الشرقيــة الحاضرة لا ينكرها منصف ولا يجحد فضلها جاحد ، وغني عن البيـــان ان كلمة المدارس الأجنبية تشمل جميع المدارس والمعاهد العلمية التي أنشأتهافي ربوع الشرق الأدنى الجمعيات الدينية أو بعثات التبشير أو حكومات أجنبية أو شركات اخرى بقصد الربح .

لهذه المدارس صبغات وجنسيات مختلفة منهـــا الفرنسوي والأمريكي والإنجليزي والايطالي والالماني والروسي، وبين المدارس الفرنسوية ما هو ديني وما هو علماني، ولئن كانت خدمة العلم ونشر التهذيب هي المحور الذي تدور عليه أعمال المدارس كلها والغاية التي تنشرها فإن لكل بعثة منها غرضاً خاصاً ينطوي عليه برنامجها وتسير نحوه وهو نشر لغــة قومها بين ظهراني الشرقيين وتلقينهم تاريخها وسير أبطالها وتحبيبها اليهم بقــدر الامكان ، وربما كان بينها من يعمل عمداً وبغير عمد لتنفير الشرقيين من لغتهم وتاريخهم وطبعهم بطابع الأمة التي تمت اليها المدرسة بصلة النسب .

وقد كانت البعثات الفرنسوية اكثرهذه البعثات نشاطاً وحركة، فكثرت مدارسها وازدادت معاهدها زيادة تستوقف الأنظار ولا سيما في سوريا ولبنان والقطر المصري فلا تكاد تخلو مدينة أو بندر من مدرسة أو مدرستين لهذه البعثات التي وقفت نفسها بشهادة جميع العارفين على خدمة النفوذ الفرنسي ونشر الآداب واللغة الفرنسية .

وهناك من يعتقد ان الاحتلال الفرنسوي الحاضر لسورية ولبنان هو نتيجة من نتائج عمل البعثات إذ توسل الفرنسيون لصيانة مصالحهم في سورية ولبنان بهذا الاحتلال بالمعنى الصحيح . ونظن ان هذه المصالح لا تتعدى دائرة هذه المدارس التي تعد بالمئات علاوة على ما أعدته هذه المدارس من الأنصار لفرنسا من خريجيها وتلاميذها السابقين وذوي قرباهم . ولليسوعيين ايضاً مدارس عديدة في منطقة كيكيلية التركية ولهم مدارس في الآستانة وضاحيتها وفي إزمير وغيرها من المدن التركية ، وقد نافس الأمريكيون الفرنسيين في لبنان وسوريا في اواسط القرن الماضي منافسة مثيرة ، وإذا كان الأمريكان قد نافسوا اليسوعيين فبزوهم في لبنان وتفوقوا عليهم بذلك الصرح العلمي (جامعة بيروت) الذي أخرج للمشرق العربي طائفة من علمائه وزعماء نهضته فإن رجال البعثات الفرنسوية عملوا بنشاط في مصر والأناضول والآستانة نفسها حيث المزاحمة شديدة .

ونشط الإيطاليون في السنين الاخيرة لإنشاء المدارس في معظم انحاء تركيا وهم يرمون بذلك الى نشر لغتهم وتعميم آدابهم ومزاحمة البعثات الفرنسوية . وبين الفرنسيين والايطاليين من التنافس على سواحل البحر الأبيض لأن كلاً منهما تطمع في للسيادة عليه .

وكانت هذه المدارس تتخذ من أدوار الضعف التي تتعرض لها الامبراطورية العثمانية وسيلة لتوطيد نفوذها وتوسيع دائرة اختصاصها » .

وهذا في مجموعه اعتراف كامل بالدور السياسي الخطير الذي قامت وتقوم به الارساليات .

وقد أشار كتاب الغارة على العالم الاسلامي الذي ألفه شاتليه ومجموعة من المبشرين بأن الفرصة الكبرى التي أتيحت للارساليات إنما جاءت بعد سقوط السلطان عبد الحميد عام ١٩٠٨ حيث أمكن منذ ذلك الوقت تفسيخ الدولة العثمانية وتوسيع بعثات التبشير على النحو الذي حقق تنفيذ مناهج التعليم على النحو الذي رسمته مخططات الغزو حيث يسجل الدكتور زويمر زعيم المبشرين وكبيرهم في الشرق في هذه المرحلة ما يأتي :

إن السياسة الاستعمارية لما قضت منذ نصف قرن –أي منذ عام ١٨٨٢– تقريباً على برامج التعليم في المدارس الابتدائية أخرجت منها القرآن ثم تاريخ الاسـلام ؛ وبذلك أخرجت ناشئة لا هي مسلمة ولا هي مسيحية ولا هي يهودية . ناشئة مضطربة مـادية الاغراض ، لا تؤمن بعقيدة ولا تعرف حقاً ، فلا للدين كرامة ولا للوطن حرمة .

ومن ذلك قوله الذي صار حكمة ومنطلقاً للعمل التبشيري كله في معاهد الارساليات وعلى ضوئه يمكن النظر بوضوح الى المناهج والأهداف والاتجاهات يقول: «إن مهمة التبشير الذي ندبتكم دول المسيحية للقيام بها في البلاد المحمدية ليست هي إدخال المسلمين في المسيحية وإنمـا مهمتكم ان تخرجوا المسلم من الاسلام ليصبح مخلوقاً لا صلة لا بالله وبالتالي لا صلة تربطه بالأخلاق التي تعتمد عليها الامم في حياتها » .

وليس بعد هذه الوثائق صراحة ولا وضوح في الكشف عن غاية الارساليات وأهدافها .

(٩)

والآن نستطيع ان نتساءل مـا هو الهدف الحقيقي للارساليات التعليمية في العالم الاسلامي ؟

وأن نجيب بأن الهـدف في الحقيقة هو السيطرة على الجيل المسلم الجديد منذ مطالعه لاعـداده على النحو الذي يكفل له عندما يصبح في مقام العمل السياسي والاجتماعي والثقافي في وطنه ان يكون صاحب ولاء فطري وثقافي قوامه الحب والاعجاب والتقدير للذين علموه ونشأوه .

ومن هنا اهتمت الدول المستعمرة خلال فترة ما بين الحربين بتثقيف أبناء العظماء وكبار رجال السياسة ونقلهم الى المعاهد الاجنبية ، وذلك لخلق هذه الطبقة وإعدادها . وقـــد كان إغراؤهم عجيباً لكثير من أصحاب المراكز العالية حتى بعض كبار المسؤولين في مجال الاسلام على تعليم ابنائهم في معاهدهم ، وقد أشارت تقاريرهم الى ذلك بما أسمته :

« نزوع أهل الطبقة الراقية الى المدارس الأجنبية » .

وقد أكد المراقبون النتائج الخطيرة التي حققها تعليم المسلمين في الارساليات من تقريب المسافة بين الاستعمار وأهل الأوطان الاسلامية وما حققة من حل كثير من القضايا الجوهرية بمـــا يوافق رغبات المستعمرين . وأهم هذه القضايا

المسألة الشرقية وقيام إسرائيل في قلب الوطن العربي ، وليس أدلّ على اهمية ذلك من ان الذين حملوا لواء التشهير بالدولة العثمانية والسلطان عبـــد الحميد وعملوا على تمزيق الرابطة بين العرب والترك وتمكين الدول الأوربية من تقسيم الغنيمة فيما بينهم كانوا من الذين تعلموا في معاهد الارساليات التبشيرية وهؤلاء الذين خدموا النفوذ الاجنبي في مصر وكانوا مخلصين لكرومر وغيره من قادة الاستعمار وأصحاب الصحف ومحرروها كانوا جميعاً من خريجي معاهد الارساليات وخاصة في بيروت ومنهم من دعا عام ١٩٣٥ الى إنشاء دولة يهودية في فلسطين ودولة مسيحية في لبنان، ومنهم من أعادوا الدعوة عام ١٩٤٥ الى ان يكون لبنان وطناً قومياً للنصارى في الشرق الأدنى ومنهم حمـــلة لواء الدعوة الى العامية والحروف اللاتينية وهم قادة كل الدعوات التي عملت وتعمل على تعميق الاقليمية وبث روح الشعوبية وتمزيق وحدة العرب والمسلمين الفكرية وإيقاع الخلاف بين العرب وبين العرب والمسلمين .

وترجع خطورة مـدارس الارساليات التبشيرية الى أنها لا تدرس الاسلام ولا اللغة العربية كلية ولكنها تدرس اللغات الأجنبية المختلفة والثقافة المسيحية المستمدة من التوراة والانجيل في أبواب الأخلاق ، وبعضها علماني محض ينظر إلى الأخـلاق والأديان والعروبة والاسلام والتاريخ الاسلامي نظرة تشكيك وازدراء ويتناوله تناول النقد المشوب بروح الازدراء .

وقد راجع كثير من الباحثين أخطار الارساليات على الشباب المسلم فأشاروا الى ان أول همّ المبشر هو هـدم الاعتقاد في تلميذه فيصبح الطالب مستخفاً بالمعتقدات ، أما الخطوة الثانية فهي محاولة غرس تعاليم جديدة في ارض لم تعد صالحة للاعتقاد ، وذلك يؤدي الى أخطر النتـائج ، وهو حض الطلبة على النفاق والمراءاة .

وقد أشار الدكتور عمر فروخ الى ان هنـاك مُسلّمات تدرّس في معاهد

الارساليات منهـا ان نصارى لبنان هم الذين بعثوا النهضة العربية الحديثة ، وهو غير صحيح وان الفلسفة العربيـــة ليست إلا الفلسفة اليونانية مكتوبة بحروف عربيـة ، وهو من أقوال المتعصبين أمثال رينان . ذلك ان هناك فلسفة عربية إسلامية تختلف عن الفلسفة اليونانية والغربية جملة .

ومما قاله عمر فروخ ان مثل هـــذا السؤال عندما يوجه في الامتحانات العامة للتلميذ المسلم يكون الاجابة عليه علامة ودليلاً على مـــدى استسلام الطالب للأهداف ، فإذا انتصر للفلسفة العربيـة انتصاراً ظاهراً فإنه سوف يجرب حظه في دورة تالية ، أي أنه لا يعطى درجة تمكنه من النجاح .

# الفصل الثاني

# التعليم الوطني

إذا كانت صورة التعليم في معاهد الارساليات قد كشفت عن هذه المحاذير الخطيرة فإن التعليم الوطني في البـلاد المستعمرة قد مر بتجربة أشد خطورة وأبعد أثراً في هـدم شخصية الطالب المسلم وتدميره وجعله أداة طيعة للنفوذ الغربي ، وموالياً مستسلماً للأجنبي المحتـل . ولا ريب ان التعليم الوطني قد جاء صورة من التبعية والولاء في برامجه وأعماله واتجاهاته لما خططه الاستعمار في معاهد الارساليات التي سبقت الاحتلال وتمرست سنوات طويلة بالعمل قبل السيطرة الثقافية التي فرضها النفوذ الاستعماري .

ففي مصر منذ عام ١٨٤٤ بدأت الارساليات ممهـدة للاحتلال الذي وقع عام ١٨٨٢ حيث كانت تجربة ستين عامـاً كفيلة بأن تمد النظم التعليمية التي وضعها المحتل خبرة في العمل ومجموعة كافية من المناهج والدراسات التطبيقية.

والأمر كذلك بالنسبة للاحتلال الفرنسي لسوريا ولبنان والجزائر وتونس والمغرب وبالنسبة للاحتلال الغربي بصفة عامة ، وفيما يتعلق بتركيا فقد سبقت

معاهد الارساليات في العمل جميع المخططات التي فرضتها حكومة الاتحاديين بعد عام ١٩٠٨ وما رسمته حكومة الجمهورية التركية بعد انتهاء الحرب العالمية الاولى .

وقد أكد دكتور زويمر رئيس المبشرين في البلاد العربية في الثلاثينات ما هدفت اليه السياسة الاستعمارية وما حققته حين أعلن تصريحه الذي قال فيه :

« إن السياسة الاستعمارية لما قضت من نصف قرن على برامج التعليم في المدارس الابتدائية أخرجت منها القرآن ثم تاريخ الاسلام وبذلك أخرجت ناشئة لا هي مسلمة ولا هي مسيحية ولا يهودية . ناشئة مضطربة مادية الأغراض لا تؤمن بعقيدة ولا تعرف حقاً فلا للدين كرامة ولا للوطن حرمة » .

وأكد هاملتون جب هدف خطة التعليم في المدارس الوطنية واعتذر عما وصلت اليه من نتائج خطيرة حين قال :

نفذت خطة إنماء التعليم العلماني بإشراف الإنجليز في مصر والهند، ولعل هناك نصيباً من الحق في التهمة التي ترمى بها هذه المدارس من أنها مفسدة لقومية التلاميذ ، والذي فعلته لا ريب فيه أنها ربت في التلاميذ خروجاً على الأنظمة الاجتماعية وعلى السياسة الى حد ما في أوطانهم الأصلية بإضعافها من هذه الوجوه لسلطان النزعة الاسلامية القديمة على التلاميذ وأدخلت في بناء المجتمع الاسلامي آراء هدمته وقطعت بعض الأواصر التي كانت تحفظ تماسكه» .

ولم يكن مثل هؤلاء يصرحون بما صرحوا به إلا بعد ان تم تنفيذ الخطة وآتت ثمارها ، هذه الخطة ذات الشقين المتتاليين : مدارس الارساليات ترسم الطريق والمناهج ثم يجيء الاستعمار فيفرض هذه المناهج على المدارس الوطنية مع تغييرات طفيفة .

يقول ليوبولد فايس ( محمد أسد : المستشرق المسلم ) :

إن الايمان والإلحاد في الأغلب ينتقلان الى الانسان من بيئته الثقافية .

إن النشأة الغربية لأحداث المسلمين ستفضي حتماً الى زعزعة إرادتهم .

يجب علينا ان لا نتردد في درس العلوم الرياضية والطبيعية حسب الأسس الغربية ، ولكن يجب ان لا نتنازل للفلسفة الغربيــة عن أيّ دور من أدوار تنشئة أحداث المسلمين ، ولا ريب في ان بعضهم قــد يستطيع ان يقول إنه من الصعب في كثير من الاحيان ان نجعــل فاصلاً بين العلم التجريبي والفلسفة النظرية ، وذلك حق ولكن من الناحية الثانيــة : تلك هي النقطة التي يجب على الثقافة الاسلامية ان تثبت نفوذهــا عندها ، وسيكون من واجب علماء المسلمين ومن الفرص السانحة لهم ايضــاً إذا وصلوا الى حدود البحث العلمي ، ان يستخدموا نظرهم العلمي مستقلين فيه عن النظريات الفلسفية الغربية ، وانهم من طريق اتجاههم العقلي الخــاص الاسلامي قد يصلون على الأرجح الى نتائج في المعقولات تختلف كل الاختلاف عن تلك التي وصــل اليها العلماء الغربيون المحدثون .

ثم قال : إن تعلم الأدب الاوربي على الشكل الذي يسود اليوم الكثير من المؤسسات الاسلامية يقود الى جعــل الاسلام غريباً في عيون الناشئة المسلمة ومثل هذا — ولكن الى حـــد بعيد — يصدق على التعليل الاوربي للتاريخ العام إذ لا يزال الموقف القديم « رومانيون وبرابرة » يظهر بجلاء ، ثم إن براهينهم تقوم على الزعم ايضاً بأن تطور العالم لا يمكن ان ينظر إلا على أساس تجارب الثقافة الأوربية .

ويشير الكاتب الى ان المدارس الرسمية كالمدارس التبشيرية لا تعنى بتدريس الدين الاسلامي للناشئة بل تتركه حراً فينشأ المتعلمون كارهين لدينهم أو غير مهيئين لتقبل التعاليم الدينية مطلقاً بحسب تربيتهم .

## (٢)

عندما سيطر الاحتلال في مصر ١٨٨٢ كانت هنـاك مدارس الارساليات وكان هناك التعليم الوطني الحر القائم على مناهج عربيـــة إسلامية شاملة . فكانت خطة الاحتلال مزدوجة ، قوامها القضـاء على التعليم الوطني وخلق تعليم بديل له يستمد مناهجه من نظم مدارس الارساليات ، ودفع مدارس الارساليات الى استيعاب أبنـاء الطبقة الراقية . ولم تمض سنوات قليلة حتى اختفت معالم التعليم الوطني الأصيل وحلت بدلاً منه نظم معاهد الارساليات، وفي نفس الوقت توسع التعليم في مـدارس الارساليات وتضاعف وفتحت له الابواب على نحو أكثر قوة وأشد عمقاً مما كان في أيام سعيد وإسماعيل .

ويعد تقرير اللورد دوفرين هو نقطة البدء في هـذا التحول الخطير وقد وصفه بعض الساسة الاجانب وصفاً صحيحاً حين قـــال : إن تقرير اللورد دوفرين عن التعليم يرمي الى ان يكون المصريون أحسن الاصدقاء والنصحاء لبريطانيا والغرب دون ان تفرضوا عليهم آراءكم أو تجعلوهم تحت وصاية تستثير حفائظهم .

وقـد أشار تقرير اللورد دوفرين الى حـــالة التعليم القائمة في مصر وفي مقدمتها الأزهر الشريف : وقـد وصفه بأنه مدرسة جامعة يدرس فيها علم الكلام والفقه والنحو والمنطق وآداب اللغـــة العربية وبه من الطلبة نحو ٨

آلاف طالب على ثلاثمائة أستاذ .

أما مدارس الحكومة فقــد وصفها بأنها مدارس بسيطة عددها ٥٣٧٠ تحتوي على ١٣٧٥٥٣ طالباً وتعلم فيها القراءة وحفظ القرآن غيباً .

ومدارس أولية عالية ويوجد بها نحو ٢٧ تحتوي على ٤٦٦٤ طالباً (والاولى هي المدارس المجانية والاخيرة هي المدارس ذات المصروفات) وقال إنها تعلم القرآن الشريف واللغة العربية وعــلم الحساب ومبادىء الجغرافيا والتاريخ ومبادىء لغة أجنبية ويترقى الطالب في هــذه المدارس الى المدرسة العليا التجهيزية في القاهرة ومن هــذه يتدرج الى مدرسة الصنائع والفنون ، وأشار الى المدرسة العليا وقال إنها تحوي ٢٩٢ طالباً .

أما مدارس الصنائع والفنون : فمنها الطب ١٧٦ طالباً وسائر الفنون ٥٠ طالباً والمساحة ٣٩ طالبــاً والفنون والصنائع ٥١ طالباً والشرع ٣٧ طالباً ومدرسة اللغات ٢٣ طالبــاً ومدرسة الأساتذة ٦٠ طالباً والفعلة ٧٩ طالباً ومدرسة العميان والخرس ٧٥ طالباً والبنات ٣٠٠ طالبة والمدرسة العسكرية.

وأشار الى أنه يوجد في أوربا ٤٩ شاباً مصرياً مرسلون.

وأشار الى المدارس التي انشأها المرسلون الاجانب ونحلهم ويبلغ عــددها ١٥٣ مدرسة تحتوي ١٣٣٤٧ طالباً منهم ٥٣ في المائة من المصريين .

وأشار التقرير الى ان طريقة التعليم في الجامع الأزهر جافة ودروسها في العقيدة عقيمة لا تثمر فائدة ولا نتاجاً .

وأشار دوفرين في توصياته الى ما يلي :

« أخال ان أمل التقدم ضعيف طالما ان العامة تتعلم اللغة الفصيحة العربية لغة القرآن كما في الوقت الحاضر حالة كونها لا تتعلم اللغة العربية الدارجة لأن نسبة اللغة المصرية الدارجة الى لغــة القرآن كنسبة الايطالياني الى اللاتيني

والاغريقي القديم ، وعربية الفلاح لغة قائمة بنفسها وقواعدها خاصة بها ، وإذا لم توجد هذه الاحتياطات الضرورية للحصول على النتائج الفعلية في المدارس العديدة التهذيبية التي اشرت اليها يستمر الجيل الجديد كسابقه غير صالح لخدمة وطنه سواء كان للقيادة العسكرية أو في الصنائع أو في الخدمات، وتظل عبارة مصر للمصريين كما كانت اسماً بلا مسمى »[1] .

وهكذا وضع دوفرين الجرس في رأس القط . وجاء كرومر ودنلوب منفذين إقصاء القرآن واللغة العربية ، وهذا ما أشار اليه « زويمر » وكشف عن أنه لم يلبث ان تحقق ، وفرغت مناهج التعليم من أقوى دعائم بناء أبناء المسلمين وأقصي الأزهر مرة اخرى بعد ان أقصاه محمد علي بإنشاء وزارة المعارف .

وقد دفع هذه الحقيقة كل من أرخ لمصر وهي لم تفت اللورد لويد في كتابه ( مصر منذ أيام كرومر ) حيث قال :

إن التعليم الوطني عندما قدم الإنجليز كان في قبضة الجامعة الأزهرية الشديدة التمسك بالدين والتي كانت أساليبها الجافة تقف حاجزاً في طريق أي إصلاح تعليمي ، وكان الطلبة الذين يتخرجون من هذه الجامعة يحملون معهم قدراً كبيراً من غرور التعصب الديني . فلو أمن تطوير الأزهر لكانت هذه خطوة جليلة الخطر فليس من العسير ان يتصور لنا أي تقدم طالما ظل الأزهر متمسكاً بأساليبه هذه ولكن إذا بدا ان مثل هذه الخطوة غير متيسر تحقيقها فعندئذ يصبح الأمل محصوراً في إيجاد التعليم اللاديني الذي ينافس الأزهر حتى يتاح له الانتشار والنجاح » .

ونحن نعرف ان مناهج الأزهر كانت جامدة ولكنها لم تكن بالصورة التي

---

(١) المقتطف ص ٦٦٨ م ٧ .

تعارض بنـــاء المسلمين على أساس من قوة العقيدة وسلامة العقـل ، ولكن الاستعمار لم يكن يريد بقاء مثل هذه الشخصية القادرة على مقاومته ومعارضته، فلا بد من تحطيم وجودهـا بالتعليم اللاديني . كذلك فإن الدعوة الى تطوير الازهر كانت خطوة اخرى على الطريق جاءت نتائجها من بعد حين أذعنت الامة لمطلب الانجليز ومزقت الازهر الى تخصصات ثم دمرت أسلوبه العلمي القديم، فلم يعد من شيء يستطيع ان يقف أمام شبهات الاستشراق ومغالطات دعاة التغريب .

( ٣ )

ويستطيع هـذا النموذج الحي أن يعطينـا صورة التعليم الوطني في مصر وكيف تطور بعد الاحتلال تنفيـذاً لخطة دوفرين ومنهج كرومر وأسلوب دنلوب بما يحقق هدف الاستعمار من تخريب العقول والنفوس .

يقول الاستاذ محمد لطفي جمعة :

إننا تعلمنا في المدرسة الثانوية ( وكانت الخديوية التجهيزية بدرب الجماميز ) في أوائل هذا القرن ( ١٩٠١ — ١٩٠٢ ) وكان استاذنا في التاريخ المستر هيل ويعلمنا باللغة الانجليزية أن اثنين من رجـال أوروبا أنقذا المدنيـة الغربية من السقوط على أيدي البرابرة المتوحشين : أولهما تمستوكليس اليوناني الذي هزم قورش أو ( زاجزيز ) الفارسي في موقعة سلاميس الشهيرة والرجل الثـاني ( شارل مارتل ) الذي هزم العرب في موقعة بواتيه : الأولى حصلت في ٤٨٠ قبل المسيح والثـانية حصلت ٧٣٢ بعد المسيح أي أن بينهما ألف ومائتين واثنتي عشرة سنة ، وقد كتبنا هذا بأنفسنا وبأيدينا بإملاء استاذنا الانجليزي ، الذي مثل لنا أمة العرب التي أنجبت مئات الألوف من رجال العلوم والفنون والآداب والذين علموا أوروبا وهذبوهـا ، في وحشية وقسوة تعادل وحشية الفرس الوثنيين قبل الميـلاد بخمسة قرون فصدقنا هذا وآمنـا به وتعلمناه وحفظناه وأدينا فيه امتحانات عشرة .

ثم قال الكاتب في موضع آخر :

إن دنلوب العظيم العبقري أعظم من أنجبتـه انجلترا لقتـل مصر والشرق

تمكن في عشرين عاماً من تخريب العقول والنفوس والضمائر والعواطف مما لو جندت بريطانيا مليون جندي على مصر فإننا لما دخلنا المدارس التحضيرية في أوائل هذا القرن وجدنا أساتذة التاريخ من الانجليز أمثال مستر هيل ومستر فرنسكروفت فأخذوا يملون علينا مقطعات بالانجليزية عن تاريخ الدولة الرومانية والقرون الوسطى وحروب الأديان والنزاع بين الكاثوليك والبروتستانت وسلطة البابا وفردريك الأكبر وكاترين العظمى ، كل ذلك في فصول مختصرة مختلة سقيمة الأسلوب عقيمة المعنى . وكان امتحاننا يدور حول هذه المسائل ، ولم نعط كتاباً ملماً بهذه الموضوعات لا جيداً ولا رديئاً أما تاريخ الشرق والعرب ومصر فلم نأخذ منه كلمة واحدة إلا سطراً واحداً كأننا نشأنا من العدم وإلى العدم نعود ، ودائماً اذا ذكر الشرق كان يذكر في مجال الانحطاط والسقوط والفشل والحروب التي فاز عليه الغرب فيها مثل صد اليونان للفرس والفرنسيين للعرب والنمسويين للترك وسقوط العرب في الاندلس وانحلال الدولة العثمانية بعد تغلب روسيا عليها .

أما مصر القديمة ومجدها وحضارتها فداخلة في منطقة الصمت وكذلك الحروب الصليبية لم يعرف منها إلا ما كان ماساً بقهرنا .

وإن الانصاف يحدوني أن أذكر رجلاً واحداً هو مستر جونز من بلاد ويلس عين استاذاً للتاريخ ( ١٩٠٤ — ١٩٠٥ ) في المدرسة الخديوية بدرب الجماميز ، وكان له اسلوب وفكر وضمير ، وأملى علينا بضعة دروس في تاريخ مصر والعرب فعزل في آخر العام الدراسي ولم يعد الى وادي النيل .

وهذه الخطة التي أراد الانجليز ان يحرمونا بها من ضمائرنا ويسرقوا وجداننا القومي ويقطعوا الحلقة التي تربطنا بالماضي هي نفسها الخطة التي اتبعوها ونفذوها في الهند ، وهي نفسها التي اتبعتها ونفذتها فرنسا في تونس والجزائر ومراكش ، وهي التي يتبعها كل مستعمر وكل متغلب وفاتح [١] .

---

(١) البلاغ الاسبوعي ٧/٢/١٩٣٢ .

تلك هي صورة التخطيط الذي رسمه الاحتلال في مصر وطبقه الاستعمار في مختلف أجزاء العالم الاسلامي. وكان كرومر هو الرائد الذي سار عليه كل من جاء بعده ، فالمارشال ليوتي والكردينال لافيجري في المغرب هما كرومر ودنلوب في مصر تماماً .

جاء كرومر الى مصر بعد الاحتلال بعام أو عامين ١٨٨٤ تقريباً ، وعين دنلوب سكرتيراً عاماً لوزارة المعارف عام ١٨٩٧ ثم مستشاراً عامـاً لها عام ١٩٠٦ وكان في أول أمره قساً مبشراً عمل في وظيفة مدرس للغـة الانجليزية والخط الافرنجي في مدرسة رأس التين الثانوية ثم لفت نظر كرومر فدفعه الى العمل في نظارة المعارف وما زال يترقى حتى اصبح مسيطراً سيطرة كاملة على شؤون التربية والتعليم .

ويعـد ( دنـلوب ) واضع المخطط الاساسي لتغريب التعليم والتربيـة وإقصاء الاسلام وتاريخه واللغة العربية عن برامج التعليم في المدرسة المصرية ، وهو أيضاً منفذ هذا المخطط والمشرف عليـه سنوات طويلة حتى بعد انتهـاء الحرب العالمية الأولى . وقد عمـل دنلوب على محـاربة اللغة العربية والاسلام والازهر واضطهد معلمي القرآن واللغة العربية من الازهريين ونشر لواء اللغة الانجليزية وأهّلها للسيطرة الكاملة على كل شؤون التعليم وقضى على نفوذ اللغة العربيـة .

كما أنشأ جيشاً ضخماً من الانجليز حملة الشهادات الأهلية للعمل بالمدارس المصرية وفق خطة ماكرة لخلق شعور عـام بكراهية تاريخ المسلمين ولغتهم وإثارة الشكوك حولها وطعن روح الوطنية في الشباب المصري والقضاء على حماستهم ، وقد داسوا على كل عاطفة وطنية واضطهدوا كل شاب أظهر ميلاً أو عاطفة نحو دين او وطن ، وأنشأوا نظاماً للتجسس في المدارس يطاردون به الشباب الوطني ، وحرموا على كل مدرس مصري ان يتحدث عن تاريخ مصر او تاريخ العرب او تاريخ الاسلام بما يبرز عظمة أمتنا ، وكان أهم مـا يقـال

إن مصر بلد زراعي ، وإنها ظلت محتلة طوال تاريخها بالفرس والرومان والأتراك ، وإنها لن تحكم نفسها أبداً ، وإن جيشها قد هزم في التل الكبير ، وإن الجنود المصريين ذبحوا ليلة ١٤ سبتمبر ١٨٨٢ التي كانت قمرية ذبح الخراف وكان محرماً على أي طالب مصري أن يقرأ جريدة وطنية .

وقد قاوم كرومر ودنلوب نشر التعليم العالي في مصر وسجل ذلك كرومر في تقريره حين قال عام ١٩٠٧ :

إن انجلترا لا تريد نشر التعليم العالي في مصر وإنها لا تريد إلا إعداد جمهور من طبقة الأفندية ليشغلوا الوظائف الثانوية في الحكومة ، وإن المصريين لا يصلحون للعلوم العالية ، وإن زيادة التعليم تصرف عن فلاحة الأرض وتعود على مصر بالإفلاس .

وقد حرص دنلوب بتوجيه كرومر وبريطانيا على تنفيذ خطة واضحة المعالم للعمل على وقف انتشار التعليم أو ترقيته وسبيلهم الى ذلك تقليل اعتمادات المعارف وصرف اغلب المبالغ على بناء القصور المشيدة واقتناء الاثاث الفاخر المدارس ، وكان دنلوب يعمل على قلب المدارس الابتدائية الى أولية راقية اكتفاء بالمدارس الأميرية في كل مديرية كما شجع انتشار المدارس الأجنبية وفق غايات سياسية تسير في نفس الاتجاه الاستعماري وهو تحطيم كيان الأمة وإفساد معنويتها .

وحرص دنلوب على معاملة الطلبة الوطنيين بمنتهى القسوة فعدل عام ١٩١٠ المادتين ٨٨ و ١٠٠ من قانون نظام المدارس بفرض عقوبات على التلاميذ وفصل كل تلميذ لا يحصل على ٢٠ درجة في السلوك واتخذ من ذلك سبيلاً الى خنق الشعور بالحرية .

وقد سجل مسيو ( ادوار لامبير ) ناظر مدرسة الحقوق في تقريره الذي نشره في جريدة الطان ١٩٠٧ بعد أن أبعده كرومر ودنلوب لأنه فرنسي ،

سجل صورة الصراع بين الفرنسيين والانجليز على المناصب الكبرى في التربية والتعليم وكشف عن الخطة التي رسمها كرومر ونفذها دنلوب في إقصاء الفرنسيين عن المناصب الكبرى في المدارس العالية وتعيين أساتذة إنجليز بدلاً منهم ، دون ان يكونوا في مستواهم من الناحية الفنية وانه قد أخرج الأساتذة الفرنسيين من القضاة من مدرسة الحقوق واستبدل بهم شباناً من الانجليز عينوا بمجرد تخرجهم من الكليات البريطانية دون ان يكون لهم أي قدر من الكفاية التي تمكنهم من دراسة القانون. كما أشار الى الأنظمة الاستبدادية التي اتخذها بالنسبة للطلبة وكيف عاملهم بقسوة متناهية واضطهدهم وجرح كرامتهم مما احال مدرسة الحقوق معقلاً للوطنية المصرية بحيث أصبح كل طلابها الاربعمائة تابعين للحزب الوطني .

وإن كرومر قد اضطر تحت ضغط الرأي العام الى تعيين (سعد زغلول) ناظراً للمعارف وعمل على سلب سلطته الفعلية ، وأشار الى الخطط التي كان دنلوب يدبرها مع نظار المدارس وكبار الموظفين للاتصال به شخصياً وتلقي أوامره وتعليماته قبل ان يكتبوا تقاريرهم الرسمية ، وقال لامبير في تقريره :

إن الموظف القابض على الإدارة الحقيقية لوزارة المعارف هو دوجلاس دنلوب وفي الفترة الطويلة التي قضاها دنلوب في وزارة المعارف وقد تبعه خليفة له سار على نفس الخط تحقق تنفيذ خطة التغريب الكاملة للتعليم على النحو الذي استمر يشق طريقه من بعد والى وقت قريب وما تزال آثاره باقية .

وكان هدف هذا المخطط أساساً هو تغريب الثقافة العربية وتدمير الذاتية الاسلامية وإحالتها الى مزيج مضطرب من نتف الثقافات المختلفة ومحاولة التشكيك في كل مقومات فكرنا وأمجادنا وتاريخنا الحافل بالمواقف الحاسمة والمواقع الخالدة في الدفاع عن الحرية والحق ومقاومة الغالب والمشاركة في الحضارة البشرية وحماية آثارها .

ولقد أبطل دنلوب عديداً من الكتب التربوية التي كانت تبني الذاتية الاسلامية في الشباب ، وقد كشفت جريدة المؤيد ( ٢٥ يوليو ١٨٩٩ ) عن نماذج من هذا العمل وقالت إن هذه الكتب كانت معارضة لهدفه من الوجهتين الدينية والسياسية وذلك بإيرادها قواعد الاسلام وأركانه مصحوبة بالحكم والآيات والقرآن والأحاديث التي تحث على حب الوطن والتعاون وإصلاح ذات البين ، وفي سبيل إعدام هذه الكتب أعلن دنلوب ان مثل هذه الكتب غير وافية بحاجات التعليم وأوعز الى بعض المدرسين الموالين له بأن يضعوا كتباً بديلة لها تضم خرافات لافونتين وقصص مترجمة لا تمثل الروح العربي وتتعارض مع الذوق الاسلامي ، وقد قدمت هذه الكتب في اسلوب نازل وعبارة سقيمة . وأشارت المؤيد الى ان الشيخ حمزة فتح الله ناضل في سبيل إحباط رأي دنلوب فأعلن الاخير ان كل كتب المطالعة يجب ان تخلى تماماً من كل ما له صلة بالدين .

ومثل هذا حدث مع الشيخ عبد العزيز جاويش الذي عاد من بريطانيا بعد ان تعلم في كمبردج وقد كانت له الجرأة في مناقشة دنلوب في منهج مدرسة المعلمين إذ كان يرى ان يكون المنهج عاماً واحداً ، فاعترض جاويش وقال إن في مدرسة المعلمين ببريطانيا برنامجاً في أربع سنوات فأشار دنلوب الى ان مدرسة المعلمين في مصر إنما تهدف الى تخريج مدرسين يؤدون واجباً محدوداً لا يزيد عن إعداد الموظفين ، وكان ذلك متمشياً مع خطة كرومر المعروفة : « عقل بريطاني ويد مصرية » وقد واجهت مؤلفات عبد العزيز جاويش نفس مصير مؤلفات علي مبارك وعبد الله فكري وقد اقصيت جميعاً وألفت بدلاً منها كتب اخرى تحقق هدف دنلوب وهدف التغريب أساساً .

ولقد حاولت ان أحصل على بعض نماذج هذه الكتب مما أودع في دار الكتب الخديوية ومع الأسف لم أجد شيئاً إذ يبدو أنها انتزعت ايضاً من هناك ، وقد قرأت في حديث للأستاذ ابراهيم ابراهيم يوسف نشره في إحدى

المجلات أن دنلوب أقام حرائق كبيرة لهذه الكتب وباع كثيراً منها في المزاد وأخلى منها مخازن وزارة المعارف حتى تنعدم نهائياً .

ولقد كانت لدنلوب سلطة ضخمة ونفوذ عجيب حتى ان ناظر المعارف لم يكن يجرؤ على ان يتخطاه في أمر فإذا فعل ألغاه دنلوب ، وكان رؤساء المدارس ومعلموها في مختلف أنحاء القطر المصري يعرفون أنه هو المسؤول الحقيقي ويخشونه .

وقد بلغ من عسفه أنه كان يرسل احياناً خادمه الخاص ( الجاويش محمد علي ) الى إحدى عواصم الأقاليم في صباح أيّ يوم يحمل معه عليه طربوشه الذي كان يلبسه عندما يدخل أي مدرسة ثم يخلعه بعد ذلك، فلا يكاد يظهر طربوش دنلوب على باب أيّ مدرسة حتى تهتز المدرسة كلها والمدارس المجاورة ويسري الخبر سريان النار في الهشيم فتجري حركة تنظيف وتوضيب واستعداد لأن جناب المستشار قادم للتفتيش . والكل يرتعد فرقاً ويتلقى الجاويش محمدعلي الأمر بالانتقال من طنطا الى الزقازيق الى نبها وفيها تتكرر الرواية عينها ، ومن الغريب ان دنلوب كان في الأغلب لا يحضر ويجري عملية تفتيش بواسطة جاويشه وطربوشه .

ولكن ذلك كله لم يكن ليوقف حملات الصحافة الوطنية على دنلوب ونقد تصرفاته ولم تتوقف صحف الحزب الوطني عن التصدي له ومهاجمته .

قالت اللواء في ٩ اكتوبر ١٩٠٧ إن المصريين يعلمون ان دنلوب هو أقوى آلة وضعها اللورد كرومر لتعطيل التعليم في مصر وأكبر مقاوم لرقي البلاد من باب المعارف ومحاولة سد الطريق التي يرقى بها وأنه يستعمل كل ما اوتي من سلطة وقوة لمحاربة المصريين حتى بالسطو على ذمم الموظفين معه لتجد من ضعفها قوة ومن التلاعب بها السلاح القاتل للأمة .

ويجمع المؤرخون والباحثون على ان القسيس دنلوب هو مؤسس الاستعمار التربوي والعقلي والتعليمي في مصر .

ولذلك فقد عمد الحزب الوطني الى إنشاء المدارس الأهلية وقامت الجمعية الخيرية الاسلامية بإشراف الشيخ محمـــد عبده على فتح المدارس لتعليم أبناء المسلمين وتحريرهم من هذه الأنظمة التي تحطم معنوياتهم .

وعقد مصطفى باشـــا كامل زعيم الحزب الوطني وصاحب اللواء مؤتمراً للتربية كان له دويّ شديد في ١٥ مايو ١٩٠٧ عرض لعديد من المسائل الخطيرة والهامة في هذا الصدد منها جعل التعليم في المدارس باللغة العربية وكيفية إزالة الصعاب التي تقول بهـا نظارة المعارف عن طريق إحلال اللغة العربية محل اللغة الإنجليزية، وتأمين مصلحة الأمة بأن يقوم التعليم في المدارس الأهلية على خطة من شأنها تخريج رجـال يستطيعون البروز في معترك الحيـاة أقوى من غيرهم ( أي تلاميـذ المدارس الوطنية الذين يشكلهم النفوذ الاستعماري ) وكذلك وضع قواعد ثابتة لترقية التأليف ونقل العلوم الحديثة الى اللغة العربية وتسهيل السبيل على القراء بتقليل أثمـان الكتب ودراسة نظام التعليم في الجامعة وما إذا كان التعليم الديني هو أساس لتعاليمها .

ولا ريب ان هـذه القضايا كلها كانت تمثل حاجة الأمة في مواجهة خطر دنلوب، بالإضافة الى الخطر الذي تضاعف بتعيين سعد زغلول ناظراً للمعارف فكان أول وأخطر مقرراته اعتماد مادة اللغة الانجليزية للتعليم في جميع المواد ومعارضة قرار أعضاء مجلس الشورى باتخاذ اللغة العربية أساساً للتعليم .

( ٤ )

أما في الارساليات فإن الأمر كان أشد خطراً فقد أغرى الاحتلال البريطاني وفود الإرساليات الى مصر بالتوسع فزادت مدارسهم زيادة كبيرة إذ تضاعف عدد الارساليات وخاصة النسوية .

وكان لاتفاقية ١٩٠٤ بين انجلترا وفرنسا أثرها فقد نصت على ان تتمتع المدارس الفرنسية في مصر بنفس الحرية التي كانت تتمتع بها في الماضي .

« كذلك عمل الاحتلال على إحلال اللغة الانجليزية محل اللغة العربية في المدارس المصرية وجعلها لغة التدريس في المرحلتين الابتدائية والثانوية وجعل التعليم في المرحلتين بمصروفات لا يحتمل دفعها إلا الموسرون القادرون، وقد ساعد ذلك على تكوين صنفين متميزين في الثقافة والاتجاهات لا تكاد إحداهما تؤمن بالاخرى أو تقوم بالتفاهم الجدي » .

وقد أدى هذا العمل في مجال التعليم العام الى تشجيع المدارس الأجنبية على دعم اتجاهاتها الخطيرة وخلق طبقة تتسم بالأرستقراطية في ثقافتها الأجنبية .

وقد زاد استقلال المدارس الأجنبية خلال الاحتلال واتسع أمامها مجال

العمل بغير أي إشراف أو مراجعة مما مكنها من توجيه تلاميذها الوجهة التي قصدوا اليها .

وقد كان خطاب المندوب السامي البريطاني في كلية فيكتوريا بالاسكندرية كل يوم يمثل اتجاه بريطانيا نحو الارساليات ودعم الغاية التي يتطلع اليها الاستعمار .

ويكفي هذا النموذج للتدليل على أهداف بريطانيا في تعليم الارساليات وهو من خطاب اللورد لويد في مايو ١٩٢٦ قال :

قد يهمكم ان تعلموا ان أبناء الكلية السابقين من ثمانية أجناس أو تسعة أجناس مختلفة وان من الطلبة الآن ٣٠ في المائة مصريون و ٢٠ في المائة انكلوسكسون ومنهم يونان ويهود وإيطاليون وأرمن وسوريون وأحباش وغيرهم .

كل هؤلاء لا يمضي عليهم وقت طويل حتى يتشبعوا بوجهة النظر البريطانية بفضل العشرة الوثيقة بين المعلمين والتلاميذ فيكونوا قادرين على ان يفهموا أساليبنا ويعطفوا علينا .

وأود كثيراً ان أشعر بأن كلية فيكتوريا تنجب نفراً من نخبة الموظفين والمعلمين والتجار ، هذه الكلية تنمي فيهم من الشعور الانجليزي ما يكون كافياً لجعلهم صلة للتفاهم بين الشرقي والغربي .

هذه المشاكل ( التي بين بريطانيا ومصر ) تحل إذا تعلم كل من الانجليز والمصريين ان ينظر الى رأي الفريق الآخر نظراً مقروناً بالفهم والعطف[1] .

وقد أشارت الصحف الى ان كلية فيكتوريا قد أنشأها الانجليز لمقاومة نفوذ الثقافة الفرنسية في مصر وأن (جورج لويد) المندوب البريطاني عندما

---

(١) الصحف ١٩٣١/١٢/٢١ .

ضاق صدره بتفوق المدارس الفرنسية في مصر ذهب واستنهض المالية الانجليزية بالاسكندرية وجمع منها مائة الف جنيه في جلسة واحدة ليقوي كلية فيكتوريا وذلك مع وزير مصري مسؤول فخطب بالانجليزية لتعضيد ذلك المشروع[1].

وإذا كانت بريطانيا قـــد وافقت فرنسا عام ١٩٩٤ على حرية عملها في مجال الارساليات فإن بريطانيا تعهدت بعد توقيع معاهدة ١٩٣٦ وفي مؤتمر مونترو ١٩٣٧ بأن تحمي معاهد الارساليات لا لفرنسا وحدها ولكن لجميع الدول . وكانت فرنسا قد طلبت في مؤتمر مونترو بلسان مسيو لاجارد حماية الكاثوليك والهيئات الدينية اللاتينية في مصر وتسجيل ان لفرنسا امتيازات في هذه الحماية .

وقال ساطع الحصري : إن النظم العديدة التي وضعت في سوريا في عهد الانتداب الفرنسي إنمـــا كانت قد وضعت تنفيذاً لسيـاسة مرسومة بوضوح واتفاق ، غاية هذه السياسة تأمـين سيطرة الثقافة الفرنسية والنظم الفرنسية على معارف البلاد سيطرة مطلقة من غير التفات الى ما تتطلبه أصول التربية السليمة » .

ولا ريب أنه كان من أهم الأحداث التي يؤرخ بها في مجال احتضان الاستعمار للارساليات وحمايتها : أحـداث ٢٥ يناير ١٩٣٢ عندما توسل المبشرون الى تنصير يوسف عز الدين عبـد الصمد الطالب بالجامعة الأمريكية بالقاهرة عن طريق التنويم المغناطيسي وأن طبيباً قساً كان يعمد الى تنويمه والعبث بإرادته وأنهم اخيراً اقتادوه الى منزل بضاحية المعادي واعتقلوه هنالك فاقد الإرادة والرشد تحت تأثير هذه الوسيلة المجرمة .

وعلق الدكتور هيكل في جريدة السياسة على هذا الموقف الخطير فقال :

---

(١) الصحف ١٩٣١/١٢/٢١ .

إننا لم نطمئن في وقت من الأوقات الى قيام هـذه المعاهد والى غاياتها المريبة وما زلنا على يقين من أنهـا ليست تعمل لغاية بريئة، وان بث العلم والثقافة إن هو إلا ستـار لجهود وأعمـال تأباها مبادىء التربية الصحيحة وتنكرها قواعد الأخلاق والمدنية .

وان انكشاف هذه المعاهد وتعريتها قد جاءا نذيراً للآباء ونذيراً للطلبة الذين تجذبهم دعواتها الخادعـة باسم الثقافة والرياضة والتعليم الحر فيدخلونها آمنين وهم لا يعلمون أنهم ينتظمون في سلك معترك من الدسائس والمؤامرات البشرية الدنيئة ويتعرضون لأنواع التأثير والغواية الشائنة .

## (٥)

سيطر التعليم الاستعماري الوطـني في مصر وسوريا والعراق والسودان وليبيا وتونس وفلسطين والجزائر ومراكش من الأقطار العربية .

كما سيطر تعليم الإرساليات الأجنبي في هذه الأقطار أيضاً وسيطر بصفة واضحة في تركيـا وإيران والهند واندونيسيا والملايو وكانت أبرز مراكزه في بيروت واستانبول والقاهرة .

وقد حقق الاستعمار اهدافـه في السيطرة على العـالم الإسلامي عن طريق التعليم عندمـا لم تمر سنوات قليـلة حتى خرج ثماره ممن تولوا أمور البـلاد وقيادتها السياسية والاجتماعية والاقتصادية .

وقد أشار البـاحثون في شؤون التعليم [١] في المستعمرات الى النظم التي تستخدمها الدولة المحتـلة لتعليم أولاد الأهلين فيهـا ، وأقدم هذه النظم هي عدم تعليم أحد من أبنـاء الأهلين ، ولكن المستعمرين وجدوا أنفسهم في حاجة شديدة الى الاستعانة بأهالي البلاد لاستغلال المرافق الاقتصادية والثروة الطبيعية وكان العامل الأساسي لتأسيس هذه المعاهد تخريج طائفة من أهـالي المستعمرات يخدمون المستعمر .

---

(١) ساطع المصري : فصول عن الاستعمار والتعليم ( الرسالة ١٩٣٦ ) .

وفكر بعض المستعمرين بأنـه يجب أن يرافق الفتح السياسي فتح معنوي بحيث يتقرب أهالي المستعمرات من المستعمرين الى أن يندمجوا فيها اندماجاً ، وقد فكروا في سبيل تحقيق هـذا الفرض اولاً بنشر لغـة المستعمر ، فيتعلم أهالي المستعمرات تعليمـاً ينشىء في نفوسهم حب المستعمر فيستسلمون له طواعية .

وقد برز النوع الاول من سياسة الاستعمار اكثر وضوحـاً في الهند في ظل الاستعمار الانجليزي كما تجلى النوع الثاني في الجزائر بالاستعمار الفرنسي . وكان الفرنسيون يأملون في سياستهم تقريب المستعمرين اليهم ، وظنـوا أنهم بنشر لغتهم بينهم وإشرابهم ثقافتهم يغرسون حبهم في قلوب الأهلين،ولذلك جعلوا اللغة الفرنسية محوراً لكل درس في مناهجهم، وقالوا بصراحة : إن المدرسة يجب أن تكون قبل كل شيء ممهداً لتعليم اللغة الفرنسية ، كما اهتموا بمناهج الأخلاق في المدارس لتعليم أولاد المستعمرات مـا يحبب الأهلين بالفرنسيين فنجد من مناهج الأخلاق في مدارس الجزائر قسماً خاصاً في واجبات الأهلين نحو فرنسا .

ومما جـاء في هذا المنهج : ما يترتب على اهـل الجزائر من الواجبات نحو فرنسا مقابل الحماية التي تسديها اليهم والعدل الذي أدخلته في بـلادهم والأمن الذي نشرته في ربوعهم ونعم التعليم والحضارة التي اغدقتها عليهم ، الاحترام الذي يجب ان يشعروا به نحو من يدير البـلاد باسم فرنسا والاحترام الذي يجب أن يظهروه نحو العلم الفرنسي .

وهذا هو ما سمي « التعليم لتسهيل عمل الاستعمار » .

وقد اسفرت تجارب هذا النوع من التعليم عن نتائج سيئة إذ مـا عتمت أن أحدثت رد فعل عند أولاد المستعمرات ، فقد تغيرت احوالهم بعـد مدة قليلة أو كثيرة من تخرجهم من المدارس ، وبدلاً من أن يكونوا مطبوعين على حب المستعمر يتفـانون في خدمتـه أصبحوا على نقيض ذلـك يكرهونه

ويكافحونه ، فأسقط في ايدي المستعمرين ، وفكر علماء المستعمرين في هذه المعضلة فوجدوا أن هذه نتيجة طبيعية لأن ابن المستعمرات إذا ما قرأ تاريخ الأمة المستعمرة ودرس الثورات ووقف على مطالب الشعب من الحكومـــة يتحمس لهذا الحس فيشب راغباً في تطبيق ما درسه .

ومن هنا لجأوا الى طريقة جديدة في سياسة التعليم : هي « التعليم بغير تثقيف » فاتجهوا الى تعليم أولاد المستعمرات من غير تثقيفهم، تعليمهم تعليماً ضيقاً جداً يجعلهم آلات صماء في أيدي الاستعمار .

وقـد بذلت الدول المستعمرة جهودها في وضع نظـــام للتعليم على هذا الأساس يجعل التعليم وسيلة ميكانيكية بحتـــة ، إذ تكون لغـايات محدودة معينة بدون أن يدخل على هذا التعليم أي عنصر من عناصر الثقـافة العامة ومضوا في ابتكار طريقـة خبيثة لتدريب أبنـاء المستعمرات على أن يكونوا مسامير في صفحة خشبية أو عجـلات في آلةٍ ميكانيكية مجردين من أي لون من ألوان الثقافة العامة .

ومن التعليم بدون تثقيف ، الى فصل الأقطار عن بعضها لجعلهـا مختلفة اللغة وحتى لا ينتقل أبناؤها الى الأخرى ليبثوا آراء جديدة .

وأخذ الفرنسيون في المغرب يفرقون بين العرب والبربر وغيرهم بحرمـان البربر من تعلم اللغة العربية حتى يجعلوهم بعيدين عن التأثر بالمدارس التي تدرس العربية أو مـا يكتب بهذه اللغة في الأقطار الأخرى .

ومن ذلك فكرة نشر اللغة العامية وهو الوسيلة التي تباعد بين الأقطـــار العربية وتسهل على المستعمرين أغراضهم ، وقد بثوا لهـــذه الفكرة دعايات خدع بها أبناء البلاد المستعمرة وروجوا لها ، وقد طلا المستعمر هذه المكيدة تحت عنوان نشر التعليم بين طبقات الشعب ومـــا دام الجمهور في الأقطار العربية لا يعرف اللغة الفصحى غالباً فيجب تعليمه بلغته المحلية العامية .

وهكذا نجد أن خطة الاستعمار في التعليم قد حققت كل اهداف الاستعمار في السياسة والتاريخ والاجتماع :

عزل كل قطر عن الآخر ، وعزلت جماعـــات مختلفة في كل قطر عن الأخرى ولقد حرصت الغايات العليـــا لمناهج التعليم الوطني في ظل النفوذ الاستعماري على الفصل بين كل قطر وتعزيز اقليميته الخاصة ولهجته العامية ، وإقناع كل قطر بأنه صاحب وجود وكيان منفصل عن القطر الآخر الذي هو جزء منه عربياً وإسلامياً .

أفسد التعليم الاستعماري على الشباب عناصر رجولته وجعل اكبر همهم العناية بالزينة والمرآة وزجاجة العطر وجعل ولعه بالشيء الأجنبي والغريب والعامي والمتحلل من قيود الأخلاق .

حرص على ثنائية التعليم الديني والمدني لإيجاد طبقتين متميزتين مختلفتين متصارعتين وقد ارتبطت ثنائية التعليم بامتياز طائفة واحتقار الأخرى وقد عمق ذلك الفرق بين الطبقتين وأقام بينهما عوامل الصراع والاحتقار .

وانهى ذلك بقيـــام طبقة الاقطاعيين والأجراء واستهدف بذلك إقامة طبقة القـــادة الذين يتولون أمور البلاد من أولئك الذين شكلهم وفتح لهم الطريق .

جعل الشخصية الغربية هي المثل الأعلى ، وجعـــل نهضة الغرب وبيئته وأبطاله هم المصدر الأصلي لما تحشى به عقول الشباب ، بل إن الاستعمار بنى مناهج دروس الدين والتاريخ على الأساس الغربي ، فالدين الاسلامي يعلم في المدارس الوطنية مادة روحية أخلاقية ويعلم على وجه بعيد جداً عن الحياة وعن حقيقة مبادئه ، فحياة الرسول ﷺ تدرس لأبنائنا منقطعة الصلة عن حياتهم وبيئتهم بينما تدرس حياة نابليون وبسمارك وشكسبير بأسلوب مبهج ، كذلك فإن مادة العبادات والأخلاق تعـــلم من وجهة النظر النفعية ، أما

التاريخ الإسلامي فإنه مجموعة من المثالب التي تصور حكام المسلمين وخلفاءهم على أنهم سياسيون محترفون يغلب عليهم سوء النية أو سوء الفهم . ونبتت نابتة من المسلمين االمثقفين تعلم التاريخ وتؤلف فيه وفق الأسلوب التبشيري والمنهج الاستشراقي .

« وهكذا كافة البرامج قد وضعت كلها على أساس الفلسفة الغربية ووفق مناهج الغرب . وقد أخلص هؤلاء الرواد إخلاصاً تاماً لهذه الثقافة حملهم على تقديس الاجنبي وحب حضارته ، وانطبع كثيرون بطابعه ، وصاروا يمقتون الإسلام والثقافة الإسلامية كما يمقتها الغربي ، ويحملون للاسلام وللثقافة الاسلامية العداء كما يحمله الغربي ، وصاروا يعتقدون ان الإسلام والثقافة الإسلامية هي سبب تأخر المسلمين كما أوحي اليهم أن يعتقدوا ذلك ، وبهذا نجحت الإرساليات والحملات التبشيرية نجاحاً منقطع النظير من حيث ضمت اليها الفئة المتعلمة من المسلمين وجعلتها في صفوفها تحارب الإسلام والثقافة الإسلامية » .

(٦)

ولقد قام رجال الاحتلال في الأقطار المستعمرة على مهمتهم حتى استطاعوا حين انفكوا عنها أن يكونوا قد أعدوا « الركيزة » الحقيقية من أبناء البلاد أنفسهم ، وكرومر في مصر بعد أن مضى ربع قرن وغادر مصر عام ١٩٠٧ كان قد أحس تماماً بأنه ركز ركيزة صالحة للعمل سنوات طويلة ، وقد كان يدعو الشباب المتعلم في المدارس الوطنية وفق منهج الغرب أن يتقدم ليتسلم أمانة الحكم في بلده ويتصور المستقبل وقد جاء وفق ما خطط ورسم .

يقول في تقرير عام ١٩٠٣ : في مصر اليوم جيـــل جديد يختلف عن أجداده في أمور كثيرة ، فيمكن أن تحدثه نفسه يومـــاً أن يمد الى تلك الأركان القديمة يداً لا تعرف حرمة القديم فتكون أشد عليها من يد حكومة تمدها اليوم طبعاً لإرشاد قوم لا شأن لهم في الأمر ( يعني الانجليز ) لأنهم لا يدينون بالدين الإسلامي ، فإذا كان لهذا الحساب نصيب من الصواب فالأجدر بأبناء اليوم ان يشرعوا في الإصلاح ويتلافوا الأمر قبل حلوله .

وقد تحقق هدف دنلوب وجـــاء كثيرون مدوا للقديم الذي هو الإسلام يداً ، وكان بعض هؤلاء ليسوا من رجـال المدارس التبشيرية والإرساليات ، ولكن من معاهد التعليم الوطني الذي وضع مناهجه الاحتـــلال ، ومن الأزهر ايضاً .

ويقول أحد الباحثين : ظل يتخرج هـذا العـدد من المدارس الدنلوبية الجيل بعد الجيل حتى صار للاسلام في مصر معنيان :

١ ــ المعنى الذي فهمه الشيخ محمد عبده من ينابيع الإسلام مباشرة وكان مؤمناً بأن الأخذ به على وجهه الصحيح يحول الأمة من الضعف الى القوة ومن اليأس الى الرجاء ومن الخمول الى النشاط .

٢ ــ والمعنى الذي فهمه تلاميذ دنلوب ولم يتلقوه عن الاسلام نفسه بل عن حالة المسلمين المنحطة المنافية للاسلام وعن اقوال فلاسفة أوربا فيما كانت عليه الكنيسة في القرون الوسطى فظنـوا أن مـا قاله الأوربيون عن غير الاسلام ينطبق على الاسلام .

وهكذا وضعت المنـاهج بأيـدي أصحاب البرانيط غـير حاسبين الروح الاسلامي حساباً ؛ ويقول السيد محب الدين الخطيب :

إن مناهج التعليم لا تزال تلف وتدور حول المحور الذي وضعه دنلوب ، وإصلاح هـذه المناهج يجب أن لا تكون بأيـدي أناس عرفوا بالتعصب على الإسلام سواء أكانت اسماؤهم إسلامية أم كانوا من الذين حضروا الى هذه الديار للسعي في إخراج أهلها من ربقة الدين المحمدي . كان الغرض الدنلوبي تخريج طبقة من الشبان تصلح لأن تكون في دواوين الحكومة آلات ميكانيكية تديرها رؤوس انجليزية وتسير بها في خطط لم يكن معروفاً الى أين تؤدي ، والواقع أنها تؤدي الى جعل مصر بلداً دولياً ( انترناشيونال ) .

هذه الطريقة الدنلوبية كانت لا تعنى بتخريج أبنـاء مصر العربية المسلمة تخريجاً عربياً مسلماً ، إن الطريقة الدنلوبية علمت شباب مصر أن العروبة والاسلام شيء أجنبي طرأ على مصر واحتلهـا كاحتلال الفرس والبطالسة والرومان والانجليز ، مع ان العروبة والاسلام هما روح مصر وكيان مصر بل هما مصر منذ نحو اربعة عشر قرناً الى الآن .

إن التعليم الدنلوبي في المدارس الثانوية أهمل آداب الإسلام وتاريخ الاسلام وأمجاد الاسلام ، فخرج لنا أبناء مجردين من سلاح الفضائل الإسلامية .

وقد بحث كثيرون في سر ابتعاد الذهن المصري عن الاتصال بالشرق والبلاد العربية وعدم اهتمامه بما يجري في البلاد المجاورة، وقال محمد علي الطاهر ان سبب كل ذلك رجل انجليزي واحد هو مستر دنلوب مستشار وزارة المعارف المصرية بعد الاحتلال البريطاني لمصر ، فقد استطاع بسيطرته على المعارف ان ينزع من برامج التعليم الدينية وروح الأدب العربي وتاريخ العرب وصلة مصر بالعرب والعربية ، ثم أدخل في برامج المدارس ان مصر مصرية فرعونية وأن أجداد المصريين هم فرعون وهامان ولا صلة لمصر بعدنان وقحطان، فلما نبت ابناء هذا الجيل وكبروا تولوا السيطرة الآن على المدارس والصحف .

وذلك حق كله فإن مناهج الدراسة في المدارس الوطنية وضعها رجال التعليم التبشيري ورجال الإرساليات خلاصة لتجربتهم بها وهم رجال دهاة يعرفون غايتهم وكيف يسلكون السبيل اليها في صمت وأناة .

ومن خير ما يمثل ذلك ما كتبه احد الباحثين عن دنلوب حين قال :

« إن المستر دنلوب سلك طريقاً اطول فأراد أن يكتسب اولاً قلوب الأطفال وانتظر ثلاثين عاماً يضع في رؤوس التلاميذ ما يريده ويمنع عنها ما يريده الى ان تخرج من وزارة المعارف الجيل الأول والجيل الثاني، فلما صارت مقاعد الوزارات وكراسي النيابة والحكم ممتلئة بالذين رباهم مستر دنلوب انقلب الى وطنه واطمأن قلبه على أنه صار لأوربا في كل بيت مصري من يكمل برنامج دنلوب » .

وهكذا دفع المفكرون المسلمون هذه الخطة في إبانها ولم يتوقفوا عن معارضتها .

ويصور السيد محمد رشيد رضا منشىء المنار أخطار مناهج التعليم الغربية بعد الاستقلال .

أما تربية المدارس فروحها تفرنج وتقتل الإسلام قتلا بتفضيل كل ما هو افرنجي على مـــا يخالفه من عقائد الإسلام وشعائره وعاداته وأخلاقه وآدابه ومشخصاته. وحسبك ان الصلاة التي هي عمود الإسلام غير واجبة على أساتذة هذه المدارس ولا على تلاميذها فلا يطالب بها أحد .

هذه المدارس قد وضع الانجليز نظمها وعينوا لها وجهتها وغايتها كما شاءوا، ومن مقاصدها ان لا يكون لمن يتعلم فيها أدنى شعور بأن لقومه ملة إسلامية لها من المزايا في دينها وتشريعها وحضارتها ما تعلو به .

وقد اتفق ان جيء لمدرسة البنات السنية في عهد القسيس الشهير دنلوب المسيطر على وزارة المعارف بناظرة إنجليزية ممن تربين تربية حرة عالية . فلما كتبت تقريرها آخر السنة الدراسية اقترحت على وزارة المعارف إلزام جميع من يتعلم فيها من البنات ان يتعلمن عقائد الدين الإسلامي وأحكامه ويؤدين عبادته من صلاة وصيام وعللت ذلك بأن عاقبة هؤلاء البنات ان يكن امهات مربيات لنشء الأمة ولا يصلح للتربيـــة إلا الأم المتدينة الصالحة لأن تكون قدوة . ولذلك أجمعت الأمم كلها على تربية البنات تربية دينية عملية علمية ، قالت ؛ ولما كان في هذه البلاد ثلاثة أديان كلهـا تأمر بعبادة الله والتحلي بالفضائل واجتناب الرذائل وهي الإسلام والنصرانية واليهودية ، ولمـــا كان اختلاف التعليم الديني مضراً بالتربية ومخلا بوحدة الأمة وكان الإسلام هو دين الأكثرية الغالبة وجب جعـــله الدين الذي يبنى على أساسه نظـــام التعليم والتربية في هذه المدرسة ولذلك فقد اقترحت جعله رسمياً إلزامياً فيها .

وقد عزل دنلوب هذه الناظرة عزلاً وأحفظه تقريرها فمزقه تمزيقاً .

وأشار السيد رشيد رضـــا الى ان جميع المدارس التي تسمى إسلامية في

مصر تسير وراء وزارة المعـــارف في تربيتها وتعليمها حتى مدارس الأوقاف الملكية ومدارس الجمعية الخيرية الإسلامية التي كان غرضها الوحيـد على عهد رئيسها الأستاذ الإمام ومـديرها حسن عاصم تربية أولاد الفقراء من المسلمين تربية إسلامية خالصة وتعليمهم ما لا بد لكل مسلم من عقائد دينية وأحكام.

وقد أصاب هـذه المدارس من الانتكاس والارتكاس ، حسبك ان تعلم ان الجمعية أنشأت مدرسة للبنات لتمرينهن على الرقص دون تمرينهن على الصلاة والثمرة مـا ترى من النساء في الاسواق والشوارع والمحافل والمجامع والملاعب والمراقص والمسارح والحمامات البحرية والجمعيات النسائية ، وقـــد بلغن من الخلاعة والرقاعة والإباحة دركاً صار يستقذره الكتاب الإباحيون الذين دعوا اليه من قبل .

وإذا كان هـــذا شأن من يتعلمن ويتربين في المدارس الإسلامية فماذا عن مدارس جمعيات التبشير وراهبات الكاثوليك؟ إن هؤلاء يحتقرون الإسلام وكل من ينتمي اليه ويحتقرون لغته ايضاً [١] .

---

(١) م ٣٤ سنة ١٩٣٣ المنار .

(٧)

وقد تساءل كثيرون خلال هذه المرحلة الطويلة التي سار فيها التعليم إبان الاحتلال حتى نهايته: إلى أين وإلى متى تسير مدارسنا وراء مدارس الغرب ؟

وقد عرض لهذا الأستاذ الإمام حسن البنا فقال : لنا ان نأخذ من مدارس الغرب ومناهجه عنايتها بالعلوم الطبيعية والمواد العملية والمعارف الحيوية التي ترمي الى إدراك سر الوجود ومعالجة مشاكل الحياة وعنايتها باتجاهات التربية الحديثة ومراعاة مطالبها بتربية الجسوم وغرس الفضائل الوطنية .

ولكن : هل نجعل مدارسنا خلواً من الدين والاهتمام بشأنه لأن مدارس الغرب كذلك ؟ كلا والف مرة كلا . فان أسباب ذلك وموجباته إن توفرت في الغرب فهي معدومة عندنا ، وإن أخطأ الغربيون في شيء فلسنا ملزمين بتقليدهم في خطأهم على ان مدارسهم أسست في وقت كان النزاع بين العلماء والمتدينين على أشده وكانت موجة الإلحاد تغشى أوربا من أقصاها الى أقصاها، وكانت المدارس هي السلاح الماضي للقضاء على مزاعم الكهنوتيين وأراجيفهم، ولكن الشأن الآن غيره فيما مضى .

ليس هناك وسيلة لتربية الخلق إلا الدين بل الدين وحده فالعلم والفلسفة لا يجديان في تربية النفوس وتزكية الأرواح إلا إذا استندا الى الوازع الديني القوي السلطان العظيم الأثر .

ومن هنا يمكننا ان نفهم السر في اتجاه السياسة الانجليزية نحو جعل التعليم في مصر مجرداً من الدين والأخلاق لأن هذا هو ما تقضي به مصلحتها ويؤدي الى تسلط شعب يدين بدين آخر .

ويقول الإمام حسن البنا : منــذ امتدت اليد الأجنبية الى مناهج التعليم أخــذت العناية بالقرآن تضعف وتتضاءل . وأخـــذ رجال التربية والتعليم – وجلهم من الأوربيين أعــداء الاسلام وكتاب الإسلام – يرون شبحاً مخيفاً يناوىء مطامعهم وآمالهم يعملون على إقصائه تدريجيــاً من المناهج بحجة ان المدارس علمانيـــة وساعدهم على ذلك روح التعليم الأوربي التي عمت وطمت فاستطاعوا ان يحذفوه من التعليم العالي والثانوي ثم الابتدائي تقريباً وحصروه في دائرة ضيقة هي مكاتب الإعانة والمكاتب الأولية .

ولم يقف هـــذا التيار ضد القرآن عند هذا الحد بل أخذ يقوى ويشتد فإذا بمكاتب الاعـــانة تطاردها المدارس الالزامية وليس من منهاجها حفظ القرآن ، ولئن كان هنـــاك قسم للحفاظ كما يقال فإن طبيعة نظامها يجعل الوصول الى هـــذه الغاية مستحيلاً ، وصارت البقية الباقية من هذه المكاتب تغلق تباعاً أمام عدم الاقبال عليها ، وتضييق الوزارة وحظرها فتح مكاتب جديدة رغبة في تعميم التعليم الالزامي .

والنتائج الخطرة الملموسة لهذا كله هو استحالة حفظ كتاب الله على النشء الحديث ، ومعنى هـــذا انقراض الحفظة بموت من يحملون القرآن من العلماء والمرتزقة والعباد الصالحين ، وكذلك ضياع اللغة العربية التي ما كانت العناية بها يوماً من الأيام إلا نتيجة من نتائج العناية بالقرآن الكريم ، وبذلك ينسى المسلمون أصـــل دينهم وتنقطع الصلة الحقيقية بينهم وبين كتاب الله وينهدم أعظم ركن من أركان حياتهم الدينية والعلمية .

ويشير الامام الجليل الى مصدر الخطر فيقول :

إن الفكرة التي تسود عقول رجـــال وزارة المعارف هي وجوب إبعاد العنصر الديني عن العقول والأذهان حتى تكون المدارس علمانية فقط ، وإن كان الكثير لا يستطيع المجاهرة بهذا الرأي والدافع لهذا الرأي هو الاعجاب بتقليد أوربا ونظمها إعجاباً يدفعنا الى السير وراءها .

والمتتبع لخطوات القضاء على التعليم الديني عندنا يجدها شبيهة بالخطوات التي اتبعتها فرنسا لمثل ذلك ، فقد كانت الخطوة الاولى هي إلغاء مادة الدين من المناهج والاستعاضة عنها بدرس في الأخلاق .

( ٨ )

ومنذ الثلاثينات ركز رجال الحركة الاسلامية جهدهم على مصدر الخطر وحددوه ، وقالوا إن التعليم هو الأزمة الحقيقية الحاضرة في عالم الاسلام .

وإن طريقة التعليم التي جرت عليها الحكومات الاسلامية والمسلمون في هذا العصر ، « تعني ان ينشأ الحدث المسلم بدون عقيدة من الصغر تنقش في لوح صدره ، وأن لا يكون له نصيب من حفظ القرآن ولا من قواعد العربية فالمسلمون اليوم يشتكون من ثورة الأفكار وفشو المبادىء الضـــارة كالالحاد والاباحـة ، والانصراف عن كل شيء روحي والطاعة لكل شيء مادي ، وعندما عاد ويليـام مارتين الكاتب السويسري من سياحة في الشام والعراق ١٩٣٠ قال : إن الناشئة الحديثـة في العراق حسبما لحظ في بغداد ليست على على شيء من الدين الاسلامي وأهل مصر يئنون من مظاهر عداوة الدين التي كانت أحياناً تصـــل الى مجلس النواب والتي لولاها لم تكن الجامعة المصرية نفسها بؤرة شبهات باسم حرية التفكير ، وسورية نفسها منطوية على كثير من سل اللادينية الساري بسرعة » .

ويقول الأمير شكيب أرسلان صاحب هذا العرض: ماذا تأمل من الشاب الذي أرسـله أبوه الى أوربا وهو ابن ( ١٤ سنة ) لا يعرف شيئاً من عقيدة قومه ، ولا من البراهين التي يقوم عليها الاسلام فوصل هناك «خاماً» كما يقال

وحشا دماغه في أوربا بكل ما يحقر الإسلام ويصغره ويزدريه ، وقيل له إن أمته من التأخر والجمود والضعف إنما هو بأجمعه أثر الإسلام ، أفيكون من العجب بعد هـذا أن تنشأ عن هذا الفوج الجديد هذه الكراهية للدين الإسلامي وهذه النفرة من الثقافة الإسلامية. والخطأ ليس هو خطأ أوربا التي تريد أن تبث تعاليمها مما هو طبيعي والتي لو وجد عندها الميل الى الإنصاف لم يوجد عندها العلم بحقيقة الإسلام ، إنما الخطأ هو خطأ الحكومات الإسلامية التي كانت ترسل الناشئة للتحصيل في فرنسا وإنجلترا والمانيا وبلجيكا وسويسرا وتظن أنها ربت فيها رجالاً والحقيقة أنهـا أرسلتهم غير مجهزين بشيء من السلاح المعنوي الذي يمكنهم من أن يـذبوا به لو هوجمت عقيدتهم فكانوا معرضين لكل خطر .

إن التعليم في أوربا لازم بـل ضروري ولا سيما العـلوم الطبيعية والميكانيكيات والاقتصاد والزراعة والتجارة ، ولكن تلقننا هذه العـلوم في أوربا لا يستلزم أن ننسلخ عن عقـائدنا وعاداتنـا وأخلاقنا وأذواقنا ومشخصاتنا القومية ومقوماتنـا الاجتماعية .

ولقد سبق لغيرنا من الشرقيين مثل اليابانيين أن تلقوا هذه العلوم وبرعوا فيها وضارعوا فيها الأوربيين وسبقوهم في كثير منها ولبثوا على ما كانوا عليه من عادة وعقيدة وذوق ومشرب وكتابة وأدب .

وأغرب من هذا أن الأبنـاء يعودون من أوربا وقد امتـلأت ادمغتهم من احتقار المدنية الشرقية والثقافة الإسلامية فيهزأون بآبائهم ويزدرون أهلهم ويجادلونهم في الدين وينكرون أمامهم الوحي ، ويقولون لهم إن هذه العقائد ما هي إلا خرافات واساطير . ولا أريـد أن اطلق القول وأحكم على جميع الذين حصلوا العلوم في اوربا بفساد العقيدة بل هنـاك من الناشئة من استفاد وعاد الى بلاده فأفاد وبقيت مبادئه طاهرة ، وإنما أريد ان اقول إن إرسال الولد الى أوربا قبل ان يبلغ أشده معناه إرساله لينشأ تنشئة اوربية ليس

فيها شيء من الإسلام ومبادئه ، فإذا عـاد الى قومه عاد إما عدواً لقومه او محتقراً لهم ونشأ هـــذا التنافر الذي نراه الآن . والخلاصة اننا من فوضى التعليم في خطر وان من عدم تجانس التعليم سيكون في العـالم الإسلامي فتن وشدائد بين أبنـائه [١] .

• • •

وهذه هي قضية البعثات من شباب المسلمين الى أوربا والغرب وهي بمثابة خطر شديد كان للاستعمار في توجيهـه دور وأثر حتى لقـد بلغ ان ارسل من مصر بعثات من شباب في السابعة من العمر والعاشرة حتى يمكن تشكيلهم من جديد دون ان يبقى لجذورهم الإسلامية العربية أثر ما ، ولقد كانت اخطار ابناء البعثات من أكبر الأخطار التي عرفتها بلادنا وأمتنا .

والمعروف أن اغلب المنح الدراسية المقدمة من البلاد الغربية للجامعات بما في ذلك الجامعة الأزهرية مع الأسف هي منح مقدمة من مؤسسات التبشير والاستشراق والإرساليات ، وان الطالب يحاط به تمامـــاً إذا ما وصل الى اوربا ويفرض عليه موضوعه ووجهة النظر التي يتحرك فيهـا ، ولا بد أن تكون في إطـار كتب استاذه الذي كثيراً ما يكون يهودياً ؛ واليهود الآن يشرفون على الدراسات الإسلامية والعربية في اغلب جامعـات الغرب ، ومن السخرية البالغة ان يدرس طه حسين في فرنسا تفسير القرآن بعـد ان عجز عن تحصيله في الأزهر او يدرس اللغـــة العربية وهي موضوعات ذات أصل عربي ولا تحتاج الى السفر الى الغرب والاقامة من أجل دراستها إلا من حيث ان تكون وجهة نظر الاساتذة المستشرقين .

---

(١) الفتح – ١٧ – ابريل ١٩٣٠ .

## (٩)

وإذا كانت هذه هي وجهة نظرنا كمسلمين في اخطار التعليم الوطني في ظل النفوذ الاستعماري وتحدياته وهو خطر امتد في البلاد الإسلامية بعد الاستقلال وبعد الجلاء نقول إن الجانب الآخر لم يكن يحس بأن ما قـــام به قد حقق تماماً كل ما يتطلع اليه في حدود رسالة القديس لويس ، وإنما كان يرى ان الأمر ما يزال محتاجاً الى جهود جديدة ، بل إن عدداً من المستشرقين تواصوا على دراسة الخطوات التي تمت واطلقوا عليها اسماً عجيباً هو «تغريب الشرق» ودفعه في طريق الخروج من إسلاميته وعروبته الى ان يكون غربيـاً وجاء كتاب ( وجهة الإسلام لجب وخمسة من المستشرقين عام ١٩٣٠ ) ليصور الى أي مدى وصل ذلك التغريب وما هي الخطوات التي تمكنه من تحقيق غايته كاملة .

وتقرير جب في هذا الصدد وثيقة خطيرة تدفع جميع العاملين في حقل التعليم الإسلامي والعربي وستظل كالسيف مشهورة في وجوههم حتى يتحرروا من نفوذ الغرب في مجـال التعليم :

« التعليم اكبر العوامل الصحيحة التي تعمل على الاستغراب . والحق أنه العامل الوحيد إن فهمنا من كلمة التعليم ما تدل عليه ، ولا نستطيع الحكم على مدى الاستغراب في العالم الإسلامي إلا بمقـــدار دراسته للفكر الغربي

والمبـادىء والنظم الغربية . ولكن هذا التعليم ذو انواع كثيرة وتقوم به جهات متعددة وبالطبع لأن هنـــاك بالفعل قليلاً من التعليم على الأسلوب الأدبي في المدرسة وفي الكلية الفنية وفي الجامعة وعلى هذا التعليم يتوقف كل ما عداه . إن انتشار التعليم سيبعث بازدياد في الظروف الحاضرة على توسيع تيار التغريب وتعميقه ولا سيما لاقترانه بالعوامل التعليمية الأخرى التي تدفع الشعوب الإسلامية في نفس الطريقة » .

ويقول جب: إن إدخال طرائق جديدة في الفكر – في البلاد الإسلامية – كان يتطلب نظاماً جديداً في التربية من عهد الطفولة في المدارس الابتدائية والثانوية قبل الانتقال للدراسات العالية . وإن إصلاح التعليم على هذا النحو لم يكن في ذلك الوقت يخطر على بال السلطات المدنية الإسلامية، ولكن هذا الفراغ ملأته هيئات أخرى ، فقد انتشرت في منتصف القرن التاسع عشر شبكة واسعة من المدارس في معظم البلاد الإسلامية ولا سيما تركيـا وسوريا ومصر وذلك يرجع غالباً الى جهود جمعيات تبشيرية مسيحية مختلفة ، وربمـا كان اكثرها عـــدداً المدارس الفرنسية ، فقد كانت المدارس الانجليزية في الامبراطورية العثمانية أقل منها في الهند ، وكانت المدارس الهولندية قاصرة على جزر الهند الشرقية. هذه المدارس صاغت اخلاق التلاميذ وكونت ذوقهم، والأهم أنهـا علمتهم اللغات الأوربية التي جعلت التلاميذ قادرين على الاتصال المباشر بالفكر الأوربي فصاروا في مستقبل حياتهم مستعدين للتأثر بالمؤثرات التي فعلت فيهم فعلها أيام الطفولة ( أي التعليم على الطرق المسيحية ) .

وفي اثناء الجزء الأخير من القرن التاسع عشر نفذت هذه الخطة الى ابعد من ذلك بإنماء التعليم العلمـــاني تحت الاشراف الانجليزي في مصر والهند ، ولعل هناك نصيباً من الحق فى التهمة التي ترمى بها المدارس الاجنبية من أنها مفسدة لقومية التلاميذ، وإن كنا لا نستطيع القول بأن التطورات السياسية

التي أعقبت ذلك في البلاد الإسلامية أيدت هذه التهمة ولكن الذي فعلته بلا ريب أنها ربت في التلاميذ خروجاً على الأنظمة الاجتماعية وعلى السياسة الى حد ما في اوطانهم الأصلية . وأضعفت من هذه الوجوه سلطان النزعة الإسلامية القديمة على التلاميذ وأدخلت في بناء المجتمع الاسلامي أداة هادمة قطعت بعض الأواصر التي كانت تربطه وتحفظه .

ويقول جب : لقد استطاع نشاطنا التعليمي والثقافي عن طريق المدارس العصرية والصحافة أن يترك في المسلمين ولو من غير وعي منهم أثراً يجعلهم في مظهرهم العام لا دينيين الى حد بعيد ، ولا ريب ان ذلك خاصة هو اللب المثمر في كل ما تركت محاولات الغرب لحمل العالم الاسلامي على حضارته من آثار .

هذه كانت الرؤيا عام ١٩٣٠ : الخنجر الذي طعن به المسلمون ما زال ينزف ومع ذلك فإن هناك من يدعو الى غرسه الى أبعد مدى ، ويقول جب كنتيجة لهذا العمل :

« إن الاسلام كدين لم يفقد إلا قليلاً من قوته . أما كنظام للحياة الاجتماعية فقد نزل عن عرشه وقامت الى جانبه او من فوقه قوى جديدة لها من السلطان ما يتعارض في بعض الاحيان مع تقاليده وتنظيماته الاجتماعية وبذلك خفت سلطة الاسلام فى الحياة الاجتماعية وتراجعت شيئاً فشيئاً » .

ويرى جب ان الهدف من هذه الخطة في مجال التربية والصحافة كانت ترمي الى التفرقة بين الحياة الزمنية والحياة الروحية الدينية : فليس شيء في الحياة يصح ان يسبغ عليه الطابع الديني » .

وهكذا نجد الطعنة النجلاء تضرب الاسلام في الصميم وتقضي على قاعدته الاساسية وعموده الفقري : تكامل الدنيا والدين في نظام الاسلام .

والصورة التي رآها جب وحاول ان يدعمها لتمضي الى غايتها هي الصورة التي اشار اليها بيجمن فيلبي في محاضرة له بالجامعة الأمريكية في ١٩٥٧/١٠/٢٠ حين قال :

« لعبت الإرساليات (في بيروت والقاهرة والقسطنطينية) الدور الرئيسي في تنمية الفكر الشخصي عند طلابها الذين تمكنوا من قيادة الحركة القومية ، ومن المهم أن نعرف ان النفوذ التربوي الوحيد الذي تعرض له الطلاب العرب في القرن الماضي : كان النفوذ الغربي » .

وقد أشار الى هذا السيد محب الدين الخطيب معلقاً فقال :

إنما أتينا من قبل المدرسة والصحافة ، ومن قبل الثقافة التي تثقف بها قادة الأمة ، فالمصانع التي يتخرج منها قادتنا ليس لها غاية واحدة معينة .

فالنظرية الصحيحة في التعليم في العالم الإسلامي أن يكون ابن الزمان وابن المكان أي ان يكون عصرياً وإسلامياً ، فإذا كان عصرياً فقط كما هي الحال في مدارسنا المدنية خرج لنا شباب يجهلون أنفسهم ومحيطهم وكيانهم وكانوا سماسرة لأقطار أجنبية ومقاصد أجنبية وعقائد أجنبية ، وإذا كان التعليم ابن المكان فقط ولم يراع فيه معارف العصر خرج لنا شبان جاهلون أحوال زمانهم مجردون من الأسلحة التي يقاتلهم بها اعداؤهم .

والسبيل هو القضاء على التعارض في طريق التثقيف في العالم الإسلامي وإزالة هذه الهوة الواسعة بين المتعلمين تعليماً مدنياً عصرياً والمتعلمين تعليماً دينياً إسلامياً ولا يكون ذلك إلا بسلخ الصبغة الأجنبية عن التعليم المدني العصري ، وإعطائه صبغة أخرى من لون محيطه الإسلامي تكون ملائمة لتقاليد الأمة وعقائدها ويكون القسط الادنى لإعلان مفاخرها وتنوير تاريخها وإحياء ماضيها وربط الحاضر به .

كذلك تعليمنا الاسلامي يجب أن يجهز بأساليب العصر ومعارفه ليكون

أئمة المسلمين من أعرف الناس بزمانهم وأدواته وأسباب معالجتها . إن مناهج التعليم في مصر لا تزال تلف وتدور على المحور الذي وضعه دنلوب ، وإصلاح هذه المناهج يجب ان لا يكون بأيدي أناس عرفوا بالتعصب على الاسلام سواء أكانت اسماؤهم إسلامية أم كانوا ممن حضروا الى هذه الديار للسعي لاخراج اهلها من ربقة الدين المحمدي ، بل بأيدي رجال من أهل الفضل عرفوا بالوفاء للاسلام .

ويركز الدكتور محمد حسين هيكل على نقطة الخطر الأساسية وهي وزارة المعارف ودورها ومناهجها وخضوعها الذليل في وجه النفوذ الاجنبي فيقول في ١٩٣٢/١/١٢ : « إن وزارة المعارف تخضع اليوم وأمس وستخضع غداً وبعد غد إلى ان يتاح لنا النصر السياسي الذي نعمل له الى السياسة التي كانت تخضع لها ايام كان مستر دنلوب مستشاراً لها مع فوارق في عدد المدارس وعدد الأساتذة وعدد التلاميذ اكثر منها في أساليب التعليم وفي الغاية منه .

إن سياسة التعليم في وزارة المعارف ستظل اليوم وغداً كما كانت بالأمس وقبل الأمس خاضعة للسياسة الغربية وللحضارة الغربية في روحها فالحضارة الغربية بالمعنى الذي يفهمه مفكرو الغرب ومؤسسو هذه الحضارة الحقيقيون حضارة علمية بالمعنى المفهوم من العلم في العصر الحاضر ، بالمعنى الذي يفهمه ساسة الغرب الذين ينشرون لواء هذه الحضارة في ربوع العالم : حضارة استعمارية عدوة للعلم على خط مستقيم ، وهي كذلك حيثما ذهبت حاربت العلم وحاولت حصره في طبقة ضيقة وفي حدود ضيقة لتتخذ من هذه الطبقة بطانة لها تروج للاستعمار أي لاستغلال البلاد التي تنزل فيها استغلالاً مادياً يذهب كل خيره للغرب صاحب هذه الحضارة الاستعمارية .

ولذلك وضعت هذه الحضارة يدها على وزارات المعارف حيثما ذهبت وعملت دائبة على إفساد هذه المقومات النفسية والخلقية والقومية مكتفية بطائفة من المعلومات العملية التي تحتاج اليها إدارة الحكم .

ولست بحاجة لأضرب الأمثال على هذا فهي مما تلمسه اليد في كل ناحية من نواحي التعليم الابتدائي والثانوي أو العالي أو الجامعي ، وحضارة الغرب في هذا غير حضارات الشرق جميعاً، فقد كان لكل واحدة من حضارات الشرق كتاب تدعو اليه وإيمان تعمل على تثبيته في النفوس ، ومبدأ إنساني سام تريد غرسه في الأفئدة والقلوب ، كانت كلها حضارات إنسانية سامية القصد لا تقف عند الفرد ومتـــاعه المادي الوضيع بل تسمو فوق ذلك الى إخاء الإنسانيه كلها ، لذلك نرى في تاريخ الاسلام أدباء وعلماء من غير العرب ومن غير المسلمين بل إن اكبر أدباء الحضارة الإسلامية وعلمائهـــا من غير العرب وبعضهم من غير المسلمين .

أما هذه المدنية الغربية التي نعجب بهـا فمدنية أنانية تتحدث عن الإخاء حديثاً شهياً ، ولكنها تقتله حيثما ذهبت ، وتدعو الى العلم حديثاً رائعاً بديعاً ولكنها تطؤه بالأقدام عند الشعوب التي تستعمرها ، وتترنم بأحاديث الحرية ولكن على أن تكون حرية الغرب ، فأما الأمم التي يحكمها الغرب فيجب أن يعتبر أهلها السجن مثل الحرية الأعلى لأنه وحده هو الذي ينجو فيه الإنسان من تحكم الغربي الحاكم أو الشرقي الذليل الذي يقوم في الحكم تحت لواء الغرب ليقتل في نفس أمته كل المعاني السامية التي ورثتها من حضارات الشرق القديمة مقابل ما يناله من فتات مائدة الغرب السعيد المجرم .

هذه السياسة التي يسير عليها الغرب وتقرها حضارته هي التي نحاربها » .

( ١٠ )

اللغة العربية هي أكبر أهداف النظام الاستعماري للتعليم : ولذلك فقد وجهت اليها حرب عوان عن طريق مدرسة الإرساليات بالانتقاص والمدرسة الوطنية بالتجاهل والثقافة بالانتقاد . وتصور هذا دكتورة نفوسة زكريا سعيد فتقول : كان هم الاستشراق ان يبحث لأوربا الناهضة عن سلاح غير أسلحة القتال ليخوض المعركة مع هذا « الكتاب » الذي سيطر على الأمم المختلفة الأجناس والألوان والألسنة ، وجعلها أمة واحدة تعد العربية لسانها وتعد تاريخ العرب تاريخها. وبدأ الغزو المسلح وسار الاستشراق تحت رايته ، فمن كان له لسان غير اللسان العربي أعدت له سياسة جديدة لإغراقه في لسان الغازي الاوربي حتى يسيطر عليه ، ومن كان لسانه عربياً اتخذت له سياسة أخرى لإغراقه في تخلف مميت ، هذه الخطة لخصها وليم جيفور في كلمته المشهورة :

« متى توارى القرآن ومدينة مكة عن بلاد العرب تمكننا حينئذ ان نرى العربي يتدرج في سبيل الحضارة ( يعني الحضارة المسيحية ) التي لم يبعده عنها إلا محمد وكتابه » .

وقد تبين أن لا وسيلة الى إقصاء القرآن من الارض المفتوحة إلا بالسيطرة على وسائل التعليم شيئاً فشيئاً حتى لا تتمكن الأمة من السيطرة عليه فتقيمه

على طريق سويّ يفضي الى نهضة صحيحة ، وكان من قدر الله ان منارة العالم الإسلامي كله كانت في مصر وهي الأزهر فصار من الحكم المقطوع بـه أن تكون سياسة الغزو الأوربي موجهة الى مصر قبـل أي مكان في العالم الاسلامي .

وهكذا كانت الدعوة منذ اللحظة الأولى الى العامية : وكان تقرير الخبير البريطاني ( دوفرين ) يدعو الى استعمال العامية ، ثم جاءت برامج التعليم في المدارس الوطنية هادمة للغة العربية معلية عليها اللغات الاجنبية ، ثم جاءت الدعوات الثقافية المتعددة والمتوالية والتي بدأها ويلكوكس ووليمور بالإضافة الى صيحة ( ولهلم سبتنا ) مدير دار الكتب الخديوية . وكلهـا تنصب على العامية وعلى الحروف اللاتينية وامتدت هذه الدعوة بعـد في اسماء مصرية : لطفي السيد وقاسم أمين وسلامة موسى وعبد العزيز فهمي وغيرهم . وكانت أخطر تحديات هذه الدعوة هو التعليم باللغـة العربية في الجامعة .

وكان لمدرسة الطب دور في الدعوة الى دراسة الطب باللغة العربية وجدت من يعارضها ويحاول ان يعرقلها بدعوى عدم وجود المراجع او باتهـام اللغة العربية بالعجز عن الأداء .

وقد وقف كثيرون من المنصفين في الدفـاع عن اللغة العربيـة وأعلنوا قدرتها الفائقة وإمكانياتها الضخمة في دراسة العلوم . ولقد كان لطفي السيد في الجامعة صنواً لسعد زغلول في وزارة المعارف في مقاومة هذه الدعوة .

ولقد وقف زكي مبارك يهاجم لطفي السيد ويدافـع عن اللغة العربية فيقول :

«أليس من العجيب أن يشير الأساتذة بتعليم بعض المواد باللغة الانجليزية ليتقوّى الطلبة في تلك اللغة ثم ينسى مدير الجامعة ان يقبل اللغـة العربية حين يأبى أن يجعلها لغة التعليم في اكثر اللغات .

« أيغار الانجليز على لغتهم وهم أجانب فيسوقوننا سوقاً الى جعلها لغة التعليم ونتغافل نحن عن لغتنا ونحن في بلادنا فنقصيها عن ميادين التعليم .

إن من المكابرة ان يزعم الزاعمون ان لغـة التعليم في كلية الطب وكلية العلوم إنما كانت لغـة الانجليز بسبب عجز اللغة العربية ، فقد كانت اللغة العربية لغة العلوم والطب أجيـالاً طوالاً ولم يقل أحد بعجزها إلا منذ خلق أبناؤها العجزة الذين يسترون ضعفهم بمحاربتها من غـير تحرج أو استحياء . وقد كتب الله ان يفضح هـذه الدسيسة على لسان رجـل من أقطاب الجامعة المصرية هو الدكتور علي إبراهيم فقد قال في المؤتمر الطبي في دمشق « إنما نعلم الطب باللغة الانجليزية لأسباب سياسية » وعندنا بحمد الله كثير من المتحذلقين الذين يسترون ضعفهم بالتحامل على اللغـة العربية فقد كانوا يقولون إن لغة العرب تعوزها المصطلحات العلمية والطبيعية ولكن الدكتور علي باشا ابراهيم عجز عن التمسك بأهداب هذا الاحتيال .

إن مدير الجامعة بين اثنين : إما ان يصدر أمره عاجلاً بجعل اللغةالعربية لغة التعليم في جميع الكليات وإما ان يستقيل .

إن قصر هذا المنصب على الأستاذ لطفي السيد كان مزاحاً ثقيلاً أريد به ان يلقي في روع الشعب ان مصر لا تزال متأخرة وان هذا المنصب حين يخلو لا يجد من يشغله عن جدارة واستحقاق ، هي العوبة سياسية وليست ضرورة تعليمية ، وما هي المزايا التي ينفرد بها هذا الرجل حتى يكون وحده الصالح لإدارة الجامعة المصرية ، وما هو الأثر الذي تذكره به الجامعة حين يستقيل ما دام عاجزاً عن إقامة القواعد التي تنهض بها الجامعات ؟

أتريدون الحق ؟ إن لهـذا الرجل المفضال مزية واحدة ، ولكنها بألف وهي قدرته على الغض من قيمة اللغة العربيـة باسم العلم وزعمه أنها لا تصلح

الدراسات العالية وتجاهله الحقيقة الأصيلة التي جهر بها الدكتور علي ابراهيم حين صرح بأن الطب إنما يدرس في مصر باللغة الانجليزية لأسباب سياسية .

هل يوجد في العالم كله جامعة واحدة جعلت لغة التعليم فيها لغة أجنبية؟

إن التعليم بلغة أجنبية يهدم الاستقلال من الأساس ، ولم تكن مصر ولن تكون مستعمرة إنجليزية . أتحتجون بأن اللغة العربية تعجز عن التعابير العلمية ؟ إن احتججتم بذلك فأنا أسألكم : ما هي القوة السحرية التي جعلت لغات الغرب أقدر من غيرها على التعابير العلمية . وهل تخلق اللغات كاملة مكملة لا تحتاج الى زيادة ولا يعتورها نقص؟ إن المصطلحات العلمية في اللغات الأوربية تنحت نحتاً من اللاتينية واليونانية ومع ذلك لم يقل أحد بفقر الفرنسية أو الإنجليزية ، فما الذي يمنع ان تؤخذ المصطلحات العلمية مرة واحدة وتنقل الى اللغة العربية ويسد هذا الباب في وجوه من يريدون ان نظل اتباعاً أبد الدهر لأبناء اللغات الاجنبية ؟

أليس من العجب العاجب ان يدرس الطب باللغة الانجليزية في بيروت ويدرس بالانجليزية في القاهرة . أليس من موجبات الأسى ان يتمكن أهل سوريا ولبنان الى وضع المصطلحات العلمية باللغة العربية ونعجز نحن ؟

وتصدى زكي مبارك مرة اخرى الى لغة التعليم في كلية العلوم فقال :

أحب ان ألفت الغيورين من طلبة كلية العلوم الى وهن ذلك التعليل الذي يلجأ اليه العجزة حين يصرون على تدريس العلوم باللغة الانجليزية، فهم يزعمون ان اللغة العربية ليس فيها مصطلحات علمية وهذه علة لا قيمة لها على الاطلاق لأن اللغات المشهورة في أوربا كالفرنسية والانجليزية لم تكن فيها ايضاً مصطلحات قبل نهضة العلوم، ولا أكاد اصدق ان كلية الحقوق تريد ان تعود من جديد الى فرض اللغة الفرنسية على الطلاب ، فقد قامت الدلائل على

صلاحية اللغة العربية لشرح القوانين، وكيف لا يكون كذلك وهي من أغنى اللغات في مؤلفات الفقه والتشريع » .

ولقد كشف الذين شاركوا في هذه المعركة الى الهدف الأساسي للاستعمار تجاه إقصاء اللغة العربية عن التعليم فركزوا على ان الهدف هو القضاء على ما تحمله من إيمان بالشخصية والروح القومية وما يؤدي القضاء عليها على عزل الأمة عن مقومات كيانها .

(١١)

إن إنشاء الجامعة كانت في العـالم الإسلامي خطة جديدة لتوسيع قاعدة الغزو والسيطرة الثقافية بالرغم من ان مشروع الجامعة بدا عملاً وطنياً للتحرر من قصور الوطنيين عنـد مجالات التعليم المتوسط أو ارتمائهم في أحضان الجامعات التي أقامتها الإرساليات ، وتعـد تجربة إنشاء الجامعة المصرية علماً على خطة الاحتواء التي قام بهـا النفوذ الأجنبي ، وهي نموذج لكل الجامعات التي انشئت من بعد في مختلف أنحاء العالم الإسلامي .

فمنـــذ اليوم الأول لإنشاء الجامعــة الأهلية اشترك المستشرقون : نلينو وجويدي وسانتلانا فيهـــا وبدأوا في استقطاب الطـلاب وكانت تجربتها مع طه حسين ومحمود عزمي وزكي مبارك ومنصور فهمي معروفة ذائعة وهم ممن اتصلوا بها في مصر ثم سافروا الى أوروبا .

تقول الأهرام عام ١٩٢٥ عندما ضمت الجامعة المصرية الى الحكومة : إن سلطات الاحتلال البريطاني سمحت بأن تضم الجامعـــة المصرية الى الحكومة خوفاً من نفوذ الإرساليات الأمريكية ، فقـــد لاحظت اللجنة التي شكلت لذلك وغالبيتها من الانجليز ان الإرساليــة الأمريكية جمعت تبرعات ضخمة في أمريكا لإنشاء جامعــة أمريكية في القاهرة على غرار جامعة بيروت ، ومما يذكر ان الإرسالية الأمريكية قدمت الى مصر عام ١٨٦٥ حيث انشأت الكلية

الأمريكية في اسيوط أول مدرسة للبنات .

ولقد واجهت الجامعة المصرية منذ اليوم الأول معارك الغزو الثقافي والصراع بين مستشرقي فرنسا ومستشرقي إنجلترا، وكانت أولى معاركها حول استقدام المبشرين الذين يلبسون ثيــاب المستشرقين حيث يكلفون بإلقاء دروس عن اللغة العربية والإسلام والقرآن ، وكان موقع الاعتراض ان هــذه العلوم لا تحتاج الى أساتذة أجانب يكلفون الدولة مبالغ طائــلة ليحدثوا الطلاب عن علوم يوجد من يبرع فيها ويفوق المستشرقين من أساتذة الازهر وعلمائه .

وقد دافع طه حسين عن استقدام المسيو كازنوفا وقال :

« اريد ان يعلم الناس أني سمعت هذا الاستاذ يفسر القرآن الكريم تفسيراً لغوياً خالصاً فتمنيت لو أتيح لمنــاهجه ان تتجاوز باب الرواق العباسي ولو خلسة ليستطيع علماء الازهر الشريف ان يدرسوا على طريقة جديدة نصوص القرآن الكريم من الوجهة اللغوية على نحو مفيد حقاً .

ورد الشيخ محمود ابو العيون فهاجم هذا الاتجاه [1] وقال إن كازنوفا وضع كتاباً في تخطيط مدرسة الفسطاط ولكن هل وضع كتاباً في فقه اللغة وتاريخها وآدابها أو مناهج تدريسها يرجع اليه علماء اللغة والادب فيما جهلوه وهل وضع تفسيراً للقرآن لغوياً خالصاً ، ان كان فعل هذا ليكونن له شأن كبير عندنا.

ثم هاجم طه حسين وقــال : الآن قد عرفنا مذهب الدكتور طه حسين ورأيه في كل تعاليمنا ، وإذا كان قــد رأى إيثار استاذه على كل عالم وأديب في مصر فيما ضيعة العلم في مدارسنا العالية : العلم الديني الذي يدرسه لأبنائنا أساتذة أوربيون كالمسيو كازنوفا .

ثم ذكر أبو العيون كيف ان جامعــات المانيا وإنجلترا وفرنسا استعانت

---

(١) الاهرام: ٤ سبتمبر ١٩٢٣.

بشيوخ اللغة العربية في الماضي والحاضر وكان في مستشرقيها الكفاية وان حسن توفيق العدل والدكتور حـــامد والي وعبد العزيز جاويش ومحمد جاد المولى ومنصور سليمان كانوا من هؤلاء الاعلام .

ثم هاجم الغزو الثقافي التغريبي الذي تحمل لواءه الجامعة وقال :

نحن بلينا بالتقليد الضار وهو في الحقيقة مسخ وتغيير وتنازل منا طوعاً واختياراً عن كل مميزاتنا ومشخصاتنا الى الغير ولو دام الحـال على مثل هذا لأصبحنا مثل كندا واستراليا وبعض جنوب أفريقيا وسواحل تونس والجزائر ومالطة » .

وكانت المشكلة الثانيـة في معركة الغزو الثقافي هي المحاضرات التي القاها الدكتور طه حسين عام ١٩٢٦ عن الشعر الجاهلي في كلية الآداب ودعا فيها الى إقصاء عنصري القومية والدين من مجـــال البحث العلمي وهاجم الاسلام وأنكر ما ورد في القرآن من اخباره عن إبراهيم واسماعيل وطعن في نسب النبي وأنكر ان للاسلام أولية في بلاد العرب وأنه دين ابراهيم .

كما كشفت الاحداث عن دروسه التي كان يلقنها لتلاميذه وفيها يحثهم على نقد القرآن ويذكر لهم ان في القرآن اسلوبين مختلفين كل الاختلاف ، كما حث الطلاب على ان ينظروا الى القرآن كأيّ كتاب عادي يجري عليه من النقد ما يجري عليها وان يغضوا النظر عن قدسيته .

وهكذا مضت الجامعة في احتضان التغريب الى أبعد مدى .

## (١٢)

كان من اخطر تحديات التعليم الوطني الصراع بين التعليم الانجليزي والتعليم الفرنسي في مصر فقد عمد الانجليز بعد الاحتلال الى إحلال لغتهم وثقافتهم محل اللغة والثقافة الفرنسيتين تدريجياً وخاصة في المعاهد والمدارس العليا التي كان الفرنسيون يسيطرون عليها مثل مدرسة الحقوق ، وأخرج الاساتذة الفرنسيون الذين كانوا يسيطرون عليها، واحتل الاساتذة الانجليز مكانهم، وقد استبدلت اللغة الانجليزية في جميع المدارس باللغة الفرنسية واعتبرت اللغة الانجليزية لغة أصلية والفرنسية إضافية . وهاجم كرومر أسلوب التعليم الفرنسي وقال : إن اساتذة مدرسة الحقوق لا يلاقون على ما يرى في التلاميذ من قلة ما يميزهم بعضهم عن بعض لأنه ليس في أسلوب التعليم الفرنسي ما يدعو الى هذا الامتياز ودعا الى أفضلية الاسلوب الانجليزي لأنه يجعل التلميذ يعتمد على نفسه .

ويقول رسل جوست : إن الفرنسيين بذلوا خطوات واسعة منذ عهد محمد علي ، وكانوا يعرفون ان شباب مصر إذا ما تعلم اللغة الفرنسية فسيتبع طرق التفكير الفرنسية وكان رسل فرنسا لهذه الغاية في الاغلب رهباناً كاثوليك ».

وهكذا عاش التعليم الوطني على الصراع بين الثقافتين الفرنسية والانجليزية ثم جاء بعد الحرب العالمية الثانية صراع بينهما وبين الثقافة الامريكية وعاشت

مصر على استعارة الاذواق والعقليات الغربية المختلفة .

والإطار كله وافد وتوضع فيه المعلومات على نحو سيىء، وهو إطار قديم لم يتغير بعد الاستقلال ولا بعد انتهاء الاحتلال إلا في جزئيات بسيطة ، وهو في مجموعه لا يلتزم برسالة أو بهدف .

وكان من أخطر مـا فرض عليه المنهج الامريكي الذي يطلق عليه نظرية ديوي ، وأبرز مظاهر مذهب ديوي في التربية هو إبعاد الدين في مجال التربية، وكان في الغرب يستهدف إبعاد المسيحية ، وقد قصد الاستعمار الى فرض هذا المذهب في دراسات مدارس المعلمين العليا التي كانت مجـالاً لتخريج رجال التربية في مصر ورأى في هذا عوضاً عن الإشراف البريطاني على التعليم الذي كان يقوم به دنلوب ( ١٩٠٦-١٩١٩ ) فأصبحت نظرية ديوي هي عمـاد المنهج التربوي بعد ذلك وكان اسماعيل القباني حامل لواء هذه الدعوة ، وقد اتيحت له الفرصـة لإنشاء معهد التربية الذي كان المكان الاول لجعل هذه النظرية فلسفة عامة للتعليم المصري والعربي فيما بعد .

وقد ظل لأتباع ديوي سيطرتهم الكامـلة على أنظمة التربية والتعليم الى وقت بعيد وبذلك استطاعت نظريتهم ان تبعـد الاسلام عن مجال التعليم والتربية مع حملات مستمرة على اساليب التعليم الاسلامية وإبعـاد خريجي الازهر عن مجالات التربية بحجة مـا أطلق عليه النقص في مستوى الكفاية الفنية للتعليم وذلك جرياً مع الهـدف التغريبي الواضح ، كما حرصت هذه المناهج على حجب الدراسات الوطنية والتاريخية التي تعمد الى بث امجاد الامة وعظمة الشخصية العربية في نفوس الطلاب . وهذا الاثر من اخطر آثار التبعية للثقافات الغربية وخاصة الثقافة الامريكية .

# البَابُ الثَّانِي

# واقِعُ التربيةِ الوافِدةِ في العَالَمِ الإسْلاميّ وآثارُها

# الفصل الأول

# اوجه الخلاف بين المناهج

عندما غزا الغرب (العالم الاسلامي) : عسكرياً وسياسياً كان مخططه في الغزو الفكري والثقافي قد أوفى على درجة عالية من القدرة والتمكن. ذلك ان الغزو الفكري بدأ قبل الغزو السياسي بأكثر من ربع قرن ومكن لنفسه مناهج أخـــذها الاحتلال ورجالاً قاموا على اعمال التربية والتعليم والثقافة والصحافة فعندما بدأت الإرساليات عملها في بيروت ومصر واستانبول قبل ١٦٨٠ كان ذلك إرهاصاً بإعداد الركائز الحقيقية لولادة قوى الاحتلال وبناء الجيل الذي سوف يؤازر المحتـل بالسيطرة على الثقافة والتعليم والصحافة في نفس الوقت الذي يبدأ فيه الاحتلال .

يقول الدكتور أنيس صـــايغ [١] ثم نزل الانجليز الى مصر والسودان ، وانتقل الحكم الى ايديهم واحتـاج الانكليز الى موظفين أكفاء يتقنون لغتهم ويقبلون ان يتعاونوا معهم ، ومرة اخرى ( والاولى ايام الخـديو اسماعيل ) سد اللبنانيون والسوريون الفراغ ، وقـد وصفهم اللورد كرومر في مذكراته بأنهم «منحة من السماء» وأنهم «خميرة البلاد» ولم يكن كل السوريين المتعاونين

---

(١) في كتابه : الفكرة العربية في مصر .

مع الاحتلال موظفين ومرابين، فمنهم من انشأ صحفاً وأشهرها صحيفتا المقطم والمقتطف اللتان أصدرهما فارس نمر ويعقوب صروف واسكندر مكاريوس، وكانت الصحيفتان اللسان الناطق لسلطات الاحتلال باللغة العربية . فأيدتا ذلك الاحتلال وهاجمتا الحركات الوطنية بكل ما في لفظتي تأييد ومهاجمة من معان ، ونستطيع ان نضيف الى ذلك بكل بساطة جرجي زيدان وسليم سركيس وفرح انطون وشبلي شميل واديب اسحق وكل من دعا الى أسلوب العيش الغربي .

ومن اجل ذلك وصفت الارساليات ووصف التبشير بأنه بمثابة الطلائع ففي عهد اسماعيل وقبل اكثر من ربع قرن من الاحتلال البريطاني لمصر كانت الارساليات قد ركزت نفسها وأعدت برامجها ولم يبق إلا ان تسلمها الى المسؤولين عن الاحتلال لتطبيقها في دوائر التعليم ثم في الجامعات .

ولذلك فقد كان اكبر معاوني الاحتلال البريطاني لمصر من خريجي الارساليات ، وكانوا هم اصحاب الصحف التي كانت تقود حركة الفكر في صف تأييد الاستعمار والتغريب في هذا الوقت ، وقد تمكنت بعد ذلك كثيراً واستقطبت الكتاب المصريين والعرب الموالين لهذا الاتجاه .

وكانت تدافع عن كل مناهج الغرب في الثقافة والتعليم والتربية وتهاجم بشدة كل من يتصدى لها أو يحاول معارضتها وتتهمه بالرجعية والجمود والتخلف والخيانة .

ويمكن القول بأن بيروت كانت بؤرة العمل للغزو الفكري والتغريب في العالم الاسلامي يتوزعها على الارسالية الفرنسية الكاثوليكية والارسالية الامريكية والانجليزية البروتستانتية ، ومن وراء الاولى الفاتيكان ومن وراء الثانية الماسونية والصهيونية العالمية .

وكانت بيروت بذلك مؤهلة للتصدير وكانت القاهرة هي ملتقى كل مخططات التغريب وموزعتها عن طريق الصحافة والثقافة والتعليم في العالم الاسلامي كله .

(٢)

في إبان إعداد هذا العمل الذي أوصى به القديس لويس للاستيلاء على عالم الاسلام عن طريق الكلمة كانت مناهج الغرب في التعليم قــد تخلصت تحت تأثير الثورة الفرنسية من نفوذ الكنيسة واتجهت نحو العلمانية بمعنى اللادينية .

غير ان اغلب الذين أشرفوا على مدارس الارساليات كانوا من الرهبان والقساوسة الذين يحملون قــدراً كبيراً من الحماسة لدينهم ورغبة جارفة في تحقيق السيطرة الغربية عن طريق التعليم ، وقــد مضى التعليم في المدارس الوطنية قسمة بين المنــاهج الفرنسية والانجليزية كما رسمتها أنظمة الارساليات وعلى شاكلة مناهجها حتى اوائل الحرب العالمية الثانيــة ، ثم سيطرت عليه بعد ذلك مناهج التعليم الأمريكية ونظرية ديوي على وجه أخص .

وقد كانت هذه المناهج الثلاثة الفرنسية والانجليزية والامريكية قد وضعت في بيئاتها وطبقاً لظروف هــذه البيئات وأوضاعها ثم تطورت وتغيرت مرة بعد مرة في مواجهة مــا كان يواجهها من تجارب ، ثم نقلت هكذا الى أنظمة التعليم العربية دون مراعاة فوارق البيئة أو تباين العصر ، أو اختلاف الثقافة والعقائد .

ولقد ظل العرب والمسلمون يخضعون لهذه المناهج خضوعاً شديداً ويحاول البعض التخلص من هذه التبعية وهــذا النفوذ بعد ان ثبت فشل هذه المناهج

في تكوين الطالب العربي والمسلم وعقـدت عشرات المؤتمرات التربوية لإجراء تعديلات وتغييرات تتناسب مع ظروف العرب والمسلمين، ولكن أمراً واحداً لم يكن ليكون موضع الدراسة والاهتمام وهو ذلك الفارق الخطير من ناحيـة العقائد واللغة والتاريخ ؛ ذلك ان هـــذه المناهج افترضت اساساً أنها خارج نطاق الاسلام واللغة العربيـــة وأنها تدرس علوم الغرب كأنمـا هي في بيئة غربية خالصة .

لقد سيطرت النظريات الغربية الثلاث (الفرنسية والانجليزية والامريكية) على المدرسة ، وفرضت اسلوبها ، وتجاهلت تماماً أي اعتبار للعربي أو للمسلم، وإنما حاولت ان تشكل هذا الدارس وكأنه غريب تماماً عن بيئته وثقافته . وكانت ظاهرة الانفصال عن الدين والاخلاق هي أبرز معالم المناهج الدراسية.

وإذا كان الغرب قد أقام نظرية في التربية والتعليم على أساس إبعاد الدين عن التربية وفق تجربته مع المسيحية الغربية فإن الامر كان مختلفاً مع الاسلام الذي هو ليس ديناً فحسب ، ولكنه فكر وحضارة ومجتمع ، والذي لم يقف موقف الصدام مع معطيات العلم أو حركة التقدم ، فلظروف خاصة بالغرب انفصلت مناهج التربيـة والتعليم عن الدين الغربي ، ولكن هذه الظروف لم تواجهها المجتمعات العربية الاسلامية، ولم تكن مناهج التربية والتعليم الاسلامية قادرة على ان تنفصل عن الاسلام الذي هو بمثابة الأساس المكين لكل مقومات المجتمع والعلم .

والتربية الاسلامية تقوم أساساً على بنـــاء الشخصية الانسانية على أساس الايمان بالله والمسؤولية الفردية والالتزام الاخلاقي ، وهـــذا يعني ان فصل مقومات الخلق والعقيدة عن التربية من شأنه ان ينشىء شخصيات هشة ضعيفة لا تعرف مسؤوليتها إزاء مجتمع يواجه التحدي الخطير الدائم من قوى الاستعمار الغربية المتسلطة بالغزو العسكري والسيطرة الاقتصادية .

ولا ريب ان الغرب حين يسيطر على مقدرات العـــالم الاسلامي في مجال

التربية والتعليم والثقافة إنما يحاول ان يحجب عن المتعلمين هذا التحدي الخطير الماثل الذي هو بمثابة الرأس من الجسد والذي لا يمكن للعرب والمسلمين ان يتجاوزوه في مرحلة من أخطر مراحل حياتهم التاريخية .

ومن هذا التحدي وحده نواجه ذلك الخلاف الكبير بين أساليب التربية ومناهجها في الغرب وفي عالم الاسلام ونحتاج الى امتلاك الإرادة القادرة على بناء مناهج تربوية إسلامية عربية قادرة على بناء الشخصية الانسانية الصامدة.

ومن العجب ان هذه التجربة الخطيرة التي استمرت اكثر من مائة عام لم تزل عاجزة عن ان تدفع أولي الرأي في العالم الاسلامي الى كسر هذا القيد وبناء منهج تربوي إسلامي أصيل قادر على إعداد الاجيال القادرة على مواجهة الأخطار، وما نزال غارقين في التبعية لأساليب التربية الغربية نتيجة لسيطرة الرجال الذين أعدهم التغريب والغزو الثقافي لتولي مناصب القيادة الثقافية والفكرية .

وما تزال أنظمة التربية والتعليم في الغرب تنحدر عاماً بعد عام ومرحلة بعد اخرى تحت سيطرة الأهداف التلمودية الصهيونية ، وما زلنا ننقل آخر مودات التعليم، ذلك ان آخر الصيحات التربوية الغربية التي تدعو الى التعليم الحر والداعية الى مذهب افعل ما تشاء ليست بمناهج أصيلة، وإنما هي مراحل متتابعة من هزائم الفكر الغربي وانحداره وسقوطه في براثن الأساليب التلمودية التي هدمت الاسرة وأثارت موجات التحلل والهيبية والتحرر من الضوابط التي يقاسي منها المجتمع الغربي . فكيف يمكن لمجتمع نامٍ في طريقه الى البناء ان يتخذ من أنماط مجتمع منهار أسلوباً لحياته وتكوينه ؟

( ٣ )

إن أخطر الخلافات بين الفكر الإسلامي والفكر الغربي إنما تنصب على مفهوم التربية نفسه ، فالغربيون يرون ان التربية هي إعداد الأجيال لمواجهة المجتمعات المتغيرة على نحو يمكنهم من ان يلائموا بين أنفسهم وبين هذه المجتمعات، وتلك هي أحدث نظريات التربية الغربية ، ولا ريب أننا في عالم الاسلام والأمة العربية نفهم التربية على نحو أعمق وأوسع وأكثر وفاء لأمتنا وعقائدنا.

ونحن نعرف ان النظريات الغربية في أيّ ميدان من الميادين إنما تستمد وجودها من أساسين: (الاول) هو المادية التي لا تجعل للمعنويات أو الروحانيات أو ما يتصل بالدين والأخلاق أساساً .

( الثانيــة ) هي التخصص والتجزئة والانشطارية من حيث ان تقوم كل مجموعة من الباحثين في مجال النفس أو الأخلاق أو الاقتصاد أو التربية بالانفصال عن الطائفة الاخرى .

أما في مجال الفكر الاسلامي فإن الأمر يختلف كثيراً ، فالفكر الاسلامي يقوم على قاعـــدة التكامل بين القيم المختلفة لا الانفصال بينها أو الصراع ، فالتربية مرتبطة بالمجتمع وبالأخلاق وبالاقتصاد وبالنفس على قدر واضح تتصل به وتتكامل معه ، ثم تأخذ طابعها الخاص دون ان تنفصل .

كذلك فالفكر الإسلامي يزاوج بين الثابت والمتغير ، وبين القديم والجديد

وبين الروح والمـــادة وبين الإلهي والبشري وبين الكلي والجزئي في تناسق واضح وتوازن رتيب .

والمناهج الاسلامية سواء في التربية أم في الأخلاق أم في الادب لا تنفصل عن الأصول كما أنهـا لا تنفصل عن الحركة الدائمة ، فهي توائم بين الارتباط بالأصل الذي هو بمثابة الإطار الثابت وبين الحركة التي هي من طبيعة الظروف المتغيرة دون ان يجعلها ذلك مجمـدة وعاجزة عن التطور ودون ان تفلت من إطارها ذاهبة الى أبعاد بعيدة مغايرة لإطارها وأطولها وقيمها الأساسية .

وفي مجال التعليم تقوم المناهج الاسلامية على أساس تأكيد الرابطة بالارض وهي رابطة الوطن ، وتأكيد الرابطة بالأمة وهي رابطة العروبة ، ولكنها لا تدعها تتحرك في فراغ وإنمـا في إطار من مقومات الاسلام نفسه الذي هو الأصالة والجذور فلا تمكن لطوابع الوطن أو الأمة ان تعلو على القيم العليـا التي جعلها الاسلام اساساً ومنطلقاً من حيث هو نظام ومنهج حياة .

ولقد تقول المناهج الغربيـــة بتطور نظرية التربية بين حين وحين ، وهو تطور جذري غامر يتحرك دون قيد ضابط الى آماد بعيدة من غير ان يلقي بالاً الى أي روابط بالتاريخ أو الجذور أو القيم أو العقائد .

أما موقف الفكر الاسلامي من التربية فإنه يقبل بتطويرها دون ان تخرج من أطرها الأصيلة وقيمها الثـــابتة ، فتظل متصلة بالجذور وفي نفس الوقت قادرة على المعاصرة والحركة والتقدم .

ولقد نجد بين نظريات الغرب في التربيـــة وبين المنهج الاسلامي فوارق وخلافات كثيرة نتيجه هــذا الخلاف الجذري في النظرة العامة في عشرات المواضع والمواقف .

( ٤ )

تقوم نظرية ديوي في التربية على مصادر ثلاثة :

[ الديمقراطية الليبرالية + الداروينية + البرجماتية ] .

أما الديمقراطية الغربيـة فهي تعتمد النظرية الفردية واستعلاء الانسان وتحرره من كل عوامل السيطرة ، وهي في هــذا الطريق تقوم على سيطرة الانسان الابيض صـانع الحضارة وعبوديته غيره ، وتمضي في طريق مفاهيم الاستعمار والعنصرية ، وتقف من الانسان بصفة عامة موقف الفكرة اليونانية الرومانية القديمة : سيادة الغربي وعبودية من سواه .

أما الداروينية فهي تؤمن بالتطور المطلق كما جاء به خلفاء دارون وبذلك لا تؤمن بأن هناك قيماً ثابتة مطلقة، وهي بذلك تتجاوز الدين وتؤمن بتطور الأخلاق .

أمـا البرجماتية فهي لا ترتكز على حقائق ثابتـة لذاتها ولكنها ترى القيم وسائل تعين على الوصول الى غـايات ، فالفلسفة البرجماتية تنظر الى النتائج العملية الفعلية للعمل .

ويرى ديوي ان الأفكار أدوات وآلات يستخدمها الانسان ليكون علاقة فعالة مع بيئته، والعقل مجرد آلة يستخدمها في البحث؛ ولهذا تجعل البرجماتية

هدفها الإجابة عن السؤال : ماذا سنجني من العمل ؟

ويرى ديوي ان القيم الصالحة -ليست هي التي تحتوي على مضمون معين- وإنما هي التي تساعد الفرد على تكوين علاقة فعالة مع المجتمع ومع الناس ولذلك فهي في تغير مستمر وان قيم عصر سابق لا تصلح ليومنا هذا .

ولذلك فإن المدرس في نظره لا يجب ان يعلم القيم بل يجب ان يساعد الطفل على اكتشاف القيم بنفسه .

وبذلك يرفض ديوي كل ارتباط بين نظم التربية وبين الدين والأخلاق والقيم .

وكل هذه المصادر التي قامت عليها نظرية ديوي في التربية تقوم على تعارض مع مفهوم الاسلام أساساً ومع مفهومه في التربية ، فهو لا يرى أية حاجة لأن يعلم الحدث ديناً أو خلقاً أو قيماً ، وإنما يعلمه شيئاً واحداً هو أنه يعيش في مجتمع متغير وعليه ان يجد الوسائل لكي يستطيع ان يعيش في هذا المجتمع ويتوافق معه أياً كان اتجاهه وتطوره . فهو قبول بالواقع الذي تسير فيه الحضارة الحديثة والمجتمع الغربي دون ان يتخذ إلا الوسائل البرجمانزمية التي تستخدم الأفكار والقيم كأدوات فقط .

وديوي ومذهبه في التربية لا يؤمن بالترابط بين العقل والجسم ، ولا بين الروح والمادة ، ويدعو الى قبول الواقع لا تغييره .

فديوي ومذهبه هو ثمرة آخر مراحل التحول الخطير الذي يمر به الفكر الغربي والمجتمع الغربي تأثراً بالمادية وبالماركسية ، ويمضي في نفس الطريق الذي ترسمه المخططات التلمودية فيقرر ان الروابط الاسرية قدتحطمت وكذلك الروابط الاجتماعية .

ومن هنا فإن الطفل يجب ان ينشأ في هذه الصراعات ويشترك فيها ويستسلم لها دون ان يعارضها أو يغيرها .

ولا ريب ان هـــذا الاتجاه وهذا المفهوم يتعارض تماماً مع اتجاه التربية الاسلامية التي تحاول إنشاء أجيـال قادرة على التغيير والإصلاح ، وقائمة في عملها وحياتها على أساس الايمان بالله والمسؤولية الفردية والالتزام الأخلاقي .

ومن هنـا فان مذهب ديوي ليس مقبولاً ، لا كلياً ولا جزئياً مع منطلق التربية الاسلامية بل معارض لها ، ومن هنا كان خطره منذ فرض على مناهج المربين في البلاد العربية والاسلامية .

## (٥)

إن مفهوم التربية وفلسفتها بصفة عامـــة في الغرب يتعارض مع مفهوم التربية الاسلامية ، ذلك أنها تحاول ان تقدم للحدث المفاهيم الأولية للحياة مستمدة من نظريات الفكر الغربي ، فالانسان حيوان كما تقول نظرية التطور. وتنطبق عليـه تشريحات الحيوانات والحشرات ، والجنس هو مصـدر كل التصرفات كما تقول نظرية فرويـــد ، والتطور حركة مطلقة كما تقول نظرية التطور بدون حـدود أو ثوابت ، والأخلاق نسبية لأنهـا مرتبطة بالعصور والبيئات ، فهي متغيرة والانسان جسد فحسب وليس هناك نفس أو روح ، والدين من مخلفات العصور البالية سواء أكان أفيوناً للشعوب كما تقول الماركسية أو ســـلاح الإقطاعيين والأمراء كما تقول الديمقراطيه ، والجنس الابيض تاج الخليقة وصانع الحضارة وهناك جبرية في التاريخ أو حتمية في المادة .

هذه هي الخطوط العامـة التي تقوم عليها تربية النشء وهي مضادة تماماً لمفهوم الاسلام ، فالانسان في الاسلام سيد الكائنات وهو مستخلف في الارض ولكنه ليس سيداً مطلقاً بـل مسؤولاً ، وليس حيواناً مطلقاً ولكنه روح ومادة ونفس وجسم ، ولا تطبق عليـه تشريحات الحيوانات والحشرات لأنه يتميز بالعقـل والارادة . والجنس ليس مصدر كل التصرفات وليست المـادة مفسرة وحدها للتاريخ ولكن الجنس والمادة عاملان من بين عدة عوامل منها الدين والعنصر والمناخ .

فإذا قامت فلسفة التربية على المادية وعلى إنكار الجوانب الروحية والمعنوية فقد أقامت من الانسان مفهوماً ناقصاً وقاصراً . وإذا قامت على أساس ان الانسان حر الطبيعة والمسؤولية فقد تجاوزت مفهوم الاسلام الذي يعطي الانسان حرية الارادة ولكنه يجعله موضع المسؤولية ، وإذا رأت ان تجعل بين الله والانسان حلولاً أو اتحاداً فقد عارضت مفهوم الاسلام وأنكرت المسؤولية الفردية التي هي أساس الجزاء .

كذلك فان مفهوم التربية الغربية يعارض مفهوم التربية الاسلامية في أمور عديدة منها الإلحاح على اعتبار الدين قضية شخصية لا علاقة لها بالدولة ولا بالمجتمع ، وهذا ما لا يقره الاسلام ولا يقول به ، فالدين أساساً منهج حياة ونظام مجتمع . ولذلك فإن نظرية فصل الدين عن الدولة نبات غربي لا ينمو في بيئة المجتمع الاسلامي ، كذلك فالاسلام لا يعتبر الدين عائقاً في سبيل النهضة أو التقدم بل يعتبره معيناً ومساعداً ، كذلك ترى التربية الغربية ان ضوابط الاخلاق تعيق التقدم بينما يفرق الاسلام بين الاخلاق والتقاليد التي تبدو جميعاً في نظر الغرب وكأنها من صنع المجتمع ، أما قيم الأخلاق فإنها ثابتة ومتصلة بالانسان وليس بالمجتمعات كالخير والشر والحق والباطل وهي مما لا يقبل التطور أو التغير ، أما التقاليد التي هي من صنع المجتمع فهي تتبدل وتتحول ، ومن هنا لا يقر مفهوم التربية الاسلامي ان القيم الخلقية تتطور بتطور المجتمعات أو وسائل الانتاج .

(٦)

تؤمن التربية الاسلامية اساساً بالأخلاقية. فأخلاقية التربية دعامة حقيقية لا سبل الى تجاوزها . وتستمد أخلاقية التربية عنصرها من حركتها في إطار الدين نفسه ، وليس خارجاً عنه ومن هنا تركز التربية الاسلامية على الاسرة كقاعدة ثابتة للأمة . وتنمي في الأم مسؤولية واضحة ، وفهماً واسعاً يمكنها من تكوين النشء الجديد ، ويجعل لها وللأب مسؤولية أساسية في إعداد الجيل القادم .

والفرد المسلم ليس في صراع مع مجتمعه ولكنه في مواءمة ، وليس في صراع مع الجنس ولكنه في توازن مع حاجاته وقدراته . ولقد أقام الاسلام للجنس مفهوماً قريباً الى الفطرة فأباح الاتصال بين الرجل والمرأة ، ولكنه نظمه ووضعه في إطاره الصحيح الذي يعلي من شأنه ويكرم المرأة ولا يذلها، ثم جعل هذه الإباحة قائمة ثابتة ليس فيها خلاف وليست موضع صراع ، ولكنه سمح لكل من يستطيع ان يقيم الاسرة ولمن لا يستطيع ان يؤجلها ويعليها حتى يتاح له ذلك .

كذلك فالاسلام يرى الاسرة دعامة ويرى الزواج فطرة ويرى تنظيم ذلك كله في إطار الدين شريعة تحقق سلامة المجتمع وتحفظ كيان الافراد .

فالأخلاق ليست قيداً ولكنها ضوابط تمكن من قيام المجتمع الكريم والاسرة السليمة .

ولقد جاءت إطلاقات الغريزة الجنسية في الغرب نتيجة إنكار الدين الغربي لها وإنكاره لطبيعتها ، فكان لا بد من التحول من النقيض الى النقيض وما يقاسيه المجتمع الغربي الآن من ثورة جنسية وانفجار في العلاقات بين الرجل والمرأة إنما هو رد فعل الحرمان الذي أطلقته الكنيسة للعلاقات الطبيعية بين الرجل والمرأة .

أما المسلمون فإنهم لم يصادفوا هـذه الأزمة لأن دينهم اعترف بحاجات الجسد وأباحها ووضع لها الاطار الذي تتحرك فيه والضوابط التي تحفظها من الاضطرابات .

وإذا وصفت المفاهيم الغربية الأخلاق بأنها عادات اعتادها الشخص في الاغلب ، ولذلك فهي ليست ثابتـة وهي في نفس الوقت ترتبط بالمجتمعات والعصور ، فإن ذلك موضع خلاف عميق مع المفاهيم الاسلامية وربما يرجع في الاغلب الى مادية النظرة الغربية التي لا تفرق بين الاخلاق المرتبطة بالدين وبين العادات والتقاليد المرتبطة بالمجتمع ، والاولى ثابتة والاخرى متغيرة ، ومن شأن ذلك فإن المسلمين يرون في الاخلاق قيماً أساسية لا تتبدل على مدى العصور أو اختلاف البيئات ، بينما يرون في العادات والتقاليد قيماً متغيرة يصيبها الضعف والتفسخ .

ونحن حين ننظر الى المفهوم الغربي للأخلاق الذي يراد طرحه في أفق الفكر الاسلامي وبناء منهج التربية في العالم الاسلامي على أساسه نذكر جيداً مصدر ذلك الذي تشير اليه بروتوكولات صهيون حين تقول في إحدى موادها الأساسية :

« يجب ان نعمل لتنهار الاخلاق في كل مكان فتسهل سيطرتنا. إن فرويد منا . وسيظل يعرض العلاقات الجنسية في ضوء الشمس لكي لا يبقى في نظر الشباب شيء مقدس ويصبح همه الاكبر هو إرواء غرائزه الجنسية وعندئذ تنهار أخلاقه » .

ونحن نعرف ان فرويد دعـا الى نسبية الاخلاق ووصف الاخلاق بطابع القسوة حتى في درجتها العادية، وقال إن التسامي بالنفس هو نوع من الشذوذ.

ولقد هوجمت هـذه الآراء في الغرب قبل ان تهاجم في الشرق ، ولكن القوى الخفية مـــا زالت تدفعها وتقدمها في كل مكان حتى في مجال دراسات التربية الحديثة وفي الغرب حقيقة قائمة الآن تزري بهذا الاتجاه وتقول بأن العالم تضخم جسمه وضعفت روحـــه ، وان الاخلاق لم تتقدم بالسرعة التي تقدمت بها الصناعات ، وان تقدم العلوم لم يضمن ارتقاء الاخلاق .

وإن هذه الفلسفات المادية مـا تزال تهدم الايمان القديم ولكنها لم تشأ ان تكون إيماناً جـــديداً فهي تثير الشبهات والشكوك وتدع الاجيال الجديدة حائرة ، وذلك هو أسلوب التلمودية الصهيونية .

ولا ريب ان التزاوج بين انتهازية مذهب البرجماتية وتحلل مذهب فرويد من شأنه ان يجعل التربية الغربية فاسدة فساداً شديداً لأنهـــا لا تتحرر من الاخلاقية فحسب ، بل هي تعارض هذه الاخلاقية وتزدريها وتصفها بالجمود والتخلف .

## (٧)

من وجوه الاختلاف البعيدة المـدى حرص الجامعات الاجنبية في البـلاد الاسلامية على ان تقدم دراسات عن العلوم الانسانية التي تتصل بالتاريخ وعلم النفس والاخلاق والعـلوم الاجتماعية والفنون الى جـانب دراساتها عن العلوم الطبيعية والرياضية وغيرها، أما العلوم الانسانية فإن للعرب والمسلمين مفاهيم فيها تختلف عن مفاهيم الغرب، مستمدة من ثقافتهم وقيمهم وعقائدهم ولذلك فإن إصرار هذه الجامعات التي هي إرساليات تبشيرية في الاساس على تدريس هذه المواد من شأنه ان يخرج اجيالاً لا تفهم مجتمعها وقيمه إلا من وجهة نظر الغرب وطبق مقررات الاستشراق ، وهي وجهـــة نظر مخالفة تماماً لمفهوم العرب ومعارضة تماماً لأصالتهم ولأهدافهم .

وتدعي هذه الجامعات أنهـا تقدم هـذه الدراسات بأسلوب علمي ، هذا الاسلوب العلمي لا يصلح كثيراً لدراسة العلوم الانسانية لأنه يقوم على قواعد الاسلوب التجريبي الذي يطبق في دراسات المادة والجماد والطبيعة بينما الدراسات الانسانية المتصلة بالنفس والاخلاق والمجتمع لا يصلح لها إلا اسلوب آخر .

ونحن حين نقدم للدارس المسلم والعربي نظرية دارون على أنها مسلمة علمية ونقيم عليها مفهومه عن الانسان فيتقرر في نفسه أنه حيوان ثم نعلمه مفاهيم سبنسر في التطور المطلق للمجتمعات استمراراً من نظرية دارون في التطور

البيولوجي ، فإننا حينئذ نفصله عن أساس عميق وأصيل في الفكر الاسلامي تضطرب معه كل النظريات والمفاهيم والقيم .

ذلك ان الاسلام والفكر الاسلامي لا يقر مـا طرحته نظرية دارون من فروض بأن الانسان حيوان ولا ما فرضه سبنسر من تطور المجتمعات الى غير ما نهاية ، وكان الأولى بهذه الجامعات إذا درست هذه المواد ان تدرسها على أنها نظريات وفروض قد تصح وقد تخطىء ، وان هناك بين باحثي العلوم من عارض نظرية داروت ونظرية سبنسر وكذلـك الامر في فروض « فرويد » التي تدرس على أنهـــا مسلمات في علم النفس ، بينما توجـد عشرات المدارس ووجهات النظر في هذا المجال .

ونحن نعرف ان النظريات تتغاير، وتختلف ، وتتحول سريعاً سريعاً حتى ما يصدق منها في زمن ما أو فترة ما لا يصدق في زمن وفترة اخريين. فلماذا نقدم للدارس المسلم والعربي مثل هذه النظريات والفروض التي هناك معارضات كثيرة لها في إطار البحث العلمي فضلاً عن معارضات الفكر الاسلامي لهـا وفق مقرراته الاساسية .

ولا ريب ان تقديم هذه الفروض على أنها مسلمات تبنى عليها نظرة الدارس الى الانسان والى المجتمع والى الحيـــاة من شأنه ان يؤدي الى فهم مغاير تماماً لفهم الاسلام . وهذا ما تقصد اليه هذه الجامعات بتدريسها العلوم الانسانية التي ليس المسلمون والعرب في حاجة اليها من الغرب ، وإنما هم في حاجة الى العلوم الطبيعية والتجريبية التي تنقصهم اساساً. كذلك فإن جامعة الارساليات تعلم الشباب المسلم والعربي مادة التـــاريخ ما قبل الاسلام وما بعده والعصر الحديث على نمط مضطرب اشد الاضطراب مغاير لوجهة النظر العربية الاسلامية تماماً ذلك ان مـا يعرض عليه هو وجهـة نظر الغرب في مفهوم التاريخ من حيث إن الغرب صاحب السيادة الحالية على الحضارة والمسيطر بالاستعمار على

عوالم كثيرة منها عالم الاسلام .

كذلك فإن للغرب وجهة نظر بالنسبة لتاريخ اليونان والرومان تختلف ايضاً عن وجهة نظر العرب والمسلمين، فنحن كمسلمين وعرب نواجه المجتمعات السابقة للاسلام بفهم يقوم على ضوء ما قدمته رسالات الأنبياء للأمم وما عارضت به الأمم رسالات الانبياء من مفاهيم وفلسفات وفكر بشري وكيف جاء الاسلام ليصحح هذه المفاهيم ويحررها من الزيف ويعيد تقديم الفكر الرباني الاصيل للانسان من جديد .

هذا المفهوم الاسلامي وهذا الموقف يخالف تماماً بل ويعارض تماماً موقف الغرب ، فنحن حين ندرس مادة التاريخ في الجامعات الارسالية إنما نتبنى وجهة نظر الغرب الى الاسلام والعرب والاديان ، وهي وجهة نظر مغايرة تماماً وتعني ان يكون الدارس غربي الفكر ، فهو لا يصلح مطلقاً لأن يكون قائداً لأمته ، فإذا قادها أودى بها الى مهاوي الهلاك .

كذلك الامر فيما يتصل بدراسة العصر الحديث والحضارة الغربية فإن المفهوم الاسلامي لها مختلف تماماً ، فإن الغرب في العصر الحديث زحف على بلاد العرب والمسلمين فاحتلها وأقام فيها استعماراً خطيراً استنزف مواردها وسيطر على مقدراتها وفرض عليها نظماً وفكراً ، وحال بينها وبين حرية الحركة والارادة ، وعارض مصلحيها وقاوم مجاهديها ، وما زال يفرض نفوذه الاقتصادي والثقافي عليها .

أما من وجهة نظر الغرب فسوف تسيطر على الباحث المسلم والعربي دعوى العمل الضخم الذي قام به الغرب في سبيل تمدين هذه الشعوب التي توصف بأنها كانت متخلفة ومتأخرة ، ثم كان الغرب مصدر تقدمها .

هذه هي وجهة الخطر من دراسات الجامعات الاجنبية في بلاد المسلمين ، وهو خطر لا يتوقف عند هذه الجامعات ولكنه يمتد الى مختلف مناهج

الجامعات الوطنية ايضاً على نحو أو آخر ، فالدارسون في الجامعات العربية لا يدرسون إلا علوم الغرب في الاجتماع والاقتصاد والسياسة وغيرها على أنها العلوم العالمية دون ان يعرفوا ان للاسلام وجهة نظر في هذه القضايا عليهم باعتبارهم أبناء هذه البلاد ان يعرفوها، وان للاسلام أوليات في جميع مجالات العلم التجريبي والعلم الانساني لا يذكرها الذاكرون في مجال البحث مما يشعر الباحث العربي المسلم بأنه عالة على هذه الحضارة الحديثة وان قومه وفكره لم يكن له أي نصيب من الجهد والعمل في بناء هذه الحضارة .

وفي مجال دراسة الحضارة تحاول مناهج الجامعات الارسالية ان تكشف عن الحضارة الغربية سيدة العالم وتحاول ان تصور الحضارة الاسلامية وكأنها رافد من روافدها ، وكل ما قام به المسلمون من جهد في مجال البحث العلمي والعلوم الانسانية يختزل في أنه كان حفاظاً على ترجمات الفلسفة اليونانية ليس إلا ! ومن شأن هذا كله ان يخلق نظرة استصغار واحتقار من الدارسين المسلمين والعرب لأمتهم وحضارتهم ونظرة تمجيد وإكبار للغرب فلا يجدون مفراً من تبني الآراء القائلة بالتبعية والانصهار .

# الفصل الثاني

## اوجه النقص في الاقتباس

أبرز أوجه النقص التي تعانيها التربية في العـــالم الاسلامي نتيجة فرض المناهج الغربيـة على المدرسة الوطنية هو ظهور طابع الازدواجية في التعليم وفي الثقافة .

ذلك ان الاسلوب الاستعماري في التعليم استهدف الانفصـــال عن المنهج القديم دون القضــاء عليه وإنشاء منهج آخر مستقل ، ومن هنا سار المنهجان معاً في وقت واحـد ، حمل الاول طابع الدراسة الدينية واللغوية واستأثرت به المعاهد الاسلامية كالأزهر والقرويين والزيتونة ومعاهد الحديث وغيرها ، وهذه أقصيت عن النفوذ السياسي والاجتماعي ، وعزل خريجوها تمامـــاً عن الحياة ، بينما ركزت الوظائف الرئيسية والقيادات العملية في أيـدي خريجي النوع الآخر من التعليم الذي أطلق عليـــه التعليم الوطني أو القومي والذي فرض الاستعمار مناهجه ونظمه وصـــاغه على نحو معين لتخريج مجموعة من المواطنين ذوي الولاء للغرب وللفكر الغربي وهم في نفس الوقت يحملون بذور الكراهية وجـــذور الخلاف لخريجي التعليم الديني ، وبذلك تعمقت هذه

الازدواجية ، وترسبت نتيجة لامتدادها آثار بعيدة المدى وكان هذا كله وفي مجموعه خطراً شديداً على حياة المسلمين ومستقبلهم .

يقول الدكتور ظفر احمد الانصاري : هذان النظامان المتنافران ينتجان نوعين من الناس ذوي نظرتين مختلفتين الى الحياة وغير قادرين على إدراك وجهة نظر كل منهما .

ويشير الدكتور الأنصاري الى أثر النظام الوافد في التعليم فيقول : إن العقول التي شكلها هذا النظام التعليمي قد غلب عليها الإعجاب المطلق الذي لا تحفظ فيه ، والتقليد الكامل لكل ما هو أجنبي ، وهي بشكل عام عاجزة عن التمييز بين التقدم العلمي من ناحية والمثل الثقافية من ناحية اخرى . وانها كانت سبباً في نشأة جيل مجتث الاصول الثقافية ، مما ترتب عليه :

اولاً : ان النزعة الجامحة نحو التمدن لا تستدرج جماهيرنا للعمل الصبور في المختبرات العلمية بقدر ما تستدرجهم الى حانات الخمر وصالات الرقص .
ثانياً : ان الاعجاب المسرف بشعب ما والتقبل الأعمى لمذاهبه وآرائه وحتى طبائعه الفطرية يؤدي الى قتل القدرة على التفكير الأصيل ولا ينتج إلا عقولاً مقلدة .

ومعنى هذا : ان النظام الاجنبي الذي استقدم الى بلادنا يشكل تهديداً أكيداً لقدراتنا على التحيز بذاتيتنا وتهديداً لقدرتنا على الارتباط بديننا وتهديداً لما نؤمله من ان نكون شعباً يحترم ذاته .

وان الازدواجية قد خلقت اتجاهين متناقضين وأوجدت قوى هائلة من النزاع الداخلي تهدد كياننا كشعب ذي عقيدة ورسالة محددة .

وان هذا يستدعي – كما يقول الدكتور الانصاري – الى التفكير جدياً في إيجاد نظام آخر جديد .

(٢)

ترتب على هذه الازدواجية آثار بعيدة المدى أهمها : الانشطار والثنائية في الكيان الاجتماعي والفكري للأمة ، وقد صور هـذا دكتور محمد فاضل الجمالي حين قال :

« لا شك ساعدت التربيـــة الغربية كثيراً على توسيع آفاق اختبارات الشعوب الاسلامية وذلك بتوعية هذه الشعوب وجعلها تدرك موقعها في عالم اليوم ، ولكن التربيـــة الغربية تحمل في طياتهـا جراثيم التفسخ الاجتماعي والاخلاقي والروحي للعالم الاسلامي ، ولذا وجب دراستها دراسة انتقادية .

فالمشاكل والاخطار التي تحملها لنـا التربية الغربية تتأتى إما عن طريق اقتباسنا التربية الغربيـــة اقتباساً مستعجلاً دون ان تنسجم انسجاماً كاملاً وتتلاءم مع احتياجات الشعب وتقاليده الروحية ، أو لأن هـذه المشاكل والاخطار كامنة فعلاً في التربية الغربية ذاتها . (ذلك) ان اقتباس التربية الغربية بدون ربط كاف لهذه التربية بالقواعد التربوية التي تشمل دين الشعب ولغته وتاريخه القومي والفنون والآداب المحلية ، قد أوجد انشطاراً وثنائية في الكيان الاجتماعي والفكري للشعب . إذ ان وجود جماعـة يفكرون ويتحدثون بلغة عربية وتعابير جديدة بينما هناك جماعة اخرى من ابناء الشعب ذاته تفكر وتتحدث في تعابير قديمة مما يسبب فقدان الوحدة والانسجام .

وهذا مـا حدث في عدد من البلاد الاسلامية الأمر الذي يشكل مشكلة ثقافية واجتماعية وسياسية كبرى .

ويرى الدكتور الجمالي ان هناك سبعة آثار خطيرة للاقتباس الفاسد :

اولاً : إن التربية الغربية ولا سيما تلك التي تقدمها المدارس الاجنبية أو المدارس الوطنية التي تقلدالغرب قد تهمل احياناً اللغة القومية فتكون النتيجة ان الطبقة المتعلمة تستعمل فيما بينها لغة أجنبية .

ثانياً : في اقتباس التربية الغربية تتجه العناية فيالغالب الى القالب والمظهر أكثر من الحقيقة والجوهر فالطالب المسلم اليوم قد يعنى ويقلق من اجل الشهادة واللقب العلمي اكثر من اهتمامه بالضبط العلمي .

ثالثاً : اقتباس التربيـــة العربية يؤكد عادة على عملية الحفظ اكثر من التأكيد على التفكير والفعالية والبحث ( الشكل والقالب في التربية الغربية أكثر من الروح والجوهر ) .

رابعاً: إن الذين ينالون قشرة من الثقافة الغربية يصيبهم الغرور والادعاء والبعض الآخر يعوزهم التكيف ، ويصدق هـذا حينما يتأخر انتشار الثقافة العامة بين ابناء الشعب .

خامساً : التأكيد حتى الآن على النوع الأكاديمي في التربية الغربية وذلك على حساب التربية العلمية والتقنية .

سادساً: الكثير ممن ينالون الثقافة الغربية لا يعرفون شيئاً كافياً عن دينهم ولا عن حضارة أمتهم وجذورهم الروحية قد قلعت من تربة بلادهم .

سابعاً : فضلاً عن اعتيادهم على المشروبات الكحولية والانغماس في التمتع بالشهوات والتحلل الخلقي .

## ( ٣ )

يكاد أغلب دعاة الفكر الغربي والثقافة الغربية والمتأثرين بالتربية الغربية ان يجمعوا على فساد عملية الاقتباس من التربيـة الغربية ، لأنها حرصت على ان تنقل المحاذير والسلبيات واوجـه النقص بينما تركت الايجابيات والقواعد العامـة الصالحة لكل الامم والعصور كأنما كان هؤلاء الدعاة أعداء لأممهم وخصوماً لأوطانهم . يقول ساطع الحصري :

إن نظام التعليم في أي بلد لا يكون نظاماً قائماً بذاته ، يعمل بمفرده مجرداً عن النظم العائلية والقومية السائدة في البيئة التي ينتسب اليها وإنما يكون جزءاً من مجموعـة النظم الاجتماعية والخاصة بتلك البيئة ، وهو يعمل معها ويؤثر فيها ويتأثر بهـا على الدوام ، ويتبين من ذلك ان النظام التعليمي القائم في بلد من البلاد إذا انتقل الى بلد آخر ، بما انه ينتقل بمفرده وينفصل عن سائر النظم التي ترافقه في منشئه الأصـلي لا يمكن ان يعطي نتائج مماثلة للتي يعطيها في بيئته الاصلية وهذا هو نتيجة ضرر الاقتباس بدون تأمل وتكييف [١] .

ويواصل تفسير وجهة نظره هذه فيقول :

---

(١) كتاب حول الوحدة الثقافية العربية .

إن البلاد العربية تسير في شؤون التعليم على طرق تخالف المبدأ ، فبعضها يتجه نحو النظم الافرنسية وحـــدها ، وبعضها يسير نحو النظم الانجليزية ، وبعضها يستلهم النظم الأمريكية ، ويقوم جـدال وكفاح بين مؤيدي هذه الأنظمة بصورة علنية أو خفية .

وعلى العرب ان يعدلوا عن الاستمرار في هذه الخطط .

فقد لاحظ زعماء الإصلاح في اليابان ان الطلاب الذين يدرسون في بلد من البلدان الغربية يبقون تحت تأثير تلك البـلاد بصورة لاشعورية ، فقرروا ان يفرضوا على كل طالب يدرس في بلد من تلك البـــلاد ان يقضي سنة في بلد آخر قبـــل ان يعود الى اليابان ليستطيع ان يوسع أفق انظاره ومطالعاته ويصبح أكثر إدراكاً لمقومات الحضارة الغربية من غير ان يبقى مبهوراً بإحدى البلاد الغربية على وجه الانحصار .

ويعود مرة اخرى الى الغاية فيقول :

إن الاقتباس من نظم التربيـة والتعليم يجب ان لا يرتكز على نظام أمة من الامم على وجـه الانحصار ، بل يجب ان يقوم على دراسات شاملة على استعراض كل النظم القائمة في البلاد الناهضة .

ونضيف الى ما يراه ساطع الحصري: وان تجرى دراسة هذه النظم وعملية الانتقاء في ضوء الأصول الأساسية للتربية الإسلامية نفسها بحيث لا يقبل ما يتعارض مع قواعدها الأصيلة وهي: التوحيد والإيمان بالله والمسؤولية الفردية والالتزام الأخلاقي والجزاء الأخروي .

## (٤)

أكد أكثر الباحثين في التربية ان معايب النظم التربوية الغربيـة الوافدة فقدان المثل الاجتماعية العليا ، يقول دكتور بانيكار :

كانت التربيـة في ظروف الوضع الاستعماري محافظة جامدة لأنه لم يكن من مصلحة الاجنبي المستعمر الذي يبغي استغلال البلاد ان تروج تربية حيوية تدعو الى الانطلاق ، والنفسية التي كان يراد خلقها لدى النشء كانت تميـل بالطبع الى التقليل من قيمة الثقافة الوطنية مع تمجيد فضائل السيد الاجنبي ، وكانت أبرز أهـداف التربية الاستعمارية إثارة الروح الانهزاميـة في نفوس المواطنين لتتمكن من التحكم بهم وبخيراتهم دون عناء كبير .

والآن وقد تخلى الاستعمار عن أغلب بلاد العالم الاسلامي فهل زالت هذه الروح من مناهج التعليم ؟ صحيح انهـا زالت من حيث الإطار العـام ولكنها لا تزال باقية مسكنة في أعمـاق البرامج والمناهج تقديراً للغرب وللحضارة الغربية وإيماناً بهـا وولاء لها ، ودون مـا قدرة على إثارة الروح الاسلامي ومفاهيمه وقيمه وبناء أجيال جديدة عليه .

فما زالت البلاد الاسلامية عاجزة عن ذلك نتيجة تلك الطلائع التي ما زالت تسيطر على أنظمة التعليم وتحول دون تغييرها .

فالأساتذة فؤاد جلال وعبد العزيز القوصي واسماعيل القباني وطه حسين كانوا حريصين تمام الحرص على السير في نفس الإطار الذي تجري فيه مناهج التربيـة ، وكان خلافهم على الولاء الفرنسي أو الامريكي ولكن فلسفة ديوي كانت مقبولة لديهم جميعاً .

كان ارتباط التعليم بالنظم الغربية قاعدة مقررة .

وكان إبعـــاد الدين عن مناهج الدراسة والبحث أمراً مفروغاً من إعادة بحثه أو النظر فيه .

ولقد توالى في السنوات الماضية انعقاد مؤتمرات التعليم وأصدرت «شارات» براقة خـادعة ، ولكنها كانت تخفي من وراء ذلك إمعانها في الاستمرار فى نفس الطريق الذي تسير فيـه وتعميقه ، وهي ممعنة في توجيه مناهج التعليم وجهة غربيـــة صرفة أي وجهـة علمانية لا دينية «تؤدي الى ضياع الجيل القائم والجيل القادم ضياعاً لا تقوم معه نهضة في هذه المنطقة مما يمكن لليهود ولشيعتهم الذين يتولونهم من دول الاستعباد الغربي وذلك بترويج بعض الآراء والاساليب التربوية والنفسية الفاسدة » وكلها مذاهب هدامة تحمل اسم العلم الحديث . وخاصة في مجال العلوم الاجتماعية والانثروبولوجيا .

وقد ثبت تمامـاً ، ان كل المخططات التي تسير فيها نظم التعليم في البلاد العربية لن تؤدي الى تحرير هذه الأمة لأنها تستمد مناهجها من أنظمة مدارس الارساليات ومنها التعليم في لبنان وانها بعد ان تحررت من نفوذ الاستعمار لم تستطع حتى الآن ان تتحرر من سلطانه على التربيـة والتعليم الذي يستخدمه الآن من أجل حماية نفوذه استبداداً واستعماراً في آن .

وما تزال الحقيقة التي لم تتغير تصك الآذان بأن استمرار اللجوء الى تبني الطريقة الغربيـــة في صوغ مناهجنا التعليمية سيجعلنا تابعين وعبيداً للغرب وسيفقدنا شخصيتنا .

يقول أحد كبار مربي هذه الأمة وائمتها :

« إن الفكرة التي تسود عقول رجال المعارف هي وجوب إبعاد العنصر الديني عن العقول والأذهان حتى تكون المدارس علمانية فقط وإن كان الكثير منهم لا يستطيع المجاهرة بهـذا الرأي ، الدافع لهذا الرأي هو تقليد أوربا ونظمها إعجابا يدفعنا الى السير وراءها » .

ومن أبرز عوامل امتداد هذا الخطر بالرغم من محاولات الإصلاح والتغيير الكثيرة هي ان بعض القادة والمتصدرين في مجالات السياسة والحكم في البلاد الاسلامية كانوا نتاج نظام التعليم الغربي، فهم ما زالوا يدينون له بالولاء ويبقى بعد ذلك ان يدمغهم دكتور عمر فروخ بهذا الحكم :

« وجـدت بعد ثلاث واربعين سنة من التعليم ان طلابنا وتلاميذنا وهم مجموع الأجيال المقبلة قد فقدوا كثيراً من الخلق الديني الذي كان لا يزال موجوداً في التـلاميذ الذين عرفتهم في عشر العشرين وعشر الثلاثين وعشر الاربعين ، ثم وجـدت في السنوات الاخيرة بين الطلاب حركات واتجاهات مؤسفة ، وحالات لا تعكس النقص في التربية الدينية فحسب ، بل تنعكس على الوجود الاجتماعي والطبيعي للأمة كلها » .

# (٥)

إن مسألة فصل الدين عن مناهج التربية والتعليم هي من أخطر المحاذير وهي من أسوأ الاقتباسات للتي تدل على سوء النية والتبعية المغرضة ، فقد أساء هذا الى الاجيال المتوالية إساءة شديدة .

وحين يراد منا ان ننفصل في العالم الاسلامي عن عقيدتنا نجد الامم جميعاً تربط بين التربية والعقيدة. والعقيدة عندنا ليست ديناً عبادياً فحسب ولكنها نظام اجتماعي كامل والتربية نفسها جزء منه.

يقول العلامة أبو الحسن الندوي في هذا الصدد [١] :

في الغرب لا يسمح للمواد التي تبذر بذور الشيوعية والماركسية وتستهزىء بفكرة الملكية وتثمير الثروة وتنظيمها على غير أسس الشيوعية والماركسية ولا يسمح ولا يفكر في استيراد أقل عدد من الأساتذة السوفييت مهما بلغوا من البراعة والإبداع والتفوق في العلوم والفنون .

كذلك : لا يسمح قادة التربية والتعليم في الغرب «باستيراد» منهج تعليمي من بلد الى بلد ولو كانا يلتقيان في العقيدة والفكرة الأساسية في الاجتماع

(١) نحو التربية الاسلامية الحرة .

والنظرة الواحدة الى الانسان والحياة والكون .

وبالرغم من اللقاء في اللغة والثقافة بين أمريكا وإنجلترا ، وفي المذهب البروتستانتي فإن الموجهين لسير التربية والتعليم لا يرون استيراد مناهج التعليم من بريطانيا . ومن رأيهم ان نظام التعليم ليس من البضائع التي تستورد من بلد الى بلد .

ويقول الدكتور كاننت : إن عملية التربية ليست تعاطياً وبيعاً وشراء ، وليست بضاعة تصدر الى الخارج أو تستورد من الداخل ، إننا في فترات التاريخ خسرنا أكثر مما ربحنا باستيراد نظرية التعليم الإنجليزية أو الأوربية الى بلادنا الأمريكية .

ويعاود الأستاذ الندوي القول : إن التربية في نظر هؤلاء القادة الذين يغارون على شخصية وذاتية بلادهم « لباس » يفصل على قامة هذه الشعوب وملامحها القومية وتقاليدها الموروثة وآدابها المفضلة وأهدافها التي تعيش لها .

إنه «لباس» يجب ان ينسجم مع اجوائها وبيئاتها التي تعيش فيها والآداب التي تحتضنها والتاريخ الذي تغار عليه .

وإذا كان الغرب يفعل هذا في مثل هذه الدقائق التفصيلية والفرعية في جو تحكمه لغة واحدة وثقافة مشتركة فكيف بنا وبيننا وبين الفكر والثقافة واللغة والعقيدة والآداب والاخلاق الغربية فوارق عميقة .

ولماذا يراد لنا ان نكون تابعين ، ومحتوين ، وساقطين في احضان التغريب والسيطرة الثقافية .

ويتحدث الباحثون عن شؤون التعليم والتربية ان الشاعر فختة عند هزيمة ألمانيا لفرنسا نابليون ، دعا الى إعادة النظر في طرائق التربية والتعليم وعمل الى تحرير المناهج من الإسفاف والإباحة فكان نتيجة ذلك النصر في معركة (سادو) وغيرها من معارك السبعين .

ويردد علماء الاجتماع ان الدول التي تجتاحها هزات عنيفة فإنها تتنبه تواً الى ان مصدر الخطر هو فساد نظام التعليم فتعيد النظر فيه .

فلماذا لا تهزنا ضربات الصهيونية العالمية وغزوها الظاهر والمقنع وسيطرتها على مناهج التعليم الغربية وما اقتبس منه في بلاد الإسلام ؟

إن الصهيونية العالمية قد سيطرت على التعليم الغربي وجردته من كل القيم والمثل وحررته من الاخلاق والدين لهدف معروف، وهي تسعى الآن لتطبيق ذلك في أفق التربية الإسلامية .

ونحن نعرف ان المدرسة هي التي تستطيع ان تغير نظام المجتمع بما لا تقدر عليه سائر المؤسسات الاجتماعية ، وان طريقة الاصلاح تكمن في عبارة (ارسموش) التي يرددها الغربيون ونأخذ منهم كل شيء عمياناً مصفدين ولا نصغي الى الحقائق التي يمكن ان تنير لنا الطريق .

يقول ارسموش : « سلمني إدارة التربية ردحاً من الزمن ، أتعهد لك بأن أقلب وجه العالم بأسره » .

لست أدري كيف نعرف هذه الحقائق ثم يصر رجالنا على عزل الاسلام عن مقومات مناهج التربية والتعليم ويخدعوننا بأن يجعلوا الدين مادة تدرس.

إن الاسلام ليس ديناً عبادياً لاهوتياً كي يدرس ، إنما الاسلام هو روح الفكر والثقافة والتربية والقيم الاجتماعية والسياسية والقانونية جميعاً وهو قوامها .

إنه ذلك الطابع الذي يطبعها جميعاً بروح الإيمان بالله والالتزام بشرعته وإقامة حدوده وتنفيذ ضوابطه .

ولقد آمن بذلك أكثر من كانوا متابعين للنظرة الغربية وعرفوا مدى خطر ذلك على أمتنا وعلى كياننا .

يقول الدكتور الجمالي : إن الشاب المسلم الذي يرتاد مدرسة أجنبية لا يتعلم شيئاً عن دينه عادة . وهو لا يدري بأن للشاب الغربي مدرسة دينية في

البيت أو في الكنيسة ان لم تدرسه في المدرسة . إن التربيـة الأجنبية تقصر كثيراً في مهمتها التربوية حين تترك الشباب المسلم محروماً من معرفـة أصول دينـه ، فهو بذلك يخسر الأسس الضرورية لأي شكل من أشكال التربيـة الاخلاقية والروحيـة على أسس قوية راسخة ، والشباب المسلم ذو الجذور المقلوعة والنفس القلقة بسبب حرمانه من التربيـة الروحية قد يكون شخصاً متشائماً وقد يصبح عنصراً مشاغباً في المجتمع الذي يعيش فيه .

ولقـد نقلنا نحن منهج مدرسة الارساليات الى المدرسة الوطنية دون ان نقدر الفارق البعيد العميق بين منهج التربية الاسلامي ومنهج التربية الغربي .

ذلك ان نظم التعليم الغربية قد تكون في الغالب مبنية على فلسفات ذات صفة ثنائيـة ، أو انشطارية Dualists فهي فلسفات تفصل الدين عن الدولة والروح عن الجسد والفرد عن الجماعة ، فالدراسات العلمانية مثلاً قد تؤدي بسهولة الى اتجاهات فكرية مشككة أو مادية أو ملحدة أو عدمية ، وفي نشأة الشباب المسلم على هـذا الطراز من التفكير ينشأ غريباً عن مجتمعه ويعيش في فراغ روحي .

ونحن نعتقد ان الفلسفة الانشطارية — أو الثنائيـة — في التربية الغربية تصبح لعنة في حيـاة الانسان حين نفصل الدين عن الدولة والروح عن الجسد والفكر عن العمل والعلم عن الدين .

ذلك « ان الاسلام لا يفصل الدين عن الدولة ، ولا الدين عن العمل ولا العلم عن الاخلاق فالدولة والعـلم والاخلاق والعمل ، يجب ان تتفاعل كلها وتتحد وفق قوانين طبيعية واخلاقية ذات مصدر إلهي .

والمسلم الذي لا يتفهم دينـه على الوجه الكامل قد يقع فريسة للفلسفة الانشطارية ( الثنائية ) التي تمارس في الغرب .

ولقد سقط فعلاً عدد من الشبان المسلمين ضحايا لتربية غربية ذات فلسفة انشطارية [١] » .

---

(١) آفاق التربية الحديثة للدكتور محمد فاضل الجمالي .

( ٦ )

إن اقتباس اساليب التربية في شؤون التـاريخ والادب والعلم قد أحدث أخطاراً بعيدة المدى في النفس العربية والاسلامية .

إن تدريس مادة التاريخ على النمط الغربي إنما تفرض النظريات المادية الاصل التي تفسر التاريخ بالمادة أو الاقتصاد أو الجغرافيا ، والتي تنظر الى العالم كله نظرة واحدة ، فلا تفرق بين أمــة وأمة أو دين ودين ، ثم هي تحاكم العالم على وضعه القائم: بحسبان ان الغرب صاحب الجنس الأبيض هو المسيطر الآن والسيد الحاكم وان الشعوب الملونة هي المستعمرة والمتأخرة .

ولا ريب ان هذا الوضع هو وضع مؤقت وليس وضعاً طبيعياً ، فقد كان العرب المسلمون سادة العالم لألف عــام متصلة ، وان مرحلة الضعف التي تمر بهم الآن لا يمكن ان تتخذ ذريعة للحكم على تاريخهم كله .

ومن شأن تقبل هذه الاساليب في دراسة التاريخ ان يجعل الدارس المسلم والعربي يحتقر ماضيه وتاريخه وقيمه وأمته ويقف موقفاً يائساً بالنسبة للمستقبل ، بينما يلزم ان تكون التربية الاسلامية موجهة لهذا الشباب الى الايمان بمستقبل أمته متى عادت الى نهجها الحق وإيمانها بعقيدتها ورسالتها .

كذلك فإن تعلم الأدب على النمط الأوروبي يقود الى جعل الاسلام غريباً في عيون الناشئة المسلمة ، فهو يفصلهم عن أساس البيان ومصدر الأدب وهو

القرآن الكريم ، فإذا عرض له عرض له عن طريق مذاهب لا تؤمن بالوحي والنبوة ، فهي لا تراه منزلاً من عند الله بل تراه من كلام البشر ، فهي تحاكمه وفق مناهج النقـــد الأدبي كما يحاكم الغربيون التوراة والإنجيــل مع الفارق البعيد بـــين كتب بشرية فقدت أصولها السماوية وبين القرآن الذي هو النص الموثوق الذي لم يصبه أي تحريف .

كذلك فهناك خطر المناهج الغربية في الدعوة الى الفنون والمبالغـــة في الاهتمام بها ومدى خطر ذلك على نقل الأمم من جادة الحق الى التحلل والرخاوة.

يقول الاستاذ أبو الحسن النـدوي : لقد أثبت التاريخ مرة بعد مرة ان الشعوب التي تتخذ الوسائل غايات والعلوم والفنون آلهة تعبد ، ويقوى فيها النظر والجدل على حساب الخلق والعمل ، ويكثر فيها الافتتان بالفنون الجميلة ، وتضعف فيهـا الإرادة وقوة المقاومة للمغريات ووسائل الترفيـــه والتسلية وتضعف فيها الغيرة والحميـــة ، وتعشق الحياة والملذات وتنتشر فيها البلبلة الفكرية ، وينتشر فيهـــا التشكيك الشامل للعقائد والآداب والاستخفاف بجميع التقـــاليد والعادات التي كان فيها الشيء الكثير من القوة والصلاح ، ويتطاول فيها الريب الى مصادر الدين ومراجع التـــاريخ والى الشخصيات القديمة والحوادث التاريخيـة والى الأعراف والعادات يقود هذه الحملة كبار الاساتذة وحـذاق الأدباء ونوابغ الباحثين وحملة الأقلام ومنشئو الصحف ، وينتشر هذا السم في كل طبقة من طبقات الأمة ، ويتسرب الى عقول الشباب ونفوسهم ، ويتغلغل في أحشائهم ؛ فإن هـذه الأمة لا تثبت أمام أيّ عدو زاحف أو قوة مهاجمـــة ، ولا تثبت في معركة يوماً واحداً ؛ وهذه قصة اليونان وقصة الرومان .

## (٧)

يدمغ الدكتور محمد فاضل الجمالي نظام التربية الغربي بأمرين خطيرين : عجزه عن خلق روح الوحدة والترابط وإهماله للنواحي الروحية والاخلاقية.

أما عن الأول فيقول : إن التربية الغربيـة تعوزها الوحدة والترابط ، ويعوزها الانسجام والتوفيق بين نواحي الوجود ، ذلك ان الغرب قد أنجب علماء عظاماً وأخلاقيين كبـاراً وفنانين مبدعين وأدباء مجيدين وإداريين قديرين ، كل واحد يمتاز في حقـل اختصاصه ولكن الواحد منهم قلما يعنيه التوافق والانسجام مع المجموع. وكل واحد يتعمق في حقل اختصاصه بدرجة متناهية بدون ان يكون له تمـاس مع الاختصاصات الاخرى أو اكتراث بوجهة نظر أصحابها ، فالعالم مثلاً قد لا يهمه كثيراً مصير القيم الاخلاقية ، والسياسي أو الإداري قد يصوغ مقاييسه الاخلاقية العملية الخاصة به .

وتربية الفكر قد لا تسير جنباً الى جنب مع بناء الاخلاق الفاضلة وتقديم الذوق الجميل . كذلك ففي التربيـة الغربية اللادينية خطر جسيم ينجم عن نسيان خصائص الانسان الروحية والاكتفاء بالتأكيد على نواحي حياته الجسدية والاجتماعية وبالجملة فإن أهم نقص في التربية الغربية هو فقدان الانسجام بين المتطلبات الزمنية للانسان والمتطلبات الخلقية والروحية .

ونحن نعرف مـدى الخطر الذي ترتب على اقتباس هذا الطابع في مجال

التربيـــة الاسلامية ونعرف كيف يقيم الاسلام التخصص في دائرة الشمول والتكامل فلا يجعله منفصلاً انفصالاً يذهب به الى الاستعلاء أو التفرد حتى لا يفقد المسلم روح الوحدة ولا يفقـد الفكر الاسلامي طابع الترابط الجامع بين القيم والعناصر .

الى أيّ حد كان اقتباس هـــذا الطابع في مجال التربية الاسلامية خطيراً وما ترتب عليه من آثار جلى !

يقول الدكتور الجمـالي : إن الإهمال النسبي للنواحي الروحية والاخلاقية في التربية الغربية قد تسرب الى أنظمة التعليم الحديثة في العالم الاسلامي .

فأصبح من نتائجه ان هناك تقصيراً في التأكيد على نشوء الانسان روحياً وخلقياً في تربية الجيل الاسلامي الجديد ، ولا سيما إذا قارنا ذلك بالتأكيد الحاصل على النواحي العلمية والفكرية والجسدية للحياة الانسانية .

والنتاج التربوي لهـــذا التوجيه الناقص : هو إنسان منحط في إنسانيته احياناً ، إذن فتربيـــة الإنسان كل الإنسان كما يوحي بذلك كل فلاسفة التربية العظام لا يزال حلماً يجب تحقيقه في الشرق وفي الغرب .

ذلك ان فقدان الوحـدة والانسجام في التربية قد يؤدي الى الإفراط أو التفريط في معالجة بعض الأمور على حساب أمور أخرى . فالانحياز الى جهة دون الجهات الاخرى يصبح من الاخطار التي تفقد الحياة اتزانها واستقرارها، فالمرء قد ينحاز إما الى هذه الفلسفة أو تلك وإما الى هذه الجهة أو تلك .

أما إذا كانت الحقيقة بين بين أي توجد بين النهايتين فلا يعبأ بها ، فقـد نشاهد البعض يتطرف في (فلسفة العقلانية) والآخر يغالي في (فلسفة المادية) أو نرى هذا يتحمس للفلسفة المادية وآخر يتحمس للفلسفة الروحية .

وهذا متطرف في الفردية وهذا متطرف في الجماعية .

وهذا متعصب للقومية وهذا مدفوع للأممية .

وهذا مفكر تمكن في حياة التأمل ، وهذا عامل يدوي لا صلة له بالحياة الفكرية .

هذه الانقسامات والانشطارات التي نتيجتها إما هذا وإما ذاك حيث لا تلاقي ولا توفيق ، سببها عدم الأخذ بالوسط الذهبي الذي يجمع الحقيقة من كل الاطراف ومن المركز الوسط بين القوى المتضاربة .

إن الإفراط والتفريط وعدم الأخذ بفلسفة الوسط الذهبي قد فرق الانسان عموماً بما في ذلك العالم الاسلامي الى معسكرات متنافرة ، وها هي الإنسانية منقسمة على نفسها اليوم من أدنى الارض الى أقصاها .

إن فقدان التوحيد والانسجام قد أدى الى التطرف والتحيز ، مما جعل من التربية أداة للتعصب والفكر المغلق وقد يبرر العنف كوسيلة للعمل السياسي أو الاجتماعي ، والمرء قد يلجأ الى الطعان بدل الحوار ويمارس البغضاء والكراهية بدل الأخوة والمحبة .

أما التربية المؤسسة على التوحيد والانسجام فإنها تعنى بروح الإيمان المؤدي الى الاعتدال والوسط الذهبي والتفكير المعقول المتزن وضبط النفس ، وهذه هي الصفات التي يؤكد عليها القرآن الكريم ولكن بعض النظم المقتبسة من الغرب قد حملت معها : « منهجاً عقائدياً متحزباً » تعوزه في الغالب المحبة والمنطق والاعتدال .

هذه الصورة من أثر اقتباس ( نوع ) من أنواع التربية الغربية الى العالم الإسلامي والمجتمع الإسلامي ، وقد رأينا مثل هذه الآثار واضحة وعميقة وبعيدة المدى والأثر فيما أصيب به المسلمون في السنوات الأربعين الاخيرة من نكبات ونكسات .

## (٨)

وإذا كانت بعض الأنظمة التربوية الغربيـة المقتبسة قد قدمت لنـا هذا النموذج من العقـائديين المتعصبين والمتحزبين الذين « لا يمارسون التسامح والاعتدال » فإن هناك أنظمة تربوية غربية اخرى - ونحن في العالم الاسلامي خاضعون لنظامين تربويين يتصارعان بيننا - هـذه النظم الاخرى قدمت لنا - على حد تعبير الدكتور الجمالي - تطرفاً في التراخي الأخلاقي والحرية غير المسؤولة فهي : « تقود الناشئة الى نوع من اللامبالاة الأخلاقية، فيصبح تناول الكحول واستعمال المخدرات والتهاون في العفة من الأمور المتسامح فيها وتصبح القيم الاخلاقيـة نسبية وعرضة للتقلبات والشهوات الفردية وليذهب ضبط النفس الى حيث ... » .

هذا وان الشباب الغربي قد يمارس شيئاً من الاعتدال وضبط النفس حتى في جو الحرية المطلقة ، أما الشاب المسلم الذي ينشأ في محيط اجتماعي ضيق، إذا ما تعرض الى هذا الجو فقد يصبح عرضة لخطر فقدان ضبط النفس بحيث يصبح إباحياً؛ وليس قليلاً عدد ضحايا الانهماك في المسكرات والشهوات البهيمية بين الشباب المسلم نتيجة تربية تتمسك بفلسفة أخلاقية رخوة .

# البَابُ الثَالِث
# التربيَة وَالتعليمُ والثقافَة في إطار الإسْلام

# الفصل الأول

## التربية الاسلامية

لا بد للباحث المسلم ان يفرق تفرقة واضحة عميقة بين التربية والتعليم والثقافة . حيث تختلط هذه القيم في مفاهيم التربية الغربية وتتداخل كثيراً ولا سيا ذلك التداخل المبهم بين التربية والتعليم .

فالفهم الإسلامي للتربية أنها الإعداد الروحي والنفسي للفرد بحيث يكون مؤهلاً لتلقي التعليم والثقافة على نحو موجه فيأخذ ما هو أساسي وبناء وما هو بسبيل ان يمده بالقدرة على أداء رسالته في الحياة والمجتمع ، هذه الرسالة الجامعة بين هدفي الدنيا والآخرة ، من حيث البناء والعمل والسعي الى آفاق التقدم ، دون ان يكون ذلك على حساب القيم الخلقية أو المسؤولية الفردية بل لحسابها ودعماً لها .

فليس من مفهوم الاسلام ان يكون العلم للعلم منفصلاً من غير غاية، ولا ان يكون العلم للدنيــا وحدها ، ولا ان يكون للآخرة وحدها انفصالاً عن الدنيا والسعي فيها . فالمسلم يسعى في الحياة من أجل العمل والكسب ليقيم المجتمع الاسلامي القوي بالعزة والتمكن والكرامة ثم يجعل هذا المجتمع القوي

الكريم خادماً للغايات الإنسانية العليا التي تجمع بين الإخاء البشري والطابع الاخلاقي ومرضاة الله والتي تتوقف عن معارضة حدود الله أو تجاوز ضوابطه .

في هذا الضوء يكون الهدف الاول والأساسي من التربية هو :

« بناء شخصية المسلم »

الذي سيبني المجتمع الاسلامي القوي الكريم القادر على مواجهة أخطار أعداء الإسلام ، والعامل على نشر كلمة الله في الارض ، فالشخصية المسلمة لها رسالة وعليها تبعة وهي تحمل التزامين أساسيين : الإرادة الحرة القادرة ذات المسؤولية الفردية والجزاء الاخروي ، والالتزام الاخلاقي الذي يطبع كل التصرفات في كل الميادين والقطاعات والقيم ؛ وهو التزام قائم بالنسبة للسياسة والاجتماع والاقتصاد والقانون والتربية جميعاً .

ومن شأن الإسلام وهو دين جامع بين العقيدة والشريعة ، وبين العبادة وبناء المجتمع ان يحول دون قيام الازدواج الذي يعرفه الغرب في صور مختلفة :

الثقافة الدينية — والثقافة العلمية .

الثقاقة الادبية — والثقافة العقلية .

أو بين الإلهي والبشري .

فهو يجمع بين هذه جميعاً ويوازن ، ولا يفصل بعضها عن بعض إيماناً بأن الإنسان نفسه جامع بين المادة والروح ، والعقل والقلب ، ومطامح الدنيا وأشواق الآخرة .

ومن أجل هذا فإن منهج التربية في الإسلام منهج متكامل يعنى بتربية الجسم والروح والعقل حتى لا تطغى ناحية من النواحي على الاخرى وبذلك ينشأ المسلم سوياً قوي الصلة بالله محققاً لرسالته في الحياة .

ومن أجل تكامل النظرة الإسلامية الى الحياة والوجود والمجتمع ، جمعت

التربية الاسلامية بين تأديب النفس وتصفية الروح وتثقيف العقل وتقوية الجسم ، فهي تعنى بالتربية الدينية والخلقية والصحية والجسمية دون إعلاء لأيّ نوع منها على حساب النوع الآخر [1] .

وقد لفت هذا المعنى نظر البعض من حيث المقارنة فقال : إن التربية الاسلامية تعمل على إعداد الإنسان لا المواطن ، الإنسان المستخلف في الارض على مفهوم وحدة الدين ووحدة الجنس وتوحيد الله .

وحين تأخذ التربية الاسلامية «الفرد» ككل تعده بألوان مختلفة من الإعداد : بالمحاكاة بالقدوة ، والموعظة ، وبالعادة ، والتوجيه .

وهي حين تبدأ معه تعمل على ان تصله بالله سبحانه وتعالى ، وتحسن هذه الصلة وتعمقها في ضوء التوحيد ، فإذا ثبت في أعماقه ان الله سبحانه وحده هو الذي يعطي ويمنع ويضر وينفع ارتفع (الفرد) عن طبيعة الإذلال لأي من البشر ، واستطاع ان ينظر الى الحياة نظرة أكثر عمقاً وأكثر قدرة على الاقتحام وقول كلمة الله دون ان يخشى في الله لومة لائم ، ولم تجد وسائل الإغراء الى قلبه سبيلاً إيماناً منه بأن الله يرزقه ، وان الطريق الحق لا يقطع هذا الرزق مهما تألب عليه فيه الخصوم أو الأعداء .

وحين تركز التربية الاسلامية على بناء الأخلاق بعد بناء عقيدة التوحيد إنما تعمل على تمكين «الفرد» من مقاومة المغريات فلا يضحي شرفه أو عرضه في سبيل أي مطمع ، ذلك ان محك تربية الأخلاق هي الارتفاع بالنفس عن المطمع والهوى .

ولا ريب ان لتربية العقيدة والأخلاق أثرها العميق في تكوين الشخصية ، فالغرائز قائمة في النفوس تعدل نفسها وتضبط اتجاهاتها وفق ما تدعوها اليه

---

(١) احمد فؤاد الاهواني .

العقيدة وحسب مـا توجهها اليه من سمو وكمال ، والخطر هو في تركها دون توجيـه وضبط ، والخوف الأكبر هو في إطلاقها على النحو الذي تدعو اليه التربية الحديثة في مفاهيم : ديوي وفرويد .

والإسلام في مجال الغريزة يأخذ بالضبط لا بالإطلاق، وبالتبريد لا بالإثارة.

والاسلام يعترف بالغرائز وغاياتها، ولكنه لا يطلقها ، ويدعو الى ضبطها والسير بها في نطاق « التقوى » والخوف من الله والجزاء فلا تكون قوة ضـد الخير أو الحق ، ولا تتجاوز الحدود التي أقامها الدين الحق في سبيل حمـاية الإنسان نفسه أولاً من أخطار التمزق والانهيار .

وكيفما يكن أثر الوراثـة أو أثر البيئة في تشكيل الانسان فان التربية الإسلامية من شأنها ان تعيـد تشكيل الفرد بحيث يقوم من أخطاء النفس أو تجاوزاتها .

ويرجع الاسلام الأخطاء كلهـا والأخطار كلها الى ضعف العقيدة الدينية وتراخي مفهوم التقوى والمسؤولية والجزاء .

ومن هنا يوجه الإسلام الفرد منـذ الطفولة الباكرة الى فهم هذه الحقائق من الايمان بالله الى المسؤولية الفردية الى الالتزام الاخلاقي الى الجزاء الاخروي ليستطيع تحمل مسؤوليته في الحياة .

ولا ريب ان التربية الإسلامية في أسسها تقوم على الفطرة وتنمي القدرة على التفرقة بين الخير والشر والحق والباطل بحيث يستطيع الانسان ان يهتدي الى ذلك دون توجيه خارجي :

«الاثم ما حاك في النفس وكرهت ان يطلع عليه الناس» .

فالتربية الاسلامية هي تهذيب الشخصية وتزويدها بكل ما يمكن قواها الفكرية والبدنية من تحمل مسؤولية السعي والعمل والنضال .

وهي تعنى بقوة البدن وقوة الروح معاً متصلين لا منفصلين .

(٢)

أول ما تعنى به التربية الاسلامية هي تخلية نظرة الاسلام الى الانسان .

فالاسلام ينظر الى الانسان نظرة تكريم وتفضيل ، فقد أوتي أمانة الاستخلاف في الارض ، ووضعت كل معطيات الحياة وخيراتها له ليقوم عليها وينشىء بها المجتمع الرباني المصدر الإنساني الطابع بالإخاء والعدل والعمل الصالح .

والاسلام ينظر الى الانسان نظرة متكاملة جامعة (روحه وجسمه وغرائزه وعقله) وكلها قوى متلاقية ، وقد اعترف بميوله وغرائزه وأشواقه ، وأباح له حرية الممارسة لكل ما يرغب فيه وفق إطارات تنظم حركته وضوابط تحول بينه وبين التمزق أو الانهيار وفي ضوء الفهم الكامل للحقائق الأخلاقية الثابتة التي لا تتغير : الخير والشر ، الحلال والحرام ، الفضائل والرذائل ، المباح والممنوع .

وقد انشأ الله الإنسان من تراب الارض ونفخ فيه من روحه ، فهو جامع بين مادية الارض وأشواق الروح ومترجح بينهما فلا يستطيع ان يشعر بالطمأنينة النفسية إلا إذا وازن بينهما ، فإذا انحرف الى أحداهما عاش حياة الاضطراب والتمزق .

وعلى ضوء طبيعة الإنسان الجامعة بين المادة والروح صاغ الاسلام منهجه

التربوي الجامع المتكامل الذي يختلف بالطبع اختلافاً جذرياً عن مناهج التربية المختلفة سواء الغربية منها أو الشرقية المرتبطة منها بالمفهوم المادي الخالص أو الروحي الصرف .

لقد أعلن القرآن ان النفس الإنسانية قد ألهمت الفجور والتقوى فأوجب تزكيتها بالتربية على النحو الذي يهذبها ويربيها ويجعلها سوية صالحة ، وجعل هذه التزكية بالتربية أمـــانة في أعناق الوالدين والمدرسين والمسؤولين عن الأجيال .

وأقام هذه التزكية على أساس إنساني في الأساس لا يعرف فوارق الوطن أو اللغة أو الجنس أو العقيدة : كل بني آدم من تراب .

وجعـل أساس التزكية التهذيب لا الكبت ، فالإسلام يعترف بالطاقات الحيوية في الانسان ولا يعطلها عن الممارسة ولا يلغيها ، ولكنه ينظم عملها بما يحقق الخير والايجابية ويؤدي الى إقامـة المجتمع الصالح من غير عدوان من إنسان على حق إنسان .

وهو في ذلك يجمع بين ضرورات الجسد وأشواق الروح ويعطي كلاً منها نصيبه المعقول ويقيم للمراوحة بين ذلك ضوابط وحدوداً .

ومن هنا لا تنشأ لدى المسلم تلك التحديات التي تصيب شخصيته بالاضطراب سواء عن طريق الكبت والانغلاق أم الاندفاع والانطلاق وكلاهما مرت بـه المجتمعات الغربية .

ومن هنا تستهدف التربية الاسلامية بناء شخصية الفرد السوي القادر على احتمال أمـانة الإنسان المستخلف في الارض بالحق ، والقادر على التعرف على الخير والشر والعامل في سبيل إقامة المجتمع الرباني المصدر الإنساني الطابع ، ليس المجتمع الإقليمي المنغلق ، ولا المجتمع الأممي المنفتح ، هذا الفرد المسلم هو القادر على تزكيـة النفس وضبط الغرائز ، والمسؤول بالإرادة الحرة عن نتائج عمله وهذا الهدف الذي دعت اليـه التربية الإسلامية من بناء الشخصية

هو العامل الوحيد القادر على الحفاظ على القيم والعقائد والارض بالمرابطة في الثغور ، والوقوف على خطوط المواجهة دوماً ، وجيلاً بعـــد جيل ، يحمي أرض الاسلام ، ويدافع عن كيان الأمة ، ويحمل رسالتها للعالمين .

ولقد كان الغرب الاستعماري يعرف ذلك ، وقد واجهه مواجهة صريحة في الحروب الصليبية ، ورأى لويس التــاسع كيف كان الاسلام قادراً على ان يملأ هذه النفوس بالقوة والعزيمــة وبالعتاد القليل استطاع المسلمون ان يهزموا اعلى الجيوش .

ومن هنا نبتت عنــده تلك الفكرة الخبيثة الماكرة التي كتبها في وصيته والتي أصبحت من بعد نبراساً للغزو الغربي : وهي القضاء على هذه القوة ومحو تلك الشخصية وإزالة ذلك الانسان وإحـــلال بديل منه شخصية مضطربة ممزقة ، تحب الترف وتهوى إطلاقات الأهواء والجنس والغرائز ، وكذلك عملت الإرساليات التبشيرية على بناء هذه الاجيال التي واجهت الهزيمة والنكسة سنوات بعد سنوات ، دون ان يدفعها ذلك الى التنبه الى مصدر الخطر :

ذلك الخنجر المغروس في أحشائها : خنجر التربية الوافدة .

إننا نستطيع ان نستفيد من تجارب كل الأمم في التربية والتعليم والثقافة ولتكن : على شريطة ان نبني أساس التربية الاسلامية اولاً ثم نقبل في ضوئه أو نرفض ولتكن قاعدتنا هي :

« خذ ما صفا ودع ما كدر » .

« إن التنشئة الغربية لأحداث المسلمين ستفضي حتماً الى زعزعة إرادتهم في ان يعتقدوا أو ان ينظروا الى أنفسهم على أنهم هم ممثلو الحضــارة الربانية التي جاء بها الاسلام .

## (٣)

إن التربية في مفهوم الاسلام هي إنشاء الانسان إنشاء مستمراً من الولادة حتى الوفاة. هذا على الامتداد الأفقي ، أما الامتداد الرأسي فهي تربية كاملة متوازنة : عقلية بالمعرفة ، وجسمانية بالرياضة ونفسية بالإيمان .

وهي جامعة من حيث إنها حين تغرس القيم الخلقية والاجتماعية التي تحمي الانسان من أخطار الاضطراب والتمزق، تربي في الانسان الإرادة الحقة، حباً للناس ، وإيثاراً وبعداً عن الأنانية وتجنباً للرذائل .

فالتربية الاسلامية في طبيعتها إيجابية بناءة ، تقوم على مدافعة الاخطار لا الإستسلام ، وتستهدف المقاومة لكل محاولات هدم الشخصية لا التراخي والاباحية .

ولقد كانت التربية الغربية المسيحية لأنها تستمد مصادرهامن دين، تحاول بناء الشخصية ولكنها ضلت الطريق مرتين :

المرة الأولى حين انحرفت عن رسالة الدين الحق ، فأعلت من شأن قيم لم يأذن بها الدين ، وهي معارضة غرائز الجنس أو التقليل من شأن المسؤولية الفردية والجزاء الأخروي تأثراً بنظريات الحلول والاتحاد .

المرة الثانية حين سيطرت عليها الأيدلوجية التلمودية فدفعت المجتمع الغربي الى التفريط والانطلاق ، وكان ذلك بطبيعته هو رد فعل المرحلة الاولى التي قامت على الانغلاق والكبت .

أما الاسلام فإنه يعترف بالغرائز ويدعو الى ممارستها في اعتدال، ووفق ضوابط وحدود تحول دون الانحراف أو الجمود ، ولذلك فقد حال ذلك دون وقوع المجتمعات الاسلامية في أخطار الاضطراب النفسي الذي تعانيه المجتمعات الغربية .

( ٤ )

لم يقع فهم التربية الاسلامية في محاذير التربية المسيحية الغربية التي كانت تستهدف إعداد الفرد للآخرة ، وذلك بالقسوة عليه في مجال الجنس والمال عما تدفعه الى تطليق الحياة والهروب منها والعيش في الأديرة . وفق فلسفة تقول :

« العمل على نيل رضا الله بإذلال النفس وتعذيب الروح » .

ولقد كان هذا الهدف مما اطلق عليه النظرية الطبيعية للتربية من العوامل التي دفعت المفكرين الغربيين الى تجاوز الجانب الديني في التربية كلية ، أول الأمر، الى الدعوة للأخلاق منفصلة عن الدين كما حملت لواءه الفلسفة المثالية، ثم جاءت المرحلة التالية التي تهاوت فيها قيم الدين والاخلاق جميعاً بظهور الفلسفات المادية والبرجماتزمية .

هذه المحاذير لم يعرفها منهج التربية الاسلامية حتى يقال إن الذين يدعون الى منهج التربية الغربية إنما يريدون ان يحررونا من مثل هذا الخطر ، فلم يكن الاسلام في يوم من الايام دعوة الى رضا الله بإذلال النفس وتعذيب الروح ، فقد دعانا الحق تبارك وتعالى الى السعي في الارض :

(فامشوا في مناكبها وكلوا من رزقه) .

وهو الذي دعانا الى التماس نعماء الحياة ( قل من حرم زينة الله التي أخرج لعباده والطيبات من الرزق ) بــــل انه الحق تبارك وتعالى حمل على الذين يعرضون عن نعم الحياة ( لا تحرموا طيبات ما أحل الله لكم ) .

فلقد دعا الاسلام الى العمل والسعي والكسب وأقـام ذلك كله في إطار الحلّ والخير والتقوى .

## (٥)

حين يفتح الاسلام للتربيـة الاسلامية مجال « التكامل » والنظرة الجامعة يحرر الانسان من ذلك التمزق والاضطراب الذي تفرضه المناهج الغربية التي تتناول الكائن البشري تناولاً مجزءاً متقطعاً ، فرجال التربية يعالجونه بعيداً عن رجال الاخلاق ، ورجـال الدين يعالجونه روحياً ويغفلون عن جوانبه الاخرى ، والماديون ينظرون اليـه نظرتهم الى الحيوان ، والبعض يحاكمه بفلسفة المحسوس فيسقط مـا لا تدركه الحواس، والبعض يحاكمه على أساس العقل فيغلق جانب الوجدان والروح، أما الاسلام فإنه يعالج الكائن البشري ككل متكامل .

ولذلك فإن أبرز ما يتميز به منهج التربية الاسلامية هو : وحدة الاتجاه وتكامل النظرة ، استمراراً من الفطرة ، والتقاء بالروح والعقل جميعاً .

فمنهج التربية الاسلامية وحـده هو الذي يصل الانسان بخالقه ، ويصله بالارض ، ويصله بالانسان والمجتمع والحيـاة ، فلا يدعه يترك الحياة والارض ولا يدعه يتهالك عليهما ، وهو حين يدعوه الى عبادة الله يؤمن بأن العبادة لا تمنع من الضرب في الارض وعمارتها ، ومعنى العبادة ان يكون أخلاقياً في كل عمله ربانياً في كل اتجاهه ومن هنا تكون تربية الروح والعقل والنفس والجسم.

« فتربية الروح » تفتح بصيرة الانسان على آيات الله في الكون فيستشعر

من ورائها القـــدرة القادرة الخلاقة المبدعة ، لتوقظ النفس من غفوتها وتجدد اللقاء بين ظاهر الانسان وباطنه : من داخل النفس وفي صفحة الكون، حيث يقرأ كتاب الله الناطق (القرآن) وكتابه الصامت (الطبيعة) .

والعبادة وسيلة بناء الروح والتقوى هي قاعدة البناء كله و «تربية العقل» بالعلم ، والعلم هو كل العلم ، وليس العلم الديني فحسب ، وبذلك تنمو العلاقة بين العقل والروح، وتتجه مادة العلم في الاسلام الى الخير والى الرحمة وتكون خالصة للبشر جميعاً .

وإذا كان الانسان قد كشف أسرار العلم فإن معرفته بهذه المفاتيح والسنن لا تغنيه عن معرفة الله تبارك وتعالى الذي فتح له هذه الآفاق ، وهو القائم من وراء كل هذه القوى والسنن مدبر لها وصانع وخالق من العدم .

فلا تنفصل العلوم عن مصدر العلم ، ولا تتجه العلوم الى الطغيان والظلم والإبادة ، بل تتجه الى ما وجهه اليها خالقها : الرحمة بالانسانية وإسعادها .

«وتربية النفس»: تكون بالزكاة والصدقة والبذل والصوم والكلمة الطيبة وتكون بالاستعلاء على السوء والظلم والحرام ، وبالتضحية والتنازل الى الفقير والى الجماعة . وقد حرص الاسلام على تربية القوة الضابطة في المسلم وتنميتها منذالصغر، وأبرزها الصبر وأداته الصوم حتىيكون المسلم قادراً على الامتناع عن كثير من اللذات والرغبات المباحة ، فتحقق بذلك إرادته وقوة ذاته .

« وتربية الجسم » : تكون ببناء الجسم القادر على الجهاد ، القوي الصامد في الشدائد ، الخشن المفطوم منالشهوات، بعيداً عن القمع والكبت. والاسلام يقرر ان المسلم لكي يستطيع أداء وظيفته وتحمل مسؤولياته يجب ان يكون قوي الحواس . ولذلك كان المؤمن القوي خـــيراً وأحبّ الى الله من المؤمن الضعيف . وقد دعـــا الاسلام المسلم الى بناء جسمه بالسباحة والمصـــارعة والفروسية ، وان يتعود الخشونة ولا يستسلم للترف : « اخشوشنوا فإن النعم لا تدوم » .

(٦)

تبدأ التربية الاسلامية في البيت عن طريق المحاكاة والقدوة والتلقين ، ذلك ان الطفل ينشأ فيعمل ما يعمله أبواه ، فإذا كانا يقيمان الصلاة ويقرآن القرآن فعل مثلهما وانطبعت في ذهنه تلك الصورة وتأثر بها مدى الحياة .

وقد حرص الاسلام على العناية بالطفل قبل ان يولد بإعداد الإطار الذي يتحرك فيه ، فدعا الرجل الى اختيار الزوجة الصالحة ، وفضل اختيار الزوجة ذات الدين على ذات الجمال والمال والنسب والحسب ، لأنها هي القادرة على حمل المسؤولية .

وفرض على الأبوين حق تسمية ابنهما وحسن رعايته منذ اللحظة الاولى بأن يكون أول ما يسمعه هو اسم الله تبارك وتعالى .

وقد أعلن الإسلام ان كل مولود يولد على الفطرة ثم يوجهه أبواه الوجهة التي يختارانها له . ومن هنا كانت مسؤولية الآباء نحو الأبناء وهي مسؤولية أساسية :

( فالرجل في بيته راع وهو مسؤول عن رعيته والأم في بيتها راعية وهي مسؤولة عن رعيتها ) وإن الآباء مسؤولون عن فساد أبنائهم واخطائهم ،

وعليهم في ذلك عقوبة التقصير وعـــدم بذل الجهد في تنمية هذه الثمرة على الوجه الأحسن .

والطفل [١] أمانة عند والديه وقلبـه الطاهر جوهرة نفيسة ساذجة يجب حمايتها ويجب [٢] البـــدء بتهذيبه منـذ فطامه لئلا تثبت في نفسه الأخلاق الذميمة فيصعب بعـد ذلك نزعها من نفسه ، وليكن تهذيب الولد بالحمد مرة وبالتوبيخ اخرى وبالإيناس مرة وبالإيحاش مرة ثانيـــة ، وإن الطفل [٣] المستحي لا ينبغي ان يهمل بل يستعان على تأديبه بحيائه وتمييزه ، ولا يؤخذ الطفل بأول هفوة بل يتغافل عنه ولا يهتك ستره ، ولا سيما إذا ستره الصبي واجتهد في إخفائه .

ويقول الامام الغزالي : إن الطفـل يأتي الى الحياة ونفسه صحيفة بيضاء خالية من كل نقش وتصوير وإن المربي أباً ومعلماً هو الذي ينقش على هـــذه الصحيفة ما يشاء من خـير وشر ، والصبي قابل لكل ما ينقش عليه ومائل الى كل ما يمال به اليه ويجب تعويده الاخشيشان في المأكل والملبس ، ويحبب اليه القصد في المطعم والقناعة بالخشونة ، ويستعان في تأديب الصبي بحيائه ، فالحياء بشارة من الله تعالى تدل على اعتدال الخلق وصفاء القلب ، والرياضة البدنية تقوي جسم الطفل .

وليعود مكارم الاخلاق ويجنب سيئها ويمنع من لغو الكلام وفاحشه ويمنع من قرناء السوء ويقتصد في التعنيف عند وقوع الذنب لأن كثرة العتاب تهون عليه سماع الملامة وتخفف وقع الكلام في نفسه .

---

(١) الغزالي .

(٢) ابن سينا .

(٣) الغزالي .

وفي سن التمييز لا يسمح له بترك الصـلاة والطهارة ولا يؤخذ الغلمان بطريقة واحدة ، بل يختلف علاجهم باختلاف أمزجتهم وطباعهم وأسنانهم وبيئاتهم .

ولقد دعا المربون المسلمون الى اتخاذ قاعدة القدوة والمحاكاة أساساً للتربية :

«فالاطفال يأخذون بالتقليد والمحاكاة أكثر مما يأخذون بالنصح والارشاد قال عيينة بن أبي سفيان لمعلم ولده : ليكن أول إصلاحك لولدي إصلاحك لنفسك فإن عيونهم معقودة عليك فالحسن عندهم مـا صنعت والقبيح عندهم ما تركت » .

## (٧)

أعلنت أصول التربيـة الاسلامية حقيقة خالدة : إن العلم لا يكفي ولا ينفع بدون الاخلاق ولذلك فإن الخطوة الاولى للتعليم والثقافة هي«التربية».

وكل تربية لا ترقى الى ترقيـة الخلق السامي وتقويته ليست جديرة بأن تسمى بهذا الاسم ، والاخـلاق ليست كلمات تلقن تلقيناً ولا عبارات تعرف مباشرة من الكتاب . فالعلم وحده لا يغني بدون الاخلاق، والتربية الخلقية هي في الواقع تربية اجتماعية، ويجب ألا ينظر الى الخلق وكأنه شيء شخصي محض لا يهم سوى صاحبه ، وإنمـا ينبغي ان ينظر اليه من الناحية التربوية الاجتماعية اكثر من النظر اليه من الجهة الفردية .

ولا ريب ان مسؤولية الآباء والأمهات بالغـة في تنشئة الطفل وفي الآثار المترتبة على ذلك في مستقبل حياته كـله . وقد دعا الاسلام الآباء الى ان يختاروا لأبنائهم اسماء جميلة ، فالاسم الجميل بعيد الأثر في نفسية الطفل، وعلى الآباء اختيار مرضعـة الطفل بحيث لا تكون مشوهة نفسياً أو ضعيفة عقلياً « فاللبن يعدي » والخطر ان تنقل صفات المرأة وخصائصها العقلية والنفسية الى الولد . وإن النبي نهى عن استخدام «الظئر» المجنونة وعلى الطفـل ان يرضع ما أمكن من ابن أمه ، وعلى الأم ان تمـارس حنانها ورعايتها للطفل في السنوات الأولى ما أمكن فإن محاذير الانصراف عن ذلك لا حد لهـا .

ولقد أشار المربون المدون الى ذلك منذ ألف عام ويزيد فدعوا الى انه يرضع الطفل من لبن أمه ما أمكن فإنه أشبه الأغذية بجوهر ما سلف من غذائه وهو في الرحم، وقد كشف العلم الحديث عن هذه الحقائق اليوم وبين مدى خطر الرضاعة الصناعية وانصراف الأم الى تربية أبنائها عن طريق دور الحضانة وخطر ذلك على مستقبل الأبناء .

كذلك دعا الاسلام الى تعليم الأطفال الرياضة وهي في عود طري ليكون قادراً على الحركة السريعة والنشاط ، وفي الوقت الذي دعا فيه الى التكوين الخلقي في سن باكرة ، واستعمال الوسائل المختلفة من الترهيب والترغيب ، دعا الى خلق جو من الإيناس حول الطفل ، حتى يشعر بالطمأنينة والأنس والبهجة ، ولقد أولى المربون المسلمون ذلك غاية الاهتمام حتى قال قائلهم : إن أبرز مميزات التربية الاسلامية عنايتها بالنص على الرفق في معاملة الأطفال وعلاج زلاتهم .

أما الأم فقد حملت التربية الاسلامية لها مسؤولية كبرى وأمانة عظمى.

فقد حرص الاسلام على إعداد الأم : بوصفها المدرسة التي ستبني الأجيال الجديدة نفسها ، ولذلك أعدّ لها تربية خاصة منفصلة عن تربية الرجل وفقاً لتكوينها ولرسالتها ولمسؤوليتها . ودعا الى بناء فكر المرأة على أساس فهمها لوظيفتها في الحياة أساساً ومسؤوليتها على تنشئة الأجيال وإعداد مناهج الدراسة لها على هذا النحو مع الايمان بحقها الكامل في المساواة التامة التي لا تتنافى مع قوامة الرجل .

ولقد كانت التربية الاسلامية للمرأة عامل قوة ودافع حماية لها من أخطار المجتمعات الفاسدة وأهواء الرجال ومطامعهم ووفقاً لرسالتها الأساسية في بناء الأسرة ورعاية الرجل وتربية الأبناء .

ومن هنا فقد ركزت التربية الاسلامية في مجال الأسرة وفي إطار القدوة،

وفي هذا يقول الكسس كاريل في كتابه الانسان ذلك المجهول :

« لقد ارتكب المجتمع العصري غلطـة جسيمة باستبدال تدريب الأسرة بالمدرسة استبدالاً تاماً ، ولهـــذا تترك الأمهات أطفالهن لدور الحضانة حتى يستطعن الانصراف الى أعمـالهن ومطامعهن الاجتماعية . انهن مسؤولات عن اختفاء وحدة الأسرة واجتماعاتها التي يتصل فيها الطفل بالكبار فيتعلم منهم أموراً كثيرة لأن الطفل يشكل نشاطه الفسيولوجي والعقلي والعاطفي طبقاً للقوالب الموجودة في محيطه » .

ولقد عاشت الأم المسلمة تربي أولادها وتنشئهم على أغاني الكرم والقوة والشجاعة ترويها لهم في قصص التاريخ وفي نماذج الرجال .

وحين دعا الاسلام الى ان طلب العلم فريضة على كل مسلم ومسلمة كان يستهدف مسؤولية الأم التي يجب ان تعلم القرآن والسنة وتاريخ الاسلام .

والتي كانت تربى تربية خاصة منفصلة عن تربية الذكور .

وكان يحرم عليها الشعر الفاحش والكلام المقذع . وكانت توجه من نافذة أنها أم الاطفال وعون الزوج وراعية البيت .

(٨)

وفي محيط الأسرة المسلمة تتكون الثمرة الطيبة :

فالرجـل والمرأة يعملان معاً في سبيل بناء الفرد المسلم العابد ، المتحرر من كل التحديات الضاغطة ، فيكون الأب للابن قدوة والأم للبنت نموذجاً طيباً ولا ينسى الأبوان لحظـــة أنهما موجهان ومرشدان وان أي تصرف لهما سيؤثر في هذا النتاج إيجاباً وسلباً .

ومن أهم ما يجب ان يتحرر منه الطفل [١] وجدانياً وعملياً وواقعياً :

الحرمان والخوف والجهـل . فالجاهلية تعمل على تعميق الخوف في نفس الانسان وتجعله شاملاً وعاماً ، تجعله يخاف مما يحيط الانسان سواء كان مادياً أو معنوياً ، فلا ينظر الى الحياة إلا نظرة خوف من المصير والموت والمجهول وخوف من الجوع والفقر وخوف من المسؤولية .

فالتربية الاسلامية تستهدف تحرير الانسان المسلم من الخوف : فلا يخاف إلا الله وحده ، اطمئناناً الى ان صلته بالله تحميه من كل الاخطار .

وكذلك «التحرر من الجهل» وذلك بعدم إدخال الخرافات والاعتقادات

---

(١) من بحث للاستاذ محمد العربي الناصري .

الفاسدة الى عقل الطفل فتبعده عن الرؤية الحقيقية للكون والحيــــاة كلما نما وكبر ، ويتحقق ذلك بتكوين التصور الإسلامي للكون والحياة والانسان .

وكذلك تقويم الطفــــل على الفطرة : ومعناه تحرير نفسيته من الرواسب الدنيوية لتنشأ وتنمو قوى نفسه وهو مستعلي الهمة خــــال من العقد موجه توجيهاً يهيئه لخلافة الله في الارض .

ويرى المربون المسلمون ان النمو يمتد في ثلاثة ابعاد : النمو النفسي والنمو الجسمي والنمو الروحي ، وإن هــذا النمو الأخير هو أوسع وأكبر يقوم على أساس التقوى أي الاتصال بالله في الرجاء والخوف وكلما نما هذا المحور وترعرع في نفس الانسان ارتقى روحياً من الاسلام الى الايمان الى الاحسان .

والإحسان هو ان تعبـــد الله كأنك تراه فإن لم تكن تراه فإنه يراك ، وأساس هذه التربية التي تجعل الناشىء المسلم قوياً محصناً إزاء موجات التحلل والتمزق هو الصلاة تبدأ في السابعة ويضرب عليها في العاشرة فتصبح جزءاً لا يتجزأ من حيــاته فتنهاه عن الفحشاء والمنكر وتصبح بينه وبين الله باباً ، فإذا حزبه أمر لجأ الى الصلاة .

وبذلك تتحقق الغاية المثلى من التربية الاسلامية وهي تحرير المسلم من الذل والخوف ووساطة الوسطاء وشفاعة الشفعاء .

فالعمل كله موجــه الى الله لا يطلب به هوى خاص ولا مطمع فردي ، والأمور كلها خالصة لله فلا خوف من التحديات ولا الاسواء .

فإذا كان الأفراد كذلك فإن الأسرة تقوم على دعائم ثابتة والمجتمع مجموعة الافراد المؤمنين والاسرة الثابتة .

ولقد حث الاسلام على الزواج من أجل بناء الاسرة دعامة المجتمع ، ومن أجل التحرر من أهواء الجنس وموجات الإباحية .

ويؤكد الاسلام تكوين الاسرة وبناءها (جعل لكم من أنفسكم أزواجاً) .

والزواج ليس شركة مادية ، ولكنه تمازج روح بروح ، وقيام مودة ورحمة، والاسلام حين يحث على الزواج ينهى عن العزوبة لأنهـــا تحلل من المسؤولية وهروب من تبعة بناء الاسرة. وقد دعا الى حسن اختيار الزوجة حتى تكون الاسرة مستقرة منيعة ، وحصر أفضل النماذج في صاحبة الدين، ودعا الرسول الى تزويج من ترضون دينه وخلقه حتى لا تكون فتنة في الارض وفساد كبير، فالطابع الديني في المرأة ( دون المال والجمال والحسن والنسب ) هو الدعامة التي تحطم كلها كل أخطار الاسرة وأزماتها .

ولقد وضعت الشريعة الاسلامية لهذه العلاقة أسساً وضوابط حتى لا تخضع لأهواء الرجال، ثم جعل للطفل من بعد ذلك نظاماً كاملاً في الرضاعة والحضانة والنفقة والتربية حتى لا يجري الامر وفق رغبات متاوجة ، وقد شرع هذه القوانين والنظم لحماية الطفل حتى يبلغ سن الرشد .

فالتربية القائمة على أساس معرفـة الله وتقواه هي التي تهيء النشء المسلم لحمل رسالته ومسؤوليته . كذلك فقد جعل الاسلام للأبوين بعد ذلك حقوقاً قبل الأبناء وجعل العقوق من أكبر الكبائر .

(٩)

في ضوء مفهوم التربيــة الاسلامية نرى مجتمعنا الحاضر الذي اعتمد على أساليب التربية الغربية الوافدة مضطرباً غاية الاضطراب في حاجة الى تصحيح كثير والى إعــادة النظر في أساليبه ووسائله ، فقد ضعفت مسؤولية الآباء والأمهات وتراخت ، وحــل التهاون محل الحزم عجزاً من الآباء عن تقدير تبعتهم الخطيرة حتى بدأ الأب منكوراً من أبنائه وليس موضع ثقتهم فهم لا يستمعون اليه لأنه هو نفسه ليس نموذجــاً صالحاً ، فالآباء يغيبون عن أسرهم ولا يتابعون أحوال أبنائهم ويتركونهم ومعهم أسئلتهم الحرجة ليتلقوا الاجابة عنها من الصحف أو من دعاة الانحلال .

والأم تقضي أغلب أوقاتها خــارج البيت مع صديقاتها في مواطن اللهو واللعب ، وقد تحولت البيوت الى فنادق. وأصبحت أفلام السينما والمسرحيات هي التي تعطي مفاهيم الاجتماع وعلاقات الرجــل والمرأة ، والآباء يتركون أبناءهم وبناتهم بغير رقابة من حيث اختيار أصدقائهم ورفقائهم ، وقد استهانوا بالصغائر وعجزوا عن فهم علاقــة الملابس والزينة بتكوين رجولة الرجل وأنوثة الانثى .

ولقد عجزت التربيــة الحديثة عن تحقيق بنــاء الفرد المسلم والفتاة المسلمة والاسرة المسلمة وذلك حين جردتها من مفهوم التربية الاسلامية الكامل الذي

رسمه لها القرآن مترابطاً في مصادره الثلاثة : (تربية الجسم والروح والعقل) بما يحقق التوازن والتكامل بين العناصر الثلاثة التي تكون في مجموعها الشخصية الانسانية ، وذلك حتى لا تطغى ناحية من هـذه النواحي بالاستعلاء فتفقد النواحي الاخرى حاجتها ، وبذلك يحدث «التمزق» الذي هو اخطر آفات انعدام التكامل الانساني ومصدر كل الأزمات التي تواجهها البشرية حين أعلت من شأن العقل أو الجسم وتجاهلت تكامل العناصر وترابطها .

ذلك ان التربية الحديثة التي استشرى منهجها في المدرسة الاسلامية حرمت الشباب المسلم من عنصري الايمان والخلق وحاولت ان تدفعه في طريقه مجرداً منهما مستهيناً بهما عاجزاً عن استيعاب الآثار البعيدة المدى لممارستهما .

كذلك كان لهـا خطرها حين عجزت ان تفصل بين الرجولة والانوثة في فهم وجهة الحياة وهدفها ، وفي الزي والملبس والزينة .

كذلك كان إطلاق التربية من الضوابط وتجاهـل الموازنة بين الترهيب والترغيب بعيـد الأثر في حرمان الشباب المسلم المعاصر من تكامل الشخصية ومن الحـذر من الوقوع في الاخطار التي من شأنها ان تدمر الشخصية وتهدمها وتعرض الشباب الى التمزق والانحلال .

كذلك عجزت التربيـة الحديثة عن ان تقدم للانسان المسلم أساليب الرجولة والقوة وبناء مفهوم المروءة والاريحية ، فلم تجد الشباب الحدث يخف الى عون الضعيف أو الفقير أو العـاجز أو يستشعر في نفسه ذلك الحنان أو الشوق أو الخوف ، ولقد نجد في مناهج التربية الحديثة الرياضية وكنا لا نجد لها هدفاً واضحاً مستمراً من غرضها الحقيقي ، فهي تجري كعملية بناء للجسد دون ان تكون مكملة لنمو العقل أو الروح بحسبان أنها جميعاً تتكامل في بناء الانسان . وفي الاسلام إنمـا تكون الرياضة موجهة الى بناء شخصية الرجل القادر على الجهاد وعلى المساهمة في الاعمال الجادة وتكون الوجهة فيها خالصة لله أساساً .

كذلك عجزت التربية الحديثة ان تمنح المسلم الشاب فهم الدور الحقيقي للانسان في الحياة: رسالة ومسؤولية وإرادة حرة وجزاء أخرويا، إن وجهة الانسان المسلم هو الله وهدفه هو الحق وغايته هي الخـــير وتحددت وجهته خالصة واضحة :

« تلك الدار الآخرة نجعلها للذين لا يريدون علواً في الارض ولا فساداً »
وأبرز ما تحاول التربيـة الحديثة تجاوزه والإغضاء عنه الدعامة الاخلاقية في التربية ، وهي تمثل اساساً هاماً ، فقد جعل الاسلام من الاخلاق قاعدة البناء كله والقاسم المشترك على مختلف القيم ، وجعل أساس الاخلاق (التقوى) وهي قمة الدين والمجاهدة وهي رأس الامر كله بمعنى مقاومة تيارات الاهواء والمطامع والرغبات المذلة والقـــدرة على مواجهة الاحداث والازمات بصبر وطمأنينة وصمود وذلك في مواجهة الاخطار التي تحيط بالمسلمين دومـــاً وفي كل عصر وحتى يكونوا قادرين على حمـاية كيانهم ووجودهم من الغزو والانهيار . ولقد ربط الاسلام بين المنهج والتطبيق وبين الخلق والسلوك .

وجعل التطبيق مناظر الايمان فلا يتحقق الايمان حتى يصبح سلوكاً مؤثراً في واقع الحياة وحيث يكون الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر قضية اساسية في المجتمع الاسلامي .

والمسلمون اليوم وهم يرون كيف وصلت بهم نتائج تطبيق مناهج التربية الحديثة وآثارها حين التمسوها أو فرضت عليهم، يجب ان يعودوا الى منهجهم التربوي الاصيل المستمد من قيمهم الاساسية وهو الذي يصلح لهم وحده دون غيره .

## (١٠)

من أبرز وجوه الخلاف بين أصول التربية الاسلامية وبين آخر صيحات التربية الغربية في تحولاتها المتعددة والتي لا تنتهي : فكرة « حرية التربية » بمعنى إطلاق الحرية للناشىء بدون رقابة أو توجيه سواء في مجال الغرائز أو الملابس أو التصرفات أو المعارف والاصدقاء أو غيرها من شؤون الحياة ، هذه الحرية المطلقة لا يقرها مفهوم التربية الاسلامية ويراها محنة تمر بها المجتمعات الغربية وخطراً داهماً بعيد الاثر فيما يواجه الشباب في الغرب اليوم من تحلل وانهيار وفساد وتمزق نفسي .

ولسنا في حاجة الى ان نحتكم الى غير الغربيين أنفسهم في جرائر هذه الدعوة وأخطارها وفي مصادر هذه الدعوة وخلفياتها .

والشباب الناشىء في أول الامر قليل الخبرة والمعرفة ولا يحسن اختيار طريقه ، فإذا تركناه مطلق الحرية عجز عن النجاح وكبا وفشل وتساقط ، لأنه أصبح خاضعاً لأهوائه في فترة لم تشكل فيها ثقافته ولا تجربته وحيث توجد مغريات الانحراف في كل مكان .

وضبط الحريات ووضع القواعد لها ليس مصدر تسلط أو استعباد أو دافع الى الحيلولة دون حق الاجيال الجديدة في الحركة ، بل على العكس من ذلك فهو بمثابة وضع الانوار الكاشفة على الطريق الطويل المظلم الكثير العقبات .

ولقد كانت رعاية التربية الاسلامية للنشء بالغة الرفق والاحسان، ولكنها حاسمة في حمايته من الاخطار وتجنيبه المزالق وخاصـــة في فترة المراهقة التي تغلب فيها النظرة البارقة والتصرف المندفع .

ولنعلم ان الدعوة الى حرية التربيـة أو إطلاق التربية ليس قانوناً حتمياً نافذاً ، ولكنه وجهة نظر ومحاولة مفترضة من بعض المربين ، أخذ بها دعاة مذهب معين ، ورفضها الكثيرون ، والذين قبلوا بهـا عادوا فتحلل أغلبهم منها بعد ان ظهرت نتائجها السيئة ، ولم يبق متمسكاً بها إلا اتباع المذاهب المتحللة والمنحرفة من دعاة الإباحية والإلحاد ومن اتباع الدعوات المادية وحملة ألوية الدعوة التلمودية الصهيونية في محـاولة لتحقيق أهدافها في تدمير الشباب مقدمة لتدمير المجتمعات .

ولقد تعالت هـــذه الصيحات من رجال التربية الذين اعتمدوا المذاهب المادية وتابعوا فرويد ظناً منهم ان التوجيه ووضع الضوابط من شأنها ان تؤثر في كيان الفرد فتحول بينه وبين القدرة على الحركة والنمو ، ولقـد ترددت أقوال عن ما يسمى بأخطار الكبت ومـا يـترك في النفس من آثار ، وثبت بالتجربة التي أجراها العلماء ان ذلك كله محض توهم وان لا حقيقة له بل لقد ثبت ان التربية الموجهة أصدق أثراً في إنشاء الافراد عامة. كذلك تبين زيف دعوى كراهية الأب ، وتبين ان الحمـلة عليه في الغرب لها جذور في العقائد والفلسفات القديمة ، وأنه يراد بها تدمير الاسرة اساساً .

كذلك ثبت كذب ما ادعاه اتباع المذاهب المادية من كراهية الفتاة للأم فقد أثبت الباحثون ان أغلب رسوم الاطفـال تحتوي اهتماماً واضحاً بتكبير حجم الأم بعكس مـا تقول به نظرية فرويد ( عقدة الكترا ) من ان الطفلة تتعلق أكثر بأبيها ، وان هذه الرسوم كما يقول الباحثون أبرزت حقيقة بالغة الاهمية وتساؤلات تثير الشك في مصادر نظرية فرويد التي اعتمدت في كراهية

الابن لأبيه على أسطورة أوديب ومــا يماثلها بالنسبة للفتيات من الاعتماد على اسطورة الكترا ، وذلك في محاولة لإيجاد الصراع داخل الاسرة بين الأم والاب وبين البنت والولد .

كذلك فان الحرية التي تدعو اليها التربيــة الاسلامية هي حرية منضبطة تستهدف تقويم النشء وحمايته في هذه الفترة من العمر ، وهي فترة التكوين بحيث ينشأ فيها الابن أو البنت في محيط من الرعاية وفي قدوة سليمة وفي فهم عميق لمهمة الرجل ومهمة المرأة ودور الاب ودور الام ، حتى إذا مــا بلغ الناشئون رشدهم أعطيت لهم الحرية في الاختيار والتفضيل لما يرونه صالحاً لهم على ضوء ذلــك التكوين الواعي الدقيق ، ولا ريب أنه من الجرم الكبير في حق المجتمع وحق الآباء والامهات ان يترك النشء في هـــذه السنوات الاولى دون توجيه ورعاية وحماية ، وإن من شأن الدعوة الى إطلاقه وعدم تقييده إنما يستهدف تحطيمه وتدميره وهو ما حدث فعلاً في مجتمعات الغرب إذ كشفت عشرات الاحصائيات والابحاث الميدانية عن ان ما يقاسيه الشباب في الغرب الآن من تصدع وتمزق وإغراق في الاباحة والمارجوانا وغيرها جـــاء نتيجة هذا الاسلوب التلمودي الخطير ، وان ما دعا اليه الاسلام هو الاسلوب الأمثل وان الدعوة الى تكريم الانسان ليست في دفعــه الى المخاطر بغير سلاح أو تجربة ، وإنما في حمايته وبنــائه وإعداده ليكون صالحاً لحمل أمانة المستقبل في أمته .

ولا ريب ان نظرية الاطلاق من شأنها ان تدفع النشء الى ان يكون عبداً لأهوائه وشهواته ، فضلاً عن أنه يعجز عن اختيار الاصلح إذا ما اتيحت له حرية الاختيار لأنه لم يوجه عقلياً ولا نفسياً الى ما يصلحه والاولى ان يعطى مفاتيح الامور فيعرف الخير والشر والحق والباطل وما يصلحه ومــا يضره قبل ان يعطى حق ممارسة حريته .

ومن حقنا في ضوء هــذا التحليل ان نحكم على التربية الغربية بأنها تربية

قاصرة وان عوامــل كثيرة تتحكم فيها تستهدف تدمير الامم المنقولة اليها ، فعلينا ان لا ننظر اليها علىأنها الدواء الوحيد ولا الدواء الصحيح، وقد رأينا نتائجها في وطنها وبيئتها ولنعرف أنهــا نبت غريب عنا وأنها قد أدت في النشء الذي طبقت فيـــه الى الزيغ والالحاد والميوعة والتحلل والاضطراب والتشكك ولنعرف ان لنا طبيعة اخرى خاصة لها وجهتها .

ووجهتها فيالتربية بناء الشخصية المسلمة وعلاج النفس الانسانية وصياغة النموذج الكريم من الانسان على نحو يمكن الانسان المسلم من تأدية رســـالة الاسلام . ولما كان العلم لا يكفي لتكوين الفرد والثقافة لا تكفي ولا قيمة لأيّ علم ولا أي ثقافــة بدون قاعدة أخلاقية وهدف عقائدي لذلك كانت التربية الاسلامية هي الرجـــاء الذي تتطلع اليه البشرية لإعادتها مرة اخرى الى جادة الحق والى الطريق المستقيم .

## (١١)

إن أبرز معالم منهج التربية الاسلامي هي أنه :

(أولاً): منهج متكامل يعنى بتربية الجسم والروح والعقل جميعاً بما يحقق التوازن والتكامل بين العناصر الثلاثة التي تتكون من مجموعها الشخصية الانسانية ، وذلك حتى لا تطغى ناحية من النواحي بالاستعلاء فتفقد النواحي الاخرى حاجتها وبذلك يحدث التمزق الذي هو اخطر آفات التكامل الانساني ومصدر كل الازمات التي تواجهها البشرية حين أعلت من شأن الجسم وتجاهلت تكامل العناصر كلها وترابطها .

(ثانياً) : وحدة الاتجاه أو وحدة الفكر بمعنى ان تصوغ قاعدة عامة للنفس الانسانية تلتقي فيها الامة كلها على ارض الواقع ، ولا يمنع هذا من الاختلاف في الفروع .

(ثالثاً) : يرى الاسلام ان الانسان يولد وفيه عاملا : الخير والشر . والتربية هي التي توجهه الى أحدهما : ( قد أفلح من زكاها وقد خاب من دساها ) ومن هنا يتحتم بناء الفرد وتوجيهه ودفعه الى الطريق الصحيح ببناء إرادته ودفعه الى تحمل المشاق ومواجهة الشدائد والانفطام عن الشهوات .

(رابعاً) : جعل الاسلام التربية منهجاً وقدوة وجعل المنهج تطبيقاً في القدوة : ( لقد كان لكم في رسول الله اسوة حسنة ) .

والقـدوة تتمثل في الابوين ثم في المعلم ثم في الاصدقاء والمعارف فإذا لم تتحقق في هـذه النماذج عجزت التعاليم والمناهج عن ان تقدم شيئاً ذا بال لأنها تظل قائمة في حدود النظرة المجردة .

ويقول المربون : إن الطفل يتقبل من آبائه اكثر مما يتقبل من معلمه وإن ناشىء الفتيان فينا ينشأ على ما كان عوده أبوه .

ومن هنا تأتي مسؤولية الآباء وما يرتكبه البعض في حق ابنائه من تقصير في التوجيه والمتابعة يوماً بعد يوم .

(خامساً) : الطبيعة الانسانية مرنة ويمكن تشكيلها وهي اساس بنـــاء الامم والمجتمعات ويمكن عن طريقها تغيير العرف العـام ، ولذلك فقد عمد اليها المصلحون لبناء مجتمعات ناهضة ، ولا بد من إعداد البيئة الصالحة للتربية الحقـة التي تقوم على أساس التقـاء المناهج بالواقع والتي لا يوجد فيها تناقض بين ما يعلن وما يقدم .

(سادساً) : اهمية دور الام البالغ في إمداد الابناء بالحنان والرحمة والحب والعاطفة ومدى خطر نقصان ذلك أو تلاشيه .

(سابعاً) : الحرص على كمال الذاتيـة والطابع والنوع ، فالابناء لا بد ان يكون لهم تربية خاصة وزيّ خاص ومنطلق خاص لفهم الحياة وتعلم امورها يختلف عن منطلق الفتـــاة وكذلك تباين الملابس والزينة ، وانه من الخطر امتزاج ذلك لأنه يفسد الفوارق العميقة القائمـة بين شخصية الفتى وشخصية الفتاة والتي يجب ان نحرص على بقائها وتعميقها .

(ثامناً) : إقامة أساس التربيـــة على الترهيب والترغيب معاً على طريقة الحزم الممزوج بالرفق والربط بين الايـنـــاس والايحاش على ألا يؤخذ الطفل بأول هفوة بل يتغافل عنـه ولا يهتك سره ولا سيما إذا ستره الصبي واجتهد في إخفائه .

(تاسعاً) : تربية الابناء على الرجولة والخشونة :

(علموا أولادكم العوم والرماية ومروهم فليثبوا على الخيل وثباً) .

(عاشراً) : القرآن هو مدخل الفكر واللسان والذكر في كيان كل مسلم فهو المصدر الاول للتعليم والتربية والاخلاق ، وقد قدم لنا القرآن منهجاً كاملاً للمعرفة : عالم الطبيعة وعالم الغيب وعالم الآخرة ورسم لنا صورة كاملة عن نشأة الحياة وعن سر خلقنا .

( حادي عشر ) : منحنا الاسلام فهم دورنا الحقيقي في هذه الحياة ومسؤوليتها بها .

(ثاني عشر) : جعل الاسلام العبادات هي علامة الاتصال الدائم بالمصدر الاكبر وجعل ممارستها في اوقات معينة مرتبطة ببناء الارادة وإعداد النفس الانسانية للترقي الى الملأ الاعلى .

(ثالث عشر): جعل الاسلام(الالتزام الاخلاقي) قاعدة البناء كله والقاسم المشترك على مختلف القيم والاوضاع .

(رابع عشر) : دعا الاسلام الى الفكر والذكر ونعى على الغافلين .

# الفصل الثاني

## التعليم الاسلامي

لا بـــد لكي يقوم منهج التعليم الاسلامي من ان تكون قوائم « التربية الاسلامية » قد أعدت وانه لا سبيل الى نجـــاح رسالة التعليم إلا إذا قامت وفق منهج تربوي صحيح ، فالتربية للفرد والتعليم للمجتمع . والتربيـــة هي الطريقة التي تطبع بها الفرد بطابع معين لإعداده لتلقي التعليم الذي هو مجموعة المعارف التي تزود الفرد بالخبرات . والتعليم وحده لا يغني ولا يكفي دون ان تمهد امامه الطرق من الاخلاق والقيم والاهداف الواضحة السديدة، والخلق ليس شيئاً فردياً فحسب ولكنه فردي وجماعي ، والعلم بعـــد ذلك رسالة وليس وسيلة لكسب العيش ، فإذا ضاق أفقه الى هذا الحد حرم الناشىء من الترقي الصحيح . ولا ريب ان العـــلم والقدرة على كسب المال إذا لم تكن مقرونة بالخلق والهـدف أصابت صاحبها بالاضطراب والفساد مما يفسد عليه قدرته ومهارته ويجعل وجهتها الى الشر والانحلال .

فالتربية هي إعـــداد للنشء من ناحية إعداد الاطر النفسية والاجتماعية القادرة على حمل أمانة رسالة العلم علىأساس نظرية الحياة التي يؤمن بها الناشىء

والهدف الذي يتجه اليـــه فرداً وأمة وجماعة وفي إطار الامانة المنوطة به والمسؤولية القائمة في عنقه .

إذن فلا يمكن إطلاق التربيـة أو إطلاق التعليم ، لأن ذلك الاطلاق من شأنه ان يتجه بالناشئين الى غير الغاية التي تراد بهم أو يستهدفها مجتمعهم أو أمتهم . والتربية والتعليم ليسا غـــاية ولكنهما وسيلة لغاية : وسيلة التربية لبناء الانسان القادر على حمل رسالة الامة وعقيدتها ووسيلة التعليم حماية الامانة وتنميتها وإذاعتها ودعم العقيدة وتطبيق الشريعة وإقامة الحجـــة بالمنطق والدليل على صدقها وصحتها .

فالتعليم ليس من اجل منطلق حر لا ضابط له ولكن من اجـــل دعم نظرية الحياة لأمة . ذلك ان الامة صاحبة الرسالة يجب ان تقوم على الصغار بالتربية والتعليم ليكونوا ورثة صالحين لهدف حياتها ولنظام مجتمعها، وعليها من اجل ذلك ان تصوغهم في قوالب عقائدها ومناهج حياتها .

ويصدق في هـذا قول تربوي غربي لا أدري لماذا لم يعرفه دعاة التعليم الحر أو مدرسة ( افعل مـا تشاء ) يقول : مهما قيل في تفسير التربية فمما لا يختلف فيه أنهـــا سعي للاحتفاظ بنظرية سبق الايمان بها وعليها تقوم حياة الامة وجهاد في سبيل تخليدها ونقلها الى الاجيال القادمة .

ولعل في هذا إجابة عن التساؤل الذي يتردد : عن التربية والتعليم وهل هما وسيـلة أم غـاية ؟ إن المعرفة لا تصلح بدون إطار الخلق والمعرفة وسيلة الى هدف هو بناء منهج الحيـاة الصحيح ودعمه وتحريره مما يصيبه على مدى الايام من الاضطراب أو الانحراف .

ولا ريب ان الله هو المثل الاعلى للمسلمين وهو الغاية القصوى التي يجب ان تنتهي اليها كل غايات التربيـة والتعليم وان القرآن الكريم هو نقطة الانطلاق لبناء النفس الانسانية في الفرد وبنـاء الاسرة ثم بناء الجماعة الاسلامية القائمة

على شرعة الله بالحق وإقامة نهجه الرباني المصدر الانساني الهدف على هذه الارض.

فأين هذا من مناهج المدارس الوطنية والجامعات القومية التي يزخر بها العالم الاسلامي اليوم ؟ وكيف يمكن ان يكون تدريس مادة (الدين) وسيلة لتحقيق هذه الغاية وكل ما يتعلمه المسلم متصل بالاسلام من قريب حتى علوم التكنولوجيا والفلك والطب والطبيعة وغيرها ؟

إن هدف التربية والتعليم كما يقول الدكتور الجمالي : هي كيف يمكن مساعدة الانسان ليؤدي مهمته كمستخلف لله في الارض وهي المهمة التي نص عليها القرآن الكريم ، وهل تستطيع انظمة التربية الغربية سواء المسيحية منها أم المادية ان تحقق ذلك ؟

محال : فالتربية المسيحية تقوم على أساس فلسفة مختلفة تماماً لأنها تستمد وجودها من نظرية الخطيئة الاصلية التي تبنى عليها عمد التربية والاخلاق وفلسفة الحياة البشرية كلها ، وهي نظرية منقوضة تماماً في الاسلام ؛ هذا بالاضافة الى الخلاف بين الجزاء الاخروي الذي هو في الاسلام حسي ومعنوي وفي المسيحية معنوي ، وهناك الخلاف الاكبر مع مفاهيم التربية المادية وهي مستمدة اصلاً من مفاهيم التلمود حيث تهدم عمادين اساسيين في التربية الاسلامية المسؤولية الفردية وما يتبعها من الالتزام الاخلاقي والجزاء الاخروي . فضلاً عن نظرتها الى الانسان على نحو مادي حيواني وعلى نمط جزئي انشطاري مادة وليس روحاً ، جسداً وليس نفساً .

من شأن هذا كله ان يعمق الفوارق بين النظرية الغربية والنظرية الاسلامية في أدق مفاهيم العلم والتعليم فضلاً عن مفاهيم التربية والاخلاق .

ونحن في مفهوم الاسلام قد حققنا بالتربية بناء الانسان أما بالتعليم فنقيم بناء المجتمع الذي هو مجموعة من الافراد تسعى الى غاية كريمة هي إقامة شرعة العدل والإخاء والرحمة .

أمـــا وقد غرست التربيـة روح المسؤولية والشعور بالواجب والارادة القادرة على التغير والإخلاص في العمل فإن التعليم يبدأ لكي يشحن هذه النفس وهذا العقل بالقدرات التي تمكنه من العمل الصحيح في اتجاه الغاية المثلى وبكل الملكات والقدرات في اتجـاه الاستجابة للعصر ودون مجاوزة قواعد العقيدة وضوابط الشريعة .

فإذا كان التعليم هو الحركة فإن التربيـــة هي إطار الثبات الذي يحقق طابع الاخلاقية وصـدق الوجهة الى الغاية وتصحيح المسار مرحلة بعد اخرى حتى لا تتجاوز الامـــة اهدافها الحقة وغاياتها الاساسية حين تحاول المطامع والاهواء ان تجرفها عن الطريق المستقيم .

## (٢)

إذا كان مفهوم التربية في الاسلام هو الترابط بين تربية العقل والقلب والجسم فإن التعليم هو بمثـابة إعداد العقل إعـداداً سليماً ليكون قادراً على الفهم والاستجابة ولذلك فقد عني قادة التربية الاسلامية في ذلك بعدة أمور:

(اولاً) : إعطاء الفرصة الحدث للاختيار في مجال التعليم بما يتناسب مع رغبته وذوقه وقـدرته دون ان يفرض عليه علم معين فيجعل أساس التربية مراعاة ميول الاطفال واستعدادهم حتى لا يرهق الاطفال بأعمال يصعب عليهم أداؤها ، لأنهـا لا تجري مع رغباتهم ، فالتربية الاسلامية تحترم الميول مهما كانت متواضعة . (ثانياً) أذنت التربية الاسلامية للطفل بعد الانصراف من المكتب ان يلعب لعباً جميلاً يستريح اليه من تعب التعليم بحيث لا يتعب في اللعب ، وقررت أنه إذا منع الصبي من اللعب وأرهق بالتعليم مـــات قلبه وبطل ذكاؤه وتنغص عليـه العيش . ( ثالثاً ) : دعت التربية الاسلامية الى الرفق في التعنيف عند وقوع الذنب لأن كثرة العتاب تهون على الحدث سماع الملامـة وتخفف وقع الكلام على نفسه . وان يكون التأديب بالحزم الممزوج بالرفق ؛ ذلك ان الشدة على المتعلمين مضرة بهم فإن إرهاق الحد في التأديب مضر بالتعليم سيما في أصـاغر الولد ، ومن كان مرباه بالعسف والقهر من

المتعلمين سطا به القهر وضيق على النفس في انبساطها وذهب بنشاطها [١] .

(رابعاً) : أرست التربية الاسلامية قواعد جلى لإعداد المعلم نفسه فدعته الى الشفقة على المتعلمين ، وان يجريهم مجرى بنيه ، وان يفيد الآخرين من غير ان يطلب على ذلك أجراً ، وألا يلقي على التلاميذ ما لا تحتمله عقولهم ، وان يبدأ بالأهم والاساسي والبدء بالقريب الملموس قبل البعيد المجهول ومراعاة الفروق العقلية والميول الفردية بين الاطفال .

ويجب على المعلم ان يتجنب كل ما يثير الشك في نفوس الضعفاء والاقتصار على العام المتداول المألوف .

وان يحرص المتصدي لعلم من العلوم ان لا يقبح في نفس المتعلم العلوم الاخرى وان يراعي التدريج في ترقية المتعلم من رتبة الى رتبة ، وان يكون المعلم عاملاً بعلمه فلا يكذب قوله فعله .

(خامساً) : حرصت التربية الاسلامية ان تدعو المتعلم ان لا يتكبر على العلم ولا يتآمر على المعلم بل يلقي اليه زمام أمره ويذعن لنصيحته ويتواضع لمصلحته مع الاصغاء والإدراك والاطلاع ، وعلى الطالب ان لا يدع فناً من العلوم المحمودة ولا نوعاً من أنواعه إلا نظر فيه ، ولما كان من غير الممكن الالمام بكل العلوم فالحزم ان يأخذ من كل شيء أحسنه ، وان لا يخوض في فن حتى يستوفي الفن الذي قبله، وان يحرص المتعلم على شرف الثمرة ووثاقة الدليل وليعلم ان أشرف العلوم هو العلم بالله عز وجل وملائكته وكتبه ورسله ، وان يكون قصد المتعلم تحلية باطنه وتجميله بالفضيلة .

ومن يراجع آراء رجال التربية الغربيين (فروبل وهربرت سبنسر وجان جاك روسو) وغيرهم يجد ان الاصول الاولى للتعليم في الغرب كانت مستمدة من هذه القواعد .

---

(١) هذه مجموعة من آراء ابن خلدون والغزالي وابن سينا .

وقد أشارت الدكتورة علية الكبارة في رسالتها عن التربية والتعليم الى المصادر التي أخذمنها هؤلاء المربون الاجانب نظرياتهم التربوية والتعليمية وردتها تفصيلاً الى ابن عبدون وابن خلدون والعبدري والغزالي شيخ المربين .

أما مناهج التربية والتعليم المعاصرة فإنها قد اختلفت عن ذلك كثيراً ، ووقعت في الاحتواء التلمودي الصهيوني بعد سيطرة مفاهيم الثورة الفرنسية التي عمدت أساساً الى هدم جانبين اساسيين في التربية الغربية هما : الدين والاخلاق .

( ٣ )

إذا كانت التربية تستهدف تكوين شخصية الفرد ، فإن التعليم يستهدف تكوين شخصية الامة ، فهل استطاع التعليم الوطني في العالم الاسلامي خلال هذه الاجيال الاخيرة ان يحقق هذا الهدف وان يخرج الجماعة الفاهمة لدورها ورسالتها ، القادرة على حمـــل هذه الرسالة في العالمين ، المستطيعة ان تحمي نفسها من غـارات المعتدين وغزوات الآخرين ؟ ذلك مـا تجيب عنه وقائع التاريخ بالنفي البات ، وهـذا ما قصدت اليه القوى الاستعمارية ، وما حققته حـين أخرجت المسلمين والعرب من إطـار نظامهم التربوي والتعليمي الذي خرج اولئك الأعلام النوابغ في مجالات الحرب والسلم والحكم والعلم والفكر مما تزدهي بأسمائهم واعمالهم صفحات التاريخ .

لقد أخرجت الأمة كلها من إطارها وهدفها لتكون باحثة عن القوت ، متصارعة على الدرجة ، متطلعة الى المطامع القليلة .

وإن نظرة على الشباب المسلم في آخر مراحله التعليمية في الجامعة ليكشف عن ان مراحـل التعليم كلها عجزت عن ان تقدم له هـدف بناء نفسه أو هدف بنـاء أمته ، وأنهـا شغلته بمعلومات ومناهج من شأنها ان تجعله شاكاً متردداً ، حالماً ، مضطرباً ، ممزقاً ، فلا أجابت هـذه المناهج عن حاجاته النفسية ولا هي قدمت اليه هدف أمته الحقيقي في الحياة .

وأخطر ما قدمته هـذه المناهج أنها جعلت دراسة العلوم الطبيعية بديلاً لمفاهيم دينه فمزقت الوحدة بين قلبه وعقله، ذلك أنها قدمت له تلك النظريات والفروض المتغيرة التي لم تثبت على أنهـا حقائق ، فإذا به يقارنها بما جاء في مفاهيم الاسلام ، فلا يعرف كيف يلائم بينها . ولمـا كان أساتذته الطبيعيون هم القدوة فقد قبل وجهة نظرهم ، وغفل عن مصدر قوانين الطبيعة الاول ، الخالق الذي هو الحقيقة الاساسية في علوم الطبيعة نفسها ، فجرى وراء الفهم بأن الطبيعة تعمل تلقائياً وان العالم وجد صدفة وان المادة خالدة وغير هذه من الفروض التي لم تثبت والتي تحاول المدرسة أو الجامعة ان تقدمها اليه على أنها حقائق العلم .

ومن هذا المنطلق ركز المنهج العلماني في التعليم على إنكار مقومات التوحيد وأصول العقائد التي إن درست في مادة الدين فهي تدرس على نحو لا يملأ بها النفس ولا يحل الإشكال بينها وبين ما تقدمه علوم الطبيعة .

كذلك ففي دراسات الفلسفة وعلم النفس والعلوم الاجتماعية يحس الطالب المسلم ان هناك قوانين تحكم المجتمعات والامم مخالفة لتلك القوانين التي رسمها القرآن فهي معارضة حقيقية لكل ما جاء به الاسلام .

فإذا اتصل الامر بعلوم القانون والاقتصاد والسياسة وجد الطالب المسلم مناهج معارضة تماماً لمفاهيم الاسلام تدرس على أنها هي نظم المجتمعات .

وهكذا أقام المنهج العلماني (اللاديني) في التعليم نظاماً كاملاً شاملاً مضاداً لمفهوم الاسلام نفسه يستهدف إخراج الشباب المسلم من كل المقومات الاساسية لعقيدته وللنظـام الاسلامي نفسه الذي هو أولى النظم بالدراسة والتطبيق في بيئات العالم الاسلامي ومجتمعاته .

ومن هنا تتشكل لدى الطالب المسلم نظرة مادية خالصة للكون والحياة، وتنبني بينـه وبين الفكر الاسلامي حواجز صفيقة ، فلا يعرف عن الاسلام

إلا أنه دين عبادة وصلاة ومسجد وأنه ليس له صلة ما بالحياة والمجتمعات، وليس له وجهة نظر واحدة في شؤون الاقتصاد أو القانون أو التربية.

ويعين على هذا ان دراسة الجغرافيا والتاريخ تقوم على الاقليمية البحتة، وعلى تعميق الفواصل بين الاقطار، وعلى إعلاء شأن التاريخ الاقليمي بما يتصل به من آثار فرعونية وإطارات إقليمية وكيانات خاصة، فإذا عرف شيئاً عن البلاد العربية فمعرفته بها أو علاقته بها لا تعدو ان تكون رابطة تاريخية أو جغرافية بحكم خطوط الطول والعرض والجوار أو تبعاً لوحدة البحر الابيض المتوسط.

وتغيب عنه تلك الرابطة العميقة الواسعة: رابطة الاسلام وامته ودولته الضخمة الواسعة التي كانت جامعة هذه الاقطار وهي وحدة فكر وعقيدة ولغة فإذا فكر في شؤون علاقات الامم لم يعد ان يفكر في إطار القوميات التي يدرسها على نمط القوميات الغربية وبمفاهيمها، قوميات تحاول ان تقوم على المصالح ولا ترتبط بالتاريخ أو العقيدة أو وحدة الفكر.

وفي مجال علوم النفس والاخلاق والاجتماع تسيطر النظرة الجبرية وطابع العلوم الحديثة في الاستسلام للواقع وتقبله ومجاراة روح العصر دون نظر الى مدى صلاحيتها للنفس الانسانية أو المجتمع الاسلامي، فيعجز المتعلم المسلم عن بناء التكوين النفسي والخلقي القادر على مواجهة اخطار التحلل والترف والإباحيات.

كذلك فإن هذه المناهج لا تفرق بين خواص الرجال وخواص النساء، فلا تقيم تعليماً منفصلاً للفتاة بحكم تكوينها النفسي والاجتماعي والبيولوجي، وبحكم مسؤولياتها ورسالتها وعملها، ولكنها تشترك مع الرجال في برنامج واحد فلا تعرف لها مهمة خاصة ولا هدفاً محدداً.

وبذلك تقصر مناهج المدرسة والجامعة الوطنيين عن بناء المسلم القادر على معرفة هدفه وغايته، فيعجز عن ان يعرف ان للاسلام وجهة نظر في

بختلف قضايا الاجتماع والاقتصاد والقانون والسياسة وعلوم النفس والاخلاق ، وان له منهجاً كاملاً مستقلاً مختلفاً عن هـذه الدراسات ، وهو أولى بأن يلم به لأنه يعيش في بيئة عربية إسلامية الأصلح لها ان تطبق ما يصلح لها وما يتصل بكيانها ومزاجها وذوقها وعقائدها .

كذلك فإن هذه العلوم المختلفة للاسلام فيها دور ، وقد أرسى جذورها وقواعدها وأقـــام المنهج العلمي التجريبي الذي تنبني عليه العلوم الحديثة ، ودوره في الفلك والطب وغيره بالغ الاهمية ، كل هذا لا يعرفه المتعلم المسلم فيظل مليئاً بإحساس الانتقاص لأمتـه والإكبار للغرب ، بيـنما لو اتيحت له الفرصة لعرف دور أمته في بنـــاء هذه العلوم وعرف وجهة نظر فكره الاسلامي في هذه النظريات التي يدرسها على أنها علوم ثابتة ومسلمات لا مراجعة فيها ، بينما هي تتغير كل يوم وبينما هي عرضة للخطأ والصواب وبينما يجد أهلها من نتائجها كثيراً من الاضطراب وهي من نتاجهم الخاص فكيف بها لتطبق في بيئة اخرى مختلفة تمام الاختلاف .

ومن شأن مناهج المدرسة الحديثة في البلاد الاسلامية أنها لا تبني شخصية المتعلم المسلم من حيث إيمانه بلغته ولا تاريخه ولا عقيدته ولا مقومات فكره، ولا تكشف له عن الدور العظيم الذي قامت به أمته وعقيدته في بناء الانسانية نفسها خلال الف عـام تقريباً ، وتطلعه على ان المرحلة التي يمر بها الآن هي مرحلة تخلف ، وان التخلف إنما جاء من الغفلة والانفصال عن القيم الاساسية التي دفعت الأولين بقوة .

ولذلك نجد في المدرسة الوطنية إهمالاً للغة وغلبة للعامية ، ونجد استعلاء للغـة الاجنبية ، وفي الجامعات تدرس العلوم باللغات الاجنبية ليظل الشباب على إحساس دائم بالتبعية والولاء والعبودية للغات التي يتعلم بهـا بينما أصبح ميسوراً الى حد بعيد ان تنقل العلوم كلها في وعاء اللغة العربية وان تدرس بها.

(٤)

كانت ازدواجية التعليم من اخطار التحديات التي حرص النفوذ الاستعماري على بقائها وتعميقها، وذلك حتى يقع المجتمع الاسلامي في هوة الصراع الدائم. ذلك ان التعليم الذي عرفه العالم الاسلامي قبل الاحتلال كان تعليماً جامعاً، وكان طابعه عقائدياً، ولكنه لم يكن دينياً بالمعنى الذي يحاولون ان يصفوه به تشويهاً واحتقاراً، فقد عرف الازهر في السنوات الماضية علوم الفلك والطبيعة والرياضيات ولم يتوقف عنها إلا في سنوات قليلة، وكان مفهوم العلم عند المسلمين في مختلف كتاباتهم هو العلم الجامع لعلم الدنيا والآخرة. غير ان النفوذ الاستعماري كان يرى مدى الخطر في هذا النوع من التعليم فوصفه بالجمود رغبة في إقامة رأس جسر للتعليم الاجنبي والمدني المستمد من المدرسة الغربية في مناهجها وفي علومها ايضاً، ومن خلال هذا العمل أتيح له ان يوسع قاعدته وان ينشيء اجيالاً تبناها وحماها ووكل اليها العمل والقيادات وحجب اجيال التعليم الاسلامي القديم وعزلهم عزلاً تاماً ولم يسمح لهم بالاندماج إلا بعد ان أصبحت له الاغلبية المطلقة وبعد ان اهتز التعليم الاسلامي وانتقص من اطرافه وتمزق على قاعدة التخصص التي هي بمثابة التجزئة، وكانت هذه اول هزيمة له وأكبر نصر لأصحاب المناهج الوافدة، حيث استطاعوا ان يخضعوا المنهج الاسلامي الجامع المتكامل الى اسلوب التخصص دون ان يكون ذلك على قاعدة الاستيعاب الواسعة التي تضع الجزء في مكانه من الدائرة

الكلية فلا يتجاوزها ولا يقصر دونها .

وسيطر التغريب حتى جـاء الوقت الذي دعا فيه خصوم الاسلام الى ان يلغى التعليم الاســـلامي في السنوات الاساسية ويصبح دراسة تخصص في السنوات العليا .

وقد سقطت هذه الدعوة وعجزت عن ان تحقق وجودها، وبقيت الثنائية وظل الازدواج قائماً مستمراً ، على اساس وجود نظامين تعليميين مختلفين في في الغاية والمنهج والتقاليد والظروف بينما تحتاج أمتنا الى منهج أصيل مستمد من اللغة العربية والاسلام مساير للعصر ملتق به يحول دون انقسام القوم على أنفسهم أمام عدوهم ، ذلك ان إيجاد وحدة الشعور ووحدة العقلية هو اساس وحدة الامة والمقدمة الحقيقية لبناء هذا الكيان العربي الاسلامي قوياً شامخاً.

ولقد ثبت ان الثنائية قـد حالت دون وحدة الامة ، وأصبحت خطراً على وحدة الفكر وإن السبيل الوحيد لهذا هو ان يقوم اساس التعليم إسلامياً اصيلاً ثم يستمد ما يحتاج اليه من الانظمة المختلفة دون الخضوع لها وان يكون ما يقتبس منها بمثابة ( مواد خـام ) يؤخذ منها ما يلزم دون ان تفرض أي تبعية أو تحول دون فقدان الروح الاصيل .

ومن غير الانطلاق من مقدمة القرآن نفسه كأساس للتربية والتعليم فإن كل محاولة باطلة وكل جهد ضائع بمحاولات الترقيع والحذف والإضافة .

لا بد ان يقوم الاساس على الايمان بالله والنبوة وللقرآن منزلاً من عند الله ودستوراً للحياة والمجتمع ومنهجاً كاملاً للميتافيزيقا وللغيب ولعالم الشهادة ، وان يكون القرآن أساس جميع العلوم ومصدرها ليس بأنـــه يحمل مادتها المتطورة بل على اساس انـه المنهج الذي يرسم الحركة والإطار الذي تجري الحركة داخله لا تجاوزه .

وان ننطلق على أساس ان نأخذ العلوم الطبيعية والرياضية والتكنولوجيا

أخذاً مباشراً بأن ننقل مادتها الى اللغة العربية، أما في نظام العيش ومقاييس الاخلاق والنفس والاجتماع فلا نلتمس إلا مفاهيمنا الاساسية . أما في شؤون القانون والاقتصاد والسياسة فتجري المقارنة الواسعة بين منهج المسلمين ومنهج الغربيين ليكشف للدارس المسلم حقائق الامور على ان يكون منهج الاسلام ونظامه شيئاً قائماً بذاته منفصلاً تماماً عن التاريخ الذي هو محاولة نجحت في مراحل ولم تنجح في اخرى ، وهي ليست محسوبة على اصول الاسلام وإنما محسوبة على الحاكمين الذين عملوا بالاسلام أو تجاوزوه.

لتعقد مناهج التعليم العربية الاسلامية المقارنات بين العلوم الانسانية والاجتماعية الغربية وما وصلت اليه وبين العلوم الاسلامية في هذا المجال لنكشف للبشرية مدى أصالة الاسلام في مواجهة الانسان والحياة والمجتمع .

أما في العلوم التجريبية فعلينا ان نبين دورنا في إعداد هذه المناهج والمرحلة الضخمة للتي قطعها المسلمون في الطريق الى الطب والفلك والكيمياء والبحث العلمي ثم نتابع الدراسة بروح الاسلام التي هي روح الأخوة الانسانية التي تجعل العلم رحمانياً لا عدوانياً وتجعله للبشرية كلها وليس حكراً لقلة من أصحاب النفوذ والثروات .

(٥)

كشف الدكتور محمد البهي خطر سيطرة مناهج الغرب التربوية في مقدمها: سبنسر البريطاني وديوي الامريكي فأشار الى مدرسة المعلمين العليا التي انشأتها بريطانيا والتي دربت فيها جيـــل القادة التربوية في مصر وقال : لقد خلت برامجها من الثقافة الوطنيـة وهي الثقافة الاسلامية العربية وإن أخذ التاريخ الاسلامي في صورة متواضعة مكاناً متواضعاً فيها ، ولكنه على كل حـال لا يمثل الثقافة الاسلامية في كمها ولا في نوعها . ومع تعدد اقسام التعليم فيها ، كان هناك قدر مشترك ضروري بين هـــذه الاقسام هو علم «التربية» وورد الاستعمار البريطاني لفن التربية في هذه المدرسة العليا كتب سبنسر الانجليزي، ثم بالإضافة اليها كتب ديوي الامريكي وكلاهما من دعـاة مذهب ( الواقعية ) في التعليم أو بعبارة اخرى من دعاة إنكار الدين (أي المسيحي) ومن دعاة إبعاده عن مناهج التعليم .

وتعلم الطلبة في مدرسة المعلمين العليا في القاهرة حجج سبنسر وديوي ضد الدين ، ومقصود سبنسر وديوي من الدين ( وهو المسيحية ) وعلى الأخص الكثلكة .

ولكن المتخرجين من هذه المدرسة طبقوا هذه الحجج أو نقلوها الى مجال الدين الاسلامي، إذ اعتقدوا ان ما يوجه الى أي دين يصح ان يوجه الى دين

آخر وبالأخص وهم خلو منذ نشأتهم التعليمية الاولى في مدارس التقدم المدني — وهي المدارس الحكومية — من أية صورة عن الاسلام كدين وثقافة ، إذ ذاك وهي حياة تبعد كثيراً أو قليلاً عن ان تمثل الاسلام تمثيلاً صحيحاً .

وكان هؤلاء المتخرجون معلمين ثم أصبحوا بعد ذلك ذوي إشراف فني تربوي في وزارة المعارف المصرية وصحبتهم في حالتهم الاولى كما رافقتهم في حالهم وهم مشرفون على التربية والتوجيه في وزارة المعارف صورة إبعاد الدين عن مجال التربية .

وترددت في نفوسهم نفس العوامل التي أثارها (سبنسر) و ( ديوي ) ضد المسيحية وعلى الاخص : ان معرفتها وتعاليمها ضرب من خيال الانسان يقع تحت الظروف السيئة في الحياة وهي لذلك أولى ان تكون خرافة من ان تمثل الواقع ويشترك معها في الضعف وعدم تمثيل الواقع ما يسمى بفلسفة المثل والقيم الاخلاقية ، وزاملت هذه العوامل في نفوسهم خفة وزن رجال الدين كما زاملتها في نفسي سبنسر وديوي ولكن رجال الدين هنا في مصر ليسوا قساوسة إنجلترا وأمريكا ، وإنما هم علماء الأزهر ، لأنهم حملة الثقافة الدينية الاسلامية . وألحقوا بعلماء الأزهر في الاستخفاف بقيمتهم أبناء دار العلوم لأنهم أزهريو النشأة ، ولأنهم لا يخرجون عن كونهم حملة الثقافة الوطنية الاسلامية والعربية .

واختفى الاحتلال البريطاني رسمياً في سنة ١٩٢٢ وظهر الاتجاه التقليدي لفكرتي سبنسر وديوي في التربية المصرية منذ عام ١٩٢٥ أي منذ حاولت وزارة المعارف ان تستقل عن المشورة البريطانية في التعليم والتربية . ولكن هذا الاتجاه التقليدي تبلور تبلوراً واضحاً عندما انشأت وزارة المعارف المصرية معهد « التربية العالي » وتزعم التوجيه التربوي فيه الاستاذ إسماعيل القباني ، وعرف القباني وتلاميذه المدرسون تحت زعامته في معهد التربية العالي بأصحاب المدرسة ( الديوية ) وازداد تشبثهم بديوي بعد انتهاء الحرب

العالمية الثانية وبعد ان دخلت أمريكا كمساهم في السياسة العالمية الدولية واحتلت ثقافتها في الشرق مكاناً مرموقاً بما تقدمت به الى بلاد هذا الشرق بما سمته (مساعدات فنية) واقتصادية وتبادل ثقافي بين الطلاب والعلماء .

وعن طريق المساعدات الفنية الأمريكية والتوسع في تبادل الزائرين من العلماء المصريين، نمت عظمة ديوي في نفوس أتباعه من موجهي التربية في مصر وأخذ بها مكان القداسة .

وتولى القباني وزارة التربية فنقل نظم مراحل التعليم المختلفة في أمريكا الى التعليم المصري ، وحرص هو ومعاونوه من أتباع مدرسة ديوي في مصر ان تتحقق أفكار ديوي في التعليم ، كما حرصوا على إبعاد أبناء الأزهر والاستخفاف بأبناء دار العلوم وعلى التخلص منهم ومن إشرافهم ؛ والسبب أنهم حملة الاسلام ولغته [١] » ا.هـ .

ثم كانت بعد ذلك خطة التعليم الخطيرة التي حاولت القضاء على اللغة العربية العظمى وهي طريقة ( شرشر ) التي استقدمها أتباع ديوي في مصر والتي كانت بعيدة المدى في خلخلة نظام تعليم اللغة العربية .

---

(١) مستوى الكفاية الفنية للتعليم في مصر : الدكتور محمد البهي .

(٦)

كانت كليـــة الآداب من أخطر كليات الجامعة أثراً في دعم المنهج الغربي الوافد في التعليم ، ذلك ان هذه الكلية بفروعها ( فلسفة واجتماع وعلم نفس ولغة ) «هي التي تختص بدراسة شخصية الأمة في تاريخها وفلسفتها وحضارتها وطبيعة إقليمها وآثارها وأدبهـــا القديم والحديث وما تلتقي فيه من روافد حضارية شرقية وغربية قديمـة ومحدثة » ولذلك فإن سيطرة مناهج التغريب عليها كان بعيد الأثر في تكوين الاجيـــال التي نشأت وهي تنظر الى مصر والعرب والعربية والاسلام والقرآن نظرة استخفاف بينما تعلو في نفسها أمجاد الغرب وفلسفاته وحضارته .

ولقد دعا كثيرون الى إطلاق الجامعة لدراسات الغرب دون أي قيـــد يربطها بالأمة أو عقائدها أو قيمها وعمل في سبيل ذلك كثيرون في مقدمتهم لطفي السيد وطه حسين وأحمد أمين وأمين الخولي وغيرهم .

وقد واجهت حركة اليقظة الاسلامية هذا التيار وحـددت مهمة الجامعة فقالت :

« إن الجامعـة المصرية وكل جامعات الدنيا مطالبة في البيئة التي نشأت فيها بأمرين اثنين : أولهما ان يتنزه القائمون بها عن كل موجدة نحو دين البلاد ومقدساتها وحقوقها فلا يتخذوا من البحث العلمي وحرية الرأي وسائل لتوهين

رابطة النشء المثقف ، بدينه وقوميته ومقدساته ، لا سيما إذا كان دينهم صديقاً للعلم وداعياً الى الحق وآخذاً بيد المعرفة ينشطها ويرفع مقامها .

وفي مصر أناس نعرفهم بأعيانهم ويعرف أتباعهم بسيماهم لا يفتأون يعملون على توهين رابطة النشء بالدين ، وتهوين أمره عليهم وتشكيكهم فيه وتنفيرهم منه ، وما فتئوا يحاولون إقناعهم بأن الحقائق تخالفه وانه وقف حجر عثرة في طريقها . والواقع انهم لم يتحرروا من مؤثرات بيئتهم إلا ليتدثروا بمؤثرات اجنبية عنهم ، ولم تتحرر افكارهم من قيود التقاليد الاسلامية إلا ليصفدوها بأغلال تقاليد اخرى غريبة عنهم ، فسدنة هيكل الجامعة يجب ان يحرصوا على ان يعرفوا في أمتهم بأنهم مجردون من الضغن لمقدساتها ويجب ان يتنزهوا عن ان تحفظ عنها كلمة أو حركة تدل على ان لهم هوى يميل بهم الى جهة معينة ويصبغهم بلون يعرفون به ، أما الذي يقنع أمته بأنه منغمس في هذا الهوى الى أذنيه ، مصطبغ باللون الخاص الذي يجافي به الإنصاف والاعتدال ولا يغسل وجهه عنه ، فليعذر الناس إن اعتبروه من أعداء الحقيقة لا من سدنتها وانصارها .

(ثانياً) الأمر الذي تطالب به الجامعة هو ان تقوم بمهمة البعث لعناصر هذه البيئة ، وان تجدد حياتها المعنوية ، فالجامعات الايطالية اليوم تنحو بالفعل نحو إحياء مجد الرومانيين وإقناع الطلبة الجامعيين بأن من واجبهم إكمال سلسلة التاريخ التي ابتدأها قياصرة روما ، كذلك فإن الجامعات الألمانية تعلم ان لها وظيفة روحية لا تتنافى وطبيعتها نحو حقائق العلم .

إن لمصر مكانة في المجتمع الاسلامي والأمة العربية ومن شأن ذلك ان يكون الجيل القائم الآن في مصر والأجيال التي ستخلفه حلقات في سلسلة التاريخ الاسلامي ، وهي لا تكون كذلك عن جدارة واستحقاق إلا إذا اعترفت الجامعة المصرية بأنها الهيكل العلمي والثقافي في بلاد عربية إسلامية .

وإن من واجبها للاسلام الذي هو دين المصريين والعربية التي هي لغة المصريين ان تحمل لون محاسنها وأمجادها كما تحمل لواء العلم المجرد والعقل الحر والفكر المطلق ، وإن هـذا لا يتنافى مع هذا ، ومن زعم أنه ينافيه فهو غشاش .

كما ان الاسلام لا يقف في طريق العلم في مصر ولا في غير مصر فيجب على هيكل العلم في مصر ان لا يقف في طريق الاسلام ، نريد نشئاً مثقفاً عالماً ولكنا نريد نشئاً مسلماً عربياً .

وكلما ابطأ القائمون على أمر الجامعة في هذه الحقيقة تأخروا عن ان تأخذ مكانها الذي تستحقه ، وكانوا بذلك مسيئين الى وطنهم [1] » ا.هـ .

ولقد تداولت الابحـاث المتعددة تلك الاخطار التي واجهتها الجامعة في العالم الاسلامي كله ، ومن كليـة الآداب أصدر طه حسين مفاهيمه التي جعلها اساساً للبحث الادبي وهي مضادة لحقائق القرآن وأصول الاسلام وقد سيطرت مناهج المستشرقين على مفاهيم الأدب والفلسفة والاجتماع والأخـلاق والنفس منـذ اليوم الاول ، ولم تتناول الدراسة إلا مذاهب فرويد ودوركايم وليفي بريل وريتان الذي أقامت له كليـة الآداب احتفالاً مهيباً عام ١٩٢٧ بمناسبة مرور مائة سنة على ولادته القى فيـه الشيخ مصطفى عبد الرازق محاضرة طويلة ردد فيها ما أورده رينان من تحقير للعرب وانتقاص للمسلمين .

ولا ريب عندما بدأت الجامعة المصرية كانت الآمال معلقة بها ، وقد رأى القائمون بها من الوطنيين خروجاً عن ذلك القيد الذي وضعه ( كرومر ) في عنق التعليم المصري بسياسة الكتاتيب ، ولكن هـل استطاع الغيورون والمؤمنون بهذا

---

(١) مجلة الفتح : محب الدين الخطيب مجلد ١٩٣٧ .

الوطن ان يمحوا هذه النبتة ، لقد واجه كثير من الباحثين هذا التحول الخطير فقال صاحب فتى العرب الدمشقية عام ١٩٣٠ :

« أنشئت الجامعة فتهلل القوم في جميع انحاء الشرق العربي وتفاءلوا منها خيراً وباتوا يعلقون عليها الآمال الطوال والأماني الكثيرة وما هي إلا عشية أو ضحاها حتى حصحص الحـــق ووضح الصبح لذي عينين فتبين لهم أو كاد ان تلك الجامعـة تبث الآراء الشاذة التي يريدها الاستعمار الاوربي في الشرق وأنها إنما اتخذت آلة هدامة للكيان العربي عن طريق الأدب والعلوم. وها نحن نرى الجامعة المصرية أو بعض القائمين بأمر الجامعة يعلنون الحرب على العرب والعربية ، فقد اتضح لأبناء الأقطار العربية بعد الإشكال السبب الذي دعيت به الجامعة المصرية ولم تدع الجامعة العربية في مصر وشارتها الفرعونية ، وكل هذا يقوم على الدعاية على ان مصر فرعونية بحتـة وان الآداب العربية واللغة العربية دخيلة بل محتلة بقوة الفتح، والدين في الآداب المصرية واللغة الفرعونية، وإن السياسة (الجريدة) قد اتخذت ثكنة حربية يرابط فيها مجاهدو القومية الفرعونية بقيـادة أشخاص لا يستطيعون ان يبرهنوا على ان مصريتهم ترتفع الى اكثر من خمسة أجداد أو عشرة » .

وفي هـذه الفترة كان هناك صراع شديد على من يحل محل الأزهر : هل الجامعة المصرية أم الجامعة الامريكية في القاهرة ، وفي هـــذا تقول جريدة السياسة في ٢٦ فبراير ١٩٢٧ ( إن الجامعة المصرية أرادت أم لم ترد ، رضي القائمون بالأمر فيها وفي الدولة المصرية أم لم يرضوا ، صائرة لا محالة الى حيث تحل من ناحية النفوذ خارج الحدود المصرية محل الجامع الأزهر ونفوذه الكبير في تلك العصور التي مضت ) .

وقد علق على هـذا السيد محب الدين الخطيب فقال إن الأزهر للاسلام والجامعة للثقافة الجديدة التي تقوم على إنكار الدين أو على تجريدها من الدين

أو الى عدم الحاجة اليه، فالتقابل بين الازهر والجامعة تقابل بين الشيء وضده.

ولقد أحس طلاب الجامعة في فترة ما بأن دراستهم لا تعطيهم ما يطمحون اليه من فكر ومن إجابة لقضايا النفس والحياة فطالبوا ان تجدد مناهج الجامعة وان يكون الاسلام حضارياً وعقائدياً مادة اساسية في دراساتها، كذلك طالبوا بدراسة خاصة للبنات في كلية الآداب.

وقالت مذكرتهم (مارس ١٩٣٧) إن الفتاة المصرية في مسيس الحاجة الى تربية الروح، فهي في حاجة الى دراسة خاصة بها لأنه مهما يكن من الأمر فليس كل المواد التي تدرس في كلية الآداب تتفق ومستقبل الفتاة، دراسة تتفق وكونهن أمهات المستقبل، إن الاختلاط في صورته الحالية في جميع الكليات يتنافى والشرع الاسلامي، إن الدراسة الخاصة بالفتاة لخير تحديد لمصيرها وخير معين على حياتها المقبلة.

كذلك أشار الطلاب الى أسفهم « ان تنتهي مراحل التعليم في الجامعة وما يعلم الطالب فيها من أمر دينه شيئاً، بينما يعرف أرسطو وديكارت، وحيث يكون الدين في هذه المرحلة الوازع الاكبر للشباب ».

سجل الطلاب هذا وما زال مطلبهم قائماً الى اليوم.

وقد أشار الكثيرون الى الجامعات الغربية وكيف تلتصق بها معابد بينما لا يوجد في الجامعات الوطنية في العالم الاسلامي أي إشارة الى هذا المعنى.

ولقد كان حرص التغريبيين الى الدعوة الى حرية الفكر حتى يجدوا منها وسيلة الى تقديم كل سموم الفكر الغربي وفلسفاته المادية والملحدة والإباحية الى الطلاب دون رقيب وكذلك تقرير الكتب الشهيرة لأمثال برناردشو وغيره وفيها نقد للاسلام ورسوله، ولكن الدكتور طه شهد كيف وضعه الطلبة بين المطرقة والسندان وفرضوا عليه الاستقالة بعد ان كادوا يقتلونه،

وكانت الجامعـة بذلك قد عرفت كيف تتحرر من قيود التغريب ولكنها لم تلبث ان تراجعت .

والجامعة في الحقيقة ليست داعية أو مسخرة لإحـــدى مدارس الفكر الغربي سواء الليبرالي منه أو الماركسي . ولا يجوز ان تكون كذلك ، وإنما هي مسخرة لفكر أمتها اساساً تقف على قاعدته الاساسية وتدرس كل المذاهب والنظريات ، فتأخذ منها وترفض في استقلالية وأصالة .

## (٧)

لكي نكشف الى ايّ حـــد كان نظام التعليم الغربي بعيد الخطر في أفق المجتمع الاسلامي نقدم هذه المجموعة من الحقائق :

(اولاً): إن دراسة اللغة الاجنبية هي ولاء فكري إذا لم تدرس في إطار اللغة الاصيلة التي يجب ان تكون قد وضعت أمام اهلها بصورة خليقة بالتقدير. واللغة العربية الفصحى لغة قد شهد لها عشرات من الاجانب ، وتميزت بهـا لغة قوم ولغـــة فكر في آن ، وقد نزل بها القرآن فأضفى عليها طاقات من البقاء والامتداد ، ولكن ما تزال اللغات الاجنبية في موضع التفضيل .

يقول هاميون كبير: إن التغير الذي حدث في تكويننا الفكري والروحي نتيجة سيطرة اللغة الانجليزية كان تغييراً بعيد الأثر ، إننا ننظر الى العالم كله بمنظار إنجليزي ولا نتصل بالحيـاة الفكرية إلا عن طريق إنجلترا ولا نتذوق الآداب الاجنبية إلا كما يتذوقها الإنجليز بل إننـــا ننظر الى الآداب الشرقية بمنظار انجليزي » .

ومن هنـــا كانت تلك المحاولات المستمرة الى انتزاع الدراسة العربية من حضارة الدين والقرآن ، وذلك بمحاولة انتزاع حرمة اللغة العربيـة وعزلها تماماً ووصفها بأنها لغـة أمة من حقها ان تتصرف فيها ، وهو غير الحق تماماً

لأن العرب وحدهم أو اي قطر من اقطارهم لا يملك حق التصرف في اللغة العربية التي يحكيها سبعمائة مليون من المسلمين .

ومع ذلك تجري محاولات متعددة لانتقاص الفصحى بدراسة اللهجات والآداب الشعبية وتطبيق نتائج دراسات اللغات الاجنبية عليها .

ثانياً : حرصت المدرسة العصرية على إهمال العلوم العلمية والمعارف الكونية وصرف الأوقات وتضييع الجهد في فلسفات نظرية عقيمة وعلوم خيالية سقيمة ، وذلك لتفويت الفرصة على الاجيال من ان تعرف جذورها ، أو تعرف بديلا عنها علوم الغرب ، فهم لا يدرسون في التاريخ إلا الخلافات الدينية والمذهبية والخصومات التي وقعت بين الحكام والأمراء ، وذلك كله بعيد عن أصول دراسات التاريخ . وهم لا يدرسون إلا الفلسفات الاغريقية وصراع الايدلوجيات ولا يفرقون بين الفلسفة والعلوم بينما تفرق النظرة الاسلامية بين العلوم التجريبية والعلوم الانسانية وتجعل لكل منها منهجها الخاص ، وهي تقبل بمعطيات العلوم التجريبية وفق نظرة الاسلام الشاملة التي تؤمن بأن هناك حقيقة كبرى وراء كل القوى هي الحق تبارك وتعالى أساس التفسير الاصيل للحياة والكون والمجتمع وهي نظرة تقوم على الايمان بالله والنبوة والوحي والبعث والجزاء .

ذلك انه ليس من اليسير ان نفصل بين الاسلام وبين دراسات اللغة أو التاريخ أو العلوم، فالاسلام بوصفه الاساس للتربية والموجه للتعليم في مجال الدنيا اولاً يتطلب ان تكون روحه واضحة بارزة في كل هذه العلوم ولا بد ان تكون العلوم الطبيعية والتجريبية قائمة على حقيقة التوحيد الاسلامي ، وعلى أساس الايمان بأن الله هو الخالق والصانع ، وأنه واضع القوانين وصاحب النواميس التي تحكم قوى الكون والتي تحكم نظم المجتمعات ، وان كل مجتمع يخرج عن طبيعة هذه النواميس يهلك ويدمر ، وان الله سبحانه وتعالى هو الذي يمسك

هذا النظام كله ويديره بعد ان صنعه من العدم ، وأنه لا تخفى عليه ذرة من الذرات أو شيء من الاشياء فهو محيط بـــه وعليم ومدبر . ومن شأن العلوم الطبيعية كما هو من شأن العلوم الاجتماعية ان تثبت التوحيد وتؤكد إرادة الله العليا على البشرية جميعاً كوناً وطبيعة وإنساناً ومجتمعات .

ثالثاً : يرد المستشرق جب والمستشرق ولفرد كابتول سمث : الإباحيـة والإلحاد اللذين يسودان الشباب المسلم الى مناهج المدرسة العصرية، يقول جب : إن النشاط التعليمي والثقافي ( عن طريق المـدارس العصرية والصحافة ) قد ترك في المسلمين من غير وعي منهم أثراً جعلهم يبدون في مظهرهم العام لادينيين الى حد بعيد، ثم يعقب بقوله « وذلك خاصة هو اللب المثمر في كل ما تركت محاولات الغرب لحمل العالم الإسلامي على حضارته من آثار » .

ويقول : إن التجدد والتفرنج في الشرق إنما همـا خاضعان لمقياس نظام التعليم الغربي ومدى سيطرته وتغلغله في المجتمع الاسلامي الشرقي ، والسبيل الحقيقي للحكم على مدى «التغريب» أو الفرنجة هو ان نتبين الى أي حد يجري التعليم على الاسلوب الغربي وعلى التفكير الغربي .

والاساس الاول في كل ذلك هو ان يجري التعليم على الاسلوب الغربي وعلى المبادىء الغربية ، وهـــذا هو السبيل الوحيد ولا سبيل غيره . وقد رأينا المراحل التي مر بهـــا طبع التعليم بالطابع الغربي في العالم الاسلامي ومدى تأثيره على تفكير الزعماء المدنيين وقليل من الزعماء الدينيين .

أمـا كابتول سميث فيقول : إن أهم أسباب حركة الحرية والإباحية التي تسود العـــالم الإسلامي اليوم ومن اكبر عواملها نفوذ الغرب ، وقد حازت قصب السبق في هـــذا المضمار تلك المعاهد الثقافية التي قامت بتربية جيل بأكمله على النمط الغربي الحديث . وكان مما صدره الغرب الى العالم الاسلامي تلك الأفكار المتعددة الجديدة التي تقع من الأهمية والدقة بمكان ، والاتجاهات

العقلية الدقيقة والميول الحديثة التي كان في نشرها أوفر نصيب لنمط التعليم الغربي الحديث ، ويفوقهـــا في ذلك تأثير معاهد الغرب الحقوقية والسياسية والاجتماعية الجديدة ونفوذها الزائد .

ومنها ما يسلط اجيالاً ومـــا يحاول تسليطه ، وبينما قام بعض المسلمين لمقاومة هـذا التيار رحب به البعض الآخر ، ان بعضهم قد وقع تحت تأثير هذه التربية رسمياً وبعضهم قـد رحب بهذا التيار بدافع من أنفسهم ، وانتج ذلك ان كثيراً من المسلمين اعترفوا بهـــذه النظريات والمعاهد كحقيقة ثابتة وخضعوا لها بالتدريج وهكذا استمر عمل التغريب بسرعة وقوة بالغتين. ولقد صرف تيـار نظام التعليم الغربي الشباب الاسلامي في البلاد العربية والعجمية (الذين كانوا زبدة أمتهم وزهرة بلادهم) وغيّر عقليتهم الى حد ان عقولهم أصبحت لا تستطيع ان تسيغ الاسلام الصحيح وأصبحوا لا يندمجون في المجتمع الاسلامي : «ان سحر الافرنج أذاب الصخور وأسالها ماء » .

ومن هنا نعرف الى أي حد أضعف النظام الغربي في التعليم الروح المعنوية في الشباب المسلم وجنى على رجولته «فأصبح شباباً رخواً رقيقاً مائعاً لا يستطيع الجهاد ولا يحتمل المكروه» وكيف فتح له الطريق الى الأهواء في عالم الفكر والبحث والى الترف والإباحية في محيط الحياة ، وكيف يحمل الدارس المسلم للغرب في ذهنه صورة رائعة بينما يحمل صورة ساخرة لمجتمعه وأمته .

وفي الجانب الآخر من هـذه الصورة نرى الرجل الغربي المسلم : ليوبولد فايس«محمد اسد» يطلع المسلمين على الحقائق للتي أخفاها المزيفون من التغريبيين فيقول : إن التعليم الغربي يحمـــل روحاً مستقلة وضميراً منفرداً تتجلى فيه عقيدة مؤلفيه وعقلية واضعيه وهو نتيجة التقدم الطبيعي في آلاف السنين وتعبير أفكار أهل الغرب ومجموع اقدارهم وقيمهم[١]، فإذا طبق في بلاد إسلامية

(١) نقلاً عن العلامة ابو الحسن الندوي .

أو مجتمع إسلامي يحدث بـــه قبل كل شيء صراع عقلي ثم يتدرج الى تعزيز العقيدة والردة الفكرية والدينية .

ذلك «ان الاسلام والمدنية الغربية يقومان على فكرتين في الحياة متناقضتين تماماً ، لا يمكن ان تتفقا ، فإذا كان ذلك كذلك فكيف نستطيع ان نتوقع ان تظل تنشئة أحـداث المسلمين على أسس غربية ، تلك التنشئة القائمة في مجموعها على التجارب الثقافية الأوربية وعلى مقتضياتها خالصـــة من شوائب النفوذ المعادي للاسلام . إن التنشئة الغربية لأحداث المسلمين ستفضي حتماً الى زعزعة إرادتهم في ان يعتقدوا أو ان ينظروا الى أنفسهم على أنهم هم ممثلو الحضارة الإلهية الخاصة التي جاء بها الاسلام، وليس ثمة من ريب في ان العقيدة الدينية آخذة في الاضمحلال بسرعة بين المتنورين الذين نشأوا نشأة غربية ».

رابعاً : تستطيع التربية الاسلامية ومنهجها في التعليم ان تقدم للبشرية ذلك الطموح الذي طالمـــا تطلع اليه المصلحون والطوبيون ، وهو مساهمة البشرية جميعاً في بنـاء المجتمع الرشيد ، وذلك عن طريق اعتناق نظرتها الى الانسان ككل موحـد ، بعيداً عن محاولات تمزيقه بين الحيوانية والتأليه ، وبوصفه مستخلفاً في الارض ، له إرادته الحرة وعليـــه مسؤوليته الكاملة، وامامه الضوء الكاشف الذي جاء به الوحي ليملأ نفسه بالطمأنينة والسكينة والسلام ويفتح له آفـــاق العمل والسعي في الحياة الدنيا خالصة لله ولإقامة الإخاء البشري بين الناس جميعاً .

وصدق الدكتور الجمـــالي حين قال إن اسس الاسلام في التربية والتعليم يمكن ان تفتح الطريق لكل اساس صحيح وثابت لبناء تربوي قويم يقوم على:

(١) الايمان بالخالق .

(٢) العمل الصالح لخدمة الانسان والاسرة والأمة والانسانية .

(٣) التواصي بالحق: والسعي وراء الحقيقة وتحري العلم والمعرفة الصحيحة ونشرها بين الناس .

(٤) التواصي بالصبر : ويشمل العمـــل على ضبط النفس والتغلب على الشهوات والاندفاعات العنيفة الهوجاء ، فإن ضبط النفس يعد المفتاح لكل سلوك أخلاقي كريم وسورة «العصر» فيها تلخيص كل فلسفة تربوية صحيحة.

إن كلا من الايمـان والعمل الصالح والعلم والاخلاق يجب ان تسير معاً وبصورة موحدة منسجمة .

ويقول : ومن المؤسف ان التربية الغربية قد أظهرت ضعفها في هـــذه النواحي سواء في التطبيق في الغرب ذاته أو مما اقتبسه العالم الاسلامي من الغرب .

خامساً : إن نظريات الغرب سواء في العلوم أو الآداب أو التربيــة هي مجموعة من المحاولات والفروض التي تعرض على مجال البحث والتطبيق فتصدق أو تفشل، فعلى المسلمين ان ينظروا اليها كذلك ولا يرونها حقائق أو مسلمات وإنما هي « تجارب بشر يخطىء ويصيب ويمشي ويتعثر ، ولا نأخذها على أنها اشياء قد بلغت نها يتها، بل انها مواد خامة ونصنع منها ما نشاء وفق حالتنا وحاجتنا وتفرعها في قالبنا ونجردها مما اقترن بها من عوامل الإلحاد والإفساد والاستخفاف بالقيم الخلقية ثم نطبعها بطابع الايمان بالله والنظر العميق » [١].

ولعل من اخطر ما يواجه الجامعات الغربية ويحاولون نقله الى أفق التعليم الاسلامي ذلك الخلاف العميق بين الثقافتين : ثقافة العلم وثقافة الأدب . فإن العالم الغربي يعيش في صراع عميق بين جو العلم وجو الفلسفة وجو الفن وجو الأدب ويقولون : إن العلم الطبيعي والأدب قد شق الناس شقين فإذا اجتمع أحدهما بالآخر فكأنما اجتمع غريب من الناس بغريب وأهل العلم الطبيعي هم أهل الجفاف وأهل العلم الانساني هم أهل الطراوة .

---

(١) من نص للعلامة ابي الحسن الندوي .

ونحن في أفق التعليم الاسلامي لا نحس بهذه الظاهرة الخطيرة لأن مفهومنا للحياة جامع ومتكامل ولا يجعل بين العلم والأدب أي نوع من الصراع . أما في الغرب فكلاهما مخدوع ، العالم الذي يظن أنه عرف كل شيء ، وهو لم يعرف إلا تفسير ظواهر الاشياء ، والأديب الذي يجري في أودية الأهواء والرغبات النفسية الجائحة ، لماذا لا يلتقي طرفا الصراع في منهج التربية الاسلامي الذي يجعل من العلم والأدب طرفين متكاملين لا عدوين متعارضين.

سادساً : لا سبيل الى قيام نهضة عربية إسلامية في مجال العلم التجريبي إلا في إطار اللغة العربية ، وكل دعوة الى قبول العلم في لغات الغرب هو تعويق لهذه النهضة ومحاولة لحجب المسلمين عن اللحاق بركب العلوم والتكنولوجيا ، وكل ما يذاع عن اتهام اللغة العربية بالتقصير خطأ وادعاء . فإن تجربة تعليم العلوم باللغة العربية قد قامت فعلاً في اخطر المجالات وهي الطب وحققت نجاحاً كبيراً . فما زالت اللغة العربية قادرة كأقوى لغات العالم على الاشتقاق والتعريب والتصريف ، وإن تجربة دراسة الطب في جامعة دمشق أثبتت بالحجج الدامغة نجاح التجربة وأوردت ما يفحم المعارضين وما يوضح ان اللغة العربية قادرة على الاطلاع بأعباء التعليم الطبي والعلوم الاخرى [١] .

وقد سقطت تماماً الآن الحجة التي يتذرع بها خصوم العرب والمسلمين وهي مسألة المصطلحات العلمية والأسماء الجديدة فقد أوفى ما اعد منها على اكثر من خمسين الف مصطلح . ويحذرنا الأستاذ محمد أسد من خطر احتوائنا داخل بوتقة الفكر الغربي إذا ما أردنا نقل العلم التجريبي : « وإذا كان المسلمون قد أهملوا فيما مضى البحث العلمي فإنهم لا يستطيعون ان ينتظروا إصلاح هذا الخطأ اليوم عن طريق قبول للتعليم الغربي من غير وازع ما ، إن كل تأخرنا

---

(١) دكتور عزة مريدن : عميد كلية طب جامعة دمشق (العربي نوفمبر ١٩٧١) .

العلمي وكل فقرنا لا يوزنان بذلك التأثير المميت الذي سيحدثه تقليدنا الأعمى لنظام التعليم الغربي في قوى الاسلام الدينية الكامنة . وإذا أردنا ان نحفظ حقيقة الاسلام الدينية الكامنة على أنها عنصر ثقافي فيجب علينا ان نحترس من الجو الفكري للمدنية الغربية؛ ذلك الجو الذي أصبح على وشك ان يتغلب على مجتمعنا وعلى ميولنا، وبتقليد عادات الغرب وزيه في الحياة يصبح المسلمون تدريجياً مضطرين الى الأخذ بوجهة النظر الغربية » .

ومن هنا نفهم أننا لا بد ان ننقل العلوم الى اللغة العربية اولاً ونحركها في دائرة فكرنا .

سابعاً : إن كل محاولة لرتق الثوب الخلق بقطعة من هنا أو من هناك هي محاولة باطلة ، فلا بد من إعادة بناء منهج التربية والتعليم الاسلامي على اساس قرآني إسلامي أصيل ، وفق مفهوم الاسلام نفسه ، وبذلك وحده يمكن تحرير التعليم من آثار مختلف المذاهب الغربية المادية المتغايرة المتضاربة التي حملت على مدى العصور المختلفة والبيئات المتباينة فوضعت داخل إطار التعليم حتى لا يصل أصحابها إلا الى الاضطراب الفكري والازدواج التربوي والتمزق النفسي وحتى لا يستطيع الدارس المسلم ان يجد وجهاً لرؤية الحق أو الاهتداء الى الطريق .

فهناك العقلانية والمادية والماركسية والوجودية والفرويدية والبرجماتية والديوية ، كلها تتضارب وتتعاكس وتفسد كل شيء ، ويقف الاسلام منها في أصوله القليلة المنثورة هنا وهناك موقف الحيرة كأنه شيء غريب أو منبوذ .

والسبيل الاصيل هو ان يكون للعلوم التجريبية منهج وللعلوم الإنسانية منهج آخر وان لا يدرس الانسان في دائرة المادة أو دائرة الحيوان .

وللمسلمين قانون هو الشريعة الاسلامية وفيه نظام السياسة ونظام الاقتصاد ونظام الاجتماع ونظام الحقوق . ولهم وجهات نظر في كل أمور الحياة هي

الآن بعيدة تماما أو مستبعدة ، وكذلك فإن للمسلمين علماً للنفس والاخلاق ومفهوماً متكاملاً يختلف عما تقدمه مدرسة التحليل النفسي ومدرسة دوركايم ومدرسة العلوم الاجتماعية، ونظرة الاسلام للانسان وللحياة وللمجتمع مختلفة اساساً مع نظرة الغرب، فهي نظرة جامعة فيها الروح والمادة والعقل والقلب، بينما تنشطر النظرة الغربية نحو شطر واحد هو المادة، ونظرة الاسلام اخلاقية الجذور بينما تقوم النظرة الغربية على الحرية الأخلاقية ، ونظرة الاسلام تجمع بين الثوابت والمتغيرات بينما النظرة الغربية متغيرة مطلقة . كل هـذا له أثره البعيد في ضرورة بناء منهج التربية والتعليم من جديد .

ثامناً : نحن نجـد ان جميع الأمم تربط علومها بعقيدتها وتربط تعليمها بمذهبها وتجربة الدولة الشيوعية مثال يقدم في هـذا الصدد باعتبارها دولة عقائدية فهذه «روسيا لم تأخذ بمبدأ التعليم والتربية من حيث هو مبدأ إنساني عالمي وتراث بشري مشاع ، ومـاء صافٍ سائغ ولم تسمح باستيراد منهج من مناهج التعليم خارج المعسكر الشيوعي ولا بإدخال العلوم والآداب التي نشأت في حضـانة المربين البرجوازيين أو الأرستقراطيين والتي طعمت بأفكارهم ونزعاتهم وطرق تفكيرهم ويخاف منها إضعاف العقيدة الشيوعية أو التشكيك فيها. لقد اخضعت روسيا جميع العلوم والآداب النظرية فيها والتطبيقية حتى علوم الطبيعة والجغرافيا والتاريخ لمبادئها الشيوعية ولنظرات قادتها ومؤسسي دعوتها : ماركس وإنجلز ولينين ، وربطت بين هذه العلوم وبين اسس اولئك القـادة رباطاً وثيقاً مقدساً تغار عليه غيرة المؤمنين القدامى على عقائدهم وحرماتهم ، يقول جورفن العالم الطبيعي السوفييتي : « إن العلم الروسي ليس قسماً من اقسام العلم العـالمي ، إنه قسم منفصل قائم بذاته يختلف عن سائر الاقسام كل الاختلاف ، فإن سمة العلم السوفييتي الأساسية انه قائم على فلسفة واضحة متميزة ، إن التحقيقات العلمية لا تزال في حاجـة الى اساس وإن اساس علومنا الطبيعية هو «الفلسفة المادية» التي قدمها ماركس وإنجلز ولينين وستالين . إننا نريد ان نخوض وفي ايدينا هذه الفلسفة في معترك العلم

الطبيعي ونصارع جميع التصورات الأجنبية التي تناهض فلسفتنا المادية والماركسية بكل حزم وقوة » .

وبذلك استطاعت ان توفق بين العلوم التي احتاجت اليها والمبادىء التي آمنت بها وجعلت منها وحدة متناسقة ولم تترك فجوة بين الحياة التي تعيشها او تسعى اليهــا وبين المبادىء التي تؤمن بها وتدعو اليها في حماسة وبذلك سلمت من الاضطراب الفكري والقلق النفسي الذي يسود عالماً تتوزعه القوى المتناقضة ويسوده النفاق والتناقض »[١] .

وكذلك نجد في إسرائيل بعد الاتحاد السوفييتي نظرية التعليم من اجل دعم نظرية الحيـــاة لأمة ، فهي تتمسك بمبدأ تقديم الفكرة الدينية واللغة العبرية التي تعبر عنهـا رغم جميع الاتجاهات التقدمية ، ويرى المربون اليهود ان التقاليد الدينية اليهودية هي النبراس الذي تهتدي به نظم التعليم ويحتم على المعلمين ان يكونوا تقليديين، اي ان يحرصوا على التقاليد اليهودية الأصولية[٢].

---

١ و ٢ الاستاذ الندوي : نحو تربية إسلامية حرة .

# الفصل الثالث

## الثقافة الاسلامية

« الثقافة » هي الشطر الثالث من بناء الأجيال : فإذا كانت ( التربية ) لاعداد النفس والعقل الإنساني معاً للتلقي في إطـــار الدين والخلق والرسالة القائمة للأمة وللفرد معاً، وإذا كان(التعليم) هو بناء القدرات وتكوين الأطر، وتلاقي العناصر في الكل المتكامل فإن (الثقافة) هي الثمرة الناتجة التي تمثل جوهر الفكر وأصالة الأمة وروح الجماعة .

ولقد كان النفوذ الغربي حريصــاً على تغريب الثقافة لأنها هي الحصيلة الكبرى والنتاج الأعلى لكل معطيات التربيــة والتعليم ، ولذلك فقد ركز عليها تركيزاً خاصاً ، واستطاع ان يضربها من خلال إفساد مناهج التربية والتعليم وصولاً الى تمييعها وصهرها في بوتقته واحتوائها .

ولذلك فقدجرت المحاولة الى تزييف اجيال الثقافة بالقول بأنها نتاج عالمي لا يخضع لما تخضع له القيمالقومية والوطنية ، كما جرت المحاولة لربطها بالحضارة فنودي ان من يصطنع الحضارة الغربية لا بد ان يصنع الثقافة الغربية ، وكان ذلك من محاولات تذبيع الثقافة الإسلامية للغرب في محاولة للقضاء عليها .

ولا ريب ان ثقافة اي امـــة من الامم تعتمد اساساً على عقائدها وقيمها الاخلاقية والاجتماعية التي تكونت عليها وسارت بهـا وانها تقوم في الأساس على المثل العليا للأمـة ، وتنطبع بطابع ذاتيتها الخاصة . ولقد تلتقي الأمم في مجالات العلم التجريبي والمعارف العامة ولكنها تتباين تماماً في مجال الثقافة، فإن النظرة الاجتماعية والأخلاقية والتربوية في كل أمـــة تشكل على أساس وجدانها ومزاجها النفسي وذاتيتها المنبعثة من عقيدتها وقيمها .

وذلك هو أساس الخـلاف بين الثقافة الاسلامية وبين الثقافات المختلفة : شرقية أو غربية ، ولا ريب ان هناك عناصر مشتركة بين الثقافات هي العناصر الإنسانية العامـــة ولكن اخطر ما تحاذر منه الأمم ان تحتوى في ثقافتها بحجب طابعها العقائدي أو تزييفه ، وهذا ما حاولته حركة الغزو الفكري والتغريب التي واجهها العالم الاسلامي منذ ان بدأت المعركة بينه وبين الغرب .

والمحاولة الطارئة تريد ان تحجب الثقـافة الاسلامية عن طابعها العقائدي من ناحيـــة وان تعزلها عن تاريخها وقديمها وعن تراثها ، وذلك بتصور ان الثقافة الحديثة بدأت مع الحملة الفرنسية وان كل ما سبق ذلك يدخل في عداد الماضي ، فلا يؤذن له بالسيطرة أو التأثير على التكوين الجديد للثقافة أو الفكر أو الأدب .

وتلك نظرية مسمومة حـــاربتها حركة اليقظة الإسلامية بقوة وقاومتها مقاومة صامدة مريرة حتى كشفت زيفها .

ونحن نعرف أنه لا سبيل الى انتزاع أي أمـة تحت اي تقسيم سياسي ، على اساس الوطنية أو القوميـــة أو التجزئة أو الاقليمية عن ذلك الكيان الفكري والروحي والنفسي المتكامل الذي عرفه المسلمون جميعاً خلال اربعة عشر قرناً .

وإن هـذه التقسيمات التي فرضها الاستعمار لن تستطيع ان تغير الحقائق الثابتة أو تحطم القيم الأساسية، وإن المسلمين مهما قسمتهم الظروف السياسية الى أقطار ودول وكيانات فإنهم لا ينفكون مرتبطين برباط وحـــدة الفكر والثقافة التي تقوم في الأساس على القرآن وتستمد وجودها من كلمة التوحيد.

وقد ارتبطت الأمم بعقائدها وتراثها وتاريخهـا وماضيها ارتباطاً عجزت كل القوى عن الإدالة منه . أما المسلمون فقد قامت هذه الروابط بينهم خلال اربعة عشر قرناً فأصبحت هذه الأوطان «إسلامية التاريخ والسياسة والمجتمع والثقافة» الى ان جاءت نظم التربية الحديثة فأرادت ان تنزع عنها هذا اللون المميز لها عن جميع الثقافات الاخرى .

(٢)

واجهت الثقافة الاسلامية في ظل النفوذ الأجنبي محاولة احتوائها وفرض مفاهيم غريبة عليها بغية تدمير مقوماتها وكان ذلك جرياً مع المحاولات التي وجهت الى التربيـة والتعليم ، فكان ابرز الشبهات التي أثيرت مـا دعي بعالمية الثقافة ، وتفتح الثقافات والتقائها بل وامتزاجها .

وهي دعوى باطلة لم يثبت صدقها ، بل ثبت على العكس من ذلك تصميم الباحثين عن الثقافة في كل آفاق الفكر العـالمي على التمسك بذاتية الثقافة وارتباطها بالأمة وانتمائها العقائدي والتاريخي .

فالثقافة في إجمـاع الباحثين هي موقف فكري وعمل من تراث البشرية وهي تحقيق للقيم الثابتة في أمة معينة ، وهي نسيج وحده من النظم والأفكار والعقائد والأهداف والآمال والمثـل العليا . كذلك فإن لكل مجتمع ثقافته التي يتسم بها ولكل ثقافة مميزاتها وخصائصها التي تحدد شخصيتها ، بل لقد رأى البعض ان الثقافة ليست مجموعة من الأفكار ولكنها نظرية في السلوك . وان الحضارة والعـلم ينتقلان من امة الى امة لقابليتهما للانتشار ، أما الثقافة فتبقى خاصة بكل امة على حـدة وإن أثرت ثقافات الأمم بعضها في بعض قليلاً أو كثيراً ، وفي نظر سبنكلر ان الثقـافة هي القوة الروحية المخصصة الوجود في الأمة بالصورة الحسية بمعنى ان هذه القوة الروحية المتصلة بها آثار

النشأة الدينية والعلمية مزاج يختلف عن مزاج . بل إن (تايلور) وهو باحث غربي ايضاً يقرر ان الثقافة هي الكل المركب الذي يتضمن المعارف والعقائد والفنون والاخلاق والقوانين والعبادات وأي قدرات وخصال يلمسها الانسان نتيجة لوجوده كعضو في المجتمع .

كذلك فقد حاولت الشبهات ان تفصل الثقافة عن العقيدة ، بينما يؤكد الباحثون جميعاً بأن الثقافة تكاد تكون هي العقيدة نفسها . وان الرابطة بين الثقافة والدين هي رابطة جذرية بحيث لا يمكن لأي ثقافة من الثقافات ان تظهر أو تنمو إلا إذا كانت لها صلة بدين من الأديان . وقال اليوت : إن الثقافة مظهر من مظاهر الدين ، فإذا نظرنا الى علاقة الاسلام بالثقافة وجدنا الاسلام نظاماً اجتماعياً شاملاً يعد الدين جانباً من جوانبه فقد رسم لمعتنقيه اسلوب العيش وطريق الحياة. وليس من ريب في أهمية عنصر الدين في الثقافة الاسلامية من حيث إنه العامل المسيطر على حياة المجتمع كله حتى لقد أشار بعض الباحثين الغربيين بأنه من العسير على الغربي ان يفهم حياة الشرق الاجتماعية دون ان يفهم الاسلام وهو الدين الذي تدين به الجماعة ، ولعل من أكبر اخطاء الغربيين وقصور نظرتهم وبعدها عن الإنصاف هو النظر الى الاسلام على أنه دين عبادي لاهوتي .

وفي ضوء هذه المحاولة الخطيرة نحن في حاجة دائمة الى المحافظة على الخصائص والمقومات الجوهرية للثقافة الاسلامية مع القدرة على الحركة والأخذ والعطاء .

وليست الثقافة الاسلامية كما يظن البعض شرقية وليست غربية وليست مركباً للثقافتين الشرقية والغربية ، ولكنها ثقافة مستقلة استمدت وجودها من منهج القرآن الكريم ومفهوم الاسلام الذي قام على التوحيد الخالص ، في إطار اللغة العربية .

وهي ثقافة تنفرد وتتميز عن ثقافات الشرق والغرب بأنها تقوم على

التكامل الجامع بين القوى المختلفة : الروح والمادة ، العقل والوجدان ، الدنيا والآخرة وان توازن بين هذه القوى وتوائم بينها في اتساق عجيب يعجز عن فهمه اصحاب الثقافات الانشطارية .

وتتسم الثقافة الاسلامية بسمات تكاد تكون خصائص مميزة لها :

فهي توازن بين الروحي والمادي ، وتجعل أولية « الخلقي » على الجمالي وتقرر طابع الإنسانية والشعور بكرامة الانسان وتعمل على إقامة الأخوة الانسانية .

وهي تطبع حركتها بطابع الأخلاق ، وتقيم منهجها على أساس الالتزام الأخلاقي في السلوك والعاطفة ، وفي ضوابط الشهوات وفي الإيثار للغير .

وهي ترمي الى إقامة العدل ، وتتسم بالنظر العقلي، فيها البيان والوضوح بعيداً عن الغموض والرمز ، كما تتسم بالاتزان ، والإحاطة والشمول .

والثقافة الاسلامية هي ثقافة عربية من حيث الوعاء فبقدر ما دخل الإسلام من الفرس والترك والهنود فإن كل منجزات الثقافة كتبت باللغة العربية إلا القليل، فقد جرى التفكير في دائرة الاسلام وإطاره ، وكانت اللغة العربية : لغة القرآن هي أداته ، كتب بها الفارابي التركي وابن سينا الفارسي وابن الرومي .

فهي ثقافة إسلامية المضمون عربية اللسان ، شاركت في نشأتها شعوب مختلفة الأجناس انطبع فكرها بروح الاسلام التي استعلت على العنصريات والدماء والألوان ولأن الثقافة الإسلامية قامت على التوحيد فقد تحررت تماماً من الخرافات والوثنيات والأساطير والعصبيات .

وكان لها موقفها الواضح الصريح إزاء الثقافات الشرقية والغربية التي واجهتها ، فهي لم تنصهر في هذه الثقافات ولم تصهر هذه الثقافات في بوتقتها، بل أخذت منها ما يتفق مع روحها وطابعها ثم صهرت ما أخذت ونفت عنها كل ما عارض مقوماتها الأصيلة .

وقــد رفضت الثقافة الاسلامية منطق اليونان وأقامت منطق القرآن كما تجاوزت منهج النظر العقلي الى منهج التجريب العملي وفتحت الطريق أمـام التقدم العلمي في مجـال الطب والفلك والعلوم الطبيعية والرياضية ، فقد بدأ المفهوم العلمي عنـد المسلمين مستمداً من القرآن الكريم اساساً ومن دعوته الصريحة الى النظر في الكون والاهتمام بالعلم وآية ذلك ان كلمة علم وردت في القرآن (٨٥٠ مرة) وان أول أمر استخدم في القرآن هو كلمة « اقرأ » وان أول أداة ذكرت في القرآن هي (العلم) والاسلام هو الذي أمر معتنقيه باتباع المنهج العـلمي والقرآن هو الذي أطلعهم على ان للكون سنناً وقوانين ليس فقط في مجال الطبيعة بل وفي مجال المجتمعات والحضارات .

وقد تبين للباحثين المصنفين خطأ الرأي الذي حمل لواءه (أرنست رينان) والذي ساد بين دعاة التغريب سنوات طويلة وتابعه كثير من المتعصبين واعداء الاسلام وهو القائل بأن الفلسفة الاسلامية هي فلسفة يونانية مكتوبة بحروف عربية وتأكد ان للاسلام منطلقاً الى فلسفته هو ما قدمه الامام الشافعي في علم أصول الفقه وثبت أنه لا منطق أرسطو ولا الفلسفة الهلينية أو الفارسية أو الهنـدية قد خلقت أو حولت الفكر الاسلامي والثقافة الاسلاميـة عن مسارها القرآني ، وإنما بقي الفكر الاسلامي والثقافة الاسلامية ثمرة أصيلة للتوحيد الاسلامي وأنه قد تجاوز الفكر اليوناني الى إنشاء المذهب التجريبي الذي هو نتاج إسلامي خالص بشهادة مختلف علماء الغرب المنصفين .

( ٣ )

إن اخطر قضايا الثقافة الاسلامية هو قضية الازدواجية :

وقد ناقش العلامة الاستاذ محمد المبارك هذه القضية في بحث ضاف أشار فيه الى ان الثقافة التي تكون الجيل المسلم في البلاد الاسلامية في العصر الحاضر مزدوجة المصدر ومؤدية بالنتيجة الى عقليتين مختلفتين .

فهناك ثقافة تلقن في المدارس التي أنشأتها الحكومات في البلاد الاسلامية على نمط المدارس المنشأة في البلاد الأوربية من ابتدائية وثانوية وعالية ، وهذه الثقافة بشكلها الحاضر وجميع ملابساتها أخذت واقتبست من الثقافة الاجنبية وهي محتوية على مواد علمية خالصة : كالرياضيات والطبيعيات بفروعها المختلفة وعلى أفكار وعقائد ومفاهيم مأخوذة من العقائد والمفاهيم السائدة في أوربا أكانت مادية إلحادية أم دينية وعلى أساليب للتعلم وطرائق للبحث وهي نتيجة لتجارب طويلة واختبارات متوالية ، وقد ألصق احيانا بهذه الثقافة رقعة متميزة عنها هي ( مادة الدين ) وفيها يعلم الاسلام وأحكامه وعقائده وهي مادة في كثير من البلاد الاسلامية تختلف في طريقة عرضها وتعليمها وفي مفاهيمها ومنطلقها اختلافا كبيراً عن بقية المواد الثقافية ولذلك لا يكون أثرها قويا بل قد يحدث التنافر بين هذين اللونين من الثقافة نتائج سيئة في عقول الطلاب ونفوسهم .

إن هذه الثقافة المقتبسة من بـلاد تختلف عن البلاد الاسلامية في عقائدها وأفكارها وفي عاداتها ونظام حيـــاتها بقيت هي الأسس للنظام الثقافي في البلاد الاسلامية وفي جميع دوجات التعليم من ابتدائي وثانوي وجامعي وولدت في أبناء المسلمين عقلية مشابهة للعقلية الأوربية في مفاهيمها وأفكارها ونظرتها للحياة ، ولا قيمة بعد هـذا لبعض المظاهر الاسلامية أو الشعائر الدينية التي قد يحافظ عليها بعضهم لأن الاساس الفكري ليس اساساً إسلامياً سليماً ولا يولد تفكيراً ولا سلوكاً إسلامياً في الحياة الفردية والاجتماعية ، ذلك لأن الجو العام لهذه الثقافة هو جو فلسفة خاصة مغايرة للاسلام ، لأن الثقافة حتى في المواد العلمية الخالصة منها كالكيمياء والفيزياء شحنت بأفكار لا علاقة لها بها في الاصل ولا هي من مستلزماتها ولكنها دست فيها وخالطت نظرياتها وتجلت في تعابيرها حتى كان هنالك اقتران بين هذه العلوم التي تدرس الطبيعة والمادة والمذاهب الفلسفية الطبيعية والإلحادية التي عاشت معها وعاصرتها في أوربا .

إن هذه العلوم الطبيعية ضرورية جداً ولكن يجب تحريرها مما علق بهـا وصياغتها صياغة جديدة تتفق مع العقيدة الإسلامية أو لا تعارضها على الاقل. كما ان هذه الثقافة الحديثة يجب ان يستفاد مما تشتمل عليه من اساليب العرض الحسنة ومناهج البحث الصحيحة ، ففيها الكثير النافع مما وصلت اليه تجارب الانسان في تقدمه الفكري والحضاري .

أما المصدر الثاني للثقافة في البلاد الاسلامية فهو الثقافة الاسلامية الموروثة وهي التي تعلم في حلقـات العلماء والمدارس الدينية القديمة التي استمر بعضها والمعاهد العالية كالأزهر والزيتونة والقرويين .

إن هذه الثقافة إسلامية الاساس ولكن تعاقبت عليها القرون واختلطت فيها المذاهب والآراء وتشعبت بهـــا الطرق والمسالك حتى غدت خليطاً من تعاليم الاسلام في كتــابه الكريم وسنته النبوية ، ومن طرائق المتكلمين على

اختلاف منازعهم ومذاهبهم وما شاب الكلام من الفلسفة اليونانية وافكارها ومن مذاهب الفقهاء ولا سيما في العصور التي ضعفت فيها المدارك وانحط فيها التأليف ، وضاقت فيهـــا مذاهب التفكير وابتعدت عن مصدري الاسلام الأساسيين « الكتاب والسنة » وسد باب الاجتهاد ، والتزمت فيهـــا أقوال الشيوخ ، دون النظر الى دليل الكتاب والسنة وأقوال الصحابة وكبار الائمة المجتهدين ، أضف الى ذلك كله مـــا خالط الثقافة الاسلامية من علوم اخرى لا تزال تدرس كما كانت في العصور السالفة ، مع ان تقدماً كبيراً طرأ عليها وتغيرت نظرياتها وحقائقها تغـيراً أساسياً : كالفلك وسائر العلوم الطبيعية وليست هي في الاصل من العقائد حتى لا تتبدل أو من العبادات حتى يتوقف عندها ، بل هي من تجارب الانسان في هذا الكون ومن علمه وتأمله فيما خلق الله ( الذي يزداد يوماً بعد يوم ) .

إن العقلية التي تكونها هذه الثقافة الاسلامية القديمة تختلف اختلافاً كبيراً عن العقلية التي تكونها الثقافة الحـديثة ومن هنا ينشأ الصراع في المجتمع بين عقليتين ويظهر هذا الصراع في مجالات كثيرة في التربية والتعليم وفي المجتمع والسياسة وفي غيرها من المجالات . وهو صراع له نتائجه سواء أكانت الجبهة المنتصرة هذه أو تلك، لأن الصراع بني على اساس فاسد ولأنه صراع خاطىء يصور الاوضاع على غير حقيقتها ويجعل المسلمين فيجبهتين وهم ليسوا كذلك، وليس كل مـــا في الثقافة القديـة واجب الالتزام اسلاميـــاً وليست كل عناصره إسلامية حتى يجب الدفاع عنها وكذلك الثقافة الحديثة ليست كلها منافية للاسلام حتى توضع موضع الخصومة .

ولذلك يقترح العلامة محمـد المبارك وضع نظام ثقافي إسلامي موحد غير مزدوج الروح والمصدر يستهدف صبغ التعليم في جميع درجاته وألوانه بالصبغة الاسلامية أي ان يكون الجو العام للثقافة والتعليم هو جو العقيدة والمفاهيم الاسلامية مع اختيار الطرق والاساليب الصالحة المناسبة لتعليم الدين وإدخاله

في النفوس ووصل ما بين الدين والحياة بعرض المشكلات الحاضرة على اختلاف أنواعها على أساس الاسلام ونظرته وسد حاجات المجتمع الاسلامي عن طريق التعليم بمختلف تخصصاته ودرجاته .

والوقوف أمـام الأنظمة الثقافية الاخرى التي غزت العـالم الاسلامي بإحداث وعي إسلامي عام بحيث يكون هذا الوعي -العقلي والنفسي- وعياً لمبادىء الاسلام وتعاليمه وقضـايا الاسلام الكبرى في العصر الحاضر ووعياً لوحدة العالم الاسلامي ومصادر قوته وما يجابهه من أخطار .

( ٤ )

إن النظرة الفاحصة لوجوه الالتقاء والاختلاف بـــين الثقافة الاسلامية والثقافات الغربية تجد محاذير كثيرة جديرة بأن تكون واضحة أمام الباحث المسلم :

(أولاً) لا ترى الثقافات الغربية ان الدين جزء اساسي من تكوين فكرها وثقافتها وترى ان المسيحية الشرقية كانت عارضـاً من العوارض التي التقت بها وأصابتها بالانحراف لأنهـا نقلت اليها « روح النسك » الآسيوية ، ولكن الثقافة الغربيـة استطاعت امتصاص هذا الرافد وصهره في روحها الاساسية التي تدين للوثنية اليونانية وحضارة روما القديمة .

بينما تؤمن الثقافة الاسلامية بالدين جزءاً اساسياً لا ينفصل عن المجتمع.

(ثانياً) تؤمن الثقافة الغربية بأن محتواها العلمي والأدبي والفني والصناعي إنما يهدف الى خدمة الانسان الأوربي قبـل غيره وعلى حساب غيره ، وليس الى خدمة الانسان بصفة عامة أو من حيث هو بشر .

بينما تؤمن الثقافة الاسلامية بالطابع الانساني وترى ان قيمها إنما هي لخدمة البشرية جميعاً .

(ثالثاً) تؤمن الثقافات الغربيـة بحلول للمشاكل والقضايا على قاعدة القوة

وأسلوب الميكافيلية التي تنفصل فيه الاخلاق عن السياسة وعلى قاعدة الغاية التي تبرر الواسطة .

بينما تؤمن الثقافة الاسلامية بالحلول الأخلاقية ولا تبرر الوسيلة عندها الغاية ، بل لا بد للغايات الشريفة من وسائل شريفة .

(رابعاً) تقوم الثقافة الغربية على أساس انفصال الضمير عن العلم وسيادة المادة على الضمير ، بينما تؤمن الثقافة الاسلامية بأن الضمير أساس العلم والحضارة.

(خامساً) تنطلق الثقافات الغربية من نظرة تحاول ان تصور الانسان بأنه عبد لغرائزه ونزواته وان العقل الباطن هو العامل المسيطر في توجيه حياته، وبهذه النظريات أدخلت الانسان الى حظيرة الحيوان، وهذه المفاهيم تتعارض تماماً مع مفاهيم الثقافة الاسلامية التي ترى للانسان كرامة تعلو على المخلوقات جملة وترى له سيادة تحت حكم الله ترفعه بالعقل وتكرمه بالايمان .

(سادساً) تعلي الثقافات الغربية العنصريات والأجناس والدماء ، وتحاول ان تجعل للبيض والغربيين امتيازاً على الأجناس الملونة. وتحاول بهذا الإعلاء ان تجعل لها حق السيطرة والقيادة .

وهذا المفهوم يختلف تماماً مع مفهوم الثقافة الاسلامية التي ترى ان الناس سواسية وإخوة ، وأنه لا فضل لعربي على أعجمي ولا لأبيض على أسود إلا بالتقوى والعمل .

## هذا الكتاب

... ان اخطر التحديات التي واجهت المسلمين والعرب في العصر الحديث انما جاءت من اهمال التربية والتعليم ومن سيطرة الارساليات على مناهج المدارس والجامعات على النحو الذي فرض تعليما غربيا خالصا استوعب اغلب شباب المسلمين ووجههم وجهة خطرة فيها انتقاص لتراثهم ودينهم وفيها اعلاء للغرب وابطاله فكان لا بد من دراسة هذه القضية تماما في ضوء مفاهيم الاسلام في التربية والتعليم والثقافة .